الفوائد الغراء

من تهذيب

سير أعلام النبلاء

قدم له

الدكتور محمد موسى الشريف

جمع وترتيب

الشريف فهد بن أحمد بن عبد الله المهدلي

ساهم في الطبع

الشيخ محمد عائض غرامة الأسمري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الفوائد الغراء

من تهذيب

سير أعلام النبلاء

قدم له

الدكتور محمد موسى الشريف

جمع وترتيب

الشريف فهد بن أحمد بن عبد الله المهدلي

ساهم في الطبع

الشيخ محمد عائض غرامة الأسمري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزء الأول

الطبعة الأولىٰ

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

جميع الحقوق محفوظة

الفوائد الغراء

من تهذيب

سير أعلام النبلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلىٰ كل من يبحث جاهداً لمعرفة تاريخ سلفه العظيم . . .

إلىٰ والدي العزيز ووالدتي الفاضلة اللذين أرجو رضاءهما . . .

إلىٰ إخواني وأخواتي . . .

إلىٰ أساتذتي وشيوخي الأفاضل . . .

إلىٰ طُلابي ، عسىٰ أن يقتدوا بأعلام أمة الإسلام . . .

أهدي إليهم هـٰذا العمل المتواضع . . .

* * *

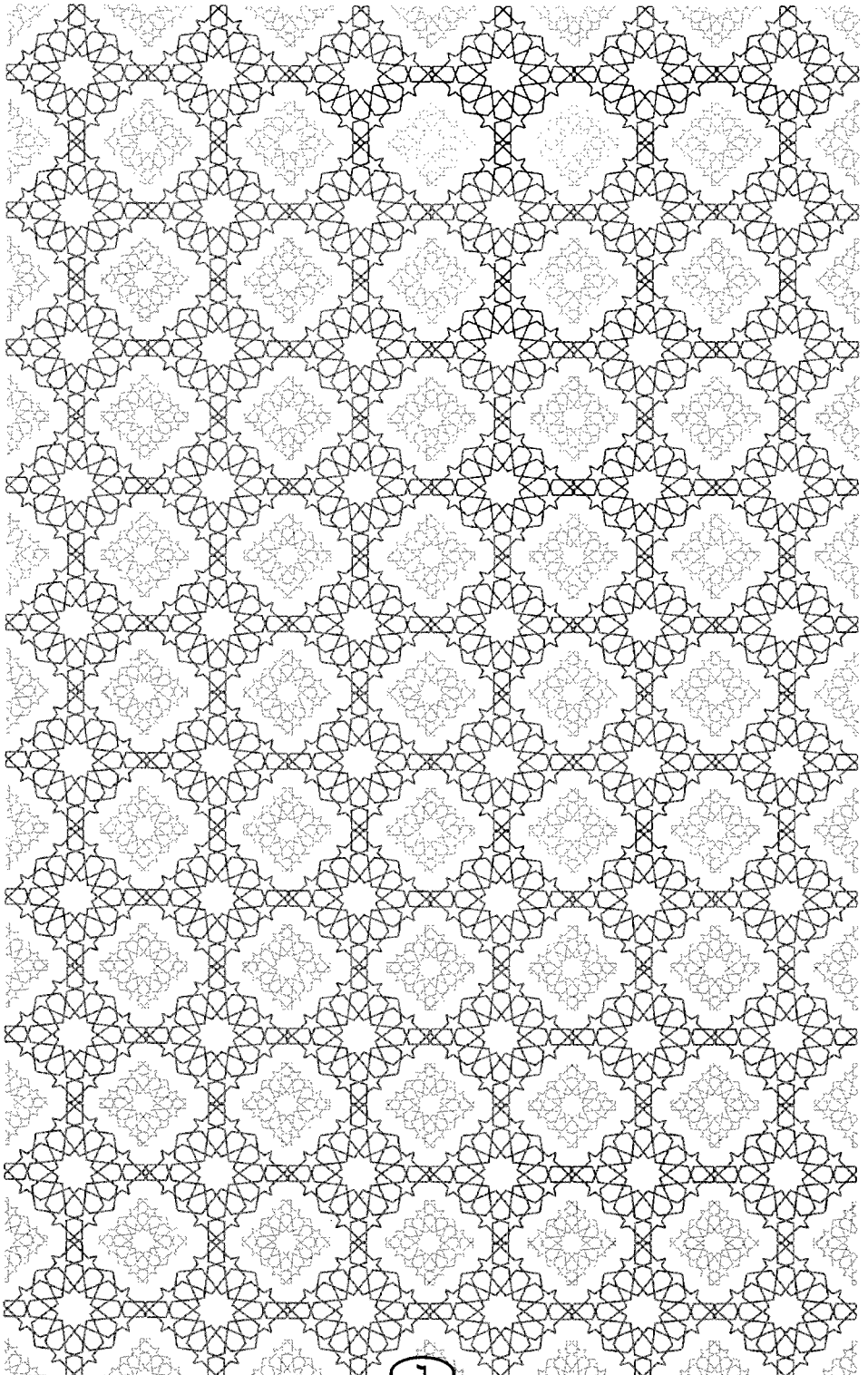

تَقْـدِيمٌ

فضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن حسن بن موسى الشريف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد اختصرت كتاب « **سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » من أكثر من عشر سنوات ، وسمّيته « **نُزهَة الفُضَلاء تَهذيب سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » ، وقد وضع الله له من القبول في صدور الناس ما وضع ، وطُبع عدّة طبعات ، ولكن كثيراً من الناس كان يَودُّ لو أن فَهارس الفَوائد تُبسَّط بحيث توضع الفائدة تحت عنوانها ، وذلك أخْصَر وأحسن لعين القارىء ، وأجمع لوقته ، وقد كنتُ أرىٰ أن هـٰذا عمل نافع ، لكن عندي من الأعمال ما يَشغلني عنه ، ومرت السنون دون أن يتحقق شيء ، حتىٰ جاءني الأخ في الله تعالىٰ **فَهْد المهْدلي** بعمل مماثل لما طُلِبَ منِّي عمله ، وألفَيتُه كافياً ، ووافياً بالمُراد ، سهلاً على القارىء المُطالِع ، والباحِث الجامع ، والمُبتَغي فائدةً ما ، وأسألُ الله تعالىٰ أن ينفع بهـٰذا الكتاب كما نفع بأصليه « **نُزهَة الفُضَلاء تَهذيب سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » ، وأصله « **سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » . . إنه علىٰ ذلك قدير ، وبالإجابة حقيق وجدير ، وصلى الله وسلَّم علىٰ سيدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين .

والحَمدُ لله رَبِّ العَالَمين

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

جدة : ١/ ٦/ ١٤٢٥هـ

مقدمة

الحمد لله جعل لكل عصر رجالاً يقومون بإعزاز دينه ونشر علومه ، وأشهد ألاَّ إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شَريكَ له ، وأنَّ مُحمَّداً عبدُه ورَسولُه ، وبعد

فلا يَخفىٰ علىٰ عاقل أن كتب التاريخ هي تراث للأمم ، فيها تجاربهم وعظمتهم وعزتهم .

وها نحن أمام كتاب من أهم كتب التاريخ المَعْني بالسِّيَر والتَّراجِم ، وهو « **سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » لمؤلفه الإمام مؤرِّخ الإسلام ، ناقِد المُحدِّثين ، أبي عبد الله الحافِظ الذَّهَبيّ ، غَفرَ الله له ، ووسَّعَ في ضَريحه .

وهـٰذا الكتاب لا يَخفَىٰ علىٰ طالب العلم حجمه وقوته ، حتىٰ غدا هـٰذا الكتاب من أهم مراجع أهل الحديث ، ومع أهمية هـٰذا الكتاب فإن شَريحة من الدارسين الذين استفادوا منه ممَّا جعل شيخنا الموفَّق الدكتور محمد موسى الشَّريف يقوم بتهذيب هـٰذه المجلَّدات حتىٰ غَدت سهلة مُيسَّرة ، ولم يَكتَفِ بذلك ، بل قام بتذييل هـٰذا التهذيب بفَهْرَسة فوائد مُرتَّبَة علىٰ نَسق عقلي ومنطقي مناسب للقارىء الباحث عن الفائدة ، وأهمية هـٰذا الفهرس ظاهرة ، فهو علىٰ طوله وتشعُّبه مفيد في استيفاء العناصر للموضوعات والدروس والخطب ، وفيه مئات من الأبيات الشعرية المختلفة التي تُضْفي على الموضوعات المطروحة حلاوة وطلاوة ، وفيه ما تَفتَّقت عنه قَرائحُ الأئمَّة في كلامهم عن مختلف الجوانب الإيمانية والعلمية والأدبية والأخلاقية بي مدىٰ ثمانية قرون هي المدَّة الزمنية التي تكفَّل هـٰذا الكتاب بإبرازها ، والذي أريدُ أن أصلَ إليه هو أن هـٰذه الفوائد التي وضعها الدكتور الشَّريف كانت عناوين ، وكل عنوان له رقم بالصحفة ورقم للفقرة أو الفقرات التي تحتويه ، ثم إنني قمت بإلحاق العنوان بالفائدة وجمعت هـٰذه الفوائد ورتبتها فأصبحت متناسقة مترابطة تُعطي موضوعاً متكاملاً متواصلاً .

وأخيراً فهـذا عمل متواضع أسأل الله أن ينفع به إخواني المسلمين في كل مكان ، وأن يجعله من العلم النافع الذي يبلغنا أجره بعد الممات .

وآخرُ دَعْوانا أن الحَمدُ لله رَبِّ العَالَمين .

كتبه

الشَّريف/ فهد بن أحمد بن عبد الله المهْدَلي

ص . ب . ٥٢٧٠ ـ الخَفجي ـ السعودية

Email: fahad1395@hotmail.com

تَرْجَمَةُ الإمَامِ الذَّهَبِيّ

هو محمد بن أحمد بن عُثمان بن قَايْمَاز ابن الشيخ عبد الله التُّرْكمانيّ ، الفَارقيّ ، ثم الدِّمَشْقيّ ، الشَّافعيّ ، شَمسُ الدين أبو عبدُ الله الذَّهَبيّ .

والفَارقيُّ نسبَةً إلىٰ « مَيَّافارقين »[1] أشهر مدن ديار بكر ، فهو تُركُمانيٌّ فارقيُّ الأصل ، دِمَشْقيُّ المَوْلِد والوَفاة .

قال تلميذه تاج الدِّين عبد الوهّاب السُّبكي : « شيخُنا وأستاذُنا الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله التركماني الذهبي محدِّث العصر ، بصرٌ لا نظير له ، وكنزٌ هو الملجأ إذا نزلت المعضلة ، إمام الجود حفظاً ، وذهب العصر معنىً ولفظاً ، وشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال في كل سبيل ، كأنَّما جُمعت الأمَّة في صعيد واحد فنظرها ثم أخَذَ يُخبِرُ عنها إخْبارَ مَنْ حَضرَها .

مولده ثالث شهر ربيع الآخر ، سنة ثلاث وسبعين وستمائة في قرية كَفْر بَطْنا[2] ، وطلب الحديث وله ثماني عشرة سنة ، فسمع بدمشق ، وببَعْلَبَكَّ ، وبمصر ، والإسكندرية ، وبمكة ، وبحلب ، وبنابلس . . . وفي شيوخه كثرة ، وسمع منه الجمع الغفير ، وما زال يخدم هـٰذا الفن إلىٰ أن رسخت فيه قدمه ، وأقام بدمشق يُرحَلُ إليه من سائر البلاد ، صنَّف التاريخ الكبير ، والتاريخ الأوسط المسمَّىٰ بالعِبَر ، وهو حسن جداً ، والصغير المسمَّىٰ دول الإسلام ، وكتاب النُّبَلاء ، والميزان في الضُّعَفاء ، وهو من أجَلِّ الكُتب ، ومختصر سنن البيهَقي ، وهو حسن ، وطبقات الحُفَّاظ ، وطبقات القُرَّاء . . . ومختصرات كثيرة ، وقرأ القرآن بالروايات وأقرأه . تُوفِّيَ سنة ثمانٍ وأربَعين وسبعمائة ، وكان قد أضرَّ قبل موته بمدَّة يسيرة »[3] .

---

(١) مكانها الآن قرية صغيرة في تركيا تُسمَّىٰ « سافا » .

(٢) قرية من قُرىٰ غوطة دمشق الشرقية ، وهي عامرة إلى الآن ، وتبعد عن دمشق بضعة كيلو مترات .

(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ : ٩/ ١٠٠ـ١٢٣ . .

الإيمَان

١ـ يَجِبُ قَرْنُ الإيمَان بالعَمَلِ الصَّالِحِ :

عن وَهب بن مُنبِّه قال : « الإيمانُ عُريان ، ولباسُه التَّقوَىٰ ، وزينتُه الحَياء ، ومالُه الفِقه »[١] .

٢ـ الإيمَانُ قَوْلٌ وعَمَلٌ يَزِيدُ ويَنْقُصُ :

قال الرَّبيع سمعتُ الشافعي يقول : « الإيمان قَولٌ وعَملٌ ، يَزيدُ ويَنقُص »[٢] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي عبد الله البُخاريّ ، قال الذهَبيُّ : وقال وَرَّاقُه ، محمدُ بنُ أبي حاتم : سَمعتُه قبلَ مَوته بشهر يقولُ : « كَتبتُ عن ألفٍ وثمانين رجلاً ، ليس فيهم إلاَّ صاحبُ حَديث ، كانوا يقولون : الإيمانُ قَولٌ وعَملٌ ، يَزيدُ ويَنقُص »[٣] .

٣ـ اسْتِعْلاءُ الإيمَانِ :

قال الإمامُ الذهبي في ترجمته للإمام نصر بن عبد الرزَّاق ابن شيخ الإسْلام عبد القادر قال ابن النجار كان مِقداماً رجلاً من الرجال سمعته يقول : كنتُ في دار الوزير القُمِّي وهناك جماعة ، إذ دخلَ رجلٌ ذو هيئة ، فقاموا له وخَدموه ، فقمتُ وظننتُه بعضَ الفُقهاء ، فقيلَ : هـٰذا ابنُ كرمٍ اليَهوديُّ عامِلُ دار الضَّرْب ، فقلتُ له : تعالَ إلىٰ هنا ، فجاءَ ووقفَ ، فقلتُ له : وَيْلَك توَهمتُك فقيهاً فقُمتُ إكْراماً لك ، ولستَ ـ وَيْلَك ـ عندي بهـٰذه الصِّفة ، ثم كرَّرتُ ذلك عليه وهو قائمٌ يقولُ : اللهُ

---

(١) انظر السير : (وهب بن منبه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٥٤

(٢) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٤٧

(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠١١

يَحفظُك! الله يبقيك! ، ثم قلت له : اخسأ هناك بعيداً عنَّا ، فذهب[1] .

وقال : حدَّثني أبو صالح أنه رُسِمَ له برزقٍ من الخَليفَة ، وأنَّه زارَ يومئذ قبرَ الإمام أحمد فقِيلَ لي : دُفِعَ رَسمُك إلى ابن توما النَّصْرانيّ فامضِ إليه فخُذهُ ، فقلتُ : والله لا أمضي ولا أطلبُه فبَقيَ ذلك الذهبُ عنده إلىٰ أن قُتِلَ لَعنَه الله في السَّنة الأخرىٰ ، وأُخِذَ الذهبُ من داره فنُفِّذَ إليَّ[2] .

٤ـ قِصَّةٌ تُقَوِّي الإيمَانَ بالله عَزَّ وجَلّ :

قال يوسُفُ بنُ الحُسين الرَّازيّ : حَضرْتُ ذا النُّونِ فقيل له : يا أبا الفيض ، ماكان سَببُ تَوبَتِكَ ؟ قال : نِمتُ في الصحراء ، ففتحت عَينَيَّ فإذا قُنْبُرَةٌ[3] . عَمياءُ سقطتْ من وكْر ، فانشقت الأرضُ ، فخرجَ سُكُرُّجَتان فأكَلَت وشَربَت فقلتُ : حَسبي ، فثَبتُ ولَزِمتُ البابَ إلىٰ أن قَبِلَني[4] .

٥ـ مَعْرِفَةُ الله :

(أ) هَل الكُفَّارُ يَعْرِفُونَ الله ؟

(ب) مَعْرِفَةُ المُؤمِنين لرَبِّهِم ولنَبِيِّهم مُتفَاوِتَةٌ :

حكَى القاضي عِياضُ قال : حَدَثَ في القَيْروان مَسألةٌ في الكفَّار ، هل يَعرفون اللهَ تعالىٰ أم لا ؟ فوقع فيها اختلافُ العلماء ، ووقعتْ في ألسِنَةِ العامَّة وكثُر المِراءُ ، واقْتَتلوا في الأسْواق إلىٰ أن ذَهبوا إلىٰ أبي عِمْرانَ الفاسي ، فقال : إنْ أنصَتُّم عَلَّمْتُكُم قالوا : نعم قال : لا يُكَلِّمُني إلاَّ رجلٌ ، ويَسْمع الباقون فنَصَبوا واحداً ، فقال له : أرأيْتَ لو لَقيتَ رجلاً ، فقلتَ له : أتعرفُ أبا عِمْرانَ الفاسي ؟ قال : نعم، فقلتُ له : صِفْه لي ، قال : هو بَقَّالٌ في سُوق كَذا ، ويَسكُنُ سَبْتَة ، أكانَ يعرفُني ؟ فقال :

---

(١) انظر السير : (نصر بن عبد الرزاق) ٢٢/ ٣٩٦ـ ٣٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٠٧ .

(٢) انظر السير : (نصر بن عبد الرزاق) ٢٢/ ٣٩٦ـ ٣٩٩ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٨ .

(٣) القُنْبُرة والقُنْبَرة والقُبَّرَة والقُنْبُراء والقُنْبَراء : عصفورة من فصيلة القُبَّريات ، ورتبة الجواثم المخروطية المناقير ، سُمر في أعلاها ضاربة إلىٰ بياض في أسفلها ، وعلىٰ صدرها بقعة سوداء ، دائمة التغريد.

(٤) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩٦٧.

لا فقال : لو لقيتَ آخر فسألتَه كما سألتَ الأول ، فقال : أعْرِفُهُ ، يُدَرِّسُ العلمَ ، ويُفْتِي ، ويسكن بغرب الشمّاط أكان يعرفني ؟ قال : نعم قال : فكذلك الكافرُ قال : لربِّه صاحبةٌ وولدٌ ، وأنَّه جسمٌ ، فلم يَعرفْ الله ولا وصَفَهُ بصفته بخلاف المؤمن فقالوا : شَفَيْتنا ودَعَوْا له ولم يَخُوضوا بعدُ في المَسألَة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : المشركون والكتابيون وغيرُهم عَرَفوا اللهَ تعالىٰ بمعنىٰ أنهم لَم يَجحَدوه ، وعَرَفوا أنه خالقُهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2] ، فهـؤلاء لم يُنكروا البارىء ، ولا جَحَدوا الصَّانع ، بل عرفوه ، وإنَّمَا جَهِلُوا نُعُوتَه المقدَّسة ، وقالوا عليه ما لا يعلمون ، والمؤمن عَرفَ ربَّه بصفات الكمال ، ونفىٰ عنه سمات النَّقْص في الجُملة ، وآمَنَ بربِّه ، وكفَّ عمَّا لا يعلم فبهـٰذا يتبين لك أنَّ الكافرَ عَرَفَ اللهَ من وجهٍ وجهلَه من وجوه ، والنَّبيُّون عرفوا اللهَ تعالىٰ ، وبعضُهم أكمَلُ معرفةً لله ، والأولياء عرفوه معرفة جيدة ، ولكنها دون معرفة الأنبياء ، ثم المؤمنون العالمون بعدهم ثم الصالحون دُونهم فالنَّاسُ في مَعرِفَة ربِّهم مُتفَاوتون ، كما أنَّ إيمانَهُم يزيد وينقص ، بل وكذلك الأمة في الإيمانِ بنبيِّهم والمعرفةِ له مَراتبُ أربعة ، فأرفعُهُم في ذلك أبو بكر الصِّدِّيق مَثلاً ، ثم عددٌ من السَّابقين ، ثم سائرُ الصَّحابَة ، ثم علماءُ التابعين ، إلىٰ أن تنتهي المعرفة به والإيمان به إلىٰ أعرابيٍّ جاهل وامرأةٍ من نساء القُرىٰ ، ودون ذلك ، وكذلك القولُ في مَعْرفَة النَّاسِ لدينِ الإسلام[3] .

* * *

---

(١) سورة الزخرف ، الآية (٨٧)

(٢) سورة إبراهيم ، الآية (١٠)

(٣) انظر السير : (أبو عمران الفاسي) ١٧/ ٥٤٥ـ٥٤٨ ، وانظر النزهة : ١٣٦٠/١

من الدَّلائِل علىٰ قُوَّةِ الإيمَان

أولاً : الدَّعْوَةُ إلى الله

١ـ الاهْتِمامُ بأحْوالِ المُسلِمين ومُشَارَكَتِهم هُمُومَهُم :

عن سعيد بن عبد العزيز ، أنَّ أبا مسلم الخَولاني استبطأ خبرَ جيشٍ كان بأرض الرُّوم ، فدخل طائرٌ فوقع ، فقال : أنا رتبابيل مُسلي الحُزن من صدور المؤمنين ، فأخبرهُ خبرَ الجيش فقال : ما جئتَ حتى استبطأتُك ؟[١] .

وعن أصبع بن زيد ، قال : كان أُوَيس القَرني إذا أمسىٰ يقول : هـٰذه ليلةُ الرُّكوع ، فيركع حتىٰ يُصبح ، وكان إذا أمسىٰ يقول هـٰذه ليلةُ السُّجود ، فيسْجُد حتىٰ يُصبح ، وكان إذا أمسىٰ تصَدَّق بما في بيته من الفَضْل من الطَّعام والشَّراب ثم قال : اللهُمَّ مَنْ ماتَ جُوعاً فلا تُؤاخِذْني به ، ومَنْ مات عُرياً فلا تُؤاخِذْني به[٢] .

ومن محاسن الإمام ابن نُجَيْد أنَّ شَيخَه الزَّاهد أبا عثمان الحِيريَّ طلبَ في مجلسه مالاً لبعض الثُّغور ، فتأخَّرَ ، فتألمَ وبكىٰ علىٰ رؤوس النَّاس فجاءَهُ ابنُ نُجَيْد بألْفَي درهم ، فدعا له ، ثمَّ إنَّه نوَّهَ به ، وقال : قد رَجَوتُ لأبي عمرو بما فعل ، فإنَّه نابَ عن الجماعة ، وحمل كذا وكذا ، فقام ابنُ نُجَيْد ، وقال : لكن إنَّما حملتُ من مال أمي وهي كارهة ، فينبغي أن تردَّه لترضىٰ ، فأمر أبو عثمان بالكيس فَرُدَّ إليه ، فلمَّا جَنَّ الليلُ جاءَ بالكيسِ ، والتَمَسَ من الشيخ سترَ ذلك ، فبكىٰ ، وكان بعد ذلك يقول : أنا أخشىٰ من هِمَّة أبي عمرو[٣] .

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣٢

(٢) انظر السير : (أويس القرني) ٤/١٩ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٥/٤٣٥

(٣) انظر السير : (ابن نجيد) ١٦/١٤٦ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٥

٢ـ هدايةُ فَرد قد تكونُ عِزاً لأمَّة :

عن ابنِ عُمرَ وغيره ـ من وجوه جيدة ـ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « اللَّهمَّ أَعِزَّ الإسلامَ بعُمرَ بنِ الخطَّاب »[١] .

قال عِكْرِمَة : لَمْ يَزل الإسلام في اختفاءٍ حتىٰ أسلَمَ عُمرُ[٢] .

قال ابنُ مَسْعود : ما زِلنا أعِزَّةً منذ أسْلمَ عُمر[٣] .

٣ـ الدُّعاةُ الصَّالِحُونَ بِهِم يَنْشُرُ اللهُ دِينَه :

قال إبراهيمُ بنُ بشَّار : سَمعتُ إبراهيمَ بنَ أدْهم يقول : وأيُّ دينٍ لو كان له رجال![٤] .

٤ـ رِجَالُ العامَّة :

وقال إبراهيم بن سعيد الجَوْهري : قلتُ لأبي أسامة : أيُّهما أفضلُ : فُضَيل ابنُ عِيَاض ، أو أبو إسحاقَ الفَزاري ؟ فقال : كان فُضَيلُ رجلَ نفسه ، وكان أبو إسحاق رجلَ عامَّة[٥] .

قال الجُبَّائي : قال لي الشيخُ عبد القادر الجيلاني : أتمنَّىٰ أن أكون في الصَّحاري والبَراري كما كُنتُ في الأول لا أرى الخَلقَ ولا يَرَوني ، ثم قال : أرادَ اللهُ منِّي منفعةَ الخَلق فقد أسلمَ علىٰ يديَّ أكثرُ من خمس مئة ، وتابَ علىٰ يديَّ أكثرُ من مئة ألف ، وهـٰذا خيرٌ كثير[٦] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ٢/٤٤ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ٣/٤٤ .
(٣) انظر السير : (عُمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ١/٤٥ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم بن أدهم) ٧/ ٣٨٧ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٩/٧٠٨ .
(٥) انظر السير : (أبو إسحاق الفزاري) ٨/ ٥٣٩ـ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ١/٧٩١ .
(٦) انظر السير : (الشيخ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٥ .

٥ـ انتِقالُ الدَّاعِيَةِ من بَلَدٍ لآخَرَ إذا تَطَلَّبَ الأمْرُ ذلكَ :

عن أبي بكر بن جابر خادم أبي داود السِّجسْتاني ـ رحمه الله ـ قال : كنتُ مع أبي داود ببغداد ، فصلَّيْنا المغرب ، فجاءه الأميرُ أبو أحمدَ المُوَفَّق ـ يعني وليَّ العَهد ـ فدخل ، ثم أقبل عليه أبو داود ، فقال : ما جاء بالأمير في مثل هـٰذا الوقت ؟ قال : خِلالٌ ثلاث قال : وما هي ؟ قال : تنتقلُ إلى البَصرة فتتَّخذَها وطناً ليرحلَ إليك طلبةُ العلم ، فتعمُر بك ، فإنها قد خَرِبَتْ ، وانقطَعَ عنها النَّاسُ ، لِمَا جَرَىٰ عليها من مِحْنَة الزِّنج فقال : هـٰذه واحدة قال : وتَرْوي لأولادي « السُّنَن » قال : نعم ، هاتِ الثالثة قال : وتُفْرِد لهم مَجْلساً ، فإن أولاد الخلفاء لا يَقعُدون مع العامَّة قال : أمَّا هـٰذه فلا سبيلَ إليها ، لأنَّ النَّاسَ في العِلم سَواء .

قال ابنُ جابر : فكانوا يحضُرُون ويقعُدون في كمٍّ حِيرِي ، عليه سِتْر ويسمعون مع العامَّة[1] .

٦ـ قَاعِدَةٌ في الدَّعْوَةِ :

قال ابنُ عُيَيْنَة : قال عَمرو بنُ العاص : ليس العاقلُ من يعرفُ الخيرَ من الشَّرِ ، ولكنْ هو الذي يعرفُ خَيرَ الشَّرَّيْن[2] .

٧ـ مِنْ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ :

(أ) التَّآلُف :

عن المغيرة بن شبل ، قال : قال جَرير بنُ عبد الله : لما دَنَوتُ من المدينة ، أنَخْتُ راحلتي ، وحَلَلْتُ عيبتي ، ولبستُ حُلتي ، ثم دخلتُ المسجد ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبُ ، فرماني النَّاسُ بالحدق فقلتُ لجليسي : يا عبد الله ، هل ذكرَ رسولُ الله من أمري شيئاً ؟ قال : نعم ، ذكَرَكَ بأحسنِ الذِّكر ، بينما هو يخطُبُ إذ

---

(١) انظر السير : (أبو داود السجستاني) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٧١ .

(٢) انظر السير : (عمرو بن العاص) ٢/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٣٦ .

عرضَ له في خُطبته ، فقال : « إنَّه سَيدخُلُ عليكم من هـٰذا الفَجِّ من خير ذي يَمَن ، ألا وإنَّ علىٰ وَجهه مسحةَ مَلَك » قال : حَمدتُ اللهَ .

قال الذهبيُّ : كان بَديعَ الحُسْنِ ، كاملَ الجَمَال .

وعن عديِّ بن حاتم قال : لمَّا دخلَ ـ يعني جريراً ـ على النبي صلى الله عليه وسلم ، ألقىٰ له وسادةً فجلسَ على الأرض فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أشهدُ أنَّك لا تبغِي عُلُواً في الأرض ولا فساداً » فأسلمَ ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرِمُوه »[1] .

وعن صَفوانٍ قال : أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فأعطاني ، فما زال يُعطيني ، حتىٰ إنَّه لأحَبُّ الخَلقِ إليَّ[2] .

وعن ابن إسحاق قال : حدثنا عبدُ الله بن أبي بكر وغيرُه ، قالوا : أعْطَىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المؤلَّفةَ قلوبُهم فأعْطىٰ جُبَيْرَ بن مُطعم مئةً من الإبل[3] .

وعن حُصَين ، قال ابنُ عُمر : إنِّي لأخْرُجُ وما لي حاجةٌ إلاَّ أنْ أُسَلِّم على النَّاس ، ويُسَلِّمون عليَّ[4] .

وعن وَهب بن منبه قال : احتمالُ الذُّلِّ خيرٌ من انتصار يَزِيدُ صاحبَه قَمْأةً[5] .

وقال يونُس بن محمد المؤدِّب أخْبَرني زياد ، قال : كان زُبيدُ بن الحارث مؤذِّنَ مسجدِه ، فكان يقولُ للصِّبيان : تَعالوا فَصَلُّوا ، أهَبْ لكم جَوزاً فكانوا يُصلون ثم يُحيطونَ به ، فقلتُ له في ذلك ، فقال : وما عليَّ أن أشْتري لهم جَوزاً بخَمسَة دَراهم ، ويتَعَوَّدون على الصَّلاة[6] .

---

(١) انظر السير : (جرير بن عبد الله) ٢/ ٥٣٠ـ ٥٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/٣٠٢ .
(٢) انظر السير : (صفوان بن أمية) ٢/ ٥٦٢ـ ٥٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/٣٠٥ .
(٣) انظر السير : (جبير بن مطعم) ٣/ ٩٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٤١ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن عمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٧/٣٦٩ .
(٥) انظر السير : (وهب بن منبه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ١/٥٥٧ .
(٦) انظر السير : (زبيد بن الحارث) ٥/ ٢٩٦ـ ٢٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/٦٠٥ .

وقيل : دَخَلَ علىٰ مالك بن دينار لصٌّ ، فما وَجَدَ ما يأخُذُه ، فناداه مالك : لم تجد شيئاً من الدنيا ، فترغَبُ في شيءٍ من الآخرة ؟ قال : نعم، قال : توضأ وصَلِّ ركعتين ، ففعل ثم جلسَ وخَرجَ إلى المسجد فسُئلَ مَنْ ذا ؟ قال : جاءَ ليسْرق ، فسَرَقناه[1] .

وقال أحمد بن أبي خيثمة : سمعتُ ابنَ معين يقول : كان علي ابن المَديني إذا قَدِم علينا ، أظْهَرَ السُّنة ، وإذا ذهبَ إلى البَصرة أظْهَرَ التَشَيُّعَ .

قال الذهبيُّ : كان إظهارُه لمناقب الإمام عليٍّ بالبصرة ، لمكان أنَّهم عُثمانيّة ، فيهم انحرافٌ علىٰ عليّ[2] .

وقال عبدُ الصمد بن سعيد القاضي : سَمعتُ محمّدَ بن عوف يقولُ : كُنتُ ألعبُ في الكَنيسة بالكرةِ وأنا حَدَثٌ ، فدخلت الكرةُ ، فوقعت قُربَ المُعَافَى بن عِمْران الحِمصيِّ ، فدخلتُ لأَخْذها ، فقال : ابنُ مَنْ أنتَ ؟ قلتُ : ابنُ عَوف بنُ سُفيان ، أمَا إنَّ أباكَ كان من إخْواننا فكان ممَّن يَكتُبُ معنا الحديثَ والعلمَ ، والذي كان يُشْبهُك أن تَتَّبعَ ما كان عليه والدُك فصِرتُ إلىٰ أمِّي فأخبرتُها فقالت : صَدقَ ، هو صَديقٌ لأبيك ، فألبَسَتني ثوباً وإزاراً ، ثم جِئتُ إلى المُعَافَىٰ ومعي مِحْبَرةٌ ووَرَقٌ ، فقالَ لي : اكتُب : حَدَّثَنا إسماعيلُ ابن عيَّاش بن عبد ربِّه بن سُليمَان[3] .

(ب) مَعْرِفَةُ أسْبابِ فَسَادِ النَّاسِ :

قال أبو العتاهية[4] :

إنَّ الشَّبَابَ والفَرَاغَ والجِدَة ... مَفْسَدةٌ للمَرءِ أيُّ مَفْسَدَة
حَسْبُكَ ممَّا تبْتَغِيه القُوتُ ... ما أكثَرَ القُوتَ لمن يَمُوتُ
هيَ المَقَاديرُ فَلُمْني أو فَذَرْ ... إنْ كُنتُ أخطأتُ فما أخطَا القَدَرْ

---

(١) انظر السير : (مالك بن دينار) ٥/ ٣٦٢ـ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٨/٦٠٩ .
(٢) انظر السير : (علي بن المديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٦/٩٠٧ .
(٣) انظر السير : (محمد بن عوف) ١٢/ ٦١٣ـ ٦١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٠ .
(٤) انظر السير : (أبو العتاهية) ١٠/ ١٩٥ـ ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨٦٦ .

(ج) تَعْلِيمُ الصِّغارِ والتَّأْثِيرُ فِيهِم :

جاء في « تاريخ الإماميّة » أنَّ ابنَ أبي طَيّ قال : كان الشيخُ المُفيد (محمّد بن محمّد بن النُّعمان) شيخ الرافِضَة أوْحدَ في جميع فُنون العلم : الأصْلَين ، والفِقْه ، والأخبار ، ومَعرفَة الرجال ، والتفسير ، والنَّحْو ، والشعر ، كان يُناظِرُ أهلَ كلِّ عَقيدة مع العَظَمة في الدولة البويهيّة ، والرُّتبةِ الجَسيمَة عند الخُلَفاء ، وكان قَويَّ النَّفْسِ ، كَثيرَ البرِّ ، عظيمَ الخُشوع ، كَثيرَ الصَّلاةِ والصَّوم ، يَلبَسُ الخَشن من الثِّياب ، وكان مديماً للمُطالعة والتَّعليم ، ومن أحْفَظ النَّاس ، قيل : إنَّه ما تَركَ للمُخالِفين كتاباً إلاَّ وحَفظَه ، وبهٰذا قَدَر علىٰ حَلِّ شُبه القَوم ، وكان من أحْرَص النَّاس على التعليم ، يَدورُ على المَكاتب وحَوانيت الحاكة فيتلمَّح الصَّبيَّ الفَطِن ، فيَسْتأجرُه من أبوَيْه ـ يعني فَيُضِلَّه ـ قال : وبذلك كَثُر تلامذتُه[1] .

(د) تَخْصِيصُ بعض النَّاسِ بالعِلْمِ ، وكَوْنُ هٰذا العِلْمَ في البُيُوتِ :

قال أبو سعيد بن الأعرابي في « طبقات النُسَّاك » : كان عامَّةُ مَنْ ذكرنا من النُسَّاك يأتون الحَسَن البَصريّ ويَسمَعون كلامَه ويُذعِنُون له بالفِقه ، في هٰذه المعاني خاصة ، وكان عَمرو بن عُبَيد ، وعبد الواحد ابن زَيد من الملازمين له ، وكان له مجلسٌ خاصٌّ في مَنزِله ، لا يكاد يَتكلَّمُ فيه إلاَّ في مَعاني الزُّهد والنُّسك وعلوم الباطن ، فإنْ سألَه إنسانٌ غيرَها ، تَبرَّم به وقال : إنَّما خَلَوْنا مع إخْوانِنا نتذاكَر ، فأمَّا حَلَقَتُهُ في المسجد فكان يمرُّ فيها الحديثُ ، والفقهُ ، وعلمُ القرآن ، واللُّغَة ، وسائر العلوم ، وكان ربَّما يُسأل عن التصوُّف فيُجيب ، وكان منهم مَنْ يصحَبُه للحديث ، ومنهم من يَصحَبُه للقرآن والبَيان ، ومنهم من يَصحَبُه للبلاغَة ، ومنهم من يَصحَبُه للإخلاص وعلمِ الخصوص ، كعَمرو بن عُبَيد ، وأبي جَهير ، وعبد الواحد بن زَيد ، وصالح المُرِّيّ ، وشُمَيط ، وأبي عُبَيدة النَّاجي ، وكل واحد من هٰؤلاء اشتهَرَ بحالٍ ـ يعني في العبادة[2] .

---

(١) انظر السير : (الشيخ المفيد) ١٧/ ٣٤٤ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٤ .

(٢) انظر السير : (الحسن البصري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٨/٥٦١ .

(هـ) الاقْتِداءُ :

قال موسى التيمي : ما رأيتُ أحداً أجمعَ للدِّينِ والمملكةِ والشَّرَفِ من عبد الرَّحمَٰن بنِ أبان بن عُثمان بن عَفَّان وقيل : كان يَشتري أهلَ البيت فَيَكسُوهم ويُعْتِقُهُم ويقولُ : أستعينُ بهم علىٰ غَمَراتِ الموت فماتَ وهو نائم في مسجده ، وقِيل : كان كَثير العبادة والتأله رآهُ عليٌّ ابن عبد الله بن عبَّاس فأعجَبهُ نُسُكُه وهَديُه ، فاقْتَدىٰ به في الخير[1] .

(و) من وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ حَالَ الحَاجَةِ إليها :

١ـ السِّرِّيَّة :

قال إبراهيمُ بن رُسْتم : قال أبو حَمزة (السُّكَّريّ) : اختلَفْتُ إلىٰ إبراهيمَ الصَّائغ نيفاً وعشرين سنة ، ما علِم أحدٌ من أهل بيتي أين ذهبتُ ، ولا من أين جئتُ .

قال الذهبيُّ : لأنَّ إبراهيمَ الصَّائغ كان في السِّجن ، سجن المُسَوِّدة[2] ولا يذهبُ أحدٌ إليه إلاَّ مُتَخَفِّياً .

قال العبَّاس بن مُصعب المَرْوَزيُّ : كان أبو حَمزة مُستجَابَ الدَّعوة[3] .

وقال الصُّوليُّ : كان الإمام أبو عبد الله الخُزاعيّ ، وسَهل بن سلامة حين كان المأمون بخُراسان بايعا النَّاس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم قَدِمَ المأمونُ فبايعه سهل ولَزِم ابنُ نصرٍ بيتَه ، ثم تحرَّك في آخر أيام الواثق ، واجتمعَ إليه خلقٌ يأمرون بالمعروف قال : إلىٰ أنْ مَلَكُوا بغداد وتعدَّىٰ رجلان مُوسِران من أصحابه فبذلا مالاً وعَزما على الوثُوب في سنة إحدىٰ وثلاثين فنمَّ الخبرُ إلىٰ نائب بغداد إسحاق بن إبراهيم ، فأخذَ أحمدَ وصاحبَيْه وجماعةً ، ووجدَ في منزِلِ أحدهما أعلاماً ، وضربَ خادماً لأحمد ، فأقرَّ بأنَّ هـٰؤلاء كانوا يأتون أحمدَ ليلاً ، ويُخبرونَه

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن أبان) ٥/ ١٠ـ ١١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٧٥ .

(٢) المُسَوِّدة : وهم العباسيون سُمّوا بذلك لأن شعارهم لبس السواد .

(٣) انظر السير : (أبو حمزة السُّكريّ) ٧/ ٣٨٥ـ ٣٨٧ ، وانظر النزهة : ٦/٧٠٦ .

بما عملوا فحُملوا إلىٰ سَامَرَّاء مُقيَّدين ، فجلسَ الواثقُ لهم ، وقال لأحمد : دَعْ ما أُخِذْت له ، ما تقولُ في القُرآنِ ؟ قال : كلامُ الله قال : أفمَخلوقٌ هو ؟ قال : كلامُ الله قال : فتَرَىٰ ربَّكَ في القيامة ؟ قال : كذا جاءت الرِّواية قال : ويْحَك يُرَىٰ كما يُرَى المحدودُ المُتَجَسِّم ، ويَحْويه مكانٌ ويَحْصُرُه ناظرٌ ؟ أنا كفرتُ بمَنْ هـٰذه صِفَتُه ، ما تَقُولون فيه ؟ فقال قاضي الجانب الغربي : هو حلالُ الدَّم ، ووافَقَه فُقَهاءٌ ، فأظهَرَ أحمدُ بن أبي دُواد أنَّه كارهٌ لقتله وقال : شيخٌ مُخْتل ، تَغَيَّرَ عقلُه ، يُؤَخَّر قال الواثقُ : ما أراهُ إلا مُؤدِّياً لكُفره قائماً بما يَعتقدُه ، ودعا بالصَّمْصَامَة وقام وقال : أحتسِب خُطَايَ إلىٰ هـٰذا الكافر فضَرَب عُنُقَه بعد أن مَدُّوا لَه رأسَه بحَبلٍ وهو مُقَيَّد ونُصِبَ رأسُه بالجانب الشَّرقي ، وتُتُبِّع أصحابُه فَسُجِنُوا[1] .

٢ـ الاختِفَاء :

جاء في ترجمة الإمام أبي عبد الله أحمد بن حَنبل الشَّيْبانيّ في فتنة الواثق : قال الإمامُ الذهبيُّ رَحمَه الله : قال حَنبلُ : لَم يَزلْ أبو عبد الله بعد أن بَرِىءَ من الضرب يَحضرُ الجُمُعة والجماعة ، ويُحدِّث ويُفتي ، حتىٰ مات المعتصم ووَلِيَ ابنُه الواثق فأظهَرَ ما أظهَرَ من المحْنة والميْل إلىٰ أحمد ابن أبي دُوَاد وأصحابِه فلمَّا اشتدَّ الأمرُ علىٰ أهل بغداد وأظْهَرت القُضاةُ المحنةَ بخَلْق القرآن ، وفُرِّق بين فَضلِ الأنماطيّ وبين امرأتِه ، وبين أبي صالح وبين امرأتِه ، كان أبو عبد الله يَشْهَد الجُمُعة ويُعِيدُ الصَّلاةَ إذا رَجَع ، ويقولُ : تُؤتى الجُمُعة لفَضلِها والصلاةُ تُعادُ خَلف مَنْ قال بهـٰذه المقالة[2] .

وجاء نفرٌ إلىٰ أبي عبد الله وقالوا : هـٰذا الأمرُ قد فَشا وتَفاقَم ونحنُ نَخافُه علىٰ أكثرَ من هـٰذا ، وذَكروا ابن أبي دُوَاد ، وأنَّه علىٰ أن يأمرَ المعلِّمين بتعليم الصِّبيان في المكاتب : القرآنُ كذا وكذا ، فنحن لا نَرضىٰ بإمارتِه فمنَعَهُم من ذلك ، وناظَرَهم وحكىٰ أحمدُ قَصْدَه في مناظرَتِهم ، وأمَرَهم بالصَّبر قال : فبَيْنا نحنُ في أيام الواثق إذ

---

(١) انظر السير : (الخُزاعيّ) ١١/ ١٦٦ـ ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩١٨ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٤١ .

جاءَ يعقوبُ ليلاً برسالةِ الأمير إسحاق بن إبراهيم إلىٰ أبي عبد الله : يقول لك الأمير : إنَّ أميرَ المؤمنين قد ذَكَرَكَ فلا يَجْتَمعَنَّ إليك أحدٌ ، ولا تُسَاكِنِّي بأرضٍ ولا مدينةٍ أنا فيها ، فاذهبْ حيثُ شِئْتَ من أرضِ الله قال : فاختفىٰ أبو عبد الله بقيّة حياةِ الواثق وكانت تلك الفتنة ، وقُتل أحمدُ بنُ نصر الخُزاعيّ ولَمْ يَزَلْ أبو عبد الله مختفياً في البيت لا يَخرجُ إلى الصَّلاةِ ولا إلىٰ غيرِها حتىٰ هَلَكَ الواثقُ[1] .

وعن إبراهيم بن هانىء قال : اختفىٰ أبو عبد الله عندي ثلاثاً ثم قال : اطلبْ لي مَوضِعاً ، قُلتُ : لا آمَنُ عليكَ ، قال : افعلْ ، فإذا فعلتَ أفدتُكْ ، فطلبتُ له موضعاً ، فلمَّا خَرجَ قال : اخْتَفىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الغارِ ثلاثةَ أيام ثم تحَوَّل[2] .

(ز) الشِّعْر :

عن ابن المسَيِّب قال : كان حسَّانُ بن ثابت في حلقةٍ فيهم أبو هُريرة ، فقال : أنشدُكَ الله يا أبا هُريرة ، هل سمعتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أجِبْ عَنِّي ، أيَّدَكَ الله برُوحِ القُدُس » ؟ فقال : اللـّهُمَّ نعم[3] .

وعن البَراء : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لحسَّان بن ثابت : « اهْجُهُم وهاجِهِم وجبريلُ معك »[4] .

عن أبي سَلَمة ، أنَّ حسَّانَ بن ثابت قال : والذي بعثكَ بالحق لأفرينَّهم بلساني هـٰذا ، ثم أطلع لسانه كأنَّه حيَّة .

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ لي فيهم نَسَباً ، فائتِ أبا بَكر ، فإنَّه أعلمُ قريشٍ بأنْسَابِها ، فيُخَلِّص لك نَسَبي » ، قال : والذي بعثك بالحق لأسُلَّنَّكَ منهم

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤١ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٤١ .
(٣) انظر السير : (حسّان بن ثابت) ٢/ ٥١٢ـ٥٢٣ ، وانظر النزهة : ٧/٢٩٨ .
(٤) انظر السير : (حسّان بن ثابت) ٢/ ٥١٢ـ٥٢٣ ، وانظر النزهة : ٨/٢٩٨ .

ونَسَبَكَ سَلَّ الشَّعْرة من العَجين فهجَاهم فقال له رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شَفَيْتَ واشْتَفَيْتَ »[1] .

وعن محمد بن السَّائب بن بركة ، عن أُمِّه أنها طافَت مع عائشة ومعها نِسْوةٌ فوقَعْنَ في حَسَّان ، فقالت : « لا تسبُّوه ، قد أصَابَه ما قاله الله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقد عَمي ، والله إني لأرجو أن يُدخِلَه اللهُ الجَنَّةَ بكلماتٍ قالهنَّ لأبي سُفيان بن الحارث[2] :

هَجَوتَ محمَّداً فأجَبْتُ عنه ... وعند الله في ذاكَ الجَزَاءُ
فإنَّ أبي ووالِدَه وعِرْضِي ... لِعِرضِ محمَّدٍ منكُم وِقَاءُ
أتَهْجُوهُ ولَسْتَ له بكفءٍ ... فَشَرُّكُما لخَيْرِكُما الفِداءُ

وقال عبد الرحمٰن بن كعب ، عن أبيه أنَّه قال : يا رسولَ الله ، قد أنْزَل اللهُ في الشُّعَرَاء ما أنزل قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ المُجَاهِدَ ، مُجَاهِدٌ بسَيْفِه ولسَانِه والذي نفسي بيَدِه لكأنَّكما ترمونَهم به نُضح النَّبل »[3] .

قال ابنُ سيرين : أمَّا كعبٌ فكان يذكرُ الحربَ ويقول : فَعَلْنَا ونَفْعَلُ ويُهَدِّدُهم ، وأمَّا حسَّانُ فكان يذكرُ عُيوبهم وأيامَهم ، وأمَّا ابنُ رَوَاحَة فكان يُعَيِّرُهم بالكُفر[4] .

وقد أسْلَمَتْ دوسٌ فرقاً من بيتٍ قاله كعب .

نُخَيِّرُها[5] وَلَو نَطَقَتْ لَقَالَت ... قَواطِعُهُنَّ دَوْساً أو ثقيفا[6]

---

(١) انظر السير : (حسّان بن ثابت) ٢/ ٥١٢ـ ٥٢٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩٩ .
(٢) انظر السير : (حسّان بن ثابت) ٢/ ٥١٢ـ ٥٢٣ ، وانظر النزهة : ٢٩٩/ ٣
(٣) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٢٩٩/ ٥ .
(٤) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣٠٠/ ٢ .
(٥) قوله (نخيرها) الضمير يعود إلى السيوف في البيت الذي قبله ، وهو :
قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا
(٦) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣٠٠/ ٢ .

٨ـ من صِفاتِ الدَّاعِيَة :

(أ) التَّوازُن :

قال حمَّادُ بنُ سَلَمَة : حدثنا حَجَّاجُ الأسْود أنَّ مُعاوية بن قرة قال : مَنْ يدُلُّني علىٰ رجلٍ بَكَّاء بالليل ، بسَّام بالنهار[١] .

(ب) تَشْجِيعُ الغَيْرِ :

قال ابن جُريج عن عَطَاء بن أبي رَبَاح : إنَّ الرَّجلَ ليُحَدِّثُني بالحديث ، فأنْصِتُ له كأنِّي لم أسْمعْه ، وقد سمعتُه قبلَ أن يُولَد[٢] .

(ج) حُبُّ الوَحْدَةِ وكَرَاهِيَةُ الفُرْقَةِ :

قال موسى بن عُقْبة في « مَغازيه » : غَزوةُ عمرو بن العاص هي غَزوةُ ذات السلاسل من مَشارف الشّام فخاف عَمرو من جانبه ذلك فاسْتمدَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فانتدب أبا بكر وعُمر في سراة من المهاجرين فأمَّر نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم عليهم أبا عُبَيْدَة ، فلمَّا قَدِموا علىٰ عَمرو بن العاص قال : أنا أميرُكم فقال المهاجرون : بل أنت أميرُ أصحابك ، وأميرُنا أبو عُبَيْدَة فقال عَمرو : إنما أنتم مددٌ أُمْدِدْتُ بكم فلمَّا رأىٰ ذلك أبو عُبَيْدَة ابن الجَرَّاح ، وكان رجلاً حَسَنَ الخُلُق ، ليّن الشِّيمة ، مُتَّبِعاً لأمرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وعَهْدِه ، فَسَلَّم الإمارةَ لعَمرو[٣] .

ولما تفرَّغ الصِّدّيقُ من حرب الرِّدة ، وحرب مُسَيْلِمة الكذّاب جَهَّز أُمراءَ الأجناد لفتح الشام فبعث أبا عُبَيْدَة ، ويزيدَ بنَ أبي سُفيان ، وعَمرو بنَ العاص ، وشُرَحْبيلَ بنَ حَسنة ، فتمَّت وقعةُ أجْنادين بقُرب الرملة ، ونصَرَ اللهُ المؤمنين فجاءت البُشْرى الصِّدّيقُ في مرض الموت ، ثم كانت وَقعةُ فِحْل ، ووقعةُ مرج الصُّفَّر ، وكان قد سَيَّر أبو بكر خالداً لغَزو العراق ، ثم بعثَ إليه ليُنْجِدَ مَنْ بالشام ، فقطع المَفاوِزَ علىٰ برية

---

(١) انظر السير : (معاوية بن قرة) ٥/ ١٥٣ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٩٤ .

(٢) انظر السير : (عطاء بن أبي رباح) ٥/ ٨٧ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٨٣ .

(٣) انظر السير : (أبو عبيدة بن الجرَّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٢ .

السماوة ، فأمَّره الصِّدّيقُ على الأمراءِ كلِّهم وحاصَروا دِمَشْقَ ، وتُوفِّي أبو بكر فبادَرَ عمرُ بعَزلِ خالدَ ، واسْتعملَ على الكُلِّ أبا عُبَيْدَة ، فجاءهُ التقليدُ ، فكتَمَه مُدّة ، وكل هـٰذا من دينِه ولينِه وحلمِه ، فكان فتحُ دمشقَ علىٰ يده ، فعند ذلك أظهَرَ التقليدَ ، ليَعقِدَ الصُّلحَ للرُّوم ، ففَتَحُوا له باب الجابية صُلحاً ، وإذا بخالد قد افتَتَحَ البلدَ عُنوَةً من الباب الشَّرقي ، فأمضىٰ لهم أبو عُبَيْدَة الصُّلح .

فعن المغيرة : أنَّ أبا عُبَيْدَة صَالحَهُم علىٰ أنصَاف كنائسِهم ومَنازِلِهم ، ثم كان أبو عُبَيْدَة رأسُ الإسلام يومَ وَقعة اليَرموك ، والتي استأصَلَ الله فيها جُيُوشَ الرُّوم ، وقُتلَ منهم خلقٌ عظيم[1] .

ومن أفضل أعمال عبد الرحمـٰن بن عَوْف عزلُ نفسِه من الأمر وقْتَ الشورىٰ ، واختيارُه للأمة مَنْ أشارَ به أهلُ الحِلِّ والعَقد ، فنهض في ذلك أتمَّ نُهوض علىٰ جَمع الأُمة علىٰ عُثمان بن عَفَّان ، ولو كان مُحَابياً فيها ، لأخَذَها لنفسه ، أو لَولاَّها ابنَ عمِّه وأقربَ الجماعة إليه سعدَ بن أَبي وَقَّاص[2] .

٩ـ من آدابِ الدَّعْوَةِ

(أ) عَدَمُ إطَالَةِ المَجْلِس :

عن الزُّهري ، قال : إذا طَالَ المجلسُ كان للشَّيْطانِ فيه نصيب[3] .

(ب) خَتْمُهُ بالدُّعاءِ :

عن اللَّيث : كان ابنُ شِهاب الزُهريّ يخْتِم حديثَه بدعاء جَامع ، يقول : اللَّهُمَّ أسألك من كلِّ خيرٍ أحَاطَ به علمُك في الدنيا والآخرة ، وأعُوذُ بك من كلِّ شرٍّ أحَاطَ به علمُك في الدنيا والآخرة وكان من أسخىٰ مَنْ رأيتُ ، كان يُعطي ، فإذا فرغ ما معه يَسْتَلفُ من عَبيده ، يقول : يا فلان أسْلِفني كما تعرف ، وأضْعِفُ لك كما تَعلم ،

---

(١) انظر السير : (أبو عبيدة بن الجرَّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ١٢٣/ ٥ .

(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عوف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١٣١/ ٤ .

(٣) انظر السير : (أخبار الزهري) ٥/ ٣٢٦ـ ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٦٠٧/ ٢ .

وكان يُطعِمُ النَّاس الثَّرِيدَ ، ويسقيهم العَسلَ ، وكان يَسْمُرُ على العَسلِ كما يَسْمُرُ أهلُ الشَّرابِ علىٰ شَرابهم ، ويقول : اسقُونا وحدِّثُونا وكان يُكثِر شُربَ العَسل ، وسمعتُه يبكي على العِلْم بلسانه ، ويقول : يذهبُ العِلْمُ وكثيرٌ ممن كان يعملُ به فقلتُ له : لو وضَعتَ من علمك عند مَنْ تَرجو أن يكونَ لك خلفاً قال : واللهِ ما نَشَرَ أحدٌ العلمَ نَشْري ، ولا صَبَرَ عليه صَبْري ، ولقد كنَّا نجلسُ إلى ابن المسَيِّب ، فما يستطيعُ أحدٌ منَّا أن يسألَه عن شيء نزل به إلاَّ أنْ يبتدىء الحديثَ ، أو يأتي رجلٌ يسأله عن شيءٍ قد نزلَ به[1] .

(ج) العُزْلَةُ الشُّعُورِيَّة :

عن هشامِ بنِ عُروة بن الزبير قال : لمَّا اتَّخَذ عُروة قَصرَه بالعَقيق[2] قال له النَّاسُ : جَفَوتَ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قال: رأيتُ مَساجدَهم لاهيةً ، وأسْواقَهم لاغِيةً ، والفاحِشَةَ في فِجَاجِهم عاليةً ، فكان فيما هنالك ـ عمَّا هم فيه ـ عافية .

وقيل : لمَّا فرغ من بنائه وبئاره[3] دعا جماعةً ، فَطَعِمَ النَّاسُ وجعلوا يُبرِّكون وينصرفون وبئرُ عُروة مَشهور بالعَقيق ، طيِّبُ الماء[4] .

وعن وُهَيب بن الوَرد ، قال : جاء رجلٌ إلىٰ وَهْب بن مُنَبِّه فقال : قد حدَّثتُ نفسي أن لا أُخالِطَ النَّاس ، قال : لا تفعلْ إنَّه لا بُدَّ لك من النَّاس ، ولا بُدَّ لهم منك ، ولهم إليك حَوَائج ولك نَحْوَها ، ولكن كُنْ فيهم أَصَمَّ سَميعاً ، أعمىٰ بَصيراً ، سَكُوتاً نَطُوقاً[5] .

وقيل لابن المبارك : إذا أنتَ صَلَّيْتَ لِمَ لا تجلسُ مَعَنا ؟ قال : أجلسُ مع الصَّحَابة والتابعين ، أنظُرُ في كُتبِهم وآثارِهم ، فما أصنعُ مَعَكُم ؟ أنتم تَغْتَابون النَّاس[6] .

---

(١) انظر السير : (أخبار الزهري) ٥/٣٢٦ـ ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٦/٦٠٦ .
(٢) العَقيق : موضع بناحية المدينة .
(٣) بئاره : حفر آباره .
(٤) انظر السير : (عُروة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ١/٥٢٧ .
(٥) انظر السير : (وهب بن منبه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٩/٥٥٤ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٦/٧٦٨ .

(د) مُخَالَطَةُ النَّاسِ بقَدَرْ :

قال يونُسُ بن عبد الأعلىٰ : سَمِعْتُ الشَّافعيَّ يقولُ : يا يونُس ؛ الانقِبَاضُ عن النَّاس مَكسَبَةٌ للعَدَاوة ، والانبساطُ إليهم مَجلَبَةٌ لقُرَناءِ السُّوء ، فكُن بين المُنقَبِض والمُنبَسِط[1] .

(هـ) إقْلالُ مُخَالَطَة النَّاسِ إلاَّ لغَرَضٍ صَحِيحٍ :

قال الحُميديُّ :[2] .

لقَاءُ النَّاس ليْسَ يُفِيدُ شيئاً ... سِوى الهَذَيَان من قِيلٍ وقالِ
فأَقْلِلْ من لِقَاءِ النَّاس إلاَّ ... لأَخذِ العِلمِ أو إصْلاحِ حالِ

(و) مُراعَاةُ العُرْفِ :

رَوَىٰ سعيدُ بنُ عبد العزيز : عن أبي عبد رب : رأيتُ مُعاوية يخضِبُ بالصُّفرة كأنَّ لِحْيَتَه الذَّهب .

قال الذهبي : كان لائقاً في ذلك الزمان ، واليوم لو فُعل ، لاستُهجن[3] .

وقال الذهبي : بلغَنا أنَّ يَحيى بن يَحيىٰ أَوْصَىٰ بثياب بدنه لأحمدَ ابنِ حَنبل ، فلمَّا قَدِمَت علىٰ أحمدَ ، أخذَ منها ثوباً واحداً للبَركة ، وردَّ الباقي وقال : إنَّه لَيْس تفصيلَ ثيابه من زِيِّ بَلَدِنا[4] .

قال الحاكم : سمعتُ الأستاذ أبا الوليد يقول : قيل لأبي العبَّاس الدَّغولي : لم لا تَقنُتُ في صلاة الفَجر ؟ فقال : لراحَة الجَسَد ، وسُنّة أهلِ البَلد ، ومداراةِ الأهْلِ والوَلَد .

وقال أبو بكر أحمد بن علي بن الحُسَين الحافظ : خَرَجْنا مع الإمام أبي بكر ابن

---

(١) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٥٣ .
(٢) انظر السير : (الحميدي) ١٩/ ١٢٠ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٦٩ .
(٣) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٤٨ .
(٤) انظر السير : (يحيى بن يحيىٰ) ١٠/ ٥١٢ـ ٥١٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٨٩ .

خُزيمة إلىٰ سَمرقند لتَهنئة الأمير الشَّهيد ، والتَعزية عن الأمير أبي إبراهيم الماضي ، فلمَّا انصرفنا قلتُ لابن خُزيمة : ما رأينا في سفرنا مثل أبي العبَّاس الدَّغولي فقال أبو بكر : ما رأيت أنا مثل أبي العبَّاس .

قال الذهبي : ما أطلقَ ابن خُزيمة هـٰذا القَول إلاَّ عن أمرٍ كبير من سَعةِ علم أبي العبَّاس رحمه الله[1] .

(ز) الصَّبْرُ على المُتَعَلِّمين :

قال أبو حاتم : عبد الله بن مَسلَمَة بن قَعْنَب ، ثقةٌ حُجَّة لم أرَ أخشَع منه ، سألناه أن يَقْرأ عَلينا « المُوَطَّأ » فقال : تعالَوا بالغَداة ، فقُلنا : لنا مجلس عند حجَّاج بن مِنْهال ، قال : فإذا فرغتم منه قلنا نأتي حينئذٍ مسلم بن إبراهيم قال : فإذا فرغتُم قلنا : نأتي أبا حُذيفة النَّهْدي قال : فبعَد العَصْر قلنا : نأتي عارماً أبا النُّعمان ، قال : فبعد المغرب فكان يأتينا بالليل فيخرُج علينا وعليه كَبلٌ[2] ما تَحْته شيءٌ في الصَّيف ، فكان يقرأ علينا في الحر الشديد حينئذٍ .

قال عمرو بن علي بن الفلاَّس : كان القَعْنَبيُّ مُجَابَ الدَّعوَة[3] .

١٠ـ القُدْواتُ لا يَأخُذونَ بالتَّقيَّة :

قال محمد بن إبراهيم البُوشَنْجي : جعلوا يُذاكرون أبا عبد الله (أحمدَ ابن حنبل) بالرِّقة في التَّقيَّة وما رُوي فيها ، فقال : كيف تصنعون بحديث خَبَّاب : « إنَّ مَنْ كان قَبلَكم كان يُنشَرُ أحدُهم بالمِنْشار ، لا يَصُدُّه ذلكَ عن دينِه » فأيسْنا منه[4] .

قال أبو عبد الله : ما رأيتُ أحداً علىٰ حَدَاثة سِنِّه ، وقدْرِ عِلمه أقومَ بأمر الله من محمد بن نوح ، إني لأرجو أن يكون قد خُتم له بخير قال لي ذات يوم : يا أبا

---

(١) انظر السير : (الدَّغولي) ١٤/ ٥٥٧ـ ٥٦٢ ، وانظر النزهة : ٦/١١٧٢ .
(٢) الكبل : الفرو الكبير .
(٣) انظر السير : (القَعْنَبي) ١٠/ ٢٥٧ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/٨٧٥ .
(٤) انظر السير : (أحمد ابن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٤ .

عبد الله ، اللهَ اللهَ ، إنَّك لستَ مثلي أنت رجلٌ يُقتَدىٰ بك قد مَدَّ الخَلقُ أعناقَهم إليك ، لِمَا يكون منك ، فاتَّقِ اللهَ واثبُت لأمر الله ، أو نحو هٰذا فماتَ وصَلَّيتُ عليه ودفنتُه .

قال صالحُ : وصارَ أبي إلىٰ بغداد مُقيَّداً ، ثم حُبسَ في دارٍ اكتُرِيت عند دار عُمارة ثم حُوِّلَ إلىٰ حَبسِ العامَّة في درب المَوْصِليَّة فقال : كنتُ أُصَلي بأهل السِّجن وأنا مُقيَّد فلمَّا كان في رمضان سنة تسع عشر ـ قلتُ : وذلك بعد موت المأمون بأربعة عشر شهراً ـ حُوِّلتُ إلىٰ دار إسحاق بن إبراهيم ، يعني : نائب بغداد .

فلمَّا كان في الليلة الرابعة ، وَجَّه ـ يعني المعتصم ـ بِبُغا الكبير إلىٰ إسحاقَ فأمَرَه بحَملي إليه ، فأُدخِلتُ علىٰ إسحاق فقال : يا أحمد إنَّها والله نفسُك ، إنَّه لا يقتُلُك بالسَّيف ، إنَّه قد آلىٰ إنْ لمْ تُجبْه أن يضربَك ضرباً بعد ضرب ، وأن يقتُلَك في موضع لا يُرىٰ فيه شمسٌ ولا قمر أليس قد قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] أفيَكُون مَجعُولاً إلاَّ مَخلُوقاً ؟ فقلتُ : فقد قال تعالىٰ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[2] أفَخَلقَهم ؟ قال : فسَكَتَ ، فلمَّا صِرنا إلى المَوضِع المَعْروف بباب البُستان أُخْرِجتُ وجِيء بدابَّة فأُركِبتُ وعليَّ الأقياد ، ما معي من يُمسِكُني ، فكِدتُّ غيرَ مرَّة أن أخِرَّ علىٰ وجهي لثِقَل القُيود فجِيء بي إلىٰ دار المعتصم ، فأُدخِلتُ حُجرة ، ثم أُدخِلتُ بيتاً وأُقفلَ البابُ عليَّ في جَوف الليل ولا سِرَاج ، فأردتُ الوُضوء ، فمددت يدي ، فإذا بإناءٍ فيه ماء ، وطست موضوع ، فتَوضأتُ وصَليتُ .

فلمَّا كان من الغد ، أَخرَجتُ تَكَّتي وشَددتُ بها الأقيادَ أحملها وعطفتُ سَراويلي فجاءَ رسولُ المعتصم ، فقال أجِبْ ، فأخذَ بيدي وأُدخِلتُ عليه والتَّكَّة في يدي ، أحملُ بها الأقياد ، وإذا هو جالسٌ وأحمدُ بنُ أبي دُوَاد حاضرٌ ، وقد جَمَعَ خَلقاً كثيراً من أصحابه فقال لي المعتصم : ادنُه ادنُه ، فلم يَزَل يُدنيني حتىٰ قَربتُ منه ، ثم قال : اجْلس فجَلستُ ، وقد أثقلَتني الأقْياد ، فمكثتُ قليلاً ثم قُلتُ : أتأذن في الكلام ؟ قال : تَكلَّم ، فقُلتُ : إلىٰ ما دعا اللهُ ورسولُه ؟ فسكتَ هُنَيَّة ، ثم قال : إلىٰ شَهادةِ أن

---

(١) سورة الزخرف ، الآية (٣) .

(٢) سورة الفيل ، الآية (٥) .

لا إلـه إلاَّ الله ، فقلتُ : فأنا أشهدُ ألاَّ إلـه إلاَّ الله ثم قلتُ : إنَّ جَدَّك ابنَ عبَّاس يقول : لما قَدمَ وفدُ عبد القيس علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألوه عن الإيمان ، فقال : « أتَدرُونَ ما الإيمان ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُه أعلم قال : « شَهَادةُ أن لا إلـهَ إلاَّ اللهَ ، وأنَّ محمداً رسولُ الله ، وإقامِ الصَّلاة ، وإيتاءِ الزَّكاة ، وأن تُعطوا الخُمسَ من المَغنَم » قال أبي : فقال ـ يعني المعتصم ـ : لولا أنِّي وجَدتُك في يد مَنْ كان قَبلي ، ما عَرضتُ لك[1] .

عن الرَّبيعِ بنِ سُليمان قال : كان الإمام يوسُف بنُ يحيى البُوَيْطي حين مَرض الشَّافعيُّ بمصر هو وابن عبد الحَكم والمُزني ، فتنازعوا الحلقة ، فبلغ ذلك الشَّافعي ، فقال : الحلقة للبُوَيْطي فلهـٰذا اعتزل ابن عبد الحكم الشَّافعيَّ وأصحابه ، وكانت أعظم حلقة في المسجد فكان البُوَيْطي يصومُ ، ويتلو غالباً في اليوم والليلة خَتمَةً مع صنائع المعروف إلى النَّاس[2] .

فسُعِيَ بالبُوَيْطي حتىٰ كَتَبَ فيه ابن أبي دُوَاد إلىٰ والي مصر ، فامتَحَنَه فلم يُجِب ، وكان الوَالي حَسَنَ الرَّأي فيه ، فقالَ له : قل فيما بيني وبينك ، قال : إنَّه يَقتَدي بي مائة ألف ، ولا يَدرُون المعنىٰ ، قال : وقد كان أُمِرَ أن يُحمَل إلىٰ بغداد في أربعين رِطل حَديد[3] .

١١ـ قلـّةُ الزِّيارةِ بين الدُّعاةِ لا تَعنِي وجُودَ جَفَاء :

قال أحمدُ بن محمد بن الصَّقْر ، سمعتُ أبا الحَسَن بن قريش يقولُ : حَضرتُ إبراهيمَ الحربي ـ وجاءَه يوسُفُ القاضي ، ومعه ابنُه أبو عُمَر ـ فقال له : يا أبا إسحاق ، لو جئناك علىٰ مقدار واجب حقِّك ، لكانت أوقاتُنا كُلُّها عندك فقال : ليس كلُّ غَيْبَة جَفْوَةً ، ولا كلُّ لقاءٍ مَوَدَةً ، وإنَّما هو تَقَارُب القُلوب[4] .

---

(١) انظر السير : (أحمد ابن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٣٤ .
(٢) انظر السير : (البُويطي) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٨١ .
(٣) انظر السير : (البُويطي) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٨٢ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم الحربي) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٩٤ .

١٢ـ صُورٌ من الدَّعْوَةِ :

عن عِكرمة قال : قَدِمَ مُصعبُ بنُ عُمَير المدينة يُعَلِّم النَّاسَ فبعثَ إليه عَمرو ابن الجَموح ، ما هٰذا الذي جِئتُمونا ؟ قالوا : إنْ شِئتَ جئناكَ ، فأسْمَعناكَ القُرآن قال : نعم فَقَرَأَ صَدْراً من سُورة يُوسُف فقال عَمرو : إنْ لنَا مؤامرةً في قومنا ـ وكان سَيِّد بني سلمة ـ فخرجوا ، ودخلَ علىٰ مَنَاف فقال : يا مَنَاف ، تعلمُ والله ما يُريدُ القومُ غيرَك ، فهل عنك من نكير ؟ قال : فَقَلَّدَه السَّيفَ وخرجَ ، فقامَ أهلُه فأخذوا السَّيفَ ، فلمَّا رجعَ قال : أين السَّيفُ يا مَنَاف ؟ ويحَك! إنَّ العَنزَ لتمنعُ اسْتَها والله ما أرىٰ في أبي جعار غداً من خير ثم قال لهم : إنِّي ذاهبٌ إلىٰ مالي فاسْتَوْصُوا بمَنَاف خيراً فذهبَ ، فأخذوه فكَسَروه وربَطُوه مع كلبٍ ميِّتٍ ألقَوه في بئر ، فلمَّا جاء قال : كيف أنتم ؟ قالوا : بخير يا سَيِّدَنا طَهَّرَ الله بُيُوتَنا من الرِّجْس ، قال : والله إني أراكم قد أسأتم خِلافتي في مَنَاف قالوا : هو ذاك ، انظُر إليه في ذلك البئر فأشرَفَ فرآه ، فبعث إلىٰ قومه فجاؤوا فقالوا : ألستم علىٰ ما أنا عليه ؟ قالوا : بلىٰ أنت سَيِّدُنا قال : فأُشهِدُكم أنِّي قد آمنت بما أُنزلَ علىٰ محمَّد[1] .

وأسلمَ سعدُ بن مُعاذ علىٰ يد مُصعب بن عمير فقال ابنُ إسحاق : لمَّا أسلَمَ وقفَ علىٰ قومه ، فقال : يا بني عبد الأشْهَل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سَيِّدُنا فضلاً ، وأيمَنُنا نقيبةً قال : فإنَّ كلامَكُم عليَّ حرام ، رجالُكم ونساؤكم حتىٰ تُؤمِنوا بالله ورسُولِه قال : فوالله ما بقي في دار بني عبد الأشْهَل رجلٌ ولا امرأةٌ إلاَّ وأسلموا[2] .

وقال أبو الزَّاهِريَّة : كان أبو الدَّرداء من آخرِ الأنصار إسْلاماً ، وكان يَعبدُ صَنماً ، فدخلَ ابنُ رواحة ، ومحمدُ بن مَسْلمة بيتَه فكَسَرا صَنَمَه ، فرجعَ فجعلَ يجمع الصَّنَمَ ويقولُ : ويْحَكَ! هلاّ امْتَنعتَ! ألا دَفَعْتَ عن نفسك! ، فقالت أمُّ الدَّرداء : لو كان يَنفعُ أو يَدفعُ عن أحدٍ لَدفعَ عن نفسه ونفعها!!

---

(١) انظر السير : (عَمرو بن الجموح) ١/ ٢٥٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٧ .

(٢) انظر السير : (سعد بن مُعاذ) ٢٧٩ ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٣ .

فقال أبو الدَّرداء : أعدِّي لي ماءً في المغتَسَل ، فاغتَسَلَ ، ولبسَ حُلَّتَه ، ثم ذهب إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فنظرَ إليه ابنُ رَوَاحة مُقبلاً ، فقال : يا رسولَ الله ، هـٰذا أبو الدّرداء ، وما أراه إلا جاءَ في طلبنا فقال صلى الله عليه وسلم : « إنمَّا جاءَ ليُسلِم ، إنَّ رَبِّي وَعَدَني بأبي الدَّرداءِ أن يُسلِم »[1] .

وقال مسلمُ بن إبراهيم : حدَّثنا إياسُ بن أبي تميمة : شهدتُ الحسنَ البَصْري في جنازة أبي رجاء علىٰ بغلة ، والفَرَزْدقُ إلىٰ جنبه علىٰ بَعِير ، فقال له الفَرَزْدقُ : قد استشرفَنا النَّاس يقولون : خيرُ النَّاس وشَرُّ النَّاس ، قال : يا أبا فراس ، كم من أشعثَ أغبَرَ ، ذي طِمرَين ، خيرٌ منِّي ، وكم من شيخٍ مُشرِكٍ أنتَ خيرٌ منه ، ما أعدَدتَ للموت ؟ قال : شهادةُ أن لا إلَـٰه إلاَّ الله قال : إنَّ معها شُروطاً ، فإيَّاك وقَذفُ المُحْصَنَة ، قال : هل من توبةٍ قال : نعم[2] .

وقال أبو محمد الخَلاَّل : قال لي ابنُ سَمْعون : ما اسمُك ؟ قلتُ : حَسَن قال : قد أعطاكَ الله الاسم فَسَلْهُ المعنىٰ[3] .

١٣ـ فِقْهُ الخِلافِ :

(أ) الاخْتِلافُ لا يمنَعُ الحُبَّ في الله :

قال أبو بكر بن عياش عن عاصم : كان أبو وائل عُثمانياً وكان زِرُّ ابنُ حُبَيش عَلَويّاً ، وما رأيت واحداً منهما قطُّ تكلَّم في صاحبه حتىٰ ماتا وكان زرٌّ أكبرُ من أبي وائل ، فكانا إذا جلسا جميعاً لم يُحَدِّث أبو وائل مع زرٍّ ـ يعني يتأدب معه لسِنِّه[4] .

وعن الأعمش قال : أدركتُ أشياخَنا زِراً وأبا وائل ، فمنهم مَنْ عثمانُ أحبُّ إليه من عليٍّ ، ومنهم مَنْ عليٌّ أحبُّ إليه من عثمان وكانوا أشَدَّ شيءٍ تحابّاً وتوادّاً .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/٢٦٩ .
(٢) انظر السير : (الحسن البصري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٦٢ .
(٣) انظر السير : (ابن سمعون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣١٠ .
(٤) انظر السير : (زرُّ بن حُبيش) ٤/ ١٦٦ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/٤٧٠ .

وعن عاصم قال : مرَّ رجلٌ علىٰ زرٍّ وهو يؤذِّن فقال : يا أبا مريم قد كنتُ أُكرمُك عن ذا ، قال : إذاً لا أكلمُك كلمةً حتىٰ تلحقَ بالله .

وعن إسماعيل ، قلتُ لزرٍّ : كم أتىٰ عليك ؟ قال : أنا ابن مائة وعشرين سنة .

وعن الشّعبي : أنَّ زرّاً كتبَ إلىٰ عبدِ الملك بن مَرْوان كتاباً يعظُه[1] .

وقال يونس الصَّدَفيُّ : ما رأيت أعقلَ من الشَّافعي ، ناظرتُه يوماً في مسألة ، ثم افترقنا ، ولَقيَني ، فأخذ بيدِي ، ثم قال : يا أبا موسىٰ ، ألا يستقيمُ أن نكون إخواناً وإنْ لمْ نَتفقْ في مَسألة .

قال الذهبي : هـٰذا يدل علىٰ كمال عقل هـٰذا الإمام وفقهِ نَفسِه ، فما زالَ النُّظَرَاء يختلِفُون[2] .

(ب) تَركُ بعْضِ السُّنَن حِفاظاً على الوُدِّ ومَنْعاً للخِلافِ :

قال الحاكم : أخبَرَنا أبو عبد الله محمدُ بن يعقوب ، سمعتُ أبا عمرو المستملي ، سمعتُ محمد بن رافع يقول : كنتُ مع أحمدَ ابنِ حَنبل وإسحاق عند عبد الرزَّاق ، فجاءنا يوم الفطر ، فخرجنا مع عبد الرزَّاق إلى المُصَلَّىٰ ومعنا ناسٌ كثير فلمَّا رجعنا من المُصَلَّىٰ دعانا عبد الرزَّاق إلى الغَداء ، فجعلنا نتغذىٰ معه ، فقال لأحمد وإسحاق : رأيتُ اليومَ منكما شيئاً عجيباً ، لم تُكبِّرا!! ، قالا : يا أبا بكر ، نحن ننظرُ إليك هل تُكَبِّر ، فلمَّا رأيناكَ لم تُكَبِّر أمْسَكنَا قال : وأنا كنتُ أنظرُ إليكما هل تُكَبِّران فأُكَبِّر[3] .

(ج) الاخْتِلافُ رَحْمَةٌ :

قال يَحيى القطَّان : فُقهَاءُ المدينة عَشرةٌ ، ذكر منهم القاسم ابن محمد رَوَىٰ أفلحُ بن حُميد عن القاسم قال : اختلافُ الصحابةِ رحمة[4] .

---

(١) انظر السير : (زرُّ بن حُبيش) ٤/١٦٦ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٦/٤٧٠ .
(٢) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٤٦ .
(٣) انظر السير : (محمد بن رافع) ١٢/ ٢١٤ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٥ .
(٤) انظر السير : (القاسم بن محمد) ٥/ ٥٣ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٨/٥٧٩ .

عن أبي يزيد البَسطاميّ قال : ما وَجدتُ شيئاً أشَدَّ عليَّ من العِلم ومتابَعَته ، ولولا اختلافُ العلماء لبَقيتُ حائراً[1] ، [2] .

(د) الاخْتِلافُ لا يَمْنَعُ قَولَ الحَقِّ وإنْصَافَ المُخْتَلَفِ مَعَهُ :

قال أحمدُ بنُ حَفص السعدي ، شيخُ ابن عدي : سمعتُ أحمدَ ابنَ حَنبل يقول : لَم يَعْبُر الجسرَ إلىٰ خُراسان مثل إسحاق ـ يعني ابن راهَوَيْه ـ وإن كان يخالفُنا في أشياءَ ، فإنَّ النَّاس لم يزلْ يُخَالِفُ بعضُهم بعضاً[3] .

* * *

(١) حلية الأولياء : ١٠/ ٣٦ ، وتتمة الخبر : واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد .

(٢) انظر السير : (أبو يزيد البسطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٥٤ .

(٣) انظر السير : (إسحاق بن راهويه) ١١/ ٣٥٨ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٥٢ .

ثانياً : العبادة

١ـ ضَابطٌ في الجَمْعِ بينَ أمُورِ الدُّنيا وأمُورِ الآخِرَةِ :

عن خَيثمة : قال أبو الدَّرداء : كنتُ تاجراً قبل المبعَث ، فلمَّا جاءَ الإسلامُ جمعتُ التجارةَ والعبادةَ ، فلَم يَجتَمعا ، فتركتُ التجارةَ ولَزِمتُ العبادة[١] .

قال الذهبي : الأفضلُ جمعُ الأمرين مع الجهاد ، وهـٰذا الذي قاله هو طريقُ جماعة من السَّلف والصُّوفية ، ولا ريبَ أنَّ أمْزِجَةَ النَّاس تختلفُ في ذلك ، فبعضُهم يَقوَىٰ على الجمع بين أمور الدنيا والآخرة كالصِّديق ، وعبد الرحمـٰن بن عوف ، وكما كان ابنُ المبارك ، وبعضُهم يَعجِزُ ويقتَصِرُ على العبادة ، وبعضُهم يَقوَىٰ في بدايته ، ثم يَعجِزُ ، وبالعكس ، وكلٌّ سائغٌ ولكن لا بُدَّ من النهضة بحُقوق الزَّوجة والعيال .

وعن إسماعيلَ بنِ عُبيدِ الله قال : بينا أبو ثَعلبَة الخُشَني وكعبٌ جالسَان ، إذ قال أبو ثعلبة : يا أبا إسحاق ، ما من عبد تَفَرَّغَ لعبادة الله إلاَّ كَفَاهُ اللهُ مَؤُونة الدنيا قال كعبٌ : فإن في كتاب الله المُنزَّل : مَنْ جَعَلَ الهُمومَ هَماً واحداً ، فجَعَله في طاعة اللهِ ، كفاهُ اللهُ ما هَمَّه ، وضمن السماوات والأرض ، فكان رزقُه على الله وعملُه لنفسه ومَنْ فَرَّقَ هُمومَه ، فجَعَلَ في كلِّ وادٍ هَمَّاً ، لَمْ يُبَالِ اللهُ في أيِّها هَلَك[٢] .

قال الذهبيُّ : من التفرُّغ للعبادة السَّعيُ في السَّبَب ، ولا سيما لمن له عِيال ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أفضَلَ ما أَكلَ الرَّجُلُ من كَسْبِ يَمِينِه »

أمَّا مَنْ يَعجِزُ عن السَّبب لضَعفٍ ، أو لقِلَّةِ حِيلَةٍ ، فقد جَعَلَ اللهُ له حظاً في الزَّكاة .

---

(١) انظر السير : (أبو الدّرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٦٩ .

(٢) انظر السير : (أبو ثعلبة الخشني) ٢/ ٥٦٧ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ٦/٣٠٥ .

٢ـ تَوطينُ النَّفسِ على الاسْتعْدادِ للعِبَادَةِ :

قال سعيدُ بن عامر ، عن سَلام بن أبي مُطيع أو غيره قال : ما كان يونُس بن عُبيد بأكثرِهم صَلاةً ولا صَوماً ، ولكن لا والله ما حَضَرَ حقٌّ لله إلاَّ وهو مُتَهَيِّىءٌ له[1] .

٣ـ العِبَادةُ المِثَاليَّة :

عن عبد الله بن عَمرو ، قال : جَمعتُ القرآنَ ، فقرأتُه كُلَّه في ليلة واحدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرَأهُ في شَهْر » قلتُ : يا رسولَ الله دَعني أسْتمتعُ من قُوَّتي وشَبابي ، قال صلى الله عليه وسلم : « اقرَأهُ في عشرين » قلتُ : دَعني أسْتمتعُ قال صلى الله عليه وسلم : « اقرَأهُ في سَبعِ ليالٍ » قلتُ : دَعني يا رسولَ الله أسْتمتعُ قال : فأبَىٰ .

وصَحَّ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نازَلَهُ إلىٰ ثلاثِ ليالٍ ، ونَهَاهُ أن يَقرَأه في أقلَّ من ثلاثٍ ، وهٰذا كان في الذي نَزَلَ من القرآن ، ثم بعد هٰذا القول نزَلَ ما بقِيَ من القرآن فأقلُّ مراتبِ النَّهي أن تُكرهَ تلاوةُ القرآن كلِّه في أقلَّ من ثلاثٍ ، فما فَقُهَ ولا تَدَبَّرَ من تَلا في أقلَّ من ذلك ، ولو تَلا ورَتَّلَ في أُسبُوعٍ ولازَمَ ذلك لكان عملاً فاضلاً ، فالدِّينُ يُسْر ، فواللهِ إنَّ ترتيلَ سُبُعِ القرآن في تَهَجُّد قِيام اللَّيل مع المحافظةِ على النَّوافل الراتبة ، والضُّحىٰ ، وتحية المسجد ، مع الأذكار المأثورة الثابتة والقول عند النَّوم واليقظة ، ودُبُرَ كلّ صلاة مكتوبة والسَّحر ، مع النَّظر في العِلم النَّافع والاشْتِغَال به مُخلصاً لله ، مع الأمر بالمعروف وإرشاد الجاهل وتَفهيمِه ، وزَجْر الفاسِق ، ونَحْو ذلك ، مع أداء الفرائض في جماعة بخُشُوع وطُمأنينة وانكسارٍ وإيمان ، مع أداء الواجب ، واجتناب الكبائر ، وكثرة الدعاء والاستغفار والصَّدقة وصِلة الرَّحم والتَّواضُع والإخْلاص في جميع ذلك ، لشُغلٌ عظيم جَسيم ، ولَمَقَامُ أصحاب اليَمين وأولياء الله المُتَّقين ، فإنَّ سائر ذلك مطلُوب فمتىٰ تَشَاغَلَ العابِد بخَتمَةٍ في كلِّ يوم ، فقد خالفَ الحَنيفية السَّمحة ، ولم يَنهضْ بأكثرِ ما ذكرناه ولا تَدَبَّرَ ما يَتلُوه .

---

(١) انظر السير : (يونس بن عُبيد) ٦/٢٨٨ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/٦٥٢ .

هـٰذا السَّيدُ العَابِدُ الصَّاحبُ كان يقولُ لمَّا شَاخَ : ليتَني قَبلتُ رخصةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك قالَ عليه السلام في الصَّوم ، وما زالَ يُنَاقِصه حتىٰ قال صلى الله عليه وسلم له : « صُمْ يَوماً وأَفْطِر يوماً ، صَومَ أخي داود عليه السلام » .

وكلُّ مَن لم يُلزِمْ نفسَه في تَعَبُّدِه وأَورَادِه بالسُّنة النَبَويّة الصحيحة ، يَندم ويَتَرَهَّب ويَسوءُ مِزَاجُه ويَفُوتُه خيرٌ كثير من متابَعَة سُنَّة نَبيِّه الرَّؤوفِ الرَّحيمِ بالمؤمنين ، الحَرِيصِ علىٰ نَفعِهِم ، وما زالَ صلى الله عليه وسلم مُعَلِّماً للأمة أفضَلَ الأعمال ، وآمراً بهَجرِ التبتُّل والرَّهبَانيَّة التي لَم يُبعَث بها ، فنَهَىٰ عن سَردِ الصَّوم ، ونَهَىٰ عن الوِصَال ، وعن قِيَام أكثر الليل إلاَّ في العَشر الأخير من رمضان ، ونَهَىٰ عن العُزبَة للمُستطيع ، ونَهَىٰ عن ترك اللَّحم إلىٰ غير ذلك من الأوامر والنَّواهي ، فالعَابدُ بلا مَعرِفَة لكثير من ذلك مَعذُورٌ مَأجُور ، والعَابدُ العالِمُ بالآثار المحمَّدية ، المُتَجاوِز لها مَفضُول مَغرُور ، وأَحَبُّ الأعمَال إلى الله أَدوَمُها وإن قَلَّ ، أَلهَمَنَا اللهُ وإيّاكم حُسن المُتابَعَة وجَنَّبَنَا الهَوىٰ والمُخالَفة[1] .

وعن عبد الله بن عَمرو قال : زَوَّجَني أبي امرأةً من قُريش ، فلمَّا دخلَتْ عليَّ جعلتُ لا أنحاشُ لها ممَّا بي من القُوَّة على العِبادة ، فجاءَ أبي إلىٰ كِنَّتِه[2] فقال : كيف وجدتِ بَعْلَكِ ؟ قالت : خيرُ رجلٍ لَم يُفَتِّش لها كنفاً ولم يقرب لها فِراشاً ، قال : فأقبلَ عليَّ وعَضَّني بلسانه ، ثم قال : أنكحتُكَ امرأةً ذاتَ حسبٍ فَعَضَلْتَها وفعلتَ ، ثم انطلقَ ، فَشَكَاني إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فطَلَبَني فأتيته ، فقال لي : « أتَصُومُ النَّهَارَ وتقومُ الليل ؟ » قلتُ : نعم قال صلى الله عليه وسلم : « لكِنِّي أصُومُ وأُفطِر ، وأُصلِّي وأنام ، وأَمَسُّ النِّساءَ ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »[3] .

وعن أحمد بن أبي الحَواري قال : قلتُ لراهبٍ في دَير حَرملَة ، وأشرَفَ من صومعته : ما اسمُك ؟ قال : جُرَيْج قلت : ما يَحْبِسُك ؟ قال : حَبَستُ نفسي عن

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عَمرو بن العاص) ٣/ ٧٩ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٣٣٨/ ٤ .

(٢) الكِنَّة : زوج الولد ، وقولها : « لم يُفتِّش لها كنفاً » : الكنف الجانب ، أرادت أنه لم يَقربها .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن عمرو بن العاص) ٣/ ٧٩ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٣٤٠/ ٢ .

الشَّهَوَات قلت : أَمَا كان يستقيمُ لك أنْ تذهبَ معنا هاهُنا وتجيءُ وتمنعَهَا الشَّهَوَات ؟ قال : هَيهَات!! هـٰذا الذي تَصِفُه قوَّةٌ وأنا في ضعف ، قلت : ولِمَ تفعلُ هـٰذا ؟ قال : نجدُ في كتبِنا أنَّ بَدَنَ ابنِ آدمَ خُلِقَ من الأرض ، ورُوحَهُ خُلِقَ من مَلَكوت السَّمَاء ، فإذا أَجَاعَ بدنَه وأعْرَاه وأَسْهَرَه وأقمَأَه نازَع الرُّوح إلى الموضع الذي خَرج منه ، وإذا أطعَمه وأراحَه أخلَدَ البدنُ إلى الموضع الذي خُلِقَ منه ، فأَحَبَّ الدُّنيا قلت : فإذا فعلَ هـٰذا يجعلُ له في الدُّنيا الثَّواب ؟ قال : نعم نُورٌ يُوازيه قال : فحَدَّثتُ بهـٰذا أبا سُليمانَ الدَّارانِي ، فقال : قاتَلَه الله إنَّهُم يَصِفُون[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : الطريقةُ المُثلىٰ هي المُحَمَّديَّة ، وهو الأخذُ من الطَّيِّبات وتناوُل الشَّهَوَات المُبَاحة من غير إسرافٍ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[2] .

وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لكنِّي أَصُومُ وأُفطِر ، وأَقُومُ وأَنَامُ ، وآتي النِّساءَ ، وآكلُ اللَّحمَ فَمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فلَيسَ مِنِّي » فلَم يَشْرَع لنا الرَّهبَانيَّةَ ولا التَّمَزُّق ولا الوِصَال ، بل ولا صَومَ الدَّهر ، ودينُ الإسلام يُسرٌ وحَنيفِيَّة سَمحَةٌ ، فليَأكل المسلم من الطَّيِّب إذا أمكَنَه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ ﴾[3] .

وقد كانَ النِّسَاءُ أحَبَّ شيءٍ إلىٰ نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكذلك اللحمُ والحلواء والعسلُ والشرابُ الحُلوُ البارد ، والمِسْكُ ، وهو أفضلُ الخلق وأَحَبُّهم إلى الله تعالىٰ[4] .

ثمَّ العابدُ العَرِيُّ من العلم ، متىٰ زَهِدَ وتبَتَّلَ وجَاعَ ، وخَلا بنفسِه ، وترك اللَّحمَ والثِّمارَ واقتصَرَ على الدُّقَّة والكِسرة ، صَفَتْ حَواسُّه ولَطُفَت ، ولازَمَته خَطَرَاتُ النَّفس ، سَمعَ خِطاباً يتولَّدُ من الجُوع والسَّهر ، ولا وُجُود لذلك الخطاب ـ والله ـ في

---

(١) انظر السير : (أحمد بن أبي الحواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٦/٩٨٥ .
(٢) سورة المؤمنون : الآية (٥١) .
(٣) سورة الطلاق : الآية ٧ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن أبي الحواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ١/٩٨٦ .

الخارج ، وَوَلِجَ الشَّيطَانُ في باطِنِه وخرجَ ، فيعتقدُ أنَّه قد وصلَ ، وخُوطِب وارتَقَىٰ ، فيتمكَّنُ منه الشَّيطانُ ، ويُوَسْوسُ له ، فينظرُ إلى المؤمنينَ بعَينِ الازدراء ، ويتذكَّرُ ذُنوبَهم ، وينظرُ إلىٰ نفسِه بعَينِ الكَمَال ، وربُمَا آلَ به الأمرُ إلىٰ أن يَعتقدَ أنَّه وَليٌّ ، صاحبُ كراماتٍ وتمكُّن ، وربما حصلَ به شكٌّ ، وتَزَلزَلَ إيمانُه فالخُلوة والجُوع أبو جادِ التَّرَهُّب ، وليس ذلك من شَريعتنا في شيء ، بل السُّلوكُ الكامل هو الوَرَعُ في القُوت ، والوَرَعُ في المَنطِق ، وحِفظُ اللِّسَان ، ومُلاَزَمَةُ الذِّكر ، وتركُ مخالَطَة العَامَّة ، والبُكاء على الخطيئة ، والتِّلاوة بالتَّرتيل والتَّدَبُّر ، ومقتُ النَّفس وذَمُّها في ذاتِ الله ، والإكثَارُ من الصَّوم المَشْروع ، ودوامُ التَّهَجُّد ، والتَّواضُع للمسلمين ، وصِلَةُ الرَّحم والسَّماحة وكثرةُ البِشر ، والإنفَاقُ مع الخَصَاصَة ، وقولُ الحقِّ المُرِّ برِفق وتُؤَدةٍ ، والأمرُ بالمعروف والأخذُ بالعَفو ، والإعرَاضُ عن الجاهلين ، والرِّباطُ بالثَّغر ، وجهادُ العَدُو ، وحَجُّ البَيتِ ، وتناوُل الطَّيِّبات في الأحايين ، وكثرةُ الاستغفار في السَّحَر ، فهٰذه شَمَائلُ الأولياء ، وصفاتُ المُحَمَّدِيِّين ، أَمَاتَنَا اللهُ علىٰ مَحَبَّتِهم[1] .

وقال أبو محمد الجَريري : سمعتُ الجُنَيد يقول : ما أخذنا التَّصَوفَ عن القال والقيل ، بل عن الجوع ، وترك الدنيا وقطع المألوفات[2] .

قال الذهبي : هٰذا حَسَن ، ومُراده : قَطعُ أكثر المألوفات ، وتركُ فضول الدُّنيا ، وجوعٌ بلا إفراط ، أمَّا مَن بالَغَ في الجُوعِ كما يفعله الرُّهبان ، ورَفَضَ سائرَ الدُّنيا ومألوفات النَّفس من الغِذاء والنَّوم والأهل فقد عرَّض نفسه لبلاء عريض ، وربما خُولِطَ في عقله ، وفاتَه بذلك كثيرٌ من الحنيفيَّة السَّمحَة ، وقد جعلَ اللهُ لكل شيء قدراً ، والسَّعادةُ في متابعة السنن ، فَزِنِ الأمورَ بالعدل وصُم وأَفْطِر ، ونَمْ وقُمْ ، والْزَم الوَرَعَ في القُوت وارْضَ بما قَسَمَ الله لك ، واصْمُتْ إلاَّ من خيرٍ ، فرحمةُ الله على الجُنَيد ، وأين مثلُ الجُنَيد في علمه وحاله ؟[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن أبي الحواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٨٦ .

(٢) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٣٣ .

(٣) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٣٣ .

٤ـ العِبادةُ الكثيرةُ إنْ لم تكنْ أثَريَّة فهي مَفْضُولَةٌ :

رُوي من وجوه متعددة أنَّ أبا بكر بنَ عيّاش مَكَثَ نحواً من أربعين سنة يَختمُ القرآنَ في كل يومٍ وليلة مَرَّةً[١] .

يقولُ الذهبيُّ : هـٰذه عبادة يُخضَعُ لها ، ولكنَّ مُتابعة السُّنَّة أَوْلَىٰ فقد صَحَّ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَهَىٰ عبدَ الله بنَ عَمرو أن يقرأ القرآن في أقلَّ من ثلاثٍ وقال صلى الله عليه وسلم : « لَمْ يَفْقَه مَنْ قَرَأَ القُرآنَ في أقلَّ من ثلاث » .

وقال الفضلُ بنُ محمد الشَّعرَاني : سمعتُ يَحيَى بن أَكْثَم يقولُ : صَحبتُ وَكِيعاً في الحَضَر والسَّفَر ، وكان يَصومُ الدَّهرَ ، ويَختمُ القرآنَ كلَّ ليلة[٢] .

قال الذهبيُّ : هـٰذه عبادة يُخضَع لها ولكنها من مثلِ إمامٍ من الأئمةِ الأثَريَّة مَفضُولة ، قد صَحَّ نَهيُه عليه السلام عن صَوم الدهر ، وصَحَّ أنَّه نَهَىٰ أن يُقرأ القُرآنُ في أقل من ثلاث ، والدِّينُ يُسرٌ ، ومتابعةُ السُّنة أَولَىٰ ، فرضيَ اللهُ عن وَكيعٍ ، وأين مثلُ وكيع ؟ ومع هـٰذا فكان مُلازِماً لشُرب نَبيذ الكوفة الذي يُسكِرُ الإكثارُ منه ، فكان مُتأوِّلاً في شُربه ، ولَم يَترُكْه تَوَرُّعاً ، ولو تَرَكَه تَوَرُّعاً لكان أَولَىٰ به ، فإنَّ مَن تَوَقَّى الشُبهات ، فقد اسْتَبرَأ لدينِه وعِرضِه ، وقد صحَّ النَّهيُ والتحريمُ للنبيذ المذكور وليس هـٰذا مَوضعَ هـٰذه الأمور .

٥ـ القَصْدُ في العِبادَةِ :

عن سعيد بن أبي بردة ، عن أبيه ، عن أبي موسىٰ أنَّ النَّبيَ صلى الله عليه وسلم لمَّا بَعَثَهُ ومُعَاذاً إلى اليمن ، قال لهما : « يَسِّرا ولا تُعسِّرا وتَطَاوَعَا ولا تُنَفِّرا » ، فقال له أبو موسىٰ : إنَّ لنا بأرضنا شَراباً يُصنَعُ من العَسَل يُقالُ له : البِتْعُ ، ومن الشَّعير يُقال له : المِزْرُ ، قال صلى الله عليه وسلم : « كلُّ مُسْكرٍ حَرَام » فقال لي مُعاذٌ : كيف تَقرأُ

---

(١) انظر السير : (أبو بكر بن عياش) ٨/ ٤٩٥ـ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٨٧ .

(٢) انظر السير : (وكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، انظر النزهة : ٤/ ٨٠٨ .

القرآنَ ؟ قلتُ : أقرأهُ في صَلاتي وعلىٰ راحِلَتي وقائماً وقاعداً ، أتَفَوَّقُ تَفَوُّقاً ، يعني شيئاً بعد شيء ، قال : فقال مُعاذٌ : لكنِّي أَنَامُ ثم أقومُ ، فَأَحْتَسِبُ نَومَتي كما أَحْتَسِبُ قَوْمَتي ، قال : وكأن مُعاذاً فُضِّلَ عليه[1] .

عن طارق بن شِهاب عن سَلمان قال : إذا كان الليلُ ، كان النَّاسُ منه علىٰ ثلاثِ منازلَ : فمنهم مَن له ولا عليه ، ومنهم مَن عليه ولا له ، ومنهم مَن لا عليه ولا له!! فقلتُ : وكيف ذاك ؟ قال : أمَّا مَن له ولا عليه ، فرجلٌ اغتَنَمَ غَفلَةَ النَّاس وظُلمةَ الليل ، فتوضأ وصَلَّىٰ ، فذاك له ولا عليه ، ورجلٌ اغتَنَمَ غَفلَةَ النَّاس وظُلمةَ الليل ، فمشَىٰ في مَعَاصي الله ، فذاك عليه ولا له ، ورجلٌ نامَ حتىٰ أصبحَ ، فذاك لا له ولا عليه[2] .

قال طارقٌ : فقلتُ : لأُصحَبنَّ هـٰذا فضُرب على النَّاس بعثٌ فخرجَ فيهم فصحبتُه وكنتُ لا أفْضُلُهُ في عمل ، إنْ أنا عَجَنتُ خَبَزَ وإنْ خَبَزتُ طَبَخَ ، فنزلنا مَنزِلاً فبِتْنا فيه ، وكانت لطارق ساعةٌ من اللَّيل يقومُها ، فكنت أتَيَقَّظُ لها فأجِدُه نائماً فأقولُ : صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيرٌ مِنِّي نائمٌ ، فأنامُ ثم أقومُ فأجدُه نائماً فأنامُ ، إلاَّ أنَّه كان إذا تَعَارَّ من الليل قال وهو مُضطجعٌ : سبحانَ الله ، والحمدُ لله ، ولا إلـٰه إلاَّ الله ، والله أكبر ، لا إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شَريك له ، له الملكُ وله الحمدُ ، وهو علىٰ كُلِّ شيءٍ قدير حتىٰ إذا كان قُبيل الصُّبح قامَ فتوضأَ ثم ركَعَ أربع ركعات فلمَّا صَلَّينا الفجرَ قلتُ : يا أبا عبدَ الله ، كانت لي ساعة من الليل أقومُها وكنتُ أتَيَقَّظُ لها فأجدُك نائماً ، قال : يا ابن أخي! فأَيشٍ كنتَ تَسمَعُني أقولُ ؟ فأخبَرتُه ، فقال : يا ابن أخي تلك الصلاة ، إنَّ الصَّلَواتِ الخمسَ كَفَّاراتٌ لما بَينهُن ما اجتُنبَت المَقتَلة ، يا ابن أخي عليك بالقَصدِ فإنَّه أبلغ[3] .

---

(١) انظر السير : (مُعاذ بن جبل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٩١ .
(٢) انظر السير : (سلمان الفارسي) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٠٤ .
(٣) انظر السير : (سلمان الفارسي) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٠٤ .

رَوَىٰ عَونُ بنُ أبي جُحَيفة ، عن أبيه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم آخىٰ بين سَلمانَ وأبي الدَّرداء ، فجاء سَلمانُ يزوره ، فإذا أمُّ الدَّرداء مُتَبَذِّلَة ، فقال : ما شأنُكِ ؟ قالت : إنَّ أخَاكَ لا حاجَةَ له في الدُّنيا ، يقومُ الليلَ ويصومُ النَّهارَ .

فجاءَ أبو الدَّرداء فرَحَّبَ به ، وقَرَّبَ إليه طعاماً فقال له سَلمانُ : كُلْ قال : إنِّي صائم قال : أقسمتُ عليك لتُفطِرَنَّ فأكلَ معه ثم باتَ عنده ، فلمَّا كان من اللَّيل أرادَ أن يقومَ ، فمَنَعَه سَلمانُ وقال : إنَّ لجَسَدِكَ عليك حقاً ولرَبِّك عليك حقاً ولأهلِك عليك حقاً ، صُم وأَفطِر ، وصَلِّ وائتِ أهلكَ ، وأعطِ كُلَّ ذي حقٍّ حَقَّه .

فلمَّا كان وَجهُ الصُّبح ، قال : قُم الآن إنْ شِئتَ ، فقاما فتَوَضَآ ، ثم رَكَعَا ، ثم خَرَجَا إلى الصلاة ، فَدَنا أبو الدَّرداء ليُخبِرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالذي أَمَرَه به سَلمان : فقال له صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الدَّرداء ، إنَّ لجَسَدِك عليك حقاً ، مثل ما قالَ لكَ سَلمان »[1] .

٦ـ الوَسْوَسَةُ في العِبادَةِ يَنْفَرِدُ بها أهلُ الإسْلام :

عن الأعمش قال : آية التَّقَبُّل الوسوَسَة ، لأن أهل الكتابَين لا يَدرُون ما الوَسوَسَة ، وذلك لأنَّ أعمالَهم لا تَصعدُ إلى السَّماء[2] .

٧ـ العِباداتُ الباطِنَةُ وصُعُوبَتُها :

عن جعفر بن بُرقان قال : بلغني عن يونُسَ بنِ عُبيد فضلٌ وصلاحٌ ، فأحبَبْتُ أن أكتبَ إليه أسأله فكتبَ إليه : أتاني كتابُك تَسألُني أن أكتبَ إليك بما أنا عليه فأُخبرُك أنِّي عَرَضْتُ علىٰ نَفسِي أن تُحبَّ للنَّاس ما تُحبُّ لها وتَكرَهُ لهم ما تَكرَهُ لها ، فإذا هي من ذاك بعيدةٌ ثم عَرَضْتُ عليها مرةً أخرىٰ تَركَ ذكرِهم إلاَّ من خير ، فوجدتُ الصَّوم في اليوم الحَارِّ أيْسَر عليها من ذلك هـٰذا أمري يا أخي والسلام[3] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدرداء) ٢/ ٣٣٥ـ٣٥٣ ، انظر النزهة : ٢/٢٧٠ .

(٢) انظر السير : (الأعمش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٦٤٦ .

(٣) انظر السير : (يونس بن عُبيد) ٦/ ٢٨٨ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/٦٥١ .

٨ـ عِبادَةُ التَّفَكُّرِ والاعْتِبَار :

عن عَون بن عبد الله : قلت لأُمِّ الدَّرداء : أيُّ عِبادة أبي الدَّرداء كانت أكثر ؟ قالت : التَّفَكُّر والاعْتبَار

وعن أبي الدَّرداء : تَفَكُّرُ ساعةٍ خَيرٌ من قيام ليلة[١] .

وقال بُردٌ ـ مولى ابن المسيِّب ـ لسعيد بن المسيِّب : ما رأيتُ أحسنَ ما يصنعُ هـٰؤلاء قال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يُصَلِّي أحدُهم الظُّهرَ ، ثم لا يزالُ صافَّاً رجلَيه حتىٰ يُصَلِّي العَصرَ فقال : ويحك يا بُرد أمَا والله ما هي بالعبادة ، إنَّمَا العبادةُ التَّفَكُّر في أمرِ الله ، والكَفُّ عن مَحَارِمِ الله[٢] .

وعن يُوسُف بنِ أسْباط : قال لي سُفيان الثَّوري بعد العِشَاء : ناولْني المِطْهَرَةَ[٣] . أتوضأ ، فناولتُه فأخذَها بيمِينِه ووضعَ يَسَارَهُ علىٰ خَدِّه فَبَقِيَ مُفَكِّراً ، ونِمتُ ، ثم قُمتُ وقتَ الفجر ، فإذا المِطْهَرَةُ في يده كما هي ، فقلتُ : هـٰذا الفجرُ قد طَلَع فقال : لم أزَل منذ ناولتَني المِطْهَرَةَ أتَفَكَّرُ في الآخرة حتى السَّاعة[٤] .

٩ـ كَيْفِيَّةُ الوُصُولِ إلىٰ حَلاوَةِ العِبادَةِ :

وقال بِشرُ بن الحارث : لا تجدُ حَلاوةَ العبادة حتىٰ تجعلَ بينك وبين الشَّهوات سدّاً[٥] .

قال أحمدُ بن حرب : عبدتُ اللهَ خَمسين سنةً ، فما وجدتُ حَلاوةَ العبادة حتىٰ تركتُ ثلاثةَ أشياء : تركتُ رِضَا النَّاس حتىٰ قَدِرت أن أتكلَّم بالحق ، وتركتُ صُحبَةَ الفاسِقين حتىٰ وجدتُ صُحبةَ الصَّالحين ، وتركتُ حَلاوةَ الدُّنيا حتىٰ وجدتُ حَلاوةَ الآخرة[٦] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٧٢ .

(٢) انظر السير : (سعيد بن المُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٨٨ .

(٣) المِطْهَرَة : الإناء الذي يُتوَضأ به ويُتَطَهَّرُ به .

(٤) انظر السير : (سُفيان الثَّوري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٩٦ .

(٥) انظر السير : (بشر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٨٦ .

(٦) انظر السير : (أحمد بن حرب) ١١/ ٣٢ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٠٦ .

١٠ـ عِقابُ النفْسِ عند التَّقْصيرِ في العِبادَةِ :

عن المُنْكَدِر بن محمد بن المُنْكَدِر عن أبيه : أن تميماً الدَّاري نامَ ليلةً لمْ يَقُم بتَهَجُّد ، فقامَ سَنةً لمْ ينَم فيها ، عُقوبةً للذي صَنع[١] .

وعن نافع أنَّ ابنَ عُمرَ كان إذا فاتَتْه العِشاء في جماعة أَحْيَىٰ بقيَّةَ ليلته[٢] .

وقال عبد الرحمٰن رُستَه : حدّثَنا يَحيىٰ بنُ عبد الرحمٰن بن مهدي أنَّ أباهُ قامَ ليلةً ، وكان يُحيي الليلَ كُله ، قال : فلمَّا طَلعَ الفجرُ رمىٰ بنفسِه على الفِراش حتىٰ طلعت الشمسُ ، ولم يُصَلِّ الصُّبحَ ، فجعلَ علىٰ نفسِهِ أن لا يجعلَ بينه وبين الأرض شيئاً شهرين ، فقَرَّح فَخِذَاه جميعاً[٣] .

قال أبو نعيم : سَمعتُ أبا الفَرج الورثاني ، سمعتُ عليَّ بنَ عبد الرحيم يقول : دخلتُ على النُّوريِّ فرأيتُ رجليه مُنتفخَتين ، فسألتُه عن أمره فقال : طالبَتني نفسي بأكل تَمر ، فدافَعتُها ، فأبَت عليَّ فاشتريتُه فلمَّا أكلتُ قلتُ : قومي فصَلِّي ، فأبت ، فقلتُ : لله عليَّ إن قَعَدتِ على الأرض أربَعين يوماً فما قَعدتُ ـ يَعني إلاَّ في صَلاة[٤] .

١١ـ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِعلَ القُرُباتِ :

قال الفُضيلُ بنُ عِياض : إذا لم تَقدر علىٰ قِيام الليل ، وصِيام النهار ، فاعلم أنَّك مَحرُوم كَبَّلتكَ خَطيئتُك[٥] .

١٢ـ المُحافَظَةُ على الأوْرادِ والعَمَلِ الصَّالِحِ :

عن أنَس بن سيرين قال : كان لمحمد بنِ سيرين سَبعةُ أوراد ، فإذا فاته شيءٌ من الليل قرأه بالنهار[٦] .

---

(١) انظر السير : (تميم الدّاري) ٢/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٨٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٦٨ .
(٣) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن مهدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨١٧ .
(٤) انظر السير : (النُّوري) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٣٤ .
(٥) انظر السير : (الفُضيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٧٧ .
(٦) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٧٠ .

وقال بَكَّارُ بنُ محمد السِّريني : كان لعبدِ الله بنِ عَونٍ سُبْعٌ يقرؤه كُلَّ ليلة ، فإذا لَمْ يقرأه أتَمَّه بالنهار ، وكان يَغْزو علىٰ ناقته إلى الشام فإذا صار إلى الشام رَكِبَ الخَيلَ ، وقد بارَزَ روميّاً فقَتلَ الرُّوميَّ[1] .

وقال عفَّانُ : قد رأيتُ مَن هو أَعبَدُ من حَمَّاد بن سَلَمة ، لكن ما رأيتُ أشَدَّ مواظبةً على الخَيرِ ، وقراءةِ القُرآن ، والعمل لله تعالىٰ منه[2] .

وقال يَحيىٰ بنُ أيوب : حدَّثني بعضُ أصحاب وَكيع الذين كانوا يَلزَمُونه أنَّ وَكيعاً كان لا ينامُ حتىٰ يقرأ جزأَه من كلِّ ليلة ثُلُثَ القرآن ، ثم يقومُ في آخر الليل فيقرأ المُفَصَّل ، ثم يجلسُ ، فيأخُذُ في الاستغفار حتىٰ يطلعَ الفجرُ[3] .

وقال ابنُ طاهر : لمَّا عَزَمَ سعدٌ الزنجاني على المجاورة ، عَزَمَ علىٰ نَيِّفٍ وعشرين عَزيمةً ، أن يُلزِمَهَا نفسَه من المُجَاهَدَات والعِبَادات ، فبَقِي به أربعين سنةً لم يُخِلَّ بعَزيمةٍ منها ، وكانَ يُملِي في بيتِه ـ يَعني خوفاً من دولة العُبيديَّة[4] .

وقال الشيخُ العِماد : سمعتُ أخي الحافظَ أبي عُمر يقولُ : نحن إذا جاءَ أحدٌ اشتغلنا به عن عملنا ، وإنَّ خالي أبي عُمر فيه للدُّنيا والآخرة يُخَالِطُ النَّاسَ ولا يُخلي أورادَه[5] .

١٣ـ أخْذُ النفْسِ بالشِّدَّةِ في العِبادَةِ :

عن نافعٍ قال : كان ابنُ عُمرَ يُزَاحِمُ على الرُّكن حتىٰ يَرعُفَ[6] .

وقال عثمانُ بنُ أبي العاتكة : علَّق أبو مُسلم الخَولاني سَوطاً في المسجد ، فكان

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٧/٦٥٧ .
(٢) انظر السير : (حمَّاد بن سلمة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ١/٧١٥ .
(٣) انظر السير : (وكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨٠٩ .
(٤) انظر السير : (الزنجاني) ١٨/ ٣٨٥ـ ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢٤ .
(٥) انظر السير : (الشيخ أبو عُمر) ٢٢/ ٥ـ ٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٦٢ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/٣٧٣ .

يقولُ : أنا أوْلَىٰ بالسَّوطِ من البَهَائم ، فإذا فَتَرَ مَشَقَ[1] .سَاقَيْه سَوطاً أو سَوطَين ، قال : وكان يقولُ : لو رأيتُ الجَنَّةَ عَيَاناً أو النَّارَ عَيَاناً ما كان عندي مُستَزاد[2] .

وعن إبراهيمَ قال : لمَّا كَبِر عَمرو بنُ ميمون ، أَوتَد له في الحائط ، فكان إذا سَئِمَ من القيام أمسَكَ به ، أو يَتَعَلَّقُ بحبل[3] .

وقال يونُس بنُ مَيسَرة : كُنَّ النِّسَاءُ يَتَعَبَّدن مع أمِّ الدَّرداء ، فإذا ضَعُفنَ عن القِيام ، تَعَلَّقنَ بالحِبال[4] .

ورَوىٰ حفصُ بن غياث ، عن ابنِ إسحاق ، قال : قدمَ علينا عبدُ الرحمـٰن بنُ الأسوَد حاجّاً ، فاعتلَّت رجلُه ، فصَلَّىٰ علىٰ قدمٍ حتىٰ أصبح[5] .

وقال هلالُ بنَ خَبَّاب : كان عبد الرحمـٰن بن الأسود ، وعُقبة مَولَىٰ أديم ، وسعد أبو هشام يُحْرِمون من الكُوفة ، ويَصُومون يوماً ، ويُفطِرون يوماً حتىٰ يَرجِعُوا[6] .

وقالَ الزُّبَيرُ بنُ بَكَّار : كان أبو عامر بنُ عبد الله ابن الزُّبَيرِ لما يُرَىٰ منه يقولُ : قد رأيتُ أبا بكرٍ وعُمرَ ولم يكونا هـٰكذا[7] .

وقال نافعٌ القارىء : كان أبو جعفر القارىء يقومُ الليل فإذا قرأ يَنْعُسُ ، فيقولُ لهم : ضَعُوا الحَصَىٰ بين أصَابعي وضُمُّوها ، فكانوا يَفعَلون ذلك ، والنَّومُ يُغَالِبه وكان يُصلي خَلفَ القُرَّاء في رمضان ، يُلَقِّنُهم ، يُؤمر بذلك[8] .

وقال يعقوبُ السَّدُوسي : سمعتُ عليَّ بن المدَينيِّ يقولُ : كان جَريرُ ابنُ

---

(١) مَشَقَ : أي ضربه بسرعة .
(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٣٠ .
(٣) انظر السير : (عَمرو بن ميمون) ٤/ ١٥٨ـ ١٦١ ، وانظر النزهة : ٨/ ٤٦٧ .
(٤) انظر السير : (أم الدَّرداء) ٤/ ٢٧٧ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٩٧ .
(٥) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن الأسود) ٥/ ١١ـ ١٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٧٥ .
(٦) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن الأسود) ٥/ ١١ـ ١٢ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٧٥ .
(٧) انظر السير : (عامر بن عبد الله بن الزبير) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٩٦ .
(٨) انظر السير : (أبو جعفر القارىء) ٥/ ٢٨٧ـ ٢٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٠٤ .

عبد الحميد صاحبَ ليلٍ ، وكان له رَسَنٌ ، يقولون : إذا أَعْيَىٰ تَعَلَّقَ به ـ يُريدُ أنَّه كان يُصَلِّي[1] .

١٤ـ أقْوالٌ بَلِيغَةٌ في العُبُودِيَّةِ :

قال أبو عبد الرحمٰن السلمي : سمعتُ جَدِّي ابن نجيد يقول : لا يَصفُو لأحدٍ قَدَمٌ في العُبوديَّة حتىٰ تكونَ أفعالُه عنده كلُّها رِياء ، وأحوالُه كلُّها عنده دَعَاوَىٰ[2] .

١٥ـ الاشْتِيَاقُ إلى العِبادَةِ :

عن عَدي بنِ حاتم الطائي قال : ما دخلَ وقتُ صلاةٍ حتىٰ أشتاقَ إليها. وعنه : ما أُقيمت الصَّلاة مُنذُ أسلمتُ إلاَّ وأنا علىٰ وُضُوءٍ[3] .

١٦ـ مِنْ صِفاتِ عُبَّادِ السَّلَفِ :

قال كُرْزُ بنُ وَبَرة الحارثيّ : لا يكونُ العبدُ قارئاً حتىٰ يَزهَدَ في الدِّرهَم[4] .

قال الإمامُ الذهبي بعدما أورد قَولَةَ كُرْز : هٰكذا كان زُهَّادُ السَّلف وعُبَّادُهم ، أصحابَ خَوف وخُشُوع وتَعَبُّد وقُنُوع ، ولا يدخلون في الدُّنيا وشَهَوَاتها ، ولا في عِبَاراتٍ أحدَثَهَا المُتَأخِّرون من الفَنَاء ، والمَحو ، والاصْطِدام ، والاتِّحاد ، وأشباه ذلك ، ممَّا لا يَسُوغُه كِبَارُ العلماء ، فنسألُ الله التَّوفيقَ والإخلاصَ ، ولُزُوم الاتِّباع[5] .

١٧ـ مَنْ فُتِحَ له بابٌ من أبْوابِ العِبادَةِ فلْيَلْزَمْهُ :

قال الحافظُ ابنُ عبد البَرِّ في « التمهيد » هٰذا كتبتُه من حِفظي ، وغاب عني أصلي : إنَّ عبدَ الله العُمري العابد كتبَ إلىٰ مالك يَحُضُّه على الانفراد والعمل ، فكتبَ

---

(١) انظر السير : (جرير بن عبد الحميد) ٩/ ٩ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٩٥ .
(٢) انظر السير : (ابن نُجيد) ١٦/ ١٤٦ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٧٥ .
(٣) انظر السير : (عدي بن حاتم) ٣/ ١٦٢ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٥٨ .
(٤) انظر السير : (كُرْز) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٣٣ .
(٥) انظر السير : (كُرْز) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٣٣ .

إليه مالكٌ : إنَّ الله قَسَّمَ الأعمالَ كما قَسَّمَ الأرزاقَ ، فرُبَّ رجلٍ فُتحَ له في الصَّلاةِ ، ولم يُفتحْ له في الصَّوم ، وآخرُ فُتحَ له في الصَّدَقة ولم يُفتحْ له في الصَّوم ، وآخرُ فُتحَ له في الجِهَاد فَنَشْرُ العِلمِ من أفضلِ أعمالِ البرّ ، وقد رضيتُ بما فُتحَ لي فيه ، وما أظُنُّ ما أنا فيه بدون ما أنتَ فيه ، وأرجو أن يكونَ كِلانا علىٰ خيرٍ وبِرٍّ[1] .

١٨ـ الاجْتِهادُ في العِبادَةِ إذا شَعرَ الإنْسانُ بدُنُوِّ أجَلِهِ :

رَوَىٰ صالحُ بنُ موسى الطَّلحي عن أبيه ، قال : اجتهدَ أبو موسى الأشعَري قبل موته اجتهاداً شديداً ، فقِيلَ له : لو أمسكتَ ورفقتَ بنفسِك ؟ قال : إنَّ الخَيلَ إذا أُرسِلَت فقارَبَت رأسَ مجراها ، أخرَجَت جميعَ ما عندها ، والذي بَقِيَ من أجلي أقلُّ من ذلك[2] .

١٩ـ صُوَرٌ من عِبادَةِ السَّلَفِ :

وكان سُهَيلُ بن عَمرو بَعدُ كثيرَ الصَّلاة والصَّوم والصَّدقة ، خرجَ بجماعته إلى الشَّام مُجَاهِداً ، ويُقالُ : إنَّه صَامَ وتَهَجَّد حتىٰ شَحَبَ لونُه وتَغَيَّرَ ، وكان كثيرَ البُكاء إذا سمعَ القرآن ، وكان أميراً علىٰ كُردُوسٍ[3] يوم اليَرموك واستُشهِد يوم اليَرموك[4] .

وقال أبو الدَّرداء : إنْ كُنَّا لنَكونُ مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في السفر في اليوم الحارِّ ما في القومِ أحدٌ صائمٌ إلاَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله ابنُ رَواحَة .

وعن ابن أبي ليلىٰ قال : تَزَوَّجَ رجلٌ امرأةَ ابنِ رَواحَة ، فقال لها : تَدرين لِمَ تَزَوجتُك ؟ لتُخبريني عن صَنِيع عبد الله في بيته فذكَرَت له شيئاً لا أحفظُه ، غيرَ أنها قالت : كان إذا أراد أن يخرجَ من بيته ، صَلَّىٰ ركعتين ، وإذا دخلَ صَلَّىٰ ركعتين لا يدعُ ذلك أبداً[5] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٣٧ .
(٢) انظر السير : (أبو موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٨١ .
(٣) الكُردُوس : الطائفة العظيمة من الخيل والجيش ، والجمع كَراديس .
(٤) انظر السير : (سُهيل بن عَمرو) ١/ ١٩٤ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٤٦ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن رواحة) ١/ ٢٣٠ـ ٢٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٣ .

وقِيل لنافع : ما كان يصنعُ ابنُ عُمرَ في منزِله ؟ قال : لا تُطِيقُونَه الوضوءُ لكلِّ صَلاة ، والمُصحَفُ فيما بينهما[1] .

وقال عَمرو بن عبد الرحمٰن بن مُحَيْريز : كان جدِّي عبد الله ابن مُحيريز يَختمُ في كُلِّ جُمُعة ، ورُبَّما فَرَشنا له فلمْ يَنَمْ عليه[2] .

وعن أنس بن عِياض قال : رأيتُ صَفوانَ بنَ سُليم ، ولو قيل له : غداً القيامة ، ما كان عنده مَزيدٌ علىٰ ما هو عليه من العبادة[3] .

رَوىٰ مُثنى بن مُعاذ عن أبيه قال : ما كنتُ أُشَبِّه عبادةَ سُليمان التَيْميّ إلاَّ بعبادةِ الشَّاب أولَ ما يَدخلُ في تلك الشِّدَّة والحِدَّة[4] .

وعن حمَّاد بن سَلمة قال : ما أتينا سُليمان التَيْميّ في ساعةٍ يُطاعُ الله فيها إلاَّ وجدناه مُطِيعاً ، وكنا نَرىٰ أنَّه لا يُحْسِن يَعصي الله[5] .

وعن سُليمان التَيْميّ أنَّه رُبَّما أحْدَثَ الوُضوءَ في الليل من غير نومٍ وذَكَرَ جريرُ بن عبد الحميد أنَّ سُليمانَ التيمي ، لم تمرَّ ساعةٌ قَط عليه إلاَّ تَصَدَّقَ بشيء فإن لم يكنْ شيءٌ صَلَّىٰ ركعتين[6] .

وقال أحمدُ بن إبراهيمَ الدَّورَقيّ : حَدَّثنا الهيثمُ بنُ معاوية عمَّن حَدَّثه قال : كان كَهْمَس يُصَلي في اليوم والليلة ألفَ ركعة ، فإذا ملَّ ، قال : قومي يا مَأوَىٰ كلِّ سوء فوالله ما رضيتُك لله ساعة[7] .

وقال الوليدُ بن مسلم : رأيتُ الأوزاعيَّ يَثبُتُ في مُصَلاه يذكرُ اللهَ حتىٰ تطلُع

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٦٨ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن مُحيريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٣٩ .
(٣) انظر السير : (صفوان بن سليم) ٥/ ٣٦٤ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦١٠ .
(٤) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٤١ .
(٥) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٤١ .
(٦) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٩/ ٦٤١ .
(٧) انظر السير : (كَهْمَس) ٦/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٥٣ .

الشَّمسُ ويُخبِرُنا عن السَّلف : أنَّ ذلكَ كان هَديَهُم فإذا طَلَعت الشَّمسُ قامَ بعضُهم إلىٰ بعضٍ فأفاضوا في ذِكر الله ، والتَفَقُّه في دينه[1] .

وقال الواقديُّ تلميذُ ابنُ أبي ذئب : وكان يُصلي الليلَ أجمَع ويجتهدُ في العبادة ، ولو قيل له إنَّ القيامةَ تقومُ غداً ما كان فيه مَزيدٌ من الاجتهاد[2] .

وقال أبو بَحر البكراوي : ما رأيتُ أحداً أعبَدَ لله من شُعْبَة ، لقد عَبَدَ اللهَ حتىٰ جَفَّ جِلدُه علىٰ عظمه واسْوَدَّ[3] .

وقال أحمدُ بنُ سَلمة النَّيسابُوري الحافظ : كان هَنَّاد بن السَّريّ رحمه الله كثيرَ البُكاء ، فَرَغَ يوماً من القراءة لنا ، فتوضأ ، وجاءَ إلى المسجد فصَلَّىٰ إلى الزَّوال وأنا معه في المسجد ، ثم رجعَ إلىٰ منزلِه ، فتوضأ وجاءَ فصَلَّىٰ بنا الظُّهرَ ، وأخذَ يقرأُ في المُصحف حتىٰ صَلَّى المغرب قال : فقلتُ : لبعضِ جيرانِه : ما أصْبَرَه على العبادة فقالَ : هـٰذه عِبادتُه بالنَّهارِ منذ سَبعين سنة ، فكيف لو رأيتَ عبادَته بالليل ، وما تَزَوَّجَ قَط ، ولا تسرَّىٰ ، وكان يُقال له : راهبُ الكوفة[4] .

ونقلَ بعضُ العلماء من كتابٍ لحفيد بَقِيِّ بن مَخْلَد (عبد الرحمـٰن ابن أحمد) : كان جَدِّي قد قَسَّمَ أيامَه علىٰ أعمال البِّر : فكان إذا صَلَّى الصُّبْح قرأَ حِزْبَه من القرآن في المُصْحَف ، سُدسَ القرآن ، وكان أيضاً يَختمُ القرآنَ في الصَّلاة في كل يوم وليلة ، ويخرجُ كلَّ ليلة في الثُّلثِ الأخيرِ إلى المسجد ، فيختمُ قُربَ انصِدَاعِ الفَجر ، وكان يُصلي بعد حِزْبِه من المُصحف صلاةً طويلةً جداً ثم يَنقَلِبُ إلىٰ دَارِه ـ وقد اجتمعَ في مَسْجِده الطلبةُ ـ فيُجَدِّدُ الوُضُوءَ ، ويخرجُ إليهم ، فإذا انقضت الدُّوَل ، صارَ إلىٰ صَوْمَعَة المسجد ، فيُصلي إلى الظُّهر ، ثم يكونُ المُبتَدِىءَ بالأذان ، ثم يَهبطُ ثم يُسمِع إلى العَصر ، ويُصَلِّي ويُسمِع ، ورُبَّما خرجَ في بقية النهار ، فيَقعُدُ بين القُبُور يبكي

---

(١) انظر السير : (الأوزاعي) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٨١ .
(٢) انظر السير : (ابن أبي ذئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٨٥ .
(٣) انظر السير : (شُعبة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٩٣ .
(٤) انظر السير : (هَنَّاد بن السري) ١١/ ٤٦٥ـ ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٥٩ .

ويَعتَبِر ، فإذا غَربت الشَّمسُ أتىٰ مَسْجِدَه ، ثم يُصَلي ويَرجِعُ إلىٰ بيتِه فيُفطِر ، وكان يَسْرُد الصَّومَ إلاَّ يومَ الجُمُعة ، ويخرجُ إلى المَسْجد ، فيخرجُ إليه جِيرانُه ، فيتكَلَّمُ معهم في دِينِهم ودُنيَاهم ، ثم يُصَلي العِشاء ويدخلُ بيتَه ، فيُحَدِّثُ أهلَه ، ثم ينامُ نَومَةً قد أخَذَتْها نَفسُه ، ثم يقومُ هـٰذا دأبه إلىٰ أن تُوفِّي وكان جَلْداً ، قوياً على المشي[1] .

وجاءَ في ترجمة الجُنَيد :

قال الذهبيُّ : هو ابنُ محمد بن الجُنَيد النَّهاوندي ، ثم البغداديُّ القواريريُّ هو شيخُ الصُّوفية ، وُلِدَ سَنَة نيِّف وعشرين ومئتين ، وتَفَقَّه علىٰ أبي ثَور ، وأتْقَنَ العِلمَ ، ثم أقبلَ علىٰ شأنه ، وتَأَلَّهَ وتَعَبَّد ، ونَطَقَ بالحكمة وقلَّ ما رَوَىٰ .

قال ابنُ المُنادي : سمعَ الكثيرَ وشاهَدَ الصَّالحين ، وأهلَ المعرفة ورُزِقَ الذَّكاءَ وصوابَ الجَواب ، لم يُرَ في زمانه مثلُه في عِفَّةٍ وعُزوفٍ عن الدنيا .

قِيل لي : إنَّه قال مرةً : كنتُ أُفتِي في حَلقة أبي ثور الكلْبيِّ وليَ عشرون سنة .

وعن الجُنَيد : قال ما أخرجَ الله إلى الأرض عِلماً وجعلَ للخَلقِ إليه سبيلاً إلاَّ وقد جَعَلَ لي فيه حظاً[2] .

وقيل إنَّه كان في سُوقِه ووِرْدُه كلَّ يوم ثلاثُ مئة ركعة ، وكذا كذا ألفَ تَسْبيحة[3] .

وقال ابنُ باكُويَه : سمعتُ ابنَ خَفيف يقول : كنتُ في بدايتي رُبَّما أقرأُ في ركعةٍ واحدة عشرةَ آلاف (قل هو الله أحد) ورُبَّما كنتُ أقرأُ في ركعةٍ القرآنَ كُلَّه[4] .

وقال السَّمعاني : إنَّ الإمامَ أبا منصور الخَيَّاط ، صالحٌ ثقةٌ عابدٌ مُلقِّن ، له وِرْدٌ بين العِشاءَين بسُبْعٍ ، وكان صاحبَ كَرَامات[5] .

---

(١) انظر السير : (بَقِيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٧ .
(٢) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ١/١١٣٢ .
(٣) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١٣٢ .
(٤) انظر السير : (ابن خفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٨ .
(٥) انظر السير : (الخَيَّاط) ١٩/ ٢٢٢ـ ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧٣ .

وقال الذهبيُّ في ترجمة عبد الغني المقدسي : كان لا يُضَيِّعُ شيئاً من زمانه بلا فائدة ، فإنَّه كان يُصَلِّي الفجرَ ، ويُلَقِّنُ القرآنَ ، وربما أَقْرَأ شيئاً من الحَديث تلقيناً ، ثم يقومُ فيتوضأُ ويُصَلِّي ثلاثَ مئة ركعة بالفاتحة والمُعوِّذَتين إلىٰ قبل الظهر ، وينامُ نَوْمةً ثم يُصَلِّي الظُهر ويشتغلُ إمَّا بالتَّسْميع أو النَّسْخ إلى المغرب ، فإذا كان صائماً أفطرَ ، وإلاَّ صَلَّىٰ من المغرب إلى العشاء ويُصَلِّي العشاءَ ، وينامُ إلىٰ نصفِ الليل أو بعدَه ، ثم قامَ كأنَّ إنسَاناً يُوقِظهُ ، فيُصَلِّي لحظةً ثم يتوضأ ويصلي إلىٰ قُرب الفجر ، رُبما توضأ سبعَ مرات أو ثمانياً في الليل ، وقال : ما تطيبُ لي الصلاةُ إلاَّ ما دامت أعضائي رطبة ، ثم ينامُ نَومةً يسيرةً إلى الفجر ، وهـٰذا دأبُه .

وعن مُوفق الدين قال : كان الحافظُ عبد الغنيِّ جامعاً للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصِّبا ، وفي طلب العلم ، وما كُنَّا نَسْتَبِقُ إلىٰ خيرٍ إلاَّ سَبَقَني إليه إلاَّ قليلاً ، وكَمَّل الله فضيلته بابتلائه بأذىٰ أهل البدعة وعَدَاوتهم ، ورُزِقَ العلمَ وتحصيلَ الكُتُب الكثيرة إلاَّ أنَّه لم يُعمِّر .

قال الضِّياءُ : وكان يستعملُ السِّوَاكَ كثيراً حتىٰ كأنَّ أسْنانَه البَرَد .

سمعتُ محمودَ بنَ سَلامة التَّاجر الحَرَّانيَّ يقول : كان الحافظُ عبدُ الغنيِّ نازلاً عندي بأصْبَهَان ، وما كان ينامُ من الليل إلاَّ قليلاً ، بل يُصَلي ويَقرأُ ويبكي .

وسمعتُ نصرَ بن رضوان المقرىء يقول : ما رأيتُ أحداً علىٰ سيرة الحافظ ، كان مشتغلاً طول زمانه[1] .

كان الشيخُ أبو عُمر محمد بن قُدامة المقدسي لا يَسمعُ دعاءً إلاَّ ويحفظُه في الغالب ، ويدعُو به ، ولا حَديثاً إلاَّ وعملَ به ، ولا صلاةً إلاَّ صَلاَّها ، وكان يُصلي بالنَّاس في النصف[2] مائة ركعة وهو مُسِن ، ولا يتركُ قيامَ الليل من وقت شُبُوبِيّتِه ، وإذا رافقَ ناساً في السَّفر ناموا وحَرَسَهم يُصلِّي[3] .

---

(١) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٦٤٥ .

(٢) يعني في النصف من شعبان .

(٣) انظر السير : (الشيخ أبو عُمر) ٢٢/ ٥ـ ٩ ، وانظر النزهة : ١٦٦١/ ٢ .

قال الذهبيُّ : كان أبو عُمر بنُ قُدامة قُدوةً صالحاً ، عابداً قانتاً لله ، رَبَّانياً ، خاشعاً مُخلصاً، عَديمَ النَّظير ، كَبيرَ القَدْر ، كثيرَ الأورَاد والذِّكر والمَروءة والفُتُوة والصِّفات الحَميدة ، قَلَّ أنْ تَرى العُيونُ مثلَه .

قيل : كان رُبَّما تَهَجَّدَ، فإن نَعَسَ ضَرَبَ علىٰ رجلَيه بقَضِيبٍ حتىٰ يطيرَ النُّعَاس ، وكان يُكثِرُ الصِّيامَ ، ولا يَكَادُ يَسمعُ بجَنَازَةٍ إلاَّ شَهِدَها ولا مريضٍ إلاَّ عَادَه ، ولا جهادٍ إلاَّ خَرَجَ فيه ، ويتلو كل ليلة سُبعاً مرتلاً في الصلاة ، وفي النهار سُبعاً بين الصلاتين ، وإذا صلى الفجر تلا آياتِ الحرس ويس والواقعة وتبارك ، ثم يُقرِىء ويُلقِّن إلى ارتفاع النهار ، ثم يصلي الضحىٰ ، فيُطيل ويصلي طويلاً بين العِشاءَين ويُصلي صلاةَ التَّسابيح كلَّ ليلةِ جمعة ، ويُصلي يومَ الجمعة ركعتين بمائة (قل هو الله أحد) فقيل : كانت نَوافلُه في كلِّ يومٍ وليلةٍ اثنتين وسبعين ركعة ، وله أذكار طويلة ، ويقرأ بعد العشاء آيات الحرس ، وله أورادٌ عند النَّوم واليَقظة وتَسابيح ، ولا يَترك غُسل الجمعة ، ويَنسخُ « الخِرَقي » من حفظه ، وله مَعرفةٌ بالفِقْه والعَربيّة والفَرائض وكان قاضياً لحَوائج الناس ، ومن سافرَ من الجماعة يتفقَّدُ أهاليهم ، وكان الناسُ يأتونَه في القضايا فيُصلحُ بينهم ، وكان ذا هَيْبَة ووقْعٍ في النُّفوس .

وقال الشيخ الموفق : ربَّانا أخي ، وعلَّمنا ، وحرصَ علينا ، كان للجماعة كالوالد يحرصُ عليهم ويقومُ بمصالحهم ، وهو الذي هاجرَ بنا ، وهو سَفَّرَنا إلىٰ بغداد ، وهو الذي كان يقوم في بناء الدَّير ، وحين رجعنا زَوَّجَنَا وبنىٰ لنا دُوراً خارج الدَّير ، وكان قلَّما يتخلفُ عن غَزَاة .

وكان هو وأصحابُه في خيمة علىٰ حصار القُدس، فزارَه الملك العادلُ فلم يجدْهُ ، فجلسَ ساعةً ، وكان الشيخُ يُصلِّي فذهبوا مرتين فلم يجىء فأحضروا للعادل أقراصاً فأكلَ وقامَ وما جاءَ الشيخُ[1] .

وقال الضياءُ : كان ابنُ قُدامة يُصلي بخُشُوع ولا يَكادُ يُصلي سُنَّة الفجر والعشاءَين

---

(١) انظر السير : (الشيخ أبو عُمر) ٢٢/ ٥ـ٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٦١ .

إلاَّ في بيته ، وكان يُصلي بين العشاءَين أربعاً « بالسَّجدَة » و« يَس » و« الدُّخان » و« تَبَارك » ، لا يكادُ يُخِلُّ بِهِنَّ ويقومُ السَّحرَ بسُبع وربما رفعَ صَوتَه ، وكان حَسَنَ الصَّوت[1] .

٢٠ـ الوُضُوء :

(أ) استعمال قَليلٍ من الماءِ فيه :

قال محمدُ بنُ عبد الله بن عبد الحَكَم : ما رأيتُ أحداً أقلَّ صَبّاً للماء في تمام التَطَهُّر من الشَّافعيّ[2] .

(ب) تَجْديدُ الوُضُوء :

يقول الإمامُ الذهبيُّ : بَلَغَنَا عن أبي القاسم التيميِّ تَعَبُّد وأورادٌ وتَهَجُّد ، فقال أبو موسىٰ : سمعتُ من يحكي عنه في اليومِ الذي قُدِم بولده ميّتاً ، وجلسَ للتعزية أنه جَدَّدَ الوضوءَ في ذلك اليوم مراتٍ نحوَ الثلاثين ، كلُّ ذلك يُصلي ركعتين[3] .

وقال الذهبيُّ في ترجمة عبد الغني المَقْدسي : كان لا يُضَيِّعُ شيئاً من زمانه بلا فائدة ، فإنَّه كان يُصَلِّي الفجرَ ، ويُلَقِّنُ القرآنَ ، وربما أَقْرَأ شيئاً من الحَديث تلقيناً ، ثم يقومُ فيتوضأُ ويُصَلِّي ثلاثَ مئة ركعة بالفاتحة والمُعوِّذَتين إلىٰ قبل الظهر ، وينامُ نَوْمةً ثم يُصَلِّي الظهر ويشتغلُ إمَّا بالتَّسْميع أو النَّسْخ إلى المغرب ، فإذا كان صائماً أفطرَ ، وإلاَّ صَلَّىٰ من المغرب إلى العشاء ويُصَلِّي العشاءَ ، وينامُ إلىٰ نصفِ الليل أو بعدَه ، ثم قامَ كأنَّ إنسَاناً يُوقِظهُ ، فيُصَلِّي لحظةً ثم يتوضأ ويصلي إلىٰ قُرب الفجر ، رُبما توضأ سبعَ مرات أو ثَمانياً في الليل ، وقال : ما تطيبُ لي الصلاةُ إلاَّ ما دامت أعضائي رطبة ، ثم ينامُ نَومةً يسيرةً إلى الفجر ، وهـٰذا دأبُه .

---

(١) انظر السير : (ابن قدامة) ٢٢/ ١٦٥ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٢ .
(٢) انظر السير : (الشافعي) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٥٠ .
(٣) انظر السير : (التيمي) ٢٠/ ٨٠ـ٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٣٢ .

وعن مُوفق الدين قال : كان الحافظُ عبد الغنيِّ جامعاً للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصِّبا ، وفي طلب العلم ، وما كُنَّا نَسْتَبِقُ إلىٰ خيرٍ إلاَّ سَبَقَني إليه إلاَّ قليلاً ، وكَمَّل الله فضيلته بابتلائه بأذىٰ أهل البدعة وعَدَاوتهم ، ورُزِقَ العلمَ وتحصيلَ الكُتُب الكثيرة إلاَّ أنَّه لم يُعمِّر .

قال الضِّياءُ : وكان يستعملُ السِّوَاكَ كثيراً حتىٰ كأنَّ أسْنانَه البَرَد

سمعتُ محمودَ بنَ سَلامة التَّاجر الحَرَّانيَّ يقول : كان الحافظُ عبدُ الغنيِّ نازلاً عندي بأصْبَهَان ، وما كان ينامُ من الليل إلاَّ قليلاً ، بل يُصَلي ويَقرأُ ويبكي

وسمعتُ نصرَ بن رضوان المقرىء يقول : ما رأيتُ أحداً علىٰ سيرة الحافظ ، كان مشتغلاً طول زمانه[1] .

٢١ـ الصَّلاة

(أ) الصَّلاة رُكنُ الدِّين :

قال المسْوَر بنُ مَخْرَمة : لمَّا أصبحَ عُمرُ من الغد ـ وهو مَطعون ـ فَزّعوه فقالوا : الصَّلاة ، ففَزِعَ وقال : نعم ولا حَظَّ في الإسلام لمَنْ تَركَ الصَّلاة ، فصَلَّىٰ وجُرحُه يَثعُبُ دَماً[2] .

(ب) صُور من الحِرْص علىٰ صلاة الجَماعة :

عن ابنِ المُسَيِّب قال : ما فاتَتْني الصَّلاةُ في جماعة منذُ أربعين سنة[3] .

وعن عثمان بن حكيم ، سمعتُ سعيدَ ابنَ المُسَيِّب يقول : ما أَذَّنَ المُؤذِّنُ منذ ثلاثين سَنَةً إلاَّ وأنا في المسجد[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الغنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٦٤٥ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/ ٥٦ .
(٣) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٨٢ .
(٤) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٨٢ .

وعن ابنِ شِهاب ، قلتُ لسعيدِ بنِ المسَيِّب : لو تَبَدَّيْتَ ، وذَكَرتُ له البادية وعيشها والغنم ، فقال : كيف بشُهُود العَتَمَةِ[1] .

وعن ابن حرملة ، عن سعيد بنِ المُسَيِّب أنَّه اشتكىٰ عَينَه فقالوا : لو خرجتَ إلى العقيق فنظَرتَ إلى الخُضْرة ، لوجدتَ لذلك خِفَّةً قال : فكيفَ أصنعُ بشُهُود العَتَمَة والصُّبح[2] .

وعن أبي حَيَّانَ ، عن أبيه ، قال : كان الربيعُ بنُ خثيم يُقَادُ إلى الصَّلاةِ وبه الفَالِجُ ، فقيلَ له : قد رُخِّصَ لك قال : إنِّي أسمعُ « حيّ على الصَّلاة » فإن استطعتُم أن تأتُوها ولو حَبْواً[3] .

وقال إبراهيمُ بن يزيد : إذا رأيتَ الرَّجُلَ يَتهَاونُ في التَّكبيرَةِ الأُولىٰ فاغسِل يَدَكَ منه[4] .

وقال مُصْعَبُ : سَمعَ عامرُ بنُ عبد الله المُؤَذِّنَ ، وهو يَجُودُ بنفسِه ، فقال : خُذوا بِيَدي فقيل : إنَّكَ عَليل قال : أسمعُ داعي الله فلا أُجِيبُهُ ، فأَخَذُوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب فرَكَعَ ركعةً ثم مات[5] .

وقال يَحيى القَطَّان : الأعمشُ عَلاَّمَةُ الإسلام ، قال وكيعُ بنُ الجَرَّاح : كان الأعمش قريباً من سبعين سنة ، لم تَفُتْهُ التَّكبِيرَةُ الأُولىٰ[6] .

وقال محمدُ بنُ المبارك الصُّوري : كان سعيدُ بن عبد العزيز إذا فاتته صلاة الجماعة بكىٰ[7] .

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٨٣ .
(٢) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٨٨ .
(٣) انظر السير : (الربيع بن خثيم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٩٣ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم بن يزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٨٠ .
(٥) انظر السير : (عامر) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٩٦ .
(٦) انظر السير : (الأعمش) ٦/ ٢٢٦ـ ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٤٤ .
(٧) انظر السير : (سعيد بن عبد العزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٢٣ .

وقال غَسَّانُ : حَدَّثني ابنُ أخي بِشْر بن منصور قال : ما رأيتُ عَمِّي فاتَتْهُ التَّكبِيرةُ الأُولىٰ[1] .

قال عبدُ الرَّحمٰن رُستَه : سألتُ ابن مهديٍّ عن الرَّجُل يَبني بأهله ، أَيَتْرُكُ الجَمَاعةَ أيَّاماً ؟ قال : لا ، ولا صلاةً واحدةً وحَضَرتُه صَبيحَةَ بُنِيَ على ابنتِه ، فخرجَ ، فأَذَّنَ ، ثم مَشَىٰ إلىٰ بابِهما ، فقال للجارية : قُولي لهُما : يَخرُجان إلى الصَّلاة ، فخَرَجَ النِّساءُ والجَوَاري ، فقُلن : سُبحانَ الله!! أيُّ شيء هٰذا ؟ فقال : لا أبْرَحُ حتىٰ يَخرُجا إلى الصَّلاة ، فخَرَجا بَعدَما صَلَّىٰ ، فبَعَثَ بهِما إلىٰ مَسجد خارج من الدَّرْب .

قال الذهبيُّ : هكَذا كان السَّلفُ في الحِرصِ على الخَيْرِ .

وقال بُنْدَار : سمعتُ عبدَ الرحمٰن بن مهدي يقول : ما نعرفُ كتاباً في الإسلام بعدَ كتابِ الله أَصَحَّ من « مُوطَّأ مالك »[2] .

ويُقال: كان المُزَنيُّ إذا فاتَته صلاةُ الجماعة صَلَّىٰ تلك الصَّلاةَ خمساً وعشرين مرة[3] .

ورُوي عن ابن خفيف أنَّه كان به وَجَعُ الخاصِرة، فكان إذا أصابَه أقعَدَه عن الحَرَكة، فكان إذا نُودي بالصلاة يُحملُ علىٰ ظهر رجل ، فقيل له : لو خَفَّفتَ علىٰ نفسك ؟ قال : إذا سَمعتُم حيّ على الصَّلاة ولم تَرَوْني في الصَّف فاطلُبُوني في المَقبَرة[4] .

(ج) رؤيا فيها حثٌّ علىٰ صلاة الجماعة :

قال البغويُّ : سَمعتُ عُبَيدَ الله القواريري يقول : لم تكنْ تَفُوتُني صلاةُ العَتَمَة في جماعة فنزل بي ضيفٌ ، فشُغلتُ به فخرجتُ أطلبُ الصَّلاةَ في قبائلِ البَصْرَة ، فإذا

---

(١) انظر السير : (بِشْر بن منصور) ٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٦٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن مهدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨١٨ .
(٣) انظر السير : (المزني) ١٢/ ٤٨٩ـ ٤٩١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٢٤ .
(٤) انظر السير : (ابن خفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٩٨ .

النَّاسُ قد صَلُّوا فقلتُ في نفسي يُروَىٰ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاةُ الجَميع تَفْضُلُ صَلاةَ الفَذِّ إحْدَىٰ وعشرين دَرَجَةً » ، ورُوِيَ « خَمْسَاً وعشرين دَرَجَةً » ، ورُوِيَ « سَبْعَاً وعشرين » فانقلبتُ إلىٰ مَنزِلي ، فصَلَّيْتُ العَتَمَةَ سَبْعَاً وعشرين مرةً ، ثم رقدتُ فرأيتُني مع قومٍ راكبي أفراسٍ ، وأنا راكبٌ ونحن نَتَجَارىٰ وأفراسُهم تَسْبقُ فَرَسي ، فجعلتُ أضربُه لألحَقَهُم ، فالتَفَتَ إليَّ آخرُهم فقال : لا تُجْهِد فَرَسَك فلسْتَ بلاحِقِنا قال : فقلتُ : ولِمَ ؟ قال : لأنَّا صَلَّينَا العَتَمَةَ في جماعة[1] .

(د) الخُشُوع في الصَّلاة :

قال مُجاهِد : كان عبدُ الله بن الزُّبير إذا قامَ إلى الصَّلاةِ كأنَّه عُود ، وحَدَّثَ أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه كان كذلك[2] .

وعن عَمرو ابنِ دينار قال : كان ابنُ الزُّبير يَصَلِّي في الحِجْر والمِنْجَنيقُ يَصُبُّ تُوبَه[3] . فما يَلتفتُ ، يَعني : لمَّا حاصَرُوه[4] .

وعن أبي الحُسَين المجاشعي ، قال لعامر بن عبد قيس : أتُحَدِّثُ نفسَكَ في الصَّلاة ؟! قال : أُحَدِّثُها بالوُقوفِ بين يدي الله ، ومُنصَرَفي[5] .

وقال زُبيدُ : رأيتُ زاذانَ يُصلِّي كأنَّه جِذْع[6] .

وعَن أبي نُوحٍ الأَنصَاري قال : وَقَعَ حريقٌ في بيتٍ فيه عليٌّ ابنُ الحُسَين وهو ساجِدٌ ، فجَعَلوا يَقُولون : يا ابنَ رسولِ الله النَّار فما رَفَعَ رأسَه حتىٰ طُفِئَت فقيل له في ذلك فقال : ألهَتني عنهَا النَّارُ الأُخرىٰ[7] .

---

(١) انظر السير : (القواريري) ١١/ ٤٤٢ـ٤٤٦ ، وانظر النزهة : ١/٩٥٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن الزُّبير) ٣/ ٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/٣٩٥ .
(٣) التُوب : حجر المنجنيق .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن الزُّبير) ٣/ ٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٣٩٥ .
(٥) انظر السير : (عامر بن قيس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٤/٤٣٣ .
(٦) انظر السير : (زاذان) ٤/ ٢٨٠ـ ٢٨١ ، وانظر النزهة : ٣/٤٩٨ .
(٧) انظر السير : (عليّ بن الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٥١٨ .

وعن عبد الله بنِ أبي سُليمان قال : كان عليُّ بنُ الحُسَين إذا مشىٰ لا تُجَاوِزُ يَدُه فَخذَيه ولا يَخطرُ بهما ، وإذا قامَ إلى الصَّلاة ، أخَذَته رِعدَة ، فقِيل له ، فقال : تدرون بين يَدَي مَنْ أقومُ ومَنْ أُناجِي ؟

وعنه أنَّه كانَ إذا تَوضَأَ اصفرَّ[1] .

عن عبدِ الله بن مسلم بن يَسَار : أنَّ أبَاه كان إذا صَلَّىٰ كأنَّه وَدٌّ[2] لا يميلُ لا هٰكذا ولا هٰكذا[3] .

وقال غَيلانُ بنُ جَرير : كان مسلمُ بنُ يَسَار إذا صلىٰ كأنَّه ثوبٌ مُلْقَىٰ ، وقال ابنُ شَوذب : كان مسلم بن يَسَار يقولُ لأهله إذا دخلَ في الصَّلاة : تَحَدَّثوا فلسْتُ أسمعُ حَديثَكم[4] .

ورُويَ أنَّه وقع حَريقٌ في دارِه وأُطفِىءَ ، فلمَّا ذُكِرَ ذلكَ لهُ قالَ : ما شَعَرتُ[5] .

وقال الأعمشُ : كان إبراهيمُ التيمي إذا سَجَدَ كأنَّه جِذْمُ حائطٍ يَنزلُ عن ظهرِه العصافير[6] .

وقال زيادُ بنُ أَيُّوب : حَدَّثَنا أبو بكر قال : كان عاصمُ بنُ أبي النُّجود إذا صَلَّىٰ يَنتَصِبُ كأنَّه عُود ، وكان يكونُ يومَ الجُمُعَة في المسجد إلى العصر ، وكان عَابداً خَيِّراً يُصَلِّي أَبَداً ، رُبَّما أتىٰ حاجةً ، فإذا رَأىٰ مسجداً قال : مِلْ بنا ، فإنَّ حَاجَتَنا لا تَفوتُ ، ثم يدخلُ فيُصَلِّي[7] .

---

(١) انظر السير : (عليّ بن الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥١٨ .
(٢) الوَدّ : الوتد .
(٣) انظر السير : (مسلم بن يَسَار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٤٧ .
(٤) انظر السير : (مسلم بن يَسَار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٤٧ .
(٥) انظر السير : (مسلم بن يَسَار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٤٧ .
(٦) انظر السير : (إبراهيم بن يزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٨٠ .
(٧) انظر السير : (عاصم بن أبي النُّجود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٩٩ .

عن الوليدِ بن مَزْيَد : سُئلَ الأوْزَاعيُّ عن الخُشُوعِ في الصَّلاة قال : غَضُّ البَصَر ، وخَفْضُ الجَنَاح ، ولِينُ القَلبِ ، وهو الحَزَن ، والخَوف[1] .

وقال أحمدُ بنُ سِنان : رأيتُ وكيعاً إذا قامَ في الصَّلاة ليسَ يَتَحَرَّكُ منه شيءٌ ، لا يَزولُ ولا يَميلُ علىٰ رجلٍ دون الأخرىٰ[2] .

وقال أحمدُ بنُ سِنان : ما رأيتُ عالِماً قَطُّ أَحْسَنَ صَلاةً من يَزيد ابن هارون ، يقومُ كأنَّه أُسطوانة[3] .

وبَلغَ من زُهد يَعقُوبَ الحَضْرميّ أنَّه سُرِقَ رداؤُه عن كتفِه وهو في الصَّلاة ، ولم يَشْعُر ، ورُدَّ إليه ، فلم يَشْعُر ، لشُغله بعبادة ربِّه ، وبَلَغَ من جاهِه بالبَصْرَة أنَّه كان يَحبِسُ ويُطلِق ، مات يعقوبُ سنةَ خمس ومئتين[4] .

وقال محمد بن أبي حاتم : دُعي محمدُ بنُ إسماعيل إلىٰ بُستَان بعضِ أصحابِه ، فلمَّا صَلَّىٰ بالقومِ الظُّهرَ ، قامَ يَتَطوَّعُ ، فلمَّا فَرَغَ من صلاته ، رَفَعَ ذَيلَ قميصِه ، فقال لبعضِ مَنْ معه : انظر هل ترىٰ تحت قميصي شيئاً ؟ فإن زنبوراً قد أَبَرَهُ في ستة عشر أو سبع عشر موضعاً ، وقد تورَّم من ذلك جسدُه فقال له بعضُ القوم : كيف لَم تخرج من الصَّلاة أوَّلَ ما أَبَرَك ؟ قال : كنتُ في سورةٍ ، فأحبَبْتُ أن أُتِمَّها ! ![5] .

قال أبو بكر الصِّبغي : أدركتُ إمامَين لمْ أُرزَق السَّماعَ منهما : أبو حاتم الرَّازي ، ومحمد بن نصر المَرْوزي ، فأمَّا ابنُ نصر فما رأيتُ أَحْسَنَ صَلاةً منه ، لقد بَلغَني أن زُنبُوراً قَعَدَ علىٰ جَبهتِه فسالَ الدَّمُ علىٰ وجهه ، ولم يتحَرَّك[6] .

---

(١) انظر السير : (الأوزاعي) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٨٢ .
(٢) انظر السير : (وكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٨/ ٨١١ .
(٣) انظر السير : (يزيد بن هارون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٣٠ .
(٤) انظر السير : (يعقوب الحضرمي) ١٠/ ١٦٩ـ ١٧٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٦٣ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠١٦ .
(٦) انظر السير : (محمد بن نصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٢٦ .

وقال محمدُ بنُ يَعقُوب بن الأخْرَم : ما رَأيتُ أحسَنَ صَلاةً من محمد بنِ نصر كان الذُّبابُ يقعُ علىٰ أُذُنِه ، فيَسِيلُ الدَّمُ ، ولا يَذُبُّه عن نفسه ، ولقد كُنَّا نتَعَجَّبُ من حُسن صَلاتِه وخُشُوعه وهَيْئَتِهِ للصَّلاة ، كان يضعُ ذَقنَه علىٰ صَدره فيَنْتَصِبُ كأنَّه خَشَبَةٌ مَنْصُوبة قال : وكان مِن أحسَن النَّاس خَلْقاً ، كأنَّما فُقِيءَ في وجهه حَبُّ الرُّمان ، وعلىٰ خَدَّيه كالوَرد ، ولِحيَتُه بيضاء[1] .

(هـ) التَّهَجُّد :

١ـ قولٌ جميلٌ في فائدة التَهَجُّد :

قال مروانُ الطَّاطَرِي : قال الأوزاعِيُّ : مَنْ أَطالَ قيامَ اللّيل ، هوَّنَ الله عليه وقوفَ يوم القيامة[2] .

٢ـ رؤىٰ فيها حثٌّ على التَهَجُّد :

وقال جعفرُ بنُ سُليمان الضُّبعي : حَدَّثنا هشامُ بنُ زِياد أخو العَلاء ابن زياد ، أنَّ العَلاء كان يُحْيي ليلةَ الجُمُعة ، فنامَ ليلةَ جُمُعةٍ ، فأتاه مَن أَخَذَ بناصِيته ، فقال : قُم يا ابنَ زِياد ، فاذكُر الله يَذْكُرْكَ فقامَ ، فما زالت تلكَ الشَّعراتُ التي أَخَذَها منه قائمةً حتىٰ مات[3] .

قال إبراهيمُ الحَربي : حَدَّثنا داودُ بنُ رشيد قال : قمتُ ليلةً أُصَلّي ، فأخَذَني البَردُ لِمَا أنا فيه من العُريّ ، فأخَذَني النَّومُ ، فرأيتُ كأنَّ قائلاً يقولُ : يا داود ، أنَمْناهم وأقَمْناكَ فتبكي علينا ؟ قال الحَربيُّ : فأظُنُّ داودَ ما نامَ بعدها ، يَعنِي : ما تركَ تَهَجُّد الليل[4] .

وقال الخلديّ : رأيتُ أحمدَ بنَ محمد النُّوري الزَّاهد في النَّوم ، فقلتُ :

---

(١) انظر السير : (محمد بن نصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٦ .
(٢) انظر السير : (الأوزاعيّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٤/٦٨٣ .
(٣) انظر السير : (العلاء بن زياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/٤٧٨ .
(٤) انظر السير : (داود بن رشيد) ١/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٩١٦ .

ما فعلَ الله بك ؟ فقال : طاحَت تلكَ الإشارات وغابَت تلكَ العِبَارات ، وفَنِيَت تلكَ العُلوم ، ونَفِدَت تلكَ الرُّسُوم ، وما نَفَعَنا إلاَّ رَكَعاتٌ كُنَّا نَركَعُها في الأَسحار[1] .

٣ـ الحَثُّ على التَّهَجُّد :

وقال إبراهيمُ بنُ محمد بن سُفيان : سمعتُ عاصمَ بنَ عصام البَيْهَقي يقولُ : بتُّ ليلةً عند أحمد بنِ حنبل ، فجاءَ بماءٍ فَوَضَعَه ، فلمَّا أصبحَ نَظَرَ إلى الماءِ بحالِه ، فقال : سُبحانَ الله!! رجلٌ يَطلُبُ العِلمَ لا يكونُ له وردٌ بالليل[2] .

٤ـ صورٌ من التَّهَجُّد :

وعن عَون بن عبد الله ، عن أخيه عُبَيد الله قال : كان عبدُ الله ابن مَسْعود إذا هَدَأت العُيون قامَ فسَمِعتُ له دوياً كَدَوِيِّ النحل[3] .

وعن عبَّاسٍ الجُرَيريِّ ، سمعتُ أبا عُثمان النَّهدي قال : تَضَيَّفتُ أبا هريرةَ سبعاً ، فكان هو وامرأتُه وخادمُه يَعْتَقِبُون الليلَ أثْلاثاً ، يُصَلي هـٰذا ، ثم يُوقِظُ هـٰذا ، ويُصَلي هـٰذا ثم يُوقِظُ هـٰذا[4] .

وكان أبو بَرْزَة الأَسْلميّ يقومُ إلىٰ صلاة الليل ، فيتوضأ ، ويوقظُ أهلَه رضي الله عنه ، وكان يقرأُ بالستِّين إلى المئة[5] .

عن عُمر بن محمد بن زيد ، أخبرنا أبي أنَّ عبدَ الله بن عُمر كان له مِهْراسٌ[6] فيه ماءٌ فيصلي فيه ما قُدِّر له ، ثم يصير إلى الفِراش ، فيُغفي إغْفاءة الطائر ، ثم يقوم فيتَوضَّأ ويُصلي ، يفعلُ ذلك في الليل أربع مرات أو خمسة[7] .

---

(١) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٥ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٥ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٥٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٩٧ .
(٤) انظر السير : (أبو هريرة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٤/٣١١ .
(٥) انظر السير : (أبو برزة الأسلمي) ٣/ ٤٠ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/٣٢٨ .
(٦) المهراس : صخرة منقورة تسع الكثير من الماء ، وقد يُعمل منها حياض للماء .
(٧) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٦٨ .

وعن ابن أبي مُلَيْكَة : صَحِبتُ ابنَ عَبَّاسٍ من مكةَ إلى المدينةِ ، فكان يُصَلّي ركعتين ، فإذا نَزَلَ ، قامَ شَطرَ اللّيلِ ، ويُرَتِّلُ القرآنَ حَرفاً حَرفاً ، ويُكثرُ في ذلك من النَّشِيجِ والنَّحِيب[1] .

وعن أصبغ بن زيد قال : كان أُوَيْسُ القَرنيّ إذا أمسَىٰ يقول : هـٰذه ليلةُ الرُّكوع ، فيَركعُ حتىٰ يُصْبِح ، وإذا أمسَىٰ يقول : هـٰذه ليلةُ السُّجُود ، فيَسْجُدُ حتىٰ يُصْبِح ، وكان إذا أمسىٰ تَصَدَّقَ بما في بيته من الفَضْل من الطَّعَام والشَّرَاب ، ثم قال : اللَّهُمَّ مَن ماتَ جُوعاً فلا تُؤاخِذْني به ، ومَن ماتَ عُرْياً فلا تُؤاخِذْني به[2] .

ورَوَى الوليدُ بنُ عليٍّ عن أبيه قال : كان سُوَيدُ بنُ غَفَلة يَؤمُّنا في شهر رمضان في القيام ، وقد أتىٰ عليه عِشرون ومائة سنة[3] .

قال الذهبيُّ : بَلغَنا عن مُرَّة الطيب أنَّه سَجَدَ حتىٰ أكلَ التُّرَابُ جَبهَتَه[4] .

وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة : سَمعتُ عَطاءَ بنَ السَّائِب يقولُ : رأيتُ مُصَلَّىٰ مُرَّةَ الهمذانيّ مثل مَبرِك البَعير ، ونقل عَطاءٌ أو غَيرُه أنَّ مُرَّةَ كان يُصَلي في اليوم والليلة سِتَّ مئة قال الذهبيُّ : ما كان هـٰذا الوَلِيُّ يَكادُ يَتفرَّغُ لنَشْرِ العِلم ، ولهـٰذا لم تَكثُر رِوايتُه ، وهل يُرادُ من العِلم إلاَّ ثَمَرَتُه[5] .

وقال أبو الأشْهب : كان أبو رَجاء العَطارديّ يَخْتمُ بنا في قيامٍ لكل عشرة أيام[6] .

وعن عبد الله بنِ محمد بن عقيل قال : كنتُ أنا وأبو جعفر الباقر نختلفُ إلىٰ جابر نكتبُ عنه في ألواح ، وبلغَنا أنَّ أبا جعفر كان يُصَلي في اليوم والليلة مئة وخمسين ركعة[7] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عباس البحر) ٣/ ٣٣١ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٩١ .
(٢) انظر السير : (أُويس القَرني) ٤/ ١٩ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٥/٤٣٥ .
(٣) انظر السير : (سُويد بن غَفَلة) ٤/ ٦٩ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٧ .
(٤) انظر السير : (مُرَّة الهمذاني) ٤/ ٧٤ـ ٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/٤٤٧ .
(٥) انظر السير : (مُرَّة الهمذاني) ٤/ ٧٤ـ ٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٤٤٧ .
(٦) انظر السير : (أبو رجاء العطاردي) ٤/ ٢٥٣ـ ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٩٢ .
(٧) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ١/٥٢٢ .

وقال الذهبيُّ : بَلغَنا أنَّ مُعاذةَ بنتَ عبد الله زوجة السَّيد القُدوة صِلَةَ بن أشيم تُحيي الليلَ عِبادةً ، وتقولُ : عجبتُ لعينٍ تنامُ وقد عَلمَتْ طُولَ الرُّقادِ في ظُلَم القُبور[1] .

وقال ابنُ شُبْرُمَةَ : كان زُبيدُ بنُ الحارث يُجَزِّىءُ اللّيلَ ثلاثةَ أجزاء : جزءاً عليه ، وجزءاً على ابنِه ، وجزءاً على ابنه الآخَر عبدِ الرَّحمٰن فكان يُصَلّي ، ثم يقولُ لأحدِهما : قُم ، فإن تَكاسَلَ صَلّىٰ جُزءَه ، ثم يقولُ للآخَر : قُم ، فإن تَكاسَلَ أيضاً صَلّىٰ جُزءَه ، فيُصَلّي اللّيلَ كُلَّه[2] .

وعن مالك بنِ أنس قال : كان صَفوانُ بنُ سُليم يُصَلّي في الشِّتاءِ في السطح وفي الصَّيْف في بَطنِ البَيْت ، يَتَيَقَّظُ بالحَرِّ والبَرد ، حتىٰ يُصبِح ، ثم يقول : هٰذا الجَهْدُ من صفوان وأنتَ أعلمُ ، وإنَّه لَتَرِمُ رِجْلاه حتىٰ يعودَ كالسِّقْطِ من قيام اللّيل ، ويظهَرُ فيه عروقٌ خُضر[3] .

وقالت بنتٌ لجار مَنصور بنُ المعتمِر : يا أبتِ أين الخشبةُ التي كانت في سطح منصور قائمة ؟ قال : يا بنية ذاك منصورُ ، كان يقومُ الليلَ[4] .

وعن سلام قال : كان أيوبُ السَّختِيَاني يقومُ الليلَ كُلَّه فيُخْفِي ذلك ، فإذا كان عند الصُّبحِ رَفَعَ صَوتَه كأنَّه قامَ تلك السَّاعة[5] .

وقال ابنُ سَعْد : كان سُليمانُ بنُ طرخان من العُبَّاد المجتهدين ، كثيرَ الحديث ، ثقةٌ يُصَلّي اللّيلَ كُلَّه بوضوءِ عِشاء الآخرة ، وكان هو وابنُه يَدُوران باللّيل في المسَاجِد فيُصَليان في هٰذا المسجِدِ مرةً وفي هٰذا المسجِد مرة حتىٰ يُصبِحا[6] .

عن القاضي أبي يوسُف قال : بينما أنا أمشي مع أبي حَنيفة ، إذ سَمعتُ رجُلاً يقولُ

---

(١) انظر السير : (مُعاذة) ٤/٥٠٨ـ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/٥٤٦ .
(٢) انظر السير : (زُبيد بن الحارث) ٥/٢٩٦ـ٢٩٨ ، وانظر النزهة : ٧/٦٠٤ .
(٣) انظر السير : (صفوان بن سُليم) ٥/٣٦٤ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٦١٠ .
(٤) انظر السير : (منصور بن المعتمر) ٥/٤٠٢ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦١٧ .
(٥) انظر السير : (أيوب السَّختياني) ٦/١٥ـ٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٦ .
(٦) انظر السير : (سُليمان بن طرخان) ٦/١٩٥ـ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٨/٦٤٠ .

لآخَر : هـٰذا أبو حَنيفة لا ينام الليل فقال أبو حَنيفة : والله لا يُتَحدَّثُ عنِّي بما لمْ أفعل فكان يُحيي الليلَ صَلاةً وتَضرُّعاً ودُعاءً[1] .

وكان الحسنُ بنُ صالح من أئمة الاجتهاد ، وقد قال وكيعٌ : كان الحسنُ بنُ صالح وأخوه وأمُّهُما قد جَزَّؤوا الليلَ ثلاثةَ أجزاء ، فكلُّ واحدٍ يقومُ ثلثاً ، فماتت أمُّهُما ، فاقتسما الليلَ ، ثم مات عليٌّ ، فقام الحسنُ الليلَ كلَّه[2] .

وقال إسحاقُ السَّلولي : حَدَّثتني أمُّ سَعيدٍ ، قالت : كان بَيْننا وبين داودَ الطَّائي جِدَارٌ قصير ، فكنتُ أسمعُ حَنينَهُ عامَّة اللّيل ، لا يَهدأ ، ورُبَّمَا تَرَنَّم في السَّحَر بالقرآنِ ، فأرَىٰ أنَّ جميعَ النَّعيم قد جُمعَ في تَرَنُّمِه ، وكان لا يسرج عليه[3] .

وعن الوليدِ بنِ مسلم قال : كان سعيدُ بنُ عبد العزيز يُحْيي الليلَ ، فإذا طلعَ الفَجرُ ، جَدَّدَ وضُوءَه وخَرَجَ إلى المَسْجِد[4] .

قال عُبيسُ بنُ مَيمون العطَّار ، حَدَّثتني عَبدة بنتُ أبي شَوَّال ، وكانت تَخدمُ رابعةَ العَدَويّة ، قالت : كانت رابعةُ تُصَلّي اللّيلَ كُلَّه ، فإذا طَلَعَ الفَجرُ ، هَجَعَت هَجعَةً حتىٰ يُسْفِرِ الفَجرُ ، فكنتُ أسمعُها تقول : يا نفسُ كم تَنامين ؟ ، وإلىٰ كم تَقومين ؟ ، يوشِكُ أنْ تَنامي نومةً لا تقومين منها إلاَّ ليومِ النُّشُور[5] .

وعن إسحاقَ بن إبراهيمَ الطَّبَريّ قال : ما رأيتُ أحداً أخْوَفَ علىٰ نفسِه ، ولا أرْجَىٰ للنَّاس من الفُضَيْل كانت قراءتُه حَزينَة ، شَهيَّةً ، بَطيئة ، مُتَرَسِّلة ، كأنَّه يُخَاطِبُ إنسَاناً ، وكان إذا مَرَّ بآيةٍ فيها ذِكرُ الجَنَّة يُرَدِّدُ فيها ، وسَأل ، وكانت صَلاتُه بالليل أكثر ذلك قاعداً ، يُلقىٰ له الحصيرُ في مسجده فيُصَلي من أول الليل ساعةً ، ثم تَغلِبُه عينُه فيُلقي نفسَه على الحصير ، فينامُ قليلاً ، ثم يقومُ ، فإذا غَلبَه النَّومُ نَامَ ، ثم

---

(١) انظر السير : (أبو حنيفة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٧/٦٦٢ .
(٢) انظر السير : (الحسن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/٧٠٣ .
(٣) انظر السير : (داود الطّائي) ٧/ ٤٢٢ـ ٤٢٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧١٢ .
(٤) انظر السير : (سعيد بن عبد العزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ٧/٧٢٣ .
(٥) انظر السير : (رابعة العدوية) ٨/ ٢٤١ـ ٢٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٧ .

يقوم هـٰكذا حتىٰ يُصْبِح ، وكان دأبُهُ إذا نَعَسَ أن يَنَامَ ويُقالُ : أَشَدُّ العِبادةِ ما كان هـٰكذا[1] .

وعن أبي عبد الله النَّخَعِي قال : لم يُفْرَش لأبي بكر بن عيَّاش فراشٌ خمسين سنة[2] .

وعن عاصمِ بنِ عليٍّ قال : كنتُ أنا ويزيدُ بنُ هارون عند قَيس ابنِ الرَّبيع ، فأمَّا يزيدُ فكان إذا صَلَّى العَتَمَةَ ، لا يزالُ قائماً حتىٰ يُصَلي الغَدَاةَ بذلك الوُضوء ، نَيِّفاً وأربعين سنة[3] .

وعن محمد بنِ إسماعيل ، حَدَّثني حُسَين الكَرَابيسي ، قال : بتُّ مع الشَّافعيِّ ليلةً ، فكان يُصَلي نَحوَ ثُلُثِ الليلَ ، فما رَأيتُه يزيدُ علىٰ خَمسين آية ، فإذا أكثرَ فمئة ، وكان لا يَمُرُّ بآيةِ رحمةٍ إلاَّ سألَ الله ، ولا آيةِ عذابٍ إلاَّ تَعَوَّذَ ، وكأنَّما جُمعَ له الرَّجاءُ والرَّهبةُ جميعاً[4] .

وقال المروذيّ : رأيتُ أبا عبد الله أحمدَ بنَ حَنْبل يقومُ لوِرْدِه قريباً من نصف الليل حتىٰ يُقَارِب السَّحَر ، ورأيتُه يركعُ فيما بين المغرب والعشاء[5] .

وقال محمدُ بنُ يَحْيى بن مَندة : لم يُحَدِّثْ بِبَلَدِنا منذُ أربعينَ سنة أوثقُ من أحمد بن مَهديّ ، صَنَّفَ « المُسند » ولم يُعرَف له فِراشٌ منذ أربعين سنة ، صاحبُ عِبادةٍ رحمه الله[6] .

وقال الرازيُّ : سَمعتُ الواعظَ أبا عبد الله القَزْويني يقولُ : إذا صَلَّيتَ مع عبد الرحمـٰن بنِ أبي حاتم فَسَلِّم إليه نَفْسَك ، يَعملُ بها ما شاء دخلنا يوماً بغَلسٍ علىٰ

---

(١) انظر السير : (الفُضيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٧/٧٧٤ .
(٢) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٨٦ .
(٣) انظر السير : (يزيد بن هارون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/٨٢٩ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/٨٤٨ .
(٥) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٠ .
(٦) انظر السير : (أحمد بن مَهديّ) ١٢/ ٥٩٧ـ ٥٩٨ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٨ .

عبد الرحمٰن في مرض موته ، فكان على الفِراش قائماً يُصلي ، ورَكَعَ فأطالَ الرُّكوع[1] .

قال الحاكمُ : سَمعتُ عبدَ الله ولدَ عليَّ بن حَمْشاد يقولُ : ما أعلمُ أنَّ أبي تَرَكَ قِيامَ الليل[2] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ محمدَ بنَ حَمْدون يقول : صَحِبتُ أبا بكر ابن إسْحاق الصِّبْغي سنين ، فما رَأيتُه قَطُّ تَرَكَ قِيَامَ الليل لا في سَفَرٍ ولا في حَضَر[3] .

وقال أبو بكر الخَطِيب : كان وِردُ ابن الباقِلاّني في كل ليلة عشرين تَرويحَةً في الحَضَر والسَّفَر ، فإذا فَرَغَ منها كَتَبَ خَمساً وثلاثين ورقة من تصنيفه[4] .

٥ـ ترديدُ آيةٍ أو آياتٍ في التَّهَجُّد حتى الصُّبح أو قريباً منه :

عن مَسروق قال : قال لي رجلٌ من أهل مكة : هٰذا مَقَامُ أخيكَ تَميم الدَّاريّ : صَلىٰ ليلةً حتىٰ أَصْبَحَ أو كاد ، يقرأُ آيةً يُرَدِّدُها ، ويَبْكي : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[5] ، [6] .

وقال حمَّادُ بنُ سَلَمَة : قرأ ثابتُ بنُ أسْلَم : ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[7] ، وهو يُصَلي صَلاة الليل يَنْتَحبُ ويُرَدِّدُها[8] .

وعن القاسم بن معن : أنَّ أبا حَنيفة قامَ ليلةً يُرَدِّدُ قولَه تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٧٩ .
(٢) انظر السير : (علي بن حمشاد) ١٥/ ٣٩٨ـ ٤٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٤١ .
(٣) انظر السير : (الصِّبغي) ١٥/ ٤٨٣ـ ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥١ .
(٤) انظر السير : (ابن الباقلاني) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٤ .
(٥) سورة الجاثية ، الآية (٢١) .
(٦) انظر السير : (تميم الدّاري) ٢/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٢٨٨ .
(٧) سورة الكهف ، الآية (٣٧) .
(٨) انظر السير : (ثابت بن أسلم) ٥/ ٢٢٠ـ ٢٢٥ ، وانظر النزهة : ١/٥٩٧ .

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[1] ويَبكي ويَتَضرَّعُ إلى الفَجر[2] .

وعن أبي سُليمان الدَّاراني قال : ما رأيتُ أحداً الخوفُ أظْهَرُ علىٰ وجهِه والخُشُوع من الحَسَن بن صالح ، قامَ ليلةً بـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[3] فغُشِيَ عليه ، فلم يَخْتِمْها إلى الفَجر[4] .

(و) أحوالُ السَّلف مع الصَّلاة :

عن سعيدِ بنِ المُسَيِّب أنَّ أبا سُفيانَ بنَ الحَارِث كان يُصَلي في الصَّيْفِ نصفَ النهارِ حتىٰ تُكْرَه الصَّلاةُ ، ثُمَّ يُصَلي من الظُّهرِ إلى العصر[5] .

وعن عَديِّ بنِ حاتم قال : ما دخَلَ وقتُ صَلاةٍ حتىٰ أشْتَاقُ إليها .

وعنه : ما أُقِيمَت الصلاةُ منذُ أسْلَمتُ إلاَّ وأنا علىٰ وُضُوء[6] .

وعن شُرَحْبيلَ ، أنَّ رجلين أتَيا أبا مُسلم الخَولاني ، فلَم يجداه في منزله ، فأتَيا المسجد ، فوجَدَاه يركَعُ فانتظراه فأحْصَىٰ أحدُهما أنَّه ركعَ ثلاثَ مئةِ ركعة[7] .

ورَوَىٰ أنسُ بنُ سيرين عن امرأة مَسْروق قالت : كان مَسْروقٌ يُصَلي حتىٰ تَوَرَّم قَدَماه ، فرُبَّما جَلَسْتُ أبكي ممَّا أراهُ يَصنَعُ بنفسِه[8] .

وقال سعيدُ بنُ جُبَير ، قال لي مَسْروق : ما بَقيَ شيءٌ يُرغَبُ فيه إلاَّ أن نُعَفِّرَ وجوهَنا في التُّراب ، وما آسىٰ علىٰ شيءٍ إلاَّ السُّجودَ للهِ تعالىٰ[9] .

---

(١) سورة القمر ، الآية (٤٦) .
(٢) انظر السير : (أبو حنيفة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٦٣ .
(٣) سورة النبأ ، الآية (١) .
(٤) انظر السير : (الحسن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٠٣ .
(٥) انظر السير : (أبو سفيان بن الحارث) ١/ ٢٠٢ـ ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٤٨ .
(٦) انظر السير : (عدي بن حاتم) ٣/ ١٦٢ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٥٨ .
(٧) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٣١ .
(٨) انظر السير : (مسروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٤٥ .
(٩) انظر السير : (مسروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٤٥ .

وعن مُعتَمِر ، عن أبيهِ قال : كان أبو عُثمانَ النَّهديّ يُصَلي حتىٰ يُغشَىٰ عليه[1] .

وعن أبي العالية قال : كنتُ أرحَلُ إلى الرَّجُل مسيرةَ أيَّامٍ لأسمعَ منهُ ، فأتَفَقَّدُ صَلاتَه ، فإن وجَدتُه يُحْسِنُها ، أَقَمتُ عليه ، وإن وَجَدتُه يُضَيِّعُها ، رَحَلتُ عنه ولمْ أسمَعْ منه ، وقلتُ هو لِمَا سِواها أَضْيَع[2] .

وعن ابنِ حَرمَلَة ، قلتُ لبَردٍ مَولَى ابنِ المُسَيِّب : ما صَلاةُ ابنِ المُسَيِّب في بَيتِه ؟ قال : ما أدري إنَّه يُصَلي صَلاةً كَثيرةً إلاَّ أنَّه يقرأ بـ ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾[3] ،[4] .

وقال ابنُ الأعْرابيّ : كان أبو رَجَاء العَطاردي عابداً ، كثيرَ الصلاةِ وتلاوةِ القرآن ، كان يقولُ : ما آسَىٰ علىٰ شيءٍ من الدنيا إلاَّ أنْ أُعَفِّرَ في التُّراب وجهي كلَّ يومٍ خَمسَ مرات[5] .

وعن مالكٍ : أحْرَمَ عليُّ بنُ الحُسَين فلمَّا أرادَ أن يُلَبي ، قالَهَا ، فأغْمِيَ عليه ، وسَقَطَ من نَاقَتِه فهُشِّم ، ولقد بَلغَني أنَّه كان يُصَلي في كلِّ يومٍ وليلة ألفَ ركعة إلىٰ أن مات ، وكان يُسمَّىٰ زين العابدين لعبادته[6] .

وكان عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة يُطَوِّلُ الصَّلاةَ ، ولا يَعجَلُ عنها لأحد[7] .

وقال ابنُ عُيَيْنة : سَمعتُ عبدَ الكريم يقول : كان طَلقُ بنُ حَبيب لا يَركَعُ إذا افتَتَحَ سُورةَ « البَقَرة » حتىٰ يَبلُغَ « العَنكبوت » ، وكان يقولُ : أشْتَهي أنْ أقومَ حتىٰ يَشْتَكِي صُلبي[8] .

ورَوىٰ حفصُ بنُ غياث عن ابنِ إسْحاق ، قال : قَدِمَ علينا عبدُ الرحمٰن ابنُ الأسْوَد

---

(١) انظر السير : (أبو عثمان النهدي) ٤/ ١٧٥ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٧٢ .
(٢) انظر السير : (أبو العالية) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٧٩ .
(٣) سورة ص ، الآية (١) .
(٤) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٨٨ .
(٥) انظر السير : (أبو رجاء العطاردي) ٤/ ٢٥٣ـ ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٩١ .
(٦) انظر السير : (عليّ بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥١٨ .
(٧) انظر السير : (عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة) ٤/ ٤٧٥ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٣٥ .
(٨) انظر السير : (طلق بن حبيب) ١٤/ ٦٠١ـ ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٦٧ .

حاجّاً ، فاعْتلَّتْ رجلُه ، فصلَّىٰ علىٰ قدمٍ حتىٰ أصبح[1] .

وعن ابنِ جُرَيْجٍ قال : لَزِمتُ عَطَاءَ بنَ أبي رَبَاح ثمانيَ عَشْرَة سَنَة ، وكان بعدما كَبِرَ وضَعُفَ يقُومُ إلى الصَّلاةِ ، فيقرأُ مِئتَي آية من البقرةِ وهو قائمٌ لا يَزُول منه شيءٌ ولا يَتَحَرَّك[2] .

وقال الأوزاعيّ : كان بلالُ بنُ سَعد من العِبادة علىٰ شيءٍ لَمْ نَسمَعْ أحَداً قَوِيَ عليه ، كان له كلَّ يومٍ وليلةٍ ألفُ ركعة[3] .

وعن حَمَّاد بنِ سَلَمَة قال : كان ثابتُ بنُ أسْلَم يقول : اللَّهُمَّ إنْ كنتَ أعطيتَ أحداً الصلاةَ في قبرِه فأعطني الصلاةَ في قَبري ، فيُقَالُ : إنَّ هٰذه الدَّعوة استُجِيبَت له ، وأنَّه رُئيَ بعد موته يُصَلي في قَبره فيما قيل[4] .

وقال ابنُ المُبَارَك : كان لعَليِّ بنِ عبد الله بنِ عَبَّاس خَمسُمِئة شَجَرَة يُصَلي عندَ كُلِّ شَجَرَة رَكعَتَينِ ، وذلك كلَّ يومٍ[5] .

وقال أبو إسحاقَ السبيعيّ : ذهبت الصَّلاةُ منِّي وضَعُفْتُ ، وإنِّي لأُصَلي فما أقرأُ وأنا قائمٌ إلاَّ البقرةَ وآلَ عِمران ، ثمَّ قال الأخنَسيُّ : حَدَّثَنا العَلاءُ بنُ سالم العَبديّ قال : ضَعُفَ أبو إسحاق قبل مَوته بسَنَتَين ، فما كان يَقدِرُ أن يقومَ حتىٰ يُقَامَ ، فإذا استَتَم قائماً قرأ وهو قائمٌ ألفَ آية[6] .

وقال محمدُ بنُ سَمَاعَة الرَّمليّ : سَمعتُ ضَمْرَةَ بنَ رَبيعَةَ يقول : حَجَجْنَا مع الأَوْزاعِيّ سَنَةَ خَمسِينَ ومئة ، فمَا رأيتُه مُضطَجِعاً في المَحْمِل[7] في ليلٍ ولا نَهَارٍ قَطُّ ،

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن الأسود) ٥/ ١١ـ ١٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٧٥ .
(٢) انظر السير : (عطاء بن أبي رباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٨٣ .
(٣) انظر السير : (بلال بن سعد) ٥/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٤ .
(٤) انظر السير : (ثابت بن أسلم) ٥/ ٢٢٠ـ ٢٢٥ ، وانظر النزهة : ٧/٥٩٦ .
(٥) انظر السير : (علي بن عبد الله) ٥/ ٢٨٤ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٧/٦٠٣ .
(٦) انظر السير : (أبو إسحاق السبيعي) ٥/ ٦٠١ـ ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦١٦ .
(٧) المَحْمِل : شقان على البعير فيهما العديلان .

كان يُصَلي فإذا غَلَبَه النَّوم اسْتَنَدَ إلى القَتْب[1] .

وعن خالدِ بن عَمرو قال : رأيتُ مِسْعَراً كأنَّ جَبهَتَه رُكبَة عَنْزٍ من السُّجود ، وكان إذا نظرَ إليكَ حَسِبتَ أنَّه يَنظُرُ إلى الحائطِ من شِدَّة حَؤولته[2] .

وقال البغويّ : حَدَّثَني جَدِّي أحمدُ بنُ مَنِيع : سَمعتُ أبا قطن يقول : ما رأيتُ شُعْبَةَ ركعَ قَطُّ إلاَّ ظَنَنتُ أنَّه نَسِيَ ، ولا قَعَدَ بين السَجْدَتَين إلاَّ ظَنَنتُ أنَّه نَسِي[3] .

وقال ابنُ وَهبٍ : رأيتُ الثَّورِي في الحَرَم بعدَ المغرِب صَلىٰ ثم سَجَدَ سَجدةً ، فلَمْ يَرفَعْ حتىٰ نُودِيَ بالعِشَاء[4] .

وقال عليُّ بنُ المديني : ما رأيتُ أخْوَفَ لله من بِشْر بنِ منصور ، كان يُصَلي كلَّ يومٍ خَمسَ مئة رَكعةٍ ، وقال القَواريريُّ عنهُ : هو أفضَلُ مَن رأيتُ من المشَايخ[5] .

وعن ابنِ سَمَاعة قال : كان وِرْدُ أبي يُوسُفَ القاضي في اليومِ مئتَي ركعة[6] .

وقال أحمدُ بنُ عبد الله العِجْليُّ : يَزيدُ بنُ هارون ثِقةٌ ثَبتٌ مُتَعَبِّدٌ حَسَن الصلاة جداً ، يُصَلي الضُّحىٰ سِت عشرة ركعة ، بها من الجَودة غيرُ قليل ، قال : وكان قد عَمِيَ[7] .

وقال عبدُ الله بنُ أحمدَ بنِ حنبل : كان أبي يُصَلي في كُلِّ يومٍ وليلة ثلاثَ مئة ركعة ، فلمَّا مَرِضَ من تلك الأَسْواط ، أضْعَفَتهُ ، فكان يُصَلي كلَّ يومٍ وليلة مئة وخمسين ركعة[8] .

وذَكر أبو عُبيدَة قال : كان بَقِيُّ بنُ مَخْلد يَختِمُ القرآنَ كل ليلة في ثلاث عَشر

---

(١) انظر السير : (الأوزاعيّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٨٣ .
(٢) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٨٩ .
(٣) انظر السير : (شُعبة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٩٣ .
(٤) انظر السير : (سُفيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٩٨ .
(٥) انظر السير : (بشر بن منصور) ٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٦٤ .
(٦) انظر السير : (القاضي أبو يوسف) ٨/ ٥٣٥ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٨٨ .
(٧) انظر السير : (يزيد بن هارون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٢٩ .
(٨) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٢٨ .

ركعة ، وكان يُصَلي بالنَّهار مئةَ ركعة ، ويَصُوم الدهرَ ، وكان كثيرَ الجِهَادِ ، فاضلاً ، يُذكَرُ عنه أنَّه رابَطَ اثنتين وسبعين غَزْوة[1] .

ونقلَ بعضُ العلماء من كتاب لحَفيد بَقيّ بنِ مخلد ، (عبدِ الرحمٰنِ ابنِ أحمد) : كان جَدِّي قد قَسَّمَ أيَّامَه علىٰ أعمالِ البرِّ : فكان إذا صَلى الصُّبحَ قرأَ حِزْبَه من القرآن في المُصحف ، سُدسَ القرآنِ ، وكان أيضاً يَخْتِمُ القرآنَ في الصَّلاةِ في كل يومٍ وليلة ، ويخرجُ كلَّ ليلةٍ في الثُّلُثِ الأخيرِ إلى المَسجِد ، فيَختِمُ قُربَ انصداعِ الفَجر ، وكان يُصَلي بعد حِزبه من المُصحف صلاةً طويلةً جداً ، ثم يَنْقَلِبُ إلىٰ داره ـ وقد اجتَمَعَ في مَسجِده الطَّلَبَةُ ـ فيُجَدِّدُ الوُضوءَ ويَخْرجُ إليهم ، فإذا انقَضَت الدُّوَل ، صارَ إلىٰ صَومَعَةِ المَسجِد ـ فيُصَلي إلى الظُّهر ، ثُمَّ يكونُ هو المُبتدىءُ بالأذان ، ثم يَهبِطُ ثم يُسْمِعُ إلى العصر ، ويُصَلي ويُسْمِع ، ورُبَّمَا خرجَ في بَقِيَّةِ النَّهار ، فيَقْعُدُ بين القُبور يَبكِي ويَعتَبر ، فإذا غَرُبَت الشَّمسُ أَتَىٰ مَسجِدَهُ ، ثم يُصَلي ويَرجِعُ إلىٰ بَيتِه فيُفْطِرُ ، وكان يَسْرُدُ الصَّومَ إلاَّ يومَ الجُمُعَة ، ويخرجُ إلى المَسجِد ، فيَخرُجُ إليه جِيرانُه ، فيَتَكلَّمُ معهم في دِينِهم ودُنيَاهم ، ثم يُصَلي العِشاءَ ويدخُلُ بَيتَه ، فيُحَدِّثُ أهلَه ، ثم يَنَامُ نَومَةً قد أخَذَتْها نفسُه ، ثمَّ يقومُ ، هٰذا دَأْبُه إلىٰ أن تُوفِّيَ وكان جَلداً قوياً على المشي[2] .

قال إبراهيمُ بنُ مضارب : سمعتُ أبي يقولُ : كان الحُسَينُ بنُ الفَضل يركعُ في اليومِ والليلة ستَّ مئة ركعة ، ويقولُ : لولا الضعف والسنُّ لم أُطعَم بالنهار .

وسَمعتُ أبا زكريا العَنبريَّ : سمعتُ أبي يقول : لمَّا قَلَّدَ المأمونُ عبد الله ابنَ طاهر خُراسان ، قال : يا أميرَ المؤمنين! حاجة قال : مَقْضِيَّة قال : تُسعِفُني بثلاثة : الحُسَينِ بنِ الفَضل ، وأبي سَعيدٍ الضَّرير ، وأبي إسحاقَ القُرشي قال : أسْعَفناك ، وقد أخليتُ العِراقَ من الأفراد[3] .

---

(١) انظر السير : (بَقيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٧ .
(٢) انظر السير : (بَقيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٧ .
(٣) انظر السير : (الحُسين ابن الفَضل) ١٣/ ٤١٤ـ٤١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٩٦ .

وقيلَ : إنَّ محمدَ بنَ الجُنَيْد النَّهَاوندِيّ كان في سُوقه ووِرْدُهُ كلَّ يومٍ ثلاثُ مئة رَكعَة ، وكذا كذا ألفَ تَسْبِيحَة[1] .

(ز) رُؤيا تُفيدُ الحَثَّ علىٰ كثرة الصَّلاة :

قال نَصرُ بنُ عليّ الجَهضمي : رأيتُ يَزِيدَ بنَ زُرَيْع في المَنَام ، فقلتُ : ما فَعَلَ الله بك ؟ قال : أُدخِلتُ الجَنَّةَ . قلتُ : بماذا ؟ قال : بكثرَةِ الصَّلاة[2] .

(ح) مَن كان يَتَحاشى الصَّلاةَ خلفَ مَن يُطَوّل :

قال عَبدانُ الأهوازيّ : كُنا لا نُصَلي خَلفَ هُدبة بن خالد من طُولِ صَلاته ، يُسَبِّحُ في الرُّكوعِ والسُّجودِ نيفاً وثلاثين تَسْبِيحَة قال : وكان من أشْبَه خَلْقِ الله بهشامِ بن عَمَّار لِحْيَتُه ووَجْهُه وكلّ شيءٍ منه حتىٰ صَلاتُه[3] .

(ط) مُكابَدةُ الصَّلاة :

عن ابنِ أبي رُزَين ، أنَّ ثابتَ بنَ أسْلم قال : كَابَدتُ الصَّلاةَ عِشرينَ سَنَةً ، وتَنَعَّمتُ بها عِشرين سَنَة[4] .

قال محمدُ بنُ عَوْف الحِمْصِيّ : رأيتُ أحمدَ بنَ أبي الحواري عندنا بأَنطَرسُوس[5] فلمَّا صَلى العَتَمَةَ[6] قامَ يُصَلِّي ، فاسْتَفتَحَ بـ (الحمد لله) إلىٰ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[7] ، فطُفتُ الحائطَ كُلَّه ثمَّ رَجَعتُ ، فإذا هو لا يُجَاوِزُها ، ثمَّ نِمتُ ، ومَرَرتُ في السَّحَرَ ، وهو يقرأُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فلَم يَزَلْ يُرَدِّدُها إلى الصُّبح[8] .

---

(١) انظر السير : (الجُنَيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٣٢ .
(٢) انظر السير : (يزيد بن زُريع) ٨/ ٢٩٦ـ ٢٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٥٩ .
(٣) انظر السير : (هُدبَة بن خالد) ١١/ ٩٧ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩١٤ .
(٤) انظر السير : (ثابت بن أسلم) ٥/ ٢٢٠ـ ٢٢٥ ، وانظر النزهة : ٩/ ٥٩٦ .
(٥) في معجم البلدان أنطرسوس : بلد من سواحل بحر الشام .
(٦) العَتَمَة : أي صلاة العشاء لأنها تُصَلَّىٰ في العتمة أي في الظُلمة .
(٧) سورة الفاتحة ، الآيات (١ ـ ٤) .
(٨) انظر السير : (أحمد بن أبي الحَواري) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٨٥ .

عن أحمدِ بنِ سَهلٍ الهَرَويّ قال : كنتُ ساكناً في جِوار بَكَّار ابن قُتَيْبَة فانصَرَفتُ بعدَ العِشاء ، فإذا هو يَقرأُ ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] قال : ثمَّ نزَلتُ في السَّحرِ ، فإذا هو يَقْرَؤُها ، ويَبْكِي ، فعَلِمتُ أنَّه كان يَتْلُوها من أوَّلِ الليل[2] .

٢٢ـ الصِّيام

(أ) نقدُ الذهبيّ ـ رَحمه الله ـ مَن صامَ الدَّهر :

قال الحاكمُ : سَمعتُ الصِّبغيَّ يقول : صامَ أبو عَمرو الخَفَّاف الدهرَ نيِّفاً وثلاثينَ سَنَة .

قال الذهبيُّ : ليتَه أفْطَرَ وصَامَ ، فما خَفِيَ والله عليه النَّهْيُ عن صِيامِ الدَّهر ، ولكن له سَلَفٌ ، لو صَاموا أفضَلَ الصَّومِ لَلَزِموا صَومَ داوودَ عليه السلام ولم يكن يُعَقِّب .

قال : وسمعتُ أبا زكريَّا العَنْبريّ يقولُ : فلمَّا آيِسَ من الوَلَد ، تَصَدَّقَ بأموالٍ كان يُقالُ : إنَّ قِيمَتَها خمسَةُ آلافِ ألفِ درهم ، على الأشْرافِ والفُقَراء والمَوالي[3] .

(ب) صورٌ من صَوم الصَّالحين :

وقال أبو الدَّرداء : إنْ كُنَّا لَنَكُونُ مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في السَّفرِ في اليوم الحَارّ ما في القَومِ أحدٌ صائمٌ إلاَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعبدُ الله ابنُ رَوَاحَة[4] .

وعن شُعبة : أخْبَرَنا عبدُ الرحمـٰن بنُ القاسم ، عن أبيه : أنَّ عائشةَ كانت تَصُومُ الدَّهرَ[5] .

---

(١) سورة ص ، الآية (٢٦) .
(٢) انظر السير : (بكّار بن قُتيبة) ١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٣٨ .
(٣) انظر السير : (أبو عَمرو الخَفَّاف) ١٣/ ٥٦٠ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١١٦ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن رواحة) ١/ ٢٣٠ـ ٢٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٣ .
(٥) انظر السير : (عائشة أم المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٤٤ .

وعن أبي أُمَامَةَ البَاهِليّ قال ، قلتُ : يا رسُولَ الله ادْعُ اللهَ لي بالشَّهَادة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ سَلِّمْهُم وغَنِّمْهُم » فَغَزَوْنا ، فَسَلِمْنا وغَنِمْنا ، وقلتُ : يا رسولَ الله مُرْنِي بعَمَلٍ قال صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكَ بالصَّومِ فإنَّه لا مِثْلَ له » فكان أبو أُمَامَة وامرأتُه وخادمُه لا يُلفَوْنَ إلاَّ صِياماً[1] .

وعن عطيَّةَ بنِ قيس قال : دَخَلَ ناسٌ من أهلِ دمَشْقَ علىٰ أبي مُسلِم الخولاني وهو غازٍ في أرضِ الرُّوم ، وقد احتَفَرَ جُورةً في فُسْطاطِه[2] ، وجَعَلَ فيها نِطْعاً وأَفْرَغَ فيه الماءَ وهو يَتَصلَّقُ فيه[3] ، فقالوا : ما حَمَلَكَ على الصِّيامِ وأنتَ مُسافِر ؟ قال : لو حَضَرَ قِتالٌ لأفْطَرتُ ، ولتَهَيَّأتُ له وتَقَوَّيتُ ، إنَّ الخَيلَ لا تجري الغايات[4] وهُنَّ بُدَّن ، إنَّما تَجري وهُنَّ ضُمَّر ، ألا وإنَّ أيامَنَا باقيةٌ جائيةٌ لها نعمل[5] .

وعن هشام بن عُروة بنِ الزُّبَيْر ، أنَّ أباه ماتَ وهو صائمٌ ، وجَعَلوا يَقُولون له : أَفْطِر ، فلَم يُفْطِر[6] .

وعن هشام بنِ عُروة بنِ الزُّبَيْر ، أنَّ أباهُ كان يَصُومُ الدهرَ إلاَّ يومَ الفِطرِ ويومَ النَّحرِ ، ومات وهو صائمٌ[7] .

وقال شُعيبُ بنُ الحَبْحَاب : حَدَّثتني هُنَيدَة امرأةُ إبراهيمَ النَّخْعِي : أنَّ إبراهيمَ كان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً[8] .

عن أيُّوبَ ، قال : كان محمدُ بنُ سِيرين يَصُومُ يَوماً ويُفْطِرُ يوماً[9] .

---

(١) انظر السير : (أبو أمامة الباهلي) ٣/ ٣٥٩ـ ٣٦٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٩٣ .
(٢) الفسطاط : البيت من الشعر .
(٣) تصَّلق : تَقلَّب وتَلوَّىٰ علىٰ جنبيه
(٤) الغايات : النهايات .
(٥) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٣١ .
(٦) انظر السير : (عروة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٢٧ .
(٧) انظر السير : (عروة بن الزبير) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٢٨ .
(٨) انظر السير : (إبراهيم النخعيّ) ٤/ ٥٢٠ـ ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٤٨ .
(٩) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٦٩ .

وقال ابنُ عَون : كان محمدُ بنُ سيرين يَصومُ عَاشُوراءَ يومين ثم يُفْطِرُ بعد ذلك يَومَين[1] .

وعن مُعاويةَ بنِ صالح أنَّ أبا جَبَلة حَدَّثَه قال : كنتُ مع ابنِ شِهابٍ الزُّهريّ في سَفَرٍ فصَامَ يومَ عاشوراءَ ، فقِيلَ له : لِمَ تَصومُ وأنتَ تُفْطِرُ في رمضانَ في السَّفر ؟ قال : إنَّ رمضانَ له عِدّةٌ من أيامٍ أُخَر ، وإنَّ عَاشوراءَ يَفُوتُ[2] .

وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنة : صَامَ منصُورُ بنُ المُعتَمر ستينَ سنةً ، يقومُ ليلَهَا ويَصُومُ نَهَارَهَا رحمَه الله[3] .

قال محمدُ بنُ عبدِ الأعْلىٰ : قال لي مُعْتَمِرُ بنُ سُليمان التيميّ : لولا أنَّك من أهلي ما حَدَّثْتُك بذا عن أبي ، مكثَ أبي أربعينَ سَنَةً يَصُومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً ، ويُصَلي صَلاةَ الفَجرِ بوُضوءِ عِشاءِ الآخرة[4] .

وقال أبو عاصم النبيل : كان ابنُ جُرَيج من العُبَّاد كان يَصومُ الدَّهرَ سِوىٰ ثلاثة أيام من الشهر[5] .

وقال بَكَّارُ بنُ محمد : كان ابنُ عَون يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً .

وقال عبدُ الرحمٰن بنُ مَهدِي : ما كان بالعراقِ أعْلَمَ بالسُّنَّة من ابنِ عَون[6] .

قال الفلاس : سمعتُ ابنَ أبي عَديّ يقول : صامَ داوُدُ بنُ أبي هندٍ أربعينَ سَنَةً لا يَعلمُ به أهلُه كان خَزَّاراً يَحمِلُ معه غَدَاءَه فيَتَصَدَّقُ به في الطَّرِيق[7] .

وقال أخو محمدُ بنُ أبي ذئب : كان أخي يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً ، ثم سَرَدَ

---

(١) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٦٩ .
(٢) انظر السير : (أخبار الزُّهريّ) ٥/ ٣٢٦ـ ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٠٧ .
(٣) انظر السير : (منصور بن المعتمر) ٥/ ٤٠٢ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦١٨ .
(٤) انظر السير : (سُليمان التيميّ) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٤١ .
(٥) انظر السير : (ابن جُريج) ٦/ ٣٢٥ـ ٣٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٥٥ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٥٦ .
(٧) انظر السير : (داوُد بن أبي هند) ٦/ ٣٧٦ـ ٣٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٥٩ .

الصَّومَ ، وكان شَديدَ الحالِ ، يتعَشَّى الخُبزَ والزَّيتَ ، وله قميصٌ وطَيْلَسَان ، يَشتو فيه ويَصِيف قال وكان من رجال النَّاس صَرامَةً وقَولاً بالحَقّ ، وكان يَحفَظُ حَديثَه ، لَم يكن له كتاب ، وكان يَروحُ إلى الجُمُعة باكراً ، فيُصَلي إلىٰ أن يَخرُجَ الإمَامُ ورأيتُه يأتي دار أجْدَادِه عند الصَّفا فيأخُذُ كِراءَها ولا يُغَيِّرُ شَيْبَه[1] .

وقال يَحيَىٰ بنُ مَعِين : أخْرَجَ غُنْدَرٌ إلينا ذاتَ يومٍ جِراباً فيه كُتُبٌ ، فقال : اجْهَدُوا أنْ تُخرِجوا فيها خَطَأً ، قال : فما وجدْنا فيه شيئاً ، وكان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً منذُ خَمسينَ سَنَةً[2] .

وقال عُبَيدُ بنُ محمد الوَرَّاق : مَرَّ معروفٌ الكَرخِي وهو صائمٌ بسقَّاءٍ يقولُ : رَحِمَ الله مَن شَرِب ، فشَرِبَ رَجاءَ الرَّحمَة[3] .

وذَكرَ أبو عُبيدَة قال : كان بَقِيُّ بن مخلد يَختمُ القرآن كلَّ ليلة ، في ثلاثَ عشرةَ ركعة ، وكان يُصَلي بالنَّهار مئةَ ركعة ، ويَصومُ الدَّهرَ ، وكان كَثيرَ الجِهادِ ، فاضِلاً يُذكَرُ عنه أنَّه رابَطَ اثنتين وسبعينَ غَزوة[4] .

وقال جماعةٌ من شُيوخ قَزْوين : لَم يَرَ أبو الحَسَن القَطَّان رحمه الله مثلَ نفسِه في الفَضلِ والزُّهد أدامَ الصِّيامَ ثلاثين سَنَةً ، وكان يُفْطِرُ على الخُبز والمِلْح ، وفَضَائِلُه أكثرُ من أن تُعَدَّ[5] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وُلِدَ الإمامُ الصُّوريّ سَنَةَ ستٍّ أو سَنَةَ سَبعٍ وسَبعين وثلاث مئة ، وكان ـ رحمهُ الله ـ يَسرُدُ الصَّومَ إلاَّ الأعياد[6] .

---

(١) انظر السير : (ابن أبي ذئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٨٥ .
(٢) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٠٢ .
(٣) انظر السير : (معروف الكرخي) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٢٧ .
(٤) انظر السير : (بقيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٨٧ .
(٥) انظر السير : (القطَّان) ١٥/ ٤٦٣ـ ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٤٩ .
(٦) انظر السير : (الصُّوريّ) ١٧/ ٦٢٧ـ ٦٣١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٣٦٩ .

٢٣ـ الحَجّ

(أ) وصفٌ جميلٌ لبعضِ مشاعرِ الحجّ :

قال الخليلُ بنُ أحمد : سمعتُ سُفيانَ الثَّوريّ يقولُ : قَدِمتُ مكةَ فإذا أنا بأبي عبدِ الله جعفر بن محمد قد أناخَ بالأبطح ، فقلتُ : يا ابنَ رسولِ الله ، لِمَ جُعلَ الموقفُ مِن وراءِ الحَرَم ؟ ولَمْ يُصَيَّر في المَشْعَرِ الحَرَام ؟ فقال : الكعبةُ بيتُ الله ، والحَرَمُ حِجَابُه ، والموقفُ بابُه فلَمَّا قَصَدَهُ الوافِدون ، أَوْقَفَهُم بالباب يَتَضَرَّعون ، فلَمَّا أُذِنَ لهم في الدُّخُولِ أَدْنَاهم من الباب الثاني وهو المُزدَلِفَة ، فلَمَّا نَظَرَ إلىٰ كَثرة تَضَرُّعهم وطُول اجتهادهم رَحِمَهم ، فلَمَّا رَحِمَهم أَمَرَهم بتقريب قُرْبانِهم ، فلَمَّا قَرَّبوا قُربانَهم ، وقَضَوا تَفَثَهم وتَطَهَّروا من الذُّنوبِ التي كانت حِجاباً بينَه وبينهم أَمَرَهم بزيارةِ بَيْتِه علىٰ طَهَارة قلتُ : فلِمَ كُرِهَ[1] الصَّومُ أيامَ التَشْريق ؟ قال : لأنَّهم في ضِيافةِ الله ولا يَجِبُ على الضَّيْفِ أن يَصُومَ عند مَن أضَافَه قلتُ : جُعلتُ فداك ، فما بالُ النَّاسِ يَتَعَلَّقون بأسْتارِ الكَعبة ؟ وهي خِرَقٌ لا تنفع شيئاً ؟ قال : ذاك مَثَلُ رجلٍ بينه وبين رجلٍ جُرمٌ ، فهو يَتَعلّقُ به ، ويطوفُ حَولَه رَجاء أن يَهَبَ له ذلك ، ذاكَ الجُرم[2] .

---

(١) أي : حَرُمَ ، لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من النهي عن صوم أيام التشريق ، والسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها الذي استعملت به في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (الإسراء ٣٨) ، وفي الحديث الصحيح : « إنَّ الله كرِهَ لكم قِيلَ وقالَ وكثْرةَ السُّؤال وإضاعةَ المال » وقال ابنُ وهب : سمعت مالكاً يقول : لم يكن من أمر الناس ولا مَن مضىٰ من سلفنا ، ولا أدركتُ أحداً أقتدي به يقول في شيءٍ : هـٰذا حلالٌ وهـٰذا حرام ، وما كانوا يجترئون علىٰ ذلك ، وإنما كانوا يقولون : نكره كذا ، ونرىٰ هـٰذا حسناً ، فينبغي هـٰذا ، ولا نرىٰ هـٰذا وزاد عتيق بن يعقوب ـ علىٰ هـٰذا ـ ولا يقولون : حلال ولا حرام أما سمعت قول الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] الحلالُ ما أحَلَّه اللهُ ورسولُه صلى الله عليه وسلم، والحَرامُ ما حَرَّمَه اللهُ ورسولُه صلى الله عليه وسلم .

(٢) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٦/٦٤٨ .

(ب) رؤية الحُجّاج وهم ذاهبون إلى الحجّ تُرقّقُ القلب :

شَيَّعَ السلطانُ مَلِكْشاه (أبو الفَتح بنُ أرْسلان) مرةً رَكبَ العراق إلى العُذَيْب[1] فصادَ شيئاً كثيراً ، فبنىٰ هناك منارةَ القُرون من حَوافِر الوُحُوش وقُرونِها ، ووقفَ يتأملُ الحُجَّاجَ ، فَرَقَّ ونزلَ وسَجَد ، وعَفَّرَ وجهَه وبكىٰ ، وقال بالعجمية : بَلِّغوا سَلامي إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقولوا : العبدُ العَاصي الآبق أبو الفتح بنُ أرسلان يَخدِمُ ويقول : يا نبيَّ الله ، لو كنتُ ممّن يَصلُح لتلكَ الحضرةِ المقدَّسَة ، كنتُ في الصُّحبَة ، فَضَجَّ النَّاسُ وبَكَوا ودَعَوا له[2] .

(ج) مناجاة حاج :

عن محمد بنِ يزيد الرِّفاعيّ ، سَمعتُ عَمِّي يقولُ : خرجتُ مع عُمرَ ابنِ ذَرٍّ إلىٰ مكةَ فكان إذا لبَّىٰ لم يُلَبِّ أحدٌ من حُسن صَوته ، فلمَّا أتى الحَرَمَ قال : ما زلنا نَهبطُ حُفرةً ونَصعَدُ أَكَمَةً ، ونَعلُوا شَرفاً ويبدو لنا عَلَمٌ حتىٰ أَتَينَاك بها نَقيَّةً أخفَافُها ، دَبِرَةً ظُهُورُها ذَبِلَةً أسنامُها فليس أعظَمَ المؤنة علينا إتعابُ أبدانِنا ولا إنفاقُ أموالِنا ، ولكنَّ أعظَمَ المؤنةَ أن نرجعَ بالخُسْران! يا خيرَ مَن نزلَ النَّازِلون بفِنائِه[3] .

وعن أبي الصَّلت قال : سمعتُ عليَّ بنَ موسىٰ بالموقِف يدعو : اللَّهُمَّ كما سَتَرتَ عليَّ ما أعلَمُ فاغْفِر لي ما تَعلَمُ ، وكما وَسعني علمُك ، فليَسَعْني عَفوُك ، وكما أَكرَمتَني بمعرفتك فاشْفَعها بمغفرتِك يا ذا الجَلالِ والإكْرام[4] .

(د) الاجتماع في المساجد يوم عرفة لمن لم يحج :

قال الأثرَمُ : سألتُ أبا عبدِ الله (أحمدَ بنَ حَنبل) عن التعريفِ في الأمصار ، يَجتمعون في المساجِد يومَ عَرَفَةَ ، فقال : أرجو أن لا يكونَ به بأسٌ ، فَعَلَه غَيرُ

---

(١) العُذيب : وهو ماءٌ بين القادسية والمغيثة ، بينه وبين القادسية أربعة أميال .

(٢) انظر السير : (السلطان ملكشاه أبو الفتح بن أرسلان) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٥٥ .

(٣) انظر السير : (عمر بن ذر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/٦٦٠ .

(٤) انظر السير : (عليّ الرِّضا) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٥/٨٣١ .

واحدٍ : الحَسَنُ ، وبكرُ بنُ عبد الله ، وثابتٌ ، ومحمدُ بنُ واسع ، كانوا يَشهَدون المسجِدَ يومَ عَرَفَة ، وسألتُه عن القراءةِ بالألحَان ، فقال : كلُّ شيءٍ مُحْدَثٍ فإنَّه لا يُعجِبُني ، إلاَّ أن يكونَ صوتَ الرجُلِ لا يَتَكَلَّفُه[1] .

(هـ) كثرة الحَجِّ والعُمرَة :

عن أبي إسحاقَ قالَ : حَجَّ الأسودُ بنُ يَزيد ثمانينَ ، من بين حَجَّةٍ وعُمرة[2] .

وقال أبو إسحاق : حجَّ عَمرو بنُ ميمون ستينَ مرةً من بين حَجَّةٍ وعُمرة[3] .

كان أبو عُثمانَ النَّهديّ مِن قُضاعة ، وسَكَنَ الكُوفة ، فلمَّا قُتلَ الحُسَينُ ، تَحَوَّلَ إلى البَصرَةِ وقال : لا أسْكُنُ بلداً قُتل فيه ابنُ بنتِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وحَجَّ سِتين مرةً ما بينَ حَجَّةٍ وعُمرة وقال : أَتَتْ عليَّ ثلاثُون ومئةَ سنة وما شَيءٌ إلاَّ وقد أنكَرتُه خَلا أَمَلي فإنَّه كما هو[4] .

وعن عبد الرحمٰن بن حَرملة : سَمعتُ ابنَ المُسَيِّب يقولُ : حَجَجْتُ أربعينَ حَجَّةً[5] .

عن هلالِ بنِ خَبَّاب قال : خرجتُ مع سعيد بن جُبَيْر في رَجَبٍ ، فأَحْرَمَ من الكُوفة بعُمرةٍ ، ثمَّ رَجَعَ من عُمرتِه ، ثمَّ أَحْرَمَ بالحَجِّ في النِّصْفِ من ذي القعدة ، وكان يُحرِمُ في كل سَنَةٍ مَرَّتين ، مرةً للحَجِّ ومرةً للعُمرة[6] .

عن معاويةَ بن قُرة ، قال : كان مُسلم بنُ يَسار يَحُجُّ كلَّ سَنَةٍ ويُحَجِّجُ معه رجالاً من إخوانه تَعَوَّدوا ذلك ، فأبطَأَ عاماً حتىٰ فاتَتْ أيامُ الحَجّ ، فقالَ لأصحَابِه : اخرُجُوا ، فقالوا : كيف!! ؟ قال : لا بُدَّ أن تَخرُجوا ، فَفَعَلوا استحياءً منه فأصابهم حين

---

(١) انظر السير : (الأثـرَم) ١٢/ ٦٢٣ـ ٦٢٨ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٤٠ .
(٢) انظر السير : (الأسود بن يزيد) ٤/ ٥٠ـ ٥٣ ، وانظر النزهة : ٥/٤٤١ .
(٣) انظر السير : (عَمرو بن ميمون) ٤/ ١٥٨ـ ١٦١ ، وانظر النزهة : ٧/٤٦٧ .
(٤) انظر السير : (أبو عثمان النهدي) ٤/ ١٧٥ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/٤٧١ .
(٥) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٦/٤٨٢ .
(٦) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٧/٥٠٥ .

جَنَّ عليهم الليلُ إعصارٌ شَديدٌ ، حتىٰ كادَ لا يَرَىٰ بعضُهم بعضاً ، فأصبَحوا وهم يَنظرُون إلىٰ جِبالِ تِهامَة ، فَحَمِدوا الله ، فقال : ما تَعجَبُون من هـٰذا في قُدرة الله تعالىٰ[1] .

وقال ابنُ حَبَّان : كان طاووسُ بنُ كيسان من عُبَّادِ أهلِ اليَمن ، ومن ساداتِ التابعين ، مُستجَابَ الدعوة ، حَجَّ أربعينَ حَجَّةً[2] .

وعن هشامَ بنِ حَسَّان : أنَّ أيُّوبَ السختياني حَجَّ أربعينَ حَجَّةً[3] .

ورَوىٰ سُليمانُ بنُ أيُّوب ، سمعتُ سُفيانَ بن عُيَينة يقولُ : شَهدتُ ثمانينَ مَوقِفاً .

ويُروىٰ أنَّ سُفيانَ بنَ عُيَيْنة كان يقولُ في كلّ موقِفٍ : اللَّهُمَّ لا تجعَلهُ آخرَ العَهدِ منك ، فلمَّا كان العامُ الذي ماتَ فيه لَمْ يَقُلْ شيئاً ، وقال : قد استَحيَيتُ من الله تعالىٰ[4] .

قال أحمدُ بنُ جَنَاب : غَزَا عيسىٰ بنُ يُونُس خَمساً وأربعينَ غَزوةً ، وحَجَّ كذلك[5] .

عن سُحنونَ الفَقِيه قال : كان عبدُ الله بنُ وَهْب قد قَسَّمَ دَهرَه أثلاثاً ثُلثاً في الرِّباط ، وثُلثاً يُعَلِّمُ النَّاسَ بمصرَ ، وثُلثاً في الحَجِّ وذَكَرَ أنَّه حَجَّ سِتاً وثلاثين حَجَّةً[6] .

قال ابنُ طاهر : كان هَيَّاجُ بنُ عُبَيد قد بَلَغَ مِن زُهدِه أنَّه يَصومُ ثلاثةَ أيامٍ ويُوَاصِلُ ، لكن يُفطِر علىٰ ماءِ زَمزَم ، فمَن أتَاهُ بعد ثلاثٍ بشيءٍ أكَلَه وكان قد نَيَّفَ على الثمانين ، وكان يَعتَمِرُ كلَّ يومٍ ثلاثَ عُمَرٍ ، ويُدَرِّسُ عِدَّةَ دُروس ، ويَزُورُ ابنَ عَبَّاسٍ بالطائفِ كُلَّ سَنَةٍ مرةً ، لا يأكلُ في الطريقِ شيئاً ويَزورُ قبرَ النَّبي صلى الله عليه وسلم كُلَّ سَنَةٍ مع أهل

---

(١) انظر السير : (مسلم بن يسار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٤٧ .
(٢) انظر السير : (طاووس بن كيسان) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٧٨ .
(٣) انظر السير : (أيوب السختياني) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ١١/ ٦٢٦ .
(٤) انظر السير : (سفيان بن عيينة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٨٤ .
(٥) انظر السير : (عيسى بن يونس) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٨٥ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن وهب) ٩/ ٢٢٣ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨١٩ .

مكةَ ، فيخرُج فمَن أَخَذَ بيده ، كان في مَؤونَتِه حتىٰ يَرجِع ، وكان يَمشِي حافِياً من مكةَ إلى المدينة ، وسَمعتُ من يَشكو إليه أنَّ نَعلَيْهِ سُرِقَتا ، فقال : أتَّخِذُ نَعلَين لا يَسْرِقُهما أحدٌ ـ يَعني الحَفَاء ـ ورُزِقَ الشَّهَادةَ في كائنةٍ بين السُّنَّةِ والرَّافِضة ، وذلك أنَّ بعضَ الرَّافضةِ شَكَا إلىٰ أميرِ مكةَ أنَّ أهلَ السُّنَّة يَنَالونَ مِنَّا ، فأنفذ ، وطلبَ هَيَّاجاً وأبا الفَضلِ بنَ قَوَّام وابنَ الأنماطيّ ، وضَرَبَهم ، فماتَ هـٰذانِ في الحَال ، وحُمِلَ هَيَّاج ، فماتَ بعد أيام ـ رضي الله عنهم[1] .

(و) أحوال السلف حالَ أداء المناسك :

رَوَىٰ شُعبةُ عن أبي إسحاق قالَ : حَجَّ مسروقٌ فلَم يَنَمْ إلاَّ ساجداً علىٰ وجهه حتىٰ رَجع[2] .

وقال منصورٌ : كان شُرَيحٌ القاضي إذا أَحْرَمَ كأنَّه حَيَّة صَمَّاء[3] .

وعن مالك قال : أَحْرَمَ عليُّ بنُ الحُسَين ، فلمَّا أرادَ أن يُلَبِّي ، قالها : فأُغميَ عليه ، وسَقَطَ من ناقتِه فهُشِّم ، ولقد بَلَغَني أنَّه كان يُصَلي في كلِّ يومٍ وليلة ألفَ ركعة إلىٰ أن مَاتَ ، وكان يُسَمَّىٰ زَين العابدين لعبادته[4] .

وقال شُجاعُ بنُ الوليد : كُنتُ أحُجُّ مع سُفيانَ الثَّوريّ ، فما يكادُ لسانُه يَفتُر من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر ذاهباً وراجعاً[5] .

وقال الحاكمُ : سمعتُ ابنَي المؤمل بن الحسن بن عيسىٰ يقولان : أنفق جَدُّنا في الحَجَّةِ التي تُوُفِّيَ فيها ثَلاثَ مئة ألف[6] .

---

(١) انظر السير : (هيّاج بن عُبيد) ١٨/ ٣٩٣ـ ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢٥ .
(٢) انظر السير : (مسروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٥ .
(٣) انظر السير : (شريح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٨/٤٥٦ .
(٤) انظر السير : (علي بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٤/٥١٨ .
(٥) انظر السير : (سُفيان الثوري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/٦٩٧ .
(٦) انظر السير : (الحسن بن عيسى بن ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٧ .

٢٤ـ الدعاء

(أ) فَضل الدعاء :

عن أُمِّ الدَّرداءِ قالت : كان لأبي الدَّرداء سِتُّون وثلاث مئة خَليل في الله يدعو لهم في الصلاة ، فقلتُ له في ذلك ، فقال : إنَّه ليس رجلٌ يدعو لأخيه في الغيب إلاَّ وَكَّلَ الله به مَلَكَين يقولان : ولك بمثل أَفَلا أرغبُ أنْ تَدعُوَ لي الملائكةُ[١] .

(ب) من آداب الدعاء :

١ـ الخشوع فيه :

قال القَعْنَبيّ سمعتُ مالكاً يقول : كان عامرُ بنُ عبد الله يقفُ عند مَوضِع الجَنائز يدعو وعليه قَطيفة ، فتَسقُط وما يَشْعُر[٢] .

٢ـ الإلحاح :

عن مُورِّق قال : ما امتلأتُ غَضباً قَطّ ، ولقد سألتُ اللهَ حاجةً منذ عشرين سنة ، فما شَفَّعَني فيها ، وما سَئمتُ من الدُّعاءِ[٣] .

٣ـ الإطالة :

عن مالك قال : رُبَّما انصرفَ عامرُ بنُ عبد الله بن الزُّبَير من العَتَمَة فيَعْرضُ له الدُّعاءُ ، فلا يزالُ يدعو إلى الفَجر[٤] .

دخَلَ موسى الكاظمُ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فسَجَدَ سَجدةً في أولِ الليلِ ، فسُمِعَ وهو يقولُ في سُجُودِه : عَظُمَ الذَّنبُ عندي فليَحسُن العَفوُ من عندك يا أهلَ التقوىٰ ويا أهلَ المغفرة فجَعَلَ يُرَدِّدُها حتىٰ أصبح[٥] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٧٣ .
(٢) انظر السير : (عامر بن عبد الله بن الزبير) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٩٦ .
(٣) انظر السير : (مورّق) ٤/ ٣٥٣ـ ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥١٠ .
(٤) انظر السير : (عامر بن عبد الله بن الزبير) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٩٦ .
(٥) انظر السير : (موسى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٥٠ .

وقال يَحيىٰ بنُ الحَسَن العَلَوي : حدَّثني عَمَّارُ بنُ أَبَان قال : حُبسَ موسى ابنُ جعفر عند السَّنديّ بنِ شاهك ، فَسَأَلته أختُه أنْ تُولَّىٰ حَبْسَه وكانت تَدَيَّنُ ففعل ، فكانت علىٰ خِدمته ، فَحُكِي لنا أنَّها قالت : كان إذا صَلَّى العَتَمَة ، حَمِدَ اللهَ ومَجَّدَه ودَعَاه ، فلَم يَزَلْ كذلك حتىٰ يَزُولَ الليلُ فإذا زالَ الليلُ قامَ يُصَلي حتىٰ يُصَلي الصُّبحَ ، ثم يَذكرُ حتىٰ تَطلُعَ الشمسُ ، ثم يَقعُدُ إلى ارتفاعِ الضُّحىٰ ، ثم يَتَهَيَّأُ ويَستاكُ ويأكلُ ، ثم يَرقُدُ إلىٰ قبلِ الزَّوالِ ، ثم يَتَوضَّأ ويُصَلي العصرَ ثم يَذكُر في القبلةِ حتى المغرب ، ثم يُصَلي ما بينَ المغرب إلى العَتَمَة ، فكانت تقولُ : خابَ قومٌ تَعَرَّضُوا لهـٰذا الرجل ، وكان عبداً صالحاً[1] .

٤ـ اقتفاء طريقة دعاء الأنبياء :

عن ابنِ وَهب : سُئلَ مالكٌ عن الدَّاعي يقولُ : يا سَيدي فقال : يُعجبني دُعَاءُ الأنبياء : ربَّنا ربَّنا[2] .

٥ـ رفع اليدين :

وعن أبي موسىٰ قالَ : لمَّا فَرَغَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من حُنَين ، بَعَثَ أبا عامر الأشعَريّ علىٰ جَيشِ أَوطَاس[3] ، فلَقِيَ دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة فقُتل دُرَيدُ ، وهَزَمَ الله أصحَابَه ، فرَمَىٰ رجلٌ أبا عامرٍ في رُكبَته بسَهمٍ ، فأثبَتَه فقلتُ : يا عمُّ ، مَن رَمَاكَ ؟ ، فأشَارَ إليه ، فقَصَدتُ له فلَحِقتُه ، فلمَّا رآني ، وَلَّىٰ ذاهباً ، فجَعَلتُ أقولُ له ألا تَستَحِي ؟ أَلَسْتَ عَرَبياً ؟ ألا تَثبُت ؟ قال : فَكَفَّ ، فالتَقَيتُ أنا وهو ، فاختَلَفنا ضَربَتَين ، فقَتَلتُه ثم رَجَعتُ إلىٰ أبي عامر ، فقلتُ : قد قَتَلَ الله صاحبَك قال : فانزَعْ هـٰذا السهمَ ، فنَزَعتُه ، فنَزَا منه الماءُ ، فقال : يا ابنَ أخي ، انطلق إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأقْره منِّي السَّلامَ ، وقُلْ له : يَسْتَغفِر لي، واسْتَخلَفَني أبو عامر على النَّاسِ ، فمَكَثَ يسيراً ، ثم ماتَ فلمَّا قَدِمنا ، وأخبرتُ النبيَّ صلى الله عليه

---

(١) انظر السير : (موسى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ١/٦٥١ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٦/٧٣٣ .

(٣) أوطاس : وادٍ في ديار هوازن ، وهو غير وادي حُنين .

وسلم ، تَوَضَّأَ ، ثم رَفَعَ يديه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ اغفِر لعُبَيدِك أبي عامر » حتىٰ رأيتُ بياضَ إبطَيْه ثم قال : « اللَّهُمَّ اجعَلهُ يومَ القيامة فوقَ كثيرٍ من خَلقِك » فقلتُ : وليَ يا رسولَ الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اغفِر لعبدِ الله بن قيسٍ ذنبَه وأدخِلهُ يومَ القيامة مُدخَلاً كريماً »[1] .

وعن محمد بنِ أسامة بن زيد عن أبيه قال : لمَّا ثَقُلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هَبَطتُ وهَبَطَ النَّاسُ المدينةَ ، فدخلتُ عليه ، وقد أُصْمِتَ فلا يَتَكلمُ ، فجعلَ يضعُ يَدَيْهِ عليَّ ثم يرفعُها ، فأعرفُ أنَّه يدعو لي[2] .

عن مُغيرةَ بن حَكيم : قالت فاطمةُ بنتُ عبد الملك بن مَرْوان امرأةُ عُمرَ بنِ عبد العزيز : حَدَّثنا مُغيرةُ أنَّه يكونُ في النَّاسِ مَن هو أكثرُ صلاةً وصياماً من عُمرَ بنِ عبد العزيز ، وما رأيتُ أحداً أشَدَّ فَرَقاً من ربِّه منه ، كان إذا صَلَّى العِشَاءَ قَعَدَ في مَسْجِدِه ، ثمَّ يَرفعُ يَدَيْه فلَم يَزَلْ يَبكي حتىٰ تَغلِبُه عَينُه ، ثم يَنتَبهُ ، فلا يزالُ يَدعُو رافعاً يديْه يبكي حتىٰ تَغلِبُه عينُه ، يفعلُ ذلك ليلَهُ أَجْمَع[3] .

قال سُليم بنُ عامر : دخلتُ على الجَرَّاح ، فرفعَ يديه ، فرفع الأمراءُ أيديَهم ، فمكثَ طويلاً ، ثم قال لي : يا أبا يحيىٰ ، هل تدري ما كُنَّا فيه ؟ قلتُ : لا ، وجدتُكم في رغبةٍ ، فرفعتُ يَدَيَّ معكم ، قال : سألنا اللهَ الشهادةَ ، فوالله ما بَقيَ منهم أحدٌ في تلك الغزوة حتى استُشهد[4] .

٦ـ التواضع فيه :

قال أحمدُ بنُ أبي الحَوَاريّ : جاءَ إلىٰ أبي مُعَاويةَ الأسْود جماعةٌ ، ثمَّ قالوا : ادعُ اللهَ لنَا فقالَ : اللَّهُمَّ ارحَمْنِي بهم ، ولا تَحْرمْهم بي[5] .

---

(١) انظر السير : (أبي موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/٢٧٨ .
(٢) انظر السير : (أسامة بن زيد) ٢/ ٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/٢٩٧ .
(٣) انظر السير : (عمر بن عبد العزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٩١ .
(٤) انظر السير : (أبو عُقْبة الجَرَّاح) ٥/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٥ .
(٥) انظر السير : (معاوية بن الأسود) ٩/ ٧٨ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/٧٩٩ .

(ج) الذنوب تمنع الإجابة :

قال يَحْيىٰ بنُ مُعَاذ : لا تَسْتَبْطِىء الإجابةَ وقد سَدَدتَ طريقَها بالذُّنوب[1] .

(د) صور من إجابة الدعاء :

وعن قَيسٍ أخبَرَني سعدُ بنُ أبي وقَّاص أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لسَعدٍ إذا دَعَاكَ » .

وعن جابر بنِ سمرة ، قال : شَكا أهلُ الكُوفَة سَعداً إلىٰ عُمرَ ، فقالوا : إنَّه لا يُحْسنُ أن يُصلِّي فقال سعدٌ : أمَّا أنا ، فإنِّي كنتُ أصلِّي بهم صَلاةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، صَلاتَي العَشيّ لا أَخرمُ منها ، أَرْكُدُ[2] في الأُولَيَيْن وأحذِفُ في الأُخْرَيَيْنِ ، فقال عمرُ : ذاكَ الظَّنُّ بك يا أبا إسْحاق ، فبعث رجالاً يسألون عنه بالكوفة ، فكانوا لا يأتون مسجداً من مساجد الكوفة ، إلاَّ قالوا خَيراً ، حتىٰ أتوا مَسجداً لبني عيسىٰ ، فقال رجلٌ يُقالُ له أبو سعدة : أما إذا نَشدتُمونا بالله ، فإنَّه كان لا يَعْدِلُ في القَضيَّة ، ولا يَقْسمُ بالسَّويَّة ، ولا يَسيرُ بالسَّريَّة ، فقالَ سعدٌ : اللَّهُمَّ إنْ كان كاذباً ، فأعْمِ بَصَرَه ، وأَطِلْ عُمُرَه ، وعَرِّضْهُ للفِتَنِ .

قالَ عبدُ الملك : فأنا رأيتُهُ بعدُ يتعرَّض للإماءِ في السِّكَك ، فإذا سُئلَ كيف أنتَ ؟ يقولُ : كبيرٌ مَفتونٌ ، أصابَتْني دَعوةُ سعد » مُتفقٌ عليه[3] .

وعن ابنِ المُسَيِّب أنَّ رَجُلاً كان يَقَعُ في عليّ وطلحة والزُّبَير ، فجَعَلَ سعدُ بنُ أبي وَقَّاص يَنْهَاه ويقولُ : لا تَقَعْ في إخواني ، فَأَبَىٰ فقَامَ سعدٌ ، وصَلَّىٰ ركعَتَين ودعا ، فجاءَ بُختيٌّ[4] يشُقُّ النَّاسَ فأخَذَه بالبلاط ، فوضَعَه بين كِركِرته والبلاط حتىٰ سَحَقَه ، فأنا رأيتُ النَّاسَ يَتْبَعونَ سعداً ويقولون : هَنيئاً لك يا أبا إسحاق ! ! اسْتُجيبَت دعوتُك .

---

(١) انظر السير : (يحيى بن معاذ) ١٣/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٤٧ .

(٢) أركد : أي أُطيل .

(٣) انظر السير : (سعد بن أبي وقاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥ .

(٤) البختي : الإبل الخراسانية تنتج من بين عربي ودخيل ، والكركرة : زور البعير .

قال الذهبيُّ : وفي هـٰذا كرامةٌ مُشْتَرَكةٌ بينَ الدَّاعي والذين نِيْلَ منهم[1] .

وعن هشام بنِ عُروة ، عن أبيه أنَّ أَرْوَىٰ بنتَ أويسٍ ادَّعَتْ أنَّ سعيدَ ابنَ زَيدٍ أَخَذَ شَيئاً من أرضِها فخَاصَمَته إلىٰ مَرْوان ، فقال سعيدُ : أنا كُنتُ آخُذُ مِن أرضِها شيئاً بعدَ الذي سَمعتُ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟!! ، سَمعتُه يقولُ : « مَنْ أَخَذَ شَيْئاً مِن الأرضِ طُوِّقَهُ إلىٰ سَبْعِ أرْضِين » ، قال مَروانُ : لا أسألُكَ بيِّنةً بعدَ هـٰذا ، فقال سعيدٌ : اللَّهُمَّ إنْ كانتْ كاذبةً فأعْمِ بَصَرَها ، واقْتُلْها في أرضِها ، فما ماتت حتىٰ عَمِيَتْ ، وبينا هي تمشي في أرضِها إذ وَقَعَتْ في حُفرةٍ فماتت[2] .

وعن أنسٍ مرفوعاً قال : « كمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ذي طِمرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ على اللهِ لأَبَرَّه ، منهم البَرَاءُ بنُ مالك » .

وإنَّ البَرَاءَ لقِيَ المشركين وقد أوجَعَ المشركون في المسلمين ، فقالوا له : يا بَرَاء ، إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : إنَّكَ لَو أَقْسَمتَ على الله لأَبَرَّك ، فأَقْسِم علىٰ رَبِّك قال : أُقسِمُ عليك يا ربِّ لما مَنَحتَنا أكتافَهم[3] .

قال ابنُ شَوْذَب : بَلَغَ ابنَ عُمَرَ أنَّ زِيادَ بنَ أبيه كَتَبَ إلىٰ مُعاوية : إنِّي قد ضَبَطتُ العراقَ بيَمِينٍ ، وشِمالي فَارِغة ، وسَأَلَه أن يُوَلِيه الحِجَازَ فقال ابنُ عُمَر : اللَّهُمَّ إنَّك إنْ تَجعَلْ في القَتل كَفَّارةً ، فمَوْتاً لابن سُميّة لا قَتلاً فَخَرجَ في أصْبعه طاعونٌ فمات .

وقال الحَسَنُ البَصْريّ : بَلَغَ الحَسَنَ بنَ عليّ أنَّ زِيَاداً يَتَتَبَّعُ شِيعَةَ عليّ بالبَصرةِ ، فيَقْتُلُهُم فدَعَا عليه[4] .

وقال الوَاقِديُّ : جَهَّزَ مُعَاويةُ بنُ أبي سُفيان ، عُقبَةَ بن نافعٍ القُرَشيّ علىٰ عشرةِ آلاف ، فافتَتَحَ إفريقية واخْتَطَّ قَيرَوانَهَا ، وكان المَوضِعُ غَيْضَةً لا يُرامُ من السِّباعِ والأفاعِي فدعا عليها ، فلَمْ يَبْقَ فيها شيءٌ ، وهَرَبُوا حتىٰ إنَّ الوُحُوشَ لَتَحمِلُ أولادها .

---

(١) انظر السير : (سعد بن أبي وقاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ١٣٥/ ٤ .
(٢) انظر السير : (سعيد بن زيد) ١/ ١٢٤ـ ١٤٣ ، وانظر النزهة : ١٣٩/ ٣ .
(٣) انظر السير : (البراء بن مالك) ١/ ١٩٥ـ ١٩٨ ، وانظر النزهة : ١٤٧/ ٣ .
(٤) انظر السير : (زياد بن أبيه) ٣/ ٤٩٤ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٤١٥/ ٢ .

فحَدَّثني موسىٰ بنُ عليّ عن أبيه ، قالَ : نادَىٰ : إنَّا نازِلونَ فاظْعَنوا ، فخَرَجْنَ من جِحَرَتِهنَّ هَوارب .

ورَوَىٰ نَحوَه محمدُ بنُ عَمرو ، عن يَحْيَىٰ بنِ عبد الرحمـٰن بنِ حاطِب قال : لمَّا افْتَتَحَ عُقْبَةُ إفْريقيَّةَ ، قال : يا أهلَ الوَادي ، إنا حالُّون إنْ شاءَ الله ، فاظْعَنوا ، ثلاثَ مرَّات ، فما رَأيْنا حَجَراً ولا شَجَراً إلاَّ يَخرُجُ من تَحْته دابَّةٌ حتىٰ هَبَطْنَ بَطنَ الوَادي ، ثم قال للنَّاسِ : انزِلوا باسمِ الله .

وعن مُفضَّل بن فَضَالة ، قال : كان عُقبَة بن نافع مُجابَ الدَّعوة[1] .

وعن محمَّدِ بنِ زِياد ، عن أبي مُسلم الخَولانيّ أنَّ امرأةً خَبَّبَتْ عليه[2] امرأتَه ، فدَعَا عليها فعَمِيَت ، فأتَتْه فاعتَرَفَت وتابَتْ قال : اللَّهُمَّ إنْ كانت صادِقَةً ، فارْدُدْ إليها بَصَرَها ، فأبْصَرَت[3] .

وعن بلال بنِ كعب ، أنَّ الصِّبيانَ قالوا لأبي مُسلمٍ الخَولانيّ : أُدْعُ الله أنْ يَحبسَ علينا هـٰذا الظَّبيَ فنأخُذَه ، فَدَعَا الله فحَبَسَه فأخَذُوه[4] .

وعن قَتَادَة قال : كان عامرُ بنُ قَيْس يَسْألُ رَبَّه أنْ يَنزِعَ شَهوةَ النِّساء من قَلبه ، فكَانَ لا يُبَالي أَذَكَرَاً لَقِيَ أمْ أُنثَىٰ ، وسَأَلَ رَبَّه أنْ يَمْنَعَ قَلبَه من الشَّيطانِ وهو في الصَّلاة فلَم يَقْدِر عليه[5] .

وقالَ مهديُّ بنُ مَيْمون : حدَّثنا غيلانُ بنُ جَرير أنَّه كان بين مطرفِ ابنِ عبد الله وبين رجلٍ كلامٌ فكَذَبَ عليه فقال : اللَّهُمَّ إنْ كان كاذباً فأمِتْه فخرَّ مَيِّتاً مكانه قال : فرُفِعَ ذلك إلىٰ زِياد فقال : قَتَلتَ الرجلَ قال : لا ولكنَّها دعوةٌ وافَقَتْ أَجَلاً[6] .

---

(١) انظر السير : (عقبة بن نافع القرشيّ) ٣/ ٥٣٢ـ ٥٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٤٢٠ .
(٢) يُقالُ: خَبَّبَ فلان علىٰ فلان صديقه إذا أفسده عليه .
(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٥/٤٣١ .
(٤) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ١/٤٣٢ .
(٥) انظر السير : (عامر بن قيس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣٣ .
(٦) انظر السير : (مطرف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ١/٤٧٥ .

وعن عليّ بنِ زَيد قال : قال لي سعيدُ بنُ المُسَيِّب : قُلْ لقائِدِكَ يقومُ فينظُر إلىٰ وَجْهِ هـٰذا الرجلَ وإلىٰ جَسَدِه ، فقامَ وجاءَ قال : رأيتُ وَجْهَ زِنجيٍّ وجَسَدُه أبيَضُ ، فقال سعيدٌ : إنَّ هـٰذا سَبَّ هـٰؤلاء : طلحَةَ والزُّبَيرَ وعَليّاً رضي الله عنهم ، فنَهَيْتُه فأَبَىٰ فدَعَوتُ اللهَ عليه ، قلتُ : إنْ كُنتَ كاذِباً فَسَوَّدَ الله وجهَك ، فخَرَجَتْ بوجهِهِ قَرْحَةٌ ، فاسْوَدَّ وجهُه[1] .

وعن أصبغ بن زَيد قال : كان لسعيد بن جُبير ديكٌ ، كان يقومُ من الليل بصِيَاحِه ، فلَم يَصِحْ ليلةً من الليالي حتىٰ أصْبَحَ ، فلَمْ يُصَلِّ سعيدٌ تلك الليلة فشَقَّ عليه ، فقال : مَا لَه قَطَعَ الله صَوتَه ؟ فمَا سُمعَ له صَوتٌ بعد ذلك فقالت له أُمُّه : يا بُنَيّ لا تَدْعُ علىٰ شيءٍ بعدها[2] .

وقال سُليمُ بنُ عامر : دخَلتُ على الجَرَّاح ، فرَفَعَ يَدَيْه ، فرَفَعَ الأُمراءُ أيدِيَهُم ، فمَكَثَ طويلاً ، ثمَّ قال لي يا أبا يَحيَىٰ ، هل تَدري ما كُنَّا فيه ؟ قلت : لا وَجَدتُّكم في رَغبَةٍ ، فرَفَعْتُ يدي معكم ، قال : سألْنَا الله الشَّهادةَ ، فوالله ما بَقِيَ منهم أحَدٌ في تلكَ الغَزْوةِ حتى اسْتُشهِد[3] .

وكان الخَليلُ بنُ أحمدَ الفَرَاهيديّ رأساً في لسَان العَرَب ، دَيِّناً ، وَرِعاً ، مُتَواضِعاً ، كَبيرَ الشَأن ، يُقالُ : إنَّه دَعَا اللهَ أنْ يَرزُقَه عِلماً لا يُسْبَقُ إليه ، فَفَتَحَ الله عليه بالعَروض ، وله كتاب « العَيْن » في اللغة[4] .

وقال أحمدُ بنُ فُضَيل العَكِّيّ : غَزَا أبو مُعَاوية الأسْود ، فحَضَرَ المسلمون حِصْناً فيه عِلْجٌ لا يَرمي بحَجَرٍ ولانُشَّابٍ إلاَّ أَصَاب ، فَشَكَوا إلىٰ أبي مُعَاوية ، فَقَرأَ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[5] ، اسْتُروني منه ، فَلمَّا وَقَفَ قال : أينَ تُريدُونَ

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٨٨ .
(٢) انظر السير : (سعيد بن جُبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٠٥ .
(٣) انظر السير : (الجَرَّاح) ٥/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٩٥ .
(٤) انظر السير : (الخليل بن أحمد الفراهيدي) ٧/ ٤٢٩ـ ٤٣١ ، وانظر النزهة : ٩/ ٧١٢ .
(٥) سورة الأنفال : (١٧) .

بإذنِ الله ؟ قالوا المَذَاكير فقَالَ : أيْ ربِّ قد سَمعتَ ما سَألُوني ، فأعْطِني ذلك : باسْمِ الله ، ثُمَّ رَمَىَ المَذَاكِير ، فوَقَع[1] .

رَوَىٰ أبو نُعَيم ، عن أبيه ، عن خاله ، أنَّ النِّباجيَّ كان مُجَابَ الدَّعوةِ ، وله آياتٌ وكَرَاماتٌ ، كان في سَفَرٍ ، فأصَابَ رجلٌ عائِنٌ ناقَتَه بالعَيْن ، فجَاءَه النِّباجيُّ ، ودعا عليه بألفاظٍ ، فخَرَجَتْ حَدَقَتَا العائِن ، ونَشَطَتْ النَّاقَةُ[2] .

وقال عَبَّاسُ الدُّوريّ : حَدَّثنا عليُّ بنُ أبي فَزَارَة جَارُنا ، قال : كانت أُمي مُقعَدَة من نَحوِ عشرين سنة فقالت لي يوماً : اذهَبْ إلىٰ أحمدَ بنِ حنبل ، فَسَلْه أنْ يَدعُوَ لي ، فأتَيْتُ ، فدَقَقْتُ عليه وهو في دِهلِيزِه ، فقال : مَنْ هـٰذا ؟ قلتُ : رجلٌ سَألَتنِي أُمِّي وهي مُقعَدَةٌ أنْ أسْألَكَ الدُّعاء فسَمِعتُ كَلامَه كَلامَ رجلٍ مُغْضَب فقال : نَحْنُ أَحْوَجُ أنْ تَدعُوَ اللهَ لنا فوَلَّيتُ مُنصَرِفاً ، فخَرَجَتْ عَجُوزٌ ، فقالت : قد تركتُه يَدعُو لها ، فجِئتُ إلىٰ بَيْتِنا ودقَقتُ البَابَ ، فخَرَجَتْ أُمي علىٰ رِجلَيْها تَمشِي .

هـٰذه الواقِعَةُ نقَلَهَا ثِقتَان عن عَبَّاس الدُّوريّ[3] .

وقال أحمدُ بنُ بُندار الشَّعار : حدثنا أبو يَحيَىٰ بنُ الرَّازيّ : سَمعتُ عليَّ بنَ سعيدٍ الرَّازي قال : صِرنا مع أحمدَ بنِ حنبل إلىٰ بابِ المُتَوكل ، فلَمَّا أَدْخَلُوه من بابِ الخَاصَّة قال : انصَرِفُوا ، عافاكم الله فمَا مَرِضَ منَّا أَحَدٌ بعد ذلكَ اليَوم[4] .

قال السُّلَميُّ في « مِحَن الصُّوفيّة » قال محمدُ بنُ الفَرْخيّ : كنتُ مع ذي النُّون في زَوْرَقٍ ، فمَرَّ بنا زَوْرقٌ آخر ، فقِيلَ لذي النُّون : إنَّ هـٰؤلاء يَمُرُّونَ إلى السلطان ، يَشهَدُون عليكَ بالكُفر فقال : اللَّهُمَّ إن كانوا كاذبين ، فغَرِّقهم ، فانقَلَبَ الزَّوْرَقُ وغَرِقُوا فقلتُ له : فما بالُ المَلاَّح ؟ قال : لِمَ حَمَلَهم وهو يعلمُ قَصْدَهُم ؟ ولأَنْ يقفُوا بين يَدَي الله غَرقَىٰ خَيرٌ لهم من أن يقفوا شُهُودَ زُور ، ثم انتَفَضَ وتَغَيَّر ، وقال :

---

(١) انظر السير : (أبو معاوية الأسود) ٩/ ٧٨ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٩٩ .
(٢) انظر السير : (النِّباجيّ) ٩/ ٥٨٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٤٢ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٢٨ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٤٥ .

وعِزَّتِكَ وجَلالِكَ لا أدْعُو علىٰ أحدٍ بعدها ثم دَعَاهُ أميرُ مصرَ ، وسَأَلَهُ عن اعتِقَادِه ، فتكَلَّمَ ، فرَضِيَ أَمرَه وطَلَبَه المتوكل ، فلمَّا سَمعَ كَلامَه ولِعَ به وأحَبَّه وكان يقولُ : إذا ذُكِرَ الصَّالحونَ ، فَحَيَّهلا بذي النون[1] .

وقال الحاكمُ : حَدَّثَنا الحافِظُ أبو علي النَّيسَابُوري عن شُيوخِه أنَّ ابنَ المُبَارك نَزَلَ مرةً برأسِ سِكَّةِ عيسىٰ ، وكان الحَسَنُ بنُ عيسىٰ يَركبُ فيُجتَازُ به وهو في المَجلس وكان من أحسَنِ الشَّباب وجهاً ، فسَأَلَ ابنُ المُبارك عنه فقِيلَ : هو نَصْرَانيّ فقالَ : اللَّهُمَّ ارزُقهُ الإسلامَ ، فاسْتُجِيبَ له .

قال أبو العَبَّاس السَّرَّاج : حَدَّثنا الحَسَنُ بنُ عيسىٰ مَولَىٰ عبد الله ابن المُبارك ، وكان عاقِلاً ، عُدَّ في مَجلِسِه ببابِ الطَّاقِ[2] اثنا عَشر ألفَ محبَرَة[3] .

وقال عليُّ بنُ عُمر الحَرَّانِيّ سَمعتُ حَمزَةَ بنَ محمد الحَافِظ ، وجاءَه غَريبٌ فقال : إنَّ عَسْكَرَ أبي تَميمٍ ـ يَعني المَغَارِبة ـ قد وصَلُوا إلى الإسْكندرية فقالَ : اللَّهُمَّ لا تُحْيِيني حتىٰ تُرِيني الرَّايَاتِ الصُّفْر ، فمَاتَ حَمزةُ ودَخَلَ عَسْكَرُهم بعد مَوْتِه بثلاثة أيام[4] .

قال الذهبيُّ : هـٰؤلاء عَسكرُ المُعزِّ العُبَيديّ الإسماعيليَّة ، تَملَّكوا مصرَ في هـٰذا الوقت ، وبنوا في الحال مدينة القاهرة المُعِزِّيَّة ، فأماتوا السُّنَّة ، وأظْهَروا الرَّفضَ ، ودامت دولتُهم أزيَدَ من مئتي عام ، حتىٰ أبادَهم السلطانُ صلاحُ الدين ، ونَسَبُهم إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه غيرُ صحيح[5] .

وقال أبو سَعدٍ السَّمعانيُّ : سَمعتُ مَنْ أثِقُ بِه أنَّ ابنَي أبي بكرٍ الشَّاشيِّ قاما في مجلسِ وَعْظِ يُوسُف ابن أيُّوب وقالا له : إنْ كُنتَ تَنْتَحِلُ مَذْهَبَ الأشْعَرِيِّ وإلاَّ فانزِل

---

(١) انظر السير : (ذي النون المصريّ) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٦٨ .

(٢) وهي محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلّىٰ ، وتُعرف أيضاً بطاقةِ أسماء ، نسبةً إلىٰ أسماء بنت المنصور .

(٣) انظر السير : (الحَسَن بن عيسَى بن ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٧٦ .

(٤) انظر السير : (حمزة بن محمد) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٨١ .

(٥) انظر السير : (حمزة بن محمد) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٨١ .

فقال : اقْعُدا لا مُتِّعتُما بشَبابِكُما ، فسَمِعتُ جماعةً أنَّهما ماتا قبلَ أن يَتكَهَّلا[1] .

ورَوَى ابنُ عَسَاكِر عن الإمام أبي الحَجَّاج الفَنْدلاويّ قال : كان حَسَنَ المُفاكَهَة ، حُلوَ المُحاضَرَة ، شَديدَ التَعَصُّب لمَذهَب أهلِ السُّنَّةِ ، كَريماً مُطَّرِحاً للتَّكَلُّفِ ، قَويَّ القلبِ ، وكان يَخْطُبُ ليلةَ الخَتمِ في رمَضَانَ رجلٌ في حَلقةِ الفَنْدلاويّ وعنده أبو الحَسَن بنُ المُسلم الفَقيه ، فرَمَاهُم واحدٌ بحَجَرٍ ، فلَمْ يُعرَف ، فقال الفَنْدَلاويّ : اللَّهُمَّ اقطَعْ يَدَه فما مضىٰ إلاَّ يَسيرٌ حتىٰ أُخِذَ حُضَيرٌ من حَلقَة الحَنَابلة ، ووُجِدَ في صُندوقِه مفَاتيحُ كثيرةٌ للسَّرِقَة فأمَرَ شَمسُ المُلوكِ بقَطعِ يَدَيْه ، فمَاتَ من قطعِهما[2] .

وقال الحَسَنُ بنُ أحمدَ الأوقيُّ : كانوا يَأتُون السِّلَفيَّ ، ويطلُبون منه دُعاءً لعُسْرِ الوِلادةِ ، فيَكتُبُ لمَن يَقْصِدُه ، قال : فلمَّا كَثُرَ ذلك نَظَرْتُ فيما يَكتُب ، فوَجَدتُّه يكتُب : اللَّهُمَّ إنَّهم قد أَحْسَنُوا ظَنَّهم بي ، فلا تُخَيِّب ظَنَّهم فيَّ[3] .

وحَكَى القاضي ضياءُ الدِّين بنُ الشَّهرزوريِّ أنَّ القاضي لمَّا سَمِعَ أنَّ العادلَ أخَذَ مصرَ ، دعا بالموتِ خشيةَ أنْ يَستَدعيَه وزيرُهُ ابنُ شُكرٍ ، أو يُهينَهُ ، فأصْبَحَ مَيْتاً ، وكان ذا تَهَجُّدٍ ومُعَامَلة[4] .

وقالَ الحَافظُ الضِّيَاء سَمعتُ الإمامَ عبدَ الرَّحمٰنِ بنَ محمدِ بنِ عبدِ الجَبَّار يقولُ : حَدثني جماعةٌ من جَمّاعيل منهم خالي عُمر بنُ عَوض قال : وَقَعَت في جَمّاعيل فِتنَةٌ فخَرَجَ بعضُهم إلىٰ بعضٍ بالسُّيُوف ، وكان ابنُ راجح عندنا قالوا : فسَجَدَ ودعا ، قالوا : فضَرَبَ بعضُهم بعضاً بالسُّيوف فمَا قَطَعَتْ شَيئاً قال ابنُ عُمر فلقد رأيتُني ضَرَبتُ بسَيْفي رجلاً ، وكان سَيفاً مَشْهُوراً ، فمَا قَطَعَ شيئاً ، وكانوا يَرَونَ أنَّ هٰذه ببرَكَةِ دُعائه[5] .

---

(١) انظر السير : (يُوسُف بن أيُّوب) ٢٠/٦٦ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣١ .
(٢) انظر السير : (الفَندلاويّ) ٢٠/٢٠٩ـ٢١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٢ .
(٣) انظر السير : (السِّلفيّ) ٢١/٥ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٩٣ .
(٤) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/٣٣٨ـ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٣٠ .
(٥) انظر السير : (ابن راجح) ٢٢/١٥٦ـ١٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٠ .

(هـ) مُتفرِّقاتٌ في الدُّعاء :

١ـ مَنْ دَعا بالاسْمِ الأعْظَم فاسْتُجيبَ له ولكنَّه عُوقِب :

قال الرَّازيُّ : سَمعتُ عليَّ بنَ محمد المصريّ ـ ونحن في جنازةِ ابنِ أبي حاتم ـ يقول : قَلَنْسُوة عبد الرحمـٰن من السَّماء ، وما هو بعجب ، رجلٌ مُنذُ ثَمانينَ سنةً علىٰ وتيرةٍ واحدة ، لَم يَنحَرِفْ عن الطريق ، وسَمعتُ عليَّ بنَ أحمد الفَرَضي يقول : ما رأيتُ أحداً ممن عَرَفَ عبدَ الرَّحمـٰن ذَكَرَ عنه جَهَالةً قَطُّ وسَمعتُ أحمدَ بنَ محمد بنِ الحُسَيْن الحافظ يَحكي عن عليّ بنِ الحُسَيْن الدَّرستيني ، أنَّ أبا حاتم كان يَعرفُ الاسمَ الأعْظَم ، فَمَرِضَ ابنُه ، فاجتَهَدَ أنْ لا يَدعُوَ به ، فإنَّه لا يُنالُ به الدُّنيا ، فلمَّا اشْتَدَّت العِلة ، حَزِنَ ودعا به ، فعُوفِي ، فرأىٰ أبو حاتم في نومه : استجبتُ لك ولكنْ لا يُعقِبُ ابنُك فكان عبدُ الرحمـٰن مع زوجته سَبعين سنةً فلَم يُرزَق ولداً[1] .

٢ـ الدُّعَاء بطُول البَقَاء :

رَوَىٰ أبو عُمَر الضَّرير ، عن أبي عَوانة قال : دخلتُ علىٰ هَمَّام ابنِ يَحيىٰ وهو مريضٌ ، أعُودُه ، فقال لي : يا أبا عوانة أُدْعُ الله أنْ لا يُميتَني حتىٰ يَبلغَ ولدي الصغار فقلتُ : إنَّ الأجَلَ قد فُرِغَ منه ، فقال لي : أنتَ بعدُ في ضلالك[2] .

قال الذهبيُّ : بئسَ المقالُ هـٰذا ، بل كُلُّ شيء بقدرٍ سابق ، ولكنْ وإنْ كان الأجَلُ قد فُرِغَ منه ، فإنَّ الدعاءَ بطولِ البقاءِ قد صَحَّ دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لخادِمِه أَنَس بطولِ العُمر ، والله يَمحُو ما يشاءُ ويُثبِتُ فقد يكونُ طولُ العُمرِ في عِلمِ الله مَشْروطاً بدعاء مُجاب ، كما أنَّ طَيَرانَ العُمر قد يكونُ بأسبابٍ جعلها من جَوْرٍ وعَسف ، و« لا يَرُدُّ القَدَرَ إلاَّ الدُّعاء » والكتاب الأول فلا يَتَغَيَّر[3] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بنُ أبي حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٩ .
(٢) انظر السير : (أبو عوانة) ٨/ ٢١٧ـ ٢٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٥ .
(٣) انظر السير : (أبو عوانة) ٨/ ٢١٧ـ ٢٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/٧٤٥ .

٣ـ طَلبُ الدُّعَاء من المَلائكة :

عن بِشْرِ بنِ الحارث ، سمعَ أبا بكر بنَ عَيَّاش يقول : يا مَلَكَيَّ ادعُوَا الله لي ، فإنَّكُما أطْوَعُ لله منِّي[١] .

٤ـ الدُّعَاء بعدَ الصَّلاة :

وعن ابنِ أبي روَّاد قال : رأيتُ طاوُوساً وأصحابَه إذا صَلوا العَصرَ ، استقبَلوا القِبلةَ ، ولم يُكلِّموا أحَداً ، وابتَهَلُوا بالدعاء[٢] .

عن ابنِ شَوْذَب قال : كان أيُّوبُ السِّخْتياني يَؤمُّ أهلَ مسجَدِه في شهر رمضَان ، ويُصلي بهم في الركعةِ قدرَ ثلاثين آية ، ويُصلي لنفسِه فيما بين التَّرويحَتَين بقدر ثلاثين آية وكان يقول هو بنفسه للناس : الصلاة ، ويُوتِرُ بهم ، ويَدعو بدُعاء القرآن ، ويُؤَمِّنُ مَنْ خلفَه ، وآخر ذلك يُصلي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ويقولُ : اللَّهُمَّ استعمِلنا بسُنَّته وأَوْزِعنا بهَديِه واجعَلنا للمتقين إماماً ، ثمَّ يَسجُدُ ، وإذا فَرَغَ من الصَّلاة دعا بدَعَوَات[٣] .

٥ـ رُؤيا فيها حَثٌّ على الدُّعَاء :

قال الحاكمُ : سَمعتُ الشيخَ أبا بكر الصِّبغيّ يقولُ : رأيتُ في مَنَامي كأنِّي في دارٍ فيها عُمَرُ بنُ الخَطَّاب ، وقد اجتَمَعَ النَّاسُ عليه يَسألونَه المَسَائلَ ، فأشَارَ إليَّ : أنْ أُجِيبَهم ، فما زِلتُ أُسأَلُ وأُجيبُ وهو يقولُ لي : أَصَبتَ امضِ ، أَصَبتَ امضِ ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، ما النَّجَاةُ من الدُّنيا أو المَخرَجُ منها ؟ فقال لي بإصْبعه : الدعاء ، فأعدتُ عليه السَّؤالَ فجَمَعَ نفسَه كأنَّه ساجِدٌ لخُضُوعِه ثم قال : الدعاء[٤] .

---

(١) انظر السير : (أبو بكر بن عياش) ٨/ ٤٩٥ـ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٨٧ .
(٢) انظر السير : (طاووس) ٥/ ٣٨ـ٤٩ ، وانظر النزهة : ٣/٥٧٩ .
(٣) انظر السير : (أيوب السختياني) ٦/ ١٥ـ٢٦ ، وانظر النزهة : ١٠/٦٢٦ .
(٤) انظر السير : (الصبغيّ) ١٥/ ٤٨٣ـ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٥٠ .

(و) أدعية مُجرّبة في كشف الضر :

عن طاووس : سَمعتُ عليَّ بنَ الحُسَين وهو ساجدٌ في الحِجْرِ يقولُ : عُبَيدُكَ بِفِنائِك ، مِسْكينُكَ بِفِنائِك ، سائِلُكَ بِفِنائِك ، فقيرُكَ بِفِنائِك قال : فوالله ما دَعَوتُ بها في كربٍ قَطُّ إلاَّ كُشِفَ عنِّي[1] .

وعن عبدِ الملكِ بن عُمَير قال : حدثني أبو مُصعب أنَّ عبدَ الملك ابنَ مَروَان كتبَ إلىٰ هشام بنِ إسماعيل متولِّي المدينة : بلغَني أنَّ الحَسَنَ ابنَ الحَسَن يُكَاتِبُ أهلَ العِراق فاستَحْضِرهُ قال : فجِيءَ به فقال له عليُّ ابنُ الحُسَين : يا ابنَ عمٍّ قُلْ كَلمَاتِ الفَرَجْ[2] : « لا إلَـهَ إلاَّ اللهُ الحَليمُ الكَريم ، لا إلَـهَ إلاَّ اللهُ العَليُّ العَظِيم ، لا إلَـهَ إلاَّ اللهُ رَبُّ السَّموات السَّبعِ ورَبُّ الأرضِ رَبُّ العَرشِ الكريم » قال : فخُلِّي عنه[3] .

وعن الفضلِ بنِ الرَّبيع عن أبيه قال : دعاني المنصورُ فقال : إنَّ جَعفَرَ بنَ محمد يُلحِدُ في سُلطاني قتلني الله إنْ لَم أقتُلْه فأتَيتُه فقلتُ : أجِبْ أميرَ المؤمنين فتَطَهَّرَ ولبسَ ثياباً ، أحسَبُه قال : جُدُداً ، فأقبلتُ به فاستأذَنتُ له ، فقال : أدْخِلْه قتلني الله إنْ لَم أقتُلْه ، فلمَّا نَظَرَ إليه مُقبلاً قامَ من مجلسِه فتَلَقَّاهُ وقال : مرحباً بالنَّقيِّ السَّاحة ، البَرِيءُ من الدَّغَلِ والخِيانَة ، أخي وابنُ عمي ، فأقعَدَه معه علىٰ سَريرِه وأقبلَ عليه بوجهِه وسَأَلَه عن حالِه ، ثمَّ قال : سَلْنِي عن حاجتِك فقال : أهلُ مكةَ والمدينة قد تأخَّرَ عطاؤُهم فتأمُر لهم به قال : أفْعَل ، ثم قال : يا جارية ائْتِنِي بالتُّحْفَةِ فأتَتْهُ بمُدْهُن زجاج فيه غالية فغلفه بيده وانصرف فاتبعته فقلتُ : يا ابنَ رسولِ الله ، أتيتُ بك ولا أشُكُّ أنَّه قاتِلُك ، فكان منه ما رأيت وقد رأيتُك تُحَرِّكُ شَفَتَيْكَ بشيءٍ عند الدُّخُولِ فما هو ؟ قال : قلتُ : اللَّهُمَّ احْرُسْني بعينِك التي لا تَنَام واكنُفْنِي برُكنِك الذي لا يُرَام واحفَظْنِي

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥١٨ .

(٢) وأخرجه البخاري (١١/ ١٢٣) في الدعوات باب الدعاء عند الكرب ، ومسلم (٢٧٣٠) في الذكر والدعاء باب دعاء الكرب من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب « لا إلـه إلاّ الله العظيم الحليم ، لا إلـه إلاّ الله ربّ العرش العظيم ، لا إلـه إلاّ الله ربّ السماوات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم » .

(٣) انظر السير : (الحسن) ٤/ ٤٨٣ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٣٧ .

بقُدرتِك عليَّ ولا تُهلِكني وأنتَ رَجَائِي ربِّ كم من نِعمَةٍ أنعمتَ بها عليَّ قَلَّ لكَ عندها شُكرِي وكم من بَليَّة ابتَليتَنِي بها قَلَّ لك عندها صَبري ؟ فيا مَنْ قَلَّ عند نِعمَتِه شُكري فلَمْ يَحْرمني ، ويا مَنْ قلَّ عند بَليَّتِه صَبري فلَمْ يَخْذُلني ، ويا مَنْ رآني على المعاصي فلَمْ يَفْضَحنِي ، ويا ذا النِّعَمِ التي لا تُحْصَىٰ أبداً ، ويا ذا المَعرُوفِ الذي لا يَنقَطِعُ أبداً ، أعِنِّي علىٰ ديني بدُنيا وعلىٰ آخرتي بتقوىٰ ، واحفَظْني فيما غِبتُ عنه ولا تَكِلني إلىٰ نفسِي فيما خطرت يا مَنْ لا تَضُرُّه الذُّنوب ولا تنقصُه المَغفِرة اغفِرْ لي ما لا يَضُرُّك ، وأعطِني ما لا يَنْقُصُك يا وهَّابُ أسألك فَرَجاً قريباً وصَبراً جَمِيلاً ، والعافيةَ من جميع البَلايا وشكر العافية مات جعفرٌ الصَّادق في سنةِ ثمانٍ وأربعين ومئة ، وعُمرُه ثمانٍ وستِّين سنة رَحِمَه الله[1] .

وعن بَقيَّة ، قال : كُنَّا مع إبراهيمَ بنِ أدْهَم في البحرِ ، فهاجَت ريحٌ واضطَرَبَت السَّفينةُ ، وبَكَوْا فقُلنا : يا أبا إسحاق! ما ترى ؟ فقالَ : يا حيُّ حين لا حيَّ ، ويا حيُّ قبلَ كُلِّ حيٍّ ،ويا حيُّ بعد كُلِّ حيٍّ ، ويا حيُّ يا قيُّومُ يا مُحسِنُ ، يا مُجْمِلُ! قد أرَيتَنَا قُدرتَك ، فأرِنا عَفوَك فهَدَأتْ السَّفينةُ من ساعته[2] .

عن عَمرو بنِ السَّرحْ : قلتُ لذِي النُّونِ المِصْريّ : كيفَ خَلُصتَ من المُتوكِّل وقد أَمَرَ بقتلك!! ؟ قال : لمَّا أوصَلني الغُلام ، قلتُ في نفسِي : يا مَنْ ليسَ في البحارِ قَطَرَاتٌ ، ولا في دَيْلَجِ الرِّياح دَيْلَجاتٌ ، ولا في الأرضِ خَبيئاتٌ ، ولا في القُلوبِ خَطَراتٌ ، إلاَّ وهي عليكَ دَليلاتٌ ، ولكَ شاهداتٌ ، وبرُبُوبيَّتِكَ مُعترِفاتٌ ، وفي قُدرتِك مُتَحَيِّراتٌ ، فبالقُدرةِ التي تُجيرُ بها من في الأرضِين والسَّماوات إلاَّ صَلَّيتَ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، وأخَذتَ قَلبَه عَنِّي ، فقامَ المُتوَكِّل يَخطُو حتىٰ أعْتَقَنِي ، ثم قال : أتْعَبنَاكَ يا أبا الفَيض[3] .

وقال الضِّياءُ : اعتُقلَ الإمامُ عبدُ الغنيّ المَقدِسيّ في دارٍ أسبوعاً ، فسمعتُ أبا

---

(١) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٤٩ .

(٢) انظر السير : (إبراهيم بن أدهم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٠٨ .

(٣) انظر السير : (ذو النون المصريّ) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٦٨ .

موسىٰ يقول : سمعتُ أبي يقول : ما وجَدتُ راحةً في مصرَ مثل تلك اللَّيالي قال : وكانت امرأةٌ في دارٍ إلىٰ جانب تلك الدَّار ، فسَمعتُها تبكي وتقولُ : بالسِّرِّ الذي أوْدَعتَه قَلبَ موسىٰ حتىٰ قَوِيَ علىٰ حملِ كلامِك قال : فدَعَوتُ به فخلصتُ تلك الليلة[1] .

(ز) مُناجَاةٌ :

قال الإمامُ الذهبيُّ : تُوفِّي كهْمَس في سنةِ تسعٍ وأربعين ومئة وكان من حملة الحجة قال أبو عَطاء الرَّمليّ : كان كَهْمَس يقولُ في الليل : أَتُراكَ مُعذِّبي وأنت قُرَّةُ عيني ، يا حبيبَ قلباه![2] .

وعن محمد بنِ يَزيد الرِّفاعيّ قال : سَمعتُ عَمِّي يقول : خَرجتُ مع عُمر ابنِ ذَر إلىٰ مَكةَ ، فكان إذا لبَّىٰ لم يُلَبِّ أحدٌ من حُسنِ صَوتِه ، فلمَّا أتَى الحَرَمَ قال : ما زِلنَا نَهبطُ حُفرةً ونَصعَدُ أَكَمَةً ونَعلُو شَرَفاً ويبدُو لنا عَلَمٌ حتىٰ أتَيْناك بها نَقِبَةً أخفافُها ، دَبِرَةً ظُهورُها ذَبِلَةً أسْنامُها فليس أعظَمَ المؤنَة علينا إتْعابُ أبدانِنا ولا إنفاقُ أموالِنا ، ولكن أعظم المؤنَة أنْ نرجِعَ بالخُسرانِ! يا خيرَ مَن نَزَلَ النَّازلون بفنائه[3] .

وعن أبي يزيدِ البِسْطاميّ قال : هـٰذا فَرَحِي بك وأنا أخافُك ، فكيف فَرَحِي بك إذا أمِنْتُك ؟ ليس العَجَبُ من حُبِّي لك وأنا عبدٌ فَقِيرٌ ، إنَّما العَجَبُ من حُبِّكَ لي وأنتَ مَلِكٌ قديرٌ[4] .

(ح) نَمَاذجُ من دُعاء الصَّالحين :

وعن عبدِ الله بنِ مَسْعُود أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بين أبي بكرٍ وعُمَرَ ، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ قائمٌ يُصَلي فافتَتَحَ سورةَ النِّساء يُسَجِّلُها[5] ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ أنْ يَقْرَأَ القُرآنَ غَضّاً كما أُنزِلَ فليَقْرَأ قراءَةَ ابنِ أُمِّ عَبد » فأخَذَ عبدُ الله

---

(١) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٤٩ .
(٢) انظر السير : (كهمس) ٦/٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٥/٦٥٣ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/٦٦٠ .
(٤) انظر السير : (أبو يزيد البسطامي) ١٣/٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٥٤ .
(٥) أي يقرؤها قراءة مفصّلة .

في الدُّعاءِ فجَعَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « سَلْ تُعْطَ » فكان فيما سَأَلَ : اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ إيماناً لا يَرتَدُّ ونَعيماً لا يَنفَدُ ومُرافَقَةَ نَبيِّكَ محمد صلى الله عليه وسلم في أعلَىٰ جِنَانِ الخُلْد ، فأتىٰ عُمَرُ عبدَ الله يُبَشِّرُهُ ، فوَجَدَ أبا بكرٍ خارجاً قد سَبَقَه ، فقال : إنَّكَ لسَبَّاقٌ بالخير[1] .

وعن القاسمِ بنِ عبدِ الرَّحمـٰن أنَّ بنَ مَسْعودٍ كان يقولُ في دُعائِه : خائِفٌ مُستَجيرٌ ، تائِبٌ مُستَغفِرٌ ، راغِبٌ راهِبٌ[2] .

وعن مالكِ بنِ مِغوَل : حدثنا ابنُ بُرَيدَة عن أبيه قال : جاءَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، وأنا علىٰ بابِ المسجدِ ، فأخَذَ بيدي فأدخَلَني المسجدَ ، فإذا رجلٌ يُصَلي ، يَدعُو يقول : اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك بأنِّي أشهَدُ أنَّكَ أنتَ الله لا إلَـٰهَ إلاَّ أنْتَ الأحَدُ الصَّمَدُ الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَد ولَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ .

قال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسِي بيَدِه لَقَدْ سَأَلَ الله باسمِهِ الأعْظَم ، الذي إذا سُئِلَ به أعْطَىٰ وإذا دُعِيَ به أجاب » وإذا رجلٌ يَقْرأ فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد أُعْطِيَ هـٰذا مِزْماراً من مَزامِيرِ آلِ داود » ، قلتُ يا رسولَ الله ، أُخْبِرُهُ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نعم » فأخْبَرتُه فقال لي : لا تزالُ لي صَديقاً ، وإذا هو أبو موسىٰ[3] .

وعن مَسروقٍ قال : خَرَجنا مع أبي موسىٰ في غَزَاةٍ ، فَجَنَّنا الليلُ في بُستانٍ خَرِبٍ ، فقام أبو موسىٰ يُصلي ، وقَرَأَ قِراءةً حَسَنَة ، وقال : اللَّهُمَّ أنتَ المُؤمنُ تُحِبُّ المُؤمنَ ، وأنتَ المُهيمنُ تُحِبُّ المُهيمنَ ، وأنتَ السَّلامُ تُحِبُّ السَّلام[4] .

وكان مُطرِّفُ بنُ عبد الله بن الشِّخِّير يقولُ : اللَّهُمَّ ارضَ عَنَّا ، فإنْ لَمْ تَرضَ عنَّا فاعفُ عنَّا فإنَّ المَولَىٰ قد يَعفُو عن عبدِه وهو عنهُ غَيرُ راضٍ[5] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٩٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٩٧ .
(٣) انظر السير : (أبو موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٧٩ .
(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٨/ ٢٨٠ .
(٥) انظر السير : (مطرف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٧٦ .

وكان سعيدُ بنُ المُسيِّب يُكثِرُ أنْ يقولَ في مجلسِه : اللَّهُمَّ سَلِّم سَلِّم[1] .

وقال الشَّعبيُّ : خَطَبَ عبدُ الملكِ بنُ مَروان فقال : اللَّهُمَّ إنَّ ذُنوبي عِظامٌ ، وهي صِغارٌ في جنبِ عَفوِكَ يا كريم ، فاغفِرْها لي .

قال الذهبيُّ : كان عبدُ الملكِ بنُ مَروان من رجالِ الدَّهرِ ودُهاةِ الرِّجال ، وكان الحَجَّاجُ ابنُ يوسف الثَقَفيّ من ذُنُوبِه[2] .

وعن سعيدِ بنِ جُبَير قال : التَّوَكُّلُ على الله جِماعُ الإيمان وكان يَدعُو : اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ صِدقَ التَّوَكُّلِ عَليكَ وحُسنَ الظَّنِّ بك[3] .

وعن عليِّ بنِ الحُسَين قال : فَقْدُ الأحِبَّةِ غُربة وكان يقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك أنْ تُحَسِّنَ في لَوَائحِ[4] العُيونِ عَلانِيَتي وتُقَبِّحَ في خَفيَّاتِ العُيونِ سَريرَتي اللَّهُمَّ كما أسأتُ وأحْسَنتَ إليَّ ، فإذا عُدتُ فعُد عليَّ[5] .

قال زَيدُ بنُ أسْلَم : كان من دُعاءِ عليِّ بنِ الحُسَين : اللَّهُمَّ لا تَكِلْني إلىٰ نفسي فأعجزَ عنها ، ولا تَكِلْني إلى المَخلُوقين فيُضَيِّعُوني[6] .

وقال عُتبةُ بنُ عبد الله العَنبَريّ : سمعتُ بكراً المُزَنيّ يقولُ في دُعائِه : أصبحتُ لا أملِكُ ما أرجو ، ولا أدفَعُ عن نفسي ما أكره أمري بيدِ غَيرِي ، ولا فقيرَ أفقرُ منِّي[7] .

قال أبو الأشهب : سمعتُ بكرَ المزنيّ يقول : اللَّهُمَّ ارزُقنا رزقاً يَزيدُنا لك شُكراً ، وإليكَ فاقَةً وفَقْراً ، وبكَ عمَّن سِواكَ غِنىً

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٨٢ .
(٢) انظر السير : (عبد الملك بن مروان) ٤/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٩٠ .
(٣) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٠٥ .
(٤) لوائح الشيء : ما يبدو منه وتظهر علامته عليه .
(٥) انظر السير : (علي بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥١٩ .
(٦) انظر السير : (علي بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥١٩ .
(٧) انظر السير : (بكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٥٠ .

قال حُمَيدُ الطَّويل : كان بكرُ ابنُ عبد الله مُجَابَ الدَّعوة[1] .

وعن طَلقِ بنِ حَبيبٍ ، أنَّه كان يقول في دعائِه : اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ عِلمَ الخائفين منْكَ وخَوفَ العالِمين بكَ ، ويَقِينَ المُتوكلين عليكَ وتَوَكُّلَ المُوقِنين بكَ ، وإنابَةَ المُخبِتين إليكَ وإخْباتَ المُنيبين إليكَ ، وشُكرَ الصَّابرين لكَ وصَبرَ الشَّاكرين لكَ ، ولَحَاقاً بالأحْياءِ المَرزُوقين عندك[2] .

وعن اللَّيْثِ : كانَ ابنُ شِهابٍ الزُّهريّ يَختِمُ حديثَه بدُعاءٍ جامعٍ يقولُ : اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ من كُلِّ خيرٍ أحاطَ به عِلمُك في الدُّنيا والآخرةِ ، وأعوذُ بكَ من كُلِّ شيءٍ أحاطَ به عِلمُك في الدُّنيا والآخرةِ ، وكان من أَسْخَىٰ مَنْ رأيتُ ، كان يُعطِي ، فإذا فَرَغَ ما معه يَسْتَلِفُ من عَبيدِه ، ويقولُ : يا فُلانُ أسْلِفني كما تَعرفُ ، وأُضْعِفُ لكَ كما تَعلمُ ، كان يُطعِمُ النَّاسَ الثَّريدَ ويَسْقِيهِمُ العَسَلَ ، وكان يَسْمُرُ على العَسَلِ كما يَسْمُرُ أهلُ الشَّرابِ علىٰ شَرَابِهِم ، ويقول : اسْقُونا وحَدِّثُونا وكان يُكثِرُ شُربَ العَسَلِ ، وسَمعتُهُ يَبكي على العِلمِ بلِسَانِه ، ويقولُ : يَذْهَبُ العِلمُ ، وكثيرٌ ممن كان يعملُ به فقلتُ له : لَو وَضَعْتَ من عِلمِكَ عند مَنْ تَرجُو أنْ يكونَ لكَ خَلَفاً قال : والله ما نَشَرَ أحدٌ العِلمَ نَشْرِي ، ولا صَبرَ عليه صَبْرِي ، ولقد كُنَّا نَجلِسُ إلى ابنِ المُسَيِّب ، فما يَستطِيعُ أحدٌ منَّا أنْ يَسْألَه عن شيءٍ إلاَّ أنْ يَبتدِيءَ الحديثَ أو يأتيَ رجلٌ يسْألُه عن شيءٍ قد نزَلَ به[3] .

وعن ابنِ شَوذَب قال : كان أيُّوب السَّختيانيّ يؤُمُّ أهلَ مسجده في شهرِ رمضانَ ، ويُصلي بهم في الركعةِ قدرَ ثلاثينَ آية ، ويُصلي لنفسِه فيما بين الترويحَتين بقدر ثلاثين آية وكان يقولُ هو بنفسه للنَّاس : الصَّلاة ، ويُوتِرُ بهم ، ويَدعُو بدُعاء القُرآن ، ويُؤَمِّنُ مَنْ خلفَه وآخرُ ذلكَ يُصلِّي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ويقولُ : اللَّهُمَّ اسْتعمِلنا

---

(١) انظر السير : (بكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ١/٥٥١ .
(٢) انظر السير : (طلق بن حبيب العنزي) ٤/ ٦٠١ـ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/٥٦٧ .
(٣) انظر السير : (أخبار الزهريّ) ٥/ ٣٢٦ـ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٦/٦٠٦ .

بسُنَّتِه وأوْزِعنا بهَديهِ واجعَلنا للمُتقين إماماً ثم يَسجُدُ ، وإذا فَرَغَ من الصَّلاة دعا بدَعَوَاتٍ[1] .

وكان عَطَاءٌ السَّليميّ يقولُ في دُعائِه : اللَّهُمَّ ارْحَم غُربتِي في الدُّنيا ، وارْحَمْ مَصْرَعِي عند المَوت ، وارْحَم قِيامِي بين يديكَ[2] .

ودَخَلَ موسى الكاظِمُ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فسَجَدَ سجدةً في أولِ الليلِ وهو يقولُ في سُجُودِه : عَظُمَ الذَّنبُ عندي فليَحْسُن العَفوُ من عندكَ يا أهلَ التَّقوىٰ ويا أهلَ المَغفِرَة فجَعَلَ يُردِّدُها حتىٰ أصبَحَ[3] .

قال محمدُ بنُ يَزيدَ الرِّفاعيّ : حَدَّثني عَمِّي كثيرُ بنُ محمد قال : سَمعتُ عُمرَ بنَ ذرٍّ يقولُ : اللَّهُمَّ إنَّا قد أطَعْنَاكَ في أحَبِّ الأشياءِ إليكَ أنْ تُطَاعَ فيه : الإيمانُ والإقرارُ بك ، ولَمْ نَعْصِكَ في أبغَضِ الأشياءِ أنْ تُعْصَىٰ فيه : الكُفرُ والجَحْدُ بك ، اللَّهُمَّ فاغْفِر لنا بينهما ، وأنتَ قلتَ : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[4] ، ونحنُ نُقسِمُ بالله جَهْدَ أيمَانِنَا لَتَبْعَثَنَّ مَنْ يَمُوت أَفَتُراكَ تَجمَعُ بينَ أهلِ القَسَمَينِ في دارٍ واحدة ؟[5] .

وعن حَمزَةَ بنِ دهقان قال : قلتُ لبشرِ بنِ الحَارث : أُحِبُّ أنْ أخْلُوَ معَكَ قال : إذا شِئتَ فيكُونُ يوماً فرَأيتُه قد دَخَلَ قُبَّةً ، فَصَلىٰ فيها أربَعَ ركعاتٍ لا أُحسِنُ أصلي مثلها ، فسمعتُه يقولُ في سُجودِه : اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلمُ فوقَ عَرشِك أنَّ الذُّلَّ أَحَبُّ إليك من الشَّرفِ ، اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعلمُ فوقَ عَرشِك أنَّ الفَقْرَ أَحَبُّ إليك من الغِنَىٰ ، اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعلمُ فوقَ عَرشِك أنِّي لا أُوثِرُ علىٰ حُبِّكَ شيئاً ، فلمَّا سَمعتُه ، أخَذَنِي الشَّهِيقُ والبُكاءُ ، فقال : اللَّهُمَّ أنت تَعلمُ أنِّي لَو أعلمُ أنَّ هـٰذا ها هُنا لَم أتَكَلَّم[6] .

---

(١) انظر السير : (أيوب السختياني) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦٢٦/ ١٠ .
(٢) انظر السير : (عَطاء السَّليميّ) ٦/ ٨٦ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٦٣٤/ ٣ .
(٣) انظر السير : (موسى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ٦٥٠/ ٢ .
(٤) سورة النحل : ٣٨
(٥) انظر السير : (عُمر بن ذر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٦٦٠/ ٤ .
(٦) انظر السير : (بشر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٨٨٦/ ٦ .

وفي طبقات السُبكيّ (٥/ ٢٣٧) نقلاً عن شَهدَة بنتِ أحمد ابن الفَرَج الإبري قالت : سمعتُ القاضي الإمامَ عزيزي بن عبد الملك من لفظه سَنَةَ تسعين وأربع مئة يقولُ : اللَّهُمَّ يا واسعَ المَغفِرة ، ويا باسِطَ اليَدَيْنِ بالرَّحْمَةِ افعَلْ بي ما أنتَ أهلُه ، إلَـهي أذْنَبتُ في بعضِ الأوقاتِ ، وآمَنْتُ بكَ في كُلِّ الأوقاتِ ، فكَيْفَ يَغلِبُ بعضُ عُمرِي مُذنِباً جَمِيعَ عُمرِي مُؤمِناً إلَـهي لو سَألتَنِي حَسَنَاتِي لجَعَلتُها لكَ مع شِدَّةِ حاجَتِي إليها وأنا عَبدٌ ، فكَيْفَ لا أرْجُو أنْ تَهَبَ لي سَيئاتِي مع غِنَاكَ عنها وأنتَ رَبٌّ ، فيا مَنْ أعْطَانِي خَيْرَ ما في خَزَائِنِه ، وهو الإيمانُ به قبلَ السُّؤالِ لا تَمنَعْنا أَوسَعَ ما في خَزَائِنِك وهو العَفْوُ مع السُّؤالِ ، إلَـهي حُجَّتي حاجَتِي ، وعُدَّتِي فاقَتِي فارْحَمْنِي إلـهي كيف أمتَنِعُ بالذَّنبِ من الدُّعاءِ ولا أراكَ تَمنَعُ مع الذَّنبِ من العَطَاء ، فإنْ غَفَرتَ فخيرُ راحمٍ أنتَ وإنْ عَذَّبتَ فغيرُ ظالمٍ أنتَ إلـهي أسألُكَ تَذَلُّلاً فأعْطِنِي تَفَضُّلاً[1] .

قال الضِّياءُ : لَمْ أَرَ أحَداً أَحسَنَ صلاةً من الإمامِ العِمادِ المَقدِسيّ ، ولا أتَمَّ بخُشُوعٍ وخُضُوعٍ ، قِيلَ : كان يُسَبِّحُ عَشْراً يَتَأَنَّىٰ فيها ، وكان يَصُومُ يوماً ويُفْطِرُ يوماً وكان يَمضِي يومَ الأربعاء إلىٰ مَقَابرِ بابِ الصَّغير عندَ الشُّهَدَاءِ ، فيدعُو ويَجتَهِدُ ساعةً طويلة[2] .

ومن دُعائِه المَشهُور : اللَّهُمَّ اغْفِر لأقسَانا قلباً وأكبَرِنا ذَنْباً وأثْقَلِنا ظَهْراً وأعظَمِنَا جُرماً[3] .

وكان يَدعُو : يا دَلِيلَ الحَيَارَىٰ دُلَّنَا علىٰ طريقِ الصَّادِقينَ ، واجعَلنا من عِبادِكَ الصَّالحين[4] .

(ط) ضابطٌ في الدُّعاء عند القُبور والأماكن والأوقات الفاضِلَة :

جاء في ترجمة السيدة نفيسة ابنة أمير المؤمنين الحَسَنِ بنِ زَيْد ابنِ الحَسَنِ بنِ عليّ بنِ أبي طالب ، قال الذهبيُّ : قِيلَ : كانت من الصَّالحات والعَوَابِد ، والدُّعاء

---

(١) انظر السير : (شَيْذَلَه) ١٩/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة :/ هامش (٢) .
(٢) انظر السير : (العماد المقدسيّ) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٦٥ .
(٣) انظر السير : (العماد المقدسيّ) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٦٥ .
(٤) انظر السير : (العماد المقدسيّ) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٦٥ .

مُستَجَابٌ عِندَ قَبرِها ، بل وعند قُبُورِ الأنبياءِ والصَّالحين وفي المَساجِد ، وعَرَفَة ومُزْدَلِفَة ، وفي السَّفَرِ المُبَاح ، وفي الصَّلاة ، وفي السَّحَر ، ومن الأَبَوَين ، ومن الغائب لأخِيه ، ومن المُضطرِّ ، وعند قُبُورِ المُعَذَّبين ، وفي كلِّ وقتٍ وحين ، لقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] ، ولا يُنهَى الدَّاعِي عن الدُّعاءِ في وقتٍ إلاَّ وقتَ قَضَاءِ الحاجَة ، وفي الجِمَاع ، وشِبه ذلك ويتأكَّدُ الدُّعاءُ في جَوفِ الليلِ ، ودُبُرِ المَكتُوبات ، وبعدَ الأذان[2] .

وقال صاحب النُّزْهَة : لم يَثبُت عنه صلى الله عليه وسلم شيءٌ في كَوْنِ الدُّعاء مُسْتَجاباً عند قُبُورِ الأنبياء والصَّالحين ، والسَّلفُ الصَّالح لا يُعرَف عنهم أنَّهم كانوا يَقصِدون قُبورَ الأنبياء والصَّالحين للدُّعاء عندهم ، ويَرَى ابنُ الجَزَريّ في « الحِصْنِ الحَصِين » أنَّ اسْتِجابةَ الدُّعاء عند قُبُور الأنبياء والصَّالحين ثَبَتَ بالتَّجرِبة ، وأقَرَّهُ عليه الشَّوكاني في « تُحفَةِ الذَّاكرين » (ص ٤٧) لكن قَيَّدَه بشَرْطِ ألاَّ تَنشَأَ عن ذلك مَفسَدَة ، وهي أنْ يُعتَقَدَ في ذلك المَيِّت ما لا يجوزُ اعتِقادُه كما يَقَعُ لكثيرٍ من المُعتَقِدِين في القُبُور ، فإنَّهم قد يَبلُغُون الغُلُوَّ بأهلها إلىٰ ما هو شِركٌ بالله عَزَّ وجَلّ فيُنادُونَهم مع الله ، ويَطلُبُون منهم ما لا يُطلَبُ إلاَّ من الله عَزَّ وجَلّ ، وهـٰذا مَعلُومٌ من أحوالِ كثيرٍ من العاكِفينَ على القُبورِ خُصُوصاً العامَّة الذين لا يَفطنُون لدَقائِقِ الشِّرْك[3] .

* * *

---

(١) سورة غافر ، الآية : ٦٠

(٢) انظر السير : (نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب) ١٠/١٠٦ـ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٨٥٦/٣ .

(٣) انظر السير : (نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب) ١٠/١٠٦ـ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٨٥٦/ هامش (٣) .

ثالثاً : حُبُّ الله وحُبُّ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم

١ـ مِنْ وسَائِلِ نَيْلِ مَحَبَّةِ الله :

سُئل أبو محمّد عبد الله محمّد المُرْتَعِش ، بماذا يَنَالُ العبدُ المَحَبَّةَ ؟ قال : بمُوالاةِ اللهِ ومُعاداةِ أعداءِ الله[١] .

٢ـ مَحَبَّةُ الله فَرْضٌ :

قال أبو الفتح عبدُ الرَّحيمِ خادمُ ابن خَفيف : سَمعتُ الشَّيخَ ـ يَعنِي ابنَ خَفيفٍ ـ يقول : سألنا يوماً أبو العبَّاس بنُ سُرَيْج بشِيراز ونحنُ نَحضُرُ مَجلِسَه للفقه فقال : أَمَحَبَّةُ الله فرضٌ أو لا ؟ فقُلنا : فَرض قال : ما الدَّليلُ ؟ فما فينا مَنْ أجَابَ بشيءٍ ، فسألنَاه فقال : قولُه تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالَىٰ : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الآية[٢] قال : فَتوعَّدَهُم الله علىٰ تفضيل مَحَبَّتِهم لغيرِه علىٰ مَحَبَّتِه ، والوعيدُ لا يَقَعُ إلاَّ علىٰ فَرْضٍ لازِمٍ[٣] .

٣ـ مَنْ أَحَبَّ اللهَ أَطَاعَه :

عن عُتبة الغلام قال : مَن عَرَفَ اللهَ أحَبَّه ، ومَن أحَبَّه أطاعَه[٤] .

(أ) مِنْ ثِمَارِ الطَّاعَة :

عن الأعمش ، قال لي شقيقُ بنُ سَلَمَة : نِعمَ الرَّبُّ رَبُّنا ، لو أطَعْناهُ ما عَصَانا[٥] .

---

(١) انظر السير : (المُرتَعش) ١٥/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٢٣ .
(٢) سورة التوبة ، الأية : ٢٤ .
(٣) انظر السير : (ابن خَفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٨ .
(٤) انظر السير : (عُتبَة الغُلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٩/٦٧٦ .
(٥) انظر السير : (شَقيق بن سلمة) ٤/ ١٦١ـ ١٦٦ ، وانظر النزهة : ٥/٤٦٩ .

(ب) اسْتِغْلالُ مَوَاسِمِ الطَّاعَة :

عن أبي حَرِيز ، أنَّ سعيدَ بنَ جُبَيْر قال : لا تُطفِئُوا سُرُجَكُم ليالي العَشر ، تُعجِبُه العِبادة ويقول : أيقِظُوا خَدَمَكم يَتَسَحَّرُون لصومِ يومِ عَرَفَة[1] .

(ج) الطَّاعَةُ تُورِثُ التَّمَتُّعَ بالجَوارِح :

قال القاضي ابنُ بكران الشَّاميّ : قلتُ للقاضي أبي الطِّيب الطَّبَري شَيخِنا وقد عُمِّر : لقد مُتِّعتَ بجَوَارِحِكَ أيُّها الشَّيخ! قال : ولِمَ ؟ وما عَصَيتُ اللهَ بواحدةٍ منها قَطُّ أو كما قال[2] .

(د) اغْتِنَامُ القُوَّةِ حَالَ الشَّباب :

وقال أبو الأحْوَص : قال لنا أبو إسحاق السَّبيعي : يا معشَرَ الشَّباب اغتَنِموا ـ يَعني : قُوَّتَكم وشَبَابَكم ـ قَلَّما مَرَّت بي ليلةٌ إلاَّ وأنا أقرأُ فيها ألفَ آيَة ، وإنِّي لأقرَأُ البَقَرَةَ في رَكعَةٍ ، وإنِّي لأَصُومُ الأَشْهُرَ الحُرُمَ ، وثلاثَةَ أيامٍ من كل شَهر والإثنين والخميس[3] .

(هـ) صِيانَةُ الجَوَارِحِ عن المَعَاصِي :

عن عبدِ الله بنِ عُروَة قال : نَظَرَ أبي إلىٰ رِجلَيْهِ في الطِّست ، فقال : إنَّ اللهَ يَعلمُ أنِّي ما مَشَيتُ بكِ إلىٰ مَعصِيَةٍ قَطُّ وأنا أعلم[4] .

٤ـ حُبُّ الصَّحَابَةِ للرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم :

وقال عُروَةُ : جاءَ الزُّبَيْرُ بِسَيفِه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَا لَكَ ؟ » قال : أُخْبِرتُ أنَّكَ أُخِذتَ ، قال صلى الله عليه وسلم : « فكنتَ صانِعاً ماذا ؟ » قال : كُنتُ أضْرِبُ به مَنْ أخَذَكَ ، فدَعا له ولسَيْفِه[5] .

---

(١) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٠٦ .
(٢) انظر السير : (أبو الطِّيب الطبري) ١٧/ ٦٦٨ـ ٦٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٧٣ .
(٣) انظر السير : (أبو إسحاق السَّبيعي) ٥/ ٣٩٢ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ١/ ٦١٦ .
(٤) انظر السير : (عُروة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٢٧ .
(٥) انظر السير : (الزبير بن العوّام) ١/ ٤١ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٧ .

ولمَّا قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ كان يُبعَثُ إليه كلَّ يومٍ جفنةً من ثَريد اللَّحمِ أو ثَريدٍ بلَبَنٍ أو غَيرِه ، فكانت جفنةُ سعدِ بنِ عُبادَة تدُورُ مع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في بُيُوتِ أزواجِه[1] .

وعن أُسَيدِ بنِ حُضَيْر ـ وكان فيه مِزَاح ـ أنَّه كان عِندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَطَعنَه النبيُّ بعُودٍ كان معه فقال : أَصْبِرني[2] قال صلى الله عليه وسلم : « اصْطَبِر » ، قال : إنَّ عَلَيْكَ قميصاً وليس عليَّ قميصٌ ، قال: فكَشَفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قميصَه ، قال : فجَعَلَ يُقَبِّلُ كشحه ويقولُ : إنَّما أرَدْتُ هـٰذا يا رسولَ الله[3] .

وعن زَيدِ بنِ أسْلَم عن أبيه قال : قَدِمنا الشَّامَ مع عُمَرَ فأذَّن بلالٌ فذَكرَ النَّاسُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فلَمْ أَرَ يوماً أكثر باكياً مِنهُ[4] .

وعن أنسٍ قال : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « يَقدُمُ عليكم غداً قَومٌ هم أَرَقُّ قُلُوباً للإسلام منكم » ، فَقَدِمَ الأشْعَريُّون ، فلمَّا دَنَوا جَعَلوا يرتَجِزُون :

غَـــداً نَلْقَـــى الأَحِبَّـــة مُحَمَّـــداً وحِـــزْبَـــهْ

فلمَّا أنْ قَدِمُوا تَصَافَحُوا ، فكانوا أولَ مَنْ أحْدَثَ المُصافَحَة[5] .

وعن أبي رُهم : أنَّ أبا أيُّوبَ الأنْصَاريّ حَدَّثَه : أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَزَلَ في بَيتِنا الأسْفَل وكُنتُ في الغُرفَةِ ، فأُهْرِيقَ ماءٌ في الغُرفَةِ ، فقُمتُ أنا وأُمُّ أيُّوبَ بقَطِيفَةٍ لنا نَتَتَبَّعُ الماءَ ، ونزَلتُ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ لا يَنْبَغِي أن نَكونَ فَوْقَكَ ، انتَقِلْ إلى الغُرفَة فأَمَرَ بمَتَاعِهِ فنُقِلَ ـ ومَتَاعُهُ قليل ـ قلتُ : يا رسولَ الله ، كنتَ تُرسِلُ بالطَّعامِ ، فأنظُرُ فإذا رأيتُ أثَرَ أصابِعِكَ ، وضَعتُ فيه يَدِي[6] .

---

(١) انظر السير : (سعد بن عبادة) ١/ ٢٧٠ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦١ .
(٢) أصبرني : أقدني ، واصطبر : استقدَّ .
(٣) انظر السير : (أسيد بن حضير) ١/ ٣٤٠ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٧٤ .
(٤) انظر السير : (بلال بن رباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧٦ .
(٥) انظر السير : (أبو موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٧٨ .
(٦) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاري) ٢/ ٤٠٢ـ ٤١٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٨٣ .

وعن أبي قَتَادَة الأنصاريّ قال : كُنَّا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسْفَارِه ، إذ تأخَّرَ عن الراحِلَة ، فدَعَمتُه بيَدي ، حتى استيقظَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ احفَظْ أبَا قَتَادَة كما حَفِظَني مُنذُ الليلةَ ما أرَانا إلاَّ قَد شَقَقْنا عَليكَ »[1] .

وقال المغيرةُ بنُ شعبَة : بَعَثَتْ قريشٌ عامَ الحُدَيْبيَة عُروَةَ بنَ مَسْعُود إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ليُكَلِّمَه فأتاه ، فكَلَّمَه ، وجَعَلَ يَمَسُّ لِحيتَه ، وأنا قائمٌ علىٰ رأسِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مُقَنَّعٌ في الحديد ، فقال المُغيرةُ لعُروَةَ : كُفَّ يَدَكَ قبل أن لا تصلَ إليكَ ، فقال : مَنْ ذا يا مُحمَّد ؟ ما أفَظَّه وأغْلَظَه قال : ابنُ أخِيكَ ، فقال : يا غُدَرُ ، والله ما غَسَلتُ عنِّي سَوْءَتَكَ[2] إلاَّ بالأمسِ[3] .

قال ضِمَامُ بنُ إسماعيل : حَدَّثنِي يَزيدُ بنُ أبي حَبيب ، وموسى ابنُ وَرْدان ، عن كعب بنِ عُجْرة قال : أتيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يوماً ، فرأيتُه مُتَغَيِّراً ، قلتُ : بأبي وأمي ، ما لي أراكَ مُتَغَيِّراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « ما دَخَلَ جَوْفِي شيءٌ منذُ ثلاثٍ » فذهَبتُ ، فإذا يَهوديٌّ يَسْقِي إبِلاً له ، فَسَقَيتُ له علىٰ كلِّ دلوٍ بتَمْرَةٍ ، فجَمَعْتُ تَمْراً ، فأتَيتُه به فقال صلى الله عليه وسلم : « أتُحِبُّني يا كعْبُ » ؟ قلتُ : بأبي أنت ـ نَعَم قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الفَقْرَ أسْرَعُ إلىٰ مَنْ يُحِبُّني من السَّيلِ إلىٰ مَعَادِنِه ، وإنَّكَ سَيُصِيبُكَ بَلاءٌ فأعِدَّ له تِجْفَافاً » قال : ففَقَدَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : مرِضَ ، فأتاهُ ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « أبْشِر يا كعْبُ » فقالت أُمُّه : هَنيئاً لكَ الجَنَّة فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ هـٰذِهِ المُتَألِّيَةُ على الله ؟ » قال : هي أُمِّي قال صلى الله عليه وسلم : « ما يُدرِيكِ يا أُمَّ كعْب ، لَعَلَّ كعْباً قال ما لا يَنْفَعُه ، أو مَنَعَ ما لا يُغْنِيه »[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو قتادة الأنصاري) ٢/ ٤٤٩ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩٠ .

(٢) أراد عروة بقوله هـٰذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف ، فتهايج الحيّان من ثقيف ، بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فودىٰ عروة المقتولين ثلاث عشرة دية ، وأصلح ذلك الأمر .

(٣) انظر السير : (المغيرة بن شعبة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٢٣ .

(٤) انظر السير : (كعب بن عجرة) ٣/ ٥٢ـ ٥٤ ، وانظر النزهة : ٧/ ٣٣١ .

٥ـ حُبُّ مَنْ بَعْدِهِم له صلى الله عليه وسلم :

عن عبدِ الرحْمَـٰنِ بنِ رَزين قال : أتَينا سَلَمَةَ بنَ الأكْوَع بالرَّبَذَة ، فأخْرَجَ إلينا يَداً ضَخمَةً كأنَّها خُفُّ البَعِير ، فقال : بايَعتُ بِيَدِي هـٰذه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال : فأخَذْنا يَدَه فَقَبَّلْناها[1] .

قال محمدُ : وقلتُ لعَبيدَة بن عَمرو : إنَّ عِندَنا من شَعرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من قِبَلِ أنسِ بنِ مالك ، فقال : لأَنْ يَكونَ عِندي مِنْهُ شَعرَةٌ أَحَبُّ إليَّ من كُلِّ صَفْراءِ وبيْضَاءِ علىٰ ظَهرِ الأرض .

قال الذهبيُّ : هـٰذا القَولُ من عُبَيْدَة هو مِعْيارُ كَمَالِ الحُبّ ، وهو يُؤثِرُ شَعرَةً نَبَوِيَّةً علىٰ كُلِّ ذهبٍ وفِضَّةٍ بأَيْدِي النَّاس .

ومِثلُ هـٰذا يقُولُه الإمامُ بعدَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بخَمسينَ سنةٍ ، فما الذي نَقُولُه نحنُ في وقتِنا لو وَجَدْنا بعضَ شَعرِه بإسْنادٍ ثابت ، أو شِسْعَ نعلٍ كان له ، أو قُلامَةَ ظُفرٍ أو شَقْفَةً من إناءٍ شَرِبَ فيه صلى الله عليه وسلم فلَو بَذَلَ الغَنيُّ مُعظَمَ مالِه في تحْصيلِ شيءٍ من ذلك عِندَه أكُنتَ تَعُدُّه مُبَذِّراً أو سَفِيهاً ؟ كلاَّ فابذُل مالَكَ في زَورَةِ مسجِدِه الذي بني فيه بيَدِه والسَّلام عليه عندَ حُجرَتِه في بَلَدِه ، والتَذَّ بالنَظَرِ إلىٰ أُحُدِه وأحِبَّه ، فقد كان نبيُّكَ صلى الله عليه وسلم يُحِبُّه وتَمَلَّ بالحُلُولِ في رَوضَتِه ومقعَدِه ، فلَنْ تكونَ مُؤمِناً حتّىٰ يكونَ هـٰذا السيِّدُ أحَبَّ إليكَ من نفسِك وولَدِك وأموالِك والنَّاسِ كلِّهم وقَبِّلْ حَجَراً مُكَرَّماً نَزَلَ من الجَنَّة ، وضَعْ فَمَكَ لائِماً مكاناً قَبَّلَه سَيِّدُ البَشَر بيَقِين ، فهنَّأكَ الله بما أعطاك ، فما فوقَ ذلك مَفْخَر ولو ظَفِرنا بالمِحجَن الذي أشَارَ به الرسولُ صلى الله عليه وسلم إلى الحَجَرِ ثمَّ قَبَّلَ مِحْجَنَه ، لحُقَّ لنا أنْ نَزدَحِمَ علىٰ ذلك المِحْجَن بالتَّقْبيل والتَّبْجيل ، ونحن نَدْرِي بالضَّرُورة أنَّ تَقبيلَ الحَجَرِ أرْفَعُ وأفْضَلُ من تَقْبيل مِحْجَنِه ونَعْلِه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر السير : (سلمة بن الأكوع) ٣/٣٢٦ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٣٨٨/ ٤ .

وقد كان ثابتُ البُنَانيُّ إذا رَأىٰ أنَسَ بنَ مالك أخَذَ يَدَه فَقَبَّلَها ويقولُ يدٌ مَسَّتْ يَدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فنقولُ نَحنُ إذْ فاتَنا ذلك : حَجَرٌ مُعَظَّمٌ بمَنزِلَةِ يَمِينِ اللهِ في الأرضِ مَسَّته شَفَتَا نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم لاثِماً له ، فإذا فاتَكَ الحَجُّ وتَلَقَّيتَ الوَفْدَ فالْتَزِم الحَاجَّ وقَبِّل فَمَه ، وقُلْ : فمٌ مَسَّ بالتَّقبيل حَجَراً قَبَّلَه خَلِيلِي صلى الله عليه وسلم[1] .

وعن عَبدَة بنتِ خالدِ بنِ معدان قالت : قَلَّما كان خالدٌ يَأوِي إلىٰ فِرَاشِه إلاَّ وهو يَذكُرُ شَوْقَهُ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وإلىٰ أصحَابِه من المُهاجِرينَ والأنْصَارِ ، ثُمَّ يُسَمِّيهِم ويقولُ : هُم أَصْلِي وفَصْلِي ، وإليهِم يَحِنُّ قَلبِي ، طالَ شَوقِي إليهم فعَجِّل ربِّ قَبضِي إليك ، حتّىٰ يَغلِبَه النَّومُ وهو في بعضِ ذلك[2] .

وعن بكَّار بنِ محمدٍ قال : كان ابنُ عَون قد أوصىٰ إلىٰ أبي وصحبته دهراً ، فما سَمعتُه حالِفاً علىٰ يَمينٍ بَرَّةٍ ولا فاجِرَةٍ ، كان طَيِّبَ الرِّيح ، لَيِّنَ الكُسوة ، وكان يَتَمنَّىٰ أنْ يَرَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ فلَمْ يَرَهُ إلاَّ قَبْلَ مَوتِه بيَسِير ، فسُرَّ بذلك سُروراً شديداً قال : فنَزَلَ من درجتِه إلى المسجِدِ فسَقَطَ فأُصِيبَتْ رِجلُه ، فلَمْ يَزَلْ يُعالجُها حتّىٰ ماتَ رحمَه الله[3] .

ونَقَلَ الشَّيخُ مُحْيِي الدِّين النَّوَويّ : أنَّ أبا جَعْفَرَ التِّرمِذِيّ جَزَمَ بطَهَارَةِ شَعرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقد خَالَفَ في هٰذه المسألةِ جُمهُورَ الأصْحاب .

قال الإمامُ الذَّهَبيُّ : يَتَعَيَّنُ علىٰ كلِّ مُسلمٍ القَطعُ بطَهَارَةِ ذلك ، وقد ثَبَتَ أنَّه صلى الله عليه وسلم لمَّا حَلَقَ رَأسَه ، فَرَّقَ شَعرَه المُطَهَّر علىٰ أصحَابَه ، إكْرَاماً لهم بذلك ، فَوَالَهَفِي علىٰ تَقْبِيلِ شَعْرَةٍ منها[4] .

---

(١) انظر السير : (عَبيدة بن عَمرو) ٤/ ٤٠ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٣٩ .
(٢) انظر السير : (خالد بن معدان) ٤/ ٥٣٦ـ ٥٤١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٥١ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٥٧ .
(٤) انظر السير : (أبو جعفر الترمذيّ) ١٣/ ٥٤٥ـ ٥٤٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١١٥ .

٦ـ حُبُّ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم صَحَابَتَه :

عن عائشة أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَبَّلَ عُثمانَ بنَ مَظْعون وهو ميّت ، ودُموعُه تَسيلُ علىٰ خدِّ عُثمان بن مَظْعون[١] .

وعن ابن عُمَرَ قال : سمعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نساءَ الأنصار يبكين علىٰ هَلكاهنَّ فقال صلى الله عليه وسلم : « لكنَّ حَمْزَةَ لا بَواكيَ له » ، فجِئنَ فبكَين علىٰ حَمْزَة عنده إلىٰ أن قال صلى الله عليه وسلم : « مُروهنَّ لا يَبكين علىٰ هالكٍ بعدَ اليوم »[٢] .

وعن أسماء بنت عُمَيس قالت : دخل عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فدَعا بني جَعْفَر ، فرأيتُه شمَّهم وذَرفَت عَيناه ، فقلتُ : يا رسولَ الله! أبَلغَكَ عن جَعْفَر شيءٌ ؟ قال : « نعم ، قُتِلَ اليومَ » ، فقُمنا نبكي ، ورجَعَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اصْنَعوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعاماً ، فقد شُغِلُوا عن أنفُسِهم » .

وعن عائشَة ، رَضيَ اللهُ عنها ، قالت : لمَّا جاءت وفاةُ جَعْفَر ، عَرفْنا في وجْه النبيّ صلى الله عليه وسلم الحُزْن[٣] .

عن أسلم ، عن أبيه قال : ما كنَّا نَدعو زَيدَ بنَ حارثة إلاَّ زَيْدَ بن محمّد ، فنزلت : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٤] .

وعن أبي عَمرو الشَّيْباني قال : أخْبرني جبلةُ بنُ حارثة قال : قَدمتُ علىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقُلتُ : يا رسولَ الله! ابعَثْ معي أخي زَيداً قال صلى الله عليه وسلم : « هُوَ ذا فإن انْطَلَقَ ، لَمْ أمْنَعْهُ » ، فقال زيدٌ : لا والله! لا أخْتارُ عليكَ أحداً أبداً قال : فرأيتُ رأيَ أخي أفضلَ من رأيي[٥] .

---

(١) انظر السير : (عُثمان بن مَظْعون) ١/ ١٥٣ـ ١٦٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٢ .
(٢) انظر السير : (حَمزَة بن عبد المطلب) ١/ ١٧١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/١٤٣ .
(٣) انظر السير : (جَعْفَر بن أبي طالب) ١/ ٢٠٦ـ ٢١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٥٠ .
(٤) سورة الأحزاب ، الآية : ٥ .
(٥) انظر السير : (زيد بن حارثة) ١ / ٢٢٠ـ ٢٣٠ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢ .

عن محمد بنِ أسامة ، عن أبيه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لزَيدِ ابنِ حارِثَة : « يا زَيدُ أنتَ مَوْلايَ ، ومِنِّي وإليَّ ، وأحَبُّ القومَ إليَّ » .

وعن عبدِ الله بنِ دِينار ، سَمِعَ ابنَ عُمَرَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، أمَّرَ أسامةَ علىٰ قومٍ فَطَعَنَ النَّاسُ في إمارَتِه فقال صلى الله عليه وسلم : « إنْ تَطعَنُوا في إمارَتِه ، فقد طَعَنتُم في إمارَةِ أبيهِ ، وايمُ الله إنْ كان لخَلِيقاً للإمارة ، وإن كان لمِنْ أحَبِّ النَّاسِ إليَّ ، وإنَّ ابنَه هـٰذا لأحَبُّ النَّاسِ إليَّ بَعْدَه » .

وقال ابنُ عُمَرَ : فَرَضَ عُمرُ لأسامةَ بنِ زَيدٍ أكثَرَ مِمَّا فَرَضَ لي ، فَكَلَّمتُه في ذلك فقال : إنَّه كان أحَبَّ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنكَ ، وإنَّ أباهُ كان أحَبَّ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ أبيك[1] .

عن مُعاذ قال : لَقِيَني النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا مُعاذُ! إنِّي لأُحِبُّكَ في الله » قلتُ : وأنا والله يا رسولَ الله أُحبُّكَ في الله قال صلى الله عليه وسلم : « أفَلا أُعَلِّمُكَ كلماتٍ تقُولُهنَّ دُبُرَ كلِّ صَلاة : رَبِّ أَعِنِّي علىٰ ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِك »[2] .

قال عَمرُو بنُ العاص في مرضِه ، وقد جَزِعَ ، فقِيلَ له : قد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُدنيك ويَستَعمِلُك ، قال : والله ما أدْرِي ما كان ذاكَ مِنهُ ، أحُبٌّ أو كان يَتَألَّفُنِي ، ولكنْ أشْهَدُ علىٰ رَجُلَين أنُه ماتَ وهو يُحِبُّهُما : ابنِ أمِّ عبدٍ وابنِ سُمَيَّة[3] .

عن عائشةَ قالت : أرادَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَمسحَ مُخاطَ أسامة بن زَيد ، فقُلتُ : دَعني حتىٰ أكونَ أنا التي أفعلُ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا عائشةُ ، أَحِبِّيه ، فإنِّي أُحِبُّه » .

قال الذهبيُّ : كان سِنُّه في سِنِّها[4] .

---

(١) انظر السير : (زَيد بن حارثة) ١/ ٢٢٠ـ ٢٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٢ .
(٢) انظر السير : (مُعاذ بن جَبل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٤/١٩١ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٩٥ .
(٤) انظر السير : (أسامة بن زَيد) ٢/ ٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ١/٢٩٧ .

٧ـ من مُقْتَضَياتِ حُبِّه صلى الله عليه وسلم :

(أ) اتِّبَاعُ سُنَّتِه :

عن منصور الكلبيّ : أنَّ دِحْيَةَ الكلبيّ خَرَجَ من المِزَّة إلىٰ قَدْر قرية ـ عقبة من الفسطاط ، وذلك ثلاثة أميال في رمضان ، ثم أفْطَرَ ، وأفْطَرَ معه أُناسٌ ، وكَرِهَ الفِطرَ آخرون ، فلمَّا رَجَعَ إلىٰ قريته ، قال : والله لقد رأيتُ اليومَ أمراً ما كنتُ أظُنُّ أنِّي أراه : إنَّ قَوماً رَغِبُوا عن هَدْيِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه ـ يقولُ ذلك للذين صاموا ـ ثم قال عند ذلك : اللَّهُمَّ اقْبِضنِي إليك[١] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وفي مُسْند الشَّافعيّ سَماعنا أخْبَرَنِي أبو حنيفةَ بنُ سَمَّاك ، حَدَّثَني ابنُ أبي ذِئب عن المَقْبري عن أبي شُرَيْح أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قُتِلَ له قَتِيلٌ فهو بخَيرِ النَّظَرَيْن : إنْ أحَبَّ أخَذَ العَقلَ ، وإنْ أحَبَّ فَلَهُ القَوَد »[٢] .

وقال عبدُ الرَّحمٰنِ بنُ مَهْدِيّ : سَمعتُ سُفيانَ ـ يَعنِي الثَّورِيّ ـ يقولُ : ما بَلَغَنِي عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَديثٌ قَطُّ إلاَّ عَمِلتُ به ولَو مَرَّة[٣] .

وقال عبدُ الرَّحمٰنَ بنُ مَهْديّ : حَدَّثَنا عبدُ الواحِد بنُ زِيادٍ ، قال : لَقِيتُ زُفَرَ بن الهُذَيل رَحِمَه الله ، فقُلتُ له : صِرتُم حَدِيثاً في النَّاسِ وضُحْكَة قال : وما ذاكَ : قلتُ : تَقولونَ : « ادْرَؤوا الحُدودَ بالشُّبُهاتِ » ، ثُمَّ جِئتُم إلىٰ أَعْظَمِ الحُدودِ فقُلتُم : تُقامُ بالشُّبُهات قال : وما هو ؟ قلتُ : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكافِرٍ » فقُلتُم : يُقتَلُ به ـ يَعنِي بالذِّميّ ـ قال : فإنِّي أُشْهِدُكَ السَّاعةَ أنِّي قَد رَجَعتُ عنه .

قال الذهبيُّ : هٰكذا يكونُ العَالِمُ وَقَّافاً مع النَّص[٤] .

---

(١) انظر السير : (دحية الكلبيّ) ٢/ ٥٥٠ـ ٥٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٠٤

(٢) انظر السير : (ابن أبي ذئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٨٦ .

(٣) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٩٦

(٤) انظر السير : (زُفَر بن الهُذَيل) ٨/ ٣٨ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٢٥ .

وقال يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَى التَّمِيميّ : سَمعتُ أبا يُوسُفَ ـ يَعني القاضِي ـ عندَ وَفَاتِه يقول : كُلُّ ما أَفْتَيْتُ به فقد رَجَعتُ عَنه إلاَّ ما وافَقَ الكتابَ والسُّنة ، وفي لفظٍ إلاَّ ما في القُرآن واجتمعَ عليهِ المُسلِمون[1] .

وقال المروذيُّ : قال لي أحمدُ بنُ حَنْبَل : ما كَتَبتُ حَديثاً إلاَّ وقد عَمِلتُ به حتّىٰ مَرَّ بي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، احْتَجَمَ وأعْطَىٰ أبا طَيْبَةَ ديناراً ، فأعْطَيتُ الحَجَّام ديناراً حِينَ احْتَجَمتُ[2] .

وقال سعيدُ بنُ عبد العزيز : سَمعتُ أحمدَ بنَ أبي الحَوَارِيّ يقولُ : مَنْ عَمِلَ بلا اتِّباعِ سُنَّةٍ فَعَمَلُه باطِلٌ[3] .

رُؤْيَا تَدُلُّ علىٰ قُوَّةِ الاتِّبَاع للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم :

قال محمدُ البُخَاريُّ : سَمعتُ النَّجْمَ بنَ الفُضَيل يقولُ : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كأنَّه يَمشِي ، ومحمدُ بنُ إسْماعِيلَ يَمشِي خَلْفَه فكُلَّما رَفَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَدَمَه وَضَعَ محمدُ بنُ إسْماعِيلَ قَدَمَه في المكانِ الذي رَفَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَدَمَه[4] .

كان ابنُ عُمَرَ شَديدَ التَّأَسِّي برسُولِ الله صلى الله عليه وسلم :

عن نافِعٍ قال : لَوْ نَظَرْتَ إلى ابنِ عُمَرَ إذا اتَّبَعَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لَقُلتَ : هـٰذا مَجْنون[5] .

وعن نافِعٍ : أنَّ ابنَ عُمَرَ كان يَتَّبِعُ آثارَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كلَّ مكانٍ صَلَّىٰ فيه ، حتىٰ إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَزَلَ تحتَ شَجَرةٍ ، فكان ابنُ عُمَرَ يَتعاهَدُ

---

(١) انظر السير : (القاضي أبو يوسف) ٨/ ٥٣٥ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٧٨٨/ ٥ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٢٩/ ٣ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن أبي الحواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٩٨٥/ ٤ .
(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٢/ ٢ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٦٦/ ٢ .

تلك الشَّجرةَ ، فيَصُبُّ في أصْلِها الماءَ لكَيْلا تَيْبَس[1] .

وعن ابنِ عُمرَ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ تَرَكنَا هـٰذا البَابَ للنِّساءِ » قال نافعٌ : فلَمْ يَدخُلْ منهُ ابنُ عُمَرَ حتّىٰ ماتَ .

قال الشَّعبيُّ : جَالسْتُ ابنَ عُمرَ سنةً ، فما سَمعتُه يُحدِّث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلاَّ حَدِيثاً واحداً[2] .

(ب) حُبُّ آلِ بَيْتِهِ الصَّالِحِين :

لمَّا تُوُفِّيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تَعَلَّقَتْ آمالُ فَاطِمَةَ الزَّهْراءِ بمِيراثِه ، وجاءَتْ تَطْلُبُ ذلكَ من أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فَحَدَّثَها أنَّه سَمِعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « لا نُورَثُ ، ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ » فَوَجَدْتْ عَلَيْه ، ثُمَّ تَعَلَّلَتْ[3] ، [4] .

وعن الشَّعبيِّ قال : لمَّا مَرِضَتْ فاطمةُ الزَّهْراءُ ، أتَىٰ أبو بكر رضي الله عنه فاسْتَأذَنَ ، فقالَ عليٌّ : يا فاطمةُ ، هـٰذا أبو بكر يَسْتَأذِنُ عليكِ ، فقالت : أتُحِبُّ أنْ آذَنَ له قال : نَعَمْ

قال الذهبيُّ : عَمِلَتْ السُّنَةَ رَضي الله عنها ، فَلَمْ تَأذَنْ في بيتِ زَوْجِهَا إلاَّ بِأَمْرِه .

قال : فأذِنَتْ له ، فدَخَلَ عليها يَتَرَضَّاها ، وقال : والله ما تَرَكْتُ الدَّارَ والمالَ والأهلَ والعَشِيرَةَ إلاَّ ابتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ ورَسُولِه ومَرْضاتِكُم أَهْلَ البَيْتِ .

قال : ثُمَّ تَرَضَّاها حتّىٰ رَضِيَتْ[5] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٦٦ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٦٦/ ٤ .
(٣) تَعَلَّلَتْ : أَيْ تَلَهَّتْ عَنْه وتَشَاغَلَتْ .
(٤) انظر السير : (فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٢/٢٢٩ .
(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٧) وإسناده صحيح ، لكنه مرسل ، وذكره الحافظ في الفتح (٦/ ١٣٩) ونسبه إلى البيهقي ، وقال : وهو وإن كان مرسلاً فإسناده إلى الشعبي صحيح .

تُوفِّيَتْ رضيَ اللهُ عنها بعدَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بخَمْسَةِ شُهور أو نحوها ، وعاشَتْ أربَعاً أو خَمْساً وعشرينَ سنةً[1] .

وعنِ الحُسَينِ قال : صَعَدتُ المِنْبَرَ إلىٰ عُمرَ ، فقُلتُ : انزِلْ عن مِنْبَرِ أبِي واذْهَبْ إلىٰ مِنْبَرِ أبيكَ فقال رضي الله عنه : إنَّ أبي لَمْ يَكُنْ له مِنْبَر! فأَقْعَدَنِي مَعَه ، فلَمَّا نزَلَ قال : أيْ بُنَيَّ! مَنْ عَلَّمَكَ هـٰذا ؟ قُلتُ : ما عَلَّمَنِيه أحَدٌ قال : أيْ بُنَيَّ! وهَلْ أَنْبَتَ علىٰ رُؤوسِنا الشَّعْرَ إلاَّ الله ثُمَّ أنتُم ، وَوَضَعَ يَدَه علىٰ رَأْسِه ، وقال : أيْ بُنَيَّ! لَوْ جَعَلْتَ تأتِينا وتَغْشَانا[2] .

وعن عبدِ الرَّحمـٰنِ الهَمْدانيّ قال : دَخَلَ أبو الطُّفَيل علىٰ مُعاويةَ فقال : ما أبقَىٰ لكَ الدَّهرُ من ثُكلِكَ عَلِيّاً ؟ قال : ثُكل العَجُوز المِقْلاتِ والشَّيخ الرَّقُوب قال : فكَيْفَ حُبُّكَ له ؟ قال : حُبُّ أُمِّ مُوسَىٰ لموسىٰ ، وإلى الله أشْكُو التَّقْصِيرَ .

وكان أبو الطُّفَيل ثِقَةً فيما يَنْقُله ، صادِقاً ، عالِماً ، شاعِراً ، فارِساً ، عُمِّر دَهْراً طَويلاً وشَهِدَ مع عليٍّ حُرُوبِه[3] .

(ج) شِعرٌ في حُبِّ آلِ البَيْتِ :

عن الرَّبيعِ بنِ سُلَيْمانَ قال : حَجَجْنا مع الشَّافِعيِّ ، فما ارْتَقَىٰ شَرَفاً ولا هَبَطَ وادِياً إلاَّ وهو يَبكِي ويُنْشِدُ :[4] .

يا راكِباً قِفْ بالمحصَّبِ مِنْ مِنَى ... واهتـفِ بقـاعـدِ خِيْفَنـا والنَّـاهِـضِ
سَحَراً إذا فاضَ الحَجِيجُ إلىٰ مِنَى ... فَيْضـاً كمُلتَطِـمِ الفُـراتِ الفـائِـضِ
إنْ كـانَ رفْضـاً حُـبُّ آلِ مُحمَّـدِ ... فليَشْهَـدِ الثَقَـلانِ أنِّـي رافِضِـي

---

(١) انظر السير : (فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٢٩ .
(٢) انظر السير : (الحُسين الشهيد) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٤/٣٨٢ .
(٣) انظر السير : (أبو الطُّفيل) ٣/ ٤٦٧ـ ٤٧٠ ، وانظر النزهة : ٣/٤١٠ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨/٨٥٠ .

رابعاً : الأُخُوَّة

١ـ فائدة الأُخُوَّة :

عن عبَّاس بنِ يَزيد قال : قال وهبُ بنُ مُنَبِّه : اسْتكثِرْ من الإخْوانِ ما اسْتطَعْتَ ، فإن اسْتغنَيْتَ عنهم لَمْ يَضُرُّوكَ ، وإن احْتَجْتَ إليهِم نَفَعُوك[١] .

٢ـ ضَياعُ من كان بلا إخْوة :

عن الإمام الشافعيّ : ضَيَاعُ العالِمِ أن يكونَ بلا إخْوان ، وضَيَاعُ الجاهِلِ قلةُ عَقْلِه ، وأضْيَعُ منهما مَنْ واخَىٰ مَنْ لا عَقْلَ له[٢] .

قال الصُّعْلوكيّ : إذا كان رِضَا الخَلق مَعسُوراً لا يُدْرَك ، كان رِضَا الله مَيْسُوراً لا يُترك إنَّا نَحْتاجُ إلىٰ إخْوانِ العُشْرة لوقتِ العُسْرة[٣] .

٣ـ الأُخُوَّة في الله عِوَضٌ عن أُخُوَّة النَّسَب :

قال القاسمُ بنُ محَمَّدٍ : قد جَعَلَ الله في الصَدِيقِ البَار المُقْبِل عِوَضاً من ذِي الرَّحمِ العاقِّ المُدْبِر[٤] .

٤ـ قد يكونُ الأخُ في النَّسَبِ مُؤذِياً :

قال أبو إسْحاقَ الحَضْرَميّ : كان ابنُ المُعذَّل من الفِقْهِ والسَّكِينةِ والأدَبِ والحَلاوَةِ في غَاية ، وكان أخُوهُ عبدُ الصَّمَد الشَّاعِرُ يُؤذِيه ، فكان أحمدُ يقولُ له : أنتَ كالأُصْبع

---

(١) انظر السير : (وهب بن منبه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٥٤ .
(٢) انظر السير : (الإمام الشافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٤٩ .
(٣) انظر السير : (الصعلوكي) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٣٣٧ .
(٤) انظر السير : (القاسم بن محمد) ٥/ ٥٣ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٧٩ .

الزَّائِدَة ، إنْ تُركَتْ ، شانَتْ ، وإنْ قُطِعَتْ آلَمَتْ وقد كان أهلُ البَصْرَةِ يُسَمُّونَ أحمدَ الرَّاهِب لِتَعَبُّدِه ودِينِه[1] .

٥ـ قاعدةٌ في حُقوق الأُخوة :

قال حُمَيْدُ الطَّويل : كان الحَسَنُ البَصْرِيّ يقول : اصْحَب النَّاسَ بما شِئْتَ أن تَصْحَبَهم ، فإنَّهم سَيَصْحَبُونكَ بمثله[2] .

٦ـ ضوابطٌ لاستمرار الأُخُوَّة :

يُرْوَىٰ عن رَجَاءِ بنِ حَيْوَة قال : مَنْ لَمْ يُؤاخِ إلاَّ مَنْ لا عَيْبَ فيه قَلَّ صديقُه ، ومَنْ لَمْ يَرْضَ من صديقِه إلاَّ بالإخْلاصِ له دامَ سُخْطُه ، ومَنْ عاتَبَ إخْوانَه علىٰ كُلِّ ذنبٍ كَثُرَ عَدُوُّه[3] .

٧ـ فقدُ الأُخوة غُربة :

عن أبي الحُسَيْن العَتَكيّ قال : سَمعتُ إبراهيمَ الحَربيّ يقول لجَمَاعةٍ عنده : مَنْ تَعُدُّون الغَريبَ في زَمانِكم ؟ فقال رجلٌ : الغَريبُ مَنْ نَأَىٰ عن وطنِه ، وقال آخرون : الغَريبُ مَنْ فارقَ أحباءه فقال إبراهيمُ الحَربيُّ : الغَريبُ في زمانِنَا رجلٌ صالحٌ عاشَ بين قومٍ صالحين ، إنْ أمَرَ بمعروفٍ آزَرُوه وإنْ نَهَىٰ عن مُنْكرٍ عانُوه ، وإنْ احْتَاجَ إلىٰ سَببٍ من الدنيا مانُوه ، ثم ماتوا وتركوه .

قال المَسْعُوديُّ : كانت وَفَاةُ الحَربيّ المُحَدِّث الفَقِيه في الجانب الغربيّ وله نَيِّفٌ وثمانونَ سَنةً ، وكان صَدُوقاً ، عالماً ، فَصِيحاً ، جَوَاداً ، عفيفاً ، زَاهِداً ، عابِداً ، ناسِكاً ، وكان مع ذلك ضَاحِكَ السِّن ظَرِيفَ الطَّبْع ولَمْ يكُنْ معه تَكَبُّرٌ ولا تَجَبُّرٌ ، ورُبَّما مَزَحَ مع أصدقائِه بما يُسْتحْسَنُ منه ، ويُسْتَقبَحُ من غَيْرِه ، وكان شيخَ البغداديّين في وقتِه وظَرِيفَهم وزاهِدَهم وناسِكَهم ومُسْنِدَهم في الحديث[4] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن المعذل) ١١/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٦٤ .
(٢) انظر السير : (الحسن البصري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٦٢ .
(٣) انظر السير : (رَجاء بن حَيوة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥٨ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم الحربيّ) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٠٩٤ .

٨ـ تَبَسُّمك في وجْه أخيك صَدَقَة :

قال عارمٌ : حَدَّثنا حَمَّادٌ قال : ما رأيتُ رجلاً قَطُّ أَشَدَّ تَبَسُّمَاً في وُجُوهِ الرِّجالِ من أيُّوبَ السِّخْتيانيّ[١] .

٩ـ الزِّيارة بين الإخْوَة :

قال السُّلَميُّ : سَمعتُ محَمَّدَ بنَ عليّ الحِيريَّ يقولُ : سَمعتُ أبا عُثْمانَ الحِيريَّ يقولُ : لَو وَجَدتُ من نَفسِي قُوةً لَرَحَلْتُ إلىٰ أخي محَمَّدَ بنِ الفَضْلِ ، فأسْتَروِحُ برؤيتِه[٢] .

١٠ـ قلَّةُ الزِّيارَة بين الإخْوَة لا تَعني وجُودَ جَفاء :

قال أحمدُ بنُ محَمَّد بنُ الصَّقْر : سَمعتُ أبا الحُسَيْن بنَ قُرَيشٍ يقولُ : حَضَرْتُ إبراهيمَ الحَربيّ ـ وجَاءَهُ يُوسُفُ القاضي ، ومعه ابنُه أبو عُمَر ـ فقال له : يا أبا إسحاق! لو جئناكَ علىٰ مقدارِ واجبِ حَقِّكَ ، لكانت كُلُّها عِندَكَ فقال ليس كلُّ غَيْبَةٍ جَفْوَةً ، ولا كلُّ لقاءٍ مَوَدَّةً ، وإنَّما هو تَقَارُبُ القُلُوب[٣] .

١١ـ الصَّبرُ علىٰ قَسْوة بعض الإخْوَة :

قال محَمَّدٌ بنُ الفَيْضِ : قَدِمَ ابنُ أكْثَمَ دِمَشْقَ مع المأمون ، فبَعَثَ إلىٰ أحمدَ بنِ أبي الحَوَاريّ ، فجاءَ إليه وجالَسَه ، فخَلَعَ يَحْبىٰ عليه طويلةً وملبوساً ، وأعْطاهُ خَمْسَةَ آلافِ درهم ، وقال : فَرِّقْها يا أبا الحَسَن حيثُ تَرَىٰ ، فدَخَلَ بها المَسْجِدَ وصلَّىٰ صَلَواتٍ بالخِلعَة ، فقال قاسمُ الجوعيّ : أَخَذَ دراهمَ اللُّصُوص ، ولَبِسَ ثيابَهم ، ثمَّ أتى الجَامعَ ومَرَّ به وهو في التَّحِيَّاتِ ، فلمَّا حذاه لَطَمَ القَلَنْسُوة ، فَسَلَّمَ أحمَدَ ، وأعْطَى القَلَنْسُوةَ ابنَه إبراهيمَ ، فذَهَبَ بها ، فقال له مَنْ رَآهُ : ما رأيتَ ما فَعَل ؟[٤] .

---

(١) انظر السير : (أيوب السختياني) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٢٦ .
(٢) انظر السير : (واعظ بلخ) ١٤/ ٥٢٣ـ ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٧١ .
(٣) انظر السير : (إبراهيم الحربيّ) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٩٤ .
(٤) انظر السير : (الجُوعيّ) ١٢/ ٧٧ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٨٤ .

١٢ـ التَّجَمُّل عند التزاوُر :

قال أبو خَلْدَة : سَمعتُ أبا العالية يقولُ : زَارَنِي عبدُ الكريم أبو أُمَيَّةَ وعليه ثِيابُ صُوفٍ ، فقُلتُ له : هـٰذا زِيُّ الرُّهْبان ، إنَّ المسلمينَ إذا تَزَاوَرُوا تَجَمَّلُوا[١] .

١٣ـ الحُبُّ في الله :

عن عائشةَ قالت : حَضَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعُمَرُ سَعدَ ابنَ مُعاذٍ وهو يَمُوتُ في القُبَّةِ التي ضَرَبَها عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في المسجدِ.

قالت : والذي نَفْسُ محَمَّدٍ بيدِه إنِّي لأعْرِفُ بُكاءَ أبي بكرٍ من بُكاءِ عُمَر ، وإنِّي لفي حُجْرَتِي ، فكأنَّما كما قال الله ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[٢] ، [٣] .

وقال ابنُ فُضَيْل ، حَدَّثني أبي قال : أتَيْتُ أبا إسْحاقَ السبيعيّ بعدما كُفَّ بَصَرُه ، قال : قلتُ : تَعْرِفُنِي ؟ قال : فُضَيْل ؟ قلتُ : نَعَم قال إنِّي والله أُحِبُّكَ ، ولَوْلا الحَيَاءُ مِنْكَ لَقَبَّلْتُك ، فَضَمَّنِي إلىٰ صَدْره ، ثمَّ قال : حَدَّثني أبو الأَحْوَص عن عبدِ الله ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[٤] ، نزَلَتْ في المُتَحَابِّين[٥] .

١٤ـ الأدَبُ بين الإخْوان :

قال غَسَّانُ الغَلاَبِيُّ : كُنتُ أَرَاهُ ـ يَعنِي بِشْرَ ابنَ منصُور ـ إذا زَارَهُ الرَّجُلُ من إخْوَانِه قامَ معه حتىٰ يأخُذَ برِكابِه ، وفَعَلَ بي ذلك كثيراً[٦] .

وهـٰذا مثالٌ فَقَط ، وهناكَ أمثِلةٌ كثِيرةٌ أُخْرىٰ في بابِ الأَدَب .

---

(١) انظر السير : (أبو العالية) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٨٠ .
(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٩
(٣) انظر السير : (سعد بن معاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٤ .
(٤) سورة الأنفال ، الآية : ٦٣
(٥) انظر السير : (أبو إسحاق السبيعي) ٥/ ٣٩٢ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦١٥ .
(٦) انظر السير : (بشر بن منصور) ٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٦٤ .

١٥ـ الخِلافُ لا يُفسِدُ للوُدِّ قَضيَّة :

قال يُونُسُ الصَّدَفيُّ : ما رأيتُ أعْقَلَ من الشَّافِعيّ ، ناظَرْتُه يوماً في مَسْألةٍ ، ثم افْتَرَقْنا ، ولَقِيَني ، فأَخَذَ بيَدِي ثم قال : يا أبا موسَىٰ ، ألا يَسْتَقِيمُ أنْ نكونَ إخْوَاناً ، وإنْ لَمْ نتَّفِقْ في مَسْألة .

قال الذهبيُّ : هٰذا يَدُلُّ علىٰ كَمَالِ عَقْلِ هٰذا الإمام وفِقْهِ نَفْسِه ، فما زَالَ النُّظَراءُ يَخْتلِفون[١] .

١٦ـ فَضْلُ الدُّعاء للإخْوان :

عن أمِّ الدَّرْداءِ قالت : كان لأبي الدَّرْداءِ سِتُّونَ وثلاث مائةِ خليلٍ في الله يَدعُو لهم في الصَّلاة ، فقُلتُ له في ذلك ، فقالَ : إنَّه ليْسَ رجلٌ يَدعُو لأخِيه في الغَيبِ إلاَّ وَكَّلَ اللهُ به مَلَكَيْن يقولان : ولك بمِثْل أفلا أرْغَبُ أنْ تَدْعُوَ لي الملائكةُ[٢] .

وقال ابنُ بكرٍ : سَمعتُ النِّبَاجيَّ يقول : يَنْبَغِي أنْ نكونَ بدُعاءِ إخْوانِنا أوْثَقَ منَّا بأعمالِنا ، نَخَافُ في أعمالنا التَّقصِيرَ ، ونَرْجُو أنْ نكونَ في دعائِهم لنا مُخْلِصين[٣] .

وقال أبو مَيْسَرة ، أحمدُ بنُ نزار ، لرجلٍ : يا أخي فائِدَةُ الاجتماع الدُّعاءُ ، فادْعُ لي إذا ذَكَرْتَنِي ، وأَدْعُو لكَ إذا ذَكَرْتُك فنكون كأنَّا التَقَيْنا وإنْ لَمْ نَلْتَقِ[٤] .

١٧ـ صُورتان للدُّعاء للإخْوَة :

قال الحَارثُ بنُ سُريج : سَمعتُ يَحْيَى القَطَّان يقول : أنا أَدْعُو اللهَ للشَّافعيِّ ، أَخُصُّه به[٥] .

وقال عبدُ الله بنُ حَنْبَل : رُبَّما سَمعتُ أبي في السَّحَرِ يَدْعُو لأقوامٍ بأسْمائِهم ، وكان

---

(١) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٤٦ .
(٢) انظر السير : (أبو الدرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٧٣ .
(٣) انظر السير : (النِّباجي) ٩/ ٥٨٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٤٢ .
(٤) انظر السير : (أبو ميسرة) ١٥/ ٣٩٥ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٤١ .
(٥) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٤٦ .

يُكْثِرُ الدُّعاءَ ويُخْفِيه ، ويُصَلِّي بين العِشاءَيْن ، فإذا صَلَّى العِشاءَ الآخِرة ، رَكَعَ رَكَعَاتٍ صالِحَة ، ثم يُوتِرُ ويَنَامُ نَوْمَةً خَفيفةً ، ثم يَقومُ فيُصَلِّي ، وكانت قِراءَتُه لَيِّنَة ، رُبَّما لَمْ أفْهَم بَعْضَها ، وكان يَصُومُ ويُدمِنُ ، ثم يُفطِرُ ما شاءَ الله ، ولا يَتْرُكُ صَوْمَ الإثنينِ والخميسِ وأيامَ البِيْضِ ، فلمَّا رَجَعَ من العَسْكَر ، أدْمَنَ الصَّومَ إلىٰ أنْ مات[1] .

١٨ـ أمثلةٌ على الأُخُوَّة :

عن عبدِ الله بن مَسْعود أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بَيْن أبي بكرٍ وعُمَرَ ، وعبدُ الله ابنُ مَسْعُودٍ قائمٌ يُصَلِّي ، فافْتَتَحَ سورةَ النِّساءِ يُسَجِّلُها[2] ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَرَادَ أنْ يَقْرَأَ القُرْآنَ غَضّاً كما أُنْزِلَ فلْيَقْرَأْ قِراءَةَ ابنِ أُمِّ عَبْد » فأَخَذَ عبدُ الله في الدُّعاء ، فجَعَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « سَلْ تُعْطَ » فكان فيما سَأَلَ : اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ إيماناً لا يَرْتَدُّ ونَعِيماً لا يَنْفَدُ ، ومُرَافَقَةَ نَبِيِّكَ محَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم في أَعْلىٰ جِنَانِ الخُلدِ ، فأتىٰ عُمَرُ عبدَ الله يُبَشِّرُه ، فوَجَدَ أبا بكرٍ رضي الله عنه خارِجاً قد سَبَقَه ، فقال رضي الله عنه : إنَّك لَسَبَّاقٌ بالخَير[3] .

وعن مالكِ بنِ مِغوَل : حدثنا ابنُ بُرَيدَة عن أبيه قال : جاءَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، وأنا علىٰ بابِ المسجدِ ، فأخَذَ بيدي فأدخَلَني المسجدَ ، فإذا رجلٌ يُصَلي ، يَدعُو يقول : اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك بأنِّي أشهَدُ أنَّكَ أنتَ الله لا إلَـهَ إلاَّ أنْتَ الأحَدُ الصَّمَدُ الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَد ولَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ .

قال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسِي بيَدِه لَقَدْ سَأَلَ الله باسمِهِ الأعْظَم ، الذي إذا سُئِلَ به أعْطَىٰ وإذا دُعِيَ به أجاب » وإذا رجلٌ يَقْرأ فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد أُعْطِيَ هـٰذا مِزْماراً من مَزامِيرِ آلِ داود » ، قلتُ : يا رسولَ الله ، أُخْبِرُهُ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نعم » فأخْبَرتُه فقال لي : لا تزالُ لي صَديقاً ، وإذا هو أبو موسىٰ[4] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٣٠ .

(٢) يُسَجِّلها : أي يقرؤها قراءة مفصلة .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٩٤ .

(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشعريّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/٢٢٩ .

وجاءَ في قِصَّةِ كَعْبِ بنِ مَالِك عندما تَخَلَّفَ عن غَزْوةِ تَبُوك ، وفي نِهايةِ القِصَّة : فقامَ إليَّ طَلْحةُ يُهَروِل حتىٰ صَافَحَنِي وهَنَّأَنِي ، فكان لا يَنْسَاها لِطَلْحَة[1] .

وقالت مُعاذَةُ ، زَوجَةُ صِلَةَ بنَ أَشْيَم : كان أصحابُه ـ تعني صِلَةَ ابنَ أَشْيَم ـ إذا التَقَوا عانَقَ بعضُهم بعضاً[2] .

عن مُطَرِّفِ بنِ عبدِ الله أنَّه قالَ لبعضِ إخْوانِه : يا أبا فُلان إذا كانت لك حَاجَةٌ فلا تُكَلِّمني واكْتُبها في رُقْعَةٍ فإنِّي أكْرَهُ أنْ أَرَىٰ في وَجْهِكَ ذُلَّ السُّؤال[3] .

وعن قَتَادَةَ قال : دخَلْنا على الحَسَنِ البَصْرِي وهو نائِمٌ ، وعند رأسِهِ سَلَّة ، فجَذَبناها فإذا خُبزٌ وفاكِهَةٌ ، فجَعَلْنا نأكُلُ ، فانتَبَه فرَآنا ، فَسَرَّه ذلك ، فَتَبَسَّمَ وهو يَقْرَأُ : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[4] لا جُنَاحَ عليكُم[5] .

وعن أبي ثَورٍ قال : كان الشَّافعيُّ من أَسْمَحِ النَّاس ، يَشْتَري الجَارِيَةَ الصَّناع التي تَطبُخُ وتَعمَلُ الحَلْواء ، ويَشْتَرِطُ عليها هو أنْ لا يَقْرَبَها ، لأنَّه كان عَلِيلاً لا يُمكِنُه أنْ يَقْرَبَ النِّساء لباسُورٍ به إذ ذاك ، وكان يقولُ لنا : اشْتَهوا ما أرَدْتُم[6] .

* * *

---

(١) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٠٢ .

(٢) انظر السير : (صلة بن أشيم) ٣/ ٤٩٧ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤١٥ .

(٣) انظر السير : (مطرف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٧٦ .

(٤) يَقْصِدُ الآية ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ (النور ٦١) .

(٥) انظر السير : (الحسن البصري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٦١ .

(٦) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٤٩ .

خامساً : الأمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عن المُنْكر

١ـ هَل يَجب على الآمِر بالمعْروف العَملُ بما أمَرَ به ؟ :

عن أبي الدَّرْداء : إنِّي لآمُرُكُم بالأمرِ وما أفْعَلُه ، ولكنْ لَعَلَّ اللهَ يَأْجُرُني فيه[١] .

٢ـ إذا ظَهَر المُنكرُ وعمَّ ولم يُغيَّر أخَذَ اللهُ كلَّ النَّاس :

عن عَمرِو بنِ قَيْس ، سَمِعَ يَزِيدَ بنَ مُعَاوِيةَ يقولُ على المِنْبَرِ : إنَّ الله لا يُؤاخِذُ عامَّةَ النَّاسِ بخاصَّةٍ إلاَّ أنْ يَظهَرَ مُنكَرٌ فلا يُغَيَّرُ فيُؤاخِذُ الكُلَّ[٢] .

٣ـ من عُقوبَة تارِك الأمْرِ والنَّهْي :

قال أبو المُنْذِر إسماعيلُ بنُ عُمَرَ : سَمعتُ أبا عبدِ الرَّحمَـٰنِ العُمريَّ الزَّاهِدَ يقول : إنَّ من غَفْلَتِكَ عن نفسِكَ إعْراضُكَ عن الله ، بأن تَرىٰ ما يُسْخِطُه فتُجَاوِزَه ، ولا تأمُرُ ولا تَنْهَىٰ خَوْفاً من المَخْلُوقِ مَنْ تَرَكَ الأمرَ بالمعْرُوفِ خَوْفَ المَخْلُوقين نُزِعَتْ منه الهَيْبَةُ ، فلَوْ أمَرَ وَلَدَه ، لاسْتَخَفَّ به[٣] .

٤ـ القائم بالأمْرِ والنَّهْي لا يَرضَىٰ عنه النَّاسُ كلُّهم :

عن يَحْيَىٰ بنِ المُتَوَكِّل قال : قال سُفيانُ الثَّوْريُّ : إذا أثْنَىٰ على الرَّجُلِ جِيرانُه أجْمَعونَ فهو رجُلَ سُوءٍ لأنَّه رُبَّما رآهم يَعْصُونَ ، فلا يُنْكِرُ ، ويَلْقاهم ببِشْر[٤] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٧١ .

(٢) انظر السير : (يزيد ابن معاوية) ٤/ ٣٥ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٦/٤٣٧ .

(٣) انظر السير : (العُمريّ) ٨/ ٣٧٣ـ ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٦٥ .

(٤) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/٧٠٠ .

٥ـ سُفيانُ الثَّوْريُّ رَحمَه اللهُ كانَ يَبولُ دَماً إذا لم يَستَطِعْ الإنْكار :

عن سُفيانَ الثَّوْريِّ ، قال : إنِّي لأرى الشيءَ عليَّ أنْ أتَكَلَّمَ فيه ، فلا أفْعَلُ ، فأبُولُ دَماً[1] .

٦ـ الاجتهاد في إزالة المنكر والكتابة فيه إلىٰ أولي الأمر :

كان ابنُ قُدَامَة إذا سَمِعَ بمُنكَرٍ اجْتَهَدَ في إزالَتِه ، ويكتبُ فيه إلى المَلِكِ ، حتىٰ سمعنا عن بعضِ المُلُوكِ أنَّه قال : هـٰذا الشَّيخُ شَرِيكِي في مُلْكِي[2] .

٧ـ الإنكارُ لله يجعلُ لصاحبه هيبةً في النفوس :

ذَكَرُوا أنَّ العَادِلَ قال : ما خِفْتُ من أَحَدٍ ما خِفْتُ من هـٰذا ـ يَعْنِي الإمامَ عبدَ الغَنِيّ المَقْدِسيّ ـ فقُلنا : أيُّها المَلِكُ هـٰذا رجلٌ فَقِيهٌ قال : لمَّا دَخَلَ ما خُيِّلَ إليَّ إلاَّ أنَّه سَبُعٌ[3] .

٨ـ الشجاعةُ في الإنكار وتعريضُ النفس للأذىٰ :

وقال ابنُ جهضم : حدَّثني أبو بكر الجلاء قال : كان النُّورِيُّ إذا رأىٰ مُنْكَراً غَيَّرَه ، ولو كان فيه تَلَفُه ، نَزَلَ يوماً فرَأىٰ زَوْرَقاً فيه ثلاثُون دَنّاً ، فقال للمَلاَّحِ : ما هـٰذا ؟ قال : ما يَلْزَمُك ؟ ، فألَحَّ عليه فقال : أنت والله صُوفِيٌّ كثيرُ الفُضُولِ ، هـٰذا خَمْرٌ للمُعْتَضِدِ ، قال : أعْطِنِي ذلك المِدْرِيّ ، فاغْتَاظَ وقال لأجيرِه : ناوِلْهُ حتىٰ أُبصِرَ ما يَصْنعُ ، فأخَذَه ونزَلَ فكَسَّرَها كُلَّها غيرَ دَنٍّ ، فأُخِذَ وأُدْخِلَ على المُعْتَضِدِ ، فقال : مَنْ أنتَ وَيْلك ؟ قال : مُحْتَسِبٌ ، قال : مَنْ وَلاَّكَ الحِسْبَةَ ؟ قال : مَنْ وَلاَّكَ الإمَامَةَ يا أميرَ المؤمنين! فأطْرَقَ وقال : ما حَمَلَكَ علىٰ فِعْلِك ؟ قال : شَفَقَةً منِّي عليك! قال : كيفَ سَلِم هـٰذا الدِّنُّ ؟!! ، فذَكَرَ أنَّه كان يَكْسِرُ الدِّنان فنفسُه مُخْلِصَةٌ خاشِعَةٌ ،

---

(١) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/٦٩٦ .

(٢) انظر السير : (الشيخ أبو عمر) ٢٢/ ٥ـ ٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٦٢ .

(٣) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٤٦ .

فلمَّا وَصَلَ إلىٰ هـٰذا الدِّنِ أعْجَبَتْه نَفْسُه فارتابَ فيها فتَرَكَه[1] .

وقال الحاكمُ : كان محَمَّدُ بنُ جَرير ممَّن لا تأخُذُه في الله لَوْمَةُ لائِمٍ مع عَظيمِ ما يَلْحَقُه من الأذَىٰ والشَّناعاتِ من جاهِلٍ وحاسِدٍ ومُلحِدٍ ، فأمَّا أهلُ الدِّينِ والعِلْمِ ، فغَيْرُ مُنْكِرين عِلْمَه وزُهدَه في الدُّنيا ورَفْضَه لها وقَنَاعَتَه ـ رَحِمَه الله ـ بما كان يَرِدُ عليه من حِصَّةٍ من ضَيْعَةٍ خلَّفَها له أبُوه بطَبَرِسْتان يسيرة[2] .

نقل أبو عبد الرحمـٰن السُّلميّ في « مِحَن الصُّوفيّة » : أن بُناناً الحَمَّال قام إلىٰ وزير خُمارويه ـ صاحب مصر ـ وكان نَصْرانيّاً فأنزله عن مَركوبه وقال : لا تركب الخيلَ وعيِّر ، كما هو مَأخوذ عليكم في الذِّمَّة ، فأمر خُمارويه بأن يُؤخَذ ويُوضع بين يدي سَبُع ، فطُرِحَ ، فبقي ليلةً ، ثم جاؤوا والسَّبُعُ يلحَسُه وهو مستقبل القِبْلَة ، فأطلَقَه خُمارويه واعتذر إليه[3] .

وقال ابنُ طاهِر : سَمعتُ شَيخَ الإسْلام أبا إسماعيلَ عبدَ الله الهَرَويّ يقول : عُرِضْتُ على السَّيفِ خَمْسَ مَرَاتٍ لا يُقالُ لي : ارْجِعْ عن مَذْهَبك ، لكن يُقالُ لي : اسْكُتْ عمَّنْ خَالَفَك فأقولُ : لا أَسْكُتُ وسَمعتُه يقول : أحْفَظُ اثني عشرَ ألفَ حديثٍ أسْرُدُها سَرْداً[4] .

كان الحافظُ عبدُ الغَنِيّ المَقْدِسيّ لا يَرَىٰ مُنْكَراً إلاَّ غَيَّرَه بيَدِه أو بلِسَانِه ، وكان لا تأخُذْه في الله لَوْمَةُ لائِمٍ قد رَأَيْتُه مَرَّةً يَهْرِيقُ خَمْراً فجَبذَ صاحبُه السَّيْفَ فلَمْ يَخَفْ منه ، وأَخَذَه من يَدِه وكان قَوِيّاً في بَدَنِه ، وكثِيراً ما كان بدِمَشْقَ يُنْكِرُ ويَكْسِرُ الطَّنابِيرَ والشَّبابَّات[5] .

وسمعتُ أبا بكر بنَ الطَّحَان قال : كان بعضُ أولادِ صَلاحِ الدِّين قد عُمِلَتْ لهم

---

(١) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٥/١١٣٤ .
(٢) انظر السير : (محمد بن جرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٥١ .
(٣) انظر السير : (بُنانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١١٦٩ .
(٤) انظر السير : (شيخ الإسلام الهَرَويّ) ١٨/ ٥٠٣ـ ٥١٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٣٧ .
(٥) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٤٦ .

طَنَابِير ، وكانوا في بُسْتانٍ يَشْرَبُون ، فلَقِيَ الحافظُ الطَّنَابيرَ فكَسَرَها قال : فحَدَّثَني الحافظُ ، قال : فلمَّا كنتُ أنا وعبدُ الهَادِي عند حَمَّامِ كافور إذا قومٌ كثيرٌ معهم عِصِيّ فخَفَّفْتُ المَشْيَ ، وجَعلْتُ أقولُ : « حَسْبِيَ الله ونِعْمَ الوَكِيلُ » ، فلَمَّا صِرْتُ على الجِسْرِ لَحِقُوا صاحِبِي ، فقال : أنا ما كَسَرْتُ لكم شيئاً ، هـٰذا هُوَ الذي كَسَر قال : فإذا فارسٌ يَرْكُضُ فتَرَجَّلَ ، وقَبَّلَ يدِي ، وقال : الصِّبيَانُ ما عَرَفُوكَ ، وكان قد وَضَعَ الله له هَيْبَةً في النُّفُوسِ[1] .

وسمعتُ أبا بكرِ بنَ الطَّحَان ، قال : كان في دَوْلَةِ الأَفْضَلِ جَعَلُوا المَلاهِي عند الدَّرَج ، فجَاءَ الحافظُ عبدُ الغَنِيّ المَقدِسيّ ، فكَسَّرَ شيئاً كثيراً ، ثم صَعَدَ يقرأُ الحَدِيثَ ، فجَاءَ رسولُ القاضِي يأمُرُه بالمَشْيِ إليهِ ليُنَاظِرَه في الدُّفِّ والشَّبّابة فقال : ذاكَ عِندِي حَرامٌ ولا أَمشِي إلَيْهِ ، ثُمَّ قَرَأَ الحَدِيثَ فعَادَ الرَّسولُ فقال : لا بُدَّ من المَشْيِّ إليه ، أنْتَ قد بَطَّلْتَ هـٰذه الأشياءَ على السُّلطان ، فقال الحافظُ : ضَرَبَ الله رَقَبَتَه ورَقَبَةَ السُّلطان ، فمَضَى الرَّسولُ وخِفْنا ، فمَا جَاءَ أحدٌ[2] .

٩ـ من ضُرب حتىٰ أغمي عليه لأجل إنكاره :

قال الضِّياءُ : بَلَغَنِي أنَّ العِمادَ أخُا الحافظِ عبدِ الغَنِيّ المَقْدِسيّ أتىٰ فُسَّاقاً ، فكَسَرَ ما معهم فضَرَبُوه حتىٰ غُشِيَ عليه ، فأرَادَ الوالِي ضَرْبَهم ، فقال : إنْ تَابُوا ولازَمُوا الصَّلاةَ فلا تُؤْذِهم وهم في حِلٍّ ، فتابُوا .

ثم قال الضِّياءُ : أعْرِفُ وأنا صَغِيرٌ أنَّ جَمِيعَ مَنْ كان في الجَبَلِ يَتَعَلَّمُ القُرآنَ كان يَقرَأُ على العِمادِ ، وخَتَمَ عليه جَماعَةٌ ، وكان يَبْعَثُ بالنَّفَقَةِ سِراً إلى النَّاس ويأخُذُ بقَلْبِ الطَّالِبِ ، وله بِشْرٌ دائِمٌ[3] .

---

(١) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٤٦ .
(٢) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٤٦ .
(٣) انظر السير : (العماد) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٦٥ .

١٠ـ الذكاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قِيلَ : كان لتاجرٍ علىٰ أميرٍ مالٌ ، فماطَلَه ، ثمَّ جَحَدَه ، فقال له صاحبٌ له : قُمْ معي ، فأتىٰ بي خَيَّاطاً في مَسْجِدٍ ، فقامَ مَعَنَا إلى الأميرِ ، فلمَّا رآه ، هابَه ، ووَفَّاني المالَ ، فقُلتُ للخَيَّاطِ : خُذْ مِنِّي ما تُريدُ ، فغَضِبَ ، فقُلتُ له : فحَدِّثني عن سَبَبِ خَوفِه مِنْكَ ، قال : خَرَجتُ ليلةً ، فإذا بتُرْكيٍّ قد صادَ امرأةً مَلِيحَةً وهي تَتَمَنَّعُ منه وتَسْتَغِيثُ ، فأَنْكَرْتُ عليه فَضَرَبَنِي ، فلمَّا صَلَّيْتُ العِشاءَ جَمَعْتُ أَصْحَابِي وجِئْتُ بابَه ، فخَرَجَ في غِلْمَانِه وعَرَفَنِي ، فضَرَبَنِي وشَجَّنِي ، وحُمِلتُ إلىٰ بَيْتِي ، فلمَّا تَنَصَّفَ الليلُ ، قُمتُ فأذَّنتُ في المَنَارَةِ ، لكي يَظُنَّ أنَّ الفَجْرَ طَلَعَ فيُخَلِّيَ المرأةَ ، لأنَّها قالت : زَوْجِي حالِفٌ عليَّ بالطَّلاقِ أنِّي لا أَبيتُ عن بَيْتِي ، فما نَزَلتُ حتىٰ أحاطَ بي بدرٌ وأعْوانُه ، فأُدْخِلتُ على المُعْتَضِد ، فقال : ما هـٰذا الأذانُ ؟!! ، فحَدَّثْتُه بالقِصَّةِ ، فطَلَبَ التُّركِيَّ ، وجَهَّزَ المرأةَ إلىٰ بَيْتِها ، وضَرَبَ التُّركِيَّ في جوالق حتىٰ ماتَ ، ثم قال لي : أَنْكِر المُنْكَرَ ، وما جَرَىٰ علَيْكَ فأذِّن كما أذَّنتَ ، فدَعَوْتُ له ، وشَاعَ الخَبَرُ ، فما خاطَبْت أحداً في خَصْمِه إلاَّ أطاعَنِي وخَاف[1] .

قال ابنُ جَرير : وفي سنة أربع وثمانين ومئتين : عَزَمَ المُعْتَضِدُ علىٰ لَعْنَةِ مُعَاوِيَةَ على المَنَابِر ، فخَوَّفَه الوَزِيرُ ، فلَمْ يَلْتَفِتْ ، وحَسَمَ مادة اجتماع الشِّيعَةِ وأهلِ البيتِ ومَنَعَ القُصَّاصَ من كلامِه جُملة ، وتَجَمَّعَ الخَلْقُ يومَ الجُمُعَةِ لِقراءَةِ ما كُتِبَ في ذلك ، وكان من إنْشاءِ الوَزِير ، فقال يوسُفُ القاضِي : راجِعْ أميرَ المؤمنين فقال : يا أميرَ المؤمنين! تَخافُ الفِتْنَةَ ؟ فقال : إنْ تَحَرَّكَت العامَّةُ وضَعْتُ السَّيْفَ فيهم قال : فما تَصْنَعُ بالعَلَوِيَّةِ الذين هم في كُلِّ قُطْرٍ قد خَرَجُوا عَلَيْكَ ؟ فإذا سَمِعَ النَّاسُ هـٰذا من مَنَاقِبِهم كانوا إليْهِم أمْيَلَ وأبْسَطَ ألسِنَةً فأعْرَضَ المُعْتَضِدُ عن ذلك[2] .

---

(١) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٠٦ .

(٢) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٠٨ .

١١ـ التواصي على الحضّ على الإنكار والصبر عليه :

كان الحافظُ عبدُ الغَنِيّ المَقدِسِيّ لا يَصْبِرُ علىٰ إنْكارِ المُنكرِ إذا رآه ، وكُنَّا مرَّةً أنكَرْنا علىٰ قومٍ وأَرَقْنا خَمْرَهم وتَضارَبْنا ، فسَمِعَ المُوَفَّقُ أبو عُمَرَ ، فضَاقَ صَدْرُه وخاصَمَنَا ، فلمَّا جِئْنا إلى الحافظ طَيَّبَ قُلُوبَنَا ، وصَوَّبَ فِعْلَنَا وتلا قولَ الله تعَالَىٰ : ﴿ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾[١] ، [٢] .

١٢ـ الإنكار يتطلب البُعدَ عن أموال النَّاس :

ذكَرَ ناصرٌ المَرْوزيُّ أنَّ بعضَ الفُقَهاءِ المختلفين إلى القَفَّال احتسبَ علىٰ بعضِ أتْباعِ متولِّي مَرْو ، فرُفِعَ ذلك إلى السُّلطانِ محمود ، فقال : أيأخُذُ القَفَّالُ شيئاً من دِيوانِنَا ؟ قال : لا قال : فهل يَتَلَبَّسُ بشيءٍ من الأوْقافِ ؟ قال : لا قال : فإنَّ الاحْتِسابَ لهم سائغٌ ، دَعْهُم[٣] .

١٣ـ الصَّدعُ بالحق :

عن أبي حَرْبِ بنِ الأسْوَد : سَمعتُ عبدَ الله بنَ عَمرٍو : سَمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « ما أَقَلَّتِ الغَبْراءُ ، ولا أَظَلَّتِ الخَضْراءُ مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أبي ذَرٍ » .

وعن أبي اليَمَانِ ، وأبي المُثَنَّىٰ ، أنَّ أبا ذَرٍّ قال : بايَعَنِي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَمْسَاً ووَاثَقَنِي سَبْعَاً ، وأشْهَدَ اللهَ عليَّ سَبْعَاً : ألاَّ أخافَ في اللهِ لَوْمَةَ لائمٍ[٤] .

وقال السّلفيُّ : كان شَيخُنا ابنُ الحُطَيئة شَديداً في دينِ الله فَظَّاً غَلِيظاً علىٰ أعداءِ الله ، لقد كان يَحْضُرُ مَجْلسَه داعيَ الدُّعاةِ[٥] مع عِظَمِ سُلطَانِه ونُفُوذِ أمْرِه ، فمَا

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ١٧

(٢) انظر السير : (عبدالغنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٤٦ .

(٣) انظر السير : (القَفَّال) ١٧/ ٤٠٥ـ ٤٠٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٤٧ .

(٤) انظر السير : (أبو ذر الغفاريّ) ٢/ ٤٦ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢١٩ .

(٥) وهو أبو القاسم هبة الله ابن كامل المصري التنوخي ، قاضي الخليفة العاضد متوفىٰ سنة ٥٦٩ ، مُترجَم=

يَحْتَشِمُهُ ، ولا يُكْرِمُهُ ، ويقول : أحْمَقُ النَّاس في مسْألةِ كذا وكذا الرَّوَافِضُ ، خَالَفُوا الكتابَ والسُّنَّةَ وكَفَرُوا بالله[1] .

قال السّلفيُّ : كنتُ عند ابنِ الحُطَيئةِ يوماً في مَسْجِدِه بشرفِ مِصْرَ وقد حَضَرَه بعضُ وُزَرَاءُ المِصْريِّين أَظُنُّه ابنَ عبَّاس ، فاسْتَسْقَىٰ في مَجْلِسِه ، فأتاه بعضُ غِلْمَانِه بإناءِ فِضَّةٍ فلمَّا رآهُ ابنُ الحُطَيئَةَ وضَعَ يَدَه علىٰ فُؤادِه وصَرَخَ صَرْخَةً مَلأَتْ المسجدَ ، وقال : واحَرَّها علىٰ كَبِدِي ، أَتَشْرَبُ في مجلسٍ يُقْرَأُ فيه حَديثُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في آنِيَةِ الفِضَّة ؟ لا والله لا تَفعلُ ، وطَرَدَ الغُلامَ فخَرَجَ ، وطَلَبَ الشَّيخُ كُوزاً ، فجِيءَ بكُوزٍ قد تثلَّم ، فشَرِبَ ، واسْتَحْيَىٰ من الشَّيخِ ، فرأيتُه والله كما قال تعالىٰ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾[2] .

قال : وأتىٰ رجلٌ إلىٰ شيخِنا ابنِ الحُطَيئَة بمِئْزَرٍ ، وحَلَفَ بالطَّلاقِ ثلاثاً لا بُدَّ أن يُقَبِّلَه ، فوَبَّخَه علىٰ ذلك ، وقال : عَلِّقْهُ علىٰ ذلكَ الوَتَد ، فلَمْ يَزَلْ على الوَتَدِ حتىٰ أكلَه العُثُّ ، وتَساقَطَ ، وكان ينسَخُ بالأُجْرةِ وكان له على الجِزْيَةِ في السَّنَةِ ثلاثةُ دنانيرٍ ، ولقد عَرَضَ عليه غَيرُ واحدٍ من الأُمَرَاءِ أن يَزِيدَ جامكيَّته[3] ، فما قَبِل ، وكان له من الموقعِ في قُلوبِهم مع كثرةِ ما يُهِينُهم ما لَم يكنْ لأحدٍ سواه ، وعَرَضوا عليه القَضَاءَ بمصرَ ، فقال : والله لا أقْضِي لهم إلىٰ أنْ قال شجاع : وكَتَبَ « صَحيحَ مُسْلِم » كُلَّه بقلمٍ واحدٍ ، وسَمعتُه وقِيلَ له : فلانٌ رُزِقَ نِعمَةً ومَعِدَةً ، فقال : حَسَدُوه على التَّرَدُّدِ إلى الخَلاءِ ، وسَمعتُه كثيراً إذا ذُكِرَ عُمَرُ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه يقول : طُوِيَتْ سَعادَةُ المُسْلمين في أكْفَانِ عُمَر .

وقرأتُ بخَطِّ ابنِ الأنْماطِيِّ قال لي شَيْخُنا شُجاعٌ : كان الشَّيخُ أبو العبَّاسِ قد أخَذَ

= في الخريدة (قسم بمصر) ١/ ١٨٦ ، و« الروضتين » ١/ ٢٢٤ ، و« العبر » ٤/ ٢٠٩ ، و« شذرات الذهب » ٤/ ٢٣٥ .

(١) انظر السير : (ابن الحُطيئة) ٢٠/ ٣٤٤ـ٣٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٥٩ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ١٧ .

(٣) الجامكيَّة : رواتب خدام الدولة ، تعريب جامكي ، وهو مركب من « جامه » أي قيمة ، ومن « كي » وهو أداة النسبة

نفسَه بتقْليلِ الأكلِ ، بحيثُ بلَغَ في ذلك إلى الغايَةِ وكان يَتَعَجَّبُ ممَّن يأكُلُ ثلاثينَ لُقْمَةً[1] .

١٤ـ ضابط للصَّدعِ بالحق :

قال الذهبيُّ : الصَّدْعُ بالحَقِّ عَظيمٌ ، يَحتاجُ إلىٰ قُوةٍ وإخْلاصٍ ، فالمُخْلِصُ بِلا قُوَةٍ يَعْجِزُ عن القِيامِ به ، والقَوِيُّ بِلا إخْلاصٍ يُخْذَلُ ، فمَنْ قامَ بهما كاملاً فهو صِدِّيقٌ ومَنْ ضَعُفَ ، فلا أَقَلَّ من التألُّمِ والإنْكارِ بالقلبِ ليْسَ وَراءَ ذلكَ إيمانٌ ، فَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله .

عن ثَوْبانٍ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ علىٰ أُمَّتِي الأئِمَةُ المُضِلُّون ، وإذا وُضِعَ السَّيْفُ عَلَيْهِم ، لَمْ يُرْفَعْ عَنهُم إلىٰ يَوم القِيامَةِ ، ولا تَزَالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي على الحَقِّ ظاهِرِينَ ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُم أوْ خَذَلَهُم حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ الله »

عن أبي سَعيدٍ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُم نَفْسَهُ أنْ يَرَىٰ أَمْراً لله فِيهِ مَقَالٌ ، فَلا يَقُولُ فِيهِ ، فَيُقَالُ له : ما مَنَعَكَ ؟ فَيَقُولُ : مَخَافَةُ النَّاسِ فَيَقُولُ : فَإيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أنْ تَخَافَ »[2] .

١٥ـ الإنكار بمنكر أَشَدُّ أَشَدُّ من الإنكار الأصلي :

قد حُبِّبَ في الآخرِ إلىٰ صاحبِ مِصْرَ الحاكمِ بأمْرِ الله العُزْلَةُ ، وبَقِيَ يَرْكَبُ وَحْدَه في الأسْواقِ علىٰ حِمارٍ ، ويُقِيمُ الحِسْبَةَ بنفسِه ، وبَيْنَ يدَيْه عبدٌ ضَخْمٌ فاجِرٌ ، فمَنْ وَجَبَ عليه تأدِيبٌ ، أَمَرَ العَبدَ أنْ يُولِجَ فيه ، والمَفعُولُ به يَصِيحُ .

وقِيلَ : إنَّه أَرَادَ ادِّعاءَ الإلَهِيَّةِ ، وشَرَعَ في ذلك ، فَكَلَّمَهُ الكُبَرَاءُ وخَوَّفُوهُ من وُثُوبِ النَّاسِ ، فتَوَقَّفَ[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن الحُطيئة) ٢٠/ ٣٤٤ـ٣٤٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٦٠ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٦/٩٣١ .

(٣) انظر السير : (الحاكم بأمر الله) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/١٢٠٨ .

١٦ـ الإنكار الشديد في غير محله :

قال أبو إسْماعِيلَ الأنْصَاريّ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ أحمدَ البَلْخِيّ المُؤَذِّنَ يقولُ : كُنتُ مع الشَّيخِ أبي مُحمَّد بنِ أبي شُرَيْح في طريق غُور ، فأتاه إنْسَانٌ في بعضِ تلكَ الجِبالِ ، فقال : إنَّ امْرَأَتي وَلَدَتْ لِستَّةِ شُهورٍ ، فقال : هُو وَلَدُكْ ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « الوَلَدُ للفِرَاشِ » فعَاوَدَه ، فَرَدَّ علَيهِ كذلك ، فقال الرَّجلُ : أنا لا أقولُ بهـٰذا ، فقال : هـٰذا الغَزْوُ ، وسَلَّ عليه السَّيفَ ، فأكْبَبْنا عليه وقُلنا : جَاهِلٌ لا يَدْرِي ما يقول .

وقال الذهبيُّ : كان سَبيلُه أنْ يُوَضِّحَ له ، ويقولُ : لَكَ أنْ تَنْتَفيَ منْهُ باللِّعانِ ، ولكنَّه احْتَمَىٰ للسُّنةِ وغَضِبَ لها[١] .

وعن يَحْيَىٰ بنِ مندة قال : سَمعتُ عَمِّي عبدَ الرَّحمَـٰنِ ، سَمعتُ مُحمَّدَ ابنَ عُبَيْدِ الله الطَّبَرَانِيَّ يقول : قُمتُ يوماً في مَجْلِسِ والِدِكَ رحمَه الله فقُلتُ : أيُّها الشَّيخُ ، فِينَا جَماعَةٌ ممَّنْ يدخُلُ علىٰ هـٰذا المَشْؤوم ـ أعْنِي أبا نُعَيْمٍ الأشْعَرِيّ ـ فقال : أَخْرِجُوهم ، فأَخْرَجْنا من المَجْلِسِ فُلاناً وفُلاناً ثم قال : على الدَّاخِلِ عليهم حَرَجٌ أنْ يدخُلَ مَجْلِسَنا ، أو يَسْمعُ مِنَّا ، أو يَرْوِيَ عَنَّا ، فإنْ فَعَلَ فليْسَ هو مِنَّا في حِلٍّ .

قال الذهبيُّ : رُبَّما آلَ الأمرُ بالمَعْروفِ بصاحِبِه إلى الغَضَبِ والحِدَّةِ ، فَيَقَعُ الهجْرانُ المُحَرَّم ، ورُبَّما أَفْضَىٰ إلى التَّكْفيرِ والسَّعْيِ في الدَّمِ ، وقد كان أبو عبدُ الله يَحْيَىٰ بنُ مندة وافِرَ الجَاهِ والحُرْمَةِ إلى الغايَةِ ببلَدِه وشغب علىٰ أحمدَ بنِ عبدِ الله الحافظِ ، بحَيْثُ إنَّ أحمَدَ اخْتَفَىٰ[٢] .

١٧ـ خُلفاءٌ شَدَّدوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

من مَحَاسِنِ الحَكَمِ بنِ عبد الرَّحمَـٰنِ بنِ مُحمَّد أنَّه شَدَّد في مَمْلَكَتِه في إبْطَالِ الخُمُورِ تَشْدِيداً عَظِيماً[٣] .

---

(١) انظر السير : (ابن أبي شُريح) ١٦/ ٥٢٦ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣١٣ .

(٢) انظر السير : (ابن مندة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٣٢٢ .

(٣) انظر السير : (الحكم ابن عبد الرحمـٰن ابن محمّد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٥٨ .

من مَحَاسِنِ المُسْتَنْصِرِ بالله أنَّه شَدَّد في الخَمرِ في مَمَالِكِه ، وأبْطَلَه بالكُلِّية وأَعْدَمَه[1] .

١٨ـ الإنكار على الخُلَفاء والمُلُوك :

(وانظُر عَلاقَةَ العُلَمَاءِ بالمُلُوكِ والأُمَرَاءِ فَفِيهِ المَزِيد) .

قال ابنُ عَفيفٍ : مِنْ أخْبارِ مُنْذِرِ بنِ سَعيدٍ المَحْفُوظَة : أنَّ أميرَ المؤمنين النَّاصِرَ عَمِلَ في بعضِ سُطُوحِ الزَّهراءِ قُبَّةً بالذَّهَبِ والفِضَّةِ وجَلَسَ فيها ودَخَلَ الأعْيانُ ، فجاءَ مُنْذِرُ بنُ سَعيدٍ ، فقال له الخَليفَةُ كما قالَ لِمَنْ قَبْلَه : هل رأيتَ أو سَمعتَ أنَّ أَحَداً من الخُلفاءِ قَبلِي فَعَلَ مثلَ هـٰذا ؟ فأَقْبَلَتْ دُموعُ القاضِي تَتَحَدَّرُ ، ثمَّ قال : والله ما ظَنَنْتُ يا أميرَ المؤمنين أنَّ الشَّيْطانَ يَبلُغُ منْكَ هـٰذا المَبْلغَ أنْ أَنْزَلَكَ مَنَازِلَ الكُفَّارِ ، قال : لِمَ ؟ فقال : قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ إلىٰ قولِهِ تَعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2] ، فَنَكَّسَ النَّاصرُ رَأسَه طَويلاً ، ثمَّ قال : جَزَاكَ اللهُ عَنَّا خَيْراً وعن المسلمين ، الذي قُلتَ هو الحَقُّ ، وأَمَرَ بنَقْضِ سَقْفِ القُبَّةِ[3] .

١٩ـ خَطيبٌ عُزلَ لإنكاره على الخليفة :

وقد اسْتغرَقَ مُنذِرُ بنُ سَعيدٍ مَرَّةً في خُطبَتِه بجامع الزَّهْراء فأَدْخَلَ فيها ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[4] ، فتَخَيَّرَ النَّاصرُ لِخطَابَةِ الزَّهْراءِ أحمدَ بنَ مطرف إذا حَضَرَ النَّاصرُ[5] .

---

(١) انظر السير : (المستنصر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٩٠ .

(٢) سورة الزخرف ، الآيات : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) انظر السير : (مُنذر بن سعيد البُلُوطيّ) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٧٩ .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٥) انظر السير : (مُنذر بن سعيد البُلُوطيّ) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨٠ .

٢٠ـ الإغْلاظُ على الظالمين :

عن ابنِ عُمَرَ أنَّه قامَ إلى الحَجَّاجِ وهو يَخْطُبُ ، فقال : يا عَدُوَّ الله! اسْتُحِلَّ حَرَمُ الله ، وخُرِّبَ بَيْتُ الله فقال : يا شَيْخاً قد خَرِفَ فلمَّا صَدَرَ النَّاسُ ، أَمَرَ الحَجَّاجُ بعضَ مُسَوِّدَتِه ، فأخَذَ حَرْبَةً مَسْمُومَةً وضَرَبَ بها رِجْلَ ابنَ عُمَرَ ، فمَرِضَ ، وماتَ منْها ودَخَلَ عليه الحَجَّاجُ عائِداً : فسَلَّمَ عليه فلَمْ يَرُدّ عليه ، وكَلَّمَه ، فلَمْ يُجِبْه[١] .

وعن خالِدِ بنِ سُمَيْرٍ قال : خَطَبَ الحَجَّاجُ ، فقال : إنَّ ابنَ الزُّبَيْرِ حَرَّفَ كتابَ الله ، فقالَ ابنُ عُمَرَ : كَذَبتَ كَذَبتَ ، ما يَسْتَطِيعُ ذلك ولا أنْتَ مَعَه قال : اسْكُتْ فقد خَرِفْتَ وذَهَبَ عَقلُك ، يُوشِكُ شَيخٌ أن يُضْرَبَ عُنقُه ، فيَخِرَّ وقد انْتَفَخَتْ خِصْيَتَاه ويَطُوفُ به صِبيَانُ البَقِيعِ .

ولابنِ عُمَرَ أقوالٌ وفَتَاوَىٰ يَطُولُ الكِتابُ بإيرادِها .

وقال أبو نَعِيمٍ : ماتَ سَنَةَ ثلاثٍ وسَبعينَ ، تُوفِّيَ في آخرِ سَنَةِ ثلاثٍ ، وهو القائلُ : كنتُ يومَ أُحُدٍ ابنَ أربع عَشْرَةَ سَنَةً ، فَعَلىٰ هٰذا يكون عُمرُه خَمْساً وثَمانِينَ سَنَةً رضي الله عنه[٢] .

٢١ـ الإنكار علىٰ أعوان الظالمين :

عن سَعيدِ بنِ المُسَيِّبِ قال : لا تَمْلؤُوا أعْيُنَكم من أَعْوانِ الظَّلَمةِ إلاَّ بإنْكارٍ من قُلُوبِكم ، لِكَيْلا تَحْبَطَ أعْمَالُكم[٣] .

٢٢ـ تَعليلٌ لمَنْع المأمون الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر :

قال أبو المُظَفَّر في كتابِ « مِرْآةُ الزَّمانِ » قال عبدُ الصَّمَد بنُ المُهْتَدِي : لمَّا دَخَلَ المَأمُونُ بَغْدادَ نادىٰ بتَركِ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ ، وذلك لأنَّ الشُّيوخَ بَقَوْا

---

(١) انظر السير : (عبد الله ابن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٧١ .

(٢) انظر السير : (عبد الله ابن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٧٢ .

(٣) انظر السير : (سعيد ابن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٨٥ .

يَضْرِبُونَ ويَحْبِسُون ، فنَهَاهُم المَأمُونُ وقال : قد اجْتَمَعَ النَّاسُ علىٰ إمامٍ ، فمَرَّ أبو نُعَيمٍ ، فرأىٰ جُندِياً وقد أَدْخَلَ يَدَيْه بَينَ فَخِذَي امْرَأةٍ ، فنَهَاه بعُنْفٍ ، فحَمَلَه إلى الوَالِي ، فحَمَلَه الوَالِي إلى المَأمُونِ قال : فأُدخِلتُ عليه بُكرَةً وهو يُسَبِّحُ ، فقال : تَوَضَّأ فتَوَضَّأتُ ثلاثاً ثلاثاً علىٰ ما رَوَاهُ عبدُ خَيرٍ ، عن عليٍّ ، فصَلَّيْتُ رَكعَتَيْنِ ، فقال : ما تقولُ في رَجلٍ ماتَ عن أبَوَيْنِ ؟ فقُلتُ : للأُمِّ الثُّلُثُ ، وما بَقِيَ للأبِ ، قال : فإنْ خَلَّفَ أَبَوَيْه وأَخَاهُ ؟ قُلتُ : المَسْأَلَةُ بِحَالِها ، وسَقَطَ الأَخُ ، قال : فإنْ خَلَّفَ الأَبَوَيْنِ وأَخَوَيْنِ ؟ قُلتُ : للأُمِّ السُّدُسُ ، وما بَقِيَ للأَبِ قال : في قَولِ النَّاسِ كُلِّهم ؟ قُلتُ : لا ، إنَّ جَدَّكَ ابنَ عَبَّاسٍ يا أميرَ المؤمنين ما حَجَبَ الأُمَّ عن الثُّلُثِ إلاَّ بثلاثَةِ إخْوَةٍ فقال : يا هـٰذا ، مَنْ نَهَىٰ مِثْلَكَ عن الأمْرِ بالمَعْرُوفِ ؟!! إنَّما نَهَيْنا أقْوَاماً يَجْعَلونَ المَعْرُوفَ مُنْكَراً ثمَّ خَرَجْتُ[1] .

٢٣ـ صُورٌ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

عن إسْماعيلَ بنِ عُبَيْد بنِ رِفاعَةَ عن أبيه : أنَّ عُبَادَةَ بنَ الصَّامِت مَرَّتْ عليه قِطارَةٌ[2] وهو بالشَّام ، تَحْمِلُ الخَمرَ ، فقال : ما هـٰذه ؟ أَزَيْتٌ ؟ قِيلَ : لا بَلْ خَمرٌ يُبَاعُ لفُلانٍ ، فأَخَذَ شِفْرَةً من السُّوقِ ، فقامَ إليها ، فلَمْ يَذَرْ فيها راويةً إلاَّ بَقَرَها ـ وأبو هُرَيْرَةَ إذْ ذاكَ بالشَّام ـ فأَرسَلَ فُلانٌ إلىٰ أبي هُرَيْرَةَ ، فقال : ألا تُمْسِكُ عنَّا أخَاكَ عُبادَة ، أمَّا بالغَدَوَاتِ ، فيَغْدو إلى السُّوقِ يُفْسِدُ علىٰ أهلِ الذِّمَةِ مَتَاجِرَهم ، وأمَّا بالعَشيِّ ، فيَقْعُدُ في المَسْجِدِ ليْسَ له عَمَلٌ إلاَّ شَتْمُ أعْراضِنا وعَيْبِنا! قال : فأَتاه أبو هُرَيْرَة ، فقال : يا عُبَادَة ، مالَكَ ولِمُعاويةَ ؟ ذَرْهُ وما حُمِّل فقال : لَمْ تكنْ مَعَنا إذْ بايَعْنا على السَّمْعِ والطَّاعَةِ ، والأمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عن المُنْكرِ وألاَّ يأْخُذَنا في الله لَوْمَةُ لائمٍ فسَكَتَ أبو هُرَيْرَة ، وكَتَبَ فُلانٌ إلىٰ عُثْمانَ : إنَّ عُبادَةَ قد أَفْسَدَ عليَّ الشَّامَ[3] .

وعن سالمٍ قال : أَعْرَسْتُ ، فدَعا أبي النَّاسَ ، فيهم أبو أيُّوبَ الأَنْصَاريّ وقد

---

(١) انظر السير : (أبو نُعيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٦٠ .

(٢) القِطارة والقِطار : أن تُشدّ الإبل علىٰ نسق ، واحد خلف واحد .

(٣) انظر السير : (عُبادة بن الصّامت) ٢/ ٥ـ ١١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٠٩ .

سَتَروا بيتِي بجُنَادِيّ[1] أخْضَر فجاءَ أبو أيُّوب فطَأْطَأَ رأسَه ، فنَظَرَ فإذا البَيْتُ مُسَتَّرٌ فقال : يا عبدَ الله تَسْتُرُونَ الجُدُر ؟!! ، فقال أبي واسْتَحْيَىٰ : غَلَبَنا النِّساءُ يا أبا أيُّوب فقال : مَنْ خَشيتُ أنْ تَغْلِبَه النِّساءُ ، فلَم أخْشَ أنْ يَغْلِبَنَّكَ لا أَدْخُلُ لكُم بَيْتاً ولا آكُلُ لكُم طَعَاماً[2] .

وقال مَالِكُ بنُ دِينَارٍ : حَدَّثَنِي فُلانٌ أنَّ عامِرَ بنَ قَيْسٍ مَرَّ في الرَّحْبَةِ وإذا رجلٌ يُظْلَمُ ، فألْقَىٰ رِداءَه وقال : لا أَرَىٰ ذِمَّةَ الله تُخْفَرُ وأنا حَيّ ، فاسْتَنْقَذَه ، ويُرْوَىٰ أنَّ سَبَبَ إبْعادِه إلى الشَّامِ ، كَوْنُه أَنْكَرَ وخَلَّصَ هـٰذا الذِّمِيَّ[3] .

وقِيلَ : إنَّ عبدَ الله بنَ مُحَيْرِيزٍ رَأَىٰ علىٰ خالدِ بنِ يَزِيدِ بنِ مُعاوِيَةَ جُبَّةَ خزٍّ ، فقال : أَتَلْبَسُ الخزَّ ؟ قال : إنَّما أَلْبَسُ لِهؤلاءِ ، وأَشَارَ إلى الخَلِيفَةِ ، فغَضِبَ ، وقال : ما يَنْبَغِي أنْ يَعْدِلَ خَوْفُكَ من الله بأَحَدٍ من خَلْقِه[4] .

قال أبو المُظَفَّر في كتابِ « مِرْآةُ الزَّمانِ » قال عبدُ الصَّمَد بنُ المُهْتَدِي : لمَّا دَخَلَ المَأمُونُ بَغْدادَ نادىٰ بتَركِ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ ، وذلك لأنَّ الشُّيوخَ بَقَوْا يَضْرِبُونَ ويَحْبِسُون ، فنَهَاهُم المَأمُونُ وقال : قد اجْتَمَعَ النَّاسُ علىٰ إمامٍ ، فمَرَّ أبو نُعَيمٍ ، فرأىٰ جُندِياً وقد أَدْخَلَ يَدَيْه بَينَ فَخِذَي امْرَأةٍ ، فنَهَاه بعُنْفٍ ، فحَمَلَه إلى الوَالِي ، فحَمَلَه الوَالِي إلى المَأمُونِ قال : فأُدخِلتُ عليه بُكرَةً وهو يُسَبِّحُ ، فقال : تَوَضَّأ فتَوَضَّأتُ ثلاثاً ثلاثاً علىٰ ما رَوَاهُ عبدُ خَيرٍ ، عن عليٍّ ، فصَلَّيْتُ رَكعَتَيْنِ ، فقال : ما تقولُ في رَجلٍ ماتَ عن أبَوَيْنِ ؟ فقُلتُ : للأُمِّ الثُّلُثُ ، وما بَقِيَ للأبِ ، قال : فإنْ خَلَّفَ أَبَوَيْه وأَخَاهُ ؟ قُلتُ : المَسْأَلَةُ بِحَالِها ، وسَقَطَ الأَخُ ، قال : فإنْ خَلَّفَ الأَبَوَيْنِ وأَخَوَيْنِ ؟ قُلتُ : للأُمِّ السُّدُسُ ، وما بَقِيَ للأَبِ قال : في قَولِ النَّاسِ كُلِّهم ؟ قُلتُ : لا ، إنَّ جَدَّكَ ابنَ عَبَّاسٍ يا أميرَ المؤمنين ما حَجَبَ الأُمَّ عن الثُّلُثِ إلاَّ بثلاثَةِ إخْوَةٍ

---

(١) وهو جنس من الثياب يستر بها الجدران .

(٢) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاريّ) ٢/ ٤٠٢ـ٤١٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٨٣ .

(٣) انظر السير : (عامر بن قيس) ٤/ ١٥ـ١٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٣٤ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن محيريز) ٤/ ٤٩٤ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٣٩ .

فقال : يا هـٰذا ، مَنْ نَهَىٰ مِثْلَكَ عن الأمْرِ بالمَعْرُوفِ ؟!! إنَّما نَهَيْنا أقْوَاماً يَجْعَلونَ المَعْرُوفَ مُنْكَراً ثمَّ خَرَجْتُ[1] .

وقال إسْماعيلُ بنُ نُجَيْد : رَأيْتُ أبا العبَّاسِ السَّراجَ يَركبُ حِمَارَه وعبَّاسٌ المُسْتمليّ بينَ يَدَيه ، يَأمُرُ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَىٰ عن المُنْكرِ ، يقول : يا عبَّاسُ غَيِّر كَذَا ، اكْسِرْ كَذَا[2] .

٢٤ـ من وَسائل الإصْلاح :

قال الإمامُ أبو عبدِ الله الحَكيم : صَلاحُ خَمْسَةٍ في خَمْسَةٍ : صَلاحُ الصَّبيِّ في المَكْتَبِ ، وصَلاحُ الفَتَىٰ في العِلْمِ ، وصَلاحُ الكَهْلِ في المَسْجِدِ ، وصَلاحُ المَرْأَةِ في البَيْتِ ، وصَلاحُ المُؤْذِي في السِّجْنِ[3] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو نُعيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٦٠ .

(٢) انظر السير : (السَّراج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٦٤ .

(٣) انظر السير : (أبو عبد الله الحكيم) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٠٠ .

سادساً : الجِهاد

١ـ الصَّالِحُونَ مُهْتَمُّونَ بالجِهَاد :

عن سعيد بن عبد العزيز ، أنَّ أبا مسلم الخَولاني استبطأ خبرَ جيشٍ كان بأرض الرُّوم ، فدخل طائرٌ فوقع ، فقال : أنا رتبابيل مُسلي الحُزن من صدور المؤمنين ، فأخبرهُ خبرَ الجيش فقال : ما جئتَ حتى استبطأتُك ؟[١] .

ومن محاسن الإمام ابن نُجَيْد أنَّ شَيخَه الزَّاهد أبا عثمان الحِيريَّ طلبَ في مجلسه مالاً لبعض الثُّغور ، فتأخَّرَ ، فتألمَ وبكىٰ علىٰ رؤوس النَّاس فجاءَهُ ابنُ نُجَيْد بألْفَي درهم ، فدعا له ، ثمَّ إنَّه نوَّهَ به ، وقال : قد رَجَوتُ لأبي عمرو بما فعل ، فإنَّه نابَ عن الجماعة ، وحمل كذا وكذا ، فقام ابنُ نُجَيْد ، وقال : لكن إنَّما حملتُ من مال أمي وهي كارهة ، فينبغي أن تردَّه لترضىٰ ، فأمر أبو عثمان بالكيس فَرُدَّ إليه ، فلمَّا جَنَّ الليلُ جاءَ بالكيسِ ، والتَمَسَ من الشيخ سترَ ذلك ، فبكىٰ ، وكان بعد ذلك يقول : أنا أخشىٰ من هِمَّة أبي عمرو[٢] .

٢ـ التَّحَسُّرُ علىٰ فَوَاتِ الجِهَاد :

قِيلَ : إنَّ يُونُسَ بنَ عُبَيدٍ نَظَرَ إلىٰ قَدَمَيهِ عند المَوتِ وبَكَىٰ فقِيلَ : ما يُبكِيكَ أبا عبد الله ؟ قال : قَدَمايَ لَمْ تُغَبَّرْ في سَبيلِ الله[٣] .

٣ـ مَنْ مَنَعَهُ الجِهَادُ من العِبادَةِ الكثيرة :

قال قَيْسُ بنُ أبي حَازِم : سَمعتُ خَالدَ بنَ الوَلِيدِ يقولُ : مَنَعَنِي الجِهَادُ كثيراً من

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخولانيّ) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٣٢ .
(٢) انظر السير : (ابن نُجَيد) ١٦/ ١٤٦ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٧٥ .
(٣) انظر السير : (يُونس بن عُبيد) ٦/ ٢٨٨ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٥٢ .

القِراءَةِ ورَأَيتُه أُتِي بسُمٍّ ، فقال : ما هـٰذا ؟ قالوا : سُمٌّ ، قال : بِسْمِ الله وشَرِبَه .

قال الذهبيُّ : هـٰذه والله الكَرَامَةُ ، وهـٰذه الشَّجَاعَةُ[1] .

٤ـ مَنْ فَضَّلَ اتِّبَاعَ السُّنَّة والذَّبَّ عنها على الجِهَاد :

وقال عليُّ بنُ عبدِ العَزِيز ، سَمعتُ أبا عُبَيدٍ ـ القاسِمَ بنَ سَلام ـ يقولُ : المُتَّبِعُ للسُّنَّةِ كالقابِضِ على الجَمْرِ هو اليومَ عِندِي أَفْضَلُ من ضَرْبِ السَّيفِ في سَبيلِ الله[2] .

قال نَصْرُ بنُ زَكَرِيّا : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَحْيَى الذُّهليّ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعِين يقولُ : الذَّبُّ عن السُّنَّةِ أَفْضَلُ من الجِهَادِ في سبيلِ الله فقُلتُ ليَحْيَىٰ بنِ يَحْيَىٰ : الرَّجُلُ يُنْفِقُ مَالَه ويُتْعِبُ نَفْسَه ، ويُجَاهِدُ ، فهـٰذا أَفْضَلُ منْه ؟!! قال : نَعَم ، بكثير[3] .

٥ـ الحَثُّ على الجِهَاد :

قال ابنُ المُبَارَكِ في « الجِهَاد » له : عن هِشَام بنِ سَعدٍ عن زَيْدِ ابنِ أَسْلَم عن أبيهِ قال : بَلَغَ عُمَرَ أنَّ أبا عُبَيْدَةَ حُصِرَ بالشَّام ، ونَالَ منْه العَدُوُّ فكَتَبَ إليْه عُمَرُ : أمَّا بَعْدُ فإنَّه ما نزَلَ بعَبْدٍ مُؤمنٍ شِدَّةٌ إلاَّ جَعَلَ الله بعدَها فَرَجاً ، وإنَّه لا يَغْلبُ عُسْرٌ يُسْرَيْن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4] .

قال : فَكَتَبَ إليْه أبو عُبَيْدَة : أمَّا بعْدُ فإنَّ اللهَ يقولُ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلىٰ قَولِهِ تَعالىٰ : ﴿ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[5] . قال : فخَرَجَ عُمَرُ بكِتابِه ، فقَرَأَهُ على المِنْبَرِ فقال : يا أَهْلَ المَدِينَةِ إنَّمَا يُعَرِّضُ بكم أبو عُبَيْدَة أَوْ بِي ، ارْغَبُوا في الجِهَاد[6] .

---

(١) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٩ .

(٢) انظر السير : (أبو عُبيد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٨٧ .

(٣) انظر السير : (يَحيى بن يَحيى النيسابوري) ١٠/ ٥١٢ـ ٥١٩ ، وانظر النزهة : ١/٨٩٠ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٢٠٠ .

(٥) سورة الحديد ، الآية : ٢٠ .

(٦) انظر السير : (أبو عُبيدة بن الجرَّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ٨/١٢٢ .

٦ـ رُؤْيٰ فيها الحَثُّ على الجِهَاد :

قال مُحمَّدُ بنُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاض : رَأيتُ ابنَ المُبَارَك في النَّوم ، فقُلتُ : أيُّ العَمَلِ أَفْضَل ؟ قال : الأَمْرُ الذِي كُنْتُ فيه قُلتُ : الرِّبَاطُ والجِهَادُ ؟ قال : نَعَم قُلتُ : فمَا صَنَعَ بك رَبُّك ؟ قال : غَفَرَ لِي مَغْفِرَةً ما بَعْدَها مَغْفِرَة رَوَاها رَجُلانِ عن مُحمَّد[١] .

عن عليِّ بنِ مَعْبَدٍ قال : رَأيْتُ ابنَ القَاسِم في النَّومِ فقُلتُ : كيفَ وجَدتَ المَسَائلَ ؟ فقال : أُفٍّ أُفٍّ قلتُ : فما أحْسَنَ ما وجَدْتَ ؟ قال : الرِّباطُ بالثَّغْرِ قال : ورَأَيتُ ابنَ وَهْبٍ أَحْسَنَ حالاً منْه[٢] .

٧ـ النَّصْرُ مُرتَبِطٌ بتَوْفِيقِ الله لا بالأَشْخاصِ والقِيادَات :

قال ابنُ عَوْن : وَلِيَ عُمَرُ ، فقال : لأَنْزِعَنَّ خالداً ـ يَعنِي ابنَ الوَلِيد ـ حتّىٰ يُعْلَمَ أنَّ اللهَ إنَّما يَنْصُرُ دِينَه ـ يَعنِي بغَيْرِ خالد ـ[٣] .

قال القُطْبُ النيسابُورِيُّ لِنُورِ الدِّين زِنْكِي : بالله لا تُخاطِر بنَفسِك ، فإنْ أُصِبْتَ في مَعرَكَةٍ لا يَبْقَىٰ للمُسلمينَ أَحَدٌ إلاَّ أَخَذَهُ السَّيفُ ، فقال : ومَنْ مَحْمُودٌ حتّىٰ يُقالُ هـٰذا ؟ حَفِظَ الله البِلادَ قَبْلِي ، لا إلَـٰهَ إلاَّ هُو[٤] .

٨ـ الفُروسِيَّة :

يُروَىٰ عن عبد الله بنِ كَعْب بن مالك قال : كان عُمَر بنُ الخطَّاب يأخذ بيدِه اليُمنَىٰ أُذُنَ فَرَسِه اليُسرَىٰ ويثبُ عليه ، فكأنَّما خُلِقَ علىٰ ظَهْره[٥] .

وعن مالكِ بنِ عبد الله قال : ما رأيتُ أشْرفَ من رجلٍ رأيتُهُ يومَ اليَرْموك إنَّه خَرجَ إليه عِلْجٌ فقَتلَه ، ثم آخَرُ فقَتلَه ، ثم آخَرُ فقَتلَه ، ثم انْهَزَموا وتَبعَهم وتبعتُه ، ثم انصرَفَ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٣٧٨ ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٤/٧٧١ .
(٢) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٧/٨٠٥ .
(٣) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/١٧٩ .
(٤) انظر السير : (نور الدين زنكي) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨١ .
(٥) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٤٤ .

إلىٰ خِباءٍ عظيم له فنزل ، فدعا بالجِفانِ ودعا مَنْ حَولَه ، قلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالوا : عَمرو بن مَعْدي كَرِب[1] .

٩ـ من أَسْبابِ النَّصر :

(أ) التَّمَسُّكُ بالإسلام :

قال خَليفَةُ : افْتَتَحَ عَمرُو بنُ العَاصِ طَرَابُلْسَ الغَرْب سَنَةَ أَرْبَعٍ وعِشْرِين .

قال عَمرُو بنُ العَاص : خَرَجَ جَيشٌ من المُسْلمين أنا أَمِيرُهم حتّىٰ نَزَلْنَا الإسْكَندَرِيّة فقالَ عَظِيمٌ مِنْهُم : أَخْرِجُوا إليَّ رَجُلاً أُكَلِّمُه ويُكَلِّمُني فقُلتُ : لا يَخْرُجُ إليْه غَيْرِي فخَرَجْتُ معِي تُرجُمانِي ومَعَه تُرْجُمان ، حتّىٰ وُضِعَ لنا مِنْبَرَان ، فقال : ما أَنْتُم ؟ قُلتُ نحنُ العَرَبُ ، ومِنْ أَهْلِ الشَّوْكِ والقرظ ، ونَحنُ أهلُ بَيْتِ اللهِ ، كُنَّا أَضْيَقَ النَّاس أَرْضاً وشَرَّهُم عَيْشاً نَأكُلُ المَيْتَةَ والدَّمَ ويُغِيرُ بَعضُنا علىٰ بعضٍ ، كُنَّا بشَرِّ عَيْشٍ عَاشَ به النَّاسُ حتّىٰ خَرَجَ فينا رَجلٌ لَيْسَ بأَعْظَمِنا يومَئِذٍ شَرَفاً ولا أَكْثَرَنا مالاً ، قال : أنا رسولُ الله إليكُم يأمرُنا بما لا نَعرفُ ، ويَنْهَانا عمَّا كنَّا عليه ، فشَنِفْنا له ، وكَذَّبْناه ورَدَدْنا عليه ، حتّىٰ خَرَجَ إليه قَومٌ من غَيْرِنا ، فقالُوا : نحنُ نُصَدِّقُك ونُقَاتِلُ مَنْ قاتَلَك ، فخَرَجَ إليهم وخَرَجْنَا إليْه وقاتَلْنَاه ، فظَهَرَ علينَا وقاتَلَ مَنْ يَلِيهِ من العَرَب ، فظَهَرَ عليهم ، فلَوْ تَعْلَمُ ما وَرَائِي من العَرَبِ ما أنتُم فيه من العَيْشِ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إلاَّ جاءَكم ، فَضَحِكَ ، ثم قال : إنَّ رسُولَكم قد صَدَقَ ، وقد جَاءَتْنا رُسُلٌ بمِثْلِ ذلك ، وكُنَّا عليه حتّىٰ ظَهَرَتْ فِيْنا مُلُوكٌ ، فعَمِلوا فِينا بأَهْوائِهم ، وتَرَكُوا أَمْرَ الأنْبِيَاءِ ، فإنْ أنتُم أَخَذْتُم بأَمْرِ نَبِيِّكُم ، لَمْ يُقاتِلْكُم أَحَدٌ إلاَّ غَلَبْتُموهُ ، وإذا فَعَلْتُم مِثْلَ الذي فَعَلْنا فتَرَكْتُم أَمْرَ نَبِيِّكُم لَمْ تَكُونوا أَكْثَرَ عَدَداً مِنَّا ولا أَشَدَّ مِنَّا قُوَةً[2] .

(ب) الصَّبْرُ :

قال سُلَيْمانُ بنُ عبدِ المَلِك لمُوسَىٰ بنِ نُصَيْر يوماً : ما كُنتَ تَفْزَعُ إليه عِندَ الحَرْبِ ؟

---

(١) تاريخ دمشق ٤٦/ ٣٧٨، والإصابة ٤/ ٦٨٨.

(٢) انظر السير : (عَمرو بن العاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٣٦ .

قال : الدُّعَاءُ والصَّبْرُ ، قال : فأيُّ الخَيْلِ رأيْتَ أَصْبَرُ ؟ قال : الشُّقْرُ قال : فأيُّ الأُمَمِ أَشَدُّ قِتَالاً ؟ قال : هم أَكْثَرُ مِنْ أنْ أَصِف ، قال : فأَخْبِرنِي عن الرُّوم ، قال : أُسُدٌ في حُصُونِهم عِقْبَانٌ علىٰ خُيُولِهم ، نِسَاءٌ في مَرَاكِبِهم ، إنْ رَأَوا فُرصَةً انْتَهَزُوها ، وإنْ رَأَوا غَلَبَةً فأَوْعالٌ تَذهَبُ في الجِبال ، لا يَرَوْنَ الهَزِيمَةَ عاراً قال : فالبَرْبَرُ ؟ قال : هم أَشْبَهُ العُجْمِ بالعَرَبِ لِقاءً ونَجْدَةً وصَبْراً وفُرُوسِيَّةً ، غَيرَ أنَّهم أَغْدَرُ النَّاس قال : فأهْلُ الأندَلُسِ ؟ قال : مُلُوكٌ مُتْرَفُون ، وفُرْسانٌ لا يَجْبُنُون قال : فالفِرِنْجُ ؟ قال : هناك العَدَدُ والجَلَدُ والشِّدةُ والبَأْسُ ، قال : فكَيْفَ كانت الحَرْبُ بَيْنَكَ وبَيْنَهم ؟ قال : أَمَّا هٰذا فَوَالله ما هُزِمَتْ لي رَايَةٌ قَطُّ ، ولا بُدِّدَ لي جَمْعٌ ، ولا نُكِبَ المُسلِمونَ معي مُنذُ اقْتَحَمتُ الأربَعِين إلىٰ أنْ بَلَغتُ الثَّمانِين ، ولقد بَعَثتُ إلى الوَلِيدِ بِتَورِ زَبَرْجَدٍ كان يُجْعَلُ فيه اللَّبَنُ حتىٰ تُرَىٰ فيه الشَّعرَةُ البَيْضاءُ ثم أَخَذَ يُعَدِّدُ ما أَصَابَ من الجَوْهَرِ والزَبَرْجَدِ حتّىٰ تَحَيَّرَ سُلَيْمانُ[1] .

(ج) الدُّعَاءُ والتَّذَلُّلُ :

لمَّا هَمَّ المُسلِمون بالهَزِيمَةِ كَشَفَ مُوسَىٰ بنُ نُصَيْر سُرادِقَه عن بَنَاتِه وحَرَمِه ، وبَرَزَ ورَفَعَ يَدَيْه بالدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ والبُكاءِ ، فكُسِرَتْ بينَ يَدَيْه جِفُونِ السُّيوفِ وصَدَقُوا اللِّقاءَ ونَزَلَ النَّصرُ ، وغَنِمُوا ما لا يُعَبَّرُ عَنه ، من ذلك مائِدَةُ سُلَيْمانُ عليه السلام من ذَهَبٍ وجَوَاهِر ، وقِيلَ : ظَفَرَ بِستَّةَ عَشَرَ قُمْقُماً عليها خَتمُ سُلَيْمان عليه السلام ففَتَحَ أربَعَةً ونَقَبَ منْها واحِداً فإذا شَيْطانٌ يقولُ : يا نَبِيَّ الله لا أَعُودُ أُفْسِدُ في الأَرضِ ثمَّ نَظَرَ فقال : والله ما أَرَىٰ سُلَيْمانَ ولا مُلْكَه ، وذَهَبَ ، فطُمِرَت البَوَاقِي[2] .

(د) وُجُودُ الصَّالِحِين :

قال الأَصْمَعِيُّ : لمَّا صَافَّ قُتَيْبَةُ بنُ مُسلِمٍ للتُّرْك ، وهالَهُ أمْرُهم سَأَلَ عن مُحمَّدِ بنِ واسِعٍ فقِيلَ : هو ذاكَ في المَيْمَنَة جامحٌ علىٰ قَوْسِه يُبَصْبِصُ بأُصْبعِه نَحوَ السَّماء قال :

---

(١) انظر السير : (موسى بن نُصير) ٤/٤٩٦ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/٥٤١ .

(٢) انظر السير : (موسى بن نُصير) ٤/٤٩٦ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/٥٤٠ .

تِلكَ الأُصْبعُ أَحَبُّ إليَّ من مِئَةِ ألفِ سَيْفٍ شهيرٍ وشابٌّ طرير[1] .

١٠ـ الفَرَحُ بانْتِصارِ المُسْلِمين :

قال ابنُ أبي حاتِمٍ : حَدَّثني أحمَدُ بنُ سِنانٍ قال : بَلَغَنِي أنَّ أحمدَ ابنَ حَنبَلٍ جَعَلَ المُعْتَصِمَ في حِلٍّ يومَ فَتَحَ عاصِمةَ بابك وظَفِرَ به ، أَوْ في فَتْحِ عَمُّورِيَةَ ، فقال : هو في حِلٍّ من ضَرْبِي[2] .

١١ـ من صِفاتِ قَائِدِ المجُـاهِدِين :

عن أحمَدَ بنِ إسْحاقَ قال : يَنْبَغِي لقائِدِ الغُزَاةِ أنْ يكونَ فِيه عَشْرُ خِصالٍ : أنْ يكونَ في قَلبِ الأَسَدِ لا يَجْبُن ، وفي كِبْرِ النَمِر لا يَتَوَاضَع ، وفي شَجَاعَةِ الذُّبّ يَقْتُلُ بجَوَارِحِهِ كُلِّها ، وفي حَمْلَةِ الخِنْزِيرِ لا يُوَلِّي دُبُرَه ، وفي غارَةِ الذِّئْبِ إذا أَيِسَ من وَجْهٍ أَغَارَ من وَجْه ، وفي حَمْلِ السِّلاح كالنَّملَةِ تَحْمِلُ أكْثَرَ من وَزْنِها ، وفي الثَّبَاتِ كالصَّخْرِ ، وفي الصَّبرِ كالحِمارِ ، وفي الوَقَاحَةِ كالكَلْبِ لو دَخَلَ صَيْدُه النَّارَ لدَخَلَ خَلفَه ، وفي التِماسِ الفُرصَةِ كالدِّيك .

وكان إبراهيمُ بنُ شِمَاسٍ يقولُ : كُنتُ أُكاتِبُ أحمدَ بنَ إسْحاقَ السُّرْمَاريّ ، فكَتَبَ إليَّ : إذا أرَدْتَ الخُرُوجَ إلىٰ بلادِ الغُزَيّة في شِراءِ الأَسْرَىٰ ، فاكْتُبْ إليَّ فكَتَبتُ إليه ، فقَدِمَ سَمَرْقَنْدَ ، فخَرَجْنَا ، فلمَّا عَلِمَ جَعْبَوَيْه ، استَقْبَلَنا في عِدَّةٍ من جُيُوشِه ، فأَقَمْنا عِندَه ، فعَرَضَ يوماً جَيْشَه ، فمرَّ رجلٌ فعَظَّمَه وخَلَعَ عليه ، فسَأَلَنِي عنه السُّرْماريّ ، فقُلتُ : هـٰذا رجلٌ مُبارِزٌ ، يُعَدُّ بألفِ فارسٍ قال : أنا أُبارِزُه فسَكَتُّ فقال جَعْبَوَيْه : ما يقولُ هـٰذا ؟ قُلتُ يقولُ : كَذَا وكَذَا قال : لَعَلَّه سَكْرانٌ لا يَشْعُر ، ولكن غَداً نَركَبُ فلمَّا كان الغَدُ رَكِبُوا ، فرَكِبَ السُّرْماريُّ معَه عَمُودٌ في كُمِّه فقامَ بإزاء المُبارِز فقَصَدَه ، فهَرَبَ أحمَدُ حتّىٰ باعَدَهُ من الجَيْشِ ، ثمَّ كَرَّ وضَرَبَه بالعَمُودِ فقتَلَه ، وتَبِعَ إبراهيمَ بنَ شِمَاسٍ ، لأنَّه كان قد سَبَقَه فلَحِقَه ، وعَلِمَ جَعْبَوَيْه ، فجَهَّزَ في طلبِه خمسِينَ فارساً

---

(١) انظر السير : (محمّد بن واسع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٦/٦٣٨ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٠ .

نَقَاوةً ، فأدْرَكُوه ، فثَبَتَ تحتَ تَلٍّ مُخْتَفِياً حتّىٰ مَرُّوا كُلُّهم واحِداً بعدَ واحِد ، وجَعَلَ يَضْرِبُ بعَمُودِه من ورَاءِهم إلىٰ أنْ قَتَلَ تسْعَةً وأربعِينَ ، وأَمْسَكَ واحِداً ، قَطَعَ أنْفَه وأُذُنَيْه ، وأَطْلَقَه ليُخْبِر ، ثمَّ بعدَ عامَيْن تُوُفِّي أحمدُ ، وذَهَبَ ابنُ شِمَاسٍ في الفِداءِ ، فقال له جَعْبَوَيْه : مَنْ ذَاكَ الذي قَتَلَ فرسانَنا ؟ قال : ذاكَ أحمدُ السُّرْماريّ قال : فلِمَ لَمْ تَحْمِلْه مَعَكَ ؟ قُلتُ : تُوُفِّيَ ، فَصَكَّ في وَجْهِي ، وقال : لَوْ أَعْلَمْتَنِي أنَّه هو لكُنتُ أُعْطِيهِ خَمْسَ مئةِ بِرْذَوْن[1] وعَشْرَةَ آلافِ شاة .

وعن عِمْرانَ بنِ مُحمَّد المطَّوعيّ : سَمعتُ أبي يقولُ : كان عَمُودُ المطَّوِّعيِّ السُّرْماريّ وزْنُه ثمانِيَةَ عَشْرَةَ مَنّاً[2] ، فلمَّا شَاخَ جَعَلَه اثنَيْ عَشَرَ مَنّاً ، وكان به يُقاتِلُ[3] .

١٢ـ تَأْدِيبُ العُلَماءِ أهلَ الثَّغر وتَعْليمُهم السُّنَّة :

قال أحمَدُ العِجْلي : كان أبو إسْحاقَ الفَزَارِيّ ثِقَةً وصاحِبَ سُنَّة ، صالحاً ، هو الذي أَدَّبَ أهْلَ الثَّغْرِ وعَلَّمَهُم السُّنَّة ، وكان يَأمُرُ ويَنْهَىٰ وإذا دَخَلَ الثَّغْرَ رجُلٌ مُبْتَدِعٌ ، أَخْرَجَه ، وكان كَثيرَ الحديثِ ، وكان له فِقْهٌ .

أَمَرَ سُلطَاناً ونَهَاه ، فضَرَبَه مِئَتَيْ سَوْطٍ ، فغَضِبَ له الأَوْزَاعِيُّ ، وتَكَلَّمَ في أَمْرِه .

قال الذَّهبيُّ : من أبْناءِ الثَّمانين هو ، أو جَاوَزَها بقَليل ، مات سنةَ ستٍّ وثمانين ومائة[4] .

١٣ـ الاسْتِعْدادُ للجِهَاد :

قال ابنُ أبي حاتِم : كان أبو عبدِ الله البخاريّ يركَبُ إلى الرَّميِّ كثيراً ، فما أعلَمُنِي رأيتُه في طُولِ ما صَحِبتُه أخْطَأَ سَهْمُه الهَدَفَ إلاَّ مَرَّتَيْن ، فكان يُصِيبُ الهَدَفَ في كُلِّ ذلك ، وكان لا يُسْبَق[5] .

---

(١) البِرْذَوْن : ضرب من الدواب ، يخالف الخيل العراب ، عظيم الخِلقَة ، غليظ الأعضاء .
(٢) المَنّ : زِنَة رطلين .
(٣) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٩ .
(٤) انظر السير : (أبو إسحاق الفَزاري) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ١/٧٩٠ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٠١٦ .

وقال مَجدُ الدِّين بنُ الأثير في نقل سبطِ الجَوْزِيُّ عن نُورِ الدِّين زِنْكِي : لَمْ يَلْبَسْ نُورُ الدِّين حَرِيراً ولا ذَهَباً ، ومَنَعَ بَيعَ الخَمرِ في بلادِه ، قال : وكان كَثيرَ الصَّومِ ، وله أَوْرَادٌ كثيرةٌ في اللَّيلِ والنَّهارِ ، ويُكثِرُ اللَّعِبَ بالكُرَةِ ، فأنْكَرَ عليه فقيرٌ فكَتَبَ إليه : والله ما أَقْصِدُ اللَّعِبَ ، وإنَّما نَحنُ في ثَغْرٍ ، فربَّما وَقَعَ الصَّوتُ ، فتكونُ الخَيلُ قد أدمَنَت على الانْعِطافِ والكَرِّ والفَرِّ .

وأُهْدِيَتْ له عَمَامَة من مِصْرَ مُذَهَّبَة ، فأعطَاهَا لابنِ حَمُّويه شَيخِ الصُّوفِيَّة فبِيعَتْ بألفِ دينار[1] .

قال عبدُ الواحد : لمَّا تَجَهَّزَ السُّلطانُ يُوسُفُ بنُ عبد المُؤمن لغَزْوِ الرُّوم ، أَمَرَ العُلَماءَ أن يَجْمَعوا أحَادِيثَ في الجِهَاد تُملَىٰ على الجُند ، وكان هو يُملِي بنفسِه ، وكِبارُ المُوَحدِين يَكتُبُون في أَلْوَاحِهم وكان يُسَهِّلُ عليه بَذْلَ الأموَالِ سِعَةُ الخَرَاجِ ، كان يأتِيه من إفريقيةَ في العامِ مئةٌ وخمسونَ وَقْرَ بغْلٍ واسْتَنْفَرَ في سنةِ تِسْع وسَبعينَ أهلَ السَّهْلِ والجَبَلِ والعَرَبِ ، فعَبَرَ إلى الأنْدلُسِ ، وقَصَدَ شَنْتَرِيْنَ بِيَدِ[2] ابنِ الرِّيقِ ، لعَنَه الله ، فحَاصَرَها مُدَّةً ، وجَاءَ البَردُ فقال : غداً نترَحَّلُ ، فكان أولَ مَنْ قَوَّضَ مُخَيَّمَه عليُّ بنُ القاضِي الخَطِيب ، فلمَّا رَآه النَّاسُ ، قَوَّضُوا أخْبِيَتَهم ، فكَثُر ذلك ، وعَبَرَ لَيْلَتِذٍ العَسْكَرُ النَّهرَ ، وتَقَدَّموا خَوفَ الازْدِحام ، ولَمْ يَدْرِ بذلك أبو يَعقُوب ، وعَرَفَتِ الرُّوم ، فانْتَهَزُوا الفُرْصَةَ ، وبَرَزُوا ، فحَمَلُوا على النَّاسِ ، فكَشَفُوهم ، ووَصَلوا إلىٰ مُخَيَّمِ السُّلطانِ ، فقُتِلَ علىٰ بابِه خَلقٌ من الأبطال ، وخُلِصَ إلى السُّلطانِ ، فطُعِنَ تحتَ سُرَّتِه طَعْنَةً مات بعدَ أيامٍ منْها ، وتَدَارَكَ النَّاسُ ، فهَزَموا الرُّومَ إلى البلدِ وهَرَبَ الخَطيبُ ، ودَخَلَ إلىٰ صاحِبِ شَنْتَرِينَ ، فأكْرَمَه ، واحْتَرَمَه ، ثم أخَذَ يُكاتِبُ المُسلمينَ ، ويَدُلُّ علىٰ عَوْرَةِ العَدُوِّ فأحْرَقُوه ، ولَمْ يَسِيرُوا بأبي يَعقُوبَ إلاَّ لَيْلَتَيْن وتُوفِّي ، وصَلَّىٰ عليْه وصُبِّر في تابوتٍ ، وبُعِثَ إلىٰ تَيْنَمَلَّ[3] ، فدُفِنَ مع أبيه وابنِ

---

(١) انظر السير : (نور الدين زنكي) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٢ .

(٢) يعني التي بيده .

(٣) جبال بالمغرب بينها وبين مرّاكش ثلاثة فَراسخ .

تومرت ، مات سنةَ ثمانين وخَمس مئة ، وبايَعُوا ابنَه يَعقُوبَ[1] .

قال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطِيف : أَتَيْتُ ، وصَلاحُ الدِّين بالقُدسِ ، فَرَأيتُ مَلِكاً يَمْلأُ العُيُونَ رَوْعَةً والقُلُوبَ مَحَبَّةً ، قَرِيباً بَعِيداً ، سَهْلاً مُحَبَّباً ، وأصحابُه يَتَشَبَّهون به ، يَتَسَابَقُون إلى المَعْروفِ كما قالَ تَعَالىٰ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[2] ، وأَوَّلُ ليلةٍ حَضَرْتُه وَجَدْتُ مَجْلِسَه حَفْلاً بأهْلِ العِلْمِ يَتَذَاكَرُون ، وهو يُحْسِنُ الاسْتِمَاعَ والمُشَارَكَة ، ويَأخُذُ في كَيْفِيَّةِ بناء الأَسْوارِ وحَفْرِ الخَنَادِقْ ، ويأتِي بكُلِّ معنىً بدِيع ، وكان مُهْتَمَّاً في بِنَاءِ سُورِ بَيْتِ المَقْدِس وحَفْرِ خَنْدَقِه ، ويَتَولَّىٰ ذلك بنفسِه ، ويَنقُلُ الحِجَارةَ علىٰ عاتِقِه ويَتَأَسَّىٰ به الخَلْقُ حتّى القاضي الفاضلُ ، والعِمَادُ إلىٰ وقْتِ الظُّهر ، فيمُدُّ السماطَ ويَسْتريحُ ، ويركَبُ العَصْرَ ، ثُمَّ يَرجِعُ في ضَوْءِ المَشَاعِلْ ، قال له صانعٌ : هٰذه الحِجَارةُ التي تُقطَعُ من أسْفَلِ الخَنْدَق رخْوَةٌ ، قال : كذا تكونُ الحِجَارةُ التي تَلِي القَرَارَ والنَّدَاوَة ، فإذا ضَرَبَتْها الشَّمسُ ، صَلُبَتْ ، وكان يَحفظُ « الحَمَاسَة » ويظُنُّ أنَّ كلَّ فَقِيهٍ يَحْفَظُها ، فإذا أَنْشَدَ ، وتَوَقَّفَ ، اسْتَطعَمَ فلا يُطعَمُ ، وجَرَىٰ له ذلكَ مع القاضي الفاضِل، ولَمْ يكنْ يَحفَظُها، وخَرَجَ ، فمَا زَالَ حتّىٰ حَفِظَها .

وكانت وَقْعَتُه بمصْرَ مع السُّودانِ ، وكانوا نَحْوَ مِئَتَيْ ألفٍ ، فنُصِرَ عليهم ، وقَتَلَ أكثَرَهم .

حُمَّ صَلاحُ الدِّين ، فقَصَدَه من لا خِبْرَةَ له ، فَخَارَت القُوَّةُ ومات ، فوَجَدَ النَّاسُ عليه شَبِيهاً بما يَجِدُونَه على الأنْبِيَاءِ ، وما رَأَيتُ مَلِكاً حَزُنَ عليه النَّاسُ لمَوْتِهِ سِواه ، لأنَّه كان مُحَبَّباً ، يُحِبُّه البَرُّ والفاجِرُ ، والمُسْلِمُ والكافِرُ ، ثمَّ تَفَرَّقَ أولادُه وأصحابُه أيادي سَبَأٍ وتَمَزَّقوا[3] .

واستَجَدَّ أميرُ المُؤمنين المُسْتَنْصِرُ بالله العبَّاسِيّ عَسْكَراً كثيراً لمَّا عَلِمَ بظُهورِ التَّتار بحيْثُ إنَّه يُقال : بَلَغَ عِدَّةُ عَسْكَرِه مئةَ ألفٍ ، وفيه بُعدٌ ، فلَعَلَّ ذلك نما في طاعتِه من

---

(١) انظر السير : (ابن عبد المؤمن) ٢١/٩٨ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٣ .

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٤٧ .

(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢١ .

مُلُوكِ مصْرَ والشَّامِ والجَزِيرة ، وكان يُخْطَبُ له بالأندَلُسِ ، والبلادِ البَعِيدةِ .

تُوُفِّيَ المُسْتَنصِرُ بالله سنةَ أربعين وسِتٍّ مئة ، وكانت دولتُه سَبْعَ عشْرَةَ سنةً ، وعاشَ اثنتَيْنِ وخمسينَ سَنَةً[1] .

١٤ـ أمْرُ العُلمَاءِ الوُلاةَ بالاسْتِعدادِ للجِهَاد :

قال حَيْوَةُ بنُ شُرَيْحٍ مرةً لبعضِ نُوَّابِ مصرَ : يا هـٰذا لا تُخْلِيَنَّ بلادَنا من السِّلاح ، فنحنُ بين قِبطٍ لا نَدْرِي متىٰ يَنْقَضُّ ، وبين حَبَشِيٍّ لا نَدرِي متىٰ يَغْشَانا ، وبين رُومِيٍّ لا نَدرِي متىٰ يَحُلُّ بساحَتِنا ، وبَرْبَرِيٍّ لا نَدرِي متىٰ يَثُور[2] .

وكَتَبَ عبدُ الملِكِ بنُ حَبيبٍ الفَقِيهُ إلىٰ عبدِ الرَّحمَـٰن بنِ الحَكَمِ أميرِ الأندَلُسِ يُحَرِّضُه علىٰ بنَاءِ سُورِ إشْبِيلِيَة يقولُ له : حَقْنُ دِماءِ المُسلمين ـ أيَّدَكَ الله وأعْلَىٰ يَدَكَ بابْتِناءِ السُّورِ ـ أحَقُّ وأوْلَىٰ فأخَذَ برَأيِه[3] .

١٥ـ العُلماءُ المُجَاهِدون :

عن مُفضل بنِ لاحِق قال : كُنَّا بأرضِ الرُّوم ، فخَرَجَ رومِيٌّ يَدعُو إلى المُبَارَزَة ، فخَرَجَ إليه رجلٌ فقتَلَه ، ثمَّ دَخَلَ في النَّاسِ ، فجَعَلتُ ألودُ به لأعْرِفَه ، وعليه المِغْفَرُ قال : فوَضَعَ المِغْفَرَ يمْسَحُ وجْهَه ، فإذا هو عبدُ الله بنُ عَوْن[4] .

وقال رِيَاح القَيْسِيّ : باتَ عُتْبَةُ الغُلامُ عِندِي فسَمِعْتُه يقولُ في سُجُودِه : اللَّهُمَّ احْشُر عُتْبَةَ من حَوَاصِلِ الطَّيرِ وبُطُونِ السِّبَاع[5] .

وقال مَخْلَدُ بنُ الحُسَين : جَاءَنَا عُتْبَةُ الغُلامُ غَازِياً وقال : رَأيْتُ أنِّي آتِي المَصِّيصَةَ[6] في النَّومِ وأَغْزُو فأُسْتَشْهَدُ قال : فأعْطَاهُ رجلٌ فَرَسَه وسِلاحَه وقال : إنِّي

---

(١) انظر السير : (المستنصر بالله العباسي) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧١٩ .

(٢) انظر السير : (حَيوة بن شريح) ٦/ ٤٠٤ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٦٥ .

(٣) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن الحكم) ٨/ ٢٦٠ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٥٣ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٥٧ .

(٥) انظر السير : (عُتبة الغلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٧٦ .

(٦) المَصِّيصَة (بفتح الميم ، وكسر الصاد الثقيلة ، بعدها ياء ساكنة ثم صاد مفتوحة) : مدينة علىٰ شاطىء=

عَلِيلٌ فاغْزُ عَنِّي فلَقُوا الرُّومَ فكان أَوَّلَ من اسْتُشْـهِد[1] .

وقال أبو حاتم الرَّازِي : حَدَّثَنا عَبدةُ بنُ سُلَيْمانَ المَرْوِزيّ قال : كُنَّا سَرِيَّةً مع ابنِ المُبَارَك في بلاد الرُّوم ، فصَادَفنا العدُوّ ، فلمَّا التَقَى الصفَّان ، خَرَجَ رجلٌ من العَدُوِّ فَدَعا إلى المُبارَزَةِ ، فخَرَجَ إليه رجلٌ فقتَلَه ، ثم آخرُ فقتَلَه ، ثم دَعَا إلى المُبارَزَة ، فخَرَجَ إليه رجلٌ فطَارَدَه ساعَةً فطَعَنَه فقتَلَه ، فازْدَحَمَ إليه النَّاسُ ، فنَظَرْتُ فإذا هو عبدُ الله ابنُ المُبارَك ، وإذا هو يَكْتُمُ وجْهَهُ بكُمِّه ، فأخَذْتُ بطَرْفِ كُمِّه فمَدَدْتُه فإذا هُوَ هُوَ فقال : وأنتَ يا أبا عَمْرٍو مِمَّن يُشَنِّعُ عَلَينا[2] .

وقال المَروذيُّ عن أحمَدَ : إنَّ عِيسَىٰ بنَ يُونُسَ ثَبتٌ ، وكُنَّا نُخَبَّرُ أنَّه سَنَةً في الغَزْوِ ، وسَنَةً في الحَجِّ ، وقَدِمَ بَغْدادَ في شيءٍ من أَمرِ الحُصُون ، فأُمِرَ له بمَالٍ ، فأبَىٰ أنْ يَقْبَلَه وقِيلَ : إنَّه زَارَ ابنَ عُيَيْنَةَ ، فقال : مرحباً بالفَقِيهِ ابنِ الفَقِيه ابنِ الفَقِيه[3] .

وقال أحمَدُ ابنُ جَناب : غَزَا ابنُ يُونُس خَمساً وأربَعِين غَزْوَةً ، وحَجَّ كذلك[4] .

وجاء في تَرجَمَةِ يُوسُفَ بنِ أسْباط ، قال الإمامُ الذهَبيُّ : نَزَلَ الثُّغُورَ مُرابِطاً[5] .

وقد جاءَ عنِ شيخ خُراسان الإمامِ شَقِيقٍ البَلْخِيّ مع تَأَلُّهِه وزُهْدِه أنَّه كان من رُؤوسِ الغُزَاة[6] .

وقُتِلَ شَقِيقٌ في غَزَاةِ كُولان سَنَةَ أرْبعٍ وتسْعِينَ ومِئَة[7] .

وجاءَ في ترْجَمَةِ أَسَدِ بنِ الفُرَاتِ : قال الإمامُ الذهبيُّ : الإمامُ العَلاَّمَةُ القاضِي الأمِيرُ ، مُقدمُ المُجاهِدين ، أبو عبد الله الحَرَّانيّ ثُمَّ المَغرِبيّ .

= جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس .

(١) انظر السير : (عُتبة الغلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٦٧٦/ ٣ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ١٠/ ٢٢٥ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٧٦٧/ ٥ .

(٣) انظر السير : (عيسى بن يونس) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٧٨٥/ ٢ .

(٤) انظر السير : (عيسى بن يونس) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٧٨٥/ ٤ .

(٥) انظر السير : (يوسف بن أسباط) ٩/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ٨١٤/ ٢ .

(٦) انظر السير : (شَقيق البلخيّ) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٨٢٣/ ٦ .

(٧) انظر السير : (شَقيق البلخيّ) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٨٢٤/ ٣ .

مَوْلِدُه بحَرَّان سَنَةَ أربعٍ وأربَعينَ ومِئَة ، ودَخَلَ القَيْرَوَانَ مع أبيهِ في الجِهَاد ، وكان أبُوهُ الفُراتُ بنُ سِنان من أعْيَانِ الجُنْدِ وغَلَبَ عليه عِلْمُ الرَّأيِّ ، وكَتَبَ عِلْمَ أبي حَنِيفَة[1] .

ومَضَىٰ أسَدُ بنُ الفُراتِ أميراً من قِبَلِ زِيادةُ الله الأَغْلبيّ مُتَوَلِّي المَغرِب ، فافْتَتَحَ بَلَداً من جَزِيرَةِ صَقِلِّية ، وأدْرَكَه أجَلُه هناك في سَنَةِ ثلاث عَشْرَة ومِئَتين[2] .

وكان أَسَدُ بنُ الفُراتِ مع تَوَسُّعِه في العِلمِ فارِساً بَطَلاً شُجَاعاً مِقْدَاماً ، زَحَفَ إليه صاحبُ صَقِلِّية في مئةِ ألفٍ وخمسين ألفاً قال رجلٌ : فلقدْ رَأيْتُ أَسَدَاً وبيَدِه اللِّواءُ يقْرَأُ سورةَ ﴿يس﴾ ثم حَمَلَ بالجَيْشِ ، فهَزَمَ العدُوَّ ، ورَأيتُ الدَّمَ وقد سَالَ علىٰ قَنَاةِ اللِّواءِ وعلىٰ ذِراعِه[3] .

وجاءَ في تَرْجَمَةِ الإمامِ يَحْيَىٰ بنِ مُحمَّد بنِ يَحْيَى الذُّهْليّ : الحَافِظُ المُجَوِّدُ الشَّهِيدُ أبو زَكَرِيّا ، قال الحاكِمُ : هو إمامُ نِيسَابُورَ في الفَتْوَىٰ والرِّئاسَة ، وابنُ إمامِهَا أميرُ المُطَّوِّعَةِ بخُراسَان بِلا مُدَافَعَة ، يَعْنِي : الغُزَاةَ قال : وكان يَسْكُنُ دارَ أبيه ولكل منهُما صَوْمَعَةٌ وآثارٌ لعِبادَتِهما ، والسِّكَّةُ والمَسْجدُ مَنسُوبانِ إلىٰ حَيْكان[4] .

قال الخَطِيبُ : كان زُهَيْرُ بنُ مُحمَّد بنُ قُمَير ثِقَةً صَادِقاً وَرِعاً زَاهِداً ، انتَقَلَ في آخِر عُمرِه من بَغْدادَ إلىٰ طَرْسُوسَ ، فرَابَطَ بها إلىٰ أنْ مات[5] .

وقال البغَويُّ : ما رَأيْتُ بعدَ أحْمدَ بن حَنْبَل أفْضَلَ من زُهَيْرِ بنِ مُحمَّد ابنِ قُمَير ، سَمِعتُه يقول : أَشْتَهِي لَحْماً من أربَعينَ سَنَة ، ولا آكُلُه حتىٰ أدْخُلَ الرُّومَ ، فآكُلُ من مَغَانِمِ الرُّومِ[6] .

---

(١) انظر السير : (أسد بن الفرات) ١٠/ ٢٢٥ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ١/٨٧٠ .
(٢) انظر السير : (أسد بن الفرات) ١٠/ ٢٢٥ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ١/٨٧١ .
(٣) انظر السير : (أسد بن الفرات) ١٠/ ٢٢٥ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/٨٧١ .
(٤) انظر السير : (يَحْيى الذُّهليّ) ١٢/ ٢٨٥ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١/١٠٠١ .
(٥) انظر السير : (زُهير بن محمد بن قمير) ١٢/ ٣٦٠ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٠٧ .
(٦) انظر السير : (زُهير بن محمد بن قمير) ١٢/ ٣٦٠ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٠٧ .

وقال أبو سَعيد بنُ يُونُس : كان المُزْنيُّ ثِقَةً ، وكان يَلْزَمُ الرِّباطَ[1] .

جاءَ في تَرْجَمَةِ أحمَدَ بنِ إسْحاقَ قال الإمامُ الذهَبيُّ : الإمامُ الزَّاهِدُ ، العَابِدُ المُجَاهِدُ ، فارِسُ الإسْلام أبو إسْحاقَ ، من أهْلِ سُرْماري ، من قُرىٰ بُخَارَىٰ وكان أَحَدَ الثِّقاتِ ، وبشَجَاعَتِه يُضْرَبُ المَثَلُ[2] .

وقال إبراهيمُ بنُ عَفَّانَ البَزَّار : كُنتُ عندَ أبي عبدِ الله البُخَاريّ فجَرَىٰ ذِكرُ أبي إسْحَاقَ السُّرْماريّ ، فقال : ما نَعْلَمُ في الإسْلام مِثْلَه فخَرَجْتُ فإذا أُحَيْدُ رَئيسُ المُطَّوِّعَة ، فأخْبَرتُه ، فغَضِبَ ودَخَلَ على البُخَاريّ ، وسَأَلَه فقال : ما كذا قُلتُ ، بل : ما بَلَغَنَا أنَّه كان في الإسْلامِ ولا في الجَاهِلِيَّةِ مِثلُه .

وقال أبو صَفْوَانُ (ابنُ أحمد السُّرْماريّ) : دَخَلتُ علىٰ أبي يوماً وهو يَأكُلُ وحْدَه ، فرَأَيْتُ في مائِدَتِه عُصْفُوراً يأكُلُ معَه ، فلمَّا رَآنِي طَارَ[3] .

وعن أحمَدَ بنِ إسْحاقَ قال : يَنْبَغِي لقائِدِ الغُزَاةِ أنْ يكونَ فِيه عَشْرُ خِصالٍ : أنْ يكونَ في قَلبِ الأَسَدِ لا يَجْبُن ، وفي كِبْرِ النَمِر لا يَتَوَاضَع ، وفي شَجَاعَةِ الدُّبّ يَقْتُلُ بجَوَارِحِهِ كُلِّها ، وفي حَمْلَةِ الخِنْزِيرِ لا يُوَلِّي دُبُرَه ، وفي غارَةِ الذِّئْبِ إذا أَيِسَ من وَجْهٍ أَغَارَ من وَجْه ، وفي حَمْلِ السِّلاح كالنَّملَةِ تَحْمِلُ أكْثَرَ من وَزْنِها ، وفي الثَّبَاتِ كالصَّخْرِ ، وفي الصَّبرِ كالحِمارِ ، وفي الوَقَاحَةِ كالكَلْبِ لو دَخَلَ صَيْدُه النَّارَ لدَخَلَ خَلفَه ، وفي التِماسِ الفُرصَةِ كالدِّيك .

وكانَ إبراهيمُ بنُ شِمَاسٍ يقولُ : كُنتُ أُكاتِبُ أحمَدَ بنَ إسْحاقَ السُّرْمَاريّ ، فكَتَبَ إليَّ : إذا أرَدْتَ الخُرُوجَ إلىٰ بلادِ الغُزَيّة في شِراءِ الأَسْرَىٰ ، فاكْتُبْ إليَّ فكَتَبتُ إليه ، فقَدِمَ سَمَرْقَنْدَ ، فخَرَجْنَا ، فلمَّا عَلِمَ جَعْبَوَيْه ، استَقْبَلَنا في عِدَّةٍ من جُيُوشِه ، فأَقَمْنا عِندَه ، فعَرَضَ يوماً جَيْشَه ، فمرَّ رجلٌ فعَظَّمَه وخَلَعَ عليه ، فسَأَلَنِي عنه السُّرْماريّ فقُلتُ : هـٰذا رجلٌ مُبارِزٌ ، يُعَدُّ بألفِ فارسٍ قال : أنا أُبارِزُه فسَكَتُّ فقال جَعْبَوَيْه :

---

(١) انظر السير : (المُزني) ١٢/ ٤٩٢ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٢٤ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٨ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٩ .

ما يقولُ هـٰذا ؟ قُلتُ يقولُ : كَذَا وكَذَا قال : لَعَلَّه سَكْرانٌ لا يَشْعُر ، ولكن غَداً نَركَبُ فلمَّا كان الغَدُ رَكِبُوا ، فرَكِبَ السُّرْمارِيُّ معَه عَمُودٌ في كُمِّه فقامَ بإزاء المُبارِز فقَصَدَه ، فهَرَبَ أحمَدُ حتّىٰ باعَدَهُ من الجَيْشِ ، ثمَّ كَرَّ وضَرَبَه بالعَمُودِ فقتَلَه ، وتَبِعَ إبراهيمَ بنَ شِمَاسٍ ، لأنَّه كان قد سَبَقَه فلَحِقَه ، وعَلِمَ جَعْبَوَيْه ، فجَهَّزَ في طلبه خمسِينَ فارساً نَقَاوةً ، فأدْرَكُوه ، فثَبَتَ تحتَ تَلٍّ مُخْتَفِياً حتّىٰ مَرُّوا كُلُّهم واحِداً بعدَ واحِد ، وجَعَلَ يَضْرِبُ بعَمُودِه من ورَاءِهم إلىٰ أنْ قَتَلَ تسْعَةً وأربعِينَ ، وأَمْسَكَ واحِداً ، قَطَعَ أنْفَه وأُذُنَيْه ، وأَطْلَقَه ليُخْبِر ، ثمَّ بعدَ عامَيْن تُوُفِّي أحمدُ ، وذَهَبَ ابنُ شِمَاسٍ في الفِداءِ ، فقال له جَعْبَوَيْه : مَنْ ذَاكَ الذي قَتَلَ فرسانَنا ؟ قال : ذاكَ أحمدُ السُّرْمارِيّ قال : فلِمَ لَمْ تَحْمِلْه مَعَكَ ؟ قُلتُ : تُوُفِّيَ ، فَصَكَّ في وَجْهِي ، وقال : لَوْ أَعْلَمْتَنِي أنَّه هو لكُنتُ أُعْطِيهِ خَمْسَ مئةِ بِرْذَوْن[1] وعَشْرَةَ آلافِ شاة .

وعن عِمْرانَ بنَ مُحمَّد المطَّوعيّ : سَمعتُ أبي يقولُ : كان عَمُودُ المطَّوِّعيِّ السُّرْمارِيّ وزْنُه ثمانِيَةَ عَشْرَةَ مَنّاً[2] ، فلمَّا شَاخَ جَعَلَه اثنَيْ عَشْرَ مَنّاً ، وكان به يُقاتِلُ .

وعن عُبيد الله بنِ واصل ، سَمعتُ أحمدَ السُّرْماريَّ يقولُ ، وأخرجَ سَيْفَه ، فقال : أعلَمُ يَقيناً أنِّي قَتلتُ به ألفَ تُركيّ ، وإنْ عِشْتُ قَتلتُ به ألفاً أخْرىٰ ، ولولا خَوْفي أن يكونَ بدعةً لأمَرتُ أن يُدفَن معي[3] .

وعن محمودِ ابنِ سَهْل الكاتب ، قال : كانوا في بعض الحروب يحاصِرون مكاناً ، ورئيسُ العدوِّ قاعدٌ علىٰ صُفَّة[4] ، فرمى السُّرماريُّ سَهْماً ، فغرزَه في الصُّفَّة ، فأوْمأ الرئيسُ لينزَعه ، فرماه بسَهمٍ آخر خاطَ يدَه ، فتطاوَلَ الكافرُ لينزعَه من يده ، فرماه بسَهمٍ ثالثٍ في نَحرِه ، فانهزَمَ العَدوُّ ، وكان الفتح .

قال الذهبيُّ : أخبارُ هـٰذا الغازي تسُرُّ قلبَ المسلم .

---

(١) البِرْذَوْن : ضرب من الدواب ، يخالف الخيل العراب ، عظيم الخِلقَة ، غليظ الأعضاء .
(٢) المَنّ : زِنَة رطلين .
(٣) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٩ .
(٤) الصُفَّة : الظُلة ، والبَهو الواسع العالي السقف .

تُوفِّي في سنة اثنتين وأربعين ومئتين ، رحمَه الله تعالىٰ ، فإنه كان مع فَرْط شجاعته من العلماء العاملين العُبَّاد[1] .

وجاء في تَرجَمَةِ أبي حَمْزَةَ البَغْدادِيّ قال الإمامُ الذهَبيُّ : كان بَصِيراً بالقِراءَاتِ ، وكان كَثيرَ الرِّباطِ والغَزْوِ[2] .

وذكر أبو عُبَيْدَة قال : كان بَقِيُّ بنُ مخلد يَخْتِمُ القُرآنَ كُلَّ لَيلَةٍ ، في ثلاثَ عَشْرَةَ رَكعَةً ، وكان يُصلِّي بالنَّهارِ مئَةَ رَكعةٍ ، ويَصُومُ الدَّهرَ ، وكان كَثيرَ الجِهَادِ ، فاضِلاً ، يُذْكَرُ عنْه أنَّه رَابَطَ اثْنَتَين وسَبْعِينَ غَزْوَةً[3] .

وقُتِلَ الفَنْدَلاوِيُّ وزَاهِدُ دِمَشْقَ عبدُ الرَّحْمَـٰن الحلحوليُّ سَنَةَ ثلاثٍ وأربَعِينَ وخمسِ مِئة بالنَّيْرَب[4] في حَربِ الفِرَنْج ومُنازَلَتِهم دِمَشْقَ ، فقُبِرَ الفَنْدَلاوِيُّ بظاهِرِ باب الصَّغِير ، وقُبِرَ الحلحوليُّ بالجَبَلِ رحمَهُما الله[5] .

وقال الضِّياءُ : سَمعتُ البَهَاءَ يَصِفُ الإمامَ بنَ قُدَامَةَ بالشَّجاعَةِ ، وقال : كان يَتَقَدَّمُ إلى العَدُوِّ وجُرِحَ في كَفِّه ، وكان يُرامِي العَدُوَّ[6] .

١٦ـ سُؤالُ الله الشَّهَادَة :

عن داوُدَ بنِ أبي هِنْدٍ قال : لمَّا أَخَذَ الحَجَّاجُ سَعيدَ بنَ جُبَيْر قال : ما أَرانِي إلاَّ مَقْتُولاً وسَأُخْبِرُكم : إنِّي كُنتُ أنا وصاحِبانِ لي دَعَوْنا حين وَجَدْنا حَلاوَةَ الدُّعاء ، ثم سَأَلْنا اللهَ الشَّهَادَةَ ، فكِلا صاحِبَيَّ رُزِقَها ، وأنا أَنْتَظِرُها ، قال : فَكَأَنَّه رأىٰ أنَّ الإجابَةَ عند حَلاوَةِ الدُّعاء .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٠ .
(٢) انظر السير : (أبو حمزة البغدادي) ١٣/ ١٦٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٧ .
(٣) انظر السير : (بَقيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٧ .
(٤) النَّيْرب : محلة تلي الربوة من جهة دمشق وهي كلمة سريانية تعني الوادي ، وهنا يُراد بها سفح قاسيون مما يلي الربوة .
(٥) انظر السير : (الفَنْدلاوي) ٢٠/ ٢٠٩ـ ٢١٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٤٢ .
(٦) انظر السير : (ابن قدامة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٢ .

قال الذَّهبيُّ : ولمَّا عَلِمَ من فَضْلِ الشَّهَادَةِ ثَبَتَ للقَتلِ ولَمْ يَكْتَرِثْ ، ولا عَامَلَ عَدوَّه بالتُّقيَة المُباحَة له ، رحِمَه اللهُ تَعَالَىٰ[1] .

وقال رَيَاح القَيْسي : باتَ عُتْبَةُ الغُلامُ عندي ، فسَمعتُه يقُولُ في سُجُودِه : اللَّهُمَّ احْشُر عُتْبَةَ من حَوَاصِل الطَّيْر وبُطُونِ السِّباع[2] .

عن عليِّ بنِ أحمَدَ الحافِظ ، أخْبَرَني أبو الوَليدِ بنُ الفَرْضيّ قال : تَعَلَّقْتُ بأسْتار الكَعْبَة ، وسَألتُ اللهَ تَعَالَى الشَهَادَةَ ، ثُمَّ فَكَّرْتُ في هَوْلِ القَتْلِ فندِمْتُ ، وهَمَمْتُ أنْ أرْجِعَ ، فأسْتَقِيلَ الله ذلك ، فاسْتَحْيَيْتُ قال الحَافِظُ عليٌّ : فأخْبَرَني مَنْ رَآهُ بيْنَ القَتْلَىٰ ، ودَنَا منه ، فسَمِعَه يقولُ بصَوتٍ ضَعِيفٍ : « لا يُكلَمُ أحَدٌ في سَبيلِ اللهِ ، واللهُ أعْلَمُ بمَنْ يُكْلَمُ في سَبيلِه إلاَّ جَاءَ يَوْمَ القِيامَةِ وجُرْحُه يَثْعَبُ دَمَاً ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّم ، والرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ » كأنَّه يُعِيدُ علىٰ نَفسِه الحَديثَ ، ثُمَّ قَضَىٰ علىٰ إثْرِ ذلك رَحِمَه الله[3] .

وكان نُورُ الدِّين زِنْكِي بَطَلاً شُجَاعَاً وافِرَ الهَيْبَة ، حَسَنَ الرَّميِّ ، مَليحَ الشَّكْلِ ، ذا تَعَبُّد وخَوْف ووَرَعٍ ، وكان يَتعرَّضُ للشَّهَادَةِ ، سَمِعَه كاتِبُه أبو اليُسْرِ يَسْألُ الله أنْ يُحْشَرَ من بُطُونِ السِّباعِ وحَوَاصِلِ الطَّيْر .

وبنىٰ دَارَ العَدْلِ ، وأَنْصَفَ الرَّعِيَّة ، ووَقَفَ على الضُعَفَاءِ والأيْتام والمُجاوِرين وأَمَرَ بتَكْميل سُورِ المدينة النَّبويَّة ، واسْتَخْرَاجِ العَيْن بأُحد دَفَنَهَا السَّيْلُ ، وفَتَحَ دَرْبَ الحِجَاز ، وعَمَّر الخَوَانِق والرُّبُطَ والجُسُورَ والخاناتِ بدِمَشْقَ وغيرها وكذا فعل إذْ مَلَكَ حَرَّانَ وسنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة ومَنْبج وشَيْزَر وحِمْصَ وحَمَاة وصَرْخَد وبَعْلبَكَّ وتَدْمُرَ ووَقَفَ كُتُباً كثيرةً مُثَمَّنَة ، وكَسَرَ الفِرِنْجَ والأَرْمَنَ علىٰ حارِم وكانوا ثلاثين ألفاً فقَلَّ مَنْ نَجَا ، وعلىٰ بانياس[4] .

---

(١) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٦/٥٠٧ .

(٢) انظر السير : (عُتبة الغلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٧٦ .

(٣) انظر السير : (ابن الفَرضيّ) ١٧/ ١٧٧ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٣٣٣١ .

(٤) انظر السير : (نور الدين زنكي) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٠ .

وقال ابنُ وَاصِل : كان نُورُ الدِّين زِنْكِي من أَقْوَى النَّاسِ قَلْباً وبَدَناً ، لَمْ يُرَ علىٰ ظَهرِ فَرَسٍ أحَدٌ أَشَدَّ منه ، كأنَّما خُلِقَ عليه لا يَتَحرَّك ، وكان يقولُ : طَالَمَا تَعَرَّضتُ للشَّهَادَةِ فلَمْ أُدْرِكْها .

قال الذَّهبيُّ : قد أَدْرَكَها علىٰ فِرَاشِه ، وعلىٰ أَلْسِنَةِ النَّاس : نُورُ الدِّينِ شَهِيدٌ[1] .

١٧ـ صُوَرٌ من الشَّهَادَة :

جاءَ من رِوَايَةِ الوَاقِدِيّ أنَّ مُحمَّدَ بنَ ثابِت بنِ قَيْس قال : لمَّا انْكَشَفَ المُسْلِمونَ يومَ اليَمَامَةِ ، قال سَالِمُ مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة : ما هكَذا كُنَّا نَفْعَلُ مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فَحَفَرَ لنفْسِه حُفْرَةً ، فقَامَ فيها ومَعَه رَايَةُ المُهاجِرينَ يومَئِذٍ ، ثُمَّ قاتَلَ حتىٰ قُتِل رضي الله عنه[2] .

ورَمَىٰ أبُو دُجَانَةُ بنَفْسِه يومَ اليَمَامَةِ إلىٰ داخِلِ الحَديقَة ، فانْكَسَرَتْ رِجْلُه ، فقَاتَلَ وهو مَكْسُورُ الرِّجْلِ حتىٰ قُتِلَ رضي الله عنه[3] .

وعن عاصِم بنِ عُمَر قال : لمَّا كان من غَدْرِ عَضَل والقَارَة بخُبَيْبِ ابنِ عَدِيّ وأصْحابِه رضي الله عنهم ، قَدِمُوا به وبزَيْد بنِ الدِّثِنَّة ، فأمَّا خُبَيْب فابْتاعَه حُجَير بنُ أبي إهاب لعُقْبَة بنِ الحارِث بنِ عامِر ، وكان أخا حُجَير لأُمِّه ليَقْتُلَه بأبيه .

فلمَّا خَرَجُوا به ليَقْتُلُوه ، وقد نَصَبُوا خَشَبَتَه ليَصْلبوه ، فانتهىٰ إلى التنْعِيم ، فقال : إنْ رَأيتُم أنْ تَدَعُونِي أرْكَعُ رَكْعتَيْن فقالوا : دُونَك ، فصَلَّىٰ ثم قال : والله لَوْلا أنْ تَظُنُّوا أنَّما طَوَّلْتُ جَزَعاً من القَتْلِ ، لاسْتَكْثَرْتُ من الصَّلاةِ ، فكان أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الصَّلاةَ عند القَتْلِ ، ثمَّ رَفَعُوه علىٰ خَشَبَتِه ، فقال : اللَّهُمَّ أَحْصِهِم عَدَداً واقْتُلْهم بَدَداً ، ولا تُغَادِرْ منهم أَحَداً ، اللَّهُمَّ إنَّا قد بلَّغْنا رِسَالَةَ رسُولِك ، فبَلِّغْهُ الغَدَاةَ ما أَتَىٰ إلينا .

قال : وقال مُعَاوية : كُنْتُ فيمَن حَضَرَه ، فلَقَد رأيتُ أبا سُفْيانَ يُلْقِيني إلى

---

(١) انظر السير : (نور الدين زنكي) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (سالم مولىٰ أبي حُذيفة) ١/ ١٦٧ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤٣ .

(٣) انظر السير : (أبو دجانة الأنصاريّ) ١/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٥ .

الأرضِ ، فَرَقاً من دَعْوَةِ خُبَيْب وكانوا يقولون : إنَّ الرَّجُلَ إذا دُعِيَ عليه فاضْطَجَع ، زَلَّتْ عنه الدَّعوَة[1] .

وقال عِكْرِمَةُ : فلمَّا كان يومَ أُحُدٍ قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « قُومُوا إلىٰ جَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ للمُتَّقِين » فقَامَ عَمرُو ابنُ الجَمُوح وهو أَعْرَجٌ فقالَ : واللهِ لأَفْحزَنَّ[2] عليها في الجَنَّة ، فقَاتَلَ حتىٰ قُتِل رضي الله عنه[3] .

ولمَّا نَدَبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المُسْلِمينَ يومَ بَدْرٍ ، فأَسْرَعُوا قال خَيْثَمَةُ لابنِه سَعْد : آثِرْنِي علىٰ نَفْسِك بالخُرُوجِ ، وأَقِمْ معَ نِسَائِك فأَبَىٰ وقالَ : لَوْ كان غَيْرُ الجَنَّة ، آثَرْتُكَ به ، فاقْتَرَعا ، فخَرَجَ سَهْمُ سَعْدٍ ، فخَرَجَ واسْتُشْهِدَ ببَدْرٍ ، واسْتُشْهِدَ أَبُوهُ خَيْثَمَةُ يومَ أُحُدٍ[4] .

وشَهَد زَيْدُ بنُ الخَطَّاب بَدْراً والمَشَاهِدَ ، وكان قد آخَى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينه وبينَ مَعْنِ بنِ عَدِيّ العَجْلانيّ ، ولقد قال له عُمَرُ يومَ بَدْرٍ : الْبَسْ دِرْعِي قال : إنِّي أريدُ من الشَّهَادَةِ ما تُريدُ قال : فتَرَكَاها جَميعاً ، وكانت رايَةُ المُسْلِمين معَه يومَ اليَمَامَة ، فلَمْ يَزَلْ يَقْدُم بها في نَحْرِ العَدُوِّ ، ثُمَّ قاتَلَ حتىٰ قُتِلَ ، فوَقَعَتْ الرَّايَةُ ، فأَخَذَها سَالِمُ مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة وحَزِنَ علَيْه عُمَرُ ، وكان يقولُ : أَسْلَمَ زَيْدٌ قَبْلِي ، واسْتُشْهِدَ قَبْلِي ، وكان يقولُ : ما هَبَّت الصَّبا إلاَّ وأنا أَجِدُ رِيحَ زَيْد[5] .

وعن أَنَسٍ أنَّ ثابِتَ بنَ قَيْسٍ جاءَ يومَ اليَمَامَةِ ، وقد تَحَنَّطَ ، ولَبِسَ ثَوْبَيْنِ أَبْيَضَيْنِ فَكُفِّنَ فيهما ، وقد انْهَزَمَ القَوْم ، فقال : اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إلَيْكَ ممَّا جَاءَ به هـٰؤلاء ، وأَعْتَذِرُ من صَنِيعِ هـٰؤلاء ، بِئْسَ ما عَوَّدْتُم أَقْرَانَكُم! خَلُّوا بَيْنَنَا وبَيْنَهم ساعَةً ، فَحَمَلَ ، فقَاتَلَ حتىٰ قُتِلَ رضي الله عنه[6] .

---

(١) انظر السير : (خُبَيب بن عَديّ) ١/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٥ .
(٢) أي لأثِبَنَّ .
(٣) انظر السير : (عمرو بن الجموح) ١/ ٢٥٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٨ .
(٤) انظر السير : (سعد بن خيثمة) ١/ ٢٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٩ .
(٥) انظر السير : (زيد بن الخطاب) ١/ ٢٩٧ـ ٢٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٦ .
(٦) انظر السير : (ثابت بن قيس) ١/ ٣٠٨ـ ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٧ .

وعن مُحمَّدِ بنِ عبد الرَّحْمَـٰن بنِ أبي صَعْصَعَةَ ، أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لي ما فَعَلَ سَعْدُ بنُ الرَّبيع ؟ » ، فقالَ رَجُلٌ من الأَنْصَارِ : أنا ، فخَرَجَ يَطُوفُ في القَتْلَىٰ ، حتىٰ وَجَدَ سَعْداً جَرِيحاً مُثْبَتاً بآخِرِ رَمَقٍ فقال : يا سَعْدُ إنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَمَرَنِي أنْ أنْظُرَ في الأَحْيَاءِ أنْتَ أمْ في الأَمْوَاتِ ؟ قال : فإنِّي في الأَمْوَاتِ ، فأَبْلِغْ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم السَّلامَ ، وقُلْ : إنَّ سَعْدَاً يقُولُ : جَزَاكَ اللهُ عَنِّي خَيْرَ ما جَزَا نَبيّاً عن أُمَّتِه ، وأَبْلِغْ قَوْمَكَ مِنِّي السَّلامَ ، وقُلْ لَهُم : إنَّ سَعْداً يَقُولُ لكُم : إنَّه لا عُذْرَ لكُم إنْ خُلِصَ إلىٰ نَبيِّكم ومِنْكُم عَيْنٌ تَطْرِف[1] .

وقالَ الشَّافِعيُّ : كان عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ مَحْمُودَ البَلاءِ في الإسْلامِ رضي الله عنه نَزَلَ عِكْرِمَةُ يومَ اليَرْمُوكِ ، فقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً ، ثُمَّ اسْتُشْهِدَ ، فوَجَدُوا به بِضْعاً وسَبْعِينَ من طَعْنَةٍ ورَمْيَةٍ وضَرْبَةٍ[2] .

وقال ابنُ سَعْد : قالوا : وكان عبدُ الله بنُ عَمرِو بن حِرام أولَ مَنْ قُتِلَ يومَ أُحُدٍ ، وكان عَمْرُو بنُ الجَمُوح طَويلاً فَدُفِنَا مَعاً عِندَ السَّيْلِ ، فَحَفَرَ السَّيْلُ عنهُما ، وعليهِمَا نَمِرَةٌ ، وقد أصَابَ عبدَ الله جُرْحٌ في وَجْهِه فيَدُهُ علىٰ جُرْحِه ، فأُمِيطَتْ يَدُهُ ، فانْبَعَثَ الدَّمُ ، فرُدَّتْ ، فسَكَنَ الدَّمُ[3] .

وعن طَلْحَة بنِ خِرَاش ، سَمِعَ جابِراً يقولُ : قال لي رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أُخْبِرُكَ أنَّ اللهَ كلَّمَ أبَاكَ كفَاحاً ، فقَالَ : يا عَبْدِي! سَلْنِي أُعْطِكَ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أنْ تَرُدَّنِي إلى الدُّنْيَا فأُقْتَلُ فِيْكَ ثانِياً ، فقَالَ : إنَّه قَدْ سَبَقَ مِنِّي أنَّهُم إلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ قَالَ : يا رَبِّ! فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي ، فأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[4] »[5] .

---

(١) انظر السير : (سعد بن الربيع) ١/ ٣١٨ـ ٣٢٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٩ .

(٢) انظر السير : (عكرمة بن أبي جهل) ١/ ٣٢٣ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٧١ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن عمرو بن حِرام) ١/ ٣٢٤ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٧٢ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٩

(٥) انظر السير : (عبد الله بن عمرو بن حِرام) ١/ ٣٢٤ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٧٢ .

وعن معقلِ بنِ يَسَارٍ : أنَّ عُمَرَ شَاوَرَ الهُرْمُزَانَ في أصْبَهانَ وفارِسَ وأذْرَبيجانَ فقال : أصْبَهانُ : الرَّأسُ وفَارِسُ وأذْرَبيجانُ : الجَنَاحانُ ، فإذا قَطَعْتَ جَنَاحاً فَاءَ الرَّأسُ وجَنَاحٌ ، وإنْ قَطَعْتَ الرَّأسَ وَقَعَ الجَناحَان ، فقال عُمَرُ للنُّعْمانِ بنِ مُقَرِّن : إنِّي مُسْتَعْمِلُك ، فقال : أمَّا جَابِياً فلا ، وأمَّا غَازِياً فنَعَمْ قال : فإنَّك غَازٍ فَسَرَّحَه ، وبَعَثَ إلىٰ أَهْلِ الكُوفَة ليَمُدُّوه وفيهم حُذَيْفَةُ ، والزُّبَيْرُ والمُغِيرَةُ والأشْعَثُ ، وعَمرُو ابنُ مَعْدِي كَرِبْ ، فذَكَرَ الحَديثَ بطُولِه ، وهو في « مُسْتَدْرَكِ الحَاكم » وفيه : فقالَ : اللَّهُمَّ ارْزُقْ النُّعْمانَ الشَّهَادَةَ بنَصْرِ المُسْلِمين ، وافْتَحْ علَيْهِم ، فأمَّنُوا ، وهَزَّ لِواءَه ثلاثاً ثُمَّ حَمَلَ ، فكان أوَّلَ صَرِيعٍ ، رضي الله عنه ، ووَقَعَ ذُو الحَاجِبَيْن من بَغْلَتِه الشَّهْباء ، فانْشَقَّ بَطْنُه ، وفَتَحَ اللهُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ النُّعْمَانَ وبه رَمَقٌ ، فأَتَيْتُه بماءٍ فصَبَبْتُ علىٰ وَجْهِه أغْسِلُ التُّرابَ ، فقال : مَنْ ذَا ؟ قُلتُ : معْقلُ بنُ يَسَار قال : ما فَعَلَ النَّاسُ ؟ قُلتُ : فَتَحَ اللهُ فقال : الحَمْدُ لله ، اكْتُبُوا إلىٰ عُمَرَ بذلك ، وفَاضَتْ رُوحُه رضي الله عنه[1] ،[2] .

قال الصُّولِيُّ : كان أحمدُ بنُ نَصْرالخُزاعِيّ وسَهلُ بنُ سَلامَة حين كان المَأمُونُ بخُراسَان بايَعَا النَّاسَ على الأمر بالمَعْروف والنَّهيِّ عن المُنكَر ، ثم قَدِمَ المَأمُونُ فبايَعَه

---

(١) أخرج البخاري في الجزية (٣١٥٩) عن جبير بن حبّة ، قال : بعث عُمر الناس في أفناء الأمصار يقاتلون المشركين ، فأسلم الهرمزان ، فقال : إني مستشيرك في مغازيَّ هـٰذه ، قال : نعم ، مثلها ومثل من فيها من الناس ، من عدو المسلمين ، مثل طائر له رأس وله جناحان وله رجلان ، فإن كُسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس ، فإن كُسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس ، وإن شُرخ الرأس ذهبت الرجلان والجناحان والرأس ، فالرأس كسرىٰ ، والجناح قيصر ، والجناح الآخر فارس ، فمُر المسلمين فلينفروا إلىٰ كسرىٰ و(١٩٢) عن جبير بن حبَّة قال : فندبنا عُمرُ ، واستعمل علينا النُّعمان بن مقرِّن ، حتىٰ إذا كنا بأرض العدو ، خرج علينا عامل كسرىٰ في أربعين ألفاً ، فقام ترجمانٌ فقال : ليكلمني رجلٌ منكم ، فقال المغيرة : فسل عمَّا شئت قال : ما أنتم ، قال : « نحن أناس من العرب ، كنا في شقاء شديد وبلاء شديد ، نمصُّ الجلد والنوىٰ من الجوع ، ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر فبينا نحن كذلك إذ بعث ربُّ السَّماوات وربُّ الأرضين ـ تعالىٰ ذكره وجلت عظمته ـ إلينا نبياً من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا رسول ربِّنا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتىٰ تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أنه من قُتل منَّا صار إلى الجنة في نعيم لم يرَ مثلها قطّ ، ومن بقي منَّا ملكَ رقابكم »

(٢) انظر السير : (النُّعمان بن مقرّن) ١/ ٤٠٣ـ ٤٠٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٨٢ .

سَهْلٌ ، ولَزِمَ ابنُ نَصْرٍ بَيْتَه ، ثمَّ تَحَرَّك في آخِر أيام الوَاثِق ، واجتمَعَ إليه خَلْقٌ يَأمُرونَ بالمَعْروف ، قال : إلىٰ أنْ مَلَكُوا بَغْدادَ ، وتَعَدَّىٰ رَجُلانِ موسِران من أصحابه فبَذَلا مالاً وعَزَما على الوُثُوبِ في سنة إحْدَىٰ وثلاثين فنَمَا الخَبَرُ إلىٰ نائِبِ بَغْدادَ إسْحاقَ بنِ إبْراهِيمَ ، فأخَذَ أحمَدَ وصاحِبَيْه وجَمَاعَةً ، ووَجَدَ في مَنزِل أحَدِهما أعْلامَاً ، وضَرَبَ خادِماً لأحْمَدَ ، فأقَرَّ بأنَّ هـٰؤلاء كانوا يَأتُونَ أحمَدَ ليلاً ويُخْبِرُونه بما عَمِلوا فحُمِلُوا إلىٰ سَامَرَّاء مُقَيَّدِين فجَلَسَ الوَاثِقُ لهم ، وقال لأحمَدَ : دَعْ ما أُخِذْتَ له ، ما تقُولُ في القُرآنِ ؟ : قال : كَلامُ الله قال : أفَمَخْلُوقٌ هو ؟ قال : كَلامُ الله قال : فتَرَىٰ رَبَّكَ في القِيَامَة ؟ قال : كَذَا جَاءَت الرِّوايَةُ قال : وَيْحَك يُرَىٰ كَمَا يُرَى المَحْدُودُ المُتَجَسِّمُ ، ويَحْوِيه مكانٌ ويَحْصُرُه نَاظِرٌ ؟ أنا كَفَرتُ بمَنْ هَـٰذِه صِفَتُه ، ما تَقُولُون فيه ؟ فقال قاضي الجانِبِ الغَرْبيّ : هو حَلالُ الدَّمْ ، ووَافَقَه فُقَهَاءٌ ، فأظْهَرَ أحمَدُ ابنُ أبي دُواد أنَّه كارِهٌ لقَتْله وقال شَيخٌ مُخْتلٌّ تَغَيَّرَ عَقلُه يُؤَخَّر ، قال الوَاثِقُ ما أَرَاه إلاَّ مُؤَدياً لكُفْرِه قائماً بما يَعْتَقِدُه ، ودَعَا بالصَّمْصَامَة وقام ، وقال : أَحْتَسِبُ خُطَايَ إلىٰ هـٰذا الكَافِر ، فضَرَبَ عُنُقَه بعد أن مَدُّوا له رَأسَه بحَبْلٍ وهو مُقَيَّد ونُصِبَ رأسُه بالجانبِ الشَّرقِيّ ، وتُتُبِّعَ أصحابُه فسُجِنُوا[1] .

وقال عليُّ بنُ أبي أُمَيَّة : لمَّا كان من دُخُولِ الزِّنْجَ البَصْرَة ما كان وقَتْلِهم بها مَنْ قَتَلُوا ، وذلك في شَوَّال سَنَةَ سَبعٍ ، بَلَغَنا أنَّهم دَخَلُوا علىٰ عبَّاس بنِ الفَرج الرِّيَاشِيّ المَسجِد بأسْيَافِهم ، والرِّيَاشِيّ قائِمٌ يُصلِّي الضُّحَىٰ ، فضَرَبُوه بالأَسْيافِ : وقالوا : هاتِ المَالَ ، فجَعَلَ يقولُ : أيُّ مالٍ ؟ حتىٰ ماتَ فلمَّا خَرَجَتِ الزِّنْجُ عن البَصْرة ، دَخَلْناها ، فمَرَرْنا ببَنِي مازِن الطَّحانين ـ وهناك كان يَنزِلُ الرِّيَاشِيّ ـ فدَخَلْنا مَسجدَه ، فإذا به مُلْقىً وهو مُسْتَقبِلٌ القِبلَةَ كأنَّما وُجِّه إليها ، وإذا بشَمْلَةٍ تُحَرِّكُها الرِّيحُ وقد تَمَزَّقَت ، وإذا جَميعُ خَلْقِه صحيحٌ سَويٌّ لَمْ يَنْشَقَّ له بَطْن ، ولَمْ يَتَغَيَّر له حال ، إلاَّ أنَّ جِلْدَه قد لَصُقَ بعَظْمِه ويَبُس ، وذلك بعد مَقْتَلِه بسَنَتَيْن رَحمَه الله[2] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن نصر الخُزاعيّ) ١١/ ١٦٦ـ ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩١٨ .

(٢) انظر السير : (الرِّياشيّ) ١٢/ ٣٧٢ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٠٩ .

وجاءَ في تَرْجَمَة الشَّهيد : الإمامُ القُدوَةُ الشَّهيدُ أبو بَكْر مُحمَّدُ ابنُ أحمَدَ بنِ سَهْل الرَّمليّ ، ويُعْرفُ بابنِ النَّابُلسيّ[1] .

وقال أبو ذَرٍّ الحافِظُ : سَجَنَه بنُو عُبَيْد وصَلَبُوه على السنَّة ، سَمعتُ الدَّارَقُطنِيّ يَذْكُرُه ويَبْكِي ، ويقولُ : كان يقولُ ، وهو يُسْلَخ : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾[2] .

وقال أبو الفَرج بنُ الجَوْزيّ : أقامَ جَوْهَرٌ القائِدُ لأبي تَميمٍ صاحِبِ مِصْرَ أبا بَكْر النَّابُلسي ، وكان يَنزِلُ الأكْواخَ فقال له : بَلَغَنا أنَّكَ قُلتَ : إذا كان مع الرَّجُلِ عَشْرةُ أَسْهُم ، وجَبَ أن يَرْمِيَ في الرُّوم سَهْمَاً وفِينَا تِسْعَةً ، قال : ما قُلتُ هـٰذا ، بَلْ قُلتُ : إذا كان معه عَشْرةُ أَسْهُمٍ وَجَبَ أن يَرمِيَكم بتِسعَةٍ وأن يَرمِيَ العاشِرَ فيكم أيضاً ، فإنَّكم غَيَّرتُم المِلَّة ، وقَتَلتُم الصَّالِحين ، وادَّعَيْتُم نُورَ الإلَهِيَّة ، فشَهَره ثُمَّ ضَرَبَه ، ثُمَّ أَمَرَ يَهُودِيّاً فسَلَخَه وحُشِيَ تِبْناً ، وصُلِبَ .

وقال مُعمَّرُ بنُ أحمَد بنُ زِياد الصُّوفيّ : أخْبَرَني الثِّقَةُ أنَّ أبا بَكْر سُلِخَ من مَفْرِقِ رَأسِه حتّىٰ بَلَغَ الوَجْه ، فكان يَذْكُرُ اللهَ ويَصْبر حتّىٰ بَلَغَ الصَّدْرَ ، فرَحِمَه السَّلاَّخُ ، فوَكَزَه بالسِّكِّينِ مَوْضِعَ قَلبِه فقَضَىٰ عليه ، وأَخْبَرَني الثِّقَةُ أنَّه كان إماماً في الحَدِيثِ والفِقْه ، صائِمَ الدَّهرِ ، كبيرَ الصَوْلَة عند العامَّة والخاصَّة ، ولمَّا سُلِخَ كان يُسْمَعُ من جَسَدِه قِراءَةُ القُرآن[3] .

قال الذَّهبيُّ : لا يُوصَفُ ما قَلَبَ هـٰؤلاء العُبَيْدِيَّة الدِّينَ ظَهْراً لبَطْن ، واسْتَوْلَوا على المَغْرِب ، ثم علىٰ مصرَ والشَّامَ ، وسَبُّوا الصَّحابةَ[4] .

وحَكى ابنُ السَّعْساع المِصْريّ ، أنَّه رأَىَ في النَّومِ أبا بَكْر ابن النَّابُلسي بعدما صُلِبَ وهو في أَحْسَنِ هَيْئَة ، فقال : ما فَعَلَ اللهُ بك ؟ فقال :[5] .

---

(١) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٦ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٥٨ .
(٣) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٦ .
(٤) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٧٦ .
(٥) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٧٦ .

حبَـانـي مـالِكـي بـدَوامِ عِـزّ ووَاعـدَنـي بقُـرْبِ الانْتِصـارِ
وقَـرَّبَنـي وأَدْنـانـي إليـه وقـالَ : انْعَمْ بعَيْشٍ في جِـواري

ونَزَلَتِ التَّتَارُ علىٰ خَوَارِزْمَ في سَنَةِ ثَمانِي عشرة وستِّ مِئَة فخَرَجَ الإمَامُ نَجْمُ الدِّين الكُبْرَىٰ فِيمَنْ خَرَجَ للجِهَادِ ، فقَاتَلُوا علىٰ بابِ البَلَدِ حتىٰ قُتِلُوا رضِيَ اللهُ عنهم ، وقُتِلَ الشَّيْخُ وهو في عَشْرِ الثَّمَانِين .

وفي كلامِه شيءٌ من تَصَوُّفِ الحِكْمَة[1] .

١٨ـ الأُمَرَاءُ المُجَاهِدون :

قُتِلَ أبو المَلِكِ النَّاصِرِ لدينِ الله شابّاً وعُمْرُ النَّاصِر لدينِ الله عِشْرُونَ يوماً ، فكَفَلَه جَدُّهُ ، فلمَّا ماتَ جَدُّهُ ، بُويِعَ هـٰذا سَنَةَ ثلاثِ مِئَة مع وُجُودِ الأكَابِر من أعْمَامِه وأعْمامِ أبيهِ ، فوَلِيَ وعُمْرُه اثْنَتَانِ وعِشْرُونَ سَنةً ، فضَبَطَ المَمَالِكَ ، وخافَتْهُ الأعْداءُ ، وعَمِلَ الزَّهْراءَ علىٰ بَرِيدٍ[2] من قُرطُبَة ، فشَيَّدَها وزَخْرَفَها ، وأنْفَقَ عليها قَنَاطِيرَ من الذَّهَبِ ، وكان لا يَمَلُّ من الغَزْوِ ، فيه سُؤْدُدٌ وحَزْمٌ وإقْدامٌ ، وسَجَايا حَمِيدَةٌ .

وقد تُوُفِّيَ النَّاصِرُ قبلَ تَتِمَّةِ زَخْرَفَةِ مدينَةِ الزَّهْراءِ ، فأتَمَّها ابنُه المُسْتَنْصِرُ ، وبها جامِعٌ عَدِيمُ المِثْلِ ، وكَذَا مَنَارَتُه[3] .

وافْتَتَحَ النَّاصِرُ لدِينِ الله (صاحبُ الأنْدَلُسِ) سَبعِينَ حِصْناً من أعْظَمِ الحُصُونِ ، وقد مَدَحَتْه الشُّعَرَاءُ .

قال الإمامُ الذَّهَبيُّ : تُوفِيَ سَنَةَ خَمسِين وثلاثِ مِئة وله اثنَتانِ وسَبعُون عاماً رَحِمَهُ الله[4] .

قال الذَّهَبيُّ : وقد كُنتُ ذَكَرتُ تَرجَمَتَه مع جَدِّهم ، فأعَدْتُها بزَوائِدَ وفَوَائِدَ ، وإذا

---

(١) انظر السير : (نجم الدين الكُبرىٰ) ٢٢/ ١١١ـ ١١٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٠ .
(٢) البريد اثنا عشر ميلاً .
(٣) انظر السير : (صاحب الأندلس) ١٥/ ٥٦٢ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٥٨ .
(٤) انظر السير : (صاحب الأندلس) ١٥/ ٥٦٢ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥٩ .

كانَ الرَّأسُ عَالِيَ الهِمَّةِ في الجِهَادِ ، احْتُمِلَتْ له هَنَاتٌ ، وحِسَابُه على الله أمَّا إذا أمَاتَ الجِهَادَ ، وظَلَمَ العِبَادَ ، وللخَزَائِنِ أبَادَ ، فإنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصَادِ[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ سَيْفِ الدَّولَة ، قال الذَّهَبيُّ : أبو الحَسَنْ عليُّ ابنُ عبدِ الله ابنِ حَمْدان ، صاحِبُ حَلَبْ ، مَقْصِدُ الوُفُودِ ، وكَعْبَةُ الجُودِ ، وفارِسُ الإسْلامِ ، وحامِلُ لِواءِ الجِهَادِ كان أدِيباً مَلِيحَ النَظْمِ ، فيه تَشَيُّع[2] .

ويُقالُ : تَمَّ له من الرُّومِ أرْبَعُونَ وَقْعَةً ، أكثَرُها يَنْصُرُه اللهُ عَلَيْهم[3] .

وتُوفِّيَتْ أخْتُ سَيْفِ الدَّولَةِ فخَلَّفَتْ له خَمسَ مِئَةِ ألف دينار ، فافْتَكَّ بها جَميعَ الأَسْرَىٰ[4] .

وكان مَوْلِدُهُ في سَنةِ إحْدَىٰ وثلاثِ مِئَة ، وله غَزْوٌ ما اتَّفَقَ لمَلِكٍ غَيْرُه ، وكان يُضْرَبُ بشَجَاعَتِه المَثَلُ ، وله وَقْعٌ في النُّفُوسِ ، فاللهُ يَرْحَمُهُ[5] .

ماتَ بالفَالِج ، وقِيلَ : بعُسْرِ البَوْلِ ، سَنةَ سِتٍّ وخَمسِين ، وكان قد جَمَعَ من الغُبارِ الذي يَقَعُ عليه وقْتَ المصافات قدرَ الكَفِّ ، وأَوْصَىٰ أن يُوضَعَ علىٰ خَدِّه وكانت دولَتُه نَيِّفاً وعِشْرين سَنةً[6] .

قال الذهبيُّ : كان ابنُ أبي عامر بَطلاً شُجاعاً ، حازِماً ، سائساً ، غَزَّاءً ، عالماً ، جَمَّ المَحاسِن ، كَثيرَ الفُتوحات ، عاليَ الهِمَّة ، عَديمَ النَّظير .

دامَ في المملكة نَيِّفاً وعشرين سنة ، ودانَت له الجَزيرة[7] وأمنت به[8] .

وقد غَزَا أبو عَامِر (الملكُ المَنْصُورُ) في مُدَّتِهِ نَيِّفاً وخمسينَ غَزْوَةً ، وكَثُرَ السَّبْيُ

---

(١) انظر السير : (صاحب الأندلس) ١٥/ ٥٦٢ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٩ .
(٢) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٨٢ .
(٣) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٨٢ .
(٤) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٨/١٢٨٢ .
(٥) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٩/٢٨٢١ .
(٦) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨٣ .
(٧) يعني بلاد الأندلس .
(٨) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٠ .

حتىٰ لأُبيعَتْ بنتُ عَظِيمٍ ذاتِ حُسْنٍ بعِشْرينَ ديناراً ، ولقد جُمِعَ من غُبارِ غَزَوَاتِه ما عُمِلَتْ منه لَبِنَةٌ ، وأُلْحِدَتْ علىٰ خَدِّه ، أو ذُرَّ ذلك علىٰ كَفَنِه[1] .

تُوفِّيَ ابنُ أبي عامِر بأَقْصَى الثُّغُورِ ، سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ وثلاثِ مِئَة ، وكان جَوَاداً مُمَدَّحاً مِعْطَاءاً[2] .

ومن مَفَاخِرِ المَنْصُور حاجِب صاحِب الأنْدَلُسِ (هِشَام بنِ المُؤَيَّدِ) أنَّه قَدِمَ من غَزْوَةٍ ، فتَعَرَّضَتْ له امرأةٌ عند القصرِ ، فقالت : يا مَنصُورُ! يَفْرَحُ النَّاسُ وأبْكِي ؟! إنَّ ابْنِي أسِيرٌ في بلادِ الرُّومِ فثَنىٰ عَنَانَه وأَمَرَ النَّاسَ بغَزْوِ الجِهَةِ التي فيها ابنُهَا[3] .

وقد عَصَاهُ مرةً ولَدٌ له ، فهَرَبَ ، ولَجَأَ إلىٰ مَلِكِ سَمّورة ، فغَزَاها المَنصُورُ وحاصَرَها ، وحَلَفَ ألاَّ يرْحَلَ إلاَّ بابْنِه ، فسَلَّمُوهُ إليه ، فأَمَرَ بقَتْلِه ، فقُتِلَ بقُرْبِ سَمّورة[4] .

ومن رُجْلَةِ المَنصُورِ : أنَّه أُحِيطَ به في مدينة فُتَة ، فرَمَىٰ بنفسِه من أَعْلَىٰ جَبَلِها ، وصَارَ في عَسْكَرِه ، فبَقِيَ مُفْدَعَ[5] القَدَمَيْنِ لا يَركَبُ ، إنَّما يُصنَعُ له مَحْمَلٌ علىٰ بَغْلٍ يُقَادُ به في سَبْعِ غَزَوَاتٍ وهو بِضْعَةُ لَحمٍ ، فانْظُر إلىٰ هـٰذه الهِمَّة العَلِيَّة والشَّجاعَةِ الزَائِدَة[6] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ السُّلطانِ ، قال الذهبيُّ : المَلِكُ يَمِينُ الدَّولَةِ ، فاتِحُ الهِنْدِ ، أبو القَاسِمِ ، مَحمُودُ بنُ سَيِّدِ الأُمَرَاءِ ، ناصِرُ الدَّولَةِ سُبُكْتِكين ، التُّركِيُّ ، صاحِبُ خُراسَان والهِنْد وغير ذلك .

فَرَضَ علىٰ نَفْسِهِ كُلَّ سَنَةٍ غَزْوَ الهِنْدِ ، فافْتَتَحَ بلاداً شاسِعَةً .

---

(١) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٢٠ .
(٢) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٢٠ .
(٣) انظر السير : (هِشَام المُؤَيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٧ .
(٤) انظر السير : (هِشَام المُؤَيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٧ .
(٥) الفدع مُحرّكة : عِوج وميل في المفاصل قد زالت عن مواضعها ، لا يُستطاع بسطها معه ، وأكثر ما يكون في الرسغ من اليد والقدم .
(٦) انظر السير : (هِشَام المُؤَيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٢٧ .

وكان السُّلطانُ مائِلاً إلى الأثَرِ إلاَّ أنَّه من الكرّاميَّة[1] .

وقال عبدُ الغَافِرِ الفَارِسيُّ في ترجَمَةِ مَحمُود سبكتكين : كان صادِقَ النِيَّة في إعْلاء الدين ، مُظَفَّراً كثيرَ الغَزْوِ ، وكان ذَكيّاً بَعِيدَ الغَوْر ، صائِبَ الرأيِّ ، وكان مَجْلسُه مَوْرِدَ العُلماء وقَبْرُه بغَزْنَة يُزارُ .

مَولِدُ مَحمُود في إحْدَىٰ وستِّين وثلاث مِئَة ، ومات بغَزْنة سنةَ إحْدَىٰ وعِشْرين وأرْبع مِئَة[2] .

وكانت غَزَواتُ السُّلطانِ مَحْمودٍ مَشْهُورةً عَدِيدةً وفُتُوحاتُه المُبتَكَرَة عظِيمةً[3] .

وبَلَغَ السُّلطانَ أنَّ الهُنودَ قالوا : أَخْرَبَ أكْثرَ بلادِ الهِنْدِ غَضَبُ الصَّنَمِ الكبيرِ سُومَنات علىٰ سائِرِ الأصْنامِ ومَنْ حَوْلَها ، فعَزَمَ علىٰ غَزْوِ هـٰذا الوَثَنَ ، وسَارَ يَطوِي القِفَارَ في جَيشِه إليه ، وكانوا يقُولونَ : إنَّه يَرْزُقُ ويُحْيِي ويُميتُ ويَسْمَعُ ويَعِي ، يَحُجُّون إليه ويُتْحِفُونَه بالنَّفائِس ، ويَتَغَازَلُون فيه كثيراً ، فتَجَمَّعَ عند هـٰذا مالٌ يَتَجَاوَزُ الوَصْفَ ، وكانوا يَغْسِلُونَه كلَّ يوم بماءٍ وعَسَلٍ ولَبَن ، ويَنْقُلُونَ إليه الماءَ من نَهْرِ حيل مَسيرَةَ شَهرٍ ، وثلاثُ مِئَةٍ يَحْلِقُونَ رُؤُوسَ حُجَّاجِه ولِحَاهُم ، وثلاثُ مِئَةٍ يُغَنُّونَ فسَارَ الجَيشُ من غَزْنة ، وقَطَعُوا مَفَازَةً صَعبَةً وكانوا ثلاثينَ ألفَ فارسٍ وخَلْقاً من الرَّجَّالَةِ والمُطَّوِّعَة ، وقَوَّى المُطَّوِّعَةَ بخَمْسِينَ ألفَ دينارٍ ، وأَنْفَقَ في الجَيْشِ فَوقَ الكِفَايةِ ، وارْتَحَلَ من المُليا ثانِيَ يوم الفِطْرِ سنةَ ٤١٦ هـ ، وقاسُوا مَشَاقَّ وبَقُوا لا يَجِدُونَ الماءَ إلاَّ بعدَ ثلاثٍ ، غَطَّاهُم في يومٍ ضَبَابٌ عظيمٌ ، فقالت الكَفَرَةُ : هـٰذا من فِعْلِ الإلَهِ سُومَنات .

ثمَّ نازَلَ مدينةَ أَنْهَلْوَارَة ، وهَرَبَ ملِكُها إلىٰ جَزيرَةٍ ، فأخْرَبَ المُسلمُونَ بلَدَه ، ودَكُّوها ، وبينَها وبَيْنَ الصَّنَمِ مَسِيرَةَ شَهرٍ في مَفَاوِزَ ، فسَارُوا حتىٰ نَازَلُوا مدينةَ

---

(١) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٢ .
(٢) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٣ .
(٣) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٣ .

دَبُولوارة ، وهي قَبْلَ الصَّنَمِ بيَوْمَيْن ، فأُخِذَت عُنْوَةً ، وكُسِرَتْ أصْنَامُهَا ، وهي كثيرةُ الفَوَاكِه ، ثمَّ نَازَلُوا سُومَنات في رابعِ عَشَرَ ذي القِعدَة ، ولها قَلْعَةٌ مَنِيعَةٌ على البحرِ ، فوَقَعَ الحِصَارُ فنُصِبَت السَّلالِمُ عليها ، فهَرَبَ المُقاتِلَةُ إلى الصَّنَمِ وتَضَرَّعُوا له ، واشْتَدَّ الحالُ وهم يَظُنُّون أنَّ الصَّنَمَ قد غَضِبَ عليهم ، وكان في بيتٍ عظِيمٍ مَنِيعٍ علىٰ أبْوَابه السُّتُورُ الدِّيبَاجُ وعلى الصَّنَمِ من الحُليِّ والجَوَاهِر ما لا يُوصَف والقَنَادِيلُ تُضِيءُ ليلاً ونهاراً ، علىٰ رَأسِه تاجٌ لا يُقَوَّمُ ، يَنْدَهِشُ منه النَّاظِرُ ويَجْتَمِعُ عندَه في عِيدِهم نَحْوَ مِئَةِ ألفِ كافِرٍ ، وهو علىٰ عَرْشٍ بَدِيعِ الزَّخْرَفَةِ عُلُوَّ خَمسةِ أَذْرُعٍ ، وطُولُ الصَّنَمِ عَشرَةَ أذْرُعٍ ، وله بَيْتُ مالٍ فيه من النَّفَائِسِ والذَّهَبِ ما لا يُحْصَىٰ ، ففَرَّقَ مَحمُودٌ في الجُنْدِ مُعْظَمَ ذلك ، وزَعْزَعَ الصَّنَمَ بالمَعَاوِلِ ، فخَرَّ صَرِيعاً ، وكانت فِرقَةٌ تَعْتَقِدُ أنَّه مَنَاتُ ، وأنَّه تَحَوَّلَ بنفسِه في أيَّامِ النُّبُوَّةِ من سَاحِلِ جُدَّة ، وحَصَلَ بهـٰذا المَكَان ليُقْصَدَ ويُحَجَّ إليه مُعَارَضَةً للكَعْبَةِ ، فلمَّا رَآهُ الكُفَّارُ صَرِيعاً مَهِيناً ، تَحَسَّرُوا وسُقِطَ في أيدِيهِم ، ثمَّ أُحْرِقَ حتىٰ صَارَ كلساً ، وأُلقِيَت النِّيرَانُ في قُصُورِ القَلْعَة ، وقُتِلَ بها خَمسُونَ ألفاً ، ثمَّ سارَ مَحمُودٌ لأَسْرِ المَلِكِ بهيم ، ودَخَلُوا بالمَرَاكِبِ ، فهَرَبَ ، وافْتَتَحَ مَحمُودٌ عِدَّةَ حُصُونٍ ومَدَائِنَ ، وعادَ إلىٰ غَزْنَة فدَخَلَها في ثامِنِ صَفَر سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ ، ودَانَتْ له المُلُوكُ ، فكانت مُدَّةُ الغَيْبَةِ مِئَةً وثلاثَةً وستِّينَ يوماً

وقد خُطِبَ له بالغُورِ وبخُراسَان والسِّنْدِ والهِنْدِ وناحِيَةَ خَوَارِزْم وبَلْخ ، وهي من خُرَاسَان ، وبجُرجان وطَبَرِسْتان والرَّيِّ والجِبَال ، وأصْبَهَان وأذْرَبِيجان وهَمَذَان وأرْمِينيَة .

وكان مُكْرِماً لأُمَرَائِه وأصْحابِه ، وإذا نَقَمَ عَاجَل ، وكان لا يَفْتُرُ ولا يَكَادُ يَقِرُّ وكان يَعْتَقِدُ في الخَلِيفَةِ ، ويَخْضَعُ لجَلالِه ، ويَحْمِلُ إليه قَنَاطِيرَ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وكان إلْباً على القَرَامِطَة والإسْمَاعيليَّة وعلى المُتَكَلِّمين ، علىٰ بِدْعَةٍ فيه فيما قَبْل ، ويَغْضَبُ للكرّاميّة ، وتَصَرُّفه على الأخْلاقِ الزَّكيَّة ، وكان فيه شِدَّةُ وَطْأةٍ على الرَّعِيَّة ، ولكن كانوا في أَمْنٍ وإقامَة سِياسَة .

وقال مَحمُودٌ يوماً للأميرِ أبي طاهِر السَّامانيّ : كَمْ جَمَعَ آباؤُك من الجَوْهَرِ ؟ قال :

سَمعتُ أنَّه كان عند الأميرِ الرَّضي سَبْعَةُ أرْطالٍ فسَجَدَ شُكراً وقال : أنا في خِزَانَتِي سَبْعُون رَطْلاً[1] .

كان المُظَفَّرُ بنُ الأفْطس رأساً في العِلْمِ والأدَبِ والشَّجَاعَة والرَّأيّ ، فكان مُنَاغِرَاً[2] للرُّوم شَجَىً في حُلُوقِهم ، لا يُنَفِّسُ لهم مَخْنَقَاً ولا يُوجِدُ لهم إلى الظُّهُورِ علَيْه مُرْتَقَىً ، وله آدابٌ تُغيرُ سَرَايَاها ، فتَسْبِي عَذَارَىٰ مَعَانٍ لا تَعْشقُ المَحَامِدَ إلاَّ إيَّاها ، ألفَاظٌ كالزِّلْزال ، وأغْراضٌ أبعدُ من الهِلال ، رائِقُ النَّظْمِ ذَكيُّ النُّورِ رَصِيفُ المَعَانِي ، شاهِقُ الغَورِ ، وله تأليفٌ كبيرٌ في الآدابِ علىٰ هيْئَةِ « عُيُون الأخْبار » لابنِ قُتَيْبَة ، يكون عَشرَ مُجَلَّدات ، ومن نَثْرِه ـ وقد غَنِمَ بلادَ شلمنكة وهي مُجاوِرَتُه ، فكتَبَ إلى المُعْتَمِد بالله يَفْخَرُ ، ويُنَكِّتُ عليه بمُسالَمَتِه للرُّوم ، فقِيلَ : إنَّه حَصَّلَ من هٰذه الغَزْوَةِ ألفَ جارِيةٍ حَسْناءَ من بَنَاتِ الأصْفَر ـ : مَنْ يَصِدْ صَيْداً فلْيَصِدْ كَمَا صَيْدِي ، صَيْدِي الغَزَالَةُ من مَرَابِضِ الأسَدِ أيُّها المَلِكُ إنَّ الرُّومَ إذا لَمْ تُغْزَ غَزَتْ ، ولَوْ تَعَاقَدنا تَعَاقُدَ الأوْلياءِ المُخْلِصين فَلَلْنا حَدَّهم وأذْلَلْنا جَدَّهم[3] ، ورأيُ السيِّدِ المُعتَمِدِ على الله سِراجٌ تُضِيءُ به ظُلُماتِ المُنَىٰ .

وللمُظَفَّرِ تَفسِيرٌ للقُرآنِ ، وكان مع اسْتغْراقِه في الجِهَادِ لا يَفْتُرُ عن العِلْمِ ، ولا يَتْرُكُ العَدلَ[4] .

وكان كاتبُه الوَزِيرُ أبو مُحمَّد عبدُ الله بنُ النَّحويّ أحَدَ البُلَغَاءِ فكتب أذفونش ـ لعَنَهُ الله ـ يُرْعِدُ ويُبْرِقُ ، فأجَابَ : وصَلَ إلى المَلِكِ المُظَفَّرِ من عَظيمِ الرُّومِ كتابُ مُدَّعٍ في المَقَادِيرِ ، يُرْعِدُ ويُبْرِقُ ، ويَجمَعُ تارةً ويُفَرِّقُ تارةً ، ويُهدِّدُ بالجُنُودِ الوافِرَةِ ، ولَمْ يَدْرِ أنَّ لله جُنُوداً أعَزَّ بهم الإسْلامَ ، وأظْهَرَ بهم دينَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، يُجَاهِدُون في سَبيلِ الله ، ولا يَخافُونَ في الله لَوْمَةَ لائِمٍ ، فأمَّا تَعْييرُك للمُسلمينَ فيما

---

(١) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٣ .

(٢) أي مُغيظاً لهم .

(٣) الجدُّ : الجَلالُ والعظمة .

(٤) انظر السير : (المُظفَّر بن الأفطس) ١٨/ ٥٩٤ـ ٥٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٤٦ .

وَهَنَ من أحْوَالِهم ، فبالذُّنوبِ المَركُوبَة ، والفِرَقِ المَنْكُوبَة ، ولو اتَّفَقَتْ كلمَتُنا عَلمتَ أيَّ صائبٍ أذَقْناكَ ، كما كانت آباؤُك مع آبائِنا ، وبالأمْس كانت قَطيعَةُ المَنْصُورِ علىٰ سَلَفِك ، أهْدَى ابنَته إليه ، مع الذَّخائِرِ التي كانت تَفِدُ في كلِّ عامٍ عليه ، ونحنُ فإن قَلَّتْ أعْدادُنا ، وعُدِمَ من المَخْلُوقِين اسْتِمْدادُنا فما بَيْنَنا وبَيْنَك بَحرٌ تُبْصِرُه في يَومِك ، وبالله وملائِكَتِه نَتَقَوَّىٰ عَلَيْك ، ليْسَ لنا سِواهُ مَطْلَبٌ ، ولا إلىٰ غَيرِه مَهْرَبٌ ، وهل تَرَبَّصُونَ بِنَا إلاَّ إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ : شَهَادةٌ ، أو نَصْرٌ عَزيزٌ .

ولمَّا تُوفِّيَ المُظَفَّرُ بعد السبعِينَ وأربع مِئةٍ أو قبلَها ، قامَ في المُلْكِ بعدَه ولَدُهُ المُلَقَّبُ بالمُتَوَكِّلِ على الله أبو حَفْصٍ عُمَرُ ابنُ الأفْطَسِ صاحِبُ بَطَلْيَوس ويابُرة وشَنْتَرين وأشْبُونَة فكان نَحْواً من أبيه في الشَّجاعَةِ والبَرَاعَةِ والأدَبِ والبَلاغَةِ فبَقِيَ إلىٰ أن قَتَلَه المُرابِطُون جُندُ يُوسُفَ بنَ تاشفينَ صَبراً ، وقَتَلوا مَعَه ولَدَيْهِ الفَضْلَ وعَبَّاساً ، في سنةِ خَمْسٍ وثَمَانِينَ وأربعِ مِئَة ، إذ اسْتَولَوا على الأنْدَلُسِ[1] .

وكان نُورُ الدِّين زِنْكِي بَطَلاً شُجَاعَاً وافِرَ الهَيْبَة ، حَسَنَ الرَّميِّ ، مَليحَ الشَّكْلِ ، ذا تَعَبُّد وخَوْف ووَرَع ، وكان يَتعرَّضُ للشَّهَادَةِ ، سَمِعَه كاتِبُه أبو اليُسْرِ يَسْألُ الله أنْ يُحْشَرَ من بُطُونِ السِّباعِ وحَوَاصِلِ الطَّيْر .

وبنىٰ دَارَ العَدْلِ ، وأَنْصَفَ الرَّعِيَّة ، ووَقَفَ على الضُعَفَاءِ والأيْتام والمُجاوِرين وأَمَرَ بتَكْميل سُورِ المدينة النَّبَويَّة ، واسْتَخْرَاجِ العَيْن بأُحد دَفَنَهَا السَّيْلُ ، وفَتَحَ دَرْبَ الحِجَاز ، وعَمَّر الخَوَانِق والرُّبُطَ والجُسُورَ والخاناتِ بدِمَشْقَ وغيرها وكذا فعل إذْ مَلَكَ حَرَّانَ وسنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة ومَنْبج وشَيْزَر وحِمْصَ وحَمَاة وصَرْخَد وبَعْلبَكَّ وتَدْمُرَ ووَقَفَ كُتُباً كثيرةً مُثَمَّنَة ، وكَسَرَ الفِرِنْجَ والأَرْمَنَ علىٰ حارِم وكانوا ثلاثين ألفاً فقَلَّ مَنْ نَجَا ، وعلىٰ بانياس[2] .

وكانت الفِرِنْجُ قد استضَرَّتْ علىٰ دِمَشقَ ، وجعلوا عليها قطيعةً ، وأتاهُ أميرُ الجُيُوشِ شَاوَرُ مُستَجِيراً به ، فأكْرَمَه ، وبَعَثَ معه جَيشاً ليُرَدَّ إلىٰ مَنصِبِه ، فانتَصَرَ ،

---

(١) انظر السير : (المُظفَّر بن الأفطس) ١٨/ ٥٩٤ـ٥٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٦ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٠ .

لكنَّه تَخابَثَ وتَلائَمَ ، ثم استنجَدَ بالفِرنْجِ ، ثم جَهَّزَ نورُ الدين رحِمَه الله جَيشاً لَجِباً مع نائِبه أسَدِ الدين شِيركُوه ، فافتَتَحَ مِصرَ ، وقَهَرَ دولتَها الرَّافِضِيَّة ، وهَرَبَتْ منه الفِرنْجُ ، وقُتِلَ شَاوَرُ وصَفَتِ الدِّيارُ المِصْرِيَّة لشِيركُوه نائبِ نورِ الدين ، ثم لصَلاحِ الدين ، فأبَادَ العُبَيْدِيينَ واسْتَأصَلَهم ، وأقَامَ الدَّعوةَ العَبَّاسِيَّة .

وكان نورُ الدِّين مَلِيحَ الخَطِّ ، كثيرَ المُطالَعَةِ ، يُصَلِّي في جَماعَةٍ ويَصُومُ ويَتْلُو ويُسَبِّحُ ، ويَتَحَرَّىٰ في القُوتِ ويَتَجَنَّبُ الكِبرَ ، ويَتَشَبَّه بالعُلَماءِ والأخْيَارِ ، ذَكَرَ هٰذا ونَحْوَه الحافِظُ ابنُ عَسَاكِر ، ثم قال : رَوَىَ الحَدِيثَ ، وأسْمَعَه بالإجازَةِ ، وكان مَنْ رَآهُ شَاهَدَ من جَلالِ السَّلْطَنَةِ وهَيْبَةِ المُلكِ ما يَبْهَرُهُ ، فإذا فَاوَضَهُ ، رَأىٰ من لَطَافَتِه وتَوَاضُعِهِ ما يُحَيِّرُه ، حَكَىٰ مَنْ صَحِبَهُ حَضَراً وسَفَراً أنَّه ما سُمِعَ منه كَلِمَةُ فُحْشٍ في رِضَاهُ ، ولا في ضَجَرِه ، وكان يُواخِي الصَّالِحِين ، ويَزُورُهم ، وإذا احْتَلَمَ مَمَالِيكُهُ أعْتَقَهُم ، وزَوَّجَهُم بجَوَارِيهِ ، ومتىٰ تشكَّوْا من وُلاتِهِ عَزَلَهُم ، وغَالِبُ ما تَمَلَّكَهُ من البُلدَانِ تَسَلَّمَهُ بالأمانِ ، وكان كُلَّما أخَذَ مدينةً ، أسْقَطَ عن رَعِيَّتِه قِسْطاً[1] .

وقال أبو الفَرَجْ بنُ الجَوْزِيّ : جاهَدَ نورُ الدِّين وانْتَزَعَ من الكُفَّارِ نَيِّفاً وخَمْسِين مدينةً وحِصْناً ، وبَنَىٰ بالمَوْصِلِ جامِعاً غَرِمَ عليه سَبْعِينَ ألفَ دِينَار ، وتَرَكَ المُكُوسَ قبلَ مَوْتِه ، وبَعَثَ جُنُوداً فَتَحُوا مِصْرَ ، وكان يَمِيلُ إلى التَّواضُعِ وحُبِّ العُلَماءِ ، والصُلَحَاءِ ، وكاتَبَنِي مِراراً ، وعَزَمَ علىٰ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، فتُوُفِّيَ سَنَةَ تسعٍ وسِتِّينَ وخَمْسِ مِئَة[2] .

وقال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطِيفِ : كان نورُ الدِّين لَمْ يَنْشَفْ له لِبدٌ من الجِهَادِ ، وكان يأكُلُ من عَمَلِ يَدِه ، يَنْسِجُ تارةً ، ويَعْمَلُ أغْلافاً تارةً ، ويَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويُلازِمُ السِّجادَةَ والمُصْحَفَ ، وكان حَنَفِيّاً يُراعِي مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ ومَالِك وكان ابنُهُ الصَّالِحُ إسْماعِيلُ أحْسَنَ أهْلِ زَمَانِه[3] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٠ .
(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨١ .
(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨١ .

وقال ابنُ الأثير : جاءَ نورَ الدين زِنكي رجلٌ يَطْلُبُه إلى الشَّرْعِ ، فجاءَ معَهُ إلىٰ مَجْلِسِ كمَالِ الدين الشَّهرَزوريِّ ، وتَقَدَّمَه الحَاجِبُ يقولُ للقاضي : قد قالَ لكَ : اسْلُك مَعَهُ ما تَسْلُك مع آحَادِ النَّاسِ ، فلمَّا حَضَرَ سَوَّىٰ بينَه وبينَ خَصْمِه وتَحَاكَمَا فلَمْ يَثْبُتْ للرَّجُلِ عليه حَقٌّ ، وكان مِلْكاً ، ثم قال السُّلطَانُ : فاشْهَدُوا أنِّي قد وَهَبْتُهُ له .

قال العِمَادُ في « البَرْقِ الشَّامِيّ » أكثَرَ نورُ الدين عامَ مَوْتِه من البرِّ والأوْقَافِ وعِمَارَةِ المَسَاجِد ، وأسْقَطَ ما فيه حَرَامٌ ، فما أبْقَىٰ سِوَى الجِزْيَةَ والخَرَاجَ والعُشْرَ ، وكَتَبَ بذلك إلىٰ جَميعِ البِلادِ ، فكَتَبْتُ له أكثَرَ من ألْفِ مَنْشُورٍ[1] .

وقال ابنُ وَاصِل : كان نورُ الدِّين من أَقْوَى النَّاسِ قَلْباً وبَدَناً ، لَمْ يُرَ علىٰ ظَهْرِ فَرَسٍ أَحَدٌ أَشَدَّ منهُ ، كأنَّما خُلِقَ عليه لا يَتَحَرَّكُ ، وكان يقولُ : طالَمَا تَعَرَّضْتُ للشَّهَادَةِ ، فلَمْ أُدْرِكْها .

قال الذَّهبيُّ : قد أدْرَكَها علىٰ فِراشِه ، وعلىٰ ألْسِنَةِ النَّاسِ : نُورُ الدِّينِ شَهِيدٌ[2] .

قال سِبطُ الجَوزِيّ : حَكَىٰ لي نَجْمُ الدِّين بنُ سَلام عن وَالِدِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا نَزَلَت علىٰ دِمْياطَ ، ما زالَ نورُ الدِّين عِشْرِين يوماً يَصُومُ ، ولا يُفطِرُ إلاَّ على المَاءِ ، فضَعُفَ وكادَ يَتْلَفُ ، وكان مَهِيباً ، ما يَجْسُرُ أحدٌ يُخاطِبُه في ذلك ، فقال إمامُه يَحْيَىٰ : إنَّه رَأَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يقولُ : يا يَحْيَىٰ ، بَشِّرْ نورَ الدِّينِ برَحِيلِ الفِرنْجَ عن دِمْياطَ ، فقلتُ : يا رسُولَ الله ، رُبَّما لا يُصَدِّقُنِي قال : قُلْ لَهُ : بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ وانْتَبَهَ يَحْيَىٰ ، فلمَّا صَلَّىٰ نورُ الدِّين الصُّبحَ ، وشَرَعَ يَدْعُو ، هَابَه يَحْيَىٰ فقال له : يا يَحْيَىٰ تُحَدِّثُنِي أوْ أُحَدِّثُكَ ؟ فارْتَعَدَ يَحْيَىٰ ، وخَرُسَ ، فقال نورُ الدين : أنا أُحَدِّثُكَ ، رَأَيْتَ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم هٰذهِ الليلَةَ ، وقال لكَ كَذَا وكَذَا ، قال : نَعَم فبالله يا مَوْلانا ما مَعْنَىٰ قولِه بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ ؟ فقال : لمَّا الْتَقَيْنَا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسْلامِ ، فانْفَرَدْتُ ونزَلْتُ ، ومَرَّغْتُ وَجْهِيَ على التُّرابِ ، وقُلتُ : يا سَيِّدِي مَنْ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨٢ .

مَحمُودٌ في البَيْن ، الدِّينُ دِينُك ، والجُنْدُ جُنْدُك ، وهـٰذا اليَوْم افْعَلْ ما يَلِيقُ بكَرَمِكْ ، قال : فنَصَرَنا اللهُ عَليهِم .

وتَمَلَّكَ بعدَهُ ابنُه المَلِكُ الصَّالِحُ أشْهُراً ، وسَلَّمَ دِمَشْقَ إلى السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين وتَحَوَّلَ إلىٰ حَلَبَ فدَامَ صَاحِبَها تِسْعَ سِنينَ وماتَ بالقُولَنْج ، وله عِشْرُونَ سنةً ، وكان شاباً دَيِّناً رَحِمَهُ الله[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ صَلاح الدِّين : قال الذَّهبيُّ : السُّلطَانُ الكَبِيرُ ، المَلِكُ النَّاصِرُ ، صَلاحُ الدِّينِ ، أبو المُظَفَّر ، يُوسُفُ بنُ الأميرِ نَجْمِ الدِّينِ أيُّوبَ بنِ شَاذِي التَّكْرِيتِيّ المَوْلِد .

وُلِدَ في سَنَةِ اثنَتَين وثلاثين وخَمْسِ مِئَة إذْ أبُوهُ نَجْمُ الدِّينِ مُتَوَلِّي تِكْريتَ نِيَابَةً .

ودُوِيْنُ : بُلَيْدَةٌ بطَرفِ أذْرِبِيجَانَ من جِهَةِ أرانَ ، والكَرَج ، أهْلُها أكْرادٌ هَذَبَانيَّة[2] .

وكان نُورُ الدِّينِ قد أَمَّرَه ، وبَعَثَه في عَسْكَرِه مع عَمِّه أَسَدِ الدِّين شِيركُوه ، فحَكَمَ شِيركُوه مِصْرَ ، فما لَبِثَ أنْ تُوُفِّيَ ، فقَامَ بَعْدَه صَلاحُ الدِّين ، ودَانَتْ له العَسَاكِرُ ، وقَهَرَ بني عُبَيْدٍ ، ومَحَا دَوْلَتَهُم واسْتَولَىٰ علىٰ قَصْرِ القَاهِرَة بما حَوَىٰ من الأَمْتِعَةِ والنَّفَائِس ، منها الجبلُ الياقُوتُ الذي وزْنُه سَبْعَةَ عَشَرَ دِرْهَماً ، قال مُؤَلِّفُ « الكَامِلْ » ، ابنُ الأَثِير : أنا رَأيْتُه ووَزَنْتُه .

وخَلا القَصْرُ من أهْلِه وذَخَائِرِه ، وأقَامَ الدَّعْوَةَ العَبَّاسِيَّة .

وكان خَلِيقاً للإمَارَةِ ، مَهِيباً ، شُجَاعاً حَازِماً ، مُجَاهِداً كَثيرَ الغَزْوِ ، عَالِيَ الهِمَّة ، كانت دَوْلَتُه نَيِّفاً وعِشْرينَ سنةً .

وتَمَلَّكَ بعد نُورِ الدِّين ، واتَّسَعَتْ بلادُه .

ومنذُ تَسَلْطَنَ ، طَلَّقَ الخَمْرَ واللَّذاتِ ، وأنْشَأَ سُوراً على القاهِرةِ ومِصْرَ[3] وبَعَثَ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/ ٩١٦١ .

(٣) يعني فسطاط مصر ، وكانت لفظة مصر وحتى اليوم تُطلق على الفسطاط .

أخَاه شَمْسَ الدِّين في سَنَةِ ثمانٍ وسِتينَ ، فافْتَتَحَ بَرْقَةَ ، ثمَّ افْتَتَحَ اليَمَنَ وسَارَ صَلاحُ الدِّين ، فأخَذَ دِمَشْقَ من ابنِ نُورِ الدِّين[1] .

وفي سَنَةِ إحْدَىٰ وسَبْعين وثَبَتْ عليه البَاطِنيَّةُ فجَرَحُوه .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ كَسَرَتْه الفِرِنْجُ على الرَّمْلَةِ ، وفرَّ في جَمَاعَةٍ ونجا ، وفي سَنَةَ خَمْسٍ الْتَقَاهُم وكَسَرَهُم .

وفي سَنَةِ ثمانٍ عَدَّى الفُرَاتَ ، وأَخَذَ حَرَّانَ ، وسَرُوجَ ، والرَّقَّةَ ، والرُّهَا ، وسِنْجَار ، والبِيْرَةَ ، وآمِدَ ، ونَصِيْبِينَ ، وحَاصَرَ المَوْصِلَ ، ثمَّ تَمَلَّكَ حَلَبَ ، وعَوَّضَ عنها صاحِبَها زِنْكِي بسِنْجَار ، ثم إنه حاصر المَوْصِلَ ثانياً وثالثاً ، ثمَّ صَالَحَه صاحِبُها عِزُّ الدِّين مَسْعُود[2] .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ فَتَحَ طَبَرِيَّةَ ، ونَازَلَ عَسْقَلانَ ، ثمَّ كانت وَقْعَةُ « حِطِّيْنَ » بَيْنَه وبَيْنَ الفِرَنْج ، وكانوا أرْبَعِينَ ألفاً ، فحَالَ بيْنَهُم وبينَ المَاءِ علىٰ تَلٍّ ، وسَلَّمُوا نُفُوسَهُم ، وأُسِرَتْ مُلُوكُهم ، وبَادَرَ ، فأَخَذَ عَكَّا وبَيْرُوتَ وكَوْكَبَ ، وسَارَ فحَاصَرَ القُدْسَ ، وجَدَّ في ذلك فأخَذَها بالأَمَانِ[3] .

ثمَّ إنَّ الفِرَنْجَ قامَتْ قِيامَتُهُم علىٰ بَيْتِ المَقْدِس ، وأَقْبَلُوا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِم بَرّاً وبَحْرَاً ، وأَحَاطُوا بعَكَّا ليَسْتَرِدُّوها ، وطَالَ حِصَارُهم لها ، وبَنَوا علىٰ نفُوسِهِم خَنْدَقاً ، فأحَاطَ بهم السُّلطَانُ ، ودَامَ الحِصَارُ لهم وعلَيْهِم نَيْفاً وعِشْرينَ شَهْراً ، وجَرَىَ في غُضُونِ ذلك مَلاحِمُ وحُرُوبٌ تُشَيِّبُ النَّوَاصِي ، وما فُكُّوا حتّىٰ أخَذُوها ، وجَرَتْ لهُم وللسُّلطَانِ حُرُوبٌ وسِيَرٌ وعِنْدَما ضَرِسَ الفَرِيقَان ، وكَلَّ الحِزْبَان ، تَهَادَنَ المِلَّتان[4] .

وكانت له هِمَّةٌ في إقامَةِ الجِهَادِ ، وإبادَةِ الأضْدَادِ ، ما سُمِعَ بمثلِها في دَهْرٍ[5] .

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٢/١٦١٩ .
(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٣/١٦١٩ .
(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/١٦٢٠ .
(٤) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٢/١٦٢٠ .
(٥) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٣/١٦٢٠ .

قال ابنُ واصِل في حِصَارِ عزاز : كانت خَيْمَةٌ كان السُّلطانُ يَحْضُرُ فيها ، ويَحُضُّ الرِّجَالَ ، فحَضَرَ باطِنيَّةٌ في زِيِّ الأجْنَادِ ، فقَفَزَ عليه واحدٌ ضَرَبَه بسِكِّينٍ لَوْلا المِغْفَرُ الزَّرَدُ[1] الذي تحتَ القَلَنْسُوة لقَتَلَه ، فأمْسَكَ السُّلطَانُ يَدَ البَاطِنيِّ بيَدَيْه ، فبَقِيَ يَضْرِبُ في عُنُقِ السُّلطَانِ ضَرْباً ضَعِيفاً ، والزَّرَدُ تَمْنَع ، وبادَرَ الأميرُ بازكوج ، فأمْسَكَ السِّكِّينَ ، فجَرَحَتْه ، وما سَيَّبَها الباطِنيُّ حتّىٰ بَضَّعُوه ، ووَثَبَ آخَرُ ، فوَثَبَ عليه ابنُ منكلان ، فجَرَحَه الباطِنيُّ في جَنْبه ، فمَاتَ ، وقُتِلَ الباطِنيُّ ، وقَفَزَ ثالثٌ ، فأمْسَكَه الأميرُ عليُّ بنُ أبي الفَوَارِس ، فضَمَّه تحتَ إبطِه ، فطَعَنَهُ صاحِبُ حمص ، فقَتَلَهُ ، ورَكِبَ السُّلطانُ إلىٰ مُخَيَّمِه ، ودَمُه يَسِيلُ علىٰ خَدِّه ، واحْتَجَبَ في بَيْتِ خَشَبٍ ، وعَرَضَ جُنْدَهُ ، فمَنْ أَنْكَرَهُ ، أَبْعَدَهُ[2] .

قال المُوفَّقُ عبدُ اللَّطيف : أتَيْتُ ، وصَلاحُ الدِّين بالقُدْسِ ، فرَأيْتُ مَلِكاً يَمْلأُ العُيُونَ رَوعَةً ، والقُلُوبَ مَحَبَّةً ، قريباً بَعِيداً ، سَهْلاً مُحَبَّباً ، وأصْحَابُه يَتَشَبَّهُون به يَتَسَابَقُون إلى المَعْرُوف كما قال تعالَىٰ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾[3] وأولُ ليلةٍ حَضَرْتُه وَجَدْتُ مَجْلِسَه حَفْلاً بأهْلِ العِلْم يَتَذَاكرُون ، وهو يُحْسِنُ الاسْتِمَاعَ والمُشَارَكَةَ ، ويأخُذُ في كَيْفِيَّةِ بناءِ الأَسْوارِ ، وحَفْرِ الخَنَادِق ، ويأتي بكُلِّ مَعْنىً بَدِيع ، وكان مُهْتَمّاً في بِنَاءِ سُورِ بَيْتِ المَقْدِسِ وحَفْرِ خَنْدَقِه ، ويَتَولَّىٰ ذلك بنَفْسِه ، ويَنْقُلُ الحِجَارَةَ علىٰ عاتِقِه ويَتَأَسَّىٰ به الخَلْقُ حتّى القاضِي الفَاضِل ، والعِمَادُ إلىٰ وَقْتِ الظُّهْر ، فيَمُدُّ السماطَ ويَسْتَرِيحُ ، ويَرْكَبُ العَصْرَ ، ثمَّ يَرْجِعُ في ضَوْءِ المَشَاعِل ، قال له صَانِعٌ : هٰذه الحِجَارَةُ التي تُقَطَّعُ من أسْفَلِ الخَنْدقِ رِخْوَةٌ ، قال : كذا تَكُونُ الحِجَارَةُ التي تَلِي القَرَارَ والنَّدَاوَةَ ، فإذا ضَرَبَتْها الشَّمسُ ، صَلُبَتْ وكان يَحْفَظُ « الحَمَاسَة » ، ويَظُنُّ أنَّ كُلَّ فَقِيهٍ يَحْفَظُها ، فإذا أَنْشَدَ وتَوَقَّفَ ، اسْتَطْعَمَ فلا يُطْعَمُ ، وجَرَىٰ له ذلك مع القاضِي الفَاضِل ، ولَمْ يَكُنْ يَحْفَظُها ، وخَرَجَ ، فما زَالَ حتّىٰ حَفِظَها .

---

(١) الزَّرَدُ : زرد يُنسج من الدروع علىٰ قدر الرأس ، يُلبَس تحت القلنسوة .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٤/١٦٢٠ .

(٣) سورة الحجر ، الآية : ٤٧ .

وكانت وَقْعَتُهُ بِمِصْرَ مع السُّودان ، وكانوا نَحْوَ مِئَتَيْ ألفٍ ، فنُصِرَ عليهم ، وقَتَلَ أكثرَهم .

حُمَّ صَلاحُ الدِّين ، ففَصَدَه مَنْ لا خِبْرَةَ له ، فخَارَتْ القُوَّةُ ، وماتَ ، فوَجَدَ النَّاسُ عليه شَبيهاً بما يَجِدُونَه على الأنْبِيَاءِ ، وما رَأيْتُ مَلِكاً حَزِنَ النَّاسُ لمَوْتِه سِواهُ ، لأنَّه كان مُحَبَّباً ، يُحِبُّه البَرُّ والفَاجِرُ ، والمُسْلِمُ والكَافِرُ ، ثمَّ تَفَرَّقَ أوْلادُه وأصْحَابُه أيَادِيَ سَبَأٍ ، وتَمَزَّقُوا ولقَدْ صَدَقَ العِمَادُ في مَدْحِهِ حَيْثُ يقولُ :[1] .

وللنَّاسِ بالمَلِكِ النَّاصِرِ الصَّلا ... حِ صَلاحٌ ونَصْرٌ كَبِيرُ
هوَ الشَّمسُ أَفْلاكُهُ فِي البِلا ... دِ ومَطْلَعُهُ سِرْجُهُ والسَّرِيرُ
إذ مَا سَطَا أوْ حَبَا واحْتَبَى ... فمَا اللَّيْثُ مِنْ حَاتِمٍ ما ثَبِيرُ[2]

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ افْتَتَحَ صَلاحُ الدِّينِ بلادَ الفِرَنْجَ ، وقَهَرَهم ، وأبَادَ خَضْراءَهم ، وأَسَرَ مُلُوكَهم علىٰ « حِطِّينَ » وكان قد نَذَرَ أنْ يَقْتُلَ أرْناطَ صاحِبَ الكَرَكِ ، فأُسِرَ يومَئذٍ ، كان قد مَرَّ به قومٌ من مِصْرَ في حَالِ الهُدنَةِ ، فغَدَرَ بهم ، فنَاشَدُوهُ الصُّلْحَ ، فقال ما فيه اسْتخْفافٌ بالنَبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقَتَلَهم ، فاسْتَحْضَرَ صلاحُ الدِّين المُلُوكَ ، ثمَّ ناوَلَ المَلِكَ جِفْرِي شَرْبَةَ جلابِ ثلجٍ فشَرِبَ ، فنَاوَلَ أرْناطَ فشَرِبَ ، فقال السُّلطانُ للتُّرجُمَانِ ، قُلْ لجِفْرِي : أنْتَ الذي سَقَيْتَه ، وإلاَّ أنا فمَا سَقَيْتُه ، ثمَّ اسْتَحْضَرَ البرِنْسَ أرْنَاطَ في مَجْلِسٍ آخَرَ ، وقال : أنا أنتَصِرُ لمُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْكَ ، ثمَّ عَرَضَ عليه الإسْلامَ ، فأبَىٰ فحَلَّ كَتِفَه بالنَّيمجاه[3] وافْتَتَحَ عامَهُ ما لَمْ يَفْتَحْهُ مَلِكٌ ، وطارَ صِيتُه في الدُّنيا ، وهَابَتْهُ المُلُوكُ .

تُوفِّيَ بقَلعَةِ دِمَشْقَ سَنَةَ تِسْعٍ وثمَانِينَ وخَمسِ مِئَة .

مَحاسِنُ صلاحُ الدِّين جَمَّةٌ ، لا سِيَّمَا الجِهَادُ ، فلَه فيه اليَدُ البَيْضاءُ ببَذْلِ الأمْوالِ

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/١٦٢١ .
(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/١٦٢٢
(٣) النَّيمجاه : خنجر مقوس يُشبه السيفَ القصير .

والخَيْلِ المُثَمَّنَة لجُنْدِه ، وله عَقلٌ جَيِّدٌ ، وفَهمٌ وحَزمٌ وعَزمٌ[1] .

قال العِمادُ : لا يَلْبَسُ إلاَّ ما يَحِلُّ لُبْسُهُ كالكِتَّانِ والقُطْنِ ، نَزَّهَ المجالِسَ من الهَزلِ ، ومَحَافلُه آهِلَةٌ بالفُضَلاءِ ، ويُؤْثِرُ سَمَاعَ الحَدِيثِ بالأسَانيدِ ، حَلِيماً ، مُقِيلاً للعَثْرةِ ، تَقِيَّاً نَقِيَّاً وَفِيَّاً صَفِيَّاً ، يُغْضي ولا يَغْضَبُ ، ما رَدَّ سائِلاً ، ولا خَجَّلَ قائلاً ، كَثيرَ البِرِّ والصَّدَقاتِ ، أنْكَرَ عليَّ تَحْلِيَةَ دَواتِي بفِضَّةٍ فقُلتُ : في جَوَازِهِ وَجْهٌ ذَكَرَه أبو مُحمَّد الجُوَيْنيُّ ، وما رَأيتُه صلَّىٰ إلاَّ في جَمَاعَةٍ .

قال الذهبيُّ : وحَضَرَ وفَاتَه القاضي الفَاضِلُ[2] .

وذَكرَ أبو جَعفَر القُرطُبيُّ إمامُ الكلاَّسةِ[3] : إنَّني انتَهَيتُ في القراءةِ إلىٰ قولِه تعَالَىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ ﴾[4] ، فسَمعتُ صَلاحَ الدِّين وهو يقول : صَحِيح وكان ذِهْنُه قبلَ ذلك غَائِباً[5] ، ثمَّ ماتَ ، وارْتَفَعَتِ الأصْواتُ بالبُكَاءِ ، وعَظُمَ الضَّجِيجُ ، حتىٰ إنَّ العاقِلَ ليُخَيَّلُ له أنَّ الدُّنْيا كُلَّها تَصيحُ صَوْتاً واحداً ، وغَشِيَ النَّاسَ ما شَغَلَهم عن الصَّلاةِ عليه ، وتَأَسَّفَ النَّاسُ عليه حتى الفِرِنْجُ لما كان من صِدْقِ وَفائِه[6] .

وفي الرَّوضَتَين لأبي شامَة : أنَّ السُّلطانَ لَمْ يُخَلِّفْ في خَزَانَتِه من الذَّهبِ والفِضَّةِ إلاَّ سَبعَةً وأربَعينَ درهماً ، ودينارا صُورِيَّاً ، ولَمْ يُخَلِّفْ مِلْكاً ولا عَقَاراً رحمه الله ، ولَمْ يَخْتلِفْ عليه في أيَّامِه أحدٌ من أصْحَابِه وكان النَّاسُ يَأمَنُون ظُلمَه ، ويَرجُونَ رِفدَه ، وأكثرُ ما كان يَصِلُ عَطَاؤُه إلى الشُّجْعانِ ، وإلى العُلَماءِ وأرْبَابِ البُيُوتاتِ ، ولَمْ يكُنْ لمُبطِلٍ ولا لمَزَّاحٍ عنده نَصِيبٌ .

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٢/١٦٢٢ .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٣/١٦٢٢ .

(٣) كان الشيخ أبو جعفر قد استدعي ليبيت عنده يقرأ القرآن ويُلقنه الشهادة عند حضور الوفاة ، وتُوفي أبو جعفر هٰذا سنة ٥٩٦ .

(٤) سورة الحشر ، الآية : ٢٢

(٥) وتمام الخبر أن القاضي الفاضل جاءه عند آذان الصبح وكان في آخر رمق ، فلما قرأ القارىء ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ تبسَّم وتهلَّل وجهُه وأسلم روحه إلىٰ ربه سبحانه .

(٦) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/١٦٢٣ .

قال المُوَفَّقُ : وكان إذا نَازَلَ بَلَداً ، وأشْرَفَ علىٰ أخْذِه ، ثمَّ طَلَبُوا منه الأمَانَ ، آمَنَهُم ، فيَتَألَّمُ لذلك جَيشُه ، لفَوَاتِ حَظِّهم[1] .

وكتَبَ القاضِي الفاضِلُ تَعْزِيَةً إلىٰ صاحِبِ حَلَبْ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2] ، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[3] ، كتَبْتُ إلىٰ مَولانا المَلِكِ الظَّاهِرِ أحْسَنَ اللهُ عَزَاءَه ، وجَبَرَ مُصَابَه وجَعَلَ فيه الخَلَفَ من السَّلَفِ في السَّاعةِ المَذْكُورة ، ولقَدْ زُلْزِلَ المُسْلِمُونَ زِلْزالاً شَدِيداً ، وقد حَضَرَت الدُّموعُ المَحَاجِرَ وبَلَغَت القُلوبُ الحَنَاجِرَ ، وقد ودَّعتُ أبَاكَ ومَخْدُومي وَدَاعاً لا تَلاقِيَ بعدَه ، وقَبَّلتُ وجهَه عنِّي وعَنْكَ ، وأسْلَمْتُه إلى اللهِ وَحْدَه مَغْلُوبَ الحِيلَةِ ضَعِيفَ القُوَّةِ راضِياً عن اللهِ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ وبالبابِ من الجُنُودِ المُجَنَّدَةِ والأسْلِحَةِ المُعَمَّدَةِ ما لَمْ يَدْفَعِ البَلاءَ ولا ما يَرُدُّ القَضَاءَ ، تَدْمَعُ العَينُ ويَخْشَعُ القَلبُ ، ولا نقولُ إلاَّ ما يُرضِي الرَّبَ ، وإنَّا بك يا يُوسُفُ لمَحْزُونُون .

ولِلْعَلَمِ الشَّاتانيِّ فيه قَصِيدةٌ مَطلَعُها :

أَرَى النَّصْرَ مَقرُوناً برَايَتِكَ الصَّفْرَا ... فسِرْ وامْلُكِ الدُّنيا فأنْتَ بها أحْرَىٰ[4]

وقال المُنْذِرِيُّ : أنْشَأَ الكَامِلُ دارَ الحَدِيثِ بالقاهِرةِ ووَقَفَ الوُقُوفَ علىٰ أنوَاعِ البِرِّ ، وله المَوَاقِفُ المَشْهُورَةُ في الجِهَادِ بدِمْياطَ المُدَّةَ الطويلة ، وأنفَقَ الأموالَ وكافَحَ الفِرنْجَ بَراً وبَحْراً يَعْرِفُ ذلكَ مَنْ شَاهَدَهُ ، ولَمْ يَزَلْ علىٰ ذلكَ حتىٰ أعَزَّ الله الإسْلامَ ، وخَذَلَ الكُفْرَ ، وكان مُعَظِّماً للسُّنَّةِ وأهْلِها ، رَاغِباً في نَشْرِها والتَّمَسُّكِ بها ، مُؤثِراً للاجْتِمَاعِ بالعُلَمَاءِ والكَلامِ مَعَهُم حَضَراً وسَفَراً[5] .

ومِن هِمَّتِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا أَخَذُوا دِمْياطَ أنشَأَ علىٰ بَرِيدٍ منها مَدينَةَ المَنْصُورَةَ

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٢/ ١٦٢٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١
(٣) سورة الحج ، الآية : ١
(٤) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٣/ ١٦٢٣
(٥) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٧٥ .

واسْتَوطَنَهَا مُرابِطاً حتىٰ نَصَرَهُ الله فإنَّ الفِرنْجَ طَمِعُوا في أخْذِ مِصْرَ ، وعَسْكَرُوا بقُربِ المَنصُورَة ، والْتَحَمَ القِتَالُ أيّاماً وألَحَّ الكَامِلُ علىٰ إخْوَتِه بالمَجيء ، فجاءَهُ أَخَوَاهُ الأشْرَفُ والمُعَظَّمُ في جَيْشٍ لَجِبٍ ، وهَيْئَةٍ تامَّةٍ فقَوِيَ الإسْلامُ ، وضَعُفَتْ نُفُوسُ الفِرنْجِ ورُسُلُهُم تَتَرَدَّدُ ، وبَذَلَ لهم الكَامِلُ قبلَ مَجيءِ النَّجدَةِ القُدسَ وطَبَرِيَّة وعَسْقَلانَ وجَبْلَة واللاَّذِقيَّة وأشياءَ علىٰ أن يَرُدُّوا له دِمْياطَ فأبَوا ، وطلَبُوا مع ذلك ثلاثَ مِئَةِ ألفِ دينار ليُعَمِّرُوا بها أسْوارَ القُدسِ ، وطَلَبُوا الكَرَكَ ، فاتَّفَقَ أنَّ جمَاعَةً من المُسلمِين فَجَّرُوا من النِّيلِ ثَلْمَةً علىٰ مَنْزِلَةِ العَدُوِّ ، فأحَاطَ بهم النِّيلُ في هَيَجَانِه ، ولا خِبْرَةَ لهم بالنِّيلِ ، فحَالَ بينهم وبين دِمْياطَ ، وانقَطَعِتْ المِيرَةُ عنهُم ، وجاعُوا وذَلُّوا ، فأرسَلُوا في طلَبِ الأمَانِ علىٰ تَسْلِيمِ دِمْياطَ ، وعَقْدِ هُدنَة ، فأُجِيبُوا فسَلَّمُوا دِمْياطَ بعد اسْتِقرارِهم بها ثلاثَ سِنينَ ، فللَّه الحَمْدُ[1] .

١٩ـ مُحاوَلَةُ صَلاحِ الدِّينِ الاسْتِنْجَادَ بسُلطَانِ المُوَحِّدِينَ ضِدَّ الصَّلِيبِيينَ فما اسْتَجابَ لعُذْرٍ سَمِجٍ :

كَتَبَ صَلاحُ الدِّينِ إلىٰ يَعْقُوبَ (صَاحِبُ المَغْرِبِ) يَسْتَنْجِدُ به في حِصَارِ عَكَّا ، ونَفَّذ إليه تَقدمةً ، وخَضَعَ له ، فما رَضِيَ لكَوْنِه ما لَقَّبَهُ بأمِيرِ المُؤمِنِينَ[2] .

٢٠ـ صُوَرٌ من الجِهَادِ :

(ويدخل معها فقرة الأمراء المجاهدون التي ذكرت آنفاً)

وعن ابنِ عُيَيْنَةَ : عن ابنِ أبي خَالِدٍ ، مَوْلَىٰ لآلِ خالدِ بنِ الوَلِيدِ ، أنَّ خَالِداً قال : ما مِنْ لَيْلَةٍ يُهْدَىٰ إليَّ فيها عَرُوسٌ أنا لها مُحِبٌّ أَحَبّ إليَّ من لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ البَرْدِ ، كثِيرَةِ الجَلِيدِ في سَرِيَّةٍ أُصَبِّحُ فيها العَدُوَ[3] .

عن أَنَسٍ : أنَّ أبا طَلْحَةَ قَرَأَ : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[4] . فقال : اسْتَنْفَرَنا اللهُ ،

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٥ .

(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٩ .

(٣) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٧٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ٤١ .

وأَمَرَنَا شُيُوخَنا وشَبابَنا ، جَهِّزُونِي فقال بَنُوهُ : يَرحَمُك الله! إنَّكَ قد غَزَوْتَ علىٰ عَهْدِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بَكرٍ رضي الله عنه ، وعُمَرَ رضي الله عنه ، ونَحنُ نَغزُو عَنكَ الآن قال : فغَزَا البَحرَ ، فمَاتَ ، فلَمْ يَجِدُوا له جَزِيرَةً يَدفِنُونَهُ فيها ، إلاَّ بعدَ سَبعَةِ أيَّامٍ ، فلَمْ يَتَغَيَّر[1] .

وشَهِدَ أبو سُفيَانَ بنُ حَرب قِتَالَ الطَّائِفِ ، فقُلِعَتْ عَيْنُه حِينَئِذٍ ، ثم قُلِعَتْ الأُخْرىٰ يومَ اليَرْمُوكِ ، وكان يَومَئِذٍ قد حَسُنَ إنْ شَاءَ اللهُ إيمَانُه ، فإنَّه كان يومَئِذٍ يُحَرِّضُ على الجِهَادِ ، وكان تحت رايَةِ ولَدِهِ يَزِيد ، فكان يَصِيحُ : يا نَصْرَ الله اقْتَرِبْ ، وكان يَقِفُ على الكَرَادِيسِ[2] يُذَكِّرُ ، ويقولُ : اللهَ اللهَ ، إنَّكُم أنْصَارُ الإسْلام ودَارَةُ العرَبِ ، وهَؤُلاءِ أنْصَارُ الشِّرْكِ ودَارَةُ الرُّومِ ، اللَّهُمَّ هـٰذا يومٌ من أيَّامِك ، اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ .

قال الذَّهبيُّ : فإنْ صَحَّ هـٰذا عنه ، فإنَّه يُغْبَطُ بذلك ، ولا رَيْبَ أنَّ حَدِيثَهُ عن هِرَقْلَ عظِيمِ الرُّومِ ، وكِتَابُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يدُلُّ علىٰ إيمَانِه ، ولله الحَمْدُ[3] .

وقال الذَّهبيُّ في تَرجَمَةِ أُمِّ عُمَارَة : شَهِدَتْ أُمُّ عُمَارَة (نُسَيْبَةُ بنتُ كَعْب) لَيْلَةَ العَقَبَةَ ، وشَهِدَتْ أُحُداً ، والحُدَيْبِيَة ، ويومَ حُنَيْنٍ ، ويومَ اليَمَامَة وجاهَدتْ ، وفَعَلَتْ الأفَاعِيلَ ، وقُطعَت يدُها في الجِهَادِ .

وكان ضَمْرَةُ بنُ سَعِيدٍ المَازِنِيّ يُحَدِّثُ عن جَدَّتِه ، وكانت قد شَهِدَتْ أُحُداً ، قالت : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « لَمُقَامُ نَسِيبَةَ بنت كَعْبٍ اليومَ خَيرٌ مِنْ مُقَامِ فُلان وفُلان »

وكانت تَرَاهَا تُقَاتِلُ أَشَدَّ ما يكونُ القِتَالُ ، وإنَّها لحَاجِزَةٌ ثَوْبَها علىٰ وَسَطِهَا حتىٰ جُرِحَتْ ثَلاثَةَ عَشَرَ جُرْحاً ، وكانت تقولُ : إنِّي لأَنْظُرُ إلى ابنِ قَمِئَة وهو يَضْرِبُها علىٰ عَاتِقِها ، وكان أَعْظَمَ جِرَاحَهَا ، فدَاوَتْهُ سَنةً ثم نادَىٰ مُنَادِي رسُولِ الله صلى الله عليه

---

(١) انظر السير : (أبو طلحة الأنصاريّ) ٢/ ٢٧ـ ٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢١٤ .

(٢) الكراديس : كتائب الخيل ، واحدها كردوس ، يُقالُ : كردس القائد خيله : أي جعلها كتيبة كتيبة .

(٣) انظر السير : (أبو سفيان بن حرب) ٢/ ١٠٥ـ ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٢٤ .

وسلم : إلىٰ حَمْراءِ الأَسَد فشَدَّتْ عليها ثِيَابَها ، فما اسْتَطَاعَتْ من نَزْفِ الدَّمِ رَضِيَ الله عنها وأَرْضاها ورَحِمَها .

وعن عُمَارَةِ بنِ غزيّة قال : قالَتْ أُمُّ عُمَارَة : رَأَيتُنِي ، وانْكَشَفَ النَّاسُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فما بَقِيَ إلاَّ نُفَيْرٌ ما يُتِمُّونَ عَشرة ، وأنا وابْنَايَ وزَوْجِي بينَ يَدَيْهِ نَذُبُّ عنه ، والنَّاسُ يَمُرُّونَ به مُنْهَزِمِينَ ، ورَآنِي ولا تُرْسَ مَعِي ، فرَأىٰ رَجُلاً مُوَلِّياً ومعه تُرْسٌ ، فقال : أَلْقِ تُرْسَكَ إلىٰ مَنْ يُقَاتِلُ فأَلْقَاهُ فأَخَذْتُه فجَعَلتُ أَترَّسُ به عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وإنَّما فَعَلَ بنا الأفَاعِيلَ أَصْحابُ الخَيْلِ ، لَوْ كانُوا رِجَّالةً مِثلَنا أَصَبْناهم ، إنْ شَاءَ اللهُ فيُقْبِلُ رَجلٌ علىٰ فَرَسِه يَضْرِبُنِي ، وتَرَّسْتُ له ، فلَمْ يَصْنَعْ شَيئاً ، فأَضْرِبُ عُرقوبَ فَرَسِه ، فوَقَعَ علىٰ ظهْرِه فجَعَلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَصِيحُ : « يا ابْنَ أُمِّ عُمَارَةَ ، أَمَّكَ! أُمَّكَ! » ، قالت : فعَاوَنَنِي عليه ، حتىٰ أَوْرَدْتُه شعوب[1] .

وعن مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ بنِ حَبَّانٍ قال : جُرِحَتْ أُمُّ عُمَارَة بأُحُدٍ اثْنَيّ عَشرَ جُرْحاً ، وقُطِعَتْ يَدُها يومَ اليَمَامَةِ ، وجُرِحَتْ يومَ اليَمَامَةِ سِوَىٰ يدِها أَحَدَ عَشَرَ جُرْحاً ، فقَدِمَتِ المدينةَ وبها الجِرَاحَةُ ، فلقد رُئِيَ أبو بكرٍ رضي الله عنه وهوَ خَلِيفةٌ ، يأتِيهَا يَسْأَلُ عنها[2] .

جَاءَ في تَرجَمَةِ أُمِّ سُلَيم (الغُمَيْصَاء) : قال الذَّهَبيُّ : شَهِدَتْ حُنَيْناً ، وأُحُداً من أَفَاضِلِ النِّساء .

وعن أَنَسٍ : أنَّ أُمَّ سُلَيم اتَّخَذتْ خِنْجَراً يومَ حُنَين ، فقال أبو طَلْحَة : يا رسُولَ الله هـٰذه أُمُّ سُلَيم معها خِنْجَرٌ! فقالت : يا رسُولَ الله ، إنْ دَنَا مِنِّي مُشْرِكٌ بَقَرْتُ بَطْنَهُ .

وعن إسْحاقَ بنِ عبدِ الله ، عن جَدَّتِهِ أُمِّ سُلَيم : أنَّها آمَنَتْ برسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فجاء أبو يُونُس ، وكان غائِبَاً ، فقال : أَصَبَوْتِ ؟ فقالَت : ما صَبَوْتُ ، ولكنِّي آمَنْتُ! وجَعَلَتْ تُلَقِّنُ أَنَسَاً : قُلْ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، قُلْ : أَشْهَدُ أنَّ

---

(١) شعوب : من أسماء المنيّة .

(٢) انظر السير : (أم عُمارة) ٢/٢٧٨ـ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٤/٢٥٨ .

مُحمَّداً رسُولُ الله ، ففعَلَ فيقُولُ لهَا أبُوهُ : لا تُفْسِدِي عليَّ ابنِي ، فتقُولُ : إنِّي لا أُفْسِدُه! .

فخَرَجَ مَالِكٌ ، فلَقِيَهُ عَدُوٌّ له فقتَلَهُ فقالت : لا جَرَمَ ، لا أَفْطِمُ أَنَساً حتىٰ يَدَعَ الثَّدْيَ ، ولا أتزَوَّجُ حتىٰ يأمُرَنِي أَنَسٌ .

فخَطَبَها أبو طَلْحَةَ ، وهو يَومَئِذٍ مُشْرِكٌ ، فأَبَتْ[1] .

عن أَيُّوبَ ، عن مُحمَّدٍ قال : شَهِدَ أبو أَيُّوبَ بَدْراً ، ثم لَمْ يَتَخَلَّفْ عن غَزَاةٍ إلاَّ عاماً ، اسْتُعمِلَ على الجَيشِ شَابٌّ ، فقَعَدَ ، ثم جَعَلَ يَتَلَهَّفُ ، ويقولُ : ما عليَّ مَنِ اسْتُعمِلَ عليَّ فمَرِضَ ، وعلى الجَيشِ يَزِيدُ ابنُ مُعاوِيَة ، فأتاه يَعُودُه ، فقال : حاجَتُكَ ؟ قال : نَعَم إذا أنا مِتُّ ، فارْكَبْ بِي ثم تَبَيَّغْ[2] في أرضِ العَدُوِّ ما وَجَدتَ مَسَاغاً ، فإذا لَمْ تَجِدْ مَسَاغاً ، فادْفِنِّي ، ثم ارْجِع[3] .

عن أبي قَتَادَةَ ، قال : خَرَجْنا مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم عامَ حُنَين ، فلمَّا الْتَقَيْنا ، رَأيتُ رَجُلاً قد عَلا المُسلمينَ ، فاسْتَدَرْتُ له من وَرَائِه ، فضَرَبْتُه بالسَّيفِ علىٰ حَبْلِ عاتِقِه ضَربةً قَطَعَتُ منها الدِّرْعَ ، فأقبَلَ عليَّ وضَمَّنِي ضَمَّةً وجَدْتُ منها رِيحَ المَوتِ ، ثم أرْسَلَنِي ، وماتَ إلىٰ أنْ قالَ : فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً لَهُ بَيِّنَةٌ فلَهُ سَلَبُهُ » ، فقُمتُ ، فقلتُ : مَنْ يَشْهدُ لِي ؟ وقَصَصْتُ عليه ، فقالَ رجُلٌ : صَدَقَ يا رسُولَ الله ، وسَلَبُ ذلك القَتِيلِ عِنْدِي فأَرْضِهِ منه فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه : لا ها الله ، إذاً لا يَعْمِدُ إلىٰ أَسَدٍ من أُسْدِ الله يُقَاتِلُ عن اللهِ ورسُولِه

---

(١) انظر السير : (أم سُليم الغُميصاء) ٢/ ٣٠٤ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ١/٢٦٤ .

(٢) قوله : (ثم تَبيّغ) كذا الأصل ، وقد أثبت فوق الكلمة (صح) ، يُقال : تَبيّغ به الدم ، أي : تردّد فيه الدم ، وتَبيّغ الماء إذا تردّد فتحيّر في مجراه مرةً كذا ، ومرةً كذا ، وفي « الطبقات » ، و« النهاية » ، و« أسد الغابة » ، و« تهذيب ابن عساكر ، (ثم سغ) ، وفسّره ابن الأثير فقال : أي ادخل فيها ما وجدت مدخلاً ، وساغت به الأرض ، أي : ساخت ، وساغ الشراب في الحلق يسوغ ، أي : دخل سهلاً .

(٣) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاريّ) ٢/ ٤٠٢ـ ٤١٣ ، وانظر النزهة : ٧/٢٨٢ .

صلى الله عليه وسلم فيُعْطِيكَ سَلَبَه! فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « صَدَق » فأعْطانِيه ، فبِعْتُ الدِّرعَ ، وابْتَعتُ به مَخْرَفاً في بَنِي سَلَمَة ، فإنَّه لأَوَّلُ مالٍ تَأَثَّلْتُه في الإسْلام[1] .

وسَكَنَ بُرَيْدَةُ بنُ الحَصِيبِ بنِ عبدِ الله البَصْرةَ مُدَّةً ، ثم غَزَا خُراسَانَ زَمَنَ عُثْمان ، فحَكَىٰ عنه مَنْ سَمِعَه يقولُ : وَرَاءَ نَهْرِ جَيْحُون :

لا عَيْشَ إلاَّ طرادُ الخَيْلِ بالخَيْلِ[2] .

وقال يَزِيدُ (مَوْلَىٰ سَلَمَةَ بنِ الأَكْوَع) : رَأيتُ سَلَمَةَ يُصَفِّرُ لِحْيَتَه وسَمِعتُه يقولُ : بايَعْتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم على المَوتِ ، وغَزَوْتُ معَه سَبْعَ غَزَوَاتٍ[3] .

وعن إيَاسِ بنِ سَلَمَةَ ، عن أبيهِ قال : بَيَّتْنا هَوَازِنَ مع أبي بَكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه فقَتَلْتُ بيَدِي لَيْلَتَئِذٍ سَبْعَةَ أهلِ أبْيَاتٍ[4] .

وقال حَمَّادُ بنُ سَلَمَة : أخْبَرَنا ثابتٌ : أنَّ صِلَةَ بنَ أشْيَم كان في الغَزْوِ ، ومعَه ابنُه ، فقال : أيّ بُنَي! تَقَدَّم ، فقَاتِل حتىٰ أَحْتَسِبَك ، فحَمَلَ ، فقَاتَلَ حتىٰ قُتِلَ ، ثم تَقَدَّمَ صِلَةُ ، فقُتِلَ ، فاجْتَمَعَ النِّساءُ عند امْرَأتِه مُعَاذَة ، فقالت : مَرْحَباً إنْ كنْتُنَّ جِئْتُنَّ لتُهَنِّئْنَنِي ، وإنْ كنْتُنَّ جِئْتُنَّ لغيرِ ذلك فارْجِعْنَ[5] .

وقِيلَ إنَّ يَزِيدَ بنَ الأَسْوَدِ الجُرَشِيّ قال : قُلتُ لقَومِي : اكْتُبُونِي في الغَزْوِ ، قالوا : قد كَبُرْتَ قال : سُبحانَ الله اكْتُبُونِي فأيْنَ سَوَادِي في المُسلمين ؟ قالوا : أمَا إذْ فَعَلْتَ ، فأَفْطِر وتَقَوَّ على العَدُوِّ ، قال : ما كُنتُ أرَانِي أبْقَىٰ حتىٰ أُعَاتِبَ نَفْسِي ، والله لا أُشْبِعُها من الطَّعَامِ ولا أُوطِئُها من مَنَامٍ حتىٰ تَلْحَقَ بالله[6] .

---

(١) انظر السير : (أبو قتادة الأنصاري السلمي) ٢/ ٤٤٩ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٨٩ .
(٢) انظر السير : (بُريدة بن الحصيب) ٢/ ٤٢٩ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩١ .
(٣) انظر السير : (سلمة بن الأكوع) ٣/ ٣٢٦ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٨٨
(٤) انظر السير : (سلمة بن الأكوع) ٣/ ٣٢٦ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٨٨
(٥) انظر السير : (صِلة بن أشيم) ٣/ ٤٩٧ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤١٦
(٦) انظر السير : (الجُرَشيّ) ٤/ ١٣٦ـ ١٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٦٢

وقِيلَ : إنَّ مُوسَىٰ بنِ نُصَيْر قال مَرةً : والله لَوْ انْقَادَ النَّاسُ لِي ، لقُدتُّهم حتىٰ أُوْقِفَهم علىٰ رُومِيَّةَ ، ثم لَيَفْتَحَنَّها اللهُ علىٰ يَدِي[1] .

وجَاءَ في تَرجَمَةِ طَارِق مَوْلَىٰ مُوسَىٰ بنِ نُصَيْر ، قال الذَّهبيُّ : وله فُتُوحَاتٌ عَظِيمةٌ جداً في المَغْرِبِ ، كمَا كان لقُتَيْبَةَ بنِ مُسْلِم في المَشْرِق ـ في هـٰذا الوَقْت ـ فُتُوحَاتٌ لَمْ يُسْمَعْ بمثلِها[2] .

ثم قال الذَّهبيُّ : وفي هـٰذه المُدَّةِ وبعدَها كانت غَزْوَةُ القُسْطَنْطِينِيَّة في البَرِّ والبَحْرِ ، ودَامَ الحِصَارُ نَحْواً من سَنَة ، وكان عَلَمُ الجِهَادِ في أطْرَافِ البِلادِ مَنْشُوراً ، والدِّينُ مَنْصُوراً ، والدَّوْلَةُ عَظِيمَةٌ ، والكَلِمَةُ واحِدةٌ .

قال سَعيدُ بنُ عبدِ العَزِيزِ : أخْبَرَنِي رَجُلٌ أنَّ سُلَيْمانَ هَمَّ بالإقامَةِ ببَيْتِ المَقْدِسِ ، وقَدِمَ عليه مُوسَى ابنُ نُصَيْر وأخُوهُ مَسْلَمَةُ ، فجَاءَه الخَبَرُ أنَّ الرُّومَ طَلَعُوا من سَاحِلِ حَمْص ، وسَبوا جَماعةً فيهم امْرأةٌ لها ذِكْرٌ ، فغَضِبَ سُلَيْمانُ وقال : ما هُوَ إلاَّ هَـٰذا ، نَغْزُوهُم ويَغْزُونا ، واللهِ لأَغْزُوَنَّهم غَزْوَةً أفْتَحُ فيها القُسْطَنْطِينِيَّةَ أوْ أَمُوتْ ثم الْتَفَتَ إلىٰ مَسْلَمَةَ وإلىٰ مُوسَىٰ بنِ نُصَيْرٍ ، فقال : أَشِيرا عليَّ ، فقال مُوسَىٰ : يا أميرَ المُؤمنين ، إنْ أَرَدْتَ ذلك ، فسِرْ سِيرَةَ الصَّحَابَةِ فيما فَتَحُوهُ ، كُلَّمَا فَتَحُوا مدينةً اتَّخَذُوها دَاراً ، وحَازُوهَا للإسْلام ، فابْدَأ بالدُّرُوبِ وافْتَحْ حُصُونَها حتىٰ تَبْلُغَ القُسْطَنْطِينِيَّة ، فإنَّهم سَيُعْطُون بأيدِيهِم ، فقال لمَسْلَمَة : ما تقُولُ أنْتَ ؟ قال : هـٰذا الرَّأيُ إنْ طَالَ عُمْرٌ إليه ، أو كان الذي يأتي علىٰ رأيك ويُريدُ بذلكَ ، خَمْسَ عَشرَ سَنَةً ، ولكنِّي أرَىٰ أنْ تُغْزِي المُسلِمينَ بَرّاً وبَحْراً القُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فيُحاصِرُونَها ، فإنَّهم ما دَامَ عليهِم البَلاءُ أَعْطُوا الجِزْيَةَ ، أو أُخِذَتْ عُنوَة ، فمتىٰ وَقَعَ ذلك ، كان ما دُونَها من الحُصُونِ بيَدِك ، قال : هـٰذا الرأيُ .

فأغْزَىٰ أهلَ الشَّامِ ، والجَزِيرَةِ في البَرِّ في نَحْوٍ من عِشرِينَ ومِئَةِ ألفٍ ، وأَغْزَىٰ أهلَ

---

(١) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/٤٩٦ـ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤١

(٢) انظر السير : (طارق) ٤/٥٠٠ـ٥٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥٤٢

مِصْرَ والمَغْرِبَ في البَحْرِ في ألفِ مَركب عليهم عُمَرُ بنُ هُبَيْرَة ، وعلى الكُلِّ مَسْلَمَةُ بنُ عبد المَلِكِ .

قال الوَليدُ بنُ مُسلم : فأخْبَرَنِي غَيرُ واحدٍ أنَّ سُلَيْمانَ أخْرَجَ لهم العَطاءَ ، وبيَّنَ لهم غَزْوَتَهُم وطُولَها ، ثم قَدِمَ دِمَشْقَ وصَلَّى الجُمُعَةَ ، ثمَّ عَادَ إلى المِنْبَرِ ، وأخْبَرَهُم بيَمِينِه من حِصَارِه القُسْطَنْطِينِيَّة ، فانْفِرُوا علىٰ بَرَكةِ الله ، وعلَيْكم بتَقْوَى الله ، ثم الصَّبْرَ الصَّبْرَ وسَارَ حتىٰ نَزَلَ بدَابِق[1] ، وسارَ مَسْلَمَةُ وأخَذَ معه أليُونَ الرُّوميَّ المرعشيَّ ليَدُلَّه على الطريقِ والعُوار ، وأخَذَ مِيثَاقَه على المُناصَحَةِ إلىٰ أنْ عَبَرُوا الخَلِيجَ وحَاصَرُوا القُسْطَنْطِينِيَّةَ إلىٰ أنْ بَرَّحَ بهم الحِصَارُ ، وعَرَضَ أهلُها الفِدْيَة ، فأبىٰ مَسْلَمَةُ إلاَّ أنْ يَفْتَحَها عُنوَةً ، قالوا : فابْعَثْ إلينا أليُونَ ، فإنَّه منَّا ويَفْهَمُ كَلامَنا ، فبَعَثَه ، فغَدرَ وقال : إنْ مَلَّكتُمُونِي أمِنْتُم ، فمَلَّكُوه ، فخَرجَ وقال : قد أجَابُونِي أنْ يَفْتَحُوها ، لكنْ لا يَفْتَحُونَها حتىٰ تَتَنَحَّىٰ عنهم ، قال : أخْشَىٰ غَدْرَك ، فحَلَفَ له أنْ يَدفعَ إليه كُلَّ ما فيها من سَبيٍ ومَالٍ ، فانْتَقَلَ مَسْلَمَةُ ودَخَلَ أليُونُ لَعَنَه الله فلَبِسَ التَّاجَ ، وأَمَرَ بنَقْلِ العُلوفاتِ من خَارجٍ فمَلؤوا الأهراءَ[2] ، وجاء الصَّريخُ إلىٰ مَسْلَمَةَ ، فكَبَّرَ بالجَيْشِ فأدْرَكَ شَيْئاً من العُلُوفاتِ ، فغَلَّقُوا الأبْوابَ دُونَه ، فبَعَثَ إلىٰ أليُونَ يُنَاشِدُهُ عَهْدَهُ ، فأرْسَلَ إليه أليُونُ يقولُ : مُلْكُ الرُّوم لا يُبَاعُ بالوَفَاءِ ، ونَزَلَ مَسْلَمَةُ بفِنائِها ثلاثِينَ شَهراً حتىٰ أَكَلَ النَّاسُ في المُعَسْكَرِ المَيْتَةَ والعَذَرَةَ من الجُوعِ ، هـٰذا وفي وَسَطِ المُعَسْكَرِ عُرمةُ حِنْطَةٍ مثلُ الجَبَلِ يَغبِطُونَ بها الرُّومَ .

قال مُحمَّدُ بنُ زِيَاد الألهَانيّ : غَزَوْنا القُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فجُعْنَا حتّىٰ هَلَكَ ناسٌ كثيرٌ ، فإن كان الرجُلُ يَخرُجُ إلىٰ قَضَاءِ الحَاجَةِ ، والآخَرُ يَنْظُرُ إليهِ ، فإذا قَامَ أقْبَلَ ذاكَ علىٰ رَجِيعِه فأَكَلَه ، وإنْ كان الرجُلُ ليَذْهَبُ إلى الحَاجَةِ ، فيُؤْخَذُ ويُذْبَحُ ويُؤْكَلُ ، وإنَّ الأهراءَ من الطَّعَامِ كالتِّلالِ لا نَصِلُ إليهَا نُكَايِدُ بها أهلَ القُسْطَنْطِينِيَّة .

---

(١) دابق : قريةٌ قُربَ حَلَب .

(٢) مفردها هُرْي : وهو بيتٌ ضخمٌ يُجمع فيه طعام السلطان .

فلمَّا اسْتُخْلِفَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزِيزِ ، أَذِنَ لهم في التَّرَحُّلِ عنها[1] .

وعن الضَّحَّاكِ ، قالَ : كُنتُ ابنَ ثَمانِينَ سَنة جَلْدَاً غَزَّاءً ، وكانت وَفَاةُ الضَّحَّاكِ في سَنَةِ اثْنَتَيْنِ ومِئَة[2] .

وقد كان سُلَيْمانُ بنُ عبدِ المَلِكِ من أَمْثَلِ الخُلَفَاءِ ، نَشَرَ عَلَمَ الجِهَادِ ، وجَهَّزَ مِئَةَ ألفٍ بَراً وبَحْراً ، فنَازَلُوا القُسْطَنْطِينِيَّةَ ، واشْتَدَّ القِتالُ والحصَارُ عليها أَكْثَرَ من سَنَةٍ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ عبدِ الرَّحمَـٰنِ بن الحَكَم بن هشام ، ابنُ الدَّاخِل ، قال الذَّهبيُّ : فلمَّا كانت سَنَة ثلاثينَ ومِئَتَيْن طَرَقَ المَجُوسُ الأردمانيُّون[4] إشْبيلِيَة في ثَمانينَ مَرْكَباً في الوادِي ، فصَادَفُوا أهلَهَا علىٰ غِرارَةٍ بمُطاوَلَةِ أُمُدِ الأمانِ لهم مع قِلَّةِ خِبْرَتِهم بحَرْبِهم ، فطَلَعُوا من المَرَاكِبِ ، وقد لاحَ لهم خَوَرٌ من أهْلِها ، فقاتَلُوهم ، وقَوُوا على المسلمينَ ، ووَضَعُوا السَّيْفَ فيهم ، ومَلَكُوا إشْبيلِيَة بعد القَتْلِ الذَّريعِ في أهلِها حتىٰ في النِّساءِ والبَهَائِمِ ، وأَقامُوا بها سَبْعَةَ أيَّامٍ ، فوَرَدَ الخَبَرُ على الخَلِيفَة عبدِ الرَّحمَـٰن ابن الحَكَم فاسْتنفَرَ جيشَه وبعَثَ بهم إلىٰ إشْبيليّة فحلُّوا بالشرق ، ووقع القتالُ ، واشتدَّ الخطبُ ، وانتصرَ المسلمون ، واستَحرَّ القتلُ بالملاعين حتىٰ فني جَمعُ الكَفَرَة ، لعنَهم الله ، وحرق المسلمون ثلاثين مركَباً من مراكبهم ، فكان بين دخولهم إلىٰ إشْبيليّة وهروبهم عنها ثلاثة وأربعون يوماً وهـٰذا كان السببُ في بناء سور واديها ومات في سنة ثمانٍ وثلاثين ومئتين[5] .

وفي دَولَة الحَكَمِ بنِ عبدِ الرَّحمَـٰنِ هَمَّت الرُّومُ بأخْذِ مَوَاضِعَ من الثُّغُورِ ، فقَوَّاها

---

(١) انظر السير : (طارق) ٤/ ٥٠٠ـ ٥٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٤٢ .

(٢) انظر السير : (الضحّاك بن مزاحم) ٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٦٦

(٣) انظر السير : (عمر بن عبد العزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٨٨

(٤) هم النورمان ، كانوا يُغيرون على الأندلس من المنافذ النهرية ، وسمّاهم المسلمون المجوس لأنهم كانوا يُشعلون النيران كثيراً فظن المسلمون أنهم يعبدونها انظر ابن عذاري ٢/ ١٣٠ .

(٥) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن الحكم بن هشام) ٨/ ٢٦٠ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٥٣

بالمَالِ والجُيُوشِ وغَزَا بنَفسِه ، وزَادَ في القَطِيعَةِ على الرُّومِ ، وأَذَلَّهم وكان مَوْتُه بالفَالِجِ سنةَ سِتٍّ وسِتِّينَ وثلاثِ مِئَة[1] .

وفي سَنةِ ثَمَانِينَ غَزَا صَاحِبُ ما وَرَاءَ النَّهرِ إسْماعِيلُ بنُ أحْمَد بنِ أَسَد بلادَ التُّرْكِ وأَسَرَ مَلِكَهم في نَحوٍ من عَشْرَةِ آلافِ نَفْسٍ ، وقَتَلَ مِثْلَهم[2] .

وغَزَا المُسلمُونَ بلادَ الرُّومِ فافْتَتَحُوا مَلَـوريه[3] .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وتِسْعِينَ ومِئَتَين : أقْبَلَتْ جُموعُ التُّرْكِ ، فبَيَّتَهُم وَالِي خُراسَانَ إسْماعيلُ ، وقَتَلوا منهم مَقتَلَةً عظِيمَةً ، وأقْبَلَتْ الرُّومُ في مِئَةِ ألفٍ ، وأَتَوا إلى الحَدَث[4] فأحْرَقُوه وقَتَلُوا وسَبُوا[5] .

وفيها : سَارَ عَسْكرُ طرسوسَ ، فافْتَتَحُوا أنْطاكِيَة ، وحَصَّلَ سَهمُ الفَارِسِ ألفَ دينارٍ[6] .

تُوُفِّيَ ابنُ الأَغْلَبِ صاحِبُ المَغْربِ غَازِياً بصِقِلِّيَة سَنةَ تِسْعٍ وثَمانِينَ ومِئَتَين ، وتَمَلَّك ابنُه عبدُ الله ، فكان دَيِّناً ، عَالِماً ، بَطَلاً ، شُجَاعاً ، شَاعِراً ، فقتَلَه غِلْمَانُه غِيلةً بعدَ عامٍ[7] .

٢١ـ غَزَواتٌ ومَعَارِك

(أ) من أخْبَارِ بعض الغَزَوات :

بَنُو قُرَيْظَة :

عن جَابرٍ قال : رُمِيَ سعدٌ يومَ الأحْزابِ ، فقَطَعُوا أَكْحلَه ، فمَسَّهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالنَّارِ ، فانْتَفَخَتْ يَدُه ، فتَرَكَه ، فنَزَفَه الدَّمُ ، فحَسَمَه أُخْرَىٰ ، فانْتَفَخَتْ

---

(١) انظر السير : (الحَكم بن عبد الرحمٰن بن محمد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٥٨

(٢) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٠٧

(٣) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٠٧

(٤) الحَدَث : قلعة حصينة من الثغور الشامية .

(٥) انظر السير : (المكتفي بالله) ١٣/ ٤٧٩ـ ٤٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٠٩

(٦) انظر السير : (المكتفي بالله) ١٣/ ٤٧٩ـ ٤٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٠٩

(٧) انظر السير : (ابن الأغلب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١١١

يَدُه ، فلمَّا رَأَىٰ ذلكَ ، قال : اللَّهُمَّ لا تُخْرِجْ نَفْسِي حتىٰ تُقِرَّ عَينِي من بَنِي قُرَيْظَة فاسْتَمْسَكَ عِرْقُه ، فما قَطَرَتْ منه قَطْرَةٌ حتىٰ نَزَلُوا علىٰ حُكْمِ سَعدِ بنِ مُعَاذ ، فأرْسَلَ إليه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فحَكَمَ أنْ يُقْتَلَ رِجَالُهم ، وتُسْبَىٰ نِسَاؤُهم وذَرَارِيهم ، قال : وكانُوا أرْبَعَ مِئَةٍ ، فلمَّا فُرِغَ من قَتْلِهم ، انْفَتَقَ عِرْقُه[1] .

وعن عَامرِ بنِ سَعدٍ ، عن أبِيهِ قال : لمَّا حَكَمَ سَعدٌ في بَنِي قَرَيْظَةَ أن يُقْتَلَ مَنْ جَرَتْ عليه المَواسِيّ ، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ حَكمَ فِيهِمْ بِحُكمِ الله الذِي حَكمَ بهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ »[2] .

مُؤْتَة :

عن خالِدِ بنِ شُمَيرٍ قالَ : قَدِمَ علينا عبدُ الله بنُ رَبَاحْ ، فاجْتَمَعَ إليهِ ناسٌ فقال : حَدَّثَنا أبُو قَتَادَة قال : بَعَثَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم جَيْشَ الأُمَرَاءِ وقال صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكم زَيْدٌ ، فإنْ أُصِيبَ فجَعْفَرٌ ، فإنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ ، فابنُ رَوَاحَة » فوَثَبَ جَعْفَرٌ ، وقال : بأبِي أَنْتَ وأُمِّي! ما كُنتُ أَرْهَبُ أنْ تَسْتَعمِلَ زَيْداً عليَّ قال صلى الله عليه وسلم : « امْضُوا ، فإنَّكَ لا تَدْرِي أيُّ ذلكَ خَيْرٌ » فانْطَلَقَ الجَيشُ ، فلَبِثُوا ما شَاءَ اللهُ ثم إنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم صَعِدَ المِنْبَرَ ، وأَمَرَ أنْ يُنَادَىٰ : الصَّلاةُ جَامِعَةٌ قال صلى الله عليه وسلم : « ألا أُخْبِرُكم عن جَيشِكم ، إنَّهم لَقُوا العَدُوَّ ، فأُصِيبَ زَيْدٌ شَهِيداً ، فاسْتَغْفِرُوا اللهَ لَهُ ، ثمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ جَعْفَرٌ ، فَشَدَّ على النَّاسِ حتىٰ قُتِلَ ، ثمَّ أخَذَهُ ابنُ رَوَاحَة ، فأثْبَتَ قَدَمَيْهِ حتىٰ أُصِيبَ شَهِيداً ، ثمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ خالِدٌ ـ ولَمْ يَكنْ من الأُمَرَاءِ ، هُوَ أَمَّرَ نَفسَه » ـ فرَفَعَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أُصْبُعَيْهِ وقال : « اللَّهُمَّ هُوَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِكَ فانْصُرْهُ » ـ فيَومَئذٍ سُمِّيَ سَيفُ الله ـ ثم قال صلى الله عليه وسلم : « انفِرُوا فامْدُدُوا إخْوَانَكم ، ولا يَتَخَلَّفَنَّ أَحَدٌ » ، فنَفَرَ النَّاسُ في حَرٍّ شَديدٍ .

---

(١) انظر السير : (سعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٤

(٢) انظر السير : (سعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥

قال ابنُ إسْحاقَ : حَدَّثنا يَحْيَىٰ بنُ عَبَّادٍ ، عن أبيه قال : حَدَّثني أبي الذي أرْضَعَنِي وكان من بَنِي مُرَّةَ بنِ عَوْفٍ قال : لَكَأنِّي أَنْظُرُ إلىٰ جَعْفَرَ يومَ مُؤْتَة حينَ اقْتَحَمَ عن فَرَسٍ لَهُ شَقْرَاء فعَقَرَها ثم قَاتَلَ حتىٰ قُتِلَ .

قال ابنُ إسْحاقَ : وهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَقَرَ في الإسْلامِ وقال :

يـا حَبَّـذ الجَنَّـةُ واقْتِـرابُهَـا ... طَيِّبَـةٌ وبَـارِدٌ شَـرَابُهَـا
والـرُّومُ رُومٌ قَـد دَنَـا عَـذَابُهَـا ... علـيَّ إنْ لَقِيتُهـا ضِـرابُهَـا

وعن ابنِ عُمَرَ قال : فَقَدْنَا جَعْفَراً يومَ مُؤْتَة ، فوَجَدْنا بَينَ طَعْنَةٍ ورَمْيَةٍ بِضْعاً وتِسْعِينَ ، وَجَدْنا ذلكَ فيمَا أَقْبَلَ من جَسَدِه[1] .

وقِيلَ : لمَّا جَهَّزَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ مُؤْتَة الأُمَرَاءَ الثَّلاثَةَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الأَمِيرُ زَيْدٌ ، فإنْ أُصِيبَ فجَعْفَرٌ ، فإنْ أُصِيبَ فابنُ رَوَاحَة » ، فلمَّا قُتِلا ، كَرِهَ ابنُ رَوَاحَة الإقْدَامَ فقال :

أَقْسَمْـتُ يـا نَفْسِـي لتَنْـزِلنَّـه ... طَـائِعَـةً أوْ لا لَتُكْـرَهِنَّـه
فَطَـالَمَـا قَـد كُنْـتِ مُطْمَئِنَّـه ... مَـالِـي أَرَاكِ تَكْـرَهِيـنَ الجَنَّـه

وعن أَنَسٍ قالَ : دَخَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ في عُمْرَةِ القَضَاءِ ، وابنُ رَوَاحَة بَينَ يَدَيْهِ يقولُ :

خَلُّـوا بَنِـي الكُفَّـارِ عَـن سَبِيلِـهِ ... اليَـومَ نَضْـرِبْكُـم علـىٰ تَنْـزِيلِـهِ
ضَـرباً يُـزِيـلُ الهَـامَ عـن مَقِيلِـهِ ... ويُـذْهِـلُ الخَلِيـلَ عـن خَلِيلِـهِ

فقال عُمَرُ : يا ابنَ رَوَاحَة! في حَرَمِ اللهِ وبَينَ يَدَيّ رسُولِ اللهِ تقُولُ الشِّعْرَ ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « خَلِّ يا عُمَرُ ، فَهُوَ أَسْرَعُ من نَضْحِ النَّبْلِ » .

وفي لَفْظٍ : « فَوَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، فَكلامُهُ عَليهِم أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ » .

قال التِّرْمِذِيُّ : وجاءَ في غيرِ هـٰذا الحَدِيثِ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ مَكَّةَ في عُمْرَةِ القَضَاءِ وكَعْبٌ يقُولُ ذَلِكَ .

---

(١) انظر السير : (جعفر بن أبي طالب) ١/٢٠٦ـ٢١٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩

قال : وهَـٰذا أَصَحُّ عِندَ بَعضِ أَهْلِ العِلْمِ ، لأنَّ ابنَ رَوَاحَة قُتِلَ يومَ مُؤْتَة ، وإنَّمَا كانت عُمْرَةُ القَضَاءِ بعدَ ذلكَ .

قال الذهبيُّ : كلاَّ ، بلْ مُؤْتَة بعدَها بستّة أشْهرٍ جَزْماً[1] .

وعن قَيْسٍ ، سَمعتُ خالِداً يقولُ : رَأَيْتُني يومَ مُؤْتَة انْدَقَّ في يَدِي تِسْعَةُ أَسْيَافٍ فصَبَرَتْ في يَدِي صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّة[2] .

وعن عُمَارةَ بنِ خُزَيْمَة ، عن أبيهِ قال : حَضَرْتُ مُؤْتَة ، فبَارَزْتُ رَجُلاً فأَصَبْتُهُ وعَلَيْهِ بَيْضَةٌ فيها ياقُوتَةٌ ، فلَمْ يَكنْ هَمِّي إلاَّ اليَاقُوتَة ، فأخَذْتُها ، فلمَّا انْكَشَفْنَا وانْهَزَمْنا ، رَجَعْتُ بها إلى المَدِينَةِ ، فأَتَيْتُ بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَنَفَلَنِيها ، فبِعْتُها زَمَنَ عُمَرَ بمِئَةِ دِينارٍ[3] .

تَبُوك :

عن عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ كَعْبٍ ، عن أبيه : سَمعتُ كعْباً يقولُ : لَمْ أَتَخَلَّفْ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في غَزْوةٍ ، حتىٰ كانت تَبُوك إلاَّ بَدْراً ، وما أُحِبُّ أنِّي شَهِدتُها ، وفاتَتْنِي بَيْعَتي ليلةَ العَقَبَة[4] وقَلَّما أرَادَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم غَزْوةً إلاَّ وَرَّىٰ عنها بغيرِها ، فأرَادَ في غَزْوَةِ تَبُوك أنْ يَتأهَّبَ النَّاسُ أُهبةً وكنتُ أَيْسَرَ ما كنتُ ، وأنا في ذلك أَصْغُو[5] إلى الظِّلالِ وطَيِّبِ الثِّمَارِ ، فلَمْ أَزَلْ كذلك حتىٰ خَرَجَ فقُلتُ : أَنْطَلِقُ غَداً ، فأَشْتَري جَهَازِي ، ثم أَلْحَقُ بهِم فانْطَلَقْتُ إلى السُّوقِ ، فعَسُرَ عليَّ ، فرَجَعتُ ، فقُلتُ : أرْجِعُ غَداً فلَمْ أَزَلْ حتى الْتَبَسَ بي الذنْبُ ، وتَخَلَّيْتُ ، فجعَلتُ أمشِي في أَسْواقِ المدِينَةِ ، فيُحْزِنُنِي أنِّي لا أَرَىٰ إلاَّ مَغْمُوصاً[6] عليه في

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن رواحة) ١/ ٢٣٠ـ ٢٤٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٥٣

(٢) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٧٩

(٣) انظر السير : (خُزيمة بن ثابت) ٢/ ٤٨٥ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٩٣

(٤) في البخاري ومسلم : ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها .

(٥) أصغو : أميل .

(٦) أي مطعوناً عليه في دينه، متهماً بالنفاق، وقيل: معناه مستحقراً، فتقول غمصتُ فلاناً إذا استحقرته . =

النِّفاقِ ، أو ضَعِيفاً وكان جَميعُ مَنْ تَخَلَّفَ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِضْعَةً وثَمانِينَ رَجُلاً[1] .

ولمَّا بَلَغَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَبُوك ذَكَرَنِي ، وقال : « ما فَعَلَ كعْبٌ ؟ » فقال رجُلٌ من قَوْمِي : خَلَّفَهُ يا نَبيَّ اللهِ بَرَادُه ، والنَّظَرُ في عِطْفَيْه ، فقال مُعاذٌ : بِئْسَ ما قُلتَ : واللهِ ما نَعْلمُ إلاَّ خَيْراً .

إلىٰ أنْ قال : فلَمَّا رَآنِي صلى الله عليه وسلم تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَب وقال صلى الله عليه وسلم : « ألَمْ تكن ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » قُلتُ : بلَىٰ قال : « فمَا خَلَّفَكَ ؟ » قُلتُ : واللهِ لَوْ بَينَ يَدَيّ أَحَدٍ غَيرِك جَلَسْتُ لخَرَجْتُ من سُخْطِهِ عليَّ بعدُ ، لقد أُوتِيتُ جَدَلاً ، ولكنْ قد عَلِمتُ يا نَبيَّ الله أنِّي أُخْبِرُكَ اليومَ بقَولٍ تَجِدُ عليَّ فيه وهُوَ حَقٌّ فإنِّي أَرْجُو فيه عُقْبَى الله .

إلىٰ أنْ قالَ : والله ما كُنتُ قَطُّ أَيْسَرَ ولا أَخَفَّ حاذاً[2] منِّي حين تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فقَالَ صلى الله عليه وسلم : « أمَّا هـٰذا فَقَدْ صَدَقَكم ، قُمْ حتىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » فقُمتُ .

إلىٰ أن قال : ونَهىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ[3] .

فجعلتُ أخرجُ إلى السوق ، فلا يُكلِّمني أحدٌ ، وتَنكَّرَ لنا الناسُ ، حتىٰ ما هُم بالذين نعرفُ ، وتَنكَّرَت لنا الحيطانُ والأرضُ ، وكنتُ أطوفُ وآتي المسْجدَ ، فأدخلُ وآتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأسَلِّمُ عليه ، فأقولُ : هل حَرَّكَ شَفَتَيه بالسلامِ!! ؟[4] .

---

(١) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/٣٠٠

(٢) الحاذ : الحال .

(٣) أيُّها الثلاثةُ : مبني على الضم في محل نصب على الاختصاص ، أي : مختصين بذلك دون بقية الناس .

(٤) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٤/٣٠٠ .

أوْطَاس :

عن أبي مُوسَىٰ قال : لمَّا فَرَغَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم من حُنَينٍ ، بَعَثَ أبا عَامِرِ الأَشْعَرِيّ علىٰ جَيشٍ أَوْطَاسَ[1] ، فلَقِيَ دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة ، فقُتِلَ دُرَيْدُ ، وهَزَمَ اللهُ أَصْحَابَه ، فرَمَىٰ رجلٌ أبا عَامِرٍ في رُكْبَتِه بسَهمٍ ، فأثْبَتَه فقُلتُ : يا عَمُّ ، مَنْ رَمَاكَ ؟ فأشَارَ إليهِ فقَصَدْتُ له ، فلَحقْتُه ، فلمَّا رَآني ، ولَّىٰ ذاهِباً فجَعَلتُ أقولُ لهُ : ألا تَسْتَحِي ؟ أَلَسْتَ عَرَبيّاً ؟ ألا تَثْبُتْ ؟ قال : فَكَفَّ ، فالْتَقَيْتُ أنا وهُوَ ، فاخْتَلَفْنا ضَربَتَينِ ، فقَتَلتُه ثم رَجَعتُ إلىٰ أبي عَامِرٍ ، فقُلتُ : قد قَتَلَ اللهُ صاحِبَكَ قال : فانْزِعْ هـٰذا السَّهمَ فنَزَعتُه فنَزَا منهُ المَاءُ فقال : يا ابنَ أخِي ، انْطَلِقْ إلىٰ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فأَقْرِهِ منِّي السَّلامَ ، وقُلْ له : يَسْتَغْفِر لِي واسْتَخْلَفَنِي أبو عَامِرٍ على النَّاسِ ، فمَكَثَ يَسِيراً ثم مَاتَ فلمَّا قَدِمْنا ، وأَخْبَرتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم تَوَضَّأ ، ثم رَفَعَ يَدَيْه ، ثم قالَ صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعُبَيْدٍ أبي عَامِرٍ » حتىٰ رَأيتُ بَيَاضَ إبطَيْه ثم قال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يومَ القِيَامَةِ فَوقَ كثيرٍ من خَلْقِك » فقُلتُ : ولِيَ يا رسُولَ الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعَبدِ الله ابنِ قَيْس ذَنبَه ، وأَدْخِلْهُ يومَ القِيامَةِ مُدْخَلاً كرِيمَاً »[2] .

(ب) من أَخْبَارِ مَعَارِك الصَّحَابَة :

فَتحُ بلاد الشَّام :

قال ابنُ إسْحاق : لمَّا قَفلَ أبو بكر عن الحجِّ بعثَ عَمرو بنَ العاص قِبلَ فلسطين ، ويَزيدَ بنَ أبي سُفيانَ وأبا عُبَيدَة بنَ الجرَّاح وشُرَحْبيلَ ابنَ حَسَنَة ، وأمرَهم أن يَسْلُكوا على البَلْقاء .

ورَوَى ابنُ جَرير قال : قالوا لمَّا وَجَّه أبو بكر الجنودَ إلى الشَّام أولَ سَنة ثلاث عَشرة ، فأوّلُ لِواءٍ عَقَدَه لِواءُ خالد بن سعيد بن العاص ، ثم عَزَلَه قبل أن يَسير خالد ،

---

(١) أوطاس : وادٍ في ديار هوازن ، وهو غير وادي حُنين .

(٢) انظر السير : (أبو موسى الأشعريّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/٢٨٧ .

وقيل : بلْ عَزَلَه بعد أشهر من مَسيره ، وكَتبَ إلىٰ خالد فسار إلى الشَّام ، فأغَارَ علىٰ غَسّانَ بمَرْجِ راهِط ، ثم سار فنزَل علىٰ قَناة بُصْرَىٰ ، وقَدِمَ أبو عُبَيدة وصاحباه فصالَحوا أهلَ بُصْرَىٰ ، فكانت أول ما فُتِحَ من مَدائن الشَّام ، وصالَح خالدٌ في وجهه ذلك أهلَ تَدْمُر .

قال ابنُ إسحاق : ثم ساروا جميعاً قِبَلَ فلسْطين ، فالْتَقوا بأجْنادين بين الرّملةَ وبَيتَ جبرين ، والأمراء كلٌّ علىٰ جُندِه ، وقيل : إنَّ عَمْراً كان عليهم جميعاً ، وانهَزَمَ المشركون .

وقال الواقِديُّ : الثبتُ عندنا أنَّ أجْنادين كانت في جُمادَى الأولىٰ وبُشِّرَ بها أبو بكر وهو بآخر رَمَق[1] .

وَقْعَةُ مَرْج الصّفر :

قال خليفةُ : كانت وَقْعةُ مَرْج الصّفر لاثنتي عشرة خَلَت من جُمادَى الأولىٰ ، والأميرُ خالد بنُ سعيد .

وقال سعيدُ بنُ عبد العزيز : التَقَوا على النَّهْر عند الطَّاحونة فقُتِلَت الرُّومُ يومئذ حتىٰ جَرَى النَّهرُ وطحنت طاحونتها بدمائهم فأُنْزِل النَّصْرُ .

وقَتلت يومئذ أمُّ حَكيم سَبعةً من الرُّومِ بعَمودِ فُسْطاطِها[2] .

اليَمامَة :

قِيلَ : كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إلىٰ أُمَرَاءِ الجَيشِ : لا تَسْتَعمِلُوا البَراءَ علىٰ جيشٍ فإنَّه مُهْلِكةٌ من المَهَالِكِ يَقْدُمُ بهم .

وبلَغَنا أنَّ البَراءَ يومَ حربِ مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب أمَرَ أصْحابَه أنْ يَحْتَمِلُوه علىٰ تُرسٍ ، علىٰ أَسِنَّةِ رِماحِهِم ، ويُلْقُوا به في الحَديقةِ فاقْتَحَمَ إليهم ، وشَدَّ عليهم ، وقاتلَ حتى

---

(١) انظر السير : (أبو بكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٤ .

(٢) انظر السير : (أبو بكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٤٣ .

افْتَتَحَ بابَ الحديقةِ ، فجُرِحَ يومئذٍ بضْعةً وثمانين جُرحاً ، ولذلك أقامَ خالدُ ابنُ الوَليدِ عليه شَهراً يُداوِي جِراحَه ، وقد اشْتَهَرَ أنَّ البَراءَ قَتلَ في حُروبِه مِئَةَ نفسٍ من الشُّجعانِ مُبارَزَةً[1] .

ورَمَىٰ أبو دُجَانَةَ بنَفسِهِ يومَ اليَمَامَةِ إلىٰ داخِلِ الحديقةِ ، فانْكَسَرتْ رِجْلُه ، فقَاتَلَ وهو مَكْسُورُ الرِّجْلِ حتىٰ قُتِلَ رضي الله عنه[2] .

عن مِعْقَلِ بنِ يَسَارٍ : أنَّ عُمَرَ شَاوَرَ الهُرمُزَانَ في أَصْبَهَانَ ، وفارسَ ، وأَذَرْبيجانَ فقال : أَصْبَهَانُ : الرَّأسُ ، وفارسُ وأَذَرْبيجانُ : الجَنَاحَان ، فإذا قَطَعْتَ جَنَاحاً فَاءَ الرَّأسُ وجَنَاحٌ ، وإنْ قَطَعْتَ الرَّأسَ وَقَعَ الجَنَاحَان ، فقال عُمَرُ : للنُّعْمانِ بنِ مُقَرِّن : إنِّي مُسْتَعْمِلُك ، فقال : أمَّا جَابياً فلا ، وأمَّا غَازِياً ، فنَعَم ، قال : فإنَّكَ غَازٍ فسَرَّحَهُ ، وبَعَثَ إلىٰ أهلِ الكُوفَة ليَمُدُّوه وفيهم حُذَيْفَةُ ، والزُّبَيْرُ ، والمُغِيرَةُ ، والأَشْعَثُ ، وعَمْرُو بنُ مَعْدِي كَرِبْ ، فذَكَرَ الحَدِيثَ بطُولِه وهو في « مُسْتَدْرَكِ الحَاكِم » ، وفيه : فقال : اللَّهُمَّ ارْزُقْ النُّعْمانَ الشَّهَادَةَ بنَصْرِ المُسلمينَ ، وافْتَحْ عليهِم ، فأَمَّنُوا ، وهَزَّ لِواءَهُ ثلاثاً ، ثمَّ حَمَلَ ، فكانَ أوَّلَ صَرِيعٍ رضي الله عنه ووَقَعَ ذُو الحَاجِبَيْنِ من بَغْلَتِه الشَّهْباء ، فانْشَقَّ بَطْنُه وفَتَحَ اللهُ ، ثم أَتَيْتُ النُّعْمانَ وبه رَمَقٌ ، فأَتَيْتُه بماءٍ ، فصَبَبْتُ علىٰ وَجْهِهِ أغْسِلُ التُّرابَ ، فقال : مَنْ ذَا ؟ قُلتُ : مِعْقَلُ ، قال : ما فَعَلَ النَّاسُ ؟ قُلتُ : فَتَحَ اللهُ فقال : الحَمْدُ لله ، اكْتُبُوا إلىٰ عُمَرَ بذلكَ ، وفاضَتْ نفْسُه رضي الله عنه[3] .

---

(١) انظر السير : (البَراء بن مالك) ١/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧ .

(٢) انظر السير : (أبو دُجانة الأنصاريّ) ١/ ٢٤٣ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٥٥ .

(٣) أخرج البخاري في الجزية (٣١٥٩) عن جُبير ابن حبّة ، قال : بعث عُمر الناس في أفناء الأمصار يقاتلون المشركين ، فأسلم الهرمزان ، فقال له عُمر : إني مُستشيرك في مغازيّ هٰذه قال : نعم مثلها ومثل ما فيها من الناس ، من عدو المسلمين ، مثل طائر له رأس وله جناحان وله رجلان ، فإن كُسر أحد الجناحين نهضت بجناح والرأس ، فإن كُسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس ، وإن شُرخ الرأس ذهبت الرجلان والجناحان والرأس ، فالرأس كسرىٰ ، والجناح قيصر ، والجناح الآخر فارس فمر المسلمين فلينفروا إلىٰ كسرىٰ عن جُبير ابن حبة قال : فندَبنا عُمرُ ، واستعمل علينا النعمان بن مقرّن حتىٰ إذا كنا بأرض العدو ، وخرج علينا عامل كسرىٰ في أربعين ألفاً فقام تُرجمان فقال : ليكلمني رجلٌ منكم ، فقال المغيرة : فسل عمّا شئت قال : ما أنتم!! ؟ ، قال : « نحن أناس من العرب ، كنا=

وعن اللَّيثِ قالَ : كانَ عبدُ الله بنُ سَعد والِياً لعُمَرَ على الصَّعِيدِ ، ثمَّ ولاَّه عُثمانُ مِصْرَ كُلَّها ، وكان مَحْموداً غَزَا إفْرِيقِيَّةَ فقَتَلَ جُرْجِيرَ صاحِبَها ، وبَلَغَ السَّهمُ للفارِسِ ثلاثةُ آلافِ دينارٍ ، وللرَّاجِلِ ألفُ دينارٍ ، ثمَّ غَزَا ذاتَ الصَّواري ، فلَقُوا ألفَ مَركَبٍ للرُّومِ ، فقُتِلَتِ الرُّومُ مَقْتَلةً عظيمةً ، لَمْ يُقْتَلُوا مثلها قَطُّ ، ثمَّ غَزوةُ الأسَاوِد[1] .

(ج) مَعارِكُ عظيمةٌ في التاريخ الإسْلاميّ :

قال اليَسَعُ بنُ حَزْمٍ : هَمَّت الرُّومُ بما لَمْ يَنالُوا من طَلَبِ الثُّغُورِ ، فنَكَثُوا العَهْدَ ، فتَجَهَّزَ الحَكَمُ بنِ هشَام ، إليهم حتىٰ جَازَ جَبَلَ السَّارة ـ شَمَالِيَ طُلَيْطِلَةَ ـ ففرَّت الرُّومُ أمَامَه حتىٰ تَجَمَّعوا بمدينةِ سَمُّورَة ، فلمَّا الْتَقَى الجَمْعانِ ، نَزَلَ النَّصْرُ ، وانْهَزَمَ الكُفْرُ ، وتَحَصَّنُوا منه بمدينةِ سَمُّورةَ ، وهي كبيرةٌ جداً فحَصَرَها المُسلمُون بالمِنْجَنِيقِ حتى افْتَتَحُوها عُنْوَةً ، ومَلَكُوا أكثرَ شَوارِعَها ، واشْتَغَلَ الجُندُ بالغَنَائِمِ ، وانضَمَّت الرُّومُ إلىٰ جِهَةٍ من البَلَدِ ، وخَرجُوا علىٰ حَمِيَّة فقَتَلوا خَلْقاً في خُروجِهم ، فكانت غَزْوتُه من أعْظَمِ المَغازِي لولا ما طَرَأَ فيها من تَضْيِيعِ الحَزْمِ ، ورامَت الرُّومُ السِّلْمَ ، فأبَىٰ عليهم الحَكَمُ ، ثمَّ خَرَجَ من بلادِهم خَوفاً من الثُّلُوجِ ، فلمَّا كان العَامُ الآتِي اسْتَعَدَّ أعْظَمَ اسْتِعدَادٍ ، وقَصَدَ سَمُّورةَ فقَتَلَ فيها وسَبَىٰ كُلَّ ما مَرَّ به ، ثمَّ نَازَلَها شَهْرَينِ ، ثمَّ دَخلُوها بعد جَهْدٍ ، وبَذَلُوا فيها السَّيفَ إلى المَسَاءِ ، ثمَّ انْحَازَ المُسلمونَ فبَاتُوا علىٰ أسْوارِها ، ثمَّ صَبَّحوها من الغَدِ لا يُبْقُونَ علىٰ مُحْتَلِمٍ .

قال الرَّازِيُّ في « مَغَازِي الأنْدَلُسِ » : الذي أُحْصِيَ ممَّن قُتِلَ في سَمُّورةَ ثلاثُ مِئَةِ ألفِ نَفْسٍ ، فلمَّا بَلَغَ الخَبَرُ مَلِكَ رُوميَّة كَتَبَ إلى الحَكَمِ يَرْغَبُ في الأمَانِ ، فوَضَعَ

= في شقاء شديد وبلاء شديد ، نمص الجلد والنوىٰ من الجوع ، ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السماوات ورب الأرضين ـ تعالىٰ ذكره وجلت عظمته ـ إلينا نبيّاً من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا رسول ربنا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتىٰ تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم عن رسالة ربنا أنه مَن قُتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم يُرَ مثلها قطّ ، ومَن بقي منا ملك رقابكم » .

انظر السير : (النُعمان بن مُقرِّن) ١/ ٤٠٣ـ ٤٠٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٨٢ .

(١) انظر السير : (عبد الله بن سعد) ٣/ ٣٣ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٢٦ .

الحَكَمُ على الرُّومِ ما كان جَدُّه وَضَعَ عليهم ، وزَادَ عليهم أن يَجْلِبُوا من تُرابِ مدينةِ رُوميَّةَ نفسِها ما يُصْنَعُ به أكْوامٌ بشَرْقِي قُرْطُبَةَ صَغاراً لهم ، وإعْلاءً لمَنَارَةِ الإسْلامِ ، فهُما كَوْمانِ من التُّرابِ الأحْمَرِ في بَسِيطِ مدرَتِها السَّوْداء[1] .

قال أبو المُظَفَّر بنُ الجَوْزيّ : مُحمَّدُ بنُ عبد الرَّحمَـٰن بنِ الحَكَم هو صاحِبُ وقْعَةِ سَليط[2] ، وهي مَلْحَمَةٌ مَشْهُورَةٌ لَمْ يُعْهَد قَبلَها بالأَنْدَلُسِ مِثلَها ، يُقالُ : قُتِلَ فيها ثلاثُ مِئَةِ ألفِ كافِرٍ ، وهـٰذا شيءٌ لَمْ نَسْمَع بمِثْلِه ، قال : وللشُّعَرَاءِ فيه مَدَائِحُ كثيرةٌ .

قال الذهبيُّ : ماتَ في سَنةِ ثلاثٍ وسَبعِين ومِئَتَيْنِ عن أرْبَعٍ وسِتينَ سَنة رحِمَه الله[3] .

جاءَ في تَرجَمَةِ المُعْتَمِدِ على الله قال الذهبيُّ : وفي سَنةِ سَبعِين نازَلتِ الرُّومُ في مِئَةِ ألفِ طَرَسُوسَ ، فبَيَّتَهم يازْمانُ الخادِمُ فقِيلَ : قُتِلَ منهُم سَبعُونَ ألفاً ، وقُتِلَ مَلِكُهُم ، وأُخِذَ منهم صَلِيبُ الصَّلَبُوت فالحَمدُ لله علىٰ هـٰذا النَّصْرِ العَزِيزِ الذي لَمْ يُسْمَع بمِثْلِه ، مع تمَامِ المِنَّةِ على الإسْلامِ بمَصْرَعِ الخَبِيث .

وعادَ المُوَفَّقُ إلىٰ بَغْدَادَ مَرِيضاً من نِقْرسٍ ، ثمَّ صَارَ داءَ الفِيلِ وقَاسَىٰ بلاءً ، فكان يقولُ : في دِيوانِي مِئَةُ ألفِ مُرْتَزَقٍ ، ما أَصْبحَ فيهِم أسْوَأَ حالاً منِّي ، ثمَّ ماتَ .

وفي سَنَةِ تَسعٍ وسَبعينَ خُلِعَ المُفَوَّضُ بنُ المُعْتَمِد من وِلايَةِ العَهْدِ ، وقُدِّمَ عليه أبو العَبَّاس المُعْتَضِدُ بنُ المُوَفَّق نَهَضَ بذَلِك الأُمَرَاءُ .

وفيها مَنَعَ أبو العَبَّاسِ القُصَّاصَ والمُنَجِّمينَ ، وأَلْزَمَ الكُتبيِّينَ أنْ لا يَبِيعُوا كُتُبَ الفَلْسَفَةِ والجَدَلِ ، وضَعُفَ أمْرُ عَمِّه المُعْتَمِد معَه ، ثمَّ ماتَ فَجْأةً لإحْدَىٰ عَشر ليلةً بَقِيَتْ من رَجَبَ سَنَةَ تِسْعٍ وسَبْعِينَ ومِئَتَينِ ببَغْدَادَ ونُقِلَ فدُفِنَ بسَامرَّاءَ ، فكانت خِلافَتُه ثلاثاً وعِشْرينَ سَنةً وثلاثةَ أيَّامٍ[4] .

---

(١) انظر السير : (الحَكم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٥١ .

(٢) انظر « الكامل » لابن الأثير : ٧/ ٧٣ ، ٧٤ ، وانظر « نفح الطيب » ١/ ٣٥٠ .

(٣) انظر السير : (محمد بن عبد الرحمـٰن بن الحكم) ٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٥٤ .

(٤) انظر السير : (المعتمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٣٤ .

وافْتَتَحَ ابنُ سُبْكْتِكِين عِدةَ مَدائِنَ بالهِنْدِ ، ووَرَدَه كِتابُ القَادِرِ بالله ، ففِيهِ : صَدَرَ العَبدُ من غَزْنَةَ في أوَّلِ سَنةِ عَشرٍ وأرْبَعِ مِئَة ، وانتُدَبَ لتَنفِيذِ الأَوامِرَ فرَتَّبَ في غَزْنَةَ خَمسةَ عَشرَ ألفَ فارِسٍ ، وأَنْهَضَ ابنَه في عِشرينَ ألفاً وشَحَنَ بَلْخَ وطَخَارُسْتَانَ باثني عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرةَ آلافِ راجلٍ ، وانتُخِبَ ثلاثينَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرَةَ آلافِ راجلٍ لصُحْبَةِ رَايَةِ الإسْلام ، وانْضَمَّ إليه المُطَّوِّعَةُ ، فافْتَتَحَ قِلاعَاً وحُصُوناً وأَسْلَمَ زُهَاءَ عِشرينَ ألفاً ، وأَدَّوْا نَحوَ أَلْفِ أَلْفٍ من الوَرِقِ ، وثلاثين فِيلاً ، وعِدَّةُ الهَلْكَىٰ خَمسُونَ ألفاً ووَافَى العَبدُ مدينةً لهم عَايَنَ فيها نَحوَ ألفِ قَصْرٍ ، وألفَ بيتٍ للأَصْنَام ، ومَبْلَغُ ما على الصَّنَمِ ثمَانِيَةٌ وتِسْعونَ ألفَ دينارٍ ، وقَلَعَ أَزْيَدَ من ألفِ صَنَمٍ ، ولهم صَنَمٌ مُعَظَّمٌ يُؤَرِّخُونَ مُدَّتَه بجَهَالَتِهم بثلاثِ مِئَةِ ألفِ سَنَةٍ ، وحَصَّلْنا من الغَنَائِمِ عِشْرينَ ألفِ ألفِ درهمٍ ، وأُفْرِدَ الخُمْسُ من الرَّقِيقِ ، فبَلَغَ ثلاثةً وخَمْسِينَ ألفاً ، واسْتَعْرَضْنَا ثلاثَ مِئَةٍ وسِتةٍ وخَمسِينَ فِيلاً .

وفي سَنَةِ اثْنَتَينِ وعِشرينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، ماتَ القَادِرُ باللهِ ، وعَاشَ سَبْعاً وثمَانِينَ سَنةً سِوَىٰ شهرٍ وثمانيةَ أيَّامٍ ، وما عَلِمْتُ أحَداً من خُلَفَاءِ هٰذهِ الأُمَّة بَلَغَ هٰذا السِّنَّ ، ولا حتىٰ عُثْمانَ رضي الله عنه[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ المَنْصُورِ العُبَيْدِيِّ الباطِنِيّ قال الذهبيُّ : وقد كان في سَنَةِ أرْبَعِينَ جَهَّزَ أبو الطَّاهِر إسْماعِيلُ بنُ القَائِم بنِ المَهْدِيِّ جَيْشَه في البَحْرِ إلىٰ صِقِلِّيَّةَ ، فهَزَمُوا النَّصارَىٰ وكانت مَلْحَمَةً عُظْمَىٰ ، قُتِلَ فيها من العَدُوِّ ثلاثُونَ ألفاً وأُسِرَ منهم ألُوفٌ ، وغَنِمَ الجُندُ ما لا يُعبَّر عنه .

وقِيلَ : إنَّه افْتَتَحَ مدينةَ جَنْوَةَ .

وحَكَمَ علىٰ مَمْلَكَةِ صِقِلِّيَة وافْتَتَحَ له نائِبُه عليها فُتُوحاتٍ ، وانتُصِرَ على العَدُوِّ وفَرِحَ بذَلك المُسلمونَ ، وتَوَطَّدَ سُلطَانُه .

---

(١) انظر السير : (القادر بالله) ١٥/١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٤ .

وكان المَنْصُورُ مُحَبَّباً إلى الرَّعِيَّة مُقْتَصِراً علىٰ إظْهَارِ التَّشَيُّع وقام بعدَه المُعِزُّ وَلَدُه[1] .

وفي سَنةِ أرْبَعِينَ وأربع مئة غَزَتْ الغُزُّ مع إبراهِيمَ يَنَال السَّلْجُوقِيّ ، وقِيلَ : ما كانَ مَعَهُم ، فغزَوْا إلىٰ قَريبِ القُسْطَنْطِينِيَّة ، وغَنِمُوا وسَبُوا أَزْيَدَ من مِئَةِ ألفٍ ، وقِيلَ : جُرَّت المَكَاسِبُ علىٰ عَشْرةِ آلافِ عَجَلةً ، وكان فَتْحاً عَظِيماً وكان الرَّفْضُ أيْضاً قَوِيّاً بالعِراقِ[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ طغَان خَان التُّركِيِّ صاحِبِ تُرْكِسْتان وبَلاَسَاغُون ، وكاشغر ، وخَتن ، وفاراب : قَصَدَتْهُ جُيوشُ الصِّينِ والخَطَا[3] في جَمْعٍ ما سُمِعَ بمِثْلِه ، حتىٰ قِيلَ : كانوا ثلاثَ مِئَةِ ألفٍ

وكان مَرِيضاً فقال : اللَّهُمَّ عافِنِي لأَغْزُوَهم ، ثمَّ تَوَفَّنِي إنْ شِئْتَ ، فعُوفِيَ ، وجَمَعَ عَسَاكِرَه ، وسَاقَ ، فبَيَّتَهم ، وقَتَلَ منهم مِئَتَيْ ألفٍ ، وأَسَرَ مِئَةَ ألفٍ ، وكانت مَلْحَمَةً مَشْهُودةً في سَنةِ ثمَانٍ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، ورَجَعَ بغَنَائِمَ لا تُحْصَىٰ إلىٰ بَلاَسَاغُون ، فتَوَفَّاه اللهُ عَقِيبَ وُصُولِه .

وكان دَيِّناً عَادِلاً ، بَطَلاً شُجَاعاً[4] .

وبَلَغَ السُّلطانَ المَلِكَ يَمِينَ الدَّولَةِ مَحمُودَ سُبْكتِكِين أنَّ الهُنودَ قالوا : أَخْرَبَ أكْثَرَ بلادِ الهِنْدِ غَضَبُ الصَّنَمِ الكبيرِ سُومَنات علىٰ سائِرِ الأصْنامِ ومَنْ حَوْلَها ، فعَزَمَ علىٰ غَزْوِ هـٰذا الوَثَنَ ، وسَارَ يَطوِي القِفَارَ في جَيشِه إليه ، وكانوا يقُولونَ : إنَّه يَرْزُقُ ويُحْيِي ويُميتُ ويَسْمَعُ ويَعِي ، يَحُجُّون إليه ويُتْحِفُونَه بالنَّفائِس ، ويَتَغَازَلُون فيه كثيراً ، فتَجَمَّعَ عند هـٰذا مالٌ يَتَجَاوَزُ الوَصْفَ ، وكانوا يَغْسِلُونَه كلَّ يومٍ بماءٍ وعَسَلٍ ولَبَن ، ويَنْقُلُونَ

---

(١) انظر السير : (المنصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٣ .

(٢) انظر السير : (المستنصر بالله) ١٥/١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١١ .

(٣) قال القلقشندي : إن اسم الخَطَا يُطلق علىٰ بلاد متاخمة للصين يسكنها جنس من الترك ، وقد أسسوا دولتهم في القرن السادس الهجري ، والثاني عشر الميلادي وكانت بينهم وبين المسلمين حروب طويلة .

(٤) انظر السير : (طغان خان) ١٧/٢٧٨ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٣١ .

إليه الماءَ من نَهْرِ حيل مَسيرَةَ شَهرٍ ، وثلاثُ مِئَةٍ يَحْلِقُونَ رُؤُوسَ حُجَّاجِه ولِحَاهُم ، وثلاثُ مِئَةٍ يُغَنُّونَ فسَارَ الجَيشُ من غَزْنة ، وقَطَعُوا مَفَازَةً صَعبَةً وكانوا ثلاثينَ ألفَ فارسٍ وخَلْقاً من الرَّجَّالَةِ والمُطَوِّعَة ، وقَوَّى المُطَوِّعَةَ بخَمْسِينَ ألفَ دينارٍ ، وأَنْفَقَ في الجَيْشِ فَوقَ الكِفَايةِ ، وارْتَحَلَ من المُليا ثانِيَ يوم الفِطْرِ سنةَ ٤١٦ هـ ، وقاسُوا مَشَاقَّ وبَقُوا لا يَجِدُونَ الماءَ إلاَّ بعدَ ثلاثٍ ، غَطَّاهُم في يومٍ ضَبَابٌ عظيمٌ ، فقالت الكَفَرَةُ : هـٰذا من فِعْلِ الإلَهِ سُومَنات .

ثمَّ نازَلَ مدينةَ أَنْهَلْوَارَة ، وهَرَبَ ملِكُها إلىٰ جَزيرَةٍ ، فأَخْرَبَ المُسلمُونَ بلَدَه ، ودَكُّوها ، وبينَها وبَيْنَ الصَّنَمِ مَسِيرَةَ شَهرٍ في مَفَاوِزَ ، فسَارُوا حتىٰ نَازَلُوا مدينةَ دَبُولوارة ، وهي قَبْلَ الصَّنَمِ بيَوْمَيْن ، فأُخِذَت عُنْوَةً ، وكُسِرَتْ أَصْنَامُهَا ، وهي كثيرةُ الفَوَاكِه ، ثمَّ نَازَلُوا سُومَنات في رابعَ عَشَرَ ذي القِعدَة ، ولها قَلْعَةٌ مَنِيعَةٌ على البحرِ ، فوَقَعَ الحِصَارُ فنُصِبَت السَّلالِمُ عليها ، فهَرَبَ المُقاتِلَةُ إلى الصَّنَمِ وتَضَرَّعُوا له ، واشْتَدَّ الحالُ وهم يَظُنُّون أنَّ الصَّنَمَ قد غَضِبَ عليهم ، وكان في بيتٍ عظِيمٍ مَنِيعٍ علىٰ أبْوَابِه السُّتُورُ الدِّيبَاجُ وعلى الصَّنَمِ من الحُليِّ والجَوَاهِر ما لا يُوصَف والقَنَادِيلُ تُضِيءُ ليلاً ونهاراً ، علىٰ رَأسِه تاجٌ لا يُقَوَّمُ ، يَنْدَهِشُ منه النَّاظِرُ ويَجْتَمِعُ عندَه في عِيدِهم نَحْوَ مِئَةِ ألفِ كافِرٍ ، وهو علىٰ عَرْشٍ بَدِيعِ الزَّخْرَفَةِ عُلُوَّ خَمسةِ أَذْرُعٍ ، وطُولُ الصَّنَمِ عَشرَةَ أَذْرُعٍ ، وله بَيْتُ مالٍ فيه من النَّفَائِسِ والذَّهَبِ ما لا يُحْصَىٰ ، فَفَرَّقَ مَحمُودٌ في الجُنْدِ مُعْظَمَ ذلك ، وزَعْزَعَ الصَّنَمَ بالمَعَاوِلِ ، فخَرَّ صَرِيعاً ، وكانت فِرقَةٌ تَعْتَقِدُ أنَّه مَنَاتْ ، وأنَّه تَحَوَّلَ بنفسِه في أيَّامِ النُّبُوَةِ من سَاحِلِ جُدَّة ، وحَصَلَ بهـٰذا المَكَان ليُقْصَدَ ويُحَجَّ إليه مُعَارَضَةً للكَعْبَةِ ، فلمَّا رَآهُ الكُفَّارُ صَرِيعاً مَهِيناً ، تَحَسَّرُوا وسُقِطَ في أيدِيهم ، ثمَّ أُحْرِقَ حتىٰ صَارَ كلساً ، وأُلقِيَت النِّيرَانُ في قُصُورِ القَلْعَة ، وقُتِلَ بها خَمسُونَ ألفاً ، ثمَّ سارَ مَحمُودٌ لأَسْرِ المَلِكِ بهيم ، ودَخَلُوا بالمَرَاكِبِ ، فهَرَبَ ، وافْتَتَحَ مَحمُودٌ عِدَّةَ حُصُونٍ ومَدَائِنَ ، وعادَ إلىٰ غَزْنَة فدَخَلَها في ثامِنِ صَفَر سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ ، ودَانَتْ له المُلُوكُ ، فكانت مُدَّةُ الغَيْبَةِ مِئَةً وثلاثَةً وستِّينَ يوماً .

وقد خُطِبَ له بالغُورِ وبخُراسَان والسِّنْدِ والهِنْدِ وناحِيَةَ خَوَارِزْم وبَلْخ ، وهي من

خُرَاسَان ، وبجُرجان وطَبَرِستان والرَّيِّ والجِبَال ، وأصْبَهَان وأذْرَبِيجان وهَمَذَان وأرْمِينيَة .

وكان مُكْرِماً لأُمَرَائِه وأصْحابِه ، وإذا نَقَمَ عَاجَل ، وكان لا يَفْتُرُ ولا يَكَادُ يَقِرُّ وكان يَعْتَقِدُ في الخَلِيفَةِ ، ويَخْضَعُ لجَلالِه ، ويَحْمِلُ إليه قَنَاطِيرَ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وكان إلْباً على القَرَامِطَة والإسْمَاعيليَّة وعلى المُتَكَلِّمين ، علىٰ بِدْعَةٍ فيه فيما قَبْل ، ويَغْضَبُ للكرّاميّة ، وتَصَرُّفه على الأخْلاقِ الزَّكيَّة ، وكان فيه شِدَّةٌ وَطْأةٍ على الرَّعِيَّة ، ولكن كانوا في أَمْنٍ وإقامَة سِياسَة .

وقال مَحمُودٌ يوماً للأميرِ أبي طاهِر السَّامانيّ : كَمْ جَمَعَ آباؤُك من الجَوْهَرِ ؟ قال : سَمعتُ أنَّه كان عند الأميرِ الرَّضي سَبْعَةُ أرْطالٍ فسَجَدَ شُكراً وقال : أنا في خِزَانَتِي سَبْعُون رَطْلاً[1] .

جاءَ في تَرجَمَةِ السلطانِ ألْب آرْسَلان قال الذهبيُّ : عَظُمَ أمْرُ السلطانِ ألْب آرسَلان ، وخُطِبَ له علىٰ مَنَابِرِ العِراقِ والعَجَم وخُراسَان ، ودانَتْ له الأُمَمُ ، وأحَبَّتْه الرَّعَايَا ، ولا سِيَّمَا لمَّا هَزَمَ العَدُوَّ فإنَّ الطَّاغِيَةَ عَظِيمَ الرُّومِ أَرْمانُوس حَشَدَ ، وأقْبَلَ في جَمْعٍ ما سُمِعَ بمِثْلِه في نَحوٍ من مِئَتَيّ ألفِ مُقاتِلٍ من الرُّومِ والفِرَنْج والكَرْج وغيرِ ذلك ، ووَصَلَ إلىٰ مَنازْكِرْد[2] وكان السُّلطانُ بِخُوَيّ[3] قد رَجَعَ من الشَّامِ في خَمسَةَ عشرَ ألف فارسٍ ، وباقي جُيُوشِه في الأطْرافِ ، فصَمَّمَ على المَصافِّ ، وقال : أنا أُلْتَقِيهم ـ وحَسْبِيَ اللهُ ـ فإنْ سَلِمْتُ ، وإلاَّ فابْنِي مَلِكْشاه وَلِيُّ عَهْدِي ، وسَارَ ، فالْتَقَىٰ يَزَكُه[4] ، ويَزَكُ القومِ فكَسَرَهم يَزَكُه ، وأَسَروا مُقَدَّمَهم ، فقَطَعَ السُّلطانُ أنْفَه ، ولمَّا الْتَقَى الجَمْعانِ وتَراءَى الكُفْرُ والإيمانُ ، واصْطَدَمَ الجَبَلانِ ، طَلَبَ السُّلطانُ الهُدْنَةَ ، قال أرْمَانُوسُ : لا هُدنَةَ إلاَّ ببَذْلِ الرَّيّ ، فحَمِيَ السُّلطانُ وشَاطَ ، فقال إمامُه : إنَّكَ تُقاتِلُ عن دينٍ وَعَدَ اللهُ بنَصْرِهِ ، ولَعَلَّ هـٰذا الفَتْحُ باسْمِك ، فالتَقِهِم وقْتَ الزَّوَالِ ـ وكان يومَ

---

(١) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٣ .

(٢) مَنازْكِرْد : بلد في أرمينية ، وأهله أرمن وروم .

(٣) خُوَيّ : بلد بأذربيجان .

(٤) اليَزَك : كلمة فارسية معناها : مقدمة الجيش .

جُمُعَة ـ قال : فإنَّه يكونُ الخُطَبَاءُ على المَنَابِرِ ، وإنَّهم يَدْعُونَ للمُجَاهِدينَ ، فَصَلَّوْا ، وبَكَى السُّلطانُ ، ودَعَا وأَمَّنُوا ، وسَجَدَ ، وعَفَّرَ وجْهَهُ وقال : يا أُمَرَاءُ! مَنْ شَاءَ فلْيَنْصَرِفْ ، فمَا ها هُنَا سُلطانٌ ، وعَقَدَ ذَنَبَ حصانِه بيَدِه ، ولَبِسَ البَيَاضَ وتَحَنَّطَ ، وحَمَلَ بجَيْشِه حَمْلَةً صادِقَةً ، فوَقَعُوا في وَسَطِ العَدُوِّ يَقْتُلُونَ كيفَ شَاؤُوا ، وثَبُتَ العَسْكَرُ ، ونَزَلَ النَّصْرُ ، ووَلَّتِ الرُّومُ ، واسْتَحَرَّ بهم القَتْلُ ، وأُسِرَ طاغِيَتُهم أرْمانُوس ، أَسَرَهُ مَمْلُوكٌ وهَمَّ بقَتْلِه ، فقال إفْرِنْجيٌّ : لا لا ، فهٰذا المَلِكُ وقرَأتُ بخَطِّ القِفْطِيِّ أنَّ ألْبَ آرسَلان بالَغَ في التَّضَرُّعِ والتَّذَلُّلِ ، وأخْلَصَ للهِ وكَيْفِيَّةُ أَسْرِ الطَّاغُوتِ أنَّ مَمْلُوكاً وَجَدَ فَرَساً بلِجَامٍ مُجوهَرٍ وسِرْجٍ مُذَهَّب مع رَجُلٍ ، بينَ يَدَيْه مِغْفَرٌ من الذَّهَبِ ، ودِرْعٌ من الذَّهَبِ ، فهَمَّ الغُلامُ فأتىٰ به بينَ يَدَيّ السُّلطانِ ، فقَنَّعَه بالمِقْرَعَةِ ، وقال : ويْلَك! ألَمْ أبْعَثْ أطلُبُ منْكَ الهُدنَةَ ؟ فقال : دَعْنِي من التَّوبيخِ ، قال : ما كان عَزْمُك لَو ظَفِرْتَ بِي ؟ قال : كُلُّ قَبيحٍ قال : فما تُؤَمِّلُ وتَظُنُّ بِي ؟ قال : القَتْلُ أو تُشَهِّرُني في بلادِك والثالثةُ بَعِيدَةٌ : العَفْوُ وقَبُولُ الفِداءِ قال : ما عَزَمْتُ علىٰ غَيرِها فاشْتَرَىٰ نفسَه بألفِ ألفِ دينارٍ وخَمسِ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، وإطْلاقِ كُلِّ أسِيرٍ في بلادِه ، فخَلَعَ عليهِ ، وبَعَثَ معَه عُدَّةً وأعْطَاهُ نَفَقَةً تُوصلُه ، وأمَّا الرُّومُ فبَادَرُوا ، ومَلَّكُوا آخَرَ ، فلمَّا قَرُبَ أرْمانُوسُ ، شَعَرَ بزَوالِ مُلْكِه ، فلَبِسَ الصُّوفَ وتَرَهَّبَ ، ثمَّ جَمَعَ ما وَصَلَتْ يدُه إليهِ نَحوَ ثلاثِ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، وبَعَثَ بها ، واعْتَذَرَ وكانت المَلْحَمَةُ في سَنَةِ ثلاثٍ وسِتين .

وقد غَزَا بلادَ الرُّومِ مرَّتَيْن وافْتَتَحَ قِلاعاً ، وأَرْعَبَ المُلُوكَ ، ثمَّ سَارَ إلىٰ أَصْبَهَانَ وذَهبَ إلىٰ شِيرازَ ، ثمَّ عادَ إلىٰ خُراسَانَ ، وكادَ أنْ يَتَمَلَّكَ مِصْرَ .

ثمَّ في سَنةِ خَمسٍ عَبَرَ السُّلطانُ بجُيُوشِه نَهْرَ جَيْحُونَ ، وكانوا مِئَتَيّ ألفَ فارسٍ فأُتِيَ بعِلْجٍ يُقالُ له : يُوسُف الخَوَارِزْميّ كانت بيَدِهِ قَلعَةٌ ، فأَمَرَ أنْ يُشْبَحَ في أرْبَعَةِ أوْتادٍ ، فصَاحَ : يا مُخَنَّثُ ؛ مِثْلِي يُقتَلُ هٰكذا ؟!! ، فاحْتَدَّ السُّلطانُ ، وأخَذَ القَوْسَ ، وقال : دَعُوهُ ورَمَاهُ فأخْطَأَهُ ، فظَفَرَ[1] يُوسُفُ إلى السَّريرِ ، فقامَ السُّلطانُ فعَثَرَ علىٰ

---

(١) ظَفَرَ : أي وثبَ في ارتفاع .

وجْهِهِ ، فبَرَكَ العِلْجُ على السُّلطانِ ، وضَرَبَه بسَكِّينٍ ، وتَكاثَرَ المَماليكُ فهبَّرُوهُ ، وماتَ منها السُّلطانُ ، وذلكَ سَنَةَ خَمسٍ وسِتينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، وله أرْبَعُونَ سَنَةً[1] .

وجاء في تَرجَمَةِ المُعْتَمِدِ بنِ عَبَّادٍ صاحِبِ الأَنْدَلُسِ قال الذهبيُّ : قال ابنُ خَلِّكان : كان الأذْفونشُ قد قَوِيَ أمْرهُ ، وكانت المُلُوكُ بالأَنْدَلُسِ يُصالِحُونَه ، ويَحْمِلُون إليه ضَرائِبَ ، وأخَذَ طُلَيْطِلَةَ في سَنةِ ثمَانٍ وسَبعِين بعد حِصارٍ شَديدٍ من القَادِرِ بنِ ذي النُّونِ ، فكانَ ذلكَ أوَّلَ وَهْنٍ دَخَلَ من الفِرَنْجِ على المُسلِمين ، وكان المُعْتَمِدُ بنُ عَبَّاد يُؤَدِّي إليه ، فلمَّا تَمَكَّنَ لَمْ يَقْبَل الضَّريبَةَ وتَهَدَّدَه ، وطَلَبَ منه أنْ يُسَلِّمَ حُصُوناً ، فضَرَبَ الرسُولَ وقَتَلَ مَنْ معَه ، فتَحَرَّكَ اللَّعِينُ ، واجْتَمَعَ العُلَماءُ واتَّفَقُوا علىٰ أنْ يُكاتِبُوا الأميرَ أبا يَعْقُوبَ بنَ تاشِفينَ صاحِبِ مَرَّاكُش ليُنْجِدَهم ، فعَبَرَ ابنُ تاشِفين بجُيُوشِه إلى الجَزِيرَة ، ثمَّ اجْتَمَعَ بالمُعْتَمِدِ ، وأقْبَلَتِ المُطَّوِّعَةُ من النَّواحِي ، ورَكِبَ الأذْفونُش في أرْبَعِينَ ألفَ فارسٍ ، وكَتَبَ إلى ابنِ تاشِفين يَتَهَدَّدُه ، فكَتَبَ في ظَهْرِ كِتَابِه : « الذِي يكُونُ سَتَراه » ثمَّ الْتَقَى الجَمْعَانِ واصْطَدَمَ الجَبَلانِ بالزَّلاَّقَةِ من أرْضِ بَطَلْيَوْس[2] فانْهَزَمَ الكَلْبُ ، واسْتُؤْصِلَ جَمْعُه ، وقَلَّ مَنْ نَجَا في رَمَضَانَ سَنة تِسْعٍ وسَبعِين ، وجُرِحَ المُعْتَمِدُ في بَدَنِه ووَجْهِه ، وشُهِدَ له بالشَّجَاعَةِ والإقْدَامِ ، وغَنِمَ المُسْلِمون ما لا يُوصَفُ ، وغَدَا[3] ابنُ تاشِفين[4] .

وقال الذهبيُّ : وفي سَنةِ خَمْسِمِئَة وثلاثٍ وأرْبَعِينَ جاءَتْ ثَلاثَةُ مُلُوكٍ من الفِرَنْجِ إلى القُدْسِ ، منهُم طَاغِيَةُ الأَلْمانِ ، وصَلَّوْا صَلاة المَوتِ ، وفَرَّقُوا علىٰ جُندِهم سَبعَ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، فلَمْ يَشْعُرْ بهم أهلُ دِمَشْقَ إلاَّ وقد صَبَّحُوهم في عَشْرَةِ آلافِ فارسٍ وسِتينَ ألفِ رَجْلٍ ، فخَرَجَ المُسلِمُونَ فارِسُهُم وراجِلُهُم ، والْتَقَوا ، فاسْتُشْهِدَ نَحوَ المِئَتَيْنِ ، منهُم الفَنْدَلاوِيُّ ، وعبدُ الرَّحمَـٰنِ الحَلْحُولِيّ ، ثمَّ اقْتَتَلُوا من الغَدِ ، وقُتِلَ خَلْقٌ من

---

(١) انظر السير : (ألب آرسلان) ١٨/ ٤١٤ـ ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٤٢٦ .

(٢) مدينة كبيرة بالأندلس ، تقع على الحدود الشرقية للبرتغال ، كانت عاصمة بني الأفطس التجيبيين في عهد ملوك الطوائف .

(٣) أي رجع إلىٰ بلاده .

(٤) انظر السير : (المعتمد بن عباد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٥٨ .

الفِرَنْجِ ، فلمَّا كان خامِسُ يوم وَصَلَ من الجَزِيرَةِ غَازِي ابنُ زِنْكِي في عِشْرينَ ألفاً ، وتَبِعَهُ أخُوهُ نُورُ الدِّينِ وكان الضَّجِيجُ والدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ بدِمَشْقَ لا يُعَبَّرُ عنه ، ووَضَعُوا المُصْحَفَ العُثْمَانِيَّ في صَحْنِ الجَامِعِ ، وكان قِسِّيسُ العَدُوِّ قال وعَدَنِي المَسِيحُ بأخْذِ دِمَشْقَ ، فحفُّوا به ورَكِبَ حِمَارَه وفي يدِه الصَّلِيبُ ، فشَدَّ عليه الدَّماشِقَةُ ، فقَتَلُوهُ ، وقَتَلُوا حِمَارَه ، وجاءَتِ النَّجَدَاتُ ، فانْهَزَمَ الفِرَنْجُ[1] .

وقال الذهبيُّ : وفي سَنَةِ خَمسٍ وثمَانِينَ غَزَا صاحِبُ المَغرِبِ السُّلطانُ يَعْقُوبُ بنُ يُوسُفَ الفِرَنْجَ ، ثمَّ رَجَعَ ، فمَرِضَ ، وتَكَلَّمَ أخُوهُ أبو يَحْيَىٰ في المُلكِ ، فلمَّا عُوفِيَ قَتَلَهُ ، وتَهَدَّدَ القَرَابَةَ[2] .

وفي سَنَةِ تسْعِينَ انْتَقَضَتْ الهُدنَةُ ، فتَجَهَّزَ ، وعَرَضَ جُيوشَه بإشْبيلية ، وأنْفَقَ الأموالَ ، فقَصَدَهُ الْفُنْشُ فالْتَقَوْا ، وكان النَّصرُ عَزيزاً ، ما نَجَا الْفُنْشُ إلاَّ في شُرَيْذِمَةٍ ، واسْتُشْهِدَ من الكِبارِ جَماعَةٌ ، واسْتَوْلَىٰ يَعْقُوبُ علىٰ قِلاعٍ ، ونَازَلَ طُلَيْطِلَةَ ، ثمَّ رَجَعَ ، ثمَّ غَزَا ووَغَّلَ ، بحيثُ انْتَهىٰ إلىٰ أرْضٍ ما وَصَلَتْ إليها المُلوكُ ، فطَلَبَ الْفُنْشُ المُهَادَنَةَ ، فعُقِدَتْ عَشْراً ، ثمَّ رَدَّ السُّلطانُ إلىٰ مرّاكُشَ بعد سَنَتَينِ ، وصَرَّحَ بقَصْدِ مِصْرَ .

وكان يَتَوَلَّى الصَّلاةَ بنفسِه أشْهُراً ، فتَعَوَّقَ يوماً ، ثمَّ خَرَجَ ، وهم يَنْتَظِرُونَه ، فلامَهُم ، وقال : قد قَدَّمَ الصَّحابَةُ عبد الرَّحمٰنِ ابنَ عَوْفٍ للعُذرِ ، ثمَّ قَرَّرَ إمَاماً عنه ، وكان يَجْلِسُ للحُكْمِ ، حتى اخْتَصَمَ إليه اثنانِ في نِصْفِ[3] ، فقَضَىٰ ، ثمَّ أدَّبَهُما ، وقال : أمَا كان في البَلَدِ حُكَّامٌ

وكان يَجْمَعُ الأيْتَامَ في العَامِ ، فيَأمُرُ للصَّبيِّ بدينارٍ وثَوبٍ ورَغِيفٍ ورُمَّانةٍ[4] .

وقال الذهبيُّ : وفي سَنَةِ إحْدَىٰ وتِسعِينَ كانت بالأنْدَلُسِ المَلْحَمَةُ العُظْمَىٰ ، وَقْعَةُ

---

(١) انظر السير : (المقْتفي لأمر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٦٨ .

(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٢٧ .

(٣) يعني في نصف درهم .

(٤) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٢٧ .

الزَّلاَّقَة بينَ يَعْقُوبَ وبينَ الفُنْش الذي اسْتَوْلَىٰ علىٰ بلادِ الأَنْدَلُسِ ، فأقْبَلَ اللَّعِينُ في مِئَتَيْ ألفٍ وعَرَضَ يَعْقُوبُ جُنْدَه فكانوا مِئَةَ ألفِ مُرْتَزِقَة ، ومِئَةَ ألفِ مُطَّوِّعَة ، عَدوا البَحرَ إلى الأَنْدَلُسِ ، فنزَلَ النَّصْرُ ونَجا قَليلٌ من العَدُوِّ ، قال أبو شَامَة : عِدَّةُ القَتْلَىٰ مِئَةُ ألفٍ وستةٌ وأرْبَعُونَ ألفاً ، وأُسِرَ ثلاثونَ ألفاً ، وأُخِذَ من خِيَامِهم مِئَةُ ألفِ خَيْمَة وخَمسُونَ ألفاً ، ومن الخَيْلِ ثمَانُونَ ألفَ رأسٍ ومن البِغَالِ مِئَةَ ألفٍ ، ومن الحَمِيرِ التي لأثْقَالِهم أرْبَعِ مِئَةِ ألفٍ ، وبِيعَ الأَسِيرُ بدِرهمٍ والحِصَانُ بخَمْسَة ، وقَسَّمَ السُّلطانُ الغَنِيمَةَ على الشَّرِيعَةِ ، واسْتَغْنَوا[1] .

(د) مَعاركُ خَسِرَ فيها المُسلِمونَ وسَبَبُها :

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ صاحِبِ المغْرِبِ السُّلطانُ أبو عبدِ الله المَلِكِ النَّاصِرِ بنِ السُّلطانِ يَعْقُوبَ : تَمَلَّك البلادَ بعهدٍ من أبيه مُتَقَدِّم إلىٰ أن قال : ثمَّ فَرَغَتْ هُدنَةُ الفِرَنْجِ ، فعَبَرَ السُّلطانُ بجُيُوشِه إلىٰ أشْبيلِيَّةَ ، ثمَّ تَحرَّكَ في سَنةِ ثمانٍ وستٍّ مِئَةٍ لجِهَادِ العَدُوِّ ، فنَازَلَ حِصْناً لهم فأخَذَهُ فسَارَ ألْفُنشُ في أقاصِي المَمَالِك يَسْتَنْفِرُ عُبَّادَ الصَّلِيبِ ، فاجْتَمَعَتْ له جُيوشٌ ما سُمِعَ بمثلِها ، ونَجَدَتْه فِرَنْجُ الشَّامِ ، وعَسَاكِرُ القُسْطَنْطِينيَّة ، ومَلكُ أرْغُن البَرْشلونيّ ، واسْتَنْفَرَ السُّلطانُ أيضاً النَّاسَ ، والْتَقَى الجَمعَانِ ، وتُعْرَفُ بوَقْعَةِ العِقابِ ، فتَحَمَّلَ الْفُنشُ حَمْلَةً شَديدةً ، فهَزَمَ المُسلمِينَ ، واسْتُشْهِدَ خَلْقٌ كثيرٌ ، وكان أكْبَرَ أسْبابِ الكَسْرَةِ غَضَبُ الجُندِ من تَأَخُّرِ عَطَائِهم ، وثَبُتَ السُّلطانُ ثَبَاتاً كُلِّياً ، لَوْلاهُ لاسْتُئْصِلَ جَيشُه ، وكانت المَلْحَمَةُ في صَفَرَ ، سَنةَ تِسعٍ وستٍّ مِئَةٍ ، ورَجَعَ العَدُوُّ بغَنَائِمَ لا تُوصَفُ ، وأخَذُوا بيّاسة عُنْوةً ، فإنَّا لله وإنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ.

مَرِضَ السُّلطانُ أيَّاماً ، ومَاتَ سَنةَ عَشْرٍ وستٍّ مِئَةٍ وكانت أيَّامُه خَمْسَةَ عَشرَ عاماً ، وقَامَ بعدَه ابنُه المُسْتَنْصِرُ يُوسُف عَشْرَةَ أعْوَامٍ[2] .

---

(١) انظر السير : (الناصر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٨ .

(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢٢/ ٣٣٧ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩٨ .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ مُحمَّدِ بنِ يُوسُفَ بنِ هُودٍ : بعدَما خَلُصَت الأنْدَلُسُ كُلُّها له ، فَرِحَ النَّاسُ به فَرَحاً عَظِيماً ، فلمَّا تَمَهَّدَ أمْرُه أنْشَأَ غَزْوةً للفِرَنْجِ علىٰ مدينةِ ماردة بغَربِ الأنْدَلُسِ ، واسْتدْعَى النَّاسَ من الأقْطارِ ، فانتَدَبَ الخَلْقُ له بجِدٍّ واجْتِهَادٍ وخُلُوصِ نِيَّةِ المُرتزِقَةِ والمُطَّوِّعَةِ ، واجْتَمَعَ عليه أهْلُ الأنْدَلُسِ كُلُّهم ، ولَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْ حَبَسَه العُذرُ ، فدَخَلَ بهم إلى الإفْرَنْجِ ، فلمَّا تَرَاءَى الجَمْعانِ وقَعَتِ الهَزِيمَةُ على المُسلمينَ ، أقْبَحَ هَزِيمَةٍ ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعُونَ ، وكانت تلكَ الأرْضُ مَدْيَسَةً بماءٍ وعَزْقٍ تَسَمَّرَتْ فيها الخَيلُ إلىٰ آباطِها ، وهَلكَ الخَلْقُ ، وأتْبَعَهُم الفِرَنْجُ بالقَتلِ والأسْرِ ولَمْ يَبْقَ إلاَّ القَليلُ ، ورَجَعَ ابنُ هُودٍ في أسْوَأِ حالٍ إلىٰ إشْبيليَّةَ ، فنَعُوذُ باللهِ من سُوءِ المُنْقَلَبِ ، فلَمْ تَبْقَ بُقْعَةٌ من الأنْدَلُسِ إلاَّ وفيها البُكاءُ والصِّياحُ العظِيمُ والحُزْنُ الطَّويلُ ، فكانت إحْدَىٰ هَلَكَاتِ الأنْدَلُسِ ، فمَقَتَ النَّاسُ ابنَ هُودٍ ، وصارُوا يُسَمُّونَه « المَحْرُوم » ، ولَمْ يَقْدِرْ أنْ يفْعَلَ مع الفِرَنْجِ كبيرَ فِعلٍ[1] .

(هـ) تَواريخُ عدد من الفُتوحات :

قال اللَّيثُ بنُ سعد : اسْتُخلِفَ عُمرُ فكان فَتحُ دِمَشقَ ، ثم كان اليَرموك سنةَ خَمسَ عشرة ، ثم كانت الجابية سنة ست عشرة ، ثم كانت إيلياء وسَرْغ لسنة سبع عشرة ، ثم كان فتح باب ليُون وقَيْساريّة بالشَّام ، ومَوْت هِرَقْلَ سنة عشرين ، وفيها فُتِحَت مصرُ ، وسنة إحدىٰ وعشرين فُتِحَت نَهاوَند ، وفُتِحَت الإسكندريةُ سنة اثنتين وعشرين وفيها فُتِحَت إصطخر وهمذان ، ثمَّ غزا عَمرُو بنُ العاص أطْرابُلسَ المَغرب ، وغَزوَة عَمُّورية وأميرُ مصرَ وَهبُ بنُ عُمَير الجمحيّ ، وأميرُ أهلِ الشَّامِ أبو الأعْوَر سنة ثلاث وعشرين[2] .

فَتْحُ دِمشْق :

قال ابنُ جَرير : سارَ أبو عُبَيْدة إلىٰ دِمَشْقَ ، وخالدٌ علىٰ مقدمة النَّاس ، وقد اجتمَعت الرُّومُ علىٰ رَجلٍ يُقالُ له بَاهان بدِمَشْقَ ، وكان عُمرُ عَزَلَ خالداً واسْتعمَلَ أبا

---

(١) انظر السير : (محمد بن يوسف بن هود) ٢٣/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١١ .

(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ٧/٢٥ .

عُبَيْدة على الجَميع ، والْتَقَى المسلمون والرُّومُ فيما حَولَ دِمَشْقَ ، فاقْتَتلوا قتالاً شديداً ، ثمّ هَزَمَ اللهُ الرُّومَ ، ودَخلُوا دِمَشْقَ وغَلَّقوا أبوابَها ، ونازَلَها المسلمون حتىٰ فُتِحَت ، وأعْطُوا الجِزْيَةَ ، وكان قَدِمَ الكتابُ علىٰ أبي عُبَيْدة بإمارَته وعَزْلِ خالد فاسْتَحيا أبو عُبَيْدة أن يُقْرِىء خالداً الكتابَ حتىٰ فُتِحَت دِمَشْقَ وجَرَى الصُّلحُ علىٰ يد خالد ، وكُتِبَ الكتابُ باسْمه ، فلمَّا صالَحَت دِمَشْقُ لَحِقَ باهانُ صاحبُ الرُّوم بهِرَقْل .

وقيل كان حِصارُ دِمَشْقَ أربعَةَ أشهر[1] .

وكان صاحبُ دِمَشْقَ قد جاءَه مَولُودٌ فصَنعَ طعاماً واشْتَغلَ يومئذ ، وخالدُ بنُ الوَليد الذي لا يَنامُ ولا يُنِيمُ قد هيَّأَ حِبالاً كَهيئة السَّلالم ، فلمَّا أمْسَىٰ هيَّأَ أصحابَه وتَقدَّم هو والقَعْقاعُ بنُ عَمْرو ، ومَذْعورُ بنُ عَديّ وأمثالُهم ، وقالوا : إذا سَمعتُم تَكْبيرَنا على السُّور فارْقَوْا إلينا وانْهَدوا البابَ قال : فلمَّا انتهىٰ خالدٌ ورُفَقاؤُه إلى الخَنْدقِ رَموا بالحِبال إلى الشُّرَفِ ، وعلىٰ ظُهورِهم القِرَبُ التي سَبَحوا بها في الخَنْدق ، وتَسلَّقَ القَعْقاعُ ومَذْعورٌ فلَم يَدعا أُحْبُولَةً حتىٰ أثْبَتاها في الشُّرَفِ ، وكان ذلك المكانُ أحْصَنُ مكانٍ بدِمَشْقَ ، فاسْتوىٰ على السُّورِ خَلقٌ من أصحابه ثمّ كَبَّروا ، وانْحَدَرَ خالدٌ إلى البابِ فقَتَلَ البوَّابينَ ، وثارَ أهلُ البَلدِ إلىٰ مَواقفِهم لا يَدرونَ ما الشأنُ ، فتَشاغَلَ أهلُ كُلِّ جِهَةٍ بما يَليهِم ، وفَتحَ خالدٌ البابَ ، ودَخلَ أصحابُه عُنْوَةً ، وقد كان المسلمون دَعَوْهم إلى الصُّلحِ والمُشاطَرَة فأبَوا ، فلمَّا رَأوا البَلاءَ بذَلوا الصُّلحَ ، فأجابَهم مَنْ يَليهِم ، وقَبِلُوا ، فقالوا : ادْخُلوا وامْنَعُونا من أهل ذاكَ الباب ، فدخلَ أهْلُ كلِّ باب بصُلحٍ ممّا يَليهِم ، فالْتَقىٰ خالدٌ والأمَراءُ في وَسَطِ البَلدِ ، هـٰذا اسْتِعْراضاً ونَهْباً ، وهـٰؤلاء صُلْحاً فأجْروا ناحيةَ خالد على الصُّلح بالمُقاسَمَة ، وكُتِبَ إلىٰ عُمَرَ بالفَتْح .

وكَتبَ عُمرُ إلىٰ أبي عُبَيْدة أن يُجهِّزَ جَيشاً إلى العِراق نَجْدةً لسَعدِ ابنِ أبي وَقَّاص ، فجَهَّزَ له عشرةَ آلاف عليهم هاشمُ بنُ عُتْبَة ، وبَقِيَ بدِمَشْقَ يَزيدُ بنُ أبي سُفْيان في طائفةٍ من أمْداد اليَمَن[2] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٠/١ .

(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٠/٢ .

فَتْحُ حمْص :

قال أبو مسهر : حَدَّثني عبدُ الله بنُ سالم قال : سارَ أبو عُبَيْدة إلىٰ حمْصَ في اثنَي عشرَ ألفاً ، منهم من السَّكُون ستَّةُ آلاف ، فافْتَتَحَها[1] .

مَعْركةُ القادسيَّة :

كانت وَقعةُ القادسيَّة بالعِراق في آخر السَّنةِ الخامسة عشرة فيما بلَغَنا ، وكان على الناس سَعدُ بنُ أبي وقَّاص ، وعلى المشركين رُسْتُم ومعه الجالينُوس ، وذو الحاجب.

وقال أبو وائل : كان المسلمون ما بين السَّبعة إلى الثمانية آلاف ، ورُسْتُم في ستّين ألفاً ، وقيلَ : كانوا أربَعين ألفاً ، وكان معهم سَبعُون فيلاً .

وذَكرَ المَدائنيُّ أنَّهم اقْتَتَلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام في آخر شَوَّال ، وقيلَ : إنَّ رُسْتُم ماتَ عَطَشاً وتَبِعَهم المسلمون فقُتِل جالينُوس وذو الحاجب .

وعن أبي وائل قال : رأيتُني أعبُرُ الخَنْدَقَ مَشْياً على الرِّجالِ ، قَتلَ بعضُهم بعضاً .

وقال المَدائِنيُّ : ثمَّ سارَ سَعدٌ من القادسيَّة يَتْبَعُهم ، فأتاه أهلُ الحيرَة فقالوا : نحنُ علىٰ عَهْدنا .

وقطعَ سَعدٌ الفُراتَ ، ثم سارَ سَعدٌ بالنَّاسِ حتى المَدائِنَ فافْتَتحَها[2] .

فَتْحُ المَدائِن :

قال الطَبَريُّ : وفي سَنةِ سِتَّ عشرة دَخَلَ المسلمون مَدينةَ بَهْرَسِير[3] ، وافْتَتحوا المَدائِنَ[4] ، فهَربَ منها يَزْدَجِرْد بنُ شَهْريار[5] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٢ .

(٢) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٤ .

(٣) هي من نواحي سواد بغداد قرب المدائن .

(٤) قال ياقوت : وإنما سمتها العرب المدائن لأنها سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرىٰ مسافة قريبة أو بعيدة .

(٥) قال صاحب النزهة : هو كسرى الفرس .

فلمَّا نزلَ سعدُ بنُ أبي وَقَّاص بَهْرَسيرَ ـ وهي المدينة التي فيها مَنزِلُ كِسْرَىٰ ـ طلبَ السُّفُنَ ليَعبُرَ بالنَّاسِ إلى المَدينة القُصْوَىٰ ، فبَقِيَ أيّاماً حتىٰ أتَاهُ أعْلاجٌ فدَلُّوهُ علىٰ مَخاضَة ، فأبَىٰ ، ثم إنه عَزَمَ له أنْ يَقْتَحمَ دِجْلَة ، فاقْتَحَمَها المسلمون وهي زائدةٌ تَرمي بالزَّبَد ، ففَجِيءَ أهلَ فارس أمرٌ لمْ يكُنْ لهم في حساب ، فقاتَلوا ساعةً ثم انْهَزَموا ، وتَرَكُوا جُمْهُورَ أمْوالِهم ، واسْتَولَى المسلمون علىٰ ذلك كله ، ثم أتَوا إلى القَصرِ الأبْيَض ، وبه قَومٌ قد تَحَصَّنوا ثم صالَحُوا[1] .

وقِيلَ : إنَّ الفُرْسَ لمَّا رَأوا اقْتحامَ المسلمين الماءَ تَحيَّروا وقالوا : والله ما نُقاتِلُ الإنْسَ ولا نُقاتِلُ إلاَّ الجِنَّ ، فانْهَزَموا .

ونَزَلَ سَعدٌ القَصرَ الأبْيض ، واتَّخذَ الإيوانَ مُصَلًّىٰ ، وإنَّ فيه لتَماثيل جَصّ فما حَرَّكَها .

ولمَّا انتَهىٰ إلىٰ مكان كِسْرَىٰ أخَذَ يقْرأُ ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ الآية[2] .

قالوا : وأتَمَّ سَعدٌ الصَّلاةَ يومَ دَخلَها ، وذلك أنَّه أرادَ المُقامَ بها ، وكانت أوّلَ جُمُعَة جُمِعَت بالعِراق ، وذلك في صَفَر سنةَ ست عشرة .

قال الطبريُّ : قسَّمَ سَعدٌ الفَيءَ بعد ما خمَّسَه ، فأصابَ الفارسَ اثنا عشرَ ألفاً ، وكلُّ الجَيشِ كانوا فُرْساناً[3] .

وقسَّمَ سَعدٌ دُورَ المَدائن بين النَّاسِ وأُوطِنُوها ، وجَمَعَ سَعدٌ الخُمسَ وأدْخلَ فيه كلَّ شيءٍ من ثياب كِسْرَىٰ وحُليِّه وسَيفِه وقال للمسلمين : هلْ لكم أن تَطيبَ أنفُسُكم عن أرْبَعةِ أخْماس هٰذا القِطْف فنبعَثَ به إلىٰ عُمر ، فيَضَعَه حيثُ يَرىٰ ويقَعَ من أهلِ المَدينَة مَوْقِعاً ؟ قالوا : نَعَم ، فبَعَثَه علىٰ هَيئَتِه وكان ستِّينَ ذِراعاً في ستِّين ذِراعاً بساطاً واحداً

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٦/١ .

(٢) سورة الدخان ، الآيتان : ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٦/٢ .

مقدار جَرِيب[1] ، فيه طرقٌ كالصورِ ، وفصُوص كالأنهار ، وخلال ذلك كالدرِّ ، وفي حافاته كالأرض المَزرُوعة ، والأرض كالمُبْقلة بالنَّباتِ في الرَّبيع من الحَرير علىٰ قَصَبات الذَّهَب ونُوَّاره[2] بالذَّهَب والفِضَّة ونحوه فقَطَّعَه عُمرُ وقَسَّمَه بين النَّاس فأصابَ عَلياً قطعةٌ منه فباعَها بعشْرين ألفاً[3] .

واسْتَولَى المسلمون في ثلاثة أعْوام علىٰ كُرسيّ مَمْلَكة كِسْرَىٰ ، وعلىٰ كُرْسيّ مَمْلَكة قَيْصَر ، وعلىٰ أمَّيْ بلادِهما ، وغَنِمَ المسلمون غَنائم لَمْ يُسْمَع بمثلها قَطّ من الذَّهبِ والجَوْهَر والحَرير والرَّقيقِ والمَدائِن والقُصُور فسُبحان الله العَظيم الفَتَّاح[4] .

مَعْرَكة جَلُولاء :

قال ابنُ جَرير الطَّبَريّ : فقَتلَ الله من الفُرسِ مائَةَ ألف ، جَلَّلَت[5] القَتْلَى المَجال وما بَينَ يَديْه وما خَلفَه ، فسُمِّيَت جَلُولاء .

وعن أبي وائل قال : سُمِّيَت جَلُولاء لما تَجلَّلَها من الشَّر .

وقال سَيفٌ : كانت سَنةَ سَبعَ عشرة .

وقال خَليفَةُ بنُ خَيّاط : هَرَبَ يَزْدَجِرْد بنُ كِسْرَىٰ من المَدائن إلىٰ حُلوان ، فكَتبَ إلى الجبال ، فجَمَعَ العَساكِرَ ووَجَّهَهم إلىٰ جَلُولاء ، فاجْتمعَ له جَمعٌ عَظيم ، عليهم خُرَّزاد بنُ خرهرمز ، فكَتبَ سَعدٌ إلىٰ عُمرَ يُخبرُه ، فكَتبَ إليه : أقِمْ مَكانَك ووَجِّه إليه جَيشاً ، فإنَّ اللهَ ناصِرُك ومُتَمِّم وَعْدَه ، فعَقَدَ لابنِ أخيه هاشم بنَ عُتْبَة بنَ أبي وَقَّاص ، فالْتَقوا ، فجَالَ المسلمون جَوْلةً ، ثم هَزَمَ الله المشركين ، وقُتِلَ منهم مَقْتلةٌ عظيمة ، وحَوَى المسلمون عَسْكرَهم وأصابوا أمْوالاً عظيمة وسَبايا ، فبَلغَت الغَنائمُ ثمانية عشرَ ألفَ ألف .

---

(١) الجريب : ثلاثة آلاف وستمائة ذراع .

(٢) قال صاحب النزهة : النوَّار : الورد .

(٣) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٧ .

(٤) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٦٧ .

(٥) قال صاحب النزهة : أي غطت .

وجاءَ عن الشّعبيّ أنَّ فَيْءَ جَلُولاء قُسِّم علىٰ ثلاثينَ ألف ألف .

وقال أبو وَائل : سُمِّيَت جَلُولاء « فَتْحَ الفُتوح » .

وقال ابنُ جَرير : أقام هِشامُ بنُ عُتْبَة بجَلُولاء ، وخَرَجَ القَعْقاعُ بنُ عَمرُو في آثار القَوم إلىٰ خانقين ، فقَتلَ مَنْ أدْرَكَ منهم ، وقُتِلَ مَهْران وأفْلَتَ الفَيْرُزانُ ، فلمَّا بلَغَ ذلك يَزْدَجِرْد تقَهْقَرَ إلى الريّ .

وفيها جَهَّزَ سَعدٌ جُنْداً فافْتَتحُوا تِكْريت واقْتَسَمُوها ، وخَمَّسُوا الغَنائِمَ ، فأصابَ الفارِسَ منها ثلاثةُ آلافِ درهم .

وفيها سارَ عُمرُ إلى الشَّام وافْتَتَحَ بيتَ المَقْدِسِ ، وقَدمَ إلى الجابية ـ وهي قَصَبَة حَوْران ـ فخَطَبَ بها خُطبَةً مَشْهورَةً مُتواتِرَةً عنه[1] .

قِنَّسْرين :

وفي السَّنةِ السادسة عشرَة بَعَثَ أبو عُبَيْدَة عَمرو بنَ العاص ـ بعد فَراغِه من اليَرْموك ـ إلىٰ قِنَّسْرين ، فصالَحَ أهلَ حَلَبَ ومَنبِج وأنْطاكيَة على الجِزْيَة ، وفَتَحَ سائرَ بلادِ قِنَّسْرين عَنوَة .

وفيها افتُتِحَت سَرُوج والرُّها علىٰ يَدي عِياض بنِ غَنْم .

وفيها قال ابنُ الكَلبيّ : سار أبو عُبَيْدَة وعلىٰ مقدمته خالدُ بنُ الوَليد ، فحاصَرَ أهلَ إيْليَاء ، فسألُوه الصُّلحَ علىٰ أن يكونَ عُمرُ هو الذي يُعطيهم ذلك ويَكْتُبُ لهم أماناً ، فكَتبَ أبو عُبَيْدَة إلىٰ عُمَرَ ، فقَدِمَ عُمرُ إلى الأرضِ المُقدَّسَة فصالَحَهم وأقامَ أيّاماً ثم شَخصَ إلى المَدينة[2] .

تُسْتَر :

قال الوَليدُ بنُ هِشام القَحْذَميّ ، عن أبيه وعمِّه أنَّ أبا موسىٰ لمَّا فَرَغَ من الأَهْوَازِ ، ونَهرِ تيرىٰ ، وجُنْدَيْسابُور ، ورامَهُرْمُز ، تَوجَّه إلىٰ تُسْتَر ، وكَتبَ يَستمِدُّ عُمرَ ، فكَتبَ

---

(١) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٨ .

(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٩ .

إلىٰ عمَّار بنِ ياسر أنْ أمِدَّه ، فكَتبَ إلىٰ جَرير وهو بحُلوان أنْ سِرْ إلىٰ أبي موسىٰ ، فسارَ في ألفٍ فأقاموا أشْهُراً ، ثم كَتبَ أبو موسىٰ إلىٰ عُمرَ : إنَّهم لَمْ يُغْنُوا شَيئاً ، فكَتبَ عُمرُ إلىٰ عمَّار أنْ سِرْ بنَفسِك ، وأَمَدَّه عُمرُ من المَدينة .

وعن عبد الرحمَـٰن بنِ أبي بَكْرَة قال : أقاموا سَنةً أو نَحْوَها ، فجاءَ رَجلٌ من تُسْتَر وقال لأبي موسىٰ : أسْألُكَ أنْ تَحْقِنَ دَمي وأهلَ بَيْتي ومالي ، علىٰ أنْ أدُلَّكَ على المَدخَل ، فأعْطاه ، قال : فابْغِني إنْساناً سابِحاً ذا عَقلٍ يَأتيك بأمرٍ بَيِّن ، فأرسلَ معه مجْزأةَ بنَ ثَور السدوسيّ ، فأُدْخِلَ من مَدْخَل الماء يَنْبَطِحُ علىٰ بَطنِه أحْياناً ويَحْبُو حتىٰ دَخلَ المَدينةَ وعَرفَ طُرقَها ، وأراه العِلجُ الهُرمزانَ صاحبَها ، فهَمَّ بقَتلِه ثم ذَكَرَ قَولَ أبي موسىٰ : « لا تَسْبقْني بأمْرٍ » ورَجعَ إلىٰ أبي موسىٰ ، ثم إنه دَخلَ بخَمْسةٍ وثلاثين رجُلاً كأنَّهم البَطُّ يَسْبَحُون ، وطَلعُوا إلى السُّورِ وكَبَّروا ، واقْتَتلوا هو ومَنْ عندَهم على السُّور ، فقُتِلَ مجْزأة ، وفَتَحَ أولـٰئك البَلدَ ، فتَحصَّنَ الهُرمُزانُ في بُرج[1] .

وقال قَتادَة ، عن أنَس : لَمْ تُصَلَّ يومئذ الغَداةُ[2] حتى انتَصفَ النَّهارُ فما يَسرُّني بتلك الصَّلاة الدُّنيا كُلُّها .

وعن الشَّعبيّ قال : حاصَرَهم أبو موسىٰ ثمانيَة عشَر شَهْراً ، ثم نَزلَ الهُرمُزانُ علىٰ حُكْم عُمَر ، فقال حميدُ ، عن أنَس : نَزلَ الهُرمُزانُ علىٰ حُكْمِ عُمَر[3] .

فلمَّا انتهَيْنا إليه ـ يَعني إلىٰ عُمَر بالهُرْمُزان ـ قال : تَكلَّم ، قال : كَلامُ حَيٍّ أو كَلامُ مَيّت ؟ قال : تَكلَّم فلا بأسَ ، قال : إنَّا وإيّاكم مَعشَر العَرب ما خَلى الله بيننا وبينكم ، كُنَّا نَغصِبُكم ونَقْتلُكم ونفعَلُ ، فلمَّا كان الله معكم لَمْ يكُنْ لنا بكُم يَدان ، قال : يا أنَس ما تقولُ ؟ قُلتُ : يا أميرَ المؤمنين تَركتُ بَعدي عَدداً كثيراً وشَوْكةً شَديدة فإنْ تَقتُلْه يَيْأس القَومُ من الحَياة ويكُون أشَدَّ لشَوْكَتهم ، قال : فأنا أَسْتَحْيي قاتلَ البَراء ومجْزَأة بنَ ثَور!! فلمَّا أحْسَسْتُ بقَتلِه قُلتُ : لَيسَ إلىٰ قَتلِه سَبيل ، قد قُلتَ له : تَكلَّم فلا بأس ،

---

(١) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧١/١ .

(٢) قال صاحب النزهة : هي صلاة الفجر .

(٣) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧١/٢ .

قال : لتأتيَنِّي بمَنْ يَشْهدُ به غَيرُك ، فلَقيتُ الزُّبَيْرَ فشَهِدَ معي ، فأمْسَكَ عنه عُمرُ ، وأسْلَمَ الهُرمُزانُ ، وفَرضَ له عُمرُ ، وأقامَ بالمَدينة[1] .

فَتْحُ مِصْر :

رَوىٰ خَليفَةُ ـ عن غَير واحد ـ وغَيرُه أنَّه في سَنة عشرين ، كَتبَ عُمَرُ إلىٰ عَمْرو بنِ العاص أن يَسيرَ إلىٰ مِصْرَ ، فسارَ وبَعثَ عُمَرُ الزُّبَيْرَ بنَ العوَّام مَدداً له ، ومعه بُسْر بن أرْطأة ، وعُمَيْر بن وَهب الجُمَحيّ ، وخارِجَة ابن حُذافة العَدَويّ ، حتىٰ أتىٰ باب أليون[2] فتَحصَّنوا ، فافْتَتحَها عَنْوةً وصالحَه أهلُ الحِصْن ، وكان الزُّبَيرُ أولَ من ارْتَقىٰ سورَ المدينة ثم تَبِعَه النَّاسُ ، فكَلَّم الزُّبَيْرُ عَمْراً أن يَقْسِمَها بين مَنْ افْتَتحَها ، فكَتبَ عَمرو إلىٰ عُمرَ ، فكَتبَ عُمرُ أكلَة ، وأكلات خَيرٌ من أكلَة ، أَقِرُّوها[3] .

وعن عَمرو بنِ العاص أنَّه قالَ على المِنْبَر : لقد قَعدْتُ مِقْعدي هٰذا وما لأحَد من قِبْط مِصْرَ عليَّ عَهدٌ ولا عَقدٌ ، إنْ شِئتُ قَتلتُ ، وإنْ شِئتُ بِعْت ، وإنْ شِئتُ خَمَّستُ إلاَّ أهلَ أنْطابُلس[4] فإنَّ لهم عَهداً نَفي به

وعن عليِّ بنِ رَباح قال : المَغربُ كلُّه عَنوَة

وعن ابنِ عُمرَ قال : افْتُتحَت مِصْرُ بغير عَهد ، وكذا قال جماعةٌ

وقال يَزيدُ بنُ أبي حَبيب : مِصْرُ كلُّها صُلح إلاَّ الإسْكَندريّة[5] .

وعن عيَّاشِ بنِ عبّاس القتباني ، وعن غير واحد أنَّ عَمْراً سار من فلَسْطين بالجَيشِ من غير أمْرِ عُمَرَ إلىٰ مِصْرَ فافْتَتحَها ، فعَتبَ عُمرُ عليه إذْ لمْ يُعْلِمْه ، فكَتبَ يسْتأذنُ عُمرَ بمُناهَضة أهلِ الإسْكندريّة ، فسارَ عَمرُو في سنة إحدىٰ وعشرين ، وخَلَّفَ على الفُسْطاط خارِجةَ ابنَ حُذافَة العَدويّ ، فالتَقَى القِبطَ فهَزَمَهم بعد قتالٍ شَديد ، ثم

---

(١) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٢ .

(٢) حصن بقرب الفسطاط بمصر القديمة .

(٣) قال صاحب النزهة : أي نهاهم أن يقسموها بين من افتتحها ، وأمرهم بتحصيل خراجها فقط .

(٤) قال صاحب النزهة : مدينة من مدن ليبيا قديماً .

(٥) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧٠ .

التَقاهم عند الكرْيَوْن[1] فقاتَلوا قتالاً شَديداً ، ثم انتَهىٰ إلى الإسْكندريّة ، فأرسَلَ إليه المُقَوْقِسُ يَطلبُ الصُّلحَ والهُدنةَ منه ، فأبىٰ عليه ثم جَدَّ في القتال حتىٰ دخلَها بالسَّيفِ ، وغَنم ما فيها من الرُّوم ، وجعلَ فيها عَسْكراً عليهم عبدُ الله بنُ حُذافَة السَّهميّ ، وبَعثَ إلىٰ عُمرَ بالفَتحِ ، وبلَغَ الخَبرُ قُسْطَنْطينَ بنَ هِرَقْل فبَعثَ خَصيّاً له يُقال له منويل في ثلاثمائة مَركب حتىٰ دخلوا الإسْكندريّة ، فقَتلوا بها المسلمين ونَجا مَنْ هَربَ ، ونقَضَ أهلُها ، فزَحفَ إليها عَمرٌو في خَمسة عشر ألفاً ، ونصَبَ عليهم المَجانيقَ ، وجَدَّ في القتالِ حتىٰ فتَحها عَنْوةً ، وخرَّبَ جُدُرَها ، رُئِيَ عَمرو يُخرِّبُ بيَدِه[2] .

بَرْقَة :

وفي سنة إحْدىٰ وعشرين سارَ عَمرو بنُ العاص إلىٰ بَرْقَة فافْتَتَحَها ، وصالحَهم علىٰ ثلاثة عشر ألف دينار[3] .

نَهَاوَنْد :

عن السَّائبِ بنِ الأقْرع قال : زَحفَ للمسلمين زَحْفٌ لم يُرَ مثلُه قطّ ، رَجفَ له أهلُ ماهَ وأهلُ أصْبَهان ، وأهلُ هَمَذان والريّ وقومس ونَهاوَنْدَ وأذَرْبيجانَ ، قال : فبَلغَ ذلك عُمَرَ فشاوَرَ المسلمين ، فقال عليٌّ رضي الله عنه : أنت أفْضَلُنا رأياً وأعلَمُنا بأهلك فقال : لأسْتَعملَنَّ على النَّاسِ رجلاً يكون لأول أسِنَّة يلقاها ، يا سائبُ اذهبْ بكتابي هـٰذا إلى النُّعْمان بن مُقَرِّن ، فليَسِرْ بثلثي أهل الكُوفَة ، وليَبْعَث إلىٰ أهل البَصْرَة ، وأنت علىٰ ما أصابوا من غَنيمَة ، فإنْ قُتِل النُّعمانُ فحُذَيْفَةُ الأميرُ ، فإن قُتِلَ حُذَيْفَةُ فجَريرُ بنُ عبد الله ، فإن قُتِلَ ذلك الجَيشُ فلا أراك[4] .

ورَوَىٰ عَلْقَمةُ بنُ عبد الله المُزنيّ ، عن مَعْقلِ بنِ يَسَارٍ : أنَّ عُمَرَ شَاوَرَ الهُرْمُزَانَ في أصْبَهانَ وفارِسَ وأذْرَبيجانَ بأيّتهن يبدأ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين أصْبَهانُ : الرَّأسُ

---

(١) اسم موضع قرب الإسكندرية .

(٢) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧٣ .

(٣) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٥ .

(٤) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٣ .

وفَارسُ وأذْرَبيجانُ : الجَنَاحانُ ، فإن قُطعَ أحدُ الجَناحَين مالَ الرَّأسُ بالجَناحِ الآخَر ، وإنْ قَطَعْتَ الرَّأسَ وَقَعَ الجَناحَان ، فدخلَ عُمَرُ المسجدَ فوجدَ النُّعْمانَ بنَ مُقَرِّن يُصلِّي فسَرَّحَهُ وسرَّحَ معه الزُّبَيرَ بنَ العَوَّام ، وحُذَيفَة بنَ اليَمان ، والمُغيرَةَ بنَ شُعْبَة ، وعَمرو بنَ مَعْد يَكرب ، والأشْعَثَ بنَ قَيْسَ ، وعبدَ الله بنَ عُمر ، فسارَ حتىٰ أتىٰ نَهاوَنْدَ ، فذَكرَ الحديثَ إلىٰ أنْ قالَ النُّعْمانُ لمَّا التقى الجَمعانِ : إنْ قُتلتُ فلا يُلْوي عليَّ أحدٌ ، وإنِّي داعٍ بدَعْوَةٍ فأمِّنُوا[1] .

ثم دَعا : اللَّهُمَّ ارْزُقني الشَّهادَةَ بنَصْرِ المسلمينَ والفَتْحِ عليهم ، فأمَّنَ القومُ وحَملوا ، فكان النُّعْمانُ أوَّلَ صَرِيعٍ رضي الله عنه .

ورَوَىٰ خَليفَةُ بإسنادٍ قال : التَقَوْا بنَهاوَنْدَ يومَ الأربعاء فانكشَفت مَجْنبةُ المسلمين اليُمنَىٰ شيئاً ، ثم التَقَوْا يومَ الخَميس فثَبَتَتْ المَيْمنَةُ وانكَشَف أهلُ المَيْسَرَة ، ثم التَقَوْا يومَ الجُمُعَة فأقْبَلَ النُّعْمانُ يخْطبُهم ويَحضُّهم على الحَملَة ففَتحَ اللهُ عليهم[2] .

وقال ابنُ جَرير في وَقْعَة نَهاوَنْد : لمَّا انْتَهى النُّعْمانُ إلىٰ نَهاوَنْد في جيشه طرَحوا له حَسَكَ[3] الحَديد ، فبَعثَ عُيوناً فساروا لا يَعلمون بالحَسَك فزَجَر بعضُهم فَرسَه وقد دَخلَ في حافِرِه حَسَكةٌ ، فلَمْ يَبْرَحْ ، فنزلَ فإذا الحَسَك ، فأقْبلَ بها ، وأخْبرَ النُّعْمانَ ، فقال النُّعْمانُ : ما تَرَونَ ؟ فقالوا : تَقَهْقَر حتىٰ يَرَوا أنَّك هاربٌ فيَخرُجُوا في طلَبك ، فتَأخَّرَ النُّعْمانُ ، وكَنسَت الأعاجمُ الحَسَكَ وخَرجُوا في طلَبه فعَطفَ عليهم النُّعْمانُ وعبَّأ كَتائبَه وخَطبَ النَّاسَ وقال : إنْ أُصِبتُ فعلَيكم حُذَيْفَة ، فإنْ أُصِيبَ فعليكم جَرير البجليّ ، وإنْ أُصِيبَ فعليكم قَيْسُ بنُ مَكْشوح ، فوَجدَ المُغيرَةُ في نفْسِه إذْ لَمْ يَسْتَخْلِفْهُ ، قال وخَرجَت الأعاجِمُ وقد شَدُّوا أنفُسَهم في السَّلاسِل لئَلاَّ يَفرُّوا ، وحَملَ عليهم المسلمون ، فرُمِيَ النُّعْمانُ بسَهمٍ فقُتِلَ ، ولفَّهُ أخُوهُ سُويدُ بنُ مُقَرِّن في ثَوبِه وكَتَمَ قَتلَه حتىٰ فَتحَ اللهُ تعالىٰ عليهم ، ودَفعَ الرَّايةَ إلىٰ حُذَيْفَة .

---

(١) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧٤/ ١ .

(٢) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧٤/ ٢ .

(٣) قال صاحب النزهة : الحَسَك ، هو الشَّرك .

وَقَتل اللهُ ذا الحَاجِب[1] ـ يَعني مقدمَهم ـ وافْتُتِحَت نَهاوَنْدُ ، ولم يكُنْ للأعاجِم بعد ذلك جَماعة[2] .

٢٢ـ من عَجَائِبِ غَنَائِمِ الجِهَاد :

قال اللَّيْثُ : بَعَثَ مُوسَىٰ بنُ نُصَيْر ابنَه مَرْوَانَ على الجَيشِ ، فأصَابَ من السَّبْي مِئَةَ ألفٍ ، وبَعَثَ ابنَ أخِيهِ فسَبَىٰ أيْضاً مِئَةَ ألفٍ من البَرْبَرْ ، ودَلَّه رجُلٌ عَجُوزٌ علىٰ كَنْزٍ بالأنْدَلُسِ ، فنَزَعُوا بابَه ، فسَالَ عليهم من اليَاقُوتِ والزَّبَرْجَدِ ما بَهَرَهُم قال اللَّيْثُ : إنْ كانت الطَّنْفسةُ لتُوجَدُ مَنْسُوجَةً بالذَّهَبِ واللُّؤْلُؤِ واليَاقُوتِ لا يَسْتطِيعُ اثْنانِ حَمْلَها فيَقْسِمَانِها بالفَأْسِ[3] .

ولمَّا تَمَادَىٰ في سَيْرِهِ في الأنْدَلُسِ ، أتَىٰ أرْضاً تَمِيدُ بأهْلِها ، فقال عَسْكَرُهُ : إلىٰ أيْنَ تُرِيدُ أنْ تذْهَبَ بنا ؟ حَسْبُنَا ما بأيْدِينَا ، فقال : لَوْ أطَعْتُمُوني لوَصَلْتُ إلى القُسْطَنْطِينيَّةَ ، ثمَّ رَجَعَ إلى المَغْرِبِ وهو رَاكِبٌ علىٰ بَغْلَةٍ وهو يَجُرُّ الدُّنْيَا بينَ يَدَيْه ، أمَرَ بالعَجَلِ تَجُرُّ أوْقَارَ الذَّهَبِ والحَرِيرِ ، واسْتَخْلَفَ ابنَه بإفْرِيقِيَّةَ ، وأخَذَ معَه مِئَةً من كُبَرَاءِ البَرْبَرِ ، ومِئَةً وعِشْرينَ من المُلُوكِ وأوْلادِهم ، فقَدِمَ مِصْرَ في هَيْئَةٍ ما سُمِعَ بمثلِها ، فوَصَلَ العُلَمَاءَ والأشْرافَ ، وسَارَ إلى الشَّام ، فبَلَغَهُ مَرَضُ الوَلِيدُ ، وكَتَبَ إليه سُلَيْمانُ يَأْمُرُه بالتَّوَقُّفِ : فمَا سَمِعَ منه ، فآلَىٰ سُلَيْمانُ إنْ ظَفِرَ به لَيَصْلِبَنَّه ، وقَدِمَ قَبْلَ مَوتِ الوَلِيدُ ، فأخَذَ ما لا يُحَدُّ من النَّفَائِسِ ، ووَضَعَ باقِيهِ في بَيْتِ المالِ ، وقُوِّمَتِ المَائِدَةُ بمِئَةِ ألفِ دينارٍ .

ووَلِيَ سُلَيْمانُ فأهَانَه ، ووُقِّفَ في الحَرِّ ـ وكان سَمِيناً ـ حتىٰ غُشِيَ عليه ، وبقِيَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزِيزِ يَتَألَّمُ له ، فقال سُلَيْمانُ : يا أبا حَفْصٍ ما أظُنُّ أنِّي خَرجْتُ من يَميني .

وضَمَّه يَزِيدُ بنُ المُهَلَّبِ إليه ، ثمَّ فَدَىٰ نَفسَه بِبَذْلِ ألفِ ألفِ دينارٍ ، وقِيلَ له : أنْتَ

---

(١) ذا الحاجب : هو مردانشاه المُلقب ببهمن ، وسُمي ذا الحاجب لأنه كان يعضب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً ، ويُقال إن اسمه رُسْتم .

(٢) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٧٤ .

(٣) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/٤٩٦ ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤٠ .

في خَلْقٍ من مَوَالِيكَ وجُنْدِكَ ، أفَلا أَقَمْتَ في مَقَرِّ عِزِّكَ ؟! ، وبَعَثْتَ بالتقادمِ قال : لَوْ أَرَدْتُ لصَارَ ، ولكِنْ آثَرْتُ اللهَ ولَمْ أَرَ الخُروجَ ، فقال له يَزِيدُ : وكُلُّنا ذاكَ الرجُلُ ـ أَرَادَ بهـٰذا قُدُومَهُ على الحَجَّاجِ[1] .

وقال مُوسَىٰ بنِ نُصَيْرٍ مَرَّةً : يا أَمِيرَ المُؤمِنينَ ـ يَعنِي سُلَيْمانَ ـ لقدْ كانت الألْفُ شَاةٍ تُبَاعُ بمِئَةِ درهمٍ ، وتُبَاعُ النَّاقَةُ بعَشْرةِ دراهِم ، وتَمُرُّ النَّاسُ بالبَقَرِ ، فلا يَلْتَفِتُونَ إليها ، ولقدْ رَأَيْتُ العِلْجَ الشَّاطِرَ وزَوْجَتَهُ وأَوْلادَهُ يُباعُونَ بخَمسِينَ درهماً .

وكان فَتْحُ إقْلِيمِ الأنْدَلُسِ في رَمَضَانَ سَنةَ اثْنَتَيْنِ وتِسْعِينَ علىٰ يَدِه[2] .

وافْتَتَحَ ابنُ سُبْكْتِكِين عِدةَ مَدائِنَ بالهِنْدِ ، ووَرَدَه كِتابُ القَادِرِ باللهِ ، ففِيهِ : صَدَرَ العَبدُ من غَزْنَةَ في أوَّلِ سَنةِ عَشرٍ وأرْبَعِ مِئَة ، وانْتَدَبَ لتَنفِيذِ الأَوامِرَ فرَتَّبَ في غَزْنَةَ خَمسةَ عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وأَنْهَضَ ابنَه في عِشرينَ ألفاً وشَحَنَ بَلْخَ وطَخَارُسْتَانَ باثني عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرةَ آلافِ راجلٍ ، وانْتَخَبَ ثلاثينَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرَةَ آلافِ راجلٍ لصُحْبَةِ رَايَةِ الإسْلامِ ، وانْضَمَّ إليه المُطَوِّعَةُ ، فافْتَتَحَ قِلاعاً وحُصُوناً وأَسْلَمَ زُهَاءَ عِشرينَ ألفاً ، وأَدَّوْا نَحوَ ألْفِ ألْفٍ من الوَرِقِ ، وثلاثين فِيلاً ، وعِدَّةُ الهَلْكَىٰ خَمسُونَ ألفاً ووَافَى العَبدُ مدينةً لهم عَايَنَ فيها نَحوَ ألفِ قَصْرٍ ، وألفَ بيتٍ للأَصْنَامِ ، ومَبْلَغُ ما على الصَّنَمِ ثمَانِيَةٌ وتِسْعونَ ألفَ دينارٍ ، وقَلَعَ أَزْيَدَ من ألفِ صَنَمٍ ، ولهم صَنَمٌ مُعَظَّمٌ يُؤَرِّخُونَ مُدَّتَه بجَهَالَتِهم بثلاثِ مِئَةِ ألفِ سَنَةٍ ، وحَصَّلْنا من الغَنَائِمِ عِشْرينَ ألفِ ألفِ درهمٍ ، وأُفْرِدَ الخُمْسُ من الرَّقِيقِ ، فبَلَغَ ثلاثةً وخَمْسِينَ ألفاً ، واسْتَعْرَضْنَا ثلاثَ مِئَةٍ وسِتةٍ وخَمسِينَ فِيلاً .

وفي سَنَةِ اثْنَتَينِ وعِشرينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، ماتَ القَادِرُ باللهِ ، وعَاشَ سَبْعاً وثمَانِينَ سَنةً سِوَىٰ شهرٍ وثمانيةَ أيَّامٍ ، وما عَلِمْتُ أحَداً من خُلَفَاءِ هـٰذهِ الأُمَّة بَلَغَ هـٰذا السِّنَّ ، ولا حتىٰ عُثْمانَ رضي الله عنه[3] .

---

(١) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/٤٩٦ـ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/٥٤٠ .

(٢) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/٤٩٦ـ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/٥٤٢ .

(٣) انظر السير : (القادر بالله) ١٥/١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٤ .

قال الذهبيُّ : وفي سَنةِ أرْبَعِينَ وأربع مئة غَزَتِ الغُزُّ مع إبراهيمَ يَنَال السَّلْجُوقيِّ وقِيلَ : ما كان معهم ، فغَزَوْا إلىٰ قَريبِ القُسْطَنْطِينيَّة ، وغَنِمُوا وسَبَوْا أزْيَدَ من مِئَةِ ألفٍ ، وقِيلَ : جُرَّتِ المَكاسِبُ علىٰ عَشْرةِ آلافِ عَجَلةٍ وكان فَتْحاً عَظيماً ، وكان الرَّفْضُ أيضاً قَوِيّاً بالعِراقِ[1] .

وقال الذهبيُّ : وفي سَنةِ إحْدَىٰ وتِسعِينَ كانت بالأَنْدَلُسِ المَلْحَمَةُ العُظْمَىٰ ، وَقْعَةُ الزَّلاَّقَة بينَ يَعْقُوبَ وبينَ الفُنْش الذي اسْتَوْلَىٰ علىٰ بلادِ الأَنْدَلُسِ ، فأقْبَلَ اللَّعِينُ في مِئَتَيْ ألفٍ وعَرَضَ يَعْقُوبُ جُنْدَه فكانوا مِئَةَ ألفِ مُرْتَزِقَة ، ومِئَةَ ألفِ مُطَوِّعَة ، عَدوا البَحرَ إلى الأَنْدَلُسِ ، فنَزَلَ النَّصْرُ ونَجَا قَليلٌ من العَدُوِّ ، قال أبو شَامَة : عِدَّةُ القَتْلَىٰ مِئَةُ ألفٍ وستةٌ وأرْبَعُونَ ألفاً ، وأُسِرَ ثلاثونَ ألفاً ، وأُخِذَ من خِيَامِهِم مِئَةُ ألفِ خَيْمَة وخَمسُونَ ألفاً ، ومن الخَيْلِ ثمَانُونَ ألفَ رأسٍ ومن البِغَالِ مِئَةُ ألفٍ ، ومن الحَمِيرِ التي لأثْقَالِهِم أرْبَعُ مِئَةِ ألفٍ ، وبِيعَ الأَسِيرُ بدِرهمٍ والحِصَانُ بخَمْسَة ، وقَسَّمَ السُّلطانُ الغَنِيمَةَ على الشَّرِيعَةِ ، واسْتَغْنَوا[2] .

٢٣ـ المعَاركُ الإسلاميّة معَاركُ نَظيفة ليس فيها تَعدٍّ ولا جَوْر :

قال هشامُ بنُ عُرْوَة ، عن أبيه قال : جَعلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ في مَرضِه : « أَنْفِذُوا جَيْشَ أُسَامَة » فسارَ حتىٰ بلَغَ الجُرْف ، فأرسَلتْ إليه امرأتُه فاطمةُ بنتُ قَيْس تقولُ : لا تَعْجَل فإنَّ رسولَ الله ثَقيلٌ ، فلمَّا يَبْرَح حتىٰ قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلمَّا قُبِضَ رَجعَ إلىٰ أبي بكرٍ فقال : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بَعثَني وأنا علىٰ غير حالكم هـٰذه ، وأنا أتَخوَّفُ أنْ تَكفُر العَربُ ، وإنْ كَفرَت كانوا أوّلَ مَنْ يُقاتل ، وإنْ لمْ تَكفُر مَضَيتُ ، فإنَّ مَعي سَرواتُ النَّاس وخيارُهم ، قال : فخَطبَ أبو بكر النَّاسَ ، ثم قال : والله لأنْ تَخطَّفَني الطَّيرُ أحَبُّ إليَّ من أنْ أبدأ بشيءٍ قِبَلَ أمرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال فبَعثَه أبو بكر ، واسْتأذنَ لعُمَرَ أنْ

---

(١) انظر السير : (المستنصر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١١ .

(٢) انظر السير : (الناصر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٨ .

يَتركَه عنده ، وأمَرَ أنْ لا يَجْزِرَ في القومِ ـ أنْ يَقطَعَ الأيْدي ، والأرْجُلَ والأوْساطَ في القتال ـ قال : فمَضىٰ حتىٰ أغارَ ، ثم رجَعوا وقد غَنِموا وسَلِموا .

فكان عُمرُ يقولُ : ما كُنتُ لأحَيّي أحَداً بالإمارَة غيرَ أسامة ، لأنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ وهو أمير .

وقيل : كان ابنَ عشرين سنةً[1] .

٢٤ـ الفِتنَةُ تَمْنَعُ من الجِهَادِ :

قال سَعيدُ بنُ عبد العَزيزِ : لمَّا قُتِلَ عُثْمانُ ، ووَقَعَ الاختِلافُ ، لَمْ يكُنْ للنَّاسِ غَزْوٌ حتى اجْتَمَعُوا علىٰ مُعاوِيَة ، فأغْزَاهُم مَراتٍ ، ثمَّ أغْزَى ابنَه في جَمَاعةٍ من الصَّحابَةِ بَراً وبَحْراً حتىٰ أجَازَ بهم الخَلِيجَ ، وقَاتَلُوا أهلَ القُسْطَنْطِينيَّة علىٰ بابِها ، ثمَّ قَفَلَ[2] .

٢٥ـ المِيْتَةُ الجَاهِليَّة :

قال الإمامُ الذهبيُّ : بعْدَ مَقُولَةِ يَزيدِ بنِ المُهَلَّبِ حِينَمَا سُئِلَ : ألا تُنْشِىء لكَ دَاراً ؟!! ، قال : لا إنْ كُنتُ مُتَوَلِّياً فدَارُ الإمَارَةِ وإنْ كُنتُ مَعْزُولاً فالسِّجنُ قال رَحِمَهُ الله : هـٰكذا هو ، وإنْ كان غَازِياً فالسَّرْجُ ، وإنْ كان حَاجّاً فالكُورُ[3] ، وإنْ كان مَيْتاً فالقَبْرُ ، فهل من عامِرٍ لدَارِ مَقَرِّه ، ثمَّ إنَّ يَزيدَ بنَ المُهلَّب ، لما استُخلِفَ يَزيدُ بنُ عبد المَلِكِ غَلَبَ على البَصْرَةِ ، وتَسَمَّىٰ بالقَحْطانِيّ ، فسَارَ لحَرْبِه مَسْلَمَةُ بنُ عبد المَلِكِ ، فالْتَقَوْا ، فقُتِلَ يَزيدُ في سَنةِ اثنتَيْنِ ومِئَة[4] .

وقال شُعْبَةُ بنُ الحَجَّاج : سَمِعتُ الحَسَنَ البَصْرِيَّ يقولُ في فِتْنَةِ يَزيدِ ابنِ المُهَلَّبِ : هـٰذا عَدُوُّ اللهِ يَزيدُ بنُ المُهَلَّبِ ، كُلَّما نعَقَ بهم ناعِقٌ اتَّبَعُوه[5] .

قال الذهبيُّ مُعَقِّباً : قُلتُ : قُتِلَ عن تسعٍ وأرْبَعينَ سَنةً ، ولقد قَاتَلَ قِتالاً عَظِيماً ،

---

(١) انظر السير : (أبو بكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٣٦/ جيش أسامة .

(٢) انظر السير : (معاوية بن أبي سفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٥٤ .

(٣) الكور : الرَحْل .

(٤) انظر السير : (يَزيدُ بن المُهلَّب) ٤/ ٥٠٣ـ ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٤٥ .

(٥) انظر السير : (يَزيدُ بن المُهلَّب) ٤/ ٥٠٣ـ ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٤٥ .

وتَفَلَّلت جُمُوعُه ، فما زَالَ يَحْمِلُ بنفسه في الأُلُوفِ ، لا لِجهادٍ بلْ شَجَاعةً وحَمِيَّةً ، حتىٰ ذَاقَ حِمَامَهُ نَعُوذُ باللهِ من هـٰذه القَتْلَةِ الجاهِلِيَّة[1] .

٢٦ـ رُؤيَا باهِرةٌ في أمر الجِهَاد :

قال سِبطُ الجُوزِيّ : حَكَىٰ لي نَجْمُ الدِّين بنُ سَلام عن وَالِدِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا نَزَلَت علىٰ دِمْياطَ ، ما زالَ نورُ الدِّين عِشْرِين يوماً يَصُومُ ، ولا يُفطِرُ إلاَّ على المَاءِ ، فضَعُفَ وكادَ يَتْلَفُ ، وكان مَهِيباً ، ما يَجْسُرُ أحدٌ يُخاطِبُه في ذلك ، فقال إمامُه يَحْيَىٰ : إنَّه رَأَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يقولُ : يا يَحْيَىٰ ، بَشِّرْ نورَ الدِّينِ برَحِيلِ الفِرنْجَ عن دِمْياطَ ، فقلتُ : يا رسُولَ الله ، رُبَّما لا يُصَدِّقُنِي قال : قُلْ لَهُ : بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ وانْتَبَهَ يَحْيَىٰ ، فلمَّا صَلَّىٰ نورُ الدِّين الصُّبحَ ، وشَرَعَ يَدْعُو ، هَابَه يَحْيَىٰ فقال له : يا يَحْيَىٰ تُحَدِّثُنِي أوْ أُحَدِّثُكَ ؟ فارْتَعَدَ يَحْيَىٰ ، وخَرِسَ ، فقال نورُ الدين : أنا أُحَدِّثُكَ ، رَأَيْتَ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم هـٰذهِ الليلَةَ ، وقال لكَ كَذَا وكَذَا ، قال : نَعَم فبالله يا مَوْلانا ما مَعْنَىٰ قولِه بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ ؟ فقال : لمَّا الْتَقَيْنَا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسْلامِ ، فانْفَرَدْتُ ونَزَلْتُ ، ومَرَّغْتُ وَجْهِيَ على التُّرابِ ، وقُلتُ : يا سَيِّدِي مَنْ مَحمُودٌ في البَيْن ، الدِّينُ دِينُك ، والجُنْدُ جُنْدُك ، وهـٰذا اليَوْم افْعَلْ ما يَلِيقُ بكَرَمِكْ ، قال : فنَصَرَنا اللهُ عَليهِم .

وتَمَلَّكَ بعدَهُ ابنُه المَلِكُ الصَّالِحُ أشْهُراً ، وسَلَّمَ دِمَشْقَ إلى السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين وتَحَوَّلَ إلىٰ حَلَبَ فدَامَ صَاحِبُها تِسْعَ سِنينٍ وماتَ بالقُولَنْج ، وله عِشْرُونَ سنةً ، وكان شاباً دَيِّناً رَحِمَهُ الله[2] .

٢٧ـ شِعْرٌ في الجِهَادِ :

عن مُحمَّدِ بنِ إبراهِيمَ بنِ أبي سُكَيْنَةَ ، قال : أمْلَىٰ عليَّ ابنُ المُبَارَكِ سَنةَ سَبعٍ وسَبعِينَ ومِئَةٍ ، وأنْفَذَها مَعِي إلى الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ من طَرسُوسَ :

---

(١) انظر السير : (يَزيدُ بن المُهلَّب) ٤/٥٠٣ـ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ١/٥٤٦ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٨٢ .

يـا عَـابِـدَ الحَـرَمَيْـنِ لَـوْ أبْصَـرتَنـا ... لعَلِمْـتَ أنَّـك فـي العِبَـادةِ تَلعَـبُ
مَـنْ كـان يَخْضِـبُ جيـدَه بـدُمُـوعِـهِ ... فنُحُـورُنـا بـدِمـائِنـا تَتَخَضَّـبُ
أَوْ كـان يُتْعِـبُ خَيْلَـهُ فـي بَـاطِـلٍ ... فخُيُـولُنـا يـومَ الصبَّيحَـةِ تَتْعَـبُ
رِيـحُ العَبِيـرِ لكُـم ونَحـنُ عَبيـرُنـا ... رَهَجُ السَّنابِكِ والغُبَارُ الأطيب[1]
ولَقَـدْ أتَـانـا مـن مَقَـالِ نَبيِّنـا ... قَـولٌ صَحيـحٌ صَـادِقٌ لا يُكْـذَبُ
لا يَسْتَـوِي وغُبَـارُ خَيْـلِ اللهِ فـي ... أنْفِ امْرِىء ودُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ[2]
هـٰـذا كتـابُ اللهِ يَنطِـقُ بَيننـا ... لَيـسَ الشَّهيـدُ بمَيِّـتٍ لا يُكـذَبُ

فلَقِيتُ الفُضَيْلَ بكتابِه في الحَرَمِ ، فقَرَأَ وبَكَىٰ ، ثمَّ قالَ : صَدَقَ أبو عبد الرَّحمَـٰنِ ونَصَحَ[3] .

وقال حِبَّانُ بنُ مُوسَىٰ : سَمعتُ ابنَ المُبَارَكِ يُنشِدُ :

كَيـفَ القَـرارُ وكَيـفَ يَهْـدَأُ مُسلِـمٌ ... والمُسْلِمَـاتُ مَـعَ العَـدُوِّ المُعْتَـدِي
الضَّـارِبـاتُ خُـدُودَهُـنَّ بِـرَنَّـةٍ ... الـدَّاعِيَـاتُ نَبِيَّهُـنَّ مُحمَّـدِ
القَـائِـلاتُ إذا خَشِيـنَ فَضِيحَـةً ... جَهْـد المَقَـالَـةِ لَيْتَنَـا لَـمْ نُـولَـدِ
مـا تَسْتَطِيـعُ ومـا لَهَـا مِـن حِيلَـةٍ ... إلاَّ التَّسَتُّـرُ مـن أخيهَـا بـاليَـدِ[4]

ولابْنِ حَزْمٍ[5] :

مُنَـايَ مـن الـدُّنيـا عُلُـومٌ أبُثُّهَـا ... وأنْشُـرُهـا فـي كُـلِّ بـادٍ وحَـاضِـرِ
دُعَـاءٌ إلـى القُـرآنِ والسُّنَـنِ التـي ... تَنَاسَىٰ رِجَالٌ ذِكْرَهَا في المَحَاضِرِ
وألْـزَمُ أطْـرافَ الثُّغُـورِ مُجَـاهِـداً ... إذا هيْعَـةٌ ثَـارَتْ فـأوَّلُ نَـافِـرِ

---

(١) الرَّهَجُ والرَّهَجُ : الغبار ، والسنابك جمع سنبك وهو طرف حافر الخيل وجانباه من قُدّام .
(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٢/٢٥٦ ، ٣٤٢ ، ٤٤١) ، والنسائي (٦/١٢) يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يَجْتمعُ غُبارٌ في سبيلِ اللهِ ودُخانُ جَهَنَّمَ في جَوْفِ عبدٍ أبداً ، ولا يَجْتمعُ الشُّحُّ والإيمَانُ في قلبِ عبدٍ أبداً » .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ، وانظر النزهة : ٤/٧٧٠ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ، وانظر النزهة : ١/٧٧١ .
(٥) انظر السير : (ابن حزم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢، وانظر النزهة: ١/١٤٠٣ .

لأَلْقَىٰ حِمامِي مُقْبِلاً غَيرَ مُدْبِرِ ... بسُمرِ العَوَالِي والرِّقاقِ البَواتِرِ
كِفاحاً مع الكُفَّارِ في حَوْمَةِ الوَغَى ... وأكْرَمُ مَوْتٍ للفَتَىٰ قَتْلُ كَافِرِ
فيَا رَبِّ لا تَجْعَلْ حِمامِي بغَيْرِها ... ولا تَجْعَلَنِّي من قَطِينِ المَقَابِرِ

وشِعْرُهُ فَحْلٌ كَما تَرَىٰ ، وكان يَنْظِمُ على البَدِيهِ ، ومن شِعْرِهِ :

أنا الشَّمسُ في جَوِّ العُلُومِ مُنِيرَةٌ ... ولكنَّ عَيْبِي أنَّ مَطْلَعِيَ الغَرْبُ
ولَوْ أنَّنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ ... لَجَدَّ علىٰ ما ضَاعَ مِنْ ذِكْرِيَ النَّهْبُ
ولِي نَحوَ أكْنافِ العِراقِ صَبَابَةٌ ... ولا غَرْوَ أنْ يَسْتَوحِشَ الكَلِفُ الصَّبُّ
فإنْ يُنْزِلِ الرَّحمَٰنُ رَحْلِيَ بَينَهُمْ ... فحِينَئِذٍ يَبدُو التَّأسُّفُ والكَرْبُ
هُنَالِكَ يُدْرَىٰ أنَّ للبُعْدِ قِصَّةً ... وأنَّ كَسَادَ العِلْمِ آفَتُهُ القُرْبُ

٢٨ـ فَتحُ المسلمين إمْبراطُوريّات فارسَ والرُّوم في مُدَّة وَجيزَة لم تُعهَد في التاريخ ولم يُسمَع بمثلها :

اسْتَولى المسلمون في ثلاثة أعْوامٍ علىٰ كُرسيّ مَمْلَكَة كِسْرَىٰ ، وعلىٰ كُرسيّ مَمْلَكَة قَيْصَر ، وعلىٰ أمَّيْ بلادهما ، وغَنِمَ المسلمون غَنائم لمْ يُسْمَعْ بمثلها قَطّ من الذَّهَب والجَوْهَر والحَرير والرَّقيق والمَدائن والقُصور ، فسُبحان الله العظيم الفتَّاح[1] !

٢٩ـ التَّسَرُّعُ في المَعْركَة مَهْلَكَة :

قال أبو عُبَيد الثَّقَفيّ ـ قائدُ المسلمين يومَ مَعركة الجِسْر ـ إنْ قُتِلتُ فعَليكم ابني جَبْر ، فإنْ قُتِلَ فعَليكم حَبيبُ بنُ رَبيعَة أخو أبي مِحْجَن ، فإنْ قُتِلَ فعَليكم أخي عبدُ الله ، فقُتِلَ جَميعُ الأُمَراء ، واسْتَحرَّ القَتلُ في المسلمين فطَلَبوا الجِسْرَ ، وأخَذَ الرَّايَة المُثَنَّىٰ بنُ حارثَة فحَماهم في جَماعة ثبتُوا معه[2] .

وسَبقَهم إلى الجِسْر عبدُ الله بنُ يَزيد فقَطعَه ، وقال : قاتلوا عن دينكم ، فاقْتَحَم النَّاسُ الفُراتَ ، فغَرِقَ ناسٌ كثير ، ثم عَقدَ المُثنى الجِسْرَ وعَبرَ النَّاسُ .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٦٧ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦١ .

واسْتُشْهِدَ يومئذ فيما قال خَليفَةُ ألفٌ وثَمانمائة ، وقال سَيفٌ : أربَعةُ آلاف ما بين قَتيلٍ وغَريق .

وعن الشَّعبيّ قال : قُتِلَ أبو عُبَيد في ثَمانمائة منَ المُسلمينَ[1] .

٣٠ـ الهَاتفُون بالتَّثْبيت في المعَارك :

عن ابنِ المُسَيّب عن أبيه ، قال : خَمدَت الأصْواتُ يومَ اليَرْموك ، والمسلمون يُقاتلون الرُّومَ إلاَّ صَوتُ رَجلٍ يقولُ : « يا نَصْرَ الله اقْترِبْ ، يا نَصْرَ الله اقْترِبْ » ، فرَفعتُ رأسي فإذا هو أبو سُفْيانُ بنُ حَرْب تحت رايَة ابنه يَزيد بن أبي سُفْيان[2] .

وعن جُبَيرِ بنِ الحُوَيْرث : حَضرتُ اليَرْموكَ فلا أسْمعُ إلاَّ نَقْفَ الحَديد إلاَّ أني سَمعتُ صائحاً يقولُ : يا مَعشَرَ المسلمين يومٌ من أيّام الله أبْلُوا لله فيه بَلاءً حَسناً ، فإذا هو أبو سُفْيان تحتَ رايَة ابنِه[3] .

ذكرَ الأزْديّ في « فُتُوحِ الشَّام » (ص ٢٢٠) : أنَّ أبا سُفْيان تَجهَّزَ في أحْسَن الجَهاز وأحْسَن الهَيئة ، ثم خرجَ ، وصَحبَه أُناسٌ من المسلمين كَثير ، كانوا خَرجوا مُتطوِّعينَ ، فأحْسنَ أبو سُفْيان صُحْبتَهم حتىٰ قَدموا علىٰ جماعة المسلمين ، فلمَّا كان يومَ خَرجَ المسلمون إلىٰ عَدُوِّهم باليَرْموك كان أبو سُفْيان يومئذ يَسيرُ في النَّاسِ ، ويَقفُ علىٰ أهل كلِّ راية ، وعلىٰ كلِّ جَماعة ، فيُحرِّضُ النَّاسَ ويَحُضُّهم ، ويَعِظُهم ، ويقولُ : إنَّكم يا مَعشرَ المسلمين أصْبَحتُم بإزاء عَدوٍّ كَثيرٌ عَددُهم ، شَديدٌ عليكم حُنْقُهم ، وقد وَتَرْتُموهم في أنفُسِهم ونسائِهم وأولادِهم وأمْوالِهم وبلادِهم ، فلا والله لا يُنْجيكُم منهم اليومَ وتَبلُغون رضْوانَ الله إلاَّ بصِدْق اللِّقاء والصَّبرِ في المَواطن المَكْروهَة ، فامْتنِعوا بسُيوفِكم ، وتَقرَّبوا بها إلىٰ خالقِكم ، ولْتَكُن هي الحُصون التي تلِجُون إليها ، وبها تُمْنَعون وقاتلَ أبو سُفْيان يومئذ قتالاً شَديداً ، وأبْلَىٰ بَلاءً حَسناً[4] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٢ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٣ .
(٣) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٦٣ .
(٤) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٤/ هامش (١) .

٣١ـ من فِقْه الجِهَاد :

قال قَتادَةُ : عن أنَس ، قال : لَمْ تُصَلَّ الغَداةُ[١] يومَ فَتح تُسْتَر حتى انتَصَف النَّهارُ ، فما يَسُرني بتلك الصَّلاة الدُّنيا كلها[٢] .

٣٢ـ إجْلاءُ اليَهود عن الجَزيرة العربية :

قال الذهبيُّ : وفي سنَة عشرين قَسَّم عُمرُ خَيْبَر وأجْلَىٰ عنها اليَهودَ ، وقَسَّمَ وادي القُرىٰ ، وأجْلَىٰ يَهُودَ نَجْرانَ إلى الكُوفَة[٣] .

* * *

---

(١) الغداة ، أي صلاة الفجر .

(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٧١ .

(٣) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٧٢ .

من لَوازِمِ الإيمَان

أولاً : الابْتِلاءُ

١ـ فَضْلُ المُبْتَلَى الصَّابِرِ :

قال عبدُ الله بنُ أحمد بنِ حَنْبَل : حَدَّثَنِي ثابِتُ بنُ أحمد بنِ شَبُّويه قال : كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ لأبي فَضِيلَةً علىٰ أحمَدَ بنِ حَنْبَل لجِهَادِهِ ، وفِكَاكِ الأسْرَىٰ ، فسَأَلْتُ أخي عبدَ اللهِ ، فقال : أحمَدُ بنُ حَنْبَل أرْجَحُ ، فلَمْ أقْنَعْ ، فأُرِيتُ شَيْخاً حَوْلَهُ النَّاسُ ، يَسْأَلُونَه ، ويَسْمَعُونَ منْه ، فسَأَلْتُهُ عنهُما ، فقال : سُبْحانَ الله!! ، إنَّ أحمَدَ ابنَ حَنْبَلٍ ابتُلِيَ فصَبَر ، وإنَّ شبُّويه عُوفِي ، المُبتَلَى الصَّابرُ كالمُعَافَى ؟!! هَيْهَات[1] .

٢ـ التَّصْبِيرُ حَالَ الابْتِلاء :

قال التَّنُوخيُّ : حَدَّثنَا جَعْفَرُ بنُ وَرْقاء الأميرُ قال : اجْتَزْتُ عبدَ الله ابنَ الجَصَّاص وكان مُصاهِري ، فرَأَيْتُه علىٰ حَوْشِ دَارِهِ حافِياً حاسِراً ، يَعْدُو كالمَجْنونِ ، فلمَّا رَآنِي اسْتَحْيَىٰ ، فقُلتُ : ما لَكَ ؟ قال : يَحِقُّ لي ، أخَذُوا منِّي أمْراً عَظِيماً ، فلُمْتُهُ وقُلتُ : ما بَقِيَ يَكْفِي ، وإنَّمَا يَقْلقُ هـٰذا القَلَقَ مَنْ يَخَافُ الحَاجَةَ ، فاصْبِرْ حتىٰ أُبَيِّنَ لكَ غِنَاكَ قال : هاتِ قُلتُ : أَلَيْسَ دارُكَ هـٰذه بآلتِها وفُرُشِها لك ؟ وعَقَارُكَ بالكَرْخِ وضِياعُكَ ؟ قال : بلَىٰ فما زِلتُ أُحاسِبُه حتىٰ بَلَغَ قِيمَةَ سَبعِ مِئَةِ ألفِ دينار ، ثمَّ قُلتُ : واصْدُقْني عمَّا سَلِمَ لك ، فحَسَبْناهُ ، فإذا هو بثلاثِ مِئَةِ ألفِ دينار ، قُلتُ : فمَنْ له ألفُ ألفِ دينارٍ ببَغْداد ؟ هـٰذا وجاهُكَ قائمٌ فلِمَ تَغْتَمُّ ؟!! فسَجَدَ لله وحَمِدَهُ وبَكَىٰ ، وقال : أنْقَذَنِي اللهُ بِكَ ، ما عَزَّانِي أحدٌ بأنْفَعَ من تَعْزِيَتِك ما أَكَلْتُ شيئاً منذُ ثلاثٍ ، فأقِمْ عندي لنَأكُلَ ونَتحدَّث فأقَمتُ عنده يومَينِ[2] .

---

(١) انظر السير : (ابن شَبُّويه) ١١/ ٧ـ ٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٠٥ .

(٢) انظر السير : (ابن الجصّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٦٦ الوزير .

٣ـ الصَّبرُ حالَ الابْتِلاء :

عن زِرٍّ ، عن عبدِ الله ، أوَّلُ مَنْ أظْهَرَ إسْلامَهُ سَبْعَةٌ : رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبُو بَكرٍ ، وعَمَّارٌ ، وأُمُّه سُمَيَّةُ ، وبِلالٌ ، وصُهَيْبٌ ، والمِقْدَادُ ، فأمَّا النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأبُو بَكْرٍ فمَنَعَهُما اللهُ بقَومِهِما ، وأمَّا سائِرُهُم فأخَذَهُم المُشْرِكُونَ ، فألْبَسُوهُم أدْراعَ الحَديدِ وصَهَرُوهُم في الشَّمْسِ ، فما مِنْهُم أحدٌ إلاَّ وأتاهُم علىٰ ما أرادوا إلاَّ بلال ، فإنَّه هَانَت عليه نفسُه في الله ، وهَانَ علىٰ قَوْمِه ، فأعْطَوهُ الوِلْدانَ ، فجَعَلُوا يَطُوفُونَ به في شِعابِ مَكّةَ ، وهو يقولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ[1] .

عن هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ ، أنَّ أبَاهُ خَرَجَ إلى الوَليدِ بنِ عبد المَلِك ، حتىٰ إذا كان بوادِي القُرىٰ ، وَجَدَ في رِجْلِهِ شيئاً فظَهَرتْ به قُرحَةٌ ، ثمَّ تَرَقَّىٰ به الوَجَعُ ، وقَدِمَ على الوَليدِ وهو في مَحمِلٍ ، فقال : يا أبا عبدِ الله اقْطَعْها ، قال : دُونَك فدَعا له الطَّبيبَ ، وقال : اشْرَبِ المُرقِد فلَمْ يَفْعَلْ ، فقَطَعَها من نِصْفِ السَّاقِ ، فما زَادَ أن يقولَ : حَسٍّ ، حَسٍّ ، فقال الوَليدُ : ما رأيتُ شَيْخاً قَطُّ أصْبَرَ من هَـٰذا ، وأُصِيبَ عُرْوَةُ بابنِه مُحمَّد في ذلكَ السَّفَرِ ، رَكَضَتْهُ بَغْلَةٌ في إصْطَبْلٍ لَمْ يُسْمَعْ منه في ذلكَ كَلِمَةٌ فلمَّا كان بِوَادِي القُرَىٰ قال : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾[2] اللَّهُمَّ كان لِي بَنُونَ سَبْعَةٌ ، فأخَذْتَ واحِداً وأبْقَيْتَ لِي سِتَّةً ، وكان لِي أطْرَافٌ أرْبَعَةٌ ، فأخَذْتَ طَرفاً ، وأبْقَيْتَ ثلاثةً ، ولَئِنْ ابْتَلَيْتَ ، لقَد عافَيْتَ ، ولَئِنْ أخَذْتَ لقَد أبْقَيْتَ[3] .

وقال الذهبيُّ : قَد أخْبَرَنِي عبدُ المُؤْمِنِ ـ شَيْخُنا ـ أنَّ أبا قِلابَةَ ممَّنِ ابْتُلِيَ في بَدَنِه ودِينِه ، أُرِيدَ على القَضَاءِ فهَرَبَ إلى الشَّام فمَاتَ بعَريضِ مِصْرَ سَنةَ أرْبَع ، وقد ذَهَبَتْ يَدَاهُ ورِجْلاهُ وبَصَرُه ، وهوَ مَعَ ذلكَ حامِدٌ شَاكِرٌ[4] .

---

(١) انظر السير : (بلال بن رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٨/١٧٤ .
(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦٢ .
(٣) انظر السير : (عُروَة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٧ .
(٤) انظر السير : (أبو قِلابة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٨/٥٣٤ (وانظر فهرس الصبر) .

٤ـ المِحْنَةُ المَحْمُودَةُ :

قال الإمامُ الذهبيُّ : ثَمَرَةُ المِحْنَة المَحْمودَة ، أنَّها تَرْفَعُ العَبدَ عند المُؤمِنينَ ، وبِكُلِّ حالٍ فهي بمَا كَسَبَتْ أيْدينَا ، ويَعْفُو اللهُ عن كَثِير : « ومَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ » ، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كلُّ قَضَاءِ المُؤمِنِ خَيْرٌ لَهُ » ، وقال اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] ، وأنْزَلَ تَعَالَىٰ في وَقْعَةِ أُحُدٍ قولَه : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾[2] وقال تعَالَىٰ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[3] فالمُؤمِنُ إذا امتُحِنَ صَبَرَ واتَّعَظَ واسْتَغْفَرَ ، ولَمْ يَتَشَاغَلْ بذَمِّ مَنْ انْتَقَمَ منه ، فاللهُ حَكَمٌ مُقْسِطٌ ، ثمَّ يَحْمَدُ اللهَ علىٰ سَلامَةِ دِينِه ، ويَعْلَمُ أنَّ عُقُوبَةَ الدُّنيا أهْوَنُ وخيرٌ له .

ولمَالِكٍ رحمَه اللهُ رِسَالةٌ في القَدَرِ ، كَتَبَها إلى ابنِ وَهْبٍ وإسْنادُهَا صَحيحٌ وله مُؤَلَّفٌ في النُّجومِ ومَنَازِلِ القَمَرِ ، ورِسالةٌ في الأَقْضِيَة ، ورسَالةٌ إلى اللَّيْثِ في إجْماعِ أهْلِ المَدِينَةِ ، مَعْرُوفَة .

فأمَّا ما نَقَلَ عنهُ كِبَارُ أصْحَابِه من المَسَائِلِ ، والفَتَاوَىٰ ، والفَوائِدِ ، فشيءٌ كَثيرٌ ، ومن كُنُوزِ ذلك : « المُدَوَّنَةُ » ، و« الواضِحَةُ » ، وأشْياء[4] .

٥ـ صُوَرٌ من الابْتِلاءِ :

وعن زِرٍّ ، عن عبدِ الله ، أولُ مَنْ أظْهَرَ إسْلامَه سَبْعَةٌ : رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بَكرٍ ، وعَمَّارٌ ، وأُمُّه سُمَيَّةُ ، وبِلالٌ ، وصُهَيْبٌ ، والمِقْدادُ ، فأمَّا النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو بَكرٍ فمَنَعَهُما الله بقَوْمِهما ، وأمَّا سائِرُهم فأخَذَهُم المُشْرِكُونَ ، فألْبَسُوهم أدْراعَ الحَديدِ ، وصَهَرُوهم في الشَّمسِ ، فما منهم أحدٌ إلاَّ وأتَاهُم علىٰ ما أرادُوا إلاَّ بلالٌ ، فإنَّه هانَتْ عليه نَفْسُه في الله ، وهان علىٰ قَوْمِه ،

---

(١) سورة محمد ، الآية : ٣١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٥ .

(٣) سورة الشورىٰ ، الآية : ٣٠ .

(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٠/ ٢ .

فأعْطَوهُ الوِلْدانَ ، فجَعَلُوا يَطُوفُونَ به في شِعابِ مَكةَ ، وهو يقولُ : أحَدٌ أحَدٌ[1] .

وعن عبدِ الرَّحمَـٰن بنِ حاطبِ بنِ أبي بَلْتَعَة : أنَّ أباه كَتَبَ إلىٰ كُفَّارِ قُرَيْشٍ كتاباً فدَعا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَلِيّاً والزُّبَيْرَ ، فقال : « انْطَلِقَا حتّىٰ تُدْرِكا امْرأةً معَهَا كِتابٌ فأتِيَانِي به » فلَقِياها ، وطَلَبَا الكتابَ ، وأخْبَراها أنَّهما غَيرُ مُنْصَرِفَيْنِ حتّىٰ يَنْزِعا كُلَّ ثَوبٍ عليها ، قالت : ألَسْتُما مُسْلِمَيْنِ ؟!! قالا : بَلَىٰ ، ولكنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم حدَّثنا أنَّ معَكِ كتاباً ، فحَلَّتْهُ من رأسِها قال : فدَعا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حاطِباً حتىٰ قُرِىءَ عليه الكتابُ ، فاعْتَرَفَ فقال صلى الله عليه وسلم : « ما حَمَلَكَ ؟ » قال : كان بمَكَّةَ قَرابَتِي ووَلَدِي ، وكُنتُ غَريباً فيكم مَعْشَرَ قُرَيْش فقال عُمَرُ رضي الله عنه : ائْذَنْ لي يا رسُولَ الله في قَتْلِه قال صلى الله عليه وسلم : « لا ، إنَّه قَد شَهِدَ بَدْراً ، وإنَّكَ لا تَدْرِي ، لَعَلَّ اللهَ قد اطَّلعَ علىٰ أهْلِ بَدْرٍ فقال : اعْمَلُوا ما شِئْتُم ، فإنِّي غافِرٌ لكُم » .

إسْنادُه صَالِحٌ ، وأصْلُهُ في الصَّحِيحَيْنِ[2] .

شَأنُ الإفْكِ :

كان في غَزوةِ المُرَيْسيع سَنةَ خَمسٍ من الهِجْرةِ وعُمرُ أُمِّ المؤمنينَ عائشةَ بنتِ أبي بَكر الصِّديق رَضِيَ اللهُ عنها يومَئذ اثْنَتَا عَشرة سَنةً .

عن ابنِ شِهابٍ : أخْبَرَني عُروَةُ ، وابنُ المُسَيِّب ، وعَلْقَمَةُ بنُ وَقَّاص ، وعُبَيْدُ الله بنُ عبد الله ، عن حَديثِ عائِشَةَ حينَ قالَ لها أهْلُ الإفْكِ ما قالوا ، فبَرَّأها اللهُ تعَالَىٰ وكُلٌّ حَدَّثني بطائِفَةٍ من حَديثِها ، وبَعضُ حَديثِهم يُصَدِّقُ بَعضاً ، وإنْ كان بَعضُهم أوْعَىٰ له من بَعضٍ ، قالت : كان رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أرَادَ سَفَراً أقْرَعَ بين نِسائِه ، فأيَّتُهنَّ خَرَجَ سَهْمُها خَرَجَ بها معَه فأقْرَعَ بيْنَنا في غَزْوةٍ غَزاها ، فخَرَجَ سَهْمِي ، فخَرَجْتُ مَعَه بعدَ ما نَزَلَ الحِجابُ ، وأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجٍ وأُنْزَلُ فيه ، فسِرْنا ، حتىٰ إذا فَرَغَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوَتِه تِلكَ ، وقَفَلَ ودَنَوْنا من المَدينَةِ ، آذَنَ

---

(١) انظر السير : (بلال بن رباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٨/١٧٤ .

(٢) انظر السير : (حاطب بن أبي بلتعة) ٢/ ٤٣ـ ٤٥ ، وانظر النزهة : ٣/٢١٦ .

ليلةً بالرَّحيلِ فقُمتُ حينَئذٍ فمَشَيْتُ حتىٰ جاوَزْتُ الجَيشَ فلمَّا قَضَيْتُ حاجَتِي ، أقْبَلْتُ إلىٰ رَحْلِي ، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَار[1] وقد انْقَطَعَ ، فالْتَمَسْتُه ، وحَبَسَنِي الْتِماسُهُ ، وأقْبَلَ الرَّهْطُ الذين كانوا يَرحَلُون بِي ، فاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي ، فرَحَلُوا علىٰ بَعيرِي ، وهم يَحْسَبون أنِّي فيه ، وكان النِّساءُ إذْ ذَاكَ خِفافاً لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ ، إنَّما يَأكُلْنَ العُلْقَةَ[2] من الطعامِ فلَمْ يَسْتَنْكِروا خِفَّةَ المَحْمَلِ حين رَفَعُوه ، وكُنتُ جاريةً حَديثةَ السِّنِّ ، فبَعَثوا الجَملَ وساروا ، فوَجَدْتُ عِقْدِي بعدما اسْتَمرَّ الجَيشُ ، فجِئتُ مَنازِلَهم ولَيسَ بها دَاعٍ ولا مُجيب فأمَّمْتُ مَنْزِلي الذي كُنتُ فيه ، وظَنَنْتُ أنَّهم سَيَفْقِدُوني فيَرْجِعُون إليَّ فبَيْنا أنا جالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنِي ، فنِمْتُ وكان صَفْوانُ بنُ المُعَطَّل السُّلَميّ ، ثمَّ الذَّكْوانيّ ، من وَراءِ الجَيشِ ، فأدْلَجَ ، فأصْبَحَ عند مَنْزِلي ، فرأىٰ سَوادَ إنْسانٍ نائِم ، فأتاني ، فعَرَفَني حين رآني ، وكان يَراني قبلَ الحِجابِ فاسْتَرْجَعَ ، فاسْتَيْقَظْتُ باسْتِرْجاعِه حين عَرَفْتُ فخَمَّرْتُ وَجْهيَ بِجِلْبابي ، واللهِ ما كَلَّمَني كَلِمَةً ، ولا سَمعتُ منه كَلِمَةً غَيرَ اسْتِرجاعِه ، فأناخَ راحِلَتَه ، فوَطِىءَ علىٰ يدَيْها فرَكِبْتُها فانْطَلَقَ يَقُودُ بي الرَّاحِلَةَ حتىٰ أتَيْنا الجَيشَ بعدما نَزَلُوا مُوغِرينَ[3] في نَحْرِ الظَهِيرَة ، فهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فيَّ وكان الذي تَوَلَّىٰ كِبْرَ هٰذا الإفْكَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيِّ بنِ سَلُول فقَدِمْنا المَدينَةَ ، فاشْتَكَيْتُ شَهْراً ، والنَّاسُ يُفِيضُونَ في قَولِ أهْلِ الإفْكِ ولا أشْعُرُ بشيءٍ من ذلك ، ويَريبُني في وَجَعِي أنِّي لا أعْرِفُ من رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم اللُّطْفَ الذي كُنتُ أرىٰ منه حين أَشْتَكِي ، إنَّما يَدْخُلُ عليَّ ، فيُسَلِّمُ ، ثمَّ يَقُولُ : « كيْفَ تِيكم ؟ » ثمَّ يَنْصَرِفُ فذلك الذي يَريبُني ولا أَشْعُرُ بالشَّرِّ ، حتىٰ خَرَجْتُ بعدما نَقَهْتُ .

فخَرَجْتُ مع أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَناصِع[4] ، وهو مُتَبَرَّزُنا وكُنَّا لا نَخْرُجُ إلاَّ لَيلاً إلىٰ لَيلٍ ، وذلك قَبلَ أنْ تُتَّخَذَ الكُنُفُ قَريباً من بُيُوتِنا ، وأمْرُنا أمْرُ العَرَبِ الأُوَل من التَّبَرُّز قِبلَ الغائط ، وكُنَّا نَتَأذَّىٰ بالكُنُفِ أنْ نتَّخِذَها عند بُيُوتِنا فانْطَلَقْتُ أنا وأُمُّ مِسْطَح بنتُ

---

(١) الجزع : خرز يماني ، وظفار : قرية باليمن .

(٢) العُلقة (بضم العين) : كل ما يتبلغ به من العيش ، وهي من الطعام اليسير منه .

(٣) أي نازلين في وقت الوغرة ، وهي شدة الحر ، ونحر الظهيرة : وقت القائلة .

(٤) المناصع : مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها .

أبي رُهم بنِ عبدِ مَناف ، وأُمُّها ابْنَةُ صَخْرِ بنِ عامِر خالَةُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ، وابنُها مِسْطَح بنُ أثاثَة بنِ المُطَّلِب ، فأقْبَلْتُ أنا وهي قِبَلَ بَيْتِي ، وقد فَرَغْنا من شَأْنِنا ، فعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَح في مِرْطِها ، فقالت : تَعِسَ مِسْطَح ، فقُلتُ لها : بِئْسَ ما قُلتِ!! ، أتَسُبِّينَ رجلاً شَهِدَ بَدْراً ؟!! قالت : أيْ هَنْتَاه[1] ، أوَلَمْ تَسْمَعِي ما قال ؟ قُلتُ : وما ذَاكَ ؟ فأخْبَرَتْنِي الخَبَرَ ، فازْدَدْتُ مَرَضاً علىٰ مَرَضِي .

فلمَّا رَجَعتُ إلىٰ بَيْتي ، ودَخَلَ عليَّ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فسَلَّمَ ثم قال : « كيْفَ تِيكم ؟ » فقُلتُ : أتَأذَنُ لي أنْ آتي أبَوَيَّ ؟ وأنا حينئذ أُريدُ أنْ أسْتَيْقِنَ الخَبرَ من قِبَلهما فأذِنَ لي فجِئْتُ أبَوَيَّ ، فقُلتُ : يا أُمَّتاه ، ما يَتَحدَّثُ النَّاسُ ؟ قالت : يا بُنَيَّةُ! هَوِّني عليك ، فواللهِ لَقَلَّما كانت امرأةٌ وَضيئَةٌ عند رجُلٍ يُحِبُّها لها ضَرائِرُ إلاَّ كَثَّرنَ عليها ، فقُلتُ : سُبحانَ اللهِ!! وقد تَحدَّثَ النَّاسُ بهـٰذا ؟ فبَكَيْتُ الليلةَ حتىٰ لا يَرْقأُ لي دَمْعٌ ولا أكْتَحِلُ بنَومٍ ثمَّ أصْبَحتُ أبْكِي .

فدَعا رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عليَّ بنَ أبي طالِبٍ وأُسامَةَ بنَ زَيْدٍ ، حين اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ ، يَستأمِرُهما في فِراقِ أهْلِه فأمَّا أُسامَةُ ، فأشارَ علىٰ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالذي يَعْلَمُ من بَراءَةِ أهْلِه ، وبالذي يَعْلمُ لهم في نَفسِه من الوُدِّ ، فقال : يا رسُولَ اللهِ أهْلُكَ ، ولا نَعْلمُ إلاَّ خَيْراً وأمَّا عليٌّ فقال : لَمْ يُضَيِّق اللهُ عليكَ ، والنِّساءُ سِواها كَثيرٌ ، واسْألِ الجارِيَةَ تَصْدُقْكَ فدَعا رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بريرةَ[2] فقال : « أيْ بريرةُ ، هَلْ رَأيْتِ من شَيءٍ يَريبُكِ ؟ » قالت : لا والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ، إنْ رَأيتُ عليها أمْراً أغْمِصُه[3] عليها أكْثَرَ من أنَّها جارِيَةٌ حَديثَةُ السِّنِّ ، تَنامُ عن عَجينِ أهْلِها ، فيَأتي الدَّاجِنُ ، فيَأكُلُه .

---

(١) قال ابن الأثير : أي : يا هـٰذه ، وتُفتح النون وتسكن ، وتُضم الهاء الآخرة وتسكن قال الجوهريّ : هـٰذه اللفظة تختص بالنداء ، وقيل : معنىٰ يا هنتاه : أي يا بلهاء ، كأنها نُسبت إلىٰ قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم .

(٢) كون الجارية بريرة هنا ، وهمٌ من بعض الرواة نبّه عليه ابن القيم في « زاد المعاد » ٣/ ٢٦٨ طبع مؤسسة الرسالة ، وأخذ عنه الزركشيّ في « الإجابة » ص ٤٨ .

(٣) أغمصه : أي أعيبه .

فقامَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فاسْتَعْذَرَ من عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلُول ، فقال وهو على المِنْبَرِ : « يا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ ، مَنْ يَعْذِرُني[1] مِنْ رَجلٍ قد بَلَغَني أذاهُ في أهْلِ بَيْتي ، فوَاللهِ ما عَلِمْتُ علىٰ أهْلِي إلاَّ خَيراً ، ولَقَد ذَكرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عليه إلاَّ خَيراً وما كان يَدخُلُ علىٰ أهْلِي إلاَّ مَعِي » فقامَ سَعدُ بنُ مُعَاذٍ ، فقال : يا رسُولَ الله ، أنا أعْذِرُكَ مِنْه ، إنْ كانَ من الأَوْسِ ، ضَرَبْتُ عُنُقَه ، وإنْ كان منْ إخْوانِنا من الخَزْرَجِ أَمَرْتَنا ، ففَعَلْنا أَمْرَكَ .

فقامَ سَعدُ بنُ عُبادَة ـ وهو سَيِّدُ الخَزْرَج ـ وكان قَبلَ ذلكَ رَجُلاً صالِحاً ، ولكنْ احْتَمَلَتْهُ الحَميَّة[2] ، فقال لسَعدٍ : كَذَبتَ لعَمْرُ الله!! لا تَقْتُلُه ، ولا تَقْدِرُ علىٰ قَتْلِه فقامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْر ـ وهو ابنُ عمِّ سَعدِ ابنِ مُعاذ ـ فقال : كَذَبْتَ!! لَعَمْرُ الله لَنَقْتُلَنَّه ، فإنَّكَ مُنافِقٌ تُجادِلُ عن المُنافِقين فتَثاوَرَ[3] الحَيَّان : الأوْسُ والخَزْرَج ، حتىٰ هَمُّوا أنْ يَقْتَتلوا ، ورسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ على المِنْبَرِ فلَمْ يَزَلْ يُخَفِّضُهم حتىٰ سَكَتُوا وسَكَتَ صلى الله عليه وسلم .

قالت : فبَكَيْتُ يَومي ذلكَ ولَيلَتي ، لا يَرْقأُ لي دَمعٌ ، حتىٰ ظَنَنتُ أنَّ البُكاءَ فالقٌ كبِدِي فبينَما هما جالِسان عندي ، وأنا أبْكي ، اسْتأذَنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأنْصارِ ، فأذِنْتُ لها ، فجَلسَت تَبكي مَعي ، فبينما نحنُ علىٰ ذلك ، دَخَلَ علينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فسَلَّمَ ثمَّ جَلسَ ، ولَمْ يَجلِسْ عندي منذُ قِيلَ لي ما قِيل ، ولقد لَبِثَ شَهراً لا يُوحَىٰ إليه في شَأني شيءٌ قالت : فتَشَهَّدَ ، ثمَّ قال صلى الله عليه وسلم : « أمَّا بَعدُ ، يا عائِشَةُ ، فإنَّه قد بَلَغَني عنْكِ كذا وكذا ، فإنْ كنتِ بَريئَةً ، فسَيُبَرِّئُكِ اللهُ ، وإنْ كنتِ أَلْمَمْتِ بذَنبٍ ، فاسْتَغفِري اللهَ ، وتُوبي إليه ، فإنَّ العَبْدَ إذا اعْتَرَفَ بذَنبه ثمَّ تَابَ ، تَابَ اللهُ عَليهِ » فلمَّا قَضَىٰ مَقَالَتَه ، قَلصَ دَمْعي حتىٰ ما أُحِسُّ منه قَطرَة ، فقُلتُ لأبي :

---

(١) يعذرني : أي مَن يقوم بعذري إن جازيته علىٰ قبح فعله ، وسوء ما صدر منه وقيل : معناه من ينصرني ، والعذير : الناصر .

(٢) احتملته الحَمية : أي أغضبته .

(٣) تثاور : أي تواثبا ، وتناهضا للنزاع والعصبية .

أجِبْ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال : والله ما أدْري ما أقُولُ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقُلتُ لأُمِّي : أجِيبِي رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ما أدْري ما أقُولُ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقُلتُ وأنا يَومَئذٍ حَديثةُ السِّنِّ لا أقْرأُ كثيراً من القُرآنِ : إنِّي والله لقد عَلمتُ ، لقد سَمعتُم هـٰذا الحَديثَ حتى اسْتقَرَّ في أنفُسِكم ، وصَدَّقتُم به ، فلَئِنْ قُلتُ لكم : إنِّي بَريئَةٌ ـ واللهُ يَعلَمُ أنِّي بَريئَةٌ ـ لا تُصَدِّقُوني بذلك ، ولَئِنْ اعْتَرفْتُ لكم بأمْرٍ ، واللهُ يَعلَمُ أنِّي بَريئَةٌ ، لَتُصَدِّقُنِّي واللهِ ما أَجِدُ لي ولَكُم مَثلاً إلاَّ قَولَ أبي يُوسُفَ عليه السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1] . ثمَّ تَحوَّلْتُ ، فاضْطَجَعْتُ علىٰ فِراشي ، وأنا أَعْلَمُ أنِّي بَريئَةٌ ، وأنَّ الله تعَالَىٰ يُبَرِّئُني بِبَراءَتي ، ولكنْ والله ماظَنَنتُ أنَّ اللهَ يُنْزِلُ في شأني وَحْياً يُتْلَىٰ ، ولَشَأني كان في نَفْسِي أَحْقَرُ مِنْ أنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فيَّ بأمْرٍ يُتْلَىٰ ، ولكنْ كُنتُ أَرْجُو أنْ يَرَىٰ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ رُؤْيا يُبَرِّئُني اللهُ بها ، قالت : فَوَاللهِ ما قَامَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ولا خَرَجَ أحَدٌ من أهْلِ البَيْتِ ، حتىٰ نَزَلَ عليه الوَحْيُ ، فأَخَذَهُ ماكان يأْخُذُه من البُرَحَاء ، حتىٰ إنَّه لَيَتَحَدَّرُ منه مِثلُ الجُمَان من العَرَقِ ، وهو في يَومٍ شَاتٍ ، من ثِقَلِ القَوْلِ الذي يَنزِلُ عليه فلمَّا سُرِّيَ عنه وهو يَضْحَكُ ، كان أَوَّل كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بها صلى الله عليه وسلم : « ياعَائِشَةُ ، أَمَا واللهِ ، لَقَدْ بَرَّأَكِ الله » فقالت أُمِّي : قُومي إلَيْه فقُلتُ : واللهِ لا أَقُومُ إلَيْه ، ولا أَحْمَدُ إلاَّ اللهَ وأنْزَلَ اللهُ تعالَىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾[2] العَشْر الآياتِ كُلّها .

فلمَّا أَنْزَلَ اللهُ هـٰذا في بَراءَتي ، قال أبُو بَكْر ، وكان يُنْفِقُ علىٰ مِسْطَح لِقَرابَتِه وفَقْرِه : واللهِ لا أُنْفِقُ علىٰ مِسْطَح شَيْئاً أبَداً بعد الذي قال لِعائِشَةَ فأُنْزِلَتْ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[3] ، قال : بَلَىٰ واللهِ ، إنِّي لأُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٨ .

(٢) سورة النور ، الآية : ١١ وما بعدها .

(٣) سورة النور ، الآية : ٢٢ .

فرَجَعَ إلىٰ مِسْطَح النَّفَقَةَ التي كان يُنْفِقُ عليه ، وقال واللهِ لا أَنْزِعُها منه أبَداً قالت : وكان رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَسْأَلُ زَيْنَبَ بنتَ جَحْشٍ عن أمْرِي فقالت : أَحْمِي سَمْعِي وبَصَرِي ، ما عَلِمتُ إلاَّ خَيْراً ، وهي التي كانت تُسَامِينِي[1] من أزْواجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فعَصَمَها اللهُ بالوَرَعِ ، وطَفِقَت أُختُها حِمْنَةُ تُحارِبُ لها[2] فهَلَكَتْ فيمَنْ هَلَكَ من أصْحابِ الإفْكِ[3] .

قال الذهبيُّ في تَرْجَمة مُعَيْقِيب بنِ أبي فاطمَة الدَّوْسيّ : له هجرةٌ إلى الحَبشَة ، وقيل : إنَّه قَدم مع جَعفرٍ ليالي خَيْبَر ، وكان مُبْتَلىٰ بالجُذام .

عن محمود بن لُبَيد ، قال : أمَّرَني يَحْيَىٰ بنُ الحَكَم علىٰ جُرَش ، فقَدمتُها فحَدَّثوني أنَّ عبدَ الله بنَ جَعْفَر حَدَّثهم : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لصاحب هـٰذا الوَجَع ـ الجُذام ـ : « اتَّقُوهُ كمَا يُتَّقَى السَّبُعُ ، إذا هَبَطَ وَادِياً فاهْبِطُوا غَيْرَه » .

فقَدمتُ المدينةَ ، فسَألتُ عبدَ الله بنَ جَعفر فقال : كَذبُوا والله!! ما حَدَّثتُهم هـٰذا ، ولقد رأيتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب يُؤتَىٰ بالإناء فيه الماءُ فيُعطيه مُعَيْقيباً ـ وكان رجُلاً قد أسْرعَ فيه ذاكَ الدَّاءُ ـ فيَشربُ منه ، ويُناولُه عُمَرَ ، فيَضعُ فَمَه مَوْضعَ فَمِه ، حتىٰ يَشرَبَ منه ، فعَرفتُ أنَّه يَفعلُه فِراراً من العَدْوَىٰ .

وكان يَطلب الطِّبَّ من كلِّ من سُمع له بطِبٍّ ، حتىٰ قَدم علينا رجلان من أهل اليَمن ، فقال : هل عندكما من طبٍّ لهـٰذا الرجل الصالح ؟ ، فقالا : أمَّا شيءٌ يُذهبُه ، فلا نَقدرُ عليه ، ولكنَّا سنُداويه دواءً يُوقِفُه ، فلا يَزيد فقال عُمرُ : عافيَةٌ عَظيمة فقالا : هل تُنْبِتُ أرضُك الحَنْظَلَ ؟ قال : نعم قالا : فاجْمَعْ لنا منه ، فأمرَ ، فجُمعَ له ملءُ مِكتَلَيْنِ عظيمَين .

---

(١) تساميني : تعاليني ، من السُّمو والعُلو والارتفاع ، أي تطلب العُلو والرفعة والحظوة عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ما أطلب .

(٢) تحارب لها : أي تجادل لها وتتغضب ، وتحكي ما قال أهل الإفك لتنخفض منزلة عائشة وتعلو مرتبة أختها زينب .

(٣) انظر السير : (عائشة أم المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٨ .

فشَقَّا كل واحدة نصفين ، ثم أضْجَعا مُعَيقِيباً ، وأخذَ كلُّ واحدٍ منهما برِجلٍ ، ثم جَعلا يُدلِّكان بُطونَ قدميه بالحَنْظلة ، حتىٰ إذا مُحقت ، أخذا أخرىٰ ، حتىٰ إذا رأيا مُعَيقيباً يَتنخَمُه أخضراً مُرّاً أرْسلاه ثم قالا لعُمرَ : لا يَزيدُ وَجَعُه بعد هـٰذا أبداً قال : فوالله ما زالَ مُعَيقيباً مُتماسكاً ، لا يزيدُ وَجَعُه حتىٰ مات .

عاشَ مُعَيقيبٌ إلىٰ خلافة عثمان رضي الله عنه .

والفِرارُ من المَجذوم ، وتَرك مُؤاكلته جائزٌ ، لكن لِيَكُن ذلك بحيث لا يكادُ يَشْعرُ المَجذوم ، فإنَّ ذلك يُحْزِنُه ، ومَن واكَله ـ ثِقَةً بالله ، وتَوكُّلاً عليه ـ فهو مؤمن[1] .

عن ابنِ عبَّاسٍ قال : كان ابنُ أبي سَرْح يَكتبُ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأزَلَّه الشَّيْطانُ ، فلَحِقَ بالكُفَّارِ ، فأمَرَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنْ يُقتَلَ ، فاسْتَجارَ له عُثْمانُ[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في مِحْنَةِ آلامِ سَعيدِ بنِ المُسَيِّب ، قال الواقِديُّ : حدَّثنا عبدُ اللهِ بنُ جَعْفَر ، وغَيرُهُ من أصْحابِنا قالوا : اسْتَعْمَل ابنُ الزُّبَيْرِ جابِرَ بنَ الأسْوَد بنِ عَوْف الزُّهْريّ على المَدينَة ، فدَعا النَّاسَ إلى البَيْعَة لابنِ الزُّبَيْر فقال سَعيدُ بنُ المُسَيِّب : لا ، حتىٰ يَجْتَمِعَ النَّاسُ فضَرَبَه سِتّينَ سَوْطاً فبَلَغَ ذلكَ ابنَ الزُّبَيْر ، فكَتَبَ إلىٰ جابرٍ يَلُومَه ويقولُ : ما لَنا ولسَعِيدٍ ، دَعْهُ .

وعن عبد الواحِد بنِ أبي عَوْن ، قال : كان جابِرُ بنُ الأسْوَدِ عامِلُ ابنِ الزُّبَيْرِ على المَدينَة قد تَزَوَّجَ الخامسَةَ قبلَ انقِضاءِ عِدَّةِ الرَّابِعَةِ ، فلمَّا ضَرَبَ سَعيدَ بنَ المُسَيِّبِ صاحَ به سَعيدٌ والسِّياطُ تأخُذُه ، واللهِ ما رَبَّعْتَ علىٰ كتاب الله ، وإنَّكَ تَزَوَّجْتَ الخامسَةَ قبلَ انقِضاءِ عِدَّةِ الرَّابعَةَ ، وما هي إلاَّ لَيالٍ فاصْنَعْ ما بَدَا لَكَ ، فسَوْفَ يأتِيكَ ما تَكْرهُ فما مَكَثَ إلاَّ يَسيراً حتىٰ قُتِلَ ابنُ الزُّبَيْرِ[3] .

قال الواقِديُّ : حدَّثنا عبدُ الله بنُ جَعْفَر وغَيرُه أنَّ عبدَ العَزيز ابنَ مَرْوانَ تُوفِّيَ بمِصْرَ

---

(١) انظر السير : (مُعَيْقيب بن أبي فاطمة الدوسيّ) ٢/ ٤٩١ـ ٤٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن سعد) ٣/ ٣٣ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٢٦ .

(٣) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٨٤ .

سَنةَ أرْبعٍ وثمَانينَ ، فعَقَدَ عبدُ المَلِك لابْنَيْه : الوَلِيدِ وسُليْمان بالعَهْدِ ، وكَتَبَ بالبَيْعَةِ لهُما إلى البُلْدان ، وعامِلُه يومَئذٍ على المَدينَة هشامُ بنُ إسْماعيل المَخْزوميّ ، فدَعا النَّاسَ إلى البَيْعَة ، فبايَعُوا ، وأبَىٰ سَعيدُ بنُ المُسَيِّب أن يُبايِعَ لهما وقال : حتىٰ أنْظُرَ ، فضَرَبَه هِشامُ سِتّينَ سَوْطاً ، وطَافَ به في تُبَّانٍ من شَعْر ، حتىٰ بَلَغَ به رأسَ الثَّنيَّةِ ، فلمَّا كَرُّوا به قال : أيْنَ تَكِرُّونَ بِي ؟ قالُوا : إلى السِّجنِ ، فقال : والله لَوْلا أنِّي ظَنَنْتُه الصَّلْبَ ، ما لَبِسْتُ هـٰذا التُّبَّانَ أبَداً فرَدُّوهُ إلى السِّجْنِ ، فحَبَسَه وكَتَبَ إلىٰ عبد المَلِك يُخْبِرُه بخِلافِه فكَتَبَ إليه عبدُ المَلِك يَلُومُه فيما صَنَعَ به ويقولُ : سَعيدٌ ، كان والله أحْوَجَ إلىٰ أنْ تَصِلَ رَحِمَهُ من أنْ تَضْرِبَه وإنَّا لَنَعلَمُ ما عنْدَهُ خِلافٌ[1] .

وقال أبو بكرٍ بنُ أبي داوُدَ : كانت بنْتُ سَعيد بنِ المُسَيِّب قد خَطَبَها عبدُ المَلِكِ لابْنِهِ الوَلِيدِ ، فأبَىٰ عليه فلَمْ يَزَلْ يَحْتالُ عبدُ المَلِكِ عليه حتىٰ ضَرَبَهُ مِئَةَ سَوْطٍ في يومٍ باردٍ ، وصَبَّ عليه جَرَّةَ ماءٍ ، وألْبَسَهُ جُبَّةَ صُوفٍ .

وعن ابنِ أبي وَدَاعَةَ ـ يَعنِي كَثِيراً ـ قال : كُنتُ أُجالِسُ سَعيدَ ابنَ المُسَيِّبِ ، ففقَدَنِي أيَّاماً ، فلمَّا جِئْتُهُ قال : أيْنَ كُنتَ ؟ قُلتُ : تُوفِّيَتْ أهْلِي فاشْتَغَلْتُ بها ، فقال : ألا أخْبَرْتَنا فشَهِدْناها ، ثمَّ قال : هَلْ اسْتَحْدَثْتَ امرأةً ؟ فقُلتُ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، ومَنْ يُزَوِّجُنِي وما أمْلِكُ إلاَّ دِرْهَمَيْنِ أو ثلاثة ؟!! ، قال : أنا فقُلتُ : وتَفْعَلُ ؟!! قال : نَعَمْ ، ثمَّ تَحَمَّدَ ، وصَلَّىٰ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وزَوَّجَنِي علىٰ دِرْهَمَيْنِ ـ أوْ قال : ثلاثة ـ فقُمتُ وما أدْرِي ما أصْنَعُ من الفَرَحِ فصِرتُ إلىٰ مَنْزِلِي وجَعَلْتُ أتفَكَّرُ فيمَنْ أسْتَدِينُ .

فصَلَّيْتُ المَغْرِبَ ، ورَجَعْتُ إلىٰ مَنْزِلِي ، وكُنتُ وَحْدِي صائِماً ، فقَدَّمْتُ عَشَائِي أُفْطِرُ ، وكان خُبْزاً وزَيْتاً ، فإذا بابي يُقْرَعُ ، فقُلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ فقال : سَعيدُ ، فأفْكَرْتُ في كُلِّ مَنْ اسْمُه سَعيدٌ إلاَّ ابنَ المُسَيِّبِ ، فإنَّه لَمْ يُرَ أرْبَعِينَ سَنةً إلاَّ بينَ بَيْتِهِ والمَسْجِدِ ، فخَرَجْتُ ، فإذا سَعيدٌ ، فظَنَنْتُ أنَّه قد بَدَا لَهُ ، فقُلتُ : يا أبا مُحمَّدٍ ألا أرْسَلتَ إليَّ فآتِيكَ ؟ قال : لا ، أنْتَ أحَقُّ أنْ تُؤتَىٰ ، إنَّكَ كُنتَ رجُلاً عَزَباً فتَزَوَّجْتَ ،

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨٤ .

فكَرِهْتُ أنْ تَبيتَ اللَّيلَةَ وَحْدَكَ ، وهـٰذه امرأتُكَ ، فإذا هي قائِمةٌ من خَلْفِهِ في طُولِهِ ، ثمَّ أخَذَ بيَدِها فدَفَعَها في البَابِ ، ورَدَّ البَابَ ، فسَقَطَتِ المَرأةُ من الحَيَاءِ ، فاسْتَوْثَقْتُ من البابِ ثمَّ وَضَعْتُ القَصْعَةَ في ظِلِّ السِّراجِ لكي لا تَرَاهُ ، ثمَّ صَعَدْتُ إلى السَّطحِ فرَمَيْتُ الجِيرانَ ، فجَاؤُونِي فقالوا : ما شَأنُكَ ؟!! فأخْبَرْتُهُم ونزَلُوا إليها ، وبَلَغَ أُمِّي ، فجاءَتْ وقالت : وَجْهي من وَجْهِكَ حَرامٌ إنْ مَسَسْتَهَا قبلَ أنْ أُصْلِحَها إلىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ ، فأقَمْتُ ثلاثاً ثمَّ دَخَلْتُ بها ، فإذا هي من أَجْمَلِ النَّاسِ ، وأحْفَظِ النَّاسِ لكتابِ اللهِ ، وأعْلَمِهم بسُنَّةِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وأعْرَفِهم بحَقِّ زَوْجٍ فمَكَثْتُ شَهراً لا آتِي سَعيدَ ابنَ المُسَيِّبِ ثم أتَيْتُهُ وهو في حَلْقَتِه ، فسَلَّمتُ ، فرَدَّ عليَّ السَّلامَ ولَمْ يُكَلِّمْنِي حتىٰ تَقَوَّضَ المَجْلِسُ ، فلمَّا لَمْ يَبْقَ غَيري قال : ما حالُ الإنْسانِ ؟ قُلتُ : خَيراً يا أبا مُحمَّد ، علىٰ ما يُحِبُّ الصَدِيقُ ، ويَكْرَهُ العَدُوُّ قال : إنْ رابَكَ شَيءٌ فالعَصَا فانْصَرَفْتُ إلىٰ مَنْزِلِي ، فوَجَّهَ إليَّ بعِشرينَ ألفِ دِرْهم .

قال أبو بَكر بنُ أبي داوُد : ابنُ أبي وَداعَة هو كثير بن المطلب ابن أبي وَداعَة .

قال الذهبيُّ : هو سَهميٌّ مَكِّيٌّ ، روىٰ عن أبيه المطلب أحد مُسْلمَة الفَتح[1] .

عن هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ ، أنَّ أبَاهُ خَرَجَ إلى الوَليدِ بنِ عبد المَلِك ، حتىٰ إذا كان بوادِي القُرىٰ ، وَجَدَ في رِجْلِهِ شيئاً فظَهَرتْ به قُرحَةٌ ، ثمَّ تَرَقَّىٰ به الوَجَعُ ، وقَدِمَ على الوَليدِ وهو في مَحمِلٍ ، فقال : يا أبا عبدَ الله اقْطَعْها ، قال : دُونَك فدَعا له الطَّبيبَ ، وقال : اشْرَبْ المُرقِد فلَمْ يَفْعَلْ ، فقَطَعَها من نِصْفِ السَّاقِ ، فما زَادَ أن يقولَ : حَسِّ ، حَسِّ ، فقال الوَليدُ : ما رأيتُ شَيْخاً قَطُّ أصْبَرَ من هـٰذا ، وأُصِيبَ عُرْوَةُ بابنِه مُحمَّد في ذلكَ السَّفَرِ ، رَكَضَتْهُ بَغْلَةٌ في إصْطَبْلٍ لَمْ يُسْمَعْ منه في ذلكَ كَلِمَةٌ فلمَّا كان بِوَادِي القُرَىٰ قال : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾[2] اللَّهُمَّ كان لِي بَنُونَ سَبْعَةٌ ، فأخَذْتَ واحِداً وأبْقَيْتَ لِي سِتَّةً ، وكان لِي أطْرَافٌ أرْبَعَةٌ ، فأخَذْتَ طَرفاً ، وأبْقَيْتَ

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٣٨٥ .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦٢ .

ثلاثةً ، ولَئِنْ ابْتَلَيْتَ ، لقَد عافَيْتَ ، ولَئِنْ أخَذْتَ لقَد أبْقَيْتَ[1] .

وقال الذهبيُّ : قد أخْبَرَنِي عبدُ المُؤمن ـ شَيْخُنا ـ أنَّ أبا قِلابَة ممَّن ابتُلِيَ في بَدَنِه ودِينِه ، أُرِيدَ على القَضَاءِ فهَرَبَ إلى الشَّام فماتَ بعَريضِ مِصْرَ سَنةَ أرْبعٍ ، وقد ذَهبَتْ يَداهُ ورِجْلاهُ وبَصَرُه ، وهو مع ذلك حامِدٌ شاكِرٌ[2] .

ولمَّا تَمَادَىٰ مُوسَىٰ بنُ نُصَيْر في سَيْرِهِ في الأنْدَلُسِ ، أتَىٰ أرْضاً تَميدُ بأهْلِها ، فقال عَسْكَرُهُ : إلىٰ أيْنَ تُريدُ أنْ تذهَبَ بنا ؟ حَسْبُنَا ما بأيْدِينا ، فقال : لَوْ أطَعْتُمونِي لَوَصَلْتُ إلى القُسْطَنْطِينيَّة ، ثمَّ رَجَعَ إلى المَغْرِبِ وهو راكبٌ علىٰ بَغْلَةٍ وهو يَجُرُّ الدُّنيا بينَ يَدَيهِ ، أمَرَ بالعَجَلِ تَجُرُّ أوْقارَ الذَّهَبِ والحَريرِ ، واسْتَخْلَفَ ابْنَه بإفْريقِيَّة ، وأخَذَ معه مِئَةً من كُبَرَاءِ البَرْبَرِ ، ومِئَةً وعشرين من المُلُوكِ وأولادِهم ، فقَدِمَ مِصْرَ في هَيْئَةٍ ما سُمِعَ بمِثْلِها ، فوَصَلَ العُلَمَاءُ والأشْرافُ ، وسَارَ إلى الشَّام فبَلَغَهُ مَرَضُ الوَلِيدِ ، وكَتَبَ إليه سُلَيْمانُ يأمُرُهُ بالتَّوَقُّفِ ، فما سَمِعَ منهُ ، فآلَىٰ سُلَيْمانُ إنْ ظَفِرَ بهِ لَيَصْلِبنَّهُ وقَدِمَ قبلَ مَوْتِ الوَلِيدِ ، فأخَذَ ما لا يُحَدُّ من النَّفائِسِ ، ووَضَعَ باقِيهِ في بَيْتِ المَالِ ، وقُوِّمَتِ المَائِدَةُ بمِئَةِ ألْفِ دينار .

ووَلِيَ سُلَيْمانُ فأهانَه ، ووُقِّفَ في الحَرِّ ـ وكان سَميناً ـ حتىٰ غُشِيَ عليهِ وبَقِيَ عُمَرُ بنُ عبد العَزِيزِ يَتألَّمُ له ، فقال سُلَيْمانُ : يا أبا حَفْصٍ ما أظُنُّ إلاَّ أنَّني خَرَجْتُ من يَمِيني .

وضَمَّهُ يَزِيدُ بنُ المُهَلَّبِ إليهِ ، ثمَّ فَدَىٰ نَفسَه بِبَذْلِ ألفِ ألفِ دينارٍ ، وقِيلَ له : أنْتَ في خَلقٍ من مَوَالِيكَ وجُنْدِكَ ، أفَلا أقَمْتَ في مَقَرِّ عِزِّكَ ، وبَعثتَ بالتَّقادُمِ ، قال : لَوْ أرَدْتُ ، لَصَارَ ، ولكنْ آثَرْتُ اللهَ ولَمْ أرَ الخُروجَ ، فقال له يَزِيدُ : وكُلُّنا ذاكَ الرجُلُ ـ أرادَ بهٰذا قُدومَهُ على الحَجَّاجِ[3] .

وقد امْتُحِنَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ ، حُبِسَ وضُرِبَ ، فرَوىٰ حِبَّانُ بنُ زُهَيْر العَدَوِيّ ، قال :

---

(١) انظر السير : (عروة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٢٧ .

(٢) انظر السير : (أبو قِلابة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٣٤ .

(٣) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/ ٤٩٦ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٤٠ .

حدَّثني أبو الصَّيْداءَ صالحُ بنُ طَريفٍ ، قال : لمَّا قَدِمَ يُوسُفُ بنُ عُمَرَ العِراقَ بَكَيْتُ وقُلتُ : هـٰذا الذِّي ضَرَبَ وَهْبَ بنَ مُنبِّهٍ حتّىٰ قَتَلَه .

يَعْنِي لمَّا وَلِيَ إمْرَةَ اليَمَنِ ، ثمَّ نَقَلَهُ الخليفَةُ هِشامٌ إلىٰ إمْرَةِ العِراقِ ، وكان جَبَّاراً عَنِيداً مَهِيباً ، كان سِماطُهُ بالعِراقِ فيما حَكَى المَدائِنيُّ كلَّ يومِ خميسٍ مِئَةُ مائِدَةٍ ، أبْعَدُ المَوَائِدِ وأقْرَبُها سَواءٌ في الجَوْدَةِ .

ثمَّ إنَّه عُزِلَ عن العِراقِ عند مَقْتَلِ الوَلِيدِ الفاسِقِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ ولله الحَمْدُ في سَنةِ سَبعٍ وعشرينَ ومِئَةٍ[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ في مِحْنَةِ الإمامِ مالِك : قال ابنُ سَعْد : حدَّثنا الواقِديُّ قال : لمَّا دُعِيَ مالكٌ ، وشُوورَ ، وسُمِعَ منه ، وقُبِلَ قَولُهُ ، حُسِدَ ، وبَغَوهُ بكُلِّ شيءٍ ، فلمَّا وَلِيَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ المَدِينَةَ ، سَعَوْا به إليه وكَثُروا عليه عندَه ، وقالوا : لا يَرَىٰ أيْمَانَ بَيْعَتِكُم هـٰذه بشيءٍ ، وهو يأخُذُ بحَديثٍ رَوَاهُ عن ثابتِ بنِ الأحْنَفِ في طَلاقِ المُكْرَهِ : أنَّه لا يَجُوزُ عِنْدَه ، قال : فغَضِبَ جَعْفَرُ ، فدَعا بمَالِكٍ ، فاحْتَجَّ عليهِ بما رُفِعَ إليْهِ عنهُ ، فأمَرَ بتَجْريدِهِ ، وضَرْبِهِ بالسِّياطِ ، وجُبِذَتْ يَدُهُ حتى انْخَلَعَتْ منْ كَتِفِهِ ، وارتُكِبَ منه أمْرٌ عظيمٌ ، فو اللهِ ما زَالَ مالكٌ بَعدُ في رِفْعَةٍ وعُلُوٍّ[2] .

وقال الذهبيُّ في مِحْنةِ وَكِيعٍ : مِحْنَةُ وَكِيعٍ ـ وهي غَريبَةٌ ـ تَوَرَّطَ فيها ولَمْ يُرِدْ إلاَّ خَيْراً ، ولكنْ فاتَتْه سَكْتَةٌ ، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كفَىٰ بالمَرْءِ إثْماً أنْ يُحَدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ ، فلْيَتَّقِ عبدٌ رَبَّه ، ولا يَخافَنَّ إلاَّ ذَنْبَه » .

قال عليُّ بنُ خَشْرَم : حَدَّثنا وَكيعٌ عن إسْماعيلَ عن أبي خالد ، عن عبدِ الله البَهِيّ ، أنَّ أبا بَكْرٍ الصِّديق جاءَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد وَفاتِه ، فأكَبَّ عليه ، فقبَّلَه ، وقال : بأبي وأُمِّي ، ما أطْيَبَ حَياتَكَ ومَيْتَتَكَ ، ثمَّ قال البَهِيُّ : وكان تُرِكَ يَوماً وليلةً حتىٰ رَبَا بَطْنُهُ ، وانْثَنَتْ خِنْصَراهُ ـ قال ابنُ خَشْرم : فلمَّا حدَّثَ وَكيعٌ بهـٰذا بمَكةَ ، اجْتَمَعتْ قُرَيْشٌ ، وأرادُوا صَلْبَ وَكيعٍ ، ونَصَبوا خَشَبَةً لِصَلْبِه ، فجاء

---

(١) انظر السير : (وَهب بن مُنبّه) ٤/ ٥٤٤ـ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥٧ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٣٠ .

سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة ، فقال لهم : اللهَ اللهَ!! ، هـٰذا فَقِيهُ أهْلِ العِراقِ ، وابنُ فقيهِه ، وهـٰذا حَديثٌ مَعروفٌ قال سُفيانُ : ولَمْ أكُنْ سَمعْتُه إلاَّ أنِّي أرَدْتُ تَخْليصَ وَكيعٍ .

قال عليُّ بنُ خَشْرم : سَمعْتُ الحديثَ من وَكيعٍ ، بعدما أرادُوا صَلْبَهُ فتَعَجَّبتُ من جَسَارَتِهِ ، وأُخْبِرتُ أنَّ وَكيعاً احْتَجَّ ، فقال : إنَّ عِدَّةً من أصْحابِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم منهم عُمَرُ رضي الله عنه قالوا : لَمْ يَمُتْ رسُولُ الله فأرادَ اللهُ أنْ يُرِيَهُم آيةَ المَوْتِ .

فهـٰذه زَلَّةُ عَالِمٍ ، فما لوَكيعٍ ولِروايَةِ هـٰذا الخَبَرِ المُنْكَرِ المُنْقَطِعِ الإسْناد!! ، كادَتْ نفْسُه أنْ تَذهَبَ غَلطاً ، والقائمُونَ عليه مَعْذورُونَ ، بَلْ مَأجُورُونَ ، فإنَّهم تَخَيَّلُوا مِنْ إشاعَةِ هـٰذا الخَبَرِ المَرْدودِ ، غَضّاً ما لمَنْصِبِ النُّبُوَّة ، وهو في بادِىءَ الرَّأيِ يُوهِمُ ذلك ، ولكِنْ إذا تَأمَّلْتَهُ ، فلا بَأسَ إنْ شاءَ اللهُ بذلك ، فإنَّ الحَيَّ قد يَرْبُو جَوْفُهُ ، وتَسْتَرْخِي مَفاصِلُه ، وذلك تَفَرُّعٌ من الأمْراضِ ، و« أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأنْبياء » ، وإنَّما المَحْذورُ أنْ تُجَوِّزَ عليه تَغَيُّرَ سائِرِ مَوْتَى الآدَمِيِّينَ ورائِحَتَهم ، وأَكْلَ الأرضِ لأجْسامِهِم ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم فمُفارِقٌ لسائِرِ أُمَّتِه في ذلك ، فلا يَبْلَىٰ ، ولا تَأكُلُ الأرضُ جَسَدَه ، ولا يَتَغَيَّرُ رِيحُه ، بَلْ هو الآن ، وما زالَ أطْيَبَ رِيْحاً من المِسْكِ ، وهو حيٌّ في لَحْدِه حَياةَ مِثْلِهِ في البَرْزَخ ، التي هي أكْمَلُ من حَياةِ سائِرِ النَّبيِّينَ ، وحَياتُهم بلا رَيْبٍ أتَمُّ وأشْرَفُ من حَياةِ الشُّهَداءِ الذين هم بِنَصِّ الكِتَابِ أحياء عند ربهم يرزقون ، وهَؤلاءِ حَياتُهُم الآنَ التي في عالَمِ البَرْزَخِ حَقٌّ ، ولكِنْ لَيْسَت هي حَياةَ الدُّنْيا من كُلِّ وَجْهٍ ، ولا حَياةَ أهْلِ الجَنَّةِ من كُلِّ وَجْهٍ ، ولهُم شِبْهٌ بحَياةِ أهْلِ الكَهْفِ ، ومن ذلك : اجْتِماعُ آدَمَ ومُوسَىٰ ، لمَّا احْتَجَّ عليه مُوسَىٰ ، وحاجَّهُ آدَمُ بالعِلْمِ السَّابِق كان اجْتِماعُهُما حَقّاً ، وهُما في عالَمِ البَرْزَخِ ، وكذلك نَبيُّنا صلى الله عليه وسلم أَخْبَرَ أنَّه رَأىٰ في السَّماواتِ آدَمَ ومُوسَىٰ وإبْراهيمَ وإدْريسَ وعِيسَىٰ ، وسَلَّمَ عليهِم ، وطَالَتْ مُحاوَراتُه مع مُوسَىٰ ، هـٰذا كُلُّه حَقٌّ والذي منهم لَمْ يَذُقِ المَوتَ بَعْدُ هو عيسَىٰ عليه السلام .

فقد تَبَرْهَنَ لك أنَّ نَبيَّنا صلى الله عليه وسلم ما زالَ طَيِّباً مُطَيَّباً ، وأنَّ الأرضَ مُحَرَّمٌ

عليها أكْلُ أجْسادِ الأنْبياءِ ، وهـٰذا شيءٌ سَبيلُهُ التَّوقيفُ ، وما عَنَّفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّحابَةَ رضي اللهُ عنهُم لمَّا قالوا له بِلا علْمٍ : وكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاتُنا عليك وقد أَرَمْتَ ؟ ـ يَعْنِي بَلِيتَ ـ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأرْضِ أنْ تأكلَ أجْسادَ الأنْبياءِ » .

وهـٰذا بَحثٌ مُعتَرِضٌ في الاعْتِذارِ عن إمامٍ من أئِمَّةِ المسلمين ، وقد قَامَ في الدَّفْعِ عنْهُ مثْلُ إمامِ الحِجازِ سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة ، ولولا أنَّ هـٰذه الواقِعَةَ في عِدَّةِ كُتُبٍ ، وفي مثْلِ « تاريخِ الحافِظِ بنِ عَساكِر » ، وفي « كاملِ الحافِظِ ابنِ عَدِيّ » لأعْرَضْتُ عنها جُملَةً ، ففيها عِبْرةٌ .

قال عليُّ بنُ عثَّام : مَرِضَ وَكيعٌ ، فدَخَلْنا عليه ، فقال : إنَّ سُفْيانَ أتَانِي ، فبَشَّرَنِي بجِوارِهِ ، فأنا مُبادِرٌ إليه .

ماتَ وَكيعٌ سَنةَ سَبعٍ وتِسْعينَ ومِئَة يومَ عاشُوراءَ .

قال الذهبيُّ : عاشَ وَكيعٌ ثمَانياً وسِتِّينَ سَنةً سِوىٰ شَهرٍ أو شَهْرَينِ[1] .

قال ابنُ سَعدٍ : كان أبو مُسْهِرٍ راوِيَةَ سعيدِ بنِ عبد العَزيزِ ، وكان أُشْخِصَ من دِمَشْقَ إلى المَأمُونِ بالرَّقَّةِ ، فسَأَلَه عن القُرآنِ ، فقال : هُوَ كلامُ الله ، وأبَىٰ أنْ يقُولَ : مَخْلُوقٌ ، فدَعَا له بالنَّطْعِ والسَّيْفِ ليَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فلمَّا رأىٰ ذلكَ ، قال : مَخْلُوقٌ فتَرَكَهُ من القَتْلِ ، وقال : أمَا إنَّكَ لَوْ قُلتَ ذاكَ قبلَ السَّيْفِ ، لقَبِلْتُ منْكَ ، ولكنَّكَ تَخْرُجُ الآنَ فتقولُ : قُلتُ ذاكَ فَرَقاً من القَتْلِ ، فأمَرَ بحَبْسِه ببَغْدَادَ في ربيعِ الآخر سَنَةَ ثمَانِ عشرة وماتَ بعدَ قليلٍ في الحَبْسِ في غُرَّةِ رَجَبَ من السَّنَة ، فشَهِدَهُ قومٌ كثيرٌ منْ أهْلِ بَغْدَادَ[2] .

قال الصُّولِيُّ : كان أحمدُ بنُ نَصْرالخُزاعِيّ وسَهلُ بنُ سَلامَة حين كان المَأمُونُ بخُراسَان بايَعَا النَّاسَ على الأمر بالمَعْروف والنَّهي عن المُنكَر ، ثم قَدِمَ المَأمُونُ فبايَعَه

---

(١) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٨١٢ .

(٢) انظر السير : (أبو مُسْهر) ١٠/ ٢٢٨ـ ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٧١ .

سَهْلٌ ، ولَزِمَ ابنُ نَصْرٍ بَيْتَه ، ثمَّ تَحَرَّك في آخِر أيام الوَاثِق ، واجتمَعَ إليه خَلْقٌ يَأمُرونَ بالمَعْروف ، قال : إلىٰ أنْ مَلَكُوا بَغْدادَ ، وتَعَدَّىٰ رَجُلانِ موسِران من أصحابه فبَذَلا مالاً وعَزَما على الوُثُوبِ في سنة إحْدَىٰ وثلاثين فنَمَا الخَبَرُ إلىٰ نائِبِ بَغْدادَ إسْحاقَ بنِ إبْراهِيمَ ، فأخَذَ أحمَدَ وصاحِبَيْه وجَمَاعَةً ، ووَجَدَ في مَنزِل أحَدِهما أعْلامَاً ، وضَرَبَ خادِماً لأحْمَدَ ، فأقَرَّ بأنَّ هـٰؤلاء كانوا يَأتُونَ أحمَدَ ليلاً ويُخْبِرُونه بما عَمِلوا فحُمِلُوا إلىٰ سَامَرَّاء مُقَيَّدِين فجَلَسَ الوَاثِقُ لهم ، وقال لأحمَدَ : دَعْ ما أُخِذْتَ له ، ما تقُولُ في القُرآنِ ؟ : قال : كَلامُ الله قال : أفَمَخْلُوقٌ هو ؟ قال : كَلامُ الله قال فتَرَىٰ رَبَّكَ في القِيَامَة ؟ قال : كَذَا جَاءَت الرِّوايَةُ قال : وَيْحَك يُرَىٰ كَمَا يُرَى المَحْدُودُ المُتَجَسِّمُ ، ويَحْوِيه مكانٌ ويَحْصُرُه نَاظِرٌ ؟ أنا كَفَرتُ بمَنْ هـٰذِه صِفَتُه ، ما تَقُولُون فيه ؟ فقال قاضي الجانِبِ الغَرْبِيّ : هو حَلالُ الدَّم ، ووَافَقَه فُقَهَاءٌ ، فأظْهَرَ أحمَدُ ابنُ أبي دُواد أنَّه كارِهُ لقَتْله وقال شَيخٌ مُخْتلٌ تَغَيَّرَ عَقلُه ، يُؤَخَّر قال الوَاثِقُ ما أَرَاه إلاَّ مُؤَدِياً لكُفْرِه قائماً بما يَعْتَقِدُه ، ودَعَا بالصَّمْصَامَة وقام ، وقال : أَحْتَسِبُ خُطَايَ إلىٰ هـٰذا الكَافِر ، فضَرَبَ عُنُقَه بعد أن مَدُّوا له رَأسَه بحَبْلٍ وهو مُقَيَّد ونُصِبَ رأسُه بالجانبِ الشَّرقِيّ ، وتُتُبِّعَ أصحابُه فسُجِنُوا[1] .

يقولُ الإمامُ الذهبيُّ في مِحْنَة الإمام أحمَد بن حَنْبَل : الصَّدْعُ بالحَقِّ عظيمٌ ، يَحْتاجُ إلىٰ قُوَّةٍ وإخْلاصٍ ، فالمُخْلِصُ بِلا قُوَّةٍ يَعْجِزُ عن القِيام به ، والقَوِيُّ بلا إخْلاصٍ يُخْذَلُ ، فمَنْ قامَ بهما كاملاً ، فهُوَ صِدِّيقٌ ومَنْ ضَعُفَ ، فلا أقَلَّ من التَّألُّمِ والإنْكارِ بالقَلْبِ ، ليْسَ وَرَاءَ ذلك إيمانٌ ، فلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ .

عن ثَوْبانَ قال : قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَخْوَفَ ما أخَافُ علىٰ أُمَّتِي الأئِمَّةُ المُضِلُّونَ ، وإذا وُضِعَ السَّيْفُ عليهِم ، لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُم إلىٰ يوم القِيامَةِ ، ولا تَزَالُ طائِفَةٌ من أُمَّتِي على الحَقِّ ظاهِرِينَ ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُم أوْ خَذَلَهُم حتىٰ يَأْتِيَ أمْرُ اللهِ »

عن أبي سَعِيدٍ قال : قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكمْ نَفْسَهُ

---

(١) انظر السير : (الخُزاعيّ) ١١/١٦٦ـ ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٨ .

أنْ يَرَىٰ أَمْراً للهِ فيهِ مَقَالٌ ، فَلا يَقُولُ فيهِ ، فيُقَالُ لَهُ : مَا مَنَعَكَ ؟!! فيَقُولُ : مَخَافَةُ النَّاسِ فيَقُولُ : فإيَّايَ كنْتَ أحَقَّ أنْ تَخَافَ »[1] .

قِصَّةُ مُحمَّد بنِ إسْماعيلَ البُخاري مع مُحمَّدِ بنِ يَحْيَى الذُّهليّ رَحِمَهُما اللهُ

قال الحاكِمُ أبو عبدِ الله : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ حامِدٍ البَزَّازَ قال : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ مُحمَّد بنِ جابِرٍ يقُولُ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَحْيىٰ قال لنا : لمَّا وَرَدَ مُحمَّدُ بنُ إسْماعيل البُخاريُّ نيسابُورَ : اذْهَبُوا إلىٰ هـٰذا الرجُلِ الصَّالِحِ فاسْمَعوا منْه ، فذَهَبَ النَّاسُ إليه ، وأقْبَلُوا على السَّماعِ منه ، حتّىٰ ظَهَرَ الخَلَلُ في مَجْلِسِ مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ ، فحَسَدَه بعدَ ذلكَ وتَكَلَّمَ فيه[2] .

وقال الحاكِمُ : حَدَّثنا طاهِرُ بنُ مُحمَّد الوَرَّاق ، سَمعتُ مُحمَّدَ ابنَ شاذِل يقولُ : لمَّا وَقَعَ بينَ مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ والبُخاريِّ ، دَخَلْتُ على البُخاريِّ فقُلتُ : يا أبا عبدَ اللهِ أَيش الحيلَةُ لنا فيما بَيْنَكَ وبينَ مُحمَّد ابنِ يَحْيَىٰ كُلُّ مَنْ يَخْتلِفُ إلَيْكَ يُطْرَدُ ؟ ، فقال : كَمْ يَعْتَرِي مُحمَّدَ ابنَ يَحْيَى الحَسَدُ في العِلْمِ ، والعِلْمُ رِزْقُ الله يُعْطِيهِ مَنْ يَشاءُ فقُلتُ : هـٰذه المَسْألَةُ التي تُحْكَىٰ عَنْكَ ؟ قال : يا بُنيَّ ، هـٰذه مَسْألةٌ مَشْؤومَةٌ ، رَأيْتُ أحْمَدَ بنَ حَنْبلَ وما نالَهُ في هـٰذه المَسْألَة ، وجَعلتُ علىٰ نَفْسِي أن لا أتَكَلَّمَ فيها[3] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : المَسْألَةُ هي أنَّ اللَّفْظَ مَخْلوقٌ ، سُئِلَ عنها البُخاريُّ ، فوَقَفَ فيها ، فلمَّا وَقَفَ واحْتَجَّ بأنَّ أفْعالَنا مَخْلُوقَةٌ ، واسْتَدَلَّ لذلكَ ، فَهِمَ منه الذُّهليُّ أنَّه يُوَجِّهُ مَسْألَةَ اللَّفْظِ ، فتَكَلَّمَ فيه ، وأخَذَهُ بِلازِمِ قَوْلِهِ هو وغَيره[4] ،[5] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٣١ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠١٧ .

(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠١٧ .

(٤) ولازم المذهب ليس كما هو مذهب جمهور المحققين من العلماء ، ونقل ابن ناصر الدين في مقدمة كتابه « الرد الوافر » ٢٠ عن الإمام الذهبي ـ ووصفه بإمام التعديل والجرح ، والمعتمد عليه في المدح والقرح ـ كلمة جاء فيها : ونعوذ بالله من الهوىٰ والمراء في الدين ، وأن نكفر مسلماً موحداً بلازم قوله ، وهو يفر من ذلك اللازم ، وينزه ويعظم الرب .

(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠١٧ .

قال الحاكِمُ : أخْبَرَنا أبو عبدِ الله مُحمَّدُ بنُ يَعْقوبَ بنِ الأخْرَمِ سَمعتُ ابنَ عليٍّ المَخْلَديّ ، سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَحْيَىٰ يقولُ : قد أظْهَرَ هـٰذا البُخاريُّ قَوْلَ اللَّفْظيَّةِ واللَّفْظيَّةُ عندي شَرٌّ من الجِهَميَّة .

قال مُحمَّدُ بنُ نَصْر المَرْوزيُّ : سَمعتُهُ يقولُ : مَنْ زَعَمَ أنِّي قُلتُ : لَفْظي بالقُرآنِ مَخْلُوقٌ فهُو كذَّابٌ ، فإنِّي لَمْ أقُلْهُ ، فقُلتَ له : يا أبا عبدَ الله ، قد خاضَ النَّاسُ في هـٰذا وأكْثَروا فيه ، فقال : لَيْسَ إلاَّ ما أقُولُ[1] .

وقال سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ صالِح بنِ هانِىء : سَمعتُ أحمَدَ بنَ سَلَمَةَ يقُولُ : دَخَلتُ على البُخاريِّ ، فقُلتُ : يا أبا عبدَ الله ، هـٰذا رَجلٌ مَقْبولٌ بخُراسانَ خُصُوصاً في هـٰذه المَدينَةِ ، وقد لَجَّ في هـٰذا الحَديثِ حتىٰ لا يَقْدِرُ أحَدٌ منَّا أنْ يُكَلِّمَهُ فيه ، فمَا تَرَى ؟ فقَبَضَ علىٰ لِحْيَتِه ، ثمَّ قال : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[2] اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أنِّي لَمْ أُرِدْ المُقامَ بنيسَابُورَ أَشَراً ولا بَطَراً ، ولا طَلَباً للرِّئاسَةِ ، وإنَّما أَبَتْ عليَّ نَفسِي في الرُّجوعِ إلىٰ وَطَنِي لغَلَبَةِ المُخالِفينَ وقد قَصَدَنِي هـٰذا الرجُلُ حَسَداً لما آتاني اللهُ لا غَيْر ، ثمَّ قال لي : يا أحمدُ إنِّي خارِجٌ غَداً لِتَتَخَلَّصُوا من حَدِيثِه لأجْلِي .

قال : فأخْبَرتُ جَماعَةَ أصْحابِنا ، فو الله ما شَيَّعه غَيري كُنتُ معهُ حين خَرَجَ من البَلَدِ ، وأقامَ علىٰ بَابِ البَلَدِ ثَلاثَةَ أيَّامٍ لإصْلاحِ أمْرِه[3] .

قال : وسَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَعْقُوبَ الحافِظَ يقولُ : لمَّا اسْتَوطَنَ البُخاريُّ نيسابُورَ أكْثَرَ مُسْلِمُ بنُ الحَجَّاجِ الاخْتِلافَ إليه ، فلمَّا وَقَعَ بينَ الذُّهليِّ والبُخاريِّ ما وَقَعَ في مَسْألَةِ اللَّفْظِ ونادَىٰ عليه ، ومَنَعَ النَّاسَ عنه ، انْقَطَعَ عنه أكْثَرُ النَّاسِ غَيرَ مُسْلمٍ .

فقال الذُّهليُّ يوماً : ألا مَنْ قالَ باللَّفْظِ فلا يَحِلُّ له أنْ يَحْضُرَ مَجْلِسَنا فأخَذَ مُسْلمٌ رِداءً فَوقَ عَمامَتِه وقام علىٰ رُؤوسِ النَّاسِ وبَعَثَ إلى الذُّهليِّ ما كَتَبَ عنه علىٰ ظَهْرِ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٨/١ .
(٢) سورة غافر ، الآية : ٤٤ .
(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٨/٢ .

جمَّال وكان مُسْلمٌ يُظْهِرُ القَوْلَ باللَّفْظِ ولا يَكْتُمُه[1] .

وقال مُحمَّدُ بنُ أبي حاتِمٍ : أتىٰ رَجلٌ أبا عبدَ اللهِ البُخاريَّ ، فقال : يا أبا عبدَ اللهِ ، إنَّ فُلاناً يُكَفِّرُكَ!! فقال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إذا قَالَ الرَّجُلُ لأخِيهِ : يا كافِرُ ، فقَدْ بَاءَ بِهِ أحَدُهُمَا »[2] .

وكان كثيرٌ من أصْحابِهِ يقُولونَ له : إنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقَعُ فيك ، فيقُولُ : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[3] ويَتْلُو أيْضاً : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[4] ،[5] .

فقال له عبدُ المَجيدِ بنُ إبْراهيمَ : كَيْفَ لا تَدْعو اللهَ علىٰ هؤلاءِ الذين يَظْلِمونَكَ ويَتَناوَلُونَك ويَبْهَتُونَكَ!! ؟ ، فقال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اصْبِرُوا حتّىٰ تَلْقَوْنِي على الحَوْضِ »[6] .

قال مُحمَّدُ بنُ أبي حاتِمٍ : وسَمعتُهُ يقولُ : لَمْ يَكُنْ يَتعرَّضُ لنا قَطُّ أحَدٌ من أفْناءِ النَّاسِ إلاَّ رُمِيَ بقارِعَةٍ ، ولَمْ يَسْلَمْ ، وكُلَّما حَدَّثَ الجُهَّالُ أنفُسَهم أنْ يَمْكُروا بنا رَأيتُ من لَيْلَتِي في المَنام ناراً تُوقَدُ ثمَّ تُطْفَأُ من غَيرِ أنْ يُنْتَفَعُ بها ، فأتَأوَّلُ قولَه تعالَىٰ : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾[7] [8] .

وكان هِجِّيراه من اللَّيلِ[9] إذا أتَيْتُه في آخِرِ مَقْدَمِه من العِراقِ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ ﴾ الآية[10] ،[11] .

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٨ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠١٨ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٧٦ .
(٤) سورة فاطر ، الآية : ٤٣ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٠١٩ .
(٦) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠١٩ .
(٧) سورة المائدة ، الآية : ٦٤ .
(٨) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٩ .
(٩) أي كلامه ودأبه وشأنه ، وفي حديث عُمَر رضي الله عنه : ما له هجيرىٰ غيرها ، أي : الدأب والعادة والدَّيْدَن .
(١٠) سورة آل عمران ، الآية ١٦٠ .
(١١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠١٩ .

وقال عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ أبي حاتِمٍ في « الجَرْحِ والتَّعْدِيلِ » قَدِمَ مُحمَّدُ ابنُ إسْماعيل الرَّيَّ سَنةَ خَمْسينَ ومِئَتَيْنِ ، وسَمِعَ منه أَبِي وأبو زُرْعَةَ وتَرَكا حَديثَهُ عندَما كَتَبَ إليهِما مُحمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ أنَّه أظْهَرَ عندَهُم بنِيسابُورَ أنَّ لَفْظَهُ بالقُرآنِ مَخْلُوقٌ[1] .

قال الإمام الذهبيُّ : إنْ تَرَكا حَديثَه ، أوْ لَمْ يَتْرُكاهُ ، البُخاريُّ ثِقَةٌ مَأمُونٌ مُحْتَجٌّ به في العَالَمِ[2] .

ذِكرُ مِحْنَةِ مُحمَّد بنِ إسْماعيلَ البُخاريّ مع أميرِ بُخارَى :

قال الحاكِمُ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ العبَّاسِ الضَّبِّيَّ يقولُ : سَمعتُ أبا بَكرِ بنَ أبي عَمْرو الحافِظَ البُخاريّ يقُولُ : كان سَبَبُ مُنافَرَةِ أبي عبدِ الله أنَّ خالدَ بنَ أحمدَ الذُّهليَّ الأمير خليفة الطاهرية ببُخارَىٰ سَألَ أنْ يَحْضُرَ مَنزلَه ، فيَقرأَ « الجامِعَ » و« التَّارِيخَ » علىٰ أوْلادِهِ ، فامْتَنَعَ عن الحُضورِ عنده ، فراسَلَه بأن يَعْقدَ مَجْلِساً لأوْلادِه ، لا يَحْضُرُه غَيرُهم ، فامْتَنَعَ ، وقال : لا أخُصُّ أحَداً ، فاسْتَعانَ الأميرُ بحُريثِ ابنِ أبي الوَرْقاء وغَيرِه حتّىٰ تَكَلَّموا في مَذْهَبِه ونَفَاهُ عن البَلَدِ ، فدَعا عَليهِم ، فلَمْ يَأْتِ إلاَّ شَهرٌ حتّىٰ وَرَدَ أمْرُ الطاهريَّة ، بأنْ يُنادَىٰ علىٰ خالدٍ في البَلَدِ ، فنُودِيَ عليهِ علىٰ أتَانٍ ، وأمَّا حُريثُ ، فإنَّه ابْتُلِيَ بأهْلِهِ ، فرَأىٰ فيها ما يَجِلُّ عن الوَصْفِ ، وأمَّا فُلانُ ، فابْتُلِيَ بأولادِهِ ، وأَرَاهُ اللهُ فيهِم البَلايَا .

وقال الحاكِمُ : حَدَّثنا خَلَفُ بنُ مُحمَّد ، حَدَّثنا سَهْلُ بنُ شاذَوَيْه قال : كان مُحمَّدُ بنُ إسْماعيلَ يَسْكُنُ سِكَّةَ الدَّهْقانِ ، وكان جَماعَةٌ يَخْتلِفُونَ إليه يُظْهِرونَ شِعارَ أهْلِ الحَديثِ من إفْرادِ الإقامَةِ ورَفْعِ الأَيْدِي في الصَّلاةِ ، وغَيرِ ذلكَ فقال حُريثُ بنُ أبي الوَرْقاء وغَيرُه : هـٰذا رَجلٌ مُشْغِبٌ ، وهو يُفْسِدُ علينا هـٰذه المَدينَةِ ، وقد أخْرَجَهُ مُحمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ من نِيسابُورَ ، وهو إمامُ أهْلِ الحَديثِ ، فاحْتَجُّوا عليه بابنِ يَحْيَىٰ ، واسْتَعانُوا عليه بالسُّلطانِ في نَفْيِهِ من البَلَدِ ، فأُخْرِجَ ، وكان مُحمَّدُ بنُ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٠١٩ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٦/١٠١٩ .

إسْماعيلَ وَرِعاً ، يَتَجَنَّبُ السُّلطانَ ولا يَدْخُلُ عليهِم[1] .

قال الذهبيُّ : خالد بن أحمد الأمير ، قال الحاكمُ : له ببُخارَىٰ آثارٌ مَحْمودةٌ كلُّها ، إلاَّ مَوْجدَته على البُخاريِّ ، فإنَّها زَلَّةٌ ، وسببٌ لزَوالِ مُلْكِه[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ عَطاءٍ بعدَ قَوْلَةِ حُسَينِ ابنِ خاقان : « كان يَنامُ في اليومِ والليلةِ ساعَتين » ، قال الذهبيُّ رَحمَهُ الله : لكنَّه رَاجَ عليه حَالُ الحَلاَّجِ ، وصَحَّحَه ، فقال السُّلَميُّ : امتُحِنَ بسَبَبِ الحَلاَّجِ ، وطلبَه حامدٌ الوَزيرُ وقال : ما الذي تقُولُ في الحَلاَّجِ ؟ فقال : مَا لَكَ ولِذَاكَ ؟ عَليكَ بما نُدِبْتَ له من أخْذِ الأمْوالِ ، وسَفْكِ الدِّماءِ فأمَرَ به ، ففُكَّتْ أسْنانُه ، فصاحَ : قَطَعَ اللهُ يَدَيْكَ ورِجْلَيْك ، ومات بعد أرْبعَةَ عَشر يوماً ، ولكن أُجيبَ دُعاؤُه ، فقُطِعَتْ أرْبَعَةُ حامد[3] .

وقال السُّلَميُّ في « مِحَنِ الصُّوفِيَّةِ » : لمَّا تَكَلَّمَ مُحمَّدُ بنُ الفَضْلِ ببَلخ في فَهْمِ القُرآنِ وأحْوالِ الأئِمَّةِ ، أنْكَرَ عليه فُقَهَاءُ بَلْخ ، وقالوا : مُبْتَدِعٌ وإنَّما ذاكَ بِسَببِ اعْتِقادِهِ مَذْهَبَ أهلِ الحَديثِ ، فقال : لا أخْرُجُ حتىٰ تُخْرِجُوني وتَطُوفُوا بِي في الأسْواقِ ففَعَلوا بهِ ذلكَ ، فقال : نَزَعَ اللهُ من قُلُوبِكُم مَحَبَّتَه ومَعْرِفَته فقِيلَ : لَمْ يَخْرُجْ منها صُوفِيٌّ من أهلِها فأتَىٰ سَمَرْقَنْدَ ، فبالَغُوا في إكْرامِه[4] .

وقال أبو الحُسَينِ بنُ الفَرَّاء : كان للبَرْبَهارِيّ مُجاهَدَاتٌ ومَقامَاتٌ في الدِّينِ ، وكان المُخالِفُون يُغْلِظُونَ قَلبَ السُّلطانِ عليه ففي سَنةِ إحْدَىٰ وعشرينَ وثلاثِ مِئَةٍ أرادُوا حَبْسَه ، فاخْتَفَىٰ وأُخِذَ كِبارُ أصْحابِهِ ، وحُمِلُوا إلى البَصْرَةِ ، فعاقَبَ اللهُ الوَزيرَ ابنَ مُقْلَةَ وأعَادَ اللهُ البَرْبَهاريَّ إلىٰ حِشْمَتِه ، وزَادَتْ ، وكَثُرَ أصْحابُهُ فبَلَغَنا أنَّه اجْتازَ بالجانبِ الغَرْبيِّ ، فعَطَسَ فشَمَّتَهُ أصْحابُهُ ، فارْتَفَعَتْ ضَجَّتُهُم حتىٰ سَمِعَها الخَليفَةُ ، فأُخْبِرَ بالحالِ ، فاسْتَهْوَلَها ، ثمَّ لَمْ تَزَلْ المُبْتَدِعَةُ تُوحِشُ قَلبَ الرَّاضِي ، حتىٰ نُودِيَ في

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٧/١٠١٩ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٠ .
(٣) انظر السير : (ابن عطاء) ١٤/ ٢٥٥ـ ٢٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٤٩ .
(٤) انظر السير : (واعظ بلخ) ١٤/ ٥٢٣ـ ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٧١ .

بَغدَادَ : لا يَجْتمِعُ اثْنانِ من أصْحابِ البَرْبَهارِيّ فاخْتَفَىٰ[1] .

وقال السُّلَميُّ : كان الإمامُ أبو عُثْمانَ المَغْربيّ أوْحَدَ المَشايخِ في طَريقَتِهِ ، لَمْ نَرَ مثْلَهُ في عُلُوِّ الحالِ وصَوْنِ الوَقْتِ ، امْتُحِنَ بسَببِ وِزْرٍ نُسِبَ إليه ، حتىٰ ضُرِبَ وشُهِرَ علىٰ جَمَلٍ ، ففارَقَ الحَرَمَ .

وقال الخَطيبُ : وكان من كِبارِ المَشايخِ ، له أحْوالٌ وكَراماتٌ .

وقال الحاكِمُ : سَمِعْتُهُ يقولُ ، وقد سُئِلَ : المَلائِكَةُ أفْضَلُ أم الأنْبياءُ ؟ فقال : القُرْبَ القُرْبَ ، هم أقْرَبُ إلى الحَقِّ وأطْهَرُ[2] .

قال عبدُ الغافِرِ بنِ إسْماعِيلَ : ومِنْ جُمْلَةِ أحْوالِ أبي القاسِمِ ماخُصَّ به مِنَ المِحْنَةِ في الدِّينِ ، وظُهُورِ التَّعصُّبِ ومَيْلِ بَعْضِ الوُلاةِ إلى الأهْواءِ ، وسَعْيِ بَعْضِ الرُّؤَسَاءِ إليهِ بالتَّخْليطِ ، حتىٰ أدَّىٰ ذلكَ إلىٰ رَفْعِ المَجالِسِ ، وتَفَرُّقِ شَملِ الأصْحابِ ، وكان هو المَقصُودُ من بَيْنِهم حَسَداً ، حتى اضْطُرَّ إلىٰ مُفارَقَةِ الوَطَنِ ، وامْتدَّ في أثناءِ ذلكَ : إلىٰ بَغْدادَ ، فَوَرَدَ على القَائمِ بأمْرِ اللهِ ، ولَقِيَ قَبُولاً ، وعُقِدَ له المَجْلِسُ في مَجالِسِه المُخْتصَّةِ بهِ ، وخَرَجَ الأمرُ بإعْزازِهِ وإكْرامِهِ فعَادَ إلىٰ نِيْسابُورَ[3] .

وعن مَكِيِّ بنِ عبد السَّلامِ الرُّمَيْلِيُّ قال : كان سَببُ خُروجِ الخَطِيبِ من دِمَشْقَ إلىٰ صُورٍ ، أنَّه كان يَخْتَلِفُ إليه صَبيٌّ مَليحٌ ، فتكلَّم النَّاسُ في ذلك ، وكان أميرُ البَلَدِ رافِضيّاً مُتعَصِّباً ، فبلَغَتْهُ القِصَّةُ ، فجَعلَ ذلك سَبباً إلى الفَتْكِ به ، فأمَرَ صاحبَ شُرطَتِه أن يأخذَ الخَطيبَ باللّيلِ ، فيَقْتُلَه ، وكان صاحبُ الشُّرطَةِ سُنِّيّاً ، فقَصَدَه تلكَ اللّيلَةِ في جَمَاعَةٍ ، ولَمْ يُمْكِنْهُ أن يُخالِفَ الأميرَ ، فأخَذَه ، وقال : قد أُمِرتُ فِيكَ بكَذا وكَذا ، ولا أجِدُ لكَ حِيلَةً إلاَّ أنِّي أعْبُرُ بك عند دار الشَّريفِ ابنِ أبي الجِنِّ فإذا حَاذَيْتُ الدَّارَ اقْفِزْ وادْخُلْ ، فإنِّي لا أطْلُبُكَ ، وأرْجِعُ إلى الأميرِ فأُخْبِرُه بالقصَّة ، ففَعَلَ ذلك ، ودَخَلَ دارَ الشَّريفِ ، فأرْسَلَ الأميرُ إلى الشَّريفِ أنْ يَبْعَثَ به فقال : أيُّها الأميرُ!! أنْتَ تَعْرِفُ

---

(١) انظر السير : (البَرْبَهاريّ) ١٥/ ٩٠ـ ٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/١١٨٥ .

(٢) انظر السير : (أبو عثمان المغربي) ١٦/ ٣٢٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٧ .

(٣) انظر السير : (القُشَيريّ) ١٨/ ٢٢٧ـ ٢٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٠٧ .

اعْتِقادِي فيه وفي أمْثالِه ، وليْسَ في قَتْلِهِ مَصْلَحَةٌ ، هـٰذا مَشْهورٌ بالعِراقِ ، إنْ قَتَلْتَه ، قُتِلَ به جَماعَةٌ من الشِّيعَةِ ، وخُرِّبَتِ المَشَاهِدُ قال : فما تَرَى ؟ قال : أرَىٰ أنْ يَنْزَحَ من بَلَدِك فأمَرَ بإخْراجِهِ ، فرَاحَ إلىٰ صُورٍ وبَقِيَ بها مُدَّة .

قال ابنُ الطَّاهِرِ : سَأَلْتُ هِبَةَ اللهِ بنَ عبد الوارِثِ الشِّيرازيّ : هلْ كان الخَطِيبُ كتَصانيفِهِ في الحِفْظِ ؟ قال : لا ، كُنَّا إذا سَأَلْناهُ عن شيءٍ أجَابَنَا بعد أيَّامٍ ، وإنْ أَلْحَحْنا عليه غَضِبَ ، كانت له بادِرَةُ وَحْشَةٍ ولَمْ يَكُنْ حِفْظُهُ علىٰ قَدْرِ تَصانيفِهِ[1] .

وقد نالَت ابنَ الجَوْزيِّ مِحْنةٌ في أواخِرِ عُمرِه ، ووَشَوْا به إلى الخليفَةِ النَّاصرِ بأمرٍ اخْتُلِفَ في حَقيقَتِه ، فجاء مَنْ شَتَمَهُ ، وأهانَه ، وأخَذَهُ قَبْضاً باليدِ ، وخَتَمَ علىٰ دَارِه ، وشَتَّتَ عِيالَه ، ثمَّ أُقْعِدَ في سَفينَةٍ إلىٰ مَدينَةِ واسِط ، فحُبِسَ بها في بَيْتٍ حَرِجٍ ، وبَقِيَ هو يَغْسِلُ ثَوْبَه ويَطْبُخُ الشيءَ ، فبَقِيَ علىٰ ذلك خَمسَ سِنينَ ما دَخَلَ فيها حمَّاماً قامَ عليه الرُّكْنُ عبدُ السَّلامِ ابنِ عبدِ الوَهَّابِ ابنِ الشَّيْخِ عبدِ القادِرِ وكان ابنُ الجَوْزيِّ لا يُنْصِفُ الشيخَ عبدَ القادِرِ ، ويَغُضُّ من قَدْرِه ، فأبْغَضَهُ أولادُه ، ووزر صاحبُهم ابنُ القَصَّاب ، وقد كان الرُّكْنُ رَدِيءَ المُعْتَقَدِ ، مُتَفَلسِفاً ، فأُحْرِقَت كُتبُه بإشارة ابنِ الجَوْزيِّ ، وأُخِذَتْ مَدرَسَتُهم ، فأُعْطِيَت لابنِ الجَوْزيِّ ، فانسمّ الرُّكْنُ ، وقد كان ابنُ القَصَّاب الوَزيرُ يَتَرَفَّضُ ، فأتاه الرُّكْنُ ، وقال : أينَ أنْتَ عن ابنِ الجَوْزيِّ النَّاصِبيِّ ؟ وهو أيضاً من أولادِ أبي بكرٍ ، فصرَّفَ الرُّكْنَ في الشَّيخِ ، فجاءَ ، وأهانَه ، وأخَذَه معه في مَركبٍ ، وعلى الشيخِ غُلالَةٌ بلا سَراويلَ ، وقد كان ناظِرُ واسط شِيعِيّاً أيضاً ، فقال له الرُّكْنُ : مَكِّنِّي من هـٰذا الفاعِلِ لأرْميهِ في مَطْمورةٍ ، فزَجَرَه ، وقال : يا زِنْديق ، أفعلُ هـٰذا بمجَرَّدِ قولِك ؟! هاتِ خَطَّ أميرِ المُؤمنين ، والله لو كان علىٰ مَذْهَبي ، لَبَذَلتُ رُوحِي في خِدمَتِه ، فرُدَّ الرُّكْنُ إلىٰ بَغدادَ ، وكان السَّببُ في خَلاصِ الشَّيخِ أنَّ وَلدَه يُوسُف نَشَأ واشْتَغَلَ ، وعَمِلَ في هـٰذه المُدَّةِ الوعظَ وهو صَبيٌّ ، وتَوَصَّلَ حتىٰ شَفَعتْ أُمُّ الخَليفَةِ ، وأطْلَقَت الشَّيخَ ، وأتَىٰ إليه ابنُه يُوسُفُ ، فخَرَجَ ، وما ردَّ من واسِط حتىٰ قَرَأ

---

(١) انظر السير : (الخطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٣ .

هو وابنُه بتَلْقِينه بالعَشْرِ على ابنِ الباقِلانيِّ ، وسِنُّ الشَّيخِ نَحْوَ الثَّمَانِين ، فانْظُرْ إلىٰ هٰذه الهِمَّةِ العالِيَةِ .

قال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيفِ : وكان يُراعِي حِفْظَ صِحَّتِه ، وتَلْطِيفَ مِزاجِه ، وما يُفيدُ عَقْلَه قُوَّةً ، وذِهْنَه حِدَّةً جُلُّ غِذائِه الفَراريجُ ، ويَعْتاضُ عن الفاكِهَةِ بالأشْرِبَةِ والمَعْجوناتِ ، ولِباسُهُ أفْضَلُ لِباسٍ : الأبْيضُ النَّاعِمُ المُطَيَّبُ ، وله ذِهنٌ وَقَّادٌ ، وجَوابٌ حاضِرٌ ، ومُجُونٌ ومُداعَبةٌ حُلْوَةٌ ، ولا يَنْفَكُّ من جارِيَةٍ حَسْناءَ[1] .

وقال الحافظ الذهبيُّ في تَرْجَمة الإمام عبد الغني المَقْدسيّ :

ما ابْتُلي الحافظُ عبدُ الغَنيّ به :

قال الضِّياءُ : سَمعتُ أبا مُحمَّد عبدَ الرَّحمَٰن بنَ مُحمَّد بنَ عبدِ الجَبَّار ، سَمعتُ الحافظَ عبد الغَني المَقدِسيّ يقولُ : سَألتُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنِي مِثلَ حالِ الإمامِ أحْمَد فقد رَزَقَنِي صَلاتَه ، قال : ثمَّ ابْتُلِيَ بعدَ ذلكَ وأُوذِي .

سَمعتُ الإمامَ عبدَ اللهِ بنَ أبي الحَسَنَ الجُبَّائيَّ بأصْبَهانَ يقُولُ : أبو نُعَيم قد أخَذَ على ابنِ مَنْدَة أشْياءَ في كتابِ « الصَّحابَة » فكان الحافظُ أبو مُوسَىٰ يَشْتَهِي أنْ يأخُذَ علىٰ أبي نُعَيمٍ في كتابِه الذي في الصَّحابَة فما كان يَجْسُر ، فلمَّا قَدِمَ الحافظُ عبدُ الغَنيّ أشَارَ إليه بذلك ، قال : فأخَذَ علىٰ أبي نُعَيمٍ نَحْواً من مِئَتَيْنِ وتِسْعينَ مَوْضِعاً ، فلمَّا سَمِعَ بذلكَ الصَّدرُ الخُجَنْديُّ طَلَبَ عبدَ الغَنيّ وأرادَ هَلاكَه ، فاخْتَفَىٰ .

وسَمعتُ مَحمُودَ بنَ سَلامَة يقولُ : ما أخْرجْنا الحافظَ من أصْبَهانَ إلاَّ في إزارٍ وذلكَ أنَّ بَيْتَ الخُجَنْديَّ أشاعِرَةٌ ، كانوا يَتَعَصَّبونَ لأبي نُعَيم ، وكانوا رُؤسَاءَ البَلَد .

وسَمعتُ الحافظَ يقولُ : كُنَّا بالمَوْصِل نَسْمَعُ « الضُعَفَاء » للعُقَيْليِّ ، فأخَذَنِي أهلُ المَوْصِل وحَبَسُونِي ، وأرادُوا قَتْلِي من أجْلِ ذِكْرِ شيءٍ فيه[2] ، فجاءَنِي رجلٌ طويلٌ ومعه سَيْفٌ ، فقُلتُ : يَقْتُلُنِي وأسْتَرِيحُ ، قال : فلَمْ يَصْنَعْ شيئاً ، ثمَّ أطْلَقُونِي ، وكان

---

(١) انظر السير : (أبو الفَرج بن الجَوزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٥ .

(٢) يعني من أجل ذكر الإمام أبي حنيفة .

يَسْمَعُ معه ابنُ البَرْنيِّ الواعِظُ فقَلَعَ الكُرَّاسَ الذي فيه ذلكَ الشيءَ فأرْسلوا ، وفتَّشُوا الكتابَ ، فلَمْ يَجِدُوا شَيئاً ، فهـٰذا سَبَبُ خَلاصِه .

وقال : كان الحافظُ يَقْرأُ الحَديثَ بدِمَشْقَ ، ويَجتَمِعُ عليه الخَلْقُ ، فوَقَعَ الحَسَدُ ، فشَرعوا وعَمِلُوا لهم وَقْتاً لِقراءَةِ الحَديثِ ، وجَمَعوا النَّاسَ ، فكان هـٰذا يَنامُ وهـٰذا بِلا قَلْبٍ[1] ، فمَا اشْتَفُوا ، فأمَرُوا النَّاصِحَ ابنَ الحَنْبَليَّ بأنْ يَعِظَ تحتَ النسرِ يومَ الجُمُعَةِ وقتَ جُلوسِ الحافظِ ، فأوَّلُ ذلكَ أنَّ النَّاصِحَ والحافظَ أرادَا أنْ يَخْتلِفا في الوَقتِ ، فاتَّفَقَا أنَّ النَّاصِحَ يَجْلسَ بعدَ الصَّلاةِ ، وأنْ يَجْلسَ الحافظُ العَصْرَ ، فدَسُّوا إلى النَّاصِحِ رَجُلاً ناقِصَ العَقلِ من بَنِي عَساكِر فقال للنَّاصِحِ في المَجْلسِ ما مَعْناه : إنَّكَ تقولُ الكذِبَ على المِنْبَرِ ، فضُرِبَ وهَرَبَ ، فتَمَّتْ مَكيدَتُهم ، ومَشَوْا إلى الوالِي وقالوا : هَؤلاءِ الحَنابِلَةُ قَصْدُهُم الفِتْنَة ، واعْتِقادُهُم يُخالِفُ اعْتِقادَنا ، ونَحْوَ هـٰذا ، فبَعَثَ الأسْرَىٰ[2] فرَفَعوا ما في جامِعَ دِمَشْق من مِنْبَرٍ وخَزانَةٍ ، ودَرابزينَ ، وقالُوا : نُريدُ أنْ لا تُجْعلَ في الجَامِعِ إلاَّ صَلاةُ الشَّافِعيَّة وكَسَروا مِنْبَرَ الحافظِ ، ثمَّ إنَّ الحافظَ ضاقَ صَدْرُه ومَضَىٰ إلىٰ بَعْلَبَك ، فأقامَ بها مُدَّة ، فقال له أهلُها ، إنْ اشْتَهَيْتَ جِئْنا معَكَ إلىٰ دِمَشْقَ نُؤذِي مَنْ آذاكَ ، فقال : لا ، وتَوجَّه إلىٰ مِصْرَ فبَقِيَ بِنابْلِسَ مُدَّة يَقْرأُ الحَديثَ ، وكُنتُ أنا بِمصْرَ ، فجاءَ شابٌّ من دِمَشْقَ بِفَتاوٍ إلىٰ صاحِبِ مِصْرَ الملكِ العَزيزِ ومعَه كُتُبٌ أنَّ الحَنابِلَةَ يَقُولُونَ كَذا وكَذا مِمَّا يُشَنِّعون به عليهم ، فقالَ ـ وكان يَتَصَيَّدُ ـ : إذا رَجَعْنا أخْرَجْنا من بِلادِنا مَنْ يَقولُ بهـٰذه المَقالَة ، فاتَّفَقَ أنَّه عَدا به الفَرَسُ ، فشَبَّ به فسَقَطَ فخُسِفَ صَدْرُه ، وبَقِيَ الحافظُ بِمصْرَ ، وهم يَنالُونَ منه ، حتىٰ عَزَمَ المَلِكُ الكاملُ علىٰ إخْراجه[3] .

---

(١) يعني أنهم كانوا يجمعون الناس من غير اختيارهم ، فكان بعضهم ينام ، وكان البعض يحضر وقلبه غير حاضر .

(٢) هـٰكذا في السِّيَر وفي الذَّيْلِ لابنِ رَجَبَ ، والظَّاهرَ أنه اسم لجمَاعة من أعوَان الوَالي من الشُّرطة أو الجَيش .

(٣) انظر السير : (الحافظ عبد الغنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٤٧ .

٦ـ لماذا يُحْمدُ اللهُ عند المُصيبةِ ؟

قال شُرَيحٌ : إنِّي لأُصابُ المُصيبَةَ ، فأحْمَدُ اللهَ عليها أرْبَعَ مَرَّاتٍ ، أَحْمَدُ إذْ لَمْ يَكُنْ أعْظَمَ منها ، وأحْمَدُ إذْ رَزَقَني الصَّبرَ عليها ، وأحْمَدُ إذْ وَفَّقَني للاسْتِرْجاع لِمَا أرْجُو من الثَّوابِ ، وأحْمَدُ إذْ لَمْ يَجْعَلْها في دِينِي[1] .

٧ـ رُؤْيا يَظْهرُ فيها فائِدَةُ الابْتِلاء والصَّبرِ عليه :

وقال عبدُ الله بنُ أحمدَ بن حَنْبَل : حَدَّثني ثابتُ بنُ أحمدَ ابن شبويه قال : كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ لأبي فَضِيلَةٌ علىٰ أحْمَدَ بنِ حَنْبَل لِجهادِه ، وفِكاكِ الأسْرىٰ فسَألْتُ أخي عبد اللهِ ، فقال : أحْمَدُ ابنُ حَنْبَل أرْجَحُ ، فلَمْ أقْنَع ، فأُرِيتُ شَيْخاً حَوْلَه النَّاسُ ، يَسْألُونَه ، ويَسْمَعُون منه ، فسَألتُه عنهما ، فقال : سُبْحانَ الله!! ، إنَّ أحْمَدَ ابنَ حَنْبَل ابْتُلِيَ فصَبَرَ ، وإنَّ ابنَ شبويه عُوفِي ، المُبْتَلَى الصَّابِرُ كالمُعافَى ؟!! هَيْهات[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (شُريح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٥٧ .

(٢) انظر السير : (ابن شَبُّويه) ١١/ ٧ـ ٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٠٥ .

ثانياً : الفِتَنُ

١ـ الفاروق رضي الله عنه كان دِرْعاً للفِتن عن المسلمين :

قال حُذَيْفَةُ : كنَّا جُلُوساً عند عُمَرَ فقال : أيُّكم يَحْفظُ قولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في الفِتْنَة ؟ قُلتُ : أنا قال : إنَّكَ لجَريء ، قُلتُ : فِتنَةُ الرجُلِ في أهْلِه ومَالِه ووَلدِه تُكفِّرُها الصَّلاةُ والصِّيامُ والصَّدَقةُ والأمرُ بالمَعْروفِ والنَّهْي عن المُنكَر ، قال : ليسَ عنها أسْألُك ، ولكن الفِتنةُ التي تَموجُ مَوجَ البَحرِ ، قُلتُ : ليسَ عَليكَ منها بَأسٌ إنَّ بَينكَ وبينها باباً مُغْلَقاً ، قال : أيُكْسَرُ أمْ يُفْتَحُ ؟ قُلتُ : بلْ يُكْسَرُ ، قال : إذاً لا يُغْلَقُ أبداً ، قُلنا لحُذَيْفَة : أكان عُمَرُ يَعلَم مَنِ الباب ؟ قال : نَعم ، كما يَعلمُ أنَّ دُون غَدِ اللَّيلة ، إنِّي حَدَّثتُه حَديثاً ليسَ بالأغاليط ، فسألَه مَسْروقٌ : مَنْ البابُ ؟ قال : البابُ عُمَر[١] .

٢ـ الفتن في عهد عثمان رضي الله عنه :

قال إسماعيلُ بنُ أبي خالد : لمَّا نَزلَ أهلُ مِصْرَ الجُحْفَة ، وأتَوْا يُعاتِبون عُثمانَ ، صَعدَ عُثمانُ المِنْبَر فقال : جَزاكُم الله يا أصْحابَ محمد عَنِّي شَراً ، أذَعْتُم السَّيئةَ وكَتَمْتُم الحَسَنةَ ، وأغْرَيْتم بي سُفهاء النَّاسِ ، أيُّكم يَذهبُ إلىٰ هـٰؤلاء القوم فيَسألُهم ما نَقَموا وما يُريدُون ؟ قال ذلك ثلاثاً ولا يُجيبُه أحد .

فقامَ عليٌّ فقال : أنا ، فقال عُثمانُ : أنتَ أقْرَبُهم رَحِماً ، فأتاهم فرَحَّبُوا به ، فقال : ما الذي نَقِمتُم عليه ؟ قالوا : نَقِمْنا عليه أنَّه مَحَا كتابَ الله ـ يَعني كَوْنُه جَمعَ الأمَّةَ علىٰ مُصْحف ـ وحَمَى الحِمَىٰ ، واسْتعمَلَ أقْرباءَه ، وأعْطَىٰ مَرْوانَ مائةَ ألف ، وتَناولَ أصْحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥/٥٠ .

(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٨٣ .

قال : فرَدَّ عليهم عُثمانُ : أمَّا القُرآنُ فمن عند الله ، إنَّما نَهَيْتُكم عن الاخْتِلاف فاقْرَؤوا علىٰ أيِّ حَرفٍ شِئتُم ، وأمَّا الحِمَىٰ فوالله ما حَمَيتُه لإبلِي ولا لغَنَمِي ، وإنَّما حَمَيتُه لإبلِ الصَّدَقَة ، وأمَّا قَولُكم : إنِّي أعْطَيتُ مَرْوانَ مائةَ ألف فهـٰذا بَيتُ مالِهم فليَسْتَعمِلُوا عليه مَنْ أحَبُّوا ، وأمَّا قَولُكم : تَناولَ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فإنَّما أنا بَشرٌ أغْضَبُ وأرْضَىٰ ، فمَنْ ادَّعَىٰ قِبَلي حقاً أو مَظْلَمَةً فها أنا ذَا ، فإن شاءَ قوَداً وإنْ شاءَ عَفْواً فرَضِيَ النَّاسُ واصْطَلَحوا ودَخلُوا المدينة .

وقال محمدُ بنُ سَعد : قالوا : رَحلَ من الكُوفَة إلى المَدينة الأشْتَرُ النَّخعيّ ـ واسْمُه مَالِكُ بنُ الحارث ـ ويَزيدُ بنُ مُكفَّف ، وثابتُ بنُ قَيْس ، وكَميلُ بنُ زياد ، وزَيدٌ وصَعْصَعة ابنا صوحان ، والحارثُ الأعْوَر ، وجُنْدُب بنُ زُهَير ، وأصْفَرُ بنُ قَيْس يَسألونَ عُثمانَ عَزْلَ سَعيد ابن العَاص عنهم فرَحَلَ سَعيدٌ أيْضاً إلىٰ عُثمانَ فوافَقَهم عندَه ، فأبىٰ عُثمانُ أنْ يَعزِلَه ، فخَرجَ الأشْتَرُ من لَيلَته في نَفرٍ ، فسارَ عَشراً إلى الكُوفَة واسْتولَىٰ عليها وصَعدَ المِنْبَر فقال : هـٰذا سَعيدُ بنُ العَاص قد أتَاكُم يَزْعُمُ أنَّ السَّوادَ بُسْتانٌ لأُغَيْلِمَةٍ من قُرَيش ، والسَّوادُ مَساقِطُ رُؤوسِكم ومَراكِزُ رِماحُكم ، فمَنْ كان يَرىٰ لله عليه حَقاً فلْيَنْهَض إلى الجَرَعَة[1] ، فخرجَ النَّاسُ فعَسْكَروا بالجَرَعَة ، فأقبلَ سَعيدٌ حتىٰ نَزلَ العُذَيْبَ[2] فجَهَّزَ الأشْتَرُ إليه ألفَ فارسٍ مع يَزيدَ بنِ قَيْس الأرْحبيّ ، وعبد الله بن كِنَانَة العَبْديّ ، فقال : سِيرُوا وأزْعِجَاه وألْحِقَاهُ بصاحبه ، فإنْ أبَىٰ فاضْرِبا عُنقَه ، فأتَياه ، فلمَّا رأىٰ منهما الجدَّ رَجَع[3] .

وصَعدَ الأشْتَرُ مِنبَرَ الكُوفَة وقال : يا أهلَ الكُوفَة ما غَضِبتُ إلاَّ لله ولَكُم ، وقد وَليتُ أبا موسى الأشْعَري صَلاتَكم ، وحُذَيْفَة بنَ اليَمان فَيْئَكم ، ثم نَزلَ وقال : يا أبا موسى اصْعَد ، فقال : ما كُنتُ لأفْعلُ ، ولكن هَلمُّوا فبَايِعُوا لأميرِ المؤمنين وجَدِّدُوا

---

(١) الجَرَعَة : بالتحريك ، موضع قرب الكوفة ، المكان الذي فيه سهولة ورمل .

(٢) العُذَيب : ماءٌ بين القادسيّة والمغيثة .

(٣) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٨٣ .

البَيْعةَ في رِقابِكُم ، فأجابَه النَّاسُ وكَتبَ إلىٰ عُثمان بما صَنع ، فأعجبَ عُثمان ، فقال عُتبَةُ ابنُ الوَعْل شاعِرُ الكُوفَة :

تَصَدَّق عَلينا يا بنَ عَفانٍ واحْتَسِبْ وأَمِّــرْ عَلينــا الأشْعَــريَّ ليــاليَــا

فقال عُثمانُ : نَعم وشُهوراً وسِنينَ إنْ عِشتُ ، وكان الذي صَنعَ أهلُ الكُوفَة بسَعيدٍ أوّلُ وَهَن دخلَ علىٰ عُثمان حين اجتُرِىء عليه .

وعن الزهريّ قال : وَلِيَ عُثمانُ ، فعَمِلَ ستَّ سنين لا يَنْقِمُ عليه النَّاسُ شيئاً ، وإنَّه لأحَبُّ إليهم من عُمَر ، لأنَّ عُمَر كان شَديداً عليهم ، فلمَّا وَلِيَهم عُثمانُ لانَ لهم ووَصَلهم ، ثمَّ إنَّه تَوانَىٰ في أمرِهم واسْتعمَلَ أقْرِباءَه وأهلَ بَيته في السِّتِ الأواخِر ، وكَتبَ لمَرْوانَ بخُمْسِ مِصْرَ أو بخُمسِ إفْريقيَة ، وآثرَ أقْرباءَه بالمال ، وتأوَّلَ في ذلك الصِّلَة التي أمَرَ اللهُ بها واتَّخذَ الأمْوالَ ، واسْتَسْلَفَ من بَيتِ المَال ، وقال : إنَّ أبا بَكر وعُمَر تَركا من ذلك ما هو لهُما ، وإنِّي أخَذْتُه فقَسَّمتُه في أقْربائي ، فأنْكَرَ النَّاسُ عليه ذلكَ .

قال الذهبيُّ : وممَّا نَقَموا عليه أنَّه عَزلَ عُمَيرَ بنَ سَعد عن حِمْصَ ، وكان صَالحاً زَاهداً ، وجَمَعَ الشَّامَ لمُعاويَة ، ونَزعَ عَمرَو بنَ العاص عن مِصْرَ ، وأمَّرَ ابنَ أبي سَرْح عليها ، ونَزعَ أبا موسى الأشْعَري عن البَصْرَة ، وأمَّرَ عليها عبدَ الله بنَ عامر ، ونَزَعَ المُغيرَة بنَ شُعْبَة عن الكُوفَة وأمَّرَ عليها سَعيدَ بنَ العَاص .

وممَّن قامَ علىٰ عُثمانَ محمدُ بنُ أبي بَكر الصدِّيق ، فسُئلَ سالمُ ابنُ عبد الله ـ فيما قيل ـ عن سَبب خُروج محمد ، قال : الغَضَبُ والطَمَعُ وكان من الإسْلامِ بمكان ، وغَرَّهُ أقْوامٌ فطَمِعَ ، وكانت له دالةٌ[1] ، ولَزِمَه حَقٌّ ، فأخَذَه عُثمانُ من ظَهْره .

وحَجَّ مُعاويَة ، فقيل : إنَّه لمَّا رَأىٰ لِينَ عُثمان واضْطِرابَ أمْرِه قال : انْطَلِق مَعي إلى الشَّامِ قَبلَ أنْ يَهْجمَ عليكَ مَنْ لا قِبَلَ لكَ به ، فإنَّ أهلَ الشَّام على الطَّاعَة ، فقال رضي الله عنه : أنا لا أبيعُ جِوارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وإنْ كان فيه قَطعُ

---

(١) قال صاحب النزهة : الوثوق بمحبة الناس والجرأة عليهم « القاموس المحيط » : د ل ل .

خَيْط عُنُقي ، قال : فأَبعَثُ إليك جُنداً ، قال : أنا أُقَتِّرُ علىٰ جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرْزاقَ بجُند تُساكِنُهم!! ، قال : يا أميرَ المؤمنين والله لتُغْتالَنَّ ولَتُغْزَيَنَّ ، قال رضي الله عنه : حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيل .

وقد كان أهلُ مِصْرَ بايَعوا أشْياعَهم من أهل الكُوفَة والبَصْرَة وجَميعَ مَنْ أجابَهم ، واتَّعَدوا يوماً حيث شَخصَ أمراؤُهم فلم يَسْتقمْ لهم ذلك ، لكنَّ أهلَ الكُوفَة ثارَ فيهم يَزيدُ بنُ قَيْس الأرْحبيّ واجْتمَعَ عليه نَاسٌ ، وعلى الحَرب يومَئذ القَعْقاعُ بنُ عَمرو ، فأتاه وأحَاطَ النَّاسُ بهم فناشَدوهم ، وقال يَزيدُ للقَعْقاع : ما سَبيلُك عليَّ وعلىٰ هـٰؤلاء ، فوالله إنِّي لسامعٌ مُطيعٌ ، وإنِّي لازِمٌ لجَماعَتي إلاَّ أنِّي أسْتَعْفي من إمَارة سَعيد ، ولم يُظْهِروا سِوىٰ ذلك ، واسْتَقبَلوا سَعيداً فرَدُّوه من الجَرَعَة ، واجْتمَعَ النَّاسُ علىٰ أبي موسىٰ فأقرَّه عُثمانُ .

ولمَّا رَجعَ الأمَراءُ لم يَكنْ للسّبائي[1] سَبيلٌ إلى الخُروج من الأمْصَار ، فكاتَبُوا أشْياعَهم أنْ يتَوافُوا بالمَدينة ليَنْظُروا فيما يُريدُون ، وأظْهَروا أنَّهم يأمُرون بالمَعْروف ، وأنَّهم يَسْألون عُثمانَ عن أشياءَ لتَطيرَ في النَّاسِ ولتُحَقَّق عليه ، فتَوافَقُوا بالمَدينة ، فأرسلَ عُثمانُ رجُلين من بَني مَخْزُوم ومن بَني زُهْرَة ، فقال : انْظُرا ما يُريدُون ، وكانا ممَّن ناله من عُثمانَ أدبٌ ، فاصْطَبَرا للحقِّ ولم يَضْطَغِنا ، فلمَّا رَأوْهما أتَوْهما وأخْبَروهما ، فقالا : مَنْ مَعَكم علىٰ هـٰذا من أهلِ المَدينة ؟ قالوا : ثلاثةٌ ، قالا : فكيف تَصْنَعون ؟ قالوا : نُريدُ أنْ نَذكُرَ له أشياءَ قد زَرَعناها في قُلوبِ النَّاسِ ، ثم نَرجِعُ إليهم ونَزْعُم لهم أنَّا قَرَّرْناه بها ، فلم يَخْرجْ منها ولم يَتُبْ ، ثم نَخرجُ كأنَّنا حُجَّاجٌ حتىٰ نَقدمَ فنُحيطَ به فنَخْلعَه ، فإنْ أبَىٰ قَتلناه .

فرَجَعا إلىٰ عُثمانَ بالخَبرِ ، فضَحكَ وقال : اللَّهُمَّ سلِّم هـٰؤلاء فإنَّك إنْ لمْ تُسْلمهُم شَقُوا فأمَّا عمَّار فحَملَ علىٰ عبَّاسِ بنِ أبي لَهَب وعَرَكَه[2] ، وأمَّا محمدُ بنُ أبي بَكر فإنَّه أُعْجِب حتىٰ رأىٰ أنَّ الحُقوقَ لا تَلزَمُه ، وأمَّا ابنُ سارة فإنَّه يَتعرَّضُ للبَلاء .

---

(١) قال صاحب النزهة : هم أصحاب عبد الله بن سبأ اليهودي .

(٢) في تاريخ دمشق « عركه بي » ، يريد أنه حمله ذنبه وتركه .

وأرسَلَ إلى المِصْريِّين والكُوفيِّين ، ونادَىٰ : الصَّلاةُ جامعَة ـ وهم عندَه في أصْل المِنْبر ـ فأقبَلَ أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فحَمدَ الله وأثْنَىٰ عليه ، وأخْبرَهم بالأمْر ، وقامَ الرجُلان ، فقال النَّاسُ : اقْتُل هـٰؤلاء فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ دَعَا إلىٰ نَفْسِهِ أَوْ إلىٰ أحَدٍ ، وعلى النَّاسِ إمَامٌ فعَليهِ لَعْنَةُ اللهِ ، فاقْتُلُوه » .

وقال عُثمانُ : بَلْ نَعفُو ونَقْبَل ، ونُبَصِّرُهم بجَهْدنا ، إنَّ هـٰؤلاء قالوا : أتَمَّ الصَّلاةَ في السَّفرِ ، وكانت لا تَتمُّ ، ألا وإنِّي قَدمتُ بلداً فيه أهلي فأتْمَمتُ لهـٰذا .

وقالوا : وحَمَيتَ الحِمَىٰ ، وإنِّي والله ما حَمَيتُ إلاَّ ما حُميَ قَبلي ، وإنِّي قد وُليتُ وإنِّي لأكثرُ العَرب بَعيراً وشاءً ، فما لي اليومَ غير بَعيرَين لحَجَّتي ، أكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم[1] .

قال : وقالوا كان القُرآنُ كُتُباً فترَكَها إلاَّ واحداً ، ألا وإنَّ القُرآنَ واحدٌ جاءَ من عندِ واحدٍ ، وإنَّما أنا في ذلكَ تابعُ هـٰؤلاء ، أكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم .

وقالوا : إنِّي رَدَدتُ الحَكَمَ[2] وقد سَيَّره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الطَّائف ثم رَدَّه ، فرسولُ الله صلى الله عليه وسلم سَيَّرَه وهو رَدَّه ، أفكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم .

وقالوا : اسْتَعمَلتَ الأحْداث ، ولَمْ أسْتعملْ إلاَّ مُجْتَمَعاً مَرضيّاً[3] ، وهـٰؤلاء أهلُ عَملي فسَلُوهم ، وقد وَلَّىٰ مَنْ قبلي أحْدَث منه ، وقِيل في ذلك لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم أشَدُّ ممَّا قيل لي في استعماله أسامة ، أكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم .

وقالوا : إنِّي أعطَيتُ ابنَ أبي سَرْح ما أفاءَ الله عليه ، وإنِّي إنَّما نَفَلتُه خُمسَ الخُمسِ ، فكان مائةَ ألف ، وقد نَفَلَ مثلَ ذلك أبو بَكر وعُمَر ، وزَعمَ الجُندُ أنَّهم يَكرهون ذلك فرَدَدتُه عليهم ، وليس ذلك لهم ، أكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم .

وقالوا : إنِّي أُحبُّ أهلي وأُعطيهم ، فأمَّا حبُّهم فلَم يُوجِب جَوْراً ، وأمَّا إعْطاؤهم

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٤٨ ـ ٨٦ .

(٢) هو الحَكَم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس .

(٣) المُجْتَمَع : الذي بلغ أشُدَّه ، يُقال : اجتمع الرجل ، استوت لحيته وبلغ غاية الشباب .

فإنَّما أُعطيهم من مالي ، ولا أَسْتَحلُّ أموالَ المسلمين لنفسي ولا لأحَدٍ ، وكان قد قَسمَ مالَه وأرضَه في بَني أُميَّة ، وجعلَ وَلدَه كبعض مَنْ يُعطي .

قال : ورَجعَ أولـٰئك إلىٰ بلادهم وعَفا عنهم ، قال : فتكاتَبُوا وتَواعَدوا إلىٰ شوَّالَ ، فلمَّا كان شوَّالُ خَرجُوا كالحُجَّاجِ حتىٰ نَزلُوا بقُرب المَدينة ، فخَرجَ أهلُ مِصْرَ في أربعمائة ، وأُمَرَاؤهم عبدُ الرَّحمـٰن بنُ عُدَيْس البَلويّ ، وكِنانَةُ بنُ بِشْر اللَّيْثيّ ، وسُودانُ بنُ حُمران السَّكُونيّ ، وقُتَيْرَة السَّكُونيّ ، ومقدمهُم الغافِقيُّ بنُ حَرب العَكِّيّ ، ومعهم ابنُ السَّوْداء[1] .

وخَرجَ أهلُ الكُوفَة في نَحو عَدَد أهلِ مِصْرَ ، فيهم زَيْدُ بنُ صُوحان العَبْديّ ، والأشْتَر النَّخْعيّ ، وزِيادُ بنُ النَّضْر الحارثيّ ، وعبدُ الله بنُ الأصمّ ، ومقدمهُم عَمرُو بنُ الأصَمّ .

وخَرجَ أهلُ البَصْرَة وفيهم حُكَيمُ بنُ جَبَلَة ، وذَريحُ بنُ عبَّاد العبديّان ، وبِشْرُ بنُ شُرَيح القيسيّ ، وابنُ مُحَرِّش الحَنَفيّ ، وعليهم حُرْقُوصُ ابنُ زُهَير السَّعديّ .

فأمَّا أهلُ مِصْرَ فكانوا يَشتَهُون عَليّاً ، وأمَّا أهلُ البَصْرَة فكانوا يَشْتَهون الزُّبَيْرَ ، وأمَّا أهلُ الكُوفَة فكانوا يَشْتَهون طَلْحَة ، وخَرجُوا ولا تَشكُّ كلُّ فرقَة أنَّ أمْرَها سَيتمُّ دون الأخرىٰ ، حتىٰ كانوا من المدينة علىٰ ثلاث ، فتَقدَّم ناسٌ من أهل البَصْرَة فنزَلوا ذا خُشُب ، وتقدَّم ناسٌ من أهل الكُوفَة فنزَلوا الأعْوَصَ ، وجاءَهم أناسٌ من أهلِ مِصْرَ ، ونَزلَ عامَّتُهم بذي المَرْوة ، ومَشىٰ فيما بينَ أهل البَصْرَة وأهلِ مِصْرَ زيادُ بنُ النَّضْر ، وعبدُ الله بنُ الأصَم ليَكشفُوا خَبرَ المدينة ، فدَخلا فلَقِيا أزْواجَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وطَلْحَةَ ، والزُّبَيْرَ ، وعَليّاً ، فقالا : إنَّما نَؤمُّ هـٰذا البيتَ ، ونَسْتعفي من بَعض عُمَّالِنا ، واستأذَنُوهم للنَّاسِ بالدُّخُول ، فكُلُّهم أبَىٰ ونَهَىٰ فرَجَعا ، فاجْتَمعَ من أهلِ مِصْرَ نَفرٌ فأتَوا عَليّاً ، ومن أهلِ البَصْرة نَفرٌ فأتَوا الزبَيرَ ، ومن أهلِ الكُوفَة نَفرٌ فأتَوا طَلحَةَ ، وقال كلُّ فَريقٍ منهم : إنْ بايَعَنا صاحِبَنا وإلاَّ كِدْناهم وفرَّقنا جَماعتَهم ، ثم كَرَرْنا حتىٰ نَبغَتهم .

---

(١) قال صاحب النزهة : أي عبد الله بن سبأ اليهودي .

فأتَى المصْريُّون عَليّاً وهو في عَسْكرٍ عند أحْجارِ الزَّيت ، وقد سَرَّح ابنَه الحَسنَ إلىٰ عُثمانَ فيمَن اجْتمَع إليه ، فسلَّم علىٰ عَليٍّ المصريُّون ، وعَرَضوا له ، فصاحَ بهم وطَرَدَهم ، وقال : لقد عَلمَ الصَّالِحُون أنَّكم مَلعُونون ، فارْجِعوا لا صَحِبَكم الله ، فانْصَرَفوا ، وفَعلَ طَلحَةُ والزُّبَيرُ نَحوَ ذلك .

فذهبَ القَومُ وأظْهَروا أنَّهم راجعُون إلىٰ بلادِهم ، فذَهبَ أهلُ المدينة إلىٰ مَنازِلهم ، فلمَّا ذَهبَ القَومُ إلىٰ عَساكرِهم كَرُّوا بهم ، وبَغَتوا أهلَ المدينة ودَخلُوها ، وضَجُّوا بالتَّكْبير ، ونَزلُوا في مَواضع عَساكرهم ، وأحاطُوا بعُثمانَ وقالوا : مَنْ كَفَّ يَدَه فهو آمِنٌ .

ولَزِمَ النَّاسُ بيُوتَهم ، فأتَىٰ عليٌّ رضي الله عنه فقال : ما رَدَّكم بعد ذهابكم ؟ فقالوا : وجَدْنا مع بَريدٍ كتاباً بقَتْلِنا ، وقال الكُوفيُّون والبَصْريُّون : نحنُ نمَنعُ إخْوانَنا ونَنصرُهم ، فعَلمَ النَّاسُ أنَّ ذلكَ مكرٌ منهم .

وكَتبَ عُثمانُ إلىٰ أهل الأمْصَار يَستمدُّهم ، فساروا إليه على الصَّعبِ والذَّلُول ، فبَعثَ مُعاويَةُ إليه حَبيبَ بنَ مَسْلمَة ، وبَعثَ ابنُ أبي سَرْح مُعاويَةَ بنَ حُدَيْج ، وسارَ من الكُوفَة القَعْقاعُ بنُ عَمرُو[1] .

فلمَّا كان يومُ الجُمعة صلَّىٰ عثمانُ بالنَّاسِ وخطَبَ فقال : يا هـٰؤلاء الغُزَّاء اللهَ اللهَ ، فوالله إنَّ أهلَ المدينة ليَعلَمون أنَّكم مَلعونون علىٰ لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فامْحُوا الخَطأَ بالصَّواب ، فإنَّ الله لا يَمحُو السَّيىءَ إلاَّ بالحَسَن ، فقام محمدُ بنُ مَسلَمَة ، فقال : أنا أشهَدُ بذلك ، فأقْعَده حُكَيمُ بنُ جَبَلَة ، فقام زَيْدُ بنُ ثابت ، فقال : ابغِني الكتابَ ، فثارَ إليه من ناحية أخرىٰ محمدُ بنُ أبي قُتَيْرَة فأقعدَه وتكلَّم فأفْظَعَ ، وثارَ القومُ بأجْمَعهم ، فحَصبوا النَّاسَ حتىٰ أخرجُوهم ، وحَصبوا عثمانَ حتىٰ صُرِعَ عن المِنبَر مَغْشِيّاً عليه ، فاحْتُمِلَ وأُدْخِلَ الدار .

وكان المصريُّون لا يَطمَعون في أحد من أهل المدينة أنْ يَنصُرَهم إلاَّ ثلاثة ، فإنَّهم

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/ ٨٧ ـ ٨٨ .

كانوا يُراسِلُونهم ، وهم : محمدُ بنُ أبي بكر الصديق ، ومحمدُ بن جعفر ، وعمَّار بن ياسر .

قال : واستقْتَلَ أناسٌ : منهم زَيْدُ بنُ ثابت ، وأبو هُريرَة ، وسعدُ ابنُ مالك ، والحسنُ بنُ عليّ ، ونهَضُوا لنُصْرَة عُثمانَ ، فبَعثَ إليهم يَعزِمُ عليهم لما انْصَرفوا ، فانْصَرفوا ، وأقبلَ عليٌّ حتىٰ دَخلَ علىٰ عُثمانَ هو وطَلحَةُ والزُّبَيرُ يَعودُونَه من صَرعَته ، ثم رجَعوا إلىٰ مَنازلهم .

وقال الواقديُّ : حَدَّثني ابنُ جُريج وغيرُه ، عن عَمرٍو ، عن جابر أنَّ المصريِّين لمَّا أقْبَلوا يُريدُون عُثمانَ ، دَعا عُثمانُ محمدَ بنَ مَسْلمَة ، فقال : اخْرُج إليهم فارْدُدْهم وأعْطِهم الرِّضا ، وكان رُؤساؤُهم أربَعة : عبدَ الرحمٰنَ بنَ عُدَيْس ، وسُودانَ بنَ حُمران ، وعَمرُو بنَ الحَمِق الخُزاعيّ ، وابنَ النِّبَاع ، فأتاهم ابنُ مَسْلمَة ، فلَم يزَلْ بهم حتىٰ رجَعوا ، فلمَّا كانوا بالبُوَيّب رَأوْا جَملاً عليه مِيسَم الصَّدَقة ، فأخذوه ، فإذا غُلامٌ لعثمان ، ففتَّشوا مَتاعَه ، فوَجدوا قَصبةً من رَصاص فيها كتابٌ في جَوف الإداوَة في الماء : إلىٰ عبد الله بنِ سَعد بنِ أبي سَرْح أن افْعَل بفُلان كَذا ، وبفُلان كَذا ، من القَوم الذين شَرَعوا في قَتل عُثمانَ ، فرَجَع القَومُ ثانيةً ونازَلوا عثمانَ وحَصَروه .

قال الواقديُّ : فحدَّثني عبدُ الله بنُ الحارث ، عن أبيه قال : أنكرَ عثمانُ أن يكون كَتبَ ذلك الكتاب ، وقال : فُعِلَ ذلك بلا أمْري .

وقال ابنُ سيرين : إنَّ عُثمانَ بعثَ إليهم عَليّاً فقال : تُعْطَوْن كتابَ الله وتُعْتَبون من كلِّ ما سَخطتُّم[1] ، فأقبل معه ناسٌ من وُجوههم ، فاصْطلَحوا علىٰ خَمسٍ : علىٰ أنَّ المَنفِيَّ يُقلَبُ[2] ، والمَحْرومَ يُعطَىٰ ، ويُوفَّرُ الفَيءُ ، ويُعْدَلُ في القَسْم ، ويُستعمَلُ ذو الأمانة والقُوة كَتبوا ذلكَ في كتاب ، وأن يردُّوا ابنَ عامر إلى البَصْرَة ، وأبا موسىٰ إلى الكوفَة .

وقال أبو الأشْهَب ، عن الحَسن قال : لقد رَأيتُهم تَحاصَبوا في المَسجد حتىٰ

---

(١) قال صاحب النزهة : أي تُرَضُّوْنَ ممّا أغضبكم .

(٢). قال صاحب النزهة : أي يرجع .

ما أبْصرُ السماءَ ، وإنَّ رَجلاً رَفعَ مُصْحَفاً من حُجُرات النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثم نادَىٰ : أَلَمْ تَعلَموا أنَّ محمداً قد بَرِىءَ ممَّن فرَّقُوا دينَهم وكانوا شِيَعاً .

وقال سلامٌ : سَمعتُ الحَسنَ قال : خرجَ عثمانُ يومَ الجُمعة ، فقامَ إليه رَجلٌ فقال : أسْألُكَ كتابَ الله ، فقال : وَيْحَك ، أَلَيسَ معكَ كتابُ الله!! ، قال : ثم جاءَ رجلٌ آخر فنَهاه ، وقامَ آخرُ ، وآخرُ ، حتىٰ كَثُروا ، ثم تَحاصَبوا حتىٰ لمْ أرَ أديمَ السَّماءِ .

ورَوَىٰ بِشْرُ بنُ شَغاف ، عن عبد الله بنِ سلام قال : بينما عثمانُ يَخطبُ ، فقامَ رجلٌ فنال منه فَوَذَأْتُه[1] ، فاتَّذَأ ، فقال رجلٌ : لا يَمنَعُك مكانُ ابنَ سلام أن تَسُبَّ نَعْثَلاً ، فإنَّه من شِيعَته ، فقُلتُ له : لقد قُلتَ القَولَ العَظيم في الخَليفَةِ من بعد نُوح[2] ،[3] .

وقال ابنُ عُمَر : بينما عُثمانُ يَخطُب إذْ قامَ إليه جهْجاه الغِفاريّ ، فأخَذَ من يده العَصا فكَسَرها علىٰ رُكْبَته ، فدخلت منها شَظيةٌ في رُكبَتِه ، فوَقَعت فيها الأكَلَة[4] .

وقال غيرُه : ثم إنَّهم أحاطوا بالدَّارِ وحَصَروه ، فقال سعدُ ابنُ إبراهيم ، عن أبيه : سَمعتُ عُثمانَ يقولُ : إنْ وجدتم في الحَقِّ أن تَضَعوا رِجْلَي في القَيْدِ فضَعوهُما[5] .

وقال ثُمامَةُ بنُ حَزْن القُشَيْريّ : شَهدْتُ الدَّارَ وأشْرَفَ عليهم عُثمانُ فقال : ائْتُوني بصاحِبَيْكم اللذَين ألَّبَاكُم ، فدُعيا له كأنَّهما جَملان أو حِماران ، فقال : أنشُدُكم اللهَ أتَعلَمون أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قدِمَ المدينةَ وليسَ فيها ماءٌ عَذبٌ غَير بِئرَ رُومَة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَشْتَريها فيَكونُ دَلْوُه كدِلاءِ المسلمين ، وله الجَنَّةُ خَيرٌ منها » ، فاشْتريتُها ، وأنتم اليوم تَمنَعوني أنْ أشْرَبَ منها حتىٰ أشْرَبَ من

---

(١) وَذَأتُه : زجرتُه وقمعتُه .

(٢) قالوا لعثمان : نَعْثَلاً ، تشبيها له برجل مصري اسمه نَعْثَل كان طويل اللحية ، والنَّعْثَل : الذكر من الضباع ، وكان عُمرُ يُشبه بنوح في الشدة .

(٣) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٨٩ .

(٤) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٩٠ .

(٥) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٩١ .

الماء المالح ؟ قالوا : اللَّهُمَّ نَعم ، قال : أنشُدُكم اللهَ والإسْلامَ ، هل تَعلمونَ أنَّ المَسجِدَ ضاقَ بأهله ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَشْتَري بُقْعَةً بخَيرٍ له منها في الجَنَّة » ، فاشْتريتُها وزِدْتُها في المَسجِدِ ، وأنتم تَمنَعُوني اليومَ أن أُصَلِّي فيها ؟ قالوا : اللَّهُمَّ نَعم ، قال : أنشُدُكم اللهَ ، هل تَعلمونَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان علىٰ ثَبيرِ[1] مكةَ ، فتحرَّكَ وعليه أبو بكر وعُمَرُ وأنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اسْكنْ فلَيْسَ عليكَ إلاَّ نَبيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهيدان » قالوا : اللَّهُمَّ نَعم ، فقال : الله أكبَر شَهِدوا وربِّ الكعبَة أنِّي شَهيد .

ورَواه أبو سلمَة بنُ عبد الرحمَـٰن بنَحوه ، وزادَ فيه أنَّه جَهَّزَ جَيشَ العُسْرَة .

ثم قال رضي الله عنه : ولكن طالَ عليكم أمري فاسْتعجَلتُم ، وأردتُم خَلعَ سِرْبالٍ سَرْبَلَنِيه اللهُ ، وإنِّي لا أخلَعُه حتىٰ أموتَ أو أُقْتَل .

وعن ابنِ عُمَر قال : فأشْرَفَ عليهم وقال : عَلامَ تقْتُلوني ؟ فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يَحِلُّ دَمُ امْرىءٍ مُسْلمٍ إلاَّ بإحْدَىٰ ثَلاثٍ : كفْرٍ بعدَ إسْلام ، أوْ رَجُلٍ زَنَىٰ بعدَ إحْصَانٍ ، أوْ رَجُلٍ قَتَلَ نَفْساً » ، فوالله ما زَنَيْتُ في جاهليّة ولا إسْلام ، ولا قَتلتُ رجلاً ولا كَفرتُ .

عن الحَسَن ، قال عُثمانُ : لئِنْ قَتلوني لا يُقاتِلُون عَدُواً جَميعاً أبداً ، ولا يَقْتسِمُون فَيئاً جَميعاً أبداً ، ولا يُصَلُّون جَميعاً أبداً .

وقال مثلَه عبدُ المَلك بنُ أبي سُليمان ، عن أبي ليلى الكنْديّ ، وزادَ فيه : ثم أرسلَ إلىٰ عبد الله بنِ سَلام فقال : ما تَرى ؟ قال : الكَفَّ الكَفَّ ، فإنَّه أبلَغُ لك في الحُجَّة ، فدَخلوا عليه فقَتلُوه وهو صائم رضي الله عنه .

وقال الحَسنُ : حدَّثني وثَّابٌ قال : بَعثَني عُثمانُ ، فدَعوتُ له الأشْتَرَ فقال : ما يريدُ النَّاسُ ؟ قال : إحْدَىٰ ثلاث : يُخَيِّرونَك بين الخَلْعِ ، وبين أن تَقتَصَّ من

---

(١) قال صاحب النزهة : هو جبل بمكّة .

نفسك ، فإنْ أبَيتَ فإنَّهم قاتِلُوك ، فقال : ما كُنتُ لأخْلعُ سِرْبالاً سَرْبَلَنِيه اللهُ ، وبدني ما يقومُ لقَصاص[1] .

وقال حُمَيْدُ بنُ هلال : حَدَّثنا عبدُ الله بنُ مغفل قال : كان عبدُ الله بنُ سَلام يَجيءُ من أرضٍ له علىٰ حِمارٍ يومَ الجُمعة ، فلمَّا حُصِرَ عُثمانُ قال : يا أيُّها النَّاسُ لا تَقتُلوا عُثمانَ ، واسْتَعتِبُوه ، فوالذي نفسي بيده ما قَتَلتْ أُمَّةٌ نَبيَّها فصَلُحَ ذات بينهم حتىٰ يُهْريقُوا دَمَ سَبعينَ ألفاً ، وما قَتَلتْ أُمَّةٌ خَليفَتَها فيُصلِحُ اللهُ بينهم حتىٰ يُهْريقُوا دَمَ أربَعين ألفاً ، وما هَلكَت أُمَّةٌ حتىٰ يَرفَعوا القُرآنَ على السُّلطانِ قال : فلَمْ يَنظُروا فيما قال ، وقَتلُوه ، فجَلسَ على طريق عليِّ بنِ أبي طالب ، فقال له : لا تأتي العِراقَ والْزَمْ مِنبَرَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فوالذي نفسي بيده لَئنْ تَركتَه لا تَراهُ أبداً ، فقال مَنْ حَولَ عليّ : دَعنا نَقتُله ، قال رضي الله عنه : دَعُوا عبدَ الله بنَ سَلام ، فإنَّه رجلٌ صالح[2] .

ودخلَ ابنُ عُمَر علىٰ عُثمانَ وهو مَحْصورٌ ، فقال : ما تَرى ؟ قال : أرَىٰ أنْ تُعطيهم ما سَألوكَ من وَراء عَتَبةِ بابِك غيرَ أنْ لا تَخلعْ نفسَك ، فقال : دُونَك عَطاءك ـ وكان واجداً عليه ـ فقال : ليس هـٰذا يوم ذاك ، ثم خَرجَ ابنُ عُمَر إليهم فقال : إيّاكم وقَتل هـٰذا الشَّيخ ، والله لإنْ قَتلتُموه لَمْ تَحجُّوا البيتَ جَميعاً أبداً ، ولَمْ تُجاهِدوا عَدُوَّكم جَميعاً أبداً ، ولَمْ تَقتَسِموا فَيْئكم جَميعاً أبداً ، إلاَّ أنْ تَجتمعَ الأجْسادُ والأهْواءُ مُختلِفَة ، ولقد رأيتُنا وأصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مُتوافِرون نَقولُ : أبو بَكر ، ثم عُمَرُ ، ثم عُثمانُ[3] .

وعن أبي جَعفرٍ القاري قال : كان المصريُّون الذين حَصَروا عُثمانَ ستمائة ، رَأسُهم كِنانَةُ بنُ بِشْر ، وابنُ عُدَيْس البَلويّ ، وعَمرُو ابن الحَمِق والذين قَدِموا من الكُوفَة مائتين ، رأسُهم حُكَيْمُ بنُ جَبَلَة ، وكانوا يداً واحدة في الشَّرِ ، وكانت حُثالةٌ من النَّاسِ

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٩١ .
(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٩٢ .
(٣) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٩٢ .

قد ضَوَوا إليهم ، وكان أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم الذين خَذلُوه كَرِهوا الفِتنةَ وظَنُّوا أنَّ الأمرَ لا يَبلغُ قَتلَه ، فلمَّا قُتِلَ نَدِموا علىٰ ما ضَيَّعوا في أمرِه ، ولَعَمْري لو قاموا أو قامَ بعضُهم فحَثا في وُجوه أولئكَ التُّرابَ لانْصَرفوا خاسِئين .

وقال حَبيبُ بنُ أبي ثابت ، عن أبي جَعفَرٍ محمدِ بنِ عليّ : إنَّ عُثمانَ بَعثَ إلىٰ عليٍّ يَدعُوه وهو مَحْصور ، فأرادَ أنْ يأتيه ، فتَعلَّقوا به ومَنَعوه ، فحَسرَ عَمامةً سَوداءَ عن رأسه ، وقال : اللَّهُمَّ لا أرْضَىٰ قَتلَه ولا آمُرُ به .

وعن أبي إدْريسَ الخَوْلانيّ قال : أرْسلَ عُثمانُ إلىٰ سَعدٍ ، فأتاهُ ، فكلَّمَه ، فقال له سعدٌ : أرْسِل إلىٰ عليٍّ ، فإنْ أتاكَ ورَضِيَ صَلُحَ الأمرُ ، قال : فأنتَ رَسولي إليه ، فأتاهُ ، فقامَ عليٌّ ، فمَرَّ بمالك الأشْتَر ، فقال الأشْتَرُ لأصحابه : أينَ يريدُ هـٰذا ؟ قالوا : يُريدُ عُثمانَ ، فقال : والله لئِن دَخلَ عليه لتُقتَلُنَّ عن آخِركم ، فقام إليه في أصحابه حتى اخْتَلجَه عن سَعدٍ وأجْلسَه في أصحابه ، وأرسَلَ إلىٰ أهلِ مِصْرَ : إنْ كُنتُم تُريدُون قَتلَه فأسْرِعوا ، فدَخلُوا عليه فقَتلُوه[1] .

وعن أبي حَبيبَة قال : لمَّا اشْتدَّ الأمرُ ، قالوا لعُثمانَ ـ يَعني الذين عندَه في الدَّار ـ ائْذَن لنا في القتال فقال : أعْزِمُ علىٰ مَنْ كانت لي عليه طَاعَةٌ أنْ لا يُقاتِل[2] .

وقال نافعٌ ، عن ابنِ عُمَر : أصْبحَ عُثمانُ يُحدِّثُ النَّاسَ ، قال : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الليلةَ في المَنام ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَفْطِرْ عِنْدَنا غَداً » ، فأصْبحَ صائماً ، وقُتِلَ من يومِه[3] .

ومن وَجهٍ آخَر ، عن ابنِ سيرين ، قال : انطلَقَ الحسنُ والحُسَينُ وابنُ عُمَر ، ومَرْوانُ ، وابنُ الزُبَيْر ، كلُّهم شاكُ السِّلاحَ ، حتىٰ دَخلُوا علىٰ عُثمانَ ، فقال : أعْزِمُ عليكم لما رَجعتُم فوَضَعتُم أسْلِحَتكم ولَزِمْتُم بُيوتَكم ، فقال ابنُ الزُبَيْر ، ومَرْوَانُ :

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٣/ ١ .
(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٣/ ٢ .
(٣) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٣/ ٣ .

نحنُ نَعْزِمُ علىٰ أنفسِنا أن لا نَبرحَ ، وخَرجَ الآخَرون[1] .

وقال ابنُ سيرينَ : كان مع عُثمانَ يومئذ في الدَّارِ سبعمائة لو يَدعهم لضَربوهم حتىٰ يُخْرِجوهم من أقْطارِها[2] .

وعن مُسلمٍ أبي سَعيد قال : أعْتقَ عُثمانُ عشرين مَمْلوكاً ، ثم دَعا بسَراويل ، فشدَّها عليه[3] ، ولمْ يَلبَسْها في جاهليّة ولا إسْلام ، وقال : إنِّي رَأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم البارِحَة ، وأبا بَكر وعُمرَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اصْطَبِرْ فَإنَّكَ تُفْطِرُ عِنْدَنا القَابِلَة » ثم نشَرَ المُصْحفَ بين يَديْه ، فقُتلَ وهو بين يَديْه .

وقال ابنُ عَوْف ، عن الحَسَن : أنْبَأني وثَّابٌ مَوْلىٰ عُثمان قال : جاءَ رُوَيجلٌ كأنَّه ذِئبٌ ، فاطَّلع من باب ، ثم رَجعَ ، فجاءَ محمدُ بنُ أبي بكر في ثلاثة عشر رجلاً ، فدخلَ حتى انتُهىٰ إلىٰ عُثمانَ ، فأخَذَ بلِحْيته ، فقال بها حتىٰ سَمعَ وَقعَ أضْراسِه ، فقال : ما أغْنَىٰ عنكَ مُعاويَة ، ما أغْنَىٰ عنكَ ابنُ عامر ، ما أغْنَت عنكَ كُتبُك ، فقال رضي الله عنه : أرْسِل لِحْيَتي يا ابنَ أخي ، قال : فأنا رأيتُه اسْتَعدىٰ رجلاً من القَومِ عليه يُعينُه ، فقام إلىٰ عُثمانَ بمشْقَص ، حتىٰ وَجأَ به رأسَه ، ثم تَعاوَروا عليه حتىٰ قَتلُوه .

وعن ريطة مَولاة أسامة قالت : كُنتُ في الدَّارِ ، إذْ دَخلوا ، فجاءَ محمدٌ فأخَذَ بلِحْيَة عُثمانَ فهَزَّها ، فقالَ : يا ابنَ أخي دَعْ لِحْيَتي ، لِتَجذِبَ ما يَعِزُّ علىٰ أبيك أن تُؤذيَها ، فرأيتُه كأنَّه اسْتَحىٰ ، فقامَ ، فجَعلَ بطَرف ثَوبه هٰكذا ، ألا ارجِعُوا ، قالت : وجاءَ رجلٌ من خلف عُثمانَ بسَعَفَة رَطبَة ، فضَربَ بها جَبهَتَه فرأيتُ الدمَ يَسيلُ ، وهو يَمسَحُه ويقولُ : « اللَّهُمَّ لا يُطلَبُ بدَمي غَيْرَك »[4] ، وجاءَ آخرُ فضَربَه بالسَّيفِ علىٰ

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٤/٩٣ .

(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٩٤ .

(٣) إنما لبسها لئلا تبدو عورته إذا قُتلَ رضي الله عنه .

(٤) ورد من دعاء عثمان عليهم (في الثقات لابن حبان ٢/٢٦١) : اللهم فشتت أمرهم ، وخالف بين كلمتهم ، وانتقم لي منهم ، واطلبهم لي طلباً حثيثاً وقد استُجيب دعاؤه رضي الله عنه في كل ذلك وقال ابن كثير (في البداية والنهاية ٧/١٨٩) : لما بلغ سعد بن أبي وقاص ـ وكان مستجاب الدعاء ـ قتلَ=

صَدرِه فأقْعَصَه[1] ، وتَعاوَروه بأسْيافِهم ، فرأيتُهم يَنْتَهِبُون بيتَه .

وعن الزهريّ قال : قُتِلَ عند صلاة العَصْر ، وشَدَّ عَبدٌ لعُثمانَ علىٰ كِنانَة بنِ بِشْر فقَتلَه ، وشَدَّ سُودانُ على العَبدِ فقَتلَه[2] .

وقال أبو نَضْرَة ، عن أبي سَعيد قال : ضَربُوه فجَرى الدمُ على المُصْحف علىٰ : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3] ، [4] .

وقال عِمْرانُ بنُ حُدير ، إلاَّ يكن عبدُ الله بن شقيف حدَّثني : إنَّ أوَّلَ قطرةٍ قَطرت من دَمه علىٰ : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ ، فإنَّ أبا حريث ذَكرَ أنَّه ذَهبَ هو وسُهَيل المريّ ، فأخرَجوا إليه المُصْحفَ ، فإذا قَطرةُ الدمِ علىٰ ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ قال : فإنَّها في المصحف ما حُكَّت[5] .

وقال ابنُ لُهَيْعَة ، عن يزيدِ بنِ أبي حَبيب قال : بلغَني أنَّ الركْبَ الذين ساروا إلىٰ عُثمانَ عامَّتُهم جُنُّوا[6] .

وقال لَيثُ بنُ أبي سليم ، عن طاووس ، عن ابنِ عبَّاس سَمعَ عليّاً يقول : والله ما قَتَلتُ ـ يعني عُثمانَ ـ ولا أمَرتُ ، ولكن غُلِبتُ ، يقولُ ذلكَ ثلاثاً وجاءَ نَحوَه عن عليٍّ من طُرق .

وجاءَ عنه أنَّه لَعنَ قَتلَةَ عُثمانَ .

وعن الشعبيّ قال : ما سَمعتُ من مَراثي عُثمان أحسَنَ من قول كعبِ بنِ مالك :

فكَفَّ يَدَيه ثم أغْلَقَ بابَه ... وأيْقَنَ أنَّ اللهَ ليسَ بغافلِ

= عثمان : قال اللهم اندمهم ، ثم خذهم وقد أقسم بعض السلف بالله أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً .

(١) أقْعَصَه ، وقَعَصْتُه : إذا قَتلته قَتْلاً سريعاً .

(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٩٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٣٧ .

(٤) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٩٥ .

(٥) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٩٥ .

(٦) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٣/٩٥ .

وقـال لأهـلِ الـدَّارِ : لاتَقتُلُـوهـم عَفا الله عن كُلِّ امْرىءٍ لمْ يُقاتِلِ
فكَيْـفَ رَأيـتَ اللهَ صَـبَّ عليهِـمُ ال عَـدَاوَةَ والبغْضـاءَ بعـدَ التَّـواصُـلِ
وكَيـفَ رَأيـتَ الخَيـرَ أدْبَـرَ بَعـدَه عن النَّاسِ إدْبارَ النَّعَامِ الجَوافِلِ

ورَثاهُ حسَّانُ بنُ ثابت بقوله :

مَنْ سَرَّهُ المَوتُ صرَفاً لا مِزاجَ له فلْيـأتِ مـأدُبـةً فـي دارِ عُثمـانـا
ضَحَّوْا بأشْمَطَ[1] عنوان السُّجودِ به يَقْطَـعُ اللَّيـلَ تَسْبيحـاً وقُـرآنـا
صَبراً فـدىً لكـم أمي ومـا وَلـدَت قد يَنفَعُ الصَّبرُ في المَكْرُوهِ أحيْانا
لَتَسْمَعـنَّ وَشيكـاً فـي ديـارِهـم : اللهُ أكْبَـرُ يـا ثـاراتِ عثمـانـا[2]

٣ـ مُثيرُوا الفِتن قَليلُوا الفِقْه عادةً :

قال إسماعيلُ بنُ أبي خالد : لمَّا نَزلَ أهلُ مِصْرَ الجُحْفَة ، وأتَوْا يُعاتِبون عُثمانَ ، صَعدَ عُثمانُ المِنْبَر فقال : جَزاكُم الله يا أصْحابَ محمد عَنِّي شَراً ، أذَعْتُم السَّيئةَ وكَتَمْتُم الحَسَنةَ ، وأغْرَيْتم بي سُفهاء النَّاسِ ، أيُّكم يَذهبُ إلىٰ هـٰؤلاء القوم فيَسألُهم ما نَقَموا وما يُريدُون ؟ قال ذلك ثلاثاً ولا يُجيبُه أحد .

فقامَ عليٌّ فقال : أنا ، فقال عُثمانُ : أنتَ أقْرَبُهم رَحِماً ، فأتاهم فرَحَّبُوا به ، فقال : ما الذي نَقِمتُم عليه ؟ قالوا : نَقِمْنا عليه أنَّه مَحَا كتابَ الله ـ يَعني كَوْنُه جَمعَ الأمَّةَ علىٰ مُصْحف ـ وحَمَى الحِمَىٰ ، واسْتعمَلَ أقْرباءَه ، وأعْطَىٰ مَرْوانَ مائةَ ألف ، وتَناولَ أصْحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم[3] .

قال : فرَدَّ عليهم عُثمانُ : أمَّا القُرآنُ فمن عند الله ، إنَّما نَهَيْتُكم عن الاخْتِلاف فاقْرَؤوا علىٰ أيِّ حَرفٍ شِئتُم ، وأمَّا الحِمَىٰ فوالله ما حَمَيتُه لإبلِي ولا لغَنَمِي ، وإنَّما حَمَيتُه لإبلِ الصَّدَقَة ، وأمَّا قَولُكم : إنِّي أعْطَيتُ مَرْوانَ مائةَ ألف فهـٰذا بَيتُ مالِهم

---

(١) الأشْمَط : الأشْيَب .
(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٤/٩٥ .
(٣) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٨٣ .

فليَسْتَعمِلُوا عليه مَنْ أحَبُّوا ، وأمَّا قَولُكم : تَناولَ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فإنَّما أنا بَشرٌ أغْضَبُ وأرْضَىٰ ، فمَنْ ادَّعَىٰ قِبَلي حقاً أو مَظْلمَةً فها أنا ذَا ، فإن شاءَ قِوَداً وإنْ شاءَ عَفْواً فرَضِيَ النَّاسُ واصْطَلَحوا ودَخلُوا المدينة[1] .

٤ـ ضَرُورَةُ التمَسُّك بالبَيعَة الشرعية حالَ الفتن :

وصَعدَ الأشْتَرُ مِنبَرَ الكُوفَة وقال : يا أهلَ الكُوفَة ما غَضِبتُ إلاَّ لله ولَكُم ، وقد وَليتُ أبا موسى الأشْعَري صَلاتَكم ، وحُذَيْفَة بنَ اليَمان فَيْئكم ، ثم نَزلَ وقال : يا أبا موسى اصْعَد ، فقال : ما كُنتُ لأفْعلَ ، ولكن هَلمُّوا فبَايِعُوا لأميرِ المؤمنين وجَدِّدُوا البَيْعةَ في رِقابِكُم ، فأجابَه النَّاسُ وكَتبَ إلىٰ عُثمان بما صَنع ، فأعجبَ عُثمان ، فقال عُتبَةُ ابنُ الوَعْل شاعِرُ الكُوفَة :

تَصَدَّق عَلينا يابنَ عَفانٍ واحْتَسِبْ ... وأَمِّـرْ عَلينـا الأشْعَـريَّ لَيـاليَـا

فقال عُثمانُ : نَعم وشُهوراً وسِنينَ إنْ عِشتُ ، وكان الذي صَنعَ أهلُ الكُوفَة بسَعيدٍ أوّلَ وَهَن دخلَ علىٰ عُثمان حين اجتُرِىء عليه[2] .

٥ـ سَرْدٌ تاريخِيّ للفِتَنِ :

قال الذهبيُّ : لا رَيْبَ أنَّ أوَّلَ وَهنٍ على الأُمَّةِ قَتْلُ خَليفَتِها عُثْمانَ صَبْراً رضي الله عنه ، فهاجَت الفِتْنَةُ ، وجَرَت وَقْعَةُ الجَمَلِ بِسَبَبها ، ثمَّ وَقْعَةُ صِفِّين ، وجَرَت سِيُولُ الدِّماءِ في ذلك .

ثمَّ خَرَجَت الخَوَارِجُ ، وكَفَّرَت عُثمانَ وعَليّاً ، وحارَبُوا ، ودامَتْ حُروبُ الخَوارِج سِنينَ عِدَّة .

ثمَّ هاجَتْ المُسَوِّدَةُ بخُراسَانَ ، ومازالُوا حتىٰ قَلَعُوا دَولَةَ بَني أُمَيَّة ، وقامَت الدَّولَةُ الهاشِميَّةُ بعدَ قَتْلِ أُمَمٍ لا يُحْصيهِم إلاَّ اللهُ .

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٨٣ .

(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٨٤ .

ثمَّ اقْتَتَلَ المَنْصُورُ وعَمُّه عبدُ الله ثمَّ خُذِلَ عبدُ الله ، وقُتِلَ أبو مُسْلِم صاحِبُ الدَّعْوَة[1] .

٦ـ رُؤْيا فيها حَثٌّ على البُعدِ عن الفِتَنِ :

عن حُسَيْنِ بنِ خارِجَة الأشْجَعيّ قال : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ رضي الله عنه ، أُشْكِلَتْ عَليَّ الفِتْنَةُ ، فقُلتُ : اللَّهُمَّ أرِني من الحَقِّ أمراً أتَمَسَّكُ به ، فرَأيتُ في النَّومِ الدُّنيا والآخِرةَ بينَهُما حائِطٌ ، فهَبَطتُ الحائِطَ ، فإذا بنَفَرٍ ، فقالوا : نَحنُ المَلائِكَةُ ، قُلتُ : فأيْنَ الشُّهَداءُ ؟ قالوا : اصْعَد الدَّرَجاتِ ، فصَعَدتُ دَرَجَةً ثمَّ أُخْرَىٰ ، فإذا مُحمَّدٌ وإبْراهيمُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِمَا ، وإذا مُحمَّدٌ يقُولُ لإبْراهيمَ : اسْتَغْفِرْ لأُمَّتي ، قال : إنَّكَ لا تَدْري ما أحْدَثوا بَعْدَك ، إنَّهم اهْرَقُوا دِماءَهم ، وقَتَلُوا إمَامَهُم ، ألا فَعَلُوا كمَا فَعَلَ خَليلي سَعدٌ ؟ (يَعني ابنَ أبي وَقَّاص) .

قال : قُلتُ : لقَد رَأيتُ رُؤْيا ، فأتَيْتُ سَعداً فقَصَصْتُها عليه ، فمَا أكْثرَ فَرَحاً ، وقال رضي الله عنه : قد خَابَ مَنْ لَمْ يَكنْ إبْراهيمُ عليه السلام خَليلَه ، قُلتُ : مع أيِّ الطَّائِفَتَينِ أنْتَ ؟ قال رضي الله عنه : ما أنا مع واحدٍ منْهُما ، قُلتُ : فما تَأمُرُني ؟ قال : هَلْ لكَ من غَنَمٍ ؟ قُلتُ : لا ، قال : فاشْتَرِ غَنَماً ، فكُنْ فيها حتىٰ تَنْجَلي[2] .

٧ـ التَّأكدُ قَبلَ الوُلُوجِ في الفِتَنِ :

قال حَفْصُ بنُ غياث : قُلتُ لسُفْيانَ : يا أبا عبدِ الله إنَّ النَّاسَ قد أكْثَروا في المَهْديّ ، فما تَقُولُ فيه ؟ قال : إنْ مَرَّ علىٰ بَابِكَ ، فلا تَكُنْ فيه في شَيءٍ حتىٰ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عليه[3] .

---

(١) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٠٥ .
(٢) انظر السير : (سعد بن أبي وقاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٣١ .
(٣) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٩٧ .

٨ـ ضَابطٌ فيما جَرَىٰ بينَ السَّلَفِ من الفِتَنِ :

عن عليِّ بنِ أبي طَلْحَة مَوْلَىٰ بَني أُمَيَّة قال : حَجَّ مُعَاوِيَةُ ومَعَه مُعَاوِيَةُ بنُ حُدَيْج ، وكان من أسَبِّ النَّاسِ لعَليٍّ رضي الله عنه ، فمَرَّ في المَدينَةِ ، والحَسَنُ جالِسٌ في جَمَاعةٍ من أصْحابِه ، فأتَاهُ رسُولٌ ، فقال : أجِبْ الحَسَن فأتَاهُ فسَلَّمَ عليه ، فقال له : أنْتَ مُعاوِيَةُ بنُ حُدَيْج ؟ قال : نَعَم قال : فأنْتَ السَّابُّ عَليّاً رضي الله عنه ؟ قال : فكَأنَّه اسْتَحْيىٰ فقال : أمَا والله لَئِنْ وَرَدْتَ عَليهِ الحَوضَ ـ وما أرَاكَ تَرِدُه ـ لَتَجِدَنَّه مُشمِّرَ الإزارَ علىٰ ساقٍ ، يَذُودُ عَنه راياتِ المُنافِقِينَ ذَوْدَ غَريبَةِ الإبِلِ ، قَولَ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ : ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[1] .

قال الذهبيُّ تَعْقيباً : كان هـٰذا عُثْمانِيّاً وقد كان بَينَ الطَّائِفَتينِ من أهْلِ صِفِّينَ ما هُو أبْلَغُ من السَّبِّ ، السَّيْفُ ، فإنْ صَحَّ شَيءٌ ، فسَبيلُنا الكَفُّ والاسْتِغْفارُ للصَّحابَةِ ، ولا نُحِبُّ ما شَجَرَ بينَهُم ، ونَعُوذُ باللهِ منهُ ، ونَتولَّىٰ أميرَ المُؤمنِينَ عَليّاً[2] .

وخَلْفُ مُعاوِيَةَ خَلْقٌ كَثيرٌ يُحبُّونَه ويَتَغالُون فيه ويُفَضِّلونَه ، إمَّا قد مَلَكَهُم بالكَرَمِ والحِلْمِ والعَطَاءِ ، وإمَّا قد وُلِدُوا في الشَّامِ علىٰ حُبِّه ، وتَرَبَّىٰ أولادُهم علىٰ ذلك ، وفيهِم جَماعَةٌ يَسيرَةٌ من الصَّحابَةِ ، وعَددٌ كَثيرٌ من التَّابعينَ والفُضَلاءِ ، وحارَبُوا مَعه أهْلَ العِراقِ ، ونَشَؤوا على النَّصَبِ ، نَعُوذُ باللهِ من الهَوَىٰ كما قد نَشَأ جَيْشُ عَليٍّ رضي الله عنه ، ورَعيَّتُه ـ إلاَّ الخَوارِجَ منهُم ـ علىٰ حُبِّه والقِيامِ مَعَه ، وبُغْضِ مَنْ بَغَىٰ عليه والتَّبَرِّي منهم ، وغَلا خَلْقٌ منهُم في التَّشَيُّعِ فبالله كَيفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ نَشَأ في إقْليمٍ ، لا يَكادُ يُشاهِدُ فيه إلا غَالِياً في الحُبِّ ، مُفْرِطاً في البُغْضِ ، ومن أينَ يَقَعُ له الإنْصافُ والاعْتِدالُ ؟!! فنَحْمَدُ الله على العافِيَةِ الذي أوْجَدَنا في زَمانٍ قد انْمَحَضَ فيه الحَقُّ ، واتَّضَحَ من الطَّرَفَيْنِ ، وعَرَفْنا مآخِذَ كُلِّ واحدٍ من الطَّائِفَتَيْن وتَبَصَّرْنا ، فعَذَرْنا ، واسْتَغْفَرْنا ، وأحْبَبْنا باقْتِصَادٍ ، وتَرَحَّمْنا على البُغاةِ بتأويلٍ سائِغٍ في الجُمْلَةِ ، أو بخَطَأٍ إنْ شاءَ اللهُ مَغْفُورٌ ، وقُلنَا كمَا عَلَّمَنا اللهُ : ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة طه ، الآية : ٦١ .

(٢) انظر السير : (معاوية بن حُدَيج) ٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/٣٢٧ .

سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1] ، وترَضَّينا أيضاً عَمَّن اعْتَزَلَ الفَريقَيْنِ ، كسَعْدِ بنِ أبي وَقَّاص ، وابنِ عُمَرَ ، ومُحمَّدِ بنِ مَسْلَمَة ، وسَعيدِ بنِ زَيْد ، وخَلْقٌ وتبَرَّأنا من الخَوَارِجِ المَارِقِينَ الذينَ حارَبُوا عَلِيّاً ، وكَفَّرُوا الفَريقَيْنِ ، فالخَوارِجُ كِلابُ النَّارِ ، قد مَرَقُوا من الدِّينِ ، ومع هٰذا فلا نَقْطَعُ لهُم بخُلُودِ النَّارِ ، كمَا نَقْطَعُ به لعَبَدَةِ الأصْنامِ والصُّلْبان[2] .

ونَقَلَ ابنُ عبدِ البَرّ : أنَّهم لمَّا الْتَمَسُوا من عَائِشَةَ أنْ يُدْفَنَ الحَسَنُ في الحُجْرَةِ ، قالت : نَعَم وكَرامَة ، فرَدَّهم مَرْوانُ ، ولَبِسُوا السِّلاحَ ، فدُفِنَ عندَ أُمِّه بالبَقِيعِ إلىٰ جانِبِها .

أعَاذَنا اللهُ من الفِتَنِ ، ورَضِيَ عن جَميعِ الصَّحابَةِ ، فتَرَضَّ عَنهُم يا شِيعِيُّ تُفْلِحْ ، ولا تَدخُلْ بَينَهم ، فاللهُ حَكَمٌ عَدْلٌ ، يَفْعَلُ فيهِم سَابِقَ عِلْمِه ، ورَحْمَتُه وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ ، وهو القائلُ : « إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي » و﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[3] فنَسألُ اللهَ أنْ يَعْفُوَ عنَّا وأنْ يُثَبِّتَنا بالقَولِ الثَّابِتِ آمين[4] .

وقال نُعَيْمُ بنُ حَمَّاد : سَمعتُ ابنَ المُبارَك يَقُولُ : السَّيْفُ الذي وَقَعَ بينَ الصَّحابَةِ فِتْنَةٌ ، ولا أقُولُ لأحَدٍ منهُم هو مَفْتُونٌ[5] .

٩ـ الفِتْنَةُ تَمنَعُ من الجِهَاد :

قال سَعيدُ بنُ عبد العَزيز : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ ، ووَقَعَ الاخْتِلافُ ، لَمْ يَكُنْ للنَّاسِ غَزْوٌ حتى اجْتَمَعُوا علىٰ مُعاوِيَةَ ، فأغْزاهُم مَرَّاتٍ ، ثمَّ أغْزَى ابنَهُ في جَماعَةٍ من الصَّحابَةِ بَراً وبَحْراً حتىٰ أجَازَ بهم الخَليجَ ، وقاتَلُوا أهْلَ القُسْطَنْطينيَّةَ علىٰ بابِها ، ثمَّ قَفَلَ[6] .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .
(٢) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٤٩ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٣ .
(٤) انظر السير : (الحَسَن بن عليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٨١ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٣٧٨ ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٦٩ .
(٦) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٥٤ .

١٠ـ مَنْ كانَ عِندَهُ أخْبارُ الفِتَنِ :

عن الزُّهْريِّ : أخْبَرَني أبو إدْريس : حُذَيْفَةُ يقُولُ : والله إنِّي لأعْلَمُ النَّاسَ بكُلِّ فِتْنَةٍ هي كائِنَةٌ فيما بَيني وبَينَ السَّاعةِ .

قال حُذَيْفَةُ : كان النَّاسُ يَسْألُونَ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن الخَيْرِ ، وكُنتُ أسْألُه عن الشَّرِّ مَخَافَةَ أنْ يُدْرِكَنِي[1] .

١١ـ فِتَنٌ وَقَعت بين الصَّحابَة رضِي اللهُ عنهُم :

عن علقَمَة بنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثيّ ، قال : لمَّا خَرَجَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ الله ، والزُّبَيْرُ وعائِشَةُ للطَّلَبِ بدَمِ عُثمانَ ، عَرَّجُوا عن مُنْصَرَفِهم بِذاتِ عِرْقٍ ، فاسْتَصْغَرُوا عُروَةَ بنَ الزُّبَيْر ، وأبا بَكْر بنِ عبدِ الرَّحمَـٰنِ فرَدُّوهُما ، قال : ورَأيتُ طَلْحَةَ ، وأَحَبُّ المَجالِسِ إليه أخْلاها ، وهو ضَارِبٌ بلِحْيَتِه علىٰ زَوْره ، فقُلتُ : يا أبا مُحمَّد!! إنِّي أرَاكَ وأَحَبُّ المَجالِسِ إليكَ أخْلاها ، إنْ كُنتَ تَكْرَهُ هـٰذا الأمْرَ فَدَعْه ، فقال : يا علقَمَة!! لا تَلُمْني ، كُنَّا أمْس يداً واحِدَةً علىٰ مَنْ سِوانا ، فأصْبَحْنا اليومَ جَبَلَيْنِ من حَديدٍ ، يَزْحَفُ أحَدُنا إلىٰ صاحِبِه ، ولكِنَّه كان منِّي شَيءٌ في أمْرِ عُثمانَ ، ممَّا لا أرَىٰ كَفَّارَتَه إلاَّ سَفْكُ دَمِي ، وطَلَبُ دَمِه .

قال الذهبيُّ : الذي كان منه في حَقِّ عُثمانَ تَمَغْفلٌ وتَأليبٌ ، فَعَلَه باجْتِهادٍ ، ثمَّ تَغَيَّرَ عندما شَاهَدَ مَصْرَعَ عُثمانَ رضي الله عنه ، فنَدِمَ علىٰ تَرْكِ نُصْرَتِه رَضِيَ الله عَنهُما ، وكان طَلْحَةُ أوَّلَ مَنْ بَايَعَ عَليّاً ، أرْهَقَهُ قَتَلَةُ عُثمانَ ، وأحْضَرُوهُ حتىٰ بَايَعَ[2] .

وعن عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ أبي لَيْلَىٰ قال : انْصَرَفَ الزُّبَيْرُ يومَ الجَمَلِ عن عَليٍّ ، فلَقِيَهُ ابنُهُ عبدُ الله ، فقال : جُبْناً ، جُبْناً!! قال : قد عَلِمَ النَّاسُ أنِّي لَسْتُ بجَبَانٍ ، ولكن ذَكَّرَني عَليٌّ شَيئاً سَمعتُهُ من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فحَلَفْتُ أنْ لا أُقاتِلَه ، ثمَّ قال :

تَرْكُ الأُمُورِ التي أَخْشَىٰ عَوَاقِبَها ... في الله أحْسَنُ في الدُّنيا وفي الدِّينِ

---

(١) انظر السير : (حُذيفة بن اليَمان) ٢/ ٣٦١ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٧/٢٧٥ .

(٢) انظر السير : (طلحة بن عُبيد الله) ١/ ٢٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥ .

وقِيلَ إنَّه أَنْشَدَ :

ولَقَد عَلِمْتُ لَوْ أنَّ عِلْمِي نافِعِي أنَّ الحَيـاةَ مِـنَ المَمَـاتِ قَـرِيـبُ

فلَمْ يَنْشَب أنْ قَتَلَه ابنُ جُرْمُوز .

عن جونِ بنِ قَتَادَة قال : كُنتُ مع الزُّبَيْرِ يومَ الجَمَلِ ، وكانوا يُسَلِّمونَ عليه بالإمْرَةِ ، إلىٰ أنْ قال : فطَعَنَه ابن جُرْمُوزٍ فأثْبَتَه ، فوَقَعَ ، ودُفِنَ بوادِي السِّباعِ ، وجَلَسَ عليٌّ رضي الله عنه ، يَبْكِي عَليهِ هو وأصْحابُه .

عن أبي نَضْرَة قال : جِيءَ برَأسِ الزُّبَيْرِ إلىٰ عَليٍّ فقال عَليٌّ رضي الله عنه : تَبَوَّأ يا أعْرابِيُّ مقعَدَك من النَّار ، حدَّثني رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ قاتِلَ الزُّبَيْرِ في النَّارِ[1] .

وعن عبدِ الله بنِ سَلَمَة قال : رَأيتُ عَمَّاراً يومَ صِفِّينَ شَيخاً آدم ، طُوالاً وإنَّ الحَرْبَةَ في يَدِه لترعُد ، فقال : والذي نَفْسِي بِيَدِه لقَدْ قَاتَلْتُ بها مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثَ مَرَّاتٍ وهـٰذِهِ الرَّابِعَةُ ، ولَوْ قَاتَلُونا حتىٰ يَبْلُغوا بنا سَعْفاتِ هُجَر ، لعَرَفتُ أنَّنا على الحَقِّ ، وأنَّهم على الباطِلِ[2] .

وعن أبي سَعيدٍ قال : أمَرَنا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ببناءِ المَسْجِدِ فجَعلْنا نَنقُلُ لَبِنَةً لَبِنَةً ، وعَمَّارٌ يَنقُلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ ، فتَرِبَ رَأسُه ، فحَدَّثني أصْحابِي ولَمْ أسْمَعْه من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّه جَعَلَ يَنْفُضُ رَأسَه ويَقُولُ : « وَيْحَكَ يا بنَ سُمَيَّة!! تَقْتُلُك الفِئَةُ البَاغِيَةُ » .

وعن خالد الحَذَّاء : عن عِكْرِمَةَ سَمِعَ أبا سَعيدٍ بهـٰذا ولَفْظُهُ : « وَيْحَ ابنَ سُمَيَّةَ!! تَقْتُلُهُ الفِئَةُ الباغِيَةُ ، يَدعُوهُم إلى الجنَّةِ ويَدْعُونَه إلى النَّارِ » فجَعَلَ يقُولُ : أعُوذُ باللهِ من الفِتَنِ[3] .

---

(١) انظر السير : (الزُّبَيْرُ بن العَوّام) ١/ ٤١ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨ .

(٢) انظر السير : (عمَّار بن ياسر) ١/ ٤٠٦ـ ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ١/١٨٤ .

(٣) انظر السير : (عمّار بن ياسر) ١/ ٤٠٦ـ ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٨٥ .

وعن عبدِ الله بنِ زِيادٍ ، قالَ عَمَّارٌ : إنَّ أُمَّنا ـ يَعْنِي عائِشَةَ ـ قد مَضَتْ لِسَبيلِها ، وإنَّها لَزَوْجَتُه في الدُّنيا والآخِرَة ، ولكنَّ اللهَ ابْتَلانَا بها لِيَعْلَمَ إيَّاهُ نُطِيعُ أو إيَّاها[1] ، [2] .

وعن أبي الغادية ، قال : سَمعتُ عَمَّاراً يَقَعُ في عُثمانَ يَشْتُمُه فتَوَعَّدتُه بالقَتْلِ ، فلمَّا كان يومَ صِفِّينَ ، جَعَلَ عَمَّارٌ يَحْمِلُ على النَّاسِ ، فقِيلَ : هـٰذا عَمَّارٌ ، فطَعَنْتُه في رُكْبَتِه ، فوَقَعَ فقَتَلْتُه ، فقِيلَ : قُتِلَ عَمَّارٌ ، وأُخْبِرَ عَمْرُو بنُ العَاصِ ، فقال : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ قَاتِلَهُ وسَالِبَهُ في النَّارِ »[3] .

عن عاصِمِ بنِ كُلَيْبٍ ، عن أبيهِ : قال : انْتَهَيْنا إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه ، فذَكَرَ عائِشَةَ ، فقال : خَليلَةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم .

قال الذهبيُّ : هـٰذا حَديثٌ حَسَن . ومُصْعب فصالحٌ لا بَأسَ به وهـٰذا يقُولُه أميرُ المُؤمِنينَ في حَقِّ عائِشَةَ مع ما وَقَعَ بَينَهُما ، فرَضِيَ الله عنهُما ولا رَيْبَ أنَّ عائِشَةَ نَدِمَتْ نَدامَةً كُلِّيَّة علىٰ مَسِيرِها إلى البَصْرَةِ وحُضُورِها يومَ الجَمَلِ ، وما ظَنَّتْ أنَّ الأمرَ يَبلُغُ ما بَلَغَ[4] .

عن إسْماعيلَ : حدَّثنا قَيسٌ ، قال : لمَّا أقْبَلَتْ عائِشَةُ ، فلمَّا بلَغَتْ مياهَ بني عامِرٍ ليلاً نَبَحَت الكِلابُ ، فقالت : أيُّ ماءٍ هـٰذا ؟ قالوا : ماءُ الحَوْأَبْ قالت : ما أظُنُّني إلاَّ أنَّني راجِعَةٌ قال بعضُ مَنْ كان معها : بَلْ تُقْدِمينَ فيَرَاكِ المُسلِمُونَ ، فيُصْلِحُ الله ذاتَ بَينِهم قالت : إنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال ذاتَ يومٍ : « كيْفَ إحْداكنَّ تَنْبَحُ عَلَيْها كلابُ الحَوْأَبِ » هـٰذا حَديثٌ صَحيحُ الإسْنادِ .

عن صالِحِ بنِ كَيْسان وغَيرِه : أنَّ عائِشَةَ جَعلَتْ تقُولُ : إنَّ عُثمانَ قُتِلَ مَظْلُوماً ، وأنا أدْعوكُم إلى الطَّلَبِ بدَمِه ، وإعادَةِ الأمْرِ شُورَىٰ .

عن ابنِ عَبَّاسٍ ، أنَّه قالَ للزُّبَيْرِ يومَ الجَمَلِ : هـٰذه عائِشَةُ تُمَلِّكُ المُلكَ لقَرابَتِها

---

(١) كان هـٰذا في وقعة الجمل .

(٢) انظر السير : (عمّار بن ياسر) ١/٤٠٦ـ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٥/١٨٥ .

(٣) انظر السير : (عمّار بن ياسر) ١/٤٠٦ـ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٦/١٨٥ .

(٤) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/١٣٥ـ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٤١ .

طَلْحَة ، فأنتَ عَلامَ تُقاتِلُ قَريبَكَ عَليّاً!! فرَجعَ الزُّبَيْرُ ، فلَقِيَهُ ابنُ جُرْمُوزٍ ، فقتَلَه .

قال الذهبيُّ : قد سُقتُ وَقْعَةَ الجَمَلِ مُلَخَّصَةً في مَناقِبِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وإنَّ عَليّاً وَقَفَ علىٰ خِباءِ عائِشَةَ يَلُومُها علىٰ مَسيرِها فقالت : يا ابنَ أبي طَالِب ، مَلَكْتَ فأَسْجِحْ[1] ، فجَهَّزَها إلى المَدينَةِ ، وأعْطَاها اثْنَيْ عَشَرَ ألْفاً فرَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعَنْهَا[2] .

وعن أبي وَائِلٍ : سَمِعَ عَمَّاراً يقُولُ ، حينَ بَعَثَه عَليٌّ إلى الكُوفَة لِيَسْتَنْفِرَ النَّاسَ : إنَّا لَنَعْلَمُ إنَّها لَزَوجَةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في الدُّنيا والآخِرَةِ ، ولكنَّ اللهَ ابتَلاكُم بها ، لِتَتَّبِعُوهُ ، أوْ إيَّاها[3] .

وعن ابنِ عَبَّاسٍ ، قال : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أيَّتُكنَّ صاحِبَةُ الجَمَلِ الأدْبَبِ ، يُقْتَلُ حَوْلَهَا قَتْلَىٰ كثيرٌ ، وتَنْجُو بَعْدَ ما كادَتْ » .

قال ابنُ عبدِ البَرِّ : هـٰذا الحَديثُ من أَعْلامِ النُّبُوَّةِ[4] .

وعن أبي عاصِم الغَطَفانيّ ، قال : كان حُذَيْفَةُ لا يَزالُ يُحَدِّثُ الحَديثَ ، يَسْتَفْظِعُونَه فقِيلَ له : يُوشِكُ أنْ تُحَدِّثَنا : أنَّه يَكُونُ فينا مَسْخٌ!! قال رضي الله عنه : نَعَم : لَيَكُونَنَّ فيكُم مَسْخٌ : قِرَدَةٌ وخَنازِيرَ[5] .

وعن الحَسَنِ : قال : كان الحَكَمانِ : أبا مُوسَىٰ ، وعَمْراً ، وكان أحَدُهما يَبْتَغِي الدُّنيا ، والآخَرُ يَبْتَغِي الآخِرَةَ[6] .

وقال أبو عُبَيْد : كان عبدُ الله بنُ عَمْرو بنِ العاصِ علىٰ مَيْمَنةِ جَيشِ مُعاوِيَةَ يومَ صِفِّين .

عن حَنْظَلَةَ بنِ خُوَيْلِدِ العَنْبَريّ ، قال : بَيْنما أنا عندَ مُعاوِيَةَ إذ جاءَه رجُلانِ

---

(١) أي قدرت فسهِّل العفو ، وهو مَثَلٌ سائر .
(٢) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٤١ .
(٣) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٤٢ .
(٤) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٤٥ .
(٥) انظر السير : (حُذيفة بن اليمان) ٢/ ٣٦١ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٧٦ .
(٦) انظر السير : (أبو موسى الأشْعريّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٨٢ .

يَخْتَصِمانِ في رَأسِ عَمَّارٍ رضي الله عنه ، فقال كُلُّ واحِدٍ منهُما : أنا قَتَلْتُه فقال عبدُ الله بنُ عَمْرو : لِيَطِبْ به أحَدُكُما نَفْساً لِصَاحِبه ، فإنِّي سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ » ، فقال مُعاويَةُ : يا عَمْرُو!! ألا تُغْني عنَّا مَجْنُونَك ، فما بالُكَ مَعَنا!! ؟ قال : إنَّ أبي شَكانِي إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَطِعْ أبَاكَ مادَامَ حَيّاً » فأنا مَعَكُم ، ولَسْتُ أقَاتِلُ ، تُوفِّي عبدُ الله بنُ عَمْرو بمِصْرَ ، ودُفِنَ بدَارِه الصَّغيرَة سَنةَ خَمسٍ وسِتِّين[1] .

وقال الواقِديُّ : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ بَعَثتْ نائِلَةُ بنتُ الفَرافِصَة امْرأتُه إلىٰ مُعاوِيَةَ كِتاباً بما جَرَىٰ ، وبَعَثتْ بقَميصِهِ بالدَّمِ ، فقَرَأَ مُعاوِيَةُ الكِتابَ ، وطَيَّفَ بالقَميصِ في أجْنادِ الشَّام ، وحَرَّضَهُم على الطَّلَبِ بدَمِه ، وأجْمَعَ على المَسِيرِ إلىٰ صِفِّينَ ، وقَصَدَ كُلٌّ منهُما الآخَرَ ، فالْتَقَوْا لِسَبعٍ بَقِينَ من المُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ وثلاثين .

وفي أوَّلِ صَفَرٍ شَبَّت الحَربُ وقُتِلَ خَلْقٌ ، وضَجِرُوا ، فرَفَعَ أهْلُ الشَّامِ المَصاحِفَ ، وقالُوا : نَدْعُوكُم إلىٰ كِتابِ الله والحُكْمِ بما فيه ، وكان ذلك مَكِيدَةً من عَمْرِو بنِ العاصِ ، فاصْطَلَحُوا وكَتَبُوا بَينَهُم كَتاباً علىٰ أنْ يُوافُوا أذْرُح[2] . ويُحَكِّمُوا حَكَمَيْنِ[3] .

قال : فلَمْ يَقَع اتِّفاقٌ ورَجَعَ عَليٌّ إلى الكُوفَةِ بالدَّغَلِ[4] من أصْحابِه والاخْتِلافِ فخَرَجَ منهُم الخَوارِجُ ، وأنْكَرُوا تَحْكِيمَه ، وقالوا : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، ورَجَعَ مُعاوِيَةُ بالأُلْفَةِ والاجْتِماعِ ، وبَايَعَهُ أهْلُ الشَّامِ بالخِلافَةِ في ذي القِعْدَةِ سَنةَ ثَمانٍ وثلاثين .

ثمَّ اسْتُشْهِدَ عَليٌّ في رَمَضَانَ سَنَةَ أرْبَعِينَ وصَالَحَ الحَسَنُ بنُ عَليٍّ مُعاوِيَةَ ، وبَايَعَهُ ، وسُمِّيَ عامَ الجَماعَةِ وحَجَّ بالنَّاسِ سَنَةَ خَمسينَ .

ثمَّ اعْتَمَرَ سَنةَ سِتٍّ وخَمسِينَ في رَجَبَ ، وكان بَينَه وبَينَ الحُسَيْنِ وابنِ عُمَرَ ، وابنِ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عَمرُو بن العاص) ٣/ ٧٩ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٤٠ .
(٢) أَذْرُح : اسم بلد في أطراف الشام من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز .
(٣) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٥٠ .
(٤) الدغل : الفساد .

الزُّبَيْرِ ، وابنِ أبي بَكْرٍ ، كَلامٌ في بَيْعَةِ العَهْدِ لِيَزيدَ ، ثمَّ قال : إنِّي مُتَكَلِّمٌ بكَلامٍ ، فلا تَرُدُّوا عَليَّ أَقْتُلْكُم ، فخَطَبَ ، وأظْهَرَ أنَّهم قد بَايَعُوا ، وسَكَتُوا ولَمْ يُنْكِروا ، ورَحَلَ علىٰ هـٰذا وادَّعَىٰ زِيادٌ أنَّه أخُوهُ فوَلاَّه الكُوفَة بعدَ المُغِيرَة ، فكَتَبَ إليه في حُجْرِ بنِ عَديّ وأصْحابِه ، وحَمَلَهم إليه فقَتَلَهم بمَرْجِ عَذْراء ، ثمَّ ضَمَّ الكُوفَة والبَصْرَة إلىٰ زِيادٍ ، فمَاتَ ، فوَلاهُما ابنَه عُبَيْدَ الله بنَ زِياد[1] .

قال الأوْزاعِيُّ : سَألَ رجلٌ الحَسَنَ البَصْريَّ عن عَليٍّ وعُثمانَ ، فقال : كانت لهـٰذا سَابِقَةٌ ولهـٰذا سَابِقَةٌ ، ولهـٰذا قَرابَةٌ ولهـٰذا قَرابَةٌ ، وابْتُلِيَ هـٰذا ، وعُوفِيَ هـٰذا ، فسَألَه عن عَليٍّ ومُعاويَة ، فقال : كان لهـٰذا قَرابَةٌ ولهـٰذا قَرابَةٌ ولهـٰذا سَابِقَةٌ ولَيْسَ لهـٰذا سَابِقَةٌ ، وابْتُلِيَا جَميعاً[2] .

قال الذهبيُّ : قُتِلَ بَينَ الفَريقَيْنِ نَحْواً من سِتِّينَ ألْفاً وقِيلَ : سَبْعُونَ ألْفاً وقُتِلَ عَمَّارٌ مع عَليٍّ ، وتَبَيَّنَ للنَّاسِ قَولُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم : « تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ »[3] .

وعن أبي أُمَامَةَ ، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لِنسائِه : « لا تُبَكُّوا هـٰذا » يَعني حُسَيْناً ، فكان يومُ أُمِّ سَلَمَة ، فنَزَلَ جِبْريلُ ، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لأُمِّ سَلَمَة : لا تَدَعِي أحَداً يَدخُلُ فجَاءَ حُسَيْنٌ ، فبَكَىٰ ، فخَلَّتْه يَدخُلُ ، فدَخَلَ حتىٰ جَلَسَ في حِجْرِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال جِبْريلُ : إنَّ أُمَّتَكَ سَتَقْتُلُه قال صلى الله عليه وسلم : « يَقْتُلُونَه وهُم مُؤمِنُون!! ؟ » قال : نَعَم ، وأَرَاهُ تُرْبَتَه[4] .

بَلَغَنا أنَّ الحُسَيْنَ لَمْ يُعْجِبْه ما عَمِلَ أخُوهُ الحَسَنُ من تَسْلِيمِ الخِلافَةِ إلىٰ مُعاويَةَ ، بَلْ كان رَأيُه القِتالُ ، ولكنَّه كَظَمَ ، وأطَاعَ أخَاهُ ، وبايَعَ وكان يَقْبَلُ جَوائِزَ مُعاويَةَ ، ومُعاويَةُ يَرَىٰ له ، ويَحْتَرِمُه ، ويُجِلُّه فلمَّا أنْ فَعَلَ مُعاويَةُ ما فَعَلَ بعدَ وَفاةِ السَّيِّدِ الحَسَنِ

---

(١) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٥١ .
(٢) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٥١ .
(٣) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٥١ .
(٤) انظر السير : (الحُسينُ الشهيد) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣٨٢ .

من العَهْدِ بالخِلافَةِ إلىٰ وَلَدِه يَزيدَ تَألَّمَ الحُسَيْنُ ، وحُقَّ له وامْتَنَعَ هو وابنُ أبي بَكْرٍ وابنُ الزُّبَيْرِ من المُبايَعَةِ ، حتّىٰ قَهَرَهُم مُعاويَةُ ، وأخَذَ بَيْعَتَهُم مُكْرَهينَ ، وغُلِبُوا ، وعَجَزوا عن سُلطَانِ الوَقْتِ فلمَّا مات مُعاويَةُ ، تَسَلَّمَ الخِلافَةَ يَزيدُ وبايَعَهُ أكْثَرُ النَّاسِ ، ولَمْ يُبايِع له ابنُ الزُّبَيْرِ ولا الحُسَيْنُ ، وأنِفُوا من ذلكَ ورَامَ كُلُّ واحِدٍ منهُما الأمْرَ لنَفْسِه ، وسَارُوا في اللَّيلِ من المَدينَةِ إلىٰ مَكّةَ ، ونَزَلَ الحُسَيْنُ بمَكّةَ دَارَ العَبَّاسِ ، ولَزِمَ عبدُ الله الحِجْرَ ، وجَعَلَ يُحَرِّضُ علىٰ بَني أُمَيَّة ، وكان يَغْدُو ويَرُوحُ إلى الحُسَيْنِ ، ويُشِيرُ عليه أنْ يَقْدُمَ العِراقَ ويَقُولُ : هم شِيْعَتُكم وكان ابنُ عَبَّاسٍ يَنْهاهُ وقال له أبو سَعيدٍ : اتَّقِ اللهَ والْزَمْ بَيْتَكَ وكَلَّمَه جَابِرُ ، وأبُو وَاقِدٍ اللَّيْثيّ .

وأبَى الحُسَيْنُ علىٰ كُلِّ مَنْ أشَارَ عليهِ إلاَّ المَسِيرَ إلى العِراقِ .

ورَوى ابنُ سَعدٍ بأسانِيدِه : قالُوا : وأخَذَ الحُسَيْنُ طَريقَ العُذَيْبِ[1] حتىٰ نَزَلَ قَصْرَ أبي مُقاتِلٍ[2] ، فخَفَقَ خَفْقَةً ، ثمَّ اسْتَرْجَعَ ، وقال : رَأيتُ كأنَّ فارِساً يُسَايِرُنا ، ويقُولُ : القَومُ يَسيرُونَ ، والمَنايَا تَسْري إليهِم ، ثمَّ نَزَلَ كَرْبلاءَ ، فسَارَ إليه عُمَرُ بنُ سَعدٍ كالمُكْرَه إلىٰ أنْ قالَ : وقُتِلَ أصْحابُه حَوْلَهُ ، وكانوا خَمْسينَ ، وتَحَوَّلَ إليه من أُولئِكَ عِشْرُونَ ، وبَقِيَ عَامَّةُ نَهَارِه لا يَقْدُمُ عليه أحَدٌ ، وأحَاطَتْ به الرَّجَّالَةُ ، وكان يَشُدُّ عليهِم ، فيَهْزِمُهُم وهم يَكْرَهُونَ الإقْدَامَ عليهِ ، فصَرَخَ بهم شِمْر! ثَكِلَتْكُم أُمَّهاتِكُم ، ماذا تَنْتَظِرُون به ؟ وطَعَنَه سِنانُ بنُ أنَسٍ النَّخْعِيّ في تُرْقُوَتِه ، ثمَّ طَعَنَه في صَدْرِه فخَرَّ واحْتَزَّ رَأسَه خوليٌّ الأَصْبحيّ لا رَضِيَ الله عنهُما .

قال : ووُجِدَ بالحُسَيْنِ ثلاثٌ وثلاثُونَ جِراحَة .

ولَمْ يُفْلِتْ من أهْلِ بَيْتِ الحُسَيْنِ سِوىٰ وَلَدِه عَليٍّ الأصْغَر ، فالحُسَيْنيَّةُ من ذُرِّيَتِه ، كان مَرِيضاً ، وحَسَنِ بنِ حَسَنِ بنِ عَليّ ـ وله ذُرِّيَّةٌ ـ وأخيه عَمْرُو ، ولا عَقِبَ له ،

---

(١) قال ياقوت : العُذيب : ماءٌ بين القادسية والمغيثة .

(٢) في الطبريّ ٥/٤٠٧ ، وابن الأثير ٤/٥٠ : قصر بني مقاتل ، قال ياقوت في « معجم البلدان » ٤/٣٦٤ : وقصر مقاتل : كان بين عين التمر والشام وقال السكوني : هو قرب القطقطانة وسلم ثم القريّات منسوب إلىٰ مقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس .

والقَاسِمِ بنِ عبدِ الله بنِ جَعْفَر ، ومُحمَّدِ بنِ عَقيل ، فقَدِمَ بهم وبزَيْنَبَ وفاطِمَة بِنْتَي عَليّ ، وفاطِمَة وسُكَيْنَة بِنْتَي الحُسَيْنِ ، وزَوجَتِه الرَّباب الكَلْبيَّة والِدَةِ سُكَيْنَة ، وأُمِّ مُحمَّد بِنْتِ الحَسَنِ بنِ عَليّ ، وعَبيدٍ وإماءٍ لهم .

ووَرَدَ البَشيرُ علىٰ يَزيدَ ، فلمَّا أخْبَرَه ، دَمِعَتْ عَيْناهُ ، وقال : كُنتُ أرْضَىٰ من طاعَتِكُم بدُونِ قَتْلِ الحُسَيْنِ وقالت سُكَيْنَةُ : يا يَزيدُ ، أبَنَاتُ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَبايَا!! ؟ ، قال : يا بِنْتَ أخِي هُوَ واللهِ عليَّ أشَدُّ منه عَليكِ ، أقْسَمتُ ولَوْ أنَّ بَينَ ابنَ زِيادٍ وبَينَ حُسَيْنٍ قَرابَةٌ ما أقْدَمَ عَليهِ ، ولكنْ فَرَّقتْ بَينَه وبَينَه سُمَيَّة ، فرَحِمَ اللهُ حُسَيْناً ، عَجَّلَ عليه ابنُ زيادٍ ، أما واللهِ لَوْ كُنتُ صَاحِبَه ثمَّ لَمْ أقْدِرْ علىٰ دَفْعِ القَتْلِ عنه إلاَّ بنَقْصِ بَعضِ عُمْري ، لأَحْبَبْتُ أنْ أدْفَعَه عنه ولَوَدِدْتُ أنْ أُتِيتُ به سِلْماً .

ثمَّ أقْبَلَ علىٰ عَليِّ بنِ الحُسَيْنِ ، فقال : أبُوكَ قَطَعَ رَحِمي ، ونَازَعَني سُلطَانِي فقَامَ رَجلٌ ، فقال : إنَّ سِباءَهُم لنا حَلالٌ قال عَليٌّ : كَذَبْتَ إلاَّ أنْ تَخْرُجَ من مِلَّتِنَا فأطْرَقَ يَزيدُ ، وأمَرَ بالنِّسَاءِ ، فأُدْخِلْنَ علىٰ نِسائِهِ وأمَرَ نِسَاءَ آلِ أبِي سُفْيَانَ ، فأقَمْنَ المَأْتَمَ على الحُسَيْنِ ثَلاثَةَ أيَّام ، إلىٰ أنْ قال : وبَكَتْ أُمُّ كُلثُوم بِنْتُ عبدِ اللهِ ابنِ عامِرٍ ، فقَالَ يَزيدُ وهو زَوْجُها : حُقَّ لها أنْ تَعُولَ علىٰ كَبيرِ قُرَيْشٍ وسَيِّدِها فجَهَّزَهُم وحَمَلَهم إلى المَدينَةِ .

عن ابنِ عَبَّاسٍ قالَ : رَأيتُ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ نِصْفَ النَّهَارِ ، أشْعَثَ أغْبَرَ ، وبِيَدِهِ قارُورَةٌ فيها دَمٌ قُلتُ : يا رسُولَ اللهِ ، ما هَـٰذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « هـٰذا دَمُ الحُسَيْنِ وأصْحابِه ، لَمْ أزَلْ مُنْذُ اليَومِ ألْتَقِطُهُ » فأُحْصِيَ ذَلكَ اليَومُ فوَجَدُوهُ قُتِلَ يَومَئذٍ رضي الله عنه[1] .

وقال الذهبيُّ في تَرْجَمَةِ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ بنِ أبي العاصِ ، المَلكُ أبو عبدِ المَلكِ القُرَشِيُّ الأُمَوِيُّ .

مَوْلِدُه بمَكَّةَ ، وهو أصْغَرُ من ابنِ الزُّبَيْرِ بأرْبَعَةِ أشْهُر وقِيلَ : له رُؤْيَة ، وذلك مُحْتَمَلٌ .

---

(١) انظر السير : (الحُسينُ الشهيد) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٣٨٢ ـ ٣٨٤ .

وكان كاتِبَ ابنِ عمِّه عُثمانَ ، وإليه الخاتَم ، فخَانَه ، وأجْلَبُوا بسَبَبه علىٰ عُثمانَ ، ثمَّ نَجَا هو ، وسَارَ مع طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ للطَّلَبِ بدَمِ عُثمانَ فقَتَلَ طَلْحَةَ يومَ الجَمَلِ ، ونَجَا ـ لا نُجِّيَ ـ ثمَّ وَلي المدينةَ غيرَ مرةٍ لمُعاوِيَة .

وكان أبُوه قد طَرَدَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى الطَّائِفِ ، ثمَّ أقْدَمَه عُثمانُ إلى المَدينَةِ لأنَّه عمُّه ولمَّا هَلَكَ ولَدُ يَزيد ، أقْبَلَ مَرْوانُ ، وانْضَمَّ إليه بَنُو أُمَيَّة وغَيرُهم ، وحارَبَ الضَّحَّاكَ الفِهْريَّ ، فقَتَلَه ، وأخَذَ دِمَشْقَ ، ثمَّ مِصْرَ ودَعَا بالخِلافَةِ .

وكان ذا شَهامَةٍ ، وشَجَاعَةٍ ، ومَكْرٍ ، ودَهَاءٍ ، أحْمَرَ الوَجْهِ[1] .

١٢ـ فِتْنَةُ الحَرَّة :

دَخَلَ أبو سَعيدٍ الخُدْريّ يومَ الحَرَّةِ غَاراً ، فدَخَلَ عليه فيه رَجُلٌ ، ثمَّ خَرَجَ فقال لرَجُلٍ من أهْلِ الشَّام : أدُلُّكَ علىٰ رَجُلٍ تَقْتُلُه ؟ فلمَّا انتَهَى الشَّاميُّ إلىٰ بَابِ الغَارِ ، وفي عُنُقِ أبي سَعيدٍ السَّيفُ ، قال لأبي سَعيدٍ : أُخْرُجْ ، قال : لا أخْرُجُ وإنْ تَدخُلْ أقْتُلْكَ ، فدَخَلَ الشَّاميُّ عليه ، فوَضَعَ أبو سَعيدٍ السَّيْفَ ، وقال : بُؤْ بإثْمي وإثْمِكَ ، وكُنْ من أصْحابِ النَّارِ قال : أنْتَ أبو سَعيدٍ الخُدْريّ ؟ قال : نَعَم قال : فاسْتَغْفِرْ لي ، غَفَرَ اللهُ لَكَ[2] .

قال الذهبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الله بنِ حَنْظَلَة : كان عبدُ الله ابنُ حَنْظَلَة رَأسَ الثَّائِرينَ علىٰ يَزيدٍ نَوْبَةَ الحَرَّة .

وَفِدَ في بَنِيهِ الثَّمانِيَةِ علىٰ يَزيدٍ ، فأعْطَاهُم مِئَتَيْ ألْفٍ وخِلْعَاً فلمَّا رَجَعَ ، قال له كُبَرَاءُ المَدينَةِ : ما وَرَاءَك ؟ قال : جِئْتُ من عندِ رَجُلٍ لَوْ لَمْ أجِدْ إلاَّ بَنِيَّ ، لجاهَدْتُه بهم قالوا : إنَّه أكْرَمَكَ وأعْطاكَ قال : وما قَبِلْتُ إلاَّ لأتَقَوَّىٰ به عَليه ، وحَضَّ النَّاسَ ، فبايَعُوهُ ، وأُمِّرَ على الأنْصارِ وأُمِّرَ علىٰ قُرَيشٍ عبدُ الله بنُ مُطيع العَدَويّ ، وعلىٰ باقي المُهاجِرينَ مَعْقِلُ بنُ سِنَانٍ الأشْجَعيّ ، ونَفَوا بَني أُمَيَّة .

---

(١) انظر السير : (مَروان بن الحَكم) ٣/ ٤٧٦ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٤١٢ .

(٢) انظر السير : (أبو سعيد الخُدريّ) ٣/ ١٦٨ـ ١٧٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٦٠ .

فجَهَّزَ يَزيدُ لهم جَيْشاً ، عليهم مُسْلِمُ بنُ عُقْبَة ـ ويُدْعَىٰ مُسْرِفاً ـ المُرِّيّ في اثْنَيّ عَشَر ألْفاً ، فكَلَّمَه عبدُ الله بنُ جَعْفَر في أهْلِ المَدينَةِ ، فقال : دَعْني أشْتَفي ، لكنِّي آمُرُ مُسْلِمَ بنَ عُقْبَة أن يَتَّخِذَ المَدينَةَ طَريقَه إلىٰ مَكّةَ فإنْ هم لَمْ يُحارِبُوه ، وتَرَكُوهُ ، فيَمْضي لحَربِ ابنِ الزُّبَيْرِ ، وإنْ حارَبُوهُ قاتَلَهُم ، فإنْ نُصِرَ ، قَتَلَ ، وأنْهَبَ المَدينَةَ ثَلاثاً ، ثمَّ يَمْضي إلى ابنِ الزُّبَيْرِ .

وكَتَبَ عبدُ الله بنُ جَعْفَر إليهِم ليَكُفُّوا ، فقَدِمَ مُسْلِمٌ ، فحارَبُوهُ ونالُوا من يَزيدَ فأوْقَعَ بهم ، وأنْهَبَهَا ثَلاثاً ، وسَارَ ، فمَاتَ بالشَّلَلِ ، وعَهِدَ إلىٰ حُصَينِ بنِ نُمَيْر في أوَّلِ سَنَةِ أرْبَعٍ وسِتِّينَ ، وذَمَّهُم ابنُ عُمَرَ علىٰ شَقِّ العَصَا .

قال زَيدُ بنُ أَسْلَم : دَخَلَ ابنُ مُطيعٍ على ابنِ عُمَرَ لَيالي الحَرَّة فقال ابنُ عُمَرَ : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « مَنْ نَزَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ لَمْ يَكنْ لَهُ حُجَّةٌ يَومَ القِيَامَةِ » .

قال المَدائِنيُّ : تَوَجَّهَ إليهِم مُسْلِمُ بنُ عُقْبَة في اثْنيّ عَشَر ألْفاً وأنْفَقَ فيهم يَزيدُ في الرَّجُلِ أرْبَعينَ ديناراً فقال له النُّعْمانُ بنُ بَشِير : وَجِّهْني أكْفِكَ قال : لا ، لَيسَ لهُم إلاَّ هـٰذا الغُشْمة ، والله لا أُقِيلُهُم بعدَ إحْسَاني إليهِم وعَفْوي عنهُم مَرَّةً بعدَ مَرَّة ، فقال : أنْشُدُكَ اللهَ يا أميرِ المُؤمِنينَ في عَشيرَتِكَ ، وأنْصارِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وكَلَّمَه عبدُ الله بنُ جَعْفَر ، فقال : إنْ رَجَعُوا ، فلا سَبيلَ عليهِم ، فادْعُهُم يا مُسْلِمُ ثلاثاً ، وامْضِ إلى المُلْحِدِ ابنِ الزُّبَيْرِ ، قال : واسْتَوْصِ بعَليٍّ ابنِ الحُسَيْنِ خَيراً .

عن الحَسَنِ ، قال : والله ما كَادَ يَنْجُو منهُم أحَدٌ ، لقد قُتِلَ وَلَدَا زَيْنَب بنْتِ أُمِّ سَلَمَة .

قال مُغيرَةُ بنُ مِقْسَم : أنْهَبَ مُسْرِفُ بنُ عُقْبَة المَدينَةَ ثلاثاً ، وافْتُضَّ بها ألْفُ عَذْراء .

قال السَّائِبُ بنُ خَلاَّد : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « مَنْ أَخَافَ أهْلَ المَدينَةِ ، أخَافَهُ اللهُ ، وعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ »[1] .

---

(١) وتمامه : « والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أجْمَعِين ، لا يَقْبَلُ اللهُ منْهُ يَومَ القِيامَةِ صَرْفاً ولا عَدْلاً » .

قال خَليفَةُ : أُصِيبَ من قُرَيشٍ والأنْصارِ يَومَئذٍ ثلاثَ مِئَةٍ وسِتَّة رجالٍ ثم سَمَّاهُم .

وعن أبي جَعْفَرٍ البَاقِرِ ، قال : ما خَرَجَ فيها أحَدٌ من بَنِي عبدِ المُطَّلِبِ ، لَزِمُوا بُيُوتَهُم ، وسَألَ مُسْرِفٌ عن أبي ، فجاءَه ومعه ابنا مُحمَّد بنِ الحَنَفيَّة فرَحَّبَ بأبي ، وأَوْسَعَ له ، وقال : إنَّ أميرَ المُؤمِنينَ أوْصاني بِكَ .

كانت الوَقْعَةُ لثلاثٍ بَقِينَ من ذي الحِجَّة سَنةَ ثلاثٍ وسِتِّين وأُصيبَ يومئذٍ عبدُ الله بنُ يَزيد بنِ عاصِمٍ حاكِي وُضُوءَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومَعْقِلُ بنُ سِنان ومُحمَّدُ بنُ أُبَيّ بنِ كَعْب ، وعِدَّةٌ من أوْلادِ كُبَراءِ الصَّحابَةِ ، وقُتِلَ جَماعَةٌ صَبراً .

وعن مالكِ بنِ أَنَسٍ ، قال : قُتِلَ يومَ الحَرَّةِ من حَمَلَةِ القُرآنِ سَبْعُ مِئَةٍ .

قال الذهبيُّ : فلمَّا جَرَتْ هٰذه الكائِنَةُ ، اشْتدَّ بُغْضُ النَّاسِ لِيَزيدَ مع فِعْلِهِ بالحُسَيْنِ رضي الله عنه وآلِهِ ، ومع قِلَّةِ دِينِه ، فخَرَجَ عليه أبُو بِلال مِرْداسُ ابنُ أُديّةَ الحَنْظَليّ وخَرَجَ نافِعُ بنُ الأزْرَق ، وخَرَجَ طَوَّافُ السّدوسيّ ، فما أمْهَلَهُ الله ، وهَلَكَ بعدَ نَيِّفٍ وسَبعينَ يوماً[1] .

١٣ـ كراهِيَةُ الفِتَنِ والتَّحْذيرِ منْها :

وعن عبدِ الرَّحمَٰنِ بنِ أبي لَيْلَىٰ قال : انْصَرَفَ الزُّبَيْرُ يومَ الجَمَلِ عن عَليٍّ ، فلَقِيَهُ ابنُهُ عبدُ الله ، فقال : جُبْناً ، جُبْناً!! قال : قد عَلِمَ النَّاسُ أنِّي لَسْتُ بجَبَانٍ ، ولكن ذَكَّرَني عَليٌّ شَيئاً سَمعتُهُ من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فحَلَفْتُ أنْ لا أُقاتِلَه ، ثمَّ قال :

تَرْكُ الأُمُورِ التي أَخْشَىٰ عَوَاقِبَها ... في الله أحْسَنُ في الدُّنيا وفي الدِّينِ

وقِيلَ إنَّه أَنْشَدَ :

ولَقَد عَلِمْتُ لَوْ أنَّ عِلْمِي نافِعِي ... أنَّ الحَيـاةَ مِـنَ المَمَـاتِ قَـرِيـبُ

فلَمْ يَنْشَب أنْ قَتَلَه ابنُ جُرْمُوز .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن حنظلة) ٣/ ٣٢١ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ٣٨٦/ ١ .

عن جونِ بنِ قَتَادَة قال : كُنتُ مع الزُّبَيْرِ يومَ الجَمَلِ ، وكانوا يُسَلِّمونَ عليه بالإمْرَةِ ، إلىٰ أنْ قال : فطَعَنَه ابن جُرْمُوزٍ فأثْبَتَه ، فوَقَعَ ، ودُفِنَ بوادِي السِّباعِ ، وجَلَسَ عليٌّ رضي الله عنه ، يَبْكِي عَليهِ هو وأصْحابُه .

عن أبي نَضْرَة قال : جِيءَ برَأسِ الزُّبَيْرِ إلىٰ عَليٍّ فقال عَليٌّ رضي الله عنه : تَبَوَّأ يا أعْرابِيُّ مقعَدَكَ من النَّار ، حدَّثني رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ قاتِلَ الزُّبَيْرِ في النَّارِ[1] .

وعن عامِرِ بنِ سَعدٍ أنَّ أبَاهُ سَعداً كان في غَنَمٍ له ، فجاءَ ابنُه عُمَرُ ، فلمَّا رَآهُ قال : أعُوذُ بالله من شَرِّ هٰذا الرَّاكِبِ ، فلمَّا انتَهَىٰ إليهِ ، قال : يا أَبَتِ أرَضيتَ أنْ تَكُونَ أعْرابيّاً في غَنَمِك ، والنَّاسُ يَتَنازَعُونَ في المُلكِ بالمَدينَةِ!! ؟ ، فضَرَبَ صَدرَ عُمَرَ ، وقال : اسْكُتْ فإنِّي سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِي »[2] .

عن حُسَيْنِ بنِ خارِجَة الأشْجَعيّ قال : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ رضي الله عنه ، أُشْكِلَتْ عَليَّ الفِتْنَةُ ، فقُلتُ : اللَّهُمَّ أرِني من الحَقِّ أمراً أتَمَسَّكُ به ، فرَأيتُ في النَّومِ الدُّنيا والآخِرةَ بينَهُما حائِطٌ ، فهَبَطتُ الحائِطَ ، فإذا بنَفَرٍ ، فقالوا : نَحنُ المَلائِكَةُ ، قُلتُ : فأيْنَ الشُّهَداءِ ؟ قالوا : اصْعَد الدَّرَجاتِ ، فصَعَدتُ دَرَجَةً ثمَّ أُخْرَىٰ ، فإذا مُحمَّدٌ وإبْراهيمُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِمَا ، وإذا مُحمَّدٌ يقُولُ لإبْراهيمَ : اسْتَغْفِرْ لأُمَّتي ، قال : إنَّكَ لا تَدْري ما أحْدَثوا بَعْدَكَ ، إنَّهم أهْرَقُوا دَماءَهم ، وقَتَلُوا إمَامَهُم ، ألا فَعَلُوا كمَا فَعَلَ خَليلي سَعدٌ ؟ (يَعني ابنَ أبي وَقَّاص) .

قال : قُلتُ : لقَد رَأيتُ رُؤْيا ، فأتَيْتُ سَعداً فقَصَصْتُها عليه ، فمَا أكْثرَ فَرَحاً ، وقال رضي الله عنه : قد خَابَ مَنْ لَمْ يَكنْ إبْراهيمُ عليه السلام خَليلُه ، قُلتُ : مع أيِّ الطَّائِفَتَينِ أنْتَ ؟ قال رضي الله عنه : ما أنا مع واحِدٍ منْهُما ، قُلتُ : فما تَأمُرُني ؟

---

(١) انظر السير : (الزُّبَيْرُ بن العَوّام) ١/ ٤١ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨ .

(٢) انظر السير : (سعد بن أبي وقّاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤ .

قال : هَلْ لكَ من غَنَمٍ ؟ قُلتُ : لا ، قال : فاشْتَرِ غَنَماً ، فكُنْ فيها حتىٰ تَنْجَلي[1] .

وعن أبي سَعيدٍ قال : أمَرَنا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ببناءِ المَسْجِدِ فجَعلْنا نَنقُلُ لَبِنَةً لَبِنَةً ، وعَمَّارُ يَنقُلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ ، فتَرِبَ رَأسُه ، فحَدَّثني أصْحابِي ولَمْ أسْمَعْه من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّه جَعَلَ يَنْفُضُ رَأسَه ويَقُولُ : « وَيْحَك يا ابنَ سُمَيَّة!! تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ » .

وعن خالد الحَذَّاء : عن عِكْرِمَةَ سَمِعَ أبا سَعيدٍ بهـٰذا ولَفْظُهُ : « وَيْحَ ابنَ سُمَيَّةَ!! تَقْتُلُهُ الفِئَةُ الباغِيَةُ ، يَدعُوهُم إلى الجنَّةِ ويَدْعُونَه إلى النَّار » فجَعَلَ يقُولُ : « أعُوذُ باللهِ من الفِتَنِ »[2] .

وعن حَيَّان أبي سَعيدٍ التَّيْميّ ، قال : حَذَّرَ الأشْعَثُ من الفِتَنِ فقِيلَ له : خَرَجْتَ مع عَليٍّ! فقال : ومَنْ لَكَ إمامٌ مِثلُ عَليّ[3] .

وقال وَكيعٌ : سَلِمَ من الفِتْنَةِ من المَعروفينَ : سَعدٌ ، وابنُ عُمَرَ ، وأُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ ، ومُحمَّدُ بنُ مَسْلَمَة .

قال الذهبيُّ : انْتَفَعَ أُسامَةُ من يومِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، إذ يقُولُ له : « كيْفَ[4] بِلا إلَـٰهَ إلاَّ الله يا أُسَامَة!! ؟ » ، فكَفَّ يَدَهُ ، ولَزِمَ مَنْزِلَه ، فأحْسَنَ[5] .

وعن الزُّهْريِّ ، قال : لَقِيَ عَليٌّ أُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ ، فقال : ما كُنَّا نَعُدُّكَ إلاَّ من أنْفُسِنا يا أُسامَةُ ، فلِمَ لا تَدْخُلُ مَعَنا ؟ قال : يا أبا حَسَن ، إنَّكَ والله لَوْ أخَذْتَ بمشْفرِ

---

(١) انظر السير : (سعد بن أبي وقّاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٦ .

(٢) انظر السير : (عمَّار بن ياسر) ١/ ٤٠٦ـ ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٨٥ .

(٣) انظر السير : (الأشعث بن قيس) ٢/ ٣٧ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢١٥ .

(٤) أخرجه مسلم (٩٧) في الإيمان : باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لا إلـٰه إلاَّ الله ، وفيه أن أسامةَ بن زيد قَتَلَ رجلاً من المشركين بعد أن قال : لا إلـٰه إلاَّ الله ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لِمَ قَتَلْتَه ؟ » قال يا رسُولَ الله ، أوجَعَ في المُسلمين ، وقَتَلَ فُلاناً وفُلاناً ، وسَمَّيُ له نَفَراً ، وإنِّي حَمَلتُ عليه ، فلمَّا رَأى السَّيفَ قال : لا إلـٰه إلاَّ الله ، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أقَتَلْتَهُ!! ؟ » قال : نَعَم ، قال صلى الله عليه وسلم : « فكيْفَ تَصْنَعُ بِلا إلَـٰهَ إلاَّ الله إذا جاءَتْ يومَ القِيامَةِ!! ؟ » ، قال : يا رسُولَ الله ، اسْتَغْفِرْ لي .

(٥) انظر السير : (أسامة بن زيد) ٢/ ٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢٩٦ .

الأسَدِ ، لأخَذْتُ بمشْفرِهِ الآخَرِ مَعَكَ ، حتىٰ نَهْلَكَ جَميعاً ، أوْ نَحْيا جَميعاً ، فأمَّا هـٰذا الأمْرُ الذي أنْتَ فيه ، فو اللهِ لا أدْخُلُ فيه أبَداً .

مات أسامَةُ بالجرفِ[1] .

وعن المَقْبُريِّ ، قال : شَهِدْتُ جَنازَةَ أسامَة ، فقال ابنُ عُمَر : عَجِّلُوا بِحِبِّ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أنْ تَطْلُعَ الشَّمسُ ، ماتَ أسامَةُ في آخِرِ خِلافَةِ مُعاوِيَة[2] .

وقال أبو عُبَيْد : كان عبدُ الله بنُ عَمْرو بنِ العاصِ علىٰ مَيْمَنةِ جَيشِ مُعاوِيَةَ يومَ صِفِّين .

عن حَنْظَلَةَ بنِ خُوَيْلِدٍ العَنْبَريّ ، قال : بَيْنما أنا عندَ مُعاوِيَةَ إذ جاءَه رجُلانِ يَخْتَصِمانِ في رَأسِ عَمَّارٍ رضي الله عنه ، فقال كُلُّ واحِدٍ منهُما : أنا قَتَلْتُه فقال عبدُ الله بنُ عَمْرو : لِيَطِبْ به أحَدُكُما نَفْساً لِصَاحِبِه ، فإنِّي سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ » ، فقال مُعاوِيَةُ : يا عَمْرُو!! ألا تُغْني عنَّا مَجْنُونَك ، فما بالُكَ مَعَنا!! ؟ قال : إنَّ أبي شَكانِي إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَطِعْ أبَاكَ ما دَامَ حَيّاً » فأنا مَعَكُم ، ولَسْتُ أقَاتِلُ ، تُوفِّي عبدُ الله بنُ عَمْرو بمِصْرَ ، ودُفِنَ بدَارِه الصَّغيرَة سَنةَ خَمسٍ وسِتِّين[3] .

وقال ابنُ شَوْذَب : سَارَ الحَسَنُ يَطْلُبُ الشَّامَ ، وأقْبَلَ مُعاوِيَةُ في أهْلِ الشَّامِ فالْتَقَوا ، فكَرِهَ الحَسَنُ القِتالَ ، وبايَعَ علىٰ أنْ جَعَلَ له العَهْدَ بالخلافَةِ مِنْ بَعدِه ، فكان أصْحابُ الحَسَنِ يقُولونَ له : يا عَارَ المُؤمِنينَ ، فيقُولُ : العَارُ خَيرٌ من النَّارِ

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الحَسَنِ : « إنَّ ابْني هـٰذا سَيِّدٌ وسَيُصْلِحُ اللهُ به بَينَ فِئَتَيْنِ عَظيمَتَيْنِ من المُسلمينَ » ، ثمَّ إنَّ مُعاوِيَةَ أجَابَ إلى الصُّلْحِ ، وسُرَّ بذَلِكَ ودَخَلَ

---

(١) موضع علىٰ ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

(٢) انظر السير : (أسامة بن زيد) ٢/ ٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢٩٧ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن عَمرُو بن العاص) ٣/ ٧٩ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٤٠ .

هُوَ والحَسَنُ الكُوفَةَ رَاكِبَيْنِ ، وتَسَلَّمَ مُعاويَةُ الخِلافَةَ في آخِرِ رَبيعٍ وسُمِّيَ عَامَ الجَماعَةِ لاجْتِماعِهِم علىٰ إمامٍ ، وهو عامُ أحَدٍ وأرْبَعينَ[1] .

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه قال : دَخَلتُ علىٰ حَفْصَة ونَوْساتُها تَنْطُفُ فقُلتُ : قد كان من النَّاسِ ما تَرَيْنَ ، ولَمْ يُجعَلْ لي من الأمرِ شيءٌ ، قالت : فالْحَقْ بهِم فإنَّهم يَنْتَظِرُونَك ، وإنِّي أخْشَىٰ أنْ يَكُونَ في احْتِباسِكَ عنهم فُرْقَةٌ فلَمْ يَرْعَهُ حتىٰ ذَهَبَ قال : فلمَّا تَفَرَّقَ الحَكَمَانِ ، خَطَبَ مُعاويَةُ ، فقال : مَنْ كان يُريدُ أنْ يَتَكَلَّمَ في هٰذا الأمرِ ، فليُطلعْ إليَّ قَرْنَه ، فنحنُ أحَقُّ بذلِكَ منهُ ومن أبيهِ ، يُعَرِّضُ بابنِ عُمَر[2] .

عن الشَّعبيِّ ، قال : كان مَسْروقٌ إذا قِيلَ له : أبْطَأتَ عن عَليٍّ وعن مَشَاهِدِه ، فيَقُولُ : أرَأيْتُم لَوْ أنَّه حين صَفَّ بَعضُكُم لبَعضٍ فنزَلَ بَيْنَكُم مَلَكٌ فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[3] أكانَ ذلكَ حَاجِزاً لكُم ؟

قالوا : نَعَم قال : فوَاللهِ لقَدْ نزَلَ بها مَلَكٌ كَريمٌ علىٰ لِسانِ نَبِيِّكُم ، وإنَّها لمُحْكَمَةٌ ما نَسَخَها شيء[4] .

وعن أبي عَقيلٍ بَشيرِ بنِ عُقْبَة قال : قُلتُ لِيَزيدَ بنِ الشِّخِّير : ما كانَ مُطَرِّفٌ يَصْنَعُ إذا هاجَ النَّاسُ ؟ ، قال : يَلْزَمُ قَعْرَ بَيتِه ، ولا يَقْرَبُ لهم جُمُعَةً ولا جَمَاعَةً حتىٰ تَنْجَلي[5] .

قال مُطَرِّفُ : لأَنْ آخُذَ بالثِّقَةِ في القُعُودِ أحَبُّ إليَّ منْ أنْ أَلْتَمِسَ فَضْلَ الجِهادِ بالتَّغْريرِ[6] .

وقال أبو العاليَة : لمَّا كان زَمانُ عَليٍّ ومُعاويَة ، وإنِّي لشَابٌّ القِتالُ أحَبُّ إليَّ من

---

(١) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣٥٢ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٧/٣٧٠ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٢٩ .
(٤) انظر السير : (مَسروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٤٦ .
(٥) انظر السير : (مُطرّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٩/٤٧٥ .
(٦) انظر السير : (مُطرّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ١٠/٤٧٥ .

الطَّعَامِ الطَّيِّبْ ، فتَجَهَّزْتُ بجَهَازٍ حَسَنٍ حتىٰ أَتَيْتُهُم ، فإذا صَفَّانِ ما يُرَىٰ طَرَفاهُما ، إذا كَبَّرَ هـٰؤلاء ، كَبَّرَ هـٰؤلاء ، وإذا هَلَّلَ هـٰؤلاء ، هَلَّلَ هـٰؤلاء .

فراجَعْتُ نَفْسِي ، فقُلتُ : أيُّ الفَريقَيْنِ أُنْزِلُهُ كافِراً!! ؟ ، ومَنْ أَكْرَهَني علىٰ هـٰذا ؟ ، قال : فما أَمْسَيْتُ حتىٰ رَجَعْتُ وتَرَكْتُهُم[1] .

وقال : شُعْبَةُ بنُ الحَجَّاجِ : سَمعتُ الحَسَنَ البَصْريّ يقُولُ في فِتْنَةِ يَزيدِ بنِ المُهَلَّبِ : هـٰذا عَدُوُّ اللهِ يَزيدُ بنُ المُهَلَّبِ ، كُلَّما نَعَقَ بهم ناعِقٌ اتَّبَعُوهُ[2] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو العالية) ٤/ ٢٠٧ـ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧٩ .

(٢) انظر السير : (يَزيدُ بن المُهلّب) ٤/ ٥٠٣ـ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ٨/٥٤٥ .

الإسْلام

١ـ الإسْلامُ دينُ يُسْرٍ وسَماحَةٍ لا تَشْديدَ فيه ولا تَنْفير :

عن ابنِ مَسْعُودٍ سَمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « ما خُيِّرَ ابنُ سُمَيَّةَ بَينَ أَمْرَيْنِ إلاَّ اخْتارَ أيْسَرَهُما »[١] .

وعن سَعيدِ بنِ أبي بردَة ، عن أبيهِ ، عن أبي مُوسَىٰ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لمَّا بَعَثَه ومُعاذاً إلى اليَمَنِ ، قال لهُما : « يَسِّرا ولا تُعَسِّرا وتَطَاوَعا ولا تُنَفِّرا » فقال له أبو مُوسَىٰ : إنَّ لنا بأرضِنا شَراباً ، يُصْنَعُ من العَسَلِ يُقالُ له : البِتْعُ ، ومن الشَّعيرِ يُقالُ له : المِزْرُ ، قال صلى الله عليه وسلم : « كلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » فقال لي مُعاذٌ : كَيفَ تَقْرأُ القُرآنَ ؟ قُلتُ : أقْرَأُه في صَلاتِي ، وعلىٰ راحِلَتي وقائِماً وقاعِداً ، أتَفَوَّقُ تَفَوُّقاً ـ يَعْني شَيئاً بعدَ شَيءٍ ، قال : فقال مُعاذٌ : لكنِّي أنامُ ثمَّ أقُومُ ، فأحْتَسِبُ نَوْمَتي كما أحْتَسِبُ قَوْمَتي ، قال : وكأنَّ مُعاذاً فُضِّلَ عليه[٢] .

وعن أبي شُرَيْحٍ : أنَّه سَمِعَ سَهْلَ بنَ أبي أُمامَة بنِ سَهْلٍ يُحَدِّثُ عن أبيهِ ، عن جَدِّهِ : أنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تُشَدِّدُوا علىٰ أَنْفُسِكُم ، فإنَّما هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكم بِتَشْديدِهِم علىٰ أَنْفُسِهِم ، وسَتَجِدُونَ بَقَاياهُم في الصَّوامِعِ والدِّياراتِ » .

آخَى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ سَهْلٍ وعليٍّ[٣] .

وعنِ الأزْرَقِ بنِ قَيْسٍ قال : كُنَّا علىٰ شاطِىء نَهْرٍ بالأهْوازِ ، فجاءَ أبو بَرْزَةَ يَقُودُ فَرَساً ، فدَخَلَ في صَلاةِ العَصْرِ فقال رَجلٌ : انْظُروا إلىٰ هٰذا الشَّيخِ ، وكان انْفَلَتَ فَرَسُه ، فاتَّبَعَها في القِبلَةِ حتىٰ أدْرَكَها فأخَذَ بالمِقْوَدِ ، ثمَّ صَلَّىٰ قال : فسَمِعَ أبو بَرْزَةَ

---

(١) انظر السير : (عمَّار بن ياسر) ١/ ٤٠٦ـ ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٧/ ١٨٤ .

(٢) انظر السير : (مُعاذ بن جَبل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٩١ .

(٣) انظر السير : (سهل بن حُنيف) ٢/ ٣٢٥ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٦٨ .

قَولَ الرَّجُلِ ، فجاءَ فقال : ما عَنَّفَني أحَدٌ مُنذُ فارَقْتُ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم غَيرُ هـٰذا ، إنِّي شَيخٌ كَبيرٌ ، ومَنْزِلِي مُتَراخٍ ، ولَوْ أقْبَلْتُ علىٰ صَلاتي ، وتَرَكتُ فَرَسي ، ثمَّ ذَهَبتُ أطْلُبُها ، لَمْ آتِ أهْلِي إلاَّ في جُنحِ اللَّيلِ ، لقد صَحِبتُ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فرأيتُ من يُسْرِهِ ، فأقْبَلْنا نَعْتذِرُ ممَّا قال الرَّجُلُ[1] .

وعن أبِي قَيْسٍ مَوْلىٰ عَمْرو بنِ العاص ، أنَّ عَمْراً كان علىٰ سَرِيَّةٍ فأصابَهُم بَرْدٌ شَديدٌ لَمْ يَرَوا مِثلَه ، فخَرَجَ لِصلاةِ الصُّبحِ ، فقال : احْتَلَمتُ البارِحَةَ ، ولكِنِّي والله ما رَأيتُ بَرْداً مِثلَ هـٰذا ، فغَسَلَ مَغابِنَه[2] ، وتَوَضَّأ للصَّلاةِ ، ثمَّ صَلَّىٰ بهِم فلمَّا قَدِمَ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم سَألَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أصْحابَه : « كيفَ وَجَدتُم عَمْراً وصَحابَتَه ؟ » فأثْنَوا عليهِ خَيراً ، وقالوا : يا رسُولَ الله ، صَلَّىٰ بنا وهو جُنُبٌ ، فأرْسَلَ إلىٰ عَمْرو ، فسَألَه ، فأخْبَرَه بذلك وبالذي لَقِيَ من البَرْدِ ، وقال : إنَّ اللهَ قال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[3] ولَوْ اغْتَسَلْتُ مِتُّ فضَحِكَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

ولمَّا تُوُفِّيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم كان عَمْرٌو علىٰ عُمانَ ، فأتَاهُ كِتَابُ أبي بَكرٍ بِوَفاةِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم[4] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ شَدَّادٍ ، عن أبيهِ ، قال : خَرَجَ عَلينا رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهو حامِلٌ حَسَناً أو حُسَيْناً ، فتَقَدَّمَ ، فوَضَعَه ، ثمَّ كَبَّرَ في الصَّلاةِ فسَجَدَ سَجْدَةً أطَالَها ، فرَفَعْتُ رَأسِي ، فإذا بالصَّبيِّ علىٰ ظَهْرِه ، فرَجَعتُ في سُجُودِي فلمَّا قَضَىٰ صَلاتَه ، قالوا : يا رسُولَ الله : إنَّكَ أطَلْتَ!! قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي ، فكرِهْتُ أنْ أُعْجِلَهُ حتّىٰ يَقْضِيَ حاجَتَهُ » .

قال الذهبيُّ : أيْنَ الفَقِيهُ المُتَنَطِّعُ عن هـٰذا الفِعْلِ!! ؟[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو بَرْزَةَ الأسْلميّ) ٣/ ٤٠ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٢٨ .
(٢) المَغابِنُ : الأرفاغُ وهو بَواطِنُ الأفْخاذِ عندَ الحَوالِبِ ، جَمْعُ مِغْبَنٌ من غَبَنَ الثَّوبَ : إذا ثناه وعَطَفه .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٢٩ .
(٤) انظر السير : (عَمرو بن العاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٣٥ .
(٥) انظر السير : (الحَسن بن عليّ) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٨٠ .

٢ـ مَظاهِرُ من عِزَّةِ الإسْلامِ نَسْألُ اللهَ أنْ يَرُدَّها :

(أ) قصَّةُ عُمر مع الهُرْمُزان :

قال ابنُ سَعد : بعثَه أبو موسى الأشْعَريُّ إلىٰ عُمرَ ومعَه اثنا عشرَ نَفساً من العَجَم ، عليهم ثِيابُ الدِّيباج ومَناطِقُ الذَّهَب وأساوِرَة الذَّهب ، فقَدِموا بهم المَدينةَ ، فعَجبَ النَّاسُ من هَيْئَتِهم ، فدَخلوا فوَجدوا عُمرَ نائماً في المَسْجد مُتوَسِّداً رِداءَه ، فقالَ الهُرمُزان : هـٰذا مَلكُكُم ؟! قالوا : نعم ، قالَ : أمَا له حاجبٌ ولا حارسٌ ؟ قالوا : اللهُ حارسُه حتىٰ يأتيه أجَلُه ، قال : هـٰذا المَلكُ الهَنيُّ[1] .

فقال عُمرُ : الحَمدُ لله الذي أذَلَّ هـٰذا وشيعَتَه بالإسْلام ، ثمَّ قالَ للوَفْد : تَكلَّموا ، فقال أنَسُ بنُ مالك : الحَمدُ لله الذي أنْجَزَ وَعْدَه وأعزَّ دينَه وخَذلَ مَنْ حادَّه ، وأوْرثَنا أرْضَهم وديارَهم ، وأفاءَ علينا أبناءَهم وأمْوالَهم ، فبَكىٰ عُمرُ ثم قال للهُرمُزان : كيفَ رأيتَ صَنيعَ الله بكم ؟ فلَمْ يُجِبْه ، قالَ : ما لَك لا تَتكلَّم ؟ قال : أكلامُ حَيٍّ أمْ كلامُ ميِّت ؟ قال : أوَلَسْتَ حَياً ؟ فاسْتَسْقى الهُرمُزان ، فقال عُمرُ : لا يُجْمَعُ عليكَ القَتلُ والعَطشُ ، فأتَوْهُ بماءٍ فأمْسَكه ، فقال عُمرُ : اشْربْ لا بأْسَ عليك ، فرَمىٰ بالإناءِ وقال : يا مَعْشرَ العَرب كُنتم وأنتم علىٰ غَير دينٍ نَسْتعبِدُكم ونَقْتلُكم وكُنتم أسْوأَ الأُمَمِ عندنا حالاً ، فلمَّا كانَ الله مَعكم لمْ يَكنْ لأحَد بالله طاقَة ، فأمَرَ عُمرُ بقَتلِه ، فقال : أوَلمْ تُؤَمِّنِّي ؟! قال : وكيف ؟ قال : قُلتَ لي : تَكلَّم لا بأسَ عليكَ ، وقُلتَ : اشْرَب لا أقتُلك حتىٰ تَشرَبه ، فقال الزُّبَيرُ وأنسٌ : صَدقَ ، فقال عُمرُ : قاتَله الله أخَذَ أماناً وأنا لا أشْعرُ ، فنَزَعَ ما كان عليه ، فقال عُمرُ لسُراقَةَ بنِ مالك بنِ جَعْشَم ـ وكان أسْودَ نَحيفاً ـ : إلْبَسْ سوارَيّ الهُرمُزان ، فلَبسَهما ولبسَ كِسْوتَه[2] .

فقال عُمرُ : الحَمدُ لله الذي سَلبَ كِسْرَىٰ وقَومَه حُليَّهم وكِسْوتَهم وألْبَسَها سُراقَةَ ،

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٧ .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٨ .

ثم دَعا الهُرمُزانَ إلى الإسْلام فأبَىٰ ، فقال عليٌّ ابنُ أبي طالب : يا أميرَ المؤمنين فَرِّقْ بين هـٰؤلاء ، فحَملَ عُمرُ الهُرمُزانَ وجُفَيْنَةَ وغيرَهما في البَحر ، وقال : اللَّهُم اكْسر بهم ، وأرادَ أن يَسيرَ بهم إلى الشَّام فكسرَ بهم ولمْ يَغْرَقوا فرَجَعوا فأسْلَموا ، وفَرضَ لهم عُمرُ ألْفَين ألفَين ، وسَمَّى الهُرمُزانَ عَرْفَطة .

قال المِسْوَرُ بنُ مَخْرَمة : رأيتُ الهُرمُزانَ بالرَّوْحاءِ مُهِلاًّ بالحَجِّ مع عُمرَ ، وقال عليُّ بنُ زَيد بنُ جُدعان ، عن أنسٍ قال : ما رأيتُ رَجلاً أخْمَصَ بَطْناً ولا أبْعدَ ما بينَ المِنْكَبَين من الهُرمُزان[1] .

(ب) حِوارُ سَعدِ بنِ مُعاذٍ مع أبي جَهْلٍ وأُمَيَّةِ بنِ خَلَف :

عن ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال : انْطَلَقَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ مُعْتَمِراً ، فنَزَلَ علىٰ أُمَيَّةَ بنِ خَلَفْ وكان أُمَيَّةُ إذا انْطَلَقَ إلى الشَّام يَمُرُّ بالمَدينَةِ ، فيَنْزِلُ عليه ، فقال أُمَيَّةُ له : انْتَظِرْ حتىٰ إذا انْتَصَفَ النَّهارُ وغَفَلَ النَّاسُ طُفْتَ فبَيْنما سَعدٌ يَطُوفُ إذ أتاهُ أبو جَهْلٍ ، فقال : مَنْ الذي يَطُوفُ آمِناً ؟ قال : أنا سَعدٌ فقال : أتَطُوفُ آمِناً وقد آوَيْتُم مُحمَّداً وأصْحابَه!! ؟ قال : نَعَم فتَلاحَيَا فقال أُمَيَّةُ : لا تَرْفَعْ صَوْتَكَ علىٰ أبي الحَكَمِ ، فإنَّه سَيِّدُ أهْلِ الوادي فقال سَعدٌ : والله لَوْ مَنَعْتَني ، لَقَطَعْتُ عليكَ مَتْجَرَكَ بالشَّام قال : فجَعَلَ أُمَيَّةُ يقُولُ : لا تَرْفَعْ صَوْتَك فغَضِبَ وقال : دَعْنا منك ، فإنِّي سَمعتُ مُحمَّداً صلى الله عليه وسلم يقُولُ : يَزْعُمُ أنَّه قاتِلُك ، قال : إيّايَ ؟ قال : نَعَم قال : واللهِ ما يَكْذِبُ مُحمَّدٌ فكادَ يُحْدِثُ ، فرَجَعَ إلى امْرأتِه فقال : أما تَعْلَمينَ ما قال لي أخي اليَثْرِبيّ ؟ زَعَمَ أنَّه سَمِعَ مُحمَّداً يَزْعُمُ أنَّه قاتِلي قالت : والله ما يَكْذِبُ مُحمَّدٌ فلمَّا خَرَجوا لبَدْرٍ قالت امْرأتُه : ما ذَكَرْتَ ما قال لكَ أخُوكَ اليَثْرِبيّ ؟ فأرادَ أنْ لا يَخْرُجَ فقال له أبو جَهْلٍ : إنَّك من أشْرافِ أهْلِ الوادي ، فسِرْ مَعَنا يوماً أو يَومَينِ ، فسَارَ معهم ، فقَتَلَهُ الله[2] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٥٨ .

(٢) انظر السير : (سعد بن مُعاذ) ١/٢٧٩ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣ .

(ج) مُخاطَبَةُ المُغيرَةِ لعامِلِ كسْرىٰ :

أخْرَجَ البُخاريُّ[1] عن جُبَيْرِ بنِ حَبَّة ، قال : بَعَثَ عُمَرُ رضي الله عنه النَّاسَ في أفْناءِ الأمْصارِ يُقاتِلُونَ المُشْركين فأسْلَمَ الهُرمُزانُ ، فقال : إنِّي مُسْتَشِيرُكَ في مَغازِيَّ هٰذه قال : نَعَم مَثَلُها ومَثَلُ مَنْ فيها من النَّاسِ ، من عَدُوِّ المُسلِمينَ ، مَثَلُ طائِرٍ له رَأسٌ ، وله جَناحان وله رِجْلان ، فإنْ كُسِرَ أحَدُ الجَناحَيْنِ نهَضَتْ الرِّجْلانِ بجَناحٍ والرَّأسِ ، فإنْ كُسِرَ الجَناحُ الآخَر نَهَضَتْ الرِّجْلانِ والرَّأسِ وإنْ شُرِخَ الرَّأسِ ذَهَبتِ الرِّجْلانِ والجَناحانِ والرَّأسُ فالرَّأسُ كِسْرىٰ ، والجَناحُ قَيْصَرُ ، والجَناحُ الآخَرُ فارِسُ فمُرِ المُسلِمينَ فلْيَنْفِرُوا إلىٰ كِسْرىٰ .

عن جُبَيْرِ بنِ حَبَّة قال : فنَدَبَنا عُمَرُ ، واسْتَعْمَلَ علينا النُّعْمانَ ابنَ مُقَرِّن حتىٰ إذا كُنَّا بأرْضِ العَدُوِّ ، وخَرَجَ عَلينا عامِلُ كِسْرىٰ في أرْبَعِينَ ألْفاً فقال : لِيُكَلِّمَني رَجُلٌ منكُم فقال المُغيرَةُ : فسَلْ عَمَّا شِئْتَ قال : ما أنتُم ؟ قال : « نَحنُ أُناسٌ من العَرَبِ ، كُنَّا في شَقَاءٍ شَديدٍ وبَلاءٍ شَديدٍ ، نَمُصُّ الجِلْدَ والنَّوَىٰ من الجُوعِ ، ونَلْبَسُ الوَبَرَ والشَّعرَ ، ونَعْبُدُ الشَّجَرَ والحَجَرَ فبَيْنا نَحنُ كذلكَ إذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمَواتِ ورَبُّ الأَرْضينَ ـ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ وجَلَّتْ عَظَمَتُه ـ إلَيْنا نَبياً من أنْفُسنا ، نَعْرِفُ أبَاه وأُمَّه ، فأمَرَنا نَبيُّنا رسُولُ رَبِّنا صلى الله عليه وسلم أنْ نُقاتِلَكُم حتىٰ تَعْبُدوا اللهَ وَحْدَه ، أو تُؤَدُّوا الجِزْيَةَ وأخْبَرَنا نَبيُّنا صلى الله عليه وسلم عن رِسالَةِ رَبِّنا أنَّه مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إلى الجَنَّةِ في نَعيمٍ لَمْ يُرَ مِثلُها قَطُّ ، ومَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقابَكُم »[2] .

(د) لبسُ أسامَةَ بنَ زَيد لِحُلَّة ذي يَزن :

عن عِراكِ بنِ مالِك أنَّ حَكيمَ بنَ حِزام قال : كان مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم أَحَبَّ النَّاسِ إليَّ في الجاهِليَّةِ فلمَّا نُبِّىءَ وهاجَرَ شَهِدَ حَكيمُ المَوْسِمَ كافِراً ، فوَجَدَ حُلَّةً لذِي يَزَن تُباعُ ، فاشْتَراها بخَمسينَ ديناراً لِيُهْدِيَها إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقَدِمَ بها

---

(١) صحيح البخاري : باب الجزية (٣١٥٩) .

(٢) انظر النزهة : ١٨٣/هامش (١) .

عليه المَدينَةَ ، فأرادَه علىٰ قَبْضِها هَديّةً ، فأبَىٰ ، قال عبدُ الله حَسِبْتُه قال : « إنَّا لا نَقْبَلُ من المُشْرِكينَ شَيئاً ، ولَكِنْ إنْ شِئْتَ بالثَّمَنِ » ، قال : فأعطَيْتُه حينَ أبَىٰ عليَّ الهَديَّة[1] .

وفي رِوايَةِ ابنِ صالِح زِيادَةٌ : « فلَبِسَها ، فرَأَيْتُها عليه على المِنْبَرِ ، فلَمْ أَرَ شَيئاً أحْسَنَ منه يَوْمئذٍ فيها ، ثمَّ أعْطاها أُسامَةَ فرآها حَكيمُ علىٰ أُسامَة ، فقال : يا أُسامَة!! أتَلْبَسُ حُلَّةَ ذي يَزَن ؟ قال : نَعَم والله لأنا خَيْرٌ منه ، ولأَبِي خَيْرٌ من أبيه فانْطَلَقْتُ إلىٰ مَكّةَ فأعْجَبْتُهُم بقَولِه »[2] .

(هـ) أمانُ عبدِ الرَّحمَـٰن الدَّاخِل للنَّصَارَىٰ :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمة عبد الرحمـٰن بن معاوية بن هشام : وأمَّا الإسْلامُ فكان عَزيزاً مَنيعاً بالأنْدلُسِ في دَولَةِ الدَّاخِل ، فانْظُر إلىٰ هـٰذا الأمانِ الذي كُتِبَ عنه للنَّصَارَىٰ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَـٰنِ الرَّحيم

كِتابُ أمانٍ ورَحْمةٍ ، وحَقْنِ دِماءٍ وعِصْمَة ، عَقَدَه الأميرُ الأكْرَمُ المَلِكُ المُعَظَّمُ عبدُ الرَّحمَـٰن بنِ مُعاويَة ، ذو الشَّرَفِ الصَّميمِ ، والخَيْرِ العَميم ، للبَطَارِقَةِ والرُّهْبانِ ، ومَنْ تَبِعَهُم من سائِرِ البُلْدانِ ، أهْل قَشْتالَة وأعْمالها ، ما دامُوا على الطَّاعَة في أداءِ ما تَحَمَّلـُوه ، فأشْهَدَ علىٰ نَفسه أنَّ عَهْدَه لا يُنْسَخُ ما أقامُوا علىٰ تأدِيَةِ عَشْرَةِ آلافِ أُوقِيَّة من الذهَبِ ، وعَشْرَةِ آلافِ رَطْلٍ من الفِضَةِ ، وعَشْرَةِ آلافِ رأسٍ من خِيارِ الخَيْلِ ، ومِثلِها من البِغَالِ ، مع ذلك ألفُ دِرْعٍ وألفُ بَيْضَةٍ ، ومن الرِّماحِ الدَّردار مِثلِها في كُلِّ عامٍ ، ومتىٰ ثَبُتَ عليهم النَّكثُ بأسيرٍ يَأسِرُونَه ، أو مُسْلمٍ يَغْدِرونَه ، انتُكِثَ ما عُوهِدُوا عليه ، كُتِبَ لهم هـٰذا الأمانُ بأيْدِيهِم إلىٰ خَمسِ سِنينَ ، أوَّلُها صَفَرُ عام اثْنَينِ وأرْبَعينَ ومِئَة .

---

(١) انظر السير : (حَكيم بن حِزام) ٣/ ٤٤ـ ٥١ ، وانظر النزهة : ٦/٣٢٩ .

(٢) انظر السير : (حَكيم بن حِزام) ٣/ ٤٤ـ ٥١ ، وانظر النزهة : ١/٣٣٠ .

وقال أبو المُظَفَّر الأبِيوَرْديّ في أخْبارِ بَني أُمَيَّة : كان النَّاسُ يَقُولون : مَلَكَ الأرضَ ابْنا بَرْبَرِيَّتَيْنِ ـ يَعْني عبدَ الرَّحمَـٰن والمَنْصُور .

وكان المَنْصُورُ يقُولُ عن عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ مُعاويَة : ذاكَ صَقْرُ قُرَيْشٍ ، دَخَلَ المَغْرِبَ وقد قُتِلَ قَومُه ، فلَمْ يَزَلْ يَضْرِبُ العَدْنانيَّةَ بالقَحْطانيَّةِ حتىٰ مَلَكَ .

وقال سَعيدُ بنُ عُثمانَ اللّغَويّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ أرْبعِ مِئَة : كانت بِقُرطُبَة جَنَّةٌ اتَّخَذَها عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ مُعاويَة ، كان فيها نَخْلَةٌ أدْرَكتُها .

وغَزَا عِدَّةَ غَزَواتٍ ، من ذلك : غَزْوةُ قَشْتالَة ، جازَ إليها من نَهْرِ طُلَيْطِلَة ، وفَرَّتِ الرُّومُ أمامَه ، وتَعَلَّقَتْ بالجِبالِ ، فلَمْ يَزَلْ حتىٰ وَصَلَ مَدينَةَ بَرْنيقَة ، من مَملكَةِ قَشْتالَة ، فنزَلَ عليها ، وأمَرَ برَفْعِ الخِيامِ ، وشَرَعَ في البِناءِ ، وأخَذَ النَّاسُ يَبْنُونَ ، فسَلَّموا إليه بالأمانِ عندَ إياسِهم من النَّجْدَةِ ، وخَرَجُوا بِثِيابِهِم فَقَط ، وما يُزَوِّدُهم ، ثمَّ كَتَبَ لأهْلِ قَشْتالَة ذلكَ الأمانَ الذي تَقَدَّم ، وهو بِخَطِّ الوَزيرِ بِشْرِ بنِ سَعيد الغافِقيّ[1] .

(و) المُعتَصِمُ وطَاغِيَةُ الرُّوم :

قال الرِّياشيُّ : كتَبَ طاغِيَةُ الرُّومِ إلى المُعتَصِم يَتَهَدَّدُه ، فأمَرَ بجَوابِه ، فلمَّا عُرِضَ عليه رَماهُ ، وقال للكاتِبِ : اكْتُبْ : « أمَّا بَعدُ ، فقد قَرأتُ كتابَكَ ، وسَمعتُ خِطابَكَ ، والجَوابُ ما تَرَىٰ لا ما تَسْمَع » ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[2] [3] .

(ز) قِصَّةُ المَازِنيّ مع اليَهُوديّ :

قال الذهبيُّ : قِيلَ : كان المَازِنيُّ ذا وَرَعٍ ودينٍ ، وبَلَغَنا أنَّ يَهُودِيّاً حَصَّلَ النَّحْوَ فجاءَ لِيَقْرأَ على المَازِنيِّ « كِتابَ سِيْبَوَيْه » ، فبَذَلَ له مِئَةَ دينارٍ ، فامْتَنَعَ وقال : هـٰذا الكِتابُ يَشْتَملُ علىٰ ثلاثِ مِئَةِ آيةٍ ونَيِّفٍ ، فلا أُمَكِّنُ منهما ذِمِّيّاً[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن معاوية بن هشام) ٨/ ٢٤٤ـ ٢٥٣ ، وانظر النزهة : ١/٧٤٩ .
(٢) سورة الرعد ، الآية : ٤٢ .
(٣) انظر السير : (المعتصم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٥/٨٧٨ .
(٤) انظر السير : (المازِنيّ) ١٢/ ٢٧٠ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ١/٨٩٩ .

(ح) قِصَّةُ طُغرلبك مع مَلِكِ الرُّومِ :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة طُغْرلْبَك : ولَمْ يُرْزَق طُغرلبَك ولَداً ، وعاشَ سَبعينَ عاماً ، وكان بيَدِه خُوارَزْم ونيسابُور وبَغْداد والريّ وأصْبَهان ، وكان أخُوهُ إبراهيم يَنال قد حارَبَه ، وجَرَتْ أمُور ، وحصل في يدِه مَلِكٌ كَبيرٌ للرُّوم ، فبَذَلَ في نَفسِه أمْوالاً عَظيمَةً ، فأبَىٰ عليه فبَعَثَ نَصْرُ الدَّولَة صاحِبُ الجَزيرَة وميَّافارقين يَشْفَعُ في فِكاكِه ، فبَعَثَه طُغرلبَك إلىٰ نَصرِ الدَّولَة بِلا فِداءٍ فانْتَخَىٰ مَلِكُ الرُّوم ، وأهْدَىٰ إلىٰ طُغرلبَك مِئَتَيْ ألفِ دينارٍ ، وخَمسَ مِئَةِ أسير ، وألْفاً وخَمسَ مِئَةَ ثَوْبٍ ، ومِئَةَ لَبِنَةٍ فِضَّة ، وألْفَ عَنْزٍ أبيض وثلاثِ مِئَةِ شِهْرِي[1] ، وبَعثَ إلىٰ نَصرِ الدَّولَة تُحَفاً ومِسْكاً كَثيراً[2] .

(ط) رِسالَةُ المُظَفَّر إلىٰ مَلِكِ الرُّومِ :

وكان كاتبُ المُظَفَّر بن الأفْطَس الوَزِيرُ أبو مُحمَّد عبدُ الله بنُ النَّحويّ أحَدُ البُلَغاءِ فكتب أذفونش ـ لعَنَهُ الله ـ يُرْعِدُ ويُبْرِقُ ، فأجَابَ : وصَلَ إلى المَلِكِ المُظَفَّرِ من عَظيمِ الرُّومِ كتابُ مُدَّعٍ في المَقَادِيرِ ، يُرْعِدُ ويُبْرِقُ ، ويَجمَعُ تارةً ويُفَرِّقُ تارةً ، ويُهدِّدُ بالجُنُودِ الوافِرَةِ ، ولَمْ يَدْرِ أنَّ لله جُنُوداً أعَزَّ بهم الإسْلامَ ، وأظْهَرَ بهم دينَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، يُجَاهِدُون في سَبيلِ الله ، ولا يَخافُونَ في الله لَوْمَةَ لائِمٍ ، فأمَّا تَعْييرُك للمُسلمينَ فيما وَهَنَ من أحْوَالِهم ، فبالذُّنوبِ المَركُوبَة ، والفِرَقِ المَنْكُوبَة ، ولو اتَّفَقَتْ كلمَتُنا عَلمتَ أيَّ صائبٍ أذَقْناكَ ، كما كانت آباؤُك مع آبائِنا ، وبالأمْس كانت قَطيعَةُ المَنْصُورِ علىٰ سَلَفِك ، أهْدَى ابنتَه إليه ، مع الذَّخائِرِ التي كانت تَفِدُ في كلِّ عامٍ عليه ، ونحنُ فإن قَلَّتْ أعْدادُنا ، وعُدِمَ من المَخْلُوقِين اسْتِمْدادُنا فما بَيْنَنا وبَيْنَك بَحرٌ تُبْصِرُه في يَومِك ، وبالله وملائِكَتِه نَتَقَوَّىٰ عَلَيْك ، ليْسَ لنا سِواهُ مَطْلَبٌ ، ولا إلىٰ غَيرِه مَهْرَبٌ ، وهل تَرَبَّصُونَ بِنَا إلاَّ إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ : شَهَادةٌ ، أو نَصْرٌ عَزيزٌ .

ولمَّا تُوفِّيَ المُظَفَّرُ بعد السبعِينَ وأربع مِئةٍ أو قبلَها ، قامَ في المُلْكِ بعدَه ولَدَهُ

---

(١) قال في (الأساس) والبرذون الشهري بين الرمكة والفرس العتيق .

(٢) انظر السير : (طُغرلبَك) ١٨/١٠٧ـ١١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٩٠ .

المُلَقَّبُ بالمُتَوَكِّلِ على الله أبو حَفْصٍ عُمَرُ بنُ الأفْطَسِ صاحِبُ بَطَلْيَوس ويابُرة وشَنْتَرين وأشْبُونَة فكان نَحْواً من أبيه في الشَّجاعَةِ والبَرَاعَةِ والأدَبِ والبَلاغَةِ فبَقِيَ إلىٰ أن قَتَلَه المُرابِطُون جُندُ يُوسُفَ بنَ تاشفينَ صَبراً ، وقَتَلوا مَعَه ولَدَيْهِ الفَضْلَ وعَبَّاساً ، في سنةِ خَمْسٍ وثَمَانِينَ وأربعِ مِئَة ، إذ اسْتَولَوا على الأنْدَلُسِ[1] .

(ي) صَلاحُ الدِّينِ مع أرْناط :

قال الإمامُ الذهبيُّ : وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ افْتَتَحَ صَلاحُ الدِّينِ بلادَ الفِرَنْجَ ، وقَهَرَهم ، وأبَادَ خَضْراءَهم ، وأَسَرَ مُلُوكَهم علىٰ « حِطِّينَ » ، وكان قد نَذَرَ أنْ يَقْتُلَ أرْناطَ صاحِبَ الكَرَكِ ، فأُسِرَ يومَئذٍ ، كان قد مَرَّ به قومٌ من مِصْرَ في حَالِ الهُدنَةِ ، فغَدَرَ بهم ، فنَاشَدُوهُ الصُّلْحَ ، فقال ما فيه اسْتخْفافٌ بالنَبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقَتَلَهم ، فاسْتَحْضَرَ صلاحُ الدِّين المُلُوكَ ، ثمَّ ناوَلَ المَلِكَ جِفْرِي شَرْبَةَ جلابِ ثلجٍ فشَرِبَ ، فنَاوَلَ أرْناطَ فشَرِبَ ، فقال السُّلطانُ للتُّرجُمَانِ : قُلْ لجِفْرِي : أنْتَ الذي سَقَيْتَه ، وإلاَّ أنا فمَا سَقَيْتُه ، ثمَّ اسْتَحْضَرَ البرِنْسَ أرْنَاطَ في مَجْلِسٍ آخَرَ ، وقال : أنا أنتَصِرُ لمُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْكَ ، ثمَّ عَرَضَ علَيه الإسْلامَ ، فأبَىٰ فحَلَّ كَتِفَه بالنَّيمجاه[2] .

وافْتَتَحَ عامَهُ ما لَمْ يَفْتَحْهُ مَلِكٌ ، وطارَ صِيتُه في الدُّنيا ، وهَابَتْهُ المُلُوكُ .

تُوفِّيَ بقَلعَةِ دِمَشْقَ سَنَةَ تِسْعٍ وثمَانِينَ وخَمسِ مِئَة .

مَحاسِنُ صلاحُ الدِّين جَمَّةٌ ، لا سِيَّمَا الجِهَادُ ، فلَه فيه اليَدُ البَيْضاءُ ببَذْلِ الأمْوالِ والخَيْلِ المُثَمَّنَة لجُنْدِه ، وله عَقلٌ جَيِّدٌ ، وفَهمٌ وحَزمٌ وعَزمٌ[3] .

٣ـ نَواحٍ حَضَارية في الإسلام :

(أ) بدء التاريخ الهجري :

وفي سَنة سِتّة عَشر كُتبَ التاريخُ في شَهر رَبيع الأوّل ، فعَن ابنِ المُسَيِّب قال : أوَّلُ

---

(١) انظر السير : (المُظَفَّر بن الأفْطس) ١٨/ ٥٩٤ـ ٥٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٤٦ .

(٢) النيمجاه : وهو خنجر مقوس يشبه السيف القصير .

(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٢٢ .

مَنْ كَتبَ التاريخَ عُمرُ بنُ الخَطَّاب لسَنتَينِ ونصف من خِلافَته ، فكُتبَ لستٍّ عَشرة من الهجرة بمَشُورة عليٍّ رضي اللهُ عنهما[1] .

(ب) بنَاءُ مُدن جديدة :

قال الذهبيُّ في تَرجمة عبد الرحمَـٰنِ بنِ محَمَّد بنِ عبدِ اللهِ المَرْوَانِيّ :

وابْتَدَأ ببنَاءِ مَدينَةِ الزَّهْرَاءِ في أوَّلِ سَنَةِ خَمسٍ وعِشْرينَ وثَلاثِ مِئَةٍ فكانَ يُقَسِّمُ دَخْلَ مَمْلَكَته أثْلاثاً : فثُلُثٌ يَرصُده للجُند ، وثُلثٌ يَدّخرُه في بَيتِ المَال وثُلثٌ يُنْفقُه في الزَّهْراءِ[2] .

ولَمْ يَزَلْ عبدُ الرحمَـٰن يَغْزُو حتّىٰ أقَامَ العِوَجَ ، ومَهَّدَ البلادَ ، ووَضَعَ العَدلَ ، وكَثُرَ الأمْنُ ، ثمّ بَعثَ جَيشاً إلى المَغربِ ، فغَزَا بَرْغَواطة بنَاحيَةِ سَلا[3] ولَمْ تَزَلْ كَلِمَتُه نافِذَةٌ ، وسِجِلماسة[4] وجَميعَ بلادِ القِبلَة ، وقَتَلَ ابنَ حَفْصون[5] .

وصَارَتْ الأندَلُس أقْوَىٰ ما كانت وأحْسَنها حَالاً ، وصَفَا وَجْهُهُ للرُّوم ، وشَنَّ الغَاراتِ على العَدُوِّ ، وغَزَا بِنَفْسِه بلادَ الرُّوم اثْنَتَيْ عَشْرَة غَزْوَةً ودَوَّخَهُم ، ووَضَعَ عليهِم الخَرَاجَ ، ودَانَتْ له مُلُوكُها ، فكانَ فيمَا شَرَطَ عليهِم اثْنَا عَشَرَ ألْفَ رَجُلٍ يَصْنَعُون في بِنَاءِ الزَّهْرَاءِ التي أقَامَهَا لسُكْنَاه علىٰ فَرْسَخ من قُرطُبَة[6]

وسَاقَ إليها أنْهَاراً ، ونَقَبَ لها الجَبَلَ ، وأنْشَأها مُدَوَّرةً ، وعِدَةُ أبْراجِهَا ثَلاثُ مئة بُرْج ، وشُرُفَاتِهَا من حَجَرٍ واحدٍ ، وقَسَّمَها أثْلاثاً ، فالثُلُثُ المُسْنَدُ إلى الجَبَلِ قُصُورُه ، والثُلُثُ الثاني دُورُ المَمَاليك والخَدَم ، وكَانُوا اثْني عَشَرَ ألْفاً بمَنَاطِقِ الذَّهَبِ ، يَرْكَبُونَ لرُكُوبِه ، والثُلُثُ الثَّالثُ بَسَاتين تحْتَ القُصُورِ وعَمِلَ مَجْلِسَاً مُشْرِفاً على البَسَاتين ،

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٩ .

(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن محمد بن عبد الله) ٨/ ٢٦٥ـ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٧٥٦ .

(٣) مدينة بالمغرب علىٰ ساحل المحيط الأطلسي قرب المعمورة ويقربها برغواطة .

(٤) مدينة داخلية في جنوب المغرب بينها وبين فاس عشرة أيام .

(٥) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن محمد بن عبد الله) ٨/ ٢٦٥ـ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٧٥٦ .

(٦) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن محمد بن عبد الله) ٨/ ٢٦٥ـ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٧٥٧ .

صَفَّحَ عُمُدَهُ بالذَّهَبِ ، ورَصَّعَهُ بالياقُوتِ والزُّمُرُّدِ ، واللُّؤْلُؤِ ، وفَرَشَه بمَنْقُوشِ الرُّخَامِ ، وصَنَعَ قُدَّامَه بُحَيْرَةً مُستديرَة مَلأها زِئْبَقاً ، فكان النُّورُ يَنْعَكِسُ مِنْه إلى المَجْلِسِ ، فدَخَلَ عليه قاضِيه ، مُنْذِرُ بنُ سَعيد البَلُّوطِيّ ، فوَقَفَ وقَرَأَ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾[1] .

فقال : وَعَظْتَ أبا الحَكَم ، ثمّ قَامَ عن المَجْلِس ، وأَمَرَ بنَزْعِ الذَّهَبِ والجَوَاهِر .

ويُقَالُ : إنَّ بِنَاءَ الزَّهْراءِ أُكْمِلَ في اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَة ، بألْفِ بَنَّاءٍ في اليوم ، مع البَنَّاءِ اثْنَا عَشَرَ فَاعِلاً[2] .

(ج) الاهتمام بالطِّبِّ وبناء المُستشفيات :

قال صَالحُ بنُ مُحمّد جزرة : سَمعتُ الرَّبيعَ ، سَمعتُ الشَّافِعيَّ يَقولُ : لا أعْلَمُ عِلْماً بَعدَ الحَلالِ والحَرامِ أنْبَلُ من الطِّبِّ ، إلاَّ أنَّ أهْلَ الكتاب قد غَلَبُونا عليه[3] .

قال حَرملةُ : كان الشَّافِعيُّ يَتَلَهَّفُ علىٰ ما ضَيَّعَ المُسلمُونَ من الطِّبِّ ، ويقُولُ : ضَيَّعُوا ثُلُثَ العِلمِ ، ووَكَلُوهُ إلى اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ[4] .

وقِيلَ : إنَّ المَازِريَّ مَرِضَ مَرْضةً ، فلَمْ يَجدْ مَنْ يُعالِجُه إلاَّ يَهُوديّاً ، فلمَّا عُوفِي علىٰ يَدِه ، قال : لَوْلا التِزَامِي بحِفْظ صِناعَتِي لأعْدَمْتُك المسلمينَ فأثَّرَ هـٰذا عند المَازِريِّ ، فأقْبَلَ علىٰ تَعَلُّمِ الطِّبِّ حتّىٰ فَاقَ فيه ، وكان مِمَّنْ يُفْتِي فيه كمَا يُفْتِي في الفِقْهِ[5] .

وبَنَىٰ صَاحبُ المَغربِ السُّلطانُ يَعْقُوبُ بنُ يُوسُف مارستاناً ما أظنُّ مثله ، غَرسَ فيه

---

(١) سورة الزخرف ، الآيتين : ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله) ٨/ ٢٦٥ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٥٧ .

(٣) انظر السير : (الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٥٠ .

(٤) انظر السير : (الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٥٠ .

(٥) انظر السير : (المَازِريّ) ٢٠/ ١٠٤ـ ١٠٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٣٤ .

من جَميعِ الأشْجَارِ ، وزَخْرَفَهُ وأجْرَىٰ فيه المِيَاهَ ، ورَتَّبَ له كُلَّ يومٍ ثَلاثينَ ديناراً للأدويةِ ، وكان يَعُودُ المَرضَىٰ في الجُمُعَة .

وكان لا يقُولُ بالعِصْمَةِ في ابنِ تومرت .

وسَألَ فَقِيهاً : ما قَرأتَ ؟ قال : تَوالِيفَ الإمَامِ ، قال : فَزَوَرَنِي ، وقال : ما كذا يقُولُ الطَّالِبُ! حُكمكَ أنْ تقولَ : قَرأتُ كتَابَ اللهِ ، وقَرأتُ من السُّنَّةِ ، ثمَّ بعدَ ذا قُلْ ما شِئْتَ .

وكانت مَجَالِسُه مُزَيَّنَةً بحُضُورِ العُلمَاءِ والفُضَلاءِ ، تُفْتَتَحُ بالتِّلاوَة ثمّ بالحَديثِ ، ثمّ يَدعُو هوَ ، وكان يُجِيدُ حِفْظَ القُرآنِ ، ويَحفَظُ الحَديثَ ، ويَتكلَّمُ في الفِقْهِ ، ويُنَاظِرُ ، ويَنْسبُونَه إلىٰ مَذْهبِ الظَّاهِر ، وكان فَصيحاً ، مَهيباً ، حَسَنَ الصُّورَة ، تَامَّ الخِلْقَة ، لا يُرَىٰ منه اكْفِهْرارٌ ، ولا عن مُجالِسِه إعْراضٌ ، بِزِيِّ الزُّهَّادِ والعُلماء ، وعَليه جَلالَةُ المُلُوكِ ، صَنَّفَ في العِبادات ، وله (فَتَاوٍ) ، وبَلَغَني أنَّ السُّودانَ قَدَّموا له فِيلاً فوَصَلَهم ، ورَدَّه ، وقال : لا نُريدُ أن نكونَ أصْحَابَ الفيلِ ، وكان يَجْمَعُ الزَّكاةَ ، ويُفَرِّقُها بنَفْسِه ، وعَمِلَ مَكْتَباً للأيْتام ، فيه نَحْوُ ألفِ صَبيٍ ، وعَشْرَةُ مُعَلِّمُونَ ، حَكَىٰ لي بَعضُ عُمَّالِه : أنَّه فرَّقَ في عيدٍ نَيِّفاً وسَبعينَ ألْفَ شاةٍ .

وقال عبدُ الواحد : كان مُهْتمّاً بالبناءِ ، كُلَّ وَقتٍ يُجَدِّدُ قَصراً أو مَدينةً ، وأنَّ الذين أسْلَمُوا كُرهاً أمَرَهُم بلِبْسِ كُحْليٍّ وأكْمَامٍ مُفْرِطَةِ الطُّولِ ، وكلوتاتٍ ضخمةٍ بَشِعَةٍ ، ثمَّ ألْبَسَهم ابنُهُ العَمَائِمَ الصُّفْرِ ، حَمَلَ يَعقُوبَ علىٰ ذلكَ شَكُّهُ في إسْلامِهم ، ولَمْ تَنْعَقِد عندنا ذمَّةٌ ليَهُوديٍّ ولا نَصْرانيّ مُنذُ قَامَ أمْرُ المَصَامِدَة ، ولا في جَميعِ المَغْربِ كَنيسَةٌ ، وإنَّمَا اليَهُودُ عندنا يُظْهِرونَ الإسْلامَ ، ويُصَلُّونَ ، ويُقْرِئُونَ أوْلادَهُم القُرآنَ جارينَ علىٰ مِلَّتِنَا .

وكان ابنُ رُشْد الحفيدُ قد هَذَّبَ له كتابَ « الحَيَوان » ، وقال : الزُّرافة رأيتُها عند مَلِكِ البَرْبَر ، كذا قال غيرَ مُهتبل ، فأحْنَقَهُم هـٰذا ، ثمَّ سَعَىٰ فيه مَنْ يُناوِئُه عند يَعقُوبَ فَأَرَوْهُ بخَطِّهِ حاكياً عن الفَلاسِفَة أنَّ الزُّهْرةَ أحَدُ الآلِهَة ، فطَلَبَه ، فقال : أهـٰذا خَطُّك ؟

فأنْكَرَ ، فقال : لَعَنَ اللهُ مَنْ كَتَبَه ، وأمَرَ الحاضِرينَ بلَعْنِه ، ثمَّ أقامَه مُهَاناً ، وأحْرَقَ كُتُبَ الفَلْسَفَةِ سِوَى الطِّبِّ والهَنْدَسَة[1] .

وجَاءَ في تَرْجَمَةِ الرَّحبيّ ، قال الذَّهبيُّ : البارعُ العَلاّمَةُ إمَامُ الطِّبِّ رَضِيُّ الدينِ يُوسُفُ بنُ حَيْدَرَة بن حَسَن الرَّحْبيّ الحَكِيم[2] .

كان أبُوه كَحَّالاً من أهْلِ الرَّحْبة ، فوُلدَ له يُوسُفُ بالجَزِيرَة العُمَريّة وأقَامَ بنَصِيبين مُدّة وبالرَّحْبةِ ، ثمّ قَدِمَا دِمَشْقَ في سنة خَمسٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، ثمَّ أقْبَلَ يُوسُفَ على الدَّرْسِ والنَّسْخِ ومُعالَجَة المَرضَىٰ ، ولازَمَ المُهَذَّبَ ابنَ النقَّاش ، وبَرَعَ ، فَنَوَّهَ المُهَذَّبُ باسْمِه ، وحَسُنَ مَوقِعُهُ عند السُّلطان صَلاح الدين ، وقَرَّرَ له ثلاثينَ ديناراً على القَلعَةِ والبيمارسْتان واسْتَمَرتْ عليه حتّىٰ نَقَضَها المُعَظَّمُ ، ولَمْ يَزَلْ مُبَجَّلاً في الدَّولَةِ وكان رَئيساً عَالِيَ الهِمَّة كَثيرَ التحقيقِ ، فيهِ خَيْرٌ وعَدَمُ شَرٍّ ، تَصَدَّرَ للإفادَة ، وخَرَّجَ له عِدّةَ أطِبَّاءَ كِبار[3] .

وقال الرَّحْبيُّ : جَميعُ مَنْ قَرَأَ عليَّ سُعِدُوا وانْتَفَعَ النَّاسُ بهم . وكان لا يُقْرِىءُ أحَداً من أهْلِ الذِمَّةِ بلىٰ ، قَرَأ عليه منهُم عِمْرانُ اليَهُوديّ ، وإبْراهيمُ السَّامريُّ تَشَفَّعا إليه ، وكُلٌّ منهُمَا بَرَعَ[4] .

قال ابنُ أبي أُصَيْبعة : قَرَأتُ عليه في سنة اثْنَتَين وثلاثٍ وعِشْرين كُتُباً وانْتَفَعتُ به ، وكان مُحِبّاً للتجارةِ مُغْرَىً بها ويُراعِي مزاجَه ، ولا يَصْعَدُ في سلَّم ، وله بُسْتانٌ ، وكان الوَزِيرُ ابنُ شُكر يَلْزَمُ أكْلَ الدَّجاجِ حتّىٰ شَحبَ لَوْنُه ، فقالَ له الرَّضي : الْزَمْ لَحمَ الضَّأْنِ فَفَعَلَ فظَهَرَ دَمُهُ .

مات الرَّحْبيُّ سَنةَ إحْدَىٰ وثَلاثينَ وسِتِّ مِئَة ، ولَه سَبْعٌ وتِسْعُونَ سَنَةً[5] .

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٨ .
(٢) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٠٣ .
(٣) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٠٣ .
(٤) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٤ .
(٥) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٠٤ .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمَةِ المُسْتَنْصِر باللهِ : قال ابنُ النجَّار : فنَشَرَ العَدْلَ ، وبَثَّ المَعْرُوفَ ، وقَرَّبَ العُلماءَ والصُّلَحَاءَ ، وبَنَى المَسَاجِدَ والمَدَارِسَ والرُّبطَ ، ودُورَ الضِّيافَةِ والمارستانات ، وأجْرَى العَطِيَّاتِ ، وقَمَعَ المُتَمَرِّدَةَ وحَمَلَ النَّاسَ علىٰ أقْوَمِ سَنَن ، وعَمَّرَ طُرُقَ الحَاجّ وعَمَّرَ بالحَرَمَيْنِ دُوراً للمَرْضَىٰ وبَعَثَ إليها الأدْوِيَةَ :

تَخْشَى الإلَهَ فمَا تَنَامُ عِنَايَةً ... بالمُسْلِمِينَ وكُلُّهُمْ بِكَ نَائِمُ

إلىٰ أنْ قالَ : ثمَّ قَامَ بأمرِ الجِهَادِ أحْسَنَ قِيامٍ وجَمَعَ العَسَاكِرَ ، وقَمَعَ الطغام ، وبَذَلَ الأمْوالَ ، وحَفِظَ الثُّغُورَ ، وافْتَتَحَ الحُصُونَ ، وأطَاعَهُ المُلُوكُ .

قال الذهبيُّ : كانت دَولَتُهُ جَيدَةَ التَّمَكُّن وفيه عَدلٌ في الجُملَةِ ووَقْعٌ في النُّفُوسِ[1] .

وقال الذهبيُّ في ترجمَةِ ابنِ البيطار : العلاّمةُ ضياءُ الدينِ عبدُ اللهِ بنُ أحمَدَ المالقيُّ النَّباتيُّ الطَّبيبُ ، ابنُ البيطارِ ، مُصَنِّفُ كتابِ « الأدْوِيَةِ المُفْرَدَةِ » وما صُنِّفَ في مَعْنَاه مِثلُه .

انتَهَتْ إليه مَعْرِفَةُ الحَشَائِش ، وسَافَرَ إلىٰ أقاصي بلادِ الرُّوم ، وحَرَّرَ شَأنَ النبَاتِ ، وكان أحَدَ الأذْكياءِ ، وخَدَمَ المَلكَ الكَاملَ ، وابنَهُ المَلكَ الصَّالح .

تُوُفِّيَ بدمَشْقَ سَنَةَ سِتٍّ وأرْبعينَ وسِتِّ مِئَة[2] .

(د) مَدَارسُ نظَامِ المُلك :

أنْشَأَ الوزيرُ نِظَامُ المُلْكِ المَدْرسَةَ الكُبْرىٰ بِبَغْدادَ ، وأُخْرَىٰ بنِيسَابُورَ وأُخْرَىٰ بِطُوسَ ورَغَّبَ في العِلْمِ ، وأدَرَّ على الطَّلَبَةِ الصِّلاتَ وأمْلَى الحَديثَ وبَعُدَ صِيتُه[3] .

(هـ) قانونُ مِنْ أيْنَ لكَ هَـٰذَا ؟ :

عن أيُّوبَ ، عن مُحمَّدٍ أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه اسْتعْمَلَ أبا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه على البَحْرَيْنِ ، فقَدِمَ بعَشْرةِ آلافٍ ، فقالَ له عُمَرُ : اسْتَأثَرْتَ بهـٰذهِ الأمْوالِ يا عَدُوَّ اللهِ ،

---

(١) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧١٩ .

(٢) انظر السير : (ابن البيطار) ٢٣/ ٢٥٦ـ ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ١٧٣٤/ ابن البيطار .

(٣) انظر السير : (نظام الملك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٤ .

وعَدُوَّ كِتابِه ؟ ، فقَالَ أبُو هُرَيْرَةَ : فقُلتُ : لسْتُ بعَدُوِّ اللهِ وعَدُوِّ كِتابِه ، ولكِنِّي عَدُوُّ مَنْ عاداهُما ، قال عُمَرُ : فمِنْ أيْنَ هي لكَ ؟!! قُلتُ : خَيْلٌ نُتِجَتْ ، وغَلَّةُ رَقيقٍ لي ، وأُعْطِيَةٌ تَتَابَعَتْ فنَظَرُوا ، فوَجَدُوا كَمَا قال[1] .

(و) الرِّفْقُ بالحَيَوانِ :

عن أبي إسْحاقَ الشِّيرازيّ : أنَّ رَجلاً أخْسَأَ كَلْباً ، فقال : مَهْ!! ، الطَّريقُ بَيْنَكَ وبَيْنَه[2] .

وقِيلَ : إنَّ هِرَّةً نامَتْ علىٰ كُمِّ الشَّيخِ أحمَدَ الرِّفاعيّ ، وقامَتِ الصَّلاةُ ، فقَصَّ كُمَّهُ ، وما أزْعَجَهَا ، ثُمَّ قَعَدَ ، فوَصَلَه ، وقالَ : ما تَغَيَّرَ شيءٌ[3] .

(ز) دُورُ الأيْتامِ والعَجَزَةِ والعُمْيان :

كانَ صاحِبُ إرْبل ، السُّلْطانُ مُظَفَّرُ الدين بكْتكين مُحِبّاً للصَّدَقَةِ ، له كُلَّ يَومٍ قَنَاطِيرُ خُبْزٍ يُفَرِّقُهَا ، ويَكْسُو في العَامِ خَلْقاً ويُعْطِيهِم دِينَاراً ودِينَارَيْنِ ، وبَنَىٰ أربَعَ خَوانِكْ للزَّمْنَىٰ والأضِرَّاءِ ، وكان يَأتِيهِم كُلَّ اثْنَيْنِ وخَميسٍ ويَسْأَلُ كُلَّ واحِدٍ عن حَالِه ويَتَفَقَّدُه ويُبَاسِطُه ويَمْزَحُ مَعَه وبَنَىٰ داراً للنِّسَاءِ ، وداراً للأيْتام ، وداراً للقَضَاءِ ورَتَّبَ بها المَرَاضِعَ ، وكان يَدُورُ علىٰ مَرْضَى البيمَارِسْتان ولَه دَارُ مُضيفٍ يَنْزِلُهَا كُلُّ وَارِدٍ ، ويُعْطَىٰ كُلَّ ما يَنْبَغِي له وبَنَىٰ مَدْرسَةً للشَّافِعِيَّة والحَنَفيّة وكان يَمُدُّ بها السّماطَ ، ويَحْضُرُ السَّمَاعَ كَثيراً ، لَمْ يَكُنْ له لَذَّةٌ في شَيءٍ غَيْرُهُ وكَانَ يَمْنَعُ من دُخُولِ مُنْكَرٍ بَلَدَه ، وبَنَىٰ للصُّوفيّة رِبَاطَيْنِ ، وكَانَ يَنْزِلُ إليهم لأجْلِ السَّماعات وكان في السَّنَة يُخْرِجُ سَبيلاً للحَجِّ ويَبْعثُ للمُجاوِرين بخَمْسَةِ آلافِ دينار ، وأجْرَى المَاءَ إلىٰ عَرَفَات

وأمَّا احْتِفالُه بالمَوْلِدِ فيَقْصُرُ التعْبيرُ عَنهُ ، كانَ الخَلْقُ يَقْصِدُونَه من العِراقِ والجَزيرَةِ وتُنْصَبُ قِبَابُ خَشَبٍ له ولأُمَرَائِه وتُزَيَّنُ ، وفيها جوق المَغاني واللّعب ، ويَنْزِلُ كُلَّ يومٍ

---

(١) انظر السير : (أبو هُريرة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢١٣ .

(٢) انظر السير : (أبو إسحاق الشيرازيّ) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤٢٩ .

(٣) انظر السير : (الرفاعيّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٠١ .

العَصْرَ فيَقفُ علىٰ كُلِّ قُبَّةٍ ويَتفرَّجُ ، ويَعْمَلُ ذلكَ أيّاماً ويُخْرِجُ من البَقَرِ والإبِلِ والغَنَمِ شيئاً كثيراً فتُنْحَرُ وتُطْبَخُ الألوانُ ، ويَعْمَلُ عِدَّةَ خِلَعٍ للصُّوفيَّةِ ، ويَتكلَّمُ الوُعَّاظُ في المَيْدانِ ، فيُنْفِقُ أمْوالاً جَزيلَةً ، وقد جَمَعَ له ابنُ دِحْيَةَ « كتابَ المَوْلِد » فأعْطَاهُ ألفَ دينار .

وكان مُتَوَاضِعاً ، خَيِّراً سُنِّياً ، يُحِبُّ الفُقَهَاءَ والمُحَدِّثينَ ، ورُبَّما أعْطَى الشُّعَرَاءَ ، وما نُقِلَ أنَّه انْهَزَمَ في حَرْبٍ ، وقد ذَكَرَ هٰذا وأمْثالَه ابنُ خَلْكان.

ماتَ سَنَةَ ثلاثينَ وستِّ مِئَة ، وعُمِلَ في تابُوتٍ ، وحُمِلَ مع الحُجَّاجِ إلىٰ مَكّةَ ، فاتَّفَقَ أنَّ الوَفْدَ رَجَعُوا تِلكَ السَّنَةَ لعَدَمِ المَاءِ ، فدُفِنَ بالكُوفَةِ رَحِمَهُ اللهُ تعَالَىٰ ، وعاش اثْنَتَينِ وثمَانينَ سَنَةً[1] .

وعاشَ أبُوهُ فَوقَ المِئَةِ ، وعُمِيَ وأصَمَّ ، وكان من كِبَارِ الدّولَةِ الأتابِكيّة ، وما انْهَزَمَ قَطُّ ومَدَحَه الحَيْصُ بَيْص ، فقال : ما أعرفُ ما تقُولُ ولكنِّي أدْرِي أنَّكَ تُريدُ شَيئاً!! ، وأمَرَ له بخِلْعَةٍ وفَرَسٍ وخَمْسِ مِئَةِ دينار[2] .

(ح) المَدرسَة المُسْتنصِريّة :

قال الإمامُ الذهبيُّ : في سَنَةِ إحْدَىٰ وثلاثين أُديرَتْ[3] المُسْتَنصِريّة ببَغْدادَ ولا نَظيرَ لها في الحُسْنِ والسِّعَةِ ، وكَثْرةِ الأوْقافِ ، بها مِئَتانِ وثَمانيَةٌ وأرْبَعُونَ فَقيهاً وأربَعةُ مُدرِّسينَ ، وشَيْخٌ للحَديثِ ، وشَيْخٌ للطِّبِّ ، وشَيْخٌ للنَّحْوِ ، وشَيْخٌ للفَرَائِضِ ، وإذا أقبَلَ وقْفُها غَلَّ أزْيَدَ من سَبعينَ ألفَ مِثْقال ، ولَعَلَّ قيمَةَ ما وُقِفَ عليها يُساوي ألفَ ألفِ دينار[4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (صاحب إربل) ٢٢/ ٣٣٤ـ ٣٣٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٧ .
(٢) انظر السير : (صاحب إربل) ٢٢/ ٣٣٤ـ ٣٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩٧ .
(٣) يعني أفتُتحت .
(٤) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٠ .

عَقيدَةُ التَّوحيد

١ـ مِثالٌ للعَقيدَةِ الصَّحيحَة :

قال الحافظُ أبُو القاسِم اللاَّلَكَائيّ : وجَدْتُ في كِتابِ أبي حاتِم مُحمّدِ بنِ إدْريسَ الحَنْظَليّ ، ممَّا سَمِعَ منه ، يقولُ : مَذْهَبُنا واخْتيارُنا اتِّباعُ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصْحابِه والتَّابِعين ، والتَّمَسُّكُ بمَذاهِبِ أهْلِ الأثَر ، مثلُ الشَّافعيِّ ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، وأبي عُبَيْد ، ولُزُومُ الكتابِ والسُّنَّةِ ، ونَعْتقِدُ أنَّ اللهَ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ علىٰ عَرْشِهِ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] وأنَّ الإيمَانَ يَزيدُ ويَنقُصُ ، ونُؤمِنُ بعَذابِ القَبْرِ ، وبالحَوْضِ ، وبالمَسْألةِ في القَبْرِ ، وبالشَّفاعَةِ ، ونَتَرَحَّمُ علىٰ جَميعِ الصَّحابَةِ وذَكَرَ أشْياءَ[2] .

٢ـ صاحبُ العَقيدَةِ الصَّحيحَة لا يَخافُ القُدومَ على اللهِ :

عن يَحْيَىٰ بنِ عَوْن ، قالَ : دَخَلتُ مع سُحْنُونَ على ابنِ القَصَّارِ وهو مَريضٌ ، فقال : ما هـٰذا القَلَقُ!! ؟ قال له : المَوْتُ والقُدُومُ على اللهِ قال له سُحْنُونُ : ألَسْتَ مُصَدِّقاً بالرُّسُلِ والبَعْثِ والحِسابِ ، والجَنَّةِ والنَّارِ وأنَّ أفْضَلَ هـٰذه الأُمَّةِ أبُو بَكْر ، ثُمَّ عُمَرُ ، والقُرآنَ كَلامُ اللهِ غَيرُ مَخْلُوقٍ وأنَّ اللهَ يُرَىٰ يَومَ القِيامَةِ ، وأنَّهُ على العَرْشِ اسْتَوَىٰ ، ولا تَخْرُجُ على الأئِمَّةِ بالسَّيْفِ ، وإنْ جارُوا قالَ : إي واللهِ ، فقالَ : مُتْ إذا شِئْتَ ، مُتْ إذا شِئْتَ[3] .

٣ـ صاحبُ العَقيدَةِ الصَّحيحَة لا يَأبَهُ باتِّهامِ النَّاسِ له في عَقيدَتِه :

عن السَّمْعانيِّ قال : سَمعتُ الحُسَيْنَ بنَ عبدِ المَلكِ الخَلاَّل ، سَمعتُ عبدَ

---

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٢) انظر السير : (أبو حاتم الرازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٣٦٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٧٧ .

(٣) انظر السير : (سُحنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٨٣ .

الرَّحمَـٰنِ بنَ مَنْدَه يَقولُ : قد عَجبْتُ من حالي ، فإنِّي وَجَدتُ أكثرَ مَنْ لَقيتُه إنْ صَدَّقتُه فيما يَقُولُه مُداراةً له ، سَمَّاني مُوافِقاً ، وإنْ وَقَفْتُ في حَرفٍ من قَولِه أو في شَيءٍ من فِعْلِهِ ، سَمَّاني مُخالِفاً ، وإنْ ذَكَرتُ في واحدٍ منهَما أنَّ الكتَابَ والسُّنَّةَ بخِلافِ ذلكَ ، سَمَّاني خارجيّاً ، وإن قُرِىءَ عليَّ حَديثٌ في التَّوحيدِ ، سَمَّاني مُشَبِّهاً ، وإنْ كان في الرُّؤْيةِ ، سَمَّاني سالميّاً إلىٰ أنّ قالَ : وأنا مُتَمَسِّكٌ بالكِتابِ والسُّنَّةِ مُتبرِّىءٌ إلى اللهِ من الشِّبْهِ والمِثْلِ والنِّدِّ والضِّدِّ والأعْضاءِ والجِسْمِ والآلات ، ومن كُلِّ ما يَنْسِبُهُ النَّاسِبُونَ إليَّ ، ويَدَّعيهِ المُدَّعُونَ عليَّ من أنْ أقُولَ في اللهِ تعَالَىٰ شَيئاً من ذلكَ أو قُلتُهُ ، أو أرَاهُ ، أو أتَوَهَّمُه ، أو أصِفُه به[1] .

٤ـ وُجُوبُ التَّسْليم في أخْبارِ الصِّفات :

قال ابنُ القاسِم : سَألتُ مالِكاً عمَّنْ حَدَّثَ بالحَديثِ : الذين قالوا : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ علىٰ صُورَتِه » ، والحَديثِ الذي جاءَ : « إنَّ اللهَ يَكشِفُ عَنْ سَاقِهِ » ، « أنَّه يُدْخِلُ يَدَهُ في جَهَنَّمَ حتّىٰ يُخْرِجَ مَنْ أرَادَ » فأنْكَرَ مَالِكٌ ذلكَ إنْكاراً شَديداً ، ونَهَىٰ أنْ يُحَدِّثَ بها أحَدٌ ، فقِيلَ له : إنَّ ناساً من أهلِ العِلمِ يَتحدَّثون به ، فقال : مَنْ هو ؟!! ، قِيلَ : ابنُ عَجْلان عن أبي الزِّناد ، قال : لَمْ يَكُنِ ابنُ عَجلان يَعرفُ هـٰذه الأشْياءَ ، ولَمْ يَكُنْ عَالِمَاً ولمْ يَزلْ أبو الزِّناد عاملاً لهـٰؤلاء حتىٰ ماتَ ، وكان صاحب عُمَّال يتبعُهم .

قال الذهبيُّ : الخبرُ لمْ يَنفَردْ به ابنُ عَجْلان ، بلْ ولا أبو الزِّناد ، فقد رَواهُ شُعَيبُ بنُ أبي حَمزة عن أبي الزِّناد ، ورَواهُ قَتادَةُ عن أبي أيُّوبَ المَراغي ، عن أبي هُريْرَة ، ورَواهُ ابنُ لُهَيْعَة عن الأعْرج وأبي يُونُس ، عن أبي هُريْرَة ، ورَواهُ مُعمَّرُ عن هَمَّام ، عن أبي هُريْرَة ، وصَحَّ أيضاً من حَديث ابنِ عُمَر .

وقد قال إسْحاقُ بنُ راهَوَيْه ، عَالمُ خُراسان : صَحَّ هـٰذا عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فهـٰذا الصَّحيحُ مُخرجٌ في كتابَي البُخاري ومُسلم فنُؤمنُ به ونُفوِّضُ ونُسلِّمُ ولا نَخوضُ فيما لا يَعْنينا مع عِلْمنا بأنَّ اللهَ ليسَ كَمثْلِه شَيءٌ وهو السَّميعُ البَصيرُ .

---

(١) انظر السير : (ابن منده) ١٨/ ٣٤٩ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤١٩ .

ماتَ أبو الزِّناد فَجأةً في مُغْتَسلِه ، وهو ابنُ سِتٍّ وسِتِّين سَنةً في سَنةِ ثلاثين ومِئَة[1] .

وقال رَبيعةُ مَولَىٰ آلِ مُنْكَدِر : وسُئِلَ كَيْفَ اسْتَوَى ؟!! ، فقالَ : الكَيْفُ غَيرُ مَعْقُولٍ ، وعَلى الرسُولِ البَلاغُ ، وعَلَيْنا التَّصْديقُ[2] .

وسُئِلَ سُفيانُ عن أحاديثِ الصِّفاتِ فقال : أمِرُّوها كما جاءَت[3] .

وعن جَعْفَرَ بنِ عبدِ الله قال : كُنَّا عندَ مالِك ، فجاءَهُ رجلٌ ، فقال : يا أبَا عبدَ الله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[4] ، كَيْفَ اسْتَوَى ؟!! فما وَجَدَ مالكٌ مِنْ شَيءٍ ما وَجَدَ من مَسْألَتِه ، فنَظَرَ إلى الأرْضِ ، وجَعَلَ يَنْكُتُ بِعُودٍ في يَدِه ، حتّىٰ عَلاهُ الرَّحْضاءُ[5] ، ثمَّ رَفَعَ رأسَه ، ورَمَىٰ بالعُودِ ، وقالَ : الكَيْفُ مِنْهُ غَيرُ مَعْقُولٍ ، والاسْتِواءُ مِنْهُ غَيرُ مَجْهُولٍ ، والإيْمانُ به واجِبٌ ، والسُّؤالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، وأظُنُّكَ صاحِبَ بِدْعَةٍ ، وأمَرَ به فأُخْرِجَ[6] .

وقال ابنُ القاسِم : سَألتُ مالِكاً عمَّنْ حَدَّثَ بالحَديثِ : الذين قالوا : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ علىٰ صُورَتِه » ، والحَديثِ الذي جاءَ : « إنَّ اللهَ يَكشِفُ عَنْ سَاقِهِ » ، « أنَّه يُدْخِلُ يَدَهُ في جَهَنَّمَ حتّىٰ يُخْرِجَ مَنْ أرَادَ » فأنْكَرَ مَالِكٌ ذلكَ إنْكاراً شَديداً ، ونَهَىٰ أنْ يُحَدِّثَ بها أحَدٌ ، فقِيلَ له : إنَّ ناساً من أهلِ العِلمِ يَتحدَّثون به ، فقال : مَنْ هو ؟!! ، قِيلَ : ابنُ عَجْلان عن أبي الزِّناد ، قال : لَمْ يَكُنْ ابنُ عَجلان يَعرفُ هٰذه الأشْياءَ ، ولَمْ يَكُنْ عَالِماً[7] .

قال الذهبيُّ : أنْكَرَ الإمامُ ذلكَ ، لأنَّه لَمْ يَثْبُتْ عِندَه ، ولا اتَّصَلَ به ، فهو مَعْذورٌ ،

---

(١) انظر السير : (أبو الزناد) ٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٢١ .
(٢) انظر السير : (ربيعة) ٦/ ٨٩ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٣٥ .
(٣) انظر السير : (سفيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٦٩٩ .
(٤) سورة طه ، الآية : ٥ .
(٥) الرحضاء : العرق أثر الحمىٰ أو عرق يفسد الجلد كثرةً .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٣٤ .
(٧) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٣٥ .

كَما أنَّ صاحِبَيْ « الصَّحيحَيْنِ » مَعْذوران في إخْراجِ ذلكَ ـ أعْنِي الحَديثَ الأولَ والثاني ـ لثُبُوتِ سَنَدِهما ، وأمَّا الحَديثُ الثالث ، فَلا أعْرِفُه بهـٰذا اللَّفظِ ، فقَوْلُنا في ذلكَ وبابِه : الإقْرارُ ، والإمْرار ، وتَفْويضُ مَعْناهُ إلىٰ قائِلِه الصَّادقِ المَعْصومِ صلى الله عليه وسلم[1] .

عن العَبَّاسِ الدُّوريّ قال : سَمعتُ أبا عُبَيدٍ القاسِم بن سَلاَّم ـ وذَكَرَ البابَ الذي يَرْوي فيهِ الرُؤيَةَ ، والكُرْسيّ مَوضِع القَدَميْنِ ، وضَحِكَ رَبُّنا ، وأيْنَ كان ربُّنا ـ فقال : هـٰذه أحاديثٌ صِحاحٌ ، حَمَلَها أصْحابُ الحَديثِ والفُقَهَاءُ بَعضُهم عَن بَعضٍ ، وهي عندَنا حَقٌّ لا نَشُكُّ فيها ، ولكن إذا قِيلَ : كَيْفَ يَضْحَكُ!! ؟ وكَيْفَ وَضَعَ قَدَمَه!! ؟ قُلنَا : لا نُفَسِّرُ هـٰذا ، ولا سَمِعْنا أحَدَاً يُفَسِّرُه[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : قُلتُ : قد فَسَّرَ عُلماءُ السَّلَفِ المُهِمَّ من الألفاظِ وغَيْرَ المُهِمِّ ، وما أبْقَوا مُمْكِناً ، وآياتُ الصِّفاتِ وأحاديثُها لَمْ يَتعرَّضُوا لتأويلِها أصْلاً ، وهي أهَمُّ الدينِ ، فلَوْ كان تأويلُها سائِغاً أو حَتْماً ، لبادَرُوا إليه ، فعُلِمَ قَطْعاً أنَّ قِراءَتَها وإمْرارَها علىٰ ما جاءَتْ هُو الحَقُّ ، لا تَفْسيرَ لها غَيرَ ذلكَ ، فنُؤمِنُ بذَلكَ ، ونَسْكُتُ اقْتِداءً بالسَّلَفِ ، مُعْتَقِدِينَ أنَّها صِفاتٌ للهِ تَعالَىٰ ، اسْتأثَرَ اللهُ بعِلْمِ حَقائِقَها ، وأنَّها لا تُشْبِهُ صِفاتِ المَخْلُوقين ، كمَا أنَّ ذاتَه المُقدَّسَةَ لا تُماثِلُ ذَوَاتَ المَخْلُوقين ، فالكِتابُ والسُّنَّةُ نَطَقَ بها ، والرسُولُ صلى الله عليه وسلم بَلَّغ ، وما تَعرَّضَ لتَأويلٍ ، مَعَ كَونِ البَاري قال : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] فعلَيْنا الإيمانُ والتَّسْليمُ للنُّصوصِ ، والله يَهْدي مَنْ يَشاءُ إلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ماتَ سَنَةَ أرْبعٍ وعِشْرينَ ومِئَتَيْنِ بِمَكَّةَ بَلَغَ سَبعاً وسِتّينَ سَنَةً ، رَحمَهُ الله[4] .

قال أبو سَهْل بنُ زياد القَطَّان ، أخْبرَنا محمدُ بنُ إسْماعيل التِّرمذيّ ، سَمعتُ

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٣٥ .
(٢) انظر السير : (أبو عُبَيد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٨٨ .
(٣) سورة النحل ، الآية : ٤٤ .
(٤) انظر السير : (أبو عُبَيد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٨٨ .

نُعَيمَ بنَ حمَّاد يقول : مَنْ شَبَّهَ اللهَ بخَلقِه فقد كَفَر ، ومَنْ أنْكرَ ما وَصفَ به نفسَه فقد كَفَر ، ولَيسَ في ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه ولا رسُولُه تَشْبيه[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الكَلامُ حقٌّ ، نَعوذُ بالله من التَّشْبيه ومِن إنْكارِ أحاديثِ الصِّفات ، فمَا يُنكِرُ الثَّابتَ منها مَنْ فَقُهَ ، وإنَّما بعد الإيمان بها هنا مَقامان مَذمومان :[2] .

تَأويلُها وصَرْفُها عن مَوضِع الخِطاب ، فما أوَّلَهَا السَّلَفُ ولا حَرَّفوا ألْفاظَها عن مَواضِعِها ، بل آمَنُوا بها ، وأمَرُّوها كما جاءَت[3] .

المَقامُ الثاني : المُبالَغَةُ في إثْباتِها ، وتَصَوُّرِها من جِنسِ صِفاتِ البَشَر ، وتَشَكُّلِها في الذِّهْن ، فهـٰذا جَهلٌ وضَلالٌ ، وإنَّما الصِّفةُ تابعةٌ للمَوْصوفِ ، فإذا كانَ المَوْصوفُ عَزَّ وجَلَّ لَمْ نَرَه ، ولا أخْبرَنا أحدٌ أنَّه عاينَه مع قَولِه لنا في تَنزيلِه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4] فكَيفَ بَقي لأذْهانِنا مَجالٌ في إثْباتِ كَيفيّةِ الباري ، تَعالى اللهُ عن ذلك ، فكذلك صِفاتُه المقدَّسَة ، نُقِرُّ بها ونَعتَقدُ أنَّها حقٌّ ، ولا نُمثِّلُها أصْلاً ولا نَتَشكَّلُها[5] .

ووَرَدَ عن إسْحاقَ بنِ راهَوَيْه أنَّ بعضَ المُتكَلِّمينَ قال له : كَفَرْتُ برَبٍّ يَنزِلُ مِنْ سَماءٍ إلىٰ سَماءٍ فقال : آمَنْتُ برَبٍّ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ .

قال الذهبيُّ : هـٰذه الصِّفاتُ من الاسْتِواءِ والإتْيانِ والنُّزولِ ، قد صَحَّتْ بها النُّصوصُ ، ونقَلَهَا الخَلَفُ عن السَّلَفِ ، ولَمْ يَتعرَّضُوا لها بردٍّ ولا تَأويلٍ ، بَلْ أنْكَرُوا علىٰ مَنْ تَأوَّلَها مع إصْفاقِهم علىٰ أنَّها لا تُشْبِهُ نُعُوتَ المَخْلوقينَ وأنَّ اللهَ ليْسَ كَمثلِهِ شيءٌ ، ولا تَنْبَغي المُناظَرَةُ ، ولا التَّنازُعُ فيها فإنَّ في ذلك مُحاوَلَةً للرَّدِّ

---

(١) انظر السير : (نعيم بن حماد بن معاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٢/٨٩٩ .
(٢) انظر السير : (نعيم بن حماد بن معاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩٩ .
(٣) انظر السير : (نعيم بن حماد بن معاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٤/٨٩٩ .
(٤) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .
(٥) انظر السير : (نعيم بن حماد بن معاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٠ .

على الله ورسُولِهِ ، أو حَوْماً على التكْييفِ أو التعْطيلِ[1] .

وقال مُحمّدُ بنُ إبْراهيمَ الصَّرَّام : سَمعتُ عُثْمانَ بنَ سَعيد الدَّارميَّ يقولُ : لا نُكَيِّفُ هـٰذه الصِّفاتِ ، ولا نُكَذِّبُ بها ، ولا نُفَسِّرُها[2] .

وقالَ والدُ أبي حَفْص بن شاهين : حَضَرتُ أبا جَعْفَرٍ التِّرْمِذِيّ فسُئِلَ عن حَديثِ النُّزولِ[3] ، فقالَ : النُّزُولُ مَعْقُولٌ ، والكَيْفُ مَجْهُولٌ ، والإيْمَانُ به واجِبٌ ، والسُّؤالُ عَنهُ بِدْعَةٌ .

قال أحمدُ بنُ كامل القاضي : لَمْ يَكُنْ للشَّافِعيَّة بالعِراقِ أَرْأَسُ ، ولا أَوْرَعُ ولا أَنْقَلُ من أبي جَعْفَرٍ التِّرمِذيّ[4] .

وقالَ أبو سَعيد الدِّيْنَوَرِيُّ ، مُسْتَمْلِي مُحمّد ابن جَرير ، أخْبَرَنا أبو جَعْفَرٍ مُحمّدُ بنُ جَرير الطَّبَرِيُّ بعَقيدَتِه ، فمِنْ ذَلكَ : وحَسْبُ امْرىءٍ أنْ يَعْلَمَ أنَّ رَبَّهُ هُو الذي على العَرْشِ اسْتَوَىٰ ، فمَنْ تَجاوَزَ ذَلكَ فقَدْ خَابَ وخَسِرَ وهـٰذا « تَفْسيرُ » هـٰذا الإمَامِ مَشْحُونٌ في آيَاتِ الصِّفاتِ بأقْوَالِ السَّلَفِ على الإثْباتِ لهَا ، لا على النَّفي والتَّأويل ، وأنَّها لا تُشْبِهُ صِفاتِ المَخْلُوقينَ أبَداً[5] .

ومن عِبارَة الشَّيخِ البَرْبَهاريِّ قال : احْذَرْ صِغارَ المُحْدَثاتِ من الأمُورِ فإنَّ صِغارَ البِدَعِ تَعودُ كِباراً ، فالكَلامُ في الرَّبِ عَزَّ وجَلَّ مُحْدَثٌ وبِدْعَةٌ وضَلالَةٌ ، فلا نَتكلَّمُ فيه إلاَّ بما وَصَفَ به نَفْسَه ، ولا نَقُولُ في صِفاتِهِ : لِمَ ؟ ولا كَيْفَ ؟[6] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ مَرْزُوق الزَّعْفَراني ، حَدَّثنا الحافِظُ أبو بَكْرٍ الخَطيب قال : أمَّا الكَلامُ في الصِّفاتِ ، فإنَّ ما رُوِيَ منها في السُّننِ الصِّحاحِ ، مَذْهَبُ السَّلَفِ إثْباتُها

---

(١) انظر السير : (إسحاق بن راهَويه) ١١/ ٣٥٨ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٥٣ .

(٢) انظر السير : (الدَّارميّ) ١٣/ ٣١٩ـ ٣٢٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٩٢ .

(٣) ولفظه بتمامه : « يَنزلُ ربُّنا كلَّ ليلة إلىٰ سَماءِ الدُّنيا حين يَبقَىٰ ثلثُ الليلِ الآخر ، فيقولُ : مَنْ يَدعُوني فأسْتَجيبُ له ؟ ، مَنْ يَسْألُني فأُعْطيه ؟ ، مَنْ يَسْتغفِرُني فأغفِرُ له ؟ » .

(٤) انظر السير : (أبو جعفر الترمذيّ) ١٣/ ٥٤٥ـ ٥٤٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١١١٦ .

(٥) انظر السير : (محمد بن جرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٥٤ .

(٦) انظر السير : (البربهاريّ) ١٥/ ٩٠ـ ٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٨٥ .

وإجْراؤها علىٰ ظَواهِرها ، ونَفْيُ الكَيْفيَّة والتَّشْبيه عنها وقد نَفَاها قَومٌ ، فأبْطَلُوا ما أثْبَتَهُ اللهُ ، وحَقَّقَها قَومٌ من المثْبتين فخَرَجُوا في ذلك إلىٰ ضَرْبٍ من التَّشْبيه والتَّكْييفِ ، والقَصْدُ إنَّما هو سُلُوكُ الطَّريقَةِ المُتوسِّطَةِ بينَ الأمْرينِ ، ودينُ اللهِ تَعالَىٰ بين الغالي فيه والمُقَصِّرِ عنه والأصْلُ في هٰذا أنَّ الكَلامَ في الصِّفاتِ فَرْعُ الكَلامِ في الذَّاتِ ، ويُحْتَذَىٰ في ذَلكَ حَذْوُهُ ومِثالُه ، فإذا كان مَعْلُوماً أنَّ إثْباتَ رَبِّ العَالَمِينَ إنَّما هُو إثْباتُ وُجُودٍ لا إثْباتُ كَيْفيَّةٍ ، فكذَلكَ إثْباتُ صِفاتِهِ إنَّما هو إثْباتُ وُجُودٍ لا إثْباتُ تَحْديدٍ وتَكْييف .

فإذا قُلنا : للهِ يَدٌ وسَمْعٌ وبَصَرٌ ، فإنَّما هي صِفاتٌ أثْبَتَها اللهُ لنَفْسه ، ولا نَقولُ : إنَّ مَعْنَى اليَدِ القُدْرَة ، ولا إنَّ مَعْنَى السَّمْع والبَصَر العِلْم ، ولا نَقُولُ : إنَّها جَوارِحُ ولا نُشَبِّهُها بالأيْدِي والأسْمَاع والأبْصَار التي هي جَوارِحُ وأدَواتٌ للفِعْلِ ، ونَقولُ : إنَّما وَجَبَ إثْباتُها لأنَّ التَّوقِيفَ وَرَدَ بها ووَجَبَ نَفْيُ التَّشْبيهِ عنها لقَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] ، وقَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[2] [3] .

وقال السَّمعانيُّ : لمَّا وَرَدْتُ أصْبَهانَ كان الإمامُ عبدُ الجَليلِ كُوتَاه ما يَخرجُ عن دارِهِ إلاَّ لحَاجَةٍ مُهمَّةٍ ، كان شَيخُهُ إسْماعيلُ الحَافِظُ هَجَرَهُ ، ومَنَعَهُ من حُضُورِ مَجْلِسه لمَسْألَةٍ جَرَتْ في النُّزولِ ، وكان كوتاه يقولُ : النُّزولُ بالذَّاتِ فأنْكَرَ إسْماعيلُ هٰذا ، وأمَرَهُ بالرُّجُوعِ عَنهُ فمَا فَعَل[4] .

قال الذهبيُّ : ومَسْألَةُ النُّزولِ ، فالإيْمانُ به واجِبٌ ، وتَرْكُ الخَوضِ في لَوازِمِه أوْلَىٰ وهو سَبيلُ السَّلَف ، فما قال هٰذا : نُزولُه بذاتِه ، إلاَّ إرْغاماً لمَنْ تَأوَّلَه .

وقال : نُزُولُه إلى السَّماءِ بالعِلْم فقَطْ نَعُوذُ باللهِ من المِراءِ في الدِّينِ .

---

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٢) سورة الإخلاص ، الآية : ٤ .

(٣) انظر السير : (الخطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٤ .

(٤) انظر السير : (كُوتاه) ٢٠/ ٣٢٩ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٥٧ .

وكَذا قَولُه تَعالَىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[1] ونَحوُه ، فنَقولُ : جاءَ ويَنزِلُ ، ونَنْهَىٰ عن القولِ : سَيَنزِلُ بِذاتِه ، كما لا نقُولُ : يَنْزِلُ بعِلْمِهِ ، بلْ نَسْكُتُ ولا نَتَفَاصَحُ على الرسُولِ صلى الله عليه وسلم بعِباراتٍ مُبْتَدَعَةٍ ، واللهُ أعْلَمُ[2] .

٥ـ لا يُوصَفُ اللهُ سُبحانَه إلاَّ بما وَصَفَ به نفسَه أو وصَفَه رسُولُه صلى الله عليه وسلم :

قال أبو إسْماعيل الأنْصَاريّ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ عمَّار الواعِظَ وقد سَألتُه عن ابنِ حبَّان ، فقال : نحنُ أخْرَجناه من سِجسْتان ، كان له عِلمٌ كثير ، ولَمْ يَكُنْ له كَبيرُ دين ، قَدِمَ علينا ، فأنْكَرَ الحدَّ لله ، فأخْرَجْناه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : إنْكارُكُم عليه بِدْعَةٌ أيْضاً ، والخَوضُ في ذلكَ ممَّا لَمْ يَأذَنْ به اللهُ ، ولا أتَىٰ نَصٌّ بإثْباتِ ذلكَ ولا بنَفْيه ، و« مِنْ حُسْنِ إسْلام المَرْءِ تَرْكهُ مَا لاَ يَعْنِيه » وتَعالَى اللهُ أنْ يُحَدَّ أو يُوصَفَ إلاَّ بما وَصَفَ به نَفسَه ، أوْ عَلَّمَه رُسُلَه بالمَعْنى الذي أرادَ بِلا مِثْلٍ ولا كَيْف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3] ،[4] .

٦ـ تَفسيرُ آيَة الحَديد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ :

قال معدانُ ـ الذي يَقولُ فيه عبدُ الله بنُ المُبارَك : هُوَ من الأبْدال[5] ـ سَألتُ الثَّوْريَّ عن قَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[6] ، فقال : عِلْمُهُ[7] .

---

(١) سورة الفجر ، الآية : ٢٢ .

(٢) انظر السير : (كُوتاه) ٢٠/ ٣٢٩ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٥٧ .

(٣) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٤) انظر السير : (ابن حِبّان) ١٦/ ٩٢ـ ١٠٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٠ .

(٥) قوم من عباد الله الصالحين ، يهتدون بكتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، ويتصفون بحسن الخلق ، وصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة الصدر ، يستجيب الله دعاءهم ، ولا يخيب رجاءهم ، ورد في حقهم أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أوردها السخاوي في « المقاصد الحسنة » ص ٨ ـ ١٠ ، وتكلم عليها فراجعه .

(٦) سورة الحديد ، الآية : ٤ .

(٧) انظر السير : (سفيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٩/٦٩٩ .

٧ـ المُتأوِّلُ بَعضَ أخْبارِ الصِّفاتِ يُعْذَرُ :

قالَ الحاكمُ : سَمعتُ مُحمّدَ بنَ صَالح بن هانىء ، سَمعتُ ابنَ خُزَيْمَة يقُولُ : مَنْ لَمْ يُقِرّ بأنَّ اللهَ علىٰ عَرْشِهِ قَد اسْتَوَىٰ فَوْقَ سَبعِ سَماواتِه فهُو كافرٌ حَلالُ الدَّمِ ، وكان مالُهُ فَيْئاً .

قال الذهبيُّ : مَنْ أقَرَّ بذَلكَ تَصْديقاً لكِتابِ اللهِ ولأحاديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وآمَنَ به مُفَوِّضاً مَعْناه إلى اللهِ ورَسُولِه ، ولَمْ يَخُضْ في التَّأويلِ ولا عَمَّق ، فهُو المُسْلِمُ المُتَّبِعُ ، ومَنْ أنْكَرَ ذلكَ ، فلَمْ يَدْرِ بثُبُوتِ ذلكَ في الكِتابِ والسُّنَّة فهو مُقَصِّر ، واللهُ يَعْفُو عَنهُ ، إذْ لَمْ يُوجِبِ اللهُ علىٰ كُلِّ مُسْلمٍ حِفْظَ ما وَرَدَ في ذَلكَ ومَنْ أنْكَرَ ذلكَ بعدَ العِلْمِ ، وقَفَا غَيرَ سَبيلِ السَّلَفِ الصَّالِح ، وتَمَعْقَلَ على النَّصِ ، فأمْرُهُ إلى اللهِ ، نَعُوذُ باللهِ من الضَّلالِ والهَوَىٰ .

وكَلامُ ابنِ خُزَيْمَة هـٰذا ـ وإنْ كانَ حَقاً ـ فهُوَ فَجٌّ ، لا تَحْتَمِلُه نُفُوسُ كَثيرٍ من مُتَأخِّري العُلَمَاء[1] .

قال الذهبيُّ : وكِتابُ ابنِ خُزَيْمَة في « التَّوحيدِ » مُجَلَّدٌ كَبيرٌ ، وقد تَأوَّلَ في ذَلكَ حَديثَ الصُّورَةِ[2] ،[3] .

فلْيُعذَرْ من تَأوَّلَ بَعضَ الصِّفاتِ ، وأمَّا السَّلَفُ فما خَاضُوا في التَّأويلِ ، بَلْ آمَنُوا

---

(١) انظر السير : (ابن خُزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٦/١١٦١ .

(٢) حديثُ الصورة ، أخرجه البخاري في « صحيحه » (١١/ ٢) أول الاستئذان ، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة : باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير وأحمد : (٢/ ٣١٥) ، وابن خُزيمة في « التوحيد » (٣٩ ـ ٤٠) من طريق مُعمّر عن همّام بن مُنبه ، عن أبي هُريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خَلَقَ اللهُ آدَمَ علىٰ صُورَتِه ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِراعاً ، فلَمَّا خَلَقَه ، قالَ : اذْهَبْ ، فَسَلِّمْ علىٰ أُولَئِكَ ـ نَفَرٌ مِنَ المَلائِكَةِ جُلُوسٌ ـ فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ ، فإنَّهَا تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ ، فقَالَ : السَّلامُ عَليكُم فقَالُوا : السَّلامُ عَلَيْكَ ورَحْمَةُ اللهِ فزَادُهُ : « ورَحْمَةُ اللهِ » فكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ علىٰ صُورَةِ آدَمَ ، فَلَمْ يَزَلْ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حتّى الآن » ورَاجِعْ ما كَتَبَه الحافظُ ابنُ حَجَر عن عَوْدِ الضَميرِ في (صورته) في الفَتح : (٥/ ١٣٣) ، (٦/ ٢٦٠) ، (١١/ ٢ـ ٣) .

(٣) انظر السير : (ابن خُزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ١/١١٦٢ .

وكَفُّوا ، وفَوَّضُوا عِلْمَ ذَلكَ إلى اللهِ ورسُولِه ، ولَوْ أنَّ كُلَّ مَنْ أخْطَأَ في اجْتِهَادِه ـ مع صِحَّةِ إيْمانِه وتَوَخِّيه لاتِّباع الحَقِّ ـ أهْدَرْناهُ وبَدَّعْناهُ ، لَقَلَّ مَنْ يَسْلَمُ من الأئِمَّة مَعَنا رَحِمَ اللهُ الجَميعَ بِمَنِّهِ وكَرَمِه[1] .

وقالَ أحمَدُ بنُ مُحمّد الخَفَّاف ، حَدَّثنا أبو العَبَّاسِ السَّرَّاج إمْلاءً قال : مَنْ لَمْ يُقِرَّ بأنَّ اللهَ تَعالَىٰ يَعْجَبُ ، ويَضْحَكُ ، ويَنْزِلُ كُلَّ ليْلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا ، فيقُولُ : « مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيهِ » الحديث ، فهُوَ زِنْديقٌ كافِرٌ ، يُسْتَتابُ ، فإنْ تابَ وإلاَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه ، ولا يُصَلَّىٰ عليه ، ولا يُدْفَنُ في مَقابِرِ المْسلِمين .

قال الذهبيُّ : لا يُكَفَّرُ إلاَّ إنْ عَلِمَ أنَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم قالَه فإنْ جَحَدَ بعدَ ذَلكَ فهـٰذا مُعانِدٌ نَسْألُ اللهَ الهُدَىٰ ، وإنْ اعْتَرَفَ أنَّ هـٰذا حَقٌّ ، ولكنْ لا أخُوضُ في مَعانِيه ، فقَدْ أحْسَنَ ، وإنْ آمَنَ وأوَّلَ ذَلكَ كُلَّه ، أو تَأوَّلَ بَعضَه ، فهو طَريقَةٌ مَعْروفَة .

وقد كانَ السَّرَّاجُ ذا ثَروَةٍ وتِجارَةٍ ، وبِرٍّ ومَعْروفٍ ، وله تَعَبُّدٌ وتَهَجُّدٌ إلاَّ أنَّه كانَ مُنافِراً للفُقَهَاءِ أصْحابِ الرَّأي ، واللهُ يَغْفِرُ له[2] .

وقال أبو شامَة : كان ابنُ قُدامَةَ المَقْدسيّ ـ صاحِبُ المُغْني ـ إماماً عَلَماً في العِلْمِ والعَمَلِ ، صَنَّفَ كُتُباً كَثيرة ، لَكنَّ كَلامَه في العَقائِد على الطَّريقَة المَشْهُورَةِ عن أهْلِ مَذْهَبِه ، فسُبْحانَ مَنْ لَمْ يُوَضِّحْ لَه الأمْرَ فيها علىٰ جَلالَتِه في العِلْمِ ومَعرفَتِه بمَعاني الأخْبار .

قال الذهبيُّ : وهو وأمْثالُه مَتَعَجَّبٌ منكُم مع عِلْمِكُم وذَكائِكُم كَيفَ قُلْتُم ؟!! ، وكَذا كُلُّ فِرْقةٍ تَتَعَجَّبُ من الأخْرىٰ ، ولا عَجَبَ في ذَلكَ ، ونَرجُو لكُلِّ مَنْ بَذَلَ جُهْدَه في تَطَلُّبِ الحَقِّ أنْ يُغْفَرْ له من هـٰذه الأمَّة المَرْحُومَة ، وانْتَقَلَ إلىٰ رَحمَةِ اللهِ سَنَةَ عِشْرينَ وسِتِّ مِئَة[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن خُزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٢ .

(٢) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٤ .

(٣) انظر السير : (ابن قُدامة المقدسيّ) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٨٢ .

٨ـ النَّدَمُ على التَّعمُّق في عِلمِ الكَلام :

قال الإمامُ الذهبيُّ: وقَرَأتُ بخَطِّ جَعْفَرٍ : سَمعتُ أبا المَعَالي يقُولُ : قَرأتُ خَمسينَ ألفاً في خَمسين ألفاً ، ثُمّ خَلَّيْتُ أهْلَ الإسْلامِ بإسْلامِهم فيها وعُلُومِهِم الظَّاهِرَة ، ورَكِبتُ البَحرَ الخِضَمَّ ، وغُصْتُ في الذي نَهَىَ أهلُ الإسْلامِ ، كُلُّ ذلكَ في طَلَبِ الحَقِّ ، وكُنتُ أهْرُبُ في سَالِفِ الدَّهْرِ من التَّقْليدِ ، والآنَ فقَدْ رَجَعتُ إلىٰ كَلِمَةِ الحَقِّ ، عَليكُم بدِينِ العَجَائِزِ ، فإنْ لَمْ يُدْرِكْني الحَقُّ بلَطِيفِ بِرِّهِ ، فأمُوتُ عَلىٰ دِينِ العَجَائِزِ ، ويَخْتِمُ عَاقِبَةَ أمْري عند الرَّحيلِ علىٰ كَلمَةِ الإخْلاصِ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، فالوَيْلُ لابنِ الجُوَيْنيّ[1] .

وقالَ الفَقِيهُ غانِمُ المُوشِيليّ : سَمعتُ الإمَامَ أبا المَعَالِي يقُولُ : لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أمْرِي ما اسْتَدْبَرتُ ما اشْتَغلتُ بالكَلام .

قال أبو المَعَالي في كِتابِ « الرِّسَالَة النِّظاميّة » : اخْتَلَفَتْ مَسَالكُ العُلماءِ في الظَّواهِر التي وَرَدَتْ في الكِتابِ والسُّنَّة ، وامْتَنَعَ علىٰ أهْلِ الحَقِّ فَحْواهَا ، فرَأىٰ بَعضُهُم تَأويلَهَا ، والْتَزَمَ ذلكَ في القُرآنِ وما يَصِحُّ من السُّنَنِ ، وذَهَبَ أئِمَّةُ السَّلَفِ إلى الانْكِفَافِ عن التَّأويلِ وإجْراءِ الظَّواهِر علىٰ مَوَارِدِها ، وتَفْويضِ مَعَانيها إلى الرَّبِّ تَعالَىٰ ، والذي نَرْتَضِيه رَأياً ، ونَدينُ اللهَ به عَقْداً اتِّباعُ سَلَفِ الأمّة ، فالأوْلَى الاتِّباع[2] .

قد اعْترَفَ فَخْرُ الدِّينِ مُحمّدُ بنُ عُمَرَ القُرَشيّ في آخِرِ عُمْرِه حَيثُ يَقولُ : لقد تَأمَّلْتُ الطُّرُقَ الكَلاميّة والمَنَاهِجَ الفَلْسَفيّة فما رَأيتُها تُشْفِي عَليلاً ولا تَرْوي غَليلاً ، ورَأيتُ أقْرَبَ الطُّرُقِ طَريقَةُ القُرآنِ ، أقْرأُ في الإثْباتِ : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[3] ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ﴾[4] ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[5] ومَنْ جَرَّبَ تَجْربَتي عَرَفَ مثلَ مَعْرِفَتي[6] .

---

(١) انظر السير : (إمام الحرمين) ١٨/ ٤٦٨ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٣٢ .

(٢) انظر السير : (إمام الحرمين) ١٨/ ٤٦٨ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٣٣ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٥ .

(٤) سورة فاطر، الآية : ١٠ .

(٥) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٦) انظر السير : (فخر الدين) ٢١/ ٥٠٠ـ ٥٠١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٥٥ .

٩ـ البُعدُ عن التَّوَسُّع في الألفاظِ العَقَديّة المُوهِمة :

قالَ أبُو بَكْرِ المَرْوِذيّ : ذَكَرَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل هِشَامَ بنَ عَمّارٍ ، فقال : طَيّاشٌ خَفيف[١] .

قالَ الذهبيُّ : أمَّا قَولُ الإمامِ أحمَد عن هِشَام بنِ عَمّارٍ أنَّه طيّاش ، فلأنَّهُ بَلَغَهُ عَنهُ أنَّه قالَ في خُطْبَتِه : « الحَمْدُ للهِ الذي تَجَلّىٰ لِخَلْقِه بِخَلْقِه » ، فهَـٰذهِ الكَلِمَة لا يَنْبَغي إطْلاقُها ، وإنْ كانَ لها مَعْنىً صَحيح ، لكنْ يَحْتَجُّ بها الحُلُوليُّ والاتِّحاديُّ وما بَلَغَنا أنَّه سُبْحانَه وتَعالَىٰ تَجَلَّىٰ لشَيءٍ إلاَّ بجَبَلِ الطُّورِ ، فصَيَّرَهُ دَكّاً وفي تَجَلِّيهِ لنَبيِّنا صلى الله عليه وسلم اخْتلافٌ أنْكَرَتهُ عائِشَةُ وأثْبَتَهُ ابنُ عَبَّاس[٢] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ : وذَكَرَ أبُو المُظَفَّر الواعِظُ في « مِرْآةِ الزَّمانِ » قال : كان الحافِظُ عبدُ الغَنيّ يَقْرأُ الحَديثَ بعدَ الجُمُعَةِ ، قال : فاجْتَمَعَ القاضي مُحْيي الدّين ، والخَطيبُ ضِياءُ الدّين ، وجَمَاعَةٌ ، فصَعَدُوا إلى القَلْعَةِ ، وقالُوا لِوَالِيها : هَـٰذا قَدْ أضَلَّ النَّاسَ ، ويَقُولُ بالتَّشْبيهِ ، فعَقَدُوا له مَجْلِساً ، فنَاظَرَهُم ، فأخَذُوا عَلَيْه مَوَاضِعَ مِنْها : قَولُه : (لا أُنَزِّهُهُ تَنْزيهاً يَنْفِي حَقيقَةَ النُّزولِ) ، ومِنْها : (كَانَ اللهُ ولا مَكان ، ولَيْسَ هُوَ اليَومَ علىٰ ما كان) ، ومِنْها : مَسْأَلَةُ الحَرْفِ والصَّوْتِ ، فقَالُوا : إذا لَمْ يَكُنْ علىٰ ما كانَ فقَدْ أثْبَتَّ له المَكانَ ، وإذا لَمْ تُنَزِّهْهُ عن حَقيقَةِ النُّزولِ فقَدْ جَوَّزْتَ عليه الانْتِقَالَ ، وأمَّا الحَرْفُ والصَّوتُ فلَمْ يَصِحَّ عَنْ إمَامِكَ ، وإنَّما قالَ : إنَّهُ كَلامُ اللهِ ، يَعْنِي غَيْرَ مَخْلُوقٍ ، وارْتَفَعَتِ الأصْوَاتُ ، فقالَ وَالِي القَلْعَة الصَّارِمُ برغش : كُلُّ هَؤلاءِ علىٰ ضَلالَةٍ وأنْتَ على الحَقِّ!! ؟ قال : نَعَم فأَمَرَ بِكَسْرِ مِنْبَرِه .

قالَ : وخَرَجَ الحافِظُ إلىٰ بَعْلَبَكَّ ، ثمّ سَافَرَ إلىٰ مِصْرَ إلىٰ أنْ قالَ : فأفْتَىٰ فُقَهَاءُ مِصْرَ بإباحَةِ دَمِهِ ، وقالُوا : يُفْسِدُ عَقَائِدَ النَّاسِ ، ويَذْكُرُ التَّجْسيمَ ، فكَتَبَ الوَزيرُ بنَفْيِهِ إلى المَغْرِبِ ، فمَاتَ الحافِظُ قَبْلَ وُصُولِ الكِتاب[٣] .

---

(١) انظر السير : (هشام بن عمار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٥٧ .

(٢) انظر السير : (هشام بن عمار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٥٧ .

(٣) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٤٩ .

وذَكَرَ أبُو المُظَفَّر الواعِظُ في « مِرْآةِ الزَّمانِ » : وفي ذِي القِعْدَة سَنةَ سِتٍّ وتِسْعينَ وخَمسِ مِئَة كان ما اشْتُهِرَ من أمْرِ الحافظِ عبد الغَنيّ وإصْرارُه علىٰ ما ظَهَرَ من اعْتِقادِه وإجْمَاعُ الفُقَهاءِ على الفُتْيَا بتَكْفِيرِه ، وأنَّه مُبْتَدِعٌ لا يَجُوزُ أنْ يُتْرَكَ بينَ المُسلمينَ ، فسَألَ أنْ يُمْهَلَ ثلاثَةَ أيّامٍ لِيَنْفَصِلَ عن البَلَدِ فأُجِيب[1] .

قال الذهبيُّ : قد بَلَوْتُ علىٰ أبي المُظَفَّر المُجازَفَةَ وقِلَّةَ الوَرَعِ فيما يُؤَرِّخُه واللهُ المُوعِدُ ، وكان يَتَرَفَّضُ ، رأيتُ له مُصَنَّفاً في ذلكَ فيه دَواهٍ ، ولَوْ أجْمَعَتِ الفُقَهاءُ علىٰ تَكْفيرِه كما زَعَمَ لمَا وَسِعَهُم إبْقَاؤهُ حيّاً ، فقَد كان علىٰ مَقَالَتِه بدِمَشْقَ أخُوهُ الشَّيخُ العِمَادُ والشَّيخُ مُوَفَّقُ الدّين ، وأخُوهُ القُدوَةُ الشَّيخُ أبُو عُمَرَ ، والعَلاَّمَة شَمسُ الدّين البُخاريّ ، وسائِرُ الحَنابلَة ، وعِدّةٌ من أهْلِ الأثَر ، وكان بالبَلَدِ أيْضاً خَلْقٌ من العُلَمَاء لا يُكَفِّرُونَه ، نَعَمْ ولا يُصَرِّحُون بمَا أطْلَقَهُ من العِبارَةِ لمَّا ضايَقُوهُ ، ولَوْ كَفَّ عن تِلكَ العِبَاراتِ ، وقال بمَا وَرَدَتْ به النُّصُوصُ لأجَادَ ولَسَلِمَ ، فهُو الأوْلَىٰ ، فما في تَوْسِيعِ العِباراتِ المُوهِمَةِ خَيرٌ ، وأسْوأُ شَيءٍ قالَه أنْ ضَلَّلَ العُلَماءَ الحاضِرين ، وأنَّه على الحَقِّ ، فقَالَ كَلمَةً فيها شَرٌّ وفَسادٌ وإثارَةٌ للبَلاءِ ، رَحِمَ اللهُ الجَميعَ وغَفَرَ لهُم ، فمَا قَصْدُهُم إلاَّ تَعْظيمُ البَارِي عَزَّ وجَلَّ من الطَّرَفَيْن ،ولكنَّ الأكْمَلَ في التَّعْظيمِ والتَّنْزيه الوُقُوفُ معَ ألْفاظِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وهَـٰذا هو مَذْهَبُ السَّلَفِ رَضي اللهُ عنهم .

وبكُلِّ حالٍ فالحَافِظُ عبدُ الغَنيّ من أهْلِ الدّينِ والعِلْمِ والتَّألُّهِ والصَّدْعِ بالحَقِّ ، ومَحَاسِنُهُ كَثيرةٌ ، فنَعُوذُ باللهِ من الهَوَىٰ والمِراءِ والعَصَبيّةِ والافْتِراءِ ، ونَبْرأُ من كُلِّ مُجَسِّمٍ ومُعَطِّلٍ[2] .

١٠ـ البُعْدُ عن الفِتن الناشِئَة عن فُضُولِ الكَلامِ في أصُولِ الدّين وفُروعِه :

قالَ الذهبيُّ : يَنْبَغي للمُسْلمِ أنْ يَسْتعيذَ من الفِتَنِ ، ولا يَشْغَبَ بذِكرِ غَريبِ المَذاهِبِ لا في الأصُولِ ولا في الفُروعِ ، فما رَأيتُ الحَرَكَةَ في ذلكَ تُحَصِّلُ خَيراً ، بل

---

(١) انظر السير : (عبد الغنيّ) ٢١/٤٤٣ـ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٥٠ .

(٢) انظر السير : (عبد الغنيّ) ٢١/٤٤٣ـ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥٠ .

تُثِيرُ شَراً وعَداوَةً ومَقْتاً للصُّلَحاءِ والعُبَّادِ من الفَريقَيْنِ فتَمَسَّكْ بالسُّنَّةِ ، والْزَمِ الصَّمْتَ ، ولا تَخُضْ فيما لا يَعْنيكَ ، وما أُشْكِلَ عَليْكَ فرُدَّهُ إلى الله ورسُولِه ، وقِفْ ، وقُلْ : اللهُ ورسُولُه أعْلَم[1] .

١١ـ البُعدُ عن التَّكلُّف في مَسائل مثل : أمُؤمنٌ أنتَ حَقاً!! ؟ :

عن أبي إسْحاقَ الفَزَاريّ ، قال الأوْزاعيُّ في الرَّجُلِ يَسْألُ : أمُؤمنٌ أنْتَ حَقاً ؟ قالَ : إنَّ المَسْألَةَ عن ذَلكَ بدْعَةٌ ، والشَّهادَةُ عليه تَعَمُّقٌ لَمْ نُكَلَّفْهُ في دينِنا ، ولَمْ يَشْرَعْهُ نَبيُّنا ، القَولُ فيه جَدَلٌ ، والمُنازَعَةُ فيه حَدَثٌ ، وذَكَرَ فَصْلاً نافِعاً[2] .

١٢ـ مَسائلُ عَقَديّة :

وقال المُبرِّدُ : عن أبي عُثمانَ المَازِنيّ قال : سُئلَ عليُّ بن مُوسَى الرِّضَا : أيُكَلِّفُ اللهُ العِبَادَ ما لا يُطِيقُونَ ؟ قال : هُوَ أعْدَلُ من ذَلكَ ، قِيلَ : فيَسْتَطيعُونَ أنْ يَفْعَلُوا ما يُريدُونَ ؟ قال : هُمْ أعْجَزُ من ذلكَ[3] .

سُئلَ أبو القاسِمِ التَّيْميُّ رحمَه الله : هَلْ يَجوزُ أنْ يُقالَ : للهِ حَدٌّ أوْ لا ؟ وهَلْ جَرَىَ هٰذا الخِلافُ في السَّلَفِ ؟ فأجابَ : هٰذه مَسْألةٌ أسْتَعْفي من الجَوابِ عَنْها لِغُمُوضِها ، وقِلّة وُقوفي علىٰ غَرَضِ السَّائل منها لكنِّي أُشِيرُ إلىٰ بَعضِ ما بَلَغَني ، تَكلَّمَ أهلُ الحَقائقِ في تَفْسيرِ الحَدِّ بعِباراتٍ مُخْتلِفَة مَحْصُولُها أنَّ حَدَّ كُلِّ شَيءٍ مَوْضِعُ بَيْنُونَتِه عن غَيرِه ، فإنْ كانَ غَرَضُ القَائلِ : لَيْسَ للهِ حَدٌّ : لا يُحيطُ عِلمُ الحَقائقِ به ، فهُو مُصيبٌ ، وإنْ كانَ غَرَضُه بذلك : لا يُحيطُ عِلمُهُ تَعالَىٰ بنَفْسِه فهُو ضَالٌّ ، أوْ كانَ غَرَضُه أنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مَكانٍ فهُو أيْضاً ضالٌّ[4] .

قال الذهبيُّ : الصَّوابُ الكَفُّ عن إطْلاقِ ذلكَ ، إذْ لَمْ يَأتِ فيه نَصٌّ ، ولَوْ فَرَضْنا أنَّ

---

(١) انظر السير : (ابن المعتمد) ٢٠/ ١٣٩ـ ١٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣٨ .
(٢) انظر السير : (أبو إسحاق الفزاريّ) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٧٩١ .
(٣) انظر السير : (علي الرّضىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ١/٨٣٢ .
(٤) انظر السير : (التيميّ) ٢٠/ ٨٠ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٣ .

المَعْنَىٰ صَحيحٌ ، فلَيْسَ لنا أنْ نَتَفَوَّهَ بشيء لَمْ يَأذَنْ بهِ اللهُ خَوْفاً من أنْ يَدخُلَ القَلبَ شيءٌ من البِدْعَةِ ، اللَّهُمَّ احْفَظْ عَلَيْنا إيمانَنا[1] .

١٣ـ دَلائلُ عَقليّة علىٰ مَسائل عَقَديّة :

قال رُسْتَه : سَمعتُ ابنَ مَهْدي يَقولُ لِفَتىً من وَلَدِ الأميرِ جَعْفَرِ ابنِ سُليْمان : بَلَغَني أنَّكَ تَتكلَّمُ في الرَّبِّ ، وتَصِفُهُ وتُشَبِّهُه قالَ : نَعَمْ ، نَظَرْنا ، فلَمْ نَرَ مِنْ خَلْقِ الله شَيئاً أحْسَنَ من الإنْسانِ ، فأخَذَ يَتكلَّمُ في الصِّفَةِ ، والقامَةِ فقالَ له : رُوَيْدَك يا بُنَيّ حتّىٰ نَتكلَّمَ أولَ شَيءٍ في المَخْلوقِ ، فإنْ عَجَزْنا عنه ، فنَحنُ عن الخَالِقِ أعْجَزُ ، أخْبِرْني عمَّا حَدَّثني شُعبَة ، عن الشَّيْبانيّ ، عن سَعيدِ بنِ جُبَيْر ، عن عبد اللهِ : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[2] ، قالَ : رَأىٰ جِبْريلَ له سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ ، فبَقِيَ الغُلامُ يَنْظُرُ فقالَ : أنا أُهَوِّنُ عَليكَ صِفْ لي خَلْقاً له ثَلاثةُ أجْنِحَةٍ ، ورَكِّبِ الجَناحَ الثالثَ مِنْه مَوْضِعاً حتّىٰ أعْلم قالَ : يا أبا سَعيد ، عَجَزْنا عن صِفَةِ المَخْلوقِ ، فأُشْهِدُكَ أنِّي قد عَجَزْتُ ورَجَعْتُ[3] .

وقال أبُو يَحْيَىٰ زَكريا السَّاجِيُّ ، حَدَّثنا المُزَنيُّ ، قالَ : قُلتُ إنْ كانَ أحَدٌ يُخْرِجُ ما في ضَميري ، وما تَعَلَّقَ به خاطِري من أمْرِ التَّوحيدِ فالشَّافِعيُّ ، فصِرْتُ إليه ، وهو في مَسْجِدِ مِصْرَ ، فلمَّا جَثَوْتُ بينَ يَديْه ، قُلتُ : هَجَسَ في ضَميري مَسْألَةٌ في التَّوحيدِ فعَلِمتُ أنَّ أحَداً لا يَعلَمُ عِلمَكَ ، فما الذي عِندَكَ ؟ فغَضِبَ ، ثمّ قال : أتَدْري أينَ أنْتَ ؟ قُلتُ : نَعَمْ ، قال : هٰذا المَوْضِعُ الذي أغْرَقَ اللهُ فيه فِرْعَونَ .

أبَلَغَكَ أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أمَرَ بالسُّؤالِ عن ذَلكَ ؟ قُلتُ : لا ، قَالَ : هَلْ تَكَلَّمَ فيه الصَّحابَةُ ؟ قُلتُ : لا ، قالَ : تَدْري كَمْ نَجْماً في السَّماءِ ؟ قُلتُ : لا ، قالَ : فكَوْكَبٌ منها : تَعرِفُ جِنْسَه ، طُلُوعَه ، أُفُولَه ، مِمَّ خُلِقَ ؟ قُلتُ : لا ، قالَ : فشَيءٌ تَراهُ بِعَيْنِكَ من الخَلْقِ لَسْتَ تَعْرِفُهُ ، تَتكَلَّمُ في عِلْمِ خالِقِه ؟!! ، ثُمَّ سَألَني

---

(١) انظر السير : (التيميّ) ٢٠/ ٨٠ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٣ .

(٢) سورة النجم ، الآية : ١٨ .

(٣) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن مهدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨١٧ .

عن مَسْألَةٍ في الوُضُوءِ ، فأخْطَأتُ فيها ، فَفَرَّعَها علىٰ أرْبَعَةِ أوْجُهٍ ، فلَمْ أُصِبْ في شَيءٍ منه ، فقالَ : شَيءٌ تَحْتاجُ إلَيْهِ في اليَومِ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، تَدَعُ عِلْمَه ، وتتَكَلَّفُ عِلمَ الخَالِقِ ، إذا هَجَسَ في ضَميرِكَ ذلكَ ، فارْجِعْ إلى اللهِ ، وإلىٰ قَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية[1] فاسْتَدِلَّ بالمَخْلُوقِ على الخَالِقِ ، ولا تتَكَلَّفْ عِلمَ ما لَمْ يَبْلُغْهُ عَقْلُكَ ، قالَ : فثَبُتُّ[2] .

وقالَ أبُو القاسِمِ القُشَيْرِيُّ : سَمعتُ أبا بَكْرِ بنَ فُورك يَقولُ : سُئلَ الأسْتاذُ أبُو سَهْلٍ الصُّعْلوكيّ عن جَوازِ رُؤْيَةِ الله بالعَقْلِ ، فقالَ : الدَّليلُ عَليه شَوْقُ المُؤمِنينَ إلىٰ لِقائِه ، والشَّوْقُ إرادَةٌ مُفْرِطَةٌ ، والإرادَةُ لا تَتَعَلَّقُ بمُحالٍ[3] .

وقالَ الضِّياءُ سَمعتُ الحَافِظَ اليُونينيّ يقولُ : لمَّا كُنتُ أسْمَعُ شَناعَةَ الخَلقِ على الحَنابِلَة بالتَّشْبيهِ عَزَمْتُ علىٰ سُؤالِ الشَّيخ المُوَفَّق ـ ابنَ قُدامَة ـ وبَقيتُ أشْهُراً أريدُ أنْ أسْألَه ، فصَعَدتُ مَعَه الجَبَلَ ، فلمَّا كُنَّا عندَ دَارِ ابنِ مُحارِب قُلتُ : يا سَيِّدي ، وما نَطَقْتُ بأكْثَرَ مِنْ سَيِّدي ، فقالَ لي : التَّشْبيهُ مُسْتَحيلٌ فقُلتُ : لِمَ ؟ قالَ : لأنَّ مِنْ شَرْطِ التَّشْبيهِ أنْ نَرَى الشَيءَ ، ثمّ نُشَبِّهُه ، مَنِ الذي رَأى اللهَ ثمّ شَبَّهَه لنَا ؟!! ، وذَكَرَ الضِّياءُ حِكاياتٍ في كَرَامَاته[4] .

١٤ـ مُناظَرات :

قالَ اليَزيديُّ وآخَرُ : تَكلَّمَ عَمرُو بنُ عُبَيد في الوَعيدِ سَنةً ، فقالَ أبو عَمرِو بنُ العَلاء : إنَّكَ لألْكَنُ الفَهمِ ، إذْ صَيَّرتَ الوَعيدَ الذي في أعْظمِ شَيءٍ مِثلَهُ في أصْغَرِ شَيءٍ ، فاعْلَمْ أنَّ النَّهيَ عن الصَّغيرِ والكَبيرِ ليْسا سَواء وإنَّما نَهَى اللهُ عَنهُما لِتَتِمَّ حُجَّتُه علىٰ خَلقِه ، ولِئلا يَعْدلَ عنْ أمْرِه ووَرَاءَ وَعيدِه عَفْوُهُ وكَرَمُه ثمَّ أنْشَدَ :

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) انظر السير : (الإمام الشافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٤٧ .

(٣) انظر السير : (الصُّعلوكيّ) ١٦/ ٢٣٥ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٩١ .

(٤) انظر السير : (ابن قدامة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٨٢ .

ولا يَرْهَبُ ابنُ العَمِّ ما عِشْتُ صَوْلَتِي ... ولا أخْتتِي[1] مِنْ صَوْلَةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّـي وإنْ أَوْعَـدْتُـهُ وَوَعَـدْتُـهُ ... لَمُخْلِفُ إيْعـادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

فقالَ عَمرُو بنُ عُبَيد : صَدَقتَ إنَّ العَربَ تَتَمدَّحُ بالوَفاءِ بالوَعدِ والوَعيدِ ، وقد يُمْتَدَحُ بهما المَرءُ ، تَسَمَّعْ إلىٰ قَولِهِم :

لا يُخْلِفُ الـوَعْـدَ والـوَعِيـدَ ولا ... يَبِيـتُ مِـنْ ثَـأْرِهِ عَلـىٰ فَـوْتِ

فقَدْ وافَقَ هـٰذا قَولَه تَعالَىٰ : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ الآية[2] .

قالَ أبُو عَمرٍو : قَد وافَقَ الأوّلُ أخْبارَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم والحَديثُ يُفَسِّرُ القُرآنَ[3] .

وقالَ أبُو عليّ التَّنُوخيّ : حَدَّثنا أبُو الحَسَن بنُ الأزْرَق ، قال : كُنتُ بِحَضْرةِ الإمامِ أبي عبدِ الله بنِ الدَّاعي ، فسَألَه أبُو الحَسَن المُعْتَزِليُّ عَمَّا يقُولُه في طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ ، فقالَ : أعْتَقِدُ أنَّهُما مِنْ أهْلِ الجَنَّة ، قال : ما الحُجَّة ؟ قالَ : قد رُوِيَتْ تَوبَتُهما ، والذي هو عُمدَتي أنَّ اللهَ بَشَّرَهما بالجَنَّةِ ، قالَ : فمَا تُنْكرُ علىٰ مَنْ زَعَمَ أنَّه عليه السلام قالَ : إنَّهُما مِنْ أهلِ الجَنَّة ومَقالَتُه : فَلَوْ مَاتَا لَكَانَا في الجَنَّةِ ، فلمَّا أحْدَثا زَالَ ذَلكَ ، قالَ : هَـٰذا لا يَلْزَمُ ، وذلكَ أنَّ نَقلَ المُسلمينَ أنَّ بِشارَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم سَبَقَتْ لهُما فوَجَبَ أنْ تَكونَ مُوافاتُهُما القِيامَة علىٰ عَمَلٍ يُوجِبُ لهُما الجَنَّةَ وإلاَّ لَمْ يَكُنْ ذلكَ بِشارَةٌ ، فدَعا له المُعْتَزِليُّ واسْتَحْسَنَ ذلكَ ، ثمّ قالَ : ومُحالٌ أنْ يُعْتَقَدَ هَـٰذا فيهِمَا ، ولا يُعْتَقَدُ مِثلُهُ في أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ، إذْ البِشَارَةُ للعَشْرَةِ[4] .

وفي « فُنُون » ابنِ عَقيل : قالَ عَميدُ المُلْكِ : قَدِمَ أبُو المَعَالي فكَلَّمَ أبا القَاسِمِ بنَ

---

(١) ولا أختتي : أي لا أستتر خوفاً .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٤٤ .
(٣) انظر السير : (أبو عَمرو بن العَلاء) ٦/٤٠٧ـ٤١٠ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٦ .
(٤) انظر السير : (ابن الداعي) ١٦/١١٤ـ١١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧١ .

بُرهان في العِبادِ ، هَلْ لهُم أفْعالٌ ؟ ، فقَالَ أبُو المَعَالي : إنْ وَجدتَ آيةً تَقْتَضي ذا فالحُجَّةُ لَكَ ، فتَلا : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾[1] ، ومَدَّ بها صَوتَه ، وكَرَّرَ ﴿ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ ، وقَوْلَه : ﴿ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[2] ، أيْ كانُوا مُسْتطيعين فأخَذَ أبُو المَعَالي يَسْتروِحُ إلى التَّأويلِ ، فقالَ : والله إنَّكَ باردٌ تَتأوَّلُ صَريحَ كَلامِ الله لِتُصَحِّحَ بتَأويلِكَ كَلامَ الأشْعَريِّ وأكَلَّهُ ابنُ بُرْهان بالحُجَّةِ ، فبُهِتَ .

دَرَّسَ بِنظاميَّة نيسَابُور ، واسْتَقامَ الأمْرُ ، وبَقِيَ علىٰ ذَلكَ ثلاثينَ سَنةً غَيرَ مُزاحَمٍ ولا مُدافَعٍ ، مُسلَّماً له المِحْرابُ والمِنْبَرُ والخُطبَةُ والتَّدريسُ ومَجْلسُ الوَعْظِ يومَ الجُمُعة ، وظَهَرتْ تَصانيفُه وحَضَرَ دَرسَه الأكابرُ والجَمْعُ العَظيمُ من الطَّلَبَة ، كان يَقعُدُ بينَ يَدَيْه نَحوٌ من ثلاثِ مِئَة وتَفَقَّهَ به أئِمَّةٌ[3] .

١٥ـ أبْياتٌ شِعْريّة :

قالَ أبُو عَمرٍو الدَّاني في أرْجوزَته السائرة :

وَمِنْ صَحيحِ ما أتَىٰ به الخَبَر ... وشَاعَ في النَّاسِ قَديماً وانْتَشَر
نُزُولُ رَبِّنا بِلا امْتِرَاءِ ... في كُلِّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ
مِنْ غَيْرِ ما حَدٍّ ولا تَكْييفِ ... سُبْحانَهُ مِنْ قادِرٍ لَطيفِ
ورُؤْيَةُ المُهَيْمِنِ الجَبَّارِ ... وأنَّنا نَراهُ بالأبْصَارِ
يَوْمَ القِيامَةِ بِلا ازْدِحامِ ... كَرُؤْيَةِ البَدْرِ بِلا غَمَامِ
وضَغْطَةُ القَبْرِ عَلَى المَقْبُورِ ... وفِتْنَةِ المُنْكَرِ والنَّكِيرِ
فالحَمْدُ للهِ الذي هَدَانَا ... لِوَاضِحِ السُّنَّةِ واجْتَبَانَا

وَهِيَ أُرْجُوزَةٌ طَويلةٌ جِداً[4] .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٦٣ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ٤٢ .
(٣) انظر السير : (إمام الحرمين) ١٨/ ٤٦٨ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٣٢ .
(٤) انظر السير : (أبو عَمرو الداني) ١٨/ ٨٨ـ ٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٨٧ .

قالَ المُرسيُّ :[1]

مَنْ كَانَ يَرْغَبُ في النَّجَاةِ فمَا لَهُ ... غَيـرَ اتِّبَـاعِ المُصْطَفَـىٰ فِيمَـا أَتَـى
ذَاكَ السَّبيـلُ المُسْتَقِيـمُ وغَيْـرُهُ ... سُبُـلُ الضَّـلالَـةِ والغِـوَايَـةِ والـرَّدَى
فـاتْبَـعْ كِتَـابَ اللهِ والسُّنَـنَ التِـي ... صَحَّتْ فَذَاكَ إنْ تَبِعْتَ هُو الهُدَىَ
وَدَعِ السُّـؤالَ بِلِـمْ وكَيْـفَ فَـإنَّـهُ ... بَـابٌ يَجُـرُّ ذَوِي البَصِيـرَةِ لِلْعَمَـى
الـدِّيـنُ مَـا قَـالَ الـرَّسُـولُ وصَحْبُـهُ ... والتَّـابِعُـونَ ومَـنْ مَنَـاهِجَهُـمْ قَفَـا

١٦ـ المرتَدُّون بعد وَفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قصَّةُ الأسْوَدُ العَنْسيّ :

عن الضحَّاك بنِ فَيروزَ الدَّيْلميّ ، عن أبيه قال : أوَّلُ رِدَّة كانت في الإسلام علىٰ عَهد رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ يَدِ عَبهلةَ بنِ كَعب .

خرجَ بعد حَجَّة الوَداع ، وكان شِعْباذاً يُريهم الأعاجيبَ ، ويَسْبي قُلوبَ مَنْ يَستمعُ مَنْطقَه ، فوَثبَ هو ومَذْحِج بنَجْرانَ إلىٰ أنْ صارَ إلىٰ صَنعاءَ فأخذَها ، وصَفا له مُلكُ اليَمن .

عن عُبيد بن صَخر قال : غَلبَ الأسْوَدُ علىٰ ما بين أعمالِ الطَّائفِ إلى البَحْرَين وغير ذلك واسْتغلَظَ أمرُه وغَلبَ علىٰ أكثر اليَمن ، وارْتدَّ معه خَلقٌ وعامَلَه المسلمون بالتُّقْيَة ، وأسْنَدَ أمرَ جُندِه إلىٰ قَيسِ ابنِ عبدِ يَغُوث .

قال : فبَينا نحنُ كذلكَ بحَضْرَمَوْت ولا نأمَنُ أنْ يَسيرَ إلينا الأسْوَدُ ، وقد تَزَوَّجَ مُعاذُ في السُّكون[2] إذ جاءَتْنا كُتُبُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يأمُرُنا فيها أنْ نَبعثَ الرِّجالَ لمُجاوَلَتِه ومُصاوَلَتِه ، فقامَ مُعاذٌ في ذلك ، فعَرفْنا القوَّةَ ووَثقْنا بالنصر .

عن جشنِس بنِ الديلمي قال : قَدمَ علينا وَبَرُ بنُ يُحَنَّس بكتاب رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فأمَرَنا فيه بالنُّهوضِ في أمرِ الأسْوَدِ فرَأينا أمراً كثيفاً ، ورَأينا الأسْوَدَ قد تَغيَّرَ

---

(١) انظر السير : (المُرسيّ) ٢٣/ ٣١٢ـ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٧ .
(٢) السُّكون : بطن من كندة .

لَقْيس بنِ عبدِ يَغوث ، فأخْبَرْنا قَيساً وأبلَغْناه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فكأنَّما وَقَعْنَا عليه من السَّماءِ فأجابَنا ، وجاءَ وَبَرُ وكاتَبْنا النَّاسَ ودَعَوْناهم ، فأخْبَرَ الأسْودَ شَيطانُه فأرسَلَ إلىٰ قَيسٍ فقالَ : ما يَقولُ المَلَكُ ؟ يَقولُ : عَمدتُ إلىٰ قَيسٍ فأكْرَمتَه ، حتىٰ إذا دَخلَ منك كُلَّ مَدخَل مالَ مَيْلَ عَدوك ، فحَلفَ له وتَنصَّل ، فقال : أتُكذِّبُ المَلَك ؟ قد صَدق وعَرفْتُ أنَّكَ تائبٌ ، قال : فأتانا قَيسٌ وأخْبَرَنا فقُلنا : نحنُ علىٰ حَذر ، وأرسلَ إلينا الأسْودُ : ألَمْ أُشَرِّفْكُم علىٰ قَومِكم ، ألَمْ يَبلغْني عَنكم ؟ فقُلنا : أَقِلْنا مَرَّتَنا هـٰذه ، فقالَ : فلا يَبْلُغني عَنكُم فأقْتُلُكم ، فنَجَونا ولَمْ نَكَد ، وهو في ارْتياب من أمْرِنا .

قال : فدخَلتُ على امرأتِه آذادَ فقُلتُ : يا ابنةَ عَمٍّ ، قد عَرفتِ بلاءَ هـٰذا الرجل ، وقَتلَ زَوجك وقَومك وفَضح النِّساء ، فهل من مُمالأةٍ عليه ؟ قالت : ما خَلقَ اللهُ أبغَضَ إليَّ منه ، ما يقومُ علىٰ حقٍّ ولا يَنتَهي عن حُرمَة .

ثم قالت : هو مُتحرِّزٌ ، والحَرسُ يُحيطُونَ بالقَصْر سِوىٰ هـٰذا الباب فانْقُبوا عليه ، وهيَّأت لنا سِراجاً ، وخَرجتُ فتَلقَّاني الأسْودُ خارجاً من القَصرِ فقال : ما أدْخَلَك ؟ ووَجَأ رأسي فسَقطتُ ، فصاحَت المرأةُ وقالت : ابنُ عمِّي زارَني ، فقال : اسْكُتي لا أبا لك لقد وَهبتُه لك ، فأتَيتُ أصْحابي وقلتُ : النَّجاءَ ، وأخْبرتُهم الخَبرَ ، فأنا علىٰ ذلك إذْ جاءَني رسُولُها : لا تَدَعنَّ ما فارَقتُك عليه ، فقُلنا لفَيروزَ : ائتِها وأتْقِنْ أمرَنا ، وجِئْنا باللَّيلِ ودَخَلنا ، فإذا سِراجٌ تحتَ جَفْنة ، فاتَّقَيْنا بفَيروزَ ، وكانَ أنْجَدَنا ، فلمَّا دَنا من البَيتِ سَمعَ غَطيطاً شَديداً ، وإذا المَرأةُ جالسَةٌ فلمَّا قامَ فَيروزُ على البابِ أجْلَسَ الأسْودَ شَيطانُه وكلَّمَه فقال أيضاً : فما لي ولكَ يا فَيروز ، فخَشي إنْ رَجَعَ أنْ يَهلك هو والمَرأةُ ، فعاجَلَه وخالَطَه وهو مثلُ الجَمَل ، فأخذَ برأسِه فدقَّ عُنقَه وقَتلَه ، ثم قامَ ليَخرُج فأخَذَت المرأةُ ثوبَه تناشِدُه ، فقال أُخْبرُ أصْحابي بقَتلِه ، فأتانا فقُمنا معه ، فأرَدْنا حَزَّ رأسِه فحَرَّكَه الشَّيطانُ واضْطَربَ ، فلَم يَضبِطْه فقال : اجلِسوا علىٰ صَدرِه ، فجلسَ اثْنان وأخذَت المرأةُ بشَعرِه ، وسَمعنا بَربرةً[1] فألْجَمَته

(١) بربرةً : صِياحاً .

بمَلاءَة[1] ، وأمرَّ الشَّفرَةَ علىٰ حَلقِه ، فخارَ كأشدِّ خُوار ثَورٍ ، فابْتَدرَ الحَرسُ البابَ : ما هـٰذا ما هـٰذا ؟ قالت : النبيُّ يُوحَىٰ إليه ، قال : وسَمرنا لَيلتَنا كيف نُخبرُ أشْياعَنا ، فأجْمَعنا على النداء بشِعارِنا ثمَّ بالأذان ، فلمَّا طلعَ الفَجرُ نادىٰ داذويه بالشِّعارِ ، ففَزِعَ المسلمونَ والكافرونَ ، واجتمَع الحَرسُ فأحاطوا بنا ، ثم نادَيتُ بالأذان ، وتوافَت خُيولُهم إلى الحَرسِ فنادَيتُهم : أشْهدُ أنَّ مُحمَّداً رسُولُ الله ، وأنَّ عبهَلةَ كذَّاب ، وألقَينا إليهم الرَّأسَ ، وأقامَ وبرٌ الصَّلاةَ ، وشَنَّها القومُ غارةً ، ونادينا : يا أهلَ صَنعاءَ مَنْ دَخلَ عَليه داخلٌ فتَعلَّقوا به ، فكَثُرَ النَّهبُ والسَّبيُ ، وخَلُصَت صَنعاء والجَنَد ، وأعزَّ اللهُ الإسْلامَ ، وتَنافَسنا الإمارةَ ، وتراجَعَ أصحابُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاصْطَلحْنا علىٰ مُعاذ بنِ جَبل ، فكان يُصلِّي بنا ، وكَتبنا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم الخَبرَ فقدِمَت رسُلنا وقد قُبضَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم صَبيحتَئذٍ فأجابَنا أبو بَكْر عنه[2] .

خَبَر الرِّدَّة :

لَمَّا اشتهرت وفاةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالنَّواحي ، ارْتدَّت طوائفُ كثيرةٌ من العرب عن الإسلام ومَنعوا الزكاة ، فنَهضَ أبو بَكْر الصِّديق رضي الله عنه لقِتالِهم ، فأشارَ عليه عُمرُ وغيرُه أنْ يَفتُرَ عن قِتالِهم فقال : والله لَوْ مَنَعُوني عِقالاً أو عَناقاً[3] كانوا يُؤدُّونَها إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتُهم علىٰ مَنْعِها ، فقالَ عُمرُ : كَيفَ تُقاتِلُ النَّاسَ وقد قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّىٰ يَقُولوا : لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهَ وأنَّ مُحمَّداً رسُولُ الله فمَنْ قالَها عَصَمَ مِنِّي مَالَه ودَمَه إلاَّ بِحَقِّها وحِسَابُه على الله » ، فقال أبو بَكر : واللهِ لأُقاتِلَنَّ مَنْ فرَّقَ بَينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ ، فإنَّ الزَّكاةَ حَقُّ المالِ وقد قالَ : « إلاَّ بحَقِّها » ، فقال عُمرُ : فواللهِ ما هو إلاَّ أن رَأيتُ اللهَ قد شَرحَ صَدرَ أبي بَكْر للقِتالِ ، فعَرفْتُ أنَّه الحَقّ .

---

(١) ملاءة : خِرقة .

(٢) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٣٣ ـ ٣٥/ قصة الأسْوَد العَنْسي .

(٣) العَناق : الأنثىٰ من ولد المَعز .

عن عُرْوة وغيرِه قال : فخَرجَ أبو بَكْر في المُهاجرين والأنْصار حتىٰ بلغَ نَقْعاً حِذاءَ نَجْد ، وهَرَبَت الأعْرابُ بذَراريهِم ، فكلَّمَ النَّاسُ أبا بَكْر وقالوا ارْجِعْ إلى المَدينة وإلى الذُّريَّة والنِّساءِ وأَمِّر رَجُلاً على الجَيش ، ولَمْ يَزالوا به حتىٰ رَجعَ وأَمَّرَ خالدَ بنَ الوَليد ، وقال له : إذا أسْلَموا وأَعْطوا الصَّدقَةَ فمَنْ شاء منكم فلْيَرْجِع ، ورَجعَ أبو بَكْر إلى المَدينة .

فسارَ خالدٌ لقتال طُلَيْحَةَ الكذَّاب فهَزَمَه اللهُ ، وكان قد بايَع عُيَيْنَة ابنَ حِصْن ، فلمَّا رَأىٰ طُلَيْحَة كثرَةَ انْهِزامِ أصْحابِه قال : ما يَهْزِمُكم ؟ فقال رجلٌ : أنا أُحدِّثك ، ليسَ منَّا رجلٌ إلاَّ وهو يُحبُّ أن يَموتَ صاحبُه قَبلَه ، وإنا نَلْقَىٰ قَوماً كلَّهم يُحبُّ أن يَموتَ قَبلَ صاحِبِه ، وكان طُلَيْحَة رجلاً شَديدَ البَأْسِ في القتال ، فقَتلَ طُلَيْحَةُ يومئذٍ عُكاشةَ بنَ محصَن وثابتَ بنَ أقْرَم .

فلَّما غَلبَ الحقُّ طُلَيْحَة تَرجَّلَ ، ثم أسْلمَ وأهَلَّ بعُمْرة ، فركِب يَسيرُ في النَّاسِ آمِناً ، حتىٰ مَرَّ بأبي بَكْر بالمَدينة ، ثم سارَ إلىٰ مكَّة فقَضىٰ عُمرَتَه ، ثم حَسُنَ إسْلامُه .

عن عُرْوة قال : فسارَ خالدٌ ـ وكان سَيفاً من سُيوفِ الله تَعالَىٰ ـ فأسْرعَ السيرَ حتىٰ نَزلَ ببزاخَة ، وبعثَتْ إليه طَيِّىء : إنْ شِئتَ أنْ تَقدُم علينا فإنَّا سامعون مُطيعون ، وإنْ شِئتَ ، نَسيرُ إليكَ ، قال خالدٌ : بلْ أنا ظاعِنٌ إليكم إنْ شاءَ الله ، فلَمْ يَزلْ ببزاخَة ، وجمعَ له هناك بَنو أسَد وغَطْفان فاقْتَتلوا ، حتىٰ قُتلَ من العَدوِّ خلقٌ وأُسِرَ منهم أُسارَىٰ .

ثم ظَعنَ يريدُ طَيِّئاً ، فأقْبلت بَنو عامِر وغَطفان والنَّاسُ مُسلمين مُقرِّين بأداءِ الحَقِّ ، فقَبلَ منهم خالد .

وقُتلَ في ذلك الوَجه مالكُ بنُ نُوَيْرَة التَّميمي في رجال معه من تَميم ، فقالت الأنْصارُ : نحنُ راجِعون ، قد أقرَّت العربُ بالذي كان عَليها ، فقال خالدٌ ومَنْ معه من المُهاجرين : قد لعَمري آذنُ لكم ، وقد أجمَعَ أميرُكم بالمَسير إلىٰ مُسَيْلِمَة بن ثمامَة الكذَّاب ، ولا نَرىٰ أنْ تَفرَّقوا علىٰ هـٰذه الحال ، فإنَّ ذلك غَيرُ حَسَن ، وإنَّه لا حُجَّة لأحد منكُم فارَقَ أميرَه وهو أشَدُّ ما كان إليه حاجَة ، فأبَت الأنْصارُ إلاَّ الرُّجوعَ ، وعَزمَ

خالدٌ ومَنْ معَه ، وتخلَّفَت الأنْصارُ يوماً أو يومين ينظرون في أمرِهم ، ونَدِموا وقالوا : ما لكم والله عُذرٌ عند الله ولا عند أبي بَكْر إنْ أُصيبَ هـٰذا الطرفُ وقد خَذلناهم ، فأسْرَعوا نحو خالد ولَحقوا به ، فسارَ إلى اليَمامَة ، وكان مُجّاعة بن مُرارة سَيِّد بني حَنيفَة خَرجَ في ثلاثة وعشرين فارساً يطلبُ دماءً في بني عامر ، فأحاطَ بهم المسلمون ، فقُتل أصحابُ مُجّاعة[1] .

قِتالُ مُسيلمة الكذَّاب :

عن الزُّهريّ : قاتلَ خالدٌ مُسَيْلِمة ومن مَعه من بَني حَنيفَة ، وهم يَومئذ أكثرُ العَرب عَدداً وأشدُّه شَوكة ، فاسْتُشهد خلقٌ كثير ، وهَزمَ اللهُ بني حَنيفَة ، وقُتلَ مُسَيْلِمة ، قَتلَه وَحْشيٌّ بحَرْبة .

عن موسى بن أنَس ، عن أبيه قال : لمَّا كان يومُ اليَمامَة دخلَ ثابتُ ابنُ قَيْس فتَحنَّطَ ، ثم قامَ فأتى الصفَّ والنَّاسُ مُنهَزمون فقال : هـٰكذا عن وجُوهنا ، فضارَب القوم ثم قالَ : بِئْسما عوَّدْتم أقْرانَكم ، ما هـٰكذا كُنَّا نُقاتل مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاسْتُشهد رضي الله عنه .

عن الزُّهريِّ قال : ثم تَحصَّن من بَني حَنيفَة من أهلِ اليَمامَة سِتةُ آلاف مُقاتل في حِصْنهم ، فنَزلوا علىٰ حُكْم خالد فاسْتَحْياهم .

عن عُروَة قال : وعَمدَت بَنو حَنيفَة حين انْهَزموا إلى الحُصُون فدَخَلوها ، فأراد خالد أن يَنهَد إليهم الكَتائب ، فلم يَزَل مُجّاعة حتىٰ صالَحَه على الصَّفْراء والبَيْضاء ، والحلْقة والكُراع ، وعلىٰ نصف الرَّقيق ، وعلىٰ حائط من كل قَريَة ، فتَقاضوا علىٰ ذلك .

وقال سلامةُ بنُ عُمَير الحَنفي : يا بَني حَنيفَة قاتِلُوا ولا تُقاضوا خالداً علىٰ شيء فإنَّ الحصْنَ حَصينٌ ، والطَّعامَ كثيرٌ ، وقد حَضَرَ النِّساءُ ، فقال مُجّاعة : لا تُطيعوه فإنَّه

---

(١) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٣٧ ـ ٣٨/ خبر الردة .

مَشْؤوم فأطاعوا مُجّاعة ثمَّ إنَّ خالداً دَعاهم إلى الإسلام والبَراءَة ممَّا كانوا عليه ، فأسْلَمَ سائرُهم[1] .

وَقْعَةُ جُواثا :

بعثَ الصدّيقُ رضي الله عنه العَلاءَ بنَ الحَضْرميّ إلى البَحرَين ، وكانوا قد ارْتَدُّوا ـ إلاَّ نَفَراً ثَبَتوا مع الجارود ـ فالْتَقَوا بجُواثا فهَزَمَهم اللهُ .

قال ابنُ إسْحاق : حاصَرَهم العَلاءُ بجُواثا حتىٰ كادَ المسلمون يَهلَكون من الجَهْد ، ثم إنَّهم سَكِروا لَيلةً في حِصْنِهم ، فبَيَّتَهم العَلاءُ .

وفي نَفْسِ السَّنَة بَعثَ الصدِّيقُ عِكْرِمَةَ بنَ أبي جَهْل إلىٰ عُمانَ ، وكانوا ارْتَدُّوا ، وبَعثَ المُهاجِرَ بنَ أبي أُميَّة المَخْزومي إلىٰ أهل النُّجَيْر[2] ، وكانوا ارْتَدُّوا ، وبعَثَ زيادَ بنَ لُبَيْد الأنْصاري إلىٰ طائفة من المُرتَدَّة .

بعد فَراغ قتالِ أهل الرِّدَّة بعَثَ أبو بَكْر الصدِّيق خالدَ بنَ الوَليد إلىٰ أرضِ البَصْرَة ، وكانت تُسمَّىٰ أرضَ الهِنْد ، فسارَ خالدٌ بمَنْ معَه من اليَمامَة إلىٰ أرضِ البَصْرَة ، فغَزَا الأُبلَّةَ[3] فافْتَتَحَها ، ودَخلَ مَيْسانَ[4] فغَنِمَ وسَبىٰ من القُرىٰ ، ثم سارَ نَحوَ السَّواد ، فأخذَ علىٰ أرض كَسْكَر[5] وزَنْدَوَرْد[6] ، وبعد أن اسْتَخلفَ على البَصْرَة قُطْبةَ بنَ قَتادَة السّدوسي ، وصالَحَ خالدٌ أهلَ أُلَيْس[7] علىٰ ألف دينار في ظهر رَجَب من السَّنة ، ثم افْتَتَحَ نهرَ الملك[8] ، وصالَحَه ابنُ بُقَيلَة صاحبُ الحِيرَة علىٰ تسعينَ ألفاً ، ثم سارَ نحوَ أهلِ الأنْبارِ فصالَحُوه .

---

(١) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٣٩/ قتال مسيلمة الكذَّاب .

(٢) النُّجَير ، بالتصغير : حصن باليمن قرب حضرموت منيع لجأ إليه أهل الردَّة مع الأشعث بن قيس .

(٣) الأُبلَّة : بلدة علىٰ شاطىء دجلة البصرة العظمىٰ في زاوية الخليج .

(٤) مَيْسان : اسم كورة واسعة كثيرة القرىٰ والنخيل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان .

(٥) كَسْكَر : كورة واسعة قصبتها واسط بين الكوفة والبصرة .

(٦) زَنْدَوَرْد : مدينة كانت قرب واسط مما يلي البصرة خربت بعمارة واسط .

(٧) أُلَيْس : مُصغر بوزن فُلَيس ، الموضع الذي كانت فيه الواقعة بين المسلمين والفرس في أول أرض العراق من ناحية البادية .

(٨) نهر الملك : كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسىٰ .

ثم حاصَرَ عَينَ التَّمْرِ[1] ونزَلوا علىٰ حُكْمِه ، فقَتلَ وسَبىٰ .

قال محمَّدُ بنُ جَرير الطَّبَري : ولمَّا فَرَغَ خالدٌ من فُتوح مَدائنِ كسْرَى التي بالعِراق صُلْحاً وحرباً خَرجَ لخَمسٍ بَقينَ من ذي القعدة مُتكتِّماً بحَجَّتِه ، ومعَه جَماعةٌ تَعْتَسِفُ[2] البلادَ حتىٰ أتَىٰ مكَّة ، فتأتَّىٰ له من ذلكَ ما لمْ يتَأتّ لدَليل ، فسارَ طَريقاً من طُرُقِ الحِيرَة لمْ يُرَ قَطُّ أعْجَبَ منه ولا أصْعَب ، فكانت غَيبَتُه عن الجُنْد يَسيرَة ، فلَمْ يَعلمْ بحَجِّه أحَدٌ إلاَّ مَنْ أَفْضَىٰ إليه بذلك .

فلمَّا علمَ أبو بَكْر بحَجِّه عَتَبَه وعنَّفَه وعاقَبَه بأنْ صَرَفَه إلى الشَّام ، فلمَّا وافاهُ كتابُ أبي بَكْر عند مُنْصرَفِه من حَجِّه بالحِيرَة يأمُرُه بانْصِرافِه إلى الشَّامِ حتىٰ يأتي مَنْ بها من جُموع المسلمين باليَرْموك ، ويقولُ له : إيَّاكَ أنْ تَعودَ لمثلِها .

قلتُ : وإنمَّا جاءَ الكتابُ بأنْ يَسيرَ إلى الشَّامِ في أوائل سَنة ثلاث عشرة .

قلتُ : سارَ خالدٌ بجَيشِه من العِراقِ إلى الشَّام في البَرِّيَّة ، وكادُوا يَهْلكون عَطَشاً[3] .

١٧ـ الوَلاءُ والبَراء

(أ) الوَلاءُ والبَراءُ سَببٌ لِمَحَبَّة الله عَبْدَه :

سُئلَ المُرتَعشيُّ : بماذا يَنالُ العَبدُ المَحَبَّةَ ؟ قالَ : بِمُوالاةِ أوْلِيَاءِ الله ومُعَاداةِ أعْداءِ الله[4] .

(ب) أمثلةٌ جَميلةٌ على الوَلاءِ لله سُبْحانَه ولِرَسُوله صلى الله عليه وسلم :

شَهِدَ أبُو عُبَيْدَةَ بَدْراً فقَتَلَ يَومَئذٍ أبَاهُ ، وأبْلَىٰ يومَ أُحُدٍ بَلاءً حَسَناً ، ونَزَعَ يَومَئذٍ الحَلْقَتَينِ اللَّتَينِ دَخَلَتا من المِغْفَرِ في وَجْنَةِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ ضَرْبةٍ

---

(١) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة .

(٢) اعتسف الطريق : إذا قطعه دون صوب أو توخاه فأصابه .

(٣) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٤٠ ـ ٤١/ وقعة جُواثا .

(٤) انظر السير : (المرتعشي) ١٥/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ١٢٢٣/ ٤ .

أصَابَتْهُ فانقَلَعتْ ثَنِيَّتَاهُ ، فحَسُنَ ثَغْرُهُ بذَهابِهِما حتّىٰ قِيلَ : ما رُئِيَ هَتْمٌ[1] أحْسَنُ من هَتْمِ أبي عُبَيْدة[2] .

وعن عبدِ الله بنِ مَعْقِل ، قالَ : نَزَلَ ابنُ أمِّ مَكْتُوم علىٰ يَهُوديّةٍ بالمَدينَة كانَتْ تَرْفُقُه ، وتُؤْذيهِ في النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فتَناوَلَها فضَرَبَها ، فقَتَلَها ، فرُفِعَ ذلكَ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال هُوَ : أمَا والله إنْ كانت لَتَرْفُقُني ، ولكنْ آذَتْني في اللهِ ورسُولِه فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَبْعَدَهَا اللهُ ، قَدْ أَبْطَلْتُ دَمَهَا »[3] .

وقال المُغيرةُ بنُ شُعبَة : بَعَثتْ قُريشٌ عامَ الحُدَيْبيَة عُرْوَةَ بنَ مَسْعُود إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم لِيُكلِّمَه فأتَاهُ ، فكَلَّمَه ، وجَعَلَ يَمَسُّ لِحْيَتَه ، وأنا قائِمٌ علىٰ رَأسِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُقَنَّعٌ في الحَديدِ ، فقالَ المُغيرةُ لِعُرْوَة : كُفَّ يَدَكَ قَبلَ أنْ لا تَصِلَ إلَيْكَ ، فقالَ : مَنْ ذَا يا مُحمَّد ؟ ما أفَظَّهُ وأغْلَظَه قال صلى الله عليه وسلم : « ابنُ أخِيكَ »، فقالَ : يا غُدَرُ واللهِ ما غَسَلْتُ عَنِّي سَوءَتَكَ إلاَّ بالأمْسِ[4]، [5] .

(ج) أمْثلَةٌ علىٰ مُوالاةِ المُسلمينَ الكافِرينَ :

١ـ اسْتعانةُ المسلمين بالفِرَنْج ضِدَّ مسلمين :

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ العَاضِدِ صاحِبِ مِصْرَ : ثمَّ قَدَّمَ شَاوَرُ السَّعديُّ دِمَشْقَ جريدَةً إلىٰ نُورِ الدِّينِ مُسْتَنْجِداً به ، فجَهَّزَ مَعهُ شِيرْكُوه ، بَلْ بَعْدَه بِسَنَة ، فاسْتَردَّ له الوَزارَةَ ، وتَمَكَّنَ ، ولَمْ يُجازِ شِيرْكُوهَ بما يَليقُ به ، فأضْمَرَ له الشَّرَّ ، واسْتَعانَ شَاوَرُ بالفِرَنْجِ ، وتَحَصَّنَ منهم شِيرْكُوهُ ببلْبِيسَ ، فحَصَرُوهُ مُدَّةً ، حتّىٰ مَلُّوا .

---

(١) الهَتْمُ كَسْرُ الثنايا من أصُولِها .

(٢) انظر السير : (أبو عُبيدة بن الجرّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ١٢١/ ٤ .

(٣) انظر السير : (ابن أم مكتوم) ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٥ ، وانظر النزهة : ١٧٧/ ٤ .

(٤) قال ابن هشام في السيرة ٢/ ٣١٣ : أراد عروة بقوله هـٰذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف ، فتهايج الحيَّان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فودىٰ عروة المقتولين ثلاث عشرة دية ، وأصلح ذلك الأمر .

(٥) انظر السير : (المُغيرة بن شُعبة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٣٢٣/ ٤ .

واغْتَنمَ نورُ الدين خُلوَّ الساحلِ منهُم فعَملَ المَصَافَّ علىٰ حارِم وأسَرَ مُلوكاً في سَنة تسْع وخَمسينَ وخمسِ مئَة .

ورجعَ شِيرْكُوه بعد أمور طويلة الشرح[1] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ هِشامِ المُؤيَّد بالله ابنِ صاحِبِ الأنْدَلُسِ النَّاصِر عبدِ الرَّحمَـٰن أَخِي المُظَفَّر ، وكان شنشولُ قد اسْتَعانَ بِعَسْكَرِ الفِرَنْجِ لأنَّ أمَّه مِنهُم ، وقامَ مَعَهُ ابنُ غومِش ، فجاءَ إلىٰ قُرطُبَة ، فتَسَحَّبَ جُنْدُهُ ، فقالَ له ابنُ غومِش : ارْجِعْ بنا قَبلَ أنْ تُؤخَذَ فأبَىٰ ، ومَالَ إلىٰ دَيْرِ شربش جَوْعانَ سَهْرانَ ، فأنْزَلَ له راهِبٌ دَجاجَةً وخُبْزاً ، فأكَلَ وشَرِبَ وسَكِرَ ، وجَاءَ لِحَرْبِه ابنُ عَمِّ المَهْديّ وحاجِبُهُ مُحمّدُ ابنُ المُغيرَةِ الأُمَويّ ، فقَبَضَ عليهِ ، فظَهَرَ منهُ الجَزَعُ ، وقَبَّلَ قَدَمَ ابنِ المُغيرَةِ ، وقالَ : أنا في طَاعَةِ المَهْديّ ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه ، وطِيفَ برَأسِهِ : هـٰذا شنشولُ المَأبُونُ المَخْذُولُ فلمَّا اسْتَوثَقَ الأمْرُ للمَهْديِّ أظْهَرَ من الخَلاعَةِ والفَسادِ أكْثَرَ مِمَّا عَمِلَهُ شنشولُ[2] .

قالَ الحُمَيْديُّ : فقَامَ على المَهْديِّ ابنُ عَمِّه هشامُ بنُ سُلَيْمانُ ابنُ النَّاصِر لدين الله ، في شَوَّال سَنَةَ تِسْعٍ وتِسْعينَ ، وقَامَ مَعهُ البَرْبَرُ ، وأُسِرَ هشامٌ هـٰذا فقَتَلَه المَهْديُّ وتَحيَّزَ جُلُّهم إلىٰ قَلعَةِ رَبَاحٍ ، فهَرَبَ مَعهُم سُلَيْمانُ بنُ الحَكَمِ بنِ سُلَيْمَانَ بنِ النَّاصِر ، وهُو ابنُ أخِي هِشامِ المَقْتُولِ ، فبَايَعُوهُ ، وسَمَّوْهُ : المُسْتَعِينَ بالله ، وجَمَعُوا لَه مالاً ، حتّىٰ صَارَ له نَحْوٌ من مِئَةِ ألْفِ دينارٍ ، فتَوَجَّهَ بالبَرْبَرِ إلىٰ طُلَيْطِلَةَ ، فتَمَلَّكَها ، وقَتَلَ وَالِيَها ، فجَزَعَ المَهْديُّ ، واعْتدَّ للحِصَارِ ، وتَجَرَّأتْ عليه العَامَّةُ ، ثم بَعَثَ عَسْكَراً ، فهَزَمَهُم سُلَيْمانُ المُسْتَعِينُ ثمَّ سَارَ حتّىٰ شَارَفَ قُرْطُبَة ، فبَرَزَ لِحَرْبِه عَسْكَرُ المَهْديِّ ، فنَاجَزَهُم سُلَيْمانُ ثمَّ خَرَجَ أهلُ قُرطُبَةَ إلى المُسْتَعِينِ سُلَيْمانَ ، فأحْسَنَ مَلْقاهُم واخْتَفَىٰ مُحمّدٌ المَهْديُّ واسْتَوْثَقَ أمْرُ المُسْتَعِينِ ، ودَخَلَ قَصْرَ الإمارَةِ ، ووَارَى النَّاسُ قَتْلاهُم فكانُوا نَحْواً من اثْنَيْ عَشَرَ ألْفاً ، ثمَّ تَسَحَّبَ المَهْديُّ إلىٰ طُلَيْطِلَة ، فقامُوا مَعَهُ ، وكَتَبَ إلى الفِرَنْجِ ، ووَعَدَهُم بالأمْوالِ ، فاجْتَمَعَ إليهِ خَلقٌ عَظيمٌ وهو أوّلُ مال انْتَقَلَ من بَيْتِ

---

(١) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٩ .

(٢) انظر السير : (هشام المُؤيد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٨ .

المَالِ بالأنْدلُسِ إلى الفِرَنْجِ ، وكانت الثُّغُورُ كُلُّها باقِيةً علىٰ طاعَةِ المَهْديِّ ، فقَصَدَ قُرْطُبَة في جَحْفَلٍ عَظيمٍ ، فالْتَقَى الجَمعانِ علىٰ عَقَبَةِ البَقَرِ علىٰ بَريدٍ من قُرْطُبَة ، فاقْتَتَلُوا أشَدَّ قِتالٍ فانْهَزَمَ سُلَيْمانُ المُسْتَعِينُ ، واسْتَوْلَى المَهديُّ علىٰ قُرْطُبَة ثانياً ، ثم خَرَجَ إلىٰ قِتالِ جَماهيرِ البَرْبَرِ ، فالْتَقاهُم بِوادِي آرُهْ ، فهَزَموهُ أقْبَحَ هَزيمَةٍ ، وقُتِلَ من جُندِه الفِرَنْجِ ثلاثةُ آلاف ، وغَرِقَ خَلقٌ ، فجَاءَ إلىٰ قُرْطُبَة ، ثم وَثَبَ عليه العَبيدُ ، فضُرِبَتْ عُنُقُه ، وقُطِعَتْ أرْبَعَتُه ، وكَفَى اللهُ شَرَّهُ في ثامِنِ ذي الحِجَّة عام أرْبعِ مِئَة ، وعَاشَ أرْبَعاً وثلاثينَ سَنَةً[1] .

المَأمونُ (مَلكُ طُلَيْطِلَة) :

قال الذهبيُّ في تَرْجَمَة المَأمُون مَلِكِ طُلَيْطِلَة ، أبو زَكريّا ، يَحْيَى بنُ صاحبِ طُلَيْطِلَةَ الأميرِ إسْماعيلَ بنِ عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ عامِرْ الهَوَّاري ، الأنْدلُسيّ .

اسْتَوْلَىٰ أبُوهُ على البَلَدِ بعدَ العِشْرينَ وأرْبَع مِئَة ، ونَزَعُوا طاعَةَ المَرْوانيّة ، وتَمَلَّكَ المَأمُونُ بعدَ أبيه سَنَةَ خَمسٍ وثَلاثينَ ، فامْتدَّتْ أيامُه خَمساً وعِشرينَ سَنَةً ، عَاكِفاً على اللّذَّاتِ والخَلاعَة ، وصَادَرَ الرَّعِيَّة وهادَنَ العَدُوَّ ، وقَدِمَ الأطْرافَ ، فطَمِعَتْ فيه الفِرَنْجُ ، بَلْ في الأنْدلُسِ وأُخِذَتْ عِدَّةُ حُصُونٍ إلىٰ أنْ أخَذُوا منهم طُلَيْطِلَةَ في سَنةِ ثَمانٍ وسَبعين وأربَع مِئَة ، وجَعَلُوها دارَ مُلْكِهم ـ فإنَّا لله وإنَّا إلَيْهِ راجِعُون ـ وكان المَأمُونُ أرادَ أنْ يَسْتَنْجِدَ بالفِرَنْجِ علىٰ تَمَلُّكِ مَدائنِ الأنْدلُسِ ، فكاتَبَ طاغِيَتَهم : أنْ تَعَالَ في مِئَةِ فارِسٍ ، والمُلتَقَىٰ في مكانِ كَذَا ، فسَارَ في مِئَتَينِ ، وأقْبَلَ الطَّاغِيَةُ في سِتَّةِ آلافٍ ، وجَعَلَهم كَميناً له ، وقالَ : إذا رَأيْتُمُونا قد اجْتَمَعْنا ، فأحِيطُوا بنَا فلمَّا اجْتَمَعَ المَلِكَانِ أحَاطَ بِهم الجَيشُ ، فنَدِمَ المَأمُونُ ، وحَارَ ، فقالَ الفِرَنْجيُّ : يا يَحْيَىٰ ، وحَقِّ الإنْجيلِ كُنتُ أظُنُّكَ عاقِلاً ، وأنْتَ أحْمَقُ!! جِئْتَ إليَّ ، وسَلَّمْتَ مُهْجَتَكَ بِلا عَهْدٍ ولا عَقْدٍ ، فلا نَجَوْتَ منِّي حتّىٰ تُعطِيَني ما أطْلُبُ قالَ : فاقْتَصِدْ فسَمَّىٰ له حُصُوناً ، وقَرَّرَ عليه مالاً في كُلِّ سَنَةٍ ، ورَجَعَ ذَليلاً مَخْذُولاً ، وذَلكَ بمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ تُوفِّي سَنَةَ ستّينَ وأربَعِ مِئَة[2] .

---

(١) انظر السير : (هشام المُؤيد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٨ .

(٢) انظر السير : (المأمون ـ ملك طُليطلة) ١٨/ ٢٢٠ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١٤٠٤ ـ ١٤٠٥ .

أحمدُ بنُ عبد المَلك بن هُود :

وجاءَ في تَرجَمَةِ أحمدَ بنِ عبدِ المَلِكِ ابنِ هُود ، قال الذهبيُّ : المُلقَّبُ بالمُسْتَنْصِر بالله الأنْدلُسيّ ، مَنْ بَيتِ مَمْلَكَةٍ وحِشْمَةٍ ، وأمْوالٍ عَظيمَةٍ ، وكانَ بِيَدِه قِطْعَةٌ من الأنْدلُسِ ، فاسْتَعَانَ بالفِرَنْجِ علىٰ إقامَةِ دَولَتِه[1] .

ذَكرَهُ اليَسَعُ بنُ حَزْم ، فقالَ : انْعَقَدَ الصُّلْح بينَ المُسْتَنْصِرِ بنِ هُودٍ وبينَ السُّليطينِ مَلكِ الرُّوم وهو ابنُ بنتِ أذْفُونْش إلىٰ مُدَّةِ عِشرينَ سَنة علىٰ أنْ يَدْفَعَ للفِرَنْجِ رُوطَة ، ويَدْفَعُوا إلَيْهِ حُصُوناً عِوَضاً عنها ، ويُعِينُوهُ بخَمْسينَ ألْفاً من الرُّوم ، يَخْرُجُ بها إلىٰ بِلادِ المُسلمينَ لِيُمَلِّكَ ، فجَعَلَ اللهُ تَدْميرَهُ في تَدْبيرِهِ ، وكُنَّا نَجدُ في الآثَارِ عنِ السَّلَفِ فَسَادَ الأنْدلُسِ علىٰ يَدَيْ بَنِي هُودٍ وصَلاحُها بَعدُ عَلىٰ أيْدِيهِم ، فخَرَجَ اللَّعينُ السُّليطينُ وابنُ هُودٍ في نَحْوٍ من أرْبَعينَ ألْفَ فارسٍ ، وتاشْفينُ بالزَّهْراءِ ، فقَصَدَ ابنُ هُودٍ جِهَةَ إشْبيليَّة ، وبَقِيَ يُنْفِقُ علىٰ جُيُوشِ السُّليطينِ نَحوَ ثَمانيَةَ أشْهُر ، وشَرطَ عليهِم أنَّهم لا يَأسِرُونَ أحَداً ، فحَدَّثَني المُسْتَنْصِرُ ـ وقَد نَدِمَ علىٰ فِعْلِه من شَيْطَنَة الشَّبيبَة وطَلَبِ مُلكِ آبائِه ـ فقالَ لي : الذي أنْفَقتُ في تِلكَ السَّفْرَةِ من الذَّهَبِ الخالِصِ ثلاثَةُ آلافِ ألْفِ دينارٍ ، والذي دَفَعتُ إلَيهِم من مَخَازِنِ رُوطَة من الدُّروعِ أرْبَعُونَ ألْفَ دِرْعٍ ، ومن البِيضِ مِثلَها ، ومن الطَّوارِقِ ثَلاثُونَ ألْفاً ، وذَكَرَ لي جَماعَةٌ أنَّه دَفَعَ إلى السُّليطينِ خَيْمَةً كان يَحْمِلُها أرْبَعُونَ بَغْلاً ، وذَكَرَ لي مُحمّدُ بنُ مَالكٍ الشَّاعِرُ أنَّه أبْصَرَ تِلكَ الخَيْمَةَ ، قال : فمَا سُمِعَ بأكْبَرَ منها قَطُّ ، ولمَّا طالَتْ إقامَتُه على البلادِ ، ولَمْ يَخْرُجْ إلى ابنِ هُودٍ أحَدٌ ، رَجَعَ ومَعهُ ابنُ هُودٍ ، ولَمْ يَكنْ معَ ابنِ هُودٍ إلاَّ نَحوٌ من مِئَتَيْ فارسٍ ، فأقَامَ ابنُ هُودٍ بطُلَيْطِلَة ليَذْهَبَ منها إلىٰ حُصُونِه التي عُوِّضَ بها ـ وبِئْسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً ـ ثمَّ إنَّ قُرْطُبَةَ اضْطَرَبَ أمْرُها ، واشْتَغَلَ أميرُ المسلمين بما دَهَمَهُ من خُرُوجِ التُّومَرْتيَّة[2] فَجَاءَ المُسْتَنْصِرُ باللهِ أحمَدُ من مَدينَةِ غرليطش وقَصَدَ قُرطُبَةَ ، وكان مُحَبَّباً إلى النَّاسِ بالصِّيتِ ، فبَرَزَ إليهِ ابنُ حَمْدين زَعيمُ قُرْطُبَة بِعَسْكَرِها ، فقَصَدَ عَسْكَرُها نَحوَ ابنِ هُودٍ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هود) ٢٠/ ٤١ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٧ .

(٢) هم جماعةُ مُحمّد ابن عبد الله ابن تومرت ـ مَهْديُّ المَغرب ـ زَعيمُ الموَحِّدين .

طائِعينَ فَفَرَّ حِينَئذٍ ابنُ حَمْدين إلىٰ بُلَيْدَة ، ودَخَلَ ابنُ هُودٍ قُرْطُبَةَ بِلا كُلْفَةٍ ولا ضَرْبَةٍ ولا طَعْنَةٍ ، فاسْتَوْزَرَ أبا سَعيدٍ المَعْرُوف بِفَرَجِ الدَّليل ، وكاتَبَ نُوَّابَ البِلادِ ، ففَرِحُوا به لأصالَتِه في المُلْكِ ، ثم خَرَجَ فَرَجُ الدَّليلِ إلىٰ حِصْنِ المُدَوَّر ، فقِيلَ لابنِ هُودٍ : قد نَافَقَ وفَارَقَ ، فخَرَجَ بنَفْسِه واسْتَنْزَلَه من الحِصْنِ ، فنَزَلَ غيرَ مُظْهِرٍ خِلافاً ، وكان رَجُلاً صَالِحاً فقتَلَه صَبْراً ، فسَاءَ ذَاكَ أهْلُ قُرْطُبَة ، وثارَتْ نُفُوسُهم ، وعَظُمَ عَليهِم قَتْلُ أَسَدٍ من أُسْدِ الله ، فزَحَفُوا إلى القَصْرِ ، فَفَرَّ ابنُ هُودٍ من قُرْطُبَة فقَصَدَها ابنُ حَمْدين ، فأدْخَلَهُ أهْلُهُ ، وكَثُرَ الهيجُ ، واشْتَدَّ البَلاءُ بالأنْدَلُسِ ، وغَلَتْ مَرَاجِلُ الفِتْنَة ، وأمَّا أبُو مُحمّد ابنُ عِياضٍ ، فكَانَ علىٰ مَمْلَكَةِ لاردَة ، فخَرَجَ في خَمْسِ مِئَةِ فارِسٍ ليَسْعَىٰ في إصْلاحِ أمْرِ الأُمَّة وقَصَدَهُ أهلُ مَرْسيّة وبَلَنْسيّة ليُمَلِّكُوهُ عليهِم ، فامْتَنَعَ ، ثمَّ بايَعَ أهلُ بَلَنْسيّة عن الخَليفَةِ عبدِ الله العَبَّاسيّ ، ثمَّ اتَّفَقَ ابنُ عِياضٍ وابنُ هُودٍ على اسْمَ الخِلافَة لأميرِ المُؤمِنينَ العَبَّاسيّ ، وأنَّ النَّظَرَ في الجُيُوشِ والأمْوالِ لابنِ عِياضٍ رَحِمَهُ الله ، وأنَّ السَّلْطَنَةَ لابنِ هُودٍ[1] .

محمد بن يوسف بن هود :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ هُود حِينَما خَلُصَت الأنْدلُسُ كُلُّها له وقاتَلَ بها المُوَحِّدِينَ ثم جَهَّزَ الخَلقَ للقاءِ الإفْرَنْجِ فلمَّا تَراءَى الجَمْعانِ وَقَعتْ الهَزيمَةُ للمُسلِمين أقْبَحَ هَزيمَة ورَجَعَ ابنُ هُود في أسْوَأِ حَالٍ ، ثم قالَ الذهبيُّ قامَ عليه شُعَيْبُ بنُ هلالة بِلَبْلَة ، فصَالَحَ ابنُ هُود الأدْفُونَش علىٰ مُحاصَرَةِ لَبْلَة ومُعاوَنَتِه علىٰ أنْ يُعْطيه قُرْطُبَة ، واتَّفَقَا علىٰ ذلكَ ، وقالَ لَهُ : لا يَسُوغُ أنْ يدخُلَها الفِرَنْجُ على البَديهَة ، وإنَّما تُهمِلُ أمْرَها ، وتُخْلِيها من حَرَسٍ ، ووَجِّهْ أنْتَ الفِرَنْجَ يَتَعَلَّقُونَ بأسْوارِها باللَّيلِ ويَغْدُونَ بها ، ففَعَلُوا كذلكَ ووَجَّهَ ابنُ هُود إلىٰ والِيهِ بقُرْطُبَة فأعْلَمَه بذلكَ ، وأَمَرَهُ بضِياعِها من حَيِّز الشَّرقيَّة فجَاءَ الفِرَنْجُ ، فوَجَدُوهُ خالياً ، فجَعَلُوا السَّلالِمَ واسْتَوَوا على السُّورِ فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[2] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هود) ٢٠/ ٤١ـ٤٤ ، وانظر النزهة : ١٥٢٧/ ٢ (أحمد بن هود).

(٢) انظر السير : (محمد بن يوسف بن هود) ٢٣/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ١٧١١/ ٤ .

وكانت قُرْطُبَةُ مَدينَتَيْن : إحْداهُما الشَّرقِيَّة والأخْرَى المَدينَةُ العُظْمَىٰ ، فقامَتْ الصَّيْحَةُ والنَّاسُ في صَلاةِ الفَجْرِ ، فرَكِبَ الجُنْدُ وقالوا للوَالِي : اخْرُجْ بِنَا للمُلْتَقَىٰ ، فقالَ : اصْبِرُوا حتّىٰ يُضْحي النَّهارُ ، فلمَّا أضْحَىٰ رَكِبَ وخَرَجَ مَعَهُم ، فلمَّا أشْرَفَ على الفِرَنْجِ قالَ : ارْجِعُوا حتّىٰ أَلْبَسَ سِلاحِي!! ، فرَجَعَ بهم وهُم يُصَدِّقونَه ، وذا أمرٌ قد دُبِّرَ بِلَيلٍ ، فدَخَلَ الفِرَنْجُ علىٰ إثْرِهِم ، وانْتَشَرُوا ، وهَرَبَ النَّاسُ إلى البَلَدِ ، وقُتِلَ خَلْقٌ من الشُّيُوخِ والوِلْدانِ والنِّسْوانِ ، ونُهِبَ للنَّاسِ ما لا يُحْصَىٰ ، وانْحَصَرَتْ المَدينَةُ العُظْمَىٰ بالخَلْقِ فحاصَرَهُم الفِرَنْجُ شُهوراً ، وقاتَلُوهم أشَدَّ القِتَال ، وعُدِمَ أهلُها الأقْواتَ ، ومَاتَ خَلقٌ كثيرٌ جُوعاً ، ثُمَّ اتَّفَقَ رأيُهُم مع أدْفُونْشَ ـ لَعَنَه الله ـ علىٰ أنْ يسَلِّمُوها ويَخْرُجُوا بأمْتِعَتِهِم كُلِّها ، ففَعَلَ ، ووَفَّىٰ لهُم ووَصَلَهم إلىٰ مَأمَنِهِم في سَنَةِ أربَعٍ وثلاثينَ وسِتِّ مِئَة .

قال الذهبيُّ : ولَمْ يُمَتَّعْ بَعدَها ابنُ هُود ، بَلْ أخَذَهُ اللهُ في سَنةِ خَمسٍ فكانَتْ دَولَتُه تِسعَةَ أعْوامٍ وتِسعَةَ أشْهرٍ وتِسعَةَ أيّامٍ ، وهَلَكَ بالمريّة جَهَزَ عليه مَنْ غَمَّهُ وهو نائمٌ ، وحُمِلَ إلىٰ مُرسيةَ فدُفِنَ هُناكَ ، ولَمْ يَمُتْ حتىٰ قَوِيَ أمْرُ المُوَحِّدينَ وقَامَ بَعدَهُ مُحمّدُ ابنُ يُوسُف بنُ نَصْر بنُ الأحْمَر ، ودَامَ المُلكُ في ذُرِيَّتِه[1] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ وفي سَنَة ثمانٍ وثلاثين وستِّ مئة سَلَّمَ الصَّالحُ إسْماعِيلُ قَلْعَةَ الشَّقِيفِ إلى الفِرَنْجِ ليُنْجِدُوهُ على المِصْريّين فأنْكَرَ عليه ابنُ الحاجِبِ وابنُ عبد السَّلامِ فسَجَنَهُما مُدَّةً[2] .

٢ـ مَنْ خَافَ من الصَّليبيّين فهادَنَهم وأعْطاهُم مالاً وبُلداناً إسْلاميّة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَة السُّلطانِ العَادِل سَيفِ الدِّين : خافَ من الفِرَنْجِ فصَالَحَهم وهادَنَهم وأعْطاهُم مَغَلّ الرَّملَة ولُدَّ ، وسَلَّمَ إليهِم يَافَا ، فقَوِيَتْ نُفوسُهم ، فالأمْرُ لله .

---

(١) انظر السير : (محمد بن يوسف بن هود) ٢٣/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ١/١٧١٢ .

(٢) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٥/١٧٢٠ .

قال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيف : كانَ أعْمَقَ إخْوَتِه فِكْراً ، وأطْوَلَهم عُمْراً وأنْظَرَهُم في العَوَاقِبِ ، وأحَبَّهُم للدِّرْهَم ، وكان فيه حِلمٌ وأنَاةٌ وصَبْرٌ على الشَّدائِدِ ، سَعيدُ الجَدِّ[1] ، عاليَ الكَعْبِ ، مُظَفَّراً ، أكُولاً ، نَهِماً ، يَأكُلُ من الحَلْواءِ السُّكريَّةِ رَطْلاً بالدِّمَشْقيّ وكان كَثيرَ الصَّلاةِ ، ويَصُومُ الخَميسَ ، يُكْثِرُ الصَّدَقَةِ عندَ نُزُولِ الآفاتِ ، وكان قَليلَ المَرَضِ ، لقد أُحْضِرَ إليه أرْبَعُونَ حِمْلاً من البَطِّيخِ فكَسَرَ الجَميعَ وبَالَغَ في الأكْلِ فحُمَّ يَوماً وكان كَثيرَ التَّمَتُّعِ بالجَوارِي ، ولا يُدْخِلُ عَليْهِنَّ خادِماً إلاَّ دُونَ البُلُوغِ .

نُجِبَ له عِدَّةُ أوْلادٍ سَلْطَنَهُم ، وزَوَّجَ بنَاتَهُ بمُلُوكِ الأطْرافِ[2] .

٣ـ مَنْ اسْتَنْجَدَ بالنَّصارَىٰ ضدَّ جَيْشٍ مُسْلِمٍ ظالِمٍ :

وجاءَ في تَرجمةِ الأميرِ جَوْهَر قائد الجُيوش الرُّوميّ المَغْربيّ ، قال الذهبيُّ : كان جَوْهَرٌ هـٰذا حَسَنَ السِّيرَة في الرَّعايَا ، عاقِلاً أدِيباً شُجاعاً ، مَهيباً ، لَكنَّه علىٰ نِحْلَةِ بَني عُبَيْد التي ظاهِرُها الرَّفْضُ وباطِنُها الانْحِلالُ ، وعُمُومُ جُيُوشِهم بَرْبَرٌ وأهْلُ زعارة وشَرٍّ ، لا سِيَّما مَنْ تَزَنْدَقَ منهُم ، فكانُوا في مَعْنَى الكَفَرَة ، فيَا ما ذَاقَ المُسلِمُونَ منهم من القَتلِ ، والنَّهبِ ، وسَبْيِ الحَريمِ ، ولا سِيَّما في أوائِل دَوْلَتِهم حتىٰ إنَّ أهلَ صُورٍ قامُوا عَليْهم وقَتَلُوا فيهم ، فهَرَبُوا حتىٰ إنَّ أهلَ صُورٍ اسْتَنْجَدُوا بنَصَارَى الرُّوم فجاؤُوا في المَرَاكِبِ وكان أهلُ صُورٍ قد لَحِقَهُم من المَغَارِبَة من الظُّلْمِ والجُورِ وأخْذِ الحَريمِ من الحَمَّاماتِ والطُّرُقِ أمْرٌ كَبيرٌ[3] .

٤ـ مَنْ اسْتَنْجَدَ بالنَّصارَىٰ خَوفاً مِنْ حَربِ المُسلِمينَ له :

وجاءَ في تَرجَمةِ مُحمّد بنِ سَعد بنِ مُحمّد بنِ مَرْدنيش ، قال الذهبيُّ : كان صِهْراً للمَلِكِ المُجاهِدِ الوَرِعِ أبي مُحمّد عبد الله ابنِ عياض فلمَّا تُوفِيَ ابنُ عِياض ، اتَّفَقَ رأيُ

---

(١) الجَدّ : الحظ أو البخت .

(٢) انظر السير : (العادل وبنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧١ .

(٣) انظر السير : (جوهر) ١٦/ ٤٦٧ـ ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٦ .

أجْنادِه علىٰ تَقْديمِ ابن مَرْدنيش هـٰذا عليهم ، وكان صَغيرَ السِّنِّ شاباً ، لَكنَّه كان مِمَّن يُضْرَبُ بشَجاعَتِه المَثلُ وابْتُلي بجَيشِ عبدِ المُؤمن يُحارِبُونَه ، فاضْطَرَّ إلى الاسْتِعَانَة بالفِرَنْجِ فلمَّا تُوُفِّي الخَليفَةُ عبدُ المُؤمن تَمَكَّنَ ابنُ مَرْدنيش ، وقَوِيَ سُلطانُه وجَرَتْ له حُروبٌ وخُطُوبٌ .

ذَكَرَهُ اليَسَعُ في « تاريخِه » وقال : نازَلَتِ الرُّومُ المَرِيَّةَ عندَ عِلمِهم بِمَوتِ ابنِ عِياض ، ولِكَونِ ابنِ مَرْدنيش شَاباً ، لَكنَّه عِندَهُ من الإقْدامِ ما لا يُوجَدُ في أحَدٍ حتىٰ أضَرَّ به في مَواضِعَ شاهَدْناها معه ، والرَّأيُ قبلَ الشَّجاعَةِ ، وإلاَّ فهُو في القُوَّةِ والشَّجاعَة في مَحلٍّ لا يَتمكَّنُ منه أحَدٌ في عَصْرِه ، ما اسْتَتَمَّ خَمسَةَ عَشَرَ عَاماً حتىٰ ظَهَرتْ شَجاعَتُه ، فإنَّ العَدُوَّ نازَلَ إفراغة ، فقَرُبَ فارِسٌ منهُم إلى السُّورِ ، فخَرَجَ مُحمّدٌ ، وأبُوهُ سَعدٌ لا يَعرِفُ ، فالْتَقَيَا علىٰ حافَّةِ النَّهْرِ ، فضَرَبَهُ مُحمّدٌ ألقَاهُ مع حِصانِهِ في المَاءِ ، فلمَّا كان الغَدُ طَلَبَ فارِسٌ من الرُّومِ مُبارَزَتَه ، وقال : أيْنَ قاتلُ فارِسِنا بالأمْسِ ؟ فامْتَنَعَ والِدُه من إخْراجِه له ، فلمَّا كان وَقتُ القَائِلَة وقد نَامَ أبُوهُ رَكِبَ حِصانَه ، وخَرَجَ حتّىٰ وَصَلَ إلىٰ خِيامِ العَدُوِّ ، فقِيلَ للمَلِك : هـٰذا ابنُ سَعد فأحْضَرَهُ مَجْلِسَه ، وأكْرَمَه وقال : ما تُريدُ ؟ قال : مَنَعَنِي أبي من المُبارَزَةِ ، فأيْنَ الذي يُبارِزُ ؟ فقال : لا تَعْصِ أبَاكَ فقالَ : لا بُدَّ فحَضَرَ المُبارِزُ فالْتَقَيَا ، فضَرَبَ العِلْجُ مُحمَّداً في طارِقَتِه ، وضَرَبَ هو العِلْجَ ألْقاهُ ثمَّ أوْمَأَ إليه بالرُّمْحِ ليَقْتُلَه ، فحالَتْ الرُّومُ بينَهُما ، وأعْطاهُ المَلِكُ جائِزَةً[1] .

وقال الذهبيُّ : كان السُّلطانُ المَلِكُ الصَّالِحُ عِمادُ الدِّين أبُو الخيس إسْماعِيلُ ابنُ المَلِكِ العادِل قَليلَ البَخْتِ ، بَطَلاً ، شُجاعاً ، مَهِيباً ، شَديدَ البَطْشِ ، مَليحَ الشَّكلِ ، كان في خِدمَة أخيه الأشْرَف ، فلمَّا ماتَ الأشْرَفُ تَوَثَّبَ علىٰ دِمَشْقَ ، وتَمَلَّكَ ، فجَاءَ أخُوهُ السُّلطانُ المَلِكُ الكامل ، وحَاصَرَه ، وأخَذَ منه دِمَشْقَ ، ورَدَّهُ إلىٰ بَعْلَبَك ، فلمَّا ماتَ الكاملُ وتَمَلَّكَ الجَوَادُ ثمّ الصَّالِحُ نَجْمُ الدين ، وسارَ نَجْمُ الدين يَقْصِدُ مِصْرَ ، هَجَمَ الصَّالِحُ إسماعيلُ بإعانَةِ صاحِبِ حِمْصَ المُجَاهد فتَمَلَّكَ دِمَشْقَ ثانياً في سَنةِ سَبْعٍ

---

(١) انظر السير : (محمد بن سعد) ٢٩/ ٢٤٠ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٨ .

وثلاثين ، فبَقِيَ بها إلىٰ سَنَةِ اثْنَتَينِ وأرْبَعِينَ وحَارَبَه الصَّالِحُ بالخُوارِزْميّة ، واسْتَعانَ هو بالفِرَنْجِ ، وبَذَلَ لهم الشَّقيفَ وغَيرَها فمُقِتَ لذلك وكان فيه جُورٌ واسْتَقضَىٰ على النَّاسِ الرَّفيعَ الجيليَّ ، وتَضَرَّرَ الرَّعِيّةُ بدمَشْقَ في حِصارِ الخُوارزميّة حتىٰ أُبيعَ الخُبزُ رِطلٌ بستة دَراهم ، والجُبْنُ واللَّحمُ بنِسْبَةِ ذلك ، وأكَلُوا المَيْتَةَ ووَقَعَ فيهم وَباءٌ شَديدٌ[1] .

٥ـ مَنْ حَاربَ مع النَّصارَىٰ ضدَّ المُسلمينَ يَأساً من أحْواله :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة السُّلطانِ المَلكِ الجَوَاد مُظَفَّر الدين يُونُس ابن مَمْدُود : كان جَواداً مُبَذِّراً للخَزائِنِ ، قَليلَ الحَزْم ، وفيه مَحَبَّةٌ للصَّالحين ، والْتَفَّ حَولَه ظَلَمَةٌ ثم تَزَلْزَلَ أمْرُهُ ، فكَاتَبَ المَلكَ الصَّالِحَ أيُّوبَ بنَ الكامل صَاحِبَ سِنْجار وغَيْرَها ، فبَادَرَ إليه وأعْطَاهُ دِمَشْقَ وعَوَّضَه بسِنْجارَ وعَانَةَ فخابَ البَيعُ ، فذَهَبَ إلى الجَزيرَةِ ، فلَمْ يَتمَّ له أمرٌ ، وأُخِذَتْ منه سِنْجارُ ، وبَقِيَ في عَانَة حَزيناً ، فتَرَكَها ومَضَىٰ إلىٰ بَغْدادَ فبَاعَ عَانَةَ للمُسْتَنصِر بمالٍ ، ثمّ قَدِمَ على المَلكِ الصَّالح أيُّوبَ فما أقْبَلَ عليه ، وهَمَّ باعْتِقالِه ففرَّ إلى الكَرْكِ ، فقَبَضَ عليه النَّاصِرُ ، ثمَّ هَرَبَ من مَخاليبه ، فقَدِمَ علىٰ صاحِبِ دِمَشْقَ يومَئذٍ الصَّالح إسْماعِيلَ عَمِّه ، فمَا بشَّرَ به ، وتَراجَمَتْهُ الأحْوالُ ، فقَصَدَ الفِرَنْجيَّ مَلكَ بَيْرُوتَ ، فأكْرَمُوهُ وحَضَرَ مَعهُم وَقْعَةَ قلنسوةَ من عَملِ نابلس قَتَلُوا بها ألْفَ مُسلمٍ ، نَعُوذُ باللهِ من المَكْرِ والخِزْي ، ثم تَحَيَّلَ عَمُّه الصَّالحُ فسَجَنَه بعزّتا ، ثم إنَّ الفِرَنْجَ ألَحُّوا على الصَّالحِ ، وكان مُصافِياً لهم ، في إطْلاقِ الجَوَادِ ، وقالوا : لا بُدَّ لنَا مِنهُ ، وكانت أمُّه إفْرَنْجيّة فيما قِيلَ ، فأظْهَرَ لهم أنَّه قد تُوُفيَ فقِيلَ : خَنَقَهُ في سَنَةِ إحْدَىٰ وأرْبعينَ وسِتِّ مِئَة ، وحُمِلَ فدُفِنَ عند المُعظَّمِ بسَفْحِ قاسيُونَ ، سَامَحَه اللهُ تَعالَىٰ[2] .

٦ـ مُهادَنةُ الكامل للصَّليبيِّين وإعْطاؤُهم بَيتَ المَقْدس :

قال الذهبيُّ في ترجمة المستنصر بالله : وفي سَنةِ خَمسٍ وعِشرينَ وستمائة اسْتَوْلَى الفِرَنجُ علىٰ صَيْدا وقَوِيَتْ نُفوسُهم وجاءَهم مَلكُ الألمَانِ الأنبرُور وقد اسْتَولَىٰ علىٰ

---

(١) انظر السير : (الصالح) ٢٢/ ١٣٤ـ ١٣٧ ، وانظر النزهة : ١٦٧٦/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الجواد) ٢٣/ ١٨٤ـ ١٨٥ ، وانظر النزهة : ١٧٢٦/ ٢ .

قُبرُصَ فكاتَبَه الكاملُ ليُعينَه على النَّاصرِ ، وخافَتْهُ مُلوكُ السَّواحِلِ والمُسلِمونَ فكاتَبَ مُلوكُ الفِرَنْجِ الكاملَ بأنَّهم يُمْسِكُونَ الأنبرور فبَعَثَ وأوْقَفَهم علىٰ عَزْمِهم فعَرَفَها الكاملُ[1] وأجابَه إلىٰ هَواهُ وتَرَدَّدت المُراسَلاتُ وخَضَعَ الأنبرور وقالَ : أنا عَتيقُكَ وإنْ أنا رَجَعتُ خائِباً انْكَسَرَتْ حُرْمَتي ، وهَـٰذِهِ القُدْسُ أصْلُ دِينِنَا وهي خَرابَةٌ ولا دَخْلَ لهَا ، فتَصَدَّقْ عليَّ بقَصَبَةِ البَلدِ وأنا أحْمِلُ مَحْصُولَها إلىٰ خَزانَتِكَ ، فَلانَ لِذلك[2] .

قال الذهبيُّ : وفي سَنة ستٍّ وعشرين وستمائة سَلَّمَ الكاملُ القُدسَ إلى الفِرَنْجِ فَواغَوْثاهُ بالله[3] . وأتْبَعَ ذلكَ بحِصَارِ دِمَشْقَ وأذِيَّةِ الرَّعيَّةِ ، وجَرَتْ بينَهم وَقعاتٌ منها وَقْعةٌ قُتِلَ فيها خَلقٌ من الفَريقَينِ ، وأُحْرِقَتْ الحَواضِرُ وزَحَفُوا علىٰ دِمَشْقَ مِرارا ، واشْتدَّ الغَلاءُ ، ودَامَ البَلاءُ أشْهُراً ثمّ قَنِعَ النَّاصرُ بالكَرْكِ ونابلسَ والغُورَ ، وسَلَّمَ الكاملُ دِمَشْقَ للأشْرَفِ وعُوِّضَ عنها بحَرَّانَ والرَّقَّةَ ورأسِ عَين ، ثمّ حاصَرُوا الأمْجَدَ ببَعْلَبَكْ ، ورَمَوْها بالمَجانيقَ وأُخِذَتْ ، فتَحوَّلَ الأمْجَدُ إلىٰ دَارِهِ بدِمَشْقَ .

وفي سَنة ثلاثينَ : حَاصَرَ الكاملُ آمدَ فأخَذَها من المَلكِ المَسْعُودِ الأتَابكيّ وكان فاسِقاً يأخُذُ بَناتِ النَّاسِ قَهْراً[4] .

٧ـ الاحتفالُ بأعْيادِهم :

وجَاءَ في تَرجَمَةِ المَلكِ الرَّحيمِ بَدْرِ الدِّينِ الأتَابِكيّ ، قال الذهبيُّ : وكان يَحْتفِلُ لعيدِ الشَّعانينَ لبَقايَا فيه من شِعارِ أهْلِه ، فيَمُدُّ سِماطاً عَظيماً إلى الغايَة ، ويُحْضِرُ المَغَاني ، وفي غُضُونِ ذلك أوَاني الخُمورِ ، فيَفرَحُ ويَنْثُرُ الذَّهبَ من القَلعَةِ ،

---

(١) العبارة ملبسة بسبب الاختصار المخل وسرعة الصياغة ، والأصل في « تاريخ الإسلام » : (فكاتبوا الكامل : إذا حصل مصاف نمسك الأنبرور فسيّر إلى الأنبرور كتبهم ، وأوقفه عليها فعرف الأنبرور ذلك للكامل وأجابه إلىٰ كل ما يريد) .

(٢) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١٩ .

(٣) قال في « تاريخ الإسلام » : (وكانت هـٰذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين) .

(٤) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٠ .

ويَتَخاطَفَهُ الرِّجالُ ، فمُقِتَ لإحْياءِ شِعَارِ النَّصارَىٰ ، وقِيلَ فيه[1] :

يُعَظِّمُ أعْيَادَ النَّصَارَىٰ مَحَبَّةً ... ويَزْعُمُ أَنَّ اللهَ عيسَى ابنُ مَرْيَمِ
إذا نَبَّهَتْهُ نَخْوَةٌ أرْيَحِيَّةٌ ... إلى المَجْدِ قَالَتْ أرْمِنيَّةُ نَمِ

* * *

(١) انظر السير : (الملك الرحيم) ٢٣/٣٥٦ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧٤٠

البِدْعَة

١ـ ضابط لبعض صفات المبتدعة :

عن أبي قِلابَة ، قال : إذا حَدَّثتَ الرَّجُلَ بالسُّنَّةِ ، فقالَ : دَعْنا من هـٰذا ، وهَاتِ كِتابَ اللهِ ، فاعْلَمْ أنَّهُ ضَالٌّ[١] .

قال الذهبيُّ : وإذا رَأيتَ المُتكَلِّمَ المُبْتَدِعَ يقُولُ : دَعْنا من الكتاب والأحَاديثِ الآحادِ ، وهَاتِ العَقْلَ فاعْلَمْ أنَّه أبو جَهْل ، وإذا رَأيتَ السَّالِكَ التَّوحيديَّ يَقولُ : دَعْنا من النَّقْلِ ومن العَقْلِ ، وهَاتِ الذَّوْقَ والوَجْدَ ، فاعْلَمْ أنَّه إبْليسٌ قد ظَهَرَ بصُورَةِ بَشَر ، أو قد حَلَّ فيه ، فإنْ جَبُنْتَ منه ، فاهْرُبْ ، وإلاَّ فاصْرَعْهُ وابْرُكْ علىٰ صَدرِهِ واقْرَأ عليه آيةَ الكُرْسيّ واخْنُقْهُ[٢] .

(أ) تعريفُ البدعة المَذْمومَة :

قال الشافِعيُّ : المُحْدَثاتُ من الأمُورِ ضَرْبان : ما أُحْدِثَ يُخالِفُ كِتاباً أو سُنَّة أو أَثَراً أو إجْماعاً ، فهـٰذه البِدْعَةُ ضَلالَةٌ ، وما أُحْدِثَ من الخَيْرِ لا خِلافَ فيه لواحدٍ من هـٰذا ، فهَـٰذه مُحْدَثَةٌ غيرُ مَذْمومَة ، قد قالَ عُمَرُ في قِيامِ رَمَضَانَ : نِعْمَتِ البِدْعةُ هـٰذه ، يَعني أنَّها مُحْدَثَةٌ لَمْ تَكُنْ ، وإذ كانَت فلَيْسَ فيها رَدٌّ لما مَضَىٰ[٣] .

(ب) الْتِمَاسُ الذهبيّ العُذرَ لمَنْ تَلبَّس ببعض البِدَع وهو حَسَنُ النيّة :

قال الذهبيُّ في تَرْجَمَة قَتَادَةَ بن دعامة قُدوة المُفَسِّرين : هُوَ حُجَّةٌ بالإجْماعِ إذا بَيَّنَ السَّماعَ ، فإنَّه مُدَلِّسٌ مَعْروفٌ بذَلكَ ، وكان يَرَى القَدَرَ ، نَسْألُ اللهَ العَفْوَ ، ومع هـٰذا فما تَوَقَّفَ أحَدٌ في صِدْقِهِ ، وعَدالَتِهِ ، وحِفْظِهِ ، ولَعَلَّ اللهَ يَعْذُرُ أمْثالَه مِمَّن تَلَبَّسَ ببِدْعَة

---

(١) انظر السير : (أبو قلابة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٣٤ .

(٢) انظر السير : (أبو قلابة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٣٤ .

(٣) انظر السير : (الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٥١ .

يُريدُ بها تَعْظيمَ البَاري وتَنْزيهَه ، وبَذَلَ وُسْعَه ، والله حَكَمٌ عَدْلٌ لَطيفٌ بعِبادِه ، ولا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، ثُمَّ إنَّ الكَبيرَ من أئِمَّةِ العِلْم إذا كَثُرَ صَوابُه ، وعُلِمَ تَحَرِّيهِ للحَقِّ ، واتَّسَعَ عِلمُه ، وظَهَرَ ذَكاؤُهُ ، وعُرِفَ صَلاحُه ووَرَعُه واتِّباعُه ، يُغْفَرُ لَه زَلَلُه ، ولا نُضَلِّلُهُ ونَطْرَحُه ، ونَنْسَىٰ مَحاسِنَه ، نَعَم ولا نَقْتَدي به في بِدْعَتِه وخَطَئِه ونَرْجُو له التَّوبَةَ من ذلك[1] .

قال أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزيّ : رَأيتُ العَلاَّمَةَ أبا عبدِ الله العُثْمانيّ يَعِظُ بجَامِعِ القَصْرِ ، وكان غالياً في مَذهَبِ الأشْعَريِّ .

ماتَ في سَنة سَبعٍ وعِشرينَ وخَمسِ مِئَة[2] .

قال الذهبيُّ : غُلاةُ المُعتَزِلَة ، وغُلاةُ الشِّيعَةِ ، وغُلاةُ الحَنابِلَة ، وغُلاةُ الأشَاعِرَة ، وغُلاةُ المُرْجِئَةِ ، وغُلاةُ الجهْميَّة ، وغُلاةُ الكرّاميّة ، قد ماجَتْ بهم الدُّنيا ، وكَثُرُوا ، وفيهم أذْكيَاءُ وعُبَّادُ وعُلَماءُ ، نَسْألُ اللهَ العَفْوَ والمَغْفِرَةَ لأهْلِ التَّوحِيد ، ونَبْرَأُ إلى الله من الهَوَىٰ والبِدَعِ ونُحِبُّ السُّنَّةَ وأهْلَها ، ونُحِبُّ العَالِمَ علىٰ ما فيه من الاتِّباع والصِّفاتِ الحَميدَة ، ولا نُحِبُّ ما ابْتُدِعَ فيه بتَأويلٍ سائِغ ، وإنَّما العِبرَةُ بكَثْرةِ المَحاسِن[3] .

٢ـ الاتِّباعُ يَنفي الابْتِداع :

يَقُولُ أبُو عُثْمانَ الحيْريّ : مَنْ أمَّرَ السُّنَّةَ علىٰ نَفْسِه قَوْلاً وفِعْلاً ، نَطَقَ بالحِكْمَةِ ، ومَنْ أمَّرَ الهَوَىٰ علىٰ نَفْسِه نَطَقَ بالبِدْعَة ، قالَ تَعالَىٰ : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[4] .

قال الذهبيُّ : وقالَ تَعالَىٰ : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[5] ،[6] .

---

(١) انظر السير : (قَتادة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٠١ .
(٢) انظر السير : (العثماني) ٢٠/ ٤٤ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٢٩ .
(٣) انظر السير : (العثماني) ٢٠/ ٤٤ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٢٩ .
(٤) سورة النور ، الآية : ٥٤ .
(٥) سورة ص ، الآية ٢٦ .
(٦) انظر السير : (أبو عثمان الحيري) ١٤/ ٦٢ـ ٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٣١ .

٣ـ وُجُوبُ اتِّباعِ ما جاءَ به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم :

قال مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله ، سَمعتُ مَالِكاً يَقُولُ : سَنَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ووُلاةُ الأمْرِ بَعدَهُ سُنَناً ، الأخْذُ بها اتِّباعٌ لِكتابِ الله ، واسْتِكْمالٌ بطَاعَةِ الله ، وقُوةٌ علىٰ دِينِ الله ، لَيسَ لأحَدٍ تَغْييرُها ، ولا تَبْديلُها ، ولا النَّظَرُ في شيءٍ خالَفَها ، مَنْ اهْتَدَىٰ بها ، فهُوَ مُهْتَدٍ ، ومَنْ اسْتَنْصَرَ بها ، فهُوَ مَنْصُورٌ ، ومَنْ تَرَكَها ، اتَّبَعَ غَيرَ سَبيلِ المُؤمِنينَ ، ووَلاَّهُ اللهُ ما تَوَلَّىٰ ، وأصْلاهُ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيراً[١] .

٤ـ التَّحْذيرُ من تَرْكِ اتِّباع ما جاءَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم والاسْتماع إلى الجَدَلِ والآراء :

قال مَالكٌ : أكُلَّمَا جاءَنا رَجُلٌ أجْدَلُ من رَجُلٍ تَرَكْنَا ما نَزَلَ به جِبْريلُ علىٰ مُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم لِجَدَلِه ؟!![٢] .

٥ـ زَجْرُ أهلِ البِدَع والأهْواءِ ومَنْعهم من الكلام :

ذَكَرَ ابنُ أبي الدُّنيا أنَّ المَهْديَّ الخَليفَة العبَّاسيّ كَتَبَ إلى الأمْصارِ يَزْجُرُ أنْ يَتكلَّمَ أحدٌ من أهلِ الأهْواءِ في شيءٍ منها[٣] .

وعن يُوسُفَ الصَّائِغَ قال : رَفَعَ أهلُ البِدَعِ رُؤوسَهم وأخَذُوا في الجَدَلِ فأمَرَ بِمَنْعِ النَّاسِ من الكَلام ، وأنْ لا يُخاضَ فيه[٤] .

٦ـ الحَثُّ على البُعد عنهم وتَجَنُّبِهم حتّىٰ لا يُضِلُّوا غَيرَهم :

رَوَىٰ عَمْرُو بنُ مالك عن أبي الجَوْزاء ، قالَ : لأنْ أُجالِسَ الخَنازِيرَ أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أُجالِسَ أحَداً مِنْ أهْلِ الأهْوَاءِ[٥] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٤/ ٣ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٤/ ٤ .
(٣) انظر السير : (المَهديّ) ٧/ ٤٠٠ـ ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ٧١١/ ١ .
(٤) انظر السير : (المَهديّ) ٧/ ٤٠٠ـ ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ٧١١/ ٢ .
(٥) انظر السير : (أبو الجَوزاء) ٤/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٥١٢/ ٥ .

وعن أبي قِلابَة ، قال : إذا حَدَّثتَ الرَّجُلَ بالسُّنَّةِ ، فقالَ : دَعْنا من هـٰذا ، وهَاتِ كِتابَ اللهِ ، فاعْلَمْ أنَّهُ ضَالٌّ[1] .

وقال عبدُ الصَّمَد مَرْدوَيه : سَمعتُ الفُضَيْلَ يَقُولُ : مَنْ أَحَبَّ صَاحبَ بِدْعةٍ ، أحْبَطَ اللهُ عَمَلَه وأخْرَجَ نُورَ الإسْلامِ من قَلبه ، لا يَرتَفِعُ لِصاحِبِ بِدعَةٍ إلى الله عَمَلٌ نَظَرُ المُؤمِنِ إلى المُؤمِنِ يَجْلُو القَلبَ ، ونَظَرُ الرجُلِ إلىٰ صاحبِ البِدعَة يُورِثُ العَمَىٰ ، مَنْ جَلَسَ مع صاحِبِ بِدْعَةٍ لَمْ يُعْطَ الحِكْمَةَ[2] .

٧ـ التَّحْذيرُ من إلْقاءِ الشُّبَه على العامّة :

عن سُفْيانَ الثَّوريّ : مَنْ سَمِعَ ببِدْعَةٍ فلا يَحْكِهَا لجُلَسَائِه ، لا يُلْقِهَا في قُلُوبِهم[3] .

قال الذهبيُّ : أكْثرُ أئِمَّة السَّلَفِ علىٰ هـٰذا التَّحْذيرِ ، يَرَوْنَ أنَّ القُلوبَ ضَعيفَةٌ والشُّبَهَ خَطَّافَةٌ[4] .

٨ـ مُناقَشَة اعتقادات بعضِ الفِرَق المُبتدِعَة :

قال أحمدُ بنُ حَنْبَل : أخْبَرَني رَجلٌ من أصْحابِ الحَديثِ أنَّ يَحْيَىٰ بنَ صالحٍ قال : لَوْ تَرَكَ أصْحابُ الحَديثِ عَشْرَةَ أحَادِيثَ ـ يَعْني هـٰذه التي في الرُّؤْية ـ ثم قال أحمدُ : كأنَّه نَزَعَ إلىٰ رَأيِ جهْم .

قال الذهبيُّ : والمُعْتَزِلَةُ تقُولُ : لَوْ أنَّ المُحَدِّثينَ تَرَكُوا ألْفَ حَديثٍ في الصِّفاتِ والأسْماءِ والرُّؤيَةِ ، والنُّزولِ ، لأصابُوا والقَدَريَّةُ تقُولُ : لَوْ أنَّهم تَرَكوا سَبْعينَ حَديثاً في إثْباتِ القَدَرِ .

والرَّافِضَةُ تقُولُ : لَوْ أنَّ الجُمهُورَ تَرَكوا من الأحَاديثِ التي يَدَّعُونَ صِحَّتَها ألفَ

---

(١) انظر السير : (أبو قلابة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٣٤ .
(٢) انظر السير : (الفُضيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٨/ ٧٧٧ .
(٣) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٩٨ .
(٤) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٩٨ .

حَديثٍ ، لأصابوا ، وكَثيرٌ من ذَوي الرَّأيِ يَرُدُّونَ أحاديثَ شَافَهَ بها الحَافِظُ المُفْتِي المُجْتهِدُ أبو هُرَيْرَةَ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ويَزْعُمونَ أنَّه ما كانَ فَقيهاً ، ويَأْتُونَنا بأحاديثَ ساقِطَةٍ ، أو لا يُعْرَفُ لها إسْنادٌ أصْلاً مُحْتَجِّينَ بها .

ثم قال الذهبيُّ : ولِلكُلِّ مَوْقِفٌ بين يَدَيِ اللهِ تَعالَىٰ : يا سُبْحانَ الله!! أحَادِيثُ رُؤيَةِ اللهِ في الآخِرَةِ مُتَواتِرَةٌ ، والقُرآنُ مُصَدِّقٌ لها ، فأيْنَ الإنْصافُ ؟!![1] .

٩ـ كيْفيّةُ الرَّدِّ علىٰ بَعضِ أهلِ البِدَعِ :

عن أبي ثَوْرٍ قالَ : سَمعتُ الشَّافعيَّ يقُولُ : كان مَالكٌ إذا جاءَهُ بَعْضُ أهْلِ الأهْواءِ قال : إنِّي علىٰ بَيِّنَةٍ من دينِي ، وأمَّا أنْتَ ، فشَاكٌّ ، اذْهبْ إلىٰ شَاكٍّ مِثْلِك فخاصِمْهُ[2] .

١٠ـ مَنْ كُفِّرَ ببِدْعَة فلَيسَ هو كالكَافرِ الأصْليّ :

قال الإمامُ الذهبيُّ : مَنْ كُفِّرَ ببِدْعَةٍ وإنْ جَلَّتْ ، لَيسَ هو مثلُ الكَافرِ الأصْليِّ ، ولا اليَهُوديِّ والمَجُوسيِّ ، أبَى اللهُ أنْ يَجْعَلَ مَنْ آمَنَ باللهِ ورسُولِهِ واليَومِ الآخِرِ ، وصَامَ وصَلَّىٰ وحَجَّ وزَكَّىٰ وإنِ ارْتَكَبَ العَظائِمَ وضَلَّ وابْتَدَعَ ، كمَنْ عَانَدَ الرسُولَ ، وعَبَدَ الوَثَنَ ، ونَبَذَ الشَّرائِعَ وكَفَرَ ، ولكنْ نَبْرأُ إلى الله من البِدَعِ وأهْلِها[3] .

١١ـ الإنْكارُ على المُبْتَدِعَة يكُونُ بقَدَرٍ حتىٰ لا يُجاوزَ المُنْكِرُ الحَدَّ الشرعي في إنْكارِه :

جاءَ في تَرجمَةِ يَحْيَىٰ بنِ عَمَّار المُحَدِّث الواعِظ قال الذهبيُّ : كان مُتَحَرِّقاً على المُبْتدِعَة والجَهْميّة بحيثُ يَؤولُ به ذلك إلىٰ تَجاوُز طَريقة السَّلَف ، وقد جَعلَ الله لكلِّ شيءٍ قَدراً ، إلاَّ أنَّه كان له جَلالَةٌ عَجيبَة بِهَراةَ ، وأتْباعٌ وأنْصارٌ .

وكان فَصيحاً مُفَوَّهاً حَسَنَ المَوعِظَة ، رَأسا في التَّفْسير ، أكْمَلَ التَّفْسيرَ على المِنْبَرِ

---

(١) انظر السير : (الوحاظيّ) ١٠/ ٤٥٣ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٦/٨٨٢ .

(٢) انظر السير : (مالك بن أنس) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٣٤ .

(٣) انظر السير : (المَريسيّ) ١٠/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٥/٨٦٧ .

في سَنة اثْنتَين وتسعين وثلاثِ مِئَة ، ثم افْتَتَح خَتْمةً أخْرىٰ فماتَ وهو يُفسِّرُ في سُورة القِيامَة ، وعاشَ تسعينَ سنةً .

قال أبو إسْماعيلَ الأنْصاريُّ : كان يَحْيىٰ بنُ عَمَّار مَلكاً في زِيِّ عالِمٍ ، كان له مُحِبٌّ مُتَمَوِّلٌ يَحملُ إليه كُلَّ عامٍ ألفَ دينارٍ هَرَويّة ، فلمَّا ماتَ يَحْيىٰ ، وجَدُوا له أرْبَعينَ بَدْرَةً لمْ يَفُكَّ خَتْمَها[1] .

١٢ـ خَوفُ الصَّالحين من الإقْدَام علىٰ أمُورٍ مَخَافَةَ الابْتِداع :

عن عُبَيدِ الله بنِ واصِل ، سَمعتُ أحمَدَ السُّرْماريَّ يَقولُ ، وأخْرَجَ سَيفَه ، فقالَ : أعْلَمُ يَقينا أنِّي قَتلْتُ به ألفَ تُرْكيٍّ ، وإنْ عِشْتُ قَتلتُ به ألفاً أُخْرىٰ ، ولَولا خَوْفي أنْ يَكُونَ بِدعَةً لأمَرْتُ أنْ يُدْفَنَ مَعي .

وعن مَحمودِ بنِ سَهْل الكاتب ، قال : كانوا في بَعضِ الحُروبِ يُحاصِرونَ مَكاناً ، ورَئيسُ العَدوِّ قاعدٌ علىٰ صُفَّة فرَمَى السُّرْماريُّ سَهْماً ، فغَرَزَهُ في الصُّفَّة ، فأوْمَأ الرَّئيسُ لِيَنْزِعَهُ ، فرَماهُ بسَهْمٍ آخر خاطَ يَدَه ، فتَطاوَلَ الكافِرُ لِيَنْزِعَهُ من يَدِه ، فرَماهُ بسَهْمٍ ثالثٍ في نَحْرِه ، فانْهَزَمَ العَدوُّ ، وكان الفَتْحُ .

قال الذهبيُّ : أخْبارُ هـٰذا الغَازي تَسُرُّ قَلبَ المُسلِم .

تُوفِّي في سَنة اثنتَينِ وأرْبَعينَ ومِئَتين ، رَحِمَه اللهُ تَعالَىٰ ، فإنَّه كان مع فَرْطِ شَجاعَتِه من العُلَماءِ العامِلينَ العُبَّاد[2] .

* * *

(١) انظر السير : (يَحيى بن عمّار) ١٧/ ٤٨١ـ ٤٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥١ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن إسحاق) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٠ .

التَّكفِير

١ـ تكفيرُ المُسلمِ أمرٌ عَظيم :

عن العَلاءِ بنِ زِيادٍ ، قال : ما يَضُرُّكَ شَهِدْتَ علىٰ مُسْلمٍ بكُفْرٍ أو قَتَلْتَه[١] .

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة إمام المُتكلِّمين عليُّ بنُ إسْماعيلَ الأشْعَريّ : رَأيتُ للأشْعَريِّ كَلمَةً أعْجَبَتْني وهي ثابِتةٌ رَواها البَيْهَقيُّ ، سَمعتُ أبا حازِم العَبْدَويَّ ، سَمعتُ زاهِرَ بنَ أحمَدَ السَّرْخَسيَّ يَقولُ : لمَّا قَرُبَ حُضُورُ أجَلِ أبي الحَسَن الأشْعريّ في دَاري ببَغْدادَ ، دَعاني فأتَيْتُه ، فقال : اشْهدْ عليَّ أنِّي لا أُكَفِّرُ أحَداً من أهْلِ القِبْلَة ، لأنَّ الكُلَّ يُشيرُونَ إلىٰ مَعْبُودٍ واحدٍ ، وإنَّمَا هـٰذا كُلُّهُ اخْتلافُ العِبارات[٢] .

قال الذهبيُّ : وبنَحوِ هـٰذا أَدين ، وكذا كان شَيخُنا ابنُ تَيْميَة في أواخِرِ أيّامه ، يقولُ أنا لا أُكَفِّرُ أحَداً من الأُمَّة ، ويقولُ : قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لا يُحَافِظُ عَلى الوُضُوءِ إلاَّ مُؤمِنٌ » فمَنْ لازَمَ الصَّلَواتِ بوُضُوءٍ فهو مُسْلمٌ .

وقد ألَّفَ الأهْوَازيُّ[٣] . جُزْءاً في مَثالِبِ ابنِ أبي بِشْر ، فيه أكاذيبُ وجَمَعَ أبو القاسِمِ في مَنَاقِبِة فَوائدَ بَعضُها أيْضاً غَيرُ صَحيحٍ ، وله المُناظَرَةُ المَشْهورَة مع الجُبَّائيّ في قَولِهِم : يَجِبُ على الله أنْ يَفْعَلَ الأصْلَحَ .

وكان فيه دُعابَةٌ ومَزْحٌ كَثيرٌ وألَّفَ كُتُباً كَثيرَةً ، وكان يَقْنَعُ باليَسيرِ ، وله بَعضُ قَريةٍ من وَقْفِ جَدِّهم الأميرُ بِلالُ بنُ أبي بُرْدَة[٤] .

---

(١) انظر السير : (العلاء بن زياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٨٧ .

(٢) انظر السير : (الأشعريّ) ١٥/ ٨٥ـ ٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٨٤ .

(٣) هو الحسن بن علي بن إبراهيم أبو علي الأهوازي ، مقرىء الشام في عصره ، أصله من الأهواز ، استوطن دمشق وتُوفي بها سنة ٤٤٦ .

(٤) انظر السير : (الأشعريّ) ١٥/ ٨٥ـ ٩٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٨٤ .

٢ـ ضَبطُ الذهبيِّ غُلوَّ بَعضِ السَّلفِ في التَّكْفير :

قال الحاكمُ : سَمعتُ مُحمّدَ بنَ صالِح ابن هَانىء ، سَمعتُ ابنَ خُزَيْمَةَ يقُولُ : مَنْ لَمْ يُقِرّ بأنَّ اللهَ علىٰ عَرشِهِ قد اسْتَوَىٰ فَوقَ سَبعِ سَماواتِهِ فهُو كافِرٌ حَلالُ الدَّمِ ، وكان مَالُهُ فَيْئاً .

قال الذهبيُّ : مَنْ أقَرَّ بذلكَ تَصْديقاً لكتابِ الله ، ولأحَاديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وآمَنَ به مُفَوِّضاً مَعْنَاه إلى اللهِ ورسُولِه ، ولَمْ يَخُضْ في التَّأويلِ ولا عَمَّق ، فهو المُسلمُ المُتبِعُ ، ومَنْ أنْكَرَ ذلكَ ، فلَمْ يَدْرِ بثُبوتِ ذلكَ في الكتابِ والسُّنَّة فهو مُقَصِّرٌ ، واللهُ يَعفُو عَنه ، إذْ لَمْ يُوجِبْ اللهُ علىٰ كلِّ مُسلمٍ حِفْظَ ما وَرَدَ في ذلكَ ، ومَنْ أنْكَرَ ذلكَ بعدَ العِلم ، وقَفَا غَيرَ سَبيلِ السَّلَف الصَّالح ، وتَمَعْقَلَ على النَّصِّ ، فأمْرُهُ إلى الله ، نَعُوذُ باللهِ من الضَّلالِ والهَوَىٰ .

وكَلامُ ابنُ خُزَيْمَةَ هـٰذا ـ وإنْ كانَ حَقاً ـ فهُوَ فَجٌّ ، لا تَحْتَمله نُفوسُ كثيرٍ من مُتأخِّري العُلماءِ .

ولابنِ خُزَيْمَةَ عَظَمَةٌ في النُّفوسِ ، وجَلالَةٌ في القُلوبِ لِعلْمِه ودينِه واتِّباعِه السُّنَّة[1] .

وقال أحمَدُ بنُ مُحمّد الخفّاف ، حدَّثنَا أبو العبَّاسِ السَّرَّاج إمْلاءً قال : مَنْ لَمْ يُقِرَّ بأنَّ اللهَ تَعالَىٰ يَعْجَبُ ، ويَضْحَكُ ، ويَنْزِلُ كلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا ، فيَقولُ : « مَنْ يَسْألُنِي فَأُعْطِيهِ » فهُو زِنْديقٌ كافرٌ ، يُسْتَتابُ ، فإنْ تَابَ وإلاَّ ضُرِبَتْ عُنقُه ، ولا يُصَلَّىٰ عَليه ، ولا يُدْفَنُ في مَقابِرِ المُسلِمين .

قال الذهبيُّ : لا يُكَفَّرُ إلاَّ إنْ عَلِمَ أنَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم قال ، فإنْ جَحَدَ بعد ذلك فهـٰذا مُعانِدٌ نَسْألُ اللهَ الهُدَىٰ ، وإنِ اعْتَرَفَ أنَّ هـٰذا حَقٌّ ، ولكنْ لا أخُوضُ في مَعانِيه ، فقد أحْسَنَ ، وإنْ آمَنَ وأوَّلَ ذلك ، أو تَأوَّلَ بَعضَه ، فهُو طَريقَةٌ مَعروفَة .

---

(١) انظر السير : (ابن خزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٦/١١٦١ .

وقد كان السَّرَّاجُ ذا ثَروَةٍ وتِجارَةٍ ، وبِرٍّ ومَعروفٍ ، ولَه تَعَبُّدٌ وتَهجُّدٌ إلاَّ أنَّه كان مُنافِراً للفُقَهاءِ أصْحابِ الرأي ، واللهُ يَغفرُ له[1] .

قال الإمامُ تَقيُّ الدين ابنُ الصَّلاحِ في فَتاويه : وَجَدْتُ عن الإمامِ أبي الحَسَنِ الوَاحديِّ المُفَسِّر رَحمَه الله أنَّه قال : صَنَّفَ أبو عبد الرحمَـٰنِ السلميُّ « حَقائقَ التَّفْسير » ، فإنْ كانَ اعْتَقَدَ أنَّ ذلكَ تَفْسيرٌ فقد كَفَر .

قال الذهبيُّ : واغَوْثاه!! ، واغُربَتَاه!![2] .

٣ـ لَومُ الذهبيُّ ابنَ خَفيف لأنَّه لَمْ يُكَفِّر الحَلاَّجَ واعتَقَدَ أنَّه مُوَحِّد :

قالَ ابنُ باكويه : سَمعتُ ابنَ خَفيف يُسألُ : ما تَعْتَقدُ في الحَلاَّجِ ؟ قالَ : أعْتقدُ أنَّه رَجلٌ من المُسْلِمين فَقَط فقِيلَ له : قد كَفَّرَهُ المَشايخُ وأكْثَرُ المُسلِمينَ ، فقالَ : إنْ كانَ الذي رَأيْتُهُ مِنْهُ في الحَبْسِ لَمْ يَكُنْ تَوحِيداً ، فلَيسَ في الدُّنيا تَوحيدٌ .

قال الذهبيُّ : هـٰذا غَلَطٌ من ابنِ خَفيف ، فإنَّ الحَلاَّجَ عندَ قَتلِهِ ما زالَ يُوَحِّدُ اللهَ ويَصيحُ : الله الله في دَمي ، فأنا على الإسْلامِ وتَبرَّأ ممَّا سِوَى الإسْلام والزِّنْديقُ فيُوَحِّدُ اللهَ عَلانيَةً ، ولكنَّ الزَّنْدَقَةَ في سِرِّهِ ، والمُنافِقُونَ فقد كانوا يُوَحِّدُونَ ويَصُومُونَ ويُصَلُّونَ عَلانيَةً ، والنِّفاقُ في قُلوبِهم ، والحَلاَّجُ فما كان حِماراً حتىٰ يُظْهرَ الزَّندَقَةَ بإزاء ابنِ خَفيف وأمْثالِه ، بلْ كان يَبُوحُ بذلك لمَنِ اسْتَوثَقَ مِنْ رِباطِه ، ويمكنُ أنْ يَكونَ تَزَندَقَ في وقْتٍ ، ومَرَقَ وادَّعَى الإلَهيّةَ ، وعَمِلَ السِّحرَ والمَخاريقَ الباطِلَةَ مُدّة ، ثم لمَّا نَزَلَ به البَلاءُ ورَأى المَوتَ الأحْمرَ أسْلَمَ ورَجَعَ إلى الحَقِّ ، واللهُ أعْلَمُ بسِرِّه ، ولكن مَقالَتَه نَبرأُ إلى اللهِ مِنْها ، فإنَّها مَحْضُ الكُفرِ ، نَسألُ اللهَ العَفْوَ والعَافيَةَ .

كان مَقْتَلُ الحَلاَّجِ في سَنَةِ تِسْعٍ وثلاثِ مِئَة[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٤ .

(٢) انظر السير : (السلميّ) ١٧/ ٢٤٧ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٤٠ .

(٣) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/ ٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٩ .

العَقائدُ الضالَّة

١ـ من أسبابِ انحرافِ مَنِ انْحَرَفَ من المُسلمين التَّأثُّرُ بفكرِ الضالين نَتيجَةَ مُخالَطَتِهم :

عن ابنِ سيرين ، قال : تَزَوَّجَ عِمْرانُ بنُ حطَّان خارجيَّة وقال : سأرُدُّها ، قال فصَرَفَتْهُ إلىٰ مَذْهَبِها[١] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي العَلاء أحمَد بن عبد الله بن سُليْمانَ القَحْطانيّ المعريُّ ، قال الذهبيُّ : ارْتَحَلَ في حُدودِ الأرْبَع مِئَة إلىٰ طَرابُلسَ وبها كُتُبٌ كَثيرةٌ ، واجْتازَ باللاَّذِقيَّة ، فنزَلَ ديراً به راهِبٌ مُتَفَلسِفٌ ، فدَخَلَ كَلامُه في مَسامِعِ أبي العَلاءِ ، وحَصَلتْ له شُكوكٌ لَمْ يَكُنْ له نُورٌ يَدْفَعُها ، فحَصلَ له نَوْعُ انْحِلالٍ دَلَّ عليه ما يَنظُمُه ويَلْهَجُ به ويُقالُ : تَابَ من ذَلكَ وارْعَوَىٰ .

وقد سَارَت الفُضَلاءُ إلىٰ بابِه ، وأخَذُوا عنه .

وكان غِذاؤُه العَدَسَ ونَحْوَه ، وحَلوَاه التيِّن ، وثِيابُه القُطْن[٢] .

جاءَ في تَرجَمَةِ صاحبِ اليَمَنِ الصُّلَيْحيُّ ، قال الذهبيُّ : دَارَ به دَاعي البَاطِنيَّة عَامِرُ الزَّواخيُّ[٣] حتىٰ أجَابَه وهو حَدَثٌ ، فتَفَرَّسَ به عَامرٌ النَّجابَةَ ، وشَوَّقه ، وأسَرَّ إليهِ أمُوراً ثم لَمْ يَنْشَبْ عَامرٌ أنْ هَلَكَ ، فأَوْصَىٰ بكُتُبِهِ لعَليٍّ ، فعَكَفَ على الدَّرْسِ والمُطالَعَةِ ، وفَقُهَ وتَمَيَّزَ في رَأي العُبَيْديَّة ، ومَهَرَ في تَأويلاتِهم ، وقَلْبِهم للحَقائق .

ثم صَارَ يَحُجُّ بالنَّاسِ علىٰ طريقِ السَّراةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنةً ، وكان النَّاسُ يَقولُونَ له : سَتَملكُ اليَمنَ بأسْرِهِ فيُنْكِرُ على القَائلِ ، فلمَّا كان في سَنةِ تِسْعٍ وعِشْرينَ وأرْبع مِئَة ، ثَارَ بجَبلِ مَشَار في سِتينَ رَجُلاً فأَوَوا إلىٰ ذِرْوَةِ شَاهِقٍ ، فما أمسوا حتىٰ أحاطَ بهم

---

(١) انظر السير : (عمران بن حطّان) ٤/ ٢١٤ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨١ .

(٢) انظر السير : (أبو العلاء) ١٨/ ٢٣ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٧٩ .

(٣) قرية باليمن ، وإليها يُنسَب عامر بن عبد الله الزواخي صاحب الدعوة ، عن الصليحي .

عِشْرُونَ ألفاً وقالوا : انْزِلْ وإلاَّ قَتَلناكُم جُوعاً وعَطَشاً ، قال : ما فَعَلتُ هـٰذا إلاَّ خَوفاً أنْ يَملِكَه غَيرُنا ، وإنْ تَرَكْتُمونا نَحْرُسُه ، وإلاَّ نَزَلْنا إلَيكُم ، وخَدَعَهُم ، فانْصَرَفُوا فَلَمْ يَمْضِ عليهِ أشْهرٌ حتىٰ بَنَاهُ وحَصَّنَه ، ولَحِقَ به كلُّ طَمَّاع وذِي جَلادَةٍ ، وكَثُرُوا فاسْتَفْحَلَ أمرُه وأظْهَرَ الدَّعْوَةَ لصاحِبِ مِصْرَ المُسْتَنْصِر ، وكان يَخافُ من نَجَاحِ صاحب تِهَامَة ، ويُلاطِفُه ويَتَحَيَّل عليه ، حتىٰ سَقاهُ مع جَارِيَةٍ مَليحَةٍ أهْداها له ، واسْتَولَىٰ على المَمَالِكِ اليَمَنيَّة في سَنة خَمسٍ وخَمسينَ وأرْبعِ مِئَة ، وخَطَبَ علىٰ مِنْبَرِ الجَنَد[1] ، فقالَ : وفي مثل هـٰذا اليَوم نَخْطُبُ علىٰ مِنْبَرِ عَدَنْ ، فقال رجلٌ : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، يَسْتَهْزِىءُ بقَولِه ، فأمَرَ بأَخْذِه فاتَّفَقَ أنَّه أخَذَ عَدَنَ ، وخَطَبَ ، وصَيَّرها دَارَ مُلْكِه ، وأنْشَأ عِدَّةَ قُصُورٍ أنيقَة ، وأَسَرَ مُلوكاً ، وامْتَدَّتْ أيَّامُه ثمَّ حَجَّ ، وأحْسَنَ إلىٰ أهْلِ مَكَّة .

وكان أشْقَرَ أزْرَقَ ، يُسَلِّمُ علىٰ مَنْ مَرَّ عليهم ، وكان ذا ذَكاءٍ ودَهاءٍ ، كَسَا الكَعْبَةَ البَيَاضَ ، وخُطِبَ لزَوْجتِه أيضاً معه على المَنابِر ، ثم إنَّه حَجَّ في سَنةِ ثَلاثٍ وسَبعينَ واسْتَخْلفَ على اليَمَنِ ابنَهُ أحمَدَ المَلِكَ المُكَرَّم فلمَّا نَزَلَ بالمَهْجَم[2] ، وَثَبَ عليه جَيَّاشُ بنُ نَجَاح وأخُوهُ سَعيدُ الأحْوَل ، فقتَلاهُ بأبيهِما ، والتَفَّ أكْثَرُ العَسْكَرِ على ابنِ نَجاحٍ وتَمَلَّك .

ودام مُلكُ ولَدِه المُكَرَّم علىٰ شَطْرِ اليَمَن مُدّة ، وحارَبَ ابنَ نَجاح غَيرَ مرّة إلىٰ أنْ ماتَ سَنةَ أربَعٍ وثَمانينَ فتَمَلَّك بعدَه ابنُ عمِّه سَبأ بنُ أحمَد إلىٰ سَنةِ خَمسٍ وتِسْعين ، وصارَ المُلكُ إلىٰ آل نَجاحٍ مُدّة[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ عَقيل شَيخِ الحَنابلَة المُتلِّكم صاحب التَّصَانيف قال عنه الإمامُ الذهبيُّ : سَمعَ القاضي أبا يعلىٰ بنَ الفَرَّاء ، وتَفَقَّهَ عليه ، وتَلا بالعَشْرِ علىٰ أبي الفَتْحِ بن شيطا ، وأخَذَ العَربيّةَ عن أبي القاسِمِ بن بُرهان ، وأخَذَ عِلمَ العَقْليَّاتِ عن

---

(١) مدينة باليمن بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخاً .

(٢) بلد من أعمال زبيد باليمن .

(٣) انظر السير : (الصُلَيحيّ) ١٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٢١ .

شَيْخَيّ الاعْتزالِ أبي عليّ ابنِ الوَليد ، وأبي القاسِم بنِ التبَّان صاحِبَيْ أبي الحَسَنَ البَصْريّ ، فانْحَرَفَ عن السُّنَّة[1] .

وقال ابنُ الجَوْزيّ : كان أصْحابُنا الحَنابِلَةُ يُريدُونَ مِنِّي هِجْرانَ جَماعَةٍ من العُلَماء وكان ذلكَ يَحْرِمُني عِلماً نافِعاً .

قال الذهبيُّ : كانوا يَنْهَونَه عن مُجالَسَةِ المُعْتزلَة ، ويأبىٰ حتىٰ وَقَعَ في حَبائِلِهم ، وتَجَسَّرَ علىٰ تَأويلِ النُّصوصِ ، نَسْألُ اللهَ السَّلامَةَ .

وفي « تاريخ ابنِ الأثير » ، قال : كان قد اشْتَغَلَ بمَذْهب المُعْتزلَة في حَداثَته على ابنِ الوَليدِ ، فأرادَ الحَنابلَةُ قَتلَهُ ، فاسْتَجارَ ببابِ المَراتِبِ عِدَّةَ سِنين ، ثم أظْهَرَ التَّوبَةَ[2] .

٢ـ عَرضٌ تاريخيّ لظُهور العَقائد المُخالِفَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ : كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدَةً ، ودِينُهُم قَائماً في خِلافَةِ أبي بَكرٍ وعُمَرَ فلَمَّا اسْتُشْهِدَ قُفْلُ باب الفِتْنَةِ عُمَرُ رضي الله عنه ، وانْكَسَرَ البَابُ ، قَامَ رُؤوسُ الشَّرِّ على الشَّهيدِ عُثْمانَ رضي الله عنه حتّىٰ ذُبِحَ صَبْراً وتَفَرَّقَتْ الكَلمَةُ وتَمَّتْ وَقْعَةُ الجَمَلِ ، ثم وَقعَةُ صِفّينَ ، فظَهَرت الخَوارِجُ ، وكَفَّرَتْ سَادَةَ الصَّحابَةِ ، ثم ظَهَرَت الرَّوافِضُ والنَّواصِبُ[3] .

وفي آخِرِ زَمَنِ الصَّحابَة ظَهَرت القَدَريّة ، ثم ظَهَرَت المُعْتَزِلَةُ بالبَصْرَة ، والجَهْميّة والمُجَسِّمَة بخُراسَان في أثْناءِ عَصْرِ التَّابِعِين مع ظُهورِ السُّنَّةِ وأهْلِها إلىٰ بَعدِ المِئَتين ، فظَهَرَ المَأمُونُ الخَليفَة ـ وكانَ ذَكيّاً مُتَكَلِّماً ، له نَظَرٌ في المَعْقُولِ ـ فاسْتَجْلَبَ كُتُبَ الأوائِل ، وعَرَّبَ حِكْمَةَ اليُونانِ ، وقَامَ في ذلكَ وقَعَدَ ، وخَبَّ ووَضَعَ ، ورَفَعَت الجَهْميّةُ والمُعْتزِلَةُ رُؤُوسَهَا ، بلْ والشِّيعَةُ ، وآلَ به الحَالُ إلىٰ أنْ حَمَلَ الأمَّةَ على القَولِ

---

(١) انظر السير : (ابن عقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٩٧ .
(٢) انظر السير : (ابن عقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٩٨ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٢ .

بخَلْقِ القُرآنِ ، وامْتَحَنَ العُلمَاءَ ، فلَمْ يُمْهَلْ ، وهَلكَ لعامِه ، وخَلَّىٰ بعدَه شَراً وبلاءً في الدين فإنَّ الأُمَّة ما زالت علىٰ أنَّ القُرآنَ العَظيمَ كلامُ الله تَعالَىٰ ووَحْيُه وتَنزيلُه ، لا يَعرفون غَير ذلك ، حتىٰ نَبغَ لهم القولُ بأنَّه كلامُ الله مَخْلوق مَجْعول ، وأنَّه إنَّما يُضافُ إلى الله تَعالَىٰ إضافةَ تَشْريف ، كبَيت الله ، وناقَة الله فأنْكرَ ذلك العلماءُ ولَمْ تكن الجَهْميَّة يَظهرون في دَولة المَهدي والرَّشيد والأَمين ، فلمَّا وَلِيَ المأمونُ ، كان منهم ، وأظهَرَ المَقالة .

رَوىٰ أحمدُ بنُ إبراهيم الدَّوْرَقي ، عن محمدِ بنِ نوح : أنَّ الرَّشيدَ قالَ : بَلَغَني أنَّ بِشْرَ بنَ غِياث المَريسي ، يقولُ : القُرآنُ مَخْلوق ، فلِلَّه عليَّ إنْ أظْفَرَني اللهُ به ، لأقْتُلَنَّه قال الدَّوْرَقيُّ : وكان مُتَوارياً أيام الرَّشيد ، فلمَّا ماتَ الرَّشيدُ ظَهَرَ ودَعا إلى الضَّلالَة[1] .

٣ـ أسْبابُ انْتشَارُ العَقائدِ الفَاسِدَة :

(أ) الجَهْلُ :

قال الذهبيُّ في تَرْجَمَة الخَبيث ، عَليِّ بنِ مُحمّد العَبْديّ ، قال : فادَّعَىٰ بعدَ الخَمْسينَ هَـٰذا الخَبيثُ بِهَجَر[2] أنَّه عَليُّ بنُ مُحمّد ابنِ الفَضْلِ بنِ حُسَيْنِ بنِ عبدِ الله بنِ عَبَّاس بنِ عَليِّ بنِ أبي طَالِب ، ودَعَا إلىٰ نَفْسِه ، فمَالَ إليه رَئيسُ هَجَر ، ونابَذَهُ قَومٌ ، فاقْتَتَلوا ، فتَحوَّلَ إلى الأحْسَاء ، واعْتَصَمَ ببَنِي الشمَّاس ، وإنَّما قَصَدَ البَحْرَين لِغَبَاوَةِ أهْلِها ، ورَوَاجِ المَخاريق عَليهِم ، فحَلَّ منهم مَحلّ نَبيٍّ ، وصَدَّقُوهُ بِمَرّةٍ ، ثم تَنكَّروا له لدبره ، فَشَخَصَ إلى البَاديَة يَسْتَغْوي الأعَاريبَ بنُفوذِ حِيَلِه ، وشَعْوَذَتِه ، واعْتَقَدُوا فيه أنَّه يَعْلمُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وجَعَلَ يُغيرُ على النَّواحي ، ثم تَمَّتْ له وَقْعَةٌ كبيرةٌ ، هُزِمَ فيها وقُتِلَ كُبَراءُ أتْباعِه وكَرِهَتْهُ العَربُ[3] .

وذَهبَ إلىٰ بَغْدادَ فأقَامَ سَنةً يَسْتَغوي النَّاسَ ويُضِلُّهُم ، فاسْتَمالَ عِدَّة من الحاكَة

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٢ .

(٢) هجر : مدينة في البحرين .

(٣) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٦٤ .

بمَخاريقِه ، والجَهَلَةُ أسْبَقُ شيءٍ إلىٰ أرْبابِ الأحْوالِ الشَّيْطانيّة ، ومَاتَ مُتَولِّي البَصْرَة ، وهَاجَت الأعْرابُ بها ، وفَتَحُوا السُّجونَ ، فتَخَلَّصَ قَومُه فبَادَرَ إلى البَصْرَة في رمَضانَ سَنةَ خمس وخمسين ، وحَولَهُ جَماعَةٌ ، واسْتَجابَ له عَبيدٌ زُنوج للنَّاسِ ، فأفْسَدَهم وجَسَّرَهم ، عَمَدَ إلىٰ جَريدَةٍ ، فكَتَبَ علىٰ خِرقَةٍ عليها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[1] وكَتبَ اسْمَه ، وخَرَجَ بهم في السَّحَر للَيْلَتَين بَقِيَت من رمَضانَ في ألفِ نَفْسٍ ، فخَطَبَهُم ، وقال : أنتُم الأُمَراءُ وسَتَمْلِكُون ووَعَدَهم ، ومَنَّاهُم .

ثم لَمْ يَزَلْ يَنْهَبُ ويُغِيرُ ، ويَكْثُرُ جَمْعُه من كلِّ مائِقٍ[2] وقاطِع طريق ، حتى اسْتَفْحَلَ أمرُه ، وعَظُمَتْ فِتْنَتُه ، وغَنِمَ الخُيولَ والسِّلاحَ ، والأمْتِعةَ والأمْوالَ والمَواشي ، وصَارَ من المُلوك وصَارَ كُلَّما حارَبَه عَسكَرٌ وانْهَزَموا ، فَرَّ إليه غِلْمانُ العَسكَر ، فحَشَدَ له أهلُ البَصْرَة في ذي القعْدَة من العام ، والتَقَوا ، فهَزَمَهُم ، وقَتَلَ منهم مَقْتلَة ، ووَقَعَ رُعْبُه في النُّفوسِ ، فوَجَّهَ الخَليفَةُ جَيشاً ، فما نَفَعُوا .

ثم أخَذَ الأهْوازَ ، فخَافَه أهْلُ البَصْرة ، وانجَفَلُوا ، فأخَذَها بالسَّيفِ في شَوَّالَ ، سَنةَ سَبعٍ وخمسين ، وقْتَ صَلاةِ الجُمُعَة ، وهَرَبَ جُندُها فأحْرَقَ الجامِعَ بمَنْ حَوَىٰ ، ولَمْ تَزَلْ الحَربُ بَينَه وبَينَ المُوَفَّقِ سِجالاً .

واسْتَباحَ واسطَ في سَنة أربعٍ وسِتِّين ، وحَصَلَ للخَبيثِ جَواهِرُ وأمْوالٌ ، فاسْتأثَرَ بها ، فأنْكَرَ عليه المُتَقشِّفونَ من أصْحابِه ، وذَكَرُوا له سِيرَةَ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ، فقالَ : لَيسَ فيهِما قُدْوَة .

وادَّعَىٰ أنَّه هُو عَبدُ الله المَذْكُور في : ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾[3] وزَعَمَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ما يَمْتازُ عليه إلاَّ بالنُّبُوَّة .

وزَعَمَ أنَّه تَكلَّمَ في المَهْدِ ، صِيحَ به : يا عَليّ! فقالَ : يا لَبَّيْك .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .

(٢) مائق : حاقد ، والمأقة : الحقد .

(٣) سورة الجن ، الآية : ١ .

وكان يَجْمعُ اليَهودَ والنَّصارَىٰ ، يَسْألُهم عمَّا في التَّوْراةِ والإنْجيلِ مِنْ ذِكْرِه ، وهم يَسْخَرونَ منه ، ويَقْرَؤُونَ له فُصُولاً ، فيَدَّعي أنَّها فيه وزادَ من الإفْكِ فنَفَرَت منه قُلوبُ خَلقٍ من أتْباعِه ومَقَتُوه وبَقِيَ المُوَفَّقُ يُكْرِمُ كلَّ مَنْ فَرَّ إليه ، ويَخْلعُ عليهم ، وكَتَبَ إلى الخَبيثِ يَدعُوهُ إلى التَّوبَة من ادِّعاءِ مُخاطَبَة المَلائِكَة ، ومن تَحْريفِه القُرآنَ وضَلالَتِه ، فما أجابَ بشيءٍ ، وحَصَّنَ مَدينَتَه (المُخْتارَة) التي بِنَهْرِ أبي الخَصيبِ ، حتّىٰ بَقيَتْ يُضْرَبُ بها المَثَلُ ، ونَصَبَ فيها المَجانيقَ والأسْلِحَةَ بما بَهَرَ العُقولَ ، وبها نَحْوَ مِئَتَي ألفِ مُقاتِلٍ ، فما قَدِرَ عليها الجَيشُ إلاَّ بالمُطاوَلَة ، وأنْشَأَ تِلْقاءَها المُوَفَّقُ مَدينَةً وسَكَنَها ، ولَمْ يَزَلْ إلىٰ أنْ أخَذَ (المُخْتارَة) فهَرَبَ الخَبيثُ إلىٰ مَضائِقَ في نَهْرِ أبي الخَصيب ، لا تَصِلُ إليها سَفينَةٌ ولا فارِسٌ ثم بَرَزَ في أبْطَالِه وقَاتَلَ أشَدَّ قِتالٍ ، وهو يَقولُ :

وعَـزيمَتِـي مِثْـلُ الحُسَـامِ وهِمَّتِـي ... نَفْـسٌ أصُـولُ بهـا كَنَفْـسِ القَسْـوَرِ
وإذا تُنـازِعُنـي أقُـولُ لهـا اسْكُتِـي ... قَتْـلٌ يُـريْحُـكِ أوْ صُعُـودُ المِنْبَـرِ[1]

وجاءَ في تَرجَمَة القِرْمِطيّ الجَنّابيِّ ، عَدوِّ الله ، قال الذهبيُّ : واتَّفقَ أنَّ أبا السَّاجِ الأميرَ نَزَلَ بأبي سَعيدِ الجَنّابيِّ[2] فأكْرَمَه ، فلمَّا سَارَ لِحَرْبِه ، بَعَثَ يَقولُ : لكَ عليَّ حَقٌّ ، وأنْتَ في خَمْسِ مِئَة وأنا في ثلاثينَ ألفاً فانْصَرِفْ ، فقالَ للرسُولِ : كَمْ معَ صَاحِبِك ؟ قالَ : ثلاثُونَ ألفَ راكِبٍ ، قال : ولا ثَلاثَة ، ثم دَعَا بعَبْدٍ أسْوَدٍ ، فقالَ له : خَرِّقْ بَطْنَكَ بهـٰذه السِّكين ، فبَدَّدَ مَصارينَه ، وقالَ لآخَر : اغْرَقْ في النَّهْرِ ، ففَعَل ، وقال لآخَر : اصْعَدْ علىٰ هـٰذا الحَائِط ، وانْزِلْ علىٰ مُخِّكَ ، فهَلَك فقال للرسُولِ : إنْ كانَ مَعَهُ مِثلُ هـٰؤلاء ، وإلاَّ فمَا مَعَه أحَدٌ .

وقِيلَ صَعَدَ قِرْمِطيٌّ لقَلعِ المِيزاب ، فسَقَطَ ، فماتَ وكان ذلكَ سَنَةَ سَبعَ عَشْرَة ،

---

(١) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٥ .

(٢) هـٰذه النسبة إلىٰ جنّابة ، وهي بلدة من أعمال فارس متصلة بالبحرين عند سيراف ، والقرامطة منها فنُسبوا إليها .

وكان أميرُ العِراقَيْنِ مَنصُورٌ الدَّيْلَميّ وجافَتْ[1] مكَّةُ بالقَتْلَىٰ .

قال المَراغيُّ : حَدَّثنا أبو عبدِ الله بنُ محْرم ، وكانَ رسُولَ المُقْتَدِر إلى القِرْمِطيِّ ، قال : سألتُه بعدَ مُناظَرَات عن اسْتحْلالِه بما فَعَلَ بمَكّة فأحْضَرَ الحجر في الدِّيْباجِ ، فلمَّا أُبْرِزَ كَبَّرتُ ، وأرَيْتُهم من تَعْظيمِه والتَّبَرُّكِ به علىٰ حالَةٍ كبيرةٍ ، وافْتُتِنَتِ القَرَامِطَةُ بأبي طاهر ، وكان أبُوهُ قد أطْلَعَه وحْدَه علىٰ كُنُوزٍ دَفَنَها ، فلمَّا تَمَلَّكَ ، كان يقولُ : هُنا كَنْزٌ ، فَيَحْفِرُون ، فإذا هم بالمَالِ فيَفْتَتِنُونَ به ، وقالَ مَرّةً : أريدُ أنْ أحْفرَ هُنا عَيْناً ، قالوا : لا تَنْبُع ، فخَالَفَهُم ، فنَبَعَ المَاءُ ، فازْدادَ ضَلالُهُم به ، وقالوا : هُوَ إلَـٰهٌ ، وقالَ قَومٌ : هُوَ المَسيحُ ، وقِيلَ : نَبيٌّ وقد هَزَمَ جُيوشَ بَغْدادَ غيرَ مَرّة ، وعَتَا وتَمَرَّدَ[2] .

وقال الذهبيُّ في تَرْجَمَة طَغْتِكِين صاحِبِ دِمَشْقَ الأتابك : قد كان طَغْتِكِينُ سَيْفاً مَسْلُولاً على الفِرَنْج ، ولكن له خَرْمَةٌ ، كان قد اسْتَفْحَلَ البَلاءُ بدَاعِي الإسْماعيليّة بَهْرام بالشَّام ، وكان يَطُوفُ المَدائِنَ والقِلاعَ مُتَخَفِّياً ، ويُغْوي الأغْتامَ والشُّطَّارَ ، ويَنْقادُ له الجُهَّالُ إلىٰ أنْ ظَهَرَ بدِمَشْقَ بتَقْريرٍ قَرَّرَهُ صاحبُ ماردين إيلغازي مع طَغْتِكِين ، فأخَذَ يُكْرِمُهُ ، ويُبالِغُ ، اتِّقاءً لِشَرِّه ، فتَبِعَهُ الغَوْغاءُ ، والسُّفَهاءُ والفَلاَّحُونَ ، وكَثُرُوا ، ووَافَقَهُ الوَزيرُ طاهرُ المزدقانيُّ ، وبَثَّ إليه سِرَّه ، ثم الْتَمَسَ من المَلِكِ طَغْتِكِين قَلعَةً يَحْتَمي بها فأعْطَاهُ بانياسَ في سَنةِ عِشْرينَ وخَمسِ مِئَة ، فعَظُمَ الخَطْبُ ، وتَوَجَّعَ أهْلُ الخَير ، وتَسَتَّروا مِنْ سَبِّهم ، وكانوا قد قَتلُوا عِدَّة من الكِبار ، فما قَصَّرَ تاجُ المُلوكِ فقَتَلَ الوَزيرَ كَمالَ الدّين طاهِرَ ابنَ سَعد المَذْكور سَنةَ ثلاثٍ وعِشْرينَ بالقَلْعَة ، ونَصبَ رَأسَه ، ورَكِبَ جُندَه ، فوَضَعُوا السَّيفَ بدِمَشْقَ في المَلاحِدَة الإسْماعيليّة ، فسبّكوا منهم في الحالِ نَحْواً من سِتّة آلافِ نَفْسٍ في الطُّرُقات ، وكانوا قد تَظاهَروا ، وتَفاقَمَ أمرُهُم ، ورَاحَ في هـٰذه الكائِنَةِ الصَّالِحُ بالطَّالِحِ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَة سِنان (كَبيرُ الإسْماعيليّة) : وبَعثَ صَبَّاحٌ الدَّاعي أبا مُحمّدٍ إلى

---

(١) جافَت : أنتنت .

(٢) انظر السير : (القرمطيُّ) ١٥/ ٣٢٠ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣١ .

(٣) انظر السير : (طَغْتِكِين) ١٩/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٥ .

الشَّام ، ومَعهُ جَماعَةٌ ، فقَوِيَ أمْرُه ، واسْتَجابَ له الجبليَّةُ ، واسْتَولَوا علىٰ قَلعَةٍ من جَبَلِ السَّماقِ[1] .

ثم هَلكَ هـٰذا الدَّاعي ، وجَاءَ بَعدَه سِنانُ ، فكانَ سَخطَةً وبَلاءً ، مُتَنَسِّكاً ، مُتَخَشِّعاً ، واعِظاً ، كان يَجلسُ علىٰ صَخْرةٍ كأنَّه صَخْرةٌ لا يَتَحرَّك منْهُ سِوَىٰ لِسَانُه ، فرَبَطَهُم ، وغَلَوا فيه ، واعْتَقدَ منهم فيه الإلَهيَّة ، فتَبَّاً له ولِجَهْلِهم ، فاسْتَغْواهُم بسِحْرٍ وسيمياءَ ، وكان له كُتبٌ كَثيرةٌ ومُطالَعَةٌ ، وطالَتْ أيّامُه .

وأمَّا الألَمُوت[2] فوَليَها بعدَ صَبَّاحٍ ابنُهُ مُحمّد ، ثمَّ بَعدَهُ حَفيدُه الحَسَنُ ابنُ مُحمّدٍ الذي أظْهَرَ شِعارَ الإسْلامِ ، ونَبَذَ الانْحلالَ تَقِيَّةً ، وزَعَمَ أنَّه رَأى الإمامَ عَليّاً ، فأمَرَه بإعادَةِ رسومِ الدين ، وقالَ لخَواصِّهِ : ألَيْسَ الدينُ لي ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فتارَةً أضَعُ علَيكُم التَّكاليفَ ، وتارَةً أرْفُضُها ، قالوا : سَمِعنا وأطَعْنَا ، واسْتَحْضَرَ فُقَهاءَ وقُرَّاءَ ليُعَلِّمُوهم[3] .

جاءَ في تَرْجَمةِ ابنِ عَديّ ، قال الذهبيُّ : الشَّيخُ الكَبيرُ المَدْعُو بتاجِ العَارِفينَ حَسَنُ بنُ عَديّ بنِ أبي البَركاتِ بنِ صَخْر بنِ مُسافر شَيخُ الأكْراد ، كان هـٰذا مِنْ رِجَالِ العَالَمِ دَهاءً وهِمَّةً وسُمُواً ، له فَضيلَةٌ وأدَبٌ وتَوالِيفُ في التَّصَوُّفِ الفَاسِدِ ، وله أتْباعٌ لا يَنْحَصِرون وجَلالَةٌ عَجيبَةٌ ، بَلَغَ من تَعْظيمِهم له أنَّ واعِظاً أتَاهُ فتَكَلَّمَ بَينَ يَديْه ، فبَكَىٰ تاجُ العَارفينَ وغُشِيَ عليه ، فوَثَبَ كُرديٌّ ، وذَبَحَ الواعِظَ ، فأفاقَ الشَّيخُ فرَأى الواعِظَ يَخْتَبِطُ في دَمِه ، فقال : أيش هـٰذا ؟ فقالوا : أيُّ شيءٍ ، هـٰذا مِنَ الكِلابِ حتّىٰ يُبْكِي سَيدي الشَّيخَ .

وزادَ تَمكُّنُ الشَّيخِ حتّىٰ خافَ منه بَدرُ الدِّينِ صاحِبُ المَوْصِل ، فتَحَيَّلَ عليه حتّى اصْطَادَهُ ، وخَنَقَهُ بالمَوْصِلِ ، خَوْفاً من غائِلَتِه[4] .

---

(١) انظر السير : (سِنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٨ .
(٢) انظر عن هـٰذه القلعة وتاريخها ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ ٤/ ٣٧١ (ط الجديدة) .
(٣) انظر السير : (سِنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٨ .
(٤) انظر السير : (ابن عديّ) ٢٣/ ٢٢٣ـ ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣١ .

وهُناكَ جَهَلةٌ يَعْتَقِدُونَ أنَّ الشَّيخَ حَسَناً لا بُدَّ أنْ يَرْجعَ إلى الدُّنيا ، وكانَ يُلَوِّحُ في نَظْمِه بالإلْحادِ ، ويَزْعُمُ أنَّه رَأىٰ رَبَّ العِزَّة عَياناً ، واعْتِقَادُه ضَلالَةٌ .

قُتِلَ سَنةَ أرْبَعٍ وأرْبَعينَ وسِتِّ مِئَة ، وله ثلاثٌ وخَمْسُونَ سَنَةً[1] .

(ب) إباحَةُ المُحرَّمات :

جاءَ في تَرْجَمَة ابنِ أبي العَزاقِر الزِّنديقِ الرَّافضيّ :

ومِنْ رَأيِّه تَركُ الصَّلاةِ والصَّوم ، وإباحَةُ كلِّ فَرْجٍ ، وأنَّه لا بُدَّ للفاضِلِ أنْ يَنيكَ المَفْضُولَ ليُولِجَ فيه النُّورَ ، ومَنْ امْتَنَعَ مُسِخَ في الدَّورِ الثاني ، فرَبَطَ الجَهلَةَ وتَخَرَّقَ ، وأضَلَّ طائِفَةً ، فأظْهَرَ أمرَهُ أبُو القاسِم الحُسَينُ بنُ روح ـ رَأسُ الشِّيعَة ، المُلَقَّبُ بالبَاب ـ إلىٰ صاحِبِ الزَّمانِ ، فطُلِبَ ابنُ أبي العزاقر ، فاخْتَفَىٰ ، وتَسَحَّبَ إلى المُوصِل ، فأقامَ هناكَ سِنينَ ورَجَعَ ، فظَهَرَ عَنهُ ادِّعاءُ الرُّبوبيّةِ ، واتَّبَعَه الوَزيرُ حُسَينُ ابنُ الوَزيرِ القاسِم بنِ عُبَيدِ الله بنِ وَهْب ـ وَزيرُ المُقْتَدِر ـ فيما قِيلَ ، وابْنا بِسْطامٍ وإبراهيمُ بنُ أبي عَون ، فطُلِبُوا ، فتَغَيَّبوا ، فلمَّا كان في شَوَّالَ من سَنةِ اثنتَينِ وعِشرينَ ظَفَرَ الوَزيرُ ابنُ مُقلة بهـٰذا ، فسَجَنَه ، وكَبَسَ دَارَه ، فوَجَدَ فيها رِقاعاً وكُتُباً مِمَّا يُدَّعَىٰ عليه ، وفيها خِطابُهُ بما لا يُخاطَبُ به بَشَر فعُرِضَتْ عليه فأقَرَّ أنَّها خُطُوطُهم ، وتَنصَّلَ ممَّا يُقالُ فيها ، وتَبرَّأَ منهم فمَدَّ ابنُ عَبْدُوس يَدَه ، فصَفَعَه ، وأمَّا ابنُ أبي عَون فمَدَّ يَدَه إليه فارْتَعَدَتْ يَدُه ، ثمَّ قَبَّلَ لِحيتَه ورَأسَه وقال : إلَـٰهي ، ورازِقِي ، وسَيِّدي! فقالَ له الرَّاضي بالله : قد زَعَمتَ أنَّكَ لا تَدَّعي الإلَهيَّة ، فمَا هَـٰذا ؟ قالَ : وما عليَّ مِنْ قَولِ هـٰذا ؟ واللهُ يَعلَمُ أنَّني ما قُلتُ له : إنَّني إلَـٰهٌ قَطُّ .

فقالَ ابنُ عَبْدُوس : إنَّه لَمْ يَدَّعِ إلَـٰهيّة ، إنَّما ادَّعَىٰ أنَّه البابُ إلى الإمامِ المُنْتَظَر ثمَّ إنَّهم أُحْضِروا مَرَّاتٍ بمَحْضر الفُقَهاء والقُضاة ، ثمَّ في آخِرِ الأمْر أفْتَى العُلماءُ بإباحَةِ دَمِه ، فأُحْرِقَ في ذي القَعْدة من السَّنَة وضُرِبَ ابنُ أبي عَون بالسِّياطِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه وأُحْرِق .

---

(١) انظر السير : (ابن عديّ) ٢٣/ ٢٢٣ـ ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٢ .

وله مُصَنَّفاتٌ أدَبيَّة ، وكانَ من كِبارِ الكُتَّاب .

وقُتِلَ بسَبَبِه وَزيرُ المُقْتَدِر ، الحُسَينُ ، اتُّهِمَ بالزَّنْدَقَة ، وقُتِلَ أبُو إسْحاق إبراهيمُ بنُ أحمَدَ بنِ هِلال بنِ أبي عَون الأنْباريُّ الكاتِب .

وقد كانَ أبُو عليٍّ الحُسَينُ ـ ويُقالُ : الجمَّال ـ وزَرَ للمُقْتَدِر في سَنة تِسْع عَشرةَ وثلاث مِئَة ، ولَقَّبُوه عَميدَ الدولة ، وعُزِلَ بعدَ سَبعةِ أشْهرٍ وسُجِنَ ، وعُقِدَ له مَجْلسٌ في كائِنَة الشَّلْمَغانيّ ، ونُوظِرَ ، فظَهَرَت رِقاعُهُ يُخاطِبُ الشَّلْمَغانيَّ فيها بالإلَهيَّة ، وأنَّه يُحْييه ويُميتُه ، ويَسْألُه أنْ يَغْفِرَ له ذُنوبَه ، فأخْرِجَت تِلكَ الرِّقاعُ ، وشَهِدَ جَماعَةٌ أنَّه خَطُّه ، فضُرِبَت عُنُقُه وطِيفَ برأسِه في ذي الحِجَّة سَنةَ اثنَتين وعِشْرينَ وثلاث مِئَة وعاشَ ثمانياً وسَبعينَ سَنةً[1] .

قال مُحمّدُ بنُ رزام الكُوفيّ : حَكَىٰ لي ابنُ حمْدان الطَّبيبُ ، قال : أقَمتُ بالقَطيفِ أُعالِجُ مَريضاً ، فقالَ لي رَجلٌ : إنَّ اللهَ ظَهَرَ ، فخَرَجْتُ فإذا النَّاسُ يُهْرَعونَ إلىٰ دَارِ أبي طَاهِر ، فإذا هو ابنُ عِشْرينَ سَنة ، شَابٌّ مَليحٌ عَليه عَمامَةٌ صَفْراءُ ، وثَوبٌ أصْفَرُ علىٰ فَرسٍ أشْهَبَ ، وإخْوَتُه حَوْلَه فصَاحَ : مَنْ عَرَفَني عَرَفَني ، ومَنْ لَمْ يَعْرِفْني ، فأنا أبو طاهر سُلَيْمانُ بنُ أبي سَعيدِ الحَسَنُ الجَنَّابيُّ ، اعْلَمُوا أنَّا كُنَّا وإيّاكُم حَميراً ، وقد مَنَّ اللهُ عَلينَا بهَـٰذا ، وأشَارَ إلىٰ غُلامٍ أمْرَدَ ، فقالَ : هَـٰذا رَبُّنا وإلَـٰهُنا وكُلُّنا عِبادُهُ فأخَذَ النَّاسُ التُّرابَ ، فوَضَعُوهُ علىٰ رُؤوسِهم ثمَّ قالَ أبُو طاهر : إنَّ الدِّينَ قَد ظَهَرَ وهُو دينُ أبينا آدَمَ ، وجَميعُ ما أوْصَلَت إليكُم الدُّعاةُ باطِلٌ مِنْ ذِكْرِ مُوسَىٰ وعيسَىٰ ومُحمّد ، هَؤلاءِ دَجَّالُونَ وهـٰذا الغُلامُ هو أبُو الفَضْلِ المَجُوسيّ ، شَرَعَ لهُم اللِّواطَ ، ووَطْءَ الأُخْتِ ، وأمَرَ بقَتْلِ مَنْ امْتَنَعَ فأُدْخِلتُ عليه وبَينَ يَديْه عِدّةُ رُؤوسٍ ، فسَجَدْتُ له ، وأبُو طاهر والكُبَرَاءُ حَولَهُ قيامٌ فقالَ لأبي طاهر : المُلوكُ لَمْ تَزَلْ تُعِدُّ الرُّؤوسَ في خَزائِنِها فسَلُوهُ كَيفَ بَقاؤُها ؟ فسُئِلْتُ ، فقُلتُ : إلَـٰهُنا أعْلمُ ، ولكِنِّي أقُولُ : فجُمْلَةُ الإنْسانِ إذا مَاتَ يَحْتاجُ كَذَا وكَذَا صَبْراً وكافُوراً والرَّأسُ جُزْءٌ فيُعْطَىٰ حِسَابَه فقال :

---

(١) انظر السير : (ابن أبي العزاقر) ١٤/ ٥٦٦ـ ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٧٤ .

ما أحْسَنَ ما قال ثم قالَ الطَّبيبُ : ما زِلْتُ أسْمَعُهُم تِلكَ الأيّامِ يَلْعَنونَ إبْراهيمَ ومُوسَىٰ ومُحمَّداً وعَليّاً ورَأيتُ مُصْحَفاً مُسِحَ بغَائِطٍ .

وقال أبُو الفَضْلِ يَوماً لكاتِبه : اكْتُبْ إلى الخَليفَةِ ، فصَلِّ لهم علىٰ مُحمَّد ، وكِلْ مِنْ جِرابِ النُّورَة[1] قالَ : واللهِ ما تَنْبَسِطُ يَدي لذلك ، فافْتَضَّ أبُو الفَضْل أُخْتاً لأبي طاهر الجَنَّابيِّ ، وذَبَحَ ولَدَها في حِجْرِها ثمَّ قَتَلَ زَوجَها ، وهَمَّ بقَتْلِ أبي طاهر ، فاتَّفَقَ أبو طاهر مع كاتِبه ابنِ سَنْبر ، وآخَر عليه فقالا : يا إلَـهَنا ، إنَّ والِدَةَ أبي طاهر قد ماتَتْ فاحْضَرْ لِتَحْشُوَ جَوْفَها ناراً ، قال : وكان سُنَّةً له ، فأتَىٰ فقالَ : ألا تُجيبَها ؟ قال : لا فإنَّها ماتَتْ كافِرَةً ، فعاوَدَهُ ، فارْتابَ وقالَ : لا تَعْجَلا عليَّ ، دَعاني أَخْدِمُ دَوابَّكُما إلىٰ أنْ يَأتِيَ أبي ، قالَ ابنُ سَنْبر : وَيْلَكَ هَتَكْتَنا ، ونَحنُ نُرَتِّبُ هـٰذه الدَّعوَةَ من سِتِّينَ سَنةً ، فلَوْ رآكَ أبُوكَ لَقَتلَكَ أُقْتُلهُ يا أبا طاهر ، قال : أخافُ أنْ يَمْسَخَني ، فضَرَبَ أخُو أبي طاهر عُنُقَه ، ثمَّ جَمَعَ ابنُ سَنْبر النَّاسَ ، وقالَ : إنَّ هـٰذا الغُلامَ وَرَدَ بكَذِب سَرقه من مَعْدن حَقّ ، وإنَّا وَجَدْنا فَوْقَهُ مَنْ يَنْكِحُه ، وقد كُنَّا نَسْمَعُ أنَّه لا بُدَّ للمُؤمنينَ مِنْ فِتْنةٍ يَظْهَرُ بَعدَها حَقٌّ ، فأطْفِئُوا بُيُوتَ النِّيرانِ وارْجِعُوا مِنْ نِكاحِ الأُمِّ ، ودَعُوا اللِّواطَ ، وعَظِّمُوا الأنْبياءَ ، فضَجُّوا وقالوا : كلُّ وَقتٍ تَقولُونَ لنا قَوْلاً ، فأنْفَقَ أبُو طاهر الذَّهَبَ حتّىٰ سَكَنُوا قال الطَّبيبُ : فأخْرَجَ إليَّ أبُو طاهر الحَجَرَ ، وقالَ : هَـٰذا كانَ يُعْبَدُ قُلتُ : كلاّ ، قالَ : بَلَىٰ قُلتُ : أنْتَ أعْلَمُ ، وأخْرَجَهُ في ثَوبٍ دَبيقيٍّ[2] مُمَسَّك .

ثمَّ جَرَت لأبي طاهر مع المُسلمينَ حُروبٌ أوْهَنَتْه وقُتِلَ جُنْدُه ، وطَلَبَ الأمانَ علىٰ أنْ يَرُدَّ الحَجَرَ ، وأنْ يأخُذَ عن كلِّ حَاجٍّ دينَاراً ويَخْفِرَهم .

قال الذهبيُّ : ثمَّ هَلَكَ بالجُدَريِّ ـ لا رَحِمَهُ الله ـ سَنَةَ اثْنَتينِ وثلاثِ مِئَة بهَجَر كَهْلاً وقامَ بَعدَه أبُو القاسِم سَعيد[3] .

وجاءَ في تَرْجَمَةِ سِنان كَبير الإسْماعليّة الباطِنيّ ، قال الذهبيُّ : أَوْصَىٰ يَوماً

---

(١) أي اعمل معهم بالتقيّة .

(٢) نسبة إلىٰ « دبيق » وهي بُليدَة كانت بين الفرما وتنيس ، من أعمال مصر .

(٣) انظر السير : (القرمطيّ) ١٥/ ٣٢٠ـ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٢ .

أتْباعَه ، فقالَ : عَليكُم بالصَّفاءِ بَعضُكُم لبَعضٍ ، لا يَمْنَعَنَّ أحَدَكُم أخَاهُ شَيئاً له ، فأخَذَ هـٰذا بِنتَ هـٰذا ، وأخَذَ هـٰذا أُخْتَ هـٰذا سِفاحاً ، وسَمَّوا نُفوسَهم الصُّفاةَ ، فاسْتَدْعاهُم سِنانُ مَرَّةً ، وقَتَلَ خَلْقاً منهم[1] .

قال ابنُ العديم : تَمَكَّنَ في الحُصونِ وانْقادُوا له ، وأخْبَرَني عليُّ ابنُ الهَوَّاريّ أنَّ صَلاحَ الدِّين سَيَّرَ رَسُولاً إلىٰ سِنانٍ يَتَهدَّدُه ، فقالَ للرسُولِ : سأُرِيكَ الرِّجالَ الذين أَلْقاهُ بهِم ، فأشَارَ إلىٰ جَماعَةٍ أنْ يَرْمُوا أنْفُسَهم من الحِصْنِ من أعْلاه ، فألْقَوا نُفوسَهم ، فهَلَكُوا[2] .

(ج) السِّحْر :

جاء في ترجمة السُّهْرَوَرْديِّ ، الفيلسوف السَّيَماويِّ ، قال الذهبيُّ : قال ابنُ أبي أُصَيبِعَةَ : وحَدَّثني إبراهيمُ بنُ صدقَة الحَكيمُ ، قال : خَرَجْنا من بابِ الفرجِ معه ، فذَكَرْنا السِّيمياءَ فقالَ : ما أحْسَنَ هـٰذه المَواضِعَ ، فنَظَرْنا من ناحيةِ الشَّرقِ جواسَقَ مُبيضةً كبيرةً مُزَخْرَفةً ، وفي طاقاتِها نِساءٌ كالأقْمَارِ ومَغاني ، فتَعَجَّبنا ، وانْذَهَلْنا ، فبَقِينا ساعةً ، وعُدْنا إلىٰ ما كُنَّا نَعْهَدُه ، إلاَّ أنِّي عِندَ رُؤْيَة ذلك بَقيتُ أُحِسُّ من نَفْسِي كأنَّني في سَنةٍ خَفيةٍ ، ولَمْ يَكُنْ إدْراكِي كالحَالَةِ التي أتَحَقَّقُها منِّي وحَدَّثني عَجَمِيٌّ قالَ : كُنَّا مع السُّهْرَوَرْديِّ بالقابُونِ[3] فقُلنَا : يا مَوْلانا ، نُريدُ رَأسَ غَنَم ، فأعْطانا عَشْرَةَ دَراهِمَ ، فاشْتَرَيْنا بها رَأساً ، ثمَّ تَنازَعْنا نَحنُ والتُّرْكُمانيّ[4] ، فقالَ الشَّيخُ : رُوحُوا بالرَّأسِ ، أنا أُرْضِيهِ ، ثمَّ تَبِعَنا الشَّيخُ ، فقال التُّرْكُمانيُّ : أرْضِني ، فما كَلَّمَه ، فجاءَ ، وجَذَبَ يَدَهُ ، فإذا بيَد الشَّيخِ قد انْخَلَعَتْ من كَتِفِه ، وبَقِيَتْ في يَدِ ذَاكَ ، ودَمُها يَشْخَبُ ، فرَماها ، فأخَذَ الشَّيخُ يَدَه باليَدِ الأُخْرَىٰ ، وجاءَ .

وله كِتابُ « التَّلْويحاتِ اللَّوْحيَّة والعَرْشيَّة » ، وكِتابُ « اللَّمْحَة » ، وكِتابُ « هَياكِل

---

(١) انظر السير : (سِنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٩ .
(٢) انظر السير : (سِنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٩ .
(٣) هي قرية علىٰ باب دمشق في طريق من يتوجه إلىٰ حلب .
(٤) وهو صاحب الغنم .

النُّور » ، وكِتابُ « المَعَارِجُ والمُطَارَحَات » ، وكِتابُ « حِكْمَةُ الإشْراقِ » وسائِرُها لَيْسَ من عُلُومِ الإسْلام .

قال ابنُ خلِّكان : وكان يُتَّهَمُ بالانْحِلالِ والتَّعْطِيلِ ، ويَعْتَقِدُ مَذهبَ الأوَائِل ، اشْتُهِرَ ذلكَ عَنه ، وأَفْتَىٰ عُلَمَاءُ حَلَبَ بقَتْلِه .

قال الذهبيُّ : أَحْسَنُوا وأصَابُوا[1] .

قال المُوَفَّقُ يَعيشُ النَّحْويُّ : لمَّا تَكلَّمُوا فيه ، قالَ له تِلمِيذُه : إنَّكَ تَقُولُ : النُّبُوَّةُ مُكْتَسَبَةٌ ، فانْزِحْ بنا ، قالَ : حتّىٰ نَأكُلَ بطبخَ حَلبْ ، فإنَّ بي طَرَفاً من السُّلِّ ، ثمَّ خَرَجَ إلىٰ قَريةٍ بها بطيخٌ ، فأقَمْنا أيّاماً ، فجَاءَ يَوماً إلىٰ مَحْفرةٍ فحَفَرَ حتىٰ ظَهرَ له حَصَىٰ ، فدَهَنَه بدُهْنٍ معَه ، ولَفَّهُ في قُطنٍ ، وحَمَلَه في وَسَطِه أيّاماً ، ثمَّ ظَهرَ كُلُّهُ ياقُوتاً أحْمَر ، فباعَ منه ، ووَهَبَ أصْحابَه ، ولمَّا قُتِلَ كان مَعهُ منْهُ .

قال الذهبيُّ : كانَ أحمَقَ طيَّاشاً مُنْحَلاً .

قُتِلَ في أوائِل سَنةِ سَبعٍ وثمانينَ وخَمسِ مِئَة[2] .

(د) الخِدَع والحِيَل :

قال التَّنُوخيُّ : أخْبَرَنا أبي قال : مِنْ مَخاريق الحَلاَّجِ : أنَّه كان إذا أرادَ سَفراً ومَعه مَنْ يَتنمَّسُ عليه ويَهُوسُه ، قدَّمَ قبلَ ذلك من أصْحابه الذين يَكشِفُ لهم الأمرَ ، ثمَّ يَمْضي إلى الصَّحْراءِ ، فيَدْفِنُ فيها كَعْكاً ، وسُكَّراً وسَويقاً ، وفاكِهةً يابِسَةً ، ويعلِّمُ علىٰ مَواضِعها بحَجَر ، فإذا خَرَجَ القَومُ وتَعِبُوا قال أصْحابُه : نُريدُ السَّاعَةَ كَذا وكَذا فيَنْفَرِدُ ويُرَىٰ أنَّه يَدْعو ، ثمَّ يَجيءُ إلى المَوْضِعِ فيُخْرِجُ الدَّفينَ المَطلُوبَ منه ، أخْبَرَني بذلكَ الجَمُّ الغَفيرُ ، وأخْبَرُوني قالُوا : رُبَّما خَرَجَ إلىٰ بَساتينِ البَلَدِ ، فيُقدِّمُ مَنْ يَدْفنُ الفالوذَجَ الحار في الرُّقاقِ ، والسَّمَكَ السُّخنَ في الرُّقاقِ ، فإذا خَرَجَ طَلَبَ منه الرَّجُلُ ـ في الحالِ ـ الذي دَفَنَه ، فيُخْرِجُه هو .

---

(١) انظر السير : (السُّهروردي) ٢١/ ٢٠٧ـ ٢١١ ، وانظر النزهة : ١/١٦١٤ .

(٢) انظر السير : (السُّهروردي) ٢١/ ٢٠٧ـ ٢١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦١٤ .

وقال التَّنُوخيُّ : أخْبَرَنا أبي : سَمعتُ أحمَدَ بنَ يُوسُفَ الأزْرقُ : أنَّ الحَلاَّجَ لمَّا قَدمَ بَغدادَ اسْتَغْوَىٰ خَلقاً من النَّاسِ والرُّؤساءِ ، وكانَ طَمَعُه في الرَّافِضَةِ أقْوَىٰ لِدُخولِه في طَريقِهم ، فراسَلَ أبا سَهل ابنَ نوبخت يَسْتَغْويه وكانَ أبُو سَهل فَطِناً ، فقالَ لرَسُولِه : هٰذه المُعْجِزاتُ التي يُظْهِرُها يُمْكنُ فيها الحِيل ، ولَكنِّي رَجلٌ غَزِلٌ ، ولا لذَّةَ لي أكْبَرُ من النِّساءِ ، وأنا مُبْتَلىً بالصَّلَعِ ، فإنْ جَعَلَ لي شَعْراً ورَدَّ لِحْيَتي سَوداءَ ، آمَنْتُ بما يَدْعُوني إليه وقُلتُ : إنَّهُ بابُ الإمَامِ ، وإنْ شَاءَ قُلتُ : إنَّه الإمامُ ، وإنْ شاءَ قُلتُ : إنَّه النَّبيُّ ، وإنْ شاءَ قُلتُ : إنَّه اللهُ ، فآيَسَ الحَلاَّجُ منهُ وكَفَّ .

وقالَ الفَقيهُ أبو عليّ بنُ البَنَّاءِ : كانَ الحَلاَّجُ قَد ادَّعَىٰ أنَّه إلَـٰهٌ وأنَّه يَقولُ بحُلُولِ اللاَّهُوتِ في النَّاسُوتِ ، فأحْضَرَهُ الوَزيرُ عليُّ بنُ عيسَىٰ فلَمْ يَجْدهُ ـ إذْ سَألَه ـ يُحْسِنُ القُرآنَ والفِقْهَ ولا الحَديثَ فقالَ : تَعَلُّمُكَ الفَرضَ والطَّهورَ أجْدَىٰ عَليكَ من رَسائِلَ لا تَدْري ما تَقُولُ فيها كَمْ تَكتُبُ ـ وَيْلَك ـ إلى النَّاسِ : تَبارَكَ ذو النُّورِ الشَّعْشَعانيّ ؟! ما أَحْوَجَكَ إلىٰ أدَبٍ! وأمَرَ به فصُلِبَ في الجانِبِ الشَّرْقيِّ ، ثمَّ في الغَربيِّ ، ووَجَدَ في كُتُبِه : إنِّي مُغْرِقُ قَومِ نُوحٍ ، ومُهْلِكُ عادٍ وثَمُودَ .

وكان يَقولُ للواحِدِ من أصْحابِه : أنْتَ نُوحٌ ، ولآخَرَ : أنْتَ مُوسَىٰ ولآخَرَ : أنْتَ مُحمّدٌ .

وقالَ مُحمّدُ بنُ يَحْيَى الرَّازي : سَمعتُ عَمرَو بنَ عُثمانَ يَلْعنُ الحَلاَّجَ ويَقولُ : لَوْ قَدَرتُ عَليه لقَتَلتُه بيَدِي فقُلتُ : أيش وَجَدَ الشَّيخُ عليه ؟ قالَ : قَرأتُ آيةً من كِتابِ الله فقال : يُمْكِنُني أنْ أُؤلِّفَ مِثلَه .

وقال أبُو يَعقُوبَ النُّعْمانيُّ : سَمعتُ أبا بَكر مُحمّدَ بنَ داوُدَ الفَقيهَ يَقولُ : إنْ كانَ ما أَنْزَلَ اللهُ علىٰ نَبيِّه حَقاً ، فما يَقولُ الحَلاَّجُ باطِلٌ ، وكان شَديداً عَليه[1] .

---

(١) انظر السير : (الحَلاّج) ١٤/ ٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٥ .

(هـ) إسْقاطُ الواجِبَات :

قالَ أبُو القاسِم التَّنُوخيّ : أخْبرَنا أبي : حَدَّثني حُسَينُ بنُ عَبَّاس عَمَّنْ حَضَرَ مَجلِسَ حامِد وجاؤُوهُ بدَفاتِر الحَلاَّجِ ، فيها : أنَّ الإنْسَانَ إذا أرادَ الحَجَّ فإنَّه يَسْتَغْني عنه بأنْ يَعمدَ إلىٰ بَيتٍ في داره ، فيَعْملَ فيه مِحْراباً ، ويَغْتَسلَ ويُحْرِمُ ويَقولَ كَذا وكَذا ، ويُصَلِّي كَذا وكَذا ، ويَطُوفَ بذلك البَيتِ ، فإذا فَرَغَ فقَد سَقَطَ عَنهُ الحَجُّ إلى الكَعْبةِ ، فأقَرَّ به الحَلاَّجُ وقالَ : هـٰذا شيءٌ رَوَيتُه كَما سَمعتُه ، فتَعَلَّقَ بذلكَ عليه الوَزيرُ ، واسْتَفْتى القاضِيَينِ : أبا جَعفَر أحمدَ ابنَ البُهْلول ، وأبا عُمَرَ مُحمّدَ ابنَ يُوسُف ، فقال أبو عُمَر : هَـٰذه زَنْدَقَةٌ يَجبُ بها القَتلُ وقال أبو جَعفَر : لا يَجبُ بهـٰذا قَتلٌ إلاَّ أنْ يُقِرَّ أنَّه يَعْتَقدُه ، لأنَّ النَّاسَ قد يَرْوُونَ الكُفرَ ولا يَعْتقِدُونَه ، وإنْ أخْبَرَ أنَّه يَعتَقِدُه اسْتُتيبَ منه ، فإنْ تابَ فلا شيءَ عليه ، وإلاَّ قُتِلَ ، فعَمِلَ الوَزيرُ علىٰ فَتْوَىٰ أبي عُمَر علىٰ ما شاعَ وذاعَ من أمْرِه ، وظَهرَ من إلْحادِه وكُفْرِه فاسْتُؤذِنَ المُقتَدِرُ في قَتْلِه ، وكان قد اسْتَغوَىٰ نَصْراً القشُوريَّ من طَريقِ الصَّلاحِ والدِّين ، لا بما كان يَدعُو إليه ، فخَوَّفَ نَصرٌ السَّيدةَ أُمَّ المُقتَدِر من قَتْلِه وقال : لا آمَنُ أنْ يَلْحَقَ ابنَكِ عُقوبَةُ هـٰذا الصَّالح فمَنَعَت المُقتدرَ من قَتْلِه ، فلَمْ يَقبَلْ ، وأمَرَ حامِداً بقَتْلِه ، فحُمَّ المُقتدرُ يَومَه ذلك ، فازْدادَ نَصرٌ وأُمُّ المُقتدِر افْتِتَاناً ، وتَشَكَّكَ المُقتدرُ ، فأنْفَذَ إلىٰ حامد يَمنَعُه من قَتْلِه ، فأخَّرَ ذلك أيّاماً إلىٰ أنْ عُوفِيَ المُقتدرُ ، فألَحَّ عليه حامدٌ وقال : يا أميرَ المُؤمنينَ ، هـٰذا إنْ بَقِيَ قَلَبَ الشَّريعَةَ ، وارْتَدَّ خَلقٌ علىٰ يَدِه ، وأدَّىٰ ذلكَ إلىٰ زَوالِ سُلطانِك ، فدَعْني أقْتُلهُ ، وإنْ أصابَكَ شَيءٌ فاقْتُلني ، فأذِنَ له في قَتْلِه ، فقَتَلَه مِنْ يَومِه ، فلمَّا قُتِلَ قال أصْحابُه : ما قُتِلَ وإنَّما قُتِلَ بِرْذَوْنٌ كان لفُلان الكاتب ، نَفَقَ[1] يومَئِذ وهو يَعودُ إلَيْنا بعدَ مُدّة ، فصارَتْ هـٰذه الجَهالَةُ مَقالَة طائِفَة قال : وكانَ أكْثَرُ مَخاريق الحَلاَّج أنَّه يُظْهِرُها كالمُعْجِزاتِ ، يَسْتَغْوي بها ضَعَفَةَ النَّاسِ .

ثمَّ قُطِعَتْ يَدُه ، ثمَّ رِجلُه ، ثمَّ حُزَّ رَأسُهُ ، وأُحْرِقَتْ جُثَّتُه ، ونُصِبَ الرَّأسُ يَومَينِ

---

(١) أي مات .

ببَغْدادَ ، ثمَّ حُمِلَ إلىٰ خُراسَانَ وطِيفَ به وأقْبَلَ أصْحابُه يَعِدُونَ أنْفُسَهُم برُجُوعِه بعدَ أرْبَعينَ يَوماً .

قال السُّلميُّ : وحُكِيَ عَنهُ أنَّه رُئِيَ واقِفاً في المَوْقِفِ ، والنَّاسُ في الدُّعاءِ ، وهو يَقولُ : أُنَزِّهُكَ عمَّا قَرَفَكَ به عبادُك ، وأبْرَأُ إليكَ ممَّا وَحَّدَكَ به المُوَحِّدون .

قال الذهبيُّ : هٰذا عَينُ الزَّندَقَة ، فإنَّه تَبَرَّأَ ممَّا وَحَّدَ اللهُ به المُوحِّدون الذين هم الصَّحابَةُ والتَّابِعُونَ وسائِرُ الأمَّة ، فهلْ وَحَّدوهُ تَعالَىٰ إلاَّ بكلِمَةِ الإخْلاصِ التي قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَالَهَا مِنْ قَلْبِه فقَدْ حَرُمَ مَالُهُ ودَمُهُ » ، وهي : شَهادَةُ أنْ لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحمَّداً رسُولُ الله فإذا بَرِىءَ الصُّوفيُّ منها ، فهُو مَلْعونٌ زِنْديقٌ ، وهو صُوفيُّ الزِّيِّ ، والظاهِر ، مُتسَتِّرٌ بالنَّسَبِ إلى العارِفينَ ، وفي الباطِنِ فهُو من صُوفيَّة الفَلاسِفَة أعْداءِ الرُّسُلِ كمَا كانَ جَماعَةٌ في أيّامِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مُنْتَسِبون إلىٰ صُحْبَتِه وإلىٰ مِلَّتِه ، وهُم في البَاطِنِ من مَرَدَةِ المُنافِقين ، وقَد لا يَعْرِفُهُم نَبيُّ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يَعْلَمُ بهم ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾[1] ، [2] .

وجاءَ في تَرْجَمَة ابنِ أبي العَزاقِرِ الزِّنديقِ الرَّافضيّ :

ومِنْ رَأيِه تَركُ الصَّلاةِ والصَّوم ، وإباحَةُ كلِّ فَرْجٍ ، وأنَّه لا بُدَّ للفاضِلِ أنْ يَنيكَ المَفْضُولَ ليُولِجَ فيه النُّورَ ، ومَنْ امْتَنَعَ مُسِخَ في الدَّورِ الثاني ، فرَبَطَ الجَهلَةَ وتَخَرَّقَ ، وأضَلَّ طائِفَةً ، فأظْهَرَ أمرَهُ أبُو القاسِم الحُسَينُ بنُ روح ـ رَأسُ الشِّيعَة ، المُلَقَّبُ بالبَاب ـ إلىٰ صاحِبِ الزَّمانِ ، فطُلِبَ ابنُ أبي العزاقر ، فاخْتَفَىٰ ، وتَسَحَّبَ إلى المُوصِل ، فأقامَ هناكَ سِنينَ ورَجَعَ ، فظَهَرَ عَنهُ ادِّعاءُ الرُّبوبيّةِ ، واتَّبَعَه الوَزيرُ حُسَينُ ابنُ الوَزيرِ القاسِم بنِ عُبَيدِ الله بنِ وَهْب ـ وَزيرُ المُقْتَدِر ـ فيما قِيلَ ، وابْنا بِسْطام وإبراهيمُ بنُ أبي عَون ، فطُلِبُوا ، فتَغَيَّبوا ، فلمَّا كان في شَوَّالَ من سَنةِ اثنتَينِ وعِشرينَ ظَفَرَ الوَزيرُ ابنُ مُقلة بهـٰذا ، فسَجَنَه ، وكَبَسَ دَارَه ، فوَجَدَ فيها رِقاعاً وكُتُباً مِمَّا يُدَّعَىٰ عليه ، وفيها

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠١ .

(٢) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/ ٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٦ .

خِطابُهُ بما لا يُخاطِبُ به بَشَر فعُرِضَتْ عليه فأقَرَّ أنَّها خُطُوطُهم ، وتَنصَّلَ ممَّا يُقالُ فيها ، وتَبرَّأَ منهم فمَدَّ ابنُ عَبْدُوس يَدَه ، فصَفَعَه ، وأمَّا ابنُ أبي عَون فمَدَّ يَدَه إليه فارْتَعَدَتْ يَدُه ، ثمَّ قَبَّلَ لِحْيتَه ورَأسَه وقال : إلَـهي ، ورازِقِي ، وسَيِّدي! فقالَ له الرَّاضي بالله : قد زَعَمتَ أنَّكَ لا تَدَّعي الإلَهيَّة ، فمَا هَـٰذا ؟ قالَ : وما عليَّ مِنْ قَولِ هـٰذا ؟ واللهُ يَعلَمُ أنَّني ما قُلتُ له : إنَّني إلَـهٌ قَطُّ .

فقالَ ابنُ عَبْدُوس : إنَّه لَمْ يَدَّعِ إلَـهيّة ، إنَّما ادَّعَىٰ أنَّه البابُ إلى الإمامِ المُنْتَظَر ثمَّ إنَّهم أُحْضِروا مَرَّاتٍ بمَحْضر الفُقَهاء والقُضاة ، ثمَّ في آخِر الأمْر أفْتَى العُلماءُ بإباحَةِ دَمِه ، فأُحْرِقَ في ذي القَعْدة من السَّنَة وضُرِبَ ابنُ أبي عَون بالسِّياطِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه وأُحْرِق .

وله مُصَنَّفاتٌ أدَبيَّة ، وكانَ من كِبارِ الكُتَّاب .

وقُتِلَ بسَبَبِه وَزيرُ المُقْتَدِر ، الحُسَينُ ، اتُّهِمَ بالزَّنْدَقَة ، وقُتِلَ أبُو إسْحاق إبراهيمُ بنُ أحمَدَ بنِ هِلال بنِ أبي عَون الأنْباريُّ الكاتِب .

وقد كانَ أبُو عليٍّ الحُسَينُ ـ ويُقالُ : الجمَّال ـ وزَرَ للمُقْتَدِر في سَنة تِسْع عَشرةَ وثلاث مِئَة ، ولَقَبُّوه عَميدَ الدولة ، وعُزِلَ بعدَ سَبعةِ أشْهرٍ وسُجِنَ ، وعُقِدَ له مَجْلسٌ في كائِنَة الشَّلْمَغانيّ ، ونُوظِرَ ، فظَهَرَت رِقاعُهُ يُخاطِبُ الشَّلْمَغانيَّ فيها بالإلَهيَّة ، وأنَّه يُحْييه ويُميتُه ، ويَسْأَلُه أنْ يَغْفِرَ له ذُنوبَه ، فأخْرِجَت تِلكَ الرِّقاعُ ، وشَهِدَ جَماعَةٌ أنَّه خَطُّه ، فضُرِبَت عُنُقُه وطِيفَ برأسِه في ذي الحِجَّة سَنةَ اثنَتين وعِشْرينَ وثلاث مِئَة وعاشَ ثمانياً وسَبعينَ سَنةً[1] .

(و) التَّزَهُّد :

وجاءَ في تَرجَمَةِ المُعْتَضِد باللهِ قالَ الذهبيُّ : ولمَّا قُتِلَ المُعْتَزُّ ، ثُمّ المُسْتَعينُ والمُهْتَدي وضَعُفَ شَأنُ الخِلافَةِ تَوَثَّبَ ابْنا الصَّفَّارِ إلىٰ أنْ أخَذَا خُراسَانَ بعدَ أنْ كانا يَعْمَلانِ النُّحاسَ ، وأقْبَلا لأخْذِ العِراقِ وقَلْعِ المُعْتَمِد .

---

(١) انظر السير : (ابن أبي العزاقر) ١٤/٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٧٤ .

وتَوَثَّبَ طُرُقِيٌّ داهيةٌ بالزِّنج على البَصْرَة ، وأبادَ العِباد ومزَّقَ الجُيوشَ ، وحارَبوه بضْعَ عَشرةَ سنةً إلىٰ أنْ قُتلَ وكان مارِقاً ، بلغَ جُنْدُه مئة ألف[1] .

فبَقِيَ يَتَشَبَّهُ بهَؤلاءِ كُلُّ مَنْ في رَأسِه رئاسَةٌ ، ويَتَحَيَّلُ على الأُمَّة ليُرْديهم في دِينِهم ودُنْياهُم ، فتَحَرَّكَ بقُرَى الكُوفَةِ رَجلٌ أظْهَرَ التَّعَبُّدَ والتَّزَهُّدَ ، وكانَ يَسفُّ الخُوصَ ويُؤثِر ، ويَدْعُو إلىٰ إمامِ أهْلِ البَيْتِ ، فتَلَفَّقَ له خَلقٌ وتَألَّهُوا إلىٰ سَنةِ سِتٍّ وثَمانينَ ، فظَهَرَ بالبَحْرَينِ أبو سَعيد الجَنَّابيّ ، وكانَ قَمَّاحاً ، فصَارَ مَعهُ عَسْكرٌ كَبيرٌ ، ونَهَبُوا ، وفَعَلُوا القَبَائِحَ ، وتَزَنْدَقُوا ، وذَهَبَ الأخَوانِ يَدْعُوان إلى المَهْديِّ بالمَغْرِب ، فثارَ مَعهُما البَرْبَرُ ، إلىٰ أنْ مَلَكَ عبدُ الله المُلَقَّبُ بالمَهْديِّ غَالِبَ المَغْرب ، وأظْهَرَ الرَّفْضَ ، وأبْطَنَ الزَّنْدَقَةَ ، وقامَ بَعدَهُ ابنُهُ ، ثُمّ ابنُ ابنِه ، ثُمّ تَمَلَّكَ المُعِزُّ وأوْلادُه مِصْرَ والمَغْرِبَ واليَمنَ والشَّامَ ، دَهْراً طَويلاً فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله .

وفي سَنةِ ثَمانينَ عاثَتْ بَنُو شَيْبانَ ، فسَارَ المُعْتَضِدُ ، فلَحِقَهُم بالسِّنِّ ، فقتَّلَ وغَرَّقَ ومَزَّقَهُم ، وغَنِمَ العَسكَرُ من مَواشِيهِم ما لا يُوصَفُ ، حتّىٰ أُبيعَ الجَمَلُ بخَمسَةِ دَراهِم ، وصَانَ نِساءَهُم وذَراريهِم ، ودَخَلَ المُوصِلَ ، فجاءَتْهُ بَنُو شَيْبانَ ، وذَلُّوا ، فأخَذَ منهُم رَهائِنَ ، وأعْطَاهُم نِساءَهُم ، ومَاتَ في السِّجْنِ المُفَوِّضُ إلى الله ، وقِيلَ : كانَ المُعْتَضِدُ يُنادِمُه في السِّرِّ[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الشِّيعِيِّ ، قال الذهبيُّ : الدَّاعي الخَبيثُ ، أبُو عبدِ اللهِ ، الحُسَينُ بنُ أحمَد بنُ مُحمّد الصَّنْعاني ، من دُهاةِ الرِّجالِ الخَبيرينَ بالجَدَلِ ، والحِيَلِ وإغْواءِ بَني آدَم .

قامَ بالدَّعْوَةِ العُبَيْديَّة ، وحَجَّ ، وصَحِبَ قَوماً من كُتامة[3] ، ورَبَطَهُم وتَألَّهَ وتَزَهَّدَ وشَوَّقَ إلىٰ إمَامِ الوَقتِ ، فاسْتَجابَ له خَلْقٌ من البَرْبَر ، وعَسْكَرَ وحَارَبَ أميرَ المَغْرِبِ ابنَ الأغْلَب ، وهَزَمَه غَيرَ مَرَّةٍ ، وإلىٰ أنْ جاءَ عُبَيْدُ الله المَهْديُّ ، فتَسَلَّمَ المُلكَ ، ولَمْ

---

(١) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٦ .

(٢) انظر السير : (المُعتَضدُ بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٦ .

(٣) كُتامة : قبيلة من البربر ببلاد المغرب .

يَجعلْ لهَـٰذا الدَّاعي ولا لأخِيهِ أبي العَبَّاسِ كَبيرَ وِلايَةٍ ، فغَضِبَا ، وأفْسَدَا عليه القُلُوبَ وحَارَباهُ ، وجَرَتْ أمُورٌ إلىٰ أنْ ظَفرَ بهِما المَهديُّ فقتَلَهُما في ساعَةٍ ، سَنةَ ثَمانٍ وتِسْعينَ ومِئَتَينِ[1] .

وقال الغزاليُّ في « سِرِّ العَالَمين » : شاهدتُ قصَّةَ الحَسَنِ ابنِ الصَّبَّاحِ لمَّا تَزَهَّدَ تَحتَ حِصْنِ الألَموتِ ، فكانَ أهلُ الحِصْنِ يَتمنَّونَ صُعودَه ، ويَتَمنَّعُ ويقولُ : أما تَرَونَ المُنْكَرَ كَيفَ فَشَا ، وفَسَدَ النَّاسُ ، فصَبا إليه خَلقٌ وذَهَبَ أميرُ الحِصْنِ يَتَصيَّدُ ، فوَثَبَ على الحِصْنِ فتَمَلَّكَه ، وبَعَثَ إلى الأميرِ مَنْ قَتَلَه ، وكَثُرَت قِلاعُهُم ، واشْتَغَلَ عَنهُم أولادُ مَلِكْشاه باخْتِلافِهم[2] .

جاءَ في تَرجَمَة عليِّ بنِ مَهْديّ ، قالَ الذهبيُّ : كانَ أبُوهُ من قَريةٍ بزَبيد من الصُّلَحاءِ ، فنَشَأَ عليٌّ في تَزَهُّد ، وحَجَّ ولَقِيَ العُلماءَ وحَصَّلَ ، ثمّ وَعَظَ ، وذَمَّ الجُندَ .

وكانَ فَصيحاً صَبيحاً طَويلاً ، أخْضَرَ اللَّونِ ، طَيِّبَ الصَّوتِ ، غَزيرَ المَحْفوظِ ، مُتَصَوِّفاً ، خَبيثَ السَريرَة ، دَاهيةً ، يَتكلَّمُ على الخَواطِرِ فرَبَطَ الخَلقَ ، وكانَ يَعِظُ ويَنْتَحِبُ .

قال عُمارَةُ اليَمَنيُّ : لازَمْتُه سَنةً ، وتَرَكتُ التَّفَقُّهَ ، ونَسَكْتُ فأعادَني أبي إلى المَدرسَةِ ، فكُنتُ أزُورُه في الشَّهرِ ، فلمَّا اسْتَفْحَلَ أمْرُهُ تَرَكتُه .

ولَمْ يَزَلْ من سَنةِ خَمسمائة وثلاثين يَعِظُ ويُخَوِّفُ في القُرىٰ ، ويَحُجُّ علىٰ نَجيب ، وأطْلَقَتْ له السَّيدَةُ أمُّ فاتِك ولأقارِبه خَراجَ أمْلاكِهم ، فتَمَوَّلُوا إلىٰ أنْ صارَ جَمْعُهُ نَحوَ أرْبَعينَ ألفَ مُقاتِل ، وحارَبَ ، وكان يَقُولُ : دَنا الوَقتُ ، أزِفَ الأمْرُ ، كأنَّكُم بما أقُولُ لكُم عَياناً ، ثُمّ ثارَ ببلادِ خَولان ، وعاثَ وسَبَىٰ ، وأَهْلَكَ النَّاسَ ، ثُمّ لَقيتُه عند الدَّاعي بجبْلة سَنةَ تسْعٍ وأرْبَعينَ يَسْتَنجِدُ به ، فأبَىٰ ، ثُمّ دَبَّرَ علىٰ قَتلِ وَزيرِ آلِ فاتِك ، ثُمّ زَحَفَ إلىٰ زَبيد ، فقاتَلَه أهْلُها نَيِّفاً وسَبعينَ زَحْفاً ، وقُتِلَ خَلائِقُ من الفَريقَينِ ، ثُمّ قُتِلَ فَاتِكُ مُتَوَلِّي زَبيد ، وأخَذَها ابنُ مَهْديّ في رَجبَ سَنةَ أرْبعٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، فمَا

---

(١) انظر السير : (الشيعيّ) ١٤/٥٨ـ٥٩ ، وانظر النزهة : ١/١١٢٩ .

(٢) انظر السير : (المُستظهِرُ بالله) ١٩/٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩١ .

مُتِّع ، وهَلَكَ بعدَ ثَلاثةِ أشْهُر ، وقامَ بعدَه ابنُه عبدُ النَّبيِّ ، وعَظُمَ ، حتّى اسْتَولَىٰ علىٰ سائِرِ اليَمَنِ ، وجَمَعَ أمْوالاً لا تُحْصَىٰ ، وكانَ ـ أَعْنِي الأبَ ـ يَرَى التَّكْفيرَ بالمَعَاصي ، ويَسْتحِلُّ وَطْءَ سَبايا مَنْ خالَفَه ، ويَعْتَقِدُ فيه قَومُهُ فَوقَ اعْتِقادِ الخَلْقِ في نَبيِّهم .

قال : وحُكِيَ لي عَنهُ أنَّهُ لَمْ يَثِقْ بيَمينِ مَنْ يَصْحَبُه حتّىٰ يَذْبَحَ وَلَدَهُ أوْ أخَاهُ ، وكانَ يَقتُلُ بالتَّعذيبِ في الشَّمسِ ، ولا يَشْفَعُ أحَدٌ عِندَه ، ولَيسَ لأحَدٍ من عَسْكَرِه فَرَسٌ يَمْلِكُه ولا سِلاحٌ ، بَلْ الكُلُّ عِندَهُ إلىٰ وَقتِ الحَربِ ، والمُنْهَزِمُ منهُم يُقْتَلُ جَزْماً ، والسَّكْرانُ يُقْتلُ ، ومَنْ زَنَىٰ أوْ سَمِعَ غِناءً يُقتَلُ ، ومَنْ تَأخَّرَ عن صَلاةِ الجَماعَةِ قُتِلَ[1] .

(ز) ادِّعاءُ النِّسْبَةِ إلىٰ آلِ البَيْتِ :

قالَ الذهبيُّ في ترجمة الرِّياشيِّ : فِتْنَةُ الزِّنجِ كانَت عَظيمَةً ، وذلكَ أنَّ بَعضَ الشَّياطِينِ الدُّهاةِ كانَ طُرقيّاً أوْ مُؤدِّباً ، له نَظَرٌ في الشِّعْرِ والأخْبارِ ، ويَظْهَرُ من حَالِهِ الزَّنْدَقَةُ والمُروقُ ، ادَّعَىٰ أنَّه عَلَويٌّ ، ودَعَا إلىٰ نَفْسِه ، فالْتَفَّ عليه قُطَّاعُ طَريقٍ ، والعَبيدُ السُّودُ من غِلْمانِ أهْلِ البَصْرَةِ ، حتىٰ صارَ في عِدَّةٍ وتَحَيَّلوا وحَصَّلوا سُيوفاً وعِصيّاً ، ثمّ ثارُوا علىٰ أطْرافِ البَلَدِ ، فبَدَّعوا وقَتَلوا وقَوُوا ، وانْضَمَّ إليهم كُلُّ مُجرِمٍ ، واسْتَفْحَلَ الشَّرُّ بهم ، فسارَ جَيشٌ من العِراقِ لحَرْبِهم ، فكَسَروا الجَيشَ ، وأخَذُوا البَصْرَةَ ، واسْتَباحُوها ، واشْتَدَّ الخَطْبُ ، وصارَ قائِدُهم الخَبيثُ في جَيشٍ وأُهْبَة كاملة ، وعَزَمَ علىٰ أخْذِ بَغْدادَ ، وبَنَىٰ لنَفسِه مَدينَةً عَظيمَةً ، وحارَ الخَليفَةُ المُعْتَمدُ في نَفسِه ، ودامَ البَلاءُ بهٰذا الخَبيثِ المَارِقِ ثلاثَ عَشرةَ سَنةً ، وهابَتْهُ الجُيوشُ ، وجَرَتْ معه مَلاحِمُ ووَقَعاتٌ يَطُولُ شَرحُها ، قد ذَكَرَها المُؤرِّخُونَ إلىٰ أنْ قُتِلَ ، فالزِّنجُ هم عِبارَةٌ عن عَبيدِ البَصْرَةِ الذين ثارُوا مَعَه ، لا بارَكَ اللهُ فيهم[2] .

قال الذهبيُّ في تَرجَمَةِ المَهْديِّ : عُبَيْدُ الله أبو مُحمّد ، أوَّلُ مَنْ قامَ من الخُلَفَاءِ

---

(١) انظر السير : (عليّ بن مَهدي) ٢٠/ ٣٢١ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ١٥٥٥ ـ ١٥٥٦ .

(٢) انظر السير : (الرياشيّ) ١٢/ ٣٧٢ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ١٠١٠/ ١ .

الخَوارِجِ العُبَيْدِيَّة الباطِنيَّة الذين قَلَبوا الإسْلامَ ، وأَعْلَنوا بالرَّفْضِ ، وأبْطَنُوا مَذْهَبَ الإسْماعِيليَّةِ ، وبَثُّوا الدُّعاةِ ، يَسْتَغْوونَ الجَبَلِيَّةَ والجَهَلَةَ .

وادَّعَىٰ هـٰذا المُدَبِّرُ ، أنَّه فاطِميٌّ من ذُرِّيَّةِ جَعْفَرٍ الصَّادِق .

وقِيلَ : كانَ أبُوهُ يَهُودِيّاً[1] .

والمُحَقِّقُونَ علىٰ أنَّه دَعِيٌّ بحَيثُ إنَّ المُعِزَّ منهُم لمَّا سَأَلَهُ السَّيدُ ابنُ طَباطَبا عن نَسَبه ، قال : غَداً أُخْرِجُهُ لَكَ ، ثمَّ أصْبَحَ وقد أَلْقَىٰ عَرَمَةً[2] من الذَّهَبِ ، ثمَّ جَذَبَ نِصْفَ سَيْفِه من غِمْدِه ، فقالَ : هـٰذا نَسَبِي ، وأمَرَهُم بنَهْبِ الذَّهَبِ ، وقالَ : هـٰذا حَسَبِي .

وقد صَنَّفَ ابنُ الباقِلاَّنيُّ وغَيرُه من الأئِمَّة في هَتْكِ مَقالاتِ العُبَيْدِيَّة وبُطْلانِ نَسَبهم ، فهَـٰذا نَسَبُهُم ، وهَـٰذِه نِحْلَتُهُم ، وقد سُقْتُ في حَوادِثِ « تاريخِنا » من أحْوالِ هَؤلاءِ وأخْبارِهِم في تَفارِيقِ السِّنينِ عَجائِبَ .

فرأىٰ عُبيدُ الله أنَّ ما يَرومَه من المُلك ، لا يَنبَغي أنْ يَكونَ ظُهورُه بالعِراق ولا بالشَّام ، فبعثَ أولاً له داعيَيْن شَيطانَيْن داهيَتَيْن ، وهما الأخَوان أبو عبد الله الشِّيعيُّ ، وأخُوه العَبَّاس ، فظَهَرَ أحدُهما باليَمَن والآخَرُ بأفْريقية ، وأظْهرَ كلٌّ منهما الزُّهْدَ والتَّأَلُّهَ وأدَّبا أولادَ النَّاسِ ، وشَوَّقا إلى الإمامِ المَهْديِّ[3] .

٤ـ حادِثَةٌ فيها عِظَةٌ لفاسِدِي العَقيدَة :

قالَ هارُونُ الحَمَّالُ : حَدَّثنا مُحمَّدُ بنُ أبي كَبْشَة قال : كُنتُ في سَفينَةٍ ، فسَمِعتُ هاتِفاً يقولُ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، كَذَبَ المَريسِيُّ على الله ، ثُمَّ عادَ الصَّوتُ يَقولُ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، علىٰ ثُمامَةَ والمَريسِيِّ لَعْنَةُ الله ، قالَ : ومَعَنا رَجُلٌ من أصْحابِ المَريسِيِّ في المَرْكبِ ، فَخَرَّ مَيِّتاً[4] .

---

(١) انظر السير : (المَهديّ وذريته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٧ .

(٢) العَرَمَة : بالتحريك ، مجمع رمل ، وقد استعمله هنا بمعنىٰ كومة من الذهب .

(٣) انظر السير : (المَهديّ وذريته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٧ .

(٤) انظر السير : (ثُمامة بن أشرس) ١٠/ ٢٠٣ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٦/٨٦٨ .

٥ـ تَعْليلٌ لظُهورِ الكَشْفِ والإخْبارُ بالغَيبِ عند الضَّالِّينَ :

قال الذهبيُّ : كانَ يُونُسُ بنُ يُوسُف ذَا كَشْفٍ وحالٍ ، ولَمْ يَكُنْ عندَه كَبيرُ عِلمٍ ، ولَه شَطَحٌ ، وشِعْرٌ مَلْحُونٌ يَنْظِمُه علىٰ لِسانِ الرُّبوبيَّة ، وبَعضُهُ كأنَّه كَذِبٌ ، واللهُ أعْلمُ بسِرِّه ، فلا يَغْتَرُّ المُسلِمُ بكَشْفٍ ولا بحالٍ ولا بإخْبارٍ عن مُغَيَّب ، فابنُ صائِدٍ وإخْوانُه الكَهَنَة لهم خَوارِق ، والرُّهْبانُ فيهم مَنْ قد تَمَزَّقَ جُوعاً وخُلْوَةً ومُراقَبَةً علىٰ غَيرِ أساسٍ ولا تَوْحيدٍ ، فصَفَتْ كَدُوراتُ أنفسِهُم وكاشَفُوا وفَسَروا ولا قُدْوَةَ إلاَّ في أهْلِ الصَّفْوَةِ وأرْبابِ الوِلايَةِ المَنوطَةِ بالعِلمِ والسُّنَن ، فنَسْألُ اللهَ إيْمانَ المُتَّقين ، وتَألُّهَ المُخْلِصين ، فكَثيرٌ من المَشايخِ نَتوقَّفُ في أمْرِهِم حتّىٰ يَتَبَرهَنُ لنا أمْرُهُم ، وبالله الاسْتِعانَةُ .

تُوفِّيَ الشَّيخُ يُونُس سَنَةَ تِسعَ عَشرَةَ وسِتِّ مِئَة[١] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الحَريريّ ، عليُّ بنُ أبي الحَسَنِ بنِ المَنْصُورِ ، قال الذهبيُّ : ومِمَّنْ انْتَصَرَ له وخَضَعَ لِكَشْفِه الإمامُ أبو شامَة[٢] ، فقال : كانَ عندَه من القيامِ بواجِبِ الشَّريعَةِ ما لَمْ يَعْرِفْه أحدٌ من المُتَشَرِّعين ظاهراً وباطِناً ، وأكْثرُ النَّاسِ يَغْلِطُونَ فيه ، كان مُكاشِفاً لما في الصُّدورِ بحَيثُ قد أطْلَعَه اللهُ علىٰ سَرائِرِ أوْليائِه[٣] .

قال الذهبيُّ : ما هٰذا ؟!! ، اتَّقِ اللهَ ، فالكَهَنَةُ وابنُ صَائدٍ مُكاشِفُونَ لما في الضَّمائِرِ .

قالَ عن نَفْسِه[٤] .

فَقِيرٌ ولكِنْ مِنْ صَلاحٍ ومِنْ تُقَىَ ... وشَيْخٌ ولكِنْ للفُسُوقِ إمَامُ

جاءَ في تَرجَمَة القمّينيِّ ، قالَ الذهبيُّ : الشَّيخُ يُوسُفُ القمّينيُّ المُوَلَّهُ بدِمَشْقَ ، كانَ للنَّاسِ في هٰذا اعْتِقادٌ زائِدٌ لِمَا يَسْمَعونَ من مُكاشَفَتِه التي تَجْري علىٰ لسانِه كمَا يَتمُّ

---

(١) انظر السير : (يُونُس ابن يُوسُف) ٢٢/ ١٧٨ـ ١٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٨٣ .

(٢) قال صاحب النزهة : لم نجد هٰذا الكلام في ذيل الروضتين لابن شامة حين ترجم له في وفاته سنة ٥٤٦ هـ ، بل نجد خلاف ذلك ذماً له وقد نسب ابن تغري بردي إلىٰ أبي شامة أيضاً أنه أثنىٰ على الحريري .

(٣) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٧٣٣ .

(٤) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٧٣٣ .

للكاهِنِ في نُطْقِه بالمُغَيَّباتِ كانَ يَأوي إلى القَمامينَ والمَزابِلِ التي هي مَأوَى الشَّياطِينِ ، ويَمشِي حافِياً ، ويَكْنِسُ الزَّبَلَ بثِيابِه النَّجِسَة ببَوْلِه ، ويَتَرَنَّحُ في مَشْيِه ، وله أكْمامٌ طِوالٌ ، ورَأسُه مَكْشوفٌ ، والصِّبيانُ يَعْبَثون به ، وكان طَويلَ السُّكوتِ قَليلَ التَّبَسُّمِ ، يَأوي إلىٰ قُمّين حَمَّام نورِ الدِّينِ ، وقد صارَ باطِنُه مَأوَىٰ لقَرينِه ، ويَجْري فيه مَجْرَى الدَّمِ ، ويَتكلَّمُ فيَخْضعُ له كُلُّ تالِفٍ ، ويَعْتقدُ أنَّه وَليٌّ لله ، فَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله[1] .

وقد رَأيتُ غَيرَ واحدٍ من هـٰذا النَّمَطِ الذين زَالَ عَقلُهُم أو نَقُصَ يَتَقلَّبُونَ في النَّجاساتِ ، ولا يُصَلُّونَ ، ولا يَصُومُون ، وبالفُحْشِ يَنْطِقُون ، ولهُم كَشفٌ كما والله للرُّهبانِ كَشفٌ ، وكما للسَّاحِرِ كَشفٌ وكما لِمَنْ يُصْرَعُ كَشفٌ ، وكما لِمَنْ يَأكُلُ الحَيَّةَ ويَدخُلُ النَّارَ حالٌ مع ارْتِكابِه للفَواحِشِ ، فوالله ما ارْتَبَطُوا علىٰ مُسَيْلِمَةَ والأسْوَدِ إلاَّ لإتْيانِهِم بالمُغَيِّبات .

تُوفِّي سنة سبعٍ وخمسين وستِّ مئة[2] .

* * *

(١) انظر السير : (القُمّينيّ) ٢٣/ ٣٠٢ـ٣٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٦ .

(٢) انظر السير : (القُمّينيّ) ٢٣/ ٣٠٢ـ٣٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٦ .

فِرَقٌ وآراءٌ اعْتقاديَّة

أولاً : الأشاعِرَة

١ـ عَقيدةُ أبي الحَسَن الأشْعَريّ :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَةِ أبي الحَسَنِ الأشْعَريّ : رَأيتُ لأبي الحَسَنِ أرْبعَةَ تَواليف في الأُصولِ يَذْكرُ فيها قَواعِدَ مَذهَبِ السَّلَفِ في الصِّفاتِ ، وقالَ فيها : تُمَرُّ كما جاءَتْ ، ثُمَّ قالَ : وبذلك أقُولُ ، وبه أَدينُ ، ولا تُؤوَّل .

قال الذهبيُّ : ماتَ ببَغْدادَ سَنةَ أرْبعٍ وعِشْرينَ وثلاث مِئَة حَطَّ عليه جَماعَةٌ من الحَنابِلَة والعُلماءِ ، وكُلُّ أحَدٍ فيُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ مَنْ عَصَمَ الله تَعالَى اللَّهُمَّ اهْدِنا ، وارْحَمنا .

ولأبي الحَسَنِ ذَكاءٌ مُفْرط ، وتَبَحُّرٌ في العِلمِ ، وله أشْياءُ حَسَنةٌ وتَصانيفُ جَمَّةٌ تَقضي له بسِعَة العِلمِ[1] .

٢ـ قال الذهبيُّ : الأشاعِرَةُ الأوائِلُ كانُوا علىٰ طَريقَةِ السَّلَف :

وقالَ الذهبيُّ بعدَ مَقُولَة أبي ذَرٍّ الهَرويّ : « قد بَيَّنَّا دينَ الأُمَّة ، وأهْلِ السُّنَّة أنَّ هـٰذه الصِّفاتِ تُمَرُّ كما جاءت بغَيرِ تَكْييف ولا تَحْديد ولا تَجْنيس ولا تَصْوير » ، فهَـٰذا المَنْهجُ هو طَريقَةُ السَّلَفِ ، وهو الذي أَوْضَحَه أبو الحَسَن وأصْحابُه ، وهو التَّسْليمُ لنُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّة ، وبه قالَ ابنُ الباقِلاَّنيّ وابنُ فُوْرَك ، والكِبارُ إلىٰ زَمَنِ أبي المَعالي ، ثم زَمنِ الشَّيخِ أبي حامِد فوَقَعَ اخْتلافٌ وألْوانٌ ، نَسألُ اللهَ العَفْوَ[2] .

---

(١) انظر السير : (الأشْعريّ) ١٥/ ٨٥ـ ٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٤ .

(٢) انظر السير : (أبو ذر الهرويّ) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٣ .

قالَ عبدُ العَزيزِ بنُ أحمَدَ الكَتانيّ : وكانَ الخَطيبُ البَغْداديُّ يَذهبُ إلىٰ مَذهبِ أبي الحَسَنِ الأشْعَري ، رَحِمَهُ الله .

قالَ الذهبيُّ : صَدَقَ فقَد صَرَّحَ الخَطيبُ في أخْبارِ الصِّفاتِ أنَّها تُمَرُّ كما جاءَتْ بلا تَأويل[1] .

٣ـ الأشاعِرةُ الذَّابُّونَ عن الإسْلام :

ابنُ الباقِلاَّنيّ :

هو الإمامُ العَلاَّمَة ، أوْحَدُ المُتكَلِّمين ، مُقدَّمُ الأُصوليِّين ، القاضي أبُو بَكْر ، مُحمَّدُ ابنُ الطيِّب بنِ مُحمَّدٍ ، البَصْريّ ، البَغْداديّ ، ابنُ الباقِلاَّنيّ صاحبُ التَّصانيف ، وكان يُضْرَبُ المَثلُ بفَهْمِه وذَكائِه .

وكان ثِقةً إماماً بارِعاً ، صَنَّفَ في الرَّدِّ على الرَّافِضَة والمُعْتَزلَة والخَوارِج والجَهميَّة والكَرَّاميَّة ، وانتُصَرَ لطَريقَةِ أبي الحَسَنِ الأشْعَريِّ ، وقد يُخالِفُه في مَضائِقَ ، فإنَّه من نُظَرائِه ، وقد أخَذَ عِلمَ النَّظَرِ عن أصْحابِه[2] .

قالَ أبو بَكْر الخَطيبُ : كان وِرْدُه في كُلِّ لَيلةٍ عِشْرينَ تَرْويحَة في الحَضَر والسَّفَر ، فإذا فَرَغَ منها ، كَتَبَ خَمْسَاً وثَلاثينَ وَرَقَةً من تَصْنيفِه[3] .

وقد سارَ القاضي رَسُولاً عن أميرِ المُؤمِنينَ إلىٰ طاغِيَةِ الرُّوم ، وجَرَتْ له أمُورٌ ، منها أنَّ المَلِك أدْخَلَه عليه من بابِ خوخةٍ[4] ليَدخُلَ راكِعَاً للمَلِكِ ففَطِنَ لها القاضي ، ودَخَلَ بظَهْرِه[5] .

ومنها أنَّه قالَ لراهِبِهم : كَيفَ الأهْلُ والأوْلادُ ؟!! ، فقالَ المَلِكُ : مَهْ!! ، أمَا

---

(١) انظر السير : (الخطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤١٢ .
(٢) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٤ .
(٣) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٤ .
(٤) باب خوخة : هو باب صغير ضمن باب كبير لا يتمكن الإنسان من دخوله إلاَّ أن يحني رأسه .
(٥) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٣٤ .

عَلمْتَ أنَّ الرَّاهِبَ يَتنزَّهُ عن هـٰذا ؟ فقالَ : تُنزِّهُونَه عن هـٰذا ، ولا تُنزِّهُونَ رَبَّ العَالَمينَ عن الصَّاحِبَةِ والوَلَدِ ! ![1] .

وقِيلَ : إنَّ الطَّاغِيَةَ سَألَهُ : كَيفَ جَرَىٰ لزَوْجَةِ نَبيِّكُم ؟ ـ يَقْصِدُ تَوْبيخاً ـ فقالَ : كَما جَرَىٰ لمَرْيَمَ بنتِ عِمْرانَ ، وبَرَّأهُمَا اللهُ ، لَكنَّ عائِشَةَ لَمْ تَأتِ بوَلَدٍ فأفْحَمَهُ .

قالَ الخَطيبُ : سَمعتُ أبا بَكْر الخَوارِزْميَّ يَقولُ : كُلُّ مُصَنِّف ببَغْدادَ إنَّما يَنْقُلُ من كُتُبِ النَّاسِ سِوَى القاضي أبي بَكْر ، فإنَّما صَدْرُه يَحْوي عِلمَه وعِلمَ النَّاسِ[2] .

وقالَ أبُو مُحمّد البافي : لو أوْصَىٰ رَجلٌ بثُلثِ مالِه لأفْصَحِ النَّاسِ لوَجَبَ أنْ يُدْفَعَ إلىٰ أبي بَكْر الأشْعَريّ[3] .

وعَمِلَ بعضُهُم في مَوْتِ القاضي :

انْظُرْ إلىٰ جَبَلٍ تَمْشِي الرِّجَالُ بِه ... وانْظُرْ إلى القَبْرِ ما يَحْوِي من الصَّلَفِ
وانْظُرْ إلىٰ صَارِمِ الإسْلامِ مُنْغَمِداً ... وانْظُرْ إلىٰ دُرَّةِ الإسْلامِ في الصَّدَفِ

ماتَ سَنةَ ثلاثٍ وأربعِ مِئَة ، وصلَّىٰ عليه ابنهُ حَسَنٌ وكانت جِنازَتُه مَشْهودَة ، وكان سَيفاً على المُعْتَزِلَة والرَّافِضَة والمُشَبِّهَة ، وغالبُ قَواعِدِه على السُّنَّة ، وقد أمَرَ شَيخُ الحَنابِلَة أبُو الفَضْل التَّميميُّ مُنادياً يَقولُ بينَ يَديّ جِنازَته : هـٰذا ناصِرُ السُّنَّة والدين ، والذَّابُّ عن الشَّريعَةِ ، هـٰذا الذي صَنَّفَ ألفَ وَرَقَة ثم كان يَزورُ قَبرَه كُلَّ جُمُعَة[4] .

وقالَ أبو الوَليد الباجيُّ في كِتابِ « اخْتِصارُ فِرَق الفُقَهاء » من تَأليفِه في ذِكرِ القاضي ابن الباقِلاَّنيّ : لقد أخْبَرَني الشَّيخُ أبو ذَر ـ وكانَ يَميلُ إلىٰ مَذْهَبه ـ فسَألْتُه : مِنْ أيْنَ لكَ هـٰذا ؟ قالَ : إنِّي كُنتُ ماشياً ببَغْدادَ مع الحافِظِ الدَّارقُطنيِّ ، فلَقِينا أبا بَكْر ابنَ الطيِّب فالْتَزَمَه الشَّيخُ أبو الحَسَن وقَبَّلَ وَجْهَه وعَيْنَيه ، فلمَّا فارَقْناه ، قُلتُ له : مَنْ هـٰذا الذي

---

(١) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٣٥ .
(٢) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٥ .
(٣) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٥ .
(٤) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٣٥ .

صَنعْتَ به ما لَمْ أعْتَقِدْ أنَّكَ تَصْنَعُه وأنْتَ إمامُ وَقْتِكْ ؟!! فقالَ : هـٰذا إمامُ المُسْلِمينَ والذَّابُّ عن الدِّينِ ، هَـٰذا القاضِي أبو بَكْر مُحمَّدُ بنُ الطيِّب ، قال أبُو ذَر : فمِنْ ذلكَ الوَقتِ تَكرَّرْتُ إليه مع أبي ، كُلُّ بَلَدٍ دَخَلتُه من بِلادِ خُراسَانَ وغَيرِها لا يُشارُ فيها إلىٰ أحَد من أهْلِ السُّنَّة إلاَّ مَنْ كان علىٰ مَذْهَبِه وطَريقِه[1] .

قالَ الذهبيُّ عن الباقِلاَّنيّ : هو الذي كان ببَغْدادَ يُناظِرُ عن السُّنَّةِ وطَريقَةِ الحَديثِ والجَدَلِ والبُرهان ، وبالحَضْرةِ رُؤوسُ المُعْتَزِلَة والرَّافِضَة والقَدَريَّة وأَلْوانِ البِدَعِ ، ولهُم دَولَةٌ وظُهورٌ بالدَّولَةِ البُوَيْهيَّة ، وكانَ يَرُدُّ على الكَرَّاميَّة ويَنْصُرُ الحَنابِلَةَ عليهِم ، وبَيْنَهُ وبَينَ أهْلِ الحَديثِ عامِرٌ ، وإنْ كانُوا قد يَخْتلِفُونَ في مَسائِلَ دَقيقَة ، فلهَـٰذا عامَلَهُ الدَّارَقُطْنيّ بالاحْتِرام ، وقد ألَّفَ كِتاباً سَمَّاهُ « الإبانَة » ، يَقولُ فيه : فإنْ قِيلَ : فما الدَّليلُ علىٰ أنَّ للهِ وَجْهاً ويَداً ؟ قال : قَولُهُ : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[2] ، وقَولُهُ : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[3] .

فأثْبَتَ تَعالَىٰ لنَفسِه وَجْهاً ويَداً ، إلىٰ أنْ قالَ : فإنْ قِيلَ : فهَل تَقُولونَ : إنَّه في كُلِّ مَكانٍ ؟ قِيلَ : مَعاذَ اللهِ!! ، بَلْ هُوَ مُسْتَوٍ علىٰ عَرْشِه كمَا أخْبَرَ في كِتابِه ، إلىٰ أنْ قالَ : وصِفاتُ ذاتِه التي لَمْ يَزَلْ ولا يَزالُ مَوْصُوفاً بها : الحَياةُ والعِلْمُ والقُدْرَةُ والسَّمْعُ والبَصَرُ والكَلامُ والإرادَةُ والوَجْهُ واليَدانِ والعَيْنانِ والغَضَبُ والرِّضا فهَـٰذا نَصُّ كَلامِه وقالَ نَحْوَهُ في كِتابِ « التَّمْهيد » له ، وفي كِتابِ « الذَّبُّ عن الأشْعَريِّ » وقالَ : قَد بَيَّنَّا دِينَ الأُمَّةِ وأهْلِ السُّنَّةِ أنَّ هـٰذه الصِّفاتِ تُمَرُّ كما جاءَتْ بغَيرِ تَكْييفٍ ولا تَحْديدٍ ولا تَجْنيسٍ ولا تَصْويرٍ[4] .

قالَ الذهبيُّ : فهَـٰذا المَنْهجُ هو طَريقَةُ السَّلَفِ ، وهو الذي أَوْضَحَه أبو الحَسَن وأصْحابُه ، وهو التَّسْليمُ لنُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّة ، وبه قالَ ابنُ الباقِلاَّنيّ وابنُ فُوْرَك ،

---

(١) انظر السير : (أبو ذر الهروي) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٢ .
(٢) سورة الرحمـٰن ، الآية : ٢٧ .
(٣) سورة ص ، الآية : ٧٥ .
(٤) انظر السير : (أبو ذر الهروي) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٢ .

والكِبارُ إلىٰ زَمَنِ أبي المَعالي ، ثم زَمنِ الشَّيخِ أبي حامِد فوَقَعَ اخْتلافٌ وألْوانٌ ، نَسألُ اللهَ العَفْوَ[1] .

٤ـ ذَمُّ الذهبيِّ بَعْضَ أصْحابِ الحَديثِ لشِدَّتِهم على الأشاعِرَة :

قال أبو طاهر السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا العَلاءِ مُحمَّدَ بنَ عبد الجبَّارِ الفُرْسانيَّ يَقولُ : حَضَرتُ مَجلِسَ أبي بَكْر بن أبي عليّ الذَّكْوانيّ المُعَدّل في صِغَري مع أبي ، فلمَّا فَرَغَ من إمْلائِه ، قال إنْسانٌ : مَنْ أرادَ أنْ يَحْضُرَ مَجلِسَ أبي نُعَيْم ، فلْيَقُمْ وكان أبو نُعَيْم في ذلك الوَقتِ مَهْجوراً بسَببِ المَذْهَب ، وكان بَيْنَ الأشْعَريَّة والحَنابِلَة تَعَصُّبٌ زائدٌ يُؤدِّي إلىٰ فِتْنَة ، وقِيلَ وقَالَ ، وصُداعٍ طَويلٍ ، فقامَ إليه أصْحابُ الحَديثِ بسَكاكين الأقْلامِ ، وكادَ الرَّجُلُ يُقْتَل .

قال الذهبيُّ : ما هَؤلاءِ بأصْحابِ الحَديثِ ، بَلْ فَجَرَةٌ جَهَلَةٌ ، أبْعدَ الله شَرَّهم[2] .

٥ـ رَدُّ الذهبيِّ علىٰ بَعضِ أصْحابِ الحَديثِ لشِدَّتِهم على الأشَاعِرَة :

عن يَحْيَى بن مَندة قال : سَمعتُ عمِّي عبدَ الرَّحمَـٰنِ ، سَمعتُ مُحمَّدَ ابنَ عُبَيْدِ الله الطَّبَرانيَّ يَقولُ : قُمتُ يَوماً في مَجْلِسِ والدِكَ رَحِمَه الله فقُلتُ : أيُّها الشَّيخُ ، فينا جَماعَةٌ ممَّنْ يَدخُلُ علىٰ هـٰذا المَشْؤوم ـ أعْنِي أبا نُعَيْمٍ الأشْعَريَّ ـ فقال : أخْرِجُوهُم ، فأخْرَجْنا من المَجْلِس فُلاناً وفُلاناً ثم قال : على الدَّاخِلِ عليهم حَرجٌ أنْ يَدخُلَ مَجْلِسَنا ، أو يَسْمعَ منَّا ، أو يَرْوِيَ عنَّا ، فإنْ فَعَلَ فلَيْسَ هو منَّا في حِلّ .

قال الذهبيُّ : رُبَّما آلَ الأمرُ بالمَعْروفِ بصاحِبه إلى الغَضَبِ والحدَّةِ ، فيَقَعُ في الهُجْرانِ المُحَرَّم ، ورُبَّما أفْضَىٰ إلى التَّكْفيرِ والسَّعْيِ في الدَّمِ ، وقد كان أبُو عَبدِ الله وافِرَ الجَاهِ والحُرْمَة إلى الغايَة ببَلَدِه ، وشَغبَ علىٰ أحمدَ بنِ عبد الله الحافِظِ ، بحَيثُ إنَّ أحمَدَ اخْتَفَىٰ[3] .

---

(١) انظر السير : (أبو ذر الهروي) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٣ .
(٢) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٧/ ٤٥٣ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٩ .
(٣) انظر السير : (ابن مندة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٢٢ .

٦ـ الفِتَنُ بين الأشاعِرَة والحَنابِلَة :

أبو جَعْفَر الهاشميّ

جاءَ في تَرجَمَة أبي جَعفَرٍ الهاشميّ ، قال الذهبيُّ : الإمامُ ، شَيخُ الحَنْبليَّة ، أبو جَعْفَر ، عبدُ الخالِق بنُ أبي مُوسَىٰ عيسَىٰ ، الهاشِميُّ ، العَبَّاسيُّ ، الحَنْبَليُّ ، البَغْداديّ ، مَوْلِدُه سَنةَ إحْدَىٰ عَشْرَة وأرْبَع مِئَة .

قال أبو الحُسَيْن بنُ الفَرَّاء : لَزِمْتُه خَمسَ سِنينَ ، وكانَ إذا بَلَغَه مُنكَرٌ ، عَظُمَ عليه جِداً ، وكان شَديداً على المُبْتَدِعَة ، لَمْ تَزَلْ كَلمتُه عاليَةً عليهم ، وأصْحابُه يَقْمَعُونَهم ، ولا يَرُدُّهم أحَدٌ ، وكان عَفيفاً نَزِهاً دَرَّسَ بمَسْجدِه ، ثم انتَقلَ إلى الجانب الشَّرْقيِّ يُدرِّسُ ، ثم دَرَّس بجامع المَهْديِّ ، ولمَّا احْتَضَرَ أبو يَعْلىٰ ، أوْصاهُ أنْ يُغَسِّلَه ، وكذا لمَّا احْتَضَرَ الخَليفَةُ القائِمُ أوْصَىٰ أنْ يُغَسِّلَه أبو جَعْفرُ ، ففعَل ، وما أخَذَ شَيئاً ممَّا وَصَّىٰ له به ، إلىٰ أنْ قالَ : وأُخِذَ أبو جَعْفَر في فِتْنة ابن القُشَيْريّ[1] ، وحُبِسَ أيَّاماً فسَرَدَ الصَّوْمَ ، وما أكَلَ لأحَد شَيئاً ، ودَخَلتُ فرَأيتُهُ يَقرأُ في المُصْحَف ، ومَرِضَ فلمَّا ثَقُلَ وضَجَّ النَّاسُ من حَبْسِه ، أُخْرجَ إلى الحريم فماتَ هناك ، وكانت جَنازَتُه مَشْهودَةً ، ودُفِنَ إلىٰ جانب قَبرِ الإمامِ أحمَدَ ولَزِمَ النَّاسُ قَبرَه مُدَّة حتىٰ قِيلَ : خُتِمَ علىٰ قَبرِه عَشْرةُ آلافِ خَتْمَة ، تُوفِّيَ سَنةَ سَبعينَ وأرْبَعِ مِئَة .

قال ابنُ النجَّار : كان مُنقَطِعاً إلى العِبادَةِ وخُشُونَةِ العَيْشِ والصَّلابَة في مَذْهَبِه ، حتىٰ أفْضَىٰ ذلكَ إلىٰ مُسارَعَة العَوامِّ إلىٰ إيْذاءِ النَّاسِ وإقامَةِ الفِتْنَة ، وسَفْكِ الدِّماءِ ، وسَبِّ العُلماءِ ، فحُبِسَ .

قال الذهبيُّ : كانَ يَومُ مَوتِه يَوماً مَشْهوداً ، رَحمَه الله[2] .

---

(١) التي وقعت بين الحنابلة والأشعرية ، انظر تفصيل ذلك في « ذيل طبقات الحنابلة » ١/ ٢٢١٩ ، و« طبقات السبكي » ٣/ ٣٨٩ ، وما بعدها .

(٢) انظر السير : (أبو جَعفر الهاشميّ) ١٨/ ٥٤٦ـ ٥٤٨ ، وانظر النزهة : ١٤٤٠ ـ ١٤٤١ (أبو جعفر الهاشمي) .

البَكريّ :

وجاءَ في تَرجَمَة البَكْريِّ ، قال الذهبيُّ : الوَاعِظُ العالِمُ ، أبو بَكْر ، عَتيقٌ البَكْريُّ ، المَغْربيُّ الأشْعَريُّ .

وَفِدَ على النِّظام الوَزيرِ ، فنَفَقَ عليه ، وكَتَبَ له تَوْقيعاً بأنْ يَعِظَ بجَوامِعِ بَغدادَ ، فقَدِمَ وجَلَسَ واحْتَفَلَ الخَلقُ ، فذَكَرَ الحَنابِلَةَ وحَطَّ وبالَغَ ، ونَبَزَهم بالتَّجْسيمِ ، فهاجَتْ الفِتنَةُ ، وغَلَتْ بها المَراجِلُ وكَفَّرَ هَؤلاءِ هَؤلاء ، ولمَّا عَزَمَ على الجُلُوسِ بجامِعِ المَنْصُورِ ، قال نَقيبُ النُّقَباءِ : قِفُوا حتىٰ أنْقُلَ أهْلي ، فلا بُدَّ من قَتْلٍ ونَهْبٍ ثمَّ أُغْلِقَت أبوابُ الجامِعِ ، وصَعَدَ البَكْريُّ ، وحَولَه التُّركُ بالقِسيِّ ، ولُقِّبَ بعَلَمِ السُّنَّة فتَعَرَّضَ لأصْحابِه طائِفَةٌ من الحَنابِلَة فشدت الدولةُ منهُ ، وكُبِسَتْ دُورُ بَني القاضي ابنِ الفَرَّاء ، وأُخِذَتْ كُتُبُهم ، وفيها كتابٌ في الصِّفاتِ ، فكان يُقرأُ بين يدَيْ البَكْريِّ ، وهو يُشَنِّعُ ويُشَغِّبُ ، ثم خَرَجَ البَكريُّ إلى المُعَسْكرِ مُتَشكِّياً من عَميدِ بَغدادَ أبي الفَتح بنِ أبي اللَّيْث وقِيلَ : إنَّه وَعَظَ وعَظَّمَ الإمامَ أحمدَ ، ثم تَلا ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾[1] فجاءَتْه حَصاةٌ ثم أخْرَىٰ فكَشَفَ النَّقيبُ عن الحالِ ، فكانوا ناساً من الهاشِميِّينَ حَنابِلَةً قد تَخَبَّؤوا في بِطانَةِ السَّقفِ ، فعاقَبَهم النَّقيبُ ثم رَجَعَ البَكْريُّ عَليلاً ، وتُوفِّيَ سَنةَ سِتٍّ وسَبعينَ وأرْبعِ مِئَة[2] .

وقال السِّلَفيُّ : كان القَيْروانيُّ مُشاراً إليه في الكَلام ، قال لي : أنا أدْرُسُ الكَلامَ ، من سَنةِ ثلاثٍ وأرْبَعينَ ، جَرتَ بينَه وبينَ الحَنابِلَة فِتَنٌ وأُوذِيَ غايَةَ الإيْذاءِ ، سَألتُهُ عن مَسْألَةِ الاسْتِواءِ ، فقالَ : أحَدُ الوَجْهَينِ للأشْعَريّ أنَّه يُحْمَلُ علىٰ ما وَرَدَ ولا يُفَسَّر[3] .

وقال ابنُ النجَّار : كان ابنُ المُعْتَمِد الإسْفَراييني من أفْرادِ الدَّهْرِ في الوَعْظِ ، دَقيقَ

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٠٢ .

(٢) انظر السير : (البَكريّ) ١٨/ ٥٦١ـ ٥٦٢ ، وانظر النزهة : ١٤٤١ ـ ١٤٤٢ (البَكْري) .

(٣) انظر السير : (القَيروانيّ) ١٩/ ٤١٧ـ ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٩٥ .

الإشارَةِ ، وكان أوْحَدَ وَقتِه في مَذْهَب الأشْعَريّ ، وله في التَّصَوُّفِ قَدمٌ راسِخٌ ، صَنَّفَ في الحَقيقةِ كُتُباً ، وكُلُّ كُتُبِه نكتٌ وإشاراتٌ ، ظَهَرَ له القَبُولُ التَّامُّ ببَغْدادَ ، وكان يَتكلَّمُ بمَذْهَبِ الأشْعَريِّ ، فثارَت الحَنابِلَةُ ، فأمَرَ المُسْتَرشِدُ بإخْراجِه ، فلمَّا وَلِيَ المُقْتَفي رَجَعَ إلىٰ بَغدادَ ، وعادَ فعادَت الفِتَنُ ، فأخْرَجُوهُ إلىٰ بَلَدِه[1] .

وقال ابنُ الجَوْزيّ في « المُنْتَظَم » : قَدِمَ السُّلطانُ مَسْعودٌ بَغْدادَ ومَعَه الحَسَنُ بنُ أبي بَكْر النِّيسابُوريُّ الحَنَفيُّ ، أحَدُ المُناظِرينَ ، فجَلَسَ بجامِعِ القَصْرِ ، وكان يَلْعَنُ الأشْعَريَّ جَهْراً ، ويَقولُ : كُنْ شافِعيّاً ولا تَكُنْ أشْعَريّاً ، وكُنْ حَنَفِيّاً ولا تَكُنْ مُعْتَزِليّاً ، وكُنْ حَنْبَليّاً ولا تَكُنْ مُشَبِّهاً ، وكان علىٰ بابِ النِّظاميَّة اسْمُ الأشْعَريِّ ، فأمَرَ السُّلطانُ بمَحْوِهِ ، وكَتَبَ مَكانَه : الشَّافِعيَّ ، وكان الإسْفَراييِنيُّ يَعِظُ في رِباطِه ويَذكُرُ مَحاسِنَ مَذْهَبِ الأشْعَريّ ، فتَقَعُ الخُصُوماتُ ، فذَهَبَ الغَزْنَويُّ ، فأخْبَرَ السُّلطانَ بالفِتَنِ ، وقال : إنَّ أبا الفُتوحِ ـ يَعْني ابنَ المُعْتَمدِ الإسْفَراييِنيَّ ـ صاحِبُ فِتْنَة ، وقد رُجِمَ غَيرَ مَرَّة ، والصَّوابُ إخْراجُهُ فأُخْرِجَ[2] .

٧ـ أمْثلةٌ علىٰ ما وَقَعَ بينَ الأشاعِرَة والحَنابِلَة من أشْياءَ لا تُحْمَدُ :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة ابنِ نُجَيَّة الحَنْبَليّ : كان يَجْري بَينَه وبَينَ الشِّهابِ الطُّوسيِّ العَجائِبُ ، لأنَّه كان حَنْبَليّاً ، وكان الشِّهابُ أشْعَريّاً وَاعِظاً ، جَلَسَ ابنُ نُجَيَّةَ يوماً في جامِعِ القرافة ، فوَقَعَ عليه وعلىٰ جَماعَةٌ سَقفٌ ، فعَمَلَ الطُّوسيُّ فَصْلاً ذَكَرَ فيه ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾[3] ، [4] .

جاءَ يَوماً كَلبٌ يَشُقُّ الصُّفوفَ في مَجلِسِ ابنِ نُجَيَّة ، فقال : هـٰذا من هُناكَ ، وأشَارَ إلىٰ جِهَةِ الطُّوسيِّ .

---

(١) انظر السير : (ابن المُعتمد الإسفراييني) ٢٠/ ١٣٩ـ ١٤٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٣٧ .
(٢) انظر السير : (ابن المعتمد الاسفراييني) ٢٠/ ١٣٩ـ ١٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٨ .
(٣) سورة النحل ، الآية : ٢٦ .
(٤) انظر السير : (ابن نُجيَّة) ٢١/ ٣٩٣ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٦٤٠ .

قال أبو المُظَفَّرِ السِّبْطُ : اقْتَنى ابنُ نُجَيَّة أمْوالاً عَظيمَةً ، وتَنَعَّمَ تَنَعُّماً زائِداً ، بِحَيثُ إنَّه كان في دارِه عِشْرونَ جارِيَةً للفِراشِ ، تُساوِي كُلُّ واحِدَةٍ ألفَ دينارٍ وأكْثر ، وكان يُعْمَلُ له من الأطْعِمَة ما لا يُعْمَلُ للمُلوكِ ، أعْطاهُ الخُلَفاءُ والمُلوكُ أمْوالاً جَزيلَةً قال : ومع هـٰذا ماتَ فَقيراً كَفَّنَه بَعضُ أصْحابِه[1] .

* * *

(١) انظر السير : (ابن نُجيَّة) ٢١/ ٣٩٣ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٤٠ .

ثانياً : الجَهْميَّة

عن عبدِ الرَّحْمَـٰنِ بنِ مُحمّدِ بنِ حَبيبٍ ، عن أبيهِ ، عن جَدِّه ، قال شَهدتُ خالداً القَسْريّ في يومِ أضْحَىٰ ، يَقولُ : ضَحُّوا تَقبَّلَ اللهُ منْكُم فإنِّي مُضَحٍّ بالجَعدِ بنِ دِرْهَم ، زَعَمَ أنَّ اللهَ لَمْ يَتَّخِذْ إبْراهيمَ خَليلاً ، ولَمْ يُكَلِّمْ مُوسَىٰ تَكْليماً ، تَعالَى اللهُ عَمَّا يقُولُ الجَعدُ عُلُواً كَبيراً ، ثُم نَزَلَ فذَبَحَه قُلتُ : هَـٰذه من حَسَناتِه ، هي وقَتْلِهِ مُغيرَةَ الكَذَّاب[1] .

قال الذهبيُّ في ترجمة المَريسيِّ : نَظَرَ المَريسيُّ في الكَلامِ ، فغَلَبَ عَليه ، وانْسَلَخَ من الوَرَعِ والتَّقْوَىٰ ، وجَرَّدَ القَوْلَ بخَلْقِ القُرآنِ ، ودَعا إليه ، حتىٰ كان عَيْنَ الجَهْميَّة في عَصْرِه وعالِمَهُم ، فمَقَتَه أهْلُ العِلمِ ، وكَفَّرَه عِدَّة ، ولَمْ يُدْرِكْ جَهْمَ بنَ صَفْوانَ ، بلْ تَلَقَّفَ مَقالاتِه من أتْباعِه .

وقالَ أبو النَّضْرِ هاشِمُ ابنُ القاسِم : كان والِدَ بِشْرٍ يَهوديّاً قَصَّاراً صَبَّاغاً[2] .

ونَقَلَ غَيرُ واحدٍ أنَّ رَجلاً قال ليَزيدَ بنِ هارُونَ : عندَنا ببَغْدادَ رَجلٌ ، يُقالُ له : المَريسيّ ، يَقولُ : القُرآنُ مَخْلوقٌ ، فقال : ما في فِتْيانِكُم مَنْ يَفْتِكُ به ؟!!

قال الذهبيُّ : قد أُخِذَ المَريسيُّ في دَولةِ الرَّشيدِ ، وأُهِينَ من أجْلِ مَقالَتِه .

وقال قُتَيْبَةُ : بِشْرٌ المَريسيُّ كافِرٌ .

وماتَ في آخِرِ سَنةِ ثَمانيَ عَشْرةَ ومِئَتَينِ ، وقد قارَبَ الثَّمانينَ .

فهُو بِشْرُ الشَّرِّ ، وبِشْرُ الحافي بِشْرُ الخَيْرِ ، كما أنَّ أحْمدَ ابنَ حَنْبَلَ هو أحْمدُ السُّنَّة ، وأحْمَدُ بنُ أبي دُواد أحْمدُ البدْعَةِ[3] .

---

(١) انظر السير : (القَسريّ) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٢٠ .

(٢) انظر السير : (المَريسيّ) ١٠/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٦٧ .

(٣) انظر السير : (المَريسيّ) ١٠/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٦٧ .

ثالثاً : الخَوارِج

١ـ الخَوارِجُ دَوَّخوا الخُلَفاءَ وحارَبُوهُم ، ومَنَعُوهُم من الانْصِرافِ إلى الجِهادِ وهٰذه أمْثِلَةٌ علىٰ زُعَمائِهِم :

(أ) شَبيبُ بنُ يَزيد :

هو ابنُ أبي نُعَيْم الشَّيْبانيّ ، رَأسُ الخَوارِجِ بالجَزيرَة ، وفارِسُ زَمانِه ، بَعَثَ لحَرْبِه الحَجَّاجُ خَمْسَةَ قُوَّادٍ فقتَلَهم واحِداً بعْدَ واحِدٍ ، ثمَّ سارَ إلى الكُوفَةِ ، وحاصَرَ الحَجَّاجَ ، وكانت زَوْجَتُه غَزالةُ عَديمَةَ النَّظيرِ في الشَّجاعَةِ ، فعَيَّرَ الحَجَّاجَ شاعِرٌ[١] فقال :

أَسَدٌ عَليَّ وفي الحرُوبِ نَعامَةٌ ... فَتْخاءُ تَنْفِرُ من صَفيرِ الصَّافِرِ
هَلاَّ بَرَزْتَ إلىٰ غَزالَةَ في الوَغَى ... بَلْ كانَ قَلْبُكَ في جَناحَيْ طائِرِ

وكانت أمُّ شَبيب جهيزة تَشْهدُ الحُروبَ .

غَرِقَ شَبيبٌ في القِتالِ بدُجَيلٍ[٢] سَنةَ سَبعٍ وسَبعينَ وله إحْدَىٰ وخَمْسونَ سَنةً[٣] .

قِيلَ : حَضَرَ عِتْبانُ الحَروريُّ عندَ عبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ فقالَ : أنْتَ القائِلُ :

فإنْ يَكُ مِنْكُم كانَ مَرْوانُ وابنُهُ ... وعَمْرو ومِنْكُم هاشِمٌ وحَبيبُ
فمِنَّا حُصَيْنٌ والبَطِينُ وقَعْنَبٌ ... ومِنَّا أميرُ المُؤمِنينَ شَبيبُ

فقالَ : إنَّما قُلتُ : ومِنَّا أميرَ المؤمِنينَ شَبيبُ « على النِّداءِ » فأعْجَبَه وأطْلَقَه[٤] .

---

(١) هو عِمْرانُ بنُ حِطَّان .
(٢) هو نهر بالأهواز ، حفره أردشير بابك ، أحدُ ملوك الفرس .
(٣) انظر السير : (شبيب بن يزيد) ٤/١٤٦ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٦٤ .
(٤) انظر السير : (شبيب بن يزيد) ٤/١٤٦ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٢/٤٦٤ .

ولمَّاغَرِقَ ، قِيلَ لأُمِّه فقالت : لمَّا وَلَدْتُه رَأيتُ كأنَّه خَرَجَ منِّي شِهابُ نارٍ ، فعَلِمْتُ أنَّه لا يُطْفِئُه إلاَّ الماءُ[1] .

وكان قد خَرَجَ صالحُ بنُ مُسرِّح العابدُ التَّميميُّ بدارا[2] وله أصْحابٌ يُفَقِّهُهم ويقصُّ عليهم ، ويَذمُّ عُثمانَ وعَليّاً كدَأب الخَوارج ، ويقولُ : تَأهَّبُوا لجِهاد الظَّلمَة ، ولا تَجزَعوا من القَتْل في الله ، فالقَتلُ أسْهَلُ من المَوت ، والموتُ لا بُدَّ منه فأتاه كتابُ شَبيب يقولُ : إنَّك شَيخُ المُسلمين ، لنْ نَعدِلَ بك أحَداً ، وقد اسْتجَبتُ لك ، والآجالُ غاديَةٌ ورائِحَة ، ولا آمَنُ أنْ تَخْتَرمَني المَنيَّة ولمْ أُجاهِد الظَّالمين ، فيا لَه غُبناً ، ويا لَه فَضْلاً مَتْروكاً ! جَعلَنا اللهُ ممَّن يُريد اللهَ بعَمَلِه ، ثمَّ أقْبَلَ هو وأخُوه مُصاد ، والمُحلل بنُ وائل ، وإبراهيمُ بنُ حَجَر ، والفَضلُ بنُ عامر الذُّهْليّ ، إلىٰ صالح ، فصاروا مئةً وعَشرةَ أنفُس ، ثم شَدُّوا علىٰ خَيلٍ لمحمَّد بنِ مَرْوان ، فأخَذوها وقَويَت شَوكتُهم ، فسارَ لحَربهم عَديُّ ابنُ عديِّ بن عُميرَة الكندي ، فالتَقوا ، فانْهَزَمَ عَديٌّ ، وبعدَ مُدَيدَة تُوفي صالحٌ من جِراحات ، سنةَ ستٍّ وسبعين وعُهِدَ إلىٰ شَبيب فهَزمَ العَساكرَ ، وعَظُمَ الخَطبُ ، وهجَمَ على الكُوفَة وقَتلَ جماعة أعيان ، فنَدبَ الحجَّاجُ لحَربه زائدَةَ بنَ قُدامَة الثَّقَفي ، فالتقوا ، فقُتلَ زائدَة ، ودَخلَت غَزالةُ جامعَ الكُوفَة ، وصَلَّت وِرْدَها وصَعدَت المنبرَ ، ووَفَت نَذْرَها ، وهَزمَ شَبيبٌ جُيوشَ الحجَّاج مرَّات ، وقَتلَ عِدَّةً من الأشْراف ، وتَزْلزَلَ له عبدُ المَلك بن مَرْوان ، وتَحيَّرَ الحجَّاجُ في أمْرِه ، وقال : أعْياني هٰذا وجمَعَ له جَيشاً كَثيفاً نحو خَمسين ألفاً .

وعَرضَ شَبيبٌ جُندَه فكانوا ألفاً ، وقالَ : يا قَوم ، إنَّ اللهَ نَصرَكم وأنتم مِئة ، فأنتم اليومَ مِئُون ، ثم ثَبتَ معه ستُّ مئة ، فحَملَ في مِئتَين على المَيْسَرَة هَزمها ، ثم قَتلَ مقدَّم العَساكر عتابَ بنَ وَرْقاءَ التَّميمي ، فلمَّا رآهُ شَبيبٌ صَريعاً توَجَّع له ، فقال خارجيٌّ له : يا أميرَ المُؤمنين تتَوجَّعُ لكافرٍ ؟!! ، ثم نادَىٰ شَبيبٌ برَفع السَّيفِ ، ودَعا إلىٰ طاعَتِه ، فبايَعوه ثم هَربوا في اللَّيلِ .

---

(١) انظر السير : (شبيب بن يزيد) ٤/١٤٦ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٦٤ .

(٢) دارا : بلدةٌ بين نصيبين وماردين ، وهي من بلاد الجزيرة .

ثم جاءَ المَددُ من الشَّام ، فالْتَقاهُ الحجَّاجُ بنفسه ، فجرَىٰ مَصافٌّ لم يُعهَد مثله ، وثَبتَ الفَريقان ، وقُتلَ مُصادٌّ أخو شَبيب وزوجتُه غَزالَة ، ودَخلَ الليلُ وتقَهْقَر شَبيبٌ وهو يَخفقُ رأسَه ، والطلبُ في أثرِه ، ثم فَترَ الطلَبُ عنهم ، وساروا إلى الأَهْواز ، فبَرزَ مُتولِّيها محمدُ بنُ موسى بنِ طَلحَة ، فبارَزَ شَبيباً ، فقَتلَه شبيبٌ ، ومَضىٰ إلىٰ كَرمانَ ، فأقامَ شَهْرَينِ ورَجَعَ ، فالْتَقاهُ سُفْيانُ بنُ أبْرَد الكَلْبيُّ وحَبيبٌ الحَكَميُّ علىٰ جِسْرِ دُجَيْل ، فاقْتَتَلُوا حتىٰ دَخَلَ اللَّيلُ ، فعَبَرَ شَبيبٌ على الجِسْرِ فقُطِعَ به ، فغَرِقَ ، وقِيلَ : بَلْ نَفَرَ به فَرَسُه ، فألْقاهُ في الماءِ سَنةَ سَبعٍ وسَبعينَ وعَليه الحَديدُ فقال : ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1] ، [2] .

(ب) قَطَرِيُّ بنُ الفُجاءَة :

هو الأميرُ أبو نَعامَة التَّيْميُّ المازِنيُّ ، البَطَلُ المَشْهُورُ ، رَأسُ الخَوارِج ، خَرَجَ زَمَنَ ابنِ الزُّبَيْرِ ، وهَزَمَ الجُيوشَ ، واسْتَفْحَلَ بَلاؤُه .

جَهَّزَ إليه الحَجَّاجُ جَيْشاً بعد جَيشٍ فيَكْسِرَهُم ، وغَلَبَ علىٰ بلادِ فارِس ، وله وَقائِعُ مَشْهودَةٌ ، وشَجاعَةٌ لَم يُسْمَعْ بمِثْلِها وشِعرٌ فَصيحٌ سائرٌ ، فلَه :

أقُولُ لها وقد طارَتْ شَعاعاً ... مِن الأبْطالِ وَيْحَكِ لَنْ تُراعِي
فإنَّكِ لَوْ سَألْتِ بَقاءَ يَوْمٍ ... على الأجَلِ الذي لَكِ لَمْ تُطاعِي
فصَبْراً في مَجالِ المَوْتِ صَبْراً ... فما نَيْلُ الخُلُودِ بِمُسْتَطاعِ
ولا ثَوْبُ الحَياةِ بثَوْبِ عِزٍّ ... فيُطْوَىٰ عَنْ أخِي الخَنَعِ اليَراعِ
سَبيلُ المَوتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ ... ودَاعِيَةٌ لأهْلِ الأرَضِ دَاعِي
ومَنْ لَمْ يَعْتَبِطْ يَهْرَمْ ويَسْأمْ ... وتُسْلِمْهُ المَنُونُ إلى انْقِطاعِ
وما للمَرْءِ خَيْرٌ في حَياةٍ ... إذا ما عُدَّ مِنْ سَقَطِ المَتَاعِ

واسْمُ الفُجَاءَة جَعونَةُ بنُ مازِن .

---

(١) سورة يس ، الآية : ٣٨

(٢) انظر السير : (شبيب بن يزيد) ٤/١٤٦ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/٤٦٤ .

بقِيَ قُطْرِيٌّ يُحارِبُ نَيِّفَ عَشْرةَ سَنةً ، ويُسَلِّمُ عليه بالخِلافَة ، اسْتَوْفَى المبرِّدُ في « كامِلِه » أخْبارَه إلىٰ أنْ سارَ لحَرْبِه سُفْيانُ بنُ الأبْرِدِ الكَلْبيُّ ، فانْتَصَرَ عليه وقَتَلَه وقِيلَ : عَثُرَ به الفَرَسُ فانْكَسَرَتْ فَخِذُه بطَبَرِسْتانَ ، فظَفِروا به ، وحُمِلَ رَأسُه سَنةَ تِسعٍ وسَبعينَ إلى الحَجَّاجِ ، وكان خَطيباً بَليغاً ، كَبيرَ المَحَلِّ من أفْرادِ زَمانِه[1] .

(ج) عُمَرُ بنُ حَفْصون :

جاءَ في تَرجَمَة المُنذِر بنِ مُحمّد بنِ عبد الرَّحمَـٰن بنِ الحَكَم : هو أبُو الحَكَم المَرْوانيُّ ، صاحبُ الأنْدَلُسِ ، تَمَلَّكَ بعدَ والِدِه ، فكانت دَولَتُه سَنتَيْنِ ، فماتَ وهو يُحاصِرُ عُمرَ بنَ حَفْصونَ ، رَأسَ الخَوارِجِ بالأنْدَلُسِ ، وكان هـٰذا بَدَوِيّاً يَجْلبُ السَّمكَ بالأنْدَلُسِ ، فآلَ به الأمرُ إلىٰ أنْ كَثُرَ جَمعُه ، واسْتَولَىٰ علىٰ جَماعَة حُصون .

ماتَ المُنْذِرُ في سَنةِ خَمسٍ وسَبعينَ ومِئَتَيْنِ ، وله سِتَّةٌ وأرْبَعونَ سَنةً[2] .

٢ـ كان من الخَوارج عُلَماءُ؛ فمنهم :

عِمْرانُ بنُ حِطَّان :

هو ابنُ ظَبْيان، السَّدوسيُّ البَصْريُّ ، من أعْيانِ العُلَماءِ ، لكنَّه من رُؤوسِ الخَوارِج[3] .

قال أبُو داود : لَيسَ في أهْلِ الأهْواءِ أصَحُّ حَديثاً من الخَوارِجِ ثُمَّ ذَكَرَ عِمْرانَ بنَ حِطَّان ، وأبا حَسَّانَ الأعْرَج[4] .

قال الفَرَزْدَقُ : عِمْرانُ بنُ حِطَّان من أشْعَرِ النَّاسِ ، لأنَّه لَوْ أرادَ أنْ يقُولَ مِثْلَنا لقَالَ ، ولَسْنا نَقْدِرُ أنْ نَقولَ مِثلَ قَولِه[5] .

عن ابنِ سيرينَ ، قال : تَزوَّجَ عِمْرانُ خارِجيَّةً وقالَ : سأرُدُّها ، قالَ : فصَرَفَتْه إلىٰ مَذْهَبِها[6] .

---

(١) انظر السير : (قَطريُّ بن الفُجاءَة) ٤/ ١٥١ـ ١٥٢ ، وانظر النزهة : ١/٤٦٦ .
(٢) انظر السير : (المُنذِر بن مُحمّد) ٨/ ٢٦٣ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ١/٥٥٧ .
(٣) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٧/٤٨٠ .
(٤) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/٤٨١ .
(٥) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨١ .
(٦) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨١ .

فذَكَرَ المَدائِنيُّ أنَّها كانت ذاتَ جَمالٍ ، وكان دَميماً فأعْجَبَتْه يَوماً فقالَت : أنا وأنْتَ في الجَنَّةِ ، لأنَّكَ أُعْطيتَ فشَكَرْتَ ، وابْتُلِيتُ فصَبَرْتُ[1] .

ومِن شِعْرِه في مَصْرَعِ عليٍّ رضي الله عنه :

يا ضَرْبَةً من تَقِيٍّ ما أرادَ بهَا ... إلاَّ لِيَبْلُغَ مِن ذِي العَرْشِ رِضْوانَا
إنِّي لأذْكُرُهُ حِيناً فأحْسَبُهُ ... أوْفَى البَرِيَّةِ عندَ اللهِ مِيزانَا
أَكْرِمْ بقَومٍ بُطُونُ الطَّيْرِ قَبْرَهمُ ... لَمْ يَخْلِطُوا دِينَهُم بَغْياً وعُدْوانَا

فبَلَغَ شِعْرُه عبدَ المَلِك ابنَ مَرْوانَ ، فأدْرَكَتْه حَمِيَّةٌ لقَرابَتِه من عليٍّ رضي الله عنه فنَذَرَ دَمَه ووَضَعَ عليه العُيونَ ، فلَمْ تَحْمِلْهُ أرضٌ ، فاسْتَجارَ برَوْحِ ابنِ زِنْباع ، فأقامَ في ضِيافَتِه ، فقالَ : مِمَّنْ أنتَ ؟ قال : من الأزْدِ فبَقِيَ عنده سَنةً فأعْجَبَه إعْجاباً شَديداً ، فسَمَرَ رَوحٌ ليلةً عند أميرِ المُؤمِنينَ ، فتَذاكَرا شِعْرَ عِمْرانٍ هٰذا ، فلمَّا انْصَرفَ رَوحٌ ، تَحدَّثَ مع عِمْرانَ بما جَرَىٰ ، فأنْشَدَه بقِيَّةَ القَصيدِ ، فلمَّا عادَ إلىٰ عبدِ المَلِكِ قال : إنَّ في ضِيافَتي رَجلاً ما سَمِعتُ منه حَديثاً قَطُّ إلاَّ وحَدَّثني به وبأحْسَن منه ، ولقد أنْشَدَني تِلكَ القَصيدَةَ كُلَّها قال : صِفْهُ لي ، فوَصَفَه له قالَ : إنَّكَ لَتَصِفُ عِمْرانَ بنَ حِطَّان ، اعْرِضْ عليه أنْ يَلْقاني قال : فهَرَبَ إلى الجَزيرَةِ ، ثمَّ لَحِقَ بعُمانَ فأكْرَمُوهُ[2] .

وبَلَغَنا أنَّ الثَّوْريَّ كان كَثيراً ما يَتَمثَّلُ بأبْياتِ عِمْرانَ هٰذه :

أرَىٰ أشْقياءَ النَّاسِ لا يَسْأمُونَها عَلى ... أنَّهُم فيها عُراةٌ وجُوَّعُ
أراهَا وإنْ كانت تُحَبُّ فإنَّها ... سَحابَةُ صَيْفٍ عن قَليلٍ تَقَشَّعُ
كَرَكْبٍ قَضَوْا حاجاتِهم وتَرَحَّلُوا ... طَريقُهُم بادِي العَلامَةِ مَهْيَعُ

تُوفِّيَ عِمْرانُ ابنُ حِطَّان سَنةَ أرْبعٍ وثَمانين[3] .

---

(١) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٤/٤٨١ .
(٢) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٥/٤٨١ .
(٣) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٦/٤٨١ .

٣ـ إهَانَةُ الخَوارِجِ للأُمَراءِ ولَو كانوا صَحابَة :

عن زِيادِ بنِ كُسَيْب قال : كُنتُ مع أبي بَكْرَة تَحتَ مِنْبرِ ابنِ عامِر وهو يَخْطُبُ وعَليه ثِيابٌ رِقاقٌ ، فقالَ أبُو بِلال : انْظُروا إلىٰ أمِيرِكُم يَلبَسُ ثِيابَ الفُسَّاقِ ، فقالَ أبُو بَكْرَة : اسْكُتْ ، سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ في الأرْضِ أَهَانَهُ اللهُ » .

أبُو بِلال : هو مِرْداسُ بنُ أُدَيَّةَ ، مِنَ الخَوارِجِ[1] .

٤ـ مِن خَوارِجِ المَغْرِب :

جاءَ في تَرْجَمَة القائِمِ أبي القاسِم مُحمَّدِ بنِ المَهْديِّ عُبَيْدِ الله ، صاحِبِ المَغْرِب ، قالَ الذهبيُّ : خَرَجَ عليه في سَنةِ اثْنتَينِ وثلاثين وثلاثِ مِئَة ، أبُو يَزيدِ مَخْلَدُ بنُ كَيْداد البَرْبَريُّ وجَرَتْ بَينَهُما مَلاحِمُ ، وحَصَرَه مَخْلَدُ بالمَهْدِيَّة ، وضَيَّقَ عليه ، واسْتَولَىٰ علىٰ بِلادِه ، ثمَّ وُسْوِسَ القائِمُ ، واخْتَلَطَ وزالَ عَقلُه وكانَ شَيْطاناً مَريداً يَتَزَنْدَقُ[2] .

ذَكرَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُتكلِّمُ ، أنَّ القائِمَ أظْهَرَ سَبَّ الأنْبياءِ وكان مُنادِيهِ يَصِيحُ : الْعَنوا الغَارَ وما حَوَىٰ وأَبادَ عِدَّةً من العُلَماءِ وكان يُراسِلُ قَرامِطَةَ البَحْرَيْنِ ، ويأمُرُهم بإحْراقِ المَساجِدِ والمَصاحِفِ فتَجَمَّعتْ الإبَاضِيَّةُ[3] والبَرْبَرُ علىٰ مَخْلَد ، وأَقْبَلَ ، وكانَ ناسِكاً قَصيرَ الدَّلقِ[4] يَركَبُ حِماراً ، لَكنَّهُم خَوارِج ، وقامَ معه خَلقٌ من السُّنَّةِ والصُّلَحاءِ ، وكادَ أنْ يَتَملَّكَ العالَمَ ، ورُكِّزَتْ بُنودُهُم عند جامِعِ القَيْرَوانِ فيها : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وبَنْدانِ أصْفَرانِ فيهما : نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قَريبٌ وبَنْدٌ لمَخْلَد فيه : اللَّهُمَّ انْصُرْ وَلِيَّكَ علىٰ مَنْ سَبَّ نَبيَّكَ وخَطَبَهُم أحْمدُ بنُ أبي الوَليد ، فحَضَّ على

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عامر) ٣/١٨ـ٢١ ، وانظر النزهة : ٥/٣٢٢ .

(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٩ .

(٣) من أكبر فرق الخوارج ، وهم أصحاب عبد الله بن يحيى بن إباض ، الملقب بطالب الحق ، من أهل اليمن ، خلع طاعة مروان بن محمد وبُويع له بالخلافة ، واستولىٰ علىٰ صنعاء ومكة ، قُتل سنة ١٣٠هـ .

(٤) الدَلق : ثوب متسع الأكمام طويلها .

الجِهادِ ، ثمَّ سارُوا ، ونازَلُوا المَهْديَّةَ ولمَّا الْتَقَوا وأيْقَنَ مَخْلدٌ بالنَّصْرِ ، تَحرَّكَتْ نَفسُه الخارِجيَّةُ ، وقال لأصْحابِه : انْكَشِفُوا عَن أهْلِ القَيْرَوانِ حتىٰ يَنالَ منهُم عَدُوُّهم ، ففَعلوا ذلكَ فاسْتُشْهِدَ خَمسَةٌ وثَمانونَ نَفْساً من العُلَماءِ ، والزُّهادِ .

وخَوارِجُ المَغْربِ إبَاضيَّةٌ مَنْسوبُونَ إلىٰ عبدِ الله بنِ يَحْيَىٰ بنِ إبَاض الذي خَرَجَ في أيّام مَرْوانَ الحِمار ، وانْتَشَرَ أتْباعُه بالمَغْربِ ، يَقولُ : أفْعالُنا مَخْلوقَةٌ لنا ويُكَفِّرُ بالكَبائِرِ ، ويَقولُ : لَيسَ في القُرآنِ خُصوصٌ ، ومَنْ خالَفَه حَلَّ دَمَه .

وكانَ مَوتُ القائِمِ سَنةَ أرْبعٍ وثَلاثينَ مَحْصوراً بالمَهْديَّةِ ، لَكنْ قامَ بَعدَه ابنُه المَنْصُورُ[1] .

وعُوتِبَ بَعضُ العُلماءِ في الخُروجِ مع أبي يَزيد الخارِجيِّ ، فقالَ : وكَيفَ لا أخْرُجُ وقد سَمعتُ الكُفرَ بأُذُني ؟!! حَضَرتُ عَقداً فيه جَمعٌ من سُنَّةٍ ومَشارِقَة ، وفيهِم أبو قُضاعَة الدَّاعِي ، فجاءَ رَئيسٌ ، فقالَ كَبيرٌ منهُم : إلىٰ هنا يا سَيِّدي ارْتَفِعْ إلىٰ جانِبِ رسُولِ اللهِ ، يَعْني أبا قُضاعَة ، فما نَطَقَ أحَدٌ .

ووُجِدَ بخَطِّ فَقيهٍ ، قال : في رَجَبٍ سَنةَ ٣٣١ هـ ، قامَ المُكَوكب يَقْذِفُ الصَّحابَةَ ، ويَطْعَنُ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعُلِّقَتْ رُؤوسُ حَميرٍ وكِباشٍ على الحَوانيتِ ، كُتِبَ عليها أنَّها رُؤوسُ صَحابَةٍ[2] .

وخَرَجَ أبو إسْحاقَ الفَقيهُ مع أبي يَزيد ، وقال : هُمْ أهْلُ القِبْلَةِ وأولئِكَ لَيْسوا أهْلَ قِبْلَةٍ ، وهُم بَنُو عَدُوِّ الله ، فإنْ ظَفِرْنا بهم ، لَمْ نَدخُلْ تَحتَ طاعَةِ أبي يَزيدَ ، لأنَّه خارِجيٌّ[3] .

وجاءَ في تَرْجمَة المَنْصورِ أبي طاهِر إسْماعيلَ بنِ القائِم بنِ المَهْديِّ ، العُبَيْديِّ ، الباطِنيِّ ، قال الذهبيُّ : وَلِيَ بعدَ أبيهِ ، وحارَبَ رَأسَ الإبَاضيَّة أبا يَزيد مَخْلدَ بنَ كَيْدادَ

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٩٩ .
(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٠ .
(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠١ .

الزَّاهِد ، والْتَقَى الجَمْعان مَرَّاتٍ ، وظَهَرَ مَخْلدُ علىٰ أكْثَرِ المَغْرِب ، ولَمْ يَبْقَ لِبَني عُبَيْد سِوَى المَهْدِيَّة[1] .

فنَهَضَ المَنْصورُ ، وأخْفَىٰ مَوتَ أبيهِ ، وصَابَرَ الإبَاضيَّةَ حتىٰ تَرَحَّلوا عنه ، ونازَلُوا مَدينَةَ سُوسَة ، فبَرَزَ المَنصُورُ من المَهْديَّة ، والْتَقَوا فانْكَسَرَ جَيشُ مَخْلد علىٰ كَثْرَتِهم ، وأُسِرَ هو في سَنةِ ٣٣٦ هـ ، فماتَ بعدَ الأسْرِ بأرْبَعةِ أيّامٍ من الجِراحِ ، فسُلِخَ وحُشِيَ قُطْناً ، وصُلِبَ .

وبَنَوْا مَدينَةَ المَنْصوريَّةِ مكانَ الوَقْعَةِ ، فنَزَلَها المَنْصورُ .

وكان بَطَلاً شُجاعاً ، رابِطَ الجأشِ ، فَصيحاً مُفَوَّهاً يَرْتَجِلُ الخُطَبَ وفيه إسْلامٌ في الجُمْلَة وعَقلٌ بخِلافِ أبيهِ الزِّنْدِيقِ[2] .

٥ـ قِصةُ وَهْبِ بن مُنَبِّه ـ رَحِمَهُ الله ـ مع خارِجيٍّ وهِدايَتُه له :

قال داودُ بنُ قَيْسٍ : كان لي صَديقٌ يُقالُ له : أبُو شَمِر ذُو خَوْلان ، فخَرَجتُ من صَنْعاءَ أُريدُ قَرْيَته ، فلمَّا دَنَوتُ منها وَجَدتُ كِتاباً مَخْتوماً إلىٰ أبي شَمِر ، فجئْتُهُ فوَجَدتُه مَهْموماً حَزيناً ، فسَألتُه عن ذَلكَ فقالَ : قَدِمَ رسُولٌ من صَنْعاءَ ، فذَكَرَ أنَّ أصْدِقاءَ لي كَتَبوا لي كِتاباً فضَيَّعَه الرسُولُ ، قُلتُ : فهَـٰذا الكِتابُ ، فقالَ : الحَمدُ لله ، ففَضَّهُ فقَرَأهُ ، فقُلتُ : أقْرِئْنيه فقالَ : إنِّي لأسْتَحْدِثُ سِنَّكَ ، قُلتُ : فمَا فيه ؟ قالَ : ضَرْبُ الرِّقابِ قُلتُ : لعَلَّه كَتَبَه إلَيكَ ناسٌ حَرُورِيَّة في زَكاةِ مالِك ، قالَ : مِن أيْنَ تَعْرِفُهم ؟!! قُلتُ : إنِّي وأصْحاباً لي نُجالِسُ وَهْبَ ابنَ مُنَبِّه ، فيَقولُ لنا : احْذَرُوا أيُّها الأحْداثُ الأغْمارُ هـٰؤلاء الحَرُوراء لا يُدْخِلُونَكُم في رَأيِهم المُخالِف ، فإنَّهم عُرَّةٌ[3] لهَـٰذه الأُمَّة ، فدَفَعَ إليَّ الكِتابَ فقَرأتُه ، فإذا فيه : سَلامٌ عَليكَ ، فإنَّا نَحْمَدُ إلَيكَ اللهَ ، ونُوصِيكَ بتَقْواه ، فإنَّ دِينَ الله رُشْدٌ وهُدَىٰ ، وإنَّ دِينَ الله طَاعَةُ الله ومُخالَفَةُ مَنْ خَالَفَ

---

(١) انظر السير : (المنصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٢ .

(٢) انظر السير : (المنصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٢ .

(٣) فلان عُرَّةُ أهلِه : أي شَرُّهم .

سُنَّةَ نَبيِّه فإذا جاءَكَ كِتابُنا ، فانْظُرْ أنْ تُؤدِّي ـ إنْ شاءَ الله ـ ما افْتَرَضَ اللهُ عَليكَ من حَقِّه تَسْتَحِقَّ بذَلكَ وِلايَةَ الله ، ووِلايَةَ أوْليائِه والسَّلام .

قُلتُ له : فإنِّي أنْهاكَ عَنهُم ، قالَ : فكَيفَ أتَّبِعُ قَولَكَ وأتْركُ قَولَ مَنْ هو أقْدمُ مِنكَ ؟ قُلتُ : فتُحِبُّ أنْ أُدْخِلَكَ علىٰ وَهْبٍ حتىٰ تَسمَعَ قَولَه ؟ قالَ : نَعَم فنزَلنا إلىٰ صَنْعاءَ ، فأدْخَلتُه علىٰ وَهْبٍ ، ومَسْعودُ ابنُ عَوْفٍ وَالٍ على اليَمَنِ من قِبَلِ عُرْوَة بن مُحمّد ، فوَجدْنا عند وَهْبٍ نَفَراً ، فقال لي بَعضُ النَّفَرِ : مَنْ هـٰذا الشَّيخُ ؟ قُلتُ : له حاجَةٌ ، فقامَ القَومُ فقالَ وَهْبُ : ما حاجَتُكَ يا ذا خَوْلان ؟ فهَرَجَ[1] وجَبُنَ ، فقالَ لي وَهْبٌ : عَبِّرْ عَنهُ ، قُلتُ : إنَّه من أهْلِ القُرآنِ والصَّلاحِ واللهُ أعْلَمُ بسَريرَتِه ، فأخْبَرَني أنَّه عَرَضَ له نَفرٌ من أهْلِ حَرُوراءَ فقالوا له : زَكاتُك التي تُؤدِّيها إلى الأُمَراءِ لا تُجْزِىءُ عَنكَ ، لأنَّهم لا يَضَعونَها في مَواضِعِها فأدِّها إلَيْنا ، ورَأيتُ يا أبا عبد الله أنَّ كَلامَكَ أشْفَىٰ له من كَلامي ، فقال : يا ذا خَوْلان ، أتُريدُ أن تَكونَ بعد الكِبَرِ حَروريّاً تَشهَدُ علىٰ مَنْ هو خَيرٌ منك بالضَّلالَة ؟ فماذا أنت قائِلٌ لله غداً حين يَقِفُكَ اللهُ ومَنْ شَهِدتَ عليه ؟ فاللهُ يَشهَدُ له بالإيمانِ ، وأنتَ تَشهَدُ عليه بالكُفْرِ ، والله يَشهَدُ له بالهُدَىٰ وأنتَ تَشهَدُ عليه بالضَّلالَة ، فأين تَقَعُ إذا خالَفَ رَأيُكَ أمرَ الله ، وشَهادَتُكَ شَهادَةَ الله ؟ أخْبِرْني يا ذا خَوْلان ، ماذا يَقُولونَ لكَ ؟ فتَكلَّمَ عند ذلك وقال لِوَهْبٍ : إنَّهم يَأمُرُونَني أن لا أتَصَدَّقَ إلاَّ علىٰ مَنْ يَرَىٰ رَأيَهم ولا أسْتَغفِرُ إلاَّ له فقالَ : صَدَقْتَ ، هـٰذه مِحْنَتُهم الكاذِبَة ، فأمَّا قَولُهم في الصَّدَقَة ، فإنَّه قد بَلَغَني أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ذَكَرَ أنَّ امْرأةً من أهْلِ اليَمَنِ دَخَلت النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْها ، أفَإنْسانٌ مِمَّنْ يَعبُدُ اللهَ يُوَحِّدُه ولا يُشْرِكُ به أحَبُّ إلى الله أن يُطْعِمَه من جُوعٍ ، أو هِرَّة ؟ والله يَقولُ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[2] . الآيات .

وأمَّا قَولُهم لا يُسْتَغْفَرُ إلاَّ لِمَنْ يَرىٰ رَأيَهم ، أهُم خَيرٌ أم المَلائِكَة ، والله يَقولُ :

---

(١) هَرَجَ في الحديث : خَلَطَ فيه .

(٢) سورة الإنسان ، الآية : ٨ .

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1] ، فوالله ما فَعَلت المَلائِكَةُ ذلكَ حتىٰ أُمِرُوا به ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[2] ، وجاء مُيَسَّراً : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3] .

يا ذا خَوْلان إني قد أدْرَكْتُ صَدرَ الإسْلام ، فوالله ما كانت الخَوارِجُ جَماعَةٌ قَطُّ إلاَّ فَرَّقَها اللهُ علىٰ شَرِّ حالاتِهم ، وما أظْهَرَ أحَدٌ منهم قَولَه إلاَّ ضَرَبَ اللهُ عُنُقَه ، ولَوْ مَكَّنَ اللهُ لهم من رَأيِهم لَفَسَدت الأرضُ ، وقُطِعَت السُّبُلُ والحَجُّ ، ولعادَ أمرُ الإسْلام جاهِلِيَّةً ، وإذاً لقامَ جَماعَةٌ ، كلٌّ منهم يَدْعُو إلىٰ نَفْسِه الخِلافَة ، مع كلِّ واحِدٍ منهم أكْثَرُ من عَشْرةِ آلافٍ يُقاتِلُ بَعضُهُم بَعضاً ويَشهَدُ بَعضُهُم علىٰ بَعضٍ بالكُفْرِ ، حتىٰ يُصْبِحُ المُؤمِنُ خائِفاً علىٰ نَفسِهِ ودِينِه ودَمِه ومالِه لا يَدري مع مَنْ يَكونُ ، قال تَعالَىٰ : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[4] ، وقال : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[5] فلَو كانوا مُؤمِنينَ لنُصِرُوا ، وقال : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[6] ، ألا يَسَعُك ياذا خَوْلان من أهْلِ القِبْلَة ما وَسِعَ نُوحاً من عَبَدَة الأصْنام ، إذْ قالَ له قَومُه : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[7] إلىٰ أنْ قالَ : فقالَ ذُو خَوْلان : فما تَأمُرُني ؟ قال : انْظُر زَكاتَك فأدِّها إلىٰ مَنْ وَلاَّهُ الله أمرَ هٰذه الأُمَّة وجَمَعَهُم عليه ، فإنَّ المُلكَ من الله وَحْدَه وبِيَدِه ، يُؤْتيه مَنْ يَشاءُ ، فإذا أدَّيْتَها إلىٰ وَليِّ الأمرِ بَرِئْتَ منها ، وإنْ كانَ فَضلٌ فَصِلْ به أرْحامَك ومَوالِيكَ وجِيرانَك والضَّيفَ ، فقال : أشْهَدُ أنِّي نَزَلتُ عن رَأي الحَروريَّة[8] .

* * *

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ٥ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٧ .
(٣) سورة غافر ، الآية : ٧ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥١ .
(٥) سورة غافر ، الآية : ٥١ .
(٦) سورة الصافات ، الآية : ١٧٣ .
(٧) سورة الشعراء ، الآية : ١١١ .
(٨) انظر السير : (وهب بن مُنبه) ٤/ ٥٥٤ـ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/٥٥٥ .

رابعاً : السَّالِميَّة

قال ابنُ عَساكِر : كانَ الأهْوازيُّ علىٰ مَذْهَب السَّالِميَّة[1] يَقولُ بالظَّاهِر ويتَمسَّكُ بالأحاديثِ الضعيفَة التي تُقَوِّي رَأيَه .

قال الكتَّانيُّ : وكان مُكْثِراً من الحَديثِ ، وصَنَّفَ الكَثيرَ في القِراءاتِ وفي أسانيدِها ، له غَرائِبُ يَذكُرُ أنَّه أخَذَها رِوايَةً وتِلاوَةً ، ومِمَّن وَهَّاهُ ابنُ خَيْرون .

وقال الدَّاني : أخَذَ القِراءاتِ عَرْضاً وسَماعاً من أصْحابِ ابنِ شَنَبُوذ وابنِ مُجاهِد قال : وكانَ واسِعَ الرِّوايَة ، حافِظاً ضابِطاً ، أقْرَأَ دَهْراً بدِمَشْقَ .

قال الذهبيُّ : في نَفْسي أمورٌ من عُلُوِّه في القِراءاتِ[2] .

وقِيلَ : كان الإمامُ الزُّبَيْديُّ يَذهَبُ إلىٰ مَذْهَبِ السَّالِميَّة ، ويَقولُ : إنَّ الأمْواتَ يَأكُلُونَ ويَشْرَبونَ ويَنكِحونَ في قُبورِهم ، وإنَّ الشَّارِبَ والزَّاني لا يُلامُ لأنَّه يَفعلُ بقَضاءِ الله وقَدَرِه .

قال الذَّهبيُّ : يَحْتجُّ بقِصةِ آدَمَ ومُوسَىٰ عليهِما السَّلامُ ، وَبِقَولِ آدَمُ : أتَلُومُني ؟ وأنَّه حَجَّ موسىٰ ، ولَوْ سَلَّمنا أنَّ الزَّاني لا يُلامُ ، فعَلَيْنا أنْ نَحُدَّه ونُغَرِّبَه ، ونَذُمَّ فِعْلَه ، ونَرُدَّ شَهادَتَه ، ونَكْرَهَه ، فإنْ تابَ واتَّقَىٰ أحْبَبْناه واحْتَرَمْناه ، فالنِّزاعُ لَفْظيٌّ[3] .

* * *

---

(١) قال العَلاَّمةُ الكَوْثَريُّ في تعليقِه علىٰ « تَبيين كذب المفتري » ٩٦٣ : السالمَيةُ فِرقة من المُشبِّهة ، يقولون : إنَّ اللهَ تعالَىٰ يُرىٰ في صورة آدَميّ وإنَّه تعالَىٰ يَقرأ علىٰ لسان كل قارىء وإنهم إذا سَمعوا القُرآنَ من قارىء يَرَوْنَ أنَّهم إنَّما يَسْمَعونَه من الله تعالَىٰ ويَعتقدون أنَّ المَيِّتَ يأكلُ في القَبرِ ويشرَبُ ويَنكِحُ إلىٰ غَيرِ ذلك ، وهٰذه النِّحْلَة مَعروفَةٌ بالبَصْرة وسَوادِها بالسَّالِميَّة نِسْبةً إلىٰ مَقالَةِ الحَسَن بنِ مُحمّد بنِ أحْمد بنِ سالم السَّالِميّ البَصْريّ وابنِه أبي عبد الله المُتَصَوِّف .

(٢) انظر السير : (الأهوازي) ١٨/ ١٣ـ١٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٧٧ .

(٣) انظر السير : (الزُّبَيدي) ٢٠/ ٣١٦ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٥٥ .

خامساً : الشِّيعَةُ والرَّوافِضُ

١ـ التَّشَيُّعُ الخَفيفُ :

وقالَ أحمدُ بنُ عبد الله العِجْليّ : كان مَنصُورُ بنُ المُعْتَمِر أثْبَتَ أهْلِ الكُوفَة ، لا يَخْتلفُ فيه أحَدٌ ، صالِحٌ مُتَعَبِّدٌ ، أُكْرِهَ على القَضاءِ فقَضىٰ شَهْرينِ ، قال : وفيه تَشَيُّعٌ قَليلٌ وكان قد عَمِشَ من البُكاءِ .

قال الذهبيُّ : تَشَيُّعُهُ حُبٌّ وَوَلاءٌ فقط[١] .

قال حَفصُ بنُ غياث ، مِنْ طَريقِ عَليِّ بنِ خَشْرَم ، عنه : سَمعتُ شُرَيْكاً يقولُ : قُبِضَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، واسْتَخارَ المُسلِمونَ أبا بَكْرٍ ، فلَوْ عَلِموا أنَّ فيهم أحَداً أفْضَلَ منه كانوا قد غَشُّونا ، ثم اسْتَخْلَفَ أبو بَكْر عُمَرَ ، فقامَ بما قامَ به من الحَقِّ والعَدْلِ ، فلمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ ، جَعَلَ الأمرَ شُورَىٰ بينَ سِتَّةٍ ، فاجْتَمَعوا علىٰ عُثمانَ ، فلَوْ عَلِموا أنَّ فيهم أفْضَلَ منه كانوا قد غَشُّونا[٢] .

قال عليُّ بنُ خَشْرم : فأخْبَرَني بَعضُ أصْحابِنا من أهْلِ الحَديثِ ، أنَّه عَرضَ هـٰذا علىٰ عبدِ الله بنِ إدْريس ، فقالَ ابنُ إدْريس : أنتَ سَمعتَ هـٰذا من حَفْص ؟ قُلتُ : نَعَمْ : قال : الحَمدُ لله الذي أنْطَقَ بهـٰذا لسانَه ، فوالله إنَّه لشِيعي ، وإنَّ شُرَيْكاً لَشِيعي[٣] .

قال الذهبيُّ : هـٰذا التَّشَيُّعُ الذي لا مَحْذورَ فيه إنْ شاءَ الله إلاَّ من قَبيلِ الكَلامِ فيمَنْ حارَبَ عَليّاً رضي الله عنه من الصَّحابَة ، فإنَّه قَبيحٌ يُؤدَّبُ فاعِلُه ، ولا نَذْكُرُ أحَداً من الصَّحابَة إلاَّ بخَيرٍ ، ونَترضَّىٰ عنهم ، ونقولُ : هم طائِفَةٌ من المُؤمنينَ بَغَتْ على الإمامِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وذلك بنَصِّ قَولِ المُصْطَفَىٰ صلى الله عليه وسلم لِعَمَّارٍ : « تَقْتُلُكَ

---

(١) انظر السير : (منصور بن المعتمر) ٥/ ٤٠٢ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦١٧ .

(٢) انظر السير : (شُرَيك) ٨/ ٢٠٠ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٤٤ .

(٣) انظر السير : (شُرَيك) ٨/ ٢٠٠ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٤٤ .

الفِئَةُ البَاغِيَةُ » ، فنَسألُ اللهَ أنْ يَرْضىٰ عن الجَميع ، وألاَّ يَجْعَلَنا مِمَّنْ في قَلبه غِلٌّ للمُؤمنينَ . ولا نَرْتابُ أنَّ عَليّاً أفْضَلُ مِمَّنْ حارَبَه ، وأنَّه أوْلَىٰ بالحَقِّ رضي الله عنه[1] .

قال الذهبيُّ : والظَّاهِرُ أنَّ وَكيعاً فيه تَشَيُّعٌ يَسيرٌ لا يَضُرُّ إنْ شَاءَ الله ، فإنَّه كُوفيٌّ في الجُملَة ، وقد صَنَّفَ كتابَ فَضائِلِ الصَّحابَة ، سَمعْناهُ قَدَّمَ فيه بابَ مَناقِبَ عليٍّ علىٰ مَناقِبِ عُثمانَ ، رَضيَ اللهُ عَنهُما[2] .

وقال الوَزيرُ ابنُ حِنْزابَة : سَمعتُ مُحمّدَ بنَ موسَى المَأمُونيّ ـ صاحبَ النَّسائيّ ـ قال : سَمعتُ قَوماً يُنْكِرونَ علىٰ أبي عبد الرَّحمَـٰن النَّسائيّ كتابَ « الخَصائِصْ » لِعَليٍّ رضي الله عنه ، وتَرْكَه تَصْنيفَ فَضَائِلَ الشَّيْخَينِ ، فذَكَرتُ له ذلكَ ، فقالَ : دَخلتُ دِمَشقَ والمُنْحَرِفُ بها عن عليٍّ كَثيرٌ ، فصَنَّفتُ كتابَ « الخَصائِصِ » رَجَوتُ أنْ يَهْديَهم اللهُ تَعالَىٰ ثم إنَّه صَنَّفَ بعدَ ذلكَ فَضَائِلَ الصَّحابَة ، فقِيلَ له وأنا أسْمَعُ : ألا تُخْرِجْ فَضَائِلَ مُعاويَةَ رضي الله عنه ؟ فقال : أيُّ شيءٍ أُخْرِجُ!! ؟ حَديثَ « اللَّهُمَّ لا تُشْبِعْ بَطْنَه » فسَكتَ السَّائلُ .

قال الذهبيُّ : لَعَلَّ أنْ يُقالَ : هـٰذه مَنْقَبَةٌ لمُعاويَة لقَولِه صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ مَنْ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكاةً وَرَحْمَةً » .

قال الحاكِمُ : كَلامُ النَّسائيّ علىٰ فِقْه الحَديثِ كَثيرٌ ، ومَنْ نَظرَ في سُنَنِه تَحَيَّر في حُسن كَلامِه[3] .

وعن حَمْزَةَ العَقْبيّ المِصْريّ وغَيرِه ، أنَّ النَّسائيَّ خَرَجَ من مِصْرَ في آخِرِ عُمرِه إلىٰ دِمَشْقَ ، فسُئِلَ بها عن مُعاويَة وما جاءَ في فَضَائِلِه ، فقالَ : لا يَرْضَىٰ رَأساً برَأسٍ حتىٰ يُفَضَّل ؟!! ، قال : فما زالُوا يَدْفَعونَ في حِضْنَيهِ[4] حتىٰ أُخْرِجَ من المَسْجِد ، ثم حُملَ إلىٰ مَكةَ فتُوفِيَ بها ، كذا قال ، وصَوابُه : إلى الرَّمْلَة .

---

(١) انظر السير : (شُرَيك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٣/٧٤٤ .
(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨١٠ .
(٣) انظر السير : (النَّسائيّ) ١٤/ ١٢٥ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٧ .
(٤) وهما جنباه ، وفي شذرات الذهب « خصيتيه » .

قال أبو سَعيد بنُ يُونُس في « تاريخِه » : كانَ أبُو عبد الرَّحمَـٰن النَّسائيّ إماماً حافِظاً ثَبْتاً ، خَرَجَ من مِصْرَ في شَهرِ ذي القِعْدة من سَنةِ اثْنَتَينِ وثلاثِ مِئَة وتُوفِّيَ بفِلَسْطينَ في يومِ الإثْنَينِ لثلاثَ عَشرَةَ خَلتْ من صَفَر سَنةَ ثلاث[1] .

قال الذهبيُّ : ولَم يَكُنْ أحَدٌ في رَأسِ الثلاثِ مِئَة أحْفَظَ من النَّسائيّ ، هو أحْذَقُ بالحَديثِ وعِلَلِه ورِجالِه من مُسْلِم ، ومن أبي دَاوُدَ ، ومن أبي عِيسَىٰ وهو جارٍ في مِضْمارِ البُخاريِّ ، وأبي زُرْعَة إلاَّ أنَّ فيه قَليلَ تَشَيُّع وانْحِرافاً عن خُصُومِ الإمامِ عليٍّ ، كمُعاويَة وعَمرٍو ، واللهُ يُسامِحُه .

وقد صَنَّفَ مُسْنَدَ عليٍّ وكِتاباً حافلاً في الكُنَىٰ ، وأمَّا كتابُ « خَصائِص عليّ » فهو داخلٌ في « سُنَنِه الكَبير » وكذلكَ كتابُ « عَملُ يَومٍ ولَيلَة » وهو مُجلّدٌ ، وهو من جُملَة « السُّنَنِ الكَبير » في بَعضِ النُّسَخ ، وله كتابُ « التَّفْسير » في مُجلّد ، وكتابُ « الضُّعَفاء » وأشْياءَ والذي وَقَعَ لنا من سُنَنِه هو الكتابُ المُجْتَنَىٰ منه ، انْتِخابُ أبي بَكْر ابن السُّنيّ[2] .

٢ـ التَّشَيُّعُ الغَالي :

قال الإمامُ الذهبيُّ : بعدَما ذَكَرَ سِيرَةَ العَشْرَة المُبَشَّرينَ فهـٰذا ما تَيَسَّرَ من سِيرَةِ العَشْرَةِ وهُم أفْضَلُ قُرَيشٍ ، وأفْضَلُ السَّابِقينَ المُهاجِرينَ ، وأفْضَلُ البَدْرِيِّينَ ، وأفْضَلُ أصْحابِ الشَّجَرَة ، وسادَةُ هـٰذه الأمَّة في الدُّنيا والآخِرَة ، فأبْعَدَ اللهُ الرَّافِضَة ، ما أغْواهُم وأشَدَّ هَواهُم ، كَيفَ اعْتَرَفوا بفَضْلِ واحِدٍ منهم وبَخَسُوا التِّسْعَةَ حَقَّهم ، وافْتَرَوْا عليهم بأنَّهم كَتَموا النَّصَ في عَليٍّ أنَّه الخَليفَة ، فوالله ما جَرَىٰ من ذلكَ شيءٌ ، وأنَّهم زَوَّرُوا الأمرَ عَنه ، بزَعْمِهِم ، وخَالَفُوا نَبيَّهم ، وبادَرُوا إلىٰ بَيْعَةِ رَجلٍ من بَني تَميم يَتَّجِرُ ويَتَكسَّبُ ، لا لِرَغْبَةٍ في أمواله ولا لِرَهْبَةٍ من عَشيرَتِه ورِجالِه ، وَيْحَكْ!! أيَفْعلُ هـٰذا مَنْ له مِسْكَةُ عَقلٍ!! ؟ ولَو جازَ هـٰذا علىٰ واحدٍ لمَا جازَ علىٰ جَماعَة ، ولَو

---

(١) انظر السير : (النَّسائيّ) ١٤/ ١٢٥ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١١٣٨ .

(٢) انظر السير : (النَّسائيّ) ١٤/ ١٢٥ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/١١٣٩ .

جازَ وُقوعُه من جَماعَة ، لاسْتَحالَ وُقوعُه ، والحالَةُ هـٰذه ، من أُلُوفٍ من سادَة المُهاجِرينَ والأنْصارِ ، وفُرْسانِ الأُمَّة وأبْطالِ الإسْلام ، لكن لا حِيلَةَ في بُرْءِ الرَّفضِ فإنَّه داءٌ مُزْمِن ، والهُدَىٰ نُورٌ يَقذِفُه الله في قَلبِ مَنْ يَشاءُ ، فلا قُوَّةَ إلاَّ بالله[1] .

قال الذهبيُّ في ترجَمة محمَّدِ بنِ الحَنفيّة : كانت الشِّيعَةُ في زَمانِه تتَغالَىٰ فيه ، وتَدَّعِي إمامَتَه ، ولَقَّبُوهُ بالمَهْديِّ ، ويَزْعُمونَ أنَّه لَمْ يَمُتْ[2] .

وكان أبو جَعْفَر مُحمّد الباقِر أحَدَ مَنْ جَمَعَ بين العِلْمِ والعَمَل والسُّؤْدَدِ ، والشَّرَف ، والثِّقَة ، والرَّزانَة ، وكان أهْلاً للخِلافَة ، وهو أحَدُ الأئِمَّة الاثْنَي عَشر الذين تُبَجِّلُهم الشِّيعَةُ الإماميّة وتقولُ بعِصْمَتِهم وبمَعْرِفَتِهم بجَميعِ الدِّينِ ، فلا عِصْمَةَ إلاَّ للمَلائِكَةِ والنَّبيِّينَ ، وكلُّ أحَد يُصِيبُ ويُخْطِىءُ ، ويُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَكُ سِوَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فإنَّه مَعْصُومٌ ، مُؤَيَّدٌ بالوَحْي[3] .

وكان النَّاسُ في الصَّدرِ الأوَّلِ بعدَ وَقْعَة صِفِّينَ علىٰ أقْسام : أهْلُ سُنَّة ، وهُم أُولُو العِلْمِ ، وهُم مُحِبُّونَ للصَّحابَة كافُّونَ عن الخَوضِ فيما شَجَرَ بَينَهم ، كَسَعْدٍ وابنِ عُمَر ومُحمّد بنِ مَسْلَمَة وأُمَمٌ ، ثم شِيعَة يَتَوالُونَ ويَنالُونَ مِمَّنْ حارَبُوا عَليّاً ويَقولون : إنَّهم مُسلِمون بُغاةٌ ظَلَمَةٌ ، ثم نَواصِب وهم الذين حارَبوا عَليّاً يومَ صِفِّين ، ويُقِرُّونَ بإسْلامِ عَليٍّ وسابِقِيه ، ويقُولونَ : خَذَلَ الخَليفَةَ عُثمان .

فما عَلِمْتُ في ذلكَ الزَّمانِ شِيعيّاً كَفَّرَ مُعاويَةَ وحِزْبَهُ ، ولا ناصِبيّاً كَفَّرَ عَليّاً وحِزْبَه ، بلْ دَخَلُوا في سَبٍّ وبُغْضٍ ، ثم صارَ اليومَ شِيعَةُ زَمانِنا يُكَفِّرونَ الصَّحابَة ، ويَبْرَؤُونَ منهم جَهْلاً وعُدْواناً ، ويَتَعدَّوْنَ إلى الصِّديقِ ، قاتَلَهُم الله ، وأمَّا نَواصِبُ وَقْتِنا فقَليلٌ ، وما عَلِمْتُ فيهم مَنْ يُكَفِّرُ عَليّاً ولا صَحابيّاً[4] .

---

(١) انظر السير : (سعيد بن زيد) ١/ ١٢٤ـ ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٠ .
(٢) انظر السير : (ابن الحنفية) ٤/ ١١٠ـ ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٥٨ .
(٣) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٢١ .
(٤) انظر السير : (الفَأفاء) ٥/ ٣٧٣ـ ٣٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦١٣ .

قال وَكيعٌ : حَسنُ بنُ صالح عندي إمامٌ ، فقيل له : إنَّه لا يَترحَّم علىٰ عُثمان فقال : أفَتَترحَّمُ أنت على الحَجَّاج ؟[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لا بارَكَ الله في هـٰذا المِثالِ ومُرادُه : أنَّ تَرْكَ التَّرَحُّمِ سُكوتٌ ، والسَّاكِتُ لا يُنْسَبُ إليه قَولٌ ، ولكنْ مَنْ سَكَتَ عن تَرحُّم مثل الشَّهيدِ أميرِ المُؤمنينَ عُثمان ، فإنَّ فيهِ شَيئاً من تَشَيُّع ، فمَنْ نَطَقَ فيه بِغَضٍّ وتَنَقُّصٍ فهو شِيعيٌّ جَلْدٌ يُؤَدَّب ، وإنْ تَرَقَّىٰ إلى الشَّيْخَينِ بذَمٍّ ، فهو رَافِضِيٌّ خَبيثٌ ، وكذا مَنْ تَعَرَّضَ للإمام عَليٍّ بِذَمٍّ ، فهو ناصِبيٌّ يُعَزَّرْ ، فإنْ كَفَّرَه فهو خارِجيٌّ مارِقٌ ، بَلْ سَبيلُنا أنْ نَسْتَغْفِرَ للكُلِّ ونُحِبَّهم ، ونَكُفَّ عمَّا شَجَرَ بينهم[2] .

وقد كان عليُّ الرِّضَا كَبيرَ الشَّأنِ ، أهْلاً للخِلافَة ، ولكن كَذَبَت عليه وفيه الرَّافِضَةُ ، وأَطْروهُ بما لا يَجُوزُ ، وادَّعَوا فيه العِصْمَة ، وغَلَتْ فيه ، وقد جَعَلَ الله لكلِّ شيءٍ قَدْراً[3] .

وعن صالِح جَزَرة ، قال : كان عَبَّادُ ابنُ يَعقُوب الأسَديّ الرَّواجِنيّ يَشْتِمُ عُثمانَ رضي الله عنه ، وسَمعتُهُ يقُولُ : اللهُ أَعْدَلُ مِن أنْ يُدْخِلَ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ الجَنَّةَ ، قاتَلا عَليّاً بعدَ أنْ بايَعاه[4] .

وقال ابنُ جَرير : سَمعتُه يقولُ : مَنْ لَمْ يَبْرَأ في صَلاتِه كلَّ يومٍ من أعْداءِ آلِ مُحمّد ، حُشِرَ مَعَهم .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الكَلامُ مَبْدَأُ الرَّفضِ ، بَلْ نَكُفُّ ، ونَسْتَغفِرُ للأُمَّة ، فإنَّ آلَ مُحمّد في إيَّاهم قد عادَىٰ بَعضُهم بَعضاً واقْتَتَلوا على المُلكِ وتمَّتْ عَظائم ، فمِنْ أيِّهِم نَبْرأ ؟!![5] .

---

(١) انظر السير : (الحَسن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٧/٧٠٣ .
(٢) انظر السير : (الحَسن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١/٧٠٤ .
(٣) انظر السير : (علي الرِّضَىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/٨٣٢ .
(٤) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٠ .
(٥) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٧٠ .

وقال ابنُ حَزْم : الإماميّةُ كُلُّهم علىٰ أنَّ القُرآنَ مُبَدَّلٌ ، وفيه زِيادَةٌ ونَقْصٌ سِوَى المُرْتضَىٰ ، فإنَّه كَفَّرَ مَنْ قال ذلكَ ، وكذلكَ صاحِباهُ أبُو يَعْلى الطُّوسيّ ، وأبُو القاسِم الرَّازي[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وفي تَواليفِه سَبُّ أصْحابِ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم فنَعُوذُ بالله من عِلْمٍ لا يَنْفَع .

وقد تُوفِّي المُرْتَضَىٰ في سَنةِ سِتٍّ وثلاثينَ وأرْبعِ مِئَة[2] .

٣ـ آلُ البَيتِ أهْلُ سُنَّة وجَماعَة ، وهم بَريئُونَ من عَقائِدِ الشِّيعَة الغالِيَة والرَّافِضَة :

قال أبُو حازِم المَدَنيّ : ما رَأيتُ هاشِميّاً أفْقَهَ من عليِّ بنِ الحُسَينِ ، سَمعتُهُ وقد سُئِلَ : كَيفَ كانت مَنْزِلَةُ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ عند رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأشارَ بيَدِه إلى القَبْرِ ، ثم قال : بمَنْزِلَتِهِما منهُ السَّاعة[3] .

قال أبو نُعَيم : حَدَّثنا عيسىٰ بنُ دينار ـ ثِقَةٌ ـ قال : سَألتُ أبا جَعفَرٍ عن المُخْتارِ ، فقال : قامَ أبي علىٰ بابِ الكَعْبَة ، فلَعَنَ المُخْتارَ ، فقِيلَ له : تَلْعَنُه وإنَّما ذُبِحَ فيكم ؟ قال : إنَّه كان يَكذِبُ على الله وعلىٰ رَسُولِه صلى الله عليه وسلم[4] .

عن أبي جَعفَر ، قال : كُنَّا لَنُصَلِّي خَلفَهم ـ يَعني الأُمَويّة ـ من غَير تُقْيَة ، وأشْهَدُ علىٰ أبي أنَّه كان يُصَلِّي خَلفَهم من غَيرِ تُقْيَة[5] .

قال ابنُ فُضَيل : عن سالِم بنِ أبي حَفْصَة : سألتُ أبا جَعْفَرٍ وابنَه جَعْفراً عن أبي بَكْر وعُمَرَ ، فقالا لي : يا سالِم ، تَوَلَّهُما وابْرَأ من عَدُوِّهِما ، فإنَّهُما كانا إمَامَيْ هُدَىٰ[6] .

كان سالِم فيه تَشَيُّعٌ ظاهِرٌ ، ومع هٰذا فيَبُثُّ هٰذا القَولَ الحَقَّ وإنَّما يَعْرِفُ الفَضْلَ

---

(١) انظر السير : (المُرتضىٰ) ١٧/ ٥٨٨ـ ٥٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٦٦ .
(٢) انظر السير : (المُرتضىٰ) ١٧/ ٥٨٨ـ ٥٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٦٦ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بن الحُسين) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/٥١٩ .
(٤) انظر السير : (عليُّ بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ١/٥٢٠ .
(٥) انظر السير : (عليُّ بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٠ .
(٦) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٢١ .

لأهلِ الفَضلِ ذُو الفَضْلِ ، وكذلك ناقِلُها ابنُ فُضَيْل ، شِيعيٌّ ثِقَةٌ ، فعَثَّرَ الله شِيعَةَ زَمانِنا ما أغْرَقَهُم في الجَهْلِ والكَذبِ ، فيَنالُونَ من الشَّيْخَينِ وَزِيرَيْ المُصْطَفَىٰ صلى الله عليه وسلم ، ويَحْمِلونَ هـٰذا القَولَ من الباقِرِ والصَّادِق على التُّقْيَة[1] .

عن عبدِ المَلكِ بنِ أبي سُلَيْمان : قُلتُ لمُحمّد بنِ عليّ : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[2] قال : هُم أصْحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قُلتُ : إنَّهم يَقولونَ : هُو عَليٌّ قال : عَليٌّ منهُم[3] .

وقالَ شُبابَة : أنْبَأنا بَسَّامٌ : سَمعتُ أبا جَعْفَرٍ يقُولُ : كان الحَسَنُ والحُسَيْنُ يُصَلِّيانِ خَلفَ مَرْوانَ يَتبادَران الصَّفَ ، وكان الحُسَينُ يَسُبُّ مَرْوانَ وهو على المِنْبَرِ حتىٰ يَنزِلَ أفَتُقْيَةٌ هـٰذه ؟!![4] .

وقال مُصْعبٌ الزُّبَيريُّ : كان فُضَيلُ بنُ مَرْزُوق يقولُ : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ الحَسَن يَقولُ لرجُلٍ من الرَّافِضَة : أَحِبُّونا فإنْ عَصَيْنا اللهَ فأبْغِضُونا ، فلَوْ كانَ اللهُ نافِعاً أحَداً بقَرابَتِه من رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بغَيرِ طاعَة لنَفَعَ أباهُ وأُمَّه[5] .

وقال عيسَىٰ بنُ يُونُس : جاءَت الرَّافِضَةُ زَيْداً ، فقالوا : تَبَرَّأ من أبي بَكْر وعُمَر حتىٰ نَنْصُرَكَ ، قالَ : بَلْ أتَولاَّهما ، قالوا : إذاً نَرْفُضُك ، فمِنْ ثَمَّ قِيلَ لهم : الرَّافِضَة ، وأمَّا الزَّيْدِيَّة ، فقالوا بقَولِه ، وحارَبوا مَعَه[6] .

وعن زَيْد بنِ عليٍّ ، قال : كانَ أبُو بَكْر رضي الله عنه إمامَ الشَّاكِرين ، ثم تَلا : ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[7] ، ثم قالَ : البَراءَةُ من أبي بَكْر هي البَراءَةُ من عليّ[8] .

---

(١) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/٥٢١ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٥٥ .
(٣) انظر السير : (أبو جعفر الباقِر) ٤/ ٤٠١ـ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ١/٥٢٣ .
(٤) انظر السير : (أبو جعفر الباقِر) ٤/ ٤٠١ـ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٣ .
(٥) انظر السير : (الحَسَن) ٤/ ٤٨٣ـ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٣/٥٣٧ .
(٦) انظر السير : (زيد بن عليّ) ٥/ ٣٨٩ـ٣٩١ ، وانظر النزهة : ١/٦١٥ .
(٧) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٤ .
(٨) انظر السير : (زيد بن عليّ) ٥/ ٣٨٩ـ٣٩١ ، وانظر النزهة : ٣/٦١٥ .

وكان جَعْفرُ بنُ مُحمّد بنِ عليّ بنِ الحُسَين يَغْضَبُ من الرَّافِضَة ، ويَمْقُتُهم إذا عَلِمَ أنَّهم يَتعرَّضونَ لجَدِّه أبي بَكْر ظاهِراً وباطِناً ، هـٰذا لا رَيْبَ فيه ، ولكنَّ الرَّافِضَةَ قَومٌ جَهَلَةٌ قد هَوَىٰ بهم الهَوَىٰ في الهَاوِيَة فبُعْداً لهم .

وُلدَ سَنةَ ثَمانينَ ورَأىٰ بَعضَ الصَّحابَة ، أحْسَبُه رَأىٰ أنَسَ بنَ مالِك وسَهْلَ بنَ سَعْد[1] .

عن سالِم بنِ أبي حَفْصَة : سألتُ أبا جَعْفَرَ وابنَه جَعْفراً عن أبي بَكْر وعُمَرَ ، فقالا لي : يا سالِم ، تَوَلَّهُما وابْرَأ من عَدُوِّهِما ، فإنَّهُما كانا إمَامَيْ هُدَىٰ ثم قال جَعفَرٌ : يا سالِم ، أيَسُبُّ الرَّجُلُ جَدَّه ؟!! لا نالَتْني شَفاعَةُ مُحمّد صلى الله عليه وسلم يومَ القيامَة إنْ لَمْ أكُنْ أتَوَلاهُما وأبْرأُ من عَدُوِّهِما[2] .

٤ـ إنْكارُ بعضُ آلِ البيتِ على الشِّيعَة ما غَلَوْا فيه :

وكان الشِّيعَةُ يقولونَ لابنِ الحَنَفيَّة : سَلامٌ عليكَ يا مَهْديّ ، فقال : أجَلْ أنا مَهْديٌّ أهْديْ إلى الرُّشْد والخَيرِ ، اسْمِي مُحمّد ، فقُولوا : سَلامٌ عليكَ يا مُحمّد أوْ يا أبَا القاسِم .

وعن أبي جَمْرَة قال : سِرْنا مع ابنِ الحَنَفيَّة من الطَّائِف إلىٰ أَيْلَة[3] بعدَ مَوتِ ابنِ عَبَّاس ، وكان عبدُ المَلِك قد كَتَبَ له علىٰ أنْ يَدخُلَ في أرْضِه هو وأصْحابُه ، حتىٰ يَتَّفِقَ النَّاسُ علىٰ رَجلٍ واحِدٍ ، فلمَّا قَدِمَ مُحمّد الشَّامَ ، كَتَبَ إليه عبدُ المَلِكِ ، إمَّا أنْ تُبايِعَني وإمَّا أنْ تَخْرُجَ من أرْضِي ـ ونحنُ يَومئذٍ سَبعَةُ آلافٍ ـ فبَعَثَ إليه : علىٰ أنْ تُؤَمِّنَ أصْحابي ، ففَعَل ، فقامَ فحَمِدَ اللهَ وأثْنَىٰ عليه ، ثم قال : اللهُ وَلِيُّ الأمُورِ كُلِّها وحاكِمُها ، ما شاءَ اللهُ كانَ وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، والذي نَفسُ مُحمّد بيَدِه لَيَعُودَنَّ فيهم الأمرُ كما بَدَأ ، الحَمدُ لله الذي حَقَنَ دِماءَكم ، وأحْرَزَ دينَكم مَنْ أحَبَّ منكُم أنْ يأتِيَ

---

(١) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/٦٤٧ .

(٢) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٣/٦٤٧ .

(٣) أيلَة : مدينة علىٰ ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام ، وتُسمى اليوم العقبة .

مَأمَنَه إلىٰ بَلَدِه آمِناً مَحفوظاً فلْيَفْعَل ، كلُّ ما هُو آتٍ قَريبٌ ، عَجَّلْتُم بالأمرِ قبلَ نُزُولِه ، والذي نَفسي بيَدِه إنَّ في أصْلابِكُم لَمَنْ يُقاتِلُ معَ آلِ مُحمّد ، أمرُ آلِ مُحمّد مُسْتَأخَرٌ قال : فبَقِيَ في تِسْعِ مِئَة ، فأَحْرَمَ بعُمْرَة وقَلَّدَ هَدْياً ، فلمَّا أرَدْنا أنْ نَدْخُلَ الحَرَمَ ، تَلَقَّتْنا خَيلُ ابنِ الزُّبَيْر ، فمَنَعَتْنا أنْ نَدخُلَ ، فأرْسَلَ إليه مُحمّد : لقد خَرَجْتُ وما أُريدُ قِتالاً ، ورَجَعتُ كذلك ، دَعْنا نَدخُلْ ، فلْنَقْضِ نُسُكَنا ثم لنَخْرُج عَنكَ ، فأبَىٰ ، قال : ومَعَنا البُدْنُ مُقلَّدةٌ فرَجَعْنا إلى المَدينَة ، فكُنَّا بها حتىٰ قَدِمَ الحَجَّاجُ ، وقَتَلَ ابنَ الزُّبَيْر ، ثم سارَ إلى العِراقِ ، فلمَّا سارَ مَضَينا فقَضَينا نُسُكَنا ، وقد رَأيتُ القَمْلَ يَتَناثرُ من ابنِ الحَنَفيَّة ، قال : ثم رَجَعنا إلى المَدينَةِ فمَكَثَ ثلاثةَ أشْهُر ثم تُوُفِّي[1] .

وعن يَحْيَىٰ بنِ سَعيد ، عن عليِّ بنِ الحُسَين : يا أهْلَ العِراق ، أَحِبُّونا حُبَّ الإسْلامِ ، ولا تُحِبُّونا حُبَّ الأصْنامِ ، فمَا زالَ بنا حُبُّكُم حتىٰ صارَ علينا شَيْناً[2] .

وعن سالِم بنِ أبي حَفْصَة وكان يَتَرَفَّضُ ، قال : دَخلتُ علىٰ أبي جَعْفَر وهو مَريضٌ فقال ـ وأظُنُّ قالَ ذلكَ مِن أجْلي ـ : اللَّهُمَّ إنِّي أَتَوَلَّىٰ وأُحِبُّ أبا بَكْر وعُمَرَ ، اللَّهُمَّ إنْ كان في نَفسي غَيرُ هـٰذا ، فلا نالَتْني شَفاعَةُ مُحمّد ـ يومَ القيامَة ـ صلى الله عليه وسلم[3] .

وعن عُرْوَة بنِ عبدِ الله ، قال : سَألتُ أبا جَعْفَرٍ مُحمّد بنَ عليّ عن حِلْيَةِ السُّيوفِ ، فقالَ : لا بَأسَ به ، قد حَلَّىٰ أبو بَكْر الصِّدِّيقُ سَيفَه ، قُلتُ : وتَقولُ الصِّدِّيقُ ؟!! ، فوَثَبَ وَثْبةً واسْتَقبَلَ القِبلَة ثم قال : نَعَم الصِّدِّيق ، نَعَم الصِّدِّيق ، فمَنْ لَمْ يَقُلِ الصِّدِّيق ، فلا صَدَّقَ اللهُ له قَولاً في الدُّنيا والآخِرَة[4] .

وقال فُضَيلُ بنُ مَرْزوق : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ الحَسَن يقولُ لِرجُلٍ من الرَّافِضَة : إنَّ قَتْلَكَ قُرْبَةٌ إلى الله ، فقال : إنَّك تَمْزَحُ ، فقال : والله ما هو منِّي بِمُزاح[5] .

---

(١) انظر السير : (ابن الحنفيّة) ٤/ ١١٠ـ ١٢٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٦٠ .
(٢) انظر السير : (عليّ بن الحُسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥١٧ .
(٣) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٢٢ .
(٤) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٢٣ .
(٥) انظر السير : (الحَسن بن الحَسن) ٤/ ٤٨٣ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٣٧ .

ورَوَىٰ فُضَيلُ بنُ مَرْزوق ، قال : سَمعتُ الحَسَنَ يقولُ : دَخَلَ عليَّ المُغيرَةُ بنُ سَعيد ـ يَعني الذي أُحْرِقَ في الزَّنْدَقَة ـ فذَكَرَ من قَرابَتي وشَبَهِي برَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ـ وكُنتُ أُشَبَّهُ وأنا شابٌّ برسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ـ ثم لَعَنَ أبا بَكْر وعُمَرَ فقُلتُ : يا عَدُوَّ الله ، أعِنْدي ؟!! ، ثم خَنَقْتُه ـ والله ـ حتىٰ دَلَعَ لِسانُه .

تُوفِّيَ الحَسَنُ بنُ الحَسَن سَنةَ تِسعٍ وتِسعينَ .

وقِيلَ : كانت شِيعَةُ العِراقِ يُمَنُّونَ الحَسَنَ الإمارَةَ مع أنَّه كان يَبْغَضُهُم دِيانَةً وكان يَصْلُحُ للخِلافَة[1] .

٥ـ حُبُّ عَليٍّ وعُثمَانَ :

قال أبو الحُسَين أحمَدُ بنُ مُحمّد الواعِظُ ، حَدَّثنا أبو العَبَّاس بنُ عُقْدَةَ إمْلاءً سَنةَ ثلاثينَ وثلاثِ مِئَة ، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ الحُسَين بنِ الحَسَن بنِ الأشْقَر قال : سَمعتُ عَثَّامَ بنَ عليٍّ العامِريَّ قال : سَمعتُ سُفْيانَ ، وهو يقولُ : لا يَجْتَمعُ حُبُّ عليٍّ وعُثمانَ إلاَّ في قُلوبِ نُبَلاءِ الرِّجال[2] .

قال الذهبيُّ : قد رُمِيَ ابنُ عُقْدَةَ بالتَّشَيُّع ، ولكنْ رِوايَتُه لهٰذا ونَحْوه يدُلُّ علىٰ عَدَم غُلوِّه في تَشَيُّعِه ، ومَنْ بَلَغَ في الحِفظِ والآثارِ مَبْلَغَ ابنِ عُقْدَة ثم يَكونُ في قَلبِه غِلٌّ للسَّابقينَ الأوَّلينَ ، فهُو مُعانِدٌ أوْ زِنْديقٌ ، واللهُ أعْلَم[3] .

٦ـ تَقديمُ عُثمانَ علىٰ عليٍّ :

وقال أبو نُعَيم : سَمعتُ شَريكاً يقولُ : قُدِّمَ عُثمانُ يومَ قُدِّمَ ، وهو أفْضَلُ القَومِ[4] .

قال حَفصُ بنُ غياث ، مِنْ طَريقِ عَليِّ بنِ خَشْرَم ، عنه : سَمعتُ شَريكاً يقولُ :

---

(١) انظر السير : (الحَسن بن الحَسن) ٤/ ٤٨٣ـ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٣٧ .
(٢) انظر السير : (ابن عُقْدة) ١٥/ ٣٤٠ـ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٣٤ .
(٣) انظر السير : (ابن عُقْدة) ١٥/ ٣٤٠ـ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٣٤ .
(٤) انظر السير : (شَرَيك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٤٣ .

قُبِضَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، واسْتَخارَ المُسلِمونَ أبا بَكْرٍ ، فلَوْ عَلِموا أنَّ فيهم أحَداً أفْضَلَ منه كانوا قد غَشُّونا ، ثم اسْتَخْلَفَ أبو بَكْر عُمَرَ ، فقامَ بما قامَ به من الحَقِّ والعَدْلِ ، فلمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ ، جَعَلَ الأمرَ شُورَىٰ بينَ سِتَّةٍ ، فاجْتَمَعوا علىٰ عُثمانَ ، فلَوْ عَلِموا أنَّ فيهم أفْضَلَ منه كانوا قد غَشُّونا[1] .

قال الذهبيُّ : لَيسَ تَفْضيلُ عليٍّ برَفْضٍ ولا هو بِدْعَة ، بل قد ذَهَبَ إليه خَلقٌ من الصَّحابَة والتَّابعينَ ، فكُلٌّ مِنْ عُثمانَ وعليٍّ ذو فَضلٍ وسابِقَة وجِهاد ، وهما مُتقابِلانِ في العِلمِ والجَلالَةِ ، ولَعلَّهُما في الآخِرَة مُتساويان في الدَّرجَة ، وهما من سادَة الشُّهَداء رَضيَ الله عنهُما ولكنَّ جُمهُورَ الأُمَّة علىٰ تَرجيح عُثمانَ على الإمامِ عليٍّ ، وإليه نَذْهَبُ والخَطْبُ في ذلكَ يَسيرٌ ، والأفْضَلُ منهُما لا شَكَّ أبو بَكْر وعُمَر ، مَنْ خالَفَ في ذا فهُو شِيعِيٌّ جَلد ، ومَنْ أبْغَضَ الشَّيخَينِ واعْتَقَدَ صِحَّةَ إمامَتِهما فهو رَافِضيٌّ مَقيتٌ ، ومَنْ سَبَّهُما واعْتَقَدَ أنَّهما لَيْسا بإمامَيْ هُدَىٰ فهو من غُلاة الرَّافِضَة أبْعَدَهم الله[2] .

٧ـ لَيسَ تَقديمُ عليٍّ علىٰ عُثمانَ بِدعَةً ولا رَفْضاً :

قال الدارَقُطنيُّ : اخْتَلفَ قَومٌ من أهْلِ بَغدادَ ، فقال قومٌ : عُثمانُ أفْضَل ، وقال قومٌ : عليٌّ أفْضَل ، فتَحاكَمُوا إليَّ ، فأمْسَكتُ وقُلتُ : الإمْساكُ خَيرٌ ، ثم لَمْ أرَ لِدِيني السُّكوتَ ، وقُلتُ للذي اسْتَفْتاني : ارْجِعْ إليهِم ، وقُل لهم : أبو الحَسَن يقولُ : عُثمانُ أفْضَلُ من عليٍّ باتِّفاقِ جَماعَةِ أصْحابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، هـٰذا قَولُ أهْلِ السُّنَّة وهو أوَّلُ عَقْد يُحلُّ في الرَّفْض[3] .

قال الذهبيُّ : لَيسَ تَفْضيلُ عليٍّ برَفْضٍ ولا هو بِدْعَة ، بل قد ذَهَبَ إليه خَلقٌ من الصَّحابَة والتَّابعينَ ، فكُلٌّ مِنْ عُثمانَ وعليٍّ ذو فَضلٍ وسابِقَة وجِهاد ، وهما مُتقابِلانِ في العِلمِ والجَلالَةِ ، ولَعلَّهُما في الآخِرَة مُتساويان في الدَّرجَة ، وهما من سادَة الشُّهَداء رَضيَ الله عنهُما ولكنَّ جُمهُورَ الأُمَّة علىٰ تَرجيحِ عُثمانَ على الإمامِ عليٍّ ، وإليه نَذْهَبُ

---

(١) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/٧٤٤ .

(٢) انظر السير : (الدارَقُطني) ١٦/ ٤٤٩ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٥ .

(٣) انظر السير : (الدارَقُطني) ١٦/ ٤٤٩ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٠٥ .

والخَطْبُ في ذلكَ يَسيرٌ ، والأفْضَلُ منهُما لا شَكَّ أبو بَكْر وعُمَر ، مَنْ خالَفَ في ذا فهُو شِيعِيٌّ جَلد ، ومَنْ أبْغَضَ الشَّيخَينِ واعْتَقَدَ صِحَّةَ إمامَتِهما فهو رَافِضيٌّ مَقيتٌ ، ومَنْ سَبَّهُما واعْتَقَدَ أنَّهما لَيْسا بإمامَيْ هُدَىٰ فهو من غُلاة الرَّافِضَة أبْعَدَهم الله[1] .

٨ـ تَفْضيلُ أبي بَكر وعُمَرَ علىٰ باقي الصَّحابَة :

عن عليٍّ : إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَظَرَ إلىٰ أبي بَكر وعُمَر فقال : « هـٰذان سَيِّدا كهولِ أهلِ الجَنَّة من الأوَّلين والآخرين إلاَّ النَّبيِّين والمُرسَلين ، لا تُخْبِرْهما يا عليّ »[2] .

وقال ابنُ مَسْعود : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كنتُ مُتَّخِذاً خَليلاً لاتَّخَذْتُ أبا بَكرٍ خَليلاً »[3] .

ورَوىٰ مثلَه ابنُ عبَّاس فزادَ : « ولكنْ أخي وصاحِبي في الله ، سُدُّوا كلَّ خوخَة[4] في المَسْجدِ إلاَّ خوخَةَ أبي بَكر »[5] .

عن عُمرَ رضي الله عنه أنَّه قالَ : « أبو بَكر سَيِّدُنا وخَيرُنا وأحَبُّنا إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم » .

عن عبدِ الله بن شقيق قال : قلتُ لعائشَة : أيُّ أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كان أحَبَّ إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : أبو بَكر ، قلتُ : ثم مَنْ ؟ قالت : عُمَرُ ، قلتُ : ثم مَنْ ؟ قالت : أبو عُبَيْدَة ، قلتُ : ثم مَنْ ؟ فسَكَتَت .

عن أبي سَعيد الخُدْريّ أنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم جَلسَ على المِنْبَر فقال : « إنَّ عَبداً خَيَّرَه اللهُ بينَ أنْ يُؤْتيَه من زَهرَة الدُّنيا ما شاءَ وبينَ ما عندَه فاخْتارَ ما عندَه » ، فقال أبو بَكر : فَدَيْناكَ يا رسُولَ الله بآبائنا وأمَّهاتنا ، قال : فعَجِبْنا ، فقال النَّاسُ :

---

(١) انظر السير : (الدارَقُطني) ١٦/٤٤٩ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٥ .
(٢) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/٢٤ .
(٣) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢/٢٤ .
(٤) الخوخة : نافذة كبيرة بين دارين ، عليها باب يخترق بينهما .
(٥) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٣/٢٤ .

انظُروا إلىٰ هـٰذا الشَّيخ يُخْبرُ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عن عَبدٍ خَيَّره اللهُ ، وهو يقولُ : فَدَيْناكَ بآبائنا وأمَّهاتنا ، قال : فكان رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم هو المُخَيَّر ، وكان أبو بَكر أعْلَمَنا به[1] .

وعن أبي هُرَيْرَة قال : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ما لأَحَدٍ عِنْدَنا يَدٌ إلاَّ كافَأْناهُ ما خَلا أبا بَكر ، فإنَّ له عِندَنا يَداً يُكافِئُهُ اللهُ بها يومَ القيامَة ، وما نَفَعَني مالٌ قَطُّ ما نَفَعَني مالُ أبي بَكر ، ولَوْ كنْتُ مُتَّخِذاً خَليلاً لاتَّخَذْتُ أبا بَكر خَليلاً ألا وإنَّ صاحِبكم خَليلُ الله »[2] .

قال مُحمَّدُ بنُ جُبَيْر بنُ مُطْعَم : أخْبرَني أبي أنَّ امرأةً أتَتْ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فكلَّمَته في شيء ، فأمَرَها بأمْرٍ ، فقالت : أرأيتَ يا رسُولَ الله إنْ لَمْ أجدْكَ ؟[3] ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنْ لَمْ تَجديني فَأْتِ أبا بَكر »[4] .

عن عائشَةَ قالت : قال لي رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في مَرَضه : « اُدْعُ لي أبَاكِ وأخَاكِ حتىٰ أكتُبَ كتاباً فإنِّي أخافُ أنْ يَتمَنَّىٰ مُتَمنٍّ ويقولَ قائلٌ ، ويأبَى اللهُ والمؤمنونَ إلاَّ أبا بَكر »[5] .

وأخْرجَ البُخاريُّ من حَديث أبي إدْريسَ الخَولاني قال : سَمعتُ أبا الدَّرْداء يقولُ : كان بينَ أبي بَكر وعُمَرَ مُحاوَرَة فأغْضَبَ أبو بَكر عُمَر ، فانْصَرَفَ عنه عُمَرُ مُغْضَباً فاتَّبعَه أبو بَكر يسْألُه أنْ يَستغفرَ له ، فلَمْ يَفعَل حتىٰ أغلقَ بابَه في وجهه ، فأقبلَ أبو بَكر إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو الدَّرْداء : ونحن عنده ، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أمَّا صاحِبُكم هـٰذا فقَد غامَر » ، قال : ونَدِمَ عُمرُ علىٰ ما كان منه ، فأقبلَ حتىٰ سَلَّمَ وجلسَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقَصَّ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم الخَبرَ ، قال أبو الدَّرْداء : وغَضِبَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٤/ ٤ .
(٢) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٤/ ٥ .
(٣) قال جُبيرُ بن مطعم : كأنها تعني الموت .
(٤) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٥/ ١ .
(٥) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٥/ ٢ .

وجَعلَ أبو بَكر يقول : والله يا رسُولَ الله لأنا كُنتُ أظْلَمَ فقالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « هَلْ أنتُم تارِكونَ لي صَاحِبي ؟ إنِّي قُلتُ : يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رسُولُ اللهِ إلَيْكم جَميعاً ، فقُلتُم : كذَبْتَ ، وقال أبو بَكر : صَدَقْتَ »[1] .

عن عبد الرَّحمَـٰن بنِ أبي لَيْلىٰ أنَّ عُمرَ صَعدَ المِنْبَر ثم قال : ألا إنَّ أفْضَلَ هـٰذه الأُمَّة بعدَ نَبيِّها أبو بَكر ، فمَنْ قالَ غَيرَ ذلكَ بعدَ مَقامي هـٰذا فهو مُفْتَرٍ ، عليه ما على المُفْتَري[2] .

وقال أبو مُعاويَة وجَماعة : ثنا سُهيلُ بنُ أبي صالح ، عن أبيه ، عن ابنِ عُمَرَ قال : كنَّا نقوُل علىٰ عَهد رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم : إذا ذَهبَ أبو بَكر ، وعُمرُ ، وعُثمانُ ، اسْتَوى النَّاسُ فبلَغَ ذلكَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم فلَمْ يُنْكِرْه[3] .

وقال عليٌّ رضي الله عنه : « خَيْرُ هـٰذه الأُمَّةِ بَعدَ نَبيِّها أبو بَكر ، وعُمَر » .

قال الذهبيُّ : هـٰذا والله العَظيم قاله عليٌّ وهو مُتواترٌ عنه ، لأنَّه قالَه علىٰ مِنْبَر الكُوفَة ، فقاتَلَ اللهُ الرَّافِضَةَ ما أجْهَلَهُم .

وقال السُّديُّ ، عن عبد خَير ، عن عليٍّ رضي الله عنه قال : « أعْظَمُ النَّاسِ أَجْراً في المَصاحِف أبو بَكر ، كان أوَّلَ مَنْ جَمَعَ القُرآنَ بينَ اللَّوْحَين » إسْنادُه حَسَن .

وعن عائشَةَ قالت : « أوَّلُ ما بدىء مَرضُ أبي بَكر أنَّه اغْتَسَلَ ، وكان يوماً بارداً فحُمَّ خَمسةَ عَشرَ يوماً لا يَخرجُ إلىٰ صَلاة ، وكان يأمُرُ عُمرَ بالصَّلاة ، وكانوا يَعودُونَه ، وكان عُثمانُ أَلْزَمَهُم له في مَرَضِه ، وتُوفِّيَ مساء ليلة الثلاثاء لثمانٍ بَقين من جُمادى الآخِرة ، وكانت خِلافَتُه سَنَتين ومائة يوم .

وقال أبو معشر : سنتين وأربعة أشهر إلاَّ أربع ليالٍ ، عن ثلاث وستين[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٣/٢٥ .
(٢) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢/٢٦ .
(٣) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٣/٢٦ .
(٤) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٤/٢٦ .

وقال القاسمُ ، عن عائشَةَ : إنَّ أبا بَكر حين حَضرَه الموتُ قال : إنِّي لا أعْلمُ عندَ آلِ أبي بَكر غيرَ هـٰذه اللقحَة وغيرَ هـٰذا الغُلام الصَّيقل ، كان يَعملُ سُيوفَ المسلمين ويَخْدمُنا ، فإذا مِتُّ فادْفَعيه إلىٰ عُمَرَ ، فلمَّا دفَعْتُه إلىٰ عُمَر ، قال عُمَرُ : رَحِمَ اللهُ أبا بَكر لقَد أتْعَبَ مَنْ بَعدَه .

وقال الزُّهريُّ : أوْصَىٰ أبو بَكر أنْ تُغَسِّلَه امْرأتُه أسْماءَ بنتُ عُمَيْس ، فإنْ لَمْ تَسْتطِعْ اسْتعانَت بابنِه عبد الرَّحمَـٰن[1] .

وقال سَعيدُ بنُ جُبَيْر : ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] نَزلَت في عُمرَ خاصَّة[3] .

وعن ابنِ عبَّاس قالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ لي وَزِيرَيْنِ من أهْلِ السَّماءِ ووَزِيرَيْنِ من أهْلِ الأرْضِ ، فوَزِيرايَ من أهْلِ السَّماءِ جِبْريلُ وميكائيلُ ، ووَزيرايَ من أهْلِ الأرضِ أبو بَكر وعُمَر » .

قال الذهبيُّ : حَديثُ ابن عبَّاس حَسَن[4] .

وعن حُذَيفَة قال : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اقْتَدُوا باللَّذَيْنِ من بَعدي أبي بَكر وعُمَر »[5] .

وقالت عائشةُ : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « قَدْ كانَ في الأُمَمِ مُحَدَّثون[6] فإنْ يَكنْ في أُمَّتي أحَدٌ فعُمَرُ بنُ الخَطَّاب » .

وقال أنَسٌ : قالَ عُمَرُ : وافَقْتُ ربِّي في ثلاثٍ : في مَقامِ إبْراهيمَ ، وفي الحِجابِ ، وفي قَولِه تَعالَىٰ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾[7] ،[8] .

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/٢٨ .
(٢) سورة التحريم : الآية ٤ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٤٤ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٤٥ .
(٥) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٤٥ .
(٦) قال ابن وهب : مُلهَمون .
(٧) سورة التحريم ، الآية : ٥ .
(٨) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧/٤٥ .

قال عليٌّ رضي الله عنه بالكُوفَة علىٰ مِنْبَرها في مَلأ من النَّاسِ أيَّامَ خِلافَتِه : « خَيْرُ هـٰذه الأُمَّة بعد نَبيِّها أبو بَكر ، وخَيرُها بعد أبي بَكر عُمَرُ ، ولو شِئتُ أنْ أُسَمِّي الثالثَ لسَمَّيتُه » وهـٰذا مُتواتر عن عليٍّ رضي الله عنه ، فقَبَّحَ اللهُ الرَّافِضَة .

وقالت عائشَةُ : قال أبو بَكر : ما علىٰ ظَهر الأرْضِ رَجلٌ أحَبُّ إليَّ من عُمَر .

وقالت عائشَةُ : دَخلَ ناسٌ علىٰ أبي بَكر في مَرضِه فقالوا : يَسَعُك أنْ تُوَلِّي عَلينا عُمَر وأنتَ ذاهبٌ إلىٰ ربِّك فما تَقولُ له ؟ قال : وَلَّيتُ عليهم خَيرَهم .

وقال الزُّهريُّ : أوَّلُ مَنْ حيَّا عُمرَ بأمير المؤمنين المُغيرَةُ بنُ شُعبَة[1] .

وعن أسْلَم قال : كُنَّا نَقولُ : لَوْ لَمْ يَرفَع اللهُ المَحْلَ عامَ الرَّمادَة لظَنَنَّا أنَّ عُمرَ يَموتُ[2] ، [3] .

وقال سُفيانُ الثَّوريُّ : مَنْ زَعَمَ أنَّ عَليّاً كان أحَقَّ بالولايَة من أبي بَكرٍ وعمرَ فقد خطَّأَ أبا بَكر وعُمرَ والمهاجرينَ والأنْصار[4] .

وقالَ شَريكٌ : لَيسَ يُقدِّمُ عليّاً علىٰ أبي بَكر وعُمرَ أحدٌ فيه خَيرٌ[5] .

وقال أبو أسامة : تَدرونَ مَنْ أبو بَكر وعُمَرُ ؟ هما أبو الإسْلام وأمُّه[6] .

عن ابنِ عُمرَ قال : وُضِعَ عُمرُ بينَ القَبر والمِنْبَر ، فجاءَ عليٌّ حتىٰ قامَ بينَ الصُّفوف فقال : « رَحْمَةُ الله عَليكَ ، ما مِنْ خَلقٍ أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ ألْقَى اللهَ بصَحيفَته بعد صَحيفَةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم من هـٰذا المُسَجَّىٰ عليه ثَوبُه » وقد رُويَ نَحوُه من عدَّة وجوه عن عليٍّ رضي الله عنه .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٤٦ .
(٢) زاد ابن سعد في طبقاته (٣/ ٣١٥) : « هَمّاً بأمر المسلمين » .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٥٢ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٢ .
(٥) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٥٢ .
(٦) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥/٥٢ .

وقال معدانُ بنُ أبي طَلحَة : أُصيبَ عُمرُ يومَ الأرْبعاء لأرْبعٍ بَقين من ذي الحجَّة ، وكذا قال زَيدُ بنُ أسْلَم وغيرُ واحد .

وقال إسْماعيلُ بنُ محمَّد بنِ سَعد بنِ أبي وقَّاص : إنَّه دُفِنَ يومَ الأحَد مُسْتهَلَّ المُحرَّم .

وعن جَرير بنِ عبد الله سَمعَ مُعاويَة يَخطبُ ويقول : مات رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو ابنُ ثلاثٍ وستِّين ، وأبو بَكر وعُمرُ وهما ابنا ثلاثٍ وستِّين[1] .

وعن مُحمّد بنِ يُوسُف الفريابيّ قال : حَدَّثنا أبي : سَمعتُ سُفْيانَ يقولُ : إنَّ قَوماً يَقولونَ : لا نَقُولُ لأبي بَكر وعُمَرَ إلاَّ خَيراً ، ولكنَّ عَلَيّاً أَوْلَىٰ بالخِلافَة منهُما ، فمَنْ قالَ ذلكَ ، فقَد خَطَّأ أبا بَكر وعُمَرَ وعَليّاً والمُهاجِرينَ والأنْصارِ ، ولا أدْري تَرْتفعُ مع هـٰذا أعْمَالُهُم إلى السَّماءِ ؟!![2] .

وقال ابنُ القاسِم : سَألتُ مالِكاً عن عليٍّ وعُثمانَ فقال : ما أدْرَكتُ أحَداً مِمَّنْ أَقْتَدي به إلاَّ وهو يَرى الكَفَّ عَنهُما ، قال ابنُ القاسِم : يُريدُ التَّفْضيلَ بَينَهُما فقُلتُ : فأبُو بَكر وعُمَر ؟ فقال : لَيسَ فيهِما إشْكالٌ ، إنَّهُما أفْضَلُ مِن غَيرِهِما[3] .

وقالَ ابنُ عُيَيْنَة : قِيلَ لشَريك : ما تَقولُ فيمَنْ يُفَضِّلُ عَليّاً علىٰ أبي بَكر ؟ قال : إذاً يَفتَضِحُ يَقولُ أخْطَأ المُسلِمونَ[4] .

وعن سَلَمَةَ بنِ شَبيب قال : سَمعتُ عبدَ الرَّزَّاق ، يَقولُ : ما انْشَرَحَ صَدري قَطُّ أنْ أُفَضِّلَ عَليّاً علىٰ أبي بَكرٍ وعُمَرَ ، فرَحِمَهما الله ، ورَحِمَ عُثمانَ وعَليّاً ، مَنْ لَمْ يُحِبَّهم فما هو بِمُؤمِن ، أَوْثقُ عَملي حُبِّي إيَّاهُم[5] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٥٧ .
(٢) انظر السير : (سُفيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦٩٧ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٣٥ .
(٤) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٣/٧٤٣ .
(٥) انظر السير : (عبد الرَّزَّاق بن همّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ١/٨٤١ .

٩ـ التعْريفُ بفَضْلِ مُعاويَة رضي الله عنه :

قال الخَطيبُ : سَمعتُ غَيرَ واحِد يَحْكِي عن أبي عُمَرَ ، مُحمّد ابن عبد الواحِد ، أنَّ الأشْرافَ والكُتَّابَ كانوا يَحْضُرونَ عندَه ليَسْمَعوا منه كُتُبَ ثَعْلَبَ ، وغَيرِها ، وله جُزءٌ قد جَمَعَ فيه فَضائِلَ مُعاويَة ، فكانَ لا يَتْرُكُ واحِداً منهُم يَقْرأُ عليه شَيئاً حتىٰ يَبْتَدىءَ بِقِراءَة ذلكَ الجُزءَ .

وكان جَماعَةٌ من أهْلِ الأدَبِ لا يُوَثِّقونَ أبا عُمَرَ في عِلمِ اللُّغَة حتىٰ قالَ لي عُبَيدُ الله بنُ أبي الفَتْحِ : يُقالُ : إنَّ أبا عُمَرَ كانَ لَوْ طارَ طائِرٌ لقالَ : حَدَّثنا ثَعْلَبٌ عن ابنِ الأعْرابيِّ ، ثم يَذكُرُ شَيئاً في مَعْنَىٰ ذلكَ[1] .

١٠ـ شِعرٌ في مُوالاة الخُلَفاء الأرْبَعَة وحُبِّهِم :

قالَ المُصَنِّفُ في الميزانِ : ٣/ ٥٢٥ تَعْليقاً علىٰ قَولِ السَّمْعانيِّ عن أبي العز القلانسي : أمَّا الرَّفضُ ، فَلا ، فلَه أبْياتٌ في تَعْظيمِ الأرْبَعةِ الرَّاشِدينَ إنْ لَمْ يَكُنْ نَظَمَها تُقْيَةً .

وقالَ الحافِظُ في « اللِّسانِ » : ٥/ ١٤٤ والأبْياتُ المَذْكورَة أوْرَدَها ابنُ السَّمْعانيِّ عن سَعدِ الله بنِ مُحمّد المُقْرىء أنَّه أنْشَدَه ، قالَ : أنْشَدَني أبُو العِزِّ القلانسيُّ لِنَفْسِه :

إنَّ مَـنْ لَـمْ يُقَـدِّم الصِّـدِّيقَـا ... لَمْ يَكُنْ لِي حَتَّى المَماتِ صَديقَا
والـذِي لا يَقُـولُ قَـوْلِـي فـي الفَـا ... رُوقِ أَهْـوَىٰ لِشَخْصِـهِ تَفْـريقَـا
وَبِنَـارِ الجَحِيـمِ بـاغِـضُ عُثْمَـا ... نَ وَيَهْـوِي مَنْهَـا مَكَـانـاً سَحِيقَـا
مَـنْ يُـوَالِـي عِنْـدِي عَليّـاً وعَـادَا ... هُـمْ جَمِيعَـاً عَـدَدْتُـهُ زِنْـدِيقَـا

قالَ ابنُ السّمعانيّ : كُنتُ أعْتَقِدُ في أبي العِزِّ أنَّه يَميلُ إلى الرَّفضِ حتىٰ سَمِعتُ له هٰذهِ الأبْياتِ[2] .

---

(١) انظر السير : (أبو عُمَرَ الزَّاهد) ١٥/ ٥٠٨ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٥٥ .
(٢) انظر النزهة : ١٥٠٢/ هامش رقم (٢) .

١١٢ـ الرَّدُّ على الشِّيعَةِ الاثْنَي عَشْرِيّة :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة المُنتَظَرِ أبي القاسِم مُحمّد بن الحَسَن العَسْكَريّ : خاتِمَةُ الإثْنَيْ عَشَرَ سَيِّداً ، الذينَ تَدَّعي الإماميَّةُ عِصْمَتَهم ـ ولا عِصْمَةَ إلاَّ لِنَبيٍّ ـ ومُحمَدٌ هـٰذا هو الذي يَزعُمُونَ أنَّه الخَلَفُ الحُجَّةُ ، وأنَّه صاحِبُ الزَّمانِ ، وأنَّه صاحِبُ السِّرْدابِ بِسَامِرَّاءَ ، وأنَّه حَيٌّ لا يَمُوتُ ، حتّىٰ يَخْرُجَ ، فيَمْلأَ الأرضَ عَدْلاً وقِسْطاً ، كمَا مُلِئَتْ ظُلماً وجُوراً فوَدِدْنا ذلكَ ـ والله ـ وهُم في انْتِظارِهِ من أرْبَعِ مِئَةٍ وسَبعينَ سَنَةً ، ومَنْ أحالَكَ علىٰ غائِبٍ لَمْ يُنْصِفْكَ ، فكَيفَ بمَنْ أحالَ علىٰ مُسْتَحيلٍ ؟!! ، والإنْصافُ عَزيزٌ فنَعُوذُ باللهِ من الجَهلِ والهَوَىٰ[1] .

١٢ـ ذِكْرُ الأئِمَّة الاثْنَي عَشْرِيَّة وفَضْلِهم :

قال الذهبيُّ : مَوْلانا الإمامُ عليٌّ مِن الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ ، المَشْهودِ لهُم بالجَنَّةِ رضي الله عنه ، نُحِبُّه أشَدَّ الحُبِّ ، ولا نَدَّعِي عِصْمَتَه ، ولا عِصْمَةَ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق .

وابْناهُ الحَسَنُ والحُسَيْنُ : فسِبْطَا رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وسَيِّدا شَبابِ أهْلِ الجَنَّة ولَوْ اسْتُخْلِفَا لكَانَا أهْلاً لذلكَ وزَيْنُ العَابدينَ : كَبيرُ القَدْرِ من سادَة العُلَماءِ العامِلينَ ، يَصْلُحُ للإمامَة ، وله نُظَراءُ ، وغَيرُه أكْثرُ فَتْوَىٰ منه ، وأكْثرُ روايَة وكذلك ابنُه أبو جَعْفَر الباقِر : سَيِّدٌ ، إمامٌ ، فَقيهٌ ، يَصْلُحُ للخِلافَة وكذا وَلَدُه جَعْفَرٌ الصَّادِق : كَبيرُ الشَّأنِ ، من أئِمَّةِ العِلمِ ، كانَ أوْلَىٰ بالأمرِ من أبي جَعْفَر المَنْصور وكان وَلَدُه موسَىٰ كَبيرَ القَدْرِ ، جَيِّدَ العِلمِ ، أوْلَىٰ بالخِلافَة من هارُونَ ، وله نُظَراءُ في الشَّرَفِ والفَضْلِ وابنُه عليُّ بنُ موسَى الرِّضَا كَبيرُ الشَّأنِ ، له عِلمٌ وبَيانٌ ، ووَقْعٌ في النُّفوسِ ، صَيَّرَه المَأمونُ وَلِيَّ عَهْدِه لجَلالَتِه فتُوفِّيَ سَنَةَ ثلاثٍ ومِئَتَينِ وابنُه مُحمّدٌ الجَوَّادُ : من سادَة قَومِه ، لَمْ يَبلُغْ رُتْبَةَ آبائِه في العِلمِ والفِقْه وكذلك وَلَدُه المُلَقَّبُ بالهَادي : شَريفٌ جَليلٌ ، وكذلك ابنُه الحَسَنُ بنُ عليّ العَسْكَريّ ، رَحِمَهم اللهُ تَعالَىٰ .

فأمَّا مُحمّدُ بنُ الحَسَن هـٰذا : فنَقلَ أبو مُحمّد بنُ حَزْمٍ : أنَّ الحَسَنَ ماتَ من غَيرِ

---

(١) انظر السير : (المُنتَظَر) ١٣/١١٩ـ١٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٢ .

عَقِبٍ قال : وَثَبَتَ جُمهورُ الرَّافِضَة علىٰ أنَّ للحَسَنِ ابناً أخْفَاهُ .

وممَّن قال إنَّ الحَسَنَ العَسْكري لم يُعقبْ : محمّد بنُ جَرير الطَّبريّ ، ويَحْيَىٰ بنُ صاعِد ، وناهيكَ بهما معرفةً وثقةً[1] .

١٣ـ مَنْ قُتِلَ من عُلَماء أهْلِ السُّنَّة بِسَبب إنْكارِه على الشِّيعَة :

قال عبدُ الله أحمَدُ بنُ الدُّحَيْميّ : سَمعتُ المَرَّارَ بنَ حَمَّويْه يَقولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْني الشَّهادَة ، وأمَرَّ يَدَه علىٰ حَلْقِه ، قِيلَ : لمَّا وَقَعَتْ فِتْنةُ المُعْتَزِّ والمُسْتَعينِ كان علىٰ هَمَذانَ الأميرانِ جَبَّاخ وجُغْلان من قِبَل المُعتَزِّ ، فاستَشارَ أهلُ هَمَذان المَرَّارَ والجُرْجانيَّ في مُحارَبَتِهما ، فأمَراهُم بلُزومِ مَنازِلِهم ، فلمَّا أغارَ أصْحابُهُما علىٰ دارِ سَلَمَةَ بنِ سَهْل وغَيرها ، ورَمَوا رَجُلاً بسَهْم ، أفْتَياهُم في الحَرْبِ ، وتَقَلَّدَ المَرَّارُ سَيفاً ، فخَرَجَ مَعَهم فقُتِلَ عَددٌ كثيرٌ من الفَريقَينِ ، ثم طلب مُفلِحٌ المرَّارَ ، فاعْتصَم بأهلِ قُم ، وهَرَبَ معَه إبراهيمُ بنُ مَسْعود المُحَدِّثُ ، فأمَّا إبراهيمُ فهازَلَهُم وقارَبَهُم فسَلِم ، وأمَّا المرَّارُ ، فأظْهَرَ مُخالَفَتَهم في التَّشَيُّعِ ، وكاشَفَهم ، فأوْقَعوا به وقَتَلوه ، رَحِمَه الله .

ورَوَى الحُسَينُ بنُ صالِح أنَّ عَمَّه المَرَّارَ قُتِلَ في سَنةِ أرْبعٍ وخَمسينَ ومِئَتَينِ وله أرْبَعٌ وخَمسونَ سَنةً قال صالِحُ بنُ أحمَدَ التَّميميُّ : قُتِلَ المرَّارُ في السُّنَّة شَهيداً .

قال الذهبيُّ : كان من أئِمَّة الإسْلام[2] .

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة الشَّهيدِ ابنِ البَرْدُون ، أبو إسْحاقَ إبْراهيمُ بنُ مُحمّد : أنَّه كانَ مُناقِضاً للعِراقيِّينَ ، فدارَتْ عليه دَوائِرٌ في أيّام عُبَيْد الله وضُرِبَ بالسِّياطِ ثم سَعَوْا به عند دُخولِ الشِّيعيِّ إلى القَيْروانِ ، وكانت الشِّيعَةُ تَميلُ إلى العِراقيِّين لمُوافَقَتِهم لهم في مَسْألَةِ التَّفْضيلِ ورُخصَة مَذْهَبِهم ، فرَفَعوا إلىٰ أبي عبد الله الشِّيعيِّ : أنَّ ابنَ البَرْدونِ وأبا بَكْر ابنَ هُذَيْل يَطْعَنانِ في دَولَتِهم ، ولا يُفَضِّلانِ عَليّاً فحَبَسَهما ، ثم أمَرَ مُتَولِّي

---

(١) انظر السير : (المُنْتَظَر) ١٣/ ١١٩ـ ١٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٦٢ .

(٢) انظر السير : (المَرَّار بن حمويه) ١٢/ ٣٠٨ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٠٣ .

القَيْرَوانَ أنْ يَضْربَ ابنَ هُذَيل خَمْسَ مِئَةِ سَوْطٍ ، ويَضرِبَ عُنقَ ابنَ البَرْدُونِ فغَلَطَ المُتَولِّي فقتَلَ ابنَ هُذَيل ، وضَرَبَ ابنَ البَرْدُونِ ، ثم قَتَلَه من الغَدِ[1] .

وقِيلَ لابنِ البَرْدونِ لمَّا جُرِّدَ للقَتْلِ : أتَرْجِعُ عن مَذْهبك ؟ قال : أَعَنِ الإسْلامِ أرْجِعُ ؟!! ، ثم صُلِبَا في سَنة تِسعٍ وتِسعينَ ومِئَتَينِ ، وأمَرَ الشِّيعيُّ الخَبيثُ أن لا يُفْتَىٰ بمَذْهبِ مَالِك ، ولا يُفْتَىٰ إلاَّ بمَذْهبِ أهلِ البَيتِ ويَرَوْنَ إسْقاطَ طَلاقِ البَتَّة ، فبَقِيَ مَنْ يَتَفقَّهُ لمَالِك إنَّما يَتفقَّه خِفْيَةً[2] .

قال بَعضُهم : كُنتُ جالساً عند ابنِ أبي خِنْزيرٍ فدَخلَ شَيخٌ ذو هَيئَة وخُشوع ، فبَكَى ابنُ أبي خِنزير وقال : السُّلطانُ ـ يَعْني عُبَيْدَ الله ـ وَجَّهَ إليَّ يأمُرُني بدَوْسِ هـٰذا ـ يَعْني أبو جَعفَر بنَ خَيرون ـ حتىٰ يَموتَ ، ثم بَطَحَه ، وقَفَزَ عليه السُّودانُ حتىٰ ماتَ ، لِجهادِه وبُغْضِه لعُبَيدِ الله وجُندِه[3] .

وجاءَ في تَرجَمَة هَيَّاجِ بنِ عُبَيْد ، قالَ الذهبيُّ : الإمامُ الفَقيهُ ، الزَّاهِدُ شَيخُ الإسْلامِ ، أبو مُحمّد الشَّاميُّ الحِطِّينيُّ الشَّافِعيُّ ، شَيخُ الحَرَمِ ، وُلِدَ بعدَ التِّسْعينَ وثلاثِ مِئَة .

وكان اعْتِناؤُه جَيِّداً بالحَديثِ ، وله بَصَرٌ بالمَذْهب ، وقَدَمٌ في التَّقْوَىٰ وجَلالَةٌ عَجيبَةٌ[4] .

قال ابنُ طاهِر : كان هَيَّاجٌ قد بَلَغَ من زُهْده أنَّه يَصُومُ ثلاثَةَ أيّامٍ ويُواصِلُ ، لكن يُفْطِرُ علىٰ ماءِ زَمْزَمَ ، فمَنْ أتاهُ بعد ثلاث بشَيءٍ أكَلَه وكان قد نَيَّفَ على الثَّمانينَ ، وكان يَعتمرُ كلَّ يوم ثلاثَ عُمَرٍ ، ويُدَرِّسُ عدَّةَ دُروسٍ ويَزورُ ابنَ عَبَّاسٍ بالطَّائِف كلَّ سَنةٍ مرَّة ، لا يأكُلُ في الطريقِ شَيئاً ويَزورُ قَبرَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كلَّ سَنةٍ معَ أهلِ مَكّةَ ، فيَخرُجُ فمَنْ أخَذَ بيَدِه ، كان في مَؤونَتِه حتىٰ يَرجِعَ ، وكان يَمشي حافياً من مَكّةَ

---

(١) انظر السير : (ابن البَرْدون) ١٤/ ٢١٥ـ ٢١٧ ، وانظر النزهة : ٤/١١٤٦ .
(٢) انظر السير : (ابن البَرْدون) ١٤/ ٢١٥ـ ٢١٧ ، وانظر النزهة : ٥/١١٤٦ .
(٣) انظر السير : (ابن خَيرون) ١٤/ ٢١٧ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٧ .
(٤) انظر السير : (هَيَّاج ابن عُبَيد) ١٨/ ٣٩٣ـ ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢٥ .

إلى المَدينَة ، وسَمِعتُ مَنْ يَشْكُو إليه أنَّ نَعْلَيهِ سُرِقَتا ، فقال : اتَّخِذُ نَعْلَينِ لا يَسْرِقُهُما أحَدٌ ـ يَعْني الحِفاءَ ـ ورُزِقَ الشَّهادَةَ في كائِنَةٍ بينَ السُّنَّة والرَّافِضَة وذلكَ أنَّ بَعضَ الرَّافِضَة شَكَا إلىٰ أميرِ مَكّةَ أنَّ أهْلَ السُّنَّة يَنالونَ مِنَّا ، فأَنْفَذَ ، وطَلَبَ هَيَّاجاً وأبا الفَضْلِ بنَ قَوَّام وابنَ الأنْماطيِّ ، وضَرَبَهم ، فماتَ هٰذان في الحالِ ، وحُمِلَ هَيَّاجٌ ، فماتَ بعدَ أيّام ، رَضِيَ الله عَنهُم .

ماتَ هَيَّاجٌ سَنةَ اثْنَتَينِ وسَبعينَ وأرْبعِ مِئَة[1] .

١٤ـ مَنْ هُدِّدَ بالقَتل من عُلَماء السُّنَّة بسَبب عَدم مُوافَقَته للشِّيعَة :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة الإمامِ أبي الخَيرِ الطَّالِقانيّ : وظَهَرَ التَّشَيُّعُ في زَمانِه بسَبب الصَّاحِبِ ، فالْتَمَسَ العامَّةُ منه على المِنْبَرِ يومَ عاشُوراءَ أنْ يَلْعَنَ يَزيدَ ، فامْتَنَع ، فهَمُّوا بقَتْلِه مرَّات ، فلَمْ يُرَعْ ، ولا زَلَّ ، وسارَ إلىٰ قَزْوينَ ، وضَجَعَ[2] لهم ابنُ الجَوْزيّ[3] .

١٥ـ الشِّيعَةُ المُجاهِدون :

سَيفُ الدَّولَة :

هو أبُو الحَسَن عليُّ بنُ عبدِ الله بنِ حمْدان ، صاحبُ حَلَب ، مَقْصدُ الوُفودِ ، وكَعْبةُ الجُود ، وفارِسُ الإسْلامِ ، وحامِلُ لِواءِ الجِهاد .

كان أَديباً مَليحَ النَّظْمِ ، فيه تَشَيُّع[4] .

ويُقالُ : ما اجْتَمَعَ ببابِ مَلِكٍ من الشُّعَراءِ ما اجْتَمَعَ ببابِه ، وكان يَقولُ : عَطاءُ الشُّعَراءِ من فَرائِضِ الأُمَراءِ .

وقد جُمِعَ له من المَدائِحِ مُجلَّدان[5] .

---

(١) انظر السير : (هَيَّاج ابن عُبَيد) ١٨/ ٣٩٣ـ ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٢٥ .
(٢) ضَجعَ لهم : أي مال إليهم ووافقهم .
(٣) انظر السير : (الطّالقانيّ) ٢١/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١٦١١ .
(٤) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٨٢ .
(٥) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٨٢ .

يُقالُ : تَمَّ له من الرُّومِ أرْبَعونَ وَقْعَة ، أكْثَرُها يَنْصُره الله عَليهم[1] .

وقِيلَ : إنَّه في عيد نفَّذَ إلى النَّاسِ ضَحايا لا تُعدُّ كَثرةً ، فبَعَثَ إلى اثنَيّ عَشرَ ألفَ إنْسانٍ ، فكانَ أكثرُ ما يَبعَثُ إلى الكَثيرِ منهم مِئَةَ رَأسٍ[2] .

وتُوفِّيت أختُه ، فخَلَّفَت له خَمسَ مئةَ ألفِ دينار ، فافْتكَّ بجَميعها أَسْرَىٰ[3] .

مَولدُه في سنة إحْدَىٰ وثلاثِ مئَة ، وله غَزوٌ ما اتَّفقَ لملكٍ غيرُه وكان يُضرَبُ بشَجاعَتِه المَثلُ ، وله وَقعٌ في النُّفوس ، فاللهُ يَرْحمه[4] .

ماتَ بالفالِج ، وقِيلَ بعُسْر البَوْل ، سَنةَ ستٍّ وخَمسين ، وكان قد جَمعَ من الغُبار الذي يَقعُ عليه وَقتَ المَصافَّات قَدْرَ الكَفِّ ، وأَوْصَىٰ أن يُوضَعَ علىٰ خَدِّه .

وكانت دولَتُه نيِّفاً وعشرينَ سنةً[5] .

ثابِتُ بنُ أَسْلَم :

قال الذهبيُّ في تَرجَمته : هو العَلاَّمَة أبو الحَسَن الحَلبيُّ ، فَقيهُ الشِّيعَة ، ونَحَويُّ حَلَب .

تَصدَّرَ للإفادَة ، وله مُصنَّفٌ في كَشف عُوارِ الإسْماعيليَّة وبَدء دَعْوتهم وأنَّها على المَخاريق ، فأخذَه داعي القومِ ، وحُملَ إلىٰ مِصْرَ ، فصَلبَه المُسْتَنْصِرُ ، فلا رَضيَ اللهُ عمَّن قَتلَه ، وأُحْرِقَت لذلك خِزانَةُ الكُتب بحَلَب ، وكان فيها عَشرةُ ألافِ مجلَّدة ، فرَحِمَ اللهُ هٰذا المُبتَدِع الذي ذَبَّ عن الملَّة ، والأمْرُ لله[6] .

---

(١) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٨٢ .
(٢) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٧/١٢٨٢ .
(٣) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٨/١٢٨٢ .
(٤) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٩/١٢٨٢ .
(٥) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨٣ .
(٦) انظر السير : (ثابِتُ بنُ أسْلَم) ١٨/ ١٧٦ ، وانظر النزهة : ١٣٩٦/ ثابت بن أسلم .

١٦ـ من عُلماء الشِّيعَة :

الجِعَابي :

جاء في ترجمة الجِعَابيّ ، قال الذهبيُّ : الحافظُ البارع العلاَّمَة ، قاضي المَوصِل ، أبو بكر محمد بنُ عُمر بنِ محمد التَّيميُّ البغداديُّ الجِعَابيّ .

مَولُده سنة أربع وثمانين ومئتين[١] .

قال ابنُ الفَضْل القطَّان : سَمعتُ ابنَ الجِعَابيِّ يقول : دَخلتُ الرَّقَّة ، وكان لي ثَمَّ قِمْطران[٢] كُتب ، فجاء غُلامي مَغموماً وقد ضاعَت الكتبُ ، فقلتُ : يا بُنيّ لا تَغْتَم ، فإنَّ فيها مئتي ألف حَديث لا يُشكِلُ عليَّ حديثٌ منها ، لا إسْنادُه ولا مَتْنُه .

ونَقلَ الخطيبُ عن أشْياخه أنَّ ابن الجِعَابيّ كان يَشربُ في مَجلس ابنِ العَميد .

وقال أبو عبد الرحمٰن السُّلمي : سألتُ الدارَقُطنيَّ عن ابنِ الجِعَابيِّ فقال : خلَّط ، وذكرَ مَذهبَه في التَّشَيُّع ، وكذا نقلَ أبو عبد الله الحاكم ، عن الدارَقُطنيِّ قال : وحدَّثني ثقةٌ أنَّه خلَّى ابنَ الجِعَابي نائماً وكَتبَ علىٰ رِجلِه ، قال : فكنتُ أراهُ ثلاثةَ أيَّام لمْ يَمسَّه الماءُ .

قال الخطيبُ : سَمعتُ ابنَ رزْقوَيه يقولُ : كان ابنُ الجِعَابيّ يَمتلىءُ في مجلِسه ، وتَمْتلىءُ السِّكةُ التي يُملي فيها والطريق ، ويحضرُ الدارَقُطنيُّ ، وابنُ المظفر ويُملي من حِفْظه .

قال الأزهَريُّ : كانت سكينةُ نائحةُ الرَّافِضَة تَنوحُ في جِنازَته ، مات سنةَ خمسٍ وخمسين وثلاث مئة[٣] .

١٧ـ من عُلماء الشِّيعَة الغالين :

الرَّوَاجنيّ :

جاء في تَرجمة الرَّوَاجنيّ ، قال الذهبي : الشَّيخُ العالِم الصَدوقُ ، مُحدِّثُ

---

(١) انظر السير : (الجعَابيّ) ١٦/ ٨٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٦٨ .

(٢) تَثْنيةُ قِمْطر : ما يُصان في الكتب .

(٣) انظر السير : (الجِعَابيّ) ١٦/ ٨٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٦٨ .

الشِّيعَة ، أبو سَعيد عَبَّادُ بنُ يَعقُوب الأسدي الرَّوَاجنيُّ الكُوفيُّ المُبتَدِع .

وقال الحاكمُ : كان ابن خُزَيْمَة يقولُ : حَدَّثنا الثِّقَةُ في رِوايَتِه المُتَّهَمُ في دِينه ، عبَّادُ بنُ يَعقُوب .

وقال ابنُ عدي : فيه غُلوٌّ في التَّشَيُّع[1] .

وعن صالِح جَزَرة ، قال : كان عَبَّادُ بنُ يَعقُوب الأسَديّ الرَّواجِنيّ يَشْتِمُ عُثمانَ رضي الله عنه ، وسَمعتُهُ يقُولُ : اللهُ أَعْدَلُ مِن أنْ يُدْخِلَ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ الجَنَّةَ ، قاتَلا عَليّاً بعدَ أنْ بايَعاه[2] .

وقال ابنُ جَرير : سَمعتُه يقولُ : مَنْ لَمْ يَبْرَأ في صَلاتِه كلَّ يومٍ من أعْداءِ آلِ مُحمّد ، حُشِرَ مَعَهم .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الكَلامُ مَبْدَأُ الرَّفضِ ، بَلْ نَكُفُّ ، ونَسْتَغفِرُ للأُمَّة ، فإنَّ آلَ مُحمّد في إيَّاهم قد عادَىٰ بَعضُهم بَعضاً واقْتَتَلوا على المُلكِ وتمَّتْ عَظائم ، فمِنْ أيِّهِم نَبْرأ ؟!![3] .

وقال محمدُ بنُ مُظفَّر الحافظُ ، حدَّثنا القاسِمُ المُطرِّز ، قال : دَخلتُ علىٰ عبَّاد بالكُوفَة ، وكان يَمتحِنُ الطَّلبَة ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟ قلتُ : اللهُ قال : هو كَذاك ، ولكن مَنْ حَفرَه ؟ قلتُ : يَذكُر الشَّيخُ ، قال : حَفرَه عليٌّ ، فمَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : اللهُ قال : هو كَذلك ، ولكن مَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : يُفيدني الشَّيخُ قال : أجراهُ الحُسَينُ ، وكان ضَريراً ، فرأيتُ سَيفاً وحَجَفَةً[4] فقلتُ : لمنْ هـٰذا ؟ قال : أعْدَدتُه لأقاتل به مع المَهدي ، فلمَّا فَرغتُ من سَماع ما أردْتُ ، دَخلتُ عليه ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟ قلتُ : حفَرَهُ مُعاويةُ رَضيَ اللهُ عنه ، وأجْراهُ عَمرو بنُ العاص ، ثم وَثَبتُ وعَدَوْتُ فجعلَ يَصيحُ : أدْركوا الفاسِقَ عَدوَّ الله ، فاقْتُلوه إسْنادُه صَحيح ، وما أدْري كيف

---

(١) انظر السير : (الرَّواجِنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٦٩ .
(٢) انظر السير : (الرَّواجِنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٧٠ .
(٣) انظر السير : (الرَّواجِنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٧٠ .
(٤) الحجفة : هي الترس .

تَسَمَّحوا في الأخْذِ عمَّن هـٰذا حالُه ؟ وإنَّما وَثِقوا بصِدْقِه .

قال البُخاريُّ : ماتَ عبَّادُ بنُ يَعقُوب في سنة خمسين ومئتين .

ورأيتُ له جُزءاً من كتاب « المَناقِب » ، جَمعَ فيها أشياءَ ساقِطَة قد أغْنى اللهُ أهلَ البَيتِ عنها ، وما أعتَقده يَتعمَّدُ الكَذبَ أبداً[1] .

ابن خِراش :

وجاء في ترجَمة ابن خِرَاش ، قال الذهبيُّ : الحافظُ ، الناقِدُ ، البارِعُ ، أبو محمّد ، عبدُ الرحمٰن بنُ يوسُف بنُ سَعيد بنُ خِرَاش ، المَرْوَزيّ ، ثم البَغداديّ[2] .

وقالَ بَكرُ بنُ محمّد : سَمعتُه يقولُ : شَربتُ بَوْلي في هـٰذا الشَّأن ـ يَعني الحَديث ـ خَمسَ مرَّات .

قال أبو نُعَيْم بنُ عَدي : ما رَأيتُ أحداً أحفَظَ من ابنِ خِرَاش .

وقال ابنُ عَدي : قد ذُكرَ بشَيءٍ من التشَيُّع ، وأرجو أنَّه لا يَتعمّدُ الكَذب سَمعتُ ابنَ عُقْدَة يقولُ : كان ابنُ خِرَاش عندنا إذا كَتبَ شَيئاً في التشَيُّع يقولُ : هـٰذا لا يَنْفَق إلاَّ عندي وعندك وسَمعتُ ابنَ عَبْدان يقولُ : حملَ ابنُ خِرَاش إلىٰ بُنْدار عندنا جُزْأَين صَنَّفَهما في مَثالب الشَّيخَين ، فأجازه بألفَي دِرهَم ، بني له بها حُجرةٌ ببغداد ليُحدِّث فيها ، فمات حين فُرِغَ منها .

وقال أبو زُرْعَة ، محمدُ بنُ يوسُف الحافظُ : خرَّجَ ابنُ خِرَاش مَثالب الشَّيخَين وكان رافِضيّاً .

وقال ابنُ عَدي : سَمعتُ عَبْدانَ يقولُ : قلتُ لابنِ خِرَاش : حديثُ : « ما تَرَكنَاهُ صَدَقَةٌ » فقالَ : باطِلٌ .

---

(١) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/٥٣٦ـ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٠ .

(٢) انظر السير : (ابن خِرَاش) ١٣/٥٠٨ـ٥١٠ ، وانظر النزهة : ١/١١١٢ .

قال الذهبيُّ : هـٰذا مُعَثَّر مَخذول ، كان عِلمُه وَبالاً ، وسَعيُه ضَلالاً ، نَعوذُ بالله من الشَّقاء .

ماتَ سنةَ ثلاثٍ وثمانين ومئتين[1] .

الشَّيخُ المُفيد :

وجاء في ترجمة الشَّيخِ المُفيد ، قال الذهبيُّ : عالمُ الرَّافِضَة ، محمدُ ابنُ محمدِ بنِ النُّعمان ، البَغدادي ، الشِّيعي ، ويُعرف بابنِ المُعَلِّم .

كان صاحبَ فُنون ، وبُحُوث ، وكَلام ، واعْتزال ، وأدَب[2] .

ذكرَه ابنُ أبي طَي في « تاريخ الإمامية » فأطْنَب وأسْهَب ، وقال : كان أوْحدَ في جَميع فُنون العِلم : الأصْلَين ، والفِقْه ، والأخْبار ، ومَعرفة الرِّجال ، والتَّفسير ، والنَّحْو ، والشِّعْر وكان يُناظِر أهلَ كلِّ عَقيدة مع العَظمة في الدَّولة البُوَيْهيَّة ، والرُّتبَة الجَسيمة عند الخُلفاء ، وكان قَويَّ النَّفس ، كَثيرَ البرِّ ، عَظيمَ الخُشوع ، كَثيرَ الصَّلاة والصَّوْم ، يَلبسُ الخَشنَ من الثِّياب ، وكان مُديماً للمُطالَعَة ، والتعْليم ، ومن أحْفَظ النَّاس ، قِيل : إنَّه ما تَركَ للمُخالِفين كتاباً إلاَّ وحَفظَه ، وبهـٰذا قَدر علىٰ حَلِّ شُبَه القَوم ، وكان من أحْرَص الناسِ على التَّعْليم ، يَدورُ على المَكاتب وحَوانيت الحاكَة فيَتلمَّحُ الصَّبيَّ الفَطِن ، فيَسْتأجِرُه من أبَوَيه ـ يَعني فيُضِلَّه ـ قال : وبذلك كَثُر تَلامذتُه[3] .

عاش ستّاً وسَبعين سَنة ، إلىٰ أن قال : مات سَنة ثلاث عَشرة وأربع مئة ، وشَيَّعه ثمانون ألفاً .

وقِيلَ : بَلغت تَواليفُه مئتين ، لمْ أقِفْ علىٰ شيءٍ منها ولله الحَمد[4] .

---

(١) انظر السير : (ابن خِرَاش) ١٣/٥٠٨ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٢ .
(٢) انظر السير : (الشيخ المفيد) ١٧/ ٣٤٤ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٤٤ .
(٣) انظر السير : (الشيخ المفيد) ١٧/ ٣٤٤ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٤ .
(٤) انظر السير : (الشيخ المفيد) ١٧/ ٣٤٤ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٤٤ .

١٨ـ مُناظَرات مع الشِّيعَة :

جاء في ترجمة ابنِ الحَدَّاد ، سعيدِ بنِ محمد بنِ صُبيح بن حَدَّاد المغربي ، صاحبِ سُحْنون ، شيخ المالكية ، قال ابنُ حارث : له مَقامات كريمة ، ومَواقفُ مَحمودة في الدَّفْع عن الإسلام ، والذَّبِّ عن السُّنَّة ، ناظَرَ فيها أبا العبَّاس المعجوقي أخا أبي عبد الله الشِّيعي الدَّاعي إلىٰ دَولة عُبَيد الله ، فتكلَّم ابنُ الحَدَّاد ولم يَخفْ سَطوة سُلطانهم ، حتىٰ قال له ولدُه أبو محمد : يا أبتِ اتَّقِ الله في نفسِك ولا تُبالغ ، قال : حَسبي مَنْ له غَضبتُ ، وعن دِينه ذَبَبتُ .

وله مع شَيخ المُعتزلة الفَرَّاء مُناظَرات بالقَيْرَوان ، رَجعَ بها عَددٌ من المُبتدعة[١] .

قال أبو بكر بن اللَّباد : بينا سَعيدُ بنُ الحَدَّاد جالسٌ أتاه رسولُ عُبَيد الله ـ يَعني المَهْدي ـ قال : فأتَيتُه وأبو جَعْفَر البَغدادي واقفٌ فتكلَّمتُ بما حَضرني ، فقال : اجْلسْ ، فجَلستُ ، فإذا بكتابٍ لَطيف ، فقال لأبي جَعْفَر : اعْرِض الكتابَ على الشَّيخِ ، فإذا حَديثُ غَديرِ خُمّ[٢] قلتُ : وهو صَحيحٌ وقد رَويناه .

فقالَ عُبَيد الله : فما للنَّاسِ لا يَكونون عَبيدنا ؟ قلتُ : أعزَّ الله السيِّد ، لم يرد وِلايَة الرِّق ، بل وِلايَة الدين ، قال : هل مِنْ شاهدٍ ؟ قلتُ : قال الله تَعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾[٣] فما لمْ يَكُنْ لنبيِّ الله لمْ يَكُنْ لغَيرِه قال : انصَرِف لا يَنالُك الحرّ فتبعَني البَغداديُّ فقالَ : اكْتُم هٰذا المَجْلس[٤] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٥/١١٤٤ .

(٢) أخرج الإمام أحمد في « مسنده » ٢/ ٣٧٢ عن سفيان ، ثنا أبو عوانة ، عن المغيرة عن أبيه ، عن ميمون قال : قال زيد بن أرقم ـ وأنا أسمع : نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادٍ يُقال له : وادي خُمّ ، فأمر بالصلاة ، فصلاها بهجير ، قال : فخطبنا وظُلِّلَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بثوب علىٰ شجرة سمرة من الشمس ، فقال : « ألستم تعلمون ، أولستم تشهدون أنِّي أولَىٰ بكل مؤمن من نفسه ؟ » قالوا : بلىٰ ، قال : « فمن كنتُ مَوْلاهُ فإنَّ عَليّاً مَوْلاهُ ، اللَّهمَّ عادِ مَنْ عاداه ووَالِ مَنْ والاه » وإسنادُه صحيح .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ .

(٤) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٦/١١٤٤ .

وقال مُوسىٰ بنُ عبد الرَّحمَـٰن القطَّان : لو سَمعتُم سَعيدَ بنَ الحَدَّاد في تلك المَحَافل ـ يَعني مُناظرته للشِّيعي ـ وقد اجتمعَ له جَهَارةُ الصَّوتِ وفَخامَةُ المَنْطِق ، وفَصاحَةُ اللِّسانِ ، وصَوابُ المَعْنىٰ ، لَتَمنَّيْتُم أنْ لا يَسْكُت[1] .

وقيل : إنَّه سار لتَلقِّي أبي عبد الله الشِّيعي ، فقال له : أوَلَمْ يَقلْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « وأَقْضاكم عليٌّ » ، فساقَ له مُوسىٰ تَمامَه ، وهو « وأَعْلَمُكم بالحَلال والحَرامِ مُعَاذٌ ، وأَرْأَفُكم أبو بَكر ، وأشَدُّكم في دينِ الله عُمَر » ، قالَ : كيفَ يكونُ أشَدَّهم وقد هَربَ بالرَّايَة يومَ خَيبَر ؟ قال موسىٰ : ما سَمعنا بهـٰذا فقلتُ : إنَّما تحيَّزَ إلىٰ فئَةٍ فليس بفارٍّ .

وقال في ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[2] إنَّما نَهاهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن حُزْنه لأنَّه كان مَسخُوطاً ، قلتُ : لمْ يكُنْ قَولُه إلاَّ تَبشيراً بأنَّه آمنٌ علىٰ رسولِ الله وعلىٰ نفسه ، فقال : أين نَظيرُ ما قُلتَ ؟ قلتُ : قَولُه لموسىٰ وهارون : ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[3] .

فلمْ يَكنْ خَوفُهما من فِرْعَون خَوفاً بسخطِ الله .

ثم قال : يا أهلَ البَلدَة : إنَّكم تَبغضُون عَليّاً ؟ قلتُ : علىٰ مُبغِضِه لَعنةُ الله فقال : صَلى الله عليه قلتُ : نَعم ، ورَفعتُ صَوتي : صَلى الله عليه وسلَّم ، لأنَّ الصَّلاةَ في خِطابِ العَرَب الرَّحْمةُ والدُّعاء ، قال : ألَمْ يقُلْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أنتَ منِّي بمَنْزِلَة هارُون من مُوسىٰ » ؟ قلتُ : نَعم ، إلاَّ أنَّه قالَ : « إلاَّ أنَّه لا نَبيَّ بَعدي » وهارونُ كان حُجَّة في حَياة موسىٰ ، وعليٌّ لمْ يَكنْ حُجَّة في حَياة النَّبيِّ ، وهارونُ فكان شَريكاً ، أفَكانَ عليٌّ شَريكاً للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، في النبُوَّة ؟ وإنَّما أرادَ التَّقْريبَ والوزارَة والوِلايَة قال : أوَلَيسَ هو أفْضَلَ ؟ قلتُ : ألَيسَ الحقُّ مُتَّفَقاً عليه ؟ قال : نعم قلتُ : قد مَلكْتَ مَدائنَ قَبلَ مَدينَتِنا ، وهي أعظمُ مَدينة ، واسْتفاضَ

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٤٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٤٠ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٤٦ .

عَنكَ أنَّك لمْ تُكْره أحداً علىٰ مَذْهَبك ، فاسْلُك بنا مَسْلَك غَيرنا ونَهَضْنا .

وقيلَ : لمْ يُرَ أغْزرَ دَمعةً من سَعيدِ بنِ الحَدَّاد ، وكان قد صَحبَ النُسَّاك ، وكان مُقلاً حتىٰ ماتَ أخٌ له بصِقلِّيَّة ، فوَرِثَ منه أربعَ مئة دينار فبَنىٰ منها داره بمئتي دينار واكْتَسَىٰ بخَمسين ديناراً ، وكان كَريماً حَليماً[1] .

١٩ـ القِتالُ بين السُّنَّة والرَّافِضَة :

جاء في ترجمة الخليفة أبي القاسم الفَضْلِ بن المُقْتدر ، المُطيعُ لله ، قال الذهبيُّ : وكان يُقامُ مأتَمُ عاشوراءَ ببَغداد ، ويَقع فتنٌ كبارٌ لذلك[2] .

وجاء في ترجمة الطَّائع لله ، قال الذهبيُّ : وتَحارَبت الشِّيعَةُ والسُّنَّةُ مدَّة ، ثم وَثبوا على الطَّائع لله في دارِه في تاسع عَشر شَعبان سَنة ٣٨١ هـ ، وسَبَبُه أنَّ شَيخَ الشِّيعَة ابنَ المُعلِّم كان من خَواصِّ بَهاء الدولَة ، فحُبِسَ ، فجاء بَهاءُ الدولَة ، وقد جَلسَ الطَّائعُ في الرَّوَاق مُتَقلِّد السَّيف ، فقبَّل الأرضَ وجلسَ علىٰ كُرْسيٍّ ، فتقدَّم جَماعةٌ من أعْوانه ، فجَذَبوا الطَّائعَ بحَمائلَ سَيفه ، ولَفُّوه في كِساء وأُصْعِدَ في سَفينته إلىٰ دارِ المملكة .

وأُشهِدَ على الطَّائع بخَلعِ نفْسِه ، وأنَّه سَلَّمَ الخِلافَة إلى القادِر بالله ، وشَهدَ الكُبراء بذلك ، ثم طلبَ القادِرُ ، واسْتحَثُّوه على القُدوم ، واسْتُبيحَت دارُ الخِلافَة حتىٰ نُقِضَ خَشَبُها .

وكانت دَولتُه ثمانيَة عَشرة سَنة ، وبَقيَ بعدَ عَزْله أعْواماً إلىٰ أنْ ماتَ سنةَ ثلاث وتسعين وثلاثِ مئة فصَلَّىٰ عليه القادِرُ وكبَّرَ خَمساً .

وعاش ثلاثاً وسَبعين سنةً رَحمَه الله[3] .

وعَملت الرَّافِضةُ عيدَ الغَدير ، فثارَت السُّنَّةُ ، وقَووا ، وخَرَّقوا عَلَمَ السلطان ، وقُتلَ جَماعةٌ ، وصُلِبَ آخَرون ، فكَفُّوا .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٤٥ .
(٢) انظر السير : (المُطيعُ لله) ١٥/ ١١٣ـ ١١٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٩٠ .
(٣) انظر السير : (الطَّائع لله) ١٥/ ١١٨ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٩٣ .

وفي سنة ٣٨٣ هـ اسْتفحَلَ البَلاءُ بالعَيَّارين ببَغداد ، ولمْ يَحُجَّ أحدٌ من العِراق[١] .

وكان الرَّفضُ عَلانيةً بدمَشْقَ في سَنة أربع مئة ، ولقد أخَذَ نائبُها « تمصُولُت البَرْبَريُّ » رَجلاً في سنة ثلاثٍ وتسعينَ وثلاثِ مئة فطِيفَ به علىٰ حمارٍ : هـٰذا جزاء مَنْ يُحبُّ أبا بكرٍ وعُمرَ ، ثم قُتِل .

وفي هـٰذا الوَقت انبثَّتْ دُعاة الحاكم في الأطْرافِ ، فأمَرَ القادرُ بعَمل مَحْضَر يتضمن القَدْحَ في نَسَب العُبَيْديَّة ، وأنَّهم مَنْسُوبون إلىٰ دَيْصانَ بنِ سَعيد الخُرَّمي ، فشَهدوا جَميعاً أنَّ النَّاجِمَ بمِصْرَ مَنصورَ ابنَ نزارٍ الحاكمَ حكمَ اللهُ عليه بالبَوار ، وأنَّ جَدَّهم لمَّا صارَ إلى الغَرب تَسمَّىٰ بالمَهْدي عُبَيد الله ، وهو وسَلفُه أرْجاسٌ خَوارج أدْعياء ، وأنَّ هـٰذا النَّاجِمَ وسَلفَه كُفَّارٌ زَنادِقَة ، ولمَذْهَب الثَّنويَّة[٢] والمَجوسيَّة مُعْتقدون ، عَطَّلوا الحُدودَ ، وأباحوا الفُروجَ وسَفكوا الدِّماءَ ، وسَبُّوا الأنْبياءَ ، ولَعَنوا السَّلَفَ ، وادَّعَوا الرُّبوبيَّة .

واسْتتابَ القادرُ فُقهاءَ المُعتزلَة ، فتبرَّؤا من الاعْتِزالِ والرَّفضِ وأُخِذَت خُطوطُهم بذلك .

وامتثلَ ابنُ سُبُكتكين أمرَ القادر ، فبَثَّ السُّنَّة بممَالكه وتَهدَّد بقَتلِ الرَّافِضَة والإسْماعيليَّة والقَرامِطَة ، والمُشبِّهَة والجَهْميَّة والمُعْتَزلَة ، ولُعِنوا على المَنابر[٣] .

وافْتَتَحَ ابنُ سُبْكْتِكين عِدةَ مَدائِنَ بالهِنْدِ ، ووَرَدَه كِتابُ القَادِرِ بالله ، ففِيهِ : صَدَرَ العَبدُ من غَزْنَةَ في أوَّلِ سَنةِ عَشرٍ وأرْبَعِ مِئَة ، وانتُدَبَ لتَنفِيذِ الأَوامِرِ فرَتَّبَ في غَزْنَةَ خَمسةَ عَشرَ ألفَ فارِسٍ ، وأَنْهَضَ ابنَه في عِشرينَ ألفاً وشَحَنَ بَلْخَ وطَخَارُسْتَانَ باثني عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرةِ آلافِ راجلٍ ، وانتُخَبَ ثلاثينَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرَةَ آلافِ راجِلٍ لصُحْبَةِ رَايَةِ الإسْلام ، وانْضَمَّ إليه المُطَّوِّعَةُ ، فافْتَتَحَ قِلاعَاً وحُصُوناً وأَسْلَمَ زُهَاءَ عِشرينَ ألفاً ، وأدَّوْا نَحوَ أَلْفِ أَلْفٍ من الوَرِقِ ، وثلاثين فِيلاً ، وعِدَّةُ الهَلْكَىٰ خَمسُونَ

---

(١) انظر السير : (القادِرُ بالله) ١٥/١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٤ .

(٢) أصحاب الإثنين الأزليين النور والظُلمة ، يزعمون بأنهما أزليان قديمان انظر « الملل والنحل » .

(٣) انظر السير : (القادِرُ بالله) ١٥/١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٤ .

ألفاً ووَافَى العَبدُ مدينةً لهم عَايَنَ فيها نَحوَ ألفِ قَصْرٍ ، وألفَ بيتٍ للأَصْنَام ، ومَبْلَغُ ما على الصَّنَمِ ثمَانِيَةٌ وتِسْعونَ ألفَ دينارٍ ، وقَلَعَ أَزْيَدَ من ألفِ صَنَمٍ ، ولهم صَنَمٌ مُعَظَّمٌ يُؤَرِّخُونَ مُدَّتَه بجَهَالَتِهم بثلاثِ مِئَةِ ألفِ سَنَةٍ ، وحَصَّلْنا من الغَنَائِمِ عِشْرينَ ألفَ ألفِ درهمٍ ، وأُفْرِدَ الخُمْسُ من الرَّقِيقِ ، فبَلَغَ ثلاثةً وخَمْسِينَ ألفاً ، واسْتَعْرَضْنَا ثلاثَ مِئَةٍ وسِتةٍ وخَمسِينَ فِيلاً .

وفي سَنَةِ اثْنتَينِ وعِشرينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، ماتَ القَادِرُ باللهِ ، وعَاشَ سَبْعاً وثمَانِينَ سَنةً سِوَىٰ شهرٍ وثمانيةَ أيَّامٍ ، وما عَلِمْتُ أحَداً من خُلَفَاءِ هـٰذهِ الأُمَّة بَلَغَ هـٰذا السِّنَّ ، ولا حتىٰ عُثْمانَ رضي الله عنه[1] .

وجَرَت فَتنةٌ مَهولَة ببَغدادَ بينَ النَّاسِ وبينَ الرَّافِضَة ، وقُتلَ عِدّةٌ من الفَريقين ، وعَظُم البلاءُ ، ونُهِبَ الكَرْخُ ، فحَنقَ ابنُ العَلْقَميّ ، الوَزيرُ الرَّافِضيُّ ، وكَاتبَ هُولاكُو ، وطمَّعَه في العِراق ، فجاءَت رُسُلُ هُولاكُو إلىٰ بَغدادَ ، وفي الباطِنِ مَعهُم فَرَماناتٍ لغَيرِ واحدٍ ، والخَليفةُ لا يَدْري ما يَتمُّ ، وأيامُه قد وَلَّتْ ، وصاحبُ دِمَشْقَ شابٌّ غرٌّ جَبانٌ ، فبَعثَ وَلدَه الطِّفلَ مع الحافظيِّ بتقادم وتُحَف إلىٰ هُولاكُو فخَضَعَ له ، ومِصْرُ في اضْطِرابٍ بعدَ قَتْلِ المُعزِّ ، وصاحبُ الرُّوم قد هَربَ إلىٰ بلاد الأشْكُري ، فتمرَّدَ هُولاكُو وتَجبَّر ، واسْتولَىٰ على المَمالك وعاثَ جُندُه الكَفَرَةُ يَقْتلُون ويَأسِرُون ويَحْرِقُون .

ودخلت سنةُ ستٍّ فسَارَ عَسْكَرُ الناصر ، وعَليهم المُغيثُ ابنُ صاحبِ الكَرْك ، ليأخُذوا مِصْرَ فالتَقاهُم المُظفَّرُ قُطُز ، وهو نائبٌ للمَنصور عليٍّ وَلدِ المُعزِّ ، بالرَّمْلِ فكَسَرَهم ، وأسَرَ جَماعَةَ أُمَراء فضَرَبَ أعْناقَهم[2] .

٢٠ـ انْتشارُ الرَّفضِ ببَعضِ عَواصِم الإسْلام :

جاء في ترجمة « المُطيع لله » ، قال الذهبيُّ : وفي سنة ستين وثلاثِ مئة فُلجَ المُطيعُ ، وبَطُلَ نصْفُهُ ، وتَملَّك بَنو عُبَيد مِصرَ والشَّامَ ، وأذَّنوا بدِمَشْقَ بـ « حَيَّ علىٰ

---

(١) انظر السير : (القادِرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٤ .

(٢) انظر السير : (المستعصم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢٤ .

خَيرِ العَمَل » وغَلت البلادُ بالرَّفْضِ شَرقاً وغَرباً ، وخَفِيَت السُّنَّةُ قَليلاً ، واسْتباحَت الرُّومُ نَصِيبينَ وغَيرَها ، فلا قوَّةَ إلاَّ بالله .

ولمَّا تَحكَّم الفالِجُ في المُطيعِ دَعاهُ سُبُكْتكينُ الحاجبُ إلىٰ عَزلِ نَفسِه وتَسليمِ الخِلافَة إلى ابنِه الطَّائع ، ففَعَلَ ذلكَ سنةَ ثلاثٍ وستِّين ، وأثْبَتوا خَلعَه علىٰ أبي الحَسَن بنِ أمِّ شَيْبانَ القاضي ، ثم كان بعد يُدعَى الشَّيخَ الفاضِل .

وفيها أُقِيمَت الدَّعْوةُ العُبَيْديَّة بالحَرَمين للمُعِزِّ ، واسْتفحَلَ البلاءُ باللُّصُوصِ ببَغداد ، ورَكبوا الخَيلَ ، وأخَذوا الخِفَارَة ، وتَلقَّبوا بالقُوَّاد ، ثم إنَّ المُطيعَ خَرجَ ووَلدُه الخَليفةُ الطَّائعُ لله إلىٰ وَاسِط فماتَ هناك في المُحرَّم سنةَ أرْبع وستِّينَ وثلاثِ مئة بعد ثلاثةِ أشْهُر من عَزلِه ، وعُمرُه ثلاثٌ وستُّونَ سنةً ، رَحمه الله ، فكانت خِلافَتُه ثلاثينَ سنةً سِوىٰ أشْهر ، وفي أيّامِه تَلقَّبَ صاحبُ الأنْدَلُس الناصرُ المَرْوَانيُّ بأميرِ المؤمنين ، وقال : أنا أحَقُّ بهٰذا اللَّقب من خَليفةٍ مِنْ تَحتِ يدِ بني بُوَيْه ، وصَدقَ النَّاصرُ فإنَّه كان بَطلاً شُجاعاً ، سائساً مَهيباً ، له غَزَواتٌ مَشْهودَة ، وكان خَليقاً للخِلافَة ، ولكنْ كانَ أعظمَ منه بكثير المُعزُّ العُبَيْديُّ الإسْماعيليُّ النِّحْلَة ، وأوْسَعَ ممَالك حَكمَ على الحَرَمين ومِصْرَ والشَّامَ والمَغْربَ[1] .

وكان الرَّفضُ عَلانيةً بدمَشْقَ في سَنة أربع مئة ، ولقد أخَذَ نائبُها « تمصُولُت البَرْبَريُّ » رَجلاً في سنة ثلاثٍ وتسعينَ وثلاثِ مئة فطِيفَ به علىٰ حمارٍ : هٰذا جزاء مَنْ يُحبُّ أبا بكرٍ وعُمرَ ، ثم قُتِل .

وفي هٰذا الوَقت انبثَّتْ دُعاة الحاكم في الأطْرافِ ، فأمَرَ القادرُ بعَمل مَحْضَر يتضمن القَدْحَ في نَسَب العُبَيْديَّة ، وأنَّهم مَنْسُوبون إلىٰ دَيْصانَ بنِ سَعيد الخُرَّمي ، فشَهدوا جَميعاً أنَّ النَّاجِمَ بمِصْرَ مَنصورَ بنَ نزارٍ الحاكمَ حكمَ اللهُ عليه بالبَوار ، وأنَّ جَدَّهم لمَّا صارَ إلى الغَرب تَسمَّىٰ بالمَهْدي عُبَيد الله ، وهو وسَلفُه أرْجاسٌ خَوارج أدْعياء ، وأنَّ هٰذا النَّاجِمَ وسَلفَه كُفَّارٌ زَنادِقَة ، ولمَذْهَب الثَّنويَّة[2] والمَجوسيَّة

---

(١) انظر السير : (المطيع لله) ١٥/ ١١٣ـ١١٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٩٠ .

(٢) أصحاب الإثنين الأزليين النور والظُلمة ، يزعمون بأنهما أزليان قديمان انظر « الملل والنحل » .

مُعْتقدون ، عَطَّلوا الحُدودَ ، وأباحوا الفُروجَ وسَفكوا الدِّماءَ ، وسَبُّوا الأنْبياءَ ، ولَعَنوا السَّلَفَ ، وادَّعَوا الرُّبوبيَّة .

واسْتتابَ القادرُ فُقهاءَ المُعتزلَة ، فتبرَّؤا من الاعْتِزالِ والرَّفضِ وأُخِذَت خُطوطُهم بذلك .

وامتثلَ ابنُ سُبُكتكين أمرَ القادر ، فبَثَّ السُّنَّة بممَالكه وتَهدَّد بقَتلِ الرَّافِضَة والإسْماعيليَّة والقَرامِطَة ، والمُشبِّهَة والجَهْميَّة والمُعْتَزلَة ، ولُعِنوا على المَنابِر[1] .

قال الذهبيُّ في ترجمة المُعِزِّ : ظَهرَ هـٰذا الوَقتُ الرَّفضُ ، وأبْدَىٰ صَفحَتَه ، وشَمَخَ بأنفِه في مِصْرَ والشَّام ، والحِجازِ والغَربِ بالدَّولة العُبَيْديَّة ، وبالعِراقِ والجَزيرَة والعَجَم بَني بُوَيه ، وكانَ الخَليفةُ المطيعُ ضَعيفَ الدَّسْتِ والرُّتبَة مع بَني بُوَيه ثم ضَعُفَ بَدَنُه ، وأصَابَه فالِجٌ ، وخَرَسٌ فعَزَلوهُ ، وأقاموا ابنَه الطَّائعَ لله ، وله السِّكةُ والخُطْبَةُ ، وقَليلٌ من الأمُور ، فكانت مَمْلكةُ هـٰذا المُعزِّ أعظَمَ وأمْكَن .

وأُعلنَ الأذانُ بالشَّامِ ومِصْرَ بـ « حَيِّ علىٰ خَيرِ العَملَ » ، فللَّهِ الأمرُ كلُّه .

قِيلَ : ما عُرفَ عن المُعزِّ غيرُ التَّشَيُّع ، وكان يُطيلُ الصَّلاةَ .

وثارَت عليه القَرامِطَةُ ، واسْتولوا علىٰ كَثيرٍ من الشَّامِ ، وسارُوا حتىٰ أتَوا مِصْرَ ، فحارَبهم جَوْهَرٌ ، وجَرَت أمورٌ مَهُولَة .

وصلَّىٰ بالنَّاسِ المُعزُّ يَومَي العِيد صَلاةً طويلةً ، بحَيثُ أنَّه سَبَّح في السُّجودِ نَحوَ ثلاثين ، ثم خَطبَهم فأبْلَغ وأحَبَّتْه الرَّعيَّةُ .

وصَنَعَ شَمسيَّة لتُعمَلَ على الكَعْبَة ثَمانيَة أشْبارٍ في مثلِها من حَريرٍ أحْمَر ، وفيها اثْنا عَشرَ هِلالاً من ذَهَب ، وفي الهِلال تُرُنْجَةٌ[2] قد رُصِّعَت بجَواهِرَ وياقُوتٍ وزُمُرُّدٍ ، لم يُشاهِد أحَدٌ مثلَها .

ماتَ المُعزُّ سنةَ خَمسٍ وستِّين وثلاثِ مئة بالقاهِرَة المُعزِّيَّة ، وكان مَولدُه بالمَهْديَّة ،

---

(١) انظر السير : (القادِرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٤ .

(٢) ثمرة كالليمون ، ذهبية اللون ، زكية الرائحة ، ذات طعم حامض .

التي بَناها جَدُّهُم ، وعاشَ سِتاً وأربعينَ سنةً وكانت دولتُه أربعاً وعشرين سنةً .

وقد جَرىٰ علىٰ دِمَشْقَ وغيرِها من عَساكِر المَغاربة كلُّ قَبيحٍ من القَتلِ والنَّهْبِ وفعَلوا ما لا يَفعَلُه الفِرَنجُ ، ولولا خَوفُ الإطالَة لسُقتُ ما يُبْكي الأعْيُن[1] .

قال الذهبيُّ في ترجمة « عَضُدِ الدولَة » : فنَحْمدُ اللهَ على العافيَة ، فلقد جَرىٰ على الإسْلام في المئة الرابعَة بلاءٌ شَديدٌ بالدولَة العُبَيديَّة بالمَغرب ، وبالدولَة البُوَيْهيَّة بالمَشْرق ، وبالأعْرابِ القَرامِطَة ، فالأمر لله تعالىٰ[2] .

وجاء في ترجمة « ابنِ السِّمْسَار » ، قال الذهبيُّ : مات ابنُ السِّمْسار سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة ، وقد كَمَّلَ التسعين ، ولعلَّ تَشَيُّعَه كان تَقيَّةً لا سَجيَّة ، فإنَّه من بَيتِ الحَديثِ ، ولكن غَلت الشَّامُ في زَمانِه بالرَّفضِ ، بل ومِصْرَ والمَغْربَ بالدولَة العُبَيْديَّة ، بل والعِراق ، وبعض العجم بالدولة البُوَيْهيَّة ، واشْتدَّ البلاءُ دَهراً ، وشَمخَت الغُلاةُ بأنفِها ، وتَواخَى الرَّفضُ والاعْتِزالُ حينئذٍ ، والنَّاسُ علىٰ دين المَلك ، نَسألُ اللهَ السَّلامةَ في الدِّين[3] .

٢١ـ نادرة لواحد من أهل السنة مع شيعيٍّ غالٍ :

وقال محمدُ بنُ مُظفَّر الحافظُ ، حدَّثنا القاسِمُ المُطرِّز ، قال : دَخلتُ علىٰ عبَّاد بالكُوفَة ، وكان يَمتحِنُ الطَّلبَة ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟ قلتُ : اللهُ قال : هو كَذاك ، ولكن مَنْ حَفرَه ؟ قلتُ : يَذكُر الشَّيخُ ، قال : حَفرَه عليٌّ ، فمَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : اللهُ قال : هو كَذلك ، ولكن مَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : يُفيدني الشَّيخُ قال : أجراهُ الحُسَينُ ، وكان ضَريراً ، فرأيتُ سَيفاً وحَجَفَةً[4] فقلتُ : لمنْ هٰذا ؟ قال : أعْدَدتُه لأقاتل به مع المَهدي ، فلمَّا فَرغتُ من سَماع ما أردْتُ ، دَخلتُ عليه ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟

---

(١) انظر السير : (المُعِزّ) ١٥/١٥٩ـ١٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٤ .
(٢) انظر السير : (عَضُد الدولة) ١٦/٢٤٩ـ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٣ .
(٣) انظر السير : (ابنُ السِّمسار) ١٧/٥٠٦ـ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٦ .
(٤) الحجفة : هي الترس .

قلتُ : حفَرَهُ مُعاويةُ رَضيَ اللهُ عنه ، وأجْراهُ عَمرو بنُ العاص ، ثم وَثَبتُ وعَدَوْتُ فجعلَ يَصيحُ : أدْركوا الفاسِقَ عَدوَّ الله ، فاقْتُلوه إسْنادُه صَحيح ، وما أدْري كيف تَسَمَّحوا في الأخْذِ عمَّن هـٰذا حالُه ؟ وإنَّما وَثِقوا بصِدْقِه .

قال البُخاريُّ : ماتَ عبَّادُ بنُ يَعقُوب في سنة خمسين ومئتين .

ورأيتُ له جُزءاً من كتاب « المَناقِب » ، جَمعَ فيها أشياءَ ساقِطَة قد أغْنى اللهُ أهلَ البَيتِ عنها ، وما أعتَقده يَتعمَّدُ الكَذبَ أبداً[1] .

٢٢ـ تَعريفُ الخَليفَة ابنَه بجَهْلِ الرَّافِضَة :

قال ابنُ النجَّار : حَكى ابنُ صَفيّة أنَّ المُقْتَفي رَأى ابنَه يُوسُفَ في الحَرِّ ، فقال : أيش في فَمِك ؟ قال : خَاتم يَزْدَن عليه أسماءُ الإثني عشَر ، وذلك يُسكِّنُ العَطَش ، قال : وَيْلَك يُريدُ يَزْدَن أنْ يُصيِّرَكَ رافِضيّاً ، سَيِّدُ الإثني عَشر الحُسينُ رضي الله عنه وماتَ عَطشان[2] .

٢٣ـ رُؤْيا تُفيدُ التَّحذيرَ مِنْ سَبِّ الشَّيخَينِ :

قال ابنُ قانِع : سَمعتُ عيسىٰ بنَ محمّد الطَّهمانيَّ ، سَمعتُ الأميرَ إسْماعيلَ يقولُ : جاءَنا أبُونا بمؤدِّبٍ ، فعلَّمنا الرَّفْضَ ، فنِمتُ ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومَعه أبو بَكر وعُمر ، رَضي الله عَنهما ، فقال لي : « لِمَ تَسُبُّ صَاحِبَيَّ ؟ » فوقَفتُ ، فقال لي بيَدِه فنَفَضَها في وَجْهي فانتَبَهتُ فَزِعاً أرْتَعدُ من الحُمَّىٰ ، فكُنتُ على الفِراشِ سَبعَة أشْهُر ، وسَقطَ شَعري ، فدخَلَ أخي ، فقال : أيش قِصَّتُك ؟ فأخْبَرتُه ، فقال : اعْتَذِرْ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذَرتُ وتُبتُ ، فما مَرَّ لي إلاَّ جُمُعَة حتىٰ نَبَتَ شَعري .

قال الذهبيُّ : كان هو وآباؤُه مُلوكَ بُخارَىٰ وسَمَرْقَند ، وله غَزَواتٌ في التُّرْك ، وهو

---

(١) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/٥٣٦ـ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٠ .

(٢) انظر السير : (المُستَنْجِد بالله) ٢٠/٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٦٩ .

الذي ظَفِرَ بعَمرو بنِ اللَّيثِ وأسَره ، فجاءَه من المُعْتضِد التَّقليدُ بولاية خُراسان وما يَليها ، وكانت سَلطَنتُه مدّة سَبع سِنين .

تُوفِّيَ ببُخارَىٰ سنة خمس وتسعين ومئتين ، فتملَّكَ بعدَه ابنُه أحمد .

وماتَ ابنُه السُّلطانُ أبو نَصْر أحمدُ سنةَ إحْدىٰ وثلاثِ مئَة ، قَتَلَه مَماليكُه ، ثم مَلَّكُوا وَلدَه نصراً ، فدامَ ثلاثينَ عاماً ، فأحْسَنَ السِّيرَة ، وعَظُمَتْ هَيبَتُه[1] .

* * *

(١) انظر السير : (صاحبُ خُراسَان) ١٤/ ١٥٤ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٩ .

سادساً : الفلاسفة والمناطقة

١ـ النَّظرُ في كُتبِ الفَلاسِفَة ـ بغَير علمٍ شَرعيٍّ وتَوفيقٍ إلَـهيٍّ ـ مُهْلِك :

جاء في ترجمة الفَارَابي ، قال الذهبيُّ : شَيخُ الفَلسَفَة الحَكيمُ ، أبو نَصر ، محمدُ بنُ محمدِ بنِ طَرْخَان بنِ أَوْزَلَغ التُّركيُّ الفَارَابيُّ المَنْطِقيُّ ، أحدُ الأذْكياء .

له تَصانيفُ مَشهورَة ، مَنِ ابْتَغَى الهُدَىٰ منها ، ضَلَّ وحَارَ ، ومنها تَخرَّجَ ابنُ سِينا ، نَسألُ اللهَ التوفيق .

وقد أحْكَمَ أبو نَصر العَربيَّةَ بالعِراق ، ولَقيَ مَتَّىٰ بنَ يونُس[1] صاحبَ المَنْطِق ، فأخَذَ عنه ، وسارَ إلىٰ حرَّان فلَزِمَ بها يُوحَنّا بنَ جيلان النَّصْراني ، وسارَ إلىٰ مِصْرَ ، وسَكنَ دِمَشْقَ .

وكان يحبُّ الوَحْدَة ، ويصنِّف في المواضع النَّزِهَة ، وقلَّ ما يُبيِّضُ منها .

وكان يتَزهَّدُ زُهدَ الفَلاسِفة ، ولا يَحتفلُ بمَلْبَسٍ ولا مَنزِلٍ ، أجْرَىٰ عليه ابنُ حمدانَ في كلِّ يومٍ أربعَة دَراهم .

ويُقالُ : إنَّهم سألوه أأنتَ أعلمُ أو أرِسْطو ؟ فقال : لو أدركتُه لكنتُ أكبرَ تلامذتِه .

ولأبي نَصْر نظْمٌ جيِّد ، وأدعِيةٌ مَليحَة على اصْطِلاحِ الحُكماء .

ذكرَه ابو العبَّاس بن أبي أُصَيْبعَة ، وسَردَ أسامِيَ مُصنَّفاته ، وهي كثيرة ، منها مقالَة في إثباتِ الكيمياء ، وسائرُ تَواليفِه في الرِّياضيِّ والإلهيِّ .

وبدمَشْق كان موتُه سنةَ تسع وثلاثين وثلاث مئة عن نَحو من ثمانين سنة[2] .

---

(١) إليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره ، وكان نصرانياً ، توفي ببغداد سنة ٣٢٨ هـ انظر « طبقات الأطباء » : ٣١٧ ، واسمه فيه « متّى بن يونان » .

(٢) انظر السير : (الفارَابيُّ) ١٥/ ٤١٦ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١٢٤٥/ الفارابي .

٢ـ الاشْتغالُ بالفَلسَفَة والمَنْطِق لا يأتي بخَير :

(أ) الشَّهْرَسْتانيّ :

قال الإمام الذهبيُّ في ترجمة « الشَّهْرَسْتانيّ » : هو الأفضلُ محمدُ ابنُ عبد الكَريم بنِ أحمد الشَّهْرَسْتانيّ ، أبو الفَتح شَيخُ أهلِ الكَلام والحِكْمة ، وصاحبُ التَّصانيف .

برَعَ في الفِقْه ، وقَرأ الأصُولَ ، وصنَّف كتاب « نِهايَة الإقْدام » وكتاب « المِلَلْ والنِّحَل » ، وكان كَثيرَ المَحْفوظ ، قَويَّ الفَهْم ، مَليحَ الوَعْظ .

وُلدَ سَنة سَبع وسِتين وأربع مئة .

وقال في « التَّحْبير » : هو من أهل « شَهْرسْتانة » ، كان إماماً أصُولياً ، عارفاً بالأدَب وبالعُلوم المَهْجُورة ، قال : وهو مُتَّهم بالإلْحاد غالٍ في التشيُّع .

وقال ابنُ أرْسلان في « تاريخ خَوارِزْم » : عالمٌ كَيِّسٌ مُتقِنٌ ، ولولا مَيلُهُ إلىٰ أهل الإلْحاد وتَخبُّطُه في الاعْتقاد ، لكان هو الإمام ، وكثيراً ما كنَّا نَتعجَّبُ من وفُور فَضله كيف مال إلىٰ شيء لا أصْلَ له ؟!! نعوذ بالله من الخُذْلان ، وليس ذلك إلاَّ لإعْراضِه عن علم الشَّرْع ، واشْتغاله بظُلماتِ الفَلسفَة ، وقد كانت بيننا مُحاوَرات فكيفَ يُبالغ في نُصْرة مَذهب الفَلاسفَة والذبِّ عنهم .

حَضرتُ وَعْظَه مرَّات فلم يكنْ في ذلك قال الله ، ولا قال رسولُه ، سأله يوماً سائلٌ ، فقال : سائرُ العُلماء يَذكرون في مَجالِسهم المَسائل الشَّرعيَّة ، ويُجيبون عنها بقول أبي حَنيفة والشَّافعيِّ وأنت لا تَفعلُ ذلك ؟! فقال : مَثَلي ومَثَلُكم كمَثل بَني إسْرائيلَ يأتيهم المَنُّ والسَّلْوَىٰ ، فسألوا الثُّوْمَ والبصَل .

ماتَ بشَهْرسْتانَة سنة تسع وأربعين وخَمس مئة[1] .

---

(١) انظر السير : (الشَّهْرَسْتانيّ) ٢٠/ ٢٨٦ـ ٢٨٨ ، وانظر النزهة : ١٥٥٢/ الشَّهْرَسْتانيّ .

(ب) صَدقَة بنُ الحُسَين :

قال الإمام الذهبيُّ : هو العلاَّمة أبو الفَرج ابنُ الحَدَّاد البَغداديُّ الحَنْبَليّ النَّاسِخُ الفَرَضي ، المُتكلِّم ، المتَّهَم في دينه[1] .

قال ابنُ الجَوْزي : يَظهرُ من فَلتَات لسانِه ما يَدلُّ علىٰ سُوء عَقيدَتِه ، وكان لا يَنْضَبطُ ، وله مَيلٌ إلى الفَلاسِفَة ، قال لي مرَّة : أنا الآن أخاصِمُ فَلَكَ الفلك .

وقال لي القاضي أبو يَعْلى الصَّغيرُ : مُذْ كَتبَ صَدقةُ « الشِّفاء » لابنِ سينا تغيَّرَ .

وقال للظَّهير الحَنَفي : إني لأفْرَحُ بتَعثيري لأنَّ الصَّانعَ يَقْصِدُني .

مات في سنة ثلاث وسبعين وخَمس مئة ، وهو في عَشْر الثمانين .

وكان يَطلبُ من غير حاجَة[2] ، وخلَّف ثلاث مئة دينار ، ورُويت له مَناماتٌ نَجِسةٌ أعَاذَنا الله من الشَّقاوَة[3] .

٣ـ فَتوىٰ في الفلسفة والمنطق :

قال الإمام الذهبيُّ في ترجَمة « ابنِ الصَّلاح » : ومن فَتَاويه أنَّه سُئل عَمَّن يَشتغلُ بالمَنْطِق والفَلسفَة ، فأجابَ : الفَلسفَةُ أُسُّ السَّفَه والانْحِلال ، ومادَّةُ الحَيْرَة والضَّلالِ ، ومَثارُ الزَّيْغ والزَّندَقَة ، ومَنْ تَفلسَف عَميَت بَصيرَتُه عن مَحاسِن الشَّريعَة المُؤيَّدَة بالبَراهين ، ومَنْ تلبَّسَ بها ، قارَنَهُ الخُذْلانُ والحِرْمانُ ، واسْتَحْوذَ عليه

---

(١) انظر السير : (صَدَقَةُ بن الحُسَين) ٢١/ ٦٦ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٩٧ .

(٢) نقل ابن رجب عن ابن النجار قوله : « وقد نسخ بخطه كثيراً للناس من سائر الفنون ، وكان قوته من أجرة نسخه ، ولم يطلب من أحد شيئاً ، ولا سكن مدرسة ، ولم يزل قليل الحظ ، منكسر الأغراض ، متنغص العيش ، مقتراً عليه أكثر عمره فكان ربما شكا حاله لمن يأنس به ، فيشنع عليه من له فيه غرض ، ويقول : هو يعترض على الأقدار وينسبه إلىٰ أشياء الله أعلم بحقيقتها » (الذيل : ١/ ٣٣٩ـ ٣٤٠) ، ويظهر لنا أن ابن الجوزي قد حطَّ عليه في تاريخه حطّاً بليغاً لم يكن كله من الحق ، قال أبو الحسن القطيعي في ما نقل عنه الحافظ ابن رجب : « كان بينه وبين ابن الجوزي مباينة شديدة ، وكل واحد يقول في صاحبه مقالة الله أعلم بها » (الذيل : ١/ ٣٤٠) ، وقد أثنىٰ عليه محدِّثُ بغداد المحب ابن النجار في تاريخه ، وقال : « وله مصنفات حسنة في أصول الدين » .

(٣) انظر السير : (صَدَقَةُ بن الحُسَين) ٢١/ ٦٦ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٩٧ .

الشَّيطانُ ، وأظلَمَ قلبُه عن نُبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، إلىٰ أنْ قالَ : واسْتعمالُ الاصْطلاحَات المَنْطِقيَّة في مَباحِث الأحْكام الشَّرعيَّة من المُنْكَرات المُستَبشَعة ، والرَّقاعَات المُستحْدَثة ، وليس بالأحْكام الشَّرعية ـ ولله الحمد ـ افْتِقارٌ إلى المَنْطِق أصْلاً ، هو قعاقعٌ قد أغْنى الله عنها كلَّ صَحيح الذِّهن ، فالوَاجِبُ على السُّلطان أعزَّه الله أنْ يَدفَعَ عن المسلمين شَرَّ هَؤلاء المَشائيم ، ويُخرجَهم من المَدارس ويُبعدَهم .

تُوفِّي الشَّيخُ تقيُّ الدين ـ رَحمَه الله ـ في سَنة الخَوارِزْميَّة سنة ثلاث وأربَعين وستِّ مئة ، وحُملَ على الرُّؤوس ، وازْدَحمَ الخَلقُ علىٰ سَريرِه ، وكان علىٰ جنازَته هَيبةٌ وخُشوعٌ ، فصُلِّيَ عليه بجامع دِمَشْقَ ، وشَيَّعوه إلىٰ داخل باب الفَرَج فصلُّوا عليه بداخله ثاني مرَّة ، ورَجعَ النَّاسُ لمكانِ حِصارِ دِمَشْقَ بالخَوارِزْميَّة وبعَسْكَر المَلك الصَّالح نَجمِ الدين أيُّوب لعَمِّه المَلك الصَّالح عِماد الدِّين إسْماعيل ، فخَرَجَ بنَعْشِه نَحو العَشْرة مُشمِّرين ، ودَفَنوه بمَقابِر الصُّوفيَّة .

وقَبرُه ظاهرٌ يُزارُ في طَرف المَقْبرَة من غَربيِّها على الطَّريقِ ، وعاشَ ستّاً وستينَ سنة[1] .

٤ـ أمْثلةٌ على الفَلاسِفَة :

(أ) يَعقُوبُ بنُ إسْحاق بنِ الصَّبَّاح :

قال الذهبيُّ : هو ابنُ الصَّبَّاح ، الكِنديُّ الأشْعَثيُّ الفَيلسُوفُ ، صاحبُ الكُتب ، من وَلدِ الأشْعَث بنِ قَيسٍ ، أميرِ العَرَب[2] .

كان رَأساً في حِكْمة الأوَائل ومَنطِق اليُونان والهَيئَة والتَّنْجيم والطِّبِّ وغَير ذلك ، لا يُلحَق شَأوُه في ذلك العلم المَترُوك ، وله باعٌ أطْوَلُ في الهَندسَة والمُوسيقىٰ .

كان يُقالُ له : فَيلسوفُ العَرب ، وكان متَّهَماً في دينِه ، بَخيلاً ساقِطَ المَروءَة ، وله

---

(١) انظر السير : (ابنُ الصَّلاح) ٢٣/ ١٤٠ـ ١٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧١٧ .

(٢) انظر السير : (يعقوب بن إسحاق) ١٢/ ٣٧٧ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٠٥ .

نَظمٌ جَيِّد وبلاغَة وتلامِذَة ، همَّ بأن يَعملَ شَيئاً مثل القُرآن ، فبعدَ أيام أذعَنَ بالعَجْز[1] .

وقال عبدُ الرَّحمٰن بنُ يَحْيَىٰ بنُ خاقان : رَأيتُه في النوم ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بك ؟ قال : ما هو إلاَّ أنْ رآني فقال : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[2] ، [3] .

(ب) السَّرَخْسيّ :

قال الذهبيُّ في ترجمة « السَّرْخَسيِّ » : الفَيلسوفُ البارِعُ ، ذو التَّصانيف ، أبو العبَّاس ، أحمدُ بنُ الطَّيِّب السَّرْخَسيّ ، من بُحور العلم الذي لا يَنفَع .

وكان مُؤدِّب المُعْتَضِد ، ثم صار نَديمَه وصاحِبَ سرِّه ومَشورَتِه ، وله رئاسَةٌ وجَلالةٌ كَبيرَة ، وهو تلميذُ يَعقوبَ بنِ إسْحاق الكِندي الفَيلسُوف .

ثم إنَّ المُعْتَضِد انتَخَىٰ لله ، وقَتَلَ السَّرْخَسيَّ لفَلسَفتِه وخُبثِ مُعْتَقدِه فقيلَ : إنَّه تَنصَّلَ إليه ، وقالَ : قد بِعتُ كُتبَ الفَلسَفة والنُّجوم والكَلام ، وما عندي سِوَىٰ كُتب الفِقْه والحَديث ، فلمَّا خَرجَ قال المُعْتَضِد : والله إنِّي لأعلَمُ أنَّه زِنْديقٌ ، فَعلَ ما زَعمَ رِياءً .

ويُقالُ : إنَّه قالَ له : لكَ سالِفُ خِدَم ، فكيف تَختارُ أنْ نَقْتُلَك فاختارَ أنْ يُطعَم كَبابَ اللَّحم ، وأن يُسْقَىٰ خَمراً حتىٰ يَسْكر ، ويُفصَد في يديه ، ففُعِلَ به ذلك ، فصُفِّي من الدَّم ، وبَقيَت فيه حياةٌ ، وغَلبَت عليه الصَّفراءُ ، وجُنَّ ، وصاحَ ، وبقي يَنطحُ الحائطَ لفَرْطِ الآلام ، ويَعدوا كثيراً حتىٰ مات ، وذلك سَنة ستٍّ وثمانين ومئتين[4] .

(ج) ابنُ سِينا :

قال الذهبيُّ في تَرجمة « ابنِ سينا » : العلاَّمة الشَّهير الفَيلسُوف ، أبو عليّ ، الحُسَينُ بنُ عبد الله بنِ الحَسَن بنِ عليٍّ ابنِ سينا ، البَلْخِي ثم البُخاري ، صاحِبُ التَّصانيف في الطِّبِّ والفَلسَفَة والمَنْطِق .

---

(١) انظر السير : (يعقوب بن إسحاق) ١٢/ ٣٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠٠٦/ ١ .

(٢) سورة المرسلات ، الآية : ٢٩ .

(٣) انظر السير : (يعقوب بن إسحاق) ١٢/ ٣٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠٠٦/ ٢ .

(٤) انظر السير : (السَّرَخْسيّ) ١٣/ ٤٤٨ـ٤٤٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٢/ السَّرَخْسيّ .

كان أبوهُ كاتباً من دُعاة الإسْماعيليَّة ، فقالَ : كان أبي تَولَّى التَّصرفُ بقَرية كَبيرة ، ثم نزل بُخارَىٰ ، فقَرأتُ القُرآنَ وكَثيراً من الأدَب ولي عَشرٌ ، وكان أبي مِمَّنْ آخَىٰ داعي المصْريِّين ، ويُعَدُّ من الإسْماعيليَّة .

ثم ذكَر مَبادىء اشْتغاله ، وقُوَّةَ فَهْمه ، وأنَّه أحْكَم المَنْطِق وكتاب إقْلِيدَس إلىٰ أنْ قالَ : ورَغِبتُ في الطِّبِّ ، وبرَّزْتُ فيه ، وقَرؤوا عليَّ ، وأنا مع ذلك أخْتلفُ إلى الفِقْه ، وأُناظِرُ وليَ سِتَّ عَشرة سَنة .

ثم قَرأتُ جَميعَ أجْزاء الفَلسفَة ، وكنت كلَّما أتَحيَّر في مَسألَة ، أو لمْ أظْفَر بالحَدِّ الأوْسَط في قياس ، تردَّدتُ إلى الجامع ، وصلَّيتُ ، وابتهَلْتُ إلىٰ مُبدِع الكلِّ حتىٰ فُتحَ لي المُنْغَلقُ منه ، وكنتُ أسهرُ ، فمَهْما غَلبَني النومُ شَربتُ قَدَحاً إلىٰ أنْ قالَ : حتى اسْتحكَم معي جَميعُ العُلوم .

واتَّفقَ لسُلطان بُخارَىٰ نوح مرضٌ صَعبٌ ، فأُحضرْتُ مع الأطِباء ، وشاركتُهم في مُداواتِه ، فسألتُ إذناً في نَظر خزانَة كُتبه ، فدخلتُ فإذا كتبٌ لا تُحصَىٰ في كلِّ فنٍّ ، فظَفرتُ بفَوائدَ إلىٰ أنْ قالَ : فلمَّا بَلغتُ ثمانية عَشرَ عاماً ، فَرغتُ من هٰذه العُلوم كلِّها ، وكُنتُ إذ ذاك للعلم أحفظُ ، ولكنَّه معي اليومَ أنْضَج ، وإلاَّ فالعلمُ واحدٌ لمْ يَتجدَّد لي شيءٌ ، وصنَّفتُ « المَجموعَ » فأتيتُ فيه علوم ، وسألني جارُنا أبو بكر البرقي ، وكان مائلاً إلى الفقه والتفسيرِ والزُّهْد ، فصنَّفتُ له « الحاصِلَ والمَحْصولَ » في عِشرينَ مُجلَّدةً ، ثم تَقلَّدتُ شَيئاً من أعمال السُّلطان وكنتُ بزيِّ الفُقَهاء إذْ ذاك .

ثم نزل الريَّ وخَدمَ مَجدَ الدولَة وأُمَّه ، ثم خرجَ إلىٰ قَزْوينَ وهَمَذانَ فوزَرَ بها ، ثم قامَ عليه الأُمَراءُ ، ونَهَبوا دارَه ، وأرادُوا قَتلَه ، فاخْتَفىٰ فعاوَد مُتوَلِّيها شمسَ الدولة القُولَنْجُ ، فطلبَ الرئيس ، واعتذرَ إليه فعالَجَه فبَرأَ ، واسْتوزرَه ثانياً ، وكانوا يَشتغلون عليه ، فإذا فَرَغوا حَضرَ المُغَنُّون ، وهُيِّىءَ مَجلسُ الشَّراب ثم مات الأميرُ ، فاخْتَفىٰ أبو عليّ عند شَخص ، فكان يؤلِّفُ كلَّ يوم خَمسينَ وَرَقَة ، ثم أُخِذَ وسُجِنَ أربعة أشْهرٍ ثم تَسحَّب إلىٰ أصْبَهان مُتنكِّراً في زيِّ الصُّوفيَّة هو وأخُوه وخادِمُه وغُلامان .

وقاسوا شدائدَ ، فبالغ صاحبُ أصْبَهان عَلاءُ الدولَة في إكْرامِه وكان الشَّيخُ قَويَّ

القُوَىٰ كلِّها ، يُسرفُ في الجِماع ، فأثَّرَ في مِزاجِه ، وأخذَه القَوْلَنجُ ، ثم حَصَل له الصَّرَع ، وسَقطَت قوتُه ، فأهْملَ العلاجَ .

قال ابنُ خَلِّكان : ثم اغتسلَ وتابَ ، وتَصدَّقَ بما معه على الفُقراء وردَّ المَظالم ، وأعْتَق مَماليكَه ، وجَعلَ يختِمُ القُرآنَ في كلِّ ثلاثٍ ، ثم ماتَ سنةَ ثمانٍ وعشرين وأربع مئة ، ومَولدُه في سَنةِ سَبعين وثلاث مئة .

وهو رأسُ الفَلاسفَة الإسْلاميَّة ، لمْ يأتِ بعدَ الفارابي مثلُه ، فالحمدُ لله على الإسلام والسُّنَّة .

وله كتابُ « الشِّفاء » ، وغيرُه وأشياءَ لا تُحْتمَل ، وقد كفَّرَه الغَزاليُّ في كتاب « المُنْقِذُ من الضَّلال » وكفَّر الفارابي[1] .

وقال الرئيسُ : قد صَحَّ عندي بالتَّواتُر ما كان بجَوْزجان في زَمانِنا من أمر حديد ـ لعلَّه زِنَة مئة وخمسين مَنّاً ـ نزلَ من الهَواءِ ، فنشَبَ في الأرض ، ثم نَبا نَبْوَة الكُرة ، ثم عادَ ، فنَشبَ في الأرض ، وسُمع له صوتٌ عظيمٌ هائلٌ ، فلمَّا تَفقَّدوا أمرَه ، ظفِروا به ، وحُملَ إلىٰ والي جوزجان فحاوَلوا كَسْرَ قِطعَة منه ، فما عَملت فيه الآلاتُ إلاَّ بجَهدٍ ، فراموا عَمل سَيفٍ منه ، فتَعذَّر ، نقَلُه في « الشِّفاء »[2] .

(ج) السُّهْرَوَرْديّ :

قال الذهبيُّ في ترجَمة السُّهْرَوَرْديِّ : العلاَّمة الفيلسوف السَّيَماويُّ ، شهابُ الدين يَحيىٰ بنُ حَبَش السُّهْرَوَرْديُّ ، مَنْ كان يتَوَقَّدُ ذكاءً ، إلاَّ أنَّه قليلُ الدِّين .

وقال ابنُ أبي أُصيبعة : اسمه عُمر ، وكانَ أوحدَ في حِكْمة الأوَائل ، بارِعاً في أصُول الفِقْه ، مُفرطَ الذكاء ، فَصيحاً ، لمْ يُناظِرْ أحداً إلاَّ أرْبَىٰ عليه[3] .

وقال ابنُ أبي أُصَيبِعَةَ : وحَدَّثني إبراهيمُ بنُ صدقَة الحَكيمُ ، قال : خَرَجْنا من بابِ

---

(١) انظر السير : (ابنُ سينا) ١٧/ ٥٣١ـ ٥٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٧ .
(٢) انظر السير : (ابنُ سينا) ١٧/ ٥٣١ـ ٥٣٧ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٩ .
(٣) انظر السير : (السُّهْرَوَرْديُّ) ٢١/ ٢٠٧ـ ٢١١ ، وانظر النزهة : ٤/١٦١٣ .

الفرجِ معه ، فذَكَرْنا السِّيمياءَ فقالَ : ما أَحْسَنَ هٰذه المَواضِعَ ، فنَظَرْنا من ناحيةِ الشَّرقِ جواسَقَ مُبيضةً كبيرةً مُزَخْرَفةً ، وفي طاقاتِها نِساءٌ كالأقْمَارِ ومَغاني ، فتَعَجَّبنا ، وانْذَهَلْنا ، فبَقِينا ساعةً ، وعُدْنا إلىٰ ما كُنَّا نَعْهَدُه ، إلاَّ أنِّي عِندَ رُؤْيَة ذلك بَقيتُ أُحِسُّ من نَفْسِي كأنَّني في سَنةٍ خَفيةٍ ، ولَمْ يَكُنْ إدْراكِي كالحَالَةِ التي أتَحَقَّقُها منِّي وحَدَّثني عَجَمِيٌّ قالَ : كُنَّا مع السُّهْرَوَرْديِّ بالقابُونِ[1] فقُلنَا : يا مَوْلانا ، نُريدُ رَأسَ غَنَم ، فأعْطانا عَشْرَةَ دَراهِمَ ، فاشْتَرَيْنا بها رَأساً ، ثمَّ تَنازَعْنا نَحنُ والتُّرْكُمانيّ[2] ، فقالَ الشَّيخُ : رُوحُوا بالرَّأسِ ، أنا أُرْضِيهِ ، ثمَّ تَبِعَنا الشَّيخُ ، فقال التُّرْكُمانيُّ : أرْضِني ، فما كَلَّمَه ، فجاءَ ، وجَذَبَ يَدَهُ ، فإذا بيَد الشَّيخِ قد انْخَلَعَتْ من كَتِفِه ، وبَقِيَتْ في يَدِ ذَاكَ ، ودَمُها يَشْخَبُ ، فرَماها ، فأخَذَ الشَّيخُ يَدَه باليَدِ الأُخْرَىٰ ، وجاءَ .

وله كِتابُ « التَّلْويحاتِ اللَّوْحيَّة والعَرْشيَّة » ، وكِتابُ « اللَّمْحَة » ، وكِتابُ « هَياكِل النُّور » ، وكِتابُ « المَعَارِجُ والمُطَارَحَات » ، وكِتابُ « حِكْمَةُ الإشْراقِ » وسائِرُها لَيْسَ من عُلُومِ الإسْلام .

قال ابنُ خلِّكان : وكان يُتَّهَمُ بالانْحِلالِ والتَّعْطِيلِ ، ويَعْتَقدُ مَذهبَ الأوَائِل ، اشْتُهِرَ ذلكَ عَنه ، وأَفْتَىٰ عُلَمَاءُ حَلَبَ بقَتْلِه .

قال الذهبيُّ : أَحْسَنُوا وأصَابُوا[3] .

وقال المُوَفَّقُ يَعيشُ النَّحْويُّ : لمَّا تَكلَّمُوا فيه ، قالَ له تِلمِيذُه : إنَّكَ تَقُولُ : النُّبُوَّةُ مُكْتَسَبَةٌ ، فانْزِحْ بنا ، قالَ : حتّىٰ نَأكُلَ بطيخَ حَلبَ ، فإنَّ بي طَرَفاً من السُّلِّ ، ثمَّ خَرَجَ إلىٰ قَريةٍ بها بطيخٌ ، فأقَمْنا أيّاماً ، فجَاءَ يَوماً إلىٰ مَحْفرةٍ فحَفَرَ حتىٰ ظَهرَ له حَصَىٰ ، فدَهَنَه بدُهْنٍ معَه ، ولَفَّهُ في قُطنٍ ، وحَمَلَه في وَسَطِه أيّاماً ، ثمَّ ظَهرَ كُلُّهُ ياقُوتاً أحْمَر ، فباعَ منه ، ووَهَبَ أصْحابَه ، ولمَّا قُتِلَ كان مَعهُ منْهُ .

قال الذهبيُّ : كانَ أحمَقَ طيَّاشاً مُنْحَلاً .

---

(١) قرية علىٰ باب دمشق في طريق من يتوجه إلىٰ حلب .

(٢) صاحب الغنم .

(٣) انظر السير : (السُّهْرَوَرْديُّ) ٢١/ ٢٠٧ـ ٢١١ ، وانظر النزهة : ١/١٦١٤ .

قُتِلَ في أوائِل سَنةَ سَبعٍ وثمانينَ وخَمسِ مِئَة[1] .

٥ـ حاكمٌ يَكْرَهُ عالماً لاشْتِغاله بالفلسفة والمَنْطِقْ :

جاء في ترجمة « السَّيْف » ، سيفُ الدين عليٌّ بن أبي عليٍّ بن محمد ابن سالم التغْلِبيِّ الآمديِّ ، الحَنبَليُّ ، ثم الشافعيُّ .

قال الذهبيُّ : كان أولادُ العادِل كلُّهم يَكرَهونه لما اشْتُهر عنه من علم الأوَائل والمَنْطِق ، وكان يَدخُلُ على المُعَظَّم فلا يَتحرَّكُ له ، فقلتُ : قم له عِوَضاً عنِّي ، فقال : ما يَقبلُه قَلبي .

وكان القاضي تقيُّ الدين سُليمانُ بنُ حَمزة يَحْكي عن شَيخِه ابنِ أبي عُمر قال : كنا نَتردَّدُ إلى السَّيْف ، فشَكَكْنا هل يُصلِّي أمْ لا ؟ فنامَ ، فعَلَّمْنا علىٰ رجلِه بالحِبْر فبَقيت العَلامَةُ يَومَين مَكانَها ، فعَلِمْنا أنَّه ما تَوضَّأ ، نَسألُ اللهَ السَّلامَة في الدِّين .

قال لي شَيخُنا ابنُ تَيْميَة : يَغلبُ على الآمديِّ الحِيرةُ والوَقفُ ، حتىٰ إنَّه أَوْرَد علىٰ نَفسِه سُؤالاً في تَسَلسُل العِلَل ، وزَعمَ أنَّه لا يَعرفُ عَنه جَواباً وبنَىٰ إثْباتَ الصَّانع علىٰ ذلك ، فلا يُقَرِّرُ في كُتبِهِ إثْباتَ الصَّانع ، ولا حُدوثَ العالَم ، ولا وَحْدانيَّةَ اللهِ ، ولا النبُوَّات ، ولا شَيئاً من الأصُولِ الكِبار .

قال الذهبيُّ : هـٰذا يَدلُّ علىٰ كَمال ذِهْنه ، إذْ تَقريرُ ذلك بالنَّظَر لا يَنهضُ وإنَّما يَنهَضُ بالكِتابِ والسُّنَّة ، وبكلٍّ قد كان السَّيْفُ غايةً ، ومَعرفَتُه بالمَعْقول نهايَة ، وكان الفُضَلاءُ يَزْدَحِمونَ في حَلقَتِه .

قال ابنُ خَلِّكان : سَمعتُ ابنَ عبدِ السَّلام يقولُ : ما سَمعتُ مَنْ يُلقِي الدَّرسَ أحْسنَ من السَّيْف ، كأنَّه يَخطُب ، وكان يُعظِّمُه[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (السُّهْرَوَرْديُّ) ٢١/ ٢٠٧ـ ٢١١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦١٤ .

(٢) انظر السير : (السَّيْف) ٢٢/ ٣٦٤ـ ٣٦٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٧٠٢ .

سابعاً : القَدَريَّة والجَبْريَّة

١ـ عِلاجُ الفِكر في القَدَر :

قال قَتادَة : قال مُسلمُ بنُ يَسار في الكَلام في القَدَر : هُما وَادِيان عَميقان ، يَسلُك فيهما النَّاسُ ، لن يُدرَك غورُهما ، فاعْمَلْ عَملَ رَجلٍ تَعلمُ أنَّه لَنْ يُنجيكَ إلاَّ عَملُك ، وتَوكَّل توكُّلَ رَجلٍ تَعلم أنَّه لا يُصيبُك إلاَّ ما كَتبَ اللهُ لك[١] .

وقال عبدُ الله بنُ بَكر : أخْبرتني أختي قالت : كان أبُوكَ قد جعلَ علىٰ نفسِه أنْ لا يَسمَع رَجلَين يَتنازَعان في القَدَر إلاَّ قامَ فصلَّىٰ رَكعتين .

قال الذهبيُّ : هـٰذا يَدلُّ علىٰ أنَّ البَصْرةَ كانت تَغلي في ذلك الوقت بالقَدَر ، وإلاَّ فلو جَعلَ الفَقيهُ اليومَ علىٰ نفسِه ذلك لأوْشَكَ أنْ يَبقَى السَّنَةَ السَّنَتَين لا يَسمعُ مُتنازعَين في القَدَر ولله الحَمدُ ، ولا يَتظاهرُ أحدٌ بالشَّامِ ومِصْرَ بإنْكارِ القَدَر[٢] .

قال ربعيُّ بنُ إبراهيم : حدَّثني جارٌ لنا يُقالُ له عُمر : إنَّ بعضَ الخُلفاء سَألَ عُمرَ بنَ ذَر عن القَدَر فقال : ها هنا ما يشغلُ عن القَدَر ، قال : ما هو ؟ قال : ليلةٌ صَبيحتُها يومُ القيامَة فبَكىٰ ، وبَكىٰ معه[٣] .

٢ـ الخَليفةُ يَزيدُ بنُ الوَليد دَعا إلى القَدَر وحَملَ النَّاسَ عَليه :

عن محمّدِ بنِ عبدِ الله بنِ عبدِ الحَكَم : سَمعتُ الشَّافعيَّ يقولُ : لمَّا وَليَ يَزيدُ بنُ الوَليد ، دَعا النَّاسَ إلى القَدَر ، وحَملَهم عليه ، وقَرَّب غيلانَ القَدَري أو قالَ أصْحابَ غيلان .

قال الذهبيُّ : كان غيلانُ قد صَلبَه هشامُ قبلَ هـٰذا الوقت بمدَّة .

---

(١) انظر السير : (مسلم بن يسار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٦/٥٤٧ .
(٢) انظر السير : (بكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٩/٥٤٩ .
(٣) انظر السير : (عُمر بن ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/٦٦٠ .

مات يَزيدُ الناقص سنة ستٍّ وعشرين ومئة ، فكانت دَولتُه ستَّة أشهر ، وكان شاباً أسْمرَ نَحيفاً ، حَسنَ الوجه ، وقِيلَ : مات بالطَّاعون ، وبُويع من بعده أخوهُ إبراهيمُ بنُ الوَليد ، ودُفنَ ببابِ الصَّغير ، سامَحَه الله[1] .

٣ـ عُلماءٌ اتُّهِموا في هٰذه المَسْألَة :

قال ابنُ مَعين : كان عبدُ الحَميد ثقةٌ يُرمَىٰ بالقَدَر .

قال الذهبيُّ : قد لُطِّخَ بالقَدَر جَماعةٌ وحَديثُهم في « الصَّحيحَين » أو أحدِهما لأنَّهما مَوْصُوفون بالصِّدْق والإتْقان .

مات عبدُ الحَميد في سنة ثلاث وخمسين ومئة[2] .

٤ـ مَسْألةٌ في الجَبْر :

وقِيلَ : كان الإمامُ الزُّبَيْديُّ يَذهَبُ إلىٰ مَذْهَبِ السَّالِميَّة ، ويَقولُ : إنَّ الأمْواتَ يَأكُلُونَ ويَشْرَبونَ ويَنكِحونَ في قُبورِهم ، وإنَّ الشَّارِبَ والزَّاني لا يُلامُ لأنَّه يَفعلُ بقَضاءِ الله وقَدَرِه .

قال الذَّهبيُّ : يَحْتجُّ بقِصةِ آدَمَ ومُوسَىٰ عليهِما السَّلامُ ، ويَقولُ آدَمُ : أتَلُومُني ؟ وأنَّه حَجَّ موسىٰ ، ولَوْ سَلَّمنا أنَّ الزَّاني لا يُلامُ ، فعَلَيْنا أنْ نَحُدَّه ونُغَرِّبَه ، ونَذُمَّ فِعْلَه ، ونَرُدَّ شَهادَتَه ، ونَكْرَهَه ، فإنْ تابَ واتَّقَىٰ أحْبَبْناه واحْتَرَمْناه ، فالنِّزاعُ لَفْظيٌّ[3] .

٥ـ أمثلةٌ على القَدَريَّة :

مَعْبَد الجُهَني :

قال الجُوزجانيُّ : كان قومٌ يَتكلَّمون في القَدَر ، احْتمَلَ النَّاسُ حَديثَهم لِما عَرفوا من اجتهادهم في الدِّين والصِّدْقِ والأمَانَة ، ولمْ يُتوَهَّم عليهم الكَذِب ، وإنْ بُلُوا بسُوء

---

(١) انظر السير : (يَزيد بن الوليد) ٥/ ٣٧٤ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦١٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الحميد بن جعفر) ٧/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٧٢ .

(٣) انظر السير : (الزَّبيْدي) ٢٠/ ٣١٦ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٥٥ .

رأيِّهم ، منهم مَعبد الجُهنيّ ، وقَتادَة ، ومَعبَدُ رأسُهم[1] .

وقال محمدُ بنُ شُعيب : سَمعتُ الأوْزاعيَّ يقولُ : أوَّلُ مَنْ نَطَق في القَدَر سَوْسَنُ بالعِراق ، كان نَصرانيّاً فأسْلمَ ، ثم تَنَصَّرَ ، فأخَذَ عنه مَعبَدُ ، وأخَذَ غيلانُ القَدَريُّ عن مَعبَد[2] .

وقال مرحومٌ العطَّار : حَدَّثنا أبي وعمِّي ، سَمِعا الحَسنَ يقول : إيَّاكم ومَعبَد الجُهَني فإنَّه ضالٌّ مُضلٌّ[3] .

وقال يونُسُ : أدْركتُ الحَسنَ يَعيبُ قولَ مَعبَد ، ثم تلطَّف له مَعبَدٌ فألْقَىٰ في نفسِه ما ألْقَىٰ .

قال طاووس : احْذَروا قَولَ مَعبَد ، فإنَّه كان قَدَريّاً[4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (مَعْبَد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ١/٤٧٤ .

(٢) انظر السير : (مَعْبَد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٧٤ .

(٣) انظر السير : (مَعْبَد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧٤ .

(٤) انظر السير : (مَعْبَد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ٤/٤٧٤ .

ثامناً : القُرْآنيُّون

١ـ القُرآنيُّون ضَالُّون :

قال الذهبيُّ : وإذا رَأيتَ المُتكَلِّمَ المُبْتَدِعَ يقُولُ : دَعْنا من الكتاب والأحَاديثِ الآحادِ ، وهَاتِ العَقْلَ فاعْلَمْ أنَّه أبو جَهْل ، وإذا رَأيتَ السَّالِكَ التَّوحيديَّ يَقولُ : دَعْنا من النَّقْلِ ومن العَقْلِ ، وهَاتِ الذَّوْقَ والوَجْدَ ، فاعْلَمْ أنَّه إبْليسٌ قد ظَهَرَ بصُورَةِ بَشَر ، أو قد حَلَّ فيه ، فإنْ جَبُنْتَ منه ، فاهْرُبْ ، وإلاَّ فاصْرَعْهُ وابْرُكْ علىٰ صَدرِهِ واقْرَأ عليه آيةَ الكُرْسيّ واخْنُقْهُ[١] .

٢ـ الردُّ عليهم :

قال مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله ، سَمعتُ مَالِكاً يَقُولُ : سَنَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ووُلاةُ الأمْرِ بَعدَهُ سُنَناً ، الأخْذُ بها اتِّباعٌ لِكتابِ الله ، واسْتِكْمالٌ بطَاعَةِ الله ، وقُوةٌ علىٰ دِينِ الله ، لَيسَ لأحَدٍ تَغْييرُها ، ولا تَبْديلُها ، ولا النَّظَرُ في شيءٍ خالَفَها ، مَنْ اهْتَدَىٰ بها ، فهُوَ مُهْتَدٍ ، ومَنْ اسْتَنْصَرَ بها ، فهُوَ مَنْصُورٌ ، ومَنْ تَرَكَها ، اتَّبَعَ غَيرَ سَبيلِ المُؤمِنينَ ، ووَلاَّهُ اللهُ ما تَوَلَّىٰ ، وأصْلاهُ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيراً[٢] .

* * *

---

(١) انظر السير : (أبو قِلابَة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٣٤ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٣٤ .

تاسعاً : الكرَّاميّة

جاء في ترجَمة محمدِ بنِ كرَّام ، قال الذهبيُّ : السِّجسْتانيُّ ، المُبتَدِع ، شيخ الكَرَّاميَّة ، كان زاهداً عابداً ربانيّاً بَعيدَ الصِّيتِ ، كَثيرَ الأصْحابِ ، ولكنَّه يَروي الوَاهِيات كما قال ابنُ حِبَّان .

خُذِلَ حتى التَقطَ من المَذاهب أرْداها ، ومن الأحاديث أوْهاها ، ثم جالسَ الجُوَيْباريَّ ، وابنَ تَميم ، ولَعلَّهما قد وَضعا مئةَ ألفِ حَديث ، وأخَذَ التقشُّفَ عن أحمدَ بنِ حَرْب .

قال الذهبيُّ : كان يقولُ : الإيمانُ هو نُطْقُ اللِّسانِ بالتَّوْحيد ، مُجرَّدٌ عن عَقد قَلبٍ وعَملِ جَوارح وقال خَلْقٌ من الأتباع له : بأنَّ الباري جِسْمٌ لا كالأجْسامِ ، وأنَّ النبيَّ تَجوزُ منه الكَبائر سِوى الكَذِب .

وقد سُجنَ ابنُ كرَّام ، ثم نُفيَ وكان ناشفاً عابداً ، قَليلَ العِلمِ .

قال الحاكمُ : مَكثَ في سِجْنِ نِيسابُور ثَماني سنين ، وماتَ بأرضِ بَيتِ المَقْدِس سَنةَ خَمسٍ وخَمسين ومئتين .

قال الذهبيُّ : طوَّلنا ترجمَته في « تاريخ الإسلام » .

وكانت الكرَّاميَّة كَثيرين بخُراسان ، ولهم تَصانيف ، ثم قلُّوا وتلاشَوْا نَعوذُ باللهِ من الأهْواء[1] .

* * *

(١) انظر السير : (محمد بن كَرَّام) ١١/٥٢٣ـ ٥٢٤ ، وانظر النزهة : ١/٩٦٥ .

عاشراً الكلابيّة

جاء في ترجمة « ابنِ كلاَّب » ، قال الذهبيُّ : رأسُ المُتكلِّمين بالبَصْرَة في زَمانه ، أبو محمد عبدُ الله بنُ سَعيد بنُ كلاَّب القَطَّان ، البَصْريُّ ، صاحبُ التَّصانيف في الردِّ على المُعتَزلَة ، وربَّما وافَقَهم[1] .

وكان يُلقَّب كلاَّباً لأنه كان يَجُرُّ الخَصمَ إلىٰ نفسِه ببَيانِه وبلاغَتِه ، وأصحابُه هم الكلاَّبيَّة ، لَحِقَ بعضَهم أبو الحَسَن الأشْعَري ، وكان يَردُّ على الجَهْميَّة[2] .

وقال بعضُ مَنْ لا يَعلم : إنَّه ابتَدَعَ ما ابتَدَعَه ليَدُسَّ دينَ النَّصارَىٰ في مِلَّتنا ، وإنَّه أرْضَىٰ أُختَه بذلك ، وهـٰذا باطِلٌ ، والرجلُ أقرَبُ المُتكلِّمين إلى السُّنَّة ، بل هو في مُناظِريهم[3] .

وصَنَّف في التوحيد ، وإثبات الصِّفات ، وأن عُلُوَّ الباري علىٰ خَلقِه مَعلومٌ بالفِطْرَة والعَقل علىٰ وِفْق النَّص ، وكذلك قال المُحاسَبيُّ في كتاب « فَهْمِ القُرآن » ولمْ أقَع بوَفاة ابنِ كلاَّب ، وقد كان باقياً قبل الأربعين ومئتين[4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (ابنُ كلاَّب) ١١/ ١٧٤ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٩٢٢/ ١ .

(٢) انظر السير : (ابنُ كلاَّب) ١١/ ١٧٤ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٩٢٢/ ٢ .

(٣) انظر السير : (ابنُ كلاَّب) ١١/ ١٧٤ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٩٢٢/ ٣ .

(٤) انظر السير : (ابنُ كلاَّب) ١١/ ١٧٤ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٩٢٢/ ٤ .

حادي عشر : المُرجِئَة

قال معمر : قلتُ لحمَّادَ بنِ أبي سُليمان : كنتَ رَأساً ، وكنتَ إماماً في أصْحابِك ، فخالفتَهم فصِرتَ تابِعاً قال : إنِّي أنْ أكونَ تابعاً في الحَقِّ خيرٌ من أنْ أكونَ رأساً في الباطِل .

قال الذهبيُّ : يُشيرُ مُعمَّرٌ إلىٰ أنَّه تَحوَّلَ مُرجئاً إرْجاءَ الفُقَهاء ، وهو أنَّهم لا يَعدُّون الصَّلاةَ والزَّكاةَ من الإيمان ، ويقولُون : الإيمانُ إقْرارٌ باللِّسان ، ويَقينٌ في القَلبِ ، والنِّزاعُ علىٰ هـٰذا لَفظيٌّ إنْ شاء الله ، وإنَّما غُلُوُّ الإرْجاء مَنْ قالَ : لا يَضرُّ مع التوحيدِ تَركُ الفَرائِض ، نَسألُ اللهَ العافيَة .

وقال أبو حاتم الرَّازي : هو مُستقيمٌ في الفِقْه ، فإذا جاءَ الأثرُ شَوَّش[1] .

قال صاحبُ النُّزْهَة : قد يُطلَقُ الإرْجاءُ علىٰ أهل السُّنَّة والجَماعة من مُخالِفيهم من المُعتَزلَة الذين يَزعُمون تَخليدَ صاحبِ الكَبيرَة في النارِ ، لأنَّهم لا يَقطَعون بعِقابِ الفُسَّاق الذين يَرتكِبون الكَبائر ، ويُفوِّضون أمرَهم إلى الله : إنْ شاءَ عَذَّبَهم ، وإنْ شاءَ غَفَرَ لهم ، ويُطلَق علىٰ مَنْ يقولُ بعَدَم دُخول الأعْمالِ في الإيمان ، وأنَّ الإيمانَ لا يَزيدُ ولا يَنقُص ، ويُطلَق علىٰ مَنْ يقولُ : « الإيمانُ هو مَعرفَةُ الله » ويَجعلُ ما سِوَى الإيمانِ من الطَّاعات ، وما سِوَى الكُفرِ من المَعاصي غَيرَ مُضِرَّة ولا نافِعَة وهـٰذا القسمُ الأخيرُ من الإرْجاء هو المَذْمومُ صاحبُه ، المُتَّهَم في دينِه .

وقد قال الذهبيُّ في « ميزانه » ٤/ ٩٩ : « مِسْعَر بن كدَام حُجَّةٌ إمام ، ولا عِبرَة بقَول السُّليماني : كان من المُرجِئَة ، مِسْعَرٌ ، حَمَّاد بنُ أبي سُليمان ، والنُّعمانُ ، وعَمرو بنُ مُرَّة ، وعبدُ العزيز بن أبي رواد ، وأبو مُعاوية ، وعَمرو بنُ ذَر ، وسَردَ جَماعَةً ، قلتُ : الإرْجاءُ مَذهَبٌ لعِدَّة من جِلّة العُلماء لا يَنبَغي التحامُل علىٰ قائلِه »[2] .

---

(١) انظر السير : (حمَّاد بن أبي سُليمان) ٥/ ٢٣١ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٩٨ .

(٢) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٨٩/ هامش (١) . .

وقال أبو داوُد عن إبراهيمَ بنِ طَهْمان : ثِقةٌ من أهْل سَرْخَس ، خرجَ يُريد الحَجَّ ، فقَدِمَ نيسابورَ ، فوَجدَهم علىٰ قول جَهْم ، فقال : الإقامة علىٰ هـٰؤلاء أفضلُ من الحَجِّ ، فأقام فنقَلَهم من قول جَهْم إلى الإرجاء[1] .

وقال صالحُ بن محمد جَزَرَة : ثقةٌ ، حَسنُ الحَديث ، يَميل شيئاً إلى الإرْجاء في الإيمان ، حَبَّبَ الله حَديثَه إلى النَّاس ، جَيِّدُ الرِّوايَة .

وقال أبو الصَّلتِ عبدُ السَّلام بنُ صالح الهَرَوي : سَمعتُ سُفيانَ ابنَ عُيَيْنَة يقول : ما قَدِمَ علينا خُراسانيٌّ أفضلُ من أبي رَجاء عبد الله ابنِ واقِد[2] .

قلتُ له : فإبراهيمُ بنُ طَهْمان ؟ قال : كان ذاكَ مُرْجِئاً ثم قال أبو الصَّلت : لمْ يكنْ ارْجاؤُهم هـٰذا المَذهَب الخَبيث : أنَّ الإيمان قَولٌ بلا عَمل ، وأنَّ تَرْكَ العَملِ لا يَضُرُّ بالإيمان ، بل كان إرْجاؤُهم أنَّهم يَرجُونَ لأهل الكَبائر الغُفرانَ ، رَداً على الخَوارج وغَيرِهم ، الذين يُكفِّرون الناسَ بالذُّنوب ، وسَمعتُ وَكيعاً يقولُ : سَمعتُ الثَّوْريَّ يقولُ في آخر أمرِه : نحن نَرجو لجَميع أهل الكَبائر الذين يَدينُون دِيننَا ، ويُصلُّونَ صَلاتنا ، وإنْ عَملوا أيَّ عَملٍ قال : وكان شَديداً على الجَهْميَّة[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٧٠٥/ ٢ .

(٢) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٧٠٥/ ٣ .

(٣) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٧٠٥/ ٤ .

ثاني عَشَر : المُعْتَزِلَة

١ـ من عَقائد المُعْتزِلَة :

قال ثُمامَةُ بنُ أشْرَس : المُقَلِّدون من أهلِ الكتابِ وعَبَدَة الأوثان لا يَدخُلونَ النَّارَ ، بل يَصيرونَ تُراباً ، وإنَّ مَنْ ماتَ مُسْلِماً وهو مُصِرٌّ علىٰ كَبيرَةٍ خُلِّدَ في النَّارِ ، وإنَّ أطْفالَ المؤْمنينَ يُصَيَّرونَ تُراباً ، ولا يَدخلون جنَّةً .

قال الذهبيُّ : قَبَّحَ اللهُ هـٰذه النِّحْلَة[١] .

٢ـ من عُلماء المُعْتزِلَة :

(أ) ثُمامَةُ بنُ أشْرَس :

قال الذهبيُّ في ترجمَة « ثُمامَة بن أشْرس » : العلاَّمَة أبو معن النُّميري البَصْريُّ المُتكَلِّم ، من رُؤوس المُعْتزِلَة ، وكان نَديماً ظريفاً صاحبَ مُلَح ، اتصَلَ بالرَّشيد ، ثم بالمَأمون رَوىٰ عنه تلميذُه الجَاحظُ[٢] .

قال ثُمامَةُ بنُ أشْرَس : المُقَلِّدون من أهلِ الكتابِ وعَبَدَة الأوثان لا يَدخُلونَ النَّارَ ، بل يَصيرونَ تُراباً ، وإنَّ مَنْ ماتَ مُسْلِماً وهو مُصِرٌّ علىٰ كَبيرَةٍ خُلِّدَ في النَّارِ ، وإنَّ أطْفالَ المؤْمنينَ يُصَيَّرونَ تُراباً ، ولا يَدخلون جنَّةً .

قال الذهبيُّ : قَبَّحَ اللهُ هـٰذه النِّحْلَة[٣] .

قال المُبَرِّدُ : قال ثُمامَةُ : خرجتُ إلى المأمونِ ، فرأيتُ مَجنوناً شُدَّ ، فقال : ما اسمُك ؟ قلتُ : ثُمامَة ، فقال : المُتكَلِّمُ ؟ قلتُ : نَعم ، قال : جلستَ علىٰ هـٰذه الآجُرَّة ، ولم يأذن لك أهلُها ، فقلتُ : رأيتُها مَبذُولة ، قال : لعل لهم تَدبيراً غَير

---

(١) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٢ .

(٢) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ١ .

(٣) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٢ .

البَذْلِ ، متىٰ يجدُ النَّائمُ لذَّةَ النَّوم ؟ إنْ قُلتَ : قبلَه ، أحَلْتَ ، لأنَّه يَقظَانُ ، وإنْ قُلتَ : في النَّوم ، أبطَلتَ ، إذْ النَّائمُ لا يَعْقل ، وإنْ قُلتَ : بعدَه فقد خَرجَ عنه ، ولا يوجَدُ شيءٌ بعدَ فَقْدِه ، قال : فما كان عندي فيها جَوابٌ[1] .

وعنه قال : عُدتُ رجلاً ، وتَركتُ حِماري علىٰ بابه ، ثم خرجتُ فإذا صَبيٌّ راكبُه ، فقلتُ : لِمَ ركِبْتَه بغير إذني قال : خفتُ أن يَذهَبَ ، قلتُ : لو ذهبَ كان أهْوَنَ عليَّ ، قال : فهَبْهُ لي ، وعُدَّ أنَّه ذَهبَ ، واربَحْ شُكْري ، فلم أدْرِ ما أقول[2] .

وقال الجاحظُ : حدَّثني ثُمامَةُ ، قال : شَهدْتُ رجُلاً قدَّم خَصْمَه إلىٰ والٍ ، فقال : أصْلَحكَ الله ، هـٰذا ناصِبيٌّ ، رافِضيٌّ ، جَهْمِيٌّ ، مُشَبِّهٌ ، يَشْتمُ الحجَّاجَ بنَ الزُّبَيرِ الذي هدمَ الكَعْبَةَ علىٰ عليٍّ ، ويَلْعَنُ مُعاويَةَ بنَ أبي طالب[3] .

وقالَ هارُونُ الحَمَّالُ : حَدَّثنا مُحمَّدُ بنُ أبي كَبْشَة قال : كُنتُ في سَفينَةٍ ، فسَمِعتُ هاتِفاً يقولُ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، كَذَبَ المَريسِيُّ على الله ، ثُمَّ عادَ الصَّوتُ يَقولُ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، علىٰ ثُمامَةَ والمَريسِيِّ لَعْنَةُ الله ، قالَ : ومَعَنا رَجُلٌ من أصْحابِ المَريسِيِّ في المَرْكبِ ، فَخَرَّ مَيِّتاً[4] .

(ب) أبو يُوسُف القَزوينيّ :

قال الذهبيُّ في ترجمة « أبو يوسُف القَزْوينيّ » : الشَّيخُ العلاَّمَة ، البارِعُ ، شَيخُ المُعْتَزلَة وفاضِلُهم ، أبو يوسُف عبدُ السَّلام بنُ محمد بنُ يوسُف القَزْوينيُّ ، المُفَسِّرُ ، نَزيلُ بَغداد .

وقال ابنُ عقيل في « فُنونه » : قدِمَ علينا من مِصْرَ القاضي أبو يوسُف القَزْويني ، وكان يَفتخرُ بالاعْتزال ، ويتوسَّعُ في قَدْح العُلماء ، وله جُرْأةٌ ، وكان إذا قَصدَ بابَ نظام المُلك ، يقولُ استأذنوا لأبي يوسُف المُعْتَزليِّ ، وكان طَويلَ اللِّسان بعلمٍ تارة ،

---

(١) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/٣ .
(٢) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/٤ .
(٣) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/٥ .
(٤) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/٦ .

وبسَفَهٍ تارةً ، لم يكن مُحَقِّقاً إلاَّ في التفسير ، فإنَّه لَهِجَ بذلك حتىٰ جَمعَ كتاباً بلغ خمسَ مئة مُجلَّد ، فيه العَجائبُ ، رأيتُ منه مُجلَّدَةً في آيةٍ واحدة ، وهي ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾[1] ، فذكرَ السِّحْرَ والملوك الذين نفَق عليهم السِّحْرُ ، وتأثيراتِه وأنْواعِه[2] .

وقال محمدُ بنُ عبد المَلك : مَلكَ من الكتب ما لم يملكْهُ أحدٌ قيلَ : ابتاعَها من مِصْرَ بالخُبزِ وقتَ القَحْطِ ، وحدَّثني عبدُ المحسن بنُ محمد أنَّه ابتاعَها بالأثْمان الغاليَة ، كان يَبتاعُ من كتب السيرافيِّ وكانت أزيدَ من أربعين ألف مُجلَّد ، فكان أبو يوسف يَشتري في كل أسبوع بمئة دينار ، ويقول : قد بعتُ رَحْلي وما في بيتي وكان الرُّؤساء يَصِلونَه[3] .

وقيلَ : دخلَ الغَزاليُّ إليه ، وجلسَ بينَ يَديه ، فقال : من أين أنتَ ؟ قال : من المدرسة ببغداد قال الغَزاليُّ : لو قُلتَ : إنِّي من طوس لذكَر تَغْفيلَ أهلِ طوس ، ومن أنَّهم سألوا المأمونَ ، وتَوسَّلوا إليه بقبرِ أبيه عندهم ، وطلَبوا أن يُحوِّلَ الكعبَةَ إلىٰ بلدِهم ، وأنَّه جاء عن بعضِهم أنَّه سُئلَ عن نَجْمِهِ ، فقال : بالتَّيْسِ ، فقِيلَ له ، فقال : كان من سنتينِ بالجَدي ، والساعةَ قد كَبِرَ .

وقال ابنُ ناصر : مات سنةَ ثمانٍ وثمانين وأربعِ مئة[4] .

قالَ اليَزيديُّ وآخَرُ : تَكلَّمَ عَمرُو بنُ عُبَيد في الوَعيدِ سَنةً ، فقالَ أبو عَمروِ بنُ العَلاء : إنَّكَ لألْكَنُ الفَهمِ ، إذْ صَيَّرتَ الوَعيدَ الذي في أعْظمِ شَيءٍ مِثلَهُ في أصْغَرِ شَيءٍ ، فاعْلَمْ أنَّ النَّهيَ عن الصَّغيرِ والكَبيرِ ليْسا سَواء وإنَّما نَهَى اللهُ عَنهُما لِتَتِمَّ حُجَتُّه علىٰ خَلقِه ، ولِئلا يَعْدلَ عنْ أمْرِه ووَرَاءَ وَعيدِه عَفْوُهُ وكَرَمُه ثمَّ أنْشَدَ :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٠٢

(٢) انظر السير : (أبو يوسُف القَزْوينيّ) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٤٨ .

(٣) انظر السير : (أبو يوسُف القَزْوينيّ) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٤٩ .

(٤) انظر السير : (أبو يوسُف القَزْوينيّ) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٤٩ .

ولا يَرْهَبُ ابنُ العَمِّ ما عِشْتُ صَوْلَتِي ... ولا أختَنِي[1] مِنْ صَوْلَةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّـي وإنْ أَوْعَـدْتُـهُ وَوَعَـدْتُـهُ ... لَمُخْلِفُ إيْعـادِي ومُنْجِزُ مَـوْعِـدِي

فقالَ عَمرُو بنُ عُبَيد : صَدَقتَ إنَّ العَربَ تَتمدَّحُ بالوَفاءِ بالوَعدِ والوَعيدِ ، وقد يُمْتَدَحُ بهما المَرءُ ، تَسَمَّعْ إلىٰ قَولِهِم :

لا يُخْلِـفُ الـوَعْـدَ والـوَعِيـدَ ولا ... يَبِيـتُ مِـنْ ثَـأْرِهِ عَلـىٰ فَـوْتِ

فقَدْ وافَقَ هـٰذا قَولَه تَعالَىٰ : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾[2] .

قالَ أبُو عَمرٍو : قَد وافَقَ الأوّلُ أخْبارَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم والحَديثُ يُفَسِّرُ القُرآنَ[3] .

* * *

(١) ولا أخْتَني : أي لا أسْتَترُ خوفاً .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٤٤ .
(٣) انظر السير : (أبو عَمرو بن العَلاء) ٦/ ٤٠٧ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٦ .

جَماعاتٌ ضَالَّةٌ خَارجَةٌ عن الدِّين

أولاً : الباطِنيَّة

١ـ من عَقائدِهم :

قال الذهبيُّ في ترجَمة الطَّلَمَنْكيِّ : وألَّفَ كتاباً في الرَّدِ على الباطنيَّة ، فقال : ومنهم قومٌ تعبَّدوا بغير علمٍ ، وزَعَموا أنَّهم يَرونَ الجنَّةَ كلَّ ليلةٍ ، ويأكلُونَ من ثِمارِها ، وتَنزَّلُ عليهم الحُورُ العِينُ ، وأنَّهم يَلوذونَ بالعرشِ ، ويرَونَ اللهَ بغيرِ واسِطةٍ ، ويُجالِسونَه[١] .

٢ـ مَن فَضَحَهم من عُلماء المسلمين :

جاء في ترجمة المستظهر بالله ، قال الذهبيُّ : ولابنِ الباقِلانيِّ ، والغَزاليِّ ، وعبدِ الجبَّار المُعْتَزليِّ كُتبٌ في فَضائحِ هـٰؤلاء ـ يعني الباطنيَّة[٢] .

٣ـ تاريخُهُم وأُمَراؤُهم :

(أ) ابنُ غطَّاش :

جاء في ترجمة « ابنِ غَطَّاش » ، قال الذهبيُّ : طاغية الإسماعيلية[٣] ، هو الرئيسُ أحمد بنُ عبد المَلك بن غَطَّاش العجمي كان أبوه من كبار دُعاة الباطنيَّة ، ومن أذكياء الأُدَباء ، له بلاغَة وسرعة جَواب ، استغوىٰ جماعةً ثم هَلَك ، وخلَفَه في الرياسة ابنُه هـٰذا ، فكان جاهلاً ، لكنه شجاعٌ مُطاع ، تجمَّع له أتباع ، وتحيَّلوا حتىٰ مَلكوا قلعةَ أصْبَهان التي غرِمَ عليها السلطانُ « مَلكْشاه » ألفي ألف دينار ، وصاروا يقطعون السُّبُل ، والتفَّ عليهم كلُّ فاجر ، ودام البلاءُ بهم عشرُ سنين ، حتىٰ نازَلَهم محمدُ بنُ مَلكْشاه أشْهُراً ، فجاعوا ، ونزلَ كثيرٌ منهم بالأمان ، وعصى ابنُ غَطَّاش في بُرج

---

(١) انظر السير : (الطَّلَمَنْكيّ) ١٧/٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٥ .

(٢) انظر السير : (المستظهر بالله) ١٩/٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩١ .

(٣) قال ابن الأثير : وهم الذين كانوا يُسمَّون قبل ذلك القرامطة .

أياماً ، وجرت أمورٌ طويلة ، ثم أخِذَ وسُلخَ ، وتأمَّرَ على الباطنية بعده ابنُ صبَّاح[1] ، وكانوا بلاءً على المسلمين ، وقَتلوا عَدَداً من الأعيان بشغل السكين[2] .

والتقى السلطانُ محمدُ بنُ مَلكْشاه وأخوه بَرْكْيا رُوق مرات ، وغَلَت الأقطارُ بالباطنية ، وطاغوتهم الحسن بن الصَّبَّاح المَرْوزيّ الكاتب ، كان داعيةً لبني عُبَيد ، وتعَانَوْا شُغْلَ السكين ، وقَتلوا غِيلَةً عدةً من العلماء والأمراء وأخذوا القِلاعَ ، وحاربوا ، وقَطعوا الطرقَ ، وظَهروا أيضاً بالشام ، والتَفَّ عليهم كلُّ شَيطان ومارق ، وكلُّ ماكرٍ ومُتحَيِّل[3] .

وقال الغزاليُّ في « سِرِّ العَالَمين » : شاهدتُ قصَّةَ الحَسَنِ ابنِ الصَّبَّاحِ لمَّا تَزَهَّدَ تَحتَ حِصْنِ الألَموتِ ، فكانَ أهلُ الحِصْنِ يَتمنَّونَ صُعودَه ، ويَتَمنَّعُ ويقولُ : أما تَرَونَ المُنْكَرَ كَيفَ فَشَا ، وفَسَدَ النَّاسُ ، فصَبا إليه خَلقٌ وذَهَبَ أميرُ الحِصْنِ يَتَصيَّدُ ، فوَثَبَ على الحِصْنِ فتَمَلَّكَه ، وبَعَثَ إلى الأميرِ مَنْ قَتَلَه ، وكَثُرَت قِلاعُهُم ، واشْتَغَلَ عَنهُم أولادُ مَلِكْشاه باخْتِلافِهم[4] .

(ب) عَبدُ الغَني :

وجاء في ترجمة « عبد النبيِّ » ، قال الذهبيُّ : هو ابنُ المَهديِّ عليِّ ابنِ مَهْدي ، كان أبوهُ قد وعظَ ، واشتغلَ ، ودعا إلىٰ نفسه ، وجرت له أمور وغلبَ على اليمنِ ، وعسَفَ وظلمَ ، وفَجَرَ ، وشقَّق بُطونَ الحبالىٰ ، وتمرَّدَ على الله ، وكان من دُعاة الباطنية فقَصَمَه الله سنةَ نيِّفَ وخمسينَ .

---

(١) هو الحسن بن صباح بن عليّ الإسماعيليّ صاحب الدعوة النزارية ، وجدُّ أصحاب قلعة الموت ، قال الإمام الذهبيُّ في « الميزان » ١/ ٥٠٠ : كان من كبار الزنادقة ، ومن دُهاة العالم ، وله أخبار يطول شَرحُها لخصتها في تاريخي الكبير في « حوادث سنة أربع وتسعين وأربع مئة » ، وأصله من مرو ، وقد أكثر التطواف ما بين مصر إلىٰ بلد كاشغر ، يغوي الخلق ويُضلُّ الجَهَلة إلىٰ أن صار منه ما صار ، وكان قوي المشاركة في الفلسفة والهندسة ، كثير المكر والحيل ، بَعيد الغَور ، لا بارك الله فيه .

(٢) انظر السير : (ابنُ غَطَّاش) ١٩/ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ١٤٧٦/ ابنُ غَطَّاش .

(٣) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩١ .

(٤) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩١ .

فقام بعده عبدُ النبيِّ هـٰذا ، ففعل كأبيه ، وسَبى الحريم ، وتَزَنْدقَ وبنىٰ علىٰ قبرِ أبيه المَهْديِّ قُبَّةً عظيمة ، وزَخرَفَها ، وعمل أستارَ الحَرير عليها ، وقَناديل الذَّهب ، وأمرَ الناسَ بالحجِّ إليها ، وأن يَحملَ كلُّ أحدٍ إليها مالاً ، ولمْ يَدَعْ أحدٌ زيارتها إلاَّ وقتله ، ومَنعَهم من حجِّ بيتِ الله ، فتجمَّع بها أموالٌ لا تُحصَىٰ ، وانهمك في الفواحش إلىٰ أن أخذَه الله علىٰ يد شمسِ الدولة ، أخي السلطان صلاح الدين ، عذَّبَهُ ، ثم قَتلَه ، وأخذ خزائنَه ، فللَّهِ الحمدُ علىٰ مَصرع هـٰذا الزِّنْديق ، وكان ذلك في قرب سنة سبعين وخمس مئة ، فإنَّ مُضيَّ شَمسِ الدولة تُوران شاه إلى اليمن وأخْذَها كان في سنة تسع وستين ، فأسرَ هـٰذا المجرمَ وشَنَقَه وتملَّكَ زَبيدَ وعَدَنَ وصَنْعاءَ ولعبدِ النبيِّ أخبارٌ في الجَبَروتِ والعُتُوِّ ، فلا رَحمَه الله[1] .

(ج) ابنُ سنان :

جاء في ترجمة « سنان » ، قال الذهبيُّ : هو راشدُ الدين ، كبيرُ الإسماعيلية وطاغوتهم ، أبو الحسن سنانُ بنُ سَلْمان بن محمد البَصْريُّ الباطنيُّ ، صاحبُ الدَّعْوَة النِّزاريَّة[2] .

وقال الذهبيُّ : الدعوةُ النِّزاريَّة ، نِسْبَةً إلىٰ نِزار بن خليفة العُبَيدية المُسْتنصِر ، صيَّرَهُ أبوهُ ولِيَّ عَهْدِه ، وبثَّ له الدُّعاة ، فمنهم صَبَّاح جدُّ أصحاب الألَمُوت ، أحدُ شياطين الإنس ، ذو سَمتٍ وذلقٍ ، وتَخَشُّع ، وتَنَمُّش ، وله أتباعٌ ، دخلَ الشامَ والسواحل في حدود ثمانين وأربع مئة ، فلم يتمَّ له مرامه ، فسار إلى العجم ، وخاطَبَ الغُتْمَ[3] الصُّمَّ ، فاستجابَ له خلقٌ ، وكَثُروا ، وأظهَروا شُغل السكين والوُثوب على الكبار ، ثم قصدَ قلعةَ الألَموت بقَزْوين ، وهي منيعة بأيدي قوم شُجْعان ، لكنَّم جَهَلةٌ فُقَراء ، فقال لهم : نحنُ قومٌ عُبَّادٌ مَساكين ، فأقاموا مدَّةً ، فمالوا إليهم ، ثم قال :

---

(١) انظر السير : (عبدُ النبيِّ) ٢٠/ ٥٨٢ـ ٥٨٣ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٦ .

(٢) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٧ .

(٣) الغتم : جمع أغتم ، وهو الذي لا يُفصحُ شيئاً ، وفي « تاريخ الإسلام » : وتكلم مع أهل الجبال والغتم الجهلة من تلك الأراضي .

بِيْعُونا نصفَ قَلعَتكم بسَبعةِ آلاف دينار ، ففعلوا ، فدخلوها ، وكَثروا ، واستولىٰ صبَّاح على القلعة ، ومعه نحو الثلاث مئة ، واشْتُهرَ بأنَّه يُفْسدُ الدين ، ويحلُّ من الإيمان ، فنهد له ملك تلك الناحية ، وحاصر القلعَةَ مع اشتغاله بلعبه وسُكْره ، فقال عليٌّ اليَعْقوبيُّ من خَواص صَبَّاح : أيش يكون لي عليكم إذا قَتلْتُه ؟ قالوا : يكون لك ذُكْرانٌ في تسابيحنا ، قال : رَضيتُ ، فأمرهم بالنزول ليلاً ، وقسَّمَهم أرباعاً في نواحي ذلك الجيش ، ورتَّبَ مع كل فرقة طُبولاً ، وقال : إذا سمعتُم الصَّيْحَةَ فاضربوا الطبولَ ، فاختَبَطَ الجيشُ ، فانتهَزَ الفُرصَة ، وهجمَ على الملك فقتله ، وقُتلَ ، وهرب العسكرُ فحَوَت الصّبَّاحيةُ الخيامَ بما حَوت ، واستغنَوا ، وعَظُمَ البلاء بهم ، ودامت الألموتُ مئةً وستينَ عاماً ، فكان سنان من نوَّابهم .

فأمَّا نِزارٌ ، فإنَّ عَمته عملت عليه[1] وعاهدت الأمراء أن تقيم أخاه صبياً ، فخاف نزار ، فهرب إلى الإسكندرية ، وجَرت له أمور وحروب ، ثم قُتلَ ، وصار صبَّاح يقول : لم يمت ، بل اختفىٰ ، وسيظهر ، ثم أحبلَ جاريةً ، وقال لهم : سَيظهرُ من بَطنِها ، فأذعنوا له ، واغتالوا أمراءَ وعُلماءَ[2] ، وخافَتهُم الملوكُ ، وصانَعوهم بالأموال[3] .

وبَعثَ صَبَّاحٌ الدَّاعي أبا مُحمّدٍ إلى الشَّام ، ومَعهُ جَماعَةٌ ، فقَوِيَ أمْرُه ، واسْتَجابَ له الجبليَّةُ ، واسْتَولَوا علىٰ قَلعَةٍ من جَبَلِ السَّماقِ[4] .

ثم هَلكَ هـٰذا الدَّاعي ، وجَاءَ بَعدَه سِنانُ ، فكانَ سَخطَةً وبَلاءً ، مُتَنَسِّكاً ، مُتَخَشِّعاً ، واعِظاً ، كان يَجلسُ علىٰ صَخْرةٍ كأنَّه صَخْرةٌ لا يَتحرَّك منْهُ سِوَىٰ لِسَانُه ، فرَبَطَهُم ، وغَلَوا فيه ، واعْتَقدَ منهم فيه الإلَهيَّة ، فتَبَّاً له ولِجَهْلِهم ، فاسْتَغْواهُم بسِحْرٍ وسيمياءَ ، وكان له كُتبٌ كَثيرةٌ ومُطالَعَةٌ ، وطالَتْ أيّامُه .

---

(١) يعني عملت ضده .

(٢) ذكر الذهبيُّ في « تاريخ الإسلام » أن الاغتيال بالسكاكين سُنَّة سنَّها اليعقوبيُّ .

(٣) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٧ .

(٤) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٨ .

وأمَّا الألَمُوت[1] فوَليَها بعدَ صَبَّاحٍ ابنُهُ مُحمّد ، ثمَّ بَعدَهُ حَفيدُه الحَسَنُ بنُ مُحمّدٍ الذي أظْهَرَ شِعارَ الإسْلام ، ونَبذَ الانْحلالَ تَقِيَّةً ، وزَعَمَ أنَّه رَأى الإمامَ عَليّاً ، فأمَرَه بإعادَةِ رسومِ الدين ، وقالَ لخَواصِّهِ : أَلَيْسَ الدينُ لي ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فتارَةً أضَعُ علَيكُم التَّكاليفَ، وتارَةً أرْفُضُها ، قالوا : سَمِعنا وأطَعْنَا ، واسْتَحْضَرَ فُقَهاءَ وقُرَّاءَ ليُعَلِّمُوهم[2] .

نعم ، وكان سنان قد عرجَ من حَجرٍ وقع عليه في الزلزلة الكبيرة زمنَ نور الدين ، فاجتمع إليه مُحبُّوه علىٰ ما حكى الموفقُ عبدُ اللطيف ليقتلوه ، فقال : ولِمَ تَقتلوني ؟ قالوا : لتَعودَ إلينا صَحيحاً ، فشَكرَ لهم ، ودعا ، وقال : اصبروا عليَّ ، ثم قتلهم بحيلةٍ ولمَّا أراد أن يحلَّهم من الإسلام ، نزل في رمضان إلىٰ مَقْثَأَةٍ[3] فأكلَ منها ، فأكلوا معه[4] .

أَوْصَىٰ يَوماً أتْباعَه ، فقالَ : عَليكُم بالصَّفاءِ بَعضُكُم لبَعضٍ ، لا يَمْنَعَنَّ أحَدَكُم أخَاهُ شَيئاً له ، فأخَذَ هـٰذا بِنتَ هـٰذا ، وأخَذَ هـٰذا أُخْتَ هـٰذا سِفاحاً ، وسَمُّوا نُفوسَهم الصُّفاةَ ، فاسْتَدْعاهُم سِنانُ مَرَّةً ، وقَتَلَ خَلْقاً منهم[5] .

قال ابنُ العديم : تَمَكَّنَ في الحُصونِ وانْقادُوا له ، وأخْبَرَني عليُّ ابنُ الهَوَّاريّ أنَّ صَلاحَ الدِّين سَيَّرَ رَسُولاً إلىٰ سِنانٍ يَتَهدَّدُه ، فقالَ للرسُولِ : سأُرِيكَ الرِّجالَ الذين ألْقاهُ بهِم ، فأشَارَ إلىٰ جَماعَةٍ أنْ يَرْمُوا أنْفُسَهم من الحِصْنِ من أعْلاه ، فألْقَوا نُفوسَهم ، فهَلَكُوا[6] .

قال : وبلغني أنَّه أحلَّ لهم وَطْءَ أُمَّهاتهم وأخواتهم وبناتهم ، وأسقطَ عنهم صومَ رمضانَ[7] .

---

(١) انظر عن هـٰذه القلعة وتاريخها « دائرة المعارف الإسلامية » : ٤/ ٣٧١ (ط الجديدة) .
(٢) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٨ .
(٣) المقثأة : الموضع الذي يُزرع فيه القثّاء .
(٤) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٠٨ .
(٥) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٩ .
(٦) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٩ .
(٧) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٠٩ .

وكتب سنانُ إلىٰ صلاح الدين[1] :

يـا للـرجـالِ لأمـرِ هـالَ مَقْطَعُـهُ ... مـا مـرَّ قـطُّ علـىٰ سَمعـي تـوقُّعُـهُ
فـإذا الـذي بقـراعِ السَّيـفِ هَـدَّدنـا ... لا قامَ مَصْرعُ جَنْبي حين تَصْرَعُهُ
قـام الحَمـامُ إلـى البـازي يُهَـدِّدُه ... استيقَظَـتْ لأُسـودِ البَـرِّ أضْبُعُـهُ

وقفتُ علىٰ تفصيلِ كتابكم وجمله ، وعلمنا ما هدَّدنا به من قوله وعمله ، فيا لله العجبُ من ذبابة تطِنُّ في أُذُنِ فيلٍ ، وبَعوضَةٍ تَعُضُّ في التماثيلِ ، ولقد قالها مِنْ قبلِك قومٌ ، فدمَّرْنا عليهم ، وما كان لهم من ناصرين أَلِلْحَقِّ تدحضون ، وللباطلِ تَنْصرون ؟! ، وسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَموا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلبون لئن صَدَرَ قولُك في قطع رأسي ، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي ، فتلك أمانيٌّ كاذبة ، وخيالاتٌ غير صائبة ، فإنَّ الجواهرَ لا تزولُ بالأعراض ، كما أنَّ الأرواحَ لا تَضْمَحلُّ بالأمراض ، وإنْ عُدنا إلى الظَّاهرِ ، وعَدَلْنا عن الباطن ، فلنا في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَة : « ما أُوذِيَ نَبِيٌّ ما أُوذِيتُ »[2] ، وقد علمتَ ما جرىٰ علىٰ عِترَته وشِيعَته ، فالحالُ ما حالَ ، والأمرُ ما زالَ ، وقد علمتُم ظاهِرَ حالِنا ، وكَيفيَّةَ رِجالِنا ، وما يتمَنَّونَه من الفَوات ، ويتَقَرَّبونَ به من حِياضِ الموتِ ، وفي المَثَلِ ، أوَ للبطِّ تُهَدِّدُ بالشَّطِّ ؟ ، فهَيِّء للبَلايا أسْباباً ، وتدَرَّع للرَزايا جِلْباباً ، فلأظْهَرَنَّ عليكَ منك ، وتَكونُ كالباحثِ عن حَتْفِهِ بظلفِه ، وما ذلك على الله بعزيز ، فكُنْ لأمرِنا بالمِرْصادِ ، واقْرأْ أوَّلَ « النَحْلِ »[3] وآخرَ « ص »[4] .

فدخلَ السُّلطانُ في مَرْضاة سنان ، مات سنان في سنة تسع وثمانين وخمس مئة[5] .

---

(١) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١٦٠٩/ ٤
(٢) رُويَ بأسانيد ضعيفة من حديث أَنَس وبُريدَة ، وجابر ، انظر « الجامع الصغير » وشرحه ٥/ ٤٣٠ـ ٤٣١ .
(٣) ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ .
(٤) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ .
(٥) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١٦٠٩/ ٥ .

٤ـ مُحاولَة قَتلهم الأُمَراء والخُلَفاء والوُزَراء وكلُّ مَنْ فيه خَيرٌ للإسْلام :

جاء في ترجمة المُسْتعلي بالله العُبَيْدي ، قال الذهبيُّ : وفي دولته كَثُرَت الباطنيَّة الملاحدَة الذين هم الإسماعيليَّة ، وأخَذوا القُفُول[1] ، وتَمَلَّكوا قلعة أصْبَهان ، وفَتكوا بعدد كثير من الكبار والعلماء ، وشَرعوا في شُغل السكِّين ، وجَرت لهم خُطوب وعَجائب .

وفي سنة خمس وتسعين وأربع مئة مات المُسْتَعلي وأقاموا وَلَدَه الآمر بأحكام الله منصوراً ، وله خمسُ سنين ، وأَزِمَّةُ المُلك إلى الأفضَل أمير الجيوش ، ويُقالُ : إنَّه سُمَّ وقُتلَ سِرّاً[2] .

وجاء في ترجمة « نظام الملك » ، قال الذهبيُّ : كان مَولدُه في سنة ثمان وأربع مئة ، وقُتلَ صائماً في رمضان ، أتاه باطنيٌّ في هيئة صُوفيٍّ يُناوله قِصّة ، فأخذها منه ، فضربه بالسِكِّين في فؤادِه ، فتَلِفَ ، وقَتلوا قاتلَه ، وذلك سنة خمس وثمانين وأربع مئة ، بقرب نهاوَند ، وكان آخرُ قولِه : لا تَقتلوا قاتلي ، قد عَفوتُ ، لا إلَـهَ إلاَّ الله .

قال ابنُ خلِّكان : قد دَخلَ نظامُ الملك على المُقْتَدي بالله فأجلَسَه وقال له : يا حَسَنُ ، رَضيَ اللهُ عَنكَ ، كَرِضا أمير المؤمنين عنك .

وكان شافعيّاً أشْعَريّاً .

وقيلَ : إنْ قَتْلَه كان بتدبير من السُّلطان ، فلم يُمْهَلْ بعدَه إلاَّ نَحو شهر[3] .

والتقى السلطانُ محمدُ بنُ مَلكْشاه وأخوه بَرْكْيا رُوق مرات ، وغَلَت الأقطارُ بالباطنية ، وطاغوتهم الحسن بن الصَّبَّاح المَرْوزيّ الكاتب ، كان داعيةً لبني عُبَيد ، وتعَانَوْا شُغْلَ السكين ، وقَتلوا غِيلَةً عدةً من العلماء والأمراء وأخذوا القِلاعَ ،

---

(١) جمع قافلة .

(٢) انظر السير : (المُسْتَعْلي بالله) ١٥/ ١٩٦ـ ١٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٣ .

(٣) انظر السير : (نِظامُ المُلك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٦٤ .

وحاربوا ، وقَطعوا الطرقَ ، وظَهروا أيضاً بالشام ، والتَفَّ عليهم كلُّ شَيطان ومارق ، وكلُّ ماكرٍ ومُتحَيِّل[1] .

وصارت الأمراء يلازمون لبس الدروع تحت الثياب خوفاً من فَتك هـٰؤلاء المَلاحِدَة، ورَكب السلطانُ بَرْكْيا رُوق في تطلُّبِهم ، ودَوَّخَهم ، حتىٰ قتلَ جماعةً برآء ، سعىٰ بهم الأعداء ، ودخلَ في ذلك أهلُ عانة ، واتُّهم إلْكيا الهرَّاسي بأنَّه منهم ، وحاشاه ، فأمر السلطانُ محمدُ ابن مَلكْشاه بأن يُؤخَذ حتىٰ شَهدوا له بالخَير ، فأُطلِق[2] .

وفي سنة خمس وتسعين وأربع مئة كانت حروبٌ بين الأخَوَين بَرْكْيا رُوق ومحمد ، وبلاءٌ وحصار ، ونازَلت الفِرَنجُ طَرَابُلْسَ ، فسارَ للكَشف عنها جُندُ دمشقَ وحمصَ ، فانكسَروا ، ثم التقى العسكرُ ، وبغدوين ، فهزَموه وقلَّ مَنْ نَجا من أبطاله ، وظَفِرَ ثلاثةٌ من الباطنيَّة علىٰ جَناح الدولة صاحب حمص ، فقتلوه في الجامع ، فنازَلتها الفِرَنجُ ، فصولحوا علىٰ مال ، وتسلَّمها شَمسُ المُلوك ، وقَتلت الباطنيَّةُ الأعزَّ ، وزيرَ بَرْكْيا رُوق[3] .

وفي أوّل سنة سبع وتسعين وأربع مئة وثبَ باطنيٌّ بجامع دمشقَ علىٰ صاحب المُوصل ، مَودود بن ألتونتكين ، فقتله ، وأُحرِقَ الباطنيُّ[4] .

وقد وقفَ ليَحْيىٰ بنِ الملك تميم بن المُعزِّ بنِ باديس الحِمْيري ثلاثةُ غُرباء ، وزَعموا أنهم يعملون في الكيمياء فأحضَرَهم ليتفرَّج وأخلاهم ، وعنده قائدُ عسْكره ، إبراهيمُ ، والشريفُ أبو الحسن ، فسلَّ أحدُهم سكيناً ، وضرب الملك ، فما صنع شيئاً ، ورَفَسَه الملكُ دحرجه ، ودخل مجلساً وأغلقَه ، وقتلَ الآخرُ الشريفَ ، وشدَّ إبراهيمُ بسيفه عليهم ، ودخل المماليكُ ، وقتلوا الثلاثة ، وكانوا باطنيَّة أظنُّ الآمرَ العُبَيْديَ ندبَهم لذلك[5] .

---

(١) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩١ .
(٢) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٢ .
(٣) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٢ .
(٤) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٦/١٤٩٣ .
(٥) انظر السير : (صاحبُ إفريقية) ١٩/ ٤١٢ـ ٤١٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٤ .

وجاء في ترجمة السُّمَيرميِّ ، قال الذهبيُّ : هو الوزيرُ الكبير ، أبو طالب عليُّ بنُ أحمدَ بنِ عليٍّ السُّمَيْرميِّ ، وزيرُ السلطان محمد السلجوقي ، صَدرٌ مُعظَّم ، كبيرُ الشأن ، شَديد الوَطأة ، ذو عَسْف وظلم ، وسوء سيرة ، وقف مدرسةً بأصْبَهان ، وعملَ بها خزانة كتب نفيسة ، وكان يقول : قد استحييت من كثرة الظلم والتعدي ، ولمَّا عزم على السفر ، أخذ الطالع ، وركب في موكب عظيم ، وبين يديه عِدَّة بالسيوف والحراب والدبابيس ، قال ابنُ النجار : فمرَّ بمَضيق ، وتقدَّمه الكلُّ وبقي منفرداً فوثب عليه باطنيٌّ من دكة ، فضربه بسكين ، فوقعت في البغلة وهرب ، فتَبعَه كلُّ الأعْوان ، فوَثبَ عليه آخرُ فضربه في خاصرته وجذَبه رماه عن البَغلة إلى الأرض وجَرحَه في أماكن ، فرد الأعوان ، فوثب اثنان فحملا ، هما والقاتل عليهم ، فانهزم الجمع ، وبقي الوزيرُ ، فكَرَّ قاتلُه ، وجَرَّه ، والوزيرُ يستعطفُه ويتضرَّعُ له ، فما أقلَعَ حتىٰ ذَبَحَه وهو يُكبِّرُ ويَصيح : أنا مسلمٌ موحِّدٌ فقُتلَ هو والثلاثةُ ، وحُملَ الوزيرُ إلىٰ دار أخيه النَّصير ، ثم دُفنَ ، وذلك سنة ستَّ عشرة وخمس مئة[1] .

وقِيل : إنَّ الذي قتله عبدٌ كان للمؤيد الطُّغرائي وزير السلطان مسعود ، فإن السُّميرميَّ قتل أستاذه ظُلماً ، ونَبزَه بأنَّه فاسد الاعتقاد ، وكلُّ قاتلٍ مَقتول[2] .

قال ابنُ ناصر خرجَ المسترشدُ بالله سنة تسع وعشرين وخمس مئة إلىٰ هَمَذان للإصلاح بين السلاطين ، واختلاف الجند ، وكان معه جمعٌ كثير من الأتراك ، فغَدَرَ به أكثرُهم ، ولَحِقوا بمَسعود بن محمد ابن مَلِكْشاه ، ثم التقى الجَمعان ، فانهزمَ جَمعُ المُسترشِد بالله وقُبِضَ عليه ، وعلىٰ خواصِّه ، وحُملوا إلىٰ قلعةٍ هناك ، فحُبسوا بها ، وبقي الخليفةُ مع السلطان مسعود ، وحُملَ معهم إلىٰ مَراغة ، ثم إنَّ الباطنيَّة ألَّفوا عليه جماعة من المَلاحِدَة ، وكان قد أُنزِلَ ناحيةً من المعسكر ، فدخلوا عليه ، ففَتكوا به ، وبجماعةٍ كانوا علىٰ باب خَرَكَاهِه[3] ، وقُتلُوا .

وجاء الخبرُ إلىٰ بَغداد ، فكَثُرَ النَّوحُ والبكاءُ بها ، وعُملَ العَزاءُ .

---

(١) انظر السير : (السُّمَيرميّ) ١٩/ ٤٣٢ـ ٤٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٥ .

(٢) انظر السير : (السُّمَيرميّ) ١٩/ ٤٣٢ـ ٤٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٦ .

(٣) الخركاه بالفارسية : الخيمة الكبيرة .

قال الذهبيُّ : بُويعَ عندَ موتِ أبيه سنة اثنتي عشرة وخمس مئة ، فكانت دولتُه سبع عشرةَ سنة وسبعة أشهر ، وعاش ستّاً وأربعين سنة فقيل : إنَّ الذين فَتكوا به جهَّزَهم مَسعودٌ ، وكانوا سبعة عشر نفساً فأُمْسِكوا وقتلهم السلطانُ ، وأظهرَ الحُزنَ والجَزَع .

وقيل : بعث السلطانُ سَنْجرُ بنُ ملِكْشاه إلى ابن أخيه مسعود يُوَبِّخُه على انتهاك حُرمة المُسترشِد ، ويأمُرُه بردِّه إلىٰ مَقرِّ عِزِّه ، وأن يمشي بين يديه بالغاشية ويخضع ، ففعل ذلك ظاهراً ، وعملَ علىٰ قتلِه[1] .

وجاء في ترجمة « الراشد بالله » ، قال الذهبيُّ : كان حسنَ السيرة ، مُؤثراً للعَدلِ ، فَصيحاً عذبَ العبارة ، أديباً ، شاعراً ، جَواداً ، لم تَطُلْ أيامُه حتىٰ خرجَ إلى الموصل ، ثم إلىٰ أذربيجان ، وعاد إلىٰ أصبهان ، فأقام علىٰ بابها مع السلطان داود ، محاصراً لها ، فقتله المَلاحدةُ هناك ، وكان بعد خروجه من بغداد مجيءُ السلطان مسعود بن محمد ابن مِلَكْشاه فاجتمع بالأعيان ، وخَلعوا الراشد ، وبايعوا عمَّه المقتفي[2] .

جاء في ترجمة « تاج الملوك » ، قال الذهبيُّ : ولمَّا علم ابنُ صبّاح صاحبُ الألَموتَ بما جرىٰ علىٰ أشياعه الإسماعيلية بدمشقَ ، تنمَّرَ ، وندبَ طائفة لقتل تاج الملوك ، فعيَّنَ اثنين في زيِّ الجُندِ ، ثم قدما فاجتمعا بناسٍ منهم أجنادٌ ، وتحيَّلا علىٰ أن صارا من السَّلحدانة ، وضمنوهما ، ثم وَثَبا عليه فقتلاه[3] .

قال أبو يعلى القلانسيّ : وثبوا عليه في خامس جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين ، فضربَه الواحد بالسيف قصد رأسه ، فجرحه في رقبته جُرحاً سليماً ، وضربه الأخر بسكين في خاصرته ، فمرَّت بين الجلد واللحم .

قال الذهبيُّ : كان تعلَّل من ذلك ، ولكنه تُوفِّي في رجب سنة ستٍّ وعشرين وخمس مئة[4] .

---

(١) انظر السير : (المُستَرشِد بالله) ١٩/ ٥٦١ـ٥٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥١٥ .
(٢) انظر السير : (الرَّاشِدُ بالله) ١٩/ ٥٦٨ـ٥٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٥١٦ .
(٣) انظر السير : (تاج الملوك) ١٩/ ٥٧٣ـ٥٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٥١٧ .
(٤) انظر السير : (تاج الملوك) ١٩/ ٥٧٣ـ٥٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٥١٧ .

وجاء في ترجمة « عَضُد الدين » ، قال الذهبيُّ : وقد عُزِلَ ثم أُعِيدَ ، وتمكَّن ثم تهيَّأ للحَجِّ ، وخرجَ في رابع ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين ، وكان قد هَيَّأ ستَّ مئة جَمَل ، سَبَّل منها مئة ، صاح الباطنيُّ : مظلومٌ! مظلومٌ! وتقرَّبَ ، فزجَرَه الغِلْمانُ ، فقال : دَعُوه ، فتقدَّمَ إليه ، فضربَه بسكين في خاصِرَته ، فصاحَ الوَزيرُ قَتلَني ، وسَقطَ ، وانكشَفَ رأسُه ، فغَطَّىٰ رأسَه بكُمِّه ، وضُربَ الباطنيُّ بسيفٍ ، فعادَ وضربَ الوزيرَ ، فهَبَّرُوه بالسُّيوفِ وكان معَه اثنان ، فأُحْرِقُوا ، وحُملَ الوَزيرُ إلىٰ دارٍ ، وجُرحَ الحاجِبُ ، وكان الوزيرُ قد رأىٰ في النوم أنَّه مُعانِقٌ عُثمانَ رضي الله عنه ، وحَكىٰ عنه ابنُه أنَّه اغتسَلَ قبلَ خُروجه ، وقال : ذا غُسلُ النوم والإسلام ، فإنِّي مَقتولٌ بلا شَكٍّ ثم ماتَ بعد الظهر ، ومات الحاجبُ ، وقيل : إنَّ الوزيرَ بقيَ يقولُ : الله! الله! كثيراً ، وقال : ادفنوني عند أبي[1] .

وجاء في ترجمة « ابن قائد » ، قال الذهبيُّ : قَدِمَ أَوَانا[2] واعظٌ باطنيٌّ ، فنالَ من الصحابَة ، فحُملَ ابنُ قائدٍ في مِحفَّتِه ، وصاحَ به : يا كلبُ انزِلْ ، ورَجَمَتهُ العامَّةُ ، فهربَ ، وحدَّثَ سِناناً[3] بما تمَّ عليه ، فنَدَبَ له اثنين فأتَيَاهُ ، وتَعبَّدا معه أشْهُراً ، ثم قَتلاه ، وقَتلا خادِمَه ، وهَربا في البَساتين ، فنكِرَهما فَلاَّحٌ ، فقَتلَهُما ، ثم تُيُقِّنَ أنَّهما اللَّذانِ قَتلا الشيخَ بصفَتِهما ، ثم أُحْرِقا[4] .

٥ـ مُحارَبَةُ المُسلمينَ لهم وقَتلهم :

جاء في ترجمة « السلطان » يَمين الدولة ، قال أبو النَّضرِ القاميُّ : لمَّا قَدمَ التَّاهَرْتيُّ الدَّاعي من مصرَ على السلطان يَدعوهُ سراً إلىٰ مَذهَب الباطنيَّة ، وكان التَّاهَرْتيُّ يركبُ بَغْلاً ، يتلوَّن كل ساعة من كل لون ، ففهم السلطان سرَّ دَعوتهم ، فغَضبَ ، وقَتَلَ التَّاهَرْتيَّ الخَبيث ، وأهْدىٰ بَغْلَه إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزْدي ،

---

(١) انظر السير : (عَضُد الدولة) ٢١/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٠ .

(٢) قرية من نواحي دجيل شمالي بغداد مما يلي الموصل .

(٣) يعني راشد الدين سنان بن سلمان كبير الإسماعيلية .

(٤) انظر السير : (ابنُ قائد) ٢١/ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٦١١ .

شَيخ هراة ، وقال : كان يَركَبُه رأسُ المُلْحِدين ، فليَرْكبْه رأسُ المُوَحدِّين[1] .

وجاء في ترجمة « رضوان » ، صاحب حَلَب ، قال الذهبيُّ : كان ذَميم السيرة ، قَرَّبَ الباطنية ، وعمل لهم دارَ دعوة بحلب ، وكَثروا ، وقَتلَ أخويه أبا طالب وبهراماً ، ثم هلك في سنة سبع وخمس مئة ، فتملَّك بعده أخوهُ الأخْرسُ إلب آرسلان ، وله ستَّ عشرة سنة ، فقَتلَ أخَوين له أيضاً ، وقتلَ رأسَ الباطنية أبا طاهر الصائغ ، وجماعةً من أعيانهم ، وهربَ آخرون ، ، فقتلَ الأُمراءُ الأخْرسَ بعدَ سنة ، وملَّكوا أخاه سلطان شاه[2] .

وجاء في ترجمة « المستظهر بالله » ، قال ابنُ الأثير : وفي سنة أربعمائة وأربع وتسعين ، أمر السلطانُ بَرْكْيا رُوق بقتل الباطنيَّة ، وهُم الإسماعيلية ، وهم الذين كانوا قَديماً يُسمَّونَ القَرامِطَة[3] .

وقال أيضاً ، وتجرَّدَ بأصبهان للانتقام منهم الخُجَنْديُّ[4] ، وجمع الجمَّ الغفيرَ بالأسلحة ، أمرَ بحفر أخاديدَ أُوقِدَتْ وفيها النيران ، وجعلوا يأتون بهم ويُلقُونهم في النَّار إلىٰ أنْ قَتلوا منهم خَلْقاً كثيراً[5] .

وصارت الأمراءُ يلازمون لُبْسَ الدُّروع تحتَ الثِّياب خَوفاً من فَتك هـٰؤلاء المَلاحِدَة ، وركب السلطان بَرْكْيا رُوق في تطلُّبِهم ، ودَوَّخَهم ، حتىٰ قتل جماعةً برآء ، سعىٰ بهم الأعداء ، ودخل في ذلك أهلُ عانة ، واتُّهم إلْكيا الهرَّاسي بأنه منهم ، وحاشاه ، فأمر السلطان محمدُ ابن ملكشاه بأن يُؤخَذ حتىٰ شَهدوا له بالخَير ، فأُطْلِق[6] .

وقال الذهبيُّ في تَرْجَمَة طَغْتِكِين صاحِبِ دِمَشْقَ الأتابك : قد كان طَغْتِكِينُ سَيْفاً

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٢ .
(٢) انظر السير : (رضوان) ١٩/ ٣١٥ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧٩ .
(٣) انظر السير : (المستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٩١ .
(٤) هو أبو القاسم مسعود بن محمد الخُجَنْدي الفَقيه الشَّافعيّ .
(٥) انظر السير : (المستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٩١ .
(٦) انظر السير : (المستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٢ .

مَسْلُولاً على الفِرَنْج ، ولكن له خَرْمَةٌ ، كان قد اسْتَفْحَلَ البَلاءُ بدَاعِي الإسْماعيليّة بَهْرام بالشَّام ، وكان يَطُوفُ المَدائِنَ والقِلاعَ مُتَخَفِّياً ، ويُغْوي الأغْتامَ والشُّطَّارَ ، ويَنْقادُ له الجُهَّالُ إلىٰ أنْ ظَهَرَ بدِمَشْقَ بتَقْريرٍ قَرَّرَهُ صاحبُ ماردين إيلغازي مع طَغْتِكِين ، فأخَذَ يُكْرِمُهُ ، ويُبالِغُ ، اتِّقاءً لِشَرِّه ، فتَبِعَهُ الغَوْغاءُ ، والسُّفَهاءُ والفَلاَّحُونَ ، وكَثُرُوا ، ووَافَقَهُ الوَزيرُ طاهرُ المزدقانيُّ ، وبَثَّ إليه سِرَّه ، ثم الْتَمَسَ من المَلِكِ طَغْتِكِين قَلعَةً يَحْتَمي بها فأعْطَاهُ بانياسَ في سَنةِ عِشْرينَ وخَمسِ مِئَة ، فعَظُمَ الخَطْبُ ، وتَوَجَّعَ أهْلُ الخَير ، وتَسَتَّروا مِنْ سَبِّهم ، وكانوا قد قَتَلُوا عِدَّة من الكِبار ، فما قَصَّرَ تاجُ المُلوكِ فقَتَلَ الوَزيرَ كَمالَ الدّين طاهِرَ ابنَ سَعد المَذْكور سَنةَ ثلاثٍ وعِشْرينَ بالقَلْعَة ، ونَصبَ رَأسَه ، ورَكِبَ جُندَه ، فوَضَعُوا السَّيفَ بدِمَشْقَ في المَلاحِدَة الإسْماعيليّة ، فسبّكوا منهم في الحالِ نَحْواً من سِتّة آلافِ نَفْسٍ في الطُّرُقات ، وكانوا قد تَظاهَروا ، وتَفاقَمَ أمرُهُم ، ورَاحَ في هٰذه الكائِنَةِ الصَّالحُ بالطَّالِحِ[1] .

وأمَّا بَهْرام ، فتمرَّدَ وعَتا ، وقتلَ شابّاً من أهل وادي التيم اسمه برْق ، فقام عشيرتُه ، وتحالفوا علىٰ أخذ الثأر ، فحاربَهم بَهْرامُ فكبسوه ، وذبحوه إلى اللَّعنَة[2] .

وجاء في ترجمة « تاج الملوك » ، قال الذهبيُّ : تملّكَ بعدَ أبيه سنة اثنتين وعشرين ، وكان ذا حلمٍ وكرمٍ ، له أثر كبيرٌ في قتلِ الإسماعيلية ، وكان مَولدُه في سنة ثمان وسبعين وأربع مئة[3] .

٦ـ مَنْ قرَّبهم من أُمَراء المسلمين :

وجاء في ترجمة « رضوان » ، صاحب حَلَب ، قال الذهبيُّ : كان ذَميم السيرة ، قَرَّبَ الباطنية ، وعمل لهم دارَ دعوة بحلب ، وكَثروا ، وقَتلَ أخويه أبا طالب وبهراماً ، ثم هلك في سنة سبع وخمس مئة ، فتملَّك بعده أخوهُ الأخْرسُ إلب آرسلان ، وله ستَّ

---

(١) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٥ .
(٢) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٠٦ .
(٣) انظر السير : (تاج الملوك) ١٩/٥٧٣ـ ٥٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥١٧ .

عشرة سنة ، فقَتلَ أخَوين له أيضاً ، وقتلَ رأسَ الباطنية أبا طاهر الصائغ ، وجماعةً من أعيانهم ، وهربَ آخرون ، ، فقتلَ الأُمراءُ الأخْرسَ بعدَ سنة ، وملَّكوا أخاه سلطان شاه[1] .

وقال الذهبيُّ في تَرْجَمَة طَغْتِكِين صاحِبِ دِمَشْقَ الأتابك : قد كان طَغْتِكِينُ سَيْفاً مَسْلُولاً على الفِرَنْج ، ولكن له خَرْمَةٌ ، كان قد اسْتَفْحَلَ البَلاءُ بدَاعِي الإسْماعيليَّة بَهْرام بالشَّام ، وكان يَطُوفُ المَدائِنَ والقِلاعَ مُتَخَفِّياً ، ويُغْوي الأغْتامَ والشُّطَّارَ ، ويَنْقادُ له الجُهَّالُ إلىٰ أنْ ظَهَرَ بدِمَشْقَ بتَقْريرٍ قَرَّرَهُ صاحبُ ماردين إيلغازي مع طَغْتِكِين ، فأخَذَ يُكْرِمُهُ ، ويُبالِغُ ، اتِّقاءً لِشَرِّه ، فتَبِعَهُ الغَوْغاءُ ، والسُّفَهاءُ والفَلاَّحُونَ ، وكَثُرُوا ، ووَافَقَهُ الوَزيرُ طاهرُ المزدقانيُّ ، وبَثَّ إليه سِرَّه ، ثم الْتَمَسَ من المَلِكِ طَغْتِكِين قَلعَةً يَحْتَمي بها فأعْطَاهُ بانياسَ في سَنةِ عِشْرينَ وخَمسِ مِئَة ، فعَظُمَ الخَطْبُ ، وتَوَجَّعَ أهْلُ الخَير ، وتَسَتَّروا مِنْ سَبِّهم ، وكانوا قد قَتلُوا عِدَّة من الكِبار ، فما قَصَّرَ تاجُ المُلوكِ فقَتَلَ الوَزيرَ كَمالَ الدّين طاهِرَ ابنَ سَعد المَذْكور سَنةَ ثلاثٍ وعِشْرينَ بالقَلْعَة ، ونَصبَ رَأسَه ، ورَكِبَ جُندَه ، فوَضَعُوا السَّيفَ بدِمَشْقَ في المَلاحِدَة الإسْماعيليّة ، فسبّكوا منهم في الحالِ نَحْواً من سِتّة آلافِ نَفْسٍ في الطُّرُقات ، وكانوا قد تَظاهَروا ، وتَفاقَمَ أمرُهُم ، ورَاحَ في هٰذه الكائِنَةِ الصَّالِحُ بالطَّالِحِ[2] .

٧ـ عَلاقَتُهم بالعُبَيْديِّين الفاطِميِّين :

قال الذهبيُّ في ترجمة صاحب إفريقية ، الملك أبو طاهر يَحْيى ابن تميم : وقد وقفَ ليَحْيىٰ بنِ الملك تميم بن المُعزِّ بنِ باديس الحِمْيري ثلاثةُ غُرباء ، وزَعموا أنهم يعملون في الكيمياء فأحضَرَهم ليتفرَّج وأخلاهم ، وعنده قائدُ عسْكره ، إبراهيمُ ، والشريفُ أبو الحسن ، فسلَّ أحدُهم سكيناً ، وضرب الملك ، فما صنع شيئاً ، ورَفَسَه الملكُ دحرجه ، ودخل مجلساً وأغلقَه ، وقتلَ الآخرُ الشريفَ ، وشدَّ إبراهيمُ بسيفه

---

(١) انظر السير : (رضوان) ١٩/ ٣١٥ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧٩ .

(٢) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٥ .

عليهم ، ودخل المماليكُ ، وقتلوا الثلاثة ، وكانوا باطنيَّة أظنُّ الآمرَ العُبَيْديَ ندبَهم لذلك[1] .

جاء في ترجمة « سنان » ، قال الذهبيُّ : هو راشدُ الدين ، كبيرُ الإسماعيلية وطاغوتهم ، أبو الحسن سنانُ بنُ سَلْمان بن محمد البَصْريُّ الباطنيُّ ، صاحبُ الدَّعْوَة النِّزاريَّة[2] .

وقال الذهبيُّ : الدعوةُ النِّزاريَّة ، نِسْبَةً إلىٰ نِزار بن خليفة العُبَيدية المُسْتنصِر ، صيَّرَهُ أبوهُ ولِيَّ عَهْدِه ، وبثَّ له الدُّعاة ، فمنهم صَبَّاح جدُّ أصحاب الألَمُوت ، أحدُ شياطين الإنس ، ذو سَمتٍ وذلقٍ ، وتَخَشُّع ، وتَنَمُّش ، وله أتباعٌ ، دخلَ الشامَ والسواحل في حدود ثمانين وأربع مئة ، فلم يتمَّ له مرامه ، فسار إلى العجم ، وخاطَبَ الغُتْمَ[3] الصُّمَّ ، فاستجابَ له خلقٌ ، وكَثُروا ، وأظهَروا شُغل السكين والوُثوب على الكبار ، ثم قصدَ قلعةَ الألَموت بقَزْوين ، وهي منيعة بأيدي قوم شُجْعان ، لكنَّم جَهَلَةٌ فُقَراء ، فقال لهم : نحنُ قومٌ عُبَّادٌ مَساكين ، فأقاموا مدَّةً ، فمالوا إليهم ، ثم قال : بِيْعُونا نصفَ قَلعَتكم بسَبعةِ آلاف دينار ، ففعلوا ، فدخلوها ، وكَثروا ، واستولىٰ صبَّاح على القلعة ، ومعه نحو الثلاث مئة ، واشْتُهرَ بأنَّه يُفْسدُ الدين ، ويحلُّ من الإيمان ، فنهد له ملك تلك الناحية ، وحاصر القلعَةَ مع اشتغاله بلعبه وسُكْره ، فقال عليٌّ اليَعْقوبيُّ من خَواص صَبَّاح : أيش يكون لي عليكم إذا قَتلْتُه ؟ قالوا : يكون لك ذُكْرانٌ في تسابيحنا ، قال : رَضيتُ ، فأمرهم بالنزول ليلاً ، وقسَّمَهم أرباعاً في نواحي ذلك الجيش ، ورتَّبَ مع كل فرقة طُبولاً ، وقال : إذا سمعتُم الصَّيْحَةَ ، فاضربوا الطبولَ ، فاختبَطَ الجيشُ ، فانتهَزَ الفُرصَة ، وهجمَ على الملك فقتله ، وقُتلَ ، وهرب العسكرُ فحَوَت الصّبَّاحيةُ الخيامَ بما حَوت ، واستغنَوا ، وعَظُمَ البلاء بهم ، ودامت الألموتُ مئةً وستينَ عاماً ، فكان سنان من نوَّابهم .

---

(١) انظر السير : (صاحب إفريقية) ١٩/ ٤١٢ـ ٤١٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٤ .

(٢) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٧ .

(٣) الغتم : جمع أغتم ، وهو الذي لا يُفصحُ شيئاً ، وفي « تاريخ الإسلام » : وتكلم مع أهل الجبال والغتم الجهلة من تلك الأراضي .

فأمَّا نِزارٌ ، فإنَّ عَمته عملت عليه[1] وعاهدت الأمراء أن تقيم أخاه صبياً ، فخاف نزار ، فهرب إلى الإسكندرية ، وجَرت له أمور وحروب ، ثم قُتلَ ، وصار صبَّاح يقول : لم يمت ، بل اختفىٰ ، وسيظهر ، ثح أحبلَ جاريةً ، وقال لهم : سَيظهرُ من بَطنِها ، فأذعنوا له ، واغتالوا أمراءَ وعُلماءَ[2] ، وخافَتهُم الملوكُ ، وصانَعوهم بالأموال[3] .

٨ـ عَلاقَتُهم بالصَّليبيِّين :

جاء في ترجمة « طُغْتِكين » ، صاحب دمشق ، قال الذهبيُّ : وسلَّمت المَلاحدةُ بانياس للفرنج وذَلُّوا[4] .

وقيلَ : إنَّ المزدقانيَّ كاتَبَ الفِرَنجَ ليُسلِّم إليهم دمشق ، ويُعطوه صور ، وأنْ يَهجموا البلدَ يوم جمعة ، ووكَّل الملاحدةَ تُغْلق أبواب الجامع على الناس ، فقَتلَه لهـٰذا تاجُ المُلوك ، رحمه الله ، وقد التقى الفِرَنْجَ وهزمَهم ، وكانت موقعةً مَشهودةً[5] .

وجاء في ترجمة « شمس الملوك » ، قال الذهبيُّ : استنقذَ بانياس من الفرنج في يومين ، وكانت الإسماعيلية باعوها لهم من سبع سنين ، وسَعَّرَ بلادَهم ، وأوْطانهم ذُلاًّ ، ثم سار فحاصرَ أخاه ببعْلَبَك ، ونازلَ حماة ، وهي للأتابك زنكي ، وأخذها ثم بدا له ، فكاتب الأتابك زنكي ليسلمَ إليه دمشقَ ، فخافته أُمُّه زُمُرُّدَ والأمراء ، فهيّأت أُمُّه مَنْ قتله ، لأنه تَهدَّدها ـ لمَّا نَصحَتهُ ـ بالقَتل ، وكانت الفِرنجُ تخافُه لمَّا هَزَمهم ، وبيَّتهم ، وشنَّ الغارة علىٰ بلادهم وعثَّرهم .

قال ابن القلانسي : بالغ في الظلم ، وصادر وعذَّبَ ، ولما علم بأنَّ زنكي علىٰ

---

(١) يعني عملت ضده .

(٢) ذكر الذهبيُّ في « تاريخ الإسلام » أن الاغتيال بالسكاكين سُنَّة سنَّها اليعقوبيُّ .

(٣) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٧ .

(٤) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٠٦ .

(٥) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٦ .

قصد دمشق بعثَ يستحِثُّه ليُعطيه إيّاها لهَذَيان تخيَّله ، ويقول : إنْ لم تجيء سلمتُها إلى الفرنج ، كتب هـٰذا بيده ، فأشفق الناس ، فحمل صفوةَ المُلك دينها علىٰ حسم الداء ، فأهلكَته ، وكَثُرَ الدُّعاءُ لها .

قُتل سنة تسع وعشرين وخمس مئة ، وله ثلاث وعشرون ، وتملَّكَ بعدَه أخوه محمود ، ثم تزوَّجَت أمُّه بصاحب حَلب زنكي[1] .

٩ـ تَهْديدُ صَلاحِ الدِّينِ لهم ورَدُّهم عليه :

جاء في ترجمة « سنان » ، كبير الإسماعيلية ، قال ابنُ العديم : تَمَكَّنَ في الحُصونِ وانْقادُوا له ، وأخْبَرَني عليُّ بنُ الهَوَّاريّ أنَّ صَلاحَ الدِّين سَيَّرَ رَسُولاً إلىٰ سِنانٍ يَتَهدَّدُه ، فقالَ للرسُولِ : سأُرِيكَ الرِّجالَ الذين أَلْقاهُ بهِم ، فأشَارَ إلىٰ جَماعَةٍ أنْ يَرْمُوا أنْفُسَهم من الحِصْنِ من أعْلاه ، فألْقَوا نُفوسَهم ، فهَلَكُوا[2] .

وكتب سنانُ إلىٰ صلاح الدين[3] :

يـا للـرجـالِ لأمـرٍ هـالَ مَقْطَعُـهُ ... مـا مـرَّ قـطُّ علـىٰ سَمعـي تـوقُّعُـهُ
فـإذا الـذي بقـراعِ السَّيـفِ هَـدَّدنـا ... لا قامَ مَصْرعُ جَنْبي حين تَصْرَعُهُ
قـام الحَمـامُ إلـى البـازي يُهَـدِّدُه ... استيقَظَـتْ لأُسـودِ البَـرِّ أضْبُعُـهُ

وقفتُ علىٰ تفصيلِ كتابكم وجمله ، وعلمنا ما هدَّدنا به من قوله وعمله ، فيا لله العجبُ من ذبابة تطِنُّ في أُذُنِ فيلٍ ، وبَعوضَةٍ تَعُضُّ في التماثيلِ ، ولقد قالها مِنْ قبلِك قومٌ ، فدمَّرْنا عليهم ، وما كان لهم من ناصرين أَلِلْحَقِّ تدحضون ، وللباطلِ تَنْصرون ؟! ، وسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَموا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلبون لئن صَدَرَ قولُك في قطع رأسي ، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي ، فتلك أمانيٌّ كاذبة ، وخيالاتٌ غير صائبة ، فإنَّ الجواهرَ لا تزولُ بالأعراض ، كما أنَّ الأرواحَ لا تَضْمَحلُّ بالأمراض ،

---

(١) انظر السير : (شمسُ الملوك) ١٩/ ٥٧٥ـ ٥٧٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥١٨ .
(٢) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٩ .
(٣) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٠٩ .

وإنْ عُدنا إلى الظَّاهرِ ، وعَدَلْنا عن الباطن ، فلنا في رسول الله أسْوَةٌ حَسَنَة : « ما أُوذِيَ نَبِيٌّ ما أُوذِيتُ »[1] ، وقد علمتَ ما جرىٰ علىٰ عِترَته وشِيعَته ، فالحالُ ما حالَ ، والأمرُ ما زالَ ، وقد علمتُم ظاهِرَ حالِنا ، وكَيفيَّةَ رِجالِنا ، وما يتمَنَّونَه من الفَوات ، ويتَقَرَّبونَ به من حِياضِ الموتِ ، وفي المَثَلِ ، أوَ للبطِّ تُهَدِّدُ بالشَّطِّ ؟ ، فهَيِّء للبَلايا أسْباباً ، وتدَرَّع للرَزايا جِلْباباً ، فلأظْهَرَنَّ عليكَ منك ، وتَكونُ كالباحث عن حَتْفِهِ بظلفِه ، وما ذلك على الله بعَزيز ، فكُنْ لأمرِنا بالمِرْصادِ ، واقْرأْ أوَّلَ « النَحْلِ »[2] وآخرَ « ص »[3] .

فدخلَ السُّلطانُ في مَرْضاة سنان ، مات سنان في سنة تسع وثمانين وخمس مئة[4] .

١٠ـ مُحاوَلتُهم قَتلَ صَلاحِ الدِّين :

وفي سَنَةِ إحْدَىٰ وسَبْعين وثَبَتْ عليه البَاطِنيَّةُ فجَرَحُوه .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ كَسَرَتْه الفِرِنْجُ على الرَّمْلَةِ ، وفَرَّ في جَمَاعَةٍ ونجا ، وفي سَنَةِ خَمْسٍ الْتَقَاهُم وكَسَرَهُم .

وفي سَنَةِ ثمانٍ عَدَّى الفُرَاتَ ، وأَخَذَ حَرَّانَ ، وسَرُوجَ ، والرَّقَّةَ ، والرُّهَا ، وسِنْجَار ، والبِيْرَةَ ، وآمِدَ ، ونَصِيْبِينَ ، وحَاصَرَ المَوْصِلَ ، ثمَّ تَمَلَّكَ حَلَبَ ، وعَوَّضَ عنها صاحِبَها زِنْكِي بسِنْجَار ، ثم إنه حاصر المَوْصِلَ ثانياً وثالثاً ، ثمَّ صَالَحَه صاحِبُها عِزُّ الدِّين مَسْعُود[5] .

وقال ابنُ واصِل في حِصَارِ عزاز : كانت خَيْمَةٌ كان السُّلطانُ يَحْضُرُ فيها ، ويَحُضُّ

---

(١) رُوِيَ بأسانيد ضعيفة من حديث أَنَس وبُرِيدَة ، وجابر ، انظر « الجامع الصغير » وشرحه ٥/ ٤٣٠ـ ٤٣١ .

(٢) ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ .

(٣) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ .

(٤) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٠٩ .

(٥) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦١٩ .

الرِّجَالَ ، فحَضَرَ باطِنيَّةٌ في زِيِّ الأجْنَادِ ، فقَفَزَ عليه واحدٌ ضَرَبَه بسِكِّينٍ لَوْلا المِغْفَرُ الزَّرَدُ[1] الذي تحتَ القَلَنْسُوة لقَتَلَه ، فأمْسَكَ السُّلطَانُ يَدَ البَاطِنيِّ بيَدَيْه ، فبَقِيَ يَضْرِبُ في عُنُقِ السُّلطَانِ ضَرْباً ضَعِيفاً ، والزَّرَدُ تَمْنَع ، وبادَرَ الأميرُ بازكوج ، فأمْسَكَ السِّكِّينَ ، فجَرَحَتْه ، وما سَيَّبَها الباطِنيُّ حتّىٰ بَضَّعُوه ، ووَثَبَ آخَرُ ، فوَثَبَ عليه ابنُ منكلان ، فجَرَحَه الباطِنيُّ في جَنْبِه ، فمَاتَ ، وقُتِلَ الباطِنيُّ ، وقَفَزَ ثالثٌ ، فأمْسَكَه الأميرُ عليُّ بنُ أبي الفَوَارِس ، فضَمَّه تحتَ إبطِه ، فطَعَنَهُ صاحِبُ حمص ، فقَتَلَهُ ، ورَكَبَ السُّلطانُ إلىٰ مُخَيَّمِه ، ودَمُه يَسِيلُ علىٰ خَدِّه ، واحْتَجَبَ في بَيْتِ خَشَبٍ ، وعَرَضَ جُنْدَهُ ، فمَنْ أنْكَرَهُ ، أبْعَدَهُ[2] .

* * *

(١) زرد يُنسَجُ علىٰ قدر الرأس ، يُلبَس تحت القَلنسوة .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٢٠ .

ثانياً : الحلوليّة الاتّحاديَّة

أُناسٌ اتُّهِموا بالقول بالحلول والاتّحاد :

(أ) ابنُ الفارِض :

هو شاعرُ الوقت شرفُ الدين عُمرُ بنُ عليّ بن مُرْشد الحَمَويُّ ، ثم البَصريُّ ، صاحب الاتحاد الذي قد ملأ به التّائيّة .

تُوفِّيَ سنةَ اثنتين وثلاثين ، وله ستٌّ وخمسون سنة[1] .

حدَّث عنه المُنْذِريُّ ، فإن لم يكن في تلك القَصيدة صَريحُ الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده ، فما في العالم زَنْدَقةٌ ولا ضَلالٌ ، اللهُمَّ ألهِمنا التقوىٰ وأعِذْنا من الهَوىٰ ، فيا أئمة الدين ألا تَغضَبون لله ؟! فلا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله .

وشِعْرُه في الذروَة ، لا يُلْحَق شَأوُه[2] .

(ب) ابنُ العَربيِّ الحاتميّ :

قال الذهبيُّ في ترجمته : سكنَ الرُّومَ مدّة ، وكان ذكيّاً كثير العلم ، كتبَ الإنشاءَ لبعض الأمراء بالمغرب ، ثم تَزهَّدَ وتَفرَّدَ ، وتَعبَّدَ ، وتَوَحَّدَ ، وسافر وتَجرَّد ، وأتْهَم وأَنْجَد ، وعملَ الخَلوات ، وعلَّقَ شيئاً كثيراً في تصوُّف أهل الوحدة ، ومَن أرْدَإِ تواليفه كتاب « الفُصُوص » ، فإن كان لا كفْرَ فيه ، فما في الدُّنيا كفرٌ ، نسألُ اللهَ العَفوَ والنَّجاةَ ، فواغَوثاه بالله!![3] .

وقد أوردتُ عنه في « التاريخ الكبير » وله شعرٌ رائق ، وعلمٌ واسع ، وذهنٌ وقَّادٌ ، ولا رَيبَ أنَّ كثيراً من عباراته له تأويلٌ إلاَّ كتابَ « الفُصُوص »[4] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الفارض) ٢٢/٣٦٨ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٣ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الفارض) ٢٢/٣٦٨ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٠٣ .

(٣) انظر السير : (ابنُ العَربيّ) ٢٣/٤٨ـ٤٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٧١٤ .

(٤) انظر السير : (ابنُ العَربيّ) ٢٣/٤٨ـ٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٧١٤ .

ثالثاً : الزَّنادِقَة

أُناسٌ اتُّهِموا بالزَّنْدَقَة :

(أ) ابنُ أبي العَزاقِر :

جاء في ترجمة « ابن أبي العَزاقِر » ، قال الذهبيُّ : الزِّنْديقُ المعثَّر ، أبو جعفر ، محمدُ بنُ عليّ ، الشَّلْمَغانيُّ الرافضيُّ .

قال بالتناسُخ ، وبحُلول الإلهيَّة فيه ، وأنَّ اللهَ يَحلُّ في كلِّ شيءٍ بقدر ما يَحتمله ، وأنَّه خلقَ الشيءَ وضدَّه ، فحلَّ في آدمَ وفي إبليسِهِ ، وكلٌّ منهما ضدٌّ للآخَر .

وقال : إنَّ الضِّدَّ أقربُ إلى الشيء من شِبهِه ، وإنَّ الله يحلُّ في جسَد مَن يأتي بالكرامَات ليدُلَّ علىٰ أنَه هو ، وأنَّ الإلهيَّة اجتمعت في نوح ، وإبليسِه وفي صالحٍ وعاقِر النَّاقَة ، وفي إبراهيمَ ونَمْروذَ ، وعليٍّ وإبْليسه .

وقال : مَن احتاجَ الناسُ إليه ، فهو إلـٰهٌ .

وسمَّىٰ موسىٰ ومحمداً الخائنَيْنِ ، لأنَّ هارونَ أرْسلَ موسىٰ ، وعَليّاً أرسَلَ مُحمَّداً ، فخاناهما ، وإنَّ عليّاً أمهَلَ محمداً ثلاثَ مئة سنة ثم تذهبُ شَريعتُه[1] .

ومِنْ رَأيِه تَركُ الصَّلاةِ والصَّوم ، وإباحَةُ كلِّ فَرْجٍ ، وأنَّه لا بُدَّ للفاضِلِ أنْ يَنيكَ المَفْضُولَ ليُولِجَ فيه النُّورَ ، ومَنْ امْتَنَعَ مُسِخَ في الدَّورِ الثاني ، فرَبَطَ الجَهلَةَ وتَخرَّقَ ، وأضَلَّ طائِفَةً ، فأظْهَرَ أمرَهُ أبُو القاسِم الحُسَينُ بنُ روح ـ رَأسُ الشِّيعَة ، المُلَقَّبُ بالبَاب ـ إلىٰ صاحِبِ الزَّمانِ ، فطُلِبَ ابنُ أبي العزاقر ، فاخْتَفَىٰ ، وتَسَحَّبَ إلى المُوصِل ، فأقامَ هناكَ سِنينَ ورَجَعَ ، فظَهَرَ عَنهُ ادِّعاءُ الرُّبوبيّةِ ، واتَّبَعَه الوَزيرُ حُسَينُ ابنُ الوَزيرِ القاسِم بنِ عُبَيدِ الله بنِ وَهْب ـ وَزيرُ المُقْتَدِر ـ فيما قِيلَ ، وابْنا بِسْطامٍ وإبراهيمُ بنُ أبي عَون ، فطُلِبُوا ، فتَغَيَّبوا ، فلمَّا كان في شَوَّالَ من سَنةِ اثنتَينِ وعِشرينَ ظَفَرَ الوَزيرُ

---

(١) انظر السير : (ابنُ أبي العَزاقِر) ١٤/٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١٧٤ .

ابنُ مُقلة بهـٰذا ، فسَجَنَه ، وكَبَسَ دَارَه ، فوَجَدَ فيها رِقاعاً وكُتُباً مِمَّا يُدَّعَىٰ عليه ، وفيها خِطابُهُ بما لا يُخاطِبُ به بَشَر فعُرِضَتْ عليه فأقَرَّ أنَّها خُطُوطُهم ، وتَنصَّلَ ممَّا يُقالُ فيها ، وتَبرَّأَ منهم فمَدَّ ابنُ عَبْدُوس يَدَه ، فصَفَعَه ، وأمَّا ابنُ أبي عَون فمَدَّ يَدَه إليه فارْتَعَدَتْ يَدُه ، ثمَّ قَبَّلَ لِحْيتَه ورَأسَه وقال : إلَـٰهي ، ورازِقِي ، وسَيِّدي! فقالَ له الرَّاضي بالله : قد زَعَمتَ أنَّكَ لا تَدَّعي الإلَهيَّة ، فمَا هـٰذا ؟ قالَ : وما عليَّ مِنْ قَولِ هـٰذا ؟ واللهُ يَعلَمُ أنَّني ما قُلتُ له : إنَّني إلَـٰهٌ قَطُّ .

فقالَ ابنُ عَبْدُوس : إنَّه لَمْ يَدَّعِ إلَـٰهيّة ، إنَّما ادَّعَىٰ أنَّه البابُ إلى الإمام المُنْتَظَر ثمَّ إنَّهم أُحْضِروا مَرَّاتٍ بمَحْضر الفُقَهاء والقُضاة ، ثمَّ في آخِر الأمْر أفْتَى العُلماءُ بإباحَةِ دَمِه ، فأُحْرِقَ في ذي القَعْدة من السَّنَة وضُرِبَ ابنُ أبي عَون بالسِّياطِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه وأُحْرِق .

وله مُصَنَّفاتٌ أدَبيَّة ، وكانَ من كِبارِ الكُتَّاب .

وقُتِلَ بسَبَبِه وَزيرُ المُقْتَدِر ، الحُسَينُ ، اتُّهِمَ بالزَّنْدَقَة ، وقُتِلَ أبُو إسْحاق إبراهيمُ بنُ أحمَدَ بنِ هِلال بنِ أبي عَون الأنْباريُّ الكاتِب .

وقد كانَ أبُو عليٍّ الحُسَينُ ـ ويُقالُ : الجمَّال ـ وزَرَ للمُقْتَدِر في سَنة تِسْع عَشرةَ وثلاث مِئَة ، ولَقَبُّوه عَميدَ الدولة ، وعُزِلَ بعدَ سَبعةَ أشْهرٍ وسُجِنَ ، وعُقِدَ له مَجْلسٌ في كائِنَة الشَّلْمَغانيّ ، ونُوظِرَ ، فظَهَرَت رِقاعُهُ يُخاطِبُ الشَّلْمَغانيَّ فيها بالإلَهيَّة ، وأنَّه يُحْييه ويُميتُه ، ويَسْألُه أنْ يَغْفِرَ له ذُنوبَه ، فأخْرِجَت تِلكَ الرِّقاعُ ، وشَهِدَ جَماعَةٌ أنَّه خَطُّه ، فضُرِبَت عُنُقُه وطِيفَ برأسِه في ذي الحِجَّة سَنةَ اثنَتين وعِشْرينَ وثلاث مِئَة وعاشَ ثمانياً وسَبعينَ سَنةً[1] .

(ب) أبو حَيَّان التَّوحيديّ :

جاء في ترجمة « أبو حيّان التوحيديّ » ، قال الذهبيُّ : الضالُّ المُلحِد ، أبو حيّان ، عليُّ بنُ محمد بن العبَّاس ، البَغداديُّ ، الصُّوفيُّ ، صاحبُ التصانيف

---

(١) انظر السير : (ابنُ أبي العَزاقِر) ١٤/٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٧٤ .

الأدبيّة والفَلسفيّة ، ويُقالُ : كان من أعيان الشَّافعيَّة .

قال ابنُ بابي في كتاب « الخَريدة والفَريدة » : كان أبو حيّان هـٰذا كذّاباً قليلَ الدِّين والوَرَع عن القَذفِ والمُجَاهَرة بالبُهتان ، تعرَّضَ لأمور جسام من القَدح في الشَّريعة والقَول بالتَّعْطيل ، ولقد وَقف سيِّدُنا الوزيرُ الصاحبُ كافي الكفاة علىٰ بعض ما كان يُدغِلُه ويُخْفيه من سوء الاعتقاد ، فطلَبَه ليَقتُلَه ، فهَربَ ، والتجَأ إلىٰ أعدائه ، ونَفَقَ عليهم تزَخرُفُه وإفْكُه ، ثم عَثَروا منه علىٰ قَبيح دِخْلته وسُوء عَقيدته ، وما يُبطِنُه من الإلْحَاد ، ويَرومُه في الإسْلام من الفَسَاد ، وما يُلْصِقُه بأعلام الصَّحَابَة من القَبَائح ، ويُضيفُه إلى السَّلف الصالح من الفَضَائح ، فطلبَه الوزيرُ المُهَلَّبيُّ ، فاسْتَتَر منه وماتَ في الاسْتتار ، وأراح الله ، ولم يؤثَر عنه إلاَّ مثلبةٌ أو مُخزيةٌ .

وقال أبو الفرج ابنُ الجَوزيّ : زَنادِقَة الإسْلام ثلاثةٌ : ابنُ الرَّاوَندي ، وأبو حيّان التوحيديّ ، وأبو العلاء المعَرِّي ، وأشَدُّهم على الإسْلام أبو حيّان ، لأنهما صَرَّحا ، وهو مَجْمَجَ ولم يُصَرِّحْ .

قال الذهبيُّ : وكان من تلامذة عليِّ بن عيسى الرُّمَّاني ، ورأيتُه يُبالغ في تعظيم الرمَّاني في كتابه الذي ألَّفَه في تَقريظ الجاحظ ، فانظُر إلى المادِح والمَمْدوح!! ، وأجوَدُ الثلاثة الرُّمَّانيُّ مع اعْتِزاله وتشَيُّعِه .

وهو الذي نسب نفسه إلى التوحيد ، كما سمَّى ابنُ تُومَرت أتباعَه بالمُوَحِّدِين ، وكما يُسمِّىٰ صُوفيّةُ الفَلاسفة نُفوسَهم بأهل الوحدة وبالاتحاديَة[1] .

(ج) الجَصَّاص :

جاء في ترجمة « الجَصَّاص » ، قال الذهبيُّ : شَيخُ الزُّهَّاد ، أبو محمد ، طاهرُ بنُ حَسن بنِ إبراهيم ، الهَمَذانيُّ الجَصَّاص .

وله أحْوالٌ وخَوارقٌ ، وبعضُهم رَماهُ بالزَّنْدَقَة ، وقد عَظَّمَه شِيرَوَيْه الدَّيْلَميُّ وبالَغ .

---

(١) انظر السير : (أبو حيّان التوحيديّ) ١٧/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ١٣٢٥ ـ ١٣٢٦ .

وكان يَقرأُ القُرآنَ والتَّوراةَ والإنْجيلَ والزَّبُورَ ، ويَعرفُ تَفسيرها فيما قِيل[1] .

وقال مكِّيُّ بنُ عمر البَيِّع : سمعتُ محمدَ بنَ عيسىٰ يقولُ : صامَ طاهرٌ أربعين يوماً أربعينَ مرّةً ، فآخرُ أربعينَ عَملَها صام علىٰ قِشرِ الدُّخنِ ، فَلِيُبْسِه قَرِعَ رأسُه ، واختلَطَ في عقلِه ، ولم أرَ أكثرَ مجاهدةً منه .

قال الذهبيُّ : فِعْلُ هٰذه الأربعينات حرامٌ قطعاً ، فعُقباها موتٌ من الخَوَر ، أو جُنونٌ واختلاط ، أو جَفافٌ يُوجبُ للمرء سَماعَ خِطابٍ لا وُجودَ له أبداً في الخارج فيَظنُّ صاحبُه أنَّه خطابٌ إلَّي[2] ، كلا والله .

وقال ابنُ زيرك : حضرتُ مَجْلساً ذُكرَ فيه الجَصَّاصُ ، فبعضُهم نسبه إلى الزَّنْدَقة ، وبعضُهم نَسبَه إلى المَعْرفَة .

وقيل : كان تركَ اللَحْمَ والخُبْزَ ، فحُوقِقَ في ذلك ، فقال : إذا أكلتُها طالَبتني نفسي بتقبيل أمرد مليح .

وكان عليه قملٌ مفرطٌ ، ولا يقتُله ، ويقول : لا يُؤذيني .

تُوفِّيَ سنة ثمان عشرة وأربع مئة ، وقَبْرُه يُزارُ بهَمَذان[3] .

(د) الحَريريّ :

جاءَ في تَرجَمَةِ الحَريريّ ، قال الذهبيُّ : كَبيرُ الفُقراء البَطَلَة ، الشيخُ عليُّ بنُ أبي الحَسَن بنِ مَنْصُورِ ابنِ الحريري الحَورانيّ .

مَولِدُه بِبُسْرَ ، وبها مات في سنة خمسٍ وأربعين وستٍّ مئة ، وقد قارب التسعين[4] .

---

(١) انظر السير : (الجَصَّاص) ١٧/ ٣٩٠ـ ٣٩٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٤٦ .

(٢) أي إلـٰهي ، فقد جاء في اللسان : الإلُّ : اللهُ عزَّ وجلَّ ، والمعنىٰ أنه مما يوسوس له يخيل إليه أنه يسمع كلاماً ويظنُّ أن اللهَ يُخاطبُه به .

(٣) انظر السير : (الجَصَّاص) ١٧/ ٣٩٠ـ ٣٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٦ .

(٤) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٢ .

قرأتُ بخطِّ السَّيفِ الحافظ : كان الحريريُّ من أفْتن شيءٍ وأضَرِّه على الإسلام ، تَظهرُ منه الزَّندَقةُ والاسْتهزاءُ بالشَّرْع ، بلَغَني من الثِّقاتِ أشْياءُ يُسْتَعظَمُ ذِكْرُها من الزَّنْدَقة والجُرأة على الله ، وكان مُسْتَخِفّاً بأمرِ الصَّلوات[1] .

وحدَّثَني أبو إسحاق الصَّريفيني ، قال : قلتُ للحريريِّ : ما الحُجَّةُ في الرَّقْصِ ؟ قال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[2] وكان يُطعمُ ويُنفق ويتبعه كلُّ مُريبٍ شهدَ عليه خلقٌ كثيرٌ بما يُوجبُ القَتلَ ، ولم يُقْدمِ السُّلطانُ علىٰ قَتْله ، بل سَجَنَه مرّتين[3] .

وعندي مجموعٌ من كلام الشيخ الحَريريّ فيه : إذا دخلَ مُريدي بلادَ الرُّوم ، وتَنصَّرَ ، وأكلَ الخِنْزيرَ ، وشَربَ الخَمْرَ ، كانَ في شُغْلي!![4] .

وقال لأصحابه : بايعوني علىٰ أن نَموتَ يهودَ ، ونُحْشَر إلى النَّار ، حتىٰ لا يصحَبَني أحدٌ لعلَّة[5] .

ومن ذلك قوله : أمرَدُ يُقدِّمُ مَداسي أخْيَرُ من رضوانكم ، وربع قَحْبَة عندي أحسَنُ من الولدان[6] .

وقال عليُّ بنُ أنجب في تاريخه : الفَقيرُ الحَريريُّ شَيخٌ عَجيبٌ ، كان يُعاشِرُ الأحْداثَ ، كان يُقالُ عنه : إنَّه مُباحيٌّ ولم تكن له مُراقَبة ، وكان يُخرّب ، والفقهاءُ يُنكرون فِعْلَه ، وكان له قَبولٌ عَظيم[7] .

ومِمَّنْ انتُصَرَ له وخَضَعَ لِكَشْفِه الإمامُ أبو شامَة[8] ، فقال : كانَ عندَه من القيامِ

---

(١) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٣٢ .
(٢) سورة الزلزلة ، الأية : ١ .
(٣) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٣٢ .
(٤) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٣ .
(٥) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٣ .
(٦) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٣٣ .
(٧) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٣٣ .
(٨) لم نجد هٰذا الكلام في ذيل الروضتين لأبي شامة حين ترجم له في وفاته سنة ٦٤٥ هـ ، بل نجد خلاف ذلك ذمّاً له ، وقد نسب ابن تغري بردي إلىٰ أبي شامة أيضاً أنه أثنىٰ على الحريري .

بواجِبِ الشَّريعَةِ ما لَمْ يَعْرفْه أحدٌ من المُتَشَرِّعين ظاهراً وباطِناً ، وأكْثرُ النَّاسِ يَغْلِطُونَ فيه ، كان مُكاشِفاً لما في الصُّدورِ بحَيثُ قد أطْلَعَه اللهُ علىٰ سَرائِرِ أوْليائِه[1] .

قال الذهبيُّ : ما هَـٰذا ؟!! ، اتَّقِ اللهَ ، فالكَهَنَةُ وابنُ صَائدٍ مُكاشِفُونَ لما في الضَّمائِرِ .

قالَ عن نَفْسِه :[2]

فَقِيرٌ ولكِنْ مِنْ صَلاحٍ ومِنْ تُقَىَ ... وشَيْـخٌ ولكـنْ للفُسُـوقِ إمَـامُ

* * *

(١) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٥/١٧٣٣ .

(٢) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٣٣ .

رابعاً : الزَّنْج

قال صاحبُ النُّزْهَة : وإنما وضَعْتُها في هـٰذا الموضع لفَساد عَقيدة رئيسهم الطاغية وإفساده عقائد أصحابه ، ولادِّعائه النُّبوَّة .

جاء في ترجمة الرِّياشيِّ ، قال ابنُ دُرَيد : قَتلَته الزَّنج بالبَصْرَة سنة سَبع وخَمسين ومئتين[1] .

وقال عليُّ بنُ أبي أُمَيَّة : لمَّا كان من دُخُولِ الزِّنْجَ البَصْرَة ما كان وقَتْلِهم بها مَنْ قَتَلُوا ، وذلك في شَوَّال سَنَةَ سَبعٍ ، بَلَغَنا أنَّهم دَخَلُوا علىٰ عبَّاس بنِ الفَرج الرِّياشِيّ المَسجد بأسْيَافِهم ، والرِّياشِيّ قائِمٌ يُصلِّي الضُّحَىٰ ، فضَرَبُوه بالأَسْيافِ : وقالوا : هاتِ المَالَ ، فجَعَلَ يقولُ : أيُّ مالٍ ؟ حتىٰ ماتَ فلمَّا خَرَجَتِ الزِّنْجُ عن البَصْرة ، دَخَلْناها ، فمَرَرْنا ببَنِي مازِن الطَّحانين ـ وهناك كان يَنزِلُ الرِّياشِيّ ـ فدَخَلْنا مَسجدَه ، فإذا به مُلْقىً وهو مُسْتَقبلٌ القِبلَةَ كأنَّما وُجِّه إليها ، وإذا بشَمْلَةٍ تُحَرِّكُها الرِّيحُ وقد تَمَزَّقَت ، وإذا جَميعُ خَلْقِه صحيحٌ سَويٌّ لَمْ يَنْشَقَّ له بَطْن ، ولَمْ يَتَغَيَّر له حال ، إلاَّ أنَّ جِلْدَه قد لَصُقَ بعَظْمِه ويَبُس ، وذلك بعد مَقْتَلِه بسَنَتَيْن رَحمَه الله[2] .

قالَ الذهبيُّ : فِتْنَةُ الزِّنجِ كانَت عَظيمَةً ، وذلكَ أنَّ بَعضَ الشَّياطِينِ الدُّهاةِ كانَ طُرقيّاً أوْ مُؤدِّباً ، له نَظَرٌ في الشِّعْرِ والأخْبارِ ، ويَظْهَرُ من حَالِه الزَّنْدَقَةُ والمُروقُ ، ادَّعَىٰ أنَّه عَلَويّ ، ودَعَا إلىٰ نَفْسِه ، فالْتَفَّ عليه قُطَّاعُ طَريقٍ ، والعَبيدُ السُّودُ من غِلْمانِ أهْلِ البَصْرَةِ ، حتىٰ صارَ في عِدَّةٍ وتَحَيَّلوا وحَصَّلوا سُيوفاً وعِصيّاً ، ثمّ ثارُوا علىٰ أطْرافِ البَلَدِ ، فبَدَّعوا وقَتَلوا وقَوُوا ، وانْضَمَّ إليهم كُلُّ مُجرِمٍ ، واسْتَفْحَلَ الشَّرُّ بهم ، فسارَ جَيشٌ من العِراقِ لحَرْبِهم ، فكَسَروا الجَيشَ ، وأخَذُوا البَصْرَةَ ، واسْتَباحُوها ، واشْتَدَّ الخَطْبُ ، وصارَ قائِدُهم الخَبيثُ في جَيشٍ وأُهْبَة كاملة ، وعَزَمَ علىٰ أخْذِ بَغْدادَ ، وبَنَىٰ

---

(١) انظر السير : (الرِّياشيُّ) ١٢/ ٣٧٢ـ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٠٩ .

(٢) انظر السير : (الرِّياشيُّ) ١٢/ ٣٧٢ـ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٠٩ .

لنَفسه مَدينَةً عَظيمَةً ، وحارَ الخَليفَةُ المُعْتَمدُ في نَفسِه ، ودامَ البَلاءُ بهـٰذا الخَبيثِ المَارِقِ ثلاثَ عَشرةَ سَنةً ، وهابَتْهُ الجُيوشُ ، وجَرَتْ معه مَلاحِمُ ووَقَعاتٌ يَطُولُ شَرحُها ، قد ذَكَرَها المُؤرِّخُونَ إلىٰ أنْ قُتِلَ ، فالزِّنجُ هم عِبارَةٌ عن عَبيدِ البَصْرَةِ الذين ثارُوا مَعَه ، لا بارَكَ اللهُ فيهِم[1] .

وجاء في ترجمة « المُعْتَمد على الله » ، قال الذهبيُّ : الخليفةُ ، أبو العبَّاس ، وقيل : أبو جَعْفر بنُ المُتوَكِّل على الله جَعفرُ بنُ المُعْتَصم وُلدَ سنة تسع وعشرين ومئتين .

اسْتُخلِفَ بعدَ قتلِ المُهْتَدي بالله ، سنةَ ستٍّ وخمسينَ ومئتين[2] .

وانْهَمكَ في اللَّهْوِ واللَّعب ، واشْتَغَل عن الرَّعيَّة ، فكَرِهُوه ، وأحبُّوا أخاه المُوفَّق[3] .

وفي رَجبَ أيضاً اسْتولَت الزِّنجُ على البَصْرَة والأُبُلَّة والأهْواز ، وقَتلوا وسَبوا ، وهم عَبيدُ العَوام ، وغَوغاءُ الأنْذال المُلتفِّين على الخَبيث وقام بالكوفة عليُّ بنُ زَيد العلويّ ، واسْتفحَل أمْرُه ، وهَزمَ جَيشَ الخَليفَة ، وظَهرَ أخُوه حَسنُ بنُ زيد بالريِّ .

وقتلت الزِّنجُ بالأُبُلَّة نحوَ ثلاثين ألفاً فحارَبَهم سَعيدٌ الحاجب ثم قَووا عليه ، وقَتلوا خَلقاً من جُندِه ، وتمَّت بينهم وبين العَسكر وَقَعاتٌ .

وفي سنة ثمانٍ وخمسين ومئتين جرت وقعة بين الزِّنج وبين العَسْكَر ، فانهَزَمَ العَسْكَرُ وقُتلَ قائدُهم مَنصور ، ثم نَهضَ أبو أحمد المُوفَّق ومُفلح في عَسكَرٍ عَظيم إلى الغاية لحرب الخبيث ، فانهزمَ جَيشُه ، ثم تهيأ وجمع الجيوش وأقبلَ فتمت ملحمةٌ لم يُسمعْ بمثلها ، وظهر المسلمون ، ثم قُتل مُقدَّمهم مُفلح فانهَزمَ الناسُ ، واسْتباحَهم الزِّنجُ ، وفرَّ المُوفَّقُ إلى الأُبُلَّة ، وتراجَعت إليه العَساكِرُ ، ثم التَقى الزِّنجُ فانتَصَر ، وأسَرَ طاغيتهم يَحْيىٰ ، وبَعَثَ به إلىٰ سامرَّاء فذُبح ، ووَقَع الوَباءُ ، فمات خَلائقُ ، ثم

---

(١) انظر السير : (الرِّياشيُّ) ١٢/ ٣٧٢ـ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠١٠ .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣١ .

(٣) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣١ .

التَقَى المُوفَّقُ الزَّنجَ فانكَسرَ ، وقُتلَ خَلقٌ من جَيشِه ، وتَحيَّزَ هو في طائفةٍ ، وعَظُمَ البلاءُ وكادَ الخَبيثُ أن يَملِكَ الدنيا ، وكان كذَّاباً مُمَخْرِقاً ، مَاكراً ، شُجاعاً ، داهيَةً ، ادَّعَىٰ أنَّه بُعثَ إلى الخَلق ، فردَّ الرسالَة ، وكان يَدَّعي علمَ الغَيبِ ، لَعنَه الله .

ودَخلت سَنةُ تسعٍ وخَمسينَ ومئتَين ، فعَرض المُوفَّقُ جَيشَه بواسِط ، وأمَّا الخبيثُ فدخلَ البَطائحَ ، وبَثَّ حولَه الأنهارَ ، وتَحصَّنَ ، فهَجمَ عليه الموفَّقُ ، وأحْرقَ وقَتلَ فيهم ، واسْتنقَذَ من السَّبايا ، وردَّ إلىٰ بغداد ، فسارَ خَبيثُ الزَّنج إلى الأهواز ، فوَضعَ السَّيفَ ، وقتلَ نحواً من خَمسين ألفاً ، وسَبىٰ أرْبعينَ ألفاً ، فسارَ لحَرْبِه مُوسَىٰ بنُ بُغا ، فتَحارَبا بضعَةَ عشرَ شَهْراً ، وذهب تحتَ السَّيفِ خَلائقُ من الفَريقين ، فإنَّا لله ، وإنَّا إليه راجعون .

وفي سنة ستٍّ وستين ومئتين ، أقبلَت الرُّومُ إلىٰ ديار رَبيعَة ، وقَتلوا وسَبوا ، وهَربَ أهلُ الجَزيرة واستباحت الزَّنجُ رامَهُرْمُز .

وفي سنة سبعٍ وستين ومئتين كَرُّوا علىٰ واسِط ، وعَثروا أهلَها ، فجهَّزَ المُوفَّقُ ولدَه العبَّاس الذي صارَ خليفَة ، فقَتلَ وأسَرَ ، وغرَّقَ سُفُنَهم ، ثم تجمَّعَ جَيشُ الخَبيثِ ، والتقوا بالعبَّاس فهَزَمهم ، ثم التقوا ثالثاً فهزمَهم ، ودام القِتالُ شَهْرين ، ورغبوا في أبي العبَّاس ، واستأمن إليه خلقٌ منهم ، ثم حارَبَهم حتىٰ دَوَّخَ فيهم ، ورَدَّ سالماً غانماً ، وبَقي له وَقعٌ في النُّفوس ، وسار إليهم المُوفَّقُ في جَيشٍ كَثيفٍ في الماء والبَرِّ ، ولَقيَه ولدُه ، والْتَقوا الزَّنجَ فهَزموهم أيضاً ، وخارت قُوىٰ جَيش الخَبيث ، وألحَّ المُوفَّقُ في حربهم ونازَلَ طِهْثيَّا ، وكان عليها خمسةُ أسوار ، فأخَذَها ، واسْتخلَصَ من أَسْرِ الخُبَثاء عَشرةَ آلافِ مُسْلِمَة ، وهَدَمَها ، وكان المُهَلَّبيُّ القائدُ مُقيماً بالأهْواز في ثلاثين ألفاً من الزَّنج ، فسار المُوفَّقُ لحَرْبه ، فانهَزَم ، وتفرَّق عسكرُه ، وطلَبَ خلقٌ منهم الأمان ، فأمنَّهم ، ورَفَق بهم ، وخَلعَ عليهم ، ونزلَ المُوفَّقُ بتُسْتَر ، وأنفق في الجيش ، ومهَّدَ البلاد ، وجهَّزَ ابنَه المُعْتَضد أبا العبَّاس لحَرب الخَبيث ، فجهَّزَ له سُفناً فاقْتَتلوا ، وانتصر أبو العباس وكتبَ كتاباً إلى الخَبيث يُهدِّدُه ، ويَدعُوه إلى التَّوبَة ممَّا فعل ، فعَتا وتَمرَّدَ وقَتلَ الرسُولَ ، فسارَ المُوفَّقُ إلىٰ مَدينَة الخَبيث بنَهْر أبي الخَصيب ،

ونَصَبَ السَّلالمَ ، ودَخلوها ، ومَلكُوا السُّورَ ، فانْهَزمَ الزَّنج ، ولمَّا رأى المُوفَّقُ حَصانَتَها اندهَشَ ، واسمُها المُخْتارَة ، وهالَه كثرةُ المقاتلة بها ، لكن استأمنَ إليه عدّة فأكرَمَهم .

قال الذهبيُّ : ونقلتُ تفاصيل حُروب الزَّنج في « تاريخ الإسلام » ، فمِن ذلك لمَّا كان في شَعبان سنة سبع وستين ومئتين ، برَزَ الخَبيثُ وعسكرُه فيما قِيلَ في ثلاث مئة ألفٍ ما بين فارسٍ وراجلٍ ، فركبَ المُوفَّقُ في خَمسين ألفاً ، وحَجزَ بينهم النهرُ ، ونادى المُوفَّقُ بالأمان ، فاسْتأمنَ إليه خَلقٌ ، ثم إنَّ المُوفَّقَ بَنىٰ بإزاءِ المُخْتارَة مَدينةً علىٰ دِجْلَة سَمَّاها المُوَفَّقيَّة ، وبَنىٰ بها الجامع والأسْواق ، وسَكنها الخَلقُ واستأمن إليه في شهرٍ خَمسةُ آلاف ، وتَمَّت مَلحمةٌ في شَوَّال ونُصِرَ المُوفَّقُ .

وفي ذي الحِجَّة عَبرَ المُوفَّقُ بجَيشِه إلىٰ ناحية المُخْتارَة ، وهَربَ الخَبيثُ ، لكنَّه رَجعَ وأزَالَ المُوفَّقَ عنها .

في ثمانٍ وستين ومئتين تتابع أجْنادُ الخَبيثِ في الخُروج إلى المُوفَّق ، وهو يُحسِنُ إليهم ، وأتاه جَعْفَرُ السَّجَّانُ صاحبُ سِرِّ الخَبيث ، فأعطاه ذَهباً كثيراً ، فرَكب في سَفينة حتىٰ حاذَىٰ قَصرَ الخَبيث ، فصاحَ إلىٰ متىٰ تَصْبرون على الخَبيث الكَذَّاب ؟ وحَدَّثَهم بما اطَّلَع عليه من كَذِبه وكُفْرِه ، فاسْتأمن خَلقٌ ، ثم زَحفَ المُوفَّقُ على البَلد ، وهَدَّ من السُّور أماكن ، ودَخلَ العَسكرُ من أقْطارِها واغْتَرُّوا ، فكَرَّ عليهم الزَّنجُ ، فأصابوا منهم ، وغَرِقَ خَلقٌ ، ورَدَّ المُوفَّقُ إلىٰ بلَده حتىٰ رَمَّ شَعثَه ، وقَطع الجَلْبَ على الخَبيثِ ، حتىٰ أكَلَ أصحابُه الكِلابَ والمَيتَةَ ، وهَربَ خَلقٌ ، فسَألَهم المُوفَّقُ ، فقالوا : لنا سَنة لمْ نَرَ الخُبزَ وقُتلَ بهبُودُ أكبرُ أمراءِ الخَبيث ، وقَتلَ الخَبيثُ ولَدَه لكونه هَمَّ أنْ يخرُجَ إلى المُوفَّقِ .

وفي سنة تسع وستين ومئتين ، دَخلَ المُوفَّقُ المُخْتارَة عَنوَةً ، ونادى الأمانَ ، وقاتَلَ حاشيةُ الخَبيث دُونَه أشَدَّ قتال ، وحازَ المُوفَّقُ خَزائنَ الخَبيث ، وألقى النارَ في جَوانب المَدينة ، وجُرحَ المُوفَّقُ بسَهمْ فأصْبحَ على الحَرب ، وآلمه جُرحُه ، وخافوا ، فخَرَجوا حتىٰ عُوفي ، ورَمَّ الخَبيثُ بلَدَه .

وفي شَوَّال كانت المَلْحَمةُ الكُبرىٰ بين الخَبيث والمُوفَّق ، ثم وَقَعَت الهَزيمةُ على الزَّنج ، وكانوا في جُوعٍ شَديد وبَلاءٍ ، لا خَفَّفَ اللهُ عَنهم ، التقى الخَبيثُ والمُوفَّقُ ، فانْهَزَمت الزَّنج أيضاً ، وأحاطَ الجَيشُ ، فحَصَروا الخَبيثَ في دار الإمارة ، فانملَسَ منها إلىٰ دار المُهَلَّبيِّ ، أحَدُ قُوَّادِه ، وأُسِرَت حُرَمه ، فكان النساءُ نحوَ مئة ، فأحسَنَ إليهنَّ المُوفَّقُ ، وأُحْرِقَت الدَّارُ ، ثم جَرت مَلحَمَةٌ بين المُوفَّق والخَبيث في أوَّل سنة سبعين ومئتين ، ثم وَقعةٌ أخرىٰ قُتلَ فيها الخَبيثُ ، لا رَحمَه اللهُ ، وكان قد اجْتَمعَ من الجُند ، ومن المُطَّوعَة مع المُوفَّق نحو ثلاث مئة ألف ، وفي آخر الأمر شَدَّ الخَبيثُ وفُرسانُه فأزالوا النَّاسَ عن مَواقِفِهم ، فحَملَ المُوفَّقُ فهَزَمَهم ، وساقَ وراءَهم إلىٰ آخر النَّهر ، فبَيْنا الحَربُ تَستعرُ إذ أتىٰ فارسٌ إلى المُوفَّق وبيده رأسُ الخَبيث فما صَدَّق ، وعَرَضَه علىٰ جماعة ، فقالوا : هو هو فترجَّلَ المُوفَّقُ والأُمراءُ وخَرُّوا ساجدين لله وضَجُّوا بالتَّكبير ، وبادَرَ أبو العبَّاس بنُ المُوفَّق في خَواصِّه ، ومَعه رأسُ الخَبيث علىٰ قَناةٍ إلىٰ بَغْدادَ ، وعُملت قِبابُ الزِّينَة ، وكان يوماً مشهوداً ، وشَرعَ الناسُ يَتراجعون إلى المَدائن التي أخذَها الخَبيثُ ، وكانت أيّامُه خَمسَ عَشرةَ سنة .

قال الصُّوليُّ : قد قَتلَ من المسلمين ألفَ ألفٍ وخَمسِ مئة .

قال الذهبيُّ : وكذا عَددُ قَتلَىٰ بابَك .

قال : وكان يصْعَدُ علىٰ مِنْبَرِه بمَدينتِه ، ويَسُبُّ عُثمانَ وعَليّاً وطَلحَةَ وعائشةَ كمَذْهب الأزارِقَة ، وكان يُنادِي على المَسبيَّة العَلويَّة في عَسكره بدِرْهَمين ، وكان عند الزَّنجي الواحد نحو عَشر عَلَويَّات ، يَفترشُهنَّ ويَخْدُمْنَ امرأتَه[1] .

وفي سَنةِ سَبعِين ومئتين نازَلتِ الرُّومُ في مِئَةِ ألفٍ طَرَسُوسَ ، فبَيَّتَهم يازْمانُ الخادِمُ فقِيلَ : قُتِلَ منهُم سَبعُونَ ألفاً ، وقُتِلَ مَلِكُهُم ، وأُخِذَ منهم صَلِيبُ الصَّلَبُوت فالحَمدُ لله علىٰ هـٰذا النَّصْرِ العَزِيزِ الذي لَمْ يُسْمَع بمِثْلِه ، مع تمَامِ المِنَّةِ على الإسْلامِ بمَصْرَعِ الخَبيث .

وعادَ المُوَفَّقُ إلىٰ بَغْدَادَ مَرِيضاً من نِقْرسٍ ، ثمَّ صَارَ داءَ الفِيلِ وقَاسَىٰ بلاءً ، فكان

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٣١ـ١٠٣٤ .

يقولُ : في دِيوانِي مِئَةُ ألفِ مُرْتَزَقٍ ، ما أَصْبحَ فيهِم أسْوَأُ حالاً منِّي ، ثمَّ ماتَ .

وفي سَنَةِ تَسعٍ وسَبعينَ خُلِعَ المُفَوَّضُ بنُ المُعْتَمِد من وِلايَةِ العَهْدِ ، وقُدِّمَ عليه أبو العَبَّاس المُعْتَضِدُ بنُ المُوَفَّق نَهَضَ بذَلِك الأُمَرَاءُ .

وفيها مَنَعَ أبو العَبَّاسِ القُصَّاصَ والمُنَجِّمينَ ، وأَلْزَمَ الكُتبيِّينَ أنْ لا يَبيعُوا كُتُبَ الفَلْسَفَةِ والجَدَلِ ، وضَعُفَ أمْرُ عَمِّه المُعْتَمِد معَه ، ثمَّ ماتَ فَجْأةً لإحْدَىٰ عَشر ليلةً بَقِيَتْ من رَجَبَ سَنَةَ تِسْعٍ وسَبْعِينَ ومِئَتَينِ ببَغْدَادَ ونُقِلَ فدُفِنَ بسَامِرَّاءَ ، فكانت خِلافَتُه ثلاثاً وعِشْرينَ سَنةً وثلاثةِ أيَّام[1] .

مات الْمُعْتَمِدُ على الله بالقَصْرِ الحَسَنيِّ مع النُدَماء والْمُطْربينَ ، أكَلَ في ذلك اليوم رُؤوسَ الجِدَاء ، فيُقالُ : سُمَّ ، وماتَ مَعه مَنْ أكلَ منها ، وقِيلَ : نامَ فغَمُّوه ببُساطٍ وقِيلَ : سُمَّ في كأسٍ ، وأدْخَلوا إليه إسْماعيلَ القاضي والشُّهودَ ، فلمْ يَرَوا به أثراً ، واستُخلِفَ أبو العبَّاس المُعْتَضِدُ وكانت عُرَيبُ جاريةُ المُعتَمد ذاتَ أموالٍ جَزيلة ، ولها في المُعتَمد مَدائحُ ، وكان يَسكَرُ ويُعَرْبِدُ على النُّدَماء ، سامَحَه الله ، وكانت دَولَتُه بِهِمَّةِ أخيه المُوفَّق لا بأس بها[2] .

وجاء في ترجمة « الخَبيثِ » ، قال الذهبيُّ : هو طاغية الزِّنْج ، عليُّ ابن محمد بن عبد الرحمـٰن العَبْدي ، من عبد القَيْس افْتَرىٰ ، وزَعمَ أنَّه وَلدُ زَيْد بنِ عَليٍّ العَلَويِّ ، وكان مُنَجِّماً ، طُرُقيّاً ، ذَكيّاً ، حَرُورِيّاً[3] ، ماكِراً ، داهيَةً مُنْحَلاً ، علىٰ رأي فَجَرَة الخَوارج ، يَتَستَّرُ بالانتماء إليهم ، وإلاَّ فالرَّجلُ دَهْريٌّ ، فَيْلَسوفٌ زِنْديقٌ ، ظَهرَ بالبَصْرة ، واسْتغوىٰ عَبيدَ النَّاس وأوْباشَهم ، فتجمَّعَ له كلُّ لصٍّ ومُريبٍ وكثُروا ، فشَدَّ بهم علىٰ أهْلِ البَصْرَة ، وتَمَّ له ذلك ، واسْتباحوا البلدَ واسْتَرَقُّوا الذُّرِّية ، ومَلكوا ، فانتُدب لحَربهم عَسكرُ المُعْتَمد ، فالتَقى الفَريقان ، وانتصرَ الخَبيثُ واسْتفحلَ بَلاؤه ، وطَوى البلادَ ، وأبادَ العِبادَ ، وكادَ أنْ يَملكَ بَغداد ، وجَرت بينه وبين الجَيش عِدّةُ

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٤ .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٤ .

(٣) نسبةً إلى الحَرْوَريّة : وهم الخوارج الذين خالفوا عليّاً رضي الله عنه بعد رجوعه من صِفِّين إلى الكوفة ، إذ انحازوا إلىٰ « حروراء » مَوضع بظاهر الكوفة ، وكان أوّل اجتماعهم به ، فسُمّوا « الحرورية »

مَصَافَّاتٍ ، وأنشأَ مَدينةً سمَّاها « المُخْتارَة » في غاية الحَصانَة ، وزادَ جَيشُه علىٰ مئة ألفٍ ، ولَولا زَندَقَتُه ومُروقُه لاسْتولىٰ على المَمالك .

قال نِفْطَوَيه : كان أوّلاً بوَاسِط ، وربما كتب العُوَذ فأخذه محمدُ ابنُ أبي عَون ، فحبَسَه ، ثم أطْلَقه ، فما لَبثَ أنْ خَرَجَ واسْتغوى الزِّنجَ ـ يَعني عَبيد الناس والذين يَكْسَحون ويَزْبِلون[1] ـ فصار من أمرِه ما صار ، وخافَته الخُلفاءُ ، ثم أظفَرهم اللهُ به بعد حُروبٍ تُشيِّبُ النَّواصي .

وقُتل ولله الحمد في سنة سبعين ومئتين ، وله ثمانٍ وأربعون سنة .

ولو أفْرَدتُ أخبارَه ووقائعه لبلَغت مُجلَّداً وكان مُفْرطَ الشَّجاعَة ، جَريّاً داهيةً[2] .

رُئيَ أبوه أنَّه بالَ في مَسجِد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بَوْلَةً أحرَقت نصفَ الدنيا .

وكانت أمُّ الخَبيث تقولُ : لمْ يدَعْ ابني أحَداً عندَه علمٌ بالرأيِّ حتىٰ خالَطَهم ، ثم خرجَ إلىٰ خُراسان ، فغابَ عنِّي سَنتين ، وجاءَ ثم غابَ عنِّي غَيبتَه التي خَرجَ فيها ، فوَردَ عليَّ كتابُه من البَصْرَة ، وبَعثَ إليَّ بمالٍ ، فلمْ أقْبلْه ، لِمَا صَحَّ عندي من سَفْكِه للدِّماء ، وخَرابِه للمُدُن .

قال الذهبيُّ : وكان أبوهُ داهيةً شَيطاناً كوَلدِه فقال عليٌّ : مَرِضتُ وأنا غُلام ، فجلسَ أبي يَعودُني ، وقال لأُمِّي : ما خَبرُه ؟ قالت : يَموتُ قال : فإذا ماتَ ، مَنْ يَخْربُ البَصْرَة ؟ قال : فبقيَ ذاكَ في قَلبي[3] .

قال الذهبيُّ : بعد مَصْرع المُتَوكِّل وابنِه ، وأولئك الخُلفاء المُستضعَفين المَقتولين ، نَقصَ أمرُ الخِلافَة جداً ، وطمِعَ كلُّ شَيطان في التوثُّب ، وخَرجَ الصَّفَّارُ بخُراسان ، واتَّسعت مَمالكُه ، وخرجَ هٰذا الخَبيثُ بالبَصْرَة ، وفعلَ ما فعَل ، وهاجَت الرُّومُ ، وعَظُمَ الخَطبُ[4] .

---

(١) الكَسْح : الكَنس ، والكساحة : الكُناسَة ، ويَزْبلون : أي يُصلحون الأرض بالزَّبْل .
(٢) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٣ .
(٣) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٤ .
(٤) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٤ .

ثمَّ بعدَ سَنوات ثارت القَرامطَةُ والأعْرابُ ، وظَهرَ بالمَغْربِ عُبَيْدُ الله ، المُلقَّبُ بالمَهْديِّ ، وتَملَّك ثم دامت الدولة في ذُريَّة الباطنيَّة إلىٰ نور الدين ، رَحمَه الله[1] .

فادَّعَىٰ بعدَ الخَمْسينَ هَـٰذا الخَبيثُ بِهَجَر[2] أنَّه عَليُّ بنُ مُحمّد ابنُ الفَضْلِ بنُ حُسَيْنِ بنُ عبدِ الله بنُ عَبَّاس بنُ عَليِّ بنُ أبي طَالِب ، ودَعَا إلىٰ نَفْسِه ، فمَالَ إليه رَئيسُ هَجَر ، ونابَذَهُ قَومٌ ، فاقْتَتَلوا ، فتَحوَّلَ إلى الأحْسَاء ، واعْتَصَمَ ببَنِي الشمَّاس ، وإنَّما قَصَدَ البَحْرَينِ لِغَبَاوَةِ أهْلِها ، ورَوَاجِ المَخاريق عَليهِم ، فحَلَّ منهم مَحلّ نَبيٍّ ، وصَدَّقُوهُ بِمَرّةٍ ، ثم تَنَكَّروا له لدبره ، فَشَخَصَ إلى البَاديَة يَسْتَغْوي الأعَاريبَ بنُفوذِ حِيَلِه ، وشَعْوَذَتِه ، واعْتَقَدُوا فيه أنَّه يَعْلمُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وجَعَلَ يُغِيرُ على النَّواحي ، ثم تَمَّتْ له وَقْعَةٌ كبيرةٌ ، هُزِمَ فيها وقُتِلَ كُبَراءُ أتْباعِه وكَرِهَتْهُ العَربُ[3] .

وذَهبَ إلىٰ بَغْدادَ فأقَامَ سَنةً يَسْتَغوي النَّاسَ ويُضِلَّهُم ، فاسْتَمالَ عِدَّة من الحاكَة بمَخاريقِه ، والجَهَلَةُ أسْبَقُ شيءٍ إلىٰ أرْبابِ الأحْوالِ الشَّيْطانيّة ، ومَاتَ مُتَولِّي البَصْرَة ، وهَاجَت الأعْرابُ بها ، وفَتَحُوا السُّجونَ ، فتَخَلَّصَ قَومُه فبَادَرَ إلى البَصْرَة في رمَضانَ سَنةَ خمس وخمسين ومئتين ، وحَولَهُ جَماعَةٌ ، واسْتَجابَ له عَبيدٌ زُنوج للنَّاسِ ، فأفْسَدَهم وجَسَّرَهم ، عَمَدَ إلىٰ جَريدَةٍ ، فكَتَبَ علىٰ خِرقَةٍ عليها ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[4] وكَتبَ اسْمَه ، وخَرَجَ بهم في السَّحَر للَيْلَتَين بَقِيَت من رمَضانَ في ألفِ نَفْسٍ ، فخَطَبَهُم ، وقال : أنتُم الأُمَراءُ وسَتَمْلِكُون ووَعَدَهم ، ومَنَّاهُم .

ثم لَمْ يَزَلْ يَنْهَبُ ويُغِيرُ ، ويَكْثُرُ جَمْعُه من كلِّ مائِقٍ[5] وقاطِع طريق ، حتى اسْتَفْحَلَ أمرُه ، وعَظُمَتْ فِتْنَتُه ، وغَنِمَ الخُيولَ والسِّلاحَ ، والأمْتِعةَ والأمْوالَ والمَواشي ، وصَارَ من المُلوك وصَارَ كُلَّما حارَبَه عَسكَرٌ وانْهَزَموا ، فَرَّ إليه غِلْمانُ العَسكَر ، فحَشَدَ له أهلُ

---

(١) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦٤ .

(٢) هجر : مدينة في البحرين .

(٣) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٦٤ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .

(٥) مائق : حاقد ، والمأقة : الحِقْد .

البَصْرَة في ذي القعْدَة من العام ، والتَقوا ، فهَزَمَهُم ، وقَتَلَ منهم مَقْتلَة ، ووَقَعَ رُعْبُه في النُّفوسِ ، فوَجَّهَ الخَليفَةُ جَيشاً ، فما نَفَعُوا .

ثم أخَذَ الأهْوازَ ، فخَافَه أهْلُ البَصْرة ، وانجَفَلُوا ، فأخَذَها بالسَّيفِ في شَوَّالَ ، سَنَةَ سَبعٍ وخمسين ، وقْتَ صَلاةِ الجُمُعَة ، وهَرَبَ جُندُها فأحْرَقَ الجامعَ بمَنْ حَوَىٰ ، ولَمْ تَزَلْ الحَربُ بَينَه وبَينَ المُوَفَّقِ سِجالاً .

واسْتَباحَ واسطَ في سَنة أربعٍ وسِتِّين ، وحَصَلَ للخَبيثِ جَواهِرُ وأمْوالٌ ، فاسْتأثَرَ بها ، فأنْكَرَ عليه المُتَقشِّفونَ من أصْحابِه ، وذَكَرُوا له سِيرَةَ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ، فقالَ : لَيسَ فيهِما قُدْوَة .

وادَّعَىٰ أنَّه هُو عَبدُ الله المَذْكُور في : ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾[1] وزَعَمَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ما يَمْتازُ عليه إلاَّ بالنُّبُوَّة وزَعَمَ أنَّه تَكلَّمَ في المَهْدِ ، صِيحَ به : يا عَليّ! فقالَ : يا لَبَّيْك .

وكان يَجْمعُ اليَهودَ والنَّصارَىٰ ، يَسْألُهم عمَّا في التَّوْراةِ والإنْجيلِ مِنْ ذِكْرِه ، وهم يَسْخَرونَ منه ، ويَقْرَؤُونَ له فُصُولاً ، فيَدَّعي أنَّها فيه وزادَ من الإفْكِ فنَفَرَت منه قُلوبُ خَلقٍ من أتْباعِه ومَقَتُوه وبَقِيَ المُوَفَّقُ يُكْرِمُ كلَّ مَنْ فَرَّ إليه ، ويَخْلعُ عليهم ، وكَتَبَ إلى الخَبيثِ يَدعُوهُ إلى التَّوبَة من ادِّعاءِ مُخاطَبَة المَلائِكَة ، ومن تَحْريفِه القُرآنَ وضَلالَتِه ، فما أجابَ بشيءٍ ، وحَصَّنَ مَدينَتَه (المُخْتارَة) التي بِنَهْرِ أبي الخَصيبِ ، حتّىٰ بَقيَتْ يُضْرَبُ بها المَثَلُ ، ونَصَبَ فيها المَجانيقَ والأسْلِحَةَ بما بَهَرَ العُقولَ ، وبها نَحْوُ مِئتَي ألفِ مُقاتِل ، فما قَدِرَ عليها الجَيشُ إلاَّ بالمُطاوَلَة ، وأنْشَأَ تِلْقاءَها المُوَفَّقُ مَدينَةً وسَكَنَها ، ولَمْ يَزَلْ إلىٰ أنْ أخَذَ (المُخْتارَة) فهَرَبَ الخَبيثُ إلىٰ مَضائِقَ في نَهْرِ أبي الخَصيب ، لا تَصِلُ إليها سَفينَةٌ ولا فارِسٌ ثم بَرَزَ في أبْطَالِه وقَاتَلَ أشَدَّ قِتالٍ ، وهو يَقولُ :

وعَـزيمَتِـي مِثْـلُ الحُسَـامِ وهِمَّتِـي ... نَفْـسٌ أصُـولُ بهـا كَنَفْـسِ القَسْـوَرِ

---

(١) سورة الجن ، الآية : ١ .

وإذا تُنـازِعُنـي أقُـولُ لهـا اسْكُتِـي قَتْـلٌ يُـرِيْحُـكِ أوْ صُعُـودُ المِنْبَـرِ[1]

وجاءَ في تَرجَمَةِ المُعْتَضِد باللهِ قالَ الذهبيُّ : ولمَّا قُتِلَ المُتوَكِّلُ غِيلَةً ، ثم قُتلَ المُعْتَزُّ ، ثُمّ المُسْتَعينُ والمُهْتَدي وضَعُفَ شَأنُ الخِلافَةِ تَوَثَّبَ ابْنا الصَّفَّارِ إلىٰ أنْ أخَذَا خُراسَانَ بعدَ أنْ كانا يَعْمَلانِ النُّحاسَ ، وأقْبَلا لأخْذِ العِراقِ وقَلْعِ المُعْتَمِد .

وتَوَثَّبَ طُرُقِيٌّ داهيةٌ بالزِّنج على البَصْرَة ، وأبادَ العِباد ومزَّقَ الجُيوشَ ، وحارَبوه بضْعَ عَشرةَ سنةً إلىٰ أنْ قُتلَ وكان مارِقاً ، بلغَ جُنْدُه مئة ألف[2] .

فبَقِيَ يَتَشَبَّهُ بهَؤلاءِ كُلُّ مَنْ في رَأسِه رِئاسَةٌ ، ويَتَحَيَّلُ على الأُمَّة ليُرْديهم في دِينِهم ودُنْياهُم ، فتَحَرَّكَ بقُرَى الكُوفَةِ رَجلٌ أظْهَرَ التَّعَبُّدَ والتَّزَهُّدَ ، وكانَ يَسفُّ الخُوصَ ويُؤثِر ، ويَدْعُو إلىٰ إمامِ أهْلِ البَيْتِ ، فتَلَفَّقَ له خَلقٌ وتَألَّهُوا إلىٰ سَنةِ سِتٍّ وثَمانينَ ، فظَهَرَ بالبَحْرَينِ أبو سَعيد الجَنَّابيّ ، وكانَ قَمَّاحاً ، فصَارَ مَعهُ عَسْكرٌ كَبيرٌ ، ونَهَبُوا ، وفَعَلُوا القَبَائِحَ ، وتَزَنْدَقُوا ، وذَهَبَ الأخَوانِ يَدْعُوان إلى المَهْديِّ بالمَغْرِبِ ، فثارَ مَعهُما البَرْبَرُ ، إلىٰ أنْ مَلَكَ عبدُ الله المُلَقَّبُ بالمَهْديِّ غَالِبَ المَغْرِبَ ، وأظْهَرَ الرَّفْضَ ، وأبْطَنَ الزَّنْدَقَةَ ، وقامَ بَعدَهُ ابنُهُ ، ثُمّ ابنُ ابنِه ، ثُمّ تَمَلَّكَ المُعِزُّ وأوْلادُه مِصْرَ والمَغْرِبَ واليَمنَ والشَّامَ ، دَهْراً طَويلاً فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله .

وفي سَنةِ ثَمانينَ ومئتين عاثَتْ بَنُو شَيْبانَ ، فسَارَ المُعْتَضِدُ ، فلَحِقَهُم بالسِّنِّ ، فقَتَّلَ وغَرَّقَ ومَزَّقَهُم ، وغَنِمَ العَسكَرُ من مَواشِيهِم ما لا يُوصَفُ ، حتّىٰ أُبيعَ الجَمَلُ بخَمسَةِ دَراهِم ، وصَانَ نِساءَهُم وذَراريهِم ، ودَخَلَ المُوصِلَ ، فجاءَتْهُ بَنُو شَيْبانَ ، وذَلُّوا ، فأخَذَ منهُم رَهائِنَ ، وأعْطَاهُم نِساءَهُم ، ومَاتَ في السِّجْنِ المُفَوِّضُ إلى الله ، وقِيلَ : كانَ المُعْتَضِدُ يُنادِمُه في السِّرِّ[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٥ .

(٢) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٦ .

(٣) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٦ .

خامساً : القَرامِطَة

جاء في ترجمة المعتضد بالله ، قال الذهبيُّ : وفي سنة ثمانٍ وسبعين ومئتين كان أوَّلُ شأنِ القَرامِطَة[1] .

وفي سنة ستٍّ وثمانين ومئتين ، ظهر بالبَحْرَينِ رأسُ القَرامِطَة أبو سَعيد الجنَّابي ، وكثُرت جُموعُه ، وانضافَ إليه بَقايا الزَّنج ، وكان كَيَّالاً بالبَصْرَة ، فَقيراً يَرفو الأعْدال ، وهم يَسْتخِفُّونَ به ، ويَسْخَرونَ منه ، فآل آمرُه إلىٰ ما آل ، وهزمَ عَساكرَ المُعْتَضد مرَّات ، وفَعلَ العَظائم ، ثم ذُبح في حمَّام قَصرِه ، فخلفَه ابنُه سُليمانُ الذي أخذَ الحَجَرَ الأسْوَد ، وقَتَلَ الحَجيجَ حَولَ الكَعْبَة ، وهو جَدُّ أبي عليّ الذي غلب على الشام ، وهلك بالرَّملة في سنة خمس وستين وثلاث مئة[2] .

وفي سنة سبع وثمانين ومئتين : استفحل شأنُ القَرامِطَة ، وأسْرَفوا في القَتل والسَّبي ، والتقى الجنَّابيُّ وعبّاسٌ الأمير ، فأسَره الجنَّابيُّ ، وأسرَ عامَّة عَسكره ، ثم قَتلَ الجَميعَ سِوىٰ عبَّاس ، فجاء إلى المُعتَضِد وحدَه في أسْوأ حال .

ووقع الفناءُ بأذَرْبيجان ، حتىٰ عُدِمَت الأكفانُ جُمْلةً ، فكُفِّنوا في اللُّبود .

واعتلَّ المعتضدُ في ربيع الآخر ، ثم تماثَلَ ، وانتَكَسَ ، فماتَ في الشهر ، وقام المُكْتَفي لثمانٍ بَقين من الشهر ، وكان غائباً بالرَّقَّة ، فنهَضَ بالبَيْعَة له الوَزيرُ القاسمُ بنُ عُبَيد الله .

وكانت خِلافة المعتضد تسعَ سنين ، وتسعةَ أشْهُر وأيَّاماً .

وقد وَليَ الخِلافة من بَنيه : المُكْتَفي عليٌّ ، والمُقْتَدِرُ جَعْفَرٌ ، والقَاهِرُ محمّدٌ ، وله عِدَّةُ بناتٍ ، وهارون[3] .

---

(١) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١/١١٠٥ .

(٢) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٨ .

(٣) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٨ .

وجاء في ترجمة « المُكْتَفي بالله » ، قال الذهبيُّ : وفي سنة أربع وتسعين ومئتين : أخذَ زَكْرَوَيْه القِرْمِطيّ ركب العراق ، وكنّ نساء العرب يُجْهِزْنَ على الجَرْحَىٰ ، فيُقالُ : قَتلوا عشرين ألفاً ، وأخذوا ما قيمته ألفا ألفِ دينار ، ووقَع النَّوحُ في المُدُن ، وجهَّزَ المُكْتَفي جَيشاً لحَرْبه ، فلا تسأل ما فعل هـٰذا الكلبُ بالوَفْدِ!! ثمّ التَقَوا فقُتل عامَّةُ أصحاب زَكْرَوَيْه ، وأُسِرَ هو وعِدَّة ، ثم مات من جراحه ، وأُحْرِقَ هو وجَماعة .

وفي سنة خمس وتسعين ومئتين : كان الفِداءُ بين المسلمين والرُّوم ، فافتُكَّ نحو ثلاثةُ آلاف نَفَر ، ومات المُكْتَفي شابّاً ، في سابع ذي القعدة من السنة ، وعاشَ إحْدَىٰ وثلاثين سنةً وأشْهُراً[1] .

جاء في ترجمة « القِرْمِطيِّ » ، قال الذهبيُّ : عَدوُّ الله مَلكُ البَحْرَين ، أبو طاهر ، سُليمانُ بنُ حسن ، القِرْمِطيُّ[2] ، الجنَّابيُّ[3] ، الأعْرابيُّ الزِّنْديقُ الذي سارَ إلىٰ مكَّة في سبع مئة فارسٍ ، فاسْتباحَ الحَجيجَ كلَّهم في الحَرم ، واقْتَلعَ الحجَرَ الأسْوَدَ ، وردَمَ زَمْزَمَ بالقَتْلىٰ ، وصَعد علىٰ عتبة الكعبة يَصيحُ :

أنـــا بـــالله وبـــالله أنـــا ... يَخْلُـــقُ الخَلْـــقَ وأُفْنيهـــم أنـــا

فقَتلَ في سِكَكِ مكَّة وما حَولها زُهاءَ ثلاثين ألفاً ، وسَبى الذُّرِّيَّةَ وأقامَ بالحَرمِ ستّةَ أيّام .

بذلَ السيفَ في سابع ذي الحجَّة ، ولمْ يُعَرِّفْ[4] أحدٌ تلك السنة ، فللَّه الأمر وقَتلَ أميرَ مكَّة ابنَ مُحارب ، وعَرَّى البَيتَ ، وأخذَ بابَه ، ورجَعَ إلىٰ بلادِ هَجَر .

وقيل : دخلَ قِرْمِطيٌّ سَكرانٌ علىٰ فرسٍ ، فصفَّر له ، فبالَ عند البيت وضرَبَ الحجَرَ بدَبُّوس هشَّمَه ، ثم اقتلَعَه ، وبقيَ الحجَرُ الأسودُ عندَهم نَيِّفاً وعشرين سنة .

---

(١) انظر السير : (المُكْتَفي بالله) ١٣/ ٤٧٩ـ ٤٨٥ ، وانظر النزهة : ١/١١١٠ .

(٢) نِسْبَةً إلىٰ حمدان قِرْمط ، وهو أوّل من نَشرَ مَذهبَ القَرامطة .

(٣) هـٰذه النسبة إلىٰ جنَّابة ، وهي بلدة من أعمال فارس متصلة بالبحرين عند سيراف ، والقرامطة منها ، فنُسبوا إليها .

(٤) لم يقف أحدٌ علىٰ جبل عرفة .

ويُقالُ : هلك تحتَه إلىٰ هَجَر أربعون جَمَلاً ، فلمَّا أُعيدَ كان علىٰ قَعُودٍ ضَعيف ، فسَمنَ .

وكان بُجْكم التُّرْكيُّ[1] دَفعَ لهم فيه خمسين ألف دينار ، فأبوا وقالوا : أخذناه بأمرٍ ، وما نَرُدُّه إلاَّ بأمرٍ .

وقِيلَ : إن الذي اقتَلَعَه صاحَ : يا حَمير ، أنتُم قُلتُم : ومَنْ دَخَلَه كان آمِناً ، فأيْنَ الأمنُ ؟!! قال رجلٌ : فاستَسْلمتُ ، وقلتُ : إنَّ اللهَ أرادَ : ومَنْ دخلَه فأمِّنُوه ، فلَوَىٰ فرَسَه وما كلَّمَني[2] .

واتَّفقَ أنَّ أبيَ السَّاجِ الأميرَ نَزَلَ بأبي سَعيدٍ الجَنّابيِّ فأكْرَمَه ، فلمَّا سَارَ لِحَرْبِه ، بَعَثَ يَقولُ : لكَ عليَّ حَقٌّ ، وأنْتَ في خَمْسِ مِئَة وأنا في ثلاثينَ ألفاً فانْصَرِفْ ، فقالَ للرسُولِ : كَمْ معَ صَاحِبك ؟ قالَ : ثلاثُونَ ألفَ راكبٍ ، قال : ولا ثَلاثَة ، ثم دَعَا بعَبْدٍ أسْوَدٍ ، فقالَ له : خَرِّقْ بَطْنَكَ بهـٰذه السِّكين ، فبَدَّدَ مَصارينَه ، وقالَ لآخَر : اغْرَقْ في النَّهْرِ ، ففَعَل ، وقال لآخَر : اصْعَدْ علىٰ هـٰذا الحَائِط ، وانْزِلْ علىٰ مُخِّكَ ، فهَلَكَ فقال للرسُولِ : إنْ كانَ مَعَهُ مِثلَ هـٰؤلاء ، وإلاَّ فمَا مَعَه أحَدٌ .

وقِيلَ صَعَدَ قِرْمِطيٌّ لقَلعِ المِيزاب ، فسَقَطَ ، فماتَ وكان ذلكَ سَنةَ سَبعَ عَشْرَة وثلاث مئة ، وكان أميرُ العِراقَيْنِ مَنصُورُ الدَّيْلَميّ وجافَتْ[3] مكَّةُ بالقَتْلَىٰ .

قال المَراغيُّ : حَدَّثنا أبو عبدِ الله بنُ محْرم ، وكانَ رسُولَ المُقْتَدِر إلى القِرْمِطيِّ ، قال : سألتُه بعدَ مُناظَرَات عن اسْتحْلالِه بما فَعَلَ بمَكّة فأحْضَرَ الحجر في الدِّيْباجِ ، فلمَّا أُبْرِزَ كَبَّرتُ ، وأرَيْتُهم من تَعْظيمِه والتَّبَرُّكِ به علىٰ حالَةٍ كبيرةٍ ، وافْتُتِنَتْ القَرَامِطَةُ بأبي طاهر ، وكان أبُوهُ قد أطْلَعَه وحْدَه علىٰ كُنُوزٍ دَفَنَها ، فلمَّا تَمَلَّكَ ، كان يقولُ : هُنا كَنْزٌ ، فَيَحْفِرُون ، فإذا هم بالمَالِ فيَفْتَتِنُونَ به ، وقالَ مَرّةً : أريدُ أنْ أحْفرَ هُنا عَيْناً ، قالوا : لا تَنْبُع ، فخَالَفَهُم ، فنَبَعَ المَاءُ ، فازْدادَ ضَلالُهُم به ، وقالوا : هُوَ إلَـهٌ ، وقالَ

---

(١) أمير الأمراء في بغداد زمن الرَّاضي بالله والمُتَّقي كان داهيةً ، شُجاعاً ، قتلَه الأكْرادُ سنة ٣٢٩ هـ .

(٢) انظر السير : (القِرْمِطِيّ) ١٥/ ٣٢٠ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١٢٣٠ ـ ١٢٣١ .

(٣) جافت : أي أنتنت .

قَومٌ : هُوَ المَسيحُ ، وقِيلَ : نَبيٌّ وقد هَزَمَ جُيوشَ بَغْدادَ غيرَ مَرّة ، وعَتَا وتَمَرَّدَ[1] .

قال مُحمّدُ بنُ رزام الكُوفيّ : حَكَىٰ لي ابنُ حمْدان الطَّبيبُ ، قال : أقَمتُ بالقَطيفِ أُعالِجُ مَريضاً ، فقالَ لي رَجلٌ : إنَّ اللهَ ظَهَرَ ، فخَرَجْتُ فإذا النَّاسُ يُهْرَعونَ إلىٰ دَارِ أبي طَاهِر ، فإذا هو ابنُ عِشْرينَ سَنة ، شَابٌّ مَليحٌ عَليه عَمامَةٌ صَفْراءُ ، وثَوبٌ أصْفَرُ علىٰ فَرسٍ أشْهَبْ ، وإخْوَتُه حَوْلَه فصَاحَ : مَنْ عَرَفَني عَرَفَني ، ومَنْ لَمْ يَعْرِفْني ، فأنا أبو طاهر سُلَيْمانُ بنُ أبي سَعيدِ الحَسَنُ ، الجَنَّابيُّ اعْلَمُوا أنَّا كُنَّا وإيّاكُم حَميراً ، وقد مَنَّ اللهُ عَلينَا بهَـٰذا ، وأشَارَ إلىٰ غُلامٍ أَمْرَدَ ، فقالَ : هَـٰذا رَبُّنا وإلَـٰهُنا وكُلُّنا عِبادُهُ فأخَذَ النَّاسُ التُّرابَ ، فوَضَعُوهُ علىٰ رُؤوسِهم ثمَّ قالَ أبُو طاهر : إنَّ الدِّينَ قَد ظَهَرَ وهُو دينُ أبينا آدَمَ ، وجَميعُ ما أوْصَلَت إليكُم الدُّعاةُ باطِلٌ مِنْ ذِكْرِ مُوسَىٰ وعيسَىٰ ومُحمّد ، هَؤلاءِ دَجَّالُونَ وهـٰذا الغُلامُ هو أبُو الفَضْلِ المَجُوسيّ ، شَرَعَ لهُم اللِّواطَ ، ووَطْءَ الأُخْتِ ، وأمَرَ بقَتْلِ مَنْ امْتَنَعَ فأُدْخِلتُ عليه وبَينَ يَديْه عِدّةُ رُؤوسٍ ، فسَجَدْتُ له ، وأبُو طاهر والكُبَرَاءُ حَولَهُ قيامٌ فقالَ لأبي طاهر : المُلوكُ لَمْ تَزَلْ تُعِدُّ الرُّؤوسَ في خَزائِنِها فسَلُوهُ كَيفَ بَقاؤُها ؟ فسُئِلْتُ ، فقُلتُ : إلَـٰهُنا أعْلَمُ ، ولكِنِّي أقُولُ : فجُمْلَةُ الإنْسانِ إذا مَاتَ يَحْتاجُ كَذَا وكَذَا صَبْراً وكافُوراً والرَّأسُ جُزْءٌ فيُعْطَىٰ حِسَابُه فقال : ما أحْسَنَ ما قال ثم قالَ الطَّبيبُ : ما زِلْتُ أسْمَعُهُم تِلكَ الأيّامَ يَلْعَنونَ إبْراهيمَ ومُوسَىٰ ومُحمَّداً وعَليّاً ورَأيتُ مُصْحَفاً مُسِحَ بغَائِطٍ .

وقال أبُو الفَضْلِ يَوماً لكاتِبه : أُكْتُبْ إلى الخَليفَةِ ، فصَلِّ لهم علىٰ مُحمَّد ، وكِلْ مِنْ جِرابِ النُّورَة[2] قالَ : واللهِ ما تَنْبَسِطُ يَدي لذلك ، فافْتَضَّ أبُو الفَضْل أُخْتاً لأبي طاهر الجَنَّابيِّ ، وذَبَحَ ولَدَها في حِجْرِها ثمَّ قَتَلَ زَوجَها ، وهَمَّ بقَتْلِ أبي طاهر ، فاتَّفَقَ أبو طاهر مع كاتِبه ابنِ سَنْبر ، وآخَر عليه فقالا : يا إلَـٰهَنا ، إنَّ والِدَةَ أبي طاهر قد ماتَتْ فاحْضَرْ لِتَحْشُوَ جَوْفَها ناراً ، قال : وكان سُنَّةً له ، فأتَىٰ فقالَ : ألا تُجيبَها ؟ قال : لا فإنَّها ماتَتْ كافِرَةً ، فعاوَدَهُ ، فارْتابَ وقالَ : لا تَعْجَلا عليَّ ، دَعاني أَخْدِمُ دَوابَّكُما

---

(١) انظر السير : (القِرْمِطِيّ) ١٥/ ٣٢٠ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣١ .

(٢) أي اعمل معهم بالتُّقية .

إلىٰ أنْ يَأتِيَ أبي ، قالَ ابنُ سَنْبر : وَيْلَكَ هَتَكْتَنا ، ونَحنُ نُرَتِّبُ هـٰذه الدَّعوَةَ من سِتِّينَ سَنةً ، فلَوْ رآكَ أبُوكَ لَقَتلَكَ أُقْتُلهُ يا أبا طاهر ، قال : أخافُ أنْ يَمْسَخَني ، فضَرَبَ أخُو أبي طاهر عُنُقَه ، ثمَّ جَمَعَ ابنُ سَنْبر النَّاسَ ، وقالَ : إنَّ هـٰذا الغُلامُ وَرَدَ بكَذِب سَرقه من مَعْدن حَقّ ، وإنَّا وَجَدْنا فَوْقَهُ مَنْ يَنْكِحُه ، وقد كُنَّا نَسْمَعُ أنَّه لا بُدَّ للمُؤمنينَ مِنْ فِتْنةٍ يَظْهَرُ بَعدَها حَقٌّ ، فأطْفِئُوا بُيُوتَ النِّيرانِ وارْجِعُوا مِنْ نِكاحِ الأُمِّ ، ودَعُوا اللِّواطَ ، وعَظِّمُوا الأنْبياءَ ، فضَجُّوا وقالوا : كلُّ وَقتٍ تَقولُونَ لنا قَوْلاً ، فأنْفَقَ أبُو طاهر الذَّهَبَ حتّىٰ سَكَنُوا .

قال الطَّبيبُ : فأخْرَجَ إليَّ أبُو طاهر الحَجَرَ ، وقالَ : هَـٰذا كانَ يُعْبَدُ .

قُلتُ : كلاّ ، قالَ : بَلَىٰ قُلتُ : أنْتَ أعْلَمُ ، وأخْرَجَهُ في ثَوبٍ دَبيقيٍّ[1] مُمَسَّك .

ثمَّ جَرَت لأبي طاهر مع المُسلمينَ حُروبٌ أوْهَنَتْه وقُتِلَ جُنْدُه ، وطَلَبَ الأمانَ علىٰ أنْ يَرُدَّ الحَجَرَ ، وأنْ يأخُذَ عن كلِّ حَاجٍّ ديناراً ويَخْفِرَهم .

قال الذهبيُّ : ثمَّ هَلَكَ بالجُدَريِّ ـ لا رَحِمَهُ الله ـ سَنَةَ اثْنَتينِ وعشرينَ وثلاثِ مِئَة بهَجَر كَهْلاً وقامَ بَعدَه أبُو القاسِم سَعيد[2] .

* * *

(١) نسبة إلىٰ « دبيق » وهي بُليدَة كانت بين الفرما وتنيس ، من أعمال مصر .

(٢) انظر السير : (القِرْمِطِيّ) ١٥/ ٣٢٠ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٢ .

سادساً : مُتنبِّئون

جاء في ترجمة « القَسْري » ، قال محمد بن يزيد الرفاعيّ ، سَمعتُ أبا بكر بن عيَّاش يقول : رأيتُ خالداً القَسْري حين أتىٰ بالمُغيرَة ابن سعيد وأصحابه ، وكان يُريهم أنَّه يُحْيي المَوتَىٰ ، فقَتلَ خالدٌ واحداً منهم ، ثم قال للمُغيرَة : أَحْيِه ، فقال : والله ما أُحْيي المَوتَىٰ ، قال : لتُحيينَّه أو لأضْربَنَّ عُنقَك ، ، ثم أمر بطنٍّ من قصب فأضرموه ، وقال : اعتنقه ، فأبىٰ ، فعدا رجلٌ من أتباعه فاعتنقه ، قال أبو بكر : فرأيتُ النَّار تأكُله وهو يُشيرُ بالسبَّابة ، فقال خالد : هـٰذا والله أحقُّ بالرئاسة منك ، ثم قتلَه وقتلَ أصحابه[1] .

قال الذهبيُّ : كان المُغيرَةُ بنُ سَعيد رافضيّاً ، خَبيثاً ، كذّاباً ، ساحراً ، ادَّعى النُّبوَّة ، وفضّل عَليّاً على الأنبياء ، وكان مُجَسِّماً ، سُقتُ أخبارَه في « ميزان الاعتدال » .

وكان خالدٌ علىٰ هِنَاته يَرجع إلىٰ إسلام[2] .

وعن المأمون قال : أعْياني جَوابُ ثلاثة :

صِرتُ إلىٰ أُمِّ ذي الرِّياسَتين ، الفَضلِ بن سَهْل ، أُعَزِّيها فيه ، وقلتُ : لا تأسَيْ عليه ، فإنِّي عِوَضُهُ لك ، قالت : يا أميرَ المؤمنين وكيفَ لا أحْزَنُ علىٰ ولدٍ أكْسَبَني مثلَك[3] .

وأُتيتُ بمُتَنبىءٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا موسى بن عِمْران ، قلتُ : وَيْحَك! ، موسى بن عِمْران كانت له آياتٌ ، فائتِني بها حتىٰ أؤمنَ بك قال : إنَّما أتَيتُ بالمُعْجِزات فِرْعَونَ ، فإنْ قُلتَ : أنا رَبُّكُم الأعْلىٰ كما قالَ ، أتَيْتُكَ بالآياتِ .

---

(١) انظر السير : (القَسْري) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ٦/٦١٨ .

(٢) انظر السير : (القَسْري) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٦١٩ .

(٣) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٥/٨٧٦ .

وأتىٰ أهلُ الكوفَة يَشْكونَ عاملَهم ، فقال خَطيبُهم : هو شَرُّ عاملٍ ، أمّا في أوّلِ سنةٍ ، فبِعْنا الأثاثَ والعَقارَ ، وفي الثانية بِعْنا الضِّياعَ ، وفي الثالثة نَزَحْنا وأتيناكَ ، قال : كذَبتَ ، بلْ هو مَحْمودٌ ، وعَرَفتُ سُخطَكم على العُمَّال قال : صَدَقتَ يا أميرَ المؤمنين ، وكذَبتُ ، قد خَصَصْتَنا به مدّة دون باقي البلاد ، فاستعمِلْه علىٰ بلدٍ آخرَ لِيَشْمَلَهم من عَدلِهِ وإنْصافِه ما شَمِلَنا فقُلتُ : قُمْ في غير حِفظِ الله ، قد عَزَلْتُه[1] .

وكانت الحُروبُ شَديدةً بينَ عَسْكرِ الإسلام وبين بابِك ، وظَهَر باليَمنِ الصَّناديقيُّ ، وقَتلَ ، وسَبىٰ ، وادَّعَى النُّبوَّةَ ، ثم هَلَكَ بالطَّاعُونِ[2] .

* * *

(١) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٨٧٧/ ١ .

(٢) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٨٧٧/ ٦ .

سابعاً : مُرْتَدُّون

جاء في ترجمة « عِماد الدولة بن هود » ، قال الذهبيُّ : وكان ابنُ رُذمير مَعروفاً بالوفاء ، حدَّثَني مَنْ أثقُ به أنَّ رجلاً كانت له بنتٌ من أجْمل النساء ففقَدَها ، فأُخْبِرَ أنَّ كَبيراً من رؤوس الرُّوم خَرجَ بها إلىٰ سَرَقُسْطَة ، فتَبعَه أبَواها وأقاربُها ، فشَكَوه إلى ابن رذمير ، فأحضرَه ، وقال : عليَّ بالنار ، كيف تَفعَلُ هٰذا بمَنْ هو في جواري ؟ فقالَ الرُّوميُّ : لا تَعْجَل عليَّ ، فإنَّها فرَّت إلىٰ ديننا ، فجيء بها ، فأنكَرَت أبَوَيْها ، وارتَدَّت ولمّا دخلَ سَرَقُسْطَة ، أقرَّهم على الصلاة في جامِعِها سبعةَ أعوام ، وبعد ذلك يعمل ما يَرىٰ ، وحاصَر قُتُنْدَة[1] بعد سَرَقُسْطَة سنتين ، فلمّا كان في آخر سنة أربع عشرة ، قصَدَه عبد الله بن حيونة في جيش فيهم قاضي المَريّة ، أبو عبد الله بنُ الفراء ، وأبو علي ابنُ سُكَّرة ، فبرزَ لهمُ اللَّعينُ ، فقَتلَ خَلْقاً ، وأُسرَ آخرون ، واستُشْهدَ المَذْكوران ، فبنىٰ عليهم ابنُ رذمير قُبوراً ، ثم سُلِّمَ البلدُ إليه ، وأخذَ في تلك المدة دورقة ، وقلعة أيُّوب ، وطَرَسُونة ، وأكثر من مئتي مسَوَّر ، ولم يَبْقَ أكثرُ من ثلاثة مدائن لم يأخذها ، وبقي من أعمال بَني هود لا رِدَة ولا إفراغة ، وطُرْطُوشَة ، وغير ذلك معاملة عشرة أيام لم يَظْفَرْ اللَّعينُ بها ، فقام بلارِدة الهُمامُ البَطَلُ أبو محمد ، وقام بإفراغة الزاهدُ المُجاهدُ محمد مَردنيش الجُذامي جَدُّ الأمير محمد بن سَعْد[2] .

وجاء في ترجمة « يوسف بن أيُّوب » ، قال الذهبيُّ : سَمعتُ صافيَ ابنَ عبد الله الصُّوفيّ يقول : حَضرتُ مَجْلِس يوسف في النظاميّة ، فقام ابنُ السقَّاء ، فآذَى الشيخَ ، وسألَه عن مَسألةٍ ، فقال : اجلس ، إنِّي أجدُ من كَلامك رائحَةَ الكُفْر ولَعَلَّكَ تَموتُ علىٰ غير الإسْلام ، فاتَّفَقَ أنَّ ابنَ السَّقّاء ذهبَ في صُحْبَة رسولِ طاغية الرُّومِ ، وتَنَصَّر بقُسْطَنْطينيّة[3] .

---

(١) وهي ثغر سرقسطة من قُرىٰ مرسية .

(٢) انظر السير : (عماد الدولة بن هود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٦ .

(٣) انظر السير : (يوسُف بن أيُّوب) ٢٠/ ٦٦ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣١ .

وأمّا ابنُ السَّقّاء المذكورُ ، فقال ابنُ النجَّار : سَمعتُ عبدَ الوَهَّاب ابنَ أحمد المُقرىء يقولُ : كان ابنُ السَّقّاء مُقرئاً مُجَوِّداً ، حَدَّثَني مَنْ رآه بالقُسْطَنْطينيّة مَريضاً علىٰ دكَّةٍ ، فسألتُه : هل القُرآنُ باقٍ علىٰ حِفْظك ؟ قال : ما أذكُرُ منه إلاَّ آيةً واحدةً : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[1] والباقي نَسيتُه[2] .

وجاء في ترجمة « المُعِزّ » عزّ الدنيا والدين ، أيْبَك التُّرْكمانيّ ، قال الذهبيُّ : ومَلَّكوا وَلدَه المنصور ، عليَّ ابنَ أيْبَك ، وله خمس عشرة سنة .

عاشَ المُعِزُّ ، أيْبَك التُّركمانيُّ نيِّفاً وخمسين سنة وقُتِلَ في سنة خمسٍ وخمسين وستِّ مئة[3] .

وأمّا المنصورُ عليٌّ بنُ أيْبَك فعُزلَ وتمَلَّكَ قُطزُ الذي كَسَرَ التَّتارَ ، فبعثَ بعليٍّ وبأخيهِ قليج إلىٰ بلاد الأشكُري ، فحدَّثَني سيفُ الدين قليج هـٰذا أنَّ أخاه تَنَصَّرَ بقُسْطَنْطينيَّة وتزَوَّجَ وجاءَته أولادٌ نَصارىٰ ، وعاش إلىٰ نَحْو سنة سبع مئة ، وسمَّىٰ نفسَه ميخائيل[4] .

قال الذهبيُّ : نَعوذُ بالله من الشَّقاء ، فهـٰذا بعد سَلطَنة مصرَ كفرَ وتعثَّرَ[5] .

* * *

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٢ .

(٢) انظر السير : (يوسُف بن أيُّوب) ٢٠/٦٦ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٣١ .

(٣) انظر السير : (المُعِزّ) ٢٣/١٩٨ـ٢٠٠ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٩ .

(٤) انظر السير : (المُعِزّ) ٢٣/١٩٨ـ٢٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٩ .

(٥) انظر السير : (المُعِزّ) ٢٣/١٩٨ـ٢٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢٩ .

ثامناً : مَلاحِدَة

الرِّيوَنْدِي

جاء في ترجمة « الرِّيوَندي » ، قال الذهبيُّ : المُلْحِدُ ، عَدوُّ الدِّين ، أبو الحَسَن أحمدُ بنُ يَحْيىٰ بنُ إسْحاق الرِّيوَندي ، صاحبُ التصانيف في الحَطِّ من الملَّة ، وكان يُلازِمُ الرَّافِضَة والمَلاحِدَة ، فإذا عُوتِبَ قال : إنَّما أريدُ أن أعرفَ أقْوالَهم .

ثم إنَّه كاشَف وناظَرَ ، وأبْرَزَ الشُّبَهَ والشُّكوكَ .

قال ابنُ الجَوزي : كنتَ أسْمَعُ عنه بالعَظائم ، حتىٰ رأيتُ له ما لم يَخْطُرْ علىٰ قلب

قال ابنُ عَقيل : عَجَبي كيف لم يُقْتلْ!! وقد صَنَّفَ « الدَّامِغَ » ، يَدْمَغُ به القُرآنَ ، و« الزُّمُرُّدَة » ، يُزْري فيها على النُّبوَّات وقال ابنُ الجَوْزي : فيه هَذَيانٌ باردٌ لا يتعلَّقُ بشُبهَة!! ، يقولُ فيه : إنَّ كلام أكْثَمَ بنِ صَيفي فيه ما هو أحْسَنُ من سورة الكوْثَر!! ، وإنَّ الأنبياءَ وَقعوا بطَلاسم وألَّفَ لليَهود والنَّصارَىٰ يحْتَجُّ لهم في إبْطالِ نُبوَّة سَيِّد البشَر وقد سَردَ ابنُ الجَوْزي من بَلاياه نَحْواً من ثلاثة أوْراق .

قال ابنُ النجَّار : أبو الحَسَن ابنُ الرِّيوَندي المُتكلِّمُ من أهلِ مروِ الرُّوذ ، سكنَ بَغدادَ ، وكان مُعْتَزليّاً ، ثم تَزَنْدَق ، وقيلَ : كان أبُوه يَهوديّاً فأسْلمَ هو ، فكان بعضُ اليَهودِ يقولُ للمسلمين : لا يُفسِدُ هـٰذا عَليكم كتابَكم ، كما أفسَدَ أبوهُ علينا التَّوْراةَ .

قال البَلخيُّ : لم يكن في نُظَراء ابن الرَّاوَندي مثلُه في المَعقول وكان أوّلَ أمرِه حَسَنَ السِّيرَة ، كَثيرَ الحَياء ، ثم انْسَلَخَ من ذلك لأسباب ، وكان عِلمُه فوقَ عَقلِه .

قال : وقد حُكيَ عن جماعة أنَّه تاب عند مَوْته .

وقال في بعض المُعْجِزات : يقولُ المُنَجِّمُ كهـٰذا .

وقال : في القُرآنِ لَحْنٌ .

وألَّفَ في قِدَم العالَم ، ونَفْي الصَّانع .

وقال : يقولون : لا يأتي أحدٌ بمثل القُرآن ، فهـٰذا إقْليدس[1] لا يأتي أحدٌ بمثله ، وكذلك بَطْلَيْموس[2] .

ماتَ سنة ثمان وتسعين ومئتين .

وقيل : ما طال عُمْرُهُ ، بل عاشَ ستّاً وثلاثينَ سنةً .

لعَنَ اللهُ الذَّكاءَ بلا إيمانٍ ، ورَضيَ اللهُ عن البَلادَة مع التَّقْوَىٰ[3] .

* * *

(١) مظهر الهندسة والمبرز فيها ، وهو من الفلاسفة الرياضيين .

(٢) فلَكيٌّ ، رياضيٌّ شَهير ، وهو الذي أخرجَ عِلم الهَندسَة من القوة إلى الفعْل .

(٣) انظر السير : (الرِّيوَنْدِي) ١٤/ ٥٩ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ١١٢٩ ـ ١١٣٠ .

تاسعاً : مَجُوس

مَجُوسٌ خَرجوا لإقامَةِ مِلَّتِهم « الخُرَّمِيَّة »

جاء في ترجمة « المَأمُون » ، قال الذهبيُّ : وكانت الحُروبُ شَديدةً بينَ عَسْكرِ الإسلام وبين بابَك ، وظَهَر باليَمنِ الصَّناديقيُّ ، وقَتلَ ، وسَبىٰ ، وادَّعَى النُّبوَّةَ ، ثم هَلَكَ بالطَّاعُونِ[1] .

وفي سنة اثنتي عشرة : سار محمد بن حميد الطوسي لمحاربة بابَك ، وأظهَر المَأمُونُ تفضيلَ عليٍّ على الشَّيْخَين ، وأنَّ القُرآنَ مَخْلوقٌ ، واستعملَ علىٰ مِصْرَ والشَّامِ أخاهُ المُعْتَصم ، فقتلَ طائفةً وهذَّبَ مِصْرَ ، ووقع المَصافُّ مع بابَك مرّات[2] .

وجاء في ترجمة « المُعْتصِم » ، قال الذهبيُّ : واشتدَّ البَلاءُ ببابَك ، وهزمَ الجُيوشَ ، ودخلَ في دينه خَلائق من العَجَم ، وعَسكَرَ بهَمَذَان ، فبرزَ لقتالِه إسْحاقُ المُصْعَبيّ ، فكانت مَلْحمَةً عُظمَىٰ ، فيُقالُ : قُتلَ منهم ستُّونَ ألْفاً ، وهَربَ باقيهم إلى الرُّومِ[3] .

وفي سنة اثنتينِ وعشرينَ ومئتَين ، كان المَصَافُّ بين بابَك الخُرَّمي وبين الأفشين ، فطحَنَه الأفشينُ ، واستباحَ عَسكرَه ، وهَربَ ، ثم إنَّه أُسِرَ بعد فُصولٍ طَويلة ، وكان أحدَ الأبطالِ ، أخافَ الإسلامَ وأهْلَه ، وهزمَ الجُيوشَ عشرينَ سنةً ، وغلَبَ علىٰ أذَرْبيجانَ وغيرِها ، وأرادَ أنْ يُقيم المِلَّةَ المَجُوسيَّة[4] .

وكان المُعْتصِم والمَأمُونُ قد أنفقوا علىٰ حرب بابَك قناطيرَ مُقَنْطَرة من الذَّهب والفِضَّة ، ففي هـٰذه السَّنَة ، بعثَ المُعْتصِم نَفَقات إلىٰ جَيشِه مع الأفشين ، فكانت

---

(١) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٦/٨٧٧ .

(٢) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٧/٨٧٧ .

(٣) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨/٨٧٨ .

(٤) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٩/٨٧٨ .

ثَلاثينَ ألفَ ألفِ درْهَم ، وأُخِذَت البَذُّ ، مَدينةُ بابَك اللَّعين ، واخْتَفىٰ في غَيضةٍ ، وأُسِرَ أهْلُه وأولادُه ، وقُطعَ دابرُ الخُرَّميَّة[1] .

وقال المسعوديُّ : هرب بابَك بأخيه وأهلِه وخَواصِّه في زيِّ التُّجَار ، فنزلَ بأرض أرْمينيَّة بعمل سَهل بن سنباط ، فابتاعوا شاةً من راعٍ ، فنَكِرَهم ، فأتىٰ سَهْلاً فأعلَمَه ، فقال : هـٰذا بابَكُ بلا شكٍّ ، فركب في أجناده حتىٰ أتىٰ بابَك ، فترجَّل وسلَّم عليه بالمُلك ، وقال : قُمْ إلىٰ قَصْرك ، فأنا عَبدُك ، فمَضىٰ معه ، ومدَّ السِّماطَ له ، وأكلَ معه ، فقال بابَكُ : أمثلُكَ يأكلُ مَعي!! فوقفَ واعتَذَر ، ثم أحضرَ حَدَّاداً ليُقيِّدَه ، فقال : أغَدْراً يا سَهلُ ؟ قال : يا ابنَ الفاعلة ، إنَّما أنتَ راعيَ بقرٍ ، ثم قيَّدَ أتباعَه ، وكاتبَ الأفشين ، فجهَّزَ أربعة آلاف ، فتسلَّموه وجاءَ سَهلٌ ، فخَلَعَ عليه الأفشينُ ، وبُعثَت بطاقةٌ بذلك إلىٰ بَغدادَ ، فضَجَّ الناسُ بالتكبير والشُّكرِ لله ، ثم قدموا ببابَك في صَفر سنة ثلاث وعشرين ومئتين[2] .

وكان هـٰذا الشَّقيُّ ثَنويّاً علىٰ دين ماني ومَزْدَك ، يقول بتَناسُخ الأرْواح ، ويَسْتَحلُّ البنتَ وأُمَّها[3] .

وقيلَ : إنَّه أبادَ من الأُمَّة خَلائقَ ، وبخَطِّ الإمام ابن الصَّلاح ، : أنَّ قَتْلَىٰ بابَك بلَغوا ألفَ ألفٍ وخَمس مئة ألف ، وأُحْصِيَ قَتْلَىٰ أبي مسلم الخُرسانيّ ، فبَلَغوا ألفي ألف[4] .

وجاء في ترجمة « المعتضد بالله » ، قال الذهبيُّ : فظهر بعد المئتين بابَك الخُرَّميُّ ، زِنْديقٌ بأذْرَبيجانَ ، وكان يُضرَبُ بفَرْطِ شَجاعَته الأمثالُ ، فأخذَ عِدَّة مَدائن ، وهَزَم الجُيوشَ إلىٰ أنْ أُسِرَ بحيلةٍ ، وقُتلَ[5] .

* * *

---

(١) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٧٩/ ١ .
(٢) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٧٩/ ٢ .
(٣) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٧٩/ ٣ .
(٤) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٧٩/ ٤ .
(٥) انظر السير : (المُعْتضدُ بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٦/ ١ .

المعْجِزاتُ والكرامات

أولاً : المُعْجِزَات

من مُعْجزات سَيِّد الخَلق محمدٍ صلى الله عليه وسلم :

جاء في ترجمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما قَدِمَ عليه أَسْرىٰ كِسْرَىٰ وفيهم الهُرْمُزان ، قال الذهبيُّ : فقال عُمرُ الحَمدُ لله الذي سَلبَ كِسْرَىٰ وقَومَه حُليَّهم وكِسْوتَهم وألْبَسَها سُراقَةَ ، ثم دَعا الهُرمُزانَ إلى الإسْلام فأبَىٰ ، فقال عليُّ بنُ أبي طالب : يا أميرَ المؤمنين فَرِّقْ بين هـٰؤلاء ، فحَملَ عُمرُ الهُرْمُزانَ وجُفَيْنَةَ وغيرَهما في البَحر ، وقال : اللَّهُم اكْسِر بهم ، وأرادَ أن يَسيرَ بهم إلى الشَّام فكُسرَ بهم ولمْ يَغْرَقوا فرَجَعوا فأسْلَموا ، وفَرضَ لهم عُمرُ ألْفَين ألفَين ، وسَمَّى الهُرمُزانَ عَرْفَطَة .

قال المِسْوَرُ بنُ مَخْرَمة : رأيتُ الهُرْمُزانَ بالرَّوْحاءِ مُهِلاً بالحَجِّ مع عُمرَ ، وقال عليُّ بنُ زَيد بنِ جُدعان ، عن أنسٍ قال : ما رأيتُ رَجلاً أخْمَصَ بَطْناً ولا أبْعدَ ما بينَ المِنْكَبَين من الهُرْمُزان .

وعن عبد الرزَّاق ، عن معمر ، عن الزُّهْري : أخبرني سَعيدُ بنُ المُسَيِّب ، أنَّ عبدَ الرحمـٰن بن أبي بكر ـ ولم تُجرَّب عليه كَذبَةٌ قَطُّ ـ قال : انتَهيتُ إلى الهُرْمُزان ، وجُفَيْنَة وأبي لؤلؤة ، وهم نَجِيٌّ فتَبعتُهم ، وسَقطَ من بَينِهم خِنْجَرٌ له رَأسان ، نِصابُه في وَسَطِه ، فقالَ عبدُ الرحمَـٰن : فانْظُروا بم قُتلَ عُمرُ ، فنَظَروا فوَجدوه خِنْجَراً علىٰ تلك الصِّفَة ، فخرَجَ عُبيدُ الله بنُ عُمر ابن الخطاب مُشتَملاً على السَّيف ، حتىٰ أتى الهُرْمُزان فقال : اصْحَبني نَنظُر فَرَساً لي ـ وكان بَصيراً بالخَيْل ـ فخَرج يمَشي بين يَديه فعَلاه بالسَّيف ، فلمَّا وَجَدَ حدَّ السَّيف قال : لا إلَـٰه إلا الله ، فقَتلَه ، ثم أتىٰ جُفَيْنَة ، وكان نَصْرانيّاً ، فلمَّا أشْرَفَ له عَلاهُ بالسَّيف ، فصَلبَ بين عَينيه ، ثم أتىٰ بنتَ أبي لؤلؤة جاريَةً صَغيرة تَدَّعي الإسْلامَ فقتلَها ، وأظْلَمَت الأرضُ يَومئذٍ علىٰ أهلها ، ثم أقْبلَ

بالسَّيف صَلْتاً في يده ، وهو يقولُ : والله لا أترُكُ في المَدينَة سَبياً إلاَّ قَتلتُه وغَيرُهم ، كأنَّه يُعَرِّضُ بناسٍ من المُهاجرين ، فجَعلوا يَقولون له : ألقِ السَّيفَ ، فأبىٰ ، ويَهابُونَه أنْ يَقْربوا منه ، حتىٰ أتاه عَمرو بنُ العَاص فقال : أعْطِني السَّيفَ يا ابنَ أخي ، فأعْطَاه إيَّاه ، ثم ثارَ إليه عُثمانُ فأخذَ برأسِه فتَناصَيَا[1] حتىٰ حَجزَ الناسُ بينهم ، فلمَّا وَلِيَ عُثمانُ قال : أشِيروا عليَّ في هـٰذا الذي فَتقَ في الإسْلام ما فَتَق ، فأشار المُهاجرون بقَتْلِه ، وقال جَماعَةُ الناس : قُتلَ عُمرُ بالأمس ويُتْبِعُونَه ابنَه اليومَ!! أبْعَدَ اللهُ الهُرْمُزانَ وجُفَيْنَة ، فقال عَمرو : إنَّ اللهَ قد أعْفاكَ أنْ يكونَ هـٰذا الأمرُ في وِلايَتِك ، فاصْفَحْ عَنه[2] ، فتَفرَّقَ الناسُ علىٰ قَول عَمرو ، وَوَدىٰ عُثمانُ الرَّجُلين والجَارِيَة[3] .

وعن ابنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه قال : كُنتُ أرْعَىٰ غَنماً لعُقبَة بنِ أبي مُعَيْط ، فمَرَّ بي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأبو بَكر ، فقال : « يا غُلامُ! هلْ من لَبَنٍ ؟ » قلتُ : نَعم ، ولكنِّي مُؤتَمَنٌ ، قال : « فهَلْ من شاةٍ لمْ يَنزُ عليها الفَحلُ ؟ » فأتَيتُه بشاةٍ ، فمَسَح ضِرْعَها ، فنزلَ لبنٌ ، فحَلبَ في إناءٍ فشَربَ ، وسَقىٰ أبا بَكر ، ثم قال للضَّرع : « اقْلُصْ » ، فقَلصَ ، ثم أتيتُه بعد هـٰذا فقلتُ : يا رسولَ الله! عَلِّمني من هـٰذا القَول ، فمَسحَ رَأسي وقال : « يَرحَمك اللهُ إنَّك غُلَيِّم مُعلَّم » .

قال الذهبيُّ : هـٰذا حَديثٌ صَحيحُ الإسنادِ ، ورَواه أبو عُوانَة عن عاصِم بن بَهْدَلة ، وفيه زيادة منها : فلقد أخَذتُ من فيه صلى الله عليه وسلم سَبعين سُورةً ما نازَعَني فيها بَشرٌ[4] .

عن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه قال : والله ، إنْ كنتُ لأعْتَمدُ على الأرض من الجُوع ، وإنْ كُنتُ لأشُدُّ الحَجَرَ علىٰ بَطني من الجُوع ، ولقد قَعدتُ علىٰ طَريقِهم ، فمرَّ بي أبو بَكر ، فسَألتُه عن آية في كتاب الله ـ ما أسْألُه إلاَّ ليَسْتَتبِعَني ـ فمرَّ ، ولمْ

---

(١) تناصيا : أي تواخذا بالنواصي .

(٢) قال صاحب النزهة : أي أن عثمان لم يكن قد تولَّى الخلافة حين صنع عبيد الله ما صنع ، ولم يكن أمر المسلمين قد اجتمع علىٰ إمام بعد .

(٣) انظر السير : (عمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ٢/٥٨ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/٤٦١ـ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/١٩٣ .

يَفعلْ ، فمرَّ عُمرُ فسَألتهُ فكذلك ، حتىٰ مرَّ بي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فعَرفَ ما في وَجهي من الجُوع ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أبو هُرَيْرَة ؟ » قلتُ : لَبَّيكَ يا رسولَ الله ، فدَخلتُ مَعه البَيتَ ، فوَجدَ لبناً في قَدحٍ ، فقالَ : « مِنْ أيْنَ لَكمْ هَـٰذا » ، قِيلَ : أَرسَلَ به إليكَ فُلان .

فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هُرَيْرَة ، انْطَلِق إلىٰ أهْلِ الصُّفَّة[1] فادْعُهم » ـ وكان أهْلُ الصُّفَّة أضْيافُ الإسْلام ، لا أهْلَ ولا مَالَ ، إذا أتَتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صَدقَةٌ أرسَلَ إليهم بها ، ولم يُصِبْ منها شَيئاً ، وإذا جاءَته هَديةٌ ، أصابَ منها ، وأشْرَكَهم فيها ـ فسَاءَني إرسالُه إيَّاي ، فقلتُ : كنتُ أرْجُو أن أُصيبَ من هـٰذا اللَّبن شَربَةً أتقوَّىٰ بها ، وما هـٰذا اللَّبنُ في أهل الصُّفَّة .

ولمْ يكنْ من طاعَة الله ورسُولِه صلى الله عليه وسلم بُدٌّ ، فأتَيتُهم ، فأقبَلوا مُجيبين ، فلمَّا جَلسُوا ، قال صلى الله عليه وسلم : « خُذْ يا أبَا هُرَيْرَة فَأَعْطِهِمْ » ، فجعلتُ أُعطي الرجلَ ، فيَشربُ حتىٰ يَروَىٰ ، حتىٰ أتَيتُ علىٰ جَميعِهم ، وناوَلتُه رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فرَفعَ رأسَه إليَّ مُبتَسِماً ، وقال : « بَقِيتُ أنا وأنْتَ » . قلتُ : صدقت يا رسولَ الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « فاشْرَبْ » ، فشَربتُ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اشْرَبْ » ، فشَربتُ ، فما زالَ يقولُه : « اشْرَبْ » ، فأشْرب ، حتىٰ قلتُ : والذي بَعَثكَ بالحَقِّ ، ما أجدُ له مَساغاً ، فأخذَ ، فشَربَ من الفَضْلَة[2] .

وقال يَزيدُ بنُ عبد الرحمَـٰن ، حدَّثني أبو هُرَيْرَة ، قال : والله ، ما خَلقَ اللهُ مُؤمناً يَسمَعُ بي إلاَّ أحَبَّني . قُلتُ : وما عِلْمُك بذلك ؟ قال : إنَّ أمِّي كانت مُشْركَة ، وكنتُ أدْعُوها إلى الإسْلام ، وكانت تأبَىٰ عليَّ ، فدَعَوتُها يوماً ، فأسْمَعَتْني في رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ما أكرَه ، فأتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبْكي ، فأخْبَرتُه ، وسَألتُه أنْ يَدعُوَ لها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبي

---

(١) الصفة : كانت في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة يكون فيها فقراء المهاجرين ، ومن لا منزل له منهم ، وأهلها منسوبون إليها .

(٢) انظر السير : (أبو هريرة) ٢/ ٥٨٧ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٦/٣٠٧ .

هُرَيْرَةَ » . فخَرجتُ أعْدُو أُبَشِّرُها ، فأتَيتُ ، فإذا البابُ مُجاف ، وسَمعتُ خَضْخَضَةَ الماءِ ، وسَمعَتْ حِسِّي ، فقالت : أشْهَدُ أنْ لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، وأنَّ مُحمَّداً عَبدُهُ ورَسُولُه .

قال فرَجَعتُ إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أبْكي من الفَرَح كما بَكيتُ من الحُزْن ، فأخْبَرتُه ، وقُلتُ : ادْعُ اللهَ أنْ يُحَبِّبَنِي وأُمِّي إلىٰ عِبادِه المؤمنين ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَـٰذَا وأُمَّهُ إلىٰ عِبَادك المؤمنين ، وحَبِّبْهُ إلَيهما » إسنادُه حَسَن .

وكان حِفظُ أبي هُرَيْرَة الخارقُ من مُعجزاتِ النُّبوَّة[1] .

وقال أبو بَكْرَة : رَأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على المِنْبَر والحَسَن إلىٰ جَنبه وهو يقولُ : « إنَّ ابْنِي هَـٰذا سَيِّدٌ ، ولَعَلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بَينَ فِئَتَيْنِ مِن المُسْلِمِين »[2] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ جَعْفَر ، قال : أرْدَفَني رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يومٍ خَلفَه ، فأسَرَّ إليَّ حَديثاً لا أُحَدِّثُ به أحَداً . فدَخلَ حَائِطاً ، فإذا جَملٌ فلمَّا رَأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حَنَّ وذَرِفَت عيناهُ[3] ،[4] .

وجاء في ترجمة « المستعصم » ، قال الذهبيُّ : وفي سَنة أرْبَع وخَمسين وستٍّ مئة كان ظُهورُ الآية الكُبرىٰ ، وهي النَّارُ بظاهِر المَدينة النَّبويَّة ، ودَامَت أيّاماً تَأكلُ الحِجارَة ، واستغاثَ أهلُ المَدينة إلى الله وتابوا ، وبَكَوا ، ورَأىٰ أهلُ مكَّةَ ضَوءَها من مكَّة ، وأضاءَت لها أعْناقُ الإبل ببُصْرىٰ ، كما وعدَ بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما صحَّ عنه ، وكُسِفَ فيها الشمسُ والقَمرُ ، وكان فيها الغَرقُ العَظيمُ ببَغدادَ ، وهلكَ خَلقٌ من أهلها ، وتَهدَّمَت البُيوتُ ، وطفحَ الماءُ على السُّور[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو هريرة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٠٨ .

(٢) انظر السير : (الحسن بن علي بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٣٧٨ .

(٣) وتمامه : فأتاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراهُ فسكتَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ربُّ هـٰذا الجمل ؟ » فجاء فتىً من الأنصار فقال : لي يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « أفلا تتقي الله في هـٰذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ ، فإنه شَكا إليَّ أنَّك تُجيعه وتدئبه » .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن جعفر) ٣/ ٤٥٦ـ ٤٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٠٧ .

(٥) انظر السير : (المستعصم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧٢٤ .

ثانياً : الكرامَات

١ـ ضَابطٌ لقَبولِ الكرامَة :

قال أبو حَفْص بنُ شاهين : حدَّثنا أحمدُ بنُ محمَّد المُؤذِّن ، سَمعتُ محمَّدَ بنَ مَنصور الطُّوسيَّ ، وحَواليه قَومٌ ، فقالوا : يا أبا جَعْفَر ، أيش اليوم عندَك ؟ ، قد شَكَّ النَّاسُ فيه ، أيومَ عَرفَة هو أو غَيره ؟ فقال : اصْبروا ، فدَخلَ البيتَ ، ثم خَرجَ ، فقالَ هو يومُ عَرفَة ، فاسْتَحيوا أن يقولوا له : مِنْ أينَ ذلك ، فعَدُّوا الأيّامَ فكانَ كما قال . فسَمعتُ أبا بَكْر ابنَ سَلام الورَّاقُ يقول له : مِنْ أينَ عَلمتَ ؟ قال : دَخلتُ ، فسَألتُ رَبِّي فأراني النَّاسَ في المَوْقِف . !!

قال الذهبيُّ : لا أعرفُ هـٰذا المُؤذِّن ، ولمْ يَبعُد وُقوعُ هـٰذا لمثلِ هـٰذا الوَليِّ ، ولكن الشأنُ في ثُبوت ذلك[١] .

وقال سُلطان العَارفينَ ، أبو يَزيد البَسْطاميّ : لله خَلقٌ كَثيرٌ يَمشون على الماء ، لا قِيمَةَ لهم عند الله ، ولو نَظرَتُم إلىٰ مَنْ أُعْطِيَ من الكَراماتِ حتىٰ يَطيرَ ، فلا تَغْترُّوا به حتىٰ تَرَوا كيفَ هو عند الأمرِ والنَّهْي ، وحِفظِ الحُدود والشَّرع . وله هـٰكذا نُكَتٌ مَليحَة[٢] .

٢ـ تَعليلٌ لكثرَة الكرامَات في بَني إسْرائيلَ وقِلَّتها في هـٰذه الأُمَّة :

جاءَ عن بَكرٍ المُزنيِّ ، وهو في « الزُّهْد » لأحمدَ ، قالَ : كان الرجلُ في بَني إسرائيلَ إذا بَلغَ المَبْلَغَ ، فمَشىٰ في النَّاسِ تُظلُّه غَمامةٌ .

قال الذهبيُّ : شَاهدُه أنَّ الله قال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾[٣] ، ففَعلَ بهم تعالىٰ

---

(١) انظر السير : (محمد بن منصور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٤ .
(٢) انظر السير : (أبو يزيد البَسْطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٥٧ .

ذلك عاماً وكان فيهم الطائعُ والعاصي ، فنبيُّنا صَلوات الله عليه أكْرَمُ الخَلْقِ علىٰ ربِّه وما كانت له غَمامَةٌ تُظلُّه ، ولا صَحَّ ذلك ، بل ثَبتَ أنَّه لمَّا رَمَى الجَمرَةَ كان بلالٌ رضي الله عنه يُظِلُّه بثَوبِه من حَرِّ الشمس ، ولكن كان في بَني إسْرائيلَ الأعاجيبُ والآيات ، ولمَّا كانت هـٰذه الأمَّةُ هي خَيرُ الأمَم ، وإيمانُهم أثْبتُ ، لم يَحتاجوا إلىٰ بُرهان ، ولا إلىٰ خَوارِقَ ، فافْهَم ذلك ، وكلَّما ازدادَ المؤمنُ عِلماً ويَقيناً ، لمْ يَحْتَجْ إلى الخَوارِق ، وإنَّما الخَوارقُ للضُّعَفاء ، ويَكثُر ذلك في اقْترابِ السَّاعة[1] .

٣ـ الرَّدُّ على الذي يُعجَبُ من الكرامَة :

جاءَ في تَرجمَة أبي يَزيد البَسْطاميِّ ، قال الذهبيُّ : وقيلَ له : إنَّك تمرُّ في الهَواء ، فقال : وأيُّ أُعْجُوبَة في هـٰذا! ؟ وهـٰذا طَيرٌ يأكلُ المَيْتَة ، يَمرُّ في الهَواء[2] ،[3] .

٤ـ الرَّد على الذي لا يُصَدِّقُ الكرامَات :

عن قَتادَة قال : كان مُطرِّفُ بنُ عبد الله وصاحبٌ له سَرَيا في ليلة مُظلمة ، فإذا طَرفُ سَوط أحدُهما عندَه ضَوءٌ ، فقال : أما إنَّه لو حَدَّثْنا النَّاسَ بهـٰذا ، كذَّبونا ، فقال مُطرِّفٌ : المكذِّبُ أكْذَبُ[4] .

وعن غيلان بنِ جَرير قال : أقبلَ مُطرِّفٌ مع ابن أخٍ له من الباديَة ـ وكان يَبدُو ـ فبَينا هو يَسيرُ سَمعَ في طَرف سَوطِه كالتَّسْبيح ، فقال له ابنُ أخيه : لو حَدَّثْنا النَّاسَ بهـٰذا كذَّبونا . فقال مُطرِّفٌ : المكَذِّبُ أكْذَبُ النَّاس[5] .

٥ـ الاسْتقامَة عَينُ الكرامَة :

قال الرَّازيُّ : سَمعتُ عليَّ بنَ محمد المصريّ ـ ونحن في جنازةِ ابنِ أبي حاتم ـ يقول : قَلَنْسوة عبد الرحمـٰن من السَّماء ، وما هو بعجب ، رجلٌ مُنذُ ثَمانينَ سنةٍ علىٰ

---

(١) انظر السير : (بكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٥٠ .
(٢) انظر حلية الأولياء : ١٠/ ٣٥ ، وتتمة الخبر فيه : « والمؤمن أشرف من الطير » .
(٣) انظر السير : (أبو يزيد البَسطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٥٤ .
(٤) انظر السير : (مطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٧٦ .
(٥) انظر السير : (مطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٧٦ .

وتيرةٍ واحدة ، لَم يَنحَرِفْ عن الطريق ، وسَمعتُ عليَّ بنَ أحمد الفَرَضي يقول : ما رأيتُ أحداً ممن عَرَفَ عبدَ الرَّحمـٰن ذَكرَ عنه جَهَالةً قَطُّ . وسَمعتُ أحمدَ بنَ محمد بنِ الحُسَيْن الحافظ يَحكي عن عليّ بنِ الحُسَيْن الدَّرستيني ، أنَّ أبا حاتم كان يَعرفُ الاسمَ الأعْظَم ، فَمَرِضَ ابنُه ، فاجتَهَدَ أنْ لا يَدعُوَ به ، فإنَّه لا يُنالُ به الدُّنيا ، فلمَّا اشتَدَّت العِلة ، حَزِنَ ودعا به ، فعُوفِي ، فرأىٰ أبو حاتم في نومه : استجبتُ لك ولكنْ لا يُعقِبُ ابنُك . فكان عبدُ الرحمـٰن مع زوجته سَبعين سنةً فلَم يُرزَق ولداً[1] .

وقيلَ للمُرْتَعشي : فُلانٌ يَمشي على الماءِ ، قال : عندي أنَّ مَنْ مَكنَّه الله من مُخالَفَة هَواه فهو أعْظَمُ من المَشيِ على الماءِ .

وسُئلَ : أيُّ العَمل أفْضَل ؟ قال : رُؤيَةُ فَضْل الله .

تُوفي المُرْتَعشيُّ ـ رَحمه الله ـ سنة ثمانٍ وعشرين وثلاث مئة[2] .

وقال أبو الفَضلِ بنُ خَيرون : كان أبو الحُسَين بنُ الغَريق صائمَ الدَّهْر ، زاهداً ، قَضىٰ ستاً وخَمسينَ سَنةً ، وخَطبَ ستاً وسبعين سَنةً لم تُعرَف له زَلَّة ، وكانت تلاوَتُه أحسنَ شيءٍ[3] .

وجاء في ترجمة ابنِ عَساكر ، قال أبو المَواهِب : وأنا أقولُ : لم أرَ مثلَه ولا مَنْ اجْتمعَ فيه ما اجْتمَع فيه من لُزوم طَريقة واحدة مدَّة أربعينَ سنةً من لُزومِ الجَماعَة في الخَمس في الصَّفِّ الأوَّل ، إلاَّ من عُذرٍ ، والاعْتكافِ في رَمضانَ وعَشرِ ذي الحِجَّة ، وعَدمِ التَّطَلُّع إلىٰ تَحصيل الأمْلاك وبناءِ الدُّور ، قد أسْقطَ ذلك عن نَفسِه ، وأعْرَضَ عن طَلبِ المَناصِب من الإمَامَةِ والخَطابَةِ ، وأباها بعد أن عُرضَت عليه ، وقِلَّةِ الْتِفاتِه إلى الأُمَراء ، وأَخذِ نَفسِه بالأمْرِ بالمَعْروف والنَّهْيِ عن المُنْكر لا تَأخُذُه في الله لَومَةُ لائمٍ . قال لي : لمَّا عَزَمتُ على التَّحْديث ، والله المُطَّلِعُ أنَّه ما حَملَني علىٰ ذلك حُبُّ الرِّئاسَة والتَّقدُّم ، بلْ قُلتُ : مَتىٰ أَرْوي كُلَّ ما قد سَمعتُه ، وأيُّ فائدَة في كَوني أُخَلِّفُه بَعدي

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بنُ أبي حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٩ .

(٢) انظر السير : (المُرْتَعشيّ) ١٥/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢٤ .

(٣) انظر السير : (ابن المهتدي بالله) ١٨/ ٢٤١ـ ٢٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٠٨ .

صَحائفَ ؟ فاسْتَخرْتُ اللهَ ، واسْتأذَنتُ أعْيانَ شُيوخي ورُؤساءَ البَلدِ ، وطُفْتُ عليهم ، فكلٌّ قال : ومَنْ أحقُّ بهـٰذا منكَ ؟ فشَرعتُ في ذلك سنةَ ثلاثٍ وثلاثين[1] .

٦ـ قَولٌ جَميلٌ للتُّسْتَري يُنبِّه المُعْجَبَ بكرامَته :

قال ابنُ سالم الزَّاهد ، شَيخُ البَصْرة : قال عبدُ الرحمَـٰن لسَهْلِ ابنِ عبدِ الله : إنِّي أتَوَضَّأُ فيَسيلُ الماءُ من يَدي ، فيَصيرُ قُضبانَ ذَهبٍ ، فقال : الصِّبْيَانُ يُناوَلون خَشْخَاشَة[2] .

٧ـ العالم يُفرِّقُ بين الكرامَةِ والاسْتِدْراج :

جاء في تَرجَمة « أبي مَيْسَرَة » ، قال الذهبيُّ : كان يَختمُ القُرآنَ كلَّ ليلة في مَسْجِده ، فرأىٰ لَيلةً نُوراً قد خَرجَ من الحائطِ ، وقال : تَمَلأَ من وَجهي ، فأنا رَبُّك ، فبَصَقَ في وَجْهِهِ ، وقال : اذْهَبْ يا مَلْعُون ، فطُفِىءَ النورُ[3] .

٨ـ أمثلة جميلة علىٰ كرامات الصالحين :

جاء في تَرجَمة أميرِ المؤمنين عُمرَ بنِ الخَطَّاب ، قال الذهبيُّ : فلمَّا نزلَ سعدُ بنُ أبي وَقَّاص بَهْرَسيرَ ـ وهي المدينة التي فيها مَنزِلُ كِسْرَىٰ ـ طلبَ السُّفُنَ ليَعبُرَ بالنَّاسِ إلى المَدينة القُصْوَىٰ ، فبَقِيَ أيّاماً حتىٰ أتَاهُ أعْلاجٌ فدَلُّوهُ علىٰ مَخاضَة ، فأبَىٰ ، ثم إنه عَزَمَ له أنْ يَقْتَحمَ دِجْلَة ، فاقْتَحَمَها المسلمون وهي زائدةٌ تَرمي بالزَّبَد ، ففَجِىءَ أهلَ فارس أمرٌ لمْ يكُنْ لهم في حِساب ، فقاتَلوا ساعةً ثم انْهَزَموا ، وتَرَكُوا جُمْهُورَ أمْوالِهم ، واسْتَولَى المسلمون علىٰ ذلك كله ، ثم أتَوا إلى القَصرِ الأبْيَض ، وبه قَومٌ قد تَحَصَّنوا ثم صالَحُوا[4] .

---

(١) انظر السير : (ابن عساكر) ٢٠/ ٥٥٤ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٥ .
(٢) انظر السير : (سَهل بن عبد الله « التُّسْتَريّ ») ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٩٣ .
(٣) انظر السير : (أبو مَيْسرة) ١٥/ ٣٩٥ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٤٠ .
(٤) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) رضي الله عنه ، وانظر النزهة : ١/٦٦ .

وقِيلَ إنَّ الفُرْسَ لمَّا رَأوا اقْتحامَ المسلمين الماءَ تَحيَّروا وقالوا : والله ما نُقاتِلُ الإنْسَ ولا نُقاتِلُ إلاَّ الجِنَّ ، فانْهَزَموا .

ونَزَلَ سَعدٌ القَصرَ الأبْيض ، واتَّخذَ الإيوانَ مُصَلًّىٰ ، وإنَّ فيه لتَماثيل جَصّ فما حَرَّكَها .

ولمَّا انتَهىٰ إلىٰ مكان كِسْرَىٰ أخَذَ يقْرأُ ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ . . ﴾ الآية[1] .

قالوا : وأتَمَّ سَعدٌ الصَّلاةَ يومَ دَخلَها ، وذلك أنَّه أرادَ المُقامَ بها ، وكانت أوّلَ جُمُعَة جُمِعَت بالعِراق ، وذلك في صَفَر سنةَ ست عشرة .

قال الطبريُّ : قسَّمَ سَعدٌ الفَيءَ بعد ما خمَّسَه ، فأصابَ الفارسُ اثنا عشرَ ألفاً ، وكلُّ الجَيشِ كانوا فُرْساناً[2] .

وبينما عُمرُ رضي الله عنه يَخطبُ إذْ قال : « يا سَاريَةَ الجَبلَ » ، وكان عُمرُ قد بَعثَ سَاريَةَ بنَ زنيم الدُّؤَلي إلىٰ فسا ودارا بَجِرد[3] ، فحاصَرَهم ، ثم إنَّهم تَداعَوا وجاؤُوه من كل ناحِيَة ، والتَقَوا بمكان ، وكان إلىٰ جِهَة المسلمين جَبلٌ لو اسْتَنَدوا إليه لَمْ يُؤتَوا إلا من وَجْه واحد ، فلَجَأوا إلى الجَبلِ ، ثم قاتَلوهم فهَزَموهم ، وأصابَ سَاريَةُ الغَنائمَ ، فكان منها سفط جَوْهرَ ، فبَعثَ به إلىٰ عُمرَ ، فرَدَّه وأمَرَه أنْ يَقسِمَه بينَ المسلمين ، وسَألَ النجَّابَ[4] أهلُ المَدينَة عن الفَتْح ، وهل سَمِعوا شيئاً ، فقال : نعم ، « يا سَاريَةَ الجَبلَ . الجَبلَ » ، وقد كِدْنا نَهلك ، فلَجَأنا إلى الجَبلِ ، فكانَ النَّصرُ[5] .

قال سُليمانُ بنُ بلال ، عن يَحْيىٰ بنِ سَعيد ، عن سَعيدِ بنِ المسَيِّب ، أنَّ زَيدَ بنَ

---

(١) سورة الدخان ، الآية : ٢٥ .

(٢) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) رضي الله عنه ، وانظر النزهة : ١/٦٦ .

(٣) هي في بلاد فارس .

(٤) هو الذي أرسله سارية مبشراً بالفتح .

(٥) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) رضي الله عنه ، وانظر النزهة : ٧٦ .

خارجَة تُوفِّي زَمنَ عُثمان رضي الله عنه ، فسُجِّيَ بثوبٍ ، ثم إنَّهم سَمعوا جَلْجَلَةً في صَدرِه ، ثم تكلَّم فقالَ : أحمدُ أحمدُ في الكتاب الأوّل ، صَدَقَ صَدَقَ أبو بَكر الضَّعيفُ في نَفسِه القَويُّ في أمرِ الله في الكتاب الأوّل ، صَدَقَ صَدَقَ عُمرُ القَويُّ الأمينُ في الكتاب الأوّل ، صَدَقَ صَدَقَ عُثمانُ علىٰ مِنْهاجِهم ، مَضتْ أربعُ سنين وبَقيَتْ سَنتان ، أتَتْ الفِتنُ وأكلَ الشَّديدُ الضَعيفَ ، وقامت السَّاعةُ ، وسيأتيكم خَبرُ بِئْرِ أريس ، وما بِئْرُ أريس .

قال ابنُ المُسَيِّب : ثم هَلكَ رجلٌ من بَني خطمة ، فسُجِّيَ بثوب فسَمعوا جَلْجَلَةً في صَدرِه ، ثم تكلَّم فقال : إنَّ أخا بَني الحارث بنِ الخَزْرَج صَدَقَ صَدَقَ .

قال ابنُ عبد البَرْ : هـٰذا هو الذي تكلَّم بعدَ المَوتِ ، لا يَختلفون في ذلك ، وذلكَ أنَّه غُشيَ عليه وأُسريَ بروحه ، ثم راجَعته نفسُه فتكلَّم بكلامٍ في أبي بَكر ، وعُمرَ ، وعُثمانَ ، ثم مات لوَقْته[1] .

وعن ماويَّة مَولاة حُجَير ، وكان خُبَيْبُ بن عَديّ قد حُبِسَ في بيتها ، فكانت تُحدِّثُ بعد ما أسلمت ، قالت : والله إنَّه لمَحْبوسٌ إذْ اطلَّعتُ من صِير الباب إليه ، وفي يده قِطْفُ عِنَب مثلُ رَأس الرجل يأكلُ منه ، وما أعلمُ في الأرض حبَّةُ عنب[2] .

وعن عبدِ الله بنِ عبدِ الرحمَـٰن بن أبي صَعْصَعَة أنَّه بَلغَه أنَّ عَمرو ابنَ الجَموح ، وابنَ حِرام كان السَّيلُ قد خَرَّبَ قَبرَهما ، فحُفرَ عنهما ليُغَيَّرا من مَكانِهما ، فوُجِدا لمْ يَتغيَّرا ، كأنَّما ماتا بالأمس ، وكان أحدُهم قد جُرحَ ، فوَضَعَ يدَه علىٰ جُرحِه ، ، فدُفن كذلك ، فأُميطَت يَدُه عن جُرحِه ، ثم أُرسِلَت ، فرَجعَت كما كانت ، وكان بين يوم أُحُد ويوم حُفِرَ عليهما ستٌّ وأربَعون سنة[3] .

وكان أبو هُريرَة يقولُ : رَأيتُ من العَلاء ثلاثةَ أشْياء لا أزالُ أحِبُّه أبداً : قطعَ البحرَ

---

(١) انظر السير : (عثمان بن عفان) ، وانظر النزهة : ٨٢ .
(٢) انظر السير : (خُبَيْبُ بن عَديّ) ١/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٦ .
(٣) انظر السير : (عَمرو بن الجَموح) ١/ ٢٥٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٨ .

علىٰ فَرَسِه يومَ دارين[1] ، وقَدِمَ يُريدُ البَحْرين ، فدعا الله بالدَّهْناء ، فنَبع لهم ماءٌ فارتَوَوا ، ونَسيَ رجلٌ منهم بعضَ مَتاعه ، فردَّ فلقيَه ، ولم يَجد الماءَ .

ومات ونحنُ علىٰ غير ماء ، فأبْدى اللهُ لنا سَحابةً ، فمُطرنا ، فغَسَّلناه ، وحَفرنا له بسُيوفنا ، ودفنَّاه ، ولم نُلْحِدْ له[2] .

وعن جَابرٍ قال : رُمِيَ سعدٌ يومَ الأحْزابِ ، فقَطَعُوا أَكْحلَه ، فمَسَّهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالنَّارِ ، فانْتَفَخَتْ يَدُه ، فتَرَكَه ، فنَزَفَه الدَّمُ ، فحَسَمَه أُخْرَىٰ ، فانْتَفَخَتْ يَدُه ، فلمَّا رَأَىٰ ذلكَ ، قال : اللَّهُمَّ لا تُخْرِجْ نَفْسِي حتىٰ تُقِرَّ عَينِي من بَنِي قُرَيْظَة . فاسْتَمْسَكَ عِرْقُه ، فما قَطَرَتْ منه قَطْرَةٌ . حتىٰ نَزَلُوا علىٰ حُكْمِ سَعدِ بنِ مُعَاذ ، فأرْسَلَ إليه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فحَكَمَ أنْ يُقْتَلَ رِجَالُهم ، وتُسْبَىٰ نِسَاؤُهم وذَرَارِيهم ، قال : وكانُوا أرْبَعَ مِئَةٍ ، فلمَّا فُرِغَ من قَتْلِهم ، انْفَتَقَ عِرْقُه[3] .

وعن محمدِ بنِ شُرَحْبيل بنِ حَسْنة قال : أخذَ إنسانٌ قَبضَةً من تُرابِ قَبر سَعد فذهب بها ، ثم نَظرَ فإذا هي مِسْكٌ[4] .

وقد تَواتَرَ قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ العَرْشَ اهْتَزَّ لِمَوْتِ سَعْدٍ فَرَحاً به » ، وثَبتَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال في حُلَّةٍ تَعجَّبوا من حُسْنِها : « لَمَناديلُ سَعدِ ابنِ مُعَاذ في الجنَّة خَيرٌ من هٰذه » .

وعن جابرٍ قال : جاء جِبريلُ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مَنْ هٰذا

---

(١) داري هي فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ، والنسبة إليها داريّ ، وقال ياقوت الحموي في « معجم البلدان » ، وفي كتاب سيف : أن المسلمين اقتحموا إلىٰ دارين البحر مع العلاء بن الحضرمي ، فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعاً يمشون علىٰ مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل ، وإن ما بين دارين والساحل مسيرة يوم وليلة لسفر البحر في بعض الحالات ، فالتقوا ، وسبوا ، فبلغ منهم الفارس ستة آلاف ، والرجل ألفين ، فقال في ذلك عفيف بن المنذر :

ألـــم تَـــر أنَّ الله ذلَّـــل بحـــرهُ ... وأنـزلَ بـالكفـار إحـدى الجـلائـل
دعـونـا الـذي شـقَّ البحـار فجـاء ... بـأعجـب مـن فلـق البحـار الأوائـل

(٢) انظر السير : (العَلاء بن الحَضْرميّ) ١/ ٢٦٢ـ ٢٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٩ .

(٣) انظر السير : (سَعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٤ .

(٤) انظر السير : (سَعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٥ .

العَبدُ الصَّالحُ الذي مات ؟ ، فُتحَتْ له أبوابُ السَّماءِ ، وتَحرَّك له العَرْشُ ، فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا سَعدٌ ، قال : فجَلسَ علىٰ قَبْرِه . الحديث .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « هـٰذا العَبدُ الصَّالِحُ الذي تَحرَّكَ له العَرْشُ وفُتِحَتْ له أبْوابُ السَّمَاءِ ، وشَهِدَه سَبعونَ ألفاً من المَلائكة لَمْ يَنْزِلوا إلى الأرْضِ قَبلَ ذلك ، لقدْ ضُمَّ ثم أُفْرِجَ عَنه » . يَعني سَعداً[1] .

وكان عبَّاد بنُ بِشْر من سادَة الأَوْس ، عاشَ خَمساً وأربَعين سَنةً ، وهو الذي أضاءَت له عَصاتُه ليلةَ انقَلبَ إلىٰ مَنزِله من عندِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، أسْلمَ علىٰ يد مُصْعَب بنِ عُمَير ، وكان أحدَ مَنْ قَتلَ كعْبَ ابنَ الأشْرَف اليَهوديّ ، واستعمَلَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ صَدقات مُزَينة وبني سليم ، وجعله علىٰ حَرَسِه في غَزوَة تَبوك ، وكان كبيرَ القَدْر رضي الله عنه ، أبلىٰ يوم اليَمامَة بلاءً حسناً ، وكان أحدَ الشُّجْعان المَوْصُوفين[2] .

قال قَيْسُ بنُ أبي حَازِم : سَمعتُ خَالدَ بنَ الوَليدِ يقولُ : مَنَعَنِي الجِهَادُ كثيراً من القِراءَةِ ورَأَيتُه أَتَىٰ بسُمٍّ ، فقالوا : ما هـٰذا ؟ قالوا : سُمٌّ ، قال : بِسْمِ الله . وشَرِبَه .

قال الذهبيُّ : هـٰذه والله الكَرَامَةُ ، وهـٰذه الشَّجَاعَةُ[3] .

وعن أبي البُخْتريّ ، قال : بينا أبو الدَّرْداء يُوقدُ تحت قِدْر له ، إذ سَمعتُ في القِدْر صَوتاً ينْشُجُ كَهَيئة صَوت الصَّبيِّ ، ثم انْكَفأت القدرُ ، ثم رجعَت إلىٰ مكانِها ، لمْ يَنصبّ منها شيءٌ . فجَعلَ أبو الدَّرْداء يُنادي : يا سَلمانُ انظُر إلىٰ ما لم تَنْظُر إلىٰ مثله أنْتَ ولا أبُوك!! فقال له سَلمانُ : أما أنَّكَ لَوْ سَكتَّ ، لسَمعتَ من آيات ربِّكَ الكُبرىٰ[4] .

وقال مُطَرِّفُ بنُ عبد الله : قال لي عِمْرانُ بنُ حُصَين : أحدِّثُكَ حَديثاً عَسى الله أنْ

---

(١) انظر السير : (سَعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٦ .
(٢) انظر السير : (عَبَّاد بن بِشْر) ١/ ٣٣٧ـ ٣٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧٣ .
(٣) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٧٩ .
(٤) انظر السير : (أبو الدرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٧٢.

يَنفعَك به : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جَمعَ بين الحَجِّ والعُمرة ، ولمْ يَنْهَ عنه حتىٰ مات ، ولمْ يَنزِلْ فيه قُرآنٌ يُحرِّمُه ، وأنَّه كان يُسلِّمُ عليَّ ـ يَعني المَلائكَة ـ قال : فلمَّا اكْتَويْتُ ، أمسَكَ ذلك ، فلمَّا تركتُه ، عاد إليَّ[1] .

وعن خالدِ بنِ محمّد الكِنْدي ـ وهو وَالدُ أحمدَ بنِ خالد الوَهْبي ـ سَمع أبا الزَّاهرية : سَمعتُ أبا ثَعْلبة يقولُ : إنِّي لأرْجُو ألا يَخْنقَني اللهُ كما أراكم تُخْنَقون .

فبَينا هو يُصلِّي في جَوفِ اللَّيلِ ، قُبضَ ، وهو سَاجدٌ ، فرَأتْ بنتُه أنَّ أباها قد مَاتَ ، فاسْتَيْقظَت فَزِعَة ، فنادَت أمَّها : أينَ أبي ؟ قالت : في مُصَلاَّه ، فنادَتْه ، فلم يُجِبْها ، فأنبَهَتهُ فوَجَدتْه مَيِّتاً . تُوفيَ سنة خمس وسبعين[2] .

وعن ابنِ عَباس ، قال : كُنتُ مع أبي عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكان كالمُعْرِض عن أبي ، فخَرَجْنا من عندِه ، فقال : ألم ترَ ابنَ عَمِّكَ كالمُعْرِضِ عَنِّي ؟ فقلتُ : إنَّه كان عندَه رَجلٌ يُناجيه ، قال : أوَ كان عنده أحدٌ ؟ قلتُ : نعم . فرجعَ إليه ، فقال : يا رسولَ الله هل كان عندك أحدٌ ؟ فقال لي : « هل رأيتَه يا عبدَ الله ؟ » قالَ : نَعَم . قال صلى الله عليه وسلم : « ذَاكَ جِبريلُ فهُو الذي شَغلَني عَنكَ »[3] .

وقال أبو الزُّبَير : لمَّا ماتَ ابنُ عَباس جاءَ طائرٌ أبيض ، فدخلَ في أكْفانِه ، رَواها الأجْلَحُ ، عن أبي الزُّبَير ، فزادَ : فكانوا يُرَوْنَ أنَّه عِلمُه .

وعن سَعيدٍ ، قال : ماتَ ابنُ عَباس بالطَّائف ، فجاءَ طائرٌ لَمْ يُرَ علىٰ خِلْقَته ، فدَخلَ نَعشَه ، ثم لمْ يُرَ خارجاً منه ، فلمَّا دُفِنَ ، تُليَت هـٰذه الآية علىٰ شَفير القَبْر ، لا يُدرَىٰ مَنْ تَلاها : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[4] .

تُوفيَ ابن عبَّاس سنة ثمانٍ أو سبعٍ وستين ، وقيل : عاش إحْدىٰ وسبعين سنة[5] .

---

(١) انظر السير : (عِمرانُ بن حُصَين) ٢/ ٥٠٨ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩٨ .
(٢) انظر السير : (أبو ثعلبَة الخُشَنيّ) ٢/ ٥٦٧ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٠٦ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عباس البحر) ٣/ ٣٣١ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٩٠ .
(٤) سورة الفجر ، الآيتين : ٢٧ ، ٢٨ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن عباس البحر) ٣/ ٣٣١ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٩٢ .

وعن أبي أمامةَ : أرسلني النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ باهِلَة ، فأتَيتُهم فرحَّبوا بي ، فقلتُ : جِئتُ لأنْهاكُم عن هـٰذا الطعام ، وأنا رسولُ رسولِ الله لِتُؤمنوا به ، فكذَّبوني ، ورَدُّوني ، فانطَلقتُ وأنا جائعٌ ظَمآنُ ، فنمتُ فأُتيتُ في منامي بشَربةٍ من لَبن ، فشَربتُ ، فشَبعتُ ، فعَظُمَ بَطني ، فقال القومُ : أتاكم رجلٌ من أشرافكم وخياركم ، فرَدَدْتموه ؟ قال : فأتَوني بطعام وشرابٍ ، فقلتُ : لا حاجةَ لي فيه ، إنَّ الله قد أطعمني وسقاني ، فنَظروا إلىٰ حالي ، فآمَنوا[1] .

وعن عُروَةَ بنِ رُوَيم ، عن العِرْباضِ بنِ سارية ، وكان يحبُّ أن يُقبَضَ ، فكان يدعو : اللَّهُمَّ كَبُرتْ سني ، ووهن عظمي ، فاقبضني إليك ، قال : فبَينا أنا يوماً في مَسجد دمَشْق أصلِّي وأدعو أنْ أُقبَضَ ، إذ أنا بفتىً من أجمل الرجال ، وعليه دُوَّاجٌ أخضر[2] ، فقال : ما هـٰذا الذي تَدعُو به ؟ قُلتُ : كيفَ أدْعو يا ابنَ أخي ؟ قال : قُلْ : اللَّهـمَّ حَسِّن العَملَ وبلِّغ الأجَل ، فقُلتُ : ومَنْ أنتَ يَرحَمُك الله ؟ قال : أنا رُتْبابيل الذي يَسُلُّ الحُزْنَ من صُدور المؤمنين ، ثم التَفَتُّ فلمْ أرَ أحداً[3] .

وعن جَرير بنِ حَازم ، عن حُمَيد بنِ هِلال ، عن صِلَة ، قال : خَرجنا في قَرية وأنا علىٰ دابَّتي في زمان فُيوض الماء ، فأنا أسيرُ علىٰ مُسَنَّاة[4] ، فسرتُ يوماً لا أجدُ ما آكلُ ، فلَقيَني عِلْجٌ يحملُ علىٰ عاتِقه شيئاً ، فقلتُ : ضَعْهُ ، فإذا هو خُبزٌ . قُلتُ : أطْعِمْني ، فقال : إنْ شِئْتَ ولكن فيه شَحمُ خِنْزير ، فتَركتُه ، ثم لَقيتُ آخرَ ، قالَ : هو زَادي لأيَّام ، فإنْ نَقصْتَه ، أَجَعْتَني ، فتَركتُه . فوالله إنِّي لأسيرُ ، إذْ سَمعتُ خَلفي وجْبَةً كَوَجْبَة الطَّير ، فالتفتُ ، فإذا هو شيءٌ مَلفوفٌ في سِبٍّ أبْيَض ، فنزَلتُ إليه ، فإذا دَوْخَلةٌ من رُطَب في زمانٍ ليس في الأرض رُطَبَة ، فأكلتُ منه ، ثم لَفَفْتُ ما بقي ، ورَكِبْتُ الفَرسَ ، وحملتُ معي نواهُنَّ .

---

(١) انظر السير : (أبو أُمامَة الباهِليّ) ٣/ ٣٥٩ـ ٣٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/٣٩٣ .
(٢) الدُوَّاج : ضَربٌ من الثياب .
(٣) انظر السير : (العِرْباض بن ساريَة السُّلَمي) ٣/ ٤١٩ـ ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٤٠٥ .
(٤) المُسَنَّاة : السَدّ .

قال جَرير بن حازم : فحدَّثَني أَوْفَىٰ بنُ دِلْهَم ، قال : رأيتُ ذلك السِّبَّ[1] . مع امرأتِه فيه مُصْحَف ، ثم فُقِدَ بعد .

قال الذهبيُّ : فهـٰذه كرامةٌ ثابتة[2] .

وقال إسْماعيل بنُ عَيَّاش : حدثنا شُرحْبيلُ : إنَّ الأسودَ[3] . تنبَّأَ باليَمن ، فبَعثَ إلىٰ أبي مُسْلم فأتاه بنارٍ عَظيمة ، ثم إنَّه ألقىٰ أبا مُسْلم فيها فلَمْ تَضرَّه ، فقيلَ للأسْوَد : إنْ لمْ تَنفِ هـٰذا عَنك أفْسدَ عليك مَن اتَّبَعك . فأمرَه بالرَّحيلِ ، فقَدِمَ المَدينةَ ، فأناخَ راحلَتَه ، ودخلَ المَسْجد يُصلِّي ، فبَصُرَ به عُمرُ رضي الله عنه ، فقامَ إليه ، فقال : مِمَّن الرَّجلُ ؟ قال من اليَمن . قال : ما فَعلَ الذي حَرقَه الكَذَّابُ بالنَّار ؟ قال : ذاكَ عبدُ الله بنُ ثُوَب . قال : نَشَدتُك باللهِ أنتَ هو ؟ قال : اللَّهمَّ نَعَم . فاعْتَنَقَه عُمرُ وبَكىٰ ، ثم ذهبَ به حتىٰ أجْلَسَه فيما بينه وبين الصدِّيق ، فقال : الحمدُ لله الذي لم يُمِتْني حتىٰ أراني في أمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مَن صُنعَ به كما صُنعَ بإبراهيمَ الخَليل .

رَواه عبدُ الوهّاب بنُ نَجْدة ، وهو ثقةٌ ، عن إسْماعيلَ لكنَّ شُرحْبيل أرسلَ الحكاية[4] .

وقيل : كان أبو مُسلم الخولاني يَرفعُ صَوتَه بالتَّكْبير حتىٰ مع الصِّبيان ، ويقولُ : اذْكُر اللهَ حتىٰ يَرى الجاهلُ أنَك مَجْنون[5] .

وعن محمَّدِ بنِ زِياد ، عن أبي مُسلم الخَولانيّ أنَّ امرأةً خَبَّبَتْ عليه[6] امرأتَه ، فدَعَا عليها فعَمِيَت ، فأتَتْه فاعتَرَفَت وتابَتْ قال : اللَّهُمَّ إنْ كانت صادِقَةً ، فارْدُدْ إليها بَصَرَها ، فأبْصَرَت[7] .

---

(١) السِّب : الخِمار ، الدوخَلة : زبيل من خوص يُجعل فيه التمر .
(٢) انظر السير : (صِلَة بن أشْيَم) ٣/ ٤٩٧ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤١٦ .
(٣) هو الأسود العنسي ، واسمه عيهلة .
(٤) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٣٠ .
(٥) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٣١ .
(٦) يقال : خبب فلان صديقه إذا أفسد عليه .
(٧) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٣١ .

وعن عَطاءٍ الخُرسانيّ ، أنَّ امرأةَ أبي مُسلم قالت : لَيسَ لنا دَقيقٌ ، فقال : هل عندك شيءٌ ؟ قالت : دِرْهمٌ بعنا به غَزْلاً . قال : ابْغِينيه ، وهاتي الجِرابَ ، فدَخلَ السُّوقَ ، فأتاه سائلٌ ، وألحَّ ، فأعْطاهُ الدِّرْهمَ ، ومَلأ الجِرابَ نُشَارَةً مع تُراب ، وأتىٰ وقَلْبُه مَرْعُوبٌ منها ، وذَهبَ ، ففَتحَه فإذا به دَقيقٌ حُوَّاري[1] ، فعَجنَت وخَبزَت ، فلمَّا جاءَ لَيلاً وضَعَتهُ ، فقالَ : من أين لك هـٰذا ؟ قالت : من الدَّقيقِ ، فأكلَ وبَكَىٰ[2] .

وعن سَعيدِ بنِ عبدِ العَزيز ، أنَّ أبا مُسلم الخَولاني اسْتبطأ خبرَ جيشٍ كان بأرض الرُّوم ، فدخل طائرٌ فوقع ، فقال : أنا رتبابيل مُسلي الحُزن من صدور المؤمنين ، فأخبرهُ خبرَ الجيش فقال : ما جئتَ حتى استبطأتُك ؟[3] .

وعن الحَسنِ ، قال : ماتَ هَرِمُ بنُ حيَّان ، في يوم حارٍّ ، فلمَّا نَفضوا أيديَهم عن قَبرِه جاءت سَحابةٌ حتىٰ قامت على القَبرِ ، فلمْ تكنْ أطولَ منه ولا أقصرَ منه ، ورَشَّته حتىٰ رَوَّته ، ثم انْصَرفَت[4] .

وعن قَتادَة ، قال : أُمطِرَ قبرُ هَرِم بنِ حيَّان من يومِه ، وأنبَتَ العُشب[5] .

وعن عبدِ الرحمَـٰن بنِ عِمارَة بنِ عُقْبة ، قال : حَضرتُ جِنازَة الأَحْنفِ بالكُوفَة ، فكُنتُ ممَّن نَزلَ قبرَه ، فلمَّا سوَّيتُه ، رأيتُه قد فُسحَ له مدَّ بَصري ، فأخبرتُ بذلك أصْحابي ، فلم يَروا ما رأيتُ[6] .

عن قَتادَة قال : كان مُطرِّفُ بنُ عبد الله وصاحبٌ له سَرَيا في ليلة مُظلمة ، فإذا طَرفُ سَوط أحدِهما عندَه ضَوءٌ ، فقال : أما إنَّه لو حَدَّثْنا النَّاسَ بهـٰذا ، كذَّبونا ، فقال مُطرِّفٌ : المكذِّبُ أكْذَبُ[7] .

---

(١) أي أبيض .
(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٣٢ .
(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٣٢ .
(٤) انظر السير : (هَرِم بن حيَّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٤١ .
(٥) انظر السير : (هَرِم بن حيَّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٤١ .
(٦) انظر السير : (الأَحْنَف بن قيس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٥٤ .
(٧) انظر السير : (مُطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٧٦ .

وعن غيلان بنِ جَرير قال : أقبلَ مُطرِّفُ مع ابن أخٍ له من الباديَة ـ وكان يَبدُو ـ فبَينا هو يَسيرُ سَمعَ في طَرف سَوطِه كالتَّسْبيح ، فقال له ابنُ أخيه : لو حَدَّثْنا النَّاسَ بهـٰذا كذَّبونا . فقال مُطرِّفُ : المكَذِّبُ أكْذَبُ النَّاس[1] .

وقال سُليمانُ بنُ المُغيرَة : كان مُطرِّفٌ إذا دخلَ بَيتَه ، سَبَّحَتْ مَعهُ آنيةُ بيتِه[2] .

وقال الوَاقديُّ : حدَّثنا طَلحَةُ بنُ محمد بنِ سَعيد بنِ المُسَيِّب ، عن أبيه ، قال : كان سَعيدُ أيَّام الحِرَّة في المَسْجد لَمْ يَخرج ، وكان يُصلِّي معهم الجُمُعَة ويَخرُجُ في اللَّيل ، قال : فكُنتُ إذا حانت الصلاةُ أسْمعُ أذاناً يَخرجُ من قِبَلِ القَبرِ حتىٰ أمِنَ النَّاس[3] .

وعن الحارثِ الغَنوي ، قال : آلىٰ رِبعيُّ بنُ حِراش أنْ لا تَفترَّ أسنانُه ضاحكاً حتىٰ يَعلمَ أينَ مَصيرُه . قال الحارثُ : فأخْبرَ الذي غَسَّلَه أنَّه لم يَزل مُتَبَسِّماً علىٰ سَريرِه ونحنُ نُغَسِّلُه ، حتىٰ فَرغْنا منه ، رحمةُ الله عليه[4] .

وعن عبدِ المَلكِ بنِ عُمَير ، عن رِبعيٍّ ، قال : كنَّا أرْبَعةَ إخْوة ، فكان الرَّبيعُ أكثَرُنا صَلاةً وصِياماً في الهَواجِر ، وإنَّه تُوفِّي ، فبَينا نحنُ حَولَه قد بَعثْنا مَنْ يَبْتاعُ له كَفَناً ، إذْ كَشَفَ الثوبَ عن وَجْهه ، فقال : السَّلامُ عَليكم ، فقال القومُ : عَليكُم السَّلامُ يا أخا عِيسَىٰ ، أبَعدَ الموتِ ؟ قال : نعم ، إنِّي لَقيتُ ربِّي بَعدَكم ، فلَقيتُ ربَّاً غَير غَضْبان ، واسْتقبلَني بـرَوْحٍ ورَيحـان وإسْتَبْـرَق ، ألا وإنَّ أبـا القـاسـم يَنتظـرُ الصَّـلاةَ علـيَّ ، فعَجِّلوني . ثم كان بمَنزِلة حَصاةٍ رُميَ بها في طَسْتٍ .

فنَمَى الحَديثُ إلىٰ عائشَةَ رَضيَ الله عنها ، فقالت : أما إنِّي سَمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « يتكلَّمُ رَجلٌ من أُمَّتي بَعدَ المَوت »[5] .

---

(١) انظر السير : (مُطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٧٦.

(٢) انظر السير : (مُطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٩/ ٤٧٦.

(٣) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٨٤.

(٤) انظر السير : (ربعيُّ بن حِراش) ٤/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥١٠.

(٥) الخبر في الحلية ٤/ ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، وذكره ابن عبد البر في « الاستيعاب » في ترجمة زيد ابن خارجة ، ورجال إسناده ثقات ، لكن ليس فيه المرفوع ، وهو الأصح فقد رواه عن عبد الملك غير واحد فما رفعه.

قال أبو نعيم : ورَواهُ عن عبدِ المَلك زَيدُ بنُ أبي أُنَيْسَة ، وإسْماعيلُ ابنُ أبي خالد ، والثَّوريُّ ، وابنُ عُيَيْنَة ، وما رَفعَه سِوىَ عُبَيْدَة .

وبه قال أبو نعيم : حدَّثنا أبو عليّ محمدُ بنُ أحمد بنِ الحَسَن ، حدَّثنا محمدُ بنُ يَحْيىٰ ، حَدثنا عاصمُ بنُ عليّ ، حدَّثنا المَسْعوديُّ ، عن عبدِ المَلكِ بنِ عُمَير ، عن رِبعيٍّ ، قال : مات أخٌ لنا ، فسَجَّيْناه ، فذَهبتُ في التِماسِ كَفَنِه ، فرَجعتُ وقد كَشفَ الثوبَ وهو يقول : فذكرَ نحوه ، وفيه : وَعَدتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ألاَّ يَذهَبَ حتىٰ أُدْركَه . قال : فما شبَّهْتُ خُروجَ نفسِه إلاَ كَحصاةٍ أُلقِيَتْ في ماءٍ فرسَبتْ . فذُكِرَ ذلك لعائشةَ ، فقالت : قد كُنَّا نتحدَّثُ أنَّ رَجُلاً من هـٰذه الأمَّة يتكلَّمُ بعد الموت . تُوفِّيَ سنةَ إحْدَىٰ وثمانين[1] .

وعن رَشيدِ بنِ كيْسان ، قال : كنَّا برُودِس[2] وأميرُنا جُنادَةُ ابنُ أبي أُميَّة ، فكَتبَ إلينا مُعاويَة : إنَّه الشِّتاءُ فتأهَّبوا ، فقال تُبَيْعُ ابنُ امرأةِ كعْب : تقفُلُون إلىٰ كذا وكذا ، فأنكروا ، حتىٰ قال له صاحبُه : ما يُسَمُّونَك إلاَّ الكذَّاب . قال : فإنَّه يَأتيهم الإذْنُ يوم كذا ، ويأتي ريحٌ يومئذٍ تقلَع هـٰذه البنيَّة ، فانتَشَرَ قولُه ، وأصْبَحوا يَنتظرون ذلك ، فأقْبلَت ريحٌ أحاطَت بالبنيَّة فقلعَتها وتَصايحَ الناسُ ، فإذا قاربٌ في البحر فيه الخَبرُ بمَوت مُعاويَة وبَيْعَة يَزيد . وأُذِنَ لهم في القُفُول ، فأثْنَوا علىٰ تُبَيْع .

تُوفِّيَ تُبَيْعُ عن عُمرٍ طويل ، سنةَ إحدىٰ ومئة بالإسكندرية[3] .

ويُروَىٰ أنَّ أبا قِلابَة عَطشَ وهو صائمٌ فأكْرَمَه اللهُ لمَّا دَعا ، بأنْ أظلَته سَحابَةٌ وأمْطَرت علىٰ جَسَده فذَهبَ عَطشُه[4] .

عن معاويةَ بن قُرَّة ، قال : كان مُسلم بنُ يَسار يَحُجُّ كلَّ سَنَةٍ ويُحَجِّجُ معه رجالاً من إخوانه تَعَوَّدوا ذلك ، فأبطَأ عاماً حتىٰ فاتَتْ أيامُ الحَجّ ، فقالَ لأصحَابِه : اخرُجُوا ،

---

(١) انظر السير : (ربعيُّ بن حِراش) ٤/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٦/٥١٠.

(٢) رُودس : جزيرة مقابل الإسكندرية علىٰ ليلة منها في البحر ، وهي أوَّلُ بلاد إفرنجة .

(٣) انظر السير : (تُبَيْع بن عامر) ٤/ ٤١٣ـ ٤١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٥.

(٤) انظر السير : (أبو قلابة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٦/٥٣٤.

فقالوا : كيف!! ؟ قال : لا بُدَّ أن تَخرُجوا ، فَفَعَلوا استحياءً منه فأصابَهم حين جَنَّ عليهم الليلُ إعصارٌ شَديدٌ ، حتىٰ كادَ لا يَرَىٰ بعضُهم بعضاً ، فأصبَحوا وهم يَنظرُون إلىٰ جِبالِ تِهامَة ، فَحَمِدوا الله ، فقال : ما تَعجَبُون من هـٰذا في قُدرة الله تعالىٰ[1] .

وعن حَمَّاد بنِ سَلَمَة قال : كان ثابتُ بنُ أسْلَم يقول : اللَّهُمَّ إنْ كنتَ أعطيتَ أحداً الصلاةَ في قبرِه فأعطني الصلاةَ في قَبري ، فيُقَالُ : إنَّ هـٰذه الدَّعوة استُجِيبَت له ، وأنَّه رُئيَ بعد موته يُصَلي في قَبره فيما قيل[2] .

وعن نافِع قالَ : لمَّا غُسِّلَ أبو جَعْفَر ، نَظروا ما بَينَ نَحْرِه إلىٰ فُؤادِه كوَرَقة المُصْحَف ، فما شَكَّ مَن حَضَرَه أنَّه نور القرآن[3] .

وعن عِمْرانَ بنِ عَمرو ، قال : كان عَمِّي زُبَيدٌ حاجَّاً ، فاحْتاجَ إلى الوُضوء ، فقام فتنَحَّىٰ ثم قَضىٰ حاجَتَه ، ثم أقبَلَ ، فإذا هو بماءٍ في مَوْضعٍ لمْ يكنْ مَعهم ماءٌ ، فتَوضَّأ ، ثم جاء ليُعْلِمَهم ، فأتَوا ، فلمْ يَجدوا شَيئاً[4] .

وعن عُبَيد الله بنِ أبي جَعْفَر ، قال : غَزَوْنا القُسْطَنْطينيَّة فكُسِرَ بنا مَركَبُنا ، فألقانا المَوْجُ علىٰ خَشَبَة في البَحْر ، وكنَّا خَمسةً أو ستَّةً فأنْبَتَ الله لنا بعَدَدنا ، وَرَقَةً لكل رجلٍ مِنَّا ، فكنا نَمُصُّها فتُشْبِعُنا وتَرْوينا ، فإذا أمْسَينا ، أنبَتَ الله لنا مَكانَها[5] .

وكان أيُّوب السَّخْتياني في طَريقِ مكّة ، فأصابَ الناسَ عَطَشٌ شَديدٌ حتّىٰ خافُوا . فقال أيُّوبُ : أَتكتُمونَ عليَّ ؟ قالوا : نَعَم . فدوَّرَ رِداءَه ودَعا ، فنَبعَ الماءُ ، وسَقوا الجِمالَ ، ورَوَوا ، ثم أمرَّ يَدَه على المَوْضِع فصار كما كان[6] .

وعن شُجاع بنِ صبيح ، مَوْلَىٰ كرْز بنِ وَبَرة ، قال : أخبَرني أبو سُلَيمان المُكتِب ، قال : صَحبْتُ كَرْزاً إلىٰ مكّة ، فاحتبَسَ يوماً وقتَ الرَّحيل ، فانْبثُّوا في طلَبه ، فأصَبْتُه

---

(١) انظر السير : (مسلم بن يَسار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٤٧.
(٢) انظر السير : (ثابت بن أسلم) ٥/ ٢٢٠ـ ٢٢٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٩٦.
(٣) انظر السير : (أبو جعفر القارىء) ٥/ ٢٨٧ـ ٢٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٠٤.
(٤) انظر السير : (زُبَيدُ بن الحارث) ٥/ ٢٩٦ـ ٢٩٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٠٥.
(٥) انظر السير : (عُبَيد الله بن جَعفر) ٦/ ٨ـ ١٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٢٥.
(٦) انظر السير : (أيُّوب السَّخْتياني) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ١٣/ ٦٢٦.

في وَهْدة يُصلِّي في ساعةٍ حارَّة ، وإذا سَحابَة تُظِلُّه ، قال لي : اكتُم هـٰذا ، واسْتَحْلَفَني[1] .

وعن النَّضْرِ بنِ عبدِ الله ، حدَّثَتني رَوْضَة مَوْلاةُ كرْز : قلتُ : من أين يُنفِقُ كرْز ؟ قالت : كان يَقولُ لي يا رَوْضَة إذا أرَدْتِ شَيئاً فخُذي من هـٰذه الكُوَّة ، فكنتُ آخذُ كلَّما أردتُ[2] .

وعن إبراهيمَ بنِ إسْماعيلَ ، قال : اسْتعَارَ سُلَيمانُ التَّيْميّ من رجل فَروة ، فلبسَها ثم رَدَّها ، قال الرجلُ : فما زلتُ أجدُ فيها ريحَ المسْك[3] .

وكان بينَه وبينَ رجلٍ تَنازُع ، فتناول الرجلُ سُلَيمانَ ، فغَمزَ بَطْنَه ، فجَفَّتْ[4] يَدُ الرجل[5] .

وكان كهْمَسُ ـ رَحمَه الله ـ بَرَّ بأُمِّه ، فلمَّا ماتت ، حجَّ وأقامَ بمكَّة حتّىٰ مات ، وكان يَعملُ الجَصَّ ، وكان يؤَذِّن ، قال يَحْيَىٰ بنُ كثير البَصْري : اشترىٰ كهْمسُ دَقيقاً بدرْهَم فأكل منه ، فلمَّا طال عليه ، كالَه ، فإذا هو كما وَضَعَه[6] .

وقال ابنُ وَهْب : كان حَيْوَة يأخُذُ عَطاءَه في السَّنة ستين ديناراً ، فلمْ يَطلُع إلىٰ مَنزِله حتىٰ يَتصدَّقَ بها ، ثم يَجيءُ إلىٰ مَنزِله ، فيَجدُها تَحْت فِراشِه ، وبلغَ ذلك ابنُ عمٍّ له ، فأخذَ عَطاءَه ، فتصدَّق به كُلَّه ، وجاء إلىٰ تَحْت فِراشِه فلمْ يَجدْ شَيئاً ، فشَكا إلىٰ حَيْوَة ، فقال : أنا أعْطيتُ ربِّي بيَقين ، وأنتَ أعْطَيْتَه تَجْربةً . وكنَّا نَجلسُ إلىٰ حَيوَةَ في الفِقْه فيقولُ : أبْدَلَني اللهُ بكم عَموداً أقومُ وراءَه أُصلِّي ثم فعل ذلك[7] .

وعن خالدٍ الفَزْر ، قال : كان حَيْوَةُ بنُ شُرَيح من البَكَّائين ، وكان ضَيِّقَ الحال جداً

---

(١) انظر السير : (كرْز بن وَبَرة) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦٣٣/ ٣.
(٢) انظر السير : (كرْز بن وَبَرة) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦٣٣/ ٤.
(٣) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٦٤١/ ٦.
(٤) جفَّت يد الرجل : يَبَست ، والمضارع يجفُّ بكسر الجيم .
(٥) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٦٤١/ ٧.
(٦) انظر السير : (كهْمَس) ٦/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٦٥٣/ ٤.
(٧) انظر السير : (حَيْوَة بن شُرَيح) ٦/ ٤٠٤ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٦٦٤/ ٦.

ـ يعني فَقيراً مِسْكيناً ـ فجلَسْتُ وهو مُتَخلٍّ يَدعو ، فقلتُ : لو دَعوتَ اللهَ أن يُوَسِّعَ عليك ؟! فالتفتَ يميناً وشِمالاً فلم يرَ أحداً ، فأخذَ حَصاةً فرَمىٰ بها إليَّ فإذا هي تَبرة في كَفِّي ، والله ما رأيتُ أحسَنَ منها ، وقال : ما خَيرٌ في الدنيا إلاَّ للآخرة ، ثم قال : هو أعلَمُ بما يُصلِحُ عبادَه . فقلتُ : ما أصنَعُ بهٰذه ؟ قال : استَنْفِقْها فهِبْتُه والله أن أرُدَّها[1] .

وقال ابنُ أبي الحُواريّ : قال لي أبو سُليمان : أصابَ عبدَ الواحد الفالِجُ ، فسألَ اللهَ أن يُطْلِقَه في وقتِ الوُضوء ، فكان إذا أرادَ الوُضوءَ انطَلَق ، وإذا رَجَعَ إلىٰ سَريرِه فَلَجَ[2] .

ورُويَ أنَّ نافعاً كان إذا تكلَّمَ تُوجَدُ من فيهِ ريحُ مِسْكٍ ، فسُئلَ عنه قال : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ تَفَلَ في فِيّ .

وثَّقَهُ ابنُ مَعين ، وقال أبو حاتم : صَدُوق[3] .

وعن عصامِ بنِ رَوَّاد : سَمعتُ عيسىَ بنَ حازِم النَّيْسابُوري يقولُ : كنَّا بمكَّة مع إبراهيمَ بنِ أدْهَم ، فنظرَ إلي أبي قُبَيْس ، فقال : لو أن مُؤمناً مُسْتكمِل الإيمان ، يَهزُّ الجَبَل لتَحرَّك ، فتَحرَّكَ أبو قُبَيس ، فقال : اسْكُنْ ليسَ إيَّاك أرَدْتُ[4] .

وعن الحارِث بنِ النُّعْمان ، قال : كان إبراهيمُ بنُ أدهَم يَجْتَني الرُّطَبَ من شَجر البلُّوط[5] .

وقيلَ : إنَّ أبا مُعاويَة الأسْود ذَهبَ بَصَرُه ، فكان إذا أرادَ التِّلاوَةَ في المُصْحَفِ أبصَرَ بإذنِ الله[6] .

---

(١) انظر السير : (حَيْوَة بن شُرَيح) ٦/ ٤٠٤ـ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٦٥ .
(٢) انظر السير : (عبد الواحد بن يزيد) ٧/ ١٧٨ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٩١ .
(٣) انظر السير : (نافع) ٧/ ٣٣٦ـ٣٣٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٠١ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم بن أدهم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٠٨ .
(٥) انظر السير : (إبراهيم بن أدهم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٠٨ .
(٦) انظر السير : (أبو معاوية الأسود) ٩/ ٧٨ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٩٩ .

وعن ابنِ شِيرَويه ، قلتُ لمَعْروفٍ الكَرْخيّ : بلَغَني أنَّكَ تَمشي على الماءِ . قال : ما وَقَعَ هـٰذا ، ولكنْ إذا هَمَمْتُ بالعُبورِ جُمِعَ لي طَرَفا النهرِ فأتَخَطَّاه[1] .

وعن محمدِ بنِ مَنصور الطُّوسيّ ، قال : كُنتُ عند مَعْروف الكَرْخي ، ثم جئتُ ، وفي وَجْهِه أثرٌ ، فسُئلَ عنه ، فقال للسَّائلِ : سَلْ عمَّا يَعنيك عافاكَ اللهُ ، فأقسَمَ عليه ، فتَغيَّرَ وَجْهُه ، ثم قال : صلَّيتُ البارِحَةَ ، ومَضَيتُ فطُفتُ بالبيتِ ، وجئْتُ لأشْرَبَ من زَمْزَمَ فزَلِقْتُ فأصاب وَجْهي هـٰذا[2] .

وجاءَ في ترجمة عليِّ بنِ بكَّار ، قال الذهبيُّ : وكان فارساً ، مرابطاً ، ومجاهداً كثيرَ الغَزو ، فرُوِّيَ عنه أنه قال : واقَعْنا العَدوَّ ، فانهَزَمَ المسْلمون ، وقصَّر بي فَرَسي ، فقُلتُ : إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُونَ ، فقالَ الفَرَسُ : نَعَم ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُونَ ، حيثُ تتَّكِلُ علىٰ فُلانَة في عَلفي ، فضَمنتُ أنْ لا يَليه غَيري[3] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ أبي : سَمعتُ أبا عَمرو العَمْرَويَّ والي البلد يقول : بينا أنا نائمٌ ذاتَ ليلة على السَّطحِ ، إذْ رأيتُ نوراً يَسْطَعُ إلى السَماء ، من قَبرٍ في مَقْبَرَة الحُسَين ، كأنَّه مَنارة بَيْضاء ، فدَعوتُ بغُلامٍ لي رامٍ ، فقُلتُ : ارمِ ذاكَ القبرَ الذي يَسْطَعُ منه النُّور ، ففَعلَ ، فلمَّا أصْبَحْتُ ، بكَّرتُ بنفسي ، فإذا النشَّابة في قبر يَحْيَىٰ بنِ يَحْيَىٰ رَحمةُ الله عليه .

وقال أحمدُ بنُ سيَّار المَرْوزي : يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ من مَوالي بَني مِنْقَر ، كان ثقةً ، حسَنَ الوَجْه ، طَويلَ اللِّحْيَة ، خَيِّراً ، فاضِلاً ، صائناً لنفسِه[4] .

وقال الحسَنُ بنُ محمد الحَربيّ : سَمعتُ جَعْفَرَ بنَ محمد الصَّائغ يقولُ : رأيتُ أحمدَ بنَ نَصْر حين قُتلَ قال رأسُهُ : لا إلـٰهَ إلاَّ الله .

---

(١) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخي) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٦/ ١٠ .
(٢) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخي) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٦/ ١١ .
(٣) انظر السير : (عليّ بن بكّار) ٩/ ٥٨٤ـ ٥٨٥ ، وانظر النزهة : ٨٤١/ ٤ .
(٤) انظر السير : (يَحْيَى بن يَحْيىٰ) ١٠/ ٥١٢ـ ٥١٩ ، وانظر النزهة : ٨٨٩/ ٥ .

قال المَرْوذيُّ : سمعتُ أحمدَ بنَ حَنْبَل ذكرَ أحمدَ بنَ نَصْر الخُزاعيَّ ، فقال : رحمَهُ الله ، لقَدْ جادَ بنفسِه[1] .

ونُقِلَ عن الموكَّل بالرأسِ أنه سمعَه في اللَّيل يقرأُ « يس » ، وصَحَّ أنَّهم أقْعَدوا رَجُلاً بقصَبةٍ ، فكانت الرِّيحُ تُديرُ الرأسَ إلى القبلَة ، فيُديرُه الرجُلُ[2] .

قالَ السّراجُ : سَمعتُ خَلفَ بنَ سالم ، يقول : بعد ما قُتلَ ابنُ نَصْر وقيلَ له : ألا تَسْمَع ما النَّاس فيه يَقولون : إنَّ رأسَ أحمدَ بنِ نَصْر يقرأ ؟! . فقال : كان رأسُ يَحْيَىٰ يَقْرأ[3] .

وقالت فاطمةُ بنتُ أحمدَ بن حَنْبَل : وقع الحَريقُ في بيتِ أخي صالح ، وكان قد تزَوَّجَ بفَتِيَّة ، فحَملوا إليه جهَازاً شَبيهاً بأربعة آلاف دينار فأكلَتْهُ النَّارُ ، فجَعلَ صالحُ يقولُ : ما غَمَّني ما ذهب إلاَّ ثوبٌ لأبي كان يُصَلِّي فيه أتَبَرَّكُ به وأصَلِّي فيه . قالت : فطُفِىءَ الحَريقُ ، ودَخَلوا فوَجَدوا الثَّوبَ علىٰ سَريره قد أكلَت النَّارُ ما حَوْلَه وسَلِمَ[4] .

وقال ابنُ الجَوْزيُّ : بَلَغَني عن قاضي القُضاة عليِّ بنِ الحُسَين الزَّينَبي ، أنَّه حَكَىٰ أنَّ الحَريقَ وَقعَ في دارِهم ، فأحْرَقَ ما فيها إلاَّ كتاباً كان فيه شيءٌ بخَطِّ الإمام أحمد . قال : ولمَّا وقعَ الغَرَقُ ببَغْدادَ في سنَة أربع وخمسين وخمسمائة ، وغَرقَتْ كُتبي ، سَلِمَ لي مجلّدٌ فيه ورقتان بخَطِّ الإمام[5] .

قال الذهبيُّ : وكذا اسْتَفاضَ ، وثبتَ أنَّ الغَرقَ الكائنَ بعد العِشْرينَ وسَبع مئة ببَغْدادَ عامَ علىٰ مَقابِرِ مَقبَرَة أحمدَ ، وأنَّ الماءَ دَخلَ في الدِّهْليزِ عُلُوَّ ذِراع ، ووقفَ بِقُدرة الله ، وبَقيَتْ الحُصْرُ حَولَ قَبرِ الإمام بغُبارِها ، وكان ذلك آيةً[6] .

---

(١) انظر السير : (الخُزَاعيُّ) ١١/١٦٦ـ١٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩١٩ .
(٢) انظر السير : (الخُزَاعيُّ) ١١/١٦٦ـ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٩ .
(٣) انظر السير : (الخُزَاعيُّ) ١١/١٦٦ـ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٩١٩ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بن حَنبَل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣١ .
(٥) انظر السير : (أحمدُ بن حَنبَل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣١ .
(٦) انظر السير : (أحمدُ بن حَنبَل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٣١ .

قال أبو حَفْص بنُ شاهين : حدَّثنا أحمدُ بنُ محمَّد المُؤذِّن ، سَمعتُ محمَّدَ بنَ مَنصور الطُّوسيَّ ، وحَواليه قَومٌ ، فقالوا : يا أبا جَعْفَر ، أيش اليوم عندَك ؟ ، قد شَكَّ النَّاسُ فيه ، أيومَ عَرفَة هو أو غَيره ؟ فقال : اصْبروا ، فدَخلَ البيتَ ، ثم خَرجَ ، فقالَ هو يومُ عَرفَة ، فاسْتَحيوا أن يقولوا له : مِنْ أينَ ذلك ، فعَدُّوا الأيّامَ فكانَ كما قال . فسَمعتُ أبا بَكْر بنَ سَلام الورَّاقُ يقول له : مِنْ أينَ عَلمتَ ؟ قال : دَخلتُ ، فسَألتُ رَبِّي فأراني النَّاسَ في المَوْقِف . !!

قال الذهبيُّ : لا أعرفُ هـٰذا المُؤذِّن ، ولمْ يَبعُد وُقوعُ هـٰذا لمثلِ هـٰذا الوَليِّ ، ولكن الشأنُ في ثُبوت ذلك[1] .

وقال يَعقوبُ بنُ إسْحاقَ بنِ مَحمود : سَمعتُ يَحْيىٰ بنَ بَدْر القُرشي يقولُ : كان عبدُ الله بنُ مُنير قبلَ الصَّلاةِ يكونُ بفِرَبْر ، فإذا كان وقتُ الصَّلاةِ يَرونَه في مَسجدِ آمل ، فكانوا يقولون : إنَّه يَمشي على الماء ، فقيل له في ذلك ، فقالَ : أمَّا المَشيُ على الماء فلا أدري ، ولكن إذا أرادَ اللهُ جَمعَ حافَتَيْ النَهرِ ، حتىٰ يَعْبُرَ الإنسانُ[2] .

قال : وكان إذا قامَ من المَجْلِس خرجَ إلى البَرِّيَّة مع قَوم من أصْحابه ، يَجمَعُ شَيئاً مثل الأُشنان وغَيره ، يَبيعُه في السُّوق ويَعيشُ منه ، فخرجَ يوماً مع أصْحابِه ، فإذا هو بالأسَدِ رابضٌ فقال لأصْحابِه : قِفُوا ، وتَقدَّمَ هو إلى الأسَدِ ، فلا نَدري ما قالَ له ، فقامَ الأسَدُ فذَهب[3] .

وسُئلَ ابنُ راهَوَيه : أيَدْخُلُ الرجلُ المَفازَةَ بغَيرِ زادٍ ؟ قالَ : إنْ كانَ مثلَ عبدِ اللهِ بنِ مُنِيرٍ ، فنعَم .

وقيلَ : كانَ ابنُ مُنِيرٍ يُعَدُّ من الأبْدالِ[4] .

وقال محمدُ بنُ أحمد بنُ الفَضْل البَلْخيِّ ، سَمعتُ أبي يقولُ : ذَهبَتْ عَيْنا

---

(١) انظر السير : (محمد بن مَنصور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن مُنير) ١٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٧/١٠٠٤ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن مُنير) ١٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٠٥ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن مُنير) ١٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٠٥ .

محمدِ بنِ إسْماعيل في صِغَره ، فرأتْ والِدَتُه في المَنام إبراهيمَ الخَليلَ ، فقالَ لها : يا هَـٰذه قد رَدَّ اللهُ على ابنِكِ بَصَرَه لكثرَة بُكائِك ، أو كَثرةِ دُعائِك ـ شَكَّ البَلْخِيُّ ـ فأصْبَحْنا وقد ردَّ اللهُ عليه بَصَرَه[1] .

وقال محمدُ بن أبي حاتم : سَمعتُ أبا مَنصُور غالبَ بنَ جِبْريل ، وهو الذي نَزلَ عليه أبو عبدِ الله البُخَاريُّ ، يقولُ : إنَّه أقامَ عندنا أياماً ، فمرِضَ واشْتدَّ عليه المَرضُ حتىٰ وَجَّهَ رَسولاً إلىٰ مَدينة سَمَرْقَند في إخراج محمد ، فلمَّا وَافَىٰ تَهيَّأ للرُّكوب ، فلبِسَ خُفَّيْه ، وتَعَمَّمَ ، فلمَّا مَشىٰ قَدْرَ عِشْرينَ خُطوة أو نَحْوَها ، وأنا آخِذٌ بعَضُدِهِ ، ورجلٌ آخَرُ مَعي يَقودُه إلى الدَابَّة ليَركَبَها ، فقال رَحمَه اللهُ : أَرْسِلوني ، فقد ضَعُفْتُ ، فدعا بدَعَواتٍ ، ثم اضطَجَع فقَضىٰ رَحمَه اللهُ ، فسالَ منه العَرقُ شيءٌ لا يُوصَف ، فما سكَنَ منه العَرقُ إلىٰ أنْ أدْرَجْناه في ثيابه . وكان فيما قالَ لنا ، وأوْصَىٰ إلينا أنْ كفِّنوني في ثلاثة أثوابٍ بيضٍ ليس فيها قَميصٌ ولا عَمامَةٌ ، ففَعَلنا ذلك ، فلمَّا دفَنَّاه فاحَ من تُرابِ قَبْرِه رائحَةٌ غاليةٌ أَطْيَبُ من المِسْك ، فدامَ ذلك أيّاماً ، ثم عَلتْ سَوَاريُّ بيضٌ في السماء مُستَطيلة بحِذاء قبرِه ، فجعلَ النَّاسُ يختلفونَ ويتعجَّبونَ ، وأمَّا التُّرابُ فإنَّهم كانوا يَرفَعون عن القَبر ، حتىٰ ظهَرَ القَبرُ ولمْ نكنْ نَقدرُ علىٰ حفظِ القَبرِ بالحُرَّاس ، وغُلِبْنا علىٰ أنفسِنا ، فنَصَبْنا على القَبرِ خَشَباً مُشبَّكاً لمْ يَكنْ أحدٌ يقدرُ على الوصُول إلى القَبر ، فكانوا يَرفَعونَ ما حولَ القَبرِ من التُّراب ، ولمْ يكونوا يَخلُصون إلى القبر ، وأمَّا ريحُ الطِّيبِ فإنَّه تَداوَمَ أيّاماً كثيرة ، حتىٰ تَحدَّثَ أهلُ البَلْدَة وتَعجَّبوا من ذلك ، وظهرَ عند مُخالِفيه أمرُه بعد وَفاتِه ، وخرَجَ بعضُ مُخالفيه إلىٰ قَبرِه وأَظْهَروا التَّوْبَةَ والنَّدامَة ممَّا كانوا شَرعوا فيه من مَذموم المَذْهَب[2] .

وجاء في ترجمة أبو حفص النيسابوري ، قال أبو عَمرو بنُ حمْدان : كان أبو حفص حدَّاداً ، فكان غُلامُه يَنفُخُ عليه الكِيرَ مرّةً ، فأدخَلَ أبو حفص يدَه ، فأخرَجَ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٠.

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٠.

الحَديدَ من النارِ ، فغُشيَ على الغُلام ، فتركَ أبو حفص الحانوتَ وأقبلَ علىٰ أمرِه[1] .

وقال المُرْتَعشيُّ : دخلتُ مع أبي حَفْص علىٰ مَريضٍ ، فقال : ما تَشْتَهي ؟ قال : أنْ أبْرَأ . فقال لأصْحابِه : احمِلوا عنه ، فقام مَعنا ، وأصْبَحْنا نُعادُ في الفُرُش[2] .

وقيلَ : أتى ابنَ عَبْدوسَ رجلٌ ، فقال : ما تقولُ في الإيمانِ ؟ قال : أنا مؤمنٌ . فقال : عندَ الله ؟ قال : أمَّا عند اللهِ فلا أقْطَعُ لنَفسِي بذلك ، لأني لا أدْري بمَ يُخْتَمُ لي ، فبَصَقَ الرجلُ في وجْهه ، فعَميَ من وَقْتِهِ الرَّجُلُ[3] .

وعن محمدِ بنِ القاسِم بنِ بِشْر : سَمعتُ محمدَ بنَ يَزيدَ الفَسَويَّ العطَّار ، سَمعتُ يَعْقوبَ بنَ سُفيان يقولُ : كنتُ في رِحْلتي في طَلبِ الحَديث ، فدخلتُ إلىٰ بَعضِ المُدُن ، فصادَفتُ بها شَيخاً احتجْتُ إلى الإقامَةِ عليه للاسْتكثارِ عنه ، وقلَّتْ نَفَقَتي ، وبَعُدْتُ عن بَلَدي ، فكنتُ أُدْمِنُ الكتابَةَ ليلاً ، وأقرأُ عليه نَهاراً ، فلمَّا كان ذاتَ ليلَة ، كنتُ جالساً أنسَخُ ، وقد تصَرَّمَ الليلُ ، فنزلَ الماءُ في عَيْنَيَّ ، فلم أُبصِرُ السِّراجَ ولا البَيتَ ، فبكيتُ على انقِطاعي ، وعلىٰ ما يَفوتُني من العلمِ ، فاشتدَّ بُكائي حتى اتَّكأتُ علىٰ جَنْبي ، فنِمْتُ ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ ، فناداني : يا يَعقوبُ بنَ سُفيان ، لمَ أنتَ بَكَيتَ ؟ فقلتُ : يا رسولَ الله ذَهبَ بَصَري ، فتحسَّرتُ علىٰ ما فاتني من كَتْبِ سُنَّتِك ، وعلى الانقطاع عن بَلَدي . فقال صلى الله عليه وسلم : أُدْنُ مِنِّي . فدَنَوْتُ منه ، فأَمَرَّ يَدَه علىٰ عَيني ، كأنَّه يَقرأُ عليهما . قال : ثم استيقَظْتُ فأبصَرتُ ، وأخذْتُ نُسَخي وقَعَدتُ في السِّراجِ أكْتبُ .

ماتَ يَعقوبُ بنُ سُفيان بفَسَا سنة سَبعٍ وسَبعين ومئتَين[4] .

وقال الحُسَينُ بنُ أحمد الصفَّار : سَمعتُ عبد الرحمَٰن بنَ أبي حاتم يقولُ : وقعَ عندنا الغَلاءُ ، فأنفَذَ بعضُ أصْدقائي حُبوباً من أصْبَهان ، فبِعْتُه بعشْرينَ ألفاً ، وسألَني

---

(١) انظر السير : (أبو حَفْص النيسابوري) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٥.
(٢) انظر السير : (أبو حَفْص النيسابوري) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٧/١٠٢٥.
(٣) انظر السير : (ابن عَبْدوس) ١٣/ ٦٣ـ ٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥١.
(٤) انظر السير : (الفَسَوي) ١٣/ ١٨٠ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦٨.

أنْ أشْتَرِيَ له دَاراً عندَنا ، فإذا جاءَ ينزِلُ فيها ، فأنفقْتُها في الفُقَراء ، وكَتبتُ إليه : اشْتَريتُ لك بها قَصْراً في الجَنَّة ، فبَعثَ يقولُ : رَضيتُ ، فاكتُبْ علىٰ نفسِكَ صَكّاً ، ففَعَلتُ ، فأُريتُ في المَنامِ : قد وفَّيْنا بما ضَمِنْتَ ، ولا تَعُدْ لمثلِ هـٰذا[1] .

وذكر عبد الرحمـٰن بن أحمد عن ، أبيه : أن امرأةً جاءَت إلىٰ بَقِيٍّ فقالت : إنَّ ابْني في الأسْرِ ، ولا حِيلَةَ لي ، فلَوْ أشَرْتَ إلىٰ مَنْ يَفْديه ، فإنَّني والِهَةٌ . قال : نعم ، انصَرفي حتىٰ أنظرَ في أمره ، ثم أَطْرَقَ ، وحرَّكَ شَفَتيه ، ثم بعد مُدَّةٍ جاءت المَرأةُ بابنها ، فقال : كنتُ في يَدِ مَلِكٍ ، فبَيْنا أنا في العَمَل ، سَقَطَ قَيدي . قال : فذكرَ اليومَ والسَّاعَة ، فوافَقَ وقتَ دُعاءِ الشَّيخ . قال : فصاحَ عليَّ المُرَسَّم بنا ، ثم نَظَرَ وتَحيَّرَ ، ثم أحضَرَ الحدَّادَ وقيَّدني ، فلمَّا فرغه ومَشَيتُ سَقطَ القَيدُ ، فبُهِتوا ، ودَعَوا رُهْبانَهم ، فقالوا : ألَكَ والدةٌ ؟ قلتُ : نَعم . فقالوا : وافَقَ دُعاءَها الإجابة[2] .

وقال أبو عَمرو بنُ نُجَيد : سَمعتُ أبا عُثمانَ سَعيدَ بنَ إسْماعيلَ يقولُ : تَقدَّمتُ لأُصافحَ أبا عبدِ الله البُوشَنْجي تبرُّكاً ، فقَبَضَ عَنِّي يَدَه ، ثم قال : يا أبا عُثمان! لَستُ هُناك[3] .

وقال عُثمانُ بنُ جَعْفَر اللَّبان ، حدَّثَني محمدُ بنُ نَصر قال : خَرجتُ من مِصْرَ ومعي جاريةٌ ، فرَكبتُ البَحْرَ أُريدُ مَكَّةَ ، فغَرقتُ ، فذهب منِّي ألفا جُزء ، وصِرتُ إلىٰ جَزيرةٍ أنا وجَاريَتي ، فما رأينا فيها أحَداً ، وأخذَني العَطَشُ فلمْ أقْدِرْ على الماءِ ، فوَضَعتُ رأسي علىٰ فَخِذِ جاريَتي مُسْتَسْلماً للمَوتِ ، فإذا رجلٌ قد جاءني ومعه كوزٌ ، فقال لي : هاه . فشَربتُ وسَقيْتُها ، ثم مَضَىٰ ، فما أدْري من أينَ جاءَ ؟ ولا من أينَ راحَ ؟[4] .

وقال الذهبيُّ في تَرجمَة أبي عُثمان الحِيَري : ذكرَ الحاكمُ أخبارَ أبي عُثمان في

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم الرازي) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٠ .
(٢) انظر السير : (بَقِيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٥ .
(٣) انظر السير : (البُوشَنْجي) ١٣/ ٥٨١ـ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١١١٨ .
(٤) انظر السير : (محمد بن نصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١١٢٦ .

خمسٍ وعشرين ورَقَة في غُضون ذلك من كلامِه في التَّوكلِ واليَقين والرِّضَا ، قال الحاكمُ : وسَمعتُ أبي يقولُ : لمَّا قَتلَ أحمدُ بنُ عبد الله الخُجُستاني ـ الذي اسْتولَىٰ على البلادِ ـ الإمامَ حيكانَ بنَ الذهليّ ، أخذَ في الظُّلمِ والعَسفِ ، وأمرَ بحَرْبَةٍ رُكزَت علىٰ رأس المربّعة[1] ، وجمعَ الأعْيانَ ، وحلفَ : إنْ لمْ يَصُبُّوا الدَّراهمَ حتىٰ يغيبَ رأسُ الحَرْبَة ، فقد أحلُّوا دماءَهم ، فكانوا يَقتَسِمون الغرامَة بينهم ، فخُصَّ تاجرٌ بثلاثين ألفَ درهم ، فلم يكنْ يَقدرُ إلاَّ علىٰ ثلاثة آلاف درهم ، فحملها إلىٰ أبي عُثمان وقال : قد حلف هـٰذا كما بلَغَكَ ، ووالله لا أهْتَدي إلاَّ إلىٰ هـٰذه . قال : تأذَنُ لي أن أفعَل فيها ما يَنفَعُك ؟ قال : ففرَّقَها أبو عُثمان ، وقال للتاجر : امكُثْ عِندي ، وما زالَ أبو عُثمان يَتردَّدُ بين السِّكَّةِ والمَسْجدِ ليلَتَه حتىٰ أصْبَحَ ، وأذَّنَ المؤَذِّنُ ، ثم قال لخادِمِه : اذْهبْ إلى السُّوق ، وانظُرْ ماذا تَسْمَع ، فذَهبَ ، ورجَعَ فقال : لم أرَ شَيئاً ، قال : اذْهَبْ مرّةً أُخْرَىٰ ، وهو في مُناجاتِه يقول : وحَقِّكَ لا أقَمتُ ما لم تُفرِّجْ عن المَكْروبين ، قال : فأتىٰ خادمُه الفَرغانيُّ يقول : وكَفَى اللهُ المؤمنينَ القِتالَ ، شُقَّ بَطنُ أحمدَ ابنَ عبد الله ، فأخذَ أبو عُثمانَ في الإقامَة .

قال الذهبيُّ : بمثلِ هـٰذا يَعْظُمُ مَشايخُ الوَقت .

قال أبو الحُسَين أحمدُ بن أبي عُثمان : تُوفيَ أبي سَنةَ ثمان وتسعين ومئتين ، وصلَّىٰ عليه الأميرُ أبو صالح[2] .

وقيلَ : إنَّ الجُنَيد مَرِضَ مرَّةً فعادَه النُّوريُّ ، فوضَع يدَه عليه ، فعُوفيَ لوَقْتِه . تُوفِّيَ النُّوريُّ قبلَ الجُنَيد وذلك في سَنة خمسٍ وتسعينَ ومئتين ، وقد شاخَ رحمَه الله ، وموتُ الجُنَيد في سَنة ثمانٍ وتسعين[3] .

وجاء في تَرجمة عليِّ بنِ أبي طاهِر قال الذَّهبيُّ : وثَّقَه الخَليليُّ ، قال : سَمعتُ

---

(١) في « اللِّسان » والمربعة : خشيبة قصيرة يرفع بها العِدلُ ، وقال الأزهريُّ : هي عَصاةٌ تُحمَلُ بها الأثقال حتىٰ تُوضَع علىٰ ظهر الدواب .

(٢) انظر السير : (أبو عُثمان الحِيري) ١٤/ ٦٢ـ ٦٦ ، وانظر النزهة : ١١٣١/ ٥ .

(٣) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١١٣٥/ ١ .

الحَسنَ بنَ أحمد بنَ صالح يَحْكي عن سُليمانَ بنِ يَزيد : أنَّ عليَّ ابنَ أبي طاهر لمَّا رَحلَ إلى الشَّام ، وكَتبَ الحَديثَ جَعلَ كُتبَه في صُندوقٍ ، وقَيَّرَه ورَكبَ البَحرَ ، فاضْطَربَت السَّفينَةُ وماجت ، فألْقَى الصُندوقَ في البَحرِ ، ثم سَكنَتْ السَّفينَةُ ، فلمَّا خَرجَ منها أقامَ على السَّاحلِ ثلاثاً يَدعُو اللهَ ، ثم سَجدَ في اللَّيلَة الثَّالِثَة ، وقال : إنْ كان طَلَبي ذلك لوَجْهك وحبِّ رسُولِك ، فأغِثْني بردِّ ذلك ، فرفَعَ رأسَه ، فإذا بالصُندوقِ مُلقَىٰ عندَه ، فقَدمَ ، وأقامَ بُرْهَة ، ثم قَصَدوه لسَماع الحَديثِ فامْتَنَع منه . وقال : فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، في مَنامي ، ومَعه عليٌّ رضي الله عنه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يا عَليُّ مَنْ عامَلَ اللهُ بما عامَلَكَ به علىٰ شَطِّ البَحْر ؟!! ، لا تَمتَنِعْ من رِوايَة أحاديثي » . قال : فقُلتُ : قد تُبتُ إلى الله ، فدَعا لي وحَثَّني على الرِّوايَة .

ماتَ عليُّ بنُ أبي طاهِر سنة نيِّف وتسعين ومئتين ، رَحمَه الله[1] .

نقل أبو عبد الرحمـٰن السُّلميّ في « مِحَن الصُّوفيّة » أن بُناناً الحَمَّال قام إلىٰ وزير خُمارويه ـ صاحب مصر ـ وكان نَصْرانيّاً فأنزله عن مَركوبه وقال : لا تركب الخيلَ وعيِّر ، كما هو مَأخوذ عليكم في الذِّمَّة ، فأمر خُمارويه بأن يُؤخَذ ويُوضع بين يدي سَبُع ، فطُرِحَ ، فبقي ليلةً ، ثم جاؤوا والسَّبُعُ يلحَسُه وهو مستقبل القِبْلَة ، فأطلَقَه خُمارويه واعتذر إليه[2] .

ويُروَىٰ أنه كان لرجلٍ علىٰ آخرَ دَينٌ مئة دينار ، فطلبَ الرجلُ الوثيقةَ فلمْ يَجدْها ، فجاء إلىٰ بُنانَ ليَدعوَ له ، فقال : أنا رجلٌ قد كَبرتُ ، وأحبُّ الحَلْواءَ ، اذهَبْ اشترِ لي من عندِ دارِ فرج رطلَ حَلوَاء حتىٰ أدعوَ لك ، ففَعَل الرجلُ وجاءَ ، فقال بُنانٌ : افتَحْ ورقةَ الحَلواء ، ففتحَ ، فإذا هي الوَثيقةُ ، فقال : هي وثيقَتي . قال : خُذْها ، وأطْعِم الحَلواءَ صِبْيانَك[3] .

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن أبي طاهر) ١٤/ ٨٧ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/١١٣٥ .
(٢) انظر السير : (بُنَانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١١٦٩ .
(٣) انظر السير : (بُنَانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/١١٦٩ .

وجاء في ترجمة البَرْبَهاريّ ، قال الذهبيُّ : تُوفِّيَ مُسْتَتِراً في رجب سنةَ ثمانٍ وعشرين وثلاث مئة ، فدُفِنَ بدارِ أُخْتِ توزون[1] . فقيلَ : إنَّه لمَّا كُفِّن ، وعنده الخادمُ صلَّىٰ عليه وحدَه ، فنظرتْ هي من الرَّوْشَن[2] ، فرأت البيتَ ملآنَ رجالاً في ثيابٍ بيضٍ ، يُصلُّون عليه ، فخافَت وطلَبَت الخادمَ ، فحَلَفَ أنَّ البابَ لمْ يُفْتَحْ[3] .

وقال المحَدِّثُ أبو سَهْل القَطَّان : كنتُ مع الوزيرِ ، عليِّ بن عيسىٰ لمَّا نُفيَ بمكَّة ، فدَخَلْنا في حرٍّ شَديد وقد كِدْنا نَتلَف ، فطافَ يوماً ، وجاءَ فرمَىٰ بنفسِه ، وقال : أشْتَهي على الله شَرْبَةَ ماء مَثْلوج . قال : فنَشَأتْ بعد ساعةٍ سحابَةٌ ورَعَدَت وجاء بَرَدٌ كثيرٌ جمَعَ منه الغِلْمانُ جِراراً ، وكان الوَزيرُ صائماً ، فلمَّا كان الإفطارُ جئتُه بأقداح من أصناف الأسْوقة فأقبلَ يَسْقي المجاوِرين ، ثم شَربَ وحمِدَ اللهَ ، وقال : لَيْتَني تَمنَّيْتُ المَغْفِرَة .

وكان الوَزيرُ مُتواضِعاً ، قال : ما لَبِسْتُ ثَوْباً بأزيَدَ من سَبْعَة دنانير .

قال أحمدُ بنُ كامل القاضي : سَمعتُ عليَّ بنَ عيسَى الوَزيرَ ، يقولُ : كَسَبْتُ سَبع مئة ألفِ دينار ، أخرجْتُ منها في وجُوه البِرِّ سِتَّ مئة ألفٍ وثمانينَ ألفاً .

تُوفِّيَ في آخرِ أربع وثلاثين وثلاثِ مئة ، وله تسعُون سنة[4] .

وجاء في ترجمة أبي ميسَرَة ، فقيه المَغْرِب ، قال الذهبيُّ : وقع في ذِهْنِ المَنصُور أنَّ أبا مَيْسَرَة لا يَرى الخُروجَ عَليه ، فأرادَه ليُوَلِّيه القَضاءَ ، فقالَ : كيفَ يَلي القَضاءَ رجلٌ أعْمَىٰ ، يَبولُ تَحْتَه ، فما عَلِمَ أحدٌ بضَرَرِه إلاَّ يومئذٍ ، فقالَ : اللَّهُم إنَّكَ تعلمُ أنِّي انْقَطعْتُ إليكَ وأنا شابٌّ فلا تُمَكِّنهم منِّي ، فما جاءَت العَصْرُ إلاَّ وهو من أهلِ الآخِرَة ، فوَجَّه إليه المنصورُ بكَفَنٍ وطِيب .

---

(١) توزون ، أحدُ القادة الأتراك ، خلع عليه المتَّقي وجعله أمير الأمراء ، ودامت إمارته حتىٰ وفاته سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة ، وهو الذي سَمَل المتَّقي بالله وخلعه ، وبايع المسْتَكْفي.

(٢) الرَّوْشَن : الكُوَّة .

(٣) انظر السير : (البَرْبَهاريّ) ١٥/ ٩٠ـ ٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١١٨٦ .

(٤) انظر السير : (الوَزير ، عليُّ بن عيسى بن داود) ١٥/ ٢٩٨ـ ٣٠١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٠ .

تُوفِّيَ سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاث مئة ، وكان مُجابَ الدَّعْوَة ، رحمَه الله[1] .

قال أبو القاسم بنُ عَلان الواسطيُّ : لمَّا أصابَ أبا الحسَن الكَرْخيّ الفَالجُ في آخر عُمُره ، حضَرْتُه ، وحضَرَ أصْحابُه : أبو بَكْر الدَّامغانيُّ ، وأبو علي الشَّاشيُّ ، وأبو عبد الله البَصْريُّ ، فقالوا : هـٰذا مَرَضٌ يَحتاجُ إلىٰ نفقَةٍ وعِلاجٍ ، والشَّيخُ مُقلٌّ ، ولا يَنبَغي أن نَبذُلَه للنَّاس ، فكَتبوا إلىٰ سَيْفِ الدّولَة بنِ حَمْدان ، فأحَسَّ الشَيخُ بما هم فيه ، فبَكىٰ وقال : اللَّهم لا تَجْعَلْ رِزْقي إلاَّ من حَيثُ عَوَّدْتَني ، فماتَ قبلَ أن يُحْمَلَ إليه شيءٌ ، ثم جاءَ من سَيفِ الدّولَة عَشْرةُ آلاف دِرْهم ، فتُصُدِّقَ بها عنه .

تُوفِّيَ رحمَه اللهُ في سَنة أربَعين وثلاث مئة ، وكان رَأساً في الاعْتِزال ، اللهُ يُسامِحُهُ[2] .

وقال أبو محمد بنُ حَزْم : أخْبَرني حَكَمُ بنُ مُنذِر بنُ سَعيد ، أخْبَرَني أبي أنَّه حَجَّ راجِلاً مع قَومٍ رجّالة ، فانقَطَعوا وأعْوَزَهم الماءُ في الحِجاز وتاهوا ، قال : فأوَينا إلىٰ غارٍ نَنْتَظرُ المَوْتَ ، فوَضَعتُ رأسي مُلصَقاً بالجَبَل ، فإذا حَجَرٌ كان في قُبالَته ، فعالَجْتُه ، فنزَعْتُه فانبَعَثَ الماءُ ، فشَرِبْنا وتَزَوَّدْنا[3] .

وقال أحمدُ بنُ عليّ البَادي ، سَمعتُ أبا الفَتْح القَوَّاس يقولُ : لَحِقَتْني إضاقَة ، فأخذتُ قَوساً وخُفَّين لأبيعَهُما ، فقلتُ : أحضُرُ مَجْلسَ ابنِ سَمْعونَ ثم أبيعُ ، فحَضَرتُ ، فلمَّا فَرغَ نادَاني : يا أبا الفَتْح لا تَبِعِ الخُفَّيْن والقَوْسَ فإنَّ اللهَ سَيأتيكَ برِزْقٍ من عندِه[4] .

وقال أبو عليّ بنُ أبي موسَى الهاشميّ ، قال : حَكىٰ لي مَوْلى الطَّائع أن الطَّائعَ أمرَه ، فأحضَرَ ابنَ سَمعُون ، فرأيتُ الطَّائعَ غَضْبانَ ـ وكان ذا حِدَّة ـ فسلَّمَ ابنُ سَمعُون بالخِلافَة ، ثم أخذَ في وَعْظِه فقال : رُويَ عن أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه كذا .

---

(١) انظر السير : (أبو مَيْسَرة) ١٥/ ٣٩٥ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٤٠.

(٢) انظر السير : (الكرْخيُّ) ١٥/ ٤٢٦ـ ٤٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٦ .

(٣) انظر السير : (مُنذر بن سعيد البَلُّوطيّ) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٨ .

(٤) انظر السير : (ابنُ سَمعون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ٣/١٣١٠.

ووَعَظَ حتىٰ بَكى الطَّائعُ وسُمعَ شَهيقُه ، وابتَلَّ منديلٌ من دُموعِه ، فلمَّا انصَرفَ سُئلَ الطَّائعُ عن سَبب طَلبِه ، فقال : رُفعَ إليَّ أنَّه يَنتَقِصُ عَليّاً ، فأرَدْتُ أقابلَه ، فلمَّا حَضَر افتَتحَ بذِكْره والصَّلاة عليه ، وأعادَ وأبْدَىٰ في ذِكْره ، فعلِمْتُ أنَّه وُفِّقَ ، ولعلَّه كُوشِفَ بذلك[1] .

وقالَ أبو محمَّد الجَوْهَريّ : سَمعتُ أخي الحُسَينَ يَقُولُ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ ، فقُلتُ : يا رَسُولَ الله قد اختلفَتْ عليَّ المَذاهِبُ ، فقالَ : عَليكَ بابنِ بَطَّة فأصْبَحتُ ولَبستُ ثيابي ، ثم أصْعَدتُ إلىٰ عُكبرا ، فدخلتُ وابنُ بطَّة في الْمَسجدِ فلمّا رآني قالَ لي : صَدقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، صَدقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مُسْتجابَ الدَّعْوَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لابنِ بَطَّة مع فَضلِه أوْهامٌ وغَلطٌ[2] .

وقيلَ إنَّ مُحْرزاً التونسيَّ أُتِيَ بابنَةِ أبي زَيد وهي زَمِنَة فدعَا لها ، فقامت ، فعَجِبوا ، وسَبَّحوا اللهَ ، فقال : والله ، ما قلتُ إلاَّ : بحُرْمَة والدِها عندَك اكْشِفْ ما بها . فشَفاها اللهُ .

قال الذهبيُّ : وكان رحمَه الله علىٰ طَريقَةِ السَّلَف في الأصول ، لا يَتَأوَّل ، فنَسألُ اللهَ التوفيقَ[3] .

وقال ابنُ حيّان : تُوفِّي الفَقيهُ الحافظُ المُشاوَرُ ، المسْتبحِرُ الراويَة البعيدُ الأثَر ، الطَويلُ الهجرة في طلب العلم ، الناسِكُ المُتقَشِّفُ ، أبو عبد الله بنُ الفَخَّار بمدينة بَلَنْسيَة سَنةَ تسعَ عشرة وأربع مئة ، فكان الحفل في جنازَته عَظيماً ، وعايَنَ الناسُ فيها آيةً من طُيورٍ شبهِ الخُطَّاف ـ وما هي بها ـ تخلَّلت الجَمعَ رَافَّةً فوقَ النَّعْشِ ، جانحةً إليه مُشْفِقَةً إليه ، لم تُفارِق نعشَه إلىٰ أن وُورِيَ ، فتفرَّقَت ، وتحدَّثَ الناسُ بذلكَ وَقْتاً ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ سَمعون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ١٣١٠/ ٤ .

(٢) انظر السير : (ابن بَطَّة) ١٦/ ٥٢٩ـ ٥٣٣ ، وانظر النزهة : ١٣١٤/ ٣ .

(٣) انظر السير : (ابن أبي زيد) ١٧/ ١٠ـ ١٣ ، وانظر النزهة : ١٣١٩/ ٣ .

مَكَثَ مدّة بِبَلَنْسيَةَ مُطاعاً ، عَظيمَ القَدرِ عند السُّلطانِ والعامَّة ، وكان ذا مَنزِلَةٍ عَظيمة في الفِقْه والنُّسُك ، صاحبَ أنْباء بَديعة .

وكان يُقالُ : إنَّه مُجابُ الدّعوَة ، واختُبرَت دعوَتُه في أشْياء .

وقال أبو عَمرو الدَّاني : وهو آخرُ الفُقَهاء الحُفَّاظ ، الرّاسخينَ العالمين بالكتابِ والسُّنَّة بالأندَلُس ، رحمَه الله[1] .

وقال أبو بكر محمدُ بنِ أحمد بنِ طَلْحَة بنِ المُنَقِّي : حَضَرَتْ والدي الوفاةُ ، فأوْصَىٰ إليَّ بما أفعَلُهُ ، وقال : تَمضِي إلى القَزْويني ، وتقولُ له : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المَنام ، وقالَ لي : اقرأ على القَزْوينيِّ منِّي السَّلامَ ، وقل له : بالعَلامَة أنَّكَ كُنتَ بالمَوْقِفِ في هـٰذه السَّنة فلمَّا ماتَ ، جِئتُ إليه ، فقال لي ابتداءً : مات أبوك ؟ قلتُ : نَعَم . قال : رَحمَه اللهُ ، وصدقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وصدَقَ أبوكَ ، وأقسَمَ عليَّ أن لا أُحدِّثَ به في حَياتِه .

قال السَّلَفيُّ : سألتُ شُجاعاً الذُّهْليَّ عن أبي الحسَن القَزْويني ، فقال : كان عَلَمَ الزُّهَّاد والصالحين ، وإمامَ الأتْقياء الوَرِعين ، له كَراماتٌ ظاهرةٌ مَعْروفَة يَتداوَلُها النَّاسُ ، لم يَزَلْ يُقْرِىءُ ويُحدِّثُ إلىٰ أنْ مات[2] .

وقال هِبَةُ الله بن المُجْلي في كتابِ « مَناقِب القَزْويني » : كان كلمةَ إجماعٍ في الخَير ، ومِمَّن جُمعَت له القُلوبُ . سَمعتُ أبا العبَّاس المؤدِّبُ وغَيرَه يَقولان : إنَّ القَزْويني سَمعَ الشَّاةَ تَذكرُ اللهَ تَعالَىٰ . وحدَّثَني هِبةُ الله بنُ أحمد الكاتبُ أنَّه زارَ قَبرَ ابنَ القَزْويني ، ففتَح خَتمةً هناك وتَفاءَلَ للشَّيخ ، فطلع أولُ ذلك : ﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾[3] ، [4] .

ورُويَ عن أقْضَى القُضاة الماوَرْديِّ قال : صَلَّيتُ خلفَ أبي الحَسَن القَزْويني ،

---

(١) انظر السير : (ابن الفَخَّار) ١٧/ ٣٧٢ـ ٣٧٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٤٥ .
(٢) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٧ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٤٥ .
(٤) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٦٧ .

فرَأيتُ عليه قَميصاً نَقيّاً مُطَرَّزاً ، فقلتُ في نَفسِي : أين الطرزُ من الزُّهد ؟ فلمَّا سلَّمَ قال : سُبحانَ الله! الطرزُ لا ينقُصُ حُكمَ الزُّهد[1] .

وذكر محمدُ بنُ حُسَين القَزَّاز قال : كان ببغْدادَ زاهدٌ خَشِنُ العَيش ، وكان يَبلُغُه أنَّ ابنَ القَزْوينيِّ يأكلُ الطَّيِّبَ ، ويَلبَسُ الرَّقيقَ ، فقال : سُبحانَ الله! رجلٌ مُجْمَعٌ علىٰ زُهْدِه ، وهـٰذا حالُه! أشْتَهي أن أراهُ . فجاء إلى الحربيَّة ، فرآه ، فقال الشيخُ : سبحانَ الله! رجلٌ يُومَأُ إليه في الزُّهدِ يُعارِضُ اللهَ في أفْعالِه ، وما هُنا مُحَرَّمٌ ولا مُنْكَر . فشَهِقَ ذلك الرجلُ ، وبَكَىٰ[2] .

ثم سَرَدَ له ابنُ المُجْلي كَراماتٍ منها شُهودُه عَرفَة وهو ببَغْدادَ ، ومنها ذَهابُه إلىٰ مَكَّة ، فطافَ ، ورجَعَ من لَيلَتِه[3] .

وعن جَعْفَر الهَمداني ، أخْبَرنا السلَفيُّ : سَمعتُ جَعْفَراً السَّرَّاجَ يقول : رأيتُ علىٰ أبي الحسَن القَزْوينيِّ ثَوباً رَقيقاً ، فخطر لي : كيفَ مثْلُه في الزُّهدِ يَلْبَسُ هـٰذا ؟! فنظرَ في الحال إليَّ ، وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾[4] ،[5] .

وحضرتُ عندَه يوماً للسَّماع إلىٰ أن وصلت الشمسُ إلينا ، وتأذَّينا بحَرِّها ، فقلتُ في نَفْسي : لو تحوَّلَ الشَّيخُ إلى الظِّلِ ، فقال لي في الحالِ : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾[6] ،[7] .

وقال السَّمْعانيُّ : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ محمد بنِ الرِّضا العَلويّ يقول : سَمعتُ خالي أبا طالب بنَ طَباطبا يقولُ : كنتُ أشْتُمُ أبداً عبدَ الرحمَـٰن ابنَ مَنْدَه ، فسافرتُ إلىٰ جَرْباذَقان[8] ، فرأيتُ أميرَ المؤمنين عُمرَ في النَّومِ ويدُه في يد رجلٍ عليه جُبَّةٌ زَرْقاء ،

---

(١) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ١ .
(٢) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ٢ .
(٣) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ٣ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .
(٥) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ٤ .
(٦) سورة التوبة ، الآية : ٨١ .
(٧) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ٥ .
(٨) بلدة قريبة من هَمَذان .

وفي عَيْنَيه نكتةٌ ، فسَلمتُ عليه فلم يرُدَّ عليَّ ، وقال : تَشتُمُ هـٰذا . فقيلَ لي في المَنام : هـٰذا عُمرُ وهـٰذا عبدُ الرحمَـٰن بنُ مَندَه . فانتبَهتُ ، ثم رجعتُ إلىٰ أصْبَهان ، وقَصَدتُ عبدَ الرحمَـٰن ، فلمَّا دخَلتُ عليه ، صادَفتُه كما رأيتُه في النَّوم ، فلمَّا سَلَّمتُ عليه قالَ : وعليكَ السَّلامُ يا أبا طَالِب . وقَبلَها ما رآني ، ولا رَأيتُه ، فقالَ لي قبلَ أن أُكلِّمَه : شيءٌ حَرَّمَه الله ورسُوله يَجوزُ لنا أن نُحِلَّه ؟ فقلتُ : اجْعَلني في حِلٍّ ، وناشَدْتُه اللهَ وقَبَّلتُ عَيْنَيْه ، فقال : جعلتُكَ في حِلٍّ فيما يَرجعُ إليَّ .

وعن صاعد بنِ سيّار ، سَمعتُ الإمام أبا إسماعيلَ الأنصاريَّ يقولُ في عبدِ الرحمَـٰن بنِ مَنده : كانت مَضرَّته أكثرَ من مَنْفَعَته في الإسْلام .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أطْلقَ عِباراتٍ بَدَّعَه بَعضُهم بها ، اللهُ يُسامحُه ، وكان زَاعِراً علىٰ مَنْ خالَفَه ، فيه خارجيّةٌ ، وله مَحاسِنُ ، وهو في تَواليفِه حاطِبُ ليلٍ ، يَرْوي الغَثَّ والسَّمين ، ويَنظِمُ رَديءَ الخَرَزِ مع الدُّرِّ الثَمين .

ماتَ سَنة سَبعين وأربع مئة ، وشَيَّعَه عالَمٌ لا يُحْصَوْن[1] .

قال عُمرُ المَحْموديُّ : لمَّا ماتَ الوَخْشيُّ كنتُ قد راهَقتُ ، فلمَّا وَضَعوه في القَبرِ ، سَمعْنا صَيْحَةً ، فقيلَ : إنَّه لمَّا وُضِعَ في القَبرِ ، خَرجَت الحَشَراتُ من المَقْبَرة ، وكان في طَرفِها وادٍ فأخذَتْ إليه الحَشَراتُ ، فذَهَبتْ والنَّاسُ لا يَعْرِضونَ لها .

مات الوَخْشيُّ سَنة إحْدىٰ وسَبعينَ وأربع مئة ببَلْخ وله ستٌّ وثَمانونَ سَنة[2] .

وقال أبو سَعيد السَّمْعانيُّ : قال لي شَيخٌ : كان جَدُّكَ أبو المُظَفَّر عَزمَ على المُجاوَرَة في صُحْبة سَعدٍ الإمام ، فرأىٰ والدَتَه كأنمَّا كَشَفتْ رأسَها تَقولُ : يا بُنيَّ ، بحَقِّي عليكَ إلاَّ ما رَجعتَ إليَّ ، فإنِّي لا أُطيقُ فِراقَك ، قال : فانتَبَهتُ مَغْموماً ، وقلتُ : أُشاورُ الشَّيخَ ، فأتيتُ سَعْداً ، ولمْ أقدِرْ من الزِّحامِ أنْ أُكلِّمَه ، فلمَّا قام

---

(١) انظر السير : (ابنُ مَندَه) ١٨/ ٣٤٩ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢٠ .

(٢) انظر السير : (الوَخْشيّ) ١٨/ ٣٦٥ـ ٣٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢٢ .

تَبعْتُه ، فالتفتَ إليَّ ، وقال : يا أبا المُظَفَّر ، العَجُوزُ تَنتَظرُك ، ودخلَ بَيتَه ، فعَلمتُ أنَّه كاشَفَني ، فرَجَعتُ تلكَ السَّنَة[1] .

وقال ابنُ طاهِر : دخلتُ عليه وأنا ضَيِّقُ الصَدْرِ من شيرازيٍّ ، فقال لي من غير أن أعْلِمَه : لا تُضَيِّق صَدْرَكَ ، في بلادِنا يُقالُ : بُخْلُ أهْوازيٍّ ، وحَماقَةُ شِيرازيٍّ ، وكَثْرَةُ كلام رازيٍّ . وأتَيْتُه وقد عَزَمتُ على الخُروجِ إلى العِراقِ ، فقال : أراحِلونَ فَنَبْكي أمْ مُقيمونا ؟ . فقلتُ : ما يأمرُ الشَّيخ ؟ فقال : تَدخُلُ خُراسانَ ، وتَفوتُك مِصْرُ فيبقىٰ في قلبِكَ منها . اخْرُجْ إلىٰ مِصْرَ ، ثم منها إلى العِراق وخُراسان ، فإنَّه لا يَفُوتُك شيءٌ . فكان في رأيِه البَرَكَة .

سُئلَ إسْماعيلُ بنُ محمد التيميُّ الحافظُ ، عن سَعدٍ الزَّنْجانيِّ ، فقال : إمامٌ كبيرٌ ، عارِفٌ بالسُّنَّة .

تُوفِّيَ سنة إحْدىٰ وسبعين وأربع مئة ، وله تسعونَ عاماً[2] .

قال أبو الحَسَن ، عليُّ بنُ أحمد العابد : سَمعتُ الشَّيخَ ابنَ بَخيساه قال : كنا نَدخلُ على القاضي أبي الحَسَن الخِلَعيِّ في مَجْلسِه ، فنجدُه في الشِّتاء والصَّيفِ وعليه قَميصٌ واحدٌ ، ووَجْهُه في غايَةٍ من الحُسْن ، لا يَتغيَّرُ من البَردِ ولا من الحَرِّ ، فسألتُه عن ذلك ، فتغيَّرَ وَجْهُه ، ودَمِعَتْ عَينُه ، ثم قال : أتَكْتُمُ عليَّ ما أقولُ ؟ قلتُ : نَعم . قال : غَشِيَتْني حُمَّىٰ يوماً ، فنِمْتُ في تلكَ اللَّيلَة ، فهَتفَ بي هاتفٌ ، فناداني باسْمي ، فقلتُ : لَبَّيْك داعيَ الله ، فقال : لا ، قُلْ لَبَّيْكَ رَبِّيَ الله ، ما تَجدُ من الألَم ؟ فقُلتُ : إلَـهي وسَيِّدي ، قد أخَذَت منِّي الحُمَّىٰ ما قد عَلِمتَ ، فقال : قد أمَرْتُها أنْ تُقْلِعَ عَنْكَ ، فقلتُ : إلَـهي ، والبَردَ أيْضاً ؟ قال : قد أمَرتُ البَرْدَ أيضاً أنْ يُقْلِعَ عَنْكَ ، فلا تَجدُ البَرْدَ ولا الحَرَّ ، قال : فوَالله ما أُحِسُّ بما أنْتُم فيه من الحَرِّ ولا من البَرْدِ .

مات الخِلَعِيُّ بمِصْرَ سنة اثنَتين وتسعينَ وأربع مئة[3] .

---

(١) انظر السير : (الزَّنْجانيّ) ١٨/ ٣٨٥ـ ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٢٣ .
(٢) انظر السير : (الزَّنْجانيّ) ١٨/ ٣٨٥ـ ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢٤ .
(٣) انظر السير : (الخِلَعي) ١٩/ ٧٤ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٦١ .

قال أبو القاسِم بنُ عَساكر : سَمعتُ أبا الفَضْل محمدَ بنَ محمدِ بنِ عطَّاف يَحْكي أنَّه طَلعَ في بعضِ أولادِ الرؤساءِ ببَغْدادَ إصْبَعٌ زائدة ، فاشتدَّ ألمُه له ، فدخلَ عليه ابنُ الخاضِبَة فمَسَحَ عليها ، وقال : أمرُها يَسير ، فلمَّا كان اللَّيلُ نام وانتبَهَ ، فوجدَها قد سَقَطَتْ ، أو كما قال .

مات ابنُ الخاضِبَة سنةَ تسع وثمانين وأربع مئة ، وكانت جنازتُه مَشْهودَة ، وخُتِمَ علىٰ قَبرِه عِدَّةُ خَتمات[1] .

وجاء في ترجمة « يوسف بن أيُّوب » ، قال الذهبيُّ ، سَمعتُ صافيَ ابنَ عبد الله الصُّوفيّ يقول : حَضرتُ مَجْلِس يوسف في النظاميَّة ، فقام ابنُ السقَّاء ، فآذَى الشيخَ ، وسألَه عن مَسألةٍ ، فقال : اجلس ، إنِّي أجدُ من كَلامك رائحَةَ الكُفْر ولَعَلَّكَ تَموتُ علىٰ غير الإسْلام ، فاتَّفَقَ أنَّ ابنَ السَّقّاء ذهبَ في صُحْبَة رسولِ طاغية الرُّومِ ، وتَنَصَّر بقُسْطَنْطينيَّة[2] .

وأمّا ابنُ السَّقّاء المذكورُ ، فقال ابنُ النجَّار : سَمعتُ عبدَ الوَهَّاب ابنَ أحمد المُقرىء يقولُ : كان ابنُ السَّقّاء مُقرئاً مُجَوِّداً ، حَدَّثَني مَنْ رآه بالقُسْطَنْطينيّة مَريضاً علىٰ دَكَّةٍ ، فسألتُه : هل القُرآنُ باقٍ علىٰ حِفْظك ؟ قال : ما أذكُرُ منه إلاَّ آيةً واحدةً : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾[3] . والباقي نَسيتُه[4] .

وقال محمدُ بنُ ناصِر الحافظُ : حدَّثنا أبو جَعْفَر محمدُ بنُ الحَسَن ابنُ أخي إسْماعيلَ الحافظ ، حدَّثني أحمدُ الأسْواريُّ الذي تَوَلَّىٰ غَسْلَ عَمِّي ، وكان ثقةً ، أنَّه أراد أنْ يُنَحِّيَ عن سَوْأتِه الخِرْقَة لأجْلِ الغُسْل ، قال : فجَذَبَها إسْماعيلُ بيَدِه ، وغَطَّىٰ فَرجَه ، فقال الغاسِلُ : أحَياةٌ بعدَ مَوْتٍ ؟!![5] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الخاضِبَة) ١٩/ ١٠٩ـ ١١٤ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٦٧ .
(٢) انظر السير : (يوسُف بن أيُّوب) ٢٠/ ٦٦ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٣١ .
(٣) سورة الحِجْر ، الآية : ٢ .
(٤) انظر السير : (يوسُف بن أيُّوب) ٢٠/ ٦٦ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٥٣١ .
(٥) انظر السير : (التَّيْميّ) ٢٠/ ٨٠ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٥٣٢ .

وقال ابنُ الجَوْزيّ : حدَّثني الفَقيهُ عبدُ الرحمـٰن بنُ عيسَىٰ ، سَمعتُ الزَّبيديَّ قال : خرجتُ إلى المَدينَة على الوحدة ، فآواني اللَّيلُ إلىٰ جَبلٍ ، فصَعَدتُ ، ونادَيتُ اللَّهُمَّ إنِّي اللَّيلَةَ ضَيْفُك . ثم نُوديتُ : مَرْحَباً بضَيْفِ الله إنَّكَ مع طُلوعِ الشَّمسِ تمرُّ بقومٍ علىٰ بئرٍ يأكُلونَ خُبْزاً وتَمْراً ، فإذا دَعَوْكَ فأجبْ ، فسِرْتُ من الغَد ، فلاحَت ليَ أهْدافُ بئرٍ فجئتُها ، فوجدتُ عندَها قَوماً يأكُلونَ خُبْزاً وتَمراً ، فدَعَوْني ، فأجَبتُ[1] .

وجاء في ترجمة أبي الحُسَين الزَّاهد ، قال الذهبيُّ : ألَّفَ الحافظُ الضِّياءُ سيرَتَهُ في جزءٍ ، أنبأني به الشيخُ أبو عبد الله بنُ الكَمال وغيرُه بسَماعِهم منه ، فقالَ : حدَّثني الإمامُ عبدُ الله بنُ أبي الحَسَن الجُبّائي قال : مَضيتُ إلىٰ زيارة أبي الحُسَين الزَّاهد بحلَبَ ، ولم تكُنْ نيَّتي صادِقةً ، فقال : إذا جِئتَ إلى المَشايخ فلتَكُنْ نيَّتُكَ صادِقةً في الزِّيارَة[2] .

قال أبو سَعْد السَّمعانيّ : سَمعتُ سنانَ بنَ مُشيّع الرَّقِّي يقول : رأيتُ أبا الحُسَين المَقْدسيَّ برأس عَينٍ في مَوْضعٍ عُرْياناً قد اتَّزَرَ بقَميصِه ، ومَعَه حمارٌ ، والناسُ قد تكابُّوا عليه ، فقالَ : تَعال . فتقدَّمتُ ، فأخَذَ بيَدي ، وقال : نَتواخَى ؟ قلتُ : ما لي طاقة . قال : أيش لك في هـٰذا وآخاني ، وقال لواحدٍ من الجَماعَة : حِماري يَحْتاجُ إلىٰ رَسَن ، فقالوا : ثمنُه أربعةُ فُلوس ، فأشارَ إلىٰ مَوْضعٍ في الحائط ، فإنِّي جزتُ ها هنا وخبَّأتُ ثمّ أربعَ فلوس ، اشْتروا لي بها حَبْلاً ، ثم قال : أريدُ أن تَشْتري لي بدينارٍ سَمَكاً ، قلتُ : كرامة ، ومن أينَ لك ذهب ؟ قال : بلىٰ مَعي ذهبٌ كثيرٌ . قلتُ : الذهبُ يكونُ أحْمَر . قال أبصِرْ تحتَ الحَشيش ، فأخذتُ الحشيشَ ، فخرجَ دينارٌ ، فاشتريتُ له به سَمَكاً فنظَّفْتُه ، وشَواهُ ، ثم قلاه ، ثم أخرجَ منه الجلدَ والعِظامَ ، وجعلهُ أقْراصاً وجفَّفَه ، وتركَه في جِرابِه ، ومَضىٰ وله سنون ما أكلَ الخُبزَ ، وكان يسْكُنُ جبالَ الشَّام ويأكلُ البَلُّوطَ والخرنوبَ[3] .

---

(١) انظر السير : (الزَّبيْديُّ) ٢٠/ ٣١٦ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٥٥ .

(٢) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٦٦ .

(٣) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٦٦ .

وكان عَظيمَ الشأن ، يَقعُدُ خَمسَةَ عشرَ يوماً لا يأكلُ سوىٰ أكلةٍ ويتَقوَّتُ من الخَرُّوب البَرِّي ، ويُجَفِّفُ السَّمَكَ ، وحدَّثني يوسُفُ ابنُ الشيخ أبي الحُسَين أنَّ الشيخَ استفّ من صُرَّةٍ ، فرآه رجلٌ ، فأرادَ أن يسْتفَّ منه ، فإذا هو مُرٌّ ، فلمَّا جاء الشيخُ ، قال يا سَيّدي : ما في الصُرَّة ؟ فناوَلَه منها كَفّاً ، فإذا هو سُكّر وقَلبُ لَوْزٍ[1] .

وعن مَسْعود اليَمَني ، قالت الفِرَنْجُ : لو أنَّ فيكُم آخرَ مثلَ أبي الحُسَين لاتَّبعْناكُم علىٰ دينِكُم ، مَرُّوا يَوماً ، فرأوه راكِباً علىٰ سَبُعٍ وفي يده حيَّةٌ ، فلما رآهم ، نَزَل ومَضىٰ[2] .

وقال السَّمعانيُّ : سَمعتُ عبدَ الوَاحد بالكَرج يقول : سَمعتُ الكُفَّارَ يقولون : الأسُودُ والنُّمورُ كأنَّها نَعَمُ أبي الحُسَين[3] .

وقال الضِّياءُ : سَمعْنا له غَيرَ ذلك من مَشي الأسَد معهُ ، عمل حلاوةً من قُشور البطيخ ، فغرف حلاوةً من أحسن الحلاوة[4] .

وحدَّثني عنه المُحْسِنُ بنُ محمدِ بن الشَّيخ ، حدَّثنا أبي قال : كان والدي يَعملُ لنا الحلاوَةَ من قُشورِ البطيخ ، ويَسُوطها بيده ، فعملْنا بعده فلم تنعَمل ، فقالت أمِّي : بقيت تُعْوزُ المِغرفة[5] .

وحُكيَ أن أبا الحُسَين أرادَ لصٌّ أن يأخُذَ حِمارَه ، فيَبَسَتْ يدُه ، فلمّا أبعدَ عنه عادَت[6] .

وعن محمدِ بنِ مَحمودِ المَراتبيِّ ، سَمعتُ الشيخَ أبا بَكر العمادَ رحمَه اللهُ يقولُ : كنتُ قَرأتُ في أصُولِ الدِّين ، فأوقَعَ عندي شَكّاً ، فقُلتُ : حتىٰ أمضيَ إلىٰ مَجلسِ

---

(١) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٦٦ .
(٢) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٦٧ .
(٣) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٦٧ .
(٤) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٦٧ .
(٥) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٦٧ .
(٦) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٦٧ .

الشَّيخ عبدِ القادِر ، فقد ذُكرَ أنَّه يتكلَّمُ عن الخَواطِر ، فمَضيتُ وهو يتكلَّمُ ، فقال : اعتقادُنا اعتقادُ السَّلَف الصَّالِح والصَّحابَة . فقلتُ في نَفسِي : هـٰذا قالَه اتِّفاقاً ، فتكلَّمَ ثم التَفتَ إلىٰ ناحيَتي فأعادَه ، فقلتُ : الواعظُ قد يَلْتَفِتُ ، فالتَفتَ إليَّ ثالثةً ، وقال : يا أبا بَكْر ، فأعادَ القولَ ، ثم قال : قُمْ قد جاءَ أبوكَ ، وقد كان غائباً ، فقُمتُ مُبادِراً وإذا أبي قد جاءَ[1] .

وعن جمال الدين يَحْيَىٰ بنِ الصَّيرَفيّ ، سَمعتُ أبا البقاءِ النَّحْويَّ قال : حَضرتُ مجلسَ الشيخِ عبدِ القادِر ، فقَرؤُوا بينَ يَديْه بالألْحان ، فقُلتُ في نَفسِي : تُرَىٰ لأيِّ شيءٍ ما يُنْكِرُ الشيخُ هـٰذا ؟ فقال : يَجيءُ واحدٌ قد قرأ أبواباً من الفِقْه يُنكِر . فقلتُ في نَفسِي : لعلَّ أنَّه قصَدَ غَيْري ، فقال : إيَّاكَ نَعْني بالقَولِ ، فثَبتُ في نَفسِي من اعْتِراضي ، فقال : قد قبلَ اللهُ تَوْبَتَك[2] .

وسَمعتُ الإمامَ أبا العبّاس أحمدَ بنَ عبدِ الحَليم ، سَمعتُ الشيخَ عزَّ الدين الفاروثي ، سمعتُ شَيخَنا شِهابَ الدِّينِ السُّهْرَوَرْديَّ يقولُ : عَزمتُ على الاشْتغالِ بأُصول الدين ، فقُلتُ في نفسي : أستشيرُ الشيخَ عبدَ القادِر ، فأتَيتُه ، فقال قبلَ أنْ أنْطِقَ : يا عُمَرُ ، ما هو من عُدَّة القَبرِ ، يا عُمَرُ ما هو من عُدَّة القبرِ[3] .

وقال ابنُ النجَّار : كتبَ إليَّ عبدُ الله بنُ أبي الحُسَين الجُبَّائيُّ قال : قال لي الشيخُ عبدُ القادِر : كنتُ في الصحْراء أُكرِّرُ في الفِقْه وأنا في فاقةٍ ، فقال لي قائلٌ لمْ أرَ شَخْصَه : اقْترِضْ ما تَسْتعينُ به علىٰ طلب الفِقْه ، فقلتُ : كيف أقْتَرِضُ وأنا فَقيرٌ ولا وَفاء لي ؟ قال : اقْترِضْ وعلينا الوَفاء . فأتيتُ بقَّالاً ، فقلتُ : تُعاملُني بشَرطِ إذا سَهَّلَ اللهُ أعْطَيْتُك ، وإنْ مِتُّ تَجعَلُني في حِلٍّ ، تُعْطيني كلَّ يوم رَغيفاً ورشاداً ، فبَكىٰ وقال : أنا بحُكْمكَ ، فأخذتُ منه مدَّةً ، فضاقَ صَدْري ، فأظُنُّ أنَّه قال : فقيلَ لي :

---

(١) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٣ .
(٢) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٤ .
(٣) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٤ .

امضِ إلىٰ مَوْضعِ كذا ، فأيَّ شيءٍ رأيتَ على الدَّكَّة فخُذْهُ وادْفَعْه إلى البقَّال ، فلمَّا جِئتُ رأيتُ قِطعَةَ ذَهبٍ كبيرة فأعطَيتُها البَقْليَّ[1] .

قال الجُبَّائيُّ : وقال لي الشيخُ عبدُ القادر : كنتُ أُومَرُ وأُنْهىٰ في النَّوم واليَقظَة ، وكان يَغلبُ عليَّ الكلامُ ، ويَزدَحمُ علىٰ قَلبي إنْ لمْ أتكلَّم به حتىٰ أكادُ أختَنِقُ ، ولا أقْدِرُ أسكُتُ ، وكان يجلِسُ عندي رَجُلان وثلاثةٌ ، ثم تَسامَعَ الناسُ بي ، وازدحَمَ عليَّ الخَلقُ ، حتىٰ صارَ يحضُرُ مَجْلسي نَحوٌ من سبعينَ ألفاً ، وقال : فَتَّشتُ الأعْمالَ كلَّها ، فما وَجدتُ فيها أفضلَ من إطْعامِ الطَّعام ، أوَدُّ لو أنَ الدُّنيا بيدي فأُطْعِمُها الجِياعَ ، كَفِّي مَثقوبَة لا تَضبطُ شَيئاً ، لو جاءَني ألفُ دِينار لم أُبيِّتْها[2] .

وقال الجُبّائيُّ : كنتُ أسْمعُ في « الحِلْيَة » على ابنِ ناصر ، فرقَّ قَلبي ، وقلتُ : اشْتَهَيتُ لو انقَطَعتُ ، وأشْتغِلُ بالعِبادَة ، ومَضيتُ فصلَّيتُ خلفَ الشَّيخ عبدِ القادر ، فلمَّا جَلسْنا ، نظرَ إليَّ وقال : إذا أردْتَ الانقِطاعَ ، فلا تَنقَطِع حتىٰ تَتفقَّهَ وتُجالِسَ الشُّيوخَ وتَتأدَّبَ ، وإلاَّ فتنقَطعُ وأنتَ فُرَيْخٌ ما رَيَّشْتَ[3] .

وعن أبي الثَّناء النهرملكيِّ ، قال : تَحدَّثنا أنَّ الذُّبابَ ما يقعُ على الشيخ عبدِ القادر ، فأتَيْتُه ، فالتَفتَ إليَّ ، وقال : إيش يعمل عندي الذُّبابُ ، لا دِبْسُ الدُّنيا ، ولا عَسَلُ الآخِرة[4] .

وقال أحمدُ بنُ ظَفَر بنُ هُبيرة : سألتُ جَدِّي أنْ أزورَ الشيخَ عبدَ القادر ، فأعطاني مَبْلَغاً من الذَّهَبِ لأُعْطيَه ، فلمَّا نزلَ عن المِنْبَر سَلَّمتُ عليه وتحَرَّجْتُ من دَفْع الذَّهبِ إليه في ذَلِكَ الجَمع ، فقال : هاتِ ما مَعَكَ ولا عَليكَ من النَّاسِ ، وسَلِّمْ على الوَزيرِ .

---

(١) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٥ .
(٢) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٥ .
(٣) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٦ .
(٤) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٦ .

قال صاحبُ « مرْآةِ الزَّمان » : كان سُكوتُ الشيخِ عبد القادر أكثرَ من كَلامِه ، وكان يتكلَّمُ على الخَواطِر ، وظهرَ له صِيتٌ عَظيمٌ وقَبولٌ تامٌّ ، وما كان يَخْرجُ من مَدْرَسَتِه إلاَّ يومَ الجُمعَة أو إلى الرِّباطِ ، وتابَ علىٰ يده مُعظَمُ أهْلِ بَغْدادَ ، وأسْلَمَ خَلقٌ ، وكان يَصْدَعُ بالحَقِّ على المِنْبَر ، وكان له كَراماتٌ ظاهرةٌ .

قال الذهبيُّ : ليسَ في كِبار المَشايخ مَن له أحْوالٌ وكَراماتٌ أكثرُ من الشيخِ عبدِ القادر ، لكنَّ كَثيراً منها لا يَصِحُّ ، وفي بَعضِ ذلك أشْياء مُسْتَحيلةٌ[1] .

وقال ابنُ فَرْتون : ظَهرت لأبي محمد بنِ عُبَيدِ الله كَراماتٌ ، حدَّثنا شَيخُنا الراويةُ محمدُ بنُ الحَسَن بنِ غازٍ ، عن بنتِ عمِّه ـ وكانت صالحةً ، وكانت اسْتُحيضَتْ مُدّة ـ قالت : حُدِّثتُ بمَوتِ ابنِ عُبيدِ الله ، فشقَّ عليَّ ألاَّ أشْهَدَه ، فقلتُ : اللَّهُمَّ إنْ كان وَليّاً من أَوْليائك ، فأَمْسِكْ عنِّي الدَّمَ حتىٰ أُصلِّيَ عليه ، فانقَطَعَ عنِّي لوَقْتِه ، ثم لم أرَهُ بعدُ .

ماتَ ابنُ عُبيدِ الله في المُحرّم سنةَ إحْدىٰ وتسعينَ وخمس مئة ، وكانت جنازَتُه مَشْهودَةً بسَبْتَة[2] .

وجاء في ترجمة الحافظِ عبدِ الغَنيّ ، قال الحافظُ الضِّياءُ : سَمعتُ الحافظَ أبا موسىٰ بنَ عبد الغَني يقول : كنتُ عند والدي بمِصْرَ ، وهو يذكُرُ فَضائلَ سُفْيانَ الثَّوْريِّ ، فقلتُ في نفسي : إنَّ والدي مثلُه ، فالتَفتَ إليَّ ، وقال : أينَ نَحْنُ من أولـٰئك ؟

سَمعتُ أبا موسى ابنَ الحافظِ ، حدَّثَني أبو محمد أخو الياسمينيّ ، قال : كنتُ يوماً عند والدِك ، فقلتُ في نفسي : أشْتَهي لو أنَّ الحافظَ يُعْطيني ثَوْبَه حتىٰ أُكَفَّنَ فيه . فلمَّا أردْتُ القيامَ خلعَ ثَوْبَه الذي يَلي جَسَدَه وأعْطانيه ، وبقيَ الثوبُ عندَنا ، كلُّ مَنْ مَرِضَ تَركوهُ عليه فيُعافَىٰ .

---

(١) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٦ .

(٢) انظر السير : (الحَجْريّ) ٢١/ ٢٥١ـ ٢٥٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦١٦ .

وحدَّثني فضائلُ بنُ محمد بنِ عليّ بنِ سرور بجمّاعيل ، حدَّثني ابنُ عمِّي بَدْرانُ بنُ أبي بَكْر ، قال : كنتُ مع الحافظِ ، يَعْني في الدار التي وقَفَها عليه يُوسُفُ المسجّف ، وكان الماءُ مَقْطوعاً ، فقامَ في اللَّيلِ ، وقال : املأ لي الإبريقَ ، فقَضَى الحاجَة ، وجاءَ فوَقفَ ، وقال : ما كُنتُ أشْتَهي الوُضوءَ إلاَّ من البِرْكَة ، ثم صَبرَ قَليلاً ، فإذا الماءُ قد جَرىٰ ، فانتَظرَ حتىٰ فاضَتْ البِرْكَةُ ، ثم انقَطَعَ الماءُ ، فتَوضَّأَ ، فقلتُ : هـٰذه كَرامَةٌ لكَ ، فقالَ لي : قُلْ أستغْفِرُ اللهَ ، لعلَّ الماءَ كان مُحْتَبَساً ، لا تَقُلْ هـٰذا .

وسَمعتُ الرَّضيَّ عبدَ الرحمـٰن يقولُ : كان رَجلٌ قد أعْطى الحافظَ جاموساً في البَحْرَة ، فقال لي : جيءْ به وبِعْهُ ، فمَضيتُ فأخَذتُه فنفر كثيراً وبَقيَ جماعةٌ يَضْحَكونَ منه ، فقلتُ : اللَّهُمَّ ببَرَكَة الحافِظ سَهِّل أمرَه ، فسُقْتُه مع جاموسَين ، فسَهُلَ أمرُه ، ومَشىٰ فبِعْتُه بقرية[1] .

وقالَ الضِّياءُ سَمعتُ الحَافِظَ اليُونينيّ يقولُ : لمَّا كُنتُ أسْمَعُ شَناعَةَ الخَلقِ على الحَنابِلَة بالتَّشْبيهِ عَزَمْتُ علىٰ سُؤالِ الشَّيخ المُوَفَّق ـ ابنَ قُدامَة ـ وبَقيتُ أشْهُراً أريدُ أنْ أسْألَه ، فصَعَدتُ مَعَه الجَبَلَ ، فلمَّا كُنَّا عندَ دَارِ ابنِ مُحارب قُلتُ : يا سَيِّدي ، وما نَطَقْتُ بأكْثَرَ مِنْ سَيِّدي ، فقالَ لي : التَّشْبيهُ مُسْتَحيلٌ فقُلتُ : لِمَ ؟ قالَ : لأنَّ مِنْ شَرْطِ التَّشْبيهِ أنْ نَرَى الشَيءَ ، ثمّ نُشَبِّهُه ، مَنِ الذي رَأى اللهَ ثمّ شَبَّهَه لنَا ؟!! ، وذَكَرَ الضِّياءُ حِكاياتٍ في كَرَامَاته[2] .

وجاء في ترجمة أبي محمد الروابطيِّ ، قال الذهبيُّ : أخذَ عنه ابنُ مَسْديّ ، وقال : مات سنة سبع وعشرين وستِّ مئة ، كان يَسيحُ بثُغور الأندلس ، يأوي في مَساجد البرِّ ، له كَراماتٌ ، أُسِرَ إلىٰ طَرْطُوشَة وقَيَّدوه ، فقام النَّصْرانيُّ ليلةً فرآه يُصلِّي ، وقَيْدُه إلىٰ جَنْبه ، فتَعجَّبَ ، فلمَّا أصبحَ رآه في رجلِه ، فرقبَه ثانيَ ليلةٍ فكذلك فذَهبَ فأخبرَ القُسَسَ ، فقالوا : أحْضِرهُ ، فجاءَ به ، وجَرَتْ بينه وبينهم مُحاوَرَة ، ثم

---

(١) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٦٥١/ من فراسة الحافظ وكَراماته . .

(٢) انظر السير : (ابن قُدامَة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١٦٨٢/ ٣ .

قالوا : لا يَحِلُّ أنْ نَأسِرَكَ ، فاذْهَبْ ، ولِطَرْطُوشَة نهرٌ تُعمَلُ فيه السُّفُن ، فلَقيَه أسيرٌ فقال : بالله خُذْني ، فأخذَه بيده وخاضَ إلىٰ نصْفِ السَّاق ، فتعجَّبَ النَّصارَىٰ ، وشاعَت القِصَّةُ[1] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو محمد الروابطيّ) ٢٢/٣٢٩ـ ٣٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩٥ .

التَّصَوُّفْ والصوفيَّة

١ـ ما كان عليه الصَّحابة والتَّابعون هو أكملُ المَراتب :

جاء في ترجمة ابنِ الأعْرابيِّ ، قال الذهبيُّ : فإنَّما التَّصوُّفُ والتَألُّه والسُّلوكُ والسِّيَرُ والمَحبَّةُ ما جاءَ عن أصْحابِ محمَّدٍ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، من الرِّضا عن الله ، ولُزومِ تَقْوَى الله والجِهادِ في سبيلِ الله ، والتأدُّبِ بآدابِ الشَّريعَة من التِّلاوَة بترتيلٍ وتَدَبُّرٍ ، والقيامِ بخَشْيَةٍ وخُشوعٍ ، وصَوْمِ وَقتٍ وإفْطارِ وَقت ، وبَذْلِ المَعْروفِ ، وكَثْرَةِ الإيثار ، وتَعْليمِ العَوامِّ ، والتَّوَاضُع للمؤمنين ، والتعزُّزِ على الكافرين ، ومع هـٰذا فاللهُ يَهْدي مَن يَشاءُ إلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيم[1] .

وجاء في ترجمة شيخ الإسلام الهَرَويّ ، قال الذهبيُّ : قد انتفَعَ به خَلقٌ ، وجَهِلَ آخرون ، فإنَّ طائفةً من صَوَفَةِ الفَلْسَفَة والاتِّحاد يخضَعون لكلامه في « مَنازل السَّائرين » ويَنْتَحِلونَه ويَزْعُمونَ أنَّه مُوافقُهم ، كلاَّ ، بل هو رجلٌ أثَريٌّ ، لَهِجَ بإثْبات نُصوصِ الصِّفاتِ ، مُنافِرٌ للكَلامِ وأهْلِه جداً ، وفي « مَنازِله » إشاراتٌ إلى المَحْوِ والفَناء ، وإنَّما مُرادُه بذلك الفَناء هو الغَيبَةُ عن شُهودِ السِّوَىٰ ، ولم يَرِدْ مَحْوُ السِّوَىٰ في الخارِجِ ، ويا لَيْتَه لا صَنَّفَ ذلك ، فما أحْلىٰ تَصَوُّفَ الصَّحابَة والتَّابعين ، ما خاضوا في هـٰذه الخَطَرات والوَساوس ، بلْ عَبدوا اللهَ وذَلُّوا له وتَوَكَّلوا عليه ، وهم من خَشْيَته مُشْفِقون ، ولأعْدائِه مُجاهِدون ، وفي الطَّاعَة مُسَارعون ، وعن اللَّغْو مُعْرضون ، والله يَهْدي مَنْ يَشاءُ إلىٰ صراطٍ مُسْتَقيم .

قال أبو الوَقْتِ السَّجْزيُّ : دخلتُ نيسابورَ ، وحَضرتُ عند الأستاذ أبي المَعالي الجُوينيِّ ، فقال : مَنْ أنتَ ؟ قلتُ : خادمُ الشَّيخِ أبي إسْماعيلَ الأنْصاريِّ ، فقال : رضيَ الله عنه .

---

(١) انظر السير : (ابن الأعْرابيّ) ١٥/٤٠٧ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٤٣ .

قال الذهبيُّ : اسْمَع إلىٰ عَقلِ هـٰذا الإمام ودَعْ سَبَّ الطَّغَام ، إنْ هم إلاَّ كالأنْعام .

وقال عبدُ الغَافِر بنُ إسْماعيل : كان أبو إسْماعيلَ الأنْصاريُّ علىٰ حَظٍّ تامٍّ من مَعْرفَة العَربيّة والحَديث والتَّوَاريخ والأنْسَاب ، إماماً كاملاً في التفسير ، حَسَنَ السَّيرَة في التَّصَوُّف ، غيرَ مُشتَغلٍ بكَسْبٍ ، وعنه أخذَ أهلُ التبكير بالفجر ، وتَسْميةَ الأولاد غالباً بعَبدٍ المُضافِ إلىٰ أسْماء الله تَعالَىٰ[1] .

٢ـ ضابطٌ لنَوْعَيّ التصوُّف الحَسَن والفاسِد :

قال الحافظُ أبو سَعيد النقَّاش في كتاب « طَبَقات الصُّوفيَّة » : محمدُ بنُ مَنْصور الطُّوسيُّ أسْتاذُ أبي سَعيد الخَرَّاز ، وأبي العبَّاس ابنِ مَسْروق كتب الحَديثَ الكَثير ، ورَواهُ .

قال الذهبيُّ : مَتىٰ رأيتَ الصُّوفيَّ مُكبّاً على الحَديثِ فثِقْ به ، ومَتىٰ رأيتَه نائياً عن الحَديثِ ، فلا تَفْرَحْ به ، لا سيّما إذا انْضافَ إلىٰ جَهْله بالحديثِ عُكوفٌ علىٰ تُرَّهاتِ الصُّوفيّة ، ورُموزِ الباطنيّة ، نسألُ اللهَ السَّلامَة ، كما قال ابنُ المُبارَك :

وهـل أفسـد الـديـن إلا الملـوك ... وأحبـار سـوء ورهبـانهـا[2]

وقال أبو علي الثَّقَفيّ : كان أبو حَفْص يقولُ : مَنْ لَمْ يَزِنْ أحْوالَه كلَّ وَقْتٍ بالكتابِ والسنَّة ، ولَمْ يَتَّهِم خَواطرَه ، فلا تَعُدَّه[3] .

٣ـ من أُصُول التصَوُّف الصحيح :

قال أبو بَكْر الجَوْرَبي : سمعتُ سَهْلَ بنَ عبد الله يقول : أُصولُنا ستَّةٌ : التَّمَسكُ بالقُرآن ، والاقْتداءُ بالسنَّة ، وأكْلُ الحَلالِ ، وكَفُّ الأذَىٰ ، واجْتِنابُ الآثامِ ، والتَّوْبَةُ ، وأداءُ الحُقوق[4] .

---

(١) انظر السير : (شيخُ الإسْلام أبو إسْماعيل الأنْصاريّ الهَرَويّ) ١٨/٥٠٣ـ ٥١٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٣٧ .

(٢) انظر السير : (محمد بن منصور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٩٩٤ .

(٣) انظر السير : (أبو حَفص النيسابوري) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٩/١٠٢٥ .

(٤) انظر السير : (سَهل بن عبد الله) ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٩٣ .

وعن عليِّ بن هارون وآخر قالا : سمعنا الجُنَيدَ غير مرَّة يقول : عِلْمُنا مَضبوطٌ بالكتاب والسنَّة ، مَنْ لَمْ يَحفَظِ الكتابَ ، ويَكْتبِ الحَديثَ ، ولَمْ يَتفقَّه ، لا يُقْتَدىٰ به .

قال الخَلْديُّ : لَمْ نَرَ في شُيوخِنا مَنِ اجتمَعَ له علمٌ وحالٌ غيرَ الجُنَيد كانت له حالٌ خَطيرةٌ ، وعلمٌ غَزيرٌ ، إذا رأيتَ حالَه رَجَّحْتَه علىٰ عِلْمه ، وإذا تَكلَّمَ رَجَّحْتَ عِلْمَه علىٰ حالِه[1] .

وعن النُّوريِّ قال : مَنْ رأيتَه يَدَّعي مع الله حالةً تُخْرجُ عن الشَّرْع ، فلا تَقرَبَنَّ منه[2] .

وقال يوسُفُ بنُ الحُسَين : إذا رَأيتَ المُريدَ يشْتَغلُ بالرُّخَص فاعْلمْ أنَّه لا يَجيءُ منه شيءٌ .

قال السلميُّ : كان ـ مع عِلْمِه وتَمام حالِه ـ هَجَرَهُ أهلُ الرَّي وتكلَّموا فيه بالقَبائح ، خُصوصاً الزُّهاد ، وأفشَوا أُموراً ، حتىٰ بَلغَني أنَّ شَيخاً رأىٰ في النَّومِ كأنَّ براءةً نَزلَت من السَّماء فيها مَكتوبٌ : هـٰذه بَراءَةٌ ليُوسُفَ بنِ الحُسَين ممّا قيل فيه . فسَكَتوا[3] .

وعن ابن الجَلاَّء قال : آلةُ الفَقيرِ صِيانَةُ فَقْرِه ، وحِفْظ سِرِّه ، وأداءُ فَرْضِه .

تُوفِّيَ سَنة ستٍّ وثلاث مئة[4] .

ومن كَلام الكَتَّانيِّ ، قال : مَنْ يدخل في هـٰذه المَفازَة يَحْتاجُ إلىٰ أربَعٍ : حالٍ تَحْميه ، وعلمٍ يَسُوسُه ، ووَرَعٍ يَحْجُزُه ، وذِكرٍ يؤنسُه[5] .

وقال : التصوُّفُ خُلُقٌ ، فمَنْ زادَ عليك في الخُلُق ، زادَ عليك في التَّصَوُّف[6] .

---

(١) انظر السير : (الجُنَيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ١/١١٣٣ .
(٢) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٤/١١٣٤ .
(٣) انظر السير : (يوسُف بن الحُسين) ١٤/ ٢٤٨ـ ٢٥١ ، وانظر النزهة : ٧/١١٤٧ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الجَلاَّء) ١٤/ ٢٥١ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٥/١١٤٨ .
(٥) انظر السير : (الكتّاني) ١٤/ ٥٣٣ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ١/١١٧٢ .
(٦) انظر السير : (الكتّاني) ١٤/ ٥٣٣ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١١٧٢ .

وعنه قال : من حُكْم المُريد أن يكونَ نَومُه غَلَبَة ، وأكْلُهُ فاقَة ، وكَلامُه ضَرورة .

قال الذهبيُّ : نَعم للصَّادقِ أن يُقِلَّ من الكَلام والأكْلِ والنَّوم والمُخالَطة ، وأن يُكْثِرَ من الأوْرادِ ، والتَّواضُع ، وذِكْرِ المَوت ، وقَولِ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[1] .

وعن النَّهْرَجُوريِّ : أفضلُ الأحْوالِ ما قارَن العلمَ[2] .

وعن إبراهيمَ ، قال القِرْميسينيُّ : مَنْ أرادَ أنْ يتعطَّلَ ويتبَطَّل ، فَليلْزَم الرُّخَص[3] .

وقال : علمُ الفَناء والبَقاء يدورُ علىٰ إخْلاصِ الوَحْدانيَّة ، وصحَّة العُبوديَّة ، وما كان غيرَ هـٰذا فهو من المُغالَطَة والزَّنْدَقَة[4] .

قال الذهبيُّ : صَدقتَ والله فإنَّ الفَناءَ والبقاءَ من تُرَّهات الصُّوفيَّة أطلَقَهُ بَعضُهم فدخلَ من بابِه كلُّ إلْحاديٍّ وكلُّ زِنْديق ، وقالوا : ما سِوَى اللهَ باطِلٌ فانٍ ، واللهُ تَعالَىٰ هو الباقي ، وهو هـٰذه الكائنات ، وما ثَمَّ شيءٌ غَيرُه .

ويقولُ شاعُرُهم :

وما أنت غير الكو ن بل أنت عينه

ويقولُ الآخَرُ :

وما ثَمَّ إلاَّ الله ليسَ سِواهُ

فانظُرْ إلىٰ هـٰذا المُروقِ والضَّلال ، بل كلُّ ما سِوَى الله مُحْدَثٌ مَوْجودٌ .

قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[5] .

وإنَّما أرادَ قُدَماءُ الصُّوفيَّة بالفَناءِ نِسْيانَ المَخْلوقات وتَركَها وفَناءَ النَّفْس عن التَّشاغُل بما سِوَى الله ، ولا يُسَلَّمُ إليهم هـٰذا أيضاً ، بلْ أمَرَنا اللهُ ورسُولُه بالتَّشاغُل بالمَخْلوقات

---

(١) انظر السير : (الكتّاني) ١٤/ ٥٣٣ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٧٢ .

(٢) انظر السير : (النَّهْرَجوريّ) ١٥/ ٢٣٢ـ ٢٣٣ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٢٤ .

(٣) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٣٩ .

(٤) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٣٩ .

(٥) سورة السجدة ، الآية : ٤ .

ورُؤيَتِها والإقْبالِ عليها وتَعْظيمِ خالِقِها ، قال تَعالَىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[1] .

وقال : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إليَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ » .

وكان يُحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أباها ، ويحبُّ أُسامَةَ ، ويحبُّ سِبْطَيْه ، ويحبُّ الحَلْواءَ والعسَلَ ، ويحبُّ جَبَلَ أُحُدٍ ، ويحبُّ وَطَنَه ، ويحبُّ الأنْصارَ ، إلىٰ أشْياءَ لا تُحْصَىٰ ممَّا لا يغني المؤمن عنها قطُّ[3] .

وقال الذهبيُّ في ترجمة ابنِ الأعْرابيِّ : والعالِمُ إذا عَرِيَ من التَّصَوُّف والتألُّه ، فهو فارغٌ ، كما أنَّ الصُّوفيَّ إذا عَرِيَ من عِلْمِ السنَّة ، زلَّ عن سَواء السبيل[4] .

وقد كان ابنُ الأعْرابيِّ من عُلماء الصُّوفيَّة ، فتَراهُ لا يَقبلُ شيئاً من اصطلاحات القَومِ إلاَّ بحُجَّة .

تُوفِّيَ بمكَّة ، سَنةَ أربَعين وثلاث مئة ، وله أربعٌ وتسعون سنةً وأشهُر[5] .

وجاء في ترجمة ابنِ نُجَيد ، قال أبو عبد الرحمٰن السُّلمي : جدِّي له طريقةٌ يَنفَردُ بها من صَون الحال وتَلبيسِه ، سمعتُه يقول : كلُّ حالٍ لا يكون عن نتيجةِ علمٍ وإنْ جلَّ ، فإن ضَررَهُ علىٰ صاحبِه أكبرُ من نَفْعِه[6] .

وجاء في ترجمة النَّصْراباذيِّ ، قال الحاكمُ : سمعتُه يقولُ : إنْ كان بعد الصِّديقين موحِّدٌ فهو الحَلاَّجُ .

قال الذهبيُّ : وهٰذه وَرْطَةٌ أخْرىٰ ، بل قُتلَ الحَلاَّجُ بسيفِ الشَّرع على الزَّندَقَة ،

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٢) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .
(٣) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٣٩ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الأعْرابيّ) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٤٣ .
(٥) انظر السير : (ابنُ الأعْرابيّ) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٤٣ .
(٦) انظر السير : (ابنُ نُجَيد) ١٦/ ١٤٦ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٧٥ .

وقد جَمعْتُ بَلاياهُ في جُزْأين ، وقد كان النَّصْرَاباذي صحبَ الشِّبْليَّ ومَشىٰ علىٰ حَذْوِه ، فوَاغَوْثاه بالله .

ومن كَلامِه : نِهاياتُ الأوْلياء بِداياتُ الأنْبياء[1] .

وقال : أصلُ التصَوُّف مُلازَمَةُ الكتاب والسنَّة ، وتَركُ الأهْواء والبِدَع ، ورُؤيَةُ أعْذارِ الخَلْق ، والمُداوَمَة على الأوْرادِ ، وتَركُ الرُّخَصِ[2] .

وجاء في ترجمة أبي عُثمانَ المَغْربيِّ ، قال السُّلميُّ : سَمعْتُه يقولُ : عُلومُ الدَّقائق عُلومُ الشَّياطين ، وأسْلمُ الطُّرق من الاغترار لُزومُ الشَّريعَة .

تُوفِّيَ سنة ثلاث وسبعين وثلاث مئة[3] .

وقال ابنُ باكويه : نظرَ أبو عبد الله بنُ خَفيف يوماً إلى ابنِ مَكْتوم وجماعة يَكتُبون شيئاً ، فقال : ما هـٰذا ؟ قالوا : نَكتُبُ كذا وكذا ، قال : اشْتَغِلوا بتعَلُّم شيءٍ ، ولا يَغُرنَّكم كَلامُ الصُّوفيَّة ، فإنِّي كنتُ أخبىءُ مَحْبَرَتي في جَيبِ مُرقَّعَتي ، والورَقُ في حجزةِ سَراويلي وأذهبُ في الخِفْيَة إلىٰ أهْلِ العِلْم ، فإذا عَلِموا بي ، خاصَموني ، وقالوا : لا يُفْلح ، ثم احتاجوا إليَّ .

قال الذهبيُّ : قد كان هـٰذا الشَّيخُ قد جَمَعَ بين العِلمِ والعَمَل ، وعُلوِّ السَّنَد ، والتَّمَسُّك بالسُّنَن ، ومُتِّعَ بطول العُمر في الطَّاعَة[4] .

وجاء في ترجمة السُّلَميِّ ، قال الخَشَّابُ : أصلُ التصوُّف مُلازَمَةُ الكتاب والسُّنَّة ، وتَركُ الأهْواءِ والبِدَعِ ، وتَعْظيمُ حُرمات المَشايخ ، ورؤيةُ أعْذارِ الخَلْق ، والدَّوامُ على الأوْرادِ .

قال القُشَيْريُّ : سَمعتُ أبا عبد الرحمـٰن السُّلَميَّ يسْألُ أبا عَليٍّ الدَّقاق ، فقال: الذِّكْرُ أتَمُّ أمْ الفِكْرُ ؟ فقال: ما الذي يُفْتَحُ للشيخ فيه ؟ قال : أبو عبد الرحمـٰن :

---

(١) انظر السير : (النَّصْراباذيّ) ١٦/ ٢٦٣ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٥ .
(٢) انظر السير : (النَّصْراباذيّ) ١٦/ ٢٦٣ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٥ .
(٣) انظر السير : (أبو عُثمان المَغربي) ١٦/ ٣٢٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٩٧ .
(٤) انظر السير : (ابنُ خَفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٩ .

عندي الذِّكْرُ أَتَمُّ، لأنَّ الحقَّ يُوصَفُ بالذِّكْرِ، ولا يُوصَفُ بالفِكْرِ . فاسْتَحْسَنَه أبو عليّ[1] .

وعن الرِّفاعيِّ ، قال : أقْربُ الطَّريق الانْكِسارُ والذُّلُّ والافْتِقارُ ، تُعَظِّمُ أمْرَ الله ، وتُشْفِقُ علىٰ خَلقِ الله ، وتَقْتَدي بسُنَّة رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم[2] .

٤ـ الصُّوفيَّةُ الأوائلُ لا يُحبُّون الانْحِرافَ والشَّطَح :

قال أبو نَصْر السَّرَّاج ، صاحبُ « اللّمع » : بَلغَني أنَّ أبا حَمْزَة البَغْداديَّ دخلَ على الحارث المُحاسَبي ، فصاحَت شاةٌ : ماع . فشَهَقَ ، وقال : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يا سَيِّدي . فغَضبَ الحارثُ ، وأخذَ السِّكينَ ، وقال : إنْ لمْ تَتُبْ أذْبَحُك .

نقلَ الخَطيبُ وَفاتَه في سنة تسع وستين ومئتين .

وكذا ورّخه ابنُ الأعْرابيُّ ، وقال : جاء من طَرْسُوسَ ، فاجْتمعوا عليه ببَغْدادَ ، وما زالَ مَقْبولاً ، حضَرَ جِنازَتَه أهلُ العِلْم والنُّسُك ، وغَسَّله جماعةٌ من بني هاشم ، وقُدِّمَ الجُنَيْدُ في الصَّلاةِ عليه ، فامتَنَع ، فتقدَّمَ ولدُه ، وكنتُ بائتاً في مَسْجده ليلةَ مَوْته ، فأُخبِرْتُ أنَّه كان يَتلو حزْبَه ، حتىٰ خَتمَ تلكَ اللَّيلة . وكان صاحبَ ليلٍ ، مُقدَّماً في علم القُرآن ، وخاصةً في قِراءَة أبي عَمرو ، وحملَها عنه جَماعةٌ . وكان سَببُ عِلَّتِه أنَّ النَّاسَ كثروا ، فأُتيَ بكُرسي ، فجلسَ ، ومرَّ في كلامه شيءٌ أعْجَبَه ، فردَّدَه وأُغْميَ عليه ، فسَقطَ ، وقد كان هـٰذا يُصيبُه كثيراً ، فانصَرَفَ بين اثنين يومَ الجُمعَة ، فتَعلَّلَ ودُفِنَ في الجُمعَة الثانية بعد الصَّلاة[3] .

٥ـ الصُّوفيَّة الأوائل بُرآءٌ ممَّا أحْدَثَ المُتأخِّرون :

قال الذهبيُّ في ترجمة حاتم الأصَمّ : هـٰكذا كانت نُكَتُ العارفين وإشاراتهُم ، لا كما أحدَثَ المُتأخِّرونَ من الفَناء والمَحْو والجَمع الذي آلَ بجَهَلَتِهم إلى الاتِّحاد ، وعَدَم السِّوَىٰ .

---

(١) انظر السير : (السُّلَمي) ١٧/ ٢٤٧ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٨ .

(٢) انظر السير : (الرِّفاعيُّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٠١ .

(٣) انظر السير : (أبو حَمزَة البَغْدادي) ١٣/ ١٦٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٦٧ .

تُوفِّيَ حاتمُ الأصمُّ ، رحمَه الله ، سنَة سبعٍ وثلاثين ومئتين[1] .

وقال القِرْميسينيُّ : علمُ الفَناء والبَقاء يدورُ علىٰ إخْلاصِ الوَحْدانيَّة ، وصحَّة العُبوديَّة ، وما كان غيرَ هـٰذا فهو من المُغالَطَة والزَّنْدَقَة[2] .

قال الذهبيُّ : صَدقتَ والله فإنَّ الفَناءَ والبقاءَ من تُرَّهات الصُّوفيَّة أطلَقَهُ بَعضُهم فدخلَ من بابِه كلُّ إلْحاديٍّ وكلُّ زِنْديق ، وقالوا : ما سِوَى اللهَ باطِلٌ فانٍ ، واللهُ تَعالَىٰ هو الباقي ، وهو هـٰذه الكائنات ، وما ثَمَّ شيءٌ غَيرُه .

ويقولُ شاعُرُهم :

وما أنت غير الكو ن بل أنت عينه

ويقولُ الأخَرُ :

وما ثَمَّ إلاَّ الله ليسَ سِواهُ

فانظُرْ إلىٰ هـٰذا المُروقِ والضَّلال ، بل كلُّ ما سِوَى الله مُحْدَثٌ مَوْجودٌ .

قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[3] .

وإنَّما أرادَ قُدَماءُ الصُّوفيَّة بالفَناءِ نِسْيانَ المَخْلوقات وتَركَها وفَناءَ النَّفْس عن التَّشاغُل بما سِوَى الله ، ولا يُسَلَّمُ إليهم هـٰذا أيضاً ، بلْ أمَرَنا اللهُ ورسُولُه بالتَّشاغُل بالمَخْلوقات ورُؤيَتِها والإقْبالِ عليها وتَعْظيمِ خالِقِها ، قال تَعالَىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[4] .

وقال : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[5] .

---

(١) انظر السير : (حاتم الأصَم) ١١/ ٤٨٤ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٦١ .
(٢) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٣٩ .
(٣) سورة السجدة ، الآية : ٤ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٥) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إليَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ » .

وكان يُحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أباها ، ويحبُّ أُسامَةَ ، ويحبُّ سِبْطَيْه ، ويحبُّ الحَلْواءَ والعسَلَ ، ويحبُّ جَبَلَ أُحُدٍ ، ويحبُّ وَطَنَه ، ويحبُّ الأنْصارَ ، إلىٰ أشْياءَ لا تُحْصَىٰ ممَّا لا يغني المؤمن عنها قطُّ[1] .

وقال ابنُ الأعْرابيّ : فإذا سَمعتَ الرَّجلَ يَسْألُ عن الجَمْع أو الفَناء ، أو يُجيبُ فيهما ، فاعْلَمْ أنَّه فارغٌ ، ليسَ من أهْلِ ذلك ، إذْ أهْلُهما لا يَسْألونَ عنه لعِلْمِهم أنَّه لا يُدرَكُ بالوَصْفِ[2] .

٦ـ بعضُ مُتأخِّري الصُّوفيَّة الصَّالحين :

(أ) الجِيلاني :

جاء في ترجمة الشيخ عبد القادر ، قال الذهبيُّ : الشيخُ ، الإمامُ ، العالِمُ ، الزَّاهِدُ ، العارِفُ ، القُدوَة ، شَيخُ الإسْلام ، عَلَمُ الأوْلياء ، مُحْيي الدين ، أبو محمد ، عبدُ القادِر بنُ أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيليُّ الحَنْبَليُّ ، شيخُ بَغْداد .

مَوْلدُه بجيلان[3] في سنة إحْدىٰ وسبعين وأربع مئة .

قال السّمعانيُّ : كان عبدُ القادر ـ من أهلِ جيلان ـ إمامَ الحَنابلَة وشيخَهم في عَصره ، فقيهٌ صالحٌ دَيِّنٌ خَيِّرٌ ، كثيرُ الذِّكْرِ ، دائمُ الفِكْرِ ، سَريعُ الدَّمْعَة ، وكان يَسكنُ بابَ الأزَج في مَدرسَة بُنيَتْ له ، مَضينا لزيارته فخرجَ وقَعَدَ بين أصْحابه ، وخَتَموا القُرآنَ ، فألقىٰ دَرساً ما فَهمتُ منه شيئاً ، وأعجَبُ من ذا أنَّ أصْحابَه قاموا وأعادوا الدَّرس ، فلعلَّهم فَهِموا لإلْفِهِم بكَلامه وعِباراتِه[4] .

---

(١) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٣٩ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الأعْرابيّ) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٣ .

(٣) وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ، ويُقال لها : كيل وكيلان ، والنسبة إليها جيلي وجيلاني وكيلاني .

(٤) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٣ .

وعن محمد بن محمد المراتبيّ ، سَمعتُ الشيخَ أبا بَكْر العمادَ رحمَه اللهُ يقولُ : كنتُ قرأتُ في أصولِ الدين ، فأوقَعَ عندي شَكّاً ، فقُلتُ : حتىٰ أمضيَ إلىٰ مَجلس الشيخ عبد القادر ، فقد ذُكرَ أنَّه يتكلَّمُ عن الخَواطِر ، فمضيتُ وهو يتكلَّمُ ، فقال : اعتقادُنا اعتقادُ السَّلَف الصَّالِح والصَحابَة . فقلتُ في نفسي : هـٰذا قالَه اتِّفاقاً ، فتكلَّمَ ثم التَفتَ إلىٰ ناحيَتي فأعادَه ، فقلتُ : الواعظُ قد يَلْتَفِتُ ، فالتَفتَ إليَّ ثالثةً ، وقال : يا أبا بَكْر ، فأعادَ القولَ ، ثم قال : قُمْ قد جاءَ أبوكَ ، وقد كان غائباً ، فقُمتُ مُبادِراً وإذا أبي قد جاءَ[1] .

وعن جمال الدين يَحْيَىٰ بنِ الصَّيرَفيّ ، سَمعتُ أبا البقاءِ النَّحْويَّ قال : حَضرتُ مجلسَ الشيخ عبد القادر ، فقرؤوا بين يديه بالألحان ، فقُلتُ في نفسي : تُرَىٰ لأيِّ شيءٍ ما يُنْكِرُ الشيخُ هـٰذا ؟ فقال : يَجيءُ واحدٌ قد قرأ أبواباً من الفِقْه يُنكِر . فقلتُ في نفسي : لعلَّ أنَّه قصَدَ غَيْري ، فقال : إيَّاكَ نَعْني بالقَولِ ، فثَبتُ في نفسي من اعتراضي ، فقال : قد قبلَ اللهُ تَوْبَتَك[2] .

وسَمعتُ الإمامَ أبا العبّاس أحمدَ بنَ عبد الحَليم ، سَمعتُ الشيخَ عزَّ الدين الفاروثي ، سمعتُ شَيخَنا شِهابَ الدين السُّهْرَوَرْديَّ يقولُ : عَزمتُ على الاشْتغالِ بأُصول الدين ، فقُلتُ في نفسي : أستشيرُ الشيخَ عبد القادر ، فأتيتُه ، فقال قبلَ أن أنطِقَ : يا عُمَرُ ، ما هو من عُدَّة القَبرِ ، يا عُمَرُ ما هو من عُدَّة القبرِ[3] .

وقال ابنُ النجَّار : قرأتُ بخطِّ أبي بَكْر عبد الله بن نَصر بن حَمزَة التَّيْميِّ ، سَمعتُ الشيخَ عبدَ القادر يقولُ : بَلغَتْ بي الضَّائقةُ في الغَلاء إلىٰ أن بَقيتُ أيّاماً لا آكلُ طَعاماً ، بلْ أتَّبعُ المَنْبوذاتِ ، فخَرجْتُ يوماً إلى الشطِّ ، فوَجدتُ قد سَبَقني الفُقَراءُ ، فضَعُفْتُ ، وعَجَزتُ عن التَّماسُك فدخَلتُ مَسْجداً ، وقَعدتُ ، وكدتُ أُصافحُ المَوتَ ، ودخلَ شابٌّ أعْجَميٌّ ومَعه خُبزٌ وشِواءٌ ، وجلسَ يأكُلُ ، فكنتُ أكادُ كُلَّما رَفعَ

---

(١) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٣ .

(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٤ .

(٣) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٤ .

لُقمَةً أفْتَحُ فَمي ، فالتَفَتَ فرآني ، فقال : باسم الله ، فأبيتُ ، فأقسَمَ عليَّ ، فأكلتُ مُقصِّراً ، وأخذَ يَسْألُني ، ما شُغْلك ؟ ، ومن أين أنتَ ؟ فقلتُ : مُتَفَقِّهٌ من جيْلان ، قالَ : وأنا من جيْلان ، فهلْ تَعرفُ لي شاباً جيلانيّاً اسْمُه عبدُ القادر ، يُعْرَفُ بسبط أبي عبد الله الصومعي الزَّاهد ؟ فقلتُ : أنا هو . فاضطرَبَ لذلك ، وتغيَّرَ وَجهُه ، وقال : والله يا أخي ، لقد وصَلتُ إلىٰ بَغْدادَ ومَعي بقيَّةُ نَفقَةٍ لي ، فسألتُ عنكَ ، فلمْ يُرْشدني أحدٌ إلىٰ أنْ نَفِدَت نَفَقَتي ، وبَقيتُ بعدَها ثلاثةَ أيّام لا أجدُ ثَمنَ قُوتي إلاَّ من مالِك ، فلمَّا كان هـٰذا اليوم الرابع قلتُ : قد تجاوزَتْني ثلاثة أيّام ، وحلّت المَيْتَة ، فأخذْتُ من وَديعَتك ثمنَ هـٰذا الخُبزَ والشِّواء ، فكُلْ طَيِّباً ، فإنَّما هو لك ، وأنا ضَيْفُك الآن ، فقلتُ : وما ذاك ؟ قال : أمُّك وجَّهَت معي ثمانيةَ دَنانير ، والله ما خُنْتُك فيها إلى اليوم ، فسكَّنْتُه ، وطَيَّبتُ نَفسَه ، ودَفعتُ إليه شَيئاً منها[1] .

وقال ابنُ النجَّار : كتبَ إليَّ عبدُ الله بن أبي الحُسَين الجُبّائيُّ قال : قال لي الشيخُ عبدُ القادر : كنتُ في الصحْراء أُكرِّرُ في الفِقْه وأنا في فاقةٍ ، فقال لي قائلٌ لمْ أرَ شَخْصَه : اقْترِضْ ما تَسْتعينُ به علىٰ طلب الفِقْه ، فقلتُ : كيف أقْتَرِضُ وأنا فَقيرٌ ولا وفاء لي ؟ قال : اقْترِضْ وعلينا الوَفاء . فأتيتُ بقَّالاً ، فقلتُ : تُعاملُني بشرطِ إذا سَهَّلَ اللهُ أعطَيْتُك ، وإنْ مِتُّ تَجعَلُني في حِلٍّ ، تُعْطيني كلَّ يومٍ رَغيفاً ورشاداً ، فبَكىٰ وقال : أنا بحُكْمكَ ، فأخذتُ منه مدَّةً ، فضاقَ صَدري ، فأظنُّ أنَّه قال : فقيلَ لي : امضِ إلىٰ مَوْضعِ كذا ، فأيَّ شيءٍ رأيتَ على الدَّكَّة فخذه وادفَعْه إلى البقَّال ، فلمَّا جئتُ رأيتُ قطعةَ ذَهبٍ كبيرة فأعطَيتُها البَقْليَّ[2] .

قال الجُبّائيُّ : وقال لي الشيخُ عبدُ القادر : كنتُ أُؤمَرُ وأُنْهىٰ في النَّوم واليَقظَة ، وكان يَغلبُ عليَّ الكلامُ ، ويَزدحمُ علىٰ قلبي إن لم أتكلَّم به حتىٰ أكادُ أختَنِقُ ، ولا أقدر أسكُتُ ، وكان يجلِسُ عندي رجلان وثلاثةٌ ، ثم تَسامَعَ الناسُ بي ، وازدحَمَ عليَّ الخَلقُ ، حتىٰ صارَ يحضُرُ مَجْلسي نَحوٌ من سبعينَ ألفاً ، وقال : فتَّشتُ الأعْمالَ

---

(١) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/٤٣٩ـ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٤ .

(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/٤٣٩ـ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٥ .

كلَّها ، فما وَجدتُ فيها أفضلَ من إطْعامِ الطَّعام ، أوَدُّ لو أنَ الدُّنيا بيدي فأُطْعِمُها الجِياعَ ، كَفِّي مَثقوبَة لا تَضبطُ شَيئاً ، لو جاءَني ألفُ دينار لم أُبيِّتْها[1] .

قال الجُبائي : قال لي الشيخُ عبد القادر الجيلاني : أتمنَّىٰ أن أكون في الصَّحاري والبَراري كما كُنتُ في الأول لا أرى الخَلقَ ولا يَرَوني ، ثم قال : أرادَ اللهُ منِّي منفعةَ الخَلق فقد أسلمَ علىٰ يديَّ أكثرُ من خمس مئة ، وتابَ علىٰ يديَّ أكثرُ من مئة ألف ، وهـٰذا خيرٌ كثير[2] .

وتَردُ عليَّ الأثْقالُ التي لوْ وُضِعَت على الجِبالِ تَفسَّحَت فأضَعُ جَنبي على الأرضِ ، وأقولُ : إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ، إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ، ثم أرفَعُ رأسي وقد انفرَجَتْ عنِّي[3] .

وقال : إذا وُلدَ لي ولدٌ أخذْتُه علىٰ يَديَّ ، وأقولُ : هـٰذا مَيّتٌ ، فأُخْرِجُه من قَلْبي ، فإذا ماتَ لم يُؤثِّر عندي مَوْتُه شيئاً[4] .

وقال الجُبّائيُّ : كنتُ أسْمعُ في « الحِلْيَة » على ابنِ ناصر ، فرقَّ قَلبي ، وقلتُ : اشْتَهَيتُ لو انقَطَعتُ ، وأشْتغِلُ بالعِبادَة ، ومَضيتُ فصلَّيتُ خلفَ الشَّيخ عبدِ القادر ، فلمَّا جَلسْنا ، نظرَ إليَّ وقال : إذا أردْتَ الانقِطاعَ ، فلا تَنقَطِع حتىٰ تَتفقَّهَ وتُجالِسَ الشُّيوخَ وتَتأدَّبَ ، وإلاَّ فتنقَطعُ وأنتَ فُرَيْخٌ ما رَيَّشْتَ[5] .

وعن أبي الثَّناء النهرملكيِّ ، قال : تحدَّثنا أنَّ الذُّبابَ ما يقعُ على الشيخ عبدِ القادر ، فأتَيْتُه ، فالتَفتَ إليَّ ، وقال : أيشٍ يعمل عندي الذُّبابُ ، لا دِبْسُ الدُّنيا ، ولا عَسَلُ الآخرة[6] .

وقال أحمدُ بنُ ظَفَر بن هُبيرة : سألتُ جَدِّي أنْ أزورَ الشيخَ عبد القادر ، فأعطاني مَبْلَغاً من الذَّهَبِ لأُعطيَه ، فلمَّا نزلَ عن المِنْبَر سَلَّمتُ عليه وتحَرَّجْتُ من دَفْعِ الذَّهبِ إليه

---

(١) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٥ .
(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٥ .
(٣) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٥ .
(٤) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٧٥ .
(٥) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٦ .
(٦) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٦ .

في ذَلِكَ الجَمع ، فقال : هاتِ ما مَعَكَ ولا عَليكَ من النَّاسِ ، وسَلِّمْ على الوَزيرِ .

قال صاحبُ « مرْآةِ الزَّمان » : كان سُكوتُ الشيخ عبد القادر أكثرَ من كَلامِه ، وكان يتكلَّمُ على الخَواطِر ، وظهرَ له صِيتٌ عَظيمٌ وقَبولٌ تامٌّ ، وما كان يَخْرجُ من مَدْرَسَتِه إلاَّ يومَ الجُمعَة أو إلى الرِّباطِ ، وتابَ علىٰ يده مُعظَمُ أهْلِ بَغْدادَ ، وأسْلَمَ خَلقٌ ، وكان يَصْدَعُ بالحَقِّ على المِنْبَر ، وكان له كَراماتٌ ظاهرةٌ .

قال الذهبيُّ : ليسَ في كِبار المَشايخ مَن له أحْوالٌ وكَراماتٌ أكثرُ من الشيخِ عبدِ القادر ، لكنَّ كَثيراً منها لا يَصِحُّ ، وفي بَعضِ ذلك أشْياء مُسْتَحيلةٌ[1] .

قال الجُبَّائيُّ : كان الشيخُ عبدُ القادر يقولُ : الخَلْقُ حِجابُك عن نَفْسِك ، ونَفْسُكَ حِجابُك عن ربِّك .

عاش الشيخُ عبدُ القادر تسعين سنة ، وانتَقلَ إلى الله سنةَ إحْدىٰ وستّين وخَمس مئة ، وشَيَّعَه خلقٌ لا يُحْصَون ، ودُفنَ بمدرَسَته رحمه اللهُ تعالىٰ .

وفي الجُملة الشيخُ عبدُ القادر كَبير الشأن ، وعليه مآخذُ في بعض أقوالِه ودَعاويه ، والله المَوْعِدُ ، وبعضُ ذلك مَكْذوبٌ عليه[2] .

(ب) السُّهْرَوَرْديُّ :

جاء في ترجمة السَّهْرَوَرْديِّ ، قال الذهبيُّ : الشيخُ ، الإمامُ ، العالِمُ ، القُدْوَة ، الزَّاهِدُ ، العارِفُ ، المُحدِّثُ ، شَيخُ الإسْلامِ ، أَوْحَدُ الصُّوفيَّة ، شِهابُ الدين أبو حَفْص وأبو عبد الله عُمَر بنُ محمد بنِ عبد الله القُرَشيّ ، التَّيْميُّ ، البَكْريُّ ، السُّهْرَوَرْديُّ ، الصُّوفيُّ ثم البَغْداديُّ .

وُلدَ في سنة تسع وثلاثين وخمس مئة ، وقَدِمَ من سُهْرَوَرْد وهو شابٌّ أمْرَدٌ ، قال ابنُ الدُّبيثيّ : قدِمَ بَغْدادَ وكان له في الطريقة قَدَمٌ ثابتٌ ، ولِسانٌ ناطِقٌ ، ووَلِيَ عدّةَ رُبُط للصُّوفيّة ، ونُفِّذَ رسولاً إلىٰ عدّة جهات .

---

(١) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٦ .

(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٦ .

قال ابنُ النجَّار : وكان شهابُ الدين شَيخَ وَقْته في عِلم الحَقيقَة ، وانتَهتْ إليه الرِّياسَةُ في تَربية المُريدين ، ودُعاء الخَلْق إلى الله والتسليك ، صَحبَ عمَّه وسلك طريق الرياضات والمُجاهَدات ، وقَرأَ الفِقْهَ والخِلافَ والعَربيّة ، وسَمعَ ، ثمَّ لازَمَ الخلوَةَ والذِّكْر والصَّوم إلىٰ أن خطر له عند علوِّ سنِّه أن يَظهَرَ للنَّاسِ ويتكلَّم ، فعقَدَ مَجْلِسَ الوَعْظ بمدرسَة عمِّه ، فكان يتكلَّمُ بكلام مُفيدٍ من غير تَزْويق ، ويَحْضرُ عنده خلقٌ عظيمٌ ، وظهرَ له القَبولُ من الخاصِّ والعامّ ، واشْتُهرَ اسْمُه ، وقُصِدَ من الأقْطار ، وظَهرَت بركاتُ أنْفاسِه علىٰ خَلقٍ من العُصاة فتابوا ، ووَصَل به خلقٌ إلى الله ، وصار أصحابُه كالنُّجوم . ثم إنَّه أُضِرَّ وأُقْعِدَ ، ومع هـٰذا فما أخلَّ بالأوْرادِ ودَوام الذِّكْر وحُضورِ الجُمَع في مَحَفَّة ، والمُضيِّ إلى الحَجِّ ، إلىٰ أن دخلَ في عَشْر المئة وضَعُفَ فانقَطَع .

قال : وكان تامَّ المروءَة ، كَبير النَّفسِ ، ليس للمال عندَه قدرٌ ، لقد حصل له أُلوفٌ كثيرةٌ ، فلم يَدَّخِرْ شَيئاً ، وماتَ ولمْ يُخلِّفْ كَفَناً ، وكان مَليحَ الخَلْقِ والخُلُق ، مُتَواضِعاً ، كاملَ الأوْصاف الجَميلة .

صنَّفَ في التَّصَوُّف كتاباً شرحَ فيه أحْوالَ القَوْم ، وحدَّثَ به مَراراً ، يعني « عَوارِف المَعارف » .

وقال ابنُ نُقطَة : كان شيخَ العِراق في وَقْتِه ، صاحبَ مُجاهَدَة وإيثارٍ وطَريقٍ حَميدَةٍ ومَروءَة تامّة ، وأوْرادٍ علىٰ كِبَر سنّه .

تُوفِّيَ الشيخُ شهابُ الدين رحمَه اللهُ ببَغْدادَ سنةَ اثنتين وثلاثين وستِّ مئة[1] .

٧ـ من الصُّوفيَّة مَنْ لم يُعرَف صَلاحُه إلاَّ بعد مَوته :

جاء في ترجمة ذي النُّون المِصْريِّ ، قال يوسُفُ بنُ أحمد البَغْداديُّ : كان أهلُ ناحيتِه يُسَمُّونَه الزِّنْديق ، فلمَّا ماتَ أظَلَّت الطَّيرُ جِنازَتَه ، فاحْتَرموا بعدُ قَبرَه[2] .

---

(١) انظر السير : (السُّهْرَوَرْديّ) ٢٢/ ٣٧٣ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ١٧٠٤ ـ ١٧٠٥ .

(٢) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٧ .

٨ـ مَنْ اتُّهِمَ منهم بالزَّنْدَقة وهو منها براءٌ :

قال السُّلميُّ في « مِحَن الصُّوفيَّة » : ذو النُّون المِصْري أوّلُ مَنْ تَكلَّمَ ببَلْدَته في تَرتيبِ الأحْوال ، ومَقامات الأوْلياء ، فأنْكَرَ عليه عبدُ الله ابنُ عبد الحَكم ، وهَجَرَه عُلماءُ مِصْرَ . وشاعَ أنَّه أحْدَثَ عِلْماً لم يَتكلَّمْ فيه السَّلفُ وهَجَروه حتىٰ رَمَوهُ بالزَّنْدَقَة . فقال أخُوه : إنَّهم يقولون : إنَّكَ زِنْديقٌ ، فقال :[1] .

وَمَا لي سِوَى الإطْراقِ والصَّمْتِ حِيلَةٌ ... وَوَضْعي كَفِّي تَحْتَ خَدِّي وتَذْكاري

قال : وقال محمدُ بنُ الفَرْخيّ : كنتُ مع ذي النُّون في زَوْرَقٍ ، فمَرَّ بنا زَوْرقٌ آخر ، فقِيلَ لذي النُّون : إنَّ هـٰؤلاء يَمُرُّونَ إلى السلطان ، يَشهَدُون عليكَ بالكُفر . فقال : اللَّهُمَّ إن كانوا كاذبين ، فغَرِّقهم ، فانقَلَبَ الزَوْرَقُ وغَرقُوا . فقلتُ له : فما بالُ المَلاَّح ؟ قال : لِمَ حَمَلَهم وهو يعلمُ قَصْدَهُم ؟ ولأَنْ يقفُوا بين يَدَي الله غَرقَىٰ خَيرٌ لهم من أن يقفوا شُهُودَ زُور ، ثم انتَفَضَ وتَغَيَّر ، وقال : وعِزَّتِكَ وجَلالِكَ لا أدْعُو علىٰ أحدٍ بعدها ثم دَعَاهُ أميرُ مصرَ ، وسَأَلَهُ عن اعتِقَادِه ، فتَكَلَّمَ ، فرَضِيَ أَمرَه وطَلَبَه المتوكل ، فلمَّا سَمعَ كَلامَه ولِعَ به وأحَبَّه . وكان يقولُ : إذا ذُكِرَ الصَّالحونَ ، فَحَي هلا بذي النون[2] .

وقال أبو نعيم : سَمعتُ عُمرَ البنَّاءَ البَغْدادي بمكّة يَحْكي مِحْنَةَ غُلام خليل ، قال : نَسَبوا الصُّوفيَّة إلى الزَّنْدَقَة ، فأمر الخَليفةُ المُعْتَمدُ في سنة أربع وستِّين ومئتين بالقَبْضِ عليهم ، فأُخذَ في جُملَتهم النُّوريّ فأُدْخِلوا على الخَليفَة ، فأمرَ بضَرْب أعْناقِهم ، فبادَرَ النُّوريُّ إلى السَّيَّاف فقيلَ له في ذلك ، فقال : آثرتُ حياتَهم علىٰ نَفْسي ساعة ، فتَوقَّف السَّيَّافُ عن قَتْلِه ، ورَفَعَ أمْرَه إلى الخَليفَة فردَّ الخَليفَةُ أمرَهم إلىٰ قاضي القُضاة إسْماعيلَ بنِ إسْحاق ، فسَأَلَه أبو الحُسَين النُّوريّ عن مَسائل العِبادات فأجاب ، ثم قال : وبعد هـٰذا ، فللَّه عِبادٌ يَنْطِقون بالله ، ويأكُلون بالله ، ويَسْمَعون بالله ، فبَكَىٰ

---

(١) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٩٦٨/ ١ .

(٢) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٩٦٨/ ٢ .

إسْماعيلُ القاضي ، وقال : إن كان هـٰؤلاء القَوْم زَنادِقَة ، فليسَ في الأرض مُوَحِّدٌ ، فأطْلَقوهم[1] .

٩ـ تأوُّلُ الذهبيِّ لمَن نُسِبَتْ إليهم أقوالٌ لا تُقبَلُ شَرعاً :

جاء في ترجمة أبي يَزيد البَسْطاميِّ ، قال الذهبيُّ : وجاء عنه أشياء مشكلة لا مَساغَ لها ، الشأنُ في ثُبوتِها عنه ، أو أنَّه قالَها في حال الدَّهْشَة والسُّكْر[2] ، والغَيبَة والمَحْو ، فيُطوىٰ ، ولا يُحْتَجُّ بها ، إذ ظاهرها إلْحَادٌ ، مثل : سُبحاني ، وما في الجُبَّة إلاَّ الله ، ما النَّارُ ؟ لأسْتَندَنَّ إليها غَداً ، وأقول : اجْعَلْني فداءً لأهْلِها ، وإلاَّ بلعْتُها . ما الجَنَّة ؟ لُعْبَةُ صِبْيان ، ومُرادُ أهْلِ الدُّنيا . ما المُحدِّثون ؟ إنْ خاطَبَهم رجلٌ عن رجلٍ ، فقد خاطَبَنا القلبُ عن الرَّب .

وقال في اليَهودِ : ما هَؤلاء ؟ هَبْهُم لي ، أيُّ شيءٍ هَؤلاء حتىٰ تُعَذِّبَهم ؟

قال السُّلَميُّ في « تاريخ الصُّوفيَّة » : تُوفِّيَ أبو يَزيد عن ثلاث وسبعين سنة ، وله كلامٌ حَسَنٌ في المُعامَلات[3] .

وجاء في ترجمة أبي حَمْزَة البغداديِّ ، قال الذهبيُّ : ولأبي حَمْزَة انْحِرافٌ وشَطَحٌ له تأويل[4] .

وقال الذهبيُّ في ترجمة « الشِّبْليِّ » : وكان فَقيهاً عارفاً بمَذْهَب مالك ، وكتبَ الحديثَ عن طائفة ، وقال الشِّعْرَ ، وله ألفاظٌ وحِكَمٌ وتَمكُّن ، لكنَّه كان يحصُلُ له جَفافُ دِماغ وسُكْر ، فيقولُ أشْياءَ يُعْتَذَرُ عنه فيها .

وقيل : إنَّ ابنَ مُجاهد قال له : أين في العِلْم إفْسادُ ما يَنفع ؟ قال : قولُه : ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾[5] ،[6] ، ولكن يا مقرىء أين معك أن المحبَّ لا يُعذِّبُ

---

(١) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/١١٣٤ .

(٢) المقصود بالسُّكْر هنا : الشَّوقُ والوَلَهُ بالله تَعالىٰ .

(٣) انظر السير : (أبو يَزيد البَسْطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٥٥ .

(٤) انظر السير : (أبو حَمزَة البغدادي) ١٣/ ١٦٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦٧ .

(٥) سورة ص ، الآية : ٣٣.

(٦) ذلك لأنه كان من شأن الشبلي إذا لبس شيئاً خَرَّق فيه موضعاً ، وفي الاستشهاد بالآية نظر .

حَبيبَه؟ فسكتَ ابنُ مُجاهد. قال : قوله : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم ﴾[1] .

وكان رحمه الله لَهِجاً بالشِّعْر الغَزِل والمَحَبَّة ، وله ذَوْقٌ في ذلك ، وله مُجاهَداتٌ عَجيبَة انحَرَفَ منها مِزاجُه .

قال السُّلَميُّ : سَمعتُ محمدَ بنَ الحَسَن ، سَمعتُ الشِّبْليَّ يقول : أعْرفُ مَنْ لمْ يَدخُل في هٰذا الشَّأن حتىٰ أنفقَ جميعَ مُلْكِه ، وغرَّق سبعين قِمَطْراً بخطِّه ، في دِجْلَة التي تَرَوْنَ ، وحَفِظَ « المُوَطَّأ » ، وتَلا بكذا وكذا قراءة يعني : نفسَه .

وسُئلَ: ما عَلامَةُ العارِف ؟ قال: صدرُه مَشْروحٌ، وقَلْبُه مَجْروحٌ، وجِسْمُه مَطْروح.

تُوفِّيَ ببَغدادَ سنةَ أربع وثلاثين وثلاث مئة عن نيّف وثمانين سنة[2] .

١٠ـ تَأوُّلُ غيرُ الذهبيِّ لهٰؤلاء :

جاء في ترجمة « أبي يَزيد البَسْطامي » ، قال السُّلَميُّ في « تاريخ الصُّوفيَّة » : تُوفِّيَ أبو يَزيد عن ثلاث وسَبعين سنة ، وله كلامٌ حَسَنٌ في المُعامَلات .

ثم قال : ويُحْكَىٰ عنه في الشَّطْح أشياء ، منها ما لا يَصحُّ ، أو يكونُ مُقوَّلاً عليه ، وكان يرجعُ إلىٰ أحْوالٍ سَنيَّة ، ثم ساقَ بإسْنادٍ له ، عن أبي يَزيد ، قال : مَنْ نَظَرَ إلىٰ شاهِدي بعَينِ الاضطراب ، وإلىٰ أوْقاتي بعَين الاغْتراب ، وإلىٰ أحْوالي بعَين الاسْتدراج ، وإلىٰ كَلامي بعَين الافْتراء ، وإلىٰ عِباراتي بعَين الاجْتراء ، وإلىٰ نَفسي بعَين الازْدِراء ، فقد أخْطأ النَّظَرَ فيَّ[3] .

١١ـ ضَبطُ الذهبيِّ بَعضَ عِبارات الصُّوفيَّة :

قال أبو محمّد الجَريريُّ : سَمعتُ الجُنَيْدَ يقولُ : ما أخذْنا التصَوُّفَ عن القال والقيل ، بلْ عن الجُوعِ ، وتَرْكِ الدُّنيا ، وقَطعِ المَألوفات[4] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٨ .

(٢) انظر السير : (الشِّبْليُّ) ١٥/ ٣٦٧ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٣٧ .

(٣) انظر السير : (أبو يَزيد البَسْطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٥٥ .

(٤) انظر السير : (الجُنَيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٣٣ .

قال الذهبيُّ : هـٰذا حَسَنٌ ، ومُرادُه : قَطعُ أكثرِ المَألوفات ، وتَركُ فُضول الدُّنيا ، وجوعٌ بلا إفْراطٍ ، أمَّا مَنْ بالَغَ في الجُوعِ كما يَفعَلُ الرُّهْبانُ ، ورَفضَ سائرَ الدُّنيا ، ومَألوفاتِ النَّفسِ من الغِذاءِ ، والنَّوم ، والأهْلِ ، فقد عرَّضَ نفسَه لبَلاءٍ عَريض ، ورُبّما خُولِطَ في عَقْلِه ، وفاتَه بذلك كَثيرٌ من الحَنيفيّة السَّمْحَة ، وقد جَعلَ اللهُ لكل شيءٍ قَدْراً ، والسَّعَادَةُ في مُتابَعَة السُّنَن فَزِنِ الأمُورَ بالعَدْلِ ، وصُمْ وأفْطِرْ ، ونَمْ وقُمْ ، والْزَمِ الوَرَعَ في القُوتِ ، وارْضَ بما قَسمَ اللهُ لك ، واصمُتْ إلاَّ من خَيرٍ ، فرحمَةُ الله على الجُنَيْدِ ، وأينَ مثلُ الجُنَيْد في عِلْمِه وحَالِه ؟[1] .

١٢ـ ذَمُّ الذهبيِّ بعضَ أفْعالِ المُتَصوِّفَة المخالفة للشَّرع :

جاء في ترجمة ابنِ عَطاء ، قال الذهبيُّ : وقِيلَ : إنَّ ابنَ عَطاء فقَدَ عَقلَه ثمانية عشرَ عاماً ، ثم ثابَ إليه عَقلُه .

ثَبَّتَ اللهُ علينا عُقولَنا وإيمانَنا ، فمَنْ تَسبَّبَ في زَوالِ عَقلِه بجُوعٍ ورياضَة صَعْبَة ، وخَلْوَة ، فقد عَصىٰ وأَثِمَ ، وضاهَىٰ مَنْ أَزالَ عَقلَه بعضَ يومٍ بسُكْرٍ ، فما أحْسَنَ التَّقيُّدَ بمُتابَعة السُّنَن والعِلْم[2] .

وقال الغَزاليُّ : وذَهبت الصُّوفيَّةُ إلى العُلوم الإلْهاميَّة دونَ التعليميَّة ، فيجلِسُ فارغَ القلبِ مَجْموعَ الهَمِّ يقولُ : الله الله ، على الدَّوام ، فليُفَرِّغْ قلبَه ، ولا يَشْتغِلُ بتِلاوَةٍ ولا كُتبِ حَديث ، قال : فإذا بلَغَ هـٰذا الحَدَّ ، التَزَم الخُلوَة في بيتٍ مُظْلِم ، وتدَثَّرَ بكِسائه ، فحينَئذٍ يَسْمَعُ نداءَ الحقِّ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[3] ، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾[4] .

قال الذهبيُّ : سَيِّدُ الخَلْقِ إنَّما سَمعَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[5] . من جِبْريلَ عن الله ، وهـٰذا الأحْمَقُ لمْ يَسْمَعْ نداءَ الحقِّ أبَداً ، بلْ سَمعَ شَيْطاناً ، أو سَمعَ شَيئاً لا حَقيقَةَ من طَيشِ

---

(١) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٣٣ .
(٢) انظر السير : (ابنُ عَطاء) ١٤/ ٢٥٥ـ ٢٥٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٤٩ .
(٣) سورة المدَّثِّر ، الآية : ١ .
(٤) سورة المُزَّمِّل ، الآية : ١ .
(٥) سورة المدَّثِّر ، الآية : ١ .

دِماغِه ، والتوْفيقُ في الاعتصام بالسُّنَّة والإجماع .

قال ابنُ عَساكِرْ : حجَّ أبو حامد وأقامَ بالشَّام نَحْواً من عشر سِنينَ وصنَّفَ ، وأخذَ نفسَه بالمُجاهَدَة ، وكان مُقامُه بدمشقَ في المَنارَة الغَربيَّة من الجامع ، سَمعَ « صَحيحَ البُخاري » من أبي سَهْل الحَفْصي ، وقَدِمَ دمشْقَ في سنَة تسْع وثمانين .

قال أبو العبَّاس أحمدُ الخطيبي : كنتُ في حلقَة الغَزاليِّ ، فقال : ماتَ أبي وخلَّفَ لي ولأخي مقْداراً يَسيراً فَفَنيَ بحيثُ تعذَّرَ علينا القُوتُ ، فصِرْنا إلىٰ مدرسَة نَطلُبُ الفِقْهَ ، ليسَ المُرادُ سِوَىٰ تَحْصيل الوَقْت ، فكان تعلُّمُنا لذلك ، لا لله ، فأبَىٰ أن يَكونَ إلاَّ لله .

وممَّا أُخِذَ عليه قال : إنَّ للقَدَرِ سِرّاً نُهينا عن إفْشائه ، فأيُّ سِرٍّ للقَدر ؟ فإنْ كان مُدْرَكاً بالنظَرِ ، وُصِلَ إليه ولا بُدَّ ، وإنْ كان مُدْرَكاً بالخَبَر فما ثَبُتَ فيه شيءٌ ، وإنْ كان يُدْرَكُ بالحالِ والعِرْفان ، فهٰذه دَعْوَىٰ مَحْضَة فلعلَّه عَنَىٰ بإفْشائه أنْ نُعَمِّق في القدَر ، ونَبحَثَ فيه[1] .

١٣ـ ذَمُّ الذهبي بعضَ مُصْطَلحات التصَوُّف :

جاء في ترجمة الخَرَّاز ، قال الذهبيُّ : ويقالُ : إنَّ الخرَّازَ أوّل مَنْ تَكلَّمَ في عِلم الفَناء والبَقاء[2] ، فأيُّ سَكْتَةٍ فاتَتْه ، قصدَ خَيراً ، فوَلّد أمراً كبيراً ، تشبَّث به كلُّ اتِّحاديٍّ ضالّ .

وتُوفِّيَ سنةَ سِتّ وثمانين ومئتين .

قال السُّلميُّ : هو إمامُ القَوم في كلِّ فَنٍّ من عُلومِهم ، له في مَبادِىء أمره عَجائبُ وكَرامات ، وهو أحْسَنُ القَوم كَلاماً ، خَلا الجُنَيْد ، فإنَّه الإمامُ[3] .

وقال أبو عبد الرحمٰن السُّلمي : أخرجوا الحَكيمَ من تَرْمِذ ، وشَهدوا عليه

---

(١) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٣ .

(٢) انظر ما كتبَه ابنُ القيّم رحمَه اللهُ في « مَدارج السّالكين » (١/ ١٤٨ـ١٧٣) عن الفَناء وأقسامه ومَراتبه ، وما هو مَذموم ، وما هو مَحْمود .

(٣) انظر السير : (الخَرَّاز) ١٣/ ٤١٩ـ ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٧ .

بالكُفرِ ، وذلك بسَبب تَصْنيفِه كتاب : « خَتم الولايَة » ، وكتاب : « عِلَلُ الشَّريعَة » ، وقالوا : إنَّه يقولُ : إنَّ للأولياء خاتماً كالأنبياء لهم خاتم ، وإنَّه يُفَضِّلُ الوِلايَة على النُّبُوَّة ، واحْتجَّ بحَديث : « يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ والشُّهَداء » . فقَدِمَ بَلْخَ ، فقَبِلوه لمُوافقَتِه لهم في المَذْهَب[1] .

وقال السُّلميُّ : هُجِرَ لتَصْنيفِه كتاب : « خَتم الوِلايَة » ، و« عِلَلْ الشَّريعَة » ، ولَيسَ فيه ما يُوجِبُ ذلك ، ولكن لبُعْدِ فَهْمِهم عنه[2] .

قال الذهبيُّ : كذا تُكُلِّمَ في السّلميِّ من أجلِ تأليفِه كتاب : « حَقائقُ التَّفْسير » ، فيالَيْتَه لمْ يُؤلِّفْه ، فنَعوذُ بالله من الإشَارات الحَلاَّجيَّة ، والشَّطَحات البِسْطاميَّة ، وتَصَوُّفِ الاتِّحاديَّة ، فواحُزْناهُ علىٰ غُرْبَة الإسْلام والسُّنَّة ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[3] ،[4] .

وقال القِرْميسينيُّ : علمُ الفَناء والبَقاء يدورُ علىٰ إخْلاصِ الوَحْدانيَّة ، وصحَّة العُبوديَّة ، وما كان غيرَ هـٰذا فهو من المُغالَطَة والزَّنْدَقَة[5] .

قال الذهبيُّ : صَدقتَ والله فإنَّ الفَناءَ والبقاءَ من تُرَّهات الصُّوفيَّة أطلَقَهُ بَعضُهم فدخلَ من بابِه كلُّ إلْحاديٍّ وكلُّ زِنْديق ، وقالوا : ما سِوَى اللهَ باطِلٌ فانٍ ، واللهُ تَعالَىٰ هو الباقي ، وهو هـٰذه الكائنات ، وما ثَمَّ شيءٌ غَيرُه .

ويقولُ شاعرُهم :

وما أنتَ غيرَ الكَو ن بلْ أنتَ عيْنُهُ

ويقولُ الآخَرُ :

وما ثَمَّ إلاَّ الله ليسَ سِواهُ

---

(١) انظر السير : (الحَكيمُ التِّرْمذيّ) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٦/١١٠٠ .
(٢) انظر السير : (الحَكيمُ التِّرْمذيّ) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٧/١١٠٠ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : : ١٥٣ .
(٤) انظر السير : (الحَكيمُ التِّرْمذيّ) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٨/١١٠٠ .
(٥) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٣٩ .

فانظُرْ إلىٰ هـٰذا المُروقِ والضَّلال ، بل كلُّ ما سِوَى الله مُحْدَثٌ مَوْجودٌ .

قال اللهُ تَعالَىٰ :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[1] .

وإنَّما أرادَ قُدَماءُ الصُّوفيَّة بالفَناءِ نِسْيانَ المَخْلوقات وتَركَها وفَناءَ النَّفْس عن التَّشاغُل بما سِوَى الله ، ولا يُسَلَّمُ إليهم هـٰذا أيضاً ، بلْ أمَرَنا اللهُ ورسُولُه بالتَّشاغُل بالمَخْلوقات ورُؤيَتِها والإقْبالِ عليها وتَعْظيمِ خالِقِها ، قال تَعالَىٰ :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[2] .

وقال : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3] .

وقال : « حُبِّبَ إليَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ » .

وكان يُحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أباها ، ويحبُّ أُسامَةَ ، ويحبُّ سِبْطَيْه ، ويحبُّ الحَلْواءَ والعسَلَ ، ويحبُّ جَبَلَ أُحُدٍ ، ويحبُّ وَطَنَه ، ويحبُّ الأنْصارَ ، إلىٰ أشْياءَ لا تُحْصَىٰ ممَّا لا يغني المؤمن عنها قطُّ[4] .

وقال ابنُ الأعْرابيّ : فإذا سَمعتَ الرَّجلَ يَسْألُ عن الجَمْع أو الفَناء ، أو يُجيبُ فيهما ، فاعْلَمْ أنَّه فارغٌ ، ليسَ من أهْلِ ذلك ، إذْ أهْلُهما لا يَسْألونَ عنه لعِلْمِهم أنَّه لا يُدرَكُ بالوَصْفِ[5] .

قال الذهبيُّ : إي والله ، دقَّقُوا وعَمَّقوا ، وخاضوا في أسْرارٍ عَظيمة ، ما معهم علىٰ دَعْواهم فيها سِوَىٰ ظَنٍّ وخَيالٍ ، ولا وُجودَ لتلك الأحْوال من الفَناء والمَحْو والصَّحْو والسُّكْر إلاَّ مُجرَّد خَطَرات ووَساوس ، ما تفوَّه بعِباراتِهم صِدِّيقٌ ، ولا صاحبٌ ، ولا إمامٌ من التَّابعين ، فإنْ طالبْتَهم بدَعَاويهم مقَتوك ، وقالوا :

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ٤ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .

(٣) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .

(٤) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٣٩ .

(٥) انظر السير : (ابنُ الأعْرابي) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٣ .

مَحْجوبٌ ، وإنْ سَلَّمتَ لهم قِيادَك تخبَّطَ ما مَعكَ من الإيمان ، وهَبطَ بك الحالُ على الحَيْرَة والمُحال ، ورَمَقْتَ العُبَّادَ بعَين المَقْتِ ، وأهلَ القُرآن والحَديثِ بعَين البُعْد ، وقُلتَ : مَساكين مَحْجُوبون . فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[1] .

١٤ـ رَدُّ الذهبيّ علىٰ أخْطاء بعض المُتَصَوِّفَة :

جاء في ترجمة النَّصْراباذيِّ ، قال الذهبيُّ : ومع عِظَم محلّه كم من مرّة ضُربَ وأُهينَ ، وكم حُبسَ ، فقيل له إنَّك تقول : الرُّوحُ غَيرُ مَخْلوقَة ، فقال : لا أقولُ ذا ، ولا أقولُ إنَّها مَخْلوقَة ، بلْ أقولُ : الرُّوحُ من أمرِ رَبِّي ، فجَهِدُوا به ، فقال : ما أقولُ إلاَّ ما قالَ الله .

قال الذهبيُّ : هـٰذه هَفْوَةٌ ، بلْ لا رَيبَ في خَلْقِها ، ولمْ يكُنْ سُؤالُ اليَهودِ لنَبيِّنا صلى الله عليه وسلم عن خَلْقِها ، ولا قِدَمِها ، إنَّما سألوا عن ماهيَّتها وكَيفيَّتها ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] ، فهو مُبْدِعُ الأشْياءَ ومُوجِدُ كل فَصيح وأعْجَم ، ذاته وحياته وروحه وجسده ، وهو الذي خلق الموتَ والحياةَ والنُّفوسَ ، سُبْحانَه[3] .

ثم قال السُّلميُّ : وقيلَ له : إنَّك ذَهبتَ إلى النَّاووس وطُفْتَ به وقُلْتَ : هـٰذا طَوافي فتَنَقَّصْتَ بهـٰذا الكَعْبَة!! قال : ولكنَّهما مَخْلوقان لكن بها فَضْلٌ ليسَ هُنا ، وهـٰذا كمن يُكْرِمُ كَلباً ، لأنَّه خَلْقُ الله ، فعُوتِبَ في ذلك سنين .

قال الذهبيُّ : هـٰذه وَرْطَةٌ أخْرىٰ . أَفَتكونُ قِبْلَة الإسْلام ، كَقبرٍ يُطافُ به ، فقد لَعَنَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَنْ اتَّخَذَ قَبراً مَسْجِداً .

قال السُّلَميُّ : سَمعتُ جَدِّي يقولُ : منذُ عَرفْتُ النَّصْراباذيَّ ما عَرفتُ له جاهليَّة .

وقال الحاكمُ : هو لسانُ أهْلِ الحَقائق في عَصْرِه ، وصاحبُ الأحْوال الصَّحيحَة ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ الأعْرابي) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٤٣ .
(٢) سورة الزُّمَر ، الآية : ٦٢ .
(٣) انظر السير : (النَّصْراباذي) ١٦/ ٢٦٣ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٩٤ .

وكان يَعِظُ ويُذَكِّرُ ، وجاوَرَ في سنة خمسٍ وستّين ، وتَعبَّدَ حتىٰ دُفِنَ بمكَّة ، سنةَ سبع وستّين وثلاث مئة ، ودُفنَ عند الفُضَيلِ ، بيعَتْ كُتُبُه ، فكَشفت تلك الكُتبُ عن أحْوال والله أعلم[1] .

وسَمعتُه يقول : إن كان بعد الصدِّيقين مُوحِّدٌ فهو الحَلاَّج .

قال الذهبيُّ : وهٰذه وَرْطَةٌ أخْرىٰ ، بل قُتلَ الحَلاَّجُ بسيفِ الشَّرع على الزَّندَقَة ، وقد جَمعْتُ بَلاياهُ في جُزْأين ، وقد كان النَّصْرَاباذي صحبَ الشِّبْليَّ ومَشىٰ علىٰ حَذْوِه ، فوَاغَوْثاه بالله .

ومن كَلامِه : نِهاياتُ الأوْلياء بِداياتُ الأنْبياء[2] .

وقال القُشَيْريُّ : سَمعتُ السُّلميَّ يقولُ : خَرجتُ إلىٰ مَرْو في حياة الأستاذ أبي سَهْل الصُّعْلوكي ، وكان له قبلَ خروجي أيّام الجُمَع بالغَدَوات مَجْلسُ دور القُرآن بختم ، فوجدتُه عند رجوعي قد رفع ذلك المَجْلس ، وعَقَد لابن العُقابي في ذلك الوقت مَجْلسَ القول ، فداخَلَني من ذلك شيءٌ ، وكنتُ أقولُ في نفسي : اسْتبدَلَ مَجلسَ الخَتم بمجلس القول ـ يَعْني الغناء ـ فقال لي يوماً : يا أبا عبد الرحمٰن : أيش يقولُ النَّاسُ لي ؟ قلتُ : يقولون : رفعَ مَجْلسَ القُرآن ، ووضَعَ مَجلس القَولِ . فقال : مَنْ قالَ لأُسْتاذِه : لِمَ ؟ لا يُفْلِحُ أبداً .

قال الذهبيُّ : يَنْبَغي للمُريد أنْ لا يقولَ لأُسْتاذِه : لِمَ ، إذا عَلمَه مَعْصوماً لا يَجوزُ عليه الخَطأ ، أمَّا إذا كان الشيخُ غيرَ مَعْصومٍ وكَرِهَ قولَ : لِمَ ؟ فإنَّه لا يُفْلِحُ أبداً ، قال اللهُ تَعالىٰ : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[3] .

وقال تَعالَىٰ : ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[4] ، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[5] .

---

(١) انظر السير : (النَّصْراباذي) ١٦/ ٢٦٣ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٤ .
(٢) انظر السير : (النَّصْراباذي) ١٦/ ٢٦٣ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٥ .
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٢ .
(٤) سورة العصر ، الآية : ٣ .
(٥) سورة البلد ، الآية : ١٧ .

بَلىٰ هنا مُريدون أثقالٌ أنْكادٌ ، يَعتَرضون ولا يَقْتَدون ، ويَقولون ولا يَعمَلون ، فهَؤلاء لا يُفْلِحون .

قال الذهبيُّ : وللسُّلَميِّ سُؤالات للدَّارَقُطنيِّ عن أحْوالِ المَشايخ ، والرُّوَاة سُؤالَ عارفٍ ، وفي الجُمْلة ففي تَصانيفِه أحاديثُ وحكاياتٌ مَوْضوعَةٌ ، وفي « حَقائق تفسيره » أشياءَ لا تسوغُ أصْلاً ، عدَّها بعضُ الأئمَّة من زَنْدَقَة الباطنيَّة ، وعَدَّها بعضُهم عِرْفاناً وحَقيقةً ، نَعوذُ بالله من الضَلال ومن الكَلام بهَوىٰ ، فإنَّ الخَيرَ كُلَّ الخَيرِ في مُتابَعة السنَّة والتمَسُّك بهَدْي الصَّحابَة والتابعين ، رضي الله عَنهم .

ماتَ السُّلَميُّ ، سنةَ اثنَتي عَشرة وأربع مئة بنيسابور ، وكانت جنازَتُه مَشهودَة[1] .

١٥ـ مَنْ غَلا في مُحارَبَة الصُّوفيَّة :

جاء في ترجمة غُلام خَليل ، قال ابنُ الأعْرابيّ : قَدمَ من وَاسِط غُلامُ خَليل ، فذُكِرَت له هٰذه الشَّناعَات ـ يَعني خَوضَ الصُّوفيَّة ـ ودَقائقَ الأحْوال التي يَذُمُّها أهلُ الأثَر ، وذُكرَ له قَولُهم بالمَحَبَّة ، ويَبْلُغُه قولَ بَعضهم : نحنُ نُحبُّ رَبَّنا ويُحِبُّنا ، فأسْقَطَ عنَّا خَوْفَه بغلبةِ حُبِّه ـ فكان يُنْكِرُ هٰذا الخَطأ بخَطأ أغْلَظَ منه ، حتىٰ جَعَلَ مَحبَّةَ الله بدْعَةً ، وكان يقولُ : الخَوفُ أوْلَىٰ بنا . قال : وليسَ كما تَوهَّم ، بلْ المَحبَّة والخَوفُ أصْلان ، لا يَخْلو المؤمنُ منهُما ، فلم يزَلْ يقُصُّ بهم ، ويُحَذِّرُ منهم ، ويُغْري بهم السُّلطانَ والعامَّة ، ويقولُ : كان عندنا بالبَصْرَة قومٌ يقولون بالحُلول ، وقومٌ يقولون بالإباحَة ، وقومٌ يقولون كذا ، فانتَشَر في الأفْواه أن بِبَغْدادَ قَوماً يقولون بالزَّنْدَقَة .

وكانت تَميلُ إليه والدةُ الموَفَّق ، وكذلك الدَّولَة والعَوام ، لزُهْدِه وتَقَشُّفه ، فأمَرَت المُحْتَسبَ أن يُطيعَ غُلامَ خَليل ، فطَلَبَ القَومَ ، وبَثَّ الأعْوانَ في طَلبِهم ، وكُتِبوا ، فكانوا نيّفاً وسَبعين نَفْساً ، فاخْتَفىٰ عامّتُهم ، وبعضُهم خلَّصَتْه العامّة ، وحُبِسَ منهم جماعةٌ مدّة[2] .

---

(١) انظر السير : (السُّلَميّ) ١٧/ ٢٤٧ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٣٩ .

(٢) انظر السير : (غُلام خَليل) ١٣/ ٢٨٢ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٨٣ .

١٦ـ ضُلاَّل نَسَبوا أنفسَهم إلى التَّصَوُّف :

الحَلاَّج :

هو الحُسَينُ بنِ مَنصور بنُ مَحْمي ، أبو عبد الله ، الفارسيُّ ، البَيْضاويُّ الصُّوفيُّ ، والبَيْضاءُ : مَدينةٌ ببلاد فارس ، وكان جَدُّه مَحْميٌّ مَجوسيّاً .

وكان يصحِّح حالَه أبو العبَّاس بن عطاء ، ومحمد بن خفيف ، وإبراهيم أبو القاسم النصر آباذي .

وتَبرَّأ منه سائرُ الصُّوفيَّة والمَشايخ والعُلماء ، لِما سَترىٰ من سوء سيرته ومُروقه ، ومنهم من نسبَه إلى الحُلول ، ومنهم من نَسبَه إلى الزَّنْدَقَة وإلى الشَّعْبَذَة والزَّوْكَرة ، وقد تَستَّرَ به طائفةٌ من ذَوي الضَّلال والانْحِلال وانتَحلوه ورَوَّجوا به على الجُهَّال ، نَسْألُ اللهَ العِصْمَة في الدين .

قال أبو نصر السَّراج : صَحبَ الحَلاَّجُ عَمرو بنَ عُثْمان ، وسَرقَ منه كُتُباً فيها شيءٌ من علم التَّصوُّف ، فدَعا عليه عَمرو : اللَّهُم اقطَعْ يَديْه ورجلَيه .

قال ابنُ الوَليد : كان المَشايخُ يَستثْقلون كَلامَه ، ويَنالون منه لأنَّه كان يأخذُ نفسَه بأشياء تُخالِفُ الشَّريعَة ، وطَريقَةَ الزهَّاد ، وكان يَدَّعي المَحبَّة لله ، ويَظْهَرُ منه ما يُخالفُ دَعْواه .

قال الذهبيُّ : ولا رَيبَ أنَّ اتِّباعَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم ، عَلَمٌ لمَحَبَّة الله لقَوْلِه تَعالَىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1] .

قال السُّلميُّ : سَمعتُ أبا عليٍّ الهَمَذانيَّ يقولُ : سألتُ إبراهيمَ بنَ شَيْبانَ عن الحَلاَّج ، فقال : مَنْ أحَبَّ أنْ يَنظُرَ إلىٰ ثَمَراتِ الدَّعَاوَى الفاسدة فليَنظُرْ إلى الحَلاَّج وما صارَ إليه .

قال النَّديمُ : كان يَعْرفُ في الكيمياء ، وكان مِقْداماً جَسوراً على السَّلاطين ، مُرْتَكباً للعَظائم ، يَرومُ إقْلابَ الدِّوَل ، ويَدَّعي عند أصْحابِه الإلهيَّة ، ويقولُ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .

بالحُلولِ ، ويُظْهِرُ التَشَيُّعَ للمُلوك ، ومَذاهبَ الصُّوفيَّة للعَامَّة ، وفي تَضاعيف ذلك يَدَّعي أنْ الإلهيَّة حلَّت فيه ، تَعالَى اللهُ وتَقدَّسَ عمَّا يقول[1] .

قال التَّنُوخيُّ : أخْبَرَنا أبي قال : مِنْ مَخاريق الحَلاَّجِ : أنَّه كان إذا أرادَ سَفراً ومَعه مَنْ يَتنمَّسُ عليه ويَهُوسُه ، قدَّمَ قبلَ ذلك من أصْحابه الذين يَكشِفُ لهم الأمرَ ، ثمَّ يَمْضي إلى الصَّحْراءِ ، فيَدْفِنُ فيها كَعْكاً ، وسُكَّراً وسَويقاً ، وفاكِهةً يابِسَةً ، ويعلِّمُ علىٰ مَواضِعها بحَجَر ، فإذا خَرَجَ القَومُ وتَعِبُوا قال أصْحابُه : نُريدُ السَّاعَةَ كَذا وكَذا . فيَنْفَرِدُ ويُرَىٰ أنَّه يَدْعو ، ثمَّ يَجيءُ إلى المَوْضِعِ فيُخْرِجُ الدَّفينَ المَطلُوبَ منه ، أخْبَرَني بذلكَ الجَمُّ الغَفيرُ ، وأخْبَرُوني قالُوا : رُبَّما خَرَجَ إلىٰ بَساتينِ البَلَدِ ، فيُقدِّمُ مَنْ يَدْفنُ الفالوذَجَ الحار في الرُّقاقِ ، والسَّمَكَ السُّخنَ في الرُّقاقِ ، فإذا خَرَجَ طَلَبَ منه الرَّجُلُ ـ في الحالِ ـ الذي دَفَنَه ، فيُخْرِجُه هو .

وقال التَّنُوخيُّ : أخْبَرَنا أبي : سَمعتُ أحمَدَ بنَ يُوسُفَ الأزْرقُ : أنَّ الحَلاَّجَ لمَّا قَدمَ بَغدادَ اسْتَغْوَىٰ خَلقاً من النَّاسِ والرُّؤساءِ ، وكانَ طَمَعُه في الرَّافِضَةِ أقْوَىٰ لِدُخولِه في طَريقِهم ، فراسَلَ أبا سَهل ابنَ نوبخت يَسْتَغْويه وكانَ أبُو سَهل فَطِناً ، فقالَ لرَسُولِه : هٰذه المُعْجِزاتُ التي يُظْهِرُها يُمْكنُ فيها الحِيل ، ولَكنِّي رَجلٌ غَزِلٌ ، ولا لذَّةَ لي أكْبَرُ من النِّساءِ ، وأنا مُبْتَلىً بالصَّلَع ، فإنْ جَعَلَ لي شَعْراً ورَدَّ لِحْيَتي سَوداءَ ، آمَنْتُ بما يَدْعُوني إليه وقُلتُ : إنَّهُ بابُ الإمَام ، وإنْ شَاءَ قُلتُ : إنَّه الإمامُ ، وإنْ شاءَ قُلتُ : إنَّه النَّبيُّ ، وإنْ شاءَ قُلتُ : إنَّه اللهُ ، فآيَسَ الحَلاَّجُ منهُ وكَفَّ .

وقالَ الفَقيهُ أبو عليّ بنُ البَناءِ : كانَ الحَلاَّجُ قَد ادَّعَىٰ أنَّه إلَـٰهٌ وأنَّه يَقولُ بحُلُولِ اللاَّهُوتِ في النَّاسُوتِ ، فأحْضَرَهُ الوَزيرُ عليُّ بنُ عيسَىٰ فلَمْ يَجْدهُ ـ إذْ سَألَه ـ يُحْسِنُ القُرآنَ والفِقْهَ ولا الحَديثَ فقالَ : تَعَلُّمُكَ الفَرضَ والطَّهورَ أجْدَىٰ عَليكَ من رَسائِلَ لا تَدْري ما تَقُولُ فيها . كَمْ تَكتُبُ ـ وَيْلَك ـ إلى النَّاسِ : تَبارَكَ ذو النُّورِ الشَّعْشَعانيّ ؟! ما أَحْوَجَكَ إلىٰ أدَبٍ! وأمَرَ به فصُلِبَ في الجانِبِ الشَّرْقيِّ ، ثمَّ في الغَربيِّ ، ووَجَدَ في كُتُبِه : إنِّي مُغْرِقُ قَومِ نُوحٍ ، ومُهْلِكُ عادٍ وثَمُودَ.

---

(١) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ٤/١١٥٤ .

وكان يَقولُ للواحِدِ من أصْحابِه ، أنْتَ نُوحٌ ، ولآخَرَ : أنْتَ مُوسَىٰ ولآخَرَ : أنْتَ مُحمّدٌ .

وقالَ مُحمّدُ بنُ يَحْيَى الرَّازي : سَمعتُ عَمرَو بنَ عُثمانَ يَلْعنُ الحَلاَّجَ ويَقولُ : لَوْ قَدَرتُ عَليه لقَتَلتُه بيَدِي . فقُلتُ : أيش وَجَدَ الشَّيخُ عليه ؟ قالَ : قَرأتُ آيةً من كِتابِ الله فقال : يُمْكِنُني أنْ أُؤلِّفَ مِثلَه .

وقال أبُو يَعقُوبَ النُّعْمانيُّ : سَمعتُ أبا بَكر مُحمّدَ بنَ داوُدَ الفَقيهَ يَقولُ : إنْ كانَ ما أَنْزَلَ اللهُ علىٰ نَبيِّه حَقاً ، فما يَقولُ الحَلاَّجُ باطِلٌ ، وكان شَديداً عَليه[1] .

قالَ أبُو القاسِم التَّنُوخيّ : أخْبرَنا أبي : حَدَّثني حُسَينُ بنُ عَبَّاس عَمَّنْ حَضَرَ مَجلِسَ حامِد وجاؤُوهُ بدَفاتِر الحَلاَّجِ ، فيها : إنَّ الإنْسَانَ إذا أرادَ الحَجَّ فإنَّه يَسْتَغْني عنه بأنْ يَعمدَ إلىٰ بَيتٍ في داره ، فيَعْملُ فيه مِحْراباً ، ويَغْتَسلُ ويُحْرِمُ ويَقولُ كَذا وكَذا ، ويُصَلِّي كَذا وكَذا ، ويَطُوفُ بذلك البَيتِ ، فإذا فَرَغَ فقَد سَقَطَ عَنهُ الحَجُّ إلى الكَعْبةِ ، فأقَرَّ به الحَلاَّجُ وقالَ : هٰذا شيءٌ رَوَيتُه كَما سَمعتُه ، فتَعَلَّقَ بذلكَ عليه الوَزيرُ ، واسْتَفْتى القاضِيَينِ : أبا جَعفَر أحمدَ ابنَ البُهْلول ، وأبا عُمَرَ مُحمّدَ ابنَ يُوسُف ، فقال أبو عُمَر : هَٰذه زَنْدَقَةٌ يَجبُ بها القَتلُ . وقال أبو جَعفَر : لا يَجبُ بهٰذا قَتلٌ إلاَّ أنْ يُقِرَّ أنَّه يَعْتَقدُه ، لأنَّ النَّاسَ قد يَرْوُونَ الكُفرَ ولا يَعْتقِدُونَه ، وإنْ أخْبَرَ أنَّه يَعتَقِدُه اسْتُتيبَ منه ، فإنْ تابَ فلا شيء عليه، وإلاَّ قُتِلَ ، فعَمِلَ الوَزيرُ علىٰ فَتْوَىٰ أبي عُمَر علىٰ ما شاعَ وذاعَ من أمْرِه ، وظَهرَ من إلْحادِه وكُفْرِه فاسْتُؤذِنَ المُقتَدِرُ في قَتْلِه ، وكان قد اسْتَغوَىٰ نَصْراً القشُوريَّ من طَريقِ الصَّلاحِ والدِّين ، لا بما كان يَدعُو إليه ، فخَوَّفَ نَصرٌ السَّيدةَ أُمَّ المُقتَدِر من قَتْلِه وقال : لا آمَنُ أنْ يَلْحَقَ ابنُكِ عُقوبَةُ هٰذا الصَّالِح . فمَنَعَت المُقتدرَ من قَتْلِه ، فلَمْ يَقبَلْ ، وأمَرَ حامِداً بقَتْلِه ، فحُمَّ المُقتدرُ يَومَه ذلك ، فازْدادَ نَصرٌ وأُمُّ المُقتدِر افْتِتَاناً ، وتَشَكَّكَ المُقتدرُ ، فأنْفَذَ إلىٰ حامد يَمنَعُه من قَتْلِه ، فأخَّرَ ذلك أيّاماً إلىٰ أنْ عُوفِيَ المُقتدرُ ، فألَحَّ عليه حامدٌ وقال : يا أميرَ المُؤمنينَ ، هٰذا إنْ بَقِيَ قَلَبَ الشَّريعَةَ ، وارْتَدَّ خَلقٌ علىٰ يَدِه ، وأدَّىٰ ذلكَ إلىٰ زَوالِ سُلطانِك ، فدَعْني أقْتُلهُ ، وإنْ

---

(١) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/ ٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٥ .

أصابَكَ شَيءٌ فاقْتُلني ، فأذِنَ له في قَتْلِه ، فقتَلَه مِنْ يَومِه ، فلمَّا قُتِلَ قال أصْحابُه : ما قُتِلَ وإنَّما قُتِلَ بِرْذَوْنٌ كان لفُلان الكاتب ، نَفَقَ[1] . يومَئِذٍ وهو يَعودُ إلَيْنا بعدَ مُدّة ، فصارَتْ هـٰذه الجَهالَةُ مَقالَة طائِفَة . قال : وكانَ أكْثَرُ مَخاريق الحَلاَّج أنَّه يُظْهِرُها كالمُعْجِزاتِ ، يَسْتَغْوي بها ضَعَفَةَ النَّاسِ .

ثمَّ قُطِعَتْ يَدُه ، ثمَّ رِجلُه ، ثمَّ حُزَّ رَأسُهُ ، وأُحْرِقَتْ جُثَّتُه ، ونُصِبَ الرَّأسُ يَومَينِ ببَغْدادَ ، ثمَّ حُمِلَ إلىٰ خُراسَانَ وطِيفَ به . وأقْبَلَ أصْحابُه يَعِدُونَ أنْفُسَهُم برُجُوعِه بعدَ أرْبَعينَ يَوماً .

قال السُّلميُّ : وحُكِيَ عَنهُ أنَّه رُئِيَ واقِفاً في المَوْقِفِ ، والنَّاسُ في الدُّعاءِ ، وهو يَقولُ : أُنَزِّهُكَ عمَّا قَرَفَكَ به عبادُك ، وأبْرَأُ إليكَ ممَّا وَحَدَّكَ به المُوَحِّدون .

قال الذهبيُّ : هـٰذا عَينُ الزَّندَقَة ، فإنَّه تَبَرَّأَ ممَّا وَحَّدَ اللهَ به المُوحِّدون الذين هم الصَّحابَةُ والتَّابِعُونَ وسائِرُ الأمَّة ، فهلْ وَحَّدوهُ تَعالَىٰ إلاَّ بكلِمَةِ الإخْلاصِ التي قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَالَهَا مِنْ قَلْبِه فقَدْ حَرُمَ مَالُهُ ودَمُهُ » ، وهي : شَهادَةُ أنْ لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحمَّداً رسُولُ الله . فإذا بَرِىءَ الصُّوفيُّ منها ، فهُو مَلْعونٌ زِنْديقٌ ، وهو صُوفيُّ الزِّيِّ ، والظاهِر ، مُتسَتِّرٌ بالنَّسَبِ إلى العارِفينَ ، وفي الباطِنِ فهُو من صُوفيَّة الفَلاسِفَة أعْداءِ الرُّسُلِ كمَا كانَ جَماعَةٌ في أيّامِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مُنْتَسِبون إلىٰ صُحْبَتِه وإلىٰ مِلَّتِه ، وهُم في البَاطِنِ من مَرَدَةِ المُنافِقين ، وقَد لا يَعْرِفُهُم نَبيُّ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يَعْلَمُ بهم ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾[2] ، [3] .

فإذا جازَ علىٰ سيِّد البَشَر أنْ لا يَعْلَمَ ببعضِ المُنافقين ، وهم معه في المدينة سَنوات ، فالأوْلَىٰ أنْ يَخْفَىٰ حالُ جَماعة من المنافقين الفارغين علىٰ دين الإسلام بعده عليه السلام على العُلماء من أمَّتِه ، فما يَنْبَغي لك يا فَقيهُ أنْ تُبادرَ إلىٰ تَكْفيرِ المُسْلمِ إلاَّ

---

(١) نَفَق : أي مات.

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٠١ .

(٣) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٦ .

ببُرْهانٍ قَطعي ، كما لا يَسُوغُ لك أنْ تَعْتقدَ العِرْفانَ والوِلايَة فيمن قد تَبرهَنَ زَغَلُه ، وانْهَتَكَ باطِنُه وزَنْدَقَته ، فلا هـٰذا ولا هـٰذا ، بل العَدْلُ أنَّ مَنْ رآه المسلمون صالحاً مُحْسِناً ، فهو كذلك ، لأنَّهم شُهَداءُ الله في أرضِه ، إذِ الأُمَّة لا تَجْتَمعُ علىٰ ضَلالَة ، وأنَّ مَنْ رآه المسلمون فاجراً أو مُنافِقاً أو مُبْطِلاً ، فهو كذلك ، وأَنَّ مَنْ كان طائفَةٌ من الأُمَّة تُضَلِّلُه ، وطائفَةٌ من الأُمَّة تُثْني عليه وتُبَجِّلُه ، وطائفَةٌ ثالثةٌ تَقِفُ فيه وتَتورَّع من الحَطِّ عليه ، فهو ممَّن يَنْبَغي أن يُعْرَضَ عنه ، وأنْ يُفَوَّضَ أمرُه إلى الله ، وأن يُستغفَر له في الجُملَة ، لأنَّ إسْلامَه أصْليٌّ بيَقين ، وضَلالَه مَشْكوكٌ فيه ، فبهـٰذا تستَريحُ ويَصْفو قلبُك من الغِلِّ للمؤمنين .

ثم اعْلم أنَّ أهْلَ القبلَة كلُّهم ، مؤمنُهم وفاسِقُهم وسُنيِّهم ومُبتدِعُهم ـ سِوى الصحابَة ـ لم يُجْمعوا علىٰ مسلم بأنَّه سعيدٌ ناجٍ ، ولم يُجْمِعوا علىٰ مسلم بأنَّه شَقيٌّ هالك ، فهـٰذا الصدِّيقُ فردُ الأمَّة ، قد عَلمتَ تفرُّقَهم فيه ، وكذلك عُمَر ، وكذلك عُثْمان ، وكذلك عليّ ، وكذلك ابنُ الزُّبَير ، وكذلك الحَجَّاج ، وكذلك المَأمون ، وكذلك بِشْر المَريسي ، وكذلك أحمدُ بنُ حَنبَل ، والشَّافعي ، والبُخاري ، والنَّسَائي ، وهَلمَّ جرّا من الأعْيان في الخَير والشَّر إلىٰ يومك هـٰذا ، فما من إمام كامل في الخَير إلاَّ وثَمَّ أُناسٌ من جَهَلة المسلمين ومُبْتدعيهم يَذمُّونَه ويَحُطُّون عليه ، وما من رأسٍ في البدعَة والتجَهُّم والرَّفْض إلاَّ وله أُناسٌ يَنْتَصرون له ، ويَذبُّون عنه ، ويَدينون بقَوله بهَوىً وجَهل ، وإنَّما العِبرَةُ بقَول جُمهور الأُمَة الخالين من الهَوىٰ والجَهْل المُتصِفين بالوَرَع والعلم ، فتدبَّر ـ يا عبد الله ـ نِحْلَة الحَلاَّج الذي هو رأسٌ من رؤوس القَرامطَة ودُعاة الزَّندَقَة ، وأنْصِفْ وتَورَّع واتَّقِ ذلك ، وحاسب نفسَك ، فإنْ تَبرهَن لك أنَّ شَمائلَ هـٰذا المَرْء شَمائلَ عَدوٍّ للإسلام ، مُحبٍّ للرئاسَة حَريصٍ على الظُّهور بباطل وبحقٍّ ، فتَبرأ من نِحْلَته ، وإنْ تَبرهَن لك ، والعياذُ بالله ، أنَّه كان ـ والحالةُ هـٰذه ـ مُحِقّاً هادياً مَهديّاً ، فجَدِّدْ إسْلامَك واستَغِث بربِّك أن يُوفِّقك للحقِّ وأن يُثبِّتَ قلبَك علىٰ دينِه ، فإنَّما الهُدَىٰ نورٌ يَقذفُه اللهُ في قلبِ عبده المسلم ، ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله ، وإنْ شَكَكْتَ ولم تعرف حقيقَته ، وتَبرّأتَ ممَّا رُمِيَ به ، أرَحْتَ نفسَك ، ولمْ يَسْألكَ اللهُ عنه أصْلاً .

وقال أبو عُمرَ بن حَيوَة : لمَّا خَرجَ الحَلاَّجُ ليُقْتَل ، مَضَيتُ وزَاحَمتُ حتىٰ رأيتُه ، فقال لأصْحابه : لا يَهُولنَّكم ، فإنِّي عائدٌ إليكم بعدَ ثَلاثين يَوماً .

فهٰذه حكايةٌ صَحيحة تُوضِّحُ لك أنَّ الحَلاَّجَ مُمَخْرَقٌ كذَّاب ، حتىٰ عند قَتلِه .

وقال الصُّوليُّ : قيلَ : إنَّه كان في أوَّل أمرِه يَدعُو إلى الرِّضا من آلِ محمّد ، وكان يُري الجاهلَ أشْياء من شَعبَذَته ، فإذا وَثِقَ منه دَعاهُ إلىٰ أنَّه إلٰه[1] .

وقالَ ابنُ باكويه : سَمعتُ ابنَ خَفيف يُسألُ : ما تَعْتَقدُ في الحَلاَّج ؟ قالَ : أعْتقدُ أنَّه رَجلٌ من المُسْلِمين فَقَط . فقِيلَ له : قد كَفَّرَهُ المَشايخُ وأكْثَرُ المُسلِمينَ ، فقالَ : إنْ كانَ الذي رَأيْتُهُ مِنْهُ في الحَبْسِ لَمْ يَكُنْ تَوحِيداً ، فلَيسَ في الدُّنيا تَوحيدٌ .

قال الذهبيُّ : هٰذا غَلَطٌ من ابنِ خَفيف ، فإنَّ الحَلاَّجَ عندَ قَتلِهِ ما زالَ يُوَحِّدُ اللهَ ويَصيحُ : الله الله في دَمي ، فأنا على الإسْلامِ . وتَبرَّأ ممَّا سِوَى الإسْلام . والزِّنْديقُ فيُوَحِّدُ اللهَ عَلانيَةً ، ولكنَّ الزَّنْدَقَةَ في سِرِّهِ ، والمُنافِقُونَ فقد كانوا يُوَحِّدُونَ ويَصُومُونَ ويُصَلُّونَ عَلانيَةً ، والنِّفاقُ في قُلوبِهم ، والحَلاَّجُ فما كان حِماراً حتىٰ يُظْهرَ الزَّندَقَةَ بإزاء ابنِ خَفيف وأمْثالِه ، بلْ كان يَبُوحُ بذلك لمَنْ اسْتَوثَقَ مِنْ رِباطِه ، ويمكنُ أنْ يَكونَ تَزَندَقَ في وقْتٍ ، ومَرَقَ وادَّعَى الإلَهيّةَ ، وعَمِلَ السِّحرَ والمَخاريقَ الباطِلَةَ مُدّة ، ثم لمَّا نَزَلَ به البَلاءُ ورَأى المَوتَ الأحْمرَ أسْلَمَ ورَجَعَ إلى الحَقِّ ، واللهُ أعْلَمُ بسِرِّه ، ولكن مَقالَته نَبرأُ إلى اللهِ مِنْها ، فإنَّها مَحْضُ الكُفرِ ، نَسألُ اللهَ العَفْوَ والعَافيَةَ .

كان مَقْتَلُ الحَلاَّجِ في سَنَةِ تِسْعٍ وثلاثِ مِئَة[2] .

١٧ـ تَعليلٌ لبَعضِ ما يَسْمَعُه بَعضُ زُهَّاد المُتصَوِّفَة من المُخاطَبات :

جاء في ترجمة أحمد بن أبي الحَواريِّ ، قال الذهبيُّ : ثم إنَّ العابدَ العَريَّ من العِلْم ، متىٰ زَهدَ وتَبتَّلَ وجاعَ ، وخَلا بنفسِه ، وتركَ اللَّحْمَ والثِّمارَ ، واقْتصَر على

---

(١) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٨ .

(٢) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٩ .

الدُّقَّة والكِسْرَة ، صَفَتْ حَواسُّه ولَطُفَت ، ولازَمَتْه خَطراتُ النفس ، وسمعَ خِطاباً يتوَلَّدُ من الجُوعِ والسَّهَر ، لا وُجُودَ لذلك الخطاب ـ والله ـ في الخارجِ ، ووَلجَ الشَّيطانُ في باطِنِه وخرجَ ، فيَعْتَقدُ أنَّه قد وصلَ ، وخُوطِبَ وارتَقىٰ ، فيتمَكَّنُ منه الشَّيطانُ ، ويُوَسْوسُ له ، فينظُرُ إلى المؤمنينَ بعَينِ الازْدِراء ، ويَتذَكَّرُ ذُنوبَهم ، ويَنظُرُ إلىٰ نفسِه بعينِ الكَمال ، ورُبَّما آل به الأمرُ إلىٰ أنْ يَعتَقدَ أنَّه وَليٌّ ، صاحبُ كَراماتٍ وتَمكُّن ، ورُبَّما حصلَ له شَكٌّ ، وتَزَلْزلَ إيمانُه ، فالخلوَة والجُوع أبو جادِ التَّرَهُّب ، وليس ذلك من شَريعَتنا في شيء ، بلى السلوك الكامل هو الوَرَعُ في القُوت ، والوَرَعُ في المَنْطِق ، وحِفْظُ اللِّسان ، ومُلازَمةُ الذِّكْر ، وتَركُ مُخالَطة العامَّة ، والبُكاءُ على الخَطيئَة ، والتِّلاوَة بالتَّرْتيل والتَّدَبُّر ، ومَقْتُ النَّفس وذَمُّها في ذات الله ، والإكْثارُ من الصَّوم المَشْروع ، ودَوامُ التَّهَجُّد ، والتَّواضُعُ للمسلمين ، وصلةُ الرَّحِم والسَّماحَة وكَثرةُ البِشْر ، والإنْفاقُ مع الخَصاصَة ، وقَولُ الحَقِّ المُرِّ برِفْق وتُؤَدَة، والأمرُ بالعُرْف ، والأخذُ بالعَفو ، والإعْراضُ عن الجَاهلين ، والرِّباطُ بالثَّغْرِ ، وجِهادُ العَدوِّ ، وحَجُّ البَيتِ ، وتَناوُلُ الطيِّبات في الأحايين ، وكثرةُ الاستغفار في السَّحَر ، فهٰذه شَمائلُ الأولياء ، وصِفاتُ المحمَّديّين ، أماتَنا اللهُ علىٰ مَحبَّتِهم[1] .

وقال ابنُ هِلالَة : جَلستُ عند نَجْمِ الدِّين الكُبْرىٰ في الخلوَة مِراراً ، وشَاهَدتُ أمُوراً عَجيبَةً ، وسَمعتُ مَنْ يُخاطِبُني بأشْياءَ حَسَنَة .

قال الذهبيُّ : لا وُجودَ لمَنْ خاطَبَك في خلوتِك مع جُوعك المُفرط ، بلْ هو سَماعُ كلامٍ في الدِّماغ الذي قد طاشَ وفاشَ وبقيَ قَرعة كما يَتمُّ للمُبَرْسَم[2] والمَغْمور بالحُمّىٰ والمَجْنون ، فاجْزِمْ بهٰذا واعبُد اللهَ بالسُّنَن الثابتة تُفْلحْ[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن أبي الحَواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩٨٦ .
(٢) البرسام : عِلّة يُهْذَىٰ فيها .
(٣) انظر السير : (نَجم الدين الكُبرَىٰ) ٢٢/ ١١١ـ ١١٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٠ .

١٨ـ الخَرَّاز أوّلُ مَنْ تكلَّم في مُصْطَلَح الفَناء والبَقاء :

جاء في ترجمة الخَرَّاز ، قال الذهبيُّ : ويُقالُ إنَّه أوّل من تكلَّم في عِلم الفَناء والبَقاء[١] ، فأيُّ سَكْتَة فاتَته ، قصدَ خَيراً ، فولّد أمراً كَبيراً ، تَشبَّثَ به كلُّ اتِّحاديٍّ ضالّ .

وتُوفِّي سنة ستٍّ وثمانين ومئتين .

قال السُّلميُّ : هو إمامُ القَوم في كل فنٍّ من عُلومِهم ، له في مَبادىء أمره عَجائبٌ وكَرامات ، وهو أحْسَنُ القَوم كَلاماً ، خَلا الجُنَيد ، فإنَّه الإمامُ[٢] .

* * *

---

(١) انظر ما كتبه ابنُ القيم رحمه الله في « مَدارج السّالكين » (١/١٤٨ـ ١٧٣) عن الفَناء وأقسامه ومَراتبه ، وما هو مَذموم ، وما هو مَحمود .

(٢) انظر السير : (الخَرّاز) ١٣/٤١٩ـ ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٧ .

مَسائل عَقديّة مُتفرِّقة

١ـ التجْسيم :

جاء في ترجمة الطَّلَمَنْكيِّ ، قال الذهبيُّ : رأيتُ له كِتاباً في السنَّة في مُجلَّدين عامَّته جيِّد ، وفي بَعضِ تَبويبه ما لا يُوافَقُ عليه أبداً ، مثل : باب الجَنْب لله ، وذكرَ فيه : ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[١] ،[٢] .

٢ـ التَّشْبيه :

قال أبو سَهْل بنُ زياد القَطَّان ، أخْبرَنا محمدُ بنُ إسْماعيل التِّرمذيّ ، سَمعتُ نُعَيمَ بنَ حمَّاد يقول : مَنْ شَبَّهَ اللهَ بخَلقِه فقد كَفَر ، ومَنْ أنْكرَ ما وَصفَ به نفسَه فقد كَفَر ، ولَيسَ في ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه ولا رسُولُه تَشْبيه[٣] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الكَلامُ حقٌّ ، نَعوذُ بالله من التَشْبيه ومِن إنْكارِ أحاديثِ الصِّفات ، فمَا يُنكِرُ الثَّابتَ منها مَنْ فَقُهَ ، وإنَّما بعد الإيمان بها هنا مَقامان مَذمومان :[٤] .

تَأويلُها وصَرْفُها عن مَوضِع الخِطاب ، فما أوَّلَهَا السَّلَفُ ولا حَرَّفوا ألْفاظَها عن مَواضِعِها ، بل آمَنُوا بها ، وأمَرُّوها كما جاءَت[٥] .

المَقامُ الثاني : المُبالَغَةُ في إثْباتِها ، وتَصَوُّرِها من جِنسِ صِفاتِ البَشَر ، وتَشَكُّلِها في الذِّهْن ، فهـٰذا جَهلٌ وضَلالٌ ، وإنَّما الصِّفةُ تابعةٌ للمَوْصوفِ ، فإذا كانَ المَوْصوفُ

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٦ .
(٢) انظر السير : (الطَّلَمَنكي) ١٧/٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٥ .
(٣) انظر السير : (نُعيم بن حمّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٢/٨٩٩ .
(٤) انظر السير : (نُعيم بن حمّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩٩ . .
(٥) انظر السير : (نُعيم بن حمّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٤/٨٩٩ .

عَزَّ وجَلَّ لَمْ نَرَه ، ولا أخْبرَنا أحدٌ أنَّه عاينَه مع قَولِه لنا في تَنزيلِه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1] . فكَيفَ بَقي لأذْهانِنا مَجالٌ في إثْباتِ كَيفيّةِ الباريءِ ، تَعالى اللهُ عن ذلك ، فكذلك صِفاتُه المقدَّسَة ، نُقِرُّ بها ونَعتَقدُ أنَّها حقٌّ ، ولا نُمثِّلُها أصْلاً ولا نَتَشكَّلُها[2] .

وقالَ الضِّياءُ سَمعتُ الحَافِظَ اليُونينيّ يقولُ : لمَّا كُنتُ أسْمَعُ شَناعَةَ الخَلقِ على الحَنابِلَة بالتَّشْبيهِ عَزَمْتُ علىٰ سُؤالِ الشَّيخِ المُوَفَّق ـ ابنَ قُدامَة ـ وبَقيتُ أشْهُراً أريدُ أنْ أسْألَه ، فصَعَدتُ مَعَه الجَبَلَ ، فلمَّا كُنَّا عندَ دَارِ ابنِ مُحارِب قُلتُ : يا سَيِّدي ، وما نَطَقْتُ بأكْثَرَ مِنْ سَيِّدي ، فقالَ لي : التَّشْبيهُ مُسْتَحيلٌ فقُلتُ : لِمَ ؟ قالَ : لأنَّ مِنْ شَرْطِ التَّشْبيهِ أنْ نَرَى الشَيءَ ، ثمّ نُشَبِّهُه ، مَنْ الذي رَأى الله ثمّ شَبَّهَه لنَا ؟!! ، وذَكَرَ الضِّياءُ حِكاياتٍ في كَرَامَاته[3] .

٣ـ تَعليلٌ لانتشار عِلم الكَلام في المَغْرب والأنْدَلُس :

جاء في ترجمة أبي ذَرْ الهَرَوي ، قال الذهبيُّ : الحافظُ ، الإمامُ ، المُجَوِّدُ ، العَلاَّمَة ، شَيخُ الحَرم ، أبو ذَر ، عبدُ بنُ أحمد بن محمد ، المَعْروف ببلدِه بابنِ السَّمَّاك ، الأنْصاريُّ ، الخُرسانيُّ ، الهَرَويُّ ، المَالكيُّ ، صاحبُ التَّصانيف .

قال : وُلدتُ سنة خمسٍ أو ستٍّ وخمسين وثلاث مئة .

مات بمكّة ، سنة أربع وثلاثين وأربع مئة ، وكان علىٰ مَذهَب مالك ومَذْهَب الأشْعَريِّ[4] .

قال الذهبيُّ : أخذَ الكَلامَ ورأيَ أبي الحسَن عن القاضي أبي بَكْر بن الطيِّب ، وبثَّ ذلك بمكّة ، وحَملَه عنه المَغاربَةُ إلى المَغْرب ، والأندَلُس ، وقبل ذلك كانت عُلماء المَغْرب لا يَدخُلون في الكلام ، بل يُتقِنونَ الفِقْهَ أو الحَديث ، أو العَربيّة ،

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١ .

(٢) انظر السير : (نُعيم بن حمّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٠ .

(٣) انظر السير : (ابن قُدامَة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٨٢ .

(٤) انظر السير : (أبو ذَرْ الهَرَوي) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦١ .

ولا يَخوضون في المَعْقولات ، وعلىٰ ذلك كان الأصيليُّ ، وأبو الوَليد بنُ الفَرَضي ، وأبو عُمر الطَّلَمَنكيُّ ، ومَكِّي القَيْسيُّ ، وأبو عَمرو الدَّانيُّ ، وأبو عُمر بن عبد البَرِّ ، والعُلماءُ[1] .

٤ـ التَّعَلُّق بالقُبور :

(أ) أحْوالُ العَوامِّ المُتعلِّقين بالقُبور في القَرن الثامن :

جاء في ترجمة السيدة نفيسَة ، قال الذهبيُّ : ولِجَهَلة المِصْريّين فيها اعْتِقادٌ يَتجاوَزُ الوَصْف ، ولا يَجوزُ ممَّا فيه من الشِّرْك ، ويَسْجُدون لها ، ويَلْتَمسون منها المَغْفِرَة ، وكان ذلك من دَسائس دُعاة العُبَيديّة[2] ،[3] .

(ب) زيارةُ قَبر النبيِّ :

عن سُهَيل وسَعيد مولى المهري ، عن حَسن بن حَسَن بن عليّ أنَّه رأىٰ رجلاً وقفَ على البيت الذي فيه قَبرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يَدعو له ويُصلِّي عليه ، فقالَ للرجلِ : لا تَفْعَل فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَتَّخِذُوا بَيْتِي عِيداً ، ولا تَجْعَلُوا بُيُوتَكم قُبُوراً ، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ كنتُم ، فَإنَّ صَلاتَكم تَبْلُغُنِي » .

قال الذهبيُّ : هـٰذا مُرسَل ، وما استدَلَّ به حَسنٌ في فَتْواه باطلٌ من الدَّلالَة ، فمَنْ وَقَفَ عند الحُجْرَة المُقدَّسَة ذَليلاً مُسَلِّماً مُصَلِّياً علىٰ نبيِّه ، فيا طُوبَىٰ له ، فقد أحْسَنَ

---

(١) انظر السير : (أبو ذَرّ الهَرَوي) ١٧/ ٥٥٤ـ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦١ .

(٢) قال صاحبُ النُّزهَة : قال ابنُ كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٢٦٢) : وإلى الآن قد بلغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً جداً ، ولا سيَّما عَوام مصر ، فإنهم يطلقون فيها عبارات بشيعة مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك ، وألفاظاً يجب أن يعرفوا أنها لا تجوز ، وربما نسبها بعضهم إلىٰ زين العابدين ، وليست من سلالته ، والذي ينبغي أن يعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات ، وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسوية القبور وطمسها ، والمغالاة في البشر حرام ، ومن زعم أنها تفك من الخشب ، أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله تعالىٰ فهو مشرك ، رحمها الله وأكرمها .

(٣) انظر السير : (نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب) ١٠/ ١٠٦ـ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٥٦ .

الزِّيارَة ، وأجْمَلَ في التَّذَلُّل والحُبِّ ، وقد أتىٰ بعبادَةٍ زائدَة علىٰ مَنْ صَلَّىٰ عليه في أرضِه ، أو في صَلاتِه ، إذِ الزائرُ له أجرُ الزِّيارَة وأجْرُ الصَّلاة عليه ، والمُصَلِّي عليه في سائر البلاد له أجْرُ الصَّلاة فقط .

فمَنْ صَلَّىٰ عليه واحدةً صَلَّى اللهُ عليه عَشْراً ، ولكنَّ مَنْ زَارَه ـ صَلواتُ الله عليه ـ وأساء أدَبَ الزيارَة ، أو سَجَدَ للقَبرِ ، أو فَعلَ ما لا يُشْرَع ، فهـٰذا فعلَ حَسَناً وسَيِّئاً ، فيُعَلَّم برفِق ، واللهُ غَفورٌ رَحيم ، فوالله ما يَحْصُلُ الانْزعاجُ لمسلم ، والصِّياحُ وتَقْبيلُ الجُدْران ، وكَثرَةُ البُكاء ، إلاَّ وهو مُحبٌّ لله ولرَسولِه ، فحُبُّه المِعْيارُ والفَارِقُ بين أهْل الجَنَّة وأهْلِ النَّار ، فزيارَةُ قَبرِه صلى الله عليه وسلم من أفْضَلِ القُرَب ، وشَدُّ الرِّحال إلىٰ قُبور الأنْبياء والأوْلياء ، لئنْ سَلَّمْنا أنَّه غَيرُ مَأذونٍ فيه لعُمومِ قَوله صَلَواتُ الله عليه : « لا تَشُدُّوا الرِّحَالَ إلاَّ إلىٰ ثَلاثَة مَسَاجِد » ، فشَدُّ الرِّحال إلىٰ نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم مُستلزِمٌ لشَدِّ الرَّحْل إلىٰ مَسْجِده ، وذلك مَشْروعٌ بلا نِزاع ، إذْ لا وُصُولَ إلىٰ حُجْرَتِه إلاَّ بعد الدُّخُول إلىٰ مَسْجِده ، فليَبْدأ بتَحيَّة المَسْجد ، ثم بتَحيَّة صاحب المَسْجِد ، رَزَقَنا اللهُ وإيّاكم ذلك ، آمين[1] .

٥ـ ضَمَّةُ القَبْر :

بَيانُ أنَّ ضَمَّةُ القَبر بالنِّسْبَة للمؤمن الصَّالح لَيست عَذاباً :

عن عبدِ الرحمَـٰن بنِ جابر ، عن أبيه : لمَّا انتَهَوا إلىٰ قَبرِ سَعدِ بنِ مُعاذ ، نَزلَ فيه أربعَةٌ : الحَارِثُ بنُ أَوْس ، وأُسَيْدُ بنُ الحُضَير ، وأبو نائلَة سِلْكان ، وسَلَمَةُ بن سَلامَة بنِ وَقْش ، ورسُولُ الله صلى الله عليه وسلم واقِفٌ ، فلمَّا وُضِعَ في قَبرِه ، تَغيّرَ وَجْهُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وسَبَّحَ ثلاثاً ، فسَبَّحَ المسلمون حتى ارْتَجَّ البَقيعُ ، ثمّ كبَّرَ ثلاثاً ، وكبَّرَ المسلمون ، فسُئلَ عن ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « تَضايَقَ عَلَىٰ صَاحِبِكم القَبْرُ ، وضُمَّ ضَمَّةً لَوْ نَجَا منْها أحَدٌ لَنَجَا هو ، ثُمَّ فَرَّجَ اللهُ عَنْه » .

---

(١) انظر السير : (الحَسَنْ) ٤/ ٤٨٣ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٣٦ .

قال الذهبيُّ : هـٰذه الضَمَّةُ لَيست من عَذاب القَبْر في شيء ، بلْ هو أمرٌ يجدُه المؤمنُ كما يجدُ ألَمَ فَقْد وَلدِه وحَميمِه في الدُّنيا ، وكما يَجدُ من ألَمِ مَرَضِه ، وألَمِ خُروجِ نَفْسِه ، وألَمِ سُؤالِه في قَبْرِه وامْتِحانِه ، وألَمِ تأثُّره ببُكاءِ أهْله عليه ، وألَمِ قيامه من قَبْره ، وألَمِ المَوْقِف وهَولِه ، وألَمِ الوُرودِ على النَّار ، ونَحْوِ ذلك . فهـٰذه الأراجيفُ كلُّها قد تَنالُ العَبدَ وما هي من عَذاب القَبْر ، ولا من عَذاب جَهَنَم قطُّ ، ولكن العَبدَ التَّقيَّ يَرْفُقُ اللهُ به في بَعض ذلك أو كُلِّه ، ولا راحَةَ للمؤمن دُونَ لِقاء رَبِّه . قال اللهُ تعالَىٰ : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾[1] ، وقال : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾[2] . فنسألُ اللهَ العَفْوَ واللُّطْفَ الخَفي .

ومع هـٰذه الهزَّات ، فسَعدٌ ممَّن نَعلمُ أنَّه من أهْل الجَنَّة ، وأنَّه من أرْفَع الشُّهَداء رضي الله عنه ، كأنَّك يا هـٰذا تَظُنُّ أنَّ الفائزَ لا يَنالُه هَوْلٌ في الدَّارَين ، ولا رَوْعٌ ، ولا ألَمٌ ، ولا خَوْفٌ . سَل ربَّكَ العَافيَةَ ، وأنْ يَحْشُرَنا في زُمْرَة سَعد .

عن عائشَةَ ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « لَوْ نَجَا أَحَدٌ مِنْ ضَمَّةِ القَبْرِ ، لَنَجَا سَعدٌ »[3] .

٦ـ كيف يُدفَن النبيُّ صلى الله عليه وسلم في بَيتِ عائشةَ مع كونِه صلى الله عليه وسلم نَهَىٰ عن الدَّفْنِ في البُيوتِ وجَعْلِها مَقابر :

قال قُتَيْبَةُ : حدَّثَنا ابنُ لَهيعَة ، عن أبي الأسْود ، عن عُروَة ، عن عائشَة ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « اجْعَلُوا مِنْ صَلاتِكم في بُيوتِكم ، ولا تَجْعَلُوهَا عَلَيْكم قُبُوراً ، كما اتَّخَذَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَىٰ في بُيُوتِهم قُبُوراً ، وإنَّ البَيْتَ لَيُتْلَىٰ فيه القُرآنُ فَيَتَراءَىٰ لأهْلِ السَّمَاءِ كمَا تَتَراءَى النُّجُومُ لأهْلِ الأرْضِ » .

قال الذهبيُّ : هـٰذا حَديثٌ نَظيفُ الإسْناد ، حَسَنُ المَتْنِ ، فيه النَّهْيُ عن الدَّفْنِ في البُيوتِ ، وله شاهدٌ من طَريقٍ آخَر ، وقد نَهَىٰ عليه السلام أن يُبْنَىٰ على القُبورِ ، ولو

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٣٩.

(٢) سورة غافر ، الآية : ١٨ .

(٣) انظر السير : (سَعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٦٥ .

انْدَفَنَ النَّاسُ في بُيوتِهِم ، لصارَت المَقْبَرَةُ والبُيوتُ شَيئاً واحداً ، والصَّلاةُ في المَقْبَرَةِ فمَنْهيٌّ عنها نَهْيَ كَراهيَة ، أو نَهْيَ تَحْريم ، وقد قال عليه السلام : « أفْضَلُ صَلاةِ الرَّجُلِ في بَيْتِه إلاَّ المَكتُوبَة » . فناسَبَ ذلك ألاَّ تُتَّخَذَ المَساكِنُ قُبوراً .

وأمَّا دَفْنُهُ صلى الله عليه وسلم في بَيتِ عائشَة فمُخْتَصٌّ به ، كما خُصَّ ببَسْطِ قَطيفَةٍ تَحْتَه في لَحْدِه ، وكما خُصَّ بأنْ صَلُّوا عليه فُرادَىٰ بِلا إمام ، فكان هو إمامَهم حيّاً ومَيِّتاً في الدُّنْيا والآخِرَة ، وكما خُصَّ بتأخيرِ دَفْنِه يَومَين ، ويُكْرَه تأخيرُ أُمَّتِه ، لأنَّه هو أُمِنَ عليه التَّغْييرُ بخِلافِنا ، ثم إنَّهم أخَّرُوه حتىٰ صَلُّوا كُلُّهم عليه داخلَ بيتِه ، فطالَ لذلك الأمرُ ، ولأنَّهم تَرَدَّدُوا شَطرَ اليوم الأوَّل في مَوْتِه حتىٰ قَدمَ أبو بكر الصِّديقُ من السُّنْحِ ، فهٰذا كان سَبَبُ التأخير[1] .

٧ـ فِتْنَة خَلْق القُرآن :

(أ) فِتْنَة القَول بخَلْق القُرآن والمِحَنُ التي صاحَبَتْها :

قال ابنُ سَعدٍ : كان أبو مُسْهِرٍ راويَةَ سعيدِ بنِ عبد العَزيزِ ، وكان أُشْخِصَ من دِمَشْقَ إلى المَأمُونِ بالرَّقَّةِ ، فسَأَلَه عن القُرآنِ ، فقال : هُوَ كلامُ الله ، وأبَىٰ أنْ يقُولَ : مَخْلُوقٌ ، فدَعَا له بالنَّطْعِ والسَّيْفِ ليَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فلمَّا رأىٰ ذلكَ ، قال : مَخْلُوقٌ فتَرَكَهُ من القَتْلِ ، وقال : أمَا إنَّكَ لَوْ قُلتَ ذاكَ قبلَ السَّيْفِ ، لقَبِلْتُ منْكَ ، ولكنَّكَ تَخْرُجُ الآنَ فتقولُ : قُلتُ ذاكَ فَرَقاً من القَتْلِ ، فأمَرَ بحَبْسِه ببَغْدَادَ في رَبيعِ الآخر سَنَةَ ثمَانِ عشرة وماتَ بعدَ قليلٍ في الحَبْسِ في غُرَّةِ رَجَبَ من السَّنَة ، فشَهِدَهُ قومٌ كثيرٌ منْ أهْلِ بَغْدَادَ[2] .

قال حَنْبَلٌ : حَضرتُ أبا عبد الله وابن مَعين ، عند عَفَّان بعدما دَعاه إسْحاقُ بنُ إبراهيم للمِحْنَة ، وكان أوّل مَنِ امْتُحِنَ من النَّاس عَفّان ، فسألَه يَحْيَىٰ من الغَد بعدما امْتُحِنَ ، وأبو عبد الله حاضرٌ ونَحنُ مَعه ، فقال : أخْبِرْنا بما قال لك إسْحاق ؟ قال :

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/ ١١ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٢٢ .

(٢) انظر السير : (أبو مُسْهِر) ١٠/ ٢٢٨ـ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٧١ .

يا أبا زَكَريّا لمْ أُسَوِّدْ وَجْهَكَ ولا وُجوهَ أصْحابِك ، إنّي لم أجب ، فقال له : فكيف كان ؟ قال : دَعاني وقَرأ عليَّ الكتابَ الذي كتب به المأمون من الجَزيرَة ، فإذا فيه : امْتَحِنْ عَفَّانَ ، وادْعُهُ إلىٰ أن يقولَ : القُرآنُ كَذا وكَذا ، فإنْ قالَ ذلك فأقِرَّه علىٰ أمْرِه ، وإنْ لمْ يُجبْك إلىٰ ما كَتبتُ به إليك فاقْطَعْ عنه الذي يُجْرَىٰ عليه ـ وكان المَأمونُ يُجْري علىٰ عَفَّانَ كلَّ شَهرٍ خَمسَ مئة دِرْهَم ـ فلمَّا قَرأ عليَّ الكتابَ قال لي إسْحاقُ : ما تَقولُ ؟ فقَرأتُ عليه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] حتىٰ خَتَمْتُها ، فقُلتُ : أمَخْلوقٌ هـٰذا ؟ فقال : يا شَيخُ إنَّ أميرَ المؤمنين يقولُ : إنَّك إنْ لم تُجبْه إلى الذي يَدْعُوكَ إليه يَقْطَعُ عَنكَ ما يُجْري عليك . فقُلتُ : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2] فسَكَتَ عَنّي ، وانْصَرفْتُ ، فسُرَّ بذلك أبو عبد الله ويَحْيَىٰ .

قال الذهبيُّ : هـٰذه الحِكايَة تَدلُّ علىٰ جَلالَة عَفَّان وارتفاع شأنِه عند الدَّولَة ، فإنَّ غَيرَه امْتُحِنَ وقُيِّدَ وسُجِنَ ، وعَفَّان فما فَعَلوا معه غيرَ قَطْع الدَّراهم عنه[3] .

قال القاسمُ بنُ أبي صالح : سَمعتُ إبراهيمَ بنَ ديزيل يقولُ : لمَّا دُعيَ عَفَّانُ للمِحْنَة كنتُ آخذاً بلِجامِ حِمارِه ، فلمَّا حَضَرَ عُرِضَ عليه القَولُ ، فامْتَنعَ أنْ يُجيبَ ، فقيلَ له : يُحْبَسُ عَطاؤك ـ قال : وكان يُعْطَىٰ كُلَّ شَهرٍ ألفَ دِرْهم ـ فقال : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[4] ، فلمَّا رَجعَ إلىٰ داره عَذَلَه نِساؤُه ومَنْ في دارِه ، قال : وكان في دارِه نَحْوَ أرْبَعينَ إنْساناً ، فدَقَّ عليهم دافٌّ البابَ ، فدخلَ عليهم رجلٌ شَبَّهْتُه بسمَّان أو زَيَّات ، ومَعه كيسٌ فيه ألفُ دِرْهَم ، فقال : يا أبا عُثْمان ثَبَّتَكَ اللهُ كما ثَبَّتَ الدِّين ، وهـٰذا في كُلِّ شَهر[5] .

وجاء في ترجمة المُعْتَصِم ، قال الذهبيُّ : وامْتُحِنَ النَّاسُ بخَلقِ القُرآن ، وكَتبَ

---

(١) سورة الإخلاص ، الآية : ١ .
(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٢٢ .
(٣) انظر السير : (عَفَّان) ١٠/ ٢٤٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/٨٧٣ .
(٤) سورة الذاريات ، الآية : ٢٢.
(٥) انظر السير : (عَفَّان) ١٠/ ٢٤٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/٨٧٤ .

بذلك إلى الأمْصار ، وأخذَ بذلك المؤذِّنين وفُقَهاء المَكاتب ، ودامَ ذلك حتىٰ أزالَه المُتوَكِّلُ بعد أرْبَعةَ عَشرَ عاماً[1] .

وقال عُبَيدُ الله بنُ يَحْيَىٰ : حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ أسْباط ، قال : حُملَ رجلٌ مُقيَّدٌ ، فأُدخِلَ على ابنِ أبي دُواد بحُضورِ الوَاثِق ، فقالَ لأحْمدَ : أخْبرني عن ما دَعَوْتُم النَّاسَ إليه ، أَعَلِمَهُ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما دَعا إليه ، أمْ شيءٌ لم يَعْلَمْه ؟ قال : بَلْ عَلِمَه . قال : فكانَ يَسَعُه أن لا يَدعوَ النَّاسَ إليه ، وأنتُم لا يَسَعُكم ؟! ، فبُهِتُوا ، وضَحِكَ الوَاثِقُ ، وقامَ قابِضاً علىٰ فَمِه ، ودَخلَ مَجْلساً ، ومدَّ رجْلَيه وهو يقولُ : أمرٌ وَسِعَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يَسْكُتَ عنه ولا يَسَعُنا! ، ثم أمرَ أن يُعْطَى الشيخُ ثلاثَ مئة دينار ، وأنْ يُرَدَّ إلىٰ بَلدِه[2] .

وفي سنة إحْدىٰ وثلاثين : قَتلَ أحْمدَ بنَ نصرٍ الخُزاعيَّ الشَّهيدَ ظُلماً ، وأمرَ بامْتِحان الأئمَّة والمؤذِّنين بخَلْق القُرآن ، وافْتكَّ من أسْرِ الرُّوم أرْبعة آلاف وستَّ مئة نفس ، فقال ابنُ أبي دُواد : مَنْ لمْ يقُل : القُرآنُ مَخْلوقٌ ، فلا تَفْتكُّوه .

وفيها جاءَ المَجوسُ الأرْدمانيُّون في مَراكب من ساحِل البَحْر الأعْظَم ، فدَخلوا إشْبيليَّة بالسَّيفِ ، ولمْ يَكنْ لها سورٌ بعدُ ، فجهَّزَ لحَرْبهم أميرُ الأنْدَلُس ، عبدُ الرحمَـٰن المَرْوانيُّ ، جَيشاً ، فالتَقَوا ، فانْهَزَمَ الأرْدمانيُّونَ وأُسِرَ منهم أربعةُ آلاف ، ولله الحَمدُ[3] .

قال ابنُ عَمَّار المَوْصِليّ في « تاريخِه » : قال لي عليُّ بنُ المَديني : ما يَمْنَعُك أنْ تُكَفِّرَ الجَهْميّة ، وكُنتُ أنا أوّلاً لا أُكَفِّرُهم ؟ فلمَّا أجابَ عليٌّ إلى المِحْنَة ، كتبتُ إليه أُذَكِّرُه ما قال لي ، وأُذَكِّرُه اللهَ . فأخْبَرَني رجلٌ عنه أنَّه بَكىٰ حين قَرأَ كتابي . ثم رأيتُه بعدُ فقال لي : ما في قَلبي ممَّا قلتُ وأَجَبتُ إلىٰ أيِّ شيء ، ولكنِّي خِفْتُ أنْ أُقْتَل ،

---

(١) انظر السير : (المُعْتَصِم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٦/٨٧٨ .
(٢) انظر السير : (الوَاثق) ١٠/ ٣٠٦ـ ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٤/٨٨٠ .
(٣) انظر السير : (الوَاثق) ١٠/ ٣٠٦ـ ٣١٤ ، وانظر النزهة : ١/٨٨١ .

وتَعْلمُ ضَعْفي أنِّي لو ضُربتُ سَوْطاً واحداً لمِتُّ ، أو نَحْوَ هـٰذا[1] .

وقال ابنُ عَمَّار : ودَفعَ عَنِّي عليٌّ امْتِحانَ ابنِ أبي دُواد إيايّ ، شَفعَ فيَّ ودَفعَ في غَيرِ واحدٍ من أهْلِ الموصل من أجْلي ، فما أجابَ ديانةً إلاَّ خَوفاً[2] .

وقال عبدُ الرحمـٰن بنُ أبي حاتِم : كان أبو زُرْعَة تركَ الرِّوايَةَ عن عليٍّ من أجْلِ ما بَدا منه في المِحْنَة ، وكان والدِي يَرْوي عنه لِنُزوعِه عمَّا كان منه . قال أبي : كان عليٌّ عَلَماً في النَّاس في مَعْرفَة الحَديث والعِلَل .

قال الذهبيُّ : ويُرْوَىٰ عن عبد الله بن أحمدَ ، أنَّ أباه أمْسَكَ عن الرِّوايَة عن ابن المَدينيِّ ، ولمْ أرَ ذلك ، بلْ في « مُسْنَدِه » عنه أحاديثَ ، وفي « صَحيحِ البُخاري » عنه جُملة وافِرَة .

مات عليُّ بنُ المَديني بسامرَّاء في سنة أربع وثلاثين ومئتين[3] .

قال الصُّولِيُّ : كان أحمدُ بنُ نَصْرالخُزاعِيّ وسَهلُ بنُ سَلامَة حين كان المَأمُونُ بخُراسَان بايَعَا النَّاسَ على الأمر بالمَعْروف والنَّهيِّ عن المُنكَر ، ثم قَدِمَ المَأمُونُ فبايَعَه سَهْلٌ ، ولَزِمَ ابنُ نَصْرٍ بَيْتَه ، ثمَّ تَحَرَّك في آخِر أيام الوَاثِق ، واجتمَعَ إليه خَلْقٌ يَأمُرونَ بالمَعْروف ، قال : إلىٰ أنْ مَلَكُوا بَغْدادَ ، وتَعَدَّىٰ رَجُلانِ موسِران من أصحابه فبَذَلا مالاً وعَزَما على الوُثُوبِ في سنة إحْدَىٰ وثلاثين فنَمَا الخَبَرُ إلىٰ نائِبِ بَغْدادَ إسْحاقَ بنِ إبْراهِيمَ ، فأخَذَ أحمَدَ وصاحِبَيْه وجَمَاعَةً ، ووَجَدَ في مَنزِل أحَدِهما أعْلامَاً ، وضَرَبَ خادِماً لأحْمَدَ ، فأقَرَّ بأنَّ هـٰؤلاء كانوا يَأتُونَ أحمَدَ ليلاً ويُخْبِرُونه بما عَمِلوا . فحُمِلُوا إلىٰ سَامَرَّاء مُقَيَّدِين . فجَلَسَ الوَاثِقُ لهم ، وقال لأحمَدَ : دَعْ ما أُخِذْتَ له ، ما تقُولُ في القُرآنِ ؟ : قال : كَلامُ الله . قال : أفَمَخْلُوقٌ هو ؟ قال : كَلامُ الله . قال : فتَرَىٰ رَبَّكَ في القِيَامَة ؟ قال : كَذَا جَاءَت الرِّوايَةُ . قال : وَيْحَك يُرَىٰ كَمَا يُرَى المَحْدُودُ المُتَجَسِّمُ ، ويَحْوِيه مكانٌ ويَحْصُرُه نَاظِرٌ ؟ أنا كَفَرتُ بمَنْ هـٰذِه صِفَتُه ، ما تَقُولُون فيه ؟

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن المَديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٩٠٨/ ٣ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بن المَديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٩٠٨/ ٤ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بن المَديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٩٠٨/ ٥ .

فقال قاضي الجانِبِ الغَرْبيّ : هو حَلالُ الدَّمْ ، ووَافَقَه فُقَهَاءُ ، فأظْهَرَ أحمَدُ ابنُ أبي دُواد أنَّه كارِهٌ لقَتْله . وقال : شَيخٌ مُخْتلٌّ تغَيَّرَ عَقلُه ، يُؤَخَّر . قال الوَاثِقُ : ما أَرَاه إلاَّ مُؤَدِياً لكُفْرِه قائماً بما يَعْتَقِدُه ، ودَعَا بالصَّمْصَامَة وقام ، وقال : أَحْتَسِبُ خُطَايَ إلىٰ هٰذا الكَافِر ، فضَرَبَ عُنُقَه بعد أن مَدُّوا له رَأسَه بحَبْلٍ وهو مُقَيَّد ونُصِبَ رأسُه بالجانبِ الشَّرقِيّ ، وتُتُبِّعَ أصحابُه فسُجِنُوا[1] .

وعُلِّقَ في أُذُنِ أحمدَ بنِ نَصْر ورقةٌ فيها : هٰذا رأسُ أحمد بن نصر ، دَعاهُ الإمامُ هارون إلى القَولِ بخَلْقِ القُرآن ، ونَفْيِ التشْبيه ، فأبىٰ إلاَّ المُعانَدَة ، فجَعَلَه اللهُ إلىٰ نارِه ، وكتبَ محمدُ بنُ عبد المَلك[2] .

وقد كان ابنُ أبي دُوَاد يومَ المِحْنَة إلْباً على الإمام أحمد ، يقول : يا أميرَ المؤمنين ، اقْتُلْه ، هو ضالٌّ مُضِلٌّ[3] .

قال عبدُ الله بنُ أحمد : سَمعتُ أبي ، سَمعتُ بِشْرَ بنَ الوَليد ، يقول : اسْتَتَبْتُ أحمدَ بنَ أبي دُوَاد من قَوله : القُرآنُ مَخْلوقٌ في ليلةٍ ثلاثَ مَرّات ، ثم يَرْجِع[4] .

وجاء في ترجمة الإمام أحمدَ بنِ حَنْبَل ، قال الإمامُ الذهبيُّ مُتحدِّثاً عن الفِتْنَة : الصَّدْعُ بالحَقِّ عظيمٌ ، يَحْتاجُ إلىٰ قُوَّةٍ وإخْلاصٍ ، فالمُخْلِصُ بِلا قُوَّةٍ يَعْجِزُ عن القِيامِ به ، والقَويُّ بِلا إخْلاصٍ يُخْذَلُ ، فمَنْ قامَ بهما كاملاً ، فهُوَ صِدِّيقٌ . ومَنْ ضَعُفَ ، فلا أقَلَّ من التَّألُّمِ والإنْكارِ بالقَلْبِ ، ليْسَ وَرَاءَ ذلك إيمانٌ ، فلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ .

عن ثَوْبانَ قال : قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَخْوَفَ ما أخَافُ علىٰ أُمَّتِي الأئِمةُ المُضِلونَ ، وإذا وُضِعَ السَّيْفُ عليهِم ، لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُم إلىٰ يومِ القِيامَةِ ، ولا تَزَالُ طائِفَةٌ من أُمَّتِي على الحَقِّ ظاهِرِينَ ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُم أوْ خَذَلَهُم حتىٰ يَأْتِيَ أمْرُ اللهِ »

---

(١) انظر السير : (الخُزاعيُّ) ١١/١٦٦ـ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٨ .
(٢) انظر السير : (الخُزاعيُّ) ١١/١٦٦ـ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/٩١٩ .
(٣) انظر السير : (أحمدُ بن أبي دُوَاد) ١١/١٦٩ـ١٧١ ، وانظر النزهة : ١/٩٢١ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بن أبي دُوَاد) ١١/١٦٩ـ١٧١ ، وانظر النزهة : ٢/٩٢١ .

عن أبي سَعِيدٍ قال : قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكمْ نَفْسَهُ أنْ يَرَىٰ أَمْراً للهِ فيهِ مَقَالٌ ، فَلا يَقُولُ فيهِ ، فيُقَالُ لَهُ : مَا مَنَعَكَ ؟!! فيَقُولُ : مَخَافَةُ النَّاسِ . فيَقُولُ : فإيَّايَ كنْتَ أحَقَّ أنْ تَخَافَ »[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدَةً ، ودِينُهُم قَائماً في خِلافَةِ أبي بَكرٍ وعُمَرَ فلَمَّا اسْتُشْهِدَ قُفْلُ باب الفِتْنَةِ عُمَرُ رضي الله عنه ، وانْكَسَرَ البَابُ ، قَامَ رُؤوسُ الشَّرِّ على الشَّهيدِ عُثْمانَ رضي الله عنه حتّىٰ ذُبِحَ صَبْراً . وتَفَرَّقَتْ الكَلمَةُ وتَمَّتْ وَقْعَةُ الجَمَلِ ، ثم وَقعَةُ صِفّينَ ، فظَهَرت الخَوارِجُ ، وكَفَّرَتْ سَادَةَ الصَّحابَةِ ، ثم ظَهَرَت الرَّوافِضُ والنَّواصِبُ[2] .

وفي آخِرِ زَمَنِ الصَّحابَة ظَهَرت القَدَريّة ، ثم ظَهَرَت المُعْتَزِلَةُ بالبَصْرَة ، والجَهْميّة والمُجَسِّمَة بخُراسَانِ في أثْناءِ عَصْرِ التَّابِعِين مع ظُهورِ السُّنَّةِ وأهْلِها إلىٰ بَعدِ المِئَتين ، فظَهَرَ المَأمُونُ الخَليفَة ـ وكانَ ذَكيّاً مُتَكَلِّماً ، له نَظَرٌ في المَعْقُولِ ـ فاسْتَجْلَبَ كُتُبَ الأوائِل ، وعَرَّبَ حِكْمَةَ اليُونانِ ، وقَامَ في ذلكَ وقَعَدَ ، وخَبَّ ووَضَعَ ، ورَفَعَت الجَهْميّةُ والمُعْتزِلَةُ رُؤُوسَهَا ، بلْ والشِّيعَةُ ، وآلَ به الحَالُ إلىٰ أنْ حَمَلَ الأمَّةَ على القَولِ بخَلْقِ القُرآنِ ، وامْتَحَنَ العُلمَاءَ ، فلَمْ يُمْهَلْ ، وهَلكَ لعامِه ، وخَلَّىٰ بعدَه شَراً وبلاءً في الدين . فإنَّ الأُمَّة ما زالت علىٰ أنَّ القُرآنَ العَظيمَ كلامُ الله تَعالَىٰ ووَحْيُه وتَنزيلُه ، لا يَعرفون غَير ذلك ، حتىٰ نَبغَ لهم القولُ بأنَّه كلامُ الله مَخْلوق مَجْعول ، وأنَّه إنَّما يُضافُ إلى الله تَعالَىٰ إضافةَ تَشْريف ، كبَيت الله ، وناقَة الله . فأنْكرَ ذلك العلماءُ ولَمْ تكن الجَهْميّة يَظهرون في دَولة المَهدي والرَّشيد والأَمين ، فلمَّا وَلِيَ المأمونُ ، كان منهم ، وأظهَرَ المَقالة .

رَوىٰ أحمدُ بنُ إبراهيم الدَّوْرَقي ، عن محمدِ بنِ نوح : أنَّ الرَّشيدَ قالَ : بَلَغَني أنَّ بِشْرَ بنَ غِياث المَريسي ، يقولُ القُرآنُ مَخْلوق ، فلِلَّه عليَّ إنْ أظْفَرَني اللهُ به ، لأقْتُلَنَّه .

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٣١ .

(٢) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٢ .

قال الدَّوْرَقيُّ : وكان مُتَوارياً أيام الرَّشيد ، فلمَّا ماتَ الرَّشيدُ ظَهَرَ ودَعا إلى الضَّلالَة[1] .

قال الذهبيُّ : ثم إنَّ المَأمونَ نَظَرَ في الكَلام ، وناظَر ، وبَقِيَ مُتَوقِّفاً في الدُّعاء إلىٰ بِدْعَته[2] .

وقال أبو الفَرْجُ بنُ الجَوْزيّ : خَالَطَه قومٌ من المُعْتَزِلَة ، فحَسَّنوا له القَوْلَ بخَلْقِ القُرآن ، وكان يَتردَّدُ ويُراقِبُ الشُّيوخَ ، ثم قَوِيَ عَزْمُه وامْتَحنَ النَّاسَ .

وعن ابنِ عَرْعَرَة ، حدَّثني ابنُ أكْثَم ، قال : قال لنا المَأمونُ : لَولا مَكانُ يَزيدَ بنِ هارون ، لأظْهَرتُ أنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ ، فقال بعضُ جُلسائه : يا أميرَ المؤمنين ، ومَنْ يَزيدُ حتىٰ يُتَّقَى ؟ فقال : وَيْحَك!! إنِّي أخافُ إنْ أظْهَرْتُه فيَرُدَّ عليَّ يَختلفُ الناسُ ، وتَكونُ فِتنةً ، وأنا أكْرهُ الفِتنَةَ . فقال الرجلُ : فأنا أخْبُرُ ذلكَ منه ، قال له : نَعَم ، فخرجَ إلىٰ وَاسِط ، فجاءَ إلىٰ يَزيدَ ، وقال : يا أبا خالد ، إنَّ أميرَ المؤمنين يُقرئُك السَّلامَ ، ويقولُ لك : إنِّي أُريدُ أنْ أُظْهِرَ خَلقَ القُرآنِ ، فقال : كَذبتَ علىٰ أميرِ المؤمنين . أميرُ المؤمنين لا يَحملُ النَّاسَ علىٰ ما لا يَعْرفُونَه ، فإنْ كُنتَ صادقاً ، فاقْعُد . فإذا اجْتمَعَ النَّاسُ في المَجْلسِ ، فقُلْ . قال : فلمَّا كان الغَدُ ، اجتمعوا . فقامَ ، فقال كمَقالَتِه ، فقال يَزيدُ : كَذبتَ علىٰ أميرِ المؤمنين ، إنَّه لا يَحملُ النَّاسَ علىٰ ما لا يَعرفُونه ، وما لَمْ يَقُلْ به أحَدٌ . قال : فقَدِمَ ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، كُنتَ أعْلمَ ، وقَصَّ عليه ، قال : وَيْحَك يُلْعَبُ بك!! .

قال صالحُ بنُ أحمد : سَمعتُ أبي يقولُ : لمَّا دَخَلْنا علىٰ إسْحاقَ ابنِ إبْراهيمَ للمِحْنة ، قَرأ عَلينا كتابَ الذي صار إلىٰ طَرَسُوس ، يَعْني : المَأمونَ ، فكان فيما قُرِئَ علينا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٣٢ .
(٢) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٣ .
(٣) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1] ، فقلتُ : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[2] .

قال صالحٌ : ثم امتُحنَ القومُ ، ووُجِّهَ بمن امتنعَ إلى الحَبْس ، فأجابَ القومُ جَميعاً غَيرَ أرْبَعَة : أبي ، ومحمّد بن نُوح ، والقَواريري ، والحَسن ابن حمّاد سجَّادة . ثم أجابَ هـٰذان ، وبَقيَ أبي ومحمد في الحَبْس أيّاماً ، ثم جاء كتابٌ من طَرَسوس بحَمْلِهما مُقَيَّدَين زَميلَين[3] .

وعن الأصَم ، حدَّثنا عبّاسُ الدُّوريُّ : سَمعتُ أبا جَعْفرٍ الأنْباري يقول : لمّا حُملَ أحْمدُ إلى المأمونِ ، أُخْبرتُ ، فعَبرتُ الفُراتَ ، فإذا هو جالسٌ في الخان ، فسَلَّمتُ عليه ، فقال : يا أبا جَعْفَر ، تَعنَّيْتَ ، فقلتُ : يا هـٰذا أنتَ اليومَ رأسٌ ، والنَّاسُ يَقْتَدونَ بك ، فوالله لئن أجبتَ إلىٰ خَلقِ القُرآن لَيُجيبَنَّ خَلقٌ ، وإنْ أنتَ لمْ تُجِبْ ، لَيَمْتَنعَنَّ خَلقٌ من النَّاس كَثير . ومع هـٰذا فإنَّ الرجلَ إنْ لمْ يَقْتُلْكَ فإنَّكَ تموتُ ، لا بُدَّ من المَوْت ، فاتَّقِ اللهَ ولا تُجِبْ ، فجَعلَ أحمدُ يَبْكي ، ويقولُ : ما شاءَ الله . ثم قال : يا أبا جَعْفَر ، أَعدْ عليَّ ، فأعَدتُ عليه ، وهو يقولُ : ما شاء الله[4] .

وقال محمَّدُ بنُ إبْراهيمَ البوشَنْجي : جَعلوا يُذاكرون أبا عبد الله بالرَّقة في التَّقيَّة وما رُويَ فيها . فقال : كيف تَصْنَعون بحَديثِ خَبَّاب : « إنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكمْ كانَ يُنْشَرُ أَحَدُهُم بالمِنْشَارِ ، لا يَصُدُّهُ ذَلكَ عَنْ دِينِهِ » فأَيسْنا منه[5] .

وقال : لَستُ أُبالي بالحَبْس ، وما هو ومَنْزلي إلاَّ واحدٌ ، ولا قَتلاً بالسَّيفِ إنَّما أخافُ فِتنَةَ السَّوْط . فسَمعَه بعضُ أهل الحَبْس ، فقال : لا عَليك يا أبا عبد الله ، فما هما إلاَّ سَوْطان ، ثم لا تَدري أين يَقعُ الباقي ، فكأنَه سُرِّيَ عنه[6] .

وعن محمَّدِ بنِ إبْراهيمَ بنِ مُصْعَب ، وهو يومئذٍ صاحبُ شُرطَة المعتصم خِلافَةً

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٢ .
(٢) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .
(٣) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٣ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٣٣ .
(٥) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٤ .
(٦) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٤ .

لأخيه إسْحاقَ بنِ إبْراهيم ، قال : ما رأيتُ أحداً لم يُداخِلِ السُّلطانَ ، ولا خَالَطَ المُلوكَ ، كان أثْبَتَ قَلْباً من أحمدَ يومئذ ، ما نحنُ في عَينه إلاَّ كأمثال الذُّباب .

قال صالحُ بنُ أحمد : قال أبي : فلمَّا صِرْنا إلىٰ أَذَنَة ، ورَحَلنا منها في جوف اللَّيل ، وفُتحَ لنا بابُها ، إذا رجلٌ قد دَخلَ . فقال : البُشْرَىٰ! قد ماتَ الرجلُ ـ يَعْني المَأمونَ ـ قال أبي : وكنتُ أدْعو اللهَ ألا أراه .

وبَقيَ أحمدُ مَحْبوسَاً بالرَّقّة حتىٰ بُويعَ المُعْتصمُ إثْرَ مَوتِ أخيه ، فرُدَّ أحمدُ إلىٰ بَغْداد[1] .

قال أبو عبد الله : ما رأيتُ أحداً علىٰ حَداثَة سِنِّه ، وقدْرِ عِلْمِه أقوَمَ بأمر الله من محمّدِ بنِ نُوح ، إنِّي لأرجو أن يكون قَدْ خُتمَ له بخَير ، قال لي ذاتَ يوم : يا أبا عبد الله ، الله . الله ، إنَّكَ لَستَ مثلي . أنتَ رجلٌ يُقْتَدَىٰ بك . قد مَدَّ الخَلقُ أعْناقَهم إليك ، لِمَا يكون منك ، فاتَّقِ اللهَ واثْبُتْ لأمر الله ، أو نَحْو هـٰذا . فماتَ ، وصَلَّيتُ عليه ودَفَنْتُه .

قال صالحٌ : وصارَ أبي إلىٰ بَغْدادَ مُقيَّداً ، ثم حُبسَ في دارٍ اكتُريت عند دار عُمارة ، ثم حُوِّلَ إلىٰ حَبْسِ العامّة في درب المَوْصِليَّة . فقال : وذلك بعد مَوْت المَأمونِ بأربعةَ عَشر شَهراً ، حُوِّلتُ إلىٰ دار إسْحاقَ ابنِ إبراهيمَ ـ يَعْني : نائبَ بَغداد .

فلمَّا كان في اللَّيلة الرابعة ، وَجَّهَ ـ يَعْني المُعْتَصم ـ بِبُغا الكَبير إلىٰ إسْحاقَ ، فأمرهُ بحَملي إليه ، فأُدْخلتُ علىٰ إسْحاقَ ، فقال : يا أحمدُ إنَّها والله نَفْسُك ، إنَّه لا يَقتُلُك بالسَّيفِ ، إنَّه قد آلَىٰ ، إنْ لَمْ تُجِبْهُ ، أن يَضربَكَ ضَرباً بعد ضَرب وأنْ يَقْتُلَكَ في مَوضعٍ لا يُرىٰ فيه شَمسٌ ولا قَمرٌ . أليسَ قد قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[2] . أفَيكونُ مَجْعولاً إلاَّ مَخْلوقاً ؟ فقلتُ : فقد قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[3] ، أفخَلَقَهم ؟ قال : فسكتَ ، فلمَّا صِرْنا إلى المَوْضع المَعروف بباب

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٣٤ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٣ .

(٣) سورة الفيل ، الآية : ٥ .

البُسْتان أُخرجتُ ، وجيءَ بدابةٍ فأُركبتُ وعليَّ الأقْيادُ ، ما مَعي مَن يُمْسِكُني ، فكِدتُ غيرَ مرَّة أن أخِرَّ علىٰ وَجْهي لِثقلِ القيود . فجيءَ بي إلىٰ دار المُعْتَصم ، فأُدخلتُ حُجْرةً ، ثم أُدخلتُ بَيتاً ، وأُقفِلَ البابُ عليَّ في جَوفِ اللَّيل ، ولا سِراج ، فأردْتُ الوُضوءَ ، فمَدَدتُ يَدي ، فإذا بإناءٍ فيه ماءٌ ، وطسْتٌ مَوضوعٌ ، فتَوَضأتُ وصَلَّيتُ .

فلمَّا كان من الغَد ، أَخرجتُ تَكَّتي ، وشَدَدتُ بها الأقْيادَ أحْملُها وعطفتُ سَراويلي . فجاء رسُولُ المُعْتَصم ، فقال : أَجبْ ، فأخذَ بيَدي ، وأدخلَني عليه ، والتَّكَّةُ في يدي ، أحْملُ بها الأقْيادَ ، وإذا هو جالسٌ ، وأحمدُ بنُ أبي دُوَاد حاضرٌ ، وقد جَمعَ خَلقاً كَثيراً من أصْحابه ، فقال لي المُعْتَصمُ : ادْنُه . ادْنُه . فلم يَزَلْ يُدْنيني حتىٰ قَرُبتُ منه ، ثم قال : اجْلسْ . فجَلَسْتُ ، وقد أثقَلَتْني الأقْيادُ ، فمَكثَ قَليلاً ، ثم قُلتُ : أتَأذَنُ في الكلام ؟ قال : تكلَّمْ ، فقلتُ : إلىٰ ما دَعا اللهُ ورسولُه ؟ فسَكتَ هُنَيْهَةً ، ثم قال : إلىٰ شَهادة أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، فقُلتُ : فأنا أشْهَدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله . ثم قلتُ : إنَّ جَدَّكَ ابنَ عبّاس يقول : لَمَّا قَدمَ وَفْدُ عبد القَيْس علىٰ رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، سَألوه عن الإيمان ، فقال : « أَتَدْرُونَ مَا الإيمَانُ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُه أعْلم ، قال : « شَهَادَةُ أنْ لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، وأنَّ مُحمَّداً رَسُولُ الله ، وإقَامُ الصَّلاة ، وإيتَاءُ الزَّكاة ، وأنْ تُعْطُوا الخُمْسَ مِنَ المَغْنَم » . قال أبي : فقال ـ يَعْني المُعْتَصم : لَوْلا أنِّي وَجَدتُك في يَد مَنْ كان قَبْلي ، ما عَرَضْتُ لك[1] .

ثم قال : يا عبدَ الرحمَـٰن بنَ إسْحاق ، ألَمْ آمُرْكَ برَفْع المحْنَة ؟ فقلتُ : اللهُ أكْبر ! ! إنَّ في هـٰذا لَفَرَجاً للمُسلمين . ثم قال لهم : ناظِروه وكَلِّموه ، يا عبدَ الرحمَـٰن كَلِّمْه . فقال : ما تَقولُ في القُرآن ؟ قلتُ : ما تَقولُ أنتَ في عِلْم الله ؟ فسَكتَ ، فقال لي بَعضُهم : أليسَ قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] . والقُرآنُ أليسَ شَيئاً ؟ فقلتُ : قال اللهُ : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٣٤ .
(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٦ .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٥ .

فدمَّرَت إلاَّ ما أرادَ الله . فقال بعضُهم : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[1] . أفَيكونُ مُحدَثٌ إلاَّ مخْلُوقاً . فقلتُ : قال اللهُ : ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[2] فالذكْرُ هو القرآنُ ، وتلك ليسَ فيها ألف ولام . وذَكرَ بعضُهم حَديثَ عِمْرانَ بنِ حُصَين : « إنَّ اللهَ خَلَقَ الذِّكرَ » فقلتُ : هـٰذا خَطأٌ ، حدَّثَنا غَيرُ واحد : « إنَّ اللهَ كتَبَ الذِّكرَ » . واحْتجُّوا بحَديث ابنِ مَسْعود : « مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ جَنَّةٍ ولا نَارٍ ولا سَماءٍ ولا أَرْضٍ أَعْظَمَ مَنْ آيَةِ الكرْسِيِّ » . فقلتُ : إنَّما وَقعَ الخَلقُ على الجَنَّة والنَّارِ والسَّماء والأرضِ ، ولمْ يَقعْ على القُرآن . فقال بعضُهم : حَديثُ خَبَّاب : « يا هَنَتاه تَقَرَّب إلى اللهِ بما اسْتَطَعْتَ ، فَإنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إليهِ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليهِ مَنْ كلامِه » . فقلتُ : هـٰكَذا هو .

قال صالحٌ : وجَعلَ ابنُ أبي دُوَاد يَنظرُ إلىٰ أبي كالمُغْضَب . قال أبي : وكان يتكلَّمُ هـٰذا ، فأردُّ عليه . ويَتكلَّمُ هـٰذا فأرُدُّ عليه ، فإذا انقَطعَ الرجلُ منهم ، اعْتَرضَ ابنُ أبي دُوَاد ، فيقولُ : يا أميرَ المؤمنين ، هو والله ضالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدعٌ!! فيقولُ : كلِّموه ، نَاظِروه . فيُكلِّمُني هـٰذا ، فأردُّ عليه ، ويُكلِّمُني هـٰذا فأرُدُّ عليه . فإذا انقَطَعوا ، يقول المُعْتَصمُ : وَيْحَكَ يا أحمَد ، ما تَقولُ ؟ فأقولُ : يا أميرَ المؤمنين ، أَعْطوني شَيئاً من كتاب الله أو سُنَّة رَسولِه ، صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ أقولَ به . فطالَ المَجْلسُ ، وقامَ ، ورُدِدْتُ إلى المَوْضِع .

فلمَّا أصْبحنا ، جاء رسولُه ، فأخذَ بيَدي حتىٰ ذهبَ بي إليه ، فقال لهم : ناظِروه وكَلِّموه ، فجَعلوا يُناظِروني ، فأرُدُّ عليهم ، فإذا جاؤوا بشيء من الكَلامِ ممَّا ليسَ في الكتاب والسُّنَّة ، قلتُ : ما أدْري ما هـٰذا ، قال : فيقولون : يا أميرَ المؤمنين ، إذا تَوَجَّهَتْ له الحُجَّة عَلينا ، وإذا كلَّمْناه بشيء ، يقول : لا أدْري ما هـٰذا ؟ فقال : ناظِروه ، فقال رجلٌ : يا أحمدُ ، أراكَ تذكرُ الحَديثَ وتَنْتَحلُه ، فقلتُ : ما تقولُ في قَوله : ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[3] ، قال : خصَّ الله بها

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٢ .
(٢) سورة ص ، الآية : ١ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ١١ .

المؤمنين ، قلتُ : ما تقولُ إنْ كان قاتلاً أو عَبْداً ؟ فسَكتَ ، وإنَّما احْتَجَجْتُ عليهم بهـٰذا ، لأنَّهم كانوا يَحْتَجُّونَ بظاهر القُرآن ، فحَيثُ قال لي : أراكَ تَنْتَحِلُ الحَديثَ ، احْتَجَجْتُ بالقُرآن ، يَعني : وإنَّ السُّنَّة خَصَّصَت القاتلَ والعَبْدَ ، فأخْرَجَتهُما من العُموم ، قال : فلمْ يَزالوا كذلك إلىٰ قُرْب الزَّوال ، فلمَّا ضَجِرَ ، قال : قُوموا ، ثم خَلا بي ، وبعبدِ الرحمَـٰنِ بنِ إسْحاق ، فلمْ يَزَلْ يُكلِّمُني ، ثم قامَ ودَخلَ ، ورُدِدْتُ إلى المَوْضع .

قال : فلما كانت الليلة الثالثة ، قلتُ : خَليقٌ أنْ يَحْدُثَ غداً من أمري شيءٌ ، فقلتُ للمُوَكَّل بي : أُريدُ خَيطاً ، فجاءَني بخَيطٍ ، فشَدَدْتُ به الأَقْيادَ ، ورَدَدْتُ التَّكَّة إلىٰ سَراويلي مَخافَةَ أن يَحْدُثَ من أمْري شيءٌ فأتَعَرَّىٰ . فلمَّا كان من الغد أُدخِلتُ إلى الدَّار ، فإذا هي غاصَّةٌ فجَعَلتُ أدخلُ من مَوْضع إلىٰ مَوْضع ، وقومٌ مَعَهم السُّيوف ، وقَومٌ مَعَهم السِّياط وغَيرُ ذلك ، ولم يكنْ في اليومين الماضيين كَبيرُ أحدٍ من هَؤلاء . فلما انتَهيتُ إليه قال : اقْعُد . ثم قال : ناظِروه ، كَلِّموه ، فجَعَلوا يُناظِروني يَتكلَّمُ هـٰذا ، فأرُدُّ عليه ، ويتكلَّمُ هـٰذا ، فأرُدُّ عليه وجَعلَ صَوْتي يَعْلو أصْواتَهم ، فجَعَلَ بعضُ مَنْ هو قائمٌ علىٰ رأسي يُومِىءُ إليَّ بيَدِه ، فلمَّا طالَ المَجْلسُ نَحَّاني ثم خَلا بهم ، ثم نَحَّاهم ، ورَدَّني إلىٰ عندِه ، وقال : وَيْحَكَ يا أحمد! أَجِبْني حتىٰ أُطلقَ عَنكَ بيَدي ، فرَدَدْتُ عليه نَحْوَ رَدِّي ، فقال : عليك ، وذَكَرَ اللَّعْنَ ، خُذُوه ، اسْحَبوه ، خَلِّعُوه . فسُحبتُ ، وخُلِّعْتُ[1] .

قال : وقد صار إليَّ شَعْرٌ من شَعْرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في كُمِّ قَميصي ، فوَجَّه إليَّ إسْحاقُ بنُ إبراهيم ، يقول : ما هـٰذا المَصْرورُ ؟ قلتُ : شَعْرٌ من شَعرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وسَعَىٰ بعضُهم ليَخْرقَ القَميصَ عنِّي ، فقال المُعْتَصمُ : لا تَخْرقوه ، فنُزِعَ ، فظَنَنْتُ أنه إنَّما دُرِىءَ عن القَميص الخَرق بالشَّعْر . قال : وجَلَسَ المُعْتَصمُ علىٰ كُرسيٍّ ثم قال : العُقابَيْن والسِّياط ، فجِيءَ بالعُقابَين ، فمُدَّت يَدايَ ،

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٦ ـ ٩٣٨ .

فقال : بعضُ مَنْ حَضَرَ خَلفي : خُذْ ناتِىءَ الخَشَبتَين بيَدَيك ، وشُدَّ عليهما ، فلمْ أفْهَم ما قال ، فتخَلَّعَتْ يَداي .

قال محمدُ بنُ إبراهيمَ البُوشَنْجي : ذَكروا أنَّ المُعْتَصمَ ألانَ في أمر أحمد لمَّا عُلِّقَ في العقابَين ، ورَأىٰ ثَباتَه وتَصْميمَه وصَلابَته ، حتىٰ أغْراهُ أحمدُ بنُ أبي دُوَاد ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ تَرَكتَه ، قيل : قد تَرَكَ مَذْهَبَ المَأمون ، وسَخَّطَ قَوْلَه ، فهاجَه ذلك علىٰ ضَرْبِه .

قال صالحٌ : قال أبي : ولمَّا جيءَ بالسِّياط ، نظرَ إليها المُعْتَصمُ فقال : ائْتوني بغَيرها ، ثم قال للجَلاَّدين : تَقدَّموا ، فجعَلَ يتقدَّمُ إليَّ الرجلُ منهم ، فيَضْربُني سَوْطَين ، فيقولُ له : شُدَّ ، قطَعَ اللهُ يَدَك ، ثم يَتَنحَّىٰ ويتقدَّمُ آخرُ ، فيَضْربُني سَوْطَين ، وهو يقولُ في كلِّ ذلك : شُدَّ ، قَطَعَ اللهُ يَدَك ، فلمَّا ضُربتُ سَبعَةَ عَشرَ سَوْطاً ، قامَ إليَّ ، يعني المُعْتَصمَ ، فقال : يا أحمدُ ، عَلامَ تَقْتُلُ نَفْسَك ؟ إنِّي والله عَليكَ لَشَفيقٌ ، وجَعَلَ عُجَيفُ يَنخَسُني بقائمَة سَيْفِه ، وقال : أتُريدُ أن تَغلبَ هـٰؤلاء كلَّهم ؟ وجعلَ بعضُهم يقول : وَيْلَك!! إمامُكَ علىٰ رأسِك قائمٌ ، وقال بعضُهم : يا أميرَ المؤمنين دَمُهُ في عُنُقي ، اقْتُلْه ، وجَعَلوا يقولون : يا أميرَ المؤمنين أنتَ صائمٌ ، وأنتَ في الشَّمْسِ قائمٌ!! فقال لي : وَيْحَك يا أحمدُ ، ما تقولُ ؟ فأقول : أعْطوني شيئاً من كتاب الله أو سُنَّة رسول الله أقولُ به ، فرجعَ وجلَسَ ، وقالَ للجَلاَّد : تقدَّم وأَوْجِعْ ، قطَعَ اللهُ يَدَك ، ثم قامَ الثانية وجَعلَ يقول : وَيْحَك يا أحمد : أَجْبْني ، فجَعَلوا يُقْبِلونَ عليَّ ، ويقولون : يا أحمدُ ، إمامُكَ علىٰ رأسِك قائمٌ! ، وجَعَل عبدُ الرحمـٰن يقول : مَنْ صَنَعَ من أصْحابِك في هـٰذا الأمر ما تَصنَع ؟ والمُعْتَصمُ يقولُ : أجِبْني إلىٰ شيء لك فيه أدْنَىٰ فَرجٍ حتَّىٰ أطلقَ عنك بيدي ، ثم رجعَ ، وقال للجَلاَّد : تقدَّم ، فجعلَ يَضْربُني سَوْطَين ويَتنَحَّىٰ ، وهو في خلال ذلك يقول : شُدَّ قَطَع اللهُ يَدَك ، فذَهبَ عَقلي ، ثم أفَقْتُ بعد ، فإذا الأقْيادُ قد أُطلِقَت عنّي . فقالَ لي رجلٌ مِمَّن حضرَ : كَبَبْناكَ علىٰ وَجْهِكَ ، وطَرَحْنا علىٰ ظهرك باريَّةً[1] ودُسْناك! قال أبي : فما

---

(١) الحَصير المنسوج .

شَعرتُ بذلك ، وأتَوني بسَويقٍ ، وقالوا : اشْرَبْ وتَقيَّأ ، فقلتُ : لا أُفْطِرُ ، ثم جِيءَ بي إلىٰ دار إسْحاق بنِ إبراهيم ، فحضَرت الظُّهرُ ، فتقدَّمَ ابنُ سَماعَة ، فصلَّىٰ ، فلمَّا انفَتلَ من صَلاتِه ، وقال لي : صَليتَ والدَّمُ يَسيلُ في ثَوْبِك ؟ قلتُ : قد صَلَّىٰ عُمرُ ، وجُرْحُه يَثْعَبُ دَماً[1] .

قال صالحٌ : ثم خُلِّيَ عنه ، فصار إلىٰ مَنْزِله ، وكان مُكْثُه في السِّجْن منذ أُخذَ إلىٰ أن ضُربَ وخُلِّيَ عنه ، ثمانية وعشرين شَهْراً ، ولقد حدَّثَني أحدُ الرجُلين اللذين كانا معه ، قال : يا ابن أخي ، رحمَةُ الله علىٰ أبي عبد الله ، والله ما رأيتُ أحداً يُشْبِهُ ، ولقد جَعلتُ أقولُ له في وقت ما يُوجَّه إلينا بالطَّعام : يا أبا عبد الله ، أنتَ صائمٌ ، وأنتَ في مَوْضع تَقيَّة . ولقد عَطِشَ ، فقالَ لصاحبِ الشَّراب : ناوِلني ، فناوَلَه قَدَحاً فيه ماءٌ وثَلجٌ ، فأخَذَه ونَظرَ فيه ، ثم ردَّه ، ولمْ يَشْربْ ، فجَعلتُ أعْجَبُ من صَبرِه على الجوع والعَطَش ، وهو فيما هو فيه من الهَوْل!!

قال صالحٌ : فكنتُ ألتَمسُ وأحْتالُ أن أوصِلَ إليه طَعاماً أو رَغيفاً في تلك الأيّام ، فلمْ أقْدِرْ ، وأخْبَرني رجلٌ حضَرَه : أنَّه تفقَّدَه في الأيام الثلاثة وهم يُناظِرونَه ، فما لَحَنَ في كَلمَة . قال : وما ظَنَنْتُ أنَّ أحداً يكونُ في مثل شَجاعَته وشدَّة قَلبه .

قال حَنْبلٌ : سَمعتُ أبا عبد الله يقول : ذَهبَ عَقلي مِراراً ، فكان إذا رُفعَ عنِّي الضَّربُ ، رَجَعَتْ إليَّ نفسي ، وإذا اسْتَرخَيتُ وسقَطتُ ، رُفعَ الضَّربُ أصابَني ذلك مِراراً ، ورأيتُه ـ يَعني المُعْتَصمَ ـ قاعداً في الشَّمسِ بغَيرِ مظَلَّة ، فسمعتُه وقد أفَقتُ ، يقول : لابن أبي دُوَاد : لقد ارتَكبتُ إثْماً في أمر هٰذا الرجل . فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّه ـ والله كافرٌ مُشْركٌ ، قد أشْرَكَ من غَير وَجْه . فلا يَزالُ به حتىٰ يَصْرفَه عمَّا يُريد . وقد كان أرادَ تَخْليَتي بلا ضَرْبٍ ، فلمْ يَدَعْه ، ولا إسْحاق ابن إبراهيم .

قال حَنْبَلٌ : وبَلغَني أنَّ المُعْتَصمَ قال لابنِ أبي دُوَاد بعدَما ضُربَ أبو عبد الله : كَمْ ضُربَ ؟ قال : أربَعَة أو نَيفاً وثلاثين سَوْطاً[2] .

---

(١) أي : يَجري ويتفجّر منه الدم .

(٢) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٨ـ ٩٤٠ .

قال ابنُ أبي حاتِمٍ : حَدَّثني أحمَدُ بنُ سِنانٍ قال : بَلَغَني أنَّ أحمدَ ابنَ حَنبَلٍ جَعَلَ المُعْتَصِمَ في حِلٍّ يومَ فَتَحَ عاصِمةَ بابك وظَفِرَ به ، أَوْ في فَتْحِ عَمُّورِيَةَ ، فقال : هو في حِلٍّ من ضَرْبِي[1] .

وقال ابنُ أبي حاتم : سَمعتُ أبا زرعَة يقول : دَعا المُعْتَصمُ بعَمِّ أحمدَ ، ثم قال للنَّاس : تَعْرفونَه ؟ قالوا : نَعم ، هو أحمدُ بنُ حَنْبَل ، قال : فانظُروا إليه ، أليسَ هو صَحيحُ البَدَن ؟ قالوا : نعم ، ولولا أنَّه فعل ذلك ، لكنتُ أخافُ أنْ يَقعَ شيءٌ لا يُقامُ له ، قالوا : ولما قال : قد سَلَّمْتُه إليكم صَحيحَ البَدَن ، هَدأَ النَّاسُ وسَكَنوا .

قال الذهبيُّ : ما قال هـٰذا مع تَمكُّنِه في الخِلافَة وشَجاعَته إلاَّ عن أمرٍ كَبير كأنَّه خافَ أنْ يَموتَ من الضَّرْب ، فتَخرجُ عليه العامَّة ، ولو خَرجَ عليه عامَّةُ بَغْداد لرُبَّما عَجزَ عنهم . وبَلَغَنا أنَّ المُعْتَصمَ نَدمَ ، وأُسْقطَ في يَده ، حتىٰ صَلُحَ[2] .

وسَمعتُه يقول : كلُّ مَنْ ذَكرَني ففي حِلٍّ إلاَّ مُبتَدعاً ، وقد جَعَلتُ أبا إسْحاقَ ـ يَعْني المُعْتَصمَ ـ في حلٍّ ، ورأيتُ اللهَ يقول : ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾[3] ، وأمرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر بالعَفوِ في قِصّة مِسْطَح . قال أبو عبد الله : وما يَنْفَعُك أنْ يُعذِّبَ اللهُ أخاكَ المسلم في سَببِك ؟!![4] .

مِحْنَةُ الوَاثق :

قال حَنْبلٌ : لمْ يَزلْ أبو عبد الله بعد أنْ بَرِىءَ من الضَّرب يَحضُرُ الجُمعَة والجَماعَة ، ويُحدِّثُ ويُفْتي ، حتىٰ ماتَ المُعْتَصمُ ، وَوَلِيَ ابنُه الوَاثقُ فأظْهَر ما أظْهَر من المِحْنَة والمَيْل إلىٰ أحمد بن أبي دُوَاد وأصْحابِه . فلمَّا اشْتدَّ الأمرُ علىٰ أهْلِ بَغْداد وأظْهَرت القُضاةُ الفتنَة بخَلْق القُرآن ، وفُرِّقَ بين فَضْل الأنْماطيِّ وبينَ امرأتِه ، وبينَ أبي صالح وبينَ امرأتِه ، كان أبو عبد الله يَشْهَدُ الجُمُعَة ، ويُعيدُ الصَّلاةَ إذا رَجعَ ،

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٠ .
(٢) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤٠ .
(٣) سورة النور ، الآية : ٢٢ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٤٠ .

ويقولُ : تُؤتَى الجُمعَة لفَضْلِها ، والصَّلاةُ تُعادُ خَلفَ مَنْ قال بهـٰذه المَقالَة[1] .

وجاءَ نفرٌ إلىٰ أبي عبد الله ، وقالوا : هـٰذا الأمرُ[2] قد فَشا وتَفاقَم ، ونحنُ نَخافُه علىٰ أكثَر من هـٰذا ، وذَكَروا ابنَ أبي دُوَاد ، وأنَّه علىٰ أنْ يأمُرَ المُعلِّمينَ بتَعليم الصِّبْيانَ في المَكاتب : القُرآنُ كَذا وكَذا ، فنحنُ لا نَرضَىٰ بإمارَته . فمَنَعَهم من ذلك وناظَرَهم . وحَكَىٰ أحمدُ قَصْدَه في مُناظَرَتهم ، وأمَرَهم بالصَّبْر . قال : فبَينا نحنُ في أيام الواثق ، إذ جاء يَعقوبُ ليلاً برسالَةِ الأمير إسْحاق بن إبراهيم إلىٰ أبي عبد الله : يقولُ لك الأميرُ : إنَّ أميرَ المؤمنين قد ذَكَرَكَ فلا يَجْتَمعَنَّ إليك أحدٌ ، ولا تُساكِنِّي بأرضٍ ولا مَدينَة أنا فيها ، فاذْهَبْ حَيثُ شئتَ من أرضِ الله . قال : فاخْتَفىٰ أبو عبد الله بَقيّةَ حياة الوَاثِق ، وكانت تلك الفِتْنَة ، وقُتِلَ أحمدُ بنُ نَصْر الخُزاعيّ ، ولمْ يَزَلْ أبو عبد الله مُخْتَفياً في البيتِ لا يَخْرُج إلى الصَّلاة ولا إلىٰ غَيْرِها حتىٰ هَلَكَ الوَاثقُ[3] .

وعن إبراهيمَ بنِ هانِىء ، قال : اخْتَفىٰ أبو عبد الله عندي ثلاثاً ثم قال : اطلبْ لي مَوْضِعاً ، قلتُ : لا آمَنُ عليك ، قال : افْعَل ، فإذا فَعَلْتَ ، أفَدْتُك . فطلبتُ له مَوْضِعاً ، فلمَّا خَرجَ قال : اخْتَفىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الغَارِ ثلاثةَ أيامٍ ثم تَحوَّل[4] .

وجاء في ترجمة البُوَيْطيِّ ، قال الذهبيُّ : سُعيَ بالبُوَيْطيِّ حتىٰ كتبَ فيه ابنُ أبي دُوَاد إلىٰ وَالي مِصْرَ ، فامْتَحَنَه ، فلم يُجِبْ ، وكان الوَالي حَسَنَ الرَّأي فيه ، فقال له : قُلْ فيما بَيْني وبَيْنَك ، قال : إنَّه يَقْتَدي بي مئةُ ألف ، ولا يَدْرُونَ المَعْنىٰ ، قال : وقد كان أُمِرَ أنْ يُحْمَلَ إلىٰ بَغْداد في أرْبَعينَ رَطل حَديد[5] .

وقال أبو الدَّحْداح الدِّمَشقيُّ : حدَّثنا الحُسَينُ بنُ حامد أنَّ كتاب المَأمونِ وَرَدَ علىٰ

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٤١ .
(٢) أي القول بخَلق القُرآن .
(٣) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٤١ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٤١ .
(٥) انظر السير : (البُوَيْطي) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٨٢ .

إسْحاقَ بنِ يَحْيىٰ بنِ مُعاذ أميرِ دِمَشْق : أنْ أحْضِرْ المُحدِّثينَ بدِمَشْق فامْتَحنْهُم . قال فأحْضَرَ هشامَ بنَ عمّار ، وسُليْمانَ ابنَ عبد الرحمٰن ، وابنَ ذَكْوان ، وابنَ أبي الحَواريّ ، فامتَحَنَهم امْتِحاناً ليسَ بالشَّديد ، فأجابوا ، خَلا أحمدَ بنَ أبي الحَواريّ ، فجَعلَ يَرْفُقُ به ، ويقولُ : أليسَ السَّماواتُ مَخْلوقَةً ؟ أليسَ الأرضُ مَخْلوقَةً ، وأحمدُ يَأبَىٰ أنْ يُطيعَه ، فسَجَنَه في دار الحِجارَة ، ثم أجابَ بعدُ فأطلقَه[1] .

وقال الحاكِمُ : حَدَّثنا طاهِرُ بنُ مُحمَّد الوَرَّاق ، سَمعتُ مُحمَّدَ ابنَ شاذِل يقولُ : لمَّا وَقَعَ بينَ مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ والبُخاريِّ ، دَخَلْتُ على البُخاريِّ فقُلتُ : يا أبا عبدَ اللهِ أَيشٍ الحيلَةُ لنا فيما بَيْنَكَ وبينَ مُحمَّد ابنِ يَحْيَىٰ كُلُّ مَنْ يَخْتلِفُ إلَيْكَ يُطْرَدُ ؟ ، فقال : كَمْ يَعْتَرِي مُحمَّدَ ابنَ يَحْيَى الحَسَدُ في العِلْمِ . والعِلْمُ رِزْقُ الله يُعْطِيهِ مَنْ يَشاءُ . فقُلتُ : هٰذه المَسْألَةُ التي تُحْكَىٰ عَنْكَ ؟ قال : يا بُنيَّ ، هٰذه مَسْألةٌ مَشْؤومَةٌ ، رَأيْتُ أحْمَدَ بنَ حَنْبلَ وما نالَهُ في هٰذه المَسْألَة ، وجَعلتُ علىٰ نَفْسِي أن لا أتَكَلَّمَ فيها[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : المَسْألَةُ هي أنَّ اللَّفْظَ مَخْلوقٌ ، سُئِلَ عنها البُخاريُّ ، فوَقَفَ فيها ، فلمَّا وَقَفَ واحْتَجَّ بأنَّ أفْعالَنا مَخْلُوقَةٌ ، واسْتَدَلَّ لذلكَ ، فَهِمَ منه الذُّهليُّ أنَّه يُوَجِّهُ مَسْألَةَ اللَّفْظِ ، فتَكَلَّمَ فيه ، وأخَذَهُ بِلازِمِ قَوْلِهِ هو وغَيره[3] ،[4] .

قال الحاكِمُ : أخْبَرَنا أبو عبدِ الله مُحمَّدُ بنُ يَعْقوبَ بنِ الأخْرَمِ سَمعتُ ابنَ عليٍّ المَخْلَديّ ، سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَحْيَىٰ يقولُ : قد أظْهَرَ هٰذا البُخاريُّ قَوْلَ اللَّفْظيَّةِ واللَّفْظيَّةُ عندي شَرٌّ من الجِهَميَّة .

قال مُحمَّدُ بنُ نَصْر المَرْوزيُّ : سَمعتُهُ يقولُ : مَنْ زَعَمَ أنِّي قُلتُ : لَفْظي بالقُرآنِ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن أبي الحَواري) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/٩٨٧ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٧ .

(٣) ولازم المذهب ليس بلازم كما هو مذهب جمهور المحققين من العلماء ، ونقل ابن ناصر الدين في مقدمة كتابه « الرد الوافر » ٢٠ ، عن الإمام الذهبي ـ ووصفه بإمام التعديل والجرح ، والمعتمد عليه في المدح والقدح ـ كلمة جاء فيها : ونعوذ بالله من الهَوىٰ والمِراء في الدين ، وأن نكفِّرَ مُسْلماً مُوَحِّداً بلازم قوله ، وهو يفر من ذلك اللازم ، وينزه ويعظِّم الرَّب .

(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠١٧ .

مَخْلُوقٌ فهُو كذَّابٌ ، فإنِّي لَمْ أَقُلْهُ ، فقُلتَ له : يا أبا عبدَ الله ، قد خاضَ النَّاسُ في هٰذا وأكْثَروا فيه ، فقال : لَيْسَ إلاَّ ما أقُولُ[1] .

قال : وسَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَعْقُوبَ الحافِظَ يقولُ : لمَّا اسْتَوطَنَ البُخاريُّ نيسابُورَ أكْثَرَ مُسْلِمُ بنُ الحَجَّاجِ الاخْتِلافَ إليه ، فلمَّا وَقَعَ بينَ الذُّهليِّ والبُخاريِّ ما وَقَعَ في مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ ونادَىٰ عليه ، ومَنَعَ النَّاسَ عنه ، انْقَطَعَ عنه أكْثَرُ النَّاسِ غيرَ مُسْلِمٍ .

فقال الذُّهليُّ يوماً : ألا مَنْ قالَ باللَّفْظِ فلا يَحِلُّ له أنْ يَحْضُرَ مَجْلِسَنا فأخَذَ مُسْلمٌ رِداءً فَوقَ عَمامَتِه وقام علىٰ رُؤوسِ النَّاسِ وبَعَثَ إلى الذُّهليِّ ما كَتَبَ عنه علىٰ ظَهْرِ جمَّال وكان مُسْلمٌ يُظْهِرُ القَوْلَ باللَّفْظِ ولا يَكْتُمُه[2] .

وقال مُحمَّدُ بنُ أبي حاتِمٍ : أتىٰ رَجلٌ أبا عبدَ اللهِ البُخاريَّ ، فقال : يا أبا عبدَ اللهِ ، إنَّ فُلاناً يُكَفِّرُكَ!! . فقال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إذا قَالَ الرَّجُلُ لأخِيهِ : يا كافِرُ ، فقَدْ بَاءَ بِهِ أحَدُهُمَا »[3] .

وقال عبدُ الرَّحمٰن بنُ أبي حاتِمٍ في « الجَرْحِ والتَّعْدِيلِ » قَدِمَ مُحمَّدُ ابنُ إسْماعيل الرَّيَّ سَنةَ خَمْسينَ ومِئَتَيْنِ ، وسَمِعَ منه أَبِي وأبو زُرْعَةَ وتَرَكا حَديثَهُ عندَما كَتَبَ إليهما مُحمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ أنَّه أظْهَرَ عندَهُم بنِيسابُورَ أنَّ لَفْظَهُ بالقُرآنِ مَخْلُوقٌ[4] .

قال الإمام الذهبيُّ : إنْ تَرَكا حَديثَه ، أوْ لَمْ يَتْرُكاهُ ، البُخاريُّ ثِقَةٌ مَأمُونٌ مُحْتَجٌّ به في العَالَمِ[5] .

قال أبو نعيم عبدُ الملك بنُ الحَسَن الإسْفَراييني ، ابنُ أخت أبي عَوانَة : سَمعتُ أبي يقول لأبي عليّ النيسَابوري الحافِظ : دَخلتُ أنا وأبو عَوانَةَ البَصْرَة ، فقيلَ : إنَّ أبا خَليفَة قد هُجِرَ ، ويُدَّعَىٰ عليه أنَّه قال : القُرآنُ مَخْلوق . فقال لي أبو عَوانَة : يا بُنَي!

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٨/١ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٨/٣ .
(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٨/٤ .
(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٩/٥ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٩/٦ .

لا بدَّ أنْ نَدخُلَ عليه ، قال : فقالَ له أبو عَوانَة : ما تقولُ في القُرآن ؟ فاحْمَرَّ وجهُهُ وسَكتَ ، ثم قال : القُرآنُ كَلامُ الله غَيرُ مَخْلوق ، ومَنْ قال : مَخْلوقٌ ، فهو كافرٌ ، وأنا تائبٌ إلى الله من كل ذَنبٍ إلاَّ الكَذبَ ، فإنِّي لمْ أكْذب قَطُّ ، أسْتغفرُ اللهَ . قال : فقام أبو عليّ إلىٰ أبي ، فقبَّلَ رأسَه ، ثم قال أبي : قام أبو عَوانَة إلىٰ أبي خَليفَة ، فقبَّلَ كَتِفَه .

تُوفِّيَ أبو خَليفَة سنة خمسٍ وثلاث مئة بالبَصْرَة[1] .

(ب) مُناظَرةٌ في خَلْق القُرآن :

جاءَ في تَرجَمة الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَل ، ثم قال المُعْتَصمُ : يا عبدَ الرحمَـٰن بنَ إسْحاق ، ألَمْ آمُرْكَ برَفْع المحْنَة ؟ فقال الإمامُ أحمدُ : اللهُ أكْبر!! إنَّ في هـٰذا لَفَرَجاً للمسلمين . ثم قال المُعْتَصمُ لهم : ناظِروه وكَلِّموه ، يا عبدَ الرحمَـٰن كَلِّمْه . فقال : ما تَقولُ في القُرآن ؟ قلتُ : ما تَقولُ أنتَ في عِلْمِ الله ؟ فسَكتَ ، فقال لي بَعضُهم : أليسَ قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] . والقُرآنُ أليسَ شَيئاً ؟ فقلتُ : قال اللهُ : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[3] .

فدمَّرَت إلاَّ ما أرادَ الله . فقال بعضُهم : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾[4] أفَيكونُ مُحدَثٌ إلاَّ مخْلُوقاً . فقلتُ : قال اللهُ : ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[5] فالذكْرُ هو القرآنُ ، وتلك ليسَ فيها ألف ولام . وذَكرَ بعضُهم حَديثَ عِمْرانَ بنِ حُصَين : « إنَّ اللهَ خَلَقَ الذِّكرَ » فقلتُ : هـٰذا خَطأٌ ، حدَّثَنا غَيرُ واحد : « إنَّ اللهَ كَتَبَ الذِّكرَ » . واحْتجُّوا بحَديث ابنِ مَسْعود : « مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ جَنَّةٍ ولا نَارٍ ولا سَماءٍ ولا أَرْضٍ أَعْظَمَ مَنْ آيَةِ الكرْسِيِّ » . فقلتُ : إنَّما وَقعَ الخَلقُ على الجَنَّة والنَّارِ والسَّماء والأرضِ ، ولمْ

---

(١) انظر السير : (أبو خَليفة) ١٤/٧ـ١١ ، وانظر النزهة : ٣/١١٢٢ .
(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٦ .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٥ .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٢ .
(٥) سورة ص ، الآية : ١ .

يَقعْ على القُرآن . فقال بعضُهم : حَديثُ خَبَّاب : « يا هَنَتاه تَقَرَّب إلى اللهِ بما اسْتَطَعْتَ ، فَإنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إليهِ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليهِ مَنْ كلامِه » . فقلتُ : هَكَذا هو .

قال صالحٌ : وجَعلَ ابنُ أبي دُوَاد يَنظرُ إلىٰ أبي كالمُغْضَب . قال أبي : وكان يتكلَّمُ هـٰذا ، فأردُّ عليه . ويَتكلَّمُ هـٰذا فأرُدُّ عليه ، فإذا انقَطعَ الرجلُ منهم ، اعْتَرضَ ابنُ أبي دُوَاد ، فيقولُ : يا أميرَ المؤمنين ، هو والله ضالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدعٌ!! فيقولُ : كلِّموه ، نَاظِروه . فيُكلِّمُني هـٰذا ، فأردُّ عليه ، ويُكلِّمُني هـٰذا فأرُدُّ عليه . فإذا انقَطَعوا ، يقول المُعْتَصمُ : وَيْحَكَ يا أحمَد ، ما تَقولُ ؟ فأقولُ : يا أميرَ المؤمنين ، أَعْطوني شَيئاً من كتاب الله أو سُنَّة رَسولِه ، صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ أقولَ به . فطالَ المَجْلسُ ، وقامَ ، ورُدِدْتُ إلى المَوْضِع .

فلمَّا أصْبحنا ، جاء رسولُه ، فأخذَ بيَدي حتىٰ ذهبَ بي إليه ، فقال لهم : ناظِروه وكَلِّموه ، فجَعلوا يُناظِروني ، فأرُدُّ عليهم ، فإذا جاؤوا بشيء من الكَلامِ ممَّا ليسَ في الكتاب والسُّنَّة ، قلتُ : ما أدْري ما هـٰذا ، قال : فيقولون : يا أميرَ المؤمنين ، إذا تَوَجَّهَتْ له الحُجَّة عَلينا ، وإذا كلَّمْناه بشيء ، يقول : لا أدْري ما هـٰذا ؟ فقال : ناظِروه ، فقال رجلٌ : يا أحمدُ ، أراكَ تذكرُ الحَديثَ وتَنْتَحلُه ، فقلتُ : ما تقولُ في قَوله : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾[1] ، قال : خصَّ الله بها المؤمنين ، قلتُ : ما تقولُ إنْ كان قاتلاً أو عَبْداً ؟ فسَكتَ ، وإنَّما احْتَجَجْتُ عليهم بهـٰذا ، لأنَّهم كانوا يَحْتَجُّونَ بظاهر القُرآن ، فحَيثُ قال لي : أراكَ تَنْتَحِلُ الحَديثَ ، احْتَجَجْتُ بالقُرآن ، يَعني : وإنَّ السُّنَّة خَصَّصَت القاتلَ والعَبْدَ ، فأخْرَجَتهُما من العُموم ، قال : فلمْ يَزالوا كذلك إلىٰ قُرْب الزَّوال ، فلمَّا ضَجِرَ ، قال : قُوموا ، ثم خَلا بي ، وبعبدِ الرحمَـٰنِ بنِ إسْحاق ، فلمْ يَزَلْ يُكلِّمُني ، ثم قامَ ودَخلَ ، ورُدِدْتُ إلى المَوْضع .

قال : فلما كانت الليلة الثالثة ، قلتُ : خَليقٌ أنْ يَحْدُثَ غداً من أمري شيءٌ ، فقلتُ للمُوَكَّل بي : أُريدُ خَيطاً ، فجاءَني بخَيطٍ ، فشَدَدْتُ به الأَقْيادَ ، ورَدَدْتُ التَّكَّة

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١ .

إلىٰ سَراويلي مَخافَةَ أن يَحْدُثَ من أمْري شيءٌ فأتَعَرَّىٰ . فلمَّا كان من الغد أُدخِلتُ إلى الدَّار ، فإذا هي غاصَّةٌ فجَعَلتُ أدخلُ من مَوْضع إلىٰ مَوْضع ، وقومٌ مَعَهم السُّيوف ، وقَومٌ مَعَهم السِّياط وغَيرُ ذلك ، ولم يكنْ في اليومين الماضيين كَبيرُ أحدٍ من هَؤلاء . فلما انتَهيتُ إليه قال : أقْعُد . ثم قال : ناظِروه ، كَلِّموه ، فجَعَلوا يُناظِروني يَتكلَّمُ هـٰذا ، فأرُدُّ عليه ، ويتكلَّمُ هـٰذا ، فأرُدُّ عليه وجَعلَ صَوْتي يَعْلو أصْواتَهم ، فجَعَلَ بعضُ مَنْ هو قائمٌ علىٰ رأسي يُومِىءُ إليَّ بيَدِه ، فلمَّا طالَ المَجْلسُ نَحَّاني ثم خَلا بهم ، ثم نَحَّاهم ، ورَدَّني إلىٰ عندِه ، وقال : وَيْحَكَ يا أحمد! أَجِبْني حتىٰ أُطلقَ عَنكَ بيَدي ، فرَدَدْتُ عليه نَحْوَ رَدِّي ، فقال : عليك ، وذَكَرَ اللَّعْنَ ، خُذُوه ، اسْحَبوه ، خَلِّعُوه . فسُحبتُ ، وخُلِّعْتُ[1] .

وقال طاهرُ بنُ خَفيف : سَمعتُ المُهْتَدي بالله محمدَ بنَ الوَاثق ، يقول : كان أبي إذا أرادَ أن يَقتُلَ أحداً ، أحْضَرَنا ، فأُتيَ بشيخٍ مَخْضوبٍ مُقيَّد ، فقال أبي : ائذَنوا لأبي عبد الله وأصْحابِه ، يَعني ابنَ أبي دُوَاد ، قال : فأُدخِلَ الشيخُ ، فقال : السَّلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ، فقال : لا سلَّمَ اللهُ عليكَ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بئسَ ما أدَّبَكَ مُؤدِّبُك ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[2] ، فقال ابنُ أبي دُوَاد : الرجلُ مُتكلِّم . قال له : كلِّمْه ، فقال : يا شيخُ ما تقولُ في القُرآن ؟ قال : لمْ يُنْصِفْني ، وليَ السُّؤال . قال : سَلْ ، قال : ما تقولُ في القُرآن ؟ قال : مَخْلوقٌ . قال الشيخُ : هـٰذا شيءٌ عَلِمَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو بَكر وعُمَر ، والخُلفاءُ الراشدون ، أمْ لم يَعْلَموه ؟ قال : شيءٌ لمْ يَعْلَموه ، فقال : سُبحانَ الله! شيءٌ لمْ يعْلَمْه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، عَلِمْتَه أنتَ ؟ فخَجِلَ ، فقال : أقِلْني ، قال : المَسْألَةُ بحالِها . قال : نعم عَلِموه ، فقال : عَلِموه ولمْ يَدْعوا النَّاسَ إليه ، قال : نعم . قال : ألا وَسِعَكَ ما وَسِعَهم ؟ قال : فقامَ أبي فدخلَ مَجْلساً ، واسْتلقَىٰ ، وهو يقول : شيءٌ لمْ يَعْلَمْه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بَكر وعُمر

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٨٦ .

وعُثمان وعَليّ ، ولا الخُلَفاء الراشدون ، عَلمتَه أنت! سُبحانَ الله! شيءٌ عَلِموه ، ولمْ يَدْعوا النَّاسَ إليه ، أفلا وَسِعَك ما وَسِعَهم ؟!! ثم أمرَ برفع قُيودِه ، وأنْ يُعْطَىٰ مئة دينار ، ويُؤذَنَ له في الرُّجوع ، وسَقطَ من عَينه ابنُ أبي دُوَاد ، ولمْ يَمْتَحن بعدَها أبداً .

وهـٰذه قصّة مَليحة ، وإنْ كان في طَريقِها مَنْ يُجْهَل ولها شاهد[1] .

(ج) انتهاء فِتنة الامتحان بخَلْق القُرآن :

جاء في ترجمة المُتوَكل ، قال الذهبيُّ : وفي سنة أربع وثلاثين ومئتين أظْهَرَ المُتوَكلُ السُّنَّة وزَجرَ عنْ القولِ بخَلقِ القُرآن ، وكتبَ بذلك إلى الأمصار ، واسْتَقدَم المُحدِّثين إلىٰ سامَرَّاء ، وأجْزَلَ صِلاتِهم ورَوَوا أحاديثَ الرُّؤيَة والصِّفات .

وفي سَنة ستٍّ أحضرَ القُضاة من البُلْدان ليَعْقدَ بولاية العَهد لبَنيه : المُنْتَصر محمد ، ثم للمُعْتزِّ ، ثم للمُؤيَّد إبراهيم ، وكانت الوَقْعَة بين المسلمين والرُّوم ، ونَصر الله[2] .

وغَضبَ المُتوَكلُ علىٰ أحمدَ بنِ أبي دُوَاد ، وصادَره ، وسَجَنَ أصْحابَه ، وحُمِّلَ ستّة عشر ألف درهم ، وافْتَقرَ هو وآله ، ووَلِيَ يَحْيىٰ بنَ أكْثم القَضاء ، وأطْلَقَ مَنْ تَبَقَّىٰ في الاعتقال مِمَّن امتنعَ عن القَول بخَلْق القُرآن ، وأُنزِلَت عِظامُ أحمدَ بنِ نَصْر الشَّهيد ، ودَفَنَها أقاربُه ، وبَنَىٰ قَصْرَ العروس بسامِرَّاء ، وأنفَقَ عليه ثلاثين ألفَ ألفِ درهم ، والتَمَسَ المُتوَكلُ من أحمدَ بنِ حَنْبَل أن يأتيه ، فذَهبَ إلىٰ سامِرَّاءَ ولمْ يَجتمعْ به ، اسْتَعْفىٰ فأعْفاه ، ودخلَ علىٰ وَلدِه المُعْتزّ ، فدَعا له[3] .

(د) ردُّ الذهبيِّ غُلوَّ بعض العُلماء في التكفير بسبب تلك الفتنة :

قال أبو داود : سألتُ أحمدَ بنَ صالح عمَّن قال : القُرآنُ كَلامُ الله ، ولا يقولُ مَخلوقٌ ، ولا غيرَ مَخلوق . فقال : هـٰذا شاكٌّ ، والشَّاكُّ كافر .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٤٦ .
(٢) انظر السير : (المُتوكل على الله) ١٢/ ٣٠ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٧٧ .
(٣) انظر السير : (المُتوكل على الله) ١٢/ ٣٠ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٧٨ .

قال الذهبيُّ : بلْ هـٰذا سَاكتٌ ، ومَنْ سَكَتَ تَوَرُّعاً لا يُنْسَبُ إليه قَولٌ ، ومَنْ سَكتَ شاكّاً مُزْرياً على السَّلف ، فهـٰذا مُبْتَدعٌ[1] .

وقال محمدُ بنُ موسى المصري : سألتُ أحمدَ بنَ صالح ، فقلتُ : إنَّ قَوماً يقولون : إنَّ لَفظَنا بالقُرآن غيرُ الملفوظ ، فقال : لَفظُنا بالقُرآن هو المَلْفوظ ، والحِكايَةُ هي المَحْكيُّ ، وهو كَلامُ الله غيرُ مَخْلوق ، مَنْ قال : لَفْظي به مَخْلوقٌ ، فهو كافرٌ .

قال الذهبيُّ : إنْ قال لَفظي ، وعَنىٰ به القُرآن ، فنَعَم ، وإنْ قال لَفظي وقَصَدَ به تلَفُّظي وصَوْتي وفِعْلي أنَّه مَخْلوق ، فهـٰذا مُصيبٌ ، فاللهُ تَعالَىٰ خالِقُنا ، وخالقُ أفْعالِنا وأدَواتِنا ، ولكن الكَفَّ عن هـٰذا هو السُّنَّة ، ويَكفي المَرْءَ أن يُؤمنَ بأنَّ القُرآنَ العَظيمَ كَلامُ الله ووَحْيُه وتَنْزيلُه علىٰ قَلب نَبيِّه وأنَّه غيرُ مَخْلوق ، ومَعْلومٌ عند كلِّ ذي ذهنٍ سَليمٍ أنَّ الجَماعَة إذا قَرؤوا السُّورَة ، أنَّهم جَميعاً قَرؤوا شَيئاً واحداً ، وأنَّ أصْواتَهم وقِراءَتَهم وحَناجرَهم أشياءُ مُخْتلفَة ، فالمَقْروءُ كَلامُ ربِّهم ، وقِراءتُهم وتَلفُّظهم ونَغَماتِهم مُتباينَة ، ومَنْ لمْ يَتصوَّر الفَرقَ بينَ التلفُّظ وبين المَلفوظ ، فدَعْه وأعْرضْ عَنه[2] .

قال الحافظُ أبو عبد الله بنُ مَندَة في مسألة الإيمان : صَرَّحَ محمدُ بنُ نَصْر في كتاب « الإيمان » بأنَّ الإيمانَ مَخْلوق ، وأنَّ الإقْرارَ ، والشَّهادَةَ ، وقِراءةَ القُرآن بلَفْظه مَخْلوق . ثم قال : وهَجَرَه علىٰ ذلك عُلماءُ وَقْته وخالَفَه أئمَّةُ خُراسانَ والعِراق[3] .

قال الذهبيُّ : الخَوْضُ في ذلك لا يجوزُ ، وكذلك لا يجوزُ أنْ يُقالَ : الإيمانُ ، والإقْرارُ ، والقِراءةُ ، والتَّلفُّظُ بالقُرآن غَيرُ مَخْلوق ، فإنَّ اللهَ خَلقَ العِبادَ وأعْمالَهم ، والإيمانُ : فقَولٌ وعَمل ، والقِراءَةُ والتَّلفُّظُ : من كَسْب القارىء ، والمَقْروءُ المَلْفوظُ : هو كَلامُ الله ووَحْيُه وتَنزيلُه ، وهو غَيرُ مَخْلوق ، وكذلك كَلمَةُ الإيمان ،

---

(١) انظر السير : (أحمد بن صالح) ١٢/ ١٦٠ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩١ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن صالح) ١٢/ ١٦٠ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/٩٩١ .
(٣) انظر السير : (محمد بن نَصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١١٢٧ .

وهو قَوْلُ « لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، محمَّدٌ رَسُولُ الله » داخلةٌ في القُرآن ، وما كان من القُرآن فليس بمَخْلوق ، والتكلُّمُ بها من فِعْلِنا ، وأفْعالُنا مَخْلوقَة ، ولو أنَّا كُلما أخطأ إمامٌ في اجْتهادِه في آحادِ المَسائل خطأً مَغْفوراً له ، قُمْنا عليه ، وبَدَّعْناه ، وهَجَرْناه ، لما سَلِمَ مَعنا لا ابنُ نَصْر ، ولا ابنُ مَنْدَة ، ولا مَنْ هو أكْبرُ منهما ، واللهُ هو هادي الخَلقِ إلى الحَقِّ ، وهو أرْحَمُ الراحمين ، فنَعوذُ بالله من الهَوىٰ والفَظاظَة[1] .

(هـ) البُعدُ عن الخَوْض في هـٰذه المسْألَة وأمْثالها أَوْلَىٰ :

قال أحمدُ بنُ كامل القاضي : أخْبَرَني أبو عبد الله الوَرَّاق أنَّه كان يُوَرِّقُ علىٰ داوُدَ بنِ عليٍّ ، وأنَّه سَمعَه يُسْألُ عن القُرآن ، فقال : أمَّا الذي في اللَّوْح المَحْفوظِ فغَيرُ مَخْلوقٍ ، وأمَّا الذي هو بينَ النَّاس فمَخْلوق[2] .

والخَوْضُ في هـٰذا خَطِرٌ ، نسْألُ اللهَ السَّلامَة في الدين ، وفي المَسْألَة بُحوثٌ طَويلَة ، والكَفُّ عَنها أَوْلَىٰ ، ولا سيَّما في هـٰذه الأزْمنَة المُزْمِنَة[3] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ الأسْتاذَ أبا الوَليد يقول : قال لي أبي : أيُّ شيءٍ تَجْمَع ؟ قلتُ : أخرِّجُ علىٰ كتاب البُخاريّ ، فقال : عَليكَ بكتاب مُسْلم ، فإنَّه أكثرُ بَرَكَةً ، فإنَّ البُخاريَّ كان يُنْسَبُ إلى اللَّفْظ[4] .

قال محمدُ بنُ الذهبيّ : ومُسْلمٌ أيضاً نُسِبَ إلى اللَّفْظ ، ألا تراهُ كيف قام من مَجْلس الذُّهْليِّ علىٰ رأسِ المَلأ لمَّا قال : ألا مَنْ كان يقولُ بقولِ محمّد بن إسْماعيل ، فلا يَقْرَبَنا ؟ فهـٰذه مَسْألةٌ مُشْكلَة ، وقد كان أحمدُ بنُ حَنْبَل وغَيرُه لا يَرَوْنَ الخَوْضَ في هـٰذه المَسْألة ، مع أنَّ البُخاريَّ ـ رحمَه اللهُ ـ ما صَرَّحَ بذلك ، ولا قال : ألْفاظُنا بالقُرآن مَخْلوقَة ، بلْ قال : أفْعالُنا مَخْلوقَة ، والمَقْروءُ المَلْفوظُ هو كَلامُ الله تَعالَىٰ ، وليسَ بمَخْلوق ، فالسُّكوتُ عن تَوَسُّع العِبارات أسْلمُ للإنسان .

---

(١) انظر السير : (محمد بن نَصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٢٧ .
(٢) انظر السير : (داوُد بن عليّ) ١٣/ ٩٧ـ ١٠٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٥٧ .
(٣) انظر السير : (داوُد بن عليّ) ١٣/ ٩٧ـ ١٠٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٥٧ .
(٤) انظر السير : (أبو الوَليد الفقيه) ١٥/ ٤٩٢ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٥٣ .

ولقد كان أبو الوَليد هـٰذا من أرْكان الدين .

قال الحاكمُ : أرانا أبو الوَليد نَقشَ خاتمه « الله ثِقَة حَسَّان بن محمد » ، وقال : أرانا عبدُ الملك بنُ محمد بنِ عَديّ نَقشَ خاتمه « الله ثِقَة عبد الملك ابن محمد » ، وقال : أرانا الرَّبيعُ نَقشَ خاتمه « اللهُ ثِقَة الرَّبيع بن سُليمان » ، وقال : كان نَقشُ خاتم الشَّافعي : « اللهُ ثِقَة محمد بن إدْريس » .

مات الوَليدُ سنةَ تسْعٍ وثلاث مئة[1] عن اثنتين وسبعين سنة[2] .

* * *

(١) انظر السير : ١٥/٥٠٦ـ٥٠٨ .

(٢) انظر السير : (أبو الوَليد الفَقيه) ١٥/ ٤٩٢ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٣ .

محتوى الكتاب

إهداء ٥
تقديم ٧
مقدمة ٩
ترجمة الإمام الذهَبي ١١
الإيمان ١٣
١ ـ يَجِبُ قَرْنُ الإيمان بالعَمَلِ الصَّالِحِ ١٣
٢ ـ الإيمانُ قَوْلٌ وعَمَلٌ يَزِيدُ ويَنْقُصُ ١٣
٣ ـ اسْتِعْلاءُ الإيمَانِ ١٣
٤ ـ قِصَّةٌ تُقَوِّي الإيمَانَ بالله عَزَّ وجَلّ ١٤
٥ ـ مَعْرِفَةُ الله ١٤
(أ) هَل الكُفَّارُ يَعْرِفُونَ الله ؟ ١٤
(ب) مَعْرِفَةُ المُؤمِنين لرَبِّهِم ولنَبِيِّهم مُتَفَاوِتَةٌ ١٤
من الدَّلائِل على قُوَّةِ الإيمان ١٦
أولاً : الدَّعوَةُ إلى اللهِ ١٦
١ ـ الاهْتِمامُ بأحْوالِ المُسلِمين ومُشَارَكَتِهم هُمُومَهُم ١٦
٢ ـ هدايةُ فَرد قد تكونُ عِزاً لأمَّة ١٧
٣ ـ الدُّعاةُ الصَّالِحُونَ بهِم يَنْشُرُ اللهُ دِينَه ١٧
٤ ـ رِجالُ العامَّة ١٧
٥ ـ انتِقالُ الدَّاعِيَةِ من بَلَدٍ لآخَرَ إذا تَطَلَّبَ الأمْرُ ذلكَ ١٨
٦ ـ قاعِدَةٌ في الدَّعوَةِ ١٨

٧ ـ مِنْ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ ١٨
(أ) التآلُف ١٨
(ب) مَعْرِفَةُ أسْبابِ فَسَادِ النَّاسِ ٢٠
(ج) تَعْلِيمُ الصِّغارِ والتَّأثِيرُ فِيهِم ٢١
(د) تَخْصِيصُ بعض النَّاسِ بالعِلْمِ، وكَوْنُ هذا العِلْمِ في البُيُوتِ ٢١
(هـ) الاقتِداء ٢٢
(و) من وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ حَالَ الحَاجَةِ إليها ٢٢
١ ـ السِّرِّيَّة ٢٢
٢ ـ الاختِفَاء ٢٣
(ز) الشعْر ٢٤
٨ ـ من صِفاتِ الداعِيَة ٢٦
(أ) التوازُن ٢٦
(ب) تَشْجِيعُ الغَيْرِ ٢٦
(ج) حُبُّ الوَحْدَةِ وكَرَاهِيَةُ الفُرْقَةِ ٢٦
٩ ـ من آدابِ الدَّعوَةِ ٢٧
(أ) عَدَمُ إطالَةِ المَجْلِس ٢٧
(ب) خَتْمُهُ بالدُّعاءِ ٢٧
(ج) العزْلَةُ الشُّعُورِيَّة ٢٨
(د) مُخَالَطَةُ النَّاسِ بقَدَرْ ٢٩
(هـ) إقْلالُ مُخَالَطَـة النَّاسِ إلاَّ لغَرَضٍ صَحِيحٍ ٢٩
(و) مُراعاةُ العُرْفِ ٢٩
(ز) الصَّبْرُ على المُتَعَلِّمين ٣٠
١٠ ـ القُدْواتُ لا يَأخُذونَ بالتَّقيَّة ٣٠
١١ ـ قلَّةُ الزِّيارةِ بين الدُّعاةِ لا تَعنِي وجُودَ جَفَاء ٣٢
١٢ ـ صورٌ من الدَّعوَةِ ٣٣

١٣ ـ فِقْهُ الخِلافِ ٣٤
(أ) الاخْتِلافُ لا يمْنَعُ الحُبَّ في الله ٣٤
(ب) تَركُ بعْضِ السُّنَن حِفاظاً على الوُدِّ ومَنْعاً للخِلافِ ٣٥
(ج) الاخْتِلافُ رَحْمَةٌ ٣٥
(د) الاخْتِلافُ لا يَمْنَعُ قَولَ الحَقِّ وإنْصَافَ المُخْتَلَفِ مَعَهُ ٣٦
ثانياً: العبادة ٣٧
١ ـ ضَابطٌ في الجَمْعِ بينَ أمُورِ الدُّنيا وأمُورِ الآخِرَةِ ٣٧
٢ ـ تَوطينُ النَّفسِ على الاسْتعْدادِ للعِبَادَةِ ٣٨
٣ ـ العِبادةُ المِثَاليَّة ٣٨
٤ ـ العِبادةُ الكثيرةُ إنْ لم تكنْ أثَريَّة فهي مَفْضُولَةٌ ٤٢
٥ ـ القَصْدُ في العِبادَةِ ٤٢
٦ ـ الوَسْوَسَةُ في العِبادَةِ يَنْفَرِدُ بها أهلُ الإسْلام ٤٤
٧ ـ العِباداتُ الباطِنَةُ وصُعُوبَتُها ٤٤
٨ ـ عِبادَةُ التَّفَكُّرِ والاعْتِبَار ٤٥
٩ ـ كَيْفِيَّةُ الوُصُولِ إلى حَلاوَةِ العِبادَةِ ٤٥
١٠ ـ عِقابُ النفْسِ عند التَّقْصيرِ في العِبادَةِ ٤٦
١١ ـ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِعلَ القُرُباتِ ٤٦
١٢ ـ المُحافَظَةُ على الأوْرادِ والعَمَلُ الصَّالِحُ ٤٦
١٣ ـ أخْذُ النفْسِ بالشِّدَّةِ في العِبادَة ٤٧
١٤ ـ أقْوالٌ بَلِيغَةٌ في العُبُودِيَّة ٤٩
١٥ ـ الاشْتِيَاقُ إلى العِبادَة ٤٩
١٦ ـ مِنْ صِفاتِ عُبَّادِ السَّلَف ٤٩
١٧ ـ مَنْ فُتِحَ له بابٌ من أبْوابِ العِبادَةِ فلْيَلْزَمْهُ ٤٩
١٨ ـ الاجْتِهادُ في العِبادَةِ إذا شَعرَ الإنْسانُ بدُنُوِّ أجَلِه ٥٠

١٩ ـ صُوَرٌ من عِبادَةِ السَّلَف ٥٠
٢٠ ـ الوُضوء ٥٦
(أ) استعمال قَليلٍ من الماءِ فيه ٥٦
(ب) تَجديدُ الوُضوء ٥٦
٢١ ـ الصلاة ٥٧
(أ) الصلاة رُكنُ الدِّين ٥٧
(ب) صُور من الحِرْص على صلاة الجَماعة ٥٧
(ج) رؤيا فيها حثٌّ على صلاة الجماعة ٥٩
(د) الخُشُوع في الصَّلاة ٦٠
(هـ) التَّهجُّد ٦٣
١ ـ قولٌ جميلٌ في فائدة التَّهَجُّد ٦٣
٢ ـ رؤى فيها حثٌّ على التَّهَجُّد ٦٣
٣ ـ الحَثُّ على التَّهَجُّد ٦٤
٤ ـ صورٌ من التَّهَجُّد ٦٤
٥ ـ ترديدُ آيةٍ أو آياتٍ في التَّهَجُّد حتى الصُّبح أو قريباً منه ٦٩
(و) أحوالُ السَّلف مع الصَّلاة ٧٠
(ز) رُؤيا تُفيدُ الحَثَّ على كثرة الصَّلاة ٧٥
(ح) مَن كان يَتَحاشى الصَّلاةَ خلفَ مَن يُطَوّل ٧٥
(ط) مُكابَدةُ الصَّلاة ٧٥
٢٢ ـ الصِّيام ٧٦
(أ) نقدُ الذهبيّ ـ رَحمه الله ـ مَن صامَ الدَّهر ٧٦
(ب) صورٌ من صَوم الصالحين ٧٦
٢٣ ـ الحجّ ٨٠
(أ) وصفٌ جميلٌ لبعضِ مشاعرِ الحجّ ٨٠
(ب) رؤية الحُجّاج وهم ذاهبون إلى الحجّ تُرقّقُ القلب ٨١

(ج) مناجاة حاج ٨١
(د) الاجتماع في المساجد يوم عرفة لمن لم يحج ٨١
(هـ) كثرة الحَجِّ والعُمرَة ٨٢
(و) أحوال السلف حالَ أداء المناسك ٨٤
٢٤ ـ الدعاء ٨٥
(أ) فَضل الدعاء ٨٥
(ب) من آداب الدعاء ٨٥
١ ـ الخشوع فيه ٨٥
٢ ـ الإلحاح ٨٥
٣ ـ الإطالة ٨٥
٤ ـ اقتفاء طريقة دعاء الأنبياء ٨٦
٥ ـ رفع اليدين ٨٦
٦ ـ التواضع فيه ٨٧
(ج) الذنوب تمنع الإجابة ٨٨
(د) صور من إجابة الدعاء ٨٨
(هـ) مُتفرِّقاتٌ في الدُّعاء ٩٥
١ ـ مَنْ دَعا بالاسْمِ الأعْظَم فاسْتُجيبَ له ولكنَّه عُوقِب ٩٥
٢ ـ الدُّعَاء بطُول البَقاء ٩٥
٣ ـ طَلبُ الدُّعاء من المَلائكة ٩٦
٤ ـ الدُّعَاء بعدَ الصَّلاة ٩٦
٥ ـ رُؤيا فيها حَثٌّ على الدُّعَاء ٩٦
(و) أدعية مُجرّبة في كشف الضر ٩٧
(ز) مُناجَاةٌ ٩٩
(ح) نَمَاذجُ من دُعاء الصَّالحين ٩٩
(ط) ضابطٌ في الدُّعاء عند القُبور والأماكن والأوقات الفاضِلَة ١٠٤

ثالثاً : حُبُّ الله وحُبُّ رسُولِ الله ﷺ ١٠٦
١ ـ مِنْ وسَائِلِ نَيْلِ مَحَبَّةِ الله ١٠٦
٢ ـ مَحَبَّةُ الله فَرْضٌ ١٠٦
٣ ـ مَنْ أَحَبَّ اللهَ أَطَاعَه ١٠٦
(أ) مِنْ ثِمَارِ الطاعَة ١٠٦
(ب) اسْتِغْلالُ مَوَاسِمِ الطاعَة ١٠٧
(ج) الطَّاعَةُ تُورِثُ التَّمَتُّعَ بالجَوارِح ١٠٧
(د) اغْتِنَامُ القُوَّةِ حَالَ الشَّباب ١٠٧
(هـ) صِيانَةُ الجَوَارِحِ عن المَعَاصِي ١٠٧
٤ ـ حُبُّ الصَّحَابَةِ للرَّسُولِ ﷺ ١٠٧
٥ ـ حُبُّ مَنْ بَعْدَهُم له ﷺ ١١٠
٦ ـ حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ صَحَابَتَه ١١٢
٧ ـ من مُقْتَضَياتِ حُبِّه ﷺ ١١٤
(أ) اتِّباعُ سُنَّتِه ١١٤
رُؤْيَا تَدُلُّ على قُوَّةِ الاتِّباع للنَّبيِّ ﷺ ١١٥
كان ابنُ عُمَرَ شَديدَ التَّأَسِّي برسُولِ الله ﷺ ١١٥
(ب) حُبُّ آلِ بَيْتِهِ الصَّالِحِين ١١٦
(ج) شِعرٌ في حُبِّ آلِ البَيْتِ ١١٧
رابعاً : الأُخوَّة ١١٨
١ ـ فائدة الأُخُوَّة ١١٨
٢ ـ ضَياعُ من كان بلا إخْوة ١١٨
٣ ـ الأُخُوَّة في الله عِوَضٌ عن أُخُوَّة النَّسَب ١١٨
٤ ـ قد يكونُ الأخُ في النَّسَبِ مُؤذِياً ١١٨
٥ ـ قاعدةٌ في حُقوق الأُخوة ١١٩

٦ ـ ضوابطُ لاستمرار الأُخُوَّة ١١٩
٧ ـ فقدُ الأُخوة غُربة ١١٩
٨ ـ تَبَسُّمك في وجْه أخيك صَدَقَة ١٢٠
٩ ـ الزِّيارة بين الإخْوَة ١٢٠
١٠ ـ قلَّةُ الزِّيارَة بين الإِخْوَة لا تَعني وجُودَ جَفاء ١٢٠
١١ ـ الصَّبرُ على قَسْوة بعض الإِخْوَة ١٢٠
١٢ ـ التَّجَمل عند التزاوُر ١٢١
١٣ ـ الحُبُّ في الله ١٢١
١٤ ـ الأدَبُ بين الإخوان ١٢١
١٥ ـ الخِلافُ لا يُفسِدُ للوُدِّ قَضيَّة ١٢٢
١٦ ـ فَضْلُ الدُّعاء للإخْوان ١٢٢
١٧ ـ صُورتان للدُّعاء للإخْوَة ١٢٢
١٨ ـ أمثلةٌ على الأُخُوَّة ١٢٣
خامساً : الأمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عن المُنْكر ١٢٥
١ ـ هَل يَجب على الآمِر بالمعْروف العَملُ بما أمَرَ به ؟ ١٢٥
٢ ـ إذا ظَهَر المُنكرُ وعمَّ ولم يُغيَّر أخَذَ اللهُ كلَّ النَّاس ١٢٥
٣ ـ من عُقوبَة تارِك الأمْرِ والنَّهْي ١٢٥
٤ ـ القائم بالأمْرِ والنَّهْي لا يَرضَى عنه النَّاسُ كلُّهم ١٢٥
٥ ـ سُفيانُ الثَّوْريُّ رَحمَه اللهُ كانَ يَبولُ دَماً إذا لم يَستَطِعْ الإنْكار ١٢٦
٦ ـ الاجتهاد في إزالة المنكر والكتابة فيه إلى أولي الأمر ١٢٦
٧ ـ الإنكارُ لله يجعلُ لصاحبه هيبةً في النفوس ١٢٦
٨ ـ الشجاعةُ في الإنكار وتعريضُ النفس للأذى ١٢٦
٩ ـ من ضُرب حتى أغمي عليه لأجل إنكاره ١٢٨
١٠ ـ الذكاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٢٩

١١ ـ التواصي على الحضّ على الإنكار والصبر عليه ١٣٠
١٢ ـ الإنكار يتطلب البُعدَ عن أموال الناس ١٣٠
١٣ ـ الصَّدعُ بالحق ١٣٠
١٤ ـ ضابط للصَّدعِ بالحق ١٣٢
١٥ ـ الإنكار بمنكر أشَدَّ أشَدُّ من الإنكار الأصلي ١٣٢
١٦ ـ الإنكار الشديد في غير محله ١٣٣
١٧ ـ خُلفاءٌ شَدَّدوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٣
١٨ ـ الإنكار على الخُلَفاء والمُلُوك ١٣٤
١٩ ـ خَطيبٌ عُزلَ لإنكاره على الخليفة ١٣٤
٢٠ ـ الإغلاظُ على الظالمين ١٣٥
٢١ ـ الإنكار على أعوان الظالمين ١٣٥
٢٢ ـ تَعليلٌ لمَنْع المأمون الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر ١٣٥
٢٣ ـ صورٌ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٦
٢٤ ـ من وَسائل الإصلاح ١٣٨
سادساً : الجِهاد ١٣٩
١ ـ الصَّالِحُونَ مُهْتَمُّونَ بالجِهَاد ١٣٩
٢ ـ التَّحَسُّرُ على فَوَاتِ الجِهَاد ١٣٩
٣ ـ مَنْ مَنَعَهُ الجِهَادُ من العِبادَةِ الكثيرة ١٣٩
٤ ـ مَنْ فَضَّلَ اتِّبَاعَ السُّنَّة والذَّبَّ عنها على الجِهَاد ١٤٠
٥ ـ الحَثُّ على الجِهَاد ١٤٠
٦ ـ رُؤَى فيها الحَثُّ على الجِهَاد ١٤١
٧ ـ النَّصْرُ مُرتَبِطٌ بتَوْفِيقِ الله لا بالأَشْخاصِ والقِيادَات ١٤١
٨ ـ الفُروسيَّة ١٤١
٩ ـ من أَسْبابِ النَّصر ١٤٢

(أ) التَّمَسُّكُ بالإسلام ١٤٢
(ب) الصبْرُ ١٤٢
(ج) الدُّعَاءُ والتَّذَلُّلُ ١٤٣
(د) وُجُودُ الصَّالِحِين ١٤٣
١٠ ـ الفَرَحُ بانْتِصارِ المُسْلِمين ١٤٤
١١ ـ من صِفاتِ قَائِدِ المجُـاهِدِين ١٤٤
١٢ ـ تَأدِيبُ العُلَماءِ أهلَ الثَّغر وتَعْليمُهم السُّنَّة ١٤٥
١٣ ـ الاسْتِعْدادُ للجِهَاد ١٤٥
١٤ ـ أمْرُ العُلمَاءِ الوُلاةَ بالاسْتِعدادِ للجِهَاد ١٤٨
١٥ ـ العُلماءُ المُجَاهِدون ١٤٨
١٦ ـ سُؤالُ الله الشَّهَادَة ١٥٣
١٧ ـ صُوَرٌ من الشَّهَادَة ١٥٥
١٨ ـ الأُمَرَاءُ المُجَاهِدون ١٦١
١٩ ـ مُحاوَلَةُ صَلاحِ الدِّينِ الاسْتِنْجَادَ بسُلطَانِ المُوَحِّدِينَ ضِدَّ الصَّلِيبِيينَ فما اسْتَجابَ لعُذْرٍ سَمِجٍ ١٧٦
٢٠ ـ صُوَرٌ من الجِهادِ ١٧٦
٢١ ـ غَزَواتٌ ومَعارِك ١٨٤
(أ) من أخْبَارِ بعض الغَزَوات ١٨٤
بَنو قُرَيْظة ١٨٤
مُؤْته ١٨٥
تَبوك ١٨٧
أَوْطاس ١٨٩
(ب) من أخْبارِ مَعَارِك الصَّحَابَة ١٨٩
فَتحُ بلاد الشَّام ١٨٩
وَقْعَةُ مَرْج الصّفر ١٩٠

اليَمامَة ١٩٠
(ج) مَعارِكُ عظيمةٌ في التاريخ الإسْلاميّ ١٩٢
(د) مَعارِكُ خَسِرَ فيها المُسلِمونَ وسَبَبُها ٢٠١
(هـ) تَواريخُ عدد من الفُتوحات ٢٠٢
فَتحُ دِمشق ٢٠٢
فَتحُ حمْص ٢٠٤
مَعْركةُ القادسيّة ٢٠٤
فتْحُ المَدائِن ٢٠٤
مَعْرَكة جَلُولاء ٢٠٦
قِنَّسْرين ٢٠٧
تُسْتَر ٢٠٧
فتْحُ مِصْر ٢٠٩
بَرْقَة ٢١٠
نَهاوَنْد ٢١٠
٢٢ ـ من عَجَائِبِ غَنائِم الجِهَاد ٢١٢
٢٣ ـ المعَارِكُ الإسلاميّة معَارِكُ نَظيفة ليس فيها تَعدٍّ ولا جَوْر ٢١٤
٢٤ ـ الفِتنَةُ تَمْنَعُ من الجِهَادِ ٢١٥
٢٥ ـ المِيْتَةُ الجَاهِليّة ٢١٥
٢٦ ـ رُؤيَا باهِرةٌ في أمر الجِهاد ٢١٦
٢٧ ـ شِعْرٌ في الجِهَادِ ٢١٦
٢٨ ـ فَتحُ المسلمين إمْبراطُوريّات فارسَ والرّوم في مُدَّة وَجيزَة لم تُعهَد في التاريخ ولم يُسمَع بمثلها ٢١٨
٢٩ ـ التَّسَرُّعُ في المَعْركَة مَهْلَكَة ٢١٨
٣٠ ـ الهَاتفُون بالتَّثْبيت في المعَارك ٢١٩
٣١ ـ من فِقْه الجِهاد ٢٢٠

٣٢ ـ إجْلاءُ اليَهود عن الجَزيرة العربية ٢٢١
من لوازِمِ الإيمان ٢٢١
أولاً : الابْتلاءُ ٢٢١
١ ـ فَضْلُ المُبْتَلَى الصَّابرِ ٢٢١
٢ ـ التَّصْبِيرُ حَالَ الابْتِلاء ٢٢١
٣ ـ الصَّبرُ حالَ الابْتلاء ٢٢٢
٤ ـ المِحْنَةُ المَحْمُودَةُ ٢٢٣
٥ ـ صوَرٌ من الابْتلاءِ ٢٢٣
شأن الإفك ٢٢٤
ـ قصة محمد بن إسماعيل البخاري مع محمد بن يحيى الذهلي رحمهما الله ... ٢٣٨
ـ ذكر محنة محمد بن إسماعيل البخاري مع أمير بخارىٰ ٢٤١
٦ ـ لماذا يُحْمدُ اللهُ عند المُصيبَةِ ٢٤٧
٧ ـ رُؤْيا يَظْهرُ فيها فائِدَةُ الابْتِلاء والصَّبرِ عليه ٢٤٧
ثانياً : الفتَنُ ٢٤٨
١ ـ الفاروق رضي الله عنه كان دِرْعاً للفِتن عن المسلمين ٢٤٨
٢ ـ الفتن في عهد عثمان رضي الله عنه ٢٤٨
٣ ـ مُثيرُوا الفِتن قَليلُوا الفِقْه عادةً ٢٦٢
٤ ـ ضَرُورَةُ التمَسُّك بالبَيعَة الشرعية حالَ الفتن ٢٦٣
٥ ـ سَرْدٌ تاريخِيّ للفِتَنِ ٢٦٣
٦ ـ رُؤْيا فيها حَثٌّ على البُعدِ عن الفِتَنِ ٢٦٤
٧ ـ التَّأكدُ قَبلَ الوُلُوجِ في الفِتَنِ ٢٦٤
٨ ـ ضَابِطٌ فيما جَرَى بيَنَ السَّلَفِ من الفِتَنِ ٢٦٥
٩ ـ الفِتْنَةُ تَمنَعُ من الجِهَاد ٢٦٦
١٠ ـ مَنْ كانَ عِندَهُ أخْبارُ الفِتَنِ ٢٦٧

١١ ـ فِتَنٌ وَقَعت بين الصَّحابَة رضِي اللهُ عنهُم ٢٦٧
١٢ ـ فِتْنَةُ الحَرَّة ٢٧٥
١٣ ـ كراهِيَةُ الفِتَنِ والتَّحْذيرُ منْها ٢٧٧
الإسلام ٢٨٣
١ ـ الإسْلامُ دينُ يُسْرٍ وسَماحَةٍ لا تَشْديدَ فيه ولا تَنْفير ٢٨٣
٢ ـ مَظاهِرُ من عِزَّةِ الإسْلامِ نَسْألُ اللهَ أنْ يَرُدَّها ٢٨٥
(أ) قصَّةُ عُمر مع الهُرْمُزان ٢٨٥
(ب) حِوارُ سَعدِ بنِ مُعاذٍ مع أبي جَهْلٍ وأُمَيَّةَ بنِ خَلَف ٢٨٦
(ج) مُخاطَبَةُ المُغيرَةِ لعامِلِ كسْرى ٢٨٧
(د) لبسُ أسامَةَ بنِ زَيد لِحُلَّة ذي يَزن ٢٨٧
(هـ) أمانُ عبدِ الرَّحمَن الدَّاخِل للنَّصارَى ٢٨٨
(و) المُعتَصِمُ وطَاغِيَةُ الرُّوم ٢٨٩
(ز) قِصَّةُ المَازِنيّ مع اليَهُوديّ ٢٨٩
(ح) قِصَّةُ طُغرلبك مع مَلِكِ الرُّوم ٢٩٠
(ط) رِسالَةُ المُظَفَّر إلى مَلِكِ الرُّوم ٢٩٠
(ي) صَلاحُ الدِّينِ مع أرْناط ٢٩١
٣ ـ نَواحٍ حَضَارية في الإسلام ٢٩١
(أ) بدء التاريخ الهجري ٢٩١
(ب) بناءُ مُدن جديدة ٢٩٢
(ج) الاهتمام بالطِّبِّ وبناء المُستشفيات ٢٩٣
(د) مَدَارسُ نظَامِ المُلك ٢٩٦
(هـ) قانونُ مِنْ أيْنَ لكَ هَذَا ؟ ٢٩٦
(و) الرِّفْقُ بالحَيَوانِ ٢٩٧
(ز) دُورُ الأيْتامِ والعَجَزَةِ والعُمْيان ٢٩٧

(ح) المَدرسَة المُسْتنصِريّة ٢٩٨
عَقيدَةُ التَّوحيد ٢٩٩
١ ـ مِثالٌ للعَقيدَةِ الصَّحيحَة ٢٩٩
٢ ـ صاحبُ العَقيدَةِ الصَّحيحَة لا يَخافُ القُدومَ على اللهِ ٢٩٩
٣ ـ صاحبُ العَقيدَةِ الصَّحيحَة لا يَأبَهُ باتِّهامِ النَّاسِ له في عَقيدَتِه ٢٩٩
٤ ـ وُجُوبُ التَّسْليم في أخْبارِ الصِّفات ٣٠٠
٥ ـ لا يُوصَفُ اللهُ سُبحانَه الاَّ بما وَصَفَ به نفسَه أو وصَفَه رسُولُه ﷺ ٣٠٦
٦ ـ تَفسيرُ آيَة الحَديد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ٣٠٦
٧ ـ المُتأوِّلُ بَعضَ أخْبارِ الصِّفاتِ يُعْذَرُ ٣٠٧
٨ ـ النَّدَمُ على التَّعمُّق في عِلمِ الكَلام ٣٠٩
٩ ـ البُعدُ عن التَّوَسُّع في الألفاظِ العَقَديّة المُوهِمة ٣١٠
١٠ ـ البُعْدُ عن الفِتن الناشِئَة عن فُضُولِ الكَلامِ في أصُولِ الدّين وفُروعِه ٣١١
١١ ـ البُعدُ عن التَّكلُّف في مَسائل مثل : أمُؤمنٌ أنتَ حَقاً !!؟ ٣١٢
١٢ ـ مَسائلُ عَقَديّة ٣١٢
١٣ ـ دَلائلُ عَقليّة على مَسائل عَقَديّة ٣١٣
١٤ ـ مُناظرات ٣١٤
١٥ ـ أبْياتٌ شِعْريّة ٣١٦
١٦ ـ المرتَدُّون بعد وَفاة رسول الله ﷺ ٣١٧
قصَّةُ الأسْوَدِ العَنْسيّ ٣١٧
خَبَر الرِّدَّة ٣١٩
قِتالُ مُسيلمة الكذَّاب ٣٢١
وَقْعَةُ جُواثا ٣٢٢
١٧ ـ الوَلاءُ والبَراء ٣٢٣
(أ) الوَلاءُ والبَراءُ سَببٌ لِمَحَبَّة الله عَبْدَه ٣٢٣

(ب) أمثلةٌ جَميلةٌ على الوَلاءِ لله سُبْحانَه ولِرَسُوله ﷺ ٣٢٣
(ج) أمْثلَةٌ على مُوالاةِ المُسلمينَ الكافِرينَ ٣٢٤
١ ـ اسْتعانةُ المسلمين بالفِرَنْج ضِدَّ مسلمين ٣٢٤
المَأمونُ (مَلكُ طُلَيْطِلَة) ٣٢٦
أحمدُ بنُ عبد المَلك بن هُود ٣٢٧
محمد بن يوسف بن هود ٣٢٨
٢ ـ مَنْ خَافَ من الصَّليبيّين فهادَنَهم وأعْطاهُم مالاً وبُلداناً إسلاميّة ٣٢٩
٣ ـ مَنْ اسْتَنْجَدَ بالنَّصارَى ضدَّ جَيْشٍ مُسْلِمٍ ظالِمٍ ٣٣٠
٤ ـ مَنْ اسْتَنْجَدَ بالنَّصارَى خَوفاً مِنْ حَربِ المُسلِمينَ له ٣٣٠
٥ ـ مَنْ حَاربَ مع النَّصارَى ضدَّ المُسلمينَ يَأساً من أحْواله ٣٣٢
٦ ـ مُهادَنةُ الكامل للصَّليبيِّين وإعْطاؤُهم بَيتَ المَقْدس ٣٣٢
٧ ـ الاحتفالُ بأعْيادِهم ٣٣٣
البِدْعة ٣٣٥
١ ـ ضابط لبعض صفات المبتدعة ٣٣٥
(أ) تعريفُ البدعة المَذْمومَة ٣٣٥
(ب) الْتِمَاسُ الذهبيّ العُذرَ لمَنْ تَلبَّس ببعض البِدَع وهو حَسَنُ النيّة ٣٣٥
٢ ـ الاتِّباعُ يَنفي الابْتِداع ٣٣٦
٣ ـ وُجُوبُ اتِّباعِ ما جاءَ به النَّبيُّ ﷺ ٣٣٧
٤ ـ التَّحْذيرُ من تَرْك اتِّباع ما جاءَ به النبيُّ ﷺ والاسْتماع إلى الجَدَلِ والآراء ... ٣٣٧
٥ ـ زَجْرُ أهلِ البِدَع والأهْواءِ ومَنْعهم من الكلام ٣٣٧
٦ ـ الحَثُّ على البُعد عنهم وتَجَنُّبهم حتّى لا يُضِلُّوا غَيرَهم ٣٣٧
٧ ـ التَّحْذيرُ من إلْقاءِ الشُّبَه على العامّة ٣٣٨
٨ ـ مُناقَشَة اعتقادات بعضِ الفِرَق المُبتدِعَة ٣٣٨
٩ ـ كيْفيّةُ الرَّدِّ على بَعضِ أهلِ البِدَعِ ٣٣٩

١٠ ـ مَنْ كُفِّرَ ببِدْعَة فلَيسَ هو كالكَافرِ الأصْليّ ٣٣٩
١١ ـ الإنْكارُ على المُبْتَدِعَة يكُونُ بقَدَرٍ حتى لا يُجاوزَ المُنْكِرُ الحَدَّ الشرعي في إنْكاره ٣٣٩
١٢ ـ خَوفُ الصَّالحين من الإقْدَام على أمُورٍ مَخَافَةَ الابْتِداع ٣٤٠
التَّكفير ٣٤١
١ ـ تَكفيرُ المُسلمِ أمرٌ عَظيم ٣٤١
٢ ـ ضَبطُ الذهبيِّ غُلوَّ بَعضِ السَّلفِ في التَّكْفير ٣٤٢
٣ ـ لَومُ الذهبيُّ ابنَ خَفيف لأنَّه لَمْ يُكَفِّر الحَلاَّجَ واعتَقدَ أنَّه مُوَحِّد ٣٤٣
العَقائدُ الضالَّة ٣٤٤
١ ـ من أسبابِ انحرافِ مَنْ انْحَرَفَ من المُسلمين التَّأثُّرُ بفكرِ الضالين نَتيجَةَ مُخالَطَتِهم ٣٤٤
٢ ـ عَرضٌ تاريخيّ لظُهور العَقائد المُخالِفَة ٣٤٦
٣ ـ أسْبابُ انْتشَارُ العَقائدِ الفَاسِدَة ٣٤٧
(أ) الجَهلُ ٣٤٧
(ب) إباحَةُ المُحرَّمات ٣٥٢
(ج) السِّحْر ٣٥٥
(د) الخِدَع والحِيَل ٣٥٦
(هـ) إسقاطُ الواجِبَات ٣٥٨
(و) التَّزَهد ٣٦٠
(ز) ادِّعاءُ النِّسْبَةِ إلى آلِ البَيْتِ ٣٦٣
٤ ـ حادِثَةٌ فيها عِظَةٌ لفاسِدِي العَقيدَة ٣٦٤
٥ ـ تَعْليلٌ لظُهورِ الكَشْفِ والإخْبارُ بالغَيبِ عند الضَّالِّينَ ٣٦٥
فِرَقٌ وآراءٌ اعْتقاديَّة ٣٦٧
أولاً : الأشاعِرَة ٣٦٧
١ ـ عَقيدةُ أبي الحَسَن الأشْعَريّ ٣٦٧

٢ ـ قال الذهبيُّ : الأشاعِرَةُ الأوائِلُ كانُوا على طَريقَةِ السَّلَف ٣٦٧
٣ ـ الأشاعِرةُ الذَّابُّونَ عن الإسْلام ٣٦٨
ابنُ الباقِلاَّنيّ ٣٦٨
٤ ـ ذَمُّ الذهبيِّ بَعْضَ أصْحابِ الحَديثِ لشِدَّتِهم على الأشاعِرَة ٣٧١
٥ ـ رَدُّ الذهبيِّ على بَعضِ أصْحابِ الحَديثِ لشِدَّتِهم على الأشَاعِرَة ٣٧١
٦ ـ الفِتَنُ بين الأشاعِرَة والحَنابِلَة ٣٧٢
أبو جَعْفَر الهاشميّ ٣٧٢
البَكريّ ٣٧٣
٧ ـ أمْثلةٌ على ما وَقَعَ بينَ الأشاعِرَة والحَنَابِلَة من أشْياءَ لا تُحْمَدُ ٣٧٤
ثانياً : الجَهْميَّة ٣٧٦
ثالثاً : الخَوارِج ٣٧٧
١ ـ الخَوارِجُ دَوَّخوا الخُلَفاءَ وحارَبُوهُم ، ومَنَعُوهُم من الانْصِرافِ إلى الجِهادِ
وهذه أمْثِلَةٌ على زُعَمائِهِم ٣٧٧
(أ) شَبيبُ بنُ يَزيد ٣٧٧
(ب) قَطريُّ بنُ الفُجاءَة ٣٧٩
(ج) عُمَرُ بنُ حَفْصون ٣٨٠
٢ ـ كان من الخَوارج عُلَماءُ فمنهم (عِمْرانُ بنُ حِطَّان) ٣٨٠
٣ ـ إهَانَةُ الخَوارِج للأُمَراءِ ولَو كانوا صَحابَة ٣٨٢
٤ ـ مِن خوارِجِ المَغْرِب ٣٨٢
٥ ـ قِصةُ وَهْبِ بن مُنَبِّه ـ رَحِمَهُ الله ـ مع خارِجيٍّ وهِدايَتُه له ٣٨٤
رابعاً : السَّالِميَّة ٣٨٧
خامساً : الشِّيعَةُ والرَّوافِضُ ٣٨٨
١ ـ التَّشَيُّعُ الخَفيفُ ٣٨٨
٢ ـ التَّشَيُّعُ الغَالي ٣٩٠

٣ ـ آلُ البَيتِ أهْلُ سُنَّة وجَماعَة، وهم بَريئُونَ من عَقائِدِ الشِّيعَة الغالِيَة والرَّافِضَة . ٣٩٣
٤ ـ إنْكارُ بعضِ آلِ البيتِ على الشِّيعَة ما غَلَوْا فيه ٣٩٥
٥ ـ حُبُّ عَليٍّ وعُثمَانَ ٣٩٧
٦ ـ تَقديمُ عُثمانَ على عليٍّ ٣٩٧
٧ ـ لَيسَ تَقديمُ عليٍّ على عُثمانَ بِدعَةً ولا رَفْضاً ٣٩٨
٨ ـ تَفْضيلُ أبي بَكر وعُمَرَ على باقي الصَّحابَة ٣٩٩
٩ ـ التعْريفُ بفَضْلِ مُعاويَة رضي الله عنه ٤٠٥
١٠ ـ شِعرٌ في مُوالاة الخُلَفاء الأرْبَعَة وحُبِّهم ٤٠٥
١١ ـ الرَّدُّ على الشِّيعَةِ الاثْني عَشْريّة ٤٠٦
١٢ ـ ذِكْرُ الأئِمَّة الاثْنَي عَشْريَّة وفَضْلَهم ٤٠٦
١٣ ـ مَنْ قُتِلَ من عُلَماء أهْلِ السُّنَّة بِسَبب إنْكارِه على الشِّيعَة ٤٠٧
١٤ ـ مَنْ هُدِّدَ بالقَتل من عُلَماء السُّنَّة بسَبب عَدم مُوافَقَته للشِّيعَة ٤٠٩
١٥ ـ الشِّيعَةُ المُجاهِدون ٤٠٩
سَيفُ الدَّولَة ٤٠٩
ثابِتُ بنُ أَسْلَم ٤١٠
١٦ ـ من عُلماء الشيعَة ٤١١
الجِعَابي ٤١١
١٧ ـ من عُلماء الشِّيعَة الغالين ٤١١
الرَّوَاجنيّ ٤١١
ابن خِراش ٤١٣
الشَّيخُ المُفيد ٤١٤
١٨ ـ مُناظَرات مع الشِّيعَة ٤١٥
١٩ ـ القِتالُ بين السُّنَّة والرَّافِضَة ٤١٧
٢٠ ـ انْتشارُ الرَّفضِ ببَعضِ عَواصِم الإسْلام ٤١٩
٢١ ـ نادرة لواحد من أهل السنة مع شيعيٍّ غالٍ ٤٢٢

٢٢ ـ تَعريفُ الخَليفَة ابنَه بجَهْلِ الرَّافِضَة ٤٢٣
٢٣ ـ رُؤْيا تُفيدُ التَّحذيرَ مِنْ سَبِّ الشَّيخَينِ ٤٢٣
سادساً : الفلاسفة والمناطقة ٤٢٥
١ ـ النَّظرُ في كُتبِ الفَلاسِفَة ـ بغَير علمٍ شَرعيٍّ وتَوفيقٍ إلَهيٍّ ـ مُهْلِك ٤٢٥
٢ ـ الاشْتغالُ بالفَلسَفَة والمَنْطِق لا يأتي بخَير ٤٢٦
(أ) الشَّهْرَسْتانيّ ٤٢٦
(ب) صَدقَة بنُ الحُسَين ٤٢٧
٣ ـ فَتوى في الفلسفة والمنطق ٤٢٧
٤ ـ أمْثلةٌ على الفَلاسِفَة ٤٢٨
(أ) يَعقُوبُ بنُ إسْحاق بنِ الصَّبَّاح ٤٢٨
(ب) السَّرَخْسيّ ٤٢٩
(ج) ابنُ سِينا ٤٢٩
(د) السُّهْرَوَرْديّ ٤٣١
٥ ـ حاكمٌ يَكْرَهُ عالماً لاشْتِغاله بالفلسفة والمَنْطِقْ ٤٣٣
سابعاً : القَدَريَّة والجَبْريَّة ٤٣٤
١ ـ عِلاجُ الفِكر في القدَر ٤٣٤
٢ ـ الخَليفةُ يَزيدُ بنُ الوَليد دَعا إلى القَدَر وحَملَ النَّاسَ عَليه ٤٣٤
٣ ـ عُلماءٌ اتُّهِموا في هذه المَسْألَة ٤٣٥
٤ ـ مَسْألةٌ في الجَبْر ٤٣٥
٥ ـ أمثلةٌ على القَدَريَّة ٤٣٥
مَعْبَد الجُهَني ٤٣٥
ثامناً : القُرْآنيون ٤٣٧
١ ـ القُرآنيُّون ضَالُّون ٤٣٧
٢ ـ الردُّ عليهم ٤٣٧

تاسعاً : الكرَّاميّة ٤٣٨
عاشراً: الكلابيّة ٤٣٩
حادي عشر : المُرجِئة ٤٤٠
ثاني عَشَر : المُعْتَزِلَة ٤٤٢
١ ـ من عَقائد المُعْتزِلَة ٤٤٢
٢ ـ من عُلماء المُعْتزِلَة ٤٤٢
(أ) ثُمامَةُ بنُ أشْرَس ٤٤٢
(ب) أبو يُوسُف القَزوينيّ ٤٤٣
جَماعاتٌ ضَالَّةٌ خَارجَةٌ عن الدِّين ٤٤٦
أوّلاً : الباطِنيّة ٤٤٦
١ ـ من عَقائدِهم ٤٤٦
٢ ـ مَن فَضَحَهم من عُلماء المسلمين ٤٤٦
٣ ـ تاريخُهُم وأُمَراؤُهم ٤٤٦
(أ) ابنُ غطَّاش ٤٤٦
(ب) عَبدُ الغَني ٤٤٧
(ج) ابنُ سنان ٤٤٨
٤ ـ مُحاولَة قَتلهم الأُمَراء والخُلَفاء والوُزَراء وكلَّ مَنْ فيه خَيرٌ للإسْلام ٤٥٢
٥ ـ مُحارَبَةُ المُسلمينَ لهم وقَتلهم ٤٥٦
٦ ـ مَنْ قرَّبهم من أُمَراء المسلمين ٤٥٨
٧ ـ عَلاقَتُهم بالعُبَيْديِّين الفاطِميِّين ٤٥٩
٨ ـ عَلاقَتُهم بالصَّليبيِّين ٤٦١
٩ ـ تَهْديدُ صَلاحِ الدِّينِ لهم ورَدُّهم عليه ٤٦٢
١٠ ـ مُحاوَلتُهم قَتلَ صَلاحِ الدِّين ٤٦٣
ثانياً : الحلوليّة الاتّحاديّة ٤٦٥
أُناسٌ اتُّهِموا بالقول بالحلول والاتّحاد ٤٦٥

(أ) ابنُ الفارِض ٤٦٥
(ب) ابنُ العَربيِّ الحاتميّ ٤٦٥
ثالثاً : الزَّنادِقَة ٤٦٦
أُناسٌ اتُّهِموا بالزَّنْدَقَة ٤٦٦
(أ) ابنُ أبي العَزاقِر ٤٦٦
(ب) أبو حَيَّان التّوحيديّ ٤٦٧
(ج) الجَصَّاص ٤٦٨
(د) الحَريريّ ٤٦٩
رابعاً : الزَّنج ٤٧٢
خامساً : القَرامِطَة ٤٨٢
سادساً : مُتنبئون ٤٨٧
سابعاً : مُرْتَدُّون ٤٨٩
ثامناً : مَلاحِدَة ٤٩١
الرِّيوَنْدِي ٤٩١
تاسعاً : مَجُوس ٤٩٣
مَجُوسٌ خَرجوا لإقامَةِ مِلَّتِهم الخُرَّمِيَّة ٤٩٣
المعْجِزاتُ والكرامات ٤٩٥
أولاً : المُعْجِزَات ٤٩٥
من مُعْجزات سَيِّد الخَلق محمدٍ ﷺ ٤٩٥
ثانياً : الكرامَات ٤٩٩
١ ـ ضَابطٌ لقَبولِ الكرامَة ٤٩٩
٢ ـ تَعليلٌ لكثرَة الكرامَات في بَني إسْرائيلَ وقِلَّتها في هذه الأُمَّة ٤٩٩
٣ ـ الرَّدُّ على الذي يُعجَبُ من الكرامَة ٥٠٠
٤ ـ الرَّد على الذي لا يُصَدِّقُ الكرامَات ٥٠٠
٥ ـ الاسْتقامَة عَينُ الكرامَة ٥٠٠

٦ ـ قَولٌ جَميلٌ للتُّسْتَري يُنبِّه المُعْجَبَ بكرامَته ٥٠٢
٧ ـ العالم يُفرِّقُ بين الكرامَةِ والاسْتِدْراج ٥٠٢
٨ ـ أمثلة جميلة على كرامات الصالحين ٥٠٢
التَّصَوُّفْ والصوفِية ٥٣٩
١ ـ ما كان عليه الصَّحابة والتَّابعون هو أكملُ المَراتب ٥٣٩
٢ ـ ضابطٌ لنَوْعَي التصوُّف الحَسَن والفاسِد ٥٤٠
٣ ـ من أصُول التصَوُّف الصحيح ٥٤٠
٤ ـ الصُّوفيَّةُ الأوائلُ لا يُحبُّون الانْحِرافَ والشَّطَح ٥٤٥
٥ ـ الصُّوفيَّة الأوائل بَرآءٌ ممَّا أحْدَثَ المُتأخِّرون ٥٤٥
٦ ـ بعضُ مُتأخِّري الصُّوفيَّة الصَّالحين ٥٤٧
(أ) الجِيلاني ٥٤٧
(ب) السُّهْرَوَرْديُّ ٥٥١
٧ ـ من الصُّوفيَّة مَنْ لم يُعرَف صَلاحُه إلاَّ بعد مَوته ٥٥٢
٨ ـ مَنْ اتُّهِمَ منهم بالزَّندَقة وهو منها براءٌ ٥٥٣
٩ ـ تأوُّلُ الذهبيِّ لمَن نُسِبَتْ إليهم أقوالٌ لا تُقبَلُ شَرعاً ٥٥٤
١٠ ـ تَأوُّلُ غيرِ الذهبيِّ لهؤلاء ٥٥٥
١١ ـ ضَبطُ الذهبيِّ بَعضَ عِبارات الصُّوفيَّة ٥٥٥
١٢ ـ ذَمُّ الذهبيِّ بعضَ أفْعالِ المُتَصوِّفَة المخالفة للشَّرع ٥٥٦
١٣ ـ ذَمُّ الذهبي بعضَ مُصْطَلحات التصَوُّف ٥٥٧
١٤ ـ رَدُّ الذهبيّ على أخْطاء بعض المُتَصَوِّفَة ٥٦٠
١٥ ـ مَنْ غَلا في مُحارَبَة الصُّوفيَّة ٥٦٢
١٦ ـ ضُلاَّل نَسَبوا أنفسَهم إلى التَّصَوُّف ٥٦٣
الحَلاَّج ٥٦٣
١٧ ـ تَعليلٌ لبَعضِ ما يَسْمَعُه بَعضُ زُهَّاد المُتصَوِّفَة من المُخاطَبات ٥٦٨
١٨ ـ الخَرَّاز أوّلُ مَنْ تكلَّم في مَصْلَح الفَناء والبَقاء ٥٧٠

مَسائل عَقديّة مُتفرِّقة ٥٧١
١ ـ التجْسيم ٥٧١
٢ ـ التَّشْبيه ٥٧١
٣ ـ تَعليلٌ لانتشار عِلم الكَلام في المَغْرب والأنْدَلُس ٥٧٢
٤ ـ التَّعَلُّق بالقُبور ٥٧٣
(أ) أحْوالُ العَوامِّ المُتعلِّقين بالقُبور في القَرن الثامن ٥٧٣
(ب) زيارةُ قَبر النبيِّ ٥٧٣
٥ ـ ضَمَّةُ القَبْر ٥٧٤
بَيانُ أنَّ ضَمَّةَ القَبر بالنِّسْبَة للمؤمن الصَّالح لَيست عَذاباً ٥٧٤
٦ ـ كيف يُدفَن النبيُّ ﷺ في بَيتِ عائشةَ مع كونِه ﷺ نَهَى عن الدَّفْنِ في البُيوتِ
وجَعْلِها مَقابر ٥٧٥
٧ ـ فِتْنَة خَلْق القُرآن ٥٧٦
(أ) فِتْنَة القَول بخَلْق القُرآن والمِحَنُ التي صاحَبَتْها ٥٧٦
مِحْنَةُ الوَاثق ٥٩٠
(ب) مُناظَرةٌ في خَلْق القُرآن ٥٩٤
(ج) انتهاء فِتنة الامتحان بخَلْق القُرآن ٥٩٧
(د) ردُّ الذهبيِّ غُلوَّ بعض العُلماء في التكفير بسبب تلك الفتنة ٥٩٧
(هـ) البُعدُ عن الخَوْض في هذه المسْألَة وأمْثالها أَوْلَى ٥٩٩
محتوى الكتاب ٦٠١

الفوائد الغراء

من تهذيب

سير أعلام النبلاء

قدم له

الدكتور محمد موسى الشريف

جمع وترتيب

الشريف فهد بن أحمد بن عبد الله المهدلي

ساهم في الطبع

الشيخ محمد عائض غرامة الأسمري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزء الثاني

الطبعة الأولىٰ

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

جميع الحقوق محفوظة

الفوائد الغراء

من تهذيب

سير أعلام النبلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

العِلْمُ والعُلَماء

أولاً : العلْم

١ـ فَضْلُ العِلْم :

صَحَّ عن رَبيعَة بنِ فَرُّوخ ، قال : العلْمُ وَسيلةٌ إلىٰ كلِّ فَضيلَة .

وقال مُصْعبٌ الزَّبيري : كان يُقالُ له : رَبيعةَ الرَّأي ، وكان صاحبَ الفَتْوىٰ بالمَدينة ، وكان يَجلسُ إليه وُجوه النَّاسِ ، وكان يُحْصَىٰ في مَجلسِه أربَعون مُعتمَّاً .

وعنه أخَذَ مَالكُ بنُ أَنَس[١] .

وقال المُزَنيُّ : سَمعتُ الشَّافعيَّ يقولُ : مَنْ تَعلَّمَ القُرآنَ عَظُمتْ قيمَتُه ، ومَنْ تكلَّمَ في الفِقْه نمَا قَدرُه ، ومَنْ كَتبَ الحَديثَ قَويتْ حُجَّتُه ، ومَنْ نَظَرَ في اللُّغَة رَقَّ طَبعُه ، ومَنْ نَظرَ في الحِسابِ جَزلَ رَأيُه ، ومَنْ لَمْ يَصنْ نَفسَه ، لَمْ يَنفَعْه عِلمُه[٢] .

٢ـ الخَوفُ والإشْفاقُ حالَ تَبْليغ العِلْم :

عن مَسْروقٍ قال : حدَّثنا عبدُ الله بنُ مَسْعود يوماً فقالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فرَعُدَ حتىٰ رَعُدَت ثيابُه ، ثم قالَ نحوَ ذا أو شَبيهاً بذا[٣] .

وقال أشْعَثُ : كان ابنُ سيرينَ إذا سُئلَ عن الحلالِ والحَرام ، تَغيَّر لَونُه حتىٰ تَقولَ : كأنَّه ليس بالذي كان[٤] .

---

(١) انظر السير : (ربيعة) ٦/ ٨٩ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٦٣٥/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الإمام الشَّافِعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٤٦/ ٥ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن مَسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١٩٧/ ٣ .

(٤) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٥٦٩/ ١ .

وعن شُعبَة قال : ما رَأيتُ أحداً أصدَقَ من سُليمانَ التَّيميّ ، رَحمَه الله ، كان إذا حَدَّثَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم تَغيَّر لَونُه[1] .

وقال بَكَّارُ بنُ محمَّد السيريني : كان ابنُ عون إذا حدَّث بالحَديثِ يَخْشَع عنده حتىٰ نَرحَمُه مَخافَةَ أنْ يَزيدَ أو يَنقُص .

ولقد كان ابنُ عون بخَيرٍ ، مُوسَّعاً عليه في الرِّزْق . قال مُعاذُ بنُ مُعاذ : رَأيتُ عليه بُرْنساً من صُوف . رَقيقاً حَسناً . فقيلَ له : ما هـٰذا البُرْنس يا أبا عون ؟ قال : هـٰذا كان لابنِ عُمَر ، كَساه لأنَس بنِ سيرين ، فاشْتريتُه من تَركَتِه[2] .

وقال ابنُ الغلابي : قال يَحيى بنُ مَعين : إنِّي لأُحَدِّثُ بالحَديث فأسْهرُ له مَخافَةَ أنْ أكونَ قد أخْطأتُ فيه .

وقال محمدُ بنُ هارون الفَلاَّس : إذا رأيتَ الرجُلَ يَقعُ في يَحْيَى ابنِ مَعين فاعْلَمْ أنَّه كذَّابٌ ، يَضعُ الحَديثَ ، وإنَّما يَبغَضُه لما يُبيِّنُ من أمْر الكذَّابين[3] .

وقال عليُّ بنُ الحُسَين بنِ الجُنَيد ، سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، يقولُ : إنَّا لنَطْعنُ علىٰ أقْوامٍ ، لعلَّهم قد حَطُّوا رِحالَهم في الجنَّة من أكثر من مئتي سنة .

قال الذَّهبيُّ : لَعلَّها من مِئَة سَنة ، فإنَّ ذلك لا يَبلغُ في أيّام يَحْيَىٰ هـٰذا القَدْر[4] .

قال ابنُ مَهْرَوَيْه : فدَخلتُ علىٰ عبدِ الرَّحمَـٰن بنِ أبي حاتِم ، وهو يَقرأُ على النَّاسِ كتابَ « الجَرْح والتَّعْديل » ، فحدَّثْتُه بهـٰذه الحكايَة ، فبَكَىٰ وارْتَعَدتْ يَداهُ ، حتىٰ سَقَطَ الكتابُ من يَدِه وجَعلَ يَبكي ، ويَسْتعيدُني الحكايَة .

قال الذَّهبيُّ : أصابَه علىٰ طَريق الوَجَل وخَوفِ العاقِبَة ، وإلاَّ فكَلامُ النَّاقِد الوَرِعِ في الضُّعَفاء من النُّصْح لدين الله والذَّبِّ عن السُّنَّة .

---

(١) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٧/٦٤٠ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٦/٦٥٧ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/٩١١ .
(٤) انظر السير : (عبد الرَّحمـٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٠ .

تُوفِّي ابنُ أبي حاتِم سَنةَ سَبع وعشرين وثلاث مئة بالرِّي ، وله بِضعٌ وثمانونَ سَنة[1] .

٣ـ وُجوب العَمَل بالعِلْم :

عن مَيْمُون بنِ مِهْران ، قال أبو الدَّرْداء : ويلٌ للذي لا يعلَمُ مَرَّةً ، وويلٌ للذي يعلَمُ ولا يَعمَلُ سَبعَ مرَّات[2] .

وقال الشَّعبيُّ : إنَّا لسْنا بالفُقَهاء ولكِنَّا سَمعنا الحَديثَ فرَوَيْناهُ ، ولكنَّ الفُقَهاء مَنْ إذا عَلِمَ عَمِل[3] .

وعن وَهْب بنِ مُنبِّه : قَرأتُ في بَعضِ الكتب : ابنَ آدَم ، لا خَيرَ لك في أنْ تَعلَم ما لَمْ تَعلَمْ ولَمْ تَعمَل بما عَلِمتَ ، فإنَّ مثَلَ ذلك كرجُلٍ احْتَطَبَ فحَزمَ حُزْمةً ، فذَهبَ يَحملُها فعَجزَ عنها ، فضَمَّ إليها أُخْرىٰ[4] .

٤ـ رُؤِىَ فيها حَثٌّ على العَمَل بالعِلْم :

قال حُميدُ بنُ الرَّبيع : رَأىٰ حُسينٌ الجُعفيُّ كأنَّ القيامَة قد قامَت وكأنَّ مُنادياً يُنادي : ليَقُم العُلماءُ ، فيَدخلوا الجَنَّة ، قال : فقاموا : وقُمتُ معَهم . قِيلَ لي : اجْلِسْ ، لَستَ منهم ، أنتَ لا تُحدِّث ، قال : فلَمْ يزَلْ بعدُ يُحدِّث بعد أنْ كان لا يُحدِّث حتىٰ كَتبنا عنه أكثرَ من عَشرَة آلافِ حَديث .

قال أحمدُ بنُ عبد الله العِجْليّ : حُسَينٌ الجُعفيُّ ثِقَةٌ ، كان يُقرِئُ القُرآنَ ، رأسٌ فيه ، وكان رجلاً صالحاً ، لمْ أرَ رجلاً قَطُّ أفضَلَ منه .

قال : كان جَميلاً لبَّاساً يخضبُ وخضابُه إلى الصُّفْرة .

---

(١) انظر السير : (عبد الرَّحمٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٨٠ .
(٢) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٥/٢٧١ .
(٣) انظر السير : (الشَّعبيّ) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٢ .
(٤) انظر السير : (وَهْب بن مُنبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ١١/٥٥٤ .

قيلَ : إنَّ مَولَده في سَنة تسع عَشرة ومئة . وتُوفي في سنة ثلاثٍ ومئتين ، وله بِضْعٌ وثمانوَن سَنة[1] .

ويُروَىٰ عن أبي سَبرة المَديني قال : قلتُ للقَعْنَبيِّ : حَدَّثتَ ولمْ تَكن تُحدِّث! قال : إنِّي أُريتُ كأنَّ القيامَة قد قامت ، فصِيحَ بأهْلِ العِلمِ ، فقاموا ، وقُمتُ معهم فنودي بي : فقلتُ : إلـٰهي ألَمْ أكُنْ أطْلبُ ؟ قال : بلَىٰ ، ولكنَّهم نَشَروا وأخْفَيتَه . قال : فحدَّثتُ .

وقال إسماعيلُ القاضي : كان القَعْنَبيُّ من المُجتَهدين في العِبادَة[2] .

وجاء في تَرجمة عليِّ بنِ أبي طاهِر قال الذَّهبيُّ : وثَّقَه الخَليليُّ ، قال : سَمعتُ الحَسنَ بنَ أحمد بنَ صالح يَحْكي عن سُليمانَ بنِ يَزيد : أنَّ عليَّ ابنَ أبي طاهر لمَّا رَحلَ إلى الشَّام ، وكَتبَ الحَديثَ جَعلَ كُتبَه في صُندوقٍ ، وقَيَّرَه ورَكبَ البَحرَ ، فاضْطَربَت السَّفينَةُ وماجت ، فألْقَى الصُندوقَ في البَحرِ ، ثم سَكنَتِ السَّفينَةُ ، فلمَّا خَرجَ منها أقامَ على السَّاحلِ ثلاثاً يَدعُو اللهَ ، ثم سَجدَ في اللَّيلَة الثَّالِثَة ، وقال : إنْ كان طَلَبي ذلك لوَجْهك وحبِّ رسُولِك ، فأغِثْني بردِّ ذلك ، فرفَعَ رأسَه ، فإذا بالصُندوقِ مُلقَىٰ عندَه ، فقَدمَ ، وأقامَ بُرْهَة ، ثم قَصَدوه لسَماع الحَديثِ فامْتَنَع منه . وقال : فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، في مَنامي ، ومَعه عليٌّ رضي الله عنه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يا عَليُّ مَنْ عامَلَ اللهُ بما عامَلَكَ به علىٰ شَطِّ البَحْر ؟!! ، لا تَمتَنِعْ من رِوايَة أحاديثي » . قال : فقُلتُ : قد تُبتُ إلى الله ، فدَعا لي وحَثَّني على الرِّوايَة .

ماتَ عليُّ بنُ أبي طاهِر سنة نيِّف وتسعين ومئتين ، رَحمَه الله[3] .

وعن ثابتِ بنِ أحمَد قال : رَأيتُ أبا القاسِم الزَّنْجانيّ في النَّوم يقولُ لي مرَّةً بعد أُخْرىٰ : إنَّ اللهَ يَبني لأهْلِ الحَديث بكلِّ مَجلِسٍ يَجْلِسونَه بَيْتاً في الجَنَّة[4] .

---

(١) انظر السير : (الحُسَينُ بن عليّ الجُعفيّ) ٩/ ٣٩٧ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٣٣ .
(٢) انظر السير : (القَعْنبيُّ) ١٠/ ٢٥٧ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٧٥ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بن أبي طاهر) ١٤/ ٨٧ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٣٥ .
(٤) انظر السير : (الزَّنْجانيّ) ١٨/ ٣٨٥ـ ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٢٣ .

وقال ابنُ النَّجار : سَمعتُ المُبارك النَّحْويَّ يقولُ : كان ابنُ الخَشَّاب إذا نُوديَ علىٰ كتابٍ . أخَذَه وطالَعَه ، وغَلَّ ورَقَه ، ثم يقولُ : هو مَقطوعٌ ، فيَشْتَريه برخْصٍ[1] .

قال الذَّهبيُّ : لَعلَّه تابَ ، فقَد قالَ عبدُ الله بنُ أبي الفَرَج الجُبَّائي : رأيتُ ابنَ الخشَّاب وعليه ثيابٌ بيضٌ ، وعلىٰ وَجْهه نورٌ ، فقلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قال : غَفَرَ لي ، ودَخلتُ الجَنَّة ، إلاَّ أنَّ اللهَ أعْرضَ عنِّي وعن كَثيرٍ من العُلماء ممَّن لا يَعملُ .

ماتَ سَنةَ سَبعٍ وستِّينَ وخَمسِ مِئَة[2] .

٥ـ العِلْمُ النافع :

(أ) صُورٌ من العِلْمِ النافع :

قال اللَّيثُ بنُ سَعد وغيرُه : كتَبَ رجلٌ إلى ابنِ عُمَرَ أنِ اكْتُب إليَّ بالعِلمِ كلِّه . فكَتبَ إليه : إنَّ العلمَ كثيرٌ ، ولكنْ إنِ اسْتطعتَ أنِ تَلقَى اللهَ خَفيفَ الظَّهْرِ من دِماءِ النَّاسِ ، خَميصَ البَطنِ من أمْوالِهم ، كافَّ اللِّسان عن أعْراضِهم ، لازماً لأمرِ جماعَتهم ، فافْعَل[3] .

وعن مَسروقٍ ، قالَ : كَفىٰ بالمَرءِ عِلْماً أنْ يَخْشَى اللهَ تَعالَىٰ ، وكَفىٰ بالمَرءِ جَهْلاً أنْ يُعجَبَ بعَملِه[4] .

وعن مُنذِر الثَّوريِّ ، قال : كانَ الرَّبيعُ بنُ خُثَيم إذا أتاهُ الرجلُ يَسْألُه قال : اتَّقِ اللهَ فيما عَلمْتَ ، وما استُؤثِرَ به عليكَ ، فكِلْهُ إلىٰ عَالِمِه ، لأنا عليكم في العَمْد أخْوَفُ منِّي عَليكم في الخَطَأ ، وما خَيِّرُكُم اليومَ بخَيِّرٍ ، ولكنَّه خَيرٌ من آخَر شَرٌّ منه ، وما تَتَّبعونَ الخَيرَ حَقَّ اتِّباعِه ، وما تَفرُّونَ من الشَّرِ حَقَّ فِراره ، ولا كلَّ ما أنزلَ اللهُ علىٰ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أدْرَكتُم ، ولا كلَّ ما تَقْرؤون تَدْرونَ ما هو ، ثم يقولُ :

---

(١) انظر السير : (ابن الخَشَّاب) ٢٠/٥٢٣ـ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٩ .
(٢) انظر السير : (ابن الخَشَّاب) ٢٠/٥٢٣ـ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٩ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بن عُمَر) ٣/٢٠٣ـ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٧٠ .
(٤) انظر السير : (مَسروق) ٤/٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٦ .

السَّرائرَ السَّرائرَ اللاتي يَخْفَيْنَ من النَّاسِ وهُنَّ للهِ بَوادٍ ، التَمَسوا دَواءَهُنَّ وما دَواؤُهُنَّ إلاَّ أنْ يَتوبَ ثمَّ لا يَعود[1] .

وقال الشَّعبيَّ : إنَّا لَسنا بالفُقَهاء ، ولكنَّا سَمعنا الحَديثَ فرَوَيناه ، ولكنَّ الفُقَهاءَ مَنْ إذا عَلِمَ عَمِلَ[2] .

وعن الزُّهريِّ ، قال : حدَّثتُ عليَّ بنَ الحُسَين بحَديثٍ ، فلمَّا فَرغتُ قال : أحْسَنتَ هٰكذا حُدِّثْناه ، قُلتُ : ما أرَاني إلاَّ حدَّثْتُك بحَديثٍ أنتَ أعْلَمُ به منِّي ، قال : لا تَقُلْ ذاكَ ، فلَيسَ ما لا يُعرَفُ من العِلمِ ، إنَّما العِلمُ ما عُرِفَ ، وتَواطَأتْ عليه الألْسُن[3] .

وقالَ مالكُ بنُ دينار : مُذْ عَرفتُ النَّاسَ لَمْ أفْرَحْ بمَدْحِهم ، ولَمْ أكْرَه ذَمَّهم لأنَّ حامدَهم مُفرِّطٌ ، وذامَّهم مُفرِّطٌ ، إذا تَعلَّمَ العالمُ العِلْمَ للعَمَلِ كَسَرَه ، وإذا تَعلَّمَه لغَير العِلْمِ ، زادَه فَخْراً[4] .

وعن ابنِ جُرَيج قال : أتَيتُ عَطاءً وأنا أُريد هٰذا الشأنَ ، وعندَه عبدُ الله بنُ عُمَير ، فقال لي ابنُ عُمَير : قَرأتَ القُرآنَ ؟ قُلتُ : لا . قال : فاذهب فاقْرأه ثم اطلب العلمَ . فذهبتُ ، فغبرتُ زَماناً قَرأتُ القُرآنَ ، ثم جِئتُ عَطاءً ، وعنده عبدُ الله . فقال : قَرأتَ الفَريضَة ؟ قُلتُ : لا . قال : فتَعلَّم الفَريضَة ، ثم اطلُب العِلم . قال : فطَلَبتُ الفَريضَةَ ، ثم جِئتُ فقالَ : الآنَ فاطلُب العلمَ ، فلَزِمتُ عَطاءً سَبعَ عَشرةَ سَنةً[5] .

وقِيلَ للإمام مالك : ما تَقولُ في طَلَبِ العِلم ؟ قال : حَسنٌ جَميلٌ ، لكن انظُر الذي يلزَمُك من حين تُصبِح إلىٰ أن تُمسي ، فالْزَمْه[6] .

---

(١) انظر السير : (الرَّبيع بن خُثَيم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٩٢ .
(٢) انظر السير : (الشَّعبيّ) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٠٢ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بن الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ١/ ٥١٨ .
(٤) انظر السير : (مالك بن دينار) ٥/ ٣٦٢ـ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٠٩ .
(٥) انظر السير : (ابن جُرَيْج) ٦/ ٣٢٥ـ ٣٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٥٤ .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٣٣ .

وقال ابنُ السَّمَّاك : كم من شيء إذا لمْ يَنفَعْ لمْ يَضُرَّ لكن العلمَ إذا لمْ يَنفَعْ ، ضَرَّ[1] .

وعن ابنِ المُبارَك قال : أوَّلُ مَنفَعَة العلم أنْ يُفيدَ بَعضُهم بَعضاً[2] .

وذُكرَ مَعْروفٌ الكَرْخيُّ عندَ الإمام أحمَد ، فقِيلَ : قَصيرُ العلمِ ، فقال : أمْسِكْ ، وهل يُرادُ من العلمِ إلاَّ ما وَصلَ إليه مَعْروف[3] .

وقَصَّ إنسانٌ شاربَ مَعْروف ، فلم يَفْتُر عن الذِّكْرِ ، فقال : كيفَ أقُصُّ ؟ قال : أنتَ تَعْمَلُ وأنا أعْمَلُ[4] .

وعن الشَّافِعيِّ : العِلمُ ما نَفَعَ ، لَيسَ العِلمُ ما حُفِظَ[5] .

وقال عبدُ الله بنُ أحمَد بنِ شَبُّويَه : سَمعتُ أبي يقولُ : مَنْ أرادَ عِلمَ القَبرِ فعَليه بالأثَر ، ومَنْ أرادَ عِلمَ الخُبْزِ ، فعَليه بالرَّأيِّ[6] .

ورُويَ عن سُحْنُون قال : مَنْ لمْ يَعمَلْ بعِلْمِه ، لمْ يَنفَعْه عِلمُه . بلْ يَضُرُّه[7] .

وقال أبو إسْماعيل : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ عمَّار يَقولُ : العُلومُ خَمسَةٌ : عِلمٌ هو حَياةُ الدِّين وهو عِلمُ التَّوْحيد ، وعِلمٌ هو قُوتُ الدِّين وهو العِظَةُ والذِّكْر ، وعِلمٌ هو دَواءُ الدِّين وهو الفِقْهُ ، وعِلمٌ هو دَاءُ الدِّين وهو أخْبارُ ما وَقعَ بين السَّلَف ، وعِلمٌ هو هَلاكُ الدِّين وهو الكَلام .

قال الذَّهبيُّ : وعِلمُ الأوائل[8] .

---

(١) انظر السير : (ابن السَّمَّاك) ٨/ ٣٢٨ـ ٣٣٠ ، وانظر النزهة : ٧٦١/ ٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن المُبارك) ٣٧٨ ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧٦٨/ ٧ .
(٣) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخيّ) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٦/ ٢ .
(٤) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخيّ) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٦/ ٥ .
(٥) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٥٣/ ٥ .
(٦) انظر السير : (ابن شَبُّويَه) ١١/ ٧ـ ٩ ، وانظر النزهة : ٩٠٥/ ٢ .
(٧) انظر السير : (سُحْنُون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٩٨٢/ ٧ .
(٨) انظر السير : (يَحْيَى بن عمَّار) ١٧/ ٤٨١ـ ٤٨٣ ، وانظر النزهة : ١٣٥١/ ٣ .

قال الذَّهبيُّ في ترجمة ابنِ حَزْم الأنْدَلُسيِّ : فمَنْ طَلبَ العلمَ للعَمَل كَسَرَه العِلمُ ، وبَكىٰ علىٰ نَفسِه ، ومَنْ طَلبَ العِلمَ للمَدارِس والإفْتاءِ والفَخْر والرِّياء ، تَحامَقَ ، واخْتالَ ، وازْدَرَىٰ بالنَّاسِ وأهْلَكَه العُجْبُ ، ومَقَتَتْه الأنفُس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[1] أي : دَسَّسَها بالفُجورِ والمَعْصيَة . قُلِبَتْ فيه السِّينُ أَلِفاً .

قال الشَّيخُ عِزُّ الدِّين بنُ عبدِ السَّلام ـ وكانَ أحَدَ المُجتَهدين ـ : ما رَأيتُ في كُتبِ الإسْلام في العِلم مثلَ « المُحَلَّىٰ » لابنِ حَزْم ، وكتابِ « المُغْنِي » للشَّيخِ مُوَفَّق الدين .

قال الذَّهبيُّ : لقَد صَدقَ الشَّيخُ عِزُّ الدِّين وثالثُهما : « السُّنَنُ الكَبير » للبَيْهَقيِّ ، ورَابِعُهما : « التَّمْهيدُ » لابنِ عبدِ البَرْ . فمَنْ حَصَّلَ هـٰذه الدَّواوينَ ، وكان من أذْكياءِ المُفْتين ، وأَدْمَنَ المُطالَعةَ فيها ، فهو العَالمُ حَقّاً .

وقال أبو العبَّاس بنُ العَريف : كانَ لِسانُ ابنِ حَزْم وسَيفُ الحَجَّاج شَقيقَيْن[2] .

وقال أبو إسْحاقَ الشِّيرازي : العِلمُ الذي لا يَنْتَفعُ به صاحِبُه أنْ يكونَ الرجلُ عَالماً ولا يَكونَ عَامِلاً[3] .

وقال الذَّهبيُّ في ترجمة أبي حامد الغَزَّالي : تَدْري ما العلمُ النَّافِع ؟ هو ما نَزلَ به القُرآنُ ، وفسَّرَه الرسُولُ صلى الله عليه وسلم قَولاً وفِعْلاً ، ولَمْ يأتِ نَهيٌ عنه ، قال عليه السلام : « مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي ، فلَيْسَ مِنِّي » .

فعَليكَ يا أخي بتَدبُّر كتابِ الله وبإدْمان النَّظَر في « الصَّحيحَيْن » وسُنَنِ النَّسائي ، ورياضِ النَّواوي وأذْكارِه تُفْلِح وتَنْجَح ، وإيَّاكَ وآراءَ عُبَّادِ الفَلاسِفَة ، ووَظائفَ أهْل الرِّياضات وجُوعَ الرُّهْبان ، وخِطابَ طَيْش رُؤوسِ أصْحاب الخَلَوات ، فكلُّ الخَير في مُتابَعة الحَنيفيَّة السَّمْحَة ، فَواغَوْثاهُ بالله ، اللَّهُمَّ اهْدِنا إلىٰ صِراطِكَ المُسْتقيم[4] .

---

(١) سورة الشمس ، الآيتين : ٩ ، ١٠ .
(٢) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠١ .
(٣) انظر السير : (أبو إسْحاق الشِّيرازي) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٣٠ .
(٤) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٨٥ .

(ب) شروط العِلْمِ النافع :

قال الذَّهبيُّ في ترجمة الدَّارِميِّ : العلمُ لَيسَ هو بكَثرَة الرِّوايَة ، ولكنَّه نُورٌ يَقذفُه اللهُ في القَلب ، وشَرطُه الاتِّباع ، والفِرارُ من الهَوىٰ والابْتداع . وفَّقَنا اللهُ وإيَّاكُم لطاعَتِه[1] .

٦ـ العِلْمُ الضَّار :

قال سَعيدُ بنُ عُفَير : ما رَأيتُ أخْطبَ من إسْماعيلَ بنِ صالِح علىٰ هـٰذه الأعْواد ، كان جامعاً لكل سُؤْدُد ، ويَعرفُ الفَلْسَفةَ ، وضَربَ العُودِ ، والنُّجومَ .

قال الذَّهبيُّ : عِلمُهُ هـٰذا الجَهْلُ خَيرٌ منه[2] .

قال سُفيانُ بنُ عُيَينَة : العلمُ إذا لَمْ يَنفَعْكَ ، ضَرَّك[3] .

٧ـ النِّيةُ في طَلَب العِلْم :

(أ) وُجوب إحْسان النِّية في طَلَب العِلْم :

عن مُجاهد ، قال : طَلبنا هـٰذا العلمَ وما لنا فيه نيَّة ، ثم رَزَقَ اللهُ النيَّةَ بعد[4] .

وقال مَعْمَرُ بنُ راشد الأزْدي : لقد طَلبنا هـٰذا الشَّأنَ وما لنا فيه نيَّة ثم رَزَقَنا اللهُ النيَّةَ من بَعدُ .

وقال عبدُ الرزَّاق : أنْبأنا مَعْمَر قال : كان يُقالُ : إنَّ الرجلَ يَطلبُ العلمَ لغَير الله فيَأبَىٰ عليه العلمُ حتىٰ يكونَ لله .

قال الذَّهبيُّ : نَعم يَطلُبُه أولاً والحامِلُ له حبُّ العلمِ ، وحبُّ إزالَة الجَهْل عنه ، وحبُّ الوَظائف ، ونحوِ ذلك . ولَمْ يكنْ علمَ وُجوب الإخْلاص فيه ولا صِدْق النيَّة فإذا عَلِمَ حاسَبَ نفسَه وخافَ من وَبال قَصْدِه فتَجيئُهُ النيَّةُ الصَّالحَة كلُّها أو بَعضُها وقد

---

(١) انظر السير : (الدَّارِميّ) ١٣/ ٣١٩ـ ٣٢٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٩٢ .

(٢) انظر السير : (إسْماعيل بن صالح) ٨/ ٣٥٨ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٦٣ .

(٣) انظر السير : (سُفيان بن عُيينة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٨٤ .

(٤) انظر السير : (مُجاهد بن جَبر) ٤/ ٤٤٩ـ ٤٥٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٣٠ .

يَتوبُ من نيَّتِه الفاسِدَة ويَندمُ . وعلامَةُ ذلك أنَّه يُقْصِر من الدَّعاوَىٰ وحُبِّ المُناظَرَة ومن قَصْد التَّكثُّر بعلمه ويُزري علىٰ نفسه فإنْ تَكَثَّرَ بعلمه أو قال : أنا أعْلَمُ من فُلان فبُعداً له[1] .

وقال عَونُ بنُ عمارَة : سَمعتُ هشاماً الدَّستُوائيَّ يقولُ : والله ما أسْتطيعُ أنْ أَقُولَ إنِّي ذهبتُ يوماً قَطُّ أطلبُ الحَديثَ أريدُ به وجْهَ الله عزَّ وجلَّ[2] .

قال الذَّهبيُّ : والله ولا أنا ، فقد كان السَّلفُ يَطلبونَ العلمَ لله فنَبَلُوا ، وصاروا أئمَّة يُقتَدَىٰ بهم ، وطلَبَه قومٌ منهم أولاً لا لله ، وحصَّلوه ، ثم اسْتَفاقوا ، وحاسَبوا أنفسَهم ، فجَرَّهم العلمُ إلى الإخْلاصِ في أثناء الطَّريق ، كما قال مُجاهدٌ وغَيرُه : طَلَبنا هـٰذا العلمَ وما لنا فيه كَبيرُ نيَّة ثم رَزَقَ اللهُ النيَّةَ بعدُ ، وبعضُهم يقولُ : طَلَبنا هـٰذا العلمَ لغَير الله فأبَىٰ أنْ يكونَ إلاَّ لله . فهـٰذا أيضاً حَسنٌ . ثم نَشَروه بنيَّةٍ صالحَة[3] .

قال إسْحاقُ بنُ الطَّبَّاع : سَمعتُ حَمَّادَ بنَ سَلمةَ يقولُ : مَنْ طَلبَ الحَديثَ لغَيرِ الله تَعالَىٰ مُكِرَ به[4] .

وقال محمَّدُ بنُ سَلام البيكَنْديّ : سَمعتُ وَكيعاً يقولُ : مَنْ طَلبَ الحَديثَ كما جاءَ فهو صاحِبُ سُنَّة ، ومَنْ طَلَبَه ليُقَوِّيَ به رَأيَه فهو صاحِبُ بِدْعَة[5] .

(ب) رُؤيا تُفيد الحَثَّ علىٰ إحْسان النِّية في طَلَب العِلْم :

قال عبدُ الله بنُ محمّد بنِ أسد ، سَمعتُ حَمزةَ الكِناني يقولُ : خَرَّجتُ حَديثاً واحداً عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم من نحو مِئتَي طَريق ، فداخَلَني لذلك من الفَرَح غيرُ قليل ، وأُعْجِبتُ بذلك ، فرَأيتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين في المَنام ، فقُلتُ : يا أبا زَكريّا ،

---

(١) انظر السير : (مَعْمَر بن راشد) ٧/ ٥ـ١٨ ، وانظر النزهة : ١/٦٧٢ .
(٢) انظر السير : (هِشَام الدَّسْتُوائي) ٧/ ١٤٩ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٥/٦٨٧ .
(٣) انظر السير : (هِشَام الدَّسْتُوائي) ٧/ ١٤٩ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٦/٦٨٧ .
(٤) انظر السير : (حمَّاد بن سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٧/٧١٥ .
(٥) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٩ .

خرَّجتُ حَديثاً من مِئتَي طَريق ، فسَكتَ عنِّي ساعَةً ، ثم قالَ : أخْشَىٰ أنْ تَدخُلَ هٰذه تحتَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[1] ، [2] .

٨ـ لذَّة العِلْم :

قال أبو الحُسَين أحمدُ بنُ فارس اللُّغَويّ : سَمعتُ الأسْتاذَ ابنَ العَميد يقولُ : ما كُنتُ أظُنُّ أنَّ في الدُّنيا حَلاوةً أَلَذَّ من الرِّئاسَة والوزارَة التي أنا فيها ، حتىٰ شاهَدتُ مُذاكَرَةَ أبي القاسم الطَّبرانيّ وأبي بَكْر الجِعَّابي بحَضْرتي ، فكان الطَّبرانيُّ يَغلبُ أبا بَكْر بكَثْرَة حِفْظِه ، وكان أبو بَكْر يَغلبُ بفِطْنته وذَكائه حتى ارتَفعَت أصْواتُهما ، ولا يَكادُ أحَدُهما يَغلبُ صاحبَه ، فقال الجعابيُّ : عندي حَديثٌ ليسَ في الدُّنيا إلاَّ عندي فقال : هاتِ ، فقال : حدَّثنا أبو خَليفَة الجُمَحي ، حدَّثنا سُليمانُ بنُ أيُّوب وحدَّث بحَديث ، فقال الطَّبرانيُّ : أخْبرَنا سُليمانُ بنُ أيُّوب ومنِّي سَمعَه أبو خَليفَة ، فاسْمعْ منِّي حتىٰ يعْلُو فيه إسْنادُك ، فخَجلَ الجعابيُّ ، فوَدِدتُ لو أنَّ الوزارَةَ لمْ تكن وكنتُ أنا الطَّبرانيّ ، وفَرحتُ كفَرَحِه ، أو كما قال .

قِيلَ : ذَهبت عَينا الطَّبرانيِّ في آخر أيَّامه ، فكان يقولُ : الزَّنادِقَةُ سَحَرتْني . فقال له يوماً حَسنٌ العطَّار ـ تلميذُه ـ يَمْتحنُ بصرَه : كم عَددُ الجُذوعِ التي في السَّقفِ ؟ فقال : لا أرىٰ ، لكن نَقْشُ خاتمي سُليمانُ بنُ أحمد .

قال الذَّهبيُّ : هٰذا قاله علىٰ سَبيل الدُّعابَة ، وقد عاشَ الطَّبرانيُّ مِئَةَ عامٍ وعَشْرة أشْهُر .

قال أبو نعيم الحافظُ : تُوفِّيَ الطَّبرانيُّ سنَةَ ستِّين وثلاث مِئَة بأصْبَهان[3] .

٩ـ العِلْمُ اللدُنِّي :

قال إبراهيمُ بنُ مضارب ، سَمعتُ أبي يقولُ : كان علمُ الحُسَينِ ابنِ الفَضْل بالمَعاني إلهاماً من الله ، فإنَّه كان قد تَجاوَزَ حدَّ التَّعْليم[4] .

---

(١) سورة التكاثر ، الآية : ١ .

(٢) انظر السير : (حَمزَة بن محمّد الكِنانيّ) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٠ .

(٣) انظر السير : (الطَّبَرانيّ) ١٦/ ١١٩ـ ١٣٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٣ .

(٤) انظر السير : (الحُسَينُ بنُ الفَضْل) ١٣/ ٤١٤ـ ٤١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٦ .

١٠ـ أخْذُ المال على العِلْم كان مَكْروهاً أيّام السَّلَف :

وقال سُفيانُ الثَّوريُّ : كان الضَّحَّاك يُعَلِّمُ ولا يَأخذُ أَجْراً[١] .

وعن جَعْفَر البَرْمَكيّ قال : ما رَأيْنا في القُرَّاء مثلَ عيسى بنَ يُونُس ، أرْسَلنا إليه فأتَانا بالرَّقة ، فاعْتَلَّ قبلَ أنْ يَرجِعَ . فقُلتُ له : يا أبا عَمرو ، قد أمَرْنا لك بعَشْرَة آلافٍ . فقال : هيهِ . قُلتُ : خَمسُونَ ألفاً . قال : لا حاجَةَ لي فيها . فقُلتُ : ولِمَ ؟ والله ، لأُهَنِّئَنَّكَها ، هي والله مِئَةُ ألفٍ ، قال : لا والله ، لا يَتَحدَّثُ أهلُ العلمِ أنِّي أكَلتُ للسُّنَّة ثَمناً ، ألا كانَ هـٰذا قبلَ أنْ تُرسِلُوا إليَّ ، فأمَّا على الحَديثِ ، فلا ، ولا شَرْبَةَ ماءٍ ولا إهْليلَجة[٢] ،[٣] .

قال بِشْرُ بنُ عبد الواحد : رَأيتُ أبا نُعَيم في المَنام ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ ـ يَعني فيما كان يأخُذُ على الحَديث ـ فقال : نَظَرَ القاضي في أمْرِي فوَجَدَني ذا عيالٍ فعَفا عنِّي .

قال الذَّهبيُّ : ثبتَ عنه أنَّه كان يأخذ على الحَديثِ شَيئاً قَليلاً لفَقْرِه[٤] .

وقال عليُّ بنُ خَشْرم : سمعتُ أبا نُعَيم يقولُ : يَلُومونَني على الأَخْذ ، وفي بَيتي ثلاثَة عَشرَ نَفساً ، وما في بَيتي رَغيفٌ .

قال الذَّهبيُّ : لامُوهُ على الأَخْذِ ، يَعْني من الإمامِ لا من الطَّلَبَةِ[٥] .

وقال أبو أحمَد بنُ عَدي في « كامله » : سَمعتُ قُسْطَنْطينَ بنَ عبدَ الله مَوْلَى المُعتَمد ، يقولُ : حَضرتُ مَجلسَ هشامِ بنِ عَمَّار ، فقال المُسْتَملي : مَنْ ذَكرتَ ؟ فقال : أخْبرَنا بَعضُ مَشايخِنا ، ثمَّ نَعسَ ، ثم قالَ له : مَنْ ذَكرتَ ؟ فنَعَسَ ، فقال

---

(١) انظر السير : (الضَّحَّاك بن مُزاحِم) ٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٦٦ .

(٢) الإهْليلج ، بكسر الألف وفتح اللام ، وقد تُكسَر ، والواحدة بهاء : شجر ينبتُ في الهند وكابل والصين ثمره علىٰ هيئة حبِّ الصنوبر الكبار .

(٣) انظر السير : (عيسى بن يونس) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٨٥ .

(٤) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٦١ .

(٥) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٦١ .

المُسْتَملي : لا تَنْتَفعوا به ، فجَمَعوا له شَيئاً فأعْطوه فكانَ بعدَ ذلك يُمْلي عليهم حتىٰ يَمَلُّوا[1] .

وقال محمَّدُ بنُ أحمَد بنِ راشِد بنِ مَعدان الأصْبهاني : سَمعتُ ابنَ وارَة يقولُ : عَزمتُ زَماناً أنْ أُمْسِكَ عن حَديث هشامِ بنِ عَمَّار ، لأنَّه كان يَبيعُ الحَديثَ .

قال الذَّهبيُّ : العَجبُ من هـٰذا الإمامِ مع جَلالَتِه ، كيفَ فعَلَ هـٰذا ، ولَمْ يكُنْ مُحْتاجاً ، وله اجْتهادُه[2] .

وقال صالحُ بنُ محمَّد جَزَرَة : كانَ هشامُ بنُ عَمَّار يأخُذُ على الحَديثِ ولا يُحدِّثُ ما لَمْ يأخُذْ ، فدخلتُ عليه ، فقال : يا أبا عليّ ، حدِّثْني بحَديثٍ لعليِّ بنِ الجعد ، فقال : حدَّثنا ابنُ الجعد ، حدَّثنا أبو جَعْفَر الرَّازي ، عن الرَّبيع ، عن أبي العاليَة ، قال : عَلِّمْ مَجَّاناً كما عُلِّمْتَ مَجَّاناً . قال : تَعرَّضْتَ بي يا أبا عليّ ؟ فقُلتُ : ما تَعرَّضتُ ، بل قَصَدتُك[3] .

وقال أبو أحمد عليُّ بنُ محمَّد : سَمعتُ صالحَ بنَ محمَّد يقولُ : كانَ هشامُ بنُ عَمَّار يأخُذُ على الحَديثِ ولا يُحدِّثُ ما لَمْ يأخُذْ ، فدخلتُ عليه ، فقال : يا أبا عليّ ، حدِّثْني ، فقلتُ : حدَّثنا عليُّ بنُ الجعد ، حدَّثنا أبو جَعْفَر الرَّازي ، عن الرَّبيعِ بنِ أَنَس ، عن أبي العاليَة ، قال : عَلِّمْ مَجَّاناً كما عُلِّمْتَ مَجَّاناً . فقالَ : تُعَرِّضُ بي ؟ فقلتُ : لا ، بلْ قَصَدتُك[4] .

وقال أبو الحَسَن العَتيقي : حَضرتُ أبا الحَسَنِ الدَّارَقُطْنيَّ ، وجاءَه الحُسَينُ البَيْضاويُّ بغَريبٍ ليَقرأَ له شَيئاً فامْتنعَ واعْتَلَّ ببعضِ العِلَل . فقال : هـٰذا غَريبٌ ، وسَأَلَه أنْ يُمْليَ عليه أحاديثَ ، فأمْلَىٰ عليه أبو الحَسَن من حِفظِه مَجْلساً تَزيدُ أحاديثُه على العشْرين ، مَتْنُ جَميعِها : « نِعْمَ الشَّيءُ الهَديَّةُ أمامَ الحاجَة »[5] ، قال : فانصَرفَ

---

(١) انظر السير : (هشام بن عَمَّار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٩٥٦ .
(٢) انظر السير : (هشام بن عَمَّار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٩٥٦ .
(٣) انظر السير : (هشام بن عَمَّار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٩٥٦ .
(٤) انظر السير : (صالح بن محمّد) ١٤/ ٢٣ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٧/١١٢٤ .
(٥) خبرٌ باطلٌ .

الرَّجلُ ، ثم جاءَ بعد ، وقد أهْدَىٰ له شَيئاً ، فقرَّبَه وأمْلَىٰ عليه من حِفْظِه سَبعةَ عَشرَ حَديثاً ، مُتونُ جَميعِها : « إذا أتاكمْ كريمُ قَومٍ فأكرِمُوه » .

قال الذَّهبيُّ : هـٰذه حكايَةٌ صَحيحَةٌ ، رَواها الخَطيبُ عن العَتيقيِّ ، وهي دالَّةٌ علىٰ سعَة حِفظِ هـٰذا الإمام ، وعلىٰ أنَّه لَوَّحَ بطَلب شيءٍ ، وهـٰذا مَذهَبٌ لبعض العُلماء ، ولعَلَّ الدَّارَقُطنيَّ كان إذْ ذاكَ مُحتاجاً ، وكان يَقبلُ جَوائزَ دَعْلَج السِّجزي وطائفة ، وكذا وَصلَه الوَزيرُ ابنُ حِنْزابَة بجُملة من الذَّهب لمَّا خرَّجَ له المُسْنَد .

تُوفِّيَ سَنةَ خَمسٍ وثَمانينَ وثلاثِ مِئة[1] .

وقال الذَّهبيُّ : كان القَلانسيُّ يَأخذُ الذَّهبَ علىٰ إقْراءِ العَشْرَة[2] .

وقال ابنُ النجَّار : سَمعتُ أحمدَ بنَ البَنْدَنيجيِّ يقولُ : سألتُ أبا جَعْفَر أحمدَ بنَ أحمدَ بنِ القاصّ : هل قَرأتَ علىٰ أبي العزِّ ؟ فقال : لمَّا قَدِمَ بَغدادَ ، أردْتُ أنْ أقْرأَ عليه ، فطَلبَ منِّي ذَهباً ، فقُلتُ : والله إنِّي قادِرٌ ، ولكنْ لا أُعْطيكَ على القُرآنِ أَجْراً ، فلَمْ أقْرأ عليه[3] .

ماتَ سَنةَ إحْدَىٰ وعشرين وخَمسِ مِئَة[4] .

١١ـ أقوالٌ فيها حَثٌّ علىٰ طَلَب العِلْم من الصِّغَر :

عن مَعْمَر بنِ راشِد قالَ : سَمعتُ من قَتادَة وأنا ابنُ أربعَ عشرةَ سنةً فما شيءٌ سَمعتُ في تلك السِّنين إلاَّ وكأنَّه مَكتوبٌ في صَدري .

قال عبدُ الرزَّاق : قِيلَ للثَّوري : ما مَنعَك من الزُّهري ؟ قال : قِلةُ الدَّراهِم وقد كَفانا مَعْمَر (يعني ابن راشد)[5] .

---

(١) انظر السير : (الدَّارَقُطْنيّ) ١٦/ ٤٤٩ـ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٤ .

(٢) انظر السير : (القَلانسيّ) ١٩/ ٤٩٦ـ٤٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٢ .

(٣) علَّق المؤلف في « الميزان » بعد إيراد هـٰذا الخبر بقوله : أبو العزّ عندنا مع ذلك ثقةٌ في القراءات مرضيّ .

(٤) انظر السير : (القَلانسيّ) ١٩/ ٤٩٦ـ٤٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٠٢ .

(٥) انظر السير : (مَعْمَر بن راشد) ٧/ ٥ـ١٨ ، وانظر النزهة : ٢/٦٧١ .

وقال عبدُ الصَّمَد بنُ سَعيد القاضي : سَمعتُ محمَّدَ بنَ عَوْف يقولُ : كُنتُ ألعبُ في الكَنيسَة بالكُرَة وأنا حَدثٌ ، فدخَلت الكُرةُ ، فوَقعَت قُرب المُعافَىٰ بنِ عِمْران الحِمْصيّ ، فدخَلتُ لأخْذِها ، فقال : ابنُ مَنْ أنتَ ؟ قلتُ : ابنُ عَوف بنِ سُفيان ، أمَا إنَّ أباكَ كانَ من إخْوانِنا . فكانَ ممَّن يَكتبُ مَعنا الحَديثَ والعِلمَ ، والذي كان يُشْبُهَك أنْ تتَّبعَ ما كانَ عليه والدُك . فصِرتُ إلىٰ أُمِّي فأخْبَرتُها ، فقالت : صَدقَ ، هو صَديقٌ لأبيك ، فألْبَسَتْني ثَوباً وإزاراً ، ثم جئتُ إلى المُعَافىٰ ، ومَعي مِحْبَرَةٌ ووَرقٌ ، فقال لي : اكْتبْ : حدَّثنا إسماعيلُ ابنُ عيَّاش ، عن عبد ربِّه بنِ سُليمان ، قالَ : كتَبَتْ لي أُمُّ الدَّرْداء في لَوْحي : اطْلبُوا العلمَ صِغاراً ، تَعْمَلوا به كباراً ، فإنَّ لكلِّ حاصدٍ ما زَرَعَ[1] ، [2] .

١٢ـ طَلبُ العِلْم مَلْهاةٌ ـ غالباً ـ عن الأهْل والمَال :

قال الحُمَيديُّ ، سَمعتُ سُفْيانَ بنَ عُيَيْنَة يقولُ : لا تَدخُل هـٰذه المَحابِرُ بَيتَ رَجلٍ إلاَّ أشْقَىٰ أهْلَه ووَلدَه[3] .

وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة مرةً لرجلٍ : ما حِرْفَتُك ؟ قال : طَلبُ الحَديث . قال : بَشِّرْ أهلَكَ بالإفْلاس[4] .

وعن الزُّبَير بنِ بكَّار ، قالَ : قالت بنتُ أخْتي لأهلنا : خالي خَيرُ رجلٍ لأهْلِه ، لا يَتَّخذُ ضرَّةً وسريَّة ، قال : تَقولُ المَرأةُ : والله هـٰذه الكُتبُ أشَدُّ عليَّ من ثلاثِ ضَرائِر[5] .

وقالَ الحافظُ أبو إسْحاقَ بنُ حَمْزَة : سَمعتُ أبي يقولُ : كُنتُ رَحلتُ إلىٰ يَعقوبَ بنِ سُفْيان ، فبَقيتُ عندَه سِتَّة أشْهُر ، فقُلتُ له : طالَ مُقامي عندَك ، وليَ

---

(١) انظر السير : (محمد بن عَوف) ١٢/ ٦١٣ـ٦١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٠ .
(٢) انظر السير : (محمد بن عَوف) ١٢/ ٦١٣ـ٦١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٤٠
(٣) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَينة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٣ .
(٤) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَينة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٨٣ .
(٥) انظر السير : (الزُّبَير بن بكَّار) ١٢/ ٣١١ـ ٣١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٠٤ .

والدةٌ . فقالَ : رَدَدتُ البابَ علىٰ والدَتي ثلاثينَ سَنةً[1]

١٣ـ طَلبُ العِلْم مَلْهاةٌ عن الطَّعام :

وقال الرَّازيُّ : سَمعتُ عليَّ بنَ أحمَدَ الخُوارِزْمي يقولُ : سَمعتُ عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ أبي حاتم يقولُ : كُنَّا بمصرَ سَبعةَ أشْهر ، لمْ نأكلْ فيها مرقةً ، كُلُّ نهارِنا مقسَّمٌ لمجالِس الشُّيوخ ، وباللَّيلِ : النَّسْخُ والمُقابَلَة . قال : فأتَيْنا يوماً أنا ورفيقٌ لي شَيخاً ، فقالوا : هو عَليلٌ ، فرَأينا في طَريقنا سَمكَة أعْجَبَتنا ، فاشْتَرَيناه ، فلمَّا صِرْنا إلى البَيتِ ، حَضرَ وقتُ مَجلسٍ ، فلمْ يُمْكنَّا إصْلاحُه ، ومَضَينا إلى المَجْلس ، فلمْ نَزَلْ حتىٰ أتىٰ عليه ثلاثةُ أيَّام ، وكادَ أن يَتغيَّر ، فأكَلْناهُ نَيِّئاً ، لمْ يكنْ لنا فَراغٌ أنْ نُعطيَه مَنْ يَشْويه . ثم قالَ : لا يُستطاعُ العلمُ براحَة الجَسَد[2] .

١٤ـ لا يُسْتطاعُ العِلْم براحة الجَسَد :

قالَ عبدُ الله بنُ يَحْيى بنِ أبي كَثير : سَمعتُ أبي يَقولُ : لا يُسْتطاعُ العِلمُ براحَةِ الجَسَد .

ويُروَىٰ أنَّ يَحْيىٰ بنَ أبي كَثير ، أقامَ بالمَدينة عَشرَ سِنين في طَلبِ العِلمِ ماتَ سَنةَ تِسْع وعشرين ومئة[3] .

١٥ـ عَدمُ الاسْتكثار من المَسائل علىٰ حِساب الرَّقائق والرَّغائب :

عن محمَّدِ بنِ عُبادَة المعافريّ ، قالَ : كنَّا عندَ أبي شُرَيْح ـ رَحمَه الله ـ فكثُرت المَسائل ، فقالَ : قد دَرِنَتْ قُلوبُكم ، فقُوموا إلىٰ خالدِ بنِ حُمَيد المهريّ اسْتَقِلُّوا قُلوبَكم ، وتَعلَّموا هـٰذه الرَّغائبَ والرَّقائق فإنَّها تُجدِّدُ العبادَة ، وتُورث الزَّهادَة ، وتَجرُّ الصَّداقَة ، وأقِلُّوا المَسائل ، فإنَّها في غَيرِ ما نَزلَ تُقسِّي القَلبَ ، وتُورِثُ العَداوَة[4] .

---

(١) انظر السير : (الفَسَوي) ١٣/ ١٨٠ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٨

(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٧٩ .

(٣) انظر السير : (يَحْيى بن أبي كثير) ٦/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٥/٦٢٧ .

(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن شُرَيح) ٧/ ١٨٢ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٨/٦٩١ .

قال الذهبيُّ : صَدقَ والله ، فما الظنُّ إذا كانت مَسائلُ الأُصول ، ولَوازِمُ الكَلامِ في مُعارَضَة النَّص ، فكيفَ إذا كانت من تَشْكيكاتِ المَنْطِق ، وقَواعدِ الحِكْمَة ، ودينِ الأوائل ؟! ، فكيفَ إذا كانت من حَقائقِ « الاتِّحاديَّة »[1] ، وزَنْدَقَة « السَّبعينيَّة »[2] ، ومرق « الباطنية »[3] ؟! فواغُرْبَتاه ويا قِلَّةَ ناصِراه ، آمَنتُ بالله ، ولا قوَّةَ إلاَّ بالله .

مات أبو شُرَيْح سَنةَ سَبعٍ وستِّين ومئة ، كان من أبناء السَّبعين ، ومن العُلماء العَاملين[4] .

وقال ابنُ مَهدي : سَمعتُ شُعْبَة يقولُ : إنَّ هـٰذا الحَديثَ يَصدُّكم عن ذِكْر الله وعن الصَّلاة ، وعن صِلَةِ الرَّحْم ، فهلْ أنتم مُنتَهون ؟[5]

وقال سَعيدُ بنُ الحَدَّاد : سَمعتُ سُحْنُونَ يقولُ : كُنتُ إذا سَألتُ ابنَ القاسِم ـ عالمَ الدِّيارِ المِصْريَّة ـ عن المَسائل ، يقوُل لي : يا سُحْنُون ، أنتَ فارغٌ ، إنِّي لأُحِسُّ في

---

(١) وهم الذين يقولون بوحدة الوجود ، وهو مذهب باطلٌ ، يُعرَّى القائل به من الإسلام ، لأنه يَعدُّ اللهَ والوجودَ شيئاً واحداً وأن اللهَ مَوجودٌ في كل مَوجودٍ ، وأنَّ ما نُحسُّه ونَشهَدُه هو اللهُ في صورة العالَم كما قال .

راجع « موقف العلم والعالم » لمصطفىٰ صبري ، الجزء الثالث منه ، فإنه قد توسَّع في بيان هـٰذا المذهب والقائلين به ، ونقده .

(٢) السَّبعينيَّة : فرقة نُسبَت إلىٰ رئيسها : عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي المرسي ، المتوفىٰ سنة (٦٦٩هـ) وهو من القائلين بوحدة الوجود قال ابن دقيق العيد : جلستُ مع ابن سبعين من ضحوة إلىٰ قريب الظهر ، وهو يَسرد كلاماً تُعقَل مفرداته ولا تُعقَل مركباته ، واشتهرت عنه أنه قال : لقد تحجَّرَ ابنُ آمنة واسعاً بقوله : « لا نبيَّ بعدي » ، وكان يقول في الله عزَّ وجلَّ : إنه حقيقة الموجودات وقد فصدَ بمكَّة فترك الدم يجري حتىٰ مات نزفاً انظر ترجمته : « عِبَر الذهبي » ٥/ ٢٩١ ، « لسان الميزان » ٣/ ٣٩٢ ، « النجوم الزَّاهرة » ٢/ ١٩٦ـ ٢٠٥ .

(٣) الباطنية : دعوة ظهرت أولاً في زمان المأمون ، وانتشرت في زمان المعتصم ، وذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلىٰ دين أسلافهم ، ولم يجسُروا علىٰ إظهاره خَوفاً من سيوف المسلمين ، ومنهم : مَيمونُ بن ديصان المعروف بالقدَّاح ، ومحمدُ بن الحُسين الملقَّب بذندان ، ثم حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابي انظر « الفَرْق بين الفِرَق » . ٢٨٢ .

(٤) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن شُرَيح) ٧/ ١٨٢ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٦٩٢/ ١ .

(٥) انظر السير : (شُعْبَة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٦٩٣/ ٧

رأسِي دَويّاً كدَويِّ الرَّحا ـ يعني من قيام الليل ـ قال : وكان قَلَّما يَعرضُ لنا إلاَّ وهو يقولُ : اتَّقوا اللهَ ، فإنَّ قَليلَ هـٰذا الأمر مع تَقْوى الله كَثيرٌ ، وكَثيرَه مع غَير تَقوَى الله قَليلٌ[1] .

١٦ـ كيفية طَلَب العِلْم ونَشره :

عن محمّدِ بنِ النَّضْر قال : أوَّلُ العِلم الاسْتماعُ ، والإنْصاتُ ، ثم حِفْظُه ، ثم العمَلُ به ، ثم بثُّه[2] .

نحنُ المظاهرُ والمعبودُ ظاهِرُنا ... ومظْهَرُ الكَونِ عينُ الكَونِ فاعتَبِروا
ولستُ أعبده إلاَّ بصورته ... فهو الإله الذي في طيِّه البشَرُ

١٧ـ الرِّحلة في طَلَب العِلْم :

قال محمَّدُ بنُ صالح بنِ هانىء : سَمعتُ محمَّدَ بنَ النَّضْر الجارُوري يقولُ : بَلغَني أنَّ محمَّدَ بنَ يَحْيىٰ كانَ يَكتبُ في مَجلس يَحْيىٰ بنِ يَحْيى الذُّهْلي ، فنَظرَ عليُّ بنُ سَلمَة اللَّبَقي إلىٰ حُسْن خَطِّه وتَقييده ، فقالَ : يا بُنيَّ ، ألا أنصحُك ؟ إنَّ أبا زكريَّا يُحدِّثك عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة وهو حيٌّ ، وعن وَكيعٍ وهو حيٌّ بالكُوفَة وعن يَحْيى ابنِ سَعيدٍ وجماعةٍ أحياء بالبَصْرة ، وعن عبدِ الرَّحمَـٰن بن مَهْدي وهو حيٌّ بأصْبَهان ، فاخْرُج في طَلبِ العِلم ، ولا تُضيِّعْ أيَّامَك . فعمل فيه قولُه فخرجَ إلىٰ أصْبَهان فسَمعَ من عبدِ الرَّحمَـٰن بنِ مَهْدي ، والحُسَين ابنِ حَفْص ثم دخلَ البَصْرة وقد ماتَ يَحْيىٰ ، فكَتبَ عن أبي داوُدَ وأقرانِه ، وأكثرَ بها المُقام ، حتىٰ ماتَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة .

قال الذهبيُّ : ما كانَ يمُكنُه لُقيُّه ، فإنَّ سُفْيانَ ماتَ في وسَط السَّنة ولا كانَ يمُكنُه المَسيرُ إلىٰ مكَّة إلاَّ مع الوَفد ، وأمَّا وَكيعٌ فماتَ قبلَ أنْ يتحرَّكَ الذُّهليُّ من بَلدِه .

قالَ : فخرجَ إلى اليَمن : وأكثرَ عن عبدِ الرزَّاق وأقْرانِه ، ثم رَجعَ وحَجَّ ، وذَهبَ

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٨/٨٠٥ .
(٢) انظر السير : (محمد بن النَّضْر) ٨/ ١٧٥ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٨/٧٤١ .

إلىٰ مصرَ ثم الشام . وبارَكَ اللهُ له في عِلْمِه حتىٰ صارَ إمامَ عَصرِه[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة الإمام أبي زُرْعَة الرَّازي ، رحمه الله : كانَ مَولدُه بعدَ نيِّف ومئتَين . وطلبَ هـٰذا الشَّأنَ وهو حَدثٌ ، وارْتحلَ إلى الحِجازِ والشَّام ، ومِصرَ والعِراقِ والجَزيرَةِ وخُراسانَ ، وكَتبَ ما لا يُوصَف كثرةً .

فذكرَ سَعيدُ بنُ عَمرو البَرْذَعي ، أنَّ أبا زُرْعَة قالَ : لا أعلمُ صَفا لي رباطُ يومٍ قَطُّ ، أمَّا بَيروتُ : فأرَدْنا العبَّاسَ بنَ الوَليد بن مَزْيَد ، وأمَّا عَسْقَلان ، فأرَدْنا ابنَ أبي السَّري ، وأمَّا قَزْوِين : فمحمَّد بن سَعيد ابن سابق .

وقال صالحُ بنُ محمّد جَزَرَة : سَمعتُ أبا زُرْعَةَ يقولُ : كتبتُ عن إبراهيمَ بنِ موسَى الرَّازي مئةَ ألفِ حَديث ، وعن أبي بَكْر بنِ أبي شَيْبَة مئةَ ألفٍ ، فقلتُ له : بَلَغَني أنَّك تَحفظُ مئةَ ألفِ حَديث ، تَقْدرُ أنْ تُمْلي عليَّ ألفَ حَديث من حفظٍ ؟ قال : لا ، ولكن إذا أُلقِيَ عليَّ عَرفتُ[2] .

وقال أبو غالِب : سَمعتُ جَدِّي يقولُ : سَمعتُ والدِي أبا إسْحاقَ إبراهيمَ بنَ القاضي أبي أحمَدَ العَسَّال يقولُ : لمَّا ماتَ القاضي وجَلسَ بَنُوهُ للتَّعْزيَة ، فدَخلَ رجُلان في لِباسِ سَوادٍ ، وأخَذا يُولْوِلان ويَقولان : وا إسْلاماه ، فسُئلا عن حالِهما ، فقالا : إنَّا ورَدْنا من أغمات من المَغْرب ، لنا سَنةٌ ونصف في الطريق في الرحْلة إلىٰ هـٰذا الإمام لنَسمَعَ منه فوافَق وِرْدُنا وفاتَه .

تُوفِّيَ القاضي أبو أحمَد سنةَ تسعٍ وستِّين وأرْبعينَ وثلاثِ مئة .

وكانَ مَوْلده سَنةَ تسعٍ وستِّينَ ومئتَين[3] .

وقال أبو طاهر ، أحمدُ بنُ مَحمود : سَمعتُ أبا بَكْر بنَ المُقرىء يقولُ : طُفتُ الشَّرقَ والغَربَ أرْبعَ مرَّات[4] .

---

(١) انظر السير : (الذُّهليُّ وابنُه) ١٢/ ٢٧٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٩٩ .
(٢) انظر السير : (أبو زُرْعَة الرَّازي) ١٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٥١ .
(٣) انظر السير : (العَسَّال) ١٦/ ٦ـ ١٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٦٥ .
(٤) انظر السير : (ابن المُقرىء) ١٦/ ٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٠٠ .

ورَوىٰ رجُلان عن ابنِ المُقرىء : قالَ : مَشيتُ بسَببِ نُسخَة مفضَّل ابنِ فَضَالَة سَبعينَ مَرحلَةً ، ولو عُرِضَت علىٰ خَبَّازٍ برَغيفٍ لمْ يَقبَلْها[1] .

وقال أبو طاهر بنُ سَلمَة : سَمعتُ ابنَ المُقرىء يقولُ : دَخلتُ بيتَ المَقدس عَشرَ مرَّات ، وحَجَجْتُ أربَعَ حجَّات ، وأقَمتُ بمكَّة خَمسةً وعشرينَ شَهراً[2] .

وقد سَمعَ ابنُ المُقرىء الحديثَ في نَحوٍ من خَمسينَ مَدينَة .

قال أبو طاهر بنُ سَلمَة : سَمعتُ ابنَ المُقرىء يقولُ : اسْتلمتُ الحَجَرَ في ليلةٍ مئةً وخَمسينَ مرَّة .

وقد تُوفِّيَ ابنُ المُقرىء سنةَ إحْدىٰ وثَمانين وثلاثِ مئَة ، وله ستٌّ وتسعونَ سَنة[3] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة أبي عبدِ الله بنِ مندة رَحمَه اللهُ : بَقيَ أبو عبدِ الله في الرحلَة بِضْعاً وثلاثينَ سَنةً[4] .

وقال الباطِرْقانيُّ : سَمعتُ أبا عبدِ الله ـ يَعْني ابنَ مَندة ـ يقولُ : طُفتُ الشَّرقَ والغَربَ مرَّتين[5] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة أبي سَعد السَّمْعانيّ : ولا يُوصَف كَثرةُ البلادِ والمَشايخ الذين أخذَ عنهم .

فسَمعَ بآمُل طَبَرِسْتان ، وبأبِيْوَرد ، وبإسفرايين ، وبالأنْبار ، وببُخارَىٰ ، وببُروجِرْد ، وببَسْطام ، وبالبَصْرة ، وببَغْشور ، وببَلْخ ، وبتِرْمِذ ، وبجُرْجان ، وبحَلَب ، وبحَماة ، وبحِمْص ، وبخَرْتَنْك عند قَبرِ البُخاريِّ ، وبخُسْرَوجِرد ، وبالريِّ ، وبسَرْخَس ، وبسَمَرْقَند ، وبهَمَذان وهَراة والحَرمَين ، والكُوفَة ، وطُوس ،

---

(١) انظر السير : (ابن المُقرىء) ١٦/ ٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٠ .
(٢) انظر السير : (ابن المُقرىء) ١٦/ ٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٠٠ .
(٣) انظر السير : (ابن المُقرىء) ١٦/ ٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٠١ .
(٤) انظر السير : (ابن مندة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٢ .
(٥) انظر السير : (ابن مندة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٢ .

والكَرخ ، ونَسَا ، وواسِط ، والمَوْصِل ، ونَهاوَنْد ، والطَّالقان ، وبوشنج ، والمَدائن ، وبِقاعٍ يَطولُ ذِكْرُها بحيث إنَّه زارَ القُدسَ والخَليلَ وهما بأيْدي الفِرَنْج ، تَحيَّلَ ، وخاطَرَ في ذلك ، وما تَهيَّأَ ذلكَ للسِّلَفيِّ ولا لابنِ عَساكر .

وكان ظَريفَ الشَّمائل ، حُلوَ المُذاكَرَة ، سَريعَ الفَهْم ، قَويَّ الكتابَة سَريعَها ، دَرسَ وأفْتَىٰ ووَعَظَ ، وسادَ أهلَ بَيتِه ، وكانوا يُلقِّبونَه بلقَب والدِه تاج الإسلام ، وكان أبُوه يُلقَّب أيضاً مُعين الدِّين[1] .

١٨ـ من آداب طَلَب العِلْم ونَشره :

(أ) لا يُطْلَب العِلْم لتَقْوية الرأي ولكن لمَعْرفة الحقّ :

عن محمّدِ بنِ سَلام البيكَندي : سَمعتُ وَكيعاً يقولُ : مَنْ طَلَبَ الحَديثَ كما جاءَ فهو صاحبُ سُنَّة ، ومن طَلَبَه ليُقوِّيَ به رأيَه ، فهو صاحبُ بِدْعَة[2] .

(ب) تَحْديثُ النَّاسُ بما يَعلمون :

قال عُرْوَةُ بنُ الزُّبَير : ما حدَّثتُ أحَداً بشيءٍ من العِلم قطُّ لا يَبلُغه عَقلُه إلاَّ كان ضَلالةً عليه[3] .

(ج) عَدمُ الإكثار من تَحْديث النَّاس :

عن أنَسِ بنِ مالك ـ وقِيلَ له : ألا تُحدِّثُنا ؟ ـ قال : يا بُنيَّ إنَّه مَنْ يُكْثِرْ يَهْجُرْ[4] .

قال أبو اليَقْظان : ماتَ لأنَسٍ في طاعُون الجارف ثَمانون ابناً .

عن أيُّوبَ ، قالَ : ضَعفَ أنسٌ عن الصَّوْم ، فصَنعَ جَفْنةً من ثَريد ، ودَعا ثلاثينَ مِسْكيناً ، فأطْعَمَهم .

---

(١) انظر السير : (السَّمْعاني) ٢٠/٤٥٦ـ٤٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٧ .
(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٩ .
(٣) انظر السير : (عُرْوَة) ٤/ ٤٢١ـ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٦/٥٢٨ .
(٤) قوله : يَهْجُر ، من هجر في كلامه ، إذا خلط فيه وإذا هذىٰ .

مات رضي الله عنه سَنةَ ثلاثٍ وتسْعين . عُمرُه مئةً وثلاثِ سنين[1] .

(د) الحَثُّ علىٰ أخذ العِلْم من أهْله :

عن أيُّوبَ ، قالَ محمّدُ بنُ سِيرين : إنَّ هـٰذا العِلمَ دينٌ فانظُروا عَمَّن تَأخُذونَ دينَكم[2] .

(هـ) حَوادثُ تُخالِف أدبَ نَشر العِلْم :

عن أبي عوانة ، قالَ : جاءَ رَقبَةُ إلى الأعْمَش ، فسَألَه عن شيءٍ فَكَلَحَ في وَجْهه ، فقالَ رَقبةُ : أما والله ما عَلمتُك لدائمُ القُطوب ، سَريعُ الملال ، مُستخفٌّ بحقِّ الزوَّار ، لكأنَّما تُسعط الخَردلَ إذا سُئلتَ الحِكْمَة[3] .

وقال أحمدُ بنُ عبد الله العجلي : الأعْمَشُ ثقةٌ ثَبتٌ ، كان مُحدِّثَ الكوفة في زَمانه ، يُقالُ : إنَّه ظَهرَ له أربَعةُ آلاف حَديثٍ ، ولمْ يَكنْ له كتابٌ . قال : وكان يُقرىءُ القُرآنَ وهو رأسٌ فيه . وكانَ فَصيحاً . وكانَ أبوه من سَبي الدَّيلم ، وكان عَسِراً سَيءَ الخُلُق وكان لا يَلْحَنُ حَرفاً ، وكان عَالماً بالفَرائضِ ، وكانَ فيه تَشَيُّع ولمْ يَخْتمْ عليه سِوىٰ ثلاثةٌ : طَلحَةُ بنُ مُصَرِّف وكان أسَنَّ منه وأفْضَل ، وأبانُ بنُ تَغْلب ، وأبو عُبَيْدة ابنُ مَعْن .

قال الذهبيُّ : مُرادُ العِجلي أنَّهم خَتموا عليه تَلْقيناً ، وإلاَّ فقد خَتمَ عليه حَمزَةُ وغَيرُه عَرْضاً[4] .

وقال عيسىٰ بنُ يونُس : خَرجْنا في جنازَة ، ورجلٌ يَقودُه ، فلمَّا رَجَعْنا عَدلَ به ، فلمَّا أصْحَر ، قالَ : أتَدْري أينَ أنتَ ؟ أنتَ في جبَّانَة كذا . ولا أردُّك حتىٰ تَملأَ ألْواحي حَديثاً . قال : اكْتُب . فلمَّا مَلأَ الألواحَ ردَّه فلمَّا دخلَ الكُوفَة دَفعَ ألواحَه لإنسانٍ ،

---

(١) انظر السير : (أنَس بن مالك) ٣/ ٣٩٥ـ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٧/٤٠١ .
(٢) انظر السير : (محمّد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٦٨ .
(٣) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٦٤٤ .
(٤) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٦٤٤ .

فلمَّا أنِ انتَهى الأعْمشُ إلىٰ بابِه ، تَعلَّقَ به وقالَ : خُذوا الألْواحَ من الفاسِق . فقالَ : يا أبا محمّد قد فاتَ . فلمَّا أيسَ منه ، قال : كُلُّ ما حدَّثتُك به كَذبٌ . قال : أنتَ أعلمُ باللهِ منْ أنْ تَكْذب[1] .

وقالَ أبو خالِد الأحْمَر : سُئلَ الأعْمشُ عن حَديثٍ ، فقالَ لابنِ المُختار : تَرىٰ أحَداً من أصْحابِ الحَديث ؟ فغَمضَ عَينَيه وقال : لا أرَىٰ أحَداً يا أبا محمَّد ، فحدَّثَ به[2] .

وعن أبي العَيناء قال : أتَيتُ عبدَ الله بنَ داود الخُرَيْبيَّ ، فقالَ : ما جاءَ بكَ ؟ قلتُ : الحَديثُ ، قالَ : اذهبْ فتَحْفَظ القُرآنَ ، قلتُ : قد حَفظتُ القُرآنَ ، قالَ : اقْرأْ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾[3] ، فقرأتُ العَشْرَ حتىٰ أنْفَذتُه ، فقال لي : اذْهبْ الآن فتَعلَّم الفَرائضَ ، قُلتُ : قد تَعلَّمتُ الصُّلْبَ والجدَّ والكُبَر[4] . قال : فأيُّما أقْربُ إليكَ ابنُ أخِيكَ أوْ عَمُّك ؟ قلتُ : ابنُ أخي ، قال : ولِمَ ؟ قلتُ : لأنَّ أخي من أبي ، وعَمِّي من جَدِّي ، قال : اذْهَبِ الآنَ ، فتَعلَّم العَربيَّة ، قلتُ : قد عَلِمتُها قبلَ هَـٰذين ، قال : فلِمَ قالَ عُمرُ ـ يَعني حِينَ طُعِنَ ـ يا للهِ ، يا لِلْمُسلمين ، لِمَ فَتَحَ تِلكَ وكَسَرَ هَـٰذه ؟ قلتُ : فَتحَ تِلكَ اللاَّمَ على الدُّعاءِ وكَسرَ هَـٰذه على الاسْتِغاثَة والاسْتِنْصار ، فقال : لَوْ حَدَّثتُ أحَداً ، لحَدَّثتُك[5] .

قال أبو نصر بنُ ماكولا : كان الخُرَيْبيُّ عَسِراً في الرِّوايَة .

قال الذهبيُّ : لَقيَه البُخاريُّ ، ولَمْ يَسْمَعْ منه ، واحْتاجَ إليهِ في الصَّحيح ، فرَوىٰ عن مُسَدَّد عَنه ، وعن الفَلاَّس عَنه ، وعن نَصْر ابنِ عليٍّ عَنه ، وتَركَ التَّحْديثَ تَديُّناً إذْ رَأىٰ طَلبَهم له بنِيَّةٍ مَدْخولَة .

---

(١) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٦٤٥ .
(٢) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٦٤٦ .
(٣) سورة يونس ، الآية : ٧١
(٤) أي مسائل الفرائض .
(٥) انظر السير : (الخُرَيْبي) ٩/٣٤٦ـ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ١/٨٢٨ .

قال الخُرَيْبيُّ : وُلدتُ سَنةَ ستٍّ وعَشْرينَ ومِئَة .

ومات سَنةَ ثلاثَ عَشرةَ ومِئتين[1] .

وقال الحافظُ أبو عليّ الغَسَّانيُّ : أخبَرنا أبو القاسم أحمدُ بنُ أبي الوَليد الباجيُّ ، أخبَرنا أبي أنَّ الفَقيهَ أبا عِمْرانَ الفاسيّ مَضىٰ إلىٰ مكَّة وقد كان قَرأَ علىٰ أبي ذَرٍّ الهَرَويِّ شَيئاً ، فوافَقَ أبا ذَرٍّ في السَّراة مَوضِع سُكْناه فقالَ لخازِن كُتُبه : أخْرجْ إليَّ من كُتبِ الشَّيخِ ما أنْسَخُه ما دامَ غائباً ، فإذا حَضرَ ، قَرأتُه عليه . فقال الخازنُ : لا أجْتَرىءُ علىٰ هـٰذا ، ولكنْ هـٰذه المَفاتيحُ إنْ شِئتَ ، فخُذْ وافْعَل ذلكَ . فأخَذَها ، وأخْرجَ ما أرادَ ، فسَمعَ أبو ذَرٍّ بالسَّراةِ بذلكَ ، فرَكبَ ، وطَرق مكَّة ، وأخَذَ كُتبَه ، وأقسَمَ أنْ لا يُحدِّثَه ، فلقد أُخْبِرتُ أنَّ أبا عِمْرانَ كانَ بعدُ إذا حدَّثَ عن أبي ذَرٍّ ، يُوَرِّي عن اسْمه فيقولُ : أخْبرَنا أبو عيسىٰ وبذلكَ كانت العَربُ تُكنِّيه باسم وَلدِه .

قال الذهبيُّ : قد ماتَ أبو عِمْرانَ الفاسيُّ قبلَ أبي ذَرّ ، وكان قد لَقِيَ ابنَ الباقِلاَّني والكبار ، وما لانْزِعاجِ أبي ذَرٍّ وَجهٌ ، والحكايَةُ دالَّةٌ علىٰ زَعارَّة الشَّيخ والتِّلْميذ رَحمَهُما الله[2] .

١٩ـ ضَوابِط في تَفضيل طَلَب العِلْم علىٰ فعل القُربات :

قال أبو أسامة : سَمعتُ مِسْعَراً يقولُ : إنَّ هـٰذا الحَديثَ يَصُدُّكم عن ذِكرِ الله وعن الصَّلاة ، فهلْ أنتُم مُنتَهون ؟[3] .

قال الإمامُ الذهبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه مَسألةٌ مُختلَفٌ فيها : هل طَلبُ العِلم أفْضَل ، أو صَلاةُ النَّافلَة والتِّلاوَة والذِّكْر ؟ فأمَّا مَنْ كانَ مُخلصاً لله في طَلبِ العِلم ، وذِهنُه جَيدٌ ، فالعِلمُ أوْلَىٰ ، ولكن مع حَظٍّ من صَلاةٍ وتَعبُّد ، فإنْ رأيتَه مُجداً في طَلبِ العِلم لا حَظَّ له في القُرُبات ، فهـٰذا كَسْلانٌ مَهين ، وليسَ هو بصادقٍ في حُسن نيَّتِه ، وأمَّا مَنْ كانَ

---

(١) انظر السير : (الخُرَيْبي) ٩/ ٣٤٦ـ ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٢٨ .

(٢) انظر السير : (أبو ذَر الهَرَويّ) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٦٣ .

(٣) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٨٩ .

طَلبُه الحَديثَ والفِقهَ غِيَّةً ومَحبَّةً نَفسانيَّة فالعِبادَةُ في حقِّه أفْضَل ، بل ما بَينها أفْعَلُ تَفْضيل ، وهـٰذا تَقسيمٌ في الجُملَة ، فقَلَّ ـ والله ـ مَنْ رَأيتُه مُخلِصاً في طَلَبِ العِلم ، دَعْنا من هـٰذا كُلِّه . فليسَ طَلَبُ الحَديثِ اليومَ على الوَضع المُتعارَف من حيِّز طَلَبِ العِلم ، بلْ اصْطلاحٌ وطَلَبُ أسانيدَ عاليَة . وأخْذٌ عن شَيخٍ لا يَعي ، وتَسميعٌ لطِفْل يَلعَب ولا يَفْهَم ، أو لرَضيعٍ يَبْكىٰ . أو لفَقيهٍ يَتحدَّثُ مع حَدَثٍ ، أو لآخَر يَنسَخ . وفاضلُهم مَشغولٌ عن الحَديثِ بكتابَة الأسْماء أو بالنُّعاس ، والقارىءُ إنْ كانَ له مُشارَكةٌ فلَيسَ عندَه من الفَضيلَة أكثَرُ من قِراءَة ما في الجُزْءِ ، سواءٌ تَصَحَّفَ عليه الاسمُ ، أو اخْتبطَ المَتْنُ ، أو كان من المَوْضوعاتِ . فالعِلمُ عن هـٰؤلاء بمعْزِلٍ ، والعَملُ لا أكادُ أراهُ . بلْ أرَىٰ أمُوراً سَيئةً ، نَسألُ الله العَفْوَ[1] .

وقال نُعيمُ بنُ حمَّاد ، سَمعتُ ابنَ المُبارَك يقولُ : ما رَأيتُ أحَداً ارْتَفَعَ مثل مالِك لَيسَ له كثيرُ صَلاةٍ ولا صِيامٍ ، إلاَّ أنْ تكونَ له سَريرةٌ[2] .

قال الذهبيُّ : ما كانَ عليه من العِلمِ ونَشْرِه أفْضلُ من نَوافِلِ الصَّومِ والصَّلاةِ لمَنْ أرادَ به الله[3] .

٢٠ـ ضَوابِط في كتْمان العِلْم :

عن أبي هُرَيْرَة ، قالَ : حَفظتُ من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وِعَاءَينِ : فأمَّا أحَدُهما ، فبَثَثْتُه في النَّاس ، وأمَّا الآخَرُ ، فلَو بَثَثْتُه ، لقُطِعَ هـٰذا البلعوم .

عن مَكْحولٍ ، قالَ : كان أبو هُرَيْرَة يَقولُ : رُبَّ كيسٍ عند أبي هُرَيْرَة لَمْ يَفتَحْه ، يَعني من العِلم .

وقال الذهبيُّ : هـٰذا دالٌّ علىٰ جَوازِ كِتْمانِ بَعضِ الأحاديثِ التي تُحرِّكُ فِتنةً في الأصُول ، أو الفُروع ، أو المَدْح والذَّمِ .

أمَّا حَديثٌ يَتعلَّقُ بحِلٍّ أو حَرامٍ ، فلا يَحِلُّ كِتْمانُه بوَجْه ، فإنَّه من البَيِّناتِ والهُدىٰ .

---

(١) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٩٠ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٣٣ .

(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٣٤ .

وفي « صَحيحِ البُخاري » : قَولُ الإمامِ عليٍّ رضي الله عنه : حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعرفونَ ، ودَعُوا ما يُنكِرون ، أتُحِبُّونَ أنْ يُكذَّبَ اللهُ ورسُولُه! ، وكَذا لَوْ بَثَّ أبو هُرَيْرَة ذلكَ الوِعاءَ ، لأُوذِيَ ، بل لَقُتِلَ ، ولكنَّ العَالِمَ قد يُؤدِّيه اجْتهادُه إلىٰ أنْ يَنشُرَ الحَديثَ الفُلانيَّ إحْياءً للسُّنَّة ، فلَه ما نَوىٰ ولَه أجرٌ ـ وإنْ غَلطَ ـ في اجْتهادِه[1] .

وقال أبو الحَسَن عبدُ المَلك المَيمونيّ : قالَ رجلٌ لأبي عبدِ الله : ذَهبتُ إلىٰ خَلَف البزَّار أعِظُه ، بَلغَني أنَّه حدَّثَ بحَديثٍ عن الأحْوَص عن عبدِ الله قال : « ما خَلَقَ اللهُ شَيئاً أعْظَمَ . . . » وذَكرَ الحَديثَ ، فقالَ أبو عبدِ الله : ما كانَ يَنبَغي له أن يُحدِّثَ بهـٰذا في هـٰذه الأيَّام ـ يُريدُ زَمنَ المِحْنَة ـ والمَتْنُ : « ما خَلَقَ اللهُ مِنْ سَماءٍ ولا أرْضٍ أعْظَم مِنْ آيَةِ الكرْسِيِّ » وقد قالَ أحمدُ بنُ حَنْبَل لمَّا أوْرَدوا عليه هـٰذا يَومَ المِحْنَة : إنَّ الخَلْقَ واقعٌ ها هُنا على السَّماءِ والأرضِ وهـٰذهِ الأشْياء ، لا على القُرآن[2] .

قال الذهبيُّ : كذا يَنْبَغي للمُحَدِّث أنْ لا يُشْهرَ الأحاديثَ التي يَتشَبَّثُ بظاهِرِها أعداءُ السُّنَن من الجَهْميَّة ، وأهلِ الأهْواءِ ، والأحاديثَ التي فيها صِفاتٌ لَمْ تَثبُتْ ، فإنَّك لَنْ تحدثَ قَوماً بحَديثٍ لا تَبْلغُه عُقولُهم ، إلاَّ كانَ فِتْنةً لبَعْضِهم ، فلا تَكْتُم العِلمَ الذي هو عِلمٌ ، ولا تَبْذُلْه للجَهَلَة الذين يَشْغَبونَ عَليكَ ، أو الذين يَفْهَمون منه ما يَضُرُّهم[3] .

وقال عبدُ الخالِق بنُ مَنْصور : رَأيتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين كأنَّه يُهَجِّنُ نُعَيمَ ابنَ حمَّاد في خَبرِ أُمِّ الطُّفَيل في الرُّؤْيَة ، ويَقولُ : ما كانَ يَنبَغي له أن يُحدِّثَ بمثل هـٰذا[4] .

فأمَّا خَبَرُ أُمِّ الطُّفَيل ، فرَواهُ محمّدُ بنُ إسْماعيل التِّرمِذيُّ وغَيرُه ، حدَّثنا نُعيمٌ ، حدَّثنا ابنُ وَهْب ، أخْبَرنا عَمرُو بنُ الحارِث ، عن سَعيدِ ابنِ أبي هِلال أنَّ مَرْوانَ بنَ عُثْمانَ حدَّثَ عن عُمارَة بنِ عامِر ، عن أُمِّ الطُّفَيل امرأةُ أُبَيِّ بنِ كَعْب : سَمعتُ

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٠٩ .

(٢) انظر السير : (خلف بن هشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٩٥ .

(٣) انظر السير : (خلف بن هشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٩٥ .

(٤) انظر السير : (نُعيمُ بن حمَّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٩٨ .

رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَذكُرُ أنَّه رَأىٰ رَبَّه في صُورَة كَذا . فهٰذا خَبرٌ مُنْكَرٌ جداً ، أحْسَنَ النَّسائيُّ حيثُ يقولُ : ومَنْ مَرْوانُ ابنُ عُثمان حتىٰ يُصَدَّقَ على الله! ؟ وهٰذا لَمْ يَنْفَرِدْ به نُعيم ، فقد رَواهُ أحمدُ بنُ صالِح المِصْري الحافظُ ، وأحمدُ بنُ عيسى التُّستَري ، وأحمدُ ابنُ عبدُ الرَّحمٰن بنِ وَهْب ، عن ابنِ وَهْب . قالَ أبو زُرْعة النَّصْري : رجالُه مَعْروفُون .

قال الذهبيُّ : بلا رَيْب قد حدَّثَ به ابنُ وَهْب وشَيخُه وابنُ أبي هِلال ، وهم مَعروفُون عُدولٌ ، فأمَّا مَرْوان ، وما أدْراكَ ما مَرْوان ، فهو حَفيدُ أبي سَعيد المُعلَّى الأنْصاريّ وشَيخُه هو عُمارَةُ بنِ عَمرو بنِ حَزْم الأنْصاريّ[1] .

ولَئنْ جَوَّزْنا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ ، فهُو أدْرَىٰ بما قالَ ، ولرُؤياهُ في المَنام تَعبيرٌ لَمْ يَذْكرْه عليه السلام ، ولا نَحنُ نُحسِنُ أنْ نُعبِّرَه ، فأمَّا أنْ نَحملَه علىٰ ظاهرِه الحِسِّي ، فمَعاذَ الله أنْ نَعتقدَ الخَوْضَ في ذلك بحيثُ إنَّ بعضَ الفُضَلاء قال : تَصحَّف الحَديثَ ، وإنَّما هو : رَأىٰ رئيَّه ـ بياءٍ مُشدَّدة ـ وقد قال عليٌّ رضي الله عنه : « حَدِّثوا النَّاسَ بما يَعرفُون ، ودَعوا ما يُنْكرون » . قد صَحَّ أنَّ أبا هُرَيْرَة كَتمَ حَديثاً كَثيراً ممَّا لا يَحتاجُه المُسلمُ في دِينه ، وكان يقولُ رضي الله عنه : « لَوْ بَثَثْتُه فيكم لقُطِعَ هٰذا البلعوم » ، وليسَ هٰذا من بابِ كِتمانِ العِلم الذي في فَضائل الأعْمال ممَّا يَصحُّ إسْنادُه يَتعيَّنُ نَقلُه ويَتأكَّدُ نَشْرُه ، ويَنبَغي للأُمَّة نَقلُه ، والعِلمُ المُباح لا يَجبُ بثُّه ولا يَنبَغي أنْ يَدخُلَ فيه إلاَّ خَواصُّ العُلماء[2] .

والعِلمُ الذي يَحْرُم تَعلُّمُه ونَشرُه عِلمُ الأوائل وإلٰهيَّاتُ الفَلاسِفَة وبعضُ رياضَتهم بلْ أكثَرُه ، وعِلمُ السِّحْر ، والسِّيمياء والكيمْياء ، والشَّعْبَذة ، والحِيَل ونَشْرِ الأحاديث المَوضُوعة ، وكَثيرٌ من القَصَص الباطِلَة أو المُنْكَرة ، وسيرة البَطَّال المختلقة ، وأمثالُ ذلكَ ، ورَسائلُ إخْوانِ الصَّفا ، وشِعرٌ يُعرَّضُ فيه إلى الجَناب النَّبَويِّ ، فالعُلومُ الباطِلَة كَثيرةٌ جداً فلتُحْذَر ، ومَنْ ابتُليَ بالنَّظرِ فيها للفُرجَة والمَعْرفَة من الأذْكياء ، فليُقلِّل من

---

(١) انظر السير : (نُعيمُ بن حمَّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٨٩٨/ ٤ .

(٢) انظر السير : (نُعيمُ بن حمَّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٨٩٨/ ٥ .

ذلك ، وليُطالِعْه وَحْدَه ، وليَسْتَغفِر اللهَ تَعالَىٰ ، وليَلْتَجىء إلى التَّوحيدِ ، والدُّعاءِ بالعافِيَة في الدِّين ، وكذلكَ أحاديثُ كَثيرة مَكْذوبَة ورَدَتْ في الصِّفاتِ لا يَحِلُّ بَثُّها إلاَّ التَّحْذيرُ من اعْتقادِها ، وإنْ أمكَنَ إعْدامُها فحَسنٌ . اللَّهُمَّ فاحْفَظْ عَلينا إيمانَنا ، ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ[1] .

٢١ـ حَال أربعَة أصْناف من النَّاس مع العِلْم :

قال أبو نُعَيم الحافظُ : وسَمعتُ محمّدَ بنَ عبدِ الله الرَّازي بنَسا أنَّه سَمعَه يقولُ ذَهابُ الإسْلام من أربَعَة : لا يَعمَلونَ بما يَعْلَمونَ ، ويَعمَلونَ بما لا يَعْلَمونَ ، ولا يَتَعلَّمونَ ما لا يَعلَمون ، ويَمنَعونَ النَّاسَ من العِلم .

قال الذهبيُّ : هـٰذه نُعوتُ رُؤوس العَرب والتُّرْك ، وخَلقٌ من جَهَلة العامَّة فلَوْ عَملوا بيَسير ما عَرفُوا ، لأفْلَحوا ، ولَوْ وَقفوا عن العَملِ بالبِدَع لوُفِّقوا ولَوْ فتَّشوا عن دينِهم وسَألوا أهلَ الذِّكْر ـ لا أهلَ الحِيَل والمَكْر ـ لسَعِدوا بلْ يُعرِضون عن التَّعلُّم تِيهاً وكَسَلاً ، فواحدَةٌ من هَـٰذه الخِلالِ مُرْديَةٌ ، فكَيفَ بها إذا اجْتمَعت ؟! ، فما ظَنُّك إذا انْضَمَّ إليها كِبْرٌ ، وفُجورٌ ، وإجْرامٌ وتَجَهْرُمٌ على الله ؟! ، نَسألُ اللهَ العافيَة[2] .

٢٢ـ من وسائل تثبيت العِلْم :

(أ) الاختبار والامتحان :

١ـ صُورٌ على الاختبار :

عن عُروَة ، حَدثني الأحْنفُ ، أنَّه قَدمَ علىٰ عُمَرَ بفَتْحِ تُسْتَر فقالَ : قد فَتحَ اللهُ عَليكم تُسْتَر ، وهي من أرض البَصْرَة ، فقالَ رجلٌ من المُهاجِرينَ : يا أميرَ المُؤمنينَ ، إنَّ هـٰذا ـ يَعني الأحْنَف ـ الذي كَفَّ عنَّا بَني مُرَّة حين بَعثَنا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في صَدَقاتهم ، وقد كانوا هَمُّوا بنا . قال الأحْنفُ : فحَبسَني عُمرُ عندَه سَنةً يَأتيني في كلِّ يومٍ ولَيلَة ، فلا يَأتيه عنِّي إلاَّ ما يُحبُّ ، ثم دَعاني ، فقالَ : يا أحْنَفُ هل

---

(١) انظر السير : (نُعيمُ بن حمَّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٩٩ .

(٢) انظر السير : (واعظُ بَلْخ) ١٤/ ٥٢٣ـ ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٧١ .

تَدري لِمَ حَبَسْتُك عندي ؟ قُلتُ : لا يا أميرَ المُؤمنين . قال : إنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم حذَّرَنا كُلَّ مُنافِقٍ عَليمٍ ، فخَشيتُ أنْ تكونَ منهم ، فاحْمَد اللهَ يا أحْنَف .

وقال العِجليُّ : الأحْنَفُ بَصْريٌّ ثِقةٌ ، كان سَيِّدَ قَومه ، وكان أعْوَرَ أحْنَفَ ، دَميماً قَصيراً كَوْسَجاً[1] . له بَيْضةٌ واحدة ، حَبسَه عُمرُ سَنةً يَخْتَبرُه فقال : هـٰذا والله السَّيِّدُ[2] .

وقال القاضي أبو الحَسَن الدَّاوُودي : لمَّا جَلسَ بنُ داودَ للفَتوىٰ بعدَ والدِه اسْتَصْغَروه ، فدَسُّوا عليه مَنْ سألَه عن حَدِّ السُّكْرِ ، ومَتىٰ يُعَدُّ الإنسانُ سَكران ؟ ، فقالَ : إذا عَزَبَت[3] عنه الهُمومُ ، وباحَ بسرِّه المَكْتوم . فاسْتُحْسِنَ ذلكَ منه[4] .

وعن سَعد بنِ عليٍّ الزَّنْجانيِّ ، سَمعَ أبا نَصْر الوائليَّ يقولُ : لمَّا وَرَدَ أبو الفَضْل الهَمَذانيُّ نيسابورَ ، تَعصَّبوا له ، ولَقبُوه : بَديعَ الزَّمانِ فأُعْجبَ بنفسِه إذْ كانَ يَحفظُ المئَةَ بَيتٍ إذا أُنْشِدَت مرَّة ، ويُنْشدُها من آخِرها إلىٰ أوَّلِها مَقلوبَةً ، فأنْكرَ على النَّاسِ قَولَهم : فلانُ الحافظُ في الحَديثِ ثم قال : وحِفْظُ الحَديثِ ممَّا يُذْكَر ؟! ، فسَمعَ به الحاكمُ ابنُ البَيِّع ، فوَجَّه إليه بجُزء ، وأجَّلَ له جُمعَةً في حِفْظِه ، فرَدَّ إليه الجُزءَ بعدَ الجُمُعة وقال : مَنْ يَحفظُ هـٰذا ؟ ، محمَّدُ بنُ فُلان ، وجَعْفَرُ بنُ فُلان ، عن فُلان ؟ أسامي مُختلفة ، وألفاظٌ مُتباينَة ؟ فقالَ له الحاكمُ : فاعْرفْ نَفسَك ، واعْلمْ أنَّ هـٰذا الحِفظَ أصْعبُ ممَّا أنتَ فيه[5] .

٢ـ اخْتبار العُلماء بَعضُهم بَعضاً :

وعن أبي العَيناء قال : أتَيتُ عبدَ الله بنَ داود الخُرَيْبيَّ ، فقالَ : ما جاءَ بكَ ؟ قلتُ : الحَديثُ ، قالَ : اذهبْ فتَحْفَظ القُرآنَ ، قلتُ : قد حَفظتُ القُرآنَ ، قالَ : اقْرأْ

---

(١) يَعني لا شَعر علىٰ عارضَيه ، أو نَقيَّ الخدَّين من الشعر .
(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيس) ٤/٨٦ـ٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/٤٤٩ .
(٣) أي بعُدَ وغابَ .
(٤) انظر السير : (محمد بن داود) ١٣/١٠٩ـ١١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٠ .
(٥) انظر السير : (الحاكم) ١٧/١٦٢ـ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٢ .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾[1] ، فقرأتُ العَشْرَ حتىٰ أنْفَذتُه ، فقال لي : اذْهبْ الآن فتعلَّم الفَرائضَ ، قُلتُ ، قد تَعلَّمتُ الصُّلْبَ والجدَّ والكُبَر[2] . قال : فأيُّما أقْربُ إليكَ ابنُ أخِيكَ أوْ عَمُّك ؟ قلتُ : ابنُ أخي ، قال : ولِمَ ؟ قلتُ : لأنَّ أخي من أبي ، وعَمِّي من جَدِّي ، قال : اذْهَبْ الآنَ ، فتَعلَّم العَربيَّة ، قلتُ : قد عَلِمتُها قبلَ هـٰذين ، قال : فلِمَ قالَ عُمرُ ـ يَعني حِينَ طُعِنَ ـ يا للهِ ، يا لِلْمُسلمين ، لِمَ فَتَحَ تِلكَ وكَسَرَ هـٰذه ؟ قلتُ : فَتحَ تِلكَ اللاَّمَ على الدُّعاءِ وكَسرَ هـٰذه على الاسْتِغاثَة والاسْتِنْصار ، فقال : لَوْ حَدَّثتُ أحَداً ، لحَدَّثتُك[3] .

قال الذهبيُّ في ترجمة أبي نُعَيم : كان من أئمَّة هـٰذا الشأن ـ يَعْني الحَديثَ ـ وأثْباتِهم .

وقال أحمدُ بنُ مَنصورالرَّماديُّ : خَرجتُ مع أحمدَ ويَحْيَىٰ إلىٰ عبد الرزَّاق خادماً لهما ، فلمَّا عُدنا إلى الكُوفَة ، قال يَحْيَىٰ بنُ مَعين : أريدُ أنْ أخْتَبرَ أبا نُعيم ـ الفَضْل بن دكين ـ فقال أحمدُ : لا تُرِدْ فالرجلُ ثِقةٌ ، قال يَحْيَىٰ : لا بُدَّ لي .

فأخَذَ ورَقةً ، فكَتبَ فيها ثلاثينَ حَديثاً وجَعلَ علىٰ رأسِ كُلِّ عَشرةٍ منها حَديثاً ليسَ من حَديثِه ، ثم إنَّهم جاؤوا إلىٰ أبي نُعيم ، فخَرجَ ، وجَلسَ علىٰ دكانِ طين وأخذَ أحمدَ بنَ حَنْبَل ، فأجلَسَه ، فقَرأَ عَليه عَشرةَ أحاديث ، فلمَّا قَرأ الحادي عَشر ، قال أبو نُعيم : لَيسَ هـٰذا من حَديثي ، اضْربْ عليه ثم قَرأ العَشرَ الثاني ، وأبو نُعيم ساكتٌ ، فقَرأَ الحديثَ الثاني ، فقال أبو نُعيم : ليس هـٰذا من حَديثي فاضْربْ عَليه ، ثم قَرأ العَشرَ الثالث ، ثم قَرأ الحَديثَ الثالث ، فتَغيَّرَ أبو نُعيم ، وانْقلَبتْ عَيناه ، ثم أقْبلَ علىٰ يَحْيَىٰ ، فقالَ : أمَّا هـٰذا ـ وذِراعُ أحمدَ بيَدِه ـ فأوْرَعُ مِنْ أنْ يَعملَ مثلَ هـٰذا ، وأمَّا هـٰذا ـ يُريدُني ـ فأقَلُّ مِنْ أنْ يَفعلَ ذاك ، ولكنَّ هـٰذا مِنْ فِعلِك يا فاعِل ، وأخرَجَ رجلَه ، فرَفَسَ يَحْيَىٰ ، فرَمَىٰ به من الدكَّانِ ، وقامَ ، فدَخلَ دارَه ، فقالَ أحمدُ ابنُ

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٧١ .

(٢) أي مسائل الفرائض .

(٣) انظر السير : (الخُرَيْبي) ٩/ ٣٤٦ـ ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ٨٢٨/ ١ .

حَنْبَل ليَحْيَىٰ : أَلَمْ أَمْنَعْك وأَقُلْ لكَ : إنَّه ثَبتٌ ، قالَ : والله ، لرَفْسَتُه لي أَحَبُّ إليَّ من سَفرتي[1] .

وقال محمّدُ بنُ يُوسُف البُخاريّ : سَمعتُ إبراهيمَ الخَوَّاصَ ، مُسْتَملي صَدَقَة ، يقولُ : رأيتُ أبا زُرعَة كالصَّبيِّ جالساً بينَ يَدي محمَّد ابنِ إسْماعيلَ ، يَسألُه عن عِلَلِ الحَديثِ[2] .

٣ـ اخْتبارُ الخُلَفاءِ العُلماء :

قال أبو المُظَفَّر في كتابِ « مِرْآةُ الزَّمانِ » قال عبدُ الصَّمَد بنُ المُهْتَدِي : لمَّا دَخَلَ المَأمُونُ بَغْدادَ نادىٰ بتَركِ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ ، وذلك لأنَّ الشُّيوخَ بَقَوْا يَضْرِبُونَ ويَحْبِسُون ، فنَهَاهُم المَأمُونُ وقال : قد اجْتَمَعَ النَّاسُ علىٰ إمامٍ ، فمَرَّ أبو نُعَيمٍ ، فرأىٰ جُندِياً وقد أَدْخَلَ يَدَيْه بَينَ فَخِذَي امْرَأةٍ ، فنَهَاه بعُنْفٍ ، فحَمَلَه إلى الوَالِي ، فحَمَلَه الوَالِي إلى المَأمُونِ . قال : فأُدخِلتُ عليه بُكرَةً وهو يُسَبِّحُ ، فقال : تَوَضَّأ . فتَوَضَّأتُ ثلاثاً ثلاثاً علىٰ ما رَوَاهُ عبدُ خَيرٍ ، عن عليٍّ ، فصَلَّيْتُ رَكعَتَيْنِ ، فقال : ما تقولُ في رَجلٍ ماتَ عن أبَوَيْنِ ؟ فقُلتُ : للأُمِّ الثُّلُثُ ، وما بَقِيَ للأبِ ، قال : فإنْ خَلَّفَ أَبَوَيْه وأَخَاهُ ؟ قُلتُ : المَسْأَلَةُ بِحَالِها ، وسَقَطَ الأَخُ ، قال : فإنْ خَلَّفَ الأَبَوَيْنِ وأَخَوَيْنِ ؟ قُلتُ : للأُمِّ السُّدُسُ ، وما بَقِيَ للأَبِ . قال : في قَولِ النَّاس كُلِّهم ؟ قُلتُ : لا ، إنَّ جَدَّكَ ابنَ عَبَّاسٍ يا أميرَ المؤمنين ما حَجَبَ الأُمَّ عن الثُّلُثِ إلاَّ بثلاثَةِ إخْوَةٍ . فقال : يا هـٰذا ، مَنْ نَهَىٰ مِثْلَكَ عن الأمْرِ بالمَعْرُوفِ ؟!! إنَّما نَهَيْنا أقْواماً يَجْعَلونَ المَعْرُوفَ مُنْكَراً . ثمَّ خَرَجْتُ[3] .

وقال أبو العبَّاس السَّراج : حَدَّثنا محمدُ بنُ سَهل بن عَسْكَر قال : تَقدَّم رجلٌ غَريبٌ بيده مِحْبَرة إلى المأمون ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، صاحبُ حَديثٍ مُنقَطعٌ به ، فقال : ما تَحفَظُ في باب كذا وكذا ؟ فلم يَذكُرْ شيئاً . فقال : حَدَّثنا هُشَيمٌ ، وحَدَّثنا

---

(١) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٥٩ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠١٢ .
(٣) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٦٠ .

يَحْيَىٰ ، وحَدَّثنا حَجَّاجُ ابنُ محمد ، حتىٰ ذَكرَ البابَ ، ثم سألَه عن بابٍ آخَر ، فلمْ يَذكُرْ شَيئاً ، فقال : حَدَّثنا فُلانٌ . ثم قال لأصْحابه : يَطلُبُ أحَدُهم الحَديثَ ثلاثةَ أيَّام ، ثم يقولُ : أنا من أصْحابِ الحَديث ، اعْطوهُ ثَلاثةَ دَراهم[1] .

٤ـ اخْتبار العَالم فَهْمَ تلاميذه :

وقال محمدُ بنُ إبراهيمَ البُوشَنْجي ، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ يَزيد الدِّمَشْقي ، حَدَّثنا عبدُ الرحْمَـٰن بنُ يَزيد بنِ جابِر ، قال : رَأيتُ في المقسلاطِ صَنماً من نُحاس ، إذا عَطِشَ ، نزَل ، فشَرِبَ . ثم قال البُوشَنْجي : رُبَّما تَكلَّمت العُلماءُ علىٰ سَبيل تَفَقُّدِهم مِقْدارَ أفْهام حاضريهم ، تَأديباً لهم ، وتَنبيهاً على العلم ، وامتحاناً لأوْهاهم فهـٰذا ابن جابر ، وهو أحَدُ عُلماءِ الشَّام ، وله كُتبٌ في العلم ، يقولُ هـٰذا ، والمقسلاط : مَوضعٌ بدمشقَ بسُوق الدَّقيق ، يُريدُ أنَّ الصَنمَ لا يَعطش ، ولو عَطشَ نزلَ فشَرب ، فيَنفي عنه النُّزولَ ، والعَطَش[2] .

(ب) المُناظرَة :

١ـ المُناظَرة بدون نية حَسنَة مَضرَّة :

قال ابنُ بَطَّة : سَمعتُ البَرْبَهاريَّ يقولُ : المجالَسةُ للمُناصَحة فَتحُ بابِ الفائدة ، والمجالَسةُ للمُناظَرة غَلقُ بابِ الفائدة[3] .

٢ـ من آداب المُناظرة :

عن الشافعيِّ قال : ما كَابَرني أحدٌ على الحقِّ ودَافَعَ ، إلاَ سَقطَ من عَيْني ، ولا قَبِلَه إلاَّ هِبْتُه ، واعْتَقدتُ مَوَدَّتَه[4] .

وقال الضِّياءُ : كان المُوَفَّقُ لا يُناظرُ أحداً إلاَّ وهو يَتبَسَّمُ .

---

(١) انظر السير : (المَأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٧٦ .
(٢) انظر السير : (البُوشَنجي) ١٣/ ٥٨١ـ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١١٨ .
(٣) انظر السير : (البَربهاري) ١٥/ ٩٠ـ ٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٨٥ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٤٧ .

قال الذهبيُّ : بلْ أكثَرُ مَنْ عايَنَّا لا يُناظِرُ أحداً إلاَّ ويَنْسَمُّ[1] .

٣ـ مَنْ كان حَسَنَ المُناظرة :

قيل لمالك : هل رأيتَ أبا حَنيفَة ؟ قال : نَعم . رأيتُ رَجلاً لو كلَّمَك في هٰذه السَّارِيَة أنْ يَجعلَها ذَهباً لقامَ بحُجَّته[2] .

(ج) أجوبَةٌ ورُدود :

١ـ مضرَّة تَرك الجَواب :

عن مَنصورِ بنِ أبي مُزاحم : سَمعتُ شريكاً يقولُ : تَركُ الجَوابِ في مَوْضِعِه إذابَةُ القَلب[3] .

٢ـ حُسْنُ الجَواب يَجب أنْ يَقْترن بالأدَب :

قال أبو الحَسن بنُ المَرْزُبان : كان أبو محمد بنُ ماسي مِنْ دارِ كَعْب يُنفِذُ إلىٰ أبي عُمر ، محمدُ بنُ عبد الواحد البَغْدادي ، غلام ثعلب وقتاً بعد وقت كفايته ما يُنفِقُ علىٰ نفسِه فقَطعَ ذلك عنه مُدَّة لعُذْرٍ ، ثم أنْفَذَ إليه جُملة ما كان في رَمه ، وكتب إليه يَعتذرُ ، فردَّه ، وأمرَ أنْ يُكتبَ علىٰ ظَهْر رُقْعَته : أكْرَمْتَنا فمَلكْتَنا ثم أعْرَضْتَ عنَّا ، فأرَحْتَنا[4] .

قال الذهبيُّ : هو كما قال أبو عُمر ، لكنَّه لم يُجْمِلْ في الرَّدِّ ، فإنْ كان قد مَلكَه بإحْسانِه القَديم ، فالتَّمَلُّك بحالِه ، وجُبرَ التَّأخيرُ بمَجيئه جُملةً وباعْتِذارِه ، ولو أنَّه قالَ : وتَركْتَنا فأعْتَقْتَنا ، لكان أليَق[5] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ قُدامَة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٨١ .
(٢) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٥/٦٦٢ .
(٣) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٣ .
(٤) انظر السير : (أبو عُمر الزَّاهد) ١٥/ ٥٠٨ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥٥ .
(٥) انظر السير : (أبو عُمر الزَّاهد) ١٥/ ٥٠٨ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٥ .

٣ـ أجوبةٌ ذَكيّة :

قال رجلٌ لابنِ الحَنَفيَّة : ما بالُ أبيكَ كان يَرْمي بك في مَرامٍ لا يَرْمي فيها الحَسَنَ والحُسَين ؟ قال : لأنَّهما كانا خَدَّيْه وكُنتُ يَدَه ، فكان يَتوقَّىٰ بيَدَيْه عن خَدَّيْه[١] .

وقال مالكُ بنُ سُليمان : كان لإبراهيمَ بنِ طَهْمان جِرايَةٌ من بَيت المال فاخرة ، يأخذُ في كلِّ وَقت ، وكان يَسْخو به ، فسُئل مرَّةً في مَجلس الخَليفة ، فقال : لا أدْري ، قالوا له : تَأخذُ كلَّ شَهرٍ كَذا وكَذا ولا تُحْسنُ مَسألَة ؟

فقال : إنَّما آخُذُ علىٰ ما أُحْسِنُ ، ولو أخَذتُ علىٰ ما لا أُحْسِنُ ، لفَنيَ بَيتُ المال عليَّ ، ولا يَفنىٰ ما لا أُحْسِن . فأعْجبَ أميرَ المؤمنين جَوابُه ، وأمرَ له بجائزة فاخرة ، وزاد في جِرايَتِه .

مات إبراهيمُ بنُ طَهْمان سنة ثلاث وستين ومئة[٢] .

وقال مَخلدُ بنُ خِداش : سألتُ مَالكاً عن الشِّطْرَنج . فقال : أحَقٌّ هو ؟ فقلتُ : لا . قال : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[٣] ،[٤] .

وجاء في تَرجمة عليٍّ الرِّضَا الهاشِميِّ ، قال الإمامُ الذَّهبيُّ :

وقِيلَ : قال المَأمونُ للرِّضَا : ما يقولُ بَنو أبيك في جَدِّنا العَبَّاس ؟ قالَ : ما يَقولون في رَجلٍ فَرَضَ اللهُ طاعَةَ نَبيِّه علىٰ خَلقِه ، وفَرضَ طاعَتَه علىٰ نَبيِّه . وهٰذا يُوهِمُ في البَديهَة أنَّ الضَّميرَ في طاعَتِه للعَبَّاس ، وإنَّما هو لله ـ فأمَرَ له المَأمونُ بألفِ ألفِ دِرْهم[٥] .

وقال عليُّ بنُ عبد الرحمَٰن ، حَدَّثنا سَعيدُ بنُ كَثير بنِ عُفَير قال : كُنَّا بقُبَّة الهَواء

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَنَفيَّة) ٤/ ١١٠ـ ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٥٨ .
(٢) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٠٦ .
(٣) سورة يونس ، الآية : ٣٢ .
(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٣٦ .
(٥) انظر السير : (عليُّ الرِّضَا) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٣٢ .

عند المَأمونِ فقال لنا : ما أعْجَبَ فِرْعَونَ من مِصْرَ حَيثُ يقول : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[1] .

فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ الذي تَرَىٰ بَقيَّةُ ما دُمِّر . قال تعالىٰ : ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[2] ، قال : صدقت . ثم أمْسَك .

مات سَعيدُ بنُ عُفَير سنة ست وعشرين ومئتين[3] .

وقال أبو تَمَّام في المُعْتَصِم أو ابنِه :

إقْدامُ عَمرو في سَماحَةِ حاتِمٍ ... في حِلْمِ أَحْنَف في ذَكَاء إياس[4]

فقالَ الوَزيرُ : شَبَّهتَ أميرَ المُؤمنينَ بأجْلافِ العَرب ، فأطْرَقَ ثم زادَها :

لا تُنْكِروا ضَرْبي له مَنْ دُونَه ... مثلاً شَروداً في النَّدىٰ والبَاسِ
فاللهُ قد ضَربَ الأقلَّ لنُورِهِ ... مثلاً من المشْكَاة والنِّبراسِ[5]

وقِيلَ : كان القاضي الفَاضِلُ أبو عَليٍّ عبدُ الرَّحيم بنُ عَليّ اللَّخْميُّ أحْدَبَ ، فحَدَّثني شَيخُنا أبو إسْحاقَ الفَاضليُّ أنَّ القاضيَ الفاضلَ ذَهبَ في الرُّسليَّة إلىٰ صَاحبِ المُوصِل ، فأُحْضِرَت فَواكهُ ، فقال بعضُ الكِبار مُنكِّتاً : خِيارُكُم أَحْدَبُ ، يُوَرِّي بذلك ، فقالَ الفاضلُ : خَسُّنَا خَيرٌ مِنْ خِيارُكم[6] .

وسألَ رجلٌ ابنَ الجَوْزيَّ ، أيّامَ ظُهور الشِّيعَة : أيُّهما أفضلُ أبو بَكرٍ أو عليٌّ ؟ فقالَ : أفْضَلُهُما مَنْ كانت بِنتُه تَحتَه .

وهٰذه عِبارَةٌ مُحْتمَلَة تُرضي الفَريقَين[7] .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٥١ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٧
(٣) انظر السير : (سعيدُ بن كثير بن عُفير) ١٠/ ٥٨٣ـ ٥٨٦ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩٧ .
(٤) انظر السير : (أبو تَمَّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٩٠٩ .
(٥) انظر السير : (أبو تَمَّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩١٠ .
(٦) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٣٠ .
(٧) انظر السير : (أبو الفرج ابنُ الجَوزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٤ .

٤ـ أجوبةٌ مُفْحِمَة :

عن أبي الصدِّيقِ النَّاجي : أنَّ الحَجَّاجَ دَخلَ علىٰ أسْماءَ بنتِ أبي بَكر ، فقالَ : إنَّ ابنَك أَلْحَدَ في هـٰذا البَيت ، وإنَّ اللهَ أذَاقَه من عَذابٍ أليم . قالت : كَذبْتَ! كانَ بَرّاً بوَالدَيْه ، صَوَّاماً ، قَوَّاماً ، ولكن قد أخْبَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أنَّه سَيَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ كذَّابَانِ : الآخَرُ مِنْهُما شَرٌّ مِنَ الأوَّلِ ، وهو مُبير »[١] .

وعن عبدِ المَلك بنِ عُمير قال : كتبَ المُغيرةُ إلىٰ مُعاوِيَة ، فذَكَر فَناءَ عُمرِه ، وفَناءَ أهْلِ بَيتِه ، وجَفْوَةَ قُريشٍ له . فوَرَدَ الكتابُ علىٰ مُعاويَةَ وزِيادٌ عندَه ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنين ، وَلِّني إجابَتَه فألْقَىٰ إليه الكتابَ ، فكتبَ : أمَّا ما ذَكرتَ من ذَهابِ عُمرِك ، فإنَّه لَمْ يَأكُلْه غَيرُك ، وأمَّا فَناءُ أهْلِ بَيتِك ، فلو أنَّ أميرَ المومنين قَدِرَ أنْ يَقي أحداً لوَقىٰ أهلَه ، وأمَّا جَفوَةُ قُريش ، فأنَّىٰ يَكونُ ذاك وهم أمَّروك[٢] .

وقال حَميدُ بنُ هِلال : سألَ عَقيلُ بنُ أبي طالب عَليّاً ، وشَكا حاجَتَه ، قال : اصْبِرْ حتىٰ يَخرجَ عَطائي ، فألَحَّ عليه فقالَ : انْطَلق فخُذْ ما في حَوانيتِ النَّاس . قال : تُريدُ أنْ تَتَّخذَني سارِقاً!! ؟ قال : وأنتَ تُريدُ أنْ تَتَّخذَني سارِقاً وأُعطيكَ أموالَ النَّاس ؟ فقال : لآتِيَنَّ مُعاويَة . قال : أنتَ وذَاك . فسارَ إلىٰ مُعاويَة فأعْطاهُ مئةَ ألفٍ وقالَ : اصْعَد المِنْبرَ فاذْكُر ما أَوْلاكَ عَليٌّ وما أَوْلَيْتُك ، فصَعدَ وقالَ : يا أيُّها الناسُ! إنِّي أرَدتُ عَليّاً علىٰ دِينِه ، فاخْتارَ دينَه عليَّ ، وأرَدتُ مُعاويَةَ علىٰ دينِه ، فاخْتارَني علىٰ دينِه . قال مُعاويَةُ : هـٰذا الذي تَزعمُ قُريشٌ أنَّه أحْمَق[٣] .

وقيلَ إنَّ مُعاويَةَ قالَ لهم : هـٰذا عَقيلٌ وعَمُّه أبو لَهَب ، فقال : هـٰذا مُعاويَةُ وعَمَّتُه حَمَّالَة الحَطَب[٤] .

وعن العُتبيِّ ، عن أبيه ، قال : دَخلَ سالمُ بنُ عبد الله بنِ عُمر علىٰ سُليمانَ بن

---

(١) انظر السير : (أسماء بنت أبي بكر) ٢/ ٢٨٧ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢٦٢ .
(٢) انظر السير : (المُغيرَة بن شُعبة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٢٥ .
(٣) انظر السير : (عَقيلُ بن أبي طالب) ٣/ ٩٩ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ٣٤٢ .
(٤) انظر السير : (عَقيلُ بن أبي طالب) ٣/ ٩٩ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٤٣ .

عبد المَلك ، وعلىٰ سالمٍ ثيابٌ غَليظة رَثَّة فلم يَزلْ سُليمانُ يُرحِّبُ به ، ويَرفَعُه حتىٰ أقْعَدَه معه علىٰ سَريره ، وعُمرُ بنُ عبد العَزيز في المَجْلس ، فقالَ له رجلٌ من أُخْرَيات الناس : ما استطاعَ خالُك أن يَلبسَ ثياباً فاخرةً أحسنَ من هـٰذه ، يدخلُ فيها علىٰ أمير المؤمنين ؟ قال : وعلى المُتكَلِّم ثيابٌ سَريَّة ، لها قيمة ، فقال له عُمرُ : ما رأيتُ هـٰذه الثيابَ التي علىٰ خالي وَضَعتْه في مَكانك ، ولا رأيتُ ثيابَك هـٰذه رَفعَتْك إلىٰ مكان خالي ذاك[1] .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمة أبي العَلاء يَزيدِ بنِ أبي مُسلم أميرِ المَغْرب : ثم وَليَ الخِلافَة سُليمانُ ، فطُلبَ أبو العَلاء في غُلٍّ ، وكان قَصيراً دَميماً ، كَبيرَ البَطْن ، مُشوَّهاً ، فنَظرَ إليه سُليمانُ ، فقال : لَعنَ اللهُ مَنْ وَلاَّكَ ، قال : لا تَفْعَل يا أميرَ المومنين ، فإنَّك رَأيتَني والأمورُ مُدبِرَة عَنِّي ، فلو رَأيتَني في الإقْبال لاسْتَعظَمْتَ ما اسْتَحْقَرت . قال : قاتَلَه اللهُ ما أسَدَّ عَقلَه . ثم قال : أتَرى الحَجَّاجَ يَهْوِي بَعدُ في جَهنَّمَ أو بَلغَ قَعرَها ؟ قال : لا تَقُلْ ذاك ، فإنَّه يُحشَر مع مَنْ وَلاَّه . فقال : مثلُ هـٰذا فليُصْطَنَع . ثم إنَّه كَشفَ عليه فلم يَجدْه خانَ في درهم ، وهَمَّ باسْتكتابه . ثم أمَّرَه علىٰ إفريقيَّة يَزيدُ بنُ عبد المَلك ، فثارَت عليه الخَوارجُ ففتَكوا به لظُلمِه ، سَنةَ اثنتين ومئة[2] .

وقال أحمدُ بنُ وَهب ، أخبرني عبدُ الرحمَـٰن بنُ صالح الأزْدي قال : حَجَّ الرَّشيدُ فأتىٰ قبرَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومَعه مُوسىٰ بنُ جَعْفَر فقالَ : السَّلامُ عَليكَ يا رسولَ الله ، يا ابنَ عَمٍّ ، افْتِخاراً علىٰ مَنْ حَولَه فدَنا مُوسَىٰ وقال : السَّلامُ عَليكَ يا أبَتِ . فتَغيَّرَ وَجْهُ هارُون وقالَ : هـٰذا الفَخْرُ يا أبا الحَسَن حَقّاً[3] .

وقال مالكُ بنُ سُليمان : كان لإبراهيمَ بنِ طَهْمان جِرايَةٌ من بَيت المال فاخرة ، يأخذُ في كلِّ وَقت ، وكان يَسْخو به ، فسُئل مرَّةً في مَجلس الخَليفة ، فقال :

---

(١) انظر السير : (سالم بن عبد الله) ٤/ ٤٥٧ـ ٤٦٧ ، وانظر النزهة : ١/٥٣٢ .
(٢) انظر السير : (يزيد بن أبي مسلم) ٤/ ٥٩٣ـ ٥٩٤ ، وانظر النزهة : ٦/٥٦٥ .
(٣) انظر السير : (موسى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ٣/٦٥٠ .

لا أدْري ، قالوا له : تَأخذُ كلَّ شَهرٍ كَذا وكَذا ولا تُحْسنُ مَسألَة ؟

فقال : إنَّما آخُذُ علىٰ ما أُحْسِنُ ، ولو أخَذتُ علىٰ ما لا أُحْسِنُ ، لفَنيَ بَيتُ المال عليَّ ، ولا يَفنىٰ ما لا أُحْسِن . فأعْجبَ أميرَ المؤمنين جَوابُه ، وأمرَ له بجائزة فاخرة ، وزاد في جِرايَتِه .

مات إبراهيمُ بنُ طَهْمان سنة ثلاث وستين ومئة[1] .

وقال سَعيدُ بنُ مَنصُور : قَدِمَ وَكيعٌ مَكَّة سَميناً ، فقالَ له الفُضَيلُ ابنُ عِياض : ما هـٰذا السِّمَنُ ، وأنتَ راهِبُ العِراق ؟ قالَ : هـٰذا من فَرَحي بالإسْلام ، فأفْحَمَه[2] .

وقال أحمدُ بنُ جَعْفَر بنِ سَلْم : سَمعتُ الأبَّارَ يقولُ : كُنتُ بالأَهْواز ، فرأيتُ رجلاً قد حَفَّ شاربَه ـ وأظُنُّه قال : قد اشْتَرىٰ كُتباً وتَعَيَّن للفُتيا ـ فذُكرَ له أصْحابُ الحَديث ، فقال : لَيسوا بشيءٍ ، وليسَ يَسْوون شيئاً فقلتُ : أنتَ لا تُحْسنُ تُصلِّي . قال : أنا ؟ قُلتُ : نَعم ، أَيْش تَحفَظُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا افْتَتحتَ ورَفَعْتَ يدَيك ؟ فسَكتَ ، قلتُ : فما تَحفَظُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا سَجدْتَ ؟ فسَكتَ ، فقُلتُ : ألَمْ أقُلْ : إنَّك لا تُحْسنُ تُصلِّي ؟ فلا تَذكُرْ أصْحابَ الحَديث[3] .

وقال أبو الوَليد حسَّانُ بنُ محدم : دَخلَ أبو العَبَّاس السَّرَّاج علىٰ أبي عَمرو الخفاف فقال له : يا أبا العَبَّاس! من أين جَمعتَ هـٰذا المال ؟ قال : بغَيْبَة دَهرٍ أنا وأخَوايَ إبراهيمُ وإسْماعيلُ ، غابَ أخي إبراهيمُ أربَعين سَنةً ، وغابَ أخي إسْماعيلُ أربَعين سَنةً ، وغِبتُ أنا مُقيماً ببَغْداد أربَعينَ سَنةً ، أكَلْنا الجَشِبَ[4] ، ولبِسْنَا الخَشِنَ ، فاجْتَمعَ هـٰذا المالُ ، لكن أنْتَ يا أبا عَمرو! من أين جَمعتَ هـٰذا المالَ ؟ وكان لأبي عَمرو مالٌ عَظيمٌ ثم قال مُتمَثِّلاً :[5] .

---

(١) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٠٦ .
(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨١١ .
(٣) انظر السير : (الأبَّار) ١٣/ ٤٤٣ـ ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٠١ .
(٤) طَعامٌ جشبٌ ومَجشوب : أي غَليظ خشن ، وقيل : هو الذي لا أدم له .
(٥) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٦٣ .

أَتَـذْكُـرُ إِذْ لِحَـافُـكَ جِلْـدُ شَـاةٍ وَإِذْ نَعْـلاَكَ مِـنْ جِلْـدِ البَعيـرِ
فَسُبْحَـانَ الـذِي أَعْطَـاكَ مُلْكـاً وَعَلَّمكَ الجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ[1]

وقال أبو مَنصور الثَّعالبي في « اليتيمة » : سَمعتُ الشيخَ أبا الطيِّب يَحْكي أنَّ الأمَويَّ صاحبَ الأنْدَلس كَتبَ إليه نِزارٌ صاحبُ مِصْرَ كتاباً سَبَّه فيه وهَجاهُ فكَتبَ إليه الأمَويُّ : « أمَّا بَعدُ : فإنَّكَ عَرَفْتَنا فهَجَوتنا ولو عَرفْناكَ لأجَبْناك » فاشْتدَّ هـٰذا على العَزيز بالله ، وأفْحَمَه عن الجَواب ، يُشيرُ أنَّكَ دَعيٌّ لا نَعرفُ قَبيلَتك[2] .

وقِيلَ : إنَّ طَّاغِيَةَ الرُّوم سَألَ ابنَ الباقِلاَّنيَّ : كَيفَ جَرَىٰ لزَوْجَةِ نَبيِّكُم ؟ ـ يَقْصِدُ تَوْبيخاً ـ فقالَ : كَما جَرَىٰ لمَرْيَمَ بنتِ عِمْرانَ ، وبَرَّأهُمَا اللهُ ، لَكنَّ عائِشَةَ لَمْ تَأتِ بوَلَدٍ . فأفْحَمَهُ .

قالَ الخَطيبُ : سَمعتُ أبا بَكْر الخَوارِزْميَّ يَقولُ : كُلُّ مُصَنِّف ببَغْدادَ إنَّما يَنْقُلُ من كُتُبِ النَّاسِ سِوَى القاضي أبي بَكْر ، فإنَّما صَدْرُه يَحْوي عِلمَه وعِلمَ النَّاسِ[3] .

٥ـ أجوبةٌ مُخْجِلَة :

يُقالُ إنَّ الصَّاحبَ الوَزيرَ أبي القاسم إسْماعيلَ بنَ عَبَّاد قال : ثَلاثةٌ خَجَّلوني : البندهيُّ حَضرَ المَجلسَ فقُدِّمَت فَواكِهُ ، منها مشمش فائقٌ ، فأكَلَ وأَمْعَن ، فقُلتُ : إنَّه مُلَطِّخُ المَعِدَة ، فقال : لا يُعْجِبُني الرَّئيسُ إذا تَطيَّبَ ، والفرنديُّ قال : وقَد جِئتُ من دارِ السَّلْطَنَة وأنا ضَجرٌ : مِنْ أينَ أقْبَلَ مَوْلانا ؟ قلتُ : مِنْ لَعْنَةِ الله ، قال : رَدَّ اللهُ غُربَة مَوْلانا . والثالثُ : المافرُّوخيُّ أيّامَ حُسْنِه داعَبتُه ، فقلتُ : رَأيتُك تَحْتي ، قال : مع ثلاثةٍ مِثْلي .

مات الصَّاحبُ سَنةَ خَمسٍ وثَمانينَ وثَلاثِ مئة ، عن تسعٍ وخَمسينَ سَنة[4] .

---

(١) البيتان مع سبعة أبيات أخَر في « زهر الآداب » ٣/ ٢٦٣ ، في قصة جرت لمعن بن زائدة مع أعرابي .
(٢) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٠٥ .
(٣) انظر السير : (ابن الباقلانيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٣٥ .
(٤) انظر السير : (الصّاحب) ١٦/ ٥١١ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣١٢ .

٦ـ الانقطاع وعَدم القُدرَة على الجَواب :

قال المُبَرِّدُ : قال ثُمامَةُ : خرجتُ إلى المأمونِ ، فرأيتُ مَجنوناً شُدَّ ، فقال : ما اسمُك ؟ قلتُ ثُمامَة ، فقال : المُتكَلِّمُ ؟ قلتُ : نَعم ، قال : جلستَ علىٰ هٰذه الآجُرَّة ، ولم يأذن لك أهلُها ، فقلتُ : رأيتُها مَبذُولة ، قال : لعل لهم تَدبيراً غَير البَذْلِ ، متىٰ يجدُ النَّائمُ لذَّةَ النَّوم ؟ إنْ قُلتَ : قبلَه ، أحَلْتَ ، لأنَّه يَقظَانُ ، وإنْ قُلتَ : في النَّومِ ، أبطَلتَ ، إذْ النَّائمُ لا يَعْقل ، وإنْ قُلتَ : بعدَه فقد خَرجَ عنه ، ولا يوجَدُ شيءٌ بعدَ فَقْدِه ، قال : فما كان عندي فيها جَوابٌ[1] .

وعنه قال : عُدتُ رجلاً ، وتَركتُ حِماري علىٰ بابه ، ثم خرجتُ فإذا صَبيٌّ راكبُه ، فقلتُ : لِمَ ركِبْتَه بغير إذني/ قال : خفتُ أن يَذهَبَ ، قلتُ : لو ذهبَ كان أهْوَنَ عليَّ ، قال : فهَبْهُ لي ، وعُدَّ أنَّه ذَهبَ ، واربَحْ شُكْري ، فلم أدْرِ ما أقول[2] .

صِرتُ إلىٰ أُمِّ ذي الرِّياسَتين ، الفَضلُ بن سَهْل ، أُعَزِّيها فيه ، وقلتُ : لا تأسَيْ عليه ، فإنِّي عِوَضُهُ لك ، قالت : يا أميرَ المؤمنين وكيفَ لا أحْزَنُ علىٰ ولدٍ أكْسَبَني مثلَك[3] .

وأُتيتُ بمُتَنبىءٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا موسى بن عِمْران ، قلتُ : وَيْحَك! ، موسى بن عِمْران كانت له آياتٌ ، فائتِني بها حتىٰ أؤمنَ بك . قال : إنَّما أتَيتُ بالمُعْجِزات فِرْعَونَ ، فإنْ قُلتَ : أنا رَبُّكُم الأعْلىٰ كما قالَ ، أتَيْتُكَ بالآياتِ .

وأتىٰ أهلُ الكوفَة يَشْكونَ عاملَهم ، فقال خَطيبُهم : هو شَرُّ عاملٍ ، أمّا في أوّلِ سنةٍ ، فبِعْنا الأثاثَ والعَقارَ ، وفي الثانية بِعْنا الضِّياعَ ، وفي الثالثة نزَحْنا وأتيناكَ ، قال : كذَبتَ ، بلْ هو مَحْمودٌ ، وعَرَفتُ سُخطَكم على العُمَّال . قال : صَدَقتَ يا أميرَ المؤمنين ، وكذَبتُ ، قد خَصَصْتَنا به مدّة دون باقي البلاد ، فاستعمِلْه علىٰ بلدٍ آخرَ

---

(١) انظر السير : (ثُمامَة بن أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٣ .

(٢) انظر السير : (ثُمامَة بن أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٤ .

(٣) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٨٧٦/ ٥ .

لِيَشْمَلَهم من عَدلِهِ وإنْصافِه ما شَمِلَنا . فقُلتُ : قُمْ في غير حِفظِ الله ، قد عَزَلْتُه[1] .

وقال عُبَيدُ الله بنُ يَحْيَىٰ : حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ أسْباط ، قال : حُملَ رجلٌ مُقيَّدٌ ، فأُدخِلَ على ابنِ أبي دُواد بحُضورِ الوَاثِق ، فقالَ لأحْمدَ : أخْبِرني عن ما دَعَوْتُم النَّاسَ إليه ، أَعَلِمَهُ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما دَعا إليه ، أمْ شيءٌ لم يَعْلَمْه ؟ قال : بَلْ عَلِمَه . قال : فكانَ يَسَعُه أن لا يَدعوَ النَّاسَ إليه ، وأنتُم لا يَسَعُكم ؟! ، فبُهِتُوا ، وضَحِكَ الوَاثِقُ ، وقامَ قابِضاً علىٰ فَمِه ، ودَخلَ مَجْلساً ، ومدَّ رجْلَيه وهو يقولُ : أمرٌ وَسِعَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يَسْكُتَ عنه ولا يَسَعُنا! ، ثم أمرَ أن يُعْطَى الشيخُ ثلاثَ مئة دينار ، وأنْ يُرَدَّ إلىٰ بَلدِه[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٨٧٧/ ١ .

(٢) انظر السير : (الواثق بالله) ١٠/ ٣٠٦ـ ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٨٨٠/ ٩٩٩ .

ثانياً : العُلَماء

١ـ العُلماءُ قُدوَة لغيرهم :

عن موسى بن أعين : قال الأَوْزاعيُّ : كُنَّا نَضْحَكُ ونَمْزَحُ ، فلمَّا صرْنا يُقتدَىٰ بنا خَشيتُ أن لا يَسعَنا التَّبَسُّم[١] .

٢ـ مَكانةُ العُلَماء كانت عاليةً عند السَّلف :

عن يَحْيىٰ بنِ أكثَم ، قال : قالَ لنا المَأمونُ : لَولا مَكانُ يَزيدِ ابنِ هارون ، لأظْهَرتُ (القرآن مَخلوق) ، فقيل : ومَنْ يَزيد حتىٰ يُتَّقَى!! ؟ فقال : وَيْحَك إنِّي لأرْتَضيه لا أَنَّ لَه سَلْطَنَةً ، ولكن أخافُ إنْ أظْهَرتُه ، فيَردُّ عليَّ ، فيَختلفُ النَّاسُ ، وتكونُ فتنة[٢] .

وقال ابنُ أبي حاتم : سَمعتُ أبا زرعَة يقول : دَعا المُعْتَصمُ بعمِّ أحمد ، ثم قال للنَّاس : تَعْرفونَه ؟ قالوا : نَعم ، هو أحمدُ بنُ حَنْبَل ، قال : فانظُروا إليه ، أليسَ هو صَحيحُ البَدَن ؟ قالوا : نعم ، ولولا أنَّه فعل ذلك ، لكنتُ أخافُ أنْ يَقعَ شيءٌ لا يُقامُ له ، قالوا : ولما قال : قد سَلَّمْتُه إليكم صَحيحَ البَدَن ، هدأَ الناسُ وسَكَنوا .

قال الذهبيُّ : ما قال هـٰذا مع تَمكُّنِه في الخِلافَة وشَجاعَته إلاَّ عن أمرٍ كَبير كأنَّه خافَ أنْ يَموتَ من الضَّرْب ، فتَخرجُ عليه العامَّة ، ولو خَرجَ عليه عامَّةُ بَغْداد لرُبَّما عَجزَ عنهم وبَلَغَنا أنَّ المُعْتَصمَ نَدمَ ، وأُسْقطَ في يَده ، حتىٰ صَلُح[٣] .

وقال المَرُّوذيُّ : مَرِضَ أحمدُ تسعةَ أيَّام ، وكان رُبَّما أذِنَ للنَّاس فيَدخُلوا عليه أفْوَاجاً ، يُسَلِّمون ويَرُدُّ بيَدِه وتَسامَعَ النَّاسُ وكَثروا .

---

(١) انظر السير : (الأوزاعي) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٨٥ .

(٢) انظر السير : (يزيد بن هارون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٢٩ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٤٠ .

وجاءَ بَنو هاشم فدَخَلوا عليه ، جَعلوا يَبكُون عليه وجاءَ قَومٌ من القُضاة وغَيرهم ، فلمْ يُؤْذَن لهم ودَخلَ عليه شَيخٌ ، فقال : اذْكُر وُقوفَك بين يَدَي الله ، فشَهقَ أبو عبد الله ، وسالت دُموعُه .

فلمَّا كان قبلَ وَفاته بيَوم أو يَومَين ، قال : ادْعُوا لي الصِّبْيَان بلِسان ثَقيل قال : فجَعلوا يَنْضمُّون إليه يَشُمُّهم ويَمسَحُ رُؤوسَهم وعَينُه تَدمَع ، وأدخَلتُ تَحتَه الطَّسْتَ ، فرَأيتُ بَولَه دَماً عَبيطاً فقُلتُ للطَّبيب ، فقال : هـٰذا رَجلٌ فَتَّتَ الحُزنُ والغَمُّ جَوفَه .

واشْتدَّت عِلَّتُه يومَ الخَميس ووَضَّأتُه ، فقال : خَلِّل الأصابعَ ، فلمَّا كانت ليلةُ الجُمعة ، ثَقُلَ ، وقُبضَ صَدرَ النَّهار ، فصاحَ النَّاسُ ، وعَلت الأصْواتُ بالبُكاء حتىٰ كأنَّ الدُّنيا قد ارْتَجَّت ، وامْتَلأت السِّكَكُ والشَّوَارع[1] .

وقال الحَاكمُ : كان أبو محمَّد المغفّلي إمامَ أهلِ خُراسان بلا مُدافَعة ، وقد حَجَّ بالنَّاسِ وخَطبَ بمكة ، وقُدِّمَ إليه المَقامُ وهو قاعدٌ في جَوْفِ الكَعْبَة ولقد سَمعتُهم بمَكةَ يَذكرونَ أنَّ هـٰذه الوِلايَة لم تَكنْ قَطُّ لغَيرِه ، ومن عَظمَته أنْ كان فَوقَ الوُزَراء ، وأنَّهم كانوا يَصدرُون عن رأيه وجاوَرَ مرَّة بمَكة ، وكُنتُ ببُخارَىٰ أسْتَملي له ، فذكر أنَّه حصل وَجْدٌ وشيءٌ من غَشي بسَبب إمْلاء حكايةٍ وأبْيات[2] .

٣ـ المحافظة على العلماء وعَدم الطَّعْن فيهم :

عن يَحْيَىٰ بنِ مَعين قال : إذا رَأيتَ إنْساناً يَقعُ في عِكْرِمَة ، وفي حمَّاد بنِ سَلمَة فاتَّهمْهُ على الإسْلام .

قال الذهبي : هـٰذا مَحْمولٌ على الوُقوع فيهما بهَوىً وحَيْف في وَزْنهما ، أمَّا مَنْ نَقَلَ ما قِيلَ في جَرْحِهما وتَعْديلهما على الإنْصاف ، فقد أصاب[3] .

وقال عليُّ بنُ المَديني : حَمَّادُ بنُ سَلمَة هو عندي حُجَّة في رجال ، ومَنْ تَكلَّم في حمَّاد فاتَّهِمُوه في الدِّين .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٤٩ .
(٢) انظر السير : (المغفَّلي) ١٦/ ١٨١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٨٢١ .
(٣) انظر السير : (عِكرمة) ٥/ ١٢ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٧٧ .

قال شِهابُ بنُ مُعمَّر البَلْخي : كان حمَّادُ بنُ سَلمَة يُعَدُّ من الأبْدال .

قال الذهبيُّ : كان مع إمامَته في الحَديث إماماً كَبيراً في العَربيّة ، فَقيهاً فَصيحاً ، رَأساً في السُّنة ، صاحبَ تَصانيف .

قال عبدُ الرحمَـٰن بنُ مَهْدي : لو قِيلَ لحمَّادِ بنِ سَلمَة : إنَّكَ تَموتُ غَداً ، ما قَدرَ أنْ يزيدَ في العَمل شيئاً .

قال الذهبي : كانت أوْقاتُه مَعمورَةً بالتَّعبُّد والأوْراد[1] .

ورَوىٰ أحمدُ بنُ زُهَير ، عن يَحْيَىٰ بنِ مَعين قال : إذا رَأيتَ إنْساناً يَقعُ في عِكْرِمَة ، وفي حمَّاد بنِ سَلمَة فاتَّهمْهُ على الإسْلام[2] .

٤ـ سُنَّة الله أنَّ الكلامَ في العَالِم بهَوىً رافعٌ له ومُعلٍ لقَدْره :

قال الذهبيُّ في تَرجمة الإمام الشافعيِّ : وما تَكلَّم فيه إلاَّ حاسِدٌ أو جاهِلٌ بحالِه ، فكان ذلك الكَلامُ الباطِلُ منهم مُوجباً لارتفاع شأنِه ، وعُلُوِّ قَدره ، تلكَ سُنَّةُ اللهِ في عِبادِه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[3] ، [4] .

٥ـ كلُّ عالم لا يُفلِتُ من الخَطأ :

قال عيسَىٰ بنُ يُونُس : مَنْ يُفْلِتُ من الخَطَأ ؟ رُبَّما رَأيت شريكاً يُخطىءُ ، ويُصَحِّفُ حتىٰ أستحيي[5] .

وعن عاصمٍ ، قال الكِسائيُّ : صَلَّيتُ بالرَّشيدِ ، فأخْطأتُ في آيةٍ ما أخْطأَ فيها صَبيٌّ ، قلتُ : « لَعَلَّهُم يَرْجِعِين » ، فو الله ما اجْتَرأَ الرَّشيدُ أنْ يَقولَ : أخْطأتَ لكن

---

(١) انظر السير : (حمَّاد بن سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/٧١٤ .
(٢) انظر السير : (حمَّاد بن سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/٧١٥ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآيتين ٦٩ ، ٧٠ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٦/٨٤٩ .
(٥) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/٧٤٥ .

قالَ : أيُّ لُغَةٍ هـٰذه ؟ قُلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، قد يَعْثُرُ الجَوادُ قال : أمَا هـٰذا ، فنَعَم[1] .

وعن خَلَفِ بنِ هِشام : أنَّ الكِسائيَّ قرأ على المِنْبَر : (أنا أكثرَ منك مالاً) بالنَّصْبِ ، فسألوهُ عن العِلَّة ، فثُرتُ في وُجوهِهم ، فمَحَوْهُ ، فقال لي : يا خَلفُ ، مَنْ يَسْلمُ من اللَّحْن ؟[2]

وقال يَحْيىٰ بنُ مَعين : لستُ أَعْجبُ ممَّن يُحدِّث فيُخطىء ، بل ممَّن يُصيب[3] .

٦ـ الحَثُّ علىٰ أخذ العِلْم من أهله :

عن أيُّوبَ ، قالَ محمّدُ بنُ سِيرين : إنَّ هـٰذا العِلمَ دينٌ فانْظُروا عَمَّن تَأخُذونَ دينَكم[4] .

٧ـ أربعَةُ أصْناف لا يُؤخَذ عنهم العلْم :

عن مالك ، قال : لا يُؤخَذُ العلمُ عن أرْبَعة : سَفيهٍ يُعلِنُ السَّفَهَ ، وإنْ كان أرْوَى النَّاسِ ، وصاحبِ بِدْعَةٍ يَدعُو إلىٰ هَواه ، ومَنْ يَكذبُ في حَديثِ النَّاس ، وإنْ كُنتُ لا أتَّهِمُه في الحَديث ، وصالحٍ عابدٍ فاضِلٍ إذا كان لا يَحفظُ ما يُحدِّثُ به[5] .

٨ـ عُلَماءُ السوء :

عن هَرِمِ بنِ حَيَّان ، قال : إيّاكم والعَالِمِ الفاسِق فبَلغَ عُمر ، فكتب إليه وأشْفقَ منها : ما العالمُ الفاسِق ؟ فكَتبَ إليه : ما أرَدْتُ إلاَّ الخَيرَ ، يكونُ إمامٌ يَتكلَّمُ بالعِلمِ ويَعملُ بالفِسْقِ ، ويُشبِّه على النَّاسِ ، فيَضِلُّوا[6] .

---

(١) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٧ .
(٢) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٤/٨٠٧
(٣) انظر السير : (يَحيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/٩١٣ .
(٤) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٦٨ .
(٥) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٢٨ .
(٦) انظر السير : (هَرم بن حيّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٥/٤٤٠ .

وقال الذهبيُّ : وقَومٌ طَلَبوه ـ يَعني العِلمَ ـ بنيَّةٍ فاسِدَة لأجْلِ الدُّنيا وليُثْنَىٰ عَليهم فلَهُم ما نَوَوْا ، قال عليه السلام : « مَنْ غَزَا يَنْوِي عِقالاً فَلَهُ مَا نَوَىٰ »[1] وتَرىٰ هـٰذا الضربَ لَم يَستَضيؤُوا بنُورِ العِلم ولا لهم وَقْعٌ في النُّفوس ، ولا لعِلْمِهم كَبيرُ نَتيجة من العَمَل ، وإنَّما العَالمُ مَنْ يَخشى اللهَ تَعالَىٰ[2] .

وقَومٌ نالوا العِلمَ ووَلُوا به المَناصِب ، فظَلموا ، وتَرَكوا التَّقَيُّدَ بالعِلم ، ورَكبُوا الكَبائرَ والفَواحِشَ ، فتَباً لهم ، فما هـٰؤلاء بعُلماء[3] .

وبَعضُهم لمْ يَتَّقِ اللهَ في عِلمِه ، بل رَكبَ الحِيلَ ، وأفْتَىٰ بالرُّخَص ورَوَى الشَّاذَّ من الأخْبار ، وبَعضُهم اجْتَرأ على الله ووَضعَ الأحَاديثَ ، فهَتكَه اللهُ ، وذَهبَ عِلمُه ، وصارَ زادَه إلى النَّار وهَؤلاء الأقْسام كلُّهم رَوَوا من العلمِ شيئاً كَبيراً وتَضلَّعوا منه في الجُملَة فخَلفَ مِنْ بَعدهم خَلفٌ بانَ نَقصُهم في العِلمِ والعَمل وتَلاهُم قَومٌ انتَمَوا إلى العِلمِ في الظاهِر ، ولمْ يُتْقِنوا منه سِوَىٰ نَزْرٍ يَسير ، أوْهموا به أنَّهم عُلمَاء فُضَلاء ولمْ يَدُر في أذْهانِهم قَطُّ أنَّهم يَتقرَّبون به إلى الله ، لأنَّهم ما رَأوا شَيخاً يُقْتَدَىٰ به في العِلمِ ، فصاروا هَمَجاً رِعَاعاً ، غايَةُ المُدرِّس منهم أنْ يُحصِّلَ كُتباً مُثمَّنة يُخزِّنُها ويَنظُرُ فيها يوماً ما ، فيُصحِّفُ ما يُورِدُه ولا يُقرِّرُه ، فنَسألُ اللهَ النَّجاةَ والعَفوَ ، كما قالَ بَعضُهم : ما أنا عالمٌ ولا رَأيتُ عالماً .

قال مُعاذُ بنُ هشام الدَّسْتُوائي : مَكثَ أبي ـ يَعني عاشَ ـ ثَمانياً وسَبعين سَنةً .

قال الإمامُ الذهبيُّ : فهـٰذا يَدلُّ علىٰ أنَّه أسَنُّ من أبي حَنيفة وشُعْبَة ، وأنَّه وُلدَ في حَياةِ جابرِ بنِ عبد الله وطائفةٍ من الصَّحابَة .

قال الذهبيُّ : حَديثُه في الدَّوَاوينِ كلِّها إلاَّ « المُوَطَّأ »[4] .

---

(١) أخرجه أحمدُ : ٥/ ٣١٥ ، والدَّارميُّ : ٣/ ٢٠٨ ، والنَّسائيُّ : ٦/ ٢٤ ، من حديث عُبادَة بن الصامت ، مَرفوعاً ، بلفظ : « مَنْ غَزَا في سَبيلِ اللهِ ، ولَمْ يَنْوِ إلاَّ عِقَالاً ، فَلَهُ مَا نَوَىٰ » ، وفي مسند يَحيى بن الوليد بن عُبادة بن الصامت ، لم يوثقه غيرُ ابن حبّان ، وباقي رجاله ثقات .

(٢) انظر السير : (هشام الدَّسْتوائي) ٧/ ١٤٩ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٨٧ .

(٣) انظر السير : (هشام الدَّسْتوائي) ٧/ ١٤٩ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٨٨ .

(٤) انظر السير : (هشام الدَّسْتوائي) ٧/ ١٤٩ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٨٨ .

٩ـ وجُوب الحِفاظ على العِلْم من الجُهَلاء :

قال الشافعيُّ : كان شُعْبةُ يَجيءُ إلى الرَّجلِ ـ يَعني الذي لَيسَ أهْلاً للحَديث ـ فيقولُ : لا تُحدِّثْ ، وإلاَّ اسْتَعديتُ عليكَ السُّلطانَ[١] .

١٠ـ عُلَماءُ الصَّحابة :

عن مَسروقٍ قالَ : شَامَمْتُ أصحابَ محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فوَجدتُ عِلمَهم انتَهىٰ إلىٰ سِتَّة : عليٍّ ، وعُمرَ ، وعبدِ الله ، وزَيدٍ ، وأبي الدَّرْداء ، وأُبَيّ ثم شَامَمْتُ السِّتَّةَ فوَجدتُ عِلمَهم انتَهىٰ إلىٰ عليٍّ وعبدِ الله[٢] .

وعن أبي موسىٰ قال : ما أشْكَلَ عَلينا أصْحابَ محمَّد صلى الله عليه وسلم حَديثٌ قَطّ ، فسَألنا عائشةَ ، إلاَّ وَجدْنا عندها منهُ علماً[٣] .

وعن أبي الضُّحَىٰ ، عن مَسْروقٍ ، قال : قُلنا له : هل كانت عائشةُ تُحْسِنُ الفَرائِضَ ؟ قال : والله ، لَقد رَأيتُ أصْحابَ محمَّد صلى الله عليه وسلم الأكابر يَسألونَها عن الفَرائِض[٤] .

وعن هشام ، عن أبيه ، قال : لقد صَحِبتُ عائشةَ ، فما رَأيتُ أحَداً قَطُّ كان أعلَم بآيةٍ أُنزِلَت ، ولا بفَريضَةٍ ، ولا بسُنَّةٍ ، ولا بشِعْرٍ ، ولا أَرْوَىٰ له ، ولا بيَومٍ من أيّام العَرب ، ولا بنَسَبٍ ، ولا بكذا ، ولا بقَضاءٍ ، ولا طِبٍّ ، منها فقُلتُ لها : يا خالَة ، الطِّبُّ ، من أين عَلِمْتِه ؟ فقالت : كُنتُ أمْرَضُ فيُنْعَتُ لي الشيءُ ، ويَمْرضُ المَريضُ فيُنْعَتُ له ، وأسْمَعُ النَّاسَ يَنْعَتُ بَعضُهم لبَعضٍ ، فأحْفَظُه[٥] .

وقال الزُّهْريُّ : لوْ جُمعَ عِلمُ عائشَةَ إلىٰ عِلْمِ جَميعِ النِّساءِ ، لكانَ عِلْمُ عائشَةَ أفْضَل[٦] .

---

(١) انظر السير : (شُعبة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٨/٦٩٣ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن مَسْعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٩٧ .
(٣) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٢٤٢ .
(٤) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٥/٢٤٢ .
(٥) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ١/٢٤٣ .
(٦) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٤٣ .

وعن يَزيدِ بنِ مُعاويَة ، قال : إنَّ أبا الدَّرْداء من العُلمَاء الفُقَهاء ، الذين يَشْفُون من الدَّاء عن سالمِ بنِ أبي الجَعْد ، قال أبو الدَّرْداء : ما لي أرَىٰ عُلماءَكم يَذهَبون ، وجُهَّالَكم لا يَتعلَّمون! تَعلَّموا ، فإنَّ العَالِمَ والمُتَعلِّمَ شَريكان في الأجْرِ[1] .

١١ـ ذِكر لأعظَم عُلماء الإسْلام في عُلوم متعَددة :

عن خُصَيفٍ ، قال : كان أعلَمُهم بالقُرآن مُجاهد ، وأعلَمُهم بالحَجِّ عَطاء ، وأعلَمُهم بالحَلال والحَرام طاوُوس ، وأعلَمُهم بالطَّلاق سَعيد ابن المسَيِّب ، وأجمَعُهم لهٰذه العُلوم سَعيدُ بنُ جُبَير[2] .

وقال الذهبيُّ في تَعقيب له : الكتابةُ مُسَلَّمةٌ لابن البوَّاب ، كما أنَّ أقْرَأ الأُمَّة أُبَيُّ بنُ كَعب ، وأقْضَاهم عَليٌّ ، وأفْرَضَهم زَيْدٌ ، وأعلَمَهم بالتَّأويل ابنُ عبَّاس ، وأمينَهم أبو عُبَيْدَة ، وعابرَهم محمدُ بنُ سيرين ، وأصْدَقَهم لَهْجَةً أبو ذَر ، وفَقيهَ الأُمَّة مالكٌ ، ومُحَدثَهم أحمدُ بنُ حَنْبَل ، ولُغَوِيَّهم أبو عُبَيْد وشاعِرَهم أبو تَمَّام ، وعابدَهم الفُضَيلُ ، وحافِظَهم سُفْيانُ الثَّوري ، وأخْبارِيَّهم الوَاقِديُّ ، وزَاهِدَهم مَعْروفٌ الكَرْخي ، ونَحَويَّهم سِيبَوَيْه ، وعَرُوضِيَّهم الخَليلُ وخَطيبَهم ابنُ نباتة ، ومُنْشِئَهم القاضي الفاضل ، وفارِسَهم خالدُ بنُ الوَليد ، رَحِمَهم الله[3] .

١٢ـ ذِكر عدَّة طَبقات من العُلماء :

قال الذهبيُّ في تَرجَمة عبدِ الله بن لَهيعَة : لا رَيبَ أنَّ ابنَ لَهيعَة كان عالمَ الدِّيارِ المِصْريّة ، هو واللَّيث مَعاً ، كما كان الإمامُ مالك في ذلك العَصر عالمَ المَدينَة ، والأَوزاعيُّ عالمَ الشَّام ، ومَعْمَرٌ عالمَ اليَمن ، وشُعْبَةُ والثَّوْريُّ عالما العراق ، وإبراهيمُ بنُ طَهْمان عالمَ خُراسان ، ولكنَّ ابنَ لَهيعَة تَهاوَن بالإتْقان ، ورَوىٰ مَناكير ، فانْحَطَّ عن رُتبَة الاحْتجاجِ به عندهم[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧١/ ٤ .
(٢) انظر السير : (سعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٥٠٨/ ١ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بن هلال بن البوّاب) ١٧/ ٣١٥ـ ٣٢٠ ، وانظر النزهة : ١٣٤٣/ ٣ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/ ١١ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٧٢١/ ٢ .

وقال محمدُ بنُ غَيلان : سَمعتُ أبا أسامة يقولُ : كان عُمرُ في زَمانهِ رَأسَ النَّاسِ ، وهو جامعٌ ، وكان بعدَه ابنُ عبَّاس في زَمانه ، وبعدَه الشَّعبيُّ في زَمانه ، وكان بعدَه سُفيانُ الثَّوريُّ ، ثم كان بعد الثَّوريِّ يَحْيَى ابنُ آدَم[1] .

وقال الذهبيُّ مُعَقِّباً : قد كان يَحْيىٰ بنُ آدَمَ من كبار أئمَّة الاجْتهاد ، وقد كان عُمرُ كما قالَ في زَمانه ، ثم كان عَليٌّ وابنُ مَسْعود ، ومُعاذٌ ، وأبو الدَّرْداء ، ثم كان بعدَهم في زَمانه زَيدُ بنُ ثابت ، وعائشةُ ، وأبو موسىٰ ، وأبو هُرَيرة ، ثم كان ابنُ عبَّاس ، وابنُ عُمر ثم عَلْقَمة ، ومَسْروق ، وأبو إدْريس ، وابنُ المُسيِّب[2] .

ثم عُرْوَةُ ، والشَّعْبيُّ ، والحَسَنُ ، وإبراهيمُ النَّخْعي ، ومُجاهِد ، وطاوُوس ، وعِدَّةٌ ، ثم الزُّهْريُّ ، وعُمرُ بنُ عبد العَزيز ، وقَتادَةُ ، وأيُّوبُ ، ثم الأعْمَشُ ، وابنُ عَونٍ ، وابنُ جُرَيج ، وعُبَيدُ الله بنُ عُمر ، ثم الأوْزاعيُّ ، وسُفيانُ الثَّوريُّ ، مَعْمَرٌ ، وأبو حَنيفَة ، وشُعْبةُ ، ثم مالكٌ ، واللَّيثُ ، وحَمَّادُ بنُ زَيد ، وابنُ عُيَيْنَة ، ثم ابنُ المُبارَك ، ويَحْيَى القَطَّان ، ووَكيعٌ ، وعبدُ الرَّحمَـٰن ، وابنُ وَهْب ، ثم يَحْيَىٰ بنُ آدَم ، وعَفَّانٌ ، والشَّافعيُّ ، وطائفةٌ ، ثم أحمدُ ، وإسْحاقُ ، وأبو عُبَيد ، وعليُّ ابنُ المَديني ، وابنُ مَعين ، ثم أبو محمَّد الدَّارميُّ ، ومحمدُ بن إسْماعيلُ البُخاريّ ، وآخَرون من أئمَّة العلمِ والاجْتهاد .

واتَّفَقَ مَوتُه ـ يَعني يَحْيَىٰ بنَ آدَم ـ غَريباً في سَنة ثلاث ومئتين[3] .

١٣ـ صفاتُ مَجالس العُلماء :

قال السَّرَّاجُ : حَدَّثنا قُتَيْبَةُ : كنَّا إذا دَخلنا علىٰ مالك ، خَرجَ إلينا مُزَيَّنَا مُكحلاً مُطيَّباً قد لَبسَ من أحْسَن ثيابِه ، وتَصدَّرَ الحَلقَة ، ودَعا بالمَراوح ، فأعْطَىٰ لكلٍّ منَّا مَروَحةً[4] .

---

(١) انظر السير : (يَحيى بن آدَم) ٩/ ٥٢٢ـ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٣٧ .
(٢) انظر السير : (يَحيى بن آدَم) ٩/ ٥٢٢ـ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٣٧ .
(٣) انظر السير : (يَحيى بن آدَم) ٩/ ٥٢٢ـ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ١/٨٣٨ .
(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٢٨ .

وكان اللَّيثُ بنُ سَعد له كلَّ يومٍ أربَعَةُ مَجالس يَجلسُ فيها : أمَّا أوَّلُها ، فيَجلسُ لنائبَة السُّلطان في نوائبِه وحَوائجِه ، وكان اللَّيثُ يَغشاهُ السُّلطانُ ، فإذا أنْكَرَ من القاضي أمْراً أو من السُّلطان ، كتبَ إلىٰ أميرِ المؤمنين ، فيأتيه العَزلُ ، ويَجلسُ لأصحابِ الحَديثِ ، وكان يقولُ : نَجِّحُوا أصْحابَ الحَوانيت[1] ، فإنَّ قُلوبَهم مُعَلَّقَةٌ بأسْواقِهم ، ويَجلسُ للمَسائل ، يَغشاهُ النَّاسُ ، فيَسألُونَه ، ويَجلسُ لحَوائجِ النَّاس ، لا يَسألُه أحَدٌ فيَردُّه ، كَبُرَت حاجَتُه أو صَغُرَت وكان يُطعِمُ النَّاسَ في الشِّتاءِ الهَرائسَ بعَسَل النَّحْلِ وسَمْنِ البَقَر ، وفي الصَّيفِ سَويقَ اللَّوْزِ في السُّكَّر[2] .

وقال الحُسَينُ بنُ محمّد بنِ عُفَير : حدَّثنا أحمدُ بنُ سِنان قال : كان عبدُ الرحمَـٰن بنُ مَهْدي لا يُتَحدَّثُ في مَجلسِه ، ولا يقومُ أحدٌ ، ولا يُبرَىٰ فيه قَلم ، ولا يَبتسِمُ أحدٌ ، وكان وَكيعٌ يكُونونَ في مَجلسِه كأنَّهم في صَلاة فإنْ أنْكَرَ من أمرِهم شَيئاً انتَعلَ ودَخلَ ، وكان ابنُ نُمَير يَغضَبُ ويَصيحُ وإنْ رَأىٰ مَنْ يَبْري قَلماً ، تَغيَّر وَجهُه غَضباً[3] .

وكان ابنُ الشَّجريّ فَصيحاً حُلوَ الكَلام ، وَقُوراً ذا سَمتٍ ، لا يَكادُ يَتكلَّم في مَجلسِه بكلمةٍ إلاَّ وتَتَضمَّنُ أدَبَ نَفسٍ أو أدَبَ دَرسٍ ، ولقد اخْتَصمَ إليه عَلويان فقال أحدُهما : قال لي : كَذا وكَذا قال : يا بُنيَّ احْتمِلْ ، فإنَّ الاحْتمالَ قَبرُ المَعايب . .

تُوفِّي سَنةَ اثنتين وأربَعين وخَمس مئة ، ودُفِنَ بدارِه[4] .

وكان الإمامُ عبدُ الغَني المَقْدسيّ رَحمَهُ الله يَقرأُ الحَديثَ يوم الجُمعَة بجامع دِمَشْق وليلةَ الخَميس ، ويَجتمعُ خَلقٌ ، وكانَ يَقرأُ ويُبْكي النَّاسَ كَثيراً حتىٰ إنَّ مَنْ حَضَرَه مرَّةً لا يَكادُ يَترُكُه ، وكان إذا فَرَغَ دَعا دُعاءً كَثيراً .

قال الضِّياءُ : سَمعتُ شَيخَنا ابنَ نجا الواعِظَ بالقَرافَة يقولُ على المِنْبَر : قد جاء

---

(١) أي ابدؤوا بهم .
(٢) انظر السير : (اللَّيث بن سعد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٦/٧٣٩ .
(٣) انظر السير : (وكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٦/٨١٠ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الشَّجريّ) ٢٠/ ١٩٤ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٠ .

الإمامُ الحافظُ ، وهو يُريدُ أنْ يَقرأَ الحَديثَ فأشْتَهي أنْ تَحضُروا مَجلسَه ثلاثَ مرّات ، وبعدَها أنتم تَعرفونَه وتَحصُلُ لكم الرَّغبَة ، فجلسَ أوَّلَ يومٍ ، وحَضرتُ ، فقرأ أحاديثَ بأسانيدِها حِفْظاً ، وقرأَ جُزءاً ففَرحَ النَّاسُ به ، فسَمعتُ ابنَ نجا يقولُ : حَصلَ الذي كُنتُ أُريدُه في أوَّلِ مَجلس .

وسَمعتُ بَعضَ مَنْ حَضرَ يقولُ : بَكى النَّاسُ حتىٰ غُشيَ علىٰ بَعضِهم وكان يَجلسُ بمِصْرَ بأماكِن .

سَمعتُ مَحمودَ بن هَمَّام الأنْصاريَّ يقولُ : سَمعتُ الفَقيهَ نَجمَ ابنَ عبد الوَهَّاب الحَنْبليَّ يقولُ وقد حَضرَ مجلسَ الحافظ : يا تَقيَّ الدِّين والله لقد حَملتَ الإسْلامَ ، ولو أمْكَنني ما فارَقتُ مَجلسَك[1] .

١٤ـ الحَثُّ علىٰ لُزوم العالم مدَّة طَويلة من غير مَلَل :

قال القَعْنَبيُّ : سَمعتُ مَالكاً يقولُ : كان الرَّجلُ يَختلفُ إلى الرَّجلِ ثَلاثينَ سَنةً يَتعلَّمُ منه[2] .

وقال أحمدُ بنُ حَنبل : قال غُنْدَر : لَزمْتُ شُعبَةَ عشرينَ سَنةً[3] .

وقال أحمدُ بنُ أخي ابنِ وَهْب : حدَّثنا عَمِّي قالَ : خَرجتُ أنا وابنُ القاسم بضعَ عَشرةَ سنةً إلىٰ مالك فسَنةً أسْألُ أنا مَالكاً ، وسَنةً يسْألُه ابنُ القاسم[4] .

وقال أحمدُ بنُ سِنان القَطَّان : سَمعتُ مَهدي بنَ حَسَّان يقولُ : كان عبدُ الرحمَٰن يكونُ عند سُفيانَ عشرةَ أيَّام وخَمسةَ عَشرَ يوماً باللَّيلِ والنَّهار ، فإذا جاءَنا ساعةً ، جاءَ رسُول سُفيان في أثَرِه يَطلُبُه ، فيدَعُنا ويَذهبُ إليه[5] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٤٤ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٣٦ .
(٣) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٠٢ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٠٥ .
(٥) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن مَهدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨١٧ .

١٥ـ الحَثُّ علىٰ مُجالسة أكثر من عالم حتىٰ يُعرَف الخَطأ من الصَّواب :

قال الخَليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيدي : لا يَعرفُ الرجلُ خَطأَ مُعلِّمِه ، حتىٰ يُجالسَ غَيرَه[١] .

١٦ـ مساعَدةُ العَامَّةِ العُلماءَ في الثَّبات على الحَقِّ :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمة أحمدَ بنِ حَنبلَ : إنَّ المَأمونَ نَظرَ في الكَلامِ ، وناظَرَ ، وبَقيَ مُتوقِّفاً في الدُّعاء إلىٰ بِدْعَته[٢] .

وقال الإمامُ أحمدُ وهو في سِجْنِه : لَستُ أُبالي بالحَبْس ، وما هو ومَنْزلي إلاَّ واحدٌ ، ولا قَتلاً بالسَّيفِ إنَّما أخافُ فِتنَةَ السَّوْط فسَمعَه بعضُ أهل الحَبْس ، فقال : لا عَليك يا أبا عبد الله ، فما هما إلاَّ سَوْطان ، ثم لا تَدري أين يَقعُ الباقي ، فكأنَه سُرِّيَ عنه[٣] .

قال أبو عبد الله : ما رأيتُ أحداً علىٰ حَداثَة سِنِّه ، وقدْرِ عِلْمِه أقوَمَ بأمر الله من محمّدِ بنِ نُوح ، إنِّي لأرجو أن يكون قَدْ خُتمَ له بخَير ، قال لي ذاتَ يومٍ : يا أبا عبد الله ، اللهَ الله ، إنَّكَ لَستَ مثلي أنتَ رجلٌ يُقْتَدَىٰ بك قد مَدَّ الخَلقُ أعْناقَهم إليك ، لِمَا يكون منك ، فاتَّقِ اللهَ واثْبُتْ لأمر الله ، أو نَحْو هٰذا فماتَ ، وصَلَّيتُ عليه ودَفَنتُه .

قال صالحٌ : وصارَ أبي إلىٰ بَغْدادَ مُقيَّداً ، ثم حُبسَ في دارٍ اكتُريت عند دار عُمارة ، ثم حُوِّلَ إلىٰ حَبْسِ العامّة في درب المَوْصِليَّة فقال : وذلك بعد مَوْت المَأمونِ بأربعةَ عَشر شَهراً ، حُوِّلتُ إلىٰ دار إسْحاقَ ابنِ إبراهيمَ ـ يَعْني : نائبَ بَغداد .

فلمَّا كان في اللَّيلة الرابعة ، وَجَّهَ ـ يَعْني المُعْتَصم ـ بِبُغا الكَبير إلىٰ إسْحاقَ ، فأمرهُ بحَملي إليه ، فأُدْخلتُ علىٰ إسْحاقَ ، فقال : يا أحمدُ إنَّها والله نَفْسُك ، إنَّه لا يَقتُلُك

---

(١) انظر السير : (الخَليل بنُ أحمد) ٧/ ٤٢٩ـ ٤٣١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧١٣ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٣ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٣٤ .

بالسَّيفِ ، إنَّه قد آلَىٰ ، إنْ لَمْ تُجِبْهُ ، أن يَضربَكَ ضَرباً بعد ضَرب وأنْ يَقْتُلَكَ في مَوضع لا يُرىٰ فيه شَمسٌ ولا قَمرٌ أليسَ قد قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[1] أفيكونُ مَجْعولاً إلاَّ مَخْلوقاً ؟ فقلتُ : فقد قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[2] ، أفخَلَقَهم ؟ قال : فسكتَ ، فلمَّا صِرْنا إلى المَوْضع المَعروف بباب البُسْتان أُخرجتُ ، وجيءَ بدابةٍ فأُركبتُ وعليَّ الأقْيادُ ، ما مَعي مَن يُمْسِكُني ، فكِدتُ غيرَ مرَّة أن أخِرَّ علىٰ وَجْهي لِثقلِ القيود فجيءَ بي إلىٰ دار المُعْتَصم ، فأُدخلتُ حُجْرةً ، ثم أُدخلتُ بَيتاً ، وأُقفِلَ البابُ عليَّ في جَوفِ اللَّيل ، ولا سِراج ، فأردْتُ الوُضوءَ ، فمَدَدتُ يَدي ، فإذا بإناءٍ فيه ماءٌ ، وطسْتٌ مَوضوعٌ ، فتَوَضأتُ وصَلَّيتُ .

فلمَّا كان من الغَد ، أَخرجتُ تَكَّتي ، وشَدَدتُ بها الأقْيادَ أحْملُها وعطفتُ سَراويلي فجاء رسُولُ المُعْتَصم ، فقال : أَجبْ ، فأخذَ بيَدي ، وأدخلَني عليه ، والتَّكَّةُ في يدي ، أحْملُ بها الأقْيادَ ، وإذا هو جالسٌ ، وأحمدُ بنُ أبي دُوَاد حاضرٌ ، وقد جَمعَ خَلقاً كَثيراً من أصْحابه ، فقال لي المُعْتَصمُ : ادْنُه ادْنُه فلم يَزَلْ يُدْنيني حتىٰ قَرُبتُ منه ، ثم قال : اجْلسْ فجَلَسْتُ ، وقد أثقَلَتْني الأقْيادُ ، فمَكثَ قَليلاً ، ثم قُلتُ : أتَأذَنُ في الكلام ؟ قال : تكلَّمْ ، فقلتُ : إلىٰ ما دَعا اللهُ ورسولُه ؟ فسَكتَ هُنَيْهَةً ، ثم قال : إلىٰ شَهادة أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، فقُلتُ : فأنا أشْهَدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله ثم قلتُ : إنَّ جَدَّكَ ابنَ عبّاس يقول : لمَّا قَدمَ وَفْدُ عبد القَيْس علىٰ رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، سَألوه عن الإيمان ، فقال : « أَتَدْرُونَ مَا الإيمَانُ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُه أعْلم ، قال : « شَهَادَةُ أنْ لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، وأنَّ مُحمَّداً رَسُولُ الله ، وإقَامُ الصَّلاة ، وإيتَاءُ الزَّكاة ، وأنْ تُعْطُوا الخُمْسَ مِنَ المَغْنَم » قال أبي : فقال ـ يَعْني المُعْتَصم : لَوْلا أنِّي وَجَدتُك في يَد مَنْ كان قَبْلي ، ما عَرَضْتُ لك[3] .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣ .

(٢) سورة الفيل ، الآية : ٥ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٣٤ .

١٧ـ مُكافَأةُ العامَّةِ العُلماءَ علىٰ ثَباتِهم على الحَقِّ :

قال القاسمُ بنُ أبي صالح : سَمعتُ إبراهيمَ بنَ ديزيل يقولُ : لمَّا دُعيَ عَفَّانُ للمِحْنَة كنتُ آخذاً بلِجامِ حِمارِه ، فلمَّا حَضَرَ عُرِضَ عليه القَولُ ، فامْتَنعَ أنْ يُجيبَ ، فقيلَ له : يُحْبَسُ عَطاؤكَ ـ قال : وكان يُعْطَىٰ كُلَّ شَهرٍ ألفَ دِرْهم ـ فقال : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] ، فلمَّا رَجعَ إلىٰ دارِه عَذَلَه نِساؤُه ومَنْ في دارِه ، قال : وكان في دارِه نَحْوَ أرْبَعينَ إنْساناً ، فدَقَّ عليهم داقٌّ البابَ ، فدخلَ عليهم رجلٌ شَبَّهْتُه بسمَّان أو زَيَّات ، ومَعه كيسٌ فيه ألفُ دِرْهَم ، فقال : يا أبا عُثْمان ثَبَّتَكَ اللهُ كما ثَبَّتَ الدِّين ، وهـٰذا في كُلِّ شَهر[2] .

١٨ـ عَلاقَة العُلَماء بالمُلوك والأُمَراء والكبَراء :

(أ) الدُّخُولُ عَليهم ووَعْظُهم :

عن عَطيّة بنِ قَيْس ، قال : دَخلَ أبو مُسلم الخَولاني علىٰ مُعاويَةَ ، فقامَ بين السِّماطَين فقال : السَّلامُ عليكَ أيُّها الأَجيرُ فقالوا : مَهْ قالَ : دَعُوه ، فهو أعْرَفُ بما يَقولُ وَعَليكَ السَّلامُ يا أبا مُسْلم ثم وَعَظَه ، وحَضَّه على العَدْل .

قال المُفضَلُ بنُ غَسَّان الغَلابي : إنَّ علقَمة وأبا مُسلم ماتا في سنة اثنين وستِّين فاللهُ أعلمُ .

وبداريَّا قَبرٌ يُزارُ ، يُقالُ : إنَّه قَبرُ أبي مُسلم الخَولاني ، وذلك مُحْتمَل[3] .

وعن مُطَهَّر بنِ الهَيثَم الطَّائي ، عن أبيه ، قال : حَجَّ سُليمانُ بنُ عبد المَلك ، فخَرجَ حاجبه فقال : إنَّ أميرَ المؤمنين : قال : ابغُوا لي فَقيهاً أساله عن بعضِ المَناسِك ، قال : فمَرَّ طاوُوسٌ ، فقالوا : هـٰذا طاوُوسُ اليَمانيّ ، فأخذه الحاجب ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، قال : أعفني ، فأبىٰ ، ثم أدخَلَه عَليه ، قال طاوُوسٌ :

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٢٢

(٢) انظر السير : (عَفَّان) ١٠/ ٢٤٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٧٤ .

(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٣٢ .

فلمَّا وَقفْتُ بين يَديْه قُلتُ : إنَّ هـٰذا المَجلسَ يَسألُني اللهُ عنه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! إنَّ صَخْرةً كانت علىٰ شَفير جُبٍّ في جَهنَّم ، هَوتْ فيها سَبعينَ خَريفاً ، حتى اسْتقرَّت قرارَها ، أتَدْري لمَن أعدَّها اللهُ؟ قال : لا ، وَيْلَكَ لمَن أعَدَّها ؟ قال : لمَن أشْرَكَه اللهُ في حُكْمِه فجارَ ، قال : فبَكَىٰ لها[1] .

وقيلَ : رَأىٰ سُليمانُ بنُ عبد الملك بالمَوسِمِ الخَلقَ ، فقال لعُمرَ ابنِ عبدِ العَزيز : أما تَرىٰ هـٰذا الخَلقَ الذين لا يُحْصيهم إلاَّ اللهُ ، ولا يَسعُ رزقَهم غَيرُه! قال : يا أميرَ المؤمنين! هـٰؤلاء اليومَ رَعيَّتُك ، وهم غداً خُصَماؤُك ، فبَكىٰ وقال : بالله أستعين .

وعن ابن سيرين قال : يَرحَمُ اللهُ سُليمانَ افْتتحَ خِلافَتَه بإحْياءِ الصَّلاة ، واخْتتَمَها باسْتخلافِه عُمرَ[2] .

وقيلَ لمالك : إنكَ تَدخلُ على السُّلطان ، وهم يَظلِمونَ ، ويَجُورونَ ، فقال : يَرحَمُكَ اللهُ ، فأيْنَ المُكلِّمُ بالحَقِّ[3] .

وقال ابنُ الجَوْزي : كان الإمامُ الزُّبَيْدي يقول الحقَّ وإنْ كان مُرّاً ، لا تأخذه في الله لَوْمَة لائم ، قيل : دَخَل على الوَزيرِ الزينبي وعليه خلْعة الوَزارَة وهم يُهنِّئونَه ، فقال : هو ذا يومُ عَزاء ، ولا يوم هَناء ، فقيل : ولِمَ : أهَنِّىءُ علىٰ لبسِ الحَرير ؟![4] .

وقال ابنُ الجَوْزيّ يوماً في وَعْظِه : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ تَكلَّمتُ ، خِفْتُ منكَ ، وإنْ سَكتُّ ، خِفْتُ عَليك ، وأنا أُقدِّمُ خَوْفي عَليك علىٰ خَوْفي منك ، فقَولُ النَّاصِح : اتَّقِ اللهَ خَيرٌ من قَولِ القائِل : أنتُم أهلُ بَيتٍ مَغفورٌ لكم[5] .

إذا اضْطُروا للدُّخولِ عَليهم فإنَّهم يَصْدَعونهم بالحَقّ :

قال أبو خُلَيْد عُتْبَةُ بنُ حَمَّاد القارىء ، حدَّثَنا الأوْزاعيُّ قالَ : بعثَ عبدُ الله بنُ عليّ

---

(١) انظر السير : (طاووس) ٥/٣٨ـ٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٧٨ .
(٢) انظر السير : (سليمان بن عبد الملك) ٥/١١١ـ١١٣ ، وانظر النزهة : ٦/٥٨٥ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٦/٧٣٦ .
(٤) انظر السير : (الزُّبيْدي) ٢٠/٣١٦ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٥٥ .
(٥) انظر السير : (أبو الفَرج ابن الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٣٤ .

إليَّ فاشْتدَّ ذلكَ عليَّ وقَدمتُ ، فدخلتُ ، والناس سِماطان[1] فقال : ما تَقولُ في مَخرجِنا وما نَحنُ فيه ؟ قلتُ : أصْلحَ اللهُ الأميرَ! قد كانَ بَيني وبَينَ داودَ بنِ عليٍّ مَودَّة قال : لَتُخبرَنِّي فتَفكَّرتُ ثم قلتُ : لأصْدُقَنَّه ، واستبسلتُ[2] للموتِ ثم رَويتُ له عن يَحْيىٰ بنِ سَعيد حَديثَ (الأعْمال)[3] وبيَدِه قَضيبٌ يَنْكتُ به ، ثم قال : يا عبدَ الرَّحمَـٰن : ما تَقولُ في قَتلِ أهلِ هـٰذا البَيتِ ؟ قُلتُ : حدَّثني محمدُ بنُ مَرْوان ، عن مُطَرِّفِ بنِ الشِّخير ، عن عائشَةَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ : « لا يَحِلُّ قَتْلُ المُسْلِمِ إلاَّ في ثَلاثٍ » وساقَ الحَديثَ .

فقال : أخبِرْني عن الخِلافَة ، وَصيَّةٌ لنا من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلتُ : لو كانت وَصيَّةً من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ماترك عليٌّ رضي الله عنه أحداً يَتقدَّمُه قال : فما تَقولُ في أمْوالِ بَني أُمَيَّة ؟ قُلتُ : إنْ كانت لهم حَلالاً فهي عليكَ حَرامٌ ، وإن كانت عَليهم حَراماً ، فهي عَليك أحْرَمُ فأمَرَني ، فأُخْرجتُ[4] .

قال الذهبيُّ : قد كان عبدُ الله بنُ علي مَلكاً جَبَّاراً ، سَفَّاكاً للدماء ، صَعبَ المِراسِ ، ومع هـٰذا فالإمامُ الأَوْزاعيُّ يَصدَعُه بمُرِّ الحَقِّ كما تَرىٰ ، لا كخَلقٍ من عُلماءِ السُّوء ، الذين يُحَسِّنونَ للأُمَراء ما يَقتَحمون به من الظُّلم والعَسف ، ويَقلِبون لهم الباطلَ حَقاً ـ قاتَلَهم اللهُ ـ أو يَسْكُتون مع القُدرَة علىٰ بَيان الحَق[5] .

عن سُفْيانَ قال : أُدْخلتُ على المَهْديِّ بمِنَىٰ ، فسلَّمتُ عليه بالإمْرَةِ ، فقالَ : أيُّها الرَّجُل! طَلَبْناكَ ، فأعْجَزْتَنا ، فالحَمدُ لله الذي جاءَ بكَ ، فارْفَعْ إلينا حاجَتَك فقُلتُ : قد مَلأتَ الأرضَ ظُلْماً وجُوراً ، فاتَّقِ اللهَ ، وليَكُنْ منك في ذلك عِبْرَة فطأطأَ رأسَه ، ثم قال : أرأيتَ إنْ لمْ أسْتَطِعْ دفعَه ؟ قال : تُخَلِّيه وغيرَك فطَأطَأ رأسَه ، ثم قال : ارْفَعْ إلينا حاجَتَك قلتُ : أبْناءُ المُهاجرينَ والأنْصارِ ومَنْ تَبِعَهم بإحْسانٍ بالبابِ ، فاتَّقِ اللهَ ،

---

(١) سماطان : صفّان .

(٢) يُقالُ : أبْسلَ نفسَه للموت ، واستبسَلَ : إذا وَطَّنَ نفسه عليه واستيقنه .

(٣) إنَّما الأعمالُ بالنيَّات .

(٤) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/١٠٧ـ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٩/٦٨٣ .

(٥) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/١٠٧ـ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١/٦٨٤ .

وأَوْصِلْ إليهم حُقوقَهم فطأطأ رأسَه ، فقال أبو عُبَيْد الله : أيُّها الرَّجلُ ارْفَعْ إلينا حاجَتَك قلتُ : وما أرْفَع ، حدَّثَنا إسْماعيلُ بنُ أبي خالد ، قال : حَجَّ عُمرُ ، فقالَ لخازِنِه : كمْ أنْفَقْتَ ؟ قال : بِضْعَةَ عشرَ دِرْهَماً وإنِّي أرىٰ ها هُنا أُمُوراً لا تُطيقُها الجِبالُ[1] .

الدُّخولُ عليهم لقضاء حاجات النَّاس وأمْرِهم بالمَعْروف ونَهيِهم عن المُنْكر :

عن رجاءِ بنِ حَيْوَة ، قال : كُنتُ واقفاً علىٰ بابِ سُليمانَ إذْ أتاني آتٍ لمْ أرَه قبلُ ولا بَعدُ ، فقال : يا رَجاء ، إنَّك قد ابْتُليتَ بهـٰذا وابْتُلي بك ، وفي قُربِه الوَتَغُ[2] ، فعَليك بالمَعروفِ وعَونِ الضَّعيفِ ، يا رَجاء ، مَنْ كانت له مَنزِلةٌ من سُلطان ، فرَفعَ حاجَةَ ضَعيفٍ لا يَستطيعُ رَفْعَها ، لَقيَ اللهَ وقد شَدَّ قَدمَيه للحِسابِ بين يَديَه .

قال الذهبيُّ : كان رَجاء كَبيرَ المَنزِلَة عندَ سُليمانَ بنِ عبدِ المَلك ، وعندَ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز ، وأجْرَى اللهُ علىٰ يَدَيه الخَيرات ثم إنَّه بَعدَ ذلكَ أُخِّرَ ، فأقْبلَ علىٰ شأنِه[3] .

وقال الأصْمَعيُّ : دَخلَ عَطاءُ بنُ أبي رَباح علىٰ عبدِ المَلك ، وهو جالسٌ على السَّرير ، وحَولَه الأشْرافُ ، وذلك بمَكة في وَقتِ حَجِّه في خِلافَتِه ، فلمَّا بَصُر به عبدُ المَلك ، قامَ إليه فسلَّمَ عليه ، وأجْلَسَه معه على السَّريرِ ، وقَعدَ بينَ يَدَيْه ، وقالَ : يا أبا مُحمَّد : حاجَتُك ؟ قال : اتَّقِ اللهَ في حَرَمِ اللهِ وحَرَمِ رَسولِهِ ، فتَعاهَدْه بالعِمارَة ، واتَّقِ اللهَ في أوْلادِ المُهاجِرينَ والأَنْصار ، فإنَّك بهم جَلستَ هـٰذا المَجْلس ، واتَّقِ اللهَ في أهْلِ الثُّغور ، فإنَّهم حِصْنُ المُسلمين ، وتَفقَّد أمُورَ المُسلمينَ ، فإنَّكَ وَحْدَكَ المَسْؤولُ عَنهم ، واتَّقِ اللهَ فيمَنْ علىٰ بابِك ، فلا تَغفُل عنهم ، ولا تُغلقْ دُونَهم بابَك ، فقال له : أَفعلُ ، ثم نَهضَ وقامَ ، فقَبضَ عليه عبدُ المَلك وقالَ : يا أبا مُحمَّد! إنما سَألتَنا حَوائجَ غَيرِك ، وقد قَضَيناها ، فما حاجَتُك ؟ قال : ما لي إلىٰ مَخْلوقٍ حاجَة ،

---

(١) انظر السير : (سفيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٩٨ .
(٢) الوَتَغ : الهَلاك .
(٣) انظر السير : (رَجاء بن حَيْوَة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٥٨ .

ثم خَرجَ ، فقال عبدُ المَلك : هـٰذا وأبيك الشَّرفُ ، هـٰذا وأبيك السُّؤْدُد[1] .

وجاء في ترجمة الإفريقي ، قال الذهبيُّ : هو عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ زِياد ابنُ أنْعم ، الإمامُ ، القُدوَةُ ، شَيخُ الإسْلام ، أبو أيُّوبَ الشَّعباني الإفْريقي ، قاضي إفْريقية وعالِمُها ، ومُحدِّثُها علىٰ سُوءِ حِفظِه .

قال إسماعيلُ بنُ عيّاش : وَلِيَ السَّفاحُ فظَهرَ جَورٌ بإفريقية ، فوَفِدَ ابنُ أنْعُم علىٰ أبي جَعْفرَ مُشْتَكياً ثم قال : جئتُ لأُعْلمَك بالجَوْرِ ببَلدِنا فإذا هو يَخرجُ من دارِك! فغَضبَ وهمَّ به وقيل : قال له : كيف لي بأعْوان ؟! قال : أفليس عُمرُ بنُ عبد العَزيز كان يقولُ : الوالي بمَنزلةِ السوقِ يُجلَبُ إليه ما يُنفَقُ فيه ؟ فأطْرَقَ طَويلاً ، فأوْمأ إليَّ الرَّبيعِ الحاجبِ بالخُروج .

قال الذهبي : تُوفِّي سنة ست وخمسين ومئة وكان الثَّوْري يُعظِّمُه جداً[2] .

تَعليمُهم والجَوابُ علىٰ أسْئلتِهم :

قال أبو مُصْعَب : سَمعتُ مالكاً يقول : دَخلتُ علىٰ أبي جَعْفَر أميرِ المؤمنين ، وقد نزل علىٰ مثالٍ له ـ يَعني فرشه ـ وإذا علىٰ بساطِه دابَّتان ما تَروثان ولا تَبولان ، وجاء صَبيٌّ يَخرجُ ثم يَرجعُ ، فقال لي : أتَدْري مَنْ هـٰذا ؟ قلتُ : لا قال : هـٰذا ابني ، وإنَّما يَفزَعُ من هَيبتك ، ثم ساءَلني عن أشياء منها حَلالٌ ومنها حَرامٌ ، ثم قال لي : أنتَ ـ والله ـ أعْقَلُ النَّاسِ ، وأعْلمُ النَّاس قلتُ : لا والله يا أميرَ المؤمنين قال : بلىٰ ولكنك تكتم ثم قال : والله لئن بَقيتُ لأكْتُبَنَّ قَولَك كما تُكْتَبُ المَصاحف ، ولأبْعَثَنَّ به إلى الآفاق ، فلأحْمِلنَّهم عليه[3] .

وعن عُمر بنِ المحَبِّر الرُّعَيني ، قال : قَدمَ المَهْدي المَدينةَ ، فبَعثَ إلىٰ مالك ، فأتاه ، فقال لهارُون ومُوسَىٰ : اسْمَعا منه ، فبَعثَ إليه ، فلم يُجبْهما ، فأعْلَما المَهْدي ، فكلمَه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، العلمُ يُؤتَىٰ أهلُه ، فقال : صَدقَ

---

(١) انظر السير : (عَطاء بن أبي رَباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٨٣ .

(٢) انظر السير : (الإفريقي) ٦/ ٤١١ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٦٧ .

(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٢٧ .

مالكٌ ، صِيرا إليه ، فلمَّا صارا إليه ، قال له مُؤدِّبُهما : إقرأ عَلينا فقال : إنَّ أهلَ المَدينة يَقرؤون على العَالِم ، كما يَقْرأ الصِّبْيانُ على المُعلم ، فإذا أخْطَؤوا ، أفْتاهُم فرَجَعُوا إلى المَهْدي ، فبعث إلىٰ مالك ، فكلمَه ، فقالَ : سَمعتُ ابنَ شِهاب يقول : جَمَعنا هـٰذا العلمَ في الرَّوْضَة من رجالٍ ، وهم يا أميرَ المؤمنين : سَعيدُ بنُ المُسَيِّب ، وأبو سَلمَة ، وعُرْوَةُ ، والقاسِمُ ، وسَالِمُ ، وخارِجَةُ ابنُ زَيْد ، وسُليمان بنُ يَسار ، ونافعٌ ، وعبدُ الرحمَـٰن بنُ هُرْمز ، ومِن بعدِهم : أبو الزِّناد ، ورَبيعَة ، ويَحْيَى بن سَعيد ، وابن شِهاب ، كلُّ هـٰؤلاء يُقرأ عليهم ولا يَقرؤون ، فقال : في هـٰؤلاء قُدوَة ، صِيروا إليه فاقرؤوا عليه ففَعلوا[1] .

(ب) عَدمُ الدُّخولِ عَليهم وحَثُّ بَعضِهم بَعضاً علىٰ ذلك :

قال جَعفَرُ بنُ بَرْقان : حدَّثنا مَيْمونُ بنُ مَهْران ، أنَّ عامرَ بنَ عبد قَيس ، بعثَ إليه أميرُ البَصْرَة : ما لَكَ لا تَأكلُ الجُبنَ ؟ قال : إنَّا بأرضٍ فيها مَجُوسٌ ، فما شَهدَ مُسْلِمان أنْ ليس فيه مَيْتَة أكلتُه قال : وما يَمنعُك أنْ تأتي الأُمَراء ؟ قال : إنَّ لدَىٰ أبوابِكم طُلاَّبُ الحاجات ، فادْعوهم واقضُوا حاجاتِهم ، ودَعوا مَنْ لا حاجَةَ له إليكم[2] .

وعن شَقيقٍ قال : كان ابنُ زياد يَراني مع مَسْروق فقال : إذا قَدِمتَ فالْقَني ، فأتيتُ علْقَمة فقالَ : إنَّكَ لمْ تُصِبْ من دُنياهم شيئاً إلاَّ أصابوا من دِينِك ما هو أفضلَ منه ، ما أُحبُّ أنْ لي مع ألْفَيَّ ألفَين وإني أكرمُ الجُندِ عليه[3] .

وقال فُضَيلُ بنُ جَعْفر : خَرجَ الحَسنُ البَصْريُّ من عند ابن هُبَيرة فإذا هو بالقُرَّاء على الباب فقال : ما يُجلِسُكم ها هنا ؟ تُريدون الدُّخولَ علىٰ هـٰؤلاء الخُبَثاء ، أما والله ما مُجالَسَتُهم مُجالَسَةُ الأبْرار ، تَفرَّقوا فرَّقَ اللهُ بين أرْواحِكم وأجْسادِكم ، فقد فَرْطَحْتُم[4] نِعالَكم ، وشَمَّرْتم ثِيابَكم ، وجَزَزْتم شُعورَكم ، فضَحْتمُ القُرَّاءَ

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٢٧ .

(٢) انظر السير : (عامر بن عبد قيس) ٤/١٥ـ١٩ ، وانظر النزهة : ٢/٤٣٤ .

(٣) انظر السير : (علقمة) ٤/٥٣ـ٦١ ، وانظر النزهة : ٤/٤٤٣ .

(٤) كل شيء عرّضته فقد فرطَحْتَه .

فضَحَكَم اللهُ ، واللهِ لوْ زَهِدْتُم فيما عِندَهم ، لرَغِبوا فيما عِندَكم ، ولَكنَّكم رَغِبْتم فيما عندهم فزَهَدوا فيكم ، أبْعدَ اللهُ مَنْ أبعد[1] .

وقال التبوذكي : سَمعتُ حمَّادَ بنَ سَلمَة يقولُ : إنْ دَعاكَ الأميرُ لتَقرأَ عليه (قل هو الله أحد) فلا تأتِه[2] .

وعن ابنِ القاسِم قال : ليسَ في قُربِ الوُلاةِ ولا في الدُّنوِّ منهم خَير[3] .

مَنْ كان يَرفُض العِلاجَ حتىٰ لا يَبرأ فيدخُل عليهم :

حَكى العِزُّ ـ أخو ابنِ الأثير ـ قال : جاءَ مَغربيٌّ عالجَ أخي بدُهْن صَنعَه ، فبانَت ثَمرتُه ، وتَمكَّن من مَدِّ رجلَيه ، فقال لي : أعْطِه ما يُرضيه واصْرِفه ، قلتُ : لماذا وقد ظَهرَ النُّجْحُ ؟ قال : هو كما تقولُ ، ولكنِّي في راحة من تَرْكِ هـٰؤلاء الدَّولَة ، وقد سَكنتْ نَفسي إلى الانْقطاع والدَّعَة ، وبالأمْسِ كنتُ أذَلُّ بالسَّعْي إليهم ، وهنا فما يَجيئُوني إلاَّ في مَشُورَة مُهمَّة ، ولمْ يَبقَ من العُمرِ إلاَّ القَليل[4] .

تَعْييرُ مَنْ دَخلَ عليهم واتِّهامُهم :

وعن هشامِ بنِ عباد ، سَمعتُ جَعفرَ بنَ محمّد يقولُ : الفُقَهاءُ أمناءُ الرُّسُل ، فإذا رأيتُم الفَقَهاءَ قد رَكَنوا إلى السَّلاطين ، فاتَّهِموهم[5] .

عَدُّهم الدُّخول على السَّلاطين خُذلاناً من الله :

قال بِشْرُ بنُ الحارث : سَمعتُ المُعافَىٰ يقولُ : سَمعتُ الثَّوريَّ يقولُ : إذا لمْ يَكُن لله في العَبدِ حاجَةٌ ، نَبَذَهُ إلى السُّلطان[6] .

---

(١) انظر السير : (الحَسن البَصري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٦٣ .
(٢) انظر السير : (حمّاد بن سَلمة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧١٥ .
(٣) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٠٥ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الأثير) ٢٢/ ٣٥٣ـ ٣٥٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٥٥ .
(٥) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٤٧ .
(٦) انظر السير : (المُعافَىٰ) ٩/ ٨٠ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٠٠ .

وقال عبدُ الله بنُ المُعْتزِّ بالله : أشْقَى النَّاسِ أقْرَبُهم من السُّلطان ، كما أنَّ أقْرَبَ الأشْياءِ من النَّار أسْرَعُها احْتِراقاً[1] .

الانْزِعاجُ إذا عَلموا أنَّ الأميرَ عَرفَهم :

قال الحَسَنُ بنُ الرَّبيع : قُرِىءَ كتابُ الخَليفة إلى ابنِ إدْريسَ ، وأنا حاضرٌ : من عبدِ الله هارونَ أميرِ المؤمنين إلىٰ عبدِ الله بنِ إدْريس ، قال : فشَهِقَ ابنُ إدْريس شَهْقةً ، وسَقطَ بعد الظُّهْر ، فقُمنا إلى العَصر ، وهو علىٰ حاله ، وانتَبَه قُبيلَ المَغرب ، وقد صَبَبْنا عليه الماءَ فلا شيء قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون ، صارَ يَعرفُني حتىٰ يَكتُبَ إليَّ! أيُّ ذَنبٍ بلغَ بي هـٰذا ؟!

مات ابنُ إدْريس بالكُوفَة سنة اثنتين وتسعين ومئة[2] .

أقْوالٌ بَليغة تُحذِّرُ من مُخالطة السُّلطان :

قال عبدُ الله بنُ المُعْتزِّ بالله : مَنْ شارَكَ السُّلطانَ في عِزِّ الدُّنيا ، شارَكَه في ذُلِّ الآخِرَة[3] .

وكان ابنُ الحَدَّاد يقولُ : القُربُ من السُّلطانِ في غَيرِ هـٰذا الوَقتِ حَتْفٌ من الحُتوف فكيف اليوم ؟![4] .

(ج) عَدمُ قَبول أمْوالِهم وعَطاياهم :

قال إبراهيمُ بنُ محمّد بنُ المُنْتَشِر : أَهْدَىٰ خالدُ بنُ عبد الله ابنُ أُسَيْد عاملُ البَصْرة إلىٰ عَمَّي مَسْروق ثلاثين ألفاً وهو يومئذ مُحْتاجٌ فلَمْ يَقبَلْها[5] .

وقال أحمدُ بنُ شَبُّويه : حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاق قال : أكلَ مَعْمَرُ ابنُ راشِد من عند أهلِه

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المُعْتزِّ بالله) ١٤/ ٤٢ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٧/١١٢٨ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن إدريس) ٩/ ٤٢ـ ٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٩٦ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن المُعْتزِّ بالله) ١٤/ ٤٢ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٨/١١٢٨ .
(٤) انظر السير : (ابن الحدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٤٦ .
(٥) انظر السير : (مَسْروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٤٤٥ .

فاكِهَةً ثم سألَ فقيلَ : هَديّةٌ من فُلانَة النوّاحَة فقامَ فتَقيّأ وبَعثَ إليه مَعْن والي اليَمَن بذَهبٍ فرَدَّه وقال لأهْلِه : إنْ علمَ بهـٰذا غيرُنا لمْ يَجتَمعْ رأسي ورأسُك أبداً .

مات مَعْمَرُ بنُ راشِد سَنةَ أربع وخَمسين[1] .

وبَعثَ ابنُ طاهِر حين ماتَ أحْمدُ بنُ حَنْبَل بأكْفانٍ وحَنوطٍ ، فأبى ابنُه صالِح أنْ يَقْبَلَه وقال : إنَّ أبي قد أَعَدَّ كَفنَه وحَنوطَه ، ورَدَّه ، فراجَعَه ، فقال : إنَّ أميرَ المؤمنين أعْفَىٰ أبا عبدِ الله ممَّا يَكْرَه ، وهـٰذا ممَّا يَكْرَه ، فلَسْتُ أقْبلُه[2] .

وقيل : إنَّ المُكتَفي أراد أَنْ يُحَبِّسَ وَقفاً تَجتمعُ عليه أقاويلُ العُلماء فأُحْضِرَ له ابنُ جَرير الطَّبَري ، فأمْلَىٰ عليهم كتاباً لذلك ، فأُخْرِجَت له جائزةٌ ، فامْتَنعَ من قَبولها ، فقيل له : لا بُدَّ من قَضاء حاجَة قال : أسألُ أميرَ المؤمنين أنْ يَمْنعَ السُّؤالَ يومَ الجُمعَة ففعلَ ذلك[3] .

وذكرَ عُمرُ بنُ عَفيف يَحْيَىٰ بنَ مُجاهد ، فقال : كان من أهلِ العِلم والزُّهْد والتَّقَشُّف والعِبادة ، وجَميل المَذْهَب ، لمْ تَرَ عَيني مثلَه في الزُّهْد والعِبادة ، يَلبسُ الصُّوفَ ، ويَمشي حافياً مَرَّة ، ويَنْتعلُ مَرَّة فحَدَّثني محمدُ بنُ أبي عُثْمان ، عن أبيه أنَّ الحَكم المُسْتَنصِر بالله أحبَّ أنْ يَجتمعَ بيَحْيَىٰ بنِ مُجاهد الزَّاهد ، فلمْ يَقدِر عليه ، ووَجَّه إليه مَنْ يَتلطَّفُ به ويَستَعطِفُه ، فقال : ما لي إليه حاجَة وإنَّما يَدخلُ على السُّلطان الوُزَراءُ ، وأهلُ الهَيئة ، وأيش يَعملُ بأصْحابِ الأطْمارِ الرَّثَّة ، فوَجَّه إليه الحَكمُ جُبَّةَ صُوف وغَفَّارَة وقَميصاً من وَسَط الثِّياب ودَنانيرَ ، فلمَّا نَظرَ إليها قال : ما لي ولهـٰذه ؟ رُدُّوها علىٰ صاحِبها ، ولئن لمْ يَتركُوني سافَرْت ، فيَئِسَ من لقائِه وتَركَه ، وكان يَجلسُ إلىٰ مُؤدِّب بالجامِع يأنَسُ به .

تُوفِّي ابنُ مُجاهد سَنة سِتٍّ وستين وثلاثِ مئة وهو ابنُ سَبعين سَنة أو نَحْوها[4] .

---

(١) انظر السير : (مَعْمَر بن راشد) ٧/ ٥ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٦/٦٧١ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٢٦ .
(٣) انظر السير : (محمد بن جرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٠ .
(٤) انظر السير : (يَحْيَى بن مُجاهد) ١٦/ ٢٤٤ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٢ .

وقال غَيثُ بنُ عليٍّ الأرْمَنازِيّ : سَمعتُ مَنْ يَحكي أنَّ المَلكَ تاج الدولة تُتُش بنَ ألبْ أرْسلان زارَ الفَقيهَ نَصراً يَوماً ، فلمْ يَقمْ له ، ولا الْتَفتَ إليه وكذا ابنُه المَلك دُقاق ، فسَألَه عن أحَلِّ الأمْوالِ التي يَتصَرَّفُ فيها السُّلطان ، قال : أحَلُّها أمْوالُ الجِزْيَة ، فقامَ من عندِه ، وأرْسلَ إليه بمَبلَغ ، وقال : هـٰذا من الجِزْيَة ، ففرِّقْهُ على الأصْحاب ، فلمَ يَقْبلْه ، وقالَ : لا حاجَةَ بنا إليه ، فلمَّا ذَهبَ الرَّسولُ لامَهُ الفَقيهُ نَصر المِصِّيصيّ ، وقال : قد عَلمتَ حاجَتَنا إليه ، فقال : لا تَجْزَعْ من فَواتِه ، فسَوفَ يأتيكَ من الدُّنيا ما يَكْفيكَ فيما بَعد ، فكانَ كما تَفَرَّسَ فيه .

عاشَ نَيِّفاً وثَمانين سَنة ، رَحمَه الله ، ودُفِنَ بمَقْبرَةِ باب الصَّغير تُوفِّيَ سَنةَ تسعين وأربعمائة .

قال الذهبيُّ : في مَجالِسِه غَلطاتٌ ، وأحاديثُ واهيَة[1] .

وعاشَ الفَقيهُ الخَبُوشانيّ عُمرَه لمْ يأخُذْ دِرْهَماً لمَلِك ، ولا من وَقْفٍ ، ودُفِنَ في الكِساءِ الذي صَحِبَه من بَلدِه ، وكان يَأكُلُ من تاجِرٍ صَحِبَه من بَلدِه[2] .

(د) رَفْضُ بَعض العُلماء مُقابلة الأُمَراء والكبراء :

وجاءَ في عِزَّةِ نَفْس سَعيدِ بنِ المُسَيِّب وصَدعِه بالحَقِّ : عن عِمْرانَ ابنِ عبدِ الله بنِ طَلْحَة الخُزاعيِّ ، قال : حَجَّ عبدُ المَلك بنُ مَرْوان ، فلمَّا قَدِمَ المَدينَة ، ووَقفَ علىٰ بابِ المَسْجدِ أرْسَلَ إلىٰ سَعيدِ بنِ المُسَيِّب رجلاً يَدعُوه ولا يُحَرِّكه ، فأتاهُ الرسُولُ وقال : أَجِبْ أميرَ المؤمنين ، واقِفٌ بالبابِ يُريدُ أنْ يُكلِّمَك فقالَ : ما لأميرِ المؤمنين إليَّ حاجَة ، وما لي إليه حاجَة ، وإنَّ حاجَتَه لي لغَيرُ مَقْضيَّة ، فرَجعَ الرسولُ ، فأخْبَرَه فقال : ارْجِعْ فقُلْ له : إنَّما أُريدُ أنْ أُكَلِّمَكَ ، ولا تُحَرِّكه فرَجعَ إليه ، فقال له : أَجِبْ أميرَ المؤمنين فرَدَّ عليه مثلَ ما قالَ أوَّلاً فقالَ : لَوْلا أنَّه تَقدَّمَ إليَّ فيك ما ذَهبتُ إليه إلاَّ برأسِك ، يُرسلُ إليكَ أميرُ المؤمنين يُكَلِّمُك تَقولُ مثلَ هـٰذا! فقال : إنْ كان يُريدُ أنْ

---

(١) انظر السير : (الفَقيه نصر) ١٩/١٣٦ـ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧١ .

(٢) انظر السير : (الخَبُوشاني) ٢١/٢٠٤ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦١٣ .

يَصْنعَ بي خَيراً ، فهو لك ، وإنْ كان يُريدُ غَيرَ ذلك فلا أحُلُّ حَبْوَتي حتىٰ يَقضيَ ما هو قاض ، فأتاهُ فأخْبَرَه ، فقال : رَحِمَ اللهُ أبا مُحمّد أبَىٰ إلاَّ صَلابَةً .

قال الذهبيُّ : كان عند سَعيدِ بنِ المُسَيِّب أمرٌ عَظيمٌ من بَني أُمَيَّة وسُوء سِيرَتهم ، وكان لا يَقبلُ عَطاءَهم[1] .

وقال الحاكِمُ : قَدِمَ شَقيقُ بنُ إبراهيمَ البَلْخي نِيسابُورَ في ثلاث مئة من الزُّهَّاد ، فطَلبَ المَأمُونُ أنْ يَجتَمعَ به ، فامْتنَع[2] .

وذكرَ عُمرُ بنُ عَفيف يَحْيَىٰ بنَ مُجاهد ، فقال : كان من أهلِ العِلم والزُّهْد والتَّقَشُّف والعِبادة ، وجَميل المَذْهَب ، لمْ تَرَ عَيني مثلَه في الزُّهْد والعِبادة ، يَلبسُ الصُّوفَ ، ويَمشي حافياً مَرَّة ، ويَنْتعلُ مَرَّة فحَدَّثني محمدُ بنُ أبي عُثْمان ، عن أبيه أنَّ الحَكم المُسْتَنصِر بالله أحبَّ أنْ يَجتمعَ بيَحْيَىٰ بنِ مُجاهد الزَّاهد ، فلمْ يَقدِر عليه ، ووَجَّه إليه مَنْ يَتلطَّفُ به ويَستَعطِفُه ، فقال : ما لي إليه حاجَة وإنَّما يَدخلُ على السُّلطان الوُزَراءُ ، وأهلُ الهَيئة ، وأيشٍ يَعملُ بأصْحابِ الأطْمارِ الرَّثَّة ، فوَجَّه إليه الحَكمُ جُبَّةَ صُوف وغَفَّارَة وقَميصاً من وَسَط الثِّياب ودَنانيرَ ، فلمَّا نَظرَ إليها قال : ما لي ولهـٰذه ؟ رُدُّوها علىٰ صاحِبها ، ولئن لمْ يَتركُوني سافَرْت ، فيَئِسَ من لقائِه وتَركَه ، وكان يَجلسُ إلىٰ مُؤدِّب بالجامِع يأنَسُ به .

تُوفِّي ابنُ مُجاهد سَنة سِتٍّ وستين وثلاثِ مئة وهو ابنُ سَبعين سَنة أو نَحْوها[3] .

مَنْ كان السُّلطانُ يَزورُه فلا يُعَظِّمْه :

وقال غَيثُ بنُ عليٍّ الأرْمَنازِيّ : سَمعتُ مَنْ يَحكي أنَّ المَلكَ تاج الدولة تُتُش بنَ ألبْ أرْسلان زارَ الفَقيهَ نَصراً يَوماً ، فلمْ يَقمْ له ، ولا الْتَفتَ إليه وكذا ابنُه المَلك دُقاق ، فسَألَه عن أحَلِّ الأمْوالِ التي يَتصَرَّفُ فيها السُّلطان ، قال : أحَلُّها أمْوالُ الجِزْيَة ، فقامَ من عندِه ، وأرْسلَ إليه بمَبلَغ ، وقال : هـٰذا من الجِزْيَة ، ففرَّقْهُ على

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٨٣ .

(٢) انظر السير : (شَقيق) ٩/ ٣١٣ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٢٤ .

(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن مُجاهد) ١٦/ ٢٤٤ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٩٢ .

الأصْحاب ، فلمَ يَقْبلْه ، وقالَ : لا حاجَةَ بنا إليه ، فلمَّا ذَهبَ الرَّسولُ لامَهُ الفَقيهُ نَصر المِصِّيصيّ ، وقال : قد عَلمتَ حاجَتَنا إليه ، فقال : لا تَجْزَعْ من فَواتِه ، فسَوفَ يأتيكَ من الدُّنيا ما يَكْفيكَ فيما بَعد ، فكانَ كما تَفَرَّسَ فيه .

عاشَ نَيِّفاً وثَمانين سَنة ، رَحمَه الله ، ودُفِنَ بمَقْبرَةِ باب الصَّغير تُوفِّيَ سَنةَ تسعين وأربعمائة .

قال الذهبيُّ : في مَجالِسِه غَلطاتٌ ، وأحاديثُ واهيَة[1] .

وقال أبو المُظَفَّر بنُ الجَوْزيّ : سَمعتُ مَشايخَ الحَرْبيَّة يَحكُونَ عن آبائِهم وأجْدادِهم أنَّ السُّلطانَ مَسْعوداً لمَّا أتىٰ بَغدادَ ، كان يُحبُّ زيارَةَ العُلماء والصَّالحينَ ، فالتَمسَ حُضورَ ابنِ الطَّلاَّية[2] ، فقال للرَّسُولِ : أنا في هـٰذا المَسْجد أنْتظرُ داعيَ الله في النَّهار خَمسَ مَرَّات ، فذَهبَ الرَّسُولُ ، فقال السُّلطانُ : أنا أَوْلَىٰ بالمَشْي إليه ، فزارَه ، فرآهُ يُصلِّي الضُّحَىٰ ، وكان يُطَوِّلها يُصلِّيها بثَمانيَةِ أجْزاء ، فصلَّىٰ معه بَعضَها ، فقال له الخادمُ : السُّلطانُ قائمٌ علىٰ رأسِك فقال : أين مَسْعود ؟ قال : ها أنا قال : يا مَسْعودُ ، اعْدِلْ ، وادْعُ لي ، اللهُ أكبر ثم دَخلَ في الصَّلاة فبَكَى السُّلطانُ ، وكَتبَ وَرقَةً بخَطِّه بإزالَة المُكوسِ والضَّرائب ، وتابَ تَوْبةً صادِقَة .

مات ابنُ الطَّلايَة سَنةَ ثمان وأربعين وخَمسِ مئة وحُمِلَ على الرُّؤوس ، وما خلَّفَ بعدَه مثلَه[3] .

قال الحَسنُ بنُ أحمدَ الأوقيُّ : حَضرَ عند مُحمّدَ بنِ أحمدَ السِّلَفيِّ السُّلطانُ صَلاحُ الدِّينِ وأخُوهُ المَلكُ العادِلُ لسَماعِ الحَديثَ ، فتَحدَّثا ، فأظْهَرَ لهما الكَراهَة وقال : أنتُما تَتحدَّثان ، وحَديثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يُقرَأُ ؟! فأصْغَيا عند ذلك .

---

(١) انظر السير : (الفَقيه نصر) ١٩/١٣٦ـ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧١ .

(٢) ذكر في « الوافي » و« المستفاد » أن والدته كانت تطلي الورق عند عمله بالدقيق المعجون بالماء رقيقاً قبل صقله فاشتهرت بذلك .

(٣) انظر السير : (ابن الطَّلاَّيَة) ٢٠/ ٢٦٠ـ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٤٩ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وقد حَدَّثَ السُّلطانُ عنه[1] .

مَنْ كان لا يَقومُ للرُّؤساء إذا مَرُّوا ويُحذِّر من النَّظَر إليهم :

وكان أحمدُ بنُ أبي الحَسن الرِّفاعيُّ لا يَقومُ للرُّؤساء ، ويقولُ : النَّظرُ إلىٰ وُجوههِم يُقَسِّي القَلبَ .

وكان كَثيرَ الاسْتغفار ، عالي المِقْدار ، رَقيقَ القَلبِ ، غَزيرَ الإخْلاص .

تُوفيَّ سَنةَ ثمانٍ وسَبعين وخَمس مئة ، رَحمَه الله[2] ، [3] .

(هـ) الإغْلاظُ عليهم إذا ظَلَموا أو فَسَقوا :

جاء في تَرجمةِ الخَبُوشانيِّ ، قال الذهبيُّ : قيلَ : التمَسَ محمدُ ابنُ مُوَفَّق الخَبوشاني من السُّلطانِ إسْقاطَ ضَرائبَ لا يُمكنُ إسْقاطُها ، وساءَ خُلقُه ، فقال : قُمْ لا نَصرَكَ الله! ووَكزَه بعَصاه ، فوَقَعَتْ ، فوَجَمَ لذلك ، ثم حَضرَ وَقْعَة ، فكُسِر ، فظَنَّ أنَّه بدُعائِه ، فجاءَ وقَبَّل يدَيه ، وسألَه العَفْو[4] .

وجاءَه حاجِبُ نائبِ مِصْرَ المُظَفَّر تَقيِّ الدِّين عُمَرَ ، وقال له : تَقيُّ الدين يُسلِّمُ عَليك ، فقال الخَبُوشانيُّ : قُلْ : بلْ شَقيُّ الدِّين لا سَلَّمَ اللهُ عليه ، قال : إنَّه يَعتذرُ ويقولُ : لَيسَ له مَوضِعٌ لبَيع المِزْر[5] قال : يَكْذبُ قال : إنْ كان ثَمَّ مَكانٌ فأرِناه قال :

---

(١) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٩٣ .

(٢) قال صاحب النزهة : قال المؤلف في « العِبَر » بعد هـٰذا الكثير : « ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء ، وقد كثر الزغل فيهم وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات ، وهـٰذا لا عرفه الشيخ ولا صُلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله من الشيطان » (٤/ ٢٣٣) ، وقال في « تاريخ الإسلام » : « ولهم أحوال عجيبة من أكل الحيات حية ، والنزول في التنانير وهي تتضرم ناراً ، والدخول إلى الأفرنة ، وينام الواحد منهم في جانب الفرن ، والخباز يخبز في الجانب الآخر ، وتوقد لهم النار العظيمة ، ويُقام السَّماع فيرقصون عليها إلىٰ أن تنطفىء » .

(٣) انظر السير : (الرِّفاعيّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٨/١٦٠١ .

(٤) انظر السير : (الخَبوشاني) ٢١/ ٢٠٤ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٦١٢ .

(٥) قال صاحب النزهة : المِزْرُ : بكسر الميم ، نبيذٌ يتخذ من الذرة ، وقيل : من الشعير أو الحنطة كما في=

ادْنُ ، فدَنا فأمْسَكَ بشَعرِه ، وجَعلَ يَلطِمُ علىٰ رأسِه ويقولُ : لَستُ مَزّاراً فأعْرفَ مَواضِعَ المِزْر ، فخلَّصوه منه[1] .

(و) اعتذارُ السُّلطانُ للعالِم وتَقبيلُه يدَه طلباً للعَفو :

جاء في تَرجمةِ الخَبُوشانيِّ ، قال الذهبيُّ : قيلَ : التمَسَ محمدُ ابنُ مُوَفَّق الخَبوشاني من السُّلطانِ إسْقاطَ ضَرائبَ لا يُمكنُ إسْقاطُها ، وساءَ خُلقُه ، فقال : قُمْ لا نَصرَكَ الله! ووَكزَه بعَصاه ، فوَقَعَتْ ، فوَجَمَ لذلك ، ثم حَضرَ وَقْعَة ، فكُسِر ، فظَنَّ أنَّه بدُعائِه ، فجاءَ وقَبَّل يدَيه ، وسألَه العَفْو[2] .

(ز) الدُّعاء لهم وكيْفيَّتُه :

قال سُلَيمانُ بنُ محمّد : سَمعتُ عبدَ الله بنَ عبدِ العَزيز العُمَريَّ يقولُ : قال لي مُوسَىٰ بنُ عيسَىٰ : يُنْهَىٰ إلىٰ أميرِ المؤمنين أنَّك تَشْتُمه وتَدعُو عليه ، فبِمَ اسْتَجَزْتَ هٰذا ؟ قلتُ : أمَّا شَتْمُه ، فوالله هو أكْرَمُ من نَفسي ، لقَرابَتِه من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأمَّا الدُّعاءُ عليه ، فوالله ما قُلتُ : اللَّهمَّ إنَّه قد أصْبحَ عِبْئاً ثَقيلاً علىٰ أكْتافِنا فلا تُطيقُه أبدانُنا ، وقَذَىً في جُفونِنا لا تَطرِفُ عليه جُفونُنا ، وشَجَىً في أفْواهِنا لا تُسيغُه حُلوقُنا ، فاكْفِنا مُؤنَتَه ، وفَرِّقْ بَيننا وبَينَه ولكنْ قُلتُ : اللَّهمَّ إنْ كان تَسمَّىٰ بالرَّشيدِ ليَرشُدَ ، فأرْشِدْهُ ، أو لغيرِ ذلك فراجِعْ به ، اللَّهمَّ إنَّ له في الإسْلام بالعَبَّاسِ علىٰ كلِّ مُؤمِنٍ كفّاً ، وله بنَبيِّكَ صلى الله عليه وسلم قَرابَة ورَحِم ، فقَرِّبْه من كلِّ خَير ، وباعِدْهُ من كلِّ سُوء ، وأسْعِدْنا به ، وأصْلِحْه لنفسِه ولنا ، فقال مُوسَىٰ : رَحمَكَ اللهُ أبا عبدِ الرَّحمَـٰن ، كذاكَ لعَمْري الظنُّ بك .

= « النهاية » لابن الأثير (٤/ ٢٤) وكأنه يشبه (البيرة) في أيامنا وكان لتقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين مواضع يُباع فيها المزر علىٰ ما قيل ، فكتب الشيخ الخبوشاني ورقة إلىٰ صلاح الدين يذكر له هٰذا ، فسيرها صلاح الدين إلى ابن أخيه وطلب منه إرضاء الشيخ ، فركب إليه ، وطلب منه حاجبه أن يقف بباب مدرسة الخبوشاني ريثما يهيء له الأمور فتحادث مع الشيخ بهٰذا الحديث المذكور .

(١) نظر السير : (الخَبُوشاني) ٢١/ ٢٠٤ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦١٣ .

(٢) انظر السير : (الخَبُوشاني) ٢١/ ٢٠٤ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٦١٢ .

مات أبو عبدِ الرَّحمَـٰن العُمَريُّ سَنةَ أربعٍ وثَمانين ومائة ، وله سِتٌّ وسِتُّونَ سَنةً ، رَحمَه الله تعالىٰ[1] .

قال الفُضَيلُ بنُ عِياض : لَوْ أنَّ لي دَعوةً مُستجابَة ما جَعلتُها إلاَّ في إمام :

قال عبدُ الصَّمَد بنُ يَزيد : سَمعتُ الفُضَيلَ بنَ عِياض يقولُ : لَوْ أنَّ لي دَعْوةً مُسْتجابَة ما جَعلتُها إلاَّ في إمامٍ ، فصَلاحُ الإمامِ صَلاحُ البلادِ والعِباد[2] .

عَدمُ الدُّعاء لهم إذا جارُوا :

جاء في تَرجمةِ الخَبُوشانيِّ ، قال الذهبيُّ : قيلَ : التمَسَ محمدُ ابنُ مُوَفَّق الخَبوشاني من السُّلطانِ إسْقاطَ ضَرائبَ لا يُمكنُ إسْقاطُها ، وساءَ خُلقُه ، فقال : قُمْ لا نَصرَكَ الله! ووَكزَه بعَصاه ، فوَقَعَتْ ، فوَجَمَ لذلك ، ثم حَضرَ وَقْعَة ، فكُسِر ، فظَنَّ أنَّه بدُعائِه ، فجاءَ وقَبَّل يدَيه ، وسألَه العَفْو[3] .

وقيل : إنَّ العادِلَ أتَىٰ والشَّيخُ عبدُ الله بنُ عُثمان اليُونيني يَتوَضَّأ ، فجَعلَ تحتَ سجادَتِه دَنانيرَ فرَدَّها ، وقال : يا أبو بَكر[4] كيف أدْعو لكَ والخُمورُ دائرةٌ في دِمَشْقَ ؟ فأبْطَلَ ذلك[5] .

وقيلَ : جلسَ بين يدَيْه المُعَظَّمُ وطَلبَ الدُّعاءَ منه ، فقالَ : يا عيسَىٰ لا تَكُنْ نَحْس[6] مثلَ أبيكَ أظْهَرَ الزَّغَلَ[7] وأفسدَ على النَّاسِ المُعامَلةَ[8] .

---

(١) انظر السير : (العُمَريّ) ٨/ ٣٧٣ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٦٥ .
(٢) انظر السير : (الفُضَيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٥/٧٧٧ .
(٣) انظر السير : (الخَبوشاني) ٢١/ ٢٠٤ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٦١٢ .
(٤) قال صاحب النزهة : هـٰكذا في الأصل وفي تاريخ الإسلام بخط الذهبي ، فهي على الحكاية .
(٥) انظر السير : (اليُونيني) ٢٢/ ١٠١ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٦٨ .
(٦) قال صاحب النزهة : هـٰكذا في الأصل وفي تاريخ الإسلام بخط الذهبي ، وصوابها « نحساً » ولكن أبقيناها لأنها من كلام الشيخ .
(٧) العملة المغشوشة .
(٨) انظر السير : (اليُونيني) ٢٢/ ١٠١ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٦٨ .

مَنْ هاجَر من بلَده لأنَّه أُلْزِمَ في الخُطبة بوَصف الأُمَراء بصفات لَمْ يَرَها سائغة :

قال أبو شامَة : أخْبرَنا السَّخاويُّ : أنَّ سَببَ انْتقالِ الشَّاطِبيِّ من بلدِه أنَّه أُريدَ على الخَطابَة ، فاحْتَجَّ بالحَجِّ ، وترك بلدَه ، ولمْ يَعُدْ إليه تَوَرُّعاً ممَّا كانوا يُلزِمون الخُطَباءَ من ذِكرِهم الأُمَراءَ بأوْصافٍ لمْ يَرَها سائغَة ، وصَبرَ علىٰ فَقرٍ شَديد .

قال السَّخاويُّ : أقْطعُ بأنَّه كان مُكاشَفاً ، وأنَّه سألَ اللهَ كَفَّ حالِه .

قال الأبَّارُ : تَصدَّرَ بمِصْرَ ، فعَظُم شأنُه ، وبَعُدَ صِيتُه ، انتَهت إليه رياسَةُ الإقْراءِ ، وتُوفِّيَ بمِصْرَ سَنةَ تسعين وخَمس مئة .

وجاءَ عنه قالَ : لا يَقرأُ أحَدٌ قَصيدَتي هٰذه إلاَّ ويَنفعُه اللهُ ، لأنَّني نَظَمتُها لله .

وله قَصيدَةٌ داليَّة نَحو خَمس مئة بَيتٍ ، مَنْ قَرأَها ، أحاطَ علماً بـ « التَّمهيد » لابنِ عبدِ البَرِّ[1] .

(ح) مُتفرِّقات في عَلاقة العُلماء بالمُلوكِ والأُمَراء :

قال عبدُ السَّلام التَّنوخيُّ المُلقَّب « بسُحْنون » : ما أَقبَحَ بالعالِم أنْ يأتي الأُمَراءَ ، واللهِ ما دَخلتُ على السُّلطانِ إلاَّ وإذا خَرجتُ حاسَبتُ نفسي ، فوَجدتُ عليها الدَّركَ[2] ، وأنتم تَروْنَ مُخالَفتي لهَواه ، وما ألْقاهُ به من الغِلْظَة ، واللهِ ما أخَذْتُ ، ولا لَبستُ لهم ثوباً[3] .

جاءَ في تَرجمَة بَكارِ بنِ قُتَيْبَة ، قال الإمامُ الذهبيُّ : كان عَظيمَ الحُرْمَة ، وافِرَ الجَلالَة ، من العُلماء العَاملين كان السُّلطانُ يَنزلُ إليه ، ويَحضُرُ مَجلِسَه[4] .

وقال الذهبيُّ : كان وَليُّ العَهدِ المُوفَّقُ قد اسْتبدَّ بالأمور ، وضَيَّقَ علىٰ أخيه الخَلفية

---

(١) انظر السير : (الشَّاطبيّ) ٢١/ ٢٦١ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦١٨ .

(٢) بفتح الرَّاء وإسْكانها : التَّبعَة .

(٣) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩٨٣ .

(٤) انظر السير : (بكّار بن قُتَيبَة) ١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٩ .

المُعْتمد : قال الصُّوليُّ : تَخيَّل المُعْتمدُ من أخيه ، فكاتَبَ أحمدَ بنَ طُولونَ ، واتَّفقا ، وقال المُعْتمدُ[1] :

أليسَ منَ العجائبِ أنَّ مثلي ... يَرىٰ ما قَلَّ مُمْتَنِعاً عَليهِ
وتُؤكَلُ باسْمِهِ الدُّنيا جَميعاً ... وما مِنْ ذاكَ شيءٌ في يَدَيْهِ

فبلغَنا أنَّ ابنَ طُولُونَ جَمعَ العُلماءَ والأعْيانَ ، وقال : قد نَكثَ المُوَفَّقُ أبو أحمد بأميرِ المؤمنين ، فاخْلَعوه من العَهدِ فخَلَعوه ، إلاَّ بَكارَ ابنَ قُتَيْبَة ، وقال : أنتَ أَوْرَدْتَ عليَّ كتابَ المُعْتَمد بتَوَلِّيه العَهدَ ، فهاتِ كتاباً آخرَ منه بخَلعِه قال : إنَّه مَحْجورٌ عليه ومَقْهورٌ ؟ قال : لا أدْري فقال له : غرَّكَ النَّاسُ بقَولِهم : ما في الدُّنيا مثلُ بَكار ، أنتَ قد خَرِفْتَ ، وقيَّدَه وحَبسَه ، وأَخذَ منه جَميعَ عَطائِه من سِنينَ ، فكان عَشرَةَ آلافِ دينار ، فقيلَ : إنَّها وُجِدَت بخُتومِها وحالِها ، وبلَغَ ذلك المُوَفَّق ، فأمَرَ بلَعْنِ ابنِ طُولُونَ على المَنابِر[2] .

وقال أبو صَفْوان مُتحدثاً عن والدهِ أحمدَ بنِ إسْحاق : وَهَبَ المَأمونُ لأبي ثلاثينَ ألفاً ، وعَشرةَ أفْراسٍ وجارِيَةً ، فلمْ يَقبَلْها[3] .

وعن أبي بكر بن جابر خادم أبي داود السِّجسْتاني ـ رحمه الله ـ قال : كنتُ مع أبي داود ببَغْداد ، فصلَيْنا المغرب ، فجاءَه الأميرُ أبو أحمدَ المُوَفَّق ـ يَعني وَليَّ العَهد ـ فدخل ، ثم أقبلَ عليه أبو داود ، فقال : ما جاء بالأمير في مثل هـٰذا الوقت ؟ قال : خِلالٌ ثلاث قال : وما هي ؟ قال : تنتقلُ إلى البَصرة فتتَّخذَها وطناً ليرحلَ إليك طلبةُ العلم ، فتعمُر بك ، فإنها قد خَرِبَتْ ، وانقطَعَ عنها النَّاسُ ، لِمَا جَرَىٰ عليها من مِحْنَة الزِّنج فقال : هـٰذه واحدة قال : وتَرْوي لأولادي « السُّنَن » قال : نعم ، هاتِ الثالثة قال : وتُفْرِد لهم مَجْلساً ، فإن أولاد الخلفاء لا يَقعُدون مع العامَّة قال : أمَّا هـٰذه فلا سبيلَ إليها ، لأنَّ النَّاسَ في العِلم سَواء .

---

(١) انظر السير : (بكّار بن قُتَيبَة) ١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٩ .
(٢) انظر السير : (بكّار بن قُتَيبَة) ١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٩ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن إسحاق) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٥٠ .

قال ابنُ جابر : فكانوا يحضُرُون ويقعُدون في كمٍّ حِيرِي ، عليه سِتْر ويسمعون مع العامَّة[1] .

وقال ابنُ عَفيف : كان أبو إبْراهيمَ إسْحاقُ بنُ إبْراهيم التُّجيبي من أهلِ العِلمِ ، والفَهمِ ، والعَقلِ والدِّينِ المَتين ، والزُّهْدِ والبُعْدِ من السُّلْطان ، لا تأخُذُه في الله لَومَة لائم[2] .

وقال ابنُ الفَرْضي : كان أبو إبراهيم التُّجيبي حافِظاً للفِقْه ، صَدراً في الفُتْيا ، وَقُوراً ، مَهيباً ، لمْ يكُنْ له بالحَديثِ كبيرُ علم ، له كتاب « مَعالِمُ الطَّهارَة » وكان الحَكمُ أميرُ المؤمنين مُعَظِّماً له وكان صَليباً قَليلَ الهَيبَة للمُلوك ، اغْتابَ الحَكمُ رجلاً ، فسَكتَ أبو إبراهيم ونكَّسَ برأسِه فأقْصَرَ الحَكمُ وفَهِمَ ، وقد راوَدَه علىٰ أنْ يأتيَه بولَدِه أحمدَ وهو صَبيٌّ ، فقال : لا يَصلُحُ الآن لذلك .

تُوفِّي أبو إبراهيم سَنةَ اثنتَين وخَمسين وثلاثِ مئة[3] .

جاءَ في تَرجمَة ابنِ الدَّاعي ، قال الذهبيُّ : بَرعَ في الرَّأي على الإمام أبي الحَسنِ الكَرْخي ، وأخَذَ علمَ الكَلامِ عن حُسَينِ بنِ عليٍّ البَصْري ، وأفْتَىٰ ودَرَّسَ ، ووَلِيَ نقابة الطالبيِّين في دَولَة بني بُوَيه ، فعَدلَ وحُمدَ ، وكان مُعِزُّ الدَّولَة يُبالغ في تَعظيمِه ، وتَقبيلِ يدِه ، لعِبادَته وهَيبَتِه ، وكان فيه تَشَيُّعٌ بلا غُلُو[4] .

وقال أبو الثَّناء شُكْر العَضُدي : لمَّا دَخلَ عَضُد الدَّولة بغدادَ وقد هَلكَ أهلُها قَتلاً وخَوفاً وجُوعاً للفِتن التي اتَّصلَت بينَ السُّنَّة والشِّيعَة ، فقال : آفة هـٰؤلاء القُصَّاصُ ، فمَنعَهم ، قال : مَنْ خالَفَ أباحَ دَمَه ، فعَرفَ ابنُ سَمعونَ ، فجَلسَ علىٰ كُرسيِّه فأمَرَني مَولايَ ، فأحْضَرتُه ، فدَخلَ رجلٌ عليه نورٌ ، قال شُكْرُ : فجلسَ إلىٰ جَنبي غير مُكْترِث ، فقلتُ : إنَّ هـٰذا المَلك جَبَّارٌ عَظيمٌ ، ما أُوثِرُ لكَ مُخالَفَته ، وإنِّي مُوصلُكَ

---

(١) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٧١ .
(٢) انظر السير : (التُّجيبيّ) ١٦/ ٧٩ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٦٨ .
(٣) انظر السير : (التُّجيبيّ) ١٦/ ٧٩ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٦٨ .
(٤) انظر السير : (ابن الدَّاعي) ١٦/ ١١٤ـ ١١٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧١ .

إليه ، فقبّل الأرضَ وتلطّف له واسْتعِن بالله عليه ، فقال : الخَلقُ والأمرُ لله فمَضيتُ به إلىٰ حُجرةٍ قد جَلسَ فيها المَلكُ وَحدَه ، فأوْقفتُه ثم دَخلتُ أسْتأذِنُ ، فإذا هو إلىٰ جانبي ، وحوّلَ وَجهَه إلىٰ دارِ عِزِّ الدَّولَة ثم تَلا : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾[1] ثم حوَّلَ وَجهَه وقَرأَ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2] ثم أخذَ في وَعْظِه فأتي بالعَجَب ، فدَمِعَت عَينُ المَلك ، وما رَأيتُ ذلك منه قَطُّ وشركَ كُمَّه علىٰ وَجهِه ، فلمَّا خرجَ أبو الحُسَين رَحمَه الله ، قالَ المَلكُ : اذْهَبْ بثَلاثَة آلاف دِرْهَم وعَشرَة أثْوابٍ من الخزانَة فإنْ امْتَنعَ فقُلْ له : فرِّقْها في أصْحابِك ، وإنْ قَبلَها فجِئْني برأسِه ، ففَعَلتُ فقال : إنَّ ثيابي هـٰذه فُصِّلَت من نحو أربَعين سَنة ألْبَسُها يومَ خُروجي وأطْويها عند رُجُوعي ، وفيها مُتعَةٌ وبَقيَّةٌ ، ونَفَقَتي من أُجْرَةِ دارٍ خَلَّفَها أبي ، فما أصْنَعُ بهـٰذا ؟ قُلتُ : فرِّقْها علىٰ أصْحابِك قال : ما في أصْحابي فَقيرٌ فعُدتُ فأخْبَرتُه ، فقال : الحَمدُ لله الذي سَلَّمَه منَّا وسَلَّمَنا منه[3] .

١٩ـ حَالُ العُلَماء مع طَلبَة العِلم :

(أ) التَّلاميذُ الصَّالحون أفْضَلُ من الأبناءِ الطَّالحين :

قال جَعْفرُ بنُ سُليمان ، حدَّثنا مالكُ بنُ دينار قال : أتَينا أنَساً أنا وثابتٌ ويَزيدُ الرقاشي ، فنَظرَ إلينا ، فقال : ما أشْبَهَكُم بأصْحابِ محمَّد صلى الله عليه وسلم لأنْتم أحَبُّ إليَّ من عدّة وَلدي إلاَّ أنْ يَكونوا في الفَضْلِ مثلَكم ، إنِّي لأدْعُو لكم في الأسْحار[4] .

(ب) عَدمُ قَبول الهَدايا من الطَّلَبة :

قال محمّدُ بنُ الحَجَّاج : كان رجلٌ يَسمَعُ مَعنا عند حَمَّادِ بنِ سَلمَة فرَكبَ إلى الصِّين ، فلمَّا رَجعَ ، أهْدَىٰ إلىٰ حَمَّادٍ هَديّة ، فقال له حَمَّادٌ إنْ قَبلتُها ، لمْ أُحَدِّثْكَ

---

(١) سورة هود ، الآية : ١٠٢ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ١٤ .

(٣) انظر السير : (ابن سَمْعون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ٥/١٣١٠ .

(٤) انظر السير : (مالك بن دينار) ٥/ ٣٦٢ـ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٩/٦٠٩ .

بحَديثٍ ، وإنْ لمْ أقْبلْها ، حَدَّثتُك قال : لا تَقبَلْها وحدِّثْني[1] .

(ج) تَخصيصُ العالِم بعضَ طلبَته بأوقات لتَحْصيل العِلم :

قال عبَّاسُ العَنْبري : كان يَحْيَى القَطَّان رُبّما قال : لا أُحدِّثُ شَهراً ولا أُحدِّثُ كذا ، فحُدِّثتُ أنَّه حدَّث ابنَ المَديني قبلَ انْقِضاء الشَّهر قال : فكلَّمتُ يَحْيَىٰ في ذلك ، فقال : إنِّي أَسْتثني عَلياً ، ونَحنُ نَستفيدُ منه أكثرَ ممَّا يَستفيدُ منَّا[2] .

(د) الطَّالبُ المَحْبوب والطَّالبُ البَغيض :

قال هشامُ بنُ مَنصور : سَمعتُ أحمدَ بنَ حَنْبل يقولُ : قال لي يَحْيَى ابنُ آدَم : يَجيئُني الرجلُ ممَّن أبْغَضُه ، وأكرَهُ مَجيئَه ، فأقرأُ عليه كل شيء معه ، لأسْتريحَ منه ولا أراه ، ويَجيءُ الرجلُ أوَدُّه ، فأُرَدِّدُه حتىٰ يرجعَ إليَّ[3] .

(هـ) عَدمُ الغَضب من طُلاَّبِهم إن تَتلْمَذوا على المُخالف لهم :

عن عبدِ اللهِ بنِ محمّد الوَرَّاق قال : كنتُ في مجلسِ أحمدَ ابنِ حَنبل ، فقال : من أين أقْبَلتُم ؟ قُلنا : من مَجلسِ أبي كريب ، فقال : اكْتُبوا عنه ، فإنَّه شَيخٌ صالحٌ ، فقُلنا : إنَّه يَطعنُ عليك قال : فأيُّ شيء حيلتي ، شَيخٌ صالحٌ قد بُلِيَ بي[4] .

٢٠ـ فَضْلُ العُلَماء العاملين :

(أ) سَببٌ لهدايَة النَّاس :

عن الأوْزاعيِّ ، قال : مَنْ كان مُقتَدياً ، فليَقْتدِ بمثل ابن مُحَيْريز ، إنَّ اللهَ لم يكن ليُضِلَّ أمَّةً فيها ابنُ مُحَيْريز[5] .

---

(١) انظر السير : (حمَّاد بن سَلمة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٧١٦ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بن المَديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٠٧ .
(٣) انظر السير : (يَحْيى بن آدم) ٩/ ٥٢٢ـ ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٣٨ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٤٧ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٣٩ .

(ب) يُسْتَشفَىٰ بحَديثِهم ، ويَنزلُ القَطرُ من السَّماء بذكرهم :

عن أحْمدَ بنِ حَنْبَل قال : صَفْوانُ بنُ سُليم ، من الثِّقات ، يُسْتَشْفَىٰ بحَديثِه ، ويَنْزلُ القَطْرُ من السَّماء بذِكْرِه[1] .

(ج) سَببٌ لأمان النَّاس :

عن رَجاءَ بنِ حَيْوَة ، قال : بَقاءُ ابنُ مُحَيْريز ، أمانٌ للنَّاس ماتَ في دَوْلَة الوَليد[2] .

وقال أبو المَليح : قال رجلٌ لمَيْمونَ بنِ مِهْران : يا أبا أيوب! ما يَزالُ النَّاسُ بخَيرٍ ما أبقاك الله لهم ، قال : أقْبِلْ علىٰ شأنِكْ ، ما يَزالُ النَّاسُ بخَير ما اتَّقَوا ربَّهُم[3] .

قال أبو عُثْمان سَعيدُ بنُ إسْماعيلَ الحِيَري : حدَّثَنا ابنُ خُزَيْمَة قال : كنتُ إذا أرَدتُ أن أُصَنِّفَ الشَّيءَ أدخلُ في الصَّلاة مُسْتَخيراً حتىٰ يُفتَح لي ، ثم أبْتَدىءُ التَّصْنيف ، ثم قال أبو عُثمان : إنَّ اللهَ ليَدفَعُ البلاءَ عن أهلِ المَدينة لمَكان أبي بكر محمّد بنِ إسْحاق ـ يَعْني ابنَ خُزَيْمَة[4] .

(د) سَببٌ لصَلاح النَّاس :

قال هِلالُ بنُ خَبَّاب : قُلتُ لسَعيدِ بنِ جُبَير ما عَلامَة هَلاك النَّاس ؟ قال : إذا ذَهبَ عُلماؤُهم[5] .

وقال ابنُ أبي حاتم : سَمعتُ يُونُسَ بنَ عبدِ الأعْلىٰ يقولُ : أبو زُرْعَة وأبو حاتِم إماما خُراسَان ، ودَعَا لهما ، وقال : بَقاؤُهما صَلاحٌ للمُسْلمين[6] .

---

(١) انظر السير : (صَفْوان بن سُليم) ٥/ ٣٦٤ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦١٠ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٩/٥٣٩ .
(٣) انظر السير : (مَيْمونُ بن مِهْران) ٥/ ٧١ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٢ .
(٤) انظر السير : (ابن خُزَيْمَة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٠ .
(٥) انظر السير : (سَعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٦ .
(٦) انظر السير : (أبو حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٧٥ .

(هـ) سَببٌ لنُزول نَصْر الله :

قال مَسْلمةُ بنُ عبد المَلك أميرُ السَّرايا : برَجاءِ بنِ حَيْوَة وبأمثالِه نُنْصَرُ ماتَ رجاءُ سنة اثنَتي عشرة ومئة[1] .

(و) يُنَقُّون الدين ممَّا عَلق به :

يُرْوَىٰ أنَّ هارونَ الرَّشيد أخذَ زِنْديقاً ليَقتلَه ، فقال الرجلُ : أين أنتَ من ألفِ حَديثٍ وَضَعْتُها ؟ قال : فأينَ أنتَ يا عَدوَّ الله من أبي إسْحاقَ الفَزاري وابنِ المُبارَك يَتخلَّلانِها ، فيُخَرِّجانِها حَرفاً حَرفاً[2] .

(ز) يُصَحِّحون مَفاهيم العامَّة :

قال عُثمانُ بنُ صالح : كان أهلُ مصرَ يَنْتَقِصُونَ عثمانَ بنَ عَفَّان ، حتىٰ نَشأ فيهم اللَّيثُ بنُ سَعد فحَدَّثَهم بفَضائلِه ، فكَفُّوا وكان أهلُ حمْص يَنْتَقِصُون عَليّاً حتىٰ نَشأ فيهم إسْماعيلُ بنُ عيَّاش ، فحدَّثَهم بفَضائلِ عليٍّ ، فكَفُّوا عن ذلك[3] .

(ح) يُجَدِّدون الدين :

قال الحاكمُ : سَمعتُ حسَّانَ بنَ محمَّد يقولُ : كنا في مجلس ابن سُرَيْج سنة ثلاث وثلاث مئة ، فقام إليه شيخٌ من أهل العلم فقال : أبشر أيها القاضي ، فإن اللهَ يَبعثُ علىٰ رأس كل مئة سنة من يجددُ ـ يَعني للأُمَّةِ ـ أمرَ دينِها ، وإن اللهَ تعالىٰ بَعثَ علىٰ رأس المئة عُمرَ بنَ عبد العزيز وبعث علىٰ رأس المئتين مُحمَّدَ بنَ إدْريسَ الشَّافعي ، وبعثَك علىٰ رأس الثلاث مئة ثم أنشأ يقول :

اثْنانِ قد ذَهَبا فبُورك فيهما ... عُمَرُ الخَليفَةُ ثمَّ حِلْفُ السُّؤْدَدِ
الشَّافِعيُّ الأَلْمَعِيُّ مُحمَّدُ ... إرثُ النُّبُوَّةِ وابنُ عمٍّ مُحَمَّدِ
أبْشِرْ أبا العَبَّاسِ إنَّكَ ثالثٌ ... مِنْ بَعْدِهِم سُقْياً لتُرْبَةِ أحْمَدِ

---

(١) انظر السير : (رجاء بن حَيْوَة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥٩ .
(٢) انظر السير : (أبو إسْحاق الفَزاري) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٩٠ .
(٣) انظر السير : (اللَّيثُ بنُ سَعد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٣٩ .

قال : فصاحَ أبو العَبَّاس ، وبَكىَ ، وقال : لقد نَعَىٰ إليَّ نَفسِي قال حسَّانُ الفَقيه فماتَ القاضي أبو العَبَّاس تلك السَّنة[1] .

قال الذهبيُّ : وقد كان علىٰ رأسِ الأربعِ مئة الشيخُ أبو حامد الإسْفراييني وعلىٰ رأسِ الخَمسِ مئة أبو حامد الغَزالي ، وعلىٰ رأسِ الستِّ مئة الحافظُ عبدُ الغَني ، وعلىٰ رأسِ السبعِ مئة شَيخُنا أبو الفَتح ابنُ دَقيق العِيد .

وإن جَعلتَ مَنْ يُجَدِّدُ لَفظاً يَصدُقُ علىٰ جماعة ـ وهو أقْوَىٰ ـ فيكونُ علىٰ رأس المئة عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز خَليفَةُ الوَقتِ ، والقاسِمُ بنُ محمّد والحَسنُ البَصْري ، ومحمَّدُ بنُ سِيرين ، وأبو قِلابَة ، وطائفةٌ ، وعلىٰ رأس المئتَينِ مع الشَّافعيِّ ، يَزيدُ بنُ هارُون ، وأبو داوُد الطَيالِسي ، وأشْهَبُ الفَقيهُ ، وعِدَّة وعلىٰ رأس الثلاثِ مئة مع ابنِ سُرَيْج ، أبو عبد الرَّحمَـٰن النَّسائي ، والحَسنُ بنُ سُفيان ، وطائفة[2] .

وقال الخَطيبُ : حدَّثونا عن أبي حامد الإسْفَراييني ، وكان ثقةً ، حَضرتُ تَدْريسَه في مَسجد ابنِ المُبارك ، وسَمعتُ مَنْ يَذكُرُ أنَّه يَحضُر دَرْسَه سَبع مئة فَقيه وكان النَّاسُ يقولون : لَوْ رَآهُ الشافعيُّ ، لفَرِحَ به .

قال ابنُ الصَّلاح : وعلى الشَّيخ أبي حامِد تأوَّلَ بعضُ العُلماء حَديثَ : « إنَّ اللهَ يَبْعَثُ لهَـٰذِهِ الأُمَّة عَلىٰ رَأْسِ كلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لها دِينَها » ، فكان الشَّافعيُّ علىٰ رأسِ المِئتَين ، وابنُ سُرَيْج علىٰ رأسِ الثلاثِ مئة ، وأبو حامِد علىٰ رأس الأربعِ مئة[3] .

كان بعضُ العُلماء يَعُدُّ أبا الطَّيِّب الصُّعْلُوكي المُجَدِّد للأُمَّة دينَها علىٰ رأسِ الأربعِ مئة ، وبعضُهم عَدَّ ابنَ الباقِلاَّني وبعضُهم عَدَّ الشَّيخَ أبا حامِد الإسْفَراييني ، وهو أرجَحُ الثلاثة .

تُوفي الإمامُ أبو الطَّيِّب ، سَنةَ أربع وأربع مئة في عشرِ الثمانين رحمَه الله تعالىٰ[4] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ سُرَيْجْ) ١٤/ ٢٠١ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٣ .
(٢) انظر السير : (ابنُ سُرَيْجْ) ١٤/ ٢٠١ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٣ .
(٣) انظر السير : (أبو حامد الإسْفَراييني) ١٧/ ١٩٣ـ ١٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٦ .
(٤) انظر السير : (الصُّعْلُوكيّ) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٣٧ .

٢١ـ من صفات العلماء :

(وهناك صفات أخرىٰ ستجدها مبثوثة في أماكنها) :

(أ) الدَّأبُ في طَلب العِلْم حتى الممَات :

عن ابنِ دُرُسْتُوَيْه ، صاحبِ سَهْلِ بنِ عبدِ الله ، قال : قال سَهْلٌ ، وقد رَأىٰ أصْحابَ الحَديث : اجْهَدوا أنْ لا تَلْقَوا اللهَ إلاَّ ومَعكم المَحابِر[١] .

وسُئلَ سَهلُ بنُ عبدِ الله : إلىٰ مَتىٰ يَكتبُ الرجلُ الحَديثَ ؟ قال : حتىٰ يَموتَ ، ويُصَبُّ باقي حِبْرِه في قَبْرِه .

وقال عليُّ بنُ الحَسن الدَّقِيق ، سَمعتُ سَهلَ بنَ عبد الله يقولُ : مَنْ أرادَ الدُّنيا والآخِرَةَ فليَكتُبْ الحَديثَ ، فإنَّ فيه مَنْفعَةَ الدُّنيا والآخِرَة[٢] .

وقال الذهبيُّ : بَلغَنا أنَّه قيلَ لأبي العَبَّاس السَّرَّاج ، وهو يَكتبُ في كُهولَتِه عن يَحْيَىٰ بنِ أبي طالب : إلىٰ كم هٰذا ؟ فقال : أمَا عَلمتَ أنَّ صاحبَ الحَديثِ لا يَصبِر ؟!

وقال أبو إسْحاق المُزكِّي : كان السَّرَّاجُ مُجابَ الدَّعْوة .

وقال محمّدُ بنُ أحمدَ الدَّقَّاق : رأيتُ السَّرَّاجَ يُضَحِّي كلَّ أُسْبوع أو أُسْبوعَين أُضْحِيَةً عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يَصيحُ بأصْحابِ الحَديث فيَأكُلون[٣] .

(ب) الإنْفاق لتَحصيل العلم :

عن يَحْيَى الوحاظي : ما رأيتُ رجلاً كان أكبرَ نَفساً من إسْماعيلَ ابنِ عيَّاش ، كنَّا إذا أتَيناه إلىٰ مَزرَعةٍ لا يَرضَىٰ لنا إلاَّ بالخَروفِ والخَبيصِ ، سَمعتُه يقولُ : وَرِثْتُ من أبي أربعةَ آلافِ دينار ، فأنفَقتُها في طلبِ العلم[٤] .

---

(١) انظر السير : (سَهْل بن عبد الله) ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٩٢ .

(٢) انظر السير : (سَهْل بن عبد الله) ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٧/١٠٩٢ .

(٣) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٣ .

(٤) انظر السير : (إسْماعيل بن عيَّاش) ٨/ ٣١٢ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٦٠ .

وكان عبدُ الرحمَـٰن بنُ القاسِم ذا مالٍ ودُنيا ، فأنْفَقَها في العلمِ ، وقيلَ : كان يَمتنعُ من جَوائزِ السُّلطان وله قَدمٌ في الوَرَع والتَّألُّه[1] .

وقال حمدانُ بنُ هانىء المُقري : سَمعتُ خلفَ بنَ هشام يقولُ : أُشْكِلَ عليَّ بابٌ من النَّحْو فأنْفَقتُ ثمانينَ ألفَ دِرْهَم حتىٰ حَذَقتُه[2] .

(ج) الضَّبط والدِّقَّة :

عن أبي اليمان قال : كان مَنزلُ إسْماعيلَ بنِ عيَّاش إلىٰ جانب مَنزلي ، فكان يُحْيي اللَّيلَ وكان رُبَّما قرأ ، ثم يَقطعُ ، ثم رَجعَ ، فقرأ من المَوضِع الذي قَطعَ منه ، فلَقيتُه يوماً ، فقلتُ : يا عمُّ ، قد رأيتُ منك في القِراءَة كَيتَ وكَيتَ ، قال : يا بُني ، وما سُؤالُك ؟ قلتُ : أريدُ أنْ أعْلَمَ قال : يا بُني إنِّي أُصلِّي ، فأقرأُ ، فأذْكُرُ الحَديثَ في البابِ من الأبْوابِ التي أَخْرجتُها ، فأقْطَعُ الصَّلاةَ ، فأكتُبه فيه ، ثم أرْجِعُ إلىٰ صَلاتي ، فأبْتَدىءُ من المَوضِع الذي قَطعتُ منه[3] .

وقال إبْراهيمُ بنُ هاشِم : ما قال لنا جَريرُ بنُ عبد الحَميد الضَّبِّيُّ قَطُّ ببَغدادَ : حدَّثنا ، ولا في كَلمةٍ واحِدَة ، فقلتُ : تُراه لا يَغلطُ مرَّةً ، فكان رُبَّما نَعسَ ، فنامَ ، ثم يَنتَبهُ فيَقرأُ من المَوْضِعِ الذي انْتهَىٰ إليه[4] .

وقال يَحيَىٰ بنُ مَعِين : أخْرَجَ غُنْدَرٌ إلينا ذاتَ يومٍ جِراباً فيه كُتُبٌ ، فقال : اجْهَدُوا أنْ تُخرِجوا فيها خَطَأً ، قال : فما وجدْنا فيه شيئاً ، وكان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً منذُ خَمسينَ سَنَةً[5] .

وكان ابنُ الحَدَّاد : يقولُ : دَليلُ الضَّبْطِ الإقْلالُ ، ودَليلُ التَّقْصيرِ الإكثارُ وكان من رُؤوسِ السُّنَّة[6] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٥ .
(٢) انظر السير : (خلف بن هشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩٥ .
(٣) انظر السير : (إسْماعيلُ بن عيَّاش) ٨/ ٣١٢ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٦٠ .
(٤) انظر السير : (جرير بن عبد الحميد) ٩/ ٩ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٩٥ .
(٥) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/٨٠٢ .
(٦) انظر السير : (ابن الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٤/١١٤٤ .

(د) التَّرفُّع عن أمْوال النَّاس والزُّهْد فيها :

عن أبي سِنان : سَمعتُ وَهبَ بنَ مُنبِّه يقولُ لعَطاءِ الخُرَاسانيّ ، كان العُلماءُ قَبلَنا قد اسْتَغنوا بعلمِهم عن دُنيا غَيرِهم ، فكانوا لا يَلتفتُون إليها وكان أهلُ الدُّنيا يَبذُلون دُنياهم في عِلمِهم ، فأصْبَحَ أهلُ العِلمِ يَبذُلون لأهْلِ الدُّنيا عِلمَهم رَغبَةً في دُنياهم وأصْبَحَ أهلُ الدُّنيا قد زَهِدوا في عِلمِهم لِمَا رَأوا من سُوءِ مَوْضِعِه عندَهم[1] .

وعن أبي حازمٍ قال : لا تَكونُ عالماً حتىٰ يَكونَ فيك ثلاثُ خِصال : لا تَبْغِ علىٰ مَنْ فَوقَك ، ولا تَحْقِرْ مَنْ دُونَك ، ولا تَأْخُذْ علىٰ عِلمكَ دُنيا[2] .

وقال مِسْعَر : مَنْ صَبرَ على الخَلِّ والبَقْلِ ، لَمْ يُسْتَعبَد[3] .

وعن شَيخٍ أنَّه كان عنده كتابٌ بخَطِّ أحمَدَ بنِ حَنْبل ، فقال : كُنَّا عندَ ابنِ عُيَيْنَة سَنةً ، ففَقدتُ أحمدَ بنَ حَنْبل أيّاماً ، فدُلِلتُ علىٰ مَوضِعِه ، فجِئتُ فإذا هو في شَبيه بكَهْف في جِياد[4] ، فقلتُ : سَلامٌ عليكم ، أدْخُل ؟ فقال : لا ثم قال : ادْخُلْ ، فدَخلتُ ، وإذا عَليه قِطعَةُ لِبْدٍ خَلِقٍ ، فقلتُ : لِمَ حَجَبْتَني ؟ فقال حتى استَتَرتُ فقلتُ : ما شَأنُك ؟ قال : سُرِقَت ثيابي قال : فبادَرتُ إلىٰ مَنزلي فجئتُه بمئة دِرهم ، فعَرضتُها عليه ، فامْتَنعَ ، فقلتُ : قَرْضاً ، فأبَىٰ ، حتىٰ بلغَت عشرين درهماً ، ويأبىٰ ، فقُمتُ ، وقلتُ : ما يَحِلُّ لك أن تَقتُلَ نفسَك قال : ارْجِع فرَجَعتُ ، فقال : أليسَ قد سَمعتَ معي ابنَ عُيَيْنَة ؟ قلتُ : بلىٰ قال : تُحِبُّ أنْ أنْسَخَهُ لك ؟ قلتُ : نعم قال : اشْترِ لي وَرَقاً قال : فكتَبَ بدَراهم اكْتَسَىٰ منها ثَوبَين[5] .

وعن أبي إسْماعيلَ التِّرْمِذيِّ ، قال : جاءَ رجلٌ بعَشرةِ آلافٍ من رِبْحِ تِجارَتِه إلىٰ أحمدَ بنِ حَنْبَل فردَّها وقيلَ : إنَّ صَيْرَفياً بذَلَ لأحمدَ خَمسَ مئةَ دينار ، فلمْ يَقْبلْ[6] .

---

(١) انظر السير : (وَهْب بن مُنبّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٨/٥٥٣ .
(٢) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٣٦ .
(٣) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٨٩ .
(٤) موضع بمكَّة يَلي الصَّفا .
(٥) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٢٤ .
(٦) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٢٨ .

وكان يَحْيَىٰ بنُ عَمَّار من كبار المذَكِّرين ، لكن ما أقبحَ بالعَالِم الدَّاعي إلى الله الحِرْصَ وجَمْعَ المال!!

تُوفِّي يَحْيَىٰ بنُ عَمَّار بهَرَاة ، سنةَ اثنتَين وعشرين وأربَع مئة ، وكانت جنازتُه مَشْهودَة[1] .

(هـ) التَّقْويم لا التَّعيير :

قال الدُّوريُّ : قال لي الكِسائيُّ : كنت أقرأ علىٰ حَمْزَةَ ، فجاءَ سُلَيمُ ابنُ عِيسَىٰ فتَلكَّأْتُ ، فقالَ حَمْزَةُ : تَهابُهُ ولا تَهابُني ؟ قلتُ : أيُّها الأسْتاذُ ، أنتَ إنْ أخْطأتُ ، قَوَّمْتَني ، وهـٰذا إنْ أخْطأتُ عَيَّرَني[2] .

(و) الثِّقةُ في أمثالِهم من العُلماء :

قال العُقيليُّ : حدَّثنا أحمدُ بنُ محمّد : سَمعتُ أبا صالح محمَّدَ ابنَ إسْماعيلَ الصِّراريَّ يقولُ : بَلغَنا ونَحنُ بصَنْعاءَ عند عبدِ الرَّزَّاق أنَّ أصْحابَنا ، يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، وأحمدَ بنَ حَنْبَل وغَيرَهما ، تَركوا حَديثَ عبدِ الرَّزَّاق وكَرِهُوه ، فدَخَلَنا من ذلك غَمٌّ شَديد ، وقُلنا : قد أنْفَقْنا ، ورَحَلْنا وتَعِبْنا ، فلمْ أزَلْ في غَمٍّ من ذلك إلىٰ وَقتِ الحَجِّ ، فخَرجتُ إلىٰ مَكة فلَقيتُ بها يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، فقُلتُ له : يا أبا زَكريا ، ما نَزلَ بنا من شيء بَلغَنا عَنكم في عبدِ الرَّزَّاق ؟ قال : ما هو ؟ قُلنا : بَلغَنا أنَّكُم تَركتُم حَديثَه ورَغبتُم عنه ، قال : يا أبا صالح ، لو ارْتَدَّ عبدُ الرَّزَّاق عن الإسْلام ما تَركْنا حَديثَه[3] .

٢٢ـ من صفات طالب العلم :

(وهناك صفات أخرىٰ ستجدها مبثوثة في أماكنها) :

(أ) الحرصُ علىٰ طَلب العِلم :

قال ابنُ طاهِر : كُنتُ يَوماً أقرأُ علىٰ أبي إسْحاقَ الحَبَّال جُزءاً فجاءَني رجلٌ من أهْلِ بَلدي ، وأسَرَّ إليَّ كلاماً قال فيه : إنَّ أخاكَ قد وَصلَ من الشَّام ، وذلكَ بعدَ دُخُولِ

---

(١) انظر السير : (يَحْيى بن عمَّار) ١٧/ ٤٨١ـ ٤٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٥١ .

(٢) انظر السير : (سُلَيم بن عيسىٰ) ٩/ ٣٧٥ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٥/٨٣٠ .

(٣) انظر السير : (عبد الرَّزَّاق بن هَمَّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٨٤٠ .

التُّرْكِ بيتَ المَقْدِس ، وقَتلِ النَّاسِ بها ، فأخَذتُ في القِراءَة ، فاخْتلطَت عليَّ السُّطُورُ ، ولمْ يُمكِنِّي أقرأُ ، فقال أبو إسْحاقَ : ما لَك ؟ قلتُ : خَيرٌ ، قال : لا بُدَّ أنْ تُخْبرَني ، فأخْبرتُه ، فقال : وكَمْ لكَ لمْ ترَ أخاكَ ؟ قلتُ : سِنين ، قال : ولِمَ لا تَذهبُ إليه ؟ قلتُ : حتىٰ أُتِمَّ الجُزءَ ، قال : ما أعْظَمَ حِرْصَكم يا أهلَ الحَديثِ ، قد تَمَّ المَجلِسُ ، وصَلَّى اللهُ علىٰ محمَّدٍ ، وانْصَرَف[1] .

(ب) تَحمُّل المَشاقّ في طَلب العِلم :

قال إبراهيمُ الحَربي : حدثنا المَرْوِذي : قلت لأحمدَ بنِ حَنْبل : أكان أُغمي عليك ، أو غُشي عليك عند ابن عُيَيْنَة ؟ قال : نعم ، في دِهْلِيزِه زَحَمَني النَّاسُ ، فأُغْمي عليَّ .

ورُويَ أنَّ سُفْيانَ قال يومئذ : كيف أُحَدِّثُ وقد مات خَيرُ النَّاس ؟![2] .

وقال محمَّدُ بنُ طاهِر : أقَمتُ بتَنِّيسَ مُدَّة علىٰ أبي محمّدِ بنِ الحَدَّاد ونُظَرائه ، فضاق بي فلمْ يَبقَ معي غَيرُ دِرهم ، وكنتُ أحتاجُ إلىٰ حِبْرٍ وكاغَد ، فتَردَّدْتُ في صَرفِه في الحِبْرِ أو الكاغَدِ أوالخُبزِ ، ومضىٰ علىٰ هـٰذا ثلاثَةُ أيّام لمْ أطْعَم فيها فلمَّا كان بُكْرةَ اليوم الرابع ، قلتُ في نفسي : لو كان لي اليوم كاغَد لم يُمكنِّي أنْ أكتبَ من الجُوعِ ، فجَعلتُ الدِّرهَمَ في فَمي وخَرجتُ لأشْتري خُبزاً ، فبَلَعْتُه ، ووَقعَ عليَّ الضَّحِكُ ، فلَقيَني صَديقٌ وأنا أضْحَكُ ، فقال : ما أضْحَكَك ؟ قلتُ : خَيرٌ ، فألَحَّ عليَّ ، وأبيتُ أنْ أُخْبِرَه ، فحَلفَ بالطَّلاقِ لتَصْدُقَنِّي ، فأخْبرتُه ، فأدْخَلَني مَنزِلَه ، وتَكلَّف أطْعِمَةً ، فلمَّا خَرجْنا لصَلاةِ الظُّهْر ، اجْتمعَ به بَعضُ وُكلاءِ عامِل تَنِّيس ابنِ قادُوس ، فسألَه عنِّي فقال : هو هـٰذا ، قال : إنَّ صاحبي منذُ شَهرٍ أمرَ بي أنْ أُوصِلَ إليه كُلَّ يومٍ عشرةَ دَراهم قيمتُها ربعُ دينار ، وسَهوتُ عنه ، فأخذَ منه ثلاثَ مئة وجاء بها مات ابنُ طاهِر عند قُدومِه من الحَجِّ سَنةَ سَبعٍ وخَمسِ مئة[3] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن طاهر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٨٧ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٢٤ .

(٣) انظر السير : (محمد بن طاهر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٨ .

(ج) الصَّبرُ علىٰ شدَّة المَشايخ :

عن سُحْنُونَ قال : كَبِرْنا وساءَت أخلاقُنا ، ويَعلمُ الله ما أَصيحُ عليكم إلاَّ لأُؤَدِّبَكم[1] .

(د) التَّرَحُّم علىٰ شَيخه والدُّعاء له :

قال أبو عليٍّ الصَّدَفيُّ : قَرأتُ علىٰ رزْقِ الله التَّميميِّ برِوايَة قالُون خَتمةً ، وكان كبيرَ بَغداد وجَليلَها ، وكان يقولُ : كلُّ الطَّوائفِ تَدَّعيني ، وسَمعتُه يقولُ : يَقبحُ بكم أنْ تَستَفيدوا منَّا ، ثم تَذكُرونا فلا تَترَحَّموا علينا ، رَحمه الله[2] .

(هـ) عَدمُ مُعارَضة آراء شَيخه بآراء شُيوخ آخَرين أمامَه :

قال عليُّ بنُ جَعْفَر : أخْبرَنا إسْماعيلُ بنُ بنتِ السُّدِّي ، قال : كنتُ في مَجلسِ مالِك ، فسُئلَ عن فَريضَةٍ ، فأجابَ بقَولِ زَيْد ، فقُلتُ ما قال فيها عليٌّ وابنُ مَسْعودٍ ، رَضيَ اللهُ عنهما ، فأوْمأَ إلى الحَجَبَة ، فلمَّا هَمُّوا بي عَدَوتُ وأعْجَزْتُهم ، فقالوا : ما نَصنَعُ بكُتبِه ومِحْبَرَتِه ؟ فقال : اطلُبُوه برِفْقٍ ، فجاؤوا إليَّ فجِئتُ معهم فقالَ مالِكٌ : من أين أنتَ ؟ قلتُ : من الكُوفَة ، قال : فأين خلَّفْتَ الأدَب ؟ فقُلتُ : إنَّما ذَاكَرتُك لأسْتَفيدَ فقال : إنَّ عليَّاً وعبدَ الله لا يُنكَرُ فَضلُهما ، وأهلُ بَلَدِنا علىٰ قَولِ زَيدِ بنِ ثابِت ، وإذا كنتَ بين قَومٍ ، فلا تَبدأهم بما لا يَعرفون فيَبدأك منهم ما تَكره .

تُوفِّي إسْماعيلُ الفَزاري في خَمس وأربَعين ومئتين وكان من أبناء التِّسْعين ، سامَحَه الله[3] .

(و) الأدب مع الشَّيخ :

(وسَتجد المَزيد في فهرس الأدَب)

قال حمدانُ بنُ الأصْبَهاني : كنتُ عند شَريك ، فأتاه بعضُ وَلدِ المَهْدي ، فاسْتَنَد ، فسألَه عن حَديثٍ ، فلمْ يَلتَفتْ إليه ، وأقبلَ علينا ، ثم أعادَ ، فعادَ بمثلِ ذلك

---

(١) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٦/٩٨٣ .

(٢) انظر السير : (رزْق الله) ١٨/ ٦٠٩ـ ٦١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٧ .

(٣) انظر السير : (ابنُ بنت السُّدِّي) ١١/ ١٧٦ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ١/٩٢٣ .

فقال : كأنَّك تَسْتَخِفُّ بأوْلادِ الخَليفَة قال : لا ، ولكنَّ العِلمَ أزْينُ عند أهلِه من أن تُضَيِّعوه ، قال : فجَثا علىٰ رُكبَتَيه ، ثم سألَه ، فقال شَريكٌ : هـٰكذا يُطلَبُ العِلمُ .

قال شَريك ، عن أشْعَثَ ، عن محمَّدِ بنِ سِيرين ، قال : أدْرَكتُ بالكُوفَة أربَعةَ آلاف شابٍّ يَطلُبون العِلمَ[1] .

(ز) العَقْلُ والدِّين :

عن عيسَى الحَنَّاط قال : قال الشَّعبيُّ : إنَّما كان يَطلبُ هـٰذا العلمَ مَنْ اجتمعَت فيه خَصْلتان : العَقلُ والنُّسُك ، فإنْ كان عاقلاً ولمْ يكنْ ناسِكاً قال : هـٰذا أمرٌ لا يَنالُه إلاَّ النُّسَّاك فلنْ أطلُبَه ، وإن كان ناسِكاً ولم يكنْ عاقِلاً قال : هـٰذا أمرٌ لا يَنالُه إلاَّ العُقَلاء ، فلن أطلُبَه يقولُ الشَّعبيُّ : فلقد رَهِبتُ أنْ يكونَ يَطلُبه اليوم مَنْ ليسَ فيه واحدةٌ منهما لا عَقْلَ ولا نُسُك .

قال الذهبيُّ : أظُنُّه أرادَ بالعَقلِ الفَهم والذَّكاء[2] .

(ح) الأَناة وعَدم العَجَلة :

قال جَعفرُ بنُ أبي عُثْمان : كنَّا عندَ يَحْيَى بن مَعين ، فجاءه رجلٌ مُسْتَعجلٌ ، فقال : يا أبا زَكَريّا ، حَدِّثْني بشيء أَذْكُرك به ، فقال يَحْيَىٰ : اذكُرني أنَّك سألتَني أنْ أُحدِّثك فلمْ أفعلْ[3] .

(ط) عَدمُ السُّؤال عن أشياء لمْ تُوجَد بعد :

قال مَسْروقٌ : سألتُ أُبَيّاً عن شيءٍ ، فقال : أكانَ بَعدُ ؟ قلتُ : لا قال : فاحْمِنا حتىٰ يكون ، فإذا كان ، اجْتَهدنا لك رَأيَنا[4] .

وعن الزُّهْريِّ ، بلغَنا أنَّ زَيدَ بنَ ثابت كان يقولُ إذا سُئل عن الأمر : أكانَ هـٰذا ؟

---

(١) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٧/٧٤٣ .
(٢) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٣ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩١١ .
(٤) انظر السير : (أُبَيُّ بنُ كعْب) ١/ ٣٨٩ـ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٨/١٨١ .

فإنْ قالوا : نَعَم حَدَّثَ فيه بالذي يَعلم وإنْ قالوا : لمْ يَكنْ قال : فذَرُوه حتىٰ يَكون[1] .

٢٣ـ عدَّةُ العَالِم « لا أدْري » :

عن الشَّعْبيِّ ، قال : لا أَدْري : نِصفُ العِلم[2] .

وعن حَنْظلَة بنِ أبي سُفْيان قال : ما رأيتُ عالماً قطُّ يَقولُ : لا أَدري أكثرَ من طاوُوس[3] .

وقال مالكُ بنُ سُليمان : كان لإبراهيمَ بنِ طَهْمان جِرايَةٌ من بَيت المال فاخرة ، يأخذُ في كلِّ وَقت ، وكان يَسْخو به ، فسُئل مرَّةً في مَجلس الخَليفة ، فقال : لا أدْري ، قالوا له : تَأخذُ كلَّ شَهرٍ كَذا وكَذا ولا تُحْسنُ مَسألَة ؟

فقال : إنَّما آخُذُ علىٰ ما أُحْسِنُ ، ولو أخَذتُ علىٰ ما لا أُحْسِنُ ، لفَنيَ بَيتُ المال عليَّ ، ولا يَفنىٰ ما لا أُحْسِن فأعْجبَ أميرَ المؤمنين جَوابُه ، وأمرَ له بجائزة فاخرة ، وزاد في جِرايَتِه .

مات إبراهيمُ بنُ طَهْمان سنة ثلاث وستين ومئة[4] .

وقال أبو مُسْهر : سَمعت سَعيدَ بنَ عبد العَزيز يقولُ : « لا أدري » لما لا أدْري نصفُ العِلم وسَمعتُه يقولُ : ما كُنتُ قَدَريَّاً قطُّ وسَمعتُ رَجلاً يقولُ لسَعيدٍ : أطالَ الله بقاءَك ، فقال : بل عَجَّلَ اللهُ بي إلىٰ رَحمَتِه[5] .

وعن مالك قال : جُنَّةَ العالم : « لا أدري » فإذا أغْفَلَها أُصيبَتْ مَقاتِلُه[6] .

وعن مالكٍ أنَّه سَمع عبدَ الله بن يزيد بن هُرْمُز يقول : يَنبَغي للعالم أن يُورث

---

(١) انظر السير : (زَيْد بن ثابت) ٢/ ٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢٨٧ .
(٢) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٩/ ٥٠٤ .
(٣) انظر السير : (طاوُوس بن كيْسان) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٧٨ .
(٤) انظر السير : (إبْراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٠٦ .
(٥) انظر السير : (سَعيد بن عبد العَزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٢٤ .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٢٩ .

جُلَسَاءَه قولَ : « لا أدري » حتىٰ يكون ذلك أصْلاً يَفزَعون إليه[1] .

قال ابنُ عبدِ البَرِّ : صَحَّ عن أبي الدَّرْداء أنَّ : « لا أدري » نصف العلم[2] .

هل يَستطيعُ العالمُ أنْ يَقولَ « لا أدْري » فيما يَدْري ؟ :

وسُئلَ سُحْنونُ : أيَسَعُ العالمَ أنْ يقولَ : (لا أَدري) فيما يَدري ؟ قال : أمَّا ما فيه كتابٌ أو سُنةٌ ثابتة فلا ، وأمَّا ما كان من هـٰذا الرَّأي ، فإنه يَسَعُه ذلك ، لأنَّه لا يَدري أمُصيبٌ هو أم مُخْطِىء[3] .

٢٤ـ مَنْ علِمَ علماً وقصر في آخَر :

قال الذهبيُّ في تَرجَمة أبي بَكر بنِ عيَّاش : قال غَيرُ واحدٍ : إنَّه صَدوقٌ ، وله أَوْهام[4] .

وقال الذهبيُّ : فأمَّا حالُه في القِراءَة ، فقَيِّمٌ بحَرفِ عاصِم ، وقد خالَفه حَفصٌ في أزْيَد من خَمسِ مئة حَرف ، وحَفصٌ أيضاً حُجَّةٌ في القراءة ، لَيِّنٌ في الحَديث[5] .

وقال الحاكِمُ : قال الدَّارَقُطنيُّ : أبو عُمَر الدُّوري ، يُقالُ له : الضَّرير ، وهو ضَعيفٌ وقِيلَ : هو من الدُّور ـ مَحِلَّةٌ بالجانب الشَّرقي من بَغداد .

وتُوفِّي الدُّوريُّ سنةَ ستٍّ وأربَعين ومئتَين[6] .

قال الذهبيُّ : وقولُ الدَّارَقُطنيِّ : « ضَعيفٌ » ، يُريدُ في ضَبطِ الآثار أمَّا في القِراءاتِ فثَبتٌ إمامٌ وكذلك جَماعَةٌ من القُرَّاء أَثْباتٌ في القِراءَة دُون الحَديثِ كنافعٍ ، والكِسائيِّ ، وحَفصٍ ، فإنَّهم نَهضوا بأعْباء الحُروف وحرَّرُوها ، ولمْ يَصْنعوا ذلك في

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٢٩/ ٤ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٢٩/ ٥ .
(٣) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٩٨٢/ ٨ .
(٤) انظر السير : (أبو بكر بن عيَّاش) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٧٨٦/ ١ .
(٥) انظر السير : (أبو بكر بن عيَّاش) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٧٨٦/ ٢ .
(٦) انظر السير : (الدُّوري) ١١/ ٥٤١ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٧٨٦/ ٢ .

الحَديثِ ، كما أنَّ طائفةً من الحُفَّاظ أتْقَنُوا الحَديثَ ، ولم يُحْكِموا القِراءَةَ وكذا شأنُ كُلِّ مَنْ برَزَ في فَنٍّ ، ولمْ يَعتنِ بما عَداه ، والله أعلم[1] .

وقال الذهبيُّ في ترجَمة الأَهْوازيِّ : كان رَأساً في القِراءاتِ ، مُعَمِّراً ، بَعيدَ الصِّيتِ ، صاحبَ حَديث ورِحْلَة وإكثار ، وليس بالمُتقِنِ له ، ولا المُجَوِّد ، بل هو حاطِبُ ليلٍ ومع إمامَتِه في القِراءاتِ فقد تُكُلِّمَ فيه وفي دَعاويه تلك الأسانيدَ العالية .

وهو الشيخُ الإمامُ العَلاَّمةُ ، مُقرىء الآفاق ، أبو علي ، الحَسنُ ابنُ عليّ بنِ إبراهيم الأَهْوازيّ ، نَزيلُ دِمَشْقَ وُلدَ سَنةَ اثنتَين وستِّين وثلاث مئة .

وزَعمَ أنَّه تَلا علىٰ عليٍّ بن الحُسينِ الغَضَائِرِيِّ ـ مَجْهولٌ لا يُوثَقُ به[2] .

جَمعَ سيرةً لمُعاويَة ، و« مُسْنداً » في بضعة عشر جزءاً ، حَشاه بالأباطيل السَّمجَة[3] .

وألف كتاباً طويلاً في الصِّفات ، فيه كَذبٌ ، وممَّا فيه حَديثُ عَرَقِ الخَيْلِ[4] وتلك الفَضائح ، فسَبَّه عُلماء الكَلام وغيرُهم[5] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمة إمامِ الحَرَمَين ، أبي المَعالي الجُويني : كان هٰذا الإمامُ مع فَرطِ ذَكائه وإمامَتِه في الفُروع وأصُول المَذهب وقوَّة مُناظَرتِه لا يَدري الحَديث كما يَليقُ به لا مَتْناً ولا إسْناداً ذَكر في كتاب « البُرهان » حَديثَ مُعاذٍ في القياس فقال : هو مُدَوَّنٌ في الصِّحاح ، مُتفَّقٌ علىٰ صِحتِه .

قلتُ (والكلامُ للذهبيِّ) : بل مَدارُه على الحارِثِ بنِ عَمرو ، وفيه جَهالَةٌ ، عن رجالٍ من أهلِ حمص ، عن مُعاذٍ فإسْنادُه صالح[6] .

---

(١) انظر السير : (الدُّوري) ١١/ ٥٤١ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٨٦ .
(٢) انظر السير : (الأَهْوَازيّ) ١٨/ ١٣ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٣٧٧ .
(٣) انظر السير : (الأَهْوَازيّ) ١٨/ ١٣ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٧٧ .
(٤) انظر « اللآلىء المصنوعة » : ١/ ٣ ، و« تَنزيه الشَّريعة » : ١/ ١٣٤ .
(٥) انظر السير : (الأَهْوَازيّ) ١٨/ ١٣ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٧٧ .
(٦) انظر السير : (إمام الحَرمَين) ١٨/ ٤٦٨ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٣٣ .

٢٥ـ ضَابطٌ في إطْلاق التَّضْعيف لعالم بسَبب ضَعفه في علمٍ أو أكثر :

قال الذهبيُّ في ترجمة عاصِمِ بنِ أبي النَّجود : كان عاصمٌ ثَبتاً في القِراءَةِ صَدوقاً في الحَديثِ ، وقد وَثَّقَه أبو زُرْعَة وجَماعةٌ ، وقال أبو حاتم : مَحلُّه الصِّدقُ ، وقال الدَّارَقُطْنيُّ : في حِفظِه شيءٌ ، يَعني : للحَديثِ لا للحُروفِ ، وما زالَ في كُلِّ وَقتٍ يكونُ العالمُ إماماً في فَنٍّ مُقصِّراً في فُنونٍ وكذلك كان صاحِبُه حَفصُ بنُ سُليْمان ثَبتاً في القِراءَةِ واهياً في الحَديثِ ، وكان الأعْمَشُ بخِلافِه كان ثَبتاً في الحَديث لَيِّناً في الحُروف ، فإنَّ للأعْمَشِ قراءةٌ مَنقولَةٌ في كتاب « المنهج » وغيره لا تَرتَقي إلىٰ رُتبَةِ القِراءاتِ السَّبع ، ولا إلىٰ قِراءةِ يَعقُوب وأبي جَعْفَر والله أعلم .

تُوفِّي عاصمٌ في آخر سنةِ سبعٍ وعشرين ومئة[١] .

وقال الحاكِمُ : قال الدَّارَقُطْنيُّ : أبو عُمَر الدُّوري ، يُقالُ له : الضَّرير ، وهو ضَعيفٌ وقِيلَ : هو من الدُّور ـ مَحِلَّةٌ بالجانب الشَّرقي من بَغداد

وتُوفِّي الدُّوريُّ سنةَ ستٍّ وأربَعين ومئتَين[٢] .

قال الذهبيُّ : وقولُ الدَّارَقُطنيِّ : « ضَعيفٌ » ، يُريدُ في ضَبطِ الآثار أمَّا في القِراءاتِ فثَبتٌ إمامٌ وكذلك جَماعَةٌ من القُرَّاء أَثْباتٌ في القِراءَة دُون الحَديثِ كنافعٍ ، والكِسائيِّ ، وحَفصٍ ، فإنَّهم نَهضوا بأعْباء الحُروف وحرَّرُوها ، ولمْ يَصْنعوا ذلك في الحَديثِ ، كما أنَّ طائفةً من الحُفَّاظ أتْقَنُوا الحَديثَ ، ولم يُحْكِموا القِراءَةَ وكذا شأنُ كُلِّ مَنْ برَزَ في فَنٍّ ، ولمْ يَعتنِ بما عَداه ، والله أعلم[٣] .

٢٦ـ العُلَماء صِغار السن :

قال يَحْيَىٰ بنُ أيُّوبَ العابدُ : حدَّثنا أبو المُثَنَّىٰ قال : سَمعتُهم بمَرْوَ يَقولون : قد جاءَ الثوريُّ ، فخَرجتُ أنظرُ إليه ، فإذا هو غُلامٌ قد بَقَلَ[٤] وَجْهُه[٥] .

---

(١) انظر السير : (عاصم بن أبي النَّجود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٩٩ .

(٢) انظر السير : (الدُّوري) ١١/ ٥٤١ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٨٦ .

(٣) انظر السير : (الدُّوري) ١١/ ٥٤١ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٨٦ .

(٤) بَقَلَ وَجْهه ، وأبْقَل : خَرجَ شَعرُه .

(٥) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٩٥ .

وقال ابنُ مَهْدي : رأىٰ أبو إسْحاق سُفيانَ الثَّوريَّ مُقبلاً : فقالَ : ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾[1] .

وعن ابنِ عُيَيْنَة قال : ما رأيتُ رجلاً أعْلمَ بالحَلالِ والحَرامِ من سُفْيان الثَّوْري[2] .

وطلبَ مالكٌ العلمَ ، وهو ابنُ بضعَ عَشرةَ سنةً ، وتأهَّلَ للفُتيا ، وجلسَ للإفادَة ، وله إحْدَىٰ وعِشرونَ سَنةً ، وحدَّثَ عنه جماعةٌ وهو حيٌّ شابٌّ طَريٌّ ، وقَصدَه طلبَةُ العلمِ من الآفاقِ في آخرِ دَولَةِ أبي جَعْفَر المَنصُور وما بعدَ ذلكَ ، وازْدَحموا عليه في خِلافَة الرَّشيد ، وإلىٰ أنْ مات[3] .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمَة الإمام الشَّافعيِّ : وارتَحَلَ ـ وهو ابنُ نَيِّفٍ وعِشرينَ سَنةً ، وقد أفْتَىٰ وتأهَّلَ للإمامَة ـ إلى المَدينة فحمَلَ عن مالكِ ابنِ أنَس « المُوَطَّأ » عَرَضَه من حِفْظِه[4] .

وقال محمّدُ بنُ أبي حاتم : قلتُ لأبي عبد الله البُخاري : كيف كان بَدءُ أمرِك ؟ قال : أُلْهِمتُ حِفظَ الحَديثِ وأنا في الكُتَّاب فقلتُ : كم كان سِنُّك ؟ فقال : عَشرُ سِنينَ ، أو أقَلّ ، ثم خَرجتُ من الكُتَّابِ بعد العَشرِ فجعلتُ أختلفُ إلى الدَّاخِليِّ وغيرِه ، فقال يوماً فيما كان يقرأُ للنَّاسِ : سُفيانُ ، عن أبي الزُّبَيرِ ، عن إبراهيمَ ، فقلتُ له : إنَّ أبا الزُّبَير لم يَروِ عن إبراهيمَ ، فانْتَهَرَني ، فقلتُ له : ارجعْ إلى الأصْلِ ، فدخلَ فنَظرَ فيه ، ثم خَرجَ ، فقال لي : كيفَ هو يا غُلامُ ؟ قلتُ : هو الزُّبَيْرُ ابنُ عَدي : عن إبراهيمَ ، فأخذَ القَلمَ منِّي ، وأحْكَمَ كتابَه ، وقال : صَدقْتَ فقيلَ للبُخاري : ابنُ كم كُنتَ حينَ رَدَدتَ عليه ؟ قال : ابنُ إحْدَىٰ عَشرةَ سَنةً[5] .

وقال محمَّدُ بنُ أبي حاتم البُخاري : سَمعتُ أبا عبد الله محمَّدَ بنَ إسْماعيل يقولُ : حَجَجْتُ ورَجعَ أخي بأمِّي وتَخلَّفتُ في طَلبِ الحَديثِ فلمَّا طَعنتُ في ثمانِ عَشرةَ ،

---

(١) سورة مريم ، الآية : ١٢ .

(٢) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٩٥ .

(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٢٦ .

(٤) انظر السير : (الإمام الشَّافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٤٥ .

(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠١٠ .

جعلتُ أُصَنِّفُ قَضايا الصَّحَابَة والتَّابعينَ وأقاويلَهم[1] .

وقال محمَّدُ بنُ أبي حاتم البُخاري : سَمعتُ حاشِدَ بنَ إسْماعيل وآخرَ يَقولان : كان أهلُ المَعْرِفَة من البَصْريِّين يَعْدُونَ خَلفَ أبي عبد الله البُخاري في طَلبِ الحَديث وهو شابٌّ حتىٰ يَغلِبُوه علىٰ نفسِه ، ويُجلِسُوه في بَعضِ الطَّريقِ ، فيَجتمعُ عليه ألوفٌ ، أكثرُهم ممَّن يَكتبُ عنه ، وكان شاباً لمْ يَخرجْ وَجهُه[2] .

وقال أبو محمّد بنُ حَزْم : كان محمَّدُ بنُ داوُد من أجملِ النَّاسِ ، وأكرَمِهم خُلُقاً ، وأبلَغِهم لساناً ، وأنْظَفِهم هَيئةً ، مع الدِّينِ والوَرَع ، وكلِّ خلَّة مَحْمودة ، مُحبَّباً إلى النَّاسِ ، حَفظَ القُرآنَ وله سَبعُ سنين ، وذاكَرَ الرجالَ بالآدابِ والشِّعْرِ وله عَشرُ سنين ، وكان يُشاهَد في مَجلسِه أربعُ مئة صاحبِ محْبَرة عاشَ ثلاثاً وأربعين سنةً قال : وماتَ ابنُ داوُد سنةَ سَبعٍ وتسعينَ ومئتَين[3] .

وقيلَ : إنَّ ابنَ أبي زَيد صَنعَ « رسالتَه » المَشْهورَة وله سَبعَ عشرةَ سنةً ، وكان مع عَظمَته في العلمِ والعَملِ ذا بِرٍّ وإيثارٍ وإنْفاقٍ على الطَّلَبة وإحْسان[4] .

ورُوي عن سُليم الرَّازي قال : كان أبو حامد الإسْفَراييني في أوَّلِ أمرِه يَحرُسُ في دَربٍ ، وكان يُطالِعُ علىٰ زَيتِ الحَرَس ، وإنَّه أفْتَىٰ وهو ابنُ سَبع عشرةَ سنة .

قال الخَطيبُ : ماتَ أبو حامد في سَنةِ سِتٍّ وأربعِ مئة ، كان يَوماً مَشْهوداً ، ودُفنَ في دارِه ، ثم نُقِلَ بعد أرْبعِ سِنينَ ، ودُفنَ ببابِ حَربٍ ، رَحمَه الله[5] .

وجاء في تَرجمةِ السِّلَفِيِّ ، أبي طاهِر أحمدِ بنِ محمَّدِ الجَروانيِّ ، قال الذهبيُّ : وُلدَ في سَنةِ خَمسٍ وسَبعين ، أو قَبلَها بسَنة قال : أنا أذْكُرُ قَتلَ نظامِ المُلك ـ يَعني الوَزيرَ الذي وَقفَ المدرسَةَ النِّظاميَّةَ ببَغْداد ـ وكان عُمري نَحوَ عَشر سِنين ، قُتلَ نظامُ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠١١ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٠١٢ .
(٣) انظر السير : (محمد بن داوُد) ١٣/ ١٠٩ـ ١١٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦١ .
(٤) انظر السير : (ابن أبي زَيْد) ١٧/ ١٠ـ ١٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣١٩ .
(٥) انظر السير : (أبو حامد الإسْفراييني) ١٧/ ١٩٣ـ ١٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٦ .

المُلْك سَنةَ خَمسٍ وثَمانين وأربع مئة ، وقد كُتب عنِّي بأصْبَهان أوَّلَ سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة ، وأنا ابنُ سبعَ عَشرةَ سَنةً أو أكثر ، أو أقلَّ بقليل ، وما في وَجهي شَعرةٌ ، كالبُخاريِّ ـ رَحمَه الله ـ يَعني لمَّا كتبوا عنه .

وقال الإمامُ أبو شَامَة : سَمعتُ شَيخَنا عَلمَ الدِّين السَّخاويَّ يَقولُ : سَمعتُ يَوماً أبا طاهِر السِّلَفِيَّ يُنشِدُ لنَفسِه ما قالَه قَديماً :

أنـــا مِـــنْ أهْـــلِ الحَـــديـ ـــــثِ وهُـــم خَيـــرُ فِئَـــة
جُـــــزْتُ تِسْعيـــــنَ وأَرْ جُـــو أنْ أجُـــوزَنَّ المِئَـــة

قال : فقِيلَ له : قد حَقَّقَ اللهُ رَجاءَك ، فعَلمتُ أنَّه جازَ المِئَة .

وارْتَحلَ وله أقَلُّ من عِشرينَ سَنةً ، ونَسخَ من الأجْزاءِ ما لا يُحْصَىٰ كَثرةً فكان يَنسَخُ الجُزءَ الضَّخْمَ في لَيلةٍ[1] .

٢٧ـ الحَثُّ على التَّعَلُّم في الصِّغَر :

عن هشامِ بنِ عُرْوَة ، عن أبيه ، أنَّه كان يَقولُ لنا ونَحنُ شَبابٌ : ما لكم لا تَعَلَّمون ، إنْ تَكونوا صِغارَ قَوْمٍ يُوشِكُ أنْ تَكونوا كِبارَ قَوْمٍ ، وما خيرُ الشَّيخِ أنْ يَكونَ شَيخاً وهو جاهلٌ ، لقد رَأيتُني قبلَ مَوتِ عائشَةَ بأرْبَعِ حِجَجٍ وأنا أقولُ لو ماتَت اليومَ ما نَدمْتُ علىٰ حَديثٍ عندَها إلاَّ وقد وَعَيتُه ، ولقد كان يَبلُغُني عن الصَّحابيِّ الحَديثُ فآتيه فأجدُه قد قالَ ، فأجلسُ علىٰ بابِه ، ثم أسْألُ عنه[2] .

٢٨ـ العُلَماء الذين تَعلَّموا علىٰ كبَر :

عن الفَرَّاءِ قالَ : إنَّما تَعلَّم الكسائيُّ النَّحْوَ علىٰ كبَر[3] .

قال الامام الذهبي : كان الكسائيُّ ذا مَنزِلَة رَفيعة عند الرَّشيد ، وأدَّبَ ولدَه

---

(١) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٩١ .

(٢) انظر السير : (عُرْوَة بن الزُّبَيْر) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٦ .

(٣) وكان سبب تعلمه أنه جاء يوماً وقد مشىٰ حتىٰ أعيىٰ ، فجلس إلىٰ قوم فيهم فضل ، وكان يُجالسهم كثيراً ، فقال : قد عَيَّيْتُ ، فقالوا له تجالسنا وأنت تلحن ، فقال : كيف لحنتُ ؟ فقالوا : إن كنتَ=

الأمينَ ، ونالَ جاهاً وأمْوالاً ، وقد ترجمتُه في أماكن .

سارَ مع الرَّشيد ، فمات بالرَّيِّ بقَريَة أرَنْبُويَة سنةَ تسعٍ وثَمانين ومئة عن سَبعين سنة[1] .

وجاء في ترجمة القَفَّالِ ، أبي بكر عبد الله بن أحمد المَرْوَزيّ ، قال الذهبيُّ : حَذقَ في صنعَة الأقْفَال حتىٰ عَملَ قُفلاً بآلاته ومِفتاحِه زِنَةَ أربَع حَبَّات ، فلمَّا صارَ ابن ثلاثين سَنة ، آنَسَ من نفسِه ذكاءً مُفرطاً ، وأحَبَّ الفِقْهَ فأقبلَ علىٰ قِراءَتِه حتىٰ بَرعَ فيه ، وصار يُضرَب به المَثلُ ، وهو صاحبُ طَريقة الخُراسانيِّين في الفِقْه .

قال الفَقيهُ ناصرٌ العُمري : لمْ يكنْ في زمانِ أبي بكر القَفَّال أفْقَهُ منه ، ولا يَكونُ بعدَه مثلُه ، وكنَّا نقولُ : إنَّه مَلَكٌ في صُورةِ الإنْسان حدَّث وأمْلىٰ ، وكان رأساً في الفِقْه ، قُدوَةً في الزُّهْد[2] .

وقال أبو بَكْر محمَّدُ بنُ طرخان التُّرْكي : قال لي الإمامُ أبو محمَّد عبدُ الله بنُ محمَّد ـ يَعني والدَ أبي بَكْر بنِ العَربي ـ : أخْبَرني أبو محمَّد بنُ حَزْم أنَّ سَبب تَعلُّمه الفِقْهَ أنَّه شَهِدَ جنازَةً ، فدَخلَ المَسجدَ ، فجَلسَ ولمْ يَركَعْ ، فقال له رجلٌ : قُمْ فَصَلِّ تَحيَّةَ المَسجدِ وكانَ قد بلغَ سِتَّاً وعشرينَ سنةً قالَ : فقُمتُ وركَعتُ ، فلمَّا رَجعنا من الصَّلاة على الجِنازَة ، دَخلتُ المَسجدَ ، فبادَرتُ بالرُّكوع ، فقِيلَ لي : اجْلِسْ اجْلِسْ ، ليسَ ذا وَقتُ صَلاة ـ وكان بعدَ العَصْر ـ قال : فانْصَرفْتُ وقد حَزِنْتُ ، وقُلتُ للأُستاذِ الذي رَبَّاني : دُلَّني علىٰ دارِ الفَقيهِ أبي عبد الله بنِ دحُّون قال : فقَصَدتُه ، وأعْلَمتُه بما جَرىٰ ، فدَلَّني علىٰ « مُوَطَّأ » مالكٍ ، فبَدأتُ به عليه ، وتتابَعَت قراءَتي عليه وعلىٰ غَيرِه نحواً من ثلاثةِ أعْوام ، وبَدأتُ بالمُناظَرة .

= أردتَ من التَّعَب فقُل : « أعييتُ » ، وإن كنت أردتَ من انقطاع الحيلة والتَّحَيُّر في الأمر ، فقُل : « عَييتُ » مُخفَّفَة ، فأنفَ من هـٰذه الكلمة ، وقام من فَوْره فسألَ عمَّن يعلم النَّحْوَ ، فأُرْشِدَ إلىٰ مُعاذ الهرَّاء ، فلزِمَه حتىٰ أنفذَ ما عندَه .

(١) انظر السير : (الكسائيّ) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٠٧ .

(٢) انظر السير : (القَفَّال) ١٧/ ٤٠٥ـ ٤٠٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٤٧ .

قال أبو مَرْوانَ بنُ حَيَّان : كان ابنُ حَزْم ـ رَحمَه الله ـ حاملَ فُنونٍ من حَديثٍ وجَدَلٍ ونَسَبٍ ، وما يَتعلَّقُ بأذْيالِ الأدَب ، مع المُشارَكَة في أنْواعِ التَّعاليم القَديمَة من المَنْطِق والفَلْسَفة ، وله كُتبٌ كَثيرة لمْ يَخلُ فيها من غَلطٍ لجَراءتِه في التَّسَوُّرِ على الفُنون لا سيَّما المَنْطِق فإنَّهم زَعَموا أنَّه زَلَّ هناك ، وضَلَّ في سُلوكِ المَسالِكِ ، وخالَفَ أرِسْطاطاليسَ واضِعَ الفَنِّ مخالفةَ مَنْ لمْ يَفهَمْ غَرضَه ، ولا ارْتاضَ ، ومالَ أولاً إلى النَّظرِ علىٰ رأي الشَّافعيِّ ، وناضَلَ عن مَذهَبِه حتىٰ وُسِمَ به ، فاسْتُهْدِف بذلك لكَثيرٍ من الفُقَهاء ، وعِيبَ بالشُّذوذ ، ثم عَدَلَ إلىٰ قَولِ أصْحابِ الظَّاهِر فنَقَّحَه ، وجادَلَ عنه ، وثَبتَ عليه إلىٰ أنْ ماتَ ، وكان يَحملُ عَلمَه هٰذا ، ويُجادِلُ عنه مَنْ خالَفَه ، على اسْتِرْسالٍ في طِباعِه ومَذَلٍ[1] بأسْرارِه ، واسْتنادٍ إلى العَهدِ الذي أخَذَه اللهُ على العُلماء ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[2] ، [3] .

٢٩ـ من أسباب عَدم الاستفادَة من العُلَماء :

(أ) كثرَة مُخالَفته :

قال الزُّهْريُّ : أرْبَعةٌ من قُريشٍ وَجدتُهم بُحوراً ، عُرْوَةُ ، وابنُ المُسَيِّبِ ، وأبو سَلَمَةَ ، وعُبَيْدُ اللهِ بنُ عَبدِ الله ، قالَ : وكانَ أبو سَلَمَةَ كثيراً ما يُخالِفُ ابنَ عَبَّاس فحُرِمَ لذَلكَ منه عِلماً كَثيراً قالَه الزُّهريُّ[4] .

(ب) كون العالِم في غُربَة وهو لا يُعْرَف :

عن عُمرُ بنِ حَبيب قال : كانَ سَعيدُ بنُ جُبَير بأصْبَهانَ لا يُحدِّث ، ثم رَجعَ إلى الكُوفَة فجَعلَ يُحدِّثُ ، فقُلنا له في ذلك فقال : انْشُرْ بَزَّكَ حَيثُ تُعْرَف[5] .

---

(١) مذل بسره ، كنصر وعلم وكرم : أفشاه ومذلت نفسه بالشيء مذلاً : طابت وسمحت .

(٢) في قوله تعالىٰ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (آل عمران ، الآية : ١٨٧) وقوله تعالىٰ : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيب فيهما ، والباقون بتاء الخطاب .

(٣) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٠١ .

(٤) انظر السير : (أبو سَلَمَة بن عبد الرحمَٰن) ٤/ ٢٨٧ـ ٢٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٩٩ .

(٥) انظر السير : (سعيد بن جُبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٠٥ .

(ج) عَدم الأمَان :

قال الخَطيبُ : كان دَعْلَجُ من ذَوي اليَسار ، له وُقوفٌ علىٰ أهْلِ الحَديث .

وقال الخَطيبُ : حَكَىٰ لي أبو العَلاء الواسِطيُّ ، أنَّ دَعْلَجاً سُئل عن مُفارَقتِه مَكة ، فقال: خَرجتُ لَيلةً من المَسجدِ، فتَقدَّم ثلاثةٌ من الأعْرابِ ، فقالوا: أخٌ لك من خُراسان قَتلَ أخَانا ، فنَحنُ نَقتُلك به ، فقُلتُ : اتَّقوا الله ، فإنَّ خُراسانَ لَيست بمَدينَةٍ واحِدَة ، ولمْ أزَلْ بهم إلىٰ أنْ اجْتَمعَ النَّاسُ وخَلُّوا عَنِّي فهـٰذا كان سَببُ انْتِقالي إلىٰ بَغْداد وكان يقولُ : ليسَ في الدُّنيا مثلُ داري ، وذلكَ لأنَّه ليسَ في الدُّنيا مثلُ بَغْدادَ ، ولا ببَغْدادَ مثلُ مَحِلَّة القَطيعة ، ولا في القَطيعة مثلُ دَرْب أبي خَلَف ، وليسَ في الدَّرْب مثلُ داري[1] .

(د) الكبْر والتِّيه على العالِم :

قال عُثمانُ بنُ خُرَّزاذ : سَمعتُ الشَّاذَكُونيَّ يقولُ : جاءَني محمَّدُ ابنُ مُسْلم فقَعدَ يَتقعَّرُ[2] في كَلامِه ، فقلتُ له : مِنْ أيِّ بلدٍ أنتَ ؟ قال : مِنْ أهْلِ الرَّيِّ ، ألَمْ يأتِكَ خَبري ؟ ألَمْ تَسمَعْ بنبَئي ؟ أنا ذُو الرِّحْلَتين قُلتُ : مَنْ رَوَىٰ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكمَةً » فقالَ : حدَّثَني بعضُ أصْحابِنا قلتُ : مَنْ ؟ قال : أبو نُعَيم وقَبيْصَة قلتُ : يا غُلامُ! ائْتِني بالدِّرَّة ، فأتاني بها ، فأمَرتُه ، فضَربَه بها خَمسينَ ، قلتُ : أنتَ تَخرُجُ من عِندي ، ما آمَنُ أن تقولَ : حَدَّثني بَعضُ غِلْمانِنا[3] .

قال زَكريّا السَّاجي : جاءَ ابنُ وَارَة إلىٰ كُرَيْب ، وكان في ابنِ وَارَة بأوٌ[4] فقال لأبي كُرَيْب : ألَمْ يَبْلُغْك خَبري ؟ ألَمْ يأتِكَ نَبَئي ، أنا ذو الرِّحْلَتين ، أنا محمَّدُ بنُ مُسْلم بنِ وَارَة فقال : وَارَة ؟!! وما أدْراكَ ما وَارَة ؟ قُمْ ، فواللهِ لا حَدَّثْتُك ، ولا حَدَّثْتُ قَوماً أنت فيهم[5] .

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٦٦ .
(٢) التقعير : أن يتكلم بأقصىٰ قعر فمه .
(٣) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٨ .
(٤) البأوُ : الكِبرُ والتِّيه .
(٥) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٨ .

(هـ) التَّعَصُّب المَذْهَبيّ :

كان بَقيُّ بنُ مَخْلَد أوَّلَ مَنْ كَثَّرَ الحَديثَ بالأنْدلُس ونَشَره ، وهاجَمَ به شُيوخَ الأنْدَلُس ، فثارُوا عليه ، لأنَّهم كان عِلْمُهم بالمَسائِل ومَذهَب مالِك ، وكان بَقيٌّ يُفْتي بالأثَر ، فشَذَّ عنهم شُذوذاً عَظيماً ، فعَقَدوا عليه الشَّهادات ، وبَدَّعوه ، ونَسَبوا إليه الزَّنْدَقَة ، وأشْياءَ نَزَّهَه اللهُ منها وكان بَقيٌّ يقولُ : لقد غَرسْتُ لهم بالأنْدَلُس غَرْساً لا يُقْلَعُ إلاَّ بخُروجِ الدَّجَّال[1] .

(و) أزْهَدُ النَّاس في عالمٍ أهْلُه :

عن هشامِ بنِ عُرْوَة ، عن أبيه قال : كان يُقالُ : أزْهَدُ النَّاسِ في عالِمٍ أهلُه[2] .

وقال سُليمانُ الأحْوَل : لَقيتُ عِكرِمَةَ ومعه ابنٌ له ، قُلتُ : أيَحْفَظُ هـٰذا من حَديثِك شَيئاً ؟ قال : إنَّه يُقالُ : أزْهَدُ النَّاسِ في عالِمٍ أهلُه[3] .

٣٠ـ من أسْباب عَدم انتشار علم بَعض العُلَماء :

(أ) كثرَة العبادَة :

قال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة : سَمعتُ عَطاءَ بنَ السَّائِب يقولُ : رأيتُ مُصَلَّىٰ مُرَّةَ الهمذانيّ مثل مَبرِك البَعير ، ونقل عَطاءٌ أو غَيرُه أنَّ مُرَّةَ كان يُصَلي في اليوم والليلة سِتَّ مئة قال الذهبيُّ : ما كان هـٰذا الوَلِيُّ يَكادُ يَتفرَّغُ لنَشْرِ العِلم ، ولهـٰذا لم تَكثُر رِوايتُه ، وهل يُرادُ من العِلم إلاَّ ثَمَرَتُه .

ماتَ مُرَّةُ سنةَ نيِّف وثمانينَ ـ رَحمَه الله ـ بالكُوفَة[4] .

(ب) الشذوذ وكثرَة المُخالَفة :

جاء في تَرجمَة الإمامِ مالِك ، قال الذهبيُّ : وللزَّيْديَّة مَذهبٌ في الفُروع بالحِجازِ

---

(١) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٦ .
(٢) انظر السير : (عُروَة) ٤/ ٤٢١ـ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/٥٢٦ .
(٣) انظر السير : (عِكرمَة) ٥/ ١٢ـ٣٦ ، وانظر النزهة : ٦/٥٧٦ .
(٤) انظر السير : (مُرَّة الطَّيب) ٤/ ٧٤ـ٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٤٤٧ .

واليَمَنِ ، لكنَّه مَعدُودٌ في أقْوالِ أهْلِ البِدَع ، كالإماميَّة ، ولا بأسَ بمَذهَبِ داوُد ، وفيه أقْوالٌ حَسَنةٌ ، ومُتابَعَةٌ للنُّصوصِ ، مع أنَّ جَماعَةً من العُلمَاء لا يَعْتدُّون بخِلافِه ، وله شُذوذٌ في مَسائل شانَت مَذْهَبَه .

ولكن هـٰذا الإمام الذي هو النَّجْمُ الهادي قد أنْصَفَ ، وقال قَولاً فَصْلاً ، حَيثُ يقولُ : كُلُّ أحَدٍ يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ صاحِبُ هـٰذا القَبر صلى الله عليه وسلم[1] .

(ج) قَسوةُ عبارة العالِم ، وشَتمه وسبّه غيرَه :

جاء في تَرجَمة ابنِ حَزْم ، قال الذهبيُّ : قيل إنه تَفَقَّه أولاً للشَّافِعيِّ ، ثم أدَّاهُ اجْتهادُه إلى القَولِ بنَفْيِ القِياسِ كُلّه جَليِّه وخَفيِّه ، والأخْذِ بظاهِرِ النَّص وعُمومِ الكِتاب والحَديث ، والقَولِ بالبَراءَة الأصْليَّة ، واسْتصْحابِ الحَال ، وصَنَّفَ في ذلك كُتباً كثيرة ، وناظَرَ عليه ، وبَسَط لسانَه وقَلَمَه ، ولمْ يَتأدَّبْ مع الأئِمَّة في الخِطاب ، بلْ فجَّجَ[2] العِبارَة وسَبَّ وجدَّع[3] ، فكان جَزاؤُه من جِنْسِ فعلِه ، بحَيثُ إنَّه أعْرَضَ عن تَصانيفِه جَماعَةٌ من الأئمَّة ، وهَجَروهُا ونَفَروا منها ، وأُحْرِقَتْ في وَقتٍ ، واعْتَنَىٰ بها آخَرونَ من العُلماء وفتَّشُوها انْتِقاداً واسْتفادَةً ، وأخْذاً ومُؤاخَذةً ، ورَأوا فيها الدُّرَّ الثَّمينَ مَمْزُوجاً في الرَّصْفِ بالخَرَزِ المَهين ، فتارَةً يَطْرَبون ، ومرَّةً يُعْجَبون ، ومن تَفرُّدِه يَهزَؤُون .

وفي الجُملَة فالكَمالُ عَزيزٌ ، وكلُّ أحَد يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يَنهَضُ بعُلوم جَمَّة ، ويُجيدُ النَّقْلَ ، ويُحسِنُ النَّظْمَ والنَّثْرَ وفيه دينٌ وخَيرٌ ومَقاصِدُهُ جَميلةٌ ، ومُصنَّفاتُه مُفيدَةٌ ، وقد زَهدَ في الرِّئاسَة ، ولَزِمَ مَنزلَه مُكبّاً على

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٣٣ .

(٢) المعنىٰ أنه ساق العبارة فجَّة قاسية .

(٣) الجدع في الأصل : القطع ، وهو هنا كناية عن الذَّم والشَّتْم .

العِلمِ ، فلا نَغْلو فيه ، ولا نَجْفو عنه ، وقد أثْنىٰ عليه قبلَنا الِكبارُ :

قال أبو حامد الغَزاليّ : وَجدتُ في أسْماءِ اللهِ تَعالَىٰ كتاباً ألَّفَه أبو محمَّد بنُ حَزْم الأنْدَلُسيّ يَدلُّ علىٰ حفظِه وسَيلانِ ذِهْنه .

وقال أبو عبد الله الحُمَيديّ : كان ابنُ حَزْم حافظاً للحَديثِ وفِقهِه ، مُستنبطاً للأحْكامِ من الكتابِ والسنَّة ، مُتفنِّناً في عُلوم جمَّة عاملاً بعلمِه ، ما رأينا مثلَه فيما اجْتمعَ له من الذَّكاء وسُرعةِ الحِفظِ وكرمِ النَّفس والتَّديُّن ، وكان له في الأدَبِ والشِّعْر نَفسٌ واسعٌ وباعٌ طَويلٌ وما رأيتُ مَنْ يقولُ الشِّعرَ على البَديهِ أسْرعَ منه وشِعرُه كثيرٌ جَمعتُه علىٰ حُروفِ المُعْجَم .

وقد حَطَّ أبو بَكْر بنُ العَربيِّ علىٰ أبي محمَّد في كتابِ « القَواصِم والعَواصِم » وعلى الظَّاهِريَّة ، فقال : هي أُمَّةٌ سَخيفَةٌ ، تَسوَّرت علىٰ مَرتَبةٍ ليست لها ، وتَكلَّمت بكلامٍ لمْ نَفْهَمْه ، تَلقَّوْه من إخْوانِهمُ الخَوارج حين حكَّم عليٌّ ، رضي الله عنه ، يوم صفين ، فقالت : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وكان أوَّلُ بدْعَةٍ لَقيتُ في رِحْلتي القَولَ بالباطِن ، فلمَّا عُدتُ وجَدتُ القَولَ بالظَّاهر قد مَلأ به المَغربَ سَخيفٌ كان من بادِيَة إشْبيليَّة يُعرفُ بابنِ حَزْم ، نَشأ وتَعلَّق بمَذهَبِ الشَّافعيِّ ، ثم انْتسبَ إلىٰ داوُد ، ثم خَلعَ الكُلَّ ، واسْتقَلَّ بنفسِه ، وزَعمَ أنَّه إمامُ الأُمَّة يَضعُ ويَرفَع ، ويَحكمُ ويشرعُ ، يَنْسبُ إلىٰ دين الله ما ليس فيه ، ويقولُ عن العُلماءِ ما لم يَقولوا تَنْفيراً للقُلوبِ منهم ، وخَرجَ عن طَريق المُشَبِّهَة في ذاتِ الله وصِفاتِه ، فجاءَ فيه بطَوامَّ ، واتَّفقَ كونُه بين قَومٍ لا بَصَرَ لهم إلاَّ بالمَسائل فإذا طالبَهم بالدَّليلِ كاعوا[1] فيَتضاحَكُ مع أصحابه منهم ، وعَضَدَتْهُ الرِّئاسَةُ بما كان عنده من أدَبٍ ، وبشُبَهٍ كان يُوردُها على الملوك فكانوا يَحملُونَه ، ويَحمونَه ، بما كان يُلقي إليهم من شُبَهِ البِدَعِ والشِّرْك ، وفي حين عَودي من الرِّحْلة ألْفَيتُ حَضْرتي منهم طافِحَة ، ونارَ ضلالِهم لافِحَة ، فقاسَيتُهم مع غَير أقْران وفي عَدَم أنْصار إلىٰ حُسَّاد يَطؤون عَقبي ، تارَةً تذهبُ لهم نفسي ، وأخْرىٰ يَنْكَشِرُ لهم ضِرْسي ، وأنا بين إعْراضٍ

---

(١) أي : جَبُنوا .

عنهم أو تَشَغْبُبٍ بهم ، وقد جاءَني رجلٌ بجُزْء لابنِ حَزْم سمَّاه « نكتُ الإسْلام » فيه دَواهي ، فجَرَّدتُ عليه نَواهي ، وجاءَني آخَرُ برسالة في الاعْتقاد فنَقضتُها برسالة « الغُرَّة » والأمرُ أفْحَشُ من أنْ يُنقَض[1] .

وقال أبو مَرْوانَ بنُ حَيَّان : لَمْ يكُ يُلطِّفُ صَدْعَه بما عنده بتَعريض ولا بتَدريج بل يَصكُّ به مَنْ عارَضَه الجَندلَ[2] ويُنشِقُه إنْشاقَ الخَرْدَل ، فتَنفرُ عنه القُلوب وتُوقعُ به النُّدوب ، حتى استُهدفَ لفُقهاءِ وَقتِه ، فتمالَؤوا عليه ، وأجْمَعُوا علىٰ تَضليلِه ، وشَنَّعوا عليه وحَذَّروا سَلاطينَهم من فِتنَتِه ونَهوا عَوامَّهم من الدُّنوِّ منه فطَفِقَ المُلوكُ يُقصونَه عن قُربِهم ، ويُسيِّرونَه عن بلادِهم إلىٰ أنِ انتَهَوا به مُنقَطع أثرُه ببلدَةٍ من باديَة لَبْلَة ، وهو في ذلك غيرُ مُرْتَدِع ولا راجِع ، يَبُثُّ علمَه فيمن يَنتابُه من باديَة بلدِه من عامَّة المُقتَبسين من أصاغِرِ الطَّلبَة ، الذين لا يَخشَونَ فيه المَلامَة يُحدِّثهم ، ويُفَقِّههم ، ويُدارِسُهم ، حتىٰ كَمَل من مُصنَّفاتِه وِقْرُ بَعير ، لمْ يَعُدْ أكثَرُها باديتَه لزُهْدِ الفُقَهاء فيها ، حتىٰ لأُحْرِقَ بَعضُها بإشْبيليَّة ومُزِّقَت عَلانيَةً .

وكان ممَّا يَزيدُ في شَنآنِه تَشَيُّعه لأُمَراءِ بني أُميَّة ماضيهِم وباقيهِم واعتقادُه لصِحَّة إمامَتهم ، حتىٰ لنُسبَ إلى النَّصْبِ .

قال الذهبيُّ : قد أخَذَ المَنْطِقَ ـ أبْعدَه اللهُ من عِلمٍ ـ عن : محمّدِ ابنِ الحَسَن المَذْحِجيِّ ، وأمْعَنَ فيه ، فزَلزَلَه في أشياءَ ، ولي أنا مَيْلٌ إلىٰ أبي محمّد لمَحبَّتِه في الحَديثِ الصَّحيح ، ومَعرفتِه به وإنْ كُنتُ لا أُوافِقُه في كَثير ممَّا يَقولُه في الرِّجال والعِلَل ، والمَسائلِ البَشِعَة في الأُصولِ والفُروع ، وأقْطَعُ بخَطئِه في غَير ما مَسْألة ، ولكن لا أُكَفِّرُه ، ولا أُضَلِّلُه وأرجُو له العَفوَ والمُسامَحَة ، وللمُسلمين ، وأخْضَعُ لفَرطِ ذَكائِه وسِعَة عُلومِه[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٧ .

(٢) الجندل : ما يُقِلُّه الرجل من الحجارة .

(٣) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٢ .

٣١ـ من أسْباب بُروز بَعض العُلَماء :

(أ) مجموعة صفات تجدها في العالِم :

قيلَ للشَّعْبيِّ : من أين لك كلُّ هـٰذا العِلم ؟ قال : بنَفْي الاغْتمام ، والسَّيرِ في البلادِ ، وصَبرٍ كصَبرِ الحَمام ، وبُكور كبُكُورِ الغُراب[١] .

وعن مالكٍ ، قالَ : كان عُبَيدُ الله بنُ عبد الله من العُلماء ، وكان إذا دَخلَ في صَلاتِه ، فقَعدَ إليه إنْسانٌ ، لمْ يُقبِلْ عليه حتىٰ يَفرَغَ ، وإنَّ عليَّ بنَ الحُسين كان من أهْلِ الفَضلِ ، وكان يأتيه فيَجلسُ إليه ، فيُطَوِّلُ عُبَيدُ الله في صَلاته ولا يَلتفتُ إليه ، فقيلَ له : عليٌّ وهو مِمَّنْ هو منه فقال : لا بُدَّ لمَنْ طَلبَ هـٰذا الأمْرَ أنْ يُعَنَّىٰ به[٢] .

(ب) الحرْص :

عن سَعيدِ بنِ جُبَير قال : رُبَّما أتَيتُ ابنَ عَبَّاس ، فكَتبتُ في صَحيفَتي حتىٰ أملأها ، وكَتبتُ في نَعْلي حتىٰ أملأها ، وكَتبتُ في كَفِّي[٣] .

(ج) قَناعَة النَّاس بهم :

قال بَقيَّة : حدَّثني ثَورٌ ، قال : أهْلُ حِمْصَ يأخُذون كُتبَ ابنَ عائذ ، فما وَجدوا فيها من الأحْكامِ عَمدوا بها علىٰ باب المَسْجد ، قَناعَةً بها ورِضاً بحَديثِه[٤] .

وقال بَقيَّة : حدَّثني أرْطاةُ بنُ المُنْذِر ، قال : اقْتسَم رجالٌ من الجُندِ كُتبَ ابنِ عائذ بينهم بالمِيزانِ لقَناعَته فيهم[٥] .

(د) تَميّز العالِم :

عن الزُّهْريِّ ، قال : ما جالَستُ أحداً من العُلماء إلاَّ أنِّي قد أَتيتُ علىٰ ما عندَه ، وقد كنتُ أخْتلفُ إلىٰ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَير حتىٰ ما كنتُ أسْمعُ منه إلاَّ مُعاداً ما خَلا

---

(١) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٠١ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بن الحُسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥١٧ .
(٣) انظر السير : (سعيد بن جُبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٠٧ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن عائذ) ٤/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٣٨ .
(٥) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن عائذ) ٤/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٣٨ .

عُبَيدُ الله بنُ عبد الله بن عُتْبة ، فإنَّه لمْ آتِه إلاَّ وَجدتُ عندَه عِلماً طَريفاً[1] .

وعن الرَّبيعِ بنِ أَنَس ، قال : أَخْتلفُ إلى الحَسَنِ البَصْريِّ عَشرَ سِنينَ أو ما شاءَ الله ، فلَيسَ من يَومٍ إلاَّ أَسْمعُ منه ما لم أَسْمعْ قبلَ ذلك .

وقال عَوفٌ : ما رَأيتُ رجلاً أَعْلمَ بطَريقِ الجَنَّة من الحَسَنِ[2] .

واجْتمعَ جَماعَةٌ مثلُ الفَضْلِ بنِ مُوسَىٰ ، ومَخْلَدُ بنُ الحُسَين ، فقالوا : تَعالَوا نَعدُّ خِصالَ ابنِ المُبارَك من أبواب الخَير ، فقالوا : العِلمُ ، والفِقْهُ ، والأدَبُ ، والنَّحوُ ، واللُّغةُ ، والزُّهدُ ، والفَصاحَةُ ، والشِّعرُ ، وقيامُ اللَّيلِ ، والعِبادةُ ، والحَجُّ ، والغَزْوُ ، والشَّجاعَةُ ، والفُروسيَّةُ ، والقُوَّةُ ، وتَركُ الكَلامِ فيما لا يَعنيه ، والإنْصافُ ، وقِلَّةُ الخِلافِ علىٰ أَصْحابه[3] .

٣٢ـ مُتَفَرِّقات :

(أ) أمثلة على الخُلَفاء والأُمَراء والعُلَماء :

عبد الملك بن مَروان :

عن نافعٍ ، قال : لقد رَأيتُ المَدينةَ وما بها شابٌّ أشَدُّ تَشميراً ولا أَفْقَهُ ولا أَنْسَكُ ولا أَقْرأُ لكتاب الله من عبدِ المَلك[4] .

وقال أبو الزِّناد : فُقَهاءُ المَدينةِ : سَعيدُ بنُ المُسَيِّب ، وعبدُ المَلك ، وعُروَةُ وقبيصةُ بنُ ذُؤيب[5] .

عبد الله بن محمّد بن عبد الرحْمَـٰن « المَرْواني » :

قال محمَّدُ بنُ وَضَّاح : كان عبدُ الله بنُ محمّد المَرْوَانيُّ الأميرُ من الصَّالحين المُتَّقين العالِمين ، رَوى العلمَ كثيراً ، وطالَعَ الرَّأيَ ، وأبْصرَ الحَديثَ ، وحَفظَ

---

(١) انظر السير : (عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة) ٤/ ٤٧٥ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٣٥ .
(٢) انظر السير : (الحَسن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٦٠ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٦٨ .
(٤) انظر السير : (عبد المَلك بن مَرْوان) ٤/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٨٩ .
(٥) انظر السير : (عبد المَلك بن مَرْوان) ٤/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٩٠ .

القُرآن ، وتَفقَّه ، وأكثرَ الصَّومَ ، كان يَلتزمُ الصَّلواتِ في الجامع ، فيَمرُّ بالصَّفِ ، فيقومُ النَّاسُ له ، فكَتبَ إليه سَعيدُ ابنُ حُمير : أيُّها الإمامُ أنتَ من المُتَّقين ، وإنَّما يَقومُ النَّاسُ لرَبِّ العالَمين ، فلا تَرضَ من رَعيَّتك بغير الصَّواب ، فإنَّ العِزَّةَ لله جَميعاً ، فأمَرَ العامَّةَ بتَركِ ذلك فلمْ يَنتهوا ، فحينئذٍ ابْتَنى السَّاباطَ طَريقاً مَشْهوراً من قَصرِه إلى المَقصُورة .

قال اليَسعُ بنُ حَزْم : اسْتُضعِفت دولةُ بني أميَّة ، وقام بها ابنُ حَفصونَ ، وكان نَصرانيَّ الأصْلِ ، فأسْلم وتَنصَّح[1] وألَّب وحَشدَ ، وصارت الأنْدلسُ شُعلَةً تُضرَم ، ولمْ يَبْقَ لبَني أميَّة مِنبرٌ يُخطَب فيه إلاَّ مِنبَرُ قُرطُبَة ، والغاراتُ تُشنُّ عليها حتىٰ قام عبدُ الرَّحمَـٰن النَّاصِرُ ، فتَراجَعَ الأمرُ .

مات عبدُ الله في سَنة ثلاثِ مئة ، وله اثْنتان وسَبعون سَنةً[2] .

المُسْتَنْصِر بالله المَرْوانيّ :

قال الذهبي في ترجمة المُسْتَنصِر بالله « الحَكم بنِ عبدِ الرَّحمَـٰن ابنِ محمّد » : كان حَسنَ السِّيرَة ، جامعاً للعِلم ، مُكرماً للأفاضِل ، كبيرَ القَدرِ ، ذا نَهْمَة مُفرِطَة في العِلم والفَضائل ، عاكفاً على المُطالَعَة[3] .

جَمعَ من الكُتبِ ما لمْ يَجمَعْه أحدٌ من المُلوك ، لا قَبلَه ولا بَعدَه ، وتَطلَّبَها ، وبَذلَ في أثْمانِها الأمْوالَ ، واشْتُريت له من البلادِ البَعيدة بأغْلَى الأثْمان ، مع صَفاءِ السَّريرَة والعَقلِ والكَرَم ، وتَقريبِ العُلماء[4] .

ولقد ضَاقَت خَزائنُه بالكُتب إلىٰ أنْ صارَت إليه ، وآثَرَها علىٰ لَذَّاتِ المُلوك ، فغَزُرَ علمُه ، ودَقَّ نَظرُه ، وكان له يَدٌ بَيضاء في مَعْرفَةِ الرِّجال والأنْسابِ ، والأخْبارِ ، وقَلَّما

---

(١) تنصَّح : أي تشبَّه بالنُّصَحاء والتَّنصُّح : كثرة النصح ، ومنه قول أكثم بن صيفي : إياكم والتنصُّح فإنه يورث التهمة .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمَـٰن) ٨/ ٢٦٤ـ ٢٦٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٥٥ .

(٣) انظر السير : (الحكم بن عبد الرحمـٰن بن محمد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٤/٧٥٧ .

(٤) انظر السير : (الحكم بن عبد الرحمـٰن بن محمد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ١/٧٥٨ .

تَجدُ له كتاباً إلاَّ وله فيه قِراءَةٌ أو نَظرٌ ، من أيِّ فَنٍّ كان ويَكتبُ فيه نَسَبَ المُؤلِّف ، ومَولِدَه ووَفاتَه ، ويأتي من ذلك بغَرائبَ لا تَكادُ تُوجَد[1] .

وقال الذهبي في موضع آخر : كان المُسْتَنْصِرُ بالله عالماً أخبارياً ، وَقوراً ، نَسيجَ وَحْدِه[2] .

وكان الحَكمُ مُوثَّقاً في نَقلِه ، قَلَّ أنْ تَجدَ له كتاباً إلاَّ وله فيه نَظَرٌ وفائدَة ، ويَكتُبُ اسمَ مُؤلِّفِه ونَسَبَه ومَولِدَه ، ويُغرب ويُفيد[3] .

(ب) الأُمَراء مُحِبُّوا العِلم :

جاء في تَرجَمة محمَّدِ بنِ عبد الرَّحمَـٰن بنِ الحَكم بنِ هِشام « صاحب الأنْدلُس » ، قال الذَّهبيُّ : كان مُحبَّاً للعلم ، مُؤثراً لأصْحابِ الحَديث ، مُكْرِماً لهم ، حَسنَ السِّيرَة ، وهو الذي نَصرَ بَقيَّ بنَ مَخْلد الحافظَ علىٰ أهْلِ الرَّأي[4] .

قال بقيُّ بنُ مَخْلَد : ما كلَّمتُ أحداً من المُلوك أكمَلَ عَقلاً ، ولا أبْلغَ لَفظاً من الأميرِ محمّد ، ولقد دَخلتُ عليه يَوماً في مَجلسِ خِلافَته ، فافْتتَح الكلامَ بحَمدِ الله ، والصَّلاة علىٰ نَبيِّه ، ثم الخُلفاء ، فحَلَّىٰ كلَّ واحد بحِليَته وصِفَته ، وذكرَ مآثرَه بأفْصَحِ لسان حتى انتَهىٰ إلىٰ نفسِه ، فحَمِدَ اللهَ علىٰ ما قَدَّره ، ثم سَكت .

قال الذهبيُّ : رأىٰ مُصنَّفَ أبي بكر بن أبي شَيبة ، إذ نازَعَ أهلُ الرَّأيِ بَقيَ بنَ مَخْلَد فأمرَ بنَسخِه ، وقال : لا تَسْتغني خِزانَتُنا عن هـٰذا .

وكان ذَا رَأيٍ وحَزمٍ وشَجاعةٍ وإقْدام .

بُويع عند مَوت والده في سنة ثمان وثلاثين ، وله إحْدىٰ وثلاثون سنة ، وذلك بعَهْدٍ من والده ، وأمُّه أمُّ وَلد .

---

(١) انظر السير : (الحكم بن عبد الرحمـٰن بن محمد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٥٨ .
(٢) انظر السير : (المُسْتَنصِر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٩٠ .
(٣) انظر السير : (المُسْتَنصِر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٢٩٠ .
(٤) انظر السير : (محمد بن عبد الرحمـٰن بن الحكم) ٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٥٤ .

وامتدت دَولَتُه ، وقيلَ : إنَّه كان يَتوغَّلُ في بلاد الرُّوم ، ويَبقىٰ في الغَزو السَّنةَ وأكثر[1] .

(ج) أغْنياء العُلَماء :

قال الذهبيُّ في ترجَمة الإمام مالِك : قال ابنُ أبي أوَيس : بيعَ ما في منزلِ خالي مالِك من بُسُط ومِنصَّات ، ومَخادَّ ، وغير ذلك ، بما يُنيف علىٰ خمس مئة دينار[2] .

وقال محمَّدُ بنُ عيسىٰ بنُ خَلف : خلَّف مالِكٌ خَمسَ مئة زَوجٍ من النِّعال ، ولقد اشْتَهىٰ يوماً كساءً قُوصيَّاً ، فما مات إلاَّ وعنده منها سَبعة ، بُعثت إليه[3] .

وقال أبو عَمرو : تركَ من الناضِّ[4] ألفَي دينار وستَّ مئة دينار ، وسَبعة وعشرين ديناراً ، ومن الدَّراهم ألفَ درهم[5] .

قال الذهبيُّ : قد كان هٰذا الإمامُ من الكُبَراء السُّعَداء ، والسَّادَة العُلماء ، ذا حِشْمَة وتَجمُّل ، وعَبيدٍ ، ودارٍ فاخِرَة ، ونِعْمَةٍ ظاهِرَة ، ورِفْعَة في الدُّنيا والآخرة كان يَقبلُ الهَدية ، ويأكلُ طيِّباً ويَعملُ صالحاً[6] .

وقال قُتَيْبَةُ : كان اللَّيثُ بنُ سَعد يَسْتغِلُّ عشرينَ ألفَ دينار في كلِّ سنة ، وقال : ما وَجَبت عليَّ زكاةٌ قَطُّ وأعْطَى اللَّيثُ ابنَ لَهيعَة ألفَ دينار ، وأعْطَىٰ مالِكاً ألفَ دينار وأعْطَىٰ مَنصورَ بنَ عمَّار الوَاعِظَ ألفَ دينار وجاريةً تَسوىٰ ثلاثة مئة دينار[7] .

وجاءت امرأةٌ إلى اللَّيث ، فقالت : يا أبا الحارِث ، إنَّ ابناً لي عَليلٌ ، واشْتَهىٰ عَسلاً ، فقالَ : يا غُلام ، اعْطِها مِرطاً من عَسل ، والمِرْطُ : عِشرون ومئة رَطل[8] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم) ٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٣/٧٥٤ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٣٨ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٣٨ .
(٤) الناضّ : النقد من الدنانير والدراهم .
(٥) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٣٨ .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٣٨ .
(٧) انظر السير : (اللَّيث بن سَعد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٣/٧٣٩ .
(٨) انظر السير : (اللَّيث بن سَعد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٤/٧٣٩ .

وقال عبدُ الله بنُ صالح : صَحِبتُ اللَّيثَ عشرينَ سَنةً ، لا يَتغَدَّىٰ ولا يَتعَشَّىٰ إلاَّ مع النَّاسِ وكان لا يأكلُ إلاَّ بلَحْمٍ إلاَّ أنْ يَمْرَضَ[1] .

وكان اللَّيثُ له كلَّ يومٍ أربَعَةُ مَجالس يَجلسُ فيها : أمَّا أوَّلُها ، فيَجلسُ لنائبَة السُّلطان في نوائبِه وحَوائجِه ، وكان اللَّيثُ يَغشاهُ السُّلطانُ ، فإذا أنْكَرَ من القاضي أمْراً أو من السُّلطان ، كتبَ إلىٰ أميرِ المؤمنين ، فيأتيه العَزلُ ، ويَجلسُ لأصحابِ الحَديثِ ، وكان يقولُ : نَجِّحُوا أصْحابَ الحَوانيت[2] ، فإنَّ قُلوبَهم مُعَلَّقَةٌ بأسْواقِهم ، ويَجلسُ للمَسائل ، يَغشاهُ النَّاسُ ، فيَسألُونَه ، ويَجلسُ لحَوائجِ النَّاس ، لا يَسألُه أحَدٌ فيَردُّه ، كَبُرَت حاجَتُه أو صَغُرَت وكان يُطعِمُ النَّاسَ في الشِّتاءِ الهَرائسَ بعَسَل النَّحْلِ وسَمْنِ البَقَر ، وفي الصَّيفِ سَويقَ اللَّوْزِ في السُّكَّر[3] .

وقال محمَّدُ بنُ عليِّ بنِ الحَسن بنِ شَقيق ، سَمعتُ أبي قال : كان ابنُ المُبارَك إذا كان وَقتُ الحَجِّ ، اجتمعَ إليه إخْوانُه من أهْلِ مَرْو ، فيقولون : نَصحبُك ، فيقولُ : هاتوا نَفقاتِكم ، فيأخُذُ نَفقاتِهم ، فيَجعلُها في صُندوقٍ ، ويُقفِلُ عليها ، ثم يَكتري له ، ويُخرجُهم من مَرْوَ إلىٰ بَغدادَ ، فلا يَزالُ يُنفِقُ عليهم ويُطعِمُهم أطْيَبَ الطَّعامِ ، وأطْيَبَ الحَلوَىٰ ، ثم يُخرجُهم من بَغدادَ بأحْسنِ زِيٍّ وأكْملِ مُروءَة ، حتىٰ يَصلوا إلىٰ مَدينةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم ، فيقولُ لكُلِّ واحدٍ : ما أمَرَكَ عيالُك أنْ تَشتري لهم من المَدينَةِ من طُرَفِها ؟ فيقولُ : كذا وكذا فيَشتري لهم ، ثم يُخرجُهم إلىٰ مكة ، فإذا قَضوا حَجَّهم ، قال لكلِّ واحدٍ منهم : ما أمَرَكَ عيالُك أنْ تَشتري لهم من مَتاع مكة ؟ فيقولُ : كذا وكذا ، فيَشتري لهم ، ثم يُخْرجُهم من مكةَ ، فلا يَزالُ يُنفقُ عليهم إلىٰ أنْ يَصيرُوا إلىٰ مَرْوَ ، فيُجَصِّصُ بُيوتَهم وأبْوابَهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيَّام ، عَملَ لهم وَليمَةً وكَساهم ، فإذا أكَلوا وسُرُّوا ، دَعا بالصُّندوقِ ، ففَتحَه ودَفعَ إلىٰ كُلِّ رجلٍ منهم صُرَّتَه ، عليها اسْمُه .

---

(١) انظر السير : (اللَّيث بن سَعد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٧٣٩/ ٥ .

(٢) أي ابدؤوا بهم .

(٣) انظر السير : (اللَّيث بن سَعد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٧٣٩/ ٦ .

وقال محمَّدُ بنُ المُثَنَّىٰ : سَمعتُ عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ مَهْدي يقولُ : ما رأتْ عَينايَ مثلَ أرْبَعة : ما رأيتُ أحْفَظَ للحَديثِ من الثَّوْريِّ ، ولا أشدَّ تَقشُّفاً من شُعبَة ، ولا أعْقَلَ من مالِك ، ولا أنْصَحَ للأمَّة من ابنِ المُبارَك[1] .

وقال الذهبيُّ : كان عبدُ الله بنُ المُبارَك غَنياً شَاكراً ، رأسُ مالِه نَحوَ الأرْبع مئة ألف[2] .

وقال بِشْرُ الحافي : كان المُعافَىٰ صاحبَ دُنيا واسِعَةٍ وضِياعٍ كثيرة[3] .

وقال أبو نُعَيمُ الحافظُ : كان أحمدُ بنُ مَهْدي صاحبَ ضِياعٍ وثَرْوَةٍ ، أنْفَقَ علىٰ أهلِ العِلمِ ثلاثَ مئةِ ألفِ دِرْهم .

وقال ابنُ النَّجَّار : كان أحمدُ بنُ مَهْدي من الأئمَّة الثِّقات وذَوي المَروءاتِ ، رَحلَ إلى الشَّامِ ومِصْرَ والعِراق[4] .

وجاء في ترجمة دَعْلَج قال الذهبيُّ : هو دَعْلَجُ بنُ أحمد بنِ دَعْلَج المُحَدِّثُ ، الحُجَّةُ الفَقيهُ الإمامُ ، أبو محمَّد السِّجِسْتانيُّ ، ثم البَغداديُّ التَّاجِرُ ، ذُو الأمْوالِ العَظيمة .

وُلدَ سنةَ تسعٍ وخَمسينَ أو قَبلَها بقليل وسَمعَ بعد الثَّمانين ما لا يُوصَفُ كَثرةً بالحَرمَينِ ، والعِراقِ ، وخُراسانَ ، والنَّواحي حالَ جَولانِه في التِّجارَة[5] .

قال الخَطيبُ : كان دَعْلَجٌ من ذَوي اليَسار ، له وُقوفٌ علىٰ أهْلِ الحَديث .

وقال الخَطيبُ : حَكَىٰ لي أبو العَلاء الواسِطيُّ ، أنَّ دَعْلَجاً سُئل عن مُفارَقتِه مَكة ، فقال : خَرجتُ لَيلةً من المَسجدِ ، فتَقدَّم ثلاثةٌ من الأعْرابِ ، فقالوا : أخٌ لك من خُراسان قَتلَ أخَانا ، فنَحنُ نَقتُلك به ، فقُلتُ : اتَّقوا اللهَ ، فإنَّ خُراسانَ لَيست بمَدينَةٍ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٦٦ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٧٠ .
(٣) انظر السير : (المُعافَىٰ) ٩/ ٨٠ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٠٠ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن مَهْدي) ١٢/ ٥٩٧ـ ٥٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٣٨ .
(٥) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٦٦ .

واحِدَة ، ولمْ أزَلْ بهم إلىٰ أنْ اجْتَمعَ النَّاسُ وخَلُّوا عَنِّي فهـٰذا كان سَببُ انْتِقالي إلىٰ بَغْداد وكان يقولُ : ليسَ في الدُّنيا مثلُ داري ، وذلكَ لأنَّه ليسَ في الدُّنيا مثلُ بَغْدادَ ، ولا ببَغْدادَ مثلُ مَحِلَّة القَطيعة ، ولا في القَطيعة مثلُ دَرْب أبي خَلَف ، وليسَ في الدَّرْب مثلُ داري[1] .

ونقلَ أبو بَكْر الخَطيبُ حكايةً مُقتَضاها أنَّ رجُلاً صلَّى الجُمعَةَ فرأىٰ رجُلاً مُتَنسِّكاً لمْ يُصلِّ ، فكلَّمَه ، فقال : اسْتُرْ عليَّ ، لدَعْلَج عليَّ خَمسَةُ آلافٍ ، فلمَّا رأيتُه أحْدَثتُ ، فبلغَ ذلك دَعْلَجاً ، فطَلبَه إلىٰ مَنزِله ، وحلَّله من المال ، ووَصلَه بمثلِها لكَوْنه رَوَّعَه[2] .

وقال أحمدُ بنُ الحُسَين الوَاعِظُ ، قالَ : أَوْدَعَ أبو عبد الله بنُ أبي مُوسَى الهاشِميُّ عَشرةَ آلافِ دينارٍ ليتيم ، فضاقَت يَدُه فأنْفَقَها وكَبُرَ الصَّبيُّ ، وأُذنَ له في قَبضِ مالِه ، قال ابنُ أبي موسىٰ : فضاقَت عليَّ الأرضُ ، وتَحيَّرتُ ، فبَكرتُ علىٰ بَغْلَتي ، وقَصدتُ الكَرْخَ فانتُهتْ بي البَغْلةُ إلىٰ دَرْبِ السلولي ووَقفَتْ بي علىٰ بابِ مَسجِدِ دَعْلَج ، فدَخلتُ فصَلَّيتُ خلفَه الفَجرَ ، فلمَّا انْفتَلَ رَحَّبَ بي ، وقُمنا فدَخلنا دَارَه ، فقُدِّمَت لنا هَريسَةٌ ، فأكَلتُ وقَصَّرتُ ، فقالَ : أراكَ مُنقَبضاً ، فأخْبَرتُه ، فقالَ : كُلْ فإنَّ حاجَتَك تُقْضَىٰ ، فلمَّا فَرَغْنا ، اسْتَدعَىٰ بالذَّهَبِ والمِيزانِ ، فوَزَنَ لي عَشرةَ آلافِ دينارٍ وقُمتُ أطيرُ فَرحاً ، ثم سَلَّمتُ المالَ إلى الصَّبيِّ بحَضرةِ قاضي القُضاة ، وعَظُمَ الثَّناءُ عليَّ ، فلمَّا عُدتُ إلىٰ مَنزلي اسْتدعاني أميرٌ من أولادِ الخَليفَة فقال : قد رَغبتُ في مُعامَلَتِك وتَضْمينِك أمْلاكي ، فضَمنْتُها فرَبحتُ في سَنَتي رِبحاً عَظيماً وكَسبتُ في ثلاث سنين ثلاثينَ ألفَ دينار ، وحَملتُ لدَعْلَج المالَ ، فقالَ : سُبحانَ الله ، والله ما نَوَيتُ أخْذَها ، حَلِّ بها الصِّبْيانَ ، فقلتُ : أيُّها الشَّيخُ ، أيشْ أصْلُ هـٰذا المال حتىٰ تَهبَ لي عشرةَ آلافِ دينار ؟ فقال : نَشأتُ ، وحَفظتُ القُرآنَ ، وطَلبتُ الحَديثَ ، وكُنتُ أتَبزَّزُ ، فوافاني تاجرٌ من البَحْرِ فقال : أنْتَ دَعْلَج ؟ قلتُ : نَعَم قال : قد رَغبتُ

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٦٦ .

(٢) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٦٦ .

في تَسليمِ مالي إليك مُضارَبةً ، فسلَّمَ إليَّ برنامجات بألفِ درهم ، وقال لي : ابْسُطْ يَدكَ فيه ولا تَعلمْ مَكاناً يُنفَقُ فيه المَتاعُ إلاَّ حَملْتَه ، ولمْ يَزلْ يَتردَّدُ إليَّ سَنةً بعدَ سَنةٍ يَحملُ إليَّ مثلُ هـٰذا والبضاعَةُ تَنمَىٰ ثم قال : أنا كثيرُ الأسْفارِ في البَحرِ ، فإنْ هَلكتُ فهـٰذا المالُ لكَ علىٰ أنْ تَصدَّقَ منه ، وتَبني المَساجدَ ، فأنا أفعلُ مثل هـٰذا ، وقد ثمَّرَ اللهُ تعالى المالَ في يَدي ، فاكْتُم عليَّ ما عِشتُ .

قال الحاكمُ : كان السُّلطانُ لا يَتعرَّضُ لتَركَةٍ ، ثم لمْ يَصْبرْ عن أموالِ دَعْلَج ، وقيلَ : لمْ يكنْ في الدُّنيا أيْسَرُ منه من التُّجَّار ، وتَركوا أوْقافَه ، رَحمَه الله .

ماتَ سنةَ إحْدَىٰ وخَمسينَ وثلاثِ ومئة[1] .

(د) أحْوالُ بَعض العُلماء والمُتَعلِّمين في عَصر الذَّهبيّ :

وجاء في تَرجَمة عبدِ الحَميدِ بنِ جَعْفر ، قال ابنُ مَعين : كان عبدُ الحَميد ثقةً يُرْمَىٰ بالقَدر .

قال الذهبيُّ : قد لُطِخَ بالقَدرِ جماعةٌ وحَديثُهم في « الصَّحيحَين » أو أحَدِهما لأنَّهم مَوْصُوفون بالصِّدقِ والإتْقانِ .

ماتَ عبدُ الحَميد في سنةِ ثلاثٍ وخَمسِ مئة[2] .

قال أبو أسامة : سَمعتُ مِسْعَراً يقولُ : إنَّ هـٰذا الحَديثَ يَصُدُّكم عن ذِكرِ الله وعن الصَّلاة ، فهلْ أنتُم مُنتَهون ؟[3]

قال الإمامُ الذهبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه مَسألةٌ مُختلَفٌ فيها : هل طَلبُ العِلم أفْضَل ، أو صَلاةُ النَّافلَة والتِّلاوَة والذِّكْر ؟ فأمَّا مَنْ كانَ مُخلصاً لله في طَلبِ العِلم ، وذِهنُه جَيدٌ ، فالعِلمُ أوْلَىٰ ، ولكن مع حَظٍّ من صَلاةٍ وتَعبُّد ، فإنْ رأيتَه مُجداً في طَلبِ العِلم لا حَظَّ له في القُرُبات ، فهـٰذا كَسْلانٌ مَهين ، وليسَ هو بصادقٍ في حُسن نيَّتِه ، وأمَّا مَنْ كانَ

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ١٢٦٦/ ٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الحميد بن جعفر) ٧/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٦٧٢/ ٤ .

(٣) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٨٩/ ١ .

طَلبُه الحَديثَ والفِقهَ غِيَّةً ومَحبَّةً نَفسانيَّة فالعِبادَةُ في حقِّه أفْضَل ، بل ما بَينها أفْعَلُ تَفْضيل ، وهـٰذا تَقسيمٌ في الجُملَة ، فقلَّ ـ والله ـ مَنْ رَأيتُه مُخلِصاً في طَلبِ العِلم ، دَعْنا من هـٰذا كُلِّه فليسَ طَلبُ الحَديثِ اليومَ على الوَضع المُتعارَف من حيِّز طَلبِ العِلم ، بلْ اصْطلاحٌ وطَلبُ أسانيدَ عاليَة وأخْذٌ عن شَيخٍ لا يَعي ، وتَسميعٌ لطِفْل يَلعَب ولا يَفْهَم ، أو لرَضيعٍ يَبْكىٰ أو لفَقيهٍ يَتحدَّثُ مع حَدَثٍ ، أو لآخَر يَنسَخ وفاضلُهم مَشغولٌ عن الحَديثِ بكتابَة الأسْماء أو بالنُّعاس ، والقارىءُ إنْ كانَ له مُشارَكةٌ فلَيسَ عندَه من الفَضيلَة أكثَرُ من قِراءَة ما في الجُزْءِ ، سواءٌ تَصَحَّفَ عليه الاسمُ ، أو اخْتبطَ المَتْنُ ، أو كان من المَوْضوعاتِ فالعِلمُ عن هـٰؤلاء بمعْزِلٍ ، والعَملُ لا أكادُ أراهُ بلْ أرَىٰ أمُوراً سَيئةً ، نَسألُ الله العَفْوَ[1] .

وقال محمَّدُ بنُ يُوسُف الفِرْيابي : كنتُ أمشي مع ابنِ عُيَيْنَة ، فقال لي : يا محمَّدُ ، ما يُزَهِّدني فيكَ إلاَّ طَلبُ الحَديث قلتُ : فأنتَ يا أبا محمَّد ، أيَّ شيءٍ كنتَ تَعمَلُ إلاَّ طَلبَ الحَديثِ ؟ فقالَ : كُنتُ إذْ ذاكَ صَبيّاً لا أعْقِل[2] .

قال الذهبيُّ : إذا كان مثلُ هـٰذا الإمام يقولُ هـٰذه المَقالَةَ في زَمنِ التَّابعينَ ، أو بَعدَهم بيَسير ، وطَلبُ الحَديثِ مَضبوطٌ بالاتِّفاقِ ، والأخْذِ عن الأثْباتِ الأئمَّة ، فكيفَ لوْ رأىٰ سُفيانُ رَحمَه الله طلبَةَ الحَديثِ في وَقتِنا ، وما هم عليه من الهَنات والتَّخْبيطِ ، والأخْذِ عن جَهَلَةِ بَني آدم ، وتَسميع ابنِ شَهر .

أمَّا الخِيَامُ فإنَّها كَخِيامِهِم ... وأرَىٰ نساءَ الحَيِّ غيرَ نِسائِها[3]

وقال الذهبيُّ في تَرجمَة هُدبةَ بنِ خالد الثَّوْبانيِّ : رافَقَ أخاه في الطَّلبِ ، وتَشارَكا في ضَبطِ الكُتب ، فساغ له أنْ يَروي من كُتبِ أخيه ، فكيفَ بالماضينَ لوْ رَأوْنا اليومَ نَسمعُ من أي صَحيفَةٍ مُصحَّفَة علىٰ أجْهَلِ شَيخٍ له إجازَة ، ونَروي من نُسخَةٍ أخرىٰ

---

(١) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٩٠ .
(٢) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٨٤ .
(٣) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٨٤ .

بَينهما من الاخْتلافِ والغَلطِ ألْوانٌ ، ففاضِلُنا يُصحِّحُ ما تَيسَّرَ من حِفظِه ، وطالِبُنا يَتشاغَلُ بكتابَةِ أسماءِ الأطْفال ، وعالِمُنا يَنسَخُ ، وشَيخُنا يَنامُ ، وطائفةٌ من الشَّبيبَة في وادٍ آخَر من المُشارَكة والمحادَثة لقد اشْتَفىٰ بنا كلُّ مُبتَدِع ومَجَّنا كُلُّ مُؤمنٍ أفَهـٰؤلاء الغُثاء هم الذين يَحفَظون على الأُمَّة دينَها!! ؟ كلاَّ والله فرَحِمَ اللهُ هُدبةَ ، وأينَ مثلُ هُدبة ؟ نعم ما هو في الحِفْظِ كَشُعبَة[1] .

وجاء في تَرجمَة القَطَّان ، قالَ ابنُ فارِس : سَمعتُ القَطَّانَ يَقولُ : أُصِبتُ ببَصري ، وأظنُّ أنِّي عُوقِبتُ بكَثرَةِ كَلامي أيَّامَ الرِّحْلَة[2] .

قال الذهبيُّ : صَدقَ والله ، فقد كانوا مع حُسْنِ القَصْد ، وصِحَّة النِّيَّة ـ غالباً ـ يَخافونَ من الكَلام ، وإظْهارِ المَعرِفَة والفَضيلَة ، واليومَ يُكثرون الكَلامَ مع نَقْصِ العِلمِ ، وسُوءِ القَصْدِ ، ثمَّ إنَّ اللهَ يَفضَحُهم ويَلُوحُ جَهلُهم وهَواهُم واضْطرابُهم فيما عَلِمُوه فنَسألُ اللهَ التَّوفيقَ والإخْلاصَ .

تُوفِّيَ هـٰذا الإمامُ في سنةِ خَمس وأربعينَ وثلاثِ مئة[3] .

(هـ) عُلماء فقِدوا أو ماتوا فَجأة :

قال الحاكمُ : قال الدَّغُوليُّ : في العُلماء جَماعةٌ فُقدوا فَجأة فلمْ يُوجَدوا ، منهم : عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ أبي لَيلىٰ ، فُقدَ يومَ الجَماجم ، ومنهم : مَعْمَرُ بنُ راشِد ، ولمْ تُعرَف له تُربَةٌ قَطُّ ، وبَدَلُ بنُ المُحبَّر افتُقدَ ولا يُدرَىٰ أين ذهبَ ، ثم سَمَّىٰ جماعَةً ماتوا فَجأة كالشَّعبيِّ ، وحُميدِ الطَّويلِ ، والأوْزاعيِّ .

قال الحاكمُ : سألتُ محمَّدَ بنَ عبد الرَّحمَـٰن بنَ الدَّغُولي عن وَفاة جَدِّه فقال : في سَنةِ خمسٍ وعشرينَ وثلاثِ مئة[4] .

---

(١) انظر السير : (هُدبَة بن خالد) ١١/ ٩٧ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩١٤ .
(٢) انظر السير : (القَطان) ١٥/ ٤٦٣ـ ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٥٠ .
(٣) انظر السير : (القَطان) ١٥/ ٤٦٣ـ ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٥٠ .
(٤) انظر السير : (الدَّغُولي) ١٤/ ٥٥٧ـ ٥٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٧٣ .

(و) مَنْ أنْقذَه العِلمُ من الأسر :

قال الذهبيُّ في تَرجمَة أبي المُظفَّر السَّمْعانيِّ : حَجَّ على البَرِّيَّة أيّامَ انْقطَعَ الرَّكبُ ، فأُخِذَ هو وجَماعةٌ ، فصَبرَ إلىٰ أنْ خلَّصَه اللهُ من الأعْرابِ ، وحَجَّ وصَحِبَ الزَّنْجانيَّ كان يقولُ : أسَرونا فكنتُ أرْعَىٰ جِمالَهم ، فاتَّفقَ أنَّ أميرَهم أرادَ أنْ يُزوِّجَ بنتَه ، فقالوا : نَحتاجُ أنْ نَرحَلَ إلى الحَضَرِ لأجْلِ مَنْ يَعقِدُ لنا فقال رجلٌ منَّا : هٰذا الذي يَرعَىٰ جِمالَكم فَقيهُ خُراسان ، فسَألوني عن أشياءَ ، فأجَبتُهم وكلَّمتُهم بالعَربيَّة ، فخَجلُوا واعْتذَروا ، فعَقدتُ لهم العَقدَ ، وقلتُ الخُطبَةَ ففَرحوا وسَألوني أنْ أقبلَ منهم شَيئاً ، فامْتنعتُ ، فحَملُوني إلىٰ مَكة وسَط العام .

قال عبدُ الغافِر في « تاريخِه » هو وَحيدُ عَصرِه في وَقتِه فَضلاً وطَريقَةً وزُهداً ووَرَعاً ، من بيتِ العِلمِ والزُّهدِ ، تَفقَّهَ بأبيه ، وصارَ من فُحولِ أهلِ النَّظَر وأخذَ يُطالِعُ كتبَ الحَديثِ ، وحَجَّ ورَجعَ وتَركَ طَريقَته التي ناظَر عليها ثلاثينَ سَنةً وتَحوَّلَ شافِعيَّاً ، وأظْهرَ ذلك في سنة ثمانٍ وستِّين ، فاضْطَربَ أهلُ مَرْو ، وتَشوَّشَ العَوامُّ ، حتىٰ وَردَت الكُتبُ من الأميرِ ببَلْخ ، في شأنِه والتَّشْديدِ عليه فخَرجَ من مَرْوَ وفي خدمته عدَّة من الفُقهاء ، فصارَ إلىٰ طُوسَ ، وقَصدَ نيسابُورَ فاسْتقبَله الأصْحابُ اسْتقبالاً عَظيماً أيَّام نِظامِ المُلك ، وعَميدِ الحَضرة أبي سَعد ، فأكْرَموه ، وأُنزِلَ في عِزٍّ وحِشْمَة وعُقدَ له مَجلسُ التَّذكيرِ في مَدرسة الشَّافعيَّة ، وكان بَحْراً في الوَعْظِ ، حافِظاً فظَهرَ له القَبولُ ، واسْتحكَمَ أمرُه في مَذهَبِ الشَّافعيِّ ، ثم عادَ إلىٰ مَرْوَ ، ودرَّسَ بها في مدرسة الشَّافعيَّة ، وقدَّمه النِّظامُ علىٰ أقْرانِه ، وظَهرَ له الأصْحابُ ، وخَرجَ إلىٰ أصْبَهانَ ، وهو في ارْتِقاء .

تُوفِّيَ سنةَ تسعٍ وثَمانين وأربعِ مئة عاشَ ثلاثاً وستِّينَ سنةً رَحمَه الله[1] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو مُظَفَّر السَّمْعاني) ١٩/ ١١٤ـ ١١٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٦٧ .

الكتابَةُ والكتُب

١ـ الكتابَةُ قَيدٌ للمَعْلومات :

قال عبدُ الرزّاق : أنبأنا مَعْمَرُ بنُ راشِد قال : حَدَّثتُ يَحْيَىٰ بنَ أبي كثير بأحاديث فقال : اكتُبْ حَديثَ كذا وكذا فقلتُ : أما تَكْرَهُ أنْ تَكتُبَ العلمَ يا أبا نَصْر ؟ فقال : اكتُبْه لي فإنْ لمْ تَكنْ كتبتَ فقد ضيَّعتَ أو قال : عَجزتَ[١] .

٢ـ نَشأةُ الكتابَة العَربيّة :

قال ابنُ خلِّكان : رَوى الكلبيُّ والهَيثمُ بنُ عَديّ أنَّ النَّاقِلَ للكتابَة العَربيَّة من الحِيرَةِ إلى الحِجازِ هو حَرْبُ بنُ أُمَيَّة فقيل لأبي سُفيانَ : مِمَّنْ أخذَ أبُوكَ الكتابَةَ ؟ قال : من ابنِ سدْرة ، وأخبرَه أنَّه أخذَها من واضِعِها مرامر بنِ مُرَّة ، قال : وكانت لحِمْيَر كتابةٌ تُسمَّى المُسْنَد ، حُروفُها مُنفَصِلَةٌ ، غيرُ مُتَّصلَة ، وكانوا يَمْنعونَ العامَّةَ من تَعلُّمِها ، فلمَّا جاءَ الإسْلامُ ، لمْ يكُنْ بجَميعِ اليَمنِ مَنْ يَقرأُ ويَكتبُ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا فيه نَظرٌ ، فقد كان بها خَلقٌ من أحْبارِ اليَهود يَكتُبون بالعِبْراني ، إلىٰ أنْ قالَ : فجَميعُ كتاباتِ الأُمَم اثنَتا عشرةَ كتابةً ، وهي : العَرَبيَّة ، والحِمْيَريَّة ، واليُونانيَّة ، والفارِسيَّة ، والرُّوميَّة والسُّرْيانيَّة ، والقِبْطيَّة ، والبَرْبَريَّة ، والأنْدَلُسيَّة ، والهِنْديَّة ، والصِّينيَّة ، والعِبْرانيَّة فخَمسٌ منها ذَهبَت : الحِمْيَريَّة ، واليُونانيَّة ، والقِبْطيَّة ، والبَرْبَريَّة ، والأنْدَلُسيَّة وثلاثٌ لا تُعرَف ببلادِ الإسْلام : الرُّوميَّة والصِّينيَّة ، والهِنْديَّة[٢] .

---

(١) انظر السير : (مَعْمَر بن راشد) ٧/ ٥ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٦٧١/ ٤ .

(٢) انظر السير : (عليُّ بنُ هلال بنُ البوَّاب) ١٧/ ٣١٥ـ ٣٢٠ ، وانظر النزهة : ١٣٤٣/ ٢ .

٣ـ كيف كتب النبيُّ صلى الله عليه وسلم اسْمَه يوم الحُدَيْبيَة مع كونه صلى الله عليه وسلم أُميّاً :

قال محمدُ بنُ يَحْيَىٰ بنُ مَنْدة : حدَّثنا أبو بَكر بنُ أبي النَّضْر ، حدَّثنا أبو عَقيل الثَّقفي ، حدَّثنا مُجالِدٌ ، حدَّثنا عَونُ بنُ عبدِ الله ابنُ عُتْبَة ، عن أبيه قال : « مَا مَاتَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حَتّىٰ قَرأَ وكتَب »[١] ،[٢] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لمْ يَرِدْ أنَّه صلى الله عليه وسلم ، كَتبَ شَيئاً ، إلاَّ ما في « صَحيح البُخاريّ » من أنَّه يومَ صُلحِ الحُدَيْبيَة كتبَ اسْمَه « مُحمَّدُ بنُ عبدِ الله » واحْتجَّ بذلك القاضي أبو الوَليد الباجي ، وقام عليه طائفةٌ من فُقَهاء الأنْدَلُس بالإنْكار ، وبَدَّعُوه حتىٰ كفَّره بعضُهم ، والخَطبُ يَسير ، فما خَرجَ عن كَونه أمّياً بكتابة اسْمِه الكَريم ، فجماعَةٌ من المُلوك ما عَلموا من الكتابة سِوىَ مجرد العَلامَة ، وما عدَّهم الناسُ بذلك كاتبين ، بل هم أميُّون فلا عِبرَة بالنَّادِر ، وإنَّما الحُكمُ للغالب ، والله تَعالَىٰ فمن حِكمته لم يُلهِم نَبيَّه تَعلُّم الكتابة ، ولا قراءة الكُتب حَسماً لمادَّة المُبطِلين ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[٣] .

ومع هـٰذا فقد افْتروا وقالوا : ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾[٤] .

فانظر إلىٰ قِحَة المُعانِد ، فمَنِ الذي كان بمكة وقت المَبْعَث يَدري أخبارَ الرُّسُل والأمم الخالية ؟ ما كان بمكة أحدٌ بهـٰذه الصِّفَة أصْلاً ، ثم ما المانع من تَعلُّم النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، كتابَة اسمِه واسمِ أبيه مع فَرْطِ ذَكائه وقوَّة فَهمه ، ودَوام مُجالَسته لمن يَكتُب بين يديه الوَحْي والكُتبَ إلىٰ مُلوك الطَّوائف ، ثم هـٰذا خاتَمُه في يده

---

(١) إسناده ضعيف لضعف مجالد ـ وهو ابن سعيد الهمداني الكوفي ، وأورده الحافظ في « الفتح » (٧/ ٣٨٦ـ ٣٨٧) ، وقد تحرف في مجالد إلىٰ مجاهد ونسبه لابن أبي شيبة ، وضعَّفه .

(٢) انظر السير : (ابن مَنْدَة) ١٤/ ١٨٨ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٤٠ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية : ٥ .

ونَقْشُه : محمَّدٌ رسُولُ الله فلا يَظُنُّ عاقلٌ أنَّه عليه السلام ما تَعقَّل ذلك ، فهـٰذا كلُّه يَقتضي أنَّه عرف كتابة اسمِه واسمِ أبيه ، وقد أَخْبرَ اللهُ بأنَّه ـ صَلواتُ الله عليه ـ ما كان يَدري ما الكتابُ ؟ ثم علَّمَه اللهُ تعالىٰ ما لم يكنْ يَعلم ، ثم الكتابة صِفَةُ مَدْح ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] .

فلمَّا بلَّغَ الرسالَة ، ودخلَ النَّاسُ في دين الله أفْواجاً ، شاءَ اللهُ لنبيِّه أنْ يَتعلَّمَ الكتابَة النادِرَة التي لا يخرج بمثلها عن أنْ يكونَ أُميّاً ثم هو القائل « إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكتُبُ ولا نَحْسِبُ » ، فصدَق إخبارُه بذلك ، إذِ الحكمُ للغالب ، فنَفىٰ عنه وعن أمَّتِه الكتابَة والحِسابَ لنُدرَة ذلك فيهم وقلَّته ، وإلاَّ فقد كان فيهم كُتَّاب الوَحْي وغير ذلك ، وكان فيهم مَنْ يَحْسِبُ وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[2] .

ومن علَّمَهم الفَرائضَ وهي تَحْتاجُ إلىٰ حساب وعَوْل ، وهو عليه السلام فنَفىٰ عن الأمَّة الحسابَ ، فعَلِمْنا أنَّ المَنفيَّ كَمالُ علم ذلك ودَقائقه التي يقومُ بها القِبطُ والأوائل ، فإنَّ ذلك ما لَمْ يَحْتَجْ إليه دينُ الإسْلام ولله الحَمدُ ، فإنَّ القِبطَ عَمقوا في الحساب والجَبْر ، وأشياء تُضيِّعُ الزَّمان وأرْبابُ الهَيئة تكلَّموا في سَيرِ النُّجومِ والشَّمسِ والقَمرِ ، والكُسوف والقِران[3] بأمور طَويلة لمْ يأتِ الشَّرعُ بها ، فلمَّا ذكر صلى الله عليه وسلم الشُّهورَ ومَعرفَتَها ، بيَّنَ أنَّ مَعرفَتَها ليسَت بالطُّرقِ التي يَفعلُها المُنَجِّم وأصْحابُ التَّقويم ، وأنَّ ذلكَ لا نَعبأُ به في دِينِنا ، ولا نَحسِبُ الشَّهرَ بذلك أبداً ثم بيَّنَ أنَّ الشَّهرَ بالرُّؤيَة فقط ، فيكونُ تسعاً وعشرين ، أو بتَكملَة ثلاثين فلا نَحتاجُ مع الثلاثين إلىٰ تكلُّفِ رُؤية .

وأمَّا الشِّعرُ : فنزَّهَه اللهُ تَعالَىٰ عن الشِّعرِ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾[4] .

---

(١) سورة العلق ، الآيتين : (٤ ـ ٥) .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٢ .
(٣) يعني قِرانَ الكَواكب .
(٤) سورة يس ، الآية : ٦٩ .

فما قال صلى الله عليه وسلم الشِّعرَ مع كثرَته وجَودَته في قُريش وجَرَيانِ قَرائحِهم به ، وقد يَقعُ شيءٌ نادِرٌ في كَلامِه ـ عليه السلام ـ مَوْزوناً فما صارَ بذلك شاعراً قَطّ .

كقوله صلى الله عليه وسلم :

أنـــا النَّبـــيُّ لا كَـــذِبْ أنـــا ابـــنُ عبـــدِ المُطَّلِـــبْ

وقوله صلى الله عليه وسلم :

هَـــلْ أَنْـــتِ إلاَّ إِصْبَـــعٌ دَميـــتِ وفـــي سَبيـــلِ اللهِ مـــا لَقيـــتِ

ومثلُ هٰذا قد يَقعُ في كُتبِ الفِقْه والطِّبِّ وغير ذلك ممَّا يقعُ اتِّفاقاً ولا يَقصِدُه المؤلِّفُ ولا يَشعرُ به ، أفيَقولُ مُسْلمٌ قَطُّ : إنَّ قولَه تَعالَىٰ : ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍۚ﴾[1] هو بَيتٌ ؟! مَعاذَ الله! وإنَّما صادَفَ وَزْناً في الجُملَة ، واللهُ أعْلم[2] .

وقال القاضي عِياض : ولمَّا تَكلَّمَ أبو الوَليد ، سُليمانُ الباجيُّ ، في حَديثِ الكتابَة يَومَ الحُدَيبيَة الذي في « صَحيح البُخاري » ، قال بظاهِرِ لفظِه ، فأنْكرَ عليه الفَقيهُ أبو بَكر بنُ الصَّائغ وكفَّره بإجازَتِه الكَتْبَ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم النَّبيُّ الأُميُّ وأنَّه تَكذيبٌ للقُرآن ، فتكلَّمَ في ذلك مَنْ لمْ يَفهَمِ الكَلامَ ، حتىٰ أطلَقوا عليه الفِتنةَ ، وقبَّحوا عند العامَّة ما أتىٰ به ، وتكلَّمَ به خُطباؤُهم في الجُمَع ، وقال شاعرُهم :

بَـرِئْـتُ ممَّـنْ شَـرَىٰ دُنْيـا بـآخِـرَةٍ وقـالَ : إنَّ رسُـولَ اللهِ قَـدْ كَتَبـا

فصنَّفَ القاضي أبو الوَليد رسالةً بيَّن فيها أنَّ ذلكَ غَيرُ قادِحٍ في المُعْجِزَة ، فرَجعَ بها جَماعَةٌ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : يَجوزُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَكتبَ اسْمَه ليسَ إلاَّ ، ولا يَخرجُ بذلك عن كونِه أُميّاً ، وقد قال عليه السلام : « إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكتُبُ

---

(١) سورة سبأ ، الآية : ١٣ .

(٢) انظر السير : (ابن مَنْدَة) ١٤/١٨٨ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٠ .

ولا نَحْسِبُ » أي لأنَّ أكْثَرَهم كذلك ، وقد كان فيهم الكَتَبَةُ قليلاً وقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[1] فقوله عليه السلام: « لا نَحْسِبُ » حَقٌّ ، ومع هـٰذا فكان يَعرفُ السِّنينَ والحِسَابَ وقَسْمَ الفَيء ، وقِسْمَةَ المَواريثِ بالحِسَابِ العَربيِّ الفِطْريِّ لا بحسَابِ القِبْطِ ولا الجَبْر والمُقابَلة ، بأبي هو ونفسي صلى الله عليه وسلم ، وقد كان سَيِّدَ الأذْكياء ، ويَبعُدُ في العادَة أنَّ الذَّكيَّ يُمْلي الوَحيَ وكُتبَ المُلوك وغيرَ ذلك علىٰ كُتَّابِه ، ويَرى اسْمَه الشَّريفَ في خاتَمِه ، ولا يَعرفُ هَيئةَ ذلك مع الطُّولِ ، ولا يَخرجُ بذلك عن أُميَّته ، وبَعضُ العُلماء عَدَّ ما كَتبَه يومَ الحُدَيبيَة من مُعْجزاتِه ، لكَونِه لا يَعرفُ الكتابَةَ وكَتَبَ[2] .

٤ـ المُصَنِّفُ يَعرضُ عَقلَه على النَّاس :

قال المُؤتمَنُ : كان الخَطيبُ البَغدادي يَقولُ : مَنْ صَنَّفَ فقد جَعلَ عَقلَه علىٰ طَبقٍ يَعرِضُه على النَّاس[3] .

٥ـ عَدمُ المُراجَعة بعد الكتابَة والتَّصْنيف خَطأ :

كان أبو الفَرج ابنُ الجَوْزي كَثيرَ الغَلطِ فيما يُصنِّفُه فإنَّه كان يَفرَغُ من الكتابِ ولا يَعتبرُه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰكذا هو له أوْهامٌ وألْوانٌ من تَرك المُراجَعَة ، وأخذِ العِلمِ من صُحفٍ وصَنَّفَ شَيئاً لوْ عاشَ عُمراً ثانياً ، لما لَحِقَ أنْ يُحَرِّرَه ويُتْقِنَه[4] .

٦ـ الأُنْس بكتُب العِلم :

رُويَ أنَّ أبا عبدِ الرحمـٰن عبدَ الله العُمَري كان يَلزَمُ المَقْبَرَة كَثيراً ، ومعه كتابٌ يُطالِعُه ، ويقولُ : لا أَوْعَظَ من قَبْرٍ ، ولا آنَسَ من كتابٍ ، ولا أسْلمَ من وَحْدة[5] .

---

(١) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .
(٢) انظر السير : (أبو الوَليد الباجي) ١٨/ ٥٣٥ـ ٥٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٣٩ .
(٣) انظر السير : (الخطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٣ .
(٤) انظر السير : (أبو الفَرج ابن الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٦ .
(٥) انظر السير : (العُمَريّ) ٨/ ٣٧٣ـ ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/٧٦٥ .

وعن نُعيمِ بنِ حمَّاد قال : كان عبدُ الله ابنُ المُبارَك يُكثِرُ الجُلوسَ في بَيتِه ، فقيل له : ألا تَسْتوْحِش ؟ فقال : كيف أسْتَوْحِشُ وأنا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصْحابِه ؟![1]

٧ـ اعْتناء بعض العامَّة بكتُب العِلم :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمة أبي إبراهيم إسماعيلَ بنِ يَحْيى المُزَنِيِّ : وامْتلأتِ البلادُ بـ « مُخْتصَرِه » في الفِقْه ، شَرحَه عدَّةٌ من الكبارِ بحيثُ يُقالُ : كانت البِكْرُ يكونُ في جَهازِها نُسخَةٌ بـ « مُخْتصَر » المُزَنيِّ .

قال الشَّافعيُّ : المُزَنيُّ ناصِرُ مَذْهَبي[2] .

٨ـ أخْذُ كتب في السَّفر يُسْتعان بها :

قال ابنُ أبي ذُهل : سَمعتُ أبا العبَّاس محمدَ بنَ عبد الرحمَـٰن الدَّغُولي يقولُ : أرْبَعُ مُجلَّداتٍ لا تُفارِقُني في السَّفَر ، والحَضَر ، وإذا خَرجتُ من البلدِ : كتابُ المُزَنيِّ ، وكتابُ « العَين » ، و« تاريخُ البُخاريِّ » وكتابُ « كليلَة ودِمْنَة »[3] .

٩ـ مَكتبَة عَظيمَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ عبدِ الله المُرْسي : قرأتُ بخَطِّ الكنْديِّ في تَذكرَته أنَّ كتبَ المُرْسي كانت مُودَعَةً بدِمَشْقَ ، فرسَمَ السُّلطانُ ببَيْعِها ، فكانوا في كلِّ ثُلاثاءَ يَحملون منها جُملةً إلىٰ دار السَّعادة ، ويَحضُرُ العُلماءُ ، وبيعَت في نحوٍ من سَنة ، وكان فيها نَفائس ، وأحْرَزت ثمناً عَظيماً ، وصنَّف تَفسيراً كبيراً لمْ يُتمَّه .

تُوفِّي المُرسيُّ سنة خمس وخمسين وستِّ مئة بالعَريش وهو مُتوجِّه إلىٰ دِمَشقَ[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٦٦ .
(٢) انظر السير : (المُزَنيّ) ١٢/ ٤٩٢ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٢٣ .
(٣) انظر السير : (الدَّغوليّ) ١٤/ ٥٥٧ـ ٥٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٧٣ .
(٤) انظر السير : (المُرْسي) ٢٣/ ٣١٢ـ ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧٣٨ .

١٠ـ مَكتبَة تَعفَّنَت بسَبب الرُّطوبة والتَّرك :

قال الحافظُ زَكيُّ الدِّين عبدُ العَظيم : كان السِّلَفيُّ مُغْرىً بجَمع الكُتب والاسْتكثارِ منها وما كان يَصلُ إليه من المال كان يُخرِجُه في شِرائها ، وكان عندَه خَزائنُ كُتبٍ ، ولا يَتفرَّغُ للنَّظرِ فيها ، فلمَّا ماتَ وَجدوا مُعظَم الكتب في الخَزائن قد عَفنتْ ، والتَصقَ بعضُها ببعض لنَداوَة الإسْكندَريَّة ، فكانوا يَستخلِصُونَها بالفأسِ ، فتَلفَ أكثَرُها[١] .

١١ـ بَعضُ مَنْ اعتَنىٰ بالكتُبِ وتَحْصيلِها :

وكان المُسْتنصِرُ بالله جيِّدَ السِّيرة ، وافِرَ الفَضيلة ، مُكرماً للوافدين عليه ، ذا غَرام بالمُطالَعة وتَحصيلِ الكُتب النَّفيسَة الكثيرة حقِّها وباطِلِها بحيثُ أنَّها قارَبت نحواً من مئتَي ألف سِفْر ، وكان يَنْطَوي علىٰ دين وخَير[٢] .

وكان باذِلاً للذَّهبِ في اسْتجلابِ الكُتب ، ويُعطي مَنْ يتَّجِرُ فيها ما شاء حتىٰ ضاقَت بها خَزائنُه ، لا لذَّة في غير ذلك[٣] .

وقال محمدُ بنُ عبد المَلك : مَلكَ من الكتب ما لم يملكْهُ أحدٌ قيلَ : ابتاعَها من مِصْرَ بالخُبزِ وقتَ القَحْطِ ، وحدَّثني عبدُ المحسن بنُ محمد أنَّه ابتاعَها بالأثْمان الغاليَة ، كان يَبتاعُ من كتب السيرافيِّ وكانت أزيدَ من أربعين ألف مُجلَّد ، فكان أبو يوسف يَشتري في كل أسبوع بمئة دينار ، ويقول : قد بعتُ رَحْلي وما في بيتي وكان الرُّؤساء يَصِلونَه[٤] .

١٢ـ مَنْ وَصىٰ بكتُبه :

قال سَلمَةُ بنُ واصِل : مات أبو قِلابَة رَحمَه الله بالشَّام ، فأوْصَىٰ بكُتبِه لأيُّوبَ السِّخْتياني فحُملت إليه[٥] .

---

(١) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ١٥٩٣/ ٤ .
(٢) انظر السير : (المُسْتَنصِر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ١٢٩٠/ ٢ .
(٣) انظر السير : (المُسْتَنصِر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ١٢٩٠/ ٣ .
(٤) انظر السير : (أبو يوسف القَزْوينيّ) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ١٤٤٩/ ١ .
(٥) انظر السير : (أبو قِلابَة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٥٣٤/ ٧ .

١٣ـ التعريف ببعض الكتب :

(أ) « الأسديّة » :

قيلَ : إنَّ أسَدَ بنَ الفُرات رَجعَ من العِراق ، فدَخلَ على ابنِ وَهْب ، فقال : هـٰذه كُتبُ أبي حَنيفة ، وسألَه أنْ يُجيبَ فيها علىٰ مَذْهَب مالك ، فأبىٰ ، وتَورَّع ، فذَهبَ بها إلى ابنِ القاسِم ، فأجابَه بما حَفظَ عن مالك ، وبما يَعلَمُ من قَواعِدِ مالك ، وتُسمَّىٰ هـٰذه المَسائل الأسَديَّة .

وحَصلت بإفريقية له رياسَة وإمْرَة ، وأخَذوا عنه ، وتَفقَّهوا به[1] .

وحَملَ عنه سُحنونُ بنُ سَعيد ، ثم ارْتَحلَ سُحْنونٌ بالأسَديَّة إلى ابنِ القاسِم ، وعَرضَها عليه ، فقال ابنُ القاسِم : فيها أشياءُ لا بُدَّ أنْ تُغيَّر ، وأجابَ عن أماكن ، ثم كتب إلىٰ أسَدِ بنِ الفُرات : أنْ عارِضْ كُتبَك بكتب سُحْنون ، فلمْ يَفعَلْ ، وعَزَّ عليه ، فبَلغَ ذلك ابنَ القاسِم ، فتألَّم ، وقال : اللَّهُمَّ لا تُبارِك في الأسَديَّة ، فهي مَرفُوضَة عند المالِكيَّة[2] .

(ب) « الفُنون » لابن عَقيل :

كان ابنُ عَقيل يَتوقَّدُ ذَكاءً ، وكان بَحرَ مَعارِف ، وكَنزَ فَضائل ، لمْ يكُنْ له في زَمانه نَظيرٌ علىٰ بِدعَته ، وعلَّق كتابَ « الفُنون » وهو أزْيدُ من أربع مئة مُجلَّد ، حَشدَ فيه كل ما كان يَجري له مع الفُضلاء والتلامِذَة ، وما يَسْنَحُ له من الدَّقائق والغَوامِض ، وما يَسمَعُه من العَجائب والحَوادث .

عن حمَّاد الحرَّاني ، سَمعَ السِّلَفيَّ يقولُ : ما رأتْ عَيني مثلَ أبي الوَفاء بنِ عَقيل الفَقيه ، ما كان أحدٌ يَقدرُ أنْ يَتكلَّمَ معه لغَزارَة عِلمِه وحُسْنِ إيرادِه ، وبَلاغَة كَلامِه ، وقُوّة حُجَّته ، تَكلَّمَ يوماً مع شَيخِنا إلْكيا أبي الحَسَن ، فقال له إلْكيا : هـٰذا ليس مَذْهبُك ، فقال : أكونُ مثلَ أبي عليّ الجُبَّائي ، وفُلان وفُلان لا أعلمُ شيئاً ؟! أنا لي

---

(١) انظر السير : (أسدُ بن الفُرات) ١٠/ ٢٢٥ـ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٧٠ .

(٢) انظر السير : (أسدُ بن الفُرات) ١٠/ ٢٢٥ـ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٧٠ .

اجْتهادٌ متىٰ ما طالبني خَصمٌ بالحُجَّة ، كان عندي ما أدْفَعُ به عن نفسي وأقومُ له بحُجَّتي ، فقال إلْكيا : كذاك الظنُّ بك[1] .

(ج) « المُدوَنَّة » :

أصْلُ « المُدوَّنَة » أسئلةٌ سألَها ابنُ الفُرات لابنِ القاسِم ، فلمَّا ارْتَحلَ سُحْنونٌ بها عَرضَها على ابنِ القاسِم ، فأصْلحَ فيها كثيراً ، وأسْقطَ ثم رتَّبَها سُحْنونٌ ، وبوَّبَها ، واحْتجَّ لكثير من مَسائِلها بالآثار من مَرْوياتِه مع أنَّ فيها أشْياء لا يَنهَضُ دَليلُها ، بل رأيٌ مَحْض ، وحَكوا أنَّ سُحْنوناً في أواخر الأمْر علَّم عليها ، وهمَّ بإسقاطها وتَهذيب « المُدَوَّنَة » فأدْرَكتْه المَنيَّة رَحمَه الله فكُبراءُ المالكيَّة ، يَعرفون تلك المَسائل ، ويُقرِّرُون منها ما قَدروا عليه ، ويُوَهِّنون ما ضَعُفَ دَليلُه فهي لها أُسْوَةٌ بغيرها من دَواوين الفِقْه وكلُّ أحدٍ فيُؤخَذُ من قَولِه ويُترَك إلاَّ صاحبَ ذاك القبر صلى الله عليه وسلم فالعلمُ بَحرٌ بلا ساحل ، وهو مُفرَّقٌ في الأمَّة مَوجودٌ لمَنْ التَمسَه .

وتفسير (سُحْنون) بأنه اسم طائر بالمغرب ، يُوصَف بالفِطْنَة والتَّحرُّز ، وهو بفَتْح السِّين وبضَمِّها .

تُوفِّي الإمامُ سُحْنونٌ في سنة أربعين ومئتين ، وله ثمانون سنة[2] .

(د) مَعاجم الطَّبَراني :

من تَواليف الإمامِ الطَّبَرانيّ « المُعْجَمُ الصَّغير » في مُجلَّد عن كلِّ شَيخٍ حَديث ، و« المُعْجَمُ الكبير » وهو مُعْجَم أسْماء الصَّحابَة وتَراجمهم وما رَوَوْه ، لكن ليس فيه مُسْندُ أبي هُرَيْرة ، ولا اسْتوعَب حَديثَ الصَّحابَة المُكْثرين ، في ثمانِ مُجلَّدات ، و« المُعْجَمُ الأوْسَط » علىٰ مَشايخِه المُكْثرين ، وغَرائبِ ما عندَه عن كل واحد ، يكونُ خَمسَ مُجلَّدات ، وكان الطَّبرانيُّ ـ فيما بلَغَنا ـ يقولُ عن « الأوْسَط » : هٰذا الكتابُ رُوحي[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن عَقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٧ .

(٢) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٧/٩٨٣ .

(٣) انظر السير : (الطَّبَرانيّ) ١٦/ ١١٩ـ ١٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٢ .

١٤ـ نَقْدُ بعض الكتُب :

(أ) « إحياء عُلوم الدين » للغَزالي :

قال محمَّدُ بنُ الوَليد الطُّرْطُوشيُّ في رسالة له إلى ابنِ مُظفَّر : فأمَّا ما ذَكرتَ من أبي حامد ، فقد رَأيتُه ، وكلَّمتُه ، فرأيتُه جَليلاً من أهلِ العِلمِ ، واجْتمَعَ فيه من العَقلِ والفَهمِ ، ومارَسَ العُلومَ طوُل عُمرِه ، وكان علىٰ ذلك معظم زمانه ، ثم بدا له عن طريق العلماء ودخل في غُمار العُمَّال ، ثم تَصوَّف ، وهَجرَ العُلومَ وأهلَها ، ودَخلَ في عُلومِ الخَواطِر وأرْبابِ القُلوبِ ، ووَساوس الشَّيطان ، ثم شَابَها بآراء الفَلاسِفَة ، ورُموزِ الحَلاَّج ، وجَعلَ يَطْعَنُ على الفُقَهاء والمُتكلِّمين ، ولقد كادَ أنْ يَنسَلخَ من الدِّين ، فلمَّا عَملَ « الإحْياءَ » عَمدَ يَتكلَّم في عُلومِ الأحْوال ، ومَرامِز الصُّوفيَّة ، وكان غَيرَ أنيسٍ بها ، ولا خَبير بمَعْرفَتِها ، فسَقطَ علىٰ أُمِّ رأسِه وشَحنَ كتابَه بالمَوْضوعات[١] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : أمَّا « الإحْياءُ » ففيه من الأحاديث الباطِلَة جُملَةٌ ، وفيه خَيرٌ كَثير لولا ما فيه من آداب ورُسوم وزُهْد من طَرائق الحُكَماء ومُنْحَرِفي الصُّوفيَّة ، نَسألُ اللهَ عِلماً نافِعاً[٢] .

وقال أبو الفَرج ابنُ الجَوْزي : صَنَّف أبو حامد « الإحْياءَ » وملأَه بالأحاديث الباطِلَة ، ولمْ يَعْلمْ بُطْلانَها ، وتَكلَّمَ على الكَشْف وخَرجَ عن قانون الفِقْه ، وقال : إنَّ المُرادَ بالكَواكِبِ والقَمرِ والشَّمسِ اللَّوَاتي رآهُن إبراهيمُ ، أنْوارٌ هي حُجُبُ الله عَزَّ وجَلَّ ، ولمْ يُرِد هٰذه المَعْروفات وهٰذا من جِنْسِ كَلامِ الباطِنيَّة ، وقد رَدَّ ابنُ الجَوْزي علىٰ أبي حامد في كتاب « الإحْياء » وبيَّن خَطأَه في مُجلَّدات ، سمَّاه كتاب « الأحْياء »[٣] .

---

(١) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٨٤ .
(٢) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٥ .
(٣) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٨٥ .

(ب) « الشفا » للقاضي عِياض :

جاء في تَرجمة القاضي عِياض ، قال الذهبيُّ : تَواليفُه نَفيسَةٌ ، وأجَلُّها وأشْرفُها كتابُ « الشِّفا » لولا ما قد حَشاهُ بالأحاديث المُفْتَعلَة ، عَمَلَ إمامٍ لا نَقْدَ له في فنِّ الحَديث ولا ذَوْق ، والله يُثيبُه علىٰ حُسنِ قَصْدِه ، ويَنفَعُ بـ « شِفائِه » وقد فَعل ، وكذا فيه من التأويلات البَعيدَة ألْوان ، ونَبيُّنا صَلواتُ الله عليه وسَلامُه غَنيٌّ بمِدحَةِ التَّنْزيل عن الأحاديث ، وبما تَواتَر من الأخْبار عن الآحاد ، وبالآحادِ النَّظيفَة الأسَانيد عن الواهيات ، فلماذا يا قَوم نَتَشبَّعُ بالمَوْضُوعات ، فيَتطرَّقُ إلينا مَقالُ ذَوي الغِلِّ والحَسَد ، ولكن مَنْ لا يَعلمْ مَعذورٌ ، فعَليك يا أخي بكتاب « دَلائل النُّبوَّة » للبَيْهَقيِّ ، فإنَّه شِفاءٌ لما في الصُّدور وهُدىً ونور[1] .

قال القاضي ابنُ خلِّكان : شُيوخُ القاضي يُقاربون المئة ، تُوفِّيَ في سنة أربعٍ وأربَعين وخَمس مئة[2] .

(ج) « مِرْآةُ الزَّمان » لسِبطِ ابن الجَوْزي :

جاء في ترجمة ابن الجَوْزيِّ ، قال الذهبيُّ : قال سِبْطُه أبو المُظفَّر : تُوفِّيَ أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي ليلة الثالث عَشرَ من رَمضانَ سنة سَبعٍ وتسعين وخَمسِ مئة ، وغُلِّقَت الأسْواقُ ، وجاءَ الخَلقُ ، وصَلَّىٰ عليه ابنُه أبو القاسم عليٌّ اتِّفاقاً ، لأنَّ الأعْيانَ لمْ يَقدِروا من الوُصولِ إليه ، ثم ذَهبوا به إلىٰ جامع المَنْصُور ، فصلُّوا عليه ، وضاقَ بالنَّاس ، وكان يوماً مَشْهوداً ، فلمْ يَصلْ إلىٰ حُفْرَته بمَقْبَرَةِ أحمَدَ إلىٰ وَقتِ صَلاةِ الجُمُعَة ، وكان في تمُّوز ، وأفْطَرَ الخَلقُ ، ورَمَوا نُفوسَهم في الماء إلىٰ أن قال : وما وَصلَ إلىٰ حُفْرتِه من الكَفَنِ إلاَّ قَليلٌ ، كذا قال ، والعُهْدةُ عليه[3] ، وأُنزِلَ في الحُفرَةِ ، والمُؤذِّنُ يقولُ : اللهُ أكبَر ، وحَزنَ عليه الخَلقُ ، وباتوا عند قَبرِه طُولَ شَهرِ

---

(١) قال صاحب النُّزهة : هو أيضاً فيه أحاديث واهية وعذره فيها أنه ساقها بأسانيد .

(٢) انظر السير : (القاضي عِياض) ٢٠/ ٢١٢ـ٢١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٣ .

(٣) وقال في « تاريخ الإسلام » : (وهٰذا من مجازفة أبي المظفر) ، وقد وصف الذهبيُّ السبط بالمجازفة في غير موضع من كتبه .

رَمضانَ يَختِمونَ الخَتَمَات ، بالشَّمْعِ والقَناديلَ ، ورآهُ في تلك اللَّيلَةَ المُحَدِّثُ أحمدُ بنُ سَلمان السُّكّر في النَّوم ، وهو علىٰ مِنْبَرٍ من ياقُوت ، وهو جالسٌ في مِقْعَد صِدْقٍ والمَلائكَةُ بين يَديْه[1] وأصْبَحنا يومَ السَّبت عملنا العزاء ، وتكلَّمْتُ فيه ، وحَضرَ خَلقٌ عَظيمٌ ، وعُمِلَتْ فيه المَراثي[2] .

وذَكَرَ أبُو المُظَفَّر الواعِظُ في « مِرْآةِ الزَّمانِ » : وفي ذِي القِعْدَة سَنةَ سِتٍّ وتِسْعينَ وخَمسِ مِئَة كان ما اشْتُهِرَ من أمْرِ الحافظِ عبد الغَنيّ وإصْرارِه علىٰ ما ظَهَرَ من اعْتِقادِه وإجْمَاعِ الفُقَهاءِ على الفُتْيَا بتَكْفِيرِه ، وأنَّه مُبْتَدِعٌ لا يَجُوزُ أنْ يُتْرَكَ بينَ المُسلمينَ ، فسَألَ أنْ يُمْهَلَ ثلاثَةَ أيّامٍ لِيَنْفَصِلَ عن البَلَدِ فأُجيب[3] .

قال الذهبيُّ : قد بَلَوْتُ علىٰ أبي المُظَفَّر المُجازَفَةَ وقِلَّةَ الوَرَع فيما يُؤرِّخُه واللهُ المُوعِدُ ، وكان يَتَرَفَّضُ ، رأيتُ له مُصَنَّفاً في ذلكَ فيه دَواهٍ ، ولَوْ أجْمَعَتِ الفُقَهاءُ علىٰ تَكْفيرِه كما زَعَمَ لمَا وَسِعَهُم إبْقَاؤهُ حيّاً ، فقَد كان علىٰ مَقَالَتِه بدِمَشْقَ أخُوهُ الشَّيخُ العِمَادُ والشَّيخُ مُوَفَّقُ الدّين ، وأخُوهُ القُدوَةُ الشَّيخُ أبُو عُمَرَ ، والعَلاَّمَة شَمسُ الدّين البُخاريّ ، وسائِرُ الحَنابلَة ، وعِدّةٌ من أهْلِ الأثَر ، وكان بالبَلَدِ أيْضاً خَلْقٌ من العُلَمَاء لا يُكَفِّرُونَه ، نَعَمْ ولا يُصَرِّحُون بمَا أطْلَقَهُ من العِبارَةِ لمَّا ضايَقُوهُ ، ولَوْ كَفَّ عن تِلكَ العِبَاراتِ ، وقال بمَا وَرَدَتْ به النُّصُوصُ لأجَادَ ولَسَلِمَ ، فهُو الأوْلَىٰ ، فما في تَوْسِيعِ العِباراتِ المُوهِمَةِ خَيرٌ ، وأسْوأُ شَيءٍ قالَه أنْ ضَلَّلَ العُلَماءَ الحاضِرين ، وأنَّه على الحَقِّ ، فقَالَ كَلمَةً فيها شَرٌّ وفَسادٌ وإثارَةٌ للبَلاءِ ، رَحِمَ اللهُ الجَميعَ وغَفَرَ لهُم ، فمَا قَصْدُهُم إلاَّ تَعْظيمَ البَارِي عَزَّ وجَلَّ من الطَّرَفَيْن ، ولكنَّ الأكْمَلَ في التَّعْظيمِ والتَّنْزيه الوُقُوفُ معَ ألْفاظِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وهَـٰذا هو مَذْهَبُ السَّلَفِ رَضي اللهُ عنهم .

وبكُلِّ حالٍ فالحَافِظُ عبدُ الغَنيّ من أهْلِ الدّينِ والعِلْمِ والتَّألُّهِ والصَّدْعِ بالحَقِّ ،

---

(١) تمام الخبر : والحقُّ سبحانه وتعالىٰ حاضرٌ يسمع .

(٢) انظر السير : (أبو الفَرج ابن الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٦ .

(٣) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٥٠ .

ومَحَاسِنُهُ كَثيرةٌ ، فنَعُوذُ باللهِ من الهَوَىٰ والمِراءِ والعَصَبيّةِ والافْتِراءِ ، ونَبْرأُ من كُلِّ مُجَسِّمٍ ومُعَطِّلٍ[1] .

١٥ـ كتاب « نَهـجُ البَلاغَة » مَوضُوعٌ ونِسْبَتُه إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه غيرُ صحيحة :

جاء في تَرجمة المُرْتَضَىٰ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : هو جامِعُ كتاب « نَهْجُ البَلاغَة » ، المَنسُوبَة ألفاظُه إلى الإمام عليٍّ رضي الله عنه ، ولا أسانيدَ لذلك ، وبعضُها باطلٌ ، وفيه حَقٌّ ولكن فيه مَوضُوعات حاشا الإمامَ من النُّطقِ بها ، ولكن أين المُنْصِفُ ؟! وقيل : بلْ جَمْعُ أخيه الشَّريف الرِّضَا .

وديوانُ المُرْتَضَىٰ كبيرٌ وتَواليفُه كَثيرَةٌ ، وكان صاحبَ فُنون .

وكان من الأذْكياء والأوْلياء ، المُتَبحِّرين في الكلام والاعْتزال ، والأدَب والشِّعر ، لكنَّه إماميٌّ جَلْدٌ نَسألُ اللهَ العَفوَ[2] .

١٦ـ كتابٌ مَنسُوبٌ إلى الإمام أحمَد :

قال أبو الحُسَين أحمدُ بنُ جَعْفَر بنِ المُنادي : لمْ يكنْ في الدُّنيا أحدٌ أرْوَىٰ عن أبيه من عبدِ الله بنِ أحمَدَ ، لأنَّه سَمعَ منه « المُسْنَدَ » ، وهو ثَلاثُون ألفاً ، و« التَّفْسيرَ » ، وهو مئةُ ألفٍ وعِشرون ألفاً ، وغيرَ ذلك من التَّصانيف .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ما زِلْنا نَسْمَعُ بهـٰذا « التَّفْسيرِ » الكبيرِ لأحمَدَ علىٰ ألْسِنَة الطَّلبَة ، وعُمْدَتُهم حكايَةُ ابنِ المُنادي هـٰذه ، ولكن ما رَأينا أحداً أخْبَرنا عن وُجود هـٰذا « التَّفْسير » ، ولا بَعضه ولا كُرَّاسَة منه ، ولو كان له وُجودٌ ، أو لشيء منه لنَسَخُوه ، ولاعْتَنَىٰ بذلك طَلبَةُ العِلمِ ، وَلحَصَّلوا ذلك ، ولنُقِلَ إلينا ، ولاشْتُهِر ، ولتَنافَسَ أعْيانُ البَغداديين في تَحْصيلِه ، ولنَقلَ منه ابنُ جَرير فمَنْ بَعدَه في تَفاسِيرِهم ، وهـٰذا « التَّفْسيرُ » لا وُجودَ له ، وأنا أعْتقِدُ أنَّه لمْ يَكُنْ ، فبَغدادُ لمْ تَزَلْ دارَ الخُلفاءِ ، وقُبَّةَ الإسْلامِ ، ودَارَ الحَديثِ ، ومَحِلَّةَ السُّنَن ، ولمْ يَزَلْ أحمدُ فيها مُعَظَّماً في سائر

---

(١) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥٠ .

(٢) انظر السير : (المُرْتَضىٰ) ١٧/٥٨٨ـ ٥٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٦ .

الأعْصارِ ، وله تَلامِذَةٌ كبارٌ ، وأصْحابُ أصْحاب ، وهَلُمَّ جَراً إلىٰ بالأمْسِ ، حين اسْتَباحَها جَيشُ المَغُولِ ، وجَرَت بها من الدِّماءِ سُيولٌ ، وقد اشْتُهِرَ ببَغدادَ « تَفسيرُ ابنِ جَرير » ، وتَزاحَمَ علىٰ تَحْصِيلِه العُلماءُ ، وسارَتْ به الرُّكْبانُ ، ولمْ نَعْرفْ مثلَه في مَعناه ، ولا أُلِّفَ قَبلَه أكْبرُ منه ، وهو في عِشرينَ مُجلَّدَة ، وما يَحْتمِلُ أنْ يَكُونَ عِشْرينَ ألْفَ حَديثٍ ، بلْ لَعلَّه خَمسَةَ عَشَرَ ألفَ إسْناد ، فخُذْه ، فعُدَّه إنْ شِئْتَ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : عاشَ في عُمرِ أبيه سَبعاً وسَبعينَ سَنةً .

ماتَ ودُفِنَ في مَقابِرِ بابِ التِّبْنِ[1] ، وكان الجَمعُ كَثيراً فوقَ المِقْدار[2] .

١٧ـ تَمنِّي الذَّهبيّ أن يُقيِّض الله عَالماً يَخدم « المُسنَد » (وقد حقَّق الله بعضَ أمنيَّته) :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمة عبدِ الله بنِ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : كان صَيِّناً دَيِّناً صادِقاً ، صاحبَ حَديثٍ واتِّباعٍ وبَصَرٍ بالرِّجال ، ولمْ يَدخُلْ في غَيرِ الحَديثِ ، وله زياداتٌ كَثيرةٌ في « مُسْنَدِ » والدِه واضِحَةٌ عن عَوالي شُيوخِه ولمْ يُحَرِّرْ تَرْتيبَ « المُسْنَد » ولا سَهَّلَه ، فهو مُحْتاجٌ إلىٰ عَملٍ وتَرتيب .

فلَعلَّ الله يُقيِّضْ لهٰذا الدِّيوانِ العَظيمِ مَنْ يُرتِّبُه ويُهَذِّبُه ، ويَحْذفُ ما كُرِّرَ فيه ، ويُصْلحُ ما تَصَحَّفَ ، ويُوَضِّحُ حالَ كَثيرٍ من رجاله ، ويُنَبِّه علىٰ مُرْسَلِه ، ويُوَهِّنُ ما يَنْبَغي من مَناكِيرِه ، ويُرَتِّبُ الصَّحابَةَ على المُعْجَم ، وكذلك أصْحابَهم على المُعْجَم ، ويَرمِزُ علىٰ رُؤوسِ الحَديثِ بأسْماءِ الكُتبِ السِّتَّة ، وإنْ رَتَّبَه على الأبْوابِ فحَسَنٌ جَميلٌ ، ولَوْلا أنِّي قد عَجزتُ عن ذلك لِضَعْفِ البَصَر ، وعَدمِ النِّيَّة ، وقُرْبِ الرَّحيلِ ، لَعَملتُ في ذلك[3] .

١٨ـ رُؤىٰ فيها تَزكيَة لكتُب :

قال خالدُ بنُ عبدِ الله المَرْوَزِيُّ ، سَمعتُ أبا سَهْل محمَّدَ بنَ أحمَدَ المَرْوِزِيَّ ، سَمعتُ أبا زَيْد المَرْوِزِيَّ الفَقيهَ يقولُ : كُنتُ نائماً بين الرُّكنِ والمَقَام فرَأيتُ النبيَّ

---

(١) باب التبن : محلة كبيرة ببغداد على الخندق بإزاء قطيعة أم جعفر .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن أحمد) ١٣/٥١٦ـ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٣ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن أحمد) ١٣/٥١٦ـ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٤ .

صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : يا أبا زَيْد ، إلىٰ مَتىٰ تَدْرُسُ كتابَ الشَّافعي ، ولا تَدرُسُ كتابي ؟ فقُلتُ : يا رسُولَ الله ، وما كتابُك ؟ قال : « جامِعُ » مُحمَّد بن إسْماعيل[1] .

وقال شَيخُ القُضاةِ أبو عليٍّ إسْماعيلُ بنُ البَيْهَقيّ : حدَّثنا أبي قال : حين ابْتدأتُ بتَصنيفِ هـٰذا الكتاب ـ يَعني كتابَ « المَعْرِفَة في السُّنَن والآثار » ـ وفَرغْتُ من تَهْذيبِ أجْزاءٍ منه ، سَمعتُ الفَقيهَ محمّدَ ابنَ أحمد ـ وهو من صالِحي أصْحابي وأكثرِهم تِلاوَةً وأصْدَقِهم لَهْجَةً ـ يقولُ : رأيتُ الشَّافعيَّ ـ رَحمَه اللهُ ـ في النَّوم ، وبيَدِهِ أجْزاءٌ من هـٰذا الكتابِ وهو يقولُ : قد كَتبتُ اليومَ من كتابِ الفَقيه أحمدَ سَبعةَ أجْزاء ـ أو قال : قَرأتُها ـ ورآه يَعْتدُّ بذلك قال : وفي صَباح ذلك اليوم رأىٰ فَقيهٌ آخَر من إخْواني الشَّافعيَّ قاعداً في الجامع علىٰ سَرير وهو يَقولُ : قد اسْتَفدتُ اليومَ من كتابِ الفَقيه حَديثَ كذا وكذا[2] .

وأخْبَرنا أبي قال : سَمعتُ الفَقيهَ أبا محمّد الحَسَنَ بنَ أحمد السَّمَرْقَنديَّ الحافِظَ يقولُ : سَمعتُ الفَقيهَ محمّدَ بنَ عبد العَزيز المَرْوَزِيَّ يقولُ : رَأيتُ في المَنام كأنَّ تابُوتاً عَلا في السَّماء يَعْلُوه نورٌ ، فقُلتُ : ما هـٰذا ؟ قال : هَـٰذه تَصانيفُ أحمَدَ البَيْهَقيّ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذه رُؤيا حَقٌّ ، فتَصانيفُ البَيْهَقيِّ عَظيمةُ القَدْرِ ، غَزيرةُ الفَوائد ، قَلَّ من جَوَّدَ تَواليفَهُ مثلُ الإمام أبي بَكر ، فيَنْبَغي للعالِمِ أنْ يَعْتَني بهَؤلاء سيَّما « سُنَنَه الكبير » .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : وبَلَغَنا عن إمام الحَرَمَينِ أبي المَعالي الجُوينيّ قال : ما من فَقيهٍ شَافعيٍّ إلاَّ وللشَّافعيِّ عليه مِنَّةٌ إلاَّ أبا بَكر البَيْهَقيِّ ، فإنَّ المِنَّةَ له على الشَّافعيِّ لتَصانيفِه في نُصْرَة مَذْهَبه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : أصابَ أبو المَعالي؛ هـٰكذا هو ، ولوْ شاءَ البَيْهَقيُّ أنْ يَعمَلَ لنفسِه مَذهَباً يَجتهدُ فيه ، لكان قادراً علىٰ ذلك ، لسِعَة عُلومِه ، ومَعرفَتِه بالاخْتلافِ ،

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٥ .

(٢) انظر السير : (البَيْهَقيّ) ١٨/ ١٦٣ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٤ .

ولهـٰذا تَراهُ يُلوِّحُ بنَصر مَسائلَ ممَّا صَحَّ فيها الحَديثُ ولمَّا سَمعوا منه ما أحَبُّوا في قَدْمَتِه الأخيرة ، مَرِضَ ، وحَضرت المَنيَّةُ ، فتُوفِّي سَنة ثمانٍ وخَمسينَ وأرْبع مئة ، فغُسِّلَ وكُفنَ وعُملَ له تابُوتٌ ، فنُقِلَ ودُفِنَ ببَيْهَق عاشَ أربعاً وسَبعينَ سنةً[1] .

* * *

(١) انظر السير : (البَيْهَقيّ) ١٨/١٦٣ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٩٤ .

من عُلوم الإسْلام

(١) القُرآنُ والقِراءاتُ والتَّجْويد

أولاً : القُرآن :

١ـ فَضلُ القُرآن :

قال إسماعيل بن عياش : أنبأنا عقيلُ بن مُدْرك ، يَرفعُه إلىٰ أبي سَعيد الخُدْريِّ قال : عَليكَ بتَقْوى الله فإنَّه رأسُ كلِّ شيء وعَليكَ بالجِهادِ فإنَّه رَهْبانيَّةُ الإسْلام ، وعَليكَ بذِكْر الله وتِلاوَة القُرآنِ ، فإنَّه رُوحُك في أهْلِ السَّماء وذِكْرُك في أهْلِ الأرْض ، وعَليكَ بالصَّمْتِ إلاَّ في حَقٍّ ، فإنَّك تَغلِبُ الشَّيْطان[١] ،[٢] .

عن يُونُس بنِ جُبَير ، قال : شَيَّعْنا جُندُباً البَجَليَّ ـ صاحبَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ـ فقُلتُ له : أوْصِنا ، قال : أُوصِيكُم بتَقْوى الله ، وأُوصِيكُم بالقُرآنِ ، فإنَّه نُورٌ باللَّيلِ المُظْلِم ، وهُدىٰ بالنَّهارِ ، فاعْمَلوا به علىٰ ما كان من جَهْد وفاقَة ، فإنْ عَرضَ بلاءٌ ، فقدِّمْ مالَكَ دُونَ دِينِك ، فإنْ تَجاوَزَ البَلاءُ ، فقَدِّمْ مالَكَ ونَفسَكَ دُونَ دِينِك ، فإنَّ المَخْروبَ مَنْ خَرُبَ دينُه ، والمَسْلوبَ مَنْ سُلِبَ دينُه ، واعْلمْ أنَّه لا فاقَةَ بعد الجَنَّة ولا غِنَىٰ بعد النَّار[٣] .

وجاء في ترجمة عبدِ الرَّحمَـٰن بنِ أبزى الخُزاعي قال الذهبيُّ : هو مَوْلىٰ نافعِ بنِ عبدِ الحارِث ، كان نافعٌ مَوْلاه اسْتنابَه علىٰ مكة حين تلقَّىٰ عُمرَ بنَ الخَطَّابِ إلىٰ عُسفان ، فقال له : مَنِ اسْتخلَفْتَ علىٰ أهْلِ الوَادي ؟ يَعني مَكة ، قال : ابنُ أبْزَىٰ ، قال : ومَنْ ابنُ أبْزَى ؟ قال : إنَّه عالمٌ بالفَرائِض قارِىءٌ لكتاب الله قال : أما إنَّ نَبيَّكم

---

(١) فيه انقطاع بين عقيل بن مدرك وأبي سعيد .

(٢) انظر السير : (أبو سعيد الخُدْريّ) ٣/ ١٦٨ـ ١٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٦١ .

(٣) انظر السير : (جُندُب) ٣/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٦١ .

صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ هـٰذا القُرآنَ يَرْفَعُ اللهُ به أقْوَامَاً ، ويَضَعُ به آخَرين » .

ويُروَىٰ عن عُمرَ بنِ الخَطَّاب أنَّه قالَ : ابنُ أبزَىٰ ممَّن رَفعَه اللهُ بالقُرآن[1] .

وعن أبي عبد الرحمَـٰن السُّلميِّ ، عن عُثمانَ بنِ عَفَّان ، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « خَيْرُكمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَه »

قال أبو عبد الرحمَـٰن : فذلك الذي أقْعَدَني هـٰذا المَقْعَد[2] .

وقال يَعقُوبُ الفَسويُّ : سَمعتُ أحمدَ بنَ يُونُس ، وذَكروا له حَديثاً أنْكَروه من حَديثِ أبي بَكْر ، عن الأعْمَش فقال : كان الأعْمَشُ يَضربُ هَؤلاء ويَشْتمُهم ويَطردُهم ، وكان يأخذُ بيَدِ أبي بَكْر ، فيَجلِسُ معَه في زَاويَة لحال القُرآن .

وقال أبو هشام الرِّفاعيُّ : قال أبو بَكْر بنُ عَيَّاش للحَسَنِ بنِ الحَسَن بالمَدينَة : ما أبْقَت الفِتْنَةُ منكَ ؟ فقال : وأي فِتْنَة رَأيتَني فيها ؟ قال : رَأيتُهم يُقبِّلون يَدَكَ ولا تَمْنَعُهم[3] .

وقال الحُسَينُ بنُ فهم : ما رَأيتُ أنبلَ من خَلَفِ بنِ هِشَام ، كان يَبدَأُ بأهْلِ القُرآن ، ثم يَأذَنُ لأصْحَابِ الحَديثِ[4] .

٢ـ تَدَبُّرُ القُرآنِ :

قال السُّلميُّ : سَمعتُ الإمامَ أبا عُثْمانَ المَغْربيَّ : يَقولُ : ليَكن تَدَبُّرُكَ في الخَلقِ تَدبُّرَ عِبْرَة ، وتَدَبُّرُكَ في نَفسك تَدبُّرَ مَوْعظَة ، وتَدَبُّرُكَ في القُرآن تَدبُّرَ حَقيقَة قال اللهُ تَعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[5] جرَّأكَ به علىٰ تِلاوَته ، ولولا ذلك لَكلَّت الألْسُن عن تِلاوَته[6] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن أبزى الخُزاعي) ٣/ ٢٠١ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٦٥ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الرحمَـٰن السُّلميّ) ٤/ ٢٦٢ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٩٥ .
(٣) انظر السير : (أبو بكر بن عيَّاش) ٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٨٦ .
(٤) انظر السير : (خَلف بن هشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٩٦ .
(٥) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .
(٦) انظر السير : (أبو عثمان المَغْربيّ) ١٦/ ٣٢٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٩٧ .

٣ـ تَدبُّر السَّلَف لكتاب الله :

(أ) صُورٌ من تَدبُّر السَّلَف لكتاب الله :

عن أبي العَالِيَة ، قالَ : إنَّ اللهَ قَضَىٰ علىٰ نفسه أنَّ مَنْ آمَنَ به هَدَاه ، وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[1] ، ومَنْ تَوَكلَ عليه كفاه ، وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[2] ومَنْ أقْرَضَه جازاه ، وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[3] ومَنْ اسْتَجارَ مِنْ عَذابِه أجَارَه وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾[4] .

والاعْتِصامُ الثِّقَةُ بالله ومَنْ دَعاه أجابَه ، وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[5] ،[6] .

وعن عَطاء بنِ السَّائب ، أنَّ أبا عبد الرحمٰنِ السُّلميَّ قالَ : أخَذْنا القُرآنَ عن قَومٍ أخْبَرونا أنَّهم كانوا إذا تَعلَّموا عَشرَ آياتٍ لمْ يُجاوزُوهنَّ إلى العَشْرِ الأُخَر حتىٰ يَعلَموا ما فيهنَّ ، فكُنَّا نَتعلَّمُ القُرآنَ والعَملَ به ، وسَيرثُ القُرآنَ بعدَنا قَومٌ يَشْرَبُونَه شُرْبَ الماء لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُم[7] .

وعن الحَسَن البَصْري قال : يا ابنَ آدَم ، والله إنْ قَرأتَ القُرآنَ ثم آمَنتَ به ليَطولَنَّ في الدُّنيا حُزنُك ، ولَيَشْتَدَّنَّ في الدُّنيا خَوفُك ، ولَيَكثُرَنَّ في الدُّنيا بُكاؤُك[8] .

وعن الضَّحْاكِ بنِ مُزاحِم ، قال : حَقٌّ علىٰ كُلِّ مَنْ تَعلَّمَ القُرآنَ أنْ يَكونَ فَقيهاً وتَلا

---

(١) سورة التغابن ، الآية : ١١ .
(٢) سورة الطلاق ، الآية : ٣ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٤٥ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٨٦ .
(٦) انظر السير : (أبو العالية) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٨٠ .
(٧) انظر السير : (أبو عبد الرحمٰن السُّلمي) ٤/ ٢٦٧ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٩٥ .
(٨) انظر السير : (الحَسن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٦٠ .

قَولَ الله ﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[1] ،[2] .

وقال إبراهيمُ بنُ بَشَّار ، حدَّثنا ابنُ عُيَيْنَة قال : كان عُمرُ بنُ ذَرٍّ إذا قَرأَ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[3] قال : يا لَكَ من يومٍ ما أملأَ ذِكْرَكَ لقُلُوبِ الصَّادِقين[4] !

وجاء في ترجمة ابنِ عَطاء الأدَميّ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : كان له في كلِّ يَوم خَتْمَة ، وفي رَمَضانَ تِسْعُونَ خَتْمَة ، وبَقِيَ في خَتْمَةٍ مُفْرَدَة بضعَ عَشرَةَ سَنةً يَتَفهَّمُ ويَتدَبَّر[5] .

(ب) التَّأثُّرُ عندَ قِراءَتِه :

عن الحَسنِ قال : كان عُمَرُ بنُ الخطَّاب يمرُّ بالآيَة من وِرْدِه فيَسْقُطُ حتىٰ يُعادَ منها أيّاماً[6] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسْعود رضي الله عنه قال : قال لي رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اقْرَأْ عَليَّ القُرآنَ » قلتُ : يا رسُولَ الله أقرأُ عَليكَ وعَليكَ أُنْزِل ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فقرأتُ عليه سُورَةَ النِّسَاء حتىٰ بلغتُ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[7] فغَمَزَني برِجْلِه ، فإذا عَيناهُ تَذْرِفان[8] .

وقال إبراهيمُ بنُ الأشْعَث : ما رَأيتُ أحَداً كان اللهُ في صَدرِه أعظَمَ من الفُضَيل ، كان إذا ذُكِرَ اللهُ ، أو ذُكرَ عندَه ، أو سَمعَ القُرآنَ ، ظَهرَ به من الخَوفِ والحُزْن ، وفاضَت عَيناهُ ، وبَكىٰ حتىٰ يَرحمَه من يَحضُرُه ، وكان دائمَ الحُزْن ، شَديدَ الفِكْرَة ، ما رَأيتُ رجلاً يريدُ اللهَ بعِلمِهِ وعَملِه ، وأخْذِهِ وعَطائِه ، ومَنْعِه وبَذْلِه ، وبُغْضِه وحُبِّه ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩

(٢) انظر السير : (الضَّحَّاك بن مُزاحم) ٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٦٦ .

(٣) سورة الفاتحة ، الآية : ٤ .

(٤) انظر السير : (عُمرُ بن ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٦٠.

(٥) انظر السير : (ابن عطاء) ١٤/ ٢٥٥ـ ٢٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٤٩.

(٦) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٩ .

(٧) سورة النساء ، الآية : ٤١ .

(٨) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٩٥ .

وخِصَالِه كلِّها ، غَيرَه كنَّا إذا خَرجْنا معه في جِنازَة لا يَزالُ يَعظُ ، ويُذَكِّرُ ويَبكي كأنَّه مُودِّعٌ أصْحابَه ، ذاهبٌ إلى الآخِرَة ، حتىٰ يَبلُغَ المَقابِرَ ، فيَجلِسُ مَكانَه بينَ المَوْتَىٰ من الحُزنِ والبُكاء حتىٰ يقومَ وكأنَّه رَجعَ من الآخِرَة يُخبِرُ عنها[1] .

(ج) الصَّعْقُ عندَ سَماعِه :

قال إبراهيمُ بنُ الحارث العُبّادي : حدَّثنا عبدُ الرحمَـٰن بنُ عفَّان ، حدَّثنا أبو بَكْر بن عيّاش قال : صلَّيتُ خَلفَ فُضَيل بنِ عِياض المغربَ وابنُه عليٌّ إلىٰ جانبي فقرأ : ﴿أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[2] فلمَّا قالَ : ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾[3] سَقطَ عليٌّ علىٰ وَجهِه مَغْشيّاً عليه[4] .

وعن محمدِ بنِ ناجية قال : صلَّيتُ خَلفَ الفُضَيل بنِ عِياض ، فقرأ : ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾[5] في الصبح فلما بلغ إلىٰ قوله : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[6] .غلبه البكاء فسقط ابنه علي مغشياً عليه[7] .

وقال عليُّ بنُ المَديني : كنَّا عندَ يَحْيَىٰ بنِ سَعيد ، فقرأ رجلٌ سورَةَ الدُّخَان ، فصَعِقَ يَحْيَىٰ ، وغُشيَ عليه

قال أحمدُ بنُ حَنْبل : لو قَدِرَ أحدٌ أنْ يَدفَعَ هـٰذا عن نفسِه ، لَدَفَعَه يَحْيَىٰ ـ يَعْني الصَّعْقَ[8] .

وقال أحمدُ بنُ سَعيد الهَمَذاني : دَخلَ عبدُ الله بنُ وَهْب الحمَّامَ ، فسَمعَ قارئاً

---

(١) انظر السير : (الفُضَيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/٧٧٣ .
(٢) سورة التكاثر ، الآية : ١ .
(٣) سورة التكاثر ، الآية : ٦ .
(٤) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٠ .
(٥) سورة الحاقّة ، الآية : ١ .
(٦) سورة الحاقّة ، الآية : ٣٠ .
(٧) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٧٨٠ .
(٨) انظر السير : (يَحْيى القَطَّان) ٩/ ١٧٥ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/٨١٥

يقرأُ : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾[1] فغُشيَ عَليه[2] .

(د) المَوْتُ عندَ سَماعِه :

يُقالُ : ماتَ جَماعةٌ سَمعوا قراءَةَ صالحِ المُرِّي (وَاعظِ البَصْرة)[3] .

وقال عليُّ بنُ محمّد المِصْري ، سَمعتُ أبا سَعيد الخَرَّاز ، سَمعتُ إبراهيمَ بنَ بشَّار يقولُ : الآيةُ التي ماتَ فيها عليُّ بنُ الفُضَيل ، في الأنْعام : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾[4] . مع هٰذا المَوْضع ماتَ وكنتُ فيمَن صلَّىٰ عليه ، رحمَه الله[5] .

(هـ) الشُّعورُ بالحَلاوَة حالَ قراءتِه :

قال أحمدُ بنُ ثَعلبَة : سَمعتُ سَلْمَ بنَ مَيْمون الخوَّاص قال : قلتُ لنفسي : يا نفسُ ، اقْرَئي القُرآنَ كأنَّك سَمعتِيه من الله حينَ تكلَّمَ به ، فجاءَت الحَلاوَة .

وقد بَقي سَلْمُ إلىٰ ما بعدَ سنةَ ثلاثَ عَشرَة ومئتين[6] .

٤ـ الصَّحابَة المُتميِّزونَ في القُرآنِ :

قال أنسُ بنُ مالك : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، لأُبَيِّ بنِ كَعْب : « إنَّ اللهَ أَمَرَني أَنْ أَقْرَأَ عَليكَ القُرآنَ » وفي لَفْظ : « أمَرَني أنْ أُقْرِئَكَ القُرآنَ » .

قال : الله سَمَّاني لك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نَعَم » قال : وذُكِرْتُ عندَ ربِّ العَالَمين ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نَعَم » فذَرفَت عَيناه ولمَّا سألَ النبيُّ ، صلى الله

---

(١) سورة غافر (المؤمن) ، الآية : ٤٧ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن وَهْب) ٩/ ٢٢٣ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ٨١٩/ ٤ .
(٣) انظر السير : (صالح المُرِّي) ٨/ ٤٦ـ ٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٢٥/ ٦ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ٢٧ .
(٥) انظر السير : (عليُّ بن الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨١/ ٧ .
(٦) انظر السير : (سَلْم بن مَيْمون) ٨/ ١٧٩ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٧٥٢/ ٨ .

عليه وسلم ، أُبَيّا عن أيِّ آيةٍ في القُرآن أعْظَم ، فقال أُبَيٌّ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[1] ضَربَ النبيُّ ، صلى الله عليه وسلم ، في صَدرِه وقال : « لِيَهْنَكَ العِلْم أبا المُنْذِر »[2] .

وعن عبد الله بنِ عَمرو ، قالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « خُذُوا القُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ : مِنْ ابنِ مَسْعُودٍ ، وأُبَيٍّ ، ومُعَاذِ بنِ جَبَل ، وسالمٍ مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة »[3] .

وعن مَسْروقٍ قالَ عبدُ الله بنُ مَسْعود : والذي لا إلَـٰهَ غَيرُه لقَد قَرأتُ من فيِّ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بضْعاً وسَبعينَ سُورَةً ، ولوْ أعْلَمُ أحَداً أعْلَمُ بكتابِ الله منِّي تُبلِغُنيه الإبْلُ لأتَيْتُه[4] .

٥ـ هِمَّةُ السَّلف في تَعلُّمِه :

قال ابنُ عُمَر : تعلَّمَ عُمَرُ البقَرَةَ في اثنَتي عشرَةَ سَنةً ، فلمَّا تعلَّمَها نَحرَ جَزوراً

قال مُعاويَةُ : أمَّا أبو بَكر فلمْ يُرِدِ الدُّنيا ولمْ تُرِدْه ، وأمَّا عُمرُ فأرادَتْه الدُّنيا ولم يُرِدْها ، وأمَّا نَحْنُ فتَمرَّغْنا فيها ظَهْراً لِبَطن[5] .

وقال محمّدُ بنُ عليّ السُّلَميُّ : قُمتُ ليلةً سَحراً لآخُذَ النَّوْبَة على ابنِ الأخْرَم ، فوَجدتُ قد سَبقَني ثلاثونَ قارئاً ، وقال : لمْ تُدْركْني النَّوبَةُ إلى العَصْر .

تُوفِّي ابنُ الأخْرَم في سنة إحدىٰ وأربعين وثلاث مئة وعاش إحدىٰ وثمانين سنة[6] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .
(٢) انظر السير : (أُبيُّ بن كعب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٨٠ .
(٣) انظر السير : (مُعاذ بن جَبل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٩٠ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن مَسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٩٤ .
(٥) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٤٧ .
(٦) انظر السير : (ابنُ الأخْرَم) ١٥/ ٥٦٤ـ ٥٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٩ .

٦ـ القُرآنُ شغُلُ العُلَماء :

قال ابنُ وَهبٍ : قيلَ لأُخْتِ مالِك : ما كانَ شُغلُ مالكٍ في بيتِه ؟ قالت : المُصْحَفُ ، التِّلاوَة[١] .

٧ـ التنبيه علىٰ عَدم تَرْك القُرآنِ اشتغالاً بعُلوم أخرىٰ :

قال سلمُ بنُ قُتَيبَة : رُبَّما سَمعتُ شُعبةَ يقولُ لأصْحابِ الحَديثِ : يا قَوم! إنَّكم كلَّما تقدَّمتُم في الحَديثِ تأخَّرْتم في القُرآن[٢] .

٨ـ اسْتحْضارُ القُرآن :

جاء في ترجمة زَيْدِ بنِ ثابِت ، قال الذهبيُّ : ومن جَلالَة زَيْد أنَّ الصِّدِّيقَ اعْتمدَ عليه في كتابَة القُرآنِ العَظيم في صُحُف ، وجَمْعِه من أفْواهِ الرِّجال ، ومن الأكْتاف والرِّقاع ، واحْتَفَظوا بتلك الصُّحُف مدَّة فكانت عند الصِّدِّيق ، ثم تَسلَّمَها الفارُوقُ ، ثم كانت عند أمِّ المؤمنين حَفْصَة ، إلىٰ أنْ نَدَبَ عُثمانُ زَيدَ بنَ ثابت ونَفَراً من قُريش إلىٰ كتابَة هٰذا المُصْحَف العُثْماني الذي به الآن في الأرضِ أزْيَدُ من ألفَيْ ألفِ نُسْخَة ، ولم يَبْقَ بأيدي الأُمَّة قُرآنٌ سِواه ، ولله الحَمدُ .

ماتَ زيدُ بنُ ثابت سنة خَمس وأربعين ، عن ستٍّ وخَمسينَ سنةً[٣] .

قال أبو عبد الله بِشْرُ القَطَّان : ما رَأيتُ أحسَنَ انْتِزاعاً لما أرادَ من آي القُرآن من أبي سَهْل بنِ زِياد ، وكان جارَنا ، وكان يُديمُ صَلاةَ اللَّيل ، والتِّلاوَة ، فلِكَثْرَةِ دَرْسِه ، صارَ القُرآنُ كأنَّه بينَ عَيْنَيه[٤] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٦/ ٤ .
(٢) انظر السير : (شُعْبَة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٦٩٤/ ٣ .
(٣) انظر السير : (زَيدُ بن ثابت) ٢/ ٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٢٨٨/ ١ .
(٤) انظر السير : (أبو سَهْل القطَّان) ١٥/ ٥٢١ـ ٥٢٢ ، وانظر النزهة : ١٢٥٧/ ٢ .

٩ـ جَمْعُ القُرآن :

قال أنسٌ : إنَّ حُذَيفَة قَدمَ علىٰ عُثمان ، وكان يَغزُو مع أهلِ العِراق قبل أرْمينية ، فاجتمع في ذلك الغَزو أهلُ الشَّام ، وأهلُ العِراق ، فتَنازَعوا في القُرآن حتىٰ سَمعَ حذيفة من اخْتِلافِهم ما يكره ، فرَكبَ حتىٰ أتَىٰ عُثمانَ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين أدرِكْ هٰذه الأمَّة قبل أنْ يَختلفوا في القرآن اخْتلافَ اليَهودِ والنَّصارَىٰ في الكتُب ، ففَزِعَ لذلك عُثمانُ ، فأرسَل إلىٰ حفصة أم المؤمنين : أنْ أرسِلي إليَّ بالصُّحُف التي جُمعَ فيها القُرآنُ ، فأرسَلت إليه بها ، فأمرَ زَيدَ بنَ ثابت ، وسَعيدَ ابنَ العاص ، وعبدَ الله بن الزُّبَيْر ، وعبدَ الرَّحْمَٰن بن الحارث بن هِشام ، أنْ يَنْسَخوها في المَصاحِف ، وقال : « إذا اختلفتُم أنتُم وزَيدٌ في عَربيَّة فاكتُبوها بلسَان قُريش ، فإنَّ القُرآنَ إنَّما نَزلَ بلِسانِهم » .

ففعَلوا حتىٰ كتبت المَصاحف ، ثم ردَّ عُثمان الصُّحُفَ إلىٰ حَفْصَة ، وأرسَل إلىٰ كلِّ جُنْد من أجْناد المُسْلمين بمصْحَف ، وأمرَهم أن يَحْرِقوا كلَّ مُصْحَف يُخالفُ المُصْحَفَ الذي أرْسلَ إليهم به ، فذلك زَمانٌ حُرقَت فيه المَصاحِفُ بالنَّار[1] .

وقال عُبيدُ بنُ السَّبَّاق ، حدَّثني زَيدُ بنُ ثابت ، أنَّ أبا بَكْر قال له : إنَّك رجلٌ شابٌّ عاقِلٌ لا نتَّهِمُك ، قد كُنتَ تَكتُبُ الوَحْيَ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فتَتبَّع القُرآنَ فاجْمَعْه .

فقُلتُ : كَيفَ تَفعَلُون شيئاً لمْ يَفْعَلْه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

قال : هو والله خَيرٌ .

فلمْ يَزَلْ أبو بَكْر يُراجِعُني ، حتىٰ شَرحَ اللهُ صَدري للذي شَرَحَ له صَدرَ أبي بَكْر وعُمَر ، فكُنتُ أتَتبَّعُ القُرآنَ أجْمَعُه من الرِّقاع والأكْتاف والعُسُبِ وصُدُورِ الرِّجال[2] .

قال الذهبيُّ : ومن جَلالَة زَيْد أنَّ الصِّدِّيقَ اعْتمدَ عليه في كتابَة القُرآنِ العَظيم في

---

(١) انظر السير : (عثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٤/٧٩ .

(٢) انظر السير : (زَيدُ بن ثابت) ٢/٤٢٦ـ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٨٦ .

صُحُف ، وجَمْعِه من أفْواهِ الرِّجال ، ومن الأكْتاف والرِّقاع ، واحْتَفَظوا بتلك الصُّحُف مدَّة فكانت عند الصِّدِّيق ، ثم تَسلَّمَها الفارُوقُ ، ثم كانت عند أمِّ المؤمنين حَفْصَة ، إلىٰ أنْ نَدَبَ عُثمانُ زَيدَ بنَ ثابت ونَفَراً من قُريش إلىٰ كتابَة هـٰذا المُصْحَف العُثْماني الذي به الآن في الأرضِ أزْيَدُ من ألفَيْ ألفِ نُسْخَة ، ولم يَبْقَ بأيدي الأُمَّة قُرآنٌ سِواه ، ولله الحَمدُ .

ماتَ زيدُ بنُ ثابت سنة خَمس وأربعين ، عن ستٍّ وخَمسينَ سنةً[1] .

١٠ـ وُجُوبِ التَّفَقُّه لمُتَعَلِّمِ القُرآن :

وعن الضَّحْاكِ بنِ مُزاحِم ، قال : حَقٌّ علىٰ كُلِّ مَنْ تَعلَّمَ القُرآنَ أنْ يَكونَ فَقيهاً وتَلا قَولَ الله ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾[2] ،[3] .

١١ـ عَدمُ أخْذِ الأجْر علىٰ تَعليمِه :

عن أبي عبد الرحمَـٰن السُّلَمي أنَّه جاءَ وفي الدَّارِ جِلالٌ وجُزُر ، فقالوا : بَعَثَ بها عَمرُو بنُ حُرَيث لأنَّك علَّمتَ ابنَه القُرآنَ .

فقال : رُدَّ ، إنَّا لا نَأخُذُ علىٰ كتابِ الله أجْراً[4] .

وعن محمدِ بنِ جَعْفَر بنِ النجَّار قال : كان أحمدُ بنُ محمّد بنِ سَعيد ابنِ عُقْدَة : يؤدب ابنَ هشام الخَزَّاز ، فلمَّا حذَقَ الصَّبيُّ وتعلَّمَ وجَّهَ إليه أبوهُ بدَنانير صالحَة ، فردَّها فظَنَّ ابنُ هشام أنَّها اسْتُقِلَّت فأضْعَفَها له ، فقال : ما رَدَدْتُها اسْتقلالاً ، ولكن سألَني الصَّبيُّ أنْ أُعلِّمَه القُرآنَ ، فاخْتلَطَ تَعليمُ النَّحوِ بتَعليمِ القُرآن ، ولا أسْتَحِلُّ أنْ آخُذَ منه شَيئاً ، ولو دَفَعَ إليَّ الدُّنيا .

ثم قال ابنُ النجَّار : وكان عُقدَةُ زَيْديّاً ، وكان وَرِعاً ناسِكاً ، سُمِّي عُقْدَةَ لأجْل

---

(١) انظر السير : (زَيدُ بن ثابت) ٢/٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ١/٢٨٨ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ .
(٣) انظر السير : (الضَّحَّاك بن مُزاحم) ٤/٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٦/٥٦٦ .
(٤) انظر السير : (أبو عبد الرحمَـٰن السُّلَمي) ٤/٢٦٧ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ٤/٤٩٥ .

تَعقيدِه في التَّصْريف ، وكان ورَّاقاً جيِّد الخَطِّ ، وكان ابنُه أحفَظَ مَنْ كان في عَصْرنا للحَديث[1] .

١٢ـ اسْتماعُ القُرآنِ من حَسَنِ الصَّوْت :

عن عائشةَ قالت : اسْتبطَأني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ ليلَة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما حَبسَك ؟ » قلتُ : إنَّ في المَسْجد لأحْسَنُ مَنْ سَمعتُ صَوتاً بالقُرآن ، فأخَذَ رداءَه ، وخَرجَ يَسْمَعُه ، فإذا هو سالم مولىٰ أبي حذيفة فقال صلى الله عليه وسلم : « الحَمْدُ للهِ الذي جَعَلَ في أُمَّتِي مِثْلَك »[2] .

وقال سَعيدُ بنُ عبد العَزيز : حدَّثني أبو يوسُف ، حاجِبُ مُعاويَة : أنَّ أبا موسَى الأشْعَري قَدِمَ علىٰ مُعاويَة ، فنزَلَ في بعضِ الدُّورِ بدِمَشْق ، فخَرجَ مُعاويَةُ في اللَّيل ليَسْتمِعَ قراءَتَه[3] .

وعن أنَسٍ : أنَّ أبا موسَى الأشْعَري قَرأَ ليلةً ، فقُمنَ أزواجُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يَستمِعْنَ لقراءَتِه فلمَّا أصْبَحَ ، أُخْبِرَ بذلك فقالَ : لوْ عَلمتُ ، لحَبَّرتُ تَحْبيراً ، ولشَوَّقتُ تَشويقاً[4] .

وعن أبي سَلمَة : كان عُمرُ إذا جلسَ عنده أبو موسىٰ ، رُبَّما قال له ، ذكِّرْنا يا أبا موسىٰ فيَقرأ[5] .

وقال أبو عُثمان النَّهْدي : ما سَمعتُ مِزْماراً ولا طُنْبوراً ولا صنجاً أحسنَ من صَوتِ أبي موسَى الأشْعَري ، إنْ كان ليُصلِّي بنا فَنَوَدُّ أنَّه قرأ البَقرةَ من حُسن صَوتِه[6] .

وعن مَسروقٍ قال : خَرَجنا مع أبي موسىٰ في غَزَاةٍ ، فَجَنَّنا الليلُ في بُستانٍ خَرِبٍ ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ عَقْدَة) ١٥/ ٣٤٠ـ ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٣٤ .
(٢) انظر السير : (سالم مَوْلَىٰ أبي حُذَيفَة) ١/ ١٦٧ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣ .
(٣) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/٢٧٧.
(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١/٢٨٠ .
(٥) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/٢٨٠.
(٦) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٧/٢٨٠ .

فقام أبو موسىٰ يُصلي ، وقَرَأَ قِراءةً حَسَنَة ، وقال : اللَّهُمَّ أنتَ المُؤمنُ تُحِبُّ المُؤمنَ ، وأنتَ المُهيمنُ تُحِبُّ المُهيمنَ ، وأنتَ السَّلامُ تُحِبَّ السَّلام[1] .

وعن أبي نَضْرَة : قال عُمرُ لأبي موسىٰ : شَوِّقْنا إلىٰ رَبِّنا فقرأ فقالوا : الصَّلاة فقالَ : أوَلَسْنا في صَلاة[2] .

وعن عَلقَمةَ ، قال : كُنتُ رجلاً قد أعطاني اللهُ حُسْنَ الصَّوتِ بالقُرآن ، وكان ابنُ مَسْعود يُرسلُ إليَّ ، فأقرأُ عليه ، فإذا فَرَغْتُ من قراءَتي قال : زِدْنا فِداكَ أبي وأمي[3] .

وعن الأعْمَش قال : كان يَحْيى بن وثَّاب من أحْسَن النَّاس قراءَةً ، ربَّما اشتَهيتُ أن أُقبِّلَ رأسَه من حُسْنِ قراءتِه ، وكان إذا قرأ لا تُسْمَعُ في المسْجدِ حَركَةٌ ، كأنْ ليسَ في المسْجدِ أحدٌ[4] .

وكان عبدُ الرحمَـٰن بنُ بِشْر مَوصُوفاً بطيبِ الصَّوتِ قال مَكيُّ بنُ عَبْدان : كان عبدُ الله بنُ طاهِر الأميرُ يَحضُرُ باللَّيل مُتنكِّراً إلىٰ مَسْجدِ عبدِ الرحمَـٰن ليَسمعَ قراءَتَه .

قال عبدُ الرحمَـٰن بنُ بِشْر : أقامَني يَحْيى القَطَّان في مَجلسِه ، فقال : ما حدَّثكم عَنِّي هـٰذا الصبيُّ فصَدِّقوه ، فإنَّه كَيِّس .

قال أبو حامد بنُ الشَّرقي : سَمعتُ عبدَ الرحمَـٰن يقولُ : احْتلَمتُ فدعا أبي عبدَ الرزَّاق وأصْحابَ الحَديثِ الغُرَباء فلمَّا فَرَغوا من الطَّعام قال : اشْهَدوا أنَّ ابني قد احْتَلمَ وهو ذا يَسمَعُ من عبدِ الرزَّاق ، وقد سَمعَ من سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الإعْلامُ إيلامٌ للصَّبيِّ ، وتَخجيلٌ له[5] .

وقال ابنُ النجَّار : أكثَرتُ عن حَمزَة بنِ عليٍّ ولازَمتُه ، وسَمعتُ منه من كُتبُ القِراءاتِ والأدَب ، وكان ثقةً حُجَّةً نَبيلاً مَوصُوفاً بحُسْنِ الأداء وطيبِ النَّغمَة ، يَقصِدُه

---

(١) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٨/٢٨٠ .
(٢) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/٢٨١ .
(٣) انظر السير : (علقمَة) ٤/ ٥٣ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٤ .
(٤) انظر السير : (يَحْيى بن وَثّاب) ٤/ ٣٧٩ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥١٤.
(٥) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن بشْر) ١٢/ ٣٤٠ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٠٦ .

النَّاسُ في التَّراويح ، ما رَأيتُ قارئاً أحْلَىٰ نَغمَةً منه ، ولا أحْسَنَ تَجْويداً ، مع عُلُوِّ سِنِّه ، وانْقِلاعِ ثَنيَّتِه ، وكان تامَّ المَعرفَة بوُجُوه القِراءاتِ وعِلَلِها وحِفْظِ أسانيدَها وطُرقَها ، وكانت له مَعرفَةٌ حَسنةٌ بالحَديث ، وكان دَمثاً لَطيفاً مُتودِّداً ، وكان في صِباهُ من أحْسنِ أهلِ زَمانِه وأظْرَفِهم ، مع صِيانَة ونَزاهَة ، وكان من أحْسَنِ الشُّيوخِ صُورَةً ، وقد أكثرَ الشُّعَراءُ في وَصْفِه .

تُوفِّي في سنة اثنتين وستِّ مئة[1] .

١٣ـ مَنْ وُصفَ من السَّلف بطِيبِ صَوْته :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة طَلْقِ بنِ حَبيب العَنزيّ : بَصْريٌّ ، زاهدٌ ، كبيرٌ ، من العلماء العاملين

وكان طَيِّبَ الصَّوْتِ بالقُرآن ، بَرّاً بوالديه[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة عاصِمِ بنِ أبي النَّجُود : وانتهت إليه رئاسَةُ الإقْراء بعد أبي عبد الرحمَٰن السُّلمي شَيخِه ، قال أبو بَكْر ابنُ عياش : لَمَّا هَلكَ أبو عبد الرحمَٰن ، جَلسَ عاصمٌ يُقرىءُ النَّاسَ وكان أحْسَنَ النَّاسِ صَوْتاً بالقُرآن حتىٰ كأنَّ في حَنْجَرتِه جَلاجِلَ[3] .

وقال يونُسُ : كان وَرْشٌ جَيِّدَ القِراءَة ، حَسَنَ الصَّوْت ، إذا قَرأ يَهْمِزُ ، وَيمُدُّ ، ويُشَدِّدُ ، ويُبَيِّنُ الإعْرابَ لا يَمَلُّهُ سامِعُه[4] .

وكان عبدُ الرحمَٰن بنُ بِشْر مَوصُوفاً بطيبِ الصَّوتِ قال مَكيُّ بنُ عَبْدان : كان عبدُ الله بنُ طاهِر الأميرُ يَحضُرُ باللَّيل مُتنكِّراً إلىٰ مَسْجدِ عبدِ الرحمَٰن ليَسمعَ قراءَتَه .

قال عبدُ الرحمَٰن بنُ بِشْر : أقامَني يَحْيى القَطَّان في مَجلسِه ، فقال : ما حدَّثكم عَنِّي هٰذا الصبيُّ فصَدِّقوه ، فإنَّه كَيِّس .

---

(١) انظر السير : (حَمزَة بن عليّ) ٢١/ ٤٤١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٤٢ .
(٢) انظر السير : (طَلْق بن حَبيب) ٤/ ٦٠١ـ ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ٨/٢٦٦ .
(٣) انظر السير : (عاصم بن أبي النُّجود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ١/٥٩٩ .
(٤) انظر السير : (وَرْش) ٩/ ٢٩٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/٨٢٣ .

قال أبو حامد بنُ الشَّرقي : سَمعتُ عبدَ الرحمَـٰن يقولُ : احْتلَمتُ فدعا أبي عبدَ الرزَّاق وأصْحابَ الحَديثِ الغُرَباء فلمَّا فَرَغوا من الطَّعام قال : اشْهَدوا أنَّ ابني قد احْتَلمَ وهو ذا يَسمَعُ من عبدِ الرزَّاق ، وقد سَمعَ من سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الإعْلامُ إيلامٌ للصَّبيِّ ، وتَخجيلٌ له[1] .

وجاء في ترجَمة أبي محمّد بنِ عبدِ الله بنِ عليِّ بنِ أحمدَ سِبْطِ أبي مَنصُور الخيَّاط ، قال الإمامُ الذهبيُّ: وتَصدَّر للإقْراء ، وصَنَّف الكُتبَ الشَّهيرة كـ: « المُبهِجْ »، و« الإيجَاز » ، و« الكفايَة » وأَمَّ بمسجد ابن جَردةَ بضْعاً وخَمسينَ سنةً ، وكان من أطْيَبِ النَّاسِ صَوْتاً بالقُرآن ، وخَتمَ عليه خَلقٌ كَثير وقَرأَ عليه النَّحْوَ جَماعةٌ[2] .

قال ابنُ الجَوْزيِّ : لمْ أسْمَعْ قارئاً قَطُّ أطْيبَ صَوْتاً منه ، ولا أحْسَنَ أداءً علىٰ كِبَرِ سِنِّه ، وكان لَطيفَ الأخْلاقِ ، ظاهِرَ الكياسَة والظَّرافَة حَسَنَ المُعاشَرَة للعَوامِّ والخَواصِّ[3] .

وقال السَّمْعانيُّ : كان مُتَواضِعاً مُتوَدِّداً ، حَسنَ القِراءَة في المِحْرابِ ، خُصُوصاً لَياليَ رَمضانَ ، وقد تَخرَّجَ عليه خَلقٌ ، وخَتَموا عليه ، وله تَصانيفُ في القِراءاتِ وخُولِفَ في بَعضِها ، وشَنَّعوا عليه ثم سَمعتُ أنَّه رَجعَ عن ذلك .

وقال أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي : ما رَأيتُ أكثرَ جَمعاً من جَمعِ جِنازَتِه .

تُوفِّي سَنةَ إحْدىٰ وأربَعين وخَمسِ مئة[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن بشْر) ١٢/ ٣٤٠ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٠٦ .

(٢) انظر السير : (أبو محمد ، عبد الله بن عليّ بن أحمد ، أخو سبط الخيّاط) ٢٠/ ١٣٠ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٧ .

(٣) انظر السير : (أبو محمد ، عبد الله بن عليّ بن أحمد ، أخو سبط الخيّاط) ٢٠/ ١٣٠ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٧ .

(٤) انظر السير : (أبو محمد ، عبد الله بن عليّ بن أحمد ، أخو سبط الخيّاط) ٢٠/ ١٣٠ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣٧ .

١٤ـ كيفيّة تَعَلُّم القُرآن :

عن عبدِ الله بنِ مَسْعود قال : كنَّا إذا تَعلَّمْنا من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، عَشْرَ آياتٍ لمْ نَتعلَّمْ من العَشْرِ التي نَزلَت بعدَها حتىٰ نَعلَم ما فيها ، يَعني من العِلم[١] .

وعن جُنْدُبِ بنِ عبدِ الله البَجَلي ، قال : كنَّا غِلْماناً حَزاوِرَةً[٢] مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فتَعلَّمْنا الإيمانَ قبلَ أنْ نَتعلَّمَ القُرآنَ ، ثم تَعلَّمنا القُرآنَ ، فازْدَدْنا به إيْماناً .

بَقيَ إلىٰ حُدود سَنة سَبعين[٣] .

وعن حَفْصَةَ بنتِ سِيرينَ ، قالت : قال لي أبو العَاليَة : قَرأتُ القُرآنَ علىٰ عُمرَ رضي الله عنه ثلاثَ مِرَار[٤] .

وعن عَطاء بنِ السَّائب ، أنَّ أبا عبد الرحمَـٰنِ السُّلميَّ قالَ : أخَذْنا القُرآنَ عن قَومٍ أخْبَرونا أنَّهم كانوا إذا تَعلَّموا عَشرَ آياتٍ لمْ يُجاوزُوهنَّ إلى العَشْرِ الأُخَر حتىٰ يَعلَموا ما فيهنَّ ، فكُنَّا نَتعلَّمُ القُرآنَ والعَملَ به ، وسَيرثُ القُرآنَ بعدَنا قَومٌ يَشْرَبُونَه شُرْبَ الماء لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُم[٥] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : قرأ يَحْيَى بن وثَّاب القُرآنَ كُلَّه علىٰ عُبَيْدِ ابنِ نُضَيْلَة صاحبِ علقَمة فتَحفَّظَ عليه كلَّ يومٍ آيَةً[٦] .

ورَوىٰ مُجاهدُ بنُ جَبْر عن ابنِ عبَّاس ، فأكثرَ وأطابَ ، وعنه أخَذَ القُرآنَ ، والتَّفْسيرَ ، والفِقْهَ .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن مَسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٩٦ .
(٢) الحزاورة : جمع حزورٍ ، وحَزوَّر : وهو الغُلام إذا قارب البلوغ ، والتاء لتأنيث الجمع .
(٣) انظر السير : (جُندُب) ١/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٦١.
(٤) انظر السير : (أبو العالية) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٧٨ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الرحمـٰن السُّلميّ) ٤/ ٢٦٧ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٩٥ .
(٦) انظر السير : (يَحْيى بن وَثَّاب) ٤/ ٣٧٩ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٥١٤ .

عن مُجاهِدٍ ، قالَ : عَرَضتُ القُرآنَ ثَلاثَ عَرَضاتٍ على ابنِ عبَّاس ، أقِفُه عند كلِّ آيةٍ ، أسْألُه فيمَ نَزلَت ، وكَيفَ كانَت[1] .

وقال يَحْيىٰ بنُ آدَم ، عن أبي بَكْر بنِ عَيَّاش قال : تَعلَّمتُ القُرآنَ من عاصِم خَمْساً خَمْساً ، ولمْ أتعلَّمْ من غَيرِه ، ولا قَرأتُ علىٰ غَيرِه[2] .

وعن أبي بَكْر قال : اخْتلَفتُ إلىٰ عاصِم نَحْواً من ثلاث سنين ، في الحَرِّ والشِّتاءِ والمَطَر ، حتىٰ رُبَّما اسْتَحْيَيتُ من أهْلِ مَسْجدِ بَني كاهِل .

وعن أبي بَكْر بنِ عَيَّاش قال : الدُّخُولُ في العلمِ سَهلٌ ، لكنَّ الخُروجَ منه إلى الله شَديد[3] .

ويُقالُ إنَّ وَرْشاً تَلا علىٰ نافع أرْبَعَ خَتماتٍ في شَهرٍ واحِد .

مات ورْشٌ بمِصْرَ في سنة سَبع وتسْعين ومئة[4] .

وقيلَ : إنَّ سُلَيمَ بنَ عيسَىٰ تَلا علىٰ حَمْزَةَ بنِ حَبيب عَشْرَ ختم .

ماتَ سُلَيمٌ سنةَ ثَمانٍ وثَمانين ومئة[5] .

١٥ـ كيفيّة تَعليم القُرآن :

عن محمّدِ بنِ كَعْب ، قالَ : جَمَعَ القُرآنَ خَمسةٌ : مُعَاذٌ ، وعُبَادَةُ بنُ الصَّامِت ، وأبو الدَّرْداء ، وأُبَيٌّ ، وأبو أيُّوبَ فلمَّا كانَ زَمنَ عُمَر ، كَتبَ إليه يَزيدُ بنُ أبي سُفْيانَ : إنَّ أهْلَ الشَّام قد كَثُروا ، ومَلَؤوا المَدائنَ ، واحْتاجُوا إلىٰ مَنْ يُعلِّمُهم القُرآنَ ويُفَقِّهُهم فأعِنِّي برجالٍ يُعَلِّمونَهم .

فدَعا عُمَرُ الخَمسَةَ ، فقال : إنَّ إخْوانَكُم قد اسْتعانُوني مَنْ يُعَلِّمُهم القُرآن ،

---

(١) انظر السير : (مُجاهِد بن جَبر) ٤/ ٤٤٩ـ ٤٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٣٠ .

(٢) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٨٧ .

(٣) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٨٧ .

(٤) انظر السير : (ورش) ٩/ ٢٩٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٢٣ .

(٥) انظر السير : (سُليم بن عيسىٰ) ٩/ ٣٧٥ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٣٠ .

ويُفَقِّهُهم في الدِّين ، فأعينُوني يَرحَمْكُم الله بثلاثَة مِنكُم إنْ أحْبَبْتُم ، وإنِ انتُدِبَ ثَلاثةٌ منكم فلْيَخرُجوا .

فقالوا : ما كُنَّا لنَتَساهم ، هـٰذا شَيخٌ كَبير ـ لأبي أيُّوبَ ـ وأمَّا هـٰذا فسَقيمٌ ـ لأُبَيٍّ ـ فخَرجَ مُعاذٌ وعُبَادَةُ ، وأبو الدَّرْداء .

فقال عمر : ابدَؤوا بحِمْصَ ، فإنَّكم سَتجدون النَّاسَ علىٰ وُجُوهٍ مُخْتلِفَة ، منهم مَنْ يُلَقَّن ، فإذا رَأيتُم ذلك ، فوَجِّهُوا إليه طائفةً من النَّاس ، فإذا رَضيتُم منهم ، فليُقِمْ بها واحدٌ ، وليَخْرُج واحدٌ إلىٰ دِمَشْقَ ، والآخَرُ إلىٰ فِلَسْطينَ قال : فقَدِموا حِمْصَ فكانوا بها ، حتىٰ إذا رَضُوا من النَّاسِ ، أقامَ بها عُبادَةُ بنُ الصَّامِت ، وخَرجَ أبو الدَّرْداء إلىٰ دِمَشْقَ ، ومُعاذٌ إلىٰ فِلَسْطينَ ، فماتَ في طاعُونِ عَمْواس ثم سارَ عُبادةُ بَعدُ إلىٰ فِلَسْطينَ وبها مات ولَمْ يَزلْ أبو الدَّرْداء بدِمَشْقَ حتىٰ مات[1] .

وعن مُسلمِ بنِ مِشْكم : قال لي أبو الدَّرْداء : اعْدُدْ مَنْ في مَجلِسنا قال : فجاءوا ألفاً وستَّ مئة ونَيِّفاً ، فكانوا يَقْرَؤون ويَتَسابَقون عَشرةً عَشرة ، فإذا صَلَّى الصُّبْحَ انْفَتلَ وقَرأَ جُزءاً ، فيُحْدِقُون به يَسمَعون ألفَاظَه وكان ابنُ عامِر مُقدَّماً فيهم .

وقال هشامُ بنُ عَمَّار : حدثنا يَزيدُ بنُ أبي مالك ، عن أبيه ، قال : كان أبو الدَّرْداء يُصَلِّي ، ثم يُقْرِىءُ ويَقْرأ ، حتىٰ إذا أرادَ القيامَ ، قال لأصْحابِه : هل من وَليمَةٍ أو عَقيقَةٍ نَشْهَدُها ؟ فإنْ قالوا : نَعَم ، وإلاَّ قال : اللَّهُمَّ إنِّي أُشْهِدُكَ أنِّي صائِم وهو الذي سَنَّ هـٰذه الحِلَقَ للقِراءَة[2] .

وقيلَ : الذين في حَلقَة إقْراء أبي الدَّرْداء كانوا أزْيَدَ من ألفِ رَجلٍ ، ولكلِّ عَشرة منهم مُلَقِّن وكان أبو الدَّرْداء يَطُوفُ عليهم قائماً ، فإذا أحْكَمَ الرجُلُ منهم ، تَحوَّلَ إلىٰ أبي الدَّرْداء ـ يَعني يَعْرضُ عليه[3] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧٠/ ٤ .
(٢) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧١/ ٣.
(٣) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧٣/ ٥ .

١٦ـ زَمنٌ قياسي لتَعَلُّم القُرآن :

وعن محمَّدِ بنِ فُضَيل : عن أبيه ، عن أبي وَائل ، أنَّه تَعلَّمَ القُرآنَ في شَهْرين[١] .

١٧ـ زَمنُ قراءَة خَتْمَة :

عن أُبَيِّ بنِ كَعْب قال : إنا لنَقْرَؤه في ثمانِ ليالٍ ، يَعني القُرآنَ[٢] .

وعن أبي المهلَّب : كان تَميمٌ الدَّاري يختم القرآن في سبع[٣] .

وقال أبو خلدَة خالدُ بنُ دينار : سَمعتُ أبا العاليَة يقولُ : كُنَّا عَبيداً مَمْلوكين ، مِنَّا مَنْ يُؤدِّي الضَّرائِبَ ، ومِنَّا مَنْ يَخْدمُ أهلَه ، فكُنَّا نَخْتِمُ كلَّ لَيلَة ، فشَقَّ عَلينا حتىٰ شَكا بَعْضُنا إلىٰ بَعضٍ فلَقينا أصحابَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فعَلَّمونا أنْ نَخْتمَ كلَّ جُمُعَة فصَلَّينا ونِمْنَا ولَمْ يَشُقَّ عَلينا[٤] .

وقال عَمرو بن عبد الرحمٰن بن مُحَيْريز : كان جدِّي عبد الله ابن مُحيريز يَختمُ في كُلِّ جُمُعة ، ورُبَّما فَرَشنا له فلمْ يَنَمْ عليه[٥] .

وعن ابنِ فُضَيل، عن أبيه قال: كان أبو إسْحاقَ السَّبيعي يَقرأُ القُرآن في كلِّ ثلاثٍ[٦].

١٨ـ كثْرَةُ قراءتِه :

عن إبراهيمَ ، قالَ : كان الأسْوَدُ بنُ يَزيد يَخْتمُ القُرآنَ في رَمضانَ في كلِّ لَيلتَين ، وكان يَنامُ بين المَغربِ والعِشاءِ ، وكان يَخْتمُ القُرآنَ في غير رَمضانَ في كلِّ ستِّ ليالٍ[٧] .

---

(١) انظر السير : (شَقيق بن سَلَمة) ٤/ ١٦١ـ١٦٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٦٩ .
(٢) انظر السير : (أُبَيّ بن كَعْب) ١/ ٣٨٩ـ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٨١ .
(٣) انظر السير : (تَميمُ الدَّاري) ٢/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٨٨ .
(٤) انظر السير : (أبو العاليَة) ٤/ ٢٠٧ـ٢١٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٧٩ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن مُحيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٣٩ .
(٦) انظر السير : (أبو إسْحاق السَّبيعي) ٥/ ٣٩٢ـ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦١٥ .
(٧) انظر السير : (الأسْود بن يزيد) ٤/ ٥٠ـ٥٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٤١ .

وعن ابنِ شَوْذَب ، قال : كان عُرْوَةُ يَقرأُ رُبعَ القُرآن كلَّ يومٍ في المُصْحَف نَظراً ، ويَقومُ به اللَّيلَ ، فما تَركَه إلاَّ ليلةَ قُطِعَت رِجلُه ، وكان وَقَعَ فيها الآكِلَة فنُشِرَت ، وكان إذا كان أيّامَ الرُّطَب يَثلِمُ حائطَه ، ثم يأذَنُ للنَّاسِ فيه فيَدخُلونَ يَأكُلونَ ويَحْمِلُون[1] .

وقال سَلامُ بنُ أبي مُطيع : كان قَتادَةُ يَختمُ القُرآنَ في سَبع ، وإذا جاء رَمضانُ خَتمَ في كلِّ ثلاث ، فإذا جاءَ العَشرُ خَتمَ كلَّ ليلةٍ[2] .

وقال ابنُ المَديني : حَفرَ بِشْرُ بنُ مَنْصورَ قَبرَه ، وخَتمَ فيه القُرآنَ ، وكان وِرْدُه ثُلث القُرآن[3] .

وقد رُويَ من وُجوه مُتعدِّدَة ، أنَّ أبا بَكْر بنَ عيَّاش مَكثَ نَحواً من أرْبَعينَ سَنةً يَختمُ القُرآنَ في كلِّ يومٍ ولَيلَة مرَّة .

وهـٰذه عِبادةٌ يُخضَعُ لها ، ولكن مُتابَعة السُّنَّة أَوْلَىٰ فقد صَحَّ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَهَىٰ عبدَ الله بنَ عَمرو أنْ يَقرأَ القُرآنَ في أقَلِّ من ثلاث وقال عليه السلام : « لَمْ يَفْقَهْ مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلاثٍ »[4] .

قال أبو العبَّاس بنُ مَسْروق : حدَّثنا يَحْيى الحماني ، قال : لَمَّا حَضرَتْ أبا بَكْر الوَفاةُ ، بَكتْ أخْتُه ، فقالَ لها : ما يُبْكيكِ ؟ انْظُري إلىٰ تلكَ الزَّاويَة ، فقد خَتمَ أخُوك فيها ثَمانيةَ عَشرَ ألفَ خَتمَة[5] .

وعن حُسَينِ العَنْقَزيِّ قال : لَمَّا نَزلَ بابنِ إدْريسَ المَوتُ ، بَكَتْ بنتُه ، فقالَ : لا تَبكي يا بُنيَّة ، فقد خَتمتُ القُرآنَ في هـٰذا البيت أرْبَعةَ آلافِ خَتمَة[6] .

وعن المأمُونِ : أنَّه تَلا في رَمضانَ ثلاثاً وثلاثين ختمَة[7] .

---

(١) انظر السير : (عُرْوة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٢٦ .
(٢) انظر السير : (الخطيب) قَتادَة/ ٥ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦٠٢ .
(٣) انظر السير : (بِشْر بن منصور) ٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٦٤ .
(٤) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٨٧ .
(٥) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٨٧ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن إدريس) ٩/ ٤٢ـ ٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٩٦ .
(٧) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٧٦ .

قال البَغَويُّ : حدَّثَني محمَّدُ بنُ زُهَير ، قال : كانَ أبي يَجمَعُنا في وَقتِ خَتمِه للقُرآنِ في شَهرِ رَمضان في كلِّ يومٍ ولَيلَة ثَلاثَ مرَّات يَختمُ تسعينَ خَتمَةً في رَمضانَ .

مات رَحمهُ اللهُ في آخر سنة سَبع وخَمسينَ ومِئتين .

قال الذَّهبيُّ : مات عن بضْعٍ وسَبعين سَنة .

يَـا حَبَّـذَا مَـرُو وَمَـا أَخـرجَـت مـن سـادة العلـم والـديـن[1] .

وعن مُسبِّح بنِ سَعيد قال : كان محمّدُ بنُ إسْماعيلَ يَختِمُ في رَمضانَ في النَّهار كلَّ يوم خَتمةً ويَقومُ بعدَ التَّراويحِ كلَّ ثلاثِ ليالٍ بخَتمَة[2] .

وكان لأبي العبَّاس بنِ عَطاء البَغْداديّ في كلِّ يَومٍ خَتْمَة ، وفي رَمَضانَ تِسْعُونَ خَتْمَة ، وبَقيَ في خَتْمَةٍ مُفْرَدَة بضعَ عَشرَةَ سَنةً يَتَفهَّمُ ويَتدَبَّر[3] .

ويُقالُ : خَتمَ الكَتَّانيُّ في الطَّواف اثني عشرَ ألفَ ختمَة ، وكان من الأوْلياء تُوفِّي سنةَ اثنتَين وعشرين وثلاثِ مئة[4] .

وقال أبو عبد الرحمٰن السُّلميّ : سَمعتُ الدَّارَقُطنيَّ ، سَمعتُ أبا إسْحاق إبراهيمَ بن محمّد النَّسْوي المعدل بمِصْرَ ، يقولُ : سَمعتُ أبا بَكْر بنَ الحَدَّاد ، يقولُ : أخَذتُ نفسي بما رَواه الرَّبيعُ عن الشَّافعيِّ ، أنَّه كان يَختمُ في رَمضانَ ستِّين خَتمةً ، سِوَىٰ ما يَقرأُ في الصَّلاة ، فأكثرُ ما قَدرتُ عليه تسْعاً وخَمسين خَتمةً ، وأتَيتُ في غير رَمضانَ بثلاثين خَتمةً .

قال : ومات وصُلِّيَ عليه يومَ الأرْبعاء ، ودُفِنَ بسَفْح المُقَطَّم عند قَبرِ وَالدَتِه ، وحَضرَ جنازَتَه الملكُ أبو القاسم بنُ الإخْشِيذ ، وأبو المسك كافُور ، والأعْيانُ ، وكان نَسيجَ وحدِه في حِفْظِ القُرآن واللُّغَة ، والتَّوَسُّع في عِلمِ الفِقْه وكانت له حلقةٌ من سنين كثيرة يَغشاها المُسلمونَ وكان جداً كلَّه ، رَحمَه الله فما خلَّف بمصرَ بعدَه مثله .

---

(١) انظر السير : (زُهَيرُ بن محمّد بن قُمَير) ١٢/ ٣٦٠ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٠٧ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠١٥ .

(٣) انظر السير : (ابن عَطاء) ١٤/ ٢٥٥ـ ٢٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٩ .

(٤) انظر السير : (الكتَّانيّ) ١٤/ ٥٣٣ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/١١٧٢ .

وفي ابنِ الحدَّاد يقولُ أحمدُ بنُ محمَّد الكَحَّال :

الشَّـــافِعِـــيَّ تَفَقُّهـــاً وَالأَصمَعِـــيَّ تَفَنُّنـــاً وَالتَّـــابِعِيـــنَ تَـــزَهُّـــدا[1]

وقال المؤتَمَنُ : سَمعتُ عبد المحسن الشِّيحيَّ يقول : كنتُ عَديلَ[2] أبي بَكْر الخَطيب من دِمَشْقَ إلىٰ بَغْدادَ ، فكان له في كلِّ يومٍ وليلةٍ خَتمَة[3] .

١٩ـ مَسَائلُ متفرِّقة :

(أ) مَنْ قرأَ القُرآنَ في رَكعَة :

جاء في ترجَمَة أميرِ المؤمنينَ ، عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه ، قال الإمامُ الذهبيُّ : صَحَّ من وُجوهٍ أنَّ عُثْمانَ قَرأ القُرآنَ كُلَّه في رَكْعَة[4] .

وعن هلالِ بنِ يساف ، قال : دَخلَ سَعيدُ بنُ جُبَير الكعبَةَ فقرأَ القُرآنَ في رَكعَة .

عن عَمرو بنِ مَيْمون ، عن أبيه ، قال : ماتَ سَعيدُ بنُ جُبَير وما علىٰ ظَهْر الأرض أحدٌ إلاَّ وهو مُحْتاجٌ إلىٰ عِلْمِه[5] .

وقد رُويَ من وَجْهَين : أنَّ أبا حَنيفَة قَرأَ القُرآنَ كلَّه في رَكْعَة .

وعن أبي يوسُف قال : كان أبو حَنيفَة رَبْعَةً ، من أحْسَنِ الناسِ صورة ، وأبلغِهم نطقاً ، وأعذبِهم نغمة ، وأبينِهم عمَّا في نفسِه[6] .

ويُحكَىٰ أنَّ العَسَّال ما كان يَجلسُ لإمْلاءِ الحَديث ، ولا يَمَسُّ جُزءاً إلاَّ علىٰ طَهارَة ، وأنَّه كان مرّةً مع صِهْرِه ، فدَخلَ مَسجداً ، وشَرعَ في الصَّلاة فخَتمَ القُرآنَ في رَكْعَة[7] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٧ .
(٢) أي مُعادِلَه في الرُّكوب في المَحمل .
(٣) انظر السير : (الخَطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٢ .
(٤) انظر السير : (عثمان بن عفان) ، وانظر النزهة : ٣/٧٩ .
(٥) انظر السير : (سَعيدُ بن جُبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/٥٠٥ .
(٦) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٨/٦٦٢ .
(٧) انظر السير : (العَسَّال) ١٦/ ٦ـ ١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٦٥ .

وقال ابنُ باكُويَه : سمعتُ ابنَ خَفيف يقول : كنتُ في بدايتي رُبَّما أقرأُ في ركعةٍ واحدة عشرةَ آلاف (قل هو الله أحد) ورُبَّما كنتُ أقرأُ في ركعةٍ القرآنَ كُلَّه[1] .

(ب) التَّحْزينُ في قِراءتِه :

قال ابنُ الأعْرابيِّ : كان الغالِبُ علىٰ صالِح المُرِّيّ كثرةُ الذِّكر ، والقِراءَة بالتَّحْزين ويُقالُ : هو أوَّلُ مَنْ قَرأَ بالبَصْرَة بالتَّحْزين[2] .

(ج) القراءةُ بالألْحانِ بدْعَة :

سُئلَ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبل عن القِراءَة بالألْحانِ ، فقالَ : هـٰذه بِدْعَةٌ لا تُسْمَع[3] .

وقال الأثْرَمُ : سألتُ أبا عبد الله عن التَّعْريفِ في الأمْصارِ ، يَجْتَمعُونَ في المَساجدِ يومَ عَرَفَة ، فقالَ : أرْجُو أنْ لا يكونَ به بأسٌ ، فعَلَه غَيرُ واحدٍ : الحَسنُ ، وبَكرُ بن عبدِ الله ، وثابتٌ ، ومحمَّدُ ابنُ واسع ، كانوا يَشْهَدون المَسْجدَ يومَ عَرَفَة ، وسَألتُه عن القِراءَة بالألْحان ، فقال : كلُّ شيء مُحدَثٌ فإنَّه لا يُعجِبُني ، إلاَّ أنْ يَكونَ صَوتَ الرجل لا يَتكلَّفُه[4] .

قال الحافظ عبدُ القادِر : وكان السِّلَفيُّ آمِراً بالمَعْروفِ ، ناهياً عن المُنْكر حتىٰ إنَّه قد أزَالَ من جِوارِه مُنْكراتٍ كثيرة ورأيتُه يوماً ، وقد جاءَ جَماعَةٌ من المُقْرئين بالألْحانِ ، فأرادُوا أنْ يَقْرؤوا فمَنعَهم من ذلك ، وقال : هـٰذه القِراءَةُ بدْعَة ، بل اقْرؤوا تَرْتيلاً ، فقَرؤوا كما أمَرَهم[5] .

(د) قِراءةُ اثنينِ علىٰ واحدٍ في الوقتِ نفسِه من سُورتينِ مُخْتلِفتين :

كان الإمامُ السَّخاويُّ مع سِعَة عُلومِه وفَضائلِه دَيِّناً ، حَسنَ الأخْلاق ، مُحبَّباً إلى

---

(١) انظر السير : (ابنُ خَفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٨ .
(٢) انظر السير : (صالح المُرِّي) ٨/ ٤٦ـ٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٢٥ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٧/٩٢٩
(٤) انظر السير : (الأثْرَم) ١٢/ ٦٢٣ـ٦٢٨ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٤٠ .
(٥) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٩٣ .

النَّاسِ ، وافِرَ الحُرْمَة ، مُطرحاً للتَّكلُّف ، ليسَ له شغلٌ إلاَّ العِلم ونَشْره ، شَرحَ « الشَّاطِبيَّة » و« الرَّائيَّة » وله كتابُ « جَمال القُرَّاء » ، وله النَّظْمُ والنَّثْر وكانَ يَترَّخصُ في إقْراء اثْنَين فأكثر كلّ واحدٍ في سُورَة ، وفي هـٰذا خِلافُ السُّنَّة ، لأنَّنا أُمِرْنا بالإنْصَات إلىٰ قارىء لنَفهَمَ ونَعْقلَ ونَتدبَّرَ .

وقد وَفِدَ على السُّلطانِ صَلاح الدِّين عَكا في سنة سِتٍّ وثَمانين زَمَنَ المُحاصَرَة فامْتدَحَه بقَصيدَة طَويلة ، واتَّفقَ أنَّه امْتدح أيضاً الرَّشِيدَ الفارقيَّ ، وبينَ المَمْدوحَين في المَوْت أزْيدُ من مئة عام .

قال الإمامُ أبو شامة : وفي سنة ثلاث وأربعين وسِتٍّ مئة تُوفِّي شَيخُنا عَلمُ الدِّين عَلاَّمَةُ زَمانِه وشَيخُ أوانِه بمَنزِله بالتربة الصَّالحيَّة[1] .

(هـ) مُتَشابه القُرآن :

عن خالدِ بنِ خِدَاش قال : شَهدْتُ حَمَّادَ بنَ زَيْد في آخِرِ يومٍ ماتَ فيه ، فقالَ : أُحدِّثكم بحَديث لمْ أحدِّث به قَطُّ ، إنِّي أكْرَهُ أنْ ألْقَى اللهَ لمْ أُحدِّث به ، سَمعتُ أيُّوبَ يُحدِّثُ عن عِكْرِمةَ قال : إنَّما أنْزَلَ اللهُ مُتَشابِهَ القُرآنِ ليُضِلَّ به .

وقال الذهبيُّ : هـٰذه عِبارَةٌ رَديئَةٌ ، بلْ إنَّما أنْزَلَه الله تعالىٰ لِيَهدِيَ به المؤمنينَ ، وما يُضلُّ به إلاَّ الفاسِقينَ ، كما أخْبرَنا عزَّ وجَلَّ في سُورة البَقَرَة .

ماتَ عِكرِمَةُ بالمَدينة سَنةَ خَمس ومئة .

خرَّجَ له مُسلمٌ مَقْرناً بطاوُوس في الحَجِّ ، فالذين أهْدروه كبارٌ ، والذين احْتجُّوا به كبارٌ واللهُ أعلَمُ بالصَّواب[2] .

(د) دُعَاء خَتْم القُرآن في السُّجود :

عن عبد الكَريم السُّكَّري قال : كان عبدُ الله بن المبارك يُعجُبه إذا خَتمَ القُرآنَ أنْ يَكونَ دُعاؤُه في السُّجود[3] .

---

(١) انظر السير : (السَّخاويّ) ٢٣/ ١٢٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١٦ .

(٢) انظر السير : (عِكرِمَة) ٥/ ١٢ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٥٧٧ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧/٧٦٩ .

(ز) رُؤىٰ تَحثُّ على الاعْتِناء بالقُرآن :

وعن نَوْفَل قال : رَأيتُ ابنَ المُبارَك في النَّوم ، فقلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قال : غَفرَ لي برِحْلَتي في الحَديث عَليكَ بالقُرآنِ عَليكَ بالقُرآن .

ماتَ سنةَ إحْدىٰ وثمانينَ ومئة[1] .

وعن عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ حَنْبَل ، سَمعتُ أبي ، يقولُ : رَأيتُ رَبَّ العِزَّة في المَنام ، فقُلتُ : يا رَبِّ ، ما أفْضَل ما تَقرَّبَ به إليكَ المُتقرِّبون ؟ قال : بكَلامي يا أحمَد قلتُ : يا رَبِّ ، بفَهْمٍ ، أوْ بِغَير فَهْم ؟ قال : بفَهْم وبغَير فَهْم[2] .

قال السَّمْعانيُّ : رُؤيَ أبو مَنْصور الخيَّاط بعدَ مَوْتِه ، فقال : غَفرَ الله لي بتَعْليمي الصِّبْيانَ الفاتِحَة ماتَ سنةَ تسع وتسعين وأربع مئة[3] .

(ح) الدُّعابَةُ والمَزْحُ فيما يَتعلَّقُ بالقُرآن لا يَجوز :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة عُثمانَ بنِ أبي شَيْبَة : وهو مع ثقَتِه صاحبُ دُعابَة حتىٰ فيما يتَصحَّفُ من القُرآن العَظيم ، سامَحَه الله[4] .

وقال الدارَقُطنيُّ : أخْبرَنا أحمدُ بنُ كامل ، حَدَّثني الحَسنُ بنُ الحباب أنَّ عُثمانَ ابنَ أبي شَيْبة ، قَرأ عَليهم في التَّفْسير : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾[5] .

فقالَها : ألفْ لام ميم .

قال الذهبيُّ : هو : إمَّا سَبقُ لِسان ، أو انْبِساطٌ مُحَرَّم[6] .

وقال القاضي عليُّ بنُ محمّد بنِ كاس ، حدَّثنا إبراهيمُ الخصَّاف قال : قَرأ عَلينا

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٧٢ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٥١ .
(٣) انظر السير : (الخيَّاط) ١٩/ ٢٢٢ـ ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٤٧٣ .
(٤) انظر السير : (عثمان بن أبي شيبة) ١١/ ١٥١ـ ١٥٤ ، وانظر النزهة : ١/ ٩١٧ .
(٥) سورة الفيل ، الآية : ١ .
(٦) انظر السير : (عثمان بن أبي شيبة) ١١/ ١٥١ـ ١٥٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩١٧ .

عُثمانُ بنُ أبي شَيْبَة في التَّفْسير: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ﴾ السِّقِينَة ، فنادَوا ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾[1] .

فقال : أنا وأخي لا نَقرأُ لعَاصِم .

وقد أكثرَ عنه البُخاريُّ في « صَحيحِه » .

وقال مُطَيَّن : ماتَ عُثمانُ بنُ أبي شَيْبَة في سَنةِ تِسْع وثَلاثين ومئتين[2] .

ثانياً : القِراءاتُ والتَّجْويد :

١ـ مَنْ قَرأَ القُرآنَ بالقِراءاتِ العَشْرِ وعُمْرُه عَشرُ سَنوات :

جاء في تَرجمَة أبي اليُمن زَيدِ بنِ الحَسنِ بنِ زَيدِ الكنْديِّ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : حَفظَ القُرآنَ وهو صَغيرٌ مُمَيِّز ، وقَرأَه بالرِّوَايات العَشْر ، وله أعْوام ، وهـٰذا شَيءٌ ما تَهيَّأ لأحَدٍ قَبلَه ، ثم عاشَ حتى انتَهىٰ إليه عُلوُّ الإسْناد في القِراءاتِ والحَديث .

كان حَنْبَليّاً ، فانتَقلَ حَنفيّاً ، وبَرعَ في الفِقْه ، وفي النَّحْو ، وأفْتَىٰ ودَرَّس وصَنَّف ، وله النَّظمُ والنَّثر ، وثِقَةٌ في نَقْلِه ، ظَريفاً كَيِّساً ، ذا دُعابَة وانْطِباع .

قال ابنُ النجَّار: وكان الملكُ المُعظَّم يَقرأُ عليه الأدَبَ ، ويَقصدُه في مَنزِله ويُعظِّمُه.

وكان بَهيّاً وَقُوراً ، أشْبَهَ بالوُزراء من العُلماء لجَلالَته وعُلوِّ مَنزِلَته ، وكان أعلمَ أهلِ زَمانِه بالنَّحْو ، أظُنُّه يَحفَظُ « كتابَ سيبَوَيْه » ما دَخلتُ عليه قطُّ إلاَّ وهو في يدِه يُطالِعُه ، وكان في مُجلَّد واحد رَفيع يَقرؤُه بلا كلفَة وقد بلغَ التسْعين ، وكان قد مُتِّعَ بسَمعِه وبَصرِه وقوَّتِه[3] .

٢ـ رُؤيا فيها حَثٌّ علىٰ قِراءاتٍ بعَيْنِها :

عن أبي عُثمانَ المازِنيِّ قالَ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ ، فقَرأتُ

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٧٠ .

(٢) انظر السير : (عثمان بن أبي شيبة) ١١/ ١٥١ـ ١٥٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩١٧ .

(٣) انظر السير : (الكنْديّ) ٢٢/ ٣٤ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٦٣ .

عليه سُورةَ طَهَ فقُلتُ : ﴿مكاناً سِوى﴾[1] ، فقالَ : اقرأ ﴿سُوى﴾ قِراءَةَ يَعْقوبَ ، (يَعني الحَضْرَميَّ)[2] .

٣ـ قِراءاةُ حَمْزَة بن حَبيب وما دارَ حَوْلها :

قال الثوريُّ : ما قَرأَ حَمزَةُ حَرفاً بأثَر (يَعني حَمْزَةَ بنَ حَبيب)[3] .

قال أسودُ بنُ سَالم : سَألتُ الكسائيَّ عن الهَمْزِ والإدْغام ، ألَكُمْ فيه إمامٌ ؟ قال : نعَم حَمْزةُ كان يَهْمز ويَكسِر ، وهو إمامٌ ، لوْ رَأيتَه لقرَّتْ عَينُك من نُسُكِه[4] .

قال الذهبيُّ : كَره طائفةٌ من العُلماء قِراءةَ حَمْزَة لما فيها من السَّكتِ ، وفَرْطِ المَدِّ واتِّباعِ الرَّسْم والاضْجاع[5] ، وأشياءَ ، ثم اسْتقرَّ اليومَ الاتِّفاقُ علىٰ قَبولِها وبَعضٌ كان حَمْزَةَ لا يَراهُ[6] .

وبلَغَنا أنَّ رَجلاً قالَ له : يا أبا عمَارَة! رأيتُ رَجلاً من أصْحابِك ، هَمَزَ حتى انْقَطَعَ زِرُّه فقالَ : لَمْ آمُرْهم بهـٰذا كلِّه[7] .

وعن حَمْزَة قال : إنَّ لهـٰذا التَّحْقيق حدَّاً يَنتَهي إليه ثم يَكونُ قَبيحاً[8] .

وعن حَمْزَة : إنَّما الهَمزَةُ رياضَة فإذا حَسَّنَها سَلَّها .

وفاتُه في سَنة ستٍّ وخَمسين ومئة ، رَحمَه الله ، ظَهرَ له نحوٌ من ثمانين حَديثاً ، وكان من الأئمَّة العَاملين[9] .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٥٨ .
(٢) انظر السير : (يَعْقوب) ١٠/ ١٦٩ـ ١٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٦٣ .
(٣) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٧٩ .
(٤) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٧٩ .
(٥) الاضطجاع : الإمالة .
(٦) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦٧٩ .
(٧) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٩/ ٦٧٩ .
(٨) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٦٧٩ .
(٩) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٨٠ .

وقال يَعْقوبُ بنُ شَيْبَة : سَمعتُ عليَّ بنَ المَديني ، وجَعلَ يَذمُّ قِراءةَ حَمْزَة ، وقال : إنَّما نَزلَ القُرآنُ بلُغَة قُريش وهي التَّفْخيم ، فقالَ له بِشْرُ بنُ موسَىٰ : حدَّثنا نَوْفَلُ ، فقالَ ابنُ المَديني : نَوْفَلُ ثِقةٌ ، قال : سَمعتُ عبدَ الله بنَ إدْريسَ يَقولُ لحَمْزةَ : اتَّقِ اللهَ ، فإنَّك رجلٌ تَتألَّه ، وهٰذه القِراءَةُ لَيسَت قِراءَةَ عبدِ الله ، ولا قِراءَة غَيره ، فقالَ حَمْزَةُ : أما إنِّي أتَحرَّجُ أنْ أقْرأ بها في المِحْراب قُلتُ : لم ؟ قال : لأنَّها لمْ تَكنْ قراءَةَ القَوْم قُلتُ : فما تَصنَعُ بها إذاً ؟ قال : إنْ رَجَعتُ من سَفري لأتْرُكنَّها ثم قال ابنُ إدْريس : ما أسْتجيزُ أنْ أقولَ لمَنْ يَقرأُ لحَمْزَة : إنَّه صاحبُ سُنَّة قُلتُ : اشْتُهرَ تَحذيرُ ابنِ إدْريس من ذلك واللهُ يَغفرُ له ، وقد تَلقَّى المُسلمونَ حُروفه بالقَبولِ وأجْمَعوا اليومَ عَليها[1] .

وقال أبو عُبيد الآجُرِّيْ : سَمعتُ أبا داودَ يقولُ : قال أحمدُ بنُ سنان : سَمعتُ عبدَ الرحمٰن بنَ مَهْدي يقولُ : لوْ كان لي عليه سُلطانٌ ـ علىٰ مَنْ يَقرأُ قِراءَةَ حَمْزَة ـ لأوْجَعتُ ظَهرَه وبَطْنَه .

قال الإمامُ الذهبي : جاء نَحوُ هٰذا عن جَماعَةٍ[2] وإنَّما ذلك عائدٌ إلىٰ ما فيها من قَبيل الأداء ، واللهُ أعلَم ، وقد اسْتقرَّ اليومَ الإجْماعُ علىٰ تَلقِّي قِراءَةِ حَمْزَة بالقَبولِ[3] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن إدْريس) ٩/ ٤٢ـ٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٩٦ .

(٢) قال ابن قُدامة في « المُغْني » (١/ ٤٩٢) ولم يكره أحد قراءة أحد من العشرة إلاَّ قراءة حمزة والكسائي ، لما فيهما من الكسر والإدغام والتكلُّف وزيادة المدِّ وقال ابن الجزري في « غاية النهاية » (١/ ٢٦٣) : وأمّا ما ذكر عن عبد الله ابن إدريس وأحمد ابن حنبل من كراهة قراءة حمزة ، فإن ذلك محمول علىٰ قراءة من سمعا منه ناقلاً عن حمزة ، وما آفة الأخبار إلاَّ رُواتُها وقال ابنُ مجاهد : قال محمد بن الهيثم : والسبب في ذلك أن رجلاً ممّن قرأ علىٰ سُلَيم حضر مجلس ابن إدريس ، فقرأ ، فسمع ابنُ إدريس ألفاظاً فيها إفراطٌ في المَدِّ والهَمزْ وغير ذلك من التكلُّف ، فكره ذلك ابنُ إدريس ، وطعن فيه قال محمد بن الهيثم : وقد كان يكره هٰذا وينهَىٰ عنه ، قلتُ : أما كراهته الإفراط من ذلك ، فقد روينا عنه من طرق أنه كان يقول لمن يفرط عليه في المدِّ والهَمز : لا تفعل أما علمت أن ما كان فوق البياض ، فهو بَرَص ، وما كان فوق الجُعودَة ، فهو قطط ، وما كان فوقَ القراءة ، فليس بقراءة .

(٣) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن مَهدي) ٩/ ١٩٢ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨١٨ .

٤ـ مَسائلُ مَتفرِّقَة :

عن نافعٍ قالَ : أدْرَكتُ عِدَّة من التابعين ، فنَظرتُ إلىٰ ما اجتمعَ عليه اثنانِ منهم فأخَذتُه ، وما شَذَّ فيه واحدٌ تَركتُه ، حتىٰ ألَّفْتُ هـٰذه القِراءَة[١] .

واختارَ الكسائيُّ قراءَةً اشْتُهرَت ، وصارَت إحْدَى السَّبع .

قال الشافعيُّ : مَنْ أرادَ أنْ يَتبَحَّرَ في النَّحْو ، فهو عيالٌ على الكسائيِّ .

قال ابنُ الأنْباري : اجتمعَ فيه أنَّه كانَ أعلَمَ النَّاسِ بالنَّحْو ، وأوْحَدَهم في الغَريب وأوْحدَ في عِلمِ القُرآن ، كانوا يُكثِرون عليه حتىٰ لا يَضبِط عليهم ، فكان يَجمَعُهم ، ويَجلسُ علىٰ كُرسيٍّ ، ويَتلو وهم يَضْبِطون عنه حتى الوُقوفَ[٢] .

قال إسْحاقُ بن إبْراهيمَ : سَمعتُ الكسائيَّ يَقرأُ القُرآنَ على النَّاسِ مرَّتَين[٣] .

وعن خلفٍ ، قالَ : كنتُ أحضُرُ بين يَدي الكسائي وهو يَتلُو ، ويُنَقِّطُونَ علىٰ قِراءَتِه مَصَاحفَهم[٤] .

وكان يَعْقوبُ الحَضْرميَّ يُقرىءُ النَّاسَ عَلانيَةً بحَرْفِه بالبَصْرة في أيّامَ ابنِ عُيَيْنَةَ ، وابنِ المُبارَك ، ويَحْيى القَطَّان ، وابنِ مَهْدي ، والقاضي أبي يوسُف ، ومحمدِ بنِ الحَسَن ، ويَحْيى اليَزيدي ، وسُليم ، والشَّافعيِّ ، ويَزيدِ بنِ هارُون ، وعَددٍ كثير من أئمَّة الدِّين ، فما بَلغَنا بعدَ الفَحْص والتَّنْقيبِ أنَّ أحَداً من القُرَّاءِ ولا الفُقَهاءِ ولا الصُّلَحاءِ ولا النُّحاةِ ولا الخُلَفاءِ كالرَّشيدِ والأمينِ والمَأمُونِ أنْكَروا قراءَتَه ، ولا مَنَعوه منها أصْلاً ، ولوْ أنْكرَ أحدٌ عليه لنُقِلَ ولاشْتهَر ، بل مَدَحَها غيرُ واحدٍ ، وأقْرأَ بها أصْحابَه بالعِراقِ ، واسْتمرَّ إمامُ جامع البَصْرة بقراءَتِها في المِحْرابِ سَنين مُتطاوِلَة ، فما أنكرَ عليه مُسلمٌ ، بلْ تَلقَّاها النَّاسُ بالقَبولِ ، ولقد عُومِلَ حَمْزَة مع جَلالَته بالإنْكارِ عليه في قراءَتِه من جَماعةٍ من الكبار ، ولمْ يَجرِ مثلُ ذلك للحَضْرَميِّ

---

(١) انظر السير : (نافع) ٧/ ٣٣٦ـ٣٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٠١ .

(٢) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٦ .

(٣) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١/٨٠٧ .

(٤) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/٨٠٧ .

أبداً ، حتىٰ نَشأ طائفةٌ مُتأخِّرون لمْ يألَفُوها ، ولا عَرفُوها ، فأنكَروها ، ومَنْ جَهلَ شيئاً عاداه ، قالوا : لمْ تتَّصِلْ بنا مُتواترةً ، قُلنا : اتَّصلَت بخَلقٍ كثيرٍ متواتَرة ، وليسَ من شَرْط التَّواتُر أنْ يصلَ إلىٰ كلِّ الأمَّة فعندَ القُرَّاء أشياءُ مُتواتِرَة دُون غَيرِهم ، وعندُ الفُقَهاءِ مَسائلُ مُتواتِرَة عن أئمَّتِهم لا يَدْريها القُرَّاءُ ، وعند المُحدِّثين أحاديثُ مُتواتِرَة قد لا يكونُ سَمعَها الفُقَهاءُ ، أو أفادَتهم ظَنّاً فقط ، وعند النُّحاةِ مَسائلُ قَطعيَّة ، وكذلك اللُّغَويُّون ، وليس مَنْ جَهلَ علماً حُجَّةً علىٰ مَنْ عَلِمَه ، وإنَّما يُقالُ للجاهِلِ : تَعلَّم ، وسَلْ أهلَ العِلمِ ، إنْ كنتَ لا تَعلم ، لا يُقالُ للعالِمِ : اجْهَل ما تَعْلَم ، رَزقَنا اللهُ وإيَّاكم الإنْصافَ ، فكثيرٌ من القِراءاتِ تدَّعون تواتُرها ، وبالجَهْد أنْ تَقْدِروا علىٰ غَيرِ الآحادِ فيها ، ونحنُ نَقولُ : نَتلُو بها وإنْ كانَت لا تُعرَف إلاَّ عن واحدٍ ، لكَونِها تُلقِّيَت بالقَبولِ ، فأفادَت العِلمَ ، وهٰذا واقعٌ في حُروفٍ كَثيرة ، وقِراءاتٍ عَديدَة ، ومَنِ ادَّعَىٰ تَواتُرَها فقد كابرَ الحِسَّ ، أمَّا القُرآنُ العَظيمُ سُورُه وآياتُه فمُتَواتِرٌ ، ولله الحَمدُ ، مَحْفوظٌ من الله تَعالَىٰ ، لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يُبدِّلَه ولا يَزيدَ فيه آيةً ولا جُملةً مُستقلَّة ، ولوْ فَعلَ ذلكَ أحدٌ عَمْداً لانْسَلخَ من الدِّينِ ، قالَ اللهُ تَعالَىٰ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] .

وأوَّلُ مَنِ ادَّعَىٰ أنَّ حَرْفَ يَعْقوبَ من الشَّاذِّ أبو عَمرو الدَّاني ، وخالَفَه في ذلك أئمَّةٌ ، وصارَ في الجُملَة في المَسْألَةِ خِلافٌ حادِثٌ واللهُ أعلَم .

قال العلاَّمَةُ أبو حاتم السِّجِسْتاني : يَعْقوبُ أعْلمُ مَنْ رَأيْنا بالحُروفِ والاخْتلافِ في القُرآنِ وعِلَلِه ومَذاهِبِه ومَذاهبِ النَّحْو[2] .

وجاء في ترجمة خَلفِ بنِ هِشام ، قال الإمامُ الذهبيُّ : وله اخْتيارٌ في الحُروف صَحيحٌ ثابتٌ ليس بشاذٍّ أصْلاً ، ولا يَكادُ يَخرجُ فيه عن القِراءاتِ السَّبْعِ ، وأخذَ عنه خَلقٌ لا يُحْصَون[3] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

(٢) انظر السير : (يَعْقوب) ١٠/ ١٦٩ـ ١٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٦٢ .

(٣) انظر السير : (خَلفُ بن هشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٩٥ .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمَة ابنِ شَنَبُوذ : اعْتمَدَه أبو عَمرٍو الدَّاني ، والكبارُ ، وَثُوقاً بنَقلِه وإتْقانِه لكنَّه كانَ له رأيٌ في القِراءَةِ بالشَّواذِّ التي تُخالِفُ رَسْمَ الإمام ، فنَقموا عليه لذلك ، وبالَغوا وعَزَّروه والمسألةُ مُختلَفٌ فيها في الجُملَة وما عارَضُوه أصْلاً فيما أقرأ به ليَعْقوبَ[1] ، ولا لأبي جَعْفَر[2] ، بلْ فيما خَرجَ عن المُصحَف العُثماني وقد ذَكرتُ ذلكَ مُطوَّلاً في طَبقَاتِ القُرَّاء[3] .

قال أبو شامَة : كان الرِّفْقُ بابن شَنَبُوذ أولىٰ ، وكان اعتقالُه وإغْلاظُ القَولِ له كافياً وليسَ كان بمُصيب فيما ذَهبَ إليه ، لكن أخْطاؤُه في واقِعَةٍ لا تُسقِطُ حَقَّه من حُرمَة أهلِ القُرآنِ والعِلْم .

مات ابنُ شَنَبوذ سَنةَ ثمان وعشرين وثلاث مئة ، وهو في عَشْر الثمانين أو جاوَزَه[4] .

وقال السَّمْعانيُّ : كان أبو محمَّد عبدُ الله بنُ سبْطِ الخَيَّاط مُتَواضِعاً مُتوَدِّداً ، حَسنَ القِراءَة في المِحْرابِ ، خُصُوصاً لَياليَ رَمضانَ ، وقد تَخرَّجَ عليه خَلقٌ ، وخَتَموا عليه ، وله تَصانيفُ في القِراءاتِ وخُولِفَ في بَعضِها ، وشَنَّعوا عليه ثم سَمعتُ أنَّه رَجعَ عن ذلك .

وقال أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي : ما رَأيتُ أكثرَ جَمعاً من جَمعِ جِنازَتِه .

تُوفِّي سَنةَ إحْدىٰ وأربَعين وخَمسِ مئة[5] .

وأقْرأ السَّخاويُّ النَّاسَ دَهْراً ، وما أسْندَ القِراءاتِ عن الغَزْنَويِّ والكنْديِّ ، وكان

---

(١) يعقوب بن إسحاق ، أحد القرَّاء العشرة ، تُوفِّي سنة ٢٠٥هـ .

(٢) أبو جَعْفر المَخْزومي ، يزيدُ بن القَعْقاع ، أحدُ القُرَّاء العشرة ، تابعيٌّ مَشهور كبير القدر ، تُوفِّي سنة ١٣٠هـ .

(٣) انظر السير : (ابنُ شَنَبوذ) ١٥/ ٢٦٤ـ ٢٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٢٥ .

(٤) انظر السير : (ابنُ شَنَبوذ) ١٥/ ٢٦٤ـ ٢٦٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٢٥ .

(٥) انظر السير : (عبد الله بن عليّ بن أحمد ، سبطُ الخيَّاط) ٢٠/ ١٣٠ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣٧ .

أعْلَىٰ إسْناداً من الآخَرين ، امْتَنعَ من ذلك لأنَّه تَلا عليهما بـ « المُبْهِج » ولمْ يكُنْ بأَخَرَة يَرى الإقْراءَ به ولا بما زادَ على السَّبْعِ ، فقيلَ : إنَّه اجْتَنبَ ذلكَ لمَنامٍ رَآه .

وكان إمَاماً في العَربيَّة ، بَصيراً باللُّغَة ، فَقيهاً ، مُفْتياً ، عَالِماً بالقِراءاتِ وعِلَلِها ، مُجوِّداً لها ، بارِعاً في التَّفْسيرِ صَنَّفَ وأقْرأَ وأفادَ ، ورَوى الكثيرَ ، وبَعُدَ صيتُه وتَكاثَرَ عليه القُرَّاءُ[1] .

* * *

(١) انظر السير : (السَّخاويّ) ٢٣/ ١٢٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧١٦ .

(٢) التَّفْسِير

تَفْسيرُ آيات :

عن خالدٍ الحذَّاء ، قال : سألَ الرجلُ الحَسَنَ البَصْريَّ فقال : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[١] قال : أهلُ رَحمَتِه لا يَخْتلِفون ، ولذلكَ خَلقَهم ، خَلقَ هؤلاءِ لجنَّتِه ، وخَلقَ هـٰؤلاء لنارِه ، فقُلتُ يا أبا سَعيد آدَمُ خُلِقَ للسَّماءِ أمْ للأرْضِ ؟ قال : للأرضِ خُلِقَ ، قُلتُ : رَأيتَ لو اعْتصَمَ فلمْ يأكُلْ من الشَّجرَةِ ؟ قال : لمْ يكنْ بُدٌّ من أنْ يأكلَ منها إنَّه خُلقَ للأرضِ ، فقُلتُ : ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾[٢] قال : نَعَم ، الشَّياطينُ لا يُضلُّون إلاَّ مَنْ أحَبَّ اللهُ له أنْ يَصْلَى الجَحيم[٣] .

وعن سُفيانَ الثَّوري : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾[٤] ،[٥] قال : نُسْبِغُ عليهم النِّعَم ونَمْنَعُهُم الشُّكْرَ[٦] .

وعنه ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[٧] قال : اسْتِئذانُ المَلائكَةِ عَليهم[٨] .

قال معدانُ ـ الذي يَقولُ فيه عبدُ الله بنُ المُبارَك : هُوَ من الأبْدال[٩] سَألتُ الثَّوْريَّ

---

(١) سورة هود ، الآيتين : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) سوة الصافات ، الآيتين : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٣) انظر السير : (الحَسن البَصْريّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٥٦٢/ ١ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٢ .

(٥) سورة القلم ، الآية : ٤٤ .

(٦) انظر السير : (سُفْيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٧/ ٥ .

(٧) سورة الإنسان ، الآية : ٢٠ .

(٨) انظر السير : (سُفْيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٩/ ٢ .

(٩) قوم من عباد الله الصالحين ، يهتدون بكتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، ويتصفون بحسن الخلق ، وصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة الصدر ، يستجيب الله دعاءهم ، ولا يخيب رجاءهم ، ورد في حقهم أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أوردها السخاوي في « المقاصد الحسنة » ص ٨ ـ ١٠ ، وتكلم عليها فراجعه .

عن قَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1] ، فقال : عِلْمُهُ[2] .

تَفْسيرُ آيةٍ في ثلاثِ مئةٍ وستِّينَ مَجْلِساً :

قيلَ : إنَّ شَيخَ الإسلام عبد الله الهَرَوي عَقدَ علىٰ تَفسيرِ قولِه تَعالَىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾[3] ثلاثَ مئة وستِّينَ مَجْلساً .

تُوفِّيَ شَيخُ الإسلام الهَرَويُّ سنةَ إحدىٰ وثمانين وأربع مئة عن أربَع وثَمانين سَنةً وأشْهُر[4] .

تَفْسيرُ آيةٍ في مُجلَّد :

وقال ابنُ عقيل في « فُنونه » : قدِمَ علينا من مِصْرَ القاضي أبو يوسُف القَزْويني ، وكان يَفتخرُ بالاعْتزال ، ويتوسَّعُ في قَدْح العُلماء ، وله جُرْأةٌ ، وكان إذا قَصدَ بابَ نظام المُلك ، يقولُ : استأذنوا لأبي يوسُف المُعْتَزليِّ ، وكان طَويلَ اللِّسان بعلمٍ تارة ، وبسَفَهٍ تارةً ، لم يكن مُحَقِّقاً إلاَّ في التفسير ، فإنَّه لَهجَ بذلك حتىٰ جَمعَ كتاباً بلغ خمسَ مئة مُجلَّد ، فيه العَجائبُ ، رأيتُ منه مُجلَّدَةً في آيةٍ واحدة ، وهي ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[5] ، فذكرَ السِّحْرَ والملوك الذين نفَق عليهم السِّحْرُ ، وتأثيراتِه وأنْواعِه[6] .

أسْبابُ نُزُول :

عن قَتادَة : ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾[7] قال : تَصدَّقَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ عَوْف بشَطرِ مالِه أرْبَعةِ آلافِ دينار فقال أُناسٌ من المُنافقين : إنَّ عبدَ الرحمَـٰن لعَظيمُ الرِّياء[8] .

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٤ .
(٢) انظر السير : (سفيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٩/٩٩٦ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠١ .
(٤) انظر السير : (شَيخُ الإسْلام) ١٨/ ٥٠٣ـ ٥١٨ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣٨ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٠٢ .
(٦) انظر السير : (أبو يوسف القَزْويني) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٨ .
(٧) سورة التوبة ، الآية : ٧٩ .
(٨) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عَوْف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٠ .

وعن أبي عُثمانَ أنَّ سَعدَ بنَ أبي وَقَّاص قال : نَزلَتْ هـٰذه الآيةُ فيَّ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ ﴾[1] قالَ : كُنتُ بَراً بأمِّي ، فلمَّا أسْلَمتُ ، قالت : يا سَعدُ! ما هَـٰذا الدِّينُ الذي قد أحْدَثتَ!! ؟ لَتَدَعَنَّ دِينَك هـٰذا ، أوْ لا آكُلُ ، ولا أشْربُ حتىٰ أمُوتَ ، فتُعَيَّرَ بي ، فيُقالُ : يا قَاتِلَ أمِّهِ ، قُلتُ : لا تَفْعَلي يا أُمَّه ، إنِّي لا أدَعُ دِيني هـٰذا لشيء ، فمَكَثَتْ يوماً لا تَأكُلُ ولا تَشرَبُ ولَيلةً ، وأصْبَحَتْ وقد جُهِدَت ، فلمَّا رَأيتُ ذلكَ ، قُلتُ : يا أُمَّه! تَعْلَمينَ والله لوْ كانَ لك مِئَةُ نَفْسٍ ، فخَرجَت نَفْساً نَفْساً ، ما تَركتُ ديني إنْ شِئتِ فكُلِي أو لا تَأكُلي فلمَّا رَأتْ ذلكَ أكَلَتْ[2] .

عن أسلم ، عن أبيه قال : ما كنَّا نَدعو زَيدَ بنَ حارثة إلاَّ زَيْدَ ابن محمّد ، فنزلت : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾[3] .

وعن أبي عَمرو الشَيْباني قال : أخْبَرَني جَبَلَةُ بنُ حَارِثَة قال : قَدمتُ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقُلتُ : يا رسُولَ الله! ابْعَثْ معي أخي زَيْداً قال صلى الله عليه وسلم : « هُوَ ذَا فإنِ انْطَلَقَ ، لَمْ أَمْنَعْهُ » ، فقال زيدٌ : لا والله! لا أخْتارُ عليكَ أحداً أبداً قال : فرَأيتُ رَأيَ أخِي أفْضَلَ من رَأيي[4] .

واستُشهد عبدُ الله بنُ عبدِ الله بن أُبَيٍّ بن سَلول يَومَ اليَمامَة ، وقد ماتَ أبُوه سَنةَ تسْع ، فألْبَسَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَميصَه وصَلَّىٰ عليه ، واسْتَغفرَ له إكراماً لولَدِه ، حتىٰ نَزلَت ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ ﴾ الآية[5] ،[6] .

وعن طَلْحَة بنِ خِرَاش ، سَمِعَ جابِراً يقولُ : قال لي رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أُخْبِرُكَ أنَّ الله كلمَ أبَاكَ كفَاحاً ، فقَالَ : يا عَبْدِي! سَلْنِي أُعْطِكَ ، قَالَ :

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٨ .
(٢) انظر السير : (سعد بن أبي وَقَّاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٣٤ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٥ .
(٤) انظر السير : (زَيد بن حارثة) ١/ ٢٢٠ـ ٢٣٠ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٢ .
(٥) سورة التوبة ، الآية : ٨٤.
(٦) انظر السير : (عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ) ١/ ٣٢١ـ ٣٢٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٧٠ .

أَسْأَلُكَ أنْ تَرُدَّنِي إلى الدُّنْيا فأُقتَلُ فِيْكَ ثانِياً ، فقَالَ : إنَّه قَدْ سَبَقَ مِنِّي أنَّهُم إلَيْهَا لا يُرْجَعونَ قَالَ : يا رَبِّ! فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي ، فأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1] ،[2] .

وعن سَعدٍ قال : كُنا مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم سِتَّة نفر ، فقالَ المشركون : اطْرُدْ هَؤلاء عَنكَ فَلا يَجْتَرِؤُونَ عَلينا ، وكُنتُ أنا وابنُ مَسْعود وبِلالٌ ورَجلٌ من هُذَيْل وآخَران ، فأنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ الآيَتين[3] ،[4] .

وقال عُرْوَةُ : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم مع رِجالٍ من قُرَيش منهم عُتْبَة بن رَبيعَة ، فجاء ابنُ أُمِّ مَكتومٍ يَسألُ عن شَيء ، فأعْرَضَ عنه ، فأُنْزِلَت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾[5] ،[6] .

عن البَراءِ قالَ : لمَّا نَزلَت : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ ﴾ دَعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم زَيْداً ، وأمَرَه ، فجاءَ بكَتف وكَتبَها ، فجاءَ ابنُ أُمِّ مَكتوم ، فشَكا ضَرارَتَه ، فنزلَت : ﴿ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾[7] ،[8] .

وعن أبي عُبَيْدَة بنِ محمَّدِ بنِ عَمَّارَ بنِ ياسِر قالَ : أخَذَ المشركون عَمَّاراً ، فلَمْ يَترُكوهُ حتىٰ نالَ من رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، وذَكَرَ آلِهَتَهم بخَير ، فلمَّا أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قال : ما وَراءَكَ ؟ قال : شَرٌّ يا رسُولَ الله والله ما تُرِكْتُ حتىٰ نِلْتُ منكَ ، وذَكرتُ آلِهَتَهم بخَيرٍ ، قال صلى الله عليه وسلم : « فَكيْفَ تَجِد قَلْبَكَ ؟ » قال : مُطْمَئِنٌّ بالإيمان قال صلى الله عليه وسلم : « فَإنْ عَادُوا فَعُدْ »

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عَمرو بن حِرام) ١/ ٣٢٤ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ١٧٢/ ٤ .
(٣) سورة الأنعام ، الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) انظر السير : (بلال بن رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ١٧٥/ ٤ .
(٥) سورة عبس ، الآيتان : ١ ، ٢ .
(٦) انظر السير : (ابن أمِّ مَكتوم) ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٥ ، وانظر النزهة : ١٧٧/ ٣ .
(٧) سورة النساء ، الآية : ٩٥ .
(٨) انظر السير : (ابن أمِّ مَكتوم) ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٥ ، وانظر النزهة : ١٧٧/ ٥ .

وعن قَتادَة : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾[1] نزلَت في عَمار[2] .

وعن أبي وَائِل ، قال لنا الأشْعَثُ بنُ قَيْس ، فيَّ نزلَت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾[3] ، خاصَمتُ رجلاً إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : « أَلَكَ بَيِّنَةٌ ؟ » قلتُ : لا قالَ صلى الله عليه وسلم : « فَيَحْلِفُ ؟ » قُلتُ : إذاً يَحلفُ فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَلَفَ عَلىٰ يَمِين فَاجِرَةٍ لِيَقْتَطِعَ بها مَالاً ، لَقِيَ اللهَ وهُوَ عَلَيْهِ غَضْبانٌ »[4] .

عن عامِرِ بنِ سَعْد ، عن أبيه : قال : ما سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقولُ لأحَدٍ : أنَّه مِنْ أهْلِ الجَنَّة إلاَّ لعَبدِ الله بنِ سَلام ، وفيه نَزلَت : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾[5] ،[6] .

وعن عبدِ الله بنِ سَلام ، قال : قَعَدْنا نَفرٌ من أصْحَابِ رسُولِ الله ، فتَذاكرْنا ، فقُلنا : لَوْ نَعلَمُ أيُّ الأعْمَالِ أحَبُّ إلى الله ، لعَمِلْنَا فأنْزَلَ اللهُ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[7] حتىٰ خَتمَها[8] ، قال : فقَرأَها عَلينا رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ خَتَمَهَا[9] .

وخرَّج التِّرْمِذيُّ من حَديثِ ابنِ عُمَرَ ، قالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَومَ أُحُدٍ : « اللَّهُمَّ الْعَنْ أبا سُفْيانَ! اللَّهُمَّ الْعَنِ الحارِثَ بنَ هِشام! اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوانَ بنَ أُمَيَّة » .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٠٦ .
(٢) انظر السير : (عَمّار بن ياسر) ١/٤٠٦ـ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٨٤ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٧٧.
(٤) انظر السير : (الأشْعَث بن قَيْس) ٢/ ٣٧ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢١٥ .
(٥) سورة الأحقاف ، الآية : ١٠ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن سَلام) ٢/ ٤١٣ـ ٤٢٦ ، وانظر النزهة : ١/٢٨٥ .
(٧) سورة الصَّف ، الآيتين : ١ ، ٢ .
(٨) أي قرأها ابنُ سَلام رضي الله عنه حتىٰ خَتمها.
(٩) انظر السير : (عبد الله بن سَلام) ٢/ ٤١٣ـ ٤٢٦ ، وانظر النزهة : ٥/٢٨٥ .

فنزَلَت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾[1] فتابَ عَليهِم ، فأسْلَموا ، فحَسُنَ إسْلامُهم .

قال الإمامُ الذهبيُّ : أحَسَنُهم إسْلاماً الحَارِثُ[2] .

وعَن زَيْدِ بنِ أرْقَم : كُنتُ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في غَزاة ، فسَمعتُ عبدَ الله ابنَ أُبَيِّ بنِ سَلول يَقولُ : لا تُنْفِقُوا علىٰ مَنْ عند رسُولِ الله حَتّىٰ يَنفَضُّوا من عِندِه ولَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدينَة ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منْهَا الأذَلَّ ، فحَدَّثتُ به عَمِّي فأتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخْبَرَه ، فدَعاني رسُولُ الله ، فأخْبَرتُه ، فبَعثَ إلىٰ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ وأصْحابِه ، فجَاؤُوا ، فحَلَفوا بالله ما قالوا ، فصَدَّقه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وكذَّبني ، فدَخلَني من ذلك هَمٌّ ، وقال لي عَمِّي : ما أرَدْتَ إلىٰ أنْ كذَّبَكَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ومَقتَك ، فأنْزَلَ اللهُ : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾[3] فدَعاهُم رسُولُ الله فقَرأهَا عَليهِم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يا زَيْدُ » .

توفي زَيدُ بنُ أرْقَم سنةَ ستٍّ وسِتِّين[4] .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٢٨ .

(٢) انظر السير : (صَفْوان بن أميّة) ٢/ ٥٦٢ـ ٥٦٧ ، وانظر النزهة : ١/٣٠٥ .

(٣) سورة المنافقون ، الآية : ١ .

(٤) انظر السير : (زَيْد بن أرْقَم) ٣/ ١٦٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٤/٣٥٩ .

(٣) الحديث

١ـ تَفْسيرُ أحاديث :

عن أبي هُريرة ، يبلغ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « لَيَضْرِبَنَّ النَّاسُ أكبَادَ الإبِلِ في طَلَبِ العِلْمِ ، فَلا يَجِدُونَ عَالِماً أَعْلمَ مِنْ عَالِمِ المدِينَة » .

وذَكرَ أبو المُغِيرَة المَخْزومي أنَّ مَعْناه : ما دَامَ المُسلمونَ يَطلُبونَ العِلمَ لا يَجدون أعلَمَ من علم بالمَدينة فيكون علىٰ هـٰذا : سَعيدُ بنُ المُسيِّب ، ثم بعدَه مَنْ هو من شُيوخ مالِك ، ثم مالِك ، ثم مَنْ قام بعدَه بعلمِه ، وكان أعلمَ أصحابِه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان عالمَ المَدينَة في زَمانِه بعدَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبِه ، زَيدُ بنُ ثابت ، وعائشةُ ، ثم ابنُ عُمَر ، ثم سَعيدُ بنُ المُسيِّب ، ثم الزُّهْري ، ثم عُبَيدُ الله بنُ عُمَر ثم مالِك .

وعن ابنِ عُيَيْنَة قال : مالكٌ عالمُ أهلِ الحِجَاز ، وهو حُجَّةُ زَمانِه .

وقال الشَّافعيُّ ـ وصَدقَ وبَرَّ ـ : إذا ذُكرَ العُلماءُ فمالكٌ النَّجْمُ .

ولم يكنْ بالمدينَة عالم من بعد التَّابعين يُشْبِهُ مالكاً في العلمِ ، والفِقْه ، والجَلالَة ، والحِفْظ ، فقد كان بها بعد الصَّحابة مثلُ سَعيدِ بنِ المُسيِّب ، والفُقَهاء السَّبعَة[1] والقاسِمُ ، وسالِم ، وعِكرمَة ، ونافِع ، وطَبقَتهم ، ثم زَيد بن أسْلَم ، وابن شِهاب ، وأبي الزِّناد ، ويَحْيى بن سَعيد ، وصَفْوان بن سليم ، ورَبيعَة بن أبي عبد الرحْمَـٰن ، وطَبقَتهم ، فلمّا تَفانوا ، اشْتهرَ ذكرُ مالك بها ، وابنِ أبي ذِئْب ، وعبدِ العَزيز بنِ

---

(١) الفقهاء السبعة نظم أسماءهم بعضهم بهـٰذين البيتين :

إِذَا قِيلَ مَنْ في الفِقْهِ سَبعة أبْحُرٍ ... فقُلْ هُم : عُبَيدُ الله ، عروةُ قاسم
رِوَايَتُهُم لَيسَت عَن العلمِ خَارِجَة ... سَعيدٌ ، أبُو بكْرٍ ، سليمانُ ، خَارِجَة

الماجشُون ، وسُليمان بن بلال ، وفُلَيْح بن سُليمان ، والدَّراورديِّ ، وأقْرانهم ، فكان مالكٌ المُقدَّمَ فيهم على الإطْلاق ، والذي تُضْرَبُ إليه آباطُ الإبل من الآفاق ، رَحمَه اللهُ تَعالىٰ[1] .

وقال عبَّاسٌ الدُّوريُّ ، سَمعتُ يَحْيىٰ بنَ مَعين يقولُ في قولِه صلى الله عليه وسلم : « لا تَمْنَعْهُ نَفْسَهَا وَلَوْ كانَتْ عَلىٰ قَتَبٍ » قال : كانت المرأةُ في الجاهليَّة إذا أرادَت أنْ تَلدَ تقعدُ علىٰ قَتْب ليكونَ أسْرعَ لولادَتِها[2] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ الحَسنَ بنِ أحمدَ بنِ موسَىٰ ، سَمعتُ أبا عبد الله البُوْشَنجي يقولُ في مَعْنىٰ قولِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كانَ القُرْآنُ في إهَابٍ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ » ، قال : مَعْناهُ : أنَّ مَنْ حَملَ القُرآنَ وقَرأَه ، لَمْ تَمسَّهُ النَّارُ[3] .

وقال أبو سَعيد النقَّاش : كان ابنُ سَمعون يرجِعُ إلىٰ عِلمِ القُرآن وعِلمِ الظَّاهِر مُتَمسِّكاً بالكِتابِ والسُّنَّة ، لَقيتُه وحَضرْتُ مَجلِسَه ، سَمعتهُ يُسألُ عن قولِه : « أنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكرَنِي » قال : أنا صائنُه عن المَعْصيَة ، أنا مَعَه حيثُ يَذكُرُني ، أنا مُعينُه .

تُوفِّي ابن سَمعون سَنةَ سَبع وثمانين وثلاث مئة[4] .

٢ـ تَصْحيحُ عِبارَة رَديئة جاءَت عن واحدٍ من السَّلف في نَقْدِ حَديثٍ من الأحاديث :

قال أبو أحمَد بنُ عَدي : سَمعتُ عَليَّ بنَ عبدِ الله الدَّاهريَّ يقولُ : سَألتُ ابنَ أبي داود عن حَديثِ الطَّيْر[5] ، فقال : إن صح حديث الطير فنبوَّةُ النبيِّ صلى الله عليه

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٢٦ .

(٢) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٣ .

(٣) انظر السير : (البُوْشَنْجيّ) ١٣/ ٥٨١ـ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٨ .

(٤) انظر السير : (ابنُ سَمْعون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ١/١٣١١ .

(٥) وأخرجه الحاكم من طريق سليمان بن بلال ، عن يحْيى بن سعيد ، عن أنس قال : كنتُ أخدمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم له فرخ مشوي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ ائتني بأحبِّ خلقكَ إليك يأكلُ معي هٰذا الطير ، فقلتُ اجْعَلْه رجلاً من أهلي الأنصار ، فجاء عليٌّ ، فقلتُ إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حاجة ، ثم جاء فقلتُ ذلك ، فقال : اللَّهُمَّ ائتني كذلك ، فقلتُ ذلك ، فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « افتح ، فدخل فقال صلى الله عليه وسلم : =

وسلم باطلٌ ، لأنَّه حَكَىٰ عن حاجبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم خِيانةً ـ يَعْنىٰ أنَساً ـ وحَاجِبُ النبيِّ لا يَكونُ خائناً .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذه عبارةٌ رديئةٌ ، وكلامٌ نحْسٌ ، بل نُبوَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم حَقٌّ قَطْعيٌّ ، إنْ صَحَّ خَبَرُ الطَّيْرِ ، وإنْ لَمْ يَصِحَّ ، وما وَجْهُ الارْتِباطِ ؟! هـٰذا أنَسٌ قد خَدمَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَبلَ أنْ يَحْتلِمَ ، وقَبلَ جَرَيان القَلَم ، فيَجُوزُ أنْ تَكونَ قِصَّةُ الطَّائر في تِلكَ المُدَّة فَرْضَنا أنَّه كان مُحْتَلِماً ، ما هو بمَعْصُوم من الخِيانَة ، بلْ فَعَلَ هـٰذه الجِنايَةَ الخفيفَة مُتأوِّلاً ، ثمَّ إنَّه حَبَسَ عَليّاً من الدُّخولِ كما قِيلَ ، فكان ماذَا ؟ والدَّعْوَةُ النَّبويَّة قد نَفَذَت واسْتُجيبَت ، فلَوْ حَبَسَه ، أو رَدَّه مَرَّات ، ما بَقِيَ يُتَصوَّرُ أنْ يَدخُلَ ويَأكلَ مع المُصطفَىٰ سِواهُ ، اللَّهُمَّ إلاَّ أنْ يَكونَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قَصدَ بقَولِه : « إيتِنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إلَيْكَ ، يَأْكلُ مَعِي » عَدداً من الخِيَار ، يَصدُقُ علىٰ مَجمُوعِهِم أنَّهُم أحَبُّ النَّاسِ إلى الله ، كمَا يَصحُّ قَوْلُنا : أحَبُّ الخَلْقِ إلى الله الصَّالحُونَ ، فيُقالُ : فمَنْ أحَبُّهُم إلى الله ؟ فنَقُولُ : الصِّدِّيقُونَ والأنْبياءُ فيُقالُ : فمَنْ أحَبُّهُم إلى الله ؟ فنَقُولُ : مُحمَّدٌ وإبْراهِيمُ ومُوسَىٰ ، والخَطْبُ في ذلك يَسيرٌ وأبو لُبابَة ـ مع جَلالتهِ ـ بدَتْ منه خِيانَةٌ ، حَيثُ أشارَ لبَني قُرَيْظَة إلىٰ حَلْقِه ، وتابَ اللهُ عَليه وحاطِبٌ بدَت منه خِيانَةٌ ، فكاتَبَ قُرَيشاً بأمْرٍ تَخَفَّىٰ به نَبيُّ الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوِهِم ، وغَفرَ اللهُ لحاطِب مع عِظَمِ فِعْلِهِ رضي الله عنه وحَديثُ الطَّيرِ ـ علىٰ ضَعْفِه ـ فلَه طُرقٌ جَمَّة ، وقد أفْرَدتُها في جُزء ، ولَمْ يَثْبُتْ ، ولا أنا بالمُعْتَقِدِ بُطْلانَه[1] .

وقد أخطأ ابنُ أبي داوُد في عِبارَته وقولِه ، وله علىٰ خَطئِهِ أجْرٌ واحدٌ ، ولَيسَ من

= ما حبسكَ يا عليُّ ؟ فقال : إنَّه هـٰذه آخر ثلاث كرَّات يردُّني أنس ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما حَملَكَ علىٰ ما صَنعتَ ؟ قلتُ : أحْبَبْتُ أن يكونَ رجلاً من قومي ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الرجلَ محبٌّ قومَه » ، وانظر أجوبة الحافظ ابن حجر علىٰ أحاديث وقعت في المصباح ٣/ ٣١٣ ، ٣١٤ و(الفوائد المجموعة) ص ٣٨٢ ، وسيذكر المصنِّفُ رأيَه بعد قليل .

(١) انظر السير : (أبو بَكر السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٧٣ .

شَرط الثِّقَةِ أنْ لا يُخْطِىءَ ولا يَغْلَطَ ولا يَسْهوَ ، والرجلُ فَمِنْ كِبَارِ عُلماء الإسْلام ، ومن أَوْثَق الحُفَّاظ ، رحمَه الله تَعالىٰ[1] .

٣ـ حَديثيَّات :

قال أبو عَمرُو بنُ الصَّلاح : رُوِّينا عن عَمروِ بنِ عليٍّ الفلاَّس ، أنه قال : أصَحُّ الأسانيد ابن سِيرينَ عن عَبيدَةَ بنِ عَمرو عن عليّ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لا تَفوُّقَ لهـٰذا الإسناد مع قُوَّتِه علىٰ إبراهيم ، عن علقَمة ، عن عبدِ الله ، ولا على الزُّهْريِّ ، عن سالمٍ ، عن أبيه ، ثم إنَّ هـٰذين الإسْنادَين رُوي بهما أحاديثُ جمَّة في الصِّحاح وليس كذلك الأوَّلُ ، فما في « الصَّحيحَين » لعَبيدَة عن عليٍّ سِوَىٰ حديثٍ واحد[2] .

قال أبُو داود : لَيسَ في أهْلِ الأهْواءِ أصَحُّ حَديثاً من الخَوارِجِ ثُمَّ ذَكَرَ عِمْرانَ بنَ حِطَّان ، وأبا حَسَّانَ الأعْرَج[3] .

وعن عليِّ بنِ زَيْد ، حدَّثني سَعيدُ بنُ المُسيِّب بنُ حَزْن أن جَدَّه حَزْناً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما اسْمُك ؟ » قال : حَزْن ، قال صلى الله عليه وسلم : « بَلْ أَنْتَ سَهْلٌ » قال : يا رسولَ الله ، اسمٌ سمَّاني به أبَواي وعُرِفْتُ به في الناس ، فسَكتَ عنه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، قال سَعيدُ : فما زلْنا تُعرَفُ الحُزونَة فينا أهلَ البَيْت[4] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا حَديثٌ مُرسَل ، ومَراسيلُ سَعيد مُحتَجٌّ بها لكن عليُّ بنُ زَيْد لَيسَ بالحُجَّة وأمَّا الحَديثُ فمَرْويٌّ بإسْناد صَحيح ، مُتَّصل ، ولفْظُه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قال له : « ما اسْمُك ؟ » قال : حَزْن قال : « أنْتَ سَهْلٌ »

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٥ .
(٢) انظر السير : (عَبيدَة بن عَمرو) ٤/ ٤٠ـ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/٤٣٩ .
(٣) انظر السير : (عِمران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/٤٨١ .
(٤) انظر السير : (سَعيد بن المُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨٢ .

فقال: لا أُغيِّرُ اسْماً سمَّانيه أبي ، قال سَعيدٌ : فما زالت تلك الحُزُونَة فينا بَعدُ[1] ، [2] .

عن ابن عَوْن ، قال : كان إبراهيمُ والشَّعْبيُّ والحَسَنُ ، يأتونَ بالحَديثِ على المَعاني ، وكان القاسِمُ وابنُ سيرين ورجاءُ يُعيدونَ الحَديثَ علىٰ حُروفِه[3] .

وقال الذهبيُّ : مَراسيلُ الحَسَن البَصْري لَيسَت بذاك ، ولَمْ يَطلُب الحَديثَ في صِباه ، وكان كَثيرَ الجِهَاد ، وصَارَ كاتباً لأميرِ خُراسَان الرَّبيعِ بنِ زِيَاد .

وقال سُليمانُ التَّيْميّ : كان الحَسَنُ يَغزُو ، كان مُفْتي البَصْرَة جابرُ بنُ زَيْد أبو الشَّعْثاء ، ثم جاءَ الحَسَنُ فكان يُفْتي .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان رجلاً تامَّ الشَّكْل ، مَليحَ الصُّورَة ، بَهيّاً ، وكان من الشُّجْعانِ المَوْصُوفين .

وعن أبي بُرْدَة ، قال : ما رَأيتُ أحداً أشْبَه بأصْحابِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم منه ـ يَعْني الحَسَنَ البَصْري[4] .

وعن ابنِ سِيرينَ ، قالَ : لقد أتىٰ على النَّاسِ زَمانٌ وما يُسألُ عن إسْنادِ الحَديثِ ، فلمَّا وَقعَت الفِتْنةُ سُئِلَ عن إسْنادِ الحَديث ، فيُنظَر مَنْ كانَ من أهْلِ البِدَعِ ، تُرِكَ حَديثُه[5] .

وقال البُخاريُّ : أصَحُّ الأسَانيدِ : مَالكٌ ، عن نافِع ، عن ابنِ عُمَر[6] .

قال الذهبيُّ في تَرْجَمَة قَتَادَةَ بن دعامة قُدوة المُفَسِّرين : هُوَ حُجَّةٌ بالإجْماعِ إذا بيَّنَ السَّماعَ ، فإنَّه مُدَلِّسٌ مَعْروفٌ بذَلكَ ، وكان يَرَى القَدَرَ ، نَسْألُ اللهَ العَفْوَ ، ومع هٰذا فما تَوَقَّفَ أحَدٌ في صِدْقِهِ ، وعَدالَتِهِ ، وحِفْظِهِ ، ولَعَلَّ اللهَ يَعْذُرُ أمْثالَه مِمَّن تَلَبَّسَ ببِدْعَة

---

(١) والحَزْنُ : ما غَلظ من الأرض ، وهو ضد السهل ، واستعمل في الخُلُق ، يقال : فلانٌ حَزون ، أي في خُلقه غِلظَة.

(٢) انظر السير : (سَعيد بن المُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٨٢ .

(٣) انظر السير : (رَجاء بن حَيْوَة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٥٨ .

(٤) انظر السير : (الحَسَن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٦٠ .

(٥) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٦٨ .

(٦) انظر السير : (نافع) ٥/ ٩٥ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٨٤ .

يُريدُ بها تَعْظيمَ البَاري وتَنْزيهَه ، وبَذَلَ وُسْعَه ، والله حَكَمٌ عَدْلٌ لَطيفٌ بعِبادِه ، ولا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، ثُمَّ إنَّ الكَبيرَ من أئِمَّةِ العِلْم إذا كَثُرَ صَوابُه ، وعُلِمَ تَحَرِّيهِ للحَقِّ ، واتَّسَعَ عِلمُه ، وظَهَرَ ذَكاؤُهُ ، وعُرِفَ صَلاحُه ووَرَعُه واتِّباعُه ، يُغْفَرُ لَه زَلَلُه ، ولا نُضَلِّلُهُ ونَطْرَحُه ، ونَنْسَىٰ مَحاسِنَه ، نَعَم ولا نَقْتَدي به في بِدْعَتِه وخَطَئِه ونَرْجُو له التَّوبَةَ من ذلك[1] .

وجاء في تَرجمَة الأعْمَش ، قال الذهبيُّ : قد رَأىٰ أنسَ بنَ مالك وحَكَىٰ عنه ، ورَوَىٰ عَنه ، وعن عبدِ الله بنِ أبي أوْفَىٰ علىٰ مَعْنَى التَّدْليس ، فإنَّ الرجلَ مع إمامته كان مُدَلِّساً[2] .

وعليُّ بنُ المَديني قال : قُلتُ ليَحْيَى القَطَّان : إنَّ عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ ذَرٍّ قال : أنا أتْرُكُ من أهْلِ الحَديثِ كلَّ رأسٍ في بِدْعَة ، فضَحكَ يَحْيىٰ وقال : كَيفَ تَصنعُ بقَتادَة ؟ كَيفَ تَصنعُ بعُمَر بنِ ذَرٍّ كَيفَ تَصنعُ بابنِ رَوَّاد ؟! وعدَّ يَحْيىٰ قَوماً أمْسَكتُ عن ذِكْرِهم ثم قال يَحْيىٰ : إنْ تَرَكَ هـٰذا الضَّرْبَ تَرَكَ حَديثاً كثيراً[3] .

وجاء في ترجمة ابنِ إسْحاق ، قال الإمامُ الذهبيُّ : وقد أمْسَكَ عن الاحْتجاجِ بروِاياتِ ابنِ إسْحاق غيرُ واحدٍ من العُلماء لأشْياءَ منها : تَشَيُّعه ، ونُسِبَ إلى القَدَر ، ويُدلِّسُ في حَديثِه ، فأمَّا الصِّدْقُ فلَيسَ بمَدفُوعٍ عَنه[4] .

وذكر البُخاريُّ هنا فَصلاً حَسَناً عن رجالِه ، وإبْراهيمِ بنِ سَعد ، وصالحِ بنِ كيسَان فقد أكْثَرَ عن ابنِ إسْحاق قال البخاريُّ : ولَوْ صحَّ عن مالك تَناوُلُه من ابنِ إسْحاق فلَرُبَّما تكلَّمَ الإنْسانُ فيَرمِي صاحبَه بشيءٍ واحد ولا يَتَّهِمُه في الأمُورِ كلِّها قال : وقال إبراهيمُ بنُ المُنْذِر عن محمدِ بنِ فُلَيْح : نَهاني مالكٌ عن شَيخَينِ من قُريش وقد أكثرَ عنهما في « المُوَطَّأ » وهما ممَّن يُحْتَجُّ بهما ، ولمْ ينجُ كثيرٌ من النَّاسِ من كلامِ بَعضِ

---

(١) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٠١ .
(٢) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٤٣ .
(٣) انظر السير : (عُمر بن ذَرّ) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٦٠ .
(٤) انظر السير : (ابن إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٧٤ .

النَّاسِ فيهم نَحْو ما يُذكَر عن إبراهيمَ من كلامِه في الشَّعْبيِّ وكلامِ الشَّعْبيِّ في عِكْرِمَة وفيمَن كان قبلَهم وتناوُل بعضِهم في العِرْض والنَّفْس ولمْ يَلتَفِتْ أهلُ العلم في هـٰذا النَّحْو إلاَّ ببَيان وحُجَّة ولمْ تَسْقُط عَدالَتُهم إلاَّ ببُرْهانٍ ثابتٍ وحُجَّة ، والكَلامُ في هـٰذا كَثير[1] .

وذَكرَ بعضُ الحُفَّاظ أنَّ حَديثَ الأوْزَاعيِّ نَحْو من الألفِ ـ يَعني المُسْنَد ـ أمَّا المُرْسَل والمَوْقُوف ، فألُوفٌ وهو في الشَّاميِّين نَظيرُ مَعْمَر لليَمانيِّين ، ونَظيرُ الثَّوْريِّ للكُوفيِّين ، ونَظيرُ مالِك للمَدَنيِّين ، ونَظيرُ اللَّيْث للمِصْريِّين ، ونَظيرُ حَمَّادِ بنِ سَلمَة للبَصْريِّين[2] .

وقال العجليُّ : هشامُ الدَّسْتوائي بَصْريٌّ ثقَةٌ ، ثَبْت في الحَديث ، كان أرْوَى النَّاسِ عن ثَلاثَة : قَتادَة ، وحمَّادِ بنِ أبي سُليم ، ويَحْيى ابن أبي كَثير ، وكان يَقولُ بالقَدَر ولَمْ يَكنْ يَدعُو إليه[3] .

قال أبو أسامة : سَمعتُ مِسْعَراً يقولُ : إنَّ هـٰذا الحَديثَ يَصُدُّكم عن ذِكرِ الله وعن الصَّلاة ، فهلْ أنتُم مُنتَهون ؟[4] .

قال الإمامُ الذهبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه مَسألةٌ مُختلَفٌ فيها : هل طَلبُ العِلم أفْضَل ، أو صَلاةُ النَّافلَة والتِّلاوَة والذِّكْر ؟ فأمَّا مَنْ كانَ مُخلصاً لله في طَلبِ العِلم ، وذِهنُه جَيدٌ ، فالعِلمُ أوْلَىٰ ، ولكن مع حَظٍّ من صَلاةٍ وتَعبُّد ، فإنْ رأيتَه مُجداً في طَلبِ العِلم لا حَظَّ له في القُرُبات ، فهـٰذا كَسْلانٌ مَهين ، وليسَ هو بصادقٍ في حُسن نيَّتِه ، وأمَّا مَنْ كانَ طَلبُه الحَديثَ والفِقهَ غِيَّةً ومَحبَّةً نَفسانيَّة فالعِبادَةُ في حقِّه أفْضَل ، بل ما بَينها أفْعَلُ تَفْضيل ، وهـٰذا تَقسيمٌ في الجُملَة ، فقَلَّ ـ والله ـ مَنْ رَأيتُه مُخلِصاً في طَلبِ العِلم ، دَعْنا من هـٰذا كُلِّه فليسَ طَلبُ الحَديثِ اليومَ على الوَضع المُتعارَف من حيِّز طَلبِ العِلم ، بلْ اصْطلاحٌ وطَلبُ أسانيدَ عاليَة وأخْذٌ عن شَيخٍ لا يَعي ، وتَسميعٌ لطِفْل يَلعَب

---

(١) انظر السير : (ابن إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٦٧٤/ ٥ .

(٢) انظر السير : (الأوْزاعيّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٦٨٥/ ٣ .

(٣) انظر السير : (هشام الدَّسْتوائي) ٧/ ١٤٩ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٦٨٧/ ٣ .

(٤) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٨٩/ ٧ . .

ولا يَفْهَم ، أو لرَضيعٍ يَبْكي أو لفَقيهٍ يَتحدَّثُ مع حَدَثٍ ، أو لآخَر يَنسَخ وفاضلُهم مَشغولٌ عن الحَديثِ بكتابَة الأسْماء أو بالنُّعاس ، والقارىءُ إنْ كانَ له مُشارَكةٌ فلَيسَ عندَه من الفَضيلَة أكثَرُ من قِراءَة ما في الجُزْءِ ، سواءٌ تَصَحَّفَ عليه الاسمُ ، أو اخْتبطَ المَتْنُ ، أو كان من المَوْضوعاتِ فالعِلمُ عن هـٰؤلاء بمعْزِلٍ ، والعَملُ لا أكادُ أراهُ بلْ أرَىٰ أمُوراً سَيئةً ، نَسألُ الله العَفْوَ[1] .

وقال عبدُ الصَّمَدِ بنِ حسَّان : سَمعتُ سُفيانَ الثَّوريَّ يَقولُ : الإسْنادُ سِلاحُ المؤمن فمَنْ لمْ يَكنْ له سِلاحٌ ، فبأي شَيء يُقاتِل ؟[2] .

وقال الذهبيُّ : وبَعضُ الحُفَّاظ يَروي حَديثَ عبدِ الله بنِ لَهيعَة ، ويَذكُرُه في الشَّواهِد[3] ، والاعْتِبارات[4] ، والزُّهْدِ ، والمَلاحِم[5] ، لا في الأصُول[6] ،[7] .

وبَعضُهم يُبالِغُ في وَهَنه ، ولا يَنْبَغي إهْدارُه ، وتُتَجنَّبُ تلكَ المَناكِير ، فإنَّه عَدلٌ في نفسِه .

أعْرضَ أصْحابُ الصِّحاحِ عن رِواياتِه ، وأخْرجَ له أبو داوُد ، والتِّرْمذيُّ ، والقَزوينيُّ ، وما رَواه عنه ابنُ وَهْب ، والمُقْرىء ، والقُدَماءُ فهو أجْوَد[8] .

قال أبو داوُد عن أحمَدَ : ما كانَ مُحدِّثَ مِصْرَ إلاَّ ابنُ لَهيعَة .

---

(١) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٩٠/ ١ .

(٢) انظر السير : (سُفْيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٩/ ٨.

(٣) الشَّواهد : أحاديث رُويَت بمعناها من طريق آخر عن صحابيٍّ آخر ، يُقالُ : رَوى الحديثَ الفُلاني ، وله شاهدٌ من رواية فلان .

(٤) الاعتبارات : أن يعمد الباحث إلىٰ حديث ، فيُعْنَىٰ به ، يبحث عن طرقه ، فينظر : هل رواه راوٍ آخر بلفظه أو معناه .

(٥) الملاحم : الأحاديث التي وُضعت في المَغازي .

(٦) قال الحافظ ابن كثير في « الباعث الحَثيث » ٦٣ ، ٦٤ ويُغتَفر في باب « الشواهد والمتابعات من الرواية الضعيف القريب الضعف ما لا يُغتفَر في الأصول كما يقع في « الصَّحيحَين » وغيرهما مثل ذلك ولهـٰذا يقول الدَّارَقُطنيُّ في بعض الضُّعَفاء : يَصْلحُ للاعتبار ، أو لا يصْلح أن يعتبر به .

(٧) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/ ١١ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٧٢١/ ٣ .

(٨) وقال عبد الغني بن سعيد الأزدي : إذا روي العبادلة عن ابن لَهيعَة ، فهو صحيح : عبد الله ابن المبارك ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الله بن يزيد المقرىء .

وقال البخاريُّ عن يَحْيى بن بُكَير : احْتَرقَ مَنزلُ ابنِ لَهيعَة وكُتبُه في سنة سَبعين .

قال الذهبيُّ : الظَّاهرُ أنَّه لمْ يَحْترق إلاَّ بَعضُ أصُولِه[1] .

وعن يَحْيىٰ بنِ مَعين قال : يُكتَب عن عبدِ الله بنِ لَهيعَة ما كان قبل احْتراقِ كُتبِه .

قال الذهبيُّ : عاش ثَمانياً وسَبعين سَنةً .

تُوفِّيَ سَنةَ أرْبع وسَبعين ومئة .

وكان من أوْعِيةِ العِلم ، ومن رُؤسَاء أهلِ مِصْرَ ، ومُحْتَشميهِم ، أطْلَقَ المَنْصورُ ابنُ عمَّار الوَاعظُ أراضيَ لَه[2] .

وقال يَعْقُوبُ بنُ شَيْبَة : إسْمَاعيلُ بنُ عَيَّاش ثِقَةٌ عند يَحْيَىٰ بنِ مَعين وأصْحابِنا ، فيمَا رَوىٰ عن الشَّاميِّين خاصَّةً ، وفي رِوايَتِه عن أهْلِ العِراقِ وأهْلِ المَدينَة اضْطرابٌ كثير ، وكان عالماً بناحيته[3] .

وقالَ البُخاريُّ : إذا حَدَّثَ عن أهلِ بَلدِه فصَحيحٌ ، وإذا حَدَّثَ عن غَيرِهم ففيه نَظرٌ

وُلدَ سَنةَ سِتٍّ ومئة .

وأمَّا وَفاةُ إسْماعيل ، فَفي سَنة إحْدىٰ وثَمانين ومئة[4] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ المُبارَك قال : في صَحيحِ الحَديثِ شُغلٌ عن سَقيمِه[5] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَة سُفيانِ بنِ عُيَيْنَة : قد كان سُفيانُ مَشهوراً بالتَّدْليسِ ، إلاَّ أنَّه لا يُدَلِّسُ إلاَّ عن ثِقَة عندَه وسُفيانُ حُجَّةٌ مُطلَقاً ، وحَديثُه في جَميعِ دَواوين الإسْلام وكان سُفيانُ رَحمَه اللهُ صاحِبَ سُنَّة واتِّباع[6] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/ ١١ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٤/٧٢١ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/ ١١ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٢/٧٢٢ .

(٣) انظر السير : (إسْماعيل بن عيّاش) ٨/ ٣١٢ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ١/٧٦١ .

(٤) انظر السير : (إسْماعيل بن عيّاش) ٨/ ٣١٢ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/٧٦١ .

(٥) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٢/٧٦٩ .

(٦) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَيْنة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٦/٧٨٤ .

وقال أبو حاتم الرَّازي : كان غُنْدَر صَدوقاً مُؤدِّياً ، وفي حَديث شُعْبَة ثقةٌ ، وأمَّا في غَير شُعْبَة ، فيُكْتَبُ حَديثُه ، ولا يُحْتَجُّ به[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : أصَحُّ إسْنادٍ بالعِراقِ وغَيرِها ، أحمَدُ بنُ حَنْبَل ، عن وَكيعٍ ، عن سُفْيانَ ، عن مَنْصُورٍ ، عن إبْراهيمَ ، عن عَلْقَمَة ، عن عبدِ الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي « المُسْند » بهـٰذا السَّند عِدَّة مُتون .

وقال عليُّ بنُ خَشْرَم سَمعتُ وَكيعاً يقول : لا يَكمُلُ الرَّجلُ حتىٰ يَكتبَ عَمَّنْ هو فَوقَه وعَمَّن هو مثلَه ، وعَمَّن هو دُونَه[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : كان يَحْيىٰ بنُ سَعيد مُتَعنِّتاً في نَقْدِ الرِّجالِ ، فإذا رَأيتَه قد وَثَّق شَيخاً فاعْتمد عليه ، أمَّا إذا لَيَّن أحداً ، فتأنَّ في أمرِه حتىٰ تَرىٰ قَولَ غَيرِه فيه ، فقد لَيَّنَ مثل : إسْرائيلَ ، وهمَّام ، وجَماعةً احْتجَّ بهمُ الشَّيخان[3] .

وقال نُعيمُ بن حمّاد : قلتُ لعبدِ الرَّحمَـٰن بنِ مَهْدي : كيفَ تَعرفُ الكذَّابَ ؟ قال : كما يَعرفُ الطَّبيبُ المَجْنونَ[4] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : لا شَيءَ للوَاقِديِّ في الكُتبِ السِتَّة إلاَّ حَديثٌ ، عند ابنِ ماجَه ، حدَّثنا ابنُ أبي شَيْبَة ، حدَّثنا شَيخٌ لنا ، فما جسَرَ ابنُ ماجَه أن يُفصِحَ به ، وما ذاك إلاَّ لوَهَنِ الواقِديِّ عند العُلمَاء ، ويقولون : إنَّ ما رَواه عنه كاتبُه في « الطَّبقاتِ » هو أمثلُ قَليلاً من رِوايَة الغَيرِ عنه .

قال عباسٌ الدُّوريُّ : ماتَ الواقِديُّ وهو على القَضاء ، ولَيسَ له كَفنٌ ، فبَعثَ المأمونُ بأكْفانِه[5] .

---

(١) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٨٠٢/ ٥ .
(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٨١١/ ١٠ .
(٣) انظر السير : (يَحْيى القطَّان) ٩/ ١٧٥ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٨١٦/ ٣ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن مَهْدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٨١٧/ ٥ .
(٥) انظر السير : (الواقديُّ) ٩/ ٤٥٤ـ ٤٦٩ ، وانظر النزهة : ٨٣٥/ ٣ .

وقد تَقرَّر أنَّ الواقِديَّ ضَعيفٌ ، يُحتاجُ إليه في الغَزَوات ، والتَّاريخ ونُورِدُ آثارَه من غَير احْتجاج ، أمَّا في الفَرائضِ ، فلا يَنبَغي أنْ يُذكَر ، فهٰذه الكُتبُ السِّتَّة ، ومُسْندُ أحمَد ، وعامَّةُ مَنْ جَمَعَ في الأحْكامِ ، نَراهُم يَترَخَّصُون في إخْراجِ أحاديثَ أناسٍ ضُعفاء ، بل ومَتْروكين ، ومع هٰذا لا يُخرِّجون لمحمَّدِ بنِ عُمَر شَيئاً ، مع أنَّ وَزنَهُ عندي أنَّه مع ضَعفِه يُكْتبُ حَديثُه ويُروَىٰ لأنِّي لا أتَّهِمُه بالوَضْع ، وقَولُ مَنْ أهْدَرَه فيه مُجازَفَةٌ من بَعضِ الوُجُوه كما أنَّه لا عِبْرةَ بتَوْثيقِ مَنْ وَثَّقَه ، كيَزيدٍ ، وأبي عُبَيد ، والصَّاغاني ، والحَرْبي ، ومَعْن ، وتَمَامُ عَشرَة مُحدِّثين ، إذ قد انْعَقدَ الإجْماعُ اليومَ علىٰ أنَّه ليسَ بحُجَّة ، وأنَّ حَديثَه في عِداد الوَاهي ، رَحمَه الله[1] .

ورَغبَ النَّاسُ في سَماعِ كتُبِ أحمَدَ بنِ حَرْب بنِ فَيْروز ، ثم إنَّ أمَّه ماتَت سنةَ عشرين ومئتين فحَجَّ ، وعاوَدَ الغَزْوَ ، وخرَجَ إلىٰ بلادِ التُّرْك ، وافْتَتحَ فَتْحاً عظيماً ، غُبطَ به فسَعىٰ به الأعداءُ إلى ابنِ طاهِر ، فأحْضَرَه ، ولمْ يأذَنْ له في الجُلوسِ وقالَ : أتَخْرُجُ وتَجمَعُ إلىٰ نفسِك هٰذا الجَمْع ، وتُخالِفُ أعْوانَ السُّلطانِ ؟ ثمَّ إنَّ ابنَ طاهِر عَرَفَ صِدقَه ، فتَركَه ، فسَارَ ، وجاوَرَ بمَكة وكان تَنْتَحِلُه الكرَّاميَّةُ ، وتُعظِّمُه لأنَّه أسْتاذُ محمَّدِ بن كرَّام ، ولكنَّه سَليمُ الاعْتِقادِ بحَمدِ الله[2] .

وقال ابنُ السَّمَّاك : حدَّثنا حَنْبلٌ ، قالَ : جَمعَنا أحمدُ بنُ حَنْبَل ، أنا وصالحٌ وعبدُ الله ، وقَرأَ عَلينا « المُسْنَد » ، وما سَمعَه غَيرُنا وقال : هٰذا الكتابُ جَمعتُه وانْتَقَيتُه من أكثرِ من سَبع مِئَة ألفٍ وخَمسينَ ألفاً فما اخْتلفَ المسلمونَ فيه من حَديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فارْجِعُوا إليه فإنْ وجَدتمُوه فيه ، وإلاَّ فلَيسَ بحُجَّة[3] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : في « الصَّحيحَين » أحاديثُ قَليلَةٌ ، لَيسَت في « المُسْنَد » ، لكن قد يُقالُ : لا تَرِدُ علىٰ قَولِه؛ فإنَّ المسلمينَ ما اخْتلَفوا فيها ، ثُمَّ ما يَلزَمُ من هٰذا القَولِ : أنَّ ما وُجِدَ فيه أنْ يكون حُجَّة ، ففيه جُملةٌ من الأحاديث الضَّعيفَة ممَّا يَسوغُ

---

(١) انظر السير : (الواقديُّ) ٩/ ٤٥٤ـ٤٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٣٥ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَرْب) ١١/ ٣٢ـ٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٠٦ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٤٨ .

نَقْلُها ، ولا يَجِب الاحْتجاجُ بها وفيه أحاديثُ مَعدُودَة شِبه مَوْضُوعَة ، ولكنَّها قَطرَةٌ في بَحْر وفي غُضون « المُسْنَد » زياداتٌ جَمَّة لعبدِ الله بنِ أحمَد .

قال ابنُ الجَوْزي : وله ـ يَعْني : أبا عبدِ الله ـ من المُصنَّفات كتابُ « نَفْي التَّشْبيه » مُجَلَّدة ، وكتابُ « الإمامَة » مُجَلَّدة صَغيرة ، وكتابُ « الرَّدِّ على الزَّنادِقَة » ثلاثةُ أجْزاء ، وكتابُ « الزُّهْد » مُجَلَّد كَبير وكتابُ « الرِّسالَة في الصَّلاة » ، وكتابُ « فَضائلِ الصَّحابَة » مُجَلَّدة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كتابُ « الرِّسالَة في الصَّلاة » مَوْضوعٌ على الإمامِ أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، وكتابُ « فَضائلِ الصَّحابَة » فيه زياداتٌ لعبدِ الله ابنِه ، ولأبي بَكر القَطيعي صاحبِه[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمة « الجاحِظ » : يَظهَرُ من شَمائلِ الجاحِظِ أنَّه يَخْتَلِقُ[2] .

قال إسماعيلُ الصَّفار : حدَّثنا أبو العَيْناء ، قالَ : أنا والجاحِظُ وضَعْنَا حَديثَ فَدَك[3] ، فأدْخَلناه على الشُّيوخِ ببَغْدادَ ، فقَبلوه إلاَّ ابنَ شَيْبَة العَلَوي ، فإنَّه قالَ : لا يُشبِهُ آخرُ هـٰذا الحَديثِ أوَّلَه ثم قالَ الصَّفار : كان أبو العَيْناء يُحدِّثُ بهـٰذا بعدما تابَ .

قيل للجاحِظِ : كيفَ حالُك ؟ قال : يَتكلَّمُ الوَزيرُ برَأيي ، وصِلاتُ الخَليفَة مُتواتِرَةٌ إليَّ ، وآكُلُ من الطَّيرِ أسْمنَها ، وألْبَسُ من الثِّيابِ ألْيَنَها وأنا صابرٌ حتىٰ يأتيَ اللهُ بالفَرَج قيلَ : بل الفَرَجُ ما أنتَ فيه قال : بل أُحبُّ أنْ أَلِيَ الخِلافَةَ ، ويَختلِفُ إليَّ محمَّدُ بنُ عبدِ المَلِك ـ يَعني الوزيرَ ـ وهو القائلُ :

سَقَامُ الحِرصِ لَيْسَ لَه دَواءٌ ... ودَاءُ الجَهْلِ لَيْسَ له طَبيبُ

وقد رَوىَ عنه ابنُ أبي داوُد حَديثاً واحداً .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٤٨ .

(٢) انظر السير : (الجَاحِظ) ١١/ ٥٢٦ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٦٦ .

(٣) قال ابنُ حَجَر : ما علمتُ ما أراد بحَديثِ فَدَك

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : كفانا الجاحِظُ المؤونَةَ ، فما رَوَىٰ من الحَديثِ إلاَّ النَّزْرَ اليَسير ، ولا هُو بمُتَّهم في الحَديثِ ، بلىٰ في النَّفسِ من حكاياتِه ولَهْجَتِه فرُبَّما جازَفَ ، وتلطُّخُه بغَيرِ بِدْعَة أمرٌ واضِحٌ ، ولكنَّه أخْباريٌّ عَلاَّمَة صاحبُ فُنونٍ وأدَبٍ باهِر ، وذَكاءٍ بيِّن ، عَفا اللهُ عنه[1] .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمة الذُّهْليِّ : رَوىٰ عَنه خَلائقُ ، منهُم محمَّدُ ابنُ إسماعيلَ البُخاريّ ، ويُدَلِّسُه كثيراً ، لا يَقولُ : محمّدُ بنُ يَحيىٰ ، بل يقولُ : محمَّدٌ فقَط ، أو محمَّدُ بنُ خالِد أو محمَّدُ بنُ عبدِ الله يَنسِبُه إلى الجَدِّ ، ويُعمِّي اسمَه لمَكان الواقع بينهما ، غَفرَ اللهُ لهما .

وأكثرَ عَنه مُسلمٌ ، ثم فَسَدَ ما بينهما ، فامْتَنَعَ من الرِّوايَة عنه فما ضَرَّه ذلك عند الله

قال ابنُ أبي حاتم : كَتبَ عنه أبي بالرَّيِّ ، وقال : ثِقةٌ ثم قالَ عبدُ الرَّحمَـٰن : هو إمامٌ من أئمَّةِ المسلمين .

وكان أحمَدُ بنُ حَنْبَل يُثني عليه ، ويَنشُرُ فَضلَه[2] .

وقال الحاكمُ : حدَّثنا أبو علي محمَّدُ بن عليِّ بنِ عُمرَ المُذَكر ، حدَّثنا أحمدُ بنُ الأزْهَر ، حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاق ، أخْبرَنا مَعمرٌ ، عن الزُّهْريِّ ، عن عُبيدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ عُتْبَة ، عن ابنِ عبَّاس ، قال : نَظَرَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ عَليِّ بنِ أبي طالبٍ ، فقال : « أنْتَ سَيِّدٌ في الدُّنْيا ، سَيِّدٌ في الآخِرَة ، حَبيبُكَ حَبيبي ، وعَدُوُّكَ عَدُوّي ، وَعَدُوّي عَدُوُّ الله فالوَيلُ لِمَنْ أَبْغَضَكَ بَعْدي » .

قال الحاكم : حدَّث به ابنُ الأزْهَر ببَغْدادَ في حياةِ أحمَدَ وابنِ المَديني وابنِ مَعين ، فأنْكَرَه مَنْ أنْكَرَه ، حتىٰ تَبيَّنَ للجَماعَة أنَّ أبا الأزْهَر بَريءُ السَّاحَة منه ، فإنَّ مَحلَّه مَحلَّ الصَّادقين .

لمَّا حدَّثَ أبو الأزْهَر بحَديثِه عن عبدِ الرَّزَّاق في الفَضائلِ ، أُخْبِرَ يَحْيىٰ بنُ مَعين

---

(١) انظر السير : (الجَاحِظ) ١١/٥٢٦ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٦ .

(٢) انظر السير : (الذُّهْليُّ وابنُه) ١٢/٢٧٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٩ .

بذلك ، فبينا هو عند يَحْيىٰ في جَماعَة أهْلِ الحَديث ، إذ قالَ يَحْيىٰ : مَنْ هـٰذا الكذَّابُ النِّيسَابُوريّ الذي حدَّثَ بهـٰذا عن عبدِ الرَّزَّاق ؟ فقامَ أبو الأزْهَر ، فقالَ : هو ذَا أنا فتَبسَّمَ يَحْيى ابنُ مَعين ، قال : أمَا إنَّك لَسْتَ بكَذَّاب ، وتَعجَّبَ من سَلامَتِه ، وقالَ : الذَّنْبُ لغَيرِك فيه .

وسَمعتُ أبا أحمَدَ الحافِظَ يقولُ : سَمعتُ أبا حامِدَ بنَ الشَّرقي ، وسُئلَ عن حَديثِ أبي الأزْهَر عن عبدِ الرَّزَّاق في فَضلِ عليٍّ ، فقالَ : هـٰذا حَديثٌ باطِلٌ ثم قالَ : والسَّببُ فيه أنَّ مَعْمَراً كانَ له ابنُ أخٍ رافِضيٌّ ، وكانَ مَعْمَرُ يُمَكِّنُه من كُتُبِه ، فأدْخَلَ هـٰذا عليه ، وكانَ مَعْمَرُ رَجُلاً مَهيباً لا يَقدِرُ عليه أحدٌ في السُّؤال والمُراجَعَة ، فسَمِعَه عبدُ الرَّزَّاق في كتابِ ابنِ أخي مَعْمَر .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ولتَشيُّع عبد الرزاق سُرَّ بالحَديثِ ، وكتبه ، وما راجَع مَعْمَراً فيه ، ولكنَّه ما جَسرَ أنْ يُحَدِّثَ به لمثلِ أحمدَ وابنِ مَعين وعليٍّ ، بلْ ولا خَرَّجَه في تَصانيفِه وحدَّث به وهو خائفٌ يَترَقَّب .

قال الحاكمُ : سَمعتُ محمَّدَ بنَ حامِد البزَّاز ، سَمعتُ مَكيَّ ابنَ عَبدان سَمعتُ أبا الأزْهَر يقولُ : خَرجَ عبدُ الرَّزَّاق إلىٰ قَريتِه ، فبكَّرتُ إليه يَوماً حتىٰ خَشيتُ علىٰ نَفسِي من البُكور قالَ : فوَصلتُ إليه قبلَ أنْ يَخرُجَ لصَلاةِ الصُّبح ، فلمَّا خَرجَ رآني ، فقال : كنتَ البارحَةَ ها هُنا ؟ قلتُ : لا ، ولكنِّي خَرجتُ في اللَّيلِ ، فأعْجَبَه ذلكَ ، فلمَّا فَرغَ من صَلاةِ الصُّبح دَعاني ، قَرأَ عليَّ هـٰذا الحَديثَ ، وخَصَّني به دُونَ أصْحابي .

مات أبو الأزْهَر سنةَ ثلاثٍ وستِّينَ ومِئتين[1] .

وقال محمَّدُ بنُ إسْماعيلَ البُخاريّ : ما وَضَعتُ في كتابي « الصَّحيح » حَديثاً إلاَّ اغْتسَلتُ قبلَ ذلكَ ، وصَلَّيتُ رَكعتَين[2] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ مَعْقِل ، سَمعتُ البُخاريَّ يقولُ : ما أدْخَلتُ في هـٰذا الكتابِ إلاَّ

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ الأزْهَر) ١٢/٣٦٣ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٠٨ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/٣٩١ـ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٠١١ .

ما صَحَّ ، وتَركتُ من الصِّحاحِ كَي لا يَطولَ الكتابُ[1] .

وجاءَ في تَرجمَة الإمام مُسْلمٍ ، قال الذهبيُّ : هو الإمامُ الكَبيرُ الحافظُ المُجَوِّدُ الحُجَّة الصَّادِقُ ، أبو الحُسَين ، مُسْلمُ بنُ الحَجَّاج ابنُ مُسْلم بنُ وَرْد كُوشاذ القُشَيْريُّ[2] . النِّيسابوريُّ ، صاحِبُ « الصَّحيح » فلعلَّه من مَوالي قُشَير .

لمْ يَروِ التِّرْمذيُّ في « جامِعِه » عن مُسْلمٍ سِوَىٰ حَديثٍ واحِدٍ .

قالَ أحمَدُ بنَ سَلمَة : رَأيتُ أبا زُرْعَة وأبا حاتم يُقَدِّمانِ مُسْلماً في مَعْرفَةِ الصَّحيح علىٰ مَشايخ عَصرِهما .

قال أبو عَمرو بن حَمدان : سألتُ الحافِظَ ابنَ عُقْدَة عن البُخاريِّ ومُسْلمٍ : أيُّهما أعْلمُ ؟ فقالَ : كانَ محمَّدٌ عالماً ، ومُسْلمٌ عالمٌ ، فكرَّرتُ عليه مِراراً ، فقالَ : يا أبا عَمرٍو ، قد يَقعُ لمحمَّد الغَلطُ في أهل الشَّام وذلك أنَّه أخذَ كُتبَهم ، فنَظرَ فيها ، فرُبَّما ذَكرَ الواحدَ منهم بكُنيَته ويَذكُرُه في مَوْضِع آخرَ باسْمِه ، يَتوَهَّم أنهما اثنان ، وأمَّا مُسلمٌ فقلَّما يقعُ له من الغَلط في العِلل ، لأنَّه كَتبَ المَسانيد ، ولَمْ يَكتبْ المَقاطيعَ ولا المَراسيلَ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : عَنَىٰ بالمَقاطيعِ أقْوالَ الصَّحابَة والتَّابعينَ في الفِقْه والتَّفسير

قال أبو عبد الله محمدُ بن يَعقوب بن الأخْرَم الحافظُ : إنَّما أخْرَجَتْ نيسابُورُ ثلاثَةَ رجالٍ : محمدَ بنَ يَحْيىٰ ، ومُسلمَ بنَ الحجَّاج ، وإبراهيمَ بنَ أبي طالب .

وقال الحُسَينُ بن محمد الماسَرجِسيُّ : سَمعتُ أبي يقولُ : سَمعتُ مُسلماً يقولُ : صَنَّفتُ هـٰذا « المُسْنَدَ الصَّحيحَ » من ثلاثةِ مئةِ ألفِ حَديثٍ مَسْموعَة .

قال الحاكمُ : سَمعتُ أبا عبد الرحمَـٰن السُّلَميَّ يقولُ : رأيتُ شَيخاً حَسنَ الوَجْه والثِّيابِ ، عليه رِداءٌ حَسنٌ ، وعَمامةٌ قد أرْخاها بين كَتفَيه فقيلَ : هـٰذا مُسلمٌ فتَقدَّمَ أصْحابُ السُّلطانِ ، فقالوا : قد أمَرَ أميرُ المؤمنينَ أنْ يَكونَ مُسلمُ بنُ الحجَّاج إمامَ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٦/١٠١١ .

(٢) القُشيري ، من بني قُشَير ، قبيلة من العرب معروفة.

المسلمينَ ، فقدَّموه في الجامعِ فكبَّرَ ، وصلَّىٰ بالناس .

قال الحافظُ ابنُ مَندَة : سَمعتُ أبا عليٍّ النيسابوريَّ الحافظَ يقولُ : ما تَحتَ أديمِ السَّماء كتابٌ أصَحّ من كتابِ مُسلم .

وقال مَكِّيُّ بنُ عَبدان : سَمعتُ مُسلماً يَقولُ : عَرضتُ كتابي هـٰذا « المُسْنَدَ » علىٰ أبي زُرعَة ، فكلُّ ما أشار عليَّ في هـٰذا الكتاب أنَّ له عِلَّةً وسَبباً تَركتُه ، وكلُّ ما قال : إنَّه صَحيحٌ ليس له عِلَّةٌ ، فهو الذي أخْرجْتُ ، ولوْ أنَّ أهلَ الحَديثِ يَكتُبون الحَديثَ مئتي سنة فمَدارُهم علىٰ هـٰذا « المُسْنَد » .

قال الدَّارَقُطنيُّ : لَوْلا البُخاريُّ ما راحَ مُسلمٌ ولا جاء .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : ثم إنَّ مُسْلماً ، لحِدَّةٍ في خُلقِه ، انْحرَفَ عن البُخاريِّ ولمْ يَذكُرْ له حَديثاً ، ولا سَمَّاهُ في « صَحيحِه » ، بل افْتَتَحَ الكتابَ بالحَطِّ علىٰ مَنْ اشْترَطَ اللُّقِيَّ لمَنْ رَوىٰ عنه بصيغة « عنْ » ، وادَّعَى الإجْماعَ في أنَّ المُعاصَرَة كافيَة ، ولا يَتوَقَّفُ في ذلك على العِلمِ بالتِقائهما ، ووَبَّخَ مَنْ اشْترَطَ ذلك وإنَّما يقولُ ذلك أبو عبد الله البُخاريُّ ، وشَيخُه عَليُّ بنُ المَديني ، وهو الأصْوَبُ الأقْوَىٰ .

تُوفِّي مُسلمٌ سنةَ إحْدىٰ وستِّين ومئتَين بنيسَابُورَ ، عن بِضعٍ وخَمسينَ سَنةٍ ، وقَبرُه يُزارُ[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة « الرَّبيعِ بنِ سُليْمانَ » : قد كان من كبار العلماء ، ولكن ما بَلغَ رُتبَة المُزَنيِّ ، كما أنَّ المُزَنيَّ لا يَبلُغُ رُتبَة الرَّبيعِ في الحَديث ، وقد رَوىٰ أبو عيسىٰ في « جامِعِه » عن الرَّبيع بالإجازَة ، وقد سَمعنا من طريقه « المُسْندَ » للشَّافعيِّ انتَقاهُ أبو العَبَّاس الأصَمُّ من كتابِ « الأُمّ » لينشَطَ لروايَتِه للرَّحالَة وإلاَّ فالشَّافعيُّ رَحمَه اللهُ لمْ يُؤلِّف مُسْنَداً[2] .

وجاء في تَرجَمة أبي دوادَ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : هو سُليمانُ ابنُ الأشْعَث الإمامُ ،

---

(١) انظر السير : (مُسْلِم) ١٢/ ٥٥٧ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ١٠٣٥ ـ ١٠٣٦ .

(٢) انظر السير : (الرَّبيعُ بن سُليمان) ١٢/ ٥٨٧ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٧ .

شَيخُ السُّنَّة ، مُقدَّمُ الحُفَّاظ ، أبو داود ، الأزْدي السِّجِسْتاني ، مُحدِّثُ البَصرَة .

وُلدَ سَنةَ اثنتَين ومئتَين ، ورَحَلَ ، وجَمَعَ ، وصَنَّفَ ، وبَرَعَ في هـٰذا الشَّأن .

وسكن البَصْرَةَ بعدَ هَلاك الخَبيثِ طاغيَة الزِّنج ، فنشَرَ بها العِلمَ ، وكان يَترَدَّدُ إلىٰ بَغدادَ[1] .

وقال أبو بكر بن دَاسَة : سَمعتُ أبا داود يقول : « كتبتُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم خَمسَ مئةِ ألفِ حَديثٍ ، انتَخَبتُ منها ما ضَمنتُه هـٰذا الكتاب ـ يَعني كتاب « السُّنَن » ـ جَمعتُ فيه أربعةَ آلافِ حَديث وثمانيَ مئةِ حَديث ، ذكرتُ الصَّحيحَ ، وما يُشبِهُه ويُقارِبُه ، ويَكْفي الإنسانَ لدينِه من ذلك أربعةُ أحاديث ، أحدُها : قولُه صلى الله عليه وسلم : « الأعْمَالُ بالنِّيَّات » ، والثاني : « مِنْ حُسْنِ إسْلام المَرْءِ تَرْكهُ مَالا يَعْنِيهِ » ، والثالثُ : قولُه : « لا يَكونُ المُؤْمِنُ مُؤْمِناً حَتّىَ يَرْضَىَ لأَخِيهِ مَا يَرْضَىَ لِنَفْسِهِ » ، والرابعُ : « الحَلالُ بَيِّنٌ » الحديث .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وقوَلُه : يَكْفي الإنسانَ لدينِه ، مَمْنوعٌ ، بل يَحتاجُ المُسلمُ إلىٰ عَددٍ كثير من السُّنَن الصَّحيحَة مع القُرآن .

قال أبو بكر الخَلاَّل : أبو دواود الإمام المقدَّم في زمانه ، رجل لم يسبقه إلىٰ معرفته بتخريج العلوم ، وبصرِه بمَواضِعه أحدٌ في زَمانِه ، رجلٌ وَرِعٌ مُقدَّم ، سَمعَ منه أحمدُ بن حَنبل حَديثا واحداً .

وقال أبو بكر محمدُ بن إسْحاق الصَّاغاني ، وإبراهيمُ الحَربي لمَّا صنَّف أبو داود كتاب « السُّنَن » أُلِينَ لأبي داودَ الحَديثَ ، كما أُلِينَ لدَاودَ عليه السلام الحديدُ[2] .

وقال الحافظُ موسَىٰ بنُ هارُون : خُلِقَ أبو داوُد في الدُّنيا للحَديث ، وفي الآخِرَة للجَنَّة[3] .

---

(١) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٩ .

(٢) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٩ .

(٣) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٠ .

قال القاضي الخليلُ بنُ أحمد السِّجْزيُّ : سَمعتُ أحمدَ بنَ محمَّدِ ابنِ الليَّث قاضي بلدنا يقولُ : جاء سَهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَريُّ إلىٰ أبي داوُد السَّجِسْتاني ، فقيلَ : يا أبا داوُد : هـٰذا سَهلُ بنُ عبد الله جاءَك زائراً فرَحَّبَ به ، وأجلسَه ، فقال سَهلٌ : يا أبا داوُد! لي إليك حاجَة قال : وما هي ؟ قال : حتَّىٰ تَقولَ : قد قَضيتُها مع الإمْكان قال : نَعَم قال : أخْرِجْ إلي لسَانَك الذي تُحدِّثُ به أحاديثَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أُقَبِّلَه فأخْرَجَ إليه لِسانَه فقبَّلَه .

قال ابنُ دَاسَة : سَمعتُ أبا داود يقول : ذكرت في « السُّنن » الصحيحَ وما يُقارِبُه ، فإن كان فيه وهن شديد بيَّنتُه

وقال الإمامُ الذهبيُّ : فقد وَفَّىٰ ـ رَحمَه الله ـ بذلك بحَسْبِ اجتهادِه ، وبيَّن ما ضَعفُه شَديدٌ ، ووَهْنُه غيرُ مُحْتَمل وكاسِر[1] عن ما ضَعفُه خَفيفٌ مُحْتَمل ، فلا يَلزَمُ من سُكوتِه ـ والحالةُ هـٰذه ـ عن الحَديث أنْ يَكونَ حَسناً عندَه ، ولا سيَّما إذا حَكمنا علىٰ حدِّ الحُسْن باصْطِلاحِنا المولدِ الحادِث ، الذي هو في عُرفِ السَّلَف يَعودُ إلىٰ قِسمٍ من أقْسامِ الصَّحيح ، والذي يَجبُ العَملُ به عند جُمهور العُلمَاء ، أو الذي يَرغَبُ عنه أبو عبد الله البُخاري ، ويُمشِّيه مُسْلمٌ ، وبالعَكس ، فهو داخلٌ في أدانىٰ مَراتب الصِّحَّة ، فإنَّه لو انْحَطَّ عن ذلك لخَرجَ عن الاحْتجاجِ ، ولبَقيَ مُتَجاذَباً بين الضَّعْف والحُسْن ، فكتابُ أبي داوُد أعلىٰ ما فيه من الثابت ما أخْرَجَه الشَّيْخان ، وذلك نَحْواً من شَطر الكتاب ، ثم يَليهِ ما أخرَجَه أحدُ الشَّيْخَين ، ورَغِبَ عنه الآخَر ، ثم يَليه ما رَغِبا عنه ، وكان إسْنادُه جيداً ، سالماً من عِلَّة وشُذوذ ، ثم يَليه ما كان إسنادُه صالحاً ، وقَبِلَه العُلماء لِمَجيئِه من وَجهين لَيِّنَيْن فصاعداً ، يَعضُدُ كلُّ إسْنادٍ منهُما الآخَر ، ثم يَليه ما ضَعُفَ إسنادُه لنَقْص حِفْظِ رَاويه ، فمثلُ هـٰذا يُمشِّيه أبو داوُد ، ويَسكُتُ عنه غالباً ، ثم يَليه ما كان بيِّنَ الضَّعفِ من جِهَة رَاويه ، فهـٰذا لا يَسْكُتُ عنه ، بل يُوهِّنُه غالباً ، وقد يَسكُتُ عنه بحَسْبِ شُهْرته ونَكارَتِه ، واللهُ أعْلم .

---

(١) كسر من طرفه : غضَّ .

قال الحافظُ زَكريّا السَّاجي: كتابُ الله أصْلُ الإسْلام ، وكتابُ أبي داوُدَ عَهْدُ الإسْلام.

قال الذهبي : كان أبو داوُد مع إمامَتِه في الحديث وفُنونِه من كبار الفُقَهاء فكتابُه يَدلُّ علىٰ ذلك ، وهو من نُجَباء أصحابِ الإمامِ أحمَدَ ، لازَمَ مَجلِسَه مُدَّة ، وسألَه عن دِقاق المَسائل في الفُروع والأصُول .

وكان علىٰ مَذهَبِ السَّلف في اتِّباعِ السُّنَّة والتَّسْليم لها ، وتَرْك الخَوْض في مَضائق الكَلام[1] .

عن عَلْقَمَةَ ، قال : كان عبدُ الله بن مسعود يُشَبَّه بالنبي صلى الله عليه وسلم في هَديه ودَلِّه .

وكان عَلْقَمَةُ يُشَبَّه بعبدِ الله في ذلك .

قال جَريرُ بنُ عبد الحَميد : وكان إبراهيمُ النَّخْعي يُشَبَّه بعَلْقَمَة في ذلك ، وكان مَنصُورٌ يُشَبَّه بإبراهيمَ .

وقيل : كان سُفْيانُ الثَّوريُّ يُشَبَّه بمَنْصور ، وكان وَكيعٌ يُشَبَّه بسُفْيان ، وكان أحمدُ يُشَبَّه بوَكيع ، وكان أبو دَاوُد يُشَبَّه بأحمدَ[2] .

وعن أبي بكر بن جابر خادم أبي داود السِّجسْتاني ـ رحمه الله ـ قال : كنتُ مع أبي داود ببَغْداد ، فصلَيْنا المغرب ، فجاءَه الأميرُ أبو أحمدَ المُوَفَّق ـ يَعني وَليَّ العَهد ـ فدخل ، ثم أقبلَ عليه أبو داود ، فقال : ما جاء بالأمير في مثل هـٰذا الوقت ؟ قال : خِلالٌ ثلاث قال : وما هي ؟ قال : تنتقلُ إلى البَصرة فتتَّخذَها وطناً ليرحلَ إليك طلبةُ العلم ، فتعمُر بك ، فإنها قد خَرِبَتْ ، وانقطَعَ عنها النَّاسُ ، لِمَا جَرَىٰ عليها من مِحْنَة الزِّنج فقال : هـٰذه واحدة قال : وتَرْوي لأولادي « السُّنَن » قال : نعم ، هاتِ الثالثة قال : وتُفْرِد لهم مَجْلساً ، فإن أولاد الخلفاء لا يَقعُدون مع العامَّة قال : أمَّا هـٰذه فلا سبيلَ إليها ، لأنَّ النَّاسَ في العِلم سَواء .

---

(١) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٧٠ .

(٢) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧١ .

قال ابنُ جابر : فكانوا يحضُرُون ويقعُدون في كمٍّ حِيرِي ، عليه سِتْر ويسمعون مع العامَّة[1] .

وقال أبو داود في « سُنَنِه » : شَبَرْتُ قِثَّاءَةً بمصر ثلاثةَ عشرَ شِبراً ، ورَأيتُ أُتْرُجَّةً علىٰ بَعير ، وقد قُطِعَتْ قطعَتَين ، وعُملَتْ مثلَ عِدْلَين .

تُوفِّي أبو داودَ سَنةَ خَمسٍ وسَبعين ومئتَين[2] .

وجاء في ترحمة أبي حاتم الرَّازي ، قال الذهبيُّ : إذا وَثَّقَ أبو حاتم الرَّازي رَجُلاً فتَمسَّك بقوله ، فإنَّه لا يُوثِّقُ إلاَّ رجلاً صَحيحَ الحَديث ، وإذا لَيَّنَ رَجلاً ، أو قال فيه : لا يُحتَجُّ به فتَوقَّف حتىٰ تَرىٰ ما قال غيرُه فيه ، فإن وَثَّقَه أحدٌ ، فلا تَبْنِ علىٰ تَجريح أبي حاتم ، فإنَّه مُتعنِّتٌ في الرِّجال ، قد قال في طائفة من رجال (الصِّحاح) : ليسَ بحُجَّة ، ليسَ بقَوي ، أو نحو ذلك .

مات الحافظُ أبو حاتم سنة سبعٍ وسَبعينَ ومئتين وقيلَ : عاشَ ثلاثاً وثمانين سنةً[3] .

ومن كلامِ عبدِ الرَّحمَـٰن بن أبي حاتم قال : وَجدتُ ألفاظَ التَّعْديل والجَرْح مَراتب : فإذا قِيلَ : ثقةٌ : أو : مُتقِنٌ احتُجَّ به ، وإنْ قيلَ : صَدوقٌ ، أو مَحلُّه الصِّدقُ ، أو لا بأسَ به ، فهو ممَّن يُكتَب حَديثُه ، ويُنظَرُ فيه وهي المَنزِلَة الثانيَة ، وإذا قِيلَ : شَيخٌ فيُكتَبُ حَديثُه ، وهو دُونَ ما قَبلَه ، وإذا قِيلَ : صالحُ الحَديث ، فيُكتَبُ حَديثُه وهو دُون ذلك يُكتَب للاعْتبار ، وإذا قِيلَ : لَيِّنٌ ، فدُونَ ذلكَ ، وإذا قالوا : ضَعيفُ الحَديث ، فلا يُطرَحُ حَديثُه ، بل يُعتَبَرُ به ، فإذا قالوا : مَتْروكُ الحَديث ، أو : ذاهِبُ الحَديث ، أو كذَّاب ، فلا يُكتَبُ حديثُه[4] .

وقال أبو عيسَى التِّرْمذي عن كتابه « الجامع » : صنَّفْتُ هـٰذا الكتابَ ، وعَرضتُه

---

(١) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٧١ .
(٢) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٧٢ .
(٣) انظر السير : (أبو حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٧٧ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٧٩ .

علىٰ عُلماء الحِجَاز ، والعِراق وخُراسَان ، فرَضُوا به ، ومَنْ كان هـٰذا الكتابُ في بَيتِه ، فكأنَّما في بيتِه نَبيٌّ يَتكلَّمُ[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : في « الجامع » علمٌ نافِعٌ ، وفَوائدُه غَزيرة ، ورُؤوسُ المَسائل ، وهو أحدُ أصُول الإسْلام ، لولا ما كدَّره بأحاديث واهيَة ، بعضُها مَوضُوعٌ ، وكثيرٌ منها في الفَضائل[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : « جامعُه » قاضٍ له بإمامَتِه وحفظِه وفِقْهِه ، ولكن يَتَرخَّصُ في قَبولِ الأحاديث ، ولا يُشَدِّد ، ونَفَسُه في التَّضْعيفِ رَخْوٌ[3] .

وفي « المَنْثور » لابنِ أبي طاهر : سَمعتُ أبا إسْماعيلَ شيخَ الإسْلام يقولُ : « جامع » التِّرْمذِيِّ أنفعُ من كتاب البُخاريِّ ومُسْلم ، لأنَّهما لا يَقِفُ منهما إلا المُتبَحِّرُ العالم ، و« الجامعُ » يَصلُ إلىٰ فائدَتِه كلُّ أحَدٍ .

ماتَ أبو عيسىٰ في سنةِ تِسْعٍ وسبعينَ ومِئتين بتِرْمِذ[4] .

وجاء في ترجمة ابنِ ماجَه ، قال الإمامُ الذهبيُّ : هو محمدُ ابنُ يَزيد ، الحافظُ ، الكَبيرُ ، الحُجَّة ، المُفَسِّرُ ، أبو عبد الله ابنُ ماجَه ، القَزْوينيُّ ، مُصَنِّفُ « السُّنَن » ، و« التَّاريخ » ، و« التَّفسير » ، وحافظُ قَزْوين في عَصرِه .

وُلدَ سنة تسعٍ ومِئتَين .

عن ابن ماجه ، قال : عَرضْتُ هـٰذه « السُّنَنَ » علىٰ أبي زُرعَة الرَّازي ، فنظرَ فيه ، وقال : أظنُّ إنْ وَقعَ هـٰذا في أيْدي النَّاسِ تَعطَّلت هـٰذه الجَوامعُ أو أكثَرُها ، ثم قال : لَعلَّ لا يكونُ فيه تَمامُ ثلاثين حَديثاً ، ممَّا في إسْنادِه ضَعفٌ ، أو نَحو ذا .

قال الإمامُ الذهبيُّ : قد كان ابنُ ماجَه حافظاً ناقِداً صادِقاً ، واسِعَ العلمِ ، وإنَّما غَضَّ من رُتبَة « سُنَنِه » ما في الكتابِ من المَناكير ، وقَليلٌ من المَوْضُوعات ، وقَولُ

---

(١) انظر السير : (التِّرْمِذيّ) ١٣/ ٢٧٠ـ ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٨١ .
(٢) انظر السير : (التِّرْمِذيّ) ١٣/ ٢٧٠ـ ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٨١ .
(٣) انظر السير : (التِّرْمِذيّ) ١٣/ ٢٧٠ـ ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٨١ .
(٤) انظر السير : (التِّرْمِذيّ) ١٣/ ٢٧٠ـ ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٢ .

أبي زُرعَة ـ إنْ صَحَّ ـ فإنَّما عَني بثلاثين حَديثاً ، الأحاديثَ المُطْرَحَة السَّاقِطَة ، وأمَّا الأحاديثُ التي لا تَقومُ بها حُجَّة ، فكثيرةٌ ، لعلَّها نَحوَ الألفِ .

وقال أبو يَعلى الخَليلي : هو ثقةٌ كبيرٌ ، مُتفَقٌ عليه ، مُحتَجٌّ به ، له مَعرِفَةٌ بالحَديثِ وحِفظٌ ، ارْتَحَلَ إلى العِراقَيْن ، ومَكةَ ، والشَّام ، ومِصْرَ والرّيِّ لكتْبِ الحَديثِ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ماتَ سنةَ ثلاثٍ وسَبعينَ ومئتين وعاشَ أربعاً وستِّين سنةً .

وقال أبو الحَسَن القطَّان : في « السُّنن » ألفٌ وخَمسُ مئة باب ، وجملةُ ما فيه أربَعةُ آلافِ حَديث[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة « غُلامِ خَليل » : الشيخُ ، العالمُ ، الزَّاهِدُ ، الواعِظُ ، شَيخُ بَغدادَ ، أبو عبد الله ، أحمدُ بنُ محمّدُ ابنِ غالِب الباهِليُّ البَصْريُّ ، غُلامُ خَليل[2] .

سَكنَ بَغدادَ كان له جَلالةٌ عَجيبةٌ ، وصَوْلةٌ مَهيبةٌ ، وأمْرٌ بالمَعروفِ ، واتِّباعٌ كثيرٌ ، وصِحَّةُ مُعْتَقدٍ ، إلاَّ أنَّه يَروي الكَذِبَ الفَاحِشَ ، ويَرَىٰ وَضْعَ الحَديثِ نَسألُ اللهَ العافيَةَ وخَفِيَ حالُه على الكِبارِ أوَّلاً .

قال ابنُ أبي حاتم : سُئلَ أبي عنه ، فقال : رجلٌ صالحٌ ، لمْ يكنْ عندي ممَّن يَفتعلُ الحَديثَ .

ورُويَ عن أبي داوُد السِّجسْتاني أنَّه قالَ : ذاكَ دَجَّالُ بَغدادَ ، نَظرتُ في أرْبعِ مئةِ حديثٍ له ، عُرِضَت عليَّ ، كلُّها كَذبٌ ، مُتونُها وأسانيدُها .

وقال ابن عَديّ : سَمعتُ أبا عبد الله النُّهاوَنْديّ يقولُ : كلَّمتُ غُلامَ خَليل في هٰذه الأحاديث ، فقال : وَضَعْناها لتُرَقِّقَ القُلوبَ .

وفي « تاريخِ بَغدادَ » أنَّ أبا جَعْفَرَ الشَّعيري قال : قُلتُ لغُلامِ خَليل لَمَّا رَوىٰ عن بَكْرِ بنِ عيسىٰ ، عن أبي عَوانَة : يا أبا عبد الله! هٰذا شَيخٌ قَديمُ الوَفاة ، لمْ تَلحَقْه ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ ماجَه) ١٣/ ٢٧٧ـ ٢٨١ ، وانظر النزهة : ١٠٨٢ .

(٢) انظر السير : (غُلامُ خَليل) ١٣/ ٢٨٢ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٣ .

ففكَّر ، وخِفتُ أنا ، فقُلتُ : كأنَّكَ سَمعتَ من رجلٍ باسْمِه ؟ فسَكتَ ، فلمَّا كان من الغَد ، قال لي : إنِّي نَظرتُ البارحة فيمَنْ سَمعتُ منه بالبَصْرة ، ممَّن يُقالُ له : بَكْرُ بن عيسَىٰ ، فوجَدتُهم ستِّينَ رجلاً[1] .

وجاء في ترجمة بَقِيِّ بنِ مَخْلَد ، قال الإمامُ الذهبيُّ : قال ابنُ يَزيد : هو الإمامُ القُدوَة ، شَيخُ الإسْلام ، أبو عبد الرحمَـٰن الأنْدَلسيُّ القُرْطُبيُّ ، الحافِظُ ، صاحِبُ « التَّفْسيرِ » و« المُسْنَد » اللَّذينِ لا نَظيرَ لهما .

وُلدَ في حُدود سَنة مئتين ، أو قَبلَها بقَليل .

وعُني بهـٰذا الشَّأنِ عِنايةً لا مَزيدَ عليها ، وأَدخَلَ جَزيرَةَ الأنْدَلسِ عِلْماً جَمَّاً ، وبه ، وبمحمَّدِ بنِ وَضَّاح صارَت تلك الناحيَةُ دارَ حَديثٍ ، وعدَّةُ مَشيَخَتِه الذين حَملَ عنهم مئتان وأربَعةٌ وثَمانون رَجلاً .

وكان إماماً مُجتَهداً صالِحاً ، رَبَّانيّاً صادِقاً مُخلِصاً ، رَأساً في العِلمِ والعَملِ ، عَديمَ المِثْل ، مُنقَطعَ القَرين ، يُفْتي بالأثَرِ ، ولا يُقَلدُ أحَداً .

ذَكرَه أحمدُ بنُ أبي خَيْثَمَة ، فقال : ما كُنَّا نُسمِّيه إلاَّ المِكْنَسَة ، وهل احتاجَ بلدٌ فيه بَقيٌّ إلىٰ ها هُنا منه أحَد ؟!

وقال أبو الوَليد بنُ الفَرَضِي في « تاريخِه » : ملأ بَقيُّ بنُ مَخلَد الأنْدَلسَ حَديثاً ، فأنْكرَ عليه أصحابُه الأنْدَلسيُّون : أحمدُ بنُ خالد ، ومحمدُ بنُ الحارث ، وأبو زَيْد ، ما أدْخَلَه من كُتبِ الاخْتلاف ، وغَرائب الحَديث ، فأغْروا به السُّلطانَ وأخَافُوه به ، ثمَّ إنَّ اللهَ أظهَره عَليهم ، وعَصمَه منهم ، فنَشرَ حَديثَه وقَرأ للنَّاسِ روايتَه ثم تَلاهُ ابنُ وَضَّاح ، فصارَت الأنْدلسُ دارَ حَديثٍ وإسْناد وممَّا انْفَردَ به ولمْ يُدخِلْه سواه « مُصنَّفُ » أبي بَكْر بنِ أبي شَيبَة بتَمامِه ، و« كتابِ الفِقْه » للشَّافعيِّ بكَمالِه ـ يَعني « الأُمَّ » ـ ، و« تاريخ » خَليفة ، و« طَبقات » خليفة ، وكتاب « سِيرَة عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز » ، لأحمدَ بنِ إبراهيمَ الدَّوْرَقي ولَيسَ لأحدٍ مثلُ « مُسْنِدِه » وكان وَرِعاً فاضِلاً زاهِداً قد ظَهرت له إجاباتُ الدَّعوَة في غير ما شيء .

---

(١) انظر السير : (غُلامُ خَليل) ١٣/ ٢٨٢ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٣ .

قال الإمامُ أبو محمَّد بن حَزم الظَّاهري : أقْطعُ أنَّه لمْ يُؤلَّف في الإسْلام مثلُ « تفسير » بَقِيٍّ ، لا « تَفسير » محمد بن جَرير ، ولا غيره[1] .

قال : وكان محمَّدُ بنُ عبد الرحمَـٰن الأُمَوي صاحبُ الأنْدَلسِ مُحبّاً للعُلومِ عارِفاً ، فلمَّا دخلَ بَقيٌّ الأنْدَلسَ « بمُصَنَّف » أبي بَكْر بنِ أبي شَيْبَة ، وقُرِىءَ عليه ، أنْكرَ جَماعةٌ من أهلِ الرَّأي ما فيه من الخِلافِ واسْتبْشَعوه ، ونَشَّطوا العامَّةَ عليه ، ومَنعُوه من قِراءَتِه ، فاسْتحضَرَه صاحبُ الأنْدَلس محمدُ وإيَّاهم ، وتَصفَّحَ الكتابَ كلَّه جُزءاً جُزءاً حتىٰ أتَىٰ علىٰ آخِرِه ، ثم قال لخازِنِ الكُتبِ : هـٰذا كتابٌ لا تَسْتَغني خِزانَتُنا عنه ، فانْظُر في نَسْخِه لنا ، ثم قال لبَقِيٍّ : انْشُر عِلمَك ، وارْوِ ما عِندَك ونَهاهُم أنْ يَتعرَّضوا له[2] .

وذكر عبد الرحمـٰن بن أحمد عن أبيه : أن امرأةً جاءَت إلىٰ بَقِيٍّ فقالت : إنَّ ابْني في الأسْرِ ، ولا حِيلَةَ لي ، فلَوْ أشَرْتَ إلىٰ مَنْ يَفْديه ، فإنَّني والِهَةٌ قال : نعم ، انصَرفي حتىٰ أنظرَ في أمره ، ثم أطْرَقَ ، وحرَّكَ شَفَتيه ، ثم بعد مُدَّةٍ جاءت المَرأةُ بابنها ، فقال : كنتُ في يَدِ مَلِكٍ ، فبَيْنا أنا في العَمَل ، سَقَطَ قَيدي قال : فذكرَ اليومَ والسَّاعَة ، فوافَقَ وقتَ دُعاءِ الشَّيخ قال : فصاحَ عليَّ المُرَسَّم بنا ، ثم نَظَرَ وتَحيَّرَ ، ثم أحضَرَ الحدَّادَ وقيَّدني ، فلمَّا فرغه ومَشَيتُ سَقطَ القَيدُ ، فبُهِتوا ، ودَعَوا رُهْبانَهم ، فقالوا : ألَكَ والدةٌ ؟ قلتُ : نَعم فقالوا : وافَقَ دُعاءَها الإجابة[3] .

كان بَقيُّ بنُ مَخْلَد أوَّلَ مَنْ كَثَّرَ الحَديثَ بالأنْدلُس ونَشَره ، وهاجَمَ به شُيوخَ الأنْدَلُس ، فثارُوا عليه ، لأنَّهم كان عِلْمُهم بالمَسائِل ومَذهَب مالِك ، وكان بَقيٌّ يُفْتي بالأثَر ، فشَذَّ عنهم شُذوذاً عَظيماً ، فعَقَدوا عليه الشَّهادات ، وبَدَّعوه ، ونَسَبوا إليه الزَّنْدَقَة ، وأشْياءَ نَزَّهَه اللهُ منها وكان بَقيٌّ يقولُ : لقد غَرسْتُ لهم بالأنْدَلُس غَرْساً لا يُقْلَعُ إلاَّ بخُروجِ الدَّجَّال[4] .

---

(١) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٤ .
(٢) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٥ .
(٣) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٥ .
(٤) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٦ .

قال ابن حزم : و« مُسْنَدُ » بَقيٍّ رَوىٰ فيه عن ألفٍ وثلاثِ مئةِ صاحِبٍ ونيّف ورَتَّبَ حديثَ كلِّ صاحبٍ علىٰ أبْوابِ الفِقْه ، فهو مُسْندٌ ومُصنَّفٌ ، وما أعلمُ هـٰذه الرُّتبَة لأحد قبلَه ، مع ثقتِه وضَبطِه ، وإتْقانِه واحتفالِه في الحَديث ، وله مُصنَّفٌ في فَتاوَى الصَّحابَة والتَّابعِين فمَنْ دُونَهم ، الذىٰ قد أرْبَىٰ فيه علىٰ « مُصنَّف » ابنِ أبي شَيْبَة ، وعلىٰ « مُصنَّف » عبد الرَّزَّاق ، وعلىٰ « مُصنَّف » سَعيدِ بنِ مَنْصور ثمَّ إنَّه نوَّه بذكرِ « تَفْسيرِه » وقال : فصارَت تَصانيفُ هـٰذا الإمامِ الفاضِلِ قَواعدَ الإسْلام ، لا نَظيرَ لها ، وكان مُتخَيِّراً لا يُقلِّدُ أحداً ، وكان ذا خاصَّةٍ من أحمدَ بنِ حَنْبَل ، وجارياً في مِضْمارِ البُخاريِّ ومُسْلمٍ والنَّسائيِّ[1] .

وقال عثمانُ بنُ سَعيد : مَنْ لمْ يَجمع حَديثَ شُعبَة وسُفيان ومَالك ، وحمَّاد بن زَيد ، وسُفيان بن عُيَيْنة ، فهو مُفلِسٌ في الحَديثِ ـ يُريدُ أنَّه ما بَلغَ درجَةَ الحُفَّاظ .

وقال الإمامُ الذهبيُّ مُعلِّقاً : وبلا رَيب ، أنَّ مَنْ جَمعَ عِلمَ هـٰؤلاء الخَمسَة ، وأحاطَ بسائر حَديثِهم ، وكتبَه عالياً ونازِلاً ، وفَهمَ عِللَه ، فقد أحاطَ بشَطْر السُّنَّة النبَويَّة ، بلْ بأكثرَ من ذلك ، وقد عُدمَ في زَمانِنا مَنْ يَنهَضُ بهـٰذا ، وببَعضِه ، فنَسألُ الله المغفرَة وأيضاً فلو أرادَ أحدٌ أنْ يَتتَبَّعَ حَديثَ الثَّوْريِّ وحْدَه ، ويكتُبَه بأسَانيدِ نفسِه علىٰ طُولِها ، ويُبيِّنَ صَحيحَه من سَقيمِه ، لكانَ يَجيءُ « مُسْنَدُه » في عَشرِ مُجلَّدات ، وإنَّما شَأنُ المُحَدِّث اليومَ الاعْتِناءُ بالدَّواوين السِّتَّة ، و« مُسْنَد » أحمدَ بنِ حَنْبَل ، و« سُنَن » البَيْهَقي ، وضَبْط مُتونِها وأسَانيدِها ، ثم لا يَنتَفعُ بذلك حتىٰ يَتقيَ ربَّه ، ويَدينَ بالحَديث ، فعلَىٰ عِلمِ الحَديثِ وعُلمائِه لِيَبْكِ مَنْ كانَ باكياً ، فقد عادَ الإسْلامُ المَحْضُ غَريباً ، كما بَدأ ، فليَسعَ امرُؤٌ في فِكاكِ رَقبَتِه من النَّار ، فلا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[2] .

وكان ابنُ مَندَة إذا رَوى الحَديثَ وسَكتَ ، أجادَ ، وإذا بوَّبَ أو تَكلَّمَ من عندِه ،

---

(١) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٦ .

(٢) انظر السير : (الدَّارِميّ) ١٣/ ٣١٩ـ ٣٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٩١ .

انْحرَفَ وخَرْفَشَ[1] ، بلىٰ ذَنْبه وذَنْبُ أبي نُعَيم أنَّهما يَرْويانِ الأحاديثَ السَّاقِطَة والمَوْضُوعَة ، ولا يَهْتِكانِها ، فنَسألُ اللهَ العَفوَ[2] .

وقال ابنُ حَزْم في تَراجم أبْوابِ « صَحيحِ » البُخاريِّ : منها ما هو مَقصورٌ علىٰ آيَةٍ ، إذا لا يَصِحُّ في الباب شيءٌ غَيرُها ، ومنها ما يُنَبِّهُ بتَبْويبه علىٰ أنَّ في البابِ حَديثاً يَجبُ الوُقوفُ عليه ، لكنَّه ليسَ من شَرطِ ما ألَّفَ عليه كتابَه ، ومنها ما يُبوِّب عليه ، ويَذكُرُ نبذَةً من حَديثٍ قد سَطَّرَه في مَوضُوع آخَر ، ومنها أبْوابٌ تَقعُ بلَفظِ حَديثٍ لَيس من شَرطِه ويَذكُرُ في البابِ ما هو في مَعْناه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وكلامُ ابنِ حَزْم كثيرٌ ، ولوْ أخَذتُ في إيرادِ طُرَفِه وما شَذَّ به لطَالَ الأمرُ .

تُوفِّيَ سنةَ ستٍّ وخَمسينَ وأربَعِ مئة عُمرُه إحْدَىٰ وسَبعينَ سنةً وأشْهُر ، رَحمَه الله[3] .

٤ـ ضابطٌ لأخذِ الأجْر على التَّحْديث :

قال ابنُ النَّجَّار : سَمعتُ القاضي أبا القاسِم ابنَ العَديم يقولُ : سَمعتُ عبدَ العَزيز بنَ هِلالَة يَقولُ : وغالِبُ ظنِّي أنَّني سَمعتُه من ابنِ هِلالَة بخُراسَان ، قالَ : رَأيتُ عُمرَ بنَ طَبَرْزَذ في النَّوم بعدَ مَوتِه وعَليه ثَوبٌ أزْرَق ، فقُلتُ له : سَألتُ بالله ما لَقيتَ بعدَ مَوْتِك ؟ فقالَ : أنا في بَيتٍ من نَّارٍ ، دَاخلَ بَيتٍ من نارٍ ، فقُلتُ : ولِمَ ؟ قالَ : لأخْذِ الذَّهَب علىٰ حَديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم[4] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : الظَّاهِرُ أنَّهُ أخَذَ الذَّهبَ وكَنزَه ولمْ يُزَكِّه ، فهَـٰذا أشَدُّ من مُجرَّد الأخْذِ[5] .

---

(١) أي خلَّط .
(٢) انظر السير : (ابن مَندَة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٣٢٢ .
(٣) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٠٤ .
(٤) انظر السير : (ابن طَبَرْزَذ) ٢١/ ٥٠٧ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٥٧ .
(٥) انظر السير : (ابن طَبَرْزَذ) ٢١/ ٥٠٧ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٥٨ .

فمَنْ أخَذَ من الأُمَراء والكِبارِ بلا سُؤالٍ وهو مُحْتاجٌ فهٰذا مُغْتفَر له ، فإنْ أخذَ بسُؤالٍ رُخِّصَ له بقَدْرِ القُوتِ ، وما زادَ فلا ، ومَنْ سَألَ وأخَذَ فَوقَ الكِفايَة ذُمَّ ، ومَنْ سَألَ مع الغِنَىٰ والكِفايَة حَرُمَ عليه الأخْذُ ، فإنْ أخذَ المالَ والحالةُ هٰذه وكَنزَه ولَمْ يُؤدِّ حَقَّ اللهِ فهُو من الظَّالمين الفَاسِقين ، فاسْتَفْتِ قلبَك ، وكُنْ خَصْماً لرَبِّكَ علىٰ نَفسِك .

قال عُمرُ بنُ المُبارَك بنِ سَهْلان : لَمْ يكُنْ أبو البَقاء بنُ طَبَرْزَذ ثقةً ، كانَ كذَّاباً يَضعُ للنَّاسِ أسْماءَهم في الأجْزاءِ ثمَّ يَذهَبُ فيَقرأُ عَليهِم ، عَرَفَ بذلك شَيخُنا عبدُ الوَهَّاب ومُحمَّدُ بنُ ناصِر وغيرُهما .

تُوفِّي أبو حَفْص بنُ طَبَرْزَذ في سنة سَبعٍ وستٍّ مئة ، ودُفنَ ببابِ حَرْب ، واللهُ يُسامِحه ، فمَعَ ما أبْدَينا من ضَعْفِه قد تَكاثَرَ عليه الطَّلبَةُ ، وانْتشَرَ حَديثُه في الآفاقِ وفَرِحَ الحُفَّاظُ بعَواليه ، ثم في الزَّمَن الثاني تَزاحَموا علىٰ أصْحابِه ، وحَمَلوا عَنهم الكَثيرَ وأحْسَنُوا الظَنَّ ، والله الموعد ، ووَثَّقَه ابنُ نُقطَة[1] .

٥ـ عَدمُ الإكثار من التَّحْديث :

قال أبو هلال : سَمعتُ قَتادَةَ يَقولُ : إنَّ الرَّجُلَ لَيَشْبَعُ من الكَلامِ كَما يَشبَعُ من الطَّعام[2] .

٦ـ ضابطٌ في الإكثار من التَّحْديث بالأحاديث :

عن ابنِ عجْلان : أنَّ أبا هُرَيْرَةَ كان يقولُ : إني لأُحَدِّثُ أحاديثَ ، لوْ تَكلَّمتُ بها في زَمَنِ عُمَر لشُجَّ رأسي .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هٰكذا هو كان عُمرُ رضي الله عنه يقولُ : أقِلُّوا الحَديثَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وزَجرَ غَيرَ واحدٍ من الصَّحابَة عن بَثِّ الحَديثِ ، وهٰذا مَذهبٌ لعُمَرَ ولغَيرِه .

---

(١) انظر السير : (ابن طَبَرْزَذ) ٢١/ ٥٠٧ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٥٨ .
(٢) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٠٢ .

فبالله عليك ، إذا كان الإكْثارُ من الحَديثِ في دَولَة عُمَر ، كانوا يُمْنَعُون فيه ، مع صِدقِهم وعَدالَتِهم وعَدَم الأسَانيد ، بلْ هو غَضٌّ لَمْ يُشَبْ ، فما ظَنك بالإكْثارِ من رِوَايَة الغَرائِبَ والمَنَاكير في زَمانِنا مع طُولِ الأسَانيد ، وكَثرَة الوَهْم والغَلَط ، فبالحَريِّ أنْ نَزجُرَ القَومَ عنه ، فيا لَيْتَهم يَقتصرُون علىٰ رِوايَة الغَريبِ والضَّعيفِ ، بلْ يَرْوُونَ ـ والله ـ المَوْضُوعات والأباطِيل ، والمُسْتحيل في الأصُول والفُروع والمَلاحِم ، والزُّهْدِ ، نَسألُ اللهَ العافية[1] .

فَمَنْ رَوَىٰ ذلك مع علمِه ببُطْلانِه ، وغَرَّ المُؤمنينَ ، فهـٰذا ظالمٌ لنفسِه ، جانٍ على السُّنَن والآثار ، يُسْتَتاب من ذلك ، فإنْ أنابَ وأقْصَر ، وإلاَّ فهو فاسِقٌ ، كفىٰ به إثْماً أنْ يُحدِّثَ بكلِّ ما سَمع وإنْ هو لمْ يَعْلمْ ، فليَتَوَرَّعْ ، وليَسْتَعِنْ بمَنْ يُعينُه علىٰ تَنْقيَةِ مَرْويّاتِه نَسألُ اللهَ العافية ، فلقَد عَمَّ البَلاءُ ، وشَملت الغَفلَةُ ، ودَخلَ الدَّاخِلُ على المُحَدِّثين الذين يَرْكنُ إليهم المُسْلمونَ ، فلا عُتبَىٰ على الفُقَهاءِ وأهْلِ الكَلام[2] .

٧ـ شُبْهَة تكذيب بعض مَنْ لا يَعْلم أبا هُرَيْرَة رضي الله عنه ورَدُّها :

عن أبي أنَس مالِكِ بنِ أبي عامِر ، قال : جاءَ رَجلٌ إلىٰ طَلْحَةَ ابنِ عُبَيد الله ، فقالَ : يا أبا مُحمَّد ، أرَأيتَ هـٰذا اليَماني ـ يَعني : أبا هُرَيْرَة ـ أهو أعْلمُ بحَديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم منكُم ؟ نَسمَعُ منهُ أشْياءَ لا نَسْمَعُها منكُم ، أمْ هو يَقولُ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ما لَمْ يَقُلْ ؟ قالَ : أمَا أنْ يَكُونَ سَمعَ ما لَمْ نَسْمَع ، فلا أشُكُّ ، سأحَدِّثُك عن ذلك : إنَّا كُنَّا أهلَ بُيُوتاتٍ وغَنَمٍ وعَمَلٍ ، كُنَّا نأتي رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم طَرَفَيْ النهار ، وكان مِسْكيناً ، ضَيفاً علىٰ بابِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، يَدُه مع يَدِه ، فلا نَشكُّ أنَّه سَمِعَ ما لَمْ نَسْمَع ، ولا تَجِدُ أحَداً فيه خَيرٌ يَقولُ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ما لَمْ يَقُلْ[3] .

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣١٠ .
(٢) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣١١ .
(٣) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣١١ .

عن إبراهيمَ ، قالَ : ما كانوا يَأخُذون من حَديثِ أبي هُرَيْرَة إلاَّ ما كانَ حَديثَ جَنَّةٍ أو نَارٍ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا لا شَيء ، بل احْتجَّ المسلمونَ قَديماً وحَديثاً بحَديثِه ، لحِفْظِه وجَلالَتِه وإتْقانِه وفِقْهِهِ ، وناهِيكَ أنَّ مثلَ ابنِ عبَّاس يَتأدَّبُ مَعَه ، ويَقولُ : أفْتِ يا أبا هُرَيْرَة .

وأصَحُّ الأحَاديثِ ما جَاءَ عن الزُّهْرِيِّ ، عن سَعيدِ بنِ المُسَيِّب ، عن أبي هُرَيْرَة .

وما جاءَ عن أبي الزِّنادِ ، عن الأعْرَجِ ، عن أبي هُرَيْرَة

وما جاءَ عن ابنِ عَوْن ، وأيُّوبَ ، عن محمَّدِ بنِ سِيرينَ ، عن أبي هُرَيْرَة وأين مثلُ أبي هُرَيْرَة في حِفْظِه وسِعَةِ عِلْمِه[1] .

وقال يوسُفُ بنُ علي الزنْجانيُّ الفَقيه : سَمعتُ الفَقيهَ أبا إسْحاقَ الفَيْروزابادي : سَمعتُ القاضي أبا الطيب يقولُ : كنَّا في مَجلِسِ النَّظَر بجامِع المَنْصُور ، فجاءَ شابٌّ خُراسانيٌّ ، فسَألَ عن مَسْألَةِ المُصَرَّاة[2] ، فطالَبَ بالدَّليلِ ، حتَّى اسْتدَلَّ بحَديثِ أبي هُرَيْرَة الوَارِدِ فيها .

فقالَ ـ وكان حَنفيّاً ـ : أبو هُرَيْرَة غيرُ مَقْبولِ الحَديثِ .

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣١١ .

(٢) المُصَرَّاة : الناقة أو البقرة أو الشاة يُصَرَّى اللَّبنُ في ضَرعها ، أي : يُجْمَع ويُحبَس ، ثم تُباع فيظُنُّها المشتري كثيرة اللبن ، فيزيد في ثمنها ، فإذا حلبَها مرتين أو ثلاثاً وقف على التصرية والغرور ، وحديث أبي هريرة الوارد فيها هو في « المُوطَّأ » (٢/ ٦٨٣ ، ٦٨٤) في البيوع : باب ما ينهىٰ عنه من المساومَة والمُبايَعَة أخرجه البُخاريُّ عن عبد الله بن يوسف ، ومسلمٌ (١٥١٥) ، (١١) عن يَحْيَى بن يَحْيَىٰ ، كلاهما عن مالك ، عن أبي الزِّناد ، عن عبد الله بن ذَكْوان ، عن الأعْرج ، عن أبي هُرَيْرَة ، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولا تصرُّوا الإبلَ والغَنمَ ، فمَن ابتاعها بعد ذلك ، فهو بخير النظرين بعد أن يحلبهما ، إن رضيها أمسكها ، وإن سخطها ردّها وصاعاً من تمر » أي : يردها بعيب التصرية ، ويرد معها صاعاً من تمر مكان ما حلب من اللبن ، وهو قول مالك والشافعي والليث بن سعد وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وأبي ثور .

فما اسْتَتَمَّ كَلامَه ، حتىٰ سَقَطَت عليه حيَّةٌ عَظيمَةٌ من سَقْف الجامِع ، فوَثَبَ النَّاسُ من أجْلِها ، وهَربَ الشَّابُّ منها ، وهىٰ تَتبَعُه .

فقِيلَ له : تُبْ ، تُبْ فقال : تُبتُ فغَابَت الحيّةُ ، فلمْ يُرَ لها أثَرٌ .

إسنادها أئمة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ : قد كان أبو هُرَيْرَة وَثيقَ الحِفْظِ ، ما عَلمْنَا أنَّه أخْطأَ في حَديثٍ[2] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو هُريْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣١٣ .

(٢) انظر السير : (أبو هُريْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣١٥ .

(٤) الفِقه

١ـ الفُقَهاءُ العاملون أوْلياءُ الله :

قالَ الرَّبيعُ : قالَ ليَ الشَّافعيُّ : إنْ لَمْ يَكنْ الفُقهاءُ العاملُونَ أوْلياءُ الله فما لله وَليٌّ[١] .

٢ـ الفِقْهُ الحَقيقي :

عن عِمْرانَ القَصير ، قالَ : سَألتُ الحَسَنَ البَصْريَّ عن شَيءٍ فقُلتُ : إنَّ الفُقهاءَ يَقولونَ كَذا وكَذا ، فقالَ : وهل رَأيت فَقيهاً بعَيْنِكَ إنَّما الفَقيهُ : الزَّاهِدُ في الدُّينا ، البَصيرُ بدِينِه ، المُداوِمُ علىٰ عبادَةِ رَبِّه[٢] .

٣ـ قَواعِدُ في الاجْتهاد والتَّقْليد :

قال مالكيٌ : قد نَدُرَ الاجْتهادُ اليومَ ، وتَعذَّرَ ، فمالِكٌ أفْضَلُ مَنْ يُقلَّد ، فرَجَحَ تَقليدُه[٣] .

وقال شَيخٌ : إنَّ الإمامَ لِمَنِ الْتَزَمَ بتَقليدِه ، كالنَّبيِّ مع أُمَّتِه ، لا تَحِلُّ مُخالَفَتُه[٤] .

قال الذهبيُّ : قولُه لا تَحِلُّ مُخالَفَتُه : مُجرَّدُ دَعوَىٰ ، واجْتهادٌ بلا مَعرِفَة ، بل له مُخالَفَةُ إمامِه إلىٰ إمامٍ آخَرَ ، حُجَّتُه في تلك المَسْألة أقْوَىٰ ، لا بَلْ عيه اتِّباعُ الدَّليلِ فيما تَبَرْهَنَ له ، لا كَمَنْ تَمَذْهَبَ لإمامٍ ، فإذا لاحَ له ما يُوافِقُ هَواه ، عَمِلَ به من أي مَذْهَب كان ، ومَنْ تَتَبَّعَ رُخَصَ المَذاهِبِ ، وزَلاَّتِ المُجْتَهدين ، فقد رَقَّ دينُه ، كما قالَ الأَوْزاعيُّ أو غيرُه : مَنْ أخَذَ بقَولِ المَكيِّينَ في المُتْعَةِ ، والكُوفِيِّينَ في النَّبيذِ ،

---

(١) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٥٠ .

(٢) انظر السير : (الحَسَن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦٥٠ .

(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٣١ .

(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٣١ .

والمَدَنيِّينَ في الغِناءِ والشَّاميِّينَ في عِصْمَة الخُلَفاء ، فقد جَمعَ الشَّرَّ وكذا مَن أخَذَ في البُيُوعِ الرِّبَوِيَّة بمَنْ يتَحيَّلُ عليها ، وفي الطَّلاقِ ونِكَاحِ التَّحْليلِ بمَنْ تَوَسَّعَ فيه ، وشِبْهُ ذلكَ ، فقد تَعرَّضَ للانْحِلالِ ، فنَسألُ اللهَ العافيَةَ والتَّوفيقَ[1] .

فالمُقلَّدونَ صَحابةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، بشَرطِ ثُبوتِ الإسْنادِ إليهم ، ثم أئمَّةِ التَّابعين كعلْقَمةَ ، ومَسْروق ، وعُبَيدَة السلماني ، وسَعيدِ بنِ المُسَيَّب ، وأبي الشعثاء ، وسَعيدِ بنِ جُبَير ، وعُبَيدِ الله بنِ عَبد الله ، وعُرْوَةَ ، والقاسِمِ ، والشَّعْبي ، والحَسَن ، وابنِ سيرينَ وإبْراهيمَ النَّخْعي .

ثم كالزُّهْريِّ ، وأبي الزِّنادِ ، وأيُّوبَ السِّخْتيانيِّ ، ورَبيعَةَ وطَبقَتِهم .

ثم كأبي حَنيفَةَ ، ومالِكٍ ، والأوْزاعيِّ ، وابنِ جُرَيْجٍ ، ومَعْمَرٍ ، وابنِ أبي عروبَة ، وسُفْيانَ الثَّوْريِّ ، والحمَّادَين ، وشُعْبَة ، واللَّيْثِ ، وابنِ الماجشُون ، وابنِ أبي ذِئْب .

ثم كابنِ المُبارَك ، ومُسْلمِ الزَّنجيِّ ، والقاضي أبي يوسُف ، والهِقل ابنِ زياد ، ووَكيعٍ ، والوَليدِ بنِ مُسْلمٍ ، وطَبقَتِهم .

ثم كالشَّافعيِّ ، وأبي عُبَيْدٍ ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، وأبي ثَوْرٍ ، والبُويطي ، وأبي بَكْرِ بنِ أبي شَيْبَة .

ثم كالمُزَنيِّ ، وأبي بَكْرٍ الأثْرَم ، والبُخاريِّ ، ودَاوُدَ بنِ عليٍّ ، ومحمَّدِ ابنِ نَصْرٍ المَرْوزيِّ ، وإبْراهيمَ الحَربيِّ ، وإسْماعيلَ القاضي .

ثم كمُحمَّدِ بنِ جَرير الطَّبريِّ ، وأبي بَكْرِ بنِ خُزَيْمَة ، وأبي عبَّاس بنِ سُرَيْج ، وأبي بَكْرِ بنِ المُنْذِر ، وأبي جَعْفَرَ الطَّحاويِّ ، وأبي بَكْرٍ الخَلاَّل[2] .

ثم من بعد هٰذا النَّمَط تَناقَصَ الاجْتهادُ ، ووُضِعَت المُخْتَصَراتُ ، وأخْلدَ الفُقهاءُ إلى التَّقْليدِ ، من غَيرِ نَظَرٍ في الأعْلَم ، بل بحَسبِ الاتِّفاقِ ، والتَّشَهِّي ، والتَّعْظيمِ ،

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٣١ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٣١ .

والعادَةِ ، والبَلدِ فلَوْ أرادَ الطَّالبُ اليومَ أنْ يتَمذهَبَ في المَغْربِ لأبي حَنيفَة ، لعَسُرَ عليه ، كما لَوْ أرادَ أنْ يتَمَذهَبَ لابنِ حَنْبل بُخاريٌّ ، وسَمَرقَنْديٌّ ، لصَعُبَ عليه ، فلا يجيءُ منه حَنْبَليٌّ ، ولا من المَغْربيِّ حَنفيٌّ ، ولا من الهِنْديِّ مَالِكيٌّ ، وبكلِّ حال : فإلىٰ فِقْه مالك المُنْتَهىٰ فعامَّة آرائِه مُسدَّدة ، ولوْ لَمْ يَكنْ له إلاَّ حَسْمُ مادة الحِيَل ، ومُراعاةُ المَقاصِدِ لكَفاهُ ، ومَذهَبُه قد مَلأ المَغربَ ، والأنْدَلُسَ ، وكثيراً من بلادِ مِصْرَ ، وبَعضَ الشَّامِ ، واليَمنِ ، والسُّودانِ ، وبالبَصْرَة ، وبَغْدادَ ، والكُوفَة ، وبَعضَ خُراسان ، وكَذلكَ اشْتَهرَ مَذهَبُ الأوْزاعيِّ مُدَّة ، وتَلاشَىٰ أصْحابُه ، وتَفانوا وكذلك مَذهَبُ سُفْيانَ وغَيرُه مِمَّن سَمَّيْنا ، ولَمْ يَبْقَ اليومَ إلاَّ هـٰذه المَذاهبُ الأرْبَعَة وقلَّ مَنْ يَنهَضُ بمَعرِفَتِها كما يَنبغي ، فَضلاً عن أنْ يَكونَ مُجتهداً[1] .

وانْقَطعَ أتْباعُ أبي ثَوْر بعد الثَّلاثِ مِئَة ، وأصْحابُ داوُدَ إلاَّ القَليلُ ، وبَقِيَ مَذهَبُ ابنِ جَرير إلىٰ ما بَعدَ الأرْبَعِ مِئَة[2] .

وقالَ الذهبيُّ أيضاً : ولا رَيبَ أنَّ كلَّ مَنْ أنسَ من نفسه فِقْهاً ، وسِعَةَ علمٍ ، وحُسْنَ قَصْد فلا يَسَعُه الالتزامُ بمَذهَب واحدٍ في كُلِّ أقوالِه ، لأنَّه قد تَبرْهَن له مَذهَبُ الغَير في مَسائلَ ، ولاحَ له الدَّليلُ ، وقامَتْ عليه الحُجَّةُ ، فلا يُقلِّد فيها إمامَه ، بَلْ يَعمَلُ بما تَبرْهَنَ ، ويُقلِّدُ الإمامَ الآخَرَ بالبُرْهانِ ، لا بالتَّشَهِّي والغَرَضِ ، لكنَّه لا يُفْتي العامَّةَ إلاَّ بمَذهَبِ إمامِه ، أوْ ليَصْمُت فيما خَفي عليه دَليلُه .

وذَكرَ أحمدُ بنُ حَنْبل مالكاً ، فقدَّمَه على الأوْزاعيِّ ، والثَّوريِّ ، واللَّيثِ ، وحمَّاد والحَكَم ، في العلم وقال : هو إمامٌ في الحَديثِ ، وفي الفِقْه .

وقال أسَدُ بنُ الفُرات : إذا أرَدْتَ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ فعَليكَ بمَالِكٍ .

وقد ذَكرَهُ أبو عَمرٍو الدَّاني في « طَبقَاتِ القُرَّاء » وأنَّه تَلا علىٰ نافع ابن أبي نُعيم[3] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٢/ ١ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٢/ ٢ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٣/ ٢ .

وقال الشَّافعيُّ : كلُّ ما قُلتُه فكانَ من رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم خِلافُ قَولِي ممَّا صَحَّ ، فهو أوْلَىٰ ، ولا تُقلِّدُوني[1] .

وقال ابنُ خلِّكان : كان أبو القاسم الدَّارَكي يُتهَم بالاعْتِزالِ ، وكان ربَّما يَختارُ في الفَتْوَىٰ ، فيُقالُ له في ذلك ، فيَقولُ : وَيْحَكم! حَدَّثَ فُلانٌ عَن فُلانٍ ، عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بكَذا وكَذا والأخْذُ بالحَديثِ أوْلَىٰ من الأخْذِ بقَولِ الشَّافعيِّ وأبي حَنيفَة .

قال الذهبيُّ : هـٰذا جيدٌ ، لكن بشَرطِ أنْ يَكونَ قَد قالَ بذلكَ الحَديثِ إمامٌ من نُظَراءِ هَـٰذَين الإمامَين مثلُ مالكٍ ، أو سُفْيان ، أو الأوْزاعيّ وبأنْ يَكونَ الحَديثُ ثابتاً سالِماً من عِلَّة ، وبأن لا يَكونَ حُجَّةُ أبي حَنيفَة والشَّافعيِّ حَديثاً صَحيحاً مُعارِضاً للآخَر .

أمَّا مَنْ أخَذَ بحَديثٍ صَحيحٍ وقد تَنكَّبَه سائرُ أئمَّة الاجْتهادِ فلا ، كخَبَر : « فإنْ شَرِبَ في الرَّابِعَةِ فَاقْتُلُوهُ » ، وكحَديثِ « لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ ، يَسْرِقُ البَيْضَةَ ، فَتُقْطَعُ يَدُهُ » .

تُوفِّيَ الدَّارَكيُّ ببَغْدادَ سَنةِ خَمسٍ وسَبعينَ وثَلاثِ مِئَة وهو في عَشْر الثَّمانينَ وكانَ ثِقةً صَدوقاً .

ودَارَك : من أعْمال أصْبَهان[2] .

جاء في تَرجَمة ابنِ حَزْم ، قال الذهبيُّ : قيل إنه تَفَقَّه أولاً للشَّافِعيِّ ، ثم أدَّاهُ اجْتهادُه إلى القَولِ بنَفْيِ القِياسِ كُلّه جَليِّه وخَفيِّه ، والأخْذِ بظاهِرِ النَّص وعُمومِ الكِتاب والحَديث ، والقَولِ بالبَراءَة الأصْليَّة ، واسْتصْحابِ الحَال ، وصَنَّفَ في ذلك كُتباً كثيرة ، وناظَرَ عليه ، وبَسَط لسانَه وقَلمَه ، ولمْ يَتأدَّبْ مع الأئِمَّة في الخِطاب ، بلْ فجَّجَ[3] العِبارَة وسَبَّ وجدَّع[4] ، فكان جَزاؤُه من جِنْسِ فعلِه ، بحَيثُ إنَّه أعْرَضَ عن

---

(١) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٤٨ .
(٢) انظر السير : (الدَّارَكيّ) ١٦/ ٤٠٤ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٣٠١ .
(٣) المعنىٰ أنه ساق العبارة فجّةً قاسية .
(٤) الجَدْع في الأصل : القَطْع ، وهو كناية عن الذَّم والشَّتْم .

تَصانيفِه جَماعَةٌ من الأئمَّة ، وهَجَروهُا ونَفَروا منها ، وأُحْرِقَتْ في وَقتٍ ، واعْتَنَىٰ بها آخَرونَ من العُلماء وفتَّشُوها انْتِقاداً واسْتفادَةً ، وأخْذاً ومُؤاخَذةً ، ورَأوا فيها الدُّرَّ الثَّمينَ مَمْزُوجاً في الرَّصْفِ بالخَرَزِ المَهين ، فتارَةً يَطْرَبون ، ومرَّةً يُعْجَبون ، ومن تَفرُّدِه يَهزَؤُون .

وفي الجُملَة فالكَمالُ عَزيزٌ ، وكلُّ أحَد يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يَنهَضُ بعُلوم جَمَّة ، ويُجيدُ النَّقْلَ ، ويُحسِنُ النَّظْمَ والنَّثْرَ وفيه دينٌ وخَيرٌ ومَقاصِدُهُ جَميلةٌ ، ومُصنَّفاتُه مُفيدَةٌ ، وقد زَهدَ في الرِّئاسَة ، ولَزِمَ مَنزلَه مُكبّاً على العِلمِ ، فلا نَغْلو فيه ، ولا نَجْفو عنه ، وقد أثْنىٰ عليه قبلَنا الِكبارُ :

قال أبو حامد الغَزاليّ : وَجدتُ في أسْماءِ اللهِ تَعالَىٰ كتاباً ألَّفَه أبو محمَّد بنُ حَزْم الأنْدَلُسيّ يَدلُّ علىٰ حفظِه وسَيلانِ ذِهْنه .

وقال أبو عبد الله الحُمَيديّ : كان ابنُ حَزْم حافظاً للحَديثِ وفِقهِه ، مُستنبطاً للأحْكامِ من الكتابِ والسنَّة ، مُتفنِّناً في عُلوم جمَّة عاملاً بعلمِه ، ما رأينا مثلَه فيما اجْتمعَ له من الذَّكاء وسُرعةِ الحِفظِ وكرمِ النَّفس والتَّديُّن ، وكان له في الأدَبِ والشِّعْر نَفسٌ واسعٌ وباعٌ طَويلٌ وما رأيتُ مَنْ يقولُ الشِّعرَ على البَديهِ أسْرعَ منه وشِعرُه كثيرٌ جَمعتُه علىٰ حُروفِ المُعْجَم .

وقد حَطَّ أبو بَكْر بنُ العَربيِّ علىٰ أبي محمَّد في كتابِ « القَواصِم والعَواصِم » وعلى الظَّاهِريَّة ، فقال : هي أُمَّةٌ سَخيفَةٌ ، تَسوَّرت علىٰ مَرتَبةٍ ليست لها ، وتَكلَّمت بكلامٍ لمْ نَفْهَمْه ، تَلقَّوْه من إخْوانِهمُ الخَوارج حين حكَّم عليٌّ ، رضي الله عنه ، يوم صفين ، فقالت : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وكان أوَّلُ بدْعَةٍ لَقيتُ في رِحْلتي القَولَ بالباطِن ، فلمَّا عُدتُ وجَدتُ القَولَ بالظَّاهر قد مَلأ به المَغربَ سَخيفٌ كان من بادِيَة إشْبيليَّة يُعرفُ بابنِ حَزْم ، نَشأ وتَعلَّق بمَذهَبِ الشَّافعيِّ ، ثم انْتَسبَ إلىٰ داوُد ، ثم خَلعَ الكُلَّ ، واسْتقلَّ بنفسِه ، وزَعمَ أنَّه إمامُ الأُمَّة يَضعُ ويَرفَع ، ويَحكمُ ويشرعُ ، يَنْسبُ إلىٰ دين الله ما ليس فيه ، ويقولُ عن العُلماءِ ما لم يَقولوا تَنْفيراً للقُلوبِ منهم ، وخَرجَ عن طَريق المُشَبِّهَة

في ذاتِ الله وصِفاتِه ، فجاءَ فيه بطَوامَّ ، واتَّفقَ كونُه بين قَومٍ لا بَصَرَ لهم إلاَّ بالمَسائل فإذا طالبَهم بالدَّليلِ كاعوا[1] فيَتضاحَكُ مع أصحابه منهم ، وعَضَدَتْهُ الرِّئاسَةُ بما كان عنده من أدَبٍ ، وبشُبَهٍ كان يُوردُها على الملوك فكانوا يَحملُونَه ، ويَحمونَه ، بما كان يُلقي إليهم من شُبَهِ البِدَعِ والشِّرْك ، وفي حين عَودي من الرِّحْلة ألفَيتُ حَضْرتي منهم طافِحَة ، ونارَ ضلالِهم لافِحَة ، فقاسَيتُهم مع غَير أقْران وفي عَدَم أنْصار إلىٰ حُسَّاد يَطؤون عَقبي ، تارَةً تذهبُ لهم نفسي ، وأخْرىٰ يَنْكَشِرُ بهم ضِرْسي ، وأنا بين إعْراضٍ عنهم أو تَشَغْبُبٍ بهم ، وقد جاءَني رجلٌ بجُزْء لابنِ حَزْم سمَّاه « نُكَتُ الإسْلام » فيه دَواهي ، فجَرَّدتُ عليه نَواهي ، وجاءَني آخَرُ برسالة في الاعْتقاد فنَقضتُها برسالة « الغُرَّة » والأمرُ أفْحَشُ من أنْ يُنقَض[2] .

يقُولون : لا قَولَ إلاَّ ما قالَ اللهُ ، ولا نَتَّبعُ إلاَّ رسُولَ الله ، فإنَّ اللهَ لمْ يأمُرْ بالاقْتِداء بأحَد ولا بالاهْتداء بهَدْي بشَر ، فيَجبُ أنْ يَتحقَّقوا أنَّهم ليسَ لهم دَليلٌ وإنَّما هي سَخافَةٌ في تَهْويل ، فأوصيكم بوَصيَّتين : أنْ لا تَسْتدلُّوا عليهم ، وأنْ تُطالِبُوهم بالدَّليلِ ، فإنَّ المُبتَدعَ إذا اسْتدلَلْتَ عليه شَغبَ عليك ، وإذا طالَبتَه بالدَّليل لمْ يَجدْ إليه سَبيلاً فأمَّا قَولُهم : لا قَولَ إلاَّ ما قالَ اللهُ ، فحَقٌّ ، ولكنْ أرِني ما قالَ وأمَّا قَولُهم : لا حكمَ إلاَّ لله فغَيرُ مُسَلَّم على الإطْلاقِ ، بلْ مِنْ حُكْمِ اللهِ أنْ يَجعلَ الحُكْمَ لغَيرِه فيما قالَه وأخْبَرَ به .

صَحَّ أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ : « وَإذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَلا تُنْزِلْهُم عَلَىٰ حُكمِ اللهِ ، فَإنَّكَ لا تَدْري مَا حُكمُ اللهِ ، وَلَكنْ أَنْزِلْهُم عَلَىٰ حُكْمِكَ » وصَحَّ أنَّه قال : « عَلَيْكمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ » الحديث .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لَمْ يُنصِفْ القاضي أبو بَكْر ـ رَحمَه الله ـ شَيخَ أبيه في العِلمِ ، ولا تَكلَّمَ فيه بالقِسْط ، وبالَغَ في الاسْتخفافِ به ، وأبو بَكْر عَلىٰ عَظمَته في العِلم لا يَبلُغُ رُتبَةَ أبي محمَّد ، ولا يَكادُ ، فرَحمَهما اللهُ وغَفرَ لهما .

---

(١) أي : جَبُنوا .

(٢) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٧ .

قال اليَسَعُ بنُ حَزْم الغافِقيُّ وذَكرَ أبا محمَّد فقالَ : حدَّثني عنه عُمرُ بنُ واجب قال : بَينما نحنُ عندَ أبي ببَلَنْسِيَةَ وهو يُدرِّسُ المَذهَبَ إذا بأبي محمَّد بن حَزْم يَسْمَعُنا ، ويَتعَجَّبُ ، ثم سألَ الحاضرينَ مَسْألَةً من الفِقْه ، جُووب فيها ، فاعْترَضَ في ذلك ، فقالَ له بَعضُ الحُضَّار : هـٰذا العلمُ ليسَ من مُنتَحَلاتك ، فقامَ وقَعدَ ، ودَخلَ مَنزِلَه فعَكفَ ، ووَكَفَ[1] منه وابلٌ فما كَفَّ ، وما كانَ بعد أشْهُر قَريبَة حتىٰ قَصَدْنا إلىٰ ذلك المَوْضِع فناظَرَ أحسَنَ مُناظَرَةً ، وقال فيها : أنا أتَّبِعُ الحَقَّ ، وأجْتَهدُ ولا أتَقَيَّدُ بمَذهَبٍ[2] .

قال الذهبي : نعم ، مَنْ بَلغَ رُتْبَةَ الاجْتهادِ ، وشَهدَ له بذلكَ عدَّة من الأئمَّة ، لم يَسُغْ له أنْ يُقَلِّدَ ، كما أنَّ الفَقيهَ المُبْتدىءَ والعامِّيَّ الذي يَحفَظُ القُرآنَ أوْ كثيراً منه لا يَسُوغُ له الاجْتهادُ أبَداً ، فكَيفَ يَجْتهدُ وما الذي يَقولُ ؟ وعَلامَ يَبني ؟ وكَيفَ يَطيرُ ولمَّا يُرَيِّش ؟ والقِسْمُ الثالثُ : الفَقيهُ المُنْتَهي اليَقِظُ الفَهِمُ الْمُحَدِّثُ ، والذي قد حَفظَ مُختصَراً في الفُروع ، وكتاباً في قَواعِدِ الأصُول ، وقَرأ النَّحوَ ، وشارَكَ في الفَضائل مع حِفظِه لكتابِ اللهِ وتَشاغُلِه بتَفسيرِه ، وقُوَّة مُناظَرَتِه ، فهـٰذه رُتبَةُ مَنْ بَلغَ الاجْتهادَ المُقيَّد ، وتأهَّلَ للنَّظَرِ في دَلائِل الأئمَّة ، فمَتىٰ وَضُحَ له الحَقُّ في مَسألَة ، وثَبَتَ فيها النصُّ ، وعَملَ بها أحدُ الأئمَّةِ الأعْلامِ كأبي حَنيفَة مَثلاً ، أو كمَالِك ، أو الثَّوْريِّ ، أو الأوْزاعيِّ ، أو الشَّافعيِّ وأبي عُبَيد ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، فليَتَّبعْ فيها الحَقَّ ولا يَسلُكِ الرُّخَص وليَتورَّع ، ولا يَسعُه فيها بَعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليه تَقْليدٌ[3] .

٤ـ الفُقَهاءُ السَّبْعَة :

رَوَى الواقِديُّ عن عبدِ الرحمَـٰن بنِ أبي الزِّنادِ ، عن أبيه ، قالَ : كانَ الفُقَهاءُ السَّبعَةُ الذينَ يُسألُونَ بالمَدينَةِ ويُنْتَهىٰ إلىٰ قَولِهم : سَعيدُ ابنُ المُسَيِّب ، وأبو بَكْر بنُ

---

(١) وَكَفَ : قطر .

(٢) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٩ .

(٣) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٠ .

عبدِ الرحمَـٰن ، وعُرْوَةُ ، والقاسِمُ ، وعُبَيْدُ اللهِ ابنُ عَبدِ الله ، وخارِجَةُ بنُ زَيْد ، وسُلَيمانُ بنُ يَسار[1] .

٥ـ مَذاهِبُ فقهيَّة غَير المَذاهب الأربعَة :

جاء في تَرجمَة الإمامِ مالِك ، قال الذهبيُّ : وللزَّيْديَّة مَذهبٌ في الفُروع بالحِجازِ واليَمَنِ ، لكنَّه مَعدُودٌ في أقْوالِ أهْلِ البِدَع ، كالإماميَّة ، ولا بأسَ بمَذهَبِ داوُد ، وفيه أقْوالٌ حَسَنةٌ ، ومُتابَعَةٌ للنُّصوصِ ، مع أنَّ جَماعَةً من العُلمَاء لا يَعْتدُّون بخِلافِه ، وله شُذوذٌ في مَسائل شانَت مَذْهَبَه .

ولكن هـٰذا الإمامُ الذي هو النَّجْمُ الهادي قد أنْصَفَ ، وقال قَولاً فَصْلاً ، حَيثُ يقولُ : كُلُّ أحَدٍ يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ صاحِبُ هـٰذا القَبر صلى الله عليه وسلم[2] .

٦ـ مَذاهِبُ فقهيَّة فَنِيَت :

جاء في تَرجمَة الإمامِ الأوْزاعيِّ قالَ الذهبيُّ : وله مَسائلُ كَثيرةٌ حَسَنةٌ يَنفَردُ بها ، وهي مَوْجودَةٌ في الكُتبِ الكِبار ، وكان له مَذْهَبٌ مُسْتقلٌّ مَشْهُورٌ ، عَملَ به فُقَهاءُ الشَّامِ مُدَّة ، وفُقَهاء الأنْدَلُس ثم فَنيَ[3] .

وقالَ الذهبيُّ رَحمَهُ الله بَعدمَا ذَكرَ المُقَلِّدينَ مُرَتَّبين من الصَّحابَة ثم التَّابِعينَ ثم من بَعدِ هـٰذا النَّمَط تَناقَصَ الاجْتهادُ ، ووُضِعَت المُخْتَصَراتُ ، وأخْلدَ الفُقهاءُ إلى التَّقْليدِ ، من غَيرِ نَظَرٍ في الأعْلَم ، بل بحَسبِ الاتِّفاقِ ، والتَّشَهِّي ، والتَّعْظيمِ ، والعادَةِ ، والبَلدِ فلَوْ أرادَ الطَّالبُ اليومَ أنْ يتَمذهَبَ في المَغْربِ لأبي حَنيفَة ، لعَسُرَ عليه ، كما لَوْ أرادَ أنْ يتَمَذهَبَ لابنِ حَنْبل بُخارِيٌّ ، وسَمَرقَنْديٌّ ، لصَعُبَ عليه ، فلا

---

(١) انظر السير : (خارجة بن زَيد) ٤/ ٤٣٧ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٢٩ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٣٣ .

(٣) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٨٢ .

يجيءُ منه حَنْبَليٌّ ، ولا من المَغْربيِّ حَنفيٌّ ، ولا من الهِنْديِّ مَالِكيٌّ ، وبكلِّ حال : فإلىٰ فِقْه مالك المُنْتَهىٰ فعامَّة آرائِه مُسدَّدة ، ولوْ لَمْ يَكنْ له إلاَّ حَسْمُ مادة الحِيَل ، ومُراعاةُ المَقاصِدِ لكَفاهُ ، ومَذهَبُه قد مَلأ المَغربَ ، والأنْدَلُسَ ، وكثيراً من بلادِ مِصْرَ ، وبَعضَ الشَّامِ ، واليَمنِ ، والسُّودانِ ، وبالبَصْرَة ، وبَغْدادَ ، والكُوفَة ، وبَعضَ خُراسان ، وكذلكَ اشْتَهرَ مَذهَبُ الأوْزاعيِّ مُدَّة ، وتَلاشَىٰ أصْحابُه ، وتَفانوا وكذلك مَذهَبُ سُفْيانَ وغَيرُه مِمَّن سَمَّيْنا ، ولَمْ يَبْقَ اليومَ إلاَّ هٰذه المَذاهبُ الأرْبَعَة وقلَّ مَنْ يَنهَضُ بمَعرِفَتِها كما يَنبغي ، فَضلاً عن أنْ يَكونَ مُجتهداً[1] .

وانْقَطعَ أتْباعُ أبي ثَوْر بعد الثَّلاثِ مِئَة ، وأصْحابُ داوُدَ إلاَّ القَليلُ ، وبَقِيَ مَذهَبُ ابنِ جَرير إلىٰ ما بَعدَ الأرْبَعِ مِئَة[2] .

٧ـ العُلَماءُ المُقَلَّدون :

فالمُقلَّدونَ صَحابةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، بشَرطِ ثُبوتِ الإسْنادِ إليهم ، ثم أئمَّةِ التَّابِعين كعلْقَمةَ ، ومَسْروق ، وعُبَيدَة السلماني ، وسَعيدِ بنِ المُسَيَّب ، وأبي الشعثاء ، وسَعيدِ بنِ جُبَير ، وعُبَيدِ الله بنِ عَبد الله ، وعُرْوَةَ ، والقاسِمِ ، والشَّعْبي ، والحَسَن ، وابنِ سيرينَ وإبْراهيمَ النَّخْعي .

ثم كالزُّهْريِّ ، وأبي الزِّنادِ ، وأيُّوبَ السِّخْتيانيِّ ، ورَبيعَةَ وطَبقَتِهم .

ثم كأبي حَنيفَةَ ، ومالِكٍ ، والأوْزاعيِّ ، وابنِ جُرَيْجٍ ، ومَعْمَرٍ ، وابنِ أبي عروبَة ، وسُفْيانَ الثَّوْريِّ ، والحمَّادَين ، وشُعْبَة ، واللَّيْثِ ، وابنِ الماجشُون ، وابنِ أبي ذِئْب .

ثم كابنِ المُبارَك ، ومُسْلمِ الزَّنجيِّ ، والقاضي أبي يوسُف ، والهِقل ابنِ زياد ، ووَكيعٍ ، والوَليدِ بنِ مُسْلمٍ ، وطَبقَتِهم .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٢/ ١ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٢/ ٢ .

ثم كالشَّافعيِّ ، وأبي عُبَيْدٍ ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، وأبي ثَوْرٍ ، والبُويطي ، وأبي بَكْرِ بنِ أبي شَيْبَة .

ثم كالمُزَنيِّ ، وأبي بَكْرٍ الأثْرَم ، والبُخاريِّ ، ودَاوُدَ بنِ عليٍّ ، ومحمَّدِ ابنِ نَصْرٍ المَرْوزيِّ ، وإبْراهيمَ الحَربيِّ ، وإسْماعيلَ القاضي .

ثم كمُحمَّدِ بنِ جَرير الطَّبريِّ ، وأبي بَكْرِ بنِ خُزَيْمَة ، وأبي عبَّاس بنِ سُرَيْج ، وأبي بَكْرِ بنِ المُنْذِر ، وأبي جَعْفَرَ الطَّحاويِّ ، وأبي بَكْرٍ الخَلاَّل[1] .

٨ـ تَتبُّع الرُّخَص فِسقٌ :

قال سُليمانُ التَّيميُّ : لَوْ أخَذتَ برُخْصَة كُلِّ عالِم اجْتمَعَ فيكَ الشَّرُّ كلُّه[2] .

وجاءَ في تَرجمَة المُعْتَضدِ بالله ، قال إسْماعيلُ القاضِي : ودَخَلتُ مرَّةً ، فدَفَع إليَّ كتاباً ، فنَظَرتُ فيه ، فإذا قد جُمعَ له فيه الرُّخَصُ من زَلَلِ العُلماءِ ، فقُلتُ : مُصنِّفُ هـٰذا زِنْدِيقٌ قالَ : ألمْ تَصِحَّ هـٰذه الأحاديثُ ؟ قلتُ : بلَىٰ ، لكن مَنْ أباحَ المُسْكِرَ لَمْ يُبِحْ المُتْعَةَ ، ومَنْ أباحَ المُتْعَةَ لَمْ يُبِحْ الغِناءَ ، وما مِنْ عالمٍ إلاَّ ولَه زَلَّة ، ومَنْ أخَذَ بكُلِّ زَلَلِ العُلماءِ ذَهبَ دِينُه ، فأمَرَ بالكتابِ فأُحْرِق[3] .

٩ـ ماذا يَعمل مَنْ أرادَ التَّفَقُّه :

قال الإمامُ الذهبيُّ : شأنُ الطَّالبِ أنْ يَدرُسَ أوَّلاً مُصَنَّفاً في الفِقْه ، فإذا حَفظَه ، بَحثَه ، وطالَعَ الشُّروحَ ، فإنْ كانَ ذَكياً ، فَقيهَ النَّفسِ ، ورأىٰ حُجَجَ الأئمة ، فليُراقِبِ اللهَ ، وليَحْتَطْ لدِينِه ، فإنَّ خَيرَ الدِّينِ الوَرَعُ ، ومَنْ تَركَ الشُّبهات ، فقَد اسْتبرأ لدينِه وعِرْضِه ، والمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ الله[4] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٣١ .
(٢) انظر السير : (سُليمانُ بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٤١ .
(٣) انظر السير : (المُعْتَضِد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٠٣ .
(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٣١ .

١٠ـ التحْذير من الرأي والقِياس بالهَوىٰ :

قال أبو زُرعَة الدِّمَشقيُّ : حدَّثنا يَزيدُ بنُ عبد رَبِّه يقولُ : سَمعتُ وَكيعاً يقولُ ليَحْيَى الوحاظيِّ : اجْتَنبِ الرأيَ ، فإنِّي سَمعتُ أبا حَنيفَة رَحمَه اللهُ يقولُ : البَوْلُ في المَسْجدِ أحْسَنُ من بَعضِ قِياسِهم .

وقد ماتَ الوحاظيُّ سنةَ اثنَتين وعشْرينَ ومئتَين[1] .

١١ـ فَضْلُ الإجْماع :

قال الزَّنْجانيُّ في قَصيدتِه[2] :

وما أجْمَعتْ فيه الصَّحابَةُ حُجَّةٌ ... وتِلْكَ سبيلُ المُؤمنينَ لِمَن سَبَرْ
فَفِي الأَخذِ بالإجمَاعِ ـ فاعْلَم ـ سعادَةٌ ... كما في شُذوذِ القَوْلِ نَوعٌ من الخَطَر

١٢ـ الفِقْهُ الظَّاهِري :

قال الإمامُ الذهبيُّ : للعُلماءِ قَولانِ في الاعْتِدادِ بخِلافِ داوُد وأتبَاعِه : فمَنِ اعْتدَّ بخِلافِهم ، قالَ : ما اعْتدادُنا بخِلافِهم لأنَّ مُفْرَداتِهم حُجَّة ، بل لتُحْكَىٰ في الجُملَة ، وبَعضُها سائغٌ ، وبَعضُها قَويٌّ وبَعضُها ساقطٌ ، ثم ما تَفرَّدوا به هو شَيءٌ من قَبيلِ مُخالَفَة الإجْماعِ الظنِّي ، وتَندُرُ مُخالَفتُهم لإجْماعٍ قَطْعيٍّ ومَنْ أهْدَرَهم ، ولَمْ يَعْتَد بهم ، لمْ يَعدَّهم في مَسائلِهم المُفْرَدَة خارجين بها من الدِّين ، ولا كَفَّرهم بها ، بلْ يقولُ : هـٰؤلاء في حَيِّزِ العَوامِّ ، أو هم كالشِّيعَة في الفُروع ، ولا نَلتَفتُ إلىٰ أقْوالِهم ، ولا نَنْصبُ معهم الخِلافَ ، ولا يُعتَنىٰ بتَحْصيلِ كُتبِهم ، ولا نَدلُّ مُسْتفْتياً من العامَّة عليهم وإذا تَظاهَروا بمَسْألَة مَعْلومَة البُطْلان ، كمَسْحِ الرِّجْلَين ، أدَّبْناهم ، وعَزَّرْناهم ، وألْزَمْناهم بالغُسْلِ جَزْماً .

قال الأستاذُ أبو إسْحاقَ الإسْفَرَاييني : قال الجُمهورُ : إنَّهم ـ يَعني نُفاةُ القِياسِ ـ

---

(١) انظر السير : (الوُحاظِيّ) ١٠/ ٤٥٣ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٨٣ .
(٢) انظر السير : (الزَّنْجاني) ١٨/ ٣٨٥ـ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤٢٤ .

لا يَبْلغونَ رُتْبةَ الاجْتهادِ ، ولا يَجوزُ تَقليدُهم القَضاءَ .

وقال إمامُ الحَرمَين أبو المَعالي : الذي ذَهبَ إليه التَّحْقيقُ : أنَّ مُنْكري القياسِ لا يُعدُّون مِنْ عُلماءِ الأُمَّة ، ولا مِنْ حَملَة الشَّريعَة ، لأنَّهم مُعانِدون ، مُباهِتُون فيما ثَبتَ اسْتفاضَةً وتَواتُراً ، لأنَّ مُعْظمَ الشَّريعةِ صادِرٌ عن الاجْتهادِ ، ولا تَفي النُّصوصُ بعُشْرِ مِعْشارِها ، وهـٰؤلاء مُلتَحِقونَ بالعَوامِّ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا القَولُ من أبي المَعالي أدَّاهُ إليه اجْتهادُه ، وهم فأدَّاهم اجْتهادُهم إلىٰ نَفي القَولِ بالقياسِ ، فكَيف يُرَدُّ الاجْتهادُ بمِثلِه ، ونَدْري بالضَّرورَة أنَّ داوُد كانَ يُقْرىءُ مَذهَبَه ، ويُناظِرُ عليه ، ويُفْتي به في مثل بَغْدادَ ، وكثرةُ الأئمَّة بها وبغَيرِها ، فلَمْ نَرَهُم قامُوا عليه ، ولا أنْكَرُوا فَتاويه ولا تَدريسَه ، ولا سَعَوا في مَنعِه من بَثِّه ، وبالحَضْرةِ مثلُ إسْماعيلَ القاضي ، شَيخِ المالكيَّة ، وعُثمانِ بنِ بَشَّار الأنْماطيِّ ، شَيخِ الشَّافعيَّة ، والمَرْوذيِّ شَيخِ الحَنْبَليَّة ، وابنَيْ الإمامِ أحمَدَ ، وأبي العبَّاس أحمَدَ بنِ محمّد البِرْتي ، شَيخِ الحَنفيَّة ، وأحمَدَ ابنِ أبي عِمْرانَ القاضي ، ومثلُ عالِمِ بَغْدادَ إبْراهيمَ الحَرْبيِّ بلْ سَكتُوا له ، حتىٰ لقد قالَ قاسمُ بنُ أصْبَغ : ذاكَرتُ الطَّبريَّ ـ يَعني ابنَ جَرير ـ وابنَ سُرَيْج ، فقُلتُ لهما : كتابُ ابنِ قُتَيْبَة في الفِقْه أينَ هو عندَكُما ؟ قالا : ليسَ بشيءٍ ولا كتابِ أبي عُبَيد ، فإذا أرَدتَ الفِقْهَ فكُتبَ الشَّافعيِّ ، وداوُدَ ونُظَرائِهما .

ثم كانَ بعدَه ابنُه أبو بَكْر ، وابنُ المُغَلّس ، وعدَّة من تلامِذَة داوُد وعلىٰ أكْتافِهم مثلُ : ابنِ سُرَيْج ، شَيخِ الشَّافعيَّة ، وأبي بَكْر الخَلاَّل ، شَيخِ الحَنْبَليَّة ، وأبي الحَسَن الكَرْخي شَيخِ الحَنفيَّة ، وكان أبو جَعْفَر الطَّحاويُّ بمِصْرَ بل كانوا يتَجالَسُون ويَتناظَرون ، ويَبرُزُ كلٌّ منهم بحُجَجِه ، ولا يَسْعَون بالداوُديَّة إلى السُّلطانِ بلْ أبلغُ من ذلك ، يَنصِبُون معهم الخِلافَ ، في تَصانيفِهم قَديماً وحَديثاً ، وبكلِّ الحالِ ، فلَهم أشْياءُ أحْسَنوا فيها ، ولهم مَسائلُ مُسْتَهْجنَة ، يُشْغَبُ عليهم بها ، وإلىٰ ذلك يُشيرُ الإمامُ أبو عَمرٍو بنُ الصَّلاح ، حيثُ يقولُ : الذي اخْتارَه الأستاذُ أبو مَنْصور ، وذَكرَ أنَّه الصَّحيحُ من المَذْهَب ، أنَّه يُعْتَبَرُ خِلافُ داوُد ثمَّ قالَ ابنُ الصَّلاح : وهـٰذا الذي اسْتقرَّ

عليه الأمرُ آخراً ، كما هو الأغْلَبُ الأعْرَفُ من صَفْوِ الأئمَّة المتأخرين ، الذين أوْرَدوا مَذهَبَ داوُد في مُصنَّفاتِهم المَشْهورَة ، كالشَّيخِ أبي حامد الإسْفَراييني ، والماوَرْديِّ ، والقاضي أبي الطَّيِّب فلَوْلا اعْتدادُهم به لما ذَكروا مَذهَبَه في مُصنَّفاتِهم المَشْهورَة .

قالَ : وأرَىٰ أن يُعْتَبَر قولُه إلاَّ فيما خالَفَ فيه القياسَ الجَليَّ ، وما أجْمَعَ عليه القياسيُّون من أنواعِه ، أو بَناهُ علىٰ أصُولِه التي قامَ الدَّليلُ القاطعُ علىٰ بُطْلانِها ، فاتِّفاقُ مَنْ سِواهُ إجْماعٌ مُنْعَقدٌ ، كقَولِه في التَّغَوُّطِ في الماءِ الرَّاكِد[1] وتلكَ المَسائلُ الشَّنيعَة ، وقولِه : لا رِبَا إلاَّ في السِّتَّة المَنْصُوصِ عليها ، فخِلافُه في هـٰذا أو نَحوَه غيرُ مُعْتدٍّ به ، لأنَّه مبنيٌّ علىٰ ما يُقطَعُ ببُطْلانِه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لا رَيبَ أنَّ كُلَّ مَسألَةٍ انْفرَدَ بها ، وقُطعَ ببُطْلانِ قَولِه فيها ، فإنَّها هَدرٌ ، وإنَّما نَحكيها للتَّعجُّبِ ، وكُلَّ مَسألَةٍ له عَضَدَها نَصٌّ ، وسَبقَه إليها صاحبٌ أو تابعٌ ، فهي من مَسائلِ الخِلافِ ، فلا تُهْدَر .

وفي الجُملَةِ ، فداوُد بنُ عليّ بَصيرٌ بالفِقْه ، عالمٌ بالقُرآنِ ، حافِظٌ للأثَرِ ، رأسٌ في مَعرِفَةِ الخِلافِ ، من أوْعيَةِ العِلمِ ، له ذَكاءٌ خارِقٌ ، وفيه دينٌ مَتينٌ وكذلكَ في فُقَهاءِ الظَّاهِريَّة جَماعَةٌ لهم عِلمٌ باهِرٌ ، وذَكاءٌ قَويٌّ ، فالكَمالُ عَزيزٌ ، واللهُ المُوَفِّق .

ونحن : فنحكي قولَ ابنَ عبَّاس في المتعة ، وفي الصَّرْف[2] ، وفي إنْكارِ العَوْل ، وقَولَ طائِفَةٍ من الصَّحابَة في تَرك الغُسْلِ من الإيْلاجِ[3] ، وأشْباهَ ذلك ، ولا نُجَوِّزُ لأحَد تَقليدَهم في ذلك .

---

(١) وهو قول ابن حَزْم ، ونَصُّ كلامه في « المُحلَّىٰ » (١/ ١٣٥) : (إلاَّ أن البائل في الماء الراكد الذي لا يجري حرامٌ عليه الوضوء بذلك الماء والاغتسالُ به لغرض أو لغيره ، وحكمه التيمم إن لم يجد غيره فلو أحدَثَ في الماء أو بال خارجاً منه ثم جرى البولُ فيه فهو طاهرٌ يَجوزُ الوضوء منه والغسل له ولغيره إلاَّ أن يغير ذلك البول أو الحدث شيئاً من أوصاف الماء ، فلا يُجزىء حينئذ استعماله أصلاً لا له ولا لغيره .

(٢) انظر صَحيح مسلم رقم : (٥٩٦) ، (١٠٢) ، وشرح السُّنَّة : (٨/ ٦٠ـ ٦١) .

(٣) انظر شَرح السُّنَّة : (٢/ ٥ـ ٧).

مات داوُدُ في شَهرِ رَمضانَ سَنةَ سَبعينَ ومِئَتين[1] .

جاء في تَرجَمة ابنِ حَزْم ، قال الذهبيُّ : قيل إنه تَفَقَّه أولاً للشَّافِعيِّ ، ثم أدَّاهُ اجْتهادُه إلى القَولِ بنَفْيِ القِياسِ كُلّه جَليّه وخَفيّه ، والأخْذِ بظاهِرِ النَّص وعُمومِ الكِتاب والحَديث ، والقَولِ بالبَراءَة الأصْليَّة ، واسْتصْحابِ الحَال ، وصَنَّفَ في ذلك كُتباً كثيرة ، وناظَرَ عليه ، وبَسَط لسانَه وقَلمَه ، ولمْ يَتأدَّبْ مع الأئِمَّة في الخِطاب ، بلْ فجَّجَ[2] العِبارَة وسَبَّ وجدَّع[3] ، فكان جَزاؤُه من جِنْسِ فعلِه ، بحَيثُ إنَّه أعْرَضَ عن تَصانيفِه جَماعَةٌ من الأئمَّة ، وهَجَروهُا ونَفَروا منها ، وأُحْرِقَتْ في وَقتٍ ، واعْتَنَىٰ بها آخَرونَ من العُلماء وفتَّشُوها انْتِقاداً واسْتفادَةً ، وأخْذاً ومُؤاخَذةً ، ورَأوا فيها الدُّرَّ الثَّمينَ مَمْزُوجاً في الرَّصْفِ بالخَرَزِ المَهين ، فتارَةً يَطْرَبون ، ومرَّةً يُعْجَبون ، ومن تَفرُّدِه يَهزَؤُون .

وفي الجُملَة فالكَمالُ عَزيزٌ ، وكلُّ أحَد يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يَنهَضُ بعُلوم جَمَّة ، ويُجيدُ النَّقْلَ ، ويُحسِنُ النَّظْمَ والنَّثْرَ وفيه دينٌ وخَيرٌ ومَقاصِدُهُ جَميلةٌ ، ومُصنَّفاتُه مُفيدَةٌ ، وقد زَهدَ في الرِّئاسَة ، ولَزِمَ مَنزلَه مُكبّاً على العِلمِ ، فلا نَغْلو فيه ، ولا نَجْفو عنه ، وقد أثْنىٰ عليه قبلَنا الكِبارُ :

قال أبو حامد الغَزاليّ : وَجدتُ في أسْماءِ اللهِ تَعالَىٰ كتاباً ألَّفَه أبو محمَّد بنُ حَزْم الأنْدَلُسيّ يَدلُّ علىٰ حفظِه وسَيلانِ ذِهْنه .

وقال أبو عبد الله الحُمَيديّ : كان ابنُ حَزْم حافظاً للحَديثِ وفِقهِه ، مُستنبطاً للأحْكامِ من الكتابِ والسنَّة ، مُتفنِّناً في عُلوم جمَّة عاملاً بعلمِه ، ما رأينا مثلَه فيما اجْتمعَ له من الذَّكاء وسُرعةِ الحِفظِ وكرمِ النَّفس والتَّديُّن ، وكان له في الأدَبِ والشِّعْر نَفسٌ واسعٌ وباعٌ طَويلٌ وما رأيتُ مَنْ يقولُ الشِّعرَ على البَديهِ أسْرعَ منه وشِعرُه كثيرٌ جَمعتُه علىٰ حُروفِ المُعْجَم .

---

(١) انظر السير : (داوُد بن عَليّ) ١٣/ ٩٧ـ١٠٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٥٨ـ١٠٦٠ .

(٢) المعنىٰ أنه ساق العبارة فجّةً قاسية .

(٣) الجَدْع في الأصل : القَطْع ، وهو كناية عن الذَّم والشَّتْم .

وقد حَطَّ أبو بَكْر بنُ العَربيِّ علىٰ أبي محمَّد في كتابِ « القَواصِم والعَواصِم » وعلى الظَّاهِريَّة ، فقال : هي أُمَّةٌ سَخيفَةٌ ، تَسوَّرت علىٰ مَرتَبةٍ ليست لها ، وتَكلَّمت بكلامٍ لمْ نَفْهَمْه ، تَلقَّوْه من إخْوانِهِمُ الخَوارج حين حكَّم عليٌّ ، رضي الله عنه ، يوم صفين ، فقالت : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وكان أوَّلُ بدْعَةٍ لَقيتُ في رِحْلتي القَولَ بالباطِن ، فلمَّا عُدتُ وجَدتُ القَولَ بالظَّاهر قد مَلأ به المَغربَ سَخيفٌ كان من بادِيَة إشْبيليَّة يُعرفُ بابنِ حَزْم ، نَشأ وتَعلَّق بمَذهَبِ الشَّافعيِّ ، ثم انتُسبَ إلىٰ داوُد ، ثم خَلعَ الكُلَّ ، واسْتقلَّ بنفسِه ، وزَعمَ أنَّه إمامُ الأُمَّة يَضعُ ويَرفَع ، ويَحكمُ ويشرعُ ، يَنْسبُ إلىٰ دين الله ما ليس فيه ، ويقولُ عن العُلماءِ ما لم يَقولوا تَنْفيراً للقُلوبِ منهم ، وخَرجَ عن طَريق المُشَبِّهَة في ذاتِ الله وصِفاتِه ، فجاءَ فيه بطَوامَّ ، واتَّفقَ كونُه بين قَومٍ لا بَصَرَ لهم إلاَّ بالمَسائل فإذا طالبَهم بالدَّليلِ كاعوا[1] فيَتضاحَكُ مع أصحابه منهم ، وعَضَدَتْهُ الرِّئاسَةُ بما كان عنده من أدَبٍ ، وبشُبَهٍ كان يُوردُها على الملوك فكانوا يَحملُونَه ، ويَحمونَه ، بما كان يُلقي إليهم من شُبَهِ البِدَعِ والشِّرْك ، وفي حين عَودي من الرِّحْلة ألفَيتُ حَضْرتي منهم طافِحَة ، ونارَ ضلالِهم لافِحَة ، فقاسَيتُهم مع غَير أقْران وفي عَدَم أنْصار إلىٰ حُسَّاد يَطؤون عَقبي ، تارَةً تذهبُ لهم نفسي ، وأخْرىٰ يَنْكَسِرُ بهم ضِرْسي ، وأنا بين إعْراضٍ عنهم أو تَشَغْبُبٍ بهم ، وقد جاءَني رجلٌ بجُزْء لابنِ حَزْم سمَّاه « نكتُ الإسْلام » فيه دَواهي ، فجَرَّدتُ عليه نَواهي ، وجاءَني آخَرُ برسالة في الاعْتقاد فنَقضتُها برسالة « الغُرَّة » والأمرُ أفْحَشُ من أنْ يُنقَض[2] .

١٣ـ فِقْهُ الإمَاميَّة :

عن رَبيعِ بنِ مُنْذِر ، عن أبيه قال : كُنَّا مع ابنِ الحَنفيَّة ، فأرادَ أنْ يَتوضَّأ ، فنَزعَ خُفيْه ، ومَسحَ علىٰ قَدمَيْه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا قد يَتعلَّقُ به الإمَاميَّة وبظَاهِرِ الآيَة ، لَكنَّ غَسْلَ الرِّجْلَينِ شَرعٌ لازِمٌ بيَّنه لنا الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم وقالَ : « وَيْلٌ لِلأعْقَابِ مِنَ

---

(١) أي : جَبُنوا .

(٢) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٧ .

النَّارِ » وعَليه عَمَلُ الأُمَّة ولا اعْتِبَارَ بمَنْ شَذَّ ، قالَ رَافِضِيٌّ : فأنتُم تَرَوْنَ مَسحَ مَوْضِعِ ثَلاثِ شَعراتٍ بَلْ شَعرَةٌ من الرَّأسِ يُجزِىءُ ، والنَّصُّ فلا يَحتَمِلُ هـٰذا ، ولا يُسَمَّىٰ مَنِ اقْتَصَرَ عَليه مَاسِحاً لِرَأسِهِ عُرْفاً ، ولا رَأيْنَا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا أحَداً من أصْحابِه اجْتَزأ بذَلكَ ولا جَوَّزَه فالجَوابُ : أنَّ البَاءَ لِلتَّبْعِيضِ في قَولِه ﴿ بِرُءُوسِكُمْ ﴾[1] ولَيسَ هـٰذا الْمَوضِعُ يَحتَمِلُ تَقْريرَ هـٰذه الْمَسْألَة[2] .

وقالَ أبو عليٍّ التَّنوخيُّ : رَأيتُ في مَجلسِ أبي عبدِ الله ابنِ الدَّاعي ، وقد جاءَه رَجلٌ بفَتْوَىٰ فيمَنْ حَلفَ فطلَّق امرأتَه ثَلاثاً مَعاً ، فقال له : تُريدُ أنْ أفْتيكَ بما عندي وعندِ أهْلِ البَيتِ أو بما يَحكيه غَيرُنا عن أهْلِ البَيْتِ ؟ فقال : أريدُ الجَميعَ ، قال : أمَّا عندي وعندَهم فقد بانَت ، ولا تَحلُّ لكَ حتىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيرَك .

قال الذهبيُّ : كان يَمتَنعُ من التَّرحُّمِ علىٰ مُعاويَة رضي الله عنه ، ولا يَشْتمُ الصَّحابَة[3] .

١٤ـ فِقْهُ الجِهَاد :

قالَ علقمَةُ : كُنَّا بالرُّوم وعَلينا الوَليدُ بنُ عُقْبَة ، فشَرِبَ ، فأرَدْنا أنْ نَحُدَّه فقالَ حُذيفَةُ بنُ اليَمانِ : أتَحُدُّونَ أميرَكم ، وقد دَنوتُم من عَدوِّكم ، فيَطمَعون فيكُم[4] .

١٥ـ أُرْجُوزَةٌ فِقْهيَّة في الحَثِّ على اتِّباع مَذْهَب مالك :

قال أبو عَمرو الدَّاني[5] :

تَـدْري أَخِـي أيـنَ طَـريـقُ الجنَّـة ... طَـريقُهـا القُـرآنُ ثُـمَّ السُّنَّـة
كـلاهُمـا ببَلَـدِ الـرَّسُـولِ ... ومَـوطِـنِ الأصْحـابِ خَيـرِ جِيـلِ

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢ .
(٢) انظر السير : (ابن الحَنَفيَّة) ٤/ ١١٠ـ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٦١ .
(٣) انظر السير : (ابنُ الدَّاعي) ١٦/ ١١٤ـ١١٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٧١ .
(٤) انظر السير : (الوَليد بن عُقْبَة) ٣/ ٤١٢ـ٤١٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٠٣ .
(٥) انظر السير : (أبو عَمرو الدَّاني) ١٨/ ٧٧ـ٨٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٣٨٧ .

فـاتَّبعَـنْ جَمـاعَـةَ المـدينَـةْ فَـالعِلْـمُ عَـنْ نَبيِّهـم يَـروُونَـه
وهُـمْ مَحجَّـةٌ عَلَـىٰ سِـواهُـم فـي النَّقـلِ والقَـولِ وفـي فَتْـواهُـم
واعْتَمـدنْ عَلَـى الإمَـامِ مَـالِـكْ إذ قَـد حَـوَىٰ عَلَـىٰ جَميـعِ ذَلِـكْ
فـي الفِقْـهِ والفَتْـوَىٰ إليـه المُنْتَهـى وصحَّـةِ النَّقْـلِ وعِلْـمِ مَـنْ مَضَـى

١٦ـ مُناظَرةٌ فِقْهيَّة :

قالَ الشَّاذَكونيُّ : سَمعتُ ابنَ عُيَينَةَ يقولُ : كانَ الأوْزاعيُّ والثَّوْريُّ بمِنَىٰ ، فقالَ الأوْزاعيُّ للثَّوْريِّ : لمَ لا تَرفَعُ يَديْك في خَفْضِ الرُّكوعِ ورَفْعِه ؟ فقالَ : حدَّثنا يَزيدُ بنُ أبي زيادٍ[1] ، فقال الأوْزاعيُّ : رَوَىٰ لك الزُّهْريُّ ، عن سالِم ، عن أبيه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وتُعارِضُني بيَزيدَ رَجلٍ ضَعيفِ الحَديثِ ، وحَديثُه مُخالِفٌ للسُّنَّة ، فاحْمرَّ وَجهُ سُفيانَ فقالَ الأوْزاعيُّ : كأنَّك كَرِهْتَ ما قُلتُ ؟ قالَ : نَعمَ فقالَ : قُمْ بنا إلى المَقامِ نَلْتَعِنُ أيُّنا على الحَقِّ قالَ : فتَبسَّمَ سُفيانُ لَمَّا رآهُ قد احْتدَّ[2] .

١٧ـ التَّعَصُّب المَذْهَبي :

(أ) قصّة مالك في طَلبه من المَنْصور عَدم حَمل النَّاس علىٰ مَذْهَب واحد :

قال محمَّدُ بنُ عُمَر : سَمعتُ مَالكاً يَقولُ : لمَّا حَجَّ المَنصُورُ دَعاني ، فَدخَلتُ عليه ، فحادَثْتُه ، وسَألَني فأجَبْتُه ، فقال : عَزَمتُ أن آمُرَ بكُتُبك هـٰذه ـ يَعْني المُوَطَّأ ـ فتُنْسَخ نُسَخاً ، ثم أبْعَثُ إلىٰ كُلِّ مِصْرٍ من أمْصار المُسْلمين بنُسْخَة ، وآمُرُهم أنْ يَعْمَلوا بما فيها ويَدَعوا ما سِوَىٰ ذلك من العِلْم المُحْدَث ، فإنِّي رأيتُ أصْلَ العِلْمِ رِوايَةُ أهْل المَدينَة وعِلْمَهم ، قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، لا تَفْعَلْ ، فإنَّ النَّاسَ قد سِبقَت إليهم أقاويلُ وسَمعوا أحاديثَ ، ورَوَوْا رِواياتٍ ، وأخذَ كلُّ قومٍ بما سِبقَ إليهم ، وعَملوا به ، ودانوا به ، من اخْتِلافِ أصْحابِ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وغَيرِهم ، وإنَّ

---

(١) تَمامُه : عبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ ، عن البراء ، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا افْتَتَحَ الصَّلاةَ رَفَعَ يَدَيْهِ إلىٰ قَريبِ مَنْ أُذُنَيْه ثُمَّ لا يَعُود » .

(٢) انظر السير : (الأوْزاعيّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٨١ .

رَدَّهُم عمَّا اعْتَقَدوه شَديدٌ ، فدَعِ النَّاسَ وما هُم عليه ، وما اخْتارَ أهلُ كلِّ بلَدٍ لأنْفُسِهِم فقال : لَعَمْري لَوْ طَاوَعْتَني لأمَرْتُ بذلك[1] .

(ب) حَوادِثُ تدُلُّ على التَّعَصُّب المَذْهَبي :

رَوَىٰ أبو الشَّيخِ الحافظُ وغَيرُه من غَيرِ وَجهٍ : أنَّ الشَّافعيَّ لَمَّا دَخلَ مِصْرَ أتاهُ جُلَّةُ أصْحابِ مَالِك ، وأقبَلوا عليه ، فلمَّا رَأوْهُ يُخالِفُ مالكاً ، ويَنقُضُ عليه ، جَفَوْهُ وتَنكَّروا له ، فأنْشأَ يَقولُ[2] :

أَأَنثُـرُ دُرَّاً بيـنَ سـارِحَـةِ النَّعَـم ... وأَنْظـمُ مَنْثُـوراً لـراعِيَـةِ الغَنَـم
لَعَمْري لَئِنْ ضُيِّعتُ في شَرِّ بَلدَةٍ ... فَلَستُ مُضِيعاً بَينَهم غُرَرَ الحِكَم
فـإنْ فـرَّجَ الله اللَّطيـفُ بِلُطفِـه ... وصَـادَفْـتُ أهْـلاً للعُلـومِ وللحِكَـم
بَثَثْـتُ مُفيـداً واسْتَفَـدتُ ودادَهـم ... وإلاَّ فمحـزُونٌ لَـدَيَّ ومُكْتَتَـم
ومَـنْ منَـحَ الجُهَّـالَ عِلْمـاً أضَـاعَـه ... وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَوجِبينَ فَقَد ظلَم
وكَـاتِـمُ عِلْـمِ الـدِّيـنِ عمَّـنْ يُـريـدُهُ ... يُبُـوءُ بـإثْـمٍ زَادَ وآثـمٍ إذَا كَتَـم

قال أبو عبد الله بنُ مَنْدَة : حُدِّثتُ عن الرَّبيعِ قال : رَأيتُ أشْهَبَ بنَ عبدِ العَزيزِ ساجِداً يَقولُ في سُجودِه : اللَّهُمَّ أَمِتْ الشَّافِعيَّ لا يَذهَبُ عِلمُ مالك ، فبَلغَ الشَّافِعيَّ ، فأنْشَأَ يَقولُ[3] :

تَمنَّىٰ رِجَـالٌ أنْ أَمُـوتَ وإنْ أَمُـتْ ... فتِلْـكَ سَبيـلٌ لَسْـتُ فيهـا بـأَوحَـدِ
فَقُل للَّذِي يَبْغِي خِلافَ الَّذِي مَضَى ... تَهيَّـأْ لأُخْـرَىٰ مِثْلِهـا فكَـأَنْ قَـدِ
وَقَدْ عَلِمُوا لَو يُنفَقُ العِلْمُ عِندَهم ... لَئِـنْ مِـتُّ مـالـدَّاعِـي عَلَـيَّ بمُخَلَـدِ

قال الإمام محمد بنُ حَزْم الظاهري : وكان محمَّدُ بنُ عبد الرحمَـٰن الأُمَوي صاحبُ الأنْدَلسِ مُحبَّاً للعُلومِ عارِفاً ، فلمَّا دخلَ بَقيٌّ الأنْدَلسَ بـ« مُصَنَّف أبي بَكْر بنِ

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧/٧٢٩ .
(٢) انظر السير : (الإمام الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٥١ .
(٣) انظر السير : (الإمام الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٥١ .

أبي شَيْبَة » ، وقُرِىءَ عليه ، أنْكرَ جَماعةٌ من أهلِ الرَّأي ما فيه من الخِلافِ واسْتبْشَعوه ، ونَشَّطوا العامَّةَ عليه ، ومَنعُوه من قِراءَتِه ، فاسْتحضَرَه صاحبُ الأنْدَلس محمدٌ وإيَّاهم ، وتَصفَّحَ الكتابَ كلَّه جُزءاً جُزءاً حتىٰ أتَىٰ علىٰ آخِرِه ، ثم قال لخازِن الكُتبِ : هـٰذا كتابٌ لا تَسْتَغني خِزانتُنا عنه ، فانْظُر في نَسْخِه لنا ، ثم قال لبَقِيٍّ : انْشُر عِلمَك ، وارْوِ ما عِندَك ونَهاهُم أنْ يَتعرَّضوا له[1] .

كان بَقيُّ بنُ مَخْلَد أوَّلَ مَنْ كَثَّرَ الحَديثَ بالأنْدلُس ونَشَره ، وهاجَمَ به شُيوخَ الأنْدَلُس ، فثارُوا عليه ، لأنَّهم كان عِلْمُهم بالمَسائِل ومَذهَب مالِك ، وكان بَقيٌّ يُفْتي بالأثَر ، فشَذَّ عنهم شُذوذاً عَظيماً ، فعَقَدوا عليه الشَّهادات ، وبَدَّعوه ، ونَسَبوا إليه الزَّنْدَقَة ، وأشْياءَ نَزَّهَه اللهُ منها وكان بَقيٌّ يقولُ : لقد غَرسْتُ لهم بالأنْدَلُس غَرْساً لا يُقْلَعُ إلاَّ بخُروجِ الدَّجَّال[2] .

وقال السُّلَميُّ في « مِحَنِ الصُّوفِيَّةِ » : لمَّا تَكَلَّمَ مُحمَّدُ بنُ الفَضْلِ ببَلخ في فَهْمِ القُرآنِ وأحْوالِ الأئِمَّةِ ، أنْكَرَ عليه فُقَهاءُ بَلْخ ، وقالوا : مُبْتَدعٌ وإنَّما ذاكَ بِسَببِ اعْتِقادِهِ مَذْهَبَ أهلِ الحَديثِ ، فقال : لا أخْرُجُ حتىٰ تُخْرِجُوني وتَطُوفُوا بِي في الأسْواقِ ففَعَلوا بهِ ذلكَ ، فقال : نَزَعَ اللهُ من قُلُوبِكُم مَحَبَّتَه ومَعْرِفَتَه فقِيلَ : لَمْ يَخْرُجْ منها صُوفِيٌّ من أهلِها فأتَىٰ سَمَرْقَنْدَ ، فبالَغُوا في إكْرامِه[3] .

وذكرَ إمامُ الحَرمَين أنَّ مَحمودَ بنَ سُبكْتكينَ كانَ حَنفيّاً يُحبُّ الحَديثَ ، فوَجدَ كثيراً منه يُخالفُ مَذهبَه ، فجَمعَ الفُقهاءَ بمَرْوَ ، وأمَرَ بالبَحثِ في أيُّما أقْوَىٰ مَذهَبُ أبي حَنيفَة أو الشَّافعيِّ قالَ : فوَقعَ الاتِّفاقُ علىٰ أنْ يُصلُّوا رَكْعَتين بينَ يدَيه على المَذْهَبَين ، فصَلَّىٰ أبو بَكْر القَفَّالُ بوُضُوءٍ مُسْبَغ وسُتْرَةٍ وطَهارَةٍ وقِبْلَة وتَمام أرْكان لا يُجَوِّزُ الشَّافعيُّ دُونَها ، ثم صَلَّىٰ صَلاة علىٰ ما يُجَوِّزُه أبو حَنيفَة ، فلَبِسَ جِلدَ كلبٍ

---

(١) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٥ .

(٢) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٦ .

(٣) انظر السير : (وَاعِظُ بَلْخ) ١٤/ ٥٢٣ـ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٧١ .

مَدْبوغاً قد لُطِّخَ رُبعهُ بنَجاسَة ، وتَوضَّأ بنَبيذٍ ، فاجْتَمعَ عليه الذبَّانُ ، وكان وُضُوءاً مُنكَّساً ، ثم كبَّرَ بالفَارسيَّة وقرأَ بالفَارسيَّة : دَوْبَرْكك سَبْز[1] ، ونقَرَ ولَمْ يَطمَئنَّ ولا رَفَعَ من الرُّكوع ، وتَشهَّدَ ، وضَرَطَ بلا سَلام فقالَ له : إنْ لَمْ تَكُنْ هـٰذه الصَّلاةُ يُجيزُها الإمامُ ، قَتَلتُك فأنْكَرَتِ الحَنيَّفةُ الصَّلاةَ ، فأمَرَ القَفَّالُ بإحْضارِ كُتُبهم ، فوُجدَ كذلك ، فتَحوَّلَ مَحمُودٌ شافعيّاً . هكَذا ذَكرَه الإمامُ أبو المَعالي بأطْوَلَ من هـٰذا[2] ،[3] .

(ج) شِعْرٌ في التَّعَصُّب المَذْهَبي :

رَوَىٰ أبو الشَّيخِ الحافظُ وغَيرُه من غَيرِ وَجهٍ : أنَّ الشَّافعيَّ لَمَّا دَخلَ مِصْرَ أتاهُ جُلَّةُ أصْحابِ مَالِك ، وأقبَلوا عليه ، فلمَّا رَأوْهُ يُخالِفُ مالكاً ، ويَنقُضُ عليه ، جَفَوْهُ وتَنكَّروا له ، فأنْشأَ يَقولُ[4] :

أَأَنْثُـرُ دُرَّاً بيـنَ سـارِحَـة النَّعَـم ... وأَنْظُـمُ مَنْثُـوراً لـراعِيَـةِ الغَنَـم
لَعَمْري لَئِنْ ضُيِّعتُ في شَرِّ بَلدَةٍ ... فَلَستُ مُضِيعاً بَينَهم غُرَرَ الحِكَم
فـإنْ فـرَّجَ الله اللَّطيـفُ بِلُطفِـه ... وصَـادَفْـتُ أهْـلاً للعُلـومِ وللحِكَـم
بَثَثْـتُ مُفيـداً واسْتَفَـدتُ ودادَهـم ... وإلاَّ فمحـزُونٌ لَـدَيَّ ومُكْتَتَـم
ومَـنْ منَـحَ الجُهَّـالَ عِلْمـاً أضَـاعَـه ... وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَوجِبينَ فَقَد ظَلَم
وكَـاتِـمُ عِلْـمِ الـدِّيـنِ عمَّـنْ يُـريـدُهُ ... يُبُـوءُ بـإثْـمٍ زَادَ وآثِـمٍ إذَا كَتَـم

---

(١) والمعنىٰ : ورقتان خضراوان ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ في سورة الرحمـٰن : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ ، انظر « وفيَّات الأعيان » (٥/ ١٨٢) ، و« المعجم الذهبي » فارسي/ عربي .

(٢) في « مُغيث الخَلق في اختيار الأحق » ، ونقله عنه ابن خلِّكان في « وفيَّات الأعيان » (٥/ ١٨٠ ، ١٨١) وهـٰذه الحكاية التي يغلب على الظن أنها ملفقَّة مُفتَراة تُنبىء عن ذميم التعصُّب الذي يفعل أفاعيله في النفوس ، فيحملها على الكراهية ، وعرض رأي المخالف عرضاً مُشوَّهاً مَبْتوراً ، والإغضاء عن فَضائله الكثيرة ، ومحاسنه الجَمَّة ، وكان علىٰ إمام الحرمين أن يسلُك مع مخالفيه سبيل أهل العلم والعرفان ، ويناقشهم بالحُجَّة والبُرهان ، ويصون كتابه عن مثل هـٰذا الهُراء والهَذَيان .

(٣) انظر السير : (السُّلْطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٥٢ .

(٤) انظر السير : (الإمام الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٥١ .

قال أبو عبد الله بنُ مَنْدَة : حُدِّثتُ عن الرَّبيع قال : رَأيتُ أشْهَبَ بنَ عبدِ العَزيزِ ساجِداً يَقولُ في سُجودِه : اللَّهُمَّ أَمِتْ الشَّافِعيَّ لا يَذهَبُ عِلمُ مالك ، فبَلغَ الشَّافِعيَّ ، فأنْشَأ يَقولُ[1] :

تَمنَّىٰ رِجَالٌ أنْ أَمُوتَ وإنْ أَمُتْ ... فتِلْكَ سَبيلٌ لَسْتُ فيها بأَوحَدِ
فَقُل للَّذِي يَبْغِي خِلافَ الَّذِي مَضَى ... تَهيَّأْ لأُخْرَىٰ مِثْلِها فكَأَنْ قَدِ
وَقَدْ عَلِمُوا لَو يُنفَقُ العِلْمُ عِندَهم ... لَئِنْ مِتُّ مالدَّاعِي عَلَيَّ بمُخَلَدِ

وقال محَّمدُ بنُ طاهِر : وسَمعتُ شَيخَ الإسْلام أبا إسْماعيلَ الهَرَوِيَّ يُنْشِدُ علىٰ مِنْبرِه[2] :

أَنَا حَنْبلِيٌّ مَا حَييتُ وإنْ أَمُتْ ... فَوَصِيَّتِي للنَّاسِ أنْ يَتَحنْبلُوا

قال الإمامُ الذهبيُّ : وقد قالَ في قَصيدَتِه النُّونيَّة :

أَنَا حَنْبلِيٌّ مَا حَييتُ وإنْ أَمُتْ ... فَوَصِيَّتِي للنَّاسِ أنْ يَتَحنْبلُوا
إذْ دِينُهُ دِينِي وَدِينِي دِينُهُ ... مَا كُنْتُ إمَّعةً لهُ دِينَانِ

ولقد بالَغَ أبو إسْماعيل في « ذَمِّ الكَلامِ » على الاتِّباع فأجادَ ولكنَّه له نَفَسٌ عَجيبٌ لا يُشبهُ نَفسَ أئمَّة السَّلف في كتابِه « مَنازِل السَّائرين »[3] ففيه أشْياءُ مُطْرِبَة ، وفيه أشْياءُ مُشْكلَة ومَنْ تأمَّلَه لاحَ له ما أشَرتُ إليه ، والسُّنَّة المحمَّديَّة صلفَةٌ ولا يَنهَضُ الذَّوْقُ والوَجْدُ إلاَّ علىٰ تأسيسِ الكتابِ والسُّنَّة وقد كانَ هٰذا الرَّجلُ سَيفاً مَسْلُولاً على المُتكلِّمينَ ، له صَوْلةٌ وهَيْبَةٌ واسْتيلاءٌ على النُّفوسِ ببَلدِه ، يُعظِّمونَه ، ويَتغالونَ فيه ، ويَبذُلونَ أرْواحَهم فيما يأمُرُ به كانَ عندَهم أطْوَعَ وأرْفَعَ من السُّلطانِ بكَثير وكانَ طَوْداً راسياً في السُّنَّة لا يَتزَلْزَلُ ولا يَلينُ ، لوْلا ما كَدَّر كتابَه « الفَارُوق في الصِّفات » بذِكْرِ أحادَيثَ باطِلَة يَجبُ بَيانُها وهَتْكُها ، واللهُ يَغفرُ له بحُسْنِ قَصْدِه[4] .

---

(١) انظر السير : (الإمام الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٥١ .
(٢) انظر السير : (شَيخُ الإسْلام) ١٨/ ٥٠٣ـ ٥١٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٣٧ .
(٣) طُبع كتاب « منازل السائرين » مع شرحه « مدارج السالكين » للعلاَّمَة ابن القيّم ، وقد تعقَّبَه الإمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله في شرحه هٰذه الأشياء المشكلة وانتقدها انتقاداً جيداً .
(٤) انظر السير : (شَيخُ الإسْلام) ١٨/ ٥٠٣ـ ٥١٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٣٧ .

١٨ـ مَنْ كان يَرومُ القَضاء على المَذاهِب بالقُوَّة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمة صاحِب المَغْرب أبي يوسُف يَعقُوبَ ابنِ يوسُف : قال عبدُ الواحدِ بنِ عليٍّ : كنتُ بفاسَ ، فشَهدتُ الأحْمالَ يُؤتَىٰ بها ، فتُحْرَق ، وتَهدَّدَ على الاشْتغالِ بالفُروعِ ، وأمَرَ الحُفَّاظَ بجَمعِ كتابٍ في الصَّلاةِ من (الكُتُبِ الخَمسَة) ، و« المُوَطَّأ » ، و« مُسْنَدِ ابنِ أبي شَيْبَة » ، و« مُسْنَدِ البَزَّار » ، و« سُنَنِ الدَّارَقُطني » ، و« سُنَنِ البَيْهَقيِّ » كما جَمعَ ابنُ تُومَرت في الطَّهارَة ثم كان يملي ذلك بنَفسِه علىٰ كبارِ دَولَتِه ، وحَفِظَ ذلك خَلقٌ ، فكانَ لمَنْ يَحفَظُه عَطاءٌ وخِلْعَةٌ إلىٰ أنْ قالَ : وكانَ قَصْدُه مَحْوَ مَذهَب مالك من البلادِ ، وحَمْلَ النَّاسِ على الظَّاهِر ، وهـٰذا المَقْصِد بعَينِه كان مَقْصِدَ أبيه وجدِّه ، فلَمْ يُظْهِراهُ ، فأخْبَرني غَيرُ واحد أنَّ ابنَ الجَدِّ أخْبَرَهم قالَ : دَخلتُ علىٰ أميرِ المُؤمنينَ يوسُفَ ، فوَجدتُ بينَ يدَيه كتابَ ابنِ يُونُس ، فقالَ : أنا أنْظُرُ في هـٰذه الآراء التي أُحْدِثَت في الدِّين ، أرَأيتَ المَسْألَةَ فيها أقْوالٌ ، ففي أيِّها الحَقُّ ؟ وأيُّها يَجبُ أنْ يَأخُذَ به المُقلِّد ؟ فافْتَتَحتُ أُبَيِّنُ له ، فقَطعَ كَلامي ، وقالَ : لَيسَ إلا هـٰذا ، وأشَارَ إلى المُصْحَفِ ، أوْ هـٰذا وأشارَ إلىٰ « سُنَنِ أبي داوُدَ » ، أو هـٰذا ، وأشارَ إلى السَّيفِ .

قالَ يَعقوبُ : يا مَعْشرَ المُوَحِّدينَ ، أنتُم قَبائلُ ، فمَنْ نابَه أمرٌ ، فَزِعَ إلىٰ قَبيلَتِه ، وهـٰؤلاء ـ يَعني طَلَبَةَ العِلمِ ـ لا قَبيلَ لهم إلاَّ أنا ، قالَ : فعَظُمُوا عند المُوَحِّدينَ[1] .

١٩ـ شِعْرٌ في التَّقَلُّب بين المَذاهِب (ولا يُوافَقُ عليه قائلُه) :

قال الإمامُ الذهبيُّ : قال المؤيدُ ابنُ التَّكْريتي في وَجيهِ الدين أبي بَكْر المُبارَك الوَاسِطيِّ ، المَعْروف بابنِ الدهَّان[2] :

وَمَـنْ مُبْلـغٌ عَنِّـي الـوَجيـهَ رِسَـالـةً ... وإنْ كَانَ لاَ تُجْدِي لَدَيْهِ الرَّسائِلُ
تَمَذْهَبْتَ لِلنُّعْمَانِ بَعْدَ ابنِ حَنْبَلٍ ... وَذَلِـكَ لَمَّـا أَعْـوَزَتْـكَ المَـآكِـلُ

---

(١) انظر السير : (صاحب المَغْرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٦ .
(٢) انظر السير : (ابن الدهَّان) ٢٢/ ٨٦ـ٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٦٨ .

وَمَا اخْتَرْتَ رَأْيَ الشَّافِعِيِّ دِيَانَةً وَلَكِنَّما تَهْوَى الذي هُوَ حاصِلُ
وَعَمَّا قَليلٍ أَنْتَ لاَ شَكَّ صَائِرٌ إِلَىٰ مَالِكٍ فَافْطَنْ لِمَا أَنَا قَائِلُ

٢٠ـ مُتفرِّقاتٌ في الفِقْه :

(أ) الردُّ علىٰ مَنْ يَزْعُمُ أنَّ أحمدَ ليسَ فَقيهاً :

قالَ ابنُ عَقيل : مِنْ عَجيبِ ما سَمعتُهُ عن هَؤلاءِ الأحْداثِ الجُهَّال ، أنَّهم يَقولُونَ : أحمَدُ بنُ حَنْبل لَيسَ بفَقيه ، لكنَّه مُحدِّث قالَ : وهٰذا غايَةُ الجَهل لأنَّ له اخْتياراتٍ بَناهَا على الأحاديثِ بناءً لا يَعرِفُهُ أكثَرُهم ورُبَّما زادَ علىٰ كِبارِهم[1] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ : أحْسَبُهم يَظنُّونَه كانَ مُحدِّثاً وبَسْ ، بلْ يَتخَيَّلونَه من بابةِ مُحدِّثي زَمانِنا واللهِ لَقدْ بَلغَ في الفِقْه خاصَّةً رُتبَةَ اللَّيثِ ، ومالِكٍ ، والشَّافعيِّ ، وأبي يوسُف ، وفي الزُّهْدِ والوَرَعِ رُتبَةَ الفُضَيلِ ، وإبْراهيمَ بنِ أدْهَم ، وفي الحِفْظِ رُتبَةَ شُعْبَة ، ويَحْيَى القَطَّان ، وابنِ المَديني ولكنَّ الجَاهِلَ لا يَعلَمُ رُتبَةَ غَيرِه ؟!![2] .

(ب) الردُّ علىٰ مَنْ حرَّمَ الذَّهَبَ المُحَلَّق :

عن ثَوْبانَ رضي الله عنه ، قال : دَخلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ فاطِمَةَ وأنا مَعه ، وقد أخَذتْ من عُنُقِها سِلْسِلةً من ذَهَب فقالَت : هٰذه أهْداهَا لي أبو حَسَن فقالَ صلى الله عليه وسلم : « يا فَاطِمَةُ أيَسُرُّكِ أنْ يَقُولَ النَّاسُ : هَٰذِه فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وفي يَدِها سِلْسِلَةٌ مِنْ نَارٍ »!! ثم خَرجَ فاشْتَرَت بالسِّلْسلَةِ غُلاماً ، فأعْتَقَتْه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « الحَمْدُ للهِ الذِي نَجَّىَ فَاطِمَةَ مِنَ النَّارِ » رواه أبو داود[3] .

قال صاحبُ النُّزْهَة : وأبو داوُد ، هو الطَّيالِسيُّ ، صاحبُ « المُسْنَد » ، وهو فيه (٢/ ٣٥٤) ، وكان على المُصنِّف رَحمَه الله أنْ يُقَيِّدَه حتىٰ لا يلتَبِسَ بأبي داوُد

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٨/٩٤٧ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٨ .
(٣) انظر السير : (فاطمَةُ بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم) ٢/ ١١٨ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٧/٢٢٩ .

السِّجِسْتانيِّ صاحبِ السُّنَنِ ، فإنَّه المُتبادَرُ عند الإطْلاقِ ، وما ذَهبَ إليه الشَّيخُ ناصِرُ الدِّين الألْبانيُّ بالاسْتِنادِ إلىٰ هـٰذا الحَديثِ وغَيرِه ممَّا أوْرَدَه في (آدابِ الزِّفاف) من تَحْريمِ تَحَلِّي النِّساءِ بالذَّهبِ المُحلَّقِ ، وإباحَة غَيرِ المُحلَّقِ لَهُنَّ ، فقد خالَفَ بذلك إجْماعَ المُسلمينَ سَلَفاً وخَلَفاً علىٰ إباحَة تَحَلِّي النِّساءِ بالذَّهبِ مُحلَّقاً وغَيرِ مُحلَّق كالطَّوْقِ والخاتَمِ والسِّوارِ ، والخُلْخالِ والقَلائِدَ ، وقد نَقلَ الإجْماعَ غَيرُ واحدٍ من العُلماءِ المُحقِّقينَ كالجَصَّاصِ الرَّازي في « أحْكام القُرْآن » (٤/ ٤٧٧) ، والقُرطُبيِّ في تَفسيرِه (١٦/ ٧١ ، ٧٢) ، والنَّوَويِّ في « المَجْموعِ » (٤/ ٤٤٢ ، ٦/ ٤٠) ، والحافِظِ ابنِ حَجَرَ في « فَتْحِ البَاري » (١٠/ ٣١٧) .

ولا يَتَّسعُ هـٰذا التَّعْليقُ لبَيانِ وَهاءِ رَأيِه هـٰذا الذي انْفَردَ به والشُّبهاتِ التي أثارَها حَولَ هـٰذه المَسْألَة ، ونُحيلُ القارئَ الكَريمَ علىٰ كتابِ « إباحَةِ التَّحَلِّي بالذَّهَبِ المُحلَّق للنِّساءِ » للشَّيخِ الفاضِلِ إسْماعيلَ بنِ محمَّدٍ الأنْصاريِّ ، فقد تكفَّلَ بالرَّد عليه ، وتَوهينِ ما اسْتندَ إليه من الأحاديث التي يَظنُّ أنَّها تَدلُّ علىٰ مَدَّعاهُ ، ونَقلَ عن العُلماءِ أنَّ المُرادَ منها ـ علىٰ فَرْضِ صِحَّتها ـ غَيرُ ما ذَهبَ إليه ، وأوْرَدَ نُصوصاً من الكتابِ والسُّنَّة تَدلُّ علىٰ صِحَّة ما ذَهبَ إليه جَماهِيرُ السَّلفِ والخَلَفِ من العُلماءِ ، وقد أجادَ في كُلِّ ذلك وأفَادَ ، فجَزاهُ الله عنَّا خَيرَ الجَزاء[1] .

(ج) اسْتعمالُ السُّبْحَة :

قال ابنُ مَعين : وكان يَحْيَى القَطَّان يَجيءُ معه بمِسْباحٍ ، فيُدخِلُ يدَه في ثيابِه ، فيُسَبِّحُ[2] .

(د) تَعْليلٌ لانْتشَار مَذْهَب مالك في الأنْدَلُس :

قالَ أبو القاسِم بنُ بشكُوال الحافظُ : كانَ يَحْيَىٰ بنُ يَحْيىٰ بنُ كثير مُجابَ الدَّعْوَة ، قد أخَذَ نفسَه في هَيئتِه ومِقْعَدِه هَيئةَ مالِكِ الإمام بالأنْدَلُس ، فإنَّه عُرِضَ عليه قَضاءُ

---

(١) انظر النزهَة : (فاطمَةُ بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم) : ٢٣٠/ هامش (١) .

(٢) انظر السير : (يَحْيى القطَّان) ٩/ ١٧٥ـ١٨٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٨١٦ .

الجَماعَة ، فامْتَنَع ، فكانَ أميرُ الأنْدَلُس لا يُولِّي أحَداً القَضاءَ بمَدائِنِ إقليمِ الأنْدَلُس ، إلاَّ مَنْ يُشيرُ به يَحْيَىٰ بنُ يَحْيىٰ ، فكَثُرَ لذلكَ تَلامِذَةُ يَحْيَىٰ بنِ يَحْيىٰ وأقْبَلوا علىٰ فِقْهِ مالِك ، ونَبَذُوا ما سِواهُ .

وفاةُ يَحْيى بن يَحْيىٰ في سنة أرْبَع وثلاثينَ ومئتين[1] .

(هـ) أحْكامٌ فِقْهيَّةٌ مُتفرِّقَة :

١ـ في الطَّهارَة :

رَوَىٰ إبْراهيمُ النَّخْعيُّ عن هَمَّامَ : أنَّه رَأىٰ جَريرَ بنَ عبدِ الله القَسْريَّ بالَ ، ثم تَوضَّأ ، ومَسحَ علىٰ خُفَّيهِ فسألتُه فقالَ : رَأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَفعَلُه .

ثم قالَ إبْراهيمُ : فكانَ يُعجِبُهم هـٰذا ، لأنَّ جَريراً من آخِرِ مَنْ أسْلمَ[2] .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعين : أنا أُوتِرُ بثَلاث ، ولا أقْنُتُ إلاَّ في النِّصْفِ الأخيرِ من رَمضانَ ، وأرْفَعُ يَديَّ إذا قَنتُّ ، ولا أرَى المَسحَ على العِمامَة ، ولا أرَى الصَّلاةَ علىٰ رَجلٍ يَموتُ بغَيرِ البَلَد ـ كان يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هـٰذا الحَديثَ ـ ولا أرَىٰ أنْ يَهبَ الرجُلُ بِنتَه بلا مَهْرٍ ، ولا أنْ يُزَوِّجَها علىٰ سُورَةٍ رَأيتُ يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هـٰذه الأحاديثَ[3] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : من وُجوه أبي الطيِّبِ في المَذهَبِ أنَّ خُروجَ المَنيِّ يَنْقُضُ الوُضوءَ ومنها أنَّ الكافِرَ إذا صَلَّىٰ في دارِ الحَرْبِ ، فصَلاتُه إسْلام[4] .

مات أبو الطيِّب الطَبَريّ صَحيحَ العَقْل ، ثابتَ الفَهْم ، سنةَ خَمسينَ وأربعمِئَة ، وله مئةٌ وسَنتان رَحمَه الله[5] .

---

(١) انظر السير : (يَحْيَى بن يَحْيى بن كَثير) ١٠/ ٥١٩ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٩١ .

(٢) انظر السير : (جَرير بن عبد الله) ٢/ ٥٣٠ـ ٥٣٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٠٣ .

(٣) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٩١٣ .

(٤) انظر « تَهذيب الأسماء واللغات » (٢/ ١٢٤٨) ، وقال النوويُّ في المسألة الأولىٰ : والصحيح الذي قاله جمهور أصحابنا : لا ينقضه ، بل يوجب الغسل فقط ، وقال في المسألة الثانية : والصحيح المنصوص للشافعي وجمهور الأصحاب أنها ليست بإسلام إلاَّ أن تُسمَع منه الشهادتان .

(٥) انظر السير : (أبو الطيِّب الطَبريّ) ١٧/ ٦٦٨ـ ٦٧١ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٣٧٣ .

٢ـ في الصَّلاة :

أخرجَ أبو داوُد من حَديثِ ابنِ عُمرَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم صَلَّىٰ صَلاةً ، فلُبِّسَ عليه ، فلمَّا انصرفَ ، قال لأُبَيٍّ : « أصَلَيْتَ مَعَنَا ؟ » قالَ : نَعمَ قال : « فمَا مَنَعَك؟ »[١] ، [٢] .

وعن قَيسِ بنِ عُباد ، قالَ : أتَيتُ المَدينَةَ للقَاءِ أصْحابِ محمَّد صلى الله عليه وسلم ، ولمْ يَكُنْ فيهم رَجلٌ ألْقاهُ أحَبَّ إليَّ من أُبَيّ ، فأقيمَت الصَّلاةُ ، وخَرجَ فقُمتُ في الصَّفِّ الأوَّلِ فجاءَ رَجلٌ فنَظرَ في وُجُوه القَوم ، فعَرَفَهم غَيري ، فنَحَّاني ، وقامَ مَقامي فما عَقلْتُ صَلاتي فلمَّا صَلَّىٰ ، قالَ : يا بُنيَّ!! لا يَسُوؤُك الله ، فإنِّي لمْ آتِ الذي أتَيتُ بجَهالَة ، ولكنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قالَ لنا : « كونُوا في الصَّفِّ الذِي يَلِيني » وإنِّي نَظَرتُ في وُجُوه القَوم ، فعَرفْتُهم غَيرَك ، وإذا هو أُبَيٌّ رضي الله عنه[٣] .

وعن الحَسَنِ أنَّ عُمرَ بنَ الخطَّابِ جَمعَ النَّاسَ علىٰ أُبَيِّ بنِ كَعْب في قِيامِ رَمضانَ ، فكانَ يُصلِّي بهم عِشْرينَ رَكعةً[٤] .

وعن أنَسٍ ، قالَ : دَخلَ عَلينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ما هو إلاَّ أنا وأُمِّي وخالَتي أمُّ حِرَام فقال : « قُومُوا فَلأُصَلِّ بِكم » فصَلَّىٰ بنا في غَيرِ وَقْتِ صلاةٍ[٥] .

وعن الأرْقَمِ بنِ أبي الأرْقَم : أنَّه تَجهَّزَ يُريدُ بَيتَ المَقْدِسِ ، فلمَّا فَرَغَ من جَهازِه ، جاءَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم يُودِّعُه فقالَ : « مَا يُخْرِجُكَ ؟ حَاجَةٌ أَوْ تِجَارَةٌ » ؟

---

(١) قال الخطابيُ : أراد : ما مَنعَك أن تفتح عليَّ إذ رأيتَني قد لُبِّسَ عليَّ ؟ وفيه دليل علىٰ جواز تلقين الإمام .

(٢) انظر السير : (أُبَيّ بن كعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٨١ .

(٣) انظر السير : (أُبَيّ بن كعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٨١ .

(٤) انظر السير : (أُبَيّ بن كعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٨٢ .

(٥) انظر السير : (أمُّ حِرام) ٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٦٧ .

قالَ : لا والله يا نَبيَّ الله ، ولكن أرَدْتُ الصَّلاةَ في بَيتِ المَقْدِسِ فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « الصَّلاةُ فِي مَسْجِدِي خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ ، إلاَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ » فجَلسَ الأرْقَمُ ، ولَمْ يَخرُجْ .

قِيلَ : الأرْقَمُ عاشَ بِضْعاً وثمانينَ سَنةً .

تُوفِّيَ بالمَدينَة وصلَّىٰ عليه سَعدُ بنُ أبي وَقَّاص بوَصيَّته إليه[1] .

وعن الوَليدِ بنِ مَزْيَد قال : سُئلَ الأوْزاعيُّ عن إمامٍ تَركَ سَجدةً ساهياً حتىٰ قامَ وتفرَّق النَّاسُ قال : يَسجُدُ كُلُّ إنْسانٍ منهُم سَجدةً وهم مُتَفرِّقون[2] .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعين : أنا أُوتِرُ بثَلاث ، ولا أقْنُتُ إلاَّ في النِّصْفِ الأخيرِ من رَمضانَ ، وأرْفَعُ يَديَّ إذا قَنتُّ ، ولا أرَى المَسحَ على العِمامَة ، ولا أرَى الصَّلاةَ علىٰ رَجلٍ يَموتُ بغَيرِ البَلَد ـ كان يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هـٰذا الحَديثَ ـ ولا أرَىٰ أنْ يَهبَ الرجُلُ بِنتَه بلا مَهْرٍ ، ولا أنْ يُزَوِّجَها علىٰ سُورَةٍ رَأيتُ يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هـٰذه الأحاديثَ[3] .

ومِنْ أغْرَبِ ما أتَىٰ به أبو الوَليدِ الفَقيهُ أنَّه قالَ : مَنْ كَررَّ الفاتحَةَ مَرَّتين بطُلَت صَلاتُه ، وهـٰذا خِلافُ نَصِّ الإمامِ[4] .

وقالَ الحاكمُ : وَردَ كتابٌ من مِصْرَ بأنْ يَحُجَّ أبو محمَّد المُغَفَّلِيُّ بالنَّاسِ ، ويَخطُبَ بعَرفَة ومِنَىٰ ، فصَلَّىٰ بعَرفَة وأتَمَّ الصَّلاةَ ، فعَجَّ النَّاسُ ، فصَعَدَ المِنْبَرَ ، فقالَ : أيُّها النَّاسُ ، أنا مُقيمٌ وأنتُم علىٰ سَفَر ، فلذلك أتْمَمتُ[5] .

---

(١) انظر السير : (الأرْقَم بن أبي الأرْقَم) ٢/ ٤٧٩ـ ٤٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩٣ .
(٢) انظر السير : (الأوْزاعيّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٨٢ .
(٣) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٩١٣ .
(٤) انظر السير : (أبو الوَليد الفَقيه) ١٥/ ٤٩٢ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٥٣ .
(٥) انظر السير : (المُغَفَّلِيّ) ١٦/ ١٨١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٨٢ .

٣ـ في الصِّيام :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة أبي طَلْحَة الأنصاريِّ : وهو الذي لا يَرىٰ بابْتلاعِ البَرَد للصَّائم بأساً ويقولُ : ليسَ بطَعامٍ ولا شَراب[١] ،[٢] .

وعن أمِّ المؤمنين جُوَيْرِيَة بنتِ الحارث : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخلَ عليها يومَ جُمعَة ، وهي صائمةٌ ، فقال لها : « أصُمْتِ أَمْسِ ؟ » قالت : لا قال : « أَتُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غَداً ؟ » قالت : لا قال : « فَأَفْطِرِي ».

وعنها ، قالت : أتَىٰ عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غَدوةً وأنا أُسَبِّحُ ، ثم انْطَلقَ لحاجَتِه ، ثمَّ رَجعَ قَريباً من نصْفِ النَّهارِ ، فقال : « أَمَا زِلْتِ قَاعِدَةً ؟ » قلتُ : نَعم قال : « أَلا أُعَلِّمكِ كلِمَاتٍ لَوْ عُدِلْنَ بِهِنَّ عَدَلَتْهُنَّ ، أَوْ وُزِنَّ بِهِنَّ وَزَنَتْهُنَّ (يَعْني جَميعَ ما سَبَّحْتِ) : سُبْحانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، ثَلاثَ مَرَّات ، سُبْحانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، ثَلاثَ مَرَّات، سُبْحانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، ثَلاثَ مَرَّات ، سُبْحانَ اللهِ مِدادَ كلِمَاتِهِ ، ثَلاثَ مَرَّات »[٣] .

وقال أبو الوَليد الفَقيهُ : الحِجَامَةُ تُفَطِّرُ الحاجِمَ والمَحْجومَ ، والتَزمَ أنَّه هو المَذْهَب لصِحَّة الأحاديثِ فيه وهٰذا فيه نَظرٌ، لأنَّ الإمامَ[٤] ما ضعَّفَ الأحاديثَ، بل ادَّعىٰ نَسْخَها[٥] .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٧٩) من طريق عبد الله بن معاذ ، حدثنا أبي ، عن شعبة ، عن قتادة وحميد ، عن أنس قال : مطرنا برداً ، وأبو طلحَة صائم ، فجعل يأكلُ منه ، قيل له : تأكل وأنت صائم!! فقال : إنما هٰذه بركة هٰذا إسنادٌ صحيح ، وهٰذا اجتهاد أبي طلحة ، والجمهور علىٰ خلافه ، فقد قال البزّارُ عقب إخراجه للحديث برقم (١٠٢٢) لا نعلم هٰذا الفعل إلاَّ عن أبي طلحَة .

(٢) انظر السير : (أبو طلحَة الأنْصاري) ٢/ ٢٧ـ ٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٢١٣ .

(٣) انظر السير : (جُوَيْرِيَة أمُّ المؤمنين) ٢/ ٢٦١ـ ٢٦٥ ، وانظر النزهة : ٣/٢٥٥ .

(٤) أي الشافعيّ رحمَه الله .

(٥) انظر السير : (أبو الوَليد الفَقيه) ١٥/ ٤٩٢ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٣ .

٤ـ في الحَجِّ والعُمْرَة :

عن عَمرِو بنِ أبي عَمرٍو : سَمعَ القاسِمَ يقولُ : كانت عائشةُ تَلبَسُ الأحمَرَين : الذَّهبَ والمُعَصْفَرَ ، وهي مُحْرِمَة[١] .

وقالت عائشةُ : استأذَنَتْ سَوْدَةُ لَيلَةَ المُزْدَلِفَة ، أنْ تَدفَعَ قبلَ حَطْمَةِ النَّاسِ ـ كانت امرأةً ثَبِطَة ـ أي ثَقيلَة فأُذِنَ لها[٢] .

وقال مُطَرِّفُ بنُ عبد الله : قال لي عِمْرانُ بنُ حُصَين : أحدِّثُكَ حَديثاً عَسى الله أنْ يَنفعَك به : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جَمعَ بين الحَجِّ والعُمرة ، ولمْ يَنْهَ عنه حتىٰ مات ، ولمْ يَنزِلْ فيه قُرآنٌ يُحرِّمُه ، وأنَّه كان يُسلِّمُ عليَّ ـ يَعني المَلائكَة ـ قال : فلمَّا اكْتَوَيْتُ ، أمسَكَ ذلك ، فلمَّا تركتُه ، عاد إليَّ[٣] .

وعن سالمٍ : سَمعَ أبا هُرَيرَةَ يقولُ : سَألَني قومٌ مُحْرِمون عن مُحِلِّينَ أهْدُوا لهم صَيداً فأمَرْتُهم بأكْلِه ثم لَقيتُ عُمرَ بنَ الخطَّاب ، فأخْبرتُه ، فقال : لو أفْتَيْتَهم بغير هٰذا ، لأوْجَعْتُك[٤] .

وقال كعبُ بنُ عُجْرَة : كنتُ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، بالحُدَيْبيَة ونحنُ مُحْرمون ، وقد صدَّه المشركون ، فكانت لي وَفْرَةٌ فجَعلَت الهَوامُّ تسَّاقَطُ علىٰ وَجْهي ، فمَرَّ بي النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال : « أتُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكِ ؟ » قلتُ : نعَم فأمَرَ أنْ يُحْلَقَ ونَزَلَت فيَّ آيةُ الفِدْيَة[٥] ،[٦] .

وقالَ الحاكمُ : وَردَ كتابٌ من مِصْرَ بأنْ يَحُجَّ أبو محمَّد المُغَفَّلِيُّ بالنَّاسِ ، ويَخطُبَ

---

(١) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢٤٤ .
(٢) انظر السير : (سَوْدَة أمُّ المؤمنين) ٢/ ٢٦٥ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٥٧ .
(٣) انظر السير : (عِمْران بن حُصَين) ٢/ ٥٠٨ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩٨ .
(٤) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣١٥ .
(٥) وآية الفدية هي : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ سورة البقرة ، الآية : ١٩٦ .
(٦) انظر السير : (كعب بن عُجْرة) ٣/ ٥٢ـ ٥٤ ، وانظر النزهة : ٦/ ٣٣١ .

بعَرفَة ومِنىٰ ، فصَلَّىٰ بعَرفَة وأتَمَّ الصَّلاةَ ، فعَجَّ النَّاسُ ، فصَعَدَ المِنْبَرَ ، فقالَ : أيُّها النَّاسُ ، أنا مُقيمٌ وأنتُم علىٰ سَفَر ، فلذلك أتْمَمتُ[1] .

٥ـ أحْكامُ الكفار :

عن مَكْحولٍ : أنَّ عُبادَةَ بنَ الصَّامِت دَعا نبَطيّاً يُمسِكُ دابَّتَه عند بَيتِ المَقْدِس ، فأبَىٰ ، فضَربَه فشَجَّه فاسْتَعْدَىٰ عليه عُمرَ فقالَ : ما دَعاكَ إلىٰ ما صَنعتَ بهٰذا ؟ قال : أمَرتُه ، فأبَىٰ ، وأنا في حِدَّة ، فضَربتُه فقال : اجْلِسْ للقَصَاص فقال زَيدُ بنُ ثابت : أتُقِيدُ لعَبدِكَ من أخِيكَ ؟ فتَركَ عُمرُ القِوَدَ ، وقَضىٰ عليه بالدِّيَة[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : من وُجوه أبي الطَّيِّبِ الطَّبَري في المَذْهَب أن خُروجَ المَنيِّ يَنقُضُ الوُضوءَ ومنها أنَّ الكافرَ إذا صَلَّىٰ في دارِ الحَرْب ، فصَلاتُه إسْلام[3] .

وقد ماتَ الطبريُّ صَحيحَ العَقل ، ثابت الفهم ، سنة خمسين وأرْبَعمئة ، له مئة وسَنتانِ رَحمَهُ الله[4] .

٦ـ في العِتْق :

عن عائشةَ ، قالَت : قامَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في شَأن بَرِيْرَة حينَ أعْتَقها ، واشْتَرَطَ أهلُها الوَلاءَ ، فقالَ : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطاً لَيْسَتْ في كتَابِ اللهِ!! مَنْ اشْتَرَطَ شَرْطاً لَيسَ في كتَابِ اللهِ ، فَهُوَ بَاطِلٌ ، وإنِ اشْتَرَطَ مِئَةَ مَرَّةٍ ، فَشَرْطُ اللهِ أَحَقُّ وَأَوْثَقُ » .

عن ابنِ عبَّاس : أنَّ زَوْجَ بَريرة كان عَبداً أسْوَدَ ، يُسمَّىٰ : مُغيثاً ، فقَضى النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيها أرْبَع قَضيات : أنَّ مَواليها اشْتَرطُوا الوَلاءَ ، فقَضىٰ أنَّ الوَلاءَ

---

(١) انظر السير : (المغفّلي) ١٦/ ١٨١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٢ .

(٢) انظر السير : (زَيدُ بن ثابت) ٢/ ٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٩/٢٨٧ .

(٣) انظر « تهذيب الأسماء واللغات » (٢/ ١٢٤٨) وقال النووي في المسألة الأولىٰ : والصحيح الذي قاله جمهور أصحابنا : لا ينقضه ، بل يوجب الغسل فقط ، وقال في المسألة الثانية : والصحيح المنصوص للشافعي وجمهور الأصحاب أنها ليست بإسلام إلاَّ أن تُسمع منه الشهادتان .

(٤) انظر السير : (أبو الطيّب الطبري) ١٧/ ٦٦٨ـ ٦٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٧٣ .

لِمَنْ أعْتَقَ ، وخُيِّرَتْ فاخْتارَت نَفسَها ، فأمَرَ النبيُّ أنْ تَعْتدَّ فكُنتُ أراهُ يَتَّبعُها في سِكَكِ المَدينَة ، يَعْصِرُ عَينَيه عليها .

قالَ : وتُصُدِّقَ عليها بصَدقَة ، فأهْدَت منها إلىٰ عائشَةَ ، فذُكرَ ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ »[1] .

٧ـ في الكراء (الإجارة) :

قال أبو عُمَر بنُ عبد البَرِّ كان يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ يَرىٰ جَوازَ كراءِ الأرْضِ بجُزءٍ ممَّا يَخرُجُ منها ، علىٰ مَذْهَب اللَّيثِ ، ويَقولُ : هي سُنَّةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في خَيْبَر[2] .

٨ـ في اللُّقَطَة :

جاءَ في ترجَمة أُبَيِّ بنِ كعْب ، قال الإمامُ الذهبيُّ : وقد كان أُبيٌّ التَقَطَ صُرَّةً فيها مئة دينار ، فعرَّفَها حَوْلاً وتَمَلَّكَها[3] .

٩ـ في النَّبيذ :

رُويَ أنَّ القاضي بَكَّارَ بنَ قُتَيْبَة قَدِمَ علىٰ قَضاءِ مِصْرَ ، وكان حَنفيّاً فاجْتَمَع مرَّةً بإسْماعيلَ بنِ يَحْيَى المُزَنيِّ ـ وهو من تَلاميذ الشَّافعيِّ ـ فسَألَه رَجلٌ من أصْحابِ بَكَّار ، فقالَ : قد جاءَ في الأحاديثِ تَحريمُ النَّبيذِ ، وجاءَ تَحليلُه ، فلِمَ قدَّمْتُم التَّحْريمَ ؟ فقال المُزَنيُّ : لَمْ يَذهَبْ أحدٌ إلىٰ تَحْريمِ النَّبيذِ في الجاهليَّة ثم حُلِّلَ لنا ، ووَقعَ الاتِّفاقُ علىٰ أنَّه كان حَلالاً ، فحَرُم ، فهٰذا يَعضُدُ أحاديثَ التَّحْريمِ ، فاسْتَحْسنَ بكَّارٌ ذلك منه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وأيضاً فأحاديثُ التَّحْريمِ كثيرةٌ صِحاحٌ ، وليسَ كذلكَ أحاديثُ الإباحَة .

---

(١) انظر السير : (بَرِيْرَة مَوْلاة أمِّ المؤمنين عائشَة) ٢/ ٢٩٧ـ ٣٠٤ ، وانظر النزهة : ١/٢٦٣ .
(٢) انظر السير : (يَحْيى بن يَحْيى بن كثير) ١٠/ ٥١٩ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩١ .
(٣) انظر السير : (أُبيُّ بن كعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٨٢ .

وقالَ محمَّدُ بنُ علي الكَتَّاني ، سَمعتُ عَمرَو بنَ عُثْمانَ المَكيَّ يقولُ : ما رَأيتُ أحداً من المُتَعبِّدينَ في كَثرَة مَنْ لَقيتُ منهم أشَدَّ اجْتهاداً من المُزَنيِّ ولا أدْوَمُ على العِبادَة منه وما رَأيتُ أحداً أشَدَّ تَعْظيماً للعِلمِ وأهلِهِ منه[1] .

١٠ـ في السِّحْر :

عن جُنْدُبِ الخَيرِ ، قالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حَدُّ السَّاحر ضَربُه بالسَّيف[2] .

١١ـ في القَصَاص :

عن خارِجَةَ بنِ زَيْد ، قالَ : قَتلَ رَجلٌ من الأنْصارِ وهُو سَكْرانٌ أنْصارِيّاً في عَهْد مُعاويَة ، ولمْ يَكنْ علىٰ ذلك شَهادَةٌ إلاَّ لَطْخٌ وشُبْهَةٌ ، فاجْتمَعَ رأيُ النَّاسِ علىٰ أنْ يَحْلِفَ وُلاةُ المَقْتولِ ، ثم يُسلَّمُ فيَقتُلُوه ، فرَكبْنا إلىٰ مُعاويَةَ ، فقَصَصْنا عليه القِصَّةَ ، فكتبَ إلىٰ سَعيدِ بنِ العاصِ : إنْ كان ما ذَكرْنا له حَقّاً أن يُحلِّفَنا على القاتِلِ ، ثم يُسْلِمَه إلينا ، فجِئنا بكتابِ مُعاويَةَ إلىٰ سَعيدٍ ، فقالَ : أنا مُنفِذٌ كتابَ أميرِ المؤمنينَ فاغْدُوا علىٰ بَركَة الله ، فغَدَوْنا عليه ، فأسْلَمَه إلينَا بعدَ أنْ حَلفْنا خَمسينَ يَميناً[3] .

١٢ـ في الهَيْئَة :

عن عبدِ الرحمَـٰن ابنِ مولىٰ أم برثن ، قال : قَدِمَ أبو موسى الأشْعَريُّ وزيادٌ علىٰ عُمرَ رضي الله عنه فرأىٰ في يدِ زيادٍ خاتَماً من ذَهَب ، فقال : اتَّخذُتم حِلَقَ الذَّهب ، فقال أبو موسىٰ ، أمَّا أنا فخاتَمي من حَديد فقال عُمرُ : ذاك أنْتَنُ ، أوْ أخْبَثُ ، مَنْ كان مُتخَتِّماً فليَتَختَّم بخَاتم من فِضَّة[4] .

---

(١) انظر السير : (المُزَنيُّ) ١٢/ ٤٩٢ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢٤ .
(٢) انظر السير : (جُندُب الأزدي) ٣/ ١٧٥ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ١/٣٦٢ .
(٣) انظر السير : (خارجَة بن زَيد) ٤/ ٤٣٧ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٧/٥٢٩ .
(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/٢٨٢ .

وعن عُثمانَ بنِ عُبَيدِ الله بنِ أبي رافع ، قال : رَأيتُ أبا سَعيد الخُدْري يُحفي شارِبَه كأخي الحَلْق[1] ،[2] .

وعن نافع : أنَّ ابنَ عُمرَ كان يُصفِّرُ لحيَتَه .

عن زيدِ بنِ أسْلَم : أنَّ ابنَ عُمرَ كان يُصَفِّرُ حتىٰ يَملأ ثيابَه منها ، فقيلَ له : تَصبغُ بالصُّفْرَة ؟ فقالَ إنِّي رَأيتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَصبغُ بها .

وعن شريكٍ : عن محمدِ بنِ زَيْد ، رَأى ابنَ عُمرَ يُصَفِّرُ لحيَتَه بالخلُوق والزَّعْفَران[3] .

وعن نافعٍ : كان ابنُ عُمرَ يَعْفي لحيَتَه إلاَّ في حَجٍّ أو عُمْرَة[4] .

وعن أيُّوبَ : سُئلَ سَعيدُ بنُ جُبَير عن الخِضَابِ بالوَسِمَة[5] فكَرِهَه ، وقالَ : يَكْسُو اللهُ العَبدَ النُّورَ في وَجْهِه ، ثم يُطفِئُه بالسَّواد[6] .

١٣ـ في الزَّوَاج والطَّلاق :

قال الشَّعْبيُّ : أسْلمَتْ زَينَبُ بنتُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهاجَرَتْ ، ثم أسْلمَ زَوجُها أبو العاص بنُ الرَّبيع بعدَ ذلك ، وما فَرَّقَ بينهما .

وكذا قال قَتادَة ، وقالَ : ثم أُنْزِلَتْ (براءة)[7] بعدُ ، فإذا أسْلمَتْ امرأةٌ قبلَ زَوْجِها ، فلا سَبيلَ له عليها ، إلاَّ بخِطْبَة[8] .

قال الذهبيُّ : وأبو هُرَيْرَةَ إليه المُنْتَهىٰ في حِفْظِ ما سَمعَه من الرسولِ عليه السلام ،

---

(١) الإحفاء : المبالغة في القَصِّ
(٢) انظر السير : (أبو سَعيد الخُدري) ٣/ ١٦٨ـ ١٧٢ ، وانظر النزهة : ٣٦٠/ ٤ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٦٦/ ٢ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٦٦/ ٣ .
(٥) الوسمة : شجر له ورق يُختَضَبُ به .
(٦) انظر السير : (سَعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٥٠٧/ ٤ .
(٧) سورة التوبَة .
(٨) انظر السير : (زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٢/ ٢٤٦ـ ٢٥٠ ، وانظر النزهة : ٢٥٣/ ٥ .

وأدائِه بحُروفِه وقد أدَّىٰ حَديثَ المُصَرَّاة بألفَاظِه ، فوَجَبَ علينا العَملُ به ، وهو أصلٌ برأسِه .

وقد وَليَ أبو هُرَيْرَة البَحْرَين لعُمَرَ ، وأفْتَىٰ بها في مَسألَةِ المُطلَّقَة طَلقَةً ثم يَتزَوَّجُ بها آخَر ، ثم بعدَ الدُّخول فارَقَها ، فتَزوَّجَها الأوَّلُ هلْ تَبقَىٰ عندَه علىٰ طَلقَتَين ـ كما هو قَولُ عُمرَ وغَيرِه من الصَّحابَة ومالكٍ والشَّافعيِّ وأحمدَ في المَشْهور عنه ـ أوْ تُلغَىٰ تلك التَّطْليقَة وتكونُ عندَه على الثَّلاثِ ، كما هو قَولُ ابنِ عبَّاس وابنِ عُمَر وأبي حَنيفَة ، ورِوايَة عن عُمَر ، بناءً علىٰ أنَّ إصابَة الزَّوْج تَهدِمُ ما دُون الثَّلاث ، كما هَدمَت إصابَتُه لها الثَّلاثَ فالأوَّلُ مَبنيٌّ علىٰ أنَّ إصابَة الزَّوْج الثاني ، إنَّما هي غايَةُ التَّحْريم الثابت بالطَّلاقِ الثلاث ، فهو الذي يَرتَفعُ ، والمُطلَّقةُ دُونَ الثَّلاث لَمْ تَحْرُمْ ، فلا تَرفَعُ الإصابَةُ منها شيئاً وبهـٰذا أفْتَىٰ أبو هُرَيْرَة فقالَ له عُمرُ : لوْ أفْتَيتَ بغيره ، لأوْجَعتُك ضَرباً .

وكذلك أفْتَىٰ أبو هُرَيْرَة في دَقائق المَسائل مع مثلِ ابنِ عبَّاس ، وقد عملَ الصَّحابَةُ فمَنْ بَعدَهم بحَديثِ أبي هُرَيْرَة في مَسائلَ كثيرة تُخالِفُ القياسَ ، كما عَملوا كلُّهم بحَديثِه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قالَ : « لا تُنْكحُ المَرْأَةُ علىٰ عَمَّتِهَا ، ولا خَالَتِهَا » .

وعَملَ أبو حَنيفَة والشَّافعيُّ وغَيرُهما بحَديثِه : « أنَّ مَنْ أكلَ نَاسِياً ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَه » مَعَ أنَّ القياسَ عندَ أبي حَنيفَة : أنَّه يُفْطِرُ ، فتَرَكَ القياسَ لخَبرِ أبي هُرَيْرَة .

وهـٰذا مالكٌ عَملَ بحَديثِ أبي هُرَيْرَة في غَسْلِ الإناءِ سَبعاً من وُلُوغِ الكَلبِ مع أنَّ القياسَ عندَه : أنَّه لا يُغْسَلُ لطَهَارَتِه عنده .

بلْ قد تَركَ أبو حَنيفَة القياسَ لِمَا هو دُون حَديثِ أبي هُرَيْرَة في مَسألَة القَهْقَهَةِ ، لذلك الخَبَر المُرْسَل[1] .

وقَضىَ يَحْيىٰ بنُ يَحْيىٰ بنُ كَثير برأي أمينَينِ إذا لمْ يُوجَد في أهل الزَّوْجَين حَكمان يَصْلُحان لذلك[2] .

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣١٤ .

(٢) انظر السير : (يَحْيى بن يَحْيى بن كثير) ١٠/ ٥١٩ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٩١ .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعين : أنا أُوتِرُ بثَلاث ، ولا أقْنُتُ إلاَّ في النِّصْفِ الأخيرِ من رَمضانَ ، وأرْفَعُ يَديَّ إذا قَنتُّ ، ولا أرَى المَسحَ على العِمامَة ، ولا أرَى الصَّلاةَ علىٰ رَجلٍ يَموتُ بغَيرِ البَلَد ـ كان يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هـٰذا الحَديثَ ـ ولا أرَىٰ أنْ يَهبَ الرجُلُ بِنتَه بلا مَهْرٍ ، ولا أنْ يُزَوِّجَها علىٰ سُورَةٍ رَأيتُ يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هـٰذه الأحاديثَ[1] .

١٤ـ في الظِّهَار :

عن إبراهيمَ أنَّ عائشةَ بنت طَلْحَة قالت : إنْ تَزوَّجَتْ مصعباً ، فهو عليها كظَهْرِ أمِّها ، فتَزوَّجَتْه ، فسَألَت عن ذلك ، فأُمِرَتْ أن تُكَفِّر ، فأعْتَقَتْ غُلاماً لها ثمنَ ألفَين .

بَقيتْ عائشةُ بنُ طَلْحَة إلىٰ قَريبٍ من سَنة عشر ومئة بالمَدينَة[2] .

١٥ـ في الرَّضَاعَة :

عن القاسِم بنِ محمّد أنَّ سَهْلَةَ بنتَ سُهَيل أتَتْ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وهي امرأةُ أبي حُذَيْفَة فقالَت : يا رسُولَ الله! إنَّ سالِماً معي ، وقد أدْرَكَ ما يُدْرِكُ الرِّجالُ ، فقالَ : أرْضِعيه ، فإذا أرْضَعْتِهِ فقَدْ حَرُمَ عليك ما يَحْرُمُ من ذي المَحْرم قالت أمُّ سَلمَة : أبَىٰ أزْواجُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يَدخُلَ أحدٌ عَليهنَّ بهَـٰذا الرَّضَاع ، وقُلنَ : إنَّما هي رُخْصَةٌ لسالِم خاصَّةً[3] .

١٦ـ العَقيقَة :

عن عُبَيدِ الله بنِ أبي رافع ، عن أبيه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أذَّنَ في أُذُنِ الحَسَن بالصَّلاةِ حين وُلِدَ[4] .

وعن عليِّ بنِ الحَسَن ، عن أبي رافع ، قال : لَمَّا وَلدَتْ فاطِمَةُ حَسَناً قالت :

---

(١) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/٩١٣ .
(٢) انظر السير : (عائشة بنت طَلحة) ٤/ ٣٦٩ـ ٣٧٠ ، وانظر النزهة : ١/٥١٢ .
(٣) انظر السير : (سالم مَوْلىٰ أبي حُذَيْفَة) ١/ ١٦٧ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٧/١٤٢ .
(٤) انظر السير : (الحَسن بن عَليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/٣٧٨ .

يا رسُولَ الله! ألا أَعُقُّ عن ابني بدَمٍ ؟ قال : « لا ، ولَكنْ احْلَقِي رَأسَهُ ، وَتَصَدَّقِي بِوَزْنِ شَعْرِهِ فِضَّةً عَلَى المَسَاكينِ » ففَعَلَتْ[1] .

١٧ـ فَرائِض :

عن جابرِ بنِ عَبدِ الله قال : جاءَتِ امْرأةُ سَعْدِ بنِ الرَّبيع بابْنَتَيْها من سَعْد فقالت : يا رسُولَ الله! هاتان بِنْتَا سَعْد ، قُتِلَ أبُوهُما مَعَك يومَ أُحُد ، وإنَّ عَمَّهُما أخَذَ مَالَهُما ، لَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً ، وَلا تُنْكحَانِ إلاَّ وَلَهُما مَالٌ ، قال : « يَقْضِي اللهُ فِي ذَلِكَ » فأُنْزِلَت آيةُ المَواريث ، فبعثَ إلىٰ عَمِّهِمَا فقال : « أَعْطِ بِنْتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ »[2] .

عن الشعبي : أُتِيَ زيادُ بنُ أبيه في مَيِّتٍ تَركَ عَمَّةً وخَالَةً ، فقال : قَضَىٰ فيها عُمرُ أنْ جَعَلَ الخَالَةَ بمَنْزِلَة الأُخْتِ ، والعَمَّةَ بمَنْزِلَة الأَخِ ، فأعْطاهُما المَالَ[3] .

١٨ـ مَوَاريث :

لمَّا تُوُفِّيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تَعَلَّقَتْ آمالُ فَاطِمَةَ الزَّهْراءِ بمِيراثِه ، وجاءَتْ تَطْلُبُ ذلكَ من أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فَحَدَّثَها أنَّه سَمِعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « لا نُورَثُ ، ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ » فَوَجَدَتْ عَلَيْه ، ثُمَّ تَعَلَّلَتْ[4] ، [5] .

١٩ـ تَجْهيزُ المَيِّت :

عن أمِّ عَطيَّة ، قالت : لمَّا ماتَت زَيْنَبُ بنتُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اغْسِلْنَهَا وِتْرَاً ، ثَلاثاً ، أوْ خَمْسَاً ، واجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كافُوراً أوْ شَيْئاً مِنْ كافُورٍ ،

---

(١) انظر السير : (الحَسن بن عَليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٧٨ .
(٢) انظر السير : (سعد بن الرَّبيع) ١/ ٣١٨ـ ٣٢٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٩ .
(٣) انظر السير : (زياد بن أبيه) ٣/ ٤٩٤ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤١٥ .
(٤) تعلَّلَت : أي تلهَّتْ عنه وتَشاغَلَت .
(٥) انظر السير : (فاطِمَة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٢/ ١١٨ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٢٩ .

فإذَا غَسَلْتُنَّهَا فَأَعْلِمْنَنِي » فلمَّا غَسَّلْناها ، أعْطانا حَقْوَهُ[1] ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَشْعِرْنَهَا إيَّاه »[2] .

٢٠ـ الفُتْيا والمُفْتون :

(أ) الصَّحَابَة المُفْتون :

وعن محمَّدِ بنِ سَهْل بنِ أبي حَثْمَة : عن أبيه قال : كان الذين يُفْتونَ علىٰ عَهْد رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ثلاثةٌ من المُهَاجِرينَ : عُمَرُ ، وعُثمانُ ، وعَليٌّ وثلاثةٌ من الأنْصارِ : أُبَيُّ بنُ كعْب ، ومُعاذٌ ، وزَيْدٌ[3] .

وعن نافع : كان ابنُ عُمَر وابنُ عَبَّاس يَجْلِسان للنَّاسِ عندَ مَقْدم الحاجِّ فكُنتُ أجلسُ إلىٰ هـٰذا يَوماً ، وإلىٰ هـٰذا يَوماً ، فكانَ ابنُ عَبَّاس يُجيبُ ويُفْتي في كل ما سُئِلَ عنه ، وكان ابنُ عُمَرَ يَرُدُّ أكثرَ ممَّا يُفْتي[4] .

وقال ابنُ حَزْم في كتاب « الإحْكام » في الباب الثامن والعشرين : المُكْثِرون من الفُتْيا من الصَّحابَة ، عُمَرُ وابنُه عبدُ الله ، وعليٌّ ، وعائشَةُ ، وابنُ مَسْعود ، وابنُ عَبَّاس ، وزَيْدُ بنُ ثابت ، فهم سَبعَةٌ فَقَط يمكن أنْ يُجْمَعَ من فُتْيا كلِّ واحد منهم سفْرٌ ضَخمٌ وقد جَمَعَ أبو بَكر محمَّدُ بنُ موسَىٰ بنِ يَعقُوب بنِ أميرِ المؤمنين المَأمون فُتْيا ابنِ عَبَّاس في عشرين كتاباً وأبو بَكْرٍ هـٰذا أحدُ أئمَّة الإسْلام[5] .

(ب) المُفْتي في نَظرِ الإمام أحمد :

قال محمدُ بنُ المُسَيِّب ، سَمعتُ زَكريّا بنَ يَحْيَى الضَّرير ، يقولُ : قلتُ لأحمَدَ بنِ

---

(١) والحقو : الإزار ، وجمعها : حِقيٌّ وأَحْقٍ وأحْقاء ، والأصل في الحقو : معقد الإزار ، وسُمي الإزار حقواً لأنه يُشَدُّ على الحقو ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أشْعِرْنها إيّاه » يريد اجعلنه شعاراً لها ، وهو الثوب الذي يلي جسدها ، فالشعار الثوب الذي يلي الجسد ، والدثارُ فوق الشعار .

(٢) انظر السير : (زَينَب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٢/ ٢٤٦ـ ٢٥٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ٢٥٣ .

(٣) انظر السير : (مُعاذ بن جَبل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٩١ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٧٠ .

(٥) انظر السير : (عبد الله بن عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٧٤ .

حَنْبَل : كمْ يَكْفي الرَّجلَ من الحَديث حتىٰ يَكونَ مُفْتياً ؟ يَكْفيه مِئةُ ألفٍ ؟ فقالَ : لا إلىٰ أنْ قالَ : فيَكْيفه خَمسُ مئة ألف حَديثٍ ؟ قال : أَرْجُو[1] .

(ج) الجُرْأة على الفُتْيا غَيرُ مَحْمودَة :

عن عبدِ الرحمَـٰن بنِ أبي لَيْلىٰ قال : أدْرَكتُ عِشْرينَ ومئةً من أصْحابِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم من الأنْصَارِ ، إذا سُئلَ أحدُهم عن شيء ، وَدَّ أنَّ أخَاهُ كَفاه[2] .

وكان عبدُ السَّلام التَّنوخي المُلقَّبُ « سُحْنُون » إذا أعْجَبَه الصَّمتُ تَكلَّمَ ، ويقولُ : أجْرأُ النَّاسِ على الفُتْيَا أقَلُّهم علماً[3] .

وكان عمادُ الدِّينِ المَقْدسيّ إذا أفْتىٰ في مَسْألة يَحْترزُ فيها احْترازاً كثيراً[4] .

(د) مَنْصِبُ المُفْتي مَنْصِبٌ خَطير :

وعن سُحْنون قال : ما وَجدتُ مَنْ باعَ آخِرَتَه بدُنيا غَيرِه إلاَّ المُفْتي[5] .

(هـ) كان السَّلفُ لا يُفْتون حتىٰ يأخُذوا الإذْنَ من عُلماء عَصْرِهم :

قال المُفَضَّلُ الجَنَدي ، سَمعتُ أبا مُصْعَبَ ، سَمعتُ مالكاً ، يقولُ : ما أفْتَيتُ حتىٰ شَهِدَ لي سَبعُونَ أنِّي أهْلٌ لذلك[6] .

(و) مَنْ أفْتَىٰ زيادَة علىٰ نِصْفِ قَرْن ولمْ يُؤْخَذْ عليه في فَتْوَىٰ :

قال الحاكمُ : بَقيَ الإمامُ أبو بَكْر الصِّبْغي يُفتي بنِيسَابُور نَيِّفاً وخَمسينَ سَنةً ولمْ يُؤخَذ عليه في فَتاويه مَسْألة وَهمَ فيها .

وقالَ : سَمعتُ أبا الفَضْلِ بنِ إبْرهيم يَقولُ : كان أبُو بَكْر بنُ إسْحاقَ يَخلفُ إمامَ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٣١ .
(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ) ٤/ ٢٦٢ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٩٤ .
(٣) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٨٣ .
(٤) انظر السير : (العِماد) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٦٥ .
(٥) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٨٣ .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٣٣ .

الأئمَّة ابنَ خُزَيْمَة في الفَتْوَىٰ بضع عشرةَ سَنةً في الجامع وغيرِه[1] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ أحمدَ بنَ مَنْصور الحافظَ يقولُ : أبو النَّضْر الطُّوسيُّ يُفْتي النَّاسَ من سَبعينَ سَنة أو نَحْوَها ، ما أُخِذَ عليه في فَتوَىٰ قَطّ .

ثم قال الحاكمُ : دَخلتُ طُوسَ ، وأبو أحمد الحافظُ علىٰ قَضائِها فقالَ لي : ما رَأيتُ قَطُّ في بلدٍ من بلاد الإسْلام مثلَ أبي النَّضْر ، رَحمَه الله .

مات أبو النَّضْر الطُّوسيُّ سَنةَ أرْبع وأرْبَعين وثلاثِ مئة ، وقال الذهبيُّ : جاوزَ التِّسْعينَ ، رحمَه الله[2] .

(ز) من آداب الفُتْيا طَلبُ العَوْن من الله عليها :

قال إسْماعيلُ بنُ أبي أُوَيْس : سألتُ خالي مالِكاً عن مَسْألة ، فقال لي : قِرَّ ثم تَوضَّأ ، ثم جَلسَ على السَّريرِ ، ثم قالَ : لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله وكان لا يُفْتي حتىٰ يَقولَها[3] .

(ح) فَتاوَىٰ مُتفرِّقَة :

١ـ في الصَّلاة :

قالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعين في مَنْ صَلَّىٰ خَلفَ الصَّفِّ وَحْدَه ، قالَ : يُعيدُ[4] .

وقالَ أيضاً في مَنْ صَلَّىٰ بقَوْمٍ علىٰ غَيرِ وُضوء ، قالَ : لا يُعيدُونَ ويعُيدُ[5] .

وقال مُحمَّدُ بنُ عبد الوَهَّاب ، سَمعتُ إسْحاقَ بنَ إبْراهيمَ ، وسُئلَ عن رَجلٍ تَركَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[6] فقالَ : مَنْ تَرَكَ « ب » أو « س » أو « م » منها ، فصَلاتُه فاسِدَة لأنَّ الحَمدَ سَبعَ آياتٍ .

---

(١) انظر السير : (الصِّبْغي) ١٥/ ٤٨٣ـ ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٥٠ .
(٢) انظر السير : (الطُّوسيّ) ١٥/ ٤٩٠ـ ٤٩٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٢ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٢٨ .
(٤) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/٩١٣ .
(٥) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٦/٩١٣ .
(٦) سورة الفاتحة ، الآية : ١ .

وقالَ ابنُ المُبارَك : مَنْ تَركَها ، فقد تَركَ مئةً وثلاثَ عَشْرَةَ آيةً من كتابِ الله تعالَىٰ[1] .

٢ـ في الحَجِّ والعُمْرَة :

قِيلَ : سُئلَ أحمدُ بنُ حَنْبَل عن رَجلٍ نَذرَ أنْ يَطُوفَ علىٰ أرْبَع ، فقالَ : يَطوفُ طَوافَين ولا يَطُفْ علىٰ أرْبَع[2] .

٣ـ أحْكامُ الكفَّار :

قالَ إبْراهيمُ الحَرْبيُّ : سُئلَ أحمدُ عن المُسْلمِ يَقولُ للنَّصْرانيِّ : أكْرَمَكَ اللهُ قال : نَعَم ، يَنْوي بها الإسْلامَ[3] .

٤ـ في الطَّلاق :

قدَ حَكَىٰ أبو عليّ التَّنُوخي في « النشوار » له ، عن عُثمانَ بنِ محمَّد السُّلميَّ قال : حدَّثني ابنُ منجو القائد قال : حدثني غلام لابن المزوّق قال : اشترىٰ مولاي جاريةً ، فزوَّجَنيها ، فأحببتُها وأبغَضَتْني حتىٰ ضجرت ، فقُلتُ لها : أنت طالِق ثلاثاً ، لا تُخاطِبيني بشيء إلاَّ قلتُ لك مثلَه ، فكَمْ أحْتَملُك ؟ فقالت في الحالِ : أنتَ طالقٌ ثلاثاً فأُبْلِسْتُ ، فدُلِلْتُ علىٰ محمدَ بنِ جَرير فقال لي : أقِمْ معها بعدَ أنْ تَقولَ لها : أنتِ طالقٌ ثلاثاً إنْ طَلَّقْتُك فاسْتحسَنَ هـٰذا الجَوابَ وذَكرَه شَيخُ الحَنابلَة ابنُ عَقيل ، وقال : وله جَوابٌ آخر : أنْ يقولَ كقَوْلِها سَواء : أنتَ طالقٌ ثلاثاً ـ بفَتح التَّاء ـ فلا يَحْنَث وقال أبو الفَرَج بنُ الجَوْزي : وما كان يَلزَمُه أنْ يقولَ لها ذاكَ على الفَوْر ، فلَه التَّمادي إلىٰ قبلِ المَوْت .

قال الإمامُ الذَّهبيُّ : ولوْ قالَ : أنتِ طالقٌ ثلاثاً ، وقَصدَ الاسْتفهامَ أو عَنىٰ أنَّها طالقٌ من وَثاق ، أو عَنى الطَّلْقَ لمْ يَقعْ طَلاقٌ في باطِن الأمر .

---

(١) انظر السير : (إسْحاق بن راهَوَيْه) ١١/ ٣٥٨ـ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٥٢ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٧/ ٩٤٧ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٩٤٧ .

وله جوابٌ آخَر علىٰ قاعدَة مُراعاة سَبب اليَمين ونيَّة الحالِف ، فما كانَ عليه أنْ يَقُولَ لها ما قالَتْه ، إذْ من المَعْلوم بقَرينَة الحالِ اسْتِثْناءُ ذلكَ قَطْعاً ، لأنَّه ما قَصدَ إلاَّ أنَّها إذا قالَت له ما يؤذيه أنْ يُؤذِيَها بمثله ولو جاوَبَها بالطَّلاقِ لسُرَّت هي ، ولَتَأذَّىٰ هو ، كما استُثْنيَ من عُمومِ قَولِه تَعالىٰ : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾[1] بقَرينَة الحال أنَّها لمْ تُؤْتَ لحيَةً ولا إحْليلاً ومن المعلوم استثْناؤُه بالضَّرورَة التي لم يَقْصِدْها الحالِفُ قَطُّ لوْ حَلفَ : لا تَقولي لي شَيئاً إلاَّ قُلتُ لكِ مثلَه ، أنَّها لوْ كَفَرَت وسَبَّت الأنْبياءَ فلَمْ يُجاوِبْها بمثلِ ذلكَ لأحْسَن .

وذهبَ إمامٌ[2] في زَمانِنا إلىٰ أنَّ مَنْ حَلَفَ علىٰ حَضٍّ أوْ مَنْعٍ بالطَّلاق أوْ العِتاق أوْ الحَجّ ونَحْوَ ذلك فكَفَّارَتُه كَفَّارَةُ يَمين ، ولا طَلاقَ عليه[3] .

٢٢ـ القَضَاء :

(أ) القَضَاءُ علىٰ عَهْد الصَّحَابَة :

قال مَسْروقُ : كان القَضاءُ في الصَّحابَة إلىٰ سِتَّة : عُمَرَ ، وعَليّ ، وابنِ مَسْعود ، وأُبيٍّ ، وزَيْد ، وأبي موسَىٰ .

وعن صَفْوانَ بنِ سليم ، قالَ : لمْ يكُنْ يُفْتي في المَسْجدِ زَمنَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم غَيرُ هَؤلاء : عُمَر ، وعَليّ ، ومُعاذ ، وأبي موسَىٰ[4] .

(ب) الأُصُولُ الشَّرعيَّة التي يَقْضي بها القاضي :

عن الحارِثِ بنِ عَمرو الثَّقفي قالَ : أخْبَرنا أصَحابُنا ، عن مُعَاذ قال : لَمَّا بَعثَني النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى اليَمَن ، قال لي : « كيفَ تَقْضي إنْ عَرضَ قَضاءٌ ؟ »

---

(١) سورة النمل ، الآية : ٢٣ .

(٢) هو شيخُ الإسْلام ابنُ تَيْميَة ، وقد جاء في هامش الأصل ما نَصُّه : « أخْطأَ هـٰذا الإمام فيما ذهب إليه ، وبُدِّع بذلك ، وحُجرَ عليه ، واعْتُقِلَ غيرَ مرّة إلىٰ أنْ مات ، وقد نَقلَ الإجْماعَ في المَسْألة ـ علىٰ خِلاف قَوله ـ جماعةٌ من الأئمَّة ، وردَّ عليه غيرُ واحد من المُحَقِّقين ، والله المُسْتعان » .

(٣) انظر السير : (محمد بن جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٣ .

(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/٢٨٠ .

قالَ : قُلتُ : أقْضي بما في كتابِ الله ، فإنْ لَمْ يَكُنْ ، فبما قَضَىٰ به رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قالَ صلى الله عليه وسلم : « فإنْ لَمْ يَكنْ بمَا قَضَىٰ به الرَّسُولُ ؟ » قالَ : أجْتَهدُ رَأيي ولا آلُو ، فضَرَبَ صَدْري ، وقالَ : « الحَمْدُ لله الذي وَفَّقَ رَسولَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم لما يُرْضِي رَسُولَ الله »[1] .

وعن الشَّعْبيِّ قالَ : كتبَ عُمرُ إلىٰ شُرَيح القاضي : إذا أتاك أمْرٌ في كتابِ الله ، فاقْضِ به ، فإنْ لمْ يَكُنْ في كتابِ الله وكان في سُنَّة رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فاقْضِ به ، فإنْ لمْ يَكُنْ فيهما ، فاقْضِ بما قَضَىٰ به أئمَّةُ الهُدَىٰ ، فإنْ لمْ يَكُنْ فأنت بالخيار ، إنْ شِئتَ تَجْتَهدُ رَأيَك ، وإنْ شِئتَ تُؤَامِرُني ، ولا أرَىٰ مُؤَامَرَتَك إيّايَ إلاَّ أسْلمَ لك[2] .

(ج) كرْه السَّلَف لمَنْصب القاضي :

قال حمَّادٌ : سَمعتُ أيوبَ ذكرَ أبا قِلابَة ، فقال : كان والله من الفُقَهاء ذَوي الألْباب إنِّي وَجَدتُ أعْلمَ النَّاس بالقَضاء أشَدَّهم منه فِراراً ، وأشَدَّهم منه فَرقاً ، وما أدْرَكتُ بهٰذا المِصْر أعْلمَ بالقَضاء من أبي قِلابَة[3] .

وعن أيُّوبَ ، قال : لمَّا ماتَ عبدُ الرحمَٰن بنُ أذَيْنة ـ يَعني قاضي البَصْرَة ـ زَمنَ شُرَيح ذُكِرَ أبو قِلابَة للقَضاء ، فهَربَ حتىٰ أتى اليَمامَةَ ، قال : فلَقيتُه بعد ذلك فقُلتُ له في ذلك ، فقال : ما وَجَدتُ مثلَ القاضي العالم إلاَّ مثلَ رَجُلٍ وَقعَ في بَحْر ، فما عَسَىٰ أنْ يَسْبَحَ حتىٰ يَغْرقَ[4] .

وعن غَالبِ القَطَّان ، عن بَكْرِ بنِ عبدِ الله أنَّه لمَّا ذُهِبَ به للقَضاء قال : إنِّي سأُخْبِرُكَ عنِّي : إنِّي لا عِلمَ لي والله بالقَضاء ، فإنْ كنتُ صادِقاً ، فما يَنْبَغي لك أنْ تَستَعمِلَني ، وإنْ كنتُ كاذباً فلا تُوَلِّ كاذِباً[5] .

---

(١) انظر السير : (مُعاذُ بن جَبل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٩٠ .
(٢) انظر السير : (شُرَيْح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٥٦ .
(٣) انظر السير : (أبو قِلابَة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٣٣ .
(٤) انظر السير : (أبو قِلابَة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٣٣ .
(٥) انظر السير : (بَكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٥٠ .

وعن مُفضَّل قال : حَبسَ ابنُ هُبَيْرَة مَنصوراً شَهْراً على القَضاء يُريدُه عليه ، فأبَىٰ ، وقيلَ : إنَّه أحْضَرَ قَيداً ليُقيِّدَه به ، ثم خَلاَّه[1] .

وقال محمَّدُ بنُ سَعْد العُوفي : سَمعتُ يَحْيىٰ بنَ مَعين يقولُ : كان أبو حَنيفة ثقةً لا يُحدِّثُ بالحَديث إلاَّ بما يَحفَظُه ، ولا يُحدِّثُ بما لا يَحفَظ ولقد ضَربَه ابنُ هُبَيْرَة على القَضاء ، فأبَىٰ أنْ يَكونَ قاضياً[2] .

وعن مُغيثِ بنِ بديل قال : دَعا المَنصورُ أبا حَنيفة إلى القَضاء فامْتَنَع ، فقال : أترغَبُ عمَّا نحنُ فيه ؟ فقال : لا أصْلُحُ قال : كَذبتَ قال : فقد حَكمَ أميرُ المؤمنين عليَّ أنِّي لا أصْلُح ، فإنْ كنتُ كاذباً ، فلا أصْلُحُ وإنْ كنتُ صادقاً فقد أخْبَرتُكم أنِّي لا أصْلُحُ ، فحبَسَه[3] .

وقالَ يَعقوبُ بنُ شَيْبَة : دَعا المَنْصورُ شَريكاً ، فقال : إنِّي أريدُ أنْ أُوَلِّيَكَ القَضاء ، فقالَ : اعْفِني يا أميرَ المؤمنين قالَ : لَسْتُ أُعْفيكَ قالَ : فأنْصَرفُ يَومي هٰذا ، وأعُودُ ، فيَرىٰ أميرُ المؤمنين رَأيَه قال : تُريد أنْ تَتغَيَّب ؟ ولَئن فَعلتَ لأقْدِمَنَّ علىٰ خَمسينَ من قَومِكَ بما تَكرَه ، فوَلاَّه القَضاءَ إلىٰ أيَّام المَهْدي ، فأقرَّه المَهْديُّ ، ثم عَزلَه ، قالَ : وكانَ شَريكٌ ثقةً مَأمُوناً ، كثيرَ الحَديث ، أُنْكِرَ عليه الغَلطُ والخَطأ[4] .

وقال محمدُ بنُ عامر المِصِّيصي : سألت أحمد : وكيعٌ أحَبُّ إليك أو يَحْيَىٰ بنُ سَعيد ؟ فقال : وَكيعٌ قلتُ : كيفَ فضَّلتَه علىٰ يَحْيىٰ ، ويَحْيَىٰ ومكانه من العلم ، والحفظ والإتقان ما قد علمت ؟ قال : وكيع كان صديقاً لحَفْصِ بنِ غِياث ، فلمَّا وَلِيَ القَضاءَ هَجَرَه ، وإنَّ يَحْيَىٰ كان صَديقاً لمُعاذِ بنِ مُعاذ ، فلمَّا وَلِيَ القَضاءَ لَمْ يهْجُرْهُ يَحْيَىٰ .

---

(١) انظر السير : (مَنْصور بن المُعْتمِر) ٥/ ٤٠٢ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٦/٦١٧ .
(٢) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦٦٢ .
(٣) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٧/٦٦٣ .
(٤) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٤ .

وقال محمد بن علي الوَرَّاق : عُرِضَ القَضاءُ علىٰ وكيع ، فامتنع[1] .

وقال ابنُ عَبدَ كَوَيه : سَمعتُ عاتكةَ بنتَ أحمد بنِ أبي عاصِم تقولُ : سَمعتُ أبي يقولُ : جاءَ أخي عُثمانَ عهدُه بالقَضاء علىٰ سامَرَّاءَ ، فقال : أقعُدُ بين يدَيْ الله تعالىٰ قاضيا!! ؟ ، فانشقَّت مَرارتُه ، فماتَ[2] .

(د) من السَّلَف مَنْ كان لا يأخذُ أجراً على القَضاء :

عن إبراهيمَ بنِ محمّد بنِ المنتِشر ، عن أبيه ، أنَّ مَسْروقاً كان لا يأخذُ على القَضاءِ أجْراً ، ويَتأوَّلُ هٰذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ الآية[3] ، [4] .

وقال أبو الشيخ : سَمعتُ ابني عبدَ الرزَّاق يَحكي عن أحمدَ ابنِ محمدِ بن عاصِم : سَمعتُ ابنَ أبي عاصِم يقولُ : وصَلَ إليَّ منذُ دَخلتُ إلىٰ أصْبَهانَ من دَراهِم القَضاءِ زِيادَة علىٰ أربع مئة ألفِ دِرْهَم ، لا يُحاسبُني اللهُ يومَ القيامة أنِّي شَربْتُ منها شَرْبَةَ ماء ، أو أكَلتُ منها ، أو لَبسْتُ[5] .

(هـ) من السَّلَف مَنْ كان يَنهَىٰ عن أخذ أجرٍ على القَضاء :

قال سليمانُ بنُ أبي شَيخ : قال شَريك لبعض إخْوانِه : أُكْرِهتُ على القَضاءِ ، قال : فأُكْرِهْتُ علىٰ أخْذِ الرِّزْق[6] .

(و) قُضاةٌ صالحون :

وَلي أبو عبد الله محمدُ بنُ عليّ المَرْوزي المَعْروف بـ « الخَيَّاط » قضاءَ القُضاةِ بنيسابُورَ في سنة ثمان وثلاث مئة إلىٰ أن استعفَىٰ سنة إحدىٰ عشرة ، وردَّ خَريطَةَ الحُكْم

---

(١) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/٨٠٩ .
(٢) انظر السير : (ابن أبي عاصم) ١٣/ ٤٣٠ـ٤٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٩٨ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ١١١
(٤) انظر السير : (مَسْروق) ٤/ ٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٨/٤٤٥ .
(٥) انظر السير : (ابن أبي عاصم) ١٣/ ٤٣٠ـ٤٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٩٨ .
(٦) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٥/٧٤٣ .

إلى الرَّئيس أبي الفضل البَلْعَميِّ ، فما شَرِبَ لأحدٍ ماءً ، ولا ظُفِرَ له بزَلَّة ، وكان لا يَدعُ سَماعَ الحَديث أيَّام قَضائه ، ويحضر مجلس أبي العبَّاس السَّرَّاج[1] .

وقال ابنُ عبد البَرّ : كان أحمدُ بنُ بَقيّ وَقوراً حَليماً كَثيرَ التِّلاوَة لَيلاً ونَهاراً ، قَويَّ المَعْرِفَة باخْتلافِ العُلماء ، وَلِيَ القَضاءَ عَشرةَ أعْوام ما ضَربَ فيها فيما قِيلَ سِوَىٰ واحدٍ مُجْمعٍ علىٰ فِسْقِه ، وكان يَتوَقَّفُ ويَتثبَّتُ ويقولُ : التَّأنِّي أخْلَصُ ، إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لمَّا أُشْكلَ عليه أمرُ حَديث حُوَيِّصَة ومُحَيِّصَة[2] وَدَى القَتيلَ من عِندِه .

وكان النَّاصِرُ لدين الله يَحترمُه ويُبَجِّله تُوفِّي على القَضاء سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وفي ذُرِّيته أئمَّةٌ وفُضَلاء ، آخِرُهم أبو القاسِم أحمدُ بنُ بَقيّ[3] .

ومن مَحاسِن المنْصُور أنَّه ولَّىٰ محمدَ بنَ أبي المَنْظور الأنْصاري قَضاءَ القَيْروان وكان من كبار أصْحابِ الحَديث، وقد لَقيَ إسْماعيلَ القاضي ، والحارثَ بنَ أبي أسامَة، فقال : بشَرْطِ أنْ لا آخُذَ رِزْقاً ولا أرْكَبَ دابَّةً، فوَلاَّه ليتألَّفَ الرَّعيَّة، فأُحْضِرَ إليه يَهوديٌّ قد سَبَّ[4]

---

(١) انظر السير : (القاضي الخيَّاط) ١٤/ ٥٦٤ـ ٥٦٥ ، وانظر النزهة : ٦/١١٧٣ .

(٢) أخرجه البخاري (٣١٧٣) في الجهاد ، و(٦١٤٣) في الأدب ، و(٦٨٩٨) في الدِّيات : باب القسامة ، و(٧١٩٢) في الأحكام ، ومسلم (١٦٦٩) من حديث سهل بن أبي حثمة ورافع ابن خديج أنهما قالا : خرج عبد الله بن زيد ، ومُحيِّصَة بن مسعود بن زيد ، حتىٰ إذا كانا بخير تفرّقا في بعض ما هُنالك ، ثم إذا مُحيِّصَة يجدُ عبد الله بن سهل قَتيلاً ، فدفنه ، ثم أقبلَ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وحُويِّصَة بن مسعود وعبد الرحمٰن بن سهل ، وكان أصْغَرَ القوم ـ فذهب عبد الرحمٰن ليتكلَّم قبل صاحبيه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كبِّرْ الكبْرَ في السِّن » ، فصمت ، فتكلَّم صاحباه ، وتكلَّم معي ، فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مقتل عبد الله بن سهل ، فقال لهم : « أتَحْلِفُونَ خَمْسينَ يَميناً فَتَسْتَحِقُّونَ صَاحِبَكم أوْ قَاتِلَكم » ، قالوا : فكيف نَحلفُ ولم نَشْهَد ، قال صلى الله عليه وسلم : « فَتُبَرِّئُكم يَهُودُ بِخَمْسِينَ يَميناً » ، قالوا : وكيف نقبلُ أيْمان قومٍ كُفَّار ، فلما رأىٰ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطىٰ عقله .

(٣) انظر السير : (أحمدُ بن بَقيّ) ١٥/ ٨٣ـ ٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٣ .

(٤) أي : النبيَّ صلى الله عليه وسلم .

فبَطحَه ، وضَربَه إلىٰ أنْ ماتَ تحتَ الضَّرْبِ ، خافَ أنْ يُحكَمَ بقَتلِه فتحلّ عليه الدَّوْلة[1] .

وأتىٰ يوماً بيته فوجَدَ سُلافَ دايةَ السُّلطانِ تَشفَعُ في امرأةٍ نائحَةٍ فاسِقَةٍ ليُطْلِقَها من حَبْسِه ، فقالَ : ما لَكِ ؟ قالت : قَضيب[2] مَحْبوبة المنصور ، تطلب منك أن تُطْلِقَها ، فقال : يا مُنْتِنَةُ لولا شيءٌ لضَربتُك لَعَنَكِ اللهُ ، ولَعنَ مَنْ أرْسَلَك فوَلْوَلَت ، وشقَّت ثيابَها ثم ذَكرَت أمرَها للمَنْصور ، فقالَ : ما أصْنَعُ به ؟ ما أخَذَ منَّا صِلَةً ، ولا نَقدِرُ علىٰ عَزْلِه نحنُ نحبُّ إصْلاحَ البَلد .

وخَرجَ في رَمضانَ سنة إحْدَىٰ وأربعين وثلاث مئة إلىٰ مكانٍ يَتنزَّه فأصابَه بَردٌ وريحٌ عَظيمة ، فأثَّرَ ذلك فيه ، ومَرضَ ، وماتَ عددٌ كثيرٌ ممَّنْ مَعه ثم ماتَ من السَّنَة وله تسعٌ وثَلاثونَ سنةً[3] .

وقيلَ : إنَّ القاضي محمَّدَ بنِ أحمدَ بن إبْراهيم المَعْروف بـ « العَسَّال » كان لا يغلقُ بابَه عن أحَدٍ ، وكان إذا تَوجَّه على الخَصْم يَمينٌ لا يُحَلِّفْه ما أمْكَنَه ، بل يَغرمُ عنه مالم يَبلُغ مئةَ دينار ، فإذا بَلغَ المئة أو جاوَزَها ، كان يَتثبَّتُ ويُدافعُ ويُمهِلُ إلى المجْلِس الثاني ، ويُحذِّرُ المدَّعَىٰ عليه وبالَ اليَمين ، ويُخوِّفُه يومَ الدِّين ، ويُذَكِّرُه الوُقُوفَ بين يَدَي ربِّ العالَمين ، ثم يُحلِّفُه علىٰ كُرْه[4] .

وقال السَّمْعانيُّ : أبو بكر الحَمَوي أحدُ المتْقِنين للمَذْهب ، وله اطِّلاعٌ علىٰ أسْرار الفِقْه ، وكان وَرِعاً ، زاهِداً ، مُتَّقياً ، سَديدَ الأحْكام ، وَليَ قَضاءَ القُضاة بعد أبي عبد الله الدَّامَغانيّ مُدّة إلىٰ أنْ تَغيَّر عليه أميرُ المؤمنين « المُقْتَدِي » فمَنعَ الشُّهودَ من حُضورِ مَجْلِسه مُدّة ، فكان يقولُ : ما أنْعَزِلُ ما لَمْ يَتحَقَّق عليَّ فسقٌ ، ثم إنَّ « المُقْتَدِي » رَضِيَ وخَلعَ عليه[5] .

---

(١) انظر السير : (المَنْصُور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٠٢ .
(٢) جارية أخرىٰ للسلطان ، ليس عنده أعزّ منها .
(٣) انظر السير : (المَنْصُور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٥٤/١٢٠٢ .
(٤) انظر السير : (العَسَّال) ١٦/٦ـ١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٦٥ .
(٥) انظر السير : (الحَمَويّ) ١٩/٨٥ـ٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٣ .

وشَهدَ عنده المشطّبُ الفَرْغانيُّ[1] ، فلَمْ يَقبلْه ، لكَونِه يَلبَسُ الحَرير فقال : تَردُّني ، والسُّلطانُ ووَزيرُه نِظامُ المُلك يَلبَسانِه ؟! فقال : لَوْ شَهدا ، لما قَبلتُهما[2] .

قال ابنُ النجَّار : تَفقَّه على القاضي أبي الطيب ، ولمْ يأخُذْ على القَضاء رِزْقاً ، ولا غَيَّرَ مأكلَه ولا مَلبَسَه ، وكان يُسَوِّي بينَ النَّاسِ فانقلبَ عليه الكُبراءُ ، وكان نَزِهاً وَرِعاً علىٰ طريقَة السَّلَف ، له كارك[3] يُؤجرُه كل شهرٍ بدينارٍ ونصْف ، كان يَقتاتُ منه ، فلمَّا وَليَ القَضاءَ جاء إنسانٌ ، فدَفعَ أرْبعَة دَنانير ، فأبىٰ ، وقال : لا أُغَيِّرُ ساكِني ، وقد ارْتَبتُ بك ، هلاَّ كانت الزِّيادَةُ من قَبلِ القَضاء .

قال أبو عليّ الصَّدَفيُّ : هو وَرِعٌ زاهدٌ وأمَّا الفِقْهُ ، فكان يُقالُ : لوْ رُفِعَ مَذهَبُ الشَّافعيِّ ، لأمْكَنَه أنْ يُمْليه من صَدرِه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان قُدومُه بَغْدادَ في سنةِ عشرين وأربعِ مئة ، وكان من أوْعيَة الفِقْه ، وقد صنَّف « البَيان في أصُول الدِّين » يَنْحو فيه إلىٰ مَذهَب السَّلَف .

مات سنةَ ثمانٍ وثمانين وأرْبع مئة ، وقد قارَبَ التِّسْعينَ ، ودُفِنَ في تربةٍ له عند أبي العبَّاس بنِ سُرَيج[4] .

وكان ابنُ العَربي ثاقِبَ الذِّهْن ، عَذْبَ المَنْطِق ، كَريمَ الشَّمائل ، كامِلَ السُّؤْدُد ، وَليَ قَضاءَ إشْبيليَة ، فحُمدَت سياسَتُه ، وكان ذا شِدَّة وسَطْوَة فعُزِلَ ، وأقْبلَ علىٰ نَشرِ العِلمِ وتَدوينِه .

كان القاضي أبو بكر ممَّن يُقالُ : إنَّه بَلغَ رُتبَةَ الاجْتهاد[5] .

---

(١) هو أبو المُظَفَّر المشطّب بن محمد بن أسامة الفرغاني ، من فرغانة ما وراء نهر جيجون ، كان من فُحول المُناظرين ، وكانت له يدٌ باسطة في النظر والجدل ، وكان مُختلطاً بالعَسكَر ، وكان لا يُفارقهم .

(٢) انظر السير : (الحَمَويّ) ١٩/ ٨٥ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٦٣ .

(٣) الكلمة فارسيّة ، ومعناها : البيت كما يُفهَم من السِّياق .

(٤) انظر السير : (الحَمَويّ) ١٩/ ٨٥ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٦٣ .

(٥) انظر السير : (ابنُ العَربي) ٢٠/ ١٩٧ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٤١ .

(ز) خَوفُ قاضٍ من الله :

قال الحاكمُ : سَمعتُ محمَّدَ بنَ عَبْدان خادمَ الجامع يقولُ : كان محمَّدُ بنُ عليّ الحاكم يَجيءُ في كل أسْبُوع ليلةً إلى الجامع ، فيَتعبَّد إلى الصباح من حيث لا يَعرفُ غَيري، فصادَفتُه ليلةً يَتلو : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الآيات[1] وكلَّما تَلا آية منها ، ضَربَ بيده علىٰ صَدرِه أسْمعُ صَوتَها من شِدَّته ، رحمَه الله تعالىٰ .

تُوفِّي رحمَه الله بعدَ العشرين وثلاث مئة ، وله بضعٌ وثَمانون سنة[2] .

(ح) تَحْذيرُ القاضي الشُّهودَ من شَهادة الزُّور :

قال ابنُ سيرين : كان شُرَيحٌ القاضي يقولُ للشَّاهِدَين : إنَّما يَقضي علىٰ هٰذا الرَّجُلِ أنتُما ، وإنِّي لَمُتَّقٍ بكُما فاتَّقِيا[3] .

(ط) قاضٍ فَطِنٌ :

قال إبراهيمُ بنُ هِشام الغَسَّانيُّ : حدَّثني أبي ، عن جَدِّي ، قال : وَقَعَتْ من رجلٍ مئةُ دينارٍ فنادَىٰ : مَنْ وَجَدَها ، فله عِشْرونَ ديناراً ، فأقبَلَ الذي وَجدَها فقال : هٰذا مالُك ، فأعْطِني الذي جَعلتَ لي فقال : كان مالي عشرينَ ومئةَ دينار ، فاخْتَصَما إلىٰ فَضَالَةَ بنِ عُبَيد ، فقال لصاحبِ المال : أَلَيْسَ كان مالُك مئة وعشرين ديناراً كما تذكر ؟ قال : بَلىٰ وقال للآخر : أنْتَ وَجدْتَ مئة ؟ قال : نَعَم ، قال : فاحْبِسْها ولا تُعْطِه ، فليس هو بمالِه حتىٰ يَجيءَ صاحبُه[4] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٤٤ .
(٢) انظر السير : (القاضي الخيَّاط) ١٤/ ٥٦٤ـ ٥٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/١١٧٤ .
(٣) انظر السير : (شُرَيح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٦/٤٥٦ .
(٤) انظر السير : (فَضالَة بن عُبَيد) ٣/ ١١٣ـ ١١٧ ، وانظر النزهة : ٤/٣٤٦ .

(ي) قُضَاةٌ مُرْتَشُون خَرِبوا الذِّمَّة :

وعن الحَسَنِ بنِ زياد اللؤلؤيِّ قال : قال أبو حَنيفَة : إذا ارْتَشَى القاضي ، فهو مَعْزول وإنْ لم يُعزَل .

قال وَكيعٌ : سَمعتُ أبا حَنيفَةَ يقولُ : البَوْلُ في المَسْجد أحسنُ من بعضِ القِياس .

وعن أبي مُعاويَة الضَّرير قال : حُبُّ أبي حَنيفة من السُّنَّة[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمَة « رَفيع الدين » : ولمَّا غَلبَ إسماعيلُ علىٰ دمشْقَ ولاَّهُ قضاءَها ، فكان مَذمومَ السِّيرة خَبيثَ السَّريرة ، وواطَأَهُ أمينُ الدولة علىٰ أذيَّة الناس ، واستعملَ شُهودَ زُورٍ ووُكلاءَ ، فكان يَطلبُ ذا المالِ إلىٰ مَجْلسِه فيَبثُّ مُدَّعٍ عليه بألفِ دينار ويُحضِرُ شُهودَه ، فيتَحيَّرُ الرجلُ ويُبهَت ، فيقولُ الرَّفيعُ : صالِح غَريمَك ، فيُصالِح على النِّصْف ، فاستُبيحت أموالُ المسلمين ، وعَظُمَ الخطبُ ، وتَعثَّر خَلقٌ ، وعَظُمت الشَّناعات ، واسْتغاثوا إلى الصَّالح ، فطَلبَ وَزيرَه ، وقالَ : ما هـٰذا ؟ فخافَ ، وكان أُسُّ البَلاء الموَفَّقُ الواسطيُّ فَتحَ أبوابَ الظلم ، فبادَر الوزيرُ وأهْلَكَهما لئلا يُقِرَّا عليه وليُرْضِيَ النَّاسَ .

ويقالُ : كان الصَّالحُ يَدري أيضاً[2] .

(ك) حَرِصَ نورُ الدِّين عَلىٰ مُساواة نفسِه بخَصْم في مَجْلِس القَضاء :

وقال مَجْدُ الدِّين ابنُ الأثير : جاءَ رجلٌ يَطْلُبُ نورَ الدين زِنكي إلى الشَّرْعِ ، فجاءَ معَهُ إلىٰ مَجْلِسِ كمَالِ الدين الشَّهرَزوريِّ ، وتَقَدَّمَه الحَاجِبُ يقولُ للقاضي : قد قالَ لكَ : اسْلُك مَعَهُ ما تَسْلُك مع آحَادِ النَّاسِ ، فلمَّا حَضَرَ سَوَّىٰ بينَه وبينَ خَصْمِه وتَحاكَمَا فلَمْ يَثْبُتْ للرَّجُلِ عليه حَقٌّ ، وكان مِلْكاً ، ثم قال السُّلطَانُ : فاشْهَدُوا أنِّي قد وَهَبْتُهُ له .

قال العِمَادُ في « البَرْقِ الشَّامِيّ » أكثَرَ نورُ الدين عامَ مَوْتِه من البِرِّ والأوْقَافِ وعِمَارَةِ

---

(١) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٦/٦٦٣ .

(٢) انظر السير : (الرَّفيع) ٢٣/ ١٠٩ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١٥ .

المَسَاجِد ، وأسْقَطَ ما فيه حَرَامٌ ، فما أبْقَىٰ سِوَى الجِزْيَةَ والخَرَاجَ والعُشْرَ ، وكَتَبَ بذلك إلىٰ جَميعِ البِلادِ ، فكَتَبْتُ له أكثَرَ من ألْفِ مَنْشُورٍ[1] .

٢٣ـ مُتفرِّقاتٌ في القَضاء :

عن نافع قال : كتب عُمَرُ إلىٰ أبي عبيدة ومعاذ : انظروا رجالاً صالحين ، فاستعملوهم على القضاء وارْزُقوهم[2] .

وعن هُبيرة بن يَريم ، أن عَليّاً جمع الناس في الرَّحْبَة ، وقال : إني مفارقكم ، فاجتمعوا في الرَّحْبَة ، فجعلوا يسألونه حتىٰ نفد ما عندهم ولم يبق إلاَّ شُريح ، فجثا علىٰ ركبتيه ، وجعل يسأله فقال له عليٌّ : اذهبْ فأنت أقْضَى العَرب[3] .

وعن عامر ، قال : جاءت امرأة إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه تخاصم زوجها طلَّقَها فقالت : قد حِضْتُ في شهرين ثلاث حِيَضٍ فقال عليٌّ لشُرَيح : اقض بينهما قال : يا أمير المؤمنين ، وأنت ها هنا ؟ قال : اقض بينهما قال : إن جاءت من بطانة أهلها من يُرضىٰ دينُه وأمانتُه يَزْعُمُ أنَّها حاضَت ثلاثَ حِيَض تَطهُر عند كل قرء ، وتُصلِّي ، جازَ لها ، وإلاَّ فلا، قال عليٌّ : قالُون. وقالُون بلسان الروم : أحسنتَ[4] .

وعن إبراهيم ، قال : أقرَّ رجلٌ عند شُرَيح ، ثم ذهب يُنْكِر ، فقال : قد شهد عليك ابن أخت خالتك[5] .

وعن عبد الصَّمد بنِ مَعقل ، قيل لوَهْب بنِ مُنَبِّه : إنَّك يا أبا عبدِ الله كنْتَ تَرى الرُّؤيا فتُحدِّثُنا بها فتكونُ حقاً قال : هَيْهات ذَهبَ ذلك عنِّي منذ وُلِّيتُ القَضاء[6] .

وقالَ سليْمانُ بنُ أبي شَيخ : حَكَىٰ لي عبدُ الله بنُ صالِح بنِ مُسلِم ، قالَ : كانَ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٨٢ .
(٢) انظر السير : (مُعاذُ بن جَبَل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٩٢ .
(٣) انظر السير : (شُرَيح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٥٦ .
(٤) انظر السير : (شُرَيح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٥٦ .
(٥) انظر السير : (شُرَيح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٥٧ .
(٦) انظر السير : (وَهْب بن مُنبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٥٣ .

شَريكٌ علىٰ قَضاءِ الكُوفَة ، فخَرجَ يَتلقَّى الخَيزُرانَ ، فبَلغَ شاهي[1] ، وأبْطَأت الخَيْزُران ، فأقامَ يَنتَظرُها ثَلاثاً ، ويَبِسَ خُبزُه ، فجَعلَ يَبلُّه بالْمَاءِ ويَأكُله ، فقالَ العَلاءُ بنُ الْمِنْهَال الغَنَويُّ[2] .

فـإنْ كَـانَ الـذِي قُلـتَ حقًّـاً ... بـأَنْ قـد أكـرَهـوكَ عَلـى القَضـاءِ
فمـا لـكَ مُـوضِعـاً فـي كـلِّ يـوم ... تلَقَّـىٰ مَـنْ يَحُـجُّ مِـن النِّسـاء ؟
مُقيمـاً فـي قُـرَىٰ شـاهِـي ثـلاثـاً ... بِـلا زادٍ سِـوَىٰ كِسَـرٍ وَمَـاءِ

* * *

(١) مَوضع قُرب القادسيّة .
(٢) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٦/٧٤٣ .

(٥) اللُّغَةُ والأدَب

١ـ فَضْلُ عُلَماء اللُّغَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة أبي زَكريّا يَحْيىٰ بنِ زياد « الفَرَّاء » : ورَدَ عن ثَعلبَة أنَّه قالَ : لَوْلا الفَرَّاء لما كانت عَربيَّة ، ولَسَقطَت ، لأنَّه خَلَّصَها ، ولأنَّها كانت تُتنازَعُ ويَدَّعيها كلُّ أحَد[١] .

ونقل أبو بُديل الوَضَّاحي أنَّ المأمونَ أمرَ الفَرَّاء أنْ يؤلِّفَ ما يُجمع به أصول النحو ، وأفرد في حجرة ، وقرر له خدماً ، وجواري ، ووراقين فكان يملي في ذلك سنين قال ولما أملىٰ كتاب « مَعاني القُرآن » اجتمع له الخلقُ ، فكان من جُملَتهم ثَمانونَ قاضياً ، وأملَّ « الحمد » في مئة ورقة[٢] .

٢ـ مَنْ كان من العُلماء لُحَنَة :

قال عليُّ بنُ المَديني : كان وَكيعٌ يَلْحَنُ ، ولو حَدثتُ عنه بألفاظِه ، لكانَت عَجباً ، كان يقولُ : حدَّثنا مسْعَر عن « عيشة » .

وقال إبراهيمُ الحَربيُّ : سَمعتُ أحمدَ يقولُ : ما رَأتْ عَينايَ مثل وكيع قَطُّ ، يَحفظُ الحَديثَ جيداً ، ويُذاكرُ الفِقْهَ ، فيُحسِنُ مع وَرَع واجْتهاد ، ولا يَتكلَّمُ في أحَد[٣] .

وقالَ ابنُ ناصِر : كان محمّدُ بنُ طاهِر لُحَنَةً ويُصحِّف ، قَرأَ مرَّة : وإنَّ جَبينَه ليَتَفَصَّدُ[٤] عَرَقاً ـ بالقاف ـ فقُلتُ : بالفَاء ، فكابَرَني[٥] .

وقال السِّلفيُّ : كان محمَّدُ بنُ طاهِر فاضِلاً يَعرفُ ، لكنه لُحَنَةٌ ، قال لي المؤتَمنُ

---

(١) انظر السير : (الفَرَّاء) ١٠/ ١١٨ـ ١٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٥٧ .
(٢) انظر السير : (الفَرَّاء) ١٠/ ١١٨ـ ١٢١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٥٧ .
(٣) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٨١١ .
(٤) أي : يسسل من التَّفصُّد وهو السَيلان ، وهو قطعة من حديث .
(٥) انظر السير : (محمد بن طاهر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤٨٧ .

الساجي : كان يَقرأُ ، ويلحنُ عند شَيخ الإسلام بهَراة ، فكان الشَّيخُ يُحرِّكُ رأسَه ، ويقولُ : لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[1] .

٣ـ مَنْ كان يَقفُ علىٰ أواخِر الكلم خَوفاً من اللَّحْن :

كان ابنُ فَضْلان ظَريفَ المناظَرَة ، ذا نَغَمات مَوْزونَة ، ويُشيرُ بيَدِهِ بوَزْن مطربٍ أنيق ، يقفُ علىٰ أواخر الكَلِم خَوفاً من اللحن قاله الموفَّق عبدُ اللَّطيف ، ثم قال : كان يُداعِبُني كثيراً ، ثم رُمي بالفالجِ في أواخر عُمرِه رَحمَه الله .

ماتَ سَنةَ خَمسٍ وتسعينَ وخَمسِ مئة[2] .

٤ـ مُناظَرَةٌ لُغَويَّة :

جَمعَ يَحْيَى البَرْمَكي ببغدادَ بين سِيبَوَيْه وبين الكِسائي للمُناظَرَة ، بحضور سَعيد الأخْفَش ، والفَرَّاء ، وجَرت مَسألةُ الزُّنْبُور ، وهي كذب : أظن الزُّنْبُورَ أشدَّ لَسْعاً من النَّحْلة فإذا هو إيَّاها فقالَ سِيبَوَيْه : ليس المثلُ كذا ، بلْ : فإذا هو هي ، وتَشاجَرا طويلاً ، وتَعصَّبوا للكِسائي دُونَه ، ثم وَصلَه يَحْيَىٰ بعَشرة آلاف ، فسارَ إلىٰ بلادِ فارِس ، فاتَّفقَ مَوْتُه بشيرازَ فيما قيل .

وقيلَ : كان فيه مع فَرْطِ ذَكائِه حُبْسَةٌ في عِبارَتِه ، وانطلاقٌ في قَلمِه .

قال إبراهيمُ الحَرْبيُّ : سُمِّيَ سِيبَوَيْه لأنَّ وَجْنَتَيه كانتا كالتُّفَّاحَتين ، بَديعَ الحُسْن .

وقال العَيشيُّ : كنَّا نَجلسُ مع سِيبَوَيْه في المسجد ، وكان شابّاً جَميلاً نَظيفاً ، قد تَعلَّق من كل علمٍ بسَبب ، وضَربَ بسَهْمٍ في كلِّ أدَب مع حَداثَةِ سنِّه .

وقيلَ : عاشَ اثْنتَين وثَلاثينَ سنةً ، وقيل : نَحْوَ الأرْبَعين ، وقيل : مات سنةَ ثَمانين ومئة[3] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن طاهر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١٤٨٧/ ٤ .

(٢) انظر السير : (ابنُ فَضْلان) ٢١/ ٢٥٧ـ ٢٥٨ ، وانظر النزهة : ١٦١٧/ ٤ .

(٣) انظر السير : (سِيبَوَيْه) ٨/ ٣٥١ـ ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ٧٦٢/ ٣ .

٥ـ مَسَائلُ لُغَويَّة :

عن أبي عثمان المازني قال : قلتُ لابنِ السِّكِّيت : ما وَزْنُ « نَكتَل » قال : « نَفْعَل » قلتُ : اتَّئِد ، ففكَّر ، وقال : « نَفْتَعِل » قلتُ : فهٰذه خَمسة أحْرُف ، فسكت فقال المتوكلُ : ما وَزْنُها ؟ قلتُ : وَزْنُها في الأصْلِ « نَفْتَعِل » ، لأنَّها « نَكتَيِل » فتَحرَّك حرفُ العلَّة ، وانْفَتَح ما قبلَه فقُلبَ ألفاً ، فصار « نَكتَال » ، فحُذفَت ألفُه للجَزْم ، فبَقِيَ « نَكتَل » .

مات المازِنيُّ رحمه الله سنة سبع أو ثمان وأربعين ومئتين[١] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة أبي زُرْعَة الرَّازي : الإمامُ ، سَيِّدُ الحُفَّاظ ، عُبَيدُ الله بنُ عبدِ الكريم بن يَزيد ، مُحدِّثُ الرَّي ودُخول « الزَّاي » في نِسْبتِه غَير مَقيس ، كالمَرْوَزِي[٢] .

وكان نِفْطَويه مُتضَلِّعاً من العُلوم ، يُنكِرُ الاشْتقاقَ ويُحيلُه . خلطَ نَحوَ الكُوفيِّينَ بنَحْوِ البَصْريِّين ، وصارَ رَأساً في رَأيِ أهْلِ الظَّاهِر .

وكان ذا سُنَّة ودين وفُتوَّة ومُرُوءَة ، وحُسْنِ خُلُق ، وكَيْسٍ وله نَظْمٌ ونَثْرٌ[٣] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة أبي حامد الغَزَّاليّ : تَوفِّيَ سَنةَ خَمسٍ وخَمسِ مئة ، وله خَمسٌ وخَمسونَ سَنةً ، ودُفنَ بمَقبرَةِ الطابَران قصبة بلادِ طُوس ، وقولُهم : الغَزَّاليُّ ، والعطَّاريُّ ، والخبَّازيُّ ، نِسْبة إلى الصَّنائع بلسان العَجَم بجَمْع ياء النِّسْبَة والصِّيغَة .

وللغَزَّاليِّ أخٌ واعظ مَشْهور ، وهو أبو الفُتوح أحمدُ ، له قَبولٌ عَظيمٌ في الوَعْظ يُزَنُّ[٤] برِقَّة الدِّينِ وبالإباحَة ، بَقيَ إلىٰ حُدود العشْرين وخَمس مئة ، وقد نابَ عن أخيه في تَدْريس النِّظاميَّة ببَغدادَ لمَّا حَجَّ مُدَيْدَة .

---

(١) انظر السير : (المازِنيّ) ١٢/ ٢٧٠ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٨ .

(٢) انظر السير : (أبو زُرْعَة الرَّازي) ١٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٥١ .

(٣) انظر السير : (نِفْطَوَيْه) ١٥/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٢ .

(٤) أي : يُتَّهَم ويُرْمَىٰ .

قال أبو الثناء مَحمودُ الفَرضي : حَدَّثنا تاجُ الإسْلام ابنُ خَميس قال لي الغَزَّاليُّ : الناسُ يَقولون لي الغَزَّاليُّ ، ولستُ الغَزَّاليُّ ، وإنَّما أنا الغَزَالي مَنسوبٌ إلىٰ قَريَة يُقالُ لها : غَزالة ، أو كما قال .

رَحمَ الله الإمامَ أبا حامد ، فأينَ مثلُه في عُلومِه وفَضائلِه ، لكن لا نَدَّعي عِصْمَته من الغَلطِ والخَطأ ، ولا تَقليدَ في الأصُول[1] .

٦ـ نادِرَةٌ لُغَويّة تدلُّ علىٰ سِعَة الحِفْظ والدِّرايَة :

قالَ الخَطيبُ : حكىٰ لي رئيسُ الرُّؤساء أبو القاسم عليُّ بنُ الحَسَن عمَّن حدَّثه ، أنَّ أبا عُمرَ الزَّاهِدَ ، كان يُؤدِّبُ وَلدَ أبي عُمرَ محمَّدَ ابنَ يوسُف القاضي ، فأمْلىٰ يوماً على الغُلام ثلاثينَ مَسألَة في اللُّغَة ، وخَتمَها ببَيْتين قال : فحَضرَ ابنُ دُرَيد ، وابنُ الأنْباري ، وأبو بَكر بنُ مِقْسَم عند القاضي ، فعَرضَ عليهم المسائل فما عَرفوا منها شيئاً ، وأنْكَروا الشِّعْر فقالَ لهم القاضي : ما تَقولُونَ فيها ؟ فقال ابنُ الأنْباري : أنا مَشْغولٌ بتَصنيفِ « مُشْكل القُرآن » وقال ابنُ مِقْسَم : وذكرَ اشْتِغالَه بالقِراءاتِ ، وقالَ ابنُ دُرَيْد : هي من وَضْع أبي عُمرَ ، ولا أصْلَ لشيء منها في اللُّغَة ، فبَلغَ أبا عُمرَ ، فسَألَ مِنَ القاضي إحْضارَ دَواوين جَماعَة عيَّنَهم له ففَتحَ خَزائنَه ، وأخْرجَ تلكَ الدَّواوين ، فلَمْ يَزلْ أبو عُمرَ يَعمِدُ إلىٰ كل مَسألة ، ويُخرجُ لها شاهداً ، ويَعرضُه على القاضي حتىٰ تمَّمَها ، ثم قال : والبَيْتان أنْشَدَناهُما ثَعلبُ بحضرة القاضي ، وكتَبَهما القاضي علىٰ ظَهْر الكتابِ الفُلاني ، فأحْضَرَ القاضي الكتابَ ، فوَجدَهما ، وانتُهى الخَبرُ إلى ابنِ دُرَيد ، فما ذَكرَ أبا عُمرَ الزَّاهدَ بلَفْظَةٍ حتىٰ مات[2] .

٧ـ الأدَبُ والأُدَباء :

قال أبو الحُسَين بنُ المُحامِلي : أخْبَرَنا عليُّ بنُ أحمد بنِ أبي خَليفة : سَمعتُ أبي يقولُ : حَضَرْنا يوماً عند خَليل أميرِ البَصْرة ، فجَرىٰ بينَه وبين أبي خَليفَة كَلامٌ فقالَ

---

(١) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٨٥ .

(٢) انظر السير : (أبو عُمر الزَّاهِد) ١٥/ ٥٠٨ـ٥١٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥٦ .

له : مَنْ أنتَ أيها المتكلمُ ؟ فقالَ : أيها الأمير : ما مثلُك مَنْ جَهل مثلي : أنا أبو خَليفة الفَضلُ بنُ الحُباب أفَهَل يَخْفى القَمرُ ؟ فاعْتَذرَ إليه ، وقَضىٰ حاجَتَه ، ولمَّا خَرجَ ، سألوه ، فقال : ما كانَ إلاَّ خَيراً ، أحْضَرني مأدُبَتَه ، فأبَطَّ ، وأدَجَّ ، وأفْرَخَ ، وفَوْلَجَ لَوْذَج ، ثم أتاني بالشَّرابِ ، فقُلتُ : مَعاذَ الله ، فعاهَدني أنْ آتي مأدُبَتَه كلَّ يوم ، فكانَ إنسانٌ يأتي كلَّ يوم ، فيَحملُه إلى الأمير[1] .

قال الصُّوليُّ : كنتُ أقرأُ علىٰ أبي خَليفة كتابَ : « طَبَقات الشُّعَراء » وغيرَ ذلك ، قال : فوَاعَدَنا يوماً وقال : لا تُخْلِفوني فإنِّي أتَّخِذُ لكم خَبيصةً فتأخَّرْتُ لشُغلٍ عَرضَ لي ، ثم جئتُ والهاشِميُّون عندَه ، فلمْ يَعرفْني الغُلامُ ، وحَجَبَني ، فكَتبتُ إليه :

أبـا خَلِيفَـةَ تَجْفُـوا مَـنْ لَـهُ أَدَبٌ ... وَتُـؤثِـرُ الغُـرَّ مِـنْ أَوْلاَدِ عَبَّـاسِ
وَأَنْتَ رَأْسُ الوَرَىٰ في كُلِّ مَكرُمَةٍ ... وَفِي العُلُومِ ، وَمَا الأَذْنَابُ كَالرَّاسِ
مَا كَانَ قدرُ خَبِيصٍ لَوْ أَذِنْتَ لَنَا ... فِيـهِ فَيَخْتَلِـطُ الأَشْـرَافُ بـالنَّـاسِ

فلمَّا قَرأها صاحَ على الغُلام ، ثم دَخلتُ ، فقالَ : أسَأتَ إلينا بتَغَيُّبِكَ ، فظلَمْتَنا في تَعَتُّبك ، وإنَّما عُقدَ المجلسُ بك ، ونَحنُ فيما فاتَنا بتأخيرك كما أنْشَدني التوزيُّ لِمَنْ طلَّق امرأتَه ثم نَدِمَ فتَزَوَّجَت رجلاً ، فماتَ حين دَخلَ بها ، فتَزَوَّجَها الأولُ فقال :

فعَادَتْ لنا كالشَّمْسِ بَعدَ ظَلامِها ... علىٰ خَيـر أحـوالٍ كـأنْ لَـمْ تُطَلَّـقِ

ثم صَاحَ : يا غُلام! أعدَّ لنا مثلَ طَعامِنا ، فأقَمْنا عندَه يومَنا[2] .

الفَصَاحَةُ والبَلاغَة :

١ـ ضَوابط الكلام الحَسَن الجَميل :

قال خالدُ بنُ صَفْوان : أحْسنُ الكَلام مالم يَكُنْ بالبَدَويِّ المُغْرب ولا بالقَرَويِّ المُخدَّج ، ولكن ما شَرُفَت مَنابتُه ، وطَرُفَت مَعانيه ، ولَذَّ على الأفْوَاه وحَسُنَ في

---

(١) انظر السير : (أبو خَليفَة) ١٤/٧ـ١١ ، وانظر النزهة : ١/١١٢٢ .
(٢) انظر السير : (أبو خَليفَة) ١٤/٧ـ١١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٢ .

الأسْماع ، وازْدادَ حُسناً علىٰ مرِّ السِّنين ، تُحنحنُهُ الدَّواةُ وتَقْتَنيه السَّرَاةُ[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وكان مَشْهوراً بالبُخْل ، رَحمَه الله[2] .

٢ـ كلامٌ جَميل حَولَ الفَصاحَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة الخَليفة المُقْتدي بأمْرِ الله : وكان مُحبّاً للعلوم ، مُكْرِماً لأهْلِها ، لمْ يَزلْ في دَولةٍ قاهِرةٍ وصَوْلَةٍ باهِرَةٍ ، وكانَ غَزيرَ الفَضْلِ ، كاملَ العَقْلِ ، بَليغَ النَّثْرِ ، فمنه :

وَعْدُ الكُرَماء أَلْزَمُ من دُيون الغُرَماء، الألْسُن الفَصيحَة أنْفَعُ من الوُجُوه الصَّبيحَة ، والضَّمائرُ الصَّحيحَة أبْلَغُ من الألْسُن الفَصيحَة، حَقُّ الرَّعيَّة لازمٌ للرُّعاة ، ويَقبحُ بالوُلاة الإقْبالُ على السُّعاة .

وفي أول سنة سبع وثمانين تُوفِّي المُقْتدي فَجْأة وهو ابنُ تسع وثلاثين سنة ، وكانت خِلافَتُه عشرين سنة كان هو خَليفَةُ الإسْلام في زَمانِه ، لكنْ يُزاحِمُه صاحبُ مِصْرَ المُسْتَنصِرُ ، فكان العُبَيْدِيُّ والعبَّاسِيُّ مَقْهورَين من وُجوه وكان حُكْمُ العِراق والمَشْرق إلى السُّلْجوقيَّة ، وحكمُ المَغرب إلىٰ تاشْفِين وابنِه ، وحكمُ اليَمَن إلىٰ طائفة ، والأمرُ كلُّه لله[3] .

٣ـ أمْثِلةٌ على الفَصاحَة والبَلاغَة :

عن الشَّعْبي قال : وَفدَ أبو موسىٰ وَفداً من البصرة إلىٰ عُمر ، منهم الأحْنَفُ بنُ قَيْس ، فتكلَّمَ كلُّ رجل في خاصَّة نفسِه وكان الأحْنَفُ في آخر القَوم ، فحَمدَ اللهَ ، وأثنىٰ عليه ، ثم قال : أمَّا بعدُ يا أميرَ المؤمنين ، فإنَّ أهلَ مِصْرَ نَزلوا مَنازِلَ فِرْعَون وأصْحابه ، وإنَّ أهْلَ الشَّام نَزلوا مَنازِلَ قَيْصَر وأصْحابه ، وإنَّ أهْلَ الكُوفة نَزلَوا مَنازِلَ

---

(١) ومن كلامه ، وقد سُئل : أيُّ إخْوانك أحبُّ إليك ؟ قال : الذي يغفر زللي ، ويقبل عللي ، ويسد خللي ، قال المؤلف مُعلِّقاً علىٰ ذلك : إنما ذاك هو الله تعالىٰ ، أجوَدُ الأجْوَدين .

(٢) انظر السير : (خالد بن صَفْوان) ٦/ ٢٢٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٤٣ .

(٣) انظر السير : (المُقْتَدي) ١٨/ ٣١٨ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٤١٨ .

كِسْرَىٰ ومَصانِعَه في الأنْهار والجِنان ، تأتيهم ثمارُهم قبلَ أنْ تَبلُغ ، وإنَّ أهْلَ البَصْرَة نَزلوا في أرض سَبخَة لا يِجفُّ تُرابُها ، ولا يَنبُتُ مَرْعاها ، طَرفُها في بَحْر أُجاج ، وطَرفٌ في فَلاة ، لا يَأتينا شيءٌ إلاَّ في مثل مَريء[1] النَّعامَة ، فارْفَعْ خَسيسَتَنا وانْعشْ وَكيسَتنا وزِدْ في عيالنا عيالاً ، وفي رجالنا رجالاً ، وصَغِّر دِرْهَمَنا وكبِّر قَفيزَنا ، ومُرْ لنا بنَهْر نَستعذبُ منه فقال عُمرُ : عَجَزْتُم أنْ تَكونوا مثلَ هٰذا ، هٰذا والله السَّيدُ قال فما زلتُ أسْمَعُها بعدُ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في نهايَة تَراجم بَني عُبَيْد الله الرَّافِضيّ : ومن كتابٍ من إنشاء القاضي الفاضل شَمسِ الدين ابنِ خَلِّكان إلىٰ بَغْدادَ : (وقَد تَوالَت الفُتُوحُ غَرباً ويَمَناً وشاماً وصارت البلادُ بل الدُّنيا والشهرُ ، بل والدَّهْرُ حَرماً حَراماً وأضْحَى الدينُ واحداً بعدَ أنْ كان أدْياناً ، والخِلافَةُ إذا ذُكِّرَ بها أهلُ الخِلافِ لمْ يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمْياناً ، والبدْعَةُ خَاشِعَةً ، والجُمُعَةُ جامِعَةً ، والمَذَلَّةُ في شِيَع الضَّلالِ شائعَةً ، ذلكَ بأنَّهم اتَّخَذوا عبادَ الله من دُونه أوْلياءَ ، وسَمُّوا أعْداءَ اللهِ أصْفياءَ وتَقطَّعُوا أمرَهم بينَهم شِيَعاً ، وفرَّقُوا أمرَ الأُمَّة وكانَ مُجْتمعاً ، وقُطعَ دَابرُهم ، ورَغِمَت أنُوفُهم ومَنابِرُهم ، وحَقَّت عَليهم الكلمَةُ تَشْريداً وقَتْلاً ، وتَمَّتْ كلماتُ ربِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً ، وليسَ السَّيفُ عَمَّنْ سِواهم من الفِرَنْج بصائمٍ ، ولا اللَّيلُ عن السَّيرِ إليهم بنائمٍ) .

قال الإمامُ الذهبيُّ : أعْجَبَني سَرْدُ هولاء العُبَيْديَّة على التَّوالي ، ليَتَأمَّله النَّاظرُ مُجْتَمعاً فلْنَرجِعْ الآن إلىٰ تَرْتيبِ الطِّباق في حُدُود العشرين وثلاث مئة وما بَعدَها[3] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة « مُنْذِر بنِ سَعيد البَلُّوطيِّ » : كان فَقيها مُحَقِّقا ، وخَطيباً بَليغاً مُفَوَّهاً ، له اليومُ المَشْهورُ الذي مَلأ فيه الآذان ، وبَهرَ العُقولَ ، وذلك أنَّ المُسْتَنصِرَ بالله كان مَشْغوفاً بأبي عليٍّ القالي ، يُؤهِّله لكلِّ مُهمٍّ ، فلمَّا وَرَدَ رَسُولُ الرُّوم أمَرَه أنْ يَقُومَ خَطيباً علي العادَة الجارِيَة ، فلمَّا شاهَد أبو عليٍّ الجَمعَ العَظيمَ جَبُنَ فلمْ

---

(١) المريء : مَجْرى الطعام ، وإنَّما خَصَّ النعام لدقَّة عُنقه .

(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٥٠ .

(٣) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٢١ .

تَحْملُهُ رِجْلاهُ ، ولا ساعَدَه لِسانُه ، وفَطِنَ له مُنْذِر بنِ سَعيد ، فوَثَبَ في الحال ، وقامَ مَقامَه وارْتَجلَ خُطبَةً بَديعَةً ، فأَبْهتَ الخَلقَ وأنْشَدَ في آخِرها لنفسِه :

هـٰذا المَقَالُ الذِي ما عَابَه فَنَدُ ... لكنَّ صاحِبَه أرْدَىٰ به البَلَدُ
لوْ كُنتَ فِيهم غَريباً كُنتَ مُطرفاً ... لَكِنَّنِي منهم فاغْتالَنِي النَّكَدُ
لَوْلا الخِلافَةُ أبْقَى اللهُ بَهْجَتَهَا ... ما كُنتُ أبْقَىٰ بأرْضٍ ما بِهَا أحَدُ

فاسْتَحْسَنوا ذلك[1] .

وقال أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزيّ : يَفْتَخرُ فِرْعَونُ مِصْرَ بنَهْرٍ ما أَجْراهُ ، ما أَجْرَاه!! .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وهـٰذا بابٌ يَطولُ ، ففي كُتُبِه النَّفائسُ من هـٰذا وأمثالِه[2] .

وكان في المَجْلسِ رجلٌ يحسِّنُ كلامَه ، ويُزَهْزِه له ، فسَكتَ يَوماً ، فالْتَفتَ إليه أبو الفَرَج ، وقال : هارونُ لفْظِكَ مُعينٌ لموسَىٰ نُطْقِي ، فأرْسِلْه مَعيَ رِدْءاً[3] .

وكان ياقُوتُ الحَموي شاعراً مُتفنِّناً جَيِّدَ الإنشاء ، يقولُ في خُراسَان :

وكانت لعَمْرُ اللهِ ذاتَ رياضٍ أَريضَة ، وأَهْوِيَةٍ صَحيحَة مَريضَة ، غَنَّتْ أطْيارُها ، وتَمايَلَت أشْجارُها ، وبَكَت أنْهارُها ، وضَحِكَت أزْهارُها ، وطابَ نَسيمُها فصَحَّ مِزاجُ إقليمِها ، أطْفالُهم رجالٌ ، وشَبابُهم أبْطالٌ ، وشُيوخُهم أبْدالٌ ، فهانَ علىٰ ملكهم تَركُ تلك المَمالك[4] .

وقال : يا نفسُ الهَوا لَكِ ، وإلاَّ فأنتِ في الهَوَالِكِ .

إلىٰ أنْ قال : فمَرَرْتُ بين سُيوفٍ مَسْلولَة ، وعَساكِرَ مَغْلولَة ، ونِظامِ عُقودٍ مَحْلولة ، ودِماءٍ مَسْكوبَة مَطْلولة ، ولَوْلا الأجَلُ لأُلْحِقتُ بالألف ألف أو يَزيدُون .

تُوفِّيَ ياقوتُ في سنة ستٍّ وعشرين وستِّ مئة ، عن نَيِّف وخمسين سنة ، ووَقفَ

---

(١) انظر السير : (مُنْذِر بن سَعيد البلُّوطيّ) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٧ .
(٢) انظر السير : (أبو الفرج ابن الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٦٣٤ .
(٣) انظر السير : (أبو الفرج ابن الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٩/١٦٣٤ .
(٤) انظر السير : (ياقُوت) ٢٢/ ٣١٢ـ ٣١٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩٢ .

كُتبَه ببغدادَ علىٰ مَشْهَد الزَّبيدي ، وتَواليفُه حاكمةٌ له بالبَلاغَة ، والتَّبحُّر في العلم ، اسْتوفى ابنُ خلِّكان ترجمته وفَضائلَه[1] .

٤ـ أهْلُ الفَصاحَة والبَلاغَة :

عن عبدِ الملك بنِ عُمَيْر ، قال : قَدِمَ عَلينا الأحْنفُ بنُ قَيس الكُوفَة مع مُصْعَب ، فمَا رَأيتُ صِفةً تُذَمُّ إلاَّ رَأيتُها فيه كان ضَئيلاً ، صَعْل الرأسِ ، مُتراكِبَ الأسْنان ، مائلَ الذَّقْن ، ناتيءَ الوَجْنَة ، باخِق العَين ، خَفيفَ العَارِضَين ، أحْنَفَ الرِّجْلَين فكان إذا تكلَّمَ جَلا عن نفسِه[2] .

الصَّعَلُ : صِغَرُ الرأس ، والبخَقُ : انْخِسافُ العينِ ، والحَنَفُ : أنْ تُفْتَل كُلُّ رِجل علىٰ صاحِبَتِها[3] .

وعن إسْماعيلَ بنِ أُمَيَّة قالَ : كانَ عَطاءُ بنُ أبي رَباح يُطيلُ الصَّمْتَ ، فإذا تكلَّم يُخيَّلُ لنا أنَّه يُؤيَّد[4] .

وحدَّثنا الحَسنُ بنُ صالح ، قالَ : ما رَأيتُ أحداً قَطُّ أفْصَحَ من عاصِمِ بنِ أبي النُّجود ، إذا تكلَّم كادَ يَدخُلُه خُيَلاء[5] .

وجاء في تَرجمَة عبدِ الله بنِ المُقَفَّع قال الذهبيُّ : هو أحَدُ البُلَغاء والفُصَحاء ، ورَأسُ الكُتَّاب ، وأُولي الإنْشاء من نُظَراء عبدِ الحَميد الكاتب وكان من مَجُوسِ فارِس فأسْلمَ علىٰ يدِ الأميرِ عيسىٰ عمِّ السَّفَّاح وكَتبَ له واختُصَّ به قال الهَيْثَمُ بنُ عَديّ : قالَ له : أريدُ أنْ أُسْلمَ علىٰ يَدكَ بمَحْضر الأعْيان ثم قَعدَ يأكُلُ ويُزَمْزِمُ بالمَجُوسيَّة فقالَ : ما هـٰذا ؟ قال : أكْرَهُ أنْ أبيتَ علىٰ غَير دينٍ وكان ابنُ المُقَفَّع يُتَّهَم بالزَّنْدقَة وهو الذي عَرَّبَ كليلَة ودِمْنَة[6] .

---

(١) انظر السير : (ياقُوت) ٢٢/ ٣١٢ـ ٣١٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩٢ .
(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٤/٤٥٣ .
(٣) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٥/٤٥٣ .
(٤) انظر السير : (عَطاء بن أبي رَباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٩/٥٨٢ .
(٥) انظر السير : (عاصم بن أبي النَّجود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٩ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/ ٢٠٨ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/٦٤٢ .

ورُوي عن المَهْديِّ قال : ما وَجَدتُ كتابَ زَنْدَقَة إلاَّ وأصْله ابنُ المُقَفَّع وغَضبَ المَنْصورُ منه ، لأنَّه كتب في تَوَثُّقِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ من المَنْصُور يقولُ : ومَتىٰ غَدَرَ بعَمِّه ، فنِساؤُه طَوالِقُ ، وعَبيدُه أحْرارٌ ، ودَوابُّه حَبسٌ ، والنَّاسُ في حِلٍّ من بَيْعَتِه فكَتبَ إلىٰ عامِلِه سُفْيانَ المُهَلَّبيِّ يأمُرُه بقَتلِ ابنِ المُقَفَّع[1] .

وكان ابنُ المُقَفَّع مع سِعَة فَضْلِه ، وفَرْطِ ذَكائه فيه طَيشٌ فكان يقولُ عن سُفْيانَ المُهَلَّبيِّ : ابنُ المُغْتَلمَة فأمَرَ له بتَنُّورٍ فسُجِر ثم قَطَع أرْبَعتَه ورَماهَا في التَّنُّور وهو يَنظُر وعاشَ ستاً وثلاثين سنةً وأهْلكَ في سنة خمس وأربعين ومائة وقيلَ بعدَ الأرْبَعين واسمُ أبيه ذادوَيْه ، قد وَلِيَ خَراجَ فارِس للحَجَّاج ، فخانَ ، فعَذَّبه الحَجَّاجُ : فتَقفَّعَت يدُه وقيلَ : بل كانَ يَعملُ قفَاعَ الخُوص وهي كالقُفَّة[2] .

قيل لابنِ المُقَفَّع : مَنْ أدَّبَك ؟ قال : نَفسي إذا رَأيتُ من أحَدٍ حَسناً أتَيتُه ، وإنْ رَأيتُ قَبيحاً أبَيْتُه[3] .

وقيلَ : اجتمَعَ بالخَليلِ ، فلمَّا تفرَّقا قيلَ للخَليلِ : كيفَ رَأيتَه ؟ قالَ : عِلْمُه أكثرُ من عَقلِه وسُئلَ هو كيفَ رَأيتَ الخَليلَ ؟ قال : عَقلُه أكثرُ من عِلْمِه[4] .

وقيلَ : إنَّ والي البَصْرة سُفْيانَ بنَ مُعاويَة بنِ يَزيد بنِ المُهَلَّب قال يوماً : ما نَدمتُ علىٰ سُكوتٍ قَطُّ فقالَ ابنُ المُقَفَّع : فالخَرْسُ زَينٌ لك وقالَ له مرَّة : ما تَقولُ في رَجلٍ ماتَ عن زَوْجٍ وزَوْجتِه ؟ فأحْنَقَه .

قال الأصْمَعيُّ : صنَّفَ ابنُ المُقَفَّع « الدُّرَّةَ اليَتيمَة » التي ما صُنِّفَ مثلُها[5] .

وكان الشافعيُّ يقولُ : كتبتُ عن محمَّدِ بنِ الحَسَن وقْرَ بُخْتيٍّ[6] ، وما ناظَرتُ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦٤٢ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/٦٤٢ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/٦٤٢ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٦/٦٤٢ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٤٣ .
(٦) البُخْتيّ : واحد البُخْت ، وهي الإبل .

سَميناً أذْكَىٰ منه ، ولَوْ أشاءُ أنْ أقولَ : نَزَلَ القُرآنُ بلُغَة محمَّدِ بنِ الحَسَن ، لقُلتُ لفَصاحَتِه .

قالَ إبراهيمُ الحَرْبيُّ : قلتُ للإمامِ أحمدَ : مِنْ أين لكَ هٰذه المَسائل الدِّقاق ؟ قال : من كُتبِ مُحمَّد بنِ الحَسَن[1] .

وعن يُونُس بنِ عبدِ الأعْلىٰ ، قالَ : ما كانَ الشَّافعيُّ إلاَّ ساحراً ما كُنَّا نَدري ما يَقولُ إذا قَعَدْنا حولَه ، كأنَّ ألفاظَه سُكرٌ ، وكان قد أُوتي عُذوبَةَ مَنْطِق ، وحُسنَ بَلاغَة ، وفَرْطَ ذَكاء ، وسَيَلانَ ذِهْن ، وكمالَ فَصاحَة ، وحُضورَ حُجَّة[2] .

فعن عبدِ المَلكِ بنِ هِشام اللُّغَوي ، قالَ : طالَت مُجَالَسَتُنا للشَّافعيِّ ، فما سَمعتُ منه لُحَنَةً قَطُّ[3] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : أنَّىٰ يكونُ ذلك ، وبمثلِه في الفَصاحَة يُضرَبُ المثَل ، كان أفْصَحَ قُرَيش في زَمانِه ، وكان مِمَّا يُوخَذ عنه اللُّغَة[4] .

وقال المبرد : دَخلَ رجلٌ على الشَّافعيِّ ، فقالَ : إنَّ أصْحابَ أبي حَنيفَة لفُصَحاءُ فأنْشأَ يقولُ[5] :

فَلَـوْلاَ الشِّعْـرُ بِـالعُلَمَـاءِ يُـزْرِي ... لكُنـتُ اليـومَ أشْعَـرَ مـن لَبِيـدِ
وأشْجَعَ في الوَغَىٰ مِنْ كُلِّ لَيْثٍ ... وآلِ مُهَلَّـبٍ وَأَبِـي يَـزِيـدِ
ولَـوْلاَ خَشْيَـةُ الـرَّحْمٰـنِ رَبِّـي ... حَسِبْـتُ النَّـاسَ كَلَّهُـمُ عَبِيـدِي

قال أبو نعيم بنُ عَديّ الحافظُ : سَمعتُ الرَّبيعَ مراراً يقولُ : لوْ رأيتَ الشافعيَّ وحُسْنَ بَيانِه وفَصاحَته ، لعَجبتَ ، ولوْ أنَّه ألَّفَ هٰذه الكُتبَ علىٰ عَربيَّتِه التي كان يَتكلَّمُ

---

(١) انظر السير : (محمد بن الحَسَن) ٩/ ١٣٤ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٨٠٨/ ١ .
(٢) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٤٩/ ٧ .
(٣) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٤٩/ ٨ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٤٩/ ٩ .
(٥) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٥٢/ ١ .

بها مَعَنا في المُناظَرَة ، لمْ نَقْدرْ علىٰ قراءَة كُتبِه لفَصاحَتِه ، وغَرائبِ ألْفاظِه ، غَيرَ أنَّه كان في تأليفِه يُوضِحُ للعَوام[1] .

وجاء في تَرجمة ابنِ العَميد قالَ الذهبيُّ : الوَزيرُ الكَبيرُ ، أبو الفَضْل ، محمَّدُ بنُ الحُسَين بنِ محمَّدٍ الكاتب وزيرُ المَلك ركنِ الدَّولَة الحَسَنِ بنِ بُوَيْه الدَّيْلَمي .

كان عَجَباً في التَّرَسُّل والإنْشَاء والبَلاغَة ، يُضرَبُ به المثَلُ ، ويُقالُ له : الجاحِظُ الثاني وقيلَ : بُدئَت الكتابَةُ بعَبدِ الحَميدِ ، وخُتِمَت بابنِ العَميد .

وقد مدَحَه المُتَنبي ، فأجازَه بثلاثة آلاف دينار .

وكان مع سِعَة فُنونِه لا يَدْري ما الشَّرْعُ ، وكان مُتَفلْسِفاً ، مُتَّهَماً بمَذْهَب الأوائل .

وكان إذا تكلَّمَ فَقيهٌ بحَضْرتِه شَقَّ عليه ويَسكُتُ ، ثم يأخُذُ في شيء آخَر .

وكان ابنُ عباد يَصحَبُه ويَلزَمُه ، ومِنْ ثمَّ لُقِّبَ الصَّاحِب .

مات سنة ستين وثلاث مئة فوَزَرَ بعدَه ابنُه أبو الفَتْح عليٌّ وعمرُه اثنْتان وعشرون سَنةً ، وكان ذَكيّاً ، غَزيرَ الأدَبِ ، تيَّاهاً ، ولُقِّبَ ذا الكفايَتَين ، وله نَظْمٌ رائق ، ثم عُذِّبَ وقُتِلَ في سنة ستٍّ وستينَ وثلاث مئة بعد أن سَمَلَ عَضُدُ الدَّولة عينه الواحدة وقَطعَ أنْفَه ، وله نَظمٌ جَيّد[2] .

وقالَ أبُو مُحمّد البافي : لو أوْصَىٰ رَجلٌ بثُلثِ مالِه لأفْصَحِ النَّاسِ لوَجَبَ أنْ يُدْفَعَ إلىٰ أبي بَكْر الأشْعَريّ[3] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة القاضي الفَاضل مُحْيي الدِّين : المَوْلى الإمامُ العَلاَّمَةُ البَليغُ ، القاضي الفاضل ، مُحْيي الدِّين ، يَمينُ المملكَة ، سَيِّد الفُصَحاء ، أبو عليٍّ عبدُ الرَّحيم بنُ عليِّ بنِ الحَسَن اللَّخْميُّ ، الشَّاميُّ ، العَسْقَلانيُّ المولْد ، المِصْريُّ الدَّار ، الكاتبُ ، صاحبُ ديوان الإنْشاء الصَّلاحيِّ .

---

(١) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٥٢ .

(٢) انظر السير : (ابن العَميد) ١٦/ ١٣٧ـ ١٣٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٧٤ .

(٣) انظر السير : (ابن الباقلاني) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٣٥ .

وُلدَ سنةَ تسع وعشرين وخَمس مئة[1] .

وانتهَتْ إلى القاضي الفَاضل بَراعَةُ الترسل وبَلاغَةُ الإنْشاء ، وله في ذلك الفَنِّ اليَدُ البَيْضاءُ ، والمَعاني المُبْتكَرَة ، والباعُ الأطْوَل ، لا يُدْرِكُ شأوُه ، ولا يُشَقُّ غُبارُه ، مع الكَثْرَة[2] .

٥ـ نادِرَةٌ في الفَصاحَة :

قال محمد بن سلام الجُمَحِيُّ : كان عُمَرُ رضي الله عنه إذا رأى الرجلَ يَتَلَجْلَجُ في كَلامِه ، قال : خالقُ هـٰذا وخالقُ عَمرِو بن العاص واحد[3] .

الشِّعْرُ والشُّعَراء :

١ـ كثيرٌ من الشُّعَراء عابِثُون لا يَقْصِدون ما يقُولونَه : قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾[4] .

كانت عُلَيَّةُ بنتُ المَهْدي ـ أختُ الرَّشيدِ ، الهاشميَّة العبَّاسيَّة ـ تقولُ : لا غُفِرَ لي فاحِشَةٌ ارْتَكبتُها قَطُّ ، وما أقُولُ في شِعْري إلاَّ عَبثاً ، وجاءَ أنَّها قالت : ما كَذَبتُ قَطُّ .

وكان أخُوها لا يَصْبرُ عن غِيابِها ، وأخذَها مَعه إلى الرَّيِّ .

قيلَ ماتَتْ سنةَ عشرٍ ومِئَتين ، ولها خَمسونَ سَنةً[5] .

وجاء في تَرجمَة ابنِ الحَجَّاج ، قال الإمامُ الذهبيُّ : ورأيتُ له أنَّه قال : كُلُّ ما قُلتُهُ من المُجُون فاللهُ يَشْهَدُ أنَّني ما قَصَدتُ به إلاَّ بَسْطَ النَّفسِ ، أنا أسْتغفِرُ اللهَ من هـٰذه العَثْرَة .

ماتَ سنةَ إحْدىٰ وتِسْعينَ وثَلاثِ مئة وقد شاخ[6] .

---

(١) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٩ .
(٢) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٠ .
(٣) انظر السير : (عَمرُو بن العَاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/٣٣٣ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٦ .
(٥) انظر السير : (عُلَيَّة بنتُ المَهْدي) ١٠/ ١٨٧ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٩/٨٦٥ .
(٦) انظر السير : (ابنُ الحجَّاج) ١٧/ ٥٩ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٣ .

٢ـ الشُّعَراءُ المُتَّهَمون في دِينِهم :

ابنُ هَانىء :

وجاء في ترجَمة ابنِ هاني قال الإمامُ الذهبيُّ : شاعرُ العَصْر أبو الحَسَن ، محمَّدُ بنُ هاني الأزْديُّ المُهَلَّبيُّ الأنْدَلُسيُّ يُقالُ : إنَّه من ذُرِّية المُهَلَّب وكان أبوه شاعراً أيضاً ، ويُكنَّىٰ محمدٌ أبا القاسم أيضاً .

مَولدُه بإشْبيليَّة وكان ذا حُظوَة عند صاحب إشْبيليَّة ، ونَظمُه بَديعٌ في الذُّروَة ، وكان حافظاً لأشْعارِ العَرَب وأيَّامِها ، لكنَّه فاسقٌ خمِّير يُتَّهَمُ بدين الفَلاسِفَة ، فهَربَ لمَّا هَمُّوا به إلى العُدْوَة فاتَّصلَ بالمُعِزِّ العُبَيْديِّ ، فأنْعَمَ عليه ، وشَرب عندَ قَومٍ ، فخنق في سنة اثنتين وستين وثلاث مئة ، وهو في عشر الخمسين .

وديوانُه كبيرٌ وفيه مَدائحُ تُفْضي به إلى الكُفْر[1] وهو مِنْ نُظَراء المُتَنَبِّي[2] .

أبو العَلاء المَعَرِّي :

وجاء في ترجَمة أبي العَلاء قال الإمامُ الذهبيُّ : هو الشَّيخُ العَلاَّمَة ، شَيخُ الآداب ، أبو العَلاء ، أحمَدُ بنُ عبدِ الله بنِ سُلَيْمان ، القَحْطانيُّ ، ثم التَّنُوخيُّ المعَرِّيُّ الأعْمَىٰ ، اللُّغَويُّ ، الشَّاعِرُ صاحبُ التَّصانيفِ السَّائرَة ، والمُتَّهَم في نِحْلَتِه .

وُلدَ في سنة ثلاث وستِّين وثلاث مئة .

وأضرَّ بالجُدَري وله أربَعُ سنين وشَهْر ، سالَت واحدَةٌ ، وابْيَضَّت اليُمْنَىٰ فكان لا يَذكُرُ من الألْوان إلاَّ الأحمرَ ، لثوبٍ أحمَرَ أَلْبَسُوه إيَّاه وقد جُدِّر ، وبَقيَ خَمساً وأربَعين سنةً لا يأكُلُ اللَّحْمَ تَزَهُّداً فَلسَفياً .

وكان قَنوعاً مُتعَفِّفاً ، له وَقْفٌ يقومُ بأمْرِه ، ولا يَقبَلُ من أحَدٍ شَيئاً ، لَوْ تَكسَّبَ

---

(١) من ذلك قوله ـ قبَّحه الله ـ في مدح المُعِزِّ :

مـا شئـت لا مـا شـاءت الأقـدار ... فـاحكـم فـأنـت الـواحـد القهَّـار

ومثل هٰذا كثير في ديوانه ، وانظر « حُسن المُحاضَرَة » (١/ ٥٩٩) .

(٢) انظر السير : (ابن هاني) ١٦/ ١٣١ـ ١٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٣ .

بالمَديح ، لحَصَّلَ مَالاً ودُنْيا ، فإنَّ نَظْمَه في الذُّرْوَة يُعَدُّ مع المُتنبِّي والبُحْتُري وكان يَتوَقَّدُ ذَكاءً .

ومن أرْدَأ تَواليفِه « رسالَةُ الغُفْران » في مجلَّد قد احْتوَت علىٰ مَزْدكَةٍ وفراغ ، و« رسالَة المَلائكَة » ، ورسالَة « الطَّيْر » علىٰ ذلك الأُنْموذَج ، وديوانُه « سَقْطُ الزَّنْد » مَشهُورٌ ، وله « لُزوم ما لا يَلْزَم » من نَظْمِه ، وكان إليه المُنْتَهىٰ في حِفظِ اللُّغات[1] .

ارْتَحَلَ في حُدودِ الأرْبَع مِئَة إلىٰ طَرابُلسَ وبها كُتُبٌ كَثيرةٌ ، واجْتازَ باللاَّذِقيَّة ، فنَزَلَ ديراً به راهِبٌ مُتَفَلسِفٌ ، فدَخَلَ كَلامُه في مَسامِع أبي العَلاءِ ، وحَصَلتْ له شُكوكٌ لَمْ يَكُنْ له نُورٌ يَدْفَعُها ، فحَصلَ له نَوْعُ انْحِلالٍ دَلَّ عليه ما يَنظُمُه ويَلْهَجُ به ويُقالُ : تَابَ من ذَلكَ وارْعَوَىٰ .

وقد سَارَت الفُضَلاءُ إلىٰ بابِه ، وأخَذُوا عنه .

وكان غِذاؤُه العَدَسَ ونَحْوَه ، وحَلوَاه التِّين ، وثِيابُه القُطْن .

يُقالُ : كان يَحفظُ كلَّ ما مَرَّ بسَمعِه ، ويُلازِمُ بَيتَه ، وسَمَّىٰ نفسَه رَهينَ المَحْبسَين ، للزُومِه مَنزلَه وللعَمَىٰ ، وقال الشِّعْرَ في حَداثتِه ، وكان يُملي تَصانيفَه على الطَّلبَة من صَدْرِه .

خَرجَ صالحُ بنُ مِرْداس مَلكُ حَلَب فنَازَلَ المَعَرَّة يُحاصرُها ، ورَماها بالمَجانيق ، فخَرجَ إليه أبو العَلاء يَتشفَّعُ ، فأكْرَمه ، وقالَ ألَكَ حاجَة ؟ قال : الأميرُ ـ أطالَ اللهُ بقاءَه ـ كالسَّيفِ القاطع ، لانَ مَسُّه وخَشُنَ حَدُّه ، وكالنَّهارِ الماتع[2] قاظٍ[3] . وسَطُه ، وطابِ أبرداهُ[4] ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[5] فقال : قد وَهبتُك المَعَرَّة ، فأنْشِدنا من شِعرِك ، فأنْشَدَه على البَديهَة أبياتًا وتَرحَّل صالح .

---

(١) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/ ٢٣ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٣٧٩ .

(٢) الماتع : المرتفع ، قال في « القاموس » : متع النهار : ارتفع قبل الزوال .

(٣) قاظٍ : من القيظ ، وهو شدة الحرّ.

(٤) أبرداه : أي طرفاه ، وهما الغَداة والعَشي .

(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩ .

وكان لأبي العَلاء خلوَة يَدخُلها للأكل ، ويَقولُ : الأعْمَىٰ عَوْرَة والواجبُ اسْتتارُه ، فأكلَ مرَّة دبْساً ، فنَقطَ علىٰ صَدرِه منه ، فلمَّا خرجَ للإفادَة قيلَ له : أكَلتُم دبْساً ؟ فأسْرعَ بيدِه إلىٰ صَدرِه ، فمَسَحه وقالَ : نعم لعَنَ اللهُ النَّهَم فعَجبوا من ذَكائه ، وكان يَعتذرُ إلىٰ مَنْ يَرحل ويَتأوه لعَدم صِلَتِه .

قال الباخَرزي : أبو العَلاء ضَريرٌ ما له ضَريب ، ومَكْفوفٌ في قَميص الفَضْل مَلفوف ، ومَحجُوبٌ خَصمُه الألَدُّ مَحْجوج ، قد طالَ في ظلِّ الإسْلامِ آناؤُه ، ورَشَحَ بالإلْحَاد إناؤُه ، وعنْدَنا خَبرُ بَصرِه ، واللهُ العالمُ ببَصيرَتِه والمُطَّلعُ علىٰ سَريرَتِه ، وإنَّما تَحدَّثت الألسُن بكتابِه الذي عارَضَ به القُرآنَ ، وعَنوَنَه بـ « الفُصُول والغَايات في مُحاذاة السّوَر والآيات » .

وقال غَرسُ النِّعْمَة محمَّدُ بنُ هلال بنُ المُحَسِّن : له شِعْرٌ كَثيرٌ ، وأدَبٌ غَزيرٌ ، ويُرمَىٰ بالإلْحادِ ، وأشْعارُه دالَّةٌ علىٰ ما يُزَنُّ[1] به ، ولمْ يأكُل لَحْماً ولا بَيْضاً ولا لَبَناً ، بل يَقتصِرُ على النَّباتِ ، ويُحَرِّمُ إيلامَ الحَيوان ويُظهِرُ الصَّومَ دائماً ، قال : ونَحنُ نَذكُرُ ممَّا رُمي به فمنه :

صَرْفُ الزَّمَانِ مُفَرِّقُ الإلْفَيْنِ ... فاحْكُمْ إلَٰهي بَيْنَ ذَاكَ وَبَيْنِي
أنَهَيْتَ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ تَعَمُّداً ... وَبَعَثْتَ أنْتَ لِقَبْضِهَا مَلَكَيْنِ
وَزَعَمْتَ أنَّ لَهَا مَعَاداً ثَانِياً ... مَا كَانَ أغْنَاهَا عَنِ الْحَالَيْنِ

ومنه :

قُلْتُمْ لَنَا خَالِقٌ قَدِيمُ ... صَدَقْتُمْ هَكَذَا نَقُولُ
زَعَمْتُمُوهُ بِلاَ زَمَانٍ ... وَلاَ مَكَانٍ أَلاَ فَقُولُوا
هَكَذَا كَلاَمٌ لَهُ خَبِيءٌ ... مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَكُمْ عُقُولُ

ومنه :

دِينٌ وَكُفْرٌ وأَنْبَاءٌ تقال وفُرْ ... قَانٌ يُنَصُّ وتَوْرَاةٌ وإنْجِيلُ

---

(١) أي: يُتهَمُ .

فـي كُـلِّ جِيـلٍ أَبَـاطِيـلٌ يُـدَانُ بِهَـا فَهَـلْ تَفـرَّدَ يَـومـاً بـالْهُـدَىٰ جِيـلُ

فأجبته :

نَعَـمْ أبـو القَـاسِـمِ الهَـادِي وأُمَّتُـه فــزَادَكَ اللهُ ذُلاًّ يــا دُجَيْجيــلُ

ومنه ، لُعِنَ :

فَـلاَ تَحْسَـبْ مَقَـالَ الـرُّسْـلِ حَقّـاً ولكِـــنْ قَـــوْلُ زُورٍ سَطَّـــرُوهُ

وَكَـانَ النَّـاسُ فـي عَيْـشٍ رَغِيـدٍ فجَـاؤُوا بـالمُحَـالِ فكَـدَّرُوهُ

قال السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا زَكريّا التَّبْريزيَّ يقولُ : لمَّا قَرأتُ علىٰ أبي العَلاءِ بالمَعَرَّةِ قَولَه :

تَنـاقُـضٌ مـا لَنَـا إلاَّ السُّكُـوتُ لَـهُ وأنْ نَعـوذَ بِمَـوْلانـا مِـنَ النَّـارِ

يَدٌ لِخَمْسِ[1] مِيءٍ مِنْ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ما بَالُهَا قُطِعَتْ في رُبْعِ دِينَارِ ؟

سَألتُه ، فقال : هـٰذا كقول الفُقَهاء : عِبادَةٌ لا يُعقَلُ مَعْناها .

قال كاتِبُه : لَوْ أرادَ ذَلكَ ، لقالَ : تَعَبُّدٌ ، ولَمَا قال : تَناقضٌ ، ولَمَا أرْدَفَه ببَيْتٍ آخَرَ يَعْتَرِضُ علىٰ ربِّه .

وبإسْنادي ، قال السِّلَفيُّ : إنْ كان قالَه مُعْتَقِداً مَعْناه ، فالنَّارُ مأوَاهُ ، ولَيسَ له في الإسْلامِ نَصيبٌ هـٰذا إلىٰ ما يُحْكَىٰ عنه في كتاب « الفصول والغايات » فقيلَ له : أينَ هـٰذا من القُرْآنِ ؟ فقال : لم تُصْقِلْهُ المَحاريبُ أرْبَع مئة سنة[2] .

قال السِّلَفيُّ : ومِمَّا يَدلُّ علىٰ صِحَّةِ عَقيدَتِه ما سَمعتُ الخَطيبَ حامدَ ابنَ بخْتيار ، سَمعتُ أبا المَهْدي بنَ عبدِ المُنْعِم بنِ أحمدَ السَّروجيّ ، سَمعتُ أخي أبا الفَتْح القاضي يقولُ : دَخلتُ علىٰ أبي العَلاء التَّنوخيِّ بالمَعَرَّةِ بَغْتَةً ، فسَمعتُه يُنْشِد :

كَـــمْ غُـــودِرَتْ غَـــادَةٌ كَعَـــابٌ وعُمِّـــرَتْ أُمُّهَـــا العَجُـــوزُ

---

(١) في « اللزوم » (١/ ٥٤٤) : بخَمْس مئين عسجد ، ومِيء بميم مَكسورة وهَمزة مُنوَّنة : من جُموع المئة .

(٢) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/ ٢٣ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٧٩ .

أحـرَزَهَـا الـوَالِـدَانِ خَـوْفـاً والقَبْـرُ حِـرْزٌ لَهَـا حَـريـزُ
يَجُـوزُ أنْ تُخْطِـىءُ المَنَـايَـا والخُلْـدُ فـي الـدَّهْـرِ لا يَجُـوزُ

ثم تأوَّهَ مرَّاتٍ ، وتَلا قَولَه تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[1] . ثم صاحَ وبَكىٰ ، وطَرحَ وَجهَه على الأرضِ زَماناً ، ثم مَسَحَ وجهَه ، وقالَ : سُبحانَ مَنْ تكلَّم بهٰذا في القِدَم! سُبحانَ مَنْ هٰذا كَلامُه! فصَبرتُ ساعَةً ثم سَلَّمتُ ، ثم قُلتُ : أرَىٰ في وَجهِك أثرَ غَيظٍ ؟ قال : لا ، بلْ أنْشَدتُ شَيئاً من كَلامِ المَخْلوقِ ، وتَلَوتُ شَيئاً من كَلامِ الخَالِق ، فلَحِقَني ما تَرىٰ فتَحقَّقت صِحَّة دينِه .

قال السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا زَكريّا التَّبْريزيَّ يقولُ : أفْضلُ مَنْ قَرأتُ عليه أبو العَلاء وسَمعتُ أبا المَكارِم ـ وكان من أفْرادِ الزَّمان ـ يَقولُ : لمَّا تُوفِّيَ أبو العَلاء اجْتمَعَ علىٰ قَبرِه ثَمانون شَاعراً وخُتمَ في أسْبوع واحدٍ مئتَا خَتمة إلىٰ أنْ قالَ السِّلَفيُّ : وفي الجُملَة فكان من أهْلِ الفَضْل الوافِر ، والأدَب الباهِر ، والمَعْرفَة بالنَّسَب وأيَّام العَرَب ، قَرأَ القُرآنَ بروايات ، وسَمعَ الحَديثَ علىٰ ثِقات ، وله في التَّوحيدِ وإثْباتِ النُّبوَّات ، وما يَحضُّ على الزُّهْدِ وإحْياءِ طُرق الفُتوَّة والمَروءَة شِعرٌ كَثيرٌ ، والمشْكل منه ، فلَه علىٰ زَعمِه تَفسير .

قيل : إنه أوْصَىٰ أنْ يُكتبَ علىٰ قَبرِه :

هَـٰـذَا جَنَـاهُ أَبِـي عَلَـيَّ وَمَـا جَنَيْـتُ عَلَـىٰ أَحَـد

قال الذهبيُّ : الفَلاسِفَة يَعدُّون اتِّخاذَ الوَلَد وإخْراجه إلى الدُّنيا جِنايَةً عليه ، ويَظهَرُ لي من حال هٰذا المَخْذول أنَّه مُتَحيِّر لمْ يَجْزِمْ بنِحْلَة اللَّهُم فاحْفَظْ عَلينا إيمانَنا .

وقال الذهبيُّ : قبرُه داخلَ المعَرَّة في مكان داثر ، وقد حدَّثَ عنه أبو طاهر بنُ أبي الصَّقر الأنْباري ، وطائفةٌ ، وقد طالَ المَقَالُ ، وما على الرَّجل أُنْسُ زُهَّاد المؤمنين ، واللهُ أعْلمُ بما خُتِمَ له ومن خَبيثِ قَولِه :

---

(١) سورة هود ، الآيات : ١٠٣ ـ ١٠٥ .

أَتَىٰ عِيسَىٰ فبَطَّلَ شَرْعَ مُوسَى وجَاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلاَةِ خَمْسِ
وقَالُوا لا نَبِيَّ بَعْدَ هَٰذَا فَضَلَّ القَوْمُ بَيْنَ غَدٍ وأَمْسِ
مَهْمَا عِشْتَ دُنْيَاكَ هَٰذِي فَمَا تُخْلِيكَ مِنْ قَمَرٍ وَشَمْسِ
إذَا قُلْتُ المُحَالَ رَفَعْتُ صَوْتِي وَإِنْ قُلتُ الصَّحِيحَ أَطَلْتُ هَمْسِي

وكانت علتُه ثلاثَةَ أيّام ، وماتَ سَنةَ تسع وأرْبع مئة وعاشَ ستاً وثمانينَ سنةً[1] .

٣ـ أبْياتٌ في الشِّعْر تُعْتَبَرُ كفْراً والعِياذُ بالله :

من ذلك قَولُ ابنِ هَاني ـ قبَّحه الله ـ في مَدْح المُعِزِّ[2] :

مَا شِئْتَ لاَ مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الوَاحِدُ القَهَّارُ

وكان عَضُدُ الدَّولَه يقولُ الشِّعرَ ، فقالَ أبياتاً كفرية[3] :

لَيسَ شُربُ الرَّاح إلاَّ في المَطَر وغِناءٍ مِنْ جَوارٍ في السَّحَر
مُبرزاتِ الكَأسَ من مَطْلَعِهَا سَاقياتِ الرَّاح مَنْ فاق البَشَر
عَضُدَ الدَّوْلَةِ وابنَ رُكْنِها مَلكَ الأمْلاكِ غَلاَّبَ القَدَر

وقال غَرسُ النِّعْمَة محمَّدُ بنُ هلال بنِ المُحَسِّن : له شِعْرٌ كَثيرٌ ، وأدَبٌ غَزيرٌ ، ويُرمَىٰ بالإلْحادِ ، وأشْعارُه دالَّةٌ علىٰ ما يُزَنُّ[4] به ، ولمْ يأكُل لَحماً ولا بَيْضاً ولا لَبَناً ، بل يَقتصِرُ على النَّباتِ ، ويُحَرِّمُ إيلامَ الحَيوان ويُظهِرُ الصَّومَ دائماً ، قال : ونَحنُ نَذكُرُ ممَّا رُمي به فمنه :

صَرْفُ الزَّمَانِ مُفَرِّقُ الإلْفَيْنِ فاحْكُم إلَٰهِي بَينَ ذَاكَ وَبَيْنِي
أَنَهَيْتَ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ تَعَمُّداً وَبَعَثْتَ أَنْتَ لِقَبْضِهَا مَلَكَيْنِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهَا مَعَاداً ثَانِياً مَا كَانَ أَغْنَاهَا عَنِ الحَالَيْنِ

---

(١) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/ ٢٣ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٣٨٢ .
(٢) انظر السير : (ابنُ هاني) ١٦/ ١٣١ـ ١٣٢ ، وانظر النزهة : ١٢٧٤/ هامش (١) .
(٣) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٢ .
(٤) أي: يُتهَمُ .

ومنه :

قُلْتُمْ لنَا خَالِقٌ قَديمٌ ... صَدَقْتُم هَكَذا نَقُولُ
زَعَمْتُموهُ بِلا زَمانٍ ... ولا مكان إلا فقولوا
هَكَذَا كَلامٌ لَهُ خَبِيءٌ ... مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَكُمْ عُقُولُ

ومنه :

دينٌ وكُفْرٌ وأنْباءٌ تُقَالُ وفُرْ ... قَانٌ يُنَصُّ وتَوْراةٌ وإنْجِيلُ
في كلِّ جِيلٍ أبَاطيلٌ يُدانُ بها ... فهَلْ تَفرَّدَ يَوماً بالهُدَىٰ جِيلُ!! ؟

فأجبتُه :

نَعَمْ أَبُو القَاسِمِ الهَادِي وأُمَّتُهُ ... فَزَادَكَ اللهُ ذُلاً يا دُجَيْجِيلُ

ومنه ، لُعِنَ :

فلا تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسْلِ حَقّاً ... ولكِنْ قَوْلُ زُورٍ سَطَّرُوهُ
وكَانَ النَّاسُ في عَيْشٍ رَغِيدٍ ... فجَاؤُوا بالمُحَالِ فكَدَّرُوهُ

قال السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا زَكريّا التَّبْريزيَّ يقولُ : لمَّا قَرأتُ علىٰ أبي العَلاءِ بالمَعَرَّةِ قَولَه :

تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إلاَّ السُّكُوتُ لَهُ ... وأنْ نَعُوذَ بِمَوْلاَنَا مِنَ النَّارِ
يَدٌ بِخَمْسِ مِيءٍ[1] مِن عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... ما بَالُهَا قُطِعَتْ في رُبْعِ دِينارِ

سَألتُه ، فقال : هٰذا كقول الفُقَهاء : عِبادَةٌ لا يُعقَلُ مَعْناها .

قال كاتِبُه : لَوْ أرادَ ذَلكَ ، لقالَ : تَعَبُّدٌ ، ولَمَا قال : تَناقضٌ ، ولَمَا أرْدَفَه ببَيْتٍ آخَرَ يَعْتَرِضُ علىٰ ربِّه .

وبإسْنادي ، قال السِّلَفيُّ : إنْ كان قالَه مُعْتَقِداً مَعْناه ، فالنَّارُ مأوَاهُ ، ولَيسَ له في

---

(١) في « اللزوم » (١/ ٥٤٤) : بخَمْس مئين عسجد ، ومِيء بميم مَكسورة وهَمزة مُنوَّنة : من جُموع المئة .

الإسْلامِ نَصيبٌ هـٰذا إلىٰ ما يُحْكَىٰ عنه في كتاب « الفصول والغايات » فقيلَ له : أينَ هـٰذا من القُرْآنِ ؟ فقال : لم تُصْقِلْهُ المَحاريبُ أرْبَع مئة سنة[1] .

قال السِّلَفيُّ : ومِمَّا يَدلُّ علىٰ صِحَّةِ عَقيدَتِه ما سَمعتُ الخَطيبَ حامدَ ابنَ بخْتيار ، سَمعتُ أبا المَهْدي بنَ عبدِ المُنْعِم بنِ أحمدَ السَّروجيّ ، سَمعتُ أخي أبا الفَتْح القاضي يقولُ : دَخلتُ علىٰ أبي العَلاء التَّنوخيِّ بالمَعَرَّةِ بَغْتَةً ، فسَمعتُه يُنْشِد :

كَمْ غُودِرَتْ غَادَةٌ كَعَابٌ ... وعُمِّرَتْ أُمُّهَا العَجُوزُ
أحْرَزَهَا الوَالِدَانِ خَوْفاً ... والقَبْرُ حِرْزٌ لَهَا حَرِيزُ
يَجُوزُ أن تُخْطِىءَ المَنَايَا ... والخُلْدُ في الدَّهْرِ لا يَجُوزُ

ثم تأوَّهَ مرَّاتٍ ، وتَلا قَولَه تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[2] . ثم صاحَ وبَكىٰ ، وطَرحَ وَجهَه على الأرضِ زَماناً ، ثم مَسَحَ وجهَه ، وقالَ : سُبحانَ مَنْ تكلَّم بهـٰذا في القِدَم! سُبحانَ مَنْ هـٰذا كَلامُه! فصَبرتُ ساعَةً ثم سَلَّمتُ ، ثم قُلتُ : أرَىٰ في وَجهِك أثرَ غَيظٍ ؟ قال : لا ، بلْ أنْشَدتُ شَيئاً من كَلامِ المَخْلوقِ ، وتَلَوتُ شَيئاً من كَلامِ الخَالِق ، فلَحِقَني ما تَرىٰ فتَحقَّقت صِحَّة دينِه .

قال السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا زَكريّا التَّبْريزيَّ يقولُ : أفْضلُ مَنْ قَرأتُ عليه أبو العَلاء وسَمعتُ أبا المَكارِم ـ وكان من أفْرادِ الزَّمان ـ يَقولُ لمَّا تُوفِّيَ أبو العَلاء اجْتمَعَ علىٰ قَبرِه ثَمانون شَاعراً وخُتمَ في أسْبوع واحدٍ مئتَا خَتمة إلىٰ أنْ قالَ السِّلَفيُّ : وفي الجُملَة فكان من أهْلِ الفَضْل الوافِر ، والأدَب الباهِر ، والمَعْرفَة بالنَّسَب وأيَّام العَرَب ، قَرأَ القُرآنَ بروايات ، وسَمعَ الحَديثَ علىٰ ثِقات ، وله في التَّوحيدِ وإثْباتِ النُّبوَّات ، وما يَحضُّ على الزُّهْدِ وإحْياءِ طُرق الفُتوَّة والمَروءَة شِعرٌ كَثيرٌ ، والمشْكل منه ، فلَه علىٰ زَعمِه تَفسير .

---

(١) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/ ٢٣ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٧٩ .
(٢) سورة هود ، الآيات : ١٠٣ ـ ١٠٥ .

قيل : إنه أوْصَىٰ أنْ يُكتبَ علىٰ قَبرِه :

هَـٰـذَا جَنَـاهُ أَبِـي عَلَـيَّ ... وَمَـا جَنَيْـتُ عَلَـىٰ أَحَـد

قال الذهبيُّ : الفَلاسِفَة يَعدُّون اتِّخاذَ الوَلَد وإخْراجه إلى الدُّنيا جِنايَةً عليه ، ويَظهَرُ لي من حال هـٰذا المَخْذول أنَّه مُتَحيِّر لمْ يَجْزِمْ بنِحْلَة اللَّهُم فاحْفَظْ عَلينا إيمانَنا .

وقال الذهبيُّ : قبرُه داخلَ المعَرَّة في مكان داثر ، وقد حدَّثَ عنه أبو طاهر بنُ أبي الصَّقر الأنْباري ، وطائفةٌ ، وقد طالَ المَقَالُ ، وما على الرَّجل أُنْسُ زُهَّاد المؤمنين ، واللهُ أعْلمُ بما خُتِمَ له ومن خَبيثِ قَولِه :

أَتَـىٰ عِيسَـىٰ فَبَطَّـلَ شَـرْعَ مُـوسَـى ... وجَـاءَ مُحمَّـدٌ بِصَـلاَةِ خَمْـسِ
وقَـالُـوا لاَ نَبِـيَّ بَعْـدَ هَـٰـذَا ... فَضَـلَّ القَـوْمُ بَيْـنَ غَـدٍ وَأَمْـسِ
مَهْمَـا عِشْـتَ دُنْيَـاكَ هَـٰـذِي ... فَمَـا تُخْلِيـكَ مِـنْ قَمَـرٍ وشَمْـسِ
إِذَا قُلْـتُ المُحَـالَ رَفَعْـتُ صَـوْتِـي ... وإنْ قُلْتُ الصَّحِيحَ أَطَلْتُ هَمْسِي

وكانت علتُه ثلاثَةَ أيّام ، وماتَ سَنَةَ تسع وأرْبع مئة وعاشَ ستاً وثمانينَ سنةً[1] .

٤ـ الشُّعَراءُ الماجِنون :

ابنُ الحَجَّاج :

وجاء في تَرجمَة ابنِ الحجَّاج قال الذهبيُّ : شاعرُ العَصْر ، وسَفيهُ الأُدَباء ، وأميرُ الفُحْش ، وديوانُه مَشْهورٌ في خَمس مُجَلَّدات ، وهو أبو عبد الله ، الحُسَينُ بنُ أحْمَد بنِ الحَجَّاج البَغْداديُّ المُحْتَسِبُ ، الكاتِبُ .

ولقد هَجا المُتَنبِّي ، ومَدَحَ المُلوكَ ، مثل عَضُد الدَّولة وبَنيه والوُزَراء وله باعٌ أطْوَل في الغَزَل ، وأمَّا الزَّطاطَةُ والتَّفَحُّشُ ، فهو حاملُ لِوائِها والقائمُ بأعْبائِها .

وخَدمَ بالكتابَة في جِهاتٍ ، وأخَذَ الجَوائزَ ، ووَلي حِسْبَة بَغْدادَ مُدّة وعُزِل ، وله مَعانٍ مُبْتَكَرَة ما سُبقَ إليها[2] .

---

(١) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/ ٢٣ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١٣٨٢ .

(٢) انظر فنون شعره في « يتيمة الدهر » (٣/ ٣١ـ ٩٩) ، وفي « الوافي بالوفيات » (١٢/ ٣٣٤ـ ٣٣٧) .

وكان شِيعيّاً رَقيعاً ، ماجِناً ، مَزّاحاً ، هَجّاءاً ، أُمَّةً وَحْدَه في نَظْم القَبائح ، وخِفَّة الرُّوح ، وله مَعْرفَة بفُنون من التاريخ والأخْبار واللُّغات[1] .

ورأيتُ له أنَّه قال : كُلُّ ما قُلتُهُ من المُجُون فاللهُ يَشْهَدُ أنَّني ما قَصَدتُ به إلاَّ بَسْطَ النَّفسِ ، أنا أسْتغفِرُ اللهَ من هـٰذه العَثْرَة .

ماتَ سنةَ إحْدىٰ وتِسْعينَ وثَلاثِ مئة وقد شاخ[2] .

٥ـ الشَّاعرُ الزَّاهِدُ أبو العَتاهـيَة :

جاء في تَرجمَة أبي العَتاهيَة قال الذهبيُّ : رأسُ الشُّعَراء ، الأديبُ الصَّالحُ الأَوْحَد ، أبو إسْحاق إسْماعيلُ بنُ قاسِم بنِ سُوَيد العَنزي مَولاهم الكُوفيُّ ، نَزيلُ بَغْداد .

لُقِّبَ بأبي العَتاهيَة لا ضْطرابٍ فيه .

سارَ شِعْرُه لجَودَته وحُسْنِه وعَدمِ تَقعُّرِه[3] .

وقد جَمعَ أبو عُمَر بنُ عبد البَرِّ شِعرَه وأخْبارَه ، تَنسَّكَ بأخرَةٍ ، وقال في المَواعِظِ والزُّهْدِ فأجادَ[4] .

وكان أبو نُواس يُعَظِّمُه ، ويَتأدَّبُ مَعَه لدِينِه ، ويقولُ : ما رَأيتُه إلاَّ تَوهَّمْتُ أنَّه سَماويٌّ ، وأنِّي أَرْضيٌّ[5] .

مَدحَ أبو العَتاهيَة المَهْديَّ ، والخُلفاءَ بعدِه ، والوُزَراء ، وما أصْدَق قوله :

إنَّ الشَّبـابَ والفَـراغَ والجِـدَة ... مَفْسَـدَةٌ للمَـرْء أيُّ مَفْسَـدَة
حَسْبُـكَ ممَّـا تَبْتَغِيـه القُـوتُ ... مـا أكْثَـرَ القُـوتَ لِمَـنْ يَمُـوتُ

---

(١) انظر السير : (ابن الحَجَّاج) ١٧/ ٥٩ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٣ .
(٢) انظر السير : (ابن الحَجَّاج) ١٧/ ٥٩ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٣ .
(٣) انظر السير : (أبو العَتاهيَة) ١٠/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/٨٦٦ .
(٤) انظر السير : (أبو العَتاهيَة) ١٠/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/٨٦٦ .
(٥) انظر السير : (أبو العَتاهيَة) ١٠/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/٨٦٦ .

هــي المَقَــاديــرُ فلُمْنِــي أوْ فَــذَرْ إنْ كُنْتُ أخْطأتُ فمَا أخْطَا القَدَرْ

تُوفِّي أبو العَتاهيَة في سنة إحْدَىٰ ومئتَين ، وله ثلاثٌ وثَمانونَ سَنةً ، أو نَحْوَها ، ببَغْداد .

وتَحْتَملُ سيرةُ أبي العَتاهيَة أنْ تُعمَلَ في كَراريسَ[1] .

٦ـ من شُعَراء العَرَب :

الأخْطَل :

جاء في ترجَمَة الأخْطَل قال الذهبيُّ : شاعرُ زَمانِه ، واسْمُه غِياثُ ابنُ غَوْث التَّغْلبيّ النَّصْرانيّ[2] .

قِيلَ للفَرَزْدَقِ : مَنْ أشْعَرُ النَّاسِ ؟ قال : كَفاكَ بي إذا افْتَخَرتُ ، وبجَرير إذا هَجَا ، وبابنِ النَّصْرانيَّة إذا امْتَدَح .

وكان عبدُ المَلك بنُ مَرْوان يُجْزِلُ عَطاءَ الأخْطَل ، ويُفَضلُه في الشِّعْر علىٰ غَيرِه ، وللأخْطَل[3] :

والنَّــاسُ هَمُّهُــمُ الحَيــاةُ ولا أرَى طُــولَ الحَيــاةِ يَــزيــدُ غَيــرَ خَبــالِ

وإذا افْتَقرْتَ إلى الذَّخَائِر لَمْ تَجِدْ ذُخْــراً يَكُــونُ كَصَــالِــحِ الأعْمَــالِ

وقيلَ : إنَّ الأخْطَلَ قَيَّدَه الأُسْقُفُ وأهانَه ، فلِيمَ في صَبرِه له ، فقالَ : إنَّه الدِّينُ ، إنَّه الدِّينُ .

وقد حصَّلَ أمْوالاً جَزيلَة من بَني أُمَيَّة ، وماتَ قبلَ الفَرَزْدَق بسَنَوات[4] .

جَرير :

وجاء في تَرجمَة جَرير قال الذهبيُّ : شاعرُ زَمانِه ، أبو حزْرَة ، جَريرُ بنُ عَطيَّة بنِ

---

(١) انظر السير : (أبو العَتاهيَة) ١٠/ ١٩٥ـ ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٦٦ .

(٢) انظر السير : (الأخْطَل) ٤/ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٦٤ .

(٣) انظر السير : (الأخْطَل) ٤/ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٦٤ .

(٤) انظر السير : (الأخْطَل) ٤/ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٦٤ .

الخَطَفي التَّميميُّ البَصْريُّ ، مَدحَ يَزيدَ بنَ مُعاويَة ، وخُلفاءَ بَني أُمَيَّة ، وشعرُه مُدَوَّن[1] .

عن عُثمانَ التَّيْميِّ ، قالَ : رَأيتُ جَريراً وما تُضَمُّ شَفتاهُ من التَّسْبيح ، قُلتُ : هٰذا حالُك وتَقذفُ المُحْصَنات فقالَ : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2] وَعدٌ من الله حَقٌّ[3] .

وعن بَشَّار الأعْمَىٰ ، قالَ أهْلُ الشَّام أجْمَعوا علىٰ جَرير ، والفَرَزْدَق ، والأخْطَل النَّصْراني .

قال الذهبيُّ : فَضَّلَ جَريراً على الفَرَزْدَق جَماعةٌ[4] .

ورَوَىٰ يُونُس بنُ حَبيب أنَّ الفَرَزْدَق قالَ لامْرأتِه نَوَار : أنا أشْعَرُ أم ابنُ المَراغَة ؟ قالت : غَلبَك علىٰ حُلْوِه ، وشَرِكَك في مُرِّه .

وقال مَرْوانُ بنُ أبي حَفْصَة :

ذَهَبَ الفَرَزْدَقُ بِالفَخَارِ وإنَّما ... حُلْوُ القَريضِ ومُرُّهُ لجَريرِ

وقيلَ : كان جَريرٌ عَفيفاً مُنيباً ، تُوفِّيَ سَنةَ عَشر بعدَ الفَرَزْدَق بشهر[5] .

أبو تَمَّام :

وجاء في تَرجَمة أبي تَمَّام قال الذهبيُّ : شاعرُ العَصْر أبو تَمَّام ، حَبيبُ بنُ أَوْس بنِ الحارث الطَّائيُّ ، أسْلَمَ وكانَ نَصْرانيّاً مَدحَ الخُلفاءَ والكُبراءَ وشعْرُه في الذِّرْوَة .

وكانَ أسْمَرَ طِوالاً فَصيحاً ، عَذْبَ العِبارَة مع تَمْتَمَةٍ قَليلَة .

وُلدَ في أيّامِ الرَّشيدِ ، وكانَ أوّلاً حَدثاً يَسقي الماءَ بمِصْرَ ، ثم جالَسَ الأُدَباءَ وأخذَ

---

(١) انظر السير : (جَرير) ٤/ ٥٩٠ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ٥٦٥/ ١ .
(٢) سورة هود ، الآية : ١١٤ .
(٣) انظر السير : (جَرير) ٤/ ٥٩٠ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ٥٦٥/ ٢ .
(٤) انظر السير : (جَرير) ٤/ ٥٩٠ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ٥٦٥/ ٣ .
(٥) انظر السير : (جَرير) ٤/ ٥٩٠ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ٥٦٥/ ٤ .

عنهم ، وكان يَتوَقَّدُ ذَكاءً ، وسَحَّت قَريحَتُه بالنَّظْمِ البَديعِ فسَمعَ به المُعْتَصِمُ ، فطَلَبَه ، وقدَّمه على الشُّعَراء وله فيه قَصائدُ وكان يُوصَفُ بطِيبِ الأَخْلاقِ والظُّرْفِ والسَّماحَة .

وقيلَ : قَدمَ في زِيِّ الأعْرابِ ، فجَلسَ إلىٰ حَلقَة من الشُّعَراء ، وطلبَ منهُم أنْ يَسمَعوا من نَظْمِه ، فشاعَ وذاعَ وخَضَعوا له وصارَ من أمْرِهِ ما صارَ .

وقد كان البُحْتُريُّ يَرفعُ من أبي تَمَّام ، ويُقدِّمُه علىٰ نَفسِه ، ويَقولُ : ما أكَلتُ الخُبزَ إلاَّ به ، وإني تابعٌ له[1] .

وهو القائل[2] :

وَلَوْ كَانَتِ الأَرْزَاقُ تَجْرِي عَلَى الحِجَا ... هَلَكْنَ إِذاً مِنْ جَهْلِهِنَّ البَهَائِمُ
وَلَمْ يَجْتَمِعْ شَرْقٌ وَغَرْبٌ لِقَاصِدٍ ... وَلاَ المَجْدُ في كَفِّ امْرِىءٍ وَالدَّرَاهِمُ

ودِيوانُ أبي تَمَّام كبيرٌ سائرٌ ، ولَمَّا ماتَ ، رَثاهُ مُحمَّدُ بنُ عبدِ المَلِك الوَزير ، فقال :

نَبِّأْ أَلَمَّ مُقَلْقِلَ الأَحْشَاءِ ... لمَّا أتَىٰ من أَعْظَمِ الأَنْبَاءِ
قالُوا حَبيبٌ قَدْ ثَوَىٰ فأجَبْتُهُم ... ناشَدْتُكُم لا تَجْعَلُوهُ الطَّائي

مات سنة اثنتين وثلاثين ومئتين[3] .

وله في المُعْتَصِم أو ابنِه :

إِقْدَامُ عَمرو في سَماحَةِ حاتِمٍ ... في حِلْمِ أحْنَف في ذَكَاءِ إِياسِ[4]

فقالَ الوَزيرُ : شَبَّهتَ أميرَ المُؤمنينَ بأجْلافِ العَرب ، فأطْرَقَ ثم زادَها :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبي له مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً فِي النَّدَىٰ والْبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ ... مَثَلاً مِنَ الْمِشْكَاةِ والنِّبْرَاسِ[5]

---

(١) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٩ .
(٢) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/٩٠٩
(٣) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩٠٩ .
(٤) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٩٠٩ .
(٥) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩١٠ .

٧ـ بَعضُ مَنْ وُصِلَ على الشِّعْر :

أنشدَ إسحاقُ النَّديمُ (الْمَوْصِلِيُّ) الرَّشيدَ أبياتا يقولُ فيها :

عَطَائِي عَطاءُ المُكْثِرِينَ تَكَرُّماً ... ومَالِي كَمَا قَد تَعْلَمِينَ قَلِيلُ
وكَيفَ أخَافُ الفَقْرَ أوْ أُحْرَمَ الغِنَى ... ورأيُ أمِيرِ المؤمنينَ جَليلُ

فأمَرَ له بمئَة ألْفِ دِرْهَم ماتَ سَنةَ خَمس وثَلاثين ومئتَين[1] .

وذَكرَ محرزٌ الكاتبُ أنَّ عُبَيْدَ اللهِ بنَ خاقَان مَرِضَ ، فعادَه عَمُّه الفَتحُ ، وقالَ : إنَّ أميرَ المؤمنينَ يَسألُ عن عِلَّتِك فقالَ :

عَليلٌ مِنَ مَكَانَيْنِ ... مِنَ الأَسْقَامِ والدَّيْنِ
وفي هَٰذَيْنِ شُغْلٌ ... وحَسْبِي شُغْلُ هَٰذَيْنِ

فوَصلَه المُتوكلُ بألفِ ألفٍ[2] .

ويُقالُ : ما اجْتَمَعَ ببابِ مَلِكٍ من الشُّعَراءِ ما اجْتَمَعَ ببابِ سَيفِ الدَّوْلَة ، وكان يَقولُ : عَطاءُ الشُّعَراءِ من فَرائِضِ الأُمَراءِ .

وقد جُمِعَ له من المَدائِحِ مُجلَّدان[3] .

٨ـ شعْرٌ في الهجاء :

قال القاضي ابنُ خلِّكان : كانَ خالدٌ القَسْري يُتَّهمُ في دينِه ، بنَىٰ لأُمِّه كَنيسَةً ، تَتعَبَّدُ فيها وفيه يقولُ الفَرَزْدَقُ[4] :

ألا قَبَّحَ الرَّحْمَٰنُ ظَهْرَ مَطِيَّةٍ ... أتَتْنَا تَهادَىٰ مِنْ دِمَشْقَ بخَالِدِ
وكَيفَ يَؤمُّ النَّاسَ مَنْ كانَ أُمُّهُ ... تَدينُ بأنَّ اللهَ لَيْسَ بِواحِدِ

---

(١) انظر السير : (إسْحاق النَّديم) ١١/ ١١٨ـ ١٢١ ، وانظر النزهة : ٦/٩١٥ .
(٢) انظر السير : (ابنُ خَاقَان) ١٣/ ٩ـ ١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٦ .
(٣) انظر السير : (سَيفُ الدولَة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٨٢ .
(٤) انظر السير : (القَسْري) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/٦١٩ .

بَنَـىٰ بَيْعَـةً فيهـا الصَّلِيـبُ لأُمِّـهِ ... ويَهْـدِمُ مِـنْ بُغْـضٍ مَنَـارَ الْمَسَـاجِـدِ

وكان محمَّدُ بنُ زَيْد الوَاسِطيُّ المُتكلِّمُ يُؤذِي نِفْطَوَيْه ، وهَجاهُ ، فقالَ :

مَـنْ سَـرَّهُ أَنْ لا يَـرَىٰ فـاسِقـاً ... فَلْيَجْتَنِـبْ مِـنْ أَنْ يَـرَىٰ نِفْطَـوَيْـهِ

أَحْـرَقَـهُ اللهُ بِنصْـفِ اسْمِـهِ ... وَصيَّـرَ البـاقـي صُـراخـاً عَلَيْـهِ

وقال أيضاً : مَنْ أرادَ أنْ يَتَناهَىٰ في الجَهْل ، فليَعْرِفِ الكَلامَ علىٰ مَذْهَبِ النَّاشِىء[1] ، والفِقْهَ علىٰ مَذْهَبِ داوُدَ ، والنَّحْوَ علىٰ مَذْهَب سِيبَوَيْه ثم يقولُ : وقد جَمَعَ هٰذه المَذاهِبَ نِفْطَوَيْه ، فإليه المُنْتَهَىٰ[2] .

وأقامَ المُتَنبِّي عند كافُورَ الأخْشيذيِّ أرْبَع سِنينَ ، نالَه مالٌ جَزيلٌ ، ثمَّ هَجاهُ لآمةً وكُفْراً لنِعْمَتِه وهَربَ على البَرِيَّة يقولُ :

مَنْ عَلَّمَ الأسْوَدَ المَخْصِيَّ مَكْرُمَةً ... أقْـوَامُـهُ البِيـضُ أمْ آبـاؤُه الصِّيـدُ

وذَاكَ أَنَّ الفُحُـولَ البِيـضَ عـاجِـزَةٌ ... عَن الجَمِيلِ فَكَيْفَ الخِصيَّةُ السُّودُ

ودُعيَ لكافُورَ علىٰ مَنابِرِ الشَّامِ ومِصْرَ والحَرمَين والثُّغُورِ .

وكان مُلازِماً لمَصالح الرَّعيَّة .

وكان يَتعَبَّدُ ويَتهجَّدُ ، ويُمرِّغُ وَجْهَه ، ويقولُ : اللَّهُمَّ لا تُسَلِّطْ عليَّ مَخْلوقاً .

وكان يُقرأُ عندَه السِّيَرُ والدُّوَل .

وله نُدَماء وجَوارٍ مُغنِّياتٍ ، ومن المَماليك ألوفٌ مُؤلَّفة ، وكان فَطِناً ، يَقِظاً ، ذَكيّاً ، يُهادي المُعِزَّ إلى الغَرْب ، ويُداري ويَخضَعُ للمُطيعِ ، ويَخدَعُ هَؤلاء وهَؤلاء .

وله نَظَرٌ في الفِقْه والنَّحْو .

تُوفِّي سنةَ سَبعٍ وخَمسينَ وثلاثِ مئة ، وماتَ عَشْرَ السَّبعين .

---

(١) هو عبد الله بن محمد ، أبو العبَّاس ، المعروف بابن شرشير الناشىء ، شاعرٌ متكلِّمٌ يُعَدُّ في طبقة ابن الرُّومي والبُحْتري ، أصله من الأنبار ، وأقام ببغداد مدة طويلة ، وخرج إلىٰ مصر فسكنها ، وتُوفِّيَ بها سنة ٢٩٣ هـ .

(٢) انظر السير : (نِفْطَوَيْه) ١٥/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٢ .

وقيلَ : مُشْتَرَاهُ على الإخْشيذِ ثمانيَةَ عَشرَ ديناراً .

وللمُتَنبِّي يَهجُوهُ ويَهْجُو ابنَ حنْزابَة الوَزيرَ[1] :

ومَـاذَا بِمِصْـر مـن المُضْحِكَـاتِ ... ولكِنَّـه ضَحِـكٌ كَـالبُكَـا
بهَـا نَبَطِـيٌّ مِـنْ أَهْـلِ السَّـوادِ ... يُـدرِّسُ أنْسَـابَ أهْـلِ الفَـلا
وأسْـوَدُ مِشْفَـرُهُ نِصْفُـه ... يُقَـالُ لـه أنْـتَ بَـدرُ الـدُّجَـا
وشِعـرٍ مَـدحـتُ بـه الكَـرْكـدنَّ ... بيـنَ القَـريـضِ وبَيـنَ الـرُّقـا
فمـا كـانَ ذلـكَ مـدحـاً لـه ... ولكنَّـه كـانَ هَجْـوَ الـوَرَى

وقد كان في كافُورَ حِلْمٌ زائدٌ ، وَكفٌّ عن الدِّماءِ ، وجَوْدَةٌ وتَدْبير[2] .

ولابنِ عُنين في ابنِ دِحْيَة :

دِحْيَـةُ لَـمْ يُعْقِـب فَلِـمْ تَعْتَـزِي ... إليـه بـالبُهْتـانِ والإفْـكِ
مـا صَـحَّ عنـدَ النَّـاسِ شـيءٌ ... سِـوَىٰ أنَّـكَ مـن كَلْـبٍ بِـلا شَـكِّ

وقال الإمامُ الذهبيُّ : كان هٰذا الرَّجُلُ صاحِبَ فُنونٍ وتَوسُّع ويدٍ في اللُّغَة ، وفي الحَديثِ علىٰ ضَعفٍ فيه .

قال الضِّياءُ : لقيتُه بأصْبَهَانَ ، ولمْ أسْمَعْ منه ، ولمْ يُعْجِبْني حالُه ، كانَ كَثيرَ الوَقيعَة في الأئمَّة[3] .

٩ـ أشْعَار في مَواضِيع مُتفرِّقَة :

قالَ ثَعلبٌ إنَّه لمْ يَكُنْ أحدٌ بَعدَ ابنِ الأعْرابيّ أعْلمُ باللُّغَة من ابنِ السِّكِّيت ، وكانَ المُتوَكلُ قَد ألْزَمَه تَأديبَ وَلِده المُعْتَزِّ ، فلمَّا حَضَرَ ، قالَ له ابنُ السِّكِّيت : بِمَ تُحِبُّ أنْ تَبدَأ ؟ قالَ : بالانْصِراف قالَ : فأقُومُ قال المُعْتَزُّ : فأنا أخَفُّ منْكَ ، وبادَر ، فعَثُر ، فَسَقطَ وخَجِلَ فقالَ يَعقُوبُ :

---

(١) انظر السير : (كافُور) ١٦/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٨٤ .
(٢) انظر السير : (كافُور) ١٦/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨٥ .
(٣) انظر السير : (ابن دِحْيَة) ٢٢/ ٣٨٩ـ ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٦ .

يَمُـوتُ الفتَـىٰ مـن عَثْـرَةٍ بِلِسـانِـهِ ... ولَيْسَ يَمُوتُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ
فَعَثْـرَتُـهُ بـالقَـوْلِ تُـذْهِـبُ رَأْسَـهُ ... وعثْـرَتُـهُ بـالـرِّجْـلِ تَبْـرَا عَلَـىٰ مَهْـلِ

قال أبو سَهْل بنُ زياد : سَمعتُ ثعلباً يَقولُ : عَديُّ بنُ زَيد العِبَادي أميرُ المؤمنين في اللُّغَة وكانَ يَقولُ قَريباً من ذلكَ في ابنِ السِّكِّيت .

قال الإمامُ الذهبيُّ : « إصْلاحُ المَنْطِق » كتابٌ نَفيسٌ مَشْكورٌ في اللُّغَة[1] .

وقال الذهبيُّ : كان وَليُّ العَهدِ المُوفَّقُ قد اسْتبدَّ بالأمور ، وضَيَّقَ علىٰ أخيه الخَلفية المُعْتمد : قال الصُّوليُّ : تَخيَّل المُعْتمدُ من أخيه ، فكاتَبَ أحمدَ بنَ طُولونَ ، واتَّفقا ، وقال المُعْتمدُ :[2] .

أليـسَ مـنَ العَجَـائِـب أنَّ مِثلـي ... يَـرىٰ مـا قَـلَّ مُمْتَنِعـاً عَليـهِ
وتُـؤْكَـلُ بِـاسْمِـهِ الـدُّنيـا جَميعـاً ... ومـا مِـنْ ذاكَ شَـيءٌ فـي يَـدَيْـهِ

فبلغَنا أنَّ ابنَ طُولُونَ جَمعَ العُلماءَ والأعْيانَ ، وقال : قد نَكثَ المُوَفَّقُ أبو أحمد بأميرِ المؤمنين ، فاخْلَعوه من العَهدِ فخَلَعوه ، إلاَّ بَكارَ ابنَ قُتَيْبَة ، وقال : أنتَ أَوْرَدْتَ عليَّ كتابَ المُعْتَمد بتَوَلِّيه العَهدَ ، فهاتِ كتاباً آخرَ منه بخَلعِه قال : إنَّه مَحْجورٌ عليه ومَقْهورٌ ؟ قال : لا أدْري فقال له : غرَّكَ النَّاسُ بقَولِهم : ما في الدُّنيا مثلُ بَكار ، أنتَ قد خَرِفْتَ ، وقيَّدَه وحَبسَه ، وأَخذَ منه جَميعَ عَطائِه من سِنينَ ، فكان عَشرَةَ آلافِ دينار ، فقيلَ : إنَّها وُجِدَت بخُتومِها وحالِها ، وبلَغَ ذلك المُوَفَّق ، فأمَرَ بلَعْنِ ابنِ طُولُونَ على المَنابِر[3] .

للوَزيرِ العَادلِ أبي الحَسَن عليِّ بنِ عِيسَىٰ في نَكْبَتِه :

وَمَـنْ يَـكُ عَنِّـي سَـائِـلاً لِشَمَـاتَـةٍ ... لِمَـا نَـابَنِـي أو شَـامِتـاً غَيـرَ سَـائِـلِ

---

(١) انظر السير : (ابنُ السِّكِّيت) ١٢/١٦ـ١٩ ، وانظر النزهة : ٤/٩٧٥ .
(٢) انظر السير : (بَكار بن قُتَيبَة) ١٢/٥٩٩ـ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٩ .
(٣) انظر السير : (بَكار بن قُتَيبَة) ١٢/٥٩٩ـ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٩ .

فَقَدْ أَبْرَزَتْ مِنِّي الخُطُوبُ ابنَ حُرَّةٍ صَبُوراً عَلىٰ أحْوَالِ تِلْكَ الزَّلاَزِلِ
إِذَا سُـرَّ لَـمْ يَبْطَـرْ وَلَيْـسَ لِنَكْبَـةٍ إذَا نَـزَلَـتْ بـالخَـاشِـعِ المُتَضَـائِـلِ

وقد أشَارَ على المُقْتَدِر ، فأفْلَحَ ، فوَقَفَ ما مَغَلُّه في العام تِسْعونَ ألفَ دينارٍ على الحَرَمَين والثُّغورِ ، وأفْرَدَ لهَـٰذه الوُقوفِ دِيوَاناً سَمَّاه دِيوَانَ البِرِّ[1] .

ومن نَظْمِ ابنِ مَاكُولا[2] :

فالمندل[3] .

قَوِّضْ خِيَامَكَ عَنْ دَارٍ أُهِنْتَ بِها وَجَـانِـبِ الـذُّلَّ إنَّ الـذُّلَّ مُجْتَنَـبُ
وارْحَلْ إِذَا كانَتِ الأَوْطَانُ مَضْيَعَةً فالمندَلُ الرَّطبُ في أوطَانِهِ حَطَبُ

وقِيلِ : إنَّ بَناتِ المُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد أتَيْنَهُ في عيدٍ ، وكُنَّ يَغْزِلْنَ بالأُجْرَة في أغْماتَ[4] ، فرآهُنَّ في أطْمارٍ رَثَّة ، فصدَّعْنَ قَلبَه ، فقالَ :

فِيمَا مَضىٰ كُنْتَ بالأعْيَادِ مَسْروراً فسَاءَكَ العيدُ في أغمات مَأسُودا
تَـرَىٰ بَنَـاتِـك فـي الأطْمَـارِ جـائِعَـةً يَغْـزِلْـنَ لِلنَّـاسِ مـا يَمْلِكْـنَ قِطْمِيـرَا
بَـرَزْنَ نَحْـوكَ للتَّسْلِيـمِ خَـاشِعَـةً أبْصَـارُهُـنَّ حَسِيـراتٍ مَكَـاسِيـرَا
يَطَـأْنَ فـي الطِّيـنِ والأقْـدامُ حـافِيَـةٌ كَـأنَّهَـا لَـمْ تَطَـأ مِسْكـاً وكَـافُـورَا

قال الذهبيُّ : كانَ مَوْلِدُه سَنةَ إحْدَىٰ وثَلاثينَ وأرْبَع مئة وماتَ سَنةَ ثَمانٍ وثَمانينَ وأرْبَع مئَة .

وقد سَمَّى ابنُ اللبَّانَة بَني المُعْتَمِد بأسْمائِهِم وألْقَابِهِم ، فعَدَّ نَحْواً من ثَلاثينَ نَفْساً ، وعَدَّ له أرْبَعاً وثَلاثينَ بِنْتاً .

---

(١) انظر السير : (الوَزِير) ١٥/٢٩٨ـ٣٠١ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٢٩ .
(٢) انظر السير : (ابن مَاكولا) ١٨/٥٦٩ـ٥٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٣ .
(٣) العود الرطب يتبخّر به .
(٤) أغْمات : ناحية في بلاد البربر المصامدة من أرض المغرب قرب مراكش

قال الذهبيُّ : افْتَقَرُوا بالمرَّة ، وتَعلَّموا صَنائعَ ، كذلكَ الدَّهْرُ ، نَسألُ اللهَ المَغْفرةَ[1] .

وللمُسْتَنجِدِ باللهِ[2] .

عَيَّرَتْني بالشَّيبِ وهُوَ وَقَارُ ... لَيْتَهَا عَيَّرَتْ بمَا هُوَ عَارُ
إن تَكُنْ شَابَتِ الذَّوائِبُ مِنِّي ... فَاللَّيالِي تَزينُها الأقْمَارُ

* * *

(١) انظر السير : (الْمُعْتَمد بن عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٠ .
(٢) انظر السير : (الْمُسْتَنْجِدُ بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١٥٦٩/ .

(٦) التاريخ

(تَرتيبُ الدُّول فيه حَسب تَرتيبها الزَّمَني غالباً)

١ـ ضابطٌ لحَديث « فحَدَّثَنا بمَا هو كائِنٌ إلىٰ قِيامِ السَّاعة » :

عن حُذَيْفَة ، قالَ : قامَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَقاماً ، فحَدَّثنا بما هو كائنٌ إلىٰ قيام السَّاعَة ، حَفِظَه مَنْ حَفِظَه ونَسِيَه مَنْ نَسِيَه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : قد كانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُرَتِّلُ كلامَه ويُفَسِّرُه ، فلعَلَّه قالَ في مَجْلِسه ذلك ما يُكتَبُ في جُزء ، فذَكرَ أكْبَرَ الكَوائن ، ولَوْ ذَكَرَ ما هو كائنٌ في الوُجُودِ ، لما تَهيَّأ أنْ يقُوَله في سَنَةٍ ، بلْ ولا في أعْوامٍ ، ففَكِّرْ في هَـٰذا .

وقد ماتَ حُذَيْفَةُ بالمَدائنِ سَنةَ سِتٍّ وثَلاثينَ ، وقد شَاخَ[1] .

٢ـ ضابطٌ لقَبول الأخْبار :

قد أنْكَرَ بَعضُهُم لَيْلَىٰ والمَجْنونَ ، وهـٰذا دَفعٌ بالصَّدر ، فما مَنْ لمْ يَعْلَمْ حُجَّة علىٰ مَنْ عِندَه عِلمٌ ، ولا المُثْبِتِ كالنَّافي ، لكنْ إذا كان المُثْبِتُ لشَيءٍ شِبْهَ خُرافَة ، والنَّافي لَيسَ غَرضُه دَفعُ الحَقِّ ، فهُنا النَّافي مُقدَّمٌ ، وهُنا تَقَعُ المُكابَرَة وتُسْكَبُ العَبْرةُ ، فقيلَ : إنَّ المَجْنونَ عَلِقَ لَيْلَىٰ عَلاقَةَ الصِّبا وكانا يَرْعَيان البَهْمَ[2] .[3]

٣ـ تكوُّن دَولَة بَني أُمَيَّة :

وقال الواقِديُّ : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ بَعَثتْ نائِلَةُ بنتُ الفَرافِصَة امْرأتُه إلىٰ مُعاوِيَةَ كِتاباً بما جَرَىٰ ، وبَعَثتْ بقَميصِهِ بالدَّمِ ، فقَرَأَ مُعاوِيَةُ الكِتابَ ، وطَيَّفَ بالقَميصِ في أجْنادِ

---

(١) انظر السير : (حُذَيفَة بنُ اليَمَان) ٢/ ٣٦١ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٧٦ .

(٢) البَهْم : جَمع بهمة ، وهو الصغير من الضأن ، والذَّكَرُ ، والأنْثىٰ فيه سَواء .

(٣) انظر السير : (المَجْنون) ٤/ ٥ـ٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٢٩ .

الشَّامِ ، وحَرَّضَهُم على الطَّلَبِ بدَمِه ، وأجْمَعَ على المَسِيرِ إلىٰ صِفِّينَ ، وقَصَدَ كُلٌّ منهُما الآخَرَ ، فالْتَقَوْا لِسَبعٍ بَقِينَ من المُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ وثلاثين .

وفي أوَّلِ صَفَرٍ شَبَّت الحَربُ وقُتِلَ خَلْقٌ ، وضَجِرُوا ، فرَفَعَ أهْلُ الشَّامِ المَصاحِفَ ، وقالُوا : نَدْعُوكُم إلىٰ كِتابِ الله والحُكْمِ بما فيه ، وكان ذلك مَكِيدَةٌ من عَمْرُو بنِ العاصِ ، فاصْطَلَحُوا وكَتَبُوا بَينَهُم كَتاباً علىٰ أنْ يُوافُوا أذْرُح[1] ويُحَكِّمُوا حَكَمَيْنِ[2] .

قال : فلَمْ يَقَع اتِّفاقٌ ورَجَعَ عَليٌّ إلى الكُوفَةِ بالدَّغَلِ[3] . من أصْحابِه والاخْتِلافِ فخَرَجَ منهُم الخَوارِجُ ، وأنْكَرُوا تَحْكِيمَه ، وقالوا : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، ورَجَعَ مُعاوِيَةُ بالأُلْفَةِ والاجْتِماعِ ، وبَايَعَهُ أهْلُ الشَّامِ بالخِلافَةِ في ذي القِعْدَةِ سَنَةَ ثَمانٍ وثلاثين .

ثمَّ اسْتُشْهِدَ عَليٌّ في رَمَضانَ سَنَةَ أرْبَعِينَ وصَالَحَ الحَسَنُ بنُ عَليٍّ مُعاوِيَةَ ، وبَايَعَهُ ، وسُمِّيَ عامَ الجَماعَةِ وحَجَّ بالنَّاسِ سَنَةَ خَمسينَ .

ثمَّ اعْتَمَرَ سَنَةَ سِتٍّ وخَمسِينَ في رَجَبَ ، وكان بَينَه وبَينَ الحُسَيْنِ وابنِ عُمَرَ ، وابنِ الزُّبَيْرِ ، وابنِ أبي بَكْرٍ ، كَلامٌ في بَيْعَةِ العَهْدِ لِيَزيدَ ، ثمَّ قال : إنِّي مُتَكَلِّمٌ بكَلامٍ ، فلا تَرُدُّوا عَليَّ أقْتُلْكُم ، فخَطَبَ ، وأظْهَرَ أنَّهم قد بَايَعُوا ، وسَكَتُوا ولَمْ يُنْكِروا ، ورَحَلَ علىٰ هٰذا وادَّعَىٰ زِيادٌ أنَّه أخُوهُ فوَلاَّه الكُوفَة بعدَ المُغِيرَة ، فكَتَبَ إليه في حُجْرِ بنِ عَديّ وأصْحابِه ، وحَمَلَهم إليه فقَتَلَهم بمَرْجِ عَذْراء ، ثمَّ ضَمَّ الكُوفَة والبَصْرَة إلىٰ زِيادٍ ، فمَاتَ ، فوَلاهُما ابنَه عُبَيْدَ الله بنَ زِياد[4] .

وقال ابنُ شَوْذَب : سَارَ الحَسَنُ يَطْلُبُ الشَّامَ ، وأقْبَلَ مُعاوِيَةُ في أهْلِ الشَّامِ فالْتَقَوا ، فكَرِهَ الحَسَنُ القِتالَ ، وبايَعَ علىٰ أنْ جَعَلَ له العَهْدَ بالخِلافَةِ مِنْ بَعدِه ، فكان أصْحابُ الحَسَنِ يقُولونَ له : يا عَارَ المُؤمِنينَ ، فيقُولُ : العَارُ خَيرٌ من النَّارِ .

---

(١) أَذْرُح : اسم بلد في أطراف الشام من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز .
(٢) انظر السير : (مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣٥٠/ ٤ .
(٣) الدغل : الفساد.
(٤) انظر السير : (مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣٥١/ ١ .

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الحَسَنِ : « إنَّ ابْني هـٰذا سَيِّدٌ وسَيُصْلِحُ اللهُ به بَينَ فِئَتَيْنِ عَظيمَتَيْنِ من المُسلمينَ » ، ثمَّ إنَّ مُعاويَةَ أجَابَ إلى الصُّلْحِ ، وسُرَّ بذَلِكَ ودَخَلَ هُوَ والحَسَنُ الكُوفَةَ رَاكِبَيْنِ ، وتَسَلَّمَ مُعاويَةُ الخِلافَةَ في آخِرِ رَبيعٍ وسُمِّيَ عَامَ الجَماعَةِ لاجْتِماعِهِم علىٰ إمامٍ ، وهو عامُ أحَدَ وأرْبَعينَ[1] .

قال الزُّبَيْرُ بن بَكَّار : كان الضَّحَّاكُ بنُ قَيْس مع مُعاويَة ، فوَلاَّهُ الكُوفَة ، وهو الذي صَلَّىٰ علىٰ مُعاويَة ، وقام بِخِلافَته حتىٰ قَدِمَ يَزيدُ ، ثم بعدَه دَعا إلى ابنِ الزُّبَيْر ، وبايَعَ له ، ثم دَعا إلىٰ نَفسِه[2] .

وعن خالدِ بنِ يَزيد ، عن أبيه ، وعن مَسْلَمَة بنِ مُحارِب ، عن حَرْبِ ابنِ خالِد وغَيرِه ، أنَّ مُعاويَةَ بنَ يَزيد لَمَّا ماتَ ، دَعا النُّعْمانُ بنُ بَشير بحمْص إلى ابنِ الزُّبَيْر ، ودَعَا إليه بدِمَشْقَ الضَّحَّاكُ سِراً لمَكانِ بَني أُمَيَّة وبَني كَلب ودَعا زُفرُ بنُ الحارِث أميرُ قنَّسْرين إلى ابنِ الزُّبَيْر ، وبلَغَ حَسَّانُ بنُ بحْدل وهو بفلسْطينَ وكان هَواهُ في يد خالدِ بنِ يَزيد فكَتبَ إلى الضَّحَّاكِ يُعَظِّمُ حَقَّ بَني أُمَيَّة ، ويَذُمُّ ابنَ الزُّبَيْر ، وقالَ للرسولِ : إنْ قرأ الكتابَ ، وإلاَّ فاقرأهُ على النَّاس ، وكتبَ إلىٰ بَني أُمَيَّة فلمْ يَقرأ الضحَّاكُ كتابَه ، فكان في ذلك اخْتلافٌ ، فسكَّتَهم خالدُ ابنُ يزيد ، ودَخلَ الضحَّاكُ دارَه أيّاماً ، ثم صلَّىٰ بالنَّاسِ ، وذَكرَ يَزيدَ فشَتَمَه ، فقامَ رجلٌ من كَلب فضَربَه بعصَا فاقْتَتَلَ النَّاسُ بالسُّيوفِ ، ودَخلَ الضحَّاكُ دارَ الإمارَة فلمْ يَخرجْ وتَفرَّقَ النَّاسُ ففِرْقَةٌ زُبَيْريّة وأخْرىٰ بَحْدَليّة ، وفِرْقةٌ لا يُبالُونَ ثمَّ أرادوا أنْ يُبايعوا الوَليدَ بنَ عُتْبَة ابنَ أبي سُفْيان ، فأبَىٰ ، ثم تُوفِّي وطَلبَ الضحَّاكَ مَرْوانُ ، فأتاهُ هو وعَمُّه والأشْدَقُ ، وخالدُ بنُ يَزيد ، وأخُوه ، فاعْتَذرَ إليهم ، وقال : اكتُبوا إلى ابنِ بَحْدَل حتىٰ ينزلَ الجابيَة ، ونَسيرُ إليه ، ويَسْتخلفُ أحدَكم ، فقدمَ ابنُ بَحْدَل ، وسارَ الضحَّاكُ وبَنو أُمَيَّة يُريدونَ الجابيَة فلمَّا اسْتقلَّت الرَّاياتُ مُوجهة ، قالَ مَعنُ بنُ ثَوْر والقَيْسيَّة للضحَّاك : دَعَوتَ إلىٰ بَيْعَة رَجلٍ أحْزَم النَّاسِ رَأياً وفَضْلاً وبأساً ، فلمَّا أجَبْناكَ سِرْتَ إلىٰ هـٰذا الأعْرابيِّ تُبايعُ لابنِ أُخْتِه! قالَ :

---

(١) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣٥٢ .

(٢) انظر السير : (الضَّحَّاك بن قَيس) ٣/ ٢٤١ـ ٢٤٥ ، وانظر النزهة : ٣/٣٧٥ .

فمَا العَملُ ؟ قالوا : تَصرفُ الرَّاياتِ ، وتَنْزِلُ فتُظْهِرُ البَيْعَةَ لابنِ الزُّبَيْر ، ففَعل ، وتَبِعَهُ النَّاسُ فكتبَ ابنُ الزُّبَيْر إليه بمَرْةِ الشَّام ، وطرَدَ الأُمَويَّة من الحِجَاز .

وخافَ مَرْوانُ ، فسارَ إلى ابنِ الزُّبَيْر ليُبايعَ ، فلَقيَهُ بأذْرعات عُبَيْدُ الله بنُ زِياد مُقْبلاً من العِراقِ ، فقالَ : أنْتَ شَيخُ بَني عَبدِ مَناف ، سُبحانَ الله ، أرَضيتَ أنْ تُبايعَ أبا خُبَيب ولأنْتَ أَوْلَىٰ قالَ : فما تَرَى ؟ قالَ : أُدْعُ إلىٰ نَفسِك ، وأنا أكْفيكَ قُرَيْشاً ومَواليها فرَجَعَ ، ونزَلَ ببابِ الفَراديس[1] وبَقي يَركبُ إلى الضحَّاك كلَّ يوم ، فيُسلِّم عليه ، ويَرجعُ إلىٰ مَنزِله فطَعنَه رَجلٌ بحَرْبة في ظهرِه ، وعليه دِرْعٌ ، فأثْبَتَ الحَرْبَة ، فرُدَّ إلىٰ مَنزِله ، وعادَه الضحَّاكُ ، وأتاه بالرَّجُلِ ، فعَفا عَنهُ ثم قالَ للضحَّاك : يا أبا أُنَيس! العَجبُ لك وأنتَ شَيخُ قُرَيش ، تَدْعُو لابنِ الزُّبَير ، وأنتَ أرْضَىٰ منهُ! لأنَّكَ لمْ تَزَلْ مُتمَسِّكاً بالطَّاعَة ، وهو فارَقَ الجَماعَة فأصْغَىٰ إليه ، ودَعا إلىٰ نَفسِه ثلاثَةَ أيَّام ، فقالوا : أخَذْتَ عُهودَنا وبَيْعَتَنا لرجُلٍ ، ثم تَدعُو إلىٰ خَلعِه من غَيرِ حَدَث! وأبَوْا فعاوَدَ الدُّعاءَ لابنِ الزُّبَيْر ، فأفْسَدَه ذلكَ عندَ النَّاسِ فقالَ له ابنُ زِياد : مَنْ أرادَ ما تُريدُ لَمْ يَنزِلْ المَدائنَ والحُصونَ ، بلْ يَبرزُ ويَجْمعُ إليه الخَيلَ ، فاخْرُجْ ، وضُمَّ الأجْنادَ ، ففَعلَ ، ونزلَ المَرْجَ فانْضَمَّ إلىٰ مَرْوانَ وابنِ زِياد جَمعٌ .

وانْضَمَّ إليهم عبادُ بنُ زِياد في مَواليه ، وانْضمَّ إلى الضحَّاك زُفرُ ابنُ الحارثِ الكلابيُّ أميرُ قنَّسْرين ، وشُرَحْبيلُ بنُ ذي الكلاع ، فصارَ في ثلاثينَ ألْفاً ، ومَرْوانُ في ثلاثَة عَشرَ ألفاً أكثرُهم رجَّالَة ، وقيلَ : لمْ يكُنْ مع مَرْوانَ سِوَىٰ ثَمانينَ فَرَساً ، فالْتَقوا بالمَرْجِ أيّاماً ، فقالَ ابنُ زِياد : لا تَنالُ من هـٰذا إلاَّ بمَكيدَة ، فادْعُ إلى المُوَادَعَة ، فإذا أَمِنَ ، فكُرَّ عليهِم .

فراسَلَه فأمْسَكوا عن الحَرْب ثم شَدَّ مَرْوانُ بجَمْعِه على الضحَّاك ونادَى النَّاسُ : يا أبا أُنَيْس! أعَجزاً بعدَ كيس ؟ فقالَ الضحَّاكُ : نعَم لعَمْري ، والْتَحمَ الحَربُ ، وقُتلَ الضحَّاكُ ، وصَبرتْ قَيْسٌ ، ثم انْهَزَمُوا ، فنادَىٰ مُنادي مَرْوانَ : لا تَتَّبعوا مُوَلِّياً

---

(١) باب الفراديس : من أبواب دمشق القديمة ، ويقال له اليوم : باب العمارة ، ويقع في شمال الجامع الأموي .

قالَ الوَاقديُّ : قُتلَتْ قَيسٌ بمَرْج راهِط مَقْتلَةً لمْ تُقْتَلْها قَطُّ في نِصْفِ ذي الحِجَّة سَنةَ أربع وستين .

وقيلَ : إنَّ مَرْوانَ لَمَّا أُتِيَ برأسِ الضحَّاك ، كَرِهَ قَتلَه ، وقالَ : الآنَ حين كَبُرَت سِنِّي ، واقْتَرَبَ أجَلي ، أقْبلْتُ بالكَتائبِ أضْربُ بَعضَها ببَعضٍ[1] .

وبُويعَ عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر بالخِلافَة عندَ مَوْتِ يَزيد سنةَ أرْبَع وسِتِّين ، وحَكمَ على الحِجازِ واليَمنِ ، ومِصْرَ ، والعِراقِ ، وخُراسانَ ، وبَعضِ الشَّام ، ولمْ يَسْتَوسقْ له الأمرُ ومِنْ ثَمَّ لَمْ يَعُدَّه بعضُ العُلماء في أُمَراء المؤمنين ، وعَدَّ دَولَتَه زَمنَ فُرْقَة فإنَّ مَرْوانَ غَلبَ على الشَّام ثم مِصْرَ ، وقامَ عندَ مَصْرَعِه ابنُه عبدُ المَلكِ بنُ مَرْوانَ ، وحارَبَ ابنَ الزُّبَيْر ، وقُتلَ ابنُ الزُّبَيْر رَحمَه اللهُ فاسْتقلَّ بالخِلافَة عبدُ المَلكِ وآلُه ، واسْتَوْسقَ لهم الأمرُ إلىٰ أنْ قَهَرَهم بَنُو العَبَّاس بعدَ مُلكِ سِتِّينَ عاماً[2] .

قال ابنُ سَعْد : أخْبَرَنا مُحمَّدُ بنُ عُمَر ، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ جَعْفَر ، عن عَمَّتِه أمِّ بَكْر ، وقالَ وحدَّثني شُرَحْبيلُ بنُ أبي عَوْن ، عن أبيه وحدَّثنا ابنُ أبي الزِّنادِ وغَيرُهم ، قالوا : خَرجَ ابنُ الزُّبَيْر إلىٰ مَكَّة ، ولَزِمَ الحِجْرَ ، ولَبسَ المَعَافِريَّ ، وجَعلَ يُحرِّضُ علىٰ بَني أُمَيَّة ، ومَشَىٰ إلىٰ يَحْيَىٰ بنِ حَكيم الجُمَحيِّ وإلىٰ مكَّة فبايَعهُ ليَزيدَ ، فلَمْ يَرْضَ يَزيدُ حتىٰ يُؤتَىٰ به في جامعةٍ ووثاق .

وامْتنَعَ ابنُ الزُّبَير أنْ يُذِلَّ نَفسَه ، وقالَ : اللَّهُمَّ إنِّي عائذٌ ببَيْتِك ، فقيل له : عَائذُ البَيْت ، وبَقيَ لا يعْرضُ له أحَدٌ .

ثم دَعا إلىٰ نَفسِه وبايَعوهُ ، فوَلَّىٰ على المَدينَة أخاه مُصْعَباً وعلى البَصْرَة الحارثَ بنَ عبدِ الله بنِ أبي رَبيعَة ، وعلى الكُوفَة عبدَ الله ابنَ مُطيع ، وعلىٰ مِصْرَ عبدَ الرَّحْمَـٰن بنَ جَحْدَم الفِهْريّ ، وعلى اليَمَن ، وعلىٰ خُراسَان ، وأمَّرَ على الشَّام الضحَّاكَ بنَ قَيْس ، فبايَع له عامَّةُ أهْلِ الشَّام وأبَت طائفةٌ ، والْتفَّتْ علىٰ مَرْوانَ بنِ الحَكَم ، وجَرَت أمُورٌ

---

(١) انظر السير : (الضَّحَّاك بن قَيس) ٣/ ٢٤١ـ ٢٤٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٧٥ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن الزُّبير) ٣/ ٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٩٤ .

طَويلةٌ ، وحُروبٌ مُزْعِجَة ، وجَرَت وَقعَةُ مَرْج راهِط وقُتلَ أُلُوفٌ من العَرَب ، وقُتلَ الضحَّاكُ ، واسْتَفحَلَ أمرُ مَرْوانَ إلىٰ أنْ غَلبَ على الشَّام ، وسارَ في جَيشٍ عَرَمْرَم ، فأخَذَ مِصْرَ واسْتعمَلَ عليها ولدَه عبدَ العَزيز ، ثم دَهمَهُ المَوْتُ ، فقامَ بعدَه ولدُه الخَليفَةُ عبدُ المَلِك ، فلَمْ يَزَلْ يُحاربُ ابنَ الزُّبَيْر حتىٰ ظَفرَ به بعدَ أنْ سارَ إلى العِراقِ وقَتلَ مُصْعَبَ بنَ الزُّبَيْر .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : ثم جهَّزَ يَزيدُ جَيشاً ستَّة آلاف ، إذْ بَلغَه أنَّ أهْلَ المدينَة خَلعُوه ، فجَرتْ الحَرَّة ، وقُتلَ نَحوَ ألفٍ من أهْلِ المَدينَة ، ثم سارَ الجَيشُ عليهم حُصَين بنُ نُمَيْر ، فحاصَروا الكَعبَةَ ، وبها ابنُ الزُّبَيْر ، وجَرتْ أمورٌ عَظيمَة فقَلعَ اللهُ يَزيدَ ، وبايَعَ حُصَيْنٌ وعَسْكرُه ابنَ الزُّبَيْر بالخِلافَة ، ورَجَعوا إلى الشَّام .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : عِيب ابنُ الزُّبَيْر رضي الله عنه بشُحٍّ .

وعن المُنْذِرِ بنِ جَهْم قال : رَأيتُ ابنَ الزُّبَيْر يومَ قُتلَ وقَد خَذَلَه مَنْ كان مَعه خِذْلاناً ، وجَعلوا يَتسلَّلونَ إلى الحَجَّاج ، وجَعلَ الحَجَّاجُ يَصيحُ : أيُّها النَّاسُ! عَلامَ تَقتُلونَ أنْفُسَكم ؟ مَنْ خَرجَ إلينا ، فهو آمِنٌ ، لكم عَهْدُ اللهِ ومِيثاقُه ورَبِّ هٰذه البَنِيَّة لا أغْدِرُ بكم ، ولا لنا حاجَةٌ في دِمائِكم .

قال : فتَسلَّلَ إليه نَحْو من عَشرةِ آلاف ، فلَقدْ رَأيتُ ابنَ الزُّبَيْر وما مَعه أحَدٌ .

وعن إسْحاقَ بنِ أبي إسْحاقَ قالَ : حَضَرتُ قَتْلَ ابنِ الزُّبَيْرِ ، جَعلَتِ الجُيوشُ تَدخُلُ عليه من أبْوابِ المَسْجِد ، فكُلَّما دَخلَ قَومٌ من باب ، حَملَ عَليهم وَحْدَه ، حتىٰ يُخْرِجَهُم ، فبَيْنا هو علىٰ تِلكَ الحَالِ ، إذْ وَقعَت شُرْفَةٌ من شُرُفاتِ المَسْجدِ علىٰ رَأسِه ، فصَرَعَتْهُ وهو يَتمَثَّلُ :

أسْمـــاءُ يـــا أسْمـــاءُ لا تَبْكِـــي ... لَـــمْ يَبْـــقَ إلاَّ حَسَبِـــي ودِينِـــي

وصَارِمٌ لاثَتْ به يَمِيني

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : ما إخالُ أولٰئك العَسْكرُ إلاَّ لَو شاؤوا ، لأتْلَفوهُ بسِهامِهم ولكنْ حَرصوا علىٰ أنْ يُمْسِكوه عَنْوَة ، فما تَهيّأ لهم ، فلَيْتَه كَفَّ عن القِتالِ لَمَّا رَأى

الغَلبَة ، بلْ لَيْتَه لا الْتَجأ إلى البَيتِ ، ولا أَحْوَجَ أولئكَ الظَّلمَة والحَجَّاجَ لا بَارَكَ اللهُ فيه إلى انْتِهاكِ حُرْمَةِ بَيتِ اللهِ وأمْنِهِ ، فنَعُوذُ باللهِ من الفِتْنَة الصَّمَّاء .

قُتل في جُمادَى الآخِرَة سنةَ ثَلاث وسَبعين .

عاشَ نَيفاً وسَبعين سَنة رضي الله عنه[1] .

٤ـ تَعْليلٌ لِقيامِ دَوْلَة بَني العَباس :

قالَ محمدُ بنُ جَرير في « تاريخِه » كان بُدوُّ أمرِ بَني العَبَّاس أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قيلَ ، أعْلمَ العبَّاسَ أنَّ الخِلافَةَ تَؤولُ إلىٰ وَلَدِه ، فلَمْ يَزَلْ وَلدُه يتَوَقَّعون ذلك .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لَمْ يَصِحَّ هـٰذا الخَبرُ ، ولكنَّ آلَ العبَّاسِ ، كانَ النَّاسُ يُحبُّونَهم ، ويُحبُّونَ آلَ عليٍّ ، يَوَدُّونَ أنَّ الأمْرَ يَؤول إليهم ، حُبّاً لآلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وبُغْضاً في آلِ مَرْوانَ بنِ الحَكَم فبَقُوا يَعمَلون علىٰ ذلك زَماناً حتىٰ تَهيَّأت لهم الأسْبابُ ، وأقْبَلت دَولتُهم وظَهرَت من خُراسان[2] .

٥ـ تكوُّن دَوْلَة بَني العَباس :

أبو مُسْلم الخُراساني :

جاءَ في تَرجمَة أبي مُسْلم الخُراساني ، قال الإمامُ الذهبيُّ : اسْمُه عبدُ الرَّحْمَـٰن ابنُ مُسْلم الخُراساني ، الأميرُ ، صاحبُ الدَّعْوَة ، وهازِمُ جُيوشِ الدَّوْلَة الأُمَويَّة ، والقائمُ بإنْشاءِ الدَّولَة العبَّاسيَّة[3] .

كان من أكْبرِ الملوك في الإسْلام ، وكان ذَا شأن ونَبأ غَريب من رجل يَذهبُ علىٰ حمار بإكافٍ من الشَّام حتىٰ يَدخُلَ خُراسان ، ثم يَملكُ خُراسانَ بعدَ تسعة أعْوام ، ويَعودُ بكَتائب أمْثالِ الجِبالِ ، ويَقلِبُ دَولَةً ، ويُقيمُ دَولَةً أخْرَى!

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن الزُّبير) ٣/ ٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٩٦ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٢٩ .

(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٢٧ .

تأتيه الفُتوحاتُ العِظامُ ، فلا يَظهَرُ عليه أثرُ السُّرور ، وتَنزلُ به الفادِحَةُ الشَّديدَةُ ، فلا يُرَىٰ مُكتئباً وكان إذا غَضبَ لَمْ يَسْتفزَّه الغَضبُ .

قيلَ : مَولدُه في سنة مئة ، وأوَّلُ ظُهورِه كان بمَرْوَ في شهر رَمضانَ يوم الجُمُعَة من سنة تسعٍ وعشْرينَ ومئة ، ومُتوَلِّي خُراسان إذْ ذاكَ الأميرُ نَصْرُ بنُ سيار اللَّيثيُّ ، نائبُ مَرْوانَ بنِ محمَّد ، الحِمارُ ، خاتِمَةِ خُلفاءِ بَني مَرْوانَ ، فكان ظُهورُه يَومئذٍ في خَمسينَ رَجُلاً ، وآلَ أمرُه إلىٰ أنْ هَربَ منه نَصْرُ بنُ سيار قاصداً العِراقَ فنزَلَ به الموتُ بناحيَةِ ساوَة ، وصَفا إقْليمُ خُراسان لأبي مُسْلم ، صاحبِ الدَّعْوَة ، في ثَمانيَة وعشْرينَ شَهْراً[1] .

وقال مُصْعَبُ بنُ بِشْر : سَمعتُ أبي يقولُ : قامَ رجلٌ إلىٰ أبي مُسْلم وهو يَخْطبُ ، فقال : ما هـٰذا السَّوادُ عَليكَ ؟ فقالَ : حدَّثني أبو الزُّبَيْر عن جابر بن عبدِ الله ، « أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخلَ مَكةَ يَومَ الفَتْحِ ، وعَليهِ عَمامَةٌ سَوْدَاءُ » وهـٰذه ثيابُ الهَيْبَة ، وثيابُ الدَّوْلة ، يا غُلامُ اضْرِبْ عُنُقَه!

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان أبو مُسْلم سَفَّاكاً للدِّماءِ ، يَزيدُ على الحَجَّاجِ في ذلك وهو أوَّلُ مَنْ سَنَّ للدَّوْلة لبَاسَ السَّوادِ ، وكانَ بلاءً عَظيماً علىٰ عَرَبِ خُراسان ، فإنَّه أبادَهم بحَدِّ السَّيْف[2] .

وفي سنة اثنتَين وثَلاثينَ في ثالثِ يَومٍ من رَبيع الأوَّل ، بُويعَ السَّفَّاحُ بالخِلافَة بالكُوفَة في دار مَوْلاه الوَليدِ بنِ سَعْد وسارَ الخَليفَةُ مَرْوانُ في مئةِ ألفِ فارِسٍ حتىٰ نَزلَ الزَّابَيْن[3] . دُون المُوصِل ، يَقصِدُ العِراقَ فجَهَّزَ السَّفَّاحُ له عَمَّه عبدَ الله بنَ عَليّ ، فكانَت الوَقْعَةُ علىٰ كُشاف ، في جُمادَى الآخِرَة فانْكَسَرَ مَروانُ وتَقَهْقَرَ ، وعَدى الفُراتَ ، وقَطعَ وراءهَ الجِسْرَ وقَصدَ الشَّامَ ليَتقَوَّىٰ ، ويَلتَقي ثانياً .

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦٢٨ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٨ .

(٣) الزابان : الزاب الأعلىٰ ، والزاب الأسفل ، وهما نهران بين بغداد والموصل ، ونزول مروان بن محمد كان على الزاب الصغير .

فجَدَّ في طَلبِه عبدُ الله بنُ عَليّ حتىٰ طَردَه عن دِمَشْقَ ، ونازَلَها وأخَذَها بعدَ أيَّام ، وبذَل السَّيفَ ، وقَتلَ بها في ثلاثِ ساعَات نَحْواً من خَمسينَ ألْفاً غَالِبُهم من جُنْدِ بَني أُمَيَّة .

وانْقَضَتْ أيامُهم ، وهَربَ مَرْوانُ إلىٰ مِصْرَ في عَسْكرٍ قَليلٍ ، فجَدُّوا في طَلبِه إلىٰ أن بَيَّتوهُ بقَرْيَة بُوصِير ، فقَاتلَ حتىٰ قُتلَ ، وطِيفَ برَأسِه في البُلْدانِ ، وهَربَ ابْناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة[1] .

قالَ محمدُ بنُ جَرير في « تاريخِه » كان بُدوُّ أمرِ بَني العَبَّاس أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قيلَ ، أعْلمَ العبَّاسَ أنَّ الخِلافَةَ تَؤولُ إلىٰ وَلَدِه ، فلَمْ يَزَلْ وَلدُه يتَوَقَّعون ذلك .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لَمْ يَصِحَّ هـٰذا الخَبرُ ، ولكنَّ آلَ العبَّاسِ ، كانَ النَّاسُ يُحبُّونَهم ، ويُحبُّونَ آلَ عليٍّ ، يَوَدُّونَ أنَّ الأمْرَ يَؤول إليهم ، حُبّاً لآلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وبُغْضاً في آلِ مَرْوانَ بنِ الحَكَم فبَقُوا يَعمَلون علىٰ ذلك زَماناً حتىٰ تَهيَّأت لهم الأسْبابُ ، وأقْبَلت دَولتُهم وظَهرَت من خُراسان[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : فَرِحْنا بمَصيرِ الأمْرِ إليهِم لكنْ والله ساءَنا ما جَرَىٰ من سُيولِ الدِّماءِ ، والسَّبْي ، والنَّهْب ، فإنَّا لله ، وإنَّا إليه راجِعُون ، فالدَّولةَ الظَّالِمَة مع الأمْنِ وحَقْنِ الدِّماءِ ، ولا دَولَة عادِلَة تُنتَهك دُونَها المَحارمُ ، وأنَّىٰ لها العَدلُ ؟ بلْ أتَتْ دَولةٌ أعْجَميَّة ، خُراسانيَّة ، جَبَّارَةٌ ، ما أشْبَهَ اللَّيلَة بالبَارِحَة[3] .

وفي سنةِ ثلاثٍ وثَلاثينَ ومئَة سارَ أبو جَعْفَر المَنْصُور إلىٰ خُراسانَ إلىٰ أبي مُسْلم ، ليَأخُذَ رَأيَه في قَتل أبي سَلمَة ، حَفْصِ بنِ سُلَيْمانَ الخَلاَّل وَزيرَهم وذلكَ أنَّه لَمَّا نزَلَ به السَّفَّاحُ وأقارِبُه ، حدَّثتهُ نفسُه بأنْ يُبايعَ عَلَويّاً ، ويَدعَ هَولاء وشَرعَ يُعمِّي أمْرَهم ، علىٰ

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٢٨ .
(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦٢٩ .
(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٩ .

قُوَّادِ شِيعَتِهم ، فبادَرَ كبارُهم ، وبايَعوا السَّفَّاحَ وأخْرَجُوه ، فخَطبَ النَّاسَ فما وَسِعَهُ ـ أعْني أبا سَلمَة ـ إلاَّ المُبايَعَة ، فاتَّهَمُوه .

فعنْ أبي جَعْفَر قالَ : انتُدَبَني أخي السَّفَّاحُ للذَّهابِ إلىٰ أبي مُسْلم ، فسِرتُ علىٰ وَجَل ، فقَدمتُ الريَّ ثم شَرُفْتُ عنها فَرْسَخين ، فلمَّا صارَ بَيني وبَينَ مَرْوَ فَرْسَخين تَلقَّاني أبو مُسْلم في الجُنودِ ، فلمَّا دَنا منِّي تَرجَّل ماشياً ، فقبَّلَ يدي ، ثم نَزلتُ ، فمَكثتُ ثَلاثةَ أيَّام لا يَسْألُني عن شيء ثم سَألَني فأخْبَرتُه ، فقالَ : فَعلَها أبو سَلمَة ؟ أنا أكْفيكُمُوه فدَعا مِرارَ بنَ أنَس الضَّبيَّ ، فقالَ : انْطَلِقْ إلى الكُوفَة ، فاقْتُل أبا سَلمَة حَيثُ لَقيتَه ، قالَ : فقَتلهَ بعدَ العِشاء ، وكان يُقالُ له : وَزيرُ آلِ مُحمَّد .

ولَمَّا رَأىٰ أبو جَعْفَر عَظمَةَ أبي مُسْلم ، وسَفْكَه للدِّماءِ رَجعَ من عندِه وقالَ للسَّفَّاحِ : لَسْتَ بخَليفَة إنْ أبقَيْتَ أبا مُسْلم قالَ : وكَيفَ ؟ قال : ما يَصْنَعُ إلاَّ ما يُريدُ قالَ : فاسْكُتْ واكْتُمْهَا .

وكانَ أبو جَعْفَر يَقولُ للسَّفَّاحِ : يا أميرَ المؤمنين ، أطِعْني واقْتُلْ أبا مُسْلم فوالله إنَّ في رأسِهِ لغَدْرَة ، فقالَ : يا أخي قد عَرفْتَ بَلاءَه ، وما كانَ منه ، وأبو جَعْفَر يُراجِعُه .

ثم حَجَّ أبو جَعْفَر وأبو مُسْلم ، فلمَّا قَفَلا تلقَّاهما مَوْتُ السَّفَّاح بالجُدَريِّ ، فوَليَ الخِلافَةَ أبو جَعْفَر .

وخَرجَ عليه عَمُّه عبدُ الله بنُ عَليّ بالشَّام ، ودَعا إلىٰ نَفسِه وأقامَ شُهوداً بأنَّه وَليُّ عَهْدِ السَّفَّاح ، وأنَّه علىٰ ذلك سارَ لحَرْبِ مَرْوانَ وهَزمَه ، واسْتأصَلَه .

فخَلا المَنْصُورُ بأبي مُسْلم وقالَ : إنَّما هو أنا وأنْتَ ، فَسِرْ إلىٰ عبدِ الله عَمِّي ، فسارَ بجُيوشِهِ من الأنْبارِ ، وسَارَ لحَرْبِهِ عبدُ الله فانْهَزَموا وتَركوا الذَّخائرَ والخَزائنَ ، والمُعَسْكَرَ ، فاحْتَوىٰ أبو مُسْلم على الكلِّ وكَتبَ النَّصْرِ إلى المَنْصور .

واخْتفَىٰ عبدُ الله ، وأرْسلَ المَنْصورُ مَوْلاهُ ليُحْصيَ ما حَواهُ أبو مُسْلم ، فغَضِبَ من ذلك أبو مُسْلم ، وهمَّ بقَتْلِ ذَلك المَوْلَىٰ ، وقالَ : إنَّما للخَليفَةِ من هـٰذا الخُمْسُ .

ولَمَّا عَلمَ المَنْصُورُ أنَّ أبا مُسْلم قد تَغيَّر كَتبَ إليه يُلاطِفُه : وأنِّي قد وَلَّيتُك مِصْرَ

والشَّامَ ، فانزِلْ بالشَّامِ واسْتَنِبْ عنكَ بمِصْرَ ، فلمَّا جاءَه الكتابُ ، أظْهَرَ الغَضبَ وقالَ : يُوَلِّيني هـٰذا وخُراسانُ كلُّها لي ؟! وشَرعَ في المُضِيِّ إلىٰ خُراسَانَ .

فأمَرَ المَنْصورُ مَنْ حَضَرَه من بَني هاشِم يَكتبُونَ إلىٰ أبي مُسْلم يُعظِّمونَ شَأنَه ، وأنْ يُتمَّ على الطَّاعَة ، ويُحَسِّنونَ له القُدومَ على المَنْصُورِ .

ثم إنَّ المَنْصورَ سَيَّرَ أُمَراءَ لتَلقِّي أبي مُسْلم ، ولا يُظهِرُون أنَّه بَعثَهم ليُطَمْئنَه ، ويَذْكرونَ حُسْنَ نيَّة المَنْصُورِ له ، فلمَّا سَمعَ ذلكَ ، انْخَدَعَ المَغْرورُ وفَرِحَ ، فلمَّا دَخلَ عَليه ، سلَّم عَليه قائماً ، فقالَ : انْصَرفْ يا أبا مُسْلم فاسْتَرِحْ ، وادْخُل الحمَّامَ ثم اغْدُ فانْصَرفَ ، وكان من نيَّةِ المَنْصُورِ أنْ يَقتُلَه تلكَ اللَّيلَة ، فمَنعَه وَزيرُه أبو أيُّوبَ المُورياني .

قال أبو أيُّوب : فقالَ ليَ المَنْصُورُ : دَخلَ عليَّ أبو مُسْلم فعَاتَبتُه ثمَّ شَتمتُه ، وضَربَه عُثمانُ بنُ نَهيك فلَمْ يَصْنَعْ شَيئاً ، وخَرجَ شَبيبُ بنُ وَاج ، فضَربُوهُ ، فسَقطَ ، فقالَ وهُم يَضرِبُونَه : العَفْوُ ، قُلتُ : يا بنَ اللَّخْناءِ ، العَفْوُ ؟ والسُّيوفُ تَعْتَورُك ؟ وقُلتُ : اذْبَحُوهُ فذَبَحُوهُ .

ثم همَّ المَنْصُورُ بقَتلِ الأمير أبي إسْحاقَ صاحبِ حَرَس أبي مُسْلم وبقَتلِ نَصْرِ بنِ مَالِك الخُزاعيِّ ، فكلَّمَه فيهما أبو الجَهْم ، وقالَ : يا أميرَ المُؤمنينَ إنَّما جُندُه جُندُك ، أمَرْتَهم بطاعَتِه فأطاعُوهُ .

ثم إنَّه أعْطاهُما مالاً جَزيلاً ، وفرَّقَ عَساكرَ أبي مُسْلم وكَتبَ بعَهدٍ للأميرِ أبي دَاوُدَ خالدَ بنِ إبْراهيمَ علىٰ خُراسان ، ثم بَعثَ إلىٰ عِيسَى ابن موسَىٰ وَليِّ العَهْد ، فأعْلَمَه ، وأعْطاهُ الرَّأسَ والمالَ فخَرجَ به ، فألْقاهُ إليهم ونَثرَ الذَّهبَ ، فتَشاغَلوا بأخْذِه .

قُتلَ في سنة سَبعٍ وثَلاثينَ ومئَة .

ولَمَّا قُتلَ ، خَرجَ بخُراسانَ سُنباذُ للطَّلبِ بثَأرِ أبي مُسْلم ، وكانَ سُنباذُ مَجوسياً ، فغلَبَ علىٰ نيسابُورَ والرَّيِّ ، وظَفرَ بخَزائنَ أبي مُسْلم واسْتَفحَلَ أمرُه ، فجَهَّزَ المَنْصُورُ لحَرْبِه جُمهورَ بنَ مَرَّار العجليَّ في عَشرة آلاف ، وكان المَصافُّ بينَ الريِّ وهَمذانَ ،

فانْهَزَمَ سُنْباذُ وقُتلَ من عَسْكرِه نحواً من ستينَ ألفاً ، وعامَّتُهُم كانوا من أهْلِ الجِبالِ ، فسُبِيَتْ ذَراريهِم ، ثم قُتلَ سُنْباذُ بأرضِ طَبَرِسْتان[1] .

عبد الله بن عَليّ :

وجاء في ترجمة عبدِ الله بن عَليٍّ قال الإمامُ الذهبيُّ : ابنُ الحَبْر عبدِ الله بنِ عَبَّاس ، عَمُّ السَّفَّاحِ والمَنْصُورِ ، من رِجالِ العالَمِ ودُهاةِ قُرَيش[2] .

كان بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، جَبَّاراً ، عَسُوفاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ وبه قامت الدَّولَةُ العبَّاسيَّة سارَ في أرْبَعينَ ألفاً أو أكْثرَ فالْتَقى الخَليفةَ مَرْوانَ بقُرْبِ المُوصِل فهَزمَه ومَزَّقَ جُيوشَه ، ولَجَّ في طَلبِه ، وطَوَى البلادَ حتىٰ نازَلَ دارَ المُلْك دِمَشْقَ ، فحاصَرَها أيّاماً وأخَذَها بالسَّيفِ[3] .

وقَتلَ بها إلى الظُّهْر نَحواً من خَمسينَ ألفَ مُسْلم من الجُنْدِ وغَيرِهم ولَمْ يَرْقُبْ فيهم إلاًّ ولا ذِمَّة ، ولا رَعَىٰ رَحِماً ، ولا نَسَباً ثم جَهَّزَ في الحالِ أخَاهُ داوُدَ بنَ عليّ في طَلَبِ مَرْوانَ ، إلىٰ أنْ أدْرَكَه بقَرْيَة بُوصِيرَ من بلادِ مِصْرَ ، فبيَّتَه ، فقاتَلَ المِسْكينُ حتّىٰ قُتلَ وهَربَ ابْناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة ، وانْتَهَت الدَّولَةُ الأُمَويَّة[4] .

ولَمَّا ماتَ السَّفَّاحُ ، زَعمَ عبدُ الله أنَّه وَليُّ عَهْدِه ، وبايَعهُ أُمَراءُ الشَّام ، وبُويعَ المَنْصُورُ بالعِراقِ ، ونَدبَ لحَرْبِ عَمِّه صاحِبَ الدَّعْوَة أبا مُسْلم الخُراساني ، فالْتَقى الجَمْعان بنَصِيبَين ، فاشْتدَّ القِتالُ وقُتلَت الأبْطالُ ، وعَظُمَ الخَطْبُ ، ثم انْهَزمَ عبدُ الله في خَواصِّه ، وقَصَدَ البَصْرَةَ فأخْفاهُ أخُوهُ سُلَيْمانُ مُدَّة ، ثمَّ ما زَالَ المَنْصُورُ يُلحُّ حتىٰ أسْلَمَه ، فسَجَنه سَنوات ، فيُقالُ : حَفَرَ أسَاسَ الحَبْسِ وأرْسَلَ عليه الماء فوَقعَ علىٰ عبدِ الله في سَنة سَبعٍ وأرْبَعينَ ومِئَة فالأمْرُ لله[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٢٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٣٩ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٣٩ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٣٩ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٣٩ .

دَولَة بَني العَبَّاس في العَصْر الأول (عَصْر القُوّة) :

كان أبو جَعْفَر المَنْصُورُ حاكماً علىٰ مَمالِك الإسْلامِ بأسْرِها سِوَىٰ جَزيرَة الأنْدَلُس[1] .

الخِلافَة العَبَّاسِيَّة بمِصْر « المُسْتَنصِر » :

جاءَ في تَرجمَة المُسْتَنْصِر قال الإمامُ الذهبيُّ : الخَليفَةُ الإمامُ أبو القَاسِم أحمَدُ بنُ الظَّاهر بأمْرِ الله أبي نَصْر مُحمدِ بنِ النَّاصِرِ لدينِ الله أحمَد المُسْتَضيءُ الهَاشِميُّ العَبَّاسيُّ البَغْداديُّ أخُو الخَليفَة المُسْتَنْصِرِ بالله مَنْصُورٍ وَاقِفِ المُسْتَنْصِريَّةِ بُويعَ بالخِلافَة أحمَدُ بعدَ خُلوِّ الوَقْت من خَليفَة عَبَّاسيّ ثلاثَ سِنينَ ونِصْفِ سَنَة ، وكانَ هـٰذا مُعْتَقَلاً ببَغْدادَ مع غَيرِه من أوْلادِ الخُلفاءِ فلمَّا اسْتَولَىٰ هُولاكُو علىٰ بَغْدادَ نَجا هـٰذا وانْضَمَّ إلىٰ عَرَبِ العِراقِ ، فلمَّا سَمعَ بسَلْطَنَة المَلك الظَّاهِر[2] وفَدَ عليه في رَجبَ سَنةَ تِسْع وخَمسينَ في عَشْرة من آل مهارش فرَكبَ السُّلطانُ للقائِه والقُضاةُ والدَّوْلَة ، وشَقَّ قَصَبَةَ القاهِرَة ، أُثبتَ نَسبُه على القُضاة وبُويعَ فرَكبَ يومَ الجُمُعَة من القَلعَة في السَّوادِ حتّىٰ أتىٰ جامِعَ القَلعَة فصَعدَ المِنْبَرَ وخَطبَ ولَوَّحَ بشَرَفِ آلِ العبَّاسِ ودَعا للسُّلطانِ وللرَّعيَّة وصلَّىٰ بالنَّاسِ .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : وهـٰذا هو الخَليفَةُ الثَّامن والثَّلاثُونَ من بَني العَبَّاس ، وبُويعَ بقَلعَةِ الجَبلِ في سَنة تِسْع[3] . وكان أسْمَرَ آدَمَ شُجاعاً ، مَهيباً ، عَاليَ الهِمَّة ورَتَّبَ له السُّلطانُ أتابكاً وأسْتاذ دار ، وشرابياً وخَزْنَداراً وحاجباً وكاتباً ، وعَّينَ له خزانَة وعدَّة مَمالكَ ، ومئة فَرَس ، وعَشرَ قَطارات جمال ، وعَشرَ قطارات بِغَال إلىٰ أمثال ذلك .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ثم عَزمَ المُسْتَنْصِرُ على التوجُّه إلىٰ بَغْدادَ بإشارَة السُّلطانِ وإعانَتِه .

---

(١) انظر السير : (المنْصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٧٩ .

(٢) بيبرس البندقداري .

(٣) يعني: وخمسين وستٌ مئة.

وصلَ إلى الحُدَيْثَة ففتحَها أهلُها له ، فلمَّا اتَّصَل الخَبرُ بمُقدَّم المَغُولِ بالعِراقِ ، وبشحنة بغداد ساروا في خَمسَة آلاف ، وعَسْكَروا بالأنْبارِ ونَهَبوا أَهْلَها وقَتلُوا ، وسارَ الخَليفَةُ إلىٰ هيت فحاصَرَها ، ثم دَخلَها في آخر ذي الحِجَّة ونَهبَ ذِمَّتَها ، ثم نَزلَ الدُّورَ ، وبَعثَ طلائعَه فأتوا الأنْبارَ في ثالث المُحَرَّم سنةَ ستِّين ، فعَبرَت التَّتارُ في اللَّيلِ في المَراكِبِ وفي المَخائضِ ، والْتَقَىٰ من الغَد الجَمْعان ، فانْكَسَر أوَّلا الشحنة ، ووَقعَ مُعظَمُ أصْحابِه في الفُراتِ ، ثم خَرجَ كَمينٌ لهم ، فهَرَبَت الأعْرابُ والتُّرْكُمانُ ، فأحاطَ الكَمينُ بعَسْكَر الخَليفَة ، فحَملَ الخَليفَةُ بهم ، فأفْرَجَ لهم التَّتارُ ، ونَجا جَماعَةٌ ، وقُتلَ عدَّة ، والظَّاهرُ أنَّ الخَليفَةَ قُتلَ .

وبعدَ سَنتين بُويعَ الحاكِمُ بأمْرِ الله أحمَدُ[1] .

٦ـ تَكوُّن دَوْلَة بَني أُمَيَّة في الأنْدَلُس :

جاء في تَرجمَة « عبدِ الرَّحْمَـٰن بنِ مُعاويَة بنِ هِشام » ، قال الإمامُ الذهبيُّ : هو ابنُ عبدِ المَلك بنِ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ بنِ أبي العَاصِ ابنِ أُمَيَّة بنِ عَبدِ شَمْسِ بنِ عَبدِ مَناف ، أميرُ الأنْدَلُس وسُلطانُها ، أبو المُطَرِّف الأُمَويُّ ، المَرْوانيُّ ، المَشْهُور بالدَّاخلِ ، لأنَّه حينَ انْقَرضَت خِلافَةُ بَني أُمَيَّة من الدُّنْيا ، وقُتلَ مَرْوانُ الحِمارُ ، وقامَت دَولةُ بَني العَبَّاس ، وهَربَ هـٰذا ، فنَجا ودَخلَ إلى الأنْدَلُسِ فتَملَّكَها[2] .

وذلك أنَّه فرَّ من مِصْرَ في آخرِ سَنةِ اثْنَتين وثَلاثينَ إلىٰ أرْضِ بَرْقَة ، فبَقيَ بها خَمسَ سِنين ، ثم دَخلَ المَغْربَ ، فنَفَّذَ مَوْلاهُ بَدْراً يَتجَسَّسُ له ، فقالَ للمُضَريَّة : لَوْ وَجدْتُم رَجلاً من بَيتِ الخِلافَة ، أكُنْتُم تُبايعُونَه ؟ قالوا : كَيفَ لنا بذلك ؟

فقالَ : هـٰذا عبدُ الرَّحْمـٰنِ بنُ مُعاويَة ، فأتَوه فبايَعوه ، فتملَّكَ الأنْدَلُسَ ثَلاثاً وثَلاثينَ سَنةً ، وبَقيَ المُلكُ في عَقِبه إلىٰ سَنةِ أرْبَع مئة ولَمْ يَتلقَّب بالخِلافَة ، لا هو ولا أكْثرُ ذُرِّيتِه ، إنَّما كان يُقالُ : الأميرُ فُلان .

---

(١) انظر السير : (المُسْتَنْصِرُ) ٢٣/ ١٦٨ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ١٧٢١/ الْمُسْتَنْصِر .

(٢) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن مُعاويَة بن هشام) ٨/ ٢٤٤ـ ٢٥٣ ، وانظر النزهة : ٧٤٨/ ٢ .

وأوَّلُ مَنْ تَلقَّبَ بأميرِ المُؤمنين منهُم : النَّاصرُ لدينِ الله ، في حُدود العِشْرينَ وثَلاثِ مِئَة ، عندَما بَلغَه ضَعفُ خُلفاءِ العَصْر ، فقالَ : أنا أوْلَىٰ بإمْرَةِ المؤمنين .

دَخلَ عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ مُعاويَة الأنْدَلُسَ في سَنة ثَمانٍ وثَلاثين ومَوْلِدُه بأرْضِ تَدْمُر سَنةَ ثَلاث عَشْرة ومئَة ، في خِلافَة جَدِّه[1] .

ولَمَّا صَفا الأمرُ لعَبدِ الرَّحْمَـٰن بعدَ مَقْتلِ عُثْمانَ بنِ حَمْزَة ، من وَلدِ عُمرَ بنِ الخَطَّاب ، ذلكَ بعدَ سَبعَةِ أعْوامٍ من تَمَنُّعِه بطُلَيْطِلَة ، عَظُمَ سُلطانُه ، وامْتدَّتْ أيَّامُه وعاشَ ستِّينَ سَنةً ، ثم تُوفِّيَ سَنةَ اثنتين وسَبعينَ ومِئَة ، وأيْسَت بَنُو العَبَّاس من مَمْلَكَةِ الأنْدَلُسِ لبُعْدِ الشُّقَّة[2] .

٧ـ الدَوْلَة الزِّياديَّة في اليَمَن :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَة « ابنِ زِياد » مُتوَلِّي اليَمَن : الأميرُ ابنُ عبدِ الله بنِ زِياد .

غَلبَ على اليَمَن ، وحَارَبَ وتَمكَّنَ في أيَّامِ المَأمُونِ ، واخْتطَّ مَدينَةَ زَبِيد في سَنة أرْبَع ومِئَتين نفَّذَ إلى المَأمُونِ بتُحَفٍ ، فأمَدَّه بجَيشٍ وعَظُمَ أمْرُه ، ودَامَتْ دَولتُه إلىٰ أنْ ماتَ سَنةَ خَمسٍ وأرْبَعينَ ومِئَتين .

فقامَ بعدَه ابنُه إبْراهيمُ ، فوَلِيَ اليَمنَ مُدَّة أرْبَع وأرْبَعينَ سَنةً ثمَّ ماتَ وتَملَّكَ بعدَه وَلدُه زِياد ثم إسْحاق ودامَت دَولتُهم إلىٰ بَعدِ الأرْبَع مئة ، ثم صارَت في مَواليهِم مُدَّة إلىٰ أنْ ظَهرَ الصُلَيْحيُّ[3] .

من أخْبار أُمراء اليَمَن :

(أ) الصُلَيْحيّ :

جاءَ في تَرجَمَةِ صاحبِ اليَمَنِ الصُّلَيْحيُّ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : صاحبُ اليَمَن ،

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن مُعاويَة بن هشام) ٨/ ٢٤٤ـ ٢٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٤٨ .

(٢) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن مُعاويَة بن هشام) ٨/ ٢٤٤ـ ٢٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٤٨ .

(٣) انظر السير : (ابنُ زِياد) ١١/ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٦٩ .

وكان أبوه من قُضاةِ اليَمَن ، وهو المَلكُ أبو الحَسَن عَليُّ ابنُ القاضي مُحمَّدُ بنُ عَليّ[1] .

دَارَ به دَاعي البَاطِنيَّة عَامِرُ الزَّواخيُّ[2] حتىٰ أجَابَه وهو حَدَثٌ ، فتَفَرَّسَ به عَامرٌ النَّجابَةَ ، وشَوَّقه ، وأسَرَّ إليهِ أمُوراً ثم لَمْ يَنْشَبْ عَامرٌ أنْ هَلَكَ ، فأَوْصَىٰ بكُتُبِهِ لعَليٍّ ، فعَكَفَ على الدَّرْسِ والمُطالَعَةِ ، وفَقُهَ وتَمَيَّزَ في رَأي العُبَيْديَّة ، ومَهَرَ في تَأويلاتِهم ، وقَلْبِهم للحَقائق .

ثم صَارَ يَحُجُّ بالنَّاسِ علىٰ طريقِ السَّراةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنةً ، وكان النَّاسُ يَقولُونَ له : سَتَملكُ اليَمنَ بأسْرِهِ فيُنْكِرُ على القَائلِ ، فلمَّا كان في سَنةِ تِسْعٍ وعِشْرينَ وأرْبع مِئَة ، ثَارَ بجَبلِ مَشَار في سِتينَ رَجُلاً فأَوَوا إلىٰ ذِرْوَةِ شَاهِقٍ ، فما أمسوا حتىٰ أحاطَ بهم عِشْرُونَ ألفاً وقالوا : انْزِلْ وإلاَّ قَتَلناكُم جُوعاً وعَطَشاً ، قال : ما فَعَلتُ هـٰذا إلاَّ خَوفاً أنْ يَملِكَه غَيرُنا ، وإنْ تَرَكْتُمونا نَحْرُسُه ، وإلاَّ نَزَلْنا إلَيكُم ، وخَدَعَهُم ، فانْصَرَفُوا فَلَمْ يَمْضِ عليهِ أشْهرٌ حتىٰ بَنَاهُ وحَصَّنَه ، ولَحِقَ به كلُّ طَمَّاع وذِي جَلادَةٍ ، وكَثُرُوا فاسْتَفْحَلَ أمرُه وأظْهَرَ الدَّعْوَةَ لصاحِبِ مِصْرَ المُسْتَنْصِر ، وكان يَخافُ من نَجَاحِ صاحب تِهَامَة ، ويُلاطِفُه ويَتَحَيَّل عليه ، حتىٰ سَقاهُ مع جَاريَةٍ مَليحَةٍ أهْداها له ، واسْتَولَىٰ على المَمَالِكِ اليَمَنيَّة في سَنة خَمسٍ وخَمسينَ وأرْبعِ مِئَة ، وخَطَبَ علىٰ مِنْبَرِ الجَنَد[3] ، فقالَ : وفي مثل هـٰذا اليَوم نَخْطُبُ علىٰ مِنْبَرِ عَدَنْ ، فقال رجلٌ : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، يَسْتَهْزِىءُ بقَولِه ، فأمَرَ بأَخْذِه فاتَّفَقَ أنَّه أخَذَ عَدَنَ ، وخَطَبَ ، وصَيَّرها دَارَ مُلْكِه ، وأنْشَأ عِدَّةَ قُصُورٍ أنيقَة ، وأَسَرَ مُلوكاً ، وامْتَدَّتْ أيَّامُه ثمَّ حَجَّ ، وأحْسَنَ إلىٰ أهْلِ مَكَّة .

وكان أشْقَرَ أزْرَقَ ، يُسَلِّمُ علىٰ مَنْ مَرَّ عليهم ، وكان ذا ذَكاءٍ ودَهاءٍ ، كَسَا الكَعْبَةَ البَيَاضَ ، وخُطِبَ لزَوْجتِه أيضاً معه على المَنابِر ، ثم إنَّه حَجَّ في سَنةِ ثَلاثٍ وسَبعينَ

---

(١) انظر السير : (الصُّلَيحيُّ) ١٨/٣٥٩ـ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢١ .

(٢) قرية باليمن وإليها يُنسب عامر بن عبد الله الزواخي صاحب الدعوة عن الصُّليحيّ .

(٣) مدينة باليمن بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخاً .

واسْتَخْلفَ على اليَمَنِ ابنَهُ أحمَدَ المَلِكَ المُكَرَّم فلمَّا نَزَلَ بالمَهْجَم[1] ، وَثَبَ عليه جَيَّاشُ بنُ نَجَاح وأخُوهُ سَعيدُ الأحْوَل ، فقتَلاهُ بأبيهِما ، والتَفَّ أكْثَرُ العَسْكَرِ على ابنِ نَجاحٍ وتَمَلَّك .

ودام مُلكُ ولَدِه المُكَرَّم علىٰ شَطْرِ اليَمَن مُدّة ، وحارَبَ ابنَ نَجاح غَيرَ مرّة إلىٰ أنْ ماتَ سَنةَ أربَعٍ وثَمانينَ فتَمَلَّك بعدَه ابنُ عمِّه سَبأ بنُ أحمَد إلىٰ سَنةِ خَمسٍ وتِسْعين ، وصارَ المُلكُ إلىٰ آل نَجاحٍ مُدّة[2] .

(ب) عَليُّ بنُ مَهدي :

جاءَ في تَرجَمَة عليِّ بنِ مَهْديّ ، قالَ الذهبيُّ : كانَ أبُوهُ من قَريةٍ بزَبيد من الصُّلَحاءِ ، فنَشَأَ عليٌّ في تَزَهُّد ، وحَجَّ ولَقِيَ العُلماءَ وحَصَّلَ ، ثمّ وَعَظَ ، وذَمَّ الجُندَ .

وكانَ فَصيحاً صَبيحاً طَويلاً ، أخْضَرَ اللَّونِ ، طَيِّبَ الصَّوتِ ، غَزيرَ المَحْفوظِ ، مُتَصَوِّفاً ، خَبيثَ السَريرَة ، دَاهيةً ، يَتكلَّمُ على الخَواطِرِ فرَبَطَ الخَلقَ ، وكانَ يَعِظُ ويَنْتَحِبُ .

قال عُمارَةُ اليَمَنيُّ : لازَمْتُه سَنةً ، وتَرَكتُ التَّفَقُّهَ ، ونَسَكْتُ فأعادَني أبي إلى المَدرسَةِ ، فكُنتُ أزُورُه في الشَّهرِ ، فلمَّا اسْتَفْحَلَ أمْرُهُ تَرَكتُه .

ولَمْ يَزَلْ من سَنةِ خَمسمائة وثلاثين يَعِظُ ويُخَوِّفُ في القُرىٰ ، ويَحُجُّ علىٰ نَجيب ، وأطْلَقَتْ له السَّيدَةُ أمُّ فاتِك ولأقارِبه خَراجَ أمْلاكِهم ، فتَمَوَّلُوا إلىٰ أنْ صارَ جَمْعُهُ نَحوَ أرْبَعينَ ألفَ مُقاتِل ، وحارَبَ ، وكان يَقُولُ : دَنا الوَقتُ ، أزِفَ الأمْرُ ، كأنَّكُم بما أقُولُ لكُم عَياناً ، ثُمّ ثارَ ببلادِ خَولان ، وعاثَ وسَبَىٰ ، وأَهْلَكَ النَّاسَ ، ثُمّ لَقيتُه عند الدَّاعي بجبْلة سَنةَ تسْعٍ وأرْبَعينَ يَسْتَنجِدُ به ، فأبَىٰ ، ثُمّ دَبَّرَ علىٰ قَتلِ وَزيرِ آلِ فاتِك ، ثُمّ زَحَفَ إلىٰ زَبيد ، فقاتَلَه أهْلُها نَيِّفاً وسَبعينَ زَحْفاً ، وقُتِلَ خَلائِقُ من الفَريقَينِ ، ثُمّ قُتِلَ فَاتِكٌ مُتَوَلِّي زَبيد ، وأخَذَها ابنُ مَهْديّ في رَجبَ سَنةَ أرْبعٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئة ، فمَا

---

(١) بلد من أعمال زبيد باليمن .

(٢) انظر السير : (الصُّلَيحيُّ) ١٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢١ .

مُتِّع ، وهَلَكَ بعدَ ثَلاثةِ أشْهُر ، وقامَ بعدَه ابنُه عبدُ النَّبيِّ ، وعَظُمَ ، حتّى اسْتَولَىٰ علىٰ سائِرِ اليَمَنِ ، وجَمَعَ أمْوالاً لا تُحْصَىٰ ، وكانَ ـ أَعْنِي الأبَ ـ يَرَى التَّكْفيرَ بالمَعَاصي ، ويَسْتحِلُّ وَطْءَ سَبايا مَنْ خالَفَه ، ويَعْتَقِدُ فيه قَومُهُ فَوقَ اعْتِقادِ الخَلْقِ في نَبيِّهم .

قال : وحُكِيَ لي عَنهُ أنَّهُ لَمْ يَثِقْ بيَمينِ مَنْ يَصْحَبُه حتّىٰ يَذْبَحَ وَلَدَهُ أوْ أخَاهُ ، وكانَ يَقتُلُ بالتَّعذيبِ في الشَّمسِ ، ولا يَشْفَعُ أحَدٌ عِندَه ، ولَيسَ لأحَدٍ من عَسْكَرِه فَرَسٌ يَمْلِكُه ولا سِلاحٌ ، بَلْ الكُلُّ عِندَهُ إلىٰ وَقتِ الحَربِ ، والمُنْهَزِمُ منهُم يُقْتَلُ جَزْماً ، والسَّكْرانُ يُقْتلُ ، ومَنْ زَنَىٰ أوْ سَمِعَ غِناءً يُقتَلُ ، ومَنْ تَأخَّرَ عن صَلاةِ الجَماعَةِ قُتِلَ[1] .

(ج) عبدُ النَّبيّ (ابنُ المَهْدي عَليُّ بنُ مَهْدي) :

جاء في ترجمة « عبد النبيِّ » ، قال الذهبيُّ : هو ابنُ المَهديِّ عليِّ ابنِ مَهْدي ، كان أبوهُ قد وعظَ ، واشتغلَ ، ودعا إلىٰ نفسه ، وجرت له أمور وغلبَ على اليمنِ ، وعسَفَ وظلمَ ، وفَجَرَ ، وشقَّق بُطونَ الحبالىٰ ، وتمرَّدَ على الله ، وكان من دُعاة الباطنية فقَصَمَه الله سنةَ نيِّفَ وخمسينَ .

فقام بعده عبدُ النبيِّ هـٰذا ، ففعل كأبيه ، وسَبى الحريم ، وتَزَنْدقَ وبنىٰ علىٰ قبرِ أبيه المَهْديِّ قُبَّةً عظيمة ، وزَخرَفَها ، وعمل أستارَ الحَرير عليها ، وقَناديل الذَّهب ، وأمرَ الناسَ بالحجِّ إليها ، وأن يَحملَ كلُّ أحدٍ إليها مالاً ، ولمْ يَدَعْ أحدٌ زيارتها إلاَّ وقتله ، ومَنعَهم من حَجِّ بيتِ الله ، فتجمَّع بها أموالٌ لا تُحصَىٰ ، وانْهَمكَ في الفَواحِشِ إلىٰ أنْ أخَذَه اللهُ علىٰ يَدِ شَمسِ الدَّولَة ، أخي السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين ، عذَّبَهُ ، ثم قَتلَه ، وأخذ خزائنَه ، فللَّه الحَمدُ علىٰ مَصْرع هـٰذا الزِّنْديق ، وكان ذلك في قُرب سَنة سَبعين وخَمسِ مئة ، فإنَّ مُضيَّ شَمسِ الدولة تُوران شاه إلى اليَمَن وأخْذِها كان في سَنةِ تسْع وستين ، فأسرَ هـٰذا المُجْرمَ وشَنَقَه وتملَّكَ زَبيدَ وعَدَنَ وصَنْعاءَ ولعبدِ النبيِّ أخْبارٌ في الجَبَروتِ والعُتُوِّ ، فلا رَحمَه الله[2] .

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن مَهْدي) ٢٠/ ٣٢١ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٥٥ .

(٢) انظر السير : (عبد النبيّ) ٢٠/ ٥٨٢ـ ٥٨٣ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٦ .

٨ـ الدَوْلَة الصّفاريّة :

الصَّفَّار :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة « الصَفَّار » : الملك ، أبو يوسُف ، يعَقوبُ ابنُ اللَّيث ، السِّجسْتاني ، المستولي علىٰ خُراسان[1] .

قيلَ : كان هو وأخُوهُ عَمرو بنُ الليث يَعمَلان في النُّحاس ، فتزَهَّدا وجاهَدا مع صالح المُطَّوعي المحارب للخَوارج .

قال ابنُ الأثير : غَلبَ صالحٌ علىٰ سِجسْتان ، ثم استنقَذَها منه طاهرُ ابنُ عبد الله بنِ طاهِر ، فظَهرَ بها دِرْهَمُ بنُ حُسَين المُطَوِّعي ، فاسْتولىٰ أيضاً عليها ، وجَعلَ يَعقوبَ بنَ اللَّيث قائدَ عَسْكَره ، ثم رأىٰ أصْحابُ دِرْهَم عَجْزَه ، فمَلَّكُوا يَعقُوبَ لحُسْن سِياسَتِه ، فاذْعَنَ لهم دِرْهَمٌ واشْتهرت صَوْلةُ يَعقوبَ وغَلبَه علىٰ هراة وبُوشَنْج ، وحارَب التُّرْكَ ، وظَفرَ برُتْبيل ، فقَتلَه وقَتلَ ثلاثة مُلوك ورَجعَ معه أُلُوفٌ من الرُّؤوس ، فهابَتْه المُلوكُ ، وكان بوجْهه ضَرْبَةُ سَيف مُخَيَّطة .

وكان يَحملُ إلى المعْتمدِ في العامِ خَمسَةَ آلافِ ألفِ دِرْهَم ، وقَنعَ المعتمدُ بمُداراتِه .

ثم أخَذَ بَلْخَ ونيسابُورَ ، وأسَرَ مُتوَلِّيها ابنَ طاهر في ستِّينَ نَفْساً من آله ، وقَصَد جُرْجانَ ، فهَزم المُتغلِّبَ عليها الحَسَنَ بنَ زَيْد العَلوي ، وغَنمَ منه ثلاثَ مئة حِمل مال ثم دَخلَ جُرْجانَ ، فظَلمَ وعَسفَ ، فجاءَت زَلْزَلَةٌ قَتلَت من جُندِه ألفَين .

واستغاثَ جَماعةٌ جُرْجانيُّونَ ببَغْدادَ من يَعْقوبَ ، فعَزمَ المُعتمدُ علىٰ حَرْبِه ونفَّذَ كُتباً إلىٰ أعْيانِ خُراسَانَ بذَمِّ يَعقُوبَ ، وبأنْ يَهْتمُّوا لاسْتئصالِه فكاتَبَ المُعتمدَ يَخْضَعُ ويُراوِغُ ، ويطلبُ التَّقليدَ بتَوَليه المشرقَ ، ففَعَلَ المُعتمدُ ذاكَ وأخُوهُ المُوَفَّقُ لاشْتغالِهم بحَرْبِ الزِّنج .

---

(١) انظر السير : (الصَّفار) ١٢/٥١٣ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢٦ .

وأقبلَ يَعقوبُ ليَملكَ العراقَ ، وبَرزَ المُعتمدُ ، فالْتَقَى الجَمْعان بديرِ العَاقُول[1] ، وكَثُرت القَتلىٰ ، فانْهزَمَ يَعقوبُ ، وجُرحَ أُمراؤُه ، وذَهبَت خَزائنُه ، وغَرقَ منهم خَلقٌ في نَهْر .

وكان المَصافُّ في رَجبَ سَنة ٢٦٢هـ فذَهبَ يَعقوبُ إلىٰ وَاسِط ، ثم إلىٰ تُسْتَر فأخَذَها ، وتراجَعَ جَيشُه ، وعَظُمَت وَطأتُه ، وكادَ أنْ يَملكَ الدُّنيا ، ثم كانَ مَوتُه بالقُولَنج ، ووُصِفَت له حُقْنَة ، فأبَىٰ ، وتَلِفَ بعد أسبوعين .

وقَلَّ أن رُئي متبسِّماً ، مات بجنديسابور في سنة خمس وستين ومئتين[2] .

عَمرُو بنُ اللَّيْثِ الصفَّار .

قيل : كان ضرَّاباً في الصُّفْر ، وقيل : بل مكاريَّ حَمير ، فآل به الحال إلى السلطنة .

تَملَّكَ بعدَ أخيه ، وأحْسَنَ السِّياسَة ، وعَدل ، وعَظُمَت دُوَلُه ، وأطَاعَ الخَليفَةَ .

وقيلَ : كان في خدمَة زَوجتِه ألفٌ وسَبعِ مئة جارِيَة .

ثم بَغَىٰ عَمرٌو علىٰ وَالي سَمَرْقَند إسْماعيلَ بنِ أحمَد بنِ أسَد .

وأقْبلَ إسْماعيلُ ، فأخَذَ أصحابُ عَمرو بنِ اللَّيث في الهَزيمَة ، فرَكبَت عَساكرُ إسْماعيلَ ظُهورَهم ، وتَوحَّلت بعَمرو دابَّتُه ، فأُسِر ، فأُتي به إسْماعيلُ ، فاعْتَنقَه وخَدمَه ، وقالَ : ما أحْبَبتُ أنْ يَجْري هـٰذا ، ثمَّ بالَغَ في احْترامِه ، فقالَ : احْلِفْ لي ولا تُسْلمني ، فحَلفَ له ، لكن جاءَ رسُولُ المُعْتضِدِ بالخَلْع والتَّقْليدِ لإسْماعيلَ ، ويَطلبُ عَمراً فأُدْخِل بَغدادَ علىٰ بُخْتيٍّ عليه جُبَّةُ ديباج ، وبُرنُس السُّخْط ثم قالَ له المُعْتضِدُ : هـٰذا بَيْعَتُك يا عَمرو! ثم اعْتَقلَه ، فقَتلَه القاسمُ بنُ عُبَيد الله الوَزيرُ يومَ مَوْت المُعْتضِد سَنةَ تسعٍ وثَمانينَ ومِئتَين وكان دَولتُه نيِّفاً وعشرينَ سَنة[3] .

---

(١) وهو بين مدائن كسرىٰ والنعمانية ، علىٰ شاطىء دجلة .

(٢) انظر السير : (الصَّفار) ١٢/٥١٣ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٦ .

(٣) انظر السير : (عَمرو بن اللَّيْث الصَّفار) ١٢/٥١٦ـ ٥١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٧ .

حَكَى القُشَيْرِيُّ أنَّ عَمرو بنَ اللَّيث رُئي ، فقيلَ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قالَ : أشْرَفْتُ يوماً من جَبلٍ علىٰ جُيوشي ، فأعْجَبَتْني كَثرَتُهم ، فتَمَنَّيتُ أنَّني كُنتُ حَضرْتُ مع رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فنَصَرتُه وأعَنْتُه ، فشَكرَ اللهُ لي ، وغَفَرَ لي[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ المُعْتَضِد باللهِ قالَ الذهبيُّ : ولمَّا قُتِلَ المُتوَكِّلُ غِيلَةً ، ثم قُتلَ المُعْتَزُّ ، ثُمّ المُسْتَعينُ والمُهْتَدي وضَعُفَ شَأنُ الخِلافَةِ تَوَثَّبَ ابْنا الصَّفَّارِ إلىٰ أنْ أخَذَا خُراسَانَ بعدَ أنْ كانا يَعْمَلانِ النُّحاسَ ، وأقْبَلا لأخْذِ العِراقِ وقَلْعِ المُعْتَمِد .

وتَوَثَّبَ طُرُقِيٌّ داهيةٌ بالزِّنج على البَصْرَة ، وأبادَ العِباد ومزَّقَ الجُيوشَ ، وحارَبوه بضْعَ عَشرةَ سنةً إلىٰ أنْ قُتلَ وكان مارِقاً ، بلغَ جُنْدُه مئة ألف[2] .

وجاء في ترجَمَةِ أبي عَمرٍو الخَفَّاف ، قال الحاكِمُ : سَمعتُ محمّدَ ابنَ المُؤَمَّل بنَ الحَسَن الماسَرْجسيَّ ، سَمعتُ أبا عَمرٍو الخَفَّاف يقولُ : كان عَمرُو بنُ اللَّيْثِ الصَّفَّار ـ يَعْني السُّلطانَ ـ يَقولُ لي : يا عَمُّ! مَتىٰ عَلِمْتَ شَيئاً لا يُوافِقُكَ فاضْرِبْ رَقَبَتي ، إلىٰ أنْ أرْجِعَ إلىٰ هَواكَ[3] .

قال الإمام الذهبي : كذا فليَكُنْ السُّلطانُ مع الشَّيخِ ، وقد كان عَمرُو بنُ اللَّيث صانعاً في الصُّفر فتَنقَّلت به الأحْوالُ الىٰ أنْ تَملَّك خُراسَان وتَملَّك بعدَه أخُوهُ يَعقوبُ ، فانْظُر في تاريخ الإسْلام تَسْمَعْ العَجَبَ من سيرتِهما .

وكان الرئيسُ أبو عَمرٍو عَظيمَ القَدْرِ ، سَيِّداً مُطاعاً ببَلَدِه ، نالَ رئاسَةَ الدِّينِ والدُّنْيا ، وكانوا يُلقِّبُونَه بزَينِ الأشْرَف .

وكانت وَفاتُه سنةَ تسْعٍ وتسْعينَ ومِئتين ، من أبْناء الثّمانين[4] .

---

(١) انظر السير : (عَمرو بن اللَّيْث الصَّفار) ١٢/٥١٦ـ ٥١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٨ .
(٢) انظر السير : (المُعْتَضدُ بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٦ .
(٣) انظر السير : (أبو عَمرٍو الخَفَّاف) ١٣/ ٥٦٠ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١١١٧ .
(٤) انظر السير : (أبو عَمرٍو الخَفَّاف) ١٣/ ٥٦٠ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٧ .

٩ـ الدَوْلَة الطُّولُونيَّة :

أحمدُ بنُ طُولُون :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَته : التُّرْكيُّ ، صاحبُ مِصْرَ أبو العَبَّاس .

وُلدَ بسامَرَّاء ، وقيلَ : بلْ تَبنَّاه الأميرُ طُولونُ وطُولونُ قدَّمَه صاحبُ ما وَراء النَّهْر إلى المأمون ، في عِدَّة مَماليك ، سنة مئتين فعاشَ طُولونُ إلىٰ سَنة أربَعين ومئتَين ، فأجادَ ابنُه أحمدُ حِفْظَ القُرآنِ ، وطلبَ العِلمَ ، وتَنقَّلت به الأحْوالُ ، وتأمَّرَ ووَليَ ثُغورَ الشَّام ، ثم إمْرَةَ دِمَشْق ، ثم وَلي الدِّيارَ المِصْريَّة في سَنة أربَع وخَمسين ، ولَه إذْ ذاكَ أربَعون سنة .

وكان بَطلاً شُجاعاً ، مِقْداماً ، مَهيباً ، سائساً ، جَواداً ، مُمَدَّحاً من دُهاة الملوك[1] .

قيل : كانت مُؤنتُه في اليوم ألفَ دينار ، وكان يَرجعُ إلىٰ عَدْل وبَذْل لكنَّه جبَّارٌ ، سَفَّاكٌ للدِّماء[2] .

قال القُضاعيُّ : أُحْصيَ مَنْ قَتَله صَبْراً ، أو ماتَ في سِجْنه ، فبَلغوا ثَمانيةَ عشرَ ألفاً .

وأنْشأ بظَاهر مِصْرَ جَامعاً ، غَرمَ عليه مئةَ ألفِ دينار ، وكان جَيِّد الإسْلام مُعَظِّماً للشَّعائر[3] .

عن مُحمَّد بنِ عليٍّ المادَرائي قالَ : كُنتُ أجْتازُ بقَبْر ابنِ طُولونَ فأرَىٰ شَيخاً مُلازماً له ، ثمَّ لمْ أرَه مُدَّة ، ثم رَأيتُه فسَألتُه ، فقالَ : كان له عليَّ أيادٍ ، فأحْبَبتُ أنْ أصِلَه بالتِّلاوَة قالَ : فرَأيتُه في النَّومِ يقولُ : أحبُّ أنْ لا تَقرأَ عندي ، فما تَمرُّ بي آية إلاَّ قُرِّعْتُ بها ، ويُقالُ لي : أما سَمعتَ هـٰذه ؟

---

(١) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ أحمد بن طُولون .
(٢) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/١ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/٢ .

تُوفِّي أحمدُ بمِصْرَ سَنةَ سَبعينَ ومِئتَين .

وقامَ بعدَه ابنُه خُمارَوَيْه ، ثمَّ جَيْشُ بنُ خُمارَوَيْه ، ثم أخُوهُ هارُون[1] .

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين قَتلَ خُمارَوَيْه صاحبَ مِصْر والشَّام غِلْمانُه ، لأنَّه راوَدَهم ، ثم أُخِذُوا ، وصُلِبوا ، وتَملَّك ابنُه جَيْش ، فقَتلُوه بعد يَسير ، ومَلَّكوا أخاه هارُون ، وقَرَّر علىٰ نفسه أنْ يَحمِلَ إلى المُعْتَضِد في العام ألفَ دينار ، وخَمسَ مئةِ ألفِ دينار .

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئتين : سار المُعْتضِدُ إلى المُوصِل ، لأجل هارون الشَّاري ، وكان قد عاثَ وأفْسَدَ ، وامتدَّت أيامُه ، فقالَ الحُسَينُ ابنُ حمدان للمعتضد : إنْ جئتُكَ به فليَ ثلاثُ حَوائج قال : سَمِّها قالَ : تُطْلِق أبي ، والحاجَتان أذْكُرهُما إذا أتيتُ به قال : لكَ ذلك ، قال : وأريدُ أنْ أنتَقيَ ثَلاثَ مِئةِ بَطَلٍ قالَ : نَعَم ثم خَرَجَ الحُسَينُ في طلَب هارون ، فضايَقَه في مَخاضَة ، والْتَقَوا ، فانْهَزَمَ أصْحابُ هارُون ، واخْتفَىٰ هو ، ثم دَلَّ عليه أعْرابٌ ، فأسَرَه الحُسَينُ وقَدمَ به ، وخَلعَ المُعْتضِدُ على الحُسَينِ ، وطوَّفَه وسَوَّرَه ، وعُملَت الزِّينَةُ ، وأُرْكِبَ هارُونُ فيلاً ، وازْدَحمَ الخَلقُ ، حتىٰ سَقطَ كُرسيُّ جِسْرِ بَغْدادَ ، وغَرقَ خَلقٌ[2] .

١٠ـ دَوْلَة ابن الأغْلب :

ابن الأغلب :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِه : صاحبُ المَغْرب ، أبو إسْحاقَ إبرهيمُ ابنُ أحمد بنُ الأغْلب التَّميميُّ الأغْلبيُّ القَيْروَانيُّ ، ابنُ أُمَراء القَيْروَان .

وَليَ سَنةَ إحْدَىٰ وستِّين ومئتَين[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥٦ .
(٢) انظر السير : (المُعْتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٠٧ .
(٣) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٠ .

وكان مَلكاً حازِماً صارِماً مَهيباً ، كانت التجَّارُ تَسيرُ في الأمْنِ من مِصْرَ إلىٰ سَبْتة ، لا تُعارَض ، ولا تُرَوَّع .

ابْتَنى الحُصونَ والمَحارسَ ، بحيثُ كانت تُوقَدُ النَّارُ ، فتَتَّصلُ في ليلة إذا حَدثَ أمرٌ من سَبْتَة إلى الإسْكَنْدَريَّة ، بحيثُ إنَّه يُقالُ : قد أنْشىءَ في البلاد من بنائِه وبناءِ آبائِه ثَلاثُونَ ألفَ مَعْقِل ، وهو الذي مَصَّرَ مَدينَةَ سُوسَة[1] .

وقد دُوِّنَت أيَّامُه وعَدلُه وجُودُه ، وكان سَديدَ السِّيرَة ، شَهْماً ، ظَفرَ بامْرأةٍ مُتعَبِّدَةٍ قادَتْ قودَة ، فدَفَنَها حيَّةً ، وشَنقَ سَبعةَ أجْنادٍ أخَذوا لتاجر ثَلاثةَ آلاف دينار ، بعدَ أنْ قرَّرَهم ، وأخَذَ الذَّهبَ لمْ يَنقُصْ سِوَىٰ سَبعَةَ دَنانير ، فوَزَنَها من عنده[2] .

وقيلَ : جاءَه رجلٌ ، فقالَ : قد عَشِقتُ جاريَةً ، وثَمنُها خَمسونَ ديناراً ، وما مَعي إلاَّ ثلاثون فوَهَبَه مئةَ دينار ، فسَمعَ به آخَرُ ، فجاءَه وقال : إنِّي عاشقٌ قال : فما تَجدُ ؟ قال : لَهيباً قال : اغْمِسُوهُ في الماء ، فغَمَسوهُ مَرَّات ، وهو يَصيحُ : ذَهبَ العِشْقُ فضَحكَ ، وأمَرَ له بثَلاثينَ ديناراً .

ثم إنَّه تَسَوْدَنَ ، وقَتلَ إخْوَتَه ، ثم عُوفِيَ ، وتابَ ، وتَصدَّق .

ثم ظَهرَ عليه الشِّيعيُّ داعي عُبَيدِ الله المَهْدي ، وحارَبه ، وجَرَتْ أمُورٌ طويلة ، بَعضُها في « تاريخ الإسلام »[3] .

تُوُفِّيَ غَازِياً بصِقِلِّيَة سَنةَ تِسْعٍ وثَمانِينَ ومِئَتَين ، وتَمَلَّك ابنُه عبدُ الله ، فكان دَيِّناً ، عَالِماً ، بَطَلاً ، شُجَاعاً ، شَاعِراً ، فقَتَلَه غِلْمَانُه غِيلةً بعدَ عامٍ[4] .

---

(١) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١١٠ .
(٢) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١١٠ .
(٣) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١١١١ .
(٤) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١١١ .

١١ـ الدَوْلَة الفَاطِميَّة :

(أ) الدَّوْلَة العُبَيْديَّة الفاطِميَّة الفاسِدة العَقيدَة والنَّسَب والعَمل :

الشِّيعِيّ :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمته : الدَّاعي الخَبيثُ ، أبو عبد الله ، الحُسَينُ بنُ أحمَد بنِ محمَّد الصَّنْعاني ، من دُهاة الرِّجال الخَبيرينَ بالجَدَل ، والحِيَل وإغْواءِ بَني آدَم .

قامَ بالدَّعْوَة العُبَيْديَّة ، وحَجَّ ، وصَحِبَ قَوماً من كُتامة[1] ، ورَبَطَهم وتَألَّه وتَزهَّدَ وشَوَّقَ إلىٰ إمامِ الوَقْت ، فاسْتجابَ له خَلقٌ من البَرْبَرِ ، وعَسْكَرَ وحارَب أميرَ المَغْرِب ابنَ الأغْلِب ، وهَزمَه غَيرَ مَرَّة ، وإلىٰ أنْ جاءَ عُبَيْدُ الله المَهْدي فتَسلَّم المُلكَ ، ولمْ يَجْعَل لهـٰذا الدَّاعي ولا لأخيه أبي العَبَّاس كَبيرَ وِلايَة ، فغَضِبَا ، وأفْسَدا عليه القُلوبَ وحارَباه ، وجَرَت أمُورٌ إلىٰ أنْ ظَفرَ بهما المَهْديُّ فقَتلَهما في ساعة ، سَنةَ ثَمانٍ وتسعينَ ومئتَين[2] .

المَهْدي وذُرِّيَّته :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَةِ المَهْديِّ : عُبَيْدُ الله أبو مُحمّد ، أوَّلُ مَنْ قامَ من الخُلَفَاءِ الخَوارِجِ العُبَيْديَّة الباطِنيَّة الذين قَلَبوا الإسْلامَ ، وأَعْلَنوا بالرَّفْضِ ، وأبْطَنُوا مَذْهَبَ الإسْماعِيليَّةِ ، وبَثُّوا الدُّعاةَ ، يَسْتَغْوونَ الجَبَليَّةَ والجَهَلَةَ .

وادَّعَىٰ هـٰذا المُدَبَّرُ ، أنَّه فاطِميٌّ من ذُرِّيَّةِ جَعْفَرٍ الصَّادِق .

وقِيلَ : كانَ أبُوهُ يَهُوديّاً[3] .

والمُحَقِّقُونَ علىٰ أنَّه دَعِيٌّ بحَيثُ إنَّ المُعِزَّ منهُم لمَّا سَألَهُ السَّيدُ ابنُ طَباطَبا عن

---

(١) قبيلة من البربر ببلاد المغرب .

(٢) انظر السير : (الشِّيعي) ١٤/٥٨ـ٥٩ ، وانظر النزهة : ١/١١٢٩ .

(٣) انظر السير : (المَهْدي وذُرِّيَّته) ١٥/١٤١ـ١٥١ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٧ .

سَبه ، قال : غَداً أُخرِجُهُ لَكَ ، ثمَّ أصْبَحَ وقد أَلْقَىٰ عَرَمَةً[1] من الذَّهَبِ ، ثمَّ جَذَبَ نِصْفَ سَيْفِه من غِمْدِه ، فقالَ : هـٰذا نَسَبِي ، وأمَرَهُم بنَهْبِ الذَّهَبِ ، وقالَ : هـٰذا حَسَبِي .

وقد صَنَّفَ ابنُ الباقِلاَّنيِّ وغَيرُه من الأئِمَّة في هَتْكِ مَقالاتِ العُبَيْديَّة وبُطْلانِ نَسَبِهم ، فهَـٰذا نَسَبُهُم ، وهَـٰذِه نِحْلَتُهُم ، وقد سُقْتُ في حَوادِثِ « تاريخِنا » من أحْوالِ هَؤلاءِ وأخْبارِهِم في تَفارِيقِ السِّنينِ عَجائِبَ .

فرأىٰ عُبيدُ الله أنَّ ما يَرومَه من المُلك ، لا يَنبَغي أنْ يَكونَ ظُهورُه بالعِراق ولا بالشَّام ، فبعثَ أولاً له داعيَيْن شَيطانَيْن داهيَتَيْن ، وهما الأخَوان أبو عبد الله الشِّيعيِّ ، وأخُوه العَبَّاس ، فظَهَرَ أحدُهما باليَمَن والآخَرُ بأفْريقية ، وأظْهرَ كلٌّ منهما الزُّهْدَ والتَّألُّهَ وأدَّبا أولادَ النَّاسِ ، وشَوَّقا إلى الإمامِ المَهْديِّ[2] .

ولهم[3] البَلاغَات السَّبْعة : فالأوَّلُ للعَوَام وهو الرَّفْضُ ، ثم البَلاغُ الثاني للخَوَاص ، ثم البَلاغُ الثالث لمَنْ تَمكَّنَ ، ثم الرابعُ لمَنْ اسْتمرَّ سَنتَين ، ثم الخامسُ لمَنْ ثَبتَ في المَذْهَب ثلاثَ سنين ، ثم السادسُ لمَنْ أقامَ أرْبَعَةَ أعْوام ، ثم الخِطابُ بالبَلاغِ السَّابع وهو النَّامُوسُ الأعْظَم .

قال محمدُ بنُ إسْحاقَ النَّديمُ : قَرأتُه[4] فرَأيتُ فيه أمْراً عَظيماً من إباحَة المَحْظُورات ، والوَضْع من الشَّرائعِ وأصْحابِها ، وكان في أيَّامِ مُعِزِّ الدَّوْلة ظاهراً شائعاً ، والدُّعَاةُ مُنْبَثُّون في النَّوَاحِي ، ثم تَناقَص .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ثم اسْتحكَمَ أمرُ أبي عبد الله بالمَغْرب ، وتَبعَه خَلقٌ من البَرْبَر ، ثم لَحقَ به أخُوهُ ، وعَظُمَ جَمعُه ، حتىٰ حارَبَ مُتولِّي المَغْرب وقَهَرَه ، وجَرَت له أمُورٌ طَويلَةٌ في أزْيَد من عَشْرة أعْوام .

---

(١) العرمة (بالتحريك) : مجمّع رمل وقد استعمله هنا بمعنىٰ كومة من الذهب .
(٢) انظر السير : (المَهْدي وذُرِّيَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٧ .
(٣) أي : للفاطميين .
(٤) أي: البلاغ السابع .

فلمَّا سَمعَ عُبَيْدُ الله بظُهورِ داعيهِ ، سارَ بوَلدِه في زِيِّ تُجَّار والعُيونُ عليهما ، فدَخَلا المَغْربَ ، فظَفرَ بهما أميرُ المَغْربِ فسَجنَهما ، ولمْ يُقِرَّا له بشيء ، ثم الْتَقَىٰ هو وأبو عبد الله الشِّيعيِّ ، فانتُصرَ أبو عبد الله ، وتَملَّكَ البلادَ ، وأخْرَجَ المَهْديَّ من السِّجْنِ ، وقبَّل يدَه وقالَ لقُوَّادِه : هـٰذا إمامُنا فبايَعَه المَلأ .

ووَقعَ بعدُ بَينَه وبَينَ داعيَيْه لكَوْنِه ما أنْصَفَهُما ، ولا جَعلَ لهما كَبيرَ مَنْصِب ، فشَكَّكا فيه خَواصَّهُما ، وتَفرَّقَت كَلمةُ الجُنودِ ، وَوقَعَ بينهم مَصافٌ فانتُصرَ عُبَيْدُ الله ، وذَبحَ الأخَوَيْن ودانَت له الأُمَمُ وأنْشَأَ مَدينَةَ المَهْديَّة ، ولَمْ يتَوجَّه لحَرْبه جَيشٌ لبُعْدِ الشُّقَّة ولِوَهنِ شَأنِ الخِلافَة بإمارَةِ المُقْتَدِر وجَهَّزَ من المَغْربِ وَلدَه ليَأخُذَ مِصْرَ فلَمْ يتِمَّ له ذلكَ[1] .

قالَ أبو الحَسَن القابسيُّ ، صاحبُ الملخَّص : إنَّ الذين قَتلَهم عُبَيدُ الله وبَنُوه أربَعةَ آلافِ في دارِ النَّحْر في العَذابِ من عالمٍ وعابد ليَرُدَّهم عن التَّرَضِّي عن الصَّحابَة ، فاخْتارُوا المَوتَ .

وفي أيَّامِ المَهْدي ، عاثَت القَرامِطَةُ بالبَحْرَين ، وأخَذُوا الحَجيجَ وقَتلُوا وسَبوا ، واسْتَباحُوا حَرَمَ الله ، وقَلَعُوا الحَجَرَ الأسْوَدَ ، وكان عُبَيدُ الله يُكاتِبُهم ، يُحرِّضُهم قاتَلَه الله .

وكان مَوتُه ، سَنةَ اثْنَتين وعشرينَ وثلاثِ مئَة وله اثْنَتانِ وسِتُّونَ سَنةً ، وكانت دَولَتُه خَمْساً وعشرينَ سَنةً وأشْهُراً[2] .

نَقلَ القاضي عِياض في ترْجَمة أبي محمَّد الكستراتي ، أنَّه سُئلَ عمَّن أكْرَهَه بَنو عُبَيد على الدُّخُولِ في دَعْوَتهم أوْ يُقتَلَ ؟ فقالَ : يَخْتارُ القَتلَ ولا يُعْذَر ، ويَجبُ الفِرارُ ، لأنَّ المُقامَ في مَوْضِع يُطلَبُ من أهْلِه تَعطيلُ الشَّرائعَ ، لا يَجوزُ .

---

(١) انظر السير : (المَهْدي وذُريَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٨ .
(٢) انظر السير : (المَهْدي وذُريَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٨ .

قالَ القاضي عِياض : أجْمَعَ العُلماءُ بالقَيْرَوانِ ، أنَّ حَالَ بَني عُبَيْد حالُ المُرْتَدِّينَ والزَّنادِقَة[1] .

القائم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَته : صاحبُ المَغْرب ، أبو القَاسِم محمَّدُ ابنُ المَهْدي عُبَيْد الله .

مَوْلدُه سنةَ ثَمان وسَبعينَ ومئتَين ودَخلَ المَغْربَ مع أبيه ، فبُويعَ هـٰذا عندَ مَوْتِ أبيهِ في سَنةِ اثنتَين وعشرينَ وثلاثِ مئَة .

وكان مَهيباً شُجاعاً ، قَليلَ الخَيرِ ، فاسِدَ العَقيدَة[2] .

خَرَجَ عليه في سَنةِ اثْنتَينِ وثلاثين وثلاثِ مِئَة ، أبُو يَزيدِ مَخْلَدُ ابنُ كَيْدادَ البَرْبَريُّ وجَرَتْ بَينَهُما مَلاحِمُ ، وحَصَرَه مَخْلَدُ بالمَهْديَّة ، وضَيَّقَ عليه ، واسْتَولَىٰ علىٰ بِلادِه ، ثمَّ وُسْوِسَ القائِمُ ، واخْتَلَطَ وزالَ عَقلُه وكانَ شَيْطاناً مَريداً يَتَزَنْدَقُ[3] .

ذَكرَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُتكلِّمُ ، أنَّ القائِمَ أظْهَرَ سَبَّ الأنْبياءِ وكان مُنادِيهِ يَصِيحُ : الْعَنوا الغَارَ وما حَوَىٰ وأَبادَ عِدَّةً من العُلَماءِ وكان يُراسِلُ قَرامِطَةَ البَحْرَيْنِ ، ويأمُرُهم بإحْراقِ المَساجِدِ والمَصاحِفِ فتَجَمَّعتْ الإبَاضِيَّةُ[4] والبَرْبَرُ علىٰ مَخْلَد ، وأَقْبَلَ ، وكانَ ناسِكاً قَصيرَ الدَّلقِ[5] يَركَبُ حِماراً ، لَكنَّهُم خَوارِج ، وقامَ معه خَلقٌ من السُّنَّةِ والصُّلَحاءِ ، وكادَ أنْ يَتَملَّكَ العالَمَ ، ورُكِّزَتْ بُنودُهُم عند جامِعِ القَيْرَوانِ فيها : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وبَنْدانِ أصْفَرانِ فيهِما : نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قَريبٌ وبَنْدٌ لمَخْلَد فيه : اللهُمَّ انْصُرْ وَليَّكَ علىٰ مَنْ سَبَّ نَبيَّكَ وخَطَبَهُم أحْمدُ بنُ أبي الوَليد ، فحَضَّ على

---

(١) انظر السير : (المَهْدي وذُريَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٩ .

(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٩ .

(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٩ .

(٤) من أكبر فرق الخوارج ، وهم أصحاب عبد الله بن يحيى بن إباض الملقب بـ « طالب الحق » ، من أهل اليمن ، خلع طاعة مروان بن محمد وبويع له بالخلافة ، واستولىٰ علىٰ صنعاء ومكة ، قُتل سنة ١٣٠هـ .

(٥) الدلق : ثوب متسع الأكمام طويلها (صبح الأعشىٰ) ٤/ ٤٢ .

الجِهادِ ، ثمَّ سارُوا ، ونازَلُوا المَهْديَّةَ ولمَّا التَقَوا وأيْقَنَ مَخْلدٌ بالنَّصْرِ ، تَحرَّكَتْ نَفسُه الخارِجيَّةُ ، وقال لأصْحابِه : انْكَشِفُوا عَن أهْلِ القَيْرَوانِ حتىٰ يَنالَ منهُم عَدُّوهم ، ففَعلوا ذلكَ فاسْتُشْهِدَ خَمسَةٌ وثَمانونَ نَفْساً من العُلَماءِ ، والزُّهادِ .

وخَوارِجُ المَغْربِ إبَاضيَّةٌ مَنْسوبُونَ إلىٰ عبدِ الله بنِ يَحْيَىٰ بنِ إبَاض الذي خَرَجَ في أيّامِ مَرْوانَ الحِمار ، وانْتَشَرَ أتْباعُه بالمَغْربِ ، يَقولُ : أفْعالُنا مَخْلوقَةٌ لنا ويُكَفِّرُ بالكَبائِرِ ، ويَقولُ : لَيسَ في القُرآنِ خُصوصٌ ، ومَنْ خالَفَه حَلَّ دَمُه .

وكانَ مَوتُ القائِمِ سَنةَ أرْبعٍ وثَلاثينَ مَحْصوراً بالمَهْديَّةِ ، لَكنْ قامَ بَعدَه ابنُه المَنْصُورُ[1] .

وقد أجْمَعَ عُلماءُ المَغْربِ علىٰ مُحارَبَة آلِ عُبَيْد لما شَهِرُوه من الكُفْر الصّراح الذي لا حيلَةَ فيه[2] .

وعُوتِبَ بَعضُ العُلماءِ في الخُروجِ مع أبي يَزيد الخارِجيِّ ، فقالَ : وكَيفَ لا أخْرُجُ وقد سَمعتُ الكُفرَ بأُذُني ؟!! حَضَرتُ عَقداً فيه جَمعٌ من سُنَّةٍ ومَشارِقَة ، وفيهِم أبو قُضاعَة الدَّاعِي ، فجاءَ رَئيسٌ ، فقالَ كَبيرٌ منهُم : إلىٰ هنا يا سَيِّدي ارْتَفِعْ إلىٰ جانِبِ رسُولِ اللهِ ، يَعْني أبا قُضاعَة ، فما نَطَقَ أحَدٌ .

ووُجِدَ بخَطِّ فَقيهٍ ، قال : في رَجَبَ سَنةَ ٣٣١ هـ ، قامَ المُكَوكب يَقْذِفُ الصَّحابَةَ ، ويَطْعَنُ علىٰ النَّبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم ، وعُلِّقَتْ رُؤوسُ حَميرٍ وكِباشٍ علىٰ الحَوانيتِ ، كُتِبَ عليها أنَّها رُؤوسُ صَحابَةٍ[3] .

وخَرَجَ أبو إسْحاقَ الفَقيهُ مع أبي يَزيد ، وقال : هُمْ أهْلُ القِبْلَةِ وأولئِكَ لَيْسوا أهْلَ قِبْلَةٍ ، وهُم بَنُو عَدُوِّ الله ، فإنْ ظَفِرْنا بهم ، لَمْ نَدخُلْ تَحتَ طاعَةِ أبي يَزيدَ ، لأنَّه خارِجيٌّ[4] .

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٩٩ .
(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٠ .
(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٠ .
(٤) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠١ .

قالَ أبو مَيْسَرَة الضَّريرُ : أدْخَلَني اللهُ في شَفاعَةِ أسْوَد رَمَىٰ هـٰؤلاء القَوْمَ بحَجَر[1] .

وقالَ السَّبَائيُّ : أي والله نَجدُّ في قَتلِ المُبَدِّلِ للدِّين[2] .

وتَسارَعَ الفُقَهاءُ والعُبَّادُ في أُهْبَةٍ كاملة بالطُّبولِ والبُنُودِ وخَطبَهم في الجُمُعَة أحمَدُ بنُ أبي الوَليد ، وحَرَّضَهم وقالَ : جاهِدُوا مَنْ كَفَرَ بالله وزَعَمَ أنَّه رَبٌّ من دُونِ الله ، وغَيَّرَ أحْكامَ الله ، وسَبَّ نَبيَّه وأصْحابَ نَبيِّه فبَكَى النَّاسُ بُكاءً شَديداً وقالَ : اللَّهـمَّ إنَّ هَـٰذا القِرْمِطيَّ الكافرَ المَعْروفَ بابنِ عُبَيد الله ، المُدَّعِي الرُّبُوبيَّة ، جاحِدٌ لنِعْمَتِك ، كافِرٌ برُبُوبيَّتِك ، طاعِنٌ علىٰ رُسُلِك ، مُكذِّبٌ بمُحمَّد نَبيِّك سافِكٌ للدِّماءِ فالْعَنْهُ لَعْناً وَبيلاً ، واخْزِهِ خِزْياً طَويلاً ، واغْضَبْ عَليه بُكْرةً وأصيلاً ثم نَزَلَ فصَلَّىٰ بهم الجُمُعَة[3] .

ورَكبَ رَبيعُ القَطَّان[4] فرَسَه مُلبساً ، وفي عُنُقِه المصْحَف ، وحَولَه جَمعٌ كَبيرٌ ، وهو يَتلُو آياتِ جِهَادِ الكَفَرَة فاسْتُشهِدَ رَبيعٌ في خَلقٍ من النَّاسِ يَومَ المَصافِّ في صَفَر سَنةَ أرْبَع وثَلاثينَ وكان غَرَضُ هـٰؤلاء المَجُوسَ بَني عُبَيْد أخْذَه حيّاً ليُعذِّبُوه قالَ أبو الحَسَن القابسيُّ : اسْتُشهِدَ معَه فُضَلاءٌ ، وأئمَّةٌ ، وعُبَّاد .

وقالَ بعضُ الشُّعَراء في بَني عُبَيْد[5] :

المَـاكِـرُ الغَـادِرُ الغَـاوي لِشِيعَتِـهِ ... شَـرُّ الـزَّنَـادِقِ مِـن صَعْـبٍ وتُبَّـاعِ
العَـابِـديـنَ إذَا عِجْـلاً يُخَـاطِبُهُـمْ ... بِسِحْـرِ هَـارُوتَ مِـنْ كُفْـرٍ وَإِبْـدَاعِ
لَـوْ قِيـلَ للـرُّومِ أَنْتُـمْ مِثْلُهُـم لَبَكَـوْا ... أَوْ لليَهُـودِ لسَـدُّوا صَمْـخَ أسْمَـاعِ

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠١ .
(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠١ .
(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٠١ .
(٤) ربيع بن سليمان بن عطاء الله ، القطَّان ، كان لسان إفريقية في وقته في الزُّهْد والرقائق ، وكان جعل علىٰ نفسه ألا يشبع من طعام ولا نوم حتىٰ يقطع الله دولة بني عُبَيْد انظر ترجمته في : « ترتيب المدارك » ٣/ ٣٢٣ـ ٣٣٢ .
(٥) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٠١ .

المَنْصور :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَته : هو أبو طاهِر إسْماعيلُ بنُ القائِم بنِ المَهْديِّ ، العُبَيْديُّ ، الباطِنيُّ[1] .

وَلِيَ بعدَ أبيهِ ، وحارَبَ رَأسَ الإبَاضيَّة أبا يَزيد مَخْلدَ بنَ كَيْدادَ الزَّاهِد ، والْتَقى الجَمْعان مَرَّاتٍ ، وظَهَرَ مَخْلدُ علىٰ أكْثَرِ المَغْرِب ، ولَمْ يَبْقَ لِبَني عُبَيْد سِوَى المَهْديَّة[2] .

فنَهَضَ المَنْصورُ ، وأخْفَىٰ مَوتَ أبيهِ ، وصَابَرَ الإبَاضيَّةَ حتىٰ تَرَحَّلوا عنه ، ونازَلُوا مَدينَةَ سُوسَة ، فبَرَزَ المَنصُورُ من المَهْديَّة ، والْتَقَوا فانْكَسَرَ جَيشُ مَخْلد علىٰ كَثْرَتِهم ، وأُسِرَ هو في سَنةِ ٣٣٦ هـ ، فماتَ بعدَ الأسْرِ بأرْبَعةِ أيّامٍ من الجِراحِ ، فسُلِخَ وحُشِيَ قُطْناً ، وصُلِبَ .

وبَنَوْا مَدينَةَ المَنْصوريَّةَ مكانَ الوَقْعَةِ ، فنَزَلَها المَنْصورُ .

وكان بَطَلاً شُجاعاً ، رابِطَ الجأشِ ، فَصيحاً مُفَوَّهاً يَرْتَجِلُ الخُطَبَ وفيه إسْلامٌ في الجُمْلَة وعَقلٌ بخِلافِ أبيهِ الزِّنْدِيقِ[3] .

ومن مَحاسِنه أنَّه ولَّىٰ محمدَ بنَ أبي المَنْظور الأنْصاري قَضاءَ القَيْروان وكان من كبار أصْحابِ الحَديث ، وقد لَقيَ إسْماعيلَ القاضي ، والحارثَ ابنَ أبي أسامَة ، فقال : بشَرْطِ أنْ لا آخُذَ رِزْقاً ولا أرْكَبَ دابَّةً ، فوَلاَّه ليتألَّفَ الرَّعيَّة ، فأُحْضِرَ إليه يَهوديٌّ قد سَبَّ[4] فبَطحَه ، وضَربَه إلىٰ أنْ ماتَ تحتَ الضَّرْبِ ، خافَ أنْ يُحكَمَ بقَتلِه فتحلّ عليه الدَّوْلة[5] .

وأَتىٰ يوماً بيته فوجَدَ سُلافَ دايةَ السُّلطانِ تَشفَعُ في امرأةٍ نائحَةٍ فاسِقَةٍ ليُطْلِقَها من

---

(١) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٢ .
(٢) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٢ .
(٣) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٢ .
(٤) أي: النبيَّ صلى الله عليه وسلم .
(٥) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٠٢ .

حَبْسِه ، فقالَ : ما لَكِ ؟ قالت : قَضيب[1] مَحْبوبة المنصور ، تطلب منك أن تُطْلِقَها ، فقال : يا مُنْتِنَةُ لولا شيءٌ لضَربتُك لَعَنَكِ اللهُ ، ولَعنَ مَنْ أرْسَلَك فوَلْوَلَت ، وشقَّت ثيابَها ثم ذَكرَت أمرَها للمَنْصور ، فقالَ : ما أصْنَعُ به ؟ ما أخَذَ منَّا صِلَةً ، ولا نَقدِرُ علىٰ عَزْلِه نحنُ نحبُّ إصْلاحَ البَلد .

وخَرجَ في رَمضانَ سنة إحْدَىٰ وأربعين وثلاث مئة إلىٰ مكانٍ يَتنزَّه فأصابَه بَردٌ وريحٌ عَظيمة ، فأثَّرَ ذلك فيه ، ومَرضَ ، وماتَ عددٌ كثيرٌ ممَّنْ مَعه ثم ماتَ من السَّنَة وله تسعٌ وثَلاثونَ سنةً[2] .

وقد كان في سَنَةِ أرْبَعِينَ جَهَّزَ أبو الطَّاهِر إسْماعِيلُ بنُ القَائِم ابنِ المَهْدِيِّ جَيْشَه في البَحْرِ إلىٰ صِقِلّيَةَ ، فهَزَمُوا النَّصارَىٰ وكانت مَلْحَمَةً عُظْمَىٰ ، قُتِلَ فيها من العَدُوِّ ثلاثُونَ ألفاً وأُسِرَ منهم ألُوفٌ ، وغَنِمَ الجُندُ ما لا يُعبَّر عنه .

وقِيلَ : إنَّه افْتَتَحَ مدينةَ جَنْوَةَ .

وحَكَمَ علىٰ مَمْلَكَةِ صِقِلِّيَة وافْتَتَحَ له نائِبُه عليها فُتُوحاتٍ ، وانْتَصَرَ على العَدُوِّ وفَرِحَ بذَلك المُسلمونَ ، وتَوَطَّدَ سُلطَانُه .

وكان المَنْصُورُ مُحَبَّباً إلى الرَّعِيَّة مُقْتَصِراً علىٰ إظْهَارِ التَّشَيُّع وقام بعدَه المُعِزُّ وَلَدُه[3] .

المُعِزّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَته : هو المُعِزُّ لدين الله أبو تَميم مَعَدُّ بنُ المَنْصُور العُبَيْديُّ المَهْدَويُّ المَغْربيُّ الذي بُنيَت القَاهرَةُ المُعِزِّيَّةُ له .

وَلِيَ سَنةَ إحْدىٰ وأرْبَعين وثَلاث مئة ، وسارَ في نَواحِي إفْريقَية يُمهِّدُ مُلْكَه ، فذَلَّلَ

---

(١) جارية أخرىٰ للسلطان ، ليس عنده أعزّ منها .

(٢) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٠٢ .

(٣) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٣ .

الخَارجينَ عَليه ، واسْتعمَلَ مَماليكَه على المُدنِ واسْتخدمَ الجُنْدَ ، وأنْفقَ الأمْوالَ ، وجهَّزَ مَمْلوكَه جَوْهَرَ القائدَ في الجُيوشِ[1] .

قالَ القِفْطيُّ : عَزمَ المُعِزُّ علىٰ بَعْث جَيشِه إلىٰ مِصْرَ ، فسألَتْهُ أُمُّهُ أنْ يُؤخِّرَ ذلكَ لتَحُجَّ خُفْيَةً فأجابَها ، وحَجَّتْ ، فأحَسَّ بقُدومِها الأسْتاذُ كافُورُ ـ يَعْني صاحِبَ مِصْرَ ـ فحَضَرَ إليها وخَدمَها ، وحَملَ إليها تُحَفاً ، وبَعثَ في خِدْمتِها أجْناداً ، فلمَّا رَجَعَت ، مَنعَت ابنَها من قَصْدِ مِصْرَ ، فلمَّا ماتَ كافُورٌ بَعثَ المُعِزُّ جَيشَه ، فأخَذوا مِصْرَ .

وكانت مِصْرُ في القَحْط ، فأخَذَها جَوْهَرٌ ، وأخَذَ الشَّامَ والحِجازَ ونفَّذَ يُعرِّفُ مَولاهُ بانْتظامِ الأمْرِ .

وضُربَت السِّكةُ على الدِّينارِ بمِصْرَ (وهي : لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ محمَّدٌ رَسُولُ الله ، عَليٌّ خَيْرُ الوَصِيَّيْن) والوَجهُ الآخَر اسْم المُعِزِّ والتاريخ ، وأُعْلِنَ الأذانُ بـ « حَيِّ علىٰ خَيرِ العَملَ » ، ونُوديَ : مَنْ مَاتَ عن بنْت وأخٍ أو أُخْت فالمالُ كلُّه للبنْت فهَـٰذا رَأيُ هـٰؤلاء[2] .

فتَهيَّأ المُعِزُّ ، وسارَ بخَزائنِه ، وتَوابيتِ آبائِه وكان دُخُولُه إلى الإسْكَنْدَريَّة في شَعْبانَ سَنةَ اثنتين وستِّينَ وثلاث مئَة وتَلقَّاهُ قاضي مِصْرَ الدُّهْليُّ وأعيانُها ، فأكْرَمَهُم وطال حَديثُه مَعَهم وعَرَّفهم أنَّ قَصْدَه الحَقُّ والجهَادُ ، وأنْ يَختمَ عُمرَه بالأعْمال الصَّالِحَة ، وأنْ يُقيمَ أوامرَ جَدِّه رَسول الله صلى الله عليه وسلم ووَعَظَ وذَكَّر حتىٰ أعْجَبَهم ، وبَكىٰ بَعضُهم ثم خَلعَ عليهم ، وقال للقاضي أبي الطَّاهِر الدُّهْليِّ : مَنْ رَأيتَ من الخُلَفاء ؟ فقالَ : واحداً ، قالَ : مَنْ هو ؟ قال : مَوْلانا ، فأعْجَبَه ذلك .

ثم إنَّه سارَ حتىٰ خَيَّم بالجِيزَة فأخَذَ عَسْكرُه في التَّعْديَة إلى الفُسْطاطِ ، ثم دَخَلَ القاهِرَةَ ، وقد بُنيَ له بها قَصرُ الإمارَة ، وزُيِّنَت مِصْرُ ، فاسْتَوىٰ علىٰ سَرير مُلْكِه ، وصَلَّىٰ رَكعَتين .

---

(١) انظر السير : (المُعِزُّ) ١٥/١٥٩ـ١٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٣ .
(٢) انظر السير : (المُعِزُّ) ١٥/١٥٩ـ١٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٣ .

وكان عَاقلاً لَبيباً حَازِماً ذا أدَبٍ وعِلمٍ ومَعْرفَةٍ وجَلالَةٍ وكَرَمٍ يَرجعُ في الجُملَة إلىٰ عَدْلٍ وإنْصافٍ ، ولَوْلا بدْعَتُه ورَفْضُه ، لكان من خِيارِ المُلوك[1] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : ظَهرَ هـٰذا الوَقتُ الرَّفضُ ، وأبْدَىٰ صَفحَتَه ، وشَمَخَ بأنفِه في مِصْرَ والشَّامِ ، والحِجازِ والغَربِ بالدَّولة العُبَيْديَّة ، وبالعِراقِ والجَزيرَة والعَجَم بَني بُوَيه ، وكانَ الخَليفةُ المطيعُ ضَعيفَ الدَّسْتِ والرُّتبَة مع بَني بُوَيه ثم ضَعُفَ بَدَنُه ، وأصَابَه فالِجٌ ، وخَرَسٌ فعَزَلوهُ ، وأقاموا ابنَه الطَّائعَ لله ، وله السِّكةُ والخُطْبَةُ ، وقَليلٌ من الأمُور ، فكانت مَمْلكةُ هـٰذا المُعزِّ أعظَمَ وأمْكَن .

وأُعلنَ الأذانُ بالشَّامِ ومِصْرَ بـ « حَيِّ علىٰ خَيرِ العَملَ » ، فللَّه الأمرُ كلُّه .

قِيلَ : ما عُرفَ عن المُعزِّ غيرُ التَّشَيُّع ، وكان يُطيلُ الصَّلاةَ .

وثارَت عليه القَرامِطَةُ ، واسْتولوا علىٰ كَثيرٍ من الشَّامِ ، وسارُوا حتىٰ أتَوا مِصْرَ ، فحارَبهم جَوْهَرٌ ، وجَرَت أمورٌ مَهُولَة .

وصلَّىٰ بالنَّاسِ المُعزُّ يَومَي العِيد صَلاةً طويلةً ، بحَيثُ إنَّه سَبَّح في السُّجودِ نَحوَ ثلاثين ، ثم خَطبَهم فأبْلَغ وأحَبَّتْه الرَّعيَّةُ .

وصَنَعَ شَمسيَّة لتُعمَلَ على الكَعْبَة ثَمانيَة أشْبارٍ في مثلِها من حَريرٍ أحْمَر ، وفيها اثْنا عَشرَ هِلالاً من ذَهَب ، وفي الهِلال تُرُنْجَةٌ[2] قد رُصِّعَت بجَواهِرَ وياقُوتٍ وزُمُرُّدٍ ، لم يُشاهِد أحَدٌ مثلَها .

ماتَ المُعزُّ سنةَ خَمسٍ وستِّين وثلاثِ مئة بالقاهِرَة المُعزِّيَّة ، وكان مَولدُه بالمَهْديَّة ، التي بَناها جَدُّهُم ، وعاشَ سِتاً وأربعينَ سنةً وكانت دولتُه أربعاً وعشرين سنةً .

وقد جَرىٰ علىٰ دِمَشْقَ وغيرِها من عَساكِر المَغاربة كلُّ قَبيحٍ من القَتلِ والنَّهْبِ وفعَلوا ما لا يَفعَلُه الفِرَنجُ ، ولولا خَوفُ الإطالَة لسُقتُ ما يُبْكي الأعْيُن[3] .

---

(١) انظر السير : (المُعِزُّ) ١٥/ ١٥٩ـ ١٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٤ .

(٢) ثمرة كالليمون ، ذهبية اللون ، زكية الرائحة ، ذات طعم حامض .

(٣) انظر السير : (المُعِزُّ) ١٥/ ١٥٩ـ ١٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٤ .

العَزيزُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحِبُ مِصْرَ أبو مَنْصُور نِزارُ ابنُ المُعِزِّ العُبَيْديُّ .

وُلدَ سَنةَ أرْبَع وأرْبَعين وثلاث مئَة قامَ بعدَ أَبيهِ سنةَ خَمسٍ وستِّين[1] .

وقال أبو مَنصور الثَّعالبي في « اليَتيمَة » : سَمعتُ الشيخَ أبا الطيِّب يَحْكي أنَّ الأمَويَّ صاحبَ الأنْدَلس كَتبَ إليه نِزارٌ صاحبُ مِصْرَ كتاباً سَبَّه فيه وهَجاهُ فكَتبَ إليه الأمَويُّ : « أمَّا بَعدُ : فإنَّكَ عَرَفْتَنا فهَجَوتنا ولو عَرفْناكَ لأجَبْناك » فاشْتدَّ هـٰذا على العَزيز بالله ، وأفْحَمَه عن الجَواب ، يُشيرُ أنَّكَ دَعيٌّ لا نَعرفُ قَبيلَتك[2] .

قالَ أبو الفَرَج بنُ الجَوْزيِّ : كان العَزيزُ قد وَلَّىٰ عيسَىٰ بنَ نسْطورس النَّصْرانيَّ أمْرَ مِصْرَ ، واسْتَنابَ مُنشَّا اليَهوديَّ بالشَّام فكَتَبَت إليه امْرأةٌ : بالذي أعَزَّ اليَهودَ والنَّصارَىٰ بمُنشَّا وابنَ نسْطورس ، وأذَلَّ المسلمينَ بك ، إلاَّ ما نَظَرتَ في أمْري .

فقَبضَ على الاثنين وأخذَ من عيسَىٰ ثلاثَ مئَة ألفِ دينار[3] .

قالَ ابنُ خَلِّكانَ وغَيرُه : أكثرُ أهْلِ العلم لا يُصَحِّحُونَ نَسَبَ المَهْديِّ عُبَيْد الله جَدِّ خُلَفاء مِصْرَ ، حتىٰ إنَّ العَزيزَ في أوَّلِ وِلايَتِه صَعدَ المِنْبَرَ يومَ جُمُعَة ، فوجَدَ هناك رُقْعَةً فيها :

إذَا سَمِعْنَا نَسَباً مُنْكَراً ... نَبْكي عَلى المِنْبَرِ والجَامِعِ
إنْ كُنْتَ فيمَا تَدَّعِي صَادِقاً ... فَاذْكُرْ أباً بَعْدَ الأبِ الرَّابِعِ
وإنْ تُرِدْ تَحْقِيقَ ما قُلْتَه ... فَانْسُبْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّائِعِ
أوْ لا دَعِ الأنْسَابَ مَسْتُورَةً ... وادْخُلْ بِنَا في النَّسَبِ الوَاسِعِ
فإنَّ أنْسَابَ بَني هَاشِمٍ ... يَقْصُرُ عَنْهَا طَمَعُ الطَّامِعِ

---

(١) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٥ .
(٢) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٥ .
(٣) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٦ .

وصَعَدَ مرَّةً أخْرَىٰ ، فرَأىٰ وَرَقةً فيها :

بـالظُّلْـمِ والجَـوْرِ قَـدْ رَضِينَـا وَلَيْـسَ بِـالكُفْـرِ والحَمَـاقَـةْ
إنْ كُنْـتَ أُعْطِيـتَ عِلْـمَ غَيـبٍ فقُـلْ لَنَـا كَـاتِـبَ البَطَـاقَـةْ

ثم قالَ ابنُ خَلِّكانَ : وذلك لأنَّهم ادَّعَوْا عِلمَ المُغَيَّبات ولهم في ذلك أخْبارٌ مَشْهُورَة .

وفُتحت للعَزيز حَلَبُ وحَماةُ وحِمْصُ وخَطَبَ أبو الذَّوَّاد محمدُ ابنُ المُسَيِّبِ بالمَوصِلِ له ورَقَمَ اسْمَه على الأعْلامِ والسِّكَّة سنةَ ٣٨٣ هـ ، وخُطبَ له أيضاً باليَمَنِ وبالشَّامِ ومَدائنِ المَغْربِ .

وكانت دَولةُ هٰذا الرَّافضيِّ أعْظَمَ بكَثير من دَولةِ أميرِ المؤمنينَ الطَّائعِ ابنِ المُطيعِ العبَّاسيِّ .

وفي أيَّامه أُظْهِرَ سَبُّ الصَّحابَة جِهاراً[1] .

وفي سَنة ٣٦٦ هـ حَجَّت جَميلةُ بنتُ ناصِرِ الدَّولَة ، صاحِبِ المَوْصِل فممَّا كانَ مَعَها أرْبَعُ مئَة مَحْمَل فكانت لا يُدْرَىٰ في أي مَحْمَل هي وأعْتَقَت خَمسَ مئَة نَفْس ونثَرَت على الكَعْبَة عَشرَةَ آلاف مِثْقال وسَقَت جَميعَ الوَفْدِ سَويقَ السُّكَّر والثَّلْج ، كذا قالَ الثَّعالبيُّ ، وخَلعَت وكَسَت خَمسينَ ألفاً ولقد خَطبَها السُّلْطانُ عَضُد الدَّولَة فأبَتْ فحَنقَ لذلك ، ثم تمَكَّنَ منها فأفْقَرَها وعَذَّبَها ، ثم ألْزَمَها أنْ تَعقدَ في الحانَة لتحصلَ من الفاحشَة ما تُؤدِّي ، فمَرَّتْ معَ الأعْوانِ ، فقَذَفَتْ نَفْسَها في دِجْلَةَ ، فغرقَت ، عَفَا اللهُ عَنها .

وفي سنة سِتٍّ وثَمانينَ في رَمضَانَ ماتَ العَزيزُ ببَلْبيسَ في حمَّام من القُولَنج ، وعُمرُه اثنَتان وأرْبَعون سَنةً وأشْهُر وقامَ ابنُه الحاكِمُ الزِّنْديقُ[2] .

---

(١) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٠٦ .
(٢) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٠٧ .

الحَاكم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحِبُ مِصْرَ الحَاكِمُ بأمْرِ الله ، أبو عليٍّ مَنْصُورُ بنُ العَزيزِ نِزَارِ العُبَيْديِّ المِصْريُّ الرَّافِضيُّ ، بلِ الإسْماعيليُّ الزِّنْديقُ المُدَّعي الرُّبُوبيَّةَ .

مولده في سنة خمس وسبعين وثلاث مئة[1] .

وأقامُوهُ في المُلْك بعدَ أبيه وله إحْدَىٰ عَشرةَ سَنةً ، فحَكَىٰ هو قالَ : ضَمَّني أبي وقَبَّلَني وهو عُريانٌ ، وقالَ : امْضِ فالْعَبْ فأنا في عافيَة قالَ : ثم تُوفِّيَ ، فأتاني بَرْجَوَانُ[2] وأنا علىٰ جُمَّيْزَة في الدَّار فقالَ : انْزِلْ وَيْحَكَ ، اللهَ اللهَ فينا ، فنَزلتُ ، فوَضَعَ العِمامَةَ بالجَوْهَر علىٰ رأسي ، وقَبَّلَ الأرْضَ ثم قالَ : السَّلامُ عَليكَ يا أميرَ المؤمنين وخَرجَ بي إلى النَّاسِ ، فقبَّلُوا الأرضَ ، وسَلَّمُوا عليَّ بالخِلافَة[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكان شَيْطاناً مَريداً جَبَّاراً عَنيداً ، كَثيرَ التَّلوُّن ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، خَبيثَ النِّحْلَةِ ، عَظيمَ المَكْرِ ، جَوَاداً مُمَدَّحاً ، له شَأنٌ عَجيبٌ ونَبأٌ غَريبٌ ، كانَ فِرْعَونَ زَمانِه ، يَخْترعُ كُلَّ وَقْت أحْكَاماً يُلْزِمُ الرَّعيَّةَ بها ، أمَرَ بسَبِّ الصَّحابَة رَضِيَ اللهُ عَنهم ، وبكتَابَة ذلكَ علىٰ أبْوابِ المَسَاجِدِ والشَّوارِع وأمَرَ عُمَّالَه بالسَّبِّ ، وبقَتلِ الكِلابِ في سَنةِ خَمسٍ وتسْعينَ وثلاث مئَة وأبْطَلَ الفُقَّاع[4] والمُلوخيا ، وحرَّمَ السَّمكَ الذي لا فُلُوسَ عليه[5] ، ووَقعَ ببائعٍ لشيءٍ من ذلكَ فقتَلَهم[6] .

وفي سَنة اثنتَين وأربَع مئَة ، حرَّمَ بَيعَ الرُّطَبِ ، وجَمعَ منه شَيئاً عَظيماً ، فأحْرَقَه ، ومَنعَ من بَيْع العنب ، وأبادَ الكُرومَ ، وأمَرَ النَّصارَىٰ بتَعْليقِ صَليبٍ في رِقابِهم زِنَتُه رَطلٌ

---

(١) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٧ .

(٢) هو أبو الفتوح ، بَرْجوان ، كان من خُدام العزيز ومدبري دولته ، نافذ الأمر ، مطاعاً ، نظر في أيام الحاكم ديار مصر والحجاز والمغرب ، وذلك في سنة ٣٨٨ هـ ، وقُتلَ بأمر الحاكم سنة ٣٩٠ هـ .

(٣) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٧ .

(٤) شراب يُتخذ من الشعير .

(٥) الفلس : القشرة علىٰ ظهر السمكة .

(٦) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٨ .

ورُبْع بالدِّمَشْقيِّ وألْزَمَ اليَهودَ أنْ يُعَلِّقوا في أعْناقِهم قُرميَّة في زِنَة الصَّليبِ إشارَةً إلىٰ رَأسِ العِجْلِ الذي عَبدُوه ، وأنْ تَكونَ عَمائمُهم سُوداً ، وأنْ يَدخُلُوا الحَمَّامَ بالصَّليبِ وبالقُرْميَّة ثم أفْرَدَ لهم حَمَّاماتٍ وأمَرَ في العَام بهَدْمِ كَنيسةِ قُمامة[1] ، وبهَدم كَنائس مِصْرَ ، فأسلمَ عدَّةٌ ، ثم إنَّه نَهَىٰ عن تَقبيلِ الأرْضِ ، وعن الدُّعاءِ له في الخُطَب وفي الكُتُب وجَعلَ بدَله السَّلامَ عَليه[2] .

وقيلَ : إنَّ ابنَ باديسَ أميرَ المَغْرب بَعثَ يَنْقمُ عليه أمُوراً ، فأرادَ أنْ يَستميلَه ، فأظْهَرَ التَّفَقُّه ، وحَملَ في كُمِّه الدَّفاتِرَ ، وطَلبَ إلىٰ عندِه فَقيهَين ، وأمَرَهما بتَدْريسِ فِقْهِ مالِك في الجامعِ ، ثم تَغيرَّ فقَتلَهما صَبْراً[3] .

وأَذِنَ للنَّصارَى الذين أَكْرَهَهُم في العَوْدِ إلى الكُفْر[4] .

ومَنعَ النِّساءَ من الخُروجِ من البُيوتِ ، فأحْسَنَ ، وأبْطَلَ عَملَ الخِفافِ لهُنَّ جُملَة ، وما زِلْنَ مَمْنوعاتٍ من الخُروجِ سَبعَ سِنينَ وسَبعَةَ أشْهُر[5] .

ثم بعد مُدَّة أمَرَ بإنْشاءِ ما هُدِّمَ من الكَنائسِ ، وبتَنَصُّرِ مَنْ أسْلَمَ[6] .

قد حُبِّبَ في الآخرِ إلىٰ صاحبِ مِصْرَ الحاكمِ بأمْرِ الله العُزْلَةُ ، وبَقِيَ يَرْكَبُ وَحْدَه في الأسْواقِ علىٰ حِمارٍ ، ويُقِيمُ الحِسْبَةَ بنفسِه ، وبَيْنَ يدَيْه عبدٌ ضَخْمٌ فاجِرٌ ، فمَنْ وَجَبَ عليه تأدِيبٌ ، أَمَرَ العَبدَ أنْ يُولِجَ فيه ، والمَفعُولُ به يَصِيحُ .

وقِيلَ : إنَّه أَرَادَ ادِّعاءَ الإلَهِيَةِ ، وشَرَعَ في ذلك ، فَكَلَّمَهُ الكُبَرَاءُ وخَوَّفُوهُ من وُثُوبِ النَّاسِ ، فتَوَقَّفَ .

وفي الأربع مئة وبعدَها كانت الأنْدَلُس تَغْلي بالحُروبِ والقِتالِ على المُلْك[7] .

---

(١) في بيت المقدس .
(٢) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٨ .
(٣) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٨ .
(٤) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٠٨ .
(٥) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٠٨ .
(٦) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٠٨ .
(٧) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/١٢٠٨ .

وأنْشأ داراً كبيرةً ملأها قُيوداً وأغْلالاً ، وجَعَلَ لها سَبْعَةَ أبْوابٍ ، وسمَّاها جَهَنَّمَ ، فكان مَنْ سَخِطَ عليه أسْكنَه فيها .

ولمَّا أمرَ بحَريقِ مِصْرَ ، واسْتَباحَها ، بَعَثَ خادمَه ليُشاهِدَ الحالَ ، فلمَّا رَجعَ قال : كَيفَ رأيتَ ؟ قال : لوْ اسْتَباحَها طاغيةُ الرُّوم ما زاد علىٰ ما رأيتُ ، فضَرَب عُنُقَه .

وفي سَنة ثَلاث وأربع مئة ، أُخِذَ الوفْدُ العراقيُّ ، وغُوِّرَت المياهُ وهَلكَ بضعة عَشرَ ألف مُسْلم ، ثم أُخِذَ من العَرَب ببَعْض الثَّأرِ ، وقُتلَ عِدَّةٌ .

وبَعثَ الملكُ مَحمُودُ بنُ سُبُكْتكينَ كتاباً إلى الخَليفَة بأنَّه ورَدَ إليه من الحاكمِ كتابٌ يَدعُوهُ فيه إلىٰ بَيْعَتِه ، وقد خَرَّقَ الكتاب ، وبَصَقَ عَليه[1] .

وفي سَنةِ خَمسٍ ظَفرَ الحاكمُ بنساءٍ علىٰ فَسادٍ ، فغرَّقَهُنَّ ، وكانت الغاسِلَةُ لا تَخرُجُ إلى المَرأةِ إلاَّ مع عَدْلين ، ومَرَّ القاضي مَالكُ بنُ سَعيد الفارقيُّ ، فنادَتْه صَبيَّة من رَوْزَنَةٍ : أقسَمتُ عليكَ بالحاكمِ أنْ تَقفَ ، فوَقَفَ ، فبكَتْ ، وقالَت : لي أخٌ يَموتُ ، فبالله إلاَّ ما حَمَلتَني إليه لأراهُ ، فرَقَّ لها وبَعثَ معها عَدْلَين ، فأتَتْ بَيْتاً ، فدَخلَت ، والبيتُ لعاشِقِها ، فجاءَ الزَّوْجُ ، فسألَ الجيرانَ ، فحدَّثوه ، فجاءَ إلى القاضي وصاحَ ، وقالَ : لا أخَ لها ، وما أفارقُكَ حتىٰ تَرُدَّها إليَّ ، فحارَ القاضي وطلع بالرجُل إلى الحاكم ، ونادَى العَفْوَ ، فأمرَه أنْ يَركَبَ مع الشَّاهِدين ، فوجدوا المرأةَ والشَّابَّ في إزارٍ واحد علىٰ خُمار ، فحُمِلا علىٰ هَيْئتِهما فسألها الحاكمُ فأحالَت على الشَّابِّ ، وقالَ : بلْ هَجَمَتْ عليَّ ، وزَعَمت أنَّها بلا زَوْجٍ ، فلُفَّت في باريّةٍ ، وأُحْرِقَت ، وضُربَ الشَّابُّ ألفَ سَوْطٍ .

ووَليَ دِمَشْقَ للحاكم عدَّةُ أُمَراء ما كان يَدَعُ النَّائبَ يَسْتقرُّ حتىٰ يَعزلَه[2] .

وذَكرْنا في تَرجَمته[3] ، أنَّه خَرجَ من القَصْرِ فطَافَ لَيلتَه ، ثم أصْبَحَ فتوَجَّه إلىٰ شَرقيِّ حُلوانَ مَعَه ركابيَّان ، فرَدَّ أحدَهما مع تسْعَة من العَرَب ثم أمَرَ الآخَرَ بالانْصِرافِ

---

(١) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٩ .

(٢) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٩ .

(٣) يُشيرُ الذهبيُّ هنا إلىٰ كتابه « تاريخُ الإسْلام » .

فزَعمَ أنَّه فارَقهَ عند المَقْصَبَة ، فكانَ آخرَ العَهْدِ به وخَرجَ النَّاسُ علىٰ رَسْمهم يَلْتمِسون رُجوعَه ، مَعهم الجَنائبُ ففَعلوا ذلكَ جُمعَة ثمَّ خَرجَ في ثاني ذي القِعْدَة مُظفَّرٌ صاحبُ المِظلَّة ونَسيمٌ وعِدَّة فبَلغوا دَيْرَ القُصَير ، وأمْعَنوا في الدُّخولِ في الجَبَل فبَصُروا بحِماره الأشْهَب المُسَمَّىٰ بقَمر ، وقد ضُربَت يَداه ، فأثَّر فيهما الضَّربُ وعَليه سَرْجُه ولجامُه ، فتتبَّعوا أثرَ الحِمارِ فإذا أثرُ راجلٍ خلفَه وراجلٌ قُدَّامَه ، فقَصُّوا الأثرَ إلىٰ برْكَة بشَرقيِّ حُلْوانَ ، فنَزلَ رجلٌ إليها فيَجدُ فيهما ثيابَه وهي سَبعُ جِبابٍ ، فوُجدَت مُزَرَّرَة ، وفيها آثارُ السَّكاكينِ فمَا شَكُّوا في قَتلِه[1] .

وثَمَّ اليوم طائفةٌ من طَغام الإسْماعيليَّة الذين يَحلِفُونَ بغَيْبَة الحاكمِ ، ما يَعتقدُونَ إلاَّ أنَّه باقٍ ، وأنَّه سَيظْهَر نَعوذُ بالله من الجَهْل .

وقد قَتلَ الحاكمُ جَماعَةً من الأُمَراء بلا ذَنْبٍ ، وذَبحَ قاضيَيْن له .

وسِيرَةُ الحَاكِمِ ، وعَسْفِه تَحْتملُ كَراريسَ[2] .

الظاهِر :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ الظَّاهِرُ لإعْزازِ دِينِ الله ، أبو الحَسَن ، عَليُّ بنُ الحاكِمِ مَنْصُورِ بنِ العَزيز نِزارِ بنِ المُعِزِّ ، العُبَيْديُّ المِصْريُّ ولا أسْتَحلُّ أنْ أقُولَ العَلَويُّ الفَاطِميُّ ، لِمَا وَقَرَ في نَفْسِي من أنَّه دَعِيٌّ .

بُويعَ وهو صَبيٌّ لَمَّا قُتلَ أبُوهُ سَنةَ إحْدَىٰ عَشرَةَ وأرْبَع مئَة .

وكانت دَولتُه علىٰ مِصْرَ والشَّامِ والمَغْربِ ولكنْ طَمِعَ في أطْرافِ بلاده طَوائفُ ،

---

(١) « وَفيَاتُ الأعْيان » : ٥/ ٢٨٧ـ ٢٩٨ وقد نقل المقريزي عن المسبحي رواية أخرىٰ لمقتله ، قال : « وفي المحرَّم سنة خمس عشرة وأربع مئة قبض علىٰ رجل من بني حسين ثار بالصعيد الأعلىٰ ، فأقرَّ بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد ، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه ، فقيل له : « لمَ قَتلتَه ؟ » قال : غَيرةً لله وللإسْلام » ، فقيلَ له : « كيف قَتلتَه ؟ » فأخرج سكيناً ضرب بها فؤادَه ، فقتلَ نفسَه ، وقال : « هكذا قَتلتُه » فقطع رأسه ، وأنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه هـٰذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم ، لا ما تحكيه المشارقة في كتبهم من أن أختَه قَتلته انظر « اتِّعاظ الحُنفا » ، ٣١٤ .

(٢) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢١٠ .

فتَغلَّبَ حسَّانُ بنُ مُفرِّج الطائيُّ صاحبُ الرَّمْلَة علىٰ كثير من الشَّامِ وضَعُفَت الإمارَةُ العُبَيْديَّة قَليلاً .

وماتَ الظَّاهرُ في سَنة سَبعٍ وعشرينَ وأرْبَع مئَة ولمْ يَبلُغني كَبيرُ شيءٍ من أخْبارِه وقامَ ابنُه المُسْتَنصِرُ وقيلَ كانَ غارِقاً في اللَّهْوِ والمُسْكِرِ والسَّراري[1] .

المُسْتَنْصِرُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ المُسْتَنصِرُ بالله ، أبو تَميم مَعَدُّ بنُ الظَّاهِر ، وَلِيَ الأمْرَ بعدَ أبيهِ ، ولَه سَبعُ سِنينَ ، فامْتدَّتْ أيامُه ستِّينَ سَنةً وأرْبَعَةَ أشْهُر .

وفي وَسَط دَولتِه خُطِبَ له بإمْرةِ المؤمنينَ علىٰ مَنابِرِ العِراقِ في سَنةِ إحْدَىٰ وخَمسينَ وأرْبعِ مئَة والْتَجأَ القائِمُ بأمْرِ الله الخَليفَةُ إلىٰ أميرِ العَرَب فأجارَه ، ثم بعدَ عامٍ عَادَ إلىٰ خِلافَتِه[2] .

وفي سَنةِ أرْبَعِينَ وأربع مئة غَزَتْ الغُزُّ مع إبراهِيمَ يَنَال السَّلْجُوقِيّ ، وقِيلَ : ما كانَ مَعَهُم ، فغَزَوْا إلىٰ قَريبِ القُسْطَنْطِينِيَّة ، وغَنِمُوا وسَبُوا أَزْيَدَ من مِئَةِ ألفٍ ، وقِيلَ : جُرَّت المَكَاسِبُ علىٰ عَشْرةِ آلافِ عَجَلةً ، وكان فَتْحاً عَظِيماً وكان الرَّفْضُ أيْضاً قَويّاً بالعِراقِ[3] .

وفي سَنة ثَمانٍ وأرْبَعينَ وأرْبَع مئَة كانَ بالأنْدَلُسِ القَحْطُ ما سُمعَ بمثلِه ، ويُسمُّونَه الجُوعَ الكَبير ، وكان بمِصْرَ القَحْطُ والفَناءُ[4] .

وكان غَلاءٌ مُفْرطٌ ببَغْدادَ وفَناءٌ ، وأمَّا بما وَراءَ النَّهْرِ فتَجاوَزَ الوَصْفَ .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وستِّينَ وأرْبَع مئَة كان حَريقُ جامِع دِمَشْقَ ، ودُثِرَت مَحاسِنُه واحْتَرقَتْ الخَضْراءُ مَعَه ـ وكانَت دَارَ المُلْك ـ من حَربٍ وَقعَ بينَ عَسْكَرِ العِراقِ ، وعَسْكَرِ مِصْرَ .

---

(١) انظر السير : (الظَّاهِر) ١٥/ ١٨٤ـ ١٨٦ ، وانظر النزهة : ١٢١١/ الظَّاهِر .
(٢) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١٢١١/ ١ .
(٣) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١٢١١/ ٢ .
(٤) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١٢١٢/ ١ .

وفي سَنة اثنَتين وستِّينَ وأرْبَع مئَة ، قُطِعَت من مَكَّة الدَّعْوَة المُسْتَنصِريَّة وخُطِبَ للقَائمِ بأمْرِ الله ، وتُركَ الأذَانُ بـ « حَيِّ عَلي خَيْرِ العَمَل » وذلكَ لذِلَّة المِصْريِّينَ بالقَحْطِ الأكْبَر وفَنائِهم وأكَلَ بَعضُهم بَعضاً وتَمزَّقُوا في البلادِ من الجُوعِ ، وتَمَحَّقَتْ خَزائنُ المُسْتَنصِر ، وافْتَقَرَ ، وتَعثَّر[1] .

وفي هٰذه النَّوْبَة نَقلَ صاحبُ « المِرْآة » أنَّ امْرأةً خَرجَتْ وبيَدِها مُدُّ لؤلؤ لتَشْتَري به مُدَّ قَمْح ، فلَمْ يَلتَفِتْ إليها أحد ، فرَمَتهُ فما كانَ له مَنْ يَلتَقطُه ، فكادَ الخَرابُ أنْ يَسْتَولي علىٰ سائِر الأقَاليمِ ، حتىٰ لأُبيعَ الكلبُ بسِتَّة دَنانيرَ والقِطُّ بثَلاثة دَنانيرَ ، حتىٰ أُبيعَ الإرْدَبُّ بمئَة دينار[2] .

قال ابنُ الأثير : اشْتدَّ الغَلاءُ حتىٰ حُكيَ أنَّ امْرأةً أكَلَت رَغيفاً بألفِ دِينار ، باعَت عَروضاً تُساوي ألفَ دِينار بثَلاثِ مئَة دِينَار ، فاشْتَرَت به جُوالِقَ[3] . قَمْح ، فانتُهِبَهُ النَّاسُ ، فنَهَبَت هيَ منه فحَصَلَ لهَا ما خُبزَ رَغيفاً[4] .

وفي دَولة المُسْتَنصِر وَقعَ القَحْطُ المَذْكورُ لاحْتراقِ النِّيلِ الذي ما عُهدَ مثله بمِصْرَ من زَمَنِ يُوسُفَ عليه السلام ، ودامَ سَنواتٍ بحَيثُ إنَّ والدَةَ المُسْتَنصِر وبنَاتِه سَافَرْنَ من مِصْرَ خَوفاً من الجُوعِ ، وآلَ أمْرُهُ إلىٰ عَدمِ كُلِّ الدَّوابِّ ببلادِ مِصْرَ ، بحَيثُ بَقيَ له فَرسٌ يَركَبُها ، واحْتاجَ إلىٰ دابَّة يَركَبُها حَاملُ الجِتْر[5] يَومَ العِيدِ وَراءَهم ، فمَا وَجَدوا سِوَىٰ بَغْلَة ابنِ هِبَة كاتبِ السِّرِّ فوَقَفَتْ علىٰ بابِ القَصْر ، فازْدَحَمَ عَليهَا الحَراشِفَةُ[6] وذَبَحُوها وأكَلُوها في الحَالِ ، فأخَذَهُم الأعْوَانُ وشُنِقُوا ، فأصْبَحَتْ عِظامُهم على الجُذُوعِ قَد أُكِلُوا تَحْتَ اللَّيلِ .

ماتَ المُسْتَنصِرُ سَنةَ سَبع وثَمانين وأرْبَع مئَة ، وقد قَارَبَ السَّبْعينَ ، وكانَ سَبُّ

---

(١) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢١٢ .
(٢) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢١٢ .
(٣) وعاء من صوف أو غيره ، جمعُه : جَوالق ـ بفتح الجيم ، وهو عند العامَّة (شِوال) . .
(٤) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢١٢ .
(٥) الجِتْر : بكسر الجيم ، المظلَّة .
(٦) كالشُّطار والعيارين في بغداد .

الصَّحابَة فاشِياً في أيَّامِه ، والسُّنَّةُ غَريبَةٌ مَكتومَةٌ ، حتىٰ إنَّهم مَنَعوا الحَافظَ أبا إسْحاقَ الحبَّالَ من رِوايَة الحَديث ، وهَدَّدُوه فامْتَنَعَ ، ثم قامَ بعدَ المُسْتَنصِرِ ابنُه أحمَدُ[1] .

المُسْتَعْلي بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مَصْرَ أبو القَاسِم أحمدُ ابنُ المُسْتَنصِر العُبَيْديُّ المِصْريُّ ، وفي أيّامه وَهَت الدولَةُ العُبَيْديَّة ، واخْتلَّت قَواعدُها ، وانْقَطَعَت الدَّعْوَةُ لهم من أكثر مُدُنِ الشَّامِ ، واسْتَولَىٰ عليها الفِرَنْجُ وغيرُهم من الغُزِّ[2] .

فأخَذَت الفِرَنْجُ أنْطَاكيَة من المسلمينَ في سَنةِ إحْدَىٰ وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ، وكان لها في يَد المسلمينَ نَحْوَ عشرينَ سَنةً ، وأخَذوا بَيتَ المَقْدِسِ ، واسْتَباحُوهُ ، وأخَذُوا أيضاً المَعَرَّةَ في سَنةِ اثْنَتَين وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ، ثم اسْتَولوا علىٰ مَدائنَ وقِلاعٍ[3] .

وفي دولته كَثُرَت الباطِنيَّةُ الملاحِدَةُ الذين هم الإسْماعيليَّةُ ، وأخَذوا القُفُول[4] ، وتَمَلَّكوا قلعة أصْبَهان ، وفتَكُوا بعَدد كَثيرٍ من الكِبارِ والعُلَماء ، وشَرعُوا في شُغلِ السِّكِّين ، وجَرَت لهم خُطُوبٌ وعَجائبُ .

وفي سَنة خَمسٍ وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ماتَ المُسْتَعلي وأقامُوا وَلَدَه الآمِرَ بأحْكَامِ الله مَنْصُوراً ، وله خَمسُ سِنينَ ، وأَزِمَّةُ المُلك إلى الأفْضَلِ أميرِ الجُيوشِ ، ويُقالُ إنَّه سُمَّ وقُتلَ سِرّاً[5] .

الآمِرُ بأحْكامِ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ أبو علي مَنصُورُ ابنُ المُسْتَعْلي ، العُبَيْديُّ الرافِضيُّ الظَّلومُ كان مُتظاهراً بالمَكْرِ واللَّهْوِ والجَبروتِ .

وَليَ وهو صَغيرٌ ، فلمَّا كَبرُ قَتلَ الأفْضلَ أميرَ الجُيوشِ ، واصْطَفَىٰ أمْوالَه ، وكانت

---

(١) انظر السير : (المُسْتَنصر بالله) ١٥/١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٢١٢ .
(٢) انظر السير : (المُسْتَعْلي بالله) ١٥/١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٣ .
(٣) انظر السير : (المُسْتَعْلي بالله) ١٥/١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٣ .
(٤) جمع قافلة .
(٥) انظر السير : (المُسْتَعْلي بالله) ١٥/١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٣ .

تَفوتُ الإحْصَاءَ ، ويُضرَبُ بها المَثَلُ ، فاسْتَوْزَرَ بعدَه المَأمُونَ محمَّدَ بنَ مُخْتار البَطائحيَّ ، فعَسَفَ الرَّعيَّة ، وتَمرَّدَ فاسْتأصَلَه الآمرُ بعدَ أرْبَع سنينَ ، ثمَّ صَلبَه ، وقَتلَ مَعه خَمسةً من إخْوَتِه[1] .

وفي دَولَتِه أخَذَت الفِرَنْجُ طَرابُلْسَ الشَّامِ وصَيْدا ، ثم قَصدَ المَلكُ بَرْدَويلُ الفِرَنجيُّ ديارَ مِصْرَ ، وأخَذَ الفَرَمَا وهي قَريبةٌ من العَريش ، فأحْرقَ جامِعَها ، ومَساجِدَها ، وقَتلَ وأسَرَ ، ثم رَجعَ فهَلكَ في سَبخَة بَرْدَويل فشَقُّوه ورَموا حُشوَتَه وصَبَّروه ، فحِشْوَتُه تُرجَم هناك إلى اليومِ ، ودَفَنوه بقُمامَة وكان قد أخَذَ القُدسَ وعَكَّا والحُصونَ .

وفي أيَّامه ظَهرَ ابنُ تُوْمَرْت بالمَغْربِ وكَثُرت أتباعُه ، وعَسْكَروا وقَاتَلوا ، ومَلَكُوا البلادَ[2] .

وبَقيَ الآمرُ في المُلكِ تسعاً وعشرينَ سَنةً وتسعَةَ أشْهُر إلىٰ أنْ خَرجَ يَوماً إلىٰ ظاهرِ القاهِرَة ، وعَدَّىٰ على الجِسْرِ إلى الجِيزَة ، فكَمنَ له رجالٌ في السِّلاح ، ثم نَزلُوا عليه بأسْيافِهِم ، وكان في طائفةٍ لَيسَت بكَثيرَة ، فرُدَّ إلى القَصْرِ مُثْخَناً بالجِراحِ وهَلكَ من غَيرِ عَقِب .

وكان العاشرَ من الخُلفَاءِ الباطنيَّة فبايَعوا ابنَ عَمٍ له ، وهو الحافِظُ لدين الله .

وكان حَسَنَ الحَظِّ ، جَيِّدَ العَقْلِ والمَعْرفَة ، لكنَّه خَبيثُ المُعْتَقَد سَفَّاكاً للدِّماء ، مُتَمرِّداً جَبَّاراً فاحِشاً فاسِقاً ، صادَرَ الخَلقَ عاشَ خَمساً وثلاثين سَنةً .

وانْقَلعَ سَنةَ أرْبَع وعِشْرينَ وخَمسِ مئَة[3] .

الحَافِظُ لدين الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ أبو المَيْمُون عبدُ المَجيدِ ابنُ الأميرِ محمَّدِ بنِ المُسْتَنْصِر بالله مَعَدّ ، العُبَيْديُّ الإسْمَاعيليُّ المِصْريُّ .

---

(١) انظر السير : (الآمر بأحكام الله) ١٥/ ١٩٧ـ ١٩٩ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٤ .
(٢) انظر السير : (الآمر بأحكام الله) ١٥/ ١٩٧ـ ١٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٤ .
(٣) انظر السير : (الآمر بأحكام الله) ١٥/ ١٩٧ـ ١٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٤ .

بايَعوهُ يَومَ مَصْرَع ابنِ عَمِّه الآمرِ ليُدبِّرَ المَمْلَكةَ إلي أن يُولَد حَملٌ للآمرِ إنْ وُلدَ[1] .

وغَلبَ على الأمُورِ أميرُ الجُيوشِ أبو عَليٍّ بنُ الأفْضَل بنِ بَدْر الجمَالي فأخْرَجَت الأُمَراء أبا عَليٍّ ، وقدَّموهُ عَليهم ، فأتَىٰ إلى القَصْر ، وأمَرَ ونَهَىٰ ، وبَقيَ الحافِظُ معه مُنْقَهراً ، فقامَ أبو عَليّ بالمُلكِ أتَمَّ قيامٍ وعَدَلَ في الرَّعيَّة ، ورَدَّ أمْوالاً كَثيرَة على المُصادَرين ، ووَقفَ عند مَذْهَبِ الشِّيعَة ، وتَمسَّكَ بالإثْنَىٰ عشر ، وتَركَ ما تَقولُه الإسْماعيليَّةُ ، وأعْرَضَ عن الحافِظ وآلِ بَيتِه ، ودَعَا علىٰ مَنابِرِ مِصْرَ للمُنْتَظَرِ صاحبِ السِّرْدابِ علىٰ زَعمِهم ، وكَتبَ اسْمَه على السِّكَّة ، واسْتَمرَّ علىٰ ذلك ، وقَلِقَت الدَّوْلةُ إلىٰ أنْ شَدَّ عليه فارسٌ من الخاصَّة ، فقَتلَه بظاهرِ القاهِرَة في المُحرَّم سَنةَ سِتٍّ وعشرينَ وخَمسِ مِئَة ، وذلكَ بتَدبيرِ الحافِظِ ، فبادَرَت الأُمَراءُ إلىٰ خِدمَةِ الحافِظِ ، وأخْرَجُوهُ من الضِّيقِ والاعْتِقالِ ، وجَدَّدوا بَيْعَتَه واسْتقَلَّ بالمُلكِ .

وعندَما ماتَ الآمِرُ قَبلَه ، قالَ الجُهَّالُ : هـٰذا بَيتٌ لا يَموتُ إمامٌ منهُم حتىٰ يخلِّفَ ابناً يَنُصُّ علىٰ إمامَتِه ، فخَلَّفَ الآمِرُ حَمْلاً فكانَ بِنْتاً .

وكان الحافِظُ كُلَّما أقامَ وَزيراً تَمكَّنَ ، وحَكمَ عليه ، فيَتَألَّمُ ويَتحيَّلُ عليه ، ويعَملُ علىٰ هَلاكِه وبَقيَ الحافِظُ بلا وَزيرٍ عَشْرَ سِنين .

وماتَ سَنة أرْبَع وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة ، فكانَتْ دَولتُه عِشرينَ سَنةً سِوَىٰ خَمسَةِ أشْهُر وعاشَ سَبعاً وسَبعينَ سَنةً فما بَلغَ أحدٌ هـٰذا السنَّ من العُبَيْديَّة ، وقامَ بعدَه وَلدُه الظَّافِرُ[2] .

الظَّافِرُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ الظَّافِرُ بالله أبو مَنصُور إسْماعيلُ بنُ الحافِظِ لدين الله .

---

(١) انظر السير : (الحافِظُ لدين الله) ١٥/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٥ .

(٢) انظر السير : (الحافِظُ لدين الله) ١٥/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٥ .

وَلِيَ الأمرَ بعدَ أبيه خَمسَةَ أعْوامٍ ، وكان شاباً جَميلاً وَسيماً لَعَّاباً عَاكِفاً على الأغَانِي والسَّرارىٰ .

اسْتَوْزَرَ الأفْضَلَ سليمَ بنَ مصال فسَاسَ الإقْليمَ .

وانْقَطَعَتْ دَعْوَتُه ، ودَعوَةُ أبيه من سائرِ الشَّامِ والمَغْربِ والحَرَمَينِ ، وبَقيَ لهم إقْليمُ مِصْرَ .

ثم خَرجَ على ابنِ مصال العَادلُ ابنُ السلاَّر ، وحارَبَه وظَفرَ به واسْتأصَلَه واسْتبَدَّ بالأمرِ[1] .

وقَدِمَ من إفْريقية عبَّاسُ بنُ أبي الفُتوح بنُ المَلكِ يَحْيَىٰ بنِ تَميم ابنِ المُعِزِّ بنِ باديس مع أُمِّه صَبياً فتَزوَّجَ العادِلُ بها قبلَ الوِزارَة فتَزوَّجَ عبَّاسٌ ، ووُلدَ له نَصْرٌ ، فأحبَّه العادلُ ، ثم جهَّزَ أباهُ للغَزْو فلمَّا نَزلَ ببِلْبيسَ ، ذاكَرَه ابنُ مُنْقِذ[2] ، فاتَّفَقا علىٰ قَتلِ العادِلِ ، وأنْ يأخُذَ عبَّاسٌ مَنْصِبَه فذَبَحَ نَصرٌ العادِلَ علىٰ فِراشِه في المُحَرَّم سنةَ ثَمانٍ وأرْبَعينَ وخَمسِ مئَة ، وتَملَّكَ عبَّاسٌ وتَمكَّنَ[3] .

وكان ابنُه نَصْرٌ من المِلاحِ فمَالَ إليه الظَّافِرُ وأحَبَّه فاتَّفقَ هو وأبُوه عبَّاسٌ على الفَتْكِ بالظَّافِرِ[4] ، فدَعاهُ نَصرٌ إلىٰ دارِهم ليَأتيَ مُتخَفِّياً ، فجاءَ إلى الدَّارِ التي هي اليَومَ المَدرَسةُ السُّيوفيَّة فشَدَّ نَصرٌ عليه فقَتلَه وطَمرَهُ في الدَّارِ وذلكَ في سَنةِ تسْعٍ وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة وعاشَ الظَّافِرُ اثْنَتَينِ وعِشرينَ سَنةً .

ثم رَكبَ عَباسٌ من الغَدِ وأتَى القَصرَ وقالَ : أينَ مَوْلانا ؟ فطَلبُوهُ ففَقَدُوه وخَرجَ

---

(١) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٦ .

(٢) أسامة بن منقذ الكناني ، أمير من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (قُرب حماة) ومن العلماء الشجعان ، له تصانيف في الأدب والتاريخ ، ومن أمتع كتبه « الاعتبار » نحا فيه مَنحى السيرة الذاتية تُوفِّي بدمشقَ سنة ٥٨٤ هـ .

(٣) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٦ .

(٤) يذكر أسامة بن مُنقِذ أن الظافر حمل نصراً علىٰ قتل أبيه ، فاطَّلع والدُه على الأمر فلاطَفه واستماله وقرَّر معه قتل الظافر ، انظر « الاعتبار » ١٩ ـ ٢٠ .

جِبريلُ ويوسُفُ أخَوا الظَّافِر ، فقالَ : أين مَوْلانا ؟ قالا : سَلْ ابْنَك ، فغَضِبَ وقالَ : أنتُما قَتَلتُماه ، وضَربَ رِقابَهُما في الحَالِ[1] .

الفَائزُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ أبو القَاسِمِ عيسَى ابنُ الظَّافِرِ إسْماعيلَ العُبَيْديُّ[2] .

لما اغْتالَ عَبَّاسٌ الوَزيرُ الظَّافِرَ ، أظْهَرَ القَلقَ ، ولمْ يَكنْ عَلِمَ أهْلُ القَصْر بمَقْتَلِه فطَلبُوهُ في دُورِ الحُرَم فمَا وَجدُوه وفتَّشُوا عليه وأيِسُوا منه وقالَ عَباسٌ لأخَوَيْه : أنتُما الذين قَتلتُما خَليفَتَنا فأصَرَّا على الإنْكارِ ، فقَتلَهما نَفْياً للتُّهْمَةِ عَنه واسْتَدعَىٰ في الحالِ عِيسَىٰ هـٰذا ، وهوطِفْلٌ له خَمسُ سِنينَ وقِيلَ : بلْ سَنتَان فحَمَلَه علىٰ كَتفَيْه ، ووَقَفَ باكياً كَئيباً ، وأمَرَ بأنْ تَدخُلَ الأُمَراءُ ، فدَخَلوا فقالَ : هـٰذا وَلدُ مَوْلاكُم ، وقد قَتلَ عَمَّاهُ مَوْلاكُم ، فقَتلتُهما به كَما تَرَوْنَ والوَاجِبُ إخْلاصُ النِّيَّة والطَّاعَة لهـٰذا الوَلَد فقالُوا كُلُّهم : سَمْعاً وطاعَةً ، وضَجُّوا ضَجَّةً قوَيةً بذلكَ ففَزِعَ الطِّفلُ ، وبالَ علىٰ كَتفِ المَلِكِ عَبَّاس ولَقَّبُوهُ الفائزَ ، وبَعثُوهُ إلىٰ أُمِّه ، واخْتُلَّ عَقلُه من حينَئذٍ وصَارَ يَتحرَّكُ ويُصْرَع ، ودَانَت المَمالكُ لعَبَّاسٍ .

وأمَّا أهْلُ القَصْر ، فاطَّلَعُوا علىٰ باطِنِ القَضيَّة ، وأقامُوا المآتِمَ على الثَّلاثَة ، وَتحيَّلوا ، وكاتَبوا طَلائعَ بنَ رُزِّيك الأرْمنيَّ الرَّافِضيَّ[3] وَالي المُنْيَة[4] ، وكان ذَا شَهامَةٍ وإقْدامٍ فسَألوهُ الغَوثَ ، وقَطَعوا شُعورَ النِّساءِ والأوْلادِ ، وسَيَّروها في طَيِّ الكتابِ وسَخَّمُوه ، فلمَّا تأمَّلَه اطَّلعَ مَنْ حَوْلَه من الجُنْدِ عَليه ، وبَكَوا ولَبسَ الحِدادَ ، واسْتَمالَ عَربَ الصَّعيدِ ، وجَمعَ وحَشَدَ ، وكاتَبَ أُمَراءَ القاهِرَة ، وهَيَّجَهم علىٰ طَلبِ الثَّأرِ فأجابُوهُ فسَارَ إلى القاهِرَةِ ، فبادَرَ إلىٰ رِكابِه جُمهُورُ الجَيشِ ، وبَقيَ عَبَّاسٌ في

---

(١) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٦ .

(٢) انظر السير : (الفائز بالله) ١٥/ ٢٠٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٧ .

(٣) لُقِّبَ بالملك الصالح ، كان شُجاعاً حازماً مُدبِّراً ، أصله من الشيعة الإمامية في العراق ، مات غِيلة سنة ٥٥٦ هـ .

(٤) مُنْيَة بني خصيب ، من أعمال صعيد مصر .

عَسْكرٍ قَليلٍ فخَارَت قُواهُ وهَربَ هو وابنُه نَصرٌ ومَماليكُه والأميرُ ابنُ مُنقِذ .

ثم قَصَدَ عَبَّاسٌ الشَّامَ علىٰ ناحيَة أيْلَة في رَبيعِ الأول ، فمَا كانَت أيَّامُه بعدَ قَتلِ الظَّافِرِ إلاَّ يَسيرَةٌ ، واسْتولَى الصَّالحُ طَلائعُ بنُ رُزِّيك علىٰ دِيارِ مِصْرَ بلا ضَربَةٍ ولا طَعنَةٍ ، فنَزلَ إلىٰ دارِ عَبَّاس ، وطَلبَ الخَادِمَ الصَّغيرَ الذي كانَ مع الظَّافِرِ ، وسَألَه عن المَكانِ الذي دُفنَ فيه أُسْتاذُه ، فأعْلَمَه فقَلعَ بَلاطَه ، وأخْرَجَ الظَّافِرَ ومَنْ مَعَه من القَتْلَىٰ وحُملُوا وناحُوا عَليهِم وتَكفَّلَ طَلائعُ بالفائِزِ ، ودَبَّرَ الدَّولَة .

وجَهَّزَت أُختُ الظَّافِرِ رَسُولاً إلى الفِرَنْجِ بعَسْقَلانَ ، وبذَلَت لهم مالاً عَظيماً إنْ أَسَروا لها عَبَّاساً وابنَه ، فخَرجُوا عَليه ، فالْتَقاهُم ، فقُتلَ في الوَقْعَةِ ، وأُخِذَت خَزائِنُه ، وأَسَروا ابنَه نَصْراً ، وبَعثُوهُ إليها في قَفَصٍ حَديدٍ ، فلمَّا وَصَلَ ، قَبضَ رَسُولُهم المَالَ ، وذلكَ في رَبيع الأول سَنةَ خَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، فقُطِعَت يَدُ نَصْر ، وضُربَ بالمَقَارِعِ كَثيراً ، وقُصَّ لَحْمُه ثم صُلِبَ فمَاتَ ، فبَقيَ مُعلَّقاً شُهوراً ، ثم أُحْرِقَ .

ماتَ الفَائزُ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، وله نَحْو من عَشْر سِنينَ ، وبايَعوا العَاضِدَ[1] .

العَاضِدُ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ العاضِدُ لدينِ الله خَاتَمُ الدولَةِ العُبَيْديَّة أبو مُحمَّد عبدُ الله بنُ الأميرِ يُوسُفَ بنِ الحافِظِ لدين اللهِ عبدِ المَجيدِ ، العُبَيْديُّ الحَاكِميُّ المِصْريُّ الإسْماعيليُّ المُدَّعِي هو وأجْدادُه ، أنَّهُم فاطِميُّونَ .

مَوْلدُه سَنةَ سِتٍّ وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة .

أقامَه طَلائعُ بنُ رُزِّيك بعدَ الفائِزِ ، فكانَ مِنْ تَحْتِ حِجْرِهِ ، لا حَلَّ لدَيْه ولا رَبْطَ وكان العاضِدُ سَبَّاباً خَبيثاً مُتَخلِّفاً .

قالَ القاضي شَمسُ الدِّينِ بنُ خَلِّكان : كانَ إذا رَأىٰ سُنِّيّاً اسْتحَلَّ دَمَه وسارَ وَزيرُه

---

(١) انظر السير : (الفائز بالله) ١٥/ ٢٠٥ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٧ .

المَلكُ الصَّالحُ طَلائعُ سِيرةً مَذْمُومَة ، واحْتكرَ الغَلاَّتِ ، وقَتلَ عِدَّةَ أُمَراء ، وأضْعَفَ أحْوالَ الدَّولَة بقَتلِ ذَوِي الرَّأي والبَأسِ ، وصَادَرَ وعَسَفَ[1] .

وأخَذَ طَلائعُ في قَطعِ أخْبارِ العَسْكَرِ والأُمَراء ، فتَعاقَدوا بمُوافَقَةِ العاضِد لهم علىٰ قَتلِه ، فكَمَن له عدَّة في القَصْرِ ، فجَرَحُوهُ ، فدَخلَ مَماليكُه ، فقَتَلوا أولئكَ ، وحَمَلوهُ ، فمَا أمْسَىٰ وذلكَ سَنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة .

ووَلِيَ مَكانَه ولدُه الملكُ العادلُ رُزِّيك وكان مَليحَ النَّظْمِ ، قَويَّ الرَّفْضِ ، جَواداً شُجاعاً ، يناظِرُ على الإمامَة والقَدَر ، وعَمِلَ قَبلَ مَوْتِه بثَلاثِ لَيالٍ :[2] .

نَحْـنُ فـي غفْلَـةٍ ونَـوْمٍ وللمَـوْ ... تِ عُيـونٌ يَقْظَـانَـةٌ لا تَنَـامُ
قـد رَحَلْنَـا إلـى الحِمَـامِ سنِينـاً ... لَيـتَ شِعْـري مَتَـىٰ يَكُـونُ الحِمَـامُ

نعَم ، ووَزَرَ للعاضِدِ المَلكُ أبو شُجاع شَاوَرُ السَّعْديُّ ، وكانَ علىٰ نِيابَة الصَّعيدِ من جِهَة طَلائعَ ، فقَويَ ، ونَدِمَ طَلائعُ علىٰ تَوْليَتِه لفُروسيَّتِه وشَهامَتِه ، فأوْصَىٰ طَلائعُ وهو يَموتُ إلى ابنِه أنْ لا يُهيِّجَ شَاوَرَ .

ثم إنَّ شَاوَرَ حَشَدَ وجَمَعَ ، واخْتَرقَ البَريَّةَ إلىٰ أنْ خَرجَ من عندِ تَرْوَجَة[3] ، وقَصدَ القاهرَةَ ، فدَخلَها من غَيرِ مُمانَعَة ، ثم فَتكَ برُزِّيك وتَمكَّنَ[4] .

ثمَّ قَدِمَ دِمَشْقَ جريدَةً إلىٰ نُورِ الدِّينِ مُسْتَنْجِداً به ، فجَهَّزَ مَعهُ شِيرْكُوه ، بَلْ بَعْدَه بِسَنَة ، فاسْتَردَّ له الوَزارَةَ ، وتَمَكَّنَ ، ولَمْ يُجازِ شِيرْكُوهَ بما يَليقُ به ، فأضْمَرَ له الشَّرَّ ، واسْتَعانَ شَاوَرُ بالفِرَنْجِ ، وتَحَصَّنَ منهم شِيرْكُوهُ ببلْبِيسَ ، فحَصَرُوهُ مُدَّةً ، حتّىٰ مَلُّوا .

واغْتَنمَ نورُ الدين خُلوَّ الساحلِ منهُم فعَملَ المَصَافَّ علىٰ حارِم وأسَرَ مُلوكاً في سَنة تسْع وخَمسينَ وخمسِ مئَة .

---

(١) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١٢١٨ .
(٢) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٩ .
(٣) قرية بالقُرب من الإسكندرية .
(٤) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٩ .

ورجعَ شِيرْكُوه بعد أمور طويلة الشرح[1] .

ثم سَيَّرَ العاضِدُ يَستَنْجِدُ بشيركُوه على الفِرَنْجِ ، فسارَ وهزَمَ الفِرَنْجَ بعد أنْ كادُوا يَأخُذونَ البلادَ ، وهَمَّ شَاوَرُ باغْتيالِ شيركُوه وكِبارِ عَسْكَرِه فناَجَزُوه وقَتلُوه في رَبيع الآخر سَنةَ أرْبَع وسِتِّينَ قَتلَه جُرْديك النُّوريُّ وصَلاحُ الدِّين[2] .

فاسْتَوزَرَ العاضِدُ شيركُوه ، فلَمْ يُطَوِّلْ ، وماتَ بالخَانُوقِ بعدَ شَهرَين وأيَّام ، وقامَ بعدَه ابنُ أخيه صَلاحُ الدِّين وكان يُضرَبُ بشَجاعَة أسَد الدِّين شيركُوه المَثَلُ ، ويَخافُه الفِرَنْجُ[3] .

قال الإمامُ الذهَبيُّ : تَلاشَىٰ أمْرُ العاضِدِ مع صَلاحِ الدِّين إلىٰ أنْ خَلعَهُ ، وخُطبَ لبَني العَبَّاس واسْتأصَلَ شَأفَةَ بَني عُبَيْد ومَحَقَ دَولَةَ الرَّفْضِ وكانُوا أرْبَعةَ عَشرَ مُتَخلِّفاً لا خَليفَة ، والعاضِدُ في اللُّغَة أيضاً القاطِعُ ، فكانَ هَـٰذا عاضِداً لدَولَة أهْلِ بَيتِه[4] .

قالَ ابنُ خَلِّكان : أخبرَني عالِمٌ أنَّ العاضِدَ رَأىٰ في نَومِه كأنَّ عَقْرَباً خَرجَت إليه من مَسْجدٍ عُرِفَ بها فلَدَغَتْه ، فلمَّا اسْتَيقَظَ طَلبَ مُعبِّراً ، فقالَ : يَنالُك مَكرُوهٌ من رَجلٍ مُقيمٍ بالمَسْجدِ ، فسَألَ عن المَسْجدِ ، وقالَ للوَالي عنه ، فأُتي بفَقيرٍ ، فسَألَه من أينَ هُو ؟ وفيمَ قَدِمَ ، فرَأىٰ منه صِدْقاً وديناً فقالَ : ادْعُ لنا يا شَيخُ ، وخَلَّىٰ سَبيلَه ، ورَجعَ إلى المَسْجدِ ، فلمَّا غَلبَ صَلاحُ الدِّين علىٰ مِصْرَ ، عَزمَ علىٰ خَلعِ العاضِدِ ، فقالَ ابنُ خَلِّكان : اسْتَفْتِي الفُقَهاءَ ، فأفْتُوا بجَوازِ خَلعِه لما هو من انْحِلالِ العَقيدَة والاسْتهتارِ ، فكانَ أكثَرُهم مُبالَغةً في الفُتيا ذاكَ ، وهو الشَّيخُ نَجْمُ الدِّينِ الخُبُوشانيُّ ، فإنَّه عَدَّد مَساوِىءَ هَؤلاءِ ، وسَلبَ عَنهم الإيمَانَ[5] .

قالَ أبو شَامَة : كان منهم ثَلاثَةٌ بإفْريقية : المَهْدِي ، والقَائِمُ والمَنْصُورُ ، وأحَدَ

---

(١) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٩ .
(٢) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢٠ .
(٣) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٢٠ .
(٤) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٢٠ .
(٥) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٢٠ .

عَشرَ بمِصْرَ آخِرُهم العاضِدُ ، ثم قالَ : يَدَّعُون الشَّرفَ ونِسْبَتُهم إلىٰ مَجُوسيٍّ أو يَهوديٍّ ، حتى اشْتَهَر لهم ذلكَ ، وقيلَ : الدَّولَةُ العَلَويَّة ، والدَّولَةُ الفاطِميَّة ، إنَّما هي الدَّولَةُ اليَهوديَّةُ أو المَجُوسيَّةُ المُلْحِدَةُ الباطِنيَّةُ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانت دَولتُهم مئتي سَنةٍ وثَمانياً وسِتِّينَ سَنةً ، وقد صَنَّفَ القاضي أبو بَكْر بنُ الباقِلاَّني كتابَ « كشْفِ أسْرارِ الباطِنيّة » فافْتَتَحَه ببُطلانِ انْتِسابِهِم إلى الإمامِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وكذلكَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُعْتَزليُّ .

هَلكَ العاضِدُ يَومَ عَاشُوراءَ سَنةَ سَبعٍ وسِتِّينَ وخَمسِ مِئَة بذَرَبٍ مُفْرِط وقِيلَ مَاتَ غَمًّا لَمَّا سَمعَ بقَطْعِ خُطبَتِه وإقامَةِ الدَّعْوَةِ للمُسْتَضيءِ .

وتَسلَّمَ صَلاحُ الدِّينِ القَصْرَ بما حَوَىٰ من النَّفائسِ ، والأَموالِ ، وقَبضَ أيضاً علىٰ أوْلادِ العاضِدِ وآلِه ، فسَجَنَهم في بَيتٍ من القَصْر ، وقَمَعَ غِلْمانَهم وأنْصارَهم ، وعَفَىٰ آثارَهم .

قالَ العِمادُ الكَاتِبُ : وهم الآن مَحْصُورونَ مَحْسُورونَ لَمْ يَظْهَروا وقد نَقَصوا وتَقلَّصُوا ، وانْتَقَىٰ صَلاحُ الدِّينِ ما أَحَبَّ من الذَّخائرِ ، وأَطْلَقَ البَيعَ بعدُ في ما بَقي ، فاسْتَمَرَّ البَيعُ فيها مُدَّةَ عَشْرِ سِنينَ[1] .

ومن كتاب من إنشاء القاضي الفاضل شَمسِ الدين ابنِ خَلِّكان إلىٰ بَغْدادَ : (وقَد تَوالَت الفُتُوحُ غَرباً ويَمَناً وشاماً وصارت البلادُ بل الدُّنيا والشهرُ ، بل والدَّهْرُ حَرماً حَراماً وأضْحَى الدينُ واحداً بعدَ أنْ كان أدْياناً ، والخِلافَةُ إذا ذُكِّرَ بها أهلُ الخِلافِ لَمْ يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمْياناً ، والبدْعَةُ خَاشِعَةً ، والجُمُعَةُ جامِعَةً ، والمَذَلَّةُ في شِيَعِ الضَّلالِ ، شائعَةً ذلكَ بأنَّهم اتَّخَذوا عبادَ الله من دُونه أوْلياءَ ، وسَمُّوا أعْداءَ اللهِ أصْفياءَ وتَقطَّعُوا أمرَهم بينَهم شِيَعاً ، وفرَّقُوا أمرَ الأُمَّة وكانَ مُجْتمعاً ، وقُطعَ دَابرُهم ، ورَغِمَت أنُوفُهم ومَنابِرُهم ، وحَقَّت عَليهم الكلمَةُ تَشْريداً وقَتْلاً ، وتَمَّتْ كلماتُ ربِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً ، وليسَ السَّيفُ عَمَّنْ سِواهم من الفِرَنْج بصائمٍ ، ولا اللَّيلُ عن السَّيرِ إليهم بنائمٍ) .

---

(١) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٢٢٠ .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في نهايَة تَراجِم بَني عُبَيْد الله الرَّافِضيّ : أعْجَبَني سَرْدُ هـٰؤلاء العُبَيْديَّة على التَّوالي ، ليَتَأمَّله النَّاظرُ مُجْتَمعاً فلْنَرجِعْ الآن إلىٰ تَرْتيبِ الطِّباق في حُدُود العشرين وثلاث مئة وما بَعدَها[1] .

وقال عليُّ بنُ عُمر الحَرَّانِيّ سَمعتُ حَمزَةَ بنَ محمد الحَافِظ ، وجاءَه غَريبٌ فقال : إنَّ عَسْكَرَ أبي تَميمٍ ـ يَعني المَغَاربة ـ قد وصَلُوا إلى الإسْكندرية فقالَ : اللَّهُمَّ لا تُحْييني حتىٰ تُريني الرَّايَاتِ الصُّفْر ، فمَاتَ حَمزةُ ودَخَلَ عَسْكَرُهم بعد مَوْتِه بثلاثة أيام[2] .

قال الذهبيُّ : هـٰؤلاء عَسكرُ المُعزِّ العُبَيديّ الإسماعيليَّة ، تَملَّكوا مصرَ في هـٰذا الوقت ، وبنوا في الحال مدينةَ القاهرة المُعِزِّيَّة ، فأماتوا السُّنَّة ، وأظْهَروا الرَّفضَ ، ودامت دولتُهم أزيَدَ من مئتي عام ، حتىٰ أبادَهم السلطانُ صلاحُ الدين ، ونَسَبُهم إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه غيرُ صحيح[3] .

وقَدمَ الأميرُ جَوْهَرُ الرُّوميُّ من جهَة مَوْلاهُ المُعِزِّ في جَيشٍ عَظيمٍ في سَنةِ ثَمان وخَمسينَ وثَلاثِ مئَة ، فاسْتَولَىٰ علىٰ إقْليمِ مِصْرَ وأكْثرِ الشَّام ، واخْتطَّ القاهرَةَ وبَنىٰ بها دَارَ المُلكِ ، وكان عَاليَ الهِمَّة ، نافِذَ الأمْرِ ، وتَهيَّأ له أخْذُ البلادِ بمُكاتَبةٍ من أُمَراءِ مِصْرَ ، قَلَّت عليهم الأمْوالُ ، ولَمَّا وَصلَت كتائبُ العُبَيْديَّة ـ وكانوا نَحْواً من مئَة ألفٍ ـ بَعثَ إلىٰ جَوْهرَ وُجوهُ المِصْريِّينَ يَطلُبونَ الأمانَ وتَقريرَ أمْلاكِهم ، فأجابَهم ، وكَتبَ بذلكَ عَهْداً ، واخْتلفَتْ كَلمَةُ الإخْشِيذيَّة ، ووَقَعَ حَربٌ يَسيرٌ .

وقِيلَ : بَلْ قُتلَ خَلقٌ من الإخْشِيذيَّة ، وانْهزَمَ الباقون ، ثم نفَذوا يَطلُبون أماناً ، فأمَّنَهم جَوهَرُ ، ومَنعَ جَيشَه من نَهْبِ الرَّعيَّة وفُتحَت أسْواقُ مِصْرَ ، ثم دَخلَ في هَيئَة المُلوكِ وعَليه قَباءُ ديباج فحَفَر للَيلَتِه أساسَ قَصْر الخِلافَة ، وبَعثَ إلى المُعِزِّ برُؤوسِ القَتلَىٰ وقُطِعَت الخُطبَةُ العَبَّاسيَّة ، وأُلْبِسَ الخُطَباءُ البَياضَ ، وأذَّنوا بـ « حَيِّ عَلىٰ خَيرِ العَمَلِ »[4] .

---

(١) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٢١ .
(٢) انظر السير : (حَمزة بن محمد) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٨١ .
(٣) انظر السير : (حَمزة بن محمد) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٨١ .
(٤) انظر السير : (جَوْهَر) ١٦/ ٤٦٧ـ ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٠٦ .

وجاءَ في تَرجمةِ الأميرِ جَوْهَر قائد الجُيوش الرُّوميّ المَغْربيّ ، قال الذهبيُّ : كان جَوْهَرُ هـٰذا حَسَنَ السِّيرَة في الرَّعايَا ، عاقِلاً أدِيباً شُجاعاً ، مَهيباً ، لَكنَّه علىٰ نِحْلَةِ بَني عُبَيْد التي ظاهِرُها الرَّفْضُ وباطِنُها الانْحِلالُ ، وعُمُومُ جُيُوشِهم بَرْبَرٌ وأهْلُ زعارة وشَرٍّ ، لا سِيَّما مَنْ تَزَنْدَقَ منهُم ، فكانُوا في مَعْنَى الكَفَرَة ، فيَا ما ذَاقَ المُسلِمُونَ منهم من القَتلِ ، والنَّهبِ ، وسَبْيِ الحَريمِ ، ولا سِيَّما في أوائِل دَوْلَتِهم حتىٰ إنَّ أهلَ صُورٍ قامُوا عَلَيْهم وقَتَلُوا فيهم ، فهَرَبُوا حتىٰ إنَّ أهلَ صُورٍ اسْتَنْجَدُوا بنَصَارَى الرُّوم فجاؤُوا في المَرَاكِبِ وكان أهلُ صُورٍ قد لَحِقَهُم من المَغَارِبَة من الظُّلْمِ والجَورِ وأخْذِ الحَريمِ من الحَمَّاماتِ والطُّرُقِ أمْرٌ كَبيرٌ .

ولقد كانَ المُعِزُّ في زَمانِه أعْظَمَ بكَثير من خُلفَاءِ بَني العَبَّاس[1] .

وكانت الدَّولَةُ الباطِنيَّةُ قد مَنَعو الإمامَ أبا إسْحاقَ إبْراهيمَ الحَبَّالَ من التَّحْديثِ ، وأخَافُوهُ ، وهَدَّدوهُ فامْتَنعَ من الرِّوايَة ، ولَمْ يَنْتَشِرْ له كَبيرُ شَيء[2] .

قالَ القاضي أبو عَلي الصَّدَفيُّ : مُنعْتُ من الدُّخُولِ إلى الإمامِ أبي إسْحاقَ الحَبَّال إلاَّ بشَرطِ أنْ لا يُسمعني ، ولا يَكتبَ إجازةً ، فأوَّلُ ما فاتَحْتُه الكلامَ خَلَّط في كَلامِه وأجَابَني علىٰ غَيرِ سُؤالِي حَذَراً من أنْ أكُونَ مَدْسُوساً عليه ، حَتىٰ بَسَطتُه ، وأعْلَمتُه أنِّي أنْدَلُسي أُريدُ الحَجَّ ، فأجَازَ لي لَفْظاً وامْتَنعَ من غَيرِ ذلكَ[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قَبَّح اللهُ دَولَةً أماتَت السُّنَّة ورِوايَةَ الأثارةِ النَّبَويَّة وأَحْيَت الرَّفْضَ والضَّلالَ ، وبَثَّت دُعاتِها في النَّواحِي تُغْوي النَّاسَ ويَدعُونَهم إلىٰ نِحْلةِ الإسْماعيليَّة ، فبهم ضَلَّت جَبليَّة الشَّامِ وتَعثَّرُوا ، فنَحمَدُ اللهَ على السَّلامَة في الدِّين[4] .

---

(١) انظر السير : (جَوْهَر) ١٦/ ٤٦٧ـ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٦ .
(٢) انظر السير : (الحَبَّال) ١٨/ ٤٩٥ـ٥٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٣٥ .
(٣) انظر السير : (الحَبَّال) ١٨/ ٤٩٥ـ٥٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٣٥ .
(٤) انظر السير : (الحَبَّال) ١٨/ ٤٩٥ـ٥٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٣٥ .

(ب) الدَّوْلَة الفاطِميّة تَدَّعي زُوراً النَّسَبَ الشَريف :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجَمَة المَهْدي ، أوَّل مَنْ قامَ من الخُلفَاءِ الخَوارج العُبَيْديَّة الباطِنيَّة : والمُحَقِّقُونَ علىٰ أنَّه دَعِيٌّ بحَيثُ إنَّ المُعِزَّ منهُم لمَّا سَألَهُ السَّيدُ ابنُ طَباطَبا عن نَسَبه ، قال : غَداً أُخْرِجُهُ لَكَ ، ثمَّ أصْبَحَ وقد أَلْقَىٰ عَرَمَةً[1] من الذَّهَبِ ، ثمَّ جَذَبَ نِصْفَ سَيْفِه من غِمْدِه ، فقالَ : هـٰذا نَسَبي ، وأمَرَهُم بنَهْبِ الذَّهَبِ ، وقالَ : هـٰذا حَسَبي .

وقد صَنَّفَ ابنُ الباقِلاَّنيِّ وغَيرُه من الأئِمَّة في هَتْكِ مَقالاتِ العُبَيْديَّة وبُطْلانِ نَسَبهم ، فهَـٰذا نَسَبُهُم ، وهَـٰذِه نِحْلَتُهُم ، وقد سُقْتُ في حَوادِثِ « تاريخِنا » من أحْوالِ هَؤلاءِ وأخْبارِهِم في تَفارِيقِ السِّنينِ عَجائِبَ .

فرأىٰ عُبيدُ الله أنَّ ما يَرومُه من المُلك ، لا يَنبَغي أنْ يَكونَ ظُهورُه بالعِراق ولا بالشَّام ، فبعثَ أولاً له داعيَيْن شَيطانَيْن داهيَتَيْن ، وهما الأخَوان أبو عبد الله الشِّيعيِّ ، وأخُوه العَبَّاس ، فظَهَرَ أحدُهما باليَمَن والآخَرُ بإفْريقية ، وأظْهرَ كلٌّ منهما الزُّهْدَ والتَّألُّهَ وأدَّبا أولادَ النَّاسِ ، وشَوَّقا إلى الإمامِ المَهْديِّ[2] .

قالَ ابنُ خَلِّكانَ وغَيرُه : أكثرُ أهْلِ العلم لا يُصَحِّحُونَ نَسَبَ المَهْديِّ عُبَيْد الله جَدِّ خُلَفاء مِصْرَ ، حتىٰ إنَّ العَزيزَ في أوَّلِ وِلايَتِه صَعدَ المِنْبَرَ يومَ جُمُعَة ، فوجَدَ هناك رُقْعَةً فيها :

إذَا سَمِعْنَـــا نَسَبـــاً مُنْكَـــراً ... نَبْكـي عَلـى المِنْبَـرِ والجَـامـعِ
إنْ كُنْـتَ فيمَـا تَـدَّعِـي صَـادِقـاً ... فَـاذْكـر أبـاً بَعْـدَ الأبِ الـرَّابـعِ
وإنْ تُـرِدْ تَحْقِيـقَ مَـا قُلْتَـه ... فَـانْسُـبْ لَنَـا نَفْسَـكَ كَـالطَّـائـعِ
أوْ لا دَعِ الأنْسَـابَ مَسْتُـورَةً ... وادْخُـل بِنَـا فـي النَّسَـبِ الـوَاسـعِ
فـإنَّ أنْسَـابَ بَنِـي هَـاشِـمٍ ... يَقْصُـرُ عَنْهَـا طَمَـعُ الطَّـامـعِ

---

(١) العَرمة : بالتحريك : مجمع رمل ، وقد استعمله هنا بمعنىٰ كومة من الذهب .

(٢) انظر السير : (المَهْديّ وذُريَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٧ .

وصَعَدَ مرَّةً أخْرَىٰ ، فرَأىٰ وَرَقةً فيها :

بـالظُّلْـمِ والجَـوْرِ قَـدْ رَضِينَـا وَلَيْـسَ بـالكُفْـرِ والحَمَـاقَـة
إنْ كُنْـتَ أُعْطِيـتَ عِلْـمَ غَيْـبٍ فقُـلْ لَنَـا كَـاتِـبَ البِطَـاقَـة

ثم قالَ ابنُ خَلِّكانَ : وذلك لأنَّهم ادَّعَوْا عِلمَ المُغَيَّبات ولهم في ذلك أخْبارٌ مَشْهُورَة .

وفُتحت للعَزيز حَلَبُ وحَماةُ وحِمْصُ وخَطَبَ أبو الذَّوَّاد محمدُ ابنُ المُسَيِّبِ بالمُوصِلِ له ورَقَمَ اسْمَه على الأعْلامِ والسِّكَّة سنةَ ٣٨٣ هـ ، وخُطبَ له أيضاً باليَمَنِ وبالشَّامِ ومَدائنِ المَغْربِ .

وكانت دَولةُ هـٰذا الرَّافضيِّ أعْظَمَ بكَثير من دَولةِ أميرِ المؤمنينَ الطَّائعِ ابنِ المُطيعِ العبَّاسيِّ .

وفي أيَّامه أُظْهِرَ سَبُّ الصَّحابَة جِهاراً[1] .

قالَ أبو شَامَة : كان منهم ثَلاثَةٌ بإفْريقية : المَهْدِي ، والقَائِمُ والمَنْصُورُ ، وأحَدَ عَشرَ بمِصْرَ آخِرُهم العاضِدُ ، ثم قالَ : يَدَّعُون الشَّرفَ ونِسْبَتُهم إلىٰ مَجُوسيٍّ أو يَهوديٍّ ، حتى اشْتَهَر لهم ذلكَ ، وقيلَ : الدَّولَةُ العَلَويَّة ، والدَّولَةُ الفاطِميَّة ، إنَّما هي الدَّولَةُ اليَهوديَّةُ أو المَجُوسيَّةُ المُلْحِدَةُ الباطِنيَّةُ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانت دَولتُهم مئتي سَنةٍ وثَمانياً وسِتِّينَ سَنةً ، وقد صَنَّفَ القاضي أبو بَكْر بنُ الباقِلاَّني كتابَ « كشْفِ أسْرارِ الباطِنيّة » فافْتَتَحَه ببُطلانِ انْتِسابِهِم إلى الإمامِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وكذلكَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُعْتَزليُّ .

هَلكَ العاضِدُ يَومَ عَاشُوراءَ سَنةَ سَبعٍ وسِتِّينَ وخَمسِ مِئَة بذَرَبٍ مُفْرِط وقِيلَ : مَاتَ غَمًّا لَمَّا سَمعَ بقَطْعِ خُطبَتِه وإقامَةِ الدَّعْوَةِ للمُسْتَضيءِ .

وتَسلَّمَ صَلاحُ الدِّينِ القَصْرَ بما حَوَىٰ من النَّفائسِ ، والأَموالِ ، وقَبضَ أيضاً علىٰ

---

(١) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٠٦ .

أوْلادِ العاضِدِ وآلِه ، فسَجَنَهم في بَيتٍ من القَصْر ، وقَمَعَ غِلْمانَهم وأنْصارَهم ، وعَفَىٰ آثارَهم .

قالَ العِمادُ الكَاتِبُ : وهم الآن مَحْصُورونَ مَحْسُورونَ لَمْ يَظْهَروا وقد نَقَصوا وتَقَلَّصُوا ، وانْتُقِىَ صَلاحُ الدِّينِ ما أحَبَّ من الذَّخائرِ ، وأطْلَقَ البَيعَ بعدُ في ما بَقي ، فاسْتمَرَّ البَيعُ فيها مُدَّةَ عَشْرِ سِنينَ[1] .

(ج) مَوْقِف العُلماء والصَّالحين منها :

قالَ أبو الحَسَن القابسيُّ ، صاحبُ الملخَّص : إنَّ الذين قَتلَهم عُبَيدُ الله وبَنُوه أربَعةَ آلافِ في دارِ النَّحْر في العَذابِ من عالمٍ وعابد ليَرُدَّهم عن التَّرَضِّي عن الصَّحابَة ، فاخْتارُوا المَوتَ .

وفي أيَّامِ المَهْدي ، عاثَت القَرامِطَةُ بالبَحْرَين ، وأخَذُوا الحَجيجَ وقَتلُوا وسَبوا ، واسْتَباحُوا حَرَمَ الله ، وقَلَعُوا الحَجَرَ الأسْوَدَ ، وكان عُبَيدُ الله يُكاتِبُهم ، يُحرِّضُهم قاتَلَه الله .

وكان مَوتُه ، سَنةَ اثْنَتين وعشرينَ وثلاثِ مئَة وله اثْنَتانِ وسِتُّونَ سَنةً ، وكانت دَولَتُه خَمْساً وعشرينَ سَنةً وأشْهُراً[2] .

نَقلَ القاضي عِياض في ترْجَمة أبي محمَّد الكستراتي ، أنَّه سُئلَ عمَّن أكْرَهَه بَنو عُبَيد على الدُّخُولِ في دَعْوَتهم أوْ يُقتَل ؟ فقالَ : يَخْتارُ القَتلَ ولا يُعْذَر ، ويَجبُ الفِرارُ ، لأنَّ المُقامَ في مَوْضِع يُطلَبُ من أهْلِه تَعطيلُ الشَّرائعَ ، لا يَجوزُ .

قالَ القاضي عِياض : أجْمَعَ العُلماءُ بالقَيْرَوانِ ، أنَّ حَالَ بَني عُبَيْد حالُ المُرْتَدِّينَ والزَّنادِقَة[3] .

وجاءَ في تَرْجَمَة القائِمِ أبي القاسِم مُحمَّدِ بنِ المَهْديِّ عُبَيْدِ الله ، صاحِبِ المَغْرِبِ ،

---

(١) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٢٢٠ .
(٢) انظر السير : (المَهْدي وذُريَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٩٨ .
(٣) انظر السير : (المَهْدي وذُريَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٩٩ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : خَرَجَ عليه في سَنةِ اثْنتَينِ وثلاثين وثلاثِ مِئَة ، أبُو يَزيدَ مَخْلَدُ بنُ كَيْدادَ البَرْبَريُّ وجَرَتْ بَينَهُما مَلاحِمُ ، وحَصَرَه مَخْلَدٌ بالمَهْدِيَّة ، وضَيَّقَ عليه ، واسْتَولَىٰ علىٰ بِلادِه ، ثمَّ وُسْوِسَ القائِمُ ، واخْتَلَطَ وزالَ عَقلُه وكانَ شَيْطاناً مَريداً يَتَزَنْدَقُ[1] .

ذَكرَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُتكلِّمُ ، أنَّ القائِمَ أظْهَرَ سَبَّ الأنْبياءِ وكان مُنادِيهِ يَصِيحُ : الْعَنوا الغَارَ وما حَوَىٰ وأَبادَ عِدَّةً من العُلَماءِ وكان يُراسِلُ قَرامِطَةَ البَحْرَيْنِ ، ويأمُرُهم بإحْراقِ المَساجِدِ والمَصاحِفِ فتَجَمَّعتْ الإبَاضِيَّةُ[2] والبَرْبَرُ علىٰ مَخْلَد ، وأَقْبَلَ ، وكانَ ناسِكاً قَصيرَ الدَّلقِ[3] يَركَبُ حِماراً ، لَكنَّهُم خَوارِج ، وقامَ معه خَلقٌ من السُّنَّةِ والصُّلَحاءِ ، وكادَ أنْ يَتَملَّكَ العالَمَ ، ورُكِّزَتْ بُنودُهُم عند جامِعِ القَيْرَوانِ فيها : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وبَنْدانِ أصْفَرانِ فيهِما : نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قَريبٌ وبَنْدٌ لمَخْلَد فيه : اللهُمَّ انْصُرْ وَلِيَّكَ علىٰ مَنْ سَبَّ نَبيَّكَ وخَطَبَهُم أحْمدُ بنُ أبي الوَليد ، فحَضَّ على الِجهادِ ، ثمَّ سارُوا ، ونازَلُوا المَهْدِيَّةَ ولمَّا الْتَقَوا وأيْقَنَ مَخْلدٌ بالنَّصْرِ ، تَحرَّكَتْ نَفسُه الخارِجيَّةُ ، وقال لأصْحابِه : انْكَشِفُوا عَن أهْلِ القَيْرَوانِ حتىٰ يَنالَ منهُم عَدُّوهم ، ففَعلوا ذلكَ فاسْتُشْهِدَ خَمسَةٌ وثَمانونَ نَفْساً من العُلَماءِ ، والزُّهادِ .

وخَوارِجُ المَغْربِ إبَاضيَّةٌ مَنْسوبُونَ إلىٰ عبدِ الله بنِ يَحْيَىٰ بنِ إبَاض الذي خَرَجَ في أيّامِ مَرْوانَ الحِمار ، وانْتَشَرَ أتْباعُه بالمَغْربِ ، يَقولُ : أفْعالُنا مَخْلوقَةٌ لنا ويُكَفِّرُ بالكَبائِرِ ، ويَقولُ : لَيسَ في القُرآنِ خُصوصٌ ، ومَنْ خالَفَه حَلَّ دَمَه .

وكانَ مَوتُ القائِمِ سَنةَ أرْبعٍ وثَلاثينَ مَحْصوراً بالمَهْدِيَّةِ ، لَكنْ قامَ بَعدَه ابنُه المَنْصُورُ[4] .

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٩ .

(٢) من أكبر فرق الخوارج ، وهم أصحاب عبد الله بن يحيى بن إباض الملقب بـ « طالب الحق » ، من أهل اليمن ، خلع طاعة مروان بن محمد وبويع له بالخلافة ، واستولىٰ علىٰ صنعاء ومكة ، قُتل سنة ١٣٠هـ .

(٣) الدلق : ثوب متسع الأكمام طويلها (صبح الأعشىٰ) ٤/ ٤٢ .

(٤) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٩٩ .

وقد أجْمَعَ عُلماءُ المَغْربِ علىٰ مُحارَبَة آلِ عُبَيْد لما شَهِرُوه من الكُفْر الصّراح الذي لا حيلَةَ فيه[1] .

وعُوتِبَ بَعضُ العُلماءِ في الخُروجِ مع أبي يَزيد الخارِجيِّ ، فقالَ : وكَيفَ لا أخْرُجُ وقد سَمعتُ الكُفرَ بأُذُني ؟!! حَضَرتُ عَقداً فيه جَمعٌ من سُنَّةٍ ومَشارِقَة ، وفيهِم أبو قُضاعَة الدَّاعِي ، فجاءَ رَئيسٌ ، فقالَ كَبيرٌ منهُم : إلىٰ هنا ياسَيِّدي ارْتَفِعْ إلىٰ جانِبِ رسُولِ اللهِ ، يَعْني أبا قُضاعَة ، فما نَطَقَ أحَدٌ .

ووُجِدَ بخَطِّ فَقيهٍ ، قال : في رَجَبَ سَنةَ ٣٣١ هـ ، قامَ المُكَوكب يَقْذِفُ الصَّحابَةَ ، ويَطْعَنُ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعُلِّقَتْ رُؤوسُ حَميرٍ وكِباشٍ على الحَوانيتِ ، كُتِبَ عليها أنَّها رُؤوسُ صَحابَةٍ[2] .

وخَرَجَ أبو إسْحاقَ الفَقيهُ مع أبي يَزيد ، وقال : هُمْ أهْلُ القِبْلَةِ وأولئِكَ لَيْسوا أهْلَ قِبْلَةٍ ، وهُم بَنُو عَدُوِّ الله ، فإنْ ظَفِرْنا بهم ، لَمْ نَدخُلْ تَحتَ طاعَةِ أبي يَزيدَ ، لأنَّه خارِجيٌّ[3] .

قالَ أبو مَيْسَرَة الضَّريرُ : أدْخَلَني اللهُ في شَفاعَةِ أسْوَد رَمَىٰ هـٰؤلاء القَوْمَ بحَجَر[4] .

وقالَ السَّبَائيُّ : أي والله نَجدُّ في قَتلِ المُبَدِّلِ للدِّين[5] .

وتَسارَعَ الفُقَهاءُ والعُبَّادُ في أُهْبَةٍ كاملة بالطُّبولِ والبُنُودِ وخَطبَهم في الجُمُعَة أحمَدُ بنُ أبي الوَليد ، وحَرَّضَهم وقالَ : جاهِدُوا مَنْ كَفَرَ بالله وزَعَمَ أنَّه رَبٌّ من دُونِ الله ، وغَيَّرَ أحْكامَ الله ، وسَبَّ نَبيَّه وأصْحابَ نَبيِّه فبَكَى النَّاسُ بُكاءً شَديداً وقالَ : اللَّهُمَّ إنَّ هـٰذا القِرْمِطيَّ الكافرَ المَعْروفَ بابنِ عُبَيد الله ، المُدَّعِي الرُّبُوبيَّة ، جاحِدٌ لنِعْمَتِك ، كافِرٌ برُبُوبيَّتِك ، طاعِنٌ علىٰ رُسُلِك ، مُكذِّبٌ بمُحمَّد نَبيِّك سافِكٌ للدِّماءِ

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٠ .
(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٠ .
(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠١ .
(٤) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠١ .
(٥) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠١ .

فالْعَنْهُ لَعْناً وَبيلاً ، واخْزِهِ خِزْياً طَويلاً ، واغْضَبْ عَليه بُكْرةً وأصيلاً ثم نَزَلَ فصَلَّىٰ بهم الجُمُعَة[1] .

ورَكِبَ رَبيعُ القَطَّان[2] فرَسَه مُلبساً ، وفي عُنُقِه المصْحَف ، وحَولَه جَمعٌ كَبيرٌ ، وهو يَتلُو آياتِ جِهَادِ الكَفَرَة فاسْتُشهِدَ رَبيعٌ في خَلقٍ من النَّاسِ يَومَ المَصافِّ في صَفَر سَنةَ أرْبَع وثَلاثينَ وكان غَرَضُ هـٰؤلاء المَجُوسَ بَني عُبَيْد أخْذَه حيّاً ليُعذِّبُوه قالَ أبو الحَسَن القابسيُّ : اسْتُشهِدَ معَه فُضَلاءٌ ، وأئمَّةٌ ، وعُبَّاد .

وقالَ بعضُ الشُّعَراء في بَني عُبَيْد[3] :

المَـاكِـرُ الغَـادِرُ الغَـاوي لشِيعَتِـهِ ... شَـرُّ الـزَّنَـادِقِ مِـنْ صَحْـبٍ وتُبَّـاعِ
العَـابِـديـنَ إذَا عِجْـلاً يُخَـاطِبُهُـم ... بسِحْـرِ هَـارُوتَ مِـنْ كُفْـر وإبْـداعِ
لَـوْ قِيـلَ للـرُّومِ أنْتُـمْ مِثْلُهُـم لَبَكَـوْا ... أَوْ لليَهُـودِ لَسَـدُّوا صَمْـخَ أسْمَـاعِ

وذكرَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجَمَة المَنْصُور قال : وَلِيَ بعدَ أبيهِ ، وحارَبَ رَأسَ الإبَاضيَّة أبا يَزيد مَخْلدَ بنَ كَيْدادَ الزَّاهِد ، والْتَقَي الجَمْعان مَرَّاتٍ ، وظَهَرَ مَخْلدُ علىٰ أكْثَرِ المَغْرِب ، ولَمْ يَبْقَ لِبَني عُبَيْد سِوَى المَهْديَّة[4] .

فنَهَضَ المَنْصورُ ، وأخْفَىٰ مَوتَ أبيهِ ، وصَابَرَ الإبَاضيَّةَ حتىٰ تَرَحَّلوا عنه ، ونازَلُوا مَدينَةَ سُوسَة ، فبَرَزَ المَنصُورُ من المَهْديَّة ، والْتَقَوا فانْكَسَرَ جَيشُ مَخْلد علىٰ كَثْرَتِهم ، وأُسِرَ هو في سَنةِ ٣٣٦ هـ ، فماتَ بعدَ الأسْرِ بأرْبَعةِ أيّامٍ من الجِراحِ ، فسُلِخَ وحُشِيَ قُطْناً ، وصُلِبَ .

وبَنَوْا مَدينَةَ المَنْصوريَّةَ مكانَ الوَقْعَةِ ، فنَزَلَها المَنْصورُ .

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/ ٤ .

(٢) ربيع بن سليمان بن عطاء الله ، القطَّان ، كان لسان إفريقية في وقته في الزُّهْد والرقائق ، وكان جعل علىٰ نفسه ألا يشبع من طعام ولا نوم حتىٰ يقطع الله دولة بني عُبَيْد انظر ترجمته في : « ترتيب المدارك » ٣/ ٣٢٣ـ ٣٣٢ .

(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/ ٤ .

(٤) انظر السير : (المنصور) ١٥/ ١٥٦ـ ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/ ٢ .

وكان بَطَلاً شُجاعاً ، رابطَ الجأشِ ، فَصيحاً مُفَوَّهاً يَرْتَجِلُ الخُطَبَ وفيه إسْلامٌ في الجُمْلَة وعَقلٌ بخِلافِ أبيهِ الزِّنْدِيقِ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ المُعِزِّ بنِ المَنْصُورِ العُبَيْديِّ حينما اسْتَولَىٰ علىٰ مِصْرَ : فتَهيَّأ المُعِزُّ ، وسارَ بخَزائنِه ، وتَوابيتِ آبائِه وكان دُخُولُه إلى الإسْكَنْدَرِيَّة في شَعْبانَ سَنةَ اثنتين وستِّينَ وثلاث مئة وتَلقَّاهُ قاضي مِصْرَ الذُّهْليُّ وأعيانُها ، فأكْرَمَهُم وطال حَديثُه مَعَهم وعَرَّفهم أنَّ قَصْدَه الحَقُّ والجهَادُ ، وأنْ يَختمَ عُمرَه بالأعْمال الصَّالِحَة ، وأنْ يُقيمَ أوامرَ جَدِّه رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم ووَعَظَ وذَكَّر حتىٰ أعْجَبَهم ، وبَكىٰ بَعضُهم ثم خَلعَ عليهم ، وقال للقاضي أبي الطَّاهِر الذُّهْليِّ : مَنْ رَأيتَ من الخُلَفاء ؟ فقالَ : واحداً ، قالَ : مَنْ هو ؟ قال : مَوْلانا ، فأعْجَبَه ذلك .

ثم إنَّه سارَ حتىٰ خَيَّم بالجِيزَة فأخَذَ عَسْكرُه في التَّعْديَة إلى الفُسْطاطِ ، ثم دَخَلَ القاهِرَةَ ، وقد بُنِيَ له بها قَصرُ الإمارَة ، وزُيِّنَت مِصْرُ ، فاسْتَوىٰ علىٰ سَرير مُلْكِه ، وصَلَّىٰ رَكعَتين .

وكان عَاقلاً لَبيباً حَازِماً ذا أدَبٍ وعِلمٍ ومَعْرفَةٍ وجَلالَةٍ وكَرَمٍ يَرجعُ في الجُملَة إلىٰ عَدْلٍ وإنْصافٍ ، ولَوْلا بدْعَتُه ورَفْضُه ، لكان من خِيارِ المُلوك[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الحُبُليِّ : الإمامُ الشَّهيدُ قاضي مَدينَة بَرْقَة ، محَمُد بنُ الحُبُلي .

أتاهُ أميرُ بَرْقَة ، فقالَ : غَداً العيدُ ، قالَ : حَتىٰ نَرى الهِلالَ ولا أُفَطِّرُ النَّاسَ ، وأتَقلَّدُ إثمَهم ، فقالَ : بهـٰذا جاءَ كتابُ المَنْصُورِ ـ وكانَ هـٰذا من رَأي العُبَيْديَّة يُفْطِرونَ بالحِسابِ ، ولا يَعتَبرونَ رُؤيَةً ـ فلمْ يُرَ هِلالٌ ، فأصْبَحَ الأميرُ بالطُّبُولِ والبُنُودِ وأُهْبَةِ العِيدِ فقالَ القاضي : لا أخْرُجُ ولا أُصَلِّي ، فأمَرَ الأميرُ رَجُلاً خَطَبَ وكَتبَ بما جَرَىٰ إلى المَنْصُورِ فطَلبَ القاضي إليه ، فأُحْضِرَ ، فقالَ له : تَنَصَّلْ ، وأَعْفُو عَنكَ ، فامْتَنَعَ

---

(١) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٢ .

(٢) انظر السير : (المُعِزُّ) ١٥/١٥٩ـ١٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٤ .

فأمَرَ ، فعُلِّقَ في الشَّمسِ إلىٰ أنْ ماتَ ، وكانَ يَستَغيثُ العَطَشَ ، فلَمْ يُسْقَ ثم صَلبُوه علىٰ خَشَبةٍ فلَعْنةُ الله على الظَّالمينَ[1] .

الشهيد :

جاءَ في تَرْجَمَة الشَّهيد : الإمامُ القُدوَةُ الشَّهيدُ أبو بَكْر مُحمَّدُ ابنُ أحمَدَ بنِ سَهْل الرَّمليّ ، ويُعْرفُ بابنِ النَّابُلسيّ[2] .

وقال أبو ذَرٍ الحافِظُ : سَجَنَه بنُو عُبَيْد وصَلَبُوه على السنَّة ، سَمعتُ الدَّارَقُطنِيّ يَذْكُرُه ويَبْكِي ، ويقولُ : كان يقولُ ، وهو يُسْلَخ : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾[3] .

وقال أبو الفَرج بنُ الجَوْزيّ : أقامَ جَوْهَرٌ القائِدُ لأبي تَميمٍ صاحِبِ مِصْرَ أبا بَكْر النَّابُلسي ، وكان يَنزِلُ الأكْواخَ فقال له : بَلَغَنا أنَّكَ قُلتَ : إذا كان مع الرَّجُلِ عَشْرةُ أَسْهُم ، وجَبَ أن يَرْمِيَ في الرُّوم سَهْمَاً وفِينَا تِسْعَةً ، قال : ما قُلتُ هٰذا ، بَلْ قُلتُ : إذا كان معه عَشْرةُ أَسْهُمٍ وَجَبَ أَن يَرمِيَكم بتِسعَةً وأن يَرمِيَ العاشِرَ فيكم أيضاً ، فإنَّكم غَيَّرتُم المِلَّة ، وقَتَلتُم الصَّالِحين ، وادَّعَيْتُم نُورَ الإلَهِيَّة ، فشَهَره ثُمَّ ضَرَبَه ، ثُمَّ أَمَرَ يَهُودِيّاً فسَلَخَه وحُشِيَ تِبْناً ، وصُلِبَ .

وقال مُعمَّرُ بنِ أحمَد بنِ زِياد الصُّوفيّ : أخْبَرَني الثِّقَةُ أنَّ أبا بَكْر سُلِخَ من مَفْرِقِ رَأسِه حتّىٰ بَلَغَ الوَجْه ، فكان يَذْكُرُ اللهَ ويَصْبر حتّىٰ بَلَغَ الصَّدْرَ ، فرَحِمَه السَّلاَّخُ ، فوَكَزَه بالسِّكِّينِ مَوْضِعَ قَلبِه فقَضَىٰ عليه ، وأَخْبَرَني الثِّقَةُ أنَّه كان إماماً في الحَدِيثِ والفِقْه ، صائِمَ الدَّهرِ ، كبيرَ الصَوْلَة عند العامَّة والخاصَّة ، ولمَّا سُلِخَ كان يُسْمَعُ من جَسَدِه قِراءَةُ القُرآن[4] .

قال الذَّهبيُّ : لا يُوصَفُ ما قَلَبَ هٰؤلاء العُبَيْدِيَّة الدِّينَ ظَهْراً لبَطْن ، واسْتَوْلَوا على

---

(١) انظر السير : (الحُبُلي) ١٥/ ٣٧٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٨ .
(٢) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/ ١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٦ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٥٨ .
(٤) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/ ١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٦ .

المَغْرِب ، ثم علىٰ مصرَ والشَّامَ ، وسَبُّوا الصَّحابةَ[1] .

وحَكى ابنُ السَّعْساع المِصْريّ ، أنَّه رأَىَ في النَّومِ أبا بَكْر بن النَّابُلسي بعدما صُلِبَ وهو في أحْسَنِ هَيْئَة ، فقال : ما فَعَلَ اللهُ بك ؟ فقال :[2] .

حَبـانـي مـالِكـي بـدَوامِ عِـزٍّ ... ووَاعَـدَنـي بقُـرْبِ الإنْتِصـارِ
وقـرَّبَنـي وأدْنـانـي إليـه ... وقـالَ انْعَـمْ بعَيْـشٍ فـي جِـواري

وذَكرَ الإمام الذهبي في تَرجَمَة الفَقيه الخَبُوْشانيُّ ، وقالَ المُوَفَّقُ عبدُ اللطيف سَكَنَ السُّمَيْساطيَّة ، وعَرف الأميرَ نَجْمَ الدِّينِ أيُّوبَ ، وأخَاهُ ، وكان قَشَفاً في العَيشِ ، يابساً في الدِّينِ ، وكان يَقولُ : أصْعَدُ إلىٰ مِصْرَ ، وأُزيلُ مُلكَ بَني عُبَيْد اليَهوديِّ . . . ، إلىٰ أنْ قالَ : فنَزلَ بالقاهِرَة ، وصَرَّحَ بثَلبِ أهْلِ القَصْرِ ، وجَعلَ سَبَّهم تَسْبيحَه ، فحارُوا فيه ، فنَفذوا إليه بمَالٍ عَظيم قِيلَ : أرْبَعة آلافِ دِينار ، فقالَ للرَّسُولِ : وَيْلَك ، ما هٰذه البِدْعَةُ ؟! فأعْجَلَه ، فرَمَى الذَّهبَ بينَ يَديه ، فضَربَه وأنْزَلَه من السُّلَّم[3] .

وماتَ العاضِدُ ، وتَهيَّبُوا الخُطْبَةَ لبَني العَبَّاس ، فوَقَفَ الخَبُوْشانيُّ بعَصَاهُ قُدَّام المِنْبَرِ ، وأمَرَ الخَطيبَ بذلكَ ، ففَعَل ، ولمْ يَكُن إلاَّ الخَيرَ ، وزُيِّنَت بَغدادُ ولَمَّا بَنىٰ مَكانَ الشَّافِعيِّ ، نبش عظام ابن الكِيْزانيِّ ، وقالَ : لا يَكونُ صِدِّيقٌ وزِنْديقٌ معاً ، فشَدَّ الحَنابِلَةُ عليه ، وتَألَّبُوا ، وصارَ بَينهُم حَملاتٌ حَربيَّة وغَلبَهم[4] .

(د) مَوْقِفُ العُلماء الضَّالين منها :

النُّعْمان :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : العَلاَّمَةُ المَارِقُ ، قاضي الدَّولَةِ العُبَيْديَّة ، أبو حَنيفَة النُّعْمانُ بنُ محمَّد بنِ مَنْصُور المَغْربيُّ .

---

(١) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/ ١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٧٦ .
(٢) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/ ١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٧٦ .
(٣) انظر السير : (الخَبُوْشانيّ) ٢١/ ٢٠٤ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦١٢ .
(٤) انظر السير : (الخَبُوْشانيّ) ٢١/ ٢٠٤ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦١٢ .

كانَ مَالكيّاً ، فارْتَدَّ إلىٰ مَذهَبِ الباطِنيَّة ، وصَنَّفَ لهم أُسَّ الدَّعْوَة ، ونَبَذَ الدِّينَ وَراءَ ظَهْرِه ، وألَّفَ في المَناقِبِ والمَثالِبِ ، ورَدَّ علىٰ أئمَّةِ الدِّينِ ، وانْسَلخَ من الإسْلامِ ، فسُحْقاً له وبُعْداً .

ونافَقَ الدَّولَةَ ، لا بلْ وافَقَهم وكانَ مُلازِماً للمُعِزِّ أبي تَميم مُنْشِىء القاهِرَة .

وله يَدٌ طُولَىٰ في فُنونِ العُلومِ والفِقْهِ والاخْتلافِ ، ونَفَسٌ طَويلٌ في البَحْثِ ، فكَانَ عِلْمُه وَبالاً عليه .

وصَنَّفَ في الرَّدِّ علىٰ أبي حَنيفَة في الفِقْهِ ، وعلىٰ مالكٍ والشَّافِعيِّ ، وانْتَصرَ لفِقْهِ أهْلِ البَيتِ ، وله كِتابٌ في اخْتِلافِ العُلماءِ ، وكُتبُه كِبارٌ مُطوَّلة .

وكانَ وَافِرَ الحِشْمَة ، عَظيمَ الحُرْمَة ، في أولادِه قُضَاةٌ وكُبَراءُ وانْتَقلَ إلىٰ غَيرِ رِضْوانِ الله ، بالقاهِرَة سَنةَ ثلاثٍ وسِتِّينَ وثَلاثِ مِئَة[1] .

(هـ) انْتِهاؤُها علىٰ يَدِ صَلاحِ الدِّين :

قال الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة العَاضِدِ : تَلاشَىٰ أمْرُ العاضِدِ مع صَلاحِ الدِّين إلىٰ أنْ خَلعَهُ ، وخُطبَ لبَني العَبَّاس واسْتأصَلَ شَأفَةَ بَني عُبَيْد ومَحَقَ دَولَةَ الرَّفْضِ وكانُوا أرْبَعةَ عَشرَ مُتَخلِّفاً لا خَليفَة ، والعاضِدُ في اللُّغَة أيضاً القاطِعُ ، فكانَ هَـٰذا عاضِداً لدَولَة أهْلِ بَيتِه[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمة صلاحِ الدِّين : وكان نُورُ الدِّينِ قد أَمَّره ، وبَعَثَه في عَسْكَرِه مع عَمِّه أَسَدِ الدِّين شِيركُوه ، فحَكَمَ شِيركُوه مِصْرَ ، فما لَبِثَ أنْ تُوُفِّيَ ، فقَامَ بَعْدَه صَلاحُ الدِّين ، ودَانَتْ له العَسَاكِرُ ، وقَهَرَ بني عُبَيْدٍ ، ومَحَا دَوْلَتَهُم واسْتَولَىٰ علىٰ قَصْرِ القَاهِرَة بما حَوَىٰ من الأَمْتِعَةِ والنَّفَائِس ، منها الجبلُ الياقُوتُ الذي وزْنُه سَبْعةَ عَشَرَ دِرْهَماً ، قال مُؤَلِّفُ « الكَامِلْ » ، ابنُ الأَثِير : أنا رَأيْتُه ووَزَنْتُه .

وخَلا القَصْرُ من أهْلِه وذَخَائِرِه ، وأقَامَ الدَّعْوَةَ العَبَّاسِيَّة .

---

(١) انظر السير : (النُّعْمان) ١٦/ ١٥٠ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١٢٧٧/ النُّعْمان .

(٢) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٢٠ .

وكان خَلِيقاً للإمَارَةِ ، مَهِيباً ، شُجَاعَاً حَازِمَاً ، مُجَاهِداً كَثيرَ الغَزْوِ ، عَالِيَ الهِمَّة ، كانت دَوْلَتُه نَيِّفاً وعِشْرينَ سنةً .

وتَمَلَّكَ بعدَ نُورِ الدِّين ، واتَّسَعَتْ بلادُه .

ومنذُ تَسَلْطَنَ ، طَلَّقَ الخَمْرَ واللَّذاتِ ، وأنْشَأَ سُوراً على القاهِرةِ ومِصْرَ[1] وبَعَثَ أخَاه شَمْسَ الدِّين في سَنَةِ ثمانٍ وسِتينَ ، فافْتَتَحَ بَرْقَةَ ، ثمَّ افْتَتَحَ اليَمَنَ وسَارَ صَلاحُ الدِّين ، فأخَذَ دِمَشْقَ من ابنِ نُورِ الدِّين[2] .

١٢ـ الدَّوْلَة السَّامانيَّة :

صَاحِبُ خراسان :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة صَاحبِ خُراسان : هو الأميرُ أبو إبراهيمَ ، إسماعيلُ بنُ الملكِ أحمَد بنِ أسَدِ بنِ سامان بن نوح .

كان مَلكاً فاضِلاً ، عالِماً ، فارِساً ، شُجاعاً ، مَيْمونَ النَّقيبَة ، مُعَظِّماً للعُلماءِ ، يُلقَّبُ بالأميرِ الماضي .

أخَذَ عنه ابنُ خُزَيْمَة وغيرُه[3] .

قال ابنُ قانِع : سَمعتُ عيسىٰ بنَ محمّد الطَّهمانيَّ ، سَمعتُ الأميرَ إسْماعيلَ يقولُ : جاءَنا أبُونا بمؤدِّبٍ ، فعلَّمنا الرَّفْضَ ، فنِمتُ ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومَعه أبو بَكر وعُمر ، رَضي الله عَنهما ، فقال لي : « لِمَ تَسُبُّ صَاحِبَيَّ ؟ » فوقَفتُ ، فقال لي بيَدِه فنَفَضَها في وَجْهي فانْتَبَهتُ فَزِعاً أرْتَعدُ من الحُمَّىٰ ، فكُنتُ على الفِراشِ سَبعَة أشْهُر ، وسَقطَ شَعْري ، فدخَلَ أخي ، فقال : أيش قِصَّتُك ؟ فأخْبَرتُه ، فقال : إعْتَذِرْ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذَرتُ وتُبتُ ، فما مَرَّ لي إلاَّ جُمُعَة حتىٰ نَبَتَ شَعْري .

---

(١) يعني فسطاط مصر ، وكانت لفظة (مصر) وحتى اليوم تُطلَق على الفسطاط .

(٢) انظر السير : (صلاحُ الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦١٩ .

(٣) انظر السير : (صاحب خُراسان) ١٤/ ١٥٤ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٣٩ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كان هو وآباؤُه مُلوكَ بُخارَىٰ وسَمَرْقَند ، وله غَزَواتٌ في التُّرْك ، وهو الذي ظَفِرَ بعَمرو بنِ اللَّيثِ وأسَره ، فجاءَه من المُعْتضِد التَّقليدُ بولاية خُراسان وما يَليها ، وكانت سَلطَنتُه مدّة سَبع سِنين .

تُوفِّيَ ببُخارَىٰ سنة خمس وتسعين ومئتين ، فتملَّكَ بعدَه ابنُه أحمد .

وماتَ ابنُه السُّلطانُ أبو نَصْر أحمدُ سنةَ إحْدىٰ وثلاثِ مئَة ، قَتَلَه مَماليكُه ، ثم مَلَّكُوا وَلدَه نصراً ، فدامَ ثلاثينَ عاماً ، فأحْسَنَ السِّيرَة ، وعَظُمَتْ هَيبَتُه[1] .

١٣ـ دَوْلَة بَني بُوَيْه :

عِمَادُ الدَّولَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجَمَتِه : هو السُّلطَانُ الكَبيرُ ، عِمادُ الدَّولَة ، أبو الحَسَن ، عليُّ بنِ بُوَيْه بنِ فَنَّاخسْرُو الدَّيْلَمي .

صاحبُ مَمالِك فارس ، وأخُو المَلكَين : مُعِزِّ الدَّولَة أحمدَ ، ورُكْنِ الدَّولَة الحَسَن ، فكانَ عِمادُ الدَّولَة أوَّلَ مَنْ تَملَّكَ البلادَ بعدَ أنْ كانَ قائداً كَبيراً من قُوَّاد الدَّيْلَم .

وكانَ أبُوهُم بُوَيْه يَصْطادُ السَّمَكَ ، ثم آلَ بأوْلادِهِ الأمْرُ إلىٰ مُلْكِ البلادِ ثم تَملَّكَ من بَعْدُ العِمَادُ وَلَدُ أخيه عَضُد الدَّولَة بنُ رُكْن الدَّولَة .

وكانت دَولَةُ العِمادِ سِتَّ عَشرَةَ سَنةً ، وعاشَ بِضْعاً وخَمسينَ سَنةً .

تُوفِّيَ سَنةَ ثَمانٍ وثَلاثينَ[2] .

ولَمَّا تَملَّكَ شِيرازَ ، طالَبَه قُوَّادُه بالأمْوالِ ، وثارُوا عَليه ، فاغْتَمَّ لذلك ، واسْتَلقَىٰ ، فرَأىٰ حَيَّةً في السَّقْفِ ، ففَزِعَ ودَعا الفرَّاشينَ فنَصَبُوا سُلَّماً ، فوَجَدوا غُرفَةً

---

(١) انظر السير : (صاحب خُراسان) ١٤/ ١٥٤ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٩ .

(٢) انظر السير : (عِمادُ الدَّولة) ١٥/ ٤٠٢ـ ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ١٢٤١/ عِمادُ الدولة .

يُدخَلُ إليها ، فأمَرَهُم بفَتْحِها ففُتِحَت ، فوَجَدوا فيها صَناديقَ فيها قَدرُ خَمسِ مِئَة ألفِ دِينارٍ ، فأُنْزِلَت ، ففَرِحَ ، وأنْفَقَ في الجَيشِ[1] .

ثم إنَّه طَلبَ خَيَّاطاً ليُفَصِّلَ له ، وكان أُطْرُوشاً ، ففَزِعَ وجاوَبَه عمَّا لم يُسألَ عنه ، وحَلفَ أنَّه لَيسَ عندَه سِوَى اثنَيْ عشرَ صُندوقاً وَديعَة فتَعجَّبَ عِمَادُ الدَّولَة ، وأُحْضِرَت إليه ، فإذا فيها أمْوالٌ وثيابٌ وديباجٌ فكانَ ذلكَ من سَعادَتِه المقْبِلَة ، ولا عَقِبَ له[2] .

مُعِزُّ الدَّوْلَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجَمتِه : هو السُّلطانُ ، أبو الحُسَين ، أحمدُ ابنُ بُوَيْه بنُ فَنَّاخسْرُو الدَّيْلَميُّ الفَارِسيُّ ، قد ساقَ نَسَبَه ابنُ خَلِّكان إلىٰ كِسْرَىٰ بَهْرام جُور فاللهُ أعْلم[3] .

كان أبوهُ سَمَّاكاً ، وهـٰذا رُبَّما احْتَطبَ ، تَملَّكَ العِراقَ نَيفاً وعِشرينَ سَنةً ، وكان الخَليفَةُ مَقْهوراً معه ، وماتَ مَبْطوناً فعَهدَ إلى ابنِه عِزِّ الدَّولَة بَخْتِيار ، وكان يَتشيَّع ، فقيلَ : تابَ في مَرضِه ، وتَرضَّىٰ عن الصَّحابَة ، وتَصدَّقَ ، وأعْتقَ ، وأراقَ الخُمورَ ونَدِمَ علىٰ ما ظَلمَ ، ورَدَّ المَواريثَ إلىٰ ذَوي الأرْحامِ وكان يُقالُ له : الأقْطَع طارَت يَسارُه في حَربٍ ، وطارَت بَعضُ اليُمْنَىٰ ، وسَقطَ بين القَتلَىٰ ثم نَجا ، وتَملَّكَ بَغدادَ بلا كُلفَة ودانَت له الأُمَمُ ، وكان في الابْتداءِ تَبعاً لأخيه المَلكِ عِمادِ الدَّولَة .

ماتَ سنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وثَلاثِ مِئَة ، وله ثَلاثٌ وخَمسونَ سَنةً .

وقد أنْشأ داراً غَرم عليها أرْبَعين ألفَ ألفِ دِرْهم فبَقيَت إلىٰ بعدِ الأرْبَع مئة ونُقضَت ، فاشْتروا جَرْدَ ما في سُقوفِها من الذَّهَب بثَمانيَةِ آلافِ دِينار[4] .

---

(١) انظر السير : (عِمادُ الدَّولة) ١٥/ ٤٠٢ـ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٢ .
(٢) انظر السير : (عِمادُ الدَّولة) ١٥/ ٤٠٢ـ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٢ .
(٣) انظر السير : (مُعزُّ الدَّولَة) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٨٣ .
(٤) انظر السير : (مُعزُّ الدَّولَة) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٣ .

عَضُد الدَّوْلَة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَتِه : هو السُّلطانُ ، عَضُد الدَّولَة ، أبو شُجاع ، فَنَّاخسْرُو ، صاحبُ العِراقِ وفَارِسَ ، ابنُ السُّلطانِ رُكنِ الدَّولَة حَسَنِ بنِ بُوَيْه الدَّيْلَميُّ .

تَملَّك بفارِسَ بعدَ عَمِّه عِمادِ الدَّولَة ثم كثُرت بلادُه واتَّسعَت مَمالكُه وسارَ إليه المُتَنَبِّي ومَدحَه ، وأخَذَ صِلاتَه .

قَصَدَ عَضُدُ الدَّولَة العِراقَ ، والْتَقى ابنَ عَمِّه عِزَّ الدَّولَة وقَتلَه وتَملَّك ، ودانَت له الأُمَمُ .

وكانَ بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، نَحْويّاً ، أديباً ، عَالِماً ، جَبَّاراً عَسُوفاً ، شَديدَ الوَطْأة[1] .

وكانَ يَقولُ الشِّعْرَ ، فقالَ أبْياتاً كُفْرِيَّة[2] :

لَيسَ شُربُ الرَّاح إلاَّ في المَطَر ... وغِناءٍ مِن جَوارٍ في السَّحَرْ
مُبْرزات الكَأسَ مِن مَطْلَعِهَا ... سَاقياتِ الرَّاحِ مَنْ فاق البَشَرْ
عَضُدَ الدَّوْلَة وابنَ رُكْنِها ... مَلِكَ الأمْلاكِ غَلاَّبَ القَدَرْ

نُقِلَ أنَّه لَمَّا احْتُضِرَ ما انْطَلقَ لسَانُه إلاَّ بقَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾[3] وماتَ بعِلَّة الصَّرَع ، وكان شِيعيّاً جَلَداً أظْهَرَ بالنَّجَفِ قَبْراً زَعَمَ أنَّه قَبرُ الإمامِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وبَنَىٰ عليه المَشْهَدَ ، وأقامَ شِعارَ الرَّفْضِ ، ومأتَمَ عَاشُوراءَ ، والاعْتِزالَ .

تَملَّكَ العِراقَ خَمسَةَ أعْوامٍ ونِصْفاً ، وما تلقىٰ خليفة ملكاً من قُدومِه قَبلَه .

ماتَ سَنةَ اثْنَتَين وسَبعينَ وثَلاثِ مئَة ببَغْدادَ وعُملَ في تابُوت ، ونُقِلَ فدُفنَ بمَشْهَدِ

---

(١) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٢/ ٣٢ .
(٢) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٢/ ٣ .
(٣) سورة الحاقة ، الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .

النَّجَفِ ، وعاشَ ثَمانياً وأرْبَعينَ سَنةً وقامَ بعدَه ابنُه صَمْصَامُ الدَّولَة وحَلفُوا له . وقلَّدَه الطَّائعُ[1] .

قالَ عبدُ الله بنُ الوَليد : سَمعتُ أبا محمّد بنَ أبي زَيْد يَسألُ ابنَ سَعْدي لَمَّا جاءَ من الشَّرقِ : أحَضَرْتَ مَجالسَ الكَلام ؟ قالَ : مرَّتَينِ ولَمْ أعُدْ ، فأوَّلُ مَجْلس جَمعوا الفِرَقَ من السُّنَّة والمُبْتَدعَة واليَهودِ والنَّصارَىٰ والمَجُوسِ والدَّهْريَّة ولكُلِّ فِرْقَة رَئيسٌ يَتكلَّمُ ويَنصُرُ مَذهَبَه ، فإذا جاءَ رَئيسٌ قامَ الكلُّ له فيَقولُ واحدٌ : تَناظَروا ولا يَحْتجَّ أحدٌ بكتابِه ، ولا بنَبيِّه ، فإنَّا لا نُصدِّقُ بذلك ولا نُقِرُّ به ، بلْ هاتوا العَقلَ والقِياسَ ، فلمَّا سَمعتُ هـٰذا لمْ أعُدْ ، ثم قِيلَ لي : ها هُنا مَجلسٌ آخَرُ للكَلامِ ، فذَهبتُ فوَجَدتُّهم علىٰ مثلِ سِيرَةِ أصْحابِهم سَواء ، فجَعلَ ابنُ أبي زَيْد يَتعجَّبُ وقالَ : ذَهبتِ العُلماءُ ، وذَهبَتْ حُرْمَةُ الدِّين[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : فنَحْمدُ اللهَ على العافيَة ، فلقد جَرَىٰ على الإسْلام في المئة الرابعَة بَلاءٌ شَديدٌ بالدولَة العُبَيديَّة بالمَغرب ، وبالدولَة البُوَيْهيَّة بالمَشْرق ، وبالأعْرابِ القَرامِطَة ، فالأمر لله تعالىٰ[3] .

وكانَ مُلكُ بَني بُوَيْه في خِلافَة القائم ضَعيفاً بحَيثُ إنَّ جَلالَ الدَّولَة باعَ من ثيابِه المَلبُوسَة ببَغْدادَ ، وقلَّ ما بيَدِه ، وخَلت دارُه من حاجِبٍ وفرَّاش ، وقُطِعَت النَّوْبَةُ علىٰ بابِه لذَهابِ الطبَّالين ، وثارَ عليه جُندُه ثم كاشروا له رَحمةً ، ثم جَرت فِتنةُ البَساسيريِّ ، ثم بدَت الدَّولَةُ السُّلْجوقيَّة ، وأوَّلُ ما مَلكوا خُراسانَ ، ثمَّ الجَبلَ ، وعَسَفوا ونَهَبوا وقَتلُوا ، وفَعلُوا القَبائحَ ـ وهم تُركُمان .

وفي سنة أربعين غَزا يَنال السُّلْجوقيُّ أخو طُغْرُلْبَك بجُيوشِه ، ووَغلَ في بلادِ الرُّوم وغَنمَ ما لا يُعَبَّر عنه ، وكانت غَزوَةً مَشْهودَةً وفَتْحاً مُبيناً فهَـٰذا هو أوَّلُ اسْتيلاءِ آلِ سُلْجُوق مُلوكِ الرُّومِ على الرُّومِ ، وفي هـٰذا الحين خَطب مُتولِّي القَيْرَوان المُعِزُّ بنُ

---

(١) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٣/ ١ .
(٢) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٣ / ٢ .
(٣) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٣ / ٣ .

باديس للقائمِ بأمرِ الله وقَطَعَ خُطبَة العُبَيْديَّة ، فبَعثوا من حارَبه ، فتَمَّت فُصولٌ طَويلَة[1] .

وفي سَنة سَبعٍ وأرْبَعين وأرْبَعمائة قَبضَ طُغْرُلْبَك على المَلكِ الرَّحيمِ ، وانْقَضَت أيامُ بَني بُوَيْه ، وكانَ فيها دُخولُ طُغرلبك بَغْدادَ ، وكانَ يوماً مَشْهوداً ، بين يدَيه ثَمانيةَ عَشرَ فيلاً مُظْهِراً أنَّه يَحُجُّ ، ويَغْزو الشَّامَ ومِصْرَ ، ويُزيلُ الدَّولَة العُبَيديَّة[2] .

١٤ـ الدَّوْلَة الغَزْنَويَّة :

المَلِكُ سُبُكتِكين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : صاحب بَلْخ وغَزْنَة وغير ذلك مات سنةَ سَبع وثمانين وثلاثِ مئة .

كانت دَولتُه نَحواً من عشرين سنة ، وكان فيه عَدلٌ وشَجاعَة ونُبْلٌ مع عَسْف ، وكَونُه كرَّامياً ، ولَمَّا أخذَ طُوسَ أخْرَبَ مَشْهَدَ الرِّضا ، وقَتلَ مَنْ يَزورُه ، فلمَّا تَملَّكَ ابنُه مَحْمودٌ ، رَأىَ في النَّومِ عَليّاً رضي الله عنه وهو يَقولُ : إلىٰ كَمْ هـٰذا ؟ فبَنَى المَشْهدَ ورَدَّ أوقافَه إليه ، عَهدَ بالمملَكَة بعدَه إلى ابنِه إسْماعيلَ ، ولَمْ يُقدِّمْ مَحْموداً وهو كان الأسَنَّ فتَحارَبَ الأخَوان ، وإنْهزَمَ إسْماعيلُ ، فتَحصَّنَ بقَلعَةِ غَزْنَة ، ثم إنَّه نَزَلَ بالأمَانِ إلىٰ أخيه بعد أشْهُرٍ ، فأمَّنَه وتمَكَّنَ مَحمودٌ السلطانُ[3] .

مَحْمودُ بنُ سُبكتِكين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : الملكُ يَمينُ الدوْلَة ، فاتِحُ الهِنْدِ ، أبو القاسِم ، مَحْمودُ بنُ سَيِّد الأُمَراءِ ، ناصِرُ الدولَة سُبُكْتِكين ، التُّرْكيُّ ، صاحبُ خُراسان والهِنْد وغير ذلك .

فَرضَ علىٰ نفسِه كلَّ سَنةٍ غَزْوَ الهِندَ ، فافْتَتحَ بلاداً شاسِعَةً .

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٨/ ٣٠٧ـ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤١٦ .

(٢) انظر السير : (القائم) ١٨/ ٣٠٧ـ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤١٧ .

(٣) انظر السير : (الملك سُبكتِكين) ١٦/ ٤٩٩ـ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١٣٠٨/ الملك سُبكتِكين .

وكان السُّلطانُ مائلاً إلى الأثَرِ إلاَّ أنَّه من الكَرَّاميَّة[1] .

قال أبو النَّصرِ القاميُّ : لمَّا قَدمَ التَّاهَرْتيُّ الدَّاعي من مصرَ على السلطان يَدعوهُ سراً إلىٰ مَذهَب الباطنيَّة ، وكان التَّاهَرْتيُّ يركبُ بَغْلاً ، يتلوَّن كل ساعة من كل لون ، ففهم السلطان سرَّ دَعوتهم ، فغَضبَ ، وقَتَلَ التَّاهَرْتيَّ الخَبيث ، وأهْدىٰ بَغْلَه إلى القاضي أبي منصور محمد ابن محمد الأزْدي ، شَيخ هراة ، وقال : كان يَركَبُه رأسُ المُلْحِدين ، فليَرْكبْه رأسُ المُوَحدِّين[2] .

وذكرَ إمامُ الحَرمَين أنَّ مَحمودَ بنَ سُبكْتكينَ ، كانَ حَنفيّاً يُحبُّ الحَديثَ فوَجدَ كثيراً منه يُخالفُ مَذهبَه ، فجَمعَ الفُقهاءَ بمَرْوَ ، وأمَرَ بالبَحثِ في أيُّما أقْوَىٰ مَذهَبُ أبي حَنيفَة أو الشَّافعيِّ قالَ : فوَقعَ الاتِّفاقُ علىٰ أنْ يُصلُّوا رَكْعَتين بينَ يدَيه على المَذْهَبَين ، فصَلَّىٰ أبو بَكْر القَفَّالُ بوُضُوءٍ مُسْبَغ وسُتْرَةٍ وطَهارَةٍ وقِبْلَة وتَمامِ أرْكان لا يُجَوِّزُ الشَّافعيُّ دُونَها ، ثم صَلَّىٰ صَلاة علىٰ ما يُجَوِّزُه أبو حَنيفَة ، فلَبِسَ جِلدَ كلبٍ مَدْبوغاً قد لُطِّخَ رُبعهُ بنَجاسَة ، وتَوضَّأ بنَبيذٍ ، فاجْتَمعَ عليه الذبَّانُ ، وكان وُضُوءاً مُنكساً ، ثم كبَّرَ بالفَارِسيَّة وقَرأَ بالفَارِسيَّة : دَوْبَرْكك سَبْز[3] ، ونقرَ ولَمْ يَطمَئنَّ ولا رَفَعَ من الرُّكوع ، وتَشهَّدَ ، وضَرَطَ بلا سَلام فقالَ له : إنْ لَمْ تَكُنْ هٰذه الصَّلاةُ يُجيزُها الإمامُ ، قَتلتُك فأنْكرَتِ الحَنيَّفةُ الصَّلاةَ ، فأمَرَ القَفَّالُ بإحْضارِ كتُبهم ، فوُجدَ كذلك ، فتَحوَّلَ مَحمُودٌ شافعيّاً هكَذا ذَكرَه الإمامُ أبو المَعالي بأطْوَلَ من هٰذا[4] ،[5] .

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٢ .

(٢) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٢ .

(٣) والمعنىٰ : ورقتان خضراوان ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ في سورة الرحمٰن : ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ ، انظر « وفيَّات الأعيان » (٥/ ١٨٢) ، و« المعجم الذهبي » فارسي/ عربي .

(٤) في « مُغيث الخَلق في اختيار الأحق » ، ونقله عنه ابن خلِّكان في « وفيَّات الأعيان » (٥/ ١٨٠ ، ١٨١) ، وهٰذه الحكاية التي يغلب على الظن أنها ملفقَّة مُفتَراة تُنبىء عن ذميم التعصُّب الذي يفعل أفاعيله في النفوس ، فيحملها على الكراهية ، وعرض رأي المخالف عرضاً مُشوَّهاً مَبْتوراً ، والإغضاء عن فَضائله الكثيرة ، ومحاسنه الجَمَّة ، وكان علىٰ إمام الحرمين أن يسلُك مع مخالفيه سبيل أهل العلم والعرفان ، ويناقشهم بالحُجَّة والبُرهان ، ويصون كتابه عن مثل هٰذا الهُراء والهَذَيان .

(٥) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٢ .

وقالَ عبدُ الغافِرِ الفارسيُّ في تَرجَمَة مَحْمود : كانَ صَادِقَ النِّيَّة في إعْلاءِ الدِّين مُظفَّراً كَثيرَ الغَزْوِ ، وكانَ ذَكياً بَعيدَ الغورِ ، صائبَ الرَّأيِ ، وكان مَجلِسُه مَوْرِدَ العُلماءِ وقَبرُه بغَزْنَة يُزارُ .

مَوْلدُ مَحْمود في سَنةِ إحْدَىٰ وعِشْرينَ وأرْبَع مِئَة .

وماتَ بغَزْنَةَ ، سَنةَ إحْدَىٰ وعِشْرينَ وأرْبَع مِئَة[1] .

وكانت غَزَواتُ السُّلطان مَحْمود مَشْهورَةً عَديدةً وفُتُوحاتُه المُبْتَكَرَة عَظيمةً[2] .

وبَلَغَ السُّلطانَ أنَّ الهُنودَ قالوا : أَخْرَبَ أكثرَ بلادِ الهِنْدِ غَضَبُ الصَّنَمِ الكبيرِ سُومَنات علىٰ سائِرِ الأصْنامِ ومَنْ حَوْلَها ، فعَزَمَ علىٰ غَزْوِ هـٰذا الوَثَنَ ، وسَارَ يَطوِي القِفَارَ في جَيشِه إليه ، وكانوا يقُولونَ : إنَّه يَرْزُقُ ويُحْيِي ويُميتُ ويَسْمَعُ ويَعِي ، يَحُجُّون إليه ويُتْحِفُونَه بالنَّفائِس ، ويَتَغَازَلُون فيه كثيراً ، فتَجَمَّعَ عند هـٰذا مالٌ يَتَجاوَزُ الوَصْفَ ، وكانوا يَغْسِلُونَه كلَّ يومٍ بماءٍ وعَسَلٍ ولَبَن ، ويَنْقُلُونَ إليه الماءَ من نَهْرِ حيل مَسيرَةَ شَهرٍ ، وثلاثِ مِئَةٍ يَحْلِقُونَ رُؤُوسَ حُجَّاجِه ولِحَاهُم ، وثلاثُ مِئَةٍ يُغَنُّونَ فسَارَ الجَيشُ من غَزْنة ، وقَطَعُوا مَفَازَةً صَعبَةً وكانوا ثلاثينَ ألفَ فارسٍ وخَلْقاً من الرَّجَّالَةِ والمُطوِّعَة ، وقَوَّى المُطوِّعَةَ بخَمْسينَ ألفَ دينارٍ ، وأَنْفَقَ في الجَيْشِ فَوقَ الكِفَايةِ ، وارْتَحَلَ من المُليا ثانِيَ يوم الفِطْرِ سنةَ أرْبَعمائة وستَّةَ عَشَر ، وقاسُوا مَشَاقَّ وبَقُوا لا يَجِدُونَ الماءَ إلاَّ بعدَ ثلاثٍ ، غَطَّاهُم في يومٍ ضَبَابٌ عظيمٌ ، فقالت الكَفَرَةُ : هـٰذا من فِعْلِ الإلَهِ سُومَنات .

ثمَّ نازَلَ مدينةَ أَنْهَلْوَارَة ، وهَرَبَ ملِكُها إلىٰ جَزيرَةٍ ، فأَخْرَبَ المُسلمُونَ بلَدَه ، ودَكُّوها ، وبينَها وبَيْنَ الصَّنَمِ مَسيرَةَ شَهرٍ في مَفَاوِزَ ، فسَارُوا حتىٰ نَازَلُوا مدينةَ دَبُولوارة ، وهي قَبْلَ الصَّنَمِ بيَوْمَيْن ، فأُخِذَت عُنْوَةً ، وكُسِرَتْ أصْنَامُهَا ، وهي كثيرةُ الفَوَاكِه ، ثمَّ نَازَلُوا سُومَنات في رابعِ عَشَرَ ذي القِعدَة ، ولها قَلْعَةٌ مَنِيعَةٌ على البحرِ ، فوَقَعَ الحِصَارُ فنُصِبَت السَّلالِمُ عليها ، فهَرَبَ المُقاتِلَةُ إلى الصَّنَمِ وتَضَرَّعُوا له ، واشْتَدَّ

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٣ .

(٢) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٣ .

الحالُ وهم يَظُنُّون أنَّ الصَّنَمَ قد غَضِبَ عليهم ، وكان في بيتٍ عظِيمٍ مَنِيعٍ علىٰ أبْوَابِه السُّتُورُ الدِّيبَاجُ وعلى الصَّنَمِ من الحُليِّ والجَوَاهِر ما لا يُوصَف والقَنَادِيلُ تُضِيءُ ليلاً ونهاراً ، علىٰ رَأسِه تاجٌ لا يُقَوَّمُ ، يَنْدَهِشُ منه النَّاظِرُ ويَجْتَمِعُ عندَه في عِيدِهم نَحْوَ مِئَةِ ألفِ كافِرٍ ، وهو علىٰ عَرْشٍ بَدِيعِ الزَّخْرَفَةِ عُلُوَّ خَمسةِ أَذْرُعٍ ، وطُولُ الصَّنَمِ عَشرَةَ أذْرُعٍ ، وله بَيْتُ مالٍ فيه من النَّفَائِسِ والذَّهَبِ ما لا يُحْصَىٰ ، ففَرَّقَ مَحمُودٌ في الجُنْدِ مُعْظَمَ ذلك ، وزَعْزَعَ الصَّنَمَ بالمَعَاوِلِ ، فخَرَّ صَرِيعاً ، وكانت فِرقَةٌ تَعْتَقِدُ أنَّه مَنَاتَ ، وأنَّه تَحَوَّلَ بنفسِه في أيَّامِ النُّبُوَّةِ من سَاحِلِ جُدَّة ، وحَصَلَ بهـٰذا المَكَان ليُقْصَدَ ويُحَجَّ إليه مُعَارَضَةً للكَعْبَةِ ، فلمَّا رَآهُ الكُفَّارُ صَرِيعاً مَهِيناً ، تَحَسَّرُوا وسُقِطَ في أيدِيهِم ، ثمَّ أُحْرِقَ حتىٰ صَارَ كلساً ، وأُلقِيَت النِّيرَانُ في قُصُورِ القَلْعَة ، وقُتِلَ بها خَمسُونَ ألفاً ، ثمَّ سارَ مَحمُودٌ لأَسْرِ المَلِكِ بهيم ، ودَخَلُوا بالمَرَاكِبِ ، فهَرَبَ ، وافْتَتَحَ مَحمُودٌ عِدَّةَ حُصُونٍ ومَدَائِنَ ، وعادَ إلىٰ غَزْنَة فدَخَلَها في ثامِنِ صَفر سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ ، ودَانَتْ له المُلُوكُ ، فكانت مُدَّةُ الغَيْبَةِ مِئَةً وثلاثَةً وستِّينَ يوماً .

وقد خُطِبَ له بالغُورِ وبخُراسَان والسِّنْدِ والهِنْدِ وناحِيَةِ خَوَارِزْم وبَلْخ ، وهي من خُرَاسَان ، وبجُرجان وطَبَرِستان والرَّيِّ والجِبَال ، وأصْبَهَان وأذْرَبِيجان وهَمَذَان وأرْمِينيَة .

وكان مُكْرِماً لأُمَرَائِه وأصْحابِه ، وإذا نَقَمَ عَاجَل ، وكان لا يَفْتُرُ ولا يَكَادُ يَقِرُّ وكان يَعْتَقِدُ في الخَلِيفَةِ ، ويَخْضَعُ لجَلالِه ، ويَحْمِلُ إليه قَنَاطِيرَ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وكان إلْباً على القَرَامِطَة والإسْمَاعيليَّة وعلى المُتَكلِّمين ، علىٰ بِدْعَةٍ فيه فيما قَبْل ، ويَغْضَبُ للكرّاميّة ، وتَصَرُّفه على الأخْلاقِ الزَّكيَّة ، وكان فيه شِدَّةُ وَطْأةٍ على الرَّعِيَّة ، ولكن كانوا في أَمْنٍ وإقامَة سِياسَة .

وقال مَحمُودُ يوماً للأميرِ أبي طاهِر السَّامانيّ : كَمْ جَمَعَ آباؤُك من الجَوْهَرِ ؟ قال : سَمعتُ أنَّه كان عند الأميرِ الرَّضي سَبْعَةُ أرْطالٍ فسَجَدَ شُكراً وقال : أنا في خِزَانَتِي سَبْعُون رَطْلاً[1] .

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٣ .

أُحضر إلىٰ محمودٍ بغزنَة شَخصان من النَّسْناس من بادية بلاصيغون وهي مَملكة قدرخان ، وعَدْوُ النَّسْناسِ في شِدَّةِ عَدْوِ الفَرَس ، وهو في صُورة آدَميّ ، لكنَّه بدنه مُلبَّس بالشَّعْر ، وكلامُه صَفيرٌ ، ويأكُلُ حَشيشاً ، وأهلُ تلكَ البلادِ يَصطادُونَهم ، ويَأكُلونَهم فسَألَ مَحْمودُ الفُقَهاءَ عن أكل لحْمِهم ، فنَهَوا عنه[1] .

صَاحبُ غزنة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السلطان فرُّخْزاد بنُ السُّلطان مَسْعود بنِ السُّلطان الكَبير مَحْمودُ بنِ سُبُكْتِكِين .

كان مَلكاً سَائساً ، مَهيباً شُجاعاً ، مُتَّسعَ المَمالك ، هَجمَ عليه مَماليكُه الحَمَّامَ ، فكان عنده سَيفُه ، فشَدَّ عليهم ، وسَلِمَ وأدْرَكَه الحَرسُ ، وقَتلوا أولئكَ ، ثم صارَ بعدُ يُكثرُ من ذِكْرِ المَوْتِ ويَزْهَدُ في الدنيا فأخَذَه قَوْلَنْجٌ في سَنة إحْدَىٰ وخَمسينَ وأرْبَع مئة ، فماتَ وتَملَّك أخوهُ إبراهيمُ فجاهَدَ ، ونَشَرَ العَدْلَ ، وفَتحَ قِلاعاً من الهِنْد[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٥ .

(٢) انظر السير : (صاحبُ غَزْنَة) ١٨/ ١٣٣ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١٣٩١ ـ ١٣٩٢/ صاحبُ غَزْنَة .

١٥ـ الدَّوْلَة الإخْشِيذيَّة

الإخْشِيذ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : صاحبُ مِصْرَ الملك ، أبو بكر مُحمَّدُ بنُ طُغْج بنِ جُفٍّ بنِ خَاقَانَ الفَرْغَانيُّ التُّرْكيُّ وَلِيَ مِصْرَ سنة إحدىٰ وعشرين[١] ، ثم دمَشْقَ مُضافاً إلىٰ مِصْرَ من قِبَل الرَّاضي .

والإخْشِيذُ بالتُّركيِّ مَلكُ المُلوك .

صار طُغْج من كبار قُوَّاد خُمَارَوَيْه ، ثم سارَ إلىٰ بَغْدادَ فعَظَّمُوه فبدا منه كِبْرٌ وتِيهٌ في حَقِّ الوَزير ، فسُجنَ هو وابنُه هـٰذا ، فماتَ في السِّجْنِ ثم أُطْلِقَ محمدٌ وجَرَت له أمُورٌ طَويلة إلىٰ أن تَملَّك .

وكان بَطلاً ، شُجاعاً ، حَازماً ، يَقِظاً ، مَهيباً ، سَعيداً في حُروبِه ، مُكْرِماً لأجْنادِه ، شَديد الأيْد[٢] ، لا يَكادُ أن يَجُرَّ أحَدٌ قَوْسَه .

بَلغَ عدَّة مَمَاليكِه ثَمانيَة آلاف وله جَماعَةُ أوْلادٍ تَملَّكُوا بعدَه .

تُوفِّيَ بدِمَشْقَ ، سنةَ أرْبع وثلاثين وثلاث مئة عن سِتٍّ وستِّينَ سَنة ثم نُقِلَ ، فدُفِنَ ببَيْتِ المَقْدِسِ غَفَرَ اللهُ له .

وقد حارَبَه ابنُ رائق فهَزَمَه الإخْشيذُ ، ثم سار أخو الإخْشيذِ ، فالْتَقَى ابنَ رائق فقُتلَ فنَدِمَ ابنُ رائق ، وبعَثَ ابنَه مُزاحماً إلى الإخْشِيذِ ليَقتُلَه بأخيه ، فعَفَا ، وخَلعَ علىٰ مُزاحِم ، ورَدَّه إلىٰ أبيه[٣] .

---

(١) هـٰذه ولايته الأولىٰ ، ودامت اثنين وثلاثين يوماً ولم يدخل مصر فيها ، أما ولايته الثانية والتي دامت إلىٰ أن مات فكانت سنة ٣٢٢هـ .

(٢) الأيد : القوَّة .

(٣) انظر السير : (الإخْشِيذ) ١٥/ ٣٦٥ـ٣٦٦ ، وانظر النزهة : ١٢٣٦/ الإخْشِيذ .

(١٦) دَوْلَةُ الطَّوَائف

دَوْلَةُ الطَّوَائف وتَأثِيرُها في غَلَبَة الصَّليبيِّين علىٰ بلاد الأنْدَلُس :

(أ) القَاسِمُ بنُ حَمُّود بن مَيْمون :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : الإدْريسيُّ ، والي إمْرَة الأنْدَلُسِ بعد مَقْتلِ أخيه عليِّ بنِ حَمُّود سنة ثمانٍ وأرْبَع مئَة .

وكان هادئاً سَاكناً ، أمِنَ النَّاسُ مَعَه ، وكان يَتشيَّعُ قَليلاً ، فبَقيَ في المُلْك إلىٰ سَنة اثنتي عَشْرة وأرْبَع مئة ، في رَبيع الأوَّل ، فخَرجَ عليه ابنُ أخيه يَحْيَىٰ بنُ عَليِّ بنِ حَمُّود المُعْتَلي ، فهَربَ القَاسمُ من غَير قِتال إلىٰ إشْبيليَّة ، فاسْتمالَ البَرْبَرَ ، وجَمعَ وحَشَدَ ، وجاءَ إلىٰ قُرْطُبَة فهَربَ منه المُعْتَلي ثم اضْطَربَ أمرُ القاسم بعد قَليل ، وخَذَلَه البَرْبَرُ ، وتَفوَّقُوا في سنة أرْبَع عشرَة وأرْبَع مئة ، وتَغَلَّبَت كُلُّ فِرْقَة علىٰ بَلَدٍ من الأنْدَلُسِ ، وجَرَت خُطوبٌ وأمُورٌ يَطولُ شَرحُها وتَفرَّقَت الكَلمَةُ ، وصَارَ في الأنْدَلُسِ عِدَّةُ مُلوك .

وصارَ الأمْرُ في غايَة الأُخْلُوقَة ، اجْتمَعَ في الوقْت أربعة يُدْعَوْنَ بأميرِ المؤمنين في رُقْعَةٍ من الأنْدَلُسِ ، مِقْدارُ ما بَينهم ثَلاثُون فَرْسَخاً في مثْلِها وغَلبَ علىٰ كُلِّ قُطْرٍ مُتغَلِّبٌ تَسَمَّىٰ بالمَأمونِ ، ومنهم مَنْ تَسَمَّىٰ بالمُعْتَصِم ، وآخَرُ بالمُتَوكِّل ، حتىٰ قال الحَسنُ بنُ رَشيق :[1] .

مِمَّا يُزَهِّدُنِي في أرْضِ أنْدَلُسٍ ... سَمَاعُ مُعْتَصِمٍ فيها ومُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ

وقال الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَة ابنِ عَبَّاد : قالَ ابنُ حَزْم : فَضيحَةٌ! أرْبَعةُ رجال في مَسافَة ثَلاثَة أيَّام يُسَمَّوْنَ أمير المؤمنين في وَقْت ، أحَدُهم خَلَفُ الحصريُّ بإشْبيليَّة علىٰ

---

(١) انظر السير : (القاسمُ بن حَمُّود بن مَيْمون) ١٧/١٣٦ ، وانظر النزهة : ١٣٣٠/ القاسم ابن حَمُّود بن ميمون .

أنَّه المؤيَّدُ بالله ، والثاني مُحمَّدُ بنُ القاسِم الإدْريسيُّ بالجَزيرَةِ الخَضْراء ، والثالثُ محمَّدُ بنُ إدْريس بنِ عَليّ بنِ حَمُّود بمَالِقَة ، والرابعُ إدْريسُ بنُ يَحْيَىٰ بنِ عَليّ بنِ حَمُّود بشَنْتَرين فهٰذه أُخْلوقَةٌ لمْ يُسْمَع بمِثلِها!![1] .

(ب) المَأْمُون :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمَة المَأمُون مَلِكِ طُلَيْطِلَة ، أبو زَكريّا ، يَحْيَىٰ بنُ صاحبِ طُلَيْطِلَةَ الأميرِ إسْماعيلَ بنَ عبدِ الرَّحمَٰنِ بنِ عامِرْ الهَوَّاريُّ ، الأنْدلُسيّ .

اسْتَوْلَىٰ أبُوهُ على البَلَدِ بعدَ العِشْرينَ وأرْبَع مِئَة ، ونَزَعُوا طاعَةَ المَرْوانيّة ، وتَمَلَّكَ المَأمُونُ بعدَ أبيه سَنةَ خَمسٍ وثَلاثينَ ، فامْتدَّتْ أيامُه خَمساً وعِشرينَ سَنةً ، عَاكِفاً على اللّذَّاتِ والخَلاعَة ، وصَادَرَ الرَّعِيَّة وهادَنَ العَدُوَّ ، وقَدِمَ الأطْرافَ ، فطَمِعَتْ فيه الفِرَنْجُ ، بَلْ في الأنْدلُسِ وأُخِذَتْ عِدَّةُ حُصُونٍ إلىٰ أنْ أخَذُوا منهم طَلَيْطِلَةَ في سَنةِ ثَمانٍ وسَبعين وأربَع مِئَة ، وجَعَلُوها دارَ مُلْكِهم ـ فإنَّا لله وإنَّا إلَيْهِ راجِعُون ـ وكان المَأمُونُ أرادَ أنْ يَسْتَنْجِدَ بالفِرَنْجِ علىٰ تَمَلُّكِ مَدائنِ الأنْدلُسِ ، فكاتَبَ طاغِيَتَهم : أنْ تَعَالَ في مِئَةِ فارِسٍ ، والمُلتَقَىٰ في مكانِ كَذَا ، فسَارَ في مِئَتَينِ ، وأقْبَلَ الطَّاغِيَةُ في سِتَّةِ آلافٍ ، وجَعَلَهم كَميناً له ، وقالَ : إذا رَأيْتُمُونا قد اجْتَمَعْنا ، فأحِيطُوا بنَا فلمَّا اجْتَمَعَ المَلِكَانِ أحَاطَ بِهم الجَيشُ ، فنَدِمَ المَأمُونُ ، وحَارَ ، فقالَ الفِرَنْجيُّ : يا يَحْيَىٰ ، وحَقِّ الإنْجيلِ كُنتُ أظُنكَ عاقِلاً ، وأنْتَ أحْمَقُ!! جِئْتَ إليَّ ، وسَلَّمْتَ مُهْجَتَكَ بِلا عَهْدٍ ولا عَقْدٍ ، فلا نَجَوْتَ منِّي حتّىٰ تُعطِيَني ما أطْلُبُ قالَ : فاقْتَصِدْ فسَمَّىٰ له حُصُوناً ، وقَرَّرَ عليه مالاً في كُلِّ سَنَةٍ ، ورَجَعَ ذَليلاً مَخْذُولاً ، وذَلكَ بمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ تُوفِّي سَنَةَ ستّينَ وأربَعِ مِئَة[2] .

(ج) المُعْتَمِد بن عَبَّاد وابنُه المُعْتَضِد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : صاحبُ الأنْدَلُسِ ، المُعْتَمدُ على الله أبو القاسِم مُحمَّدُ بنُ المَلكِ المُعْتَضدِ بالله أبي عَمرو ، عبادِ ابنِ الظَّافرِ بالله أبي القاسم ، قاضي

---

(١) انظر السير : (ابنُ عبَّاد) ١٧/ ٥٢٧ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٧ .

(٢) انظر السير : (المَأمُون) ١٨/ ٢٢٠ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١٤٠٤/ المَأمون .

إشْبيليَّة ، ثم مَلكُها ، محمدُ بنُ إسماعيلُ بنِ قُرَيش اللَّخْميُّ .

حَكَم المعتمد على المدينَتين قرطبة وإشبيلية ، وأصلهم من الشام من بلدِ العَريش فدَخلَ أبو الوَليد إسْماعيلُ بن قُريش إلى الأنْدَلُسِ ، ثم بَرَعَ في الفِقْه ، ووَلِيَ القَضاءَ ، ثم تَملَّكَ مُدَّة ، وقامَ من بعد ابنُه المُعْتَضدُ ، فسَاسَ المَمْلكةَ بإشْبيليَّة ، وبايَعوهُ بالمُلْكِ في سنة ثَلاث وثلاثين وأرْبع مئة .

وكان شَهْماً ، صارِماً ، داهِيَةً ، ذَبَحَ جَماعَةً من أعْوانِ أبيه وصادَرَهم ، وعَلا شَأنُه ، ودانَت له الأُمَمُ .

غَرزَ خَشباً فيّ قَصْره ، وعَمَّمَها برُؤوس كِبارٍ ومُلوكٍ ، وكانوا يُشَبِّهونَه بالمَنْصُورِ العَبَّاسيِّ ورامَ ابنُه إسْماعيلُ اغْتيالَه ، فأخَذَه ، وضَرَبَ عُنقَه ، وعَهِدَ إلى ابنِه المُعْتَمِد .

قيلَ : سَمَّه طاغِيَةُ الفِرَنْج في ثوبٍ فاخِرٍ ، أهْداهُ له[1] .

ومن جَبَروتِه وعُتوِّه أنَّه أخَذَ مالاً لأعْمَىٰ ، فحَجَّ وجَاوَرَ بمَكَّةَ ، فبَلغَ المُعْتَضدَ أنَّه يَدعُو عليه ، فنَدبَ رَجلاً أعْطاهُ جُملةَ دَنانيرَ مَطْليَّة بسُمٍّ فسَارَ إلىٰ مَكَّة ، وأَوْصَلَه الذَّهَبَ ، فقالَ : يَظْلِمُني بإشْبيليَّة ، ويَصلُني هُنا ؟! ثم وَضَعَ منها دِيناراً في فَمِه ، كعَادَة الأضِرَّاء ، فمَاتَ من الغَدْ[2] .

وقد سَكِرَ لَيلَةً ، وخَرجَ في اللَّيلِ مَعه غُلامٌ ، وسَارَ مَخْموراً ، حتىٰ وَافَىٰ قَرْمُونَه[3] ، وصَاحبُها إسْحاقُ البِرْزال ، وبَينَهما حُروبٌ ، وكانَ يَشْرَبُ أيْضاً في جَماعَة ، فاسْتأذَنَ المُعْتَضدُ ، ودَخلَ ، فزادَ تَعجُّبهُم فسلَّمَ وأكَلَ وألَّ[4] من سُكْرِه وسُقطَ في يدِه ، لكنَّه تَجلَّدَ ، ثم قال : أُريدُ أنْ أنامَ ففرَشُوا له ، فتَناوَمَ ، فقَالَ بَعضُهم : هـٰذا كَبشٌ سَمينٌ ، والله لو أنْفَقتُم مُلكَ الأنْدَلُسِ عليه ما قَدِرْتُم فقالَ مُعَاذُ بنُ أبي قُرَّة : كلاَّ ، رَجلٌ قَصدَنا ونَزَلَ بنا مُستأمِناً ، لا تَتَحدَّثُ عنَّا القَبائلُ أنَّا قَتَلنا ضَيْفَنا

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٥٧ .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٧ .

(٣) غربي قرطبة وشرقي إشبيلية ، قديمة البنيان .

(٤) في اللسان آلَّ في سَيره ومَشيه ، إذا أسْرَعَ واهتز واضطرب

ثم انتُبَه وقامَ ، فقبَّلُوا رَأسَه ، وقال للحَاجِبِ : أيْنَ نَحْنُ ؟ قالَ : بَين أهْلِك وإخْوانِك قالَ : هَاتوا دوَاةً ، فكَتبَ لكُلّ منهم بخِلْعَة ومالٍ وأفْراسٍ وخَدَم وأخَذَ مَعَه غِلْمَانَهم لقَبْضِ ذلك ، ورَكبَ ، فمَشَوا في خِدْمتِه لكنْ أساءَ كُلَّ الإساءَة ، طَلبَهم بعدَ أشْهُر لِوَليمَة ، فأتاهُ سِتُّون منهم فأكْرَمَهم وأنْزَلَهم حَمَّاماً ، وطيَّنَه عليهم سِوَىٰ مُعَاذ ، وقال لمُعَاذ : لم تُرَعْ ، حَضَرَتْ آجَالُهم ، ولَوْلاكَ ، لقَتلُوني ، فإنْ أرَدْتَ أنْ أُقاسِمَكَ مُلْكي ، فَعَلتُ ، قال : بل أُقيمُ عِندَكَ ، وإلاَّ بأي وَجْه أرْجِعُ ، وقد قَتلتَ سَاداتَ بَني برْزال ، فصَيَّرَه من كِبارِ قُوَّادِه ، وكانَ من كِبارِ قُوَّاد المُعْتَمِد .

هَلكَ المُعْتَضِدُ سَنةَ أرْبع وسِتِّينَ وأرْبَع مِئَة .

قال أبو بَكْر مُحمدُ بنُ اللبانَة الشَّاعِرُ : مَلكَ المُعْتَمِدُ من مُسَوَّراتِ البلادِ مِئتَيْ مُسَوَّر ، ووُلِدَ له مئةٌ وثلاثَةٌ وسَبْعُونَ وَلداً ، وكانَ لمَطْبَخه في اليوم ثَمانيَةَ قَناطِير لحْم ، وكُتَّابُه ثَمانيَة عَشَر[1] .

قال ابنُ خَلِّكان : كان الأذْفونشُ قد قَوِيَ أمْرهُ ، وكانت المُلُوكُ بالأنْدَلُسِ يُصالِحُونَه ، ويَحْمِلُون إليه ضَرَائِبَ ، وأخَذَ طُلَيْطِلَةَ في سَنةِ ثمَانٍ وسَبعِين بعد حِصارٍ شَديدٍ من القَادِرِ بنِ ذي النُّونِ ، فكانَ ذلكَ أوَّلَ وَهْنٍ دَخَلَ من الفِرَنْج على المُسلِمين ، وكان المُعْتَمِدُ بنُ عَبَّاد يُؤَدِّي إليه ، فلمَّا تَمَكَّنَ لَمْ يَقْبَل الضَّريبَةَ وتَهَدَّدَه ، وطَلَبَ منه أنْ يُسَلِّمَ حُصُوناً ، فضَرَبَ الرسُولَ وقَتَلَ مَنْ معَه ، فتَحَرَّكَ اللَّعِينُ ، واجْتَمَعَ العُلَماءُ واتَّفَقُوا علىٰ أنْ يُكاتِبُوا الأميرَ أبا يَعْقُوبَ بنَ تاشِفينَ صاحِبِ مَرَّاكُش ليُنْجِدَهم ، فعَبَرَ ابنُ تاشِفين بجُيُوشِه إلى الجَزِيرَة ، ثمَّ اجْتَمَعَ بالمُعْتَمِدِ ، وأقْبَلَتِ المُطَّوِّعَةُ من النَّواحِي ، ورَكِبَ الأذْفونشُ في أرْبَعِينَ ألفَ فارسٍ ، وكَتَبَ إلى ابنِ تاشِفين يَتَهَدَّدُه ، فكَتَبَ في ظَهْرِ كِتَابِه : « الذِي يكُونُ سَتَراه » ثمَّ الْتَقَى الجَمْعَانِ واصْطَدَمَ الجَبَلانِ بالزَّلاَّقَةِ من أرْضِ بَطَلْيَوْس[2] فانْهَزَمَ الكَلْبُ ، واسْتُؤْصِلَ جَمْعُه ، وقَلَّ مَنْ نَجَا في

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٥٧ .

(٢) مدينة كبيرة بالأندلس ، تقع على الحدود الشرقية للبرتغال ، كانت عاصمة بني الأفطس التجيبيين في عهد ملوك الطوائف .

رَمَضَانَ سَنة تِسْعٍ وسَبعِين ، وجُرِحَ المُعْتَمِدُ في بَدَنِه ووَجْهِه ، وشُهِدَ له بالشَّجَاعَةِ والإقْدَامِ ، وغَنِمَ المُسْلِمون ما لا يُوصَفُ ، وغَدَا[1] ابنُ تاشِفين[2] .

ثم عَبرَ في العامِ الآتي ، وتَلقَّاه المُعْتَمدُ ، وحاصَرا حِصْناً للفِرَنْج وتَرجَّلَ ابنُ تاشفين ، فمَرَّ بغَرْناطَةَ ، فأخْرَجَ إليه صاحبُها ابنُ بُلُكِّين تَقادِمَ وهَدايا وتَلقَّاهُ ، فغَدَرَ به ، واسْتوْلَىٰ علىٰ قَصْرِه ، ورَجعَ إلىٰ مَرَّاكِشَ وقد بَهَرَه حُسْنُ الأنْدَلُس وبَساتينُها ، وحَسَّنَ له أُمَراؤُه أخْذَها ، ووَحَّشوا قَلبَه على المُعْتَمِد[3] .

قالَ عبدُ الواحد بنُ عَليّ : غَلبَ المُعْتَمِدُ علىٰ قُرْطُبَة في سَنة إحْدَىٰ وسَبعينَ وأرْبَع مئة ، فأخْرَجَ منها ابنَ عُكَّاشَة ، إلىٰ أنْ قالَ : وجَالَ ابنُ تاشفين في الأنْدَلُسِ يَتفرَّجُ ، مُضْمِراً أشْياءَ ، مُعَظِّماً للمُعْتَمِدِ ، ويَقولُ : نَحْنُ أضْيافُه وتَحْت أمْرِه ، ثم قَرَّر ابنُ تاشفين خَلْقاً من المُرابِطين يُقيمونَ بالأنْدَلُسِ ، وأحَبَّ الأنْدَلُسيُّونَ ابنَ تاشفين ، ودَعُوا له ، وجَعلَ عندَهم بُلَّجين قَرابَته ، وقَرَّر معه أموراً ، فهاجَت الفِتْنَةُ بالأنْدَلُس في سَنة ثلاثٍ وثَمانين وأرْبَع مئة ، وزَحَفَ المُرابِطُون ، فحاصَروا حُصُوناً للمُعْتَمِد ، وأخَذوا بَعضَها ، وقَتلُوا وَلدَه المَأمُونَ في سَنةِ أرْبَع ، فاسْتَحْكمَت الإحْنَةُ ، وغَلَت مَراجِلُ الفِتْنَة ، ثم حاصَروا إشْبيليَّة أشَدَّ حِصَار ، وظَهَر من بأسِ المُعْتَمِد وتَرامِيه على الاسْتِشْهاد ما لَمْ يُسْمَعْ بمثلِه ، وفي رَجَب سَنة أرْبع وثَمانين وأرْبَع مئَة ، هَجَمَ المرُابِطُون على البَلدِ وشَنُّوا الغَارَاتِ ، وخَرجَ النَّاسُ عَرايَا ، وأسَروا المُعْتَمِدَ[4] .

قالَ عبدُ الواحِد : بَرَزَ المُعْتَمِدُ من قَصْرِه في غِلالَة ، بلا دِرْع ولا دَرَقَةٍ وبيدِه سَيفُه ، فرَمَاهُ فارسٌ بحَرْب أصابَ الغِلالَةَ ، وضَربَ الفارِسَ فقتلَه فوَلَّتِ المُرابِطُون ، ثم وَقْت العَصْر ، كَرَّت البَرْبَرُ ، وظَهَروا على البَلدِ من وَادِيه ، ورَمَوْا فيه النَّارَ ، فانْقَطعَ العَملُ ، واتَّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقِعِ بقُدوم ابنِ أخي السُّلطان ، ولَمْ يَترُكِ البَرْبَرُ لأهْلِ البَلَدِ شَيئاً ، ونُهبَت قُصورُ المُعْتَمِد ، وأُكْرِهَ علىٰ أنْ كَتبَ إلىٰ وَلَدَيْه أنْ يُسلِّما الحِصْنَيْنِ

---

(١) أي رجع إلىٰ بلاده .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٥٨ .

(٣) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٥٩ .

(٤) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٩ .

وإلاَّ قُتلتُ ، فدَمِي رَهْنٌ علىٰ ذلك، وهُما الْمُعْتَدُّ والرَّاضِي، وكانا في رُنْدَة ومارْتله فنَزلا بأمانٍ ومَواثيقَ كاذبَةٍ فقتَلوا الْمُعْتَدَّ وقتَلوا الرَّاضِي غِيلَةً ، ومَضَوْا بالمُعْتَمِدِ وآله إلىٰ طَنْجَةَ بعد أنْ أفْقَرُوهم ، ثم سُجِنَ بأغْماتَ[1] عامَين وزيادَة ، في قِلَّةٍ وذِلَّةٍ[2] .

وقِيلِ : إنَّ بَناتِ المُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد أتَيْنَهُ في عيدٍ ، وكُنَّ يَغْزلْنَ بالأُجْرَة في أغْماتَ ، فرآهُنَّ في أطْمارٍ رَثَّة ، فصدَّعْنَ قَلبَه ، فقالَ :

فيمَا مَضَىٰ كُنْتَ بالأعْيَادِ مَسْرورا ... تَرَىٰ بنَاتِكَ في الأَطْمَارِ جَائِعَةً
بَرَزْنَ نَحْوَكَ للتَّسْليمِ خَاشِعَةً ... يَطَأْنَ في الطِّينِ والأقْدامُ حافِيَةً
فَسَاءَكَ العيدُ في أغماتَ مَأسُورا ... يَغْزِلْنَ للنَّاسِ ما يَمْلِكْنَ قِطْمِيرا
أبْصَارُهُنَّ حِسيراتٍ مَكاسِيرَا ... كَأنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكاً وَكَافُورَا

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ مَوْلِدُه سَنةَ إحْدَىٰ وثَلاثينَ وأرْبَع مئة وماتَ سَنةَ ثَمانٍ وثَمانينَ وأرْبَع مئَة .

وقد سَمَّى ابنُ اللبَّانَة بَني المُعْتَمِد بأسْمائِهِم وألْقَابِهِم ، فعَدَّ نَحْواً من ثَلاثينَ نَفْساً ، وعَدَّ له أرْبَعاً وثَلاثينَ بِنْتاً .

قال الإمامُ الذهبيُّ : افْتَقَرُوا بالمرَّة ، وتَعلَّموا صَنائعَ ، كذلكَ الدَّهْرُ ، نَسألُ اللهَ المَغْفرةَ[3] .

عِماد الدَّولَة بن هُود :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : كان أحدَ مُلوك الأنْدَلُس في حُدود الخَمس مئة ، وهو من بَيتِ مَمْلكَة تَملَّكوا شَرقَ الأنْدَلُسِ ، فلمَّا استولى الْمُلثَّمونَ على الأنْدَلُسِ ، أبْقَىٰ يوسُفُ بنُ تاشفينَ على ابنِ هُود ، فلمَّا تَملَّك عليُّ بنُ يوسُف بعدَ أبيه كان فيه سَلامَةُ باطِنٍ ، فحَسَّنَ له وُزَراؤُه أخْذَ المُلكِ من ابنِ هُود ، حتىٰ قالوا له : إنَّ أمْوالَ

---

(١) أغَمات : ناحية من بلاد البَرْبَر المصامدَة من أرض المغرب قُربَ مَرَّاكِش .
(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٦٠ .
(٣) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٠ .

الْمُسْتَنْصِرِ العُبَيْدِيِّ صارَت في غَلاءِ مِصْرَ المُفْرِطِ تَحوَّلت كلُّها إلىٰ بَني هُود ، وقالوا : الشَّرْعُ يَأمُرُكَ أنْ تَسْعَىٰ في خَلعِهم لكَوْنِهم مُسالِمين الرُّومَ ، فجَهَّز لهم الأميرَ أبا بكر بنَ تيفلوت فتحصَّنَ عمادُ الدَّولَة برُوْطَة[1] ، وكتبَ إلىٰ عليِّ بنِ تاشْفينَ يَسْتعْطفُه في المُسالَمَة ، ويقولُ : « لَكُم فيمَا فَعلَه أبُوكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وسَيَعْلَمُ مُبرِمُ هـٰذا الرَّأي عندَكم سُوءَ مَغبَّتِه ، واللهُ حَسيبُ مَنْ معي وحَسْبُنَا اللهُ وكَفَىٰ » ، فأمَرَ عليُّ بنُ يوسُف بالكَفِّ وأنَّىٰ ذلك وقد أدْخَلتْه الرَّعيَّةُ سَرَقُسْطَة ، وكان ابنُ رُذْميرَ اللَّعينُ صاحبُ مَمْلكَةِ أَرَغُونَة من شرق الأندلس قِسِّيساً مُجرباً داهيَةً مُترَهِّباً ، فقَوِيَ علىٰ بلادِ ابنِ هُود ، وطَواهَا وقَنعَ عِمادُ الدَّولَة بنُ هُود بدَارِ سُكْناهُ ، وكانَ ابنُ رُذْميرُ لا يَتجَهَّزُ إلاَّ في عَسْكرٍ قَليلٍ كاملَ العُدَّة ، فيَلْقَىٰ بالألفِ آلافاً[2] .

قال اليسعُ بنُ حَزْم : حدَّثني عنه أبو القاسم هِلالٌ أحَدُ وُجُوه العَرب قالَ : كان بَيني وبَينَ الْمُرابِطينَ أمر أَلْجَأني إلى الوُفودِ على ابنِ رُذْمير ، فرحَّب بي ، وأمَرَ لي براتبٍ كَبير فحَضرتُ معه حَرْباً طُعِنَ عنه حِصانُه ، فوقَفتُ عليه ذابّاً عن حَوْزَته فلمَّا انْصَرفنا إلىٰ رشْقَة أمرَ الصَّوَّاغينَ بعَملِ كأسٍ من ذَهَبٍ رَصَّعَه بالدُّرِّ ، وكتبَ عليه : « لا يَشْربُ منْه إلاَّ مَنْ وَقَفَ علىٰ سُلْطانِه » فحضَرتُ يوماً فأخْرَجَ الكأسَ ، وملأه شَراباً ، وناوَلَني بحُضْرَة ألفِ فارِس ، ورَأيتُ أعْناقَهم قد اسْوَدَّت من صَدأ الدُّروع قال : فنادَيتُ ، وقُلتُ : غَيري أحَقُّ به ، فقالَ : لا يَشْرَبُ هـٰذا إلاَّ مَنْ عَملَ عَمَلَكَ وكان هِلالٌ هـٰذا من قَريَة هِلالِ بنِ عامِر ، تابَ بعدُ وغَزا مَعَنا ، فكانَ إذا حَضرَ في الصَّفِّ جَبَلاً راسياً يَمْنَعُ تَهائمَ الجُيوشِ أنْ تَميدَ ، وقَلْباً في البَسَالَة قَاسياً ، يَقولُ في مُقارَعَةِ الأبْطَالِ : هَلْ مِنْ مَزيد ؟ أبْصَرتُه ـ رَحمَهُ اللهُ ـ أُمَّةً وَحْدَه ، يَتحامَاهُ الفَوارِسُ[3] .

فحدَّثني عن ابنِ رُذْمير وإنْصَافِه قالَ : كنتُ معه بظاهر رُوْطَة وقد وجَّه إليه عِمادُ الدولة وَزيرَه أبا محمَّد عبدِ الله بن هَمُشْك الأميرَ رَسولاً ، فطَلبَ فارسٌ من ابنِ رُذْمير

---

(١) رُوطة : حصن من أعمال سَرَقُسْطَة ، حَصين جداً .

(٢) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٢٤ .

(٣) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٢٤ .

أنْ يُمكِّنَ من مُبارَزَة ابنِ هَمُشْك ، فقالَ : لا ، هو عِنْدنا ضَيفٌ ، فسَمعَ بذلك ابنُ هَمُشْك ، وأمْضَى ابنُ رُذْميرُ حاجَتَه ، وصَرفَه فقالَ : لا بد لي من مُبارَزَة هـٰذا فأمَرَ الملكُ ذاكَ الفارسَ بالمُبارَزَة وقالَ : هـٰذا أشْجَعُ الرُّوم في زَمانِه ، فانْصَرفَ عبدُ الله يُريدُ رُوْطَة وخَرجَ وَراءَه الرُّوميُّ شاكّاً في سِلاحِه ، وما مع ابنِ هَمُشْك دِرْعٌ ولا بَيْضَةٌ فأخَذَ رُمْحَه وطارِقَتَه من غُلامِه ، وقَصَدَ الرُّوميَّ ، فحَملَ كلٌّ منهما على الآخَرِ حَمَلاتٍ ، ثم ضَربَه ابنُ هَمُشْك في الطَّارِقَة فأعانَه اللهُ فانْقَطَعَ حِزامُ الفارسِ ، فوَقعَ بسَرْجِه إلى الأرض ، فطَعنَه ابنُ هَمُشْك فقَتلَه والمَلِكُ يُشاهِدُه علىٰ بُعْد ، فهَمَّت الرُّومُ بالحَمْلَة على ابنِ هَمُشْك فمَنعَهم المَلكُ ، ونزَلَ غُلامُ ابنِ هَمُشْك ، فجرَّدَ الفارسَ ، وسَلبَه ، وأخَذَ فَرسَه ، وذَهبَ لم يَلتفِتْ إلىٰ ناحِيَتِنا فما أدْري مِمَّ أعْجَبُ ، من إنْصافِ المَلِك ، أو من ابنِ هَمُشْك كيفَ مَضَىٰ ولمْ يُعَرِّجْ إلينا ؟! .

وأقام ابنُ رُذْمير محاصراً سَرَقُسْطَة زماناً ، وأخذ كثيراً من حُصُونِها فلمَّا رَأي أبو عبدُ الله محمدُ بنُ غَلْبُون القائدُ ما حَلَّ بتلك البلادِ من الرُّوم ، ثارَ بدورقة وقَلعَة أيُّوب ومدينَة ، وجَمعَ وحَشدَ ، وكافَحَ ابنَ رُذْميرَ واسْتولَىٰ أبو بكر بنُ تيفلوت علىٰ سَرَقُسْطَة ، وأقامَ بقَصرها في لذَّاتِه ، وأمَّا ابنُ غَلْبُون ، فأحْسَنَ السِّيرَة ، وعَدلَ ، وجاهَدَ ورُزِقَ الجُنْدَ ، رأيتُه رَجلاً طُوالاً جداً ، واجتمعتُ به ، أقامَ مُثاغراً لا بن رُذْمير شجىً في حَلْقه ، الْتَقَىٰ مرَّة في ألفِ فارسٍ لا بنِ رُذْمير ، والآخَرُ في ألفٍ ، فاشْتدَّ بينهما القِتالُ ، وطالَ ، ثم حَملَ ابنُ غَلْبُون على ابنِ رُذْمير ، فصَرعَه عن حِصانِه ، فدَفَعَ عنه أصْحابُه فسَلِمَ ، ثم انْهَزَموا ، ونَجا اللَّعينُ في نَحْو المئتَين فقط ، وأمَّا ابنُ تيفلوت فإنَّه راسَلَ ابنَ غَلْبُونَ ، وخَدعَه ، حتىٰ حَسَّنَ له زيارة أمير المسلمين عليِّ ابنِ يوسُف ، فاسْتَخلَفَ علىٰ بلادِه وَلدَه أبا الْمُطرف ، وكان من الأبْطالِ المَوْصُوفين أيضاً ، فقَدمَ محمدٌ مَرَّاكش ، فأُمْسِكَ ، وأُلْزِمَ بأنْ يُخاطِبَ بَنيهِ في إخْلاء بلادِه للمُرابطين ، فأخْلُوها طاعَةً لأبيهم ، وتَرحَّلوا إلىٰ غَربِ الأنْدَلُس ، ففَرِحَ بذلك ابنُ رُذْمير وحَصَرَ سَرَقُسْطَة ، وصَنعَ عليها بُرْجَين عَظيمَين من خَشَب ، وإنَّ أهلَها لَمَّا يَئِسُوا من الغِياثِ ، خَرجوا وأحْرَقوا البُرْجَين ، واقْتَتلوا أشَدَّ قِتالٍ ، وكَتبوا إلى ابنِ تاشِفين يَسْتَصْرِخُون به ، وماتَ ابنُ تيفلوت ، وذلكَ في سنة إحْدَىٰ عَشرَة وخَمس مئة ،

فأنْجَدَهم بأخِيه تَميمِ ابنِ يوسُف ، فقَدمَ في جَيشٍ كَبير ، وعَنَّى ابنُ رُذْمير جُيوشَه ، ففَرِحَ أهْلُ سَرَقُسْطَة بتَميم ، فكانَ عليهم لا لَهُم .

جاء مُواجِهَ المدينة ، ثم نَكَّبَ عنها ، وكان طائفَةٌ من خَيلِها ورَجِلِها قد تلَقَّوه ، فحَملَ عليهم حَمْلَةً قَتلَ منهم جَماعَةً كَثيرة ، ثم نَكبَ عن لقاءِ العَدوِّ ، وانْصَرفَ إلىٰ جهاتِ المورالة ، واشْتدَّ البَلاءُ على البَلدِ ثم سَلَّموهُ بالأمَان ، علىٰ أنَّ مَنْ شَاءَ أقَامَ به[1] .

وكان ابنُ رُذمير مَعروفاً بالوفاء ، حدَّثَني مَنْ أثقُ به أنَّ رجلاً كانت له بنتٌ من أجْمل النساء ففقَدَها ، فأُخْبِرَ أنَّ كَبيراً من رؤوس الرُّوم خَرجَ بها إلىٰ سَرَقُسْطَة ، فتَبعَه أبَواها وأقاربُها ، فشَكَوه إلى ابنِ رُذْمير ، فأحضرَه ، وقال : عليَّ بالنارِ ، كيف تَفعَلُ هـٰذا بمَنْ هو في جِواري ؟ فقالَ الرُّوميُّ : لا تَعْجَل عليَّ ، فإنَّها فرَّت إلىٰ ديننا ، فجيء بها ، فأنكَرَت أبَوَيْها ، وارتَدَّت ولمّا دخلَ سَرَقُسْطَة ، أقرَّهم على الصلاة في جامِعِها سبعةَ أعوام ، وبعد ذلك يعمل ما يَرىٰ ، وحاصَر قُتُنْدَة[2] بعد سَرَقُسْطَة سَنتَين ، فلمّا كان في آخر سنة أربع عشرة ، قصَدَه عبد الله ابنُ حيونة في جَيشٍ فيهم قاضي المَريّة ، أبو عبد الله بنُ الفراء ، وأبو علي ابنُ سُكَّرة ، فبرزَ لهمُ اللَّعينُ ، فقَتلَ خَلْقاً ، وأُسرَ آخرون ، واستُشْهدَ المَذْكوران ، فبنىٰ عليهم ابنُ رُذْمير قُبوراً ، ثم سُلِّمَ البلدُ إليه ، وأخذَ في تلك المدة دورقة ، وقلعة أيُّوب ، وطَرَسُونة ، وأكثر من مئتي مسوَر ، ولم يَبْقَ أكثرُ من ثلاثة مدائن لم يأخذها ، وبقي من أعمال بَني هود لاردةُ وإفراغة ، وطُرْطُوشَة ، وغير ذلك معاملة عشرة أيام لم يَظْفَرْ اللَّعينُ بها ، فقام بِلاردةَ الهُمامُ البَطَلُ أبو محمد ، وقام بإفراغةَ الزاهدُ المُجاهدُ محمد مَردنيش الجُذامي جَدُّ الأمير محمد بن سَعْد[3] .

أحْمد بن عبد المَلك بن هُود :

قال الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : المُلقَّبُ بالمُسْتَنْصِر بالله الأنْدلُسيّ ، مَنْ بَيتِ مَمْلَكَةٍ

---

(١) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٥ .

(٢) وهي ثَغر سَرَقُسْطَة من قُرىٰ مرسيه .

(٣) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٦ .

وحِشْمَةٍ ، وأمْوالٍ عَظيمَةٍ ، وكانَ بِيَدِه قِطْعَةٌ من الأنْدلُسِ ، فاسْتَعَانَ بالفِرَنْجِ علىٰ إقامَةِ دَولَتِه[1] .

ذَكرَهُ اليَسَعُ بنُ حَزْم ، فقالَ : انْعَقَدَ الصُّلْح بينَ المُسْتَنْصِرِ بنِ هُودٍ وبينَ السُّليطَينِ مَلكِ الرُّوم وهو ابنُ بِنتِ أذْفُونْش إلىٰ مُدَّةِ عِشرِينَ سَنة علىٰ أنْ يَدْفَعَ للفِرَنْجِ رُوطَة ، ويَدْفَعُوا إلَيْهِ حُصُوناً عِوَضاً عنها ، ويُعِينُوهُ بخَمْسينَ ألْفاً من الرُّوم ، يَخْرُجُ بها إلىٰ بِلادِ المُسلمينَ لِيُمَلِّكَ فجَعَلَ اللهُ تَدْميرَهُ في تَدْبيرِهِ ، وكُنَّا نَجِدُ في الآثَارِ عنِ السَّلَفِ فَسَادَ الأنْدلُسِ علىٰ يَدَيْ بَنِي هُودٍ وصَلاحُها بَعدُ علىٰ أيْدِيهِم ، فخَرَجَ اللَّعينُ السُّليطينُ وابنُ هُودٍ في نَحْوٍ من أرْبَعينَ ألْفَ فارسٍ ، وتاشْفينُ بالزَّهْراءِ ، فقَصَدَ ابنُ هُودٍ جِهَةَ إشْبيليَّة ، وبَقِيَ يُنْفِقُ علىٰ جُيُوشِ السُّليطينِ نَحوَ ثَمانيَةَ أشْهُر ، وشَرطَ عليهِم أنَّهم لا يَأسِرُونَ أحَداً ، فحَدَّثَني المُسْتَنْصِرُ ـ وقَد نَدِمَ علىٰ فِعْلِه من شَيْطَنَة الشَّبيبَة وطَلَبِ مُلكِ آبائِه ـ فقالَ لي : الذي أنْفَقتُ في تِلكَ السَّفْرَةِ من الذَّهَبِ الخالِصِ ثلاثَةُ آلافِ ألْفِ دينارٍ ، والذي دَفَعتُ إلَيهِم من مَخَازِنِ رُوطَة من الدُّروعِ أرْبَعُونَ ألْفَ دِرْعٍ ، ومن البِيضِ مِثلَها ، ومن الطَّوارِقِ ثَلاثُونَ ألْفاً ، وذَكَرَ لي جَماعَةٌ أنَّه دَفَعَ إلى السُّليطينِ خَيْمَةً كان يَحْمِلُها أرْبَعُونَ بَغْلاً ، وذَكَرَ لي مُحمّدُ بنُ مَالكٍ الشَّاعِرُ أنَّه أبْصَرَ تِلكَ الخَيْمَةَ ، قال : فمَا سُمِعَ بأكْبَرَ منها قَطُّ ، ولمَّا طالَتْ إقامَتُه على البِلادِ ، ولَمْ يَخْرُجْ إلى ابنِ هُودٍ أحَدٌ ، رَجَعَ ومَعهُ ابنُ هُودٍ ، ولَمْ يَكنْ معَ ابنِ هُودٍ إلاَّ نَحواً من مِئَتَيْ فارسٍ ، فأقَامَ ابنُ هُودٍ بطُلَيْطِلَة ليَذْهَبَ منها إلىٰ حُصُونِه التي عُوِّضَ بها ـ وبِئْسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً ـ ثمَّ إنَّ قُرْطُبَةَ اضْطَرَبَ أمْرُها ، واشْتَغَلَ أميرُ المسلمين بما دَهَمَهُ من خُرُوجِ التُّومَرْتيَّة[2] فَجاءَ المُسْتَنْصِرُ باللهِ أحمَدُ من مَدينَةِ غرليطش وقَصَدَ قُرطُبَةَ ، وكان مُحَبَّباً إلى النَّاسِ بالصِّيتِ ، فبَرَزَ إليهِ ابنُ حَمْدين زَعيمُ قُرْطُبَة بِعَسْكَرِها ، فقَصَدَ عَسْكَرُها نَحوَ ابنِ هُودٍ طائِعينَ فَفَرَّ حِينَئذٍ ابنُ حَمْدين إلىٰ بُلَيْدَة ، ودَخَلَ ابنُ هُودٍ قُرْطُبَةَ بِلا كُلْفَةٍ ولا ضَرْبَةٍ ولا طَعْنَةٍ ، فاسْتَوْزَرَ أبا سَعيدٍ المَعْرُوف بِفَرَجِ الدَّليل ، وكاتَبَ نُوَّابَ البِلادِ ، ففَرَحُوا به

---

(١) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هُود) ٢٠/ ٤١ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٧ .

(٢) هم جماعةُ مُحمّد ابن عبد الله ابن تومرت ـ مَهْديُّ المَغرب ـ زَعيمُ الموَحِّدين .

لأصالَتِه في المُلْكِ ، ثم خَرَجَ فَرَجُ الدَّليلِ إلىٰ حِصْنِ المُدَوَّر ، فقِيلَ لابنِ هُودٍ : قد نَافَقَ وفَارَقَ ، فخَرَجَ بنَفْسِه واستَنْزَلَه من الحِصْنِ ، فنزَلَ غيرَ مُظْهِرٍ خِلافاً ، وكان رَجُلاً صَالِحاً فقتَلَه صَبْراً ، فسَاءَ ذَاكَ أهْلَ قُرْطُبَة ، وثارَتْ نُفُوسُهم ، وعَظُمَ عَليهِم قَتْلُ أَسَدٍ من أُسْدِ الله ، فزَحَفُوا إلى القَصْرِ ، فَفَرَّ ابنُ هُودٍ من قُرْطُبَة فقَصَدَها ابنُ حَمْدين ، فأدْخَلَهُ أهْلُهُ ، وكَثُرَ الهيجُ ، واشْتَدَّ البَلاءُ بالأنْدَلُسِ ، وغَلَتْ مَرَاجِلُ الفِتْنَة ، وأمَّا أبُو مُحمّد ابنُ عِياضٍ ، فكَانَ علىٰ مَمْلَكَةِ لاردَة ، فخَرَجَ في خَمْسِ مِئَةِ فارسٍ ليَسْعَىٰ في إصْلاحِ أمْرِ الأُمَّة وقَصَدَهُ أهلُ مَرْسيّة وبَلَنْسيّة ليُمَلِّكُوهُ عليهِم ، فامْتَنَعَ ، ثمَّ بايَعَ أهلُ بَلَنْسيّة عن الخَليفَةِ عبدِ الله العَبَّاسيّ ، ثمَّ اتَّفَقَ ابنُ عِياضٍ وابنُ هُودٍ على اسْمَ الخِلافَة لأميرِ المُؤمِنينَ العَبَّاسيّ ، وأنَّ النَّظَرَ في الجُيُوشِ والأمْوالِ لابنِ عِياضٍ رَحِمَهُ الله ، وأنَّ السَّلْطَنَةَ لابنِ هُودٍ[1] .

(د) اسْتعانَة أُمَرائِها بالصَّليبيِّين على المُسْلمين :

جاءَ في تَرجَمَةِ أحمدِ بنِ عبدِ المَلِكِ ابنِ هُود ، قالَ الإمامُ الذهبيُّ : المُلقَّبُ بالمُسْتَنْصِر بالله الأنْدلُسيّ ، مَنْ بَيتِ مَمْلَكَةٍ وحِشْمَةٍ ، وأمْوالٍ عَظيمَةٍ ، وكانَ بِيَدِه قِطْعَةٌ من الأنْدلُسِ ، فاسْتَعَانَ بالفِرَنْجِ علىٰ إقامَةِ دَولَتِه[2] .

ذَكرَهُ اليَسَعُ بنُ حَزْم ، فقالَ : انْعَقَدَ الصُّلْح بينَ المُسْتَنْصِرِ بنِ هُودٍ وبينَ السُّليطَينِ مَلكِ الرُّوم وهو ابنُ بِنتِ أذْفُونْش إلىٰ مُدَّةِ عِشرِينَ سَنة علىٰ أنْ يَدْفَعَ للفِرَنْجِ رُوطَة ، ويَدْفَعُوا إلَيْهِ حُصُوناً عِوَضاً عنها ، ويُعِينُوهُ بخَمْسينَ ألْفاً من الرُّوم ، يَخْرُجُ بها إلىٰ بِلادِ المُسلمينَ لِيُمَلِّكَ فجَعَلَ اللهُ تَدْميرَهُ في تَدْبيرِه ، وكُنَّا نَجدُ في الآثَارِ عنِ السَّلَفِ فَسَادَ الأنْدلُسِ علىٰ يَدَيْ بَنِي هُودٍ وصَلاحُها بَعدُ عَلىٰ أيْدِيهِم ، فخَرَجَ اللَّعينُ السُّليطينُ وابنُ هُودٍ في نَحْوٍ من أرْبَعينَ ألْفَ فارسٍ ، وتاشْفينُ بالزَّهْراءِ ، فقَصَدَ ابنُ هُودٍ جِهَةَ إشْبيليَّة ، وبَقِيَ يُنْفِقُ علىٰ جُيُوشِ السُّليطينِ نَحوَ ثَمانيَةَ أشْهُر ، وشَرطَ عليهِم أنَّهم لا يَأسِرُونَ أحَداً ، فحَدَّثَني المُسْتَنْصِرُ ـ وقَد نَدِمَ علىٰ فِعْلِه من شَيْطَنَة الشَّبيبَة وطَلَبِ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هُود) ٢٠/ ٤١ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٢٧ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هُود) ٢٠/ ٤١ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٢٧ .

مُلكِ آبائِه ـ فقالَ لي : الذي أنْفَقتُ في تِلكَ السَّفْرَةِ من الذَّهَبِ الخالِصِ ثلاثَةُ آلافِ ألْفِ دينارٍ ، والذي دَفَعتُ إلَيهِم من مَخَازِنِ رُوطَة من الدُّروعِ أرْبَعُونَ ألْفَ دِرْعٍ ، ومن البِيضِ مِثلَها ، ومن الطَّوارِقِ ثَلاثُونَ ألْفاً ، وذَكَرَ لي جَماعَةٌ أنَّه دَفَعَ إلى السُّليطينِ خَيْمَةً كان يَحْمِلُها أرْبَعُونَ بَغْلاً ، وذَكَرَ لي مُحمّدُ بنُ مَالكٍ الشَّاعِرُ أنَّه أبْصَرَ تِلكَ الخَيْمَةَ ، قال : فمَا سُمِعَ بأكْبَرَ منها قَطُّ ، ولمَّا طالَتْ إقامَتُه على البِلادِ ، ولَمْ يَخْرُجْ إلى ابنِ هُودٍ أحَدٌ ، رَجَعَ ومَعهُ ابنُ هُودٍ ، ولَمْ يَكنْ معَ ابنِ هُودٍ إلاَّ نَحواً من مِئَتَيْ فارِسٍ ، فأقَامَ ابنُ هُودٍ بطُلَيْطِلَة ليَذْهَبَ منها إلىٰ حُصُونِه التي عُوِّضَ بها ـ وبِئْسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً ـ ثمَّ إنَّ قُرْطُبَةَ اضْطَرَبَ أمْرُها ، واشْتَغَلَ أميرُ المسلمين بما دَهَمَهُ من خُرُوجِ التُّومَرْتيَّة[1] فَجَاءَ المُسْتَنْصِرُ باللهِ أحمَدُ من مَدينَةِ غرليطش وقَصَدَ قُرطُبَةَ ، وكان مُحَبَّباً إلى النَّاسِ بالصِّيتِ ، فبَرَزَ إليهِ ابنُ حَمْدين زَعيمُ قُرْطُبَة بِعَسْكَرِها ، فقَصَدَ عَسْكَرُها نَحوَ ابنِ هُودٍ طائِعينَ فَفَرَّ حِينَئذٍ ابنُ حَمْدين إلىٰ بُلَيْدَة ، ودَخَلَ ابنُ هُودٍ قُرْطُبَةَ بِلا كُلْفَةٍ ولا ضَرْبَةٍ ولا طَعْنَةٍ ، فاسْتَوْزَرَ أبا سَعيدٍ المَعْرُوف بِفَرَجِ الدَّليل ، وكاتَبَ نُوَّابَ البِلادِ ، ففَرَحُوا به لأصالَتِه في المُلْكِ ، ثم خَرَجَ فَرَجُ الدَّليلِ إلىٰ حِصْنِ المُدَوَّر ، فقِيلَ لابنِ هُودٍ : قد نَافَقَ وفَارَقَ ، فخَرَجَ بنَفْسِه واستَنْزَلَه من الحِصْنِ ، فنَزَلَ غيرَ مُظْهِرٍ خِلافاً ، وكان رَجُلاً صَالِحاً فقَتَلَه صَبْراً ، فسَاءَ ذَاكَ أهْلَ قُرْطُبَة ، وثارَتْ نُفُوسُهم ، وعَظُمَ عَليهِم قَتْلُ أَسَدٍ من أُسْدِ الله ، فزَحَفُوا إلى القَصْرِ ، فَفَرَّ ابنُ هُودٍ من قُرْطُبَة فقَصَدَها ابنُ حَمْدين ، فأدْخَلَهُ أهْلُهُ ، وكَثُرَ الهيجُ ، واشْتَدَّ البَلاءُ بالأنْدَلُسِ ، وغَلَتْ مَرَاجِلُ الفِتْنَة ، وأمَّا أبُو مُحمّد ابنُ عِياضٍ ، فكَانَ علىٰ مَمْلَكَةِ لاردَة ، فخَرَجَ في خَمْسِ مِئَةِ فارِسٍ ليَسْعَىٰ في إصْلاحِ أمْرِ الأُمَّة وقَصَدَهُ أهلُ مَرْسيّة وبَلَنْسيّة ليُمَلِّكُوهُ عليهِم ، فامْتَنَعَ ، ثمَّ بايَعَ أهلُ بَلَنْسيّة عن الخَليفَةِ عبدِ الله العَبَّاسيّ ، ثمَّ اتَّفَقَ ابنُ عِياضٍ وابنُ هُودٍ على اسْمَ الخِلافَة لأميرِ المُؤمِنينَ العَبَّاسيّ ، وأنَّ النَّظَرَ في الجُيُوشِ والأمْوالِ لابنِ عِياضٍ رَحِمَهُ الله ، وأنَّ السَّلْطَنَةَ لابنِ هُودٍ[2] .

---

(١) هم جماعةُ مُحمّد ابن عبد الله ابن تومرت ـ مَهْديُّ المَغرب ـ زَعيمُ الموَحِّدين .

(٢) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هُود) ٢٠/ ٤١ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٢٧ .

(١٧) الدَّوْلَة السَّلْجُوقية

(أ) طُغْرُلبَك :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : محمدُ بنُ ميكائيلَ ، السُّلطانُ الكَبيرُ ، رُكنُ الدِّينِ أبو طالِب .

أصلُ السلجوقية ، من بَرِّ بُخارَىٰ ، لهم عَددٌ وقوَّة وإقْدام ، وشَجاعَة وشَهامَة وزِعارَة ، فلا يدخلون تحت طاعة ، وإذا قَصدَهم مَلكٌ ، دَخلُوا البَرِّيَّة علىٰ قاعِدَةِ الأعْراب ، ولَمَّا عَبرَ السُّلطانُ مَحمودُ بنُ سُبُكْتِكين إلىٰ بلادِ ما وَراءَ النَّهْر وجدَ رأسَ السُّلجوقية قَويَّ الشَّوْكَة ، فاستمالَه ، وخَدعَه حتىٰ جاءَ إليه ، فقَبضَ عليه ، واستشارَ الأُمَراءَ فأشارَ بعضُهم بتَغْريقِ كِبارِهم ، وأشارَ آخَرون بقَطعِ إبْهاماتِهم ليُبْطِلَ رَمْيَهم ، ثم اتَّفقَ الرأيُ علىٰ تَفريقِهم في النَّواحي ، ووَضْعِ الخَراجِ عليهم فتَهذَّبوا ، وذَلُّوا فانْفَصلَ منهم ألفا خَركاه[1] ، ومَضوا إلىٰ كَرْمَانَ[2] ، ومَلِكُه يومئذ ابنُ بَهاء الدولَة بنُ عَضُد الدولَة بنُ بُوَيْه ، فأحْسَنَ إليهم ، ولمْ يلبَثْ أنْ ماتَ بعدَ الأرْبَع مئة ، فقَصَدوا أَصْبَهَانَ ، ونزَلوا بظاهِرِها ، وكان صاحِبُها عَلاءَ الدولَة ابنَ كاكَويه ، فرَغِبَ في اسْتِخْدامِهم ، فكَتبَ إليه السُّلطانُ مَحمودٌ يأمُرُه بحَرْبِهم ، فوَقَعَ بَينَهم مَصافٌّ ، ثم تَرحَّلوا إلىٰ أَذْربيجانَ ، وانْحازَ إخْوانُهم الذين بخُراسَانَ إلىٰ خُوَارَزْم وجبالِها ، فجَهَّزَ السُّلطانُ جَيشاً ضايَقُوهم نحو سَنتَين ، ثم قَصدَهم مَحمودٌ بنفسِه ، ومَزَّقَهم وشَتَّتَهم ، فماتَ وتَسلْطَنَ ابنُه مَسْعود ، فتألَّفَ الذين نزَلوا بأذْربيجانَ فأتاهُ ألفُ فارِس ، فاسْتَخدمَهم ، ثم لاطَفَ الآخَرين ، فأجابُوا إلىٰ طاعَتِه ثم اشْتغَلَ بحَربِ الهِنْد ، فإنَّهم خَرجُوا عَليه ، فخَلَت البلادُ للسُّلجُوقيَّة فهَاجُوا وأفْسَدوا .

---

(١) كلمة فارسية معناها الخيمة الكبيرة ، وفي « وفيّات الأعيان » : فانفصل منهم ألفا بيت .

(٢) قال ياقوت : هي ولاية مشهورة ذات بلاد وقرىٰ ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان ، إلىٰ أن قال : وكرمان أيضاً مدينة بين غَزْنَة وبلاد الهند ، وهي من أعمال غَزْنَة .

هـٰذا كلُّه ، والأخَوان طُغْرُلْبَك وجَغْريبَك في أرضِهم بأطْرافِ بُخارَىٰ ثم جَرَت مَلْحمَةٌ بينَ السُّلجُوقيَّة وبين مُتَوَلِّي بُخارَىٰ ، قُتلَ فيها خَلقٌ من الفِئَتَين ، ثم نَفَّذوا رَسُولاً إلى السُّلطانِ ، فحَبَسَه ، وجَهَّزَ جَيشَه لحَرْبِهم فالْتَقُوا ، فانْكَسرَ آلُ سُلْجوق ، وذَلُّوا ، وبَذَلوا الطَّاعَةَ لِمَسْعود ، وضَمنوا له أخْذَ خُوارَزْم ، فطَيَّب قُلوبَهم ، وانْخَدَعَ لهم ، ثم حَشَدَ الأخَوان وعَبَروا إلىٰ خُراسانَ ، وانْضَمَّ الآخَرون إليه وكثُروا ، وجَرَتْ لهم أمُورٌ يَطولُ شَرحُها إلىٰ أن اسْتولوا على الْمَمالِك ، فأخَذُوا الرَّيَّ في سَنة تِسْع وعِشْرينَ وأرْبَع مئة ، وأخَذُوا نِيسَابُورَ في سنة ثلاثين وأخَذوا بَلْخَ وغيرَ ذلك ، وضَعُفَ عنهم مَسْعود ، وتَحيَّزَ إلىٰ غَزْنَة ، وبَقُوا في أوائل الأمْرِ يَخْطُبونَ له حتىٰ تَمكَّنوا ، فراسَلَهم القائمُ بأمْرِ الله بقاضي القُضاة أبي الحَسَن الماوَرْديِّ ، ثم إنَّ طُغْرُلْبَك الْمَذْكورَ عَظُمَ سُلطانُه ، وطَوَى الْمَمالِكَ ، واسْتولَىٰ على العِراقِ في سنةِ سَبْع وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة ، وتَحبَّبَ إلى الرَّعيَّة بعَدلٍ مَشُوبٍ بجُورٍ ، وكان في نفسِه يَنْطَوي علىٰ حِلْم وكَرَمٍ ، وقيلَ : كانَ يُحافِظُ على الجَماعَة ، ويَصُومُ الخَميسَ والإثْنَينَ ، ويَبني المَساجِدَ ويَتصدَّقُ ، وقد جَهَّزَ رَسُولَه ناصِرَ بنَ إسْماعيلَ العَلَويَّ إلىٰ مَلِكَةِ النَّصارَىٰ فاسْتأذَنَها ناصِرٌ في الصَّلاةِ بجامِع قُسْطَنْطِينيَّة جَماعَةً يَومَ جُمعَة ، فأذنَتْ له ، فخَطبَ للخَليفَةِ القائم ، وكان هناك رَسُولُ خَليفَةِ مِصْرَ الْمُسْتَنْصِر فأنْكَرَ ذلك .

وذَكرَ الْمُؤيَّد في « تاريخِه » أنَّ في سَنة إحْدَىٰ وأرْبَعين وأرْبَع مئة بَعثَ مَلكُ الرُّوم إلىٰ طُغْرُلْبَك هَدايا وتُحَفاً ، والْتَمسَ الهُدنَة ، فأجَابَه وعَمَّرَ مَسْجدَ القُسْطَنْطِينيَّة ، وأقامَ فيها الخُطبَةَ لطُغْرُلْبَك ، وتَمكَّنَ مُلكُه[1] .

ولما تَمهَّدت البلادُ لطُغْرُلْبَك خَطبَ بنتَ الخَليفَة القَائِم ، فتَألَّمَ القائمُ ، واسْتَعْفَىٰ فلَمْ يُعْفَ ، فزَوجَّه بها ، ثم قدِمَ طُغْرُلْبَك بغدادَ للعُرْس .

وكانت له يَدٌ عَظيمَةٌ على القَائِم في إعادَة الخِلافَة إليه ، وقَطْع خُطبَة المِصْريِّين التي أقامَها البَسَاسيريُّ[2] .

---

(١) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/ ١٠٧ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ١٣٨٨ ـ ١٣٨٩/ طُغْرُلْبَك .
(٢) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/ ١٠٧ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ١٣٨٩/ ١ .

ثم نفَّذ طُغْرُلْبَك مئة ألف دينار برَسْم نَقْل الجَهَاز ، فعُملَ العُرسُ في صَفَر سَنةَ خَمسَة وخَمسينَ وأرْبَع مئة ، وأُجلسَت علىٰ سَرير مُذَهَّب ، ودَخلَ السُّلطانُ إلىٰ بَينِ يَدَيْها ، فقَبَّلَ الأرْضَ ، ولمْ يَكْشِفْ المنْديلَ عن وَجْهها ، وقدَّم تُحَفاً سَنيَّة ، وخَدَمَ وانصرف ، ثُم بَعثَ إليها عِقْدَينِ مُجَوْهَرَين ، وقِطَعةَ ياقُوتٍ عَظيمَة ، ثم دَخلَ من الغَدِ ، فقَبَّل الأرْضَ ، وجلسَ علىٰ سَريرٍ إلىٰ جانِبها ساعَةً ، وخَرَجَ وبَعثَ لها فَرَجيَّةَ نَسيجٍ مُكَلَّلَةً بالجَوْهَر ومِخْنَقَةً ـ أي قِلادَة ـ مُثَمَّنَةً ، وسُرَّ بها هـٰذا والخَليفَةُ في ألمٍ وحُزْنٍ وكَظْمٍ ، فأمَّا غيرُه من الخُلفاء الضُّعَفاء فَودُّه لو زَوَّجَ بنتَه بأمير عُتَقاءِ السُّلطان ، ثم إنَّ طُغْرُلْبَك خَلا بها ، ولم يُمَتَّع بنَعيم الدنيا ، بلْ ماتَ في رَمضانَ من السَّنة بالريِّ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وأرْبَع مئة ، وحُملَ إلىٰ مَرْوَ ، فدُفِنَ عند أخيه وقِيلَ : بلْ دُفِنَ بالريِّ ، وعاشَت الزَّوْجَة الخَليفَتيَّة إلىٰ سَنةِ سِتٍّ وتسْعينَ وأرْبَع مئة ، وصارَ مُلكُه من بعده إلى ابنِ أخيه السُّلطانُ ألْب آرْسلان[1] .

ولَمْ يُرْزَق طُغْرُلْبَك ولَداً ، وعاشَ سَبعينَ عاماً ، وكان بيَدِه خُوارَزْم ونيسابُور وبَغْداد والريّ وأصْبَهان ، وكان أخُوهُ إبراهيم يَنال قد حارَبَه ، وجَرَتْ أمُور ، وحصل في يدِه مَلِكٌ كَبيرٌ للرُّوم ، فبَذَلَ في نَفسِه أمْوالاً عَظيمَةً ، فأبَىٰ عليه فبَعَثَ نَصْرُ الدَّولَة صاحِبُ الجَزيرَة وميَّافارِقين يَشْفَعُ في فِكاكِه ، فبَعَثَه طُغْرُلْبَك إلىٰ نَصرِ الدَّولَة بِلا فِداءٍ فانْتَخَىٰ مَلِكُ الرُّوم ، وأهْدَىٰ إلىٰ طُغْرُلْبَك مِئَتَيْ ألفِ دينارٍ ، وخَمسَ مِئَةِ أسير ، وألْفاً وخَمسَ مِئَةَ ثَوْبٍ ، ومِئَةَ لَبِنَةٍ فِضَّة ، وألْفَ عَنْزٍ أبيض وثلاثِ مِئَة شِهْرِي[2] ، وبَعثَ إلىٰ نَصرِ الدَّولَة تُحَفاً ومِسْكاً كَثيراً[3] .

(ب) ألب آرْسَلان :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ ، المَلِكُ العَادِلُ ، عَضُدُ الدَّولَة ، أبو شُجاع ألْبَ آرْسَلان محمدُ بنُ السُّلطانِ جَغْريبَك داوُدَ بنِ ميكائيلَ بنِ

---

(١) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/١٠٧ـ١١١ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٠ .

(٢) قال في « الأساس » : والبرذَون الشِّهْري : بين الرَّمْكَة والفَرس العَتيق .

(٣) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/١٠٧ـ١١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٩٠ .

سَلْجوق التُّرْكُمانيُّ ، الغُزِّيُّ من عُظَماء مُلوكِ الإسْلامِ وأبْطالِهم[1] .

عَظُمَ أمْرُ السلطانِ ألْب آرسَلان ، وخُطِبَ له علىٰ مَنَابِرِ العِراقِ والعَجَم وخُراسَان ، ودانَتْ له الأُمَمُ ، وأحَبتْه الرَّعَايَا ، ولا سِيَّمَا لمَّا هَزَمَ العَدُوَّ فإنَّ الطَّاغِيَةَ عَظِيمَ الرُّومِ أَرْمانُوس حَشَدَ ، وأقْبَلَ في جَمْعٍ ما سُمِعَ بمِثْلِه في نَحوٍ من مِئَتَيّ ألفِ مُقاتِلٍ من الرُّومِ والفِرَنْج والكَرْج وغيرِ ذلك ، ووَصَلَ إلىٰ مَنازْكِرْد[2] وكان السُّلطانُ بخُوَيّ[3] قد رَجَعَ من الشَّامِ في خَمسَةَ عشرَ ألف فارسٍ ، وباقي جُيُوشِه في الأطْرافِ ، فصَمَّمَ على المَصافِّ ، وقال : أنا ألْتَقِيهم ـ وحَسْبِيَ اللهُ ـ فإنْ سَلِمْتُ ، وإلاَّ فابْنِي مَلِكْشاه وَلِيُّ عَهْدِي ، وسَارَ ، فالْتَقَىٰ يَزَكُة[4] ، ويَزَكُ القومِ فكَسَرَهم يَزَكُه ، وأَسَروا مُقَدَّمَهم ، فقَطَعَ السُّلطانُ أنْفَه ، ولمَّا الْتَقَى الجَمْعانِ وتَراءَى الكُفْرُ والإيمانُ ، واصْطَدَمَ الجَبَلانِ ، طَلَبَ السُّلطانُ الهُدْنَةَ ، قال أرْمَانُوسُ : لا هُدنَةَ إلاَّ ببَذْلِ الرَّيّ ، فحَمِيَ السُّلطانُ وشَاطَ ، فقال إمامُه : إنَّكَ تُقاتِلُ عن دينٍ وَعَدَ اللهُ بنَصْرِهِ ، ولَعَلَّ هٰذا الفَتْحُ باسْمِك ، فالتَقِهِم وقْتَ الزَّوَالِ ـ وكان يومَ جُمُعَة ـ قال : فإنَّه يكونُ الخُطَبَاءُ على المَنَابِرِ ، وإنَّهم يَدْعُونَ للمُجَاهِدينَ ، فَصَلَّوْا ، وبَكَى السُّلطانُ ، ودَعَا وأَمَّنُوا ، وسَجَدَ ، وعَفَّرَ وجْهَهُ وقال : يا أُمَرَاءُ! مَنْ شَاءَ فلْيَنْصَرِفْ ، فمَا ها هُنَا سُلطانٌ ، وعَقَدَ ذَنَبَ حصانِه بيَدِه ، ولَبِسَ البَيَاضَ وتَحَنَّطَ ، وحَمَلَ بجَيْشِه حَمْلَةً صادِقَةً ، فوَقَعُوا في وَسَطِ العَدُوِّ يَقْتُلُونَ كيفَ شَاؤُوا ، وثَبُتَ العَسْكَرُ ، ونَزَلَ النَّصْرُ ، ووَلَّتِ الرُّومُ ، واسْتَحَرَّ بهم القَتْلُ ، وأُسِرَ طاغِيَتُهم أرْمانُوس ، أَسَرَهُ مَمْلُوكٌ وهَمَّ بقَتْلِه ، فقال إفْرِنْجيٌّ : لا لا ، فهٰذا المَلِكُ وقرَأتُ بخَطِّ القِفْطِيِّ أنَّ ألْبَ آرسَلان بالَغَ في التَّضَرُّعِ والتَّذَلُّلِ ، وأخْلَصَ للهِ وكَيْفِيَّةِ أَسْرِ الطَّاغُوتِ أنَّ مَمْلُوكاً وَجَدَ فَرَساً بلِجَامٍ مُجوهَرٍ وسِرْجٍ مُذَهَّب مع رَجُلٍ ، بينَ يَدَيْه مِغْفَرٌ من الذَّهَبِ ، ودِرْعٌ من الذَّهَبِ ، فهَمَّ الغُلامُ فأتىٰ به بينَ يَدَيّ السُّلطانِ ، فقَنَّعَه بالمِقْرَعَةِ ، وقال : ويْلَك! ألَمْ أبْعَثْ أطلُبُ منْكَ الهُدنَةَ ؟

---

(١) انظر السير : (ألْبَ آرْسَلان) ١٨/ ٤١٤ـ ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٢٦ .

(٢) مَنازْكِرْد : بلد في أرمينية ، وأهله أرمن وروم .

(٣) خُوَيّ : بلد بأذربيجان .

(٤) اليَزَك : كلمة فارسية معناها : مقدمة الجيش .

فقال : دَعْنِي من التَّوبِيخِ ، قال : ما كان عَزْمُك لَو ظَفِرْتَ بِي ؟ قال : كُلُّ قَبيحٍ قال : فما تُؤَمِّلُ وتَظُنُّ بِي ؟ قال : القَتْلُ أو تُشَهِّرُني في بلادِك والثالثةُ بَعِيدَةٌ : العَفْوُ وقَبُولُ الفِداءِ قال : ما عَزَمْتُ علىٰ غَيرِها فاشْتَرَىٰ نفسَه بألفِ ألفِ دينارٍ وخَمسِ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، وإطْلاقِ كُلِّ أسيرٍ في بلادِه ، فخَلَعَ عليهِ ، وبَعَثَ معَه عُدَّةً وأعْطَاهُ نَفَقَةً تُوصِّلُه ، وأمَّا الرُّومُ فبَادَرُوا ، ومَلَّكُوا آخَرَ ، فلمَّا قَرُبَ أرْمانُوسُ ، شَعَرَ بزَوالِ مُلْكِه ، فلَبِسَ الصُّوفَ وتَرَهَّبَ ، ثمَّ جَمَعَ ما وَصَلَتْ يدُه إليهِ نَحوَ ثلاثِ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، وبَعَثَ بها ، واعْتَذَرَ وكانت المَلْحَمَةُ في سَنَةِ ثلاثٍ وسِتين .

وقد غَزَا بلادَ الرُّومِ مرَّتَيْن وافْتَتَحَ قِلاعاً ، وأَرْعَبَ المُلُوكَ ، ثمَّ سَارَ إلىٰ أَصْبَهَانَ وذَهبَ إلىٰ شِيرازَ ، ثمَّ عادَ إلىٰ خُراسَانَ ، وكادَ أنْ يَتَمَلَّكَ مِصْرَ .

ثمَّ في سَنةِ خَمسٍ عَبَرَ السُّلطانُ بجُيُوشِه نَهْرَ جَيْحُونَ ، وكانوا مِئَتَيْ ألفَ فارسٍ فأُتِيَ بِعِلْجٍ يُقالُ له : يُوسُف الخَوَارِزْميّ كانت بيَدِهِ قَلعَةٌ ، فأَمَرَ أنْ يُشْبَحَ في أرْبَعَةِ أوْتادٍ ، فصَاحَ : يا مُخَنَّثُ : مِثْلِي يُقتَلُ هٰكذا ؟!! ، فاحْتَدَّ السُّلطانُ ، وأخَذَ القَوْسَ ، وقال : دَعُوهُ ورَمَاهُ فأخْطَأَهُ ، فظَفَرَ[1] يُوسُفُ إلى السَّريرِ ، فقامَ السُّلطانُ فعَثَرَ علىٰ وجْهِهِ ، فبَرَكَ العِلْجُ على السُّلطانِ ، وضَرَبَه بسَكِّينٍ ، وتَكاثَرَ المَماليكُ فهبَّرُوهُ ، وماتَ منها السُّلطانُ ، وذلكَ سَنَةَ خَمسٍ وسِتينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، وله أرْبَعُونَ سَنةً[2] .

(ج) مَلِكشَاه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَتِه : السلطانُ الكَبيرُ جَلالُ الدولَة أبو الفَتْح مَلِكْشاه بنُ السلطانِ آلْب أرْسِلان مُحمدِ بنِ جَغْريبَك السَّلْجُوقيُّ التركيُّ .

تَملَّك بعد أبيه ودَبَّرَ دولَتَه النِّظامُ الوَزيرُ بوَصيَّةٍ من ألْب آرْسلان إليه في سنة خَمسٍ وسِتِّينَ[3] .

---

(١) ظَفَرَ : أي وثبَ في ارتفاع .

(٢) انظر السير : (ألْبَ آرْسَلان) ١٨/ ٤١٤ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٢٦ .

(٣) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ١/١٤٥٥ .

تَملَّك من المَدائن ما لَمْ يَملِكْه سُلطانٌ ، فمن ذلك مَدائنُ ما وَراء النَّهْر وبلادُ الهَيَاطِلَة[1] ، وبلادُ الرُّوم والجَزيرةُ ، وكَثيرٌ من الشَّام ، فتَملَّكَ من كاشْغَرَ[2] إلى القُدْس طُولاً ، ومن أطْرافِ قُسْطَنْطِينيَّة إلىٰ بلادِ الخَزَر[3] وبَحْرِ الهِنْد عَرْضاً ، وكان حَسنَ السِّيرَة لَهِجاً بالصَّيدِ واللَّهْوِ مُغْرَىٰ بالعَمائر ، وحَفْر الأنْهَار ، وتَشْييد القَناطِر ، والأسْوار ، وعَمَّرَ ببَغْدادَ جامِعاً كَبيراً ، وأبْطَلَ الْمُكوسَ والخفاراتِ في جَميع بِلادِه[4] .

يُقالُ : إنَّه ضَبطَ ما اصْطادَه بيَدِه فبَلغَ عَشرَةَ آلافِ وَحْشٍ ، فتَصَدَّقَ بعَشْرَةِ آلاف دِينار ، وقالَ : إنِّي خائفٌ من إزْهاقِ الأرْوَاحِ لغَيْرِ مَأكَلَة[5] .

شَيَّعَ مرةً رَكبَ العراق إلى العُذَيْب[6] فصادَ شيئاً كثيراً ، فبنىٰ هناك منارةَ القُرون من حَوافِر الوُحُوش وقُرونِها ، ووقفَ يتأملُ الحُجَّاجَ ، فَرَقَّ ونزلَ وسَجَد ، وعَفَّرَ وجهَه وبكىٰ ، وقال بالعجمية : بَلِّغوا سَلامي إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقولوا : العبدُ العَاصي الآبق أبو الفتح بنُ آرسلان يَخدِمُ ويقول : يا نبيَّ الله ، لو كنتُ ممّن يَصلُح لتلكَ الحضرةِ المقدَّسَة ، كنتُ في الصُّحبَة ، فَضَجَّ النَّاسُ وبَكَوا ودَعَوا له[7] .

أَمِنَت الطُّرقُ في دَولتِه ، وانْحَلَّت الأسْعارُ ، وتَزَوَّجَ الخَليفَةُ الْمُقْتَدِي بابْنَتِه بسِفَارَة شَيخ الشَّافِعيَّة أبي إسْحاقَ[8] ، وكان عُرسُها في سَنة ثَمانينَ وأرْبَع مئة وعُملَت دَعوَةٌ

---

(١) قال ياقوت الحموي في « معجم البلدان » : هَيْطَل : اسم لبلاد ما وراء النهر ، وهي بُخارَىٰ ، وسَمَرْقَنْد ، وخُجَند سُمِّيَ بهطيل ابن عالم بن سام بن نوح عليه السلام .

(٢) قال ياقوت الحموي : هي مدينة وقُرىٰ ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي ، وهي في وسط بلاد الترك .

(٣) قال ياقوت الحموي : هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند ، وقيل سُمِّيَ بالخزر بن يافث بن نوح عليه السلام .

(٤) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٥ .

(٥) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٥٥ .

(٦) ماء بين القادسية والمُغيثة ، بينه وبين القادسية أربعة أميال .

(٧) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٥٥ .

(٨) هو أبو إسحاق الشيرازي صاحب « المهذَّب » ، و« التنبيه » .

لجَيْش السُّلطانِ ما سُمعَ بمِثْلِها أبداً ، فمِمَّا دَخلَ فيها أرْبَعُونَ ألْفَ مَنٍّ سُكَّر فوَلدَت له جَعْفَراً[1] .

وقَدِم مَلِكْشاهُ بَغْدادَ مَرَّتين وقَدِمَ إلىٰ حَلَبَ ، ولمْ يَكُنْ للمُقْتَدي معه غَيرُ الاسْم ، ثم قَدِمَها ثالثاً عَليلاً وكان الْمُقْتَدي قد فَوَّض العَهْدَ إلى ابنِه الْمُسْتَظْهِر ، فألْزَمَه مَلِكْشاهُ بعَزْلِه ، وأنْ يُوَلِّي ابنَ بِنْتِه جَعْفَراً ، وأنْ يُسَلِّمَ بَغْدادَ إليه ، ويَتَحوَّلَ إلى البَصْرَة ، فشَقَّ على الْمقْتَدي ، وحارَ ثم طَلبَ الْمُهْلَة عَشرةَ أيّام ليَتَجهَّزَ ، فصَامَ وطَوَىٰ ، وجَلسَ على التُّرابِ وتَضَرَّعَ إلىٰ رَبِّه ، فقَوِيَ بالسُّلطانِ المَرَضُ ، وماتَ في شَوَّال سَنة خَمسَة وثَمانينَ عن تسع وثلاثين سنة فقيل : سُمَّ في خِلالٍ تَخلَّلَ به ، وكان وَزيرُه النِّظامُ قد قُتلَ من أيام ، ولَمْ يَشْهَدْ السلطان كَبيرُ أحَد ، ولا عُمِلَ له عَزاءٌ ونُقِلَ تابُوتُه إلىٰ أصْبَهَان ، فدُفن في مَدرسَةٍ عَظيمةٍ .

وقد تَزوَّجَ الْمُسْتَظْهِرُ بالله بخَاتُونَ بنتِه الأخرىٰ ، وتَنازَعَ في الملك أوْلادُه من بعده زَماناً ، وكان آخِرُهم مَوْتاً ابنُه سَنْجَر صاحبُ خُراسَان ، عاشَ بعد أبيه أقَلَّ من سَبعينَ سَنةً[2] .

(د) تُتْش :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمتِه : الْمَلكُ تاجُ الدولة تُتُش بنُ السُّلطانِ أبي شُجاع ألْب آرْسلان .

كانَ شُجاعاً مَهيباً جَبَّاراً ، ذا سَطْوَة ، وله فُتُوحاتٌ ومَصَافَّاتٌ ، وتَملَّكَ عِدَّةَ مَدائنَ ، وخُطِبَ له ببَغْدادَ ، وصَارَ من كِبارِ مُلوكِ الزَّمانِ .

وكانَ يَتَغالَىٰ في حُبِّ الشَّيخِ أبي الفَرَجْ الحَنْبَليِّ .

وكانَ عَسُوفاً للرَّعيَّة ، تَملَّكَ دِمَشْقَ بعدَه ابنُه شَمْسُ الْمُلوكِ دُقاق وغَيرُه ، ثم

---

(١) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ١/١٤٥٦ .

(٢) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٦ .

مَمْلوكُه طُغْتِكِينَ وأوْلادُه ، إلىٰ أنْ تَملَّكَها العَادِلُ نُورُ الدِّينِ السَّلْجُوقيُّ ، ثم صَلاحُ الدِّينِ وابنُه ، ثم أخُوهُ ، وأهْلُ بَيتِه ، ثم مَوالِيهِم وإلى اليومَ[1] .

(هـ) السُّلْطَان مَحْمود بن مُحَمَّد بن مَلِكشَاه :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِه : صَاحبُ العِراقِ ، مُغيثُ الدِّينِ مَحْمودُ بنُ السُّلطانِ مُحمَّدِ بنِ مَلِكْشَاه بنِ ألْب آرْسلان السَّلْجُوقيّ .

تَملَّكَ بعدَ أبيه وهو حَدَثٌ أمْرَدٌ في أوَّلِ سَنةِ اثْنَتي عَشرَة ، وخُطِبَ له علىٰ مَنابِر بَغْدادَ ، وكانَ ذَكيّاً فَطِناً ، له مَعرِفَةٌ بالنَّحْو ، ومَيلٌ إلى العِلمِ ، ونَظَرٌ في التَّاريخِ ، وضَعُفَت دَولَةُ بَني سُلْجُوق في أواخِرِ أيَّامِه وكانَ عَمُّه السُّلطانُ سَنْجر أعْلَىٰ رُتبَةً منه .

ماتَ بِهَمَذَانَ في شوَّالَ سَنةَ خَمسٍ وعِشْرينَ وخَمسِ مئة[2] .

(و) سنْجَر :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِه : السُّلطانُ ، مَلكُ خُراسانَ ، مُعِزُّ الدِّين ، سَنْجَر بنُ السُّلطانِ مَلِكْشاه بنِ ألْب آرْسلان بنِ جَغْريبَك بنِ مِيكَائيلَ بنِ سَلْجُوق الغُزِّيُّ التُّرْكيُّ السَّلْجوقيُّ صاحبُ خُراسان وغَزْنَة وبعض ما وَراء النَّهْر .

خُطِبَ له بالعِراقِ وأذرَبيجان والشَّامِ والجَزيرَة وديارِ بَكْر وأرَّان والحَرمَين .

وُلدَ بسِنْجار من الجَزيرَة سَنةَ تسع وسَبعينَ وأرْبَع مئة إذْ تَوجَّه أبُوه لغَزْوِ الرُّوم ، ونَشأَ ببلادِ الخُوز ثم سَكنَ خُراسان ، وتديَّر مَرْوَ .

وكانَ وَقوراً حَييّاً ، كَريماً سَخياً ، ناصِحاً لرَعيَّته كَثيرَ الصَّفْح جَلسَ علىٰ سَريرِ المُلكِ قَريباً من سِتِّينَ سَنةً .

قال ابنُ خَلِّكان : كانَ من أعْظَم المُلوك هِمَّةً ، وأكْثرهم عَطاءً .

وقالَ ابنُ خَلِّكان : لَمْ يَزَلْ في ازْديادٍ إلىٰ أنْ ظَهَرت عليه الغُزُّ في سَنةِ ثَمانٍ وأرْبَعين

---

(١) انظر السير : (تُتُش) ١٩/ ٨٣ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ١٤٦٢/ تُتُش .

(٢) انظر السير : (السُّلطان) ١٩/ ٥٢٤ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ١٥٠٧/ السُّلطان .

وخَمسِ مئة ، وهي وَقْعَةٌ مَشْهورَةٌ اسْتُشْهِدَ فيها الفَقيهُ محمدُ بنُ يَحْيَىٰ ، فكَسَروه ، وانْحلَّ نظامُ مُلْكِه ، ومَلكوا نيسابورَ ، وقَتلوا خَلقاً كثيراً وأخَذوا السُّلطانَ ، فبَقِيَ في أسْرِهم ثلاثَ سنين وأرْبعَةَ أشْهُر ، ثم أفْلَتَ منهم ، وعادَ إلىٰ خُراسان ، وزَالَ بمَوْته مُلكُ بني سَلْجوق عن خُراسان واسْتولَىٰ علىٰ أكثر مَمْلكتِه خُوارزم شاه أُتسِزْ بنُ محمدِ بنِ نوشتكين ، ومات أُتسِزُ قبل سَنْجَر .

ماتَ سَنةَ اثنتَين وخَمسينَ وخَمسِ مئة .

قالَ ابنُ الجَوْزي : لَمَّا جاءَ خَبرُ مَوْتِه إلىٰ بَغْدادَ ، قُطِعَت خُطْبَتُه ولَمْ يُعْقَدْ له عَزاءٌ[1] .

* * *

(١) انظر السير : (سَنْجَر) ٢٠/ ٣٦٢ـ ٣٦٥ ، وانظر النزهة : ١٥٦١/ سَنْجَر .

(١٨) دَوْلَة الْمُرابِطِين

(أ) صاحِبُ الغَرْب :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِه : أميرُ المسلمين ، السُّلطانُ أبو يَعْقوب يُوسُفُ بنُ تاشفين ، اللَّمتونيُّ البَرْبَريُّ المُلَثَّم ، ويُعرفُ أيضاً بأمير الْمُرابِطين ، وهو الذي بَنىٰ مَرَّاكش وصَيَّرها دارَ مُلْكِه .

وأوَّلُ ظُهورِ هَؤلاء المُلَثَّمين[1] مع أبي بكر بن عمر اللَّمتونيّ ، فاسْتولىٰ على البلاد من تِلْمِسانَ إلىٰ طَرَف الدنيا الغربي ، واستناب ابنَ تاشفين فطَلَعَ بَطلاً شُجاعاً شَهْمَاً عادلاً مَهيباً ، فاخْتَطَّ مَرَّاكش في سنةِ خَمسٍ وسِتِّينَ وأرْبع مئة ، اشْترَىٰ أرْضاً بماله الذي خَرجَ به من صَحْراء السُّودان ، وكثرت جيوشه وخافته الملوكُ ، وكان بَرْبَريّاً قُحّاً ، وثَارت الفِرَنْجُ بالأنْدَلُسِ فعَبَرَ ابنُ تاشفين يُنْجدُ الإسْلامَ ، فطَحَنَ العَدُوَّ[2] ، ثم أعْجَبَتهُ الأنْدَلُسُ فاسْتوْلَىٰ عليها ، وأخَذَ ابنَ عَبَّاد وسَجَنَه وأساءَ العِشْرةَ .

وقيل : كانَ ابنُ تاشفين كَثيرَ العَفو ، مُقرِّباً للعُلَماء ، وكان أسْمرَ نَحيفاً ، خَفيفَ اللِّحْيَة ، دَقيقَ الصَّوْتِ ، سائساً ، حازِماً ، يَخطبُ لخَليفَة العِراقِ ، وفيه بُخْلُ البَرْبَر ، تَملَّكَ بِضْعاً وثَلاثينَ سَنةً ، وهو وجَيشُه مُلازِمون للِّثام الضيِّق ، وفيهم شَجاعَةٌ وعُتُوٌّ وعَسْفٌ ، جاءَتْهُ الخِلَعُ من المُسْتَظهِر ، ووَليَ بعدَه وَلدُه عليّ .

---

(١) لُقبوا بذلك لأنهم كانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم ، وتلك سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف ، وقيل في سبب ذلك : إن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد ، يفعله الخواص منهم ، فكثر ذلك حتىٰ صار يفعله عامتهم ، وأصل هٰؤلاء القوم من حمير بن سبأ ، وهم أصحاب خيل وإبل وشاء ، ويسكنون الصحارى الجنوبية من بلاد البربر وبلاد السودان ، وينتقلون من ماء إلىٰ ماء كالعرب ، وبيوتهم من الشعر والوبر ، وأول من جمعهم وحرَّضهم على القتال وأطمعهم في تملك البلاد « عبد الله بن ياسين الفقيه » ، وقتل في حرب جرت مع برغواطة ، وقام مقامه أبو بكر بن عمر الصنهاجي ابن عم يوسف بن تاشفين ، الذي ولاَّه إمارة الملثمين ، فكان من أمره ما كان .

(٢) كان ذلك في وقعة الزلاَّقَة سنة (٤٧٩ هـ) .

ماتَ في أوَّل سنة خَمْس مئة ، وله بِضْعٌ وثَمانونَ سَنةً ، وتَملَّكَ مَدائنَ كِباراً بالأندَلُسِ ، وبالعُدْوَة[1] ، ولَوْ سارَ لَتَمَلَّكَ مِصْرَ والشَّامَ[2] .

(ب) ابنُ تاشِفين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : السُّلطانُ ، صاحبُ المَغْربِ ، أمير المسلمين ، أبو الحسن عليُّ بنُ صاحبِ الغَرْب يُوسُفَ بنِ تاشفين ، البَرْبَريُّ ، مَلكُ الْمُرابطين .

تَولَّىٰ بعدَ أبيه سَنةَ خَمسِ مئَة[3] .

وكان شُجاعاً مُجاهداً عَادلاً دَيِّناً ، وَرِعاً ، صَالِحاً ، مُعَظِّماً للعُلَماءِ مُشاوِراً لهم ، نَفقَ في زَمانِه الفِقْهُ والكُتُبُ والفُروعُ ، حتىٰ تَكاسَلوا عن الحَديثِ والآثار ، وأُهينَت الفَلسَفةُ ، ومُجَّ الكَلامُ ، ومُقِتَ ، واسْتحْكَمَ في ذِهْنِ عَليٍّ أنَّ الكلامَ بِدْعَةٌ ما عَرفَه السَّلفُ ، فأسْرَفَ في ذلك ، وكَتبَ يَتهَّدُد ، ويأمُرُ بإحْراقِ الكُتب ، وكَتبَ يأمر بإحْراقِ تَواليفِ الشَّيخِ أبي حامد ، وتَوعَّدَ بالقَتْلِ مَنْ كَتَمَها .

ولما الْتَقَىٰ عَسْكرُه العَدوَّ انْهَزَمُوا ، واخْتلَّت الأنْدَلسُ ، وظَهرَ بها المُنْكَرُ ، وقُتلَ خَلقٌ من المرابطين ، وأخَذَ يَتهاوَنُ ، ويَقْنَع بالاسم ، وأقْبلَ على العِبادَةِ وأهْمَلَ الرَّعايا ، وعَجَزَ ، حتىٰ قيلَ : إنَّه رَفَعَ يَديه ودَعا ، فقالَ : « اللَّهُمَّ قَيِّضْ لهٰذا الأمْرِ مَنْ يَقْوَىٰ عَليه » .

وابتُلِيَ بنُوَّابٍ ظَلَمَة ، ثم خَرجَ عليه ابنُ تُومَرْت ، وحارَبَه عبدُ المؤمن ، وقَوِيَ عليه ، وأخَذَ البلادَ ، ووَلَّتْ أيَّامُ المُلَثَّمَة[4] ، فماتَ إلىٰ رَحْمَة الله في سَنةِ سَبْع وثَلاثينَ وخَمسِ مِئَة[5] .

---

(١) وقد شمل سلطانه المغربَيْن الأقصَىٰ والأوسَط ، وجَزيرة الأندَلُس .

(٢) انظر السير : (صاحب الغَرْب) ١٩/ ٢٥٢ـ ٢٥٤ ، وانظر النزهة : ١٤٧٥/ صاحب الغرب .

(٣) انظر السير : (ابنُ تاشفين) ٢٠/ ١٢٤ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٥ .

(٤) وهم المرابطون ، وسُمّوا الملثَمين لأنهم كانوا يتلثَّمون ولا يكشفون وجوههم ، وذلك سُنَّة لهم يتوارَثونها خَلفاً عن سلف ، ذلك أن أصلَ هٰؤلاء القوم من حمير بن سبأ ، وكانت حمير تتلثَّم لشدَّة الحر والبرد .

(٥) انظر السير : (ابنُ تاشفين) ٢٠/ ١٢٤ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٥ .

(ج) دَوْلَة المُرابِطين في الأنْدَلُس :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الْمُعْتَمدِ بنِ عَبَّاد صَاحِبِ الأنْدَلُسِ : ثم عَبرَ ابنُ تاشفين في العامِ الآتي ، وتَلقَّاه المُعْتَمدُ ، وحاصَرا حِصْناً للفِرَنْج وتَرجَّلَ ابنُ تاشفين ، فمَرَّ بغَرْناطَةَ ، فأخْرَجَ إليه صاحبُها ابنُ بُلُكِّين تَقادِمَ وهَدايا وتَلقَّاهُ ، فغَدَرَ به ، واسْتوْلَىٰ علىٰ قَصْرِه ، ورَجعَ إلىٰ مَرَّاكِشَ وقد بَهَرَه حُسْنُ الأنْدَلُس وبَساتينُها ، وحَسَّنَ له أُمَراؤُه أخْذَها ، ووَحَّشوا قَلبَه على المُعْتَمِد[1] .

قالَ عبدُ الواحد بنُ عَليّ : غَلبَ المُعْتَمِدُ علىٰ قُرْطُبَة في سَنة إحْدَىٰ وسَبعينَ وأرْبَع مئة ، فأخْرَجَ منها ابنَ عُكَّاشَة ، إلىٰ أنْ قالَ : وجَالَ ابنُ تاشفين في الأنْدَلُسِ يَتفرَّجُ ، مُضْمِراً أشْياءَ ، مُعَظِّماً للمُعْتَمِدِ ، ويَقولُ : نَحْنُ أضْيافُه وتَحْت أمْرِه ، ثم قَرَّر ابنُ تاشفين خَلْقاً من المُرابِطين يُقيمونَ بالأنْدَلُسِ ، وأحَبَّ الأنْدَلُسيُّونَ ابنَ تاشفين ، ودَعُوا له ، وجَعلَ عندَهم بُلُّجين قَرابَته ، وقَرَّر معه أموراً ، فهاجَت الفِتْنَةُ بالأنْدَلُس في سَنة ثلاثٍ وثَمانين وأرْبَع مئة ، وزَحَفَ المُرابِطُون ، فحاصَروا حُصُوناً للمُعْتَمِد ، وأخَذوا بَعضَها ، وقَتلُوا وَلَدَه المَأمُونَ في سَنةِ أرْبَع ، فاسْتَحْكَمَت الإحْنَةُ ، وغَلَت مَراجِلُ الفِتْنَة ، ثم حاصَروا إشْبيليَّة أشَدَّ حِصَار ، وظَهَر من بأسِ المُعْتَمِد وتَراميه على الاسْتِشْهاد ما لَمْ يُسْمَعْ بمثلِه ، وفي رَجَب سَنة أرْبع وثَمانين وأرْبَع مئة ، هَجَمَ المرُابِطُون على البَلدِ وشَنُّوا الغَارَاتِ ، وخَرجَ النَّاسُ عَرايَا ، وأسَروا المُعْتَمِدَ[2] .

قالَ عبدُ الواحِد : بَرَزَ المُعْتَمِدُ من قَصْرِه في غِلالَة ، بلا دِرْع ولا دَرَقَةٍ وبيدِه سَيفُه ، فرَمَاهُ فارسٌ بحَرْب أصابَ الغِلالَةَ ، وضَربَ الفارِسَ فقَتلَه فوَلَّتِ المُرابِطُون ، ثم وَقْت العَصْر ، كَرَّت البَرْبَرُ ، وظَهَروا على البَلدِ من وَادِيه ، ورَمَوْا فيه النَّارَ ، فانْقَطعَ العَملُ ، واتَّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقِعِ بقُدوم ابنِ أخي السُّلطان ، ولَمْ يَترُكْ البَرْبَرُ لأهْلِ البَلَدِ شَيئاً ، ونُهبَت قُصورُ المُعْتَمِد ، وأُكْرَهَ علىٰ أنْ كَتبَ إلىٰ وَلَدَيْه أنْ يُسلِّما الحِصْنَيْنِ

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمدُ بن عبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٥٩ .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بن عبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٥٩ .

وإلاَّ قُتلتُ ، فدَمِي رَهْنٌ علىٰ ذلك وهُما الْمُعْتَدُّ ، والرَّاضِي وكانا في رُنْدَة ومارْتله فنزلا بأمانٍ ومَواثيقَ كاذبَةٍ فقتَلوا الْمُعْتَدَّ وقتَلوا الرَّاضِي غِيلَةً ، ومَضَوْا بالمُعْتَمِدِ وآله إلىٰ طَنْجَةَ بعد أنْ أفْقَرُوهم ، ثم سُجِنَ بأغْماتٍ[1] عامَين وزيادَة ، في قِلَّةٍ وذِلَّةٍ[2] .

عِمادُ الدَّولَة بن هُود :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : كان أحدَ مُلوك الأنْدَلُس في حُدود الخَمس مئة ، وهو من بَيتِ مَمْلكَة تَملَّكوا شَرقَ الأنْدَلُسِ ، فلمَّا استولى الْمُلثَّمونَ على الأنْدَلُسِ ، أبْقَىٰ يوسُفُ بنُ تاشفينَ على ابنِ هُود ، فلمَّا تَملَّك عليُّ بنُ يوسُف بعدَ أبيه كان فيه سَلامَةُ باطِنٍ ، فحَسَّنَ له وُزَراؤُه أخْذَ المُلكِ من ابنِ هُود ، حتىٰ قالوا له : إنَّ أمْوالَ الْمُسْتَنْصِرِ العُبَيْدِيِّ صارَت في غَلاءِ مِصْرَ المُفْرِطِ تَحوَّلت كلُّها إلىٰ بَني هُود ، وقالوا : الشَّرْعُ يَأمُرُكَ أنْ تَسْعَىٰ في خَلعِهم لكَوْنِهم مُسالِمين الرُّومَ ، فجَهَّز لهم الأميرَ أبا بكر بنَ تيفلوت فتحصَّنَ عمادُ الدَّولَة برُوْطَة[3] ، وكتبَ إلىٰ عليِّ بنِ تاشْفينَ يَسْتعْطفُه في المُسالَمَة ، ويقولُ : « لَكُم فيمَا فَعلَه أبُوكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وسَيَعْلَمُ مُبرِمُ هـٰذا الرَّأي عندَكم سُوءَ مَغبَّتِه ، واللهُ حَسيبُ مَنْ معي وحَسْبُنَا اللهُ وكَفَىٰ » ، فأمَرَ عليُّ بنُ يوسُف بالكَفِّ وأنَّىٰ ذلك وقد أدْخَلتْه الرَّعيَّةُ سَرَقُسْطَة ، وكان ابنُ رُذْميرَ اللَّعينُ صاحبُ مَمْلكَةِ أَرَغُونَة من شرق الأندلس قِسِّيساً مُجرباً داهيَةً مُترَهِّباً ، فقَويَ علىٰ بلادِ ابنِ هُود ، وطَواهَا وقَنعَ عِمادُ الدَّولَة بنُ هُود بدَارِ سُكْناهُ ، وكانَ ابنُ رُذْميرُ لا يَتجَهَّزُ إلاَّ في عَسْكرٍ قَليلٍ كاملَ العُدَّة ، فيَلْقَىٰ بالألفِ آلافاً[4] .

* * *

---

(١) أغمات : ناحية في بلاد البَرْبَر المصامدة من أرض المغرب قرب مرَّاكش .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بن عبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٦٠ .

(٣) روطة : حصن من أعمال سَرَقُسْطَة حصين جداً .

(٤) انظر السير : (عماد الدولة بن هود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٢٤ .

١٩ـ الدَّوْلَة الزَّنْكيَّة

(أ) قَسيمُ الدَّوْلَة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِه : الأميرُ الكبير ، قَسيمُ الدولة أبو الفتح آقْسُنْقُر التركي الحاجبُ مَمْلوكُ السلطان مَلِكْشاه السلجوقي ، وهو جَدُّ نُورِ الدِّين الشَّهيد ، وقيلَ : لا بلْ هو لَصيقٌ بمَلِكْشاه كان رَفيعَ الرُّتْبَة عند السُّلطانِ ، وقَدِمَ مع السُّلطانِ حَلبَ حينَ حَاربَ أخَاه تاجَ الدَّوْلَة ، ففرَّ ، وتَملَّكَها مَلِكْشاه سَنةَ تِسْع وسَبعينَ وأرْبَع مئَة ، فقرَّرَ نيابَتَها لآقْسُنْقُر ، فأحْسَنَ السِّياسَة ، وأبادَ الدُّعَّارَ[1] وعُمِّرَت حَلبُ ، وقَصَدَها التُّجَّارُ ، وأنْشَأَ مَنارَةَ جامِعِها ، فاسمُه مَنْقُوشٌ عليها وصارَ دَخلُ البلدِ في اليَوم ألفاً وخَمسَ مِئَة دينار .

وأمَّا تاجُ الدَّوْلَة ، فاسْتَولَىٰ علىٰ دِمَشْقَ ، فلمَّا كانَ في سَنةِ سَبع وثَمانينَ وأرْبَع مئة ، تَحارَبَ هو وآقْسُنْقُر ، وعَرضَ آقْسُنْقُر عشرينَ ألفَ فارسٍ ، والْتَقَى الجَمْعان ، فبَرزَ آقْسُنْقُر بنفسِه ، وحَمِيَ الوَطيسُ ، ثم تَفَلَّلَ جَمعُه ، وثَبتَ آقْسُنْقُر فأُسِرَ في طائفَةٍ في فُرسانِه ، فأمَرَ تاجُ الدَّوْلَة بضَرْبِ عُنقه وأعْناقِ أصْحابِه ، وذلكَ في جُمادَى الأولَىٰ من السَّنةِ رَحِمَه الله ، ثم دُفنَ بالمَدرَسَة الزجاجية بحَلَب ولَمَّا قُتلَ كان وَلدُه زَنْكي صَبيّاً ، وتَنقَّلت به الأيامُ ثم صار مَلِكاً[2] .

(ب) الأتابَك :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : الملكُ عمادُ الدين الأتَابَكُ زَنْكيُّ ابنُ الحاجب قَسيمُ الدولَة آقْسُنْقُر بنُ عبدِ الله التركيُّ ، صاحبُ حَلَب[3] .

فوَّضَ إليه السُّلطانُ مَحمُودُ بنُ مَلِكْشاه شِحْنَكيَّةَ[4] بَغْدادَ في سَنةِ إحْدَىٰ عَشْرةَ

---

(١) هم المفسدون والخُبثاء وقُطَّاع الطُرق ، والواحدُ : « داعر » .

(٢) انظر السير : (قَسيمُ الدولَة) ١٩/ ١٢٩ـ ١٣٠ ، وانظر النزهة : ١٤٧٠/ قَسيمُ الدولَة .

(٣) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٩ .

(٤) يُقصَدُ بها رئاسة أو إدارة الشحنة ، والشحنة : من فيهم الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان ،=

وخَمسِ مِئة[1] ، في العامِ الذي وُلدَ له فيه ابنُه الملكُ العادلُ نُورُ الدِّين الشَّهيدُ ، ثم إنه حوَّلَه إلىٰ مَدينة الْمَوْصِل ، فجعلَه أتَابَكاً لولدِه الْمُلقَّب بالخَفَاجيِّ في سنة اثنتين وعشرين وخمس مئة[2] .

ثم اسْتولَىٰ على البلاد وعَظُمَ أمرُه وافتَتَحَ الرُّها ، وتمَلَّك حَلَبَ والْمَوْصِلَ وحَماةَ وحِمْصَ وبَعْلَبَكَّ وبَانياسَ ، وحاصَرَ دِمَشْقَ ، وصالَحَهم علىٰ أن خَطَبوا له بها بعد حُروب يَطُولُ شَرْحُها[3] .

وكان بَطلاً شُجاعاً مِقْداماً كأبيه ، عَظيم الهَيْبَة ، مَليحَ الصُّورَة أسْمَرَ جَميلاً ، قد وَخَطَه الشَّيبُ ، وكان يُضرَبُ بشَجاعَتِه المَثَلُ ، لا يَقرُّ ولا يَنامُ ، فيه غَيْرَةٌ حتىٰ علىٰ نِساءِ جُندِهِ ، عَمَرَ البلادَ[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : نازل زَنْكي قَلعَةَ « جَعْبَرَ » وحاصَرَ مَلِكَها عَليَّ ابنَ مالك وأشْرَفَ علىٰ أخْذِهَا ، فأصْبَحَ مَقْتولاً ، وفَرَّ قاتلُه خادِمُه إلىٰ جَعْبَرَ ، وذلك في سنة إحدىٰ وأربعين وخمس مئة ، فتَملَّكَ ابنُه نُورُ الدِّين بالشَّامِ ، وابنُه غَازي بالْمَوْصِل .

زاد عُمرُ زَنْكي رَحمَه الله على السِّتِّين[5] .

(ج) نور الدِّين مَحْمُود :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : صاحبُ الشَّام ، المَلكُ العَادِلُ ، نُورُ الدِّين ، ناصِرُ أمير المؤمنين تَقِيُّ المُلوكِ ، لَيْثُ الإسْلام ، أبو القاسِم ، مَحْمُودُ بنُ الأتابَكِ قَسيمِ الدَّولَة أبي سَعيد زَنْكي بنِ الأميرِ الكَبير آقْسُنْقُر ، التُّرْكيُّ السُّلطانيُّ الْمَلِكْشاهيّ .

= ويسمون في وقتنا الشرطة .

(١) كذا ذكر المؤلف ، وذكر ابن خلكان وابن الأثير وابن كثير أنه وَلي شِحْنَكيَّةَ بغداد سنة إحدىٰ وعشرين وخمس مئة انظر « وفيات الأعيان » ٢/ ٣٢٧ ، و« الكامل » ١٠/ ٦٤١ ، و« البداية والنهاية » ١٢/ ١٩٦ ، وانظر « الروضتين » ١/ ٢٩ .

(٢) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٣٩ .

(٣) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٣٩ .

(٤) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٣٩ .

(٥) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٥٣٩ .

مَوْلدُه سَنةَ إحْدَىٰ عَشْرَة وخَمسِ مئة[1] .

وكانَ نُورُ الدِّين حامِلَ رايَتَي العَدْلِ والجِهادِ ، قَلَّ أنْ تَرَى العُيونُ مثلَه ، حاصَرَ دِمَشْقَ ، ثم تَملَّكَها ، وبَقِيَ بها عِشْرينَ سَنةً .

وبَنَى المَدارِسَ بحَلَبَ وحمْصَ وبَعْلَبَك والجَوامِعَ والْمَساجِدَ وسُلِّمَت إليه دِمَشْقُ للغَلاءِ والخَوْفِ ، فحَصَّنها ، ووَسَّعَ أسْواقَها ، وأنْشَأ المارِسْتانَ ودارَ الحَديثِ والمَدارِسَ ومَساجِدَ عِدَّة ، وأبْطَلَ المُكُوسَ ، ثم أخَذَ من العَدُوِّ بانِيَاسَ والْمُنَيْطِرَة[2] ، وكَسرَ الفِرَنْجَ مَرَّاتٍ ، ودوَّخَهم وأذلَّهم[3] .

وكان نُورُ الدِّين زِنْكِي بَطَلاً شُجَاعاً وافِرَ الهَيْبَة ، حَسَنَ الرَّميِّ ، مَليحَ الشَّكْلِ ، ذا تَعَبُّد وخَوْف ووَرَعٍ ، وكان يَتعرَّضُ للشَّهَادَةِ ، سَمِعَه كاتِبُه أبو اليُسْرِ يَسْألُ الله أنْ يُحْشَرَ من بُطُونِ السِّباعِ وحَوَاصِلِ الطيْر .

وبنىٰ دَارَ العَدْلِ ، وأَنْصَفَ الرَّعِيَّة ، ووَقَفَ على الضُعَفَاءِ والأيْتام والمُجاوِرين وأَمَرَ بتَكْميل سُورِ المدينة النَّبويَّة ، واسْتَخْرَاجِ العَيْن بأُحد دَفَنَهَا السَّيْلُ ، وفَتَحَ دَرْبَ الحِجَاز ، وعَمَّر الخَوَانِق والرُّبُطَ والجُسُورَ والخاناتِ بدِمَشْقَ وغيرها وكذا فعل إذْ مَلَكَ حَرَّانَ وسنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة ومَنْبج وشَيْزَر وحُمْصَ وحمَاة وصَرْخَد وبَعْلَبَكَّ وتَدْمُرَ ووَقَفَ كُتُباً كثيرةً مُثَمَّنَة ، وكَسَرَ الفِرِنْجَ والأَرْمَنَ علىٰ حارِم وكانوا ثلاثين ألفاً فقَلَّ مَنْ نَجَا ، وعلىٰ بانياسَ[4] .

وكانت الفِرنْجُ قد استضَرَّتْ علىٰ دِمَشقَ ، وجعلوا عليها قطيعةً ، وأتاهُ أميرُ الجُيُوشِ شَاوَرُ مُستَجيراً به ، فأكْرَمَه ، وبَعَثَ معه جَيشاً ليُرَدَّ إلىٰ مَنصِبه ، فانتَصَرَ ، لكنَّه تَخَابَثَ وتَلائَمَ ، ثم استنجَدَ بالفِرنْجِ ، ثم جَهَّزَ نورُ الدين رحِمَه الله جَيشاً لَجِباً مع نائِبه أسَدُ الدين شِيركُوه ، فافتَتَحَ مِصرَ ، وقَهَرَ دولتَها الرَّافِضِيَّة ، وهَرَبَتْ منه الفِرنْجُ ،

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٩ .
(٢) حصنٌ بالشام قَريبٌ من طرابُلُسَ .
(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٩ .
(٤) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٠ .

وقُتِلَ شَاوَرُ وصَفَتِ الدِّيارُ المِصْرِيَّة لشِيركُوه نائبِ نورِ الدين ، ثم لصَلاحِ الدين ، فأبَادَ العُبَيْدِيينَ واسْتَأصَلَهم ، وأقَامَ الدَّعوةَ العَبَّاسِيَّة .

وكان نورُ الدِّين مَلِيحَ الخَطِّ ، كثيرَ المُطالَعَةِ ، يُصَلِّي في جَماعَةٍ ويَصُومُ ويَتْلُو ويُسَبِّحُ ، ويَتَحَرَّىٰ في القُوتِ ويَتَجَنَّبُ الكِبرَ ، ويَتَشَبَّه بالعُلَماءِ والأخْيَارِ ، ذَكَرَ هٰذا ونَحْوَه الحافِظُ بنُ عَسَاكِر ، ثم قال : رَوَىَ الحَدِيثَ ، وأسْمَعَه بالإجازَةِ ، وكان مَنْ رَآهُ شَاهَدَ من جَلالِ السَّلْطَنَةِ وهَيْبَةِ المُلكِ ما يَبْهَرُهُ ، فإذا فَاوَضَهُ ، رَأىٰ من لَطَافَتِه وتَوَاضُعِهِ ما يُحَيِّرُه ، حَكَىٰ مَنْ صَحِبَهُ حَضَراً وسَفَراً أنَّه ما سُمِعَ منه كَلِمَةُ فُحْشٍ في رِضَاهُ ، ولا في ضَجَرِه ، وكان يُواخِي الصَّالِحِين ، ويَزُورُهم ، وإذا احْتَلَمَ مَمَالِيكُهُ أعْتَقَهُم ، وزَوَّجَهُم بجَوَارِيهِ ، ومتىٰ تشكَّوْا من وُلاتِهِ عَزَلَهُم ، وغَالِبُ ما تَمَلَّكَهُ من البُلدَانِ تَسَلَّمَهُ بالأمانِ ، وكان كُلَّما أخَذَ مدينةً ، أسْقَطَ عن رَعِيَّتِه قِسْطاً[1] .

وقال أبو الفَرَجْ بنُ الجَوْزِيّ : جاهَدَ نورُ الدِّين وانْتَزَعَ من الكُفَّارِ نَيِّفاً وخَمْسِين مدينةً وحِصْناً ، وبَنَىٰ بالمَوْصِلِ جامِعاً غَرِمَ عليه سَبْعِينَ ألفَ دِينَار ، وتَرَكَ المُكُوسَ قبلَ مَوْتِه ، وبَعَثَ جُنُوداً فَتَحُوا مِصْرَ ، وكان يَمِيلُ إلى التَّواضُعِ وحُبِّ العُلَماءِ ، والصُلَحَاءِ ، وكاتَبَنِي مِراراً ، وعَزَمَ علىٰ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، فتُوُفِّيَ سَنَةَ تسعٍ وسِتِّينَ وخَمْسِ مِئَة[2] .

وقال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطِيفِ : كان نورُ الدِّين لَمْ يَنْشَفْ له لِبدٌ من الجِهَادِ ، وكان يأكُلُ من عَمَلِ يَدِه ، يَنْسِجُ تارةً ، ويَعْمَلُ أغْلافاً تارةً ، ويَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويُلازِمُ السِّجادَةَ والمُصْحَفَ ، وكان حَنَفِيّاً يُراعِي مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ ومَالِك وكان ابنُهُ الصَّالِحُ إسْماعِيلُ أحْسَنَ أهْلِ زَمَانِه[3] .

وقالَ ابنُ الأثير : طَالَعتُ السِّيرَ ، فلَمْ أرَ فيها بعد الخُلفاء الرَّاشِدين وعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أحْسَنَ من سِيرَته ، ولا أكْثَرَ تَحَرِّياً منه للعَدْلِ ، وكانَ لا يَأكلُ ولا يلبَسُ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٠ .
(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨١ .
(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨١ .

ولا يَتصرَّفُ إلاَّ من مُلكٍ له قد اشْتراه من سَهْمِه من الغَنيمَة ، لقَدْ طَلبَتْ زَوجَتُه منه ، فأعْطاهَا ثَلاثَةَ دَكاكين فاسْتَقلَّتها ، فقالَ : ليسَ لي إلاَّ هـٰذا ، وجَميعُ ما بيَدي أنا فيه خازنٌ للمُسلمينَ ، وكان يتهجَّدُ كثيراً ، وكان عارفاً بمَذْهَب أبي حَنيفَة[1] .

قال له القُطبُ النيسابوريُّ : بالله لا تُخاطِرْ بنفسِكَ ، فإنْ أُصِبْتَ في مَعْركَة لا يَبْقَىٰ للمُسلمينَ أحدٌ إلاَّ أخَذَه السَّيفُ ، فقالَ : ومَنْ مَحْمودٌ حتىٰ يُقالَ هـٰذا ؟!! حَفِظَ اللهُ البِلادَ قَبْلي ، لا إلـٰهَ إلاَّ هُو[2] .

وقال مَجدُ الدِّين بنُ الأثير في نقل سبطِ الجَوْزِيِّ عن نُورِ الدِّين زِنْكِي : لَمْ يَلْبَسْ نُورُ الدِّين حَرِيراً ولا ذَهَباً ، ومَنَعَ بَيعَ الخَمرِ في بلادِه ، قال : وكان كَثيرَ الصَّوم ، وله أَوْرَادٌ كثيرةٌ في اللَّيلِ والنَّهارِ ، ويُكثِرُ اللَّعِبَ بالكُرَةِ ، فأنْكَرَ عليه فقيرٌ فكَتَبَ إليه : والله ما أقْصِدُ اللَّعِبَ ، وإنَّما نَحنُ في ثَغْرٍ ، فربَّما وَقَعَ الصَّوتُ ، فتكونُ الخَيلُ قد أدمَنَت على الانْعِطافِ والكَرِّ والفَرِّ .

وأُهْدِيَتْ له عَمَامَة من مِصْرَ مُذَهَّبَة ، فأعطَاهَا لابنِ حَمُّويه شَيخِ الصُّوفِيَّة فبِيعَتْ بألفِ دينار[3] .

وقال ابنُ الأثير : جاءَ نورَ الدين زِنكي رجلٌ يَطْلُبُه إلى الشَّرْعِ ، فجاءَ معَهُ إلىٰ مَجْلِسِ كمَالِ الدين الشَّهرَزوريِّ ، وتَقَدَّمَه الحَاجِبُ يقولُ للقاضي : قد قالَ لكَ : اسْلُك مَعَهُ ما تَسْلُك مع آحَادِ النَّاسِ ، فلمَّا حَضَرَ سَوَّىٰ بينَه وبينَ خَصْمِه وتَحاكَمَا فلَمْ يَثْبُتْ للرَّجُلِ عليه حَقٌّ ، وكان مِلْكاً ، ثم قال السُّلطَانُ : فاشْهَدُوا أنِّي قد وَهَبْتُهُ له .

قال العِمَادُ في « البَرْقِ الشَّامِيّ » أكثَرَ نورُ الدين عامَ مَوْتِه من البرِّ والأوْقَافِ وعِمَارَةِ المَسَاجِد ، وأسْقَطَ ما فيه حَرَامٌ ، فما أبْقَىٰ سِوَى الجِزْيَةِ والخَرَاجِ والعُشْرِ ، وكَتَبَ بذلك إلىٰ جَميعِ البِلادِ ، فكَتَبْتُ له أكثَرَ من ألْفِ مَنْشُورٍ[4] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨١ .
(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨١ .
(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٢ .
(٤) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٢ .

قالَ سبطُ الجَوْزي : كان له عَجائزُ ، فكان يَخيطُ الكَوافي ، ويَعمَلُ السَّكاكِرَ فيَبعْنَها له سِراً ، ويُفْطِرُ علىٰ ثَمَنِها[1] .

وقال ابنُ وَاصِل : كان نورُ الدِّين من أَقْوَى النَّاسِ قَلْباً وبَدَناً ، لَمْ يُرَ علىٰ ظَهْرِ فَرَسٍ أَحَدٌ أَشَدَّ منهُ ، كأنَّما خُلِقَ عليه لا يَتَحَرَّكُ ، وكان يقولُ : طالَمَا تَعَرَّضْتُ للشَّهَادَةِ ، فلَمْ أُدْرِكْها .

قال الذَّهبيُّ : قد أدْرَكَها علىٰ فِراشِه ، وعلىٰ أَلْسِنَةِ النَّاسِ : نُورُ الدِّينِ شَهِيدٌ[2] .

قال سِبطُ الجُوزِيّ : حَكَىٰ لي نَجْمُ الدِّين بنُ سَلام عن وَالِدِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا نزَلَت علىٰ دِمْياطَ ، ما زالَ نورُ الدِّين عِشْرِين يوماً يَصُومُ ، ولا يُفطِرُ إلاَّ على المَاءِ ، فضَعُفَ وكادَ يَتْلَفُ ، وكان مَهِيباً ، ما يَجْسُرُ أحدٌ يُخاطِبُه في ذلك ، فقال إمامُه يَحْيَىٰ : إنَّه رَأَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يقولُ : يا يَحْيَىٰ ، بَشِّرْ نورَ الدِّينِ برَحِيلِ الفِرنْجَ عن دِمْياطَ ، فقلتُ : يا رسُولَ الله ، رُبَّما لا يُصَدِّقُنِي قال : قُلْ لَهُ : بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ وانتُبَهَ يَحْيَىٰ ، فلمَّا صَلَّىٰ نورُ الدِّين الصُّبحَ ، وشَرَعَ يَدْعُو ، هَابَه يَحْيَىٰ فقال له : يا يَحْيَىٰ تُحَدِّثُنِي أوْ أُحَدِّثُكَ ؟ فارْتَعَدَ يَحْيَىٰ ، وخَرُسَ ، فقال نورُ الدين : أنا أُحَدِّثُكَ ، رَأَيْتَ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم هٰذهِ الليلَةَ ، وقال لكَ كَذَا وكَذَا ، قال : نَعَم فبالله يا مَوْلانا ما مَعْنَىٰ قولِه بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ ؟ فقال : لمَّا الْتَقَيْنَا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسْلام ، فانْفَرَدْتُ ونزَلْتُ ، ومَرَّغْتُ وَجْهِيَ على التُّرابِ ، وقُلتُ : يا سَيِّدِي مَنْ مَحمُودٌ في البَيْن ، الدِّينُ دِينُك ، والجُنْدُ جُنْدُك ، وهٰذا اليَوْم افْعَلْ ما يَلِيقُ بكَرَمِكَ ، قال : فنَصَرَنا اللهُ عَليهِم .

وتَمَلَّكَ بعدَهُ ابنُه المَلِكُ الصَّالِحُ أشْهُراً ، وسَلَّمَ دِمَشْقَ إلى السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين وتَحَوَّلَ إلىٰ حَلَبَ فدَامَ صَاحِبَها تِسْعَ سِنين وماتَ بالقُولَنْج ، وله عِشْرُونَ سنةً ، وكان شاباً دَيِّناً رَحِمَهُ الله[3] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨٢ .

(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٨٢ .

(٢٠) دَوْلَةُ الْمُوَحدين

(أ) ابنُ تُومَرْت :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : **الشَّيخُ الإمامُ ، الفَقيهُ الأُصُوليُّ الزَّاهدُ ، أبو عبد الله محمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ تُومَرْت ، البَرْبَريُّ الْمَصْمُوديُّ الهرْغيُّ ، الخارج بالمغرب المدَّعي أنَّه عَلويٌّ حَسَنيٌّ ، وأنَّه الإمامُ الْمَعْصُومُ الْمَهْدي ، وأنَّه محمَّدُ بنُ** عبد الله بنِ عبدِ الرحمَـٰن ابنِ هُود بنِ خَالد بنِ تَمَّام بنِ **عَدْنان بنِ صَفْوان بنِ** جابِر بنِ يَحْيَىٰ بنِ رَباح بنِ يَسار بنِ العَبَّاس بنِ مُحمَّد بنِ الحَسَن بنِ الإمامِ عليِّ بنِ أبي طالب .

رَحلَ من السُّوسِ الأقْصَىٰ شاباً إلى الْمَشْرِقِ ، فحَجَّ وتَفقَّه ، وحصَّل أطْرافاً من العلم ، وكان أمَّاراً بالمعروف ، نهَّاءً عن المنكر ، قوي النفس ، زَعِراً شُجاعاً ، مَهيباً قَوَّالاً بالحق ، عَمَّالاً على الْمُلكِ ، غَوياً في الرِّياسَة والظُّهور ، ذا هَيبةٍ ووَقارٍ ، وجَلالة ومُعامَلَة وتألهٍ ، انتُفَع به خَلقٌ ، واهْتَدوا في الجُملَة ، ومَلكُوا المَدائنَ ، وقَهَروا المُلوكَ .

وأخذ عن إلْكِيا الهَرَّاسيِّ وأبي حامد الغَزَّاليِّ ، وأبي بَكْر الطُّرْطُوشيِّ وجاوَرَ سنةً .

وكان لَهِجاً بعلمِ الكَلام ، خائضاً في مَزالِّ الأقْدام ، ألَّفَ عَقيدَةً لقَّبَها بالْمُرْشِدَة ، فيها تَوحيدٌ وخَيرٌ بانْحرافٍ ، فحَملَ عليها أتْباعَه وسَمَّاهم الْمُوَحِّدينَ ، ونَبَزَ مَنْ خَالَفَ الْمُرْشِدَةَ بالتَّجْسيمِ ، وأباحَ دَمَه ، نَعوذُ بالله من الغَيِّ والهَوَىٰ .

وكان خَشِنَ العَيشِ ، فَقيراً ، قانِعاً باليَسيرِ ، مُقْتَصِراً علىٰ زِيِّ الفَقْرِ ، لا لذَّةَ له في مَأكَلٍ ولا مَنْكَحٍ ، ولا مالٍ ، ولا في شيء غَيرَ رِياسَةِ الأمْرِ حتىٰ لَقِيَ اللهَ تَعالَىٰ .

لكنَّه دَخَلَ ـ واللهِ ـ في الدِّماءِ لنَيْلِ الرِّياسَة الْمُرْديَة .

وكانَ غَرامُه في إزالَة الْمُنْكَرِ ، والصَّدْعِ بالحَقِّ ، وكانَ يَتبسَّمُ إلىٰ مَنْ لَقيَه .

وله فَصاحَةٌ في العَربيَّة والبَرْبَريَّة ، وكان يُؤذَىٰ ويُضرَبُ ويَصْبِرُ أُوذيَ بمَكةَ ، فراحَ

إلىٰ مِصْرَ، وبالَغَ في الإنْكارِ ، فطَرَدُوهُ ، وآذَوْهُ وكان إذا خَافَ من البَطْشِ به خلَّطَ وتَبالَه .

ثم سَكنَ الثَّغْرَ مُدَّة ، ثم رَكبَ إلى المَغْرِبِ ، وقد رَأىٰ أنَّه شَرِبَ ماءَ البَحْر مَرَّتَين ، وأخَذَ يُنكِرُ في المَرْكبِ على النَّاسِ ، وألْزَمَهم بالصَّلاةِ ، فآذَوْهُ ، فقَدِمَ الْمَهْدِيَّة[1] ، وعليها ابنُ باديس ، فنَزلَ بمَسْجدٍ مُعَلَّق ، فمَتىٰ رَأىٰ مُنكراً أو خَمْراً ، كَسَرَ وبَدَّد ، فالتَفَّ عليه جَماعَةٌ واشْتَغلُوا عليه فطَلَبَه ابنُ باديس ، فلمَّا رَأىٰ حالَه ، وسَمعَ كَلامَه سألَه الدُّعاءَ ، فقال : أصْلَحَكَ اللهُ لرَعيَّتِك .

وسارَ إلىٰ بجايَة ، فبَقي يُنكِرُ كعادَتِه ، فنُفيَ فذَهَبَ إلىٰ قَريَةٍ ملاَّلَة ، فوقَعَ بها بعبد الْمُؤمِن الذي تَسلْطَنَ ، وكان أمْرَدَ عاقلاً ، فقالَ : يا شابُّ ، ما اسْمُك ؟ قال : عبدُ الْمُؤمِن ، قال : اللهُ أكْبَر ، أنْتَ طِلْبَتي ، فأيْنَ مَقْصِدُكَ ؟ قال : طَلبُ العِلمِ ، قال : قد وَجَدْتَ العلمَ والشَّرفَ ، اصْحَبْني .

فربَطَ الشَّابَ ، وشَوَّقَه إلىٰ أُمورٍ عَشِقَها ، وأفْضَىٰ إليه بسِرِّه وكانَ في صُحبَتِه الفَقيهُ عبدُ الله الوَنْشَريسيُّ ، وكان جَميلاً نَحْوياً ، فاتَّفَقا علىٰ أن يُخْفي عِلْمَه وفَصاحَتَه ، ويَتظاهَرَ بالجَهْلِ واللَّكَنِ مدَّة ، ثم يَجعَلَ إظْهارَ نَفسِه مُعْجزَةً ، ففعلَ ذلك .

وسار ابنُ تُومَرْت إلىٰ أغْمات ، فنَزلوا على الفَقيهِ عبدِ الحَقِّ الْمَصْمُوديِّ ، فأكْرَمَهم ، فاسْتَشارُوه ، فقالَ : هُنا لا يَحْميكُم هـٰذا الْمَوْضعُ فعَليكُم بتِيْنَمَلَّ فهي يَومٌ عَنَّا ، وهو أحْصَنُ الأمَاكنِ ، فأقِيمُوا به بُرْهَةً كي يُنسَىٰ ذِكْرُكمُ فلمَّا رَآهُم أهْلُ الجَبلِ علىٰ تلكَ الصُّورَة ، عَلموا أنَّهم طَلبَةُ عِلمٍ ، فأنْزَلُوهُم ، وأقْبَلوا عليهم ، ثم تَسامَعَ به أهْلُ الجَبلِ فتَسارَعوا إليهم ، فكان ابنُ تُومَرْت مَنْ رَأىٰ فيه جَلادَةً ، عَرضَ عليه ما في نَفسِه ، فإنْ أسْرَعَ إليه ، أضَافَه إلىٰ خَواصِّه ، وإنْ سَكتَ ، أعْرَضَ عنه ، وكانَ كُهولُهم يَنْهَونَ شُبَّانَهم ويُحذِّرُونَهم ، وطَالَت الْمُدَّة ، ثم كَثُرَ أتْباعُه من جِبال درَن ، وهو جَبلُ الثَّلجِ ، وطَريقُه وَعِرٌ ضَيِّقٌ .

---

(١) مدينة محدثة بساحل إفريقية بينها وبين القيروان ستون ميلاً ، والبحر محيط بها من جهاتها الثلاثة ، بناها عُبيدُ الله الشِّيعيُّ الخارجيُّ علىٰ بَني الأغْلِب ، وهو سمَّاها « الْمَهْدِيَّة » ، وكان ابتداءُ بنيانها سنة ثلاث مئة .

قال اليَسَعُ في « تاريخِه » : لا أعْلَمُ مَكاناً أحْصَنَ من تِيْنَمَلَّ لأنَّها بين جَبلَين ، ولا يَصلُ إليهما إلاَّ الفارِسُ ، ورُبَّما نزَلَ عن فَرَسِه في أمَاكِنَ صَعْبَة ، وفي مَواضِعَ يَعبُرُ علىٰ خَشبَة ، فإذا أُزيلَت الخَشبَةُ ، انْقَطَعَ الدَّرْبُ ، وهي مَسافَة يَومٍ ، فشَرعَ أتْباعُه يُغيرُونَ ويَقتُلونَ ، وكَثُروا وقَوُوا ثم غَدَرَ بأهْلِ تِيْنَمَلَّ الذين آوَوْه ، وأمَرَ خَواصَّه ، فوَضَعوا فيهم السَّيفَ فقالَ له الفَقِيهُ الإفْريقيُّ أحَدُ العَشْرَة من خَواصِّه : ما هـٰذا ؟! قَومٌ أكْرَمُونا وأنْزَلونا نَقتلُهم!! فقالَ لأصْحابِه : هـٰذا شَكٌّ في عِصْمَتي ، فاقْتلُوه ، فقُتِلَ .

قال اليَسَعُ : وكُلُّ ما أذكُرُه من حالِ الْمَصَامِدَة ، فقَد شاهَدتُه أو أخَذتُه مُتواتِراً ، وكان في وَصيَّتِه إلىٰ قَومِه إذا ظَفِروا بمُرابِطٍ أو تِلْمِسَانيٍّ أنْ يَحْرِقُوهُ .

فلمَّا كانَ عامُ تِسْعَة عَشَر وخَمسِ مئة ، خَرجَ يوماً ، فقالَ : تَعلَمون أنَّ البَشيرَ - يُريدُ الوَنْشَريسيَّ - رَجلٌ أُمِّيٌّ ، ولا يَثبُتُ علىٰ دَابَّة ، فقد جَعلَه اللهُ مُبشِّراً لكم ، مُطَّلِعاً علىٰ أسْرارِكُم ، وهو آيةٌ لكُم ، قد حَفِظَ القُرآنَ ، وتَعلَّمَ الرُّكوبَ ، وقالَ : أقْرأ ، فقَرأ الخَتْمَة في أرْبَعَةِ أيَّام ورَكِبَ حِصاناً وساقَه ، فبُهِتُوا ، وعَدُّوها آيةً لغَباوَتِهم ، فقامَ خَطيباً وتَلا ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[1] ، وتلا ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2] فهـٰذا البَشيرُ مُطَّلعٌ على الأنْفُسِ ، مُلْهَمٌ ، ونَبيُّكم صلى الله عليه وسلم يَقولُ : « إنَّ فِي هَـٰذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثِينَ وإنَّ عُمَرَ مِنْهُم » وقد صَحِبَنا أقْوامٌ أطْلَعَه اللهُ علىٰ سِرِّهم ، ولا بُدَّ من النَّظَرِ في أمْرِهِم ، وتَيَمُّم العَدْل فيهم ، ثم نُوديَ في جِبالِ الْمَصَامِدَة : مَنْ كان مُطيعاً للإمَام ، فلْيَأتِ ، فأقْبَلوا يَهْرَعُونَ ، فكانوا يُعْرَضُونَ على البَشيرِ ، فيُخْرِجُ قَوماً علىٰ يَمينِه ، ويَعُدُّهُم من أهْلِ الجنَّة ، وقَوماً علىٰ يَسارِه ، فيَقولُ : هـٰذا تائبٌ رُدُّوه على اليَمينِ تابَ البَارِحَةَ ، فيَعترفُ بما قال ، واتَّفقَت له فيهم عَجائبُ ، حتىٰ كان يُطلقُ أهلَ اليَسار ، وهم يَعلَمون أنَّ مَآلَهم إلى القَتلِ فلا يَفرُّ منهم أحدٌ ، وإذا تَجمَّعَ منهم عدَّةٌ ، قَتلَهم قَراباتُهم حتىٰ يَقْتُلَ الأخُ أخَاهُ .

قال اليَسَعُ : فالذي صَحَّ عندي أنَّهم قُتِلَ منهم سَبعونَ ألفاً علىٰ هـٰذه الصِّفَة

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

ويُسَمُّونَه التَّمْييزَ ، فلمَّا كَمُلَ التَّمْييزُ ، وَجَّه جُموعَه مع البَشيرِ نَحْوَ أغْمَات ، فالْتَقاهُم الْمُرابِطُونَ ، فهَزمَهم الْمُرابِطُون ، وثَبتَ خَلقٌ من الْمَصَامِدَة ، فقُتِلُوا ، وجُرِحَ عُمَرُ الهِنْتاتيُّ عِدَّة جِراحاتٍ ، فحُملَ علىٰ أعْناقِهم مُثْخَناً ، فقالَ لهم البَشيرُ : إنَّ لا يَموتُ حتىٰ تُفْتَحَ البِلادُ ، ثم بعدَ مُدَّة ، فَتحَ عَينيْه ، وسَلَّمَ ، فلمَّا أتَوا ، عَزَّاهم ابنُ تُومَرت ، وقال : يَومٌ بيَومٍ ، وكذلك حَربُ الرُّسُل .

وكان ابنُ تُومَرت طَويلَ الصَّمْتِ ، دائمَ الانْقِباضِ ، له هَيبَةٌ في النُّفوسِ وكان فيه تَشَيُّع[1] ، ورتَّبَ أصْحابَه ، فمنهم العَشْرَة ، فهم أوَّلُ مَنْ لبَّاه ثم الخَمسينَ ، وكان يُسمِّيهم الْمُؤمنينَ ، ويَقولُ : ما في الأرضِ مَنْ يؤمن إيمانَكم ، وأنتُم العِصابَةُ الذين عَنَى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بقولِه : « لا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ »[2] ، وأنتم تَفتَحونَ الرُّومَ ، وتَقتلُونَ الدَّجَّالَ ، ومنكُم الذي يَؤمُّ بعيسَىٰ ، وحَدَّثَهم بجُزئياتٍ اتَّفقَ وُقوعُ أكْثرها ، فعَظُمت فِتنَةُ القَومِ به حتىٰ قَتلوا أبْناءَهم وإخوَتَهم لقَسْوَتِهم وغِلظِ طِباعِهم ، وإقْدامِهم على الدِّماءِ ، فبَعثَ جَيشاً ، وقالَ : اقْصُدوا هٰؤلاء المَارِقينَ المُبَدِّلينَ الدين ، فادْعُوهُم إلىٰ إماتَةِ الْمُنْكَر وإزَالَةِ البِدَع ، والإقْرارِ بالْمَهْديِّ الْمَعْصُومِ ، فإنْ أجابُوا فهم إخْوانُكم ، وإلاَّ فالسُّنَّةُ قد أباحَت لكم قِتالَهم ، فسَارَ بهم عبدُ المؤمن يَقصِدُ مَرَّاكِشَ ، فالْتَقاهُ الزُّبَيرُ بنُ أميرِ الْمُسلمينَ ، فكلَّموهم بالدَّعْوَة ، فرَدُّوا أقْبَحَ رَدٍّ ، ثم انْهَزَمَت الْمَصَامِدَةُ ، وقُتلَ منهم مَلحَمَةٌ فلمَّا بَلغَ الخَبرُ ابنَ تُومَرت ، قالَ : أنَجَىٰ عبدُ الْمُؤْمِن ؟ قيلَ : نَعمَ قال : لَمْ يُفْقَد أحَدٌ ، وهوَّنَ عَليهم ، وقالَ : قَتلاكُم شُهَداءٌ .

وقالَ الأميرُ عَزيزٌ في « أخْبَارِ القَيْرَوان » : سَمَّى ابنَ تُومَرت أصْحابَه بالْمُوَحِّدينَ ، ومَنْ خَالفَه بالْمُجَسِّمينَ ، واشْتُهرَ سَنةَ خَمسَ عَشرَةَ وخَمسِ مئة ، وبايَعتْه هَرْغَة علىٰ أنَّه الْمَهْديُّ ، فقَصدَه الْمُلثَّمونَ ، فكَسَروا الْمُلثَّمينَ ، وحَازُوا الغَنائمَ ، ووَثقَت نُفوسُهم ،

---

(١) قال ابنُ خَلدون : وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علىٰ رأي الإمامية من الشيعة .

(٢) وتمامه : « عَلَى الحَقِّ حَتَىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ » ، والمراد بأهل الغرب في هٰذا الحديث أهل الشام ، لأنهم بالنسبة للمدينة المنورة من الجهة الشمالية الغربية ، وانظر فتح الباري : ١٣/ ٢٩٥ ، الطبعة السلفية .

وأتَتْهُم أمدادُ القَبائلِ ، ووُحدَتْ هنتاتَه وهي من أقْوَى القَبائلِ .

ثم قالَ عَزيزٌ : لهم تَودُّد وأدَبٌ وبَشاشَةٌ ، ويَلبَسُونَ الثِّيابَ القَصيرَة الرَّخيصَة ، ولا يُخلون يوماً من طِرادٍ ومثاقَفة ونِضالٍ ، وكانَ في القَبائل مُفسِدونَ ، فطَلَبَ ابنُ تُومَرْت مَشايخَ القَبائل ووَعَظَهم ، وقالَ : لا يَصْلُحُ دينُكم إلاَّ بالنَّهْي عن الْمُنْكَر ، فابْحَثوا عن كُلِّ مُفْسدٍ ، فانْهَوْهُ ، فإنْ لَمْ يَنْتَهِ ، فاكْتُبوا إليَّ أسْماءَهم ، ففَعلوا ، ثم هَدَّد ثانياً ، فأخَذَ ما تَكرَّرَ من الأسْماءِ ، فأفْرَدَها ، ثم جَمَعَ القَبائلَ وحَضَّهم علىٰ أنْ لا يَغيبَ منهم أحَدٌ ، ودَفَع تلكَ الأسْماءَ إلى البَشيرِ ، فتَأمَّلها ، ثم عَرضَهم رَجُلاً رَجُلاً ، فمَنْ وَجَدَ اسْمَه رَدَّه إلى الشِّمالِ ، ومَنْ لَمْ يَجِدْهُ ، بَعثَه على اليَمينِ ، ثم أمَرَ بتَكْتِيفِ أهْلِ الشِّمالِ ، وقالَ لقَراباتِهم : هَؤلاءِ أشْقياءٌ من أهْلِ النَّارِ ، فلتَقتُل كلُّ قَبيلَة أشْقِياءَها ، فقتَلوهم ، فكانَت واقِعَةً عَجيبَة ، وقالَ : بهَـٰذا الفِعْلِ صَحَّ دينُكم ، وقَويَ أمْرُكم .

وفي أوَّلَ سَنةِ أرْبَع وعِشْرينَ وخَمسِ مئة ، جَهَّزَ عِشْرينَ ألفَ مُقاتِل عَليهم البَشيرُ وعبدُ الْمُؤْمِن بعدَ أمُورٍ يَطولُ شَرحُها ، فالْتَقَى الجَمْعانِ واسْتَحرَّ القَتلُ بالْمُوَحِّدينَ ، وقُتلَ البَشيرُ ، ودَامَ الحَربُ إلى اللَّيلِ فصَلَّىٰ بهم عبدُ الْمُؤْمِن صَلاةَ الخَوْفِ ، ثم تَحيَّز بمَنْ بَقِيَ إلىٰ بُسْتانٍ يُعرَفُ بالبُحَيْرَة ، فراحَ منهم تحَت السَّيفِ ثلاثَةَ عَشَر ألفاً ، وكان ابنُ تُومَرْت مَريضاً ، فأوْصَىٰ باتِّباع عبدِ الْمُؤْمِن ، وعَقَدَ له ، ولقَّبَه أميرَ المؤمنين ، وقال : هو الذي يَفتَحُ البلادَ ، فاعْضُدوه بأنْفُسِكم وأمْوالِكم ثم ماتَ في آخِرِ سَنةِ أرْبَع وعشرين وخَمسِ مئة .

قال اليَسَعُ بنُ حَزْم : سَمَّى ابنُ تُومَرْت الْمُرابِطينَ بالْمُجَسِّمين ، وما كان أهلُ الْمَغْربِ يَدينُون إلاَّ بتنزيه الله تعالىٰ عمَّا لا يَجبُ وَصْفُه بما يَجبُ له ، مع تَرْك خَوْضِهم عمَّا تَقْصُرُ العُقُولُ عن فَهْمِه .

إلىٰ أن قال : فكفَّرَهم ابنُ تُومَرت لجَهْلِهم العَرَضَ والجَوْهَر ، وأنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ ذلك ، لَمْ يَعْرِفْ الْمَخْلُوقَ من الخَالِق ، وبأنَّ مَنْ لَمْ يُهاجِرْ إليه ويُقاتِلْ معه ، فإنَّه حَلالُ الدَّمِ والحَريم ، وذَكرَ أنَّ غَضبَه لله وقيامُه حِسْبَة .

قال ابنُ خَلِّكان : قَبرُه بالجَبلِ مُعظَّمٌ ، ماتَ كَهْلاً وكان قُوتُه من غَزْلِ أُخْتِه رَغيفاً بزَيْت ، أو قَليلَ سَمْنٍ ، لمْ يَنْتَقِلْ عن ذلك حينَ كَثُرَت عليه الدُّنيا رَأىَ أصْحابَه يوماً ، وقد مالت نُفوسُهم إلىٰ كَثرَة ما غَنِمُوه ، فأمَرَ بإحْراقِ جَميعِه ، وقالَ : مَنْ أرادَ الدُّنيا فهٰذا له عندي ، ومَنْ كان يَبْغِي الآخِرَةَ ، فجَزاؤُه عندَ الله ، وكان يَتمثَّلُ كثيراً :

تَجَـرَّدْ مِـن الـدُّنْيـا فـإنَّـك إنَّمـا ... خَرَجْتَ إلى الدُّنْيا وأنْتَ مُجَرَّدُ

ولَمْ يَفْتتِح شَيئاً من الْمَدائن ، وإنَّما قَرَّرَ القَواعِدَ ، ومَهَّدَ ، وبَغَتَهُ الْمَوتُ ، وافْتَتَحَ بعدَه البِلادَ عبدُ الْمُؤْمِن .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وقد بَلَغَني ـ فيما يُقالُ ـ أنَّ ابنَ تُومَرت أخْفَىٰ رِجالاً في قُبور دَوَارِسَ ، وجاءَ في جَماعَة ليُرِيَهم آيَةً يَعني فصَاحَ : أيُّها الْمَوْتَىٰ أجيبُوا ، فأجابُوه : أنْتَ الْمَهْديُّ الْمَعْصُومُ ، وأنْتَ وأنْتَ ، ثمَّ إنَّه خافَ من انْتِشارِ الحِيلَةَ فخَسَفَ فَوْقَهم القَبْوَ فماتُوا .

وبكُلِّ حالٍ فالرَّجُلُ من فُحُولِ العالَم ، رَامَ أمْراً ، فتَمَّ له ، ورَبطَ البَرْبَرَ بادِّعاءِ العِصْمَة ، وأقْدَمَ على الدِّماءِ إقْدامَ الخَوارِجِ ، ووَجدَ ما قَدَّم[1] .

(ب) عبد المُؤْمن بنُ عَليّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : ابنُ عَلَوي ، سلطان المغرب الذي يلقَّبُ بأمير المؤمنين ، الكُوفيُّ القَيْسيُّ الْمَغْربيُّ .

مَولدُه بأعْمالِ تِلِمْسانَ ، وكانَ أبُوهُ يَصنَعُ الفَخَّارَ .

وكانَ الخُطباءُ إذا دَعوا له بعدَ ابنِ تُومَرْت ، قالوا : قَسيمُه في النَّسَبِ الكَريمِ مَولِدُه سَنَةَ سَبْعٍ وثَمانِينَ وأرْبَع مِئَة .

وقالَ « الْمُعجبُ » عبدُ الواحد الْمَرَّاكِشيُّ : اسْتدْعَى ابنُ تُومَرْت قبلَ مَوتِه الرِّجالَ الْمُسَمَّين بالجَماعَة وأهْلَ الخَمسينَ ، والثَّلاثةَ عُمرَ أرْتاجَ ، وعُمرَ إيْنْتي ، وعبدَ الله بنَ

---

(١) انظر السير : (ابن تُومَرْت) ١٩/ ٥٣٩ـ ٥٥٢ ، وانظر النزهة : ١٥٠٧ ـ ١٥١٣ .

سُلَيْمانَ ، فحَمِدَ اللهَ ثم قالَ : إنَّ اللهَ ـ سُبحانَه ، ولَهُ الحَمْدُ ـ مَنَّ عَليكم أيَّتُها الطائفَةُ بتأييدِه ، وخَصَّكم بحَقيقَةِ تَوْحيدِه ، وقيَّضَ لكم مَنْ أَلْفاكُم ضُلاَّلاً لاتَهْتَدون وعُمياً لاتُبْصِرُونَ ، قد فَشَت فيكُم البِدَعُ ، واسْتهْوَتْكُم الأباطيلُ فهَداكم اللهُ به ، ونَصَرَكم ، وجَمَعَكم بعد الفُرقَة ، ورَفعَ عنكم سُلطانَ هَؤلاء المارِقينَ ، وسَيُورِثُكُم أرْضَهم ودِيارَهم ، ذلكَ بما كَسَبَتْ أيديهم ، فجَدِّدُوا لله خالِصَ نيَّاتِكُم ، وأرُوهُ من الشُّكْرِ قَوْلاً وفعْلاً ممَّا يُزكِّي به سَعيَكم ، واحْذَروا الفُرقَة ، وكُونوا يَداً واحِدَةً علىٰ عَدوِّكم ، فإنَّكم إنْ فَعلتُم ذلك هابَكم النَّاسُ وأسْرَعوا إلىٰ طاعتِكُم ، وإنْ لا تَفْعَلوا شَمِلَكم الذُّلُّ ، واحْتَقرتْكُم العامَّةُ ، وعَليكُم بمَزْجِ الرَّأفَةِ بالغِلْظَة ، واللِّينَ بالعُنْفِ وقد اخْتَرْنا لكُم رَجُلاً منكُم ، وجَعلنَاهُ أميراً بعدَ أنْ بَلَوْناهُ ، فرَأيناهُ ثَبْتاً في دينِه مُتَبصِّراً في أمْرِه ، وهو هـٰذا ـ وأشارَ إلىٰ عبدِ الْمُؤْمِنِ ـ فاسْتمعُوا له وأطيعُوا ما أطاعَ رَبَّه ، فإنْ بَدَّلَ ففي الْمُوَحِّدينَ بَرَكَةٌ وخَيْرٌ ، والأمْرُ أمْرُ الله يقلِّدُه مَنْ يشاءُ فبايَعَ القَومُ عبدَ الْمُؤْمِن ، ودَعا لهم ابنُ تُومَرْت .

وقال ابنُ خَلِّكان : ما اسْتخلَفَه بلْ أشارَ به قال : فأوَّلُ ما أخذَهُ من البِلادِ هَورانَ ، ثم تِلِمْسانَ ، ثم فاسَ ، ثم سَلا ، ثم سَبْتَة ، ثم حاصَرَ مَرَّاكشَ أحدَ عَشرَ شَهْراً فأخذَها في سَنةِ اثْنَتَينِ وأرْبَعين وخَمسِ مئة ، وامْتدَّ مُلكُه ، وافْتتحَ كَثيراً من الأنْدَلُس ، وقَصَدتْهُ الشُّعَراءُ ولَمَّا قالَ فيه التِّيفاشيُّ قَصيدَتَه :

ماهَزَّ عِطْفَيْهِ بَيْنَ البِيض والأَسَلِ مِثْلُ الخَليفَةِ عَبْدِ المُؤْمِنِ بنِ عَلي

أشارَ إليه أنْ يَقْتَصرَ علىٰ هـٰذا المَطْلَع ، وأمرَ له بألفِ دينارٍ ، وانْقَطَعَتِ الدعْوَةُ العَبَّاسية بمَوْتِ أميرِ المسلمين عليِّ بنِ تاشِفين وولَدِهِ تاشفينَ ، وكانت دَولَةُ تاشفينَ ثلاثَ سِنين .

قال ابنُ الجَوزي في « المرآة » : اسْتولَىٰ عبدُ الْمُؤْمِنِ علىٰ مَرَّاكشَ فقَتلَ الْمُقاتِلَةَ وكفَّ عن الرعيَّة وأحْضَرَ اليَهُودَ والنَّصارَىٰ وقالَ : إنَّ الْمَهْديَّ أمَرَني أنْ لا أُقِرَّ النَّاسَ إلاَّ علىٰ مِلَّةِ الإسْلام ، وأنا مُخَيِّرُكم بينَ ثَلاث ، إمَّا أن تُسْلِموا ، وإمَّا أن تَلْحَقُوا بدارِ الحَرْب ، وإمَّا القَتلُ فأسْلمَ طائفَةٌ ولَحِقَتْ أُخْرَىٰ بدارِ الحَرْب ، وخرَّبَ كَنائسَهم ،

وعَمِلَها مَساجِدَ وألغَى الجِزْيَةَ ، فَعلَ ذلك في جَميعِ مَدائنِه ، وأنْفَقَ بُيوتَ الأمْوالِ وصَلَّىٰ فيها اقْتِداءً بعَليٍّ ، وليُرِيَ النَّاسَ أنَّه لا يَكْنِزُ الْمَالَ ، وأقامَ كَثيراً من مَعالِمِ الإسْلامِ مع سِياسَةٍ كامِلَةٍ .

ونادَىٰ : مَنْ ترك الصَّلاةَ ثَلاثاً فاقْتُلوهُ ، وأزَالَ الْمُنْكَرَ ، وكانَ يَؤمُّ بالنَّاسِ ، ويَتلُو في اليَومِ سَبعاً ، ويَلبَسُ الصُّوفَ الفاخِرَ ، ويَصومُ الإثْنينِ والخَميسَ ، ويُقَسِّمُ الفَيْءَ بالشَّرعِ فأحَبُّوهُ .

قالَ عَزيزٌ في كتاب « الجمع » : كانَ عبدُ الْمُؤْمِنِ يأخُذُ الحَقَّ إذا وَجَبَ علىٰ وَلدِه ، ولَمْ يَدَعْ مُشْرِكاً في بِلادِه لا يَهُودياً ولا نَصْرانياً فجَميعُ رَعيَّته مُسلمونَ .

وكانَ عبدُ الْمُؤْمِنِ مُؤثِراً لأهْلِ العلم ، مُحبّاً لهم ، ويَجزِلُ صِلاتَهم وسُمِّيَت الْمَصَامِدَةُ بالْمُوَحِّدينَ لأجْلِ خَوْضِ الْمَهْديِّ بهم في عِلمِ الاعْتقادِ والكَلامِ .

وكان عبدُ الْمُؤْمِنِ رَزيناً وَقُوراً ، كاملَ السُّؤدد ، سَرياً ، عالي الهمَّة ، خَليقاً للإمَارَة ، واخْتلَّت أحْوالُ الأنْدَلُسِ ، وتَخاذَلَ المُرابِطونَ وآثَروا الرَّاحَةَ ، واجْتَرأَ عليهم الفِرَنْجُ ، وانْفَردَ كلُّ قائدٍ بمَدينَة وهاجَت عليهم الفِرَنْجُ ، وطَمِعُوا ، فجَهَّزَ عبدُ الْمُؤْمِنِ عُمَرَ إيْنْتي فدَخَلَ إلى الأنْدَلُسِ ، فأخَذَ الجَزيرَةَ الخَضْراءَ ، ثم رُنْدَة ، ثم إشْبيلِيَة ، وقُرْطُبَةَ ، وغَرْناطَةَ ، ثم سارَ عبدُ الْمُؤْمِنِ بجيوشه ، وعدَّى البحرَ من زُقاقِ سَبْتَة ، فنزلَ جَبلَ طَارِق ، وسَمَّاهُ جَبلَ الفَتْح ، فأقامَ أشْهُراً ، وبَنىٰ هناك قُصوراً ومَدينَة ، ووَفِدَ إليه كُبَراءُ الأنْدَلُسِ ، وقامَ بَعضُ الشُّعَراءِ مُنْشِداً :

ما للعِدَىٰ جُنَّةٌ أَوْقَىٰ مِنَ الهَرَبِ ... أيْنَ المَفَرُّ وخَيْلُ اللهِ في الطَّلَبِ
وأيْنَ يَذْهَبُ مَنْ في رَأسِ شَاهِقَةٍ ... وقَدْ رَمَتْهُ سِهَامُ اللهِ بالشُّهُبِ
حَدِّثْ عن الرُّومِ في أَقْطَارِ أنْدَلُسٍ ... والبَحْرُ قَدْ مَلأَ البَرَّيْنِ بالعَرَبِ

فأُعْجِبَ بها عبدُ الْمُؤْمِنِ ، وقال : بمثل هٰذا يُمدَحُ الخُلَفاءُ ، ثم أمَّر علىٰ إشبيلية ولدَه يُوسُفَ ، وعلىٰ قُرْطُبَةَ أبا حَفْصٍ عُمَرَ إيْنْتي ، وعلىٰ غَرْناطَةَ عُثْمانَ وَلدَه ، وقَرَّر بالأنْدَلُس جَيشاً كَثيفاً من الْمَصَامِدَة والعَرَبِ وقَبائلِ بَني هِلال ، وكان قد حارَبَهم مُدَّة ،

وظَفِرَ بهم ، وأذلَّهم ، ثم كاتَبَهم ولاطَفَهم ، فخَدَموا معه ، وخَلعَ عَليهم ، وكانَ دُخولُه إلى الأنْدَلُسِ في سَنةِ ثَمانٍ وأرْبَعينَ وخَمْسِ مئة .

قالَ عبدُ الوَاحِد الْمَرَّاكِشيُّ : حدَّثني غَيرُ واحِدٍ أنَّ عبدَ الْمُؤْمِنِ لَمَّا نَزَلَ سَلا ـ وهي على البَحرِ المُحيطِ يَنصَبُّ إليها نَهرٌ عَظيمٌ ويَمُرُّ في البَحْرِ ـ عَبَرَ النَّهْرَ ، وضُربَت له خَيمةٌ ، وجَعلَت جُيوشُه تَعبُرُ قَبيلةً قَبيلةً فَخَرَّ ساجِداً ، ثم رَفَعَ وقد بَلَّ الدَّمْعُ لِحْيَتَه ، فقالَ : أعْرِفُ ثَلاثَةً ورَدُوا هٰذه المَدينَةَ ، لا شَيءَ لهم إلاَّ رَغيفٌ واحِدٌ ، فرامُوا عُبُورَ هٰذا النَّهْرِ ، فبَذَلوا الرَّغيفَ لصاحِبِ القَارِبِ علىٰ أنْ يُعَدِّي بهم ، فقالَ : لا آخُذُه إلاَّ عن اثْنَيْن ، فقالَ أحَدُهم وكانَ شَابّاً : تأخُذُ ثيابي وأنا أسْبَحُ ، ففَعَلَ ، فكان الشَّابُّ كلما أعْيا ، دَنا من القارِبِ ، ووَضَعَ يدَه عليه يَستريحُ ، فيَضْرِبُه بالْمِجْدافِ فما عدَّىٰ إلاَّ بعدَ جَهْدٍ فما شَكَّ السَّامِعُونَ أنَّه هو السَّابحُ ، والآخَرانِ ابنُ تُومَرْت ، وعبدُ الواحِد الشَّرقي .

وقالَ ابنُ الأثير : نازَلَ عبدُ الْمُؤْمِنِ الْمَهْديَّةَ ، فبَرَزَ شُجْعانُ الفِرَنْجِ ، فنالوا من عَسْكرِه ، فأمَرَ ببناءِ سُورٍ عَليهم ، وصَابَرَهم وأخَذَ سَفَاقِسَ وطَرابُلْسَ وقابِسَ ، وجَرَت أمُورٌ وحُروبٌ يَطُولُ شَرْحُها ، وجَهَّزَ مَنِ افْتَتحَ تَوزَرَ وبلادَ الجَريدِ وطَرَدَ عنها الفِرَنْجَ ، وطَهَّرَ إفْريقيَّةَ من الكُفْرِ ، وتَكمَّلَ له مُلكُ الْمَغْربِ من طَرابُلْسَ إلى السُّوسِ الأقْصَىٰ وأكْثرُ مَمْلكَةِ الأنْدَلُسِ ، ولو قَصَدَ مِصْرَ لأخَذَهَا ، ولَمَا صَعُبَت عَليه .

وَلَّما دَخلَت سَنةُ ثَمانٍ وخَمسين وخَمسِ مئة أمَرَ الجَيشَ بالجهازِ لجِهَادِ الرُّومِ واسْتنفَرَ النَّاسَ عاماً ، ثم سارَ حتىٰ نَزَلَ بسَلا ، فمَرِضَ ، وجاءَه الأجَلُ بها في السَّابعِ والعِشْرينَ من جُمادَى الآخِرَة ، وارْتجَّت الْمَغْربُ لِمَوْتِه وكانَ قد جَعَلَ وَليَّ عَهدِهِ ابنَه مُحمَّداً ، وكانَ لا يَصلُحُ لطَيْشِه وجُذامٍ به ولشُرْبِه الخَمْرَ ، فتَملَّكَ أيّاماً ، وخَلَعوه ، واتَّفَقوا علىٰ تَوْليَهِ أخيه يُوسُفَ بنِ عبدِ الْمُؤْمِنِ ، فبَقيَ في المُلكِ اثنَتَينِ وعشرين سَنةً ، وخلَّفَ عبدُ الْمُؤْمِنِ ستَّةَ عَشرَ وَلداً ذَكَراً .

قالَ صاحبُ كتابِ « الجمع » : وَقَفتُ علىٰ كتابٍ كَتبَه عن عبدِ الْمُؤْمِنِ بعضُ

كُتَّابه : من الخَليفَة الْمَعْصُومِ الرَّضيِّ الزَّكيِّ ، والذي بَشَّرَ به النَّبيُّ العَربيُّ ، القامِعُ لكُلِّ مُجَسِّمٍ غَويٍّ ، النَّاصِرُ لدين اللهِ العَليّ أميرِ المؤمنينَ عبدِ الْمُؤْمِنِ بنِ عَليّ[1] .

(ج) يُوسُف بن عبد المُؤْمن :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ ، أبو يَعْقُوبَ يُوسُفُ ابنُ السُّلطانِ عبدِ الْمُؤْمِنِ بنِ عَلِّي ، صاحبُ الْمَغْرِبِ .

تَملَّكَ بعد أخيه الْمَخْلوع مُحمَّد لطَيشه ، وشُربِه الخَمْرَ ، فخُلِعَ بعدَ شَهرٍ ونِصْف ، وبُويعَ أبو يَعْقُوب ، وكانَ شَيخاً مَليحاً ، أبْيَضَ بحُمْرَة ، مُسْتَديرَ الوَجْه ، أفْوَهَ ، أعْيَنَ ، تَامَّ القَامَةِ ، حُلْوَ الكَلامِ فَصيحاً ، حُلْوَ الْمُفَاكَهَة ، عارِفاً باللُّغَة والأخْبارِ والفِقْهِ ، مُتَفَنِّناً ، عالِيَ الهِمَّة ، جَوَاداً ، مَهيباً ، شُجاعاً ، خَليقاً للمُلكِ .

قالَ عبدُ الواحِد بنُ عليّ التَّميمي : صَحَّ عندي أنَّه كان يَحْفَظُ أحدَ الصَّحيحَين ، أظُنُّه البُخاريَّ .

قالَ : وكان سَديدَ الْمُلوكيَّة ، بَعيدَ الهِمَّة ، جَواداً ، اسْتَغنى النَّاسُ في أيّامه ، ثم إنَّه نَظَرَ في الطِّبِّ والفَلْسَفَةِ ، وحَفِظَ أكثرَ كتابِ « الملكي » وجَمعَ كُتبَ الفَلاسِفَة ، وتَطلَّبَها من الأقْطارِ ، وكانَ يَصْحَبُه أبو بَكْر مُحمَّدُ بنُ طُفَيْل الفَيْلَسوفُ فكان لا يَصبرُ عنه .

وفي وَسَط أيّامه خَرجَ عليه سَبْعُ بنُ حيَّان ومَزَدَغْ في غُمارَة[2] ، فحارَبَهما ، وأسَرَهما ، ودَخلَ الأنْدَلُسَ في سَنةِ سَبعٍ وسِتِّينَ وخَمسِ مئة للجِهادِ ، ويُضْمِرُ الاسْتيلاءَ علىٰ باقي الجَزيرَة ، فجَهَّزَ الجَيشَ إلىٰ مُحمَّدِ بنِ سَعْد بن مَرْدَنيش ، فالْتَقوا بقُربِ مُرْسَيَةَ ، فانْكَسَرَ مُحمدٌ ، ثم ضايَقَه الْمُوَحِّدونَ بمُرْسَيَة مُدَّة ، فماتَ ، وأخَذَ أبو يَعْقوب بلادَه ، ثم سارَ ، فنازَلَ مَدينَةَ وَبْذَىٰ فحاصَرَها أشْهُراً ، وكادُوا أنْ يُسْلِموها

---

(١) انظر السير : (عبد المؤمن بن عليّ) ٢٠/ ٣٦٦ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ١٥٦٢ عبد المؤمن بن عليّ .

(٢) اسم القبيلة التي ثار فيها سَبْعُ بن حيّان ، وقال عبد الواحد : والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها ولا يحدّها حزر لكثرتها .

من العَطَشِ ، ثم اسْتَسْقوا ـ لَعَنهم الله ـ فسُقوا ، وامتلأت صَهاريجُهم ، فرَحَلَ ، وهادَنَ الفُنْشَ ، وأقامَ بإشْبيليَة سَنتَين ونِصْفاً ، ودانَت له الأنْدَلُسُ ، ثم رَجعَ إلى السُّوسِ سَنةَ إحْدَىٰ وسَبعينَ وخَمسِ مئة لتَسكنَ فِتنٌ وَقعَت بينَ البَرْبَر .

وكانَ فَقيهاً يَتكلَّمُ في المَذاهِبِ ويَقولُ : قَولُ فُلانٍ صَوابٌ ، ودَليلُه من الكتاب والسُّنَّة كَذا وكَذا[1] .

قال عبدُ الواحد : لمَّا تَجهـزَ لغَزْوِ الرُّوم ، أَمَرَ العُلَماءَ أن يَجْمَعوا أحَادِيثَ في الجِهَاد تُملَىٰ على الجُند ، وكان هو يُملِي بنفسِه ، وكِبارُ المُوَحِّدِين يَكتُبُون في أَلْوَاحِهم وكان يُسَهِّلُ عليه بَذْلَ الأموَالِ سِعَةُ الخَرَاجِ ، كان يأتِيه من إفريقيةَ في العامِ مئةٌ وخمسونَ وَقْرَ بغْلٍ واسْتَنْفَرَ في سنةِ تِسْعٍ وسَبعينَ أهلَ السَّهْلِ والجَبَلِ والعَرَبِ ، فعَبَرَ إلى الأنْدلُسِ ، وقَصَدَ شَنْتَرِيْنَ بِيَدِ[2] ابنِ الرِّيقِ ، لعَنَه الله ، فحَاصَرَها مُدَّةً ، وجَاءَ البَردُ فقال : غداً نترَحَّلُ ، فكان أولَ مَنْ قَوَّضَ مُخَيَّمَه عليُّ بنُ القاضِي الخَطِيب ، فلمَّا رَآه النَّاسُ ، قَوَّضُوا أخْبِيَتَهم ، فكَثُر ذلك ، وعَبَرَ لَيْلَئِذٍ العَسْكَرُ النَّهرَ ، وتَقَدَّموا خَوفَ الازْدِحامِ ، ولَمْ يَدْرِ بذلك أبو يَعقُوب ، وعَرَفَتِ الرُّوم ، فانتُهَزُوا الفُرْصَةَ ، وبَرَزُوا ، فحَمَلُوا على النَّاسِ ، فكَشَفُوهم ، ووَصَلوا إلىٰ مُخَيَّمِ السُّلطانِ ، فقُتِلَ علىٰ بابِه خَلقٌ من الأبطال ، وخُلِصَ إلى السُّلطانِ ، فطُعِنَ تحتَ سُرَّتِه طَعْنةً مات بعدَ أيامٍ منْها ، وتَدَارَكَ النَّاسُ ، فهَزَموا الرُّومَ إلى البلدِ وهَرَبَ الخَطيبُ ، ودَخَلَ إلىٰ صاحِبِ شَنْتَرِينَ ، فأكْرَمَه ، واحْتَرَمَه ، ثم أخَذَ يُكاتِبُ المُسلمينَ ، ويَدُلُّ علىٰ عَوْرَةِ العَدُوِّ فأحْرَقُوه ، ولَمْ يَسِيرُوا بأبي يَعقُوبَ إلاَّ لَيْلتَيْن وتُوفِّي ، وصَلَّىٰ عليْه وصُبِّر في تابوتٍ ، وبُعِثَ إلىٰ تَيْنَمَلَّ[3] ، فدُفِنَ مع أبيه وابنِ تومرت مات سنةَ ثمانين وخَمس مئة ، وبايَعُوا ابنَه يَعقُوبَ[4] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ عبد المؤمن) ٢١/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١٦٠٢/ ابنُ عبد المؤمن .

(٢) يعني التي بيد .

(٣) جبال بالمغرب بينها وبين مرّاكش ثلاثة فَراسخ .

(٤) انظر السير : (ابنُ عبد المؤمن) ٢١/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١٦٠٣/ ١ .

(د) يَعْقوبُ بن يُوسُف (صاحِبُ الْمَغْرِب) :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ ، الْمُلَقَّبُ بأميرِ المؤمنينَ الْمَنْصُورُ ، أبو يُوسُف ، يَعقُوبُ ابنُ السُّلطانِ يُوسُف ابنِ السُّلطانِ عبدِ الْمُؤْمِنِ بنِ عِليٍّ ، الْمَغْربيُّ ، الْمَرَّاكشيُّ ، الظَّاهِريُّ ، وأُمُّه رُوميَّة اسْمُها سَحَر عَقَدوا له بالأمْرِ سَنةَ ثَمانينَ وخَمسِ مئة عندَ مَهْلكِ أبيه ، فكانَ سِنُّه يَومئذٍ ثِنْتَين وثَلاثينَ سَنةً عَمِلَ الوَزارَةَ لأبيه ، وخَبَرَ الخَيْرَ والشَّرَّ .

ولَمَّا تَملَّكَ ، كانَ حَولَه مُنافسونَ له من عُمومَتِه وإخْوَتِه ، ثم تَحَوَّلَ إلىٰ سَلا ، وبها تَمَّت بَيعتُه ، وأرْضَىٰ آلَه بالعَطاءِ ، وبَنىٰ مَدينةً تَلي مَرَّاكِشَ على البَحرِ ، فما عَتمَ أنْ خَرجَ عليه عَليُّ بنُ غانيَة الْمُلثَّم ، فأخَذَ بِجايَةَ ، وخَطبَ للنَّاصِرِالعَبَّاسِيِّ ، فكانَ الخَطيبُ بذلك عبدُ الحَقِّ مُصنِّفُ « الأحْكامَ » ، ولَوْلا حُضورُ أجَلِه ، لأهْلَكَه الْمَنْصُورُ .

ثم تَملَّكَ ابنُ غانيَة قَلعَةَ حمَّاد ، فسارَ الْمَنْصُورُ ، واسْتردَّ بجَايَةَ ، وجَهَّزَ جَيشَه ، فالْتَقاهم ابنُ غانيَة فمَزَّقَهم ، فسارَ الْمَنْصُورُ بنفسِه ، فكَسَرَ ابنَ غانيَة ، وذَهبَ مُثْخَناً بالجِراحِ ، فماتَ في خَيمَةِ أعْرابيَّةٍ ، وقَدَّم جَيشُه عليهم أخاه يَحْيَىٰ فانْحازَ بهم إلى الصَّحْراءِ مع العَرَبِ ، وجَرَتْ له حُروبٌ طَويلَةٌ واسْتردَّ الْمَنْصُورُ قَفْصَةَ ، وقَتلَ في أهْلِها ، فأسْرَفَ ثم قَتلَ عَمَّيْه سُليمانَ وعُمَرَ صبراً ، ثم نَدم ، وتَزهَّدَ وتَقشَّفَ ، وجالَسَ الصُّلَحاءَ والْمُحَدِّثينَ ، ومالَ إلى الظَّاهِرِ ، وأعْرَضَ عن الْمَالِكيَّة ، وأحْرَقَ مالا يُحْصَىٰ من كتُبِ الفُروعِ[1] .

قال عبدُ الواحدِ بنِ عليٍّ : كنتُ بفاسَ ، فشَهدتُ الأحْمالَ يُؤتَىٰ بها ، فتُحْرَق ، وتَهدَّدَ على الاشْتغالِ بالفُروعِ ، وأمَرَ الحُفَّاظَ بجَمعِ كتابٍ في الصَّلاةِ من (الكُتُبِ الخَمسَة) ، و« الْمُوَطَّأ » ، و« مُسْنَدِ ابنِ أبي شَيْبَة » ، و« مُسْندِ البَزَّار » ، و« سُنَنِ الدَّارَقُطني » ، و« سُنَنِ البَيْهَقيِّ » كما جَمعَ ابنُ تُومَرت في الطَّهارَة ثم كان يملي ذلك

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٦ .

بنَفسِه علىٰ كبارِ دَولَتِه ، وحَفِظَ ذلك خَلقٌ ، فكانَ لمَنْ يَحفَظُه عَطاءٌ وخِلْعَةٌ إلىٰ أنْ قالَ : وكانَ قَصْدَه مَحْوُ مَذهَب مالك من البلادِ ، وحَمْلُ النَّاسِ على الظَّاهِر ، وهـٰذا المَقْصِد بعَينِه كان مَقْصِدَ أبيه وجدِّه ، فلَمْ يُظْهِراهُ ، فأخْبَرني غَيرُ واحد أنَّ ابنَ الجَدِّ أخْبَرَهم قالَ : دَخلتُ علىٰ أميرِ المُؤمنينَ يوسُفَ ، فوَجدتُ بينَ يدَيه كتابَ ابنِ يُونُس ، فقالَ : أنا أنْظُرُ في هـٰذه الآراء التي أُحْدِثَت في الدِّين ، أرَأيتَ المَسْألَةَ فيها أقْوالٌ ، ففي أيِّها الحَقُّ ؟ وأيُّها يَجبُ أنْ يَأخُذَ به المُقلِّد ؟ فافْتَتَحتُ أُبَيِّنُ له ، فقَطعَ كَلامي ، وقالَ : لَيسَ إلا هـٰذا ، وأشَارَ إلى المُصْحَفِ ، أوْ هـٰذا وأشارَ إلىٰ « سُنَنِ أبي داوُدَ » ، أو هـٰذا ، وأشارَ إلى السَّيفِ .

قالَ يَعقوبُ : يا مَعْشرَ المُوَحِّدينَ ، أنتُم قَبائلُ ، فمَنْ نابَه أمرٌ ، فَزِعَ إلىٰ قَبيلَتِه ، وهـٰؤلاء ـ يَعني طَلَبَةَ العِلمِ ـ لا قَبيلَ لهم إلاَّ أنا ، قالَ : فعَظُمُوا عند المُوَحِّدينَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وفي سَنةِ خَمسٍ وثمَانِينَ وخَمسِ مئة غَزَا صاحِبُ المَغرِبِ السُّلطانُ يَعْقُوبُ بنُ يُوسُفَ الفِرَنْجَ ، ثمَّ رَجَعَ ، فمَرِضَ ، وتَكَلَّمَ أخُوهُ أبو يَحْيَىٰ في المُلكِ ، فلمَّا عُوفِيَ قَتَلَهُ ، وتَهَدَّدَ القَرَابَةَ[2] .

وفي سَنةِ تسْعِينَ انْتَقَضَتْ الهُدنَةُ ، فتَجَهَّزَ ، وعَرَضَ جُيوشَه بإشْبيليةَ ، وأنْفَقَ الأموالَ ، فقَصَدَهُ الْفُنْشُ فالْتَقَوْا ، وكان النَّصرُ عَزيزاً ، ما نَجَا الْفُنْشُ إلاَّ في شُرَيْذِمَةٍ ، واسْتُشْهِدَ من الكِبارِ جَماعَةٌ ، واسْتَوْلَىٰ يَعْقُوبُ علىٰ قِلاعٍ ، ونَازَلَ طُلَيْطِلَةَ ، ثمَّ رَجَعَ ، ثمَّ غَزَا ووَغَّلَ ، بحيثُ انْتَهىٰ إلىٰ أرْضٍ ما وَصَلَتْ إليها المُلوكُ ، فطَلَبَ الْفُنْشُ المُهَادَنَةَ ، فعُقِدَتْ عَشْراً ، ثمَّ رَدَّ السُّلطانُ إلىٰ مرّاكُشَ بعد سَنَتَينِ ، وصَرَّحَ بقَصْدِ مِصْرَ .

وكان يَتَوَلَّى الصَّلاةَ بنفسِه أشْهُراً ، فتَعَوَّقَ يوماً ، ثمَّ خَرَجَ ، وهم يَنْتَظِرُونَه ، فلامَهُم ، وقال : قد قَدَّمَ الصَّحابَةُ عبد الرَّحمـٰنِ ابنَ عَوْفٍ للعُذرِ ، ثمَّ قَرَّرَ إمَاماً عنه ،

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٦ .

(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٧ .

وكان يَجْلِسُ للحُكْمِ ، حتى اخْتَصَمَ إليه اثنانِ في نِصْفِ[1] ، فقَضَىٰ ، ثمَّ أدَّبَهُما ، وقال : أمَا كان في البَلَدِ حُكَّامٌ .

وكان يَجْمَعُ الأيْتَامَ في العَامِ ، فيَأمُرُ للصَّبيِّ بدينارٍ وثَوبٍ ورَغِيفٍ ورُمَّانةٍ[2] .

وبَنَىٰ صَاحبُ المَغربِ السُّلطانُ يَعْقُوبُ بنُ يُوسُف مارستاناً ما أظنُّ مثله ، غَرسَ فيه من جَميعِ الأشْجَارِ ، وزَخْرَفَه وأجْرَىٰ فيه المِيَاهَ ، ورَتَّبَ له كُلَّ يومٍ ثَلاثينَ دينَاراً للأدويةِ ، وكان يَعُودُ المَرضَىٰ في الجُمُعَة .

وكان لا يقُولُ بالعِصْمَةِ في ابنِ تُومَرْت .

وسَألَ فَقِيهاً : ما قَرأتَ ؟ قال : تَوالِيفَ الإمَامِ ، قال : فَزَوَّرَنِي ، وقال : ما كذا يقُولُ الطالِبُ! حُكمكَ أنْ تقولَ : قَرأتُ كتَابَ اللهِ ، وقَرأتُ من السُّنَّةِ ، ثمَّ بعدَ ذا قُلْ ما شِئْتَ .

وكانت مَجَالسُه مُزَيَّنَةً بحُضُورِ العُلمَاءِ والفُضَلاءِ ، تُفْتَتَحُ بالتِّلاوَة ثمّ بالحَديثِ ، ثمّ يَدعُو هوَ ، وكان يُجيدُ حِفْظَ القُرآنِ ، ويَحفَظُ الحَديثَ ، ويَتكلَّمُ في الفِقْهِ ، ويُنَاظِرُ ، ويَنْسبُونَه إلىٰ مَذْهبِ الظَّاهِر ، وكان فَصيحاً ، مَهيباً ، حَسَنَ الصُّورَة ، تَامَّ الخِلْقَة ، لا يُرَىٰ منه اكْفِهْرارٌ ، ولا عن مُجالِسه إعْراضٌ ، بِزِيِّ الزُّهَّادِ والعُلماء ، وعَليه جَلالَةُ المُلُوكِ ، صَنَّفَ في العِبادات ، وله (فَتاوٍ) ، وبَلَغَني أنَّ السُّودانَ قَدَّموا له فِيلاً فوَصَلَهم ، ورَدَّه ، وقال : لا نُريدُ أن نكونَ أصْحَابَ الفيلِ ، وكان يَجْمَعُ الزَّكاةَ ، ويُفَرِّقُها بنَفْسِه ، وعَمِلَ مَكْتَباً للأيْتام ، فيه نَحْوَ ألفِ صَبيٍ ، وعَشْرَةُ مُعَلِّمُونَ ، حَكَىٰ لي بَعضُ عُمَّالِه : أنَّه فَرَّقَ في عيدٍ نَيِّفاً وسَبعينَ ألْفَ شاةٍ .

وقال عبدُ الواحد : كان مُهْتمّاً بالبناءِ ، كُلَّ وَقتٍ يُجَدِّدُ قَصراً أو مَدينةً ، وأنَّ الذين أسْلَمُوا كُرهاً أمَرَهُم بلِبْسِ كُحْليٍّ وأكْمَامٍ مُفْرِطَةِ الطُّولِ ، وكلوتاتٍ ضخمةٍ بَشِعَةٍ ، ثمَّ ألْبَسَهم ابنُهُ العَمَائِمَ الصُّفْر ، حَمَلَ يَعقُوبَ علىٰ ذلكَ شَكُّهُ في إسْلامِهِم ، ولَمْ تَنْعَقِد

---

(١) يعني في نصف درهم .

(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٧ .

عندنا ذمّةٌ ليَهُوديٍّ ولا نَصْرانيّ مُنذُ قَامَ أمْرُ المَصَامِدَة ، ولا في جَميعِ المَغْربِ كَنيسَةٌ ، وإنَّمَا اليَهُودُ عندنا يُظْهِرونَ الإسْلامَ ، ويُصَلُّونَ ، ويُقْرِئُونَ أوْلادَهُم القُرآنَ جارينَ علىٰ مِلَّتِنَا .

وكان ابنُ رُشْد الحفيدُ قد هَذَّبَ له كتابَ « الحَيَوان » ، وقال : الزُّرافة رأيتُها عند مَلِكِ البَرْبَر ، كذا قال غيرَ مُهتبل ، فأحْنَقَهُم هـٰذا ، ثمَّ سَعَىٰ فيه مَنْ يُناوِئُه عند يَعقُوبَ فَأَرَوْهُ بخَطِّهِ حاكياً عن الفَلاسِفَة أنَّ الزُّهْرةَ أحَدُ الآلِهَة ، فطَلَبَه ، فقال : أهـٰذا خَطُّك ؟ فأنْكَرَ ، فقال : لَعَنَ اللهُ مَنْ كَتَبَه ، وأمَرَ الحاضِرينَ بلَعْنِه ، ثمَّ أقَامَه مُهَاناً ، وأحْرَقَ كُتُبَ الفَلْسَفَةِ سِوَى الطِّبِّ والهَنْدَسَة[1] .

وقد كَتَبَ صَلاحُ الدِّين إلىٰ يَعْقُوبَ يَسْتَنجِدُ به في حِصَارِ عَكَّا ، ونفَّذ إليه تَقدمةً ، وخَضعَ له ، فما رَضيَ لكَوْنِه ما لَقَّبَه بأميرِ المؤمنينَ[2] .

وقيلَ : إنَّ يَعقُوبَ أبْطلَ الخَمرَ في مَمالِكِه ، وتَوعَّدَ عَليها فعُدمَت ، ثم قالَ لأبي جَعْفَرٍ الطَّبيبِ : رَكِّبْ لنا تِرْياقاً ، فأعْوَزَهُ خَمرٌ ، فأخْبرَه بذلك ، فقال : تَلطَّفْ في تَحْصيلِه سِرّاً ، فحَرِصَ ، فعَجَزَ فقالَ الْمَلكُ : ما كانَ لي بالتِّرْياقِ حاجَةٌ ، لكنْ أرَدتُ اخْتِبارَ بِلادي .

ماتَ سنةَ خَمسٍ وتسْعينَ وخَمْسِ مئة[3] .

(هـ) مُحمَّد بن يَعْقوب (صاحِبُ الغَرْبِ) :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ أبو عبدِ الله الملكُ النَّاصِرُ مُحمَّدُ ابنُ السُّلطانِ يَعْقُوبَ ابنِ السُّلطانِ يُوسُفَ بنِ عبدِ الْمُؤْمِنِ بنِ عَليٍّ القَيْسيِّ ، وأُمه رُوميَّة اسْمُها زَهْر .

تَملَّكَ البلادَ بعَهْد من أبيه مُتقدِّم وكانَ أشْقَرَ أشْهَلَ ، أسْيَلَ الخَدِّ مَليحَ الشَّكلِ ، كَثيرَ

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٨ .
(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٩ .
(٣) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٩ .

الصَّمْتِ والإطْراقِ ، شُجاعاً مَهيباً ، بَعيدَ الغَوْرِ حَليماً ، عَفيفاً عن الدِّماءِ ، وفي لِسانِه لَثْغَة ، وكان يُبخَّل[1] .

فَرَغَتْ هُدنَةُ الفِرَنْجِ ، فعَبَرَ السُّلطانُ بجُيُوشِه إلىٰ إشْبيلِيَّةَ ، ثمَّ تَحرَّكَ في سَنةِ ثمانٍ وستِ مِئَةٍ لجِهَادِ العَدُوِّ ، فنَازَلَ حِصْناً لهم فأخَذَهُ فسَارَ ألْفُنشُ في أقاصِي المَمَالِك يَسْتَنْفِرُ عُبَّادَ الصَّلِيبِ ، فاجْتَمَعَتْ له جُيوشٌ ما سُمِعَ بمثلِها ، ونَجَدَتْه فِرَنْجُ الشَّام ، وعَسَاكِرُ القُسْطَنْطِينيَّة ، ومَلكُ أرْغُن البَرْشلونيّ ، واسْتَنْفَرَ السُّلطانُ أيضاً النَّاسَ ، والْتَقَى الجَمعَانِ ، وتُعْرَفُ بوَقْعَةِ العِقابِ ، فتَحَمَّلَ الْفُنشُ حَمْلَةً شَديدةً ، فهَزَمَ المُسلمِينَ ، واسْتُشْهِدَ خَلْقٌ كثيرٌ ، وكان أكْبَرَ أسْبابِ الكَسْرَةِ غَضَبُ الجُندِ من تَأَخُّرِ عَطَائِهم ، وثَبُتَ السُّلطانُ ثبَاتاً كُلِّياً ، لَوْلاهُ لاسْتُئْصِلَ جَيشُه ، وكانت المَلْحَمَةُ في صَفَرَ ، سَنةَ تِسعٍ وستِّ مِئَةٍ ، ورَجَعَ العَدُوُّ بغَنَائِمَ لا تُوصَفُ ، وأخَذُوا بيّاسة عُنْوةً ، فإنَّا لله وإنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ .

مَرِضَ السُّلطانُ أيَّاماً ، ومَاتَ سَنةَ عَشْرٍ وستِّ مِئَةٍ وكانت أيَّامُه خَمْسَةَ عَشرَ عاماً ، وقَامَ بعدَه ابنُه المُسْتَنْصِرُ يُوسُف عَشْرَةَ أعْوَامٍ[2] .

(و) يُوسُف بن مُحمَّد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمُسْتَنصِرُ بالله أبو يَعقُوبُ يُوسُفَ بنِ مُحمَّد بنِ يَعقُوبَ الْمُؤْمِنيُّ .

تَملَّكَ الْمَغْربَ سَنةَ عَشرٍ وستِّ مئة ، وكان بَديعَ الحُسنِ ، بَليغَ الْمَنْطِقِ غارِقاً في وادي اللَّهْوِ والبَطالَة .

وُلدَ سَنة أرْبَع وتِسْعينَ وخَمسِ مئة ، فملَّكوهُ وله سِتَّ عَشرةَ سَنةٍ فضَيَّعُوا أمْرَ الأُمَّة .

مات الْمُسْتَنْصِرُ في سَنةِ عِشرينَ وستِّ مئة ولَمْ يُخلِّفْ وَلداً ، فمَلَّكَت الْمُوَحِّدونَ بعدَه عَمَّ أبيه عبدَ الوَاحِد[3] .

---

(١) انظر السير : (صاحب الغرب) ٢٢/ ٣٣٧ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ١٦٩٨/١ .

(٢) انظر السير : (صاحب الغرب) ٢٢/ ٣٣٧ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ١٦٩٨/٢ .

(٣) انظر السير : (ابنه) ٢٢/ ٣٣٩ـ ٣٤٠ ، وانظر النزهة : ١٦٩٩/ ابنه .

(ز) عبد الواحد بن يُوسُف بن عبد المُؤمن :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : ابنُ السُّلطانِ يوسُف ابنِ السُّلطانِ عبدِ الْمُؤْمِنِ صاحِبِ الْمَغْرِبِ .

كان شَيخاً عاقِلاً لكنَّه لم يُدارِ القُوَّادَ ، فقاموا عليه وخَلعُوه وخَنَقُوه في سَنةِ إحْدَىٰ وعِشْرينَ ، فكانت دَولَتُه تِسْعَةَ أشْهُر[1] .

(ح) عبد الله بن يَعْقوب :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : ابنُ السُّلطانِ يَعقُوبَ بنِ يُوسُفَ بنِ عبدِ الْمُؤْمِنِ القَيْسِيُّ الْمُلَقَّبُ بالْمَلِكِ العَادِلِ .

كان نائباً على الأنْدَلُسِ ، فلمَّا خُنق عمُّه عبدُ الواحِد ثارَت الفِرَنْجُ بالأنْدَلُسِ ، فالْتَقاهُم العَادِلُ ، فانْهزَمَ جَيشُه وفرَّ هو إلىٰ مَرَّاكشَ في حالِ نَحْسِهِ فقَبضَ الْمُوَحِّدونَ عليه ثم بايَعوا بالسَّلطَنةِ يَحْيَى ابنَ السُّلطانِ مُحمَّد بنَ يُوسُفَ لَمَّا بَقَلَ وَجهُه ، فجاءَت الأخْبارُ بأنَّ إدْريسَ ابنَ السُّلطانِ يَعقُوبَ قد ادَّعَى الخِلافَةَ بإشْبيليَّة ، فآلَ الأمرُ بيَحْيَىٰ إلىٰ أنْ طَمِعَت فيه الأعْرابُ وحاصَرَتْه بمَرَّاكِشَ ، وضَجِرَ منه أهْلُها ، وأخْرَجُوه فهَرَبَ الْمِسْكينُ إلىٰ جَبَلِ درن ، ثم نَهضَ معه طائفَةٌ ، وأقْبَلَ وتَمكَّنَ ، وطرَدَ نُوَّابَ إدْريسَ ، وقَتَلَ منهم ، وتَوثَّبَ بالأنْدَلُسِ ابنُ هُود الجُذاميُّ ، ودَعا إلىٰ بَني العَبَّاسِ ، فمالَ إليه النَّاسُ ، فهَرَبَ إدْريسُ ، وعَبرَ إلىٰ مَرَّاكِشَ ، فالْتَقَىٰ هو ويَحْيَىٰ فهُزمَ يَحْيَىٰ ، ففرَّ يَحْيَىٰ إلى الجَبلِ ، وكانت وِلايَةُ العادِلِ في سَنةِ عِشرينَ ، وفي دَولَتِه كانت الْمَلْحَمَةُ عند طُلَيْطِلَةَ ، فانْدَكَّ فيها الْمُسْلِمُونَ ، ثم في الآخِرِ خُنِقَ العادِلُ ، ونُهِبَ قَصرُه بمَرَّاكِشَ ، وتَملَّكَ يَحْيَىٰ بنُ مُحمَّد بنُ يَعقُوبَ ، فحارَبَه عَمُّه ، ثم قُتلَ[2] .

---

(١) انظر السير : (عبد الواحد) ٢٢/ ٣٤١ ، وانظر النزهة : ١٦٩٩/ عبد الواحد .

(٢) انظر السير : (عبد الله) ٢٢/ ٣٤١ـ ٣٤٢ ، وانظر النزهة : ١٦٩٩/ عبد الله .

(ط) إدْريس بن يَعْقوب :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمَلكُ الْمَأمُونُ ، أميرُ المؤمنينَ ـ كما زَعمَ ـ أبو العُلا إدْريسُ ابنُ السُّلطانِ الْمَنْصُورِ يَعقُوبَ بنِ يُوسُفَ بنِ عبدِ الْمُؤْمِنِ بنِ عَليٍّ القَيْسيِّ .

كان بَطلاً شُجاعاً ، مَهيباً ، دَاهيَةً ، فَقيهاً ، عَلاَّمَةً ، أُصُولياً ناظِماً ناثِراً ، وافِرَ الجَلالَةِ كان بالأنْدَلُسِ مع أخيه العادِلِ عبدِ اللهِ فلمَّا ثارَت الفِرَنْجُ عليه تَركَ الأنْدَلُسَ العادِلُ ، واسْتَخلَفَ علىٰ إشْبيليَّةَ إدْريسَ هـٰذا ، وجَرَت له أمُورٌ طَويلَةٌ ، ثم خُطِبَ له بالخِلافَةِ بالأنْدَلُسِ ، ثم عَدَّىٰ وغَلبَ علىٰ مَرَّاكِشَ وانْتَزَعَ الْمُلكَ من يَحْيَىٰ بنِ مُحمَّد ابنِ عَمِّه ، والْتَقَوا غَيرَ مرَّة ، ثم ضَعُفَ أمْرُ يَحْيَىٰ ، واسْتَجارَ بقَوم في حِصْنٍ من عَمَلِ تِلِمْسانَ فقُتلَ غِيلَةً ، وتَمكَّنَ إدْريسُ ، وكان جَبَّاراً جَرِيئاً على الدِّماءِ ، وأزالَ ذِكْرَ ابنِ تُومَرْت من الخُطْبَة .

ماتَ في الغَزْوِ في سَنةِ ثَلاثينَ وسِتِّ مئة ، فمَلَّكوا بعدَه ابنَه الرَّشيدَ فبَقيَ عَشرَ سِنينَ .

ولإدْريسَ رِسالَةٌ طَويلَةٌ أفْصَحَ فيها بتَكْذيبِ مَهْديِّهِم وضَلالِه ، نَقَلَ ذلك الْمُؤَيِّدُ في تاريخِه[1] .

(ي) عبد الواحد بن إدْريس :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمُلقَّبُ بالرَّشيدِ عبدِ الوَاحِدِ ابنِ الْمَأمُونِ إدْريس الْمُؤمنيّ .

تَملَّكَ وتَمكَّنَ ، ثم أعادَ الخُطبَةَ بذِكْرِ الْمَهْديِّ الْمَعْصُومِ ابنِ تُومَرْت يَستَميلُ بذلك قُلوبَ الْمُوَحِّدينَ ، وكانت أيّامُه عَشرَةَ أعْوامٍ تُوفِّيَ غَريقاً في صِهْريجٍ بُسْتانٍ له بمَرَّاكِشَ ، وكَتَموا مَوْتَه شَهراً ثم ملَّكوا أخاه السَّعيدَ عَليَّ بنَ إدْريسَ الذي قُتلَ .

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢٢/ ٣٤٢ـ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ١٧٠٠/ صاحب المغرب .

غَرقَ الرَّشيدُ في سَنةِ أرْبَعينَ وسِتٍّ مئة[1] .

(ك) قُتِلَ القاضي عِياض من أجْل أنَّه أنكرَ عِصْمَة ابنِ تُومَرت :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : بَلغَني أنَّه قُتلَ بالرِّماحِ لكَوْنِه أنْكرَ عِصْمَةَ ابنِ تُومَرْت[2] .

* * *

(١) انظر السير : (ابنه) ٢٢/ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ١٧٠١/ ابنه .

(٢) انظر السير : (القاضي عِياض) ٢٠/ ٢١٢ـ٢١٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٤٣ .

(٢١) الدَّوْلَة الصَّلاحيَّة الأيُّوبيَّة

صَلاحُ الدِّين وبَنُوه

(أ) صَلاحُ الدِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطَانُ الكَبيرُ ، المَلِكُ النَّاصِرُ ، صَلاحُ الدِّينِ ، أبو المُظَفَّر ، يُوسُفُ بنُ الأميرِ نَجْمِ الدِّينِ أيُّوبَ بنِ شَاذِي التَّكْرِيتِيّ المَوْلِد .

وُلِدَ في سَنَةِ اثنَتَين وثلاثين وخَمْسِ مِئَة إذْ أبُوهُ نَجْمُ الدِّينِ مُتَوَلِّي تِكْريتَ نِيَابَةً[١] .

وكان نُورُ الدِّينِ قد أَمَّرَه ، وبَعَثَه في عَسْكَرِه مع عَمِّه أَسَدِ الدِّين شِيركُوه ، فحَكَمَ شِيركُوه مِصْرَ ، فما لَبِثَ أنْ تُوُفِّيَ ، فقَامَ بَعْدَه صَلاحُ الدِّين ، ودَانَتْ له العَسَاكِرُ ، وقَهَرَ بني عُبَيْدٍ ، ومَحَا دَوْلَتَهُم واسْتَولَىٰ علىٰ قَصْرِ القَاهِرَة بما حَوَىٰ من الأَمْتِعَةِ والنَّفَائِس ، منها الجبلُ الياقُوتُ الذي وزْنُه سَبْعَةَ عَشَرَ دِرْهَماً ، قال مُؤَلِّفُ « الكَامِلْ » ، ابنُ الأَثِير : أنا رَأيْتُه ووَزَنْتُه .

وخَلا القَصْرُ من أهْلِه وذَخَائِرِه ، وأقَامَ الدَّعْوَةَ العَبَّاسِيَّة .

وكان خَلِيقاً للإمَارَةِ ، مَهِيباً ، شُجَاعاً حَازِماً ، مُجَاهِداً كَثيرَ الغَزْوِ ، عَالِيَ الهِمَّة ، كانت دَوْلَتُه نَيِّفاً وعِشْرينَ سنةً .

وتَمَلَّكَ بعد نُورِ الدِّين ، واتَّسَعَتْ بلادُه .

ومنذُ تَسَلْطَنَ ، طَلَّقَ الخَمْرَ واللَّذاتِ ، وأنْشَأَ سُوراً على القاهِرةِ ومِصْرَ[٢] وبَعَثَ أخَاه شَمْسَ الدِّين في سَنَةِ ثمانٍ وسِتينَ ، فافْتَتَحَ بَرْقَةَ ، ثمَّ افْتَتَحَ اليَمَنَ وسَارَ صَلاحُ الدِّين ، فأخَذَ دِمَشْقَ من ابنِ نُورِ الدِّين[٣] .

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦١٩ .

(٢) يعني فسطاط مصر ، وكانت لفظة « مصر » وحتى اليوم تُطلق على الفسطاط .

(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦١٩ .

وفي سَنَةِ إحْدَىٰ وسَبْعينَ وخَمسِ مئة وثَبَتْ عليه البَاطِنيَّةُ فجَرَحُوه .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وسَبْعينَ وخَمْس مئة كَسَرَتْه الفِرِنْجُ على الرَّمْلَةِ ، وفَرَّ في جَمَاعَةٍ ونجا ، وفي سَنَةَ خَمْسٍ الْتَقَاهُم وكَسَرَهُم .

وفي سَنَةِ ثمانٍ وسَبْعينَ وخَمْس مئة عَدَّى الفُرَاتَ ، وأَخَذَ حَرَّانَ ، وسَرُوجَ ، والرَّقَّةَ ، والرُّهَا ، وسِنْجَار ، والبِيْرَةَ ، وآمِدَ ، ونَصِيْبِينَ ، وحَاصَرَ المَوْصِلَ ، ثمَّ تَمَلَّكَ حَلَبَ ، وعَوَّضَ عنها صاحِبَها زِنْكِي بسِنْجَار ، ثم إنه حاصَر المَوْصِلَ ثانياً وثالثاً ، ثمَّ صَالَحَه صاحِبُها عِزُّ الدِّين مَسْعُود[1] .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ وخَمْس مئة فَتَحَ طَبَرِيَّةَ ، ونَازَلَ عَسْقَلانَ ، ثمَّ كانت وَقْعَةُ « حِطِّيْنَ » بَيْنَه وبَيْنَ الفِرَنْج ، وكانوا أرْبَعِينَ ألفاً ، فحَالَ بيْنَهُم وبينَ المَاءِ علىٰ تَلٍّ ، وسَلَّمُوا نُفُوسَهُم ، وأُسِرَتْ مُلُوكُهم ، وبَادَرَ ، فأَخَذَ عَكَّا وبَيْرُوتَ وكَوْكَبَ ، وسَارَ فحَاصَرَ القُدْسَ ، وجَدَّ في ذلك فأخَذَها بالأَمَانِ[2] .

ثمَّ إنَّ الفِرَنْجَ قامَتْ قِيامَتُهُم علىٰ بَيْتِ المَقْدِس ، وأَقْبَلُوا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِم بَرّاً وبَحْراً ، وأَحَاطُوا بعَكَّا ليَسْتَرِدُّوها ، وطَالَ حِصَارُهم لها ، وبَنَوا علىٰ نفُوسِهِم خَنْدَقاً ، فأَحَاطَ بهم السُّلطَانُ ، ودَامَ الحِصَارُ لهم وعلَيْهِم نَيْفاً وعِشْرينَ شَهْراً ، وجَرَىٰ في غُضُونِ ذلك مَلاحِمُ وحُرُوبٌ تُشَيِّبُ النَّوَاصِي ، وما فُكُّوا حتّىٰ أخَذُوها ، وجَرَتْ لهُم وللسُّلطَانِ حُرُوبٌ وسِيَرٌ وعِنْدَما ضَرِسَ الفَرِيقَان ، وكَلَّ الحِزْبَان ، تَهَادَنَ المِلَّتان[3] .

وكانت له هِمَّةٌ في إقامَةِ الجِهَادِ ، وإبادَةِ الأَضْدَادِ ، ما سُمِعَ بمثلِها في دَهْرٍ[4] .

قال ابنُ واصِل في حِصَارِ عزاز : كانت خَيْمَةٌ كان السُّلطانُ يَحْضُرُ فيها ، ويَحُضُّ الرِّجَالَ ، فحَضَرَ باطِنيَّةٌ في زِيِّ الأَجْنَادِ ، فقَفَزَ عليه واحدٌ ضَرَبَه بسِكِّينٍ لَوْلا المِغْفَرُ

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦١٩ .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٠ .

(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٠ .

(٤) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٠ .

الزَّرَدُ[1] الذي تحتَ القَلَنْسُوة لقَتَلَه ، فأمْسَكَ السُّلطَانُ يَدَ البَاطِنيِّ بيَدَيْه ، فبَقِيَ يَضْرِبُ في عُنُقِ السُّلطَانِ ضَرْباً ضَعِيفاً ، والزَّرَدُ تَمْنَع ، وبادَرَ الأميرُ بازكوج ، فأمْسَكَ السِّكِّينَ ، فجَرَحَتْه ، وما سَيَّبَها الباطِنيُّ حتّىٰ بَضَّعُوه ، ووَثَبَ آخَرُ ، فوَثَبَ عليه ابنُ منكلان ، فجَرَحَه الباطِنيُّ في جَنْبِه ، فمَاتَ ، وقُتِلَ الباطِنيُّ ، وقَفَزَ ثالثٌ ، فأمْسَكَه الأميرُ عليُّ بنُ أبي الفَوَارِس ، فضَمَّه تحتَ إبطِه ، فطَعَنَهُ صاحِبُ حمص ، فقتَلَهُ ، ورَكَبَ السُّلطانُ إلىٰ مُخَيَّمِه ، ودَمُه يَسِيلُ علىٰ خَدِّه ، واحْتَجَبَ في بَيْتِ خَشَبٍ ، وعَرَضَ جُنْدَهُ ، فمَنْ أَنْكَرَهُ أَبْعَدَهُ[2] .

قال المُوفَّقُ عبدُ اللَّطيف : أتَيْتُ ، وصَلاحُ الدِّين بالقُدْسِ ، فرَأيْتُ مَلِكاً يَمْلأُ العُيُونَ رَوعَةً ، والقُلُوبَ مَحَبَّةً ، قريباً بَعِيداً ، سَهْلاً مُحَبَّباً ، وأصْحَابُه يَتَشَبَّهُون به يَتَسَابَقُون إلى المَعْرُوف كما قال تعالىٰ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾[3] وأولُ ليلةٍ حَضَرْتُه وَجَدْتُ مَجْلِسَه حَفْلاً بأهْلِ العِلْمِ يَتَذَاكرُون ، وهو يُحْسِنُ الاسْتِمَاعَ والمُشَارَكَةَ ، ويأخُذُ في كَيْفِيَّةِ بناءِ الأَسْوارِ ، وحَفْرِ الخَنَادِق ، ويأتي بكُلِّ مَعْنىً بَدِيعٍ ، وكان مُهْتَمّاً في بِنَاءِ سُورِ بَيْتِ المَقْدِسِ وحَفْرِ خَنْدَقِه ، ويَتَولَّىٰ ذلك بنَفْسِه ، ويَنْقُلُ الحِجَارَةَ علىٰ عاتِقِه ويَتَأسَّىٰ به الخَلْقُ حتّى القاضِي الفَاضِل ، والعِمَادُ إلىٰ وَقْتِ الظُهْر ، فيَمُدُّ السماطَ ويَسْتَرِيحُ ، ويَرْكَبُ العَصْرَ ، ثمَّ يَرْجِعُ في ضَوْءِ المَشَاعِل ، قال له صَانِعٌ : هٰذه الحِجَارَةَ التي تُقَطَّعُ من أسْفَلِ الخَنْدقِ رِخْوَةٌ ، قال : كذا تَكُونُ الحِجَارَةُ التي تَلِي القَرَارَ والنَّدَاوَةَ ، فإذا ضَرَبَتْها الشَّمسُ ، صَلُبَتْ وكان يَحْفَظُ « الحَمَاسَة » ، ويَظُنُّ أنَّ كُلَّ فَقِيهٍ يَحْفَظُها ، فإذا أَنْشَدَ وتَوَقَّفَ ، اسْتَطْعَمَ فلا يُطْعَمُ ، وجَرَىٰ له ذلك مع القاضِي الفَاضِل ، ولَمْ يَكُنْ يَحْفَظُها ، وخَرَجَ ، فما زَالَ حتّىٰ حَفِظَها .

وكانت وَقْعَتُهُ بمِصْرَ مع السُّودان ، وكانوا نَحْوَ مِئَتَيْ ألفٍ ، فنُصِرَ عليهم ، وقَتَلَ أكثرَهم .

---

(١) زرد يُنسَج من الدروع علىٰ قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٢٠ .

(٣) سورة الحجر ، الآية : ٤٧ .

حُمَّ صَلاحُ الدِّين ، ففَصَدَه مَنْ لا خِبْرَةَ له ، فخَارَتْ القُوَةُ ، وماتَ ، فوَجَدَ النَّاسُ عليه شَبيهاً بما يَجِدُونَه على الأنْبِيَاءِ ، وما رَأيْتُ مَلِكاً حَزِنَ النَّاسُ لمَوْتِه سِواهُ ، لأنَّه كان مُحَبَّباً ، يُحِبُّه البَرُّ والفَاجِرُ ، والمُسْلِمُ والكَافِرُ ، ثمَّ تَفَرَّقَ أوْلادُه وأصْحَابُه أيَادِيَ سَبَأٍ ، وتَمَزَّقُوا ولقَدْ صَدَقَ العِمَادُ في مَدْحِهِ حَيْثُ يقولُ :[1] .

وللنَّاسِ بالمَلِكِ النَّاصِرِ الصَّلا ... حِ صَلاحٌ ونَصْرٌ كَبيرْ
هوَ الشَّمسُ أَفْلاكُهُ فِي البِلا ... دِ ومَطْلِعُهُ سَرْجُهُ والسَّرِيرْ
إذا مَا سَطَا أوْ حَبَا واحْتَبَى ... فمَا اللَّيْثُ مَنْ حَاتِمٌ ما ثَبِيرْ[2]

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ وخَمسِ مئة افْتَتَحَ صَلاحُ الدِّينِ بلادَ الفِرَنْجَ ، وقَهَرَهم ، وأبَادَ خَضْراءَهم ، وأَسَرَ مُلُوكَهم علىٰ « حِطِّينَ » وكان قد نَذَرَ أنْ يَقْتُلَ أرْناطَ صاحِبَ الكَرَكِ ، فأُسِرَ يومَئذٍ ، كان قد مَرَّ به قومٌ من مِصْرَ في حَالِ الهُدنَةِ ، فغَدَرَ بهم ، فنَاشَدُوهُ الصُّلْحَ ، فقال ما فيه اسْتخْفافٌ بالنَبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقَتَلَهم ، فاسْتَحْضَرَ صلاحُ الدِّين المُلُوكَ ، ثمَّ ناوَلَ المَلِكَ جِفْرِي شَرْبَةَ جلابِ ثلجٍ فشَرِبَ ، فنَاوَلَ أرْناطَ فشَرِبَ ، فقال السُّلطانُ للتُّرجُمَانِ ، قُلْ لجِفْرِي : أنْتَ الذي سَقَيْتَه ، وإلاَّ أنا فمَا سَقَيْتُه ، ثمَّ اسْتَحْضَرَ البرِنْسَ أرْنَاطَ في مَجْلِسٍ آخَرَ ، وقال : أنا أنتَصِرُ لمُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْكَ ، ثمَّ عَرَضَ علَيه الإسْلامَ ، فأبَىٰ فحَلَّ كَتِفَه بالنَّيمجاه[3] وافْتَتَحَ عامَهُ ما لَمْ يَفْتَحْهُ مَلِكٌ ، وطارَ صِيتُه في الدُّنيا ، وهَابَتْهُ المُلُوكُ .

تُوفِّيَ بقَلعَةِ دِمَشْقَ سَنَةَ تِسْعٍ وثمَانِينَ وخَمسِ مِئَة .

مَحاسِنُ صلاحُ الدِّين جَمَّةٌ ، لا سِيَّمَا الجِهَادُ ، فلَه فيه اليَدُ البَيْضاءُ ببَذْلِ الأمْوالِ والخَيْلِ المُثَمَّنَة لجُنْدِه ، وله عَقلٌ جَيِّدٌ ، وفَهمٌ وحَزمٌ وعَزمٌ[4] .

قال العِمادُ : لا يَلْبَسُ إلاَّ ما يَحِلُّ لُبْسُهُ كالكِتَّانِ والقُطْنِ ، نَزَّهَ المجالِسَ من الهَزلِ ،

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢١ .
(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٢ .
(٣) النيمجاة : خنجر مقوس يشبه السيف القصير .
(٤) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٢ .

ومَحَافلُه آهِلَةٌ بالفُضَلاءِ ، ويُؤْثِرُ سَمَاعَ الحَدِيثِ بالأسَانيدِ ، حَلِيماً ، مُقِيلاً للعَثْرةِ ، تَقِيّاً نَقِيّاً وَفِيّاً صَفِيّاً ، يُغْضي ولا يَغْضَبُ ، ما رَدَّ سائِلاً ، ولا خَجَّلَ قائلاً ، كَثيرَ البِرِّ والصَّدَقاتِ ، أنْكَرَ عليَّ تَحْلِيَةَ دَواتِي بِفِضَةٍ فقُلتُ : في جَوَازِهِ وَجْهٌ ذَكَرَه أبو مُحمَّد الجُوَيْنيُّ ، وما رَأيتُه صلَّىٰ إلاَّ في جَمَاعَةٍ .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : وحَضَرَ وفَاتَه القاضي الفَاضِلُ[1] .

وذَكرَ أبو جَعفَر القُرطُبيُّ إمامُ الكلاَّسةِ[2] : إنَّني انتَهَيتُ في القراءةِ إلىٰ قولِه تعَالَىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ ﴾[3] ، فسَمعتُ صَلاحَ الدِّين وهو يقول : صَحِيح وكان ذِهْنُه قبلَ ذلك غَائِباً[4] ، ثمَّ ماتَ ، وارْتَفَعَتِ الأصْواتُ بالبُكَاءِ ، وعَظُمَ الضَّجِيجُ ، حتىٰ إنَّ العاقِلَ ليُخَيَّلُ له أنَّ الدُّنْيا كُلَّها تَصيحُ صَوْتاً واحداً ، وغَشِيَ النَّاسَ ما شَغَلَهم عن الصَّلاةِ عليه ، وتَأَسَّفَ النَّاسُ عليه حتى الفِرِنْجُ لما كان من صِدْقِ وَفائِه[5] .

وفي «الرَّوضَتَين» لأبي شامَة : أنَّ السُّلطانَ لَمْ يُخَلِّفْ في خِزَانَتِه من الذَّهبِ والفِضَّةِ إلاَّ سَبعَةً وأربَعينَ درهماً ، ودِيناراً صُورِيّاً ، ولَمْ يُخَلِّفْ مِلْكاً ولا عَقَاراً رحمه الله ، ولَمْ يَخْتلِفْ عليه في أيَّامِه أحدٌ من أصْحَابِه وكان النَّاسُ يَأمَنُون ظُلمَه ، ويَرجُونَ رِفدَه ، وأكثرُ ما كان يَصِلُ عَطَاؤُه إلى الشُّجْعانِ ، وإلى العُلَماءُ وأرْبَابِ البُيُوتاتِ ، ولَمْ يكُنْ لمُبطِلٍ ولا لمَزَّاحٍ عنده نَصِيبٌ .

قال المُوَفَّقُ : وكان إذا نَازَلَ بَلَداً ، وأشْرَفَ علىٰ أخْذِه ، ثمَّ طَلَبُوا منه الأمَانَ ، آمَنَهُم ، فيَتَألَّمُ لذلك جَيشُه ، لفَوَاتِ حَظِّهم[6] .

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٢ .

(٢) كان الشيخ أبو جعفر قد استُدعي ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة عند حضور الوفاة ، وتوفي أبو جعفر هـٰذا سنة ٥٩٦ .

(٣) سورة الحشر ، الآية : ٢٢ .

(٤) وتمام الخبر أن القاضي الفاضل جاءه عند أذان الصبح ، وكان في آخر رمق ، فلما قرأ القارىء ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ تبسَّم ، وتهلَّل وجهُه وأسلمَ روحَه لربِّه سبحانه .

(٥) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٣ .

(٦) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٣ .

وكتَبَ القاضِي الفاضِلُ تَعْزِيَةً إلىٰ صاحِبِ حَلَبْ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] ، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[2] ، كتَبْتُ إلىٰ مَولانا المَلِكِ الظَّاهِرِ أحْسَنَ اللهُ عَزَاءَه ، وجَبَرَ مُصَابَه وجَعَلَ فيه الخَلَفَ من السَّلَفِ في السَّاعةِ المَذْكُورة ، ولقَدْ زُلْزِلَ المُسْلِمُونَ زِلْزالاً شَدِيداً ، وقد حَضَرَت الدُّموعُ المَحَاجِرَ وبَلَغَت القُلوبُ الحَنَاجِرَ ، وقد ودَّعتُ أبَاكَ ومَخْدُومي وَدَاعاً لا تَلاقِيَ بعدَه ، وقَبَّلتُ وجهَه عنِّي وعَنْكَ ، وأسْلَمْتُه إلى اللهِ وَحْدَه مَغْلُوبَ الحِيلَةِ ضَعِيفَ القُوَّةِ راضِياً عن اللهِ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ وبالبابِ من الجُنُودِ المُجَنَّدَةِ والأسْلِحَةِ المُعَمَّدَةِ ما لَمْ يَدْفَعِ البَلاءَ ولا ما يَرُدُّ القَضَاءَ ، تَدْمَعُ العَينُ ويَخْشَعُ القَلبَ ، ولا نقولُ إلاَّ ما يُرضِي الرَّبَ ، وإنَّا بك يا يُوسُفُ لمَحْزُونُون .

ولِلْعَلَمِ الشَّاتانيِّ فيه قَصِيدةٌ مَطلَعُها :

أَرَى النَّصْرَ مَقْرُوناً برَايَتِكَ الصَّفْرَا ... فسِرْ وامْلُكِ الدُّنيا فأنْتَ بها أحْرَىٰ[3]

(ب) العَزيز :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ ، المَلكُ العَزيزُ ، أبو الفَتح ، عِمادُ الدِّين ، عُثمانُ ابنُ السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين يُوسُفَ بنِ أيُّوب ، صاحبُ مِصْرَ .

وُلدَ سَنةَ سَبعٍ وسِتِّينَ وخَمسِ مئة .

وتَملَّكَ بعد أبيه ، وكان لا بأسَ بسيرَته ، قَدِمَ دِمَشْقَ ، وحاصَرَ أخاهُ الأفْضَلَ[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : نَقلتُ من خَطِّ الضِّياءِ الحافِظِ ، قالَ : خَرجَ إلى الصَّيدِ ، فجاءَته كُتبٌ من دِمَشْقَ في أذيَّة أصْحابِنا الحَنابِلَة ـ يَعني في فِتْنَة الحافِظِ عبدِ الغَنيّ ـ ، فقالَ : إذا رَجَعنا من هـٰذه السَّفْرَة ، كلُّ مَنْ كانَ يَقولُ بمَقالَتِهم أخْرَجْناهُ من بَلدِنا ،

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ١ .

(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٣ .

(٤) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٤ .

قالَ : فرَماهُ فَرَسٌ ، ووَقَعَ عليه ، فخَسَفَ صَدرَه ، كذا حدَّثني يُوسُفُ بنُ الطُّفَيْل ، وهو الذي غَسَّلَه .

وقالَ الْمُنْذِريُّ : عاشَ ثَمانياً وعِشْرينَ سَنةً ماتَ سَنةَ خَمسٍ وتِسْعينَ وخَمسِ مئه[1] .

وقالَ الْمُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيف : كانَ العَزيزُ شاباً ، حَسَنَ الصُّورَة ، ظَريفَ الشَّمائلِ ، قَوياً ، ذا بَطْش ، وأَيْد ، وخِفَّة حَرَكة ، حَيياً ، كَريماً ، عَفيفاً عن الأمْوالِ والفُروجِ ، بلَغَ من كَرِمه أنَّه لمْ يَبْقَ له خِزانة ، ولا خَاص ، ولا فرس وبُيوتُ أُمَرائِه تَفيضُ بالخَيْراتِ ، وكانَ شُجاعاً مِقْداماً ، بلغَ من عِفَّتِه أنَّه كانَ له غُلامٌ تُرْكيٌّ بألفِ دينارٍ يُقالُ له : أبو شامَة ، فوَقَفَ ، فرَاعَه حُسْنُه ، فأمَرَه أنْ يَنْزِعَ ثيابَه ، وجَلسَ منه مَجْلِسَ الخَنَا ، فأدْرَكَه تَوْفيقٌ ، فأسْرَعَ إلىٰ سَريَّة له ، فقَضَىٰ وَطَرَه[2] .

قال ابنُ واصِل : وحُكيَ عنه أنَّ عبدَ الكَريمِ ابنَ البيسانيِّ أخا القاضي الفاضِل كان يَتولَّى البحيرَةَ مُدّةً ، ووَقعَ بينَه وبينَ أخيه ، فعُزِلَ ، وكان مُزوَّجاً ببنْتِ ابن ميَسَّر ، فأساءَ عِشْرَتَها لسُوءِ خُلقِه ، فتَوجَّه أبوها ، وأثْبَتَ عند قاضي الإسْكَنْدَريَّة ضَررَها ، وأنَّه قد حَصَرَها في بَيتٍ ، فمَضَى القاضي بنفسِه ، ورامَ أنْ يَفْتَحَ عَنها ، فلَمْ يَقْدرْ ، فأحْضَرَ نَقَّاباً ، فنَقبَ البَيتَ ، وأخْرَجَها ، ثم سَدَّ النَّقْبَ ، فهَاجَ عبدُ الكَريمِ ، وقَصدَ الأميرَ جهاركسَ بمِصْرَ ، وقالَ : هٰذه خَمسَةُ آلاف دينار لك ، وأرْبَعُونَ ألْفَ دينارٍ للسُّلطانِ ، وأُوَلِّيْ قَضاءَ الإسْكَنْدَريَّة فأتَى العَزيزَ لَيلاً ، وأحْضَرَ الذَّهَبَ ، فسَكتَ ، ثم قالَ : رُدَّ عليه مالَه ، وقُلْ له : إيَّاكَ والعَودَ إلىٰ مثلِها ، فمَا كلُّ مَلكٍ يَكونُ عادِلاً ، أنا ما أبيعُ أهلَ الإسْكَنْدَريَّة بهٰذا الْمَالِ قال جهاركسُ : فوَجَمتُ ، وظَهرَ عليَّ ، فقالَ : أراكَ أخَذْتَ شَيئاً ، قُلتُ : نعَم خَمسةَ آلافِ دينارٍ ، قال : أعْطَاكَ مالاً يَنفَعُ مرَّةً ، وأنا أُعْطيكَ ما تَنْتَفِعُ به مَرَّاتٍ ، ثم وَقَّعَ لي بإطْلاقِ طُنبذة[3] كنتُ أستغلُّها سَبعةَ آلافِ دينار[4] .

---

(١) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٤ .
(٢) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٥ .
(٣) اسم مكان .
(٤) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٥ .

(ج) العَادِلُ وبَنُوه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ الْمَلكُ العَادِلُ سَيفُ الدِّينِ أبو الْمُلوكِ وأخُو الْمُلوكِ أبو بَكْر مُحمَّدُ ابنُ الأميرِ نَجْمِ الدِّينِ أيُّوبَ بنِ شاذي التَّكْريتيُّ ثم البَعْلَبَكيُّ الْمَوْلِد كانَ أصْغَرَ من أخيه صَلاح الدِّين بعامَين .

نَشأ في خِدمَةِ الْمَلِكِ نُورِ الدِّينِ ، ثم شَهِدَ الْمَغازيَ مع أخيه ، وكانَ ذا عَقْلٍ ودَهاءٍ وشَجاعَةٍ وتُؤدَةٍ وخِبرَةٍ بالأمُورِ ، وكان أخوه يَعتَمِدُ عليه ويَحْتَرِمُه[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكانَ سَائساً ، صائبَ الرَّأي ، سَعيداً ، اسْتَولَىٰ على البلادِ وامْتدَّتْ أيامُه ، وحَكمَ على الحِجازِ ، ومِصْرَ ، والشَّام ، واليَمَنِ ، وكَثيرٍ من الجَزيرَة ، وديارِ بَكْر ، وأرْمينيَة وكانَ خَليقاً للمُلكِ ، حَسَنَ الشَّكلِ مَهيباً ، حَليماً ، دَيِّناً فيه عِفَّةٌ وصَفْحٌ وإيثارٌ في الجُملَة أزالَ الخُمورَ والفاحِشَةَ في بَعضِ أيَّام دَولَتِه ، وتَصدَّقَ بذَهَبٍ في قَحْطِ مِصْرَ .

وسيرَتُه مع أولادِ أخيه مَشْهورَة ، ثم لَمْ يَزلْ يُراوِغُهم ويُلقي بينهم حتىٰ دَحاهُم ، وتَمكَّنَ واسْتولَىٰ علىٰ مَمالِكِ أخيه ، وأبْعَدَ الأفْضَلَ إلىٰ سُمَيْساطَ ، ووَدَعَ[2] الظَّاهِرَ وكَسرَ عنه لكَونِ بنتِه زَوجتَه ، وبَعثَ على اليَمَنِ حَفيدَه الْمَسْعودَ أطسِزَ بنَ الكامِل ، ونابَ عنه بمَيَّافارقينَ ابنُه الأوْحَد ، فاسْتولَىٰ علىٰ أرْمينيَة ، ثم إنَّه قَسَّمَ الممَالِكَ بينَ أولادِه ، وكان يُصَيِّفُ بالشَّامِ غالباً ويَشْتو بمِصْرَ[3] .

وخافَ من الفِرَنْجِ فصَالَحَهم وهادَنَهم وأعْطاهُم مَغَلّ الرَّملَة ولُدَّ ، وسَلَّمَ إليهِم يَافَا ، فقَوِيَتْ نُفوسُهم ، فالأمْرُ لله .

قال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيف : كانَ أعْمَقَ إخْوَتِه فِكْراً ، وأطْوَلَهم عُمْراً وأنْظَرَهُم في العَوَاقِبِ ، وأحَبَّهُم للدِّرْهَم ، وكان فيه حِلمٌ وأنَاةٌ وصَبْرٌ على الشَّدائِدِ ، سَعيدَ

---

(١) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٠ .

(٢) أي : تركَ .

(٣) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧١ .

الجَدِّ[1] ، عاليَ الكَعْبِ ، مُظَفَّراً ، أَكُولاً ، نَهِماً ، يَأكُلُ من الحَلْواءِ السُّكريَّةِ رَطْلاً بالدِّمَشْقيّ وكان كَثيرَ الصَّلاةِ ، ويَصُومُ الخَميسَ ، يُكْثِرُ الصَّدَقَةِ عندَ نُزُولِ الآفاتِ ، وكان قَليلَ المَرَضِ ، لقد أُحْضِرَ إليه أرْبَعُونَ حِمْلاً من البَطِّيخِ فكَسَرَ الجَميعَ وبَالَغَ في الأكْلِ فحُمَّ يَوماً وكان كَثيرَ التَّمَتُّعِ بالجَوارِي ، ولا يُدْخِلُ عَليْهِنَّ خادِماً إلاَّ دُونَ البُلُوغِ .

نجبَ له عِدَّةُ أوْلادٍ سَلْطَنَهُم ، وزَوَّجَ بنَاتِهِ بمُلُوكِ الأطْرافِ .

وقد احْتيلَ على الفَتكِ به مرَّات ، ويُسلِّمُه الله[2] .

وكان شَديدَ الْمُلازَمَة لخِدمَة أخيه صَلاحِ الدِّين ، وما زالَ يَتحيَّلُ حتىٰ أعْطاهُ العَزيزُ دِمَشْقَ ، فكانت السَّببَ في أنْ تَملَّكَ البلادَ ، ولَمَّا جاءَه بمَنْشُورِها ابنُ أبي الحَجَّاج أعْطاهُ ألفَ دينارٍ ، ثمَّ جَرَتْ أمُورٌ يَطولُ شَرْحُها وقِتالٌ على الْمُلكِ ، ولَوْ كانَ ذلكَ التَّعبُ والحَربُ جِهاداً للفِرَنْجِ لأفْلحَ .

تُوفِّيَ سَنةَ خَمسَ عَشرَةَ وسِتِّ مئة[3] .

(د) المُعَظَّم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمَلكُ الْمُعظَّمُ ابنُ العَادِلِ الْمَذكورِ هو شَرفُ الدِّين عيسىٰ بنُ محمَّد الحَنَفيُّ الفَقيهُ صاحِبُ دِمَشْقَ .

مَولُده بالقَصْر من القاهِرَة في سَنةِ سِتٍّ وسَبْعينَ وخَمسِ مئة .

ونَشأَ بدِمَشْقَ ، وحَفِظَ القُرآنَ ، وبَرَعَ في الْمَذهَبِ .

وحَجَّ في سَنةِ إحْدَىٰ عَشرَةَ ، وأنْشأَ البِرَك ، وعَملَ بمُعانٍ دارَ مَضيفٍ وحمَّاماً .

وكان يَبحَثُ ويُناظِرُ ، وفيه دَهاءٌ وحَزْمٌ ، وكان يُوصَفُ بالشَّجاعَةِ والكَرمِ والتَّواضُعِ .

---

(١) الجد : أي الحظ أو البخت .

(٢) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧١ .

(٣) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٢ .

قَرأتُ[1] بخَطِّ الضِّياءِ الحافِظِ : كان الْمُعظَّمُ شُجاعاً فَقيهاً يَشْربُ الْمُسْكِرَ وأسَّسَ ظُلماً كثيراً ، وخَرَّبَ بَيتَ الْمَقْدِسِ .

وقالَ ابنُ الأثير : وكانَ عالماً بعِدَّة عُلوم نَفقَ سُوقُ العِلمِ في أيَّامِه وقَصَدَهُ الفُقَهاءُ ، فأكْرَمَهم ، وأعْطاهُم ، ولَمْ يُسْمَعْ منه كَلِمَةٌ نَزِقَة ويقُولُ : اعْتِقادِي في الأُصُولِ ما سَطَّرَه الطَّحاويُّ وأوْصَىٰ أنْ لا يُبنَىٰ علىٰ قَبرِه[2] .

ولَمَّا مَرِضَ قالَ : لي في قَضيَّةِ دِمْياطَ ما أرْجُو به الرَّحْمَةَ[3] .

تُوفِّيَ سَنةَ أرْبَع وعِشْرينَ وسِتِّ مئة وكانَ له دِمَشْقُ والكَرْكُ وغَيرُ ذلكَ وحَلفوا بعدَه لابنِه النَّاصِرِ داوُدَ[4] .

(هـ) الأشْرَف :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : صاحِبُ دِمَشْقَ السُّلطانُ الْمَلكُ الأشْرَفُ مُظَفَّرُ الدِّين أبو الفَتْح مُوسَىٰ شَاه أرْمَن ابنُ العَادِلِ .

تَملَّكَ القُدسَ أوَّلاً ، ثم أعْطاهُ أبوهُ حرَّانَ والرُّها وغيرَ ذلك ، ثم تَملَّكَ خِلاطَ ، وتَنقَّلت به الأحْوالُ ، ثم تَملَّكَ دِمَشْقَ بعد حِصارِ النَّاصِرِ بها ، فعَدَلَ وخَفَّفَ الجَوْرَ ، وأحَبَّتهُ الرَّعيَّةُ وكان فيه دينٌ وخَوفٌ من الله علىٰ لَعِبه وكان جَواداً ، سَمْحاً ، فارِساً شُجاعاً ، لَدَيْه فَضيلَةٌ .

وكان مَليحَ الهَيئَة ، حُلوَ الشَّمائلِ قِيلَ : ما هُزمَت له رايَةٌ وكان له عُكوفٌ على المَلاهي والْمُسْكِرِ عَفا اللهُ عَنه ، ويُبالِغُ في الخُضوعِ للفُقَراءِ ويَزورُهم ويُعطيهم ، ويُجيزُ على الشِّعْرِ ، ويَبعَثُ في رَمضانَ بالحَلاواتِ إلىٰ أماكِنِ الفَقْرِ ، ويُشارِكُ في

---

(١) الكلام للإمام الذهَبي ، رحمَه الله .

(٢) انظر السير : (المُعظَّم) ٢٢/ ١٢٠ـ ١٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٢ .

(٣) أبلى المُعظَّم بلاءاً حسناً وجاهد الصليبيين جهاداً عظيماً في نوبة دمياط التي كانت من أشد الحملات خطراً على الأمة ، فنسأل الله سبحانه أن يتجاوز عنه بعض ما أخطأ ، وهو مُحقٌّ في مقالته هـٰذه .

(٤) انظر السير : (المُعظَّم) ٢٢/ ١٢٠ـ ١٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٢ .

صَنائع ، وله فَهْمٌ وذَكاءٌ وسياسَةٌ أخْرَبَ خَانَ العقيبَةِ وعَملَه جامِعاً[1] .

قالَ سِبطُ الجَوْزيُّ : فجَلستُ فيه ، وحَضَرَ الأشْرَفُ وبَكَىٰ وأعْتَقَ جَماعَةً[2] .

قالَ سِبطُ الجَوْزيُّ : كانَ الأشْرَفُ يَحضُرُ مَجالِسي بحرَّانَ ، وبخِلاطَ ، ودِمَشْقَ وكان مَلكاً عَفيفاً ، قالَ لي : ما مَدَدتُ عَينيَّ إلىٰ حَريمِ أحَد ولا ذَكَر ولا أنْثَىٰ جاءَتني عَجوزٌ من عندِ بنتِ صاحِبِ خِلاط شَاه أرْمَن بأنَّ الحاجِبَ عَليّاً أخَذَ لها ضَيْعَةً فكَتَبتُ بإطْلاقِها ، فقالَت العَجوزُ : تُريدُ أنْ تَحضُرَ بينَ يَدك ، فقُلتُ : باسْمِ الله ، فجاءَت بها فلَمْ أرَ أحْسَنَ من قَوامِها ولا أحْسَنَ من شَكْلِها ، فقُمتُ لها ، وقُلتُ : أنْتِ في هـٰذا البَلدِ وأنا لا أدْري ؟ فسَفرَت عن وَجْهٍ أضاءَت منه الغُرفَة ، وقُلتُ : لا ، اسْتَتِري فقالَت : ماتَ أبي واسْتَولَىٰ على المَدينَة بكتمر ، ثم أخَذَ الحاجِبُ قَرْيَتي وبَقيتُ أعيشُ من عَمَلِ النَّقْش وفي دارٍ بالكِراء فبَكيتُ لها ، وأمَرْتُ لها بدارٍ وقِماشٍ ، فقالَت العَجوزُ : ياخَوَنْد ألا تَحْظَى الليلةَ بك ؟ فوَقَعَ في قَلْبي تَغيُّرُ الزَّمانِ وأنَّ خِلاطَ يَملِكُها غَيري ، وتَحْتاجُ بنتي أنْ تَقْعُدَ هـٰذه القَعْدَة ، فقُلتُ : مَعاذَ الله ، ما هـٰذا من شِيمَتي فقامَت الشَّابَّةُ باكيَةً تَقولُ : صَانَ اللهُ عَواقِبَك[3] .

وكان للأشْرَف مَيلٌ إلى المُحَدِّثينَ والحَنابِلَة ، قالَ ابنُ واصِل : وَقَعَت فِتنةٌ بين الشَّافِعيَّة والحَنابِلَة بسَبَبِ العَقائدِ قالَ : وتَعصَّبَ الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ بنِ عبدِ السَّلامِ على الحَنابِلَة ، وجَرت خَبْطَةٌ ، حتىٰ كَتبَ عِزُّ الدِّينِ رَحمَهُ الله إلى الأشْرفِ يَقعُ فيهم ، وأنَّ النَّاصِحَ ساعَدَ علىٰ فَتح بابِ السَّلامَة لعَسْكرِ الظَّاهِر والأفْضَلِ عندما حاصَروا العادِلَ ، فكَتبَ الأشْرَفُ : يا عِزَّ الدِّينِ الفِتْنَةُ سَاكِنَةٌ لَعَنَ اللهُ مُثيرَها .

وقد تابَ الأشْرَفُ في مَرضِه وابْتَهَلَ ، وأكثرَ الذِّكرَ والاسْتِغفارَ .

ولما احْتُضِرَ قال لابنِ موسك : هاتِ وَديعَتي ، فجاء بمِئْزَر صُوف فيه خِرقٌ من آثار

---

(١) قال شعيبُ الأرنؤوط : ولا يزال عامراً إلىٰ يومنا هـٰذا ، ويسمَّىٰ جامع التوبة ، ويقع شمال الجامع الأموي ، والمحلة التي فيها المسجد تسمَّى العقيبة .

(٢) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٣ .

(٣) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٣ .

المَشايخ ، وإزارٌ عَتيق ، فقالَ : يَكونُ هـٰذا علىٰ بَدَني أتَّقي به النَّارَ ، وهَبَنيه إنْسانٌ حَبَشيٌّ من الأبْدالِ كان بالرُّها[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كان يُبالِغُ في تَعظيمِ الشَّيخِ الفَقيهِ[2] ، تَوضَّأ الفَقيهُ يَوماً فوَثَبَ الأشْرَفُ ، وحَلَّ من تَخْفيفَتِه ورَماها علىٰ يَدَي الشَّيخِ ليُنَشِّفَ بها ، رَأىٰ ذلك شَيخَنا أبو الحُسَين ، وحَكاه لي .

ماتَ سَنةَ خَمسٍ وثَلاثينَ وسِتِّ مئة ، وكانَ آخِرُ كَلامِه « لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ » فيما قِيلَ[3] .

(و) الكامِل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : وُلدَ في سَنةِ سِتٍّ وسَبعينَ وخَمسِ مئة ، فهو من أقْران أخَوَيْه الْمُعَظَّم والأشْرَف ، وكان أجَلَّ الثَّلاثَة وأرْفَعَهم رُتْبةً .

وتَملَّك الديارَ المِصْريَّة أرْبَعينَ سَنةً شَطْرُها في أيّامِ وَالِدِه وكان عاقِلاً مَهيباً ، كَبيرَ القَدْر[4] .

وقال المُنْذِريُّ : أنْشَأَ الكَامِلُ دارَ الحَدِيثِ بالقاهِرةِ ووَقَفَ الوُقُوفَ علىٰ أنواعِ البِرِّ ، وله المَوَاقِفُ المَشْهُورَةُ في الجِهَادِ بدِمْياطَ المُدَّةَ الطويلة ، وأنفقَ الأموالَ وكافَحَ الفِرنْجَ بَراً وبَحْراً يَعْرِفُ ذلكَ مَنْ شَاهَدَهُ ، ولَمْ يَزَلْ علىٰ ذلكَ حتىٰ أعَزَّ الله الإسْلامَ ، وخَذَلَ الكُفْرَ ، وكان مُعَظِّماً للسُّنَّةِ وأهْلِها ، رَاغِباً في نَشْرِها والتَّمَسُّكِ بها ، مُؤثِراً للاجْتِمَاعِ بالعُلَمَاءِ والكَلامِ مَعَهُم حَضَراً وسَفَراً[5] .

ومِن هِمَّتِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا أخَذُوا دِمْياطَ أنشَأَ علىٰ بَرِيدٍ منها مَدينَةَ المَنْصُورَةَ واسْتَوطَنَهَا مُرابِطاً حتىٰ نَصَرَهُ الله فإنَّ الفِرنْجَ طَمِعُوا في أخْذِ مِصْرَ ، وعَسْكَرُوا بقُربِ

---

(١) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٤ .
(٢) يعني : اليونيني .
(٣) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٤ .
(٤) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٥ .
(٥) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٥ .

المَنصُورَة ، والْتَحَمَ القِتَالُ أيّاماً وألَحَّ الكَامِلُ علىٰ إخْوَتِه بالمَجيء ، فجاءَهُ أَخَوَاهُ الأشْرَفُ والمُعَظَّمُ في جَيْشٍ لَجِبٍ ، وهَيْئَةٍ تامَّةٍ فقَوِيَ الإسْلامُ ، وضَعُفَتْ نُفُوسُ الفِرنْجِ ورُسُلُهُم تَتَرَدَّدُ ، وبَذَلَ لهم الكَامِلُ قبلَ مَجيء النَّجدَةِ القُدسَ وطَبَرِيَّة وعَسْقَلانَ وجَبَلَة واللاَّذِقيَّة وأشياءَ علىٰ أن يَرُدُّوا له دِمْياطَ فأبَوا ، وطلَبُوا مع ذلك ثلاثَ مِئَةِ ألفِ دينار ليُعَمِّرُوا بها أسْوارَ القُدسِ ، وطَلَبُوا الكَرَكَ ، فاتَّفَقَ أنَّ جمَاعَةً من المُسلمِين فَجَّرُوا من النِّيلِ ثَلْمَةً علىٰ مَنْزِلَةِ العَدُوِّ ، فأحَاطَ بهم النِّيلُ في هَيَجَانِه ، ولا خِبْرَةَ لهم بالنِّيلِ ، فحَالَ بينهم وبين دِمْياطَ ، وانقَطَعتْ المِيرَةُ عنهُم ، وجاعُوا وذَلُّوا ، فأرسَلُوا في طلَبِ الأمَانِ علىٰ تَسْلِيمِ دِمْياطَ ، وعَقْدِ هُدنَة ، فأُجِيبُوا فسَلَّمُوا دِمْياطَ بعد اسْتِقرارِهم بها ثلاثَ سِنينَ ، فللَّه الحَمْدُ[1] .

وكان عَدلُه مَشوباً بعَسْفٍ ، شَنقَ جَماعَةً من الجُنْدِ في بَطيحَة شَعير[2] .

ونازَلَ دِمَشْقَ فبَعثَ صاحِبُ حِمْصَ لها نَجْدَةً خَمسينَ نَفْساً فظَفِرَ بهم وشَنقَهم بأسْرِهم .

ماتَ بدِمَشْقَ سَنةَ خَمسٍ وثَلاثينَ وسِتِّ مئة[3] .

(ز) الصَّالح :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمَلكُ الصَّالحُ عِمادُ الدِّينِ أبو الخِيَش إسْماعيلُ ابنُ الْمَلك العَادِلِ مُحمدِ بنِ أيُّوبَ بنِ شاذي صاحب دِمَشْقَ .

تَملَّكَ بُصْرَىٰ وبَعْلَبَك ، وتَنقَّلت به الأحْوالُ واسْتَولَىٰ علىٰ دِمَشْقَ أعْواماً فحارَبَه صاحِبُ مِصْرَ ابنُ أخيه ، وجَرت له أمُورٌ طَويلةٌ ، ما بَين ارْتفاعٍ وانْخِفاض[4] .

وكان قَليلَ البَخْتِ ، بَطَلاً ، شُجاعاً ، مَهِيباً ، شَديدَ البَطْشِ ، مَليحَ الشَّكلِ ، كان في خِدمَة أخيه الأشْرَف ، فلمَّا ماتَ الأشْرَفُ تَوَثَّبَ علىٰ دِمَشْقَ ، وتَمَلَّكَ ، فجَاءَ أخُوهُ

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٥ .

(٢) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٦ .

(٣) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٦ .

(٤) انظر السير : (الصَّالح) ٢٢/ ١٣٤ـ ١٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٦ .

السُّلطانُ المَلكُ الكامل ، وحَاصَرَه ، وأخَذَ منه دِمَشْقَ ، ورَدَّهُ إلىٰ بَعْلَبَك ، فلمَّا ماتَ الكاملُ وتَمَلَّكَ الجَوَادُ ثمّ الصَّالحُ نَجْمُ الدين ، وسارَ نَجْمُ الدين يَقْصِدُ مِصْرَ ، هَجَمَ الصَّالحُ إسماعيلُ بإعانَةِ صاحِبِ حَمْصَ المُجَاهد فتَمَلَّكَ دِمَشْقَ ثانياً في سَنةِ سَبْعٍ وثلاثين ، فبَقِيَ بها إلىٰ سَنَةِ اثْنَتَينِ وأرْبَعِينَ وحَارَبَه الصَّالحُ بالخُوارِزْميّة ، واسْتَعانَ هو بالفِرَنْجِ ، وبَذَلَ لهم الشَّقيفَ وغَيرَها فمُقِتَ لذلك وكان فيه جُورٌ واسْتَقضَىٰ على النَّاسِ الرَّفيعَ الجيليَّ ، وتَضَرَّرَ الرَّعِيّةُ بدمَشْقَ في حِصارِ الخُوارزميّة حتىٰ أُبيعَ الخُبزُ رِطلٌ بستة دَراهم ، والجُبْنُ واللَّحمُ بِنِسْبَةِ ذلك ، وأكَلُوا المَيْتَةَ ووَقَعَ فيهم وَباءٌ شَديدٌ[1] .

وفي « مُعْجَم » القُوصيِّ في تَرجَمَة الأشْرَف : فأخُوه إسْماعيلُ نَصَرَ الكافرينَ وسلَّمَ إليهم القِلاعَ ، واسْتولَىٰ علىٰ دِمَشْقَ سَرِقةً ، وحَنثَ في يَمينِه وقَتلَ من الملوك والأمَراء مَنْ كان يَنفَعُ في الجِهادِ ، وصَادَرَ علىٰ يَد قُضاتِه العِبادَ ، وخَرَّبَ الأمْلاكَ ، وطَوَّلَ ذَيلَ الظُّلمِ ، وقَصَّرَ ذَيلَ العَدْلِ وظَنَّ أنَّ الفَلَك له مُسْتَمر ، فسَقطَ الدَّهْرُ لغَفلتِه ، وأراه بَلايا .

ثم ذَهبَت منه بَعْلَبَك وبُصْرَىٰ ، وتَلاشَىٰ أمرُه ، فمَضَىٰ إلىٰ حَلبَ ، وافِداً على ابنِ أُختِه ، وصارَ من أُمَرائه ، وأتَىٰ به فتَملَّكوا دِمَشْقَ ، فلمَّا سارُوا ليَأخُذوا مِصْرَ غُلِبَ الشَّاميُّونَ ، وأُسِرَ جَماعَةٌ ، منهم الْمَلكُ الصَّالحُ في سَنةِ ثَمانٍ وأرْبَعين وسِتٍّ مئة ، فسُجنَ بالقاهِرَة .

وفي سَلْخ ذي القعدة من سَنةِ ثَمانٍ أخْرَجوا الصَّالحَ لَيلاً ومَضَوا به إلى الجَبلِ فقَتلُوه وعُفِيَ أثرُه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كفِّرَ عنه بالقَتْل[2] .

(ح) صَاحبُ حَمْص :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : الْمَلكُ الْمُجاهِدُ أسَدُ الدِّين أبو الحارِث شِيرْكُوه ابنُ صاحبِ حِمْصَ ناصِرِ الدِّينِ بنِ الْمَلكِ أسَدِ الدِّين شِيرْكُوه بنِ شاذي .

---

(١) انظر السير : (الصَّالح) ٢٢/ ١٣٤ـ ١٣٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٧٦ .

(٢) انظر السير : (الصَّالح) ٢٢/ ١٣٤ـ ١٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٧٦ .

وُلدَ سَنةَ تسعٍ وسِتِّينَ وخَمسِ مئة بمِصْرَ .

وملَّكَه السُّلطانُ صَلاحُ الدين حِمْصَ بعد أبيه ، فتَملَّكها سِتَّاً وخَمسينَ سَنةً ، سَمعَ بدِمَشْقَ من الفَضْلِ بنِ البانياسي ، وأجازَ له ابنُ بَرّيّ ، وحدَّث[1] .

وكان بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، وكانت بلادُه نَظيفَةً من الخُمورِ ، ومَنعَ النِّساءَ من الخُروجِ من أبْوابِ حِمْصَ جُملةً ، ودامَ ذلك خَوفاً من أن يَنزِحَ بهنَّ رجالُهن لعَسْفِه ، وكان يُديمُ الصَّلَواتِ ، ولا يُحبُّ لهواً ، وكان ذا رَأيٍ ودَهاءٍ ، وشَكْلٍ مَليحٍ وجَلالَةٍ ، كانت الْمُلوكُ تُداريه ويَخافونَه[2] .

استوحَشَ منه الكامِلُ ، وظَنَّ أنَّه أوْقَعَ بين الأشْرَفِ وبينَه ، فصادَرَه وطلَبَ منه أمْوالاً ، فنفَّذَ نِساءَه يَشْفَعْنَ فيه ، فما أفادَ ، فهيَّأ الأمْوالَ فبَغتَه مَوْتُ الكامِلِ ، فجاءَ وجَلسَ عندَ قَبرِ الكامِلِ وتَصرَّفَ ، وهو الذي جاءَ مع الصَّالحِ إسْماعيلَ وأعانَه علىٰ أخْذِ دِمَشْقَ وكان الْمُظَفَّرُ صاحِبُ حماة قد شَعرَ بسَعْيهما ، فجَهَّزَ عَسكَره نَجْدةً لحمايَة دِمَشْقَ مع نائبه سيفِ الدِّين بنِ أبي عليٍّ في أهْبةٍ وسِلاحٍ مُظْهِرينَ أنَّ ابنَ أبي عَليٍّ قد غَضِبَ من الْمُظَفَّرِ ، وفارَقَ حمَاةَ لكَونِ صاحِبها يُريدُ أنْ يُسلِّمَها إلى الفِرَنْجِ ، فما نَفقَ هـٰذا علىٰ شيرْكُوه ، فنَزلوا بظاهِرِ حمْصَ ثم اسْتدْعَىٰ بقيَّةَ الكِبارِ من جُندِه فدَخَلوا البَلدَ فقَبضَ على الجَماعَة ، وعَذَّبَهم ، وأخَذَ أمْوالَهم ، وهَربَ باقي العَسْكَر إلىٰ حماة ، وتَضَعْضَعَ لذلك الْمُظَفَّرُ ، وماتَ نائبُه ابنُ أبي عَليّ في الحَبْسِ .

تُوفِّيَ بحمْصَ سَنةَ سَبعٍ وثَلاثينَ وسِتِّ مئة .

وشيرْكُوه ، بالعَربيِّ : أسَدُ الجَبَل .

وتَملَّكَ حمْصَ بعدَه الْمَنْصُورُ إبْراهيمُ وَلدُه سَبعَ سِنينَ[3] .

---

(١) انظر السير : (صاحب حِمْص) ٢٣/ ٣٩ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٧١٣ .
(٢) انظر السير : (صاحب حِمْص) ٢٣/ ٣٩ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/١٧١٣ .
(٣) انظر السير : (صاحب حِمْص) ٢٣/ ٣٩ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١٣ .

(ط) الجَوَاد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمَلكُ الجَوادُ مُظَفَّرُ الدِّين يُونُسُ بنُ مَمْدودِ ابنِ السُّلطانِ الْمَلكِ العادِلِ أبي بَكْر بنِ أيُّوبَ الأيُّوبيُّ نَشأ في خِدمَة عَمِّه الكامِلِ ، فوَقعَ بينَهما ، فتألَّم ، وجاءَ إلىٰ عَمِّه المُعَظَّم ، فأكْرَمَه ، ثم عادَ إلىٰ مِصْرَ ، واصْطَلَحَ هو والكامِلُ ولَمَّا تُوفِّيَ الأشْرفُ جاءَ الكامِلُ ومعه هٰذا ، ثم ماتَ الكامِلُ ، فملَّكوا الجَوادَ دِمَشْقَ[1] .

وكان جَواداً مُبَذِّراً للخَزائِنِ ، قَليلَ الحَزْمِ ، وفيه مَحَبَّةٌ للصَّالحين ، والْتَفَّ حَولَه ظَلَمَةٌ ثم تَزَلْزَلَ أمْرُهُ ، فكَاتَبَ المَلكَ الصَّالِحَ أيُّوبَ بنَ الكامل صَاحِبَ سِنْجار وغَيْرَها ، فبَادَرَ إليه وأعْطَاهُ دِمَشْقَ وعَوَّضَه بسِنْجارَ وعَانَةَ فخابَ البَيعُ ، فذَهَبَ إلى الجَزيرَةِ ، فلَمْ يَتمَّ له أمرٌ ، وأُخِذَتْ منه سِنْجارُ ، وبَقِيَ في عَانَة حَزيناً ، فتَرَكَها ومَضَى إلىٰ بَغْدادَ فبَاعَ عَانَةَ للمُسْتَنصِر بمالٍ ، ثمّ قَدِمَ على المَلكِ الصَّالِح أيُّوبَ فما أقْبَلَ عليه ، وهَمَّ باعْتِقالِه ففرَّ إلى الكَرْكِ ، فقَبَضَ عليه النَّاصِرُ ، ثمَّ هَرَبَ من مَخاليبه ، فقَدِمَ علىٰ صاحِبِ دِمَشْقَ يومَئذٍ الصَّالح إسْماعِيلَ عَمِّه ، فمَا بشَّرَ به ، وتَراجَمَتْهُ الأحْوالُ ، فقَصَدَ الفِرَنْجيَّ مَلكَ بَيْرُوتَ ، فأكْرَمُوهُ وحَضَرَ مَعهُم وَقْعَةَ قلنسوةَ من عَملِ نابلس قَتَلُوا بها ألْفَ مُسلمٍ ، نَعُوذُ باللهِ من المَكْرِ والخِزْي ، ثم تَحَيَّلَ عَمُّه الصَّالحُ فسَجَنَه بعزّتا ، ثم إنَّ الفِرَنْجَ ألَحُّوا على الصَّالحِ ، وكان مُصافِياً لهم ، في إطْلاقِ الجَوَادِ ، وقالوا : لا بُدَّ لنَا مِنهُ ، وكانت أمُّه إفْرَنْجيّة فيما قِيلَ ، فأظْهَرَ لهم أنَّه قد تُوُفيَ فقِيلَ : خَنَقَهُ في سَنَةِ إحْدَىٰ وأرْبعينَ وستِّ مِئَة ، وحُمِلَ فدُفِنَ عند المُعظَّمِ بسَفْحِ قاسيُونَ ، سَامَحَه اللهُ تَعالَىٰ[2] .

(ي) المُعَظَّم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمَلكُ الْمُعَظَّمُ غياثُ الدِّين تُورانْشاه ابنُ السُّلطانِ الْمَلكِ الصَّالحِ أيُّوبَ ابنِ الكامِلِ ابنِ العادِل .

---

(١) انظر السير : (الجَواد) ٢٣/ ١٨٤ـ ١٨٥ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٦ .

(٢) انظر السير : (الجَواد) ٢٣/ ١٨٤ـ ١٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٦ .

وُلدَ بمِصْرَ ، وعَملَ نيابَةَ أبيه ثم تَملَّكَ بحصْنِ كيفا ، وآمِد ، وتلك البلاد ، وكان أبوه لا يَختارُ أنْ يجيءَ لَمَّا مَلكَ مِصْرَ ، كان لا يُعجِبُه هَوَجُه ولا طَيْشُه سارَ لإقْدامِه الأميرُ الفارِسُ أقْطاي ، وسافَرَ به يتَحايَدُ مُلوكَ الأطْرافِ في نَحوٍ من خَمسينَ فارِساً على الفُرات وعانةَ ، ثم علىٰ أطْرافِ السَّماوَة ، فدَخلَ دِمَشْقَ ، وزُيِّنَت له ثم سارَ منها بعد شَهر ، فاتَّفقَت كسْرةُ الفِرَنْجِ عند وُصولِه وتَيمَّنَ النَّاسُ به ، فبدا منه حَركاتٌ مُنفِّرَة .

وكان السُّلطانُ يَقولُ : تُوارنْشاه ما يَصلحُ للمُلك .

قالَ ابنُ حموَيه سَعدُ الدِّين : لَمَّا قَدِمَ ، طالَ لِسانُ كُلِّ خامِلٍ ، ووجَدُوه خَفيفَ العَقْلِ سَيء التَّدْبيرِ ، وتَطلَّعَ الأُمَراءُ إلىٰ أنْ يُنفِقَ فيهم كما فَعلَ بدِمَشْقَ ، فما أعْطاهُم شَيئاً ، وكان مَتىٰ سَكِرَ ضَربَ الشُّمُوعَ بالسَّيفِ ، ويَقولُ : هَكذا أفْعَلُ بمَماليكِ أبي ، ويَتهدَّدُ الأُمَراءَ بالقَتْلِ ، فتَنكَّروا له ، وكانَ ذَكياً قَويَّ الْمُشارَكَة يَبحَثُ ويَنقلُ .

قالَ سبطُ الجَوْزيُّ : كانَ يَكونُ على السُّماطِ بدِمَشْقَ ، فإذا سَمِعَ فَقيهاً يَنقلُ مَسْألةً صَاحَ : لا نسلِّم واحْتجبَ عن أُمورِ النَّاسِ وانْهَمَكَ في الفَسادِ بالغِلْمانِ وما كانَ أبُوه كذلك ، ويُقالُ : تَعرَّضَ لسَراريِّ أبيه ، وقدَّم أرْذالَ ، ووَعَدَ أقْطايَ بالإمْرَة فما أمَّرَه فغَضِبَ .

ولَمَّا كانَ في الْمُحَرَّم سَنةَ ثَمانٍ وأرْبَعينَ وَثبَ عليه بَعضُ البَحَريَّة على السماطِ فضَربَه علىٰ يَدِه ، قَطعَ أصابِعَه ، فقامَ إلى البُرجِ الخَشَبِ ، وصَاحَ : مَنْ فَعلَ هـٰذا ؟ قالوا : إسْماعيليٌّ ، قالَ : لا واللهِ بلْ من البَحَريَّة ، واللهِ لأُفْنِيَنَّهم ، وخَاطَ المُزَيِّنُ يَدَه فقالوا : بُتُّوه وإلاَّ رُحْنا ، فشَدُّوا عَليه فطَلعَ إلىٰ أعْلَى البُرجِ ، فرَمَوا البُرجَ بالنِّفْطِ وبالنُّشَّابِ فرَمَى المِسْكينُ بنفسِه وعَدا إلى النِّيلِ وهو يَصيحُ : ما أُريدُ الْمُلكَ خَلُّوني أرْجِعُ إلى الحِصْنِ يا مُسلمينَ أمَا فيكُم من يَصْطَنِعُني! ؟ فلَمْ يُجِبْه أحَدٌ ، وتَعلَّق بذَيْلِ أقْطايَ فمَا أجارَه وعَجزَ فنَزلَ في الماءِ إلىٰ حَلْقِه فقُتلَ في الماءِ[1] .

---

(١) انظر السير : (المُعَظَّم) ٢٣/ ١٩٣ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١٧٢٧ ـ ١٧٢٨/ المُعَظَّم .

(ك) الكامِل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : الْمَلكُ الكامِلُ الشَّهيدُ ناصِرُ الدِّينِ مُحمَّدُ ابنُ الْمَلكِ الْمُظَفَّرِ شِهَابِ الدِّينِ غَازِي ابنِ السُّلطانِ الْمَلكِ العادِلِ أبي بَكْر مُحمَّد بنِ أيُّوب[1] .

تَملَّك ميَّافارقينَ وغَيرَها بعدَ أبيه سَنةَ خَمسٍ وأرْبَعينَ وستِّ مئة ، وكان شاباً ، عاقِلاً شُجاعاً ، مَهيباً مُحْسِناً إلىٰ رَعيَّتِه ، مُجاهداً ، غَازياً ، دَيِّناً تَقيّاً ، حَميدَ الطَّريقَة ، حاصَرَه عَسكَرُ هُولاكُو نَحْواً من عِشرينَ شَهراً حتىٰ فَنيَ النَّاسُ جُوعاً ووَباءً ، حتىٰ لَمْ يَبْقَ بالبَلَدِ سِوَىٰ سَبعينَ رَجُلاً فيما قِيلَ ، فحَدَّثني الشَّيخُ مَحْمودُ بنُ عبدَ الكَريمِ الفارِقيُّ قالَ : سارَ الكَامِلُ إلىٰ قِلاعٍ بنَواحي آمِد فأخَذَها ، ثم نَقَلَ إليها أهْلَه ، وكان أبي في خِدمَتِه ، فرَحلَ بنا إلىٰ قَلعَةٍ منها ، فعَبَرَت التَّتارُ عَلينا ، فاسْتَنزَلُوا أهْلَ الْمَلكِ الكامِلِ بالأمَانِ من قَلعَةٍ أُخْرىٰ ، وَرَدُوا بهم عَلينا ، وأنا صَبيٌّ مُمَيِّزٌ ، وحاصَروا ميّافارقينَ أشْهُراً ، فنزَلَ عَليهم الثَّلجُ ، وهَلكَ بَعضُهم ، وكانَ الكامِلُ يَبرُزُ إليهم ويُقاتِلُهم ، ويُنْكي فيهم فهابُوهُ ، ثم بَنَوا عَليهم سُوراً بإزاءِ البَلَد ، بأبْرجَة ، ونَفدَت الأقْواتُ ، حتىٰ كانَ الرَّجُلُ يَموتُ فيُؤكَل ، ووَقعَ فيهم الْمَوتُ ، وفَتَرَ عنهم التَّتارُ وصَابَروهم ، فخَرجَ إليهم غُلامٌ أو أكْثَر وجَلَوْا للتَّتارِ أمْرَ البَلدِ ، فما صَدَّقوا ، ثم قَرُبوا من السُّورِ وبَقوا أيَّاماً لا يَجْسِرُونَ على الهُجومِ ، فدَلَّىٰ إليهم مَمْلُوكٌ للكامِلِ حِبالاً فطَلعُوا إلى السُّورِ فبَقوا أُسْبوعاً لا يَجسُرون ، وبَقي بالبَلدِ نَحْو التِّسْعينَ بعدَ ألُوفٍ من النَّاسِ ، فدَخَلت التَّتارُ دارَ الكامِلِ وأمَّنوه ، وأتَوْا به هُولاكُو بالرُّها فإذا هو يَشْرَبُ الخَمْرَ ، فناوَلَ الكامِلَ كَأساً فأبَىٰ ، وقالَ : هـٰذا حَرامٌ ، فقالَ لامْرأتِه : ناوِليهِ أنتِ ، فناوَلَتْه فأبَىٰ ، وشَتمَ وبَصَقَ ـ فيما قِيلَ ـ في وَجْه هُولاكُو وكانَ الكامِلُ مِمَّنْ سارَ قَبلَ ذلك ورَأى القانَ الكَبيرَ ، وفي اصْطِلاحِهم مَنْ رَأىٰ وَجْهَ القانِ لا يُقْتَل ، فلمَّا وَاجَه هُولاكُو بهـٰذا اسْتَشاطَ غَضَباً وقَتلَه .

ثم قالَ : وكانَ الكامِلُ شَديدَ البَأسِ ، قَويَّ النَّفْسِ ، لَمْ يَنْقَهِر للتَّتارِ بحيثُ إنَّهم

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٣/ ٢٠١ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٠ .

أخَذُوا أوْلادَه من حِصْنِهم ، وأتَوه بهم إلىٰ تَحتِ سُورِ ميّافارقينَ ، وكلَّموهُ أنْ يُسلِّمَ البَلدَ بالأمَانِ فقالَ : ما لَكُم عندي إلاَّ السَّيفَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : طِيفَ برأسِه بدِمَشْقَ بالطُّبولِ ، وعُلِّقَ علىٰ بابِ الفَراديسِ ، فلَمَّا انْقَلَعوا ، وجاءَ الْمُظَفَّرُ دُفِنَ الرَّأسُ وكانَ في سَنةِ سِتٍّ وخَمسينَ وسِتٍّ مئة قَدِمَ دِمَشْقَ مُسْتَنجِداً بالنَّاصِرِ فبالَغَ في إكْرامِه واحْترامِه ، ووَعَدَه بالإنْجادِ ، ورَجَعَ إلىٰ ميّافارقينَ وقُتِلَ في سَنةِ ثَمانٍ وخَمسينَ وسِتٍّ مئة رَحمَه الله[1] .

* * *

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٣/ ٢٠١ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٣٠ .

(٢٢) دَوْلَةُ خُوارِزْم شَاه

١ـ أخْبَارُها :

خُوارِزْم شاه (علاء الدين) :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ عَلاءُ الدِّينِ خُوارِزْم شَاه مُحمَّدُ ابنُ السُّلطانُ خُوارِزْم شَاه إيل رَسلان خُوارِزْم شاه أتسِز الخُوارِزْميُّ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : أبادَ مُلوكاً ، واسْتولَىٰ علىٰ عِدَّة أقاليم ، وخَضعَت له الرِّقابُ وقد حارَبَ الخَطَا غَيرَ مرَّة ، فانْهَزَم جَيشُه في نَوْبَة وثبَتَ هو ، فأُسِرَ هو وأميرٌ ، أسَرَهما خَطائيٌّ ، فصيَّر نَفسَه مَمْلوكاً لذلك الأميرِ ، وبَقيَ يَقِفُ في خِدمَتِه ، فقالَ الأميرُ للخَطَائيِّ : ابْعَثْ رَسُولَك مع غُلامي هـٰذا إلىٰ أهْلي ليُرْسِلوا مَالاً في فِكاكي ، ففَعلَ وتَمَّت الحِيلَةُ ، وعادَ خُوارِزْم شَاه إلىٰ مُلكِه .

قالَ عِزُّ الدِّينِ عَليُّ ابنُ الأَثير : كانَ صَبوراً على التَّعبِ وإدْمانِ السَّيْرِ غَيرَ مُتَنعِّمٍ ولا مُتلَذِّذٍ إنَّما نِهْمتُه الْمُلكُ وكانَ فاضِلاً ، عَالِماً بالفِقْه والأصُولِ ، مُكْرِماً للُعلمَاء يُحبُّ مُناظَرَتهم ، ويَتبرَّك بأهْلِ الدِّين ، قالَ لي خادِمُ الحُجْرَة النَّبَويَّة : أتَيتُه فاعْتَنَقَني ، ومَشَىٰ لي وقالَ : أنْتَ تَخدِمُ حُجرَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؟ قُلتُ : نَعم ، فأخَذَ يَديَّ وأمَرَّها علىٰ وَجْهِه ، وأعْطاني جُملةً .

كانت بلادُ ما وَراءَ النَّهْر في طاعَةِ الخَطَا ، ومُلوك بُخارَىٰ وسَمَرْقَنْدَ يُؤدُّونَ الأتَاوَةَ إلى الخَطَا ، وكانت هـٰذه الأُمَمُ سَداً بينَ تُرْكِ الصِّينِ وبَينَنا ففَتَحَ هـٰذا السدَّ الوَثيقَ وظَنَّ أنَّه لَمْ يَبْقَ مَنْ يُقاوِمُه ، فانْتَقلَ إلىٰ كِرْمانَ ثم العِراقِ ، ثم أذْرَبيجانَ ، وطَمعَ في الشَّامِ ومِصْرَ ، وكان عَليه سَهْلاً لَوْ قَدِرَ باتَ صاحبُ حلبَ لَيلَه مَهْمُوماً لِما اتَّصلَ به من أخْبار هـٰذا وطَمَعِه في الشَّامِ ، وقِيلَ عنه : إنَّه يَبْقىٰ أرْبَعةَ أيّام علىٰ ظَهْرِ فَرَسِه لا يَنزِلُ إنَّما

---

(١) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ١٣٩ـ ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٧٧ .

يَنتقِلُ من فَرسٍ إلىٰ فَرسٍ ويَطْوي البلادَ ويَهجِمُ المدينَةَ في نَفرٍ يَسيرٍ ثم يُصَبِّحُه من عَسْكره عَشرةُ آلاف ويُمَسِّيه عِشْرونَ ألفاً قَتلَ عِدَّةَ مُلوكٍ وإنَّما أخْذُه البلادَ بالرُّعْبِ والهَيْبَة وبعدَ مَوتِ الظَّاهِر غازي جاءَ رَسُولُه إلىٰ حَلبَ ، فقالَ : سُلطانُ السَّلاطينِ يُسلِّمُ عَليكم ويَعْتِبُ إذْ لَمْ تُهَنِّئوهُ بفَتْح العِراقِ وأذْرَبيجانَ ، وإنَّ عَددَ جَيشِه سَبعُ مئة ألفٍ ، ثم تَوجَّه رَسُولُه إلى العادِلِ بدِمَشْقَ يَقولُ : تَعالَ إلى الخِدْمَة فقد ارْتَضَيْناكَ أنْ تَكونَ مُقَدَّمَ الركاب! ، فبَقيَ النَّاسُ يَهْزَؤون منه وسَمِعنا أنَّه جَعلَ صاحِبَ الرُّوم أميرَ عَلَم له والخَليفَةَ خَطيباً! ، وأمَّا الْمُلوكُ الذين كانوا في خِدمَته فكان يُذِلُّهم ويُهينُهم ، وجَعلَهم يَضْربُونَ له طُبولَ الذَّهَب ولَمَّا أباد أُمَّتَي الخَطَا والتَّتَر وهُم أصْحابُ تُرْكِسْتانَ وجَنْدَ وتَنْكُت ظَهرَت أُمَّةٌ يُسَمَّونَ التَّتَر أيضاً ، وهم صِنْفانِ وطَمِعوا في البلادِ فجَمعَ وعَزمَ علىٰ لِقائِهم فوَقَعَ جِنْكيزخان رأسُ الطمغاجية علىٰ كَمينِه فطَحَنُوه ، وانْهَزمَ جَلالُ الدِّينِ ابنه إليه ، وخُيِّلَ إليه تَعِسُ الجَدِّ[1] أن في أُمَرائه مُخامِرين فمَسَّكهم وضَربَ مع التَّتارِ مَصَافاً بعدَ آخَر فتَطَحْطَحَ ، ورُدَّ إلىٰ بُخارَىٰ مُنْهَزِماً ثم جاءَ من بُخارَىٰ ليَجْمعَ العَساكِرَ بنيسابُورَ فأخَذَت التَّتارُ بُخارَىٰ وهَجَموا خُراسان ففرَّ ، فما وَصَلَ إلى الرَّيِّ إلاَّ وطلائعُهم علىٰ رأسِه ، فانْهزَمَ إلىٰ قَلعَة بَرَجِيْن ، ومعه ثلاثُ مئة فارسٍ عُراةً مَضَّهم الجُوعُ فاسْتَطْعَموا من أكْرادٍ فلَمْ يَحتَفلوا بهم ، ثم أعْطُوهُم شَاتَين وقَصْعَتي لَبن ، ثم رَجعَ إلىٰ نَهَاوَنْدَ ، ثم إلىٰ مازندران وقَعْقَعَةُ سِلاحِهم قد مَلأت سَمعَه وبَصرَه ، فنَزلَ ببُحَيرَة هناك فانْسَهَلَ وطلَبَ دَواءً فأعْوَزَه الخُبزُ وماتَ .

وقيلَ : كانَ عِدَّةُ جَيشِه في الدِّيوان ثَلاثَ مئة ألفِ فارسٍ ، وقيلَ : إنَّه اسْتولىٰ علىٰ نَحْو أرْبَع مئة مَدينَة ، وكانت أمُّه تُركان في عَظمَةٍ ما سُمعَ قَطُّ بمِثْلِها ، وفي جَبَروت ، فأسَرَها جنكيزخان ، وذَاقَت ذُلاً وجُوعاً .

ماتَ في الجَزيرَة سَنة سَبعَ عَشرَةَ وسِتِّ مئة وكُفِّنَ في عَمامَةٍ لفَرَّاشِه[2] .

---

(١) أي : سيِّىء الحظ .

(٢) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/١٣٩ـ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٧ .

خُوارِزْم شاه (جلال الدين) :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ جَلالُ الدِّين منكوبري ابنُ السُّلطانِ الكَبير عَلاءِ الدِّين مُحمَّد ابنِ السُّلطانِ خُوارِزْم شاه تكُش .

تَملَّك البلادَ ، ودَانَت له الأُمَمُ ، وجَرَت له عَجائبُ ، ولَمَّا دَهمَت التَّتارُ البلادَ الْمَاوَراء النَّهْرِيَّة بادَرَ والدُه عَلاءُ الدِّين وجَعلَ جَالِيشَه[1] ولدَه جَلالَ الدِّين في خَمسَة عَشرَ ألفاً ، فتوغَّل في البلادِ وأحاطَت به الْمَغُولُ فالْتَقاهم ، فانْكَسَرَ ، وتَخلَّصَ بعد الْجَهْد ، وتَوصَّلَ وأمَّا أبُوهُ فما زالَ مُتَقَهْقِراً بين يَدَي العَدوِّ حتىٰ ماتَ غَريباً سَنةَ سَبعَ عَشرَةَ وسِتِّ مئة في جَزيرَةٍ من البَحْر[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكان عَسكَرُه أوْباشاً فيهم شَرٌّ وفِسْقٌ وعُتُوٌّ[3] .

وقال الموفق : الزِّنَا فيهم فاشٍ ، واللِّوَاطُ غَيرُ مَعْذُوقٍ بكِبَرٍ ولا صِغَر[4] ، والغَدرُ خُلُقٌ لهم ، أخذوا تفليس بالأمان ، ثم غدروا وقتلوا وسَبَوا[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كان يُضرَبُ بهم المَثَل في النَّهْب والقَتْل ، وعَملوا كُلَّ قَبيح ، وهم جِياعٌ مُجَمَّعَة ، ضِعافُ العَددِ والخَيلِ الْتَقىٰ جَلالُ الدِّين التَّتارَ ، فهَزَمَهم وهَلكَ مقدمُهم ابنُ جنْكيزخان ، ثم خَرجَ له كَمينٌ فتَفَلَّلَ جَمعُ جَلالِ الدِّين وفَرَّ إلىٰ ناحيَة غَزْنَة في حالٍ واهية ، ومعه أرْبَعةُ آلافٍ في غايَة الضَّعْف فتوجَّه نحو كِرْمَانَ فأحْسَنَ إليه مَلكُها ، فلمَّا تَقَوَّىٰ غَدرَ به وقتلَه ، وسار إلىٰ شِيرازَ وعَسْكَرُه علىٰ بَقَر وحَمير ومُشاة ففَرَّ منه صاحبُها ، وجَرَت له أمُور يَطولُ شَرْحُها ما بَينَ ارْتقاءٍ وانْخِفاضٍ ، وهابَتْهُ التَّتارُ ، ولَوْلاه لدَاسُوا الدُّنْيا ، وقد ذَهبَ إليه مُحْيي الدِّين ابنُ الجَوْزي رَسُولاً فوَجدَه

---

(١) كلمة فارسية يريد بها : مقدم الجيش .

(٢) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٤ .

(٣) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩٤ .

(٤) أصل العبارة في تاريخ الإسلام : « واللِّواط ليس بقبيح ولا معذوقاً بشَرط الكِبَر والصِّغَر » ، فمعذوق هنا معناه : مُعلَّق ، أخذه من العِذْق ، وهو عِذْق النخلة ويشمل العرجون بما فيه من الشماريخ .

(٥) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩٤ .

يَقْرأُ في مُصْحَفٍ ويَبْكي ، ثم اعْتذَرَ عَمَّا يَفْعلُه جُندُه بكَثْرَتِهم ، وعَدمِ طاعَتِهم ، وقد تَقاذَفَت به البلادُ إلى الهِنْدِ ثم إلىٰ كِرْمانَ ثم إلىٰ أعْمالِ العِراقِ[1] .

وساقَ إلىٰ أذْرَبيجانَ فاسْتولَىٰ علىٰ كَثيرٍ منها ، وغَدرَ بأتابك أُزبك ، وأخْرجَه من بلادِه ، وأخَذَ زَوجَه ابنَة السُّلطانِ طُغرل ، فتَزوَّجَها ثم عَملَ مصافّاً مع الكَرْج فطَحَنَهم ، وقَتَلَ مُلوكَهم ، وقَويَ مُلكُه ، وكَثُرت جُموعُه ، ثم في الآخِر تَلاشَىٰ أمرُه لَمَّا كَسَرَه الْمَلكُ الأشْرَفُ مُوسَىٰ وصاحبُ الرُّوم بناحيَة أرْمينيَة ، ثم كَبَسَتْه التَّتارُ لَيلةً ، فنَجا في نَحوٍ من مئة فارِس ثم تَفرَّقوا عنه إلىٰ أنْ بَقيَ وَحدَه ، فألَحَّ في طلبه خَمسةَ عَشرَ من التَّتارِ فثَبَتَ لهم وقَتلَ اثنَين فأحْجَمُوا عنه ، وصَعدَ في جَبَل بناحيَة آمَد يَنزِلُه أكْرادٌ فأجارَه كَبيرٌ منهم ، وعَرَفَ أنَّه السُّلطانُ ، فوَعدَه بكل خَيرٍ ، ففَرَح الكُرْدِيُّ ، وذَهبَ ليُحْضِرَ خَيلاً له ويُعلِمَ بَني عَمِّه ، وتَركَه عندَ أُمِّه ، فجاءَ كُرْديٌّ فيه جُرأةٌ فقال : ليش[2] تخلُّوا هـٰذا الخُوارِزْميَّ عندَكم ؟ قيل : اسْكُت هـٰذا هو السُّلطانُ ، فقالَ : لأقْتُلَنَّه فقد قَتلَ أخي بخِلاطَ ، ثم شَدَّ عليه بحَرْبَة ، قَتلَه في الحالِ في سَنةِ ثَمانٍ وعَشْرينَ وسِتِّ مئة[3] .

٢ـ جُيوشُ جَلالِ الدِّين خُوارِزْم شاه يَكثُر فيها الفِسْقُ والزِّنَا واللِّواط :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكان عَسكَرُه أوْباشاً فيهم شَرٌّ وفِسْقٌ وعُتُوٌّ[4] .

وقال الموفق : الزِّنَا فيهم فاشٍ ، واللِّوَاطُ غَيرُ مَعْذُوقٍ بكِبَرٍ ولا صِغَر[5] ، والغَدرُ خُلُقٌ لهم ، أخذوا تفليس بالأمان ، ثم غدروا وقتلوا وسَبَوا[6] .

---

(١) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٩٤ .
(٢) لفظة عامية معناها لأي شيء .
(٣) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٩٥ .
(٤) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٩٤ .
(٥) أصل العبارة في تاريخ الإسلام : « واللِّواط ليس بقبيح ولا معذوقاً بشرط الكِبَر والصِّغَر » ، فمعذوق هنا معناه : مُعلَّق ، أخذه من العِذْق ، وهو عِذْق النخلة ويشمل العرجون بما فيه من الشماريخ .
(٦) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٩٤ .

٣ـ كانَ الغَدْرُ طَبيعَةً له ولجَيْشِه :

وقال الموفق : الزِّنَا فيهم فاشٍ ، واللِّوَاطُ غَيرُ مَعْذُوقٍ بكِبَرٍ ولا صِغَر[١] ، والغَدرُ خُلُقٌ لهم ، أخذوا تفليس بالأمان ، ثم غدروا وقتلوا وسَبَوا[٢] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كان يُضرَبُ بهم المَثَل في النَّهْب والقَتْل ، وعَملوا كُلَّ قَبيح ، وهم جِياعٌ مُجَمَّعَة ، ضِعافُ العَددِ والخَيلِ الْتَقىٰ جَلالُ الدِّين التَّتارَ ، فهَزَمَهم وهَلكَ مقدمُهم ابنُ جنْكيزخان ، ثم خَرجَ له كَمينٌ فتَفَلَّلَ جَمعُ جَلالِ الدِّين وفَرَّ إلىٰ ناحيَة غَزْنَة في حالٍ واهية ، ومعه أرْبَعةُ آلافٍ في غايَة الضَّعْف فتوجَّه نحو كِرْمَانَ فأحْسَنَ إليه مَلكُها ، فلمَّا تَقَوَّىٰ غَدرَ به وقتلَه ، وسار إلىٰ شِيرازَ وعَسْكَرُه علىٰ بَقَر وحَمير ومُشاة ففَرَّ منه صاحبُها ، وجَرَت له أمُور يَطولُ شَرْحُها ما بَينَ ارْتقاءٍ وانْخِفاضٍ ، وهابَتْهُ التَّتارُ ، ولَوْلاه لدَاسُوا الدُّنْيا ، وقد ذَهبَ إليه مُحْيي الدِّين ابنُ الجَوْزي رَسُولاً فوَجدَه يَقْرأُ في مُصْحَفٍ ويَبْكي ، ثم اعْتذَرَ عَمَّا يَفْعلُه جُندُه بكَثْرَتِهم ، وعَدمِ طاعَتِهم ، وقد تَقاذَفَت به البلادُ إلى الهِنْدِ ثم إلىٰ كِرْمانَ ثم إلىٰ أعْمالِ العِراقِ[٣] .

وساقَ إلىٰ أذْرَبيجانَ فاسْتولَىٰ علىٰ كَثيرٍ منها ، وغَدرَ بأتابك أُزبك ، وأخْرجَه من بلادِه ، وأخَذَ زَوجَه ابنَة السُّلطانِ طُغرل ، فتزوَّجَها ثم عَملَ مصافّاً مع الكَرْج فطَحَنَهم ، وقَتَلَ مُلوكَهم ، وقَويَ مُلكُه ، وكَثُرت جُموعُه ، ثم في الآخِر تَلاشَىٰ أمرُه لَمَّا كَسَرَه الْمَلكُ الأشْرَفُ مُوسَىٰ وصاحبُ الرُّوم بناحيَة أرْمينيَة ، ثم كَبَسَتْه التَّتارُ لَيلةً ، فنَجا في نَحوٍ من مئة فارس ثم تَفرَّقوا عنه إلىٰ أنْ بَقيَ وَحدَه ، فألَحَّ في طلبه خَمسةَ عَشرَ من التَّتارِ فثَبَتَ لهم وقَتلَ اثنَين فأحْجَمُوا عنه ، وصَعدَ في جَبَل بناحيَة آمَد يَنزِلُه أكْرادٌ فأجارَه كَبيرٌ منهم ، وعَرَفَ أنَّه السُّلطانُ ، فوَعدَه بكل خَيرٍ ، ففَرِح الكُرْدِيُّ ، وذَهبَ

---

(١) أصل العبارة في تاريخ الإسلام : « واللِّواط ليس بقبيح ولا معذوقاً بشرط الكِبَر والصِّغَر » ، فمعذوق هنا معناه : مُعلَّق ، أخذه من العِذْق ، وهو عِذْق النخلة ويشمل العرجون بما فيه من الشماريخ .

(٢) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩٤ .

(٣) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٩٤ .

ليُحْضِرَ خَيلاً له ويُعلِمَ بَني عَمِّه ، وتَركَه عندَ أُمِّه ، فجاءَ كُرْديٌّ فيه جُرأةٌ فقال : ليش[1] تخلُّوا هـٰذا الخُوارِزْميَّ عندَكم ؟ قيل : اسْكُت هـٰذا هو السُّلطانُ ، فقالَ : لأقْتُلَنَّه فقد قَتلَ أخي بخِلاطَ ، ثم شَدَّ عليه بحَرْبَة ، قَتلَه في الحالِ في سَنةِ ثَمانٍ وعَشْرينَ وسِتِّ مئة[2] .

* * *

(١) لفظة عامية معناها لأي شيء .

(٢) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٥ .

(٢٣) التَّتَار

١ـ أخْبَارُهُم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ النَّاصِرِ لدينِ الله : في سنة ستٍّ وستِّ مئة أوَّلُ ما سُمعَ بذِكرِ التَّتارِ ، فخَرجُوا من أراضِيهِم بادِيَةِ الصِّين ، وَراءَ بلادِ تُرْكِسْتانَ ، فحَارَبوا الخَطَا مرَّاتٍ وقَوُوا بكَسْرَةِ خُوارِزْم شاه للخَطا ، وعاثُوا ، وكان رَأسُهم يُدْعَىٰ كشلُوخان .

ثم خَرجَ علىٰ كشلُوخان الطاغيَةُ جنْكيزخان ، فتَحارَبوا مُدَّة ، وظَفَرَ جنْكيزخان ، وطَغَىٰ وتَمرَّدَ ، وأبادَ البلادَ والعِبادَ ، وأخَذَ أقاليمَ الخَطَا وجَعلَ خانَ بالق دارَ مُلكِه ، وأفْنَى الأُممَ بإقليمِ التُّرْك وما وَراءَ النَّهْر وخُراسانَ ، وهَزمَ الجُيوشَ ، وما جَرىَ له فسيرَةٌ مُفْرَدَةٌ ، وقد جوَّدَ وَصفَهم الْمُوفَّقُ البَغْداديُّ ، فقالَ[1] :

حَديثُهم حَديثٌ يأكُلُ الأحاديثَ ، وخَبرٌ يُنسِي التَّواريخَ ، ونازِلَةٌ تُطبقُ الأرضَ ، هٰذه أُمَّةٌ لُغَتُها مَشوبَةٌ بلُغَة الهِنْد لِمُجاوَرَتِهم ، عِرَاضُ الوُجُوه واسِعُوا الصُّدورِ ، خِفافُ الأعْجَازِ ، وصِغَارُ الأطْرافِ ، سُمْرٌ ، سَريعوا الحَركَة ، وقلَّما يَقدِرُ جاسُوسٌ أنْ يَتمكَّنَ منهم ، لأنَّ الغَريبَ لا يُشْبِهُهم ، وإذا أرادوا وِجْهَةً كَتَموا أمْرَهم ونَهَضُوا دَفْعةً ، فتَنْسَدُّ لهٰذا على النَّاسِ وُجوهُ الحِيَل ، وتَضيقُ طُرُقُ الهَرَبْ ، ويَسبقون التَّأهُّب ، نِساؤُهم يُقاتِلْنَ ، يَقتُلُونَ النِّساءَ والوِلْدانَ بغَيرِ اسْتثناءٍ ، ورُبَّما أبْقُوا ذَا صَنعَةٍ أو ذَا قُوَّة ، وغالِبُ سِلاحِهم النُّشَّاب ويَطعَنون بالسُّيوفِ أكثرَ ممَّا يَضربون بها ، وخَيْلُهُم تأكُلُ الكَلأ وما تَجدُ من وَرَقٍ وخَشَبٍ ، وسُروجُهم صِغارٌ ليسَ لها قيمة ، وأكْلُهم أيُّ حَيوان وُجد وتَمسُّه النَّارُ تَحِلَّةَ القَسَم ، ليسَ في قَتلِهم اسْتثناءٌ ، كان قَصْدَهم إفْناءُ النَّوْع ، ما سَلِمَ منهم إلاَّ غَزْنَةُ وأصْبَهانَ .

---

(١) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٩ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ثم اسْتباحوا أصْبَهانَ سَنةَ اثنتَينِ وثَلاثينَ وسِتِّ مئة[1] .

وفي سنة سَبعَةَ عَشرَ وسِتِّ مئة أخَذت التَّتارُ بُخارَىٰ وسَمَرْقَنْدَ بالسَّيفِ ، وعَدُّوا جيحُونَ ، قال ابنُ الأثير : لَوْ قِيلَ : إنَّ العَالَمَ منذ خُلقَ إلى الآنَ لَمْ يُبْتَلوا بمثلِ كائنَة التَّتارِ لكانَ صادِقاً ، فإنَّ التَّواريخَ لَمْ تَتضَمَّنْ ما يُقارِبُها ، قَومٌ خَرجُوا من أطْرافِ الصِّينِ فقَصَدوا بلادَ تُرْكِسْتانَ ، ثم إلىٰ بُخارَىٰ وسَمَرْقَنْدَ فتَملَّكوها ، ثم تَعبُرُ طائفةٌ منهم إلىٰ خُراسانَ فيَفْرَغُونَ منها تَخْريباً وقَتلاً إلى الرَّيِّ وهَمَذانَ ، ثم يَقصِدُون أذَرْبيجانَ ونَواحيها ويَسْتَبيحونها في أقلَّ من سَنَة ، أمْرٌ لَمْ نَسْمَع بمثلِه ، ثم سارُوا إلىٰ دَرْبَند شروينَ ، فمَلكوا مُدُنَه ، وعَبروا إلىٰ بلادِ اللانِ واللَّكْزِ قَتلاً وأسْراً ، ثم قَصَدوا بلادَ قَفْجاقَ فقَتلوا مَنْ وَقفَ وهَربَ مَنْ بَقيَ إلى الشعراءِ والجِبالِ ، واسْتوْلَت التَّتارُ علىٰ بلادِهم ، ومَضَت فرقَةٌ أخْرَىٰ إلىٰ غَزْنة وسِجِسْتان وكِرْمانَ ، ففَعلوا كذلك وأشَدَّ هٰذا ما لَمْ يَطْرُق الأسْماعَ مثلُه ، فإنَّ الإسْكَندَرَ ما مَلكَ الدُّنيا بهٰذه السُّرعَة ، بل في نَحْو عَشرِ سنينَ ولمْ يَقتُلْ أحَداً[2] .

وفي سنة أرْبَع وخَمسينَ وسِتِّ مئة سارَ الطاغيةُ هُولاكُو بنُ تولي ابنِ جنْكيزخان في مئة ألف ، وافْتَتحَ حِصْنَ الألَموتَ ، وأبادَ الإسْماعيليَّةَ ، وبَعثَ جَيشاً عليهم باجونَوِينَ ، فأخَذوا مَدائنَ الرُّومِ ، وذَلَّ لهم صاحبُها ، وقُتلَ خَلقٌ كَثيرٌ وفيها كانَ حَريقُ مَسْجِدِ النبي صلى الله عليه وسلم جَميعُه في أوَّلِ رَمضانَ من مِسْرَجَة القَيِّم ، فللَّه الأمرُ كُلُّه .

وفي سَنة خَمسٍ وخَمسينَ وسِتِّ مئة : ماتَ صاحِبُ مِصْرَ الْمَلكُ الْمُعِزُّ أَيْبَك التُّرْكُمانيُّ ، قَتلَته زَوجَتُه شَجَرَةُ الدُّرِّ في الغِيرَة ، فوُسِّطَت[3] .

٢ـ وَصْفٌ لهم ولأَحْوالِهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَليفَةِ العَبَّاسي النَّاصِر لدينِ الله : قال المُوَفَّقُ البَغْداديُّ : حَديثُهم حَديثٌ يأكُلُ الأحاديثَ ، وخَبرٌ يُنسِي التَّواريخَ ، ونازِلَةٌ تُطبقُ

---

(١) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٩ .

(٢) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٨٩ .

(٣) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٤ .

الأرضَ ، هـٰذه أُمَّةٌ لُغَتُها مَشوبَةٌ بلُغَة الهِنْد لِمُجاوَرَتِهم ، عِرَاضُ الوُجُوه واسِعُوا الصُّدورِ ، خِفافُ الأعْجَازِ ، وصِغَارُ الأطْرافِ ، سُمْرٌ ، سَريعوا الحَركَة ، وقلَّما يَقدِرُ جاسُوسٌ أنْ يَتمكَّنَ منهم ، لأنَّ الغَريبَ لا يُشْبِهُهم ، وإذا أرادوا وِجْهَةً كَتَموا أمْرَهم ونَهَضُوا دَفْعةً ، فتَنْسَدُّ لهـٰذا على النَّاسِ وُجوهُ الحِيَل ، وتَضيقُ طُرُقُ الهَرَبْ ، ويَسبقون التَّأهُّب ، نِساؤُهم يُقاتِلْنَ ، يَقتُلُونَ النِّساءَ والوِلْدانَ بغَيرِ اسْتثناءٍ ، ورُبَّما أبْقُوا ذَا صَنعَةٍ أو ذَا قُوَّة ، وغالِبُ سِلاحِهم النُّشَّاب ويَطعَنون بالسُّيوفِ أكثرَ ممَّا يَضربون بها ، وخَيْلُهُم تأكُلُ الكَلأ وما تَجدُ من وَرَقٍ وخَشَبٍ ، وسُروجُهم صِغارٌ ليسَ لها قيمة ، وأكْلُهم أيُّ حَيوان وُجد وتَمسُّه النَّارُ تَحِلَّةَ القَسَم ، ليسَ في قَتلِهم اسْتثناءٌ ، كان قَصْدَهم إفْناءُ النَّوْع ، ما سَلِمَ منهم إلاَّ غَزْنَةُ وأصْبَهانَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ثم اسْتباحوا أصْبَهانَ سَنةَ اثنتَينِ وثَلاثينَ وسِتِّ مئة[1] .

وقال : خَيلُهم لا تَعرفُ الشَّعيرَ ، إنَّما تَحْفرُ بحَوافِرها وتأكلُ عُروقَ النَّبات ، وهم يَسجُدونَ للشَّمْسِ ، ولا يُحَرِّمونَ شَيئاً ، ويَأكُلونَ الحَيواناتِ ، ولا يَعرفُونَ زَواجاً ، وهم صنفٌ من التُّرْك .

وأمَّا الخَليفَةُ فإنَّه جَمعَ الجُموعَ وجَيَّشَ الجُيوشَ ، وحَشرَ فنادَىٰ ، وأتَتْهُ البُعوثُ من كل حَدبٍ يَنْسِلون ، ولمَّا جاءَ رَسولُ التَّتار احتفلَ الجَيشُ وبالَغوا ، حتى امتلأَ قَلبُه رُعْباً ، ودِماغُه خَيالاً ، فرَجَعَ مُخَبِّراً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : هـٰذا كلُّه وجَيشُ مِصْرَ والشَّامِ في مُصابَرَة الفِرَنْج بدِمْياطَ والأمْرُ شَديدٌ .

وفي سَنةِ اثنَتَين وعِشرينَ وسِتِّ مئة تُوفِّيَ أميرُ المؤمنينَ ، فبُويعَ ابنُه الظَّاهِرُ أبو نَصْر مُحمَّدُ كَهْلاً ، فكانت دَولَةُ النَّاصِرِ سَبْعاً وأرْبعينَ سَنةً[2] .

---

(١) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٩ .

(٢) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٠ .

٣ـ مُصَانَعةُ بَعض مُلُوك المُسْلمين لهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ السُّلْطان بَدْرِ الدِّين أبي الفَضائلِ لُؤلُؤ الأرْمَنيِّ النُّوريِّ الأتَابكيِّ : قيلَ : إنَّه سارَ إلىٰ خِدمَةِ هُولاكُو ، وتَلطَّفَ به وقدَّمَ تُحَفاً جَليلة ، منها جَوْهَرةٌ يَتيمَةٌ ، وطَلبَ أنْ يَضعَها في أُذُنِ هُولاكُو فاتَّكأ ففَرَكَ أُذُنَه ، وأدْخَلَ الحَلقةَ في أُذُنِه ثم رَجعَ إلىٰ بلادِه مُتولِّياً من قبلِه ، وقرَّر عليه مالاً يَحملُه ، ثم ماتَ بالْمُوصِلِ سَنةَ سَبعٍ وخَمسينَ وسِتِّ مئة .

فلمَّا ماتَ تَملَّك وَلدُه الْمَلكُ الصَّالحُ إسْماعيلُ وتَزوَّجَ بابنَةِ هُولاكُو فأغْضَبَها وأغارَها ، ونازَلَت التَّتارُ الْمُوصِلَ ، واسْتمرَّ الحِصارُ عَشرَةَ أشْهُر ، ثم أُخِذَت ، وخَرجَ إليهم الصَّالحُ بالأمان فغَدَورا به ، واسْتباحوا الْمُوصِلَ ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون[1] .

٤ـ مِنْ أسْباب غَلَبَتِهم على العِراق :

(أ) خِيانَةُ الوَزيرِ ابنِ العَلْقَمي الرَّافِضِيِّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُسْتَعْصِمِ بالله : ثم إنَّه اسْتَوْزَرَ المُؤيّدَ ابنَ العَلْقَمي الرَّافضيَّ ، فأهْلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وحَسَّنَ له جَمعَ الأمْوالِ ، وأنْ يَقْتَصِرَ علىٰ بَعضِ العَساكِر ، فقَطعَ أكْثرَهم ، وكانَ يَلعَبُ بالحَمَامِ ، وفيه حِرْصٌ وتَوَانٍ .

وفي سَنةِ أرْبَع وأرْبَعين وسِتِّ مئة : عاثَت الخُوارزميَّة وتَخرَّبَت القُرَىٰ ، فالْتَقاهُم عَسْكَرُ حَلَب وحِمْصَ فكُسِروا شَرَّ كَسْرَة علىٰ بُحَيْرة حِمْصَ ، وقُتلَ مُقَدِّمُهم بَرْكَة خان .

وفيها خِتانُ أحمَدَ وعبدِ الرَّحْمَـٰن وَلدَي الخَليفَة وأخيه علي ، فمِن الوَليمَة ألْفٌ وخَمسُ مِئَة رَأسِ شِواء[2] ، وقَدِمَ رَسُولانِ من التَّتارِ أحَدُهما من بَركة ، والآخَرُ من بايجُو ، فاجْتَمَعوا بابنِ العَلْقَميِّ وتَعَمَّتِ الأخْبارُ .

---

(١) انظر السير : (المَلكُ الرَّحيم) ٢٣/٣٥٦ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٤٠ .

(٢) هـٰذا غَير ما أخرج من الخُبز ، والدجاج ، والبيض ، والسكر ، والحلوىٰ ، وغيرها .

وفيها أخَذَتِ الفِرَنْجُ شاطِبَة[1] .

وجَرَت فَتنةٌ مَهولَة ببَغدادَ بينَ النَّاسِ وبينَ الرَّافِضَة ، وقُتلَ عِدّةٌ من الفَريقين ، وعَظُم البلاءُ ، ونُهِبَ الكَرْخُ ، فحَنقَ ابنُ العَلْقَميّ ، الوَزيرُ الرَّافِضيُّ ، وكَاتبَ هُولاكُو ، وطمَّعَه في العِراق ، فجاءَت رُسُلُ هُولاكُو إلىٰ بَغدادَ ، وفي الباطِنِ مَعهُم فَرَماناتٍ لغَيرِ واحدٍ ، والخَليفةُ لا يَدْري ما يَتمُّ ، وأيامُه قد وَلَّتْ ، وصاحبُ دِمَشْقَ شابٌّ غرٌّ جَبانٌ ، فبَعثَ وَلدَه الطِّفلَ مع الحافظيِّ بتقادم وتُحَف إلىٰ هُولاكُو فخَضَعَ له ، ومِصْرُ في اضْطِرابٍ بعدَ قَتْلِ المُعزِّ ، وصاحبُ الرُّوم قد هَربَ إلىٰ بلاد الأشْكُري ، فتمرَّدَ هُولاكُو وتَجبَّر ، واسْتولَىٰ على المَمالك وعاثَ جُندُه الكَفَرَةُ يَقْتلُون ويَأسِرُون ويَحْرِقُون .

ودخلت سنةُ سِتٍّ وسِتِّينَ وسِتِّ مئة فسَارَ عَسْكَرُ النَّاصِرِ ، وعَليهم المُغيثُ ابنُ صاحبِ الكَرْك ، ليأخُذوا مِصْرَ فالتَقاهُم المُظفَّرُ قُطُز ، وهو نائبٌ للمَنصور عليٍّ وَلدِ المُعزِّ ، بالرَّمْلِ فكَسَرَهم ، وأسَرَ جَماعَةَ أُمَراء فضَرَبَ أعْناقَهم[2] .

وأمَّا هُولاكُو فقَصَدَ بَغْدادَ فخَرجَ عَسْكرُها إليه فانْكَسَروا ، وكاتبَ لُؤلُؤَ صاحبَ الْمُوصِل وابنَ صَلايا مُتوَلِّي إرْبلْ الخَليفَةَ سِراً يَنْصَحانِه فما أفادَ ، وقُضيَ الأمْرُ وأقْبَلَ هُولاكُو في المَغُولِ والتُّرْكِ والكُرْج ، فأشارَ الوَزيرُ على الخَليفَةِ بالمُدارَاة وقال : أخْرُجُ إليه أنا ، فخَرجَ واسْتَوْثَقَ لنَفْسِه ورُدَّ فقالَ : القانُ راغِبٌ في أنْ يُزوِّجَ بنتَه بابنِكَ أبي بَكْر ويُبْقِي لكَ مَنْصِبَك كما أبْقىٰ صاحِبَ الرُّوم في مَمْلكَتِه من تَحتِ أوامِرِ القَانِ ، فاخْرُجْ إليه ، فخَرجَ في كُبَراء دَولَتِه للنِّكاحِ يَعني ، فضُرِبَ أعْناقُ الكُلِّ بهَـٰذه الخَديعَة ورُفِسَ الْمُسْتَعصِمُ حتىٰ تَلَفَ ، وبَقيَ السَّيفُ في بَغْدادَ بِضْعَة وثَلاثين يَوماً ، فأقَلُّ ما قِيلَ : قُتلَ بها ثَمانِ مِئة ألْف نَفْس ، وأكثرُ ما قِيلَ بَلغُوا ألْفَ ألْفٍ وثَمانِ مِئَة ألْفٍ ، وجَرت السُّيولُ من الدِّماء فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون .

ثم بعد ذَهابِ البَلدِ ومَنْ فيه إلاَّ اليَسير نُودِيَ بالأمَان ، وانْعَكسَ على الوَزيرِ مُرامُه وذاق ذُلاًّ ووَيْلاً وما أمْهَلَه الله .

---

(١) انظرد السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٢ .

(٢) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢٤ .

وعَملَ ابنُ العَلْقَمِيِّ علىٰ تَرْك الجُمُعات وأنْ يَبنيَ مَدرسَةً علىٰ مَذْهَب الرَّافِضَة ، فما بَلغَ أمَلَه وأُقيمَت الجُمُعات[1] .

وكان قد مشىٰ حالُ الخَليفَة بأنْ يَكونَ للتَّتار نِصْفُ دَخْل العِراقِ ، فقالَ ابنُ العَلْقَمِيِّ : بلْ المَصْلحَةُ قَتلُه ، وإلاَّ فما يَتمُّ لكم مُلكُ العِراق[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وله[3] ذُرِّيَةٌ إلى اليوم بأذربيجانَ ، وانْقَطَعَتِ الإمامَةُ العَبَّاسيَّة ثَلاثَ سِنينَ وأشْهُراً بمَوْتِ المُسْتَعصِم ، فكانت دَولَتُهم من سَنةِ أثنتَين وثلاثين ومئة إلىٰ سَنة سِتٍّ وخَمسينَ وسِتِّ مئة فذلك خَمسُ مئة وأرْبعٌ وعِشْرونَ سَنةً ، ولله الأمْرُ[4] .

(ب) ضَعْفُ الخَليفَة المُسْتَعْصِم ولَهْوُه ولَعِبُه :

قال قُطبُ الدين اليُونيني : كان المُسْتَعصِمُ بالله مُتديِّناً مُتمَسِّكاً بالسُّنَّة كأبيه وجَدِّه ، ولكنَّه لَمْ يَكُنْ في حَزْمِ أبيه ، وتَيقُّظِه وعُلوِّ هِمَّتِه ، وإقْدامِه ، وإنَّما قَدَّموهُ علىٰ عَمِّهِ الخفاجيِّ لِمَا يَعلَمونَ من لِينِه وانْقيادِه وضَعْفِ رَأيِه ليَسْتَبدُّوا بالأمُورِ[5] .

ثم إنَّه اسْتَوْزَرَ المُؤيّدَ ابنَ العَلْقَمي الرَّافضيَّ ، فأهْلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وحَسَّنَ له جَمعَ الأمْوالِ ، وأنْ يَقْتَصِرَ علىٰ بَعضِ العَساكِر ، فقَطعَ أكْثرَهم ، وكانَ يَلعَبُ بالحَمَامِ ، وفيه حِرْصٌ وتَوَانٍ .

وفي سَنةِ أرْبَع وأرْبَعين وسِتِّ مئة : عاثَت الخُوارزميَّة وتَخرَّبَت القُرَىٰ ، فالْتَقاهُم عَسْكَرُ حَلَب وحِمْصَ فكُسِروا شَرَّ كَسْرَة علىٰ بُحَيْرة حِمْصَ ، وقُتلَ مُقَدِّمُهم بَرْكَة خان .

وفيها خِتانُ أحمَدَ وعبدِ الرَّحْمَـٰن وَلَدَي الخَليفَة وأخيه علي ، فمِن الوَليمَة ألْفٌ

---

(١) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٥ .

(٢) أعمَى الحقدُ والتعصُّب هـٰذا الخائن وقُتل النَّاسُ ودُمرَت بلاد الإسْلام بسبب حقْدِه وتعصُّبه واعتقادِه الفاسد .

(٣) أي للخَليفة المُستَعْصِم .

(٤) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٥ .

(٥) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٢ .

وخَمسُ مِئَة رَأسِ شِواء[1] ، وقَدِمَ رَسُولانِ من التَّتارِ أحَدُهما من بَركة ، والآخَرُ من بايجُو ، فاجْتَمَعوا بابنِ العَلْقَميِّ وتَعَمَّتِ الأخْبارُ .

وفيها أخَذَتِ الفِرَنْجُ شاطِبَة[2] .

(ج) تَسْريحُ أكثرِ جُنْدِ الخِلافَة بإشارَةِ ابنِ العَلْقَمي :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُستعصِمِ بالله : ثم إنَّه اسْتَوْزَرَ المُؤيّدَ ابنَ العَلْقَمي الرَّافضيَّ ، فأهْلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وحَسَّنَ له جَمعَ الأمْوالِ ، وأنْ يَقْتَصِرَ علىٰ بَعضِ العَساكِر ، فقَطعَ أكْثرَهم ، وكانَ يَلعَبُ بالحَمَامِ ، وفيه حِرْصٌ وتَوَانٍ .

وفي سَنةِ أرْبَع وأرْبَعين وستِّ مئة : عاثَت الخُوارزميَّة وتَخرَّبَت القُرَىٰ ، فالْتَقاهُم عَسْكَرُ حَلَب وحِمْصَ فكُسِروا شَرَّ كَسْرَة علىٰ بُحَيْرة حِمْصَ ، وقُتلَ مُقَدَّمُهم بَرْكَة خان .

وفيها خِتانُ أحمَدَ وعبدِ الرَّحْمَـٰن وَلَدَي الخَليفَة وأخيه علي ، فمِن الوَليمَة ألْفٌ وخَمسِ مِئَة رَأسِ شِواء[3] ، وقَدِمَ رَسُولانِ من التَّتارِ أحَدُهما من بَركة ، والآخَرُ من بايجُو ، فاجْتَمَعوا بابنِ العَلْقَميِّ وتَعَمَّتِ الأخْبارُ .

وفيها أخَذَتِ الفِرَنْجُ شاطِبَة[4] .

(د) اضْطِرابُ مِصْرَ والشَّامِ وعَدَمُ اجْتِماعِ الكلِمَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُستعصِمِ بالله : وجَرَت فَتنةٌ مَهولَة ببَغدادَ بينَ النَّاسِ وبينَ الرَّافِضَة ، وقُتلَ عِدّةٌ من الفَريقين ، وعَظُم البلاءُ ، ونُهِبَ الكَرْخُ ، فحَنقَ ابنُ العَلْقَميّ ، الوَزيرُ الرَّافِضيُّ ، وكَاتبَ هُولاكُو ، وطمَّعَه في العِراق ، فجاءَت رُسُلُ هُولاكُو إلىٰ بَغدادَ ، وفي الباطِنِ مَعهُم فَرَماناتٍ لغَيرِ واحدٍ ،

---

(١) هـٰذا غَير ما أخرج من الخُبز ، والدجاج ، والبيض ، والسكر ، والحلوىٰ ، وغيرها .
(٢) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٢ .
(٣) هـٰذا غَير ما أخرج من الخُبز ، والدجاج ، والبيض ، والسكر ، والحلوىٰ ، وغيرها .
(٤) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٢ .

والخَليفةُ لا يَدْري ما يَتمُّ ، وأيامُه قد وَلَّتْ ، وصاحبُ دِمَشْقَ شابٌّ غرٌّ جَبانٌ ، فبَعثَ وَلدَه الطِّفلَ مع الحافظيِّ بتقادم وُتَحَف إلىٰ هُولاكُو فخَضَعَ له ، ومِصْرُ في اضْطِرابٍ بعدَ قَتْلِ المُعزِّ ، وصاحبُ الرُّوم قد هَربَ إلىٰ بلاد الأشْكُري ، فتمرَّدَ هُولاكُو وتَجبَّر ، واسْتولَىٰ على المَمالك وعاثَ جُندُه الكَفَرَةُ يَقْتلُون ويَأسِرُون ويَحْرِقُون .

ودخلت سنةُ ستٍّ فسَارَ عَسْكَرُ الناصر ، وعَليهم المُغيثُ ابنُ صاحبِ الكَرْك ، ليأخُذوا مِصْرَ فالتَقاهُم المُظفَّرُ قُطُز ، وهو نائبٌ للمَنصور عليٍّ وَلدِ المُعزِّ ، بالرَّمْلِ فكَسَرَهم ، وأسَرَ جَماعَةَ أُمَراء فضَرَبَ أعْناقَهم[1] .

٥ـ مُقاوَمَةُ المِصْريِّين لهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ المُظَفَّرِ قُطُزْ : كان أنبلَ مَمَاليك المُعِزِّ أيْبَك التُّرْكُمانيِّ ، ثم صارَ نائبَ السَّلطَنَة لولَدِه المَنْصُورِ وكانَ فارِساً شُجاعاً ، سَائِساً ، دَيِّناً ، مُحَبَّباً إلى الرَّعيَّة هَزَمَ التَّتارَ وطَهَّرَ الشَّامَ منهم يومَ عَيْن جالُوتَ ، وهو الذي كان قَتلَ الفارِسَ أقْطايَ فقُتلَ به ، ويَسْلَمُ له إنْ شاءَ اللهُ جهادُه[2] .

ويُذْكرُ عنه أنَّه يَومَ عَينِ جالُوتَ لَمَّا أنْ رَأى انْكِشافاً في المسلمينَ رَمَىٰ علىٰ رأسِه الخُوذَةَ وحَمَلَ ، ونَزَلَ النَّصْرُ .

وكان شاباً أشقر ، وَافِرَ اللِّحْيَة ، تامَّ الشَّكْلِ ، وثَبَ عليه بَعضُ الأُمَراء وهو راجِعٌ إلىٰ مِصْرَ فقُتلَ سَنةَ ثَمانٍ وخَمسينَ وسِتِّ مئة ، ولَمْ يُكْمِلْ سَنةً في السَّلطَنةِ ، رَحمَهُ الله[3] .

٦ـ مُقاوَمَةُ الشَّاميِّينَ لهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمة الْمَلكِ الكامِلِ ، مُحمَّدِ بنِ الْمُظَفَّرِ : تَملَّك ميَّافارقينَ وغَيرَها بعدَ أبيه سَنةَ خَمسٍ وأرْبَعينَ وسِتِّ مئة ، وكان شاباً ، عاقِلاً شُجاعاً ، مَهيباً

---

(١) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢٤ .
(٢) انظر السير : (الْمُظَفَّر) ٢٣/ ٢٠٠ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٢٩ .
(٣) انظر السير : (الْمُظَفَّر) ٢٣/ ٢٠٠ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٠ .

مُحْسِناً إلىٰ رَعيَّتِه ، مُجاهداً ، غَازياً ، دَيِّناً تَقيّاً ، حَميدَ الطَّريقَة ، حاصَرَه عَسكَرُ هُولاكُو نَحْواً من عِشرينَ شَهراً حتىٰ فَنيَ النَّاسُ جُوعاً ووَباءً ، حتىٰ لَمْ يَبْقَ بالبَلَدِ سِوَىٰ سَبعينَ رَجُلاً فيما قِيلَ ، فحَدَّثني الشَّيخُ مَحْمودُ بنُ عبدَ الكَريمِ الفارِقيُّ قالَ : سارَ الكَامِلُ إلىٰ قِلاعٍ بنَواحي آمِد فأخَذَها ، ثم نَقلَ إليها أهْلَه ، وكان أبي في خِدمَتِه ، فرَحلَ بنا إلىٰ قَلعَةٍ منها ، فعَبَرَت التَّتارُ عَلينا ، فاسْتَنزَلُوا أهْلَ الْمَلكِ الكامِلِ بالأمَانِ من قَلعَةٍ أُخْرىٰ ، وَرَدُوا بهم عَلينا ، وأنا صَبيٌّ مُمَيِّزٌ ، وحاصَروا ميّافارقينَ أشْهُراً ، فنَزلَ عَليهم الثَّلجُ ، وهَلكَ بَعضُهم ، وكانَ الكامِلُ يَبرُزُ إليهم ويُقاتِلُهم ، ويُنْكي فيهم فهابُوهُ ، ثم بَنَوا عَليهم سُوراً بإزاءِ البَلَد ، بأبْرجَة ، ونَفدَت الأقْواتُ ، حتىٰ كانَ الرَّجُلُ يَموتُ فيُؤكَل ، ووَقعَ فيهم الْمَوتُ ، وفَتَرَ عنهم التَّتارُ وصَابَروهم ، فخَرجَ إليهم غُلامٌ أو أكْثَر وجَلَوْا للتَّتارِ أمْرَ البَلدِ ، فما صَدَّقوا ، ثم قَرُبوا من السُّورِ وبَقوا أيَّاماً لا يَجْسِرُونَ على الهُجومِ ، فدَلَّىٰ إليهم مَمْلُوكٌ للكامِلِ حِبالاً فطَلعُوا إلى السُّورِ فبَقوا أُسْبوعاً لا يَجسُرون ، وبَقي بالبَلدِ نَحْو التِّسْعينَ بعدَ ألُوفٍ من النَّاسِ ، فدَخَلت التَّتارُ دارَ الكامِلِ وأمَّنوه ، وأتَوْا به هُولاكُو بالرُّها فإذا هو يَشْرَبُ الخَمْرَ ، فناوَلَ الكامِلَ كَأساً فأبَىٰ ، وقالَ : هٰذا حَرامٌ ، فقالَ لامْرأتِه : ناوِليهِ أنتِ ، فناوَلَتْه فأبَىٰ ، وشَتمَ وبَصَقَ ـ فيما قِيلَ ـ في وَجْه هُولاكُو وكانَ الكامِلُ مِمَّنْ سارَ قَبلَ ذلك ورَأى القانَ الكَبيرَ ، وفي اصْطِلاحِهم مَنْ رَأىٰ وَجْهَ القانِ لا يُقْتَل ، فلمَّا وَاجَه هُولاكُو بهٰذا اسْتَشاطَ غَضَباً وقَتلَه .

ثم قالَ : وكانَ الكامِلُ شَديدَ البَأسِ ، قَويَّ النَّفْسِ ، لَمْ يَنْقَهِر للتَّتارِ بحيثُ إنَّهم أخَذُوا أوْلادَه من حِصْنِهم ، وأتَوه بهم إلىٰ تَحتِ سُورِ ميّافارقينَ ، وكلَّموهُ أنْ يُسلِّمَ البَلدَ بالأمَانِ فقالَ : ما لَكُم عندي إلاَّ السَّيفَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : طِيفَ برأسِه بدِمَشْقَ بالطُّبولِ ، وعُلِّقَ علىٰ بابِ الفَراديسِ ، فلَمَّا انْقَلَعوا ، وجاءَ الْمُظَفَّرُ دُفِنَ الرَّأسُ وكانَ في سَنةِ سِتٍّ وخَمسينَ وسِتِّ مئة قَدِمَ دِمَشْقَ مُسْتَنجِداً بالنَّاصِرِ فبالَغَ في إكْرامِه واحْترامِه ، ووَعَدَه بالإنْجادِ ، ورَجَعَ إلىٰ ميّافارقينَ وقُتلَ في سَنةِ ثَمانٍ وخَمسينَ وسِتِّ مئة رَحمَه الله[1] .

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٣/ ٢٠١ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٣٠ .

(٢٤) الصَّليبيُّون

١ـ الحُروبُ الصَّليبيَّة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجمة الإمامِ البَيْروتيِّ : الإمامُ الحُجَّةُ المُقرىءُ أبو الفَضْل العَبَّاسُ بنِ الوَليد بنِ مَزْيَد ، العُذْريُّ البَيْروتيُّ[١] .

وبَيْروتُ مَدينَةٌ على البَحْرِ من ساحِلِ دِمَشْقَ ، ما زالَت بلادَ إسْلامٍ منذُ الفُتوحِ إلىٰ أنْ اسْتولَىٰ عليها الفِرَنْجُ ، فدامَت داراً لهم إلىٰ أنْ افْتَتَحَها السُّلطانُ الْمَلكُ الأشْرَفُ خَليل في سَنةِ تِسْعينَ وسِتِّ مئة عندَ أخْذِ عَكا ، وبها تُوفِّيَ الأوْزاعيُّ ، وتلميذُه الوَليدُ بنُ مَزْيَد ، وابنُه هـٰذا .

وُلدَ سنة تِسْعٍ وسِتِّينَ ومئَة ، فكان مِمَّن عُمِّر أكثرَ من مئة عامٍ بيَقين .

وكان مُقْرئاً حاذِقاً بحَرْفِ ابنِ عامِر ، تَلا علىٰ أبيه .

وقالَ النَّسائيُّ : ليسَ به بأسٌ وكان صاحِبَ لَيْلٍ .

ماتَ سَنةَ سَبعينَ ومِئتَين ، وكان مُمَتَّعاً بقُواه[٢] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمةِ الْمُسْتَعلي باللهِ العُبَيْديِّ : فأخَذَت الفِرَنْجُ أنْطَاكيَة من المسلمينَ في سَنةِ إحْدَىٰ وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ، وكان لها في يَد المسلمينَ نَحْوَ عشرينَ سَنةً ، وأخَذوا بَيتَ المَقْدِسِ ، واسْتَباحُوهُ ، وأخَذُوا أيضاً المَعَرَّةَ في سَنةِ اثْنَتَين وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ، ثم اسْتَولوا علىٰ مَدائنَ وقِلاعٍ[٣] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمةِ صاحِبِ مِصْرَ الآمرِ بأحْكامِ اللهِ العُبَيْديِّ : وفي دَولَتِه أخَذَت الفِرَنْجُ طَرابُلْسَ الشَّامِ وصَيْدا ، ثم قَصدَ المَلكُ بَرْدَويلُ الفِرَنجيُّ ديارَ مِصْرَ ،

---

(١) انظر السير : (البَيْروتيّ) ١٢/ ٤٧١ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٢ .

(٢) انظر السير : (البَيْروتيّ) ١٢/ ٤٧١ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢٢ .

(٣) انظر السير : (المُسْتعلي بالله) ١٥/ ١٩٦ـ ١٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٣ .

وأخَذَ الفَرَمَا وهي قَريبةٌ من العَريش ، فأحْرقَ جامِعَها ، ومَساجِدَها ، وقَتلَ وأسَرَ ، ثم رَجعَ فهَلكَ في سَبخَة بَرْدَويل فشَقُّوه ورَموا حَشوَتَه وصَبَّروه ، فحَشْوَتُه تُرجَم هناك إلى اليومِ ، ودَفَنوه بقُمامَة وكان قد أخَذَ القُدسَ وعَكَّا والحُصونَ .

وفي أيَّامه ظَهرَ ابنُ تُوْمَرْت بالمَغْربِ وكَثُرت أتباعُه ، وعَسْكَروا وقَاتَلوا ، ومَلَكُوا البلادَ[1] .

فَخْرُ المُلْك :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : ابنُ عمَّار صاحبُ طَرابُلْسَ ، كان من دُهاة الرِّجالِ وأفْرادِ الزَّمان شَجاعَةً وإقْداماً ورَأياً وحَزْماً ، ابتُلي بلدُه بحِصارِ الفِرَنْج خَسمةَ أعْوامٍ وهو يُقاوِمُهم ، ويُنْكِي في العَدوِّ ، ويَسْتَظهِرُ عليهم ، ويُراسِلُ مُلوكَ الأطْرافِ ، ويُتْحِفُهم بالهَدايا ، وهم حائرُونَ في أنفُسِهم ، ولَمْ يُنْجِدْهُ أحَدٌ وقد راسَلَ صاحِبَ الرُّومِ مَرَّاتٍ ، وكان حَسَنَ التَّدْبيرِ في الحِصَارِ ، جَيِّدَ الْمَكيدَة والْمُخادَعَة ، براً وبَحْراً ، شِتاءً وصَيفاً ، حتىٰ تَفانَت رِجالُه ، وكلَّت أبطالُه ، فرَكبَ في البَحْر ، وطلَعَ حتىٰ قَدِمَ دِمَشْقَ ، وأُخِذَت طَرَابُلسُ منه سَنةَ اثنَتين وخَمسِ مئة ، فأقْطَعَه طُغْتِكينُ قَريَةَ الزَّبَدانيّ ، وكان لشِدَّة ما نَزلَ به يُصادِرُ الرَّعيَّةَ ويَعْسِفُهم ، وجَرَت له تَنقُّلاتٌ وأحْوالٌ ، إلىٰ أنْ أدْبَرَت أيَّامُه ، ووَافاهُ حِمامُه ، والله يَسْمَحُ له[2] .

قال الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ رِضْوان صاحبِ حَلَب : وقَصَدت النَّصارَىٰ أنْطَاكيَة ونازَلوا بَيتَ الْمَقدِس سَنةَ اثنَتينِ وخَمسِ مئة ، وقُتلَ به سَبعونَ ألفَ مُسْلم ، ونَقلَ ابنُ مُنقِذ ظُهورَ الفِرَنْجِ في هـٰذا الوَقْت من بَحْر قُسْطَنْطِينيَّة ، وجَرَت لهم مع طاغيَة الرُّومِ حُروبٌ وعَجَزَ عنهم ، ثم قالوا : ما نَفْتَحُه من بلاد الرُّومِ فهو لك ، ومَهْما نَفْتَحُه من بلادِ الشَّامِ ، فهو لنا[3] .

وقِيلَ : كانوا في أرْبَعِ مئةِ ألفٍ ، ثم أخَذوا بَعضَ بلادِ الْمَلِك قلج رسْلان بالسَّيفِ ،

---

(١) انظر السير : (الآمر بأحْكام الله) ١٥/ ١٩٧ـ١٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٤ .
(٢) انظر السير : (فَخْرُ المُلك) ١٩/ ٣١١ ، وانظر النزهة : ١٤٧٨/ فَخْرُ المُلك .
(٣) انظر السير : (رضوان) ١٩/ ٣١٥ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٧٩ .

فجمعَ حينئذ عَساكرَه ، والْتَقاهُم في سَنةِ تِسْعينَ وأرْبَع مئة ، وأشْرَفَ على النَّصرِ ، ثم كَسَرتْه الفِرَنْجُ ، وقُتِلَ من جُندِه خَلقٌ ، وهَربَ واستغاثَ بمُلوك النَّواحي علىٰ ما دَهَمَ الإسْلامَ ، فوَصَلَتْ كُتبُه إلىٰ حَلَبَ مُسخَمَة مُشَقَّقَة فيها بَعضُ شَعْرِ النِّساء ، وانْزَعجَ الخَلقُ ، ثم تَوجَّهَت الفِرَنْجُ إلى الشَّام فكانوا أزْيَدَ من ثَلاثِ مئةِ ألفِ نَفْسٍ فعَاثُوا وأخْرَبُوا البلادَ ، وتفرَّقُوا ، وكَبَسَهم الْمُسلِمونَ ، وجَرَت فِتنٌ وحُروبٌ لا يُعبَّر عنها ، وأُخِذَت أنْطاكيَةُ بالسَّيفِ سَنةَ إحْدَىٰ وتِسْعينَ وأرْبَع مئة ، وقُتلَ صاحِبُها وقُتلَ أيْضاً من كبار الفِرَنْجِ عَددٌ كَثيرٌ ، وكان الأمْرُ إلىٰ كندفري ، ثم إلىٰ أخيه بغدوينَ وبيمَنْت ، وابنِ أخيه طنكل وصنجيل هـٰؤلاء مُلوكُهم ، ثم جاءَ الْمُسلمونَ نَجْدَةً لأنْطَاكيَة وقد أُخِذَت ، فحارَبوا العَدوَّ أيّاماً ، وانْتَصَروا وهَلكَ خَلقٌ من العَدوِّ ، وجاعُوا ، وجَرَىٰ غَيرُ مَصافٍّ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الْمُسْتَظهِرِ بالله أبي العَبَّاس الهاشِميِّ العَبَّاسيِّ : وفي سَنةِ تِسْعٍ وخَمسِ مئة كان أوَّلُ ظُهورِ الفِرَنْجِ بالشَّامِ قَدِموا في بَحْر القُسْطَنْطينيَّة في جَمعٍ كَثيرٍ ، وانْزَعَجَت الْمُلوكُ ، وعَظُم الخَطبُ ، لا سيَّما ابنُ قُتلمش صاحِبُ الرُّومِ ، فالْتَقاهم ، فطَحَنُوهُ[2] .

وأمَّا ابنُ الأثيرِ ، فقالَ : ابْتداءُ دَولَتِهم في سَنةِ ثَمانٍ وسَبعينَ وأرْبَع مئة ، فأخَذوا طُلَيْطِلَةَ وغَيرَها ، ثم صقلية ، وأخَذوا بَعضَ إفْريقيَة ، وجَمَعَ مَلكُهم بَغْدَوين جَمْعاً ، وبَعثَ يَقولُ لرُجَّارَ صاحِبِ صِقليَة : أنا واصِلٌ إليكَ لنَفْتَحَ أفْريقيَةَ فبَعثَ يَقولُ : الأوْلَىٰ فَتحُ القُدْسِ ، فقَصَدوا الشَّامَ[3] .

وقِيلَ : إنَّ صاحِبَ مِصْرَ العُبَيْديَّ لَمَّا رأىٰ قُوَّةَ آلِ سُلْجُوقَ واسْتيلاءَهم على الْمَمَالِك كاتَبَ الفِرَنْجَ[4] .

---

(١) انظر السير : (رضوان) ١٩/ ٣١٥ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٧٩ .
(٢) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٠ .
(٣) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٠ .
(٤) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٠ .

فمَرُّوا بسيسَ ، ونازَلُوا أنْطَاكيَةَ ، فخافَ صاحِبُها ياغي بَسان ، فأخْرجَ النَّصارَىٰ إلى الخَنْدَقِ وحَبَسَهم به ، فدامَ حِصارُها تِسْعَةَ أشْهُر ، وفَنِيَ الفِرَنْجُ قَتْلاً ومَوْتاً ، ثم إنَّهم عاملُوا الزَّرَّادَ المُقدَّمَ ، وبَذلوا له مَالاً ، فكاشَرَ لهم عن بَدنِه[1] ، ففَتحوا شُبَّاكاً ، وطَلعوا منه خَمسُ مئة في اللَّيلِ ، ففُتحَ ياغي بَسان ، وهَربَ ، واسْتُبيحَ البَلدُ ـ فإنَّا لله ـ في سَنة إحْدَىٰ وتِسْعينَ وأرْبَع مئة وسَقطَت قُوَّة ياغي بَسان أسَفاً ، وانْهَزَمَ غِلمانُه ، فذبَحَه حَطَّابٌ أرْمَنيٌّ ثم أخَذوا المَعَرَّة ، فقَتلوا وسَبوا ، وتَجمَّعَت عَساكِرُ الْمَوصِلِ وغَيرِها فالْتَقوا ، فانْهَزَمَ الْمُسلمونَ واسْتُشْهِدَ ألُوفٌ وصالَحَهم صاحِبُ حِمْصَ ، وأقْبلَ ابنُ أميرِ الجُيوش ، فأخَذَ القُدْسَ من ابنِ أرْتُق ، وانْتُشرَت الباطنيَّةُ بأصْبَهانَ وتمَّتْ حُروبٌ مُزْعِجَة بين مُلوكِ العَجَمِ ، وأخَذت الفِرَنْجُ بَيتَ الْمَقْدِسِ ، نَصبوا عليه أرْبَعينَ مَنْجَنيقاً ، وهَدُّوا سُورَه وجَدُّوا في الحِصارِ شَهْراً ونِصْفاً ، ثم مَلكُوه من شَماليِّه سَنةَ اثنَتين وتِسْعينَ ، وقَتلوا به نَحْواً من سَبعينَ ألفاً[2] .

وفي سَنةِ خَمسٍ وتِسْعينَ وأرْبَع مئة كانت حُروبٌ بين الأخَوَين بَرْكْيا رُوق ومحمد ، وبلاءٌ وحِصار ، ونازَلت الفِرَنجُ طَرَابُلْسَ ، فسارَ للكَشفِ عنها جُندُ دِمَشْقَ وحمْصَ ، فانكسَروا ، ثم التقى العسكرُ ، وبغدوين ، فهزَمُوه وقلَّ مَنْ نَجا من أبطالِه ، وظَفِرَ ثلاثةٌ من الباطنيَّة علىٰ جَناح الدولة صاحِبِ حمْصَ ، فقَتَلوه في الجامع ، فنازَلتْها الفِرَنْجُ ، فصُولِحوا علىٰ مال ، وتَسلَّمها شَمسُ المُلوك ، وقَتلت الباطنيَّةُ الأعزَّ ، وزيرَ بَرْكْيا رُوق[3] .

وفي سنة سِتٍّ وتِسْعينَ وأرْبَع مئة سارَ شَمسُ الْمُلوك ، فحاصَرَ الرَّحْبَة وأخَذَها ، وجاء عَسكَرُ مِصْرَ ، فالْتَقوا الفِرَنْجَ بيافَا ، وخُذِلَت الفِرَنْجُ ، وتَصالَح بَرْكَيَا رُوق وأخُوه ، ومَلُّوا من الحَربِ ، وتَحالَفوا ، وطالَ حِصارُ الفِرَنْجِ لطَرَابُلْسَ ، وأخَذوا

---

(١) في كامل ابن الأثير : (١٠/ ٢٧٤) : فلمَّا طال الحصار راسلوا أحد المستحفظين للأبراج ، وهو زرَّاد يُعرف بروزبه ، وبذلوا له مالاً وأقطاعاً ، وكان يتولىٰ حفظ برج يلي الوادي ، وهو مبني علىٰ شباك في الوادي ، فلما تقرر الأمر بينهم وبين هـٰذا الملعون الزرَّاد جاؤوا إلى الشباك ففتحوه .

(٢) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٩٠ .

(٣) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٩٢ .

جُبَيلَ ، وأخَذوا عكَّا ، ونازَلُوا حَرَّان ، فجاءَ العَسْكَرُ ، ووَقَعَ الْمَصافُّ ، ونَزَلَ النَّصْرُ ، وأُبيدَتِ الْمَلاعينُ ، وبَلغَت قَتْلاهم اثنَي عَشرَ ألفاً وماتَ شَمسُ المُلوك دُقاق ، وتَملَّكَ ولدُه بدِمَشْقَ وأتابكُه طُغْتِكينُ[1] .

وفي سَنةِ سِتٍّ وتِسْعينَ وأرْبَع مئة كَبسَ الأتَابكُ طُغْتِكِينَ الفِرَنْجَ بالأُرْدُنِّ ، فقَتلَ وأسَرَ وزُيِّنَت دِمَشْقُ وأُخِذَ من الفِرَنْجِ حِصْنَين .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وخَمسِ مئة ماتَ صاحِبُ الحِلَّة سَيفُ الدَّولَة صَدَقَةُ بنُ مَنْصورِ بنُ دُبَيْس الأسَديُّ مَلكُ العَربِ الذي أنْشَأ الحِلَّة على الرَّفْضِ ، قُتلَ في وَقْعَة بينَه وبينَ السُّلطانِ مُحمدِ بنِ مَلِكْشاه[2] .

وفيها[3] سارَ طُغْتِكينَ في جُندِ دِمَشْقَ ، فهَزمَ الفِرَنْجَ ، وأسَرَ صاحِبَ طَبَريَّة جرماسَ ، وحاصَرَ بغدوينُ الكلبُ صُورَ ، وبَنىٰ بإزائها حِصْناً ، ثم بَذَلَ له أهْلُها سَبعةَ آلافِ دينار ، فتَرحَّلَ عَنهُم[4] .

وفي سَنةِ اثنَتين وخَمسِ مئة سارَ طُغْتكينُ في ألفَين ، فالْتَقَى الفِرَنْجَ ، فانْهَزمَ جَمعُه ، وثَبتَ هو ، ثم تَراجَعوا إليه ، ونُصِروا ، وأسَروا قومصاً ، بَذلَ في نفسِه جُملةً ، فأبَىٰ طُغْتِكِينُ وذبَحَه ، ثم هادَنَ بغدوينَ أربعةَ أعْوام[5] .

وفي سَنةِ ثَلاثٍ وخَمسِ مئة أُخذَت طَرابُلسُ في آخرِ السَّنَة بعدَ حِصارِ سِتٍّ سِنينَ أخَذوها بأبْراجِ خَشَبٍ صُنعَت وأُلصِقَت بسُورِها ، وأخَذوا بانياسَ ، وجُبَيلَ بالأمانِ ثم طَرَسُوسَ ، وحِصْنَ الأكْرادِ[6] .

وفي سنة خَمسٍ وخَمسِ مئة تَناحَبَ[7] عَساكِرُ العِراقِ والجَزيرَة ، وأقْبَلوا لغَزْوِ

---

(١) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٢ .
(٢) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٩٢ .
(٣) أي في سنة إحْدىٰ وخَمسِ مئة .
(٤) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٣ .
(٥) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٣ .
(٦) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٣ .
(٧) يُقالُ : تَناحَبَ القومُ ، إذا تَواعَدوا للقتال أيَّ وقت .

الفِرَنْجِ ، وعَدُّوا الفُراتَ ، فقَلَّ ما نَفَعوا ، ثم رَجَعوا والأعْداءُ تَجُولُ في الشَّامِ[1] .

وفي أوَّلِ سَنةِ سَبعٍ وخَمسِ مئة أقْبلَ عَسْكَرُ الجَزيرَة نَجْدةً لطُغْتِكينَ ، فالْتَقوا الفِرَنْجَ بالأرْدُن ، وصَبرَ الفَريقانِ ، ثم اسْتحَرَّ القَتْلُ بالفِرَنْجِ ، وأُسِرَ طاغيَتُهم بغدوينُ ، لكنْ أساءَ الذي أسَرَه ، فشَلَّحَه ، وأطْلَقَه جَريحاً ، ثم تَراجَعَ العَدوُّ ، وجاءَتهم نَجْدةٌ ، فعَملوا الْمَصافَّ من الغَدِ ، وحَمِيَ القِتالُ وطابَ الْمَوتُ ، وتَحصَّنَ الكِلابُ بجَبَلٍ ، فرَابَطَ الجَيشُ بإزائهم يَترامَوْنَ بالنُّشابِ ويَقْتَتلون ، فدامَ ذلك كذلك سِتَّةً وعِشْرينَ صَباحاً حتىٰ عُدِمَت الأقْواتُ وتَحاجَزَ الجَمْعانِ[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجمة طُغْتِكِين : لولا أن اللهَ أقامَ طُغْتِكِين للإسْلام بإزاء الفِرَنْجِ ، وإلاَّ كانوا غَلَبوا علىٰ دِمَشْقَ فقد هَزمَهم غَيرَ مَرَّة ، وأنجَدَهُ عَسْكَرُ الْمَوصِل ، مع مَوْدُودٍ ، ومع البُرسُقيِّ .

قال ابنُ الأثير : تَملَّكَ بعدَه ابنُه الكَبيرُ تاجُ الْمُلوكِ بُوري بعَهْدٍ منه .

وقالَ ابنُ الجَوْزي : حَكمَ على الشَّامِ خَمساً وثَلاثينَ سَنةً ، وسارَ ابنُه بسِيرَتِه مُدَيْدَة ثم تَغيَّرَ وظَلمَ[3] .

وفي سَنةِ عِشرينَ وخَمسِ مئة أقْبَلت جُموعُ الفِرَنْجِ لأخْذِ دِمَشْقَ ، ونَزلُوا بشَقْحَب فجَمعَ طُغْتِكِينُ التُّرْكُمانيِّينَ وشُطَّارَ دِمَشْقَ ، والْتَقاهُم في آخِرِ العامِ وحَمِيَ القِتالُ ، ثم فَرَّ طُغْتِكِين وفُرْسانُه عَجْزاً ، فعَطَفَت الرَّجَّالَةُ علىٰ خِيامِ العَدوِّ ، وقَتلُوا في الفِرَنْجِ ، وحَازُوا الأمْوالَ والغَنائمَ ، فوَقَعت الهَزيمَةُ على الفِرَنْجِ ، ونَزَلَ النَّصْرُ[4] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة « شَمسِ الْمُلوك » : استنقذَ بانياسَ من الفِرَنْجِ في يَومَين ، وكانت الإسْماعيليَّةُ باعُوها لهم من سَبعِ سِنينَ ، وسَعَّرَ بلادَهم ، وأوْطانَهم ذُلاً ، ثم سارَ فحاصَرَ أخاهُ ببَعْلَبَك ، ونازَلَ حماةَ ، وهي للأتابك زِنْكي ، وأخَذَها ثم

---

(١) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٩٣ .
(٢) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٤٩٣ .
(٣) انظر السير : (طُغْتِكِين) ١٩/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٠٥ .
(٤) انظر السير : (طُغْتِكِين) ١٩/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٠٦ .

بدا له ، فكاتَبَ الأتابكَ زِنْكي ليُسَلِّمَ إليه دِمَشْقَ ، فخافَته أُمُّه زُمُرُّدُ والأمَراءُ ، فهَيّأت أُمُّه مَنْ قَتلَه ، لأنَّه تَهدَّدَها ـ لَمَّا نَصحَتهُ ـ بالقَتلِ ، وكانَت الفِرنْجُ تَخافُه لَمَّا هَزَمَهم ، وبيَّتَهم ، وشنَّ الغارَةَ علىٰ بلادِهم وعثَّرَهم .

قال ابنُ القلانسيّ : بالَغَ في الظُّلمِ ، وصادَرَ وعَذَّبَ ، ولَمَّا علم بأنَّ زِنْكي علىٰ قَصدِ دِمَشْقَ بَعثَ يَستَحِثُّه ليُعطِيَه إيّاها لهَذَيانٍ تَخيَّله ، ويقولُ : إنْ لَمْ تَجيءْ سَلَّمتُها إلى الفِرَنْجِ ، كتبَ هـٰذا بيدِه ، فأشْفَقَ النَّاسُ ، فحمَلَ صَفْوةَ الْمُلكِ دِينُها علىٰ حَسْمِ الدَّاءِ ، فأهْلَكَته ، وكَثُرَ الدُّعاءُ لها .

قُتلَ سَنةَ تِسْعٍ وعِشْرينَ وخَمسِ مئة ، وله ثَلاثٌ وعِشْرون ، وتَملَّكَ بعدَه أخُوهُ مَحْمودُ ، ثم تَزوَّجَت أمُّه بصاحِبِ حَلَبْ زِنْكي[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُقْتَفي لأمْر الله : وفي سَنةِ ثلاثٍ وأرْبَعِينَ وخَمْسِ مِئَة جاءَتْ ثَلاثَةُ مُلُوكٍ من الفِرَنْجِ إلى القُدْسِ ، منهُم طَاغِيَةُ الألْمانِ ، وصَلَّوْا صَلاة المَوتِ ، وفرَّقُوا علىٰ جُندِهم سَبعَ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، فلَمْ يَشْعُرْ بهم أهلُ دِمَشْقَ إلاَّ وقد صَبَّحُوهم في عَشْرَةِ آلافِ فارسٍ وسِتينَ ألفِ رَجُلٍ ، فخَرَجَ المُسلِمُونَ فارِسُهُم وراجِلُهُم والْتَقَوا ، فاسْتُشْهِدَ نَحوُ المِئَتَيْنِ ، منهُم الفَنْدَلاوِيُّ ، وعبدُ الرَّحمَـٰنِ الحَلْحُولِيّ ، ثمَّ اقْتَتَلُوا من الغَدِ ، وقُتِلَ خَلْقٌ من الفِرَنْجِ ، فلمَّا كان خامِسُ يومٍ وَصَلَ من الجَزِيرَةِ غَازِي ابنُ زِنْكِي في عِشْرينَ ألفاً ، وتَبِعَهُ أخُوهُ نُورُ الدِّينِ وكان الضَّجِيجُ والدُّعاءُ والتَّضَرُّعِ بدِمَشْقَ لا يُعَبَّرُ عنه ، ووَضَعُوا المُصْحَفَ العُثْمَانِيَّ في صَحْنِ الجَامِعِ ، وكان قِسِّيسُ العَدُوِّ قال : وعَدَنِي المَسِيحُ بأخْذِ دِمَشْقَ ، فحَفُّوا به ورَكِبَ حِمَارَه وفي يدِه الصَّلِيبُ ، فشَدَّ عليه الدَّماشِقَةُ ، فقَتَلُوهُ ، وقَتَلُوا حِمَارَه ، وجاءَتِ النَّجَدَاتُ ، فانْهَزَمَ الفِرَنْجُ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الْمُسْتَنْجِدِ بالله : وفي سَنة ستٍّ وخَمسين وخَمسِ مئة قُتلَ بمِصْرَ الصَّالحُ وَزيرُها ، واسْتَوْلَىٰ شَاوَرُ ، وسافَرَ للصَّيدِ الْمُسْتَنْجِدُ مرَّاتٍ ، وفيها

---

(١) انظر السير : (شَمس الملوك) ١٩/ ٥٧٥ـ٥٧٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥١٨ .

(٢) انظر السير : (المُقْتفي لأمر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٦٨ .

كَسَرت الفِرَنْجُ نورَ الدين تحتَ حِصْنِ الأكْرادِ ، ونَجا هو بالجَهْد ، ونَزلَ علىٰ بُحَيرةِ حِمْصَ ، وحَلفَ لا يَستَظِلُّ بسَقْفٍ حتىٰ يأخُذَ بالثَّأرِ ، ثم الْتَقاهُم في سَنةَ تِسعٍ وخَمسينَ وخَمسِ مئة فطحَنَهم ، وأسَرَ مُلوكَهم ، وقَتلَ منهم عَشْرَةَ آلافٍ بحارِم[1] .

وفي سَنة ستِّين وخَمس مئة وَلَدَت ببغداد بنتُ أبي العِزِّ الأهْوَازيِّ أرْبَعَ بَناتٍ جُملَة ، وفيها هاجَت فِتنةٌ صَمَّاء بسَببِ العَقائد بأصْبَهان ، ودامَ القِتالُ بين العُلماء أيّاماً ، وقُتلَ خَلقٌ كَثيرٌ قالَه ابنُ الأثير .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وستِّين وخَمسِ مئة عَمِلَت الرَّافِضَةُ مأتَمَ عاشُوراءَ ، وبالَغوا ، وسَبُّوا الصَّحَابَة ، وخَرَجَت الكَرْجُ ، وبدَّعوا في الإسْلام ، وغَزا نُورُ الدِّين مرَّات[2] .

وفي سَنةِ أربع وستِّين وخَمسِ مئة غَزْوُ شِيركُوه مِصْرَ ثالثَ مرَّة ، وملكت الفرنج بَلْبيسَ ونالُوا القاهِرَةَ ، فذَلَّ لهم شَاوَرُ ، وطَلبَ الصُّلْحَ علىٰ قَطيعَةِ ألفِ ألفِ دينارٍ في العام ، فأجابه الطاغية مَرِّي إلىٰ ذلك ، فعجل له مئة ألف دينار ، واستنجد بنُورِ الدِّين ، وسَوَّدَ كتابه ، وجَعلَ في طَيِّهِ ذَوائبَ النِّساءِ ، ووَاصَلَ كُتبَه يَحُثُّه ، وكان في حَلَبَ ، فجَهَّزَ عَسكرَه ، واستخدم أسَدَ الدين حتىٰ قيل : كان في سَبعينَ ألْفاً من بين فارس وراجل ، فتقهقر الفِرَنْجُ لقُدومِه وذَلُّوا ، ودَخَلَ القاهِرَةَ وجَلسَ في دَسْتِ الْمَمْلكَة .

تُوفِّيَ الْمُسْتَنْجِدُ باللهِ سَنةَ سِتٍّ وستِّينَ وخَمسِ مئة ، وقامَ بعدَه ابنُه الْمُسْتَضِيءُ[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة شِيركُوه : وجهَّزَ وَلدَ أخيه صَلاحَ الدين إلى الإسْكَنْدَريَّة ، وجَرَت له أمُورٌ يَطولُ شَرحُها وحُروبٌ وحِصارٌ ، وأقْبَلت الفِرَنْجُ ، وأحاطوا ببَلْبيسَ واسْتَباحُوها في سَنةِ أرْبَع وستِّينَ وخَمْسِ مئة ، فاسْتغاثَ الْمِصْريُّونَ بنُورِ الدِّين فبَعثَ إليهم أسَدَ الدِّين ، فطَردَ عنهم العَدوَّ ، ودَخلَ القاهِرةَ وتَمكَّنَ ، فعَزَمَ شاوَرُ وَزيرُ مِصْرَ على الفَتْكِ به ، فبادَرَ وبتَّه ، واسْتقلَّ بوَزارَةِ العاضِدِ ، ودانَ له

---

(١) حارِم بكسر الرَّاء : هي اليوم بلدة شمال سورية من محافظة إدلب .

(٢) انظر السير : (الْمُستَنْجِد بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٠ .

(٣) انظر السير : (الْمُستَنْجِد بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٠ .

الإقْليمُ ، فبَقِيَ شَهْرين ، وبَغَتَه الأجَلُ بالخَوانيقِ شَهيداً سَنةَ أرْبَعٍ وسِتِّينَ فقامَ في الدَّسْتِ بعدَه صَلاحُ الدِّين[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة صَلاحِ الدِّينِ الأيُّوبيِّ : وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ وخَمْسِ مئة فَتَحَ طَبَرِيَّةَ ، ونَازَلَ عَسْقَلانَ ، ثمَّ كانت وَقْعَةُ « حِطِّيْنَ » بَيْنَه وبَيْنَ الفِرَنْج ، وكانوا أرْبَعِينَ ألفاً ، فحَالَ بيْنَهُم وبينَ المَاءِ علىٰ تَلٍّ ، وسَلَّمُوا نُفُوسَهُم ، وأُسِرَتْ مُلُوكُهم ، وبَادَرَ ، فأَخَذَ عَكَّا وبَيْرُوتَ وكَوْكَبَ ، وسَارَ فحَاصَرَ القُدْسَ ، وجَدَّ في ذلك فأخَذَها بالأَمَانِ[2] .

ثمَّ إنَّ الفِرَنْجَ قامَتْ قِيامَتُهُم علىٰ بَيْتِ المَقْدِس ، وأَقْبَلُوا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِم بَرّاً وبَحْراً ، وأَحَاطُوا بعَكَّا ليَسْتَرِدُّوها ، وطَالَ حِصَارُهم لها ، وبَنَوا علىٰ نفُوسِهم خَنْدَقاً ، فأَحَاطَ بهم السُّلطَانُ ، ودَامَ الحِصَارُ لهم وعلَيْهِم نَيْفاً وعِشْرينَ شَهْراً ، وجَرَىٰ في غُضُونِ ذلك مَلاحِمُ وحُرُوبٌ تُشَيِّبُ النَّوَاصِي ، وما فُكُّوا حتّىٰ أخَذُوها ، وجَرَتْ لهُم وللسُّلطَانِ حُرُوبٌ وسِيَرٌ وعِنْدَما ضَرِسَ الفَرِيقَان ، وكَلَّ الحِزْبَان ، تَهَادَنَ المِلَّتان[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الكامِل : ومِن هِمَّتِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا أَخَذُوا دِمْياطَ أنشَأَ علىٰ بَرِيدٍ منها مَدينَةَ المَنْصُورَةَ واسْتَوطَنَهَا مُرابِطاً حتىٰ نَصَرَهُ الله فإنَّ الفِرنْجَ طَمِعُوا في أخْذِ مِصْرَ ، وعَسْكَرُوا بقُربِ المَنصُورَة ، والْتَحَمَ القِتَالُ أيّاماً وألَحَّ الكَامِلُ علىٰ إخْوَتِه بالمَجِيء ، فجاءَهُ أَخَوَاهُ الأشْرَفُ والمُعَظَّمُ في جَيْشٍ لَجِبٍ ، وهَيْئَةٍ تامَّةٍ فقَوِيَ الإسْلامُ ، وضَعُفَتْ نُفُوسُ الفِرنْجِ ورُسُلُهُم تَتَرَدَّدُ ، وبَذَلَ لهم الكَاملُ قبلَ مَجِيء النَّجدَةِ القُدسَ وطَبَرِيَّة وعَسْقَلانَ وجَبْلَة واللاَّذِقيَّة وأشياءَ علىٰ أن يَرُدُّوا له دِمْياطَ فأبَوا ، وطلَبُوا مع ذلك ثلاثَ مِئَةِ ألفِ دينار ليُعَمِّرُوا بها أسْوارَ القُدسِ ، وطَلَبُوا الكَرَكَ ، فاتَّفَقَ أنَّ جمَاعَةً من المُسلمِين فَجَّرُوا من النِّيلِ ثَلْمَةً علىٰ مَنْزِلَةِ العَدُوِّ ، فأحَاطَ بهم النِّيلُ في هَيَجَانِه ، ولا خِبْرَةَ لهم بالنِّيلِ ، فحَالَ بينهم وبين دِمْياطَ ، وانقَطَعَتْ المِيرَةُ عنهُم ،

---

(١) انظر السير : (شِيركُوه) ٢٠/ ٥٨٧ـ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٧ .

(٢) انظر السير : (صَلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٠ .

(٣) انظر السير : (صَلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٠ .

وجاعُوا وذَلُّوا ، فأرسَلُوا في طلَبِ الأمَانِ علىٰ تَسْلِيمِ دِمْياطَ ، وعَقْدِ هُدنَة ، فأُجِيبُوا فسَلَّمُوا دِمْياطَ بعد اسْتِقرارِهم بها ثلاثَ سِنينَ ، فَلِلَّهِ الحَمْدُ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة النَّاصِرِ لدينِ اللهِ العَبَّاسيِّ : وفي سَنةِ خَمسٍ وثَمانينَ وخَمسِ مئة وفي الْمُقْبِلَة : كان الحِصارُ الذي لم يُسمَعْ بمثلِه أبداً علىٰ عَكَّا ، كان السُّلطانُ صَلاحُ الدين قد افْتَتَحَها وأسْكَنَها الْمُسلمينَ فأقْبَلتِ الفِرَنْجُ بَراً وبَحْراً من كلِّ فَجٍّ عَميقٍ فأحَاطُوا بها ، وسارَ صَلاحُ الدِّين فيَدْفَعُهم فما تَزَعْزَعوا ولا فَكَّروا بْلَ أنْشَأوا سُوراً وخَنْدقاً علىٰ مُعَسْكَرِهم وجَرَت غيرُ وَقْعَة ، وقُتلَ خَلقٌ كَثيرٌ يَحْتاجُ بَسْطُ ذلك إلىٰ جُزْء ، وامْتدَّت الْمُنازَلَةُ والْمُطاوَلَةُ والْمُقاتَلَةُ نيِّفاً وعِشرينَ شَهْراً ، وكانت الأمْدادُ تأتي العَدوَّ من أقْصَى البحارِ ، واسْتَنجَدَ صَلاحُ الدِّين بالخَليفَة وغَيرِه حتىٰ أنَّه نَفذَ رَسُولاً إلىٰ صاحِبِ الْمَغْرِبِ يَعْقُوبَ الْمُؤْمِنيِّ يَسْتَجيشُه فما نَفَعَ ، وكُلُّ بَلاءِ النَّصارَىٰ ذَهابُ بَيتِ الْمَقْدِس منهم[2] .

قالَ ابنُ الأثير : لَبِسَ القُسُوسُ السَّوادَ حُزْناً على القُدْسِ ، وأخَذَهم بُتْرُك[3] القُدْسِ ورَكِبَ بهم البَحْرَ يَسْتَنفِرُونَ الفِرَنْجَ ، وصَوَّروا المَسيحَ وقد ضَربَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وجَرحَه ، فعَظُم هـٰذا الْمَنْظَرُ على النَّصارَىٰ فخَرجوا على الصَّعْبِ والذَّلولِ بَراً وبَحْراً ، ولَوْلا لُطفُ الله بإهْلاكِ مَلكِ الألْمَانِ وإلاَّ لكانَ يُقالُ : إنَّ الشَّامَ ومِصْرَ كانَتا للمُسْلِمينَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانت عَساكِرُ العَدوِّ فَوقَ المِئَتَي ألفٍ ، ولكنْ هَلَكُوا جُوعاً ووَباءً وهَلَكَت دَوابُّهم ، وجافَت الأرْضُ بهم[4] .

ومن إنْشاءِ الفاضِلِ إلى الدِّيوانِ وهم علىٰ عَكَّا « يَمُدُّهم البَحْرُ بمَراكِبَ أكثرَ من أمْواجِه ، ويُخرِجُ لنا أمَرَّ من أُجاجِه ، وأصْحابُنا قد أثَّرت فيهم المُدَّة الطَويلة في

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٥ .
(٢) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٦ .
(٣) هو البطريرق .
(٤) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٨٦ .

اسْتِطاعَتِهم لا في طاعَتِهم ، وفي أحْوالِهم لا في شَجاعَتِهم فنَقولُ : اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِك هـٰذه العِصابَةُ ، ونَرْجُو علىٰ يدِ أميرِ المؤمنينَ الإجابَةَ ، وقد حرَّمَ باباهم لَعنَه اللهُ كُلَّ مُباحٍ واسْتَخرجَ منهم كُلَّ مَذْخُورٍ وأغْلَقَ دُونَهم الكَنائسَ ، ولَبِسُوا الحِدادَ ، وحَكَمَ أنْ لا يَزالُوا كَذلك أو يَسْتَخلِصُوا الْمَقْبَرَةَ ، فيا عَصَبَةَ نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم اخْلُفْهُ في أُمَّتِه بما تَطْمئنُّ به مَضاجِعُه ، ووَفِّه الحَقَّ فينا ، فها نَحنُ عندَك وَدائعُه ، ولَوْلا أنَّ في التَّصْريحِ ما يَعودُ على العَدالَةِ بالتَّجْريحِ لقالَ الخادِمُ ما يُبْكي العُيونَ ويُنْكي القُلوبَ ، ولكنَّه صابِرٌ مُحْتسِبٌ وللنَّصْرِ مُرْتقِبٌ ، ربِّ لا أمْلِكُ إلاَّ نَفسي وها هي في سَبيلِكَ مَبْذولَةٌ ، وأخي وقد هاجَرَ هِجْرةً نَرْجُوها مَقْبُولَةً ، ووُلْد وقد بَذلتُ للعَدوِّ صَفَحاتِ وُجوهِهم ، ونَقفُ عندَ هـٰذا الحَدِّ وللهِ الأمْرُ من قَبلُ ومن بَعْد »[1] .

ومن كتابٍ إلى الدِّيوانِ : « قد بُلِيَ الإسْلامُ منهم بقَومٍ اسْتَطابوا الْمَوتَ ، وفارَقوا الأهْلَ طاعَةً لقِسِّيسِهم ، وغَيرَةً لِمَعْبَدِهم ، وتَهالُكاً علىٰ قُمامَتِهم[2] ، حتىٰ لَسارَت مَلِكَةٌ منهم بخَمسِ مئة مُقاتِلٍ الْتَزمَت بنَفَقاتِهم فأخَذَها المُسلمونَ برِجالِها بقُرب الإسْكَنْدَريَّة ، فذَواتِ المَقانِعِ مُقَنَّعاتٍ دارِعاتٍ تَحمِلُ الطَّوارِقَ والقِبْطارياتِ ، ووَجَدْنا منهم عِدَّة بين القَتلَىٰ ، وبابا رُوميَّة حَكمَ بأنَّ مَنْ لا يَتوَجَّه إلى القُدْسِ فهو مُحَرَّم لا مَنْكِحَ له ولا مَطْعَم فلهـٰذا يتَهافَتون على الوُرودِ ويَتهالَكون علىٰ يَومِهم الْمَوْعُودِ ، وقالَ لهم : إنَّني واصِلٌ في الرَّبيعِ جامِعٌ على اسْتِنْفارِ الجَميعِ ، وإذا نَهَضَ فلا يَقعُد عنه أحَدٌ ، ويُقبِلُ معه كُلُّ مَنْ قالَ : لله وَلَد »[3] .

وفي سَنةِ سَبعٍ وثَمانينَ وخَمْسِ مئة اشْتدَّت مُضايَقَةُ العَدوِّ عَكا وأمْدادُهم مُتَواتِرَة ، فوَصلَ مَلكُ الإنْكيتَر[4] ، وقد مَرَّ بقُبرُصَ وغَدَرَ بصاحِبها ، وتَملَّكَها كُلَّها ، ثم سارَ إلىٰ عَكا في خَمسٍ وعِشرينَ قِطعَةً ، وكانَ ماكِراً داهِيَةً شُجاعاً ، فخارَت قُوىٰ مَنْ بها من المُسلمينَ وضَعُفوا وقَلِقوا ، فبَعثَ إليهم السُّلطانُ صَلاحُ الدين : أنِ اخْرُجوا كلُّكم

---

(١) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٧ .

(٢) يعني كنيسة القيامة .

(٣) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٧ .

(٤) وتُكتب : « الإنكلتير » ، وهو ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد .

من البَلدِ علىٰ حَمِيَّة وسيروا مع البَحْرِ واحْمِلُوا عليهم وأنا أجيئُهم من وَرائِهم وأكْشِفُ عَنكُم ، فشَرَعوا في هـٰذا فما تَهيَّأ ، ثم خَرجَ أميرُ عكا ابنُ الْمَشْطُوبِ إلىٰ مَلِكِ الفِرَنْجِ وطَلبَ الأمانَ فأبَىٰ ، قالَ : نَحنُ لا نُسَلِّمُ عكا حتىٰ نُقتَلَ جَميعاً ورَجعَ ، فزَحفَ العَدوُّ عليها ، وأشْرَفوا علىٰ أخْذِها فطَلبَ المُسلمونَ الأمانَ علىٰ أن يُسَلِّموا عكا ومِئتَي ألفِ دينار وخَمسِ مئة أسير وصَليبِ الصَّلَبُوتِ فأُجيبوا ، ثم سارَت الفِرَنْجُ تَقصِدُ عَسْقَلانَ ، فسارَ السُّلطانُ في عِراضِهم ، ثم كانت وَقْعَةُ نَهْر القصب ، ثم وقعة أرسوف فانتصر المسلمون وأتىٰ صلاح الدين عَسْقَلانَ فأخْلاها ، وشَرعَ في هَدْمِها ، وهَدمِ الرمْلة ولُدَّ وشَرَعَت الفِرَنْجُ في عِمارَة يافا ، وطَلبوا الهُدْنَة ، ثم جَرَت وَقَعاتٌ صِغارٌ وقَصَدت الْمَلاعينُ بَيتَ الْمَقْدِسِ وبها السُّلطانُ ، فبالَغَ في تَحْصينِها[1] .

وفي سَنةِ سَبعَة عَشَرَ وستٍّ مئة وقعة البَرَلُّس بين الكامِلِ والفِرَنْجِ ، فنَصرَ اللهُ وقُتلَ من الفِرَنْجِ عَشرَةُ آلاف وانْهَزَموا ، فاجْتَمعوا بدِمْياطَ[2] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة الْمُسْتَنصِر بالله : وفي سَنةِ خَمسٍ وعِشرينَ وستمائة اسْتَوْلَى الفِرَنجُ علىٰ صَيْدا وقَوِيَتْ نُفوسُهم وجاءَهم مَلكُ الألْمانِ الأنبرُور وقد اسْتَولَىٰ علىٰ قُبرُصَ فكاتَبَه الكاملُ ليُعينَه على النَّاصرِ ، وخافَتْهُ مُلوكُ السَّواحِلِ والمُسلِمونَ فكاتَبَ مُلوكُ الفِرَنْجِ الكاملَ بأنَّهم يُمْسِكُونَ الأنبرور فبَعَثَ وأوْقَفَهم علىٰ عَزْمِهم فعَرَفَها الكاملُ[3] وأجابَه إلىٰ هَواهُ وتَرَدَّدت المُراسَلاتُ وخَضَعَ الأنبرور وقالَ : أنا عَتيقُكَ وإنْ أنا رَجَعتُ خائِباً انْكَسَرَتْ حُرْمَتي ، وهَـٰذهِ القُدْسُ أصْلُ دِينِنَا وهي خَرابَةٌ ولا دَخْلَ لهَا ، فتَصَدَّقْ عليَّ بقَصَبَةِ البَلدِ وأنا أحْمِلُ مَحْصُولَها إلىٰ خَزانَتِكَ ، فَلانَ لِذلك[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُسْتَعْصِم بالله العَبَّاسيِّ : وفي سَنةِ سَبعٍ وأرْبَعين

---

(١) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٨ .

(٢) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٩ .

(٣) العبارة ملبسة بسبب الاختصار المخل وسرعة الصياغة ، والأصل في « تاريخ الإسلام » : (فكاتبوا الكامل : إذا حصل مصاف نمسك الأنبرور فسيّر إلى الأنبرور كتبهم ، وأوقفه عليها فعرف الأنبرور ذلك للكامل وأجابه إلىٰ كل ما يريد) .

(٤) انظر السير : (الْمُسْتَنصِر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١٩ .

وستِّ مئة هجمت الفرنج دِمْياطَ في رَبيع الأوّل فهَرَبَ النَّاسُ من البابِ الآخَر ، وتَملكَّها الفِرَنْجُ صَفْواً عَفْواً نَعوذُ بالله من الخُذْلان ، وكان السُّلطانُ بالْمَنْصُورَة فغَضِبَ علىٰ أهْلِها وشَنَقَ سِتِّينَ من أعْيانِ أهْلِها ، وذَاقوا ذُلاًّ وجُوعاً ، واسْتَوْحَشَ العَسكرُ من السُّلطانِ وقِيلَ : هَمَّ مَماليكُه بقَتلِه ، فقالَ نائبُه فَخْرُ الدِّين ابنُ الشَّيخ : اصْبروا فهو علىٰ شَفا ، فماتَ في نِصْفِ شَعْبانَ ، وأُخْفِيَ موتُه إلىٰ أنْ حَضرَ ابنُه الْمُعَظَّمُ تُورانْشَاه من حِصْن كيفا ، فلَمْ يَبْقَ إلاَّ قليلاً وقَتلوه ، وكانت وَقْعةُ الْمَنْصُورَة في ذي القعدة ، فساقَت الفِرَنْجُ إلى الدِّهْليزِ ، فخَرَجَ نائبُ السَّلطنَة فَخْرُ الدِّين ابنُ الشَّيخ وقاتَلَ فقُتلَ ، وانْهَزَمَ المسلمونَ وعَظُمَ الخَطبُ ثم تَناخى العَسكَرُ وكَرُّوا على العَدوِّ فطَحَنُوهم ، وقَتلوا خَلقاً ونَزَلَ النَّصرُ[1] .

واسْتهلَّت سَنةُ ثمانٍ وأرْبَعين وسِتِّ مئة ، والفِرَنْجُ على الْمَنْصُورَةِ بإزاء المسلمين ، ولكنَّهم في ضَعْفٍ وجُوعٍ وماتَت خَيلُهم ، فعَزَمَ الفِرَنْسيسُ[2] على الرُّكوبِ ليلاً إلىٰ دِمْياطَ ، فعَلِمَ المسلمونَ وكانَت الفِرَنْجُ قد عَملوا جِسْراً عَظيماً على النِّيلِ ، فذَهلوا عن قَطْعِه ، فدَخلَ منه المسلمونَ فكَبَسُوهم ، فالْتَجأت الفِرَنْجُ إلىٰ مُنْية أبي عبد الله ، فأحاطَ بهم الجَيشُ ، وظَفرَ أُسْطُولُ المسلمينَ بأُسْطولِهم وغَنِموا مَراكِبَهم ، وبقي الفِرَنْسيسُ في خَمسِ مئة فارِسٍ وخُذلَ ، فطَلبَ الطواشي رَشيدَ وسَيفَ الدِّين القيمرىٰ ، فأتَوه فطَلبَ أماناً فأمَّناه علىٰ أنْ لا يَمُرُّوا به بينَ النَّاسِ وهَرَبَ جُمهورُ الفِرَنْجِ ، وتَبِعَهم العَسكَرُ وبَقوا جُملةً وجُملةً حتىٰ أُبيدَت خَضْراؤُهم وغَنِمَ المسلمونَ ما لا يُعبَّرُ عنه[3] .

فأُحْصيَ الأسْرىٰ فكانوا نَيِّفاً وعِشرينَ ألفاً ، وغَرقَ وقُتلَ سَبعةُ آلافٍ ، وكان يَوماً ما سَمِعَ المسلمونَ بمثلِه ، وما قُتلَ من المسلمينَ نَحوَ المئة ، واشْترَى الفِرَنْسيسُ نفسَه برَدِّ دِمْياطَ وبخَمسِ مئة ألفِ دينار[4] .

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَعْصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٣ .

(٢) هو ملك فرنسا « لويس التاسع » لعنه الله .

(٣) انظر السير : (الْمُسْتَعْصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٣ .

(٤) انظر السير : (الْمُسْتَعْصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٤ .

٢ـ وَقْعَةٌ مَشْهورةٌ مع الصَّلبيِّين الذين أرادُوا احْتلالَ المَدينَةَ المُنوَّرةَ :

لؤلؤ العادلي :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمة لُؤلُؤ العَادِليّ : الحاجبُ من أبْطالِ الإسْلام ، وهو كان الْمَندُوبَ لحَرْبِ فِرَنْجِ الكَرْكِ الذين ساروا لأخْذِ طَيْبَةَ ، أوْ فِرَنْجِ سِواهُم سارُوا في البَحْرِ الْمَالِحِ ، فلَمْ يَسِرْ لُؤْلُؤٌ إلاَّ ومَعه قُيودٌ بعَدَدِهم ، فأدْرَكَهم عند الفَحْلَتينِ ، فأحاطَ بهم ، فسَلَّمُوا نفُوسَهم ، فقيَّدَهم ، وكانوا أكْثَرَ من ثلاثِ مئة مُقاتِل ، وأقْبَلَ بهم إلى القاهِرَة ، فكانَ يَوماً مَشْهوداً .

وكان شَيْخاً أرْمنيّاً من غِلْمانِ العاضِدِ ، فخَدَمَ مع صَلاحِ الدِّين ، وعُرِفَ بالشَّجاعَة والإقْدام ، وفي آخِرِ أيّامِه أقْبَلَ على الخَيرِ والإنْفاقِ في زَمَنِ قَحْطِ مِصْرَ ، وكان يَتصَدَّقُ في كُلِّ يومٍ باثْنَي عَشرَ ألفَ رَغيفٍ مع عِدَّة قُدورٍ من الطَّعام وقِيلَ : إنَّ الْمَلاعِينَ[1] الْتَجَؤوا منه إلىٰ جَبلٍ ، وصَعدَ إليهم في تِسْعَة أجْنادٍ ، فأُلْقِيَ في قُلوبِهم الرُّعْبُ ، وطَلَبُوا منه الأمَانَ ، وقُتلوا بمِصْرَ ، تَولَّىٰ قَتلَهم العُلمَاءُ والصَّالِحُونَ .

تُوفِّيَ لُؤلُؤٌ رَحمَه اللهُ بمِصْرَ سَنةَ ثَمانٍ وتِسْعينَ وخَمسِ مئة[2] .

٣ـ وَصْفٌ جَميلٌ للصَّلبيِّين وَصَفَهم به القاضي الفَاضِلُ :

ومن إنْشاءِ الفاضِلِ إلى الدِّيوانِ وهم علىٰ عَكَّا « يَمُدُّهم البَحْرُ بمَراكِبَ أكثرَ من أمْواجِه ، ويُخرِجُ لنا أمَرَّ من أُجاجِه ، وأصْحابُنا قد أثَّرت فيهم المُدَّة الطَويلة في اسْتِطاعَتِهم لا في طاعَتِهم ، وفي أحْوالِهم لا في شَجاعَتِهم فنَقولُ : اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِك هـٰذه العِصابَةُ ، ونَرْجُو علىٰ يدِ أميرِ المؤمنينَ الإجابَةَ ، وقد حرَّمَ باباهم لَعنَه اللهُ كُلَّ مُباحٍ واسْتَخرجَ منهم كُلَّ مَذْخُورٍ وأغْلَقَ دُونَهم الكَنائسَ ، ولَبِسُوا الحِدادَ ، وحَكَمَ أنْ لا يَزالُوا كَذلك أو يَسْتَخلِصُوا الْمَقْبَرَةَ ، فيا عَصَبَةَ نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم اخْلُفْهُ في أُمَّتِه بما تَطْمئنُّ به مَضاجِعُه ، ووَفِّه الحَقَّ فينا ، فها نَحنُ عندَك وَدائعُه ، ولَوْلا أنَّ في

---

(١) هنا عاد الإمامُ الذهَبيُّ إلى الكلام على الصليبيين الذين أرادوا احتلال المدينة المنورة .

(٢) انظر السير : (لُؤلُؤ العَادِلي) ٢١/ ٣٨٤ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٣٧ .

التَّصْريحِ ما يَعودُ على العَدالَةِ بالتَّجْريحِ لقالَ الخادِمُ ما يُبْكي العُيونَ ويُنْكي القُلوبَ ، ولكنَّه صابِرٌ مُحْتسِبٌ وللنَّصْرِ مُرْتقِبٌ ، ربِّ لا أمْلِكُ إلاَّ نَفسي وها هي في سَبيلِكَ مَبْذولَةٌ ، وأخي وقد هاجَرَ هِجْرةً نَرْجُوها مَقْبُولَةً ، ووُلْد وقد بَذلتُ للعَدوِّ صَفَحاتِ وُجوهِهم ، ونَقفُ عندَ هـٰذا الحَدِّ وللهِ الأمْرُ من قَبلُ ومن بَعْد »[1] .

ومن كتابٍ إلى الدِّيوانِ : « قد بُلِيَ الإسْلامُ منهم بقَومٍ اسْتَطابوا الْمَوتَ ، وفارَقوا الأهْلَ طاعَةً لقِسِّيسِهم ، وغَيرَةً لِمَعْبَدِهم ، وتَهالُكاً علىٰ قُمامَتِهم[2] ، حتىٰ لَسارَت مَلِكَةٌ منهم بخَمسِ مئة مُقاتِلٍ الْتَزمَت بنَفَقاتِهم فأخَذَها المُسلمونَ برِجالِها بقُرب الإسْكَنْدَريَّة ، فذَواتِ المَقانِعِ مُقَنَّعاتٍ دارِعاتٍ تَحمِلُ الطَّوارِقَ والقِبْطارياتِ ، ووَجَدْنا منهم عِدَّة بين القَتلَىٰ ، وبابا رُوميَّة حَكَمَ بأنَّ مَنْ لا يَتوَجَّه إلى القُدْسِ فهو مُحَرَّم لا مَنْكِحَ له ولا مَطْعَم فلهـٰذا يَتهافَتون على الوُرود ويَتهالَكون علىٰ يَومِهم الْمَوْعُودِ ، وقالَ لهم : إنَّني واصِلٌ في الرَّبيعِ جامِعٌ على اسْتِنْفارِ الجَميعِ ، وإذا نَهَضَ فلا يَقعُد عنه أحَدٌ ، ويُقبِلُ معه كُلُّ مَنْ قالَ : لله وَلَد »[3] .

٤ـ مِنْ أسْبابِ ضَعْف المُسلمين عن هَزيمة الصَّليبيِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة المَلكِ الأفْضَل أبو القاسم شاهِنشاه : قالَ ابنُ خلِّكانَ في « تاريخِه » : قال صاحبُ الدُّولِ الْمُنْقَطِعة : خلَّفَ الأفْضلُ سِتَّ مئةِ ألفِ ألفِ دينار ، ومئتَين وخَمسين إرْدَبّاً من الدَّراهِم ، وخَمسينَ ألفَ ثَوبٍ من ديباجٍ ، وعِشرينَ ألفَ ثَوبِ حَرير ، وثَلاثينَ راحِلَة كذا وكذا ودَواةً مُجَوْهَرةً باثْنَي عَشرَ ألفِ دينار ، وعَشرَةَ مَجالِسَ ، في الْمَجلِسِ مَضرُوب عَشرَة مَساميرَ من الذَّهَب ، على الْمِسْمارِ مِنْديلٌ مَشْدودٌ فيه بدلَة ثيابٍ وخَمسَ مئة صُندوقٍ ، فيها كِسْوَةٌ ومَتاعٌ ، سِوَى الدَّوابِّ والْمَماليكِ والبَقَرِ والغَنَمِ ، ولَبنُ مَواشيه يُباعُ في السَّنةِ بثَلاثينَ ألفِ دينار[4] .

---

(١) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٧ .
(٢) يعني كنيسة القيامة .
(٣) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٧ .
(٤) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/ ٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٣ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : هـٰذه الأشياءُ مُمْكنَةٌ ، سِوَى الدَّنانيرُ والدَّراهمُ ، فلا أُجَوِّزُ ذلك ، بَلْ أَسْتبعِدُ عُشْرَه ، ولا رَيبَ أنَّ جَمْعَه لهـٰذه الأَمْوالِ مُوجِبٌ لضَعفِ جَيشِ مِصْرَ ، ففي أيّامِه اسْتولَت الفِرَنْجُ على القُدْسِ ، وعَكا ، وصُور ، وطَرابُلسَ ، والسَّواحِلِ فلَوْ أنْفَقَ رُبْعَ مالِه ، لَجَمَعَ جَيشاً يَملأُ الفَضاءَ ، ولأبَادَ الفِرَنْجَ ، ولكن ليَقضِيَ اللهُ أمْراً كان مَفْعولاً[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة تاجِ المُلوك : وقيل : كان عَجباً في الجِهادِ لا يَفْتُر من غَزْوِ الفِرَنْجِ ، ولَوْ كانَ له عَسكَرٌ كَثيرٌ لاسْتأصَلَ الفِرَنْجَ[2] .

٥ـ تَمنِّي الذهبيِّ لَوْ أنَّ القِتالَ على المُلكِ بين المُسلمينَ كان على الصَّلبيِّين :

قال الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة العادلِ أخي السُّلطان صَلاح الدين : وكان شَديدَ الْمُلازَمَة لِخدمَة أخيه صَلاحِ الدِّين ، وما زالَ يَتحيَّلُ حتىٰ أعْطاهُ العَزيزُ دِمَشْقَ ، فكانت السَّببَ في أنْ تَملَّكَ البلادَ ، ولَمَّا جاءَه بمَنْشُورِها ابنُ أبي الحَجَّاج أعْطاهُ ألفَ دينارٍ ، ثمَّ جَرَتْ أمُورٌ يَطولُ شَرْحُها وقِتالٌ على الْمُلكِ ، ولَوْ كانَ ذلكَ التَّعبُ والحَربُ جِهاداً للفِرَنْجِ لأفْلحَ .

تُوفِّيَ سَنةَ خَمسَ عَشرَةَ وسِتِّ مئة[3] .

٦ـ عَلاقَةُ الصَّلبيِّين بالعُبَيْديِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الخَليفَة العبَّاسيِّ الْمُسْتَظْهِر بالله : وقيلَ : إنَّ صاحب مِصْرَ العُبَيْديَّ لَمَّا رأىٰ قُوَّةَ آلِ سُلْجُوقَ واسْتيلاءَهم على الْمَمَالِك كاتَبَ الفِرَنْجَ[4] .

٧ـ نِساءٌ صَلبيَّات يُحارِبْنَ المُسلمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الخَليفَة العبَّاسيِّ النَّاصِرِ لدِينِ الله : ومن كتابٍ إلى الدِّيوانِ : « قد بُليَ الإسْلامُ منهم بقَومٍ اسْتَطابوا الْمَوتَ ، وفارَقوا الأهْلَ طاعَةً

---

(١) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/ ٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ١/١٥٠٤ .
(٢) انظر السير : (تاج المُلوك) ١٩/ ٥٧٣ـ ٥٧٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٥١٧ .
(٣) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٢ .
(٤) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٠ .

لِقسِّيسِهم ، وغَيرَةً لِمَعْبَدِهم ، وتَهالُكاً علىٰ قُمامَتِهم[1] ، حتىٰ لَسارَت مَلِكَةٌ منهم بخَمسِ مئة مُقاتِل الْتَزمَت بنَفَقاتِهم فأخَذَها المُسلمونَ برِجالِها بقُرب الإسْكَنْدَريَّة ، فذَواتِ المَقانِعِ مُقَنَّعاتٍ دارِعاتٍ تَحمِلُ الطَّوارِقَ والقبْطارياتِ ، ووَجَدْنا منهم عِدَّة بين القَتلَىٰ ، وبابا رُوميَّة حَكمَ بأنَّ مَنْ لا يَتوَجَّه إلى القُدْسِ فهو مُحَرَّم لا مَنْكِحَ له ولا مَطْعَم فلهـٰذا يتَهافَتون على الوُرود ويَتهالَكون علىٰ يَومِهم الْمَوْعُودِ ، وقالَ لهم : إنَّني واصِلٌ في الرَّبيعِ جامِعٌ على اسْتِنْفارِ الجَميعِ ، وإذا نَهَضَ فلا يَقعُد عنه أحَدٌ ، ويُقبِلُ معه كُلُّ مَنْ قالَ : لله وَلَد »[2] .

* * *

(١) يعني كنيسة القيامة .

(٢) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٧ .

أسْبابُ ضَعْفِ بَعضِ الدُّوَل ثم خَرابُها

(١) الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّة في الأنْدَلُس

(أ) اسْتعانَةُ المُسلمينَ علىٰ بَعضِهم بالفِرَنْج :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ هِشامِ المُؤيَّدِ بالله ابنِ صاحِبِ الأنْدَلُسِ النَّاصِر عبدِ الرَّحمَـٰن أخُو المُظَفَّر : وكان شنشولُ قد اسْتَعانَ بِعَسْكَرِ الفِرَنْجِ لأنَّ أمَّه مِنهُم ، وقامَ مَعَهُ ابنُ غومِش ، فجاءَ إلىٰ قُرطُبَة ، فتَسَحَّبَ جُنْدُهُ ، فقالَ له ابنُ غومِش : ارْجِعْ بنا قَبلَ أنْ تُؤخَذَ فأبَىٰ ، ومَالَ إلىٰ دَيْرِ شربش جَوْعانَ سَهْرانَ ، فأنْزَلَ له راهِبٌ دَجاجَةً وخُبْزاً ، فأكَلَ وشَرِبَ وسَكِرَ ، وجَاءَ لِحَرْبِه ابنُ عَمِّ المَهْديّ وحاجِبُهُ مُحمّدُ ابنُ المُغيرَةِ الأُمَويّ ، فقَبَضَ عليهِ ، فظَهَرَ منهُ الجَزَعُ ، وقَبَّلَ قَدَمَ ابنِ المُغيرَةِ ، وقالَ : أنا في طَاعَةِ المَهْديّ ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه ، وطِيفَ برَأسِهِ : هـٰذا شنشولُ المَأبُونُ المَخْذُولُ فلمَّا اسْتَوثَقَ الأمْرُ للمَهْديِّ أظْهَرَ من الخَلاعَةِ والفَسادِ أكْثَرَ مِمَّا عَمِلَهُ شنشولُ[1] .

قالَ الحُمَيْديُّ : فقَامَ على المَهْديِّ ابنُ عَمِّه هشامُ بنُ سُلَيْمانَ ابنِ النَّاصِر لدين الله ، في شَوَّال سَنَةَ تِسْعٍ وتِسْعينَ ، وقَامَ مَعهُ البَرْبَرُ ، وأُسِرَ هشامٌ هَـٰذا فقَتَلَه المَهْديُّ وتَحيَّزَ جُلُّهم إلىٰ قَلعَةِ رَبَاحٍ ، فهَرَبَ مَعهُم سُلَيْمانُ بنِ الحَكَمِ بنِ سُلَيْمَانَ بنِ النَّاصِر ، وهُو ابنُ أخِي هِشامِ المَقْتُولِ ، فبَايَعُوهُ ، وسَمَّوْهُ : المُسْتَعِينَ بالله ، وجَمَعُوا لَه مالاً ، حتّىٰ صَارَ له نَحْوٌ من مِئَةِ ألْفِ دينارٍ ، فتَوَجَّهَ بالبَرْبَرِ إلىٰ طُلَيْطِلَةَ ، فتَمَلَّكَها ، وقَتَلَ وَالِيَها ، فجَزَعَ المَهْديُّ ، واعْتدَّ للحِصَارِ ، وتَجَرَّأتْ عليه العَامَّةُ ، ثم بَعَثَ عَسْكَراً ، فهَزَمَهُم سُلَيْمانُ المُسْتَعِينُ ثمَّ سَارَ حتّىٰ شَارَفَ قُرْطُبَة ، فبَرَزَ لِحَرْبِه عَسْكَرُ المَهْديِّ ، فناجَزَهُم سُلَيْمانُ ثمَّ خَرَجَ أهلُ قُرطُبَةَ إلى المُسْتَعِينِ ، سُلَيْمانَ فأحْسَنَ مَلْقاهُم واخْتَفَىٰ مُحمّدُ

---

(١) انظر السير : (هشام المؤيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٨ .

المَهْديُّ واسْتَوْثَقَ أمْرُ المُسْتَعِينِ ، ودَخَلَ قَصْرَ الإمارَةِ ، ووَارَى النَّاسُ قَتْلاهُم فكانُوا نَحْواً من اثْنَيْ عَشَرَ ألْفاً ، ثمَّ تَسَحَّبَ المَهْديُّ إلىٰ طُلَيْطِلَة ، فقامُوا مَعَهُ ، وكَتَبَ إلى الفِرَنْجِ ، ووَعَدَهُم بالأمْوالِ ، فاجْتَمَعَ إليهِ خَلقٌ عَظيمٌ وهو أوّلُ مال انْتَقَلَ من بَيْتِ المَالِ بالأنْدلُسِ إلى الفِرَنْجِ ، وكانت الثُّغُورُ كُلُّها باقِيةً علىٰ طاعَةِ المَهْديِّ ، فقَصَدَ قُرْطُبَة في جَحْفَلٍ عَظيمٍ ، فالْتَقَى الجَمعانِ علىٰ عَقَبةِ البَقَرِ علىٰ بَريدٍ من قُرْطُبَة ، فاقْتَتَلُوا أشَدَّ قِتالٍ فانْهَزَمَ سُلَيْمانُ المُسْتَعِينُ ، واسْتَوْلَى المَهديُّ علىٰ قُرْطُبَة ثانياً ، ثم خَرَجَ إلىٰ قِتالِ جَماهيرِ البَرْبَرِ ، فالْتَقاهُم بِوادِي آرُهْ ، فهَزَموهُ أقْبَحَ هَزيمَةٍ ، وقُتِلَ من جُندِه الفِرَنْجُ ثلاثةُ آلاف ، وغَرِقَ خَلقٌ ، فجاءَ إلىٰ قُرْطُبَة ، ثم وَثَبَ عليه العَبيدُ ، فضُرِبَتْ عُنُقُه ، وقُطِعَتْ أرْبَعَتُه ، وكَفَى اللهُ شَرَّهُ في ثامِنِ ذي الحِجَّة عام أرْبعِ مِئَة ، وعَاشَ أرْبَعاً وثلاثينَ سَنَةً[1] .

(ب) البَرْبَرُ وإفْسَادُهُم :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ هِشامِ المُؤيَّد باللهِ ابنِ صاحِبِ الأنْدَلُسِ النَّاصِر عبدِ الرَّحمَـٰن أخُو المُظَفَّر : وعاثَت البَرْبَرُ ، وعَمِلَت ما لا يَعمَله مُسلمٌ ، ونازَلوا قُرْطُبَةَ سَنةَ اثْنَتين وأرْبَع مئة ، واشْتدَّ القَحْطُ والبَلاءُ وفَنِيَ النَّاسُ ، ودَخلَ البَرْبَرُ بالسَّيفِ في سَنةِ ثلاثٍ وأرْبَع مئة ، فقَتلوا حتى الوِلْدانَ ، وهَربَ الخَلقُ ، وهَربَ المُؤيَّدُ باللهِ إلى المَشرِقِ ، فحَجَّ ، ولقد تَصرَّفَ في الدُّنيا عَزيزاً وذَليلاً ، والعِزَّةُ للهِ جَميعاً[2] .

وبالجُملَة فالذي جَرَىٰ علىٰ أهْلِ الأنْدَلُسِ من جُندِها البَرْبَر لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ عَملوا ما يَصْنَعُه كُفَّارُ التُّرْكِ وأبْلَغ ، وحَرَّقُوا الزَّهْراءَ وجَامِعَها وقُصورَها ، وكانت أحْسَنَ مَدينَةٍ في الدُّنْيا وأطْراهَا ، قالَ ابنُ نبيط :

ثـلاثـة مـن طبعهـا الفسـاد ... الفـأر والبـربـر والجـراد[3]

---

(١) انظر السير : (هشام المؤيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٨ .
(٢) انظر السير : (هشام المؤيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٩ .
(٣) انظر السير : (هشام المؤيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٩ .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ سُلَيمَانَ الْمُسْتَعينِ بالله : جَالَ بالبَرْبَرِ يُفْسِدُ ويَنْهَبُ البلادَ ، ويَعمَلُ كُلَّ قَبيح ، ولا يُبْقي علىٰ أحَدٍ فكان من جُملَة جُندِه القاسِمُ وعليٌّ ابنا حَمُّودِ بنِ مَيْمُونِ العَلَويِّ الإدريسيِّ ، فجَعلَهما قائدَيْن على البَرْبَر ، وأمَّرَ عَلياً علىٰ سَبْتَة وطَنْجَة وتلك العُدوَة وأمَّرَ القاسِمَ على الجَزيرَةِ الخَضْراءِ[1] .

وقالَ الحُمَيديُّ : لَمْ يَزَلْ الْمُسْتَعينُ يَجُولُ بالبَرْبَرِ يُفْسِدُ ويَنهَبُ ، ويُقْفِرُ الْمَدائنَ والقُرَىٰ بالسَّيف ، ولا يُبقي معه البَرْبَرُ علىٰ صَغيرٍ ولا كَبير ، إلىٰ أنْ غَلبَ علىٰ قُرْطُبَةَ[2] .

(ج) انْقِضَاضُ بَعض الأُمَراء على الخِلافَة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ سُلَيمَانَ الْمُسْتَعينِ بالله : ثم إنَّ عليَّ ابنَ حَمُّودَ الإدْريسيَّ طَمِعَ في الخِلافَةِ وراسَلَ جَماعةً ، فاسْتجابَ له خَلقٌ ، وبايَعوه ، فعَدَّىٰ من سَبْتَةَ إلى الأنْدَلُسِ ، فبايَعَه مُتَولِّي مالِقَه واسْتحْوَذَ على الكِبارِ ، وزَحَفَ إلىٰ قُرْطُبَةَ ، فجَهَّزَ الْمُسْتَعينُ بالله لحَرْبِه وَلدَه مُحمَّدَ بنَ سُليمانَ ، فالْتَقوا ، فانْهَزَمَ مُحمَّدٌ ، وهَجمَ ابنُ حَمُّود ، فدَخَلَ قُرْطُبَةَ في الحالِ ، وظَفِرَ بالْمُسْتَعينِ ، فذَبَحَه بيدِه صَبْراً ، وذَبَحَ أباه الحَكَمَ وهو شَيخٌ في عَشْر الثَّمانينَ ، وذلكَ في الْمُحرَّم ، سَنةَ سَبعٍ وأرْبَع مئة وانْقَضَتْ دَولَةُ الْمَرْوانيَّة في جَميعِ الأنْدَلُس .

وكان الْمُسْتَعينُ أديباً شاعِراً ، عاشَ نَيِّفاً وخَمسينَ سَنةً[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٣٢٩ .

(٢) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٣٣٠ .

(٣) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٣٠ .

(٢) الدَّوْلَة العَبَّاسِيَّة

(أ) تَحَكُّمُ الأَتْراك بالخُلَفاءِ وخَلْعُهم وتَعْذيبُهم كما يَحْلو لهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُتَوَكِّل على الله : وكان الْمُتَوَكِّلُ جَواداً مُمَدَّحاً لعَّاباً ، وأرادَ أنْ يَعزِلَ من العَهْد الْمُنْتَصِرَ ، ويقدِّمَ عليه الْمُعْتَزَّ لحُبِّه أُمَّهُ قَبيحَة ، فأبَى الْمُنْتَصِرُ ، فغَضِبَ أبوه وتَهدَّدَه ، وأغْرَىٰ به ، وانْحَرفَت الأتْراكُ على الْمُتَوَكِّل لِمُصادَرَتِه وَصيفاً وبُغا حتى اغْتالُوه .

وبُويعَ الْمُنْتَصِرُ من الغَدِ بالقَصْرِ الجَعْفَريِّ سَنةَ سبَعٍ وأرْبَعينَ ومِئتَين[1] .

وكان الْمُنْتَصِرُ بالله وافِرَ العَقْل ، راغِباً في الخَيرِ ، قَليلَ الظُّلمِ ، باراً بالعَلويِّينَ ، ويَسُبُّ الأتْراكَ ويَقولُ : هَؤلاء قَتلَةُ الخُلَفاء ، فقالَ بُغا الصَّغيرُ للذين قَتلوا الْمُتَوَكِّلَ : ما لكم عند هـٰذا رِزْقٌ فعَملوا عليه وهَمُّوا ، فعَجَزوا عنه ، لأنَّه كانَ شُجاعاً مَهيباً يَقِظاً مُتَحرِّزاً لا كأبيه فتَحيَّلوا إلىٰ أنْ دَسُّوا إلىٰ طَبيبِه ابنِ طَيْفُور ثَلاثينَ ألفَ دينار عند مَرَضِه فأشارَ بفَصْدِهِ ، ثم فَصَدَه بريشَةٍ مَسْمومَةٍ ، فماتَ منها[2] .

وكان الْمُنْتَصِرُ بالله قد أبْعَدَ وَصيفاً في عَسْكر إلىٰ ثَغْرِ الرُّوم ، وكان قد ألَحَّ عليه هو وبُغا وابنُ الخَصيب في خَلعِ إخْوَتِه خَوْفاً من أنْ يَلِيَ الْمُعْتَزُّ فيَسْتأصِلَهم ، فاعتُقلا ، وتَمنَّع أوَّلاً الْمُعْتَزُّ ، ثم خافَ ، وأشْهَدا علىٰ أنْفسِهما أنَّهما يَعْجَزان عن الإمامَة ، فقالَ الْمُنْتَصِرُ : أتَرَياني خَلَعْتُكما طَمَعاً في أنْ أعيشَ بَعدَكما حتىٰ يَكبُرَ ابني عبدُ الوَهَّاب ، وأعْهَدُ إليه ؟! والله ما طَمِعتُ في ذلك ولكنْ هـٰؤلاء ألَحُّوا عليَّ ، وخِفتُ عليكما من القَتلِ فقبَّلا يدَه ، وضَمَّهُما إليه[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُسْتَعينِ بالله : وهاجَت الفِتنَةُ الكُبْرىٰ بالعِراقِ ،

---

(١) انظر السير : (الْمُتَوَكِّل على الله) ١٢/ ٣٠ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٩ .

(٢) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٩ .

(٣) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ١/٩٨٠ .

فتَنكَّر التُّركُ للْمُسْتَعين بالله ، فخافَ وتَحوَّلَ إلىٰ بَغْدادَ ، فنزَلَ بالجانِب الغَربيِّ علىٰ نائبه ابنِ طاهِر ، فاتَّفقَ الأتْراكُ بسَامَرَّاءَ ، وبَعَثوا يَعتذِرُونَ ، ويَسألونَه الرُّجوعَ ، فأبَىٰ عليهم فغَضِبوا ، وقَصَدوا السِّجْنَ ، وأخْرَجوا الْمُعْتَزَّ بالله ، وبايَعوا له ، وخَلَعوا الْمُسْتَعينَ ، وبَنوا أمْرَهم علىٰ شُبْهَةٍ ، وهي أنَّ الْمُتَوَكِّلَ عَقدَ للْمُعْتَزِّ بعد الْمُنْتَصِرِ ، فجَهَّزَ الْمُعْتَزُّ أخاه أبا أحْمَدَ لِمُحارَبَة الْمُسْتَعينِ ، وتَهيَّأ الْمُسْتَعينُ وابنُ طاهِر للحِصارِ ، وإصْلاحِ السُّورِ ، وتَجرَّدَ أهْلُ بَغْدادَ للقَتلِ ونُصِبَت الْمَجانِقُ ، ووَقعَ الجدُّ ، ودامَ البَلاءُ أشْهُراً ، وكَثُرت القَتلَىٰ ، واشْتدَّ القَحْطُ ، وتَمَّت بينهما عِدَّةُ وَقعاتٍ ، بحيثُ إنَّه قُتلَ في نَوْبَةٍ من جُندِ الْمُعْتَزِّ ألفانِ ، إلىٰ أنْ ضَعُفَ أهْلُ بَغدادَ وذَلُّوا وجاعُوا[1] .

فكاتبَ ابنُ طاهِر في السِّرِّ الْمُعْتَزَّ ، وانحَلَّ نظامُ الْمُسْتَعين ، وإنَّما كان قَوامُ أمْرِه بابنِ طاهِر ، وكاشَفَه الناسُ ، فتَحوَّل إلى الرُّصافَة ، ثم سَعى النَّاسُ في الصُّلْحِ ، وخَلْعِ الْمُسْتَعين ، فأقامَ في ذلك إسْماعيلُ القاضي وغَيرُه بشُروطٍ وَثيقَة ، فأذْعَنَ بخَلعِ نَفسِه في أوَّلِ سَنة اثنَتين وخَمسينَ ومئتَين ، وأشْهَد عليه ، ثم حُوِّل إلىٰ سامَرَّاء فقُتلَ بقادسِيَّة سامَرَّاء في ثالثِ شَوَّال من السَّنَة ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون[2] .

وقال الصُّوليُّ : بَعثَ الْمُعْتَزُّ أحمدَ ابنَ طُولونَ إلىٰ واسِطَ لقَتلِ الْمُسْتَعينِ ، فقالَ : واللهِ لا أقْتُلُ أولادَ الخُلَفاء فبَعثَ سَعيداً الحاجِبَ ، فما مَتَعَ اللهُ الْمُعْتَزَّ ، بلْ عُوجِلَ بالخَلْعِ والقَتْلِ جَزاءً وِفاقاً[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجمة الْمُعْتَزِّ بالله أبي عبد الله ، مُحمَّدِ ابنِ الْمُتَوَكِّلِ : وكانت دَولَةُ الْمُعْتَزِّ مُستَضْعَفَة مع الأتْراكِ ، فاتَّفقَ القُوَّادُ ، وقالوا : أعْطِنا أرْزاقَنا ، ويُقبِلُ صالحُ بنُ وَصيف ، وكان الْمُعْتَزُّ يَخافُه ، فطَلبَ من أُمِّه مالاً ليُنفِقَه فيهم ، فشَحَّت عليه ، فتَجمَّعَ الأتْراكُ لخَلعِه ، واتَّفقَ مَعهم صالحُ وبابياك ، ومُحمَّدُ بنُ بُغا ، فتَسلَّحوا ، وأتَوا الدَّارَ ، وبَعثوا إلى الْمُعْتَزِّ ليَخرُجَ إليهم فقالَ : قد شَرِبتُ دَواءً ، وأنا ضَعيفٌ فهَجَمَ جَماعَةٌ ، جَرُّوهُ وضَربُوه ، وأقامُوه في الحَرِّ ، فبَقيَ المِسْكينُ يَتضوَّرُ

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/ ٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٨٠ .

(٢) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/ ٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٨١ .

(٣) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/ ٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٨١ .

وهم يَلْطِمونَه ، ويَقولونَ : اخْلَعْ نَفْسَكَ ، ثم أحْضَروا القاضيَ والعُدولَ ، وخَلعُوهُ وأقْدَموا من بَغْدادَ مُحمَّدَ بنَ الوَاثِقِ ، وكان الْمُعْتَزُّ قد أبْعدَه ، فسَلَّم الْمُعْتَزُّ إليه الخِلافَةَ ، وبايَعوه ، ولُقِّبَ الْمُهْتَدي بالله[1] .

ثم إنَّ رُؤوسَ الأتْراكِ ، أخَذوا الْمُعْتَزَّ بعد خَمسةِ أيَّامٍ فأدْخَلوه حَمَّاماً وأكْرَبوه حتىٰ عَطشَ ، ومَنعوه الماءَ حتىٰ كادَ ، ثم سَقَوْه ماءَ ثَلجٍ ، فسَقطَ مَيِّتاً ، رَحمَه اللهُ وذلكَ في سَنةِ خَمسٍ وخَمسينَ ومِئتَين وعاشَ ثَلاثاً وعِشْرينَ سَنةً[2] .

ووَهَىٰ مَنصِبُ الخِلافَة ، فللّه الأمْرُ[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الْمُهْتَدي بالله : وعاثَت الزِّنْجُ بالبَصْرَة ، ويَعقوبُ الصَّفَّار بخُراسانَ ، وقَتلَ الْمُهْتَدي الأميرَ باكيال ، فثار أصحابُه ، وأحاطُوا بدارِ الجَوْسَق ، فأُلقِيَ الرأسُ إليهم ، وركَبَ أعْوانُ الخَليفَة ، فتمَّت مَلحَمةٌ كبرَىٰ ، قُتلَ فيها من الأتْراكِ ألوفٌ وقِيلَ بل ألفٌ في رَجبَ سَنةَ سِتٍّ وخَمْسينَ ومِئتين ، ثم أصْبَحوا على الحَرْب ، فرَكبَ الْمُهْتَدي وصالِحُ بنُ عليٍّ في عُنقِه الْمُصْحَفُ يَصيحُ : أيُّها النَّاسُ ؛ انْصُروا إمامَكم فحَملَ عليه أخُو باكيالَ في خَمسِ مئة ، وخامَرَ الأتْراكُ الذين مع الخَليفَة إليه ، وحَميَ الوَطيسُ ، وتفلَّلَ جَمْعُ الْمُهْتَدي واسْتحَرَّ بهم القَتلُ فولَّىٰ والسَّيفُ في يدِه يقولُ : أيُّها النَّاسُ : قاتِلوا عن خَليفَتِكم ، ثم دَخلَ دارَ صالِح بنِ مُحمَّدِ بنِ يَزْدادَ ، ورَمَى السِّلاحَ ، ولَبسَ البَياضَ ليَهْربَ من السَّطحِ وجاءَ حاجِبُ باكيالَ ، فأُعْلِمَ به فهَرَبَ ، فرَماهُ واحدٌ بسَهْمٍ ، ونَفخَهُ بالسَّيفِ ثم حُملَ إلى الحاجِب ، فأرْكَبوه بَغْلاً وخَلفَه سائسٌ ، وضَربُوه وهم يَقولُون : أينَ الذَّهبُ ؟ فأقَرَّ لهم بسِتِّ مئة ألفِ دينار مُودَعَةً ببَغْدادَ ، فأخَذُوا خَطَّه بها ، وعَصَرَ تُرْكيٌّ علىٰ أُنْثيَيه فمات ، وقيلَ : أرادُوا منه أنْ يَخلَعَ نَفسَه فأبَىٰ فقَتلوه رَحمَه اللهُ وبايَعوا الْمُعْتَمِدَ على الله وفي ذُرِّيَتِه عُلماءُ وخُطَباءُ[4] .

---

(١) انظر السير : (الْمُعْتَزُّ بالله) ١٢/ ٥٣٢ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٨ .
(٢) انظر السير : (الْمُعْتَزُّ بالله) ١٢/ ٥٣٢ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٢٨ .
(٣) انظر السير : (الْمُعْتَزُّ بالله) ١٢/ ٥٣٢ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٢٨ .
(٤) انظر السير : (الْمُهْتَدي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٠ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُتَّقِي : وتوجه الْمُتَّقِي لله من الرَّقَّة إلىٰ بَغْدادَ ، فأقامَ بهِيتَ ، وحَلَفَ له تَوْزُونُ ، فلمَّا الْتَقاه تَرجَّلَ له وقَبَّلَ الأرضَ ، ومَشَىٰ بين يدَيه إلىٰ مُخيَّمٍ ضَربَه للْمُتَّقِي ، فلمَّا نزَلَ قَبضَ تَوْزُونُ عليه وسَمَلَه ، وأُدخِلَ بغدادَ أعْمَىٰ ، فللَّه الأمْرُ ، وأخَذَ منه البُرْدَ والقَضيبَ والخَاتَمَ ، وأحْضرَ عبدَ الله الْمُسْتَكْفي بالله ابنَ الْمُكْتَفي فبايَعه بالخِلافَة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُسْتَكْفي : ثم دَخلَ على الخَليفَةِ اثنانِ من الدَّيْلَمِ ، فطلبا منه الرِّزْقَ ، فمَدَّ يدَه للتَّقْبيلِ ، فجَبَذاه من سَريرِ الخِلافَة ، وجَرَّاه بعَمامَتِه ، ونُهِبَت دارُه وساقُوا الْمُسْتَكْفي ماشياً إلىٰ مَنزِل مُعِزِّ الدولة فخَلَعَ الْمُسْتَكْفي وسَمَلَه ، فكانَت خِلافَتُه سِتَّةَ عَشرَ شَهْراً .

وضَعُفَ دَسْتُ الخِلافَة جدّاً ، وظَهرَ الرَّفْضُ والاعْتِزالُ ببَني بُوَيْه ، نَسألُ اللهَ العَفْوَ .

وكان إكْحالُ الْمُسْتَكْفي بعد أنْ خَلعَ نفسَه ذَليلاً مَقْهُوراً في جُمادَى الآخرة سَنةَ أرْبَع وثَلاثينَ فعاشَ بعد العَزْلِ والكَحْلِ أرْبَعةَ أعْوامٍ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُطيع لله : وكانَ كالْمَقْهورِ مع نائبِ العِراقِ ابنِ بُوَيْه ، قَرَّرَ له في اليومِ مئةَ دينارٍ فَقَط واشْتَدَّ الغَلاءُ الْمُفْرِطُ ببَغْدادَ ، فذَكرَ ابنُ الجَوْزيِّ أنَّه اشْتَرىٰ لِمُعِزِّ الدَّولَة كُرَّ دَقيقٍ بعِشْرينَ ألفِ دِرْهَم[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الطَّائع لله : الخَليفَةُ أبو بكر عبدُ الكَريم بنُ الْمُطيعِ لله الفَضْلِ بنِ الْمُقْتَدِر وكان الحَلُّ والعَقْدُ للمَلكِ عِزِّ الدولَة وابنِ عَمِّه عَضُدِ الدولَة .

قال ابنُ الجَوْزيِّ : لَمَّا اسْتُخلِفَ رَكبَ وعليه البُرْدَةُ وبينَ يَدَيه سُبُكْتِكِينُ الحاجِبُ وخَلَعَ من الغَدِ علىٰ سُبُكْتِكِينَ خِلَعَ السَّلْطَنَةِ ، وعَقدَ له اللِّواءَ ، ولقَّبَه نَصْرَ الدولةِ ولَمَّا

---

(١) انظر السير : (الْمُتَّقِي لله) ١٥/ ١٠٤ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٩ .
(٢) انظر السير : (الْمُسْتَكْفي) ١٥/ ١١١ـ ١١٣ ، وانظر النزهة : ٥/١١٨٩ .
(٣) انظر السير : (الْمُطيعُ لله) ١٥/ ١١٣ـ ١١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٠ .

كانَ عيدُ الأضْحَىٰ رَكِبَ الطَّائعُ إلى الْمُصلَّىٰ ، وعليه قُباءٌ وعِمامَةٌ ، فخَطبَ خُطبَةً خَفيفَةً بعدَ أنْ صَلَّىٰ بالنَّاسِ فتعرَّضَ عِزُّ الدولَة لإقْطَاعِ سُبُكْتِكِينَ ، فجمعَ سُبُكْتِكِينُ الأتْراكَ فالتَقَوا فانتُصرَ سُبُكْتِكِينُ ، وقامَت مَعه العَامَّةُ ، وكَتبَ عِزُّ الدولَة يَستنْجدُ بعَضُدِ الدَّولَةِ ، فتَوانَىٰ ، وصار النَّاسُ حِزْبَين ، فكانت السُّنَّةُ والدَّيْلَمُ يُنادُونَ بشِعارِ سُبُكْتِكِينَ ، والشِّيعَةُ يُنادُونَ بشعارِ عِزِّ الدَّولَةِ ووَقَعَ القتالُ ، وسُفكَت الدماءُ ، وأحْرِقَ الكَرْخُ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ القَائِم بأمْرِ الله : ولَمْ يَزلْ أمْرُه مُسْتَقيماً إلىٰ أن قُبضَ عليه في سَنةِ خَمسينَ وأرْبَع مئة ، لأنَّ أرْسلانَ التركيَّ البَسَاسيريَّ ، عَظُم شأنُه لعَدم نَظيرٍ له وتَهيَّبَتْهُ أُمَراءُ العَرَب والعَجَم ، ودُعيَ له على الْمَنابر وظَلمَ وخرَّبَ القُرَىٰ وانْقَهَرَ معه القَائِمُ ، ثم تُحدِّثَ بأنَّه يُريدُ نَهبَ دارَ الخِلافَة ، وعَزْلَ القَائِمِ فكاتبَ القَائِمُ طُغْرلْبَكَ مَلكَ الغُزِّ يَستنهضُه ، وكان بالريِّ ثم أُحْرِقَتْ دارُ البَسَاسيريِّ ، وهَربَ ، وقَدِمَ طُغْرلْبَك في سَنةِ سَبعٍ وأرْبَعين وأرْبَع مئة وذَهبَ البَسَاسيريُّ إلى الرَّحْبَةِ[2] ومَعه عَسكرٌ ، فكاتبَ الْمُسْتَنْصِرَ العُبَيْديَّ فأمَدَّه من مِصْرَ بالأمْوَالِ ، ومَضَىٰ طُغْرلْبَك سَنةَ تِسْعٍ إلىٰ نَصيبينَ ومعه أخُوهُ يَنالُ ، فكاتَبَ البَسَاسيريُّ يَنالَ فأفْسَدَه ، وطَمِعَ بمَنْصِبِ أخيه ، فسارَ بجَيشٍ ضَخْم إلى الرَّيِّ ، فسارَ أخُوه في أثَرِه ، وتَفرَّقَت الكَلمةُ والْتَقى الأخَوان بهَمَذانَ وظَهَرَ يَنالُ ، واضْطَربَ أمْرُ بَغْدادَ ، ووَقَعَ النَّهْبُ ، فوَصَلَ البَسَاسيريُّ في ذي القعْدَة إلى الأنْبارِ وبُطِّلَت الجُمُعَةُ ، ثم دَخلَ هو بَغْدادَ في الرَّاياتِ الْمِصْريَّة ، وضَربَ سُرادِقَه علىٰ دِجْلَة ، ونَصَرَتهُ الشِّيعَةُ وكانَ قد جَمعَ العَيَّارينَ والفَلاَّحينَ ، وأطْمَعَهُم في النَّهْبِ وعَظُمَ القَحْطُ ، واقْتَتلوا في السُّفُنِ ثم في الجُمُعَة الْمُقبلَة دُعِيَ لصاحِبِ مِصْرَ بجامِع الْمَنصُورِ ، وأذَّنُوا بـ « حَيَّ عَلىٰ خَيرِ العَمَل » وخَندَقَ الخليفةُ حولَ داره ، ثم نَهضَ البَسَاسيريُّ في أهْلِ الكَرْخِ وغيرِهم إلىٰ حَربِ القَائِمِ ، فاقْتَتلوا يَومَينِ ، وكَثرت القَتلىٰ ، وأُحْرِقَت الأسْواقُ ودَخلوا الدَّارَ فانتُهَبوها وتَذَمَّمَ القَائِمُ إلى الأميرِ قُرَيش

---

(١) انظر السير : (الطَّائع لله) ١٥/١١٨ـ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١١٩١ .

(٢) تقع على الفرات بين الرّقة وبغداد .

العُقيليِّ ـ وكان مِمَّنْ قامَ مع البَسَاسيريِّ ـ فأذَمَّه ، وقبَّلَ بين يَديه فخَرجَ القَائِمُ راكباً ، بين يَدَيه الرَّايَةُ ، والأتْراكُ بينَ يَدَيْه ، وأُنْزِلَ في خَيمَةٍ ثم قَبَضَ البَسَاسيريُّ على الوَزيرِ أبي القاسم عَليِّ بنِ الْمُسْلمَة ، والقاضي أبي عبد الله الدَّامَغَانيَّ ، وجَماعَةٍ ، فصُلِبَ الوَزيرُ فهَلكَ[1] .

(ب) تَحَكمُ السَّلاطين (بَنُو بُوَيْه والسَّلاجِقَة) بالخُلَفاءِ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ الطَّائِع لله : وتَمكَّنَ عَضُد الدَّولَة ، ولُقِّبَ أيضاً تَاجَ الْمِلَّة ، وضُربَتْ له النَّوْبَة في ثلاثَةِ أوْقاتٍ[2] ، وعَلا سُلطانُه عُلواً لا مَزيدَ عَليه ، ومع ذَلك الارْتِقاء فكانَ يَخْضَعُ للطَّائِع ، وجاءَه رسُولُ العَزيزِ العُبَيْديِّ صاحبِ مِصْرَ ، فراسَلَه بتَوَدُّد وطَلبَ من الطَّائِع أنْ يزيدَ في ألقابِه ، فجَلسَ له الطَّائعُ وحَوْلَه مئة بالسُّيوفِ والزِّينَة وبينَ يَدَيه الْمُصْحَفُ العُثْمانيُّ ، وعلىٰ كَتفِه البُرْدَة وبيدِه القَضيبُ ، وهو مُتقلِّدٌ السَّيفَ ، وأُسْبِلَت السِّتارَةُ ودَخَلَ التُّرْكُ والدَّيْلَمُ بلا سِلاحٍ ، ثم أُذِنَ لعَضُد الدولَة ورُفعَت له السِّتارَةُ ، فقبَّلَ الأرضَ قالَ : فارْتاعَ زِيادٌ القائدُ ، وقال بالفارسيَّة : أهَـٰذا هو اللهُ ، فقيلَ له : بَلْ خَليفَةُ الله في أرْضِه ومَشَىٰ عَضدُ الدولَة ، وقبَّل الأرضَ مرَّاتٍ سَبعاً فقالَ الطَّائِعُ لخادِمه : اسْتَدْنِه فصَعدَ وقبَّلَ الأرضَ مرَّتين ، فقالَ : ادْنُ إليَّ ، فدَنا حتىٰ قبَّلَ رِجْلَه ، فثَنى الطائعُ يدَه عَليه ، وأمرَه فجَلسَ علىٰ كُرسيٍّ بعد الامْتِناعِ ، حتىٰ قالَ : أقْسَمتُ لتَجْلِسَنَّ ، ثم قالَ : ما كان أشْوَقَنا إليك وأتْوَقَنا إلىٰ مُفاوَضَتِك ، فقالَ : عُذْري مَعلومٌ قال : نيَّتُكَ مَوْثوقٌ بها ، فأوْمَأ برأسِه ، فقالَ : قد رَأيتُ أنْ أُفوِّضَ إليك ما وَكلَه الله إليَّ من أمُورِ الرَّعيَّة في شَرْقِ الأرض وغَرْبِها سِوَىٰ خاصَّتي وأسْبابي ، فتَولَّ ذلك مُستَجيراً بالله ، قال : يُعينُني الله علىٰ طاعَةِ مَوْلانا أميرِ المؤمنينَ وخِدمَتِه ، وأريدُ كِبَارَ القُوَّادِ أنْ يَسْمَعوا لَفْظَكَ ، قال الطَّائِعُ : هاتوا الحُسَيْنَ بنَ مُوسَىٰ ، وابنَ مَعْروف ، وابنَ أُمِّ شَيْبانَ فقَدِمُوا ، فأعَادَ الطَّائِعُ بالتَّفْويضِ ،

---

(١) انظر السير : (القَائِم بأمْرِ الله) ١٥/١٣٨ـ١٤١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٥ .

(٢) كان من العادة أن تُضرب الدبادب في أوقات الصلاة علىٰ باب الخليفة وقد أحب معز الدولة أن تضرب له الدبادب أيضاً علىٰ بابه وسأل المطيع ذلك ، فلم يأذن له .

ثم أُلْبِسَ الخِلَع والتَّاجَ ، فأوْمَأ ليُقَبِّلَ الأرضَ فلَمْ يُطِقْ فقال الطَّائِعُ : حَسْبُك وعَقَدَ له لِواءَينِ بيدِ ثم قال : يُقرأُ كتابُه فقُرِىءَ فقالَ الطَّائِعُ : خَارَ اللهُ لنا ولكَ وللمُسلمينَ ، آمُرُكَ بما أَمَرَكَ اللهُ به ، وأنْهَاكَ عمَّا نَهَاكَ اللهُ عنه وأبْرَأُ إلى اللهِ مِمَّا سِوَىٰ ذلك انْهَضْ على اسْمِ اللهِ ثم أعْطاهُ بيَده سَيفاً ثانياً غَيرَ سَيفِ الخِلْعَة ، وخَرَجَ من بابِ الخاصَّة ، وشَقَّ البَلَدَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة مَلِكْشاه : وقَدِم مَلِكْشاهُ بَغْدادَ مَرَّتين وقَدِمَ إلىٰ حَلَبَ ، ولمْ يَكُنْ للمُقْتَدي معه غَيرُ الاسْم ، ثم قَدِمَها ثالثاً عَليلاً وكان الْمُقْتَدي قد فَوَّض العَهْدَ إلى ابنِه الْمُسْتَظْهِر ، فألْزَمَه مَلِكْشاهُ بعَزْلِه ، وأنْ يُوَلِّي ابنَ بِنْتِه جَعْفَراً ، وأنْ يُسَلِّمَ بَغْدادَ إليه ، ويَتَحوَّلَ إلى البَصْرَة ، فشَقَّ على الْمقْتَدي ، وحارَ ثم طَلبَ الْمُهْلَة عَشرةَ أيّام ليَتَجهَّزَ ، فصَامَ وطَوَىٰ ، وجَلسَ على التُّرابِ وتَضَرَّعَ إلىٰ رَبِّه ، فقَوِيَ بالسُّلطانِ المَرَضُ ، وماتَ في شَوَّال سَنة خَمسَة وثَمانينَ عن تسع وثلاثين سنة فقيل : سُمَّ في خِلالٍ تَخلَّلَ به ، وكان وَزيرُه النِّظامُ قد قُتلَ من أيام ، ولَمْ يَشْهَدْ السلطان كَبيرُ أحَد ، ولا عُمِلَ له عَزاءٌ ونُقِلَ تابُوتُه إلىٰ أصْبَهَان ، فدُفن في مَدرسَةٍ عَظيمةٍ .

وقد تَزوَّجَ الْمُسْتَظْهِرُ بالله بخَاتُونَ بنتِه الأخرىٰ ، وتَنازَعَ في الملك أوْلادُه من بعده زَماناً ، وكان آخِرُهم مَوْتاً ابنُه سَنْجَر صاحبُ خُراسَان ، عاشَ بعد أبيه أقَلَّ من سَبعينَ سَنةً[2] .

(ج) الإسْرافُ والتَّبْذِير :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ الْمُسْتَعينِ بالله : وكان مِتْلافاً للمَالِ ، مُبَذِّراً ، فرَّقَ الجَواهِرَ وفاخِرَ الثِّيابِ ، اخْتَلَّتِ الخِلافَةُ بوِلايَتِه ، واضْطَربَت الأمُورُ .

وسَجَنَ الْمُعْتَزَّ والْمُؤَيَّدَ ، وضَيَّقَ عليهما ، واشْتَرَىٰ أمْلاكَهُما كَرْهاً وقَرَّرَ لهما في العام نَيِّفاً وعِشْرينَ ألفَ دينارٍ ليسَ إلاَّ[3] .

---

(١) انظر السير : (الطَّائع لله) ١٥/ ١١٨ـ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٩٢ .

(٢) انظر السير : (مَلِكْشَاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٥٦ .

(٣) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/ ٤٦ـ٥٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٨٠ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ الْمُقْتَدِر : وكان سمحاً مِتْلافاً للأموالِ ، مَحَقَ ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَىٰ[1] .

ويقالُ إنَّه أتْلفَ من المالِ ثَمانينَ ألفِ ألفِ دينارٍ ، عَثَّرَ نَفسَه بيدِه[2] .

(د) الخُروجُ على الدَّوْلَة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمة الرِّياشيِّ : فِتْنَةُ الزِّنجِ كانَت عَظيمَةٌ ، وذلكَ أنَّ بَعضَ الشَّياطِينِ الدُّهاةُ كانَ طُرقيّاً أوْ مُؤدِّباً ، له نَظَرٌ في الشِّعْرِ والأخْبارِ ، ويَظْهَرُ من حَالِه الزَّنْدَقَةُ والمُروقُ ، ادَّعَىٰ أنَّه عَلَويّ ، ودَعَا إلىٰ نَفْسِه ، فالْتَفَّ عليه قُطَّاعُ طَريقٍ ، والعَبيدُ السُّودُ من غِلْمانِ أهْلِ البَصْرَةِ ، حتىٰ صارَ في عِدَّةٍ وتَحَيَّلوا وحَصَّلوا سُيوفاً وعِصيّاً ، ثمّ ثارُوا علىٰ أطْرافِ البَلَدِ ، فبَدَّعوا وقَتَّلوا وقَوُوا ، وانْضَمَّ إليهم كُلُّ مُجرِمٍ ، واسْتَفْحَلَ الشَّرُّ بهم ، فسارَ جَيشٌ من العِراقِ لحَرْبِهم ، فكَسَروا الجَيشَ ، وأخَذُوا البَصْرَةَ ، واسْتَباحُوها ، واشْتَدَّ الخَطْبُ ، وصارَ قائِدُهم الخَبيثُ في جَيشٍ وأُهْبَة كاملة ، وعَزَمَ علىٰ أخْذِ بَغْدادَ ، وبَنَىٰ لنَفسِه مَدينَةً عَظيمَةً ، وحارَ الخَليفَةُ المُعْتَمدُ في نَفسِه ، ودامَ البَلاءُ بهٰذا الخَبيثِ المَارِقِ ثلاثَ عَشرةَ سَنةً ، وهابَتْهُ الجُيوشُ ، وجَرَتْ معه مَلاحِمُ ووَقَعاتٌ يَطُولُ شَرحُها ، قد ذَكَرَها المُؤرِّخُونَ إلىٰ أنْ قُتِلَ ، فالزِّنجُ هم عِبارَةٌ عن عَبيدِ البَصْرَةِ الذين ثارُوا مَعَه ، لا بارَكَ اللهُ فيهِم[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الْمُهْتَدي بالله : وعاثَت الزِّنْجُ بالبَصْرَة ، ويَعقوبُ الصَّفَّارِ بخُراسانَ ، وقَتَلَ الْمُهْتَدي الأميرَ باكيال ، فثار أصحابُه ، وأحاطُوا بدارِ الجَوْسَق ، فأُلقِيَ الرأسُ إليهم ، ورَكِبَ أعْوانُ الخَليفَة ، فتمَّت مَلحَمةٌ كبرَىٰ ، قُتلَ فيها من الأتْراكِ ألوفٌ وقِيلَ : بل ألفٌ في رَجبَ سَنةَ سِتٍّ وخَمْسينَ ومِئتين ، ثم أصْبَحوا على الحَرْب ، فرَكِبَ الْمُهْتَدي وصالِحُ بنُ عليٍّ في عُنقِه الْمُصْحَفُ يَصيحُ : أيُّها النَّاسُ ؛ انْصُروا إمامَكم فحَملَ عليه أخُو باكيالَ في خَمسِ مئة ، وخامَرَ الأتْراكَ

---

(١) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/ ٤٣ـ٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٨٠ .

(٢) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/ ٤٣ـ٥٦ ، وانظر النزهة : ٦/١١٨٠ .

(٣) انظر السير : (الرِّياشيّ) ١٢/ ٣٧٢ـ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠١٠ .

الذين مع الخَليفَة إليه ، وحَميَ الوَطيسُ ، وتفلَّلَ جَمْعُ الْمُهْتَدي واسْتحَرَّ بهم القَتلُ فولَّىٰ والسَّيفُ في يدِه يقولُ : أيُّها النَّاسُ ؛ قاتِلوا عن خَليفَتِكم ، ثم دَخلَ دارَ صالِح بنِ مُحمَّدِ بنِ يَزْدادَ ، ورَمَى السِّلاحَ ، ولَبسَ البَياضَ ليَهْربَ من السَّطحِ وجاءَ حاجِبُ باكيالَ ، فأُعْلِمَ به فهَرَبَ ، فرَماهُ واحدٌ بسَهْمٍ ، ونَفخَهُ بالسَّيفِ ثم حُملَ إلى الحاجِب ، فأرْكَبوه بَغْلاً وخَلفَه سائسٌ ، وضَربُوه وهم يَقولُون : أينَ الذَّهبُ ؟ فأقَرَّ لهم بسِتِّ مئة ألفِ دينار مُودَعَةً ببَغْدادَ ، فأخَذُوا خَطَّه بها ، وعَصَرَ تُرْكيٌّ علىٰ أُنْثيَيه فمات ، وقيلَ : أرادُوا منه أنْ يَخلَعَ نَفسَه فأبَىٰ فقَتلوه رَحمَه اللهُ وبايَعوا الْمُعْتَمِدَ على الله وفي ذُرِّيَتِه عُلماءُ وخُطَباءُ[1] .

المُعْتَمِدُ على الله :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمةِ « الْمُعْتَمِدِ على الله » : الخليفةُ ، أبو العبَّاس ، وقيل : أبو جَعْفر بنُ المُتوَكِّل على الله جَعفرُ بنُ المُعْتَصم وُلدَ سنة تسع وعشرين ومئتين .

اسْتُخلِفَ بعدَ قتلِ المُهْتَدي بالله ، سنةَ ستٍّ وخَمسينَ ومئتين[2] .

وانْهَمَكَ في اللَّهْوِ واللَّعب ، واشْتَغَل عن الرَّعيَّة ، فكَرِهُوه ، وأحبُّوا أخاه المُوفَّق[3] .

وفي رَجبَ أيضاً اسْتولَت الزِّنجُ على البَصْرَة والأُبُلَّة والأهْواز ، وقَتلوا وسَبوا ، وهم عَبيدُ العَوام ، وغَوغاءُ الأنْذال المُلتفِّين على الخَبيث وقام بالكوفة عليُّ بنُ زيد العلويّ ، واسْتفحَل أمْرُه ، وهَزمَ جَيشَ الخَليفَة ، وظَهرَ أخُوه حَسنُ بنُ زيد بالريِّ .

وقتلت الزِّنجُ بالأُبُلَّة نحوَ ثلاثين ألفاً فحارَبَهم سَعيدٌ الحاجب ثم قَووا عليه ، وقَتلوا خَلقاً من جُندِه ، وتمَّت بينهم وبين العَسكر وَقَعاتٌ .

---

(١) انظر السير : (الْمُهْتَدي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٠ .
(٢) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣١ .
(٣) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣١ .

وفي سنة ثمانٍ وخمسين ومئتين جرت وقعة بين الزَّنج وبين العَسْكَر ، فانهَزَمَ العَسْكَرُ وقُتلَ قائدُهم مَنصور ، ثم نَهضَ أبو أحمد المُوفَّق ومُفلح في عَسكَرٍ عَظيم إلى الغاية لحرب الخبيث ، فانهزمَ جَيشُه ، ثم تهيأ وجمع الجيوش وأقبلَ فتمت ملحمةٌ لم يُسمعْ بمثلها ، وظهر المسلمون ، ثم قُتل مُقدَّمهم مُفلح فانهَزمَ الناسُ ، واسْتباحَهم الزَّنجُ ، وفرَّ المُوفَّقُ إلى الأُبُلَّة ، وتراجَعت إليه العَساكِرُ ، ثم التَقى الزَّنجُ فانتَصَر ، وأسَرَ طاغيتهم يَحْيىٰ ، وبَعَثَ به إلىٰ سامرَّاء فذُبح ، ووَقَع الوَباءُ ، فمات خَلائقُ ، ثم التَقَى المُوفَّقُ الزَّنجَ فانكَسرَ ، وقُتلَ خَلقٌ من جَيشِه ، وتَحيَّزَ هو في طائفةٍ ، وعَظُمَ البلاءُ وكادَ الخَبيثُ أن يَملِكَ الدنيا ، وكان كذَّاباً مُمَخْرِقاً ، مَاكراً ، شُجاعاً ، داهيَةً ، ادَّعَىٰ أنَّه بُعثَ إلى الخَلق ، فردَّ الرسالَة ، وكان يَدَّعي علمَ الغَيبِ ، لَعنَه الله .

ودَخلت سَنةُ تسعٍ وخَمسينَ ومئتَين ، فعَرض المُوفَّقُ جَيشَه بواسِط ، وأمَّا الخبيثُ فدخلَ البَطائحَ ، وبَثَّ حولَه الأنهارَ ، وتَحصَّنَ ، فهَجمَ عليه الموفَّقُ ، وأحْرقَ وقَتلَ فيهم ، واسْتنقَذَ من السَّبايا ، ورُدَّ إلىٰ بَغْدادَ ، فسارَ خَبيثُ الزَّنج إلى الأهواز ، فوَضعَ السَّيفَ ، وقتلَ نحواً من خَمسين ألفاً ، وسَبىٰ أرْبعينَ ألفاً ، فسارَ لحَرْبِه مُوسَىٰ بنُ بُغا ، فتَحارَبا بضعَةَ عشرَ شَهْراً ، وذهب تحتَ السَّيفِ خَلائقُ من الفَريقين ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .

وفي سنة ستٍ وستين ومئتين ، أقبلَت الرُّومُ إلىٰ ديار رَبيعَة ، وقَتلوا وسَبوا ، وهَربَ أهلُ الجَزيرة ، واستباحت الزَّنجُ رامَهُرْمُز .

وفي سنة سبعٍ وستين ومئتين كَرُّوا علىٰ واسِط ، وعَثروا أهلَها ، فجهَّزَ المُوفَّقُ ولدَه العبَّاس الذي صارَ خليفَة ، فقَتلَ وأسَرَ ، وغرَّقَ سُفُنَهم ، ثم تجمَّعَ جَيشُ الخَبيثِ ، والتقوا بالعبَّاس فهَزَمهم ، ثم التقوا ثالثاً فهزمَهم ، ودام القِتالُ شَهْرين ، ورغبوا في أبي العبَّاس ، واستأمن إليه خلقٌ منهم ، ثم حارَبَهم حتىٰ دَوَّخَ فيهم ، ورَدَّ سالماً غانماً ، وبَقي له وَقعٌ في النُّفوس ، وسار إليهم المُوفَّقُ في جَيشٍ كَثيفٍ في الماء والبرِّ ، ولَقيَه ولدُه ، والْتَقوا الزِّنج فهَزموهم أيضاً ، وخارت قُوىٰ جَيش الخَبيث ، وألحَّ المُوفَّقُ في حربهم ونازَلَ طِهْثيَّا ، وكان عليها خمسةُ أسوار ، فأخَذَها ، واسْتخلَصَ من

أَسْرِ الخُبَثاء عَشرةَ آلافِ مُسْلِمَة ، وهَدَمَها ، وكان المُهَلَّبيُّ القائدُ مُقيماً بالأهْواز في ثلاثين ألفاً من الزَّنج ، فسار المُوفَّقُ لحَرْبه ، فانهَزَم ، وتفرَّق عسكرُه ، وطلَبَ خلقٌ منهم الأمان ، فأمنَّهم ، ورَفَق بهم ، وخَلعَ عليهم ، ونزلَ المُوفَّقُ بتُسْتَر ، وأنفق في الجيش ، ومهَّدَ البلاد ، وجهَّزَ ابنَه المُعْتَضد أبا العبَّاس لحَرب الخَبيث ، فجهَّزَ له سُفناً فاقْتَتلوا ، وانتصر أبو العباس وكتبَ كتاباً إلى الخَبيث يُهدِّدُه ، ويَدعُوه إلى التَّوبَة ممَّا فعل ، فعَتا وتَمرَّدَ وقَتلَ الرسُولَ ، فسارَ المُوفَّقُ إلىٰ مَدينَة الخَبيث بنَهْر أبي الخَصيب ، ونَصَبَ السَّلالمَ ، ودَخلوها ، ومَلكُوا السُّورَ ، فانْهَزمَ الزَّنج ، ولمَّا رأى المُوفَّقُ حَصانَتَها اندهَشَ ، واسمُها المُخْتارَة ، وهالَه كثرةُ المقاتلة بها ، لكن استأمنَ إليه عدّة فأكرَمَهم .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : ونَقلتُ تَفاصيلَ حُروب الزَّنج في « تاريخ الإسلام » ، فمِن ذلك لمَّا كان في شَعبان سنة سبع وستين ومئتين ، برَزَ الخَبيثُ وعسكرُه فيما قِيلَ في ثلاث مئة ألفٍ ما بين فارسٍ وراجلٍ ، فركبَ المُوفَّقُ في خَمسين ألفاً ، وحَجزَ بينهم النهرُ ، ونادى المُوفَّقُ بالأمان ، فاسْتأمنَ إليه خَلقٌ ، ثم إنَّ المُوفَّقَ بَنىٰ بإزاءِ المُخْتارَة مَدينةً علىٰ دِجْلَة سَمَّاها المُوَفَّقيَّة ، وبَنىٰ بها الجامع والأسْواق ، وسَكنها الخَلقُ واستأمن إليه في شهرٍ خَمسةُ آلاف ، وتَمَّت مَلحمةٌ في شَوَّال ونُصِرَ المُوفَّقُ .

وفي ذي الحِجَّة عَبرَ المُوفَّقُ بجَيشِه إلىٰ ناحية المُخْتارَة ، وهَربَ الخَبيثُ ، لكنَّه رَجعَ وأزَالَ المُوفَّقَ عنها .

وفي ثمانٍ وستين ومئتين تتابع أجْنادُ الخَبيثِ في الخُروج إلى المُوفَّق ، وهو يُحسِنُ إليهم ، وأتاه جَعْفَرُ السَّجَّانُ صاحبُ سِرِّ الخَبيث ، فأعطاه ذَهباً كثيراً ، فرَكب في سَفينة حتىٰ حاذَىٰ قَصرَ الخَبيث ، فصاحَ إلىٰ متىٰ تَصْبرون على الخَبيث الكَذَّاب ؟ وحَدَّثَهم بما اطَّلَع عليه من كَذِبه وكُفْرِه ، فاسْتأمن خَلقٌ ، ثم زَحفَ المُوفَّقُ على البَلد ، وهَدَّ من السُّور أماكن ، ودَخلَ العَسكرُ من أقْطارِها واغْتَرُّوا ، فكَرَّ عليهم الزَّنجُ ، فأصابوا منهم ، وغَرِقَ خَلقٌ ، ورَدَّ المُوفَّقُ إلىٰ بلَده حتىٰ رَمَّ شَعثَه ، وقَطع الجَلْبَ على الخَبيثِ ، حتىٰ أكَلَ أصحابُه الكِلابَ والمَيتَةَ ، وهَربَ خَلقٌ ، فسَألَهم المُوفَّقُ ،

فقالوا : لنا سَنة لمْ نرَ الخُبزَ وقُتلَ بهبُودُ أكبرُ أمراءِ الخَبيث ، وقَتلَ الخَبيثُ ولَدَه لكونه هَمَّ أنْ يخرُجَ إلى المُوفَّقِ .

وفي سنة تسع وستين ومئتين ، دَخلَ المُوفَّقُ المُخْتارَة عَنوَةً ، ونادى الأمانَ ، وقاتَلَ حاشيةُ الخَبيث دُونَه أشَدَّ قتال ، وحازَ المُوفَّقُ خَزائنَ الخَبيث ، وألقى النارَ في جَوانب المَدينة ، وجُرحَ المُوفَّقُ بسَهمْ فأصْبحَ على الحَرب ، وآلمه جُرحُه ، وخافوا ، فخَرَجوا حتىٰ عُوفي ، ورَمَّ الخَبيثُ بلَدَه .

وفي شَوَّال كانت المَلْحَمةُ الكُبرىٰ بين الخَبيث والمُوفَّق ، ثم وَقَعَت الهَزيمةُ على الزَّنج ، وكانوا في جُوعٍ شَديد وبَلاءٍ ، لا خَفَّفَ اللهُ عَنهم ، التقى الخَبيثُ والمُوفَّقُ ، فانْهَزَمت الزَّنج أيضاً ، وأحاطَ الجَيشُ ، فحَصَروا الخَبيثَ في دار الإمارة ، فانملَسَ منها إلىٰ دار المُهَلَّبيِّ ، أحَدُ قُوَّادِه ، وأُسِرَت حُرَمه ، فكان النساءُ نحوَ مئة ، فأحسَنَ إليهنَّ المُوفَّقُ ، وأُحْرِقَت الدَّارُ ، ثم جَرت مَلحَمَةٌ بين المُوفَّق والخَبيث في أوَّل سنة سبعين ومئتين ، ثم وَقعةٌ أخرىٰ قُتلَ فيها الخَبيثُ ، لا رَحمَه اللهُ ، وكان قد اجْتَمعَ من الجُند ، ومن المُطَّوعَة مع المُوفَّق نحو ثلاث مئة ألف ، وفي آخر الأمر شَدَّ الخَبيثُ وفُرسانُه فأزالوا النَّاسَ عن مَواقِفِهم ، فحَملَ المُوفَّقُ فهَزَمَهم ، وساقَ وراءَهم إلىٰ آخر النَّهر ، فبيْنا الحَربُ تَستعرُ إذ أتىٰ فارسٌ إلى المُوفَّق وبيده رأسُ الخَبيث فما صَدَّق ، وعَرَضَه علىٰ جماعة ، فقالوا : هو هو فترجَّلَ المُوفَّقُ والأُمراءُ وخَرُّوا ساجدين لله وضَجُّوا بالتَّكبير ، وبادَرَ أبو العبَّاس بنُ المُوفَّق في خَواصِّه ، ومَعه رأسُ الخَبيث علىٰ قَناةٍ إلىٰ بَغْدادَ ، وعُملت قِبابُ الزِّينَة ، وكان يوماً مشهوداً ، وشَرعَ الناسُ يَتراجعون إلى المَدائن التي أخذَها الخَبيثُ ، وكانت أيّامُه خَمسَ عَشرةَ سنة .

قال الصُّوليُّ : قد قَتلَ من المسلمين ألفَ ألفٍ وخَمسِ مئة .

قال الذهبيُّ : وكذا عَددُ قَتلَىٰ بابَك .

قال : وكان يصْعَدُ علىٰ مِنْبَرِه بمَدينتِه ، ويَسُبُّ عُثمانَ وعَليّاً وطَلحَةَ وعائشةَ كمَذْهب الأزارِقَة ، وكان يُنادِي على المَسبيَّة العَلويَّة في عَسكره بدِرْهَمين ، وكان عند

الزَّنجي الواحد نحو عَشر عَلَوِيَّات ، يَفترِشُهنَّ ويَخْدُمْنَ امرأتَه[1] .

وفي سَنةِ سَبعِين ومئتين نازَلتِ الرُّومُ في مِئَةِ ألفٍ طَرَسُوسَ ، فبيَّتَهم يازْمانُ الخادِمُ فقِيلَ : قُتِلَ منهُم سَبعُونَ ألفاً ، وقُتِلَ مَلِكُهُم ، وأُخِذَ منهم صَلِيبُ الصَّلَبُوت فالحَمدُ لله علىٰ هـٰذا النَّصْرِ العَزِيزِ الذي لَمْ يُسْمَع بمِثْلِه ، مع تمَامِ المِنَّةِ على الإسْلامِ بمَصْرَعِ الخَبِيث .

وعادَ المُوَفَّقُ إلىٰ بَغْدَادَ مَرِيضاً من نِقْرسٍ ، ثمَّ صَارَ داءَ الفِيلِ وقَاسَىٰ بلاءً ، فكان يقولُ : في دِيوانِي مِئَةُ ألفِ مُرْتَزِقٍ ، ما أَصْبحَ فيهِم أسْوَأُ حالاً منِّي ، ثمَّ ماتَ .

وفي سَنَةِ تَسعٍ وسَبعينَ خُلِعَ المُفَوَّضُ بنُ المُعْتَمِد من وِلايَةِ العَهْدِ ، وقُدِّمَ عليه أبو العَبَّاس المُعْتَضِدُ بنُ المُوَفَّق نَهَضَ بذَلِك الأُمَرَاءُ .

وفيها مَنَعَ أبو العَبَّاسِ القُصَّاصَ والمُنَجِّمينَ ، وأَلْزَمَ الكُتبيِّينَ أنْ لا يَبِيعُوا كُتُبَ الفَلْسَفَةِ والجَدَلِ ، وضَعُفَ أمْرُ عَمِّه المُعْتَمِد معَه ، ثمَّ ماتَ فَجْأةً لإحْدَىٰ عَشر ليلةً بَقِيَتْ من رَجَبَ سَنَةَ تِسْعٍ وسَبْعِينَ ومِئَتَينِ ببَغْدَادَ ونُقِلَ فدُفِنَ بسَامرَّاءَ ، فكانت خِلافَتُه ثلاثاً وعِشْرينَ سَنةً وثلاثةِ أيَّامٍ[2] .

مات الْمُعْتَمِدُ على الله بالقَصْرِ الحَسَنيِّ مع النُدَماء والْمُطْربينَ ، أكَلَ في ذلك اليوم رُؤوسَ الجِدَاء ، فيُقالُ : سُمَّ ، وماتَ مَعه مَنْ أكلَ منها ، وقِيلَ : نامَ فغَمُّوه ببُساطٍ وقِيلَ : سُمَّ في كأسٍ ، وأدْخَلوا إليه إسْماعيلَ القاضي والشُّهودَ ، فلمْ يَرَوا به أثراً ، واستُخلِفَ أبو العبَّاس المُعْتَضِدُ وكانت عُرَيبُ جاريةُ المُعتَمد ذاتَ أموالٍ جَزيلة ، ولها في المُعتَمد مَدائحُ ، وكان يَسكَرُ ويُعَرْبِدُ على النُّدَماء ، سامَحَه الله ، وكانت دَولَتُه بِهِمَّةِ أخيه المُوفَّق لا بأس بها[3] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمةِ « الخَبيث » : بعد مَصْرع المُتَوكِّل وابنِه ، وأولـٰئك الخُلفاء المُستضعَفين المَقتولين ، نَقصَ أمرُ الخِلافَة جداً ، وطمِعَ كلُّ شَيطان في

---

(١) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣١ .
(٢) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٤ .
(٣) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٤ .

التوثُّب ، وخَرجَ الصَّفَّارُ بخُراسان ، واتَّسعت مَمالكُه ، وخرجَ هـٰذا الخَبيثُ بالبَصْرَة ، وفعلَ ما فعَل ، وهاجَت الرُّومُ ، وعَظُمَ الخَطبُ[1] .

ثمَّ بعدَ سَنوات ثارت القَرامطَةُ والأعْرابُ ، وظَهرَ بالمَغْربِ عُبَيْدُ الله ، المُلقَّبُ بالمَهْديِّ ، وتَملَّك ثم دامت الدولة في ذُرِيَّة الباطنيَّة إلىٰ نُورِ الدين ، رَحمَه الله[2] .

(هـ) انْهِمَاكُ بَعضِ الخُلَفَاء باللهوِ واللَّعِب :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الخَليفةِ العَبَّاسيِّ « الْمُعْتَمِد على الله » : وانهمكَ في اللَّهْوِ واللَّعب ، واشْتَغَل عن الرَّعيَّة ، فكَرِهُوه ، وأحبُّوا أخاه المُوفَّق[3] .

مات الْمُعْتَمِدُ على الله بالقَصْرِ الحَسَنيِّ مع النُدَماء والْمُطْربينَ ، أكَلَ في ذلك اليوم رُؤوسَ الجِدَاء ، فيُقالُ : سُمَّ ، وماتَ مَعه مَنْ أكلَ منها ، وقِيلَ : نامَ فغَمُّوه ببُساطٍ وقِيلَ : سُمَّ في كأسٍ ، وأدْخَلوا إليه إسْماعيلَ القاضي والشُّهودَ ، فلمْ يَرَوا به أثراً ، واستُخلِفَ أبو العبَّاس المُعْتَضِدُ وكانت عُرَيبُ جاريةُ المُعتَمد ذاتَ أموالٍ جَزيلة ، ولها في المُعتَمد مَدائحُ ، وكان يَسكَرُ ويُعَرْبِدُ على النُّدَماء ، سامَحَه الله ، وكانت دَولَتُه بِهِمَّةِ أخيه المُوفَّق لا بأس بها[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الخَليفةِ العَبَّاسيِّ « الْمُقْتَدِر » : قال أبو عليٍّ التَّنوخيُّ : كان الْمُقْتَدِرُ جَيِّدَ العَقْلِ ، صَحيحَ الرَّأيِّ ، ولكنَّه كان مُؤْثِراً للشَّهَواتِ ، لقَدْ سَمعتُ عليَّ بنَ عيسَى الوَزيرَ يقولُ : ما هُوَ إلاَّ أنْ يَتْرُكَ هـٰذا الرَّجُلُ ـ يَعْني الْمُقْتَدِرَ ـ النَّبيذَ خَمْسَةَ أيّامٍ فكانَ رُبَّما يكونُ في أصالَةِ الرَّأي كالْمَأمُونِ والْمُعْتَضِد[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ مَنْهُوماً باللَّعِبِ ، والجَواري ، لا يَلْتفِتُ إلىٰ أعْباء الأمُورِ ، فدَخَلَ عليه الدَّاخِلُ ، وَوَهَنَ دَسْتُه[6] .

---

(١) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٤ .
(٢) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦٤ .
(٣) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣١ .
(٤) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٤ .
(٥) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/٤٣ـ٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١١٨٠ .
(٦) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/٤٣ـ٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٠ .

(و) تَسَلُّطُ الغَوْغَاء والحَراميّة علىٰ دارِ الخَلافَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الخَليفةِ العَبَّاسيِّ « الْمُقْتَدِر » : وتجمَّع في سَنةِ ثَمانٍ وثَلاثٍ مئة من الغَوْغاء ببغْدادَ عَشْرَةُ آلافٍ ، وفَتَحوا السُّجُونَ وقاتَلوا الوَزيرَ ووُلاةَ الأمُورِ ، ودامَ القِتالُ أيّاماً ، وقُتلَ عِدَّة ، ونُهِبَتْ أمْوالُ النَّاسِ ، واخْتَلَّت أحْوالُ الخِلافَة جداً ، ومُحِقَتْ بُيُوتُ الأمْوالِ ، وفي سَنَةِ سِتَّ عَشَر وثَلاث مئة دَخلَ أبو طاهِر القِرْمِطيُّ الرَّحْبَة بالسَّيْفِ ، ثمَّ قَصَدَ الرَّقَّة ، وبدَّعَ ، وعَمِلَ العَظَائمَ ، وفي سَنَةِ سَبعَةَ عَشرَ وثَلاث مئة جَرَتْ خَبْطَةٌ ببَغْدادَ ، واقْتَتَلَ الجَيْشُ ، وتمَّ ما لا يُوصَف .

وأمَّا الرُّومُ فعَاثوا في الثُّغُورِ ، وفَعلوا العَظائمَ ، وبَذَلَ لَهم المسلمون الإتاوَة[1] .

(ز) سُوءُ سِيرَة بَعض خُلَفَائها :

القَاهِرُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الخَليفةِ العَبَّاسيِّ « القَاهِر بالله » : الخَليفَة أبو مَنْصور مُحمَّدُ بنُ الْمُعْتَضِدِ بالله أحمدَ بنِ الموفَّق طَلْحَةَ ابنِ الْمُتَوَكل .

اسْتُخلفَ سَنةَ عِشرينَ وثَلاثِ مئة وَقْتَ مَصْرَع أخيه الْمُقْتَدِر فيه شَرٌّ وجَبرُوتٌ وطَيْشٌ[2] .

بايَعُوه بعدَ الْمُقْتَدِر ، فصادَرَ حاشِيَةَ أخيه وعذَّبَهم ، وضَربَ أُمَّ الْمُقْتَدِر بيدِه ، وهي عَليلَةٌ ثم ماتَت مُعلَّقةً بحَبْلٍ ، وعذَّبَ أُمَّ مُوسَى القَهْرمانَة ، وبالَغ في الإساءَةِ ، فنَفَرَت منه القُلوبُ[3] .

ولم يكن القَاهِرُ مُتَمَكِّناً من الأمُورِ ، وحَكمَ عليه عليُّ بنُ بُليق الرَّافِضيُّ الذي عَزَمَ علىٰ سَبِّ مُعاوِيَةَ رضي الله عنه على الْمَنابِر فارْتَجَّت العِراقُ ، وقُبضَ علىٰ شَيخ الحَنابلَة البَرْبَهاريّ ، ثم قَوِيَ القَاهِرُ ونَهَبَ دُورَ مُخالفيه ، وطَيَّن علىٰ وَلدِ أخيه الْمُكْتَفي بين

---

(١) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/ ٤٣ـ ٥٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٨٠ .

(٢) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٨٦ .

(٣) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٨٧ .

حَيْطَين وضَربَ ابنَ بُليق وسَجنَه ، ثم أمَرَ بذَبْحِه ، وبذَبْحِ أبيه ، وذَبَحَ بعدَهما مُؤنِساً الكَبيرَ ويُمناً وابنَ زيرك وبَذلَ للجُند العَطاءَ وعَظُمَ شأنُه ونادَىَ بتَحْريم الغِناءِ ، والخَمْرِ ، وكَسْرِ المَلاهي ، وهو مع ذلك يَشربُ الْمَطْبوخَ والسُّلافَ ، ويَسكَرُ ويَسْمَعُ القَيْناتِ واسْتَوزَرَ غير واحدٍ وقَتلَ أبا السَّرايا بنَ حمدانَ وإسْحاقَ النُّوبَخْتي ألقاهُما في بِئْر ، وطُمَّت لكَونِهما زَايَداه في جارِيَة قَبلَ الخِلافَة وبَقيَ ابنُ مُقْلَة في اخْتِفائِه يُراسِلُ الجُندَ ويُشَغِّبُهم على القَاهِرِ ، ويَخرُجُ مُتنكِّراً في زِيٍّ عَجميٍّ ، وفي زِيِّ شَحَّاذٍ ، وأعْطَىٰ مُنَجِّماً ذَهباً ليَقُولَ للقُوَّادِ : عَليكُم قطعٌ من القَاهِرِ ثم خُلعَ وأُكْحِلَ بمِسْمارٍ لسُوءِ سِيرَتِه وسَفْكِهِ الدِّماءَ وكانت خِلافَتُه سَنةً ونِصْفاً وأُسْبوعاً[1] .

قالَ الصُّولي : كانَ أهْوَجَ ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، كَثيرَ التَّلوُّنِ ، قَبيحَ السِّيرَةِ ، مُدْمِنَ الخَمْرِ ، ولَوْلا جَوْدَةُ حاجِبه سَلامَةَ لأهْلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وكانَ قد صَنَعَ حَرْبَةً يَحْملُها فلا يَطْرَحُها حتىٰ يَقْتلَ إنْساناً[2] .

ثم أُخْرِجَ إلىٰ دارِ ابنِ طاهِرٍ ، فكان تارَةً يُحبَسُ ، وتارَةً يُمْهَلُ ، فوقَفَ يوماً بالجَامِعِ بينَ الصُّفوفِ ، وعليه جُبَّةٌ بَيْضاءُ ، وقالَ : تَصَدَّقوا عليَّ ، فأنا مَنْ قد عَرَفْتم .

ثم ماتَ في سَنةِ تِسْعٍ وثَلاثينَ وثَلاثِ مئة ، وله ثَلاثٌ وخَمْسونَ سَنةً[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٧ .

(٢) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٧ .

(٣) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/١١٨٧ .

مُتَفَرِّقَاتٌ في المُلُوك والخُلَفَاء والأُمَراء

١ـ الخُلَفَاءُ الصَّالِحُون :

عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيز :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَتِه : ابنُ مَرْوانَ بنِ الحَكَم بنِ أبي العاص ، الإمامُ الحافِظُ العلاَّمَة الْمُجْتَهِدُ الزاهِدُ العابِدُ السيِّدُ أميرُ المؤمنينَ حقّاً أبو حَفْص ، القُرَشيُّ الأُمَويُّ الْمَدَنيُّ ثم الْمِصْريُّ ، الخَليفَةُ الزاهِدُ الراشِدُ أشَجُّ بَني أُمَيَّة[١] .

وكان من أئمَّة الاجتهادِ ، ومن الخُلفاءِ الرَّاشدينَ رَحْمَةُ الله عليه .

قال ابنُ سَعد في الطبَقة الثالثَة من تابِعي أهْلِ المَدينة فقالَ : أمُّه هي أُمُّ عاصِم بنتُ عاصِم بنِ عُمرَ بنِ الخَطَّاب ، قالوا : وُلدَ سَنةَ ثلاثٍ وسِتِّين ، قالَ : وكانَ ثِقَةً مَأموناً ، له فِقْهٌ وعِلمٌ ووَرَعٌ ، ورَوَىٰ حَديثاً كثيراً ، وكان إمامَ عَدلٍ رَحمَةُ الله ورَضيَ عنه[٢] .

ورَوىٰ ضِمَام بنُ إسْماعيلَ عن أبي قَبيل : أنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العَزيزِ بَكَىٰ وهو غُلامٌ صَغيرٌ فأرْسَلت إليه أُمُّه ، وقالت : ما يُبكيكَ ؟ قالَ : ذَكرتُ الْمَوْتَ .

قالَ : وكان يومئذٍ قد جَمعَ القُرآنَ ، فبَكَت أُمُّه حين بَلغَها ذلك[٣] .

وقالَ سَعيدُ بنُ عفير : حَدَّثنا يَعقوبُ ، عن أبيه أنَّ عبدَ العَزيزِ بنَ مَرْوانَ بَعثَ ابنَه عُمَرَ إلى الْمَدينَة يَتأدَّبُ بها ، وكَتبَ إلىٰ صالِحِ ابنِ كَيْسانَ يَتعاهَدُه ، وكان يُلزِمُه الصَّلَوات ، فأبْطأ يَوماً عن الصَّلاةِ ، فقالَ : ما حَبسَك ؟ قالَ : كانت مُرَجِّلَتي تُسَكِّنُ شَعْري ، فقالَ : بَلغَ من تَسْكينِ شَعْرِكَ أنْ تُؤثِرَه على الصَّلاةِ ، وكَتبَ بذلك إلىٰ والِدِه ، فبَعثَ عبدُ العَزيزِ رَسُولاً إليه فما كلَّمَه حتىٰ حَلقَ شَعْرَه .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٥/عمر بن عبد العزيز .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٦/ ١ .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٦/ ٢ .

وقال أبو مُسْهر : وَلِيَ عُمَرُ الْمَدينَةَ في إمْرَةِ الوَليدِ من سَنةِ سِتٍّ وثَمانينَ إلىٰ سَنةِ ثَلاثٍ وتِسْعين[1] .

وقالَ ابنُ سَعد : أخبَرَنا مُحمدُ بنُ عُمَرَ ، حدَّثنا ابنُ أبي الزِّناد ، عن أبيه ، قال : لَمَّا قَدِمَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ المَدينَةَ وَالياً ، فصلَّى الظُّهْرَ دَعا بعَشْرَة : عُرْوَةَ ، وعُبَيدَ الله ، وسُلَيمانَ بنَ يَسار ، والقاسِم ، وسالِماً ، وخارِجَة ، وأبا بَكْر بنَ عبدِ الرحمَـٰن ، وأبا بَكْر بنَ سُليمان ابنَ أبي حثمَة ، وعبدَ الله بنَ عامِر بن رَبيعَة ، فحَمِدَ اللهَ وأثْنَىٰ عليه ، ثم قالَ : إنِّي دَعَوْتُكم لأمْرٍ تُؤجَرُون فيه ، ونَكونُ فيه أعْواناً على الحَقِّ ، ما أُريدُ أنْ أقْطَعَ أمْراً إلاَّ برأيكم ، أو برأي مَنْ حَضرَ منكم ، فإنْ رأيتم أحَداً يَتعدَّىٰ ، أو بَلغَكم عن عامِلٍ ظُلامَة ، فأُحَرِّجُ بالله علىٰ مَنْ بَلغَه ذلك إلاَّ أبْلغَني فجَزَوْهُ خيراً ، وافْتَرَقوا[2] .

وعن أبي جَعْفَر الباقِر قالَ : لِكُلِّ قَومٍ نجيبَةٌ ، وإنَّ نَجيبَةَ بَني أُمَيَّة عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز ، إنَّه يُبعَثُ أُمَّةً وَحْدَه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد كانَ هـٰذا الرَّجُلُ حَسَنَ الخَلْقِ والخُلُقِ ، كامِلَ العَقْلِ ، حَسَنَ السَّمْتِ ، جَيِّدَ السِّياسَة ، حَريصاً على العَدْلِ بكُلِّ مُمْكنٍ ، وافِرَ العِلمِ ، فَقيهَ النَّفْسِ ، ظاهِرَ الذَّكاءِ والفَهْم ، أوَّاهاً مُنيباً ، قانتاً لله ، حَنيفاً زاهِداً مع الخِلافَة ، ناطِقاً بالحَقِّ مع قِلَّة الْمُعينِ ، وكَثْرَةِ الأُمَراء الظَّلمَة الذينَ مَلُّوه وكَرِهوا مُحاقَقَتَه لهم ، ونَقْصَه أُعْطياتِهم ، وأخْذَه كثيراً مِمَّا في أيديهم مِمَّا أخَذوه بغَير حَقٍّ ، فما زالوا به حتىٰ سَقَوْه السُّمَّ ، فحَصُلت له الشَّهادَةُ والسَّعادَةُ ، وعُدَّ عند أهْلِ العِلمِ من الخُلفاءِ الرَّاشِدينَ ، والعُلماءِ العامِلينَ[3] .

عن عبدِ العَزيزِ بنِ يَزيد الأيْلي قالَ : حَجَّ سُليمانُ بنُ عبد الْمَلِك ، ومعه عُمرُ بنُ عبد العَزيز ، فأصابَهم بَرْقٌ ورَعْدٌ حتىٰ كادَت تَنْخَلع قُلوبُهم ، فقالَ سُليمانُ : يا أبا

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٦ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٨٦ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٨٧ .

حَفْص! هلْ رَأيتَ مثلَ هـٰذه اللَّيلَة قَطُّ ، أو سَمعتَ بها ؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنين! هـٰذا صَوْتُ رَحْمَةِ الله ، فكيف لَوْ سَمعتَ صَوتَ عَذابِ الله![1] .

عن نافِع قالَ : كانَ ابنُ عُمرَ يَقولُ : لَيتَ شِعْري! مَنْ هـٰذا الذي مِنْ وَلَدِ عُمرَ ، في وَجْهِهِ عَلامَةٌ ، يَملأُ الأرضَ عَدْلاً[2] .

عن عبدِ الرحمَـٰن بنِ حسَّان الكناني قالَ : لَمَّا مَرضَ سُليمانُ بدابِق قال : يا رَجاءُ! أَسْتخلِفُ ابني ؟ قالَ : ابنُك غائبٌ ، قالَ : فالآخَرُ ؟ قالَ : هو صَغير ، قالَ : فمَنْ تَرَى ؟ قال : عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز ، قالَ : أتَخَوَّفُ بَني عبدِ الملِك أنْ لا يَرْضَوا ، قالَ : فوَلِّه ، ومن بَعدِه يَزيدُ بنُ عبدِ الملك ، وتَكتُبُ كتاباً وتَختِمُه ، وتَدعُوهم إلىٰ بَيْعَةٍ مَخْتومٍ عَليها ، قالَ : فكَتبَ العَهْدَ وخَتمَه ، فخَرجَ رَجاءُ وقالَ : إنَّ أميرَ المؤمنينَ يَأمُرُكم أنْ تُبايعوا لِمَنْ في هـٰذا الكتابِ ، قالوا : ومَنْ فيه ؟ قالَ : مَخْتومٌ ، ولا تُخْبَرون بمَنْ فيه حتىٰ يَموتَ ، فامْتَنَعوا ، فقالَ سُليمانُ : انْطَلِقْ إلىٰ أصْحابِ الشُّرَط ، ونادِ الصَّلاةُ جامِعَة ، ومُرْهُم بالبَيْعَة ، فمَنْ أبَىٰ ، فاضْرِبْ عُنقَه ، ففعلَ فبَايَعوا ، قالَ رَجاءُ : لَمَّا خَرجوا ، أتاني هِشامٌ في مَوْكبه ، فقالَ : قد عَلمْتُ مَوْقِفَكَ مِنَّا ، وأنا أتَخوَّفُ أنْ يَكونَ أميرُ المؤمنينَ أزالَها عَنِّي ، فأَعْلِمْني ما دامَ في الأمْرِ نَفَسٌ ، قُلتُ : سُبحانَ الله!! يَسْتَكْتِمُني أميرُ المؤمنينَ وأُطلِعُك ، لا يَكونُ ذلك أبداً ، فأدارَني وألاصَني[3] ، فأبيتُ عليه ، فانْصَرفَ ، فبَينا أنا أسيرُ إذ سَمعتُ جَلبَةً خَلفي ، فإذا عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز ، فقالَ : يا رَجاءُ! قد وَقعَ في نَفْسي أمْرٌ كَبيرٌ من هـٰذا الرَّجُل ، أتَخوَّفُ أنْ يَكونَ جَعلَها إليَّ ولَستُ أقومُ بهـٰذا الشَّأنِ ، فأعْلِمْني ما دام في الأمر نَفَسٌ لعَلِّي أتَخلَّصُ ، قُلتُ : سُبحانَ الله! يَسْتَكْتِمُني أمراً أُطلِعُك عليه![4] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٧ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٧ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٨٧ .
(٤) يُقالُ ألاصه علىٰ كذا : إذا أداره على الشيء الذي يريده ، وقال عمر لعثمان في معنىٰ كلمة الإخلاص : هي الكلمة التي ألاصَ عليها النبيُّ صلى الله عليه وسلم عمَّه ـ يعني أبا طالب ـ عند الموت : شهادة أن لا إلـٰه إلاَّ الله ، أي : أداره عليها وراوده فيها .

وقد كان سُليمانُ بنُ عبد الملك من أمْثَلِ الخُلفاءِ ، نَشَرَ عَلَمَ الجِهادِ ، وجَهَّزَ مئةَ ألفٍ بَرّاً وبَحْراً ، فنازَلوا القُسْطَنْطِينيَّةَ ، واشتدَّ القِتالُ والحِصارُ عليها أكثرَ من سَنة[1] .

قالَ سَعيدُ بنُ عبدِ العَزيز : وَلِيَ سُليمانُ ، فقالَ لِعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز : يا أبا حَفْص! إنَّا وَلينا ما قد تَرَىٰ ، ولَمْ يَكُن لنا بتَدبيرِه عِلمٌ ، فما رَأيتَ من مَصْلَحَةِ العامَّة ، فمُرْ به ، فكانَ من ذلك عَزْلُ عُمَّالِ الحَجَّاجِ ، وأُقيمَت الصَّلواتُ في أوْقاتِها بعدما كانت أُميتَت عن وَقْتِها ، مع أُمورٍ جَليلَةٍ كانَ يَسْمَعُ من عُمَرَ فيها ، فقيلَ : إنَّ سُليمانَ حَجَّ ، فرأى الخَلائقَ بالْمَوْقِفِ ، فقالَ لِعُمرَ : أما تَرَىٰ هٰذا الخَلقَ الذي لا يُحْصي عَددَهم إلاَّ اللهُ ؟ قالَ : هَؤلاء اليومَ رَعيَّتُك ، وهُم غَداً خُصَماؤك ، فبَكَىٰ بُكاءً شَديداً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ عُمرُ له وَزيرَ صِدْقٍ ، ومَرِضَ بدابِق أُسْبُوعاً ، وتُوفِّيَ ، وكان ابنُه داودُ غائباً في غَزْوَة القُسْطَنْطينيَّة[2] .

قال عُبَيْدُ الله بنُ عُمرَ : خَطبَهم عُمرُ ، فقالَ : لَسْتُ بخَيرِ أحدٍ منكم ، ولكنِّي أثقَلُكم حِمْلاً[3] .

قال مَيمونُ بنُ مِهْران : إنَّ اللهَ كان يَتعاهَدُ النَّاسَ بنَبيٍّ بعدَ نَبيٍّ ، وإنَّ اللهَ تَعاهَدَ النَّاسَ بعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز[4] .

قالَ الليثُ : بدأ عُمرُ بنُ عبد العَزيز بأهْلِ بَيتِه ، فأخذَ ما بأيْديهم ، وسَمَّىٰ أمْوالَهم مَظالِمَ ، ففَزِعَت بَنو أُميَّة إلىٰ عَمَّتِه فاطِمَةَ بنتِ مَرْوان ، فأرْسَلت إليه : إنِّي قد عَناني أمْرٌ ، فأتَتْه ليلاً ، فأنْزلَها عن دابَّتِها ، فلمَّا أخَذَت مَجْلِسَها قالَ : يا عَمَّة! أنتِ أوْلَىٰ بالكَلام ، قالَت : تَكلَّم يا أميرَ المؤمنين ، قالَ : إنَّ اللهَ بَعثَ مُحمَّداً صلى الله عليه وسلم رَحمَةً ، ولَمْ يَبْعَثْه عَذاباً ، واخْتارَ له ما عنده ، فتَركَ لهم نَهْراً ، شُرْبُهُم سَواء ، ثم قامَ أبو بَكْر فتَركَ النَّهْرَ علىٰ حالِه ، ثم عُمَرُ ، فعَمِلَ عَملَ صاحِبَه ، ثم لَمْ يَزَلْ النَّهْرُ

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ١ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ٢ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ٣ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ٤ .

يَشتقُّ منه يَزيدُ ومَرْوانُ وعبدُ الملكِ ، والوَليدُ ، وسُليمانُ حتىٰ أفْضَى الأمْرُ إليَّ ، وقد يَبُسَ النَّهْرُ الأعْظَمُ ، ولَنْ يَرْويَ أهلَه حتىٰ يَعودَ إلىٰ ما كانَ عليه ، فقالَت : حَسْبُكَ ، فلَسْتُ بذاكِرَة لك شيئاً ، ورَجَعَت فأبْلَغتْهم كلامَه[1] .

عن عُمرَ بنِ أُسَيد ، قالَ : والله ، ما ماتَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز حتىٰ جَعلَ الرَّجلُ يَأتينا بالمالِ العَظيم ، فيَقولُ : اجْعلوا هـٰذا حَيثُ تَرَونَ ، فما يَبْرَحُ حتىٰ يَرجعَ بمالِه كلِّه ، قد أغْنَىٰ عُمرُ النَّاسَ[2] .

وعن ضَمْرَة ، قالَ : كَتبَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إلىٰ بَعضِ عُمَّاله : أمَّا بعدُ ، فإذا دَعَتْكَ قُدْرتُك على النَّاسِ إلىٰ ظُلمِهم ، فاذْكُر قُدرَةَ اللهِ تَعالَىٰ عَليكَ ، ونَفادَ ما تأتي إليهم ، وبقاءَ ما يأتون إليك[3] .

وعن عطاءَ بنِ أبي رَباح ، قال : حَدَّثتني فاطِمَةُ امرأةُ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز أنَّها دَخلَت عليه ، فإذا هو في مُصَلاَّه يده علىٰ خَدِّه ، سائلَة دُموعُه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! ألشَيء حَدَث ؟ قالَ : يا فاطِمَةُ! إنِّي تَقلَّدتُ أمْرَ أُمَّةِ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم ، فتَفكَّرتُ في الفَقيرِ الجائعِ ، والْمَريضِ الضَّائعِ ، والعَاري الْمَجْهودِ ، والْمَظْلوم الْمَقْهورِ ، والغَريبِ الْمأسُورِ ، والكَبيرِ ، وذِي العِيالِ في أقْطارِ الأرْضِ ، فعَلمتُ أنَّ رَبِّي سَيسْألُني عنهم ، وأنَّ خَصْمَهم دُونَهم مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فخَشيتُ ألاَّ تَثبُتَ لي حُجَّةٌ عند خُصومَتِه ، فرَحِمْتُ نَفسي فبَكيتُ[4] .

قالَ الفريابيُّ : حَدَّثنا الأوْزاعيُّ أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ جَلسَ في بَيتِه ، وعندَه أشْرافُ بَني أُمَيَّة ، فقالَ : أتحبون أن أُوَلِّي كلَّ رجل منكم جُنداً من هـٰذه الأجْنادِ ، فقالَ له رجلٌ منهم : لِمَ تَعرِضُ علينا ما لا تَفعَلُه ؟ قالَ : تَروْنَ بساطي هـٰذا ؟ إنِّي لأعلمُ أنَّه يَصيرُ إلىٰ بِلَى ، وإنِّي أكْرَهُ أنْ تُدنِّسوهُ عليَّ بأرجُلِكم ، فكيفَ أُوَلِّيكمُ ديني ؟

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٥٨٨ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٨٩ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٩ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٩ .

وأُوَلِّيكمُ أعْراضَ المسلمينَ وأبْشارَهم تَحكُمون فيهم ؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، قالوا : لِمَ ، أمَا لنا قَرابَةٌ ؟ أمَا لنا حَقٌّ ؟ قالَ : ما أنتم وأقْصَىٰ رَجلٍ من المسلمين عندي في هـٰذا الأمْرِ إلاَّ سَواءٌ ، إلاَّ رجلٌ حبَسَه عنِّي طُولُ شُقَّة[1] ، [2] .

عن حَفصِ بنِ عُمرَ بنِ أبي الزُّبَيْر ، قالَ : كَتبَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إلىٰ أبي بَكْر بنِ حَزْم : أنْ أَدِقَّ قَلَمَكَ ، وقارِبْ بين أسْطُرِكَ ، فإنِّي أكْرَه أنْ أُخْرِجَ من أمْوالِ المسلمينَ ما لا يَنْتَفعونَ به[3] .

قالَ مَيمونُ بنُ مِهْران : أقَمتُ عندَ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز ستَّةَ أشْهُر ، ما رَأيتُه غيَّر رِداءَه ، كانَ يَغسِلُ من الجُمُعَةِ إلى الجُمُعَةِ ، ويُبيِّنُ بشَيء من زَعْفَران[4] .

وقالَ الأوْزاعيُّ : كانَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إذا أرادَ أنْ يُعاقِبَ رَجُلاً حَبسَه ثلاثاً ، ثم عاقَبَه كَراهيَةَ أنْ يَعْجَلَ في أوَّلِ غَضَبِه[5] .

وعن مَسْلَمَةَ بنِ عبدِ المَلِك قالَ : دَخلتُ علىٰ عُمرَ وقَميصُه وَسخٌ ، فقُلتُ لامْرأتِه ـ وهي أخْتُ مَسْلَمَة : اغْسِلوهُ قالت : نَفعَلُ ، ثم عُدتُ فإذا القَميصُ علىٰ حالِه ، فقُلتُ لها ، فقالت : واللهِ ما لَه قَميصٌ غَيرُه[6] .

عن عَوْنِ بنِ الْمُعْتَمِر أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ قالَ لامرأتِه : عندَكِ دِرْهَمٌ أشْتَري به عِنباً ؟ قالَت : لا ، قالَ : فعِندَكِ فُلوسٌ ؟ قالَت : كلاَّ ، أنتَ أميرُ المؤمنينَ ولا تَقدِرُ علىٰ دِرْهَم ، قالَ : هـٰذا أهْوَنُ من مُعالَجَة الأغْلالِ في جَهَنَّم[7] .

قالَ يَحْيَىٰ بنُ حَمْزَة : حدَّثنا عَمرُو بنُ مُهاجِر أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيز كان تُسْرَجُ عليه

---

(١) الشُّقَّة : السفر الطويل البعيد ، وفي حديث وفد عبد قيس : إنا نأتيك من شقة بعيدة ، أي مسافة بعيدة .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٩/ ٤ .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩٠/ ١ .

(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩٠/ ٢ .

(٥) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩٠/ ٣ .

(٦) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩٠/ ٤ .

(٧) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩٠/ ٥ .

الشَّمعَةُ ما كانَ في حَوائجِ المسلمينَ ، فإذا فَرغَ ، أطْفأها وأسْرَجَ سِراجَه[1] .

وقالَ مَالِكٌ : أُتيَ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز بعَنبرَة ، فأمْسَك علىٰ أنفِه مَخافَةَ أنْ يَجدَ ريحَها ، وعَنه : أنَّه سَدَّ أنفَه ، وقد أُحْضِرَ مِسْكٌ من الخَزائن[2] .

وعن عبدِ العَزيز بنِ عُمرَ : قالَ لي رَجاءُ بنُ حَيْوَة : ما أكْمَلَ مَروءَةَ أبيكَ! سَمرتُ عندَه ، فَعَشِيَ السِّراجُ ، وإلىٰ جانبِه وَصيفٌ نامَ ، قُلتُ : ألا أُنبِّهُه ؟ قالَ : لا ، دَعْهُ ، قُلتُ : أنا أقُومُ ، قالَ : لا لَيسَ من مَروءَةِ الرَّجُل اسْتخدامُه ضَيفَه ، فقامَ إلىٰ بَطَّة[3] الزَّيْتِ وأصْلَحَ السِّراجَ ، ثم رَجعَ ، وقالَ : قُمتُ وأنا عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز ، ورَجَعتُ وأنا عُمرُ ابنُ عبدِ العَزيز[4] .

عن مُغيرةَ بن حَكيم : قالت فاطمةُ بنتُ عبد الملك بنِ مَرْوان امرأةُ عُمرَ بنِ عبد العزيز : حَدَّثنا مُغيرةُ أنَّه يكونُ في النَّاسِ مَن هو أكثرُ صلاةً وصياماً من عُمرَ بنِ عبد العزيز ، وما رأيتُ أحداً أشَدَّ فَرَقاً من ربِّه منه ، كان إذا صَلَّى العِشَاءَ قَعَدَ في مَسْجِدِه ، ثمَّ يَرفعُ يَدَيْه فلَم يَزَلْ يَبكي حتىٰ تَغلِبُه عَينُه ، ثم يَنتَبهُ ، فلا يزالُ يَدعُو رافعاً يديْه يَبكي حتىٰ تَغلِبُه عينُه ، يفعلُ ذلك ليلَهُ أجْمَع[5] .

ومن شعره[6] :

مَنْ كَانَ حِينَ تُصيبُ الشَّمْسُ جَبْهَتَهُ ... أو الغُبَارُ يَخافُ الشَّينَ والشَّعَثَا
ويَألَفُ الظِّلَّ كَيْ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ ... فسَوفَ يَسْكُنُ يَوْماً رَاغِماً جَدَثَا
في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ غَبْرَاء مُوحِشَةٍ ... يُطيلُ في قَعْرِهَا تَحْتَ الثَّرَى اللَّبَثَا
تَجَهَّزِي بِجَهَازٍ تَبْلُغِينَ بِه ... يا نَفْسُ قَبْلَ الرَّدَىٰ لَمْ تُخْلَقِي عَبَثَا

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٥٩٠ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٧/٥٩٠ .
(٣) البطة : الدبة بلغة أهل مكَّة ، لأنها تُعمل علىٰ شكل البطة من الحيوان ، وهي إناء كالقارورة .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٨/٥٩٠ .
(٥) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٩١ .
(٦) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩١ .

ومما روي له[1] :

أَيَقْظَانُ أَنْتَ اليَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمُ ... وكَيْفَ يُطِيقُ النَّوْمَ حَيْرَانُ هَائِمُ
فَلَوْ كُنْتَ يَقْظَانَ الغَدَاةِ لَخَرَّقَتْ ... مَدَامعَ عَيْنَيْكَ الدُّمُوعُ السَّوَاجِمُ
تُسَرُّ بمَا يَبْلَىٰ وتَفْرَحُ بالْمُنَى ... كَما اغْتَرَّ بِاللَّذَّاتِ في اليَوْمِ حَالِمُ
نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سهْوٌ وغَفْلَةٌ ... ولَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَىٰ لَكَ لاَزِمُ
وسَعْيُكَ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذلِكَ في الدُّنْيا تَعيشُ البَهَائِمُ

وعن مُجاهِد : قالَ لي عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز : ما يَقولُ فيَّ الناسُ ؟ قُلتُ : يَقولون مَسْحُور ، قالَ : ما أنا بمَسْحُور ، ثم دَعا غُلاماً له فقالَ : وَيْحَكَ! ما حَمَلَكَ علىٰ أنْ سَقَيْتَني السُّمَّ ؟ قالَ : ألفُ دينار أُعْطِيتُها ، وعلىٰ أنْ أُعْتَق ، قالَ : هاتِها ، فجاءَ بها ، فألقاها في بَيتِ المالِ ، وقالَ : اذْهَبْ حَيثُ لا يَراكَ أحَدٌ[2] .

وعن عَمرِو بنِ مُهاجِر قالَ : اشْتَهَىٰ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز تُفَّاحاً ، فأهْدَىٰ له رَجلٌ من أهْلِ بَيتِه تُفَّاحاً ، فقالَ : ما أطْيَبَ ريحَه وأحْسَنَه! وقالَ : ارْفَعهُ يا غُلامُ للذي أتَىٰ به ، وأقرِ مَوْلاكَ السَّلامَ ، وقُلْ له : إنَّ هَديَّتَكَ وَقَعت عندنا بحيثُ تُحبُّ ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! ابنُ عَمِّك ، ورَجلٌ من أهْلِ بَيتِك ، وقد بَلغَكَ أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يَأكُلُ الهَديَّةَ ، قالَ : وَيْحَكَ! إنَّ الهَديَّةَ كانت له هَديَّةً ، وهي اليومَ لنا رِشْوَةٌ[3] .

وعن أيُّوبَ قالَ : قيلَ لعُمرَ بنِ عبدِ العَزيز : يا أميرَ المؤمنين! لَوْ أتَيتَ المَدينَةَ ، فإنْ قَضَى اللهُ مَوْتاً في مَوْضِعِ القَبْرِ الرَّابِعِ مع رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، قالَ : واللهِ لأنْ يُعذِّبَني اللهُ بغَيرِ النَّارِ أحَبُّ إليَّ منْ أنْ يَعلمَ مِنْ قَلبي أنِّي أراني لذلك أهْلاً[4] .

وقالَ الْمُغيرَةُ بنُ حَكيم : قُلتُ لفاطِمَةَ بنتِ عبدِ الملك : كُنتُ أسْمَعُ عُمرَ بنِ عبدِ

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩١ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٩١ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٥٩١ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٩٢ .

العَزيز في مَرَضِه يَقولُ : اللَّهُمَّ أخْفِ عليهم أمْري ولَوْ ساعَة ، قَالت : قُلتُ له : ألا أخْرُجُ عَنْكَ ، فإنَّكَ لَمْ تَنَمْ ، فخَرجتُ ، فجَعلتُ أسْمَعُه يَقولُ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] مِراراً ثم أطْرَقَ فلَبِثْتُ طَويلاً لا يُسمَعُ له حِسٌّ ، فقُلتُ لوَصيفٍ : وَيْحَكَ انْظُرْ ، فلمَّا دَخلَ ، صَاحَ ، فدَخَلتُ فوَجَدتُه مَيِّتاً ، وقد أقْبَلَ بوَجهِه على القِبلَة ، ووَضَعَ إحْدَىٰ يَديه علىٰ فيه ، والأُخْرَىٰ علىٰ عَينَيه[2] .

ولِكُثَيِّر عزَّة يَرثيه :

عَمَّتْ صَنَائِعُهُ فَعَمَّ هَلاَكُهُ ... فَالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهم مَأجُورُ
والنَّاسُ مَأْتَمُهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ ... في كُلِّ دَار رَنَّةٌ وَزَفِيرُ
يُثْنِي عَلَيْكَ لِسَانُ مَنْ لَمْ تُوَلِّهِ ... خَيْراً لأنَّكَ بالثَّنَاءِ جَدِيرُ
رَدَّتْ صَنَائِعُهُ عَلَيهِ حَيَاتَهُ ... فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنْشُورُ

وكان أسْمرَ دَقيقَ الوَجْهِ ، حَسَنه ، نَحيفَ الجِسْم ، حَسَنَ اللِّحْيَة ، بجَبْهَته شَجَّةٌ .

وكانت خِلافَتُه سَنتَين وخَمسَةَ أشْهُر وأيّاماً[3] .

قالَ ابنُ عُيَيْنَة : قالَ رَجلٌ لعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز : جَزاكَ اللهُ عن الإسْلامِ خَيراً ، قالَ بَلْ جَزَى اللهُ الإسْلامَ عنِّي خَيراً .

ماتَ سَنةَ إحْدَىٰ ومئة[4] .

المُهْتَدي بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : أميرُ المؤمنين ، الْمُهْتَدِي بالله ، أبو إسْحاقَ ، وأبو عبدِ الله مُحمَّدُ بنُ الوَاثِق هَارُونَ بنِ الْمُعْتَصِم مُحمَّدُ ابنُ الرَّشيدِ العَبَّاسيُّ .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٨٣ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٢ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩٢ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٩٢ .

بُويعَ ابنَ بضع وثلاثين سَنةً سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ ومئتَين وما قَبِلَ مُبايَعَةَ أحَدٍ حتىٰ أحْضَرَ الْمُعْتَزَّ بالله فلمَّا رآهُ قامَ له وقالَ : السَّلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنين ، وجَلسَ بين يَديه ، فجِيء بشُهود ، فشَهدوا على الْمُعْتَزِّ أنَّه عاجزٌ عن أعْباء الإمامَة ، وأقَرَّ بذلك ، ومَدَّ يدَه ، فبايَع ابنَ عَمِّه الْمُهْتَدِي بالله ، فارْتَفعَ حينئذ الْمُهْتَدِي ، إلىٰ صَدرِ الْمَجلِسِ ، وقالَ : لا يَجْتمِعُ سَيفانِ في غِمْد ، وأنْشَدَ قولَ ابنِ أبي ذُؤَيب .

تُـريـدِيـنَ كَيْمَـا تَجْمَعِينِـي وَخَـالِـداً وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيْحَكِ فِي غِمْدِ ؟!

وكان الْمُهْتَدِي أسْمرَ رَقيقاً ، مَليحَ الوَجْه ، وَرِعاً عادِلاً صالِحاً مُتعبِّداً بَطلاً شُجاعاً ، قَوياً في أمْرِ الله ، خَليقاً للإمَارَة ، لكنَّه لَمْ يَجدْ مُعيناً ولا ناصِراً ، والوَقتُ قابلٌ للإدْبار .

نَقلَ الخَطيبُ عن أبي مُوسَى العَبَّاسيِّ : أنَّه ما زالَ صائماً منذُ اسْتُخلِفَ إلىٰ أنْ قُتلَ .

وقالَ أبو العَبَّاس هاشِمُ بنُ القاسِم : كُنتُ عندَ الْمُهْتَدِي عَشيَّةَ في رَمضانَ فقُمتُ لأنْصَرِفَ ، قالَ : اجْلِسْ فجَلستُ ، فصَلَّىٰ بنا ، ودَعا بالطَّعام ، فأُحْضِرَ طَبَقُ خِلاَفٍ[1] عليه أرْغِفَةٌ وآنيةٌ فيها مِلْحٌ وزَيتٌ وخَلٌّ ، فدَعاني إلى الأكْلِ ، فأكَلتُ أكلَ مَنْ يَنتظِرُ الطَّبيخَ ، فقالَ : ألَمْ تَكُنْ صَائماً ؟ قُلتُ : بلىٰ قالَ : فكُلْ واسْتَوفِ ، فلَيسَ هنا غَيرُ ما ترَى ؟! فعَجبتُ ثم قُلتُ : ولِمَ يا أميرَ المؤمنين ، وقدْ أنْعَمَ اللهُ عَليك ؟ قالَ : إنِّي فكَّرتُ أنَّه كانَ في بَني أُمَيَّة عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز ، فغِرْتُ علىٰ بَني هاشِم وأخَذتُ نفسِي بما رَأيتَ[2] .

قالَ ابنُ أبي الدُّنيا : حدَّثنا أبو النَّضْر الْمَرْوَزيُّ ، قالَ لي جَعْفَرُ بنُ عبد الوَاحِد : ذاكَرتُ الْمُهْتَدِي بشَيء ، فقُلتُ له : كانَ أحْمدُ بنُ حَنْبَل يَقولُ به ولكنَّه كان يُخالَف ـ كأنِّي أشَرتُ إلىٰ آبائِه ـ فقالَ : رَحمَ اللهُ أحْمدُ بنُ حَنْبَل ، لَوْ جازَ لي لتَبرَّأتُ من أبي ،

---

(١) صنف من الصفصاف ، ومن عيدانه تصنع الأطباق .

(٢) انظر السير : (الْمُهْتَدِي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٩ .

تَكلَّمْ بالحَقِّ وقُلْ به فإنَّ الرَّجُلَ ليَتكلَّمُ بالحَقِّ فيَنبُلُ في عَيني[1] .

قالَ نِفْطَوَيه : أخْبَرنا بعضُ الهاشِميِّين أنَّه وَجَدَ للْمُهْتَدِي صَفطٌ فيه جُبَّة صوفٍ ، وكساءٌ كان يَلبَسُه في اللَّيلِ ، ويُصلِّي فيه ، وكان قد اطْرَح المَلاهي ، وحَرَّمَ الغِناءَ ، وحَسمَ أصْحابَ السُّلطانِ عن الظُّلمِ ، وكانَ شَديدَ الإشْرافِ علىٰ أمْرِ الدَّواوينِ ، يَجلسُ بنفسِه ، ويَجلسُ بين يَديه الكُتَّابُ يَعمَلونَ الحِسابَ ، ويُلزِمُ الجُلوسَ يَومَي الخَميسِ والإثْنينِ ، وقد ضَربَ جَماعَةً من الكِبارِ ، ونَفَىٰ جَعْفَرَ بنَ مَحْمودٍ إلىٰ بَغْدادَ لرَفْضٍ فيه[2] .

وعاثَت الزِّنْجُ بالبَصْرَة ، ويَعقوبُ الصَّفَّارِ بخُراسانَ ، وقَتلَ الْمُهْتَدي الأميرَ باكيال ، فثار أصحابُه ، وأحاطُوا بدارِ الجَوْسَق ، فأُلقِيَ الرأسُ إليهم ، ورَكبَ أعْوانُ الخَليفَة ، فتمَّت مَلحَمةٌ كبرَىٰ ، قُتلَ فيها من الأتْراكِ ألوفٌ وقِيلَ : بل ألفٌ في رَجبَ سَنةَ سِتٍّ وخَمْسينَ ومِئتين ، ثم أصْبَحوا على الحَرْب ، فرَكبَ الْمُهْتَدي وصالِحُ بنُ عليٍّ في عُنقِه الْمُصْحَفُ يَصيحُ : أيُّها النَّاسُ : انْصُروا إمامَكم فحَملَ عليه أخُو باكيالَ في خَمسِ مئة ، وخامَرَ الأتْراكَ الذين مع الخَليفَة إليه ، وحَميَ الوَطيسُ ، وتفلَّلَ جَمْعُ الْمُهْتَدي واسْتحَرَّ بهم القَتلُ فولَّىٰ والسَّيفُ في يدِه يقولُ : أيُّها النَّاسُ : قاتِلوا عن خَليفَتِكم ، ثم دَخلَ دارَ صالِح ابنِ مُحمَّدِ بنِ يَزْدادَ ، ورَمَى السِّلاحَ ، ولَبسَ البَياضَ ليَهْربَ من السَّطحِ وجاءَ حاجِبُ باكيالَ ، فأُعْلِمَ به فهَرَبَ ، فرَماهُ واحدٌ بسَهْمٍ ، ونَفخَهُ بالسَّيفِ ثم حُملَ إلى الحاجِب ، فأرْكَبوه بَغْلاً وخَلفَه سائسٌ ، وضَربُوه وهم يَقولُون : أينَ الذَّهبُ ؟ فأقَرَّ لهم بسِتِّ مئة ألفِ دينار مُودَعَةً ببَغْدادَ ، فأخَذُوا خَطَّه بها ، وعَصَرَ تُرْكيٌّ علىٰ أُنْثيَيه فمات ، وقيلَ : أرادُوا منه أنْ يَخلَعَ نَفسَه فأبَىٰ فقَتلوه رَحمَه اللهُ وبايَعوا الْمُعْتَمِدَ على الله .

وفي ذُرِّيَتِه عُلماءُ وخُطَباءُ[3] .

---

(١) انظر السير : (الْمُهْتَدِي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٠ .
(٢) انظر السير : (الْمُهْتَدِي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٠ .
(٣) انظر السير : (الْمُهْتَدِي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٠ .

القَادِرُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الخَليفةُ أبو العبَّاس أحمدُ ابنُ الأميرِ إسْحاقَ بنِ الْمُقْتَدِر .

وكانَ أبيضَ كَثَّ اللِّحْيَة يخضِبُ ، دَيِّناً عالِماً مُتعبِّداً وَقُوراً من جُلَّة الخُلفاءِ وأمْثَلِهم عَدَّه ابنُ الصَّلاحِ في الشَّافِعيَّة[1] .

قالَ الخَطيبُ : كانَ من الدِّين ، وإدَامَة التهَجُّد ، وكَثْرَةِ الصَّدَقاتِ علىٰ صِفَة اشْتُهِرَت عنه وصَنَّفَ كتاباً في الأصُول ، ذَكرَ فيه فَضلَ الصَّحابَة ، وإكْفار مَنْ قالَ : بخَلقِ القُرآنِ ، وكانَ ذلكَ الكتابُ يُقرأ في كلِّ جُمعَة في حَلقَة أصْحابِ الحَديث ، ويَحضُرُه النَّاسُ مُدَّة خِلافَتِه وهي إحْدَىٰ وأرْبَعُون سَنةً وثلاثَة أشْهُر .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : قامَ بخِلافَته بَهَاءُ الدَّولة .

وذَكرَ مُحمَّدُ بنُ عبدِ المَلك الهَمذاني ، أنَّ القادِرَ كانَ يَلبَسُ زِيَّ العامَّة ويَقصِدُ الأماكِنَ الْمُبارَكَة[2] .

وعَملت الرَّافِضةُ عيدَ الغَدير ، فثارَت السُّنَّةُ ، وقَووا ، وخَرَّقوا عَلَمَ السلطان ، وقُتلَ جَماعةٌ ، وصُلِبَ آخَرون ، فكَفُّوا .

وفي سنة ثلاثٍ وثَمانينَ وثَلاث مئة اسْتفحَلَ البَلاءُ بالعَيَّارين ببَغداد ، ولمْ يَحُجَّ أحدٌ من العِراق[3] .

وكان الرَّفضُ عَلانيةً بدمَشْقَ في سَنة أربع مئة ، ولقد أخَذَ نائبُها « تمصُولُت البَرْبَريُّ » رَجلاً في سنة ثلاثٍ وتسعينَ وثلاثِ مئة فطِيفَ به علىٰ حمارٍ : هـٰذا جزاء مَنْ يُحبُّ أبا بكرٍ وعُمرَ ، ثم قُتِل .

وفي هـٰذا الوَقت انبثَّتْ دُعاة الحاكم في الأطْرافِ ، فأمَرَ القادرُ بعَمل مَحْضَر

---

(١) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٣ .

(٢) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٣ .

(٣) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٤ .

يتضمن القَدْحَ في نَسَب العُبَيْديَّة ، وأنَّهم مَنْسُوبون إلىٰ دَيْصانَ ابنِ سَعيد الخُرَّمي ، فشَهدوا جَميعاً أنَّ النَّاجِمَ بمِصْرَ مَنصورَ ابنَ نزارٍ الحاكم حكمَ اللهُ عليه بالبَوار ، وأنَّ جَدَّهم لمَّا صارَ إلى الغَرب تَسمَّىٰ بالمَهْدي عُبَيد الله ، وهو وسَلفُه أرْجاسٌ خَوارج أدْعياء ، وأنَّ هـٰذا النَّاجِمَ وسَلفَه كُفَّارٌ زَنادِقَة ، ولمَذْهَب الثَّنَويَّة[1] والمَجوسِيَّة مُعْتقدون ، عَطَّلوا الحُدودَ ، وأباحوا الفُروجَ وسَفكوا الدِّماءَ ، وسَبُّوا الأنْبياءَ ، ولَعَنوا السَّلَفَ ، وادَّعَوا الرُّبوبيَّة .

واسْتتابَ القادرُ فُقهاءَ المُعتزلَة ، فتَبرَّؤا من الاعْتِزالِ والرَّفضِ وأُخِذَت خُطوطُهم بذلك .

وامتثلَ ابنُ سُبُكتكين أمرَ القادر ، فبَثَّ السُّنَّة بممَالكه وتَهدَّد بقَتلِ الرَّافِضَة والإسْماعيليَّة والقَرامِطَة ، والمُشبِّهَة والجَهْميَّة والمُعْتَزلَة ، ولُعِنوا على المَنابِر[2] .

وافْتَتَحَ ابنُ سُبُكْتِكين عِدةَ مَدائِنَ بالهِنْدِ ، ووَرَدَه كِتابُ القَادِرِ بالله ، فِفيهِ : صَدَرَ العَبدُ من غَزْنَةَ في أوَّلِ سَنةِ عَشرٍ وأرْبَع مِئَة ، وانْتُدَبَ لتَنفيذِ الأَوامِر فرَتَّبَ في غَزْنَةَ خَمسةَ عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وأَنْهَضَ ابنَه في عِشرينَ ألفاً وشَحَنَ بَلْخَ وطَخَارُسْتَانَ باثني عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرةَ آلافِ راجلٍ ، وانْتَخَبَ ثلاثينَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرَةَ آلافِ راجِلٍ لصُحْبَةِ رَايَةِ الإسْلام ، وانْضَمَّ إليه المُطَّوِّعَةُ ، فافْتَتَحَ قِلاعَاً وحُصُوناً وأَسْلَمَ زُهَاءَ عِشرينَ ألفاً ، وأَدَّوْا نَحوَ أَلْفِ أَلْفٍ من الوَرِقِ ، وثلاثين فِيلاً ، وعِدَّةُ الهَلْكَىٰ خَمسُونَ ألفاً ووَافَى العَبدُ مدينةً لهم عَايَنَ فيها نَحوَ ألفِ قَصْرٍ ، وألفَ بيتٍ للأَصْنَام ، ومَبْلَغُ ما على الصَّنَمِ ثمَانِيَةٌ وتِسْعونَ ألفَ دينارٍ ، وقَلَعَ أَزْيَدَ من ألفِ صَنَمٍ ، ولهم صَنَمٌ مُعَظَّمٌ يُؤَرِّخُونَ مُدَّتَه بجَهَالَتِهم بثلاثِ مِئَةِ ألفِ سَنَةٍ ، وحَصَّلْنا من الغَنَائِمِ عِشْرينَ ألفَ ألفِ درهمٍ ، وأُفْرِدَ الخُمْسُ من الرَّقِيقِ ، فبَلَغَ ثلاثةً وخَمْسِينَ ألفاً ، واسْتَعْرَضْنَا ثلاثَ مِئَةٍ وسِتةً وخَمسِينَ فِيلاً .

---

(١) أصحاب الاثنين الأزليين ، النور والظلمة ، يزعمون بأنهما أزليان قديمان انظر « الملل والنحل » ١/ ٢٤٤ .

(٢) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٩٤ .

وفي سَنَةِ اثْنَتَينِ وعِشرينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، ماتَ القَادِرُ بالله ، وعَاشَ سَبْعاً وثمَانِينَ سَنةً سِوَىٰ شهرٍ وثمانيةَ أيَّامٍ ، وما عَلِمْتُ أحَداً من خُلَفَاءِ هـٰذهِ الأُمَّة بَلَغَ هـٰذا السِّنَّ ، ولا حتىٰ عُثْمانَ رضي الله عنه[1] .

القَائِم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : وكان ذا حَظٍّ من تَعبُّدٍ وصيامٍ وتَهجُّدٍ ، لَمَّا أُعيدَ إلىٰ خِلافَتِه قِيلَ : إنَّه لَمْ يَستردَّ شَيئاً ممَّا نُهِبَ من قَصرِه ، ولا عاقَبَ مَنْ آذاه ، واحْتَسَبَ وصَبرَ وكانَ تاركاً للمَلاهي ـ رَحِمَه اللهُ ـ وكانَت خِلافَتُه خَمساً وأرْبَعينَ سَنةً .

وغَسَّله شَيخُ الحَنابِلَة أبو جَعْفَر بنُ أبي مُوسَى الهَاشِميُّ ، وعاشَ سِتًّا وسَبعينَ سَنةً ، وبُويعَ بعدَه ابنُ ابنِه[2] .

الْمُقْتَدي بأمْرِ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الخَليفَةُ الْمُقْتَدي بأمْرِ الله ، أبو القَاسِم .

تَسلَّمَ الخِلافَةَ بعَهْدٍ من جَدِّه سنةَ سَبع وستِّينَ وأرْبَع مئة وهو ابنُ عِشْرينَ سَنةً[3] .

وكان حَسنَ السِّيرَةِ ، وافِرَ الحُرْمَة أمَرَ بنَفي الخَواطىءِ والقيناتِ ، وأنْ لا يَدخُلَ أحَدٌ الحَمَّامَ إلاَّ بمئزر ، وأخْرَبَ أبْراجَ الحمام ، وفيه دِيانَةٌ ونَجابَةٌ وقُوةٌ وعُلوُّ هِمَّة ، وكانَ مَلِكْشاه قد صَمَّمَ علىٰ إخْراجِه من بَغْدادَ فحارَ ، والْتَجأ إلى اللهِ ، فدَفَعَ عنه ، وهَلكَ مَلِكْشاه[4] .

وكان مُحبَّاً للعلوم ، مُكْرِماً لأهْلِها ، لمْ يَزلْ في دَولةٍ قاهِرةٍ وصَوْلَةٍ باهِرَةٍ ، وكانَ غَزيرَ الفَضْلِ ، كاملَ العَقْلِ ، بَليغَ النَّثْرِ ، فمنه :

وَعْدُ الكُرَماء ألْزَمُ من دُيون الغُرَماء ، الألْسُن الفَصيحَة أنْفَعُ من الوُجُوه الصَّبيحَة ،

---

(١) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٩٤ .
(٢) انظر السير : (القائم) ١٨/ ٣٠٧ـ ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤١٦ .
(٣) انظر السير : (الْمُقْتَدي) ١٨/ ٣١٨ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤١٨ .
(٤) انظر السير : (الْمُقْتَدي) ١٨/ ٣١٨ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤١٨ .

والضَّمائرُ الصَّحيحَة أبْلَغُ من الألْسُن الفَصيحَة ، حَقُّ الرَّعيَّة لازمٌ للرُّعاة ، ويَقبحُ بالوُلاة الإقْبالُ على السُّعاة .

وفي أول سنة سبع وثمانين تُوفِّي فَجْأة وهو ابنُ تسع وثلاثين سنة ، وكانت خِلافَتُه عشرينَ سنةً كان هو خَليفَةُ الإسْلام في زَمانِه ، لكنْ يُزاحِمُه صاحبُ مِصْرَ المُسْتَنصِرُ ، فكان العُبَيْدِيُّ والعبَّاسِيُّ مَقْهورَين من وُجوه وكان حُكْمُ العِراق والمَشْرق إلى السُّلْجوقيَّة ، وحكمُ المَغرب إلىٰ تاشْفِين وابنِه ، وحكمُ اليَمَن إلىٰ طائفة ، والأمرُ كلُّه لله[1] .

الْمُقْتَفي لأمْرِ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : كان الْمُقْتَفي عاقلاً لبيباً ، عاملاً مَهيباً ، صَارِماً ، جَواداً مُحِباً للحَديثِ والعِلمِ ، مُكْرِماً لأهْلِه ، وكانَ حَميدَ السِّيرَة ، يَرجِعُ إلىٰ تَديُّنٍ وحُسْن سِياسَة ، جَدَّدَ مَعالِمَ الخِلافَة ، وباشَرَ الْمَهَمَّاتِ بنَفسِه وغَزَا في جُيوشِه[2] .

قالَ أبو طالِب بنُ عبد السَّميع : كانت أيَّامُه نَضِرَةً بالعَدْلِ زَهِرَةً بالخَيرِ ، وكانَ علىٰ قَدَم من العِبادَة قَبلَ الخِلافَة ومَعها ، ولَمْ يُرَ مع لِينِهِ بعد الْمُعْتَصِم في شَهامَتِه مع الزُّهْدِ والوَرَعِ ، ولَمْ تَزَلْ جُيوشُه مَنصُورَةً[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكانَ من حَسَناتِه وَزيرُه عَوْنُ الدين بنُ هُبَيْرَة ، وكان أسْمَرَ آدَم ، مَجدُورَ الوَجْه ، مَليحَ الشَّيبَة ، أقامَ حشمةَ الخِلافَة وقَطعَ عنها أطْماعَ السَّلاطينِ السَّلْجوقيَّة وغيرهم[4] .

وعن ابنِ الجَوْزيِّ قالَ : قَرأتُ بخَطِّ أبي الفَرَج الحَدَّاد قالَ : حدَّثني مَنْ أثِقُ به أنَّ الْمُقْتَفِي رَأىٰ في مَنامِه قَبلَ أنْ يُسْتَخلَف بسِتَّة أيَّام رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقولُ له : سَيصِلُ هـٰذا الأمْرُ إليكَ فاقْتَفِ بي فلِذا لُقِّبَ الْمُقْتَفي لأمر الله[5] .

---

(١) انظر السير : (الْمُقْتَدي) ١٨/٣١٨ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٨ .
(٢) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٨/١٥٦٧ .
(٣) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٦٨ .
(٤) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٦٨ .
(٥) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٦٨ .

المُسْتَضيء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الخَليفةُ أبو مُحمَّد الحَسنُ ابنُ الْمُسْتَنْجِد بالله يوسُفُ بنِ الْمُقْتَفي مُحمَّدِ بنِ الْمُسْتَظْهِر أحْمَدِ ابنِ الْمُقْتَدي الهاشميُّ العَبَّاسيُّ .

بُويعَ بالخِلافَة وَقتَ مَوتِ أبيه في رَبيعِ الآخِر سَنةَ سِتٍّ وسِتِّين وخَمسِ مئة ، وقامَ بأمْرِ البَيْعَة عَضُدُ الدِّين أبو الفَرج ابنُ رَئيس الرُّؤساء ، فاسْتَوْزَره يومئذ .

وُلدَ سَنةَ سِتَّة وثَلاثين وخَمسِ مئة وأمُّه أرْمنيَّة وكانَ ذا حِلمٍ وأناةٍ ورَأفَةٍ ، وبِرٍّ وصَدقاتٍ .

قالَ ابنُ الجَوزيّ في « الْمُنْتَظم » : بُويعَ ، فنُودي برَفْع المُكوسِ ، ورَدِّ المَظالِم ، وأظْهَرَ من العَدلِ والكَرَمِ ما لَم نَرَه من أعْمارِنا ، وفرَّقَ مالاً عَظيماً على الهاشِميِّين .

وقالَ ابنُ الجَوزيّ : في خِلافَته زالَت دَولةُ العُبَيديَّة بمِصْرَ ، وخُطِبَ له بها ، وجاءَ الخَبرُ فغُلِّقَت الأسْواقُ للمسَرَّة ، وعُملَت القِبابُ ، وصَنَّفتُ كتاباً سَمَّيتُه ، « النَّصْرُ علىٰ مِصْرَ » ، وعَرضتُه على الإمامِ الْمُسْتَضيء .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وخُطبَ له باليَمَنِ ، وبَرْقَة ، وتَوْزَرَ ، وإلىٰ بلاد التُّركِ ، ودانَت له المُلوكُ ، وكان يَطلبُ ابنَ الجَوْزيِّ ، ويأمُرُه أنْ يَعظَ بحَيثُ يَسْمَع ، ويَميلُ إلىٰ مَذْهَبِ الحَنابِلَة ، وضَعُفَ بدَولتِه الرَّفضُ ببَغْدادَ وبمِصْرَ وظَهرَت السُّنةُ ، وحَصلَ الأمْنُ ، ولله الْمِنَّة .

ماتَ الْمُسْتَضيءُ سنةَ خَمْس وسَبْعينَ وخَمْسِ مئة ، وبايَعوا بعدَه ولدَه النَّاصِرَ لدينِ الله[1] .

الظَّاهِرُ بأمْرِ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : قالَ ابنُ الأثيرِ : وَليَ فأظْهرَ العَدلَ والإحْسانَ ، وأعادَ سُنَّةَ العُمَرَيْن فإنَّه لوْ قِيلَ : ما وَلِيَ بعدَ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز مثلُه لكانَ القائلُ صادقاً

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَضِيء بأمْر الله) ٢١/ ٦٨ـ ٧٢ ، وانظر النزهة : ١٥٩٨/ الْمُسْتَضِيء بأمْر الله .

فإنَّه أعادَ من الأمْوالِ والأمْلاكِ الْمَغْصوبَة شَيئاً كثيراً ، وأطلقَ الْمُكُوسَ في البلادِ جَميعِها ، وأمرَ بإعادَةِ الخَراجِ القَديمِ في جَميعِ العِراقِ وبإسْقاطِ ما جَدَّدهُ أبُوهُ وكان لا يُحصَىٰ ، وقدِمَ صاحَبُ الدِّيوانِ من وَاسِطَ بأكثرَ من مئةِ ألفٍ ظُلماً فرَدَّها علىٰ أرْبابِها ، ونفَّذَ إلى الحاكِمِ عشرَةَ آلافِ دينار ليُوَفِّيَها عن الْمَحْبوسينَ ، وكان يقولُ : أنا قد فَتحْتُ الدكَّانَ بعدَ العَصْر[1] فذَروني أفعَلُ الخَيرَ ، فكَم بَقيتُ أعيشُ وقد أنْفَقَ وتَصدَّقَ في لَيلةِ النَّحْرِ مئةَ ألفِ دينارٍ ، وكانَ نِعْمَ الخَليفَة خُشوعاً وخُضوعاً لرَبِّه وعَدْلاً في رَعيَّتِه ، وازْدياداً في وَقتٍ من الخَيرِ ، ورَغبَةً في الإحْسان[2] .

وقالَ سِبطُ الجَوْزيِّ : حُكِيَ عنه أنَّه دَخلَ إلى الخَزائنِ ، فقالَ له خادمٌ : في أيامِك تَمتلىء ، قالَ : ما عُملت الخَزائنُ لتُملأ ، بَلْ لتُفْرَغَ وتُنفَقَ في سَبيلِ الله إنَّ الجَمْعَ شُغلُ التجَّارِ[3] .

٢ـ مُلُوكٌ صَالِحُون :

هِشامُ بنُ عبد الرحمَـٰن الأُمَوي :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الأميرُ أبو الوَليد الْمَرْوانيُّ ، بُويعَ بالْمُلكِ بالأنْدَلُسِ عندَ مَوتِ والدِه ، سَنةَ اثنَتينِ وسَبعينَ ومئة ، وعُمرُه إذا ذاك ثَلاثونَ سَنةً ، فإنَّه وُلدَ بالأنْدَلُسِ ، وكانَ دَيِّناً وَرعاً يَشهَدُ الجَنائزَ ، ويَعودُ المَرضَىٰ ، ويَعدِلُ في الرَّعيَّة ، ويُكثِرُ الصَّدَقاتِ ، ويَتعاهَدُ المَساكينَ ، وأمُّه أمُّ وَلَد ، اسْمُها حَوْرَاءُ .

ولَمَّا احْتُضِرَ ، عَهدَ بالأمْرِ إلىٰ وَلدِه الحَكَم .

وماتَ في سَنةِ ثَمانينَ ومئة ، وله سَبعٌ وثَلاثونَ سَنةً رَحمَهُ الله[4] .

---

(١) أي أنه ولي الخلافة علىٰ كبر السن .

(٢) انظر السير : (الظَّاهِر بأمْر الله) ٢٢/ ٢٦٤ـ ٢٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩١ .

(٣) انظر السير : (الظَّاهِر بأمْر الله) ٢٢/ ٢٦٤ـ ٢٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩١ .

(٤) انظر السير : (هشام بن عبد الرحمـٰن بن معاوية) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/٧٥٠ .

نُورُ الدِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : صاحبُ الشَّام ، المَلكُ العَادِلُ ، نُورُ الدِّين ، ناصِرُ أمير المؤمنين تَقِيُّ المُلوكِ ، لَيْثُ الإسْلام ، أبو القاسِم ، مَحْمُودُ بنُ الأتابَكِ قَسيمِ الدَّولَة أبي سَعيد زَنْكي بنِ الأميرِ الكَبير آقْسُنْقُر ، التُّرْكيُّ السُّلطانيُّ الْمَلِكْشاهيّ .

مَوْلدُه سَنةَ إحْدَىٰ عَشْرَة وخَمسِ مئَة[1] .

وكانَ نُورُ الدِّين حامِلَ رايَتَي العَدْلِ والجِهادِ ، قَلَّ أنْ تَرَى العُيونُ مثلَه ، حاصَرَ دِمَشْقَ ، ثم تَملَّكَها ، وبَقِيَ بها عِشْرينَ سَنةً .

وبَنَى المَدارِسَ بحَلَبَ وحمْصَ وبَعْلَبَك والجَوامِعَ والْمَساجِدَ وسُلِّمَت إليه دِمَشْقُ للغَلاءِ والخَوْفِ ، فحَصَّنها ، ووَسَّعَ أسْواقَها ، وأنْشَأ المارِسْتانَ ودارَ الحَديثِ والمَدارِسَ ومَساجِدَ عِدَّة ، وأبْطَلَ المُكُوسَ ، ثم أخَذَ من العَدُوِّ بانِيَاسَ والْمُنَيْطِرَة[2] ، وكَسرَ الفِرَنْجَ مَرَّاتٍ ، ودوَّخَهم وأذلَّهم[3] .

وكان بَطَلاً شُجَاعاً وافِرَ الهَيْبَة ، حَسَنَ الرَّميِّ ، مَليحَ الشَّكْلِ ، ذا تَعَبُّد وخَوْف ووَرَعٍ ، وكان يَتَعرَّضُ للشَّهَادَةِ ، سَمِعَه كاتِبُه أبو اليُسْرِ يَسْألُ الله أنْ يُحْشَرَ من بُطُونِ السِّباعِ وحَوَاصِلِ الطَّيْر .

وبنىٰ دَارَ العَدْلِ ، وأَنْصَفَ الرَّعِيَّة ، ووَقَفَ على الضُعَفَاءِ والأيْتام والمُجاوِرين وأَمَرَ بتَكْميل سُورِ المدينة النَّبَويَّة ، واسْتَخْرَاجِ العَيْن بأُحد دَفَنَهَا السَّيْلُ ، وفَتَحَ دَرْبَ الحِجَاز ، وعَمَّر الخَوَانِق والرُّبُطَ والجُسُورَ والخاناتِ بدِمَشْقَ وغيرها وكذا فعل إذْ مَلَكَ حَرَّانَ وسنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة ومَنْبج وشَيْزَر وحُمْصَ وحمَاة وصَرْخَد وبَعْلَبَكَّ وتَدْمُرَ ووَقَفَ كُتُباً كثيرةً مُثَمَّنَة ، وكَسَرَ الفِرِنْجَ والأَرْمَنَ علىٰ حارِم وكانوا ثلاثين ألفاً فقَلَّ مَنْ نَجَا ، وعلىٰ بانياس[4] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٩ .

(٢) حصن بالشام قريب من طرابلس .

(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٩ .

(٤) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٠ .

وكانت الفِرنْجُ قد استضَرَّتْ علىٰ دِمَشقَ ، وجعلوا عليها قطيعةً ، وأتاهُ أميرُ الجُيُوشِ شَاوَرُ مُستَجِيراً به ، فأكْرَمَه ، وبَعَثَ معه جَيشاً ليُرَدَّ إلىٰ مَنصِبه ، فانتَصَرَ ، لكنَّه تَخَابَثَ وتَلائَمَ ، ثم استنجَدَ بالفِرنْجِ ، ثم جَهَّزَ نورُ الدين رحِمَه الله جَيشاً لَجِباً مع نائِبه أسَدُ الدين شِيركُوه ، فافتَتَحَ مِصرَ ، وقَهَرَ دولتَها الرَّافِضِيَّة ، وهَرَبَتْ منه الفِرنْجُ ، وقُتِلَ شَاوَرُ وصَفَتِ الدِّيارُ المِصْرِيَّة لشِيركُوه نائبِ نورِ الدين ، ثم لصَلاحِ الدين ، فأبَادَ العُبَيْدِيينَ واسْتَأصَلَهم ، وأقَامَ الدَّعوةَ العَبَّاسِيَّة .

وكان نورُ الدِّين مَلِيحَ الخَطِّ ، كثيرَ المُطالَعَةِ ، يُصَلِّي في جَماعَةٍ ويَصُومُ ويَتْلُو ويُسَبِّحُ ، ويَتَحَرَّىٰ في القُوتِ ويَتَجَنَّبُ الكِبرَ ، ويَتَشَبَّه بالعُلَماءِ والأخْيَارِ ، ذَكَرَ هٰذا ونَحْوَه الحافِظُ بنُ عَسَاكِر ، ثم قال : رَوَىَ الحَدِيثَ ، وأسْمَعَه بالإجازَةِ ، وكان مَنْ رَآهُ شَاهَدَ من جَلالِ السَّلْطَنَةِ وهَيْبَةِ المُلكِ ما يَبْهَرُهُ ، فإذا فَاوَضَهُ ، رَأىٰ من لَطَافَتِه وتَوَاضُعِهِ ما يُحَيِّرُه ، حَكَىٰ مَنْ صَحِبَهُ حَضَراً وسَفَراً أنَّه ما سُمِعَ منه كَلِمَةُ فُحْشٍ في رِضَاهُ ، ولا في ضَجَرِه ، وكان يُواخِي الصَّالِحِين ، ويَزُورُهم ، وإذا احْتَلَمَ مَمَالِيكُهُ أعْتَقَهُم ، وزَوَّجَهُم بجَوَارِيهِ ، ومتىٰ تشكَّوْا من وُلاتِهِ عَزَلَهُم ، وغَالِبُ ما تَمَلَّكَهُ من البُلدَانِ تَسَلَّمَهُ بالأمانِ ، وكان كُلَّما أخَذَ مدينةً ، أسْقَطَ عن رَعِيَّتِه قِسْطاً[1] .

وقال أبو الفَرَجْ بنُ الجَوْزِيّ : جاهَدَ نورُ الدِّين وانْتَزَعَ من الكُفَّارِ نَيِّفاً وخَمْسِين مدينةً وحِصْناً ، وبَنَىٰ بالمَوْصِلِ جامِعاً غَرِمَ عليه سَبْعِينَ ألفَ دِينَار ، وتَرَكَ المُكُوسَ قبلَ مَوْتِه ، وبَعَثَ جُنُوداً فَتَحُوا مِصْرَ ، وكان يَمِيلُ إلى التَّواضُع وحُبِّ العُلَمَاءِ ، والصُلَحَاءِ ، وكاتَبَنِي مِراراً ، وعَزَمَ علىٰ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، فتُوُفِّيَ سَنَةَ تسعٍ وسِتِّينَ وخَمْسِ مِئَة[2] .

وقال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطِيفِ : كان نورُ الدِّين لَمْ يَنْشَفْ له لِبدٌ من الجِهَادِ ، وكان يأكُلُ من عَمَلِ يَدِه ، يَنْسِجُ تارةً ، ويَعْمَلُ أغْلافاً تارةً ، ويَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويُلازِمُ السِّجادَةَ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٠ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨١ .

والمُصْحَفَ ، وكان حَنَفِيّاً يُراعِي مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ ومَالِك وكان ابنُهُ الصَّالِحُ إسْماعِيلُ أحْسَنَ أهْلِ زَمَانِه[1] .

وقالَ ابنُ الأثير : طَالَعتُ السِّيرَ ، فلَمْ أرَ فيها بعد الخُلفاء الرَّاشِدين وعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أحْسَنَ من سِيرَته ، ولا أكْثرَ تَحَرِّياً منه للعَدْلِ ، وكانَ لا يَأكلُ ولا يلبَسُ ولا يَتصرَّفُ إلاَّ من مُلكٍ له قد اشْتراه من سَهْمِه من الغَنيمَة ، لقَدْ طَلبَتْ زَوجَتُه منه ، فأعْطاهَا ثَلاثةَ دَكاكين فاسْتَقلَّتها ، فقالَ : ليسَ لي إلاَّ هـٰذا ، وجَميعُ ما بيَدي أنا فيه خازنٌ للمُسلمينَ ، وكان يتهجَّدُ كثيراً ، وكان عارفاً بمَذْهَب أبي حَنيفَة[2] .

قال له القُطبُ النيسابوريُّ : بالله لا تُخاطِرْ بنفسِكَ ، فإنْ أُصِبْتَ في مَعْركَة لا يَبْقَىٰ للمُسلمينَ أحدٌ إلاَّ أخَذَه السَّيفُ ، فقالَ : ومَنْ مَحْمودٌ حتىٰ يُقالَ هـٰذا ؟!! حَفِظَ اللهُ البِلادَ قَبْلي ، لا إلـٰهَ إلاَّ هُو[3] .

وقال مَجدُ الدِّين بنُ الأثير في نقل سبطِ الجَوْزِيِّ عنه : لَمْ يَلْبَسْ نُورُ الدِّين حَرِيراً ولا ذَهَباً ، ومَنَعَ بَيعَ الخَمرِ في بلادِه ، قال : وكان كَثيرَ الصَّوم ، وله أَوْرَادٌ كثيرةٌ في اللَّيلِ والنَّهارِ ، ويُكثِرُ اللَّعِبَ بالكُرَةِ ، فأنْكَرَ عليه فقيرٌ فكَتَبَ إليه : والله ما أقْصِدُ اللَّعِبَ ، وإنَّما نَحنُ في ثَغْرٍ ، فربَّما وَقَعَ الصَّوتُ ، فتكونُ الخَيلُ قد أدمَنَت على الانْعِطافِ والكَرِّ والفَرِّ .

وأُهْدِيَتْ له عَمَامَة من مِصْرَ مُذَهَّبَة ، فأعطَاهَا لابنِ حَمُّويه شَيخِ الصُّوفِيَّة فبِيعَتْ بألفِ دينار[4] .

وقال ابنُ الأثير : جاءَه رجلٌ يَطْلُبُه إلى الشَّرْعِ ، فجاءَ معَهُ إلىٰ مَجْلِسِ كمَالِ الدين الشَّهرَزورِيِّ ، وتَقَدَّمَه الحَاجِبُ يقولُ للقاضي : قد قالَ لكَ : اسْلُك مَعَهُ ما تَسْلُك مع آحَادِ النَّاسِ ، فلمَّا حَضَرَ سَوَّىٰ بينَه وبينَ خَصْمِه وتَحاكَمَا فلَمْ يَثْبُتْ للرَّجُلِ عليه

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨١ .
(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨١ .
(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨١ .
(٤) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٢ .

حَقٌّ ، وكان مِلْكاً ، ثم قال السُّلطَانُ : فاشْهَدُوا أنِّي قد وَهَبْتُهُ له .

قال العِمَادُ في « البَرْقِ الشَّامِيّ » أكثَرَ نورُ الدين عامَ مَوْتِه من البِرِّ والأوْقَافِ وعِمَارَةِ المَسَاجِد ، وأسْقَطَ ما فيه حَرَامٌ ، فما أبْقَىٰ سِوَى الجِزْيَةِ والخَرَاجِ والعُشْرِ ، وكَتَبَ بذلك إلىٰ جَميعِ البِلادِ ، فكَتَبْتُ له أكثَرَ من ألْفِ مَنْشُورٍ[1] .

قالَ سبطُ الجَوْزي : كان له عَجائزُ ، فكان يَخيطُ الكَوافي ، ويَعمَلُ السَّكاكِرَ فيَبعَثُها له سِراً ، ويُفْطِرُ علىٰ ثَمَنِها[2] .

وقال ابنُ وَاصِل : كان نورُ الدِّين من أقْوَى النَّاسِ قَلْباً وبَدَناً ، لَمْ يُرَ علىٰ ظَهْرِ فَرَسٍ أَحَدٌ أَشَدَّ منهُ ، كأنَّما خُلِقَ عليه لا يَتَحَرَّكُ ، وكان يقولُ : طالَمَا تَعَرَّضْتُ للشَّهَادَةِ ، فلَمْ أُدْرِكْها .

قالَ الإمامُ الذَّهبيُّ : قد أدْرَكَها علىٰ فِراشِه ، وعلىٰ ألْسِنَةِ النَّاسِ : نُورُ الدِّينِ شَهِيدٌ[3] .

قال سِبطُ الجُوزِيّ : حَكَىٰ لي نَجْمُ الدِّين بنُ سَلام عن وَالِدِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا نَزَلَت علىٰ دِمْياطَ ، ما زالَ نورُ الدِّين عِشْرِين يوماً يَصُومُ ، ولا يُفطِرُ إلاَّ على المَاءِ ، فضَعُفَ وكادَ يَتْلَفُ ، وكان مَهِيباً ، ما يَجْسُرُ أحدٌ يُخاطِبُه في ذلك ، فقال إمامُه يَحْيَىٰ : إنَّه رَأَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يقولُ : يا يَحْيَىٰ ، بَشِّرْ نورَ الدِّينِ برَحِيلِ الفِرنْجَ عن دِمْياطَ ، فقلتُ : يا رسُولَ الله ، رُبَّما لا يُصَدِّقُنِي قال : قُلْ لَهُ : بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ وانتَبَهَ يَحْيَىٰ ، فلمَّا صَلَّىٰ نورُ الدِّين الصُّبحَ ، وشَرَعَ يَدْعُو ، هَابَه يَحْيَىٰ فقال له : يا يَحْيَىٰ تُحَدِّثُنِي أوْ أُحَدِّثُكَ ؟ فارْتَعَدَ يَحْيَىٰ ، وخَرِسَ ، فقال نورُ الدين : أنا أُحَدِّثُكَ ، رَأَيْتَ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم هـٰذهِ الليلَةَ ، وقال لكَ كَذَا وكَذَا ، قال : نَعَم فبالله يا مَوْلانا ما مَعْنَىٰ قولِه بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ ؟ فقال : لمَّا الْتَقَيْنَا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسْلامِ ، فانْفَرَدْتُ ونَزَلْتُ ، ومَرَّغْتُ وَجْهِيَ على التُّرابِ ، وقُلتُ : يا سَيِّدِي مَنْ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨٢ .

(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨٢ .

مَحمُودٌ في البَيْن ، الدِّينُ دِينُك ، والجُنْدُ جُنْدُك ، وهـٰذا اليَوْم افْعَلْ ما يَلِيقُ بكَرَمِكَ ، قال : فنَصَرَنا اللهُ عَليهِم .

وتَمَلَّكَ بعدَهُ ابنُه المَلِكُ الصَّالِحُ أشْهُراً ، وسَلَّمَ دِمَشْقَ إلى السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين وتَحَوَّلَ إلىٰ حَلَبَ فدَامَ صَاحِبَها تِسْعَ سِنين وماتَ بالقُولَنْج ، وله عِشْرُونَ سنةً ، وكان شاباً دَيِّناً رَحِمَهُ الله[1] .

صَلاحُ الدِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : قال العِمادُ : كانَ صَلاحُ الدِّينِ لا يَلْبَسُ إلاَّ ما يَحِلُّ لُبْسُهُ كالكِتَّانِ والقُطْنِ ، نَزَّهَ المجالِسَ من الهَزلِ ، ومَحَافلُه آهِلَةٌ بالفُضَلاءِ ، ويُؤْثِرُ سَمَاعَ الحَدِيثِ بالأسَانيدِ ، حَلِيماً ، مُقِيلاً للعَثْرةِ ، تَقِيّاً نَقِيّاً وَفِيّاً صَفِيّاً ، يُغْضي ولا يَغْضَبُ ، ما رَدَّ سائِلاً ، ولا خَجَّلَ قائلاً ، كَثيرَ البِرِّ والصَّدَقاتِ ، أنْكَرَ عليَّ تَحْلِيَةَ دَواتِي بفِضَّةٍ فقُلتُ : في جَوَازِهِ وَجْهٌ ذَكَرَه أبو مُحمَّد الجُوَيْنيُّ ، وما رَأيتُه صلَّىٰ إلاَّ في جَمَاعَةٍ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وحَضَرَ وفَاتَه القاضي الفَاضِلُ[2] .

وفي الرَّوضَتَين لأبي شامَة : أنَّ السُّلطانَ لَمْ يُخَلِّفْ في خِزَانَتِه من الذَّهبِ والفِضَّةِ إلاَّ سَبعَةً وأربَعينَ درهماً ، ودِيناراً صُورِيّاً ، ولَمْ يُخَلِّفْ مِلْكاً ولا عَقَاراً رحمه الله ، ولَمْ يَخْتلِفْ عليه في أيَّامِه أحدٌ من أصْحَابِه وكان النَّاسُ يَأمَنُون ظُلمَه ، ويَرجُونَ رِفدَه ، وأكثرُ ما كان يَصِلُ عَطَاؤُه إلى الشُّجْعانِ ، وإلى العُلَماءُ وأرْبَابِ البُيُوتاتِ ، ولَمْ يكُنْ لمُبطِلٍ ولا لمَزَّاحٍ عنده نَصِيبٌ .

قال المُوَفَّقُ : وكان إذا نَازَلَ بَلَداً ، وأشْرَفَ علىٰ أخْذِه ، ثمَّ طَلَبُوا منه الأمَانَ ، آمَنَهُم ، فيَتَألَّمُ لذلك جَيشُه ، لفَوَاتِ حَظِّهم[3] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (صَلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٢ .

(٣) انظر السير : (صَلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٣ .

٣ـ خَلِيفَةٌ فاسِق :

الوَليدُ بنُ يَزيد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الوَليدُ بنُ يَزيدَ بنِ عبدِ الْمَلكِ ابنِ مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ الخَليفَةُ أبو العَبَّاس الدِّمَشقيُّ الأُمَويُّ .

وُلدَ سَنةَ تِسعينَ ، ووَقتُ مَوتِ أبيه كان للوَليدِ نَيِّفَ عَشرَةَ سَنةً ، فعَقدَ له أبُوه بالعَهْد من بعدِ هِشامِ بنِ عبدِ المَلكِ ، فلمَّا ماتَ هشامٌ ، سُلِّمَت إليه الخِلافَة .

عن عُمرَ قالَ : وُلدَ لأخي أُمِّ سَلمَة وَلدٌ ، فسَمَّوهُ الوَليدَ ، فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « سَمَّيْتُموهُ بأسْماءِ فَراعِنَتِكم ، لَيَكونَنَّ فِي هَـٰذِهِ الأُمَّةِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : الوَلِيدُ ، لَهُوَ أَشَدُّ لِهَـٰذِهِ الأُمَّةِ مِنْ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ »[1] رَواهُ الوَليدُ ، والهقلُ وجَماعَةٌ ، عن الأوْزاعيِّ ، فأرْسَلوه وما ذَكروا عُمرَ ، وفي لَفظٍ : « لَهُوَ أَضَرُّ عَلَىٰ أُمَّتِي » وجاء بإسناد ضعيف « سَيَكونُ فِي الأُمَّةِ فِرْعَوْنٌ ، يُقَالُ لَهُ : الوَلِيدُ »[2] .

قالَ حَمَّادٌ الرَّاويةُ : كُنتُ عند الوَليدِ بنِ يَزيدَ ، فقالَ مُنَجِّمانِ له : نَظَرْنا فوَجَدْناكَ تَملِكُ سَبعَ سِنينَ ، فقُلتُ : كَذبا ، نَحنُ أعْلمُ بالآثارِ ، بَلْ تَملِكُ أرْبَعينَ سَنةً فأطْرَقَ ثم قالَ : لا ما قالا يَكْسِرُني ، ولا ما قُلتَ يَغُرُّني ، والله لأجْبيَنَّ المالَ من حِلِّهِ جِبايَةَ مَنْ يَعيشُ الأبَدَ ، ولأصْرِفَنَّه في حَقِّه صَرْفَ مَنْ يَمُوتُ الغَد[3] .

وعن العُتبيِّ : أنَّ الوَليدَ رَأىٰ نَصْرانيَّةً اسْمُها سَفرىٰ ، فجُنَّ بها ، وراسَلها فأبَت[4] .

وعن صالحِ بنِ سُلَيمانَ ، قالَ : أرادَ الوَليدُ بنُ يَزيدَ الحَجَّ ، وقالَ : أشْرَبُ فَوقَ

---

(١) هو في المسند (١/١٨) ، وإسناده ضعيف لانقطاعه وسوء حفظ أبي بكر بن عيّاش ، وقد حكم عليه الحافظ العراقي بالوَضع ، وأطال الحافظُ ابن حجر في الردِّ عليه لإثبات أن له أصْلاً في (القول المسدد » (ص : ٥ ، ٦ ، ١١ ، ١٦) فراجعه .

(٢) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦١١ .

(٣) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦١١ .

(٤) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦١١ .

الكعْبَةِ ، فهَمَّ قَومٌ بقَتلِه ، فحَذَّرَه خالدٌ القَسْريُّ ، فقالَ : ممَّنْ ؟ فامْتَنعَ أنْ يُعَرِّفَه ، قالَ : لأبْعَثَنَّ بك إلىٰ يُوسُفَ بنِ عُمَر قالَ : وإنْ ، فبَعثَ به إليه فعَذَّبَه ، وأهْلَكه .

وعن مُصْعَبٍ الزبيريِّ ، عن أبيه ، قالَ : كُنتُ عندَ الْمَهْديِّ ، فذَكَرَ الوَليدَ بنَ يَزيدَ فقالَ رَجلٌ : كان زِنْديقاً ، قالَ : مَهْ ، خِلافَةُ الله أجَلُّ من أنْ يَجْعَلَها في زِنْديق[1] .

وقالَ عبدُ الله بنُ وَاقِد الجُرْمي : لَمَّا اجْتَمَعوا علىٰ قَتلِ الوَليدِ ، قَلَّدوا أمْرَهم يَزيدَ بنَ الوَليدِ ، فشَاوَرَ أخَاه العَبَّاسَ ، فنَهاهُ ، فخَرجَ يَزيدُ في أرْبَعينَ نَفْساً لَيلاً ، فكَسَروا بابَ الْمَقْصُورَة ، وربَطوا وَاليها ، وحَمَلَ يَزيدُ الأمْوالَ علىٰ عَجَلٍ ، وعَقدَ رَايَةً لابنِ عَمِّه عبدِ العَزيز ، وأنْفَقَ الأمْوالَ في ألْفَي رَجلٍ ، فتَحارَبَ هم وأعْوانُ الوَليدِ ، ثم انْحازَ أعْوانُ الوَليدِ إلىٰ يَزيدَ ، ثم نَزلَ يَزيدُ حِصْنَ البخراءِ ، فقَصدَه عبدُ العَزيز ، ونَهبَ أثْقالَه ، فانْكسَر أولاً عبدُ العَزيز ، ثم ظَهرَ ونادَىٰ مُنادٍ : اقْتُلوا عَدُوَّ الله قَتلَةَ قَوم لُوطٍ ، ارْمُوهُ بالحِجارَةِ ، فدَخَلَ القَصرَ ، فأحاطُوا به ، وتَدلَّوا إليه فقَتلُوه ، وقالوا : إنَّما نَنقِمُ عليكَ انْتِهاكَ ما حَرَّم الله ، وشُربَ الخَمْرِ ، ونِكاحَ أُمَّهاتِ أوْلادِ أبيكَ ونُفِّذَ إلىٰ يَزيدَ بالرَّأسِ وكانَ قد جَعلَ لِمَنْ أتاهُ به مئةَ ألفٍ[2] .

وقيلَ : سَبقَت كَفُّه رَأسَه بلَيْلَة ، فنُصِبَ رأسُه علىٰ رُمحٍ بعد الجُمُعَة ، فنَظرَ إليه أخُوه سُلَيْمَانُ ، فقالَ : بُعْداً له كانَ شَروباً للخَمْرِ ماجِناً ، قد راوَدَني علىٰ نَفسِي[3] .

قيلَ : عاشَ سِتًّا وثَلاثينَ سَنةً ، وكانَ مَصْرَعُه في جُمادَى الآخِرَة سَنةَ سِتٍّ وعشْرينَ ومئة .

فتَملَّكَ سَنةً وثَلاثَة أشْهُر ، وأمُّه هي بنتُ مُحمَّد بنِ يُوسُف الثَّقفي أميرُ اليَمَن أخي الحَجَّاج ، ونَقلَ عنه الْمَسْعوديُّ مَصائبَ ، فاللهُ أعْلم[4] .

---

(١) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٦١١/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٦١٢/ ١ .

(٣) قال الإمامُ الذهَبيُّ ـ رحمَه الله ـ في تاريخه (٥/ ١٧٦ ، ١٧٩) : قلتُ : مَقتَ الناسُ الوَليدَ لفِسقه ، وتأثَّموا من السكوت عنه وخرجوا عليه ، ولم يصح عنه كفر ولا زَنْدَقة ، نعم اشْتُهر بشُرب الخمر والتلوُّط .

(٤) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٦١٢/ ٢ .

٤ـ مَلِكٌ يَحْتَفِلُ بعيد النَّصارَىٰ لبَقايا نَصْرانيَّة فيه :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ المَلكِ الرَّحيمِ بَدْرِ الدِّينِ الأتَابِكيّ : وكان يَحْتفِلُ لعيدِ الشَّعانينَ لبَقايَا فيه من شِعارِ أهْلِه ، فيَمُدُّ سِماطاً عَظيماً إلى الغايَة ، ويُحْضِرُ المَغَاني ، وفي غُضُونِ ذلك أوَاني الخُمورِ ، فيَفرَحُ ويَنْثُرُ الذَّهبَ من القَلعَةِ ، ويَتَخاطَفَهُ الرِّجالُ ، فمُقِتَ لإحْياءِ شِعَارِ النَّصارَىٰ ، وقِيلَ فيه[1] :

يُعظِّم أعيادَ النَّصارَىٰ محبةً ... وَيزعُمُ أنَّ اللهَ عيسى ابنُ مريم
إذا نبَّهتْهُ نَخوةٌ أريحيَّةٌ ... إلى المجدِ قالت أَرمنيَّتُهُ نَمِ

٥ـ صُورَةٌ علىٰ تَعْظيم النَّاس للخُلَفَاء :

عن الإمامِ مَالكٍ ، قالَ : دَخلتُ على الْمَنْصُورِ ، وكانَ يَدخُلُ عليه الهَاشِميُّونَ ، فيُقَبِّلُونَ يَدَه ورِجْلَه ـ عَصَمَني اللهُ من ذلك ـ[2] .

٦ـ المُلُوكُ الذين كانوا سُوقَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة « الصَفَّار » : الملك ، أبو يوسُف ، يعَقوبُ ابنُ اللَّيث ، السِّجسْتاني ، المستولي علىٰ خُراسان[3] .

قيلَ : كان هو وأخُوهُ عَمرو بنُ الليث يَعمَلان في النُّحاس ، فتزَهَّدا وجاهَدا مع صالح المُطَّوعي المحارب للخَوارج .

قال ابنُ الأثير : غَلبَ صالحٌ علىٰ سِجِسْتان ، ثم استنقَذَها منه طاهرُ ابنُ عبد الله بنِ طاهِر ، فظَهرَ بها دِرْهَمُ بنُ حُسَين المُطَوِّعي ، فاسْتولىٰ أيضاً عليها ، وجَعلَ يَعقوبَ بنَ اللَّيث قائدَ عَسْكَره ، ثم رأىٰ أصْحابُ دِرْهَم عَجْزَه ، فمَلَّكُوا يَعقُوبَ لحُسْن سِياسَتِه ، فأذْعَنَ لهم دِرْهَمُ واشْتهرت صَوْلةُ يَعقوبَ وغَلبَه علىٰ هراة وبُوشَنْج ، وحارَب التُّرْكَ ،

---

(١) انظر السير : (الْمَلك الرَّحيم) ٢٣/٣٥٦ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧٤٠ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٢٨ .
(٣) انظر السير : (الصَّفَّار) ١٢/٥١٣ـ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢٦ .

وظَفرَ برُتْبيل ، فقتَلَه وقَتلَ ثلاثة مُلوك ورَجعَ معه ألُوفٌ من الرُّؤوس ، فهابَتْه المُلوكُ ، وكان بوجْهه ضَرْبَةُ سَيف مُخَيَّطة .

وكان يَحملُ إلى المعْتمدِ في العامِ خَمسَةَ آلافِ ألفِ دِرْهَم، وقَنعَ المعتمدُ بمُداراتِه.

ثم أخَذَ بَلْخَ ونيسابُورَ ، وأسَرَ مُتوَلِّيها ابنَ طاهر في ستِّينَ نَفْساً من آله ، وقَصَد جُرْجانَ ، فهَزم المُتغلِّبَ عليها الحَسَنَ بنَ زَيْد العَلوي ، وغَنمَ منه ثلاثَ مئة حِمل مال ثم دَخلَ جُرْجانَ ، فظَلمَ وعَسفَ ، فجاءَت زَلْزَلَةٌ قَتلَت من جُندِه ألفَين .

واستغاثَ جَماعةٌ جُرْجانيُّونَ ببَغْدادَ من يَعْقوبَ ، فعَزمَ المُعتمدُ علىٰ حَرْبِه ونفَّذَ كُتباً إلىٰ أعْيانِ خُراسَانَ بذَمِّ يَعقُوبَ ، وبأنْ يَهْتمُّوا لاسْتئصالِه فكاتَبَ المُعتمدَ يَخْضَعُ ويُراوِغُ ، ويطلبُ التَّقليدَ بتَوَليه المشرقَ ، ففَعَلَ المُعتمدُ ذاكَ وأخُوهُ المُوَفَّقُ لاشْتغالِهِم بحَرْبِ الزِّنج .

وأقبلَ يَعقوبُ ليَملكَ العراقَ ، وبَرزَ المُعتمدُ ، فالْتَقَى الجَمْعان بديرِ العَاقُول[1] ، وكَثُرت القَتلىٰ ، فانْهزَمَ يَعقوبُ ، وجُرحَ أُمراؤُه ، وذَهبَت خَزائنُه ، وغَرقَ منهم خَلقٌ في نَهْر .

وكان المَصافُّ في رَجبٍ سَنة اثْنَتين وسِتِّينَ ومئتين فذَهبَ يَعقوبُ إلىٰ وَاسِط ، ثم إلىٰ تُسْتَر فأخَذَها ، وتراجَعَ جَيشُه ، وعَظُمَت وَطأتُه ، وكادَ أنْ يَملكَ الدُّنيا ، ثم كانَ مَوتُه بالقُولَنج ، ووُصِفَت له حُقْنَة ، فأبَىٰ ، وتَلِفَ بعد أسْبوعَين .

وقَلَّ أن رُئي مُتَبسِّماً ، ماتَ بجُنديسابورَ في سَنةِ خَمس وسِتِّين ومئتين[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة عَمْرو بن اللَّيْث الصَّفَّار : قِيلَ : كان ضرَّاباً في الصُّفْر ، وقيل : بل مكاريَّ حَمير ، فآل به الحال إلى السلطنة .

تَملَّكَ بعدَ أخيه ، وأحْسَنَ السِّياسَة ، وعَدل ، وعَظُمَت دُوَلُه ، وأطَاعَ الخَليفَةَ .

وقيلَ : كان في خدمَة زَوجتِه ألفٌ وسَبعُ مئة جارِيَة .

---

(١) وهو بين مدائن كسرىٰ والنعمانية علىٰ شاطىء دجلة .

(٢) انظر السير : (الصَّفَّار) ١٢/ ٥١٣ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٦ .

ثم بَغَىٰ عَمرٌو علىٰ وَالي سَمَرْقَند إسْماعيلَ بنِ أحمَد بنِ أسَد .

وأقْبلَ إسْماعيلُ ، فأخَذَ أصحابُ عَمرو بنِ اللَّيث في الهَزيمَة ، فرَكبَت عَساكرُ إسْماعيلَ ظُهورَهم ، وتَوحَّلت بعَمرو دابَّتُه ، فأُسِر ، فأُتي به إسْماعيلُ ، فاعْتَنقَه وخَدمَه ، وقالَ : ما أحْبَبتُ أنْ يَجْري هـٰذا ، ثمَّ بالَغَ في احْترامِه ، فقالَ : احْلِفْ لي ولا تُسْلمني ، فحَلفَ له ، لكن جاءَ رسُولُ المُعْتضِدِ بالخَلْع والتَّقْليدِ لإسْماعيلَ ، ويَطلبُ عَمراً فأُدْخِل بَغدادَ علىٰ بُخْتيٍّ عليه جُبَّةُ ديباج ، وبُرنُس السُّخْط ثم قالَ له المُعْتضِدُ : هـٰذا بَيْعَتُك يا عَمرو! ثم اعْتَقلَه ، فقَتلَه القاسمُ بنُ عُبَيد الله الوَزيرُ يومَ مَوْت المُعْتضِد سَنةَ تسعٍ وثَمانينَ ومِئتَين وكان دَولتُه نيِّفاً وعشرينَ سَنة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة مُعِزِّ الدَّوْلَة : كان أبوهُ سَمَّاكاً ، وهـٰذا رُبَّما احْتَطبَ ، تَملَّكَ العِراقَ نَيفاً وعِشرينَ سَنةً ، وكان الخَليفَةُ مَقْهوراً معه ، وماتَ مَبْطوناً فعَهدَ إلى ابنِه عِزِّ الدَّولَة بَخْتِيار ، وكان يَتشيَّع ، فقيلَ : تابَ في مَرضِه ، وتَرضَّىٰ عن الصَّحابَة ، وتَصدَّقَ ، وأعْتقَ ، وأراقَ الخُمورَ ونَدِمَ علىٰ ما ظَلمَ ، ورَدَّ المَواريثَ إلىٰ ذَوي الأرْحام وكان يُقالُ له : الأقْطَع طارَت يَسارُه في حَربٍ ، وطارَت بَعضُ اليُمْنَىٰ ، وسَقطَ بين القَتلَىٰ ثم نَجا ، وتَملَّكَ بَغدادَ بلا كُلفَة ودانَت له الأُمَمُ ، وكان في الابْتداءِ تَبعاً لأخيه المَلكِ عِمادِ الدَّولَة .

ماتَ سنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وثَلاثِ مِئَة ، وله ثَلاثٌ وخَمسونَ سَنةً .

وقد أنْشأ داراً غَرم عليها أرْبَعين ألفَ ألفِ دِرْهم فبَقيَت إلىٰ بعدِ الأرْبَع مئة ونُقضَت ، فاشْتروا جَرْدَ ما في سُقوفِها من الذَّهَب بثَمانيَةِ آلافِ دِينار[2] .

كافُور :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : صاحِبُ مِصْرَ ، الخَادِمُ الأسْتاذُ ، أبو الْمِسْكِ ، كافُورٌ الإخْشيذيُّ الأسْوَدُ .

---

(١) انظر السير : (عَمْرو بن اللَّيث الصَّفَّار) ١٢/ ٥١٦ـ ٥١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٧ .

(٢) انظر السير : (مُعِزِّ الدَّوْلَة) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٣ .

تَقدَّمَ عنَد مَوْلاهُ الإخْشيذِ ، وسادَ لرَأيه وحَزْمه وشَجاعَتِه فصَيَّرَه من كِبار قُوَّادِه ، ثم حارَبَ سَيفَ الدَّولَة ، ثم صارَ أتابكَ أنُوجُورَ ابنَ أُسْتاذِه وتَمكَّن .

ماتَ المَلكُ أنُوجُور شابّاً في سَنةِ تِسعٍ وأرْبَعينَ وثَلاثِ مئة فأقامَ كافُورٌ أخاهُ عَليّاً في السَّلْطَنة ، فبَقي ستَّ سِنينَ ، وأزِمَّة الأمُور إلىٰ كافُور ، وبعدَه تَسلطَن ورَكبَ الأسْوَدُ بالخِلعَة السَّوْداءِ الخَليفَتيَّة فأشارَ عليه الكبارُ بنَصْبِ ابنٍ لعَليٍّ صُورَةً في اسْمِ المَلكِ ، فاعْتَلَّ بصِغَره ، وما الْتُفتَ علىٰ أحَدٍ ، وأظْهَرَ أنَّ التَّقْليدَ والأُهْبَةَ جاءَته من الْمُطِيعِ ، وذلكَ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وثَلاثِ مئة ، ولَمْ يَنْتَطِحْ فيها عَنْزان .

وكان مَهيباً ، سائساً ، حَليماً ، جَواداً ، وَقُوراً ، لا يُشْبهُ عَقلُه عُقولَ الخُدَّام[1] .

وفيه يقول المتنبي[2] :

قَـوَاصِـدَ كَـافُـورٍ تَـوَارِكَ غَيْـرِهِ ... وَمضنْ قَصَدَ البَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَـاءَتْ بِنَـا إنْسَـانَ عَيْـنِ زَمَـانِـهِ ... وَدَلَّـتْ بَيَـاضـاً خلْفَهَـا ومَـآقِيَـا

فأقامَ عنده أرْبَع سِنينَ ، نالَه مالٌ جَزيلٌ ، ثمَّ هَجاهُ لآمةً وكُفْراً لنِعْمَتِه وهَربَ على البَريَّة يقولُ :

مَنْ علَّمَ الأَسْوَدَ المَخْصِيَّ مَكْرُمَةً ... أقْـوَامُـهُ البِيـضُ أَمْ آبَـاؤُهُ الصِّيـدُ
وذَاكَ أنَّ الفُحُـولَ البِيـضَ عَـاجِـزَةٌ ... عَن الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الخِصيَةُ السُّودُ

ودُعيَ لكافُورٍ علىٰ مَنابِرِ الشَّامِ ومِصْرَ والحَرمَين والثُّغُورِ .

وكان مُلازِماً لمَصالح الرَّعيَّة .

وكان يَتعَبَّدُ ويَتهجَّدُ ، ويُمرِّغُ وَجْهَه ، ويقولُ : اللَّهُمَّ لا تُسَلِّطْ عليَّ مَخْلوقاً .

وكان يُقرأُ عندَه السِّيَرُ والدُّوَل .

وله نُدَماء وجَوارٍ مُغنِّياتٍ ، ومن المَماليك ألوفٌ مُؤلَّفة ، وكان فَطِناً ، يَقِظاً ،

---

(١) انظر السير : (كافور) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٨٣ .

(٢) انظر السير : (كافور) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٨٤ .

ذَكيّاً ، يُهادي المُعِزَّ إلى الغَرْب ، ويُداري ويَخضَعُ للمُطيعِ ، ويَخدَعُ هَؤلاء وهَؤلاء .

وله نَظَرٌ في الفِقْه والنَّحْو .

تُوفِّي سنةَ سَبعٍ وخَمسينَ وثلاثِ مئة ، وماتَ عَشْرَ السَّبعين .

وقيلَ : مُشْتَرَاهُ على الإخْشيذِ ثمانيَةَ عَشرَ ديناراً .

وللمُتَنبِّي يَهجُوهُ ويَهْجُو ابنَ حنْزابَة الوَزيرَ[1] :

ومَـاذَا بِمِصْـرَ مِـن المُضْحِكـاتْ ... وَلكِنَّـه ضَحِـكٌ كَـالبُكَـا
بهَـا نَبَطـيٌّ مِـنَ أهْـلِ السَّـوادْ ... يُـدرِّسُ أنْسَـابَ أهْـلِ الفَـلاَ
وأَسْـوَدُ مِشْفَـرُهُ نِصْفُـه ... يُقَـالُ لـه أنـتَ بَـدْرُ الـدُّجـا
وشِعْـر مـدحْـتُ بِـهِ الكَـرْكـدنَّ ... بيـنَ القَـريـضِ وَبيـنَ الـرُّقَـا
فمـا كـان ذلـكَ مَـدْحـاً لـهُ ... ولكنَّـه كـانَ هَجْـو الـوَرَى

وقد كان في كافُورٍ حِلْمٌ زائدٌ ، وَكفٌّ عن الدِّماءِ ، وجَوْدَةٌ وتَدْبير[2] .

٧ـ القِتالُ على المُلْك :

الأَمينُ والمَأْمُون :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الأمين : الخَليفَةُ ، أبو عبدِ الله مُحمَّدُ ابنُ الرَّشيدِ هارُونَ ، الهاشِميُّ العَبَّاسيُّ البَغْداديُّ .

عَقدَ له أبُوه بالخِلافَة بعدَه ، وكانَ مَليحاً ، بَديعَ الحُسْن ، أبيضَ وَسيماً طَويلاً ذا قُوَّة وشَجاعَة وأدَب وفَصاحَة ، ولكنَّه سَيِّءُ التدْبيرِ مُفْرطَ التبْذيرِ ، أرْعَنَ لعَّاباً ، مع صِحَّة إسْلامٍ ودين .

قالَ الْمَسْعُوديُّ : ما وَليَ الخِلافَةَ هاشِميٌّ ابنُ هاشِميَّة سِوَىٰ عَليٍّ ومُحمَّدٍ الأمين[3] .

وفي سَنةِ أرْبع وتِسْعينَ ومئة أمَرَ الأمينُ بالدُّعاءِ لابنِه مُوسَىٰ بوِلايَةِ العَهْدِ بعدَ وَليِّ

---

(١) انظر السير : (كافور) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٨٤ .
(٢) انظر السير : (كافور) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٨٥ .
(٣) انظر السير : (الأمين) ٩/ ٣٣٤ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٢٤ .

العَهْد الْمَأمُونِ والقاسِم ، وأغْرَى الفَضلُ بنُ الرَّبيع الأمينَ بالْمَأمونِ وحثَّه علىٰ خَلعِه لعَداوَةٍ بينهما ، وحَسَّنَ له ذلك السِّنْديُّ ، وعليُّ بنُ عيسىٰ بنُ ماهان ، ثم بَعثَ الأمينُ يَطلبُ من الْمَأمونِ تَقديمَ مُوسَىٰ وَلدَه على الْمَأمُونِ ، ولَقَّبه النَّاطِقَ بالحَقِّ ، فأبَىٰ ذلكَ الْمَأمُونُ .

وأمَّا الأمينُ ، فبَلغَه خِلافُ الْمَأمُونِ ، فأسْقَطَه من الدُّعاءِ ، وطَلبَ ما كَتبَه الرَّشيدُ وعلَّقَه بالكعْبَة من العَهْدِ بينَ الأخَوَينِ ، فمزَّقَه ، فلامَه الألِبَّاءُ فلَمْ يَنْتَصِحْ ، حتىٰ قالَ له خازِمُ بنُ خُزَيْمَة : لَنْ يَنْصَحْكَ مَنْ كَذَبك ، ولَنْ يغُشَّكَ مَنْ صَدَقَك ، لا تُجَسِّر القُوَّادَ على الخَلع ، فيَخْلَعوكَ ، ولا تَحْمِلْهم على النَّكْثِ ، فالغادِرُ مَفْلولٌ ، والنَّاكِثُ مَخذولٌ ، فلَمْ يَلتَفِتْ ، وبايَعَ لِمُوسَىٰ بالعَهْدِ واسْتوزَرَ له .

فلمَّا عَرفَ الْمَأمُونُ ، خَلعَ أخاهُ ، وتَسَمَّىٰ بأميرِ المؤمنينَ ، وأمَّا ابنُ ماهانَ ، فجهَّزَه الأمينُ ، وخَصَّه بمئتَي ألفِ دينار ، وأعْطاهُ قَيداً من فِضَّة لِيُقَيِّدَ به الْمَأمُونَ بزَعْمِه ، وعَرضَ الأمينُ جَيشَه بالنَّهْرَوَان ، وأقْبَلَ طاهِرٌ في أرْبَعةِ آلافٍ فالْتَقَوا ، فقُتلَ ابنُ ماهان ، وتَمزَّقَ جَيشُهُ ، هـٰذا والأمينُ عاكفٌ على اللَّهْوِ واللَّعِبِ ، فبَعثَ جَيشاً آخَرَ ، ونَدِمَ علىٰ خَلْعِ الْمَأمُونِ .

وأنْفَقَ الأمينُ بُيوتَ الأمْوالِ على الجُندِ ولا يَنْفَعونَ ، وجاءَت أمْدادُ الْمَأمُونِ مع هَرْثمةَ بنِ أعيَن والفَضلِ بنِ سَهْل ، وضَعُفَ أمرُ الأمينِ ، وجَبُنَ جندُه من الخُراسانيِّين ، وأحاطَت الْمَأمُونيَّةُ ببَغْدادَ ، يُحاصِرونَ الأمينَ واشتدَّ البَلاءُ ، وعَظُمَ القِتالُ ، وقاتَلَت العامَّةُ والرِّعَاعُ عن الأمينِ قِتالَ الْمَوْتِ ، واسْتمرَّ الوَيلُ والحِصارُ ، وجَرَتْ أمورٌ لا تُوصَفُ ، وتَفاقَمَ الأمرُ ونَفذَت خَزائنُ الأمينِ ، حتىٰ باعَ الأمْتِعَةَ ، وأنْفَقَ في الْمُقاتِلَة ، وما زالَ أمرُه في سِفالٍ ، ودَثَرَتْ مَحاسِنُ بَغْدادَ ، ودامَ الحِصارُ والوَبالُ خَمسةَ عَشرَ شَهراً .

ودَخلَ طاهِرٌ بَغْدادَ عَنْوَةً ، ونادَىٰ : مَنْ لَزِمَ بَيتَه ، فهو آمِنٌ ، وحاصَروا الأمينَ في قُصُورِه أيَّاماً ، ثم رَأىٰ أنْ يَخرُجَ علىٰ حميةٍ ليلاً ، وفَعلَ فظَفروا به ، وهو في

حَرَّاقَةٍ[1] فشدَّ عليه أصْحابُ طاهِر في الزَّوَاريقِ[2] وتَعلَّقوا بحَرَّاقَتِه ، فنُقِبَت ، وغَرِقَت ، فرَمَى الأمينُ بنفسِه في الماء ، فظَفِرَ به رَجلٌ ، وذَهبَ به إلىٰ طاهِر ، فقَتلَه ، وبَعثَ برأسِه إلى الْمَأمُونِ ، فإنَّا لله ، ولم يُسَرَّ الْمَأمُونُ بمَصْرعِ أخيه .

وعاشَ الأمينُ سَبعاً وعِشرينَ سَنةً ، وقُتلَ في الْمُحرَّم سَنةَ ثَمانٍ وتِسعينَ ومئة ، وخِلافَتُه دون الخَمسِ سِنين ، سامَحَه اللهُ وغَفرَ له[3] .

صَلاحُ الدِّين مع مَلك الموصِل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة مَلكِ الْمَوْصِلِ : المَلكُ سَيفُ الدِّين ، غازي ابنُ صاحِبِ المُوصِل ، قُطْبِ الدِّين مَوْدُودِ ابنِ الأتابك زنكيٍّ ابنِ قَسيمِ الدَّولَة آقْسنقر التُّرْكيُّ الْمَوْصِليُّ .

تَملَّكَ بعد أبيه من تَحْت يَدِ عَمِّه الملكِ نُورِ الدِّين ، وطالَت أيامُه ، فلمَّا تَسَلطَنَ صَلاحُ الدِّين ، وحاصَر حَلبَ ، نَفذَ غازي جَيشَه مع أخيه مَسْعودَ يُنْجِدُ ابنَ عمِّه ، فالْتَقَوْا هم وصَلاحُ الدِّين عند قُرونِ حماةَ ، فانْكَسَرَ مَسْعودٌ ، فأقْبلَ غازي بنفسِه ليَأخُذَ بالثَّأرِ فوَقعَ الْمَصافُّ علىٰ تَلِّ السُّلطانِ بقُربِ حَلَبَ ، فانْكَسرَت مَيْسَرةُ صَلاحِ الدِّين ، فحَملَ السُّلطانُ بنفسِه ، فكَسرَ الْمَواصِلَةَ ، فقَبَّحَ اللهُ القِتالَ على الْمُلكِ ، ما أرْدَاهُ .

ماتَ غَازي رَحمَه اللهُ بالسُّلِّ في سَنةِ سِتٍّ وسَبعيَن وخَمسِ مئة ، وتَملَّكَ الْمُوصِلَ أخُوهُ الْمَلكُ عِزُّ الدِّينِ مَسْعود[4] .

٨ـ صُوَرٌ من تَنَعُّم الخُلَفَاء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة يَزيدِ بنِ مُعاويَة : عن زيادِ الحارثيِّ قالَ : سَقاني يَزيدُ بنُ مُعاويَة شَراباً ما ذُقتُ مِثلَه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ لَمْ أُسَلْسِلْ مثلَ هـٰذا

---

(١) ضربٌ من السفن بالبصرة ، فيها مرامي نيران يُرمَىٰ بها العدو في البحر .
(٢) هي القوارب الصغار .
(٣) انظر السير : (الأمين) ٩/ ٣٣٤ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/٨٢٤ .
(٤) انظر السير : (مَلك الْمَوْصِل) ٢١/ ٥٤ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ١/١٥٩٧ .

قالَ : هـٰذا رُمَّانُ حُلْوانَ ، بعَسَلِ أصْبَهَانَ ، بسُكَّرِ الأهْوازِ ، بزَبيبِ الطَّائِفِ ، بمَاءِ بَرَدَىٰ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة أبي مُسْهِر : قالَ عليُّ بنُ عُثْمانَ النُّفَيليُّ : كُنَّا علىٰ بابِ أبي مُسْهر جَماعَةً من أصْحابِ الحَديثِ ، فمَرِضَ ، فعُدْناه ، وقُلنا : كيفَ أصْبَحتَ ؟ قالَ : في عافيَةٍ ، راضِياً عن الله ، ساخِطاً علىٰ ذي القَرْنَينِ ، كيف لَمْ يَجعلْ سَداً بيننا وبين أهلِ العِراقِ ، كما جَعلَه بين أهْلِ خُراسانَ وبينَ يأجُوجَ ومَأجُوجَ ، فما كانَ بعد هـٰذا إلاَّ يَسيراً حتىٰ وَافَى الْمَأمُونُ دِمَشْقَ ، ونَزلَ بدَيرِ مُرَّان وبَنَى القُبَّةَ فَوقَ الجَبَل ، فكانَ باللَّيلِ يَأمُرُ بجَمْرٍ عَظيمٍ ، فيُوقَد ويُجعَلُ في طُسوتٍ كبار ، تُدَلَّىٰ من عند القُبَيْبَة بسَلاسِلَ وحِبال ، فتُضيءُ لها الغُوطَةُ ، فيُبصِرُها باللَّيلِ .

وكان لأبي مُسْهِر حَلقةٌ في الجامِع بين العِشاءَين عند حائطِ الشَّرقيِّ ، فبَينما هو لَيلةً ، إذ قد دَخَل الجامِعَ ضَوءٌ عَظيمٌ ، فقالَ أبو مُسْهِر : ما هـٰذا ؟ قالوا : النَّارُ التي تُدَلَّىٰ من الجَبلِ لأميرِ المؤمنينَ حتىٰ تُضيءَ له الغُوطَةَ فقالَ : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[2] ، وكان في الحلقة صاحِبُ خَبرٍ للمَأمُونِ ، فرَفعَ ذلك إلى الْمَأمُونِ ، فحَقَدَها عليه .

فلمَّا رَحلَ الْمَأمُونُ ، أمَرَ بحَمْلِ أبي مُسْهِر إليه ، فامْتَحنَه بالرَّقَّة في القُرآنِ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد كانَ الْمَأمُونُ بأساً وبلاءً على الإسْلام[3] .

٩ـ قَولٌ بَليغٌ في خَليفَةٍ بَخِيل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة جَعْفَرِ بنِ مُحمَّد : ومن بَليغِ قَولِه ، وذُكِرَ له بُخْلُ الْمَنْصورِ ، فقالَ : الحَمدُ لله الذي حرَمَه من دُنياه ما بَذلَ لأجْلِه دينَه[4] .

---

(١) انظر السير : (يَزيد بن مُعاويَة) ٤/ ٣٥ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٣٧ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيتين : ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٣) انظر السير : (أبو مُسْهِر) ١٠/ ٢٢٨ـ ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٧٢ .
(٤) انظر السير : (جَعْفَر بن محمّد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٤٩ .

١٠ـ اسْتِماعُ الخَليفَة للمُنَجِّمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الْمَنْصورِ : وقد كان المنصورُ يصغي إلىٰ أقوال المنجمين وينفُقُون عليه وهـٰذا من هنَاته مع فضيلته[١] .

١١ـ شُبُهاتٍ حَولَ هارُونَ الرَّشيد ـ رَحمَه الله ـ ورَدِّها :

(أ) عِبادَتُه وفَضْلُه وغَزْوُه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجمَتِه : كانَ مِنْ أنْبَلِ الخُلفاء ، وأحْشَمِ الْمُلوكِ ، ذا جِهادٍ ، وغَزوٍ وشَجاعَة ، ورأي .

وأمُّه أمُّ وَلَد ، اسْمُها خَيزُران .

أغْزَاهُ أبوهُ بلادَ الرُّوم ، وهو حَدَثٌ في خِلافَتِه[٢] .

قيلَ : إنَّه كان يُصلِّي في خِلافَتِه في كلِّ يَوم مئةَ رَكعَة إلىٰ أنْ ماتَ ، ويَتصَدَّقُ بألفٍ ، وكان يُحبُّ العُلماءَ ، ويُعظِّمُ حُرُماتِ الدِّين ، ويَبغَضُ الجِدالَ والكَلامَ ، ويَبكي علىٰ نفسِه ولَهْوِه وذُنوبِه ، لاسيَّما إذا وُعِظَ ، ووَعَظَه الفُضَيْلُ مرَّةً حتىٰ شَهِقَ في بُكائِه[٣] .

وعن الأصْمَعيِّ : قالَ لِيَ الرَّشيدُ وأمَرَ لي بخَمسَةِ آلافِ دينار : وَقِّرْنا في الْمَلأ وعَلِّمْنا في الخَلاءِ ، سَمِعَها أبو حاتم من الأصْمَعيِّ[٤] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : حجَّ غيرَ مرَّة ، وله فُتوحاتٌ ومَواقفُ مَشْهودَةٌ ، ومنها فَتحُ مَدينَة هِرَقْلَة[٥] ، وماتَ غازِياً بخُراسانَ ، وقَبرُه بمَدينَة طُوسَ ، عاشَ خَمساً وأرْبَعينَ

---

(١) انظر السير : (المَنصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٦٧٨/ ٥ .

(٢) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٠/ ٢ .

(٣) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٠/ ٣ .

(٤) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢١/ ٣ .

(٥) هي مدينة ببلاد الروم ، سُميت بهِرَقْلة بن الروم ، وكان الرشيد غزاها بنفسه ، ثم افتتحها عنوة بعد حصار وحرب شديد ورمىٰ بالنار والنفط حتىٰ غلب أهلها .

سَنةً ، وصَلَّىٰ عليه وَلدُه صالح ، تُوفِّيَ في سَنةِ ثَلاثٍ وتِسعينَ ومئة .

وَزرَ له يَحْيَىٰ بنُ خالد مُدَّة ، وأحْسَنَ إلى العَلَويَّة ، وحَجَّ سَنةَ ثَلاثٍ وسَبعينَ ومئة وعَزلَ عن خُراسانَ جَعْفَرَ بنَ أشْعث بوَلدِه العبَّاس بنِ جَعْفَر ، وحَجَّ أيضاً في العامِ الآتي ، وعَقدَ بولايَة العَهْدِ لوَلدِه الأمينِ صَغيراً ، فكانَ أقْبَحَ وَهْنٍ تمَّ في الإسْلامِ ، وأرْضَى الأُمَراءَ بأموالٍ عَظيمَة ، وتَحرَّكَ عليه بأرضِ الدَّيْلَم يَحيىٰ بنُ عبدِ الله بنِ حَسَن الحَسَنيُّ ، وعَظُمَ أمْرُه ، وبادَرَ إليه الرَّافِضَةُ ، فتَنكَّدَ عَيشُ الرَّشيدِ واغْتمَّ ، وجَهَّزَ له الفَضلَ ابنَ وَزيرِه في خَمسينَ ألفاً ، فخارَت قُوَىٰ يَحْيَىٰ ، وطَلبَ الأمَانَ ، فأجابَه ولاطَفَه ، ثم ظَفِرَ به ، وحَبسَه ، ثم تَعلَّل وماتَ[1] .

وفي سَنةِ تِسعٍ وسَبعينَ ومئة اعْتَمرَ الرَّشيدُ في رَمضانَ ، واسْتمَرَّ علىٰ إحْرامِه إلىٰ أنْ حَجَّ ماشِياً من بَطْنِ مَكة .

وتَفاقَمَ الأمْرُ بينَ قَيسٍ ويَمَنٍ بالشَّامِ ، وسالَت الدماءُ[2] .

وغَزا الرَّشيدُ ، ووَغَلَ في أرضِ الرُّومِ ، فافْتَتحَ الصَّفْصافَ ، وبَلغَ جَيشُه أنْقَرَة .

وفي سَنةِ خَمسٍ وثَمانينَ ومئة ظَهرَ بعبَّادانَ أحمدُ بنُ عيسىٰ بنِ زَيْد ابنِ عَليٍّ العَلويُّ ، وبناحيَةِ البَصْرَةِ ، وبُويعَ ثم عَجَزَ وهَربَ ، وطالَ اخْتِفاؤُه أزْيَدَ من سِتِّينَ عاماً[3] .

وفي سَنةِ سَبعٍ وثَمانينَ ومئة قَتلَ الرَّشيدُ جَعْفرَ بنَ يَحْيى البَرْمكيَّ ، وسَجنَ أباه وأقاربَه ، بعدَ أنْ كانوا قد بَلغوا رُتْبَةً لا مَزيدَ عليها ، وفيها انتُقِضَ الصُّلحُ مع الرُّومِ ، ومَلَّكوا عليهم نِقْفورَ ، فيُقالُ : إنَّه من ذُرِّيَة جَفْنَة الغَسَّانيِّ ، وبَعثَ يَتهَدَّدُ الرَّشيدَ ، فاستَشاطَ غَضباً ، وسارَ في جُيوشِه حتىٰ نازَلَه هِرَقْلة ، وذلَّتِ الرُّومُ ، وكانت غَزوَةً مَشْهُودَةً[4] .

---

(١) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢١/ ٥ .
(٢) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢١/ ٦ .
(٣) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٢/ ١ .
(٤) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٢/ ٢ .

وفي سَنةِ ثَمانٍ وثَمانينَ ومئة كانت الملحَمَةُ العُظْمَىٰ ، وقُتلَ من الرُّوم عَددٌ كَثيرٌ ، وجُرِحَ النِّقْفُورُ ثلاثَ جِراحاتٍ ، وتمَّ الفِداءُ حتىٰ لم يَبْقَ في أيدي الرُّومِ أسيرٌ[1] .

(ب) ماذا قِيلَ حَولَ شُرْبِه الخَمْر :

قالَ ابنُ حزمٍ : أراهُ كان يَشربُ النَّبيذَ الْمُخْتَلَفَ فيه ، لا الخَمْرَ الْمُتَّفَقُ علىٰ حُرْمَتِها[2] .

(ج) تَعْظِيمُه للعُلَماء :

ولَمَّا بَلغَه مَوْتُ ابنِ المبارك ، حَزنَ عليه ، وجَلسَ للعَزاءِ ، فعَزَّاهُ الأكابرُ[3] .

وعن أبي مُعاوِيَةَ الضَّرير قالَ : صَبَّ علىٰ يَديَّ بعد الأكْلِ شَخصٌ لا أعْرِفُه ، فقالَ الرَّشيدُ : تَدْرِي مَنْ يَصُبُّ عَليكَ ؟ قُلتُ : لا ، قالَ : أنا ، إجْلالاً للعِلْمِ[4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٢٢ .

(٢) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٢١ .

(٣) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٢١ .

(٤) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٢١ .

الوُزَراء

١ـ السُّلْطانُ بحاجَةٍ إلىٰ وُزَراءَ مُخْلِصين :

عن الأحْنَفِ قالَ : سَمعتُ خُطبَةَ أبي بَكْر وعُمَرَ والخُلفاء فما الكَلامُ من مَخْلوقٍ أفْخَم ولا أحْسَن من أُمِّ المؤمنينَ عائِشَة .

وعنه : لا يَتمُّ السُّلطانُ إلاَّ بالوُزَراءِ والأعْوانِ ، ولا يَنفعُ الوُزَراءُ والأعْوانُ إلاَّ الْمَوَدَّةِ والنَّصيحَةِ ، ولا تَنفَعُ الْمَوَدَّةُ والنَّصيحَةُ إلاَّ بالرَّأيِّ والعِفَّة[1] .

٢ـ وَزيرٌ عُذِّبَ وقُتلَ بغَير حقٍّ :

الكنْدَري :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجمَته : الوَزيرُ الكَبيرُ ، عَميدُ الملك أبو نَصْر ، مُحمَّدُ بنُ مَنْصور بنِ مُحمَّد الكُنْدُريُّ ، وَزيرُ السُّلطانِ طُغْرُلْبَك .

كان أحَدَ رجالِ الدَّهْر سُؤدُداً وجُوداً وشَهامَةً وكِتابَةً .

وكُنْدُر : من قُرَىٰ نيسابُور وُلدَ بها سَنةَ خَمسَ عَشرةَ وأرْبع مئة ، تَفقَّه وتأدَّبَ ، وكانَ كاتباً لرَئيس ، ثم ارْتَقَىٰ ووَلِيَ خُوارَزْم وعَظُم ، ثم عَصَى السُّلطانَ ، وتَزوَّجَ بامْرأةِ مَلكِ خُوارَزْم ، فتَحيَّلَ السُّلطانُ حتىٰ ظَفرَ به ، وخَصاهُ لتَزَوُّجِه بها ثم رَقَّ له وتَداوَىٰ وعُوفي ووَزرَ له .

وقَدِمَ بَغْدادَ ، ولَقَّبَه القائمُ سَيِّدَ الوُزَراءِ ، وكانَ مُعْتَزليّاً له النَّظْمُ والنَّثْرُ فلمَّا ماتَ طُغْرُلبَك ، وَزَرَ لألب آرسلان قَليلاً ونُكِبَ .

ووَزرَ تِسعَ سِنينَ وأخَذوا أمْوالَه ، منها ثَلاثُ مئة مَمْلوكٍ وقُتِلَ صَبْراً ، وطِيفَ

---

(١) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/٨٦ـ٩٧ ، وانظر النزهة : ٦/٤٥٣ .

برأسِه ، وما بَلغَنا عنه كَبيرُ إساءَة ، لكن ما علىٰ غَضَبِ الْمَلِكِ عيارٌ قُتلَ بمَرْوِ الرُّوذ سَنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وأرْبع مئة ، وله اثنَتان وأرْبَعون سَنةً ، ووَزرَ بعدَه نِظَامُ الْمُلك[1] .

٣ـ مَنْ عُذِّبَ من الوُزَراء حتى المَوت :

جاءَ في تَرجَمَةِ أحمدَ بنِ إسْرائيلَ ، قالَ الصُّوليُّ : كانت وَزارَتُه دون ثلاث سنين ، وقَتلَه وَصيفٌ بالضَّربِ في رَمضانَ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ ومئتين[2] .

الحَسَنُ بنُ مَخْلَد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجمَة الحَسَنِ بنِ مَخْلَد : ابنُ الجَرَّاح الوَزيرُ الأكْمَلُ ، أبو مُحمَّدٍ البَغْداديُّ ، الكاتبُ أحدُ رِجالِ العَصْر سُؤدُداً ، ورَأياً ، وشَهامَةً ، وكتابَةً ، وبَلاغَةً ، وفَصاحَةً ، ونُبْلاً .

مَولدُه : في تِسْعٍ ومئتين فاتُّفِقَ أنَّه وُلدَ فيها أرْبَعةُ وُزَراء : هو ، وعبدُ الله بنُ يَحْيىٰ بنِ خاقانَ ، ومُحمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ طاهِر وأحمَدُ ابنُ إسرائيل .

وَزرَ الحَسَنُ للمُعتَمِدِ نَوْبتَينِ ، فصادَرَه ثم وَزرَ له ثالثاً ، فاسْتمرَّ خَمسةَ أعْوامٍ ، فسَخطَ عليه فتَسلَّلَ إلىٰ مِصْرَ ، فأقْبلَ عليه ابنُ طُولونَ ، وجَعلَ إليه نَظَر الإقْليمِ والْتَزمَ له بنُموِّ ألفِ ألفِ دينار في السَّنةِ مع العَدْلِ ، فخافَه العُمَّالُ ، وتَفرَّغوا له ، وقالوا : هٰذا عَينٌ عَليكَ للمُوَفَّقِ وَليِّ العَهْد فتَحيَّل وسَجنَه فقالوا : ما الرَّأيُ في حَبسِه في جِوارِك ، فرُبَّما حَدثَ به مَوتٌ فيُنسَبُ إليكَ ، فأرْسَلَ به نائبَه بأنْطاكيَة ، وأمَرَه أنْ يُعذِّبَه ، فتَلفَ تحتَ العَذابِ .

وكان ابنُ مَخْلَد ـ مع ظُلمِه ـ شاعِراً جَواداً مُمَدَّحاً ، امْتدَحَه البُحْتُريُّ وغيرُه .

قالَ ابنُ النجَّار : عَملَ الوَزارَةَ مع كتابَةِ الْمُوَفَّق ، وكانَ آيَةً في حِسابِ الدِّيوانِ ، حتىٰ قِيلَ : ما لا يَعْرفُه ابنُ مَخْلَد ، فلَيسَ من الدُّنيا .

وكانَ تامَّ الشَّكلِ ، مَهيباً ، فاخِرَ البِزَّة ، يَركَبُ غِلمانُه في الدِّيباجِ ، ونَسيجِ

---

(١) انظر السير : (الكُندري) ١٨/ ١١٣ـ ١١٥ ، وانظر النزهة : ١٣٩١/ الكُندري .

(٢) انظر السير : (أحمد بن إسرائيل) ١٢/ ٣٣٢ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ١٠٠٥/ ٥ .

الذَّهَب ، وعِدَّة جَنائبَ وإذا جَلسَ في دارِه تَقعُ العَينُ على الفَرْشِ والسُّتورِ ، والآنيَة التي قيمَتُها مئةُ ألفِ دينار كان في هَيئةِ سُلطانٍ كَبيرٍ .

ماتَ في سَنةِ إحْدَىٰ وسَبعينَ ومِئتَين[1] .

٤ـ الوُزَراء المُتَحَكمون في الأمُور أكثر من وَلي الأمْر :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الحافظ لدين الله العُبيدي : وغَلبَ على الأمُورِ أميرُ الجُيوشِ أبو عَليٍّ بنُ الأفْضَل بنُ بَدْر الجمَالي فأخْرَجَت الأُمَراء أبا عَليٍّ ، وقدَّموهُ عَليهم ، فأتَىٰ إلى القَصْر ، وأمَرَ ونَهَىٰ ، وبَقيَ الحافِظُ معه مُنْقَهراً ، فقامَ أبو عَليّ بالمُلكِ أتَمَّ قيامٍ وعَدَلَ في الرَّعيَّة ، ورَدَّ أمْوالاً كَثيرَة على المُصادَرين ، ووَقفَ عند مَذْهَبِ الشِّيعَة ، وتَمسَّكَ بالاثْني عشر ، وتَركَ ما تَقولُه الإسْماعيليَّةُ ، وأعْرَضَ عن الحافِظ وآلِ بَيتِه ، ودَعَا علىٰ مَنابِرِ مِصْرَ للمُنْتَظَرِ صاحبِ السِّرْدابِ علىٰ زَعمِهم ، وكَتبَ اسْمَه على السِّكَّة ، واسْتَمرَّ علىٰ ذلك ، وقَلِقَت الدَّوْلةُ إلىٰ أنْ شَدَّ عليه فارسٌ من الخاصَّة ، فقَتلَه بظاهرِ القاهِرَة في المُحرَّم سَنةَ سِتٍّ وعشرينَ وخَمسِ مِئَة ، وذلكَ بتَدبيرِ الحافِظِ ، فبادَرَت الأُمَراءُ إلىٰ خِدمَةِ الحافِظِ ، وأخْرَجُوهُ من الضِّيقِ والاعْتِقالِ ، وجَدَّدوا بَيْعَتَه واسْتقَلَّ بالمُلكِ .

وعندَما ماتَ الآمِرُ قَبلَه ، قالَ الجُهَّالُ : هـٰذا بَيتٌ لا يَموتُ إمامٌ منهُم حتىٰ يخلِّفَ ابناً يَنُصُّ علىٰ إمامَتِه ، فخَلَّفَ الآمِرُ حَمْلاً فكانَ بِنْتاً .

وكان الحافِظُ كُلَّما أقامَ وَزيراً تَمكَّنَ ، وحَكمَ عليه ، فيَتَألَّمُ ويَتحيَّلُ عليه ، ويعَملُ علىٰ هَلاكِه وبَقيَ الحافِظُ بلا وَزيرٍ عَشْرَ سِنين .

وماتَ سَنة أرْبَع وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة ، فكانَتْ دَولتُه عِشرينَ سَنةً سِوَىٰ خَمسَةِ أشْهُر وعاشَ سَبعاً وسَبعينَ سَنةً فما بَلغَ أحدٌ هـٰذا السنَّ من العُبَيْديَّة ، وقامَ بعدَه وَلدُه الظَّافِرُ[2] .

---

(١) انظر السير : (الحَسن بن مَخْلَد) ١٣/ ٧ـ ٨ ، وانظر النزهة : ١٠٤٥/ الحَسن بن مَخْلَد .

(٢) انظر السير : (الحافظ لدين الله) ١٥/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢١٥ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة ابنِ أبي عامِر : الْمَلكُ الْمَنْصُورُ ، حاجِبُ الْمَمالكِ الأنْدَلُسيَّة ، أبو عامِر ، مُحمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي عامِر مُحمَّدِ القَحْطانيُّ الْمَعَافِريُّ القُرْطُبيُّ ، القائمُ بأعْباءِ دَولَة الخَليفَة الْمَرْوانيِّ الْمُؤيَّد بالله هشام بنِ الحَكَم أميرِ الأنْدَلُسِ فإنَّ هـٰذا الْمُؤيَّد اسْتخلِفَ ابنَ تِسْع سِنينَ ، ورُدَّت مَقاليدُ الأُمورِ الى الحاجِبِ هـٰذا فيَعمَدُ إلىٰ خَزائنِ كُتبِ الحَكَم ، فأبْرزَ ما فيها ثم أفْردَ ما فيها من كُتبِ الفَلسَفَة فأحْرَقَها بمَشْهَدٍ من العُلماءِ ، وطَمرَ كثيراً منها ، وكانت كَثيرةً إلى الغايَة ، فعَلَه تَقبيحاً لرأي الْمُسْتَنْصِر الحَكَم[1] .

وكانَ الْمُؤيَّدُ معه صُورةً بلا مَعْنىٰ ، بل كانَ مَحْجوباً لا يَجتمعُ به أميرٌ ولا كبيرٌ بلْ كان أبو عامِر يَدخُلُ عليه قَصرَه ، ثم يَخرُجُ فيَقولُ : رَسَمَ أميرُ المؤمنينَ كذا وكذا ، فلا يُخالفُه أحَدٌ ، وإذا كانَ بعدَ سَنةٍ أو أكثر أرْكَبَه فَرَساً ، وجَعلَ عليه بُرْنُساً ، وحَولَه جَواريه راكباتٍ ، فلا يَعرفُه أحَدٌ[2] .

٥ـ مَنْ ظَلَم من الوُزَراء بعد العَدْل والإحْسان :

ابنُ الفُرات :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَته : الوَزيرُ الكَبيرُ ، أبو الحَسَن ، عَليُّ ابنُ أبي جَعْفَر مُحمَّد بنِ مُوسَىٰ بنِ الحَسَن بنِ الفُرات العَاقُوليُّ الكاتِبُ .

قالَ الصُّوليُّ : ابتاعَ جَدُّهم ضياعاً بالعَاقُولِ ، وانْتقلَ إليها فنُسِبوا إلى العَاقُولِ كان ابنُ الفُراتِ يَتولَّىٰ أمرَ الدَّواوينِ زَمنَ الْمُكْتَفي ، فلمَّا وَلِيَ الْمُقْتَدِرُ ووَزرَ له العَبَّاسُ بنُ الحَسَن ، بَقي ابنُ الفُراتِ علىٰ وِلايَتِه ، فجَرَت فِتنَةُ ابنِ الْمُعْتزِّ ، وقُتلَ العبَّاسُ الوَزيرُ ، فوَزَرَ ابنُ الفُرات سَنةَ سِتٍّ وتِسعينَ ومِئتَين ، وتَمكَّن فأحْسَنَ وعَدلَ وكان سَمْحاً مِفْضالاً مُحْتشِماً ، رأساً في حِسابِ الدِّيوانِ له ثَلاثةُ بَنين ، الْمُحَسَّنُ والفَضْلُ والحُسَينُ ، ثم عُزِلَ في ذي الحجَّة سَنةَ تِسعٍ وتسعينَ ومِئتَين ، ثم وَزرَ في سَنةِ أرْبَع

---

(١) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ١٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٣١٩ .

(٢) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٠ .

وثَلاثِ مئة إثْرَ عَزلِ عَليِّ بنِ عيسَىٰ ، ثم عُزلَ بعد سَبعة عَشرَ شَهراً بحامِدِ بنِ العَبَّاسِ ، ثم وَليَها سَنةَ إحْدَىٰ عَشرَ وثلاثِ مئة ، ووَليَ ولدُه الْمُحَسَّنُ الدَّواوينَ ، فعَسفَ وصادَرَ وعذَّبَ وظَلمَ أباه أيضاً واستأصَلَ جَماعَةً فعُزلَ بعدَ سَنةٍ إلاَّ أيّاماً ، وقِيلَ إنَّه وَصلَ المحدِّثين بعشرينَ ألف دِرْهم .

وذَكرَ جَماعَة أنَّ صاحِبَ خَبرِ ابنِ الفُراتِ رَفعَ إليه أنَّ رَجلاً من أرْبابِ الحَوائجِ اشْترَىٰ خُبزاً وجُبناً فأكلَه في الدِّهْليزِ ، فأقْلقَه هـٰذا ، وأمَرَ بنَصْبِ مَطبَخٍ لِمَنْ يَحضُر من أرْبابِ الحَوائجِ ، فلَمْ يَزلْ ذلك طُولَ أيّامِه .

وقيلَ : كانَ ابنُ الفُراتِ يَلتَذُّ بقَضاءِ حَوائجِ الرَّعيَّة ، وما رَدَّ أحَداً قَطُّ عن حاجَةٍ رَدَّ آيسٍ ، بلْ يَقولُ : تُعاوِدُني أوْ يَقولُ : أُعَوِّضُك من هـٰذا .

قالَ الصُّوليُّ : لَمَّا قُبضَ على ابنِ الفُراتِ ، نَظرْنا فإذا هو يُجرِي علىٰ خَمسةِ آلافِ نفسٍ ، أقَلُّ جاري أحَدهم في الشَّهْر خَمسةُ دَراهم ونِصفُ قفيزِ دَقيق وأعْلاهُم مئة دينار وعَشرَة أقْفِزَة .

قالَ الصُّوليُّ : لَمْ أسْمَعْه قَطُّ دَعا أحَداً من كُتَّابه بغَير كُنْيَتِه ومَرِضَ مرَّة فقالَ : ما غَمِّي بعِلَّتي بأشَد من غَمِّي بتأخُّر النَّاسِ وفيهم الْمُضْطَرُّ .

وكان يَمنَعُ النَّاسَ من الْمَشي بين يدَيه .

قالَ عليُّ بنُ هِشام الكاتِبُ : دَخلتُ على ابنِ الفُراتِ في وَزارَتِه الثالثة وقد غَلبَ ابنُه الْمُحَسَّنُ عليه في أكثرِ أمُورِه ، فقيلَ له : هو ذا يُسرفُ أبو أحمَد الْمُحَسَّنُ في مَكارِه النَّاسِ بلا فائدَة ، ويَضرِبُ مَنْ يُؤدِّي بغَير ضَرْب فقالَ : لَوْ لَمْ يَفعَلْ هـٰذا بأعدائه ومَنْ أساءَ إليه لَمَا كان من أولادِ الأحْرارِ ، ولكانَ مَيتاً ، وقد أحْسَنتُ إلى النَّاسِ دَفْعَتَين فما شَكرُوني ، والله لأُسيئنَّ ، فما مَضَت إلاَّ أيَّامٌ يَسيرَةٌ حتىٰ قُبضَ عليه .

قالَ الصُّوليُّ : قَبضَ الْمُقتدِرُ على ابنِ الفُرات وهَربَ ابنُه ، فاشْتدَّ السُّلطانُ وجَميعُ الأولياء في طَلَبِه ، إلىٰ أنْ وُجدَ وقد حَلقَ لِحْيتَه ، وتَشبَّه بامرأةٍ في خُفٍّ وإزار ، ثم طُولِبَ هو وأبُوه بالأمْوالِ ، وسُلِّما إلى الوَزيرِ عُبَيدِ الله بنِ مُحمَّد ، فعَلمَا أنَّهما

لا يُفلِتانِ ، فما أذْعَنا بشيء ، ثم قَتلَهما نازوكُ وبَعثَ برَأسَيهما إلى الْمُقْتَدِرِ في سَفَط وغرَّقَ جَسَدَيْهما .

ضُربَت عُنقُ الْمُحَسَّن بعدَ أنواعِ العَذابِ سَنةَ اثنتَي عَشر وثلاث مئة وأُلقي رأسُه بين يَدَي أبيه فارْتاعَ ، ثم قُتلَ ثم أُلْقِيَ الرأسانِ في الفُراتِ وكان للوَزيرِ إحْدَىٰ وسَبعونَ سَنةً وشُهور وللمُحَسَّنِ ثَلاثونَ سَنةً[1] .

٦ـ الوُزَراء السُّنيُّون في دَولَة العُبَيْديَّة الرَّافِضَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة أميرِ الجُيوشِ الْمَلك الأفْضَل : كان أبوهُ نائباً بعَكا ، فسارَ في البحرِ في تَرميم دَولة الْمُسْتَنْصِرِ العُبَيْديِّ فاسْتولَىٰ على الإقْليمِ ، وأبادَ عِدَّةَ أُمَراء ودانَت له الْمَمالِكُ إلىٰ أنْ ماتَ فقامَ بعدَه ابنُه هـٰذا وعَظُم شأنُه وأهلَك « نِزاراً » وَلدَ الْمُسْتَنْصِر صاحبِ دَعوة الباطنيَّة وأتابِكَه أفتكين مُتولِّي الثغر ، وكانَ بَطلاً شُجاعاً ، وافِرَ الهَيبَة عَظيمَ الرُّتبَة ، فلمَّا هَلكَ الْمُستَعْلي ، نَصَّبَ في الإمامَة ابنَه الآمرَ ، وحَجَرَ عليه وقمَعَه ، وكان الآمرُ طيَّاشاً فاسِقاً ، فعَمِلَ علىٰ قَتلِ الأفْضَل فرتَّبَ عدَّةً وَثَبوا عليه ، فأثْخَنُوهُ ، ونَزلَ إليه الآمِرُ ، وتَوجَّعَ له ، فلمَّا قَضىٰ ، اسْتأصَلَ أموالَه ، وبَقيَ الآمِرُ في دارِه أرْبَعينَ صَباحاً والكَتبَةُ تَضبطُ تلكَ الأمْوالَ والذَّخائرَ وحَبسَ أولادَه وكانت أيَّامُه ثَمانياً وعشرينَ سَنةً ، وكانت الأُمَراءُ تَكرَهُهُ لكَونِه سُنِّياً ، فكانَ يُؤذيهم وكان فيه عَدلٌ فظَهرَ بعدَه الظُّلمُ والبِدعَة ، ووَلِيَ الوَزارَةَ بعدَه المأمونُ البَطائحيُّ .

قَتلوهُ سَنةَ خَمسَ عشرةَ وخَمسِ مئة ، وله ثمانٍ وخَمسون سَنةً[2] .

وقالَ أبو يَعْلىٰ بنُ القَلانسي : كانَ الأفْضلُ حَسنَ الاعْتقادِ ، سُنياً حَميدَ السِّيرَة ، كَريمَ الأخْلاقِ ، لَمْ يأتِ الزَّمانُ بمثلِه[3] .

ووَزرَ بعد هَلاك الآمِرِ أميرُ الجُيوشِ أبو علي أحمدُ بنُ الأفْضَل ، وكان شَهْماً مُطاعاً

---

(١) انظر السير : (ابنُ الفُرات) ١٤/ ٤٧٤ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٦٧/ ابنُ الفُرات .
(٢) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/ ٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٠٣ .
(٣) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/ ٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٠٤ .

وبَطلاً شُجاعاً ، سَائساً سُنياً ، كأبيه وجَدِّه ، فحَجَرَ على الحافِظِ ومَنعَه من أعْباءِ الأمُورِ ، فشَدَّ عليه مَمْلوكٌ للحافِظِ إفْرَنْجيٌّ ، فطَعنَه فقَتلَه ، ووَزرَ يانسُ الحافِظيُّ وكان أبو عليٍّ أحمدُ قد بالغَ في الاحْتجارِ على الحافِظِ ، وحوَّلَ ذَخائرَ القَصرِ إلىٰ دارِه ، وادَّعَىٰ أنَّها أمْوالُ أبيه .

وقيلَ : إنَّه تركَ من الخُطبَة اسمَ الحافِظ وخَطَبَ لنَفسِه وقَطعَ الأذانَ بحَيِّ علىٰ خَيرِ العَمَل ، فنَفَرَت منه الرَّعيَّةُ وغالبُهم شيعةٌ ، فقُتلَ وهو يَلعَبُ بالكُرَةِ سَنةَ سِتٍّ وعشرينَ وخَمسِ مئة وجَدَّدوا البَيعَةَ حينئذٍ للحافِظِ ، فماتَ الوَزيرُ يانسُ بعد ثلاثِ سِنينَ ، فوزَرَ وَليُّ العَهْد حَسنُ بنُ الحافِظِ[1] .

٧ـ الوُزَراء المُحْسِنون :

الوَزير :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الإمامُ الْمُحَدِّثُ الصَّادِقُ الوَزيرُ العَادِلُ ، أبو الحَسَن ، عليُّ بنُ عيسَىٰ بنِ داوُد ، البَغْداديُّ الكاتبُ .

وَزرَ غَيرَ مرَّة للمُقْتَدِر ، وللقَاهِرِ ، وكان عَديمَ النَّظيرِ في فنِّه .

وُلد سَنةَ نيف وأرْبَعين ومئتَين[2] .

كان على الحَقيقة غَنياً شاكِراً ، يَنْطَوي علىٰ دينٍ مَتين وعِلمٍ وفَضلٍ ، وكانَ صَبوراً على المِحَن ولله به عِنايَة ، وهو القائلُ يُعَزِّي وَلدَيْ القاضي عُمرَ بنِ أبي عُمَر القاضي في أبيهِما : مُصيبَةٌ قد وَجَبَ أجْرُها خَيرٌ من نِعْمَةٍ لا يُؤدَّىٰ شُكرُها .

وكانَ ـ رَحمَه اللهُ ـ كَثيرَ الصَّدَقاتِ والصَّلوَاتِ ، مَجلِسُه مَوْفورٌ بالعُلماءِ صَنَّفَ كتاباً في الدُّعاءِ ، وكتابَ « مَعاني القُرآن » أعانَه عليه ابنُ مُجاهِد الْمُقْرىءُ وآخَر .

وكانَ من بُلَغاءِ زَمانِه وَزرَ في سَنةِ إحْدَىٰ وثلاثِ مئة أرْبَعَةَ أعْوامٍ وعُزِلَ ثم وَزرَ سَنةَ خَمسَ عَشْرَة وثَلاث مئة .

---

(١) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٤ .

(٢) انظر السير : (الوَزيرُ) ١٥/٢٩٨ـ ٣٠١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢٩ .

قالَ الصُّوليُّ : لا أعْلمُ أنَّه وَزَرَ لبَني العَبَّاسِ مثلُه في عِفَّتِهِ وزُهْدِه وحِفْظِه للقُرآنِ وعِلمِه بمَعَانيه ، وكانَ يَصومُ نَهارَه ، ويَقومُ لَيلَه وما رَأيتُ أعْرَفَ بالشِّعْرِ منهُ وكانَ يَجلسُ للمَظالِمِ ، ويُنصِفُ النَّاسَ ، ولَمْ يَرَوْا أعَفَّ بَطناً ولِساناً وفَرْجاً منه ولَمَّا عُزلَ ثانياً لَمْ يَقْنَع ابنُ الفُراتِ حتىٰ أخْرَجَه عن بَغْدادَ فجَاوَرَ بمَكة[1] .

وله في نَكبَته :

وَمَـنْ يَـكُ عَنِّـي سَـائِـلاً لشَمـاتَـةٍ ... لمَـا نـابَنِـي أو شَـامِتـاً غَيـرَ سَـائِـلِ
فقَدْ أبْرَزَتْ مِنِّي الخُطُوبُ ابنَ حُرَّةٍ ... صَبُوراً عَلىٰ أحْوَالِ تِلْكَ الزَّلازِلِ
إذَا سُـرَّ لَـمْ يَبْطَـرْ وَلَيْـسَ لِنَكْبَـةٍ ... إذَا نَـزَلَـتْ بِـالخَـاشِـعِ الْمُتَضَـائِـلِ

وقد أشَارَ على المُقْتَدِر ، فأفْلَحَ ، فوَقَفَ ما مَغَلُّه في العام تِسْعونَ ألفَ دينارٍ على الحَرَمَين والثُّغورِ ، وأفْرَدَ لهَـٰذه الوُقوفِ دِيوَاناً سَمَّاه دِيوَانَ البِرِّ[2] .

وقال المحَدِّثُ أبو سَهْل القَطَّان : كنتُ مع الوزيرِ ، عليِّ بن عيسىٰ لمَّا نُفيَ بمكَّة ، فدَخَلْنا في حرٍّ شَديد وقد كِدْنا نَتلَف ، فطافَ يوماً ، وجاءَ فرمَىٰ بنفسِه ، وقال : أشْتَهي على الله شَرْبَةَ ماء مَثْلوج قال : فنَشَأتْ بعد ساعةٍ سحابَةٌ ورَعَدَت وجاء بَرَدٌ كثيرٌ جمَعَ منه الغِلْمانُ جِراراً ، وكان الوَزيرُ صائماً ، فلمَّا كان الإفطارُ جئتُه بأقداح من أصناف الأسْوقة فأقبلَ يَسْقي المجاوِرين ، ثم شَربَ وحمِدَ اللهَ ، وقال : لَيْتَني تَمنَّيْتُ المَغْفِرَة .

وكان الوَزيرُ مُتواضِعاً ، قال : ما لَبِسْتُ ثَوْباً بأزيَدَ من سَبْعَة دنانير .

قال أحمدُ بنُ كامل القاضي : سَمعتُ عليَّ بنَ عيسَى الوَزيرَ ، يقولُ : كَسَبْتُ سَبع مئة ألفِ دينار ، أخرجْتُ منها في وجُوه البِرِّ سِتَّ مئة ألفٍ وثمانينَ ألفاً .

تُوفِّيَ في آخرِ أربعٍ وثلاثينَ وثلاثِ مئة ، وله تسعُون سنة[3] .

---

(١) انظر السير : (الوَزيرُ) ١٥/٢٩٨ـ٣٠١ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٢٩ .
(٢) انظر السير : (الوَزيرُ) ١٥/٢٩٨ـ٣٠١ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٢٩ .
(٣) انظر السير : (الوَزيرُ) ١٥/٢٩٨ـ٣٠١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٠ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة ابنِ حِنْزابَة : ولَمْ يَزَلْ يُنفِقُ في البِرِّ والْمَعْرُوفُ الأمْوالَ ، وأنْفَقَ كَثيراً علىٰ أهْلِ الحَرَمَين إلىٰ أنِ اشْتَرَىٰ داراً أقرَبَ شَيءٍ إلى الحُجْرَة النَّبَويَّة وأوْصَىٰ أنْ يُدفَنَ فيها ، وأرْضَى الأشْرافَ بالذَّهَبِ ، فلمَّا حُمِلَ تابوتُه من مِصْرَ تَلقَّوْه ودُفِنَ في تلك الدَّارِ .

تُوفِّيَ سنةَ إحْدَىٰ وتسعينَ وثلاثِ مئة[1] .

فَخْرُ المُلك :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الوَزيرُ الكَبيرُ ، أبو غَالِب ، مُحمَّدُ ابنُ عَليّ بنِ خَلف بنِ الصَّيْرَفيّ .

كانَ صَدراً مُعَظَّماً ، جَواداً مُمَدَّحاً من رجال الدَّهْر ، كان أبُوهُ صَيْرَفياً بديوان وَاسط وكان أبو غالِب من صِباهُ يَتعانَى الْمَكارِمَ والأفَاضِلَ ويُلقِّبُونَه بالوَزيرِ الصَّغيرِ ، وَلِيَ العِراقَ بعدَ عَميدِ الجُيوشِ ، فعَدلَ قَليلاً وأعادَ اللَّطْمَ يومَ عَاشُوراءَ وثارَت الفِتَنُ لذلكَ ، ومَدَحَته الشُّعَراءُ ، ودَامَ سِتَّ سِنينَ ، ثم أُمْسِكَ بالأهْوازِ وقُتلَ في سَنةِ سَبعٍ وأرْبَع مِئة وأخَذوا له جَواهِرَ ونَفائسَ ، وألفَ ألفِ دينارٍ وغيرِ ذلك ، وطُمِرَ في ثِيابِه .

وكان شَهْماً كَافِياً ، خَبيراً بالتَّصرُّفِ ، سَديدَ التَّوقيع ، طَلِقُ الْمُحَيَّا يُكاتِبُ مُلوكَ النَّواحي ، ويُهاديهِم ، وفيه عَدلٌ في الجُملَة ، عُمِّرَت العِراقُ في أيَّامِه ، وكانَ من مَحَاسِنِ الدَّهْر ، أنْشَأ بيمَارسْتاناً عَظيماً ببَغدادَ وكانَت جَوائزُه مُتَواترةً على العُلماءِ والصُّلَحاء ، وعاشَ ثلاثاً وخَمسينَ سَنةً[2] .

رُفعَت إليه سِعايَةٌ برَجُل ، فوَقَّع فيها : السِّعايَةُ قَبيحَةٌ ، ولو كانت صَحيحَةً ومَعاذَ لله أنْ نَقبَلَ من مَهْتوكٍ في مَسْتُورٍ ، ولَوْلا أنَّك في خُفَارَةِ شَيْبِكَ ، لعَامَلناكَ بما يُشبهُ مَقالَك ، ويَرْدَعُ أمْثالَك ، فاكْتُم هٰذا العَيبَ ، واتَّقِ مَنْ يَعْلمُ الغَيبَ فأخَذَها فُقَهاءُ الْمَكاتِبِ ، وعَلَّموها الصِّغارَ[3] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ حِنْزابَة) ١٦/ ٤٨٤ـ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٠٧ .

(٢) انظر السير : (فَخْر الْمُلْك) ١٧/ ٢٨٢ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٤٢ .

(٣) انظر السير : (فَخْر الْمُلْك) ١٧/ ٢٨٢ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٢ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ظَهيرِ الدِّينِ أبي شُجَاع : وقيل : إنه أمَرَ ليلة بعَمل قطائف ، فلمَّا أُحضِرَت ، تذكَّرَ نُفوسَ مَساكينَ تَشْتَهيها ، فأمَرَ بحَملِها إلىٰ فُقَراء وأضِرَّاءَ[1] .

وقِيلَ : أُحصِيَ ما أنْفَقَه علىٰ يدِ كاتبٍ له ، فبَلغَ أزْيَدَ من مئة ألفِ دينارٍ قالَ الكاتبُ : وكُنتُ واحداً من عَشرَة يَتوَلَّوْنَ صَدَقاتِه[2] .

عَضُد الدِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : وَزيرُ العِراقِ ، الأوْحَد الْمُعَظَّم ، عَضُد الدِّين أبو الفَرَج مُحمَّد بنُ عبدِ الله بن هِبةِ الله بن مُظَفَّر ابن الوَزيرِ الكَبيرِ رَئيسِ الرُّؤساءِ ، أبي القاسِم ، عليِّ ابنِ الْمُسْلِمَة ، البَغْداديُّ .

وُلدَ سَنةَ أرْبَع عَشرَ وخَمسِ مئة .

وَزرَ للإمامِ الْمُسْتَضيءِ ، وكان جَواداً سَريّاً مَهيباً كَبيرَ القَدرِ .

قالَ المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيفِ : كانَ إذا وَزَنَ الذَّهَبَ ، يَرمي تَحتَ الحُصْرِ قَراضَةً كَثيرَة ليَأخُذَها الفَرَّاشون ، ولا يَرىٰ صَبيّاً مِنَّا إلاَّ وَضعَ في يَدِه دِيناراً .

قالَ : وكانَ والدي مُلازِمَه علىٰ قِراءَة القُرآنِ والحَديثِ اسْتَوْزَرَه الْمُسْتَضيءُ أوَّلَ ما بُويعَ ، واسْتَفحَلَ أمْرُه ، وكان الْمُسْتَضيءُ كَريماً رَؤُوفاً ، وكان الوَزيرُ ذا انْصِبابٍ إلىٰ أهْلِ العِلمِ والتَّصَوُّفِ ، يُسبغُ عليهم النِّعَمَ ويَشتَغلُ هو وأولادُه بالحَديث والفِقْه والأدَب كانَ النَّاسُ مَعهم في بُلَهْنيَّة[3] ،[4] .

وقد عُزِلَ ثم أُعِيدَ ، وتمكَّن ثم تهَيَّأ للحَجِّ ، وخرجَ في رابع ذي القعدة سَنة ثلاثٍ وسَبعينَ ، وكانَ قد هَيَّأ ستَّ مئة جَمَل ، سَبَّل منها مئة ، صاحَ الباطنيُّ : مظلومٌ!

---

(١) انظر السير : (ظَهيرُ الدِّين) ١٩/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٥٤ .
(٢) انظر السير : (ظَهيرُ الدِّين) ١٩/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٥٤ .
(٣) بُلَهنيَّة بضم الباء : أي سعة ورفاهية .
(٤) انظر السير : (عَضُد الدِّين) ٢١/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١٥٩٩/ عَضُد الدِّين .

مظلومٌ! وتقرَّبَ ، فزجَرَه الغِلْمانُ ، فقالَ : دَعُوه ، فتقدَّمَ إليه ، فضَربَه بسِكِّين في خاصِرَته ، فصاحَ الوَزيرُ قَتلَني ، وسَقطَ ، وانكشَفَ رأسُه ، فغَطَّىٰ رأسَه بكُمِّه ، وضُربَ الباطنيُّ بسَيفٍ ، فعادَ وضربَ الوزيرَ ، فهَبَّرُوه بالسُّيوفِ وكان معَه اثنانِ ، فأُحْرِقُوا ، وحُملَ الوَزيرُ إلىٰ دارٍ ، وجُرِحَ الحاجِبُ ، وكان الوزيرُ قد رأىٰ في النوم أنَّه مُعانِقٌ عُثمانَ رضي الله عنه ، وحَكىٰ عنه ابنُه أنَّه اغْتسَلَ قبلَ خُروجه ، وقال : ذا غُسلُ النومِ والإسْلام ، فإنِّي مَقتولٌ بلا شَكٍّ ثم ماتَ بعد الظُّهرِ ، وماتَ الحاجبُ ، وقيلَ : إنَّ الوَزيرَ بقيَ يقولُ : الله الله!! كثيراً ، وقال : ادْفِنوني عندَ أبي[1] .

٨ـ وَزيرٌ عَالمٌ :

جاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ حِنْزابَة : قالَ السِّلَفيُّ : كانَ ابنُ حِنْزَابَة من الحُفَّاظ الثِّقاتِ الْمُتَبَجِّحينَ بصُحْبَة أصْحَابِ الحَديثِ ، مع جَلالَة ورياسَة ، يَروي ويُملي بمِصْرَ في حالِ وَزارَته ، ولا يَختارُ على العِلمِ وصُحبَة أهْلِه شَيئاً ، وعندي من أمَاليه ومن كَلامِه على الحَديثِ وتَصرُّفه الدَّالِّ علىٰ حِدَّة فَهْمِه ووفُور عِلمِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كاتَبَ ابنُ حِنْزَابَة وعِدَّةٌ من الكُبَراء القَائدَ جَوْهَراً يَطلُبونَ الأمَانَ ، فأمَّنَهم ودَخلَ في دَسْتٍ عَظيمٍ ، فاسْتَوْزَرَ ابنَ حِنْزَابَة مرَّة[2] .

٩ـ الوُزَراء العُبَّاد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة ابنِ حِنْزابَة : قيلَ : كانَ الوزيرُ ابنُ حِنْزابَة مُتَعبِّداً يَنهَضُ في اللَّيلِ ويَدخُلُ بَيتَ مُصَلاَّه فيَصُفُّ قَدمَيه إلى الفَجْر[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ العَادِلِ ظَهيرِ الدِّين أبي شُجاع : وكانَ كثير التِّلاوَة والتَّهَجُّد ، ويَكتبُ مَصاحِفَ ، ويَجلِسُ للمَظالِمِ فيَغتَصُّ الديوانُ بالسَّادَةِ والكُبَراء ، ويُنادي الحُجَّابُ : أينَ أصْحابُ الحَوائج ؟ فيُنْصِفُ الْمَظلُومَ ، ويُؤدِّي عن

---

(١) انظر السير : (عَضُد الدِّين) ٢١/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٠ .

(٢) انظر السير : (ابنُ حِنْزابَة) ١٦/ ٤٨٤ـ ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٠٧ .

(٣) انظر السير : (ابنُ حِنْزابَة) ١٦/ ٤٨٤ـ ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٧ .

الْمَحْبوسِ ، وله في عَدلِه حِكاياتٌ في إنْصَافِ الضَّعيفِ من الأمير[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ « نِظام الْمُلكِ » : الوَزيرُ الكَبيرُ ، نِظَامُ الْمُلكِ ، قِوامُ الدِّينِ ، أبو عليّ الحَسَنُ بنُ عليِّ بن إسْحاقَ الطُّوسيُّ ، عَاقِلٌ ، سَائسٌ ، خَبيرٌ ، سَعيدٌ ، مُتَدَيِّنٌ ، مُحْتَشمٌ ، عامِرُ الْمَجْلسِ بالقُرَّاءِ والفُقَهاءِ[2] .

وكانَ فيه خَيرٌ وتَقْوَىٰ ، ومَيلٌ إلى الصَّالِحينَ ، وخُضُوعٌ لِمَوْعِظَتِهم ، يُعجِبُه مَنْ يُبيِّنُ له عُيوبَ نَفسِه ، فيَنْكَسِرُ ويَبْكي[3] .

وقيلَ : إنَّه ما جَلسَ إلاَّ علىٰ وُضوءٍ ، وما تَوضَّأ إلاَّ تَنَفَّل ، ويَصومُ الإثْنين والخَميس ، جَدَّد عِمارَةَ خُوارِزْم ، ومَشْهدَ طُوس ، وعَملَ بيمَارِسْتاناً ، نابَه عليه خَمسُونَ ألفَ دينار ، وبَنىٰ أيضاً بمَرْوَ مَدْرَسةً ، وبِهَرَاةَ مَدْرَسةً ، وببَلْخَ مَدْرَسةً ، وبالبَصْرَةِ مَدْرَسةً ، وبأصْبَهانَ مَدْرَسةً ، وكان رَزيناً جَواداً صاحِبَ فُتوَّة واحْتِمالٍ ومَعْروف كَثير إلى الغَايَة ، ويُبالِغُ في الخُضُوعِ للصَّالِحينَ[4] .

وقيلَ : كانَ يَتصَدَّقُ كُلَّ صَباح بمِئَة دينارٍ .

قالَ ابنُ عَقيل : بَهَرَ العُقولَ سِيرَةُ النِّظام جُوداً وكَرَماً وعَدْلاً ، وإحْياءً لِمَعالِمِ الدِّينِ ، كانت أيَّامُه دَولَةَ أهْلِ العِلمِ ، ثم خُتِمَ له بالقَتلِ وهو مارٌّ إلى الحَجِّ في رَمَضانَ ، فمَاتَ مَلِكاً في الدُّنيا ، مِلكاً في الآخِرَة ، رَحِمَه الله[5] .

١٠ـ وَزيرٌ تائِبٌ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الصَّاحِبِ : الوَزيرُ الكَبيرُ العَلاَّمَةُ أبو القاسِم بنُ عبَّاد بن عبَّاس الطَّالقانيُّ الأديبُ ، الكاتبُ ، وَزيرُ الملك مُؤيِّد الدَّولَة بُوَيه بن رُكْن الدَّولَة .

---

(١) انظر السير : (ظَهيرُ الدِّين) ١٩/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٤ .
(٢) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٦٤ .
(٣) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٦٤ .
(٤) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٦٥ .
(٥) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٥ .

صَحِبَ الوَزيرَ أبا الفَضْل بنَ العَميد ، ومن ثَمَّ شُهِرَ بالصَّاحِبِ .

وكان شيعيّاً مُعْتَزلياً مُبْتَدِعاً ، تيَّاهاً صَلفاً جبَّاراً ، قيلَ : إنَّه ذُكِرَ له البُخاريُّ ، فقالَ : ومَنِ البُخاريُّ ؟!! حَشويٌّ لا يُعوَّلُ عليه .

وقد نُكِبَ ونُفِيَ ، ثم رُدَّ إلى الوزارَةِ ، ودَامَ فيها ثَمانيَ عَشرةَ سَنةً ، وافْتَتَحَ خَمسينَ قَلعَةً لِمَخْدومِه فَخْر الدَّولَة .

وكان فَصيحاً مُتَقعِّراً يَتعانَىٰ وَحْشِيَّ الألْفَاظِ في خِطابِه ويَتِيهُ ويَغْضبُ إذا نَاظَرَ[1] .

وقيلَ : جَمعَ الصَّاحِبُ من الكُتبِ ما يَحتاجُ في نَقلِها إلىٰ أرْبَع مِئةِ جَمَل ، ولَمَّا عَزمَ على التَّحْديثِ تابَ ، واتَّخذَ لنَفسِهِ بَيْتاً سَمَّاه بَيتَ التَّوْبَة ، واعْتَكفَ على الخَيرِ أسْبُوعاً ، وأخَذَ خُطوطَ جَماعَةٍ بصِحَّةِ تَوْبَته ، ثم جَلسَ للإمْلاءِ ، وحَضَرَه الخَلقُ ، وكانَ يَتفقَّدُ عُلماءَ بَغْدادَ في السَّنةِ بخَمسَةِ آلافِ دِينارٍ ، وأُدَباءَها ، وكان يَبغَضُ مَنْ يَدخُلُ في الفَلْسَفَة .

ماتَ بالرّيِّ ، ونُقلَ إلىٰ أصْبَهانَ ، ولَمَّا أُبْرِزَ تَابُوتُه ضَجَّ الخَلقُ بالبُكاءِ[2] .

١١ـ الوُزَراء الضَّابطُون للأمْن :

عَميدُ الجُيُوش :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الأميرُ الوَزيرُ ، أبو علي ، الحُسَينُ ابنُ أبي جَعْفَر .

خَدمَ أبو عليّ بَهاءَ الدولَة فاسْتَنابَه على العِراقِ ، فقَدِمَها في سَنةِ سِتٍّ وتسعينَ وثَلاث مئة والفِتَنُ ثائرةٌ بها ، فضَبطَ العِراقَ بأتَمِّ سياسَة ، وأبادَ الحَراميَّة ، وقَتلَ عدَّةً ، وأبطلَ مآتِمَ عاشُوراءَ ، وأمَرَ مَمْلوكاً له بالْمَسيرِ في مَحالِّ بَغْدادَ ، وعلىٰ يَده صينيَّة مَمْلوءَة دَنانيرَ ، ففَعلَ ، فمَا تَعرَّضَ له أحَدٌ في اللَّيلِ ولا في النَّهارِ وماتَ نَصْرانيٌّ ، تاجِرٌ من مِصْرَ ، وخلَّفَ أمْوالاً ، فأمَرَ بحِفْظِها حتىٰ جاءَ الوَرثَةُ من مِصْرَ فتَسلَّموها .

---

(١) انظر السير : (الصَّاحِب) ١٦/ ٥١١ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣١٢ .

(٢) انظر السير : (الصَّاحِب) ١٦/ ٥١١ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣١٢ .

وكانَ مع فَرْطِ هَيْبَتِه ذا عَدلٍ وإنْصافٍ ، وَلِيَ العِراقَ تسعَ سِنينَ سِوَىٰ أشْهُر .

تُوفِّيَ سنةَ إحْدَىٰ وأربَع مئة ، ووَليَ بعدَه فَخْرُ الْمُلكِ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ العَادِلِ ظَهيرِ الدِّين أبي شُجاع : خَدمَ وَليَ العَهدِ الْمُقْتَدي وصارَ صاحِبَ سِرِّه ، فلمَّا استُخلفَ ، عَظُمَ وأقْبَلَت سَعادَتُه ، وتَمكَّنَ من الْمُقْتَدي تَمَكُّناً عَجيباً ، وعَزَّت الخِلافَةُ وأمِنَ النَّاسُ ، وعُمِّرَت العِراقُ وكثُرت الْمَكاسِبُ[2] .

١٢ـ الوُزَراء المُقيمُون للسُّنَن المُحْيُون للدِّين :

عَميدُ الجُيوش :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الأميرُ الوَزيرُ ، أبو علي ، الحُسَينُ ابنُ أبي جَعْفَر .

خَدمَ أبو عليّ بَهاءَ الدولَة فاسْتَنابَه على العِراقِ ، فقَدِمَها في سَنةِ سِتٍّ وتسعينَ وثَلاث مئة والفِتَنُ ثائرةٌ بها ، فضَبطَ العِراقَ بأتَمِّ سياسَة ، وأبادَ الحَراميَّة ، وقَتلَ عدَّةً ، وأبطلَ مآتِمَ عاشُوراءَ ، وأمَرَ مَمْلوكاً له بالْمَسيرِ في مَحالِّ بَغْدادَ ، وعلىٰ يَده صينيَّة مَمْلوءَة دَنانيرَ ، ففَعلَ ، فمَا تَعرَّضَ له أحَدٌ في اللَّيلِ ولا في النَّهارِ وماتَ نَصْرانيٌّ ، تاجِرٌ من مِصْرَ ، وخلَّفَ أمْوالاً ، فأمَرَ بحِفْظِها حتىٰ جاءَ الوَرثَةُ من مِصْرَ فتَسلَّموها .

وكانَ مع فَرْطِ هَيْبَتِه ذا عَدلٍ وإنْصافٍ ، وَلِيَ العِراقَ تسعَ سِنينَ سِوَىٰ أشْهُر .

تُوفِّيَ سنةَ إحْدَىٰ وأربَع مئة ، ووَليَ بعدَه فَخْرُ الْمُلكِ[3] .

نِظَامُ المُلْك :

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ « نِظامِ الْمُلكِ » : الوَزيرُ الكَبيرُ ، نِظَامُ الْمُلكِ ، قِوامُ الدِّينِ ، أبو عليّ الحَسَنُ بنُ عليِّ بن إسْحاقَ الطُّوسيُّ ، عَاقِلٌ ، سَائسٌ ، خَبيرٌ ،

---

(١) انظر السير : (عَميدُ الجُيوش) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ١٣٣٧/ عَميدُ الجُيوش .

(٢) انظر السير : (ظَهيرُ الدِّين) ١٩/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ١٤٥٤/ ١ .

(٣) انظر السير : (عَميدُ الجُيوش) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ١٣٣٧/ عَميدُ الجُيوش .

سَعيدٌ ، مُتَدَيِّنٌ ، مُحْتَشِمٌ ، عامِرُ الْمَجْلسِ بالقُرَّاءِ والفُقَهاءِ[1] .

أنْشَأَ المَدْرسَةَ الكُبْرىٰ بِبَغْدادَ ، وأُخْرَىٰ بنِيسَابُورَ وأُخْرَىٰ بِطُوسَ ورَغَّبَ في العِلْمِ ، وأدَرَّ على الطَّلَبَةِ الصِّلات وأمْلَى الحَديثَ وبَعُدَ صِيتُه[2] .

وكانَ أبوهُ من دَهاقين بَيْهَق ، فنَشأ وقَرأَ نَحْواً ، وتَعانَى الكِتابَةَ والدِّيوانَ ، وخَدَمَ بغَزْنَة ، وتَنقَّلت به الأحْوالُ إلىٰ أنْ وَزَرَ للسُّلطان ألْب آرسلان ، ثم لابْنِه مَلِكْشَاه فدبَّر مَمالِكَه علىٰ أتمِّ ما يَنبَغي ، وخَفَّفَ الْمَظالِمَ ، ورَفقَ بالرَّعايا ، وبَنى الوُقوفَ وهاجَرت الكبارُ إلىٰ جَنابِه وازْدادَت رِفْعَتُه ، واسْتَمرَّ عشْرينَ سَنةً[3] .

وكانَ فيه خَيرٌ وتَقْوَىٰ ، ومَيلٌ إلى الصَّالِحينَ ، وخُضُوعٌ لِمَوْعِظَتِهم ، يُعجِبُه مَنْ يُبيِّنُ له عُيوبَ نَفسِه ، فيَنْكَسِرُ ويَبْكي[4] .

مَولدُه في سَنة ثَمان وأرْبع مئة ، وقُتلَ صائماً في رَمضانَ ، أتاهُ باطنيٌّ في هَيئة صُوفيٍّ يُناوِلُه قِصّة ، فأخَذَها منه ، فضَربَه بالسِكِّين في فُؤادِه ، فتَلِفَ ، وقَتلوا قاتلَه ، وذلكَ سَنةَ خَمسٍ وثَمانينَ وأرْبَع مئة ، بقُرب نَهاوَند ، وكان آخِرُ قولِه : لا تَقْتُلوا قاتلي ، قد عَفوتُ ، لا إلَـهَ إلاَّ الله .

قال ابنُ خلِّكان : قد دَخلَ نِظامُ الْمُلكِ على الْمُقْتَدي بالله فأجلَسَه وقالَ له : يا حَسَنُ ، رَضيَ اللهُ عَنكَ ، كَرِضا أميرِ المؤمنينَ عنكَ .

وكان شافعيّاً أشْعَريّاً .

وقيلَ : إنْ قَتْلَه كان بتَدبيرٍ من السُّلطانِ ، فلَمْ يُمْهَلْ بعدَه إلاَّ نَحو شَهْر[5] .

وقيلَ : إنَّه ما جَلسَ إلاَّ علىٰ وُضوءٍ ، وما تَوضَّأ إلاَّ تَنَفَّل ، ويَصومُ الإثْنين والخَميس ، جَدَّد عِمارَةَ خُوارِزْم ، ومَشْهدَ طُوس ، وعَملَ بيمَارِسْتاناً ، نابَه عليه

---

(١) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٦٤ .
(٢) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٤ .
(٣) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٦٤ .
(٤) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٦٤ .
(٥) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٦٤ .

خَمسُونَ ألفَ دينار ، وبَنىٰ أيضاً بمَرْوَ مَدْرَسةً ، وبِهَرَاةَ مَدْرَسةً ، وببَلْخَ مَدْرَسةً ، وبالبَصْرَةِ مَدْرَسةً ، وبأصْبَهانَ مَدْرَسةً ، وكان رَزيناً جَواداً صاحِبَ فُتوَّة واحْتِمالٍ ومَعْروف كَثير إلى الغَايَة ، ويُبالِغُ في الخُضُوعِ للصَّالِحينَ[1] .

وقيلَ : كانَ يَتصَدَّقُ كُلَّ صَباح بمِئَة دينارٍ .

قالَ ابنُ عَقيل : بَهَرَ العُقولَ سِيرَةُ النِّظام جُوداً وكَرَماً وعَدْلاً ، وإحْياءً لِمَعالِمِ الدِّينِ ، كانت أيَّامُه دَولَةَ أهْلِ العِلم ، ثم خُتِمَ له بالقَتلِ وهو مارٌّ إلى الحَجِّ في رَمَضانَ ، فمَاتَ مَلِكاً في الدُّنيا ، مِلكاً في الآخِرَة ، رَحِمَه الله[2] .

ابنُ هُبَيْرَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الوَزيرُ الكامِلُ ، الإمامُ العَالِمُ العَادِلُ ، عَونُ الدين ، يَمينُ الخِلافَة ، أبو الْمُظفَّر يَحْيىٰ بنُ محمَّد بنُ هُبَيرَة الشَّيْبانيُّ الدُّوريُّ العِراقِيُّ الحَنْبَليُّ ، صاحِبُ التَّصانيف .

مولده سنة تسع وتسعين وأربع مئة .

قالَ ابنُ الجَوْزيّ : كانَ يَجتَهدُ في اتِّباعِ الصَّوابِ ، ويَحذَرُ من الظُّلمِ ولا يَلبَسُ الحَريرَ ، وكانَ مُبالِغاً في تَحصيلِ التَّعْظيمِ للدَّولَة قامِعاً للمُخالِفينَ بأنْواعِ الحِيَل ، حَسَمَ أمُورَ السَّلاطينَ السَّلْجوقيَّة ، وكانَ يتَحدَّثُ بنِعَم الله ، ويَذكُرُ في مَنْصِبه شِدَّةَ فَقْرِه القَديم ، وقالَ : نَزلتُ يَوماً إلىٰ دِجْلَة ولَيسَ مَعي رَغيفٌ أعْبُرُ به وكانَ يُكثِرُ مُجالَسَةَ العُلماءِ والفُقَراءِ ، ويَبذُلُ لهم الأمْوالَ ، فكانت السَّنَةُ تَدورُ وعليه دُيونٌ وقالَ : ما وَجَبت عليَّ زَكاةٌ قَطُّ ، وكانَ إذا اسْتفادَ شَيئاً من العِلمِ قالَ : أفادَنيه فُلانٌ ، وقد أفَدتُه مَعنىٰ حَديثٍ ، فكانَ يَقولُ : أفادَنيه ابنُ الجَوْزي ، فكُنتُ أسْتَحيي ، وجَعلَ لي مَجْلِساً في دارِه كُلَّ جُمُعَة ويَأذَنُ للعَامَّة في الحُضُورِ ، وكانَ بَعضُ الفُقَراء يَقرأُ عِندَه كَثيراً فأعْجَبَه ، وقالَ لزَوْجَتِه : أريدُ أنْ أُزَوِّجَه بابنَتي ، فغَضِبَت الأمُّ وكانَ يُقرأُ عنده

---

(١) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢١/١٤٦٥ .

(٢) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٥ .

الحَديثُ كُلَّ يومٍ بعدَ العَصْرِ ، فحَضَرَ فَقيهٌ مَالِكيٌّ فذُكِرَتْ مَسألَةٌ ، فخَالَفَ فيها الجَميعَ ، وأصَرَّ ، فقَالَ الوَزيرُ : أحِمَارٌ أنتَ! أما تَرَى الكُلَّ يُخالِفونَك ؟! فلمَّا كانَ من الغَدِ ، قالَ للجَماعَة : إنَّه جَرىٰ منِّي بالأمْسِ في حَقِّ هـٰذا الرَّجُلِ ما لا يَليقُ ، فليَقُلْ لي كما قُلتُ له فمَا أنا إلاَّ كأحَدِكم ، فضَجَّ الْمَجْلِسُ بالبُكاءِ ، واعْتذَرَ الفَقيهُ ، قالَ : أنا أَوْلَىٰ بالاعْتِذارِ ، وجَعلَ يَقولُ : القِصَاصَ القِصَاصَ ، فلَمْ يَزَلْ حتَّىٰ قالَ يُوسُفُ الدِّمَشْقيُّ : إذا أبَى القِصَاصَ فالفِداءُ ، فقالَ الوَزيرُ : له حُكْمُه ، فقالَ الفَقيهُ : نِعَمَكَ عليَّ كثيرةٌ ، فأيُّ حُكْمٍ بَقيَ لي ؟ قالَ : لا بُدَّ قالَ : عليَّ دَينٌ مئة دينار ، فأعْطَاهُ مئتَيْ دينارٍ ، وقالَ : مِئةٌ لإبْراءِ ذِمَّتِه ، ومِئةٌ لإبْراءِ ذِمَّتي .

قالَ ابنُ الجَوْزيّ : كانَ الوَزيرُ يَتأسَّفُ علىٰ ما مَضَىٰ ، ويَندَمُ علىٰ ما دَخَلَ فيه ، ولقدَ قالَ لي : كانَ عِندَنا بالقَرْيَة مَسْجدٌ فيه نَخْلةٌ تَحمِلُ ألفَ رَطلٍ ، فحَدَّثتُ نَفسِي أنْ أُقيمَ في ذَلكَ الْمَسجِد وقُلتُ لأخي مَجْدِ الدِّين : أَقْعدُ أنا وأنْتَ وحاصِلُها يَكْفينا ، ثم انْظُرْ إلىٰ ما صِرتُ ، ثمَّ صَارَ يَسألُ اللهَ الشَّهادَة ويَتعرَّضُ لأسْبابِها[1] .

وفي لَيلَةِ ثالثَ عَشرَ جُمادَى الأوْلَىٰ سَنةَ سِتِّينَ وخَمسِ مئة اسْتَيقَظَ وَقتَ السَّحَرِ ، فقَاءَ ، فحَضرَ طَبيبُه ابنُ رَشادَة ، فسَقاهُ شَيئاً ، فيُقالُ : إنَّه سَمَّه ، فمَاتَ ، وسُقيَ الطَّبيبُ بعدَه بنِصْفِ سَنةٍ سُمَّاً ، فكانَ يَقولُ : سَقيتُ فسُقيتُ ، فمَاتَ .

ورَأيتُ آثاراً بجَسَدِه ووَجْهِه تَدلُّ علىٰ أنَّه مَسْمومٌ ، وحُملَتْ جِنازَتُه إلىٰ جامِعِ القَصْر ، وخَرجَ مَعه جَمعٌ لَمْ نَرَه لِمَخْلوقٍ قَطُّ ، وكثُرَ البُكاءُ عليه لِمَا كانَ يَفعَلُه من البِرِّ والعَدْلِ ، ورَثَتْه الشُّعَراءُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : له كتابُ « الإفْصَاح عن مَعاني الصِّحَاح » شَرحَ فيه صَحيحَي « البُخاري » و« مُسْلم » في عَشرِ مُجلَّدات ، وألَّفَ كتابَ « العِبادات » علىٰ مَذهَب أحمَد وله أُرْجُوزَة في الْمَقْصُورِ والْمَمْدودِ ، وأُخْرَىٰ في عِلمِ الخَطِّ ، واخْتَصَرَ كتابَ « إصْلاح الْمَنْطِق » لابنِ السِّكِّيت[2] .

---

(١) انظر السير : (ابن هُبَيرة) ٢٠/٤٢٦ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧١ .

(٢) انظر السير : (ابن هُبَيرة) ٢٠/٤٢٦ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٢ .

القَاضي الفَاضِل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : المَوْلى الإمامُ العَلاَّمَةُ البَليغُ ، القاضي الفاضِلُ ، مُحْيي الدِّين ، يَمينُ المملكَة ، سَيِّد الفُصَحاء ، أبو عليٍّ عبدُ الرَّحيم بنُ عليٍّ بنِ الحَسَن اللَّخْميُّ ، الشَّاميُّ ، العَسْقَلانيُّ المولد ، المِصْريُّ الدَّار ، الكاتبُ ، صاحبُ ديوان الإنْشاء الصَّلاحيِّ .

وُلدَ سنةَ تسع وعشرين وخَمس مئة[1] .

وانتهَتْ إلى القاضي الفَاضل بَراعَةُ الترسل وبَلاغَةُ الإنْشاء ، وله في ذلك الفَنِّ اليَدُ البَيْضاءُ ، والمَعاني المُبْتكَرَة ، والباعُ الأطْوَل ، لا يُدْركُ شأوُه ، ولا يُشَقُّ غُبارُه ، مع الكَثْرَة[2] .

قالَ العِمادُ : قَضَىٰ سَعيداً ، ولَمْ يُبقِ عَمَلاً صالِحاً إلاَّ قدَّمَه ، ولا عَهْداً في الجَنَّة إلاَّ أحْكَمَه ، ولا عَقدَ بِرٍّ إلاَّ أبْرَمَه ، فإنَّ صَنائِعَه في الرِّقابِ ، وأوْقافَه مُتجاوِزَةُ الحِسابَ ، لا سِيَّما أوْقافُه لِفكاكِ الأُسَرىٰ ، وأعَانَ المالكيَّة والشَّافِعيَّة بالمدرَسَة ، والأيْتامَ بالكتابِ ، كانَ للحُقوقِ قاضياً ، وفي الحَقائقِ ماضياً والسُّلطانُ له مُطيعٌ ، ما افْتَتَحَ الأقاليمَ إلاَّ بأقاليدِ آرائه .

وقالَ ابنُ خَلِّكانَ : وَزرَ للسُّلطانِ صَلاحِ الدِّينِ بنِ أيُّوبَ .

وبَلَغَنا أنَّ كُتبَه التي مَلكَها بَلغَت مئة ألفِ مُجلَّد ، وكانَ يُحَصِّلها من سائرِ البِلادِ[3] .

وحَكَى القاضي ضياءُ الدِّين ابنُ الشَّهرزوريِّ أنَّ القاضي لمَّا سَمِعَ أنَّ العادلَ أخَذَ مصرَ ، دعا بالموتِ خشيةَ أنْ يَستَدعيَه وزيرُهُ ابنُ شُكرٍ ، أو يُهينَهُ ، فأصْبَحَ مَيِّتاً ، وكان ذا تَهَجُّدٍ ومُعَامَلة[4] .

---

(١) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٩ .
(٢) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٠ .
(٣) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٠ .
(٤) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٣٠ .

وقِيلَ : كان القاضي أحْدَبَ ، فحَدَّثني شَيخُنا أبو إسْحاقَ الفَاضليُّ أنَّ القاضيَ الفاضلَ ذَهبَ في الرُّسليَّة إلىٰ صَاحبِ المُوصِل ، فأُحْضِرَت فَواكهُ ، فقال بعضُ الكِبار مُنكِّتاً : خِيارُكُم أَحْدَبُ ، يُوَرِّي بذلك ، فقالَ الفاضلُ : خَسُّنَا خَيرٌ مِنْ خِيارُكم[1] .

قالَ الحافِظُ الْمُنذِريُّ : رَكنَ إليه السُّلطانُ رُكوناً تامّاً ، وتَقدَّمَ عندَه كَثيراً وكانَ كَثيرَ البِرِّ ، وله آثارٌ جَميلَةٌ تُوفِّيَ سَنةَ سِتٍّ وتِسْعينَ وخَمسِ مئة[2] .

له الدِّينُ ، والعَفافُ ، والتُّقَىٰ ، مُواظِبٌ علىٰ أَوْرادِ اللَّيلِ والصِّيامِ والتِّلاوَةِ لَمَّا تَملَّك أسَدُ الدِّين ، أحْضَرَه ، فأُعْجِبَ به ، ثم اسْتخلصَه صَلاحُ الدِّين لنَفسِه وكانَ قَليلَ اللَّذَّاتِ ، كَثيرَ الحَسنات ، دائمَ التَّهَجُّدِ ، يَشتَغلُ بالتَّفْسيرِ والأدَبِ وكانَ قَليلَ النَّحْوِ ، لكنَّه له دُرِيَةٌ قَويَّةٌ ، وكان مُتَقلِّلاً في مَطْعَمِه ومَنْكَحِه ومَلبَسِه ، لِباسُه البَياضُ ، ويَركبُ معه غُلامٌ وركابيٌّ ، ولا يُمكِّنُ أحَداً أنْ يَصْحبَه ، ويُكثِرُ تَشييعَ الجَنائز ، وعِيادَةِ الْمَرضَىٰ ، وله مَعروفٌ مَعروفٌ في السِّرِّ والعَلانيَة ، ضَعيفُ البِنْيَة ، رَقيقُ الصُّورَة ، له حَدبَة يُغَطِّيها الطَّيْلسانُ ، وكان فيه سُوءُ خُلقٍ يُكْمِدُ به نَفسَه ، ولا يَضرُّ أحَداً به ، ولأصْحَابِ العِلمِ عندَه نَفَاقٌ ، يُحْسِنُ إليهم ، ولَمْ يَكنْ له انْتقامٌ من أعْدائه إلاَّ بالإحْسَانِ أو الإعْراضِ عنهم ، وكانَ دَخلُه ومَعلومُه في العامِ نحواً من خَمسينَ ألفِ دينار سِوَىٰ مَتاجِر الهِنْدِ والْمَغْرِبِ ، تُوفِّيَ مَسْكوتاً[3] ، أحْوَجَ ما كانَ إلى الْمَوْتِ عند تَوَلِّي الإقْبالِ وإقْبالِ الإدبارِ ، وهـٰذا يَدلُّ علىٰ أنَّ لله به عِنايَةً[4] .

مُحاوَلات القَتْل التي جَرت لبعضِ الأُمَراء والكبَراء والفُقَهَاء :

(سَتجد غَيرَها في فهرس الباطِنيَّة في العَقائد الضَّالَّة)

عن أنَسٍ قالَ : تَعاهَد ثَلاثَةٌ من أهْلِ العِراقِ علىٰ قَتلِ مُعاويَةَ وعَمرو بنِ العاصِ ، وحَبيبِ بنِ مَسْلمَة ، وأقْبَلوا بعد بَيْعَة مُعاوِيَة بالخِلافَة حتىٰ قَدِموُا إليلْياءَ ، فصلُّوا من

---

(١) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٣٠ .

(٢) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٣٠ .

(٣) يعني : فجأة ، وهو ما يُعرف في عصرنا بالسكتة القلبية .

(٤) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٦٣٠ .

السَّحَر في الْمَسجِدِ فلمَّا خَرجَ مُعاويَة لصَلاةِ الفَجرِ كبَّر ، فلمَّا سَجدَ انْبَطحَ أحَدُهم علىٰ ظَهْرِ الحَرَسي السَّاجد بينَه وبينَ مُعاويَة حتىٰ طَعنَ مُعاويَة فانْصَرفَ مُعاويَة ، وقالَ : أتِمُّوا صَلاتَكم وأُمسِكَ الرَّجلُ ، فقالَ الطَّبيبُ : إنْ لَمْ يكنْ الخِنْجَرُ مَسْموماً ، فلا بَأسَ عَليكَ فأعَدَّ الطَّبيبُ عَقاقيرَه ، ثم لَحسَ الخِنْجَرَ ، فلَمْ يَجدْهُ مَسْموماً ، فكبَّرَ ، وكبَّرَ مَنْ عندَه ، وقيلَ : ليسَ بأميرِ الْمُؤْمنينَ بأسٌ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : هـٰذه المرَّة غَيرُ المرَّة التي جُرحَ فيها وَقْتَما قُتلَ عليٌّ رضي الله عنه ، فإنَّ تلكَ فُلق أليَتُه وسُقي أدْويَةً خلَّصَته من السُّمِّ ، لكنْ قُطعَ نَسلُه .

عن يَزيدَ بنِ الأصَمِّ قالَ : قالَ عليٌّ رضي الله عنه : قَتْلايَ وقَتلَىٰ مُعاويَةَ في الجَنَّة[1] .

وقالَ ابنُ سَعْد : وعَقَدَ مَرْوانُ بنُ الحَكَم لوَلدَيْه عبدِ الْمَلكِ وعبدِ العَزيزِ بعَهْدِه ، وزَهَّدَ النَّاسَ في خالدِ بنِ يَزيدَ بنِ مُعاويَة ، ووَضَعَ منه وسَبَّه يَوماً ، وكان مُتزوِّجاً بأُمِّه ، فأضْمَرَتْ له الشَّرَّ ، فنامَ ، فوَثبَتْ في جَوَاريها ، وغَمَّته بوَسادَة قَعَدنَ علىٰ جَوانِبها ، فتَلفَ ، وصَرَخْنَ ، وظُنَّ أنَّه ماتَ فُجَاءةً .

وقِيلَ : ماتَ بالطَّاعونِ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز : قد كانَ هـٰذا الرَّجُلُ حَسَنَ الخَلْقِ والخُلُقِ ، كامِلَ العَقْلِ ، حَسَنَ السَّمْتِ ، جَيِّدَ السِّياسَة ، حَريصاً على العَدْلِ بكُلِّ مُمْكنٍ ، وافِرَ العِلمِ ، فَقيهَ النَّفْسِ ، ظاهِرَ الذَّكاءِ والفَهْم ، أوَّاهاً مُنيباً ، قانتاً لله ، حَنيفاً زاهِداً مع الخِلافَة ، ناطِقاً بالحَقِّ مع قِلَّة الْمُعينِ ، وكَثْرَةِ الأُمَراء الظَّلمَة الذينَ مَلُّوه وكَرِهوا مُحاقَقَتَه لهم ، ونَقْصَه أُعْطياتِهم ، وأخْذَه كثيراً مِمَّا في أيديهم مِمَّا أخَذوه بغَير حَقٍّ ، فما زالوا به حتىٰ سَقَوْه السُّمَّ ، فحَصُلت له الشَّهادَةُ والسَّعادَةُ ، وعُدَّ عند أهْلِ العِلمِ من الخُلفاءِ الرَّاشِدينَ ، والعُلماءِ العامِلينَ[3] .

---

(١) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٥٢ .

(٢) انظر السير : (مَرْوان بن الحَكَم) ٣/ ٤٧٦ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤١٣ .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١١ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٨٧ .

وعن مُجاهِد : قالَ لي عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز : ما يَقولُ فيَّ الناسُ ؟ قُلتُ : يَقولون مَسْحُور ، قالَ : ما أنا بمَسْحُور ، ثم دَعا غُلاماً له فقالَ : وَيْحَكَ! ما حَمَلَكَ علىٰ أنْ سَقَيْتَني السُّمَّ ؟ قالَ ألفُ دينار أُعْطِيتُها ، وعلىٰ أنْ أُعْتَق ، قالَ : هاتِها ، فجاءَ بها ، فألقاها في بَيتِ المالِ ، وقالَ : اذْهَبْ حَيثُ لا يَراكَ أحَدٌ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ أبي حَنيفَة : تُوفِّيَ شَهيداً مَسْقيّاً في سَنةِ خَمسينَ ومِئة وله سَبعونَ سَنةً ، وعليه قُبَّةٌ عَظيمةٌ ومَشْهَدٌ فاخِرٌ ببَغْدادَ ، والله أعلَم[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الهَادي الخَليفَة العَبَّاسيِّ : سَمَّته أمُّه الخَيزُران ، لَمَّا أجْمَعَ علىٰ قَتْلِ أخيهِ الرَّشيدِ ، وكانت مُتَصرِّفَة في الأُمورِ إلى الغايَة ، وكانت من مُولَّدات الْمَدينَة ، فقالَ لها : لَئنْ وَقفَ ببابِكِ أميرٌ ، لأقْتُلنَّك ، أمَا لَكِ مِغْزَلٌ يَشغلُكِ ، أو مُصْحَفٌ يُذَكِّرُكِ ، أو سُبْحَةٌ فقامَت لا تَعْقِلُ غَضَباً[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الحاكِمِ العُبَيْديِّ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : وذَكرْنا في تَرجَمته[4] ، أنَّه خَرجَ من القَصْرِ فطَافَ لَيلتَه ، ثم أصْبَحَ فتوَجَّه إلىٰ شَرقيِّ حُلوانَ مَعَه ركابيَّان ، فرَدَّ أحدَهما مع تسْعَة من العَرَب ثم أمَرَ الآخَرَ بالانْصِرافِ فزَعمَ أنَّه فارَقَهَ عند المَقْصَبَة ، فكانَ آخرَ العَهْدِ به وخَرجَ النَّاسُ علىٰ رَسْمهم يَلتمسُون رُجوعَه ، مَعهم الجَنائبُ ففَعلوا ذلكَ جُمعَة ثمَّ خَرجَ في ثاني ذي القِعْدَة مُظفَّرُ صاحبُ المِظلَّة ونَسيمٌ وعِدَّة فبَلغوا دَيْرَ القُصَير ، وأمْعَنوا في الدُّخولِ في الجَبَل فبَصُروا بحِمارِه الأشْهَب المُسَمَّىٰ بقَمر ، وقد ضُربَت يَداه ، فأثَّر فيهما الضَّربُ وعَليه سَرْجُه ولجامُه ، فتتبَّعوا أثرَ الحِمارِ فإذا أثرُ راجلٍ خلفَه وراجلٌ قُدَّامَه ، فقصُّوا الأثرَ إلىٰ برْكَة بشَرقيِّ حُلْوانَ ، فنَزلَ رجلٌ إليها فيَجدُ فيهما ثيابَه وهي سَبعُ جِبابٍ ، فوُجدَت مُزرَّرَة ، وفيها آثارُ السَّكاكينِ فمَا شَكُّوا في قَتلِه[5] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١١ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٤/٥٩١ .

(٢) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٤ .

(٣) انظر السير : (الهَادي) ٧/ ٤٤١ـ ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ١/٧١٤ .

(٤) يُشيرُ الذهبيُّ هنا إلىٰ كتابه « تاريخُ الإسْلام » .

(٥) « وَفيّاتُ الأعْيان » : ٥/ ٢٨٧ـ ٢٩٨ وقد نقل المقريزي عن المسبحي رواية أخرىٰ لمقتله ، قال : =

وثَمَّ اليوم طائفةٌ من طَغام الإسْماعيليَّة الذين يَحلِفُونَ بغَيْبَة الحاكمِ ، ما يَعتقدُونَ إلاَّ أنَّه باقٍ ، وأنَّه سَيظْهَر نَعوذُ بالله من الجَهْل .

وقد قَتلَ الحاكمُ جَماعَةً من الأُمَراء بلا ذَنْبٍ ، وذَبحَ قاضيَيْن له .

وسِيرَةُ الحَاكِمِ ، وعَسْفِه تَحْتملُ كَراريسَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الآمرِ بأحْكامِ الله العُبَيْديِّ : وبَقيَ الآمرُ في المُلكِ تسعاً وعشرينَ سَنةً وتسعَةَ أشْهُر إلىٰ أنْ خَرجَ يَوماً إلىٰ ظاهرِ القاهِرَة ، وعَدَّىٰ على الجِسْرِ إلى الجِيزَة ، فكَمَنَ له رجالٌ في السِّلاح ، ثم نَزلُوا عليه بأسْيافِهِم ، وكان في طائفةٍ لَيسَت بكَثيرَة ، فرُدَّ إلى القَصْرِ مُثْخَناً بالجِراحِ وهَلكَ من غَيرِ عَقِب .

وكان العاشرَ من الخُلفَاءِ الباطنيَّة فبايَعوا ابنَ عَمٍّ له ، وهو الحافِظُ لدين الله .

وكان حَسَنَ الحَظِّ ، جَيِّدَ العَقْلِ والمَعْرفَة ، لكنَّه خَبيثُ المُعْتَقَد سَفَّاكاً للدِّماء ، مُتَمرِّداً جَبَّاراً فاحِشاً فاسِقاً ، صادَرَ الخَلقَ عاشَ خَمساً وثلاثين سَنةً .

وانْقَلعَ سَنةَ أرْبَع وعِشْرينَ وخَمسِ مئَة[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الظَّافِر بالله العُبَيْديِّ ، قال الإمامُ الذهَبيُّ : وقَدِمَ من إفْريقية عبَّاسُ بنُ أبي الفُتوح بنِ المَلكِ يَحْيَىٰ بنِ تَميم ابنِ المُعِزِّ بنِ باديس مع أُمِّه صَبياً فتَزوَّجَ العادِلُ بها قبلَ الوِزارَة فتَزوَّجَ عبَّاسٌ ، ووُلدَ له نَصْرٌ ، فأحبَّه العادلُ ، ثم جهَّزَ أباهُ للغَزْو فلمَّا نَزلَ ببِلْبيسَ ، ذاكَرَه ابنُ مُنْقِذ[3] ، فاتَّفَقا علىٰ قَتلِ العادِلِ ، وأنْ يأخُذَ عبَّاسٌ

= « وفي المحرَّم سنة خمس عشر وأربع مئة قبض علىٰ رجل من بني حسين ثار بالصعيد الأعلىٰ ، فأقرَّ بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد ، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه ، فقيل له : « لِمَ قَتلتَه ؟ » قال : غَيرةً لله وللإسْلام » ، فقيلَ له : « كيف قَتلتَه ؟ » فأخرج سكيناً ضرب بها فؤادَه ، فقتَلَ نفسَه ، وقال : « هكذا قَتلتُه » فقطع رأسه ، وأنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه هٰذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم ، لا ما تحكيه المشارقة في كتبهم من أن أختَه قَتلته انظر « اتِّعاظ الحُنفا » ، ٣١٤ .

(١) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٠ .

(٢) انظر السير : (الآمر بأحكام الله) ١٥/ ١٩٧ـ ١٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٤ .

(٣) أسامة بن منقذ الكناني ، أمير من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (قُرب حماة) ومن العلماء =

مَنْصِبَه فذَبَحَ نَصرٌ العادِلَ علىٰ فِراشِه في المُحَرَّم سنةَ ثَمانٍ وأرْبَعينَ وخَمسِ مئَة ، وتَملَّكَ عبَّاسٌ وتَمكَّنَ[1] .

وكان ابنُه نَصْرٌ من المِلاحِ فمَالَ إليه الظَّافِرُ وأحَبَّه فاتَّفقَ هو وأبُوه عبَّاسٌ على الفَتْكِ بالظَّافِرِ[2] ، فدَعاهُ نَصرُ إلىٰ دارِهم ليَأتيَ مُتخَفِّياً ، فجاءَ إلى الدَّارِ التي هي اليَومَ المَدرَسةُ السُّيوفيَّة فشَدَّ نَصرٌ عليه فقَتلَه وطَمرَهُ في الدَّارِ وذلكَ في سَنةِ تسْعٍ وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة وعاشَ الظَّافِرُ اثْنَتَينِ وعِشرينَ سَنةً .

ثم رَكبَ عَباسٌ من الغَدِ وأتَى القَصرَ وقالَ : أينَ مَوْلانا ؟ فطَلبُوهُ ففَقَدُوه وخَرَجَ جبريلُ ويوسُفُ أخَوا الظَّافِرِ ، فقالَ : أين مَوْلانا ؟ قالا : سَلْ ابْنَك ، فغَضِبَ وقالَ : أنتُما قَتَلتُماه ، وضَربَ رِقابَهُما في الحَالِ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ العاضِدِ العُبَيْديِّ ، قال الإمامُ الذهَبيُّ : وأخَذَ وزيرُه الْمَلكُ الصَّالِحُ طَلائعُ في قَطعِ أخْبارِ العَسْكَرِ والأُمَراء ، فتَعاقَدوا بمُوافَقَةِ العاضِد لهم علىٰ قَتلِه ، فكَمَن له عدَّة في القَصْرِ ، فجَرَحُوهُ ، فدَخلَ مَماليكُه ، فقَتَلوا أولئكَ ، وحَمَلوهُ ، فمَا أمْسَىٰ وذلكَ سَنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة .

ووَلِيَ مَكانَه ولدُه الملكُ العادلُ رُزِّيك وكان مَليحَ النَّظْمِ ، قَويَّ الرَّفْضِ ، جَواداً شُجاعاً ، يُناظِرُ على الإمامَة والقَدَر ، وعَمِلَ قَبلَ مَوْتِه بثَلاثِ لَيالٍ :[4] .

نَحْـنُ فـي غَفْلَـةٍ ونَـوْمٍ وللمَـوْ ... تِ عُيـونٌ يَقْظَـانَـةٌ لا تَنَـامُ
قـد رَحَلْنَـا إلـى الحِمَـامِ سِنينـاً ... لَيـتَ شِعْـري مَتَـىٰ يَكُـونُ الحِمَـامُ

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ الكَبيرِ نِظامِ الْمُلكِ أبي عَليٍّ الحَسَنِ بنِ

= الشجعان ، له تصانيف في الأدب والتاريخ ، ومن أمتع كتبه « الاعتبار » نحا فيه مَنحى السيرة الذاتية تُوفِّي بدمشقَ سنة ٥٨٤ هـ .

(١) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٦ .

(٢) يذكر أسامة بن مُنقِذ أن الظافر حمل نصراً علىٰ قتل أبيه ، فاطَّلع والدُه على الأمر فلاطَفه واستماله وقرَّر معه قتل الظافر ، انظر « الاعتبار » ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٦ .

(٤) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٩ .

عَليِّ بنِ إسْحاقَ الطُّوسيِّ : كان مَولدُه في سنة ثمان وأربع مئة ، وقُتلَ صائماً في رمضان ، أتاه باطنيٌّ في هيئة صُوفيٍّ يُناوله قِصّة ، فأخذها منه ، فضربه بالسِكِّين في فؤادِه ، فتَلِفَ ، وقَتلوا قاتلَه ، وذلك سنة خمس وثمانين وأربع مئة ، بقرب نهاوَند ، وكان آخرُ قولِه : لا تَقتلوا قاتلي ، قد عَفوتُ ، لا إلَـهَ إلاَّ الله .

قال ابنُ خلِّكان : قد دَخلَ نظامُ الْمُلكِ على المُقْتَدي بالله فأجلَسَه وقال له : يا حَسَنُ ، رَضيَ اللهُ عَنكَ ، كَرِضىٰ أميرِ المؤمنينَ عَنكَ .

وكان شافعيّاً أشْعَريّاً .

وقيلَ : إنْ قَتْلَه كان بتدبير من السُّلطان ، فلم يُمْهَلْ بعدَه إلاَّ نَحو شهر[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الأتابَك « زَنْكيّ » : نازل زَنْكي قَلعَةَ « جَعْبَرَ » وحاصَرَ مَلِكَها عَليَّ ابنَ مالك وأشْرَفَ علىٰ أخْذِهَا ، فأصْبَحَ مَقْتولاً ، وفرَّ قاتلُه خادِمُه إلىٰ جَعْبَرَ ، وذلك في سنة إحدىٰ وأربعين وخمس مئة ، فتَملَّكَ ابنُه نُورُ الدِّين بالشَّامِ ، وابنُه غَازي بالْمَوْصِل .

زاد عُمرُ زَنْكي رَحمَه الله على الستِّين[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الْمُسْتَنْجِدِ باللهِ العَبَّاسيِّ ، قالَ ابنُ الأثيرِ في « كامِله » : كان الْمُسْتَنْجِدُ أسْمَرَ ، تَامَّ القَامَةِ طَويلَ اللِّحْيَة ، اشْتدَّ مَرَضُه ، وكان قد خَافَه أستاذُ الدَّار عَضُدُ الدَّولَة ابنُ رَئيسِ الرُّؤَساء وقَايمازُ الْمُقْتَفوي كَبيرُ الأُمَراءِ ، فوَاضَعا الطَّبيبَ عَلىَ أذِيَّتِه ، فوُصِفَ له الحَمَّامُ ، فامْتَنعَ لضَعْفِه ثم أُدخِلَ الحَمَّامَ وأُغلِقَ عَليه ، فتَلفَ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ هُبَيْرَة ، قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وفي لَيلَةِ ثالثَ عَشرَ جُمادَى الأوْلَىٰ سَنةَ سِتِّينَ وخَمسِ مئة اسْتَيقَظَ وَقتَ السَّحَرِ ، فقَاءَ ، فحَضرَ طَبيبُه ابنُ رَشادَة ، فسَقاهُ شَيئاً ، فيُقالُ : إنَّه سَمَّه ، فمَاتَ ، وسُقيَ الطَّبيبُ بعدَه بِنِصْفِ سَنةٍ سُمّاً ، فكانَ يَقولُ : سَقيتُ فسُقيتُ ، فمَاتَ .

---

(١) انظر السير : (نِظامُ المُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٦٤ .

(٢) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٣٩ .

(٣) انظر السير : (الْمُسْتَنْجِدُ بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٠ .

ورَأيتُ آثاراً بجَسَدِه ووَجْهِه تَدلُّ علىٰ أنَّه مَسْمومٌ ، وحُملَتْ جِنازَتُه إلىٰ جامِعِ القَصْر ، وخَرجَ مَعه جَمعٌ لَمْ نَرَه لِمَخْلوقٍ قَطُّ ، وكثُرَ البُكاءُ عليه لِمَا كانَ يَفعَلُه من البِرِّ والعَدْلِ ، ورَثَتْه الشُّعَراءُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : له كتابُ « الإفْصَاح عن مَعاني الصِّحَاح » شَرحَ فيه صَحيحَي « البُخاري » و« مُسْلم » في عَشرِ مُجلَّدات ، وألَّفَ كتابَ « العِبادات » علىٰ مَذهَب أحمَد وله أُرْجُوزَة في الْمَقْصُورِ والْمَمْدودِ ، وأُخْرَىٰ في عِلمِ الخَطِّ ، واخْتَصَرَ كتابَ « إصْلاح الْمَنْطِق » لابنِ السِّكِّيت[1] .

* * *

(١) انظر السير : (ابنُ هُبَيْرَة) ٢٠/ ٤٢٦ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٢ .

(٧) السِّياسَة الشَّرعيَّة

قَوَاعِدُ في السِّياسَة الشَّرعيّة

١ـ دَولَةٌ ظالِمَةٌ مع الأمْن خَيرٌ من دَولَةٍ عادِلَةٍ مع الفَسَاد والفَوْضَىٰ :

جاءَ في تَرجَمَةِ ثاني الرَّاشِدينَ ، أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، عند ذكر الهُرْمُزان صاحِبِ تُسْتَر ، قال ابنُ سَعد : بعثَه أبو موسى الأشْعَريُّ إلىٰ عُمرَ ومعَه اثنا عشرَ نَفساً من العَجَم ، عليهم ثِيابُ الدِّيباج ومَناطِقُ الذَّهَب وأساوِرَة الذَّهب ، فقَدِموا بهم المَدينةَ ، فعَجبَ النَّاسُ من هَيْئَتِهم ، فدَخلوا فوَجدوا عُمرَ نائماً في المَسْجد مُتوَسِّداً رِداءَه ، فقالَ الهُرمُزان : هـٰذا مَلكُكُم ؟! قالوا : نعم ، قالَ أمَا له حاجبٌ ولا حارسٌ ؟ قالوا : اللهُ حارسُه حتىٰ يأتيه أجَلُه ، قال : هـٰذا المَلكُ الهَنيُّ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي مُسْلم الخُراسانيِّ في تعقيب له بعد ما آل الأمر إلىٰ بني العباس : فَرِحْنا بمَصيرِ الأمْرِ إليهِم لكنْ والله ساءَنا ما جَرَىٰ من سُيولِ الدِّماءِ ، والسَّبْي ، والنَّهْب ، فإنَّا لله ، وإنَّا إليه راجِعُون ، فالدَّولةُ الظَّالِمَة مع الأمْنِ وحَقْنِ الدِّماءِ ، ولا دَولَة عادِلَة تُنتَهك دُونَها المَحارمُ ، وأنَّىٰ لها العَدلُ ؟ بلْ أتَتْ دَولةٌ أعْجَميَّة ، خُراسانيَّة ، جَبَّارَةٌ ، ما أشْبَهَ اللَّيلَة بالبَارِحَة[2] .

٢ـ السُّلْطانُ بحاجَةٍ إلىٰ مَعُونَةِ وُزَراء مُخْلِصين :

عن الأحْنَفِ بنِ قَيْس ، قالَ : سَمعتُ خُطبَةَ أبي بَكْر وعُمَرَ والخُلفاء فما الكَلامُ من مَخْلوقٍ أفْخَم ولا أحْسَن من أُمِّ المؤمنينَ عائِشَة .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٧ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٩ .

وعنه : لا يَتِمُّ السُّلطانُ إلاَّ بالوُزَراءِ والأعْوَانِ ، ولا يَنْفَعُ الوُزَراءُ والأعْوانُ إلاَّ بالْمَوَدَّة والنَّصيحَة ، ولا تَنْفَعُ الْمَوَدَّةُ والنَّصيحَةُ إلاَّ بالرَّأي والعِفَّة[1] .

٣ـ قَاعِدَةٌ :

جاءَ في تَرجَمَةِ الْمَنْصُورِ العَبَّاسيِّ ، قالَ مُبارَكٌ الطَّبَرِيُّ : حَدَّثنا أبو عُبَيد الله الوَزيرُ ، سَمعَ الْمَنْصُورَ يَقولُ : الخَليفَةُ لا يُصْلِحُه إلاَّ التَّقوَىٰ ، والسُّلطانُ لا يُصْلِحُه إلاَّ الطاَّعَة ، والرَّعيَّةُ لا يُصْلِحُها إلاَّ العَدلُ ، وأوْلَى النَّاسِ بالعَفْوِ أقْدَرُهم على العُقوبَة وأنْقَصُ النَّاسِ عَقلاً مَنْ ظَلمَ مَنْ هو دُونَه[2] .

٤ـ صُوَرٌ على السِّياسَة الشَّرعيَّة :

جاءَ في تَرجَمَةِ ثاني الرَّاشِدينَ ، أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، قالَ أسْلَمُ مَوْلىٰ عُمر : استعملَ عُمرُ مَوْلىٰ له على الحِمَىٰ فقال : يا هُنَيّ اضْمُم جَناحَك عن الْمُسلمينَ ، واتَّقِ دَعْوَ الْمَظلوم فإنَّها مُسْتَجابَة ، وأدْخِلْ ربَّ الصُّريمَةِ والغُنَيْمَةِ ، وإيَّايَ ونِعَمِ ابنِ عَوْفٍ ونِعَمِ ابنِ عَفَّانَ فإنَّهُمَا إنْ تَهْلَكْ ماشِيَتُهُما يَرْجِعَانِ إلىٰ زَرْعٍ وَنَخْلٍ ، وإنَّ ربَّ الصُّريمَةِ والغُنَيْمَةِ إنْ تَهْلَكْ ماشِيَتُهُما يأتِيني ببَنيهِ فيقولُ : يا أميرَ المؤمنينَ! أفَتارِكُهُم أنا لا أبَا لَك! فَالْمَاءُ والْكَلأُ أيْسَرُ عليَّ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وايمُ الله إنَّهم ليَرَوْنَ أنِّي قَد ظَلمتُهم ، إنَّها لبِلادُهم قاتَلوا عليها في الجَاهِليَّة وأسْلَموا عليها في الإسْلامِ ، والذي نَفْسِي بيدِه لَوْلا الْمَالُ الذي أحْمِلُ عَليه في سَبيل الله ما حَمَيتُ عَليهم من بلادِهم شِبْراً[3] .

وعن زَيْدِ بنِ أسْلم ، عن أبيه قالَ : لَمَّا كانَ عَامُ الرَّمادَة جاءَت العَرَبُ من كلِّ ناحيَةٍ فقَدِموا الْمَدينَةَ ، فكانَ عُمَرُ قد أمَرَ رِجالاً يَقُومون بمَصَالِحِهم ، فسَمعتُه يَقولُ لَيلَةً : « أُحْصُوا مَنْ يَتَعَشَّىٰ عِنْدَنَا » فأحْصُوهُم من القابِلَة فوَجَدُوهُم سَبْعَةَ آلافِ رَجُلٍ ،

---

(١) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٥٣ .
(٢) انظر السير : (الْمَنْصُور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٧٨ .
(٣) انظر السير : (عُمَرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/ ٥١ .

وأَحْصُوا الرِّجَالَ الْمَرْضَىٰ والعِيالاتِ فكانوا أرْبَعينَ ألْفاً ثم بعدَ أيَّام بَلَغَ الرِّجالُ والعِيالُ سِتِّينَ ألْفاً ، فمَا بَرِحُوا حَتَّىٰ أرْسَلَ اللهُ السَّماءَ ، فلَمَّا مَطُرَتْ رَأيتُ عُمرَ قد وَكَّلَ بهم مَنْ يُخْرِجُونَهم إلى البَادِيَة ويُعْطُونَهُم قُوتاً وحِمْلاناً إلىٰ بادِيَتِهم ، وكانَ قد وَقَعَ فيهم الْمَوْتُ فأرَاهُ مَاتَ ثُلُثاهم ، وكانَت قُدُورُ عُمَرَ تَقومُ إليها العُمَّالُ من السَّحَر يَعمَلونَ العَصَائدَ[1] .

وقالَ عُمرُ وهو يُحْتَضَرُ : أُوصِي الخَليفَةَ مِنْ بَعْدي بتَقوَى اللهِ ، وأُوصِيهِ بالْمُهَاجِرينَ والأنْصَارِ ، وأُوصِيهِ بأهْلِ الأمْصَارِ خَيْراً ، في مثل ذلكَ من الوَصيَّة .

فلمَّا تُوفِّيَ خَرجْنا به نَمْشي ، فسلَّمَ عبدُ الله بنُ عُمرَ وقالَ : عُمَرُ يَسْتأذنُ ، فقالَتْ عائشَةُ : أدْخِلوهُ ، فأُدْخِلَ فوُضِعَ هُناكَ مع صَاحِبَيه[2] .

* * *

(١) انظر السير : (عُمَرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٢ .

(٢) انظر السير : (عُمَرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٥ .

(١) الأمِيرُ والإمَارَة

١ـ عَدَمُ الافْتِتان بالأمِير :

قال ابنُ عَوْن : وَلِيَ عُمَرُ ، فقال : لأَنْزِعَنَّ خالداً ـ يَعنِي ابنَ الوَلِيد ـ حتّىٰ يُعْلَمَ أنَّ اللهَ إنَّما يَنْصُرُ دِينَه ـ يَعنِي بغَيْرِ خالد ـ[١] .

٢ـ الإمَارةُ تكليف ولَيسَت تَشْريفاً :

قال عُبَيْدُ الله بنُ عُمرَ : خَطبَهم عُمرُ بنُ عبد العَزيز ، فقالَ : لَسْتُ بخَيرِ أحدٍ منكم ، ولكنِّي أثقَلُكم حِمْلاً[٢] .

وعن عطاءَ بنِ أبي رَباح ، قال : حَدَّثتني فاطِمَةُ أمرأةُ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز أنَّها دَخلَت عليه ، فإذا هو في مُصَلاَّه يده علىٰ خَدِّه ، سائلَة دُموعُه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! ألشَيء حَدَث ؟ قالَ : يا فاطِمَةُ! إنِّي تَقلَّدتُ أمْرَ أُمَّةِ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم ، فتَفكَّرتُ في الفَقيرِ الجائع ، والْمَريضِ الضَّائع ، والعَاري الْمَجْهودِ ، والْمَظْلوم الْمَقْهورِ ، والغَريبِ الْمأسُورِ ، والكَبيرِ ، وذِي العِيالِ في أقْطارِ الأرْضِ ، فعَلمتُ أنَّ رَبِّي سَيسْألُني عنهم ، وأنَّ خَصْمَهم دُونَهم مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فخَشيتُ ألاَّ تَثبُتَ لي حُجَّةٌ عند خُصومَتِه ، فرَحِمْتُ نَفسي فبَكيتُ[٣] .

٣ـ الخَوفُ من تَبِعَة الإمَارَة :

قال سعيد بنُ المُسيِّب : إنَّ عُمرَ بنَ الخطَّاب لَمَّا نَفرَ من مِنَىٰ أناخَ بالأبْطحِ ثم كَوَّمَ كَوْمَةً من بَطْحاء واسْتلقَىٰ ورَفعَ يَدَيه إلى السَّماءِ ، ثم قالَ : « اللَّهُمَّ كبُرَت سِنِّي

---

(١) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/٩٧١ .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٨ .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٩ .

وضَعُفَتْ قُوَّتي وانتُشَرَتْ رَعيَّتي فاقْبِضْني إليكَ غيرَ مُضيِّع ولا مُفَرِّط » فما انْسَلخَ ذُو الحِجَّة حتَىٰ طُعِنَ فمات[1] .

دعا عُمرُ أبا هُرَيْرَةَ ليُوَلِّيه القَضاءَ فأبَىٰ فقال : تَكْرَهُ العَملَ ، وقد طَلبَ العَملَ مَنْ كانَ خَيراً مِنكَ : يُوسُفُ ١! فقالَ : يُوسُفُ نَبيٌّ ابنُ نَبيٍّ ابنِ نَبيٍّ وأنا أبو هُرَيْرَةَ ابنُ أُمَيْمَة ، وأخْشَىٰ ثَلاثاً واثنَتين قالَ : فهَلاَّ قُلتَ : خَمساً ؟ قالَ : أخْشَىٰ أنْ أقُولَ بغَيرِ عِلمٍ ، وأقْضِيَ بغَيرِ حِلمٍ ، وأنْ يُضرَبَ ظَهْري ، ويُنْتَزَعَ مالي ويُشْتمَ عِرْضي .

ثم قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كانَ أبو هُرَيْرَةَ طَيِّبَ الأخْلاقِ رُبَّما نابَ في المَدينَةِ عن مَرْوانَ أيضاً[2] .

وعن عطاءَ بنِ أبي رَباح ، قال : حَدَّثتني فاطِمَةُ أمرأةُ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز أنَّها دَخلَت عليه ، فإذا هو في مُصَلاَّه يده علىٰ خَدِّه ، سائلَة دُموعُه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! ألشَيء حَدَث ؟ قالَ : يا فاطِمَةُ! إنِّي تَقلَّدتُ أمْرَ أُمَّةِ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم ، فتَفكَّرتُ في الفَقيرِ الجائعِ ، والْمَريضِ الضَّائعِ ، والعَاري الْمَجْهودِ ، والْمَظْلوم الْمَقْهورِ ، والغَريبِ الْمأسُورِ ، والكَبيرِ ، وذِي العِيالِ في أقْطارِ الأرْضِ ، فعَلمتُ أنَّ رَبِّي سَيسْألُني عنهم ، وأنَّ خَصْمَهم دُونَهم مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فخَشيتُ ألاَّ تَثبُتَ لي حُجَّةٌ عند خُصومَتِه ، فرَحِمْتُ نَفسي فبَكيتُ[3] .

٤ـ احْتِمالُ هَنَّات الأمير إذا كان له مَحاسِن تُغَطِّي عليها :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ صاحِبِ الأنْدَلُسِ النَّاصِرِ لدينِ الله : وقد كُنتُ ذَكَرتُ تَرجَمَتَه مع جَدِّهم ، فأعَدْتُها بزَوائِدَ وفَوَائِدَ ، وإذا كانَ الرَّأسُ عَالِيَ الهِمَّةِ في الجِهَادِ ، احْتُمِلَتْ له هَنَّاتٌ ، وحِسَابُه على الله أمَّا إذا أمَاتَ الجِهَادَ ، وظَلَمَ العِبَادَ ، وللخَزَائِنِ أبَادَ ، فإنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصَادِ[4] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٣ .
(٢) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٣١٣ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٩ .
(٤) انظر السير : (صاحب الأندلس) ١٥/ ٥٦٢ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٩ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَليفَةِ العَبَّاسيِّ الْمُسْتَنْجِدِ بالله : الإمامُ إذا كان له عَقلٌ جَيِّد ودينٌ مَتينٌ ، صَلحَ به أمْرُ الْمَمالِك فإنْ ضَعُفَ عَقلُه ، وحَسُنَت ديانَتُه ، حَمَلهُ الدِّينُ علىٰ مُشاوَرَة أهْلِ الحَزْمِ ، فتَسدَّدَت أمُورُه ومَشَت الأحْوالُ ، وإنْ قلَّ دينُه ، ونَبُلَ رَأيُه ، تَعبَتْ به البِلادُ والعِبادُ وقد يَحمِلُه نُبلُ رَأيه علىٰ إصْلاحِ مُلكِه ورَعيَّتِه للدُّنيا لا للتَّقوَىٰ ، فإنْ نَقَصَ رَأيُه ، وقَلَّ دينُه وعَقلُه ، كثُرَ الفَسادُ ، وضاعَت الرَّعيَّة ، وتَعبُوا به ، إلاَّ أنْ يَكونَ فيه شَجاعَةٌ وله سَطْوَةٌ وهَيْبَة في النُّفوسِ ، فيَنْجَبِرُ الحالُ ، فإنْ كان جَباناً قَليلَ الدِّينِ ، عَديمَ الرَّأيِ ، كَثيرَ العَسْفِ ، فقد تَعرَّضَ لبَلاء عاجِل ، ورُبَّما عُزلَ وسُجنَ إنْ لَمْ يُقتَل ، وذَهبَت عنه الدُّنيا ، وأحاطَت به خَطاياهُ ونَدِمَ ـ والله ـ حَيثُ لا يُغني النَّدَمُ ، ونحنُ آيسُونَ اليومَ من وُجودِ إمَامٍ راشِدٍ من سَائرِ الوُجُوه ، فإنْ يَسَّرَ اللهُ للأُمَّة بإمامٍ فيه كثرةُ مَحاسِن وفيه مَساوِىءُ قَليلة ، فمَنْ لنَا به ، اللَّهُمَّ فأصْلِحْ الرَّاعي والرَّعيَّة وارْحَمْ عبادَك ، ووَفِّقهم ، وأيِّد سُلطانَهم ، وأعِنْهُ بتَوفيقِك[1] .

٥ـ تَقْديمُ الفَاضل وتأخيرُ المَفْضُول :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه : قالَ القاسِمُ ابنُ مُحمَّد : قال عُمرُ : « ليَعْلمَ مَنْ وَليَ هـٰذا الأمْرَ مِنْ بَعْدي أنْ سَيريدُه عنه القَريبُ والبَعيدُ ، إنِّي لأُقاتِلُ النَّاسَ عَنْ نَفسِي قِتالاً ، ولَوْ عَلِمتُ أنْ أحَداً أقْوَىٰ عليه مِنِّي لَكنْتُ أنْ أُقدَّمَ فتُضْرَبُ عُنُقي أحبُّ إليَّ من أنْ أَلِيَه »[2] .

٦ـ ولايَةُ المَفْضُول مع وُجود الفَاضِل :

جاءَ في تَرجَمَةِ مُعاويَةَ بنِ أبي سُفْيانَ ، قالَ خَليفَة : جَمعَ عُمَرُ الشَّامَ كلَّها لِمُعاويَة ، وأقَرَّه عُثمانُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : حَسبُكَ بمَنْ يُؤمِّره عُمَرُ ، ثم عُثمانُ علىٰ إقْليمٍ ـ وهو ثَغْرٌ ـ فيَضبِطُه ويَقومُ به أتمَّ قيام ، ويُرضِي النَّاسَ بسَخَائه وحِلمِه ، وإنْ كانَ بَعضُهم تألَّمَ مَرَّة

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَنْجِد بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٠ .

(٢) انظر السير : (عُمرَ بنِ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥/٤٦ .

منه وكذلك فليَكُن الْمُلكُ ، وإنْ كانَ غَيرُه من أصْحابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَيراً منه بكَثير وأفْضلَ وأصْلَحَ ، فهـٰذا الرَّجُلُ سادَ ، وساسَ العالَمَ بكَمالِ عَقلِه وفَرْطِ حِلمِه ، وسَعَةِ نَفسِه ، وقُوَّة دَهائه ، ورَأيه وله هَنَاتٌ وأمُورٌ ، واللهُ الْمَوْعِد .

وكان مُحبَّباً إلىٰ رَعيَّته عَملَ نيابَة الشَّام عِشرينَ سَنةً ، والخِلافَة عِشرينَ سَنةً ، ولَمْ يَهِجْهُ أحَدٌ في دَولتِه ، بَلْ دانَت له الأُمَمُ ، وحَكمَ على العَرَبِ والعَجَمِ ، وكان مُلكُه على الحَرمَين ، ومِصْرَ ، والشَّام ، والعِراقِ ، وخُراسَانَ ، وفارِسَ ، والجَزيرَة ، واليَمَن ، والْمَغرِب ، وغَيرِ ذلك[1] .

وعن الشَّعْبيِّ ، قالَ : لَمَّا قَدمَ مُعاويَة المَدينَةَ عامَ الجَماعَة تَلقَّتهُ قُريشٌ فقالوا : الحَمدُ لله الذي أعَزَّ نَصْرَكَ وأعْلَىٰ أمْرَكَ ، فسَكتَ حتىٰ دَخلَ المَدينَةَ وعَلا الْمِنْبَرَ ، فحَمدَ اللهَ ، وقالَ : أمَّا بَعدُ ، فإنِّي والله وَليتُ أمرَكم حينَ وَليتُه وأنا أعْلَمُ أنَّكم لا تُسَرُّون بولايَتي ولا تُحبُّونَها ، وإنِّي لعالم بما في نُفوسِكم ، ولكنْ خالَسْتُكم بسَيفي هـٰذا مُخالَسَة ، ولقد أرَدتُ نَفسي علىٰ عَملِ أبي بَكْر وعُمَرَ ، فلَمْ أجِدْها تَقومُ بذلك ، ووَجَدتُها عن عَمَلِ عُمَرَ أشَدَّ نُفُوراً ، وحاوَلتُها علىٰ مثل سُنَيَّاتِ عُثمانَ ، فأبَتْ عليَّ ، وأينَ مثلُ هَؤلاء ، هَيْهاتَ أنْ يُدرَكَ فَضلُهم ، غَيرَ أنِّي سَلكتُ طَريقاً لي فيه مَنْفَعةٌ ، ولَكُم فيه مثلُ ذلك ، ولِكُلٍّ فيه مُواكَلَةٌ حَسَنةٌ ومُشارَبَةٌ جَميلَةٌ ما اسْتقامَت السِّيرَةُ ، فإنْ لَمْ تَجدُوني خَيرَكم فأنا خَيرٌ لَكُم ، واللهِ لا أحْمِلُ السَّيفَ علىٰ مَنْ لا سَيفَ مَعَه ، ومَهْما تَقدَّمَ مِمَّا قد عَلِمتُموه ، فقد جَعلتُه دُبُرَ أُذُنَيَّ ، وإنْ لَمْ تَجدُوني أقُومُ بحَقِّكُم كُلِّه ، فارْضَوا ببَعْضِه ، فإنَّها لَيسَتْ بقائِبَةٍ[2] . قُوبُها[3] ، وإنَّ السَّيلَ إنْ جاءَ تَتْرَىٰ ـ وإنْ قَلَّ ـ أغْنَىٰ ، وإيَّاكُم والفِتنَة ، فلا تَهمُّوا بها فإنَّها تُفسِدُ المَعيشَةَ وتُكدِّرُ النِّعْمَةَ ، وتُورِثُ الاسْتئصالَ وأسْتَغفِرُ اللهَ لي ولَكُم ثم نَزلَ[4] .

---

(١) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٥٠ .

(٢) « القائبَةُ » : البَيْضَة .

(٣) « القُوبُ » : الفَرْخُ ، يُقالُ قابَت البَيْضَةُ : إذا انْفَلَقَت عن الفَرْخ .

(٤) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣٥٣ .

وعن ثابتٍ مَوْلَىٰ سُفيانَ قال : سَمعتُ مُعاويَةَ وهو يَقولُ : إنِّي لَستُ بخَيرِكُم ، وإنَّ فيكُم مَنْ هو خَيرٌ مِنِّي : ابنُ عُمَرَ ، وعَبدُ اللهِ بنُ عَمْرو وغَيرُهما ولَكنِّي عَسيتُ أنْ أكُونَ أنْكاكُم في عَدوِّكُم ، وأنْعَمَكُم لكُم وِلايَةً وأحْسَنَكُم خُلُقاً[1] .

٧ـ عَدَمُ الأنَفَة من مَسْؤولٍ صَغير السِّن :

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي أيُّوبَ الأنْصاريِّ رضي الله عنه ، عن أيُّوبَ ، عن مُحمَّدٍ قال : شَهِدَ أبو أيُّوبَ بَدْراً ، ثم لَمْ يَتَخَلَّفْ عن غَزَاةٍ إلاَّ عاماً ، اسْتُعمِلَ على الجَيشِ شَابٌ ، فقَعَدَ ، ثم جَعَلَ يَتَلَّهَفُ ، ويقولُ : ما عليَّ مَنْ اسْتُعمِلَ عليَّ فمَرِضَ ، وعلى الجَيشِ يَزيدُ بنُ مُعاوِيَة ، فأتاه يَعُودُه ، فقال : حاجَتُكَ ؟ قال : نَعَم إذا أنا مِتُّ ، فارْكَبْ بِي ، ثم تَبَيَّغْ[2] في أرضِ العَدُوِّ ما وَجَدتَ مَسَاغاً ، فإذا لَمْ تَجِدْ مَسَاغاً ، فادْفِنِّي ، ثم ارْجِع .

فلمَّا ماتَ رَكِبَ به ، ثمَّ سارَ به ، ثم دَفَنَه ، وكان يقولُ : قالَ الله : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[3] لا أجدُني إلاَّ خَفيفاً أو ثَقيلاً .

قالَ الواقِديُّ : تُوفِّيَ عامَ غَزا يَزيدُ في خِلافَةِ أبيه القُسْطَنْطينيَّةَ ، فلقد بلَغَني : أنَّ الرُّومَ يَتعاهَدونَ قَبْرَه ، ويَرُمُّونَه ، ويَسْتَقونَ به ، وذَكَرَه عُرْوَةُ والجَماعَةُ في البَدْريِّين .

وقال ابنُ إسْحاقَ : شَهِدَ العَقَبَةَ الثَّانية .

وقالَ الخَطيبُ : شَهِدَ حَربَ الخَوارِجِ مع عَليٍّ[4] .

---

(١) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٥٤ .

(٢) قوله : (ثم تَبَيّغ) كذا الأصل ، وقد أثبت فوق الكلمة (صح) ، يُقال : تَبَيّغ به الدم ، أي : تردّد فيه الدم ، وتَبَيّغ الماء إذا تردّد فتحيّر في مجراه مرةً كذا ، ومرةً كذا ، وفي « الطبقات » ، و« النهاية » ، و« أسد الغابة » ، و« تهذيب » ابن عساكر ، (ثم = سغ) ، وفسّره ابن الأثير فقال : أي ادخل فيها ما وجدت مدخلاً ، وساغت به الأرض ، أي : ساخت ، وساغ الشراب في الحلق يسوغ ، أي : دخل سهلاً .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٤١ .

(٤) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاريّ) ٢/ ٤٠٢ـ ٤١٣ ، وانظر النزهة : ٧/ ٢٨٢ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أُسامَةَ بنِ زَيْد : حِبُّ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم ومَوْلاهُ ، وابنُ مَوْلاهُ ، أبو زَيْد .

اسْتعْملَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ جَيشٍ لِغَزوِ الشَّام ، وفي الجَيْشِ عُمَرُ والكِبارُ ، فلَمْ يَسِرْ حتىٰ تُوفِّيَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فبادَر الصِّديقُ ببَعْثِهم ، فأغاروا علىٰ أُبنىٰ ، من ناحيةِ البَلْقاء .

وقِيلَ : إنَّه شَهِدَ يَومَ مُؤتَة مع والدِه وقد سَكنَ الْمِزَّةَ مُدَّة ، ثم رَجعَ إلى الْمَدينَة فماتَ بها[1] .

وقال ابنُ عُمرَ : أمَّرَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أُسامَةَ ، فطَعَنوا في إمارَتِه ، فقال : « إنْ يَطْعَنُوا في إمَارَتِهِ ، فَقَدْ طَعَنُوا في إمَارَةِ أَبيهِ ، وَايمُ اللهِ إنْ كانَ لَخَلِيقاً لِلإمَارَةِ ، وَإنْ كانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إلَيَّ ، وإنَّ ابْنَهُ هَـٰذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إلَيَّ بَعْدَهُ » .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : لَمَّا أمَّره النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الجَيشِ ، كانَ عُمرُه ثَمانيَ عَشْرةَ سَنةً[2] .

٨ـ الأميرُ العَادِلُ مع رَعيَّة فاسِدَة :

جاءَ في تَرجَمَةِ مُعاويَةَ بنِ أبي سُفْيان ، قال الواقِديُّ بعدَ أنْ ذَكرَ أمرَ التَّحْكيمِ بينَ عليٍّ ومُعاويَةَ : فلَمْ يَقَع اتِّفاقٌ ورَجَعَ عَليٌّ إلى الكُوفَةِ بالدَّغَلِ[3] من أصْحابِه والاخْتِلافِ فخَرَجَ منهُم الخَوارِجُ ، وأنْكَرُوا تَحْكِيمَه ، وقالوا : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، ورَجَعَ مُعاويَةُ بالأُلْفَةِ والاجْتِماعِ ، وبَايَعَهُ أهْلُ الشَّامِ بالخِلافَةِ في ذي القِعْدَةِ سَنةَ ثَمانٍ وثلاثين .

ثمَّ اسْتُشْهِدَ عَليٌّ في رَمَضانَ سَنَةَ أرْبَعِينَ وصَالَحَ الحَسَنُ بنُ عَليٍّ مُعاوِيَةَ ، وبَايَعَهُ ، وسُمِّيَ عامَ الجَماعَةِ وحَجَّ بالنَّاسِ سَنَةَ خَمسينَ .

ثمَّ اعْتَمَرَ سَنةَ سِتٍّ وخَمسِينَ في رَجَبَ ، وكان بَينَه وبَينَ الحُسَيْنِ وابنِ عُمَرَ ، وابنِ

---

(١) انظر السير : (أسامة بن زَيد) ٢/٤٩٦ـ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ١/٢٩٥ .

(٢) انظر السير : (أسامة بن زَيد) ٢/٤٩٦ـ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٣/٢٩٦ .

(٣) الدغل : الفساد .

الزُّبَيْرِ ، وابنِ أبي بَكْرٍ ، كَلامٌ في بَيْعَةِ العَهْدِ لِيَزيدَ ، ثمَّ قال : إنِّي مُتَكَلِّمٌ بكَلامٍ ، فلا تَرُدُّوا عَليَّ أَقْتُلْكُم ، فخَطَبَ ، وأظْهَرَ أنَّهم قد بَايَعُوا ، وسَكَتُوا ولَمْ يُنْكِروا ، ورَحَلَ علىٰ هـٰذا وادَّعَىٰ زِيادٌ أنَّه أخُوهُ فوَلاَّه الكُوفَة بعدَ المُغِيرَة ، فكَتَبَ إليه في حُجْرِ بنِ عَديّ وأصْحابِه ، وحَمَلَهم إليه فقتَلَهم بمَرْجِ عَذْراء ، ثمَّ ضَمَّ الكُوفَة والبَصْرَة إلىٰ زِيادٍ ، فمَاتَ ، فوَلاهُما ابنَه عُبَيْدَ الله بنَ زِياد[1] .

وعن مُحمَّدِ بنِ عُبَيْدِ اللهِ الثَّقَفيِّ ، سَمعَ أبا صالح يقول : شَهِدتُ عَليّاً وَضَعَ الْمُصْحَفَ علىٰ رَأسِه ، حتّىٰ سَمِعْتُ تَقَعْقُعَ الوَرَق فقالَ : اللَّهم إنِّي سَألتُهم ما فيه ، فمَنَعوني ، اللَّهم إنِّي قد مَلَلْتُهم ومَلُّوني ، وأبْغَضْتُهُم وأَبْغَضُوني ، وحَملُوني علىٰ غَيرِ أخْلاقي ، فأبْدِلْهُم بي شَرّاً منِّي ، وأبْدِلْنِي بهم خَيراً منهم ، ومِثْ[2] قُلوبَهم مِيثَةَ الْمِلْحِ في المَاءِ[3] .

٩ـ اسْتحْقاقات خَليفَة المسلمين من بَيتِ المَال :

قالَ عَطاءُ بنُ السَّائب : لَمَّا اسْتُخلِفَ أبو بَكر أصْبحَ وعلىٰ رَقَبتِه أثْوابٌ يتَّجِرُ فيها ، فلَقيَهُ عُمرُ وأبو عُبَيْدَة فكلَّماه فقالَ : فمِنْ أينَ أُطعِمُ عِيالي ؟ قالا : انْطَلِقْ حتىٰ نَفْرِضَ لكَ ، قالَ : ففَرَضوا له كلَّ يومٍ شَطْرَ شاةٍ ، وماكَسُوهُ في الرَّأسِ والبَطْنِ ، وقالَ عُمرُ : إليَّ القَضاءُ ، وقالَ أبو عُبَيْدَة : إليَّ الفَيْءُ ، فقالَ : عُمرُ لَقد كان يأتي عليَّ الشَّهْرُ ما يَخْتَصِمُ إليَّ فيه اثْنانِ .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ سيرينَ كان أبو بَكر أعْبَرَ هـٰذه الأُمَّة لرُؤيا بعد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

وقالَ الزُّبَيْرُ بنُ بَكار عن بَعضِ أشْياخِه ، قالَ : خُطَباءُ الصَّحابَة : أبو بَكر ، وعَليٌّ[4] .

---

(١) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٥١ .
(٢) يُقالُ : مِثْتُ الْمِلْحَ في الماء إذا أذَبْتُه .
(٣) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٥٢ .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٥ .

قالَ صاحبُ النُّزْهَة : انظُر إلىٰ هؤلاءِ الرِّجالِ ، ما أعْظَمَهم ، وما أعْظَمَ ما قعَّدوه من قَواعِدَ للحُكمِ سبَقوا بها الغَرْبَ بقُرونٍ كَثيرة ، يُعطَىٰ خَليفَةُ المسْلمينَ نَصيبَه ، ويُجادِلونَ في أمْرِ رأسِ الشَّاةِ وبَطْنِها ، هل يَسْتحِقُّه أم لا ؟ إنَّ هَؤلاء همُ السَّادَةُ ، وهم فَخْرُ الأُمَم[1] .

وقالَ الأحْنَفُ بنُ قَيْس : سَمعتُ عُمرَ يَقولُ : لا يَحِلُّ لعُمرَ من مالِ اللهِ إلاَّ حُلَّتَينِ : حُلَّةٌ للشِّتاءِ وحُلَّةٌ للصَّيفِ ، وما حَجَّ به واعْتَمرَ ، وقُوتُ أهْلي كرَجُلٍ مِنْ قُرَيْش لَيسَ بأغْناهُم ، ثمَّ أنا رَجلٌ من المسلِمينَ .

وقالَ عُرْوَةُ : حَجَّ عُمرُ بالنَّاسِ إمارَتَهُ كُلَّها .

وقالَ ابنُ عُمرَ : ما رَأيتُ أحَداً قَطُّ بعدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ حينِ قُبِضَ أجدَّ ولا أجْوَدَ من عُمَر[2] .

وقالَ المَدائنيُّ : ولَمَّا فَتحَ اللهُ على المسْلمينَ غَنائمَ رُسْتُم ، وقَدِمَت علىٰ عُمَرَ الفُتوحُ من الشَّامِ والعِراقِ جَمَعَ المسْلمينَ فقالَ : ما يَحِلُّ للوَالي من هٰذا المالِ ؟ قالوا : أمَّا لخاصَّتِه فقُوتُهُ وقُوتُ عِيالِه لا وَكْسَ ولا شَطَط ، وكِسْوَتُه وكِسْوَتُهم ، ودَابَّتانِ لجِهادِه وحَوائجِه ، وحَمالَتِه إلىٰ حَجِّه وعُمْرَتِه ، والقَسمُ بالسَّويَّة أن يُعْطي أهلَ البلادِ علىٰ قَدرِ بَلائهم ، ويَرُمَّ أمورَ المسْلمينَ ويَتَعاهَدَهم .

وفي القَومِ عليٌّ رضي الله عنه سَاكتٌ ، فقالَ : ما تَقولُ يا أبا الحَسَن ؟ فقالَ : ما أصْلَحَكَ وأصْلَحَ عِيالَكَ بالمَعْروفِ[3] .

وقِيلَ : إنَّ عُمرَ قَعَدَ علىٰ رِزْقِ أبي بَكر حتى اشْتدَّت حاجَتُه ، فأرادوا أنْ يَزيدُوه فأبَىٰ عليهم[4] .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢٥/ هامش (٢) .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٤٧ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٥ .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٦٥ .

١٠ـ مُمْتَلَكات الخَليفَة :

عن أبي بَكر بنِ حَفْص بنِ عُمَر : إنَّ عائشَةَ تَمثَّلت لَمّا احْتُضِرَ أبو بَكر :

لَعَمْـرُكَ مـا يُغْنِـي الثَّـرَاءُ عَـن الفَتَـى إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضَاقَ بِها الصَّدْرُ

فقالَ : لَيسَ كَذلكَ ، ولكنْ قُولي : ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[١] ، إنِّي نَحَلتُك حائطاً وإنَّ في نَفْسي منه شَيئاً فرُدِّيه على المِيراثِ ، قالَتْ : نَعَمْ ، قالَ : أمَا إنَّا مُنذُ وَلينا أمرَ المسلمينَ لَمْ نأكُل لَهم ديناراً ولا دِرْهَماً ، ولَكنَّا أكَلْنا من جَريشِ[٢] طَعامِهم في بُطُونِنا ، ولَبِسْنا مِنْ خَشنِ ثَيابهم علىٰ ظُهُورِنا ، ولَيسَ عِندنا من فَيْءِ المسْلمينَ شَيءٌ إلاَّ هـٰذا العَبدُ الحَبَشيُّ وهـٰذا البَعيرُ النَّاضِحُ ، وجرد هـٰذه القَطيفَة[٣] ، فإذا مِتُّ فابْعَثي بِهِنَّ إلىٰ عُمرَ ، ففعَلتْ[٤] .

وقال القاسمُ ، عن عائشَةَ : إنَّ أبا بَكر حين حَضرَه الموتُ قال : إنِّي لا أعْلمُ عندَ آلِ أبي بَكر غيرَ هـٰذه اللقحَة وغيرَ هـٰذا الغُلام الصَّيقل ، كان يَعملُ سُيوفَ المسلمين ويَخْدمُنا ، فإذا مِتُّ فادْفَعيه إلىٰ عُمَرَ ، فلمَّا دفَعْتُه إلىٰ عُمَر ، قال عُمَرُ : رَحِمَ اللهُ أبا بَكر لقَد أتْعَبَ مَنْ بَعدَه .

وقال الزُّهريُّ : أوْصَىٰ أبو بَكر أنْ تُغَسِّلَه امْرأتُه أسْماءَ بنتُ عُمَيْس ، فإنْ لَمْ تَسْتطِعْ اسْتعانَت بابنِه عبد الرَّحمَـٰن[٥] .

١١ـ الشُّورَىٰ :

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي بَكر رضي الله عنه ، قالَ الوَاقِديُّ : إنَّ أبا بَكر لَمَّا ثَقُلَ عليه دَعا عبدَ الرحمَـٰن بنَ عَوْف فقالَ : أخْبِرْني عن عُمَرَ ، فقالَ : ما تَسْألُني عن أمْرٍ إلاَّ وأنتَ أعْلَمُ به منِّي ، قالَ : وإنْ ، فقالَ : هو والله أفْضَلُ مِنْ رَأيك فيه ، ثمَّ دَعا عُثْمانَ فسَألَه

---

(١) سورة ق ، الآية : ١٩ .

(٢) أي : خَشن طعامهم .

(٣) أي : التي انجرد حملها وخلقت .

(٤) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/٢٧ .

(٥) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/٢٨ .

عن عُمَرَ ، فقالَ : عِلْمي فيه أنَّ سَريرَتَه خَيرٌ مِنْ عَلانيَتِه ، وأنَّه لَيسَ فينا مِثلُه ، فقالَ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، واللهِ لَوْ تَرَكتُه ما عَدَوْتُك ، وشَاوَرَ مَعَهما سَعيدَ ابنَ زَيْد ، وأُسَيْدَ بنَ حُضَيْر ، وغَيرَهما فقالَ قائلٌ : ما تَقولُ لِرَبِّكَ إذا سَألَكَ عن اسْتِخْلافِكَ عُمرَ ، وقد تَرَىٰ غِلْظَتَه ؟ فقالَ : أجْلِسوني ، أبالله تُخوِّفوني ؟! أقولُ : اسْتَخْلَفتُ عليهم خَيْرَ أهلِك .

ثمَّ دَعا عُثْمانَ فقالَ : اكتُبْ :

بِسْمِ اللهِ الرحْمَـٰنِ الرَّحيمِ ، هـٰذا ما عَهِدَ أبو بَكر بنُ أبي قُحافَة في آخِرِ عَهْدِه بالدُّنيا خارِجاً منها ، وعندَ أوَّلِ عَهْدِه بالآخِرَةِ داخِلاً فيها ، حيثُ يُؤمِنُ الكافِرُ ، ويُوقِنُ الفاجِرُ ، ويُصَدِّقُ الكاذِبُ ، إنِّي اسْتَخْلَفتُ عَليكُم من بَعْدي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ، فاسْتَمِعوا له وأطيعُوا ، وإنِّي لَمْ آلُ[1] اللهَ ورَسُولَه ودينَه ونَفْسي وإيَّاكُم خَيراً ، فإنْ عَدَلَ فذلكَ ظَنِّي به وعِلْمي فيه ، وإنْ بَدَّلَ فلِكُلِّ امْرِىءٍ ما اكْتَسَبَ ، والخَيرَ أرَدْتُ ولا أعْلَمُ الغَيْبَ ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2] ، [3] .

وقالَ مَعْدانُ بنُ أبي طَلْحَة اليَعْمُريّ : خَطَبَ عُمَرُ يومَ الجُمُعَة وذَكَرَ نَبيَّ اللهِ وأبا بَكر ثم قالَ : رأيتُ كأنَّ دِيكاً نَقَرَني نَقْرَةً أوْ نَقْرَتَينِ ، وإنِّي واللهِ لا أراه إلاَّ حُضورُ أجَلي ، وإنَّ قَوْماً يأمُروني أنْ أسْتَخْلِفَ ، وإنَّ اللهَ لَمْ يَكنْ لِيُضيعَ دينَه ولا خِلافَتَه فإنْ عَجَّل بي أمرٌ فالخِلافَة شُورَىٰ بين هَؤلاء السِّتَّة الذين تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ .

وقالَ الزُّهْريُّ : كانَ عُمَرُ لا يأذَنُ لسَبيٍ قد احْتَلمَ في دُخولِ المَدينَة حتىٰ كتبَ المُغيرَةُ بنُ شُعْبَة ، وهو على الكُوفَة ، يَذْكُرُ غُلاماً عندَه صَنِعاً[4] ، ويَستأذنُه أن يَدخُلَ المدينَة ويقولُ : إنَّ عنده أعْمالاً كثيرة فيها منافعُ للنَّاسِ : إنَّه حدَّادٌ ، نَقَّاشٌ ، نَجَّارٌ ، فأذِنَ له أن يُرسلَ به ، وضرَبَ عليه المُغيرَةُ مائة دِرْهَم في الشَّهرِ ، فجاء إلىٰ عُمَرَ

---

(١) لم أقصِّر .
(٢) سورة الشُّعَراء ، الآية : ٢٢٧ .
(٣) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٦/ ٥ .
(٤) صَنِعاً : حاذق .

يَشْتَكي شِدَّةَ الخَراجِ ، قالَ : ما خَراجُك بكَثير ، فانْصَرَفَ ساخِطاً يَتذَمَّرُ ، فلَبِثَ عُمَرُ لَياليَ ثم دَعاه فقالَ : ألَمْ أُخْبَر أنَّك تقولُ : لَوْ شاءَ لَصَنَعتُ رَحىً تَطحَنُ بالرِّيح ؟ فالْتَفَتَ إلىٰ عُمَرَ عابِساً وقالَ : لأصْنَعَنَّ لك رَحىٰ يَتحدَّثُ النَّاسُ بها ، فلمَّا وَلَّىٰ قالَ عُمَرُ لأصْحابِه : أوْعَدَني العَبْدُ آنِفاً ، ثم اشْتَمَلَ أبو لُؤلُؤة علىٰ خِنْجَر ذي رأسَين نِصابُه في وَسَطه ، فكَمنَ في زاويَة من زَوايا المَسْجِد في الغَلَسِ .

وقالَ عَمْرو بنُ مَيْمون الأودي : إنَّ أبا لُؤلُؤةَ عبدَ المُغيرَة طَعَنَ عُمَرَ بخِنْجَر له رأسان ، وطَعَنَ معه اثنَي عَشرَ رَجُلاً ، ماتَ منهم سِتَّةٌ فألْقَىٰ عليه رَجلٌ من أهْلِ العِراقِ ثَوْباً ، فلمَّا اغْتمَّ فيه قَتلَ نَفسَه .

وقالَ عامِرُ بنُ عبد الله بنِ الزُّبَيْر ، عن أبيه قالَ : جِئتُ من السُّوقِ وعُمَرُ يَتَوَكَّأُ عليَّ ، فمرَّ بنا أبو لُؤلُؤة ، فنَظَرَ إلىٰ عُمَرَ نَظْرَةً ظَنَنْتُ أنَّه لَوْلا مَكاني لبَطَشَ به ، فجئتُ بعد ذلك إلى المَسْجِدِ الفَجْرَ فإنِّي لَبينَ النَّائمِ واليَقْظانِ ، إذ سَمعتُ عُمرَ يَقولُ : قَتلَني الكَلبُ ، فماجَ النَّاسُ ساعَةً ، ثم إذا قِراءَةُ عبد الرَّحْمَـٰنِ بنِ عَوْفٍ .

وعن أبي رافِع : كانَ أبو لُؤلُؤةَ عَبداً للمُغيرَة يَصْنَعُ الأرْحاءَ ، وكان الْمُغيرَةُ يَسْتغِلُّه كلَّ يَومٍ أرْبَعَةَ دَراهِم ، فلَقيَ عُمَرَ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ الْمُغيرَةَ قد أثْقَلَ عليَّ فكَلِّمْه ، فقالَ : أحْسِنْ إلىٰ مَوْلاكَ ، ومن نيَّةِ عُمَرَ أنْ يُكلِّمَ الْمُغيرَةَ فيه ، فغَضبَ وقالَ : يَسَعُ النَّاسَ كُلَّهم عَدْلُه غَيري ، وأضْمَرَ قَتلَه ، واتَّخَذَ خِنْجَراً وشحذه وسمه ، وكان عُمَرُ يَقُولُ : « أَقِيمُوا صُفُوفَكُم » قَبْلَ أنْ يُكَبِّرَ ، فجَاءَ فقامَ حِذاءَه في الصَّفِّ وضَربَه في كَتِفه وفي خاصِرَته ، فسَقَطَ عُمَرُ ، وطَعَنَ ثَلاثَة عَشَرَ رَجُلاً معه ، فماتَ منهم سِتَّةٌ ، وحُملَ عُمَرُ إلىٰ أهْلِه وكادَت الشَّمسُ أنْ تَطلُعَ ، فصَلَّى ابنُ عَوْفٍ بالنَّاسِ بأقْصَرِ سُورَتَين ، وأُتيَ عُمَرُ بنَبيذٍ فشَربَه فخَرَجَ من جُرْحِه فلَمْ يُتَبيَّن ، فسَقَوْه لَبَناً فخَرجَ من جُرْحِه فقالُوا : لا بَأسَ عَليكَ ، فقالَ : إنْ يَكُنْ بالقَتلِ بأسٌ فقد قُتلتُ ، فجَعلَ النَّاسُ يُثنونَ عليه ويَقولُون : كُنتَ وكُنتَ ، فقالَ : أمَا والله ودِدْتُ أنِّي خَرجْتُ منها كِفافاً لا عَليَّ ولا لِي ، وأنَّ صُحبَة رَسُولِ الله سَلِمَت لي[1] .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٣ .

وقالَ سالمُ بنُ عبد الله ، عن أبيه قالَ : دَخلَ علىٰ عُمَرَ عُثمانُ ، وعَليٌّ ، والزُّبَيرُ ، وابنُ عَوْف ، وسَعْدٌ ـ وكان طَلْحَةُ غائباً ـ فنَظَرَ إليهم ثم قالَ : إنِّي قد نَظرتُ لكم في أمْرِ النَّاسِ فلمْ أجدْ عند النَّاسِ شِقاقاً إلاَّ أنْ يَكونَ فيكم ، ثم قالَ : إنَّ قَومَكم إمَّا يُؤمِّروا أحدَكم أيُّها الثلاثَة ، فإن كُنتَ علىٰ شيء من أمر النَّاس يا عُثمانُ فلا تَحْمِلَنَّ بَني مُعَيْط علىٰ رِقابِ النَّاسِ ، وإنْ كُنْتَ علىٰ شيء من أمرِ النَّاس يا عَليُّ فلا تَحْمِلَنَّ أقَارِبَك علىٰ رِقابِ النَّاسِ قوموا فتَشاوَروا وأمِّروا أحَدَكم ، فقاموا يَتَشاوَرون[1] .

قالَ ابنُ عُمَر : فدَعاني عُثْمانُ مرَّةً أو مرَّتَين ليُدخِلَني في الأمْر ، ولم يُسمِّني عُمَرُ ، ولا والله ما أُحبُّ أنِّي كُنتُ معهم علماً منه بأنَّه سَيكونُ مِنْ أمْرِهِم ما قَالَ أبي ، والله لقَلَّما سَمعتُه حَوَّلَ شَفَتيه بشَيءٍ قَطُّ إلاَّ كان حقَّاً ، فلمَّا أكْثرَ عُثمانُ دُعائي قُلتُ : ألا تَعْقِلونَ! تُؤمِّرونَ وأميرُ المؤمنين حَيٌّ! فوالله لكأنَّما أيقَظتُهم ، فقالَ عُمَرُ : أمْهِلوا فإنْ حَدَثَ بي حَدثٌ فليُصَلِّ للنَّاسِ صُهَيبٌ ثلاثاً ثم اجْمَعوا في اليَومِ الثَّالثِ أشْرافَ النَّاس وأُمَراءَ الأجْنادِ فأمِّروا أحَدَكم ، فمَنْ تَأمَّرَ من غَيرِ مَشورَةٍ فاضْرِبوا عُنُقَه[2] .

عن السَّائبِ بنِ الأقْرع قال : زَحفَ للمسلين زَحْفٌ لم يُرَ مثلُه قطّ ، رَجفَ له أهلُ ماهَ وأهلُ أصْبَهان ، وأهلُ هَمَذان والريّ وقومس ونَهاوَنْدَ وأذَرْبيجانَ ، قال : فبَلغَ ذلك عُمَرُ فشاوَرَ المسلمين ، فقال عليٌّ رضي الله عنه : أنت أفْضَلُنا رأياً وأعلَمُنا بأهلك فقال : لأسْتَعملَنَّ على النَّاسِ رجلاً يكون لأول أسِنَّة يلقاها ، يا سائبُ اذهبْ بكتابي هـٰذا إلى النُّعْمان بن مُقَرِّن ، فليَسِرْ بثلثي أهل الكُوفَة ، وليَبْعَث إلىٰ أهل البَصْرَة ، وأنت علىٰ ما أصابوا من غَنيمَة ، فإنْ قُتِل النُّعمانُ فحُذَيْفَةُ الأميرُ ، فإن قُتِلَ حُذَيْفَةُ فجَريرُ بنُ عبد الله ، فإن قُتِلَ ذلك الجَيشُ فلا أراك[3] .

ورَوَىٰ عَلْقَمةُ بنُ عبد الله المُزنيّ ، عن مَعْقلِ بنِ يَسَارٍ : أنَّ عُمَرَ شَاوَرَ الهُرْمُزَانَ في أصْبَهانَ وفارِسَ وأذْرَبيجانَ بأيّتهن يبدأ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين أصْبَهانُ : الرَّأسُ

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٦ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٥٦ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٣ .

وفَارِسُ وأذْرَبيجانُ : الجَنَاحانُ ، فإن قُطِعَ أحدُ الجَناحَين مالَ الرَّأسُ بالجَناحِ الآخَر ، وإنْ قَطَعْتَ الرَّأسَ وَقَعَ الجَناحَان ، فدخلَ عُمَرُ المسجدَ فوجدَ النُّعْمانَ بنَ مُقَرِّن يُصلِّي فسَرَّحَهُ وسرَّحَ معه الزُّبَيرَ بنَ العَوَّام ، وحُذَيفَةَ بنَ اليَمان ، والمُغيرَةَ بنَ شُعْبَة ، وعَمرو بنَ مَعْد يَكرب ، والأشْعَثَ بنَ قَيْسَ ، وعبدَ الله بنَ عُمر ، فسارَ حتىٰ أتىٰ نَهاوَنْدَ ، فذَكرَ الحديثَ إلىٰ أنْ قالَ النُّعْمانُ لمَّا التقى الجَمعانِ : إنْ قُتلتُ فلا يُلْوي عليَّ أحدٌ ، وإنِّي داعٍ بدَعْوَةٍ فأمِّنُو[1] .

وقالَ حُميدُ بنُ عبدِ الرَّحْمَـٰنِ بنِ عَوْف : أخْبَرَني المِسْوَرُ أنَّ النَّفَرَ الذين ولاَّهُم عُمَرُ اجْتَمَعوا فتَشَاوَروا ، فقالَ عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ عَوْف : لَسْتُ بالذي أُنافِسُكم هـٰذا الأمْرَ ، ولكنْ إنْ شِئتُم اخْتَرتُ لكم منكم ، فجعلوا ذلك إلىٰ عبد الرحمـٰن ، قال : لا يَخْلو به رجلٌ ذو رأي فيعدل بعثمانَ أحَداً ، وذكرَ الحَديثَ إلىٰ أن قالَ : فتشهَّدَ وقالَ : أمَّا بعدُ يا عَليُّ فإنِّي قد نَظَرْتُ في النَّاسِ فلَمْ أرَهُم يَعْدِلونَ بعُثْمانَ فلا تَجْعَلنَّ علىٰ نَفسِكَ سَبيلاً ، ثم أخَذَ بيدِ عُثْمانَ فقالَ : نُبايُعُكَ علىٰ سُنَّةِ الله وسُنَّةِ رَسُولِه وسُنَّةِ الخَلِيفَتَين بعدَه ، فبايَعَه عبدُ الرَّحْمـٰن بنُ عَوْف وبايَعَه المُهاجِرونَ والأنْصارُ[2] .

١٢ـ طُرُق تَوَلِّي الحُكم :

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي بَكر رضي الله عنه ، قالَ الوَاقِديُّ : إنَّ أبا بَكر لَمَّا ثَقُلَ عليه دَعا عبدَ الرحمَـٰن بنَ عَوْف فقالَ : أخْبِرْني عن عُمَرَ ، فقالَ : ما تَسْأَلُني عن أمْرٍ إلاَّ وأنتَ أعْلَمُ به منِّي ، قالَ : وإنْ ، فقالَ : هو والله أفْضَلُ مِنْ رَأيك فيه ، ثمَّ دَعا عُثْمانَ فسَأَلَه عن عُمَرَ ، فقالَ : عِلْمي فيه أنَّ سَريرَتَه خَيرٌ مِنْ عَلانيَتِه ، وأنَّه لَيسَ فينا مِثلُه ، فقالَ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، واللهِ لَوْ تَرَكتُه ما عَدَوْتُك ، وشَاوَرَ مَعَهما سَعيدَ ابنَ زَيْد ، وأُسَيْدَ بنَ حُضَيْر ، وغَيرَهما فقالَ قائلٌ : ما تَقولُ لِرَبِّكَ إذا سَألَكَ عن اسْتِخْلافِكَ عُمرَ ، وقد تَرَىٰ غِلْظَتَه ؟ فقالَ : أجْلِسوني ، أبالله تُخوِّفوني ؟! أقولُ : اسْتَخْلَفتُ عليهم خَيْرَ أهلِك .

ثمَّ دَعا عُثْمانَ فقالَ : اكتُبْ : بِسْمِ اللهِ الرحْمَـٰنِ الرَّحيمِ ، هـٰذا ما عَهِدَ أبو بَكر بنُ

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٤ .

(٢) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٨١ .

أبي قُحافَة في آخِرِ عَهْدِه بالدُّنيا خارِجاً منها ، وعندَ أوَّلِ عَهْدِه بالآخِرَةِ داخِلاً فيها ، حيثُ يُؤمِنُ الكافِرُ ، ويُوقِنُ الفاجِرُ ، ويُصَدِّقُ الكاذِبُ ، إنِّي اسْتَخْلَفتُ عَليكُم من بَعْدي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ، فاسْتَمِعوا له وأطيعُوا ، وإنِّي لَمْ آلُ[1] اللهَ ورَسُولَه ودينَه ونَفْسي وإيَّاكُم خَيراً ، فإنْ عَدَلَ فذلكَ ظَنِّي به وعِلْمي فيه ، وإنْ بَدَّلَ فلِكُلِّ امْرِىءٍ ما اكْتَسَبَ ، والخَيرَ أرَدْتُ ولا أعْلَمُ الغَيْبَ ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2] ، [3] .

عن ابنِ عبَّاسٍ ، أنَّ عُمَرَ خَطبَ النَّاسَ فقالَ في خُطبَتِه : وقد بَلَغَني أنَّ قائلاً يقولُ : « لَوْ ماتَ عُمَرُ بايَعْتُ فُلاناً » ، فلا يَغْتَرَّنَّ امرؤ أن يقولَ : كانت بَيْعَةُ أبي بَكر فلتة ، وليس منكم مَنْ تُقطعُ الأعْناقُ إليه مثلُ أبي بَكر ، وإنَّه كان من خَبَرِنا حين تُوفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم اجْتمعَ الْمُهاجِرونَ ، وتَخلَّفَ عَليٌّ والزُّبَيرُ في بَيْتِ فاطِمَة بِنتِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وتَخَلَّفَ الأنْصارُ في سَقيفَة بَني ساعِدَة ، فقُلتُ : يا أبا بَكر انْطَلِقْ بنا إلىٰ إخْوانِنا من الأنْصارِ ، فانْطَلَقْنا نَؤمُّهم ، فلَقيَنا رَجُلانِ صالِحانِ من الأنْصارِ فقالا : لا عَليكم أنْ لا تأتوهم وأبْرِموا أمْرَكم ، فقُلتُ : والله لَنأتيَنَّهم ، فأتيناهم في سَقيفَة بني ساعِدَة ، فإذا هم مُجْتَمِعونَ علىٰ رَجُلٍ مُزمَّل بالثِّيابِ ، فقُلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالوا سَعْدُ ابنُ عُبادَة مَريضٌ ، فجَلسْنا ، وقام خَطيبُهم فأثْنَىٰ على الله بما هو أهلُه ، ثم قالَ : أمَّا بعدُ فنَحْنُ الأنْصارُ وكَتيبَةُ الإيمَان ، وأنْتم مَعْشَرَ الْمُهاجِرينَ رَهْطٌ مِنَّا ، وقد دَفَّت إليكم دافَّةٌ[4] يُريدُونَ أنْ يَخْتَزِلونا[5] من أصْلِنا ويَحُضُّونَنا[6] من الأمْرِ .

قالَ عُمَرُ : فلمَّا سَكتَ أرَدتُ أنْ أتكلَّمَ بمَقالَة قد كانت أعْجَبَتني بين يَدَيْ أبي بَكر ،

---

(١) لم أقصِّر .
(٢) سورة الشُّعَراء ، الآية : ٢٢٧ .
(٣) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٥/٢٦ .
(٤) الدافَّة : القوم يسيرون جماعة سَيراً ليس بالشديد.
(٥) أي: يقتطعونا.
(٦) بمعنىٰ يُخرجونا.

فقالَ أبو بَكر : علىٰ رِسْلك ، وكُنتُ أعْرفُ منه الجدَّ ، فكَرِهْتُ أنْ أُغْضِبَه ، وهو كان خَيْراً منِّي وأَوْفَقَ وأَوْقَر ، ثمَّ تَكلَّمَ ، فوالله ما تَركَ كلمَةً أعْجَبَتني إلاَّ قالَها وأفْضَلَ منها حتىٰ سَكتَ ، ثمَّ قالَ : أمَّا بَعدُ ، ما ذَكَرتُم من خَيرٍ فهو فيكم مَعْشرَ الأنْصارِ ، وأنْتم أهْلُه وأفضَلَ منه ، ولَنْ تَعرِفَ العَرَبُ هـٰذا الأمْرَ إلاَّ لهـٰذا الحَيِّ من قُرَيش ، هم أوْسَطُ العَرَبِ نَسَباً وداراً ، وقد رَضيتُ لكم أحدَ هـٰذين الرَّجُلَين ، فبايعوا أيَّهما شئتُم ، وأخذَ بيَدي ويَدِ أبي عُبَيْدَة بنِ الجَرَّاح ، قالَ : فما كَرِهْتُ شَيئاً ممَّا قالَه غَيرَها ، وكان والله أنْ أقدَّمَ فتُضرَبَ عُنُقي لا يُقَرِّبُني ذلك إلىٰ إثمٍ أحَبُّ إليَّ من أنْ أتأمَّرَ علىٰ قَومٍ فيهم أبو بَكر إلاَّ أنْ تَتغيَّرَ نَفسي عندَ الْموتِ ، فقالَ رَجلٌ من الأنْصارِ[1] : أنا جُذَيْلُها الْمُحَكَّكُ[2] وعُذَيْقُها الْمُرَجَّبُ[3] ، منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ مَعْشرَ الْمُهاجرينَ ، قالَ : وكَثُرَ اللَّغطُ وارْتَفعَت الأصْواتُ حتىٰ خَشيتُ الاختِلافَ ، فقُلنا : ابْسُطْ يَدَكَ يا أبا بَكر ، فبَسَطَ يَدَه فبايَعتُه ، وبايَعَه الْمُهاجِرونَ ، وبايَعَه الأنْصارُ ، ونَزوا[4] علىٰ سَعْدِ بنِ عُبادَة ، فقالَ قائلٌ : قَتلتُم سَعْداً فقُلتُ : قَتلَ اللهُ سَعْداً ، قالَ عُمَرُ : فوالله ما وَجَدنا فيما حَضَرْنا أمْراً أوْفَقَ من مُبايَعَةِ أبي بَكر ، خَشينا إنْ نَحنُ فرَقْنا القَومَ ولمْ تَكُنْ بَيعَةٌ أنْ يُحْدِثوا بَعدَنا بَيعَةً ، فإمَّا بايَعْناهُم علىٰ ما لا نَرْضَىٰ ، وإمَّا خالَفناهم فيَكونُ فَسادٌ .

وعن زِرٍّ ، عن عبدِ الله قالَ : لَمَّا قُبضَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قالت الأنْصارُ : مِنَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ فأتاهُم عُمَرُ فقالَ : يا مَعْشرَ الأنْصارِ ، ألَسْتُم تَعْلَمونَ أنَّ أبا بَكر قد أمرَه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَؤمَّ النَّاسَ ؟ قالوا : بَلَىٰ ، قال : فأيُّكم تَطيبُ نَفسُه أنْ يَتقدَّمَ أبا بَكر ؟ ـ قُلتُ : يَعْني في الصَّلاة ـ فقالَت الأنْصارُ : نَعوذُ بالله أنْ نَتقدَّمَ أبا بَكر .

---

(١) هو الحُبابُ بنُ الْمُنذِر الأنْصاريّ .

(٢) الجُذَيل : تصغير جذل ، وهو عود يكون في وسط مبرك الإبل تحتك به وتستريح إليه فيضرب به المثل في الرجل يُشْتَفىٰ برأيه .

(٣) العُذَيق : تصغير عذق ، وهو النخلة نفسها ، والمرجب : الذي تبنىٰ إلىٰ جانبه دعامة ترفده لكثرة حمله ولعزِّه علىٰ أهله ، فضُربَ به المثل في الرجل الشريف الذي يعظِّمُه قومُه .

(٤) نزوا : وثبوا عليه ووطئوه .

عن ابنِ سيرينَ ، قالَ أبو بَكر لعُمَرَ : ابْسُطْ يَدَكَ نُبايع لك ، فقالَ عُمَرُ : أنْتَ أفْضَلُ مِنِّي ، فقالَ أبو بَكر : أنْتَ أقْوَىٰ مِنِّي ، قالَ : إنَّ قُوَّتي لك مع فَضْلِك .

عن أنَس أنَّه سَمعَ خُطبَةَ عُمَرَ الآخِرَة قال : حينَ جَلسَ أبو بَكر علىٰ مِنْبَرِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم غداً من مُتَوَفَّىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فتَشهَّدَ عُمَرُ ، ثم قالَ : أمَّا بَعدُ ، فإنِّي قُلتُ لكم مَقالَةً ، وإنَّها لَمْ تَكنْ كما قُلتُ ، وما وَجَدتُ الْمَقالَةَ التي قُلتُ لكم في كِتابِ الله ولا في عَهْد رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنْ رَجوْتُ أنَّه يَعيشُ حتىٰ يَدبُرَنا ـ يَقولُ حتىٰ يَكونَ رَسُولُ الله آخِرَنا ـ فاخْتارَ الله لرَسُولِه ما عنده على الذي عندَكم ، فإنْ يَكُنْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قد ماتَ ، فإنَّ اللهَ قد جعلَ بينَ أظْهُركم كتابَه الذي هَدىٰ به مُحمَّداً ، فاعْتَصِموا به تَهْتَدوا بما هُديَ به مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، ثم ذَكرَ أبا بَكر صاحِبَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وثانيَ اثْنَين ، وأنَّه أحَقُّ النَّاسِ بأمْرِهم ، فقُوموا فبايعوه ، وكان طائفَةٌ منهم قد بايَعوه قبلَ ذلكَ في سَقيفَةِ بَني ساعِدَة ، وكانَت البَيْعَةُ على الْمِنْبَرِ بَيْعَةَ العامَّة .

وقد قيلَ : إنَّ عَليَّاً رضي الله عنه تَمادَىٰ عن الْمُبايَعة مدَّة ، فقالَ عُرْوَة : عن عائشةَ قالت : لَمَّا تُوفِّيَت فاطمَةُ بعدَ أبيها بستَّة أشْهُر اجْتمَعَ إلىٰ عليٍّ أهلُ بيتِه ، فبَعَثوا إلىٰ أبي بَكر : ائْتِنا ، فقالَ عُمَرُ : لا واللهِ لا تَأتيهم ، فقالَ أبو بَكر : والله لآتِيَنَّهم ، وما تَخافُ عليَّ منهم! فجاءَهم حتَّىٰ دَخلَ عَليهم فحَمِدَ اللهَ ثم قالَ : إنِّي قد عَرَفتُ رَأيَكم ، قد وَجَدتُم علىٰ أنْفُسِكُم من هٰذه الصَّدَقات التي ولّيتُ عليكم ، ووَالله ما صَنعتُ ذلك إلاَّ أنِّي لَمْ أكن أريدُ أن أكِلَ شيئا من أمْرِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم كُنتُ أرَىٰ أثَرَه فيه وعَمَلَه إلىٰ غَيري حتَّىٰ أسلُكَ به سَبيلَه وأُنْفِذُهُ فيما جَعلَه الله ، ووالله لأَنْ أصِلَكم أحَبُّ إليَّ من أنْ أصِلَ أهْلَ قَرابَتي لِقَرابَتِكم من رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ولعَظيمِ حَقِّه ثم تَشَهَّدَ عَليٌّ وقالَ : يا أبا بَكر والله ما نَفَسْنا[1] عَليكَ خَيْراً جَعلَه الله لك أنْ لا تَكونَ به أهْلاً لِمَا أُسْندَ إليكَ ، ولكنَّا كُنَّا مِنْ الأمْرِ حَيثُ قد عَلمتَ

---

(١) قالَ صاحبُ النُزهَة : معناه حَسَدنا وضَنَنا «القاموس المحيط» .

فتَفُوتَ به عَلينا ، فوَجَدْنا في أنفُسنا ، وقد رَأيتُ أنْ أُبايعَ وأدْخُلَ فيما دَخَلَ فيه النَّاسُ ، وإذا كانت العَشيَّةُ فَصَلِّ بالنَّاسِ الظُهْرَ ، واجْلِسْ على الْمِنْبَر حتَّىٰ آتيكَ فأُبايعُك ، فلَمَّا صَلَّىٰ أبو بَكر الظُّهْرَ رَكبَ الْمِنْبَرَ فحَمدَ اللهَ وأثْنَىٰ عَليه ، وذَكرَ الذي كانَ من أمْرِ عليٍّ ، وما دَخلَ فيه من أمْرِ الجَماعَة والبَيْعَة ، وها هو ذا فاسْمَعوا منه ، فقامَ عليٌّ فحَمدَ اللهَ وأثْنَىٰ عليه ، ثم ذَكرَ أبا بَكر وفضْلَه وسِنَّه ، وأنَّه أهْلٌ لِمَا ساقَ اللهُ إليه من الخَيْرِ ، ثم قامَ إلىٰ أبي بَكر فبايَعَه .

أخْرَجْه البُخاريُّ من حَديثِ عَقيل عن الزُّهْريِّ ، عن عُرْوَة ، عن عائشَةَ ، وفيه : وكانَ لعَليٍّ من النَّاسِ وَجْهٌ حَياةَ فاطمَة ، فلَمَّا تُوفِّيَت اسْتَنْكَرَ عَليٌّ وُجوهَ النَّاسِ ، فالْتَمَسَ مُصالَحَةَ أبي بَكر ومُبايَعَتَه[1] ،[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه : فلَمَّا فُرِغَ من دَفْنِه ورَجَعوا اجْتَمعَ هـٰؤلاء الرَّهْطُ ، فقالَ عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ عَوْف : اجْعَلوا أمْرَكُم إلىٰ ثَلاثَة منكم ، فقالَ الزُّبَيْرُ : قَد جَعَلتُ أمْري إلىٰ عَليٍّ ، وقالَ سَعدُ : قَدْ جَعَلتُ أمْري إلىٰ عَبدِ الرَّحْمَـٰن ، وقالَ طَلحَةُ : قَد جَعلتُ أمْري إلىٰ عُثْمانَ ، قالَ : فخَلا هـٰؤلاء الثَّلاثَة فقالَ عبدُ الرَّحْمَـٰن : أنا لا أُريدُها فأيُّكما تَبرَّأ من هـٰذا الأمْرِ ونَجْعَله إليه واللهُ عليه والإسْلامُ لَيَنْظُرنَّ أفْضَلَهم في نَفسِه وليَحْرِصَنَّ علىٰ صَلاحِ الأُمَّة ، قالَ : فسَكتَ الشَّيْخان عَليٌّ وعُثْمانُ ، فقالَ عبدُ الرَّحْمَـٰن : اجْعَلاه إليَّ ، واللهِ لا آلو علىٰ أفْضَلِكم ، قالا : نَعَم ، فخَلا بعَليٍّ وقالَ لك من القِدَم في الإسْلام والقَرابَة ما قد عَلمْتُ ، والله عليكَ لَئن أمَّرْتُك لتَعْدِلَنَّ ، ولَئنْ أمَّرتُ عليكَ لَتَسْمَعَنَّ ولَتُطيعَنَّ قالَ : ثم خَلا بالآخَرِ فقالَ له كذلك ، فلَمَّا أخذَ ميثاقَهُما بايَعَ عُثْمانَ وبايَعَه عَليٌّ[3] .

---

(١) قال الحافظُ بنُ كثير في «البداية والنهاية» (٥/ ٢٨٦) : فهـٰذه البيعة التي وقعت من عليٍّ لأبي بَكر ، بعد وَفاة فاطمة ، بَيعة مؤكِّدة للصُّلح الذي وقع بينهما ، وهو ثانية للبَيعَة التي ذكرناها أولاً يومَ السَقيفَة ، كما رواه ابنُ خُزَيمَة ، وصحَّحه مسلم ، ولمْ يَكنْ عَليٌّ مُجانباً لأبي بَكر هـٰذه الستَّة الأشهُر ، بلْ كان يُصلِّي وراءَه ويَحضُرُ عندَه للمَشورَة ، ورَكبَ معه إلىٰ ذي القصَّة .

(٢) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٢٩/ بيعة أبي بكر .

(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥ .

وقالَ سالمُ بنُ عبد الله ، عن أبيه قالَ : دَخلَ علىٰ عُمَرَ عُثمانُ ، وعَليٌّ ، والزُّبَيرُ ، وابنُ عَوْف ، وسَعْدٌ ـ وكان طَلْحَةُ غائباً ـ فنَظَرَ إليهم ثم قالَ : إنِّي قد نَظرتُ لكم في أمْرِ النَّاسِ فلمْ أجدْ عند النَّاسِ شِقاقاً إلاَّ أنْ يَكونَ فيكم ، ثم قالَ : إنَّ قَومَكم إمَّا يُؤمِّروا أحدَكم أيُّها الثلاثَة ، فإن كُنتَ علىٰ شيء من أمر النَّاس يا عُثمانُ فلا تَحْمِلَنَّ بَني مُعَيْط علىٰ رِقابِ النَّاسِ ، وإنْ كُنْتَ علىٰ شيء من أمرِ النَّاس يا عَليُّ فلا تَحْمِلَنَّ أقَارِبَك علىٰ رِقابِ النَّاسِ قوموا فتَشاوَروا وأمِّروا أحَدَكم ، فقاموا يَتَشاوَرون[1] .

قالَ ابنُ عُمَر : فدَعاني عُثْمانُ مرَّةً أو مرَّتَين ليُدخِلَني في الأمْر ، ولم يُسمِّني عُمَرُ ، ولا والله ما أُحبُّ أنِّي كُنتُ معهم علماً منه بأنَّه سَيكونُ مِنْ أمْرِهِم ما قَالَ أبي ، والله لقَلَّما سَمعتُه حَوَّلَ شَفَتيه بشَيءٍ قَطُّ إلاَّ كان حقّاً ، فلمَّا أكْثرَ عُثمانُ دُعائي قُلتُ : ألا تَعْقِلونَ! تُؤمِّرونَ وأميرُ المؤمنين حَيٌّ! فوالله لكأنَّما أيقَظتُهم ، فقالَ عُمَرُ : أمْهِلوا فإنْ حَدَثَ بي حَدثٌ فليُصَلِّ للنَّاسِ صُهَيبٌ ثلاثاً ثم اجْمَعوا في اليَومِ الثَّالثِ أشْرافَ النَّاس وأُمَراءَ الأجْنادِ فأمِّروا أحَدَكم ، فمَنْ تَأمَّرَ من غَيرِ مَشورَةٍ فاضْرِبوا عُنُقَه[2] .

١٣ـ مِنْ وَاجِبات الأمير والمسْؤُول :

(أ) الاسْتعانَة بالعُلَماء والصَّالحين :

وقالَ ابنُ سَعد : أخبَرَنا مُحمدُ بنُ عُمَرَ ، حدَّثنا ابنُ أبي الزِّناد ، عن أبيه ، قال : لَمَّا قَدِمَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ المَدينَةَ وَالياً ، فصلَّى الظُّهْرَ دَعا بعَشْرَة : عُرْوَةَ ، وعُبَيدَ الله ، وسُلَيمانَ بنَ يَسار ، والقاسِم ، وسالِماً ، وخارِجَة ، وأبا بَكْر بنَ عبدِ الرحمَـٰن ، وأبا بَكْر بنَ سُليمان ابنَ أبي حثمَة ، وعبدَ الله بنَ عامِر بن رَبيعَة ، فحَمِدَ اللهَ وأثْنَىٰ عليه ، ثم قالَ : إنِّي دَعَوْتُكم لأمْرٍ تُؤجَرُون فيه ، ونَكونَ فيه أعْواناً على الحَقِّ ، ما أُريدُ أنْ أقْطَعَ أمْراً إلاَّ برأيكم ، أو برأي مَنْ حَضرَ منكم ، فإنْ رأيتم

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٦ .

(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٥٦ .

أحَداً يَتعدَّىٰ ، أو بَلغَكم عن عامِلٍ ظُلامَة ، فأُحَرِّجُ بالله علىٰ مَنْ بَلغَه ذلك إلاَّ أبْلغَني فجَزَوْهُ خيراً ، وافْتَرَقوا[1] .

قالَ سَعيدُ بنُ عبدِ العَزيز : وَلِيَ سُليمانُ ، فقالَ لِعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز : يا أبا حَفْص! إنَّا وَلينا ما قد تَرَىٰ ، ولَمْ يَكُن لنا بتَدبيرِه عِلمٌ ، فما رَأيتَ من مَصْلَحَةِ العامَّة ، فمُرْ به ، فكانَ من ذلك عَزْلُ عُمَّالِ الحَجَّاجِ ، وأُقيمَت الصَّلواتُ في أوْقاتِها بعدما كانت أُميتَت عن وَقْتِها ، مع أُمورٍ جَليلَةٍ كانَ يَسْمَعُ من عُمَرَ فيها ، فقيلَ : إنَّ سُليمانَ حَجَّ ، فرأى الخَلائقَ بالْمَوْقِفِ ، فقالَ لِعُمرَ : أما تَرَىٰ هـٰذا الخَلقَ الذي لا يُحْصي عَددَهم إلاَّ اللهُ ؟ قالَ : هَؤلاء اليومَ رَعيَّتُك ، وهُم غَداً خُصَماؤك ، فبَكىَ بُكاءً شَديداً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ عُمرُ له وَزيرَ صِدْقٍ ، ومَرِضَ بدابِق أُسْبُوعاً ، وتُوفِّيَ ، وكان ابنُه داودُ غائباً في غَزْوَة القُسْطَنْطينيَّة[2] .

وجاء في ترجَمَةِ أبي عَمرٍو الخَفَّاف ، قال الحاكِمُ : سَمعتُ محمّدَ ابنَ المُؤَمَّل بنَ الحَسَن الماسَرْجسيَّ ، سَمعتُ أبا عَمرٍو الخَفَّاف يقولُ : كان عَمروُ بنُ اللَّيْثِ الصَّفَّار ـ يَعْني السُّلطانَ ـ يَقولُ لي : يا عَمُّ! مَتَىٰ عَلِمْتَ شَيئاً لا يُوافِقُكَ فاضْرِبْ رَقَبَتي ، إلىٰ أنْ أرْجِعَ إلىٰ هَواكَ[3] .

قال الإمام الذهبي : كذا فليَكُنِ السُّلطانُ مع الشَّيخِ ، وقد كان عَمرُو بنُ اللَّيث صانعاً في الصُّفر فتَنقَّلت به الأحْوالُ إلىٰ أنْ تَملَّك خُراسَان وتَملَّك بعدَه أخُوهُ يَعقوبُ ، فانْظُر في تاريخ الإسْلام تَسْمَعْ العَجَبَ من سيرتِهما .

وكان الرئيسُ أبو عَمرٍو عَظيمَ القَدْرِ ، سَيِّداً مُطاعاً ببَلَدِه ، نالَ رئاسَةَ الدِّينِ والدُّنْيا ، وكانوا يُلقِّبُونَه بزَينِ الأشْرَف .

وكانت وَفاتُه سنةَ تسْعٍ وتسْعينَ ومِئتين ، من أبْناء الثّمانين[4] .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٨٦ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٨ .
(٣) انظر السير : (أبو عَمرٍو الخَفَّاف) ١٣/ ٥٦٠ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١١١٧ .
(٤) انظر السير : (أبو عَمرٍو الخَفَّاف) ١٣/ ٥٦٠ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٧ .

(ب) عَدَمُ تَقْريب الضَّالِّين :

قالَ الخَطيبُ : اسْتَولَىٰ أحمَدُ بنُ أبي دُواد على الخَليفَةِ الوَاثِق بالله ، وحَملَه على التشَدُّد في الْمِحْنَةِ ، والدُّعاءِ إلىٰ خَلقِ القُرانِ[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمة أحمدَ بنِ حَنبلَ : ثم إنَّ المَأمونَ نَظرَ في الكَلامِ ، وناظَرَ ، وبَقيَ مُتوقِّفاً في الدُّعاء إلىٰ بِدْعَته[2] .

وقال أبو الفَرْج بنُ الجَوْزيّ : خَالَطَه قومٌ من المُعْتَزِلَة ، فحَسَّنوا له القَوْلَ بخَلْقِ القُرآن ، وكان يَتردَّدُ ويُراقِبُ الشُّيوخَ ، ثم قَويَ عَزْمُه وامْتَحنَ النَّاسَ .

وعن ابنِ عَرْعَرَة ، حدَّثني ابنُ أكْثَم ، قال : قال لنا المَأمونُ : لَولا مَكانُ يَزيدَ بنِ هارون ، لأظْهَرتُ أنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ ، فقال بعضُ جُلسائه : يا أميرَ المؤمنين ، ومَنْ يَزيدُ حتىٰ يُتَّقَى ؟ فقال : وَيْحَك!! إنِّي أخافُ إنْ أظْهَرْتُه فيَرُدَّ عليَّ يَختلفُ الناسُ ، وتَكونُ فِتنةً ، وأنا أكْرهُ الفِتنَةَ فقال الرجلُ : فأنا أخْبُرُ ذلكَ منه ، قال له : نَعَم ، فخرجَ إلىٰ وَاسِط ، فجاءَ إلىٰ يَزيدَ ، وقال : يا أبا خالد ، إنَّ أميرَ المؤمنين يُقرئُك السَّلامَ ، ويقولُ لك : إنِّي أُريدُ أنْ أُظْهِرَ خَلقَ القُرآنِ ، فقال : كَذبتَ علىٰ أميرِ المؤمنين أميرُ المؤمنين لا يَحملُ النَّاسَ علىٰ ما لا يَعْرفُونَه ، فإنْ كُنتَ صادقاً ، فاقْعُد فإذا اجْتمَعَ النَّاسُ في المَجْلسِ ، فقُلْ قال : فلمَّا كان الغَدُ ، اجتمعوا فقامَ ، فقال كمَقالَتِه ، فقال يَزيدُ : كَذبتَ علىٰ أميرِ المؤمنين ، إنَّه لا يَحملُ النَّاسَ علىٰ ما لا يَعرفُونَه ، وما لَمْ يَقُلْ به أحَدٌ قال : فقَدِمَ ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، كُنتَ أعْلمَ ، وقَصَّ عليه ، قالَ : وَيْحَك يُلْعَبُ بك!! .

قال صالحُ بنُ أحمد : سَمعتُ أبي يقولُ : لمَّا دَخَلْنا علىٰ إسْحاقَ ابنِ إبْراهيمَ للمِحْنة ، قَرأ عَلينا كتابَ الذي صار إلىٰ طَرَسُوس ، يَعْني : المَأمونَ ، فكان فيما قُرِىءَ علينا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[3] .

---

(١) انظر السير : (الوَاثِق بالله) ١٠/ ٣٠٦ـ ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٨٠ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٣ .

(٣) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1] ، فقلتُ : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[2] .

قال صالحٌ : ثم امتُحنَ القومُ ، ووُجِّهَ بمن امتنعَ إلى الحَبْس ، فأجابَ القومُ جَميعاً غَيرَ أرْبَعَة : أبي ، ومحمّد بن نُوح ، والقَواريري ، والحَسن ابن حمّاد سجَّادة ثم أجابَ هـٰذان ، وبَقيَ أبي ومحمد في الحَبْس أيّاماً ، ثم جاء كتابٌ من طَرَسوس بحَمْلِهما مُقَيَّدَين زَميلَين[3] .

(ج) إدْناء العُقَلاء والحُكماء وإنْ كانوا صِغاراً :

عن سَعيدِ بنِ جُبَير ، قالَ : كانَ ناسٌ من الْمُهاجرينَ قد وَجَدوا علىٰ عُمَرَ في إدْنائه ابنَ عَبَّاس دُونَهم قالَ : وكانَ يَسْأَلُه فقالَ عُمَرُ : أما سأُريكُم اليَومَ منه ما تَعْرِفونَ فَضلَه ، فسَألَهم عن هـٰذه السُّورَةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾[4] ، فقالَ بَعضُهم : أمَرَ اللهُ نَبيَّه إذا رَأى النَّاسَ يَدخُلونَ في دِينِ الله أفْواجاً أنْ يَحْمَدَه ويَسْتَغْفِرَه فقالَ عُمَرُ : يا ابنَ عَبَّاس تَكلَّم فقالَ : أعْلَمَه متىٰ يَموتُ ، أي : فهي آيَتُكَ من الْمَوْتِ ، فسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْه[5] .

(د) عَدَمُ تَفْضيل الأقارِب على الرَّعيَّة :

قالَ الليثُ : بدأ عُمرُ بنُ عبد العَزيز بأهْلِ بَيتَه ، فأخذَ ما بأيْديهم ، وسَمَّىٰ أمْوالَهم مَظالِمَ ، ففَزِعَت بَنو أُميَّة إلىٰ عَمَّتِه فاطِمَةَ بنتِ مَرْوان ، فأرْسَلت إليه : إنِّي قد عَناني أمْرٌ ، فأتَته ليلاً ، فأنْزلَها عن دابَّتِها ، فلمَّا أخَذَت مَجْلِسَها قالَ يا عَمَّة! أنتِ أوْلَىٰ بالكَلام ، قالَت : تَكلَّم يا أميرَ المؤمنين ، قالَ : إنَّ اللهَ بَعثَ مُحمَّداً صلى الله عليه وسلم رَحمَةً ، ولَمْ يَبْعَثْه عَذاباً ، واخْتارَ له ما عنده ، فتَركَ لهم نَهْراً ، شُرْبُهُم سَواء ، ثم قامَ أبو بَكْر فتَركَ النَّهْرَ علىٰ حالِه ، ثم عُمَرُ ، فعَمِلَ عَملَ صاحِبَه ، ثم لَمْ يَزَلْ النَّهْرُ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٣) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٣ .

(٤) سورة النصر ، الآية : ١ .

(٥) انظر السير : (عبد الله بن عبَّاس البَحْر) ٣/ ٣٣١ـ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٩٠ .

يَشتقُّ منه يَزيدُ ومَرْوانُ وعبدُ الملكِ ، والوَليدُ ، وسُليمانُ حتىٰ أفْضَى الأمْرُ إليَّ ، وقد يَبُسَ النَّهْرُ الأعْظَمُ ، ولَنْ يَرْويَ أهلَه حتىٰ يَعودَ إلىٰ ما كانَ عليه ، فقالَت : حَسْبُكَ ، فلَسْتُ بذاكِرَة لك شيئاً ، ورَجَعَت فأبْلَغتْهم كلامَه[1] .

قالَ الفريابيُّ : حَدَّثنا الأوْزاعيُّ أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ جَلسَ في بَيتِه ، وعندَه أشْرافُ بَني أُمَيَّة ، فقالَ : أتحبون أن أُوَلِّي كلَّ رجل منكم جُنداً من هـٰذه الأجْنادِ ، فقالَ له رجلٌ منهم : لِمَ تَعرِضُ علينا ما لا تَفعَلُه ؟ قالَ : تَروْنَ بساطي هـٰذا ؟ إنِّي لأعلمُ أنَّه يَصيرُ إلىٰ بلىٰ ، وإنِّي أكْرَهُ أنْ تُدنِّسوهُ عليَّ بأرجُلِكم ، فكيفَ أُوَلِّيكمُ ديني ؟ وأُوَلِّيكمُ أعْراضَ المسلمينَ وأبْشارَهم تَحكُمونَ فيهم ؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، قالوا : لِمَ ، أمَا لنا قَرابَةٌ ؟ أمَا لنا حَقٌّ ؟ قالَ : ما أنتم وأقْصَىٰ رَجلٍ من المسلمين عندي في هـٰذا الأمْرِ إلاَّ سَواءٌ ، إلاَّ رجلٌ حبَسَه عنِّي طُولُ شُقَّة[2] ،[3] .

(هـ) خِدْمَة الرَّعيَّة :

عن زَيدِ بنِ أسْلَم ، مَوْلَىٰ عُمَرَ ، عن أبيه ، قالَ ابنُ عُمَرَ : يا أبا خالِد ، إنِّي أرَىٰ أميرَ المؤمنينَ يَلزَمُكَ لُزُوماً لا يَلزَمُه أحَداً من أصْحابِك ، لا يَخرُجُ سَفَراً إلاَّ وأنْتَ مَعَه ، فأخْبِرْني عنه قالَ : لَمْ يَكُنْ أوْلَى القَومِ بالظِّلِّ ، وكانَ يُرَحِّلُ رَواحِلَنا ، ويُرَحِّلُ رَحْلَه وَحدَه ، ولقد فَرغْنا ذاتَ لَيلَة وقد رَحَّلَ رِحالَنا ، وهو يُرَحِّلُ ويَرتَجِز[4] .

(و) اخْتِبارُ البِلاد والتَّأكُدُ من عَدَم فُشُوّ المَعاصي بها :

قيلَ : إنَّ صاحِبَ الْمَغْربِ يَعقُوبَ بنَ يُوسُف بنِ عبد الْمُؤمنِ أبْطلَ الخَمرَ في مَمالِكِه ، وتَوعَّدَ عَليها فعُدمَت ، ثم قالَ لأبي جَعْفَرَ الطَّبيبَ : رَكِّبْ لنا تِرْياقاً ، فأعْوَزَهُ خَمرٌ ، فأخْبرَه بذلك ، فقال : تَلطَّفْ في تَحْصيلِه سِرّاً ، فحَرِصَ ، فعَجَزَ فقالَ

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٨٨ .

(٢) الشُّقَّة : السفر الطويل البعيد ، وفي حديث وفد عبد قيس : إنا نأتيك من شقة بعيدة ، أي مسافة بعيدة .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٩/ ٤ .

(٤) انظر السير : (أسْلم) ٤/ ٩٨ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٤٥٥/ ٢ .

الْمَلكُ : ما كانَ لي بالتِّرْياقِ حاجَةٌ ، لكنْ أرَدتُ اخْتِبارَ بِلادي .

ماتَ سنةَ خَمسٍ وتسْعينَ وخَمْسِ مئة[1] .

(ز) ضَبْطُ الأسْواق :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، قالَ قَتادَةُ : كانَ عُمَرُ يَلْبَسُ ، وهو خَليفَة ، جُبَّة من صُوف مَرْقُوعاً بَعضُها بأدَم ، ويَطوفُ في الأسْواقِ علىٰ عاتِقِه الدُّرَّة يُؤدِّبُ النَّاسَ بها ، ويَمُرُّ بالنَّكْثِ[2] والنَّوَىٰ فيَلقطُه ويُلقيه في مَنازِلِ النَّاسِ لِيَنْتَفِعُوا به[3] .

١٤ـ مِنْ حُقوق الأمِير والمَسْؤول الطَّاعَة :

(أ) ضابطُ الطَّاعَة :

عن عُمَرَ بنِ الحَكَم بنِ ثَوْبان ، أنَّ أبا سَعيد قالَ : بَعثَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم سَريَّة عليهم عَلْقَمَةُ بنُ مُجَزِّز ، وأنا فيهم ، فخَرَجْنا ، حتَّىٰ إذا كُنَّا ببَعضِ الطَّريقِ ، اسْتأذَنَه طائفَةٌ فأذِنَ لهم ، وأمَّرَ عليهم عبدَ الله بنَ حُذافَة ، وكان من أهْلِ بَدْر ، وكانت فيه دُعابَةٌ فبَيْنا نَحنُ في الطَّريقِ ، فأوْقَدَ القَومُ ناراً يَصْطَلون بها ، ويَصْنَعونَ عَليها صَنيعاً لهم ، إذ قالَ : أَلَيْسَ لي عَليكم السَّمْعُ والطَّاعَةُ ؟ قالوا بَلَىٰ قالَ : فإنِّي أعْزِمُ عَليكم بحَقِّي وطاعَتي إلاَّ تَواثَبْتُم في هٰذه النَّارِ ، فقامَ ناسٌ فتَحَجَّزوا[4] حتَّىٰ إذا ظَنَّ أنَّهم وَاقِعُونَ فيها قالَ : أمْسِكُوا ، إنَّما كُنتُ أضْحَكُ مَعَكم فلَمَّا قَدموا علىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ذَكرُوا له ذلكَ فقالَ : « مَنْ أَمَرَكمْ بِمَعْصِيَةٍ فَلا تُطِيعُوهُ »[5] .

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٢٩ .

(٢) النكث : الغزل المنقوض .

(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٨ .

(٤) أي شَدُّوا أوْساطَهم فِعْلَ مَنْ يتهيَّأ .

(٥) انظر السير : (عبد الله بن حُذافَة) ٢/ ١١ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٢١٠ .

(ب) صُورٌ من الطَّاعَة :

عن زَيْدِ بنِ وَهْب قالَ : لَمَّا بَعثَ عُثمانُ إلى ابنِ مَسْعودٍ يَأمُرُه بالْمَجيء إلى المدينة ، اجْتمَعَ إليه النَّاسُ ، فقالُوا : أقِمْ فلا تَخْرُجْ ، ونَحنُ نَمْنَعُك أنْ يَصِلَ إليكَ شَيءٌ تكرَهُه فقالَ : إنَّ له عليَّ طاعَةٌ ، وإنَّها سَتكونُ أمورٌ وفِتَنٌ لا أحِبُّ أنْ أكونَ أوَّلَ مَنْ فَتحَها فرَدَّ النَّاسَ وخَرجَ إليه[1] .

عن حُمَيدِ بنِ هِلال ، قالَ : قامَ زَيدُ بنُ صُوحانَ إلىٰ عُثْمانَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ! مِلْتَ فمَالَتْ أُمَّتُك ، اعْتَدِلْ يَعْتَدِلوا قالَ : أَسامِعٌ مُطيعٌ أنْتَ ؟ قالَ نَعَم قالَ : إلْحَقْ بالشَّامِ فطَلَّقَ امْرأتَه ، ثم لَحِقَ بحَيثُ أمَرَه[2] .

وعن الأوْزاعيِّ ، قالَ : القاسِمُ بنُ مُخَيْمِرَةَ يَقْدُمُ عَلينا ها هُنا مُتَطوِّعاً ، فإذا أرادَ أنْ يَرجِعَ ، اسْتأذَنَ الوالي ، فقيلَ له : أرَأيتَ إنْ لَمْ يَأذَنْ لك ، قالَ : إذاً أُقيمُ ، ثم قَرأ : ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾[3] ،[4] .

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي وَهْبٍ ، زَاهِدِ الأنْدَلُسِ : وقالَ فقيرٌ : قُلتُ لَيلةً لأبي وَهْبٍ : قُمْ بنا لِزيارَةِ فُلان ، قالَ : وأينَ العِلمُ ؟ وَلِيُّ الأمْرِ لَه طَاعَةٌ ، وقد مَنَعَ من الْمَشيِ لَيلاً[5] .

١٥ـ من الصِّفات اللاَّزِمَة للأمِير والمَسْؤول :

(أ) مَجْموعَة صِفات تَجدُها في الأمير :

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي ذَرِ الغِفَاريِّ رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذَرْ ـ مع قُوَّةِ أبي ذَرٍّ وشَجاعَتِه ـ : « يا أبا ذَرْ ، إنِّي أَرَاكَ ضَعِيفاً ، وَإنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ » .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن مَسْعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/١٩٦ .
(٢) انظر السير : (زَيْدُ بنُ صُوحان) ٣/ ٥٢٥ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/٤١٩ .
(٣) سورة النور ، الآية : ٦٢ .
(٤) انظر السير : (القاسِمُ بن مُخَيْمِرَة) ٥/ ٢٠١ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٥/٥٩٥ .
(٥) انظر السير : (أبو وَهْب) ١٥/ ٥٠٦ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٤ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : فهـٰذا مَحْمولٌ علىٰ ضَعْفِ الرأي ، فإنَّه لَوْ وَلِيَ مَالَ يَتيمٍ ، لأنْفَقَه كُلَّه في سَبيلِ الخَيرِ ، ولَتَرَكَ اليَتيمَ فَقيراً فقد كانَ لا يَستَجيزُ ادِّخارَ النَّقْدَين والذي يَتأمَّرُ على النَّاسِ ، يُريدُ أنْ يَكونَ فيه حِلمٌ ومُدارَاةٌ ، وأبو ذَرْ رضي الله عنه كانت فيه حِدَّة ـ كما ذَكَرْناه ـ فنَصَحَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم[1] .

وعن الأعْمَشِ ، قالَ أبو وَائل ـ شَقيقُ بنُ سَلَمَة ـ : يا سُلَيْمانُ ما في أُمَرائِنا هَؤلاء وَاحِدَة من اثْنَتَين : ما فيهم تَقْوَىٰ أهْلِ الإسْلامِ ولا عُقُولُ أهْلِ الجَاهِلِيَّة[2] .

وقالَ الإمامُ الشَّافِعيُّ : آلاتُ الرِّياسَةِ خَمسٌ : صِدْقُ اللَّهْجَةِ ، وكِتْمَانُ السِّرِّ والوَفاءُ بالعَهْدِ ، وابْتِداءُ النَّصيحَةِ ، وأدَاءُ الأمانَةِ .

وقد صَنَّفَ الحافِظُ أبو بَكر كِتاباً في ثُبوتِ الاحْتِجاجِ بالإمامِ الشَّافِعيِّ[3] .

(ب) الضَّبْط والحَزْم :

جاءَ في تَرجَمَةِ الْمُعْتَضِدِ بالله العَبَّاسيِّ ، قال أبو عليٍ الْمُحْسن التَّنُوخيُّ : بَلَغَني عن الْمُعْتَضِدِ أنه كان جالساً في بَيتٍ يُبنَىٰ له فرأىٰ فيهم أسْوَدَ مُنْكَرُ الخِلقَة يَصْعَدُ السَّلالِمَ دَرجَتينِ دَرَجَتينِ ، ويَحمِلُ ضِعْفَ ما يَحْملُه غَيرُه ، فأنْكرَ ذلك ، وطلَبَه ، وسَأَلَه عن سَببِ ذلك ، فتَلَجْلَجَ فكلَّمَه ابنُ حَمْدونَ فيه ، وقالَ : مَنْ هـٰذا حتىٰ صَرَفْتَ فِكْرَكَ إليه ؟ قالَ : قد وَقَعَ في خَلَدي أمْرٌ ما أحْسَبُه باطِلاً ، ثم أمَرَ به ، فضُربَ مئةً ، وتَهدَّدَه بالقَتلِ ودَعَا بالنَّطَعِ[4] والسَّيْفِ ، فقالَ : الأمانَ ، أنا أعْمَلُ في أتونِ الآجُرِّ ، فدَخلَ من شُهورٍ رَجلٌ في وَسَطِه هِمْيَانٌ[5] ، فأخْرَجَ دَنانيرَ فوَثبتُ عليه ، وسَدَدتُ فاه ، وكَتَّفْتُه وألْقَيتُه في الأتُونِ ، والذَّهَبُ مَعي يَقْوَىٰ به قَلبي ، فاسْتَحْضَرَها ، فإذا عَلى الهِمْيانِ

---

(١) انظر السير : (أبو ذَرْ) ٢/ ٤٦ـ٧٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٢١ .

(٢) انظر السير : (شَقيقُ بنُ سَلمَة) ٤/ ١٦١ـ١٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٦٩ .

(٣) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٤٩ .

(٤) النَّطَع : بفَتح النُّونِ وكَسْرِها ، وفَتْح الطَّاءِ وكَسْرِها وسُكونِها : بساطٌ من جلد ، كثيراً ما كان يُقتَلُ فوقه المحكوم عليه بالقَتل .

(٥) الهِمْيان : كيسٌ للنَّفَقَة يُشدُّ في الوَسَط .

اسْمُ صاحِبِه ، فنُودِيَ في البَلدِ ، فجاءَت امْرأةٌ ، فقالَت : هو زَوْجي ولِيَ منه طِفلٌ ، فسَلَّمَ الذَّهبَ إليها ، وقَتلَه[1] .

وقالَ أبو عَليٍّ الْمُحْسن التَّنُوخيُّ : وبَلغَني عنه أيضاً أنَّ خادِماً أتاه فأخْبَرَه أنَّ صيَّادا أخْرَجَ شَبكتَه ، فثَقُلت ، فجَذَبها ، فإذا فيها جِرابٌ ، فظَنَّه مالاً ، فإذا فيه آجُرٌّ بينَه كَفٌّ مَخضُوبَة ، فهَالَ ذاكَ الْمُعْتَضِدَ وأمَرَ الصَّيَّادَ ، فعاوَدَ الشَّبَكَة ، فخَرجَ جِرابٌ آخَرُ فيه رِجْلٌ ، فقالَ : مَعي في بَلدِي مَنْ يَفعَلُ هٰذا ؟ ما هٰذا بمُلكِ! فلَمْ يُفطِرْ يومَه ، ثم أحْضَرَ ثقةً له ، وأعْطاهُ الجِرابَ ، وقالَ : طُفْ به علىٰ مَنْ يَعمَلُ الجُرُبَ : لِمَنْ باعَه ؟ فغَابَ الرجلُ ، وجاءَ وقد عَرفَ بائِعَه ، وأنَّه اشْتَرَىٰ منه عَطَّارٌ جِراباً ، فذَهبَ إليه ، فقالَ : نَعَم ، اشْتَرىٰ مني فُلانٌ الهاشِميُّ عَشرَةَ جُرُبٍ ، وهو ظالِمٌ إلىٰ أنْ قالَ : يَكفيكَ أنَّه كان يَعْشَقُ مُغَنِّيَةً ، فاكْتَراها من مَوْلاها ، وادَّعَىٰ أنَّها هَرَبَت! فلَمَّا سَمِعَ الْمُعْتَضِدُ ذلك سَجدَ ، وأحْضَرَ الهاشِميَّ ، فأخْرَجَ له اليَدَ والرِّجْلَ ، فاصْفَرَّ واعْتَرفَ ، فدَفَعَ إلىٰ صاحِبِ الجاريَةِ ثمَنها ، وسَجنَ الهاشِميَّ ، فيُقالُ : قَتلَه[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمةِ : صاحبِ المَغْرب : أبو إسْحاقَ إبرهيمُ ابنُ أحمد بنُ الأغْلب التَّميميُّ الأغْلبيُّ القَيْروَانيُّ ، ابنُ أُمَراء القَيْروَان .

وَليَ سَنةَ إحْدَىٰ وستِّين ومئتَين[3] .

وكان مَلكاً حازِماً صارِماً مَهيباً ، كانت التجَّارُ تَسيرُ في الأمْنِ من مِصْرَ إلىٰ سَبْتة ، لا تُعارَض ، ولا تُرَوَّع .

ابْتَنى الحُصونَ والمَحارسَ ، بحيثُ كانت تُوقَدُ النَّارُ ، فتَتَّصلُ في ليلة إذا حَدثَ أمرٌ من سَبْتَة إلى الإسْكَنْدَريَّة ، بحيثُ إنَّه يُقالُ : قد أنْشىءَ في البلاد من بنائِه وبناءِ آبائِه ثَلاثُونَ ألفَ مَعْقِل ، وهو الذي مَصَّرَ مَدينَةَ سُوسَة[4] .

وقد دُوِّنَت أيَّامُه وعَدلُه وجُودُه ، وكان سَديدَ السِّيرَة ، شَهْماً ، ظَفرَ بامْرأةٍ مُتعَبِّدَةٍ

---

(١) انظر السير : (الْمُعْتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٠٣ .

(٢) انظر السير : (الْمُعْتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١/١١٠٤ .

(٣) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٠ .

(٤) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١١٠ .

قادَتْ قودَة ، فدَفَنَها حيَّةً ، وشَنقَ سَبعةَ أجْنادٍ أخَذوا لتاجر ثَلاثةَ آلاف دينار ، بعدَ أنْ قرَّرَهم ، وأخَذَ الذَّهبَ لمْ يَنقُصْ سِوَىٰ سَبعَةَ دَنانير ، فوَزَنَها من عنده[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ صاحِبِ حِمْصَ ، الْمَلكِ المجاهِدِ أسَدِ الدِّين أبي الحارِثِ شِيركُوه : وكان بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، وكانت بلادُه نَظيفَةً من الخُمورِ ، ومَنعَ النِّساءَ من الخُروجِ من أبْوابِ حِمْصَ جُملةً ، ودامَ ذلك خَوفاً من أن يَنزِحَ بهنَّ رجالُهن لعَسْفِه ، وكان يُديمُ الصَّلَواتِ ، ولا يُحبُّ لهواً ، وكان ذا رَأيٍ ودَهاءٍ ، وشَكْلٍ مَليحٍ وجَلالَةٍ ، كانت الْمُلوكُ تُداريه ويَخافونَه[2] .

(ج) التَّضَرُّع إلى الله والالتِجاء إليه حَالَ الأزَمات :

جاءَ في تَرجَمَةِ الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمَهْدي بنِ أبي جَعْفَر الْمَنْصورِ ، قالَ ابنُ رَشيد : هاجَت ريحٌ سَوْداءُ فسَمعتُ سَلَماً الحاجِبَ يَقولُ : فُجِعْنا أن تكون القيامة ، فطلبتُ الْمَهْديَّ في الإيوانِ ، فلَمْ أجِدْهُ فإذا هو في بيتٍ ساجِدٌ على التُّرابِ يَقولُ : اللَّهُمَّ : لا تُشْمِتْ بنا أعْداءَنا من الأُمَمِ ولا تُفْجِعْ بنا نَبيَّنا ، اللَّهُمَّ إنْ كُنتَ أخَذْتَ العامَّةَ بذَنبي ، فهٰذه ناصِيَتي بيَدِك فما أتَمَّ كَلامَه حتى انْجَلَتْ .

وقيلَ : كان كَثيرَ التَّولية والعَزْلِ بغَيرِ كبير سَبب ، ويُباشِرُ الأُمورَ بنفسِه ، وأطْلَقَ خَلْقاً من السُّجُونِ ، وزادَ في الْمَسْجِدِ الحَرامِ وزَخْرَفَه[3] .

(د) عَدَمُ التَّغيُّر بالإمَارَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي مُوسَى الأشْعَريِّ : قد كان أبو مُوسَىٰ صَوَّاماً قَوَّاماً رَبَّانياً زاهداً عابداً ، ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر ، لَمْ تُغَيِّرْه الإمارَةُ ، ولا اغتر بالدنيا .

تُوفِّيَ سَنةَ اثْنَتين وأرْبَعينَ[4] .

---

(١) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١١٠ .
(٢) انظر السير : (صاحب حِمْص) ٢٣/ ٣٩ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧١٣ .
(٣) انظر السير : (الْمَهْدي) ٧/ ٤٠٠ـ ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧١١ .
(٤) انظر السير : (أبو مُوسَى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢٨١ .

(هـ) قَبولُ العِظَة والنَّصيحَة :

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي مُسْلِمٍ الخَولانيِّ ، عن عَطيّةَ بنِ قَيْس ، قال دَخلَ أبو مُسلم الخَولاني علىٰ مُعاويَةَ ، فقامَ بين السِّماطَين فقال : السَّلامُ عليكَ أيُّها الأَجيرُ فقالوا : مَهْ قالَ : دَعُوه، فهو أعْرَفُ بما يَقولُ وَعَليكَ السَّلامُ يا أبا مُسْلم ثم وَعَظَه، وحَضَّه على العَدْل.

قال المُفضَّلُ بنُ غَسَّان الغَلابي : إنَّ علقَمة وأبا مُسلم ماتا في سنة اثنين وستِّين فاللهُ أعلمُ .

وبدرايَّا قَبرٌ يُزارُ ، يُقالُ : إنَّه قَبرُ أبي مُسلم الخَولاني ، وذلك مُحْتمَل[1] .

(و) الرُّجُوعُ إلى الحَقِّ :

جاءَ في تَرجَمَةِ الْمَأمونِ العَبَّاسيِّ ، قالَ الإمامُ الذهَبيُّ ، وقيلَ : إن المأمونَ لِتَشَيُّعِه أمَرَ بالنِّداءِ بإباحَةِ الْمُتعَة ـ مُتْعَةِ النِّسَاءِ ـ فدَخلَ عَليه يَحْيَىٰ بنُ أكْثَم ، فذَكرَ له حَديثَ علي رضي الله عنه بتَحْريمِها ، فلَمَّا عَلمَ بصِحَّة الحَديث ، رَجعَ إلى الحَقِّ ، وأمَرَ بالنِّداءِ بتَحْريمِها .

أمَّا مَسألَةُ القُرآن ، فمَا رَجعَ عَنها ، وصَمَّمَ على امْتِحانِ العُلماء في سَنةِ ثَمانِيَ عَشرَة ومئتَين ، وشَدَّدَ عليهم ، فأخَذَه الله[2] .

(ز) عَدَمُ العُقُوبَة حَالَ الغَضَب :

قالَ الأحْنَفُ بنُ قَيْس : لا يَنْبَغي للأميرِ الغَضَب ، لأنَّ الغَضَبَ في القُدْرَة لِقاحُ السَّيفِ والنَّدامَة[3] .

وقالَ الأوْزاعيُّ : كانَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إذا أرادَ أنْ يُعاقِبَ رَجُلاً حَبسَه ثلاثاً ، ثم عاقَبَه كَراهيَةَ أنْ يَعْجَلَ في أوَّلِ غَضَبِه[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو مُسْلم الخَوْلاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٣٢ .
(٢) انظر السير : (الْمَأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٧٧ .
(٣) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٥٣ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٩٠ .

(ح) الزُّهْد :

عن مَسْلَمَةَ بنِ عبدِ المَلِك قالَ : دَخلتُ علىٰ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيزِ وقَميصُه وَسخٌ ، فقُلتُ لامْرأتِه ـ وهي أخْتُ مَسْلَمَة : اغْسِلوهُ قالت : نَفعَلُ ، ثم عُدتُ فإذا القَميصُ علىٰ حالِه ، فقُلتُ لها ، فقالت : واللهِ ما لَه قَميصٌ غَيرُه[1] .

عن عَوْنِ بنِ الْمُعْتَمِر أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ قالَ لامرأتِه : عندَكِ دِرْهَمٌ أشْتَري به عِنباً ؟ قالَت : لا ، قالَ : فعِندَكِ فُلوسٌ ؟ قالَت كلاَّ ، أنتَ أميرُ المؤمنينَ ولا تَقدِرُ علىٰ دِرْهَم ، قالَ : هـٰذا أهْوَنُ من مُعالَجَة الأغْلالِ في جَهَنَّم[2] .

(ط) مُشَارَكَةُ الرَّعِيَّة في الشَّدائدِ والمَصائب :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، قالَ عِكرِمَةُ بنُ خالِد : وأصَابَ النَّاسَ سَنَةٌ[3] فما أكَلَ عُمَرُ عامَئذٍ سَمْناً ولا سَميناً[4] .

وقالَ أنَسٌ : تَقَرْقَرَ بَطنُ عُمَرَ من أكْلِ الزَّيتِ عامَ الرَّمادَة ، كانَ قد حَرَمَ نَفسَه السَّمْنَ ، قالَ : فنَقَرَ بَطْنَه بإصْبُعِه وقالَ : إنَّه ليسَ لكِ عندَنا غَيرُه حتىٰ يَحْيا النَّاسُ[5] .

وعن أسْلَمَ قالَ : لَوْ لَمْ يَرْفَعْ اللهُ الْمَحْلَ عامَ الرَّمادَةِ لَظَنَنَّا أنَّ عُمَرَ يَموتُ[6] ،[7] .

١٦ـ الأمِيرُ العَادِلُ بَرَكة :

عن عُمرَ بنِ أُسَيد ، قالَ : والله ، ما ماتَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز حتىٰ جَعلَ الرَّجلُ يَأتينا بالمالِ العَظيم ، فيَقولُ : اجْعلوا هـٰذا حَيثُ تَرَونَ ، فما يَبْرَحُ حتىٰ يَرجعَ بمالِه كلِّه ، قد أغْنَىٰ عُمرُ النَّاسَ[8] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٩٠ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٥٩٠ .
(٣) السَّنَة : المجاعة .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٤٨ .
(٥) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٥١ .
(٦) زاد ابنُ سَعْد في طَبقاتِه (٣/ ٣١٥) : « هَمَّاً بأمر المسلمين » .
(٧) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٥٢ .
(٨) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٨٩ .

١٧ـ هَيْبَةُ الحَاكم من قَواعِد اسْتِقْرار الدُّوَل :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، عن ابنِ عَبَّاس ، قالَ : لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ قيلَ له : لَقد كادَ بَعْضُ النَّاسِ أنْ يَحيدَ هـٰذا الأمْرَ عَنْكَ ، قالَ : وما ذاكَ ؟ قالَ : يَزْعُمُونَ أنَّكَ فَظٌّ غَليظٌ ، قالَ : الحَمْدُ للهِ الذي مَلأَ قَلْبي لهم رُحْماً ومَلأَ قُلوبَهُم لي رُعْباً[١] .

١٨ـ قَوْلٌ بَليغٌ في الإمَارَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي الفَرَجِ ابنِ الجَوْزيِّ : ومِنْ غُرَرِ ألْفاظِه : يا أميرُ! اذْكرْ عندَ القُدْرَةِ عَدْلَ اللهِ فيكَ ، وعندَ العُقُوبَةِ قُدْرَةَ اللهِ عَليكَ ، ولا تَشْفِ غَيْظَكَ بسِقَمِ دينِك[٢] .

١٩ـ قد تُكرَه الإمَارَة لأشْخاصٍ بعَينِهم :

قالَ أبَيُّ بنُ كعْب لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ : مَا لَكَ لا تَسْتَعْمِلُني ؟ قالَ : أكرَهُ أنْ يُدَنَّسَ دينُك[٣] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذَرْ الغِفاريِّ ـ مع قُوَّةِ أبي ذَرٍّ وشَجاعَتِه ـ : « يا أبا ذَرْ ، إنِّي أَرَاكَ ضَعِيفاً ، وَإنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ » .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : فهـٰذا مَحْمولٌ علىٰ ضَعْفِ الرأي ، فإنَّه لَوْ وَلِيَ مَالَ يَتيمٍ ، لأنْفَقَه كُلَّه في سَبيلِ الخَيرِ ، ولَتَرَكَ اليَتيمَ فَقيراً فقد كانَ لا يَستَجيزُ ادِّخارَ النَّقْدَين والذي يَتأمَّرُ على النَّاسِ ، يُريدُ أنْ يَكونَ فيه حِلمٌ ومُدارَاةٌ ، وأبو ذَرْ رضي الله عنه كانت فيه حِدَّة ـ كما ذَكَرْناه ـ فنَصَحَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم[٤] .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٤٧ .
(٢) انظر السير : (أبو الفَرَج ابن الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٣٣ .
(٣) انظر السير : (أبَيُّ بنُ كعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/١٨١ .
(٤) انظر السير : (أبو ذَرْ) ٢/ ٤٦ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٢١ .

٢٠ـ إقالَةُ عَثَراتِ أُولِي الهَيئات :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مُحمَّدِ بنِ عجْلانَ : وقَدْ خَرجَ على الْمَنْصُورِ مع ابنِ حَسَن ، فلَمَّا قُتلَ ابنُ حَسَن ، هَمَّ وَالي المَدينَة جَعْفَرُ ابنُ سُلَيْمانَ أنْ يَجْلِدَه فقالوا له : أصْلحَك اللهُ : لَوْ رَأيتَ الحَسَنَ البَصْريَّ فَعلَ مثلَ هـٰذا أكُنتَ تَضرِبُه ؟ قالَ : لا قِيلَ : فابنُ عجْلانَ في أهْلِ المَدينَةِ كالحَسَنِ في أهْلِ البَصْرَة[١] .

قالَ مُصْعَبُ الزُّبَيْريُّ : كان لابنِ عجْلان قَدرٌ وفَضلٌ بالمَدينَة وكانَ مِمَّنْ خَرجَ مع مُحمَّدِ بنِ عبدِ الله ، فأرادَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ قَطعَ يَدِه ، فسَمِعَ ضَجَّةً ، وكان عندَه الأكابِرُ فقالَ : ما هـٰذا ؟ قالوا : هـٰذه ضَجَّةُ أهْلِ المَدينَة يَدعُونَ لابنِ عجْلانَ فلَوْ عَفَوْتَ عنه ؟ وإنَّما غُرَّ ، وأخْطأ في الرِّوايَة ظَنَّ أنَّه الْمَهْديَّ ، فأطْلقَه وعَفا عنه[٢] .

٢١ـ الإدارَةُ الماليَّة لبَيْتِ المال :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، قالَ الزُّهْريُّ : فَتحَ اللهُ الشَّامَ كُلَّه علىٰ عُمَرَ ، والجَزيرَةَ ، ومِصْرَ ، والعِراقَ كُلَّه ، ودَوَّنَ الدَّواوينَ قبلَ أنْ يَمُوتَ بعامٍ ، وقسَّمَ على النَّاسِ فَيْئهم .

وقالَ ابنُ مَسْعود : إذا ذُكِرَ الصَّالِحونَ فحَيْهَلا بعُمَرَ ، إنَّ عُمَرَ كان أعْلَمَنا بكتابِ اللهِ ، وأفْقَهَنا في دينِ الله .

وقالَ ابنُ مَسْعود : لَوْ أنَّ عِلمَ عُمَرَ وُضِعَ في كفَّةِ ميزانٍ ووُضِعَ عِلمُ أحْياءِ الأرْضِ في كفَّةٍ لَرَجَحَ عِلمُ عُمَرَ بعِلمِهم .

وعن حُذَيْفَةَ قالَ : كانَ عِلمُ النَّاسِ مَدْسُوساً في جُحْرٍ مع عُمَرَ[٣] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ سِيرينَ : قَدمَ صِهْرٌ لِعُمَرَ عليه فطَلبَ أنْ يُعْطيَهُ عُمَرُ من بَيْتِ الْمَالِ

---

(١) انظر السير : (محمّد بن عجْلان) ٦/ ٣١٧ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ٨/٦٥٣ .

(٢) انظر السير : (محمّد بن عجْلان) ٦/ ٣١٧ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٥٤ .

(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٤٧ .

فانتُهَرَهُ عُمَرُ وقالَ : أرَدْتَ أنْ أَلْقَى اللهَ مَلِكاً خائناً! فلَمَّا كان بَعدَ ذلك أعْطاهُ من صُلبِ مالِه عَشرَةَ آلافِ دِرْهَم[1] .

وقالَ إبْراهيمُ بنُ عبدِ الرَّحْمَـٰنِ بنِ عَوْف : أُتِيَ عُمَرُ بِكُنوزِ كسْرَىٰ ، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ الأرْقَم : أتَجْعَلُها في بَيتِ المالِ حتىٰ تَقْسِمَها ؟ فقالَ عُمَرُ : لا والله لا آويها إلىٰ سَقْف حتىٰ أُمْضِيَها ، فوَضَعَها في وَسَطِ الْمَسْجِدِ وباتوا يَحْرُسُونَها ، فلَمَّا أصْبَحَ كَشَفَ عنها فرَأىٰ من الحَمْراءِ والبَيْضاءِ ما يَكادُ يَتلألأُ ، فبَكَىٰ ، فقالَ له أُبَيٌّ : ما يُبْكيكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فوَاللهِ إنَّ هـٰذا ليَومُ شُكرٍ ويَومُ سُرورٍ! فقالَ : وَيْحَك ، إنَّ هـٰذا لَمْ يُعْطَه قَومٌ إلاَّ أُلْقِيَتْ بَينَهم العَداوَةُ والبَغْضاءُ[2] .

وقالَ أبو هُرَيْرَة : دَوَّنَ عُمَرُ الدِّيوانَ ، وفَرَضَ للمُهاجِرينَ الأوَّلينَ خَمْسَةَ آلافٍ ، وللأنْصارِ أرْبَعَةَ آلافٍ أرْبَعَةَ آلافٍ ، ولأُمَّهاتِ المؤمنينَ اثْنَيْ عَشَرَ ألْفاً اثْنَيْ عَشَرَ ألْفاً[3] .

وقالَ المَدائنيُّ : ولَمَّا فَتحَ اللهُ على المسْلمينَ غَنائمَ رُسْتُم ، وقَدِمَت علىٰ عُمَرَ الفُتوحُ من الشَّامِ والعِراقِ جَمَعَ المسْلمينَ فقالَ : ما يَحِلُّ للوَالي من هـٰذا المالَ ؟ قالوا : أمَّا لخاصَّتِه فقُوتُهُ وقُوتُ عِيالِه لا وَكْسَ ولا شَطَط ، وكِسْوَتُه وكِسْوَتُهم ، ودَابَّتانِ لجِهادِه وحَوائجِه ، وحَمالَتِه إلىٰ حَجِّه وعُمْرَتِه ، والقَسمُ بالسَّويَّة أن يُعْطي أهلَ البلادِ علىٰ قَدرِ بَلائهم ، ويَرُمَّ أمورَ المسْلمينَ ويَتَعاهَدَهم .

وفي القَومِ عليٌّ رضي الله عنه سَاكِتٌ ، فقالَ : ما تَقولُ يا أبا الحَسَن ؟ فقالَ : ما أصْلَحَكَ وأصْلَحَ عِيالَكَ بالمَعْروفِ[4] .

وقيلَ إنَّ عُمَرَ قَعَدَ علىٰ رِزْقِ أبي بَكر حتى اشْتدَّت حاجَتُه ، فأرادُوا أنْ يَزيدُوه فأبَىٰ عليهم[5] .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٥٠ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥١ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥١ .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٥ .
(٥) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٥ .

(٢) الشُّهْرَةُ والتَّصَدُّر

١ـ أقْوالٌ بَليغَةٌ في التَّحْذيرِ من :

(أ) حُبِّ الشُّهْرَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ شَهْرِ بنِ حَوْشَب : ومِنْ مَليحِ قَولِه : مَنْ رَكِبَ مَشْهوراً من الدَّوابِّ ، ولَبسَ مَشْهوراً من الثِّيابِ ، أعْرَضَ اللهُ عنه ، وإنْ كانَ كَريماً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : مَنْ فَعَلَه لِيُعِزَّ الدِّينَ ، ويُرْغِمَ الْمُنافِقينَ ، ويَتواضَعُ مع ذلك للمُؤمنينَ ، ويَحْمَدُ رَبَّ العَالَمينَ ، فحَسنٌ .

ومَنْ فَعَلَه بَذَخاً وتيهاً وفَخْراً أذَلَّه اللهُ وأعْرضَ عنه ، فإنْ عُوتِب ووُعِظَ فكابَرَ وادَّعَىٰ أنَّه لَيسَ بمُخْتالٍ ولا تَيَّاهٍ فأعْرِضْ عنه فإنَّه أحْمَقٌ ، مَغْرورٌ بنَفسِه[١] .

وقال أيُّوبُ السَّخْتيانيُّ : ما صَدَقَ عَبدٌ قَطُّ ، فأحَبَّ الشُّهْرَةَ[٢] .

وعن طَالُوتَ : سَمعتُ إبْراهيمَ بنَ أدْهَمَ يَقولُ : ما صَدَقَ اللهَ عَبدٌ أحَبَّ الشُّهْرَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عَلامَةُ الْمُخْلِص الذي قد يُحِبُّ شُهرةً ، ولا يَشْعُرُ بها ، أنَّه إذا عُوتِبَ في ذلك لا يَحرَدُ ولا يُبرِّىءُ نفسَه ، بَلْ يَعترِفُ ويَقولُ : رَحمَ اللهُ مَنْ أهْدَىٰ إليَّ عُيوبي ، ولا يَكُنْ مُعْجَباً بنَفسِه ، لا يَشْعُرُ بعُيوبِها ، بل لا يَشْعُرُ أنَّه لا يَشْعُرُ ، فإنَّ هـٰذا داءٌ مُزمِن[٣] .

وعن بِشْرِ بنِ الحارِث : لَيسَ أحَدٌ يُحبُّ الدُّنيا إلاَّ لَمْ يُحبَّ الْمَوتَ ، ومَنْ زَهدَ فيها ، أحَبَّ لِقاءَ مَوْلاه وعنه : ما اتَّقَى اللهَ مَنْ أحَبَّ الشُّهْرَة[٤] .

---

(١) انظر السير : (شَهْرِ بنِ حَوْشَب) ٤/ ٣٧٢ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥١٣ .
(٢) انظر السير : (أيُّوب السَّخْتياني) ٦/ ١٥ـ ٢٥ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦٢٦ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيم بن أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٠٨ .
(٤) انظر السير : (بِشْر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٨٨٦ .

(ب) حُبُّ الرِّئاسَة :

قالَ يَحْيَىٰ بنُ مُعاذ : لا يفلح من شَمَمتَ رائحةَ الرياسَة منه[1] .

٢ـ حُبُّ الرِّئاسَة مُتمكنٌ من القُلُوب :

قال يوسُفُ بنُ أسْباط : سَمعتُ سُفيانَ الثَّوْريَّ يقولُ : ما رَأيتُ الزُّهْدَ في شيء أقَلَّ منه في الرِّئاسَة ، تَرى الرَّجُلَ يَزْهَدُ في الْمَطْعَمِ والْمَشْرَبِ والمالِ والثِّيابِ ، فإنْ نُوزِعَ الرئاسَةَ ، حامَىٰ عليها ، وعادَىٰ[2] .

وعنه[3] قالَ : للصَّادِقِ ثلاثُ خِصالٍ : الحَلاوَةُ ، والْمَلاحَةُ ، والْمَهَابَة .

وعنه : خُلقَت القُلوبُ مَساكِنَ للذِّكْرِ ، فصارَت مَساكِنَ للشَّهَواتِ لا يَمحُو الشَّهَوَاتِ إلاَّ خَوفٌ مُزْعِجٌ ، أو شَوقٌ مُقْلِقٌ ، الزُّهدُ في الرِّئاسَة أشَدُّ منه في الدُّنيا[4] .

٣ـ الرِّئاسَة والتَّصَدُّر يجب أنْ يَكونا مَقْرونَين بالخَشْيَة والتَّوَاضُع :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القاضي عِياض : وحَازَ من الرِّئاسَة في بَلدِه والرِّفْعَة ما لَمْ يَصِلْ إليه أحَدٌ قَطُّ من أهْلِ بَلَدِه ، وما زَادَه ذلك إلاَّ تَواضُعاً وخَشْيَةً لله تَعَالَىٰ .

وقالَ القاضي شَمْسُ الدِّين في « وَفيَّات الأعْيان » : هو إمامُ الحَديثَ في وَقْتِه ، وأعْرَفُ النَّاسِ بعُلومِه ، وبالنَّحْوِ واللُّغَة ، وكَلامِ العَرَبِ ، وأيّامِهم ، وأنْسَابِهم .

قالَ : ومن تَصانيفِه كتابُ « الإكمال في شَرح صَحيح مُسْلم » ، كَمَّلَ به كتابَ « الْمُعْلِم » للمازَريِّ ، وكتابُ « مَشارِقُ الأنْوار » في تَفسيرِ غَريبِ الحَديثِ ، وكتابُ « التَّنْبيهات » فيه فَوائدُ وغَرائبُ وكُلُّ تَواليفه بَديعَةٌ ، وله شِعْرٌ حَسَن[5] .

---

(١) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مُعاذ) ١٣/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٤٧ .
(٢) انظر السير : (سُفْيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٩٨ .
(٣) يعني يُوسُفَ بنَ أسْباط .
(٤) انظر السير : (يُوسُف بن أسْباط) ٩/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨١٤ .
(٥) انظر السير : (القاضي عِياض) ٢٠/ ٢١٢ـ ٢١٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٤٣ .

٤ـ عاقِبَةُ طَلَب التَّصَدُّر وحُبِّ الرِّئاسَة والظُّهُور :

قال ابنُ الحَدَّاد : ما صَدَّ عن اللهِ مثلُ طَلبِ الْمَحامِدِ ، وطَلَبِ الرِّفْعَة[١] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ حَزْم تَعْقيباً علىٰ قولِه : أنا أتَّبِعُ الحَقَّ ، وأجْتَهِدُ ولا أتَقيَّدُ بمَذهَب ، فقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : نَعَم ، مَنْ بَلغَ رُتْبَةَ الاجْتهادِ ، وشَهدَ له بذلكَ عدَّة من الأئمَّة ، لم يُسُغْ له أنْ يُقَلِّدَ ، كما أنَّ الفَقيهَ المُبْتدىءَ والعامِّيَّ الذي يَحفَظُ القُرآنَ أوْ كثيراً منه لا يَسُوغُ له الاجْتهادُ أبَداً ، فكَيفَ يَجْتهدُ وما الذي يَقولُ ؟ وعَلامَ يَبني ؟ وكَيفَ يَطيرُ ولمَّا يُرَيِّش ؟ والقِسْمُ الثالثُ : الفَقيهُ المُنْتَهي اليَقِظُ الفَهِمُ الْمُحَدِّثُ ، والذي قد حَفظَ مُختصَراً في الفُروع ، وكتاباً في قَواعِدِ الأصُول ، وقَرأ النَّحوَ ، وشارَكَ في الفَضائل مع حِفظِه لكتابِ اللهِ وتَشاغُلِه بتَفسيرِه ، وقُوَّة مُناظَرَته ، فهـٰذه رُتبَةُ مَنْ بَلغَ الاجْتهادَ المُقيَّد ، وتأهَّلَ للنَّظَرِ في دَلائِل الأئمَّة ، فمَتىٰ وَضُحَ له الحَقُّ في مَسألَة ، وثَبُتَ فيها النصُّ ، وعَملَ بها أحدُ الأئمَّةِ الأعْلامِ كأبي حَنيفَة مَثلاً ، أو كمَالِك ، أو الثَّوْريِّ ، أو الأوْزاعيِّ ، أو الشَّافعيِّ وأبي عُبَيد ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، فليَتَّبعْ فيها الحَقَّ ولا يَسلُكْ الرُّخَص وليَتورَّع ، ولا يَسعُه فيها بَعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليه تَقْليدٌ[٢] .

فإنْ خَافَ مِمَّنْ يُشَغِّبُ عليه من الفُقَهَاء فلْيَتَكتَّم بها ولا يَتَرَاءَىٰ بفعْلِها ، فرُبَّما أعْجَبَته نَفسُه ، وأحَبَّ الظُّهورَ ، فيُعاقَبُ ، ويَدخُل عليه الدَّاخِلُ من نفسِه فكَمْ من رَجلٍ نَطَقَ بالحَقِّ ، وأمَرَ بالْمَعْروفِ ، فيُسلِّطُ الله عليه مَنْ يؤذيه لسُوءِ قَصْدِه وحُبِّه للرِّئاسَة الدِّينيَّة ، فهَـٰذا دَاءٌ خَفيٌّ سارَ في نُفوس الفُقَهاء كمَا أنَّه داءٌ سارَ في نُفوسِ الْمُنْفِقينَ من الأغْنياءِ وأرْبابِ الوُقُوفِ والتُّرَب الْمُزَخْرَفَة ، وهو دَاءٌ خَفيٌّ يَسْري في نُفوسِ الجُندِ والأُمَراءِ والْمُجاهِدينَ ، فتَراهُم يَلتَقُون العَدوَّ ويَصْطَدمُ الجَمْعانِ وفي نُفوسِ الْمُجَاهِدين مُخَبَّآتٌ وكَمَائنُ من الاخْتِيالِ وإظْهارِ الشَّجاعَة ليُقالَ ، والعُجبُ ، ولُبْسُ القَراقِلِ[٣]

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٦ .

(٢) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٠ .

(٣) القَراقِل : ضرب من الثياب ، وقيل : هو ثوب بغير كُمَّين ، وقال أبو تراب : القرقل قميص من قمص النساء بلا لِبْنَة ، وجمعه قَراقِل . =

الْمُذَهَّبَة والخُوَذِ الْمُزَخْرَفَة ، والعُدَد الْمُحَلاَّة علىٰ نُفوسٍ مُتكَبِّرَة ، وفُرْسَانٍ مُتَجَبِّرَة ويَنْضافُ إلىٰ ذلك إخْلالٌ بالصَّلاةِ ، وظُلمٌ للرَّعيَّة ، وشُرْبٌ للمُسْكِر ، فأنَّىٰ يُنصَرون ؟ وكيفَ لا يُخْذَلون ؟ اللَّهمَّ فانْصُرْ دينَك ووَفِّقْ عِبادَك[1] .

٥ـ مِنْ صِفاتِ مُحِبِّ الرِّئاسَة :

قالَ الإمامُ الجُوعِيُّ : إذا رَأيتَ الرَّجُلَ يُخاصِمُ فهو يُحبُّ الرِّئاسَة .

تُوفِّيَ قاسِمٌ الجُوعيّ سَنةَ ثَمانٍ وأرْبَعينَ ومِئتَين[2] .

٦ـ عاقِبَةُ التَّصَدُّر قَبل الأوَان :

قالَ زُفَرُ بنُ الهُذَيلِ : مَنْ قَعدَ قبلَ وَقتِه ذَلَّ[3] .

وللصُّعْلوكيِّ ألفاظٌ بَديعَةٌ ، منها : مَنْ تَصدَّرَ قبلَ أوانِه ، فقد تَصَدَّىٰ لهَوانِه[4] .

٧ـ ضَوابطُ للشُّهْرَة :

مِنْ مَليحِ قَولِ شَهْرِ بنِ حَوْشَب : مَنْ رَكبَ مَشْهوراً من الدَّوابِّ ، ولَبسَ مَشْهوراً من الثِّيابِ ، أعْرَضَ اللهُ عنه ، وإنْ كانَ كَريماً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : مَنْ فَعَلَه لِيُعِزَّ الدِّينَ ، ويُرْغِمَ الْمُنافِقينَ ، ويَتواضَعُ مع ذلك للمُؤمنينَ ، ويَحْمَدُ رَبَّ العَالَمينَ ، فحَسنٌ .

ومَنْ فَعَلَه بَذَخاً وتيهاً وفَخْراً أذَلَّه اللهُ وأعْرضَ عنه ، فإنْ عُوتِب ووُعِظَ فكابَرَ وادَّعَىٰ أنَّه لَيسَ بمُخْتالٍ ولا تَيَّاهٍ فأعْرِضْ عنه فإنَّه أحْمَقٌ ، مَغْرورٌ بنَفسِه[5] .

وعن طَالُوتَ : سَمعتُ إبْراهيمَ بنَ أدْهَمَ يَقولُ : ما صَدَقَ اللهَ عَبدٌ أحَبَّ الشُّهْرَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عَلامَةُ الْمُخْلِص الذي قد يُحِبُّ شُهرةً ، ولا يَشْعُرُ بها ، أنَّه إذا

---

(١) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٠٠ .

(٢) انظر السير : (الجُوعِيّ) ١٢/ ٧٧ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/٩٨٤ .

(٣) انظر السير : (زُفَرُ بنُ الهُذَيل) ٨/ ٣٨ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٦/٧٢٤ .

(٤) انظر السير : (الصُّعْلوكيّ) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٧ .

(٥) انظر السير : (شَهْرِ بنِ حَوْشَب) ٤/ ٣٧٢ـ ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥١٣ .

عُوتِبَ في ذلك لا يَحرَدُ ولا يُبرِّىءُ نفسَه ، بَلْ يَعترِفُ ويَقولُ : رَحمَ اللهُ مَنْ أهْدَىٰ إليَّ عُيوبي ، ولا يَكُنْ مُعْجَباً بنَفسِه ، لا يَشْعُرُ بعُيوبِها ، بل لا يَشْعُرُ أنَّه لا يَشْعُرُ ، فإنَّ هـٰذا داءٌ مُزمِن[1] .

٨ـ قِصَّةٌ تُبَيِّنُ كراهـيَة السَّلَف للشُّهْرَة :

من محاسن الإمام ابن نُجَيْد أنَّ شَيخَه الزَّاهد أبا عثمان الحِيريَّ طلبَ في مجلسه مالاً لبعض الثُّغور ، فتأخَّرَ ، فتألَّمَ وبَكَىٰ علىٰ رُؤوس النَّاس فجاءَهُ ابنُ نُجَيْد بألْفَي درهم ، فدَعا له ، ثمَّ إنَّه نوَّهَ به ، وقال : قد رَجَوتُ لأبي عمرو بما فعل ، فإنَّه نابَ عن الجماعة ، وحمل كذا وكذا ، فقام ابنُ نُجَيْد ، وقال : لكن إنَّما حملتُ من مال أمي وهي كارهة ، فينبغي أن تردَّه لترضىٰ ، فأمر أبو عثمان بالكيس فَرُدَّ إليه ، فلمَّا جَنَّ الليلُ جاءَ بالكيسِ ، والتَمَسَ من الشيخ سترَ ذلك ، فبَكَىٰ ، وكان بعد ذلك يَقولُ : أنا أخشىٰ من هِمَّة أبي عَمرو[2] .

٩ـ قِلَّةُ الإخْلاص تُؤدي إلىٰ حُبِّ الشُّهْرَة :

قالَ إبراهيمُ بنُ أدْهَم : مَنْ طَلبَ العِلمَ لله ، كانَ الخُمولُ أحَبُّ إليه من التَّطاوُل ، والله ما الحَياةُ بثِقَةٍ ، فيُرجَىٰ نَومُها ، ولا الْمَنِيَّةُ بعُذْر ، فيُؤمَنُ عُذرُها ، ففيمَ التَّفْريطُ والتَّقْصيرُ والاتِّكَالُ والإبْطَاءُ ؟! قد رَضينا من أعْمالِنا بالْمَعَاني ، ومِنْ طَلبِ التَّوْبَة بالتَّوَاني ، ومِنْ العَيشِ البَاقي بالعَيشِ الفَاني[3] .

١٠ـ صُوَرٌ من كراهيَتِهم الشُّهْرَة والتَّصَدُّر :

عن ابنِ مُحَيْريزَ ، سمع فَضَالَةَ بنَ عُبَيْد وقلت له : أوصني ، قال : خِصالٌ يَنفعُكَ اللهُ بهِنَّ ، إنْ اسْتَطعْتَ أنْ تَعْرِفَ ولا تُعْرَفَ ، فافْعَلْ ، وإنْ اسْتَطعْتَ أنْ تَسْمَعَ

---

(١) انظر السير : (إبْراهيم بن أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٧٠٨/ ٥ .
(٢) انظر السير : (ابنُ نُجَيد) ١٦/ ١٤٦ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١٢٧٥/ ٢ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيم بن أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٧٠٨/ ١٠ .

ولا تَكلَّمَ ، فافْعَلْ ، وإنْ اسْتَطعْتَ أنْ تَجْلِسَ ولا يُجْلَسَ إليك ، فافْعَلْ وقد عُدَّ فَضَالَةُ في كبار القُرَّاء[1] .

وقالَ عاصِمٌ الأحْوَل : كانَ أبو العاليَة إذا جَلسَ إليه أكْثرُ من أرْبَعَةٍ قامَ فتَرَكَهم[2] .

ومِنْ مَليحِ قَولِ شَهْرِ بنِ حَوْشَب : مَنْ رَكبَ مَشْهوراً من الدَّوابِّ ، ولَبسَ مَشْهوراً من الثِّيابِ ، أعْرَضَ اللهُ عنه ، وإنْ كانَ كَريماً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : مَنْ فَعَلَه لِيُعِزَّ الدِّينَ ، ويُرْغِمَ الْمُنافِقينَ ، ويَتواضَعُ مع ذلك للمُؤمنينَ ، ويَحْمَدُ رَبَّ العَالَمينَ ، فحَسنٌ .

ومَنْ فَعَلَه بَذَخاً وتيهاً وفَخْراً أذَلَّه اللهُ وأعْرضَ عنه ، فإنْ عُوتِب ووُعِظَ فكابَرَ وادَّعَىٰ أنَّه لَيسَ بمُخْتالٍ ولا تَيَّاهٍ فأعْرِضْ عنه فإنَّه أحْمَقٌ ، مَغْرورٌ بنَفسِه[3] .

وقيل : كان عبدُ الله بنُ مُحَيْريز من أحْرَصِ شيء أنْ يَكتُمَ من نَفسِه أحْسنَ ما عنده[4] .

وقالَ عبدُ الواحِد بنُ مُوسَىٰ : سَمعتُ ابنَ مُحَيْريز يَقولُ : اللَّهمَّ إنِّي أسْألُكَ ذِكراً خامِلاً[5] .

وقالَ إبْراهيمُ النَّخَعي : تَكلَّمتُ ، وَلَوْ وَجَدتُ بُدّاً ، لَمْ أتَكلَّم ، وإنَّ زَماناً أكونُ فيه فَقيهاً لزَمانُ سُوء .

ماتَ سَنةَ سِتٍّ وتِسْعينَ[6] .

وعن ثابتٍ قالَ لي مُحمَّدُ بنُ سِيرينَ : يا أبا مُحمَّد ، لَمْ يَكُنْ يَمنَعُني من مُجالَسَتِكم إلاَّ مَخافَة الشُّهْرَة ، فلَمْ يَزلْ بي البَلاءُ حتَّىٰ قُمتُ على الْمِصْطَبَة ، فقيلَ : هٰذا ابنُ سِيرينَ ، أكلَ أمْوالَ النَّاسِ ، وكانَ عَليه دَينٌ كَثير[7] .

---

(١) انظر السير : (فَضَالَة بن عُبَيْد) ٣/ ١١٣ـ ١١٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٤٧ .
(٢) انظر السير : (أبو العاليَة) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٧٩ .
(٣) انظر السير : (شَهْر بن حَوْشَب) ٤/ ٣٧٢ـ ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥١٣ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٣٩ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الله بنُ مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٣٩ .
(٦) انظر السير : (إبْراهيمُ النَّخَعي) ٤/ ٥٢٠ـ ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٤٩ .
(٧) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٦٨ .

وقالَ مَعْمَرٌ : كانَ في قَميصِ أيُّوبَ السِّخْتيانيِّ بعضُ التذْييل ، فقيلَ له ، فقالَ : الشُّهْرَةُ اليَومَ في التَّشْميرِ[1] .

دَخلَ علىٰ أحْمَدَ بنِ حَنْبَل عَمُّه ، فقالَ : يا ابنَ أخي ، أيْش هـٰذا الغَمُّ ؟ وأيْش هـٰذا الحُزْن ؟ فرَفَع رَأسَه ، وقالَ : يا عَمُّ ، طُوبَىٰ لِمَنْ أخْمَلَ اللهُ ذِكْرَه[2] .

* * *

(١) انظر السير : (أيُّوب السِّخْتيانيّ) ٦/ ١٥ـ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦٢٦/ ١٢ .

(٢) انظر السير : (أحمَد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٢٦/ ٤ .

(٣) الظُّلْمُ والظَّالِمون

١ـ كان الظَّلَمَةُ أولاً جَيِّدي الإسْلام ـ في الجُملَة ـ مُعَظِّمين للشَّعائر :

الحَجَّاج :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : أهلكه الله في رَمضانَ سَنةَ خَمسٍ وتِسعينَ كَهلاً ، وكان ظَلوماً ، جبّاراً ، ناصبيّاً ، خَبيثاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، وكان ذا شَجاعَةٍ وإقْدامٍ ومَكرٍ ودَهاءٍ ، وفَصاحَةٍ وبَلاغَةٍ ، وتَعظيمٍ للقُرآن قد سُقتُ من سُوء سيرَتِه في تاريخي الكبير ، وحِصارِه لابنِ الزُّبَيْر بالكَعْبَة ، ورَميه إيَّاها بالمِنْجَنيقِ ، وإذْلالِه لأهْلِ الحَرمَين ، ثم وِلايَتِه على العِراقِ والمشْرِق كلِّه عشرين سَنةً ، وحُروبِ ابنِ الأشْعَث له ، وتأخيره للصَّلوات إلىٰ أنْ استأصَلَه الله ، فنَسُبُّه ولا نُحِبُّه ، بلْ نَبْغَضُه في الله ، فإنَّ ذلك من أوْثَق عُرَى الإيمان .

وله حَسناتٌ مَغْمورَةٌ في بَحْر ذُنوبِه ، وأمْرُه إلى الله وله تَوحيدٌ في الجُملَة ونُظَراء من ظَلَمَة الجَبابرَة والأُمَراء[1] .

أحمَدُ بنُ طُولُون :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : التُّرْكيُّ ، صاحبُ مِصْرَ أبو العَبَّاس .

وُلدَ بسامَرَّاء ، وقيلَ : بلْ تَبنَّاه الأميرُ طُولونُ وطُولونُ قدَّمَه صاحبُ ما وَراء النَّهْر إلى المأمون ، في عِدَّة مَماليك ، سنة مئتين فعاشَ طُولونُ إلىٰ سَنة أربَعين ومئتَين ، فأجادَ ابنُه أحمدُ حِفْظَ القُرآنِ ، وطلبَ العِلمَ ، وتَنقَّلت به الأحْوالُ ، وتأمَّرَ ووَليَ ثُغورَ الشَّام ، ثم إمْرَةَ دِمَشْق ، ثم وَلي الدِّيارَ المِصْريَّة في سَنة أربَع وخَمسين ، ولَه إذْ ذاكَ أربَعون سنة .

---

(١) انظر السير : (الحَجَّاج) ٤/ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٠٨ .

وكان بَطلاً شُجاعاً، مِقْداماً ، مَهيباً ، سائساً ، جَواداً ، مُمَدَّحاً من دُهاة الملوك[1] .

قيل كانت مُؤنتُه في اليومِ ألفَ دينار ، وكان يَرجعُ إلىٰ عَدْل وبَذْل لكنَّه جبَّارٌ ، سَفَّاكٌ للدِّماء[2] .

قال القُضاعيُّ : أُحْصيَ مَنْ قَتَله صَبْراً ، أو ماتَ في سِجْنه ، فبَلغوا ثَمانيةَ عشرَ ألفاً .

وأنْشأ بظَاهر مِصْرَ جَامعاً ، غَرمَ عليه مئةَ ألفِ دينار ، وكان جَيِّد الإسْلام مُعَظِّماً للشَّعائر[3] .

عن مُحمَّد بنِ عليٍّ المادَرائي قالَ : كُنتُ أجْتازُ بقَبْر ابنِ طُولونَ فأرَىٰ شَيخاً مُلازماً له ، ثمَّ لمْ أرَه مُدَّة ، ثم رَأيتُه فسَألتُه ، فقالَ : كان له عليَّ أيادٍ ، فأحْبَبتُ أنْ أصِلَه بالتِّلاوَة قالَ : فرَأيتُه في النَّومِ يقولُ : أحبُّ أنْ لا تَقرأَ عندي ، فما تَمرُّ بي آية إلاَّ قُرِّعْتُ بها ، ويُقالُ لي : أما سَمعتَ هـٰذه ؟

تُوفِّي أحمدُ بمِصْرَ سَنةَ سَبعينَ ومِئتَين .

وقامَ بعدَه ابنُه خُمارَوَيْه ، ثمَّ جَيْشُ بنُ خُمارَوَيْه ، ثم أخُوهُ هارُون[4] .

٢ـ عُقُوبَةُ الله للظَّالم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عُبَيْدِ الله بنِ زِياد بنِ أبيه : وصَحَّ من حَديث عُمارَة بنِ عُمَيْر ، قالَ : جيء برأسِ عُبَيدِ الله بنِ زياد وأصْحابِه ، فأتَيْناهم وهم يَقُولُونَ : قد جاءَت قد جاءَت ، فإذا حَيَّة تخلل الرُّؤوسَ حتىٰ دَخَلتْ في مِنْخَر عُبيدِ الله ، فمَكثَت هُنَيَّة ، ثم خَرجَت وغَابَت ثم قالوا : قد جاءَت ، قد جاءَت ، ففَعلَت ذلك مرَّتَين أو ثَلاثاً .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ أحمد بن طُولون .
(٢) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ ١ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ ٢ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ ٣ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : الشِّيعيُّ لا يَطيبُ عَيشُه حتى يَلعَنَ هـٰذا ودُونَه ، ونَحنُ نبغضُهم في الله ، ونَبرأُ منهم ولا نَلعَنُهم ، وأمْرُهم إلى الله[1] .

٣ـ عَاقِبَة صُحْبَة الظَّالِمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أيُّوبَ القِرِّيَّة : هو أيُّوبُ بنُ يَزيدَ ابنِ قَيْس بنِ زُرارَة النَّمَري الهِلاليُّ الأعْرابيُّ .

صَحِبَ الحَجَّاجَ ووَفدَ على الخَليفَة عبدِ المَلِك وكانَ رَأساً في البَلاغَة والبَيان واللُّغَة ثم إنَّه خَرجَ على الحَجَّاجِ مع ابنِ الأشْعَث ، لأنَّ الحَجَّاجَ نفَّذه إلى ابنِ الأشْعَث إلىٰ سِجِسْتانَ رَسُولاً ، فأمَرَه ابنُ الأشْعَث أنْ يَقومَ ويَسُبَّ الحَجَّاجَ ويَخْلَعَه أوْ لَيَقتُلنَّه ففَعلَ مُكْرَهاً ثم أُسِرَ أيُّوبُ ولَمَّا ضَربَ الحَجَّاجُ عُنقَه نَدمَ وذلك في سَنةِ أرْبَع وثَمانينَ وله كَلامٌ بَليغٌ مُتَداوَل[2] ،[3] .

٤ـ الدُّعَاء على الظَّالمين :

قالَ سَعيدُ بنُ الْمُسيِّب : ما أُصَلِّي صَلاةً إلاَّ دَعَوتُ اللهَ علىٰ بَني مَرْوانَ[4] .

٥ـ دُعَاءُ المَظْلوم مُسْتَجاب :

عن أبي الدَّرْداء : إيَّاكَ ودَعَواتِ الْمَظلُومِ ، فإنَّهنَّ يَصْعَدنَ إلى اللهِ كأنَّهُنَّ شَراراتٌ من نَّار[5] .

---

(١) انظر السير : (عُبَيْد الله بن زِياد بن أبيه) ٣/ ٥٤٥ـ ٥٤٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٢٥ .

(٢) ومن كلامه ما جاء في « عيون الأخبار » (٣/ ٦٩) أن الحجَّاج قال لأيوب : اخطب عليَّ هند بنت أسماء ولا تزد علىٰ ثلاث كلمات ، فأتاهم فقال : أتيتكم من عند من تعلمون ، والأمير يعطيكم ما تسألون ، أفتنكحون أم تردُّون ؟ قالوا : بل أنكحنا وأنعمنا ، ولما أراد الحجَّاج أن يُطلِّقَها أمر ابن القِرِّيَّة أن يأتيَها فيطلقها بكلمتين ، ويُمتِّعْها بعشرة آلاف درهم ، فأتاها فقال لها : إنَّ الحجَّاج يقولُ لك : كُنتِ فبِنْتِ ، وهـٰذه عشرة آلاف متعة لك ، فقالت : قلْ له : كُنَّا فما حمدنا ، وبِنَّا فما ندمنا ، وهـٰذه العشرة آلاف لك ببشارتك إيَّايَ بطَلاقي « عيون الأخبار » (٢/ ٢٠٩) .

(٣) انظر السير : (أيُّوب القِرِّيَّة) ٤/ ١٩٧ـ ١٩٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٧٧ .

(٤) انظر السير : (سعيد بن الْمُسيِّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٨٧ .

(٥) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٨/ ٢٧٢ .

٦ـ اسْتِغاثَة المَظْلوم بالله تَعالَىٰ ودُعَاؤه له :

عن عَمرُو بنِ مَيْمونَ ، أنَّه كان لا يَتمنَّى الموتَ ، ويَقولُ : إنِّي أُصَلِّي في اليوم كَذا ، وكَذا ، حتىٰ أرْسَلَ إليه يَزيدُ بنُ أبي مُسْلم فتَعنَّتَه ، ولَقِيَ منه شِدَّة ، فكانَ يَقولُ : اللَّهُمَّ ألْحِقْني بالأخْيار ولا تُخلِّفْني مع الأشْرارِ واسْقِني من عَذْبِ الأنْهارِ .

ماتَ سنةَ خَمسٍ وسَبْعين[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القائمِ أبي جَعْفَر عبدِ الله بنِ القادِرِ بالله أحمدَ الخَليفَةِ العَبَّاسيِّ : وكان القائمُ فيه خَيرٌ واهْتمامٌ بالرَّعيَّة ، وقَضاء للحَوائج وقيلَ : إنّه لَمَّا بَقي مُعتَقلاً عند العَرَب كَتبَ قِصَّة ، وبَعثَ بها إلىٰ بَيتِ الله مُسْتَعدياً مِمَّن ظَلمَه وهي : « إلى الله العَظيمِ من الْمِسْكينِ عبدِه : اللَّهُمَّ إنَّكَ العَالِمُ بالسَّرائرِ ، الْمُطَّلعُ على الضَّمائرِ اللَّهُمَّ إنَّك غَنيٌّ بعِلمِك واطِّلاعِك عن إعْلامي ، هٰذا عَبدُك قد كَفَرَ نِعَمَك وما شَكَرَها ، أطْغاهُ حِلمُك حتّىٰ تَعدَّىٰ عَلينا بَغياً اللَّهُمَّ قَلَّ النَّاصِرُ واعْتَزَّ الظَّالِمُ ، وأنتَ الْمُطَّلعُ الحاكمُ ، بكَ نَعتَزُّ عليه ، وإليكَ نَهرَبُ من يَديه ، فقد حاكَمْناه إليكَ ، وتَوَكلنا في إنْصافِنا منه عَليك ، ورَفَعْنا ظُلامَتنا إلىٰ حَرَمِك ، ووَثِقْنا في كَشْفِها بكَرَمِك ، فاحْكُم بَينَنا بالحَقِّ ، وأنتَ خَيرُ الحاكِمين » .

وأمَّا ما كان من طُغْرُلْبَك ، فإنَّه ظَفرَ بأخيه وقَتلَه ثم كاتَبَ مُتَولِّي عانَةَ في أن يَرُدَّ القائمَ إلىٰ مَقرِّ عِزِّه ثم جَهَّز طُغْرُلْبَك عَسْكراً قَاتَلوا البَساسِيريَّ فقُتلَ وطِيفَ برأسِه فكانَت الخُطبَة للمُسْتَنْصِرِ ببَغْدادَ سَنَةً كاملَةً .

تُوفِّيَ القائمُ سنةَ سَبعٍ وستِّينَ وأرْبع مئة[2] .

ونُكبَ القائمُ سَنةَ خَمسينَ في كائنَةِ البَسَاسيريِّ ، ففَرَّ إلى البَريَّة في ذِمامِ أميرٍ للعَرَب ، ثم عادَ خِلافَتَه بعد عام بهمَّة السُّلطانِ طُغْرُلْبَك وأُزيلَت خُطبَة خَليفَة مِصْر العُبَيْديِّ الْمُسْتَنْصِر بالله من العِراقِ ، وقُتلَ البَساسيريُّ ، لما أنْ فَرَّ القائمُ إلى البَريَّة ،

---

(١) انظر السير : (عَمرو بن مَيْمون) ٤/١٥٨ـ١٦١ ، وانظر النزهة : ٢/٤٦٨ .

(٢) انظر السير : (القائمُ بأمْر الله) ١٥/١٣٨ـ١٤١ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٦ .

رَفَعَ قصَّةً إلىٰ رَبِّ العَالَمينَ مُسْتَعدياً علىٰ مَنْ ظَلمَه ، ونَفَّذَ بها إلى البَيتِ الحَرامِ ، فنَفعَت ، وأخَذَ اللهُ بيدِه ، ورَدَّه إلىٰ مَقَرِّ عِزِّه فكذلك يَنبَغي لكُلِّ مَنْ قُهِرَ وبُغيَ عليه أنْ يَسْتَغيثَ بالله تَعالَىٰ ، وإنْ صَبرَ وغَفَرَ فإنَّ في الله كِفايَة ووِقايَة[1] .

٧ـ الصَّبر على الظَّالمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ اللهِ بنِ عون : وكانَ إذا جاءَه إخْوانُه كأنَّ علىٰ رُؤوسِهِمُ الطَّيرُ لهم خُشوعٌ وخُضوعٌ وما رَأيتُه مازَحَ أحَداً ، ولا يُنشِدُ شِعْراً كان مَشْغولاً بنَفسِه وما سَمعتُه ذاكراً بِلالَ بنَ أبي بُرْدَة بشيءٍ قَطُّ ولقد بَلغَني أنَّ قَوْماً قالوا له : يا ابنَ عَوْن : بِلالٌ فَعلَ كَذا فقالَ : إنَّ الرَّجُلَ يَكونُ مَظْلُوماً ، فلا يَزالُ يَقولُ حتَّىٰ يَكونَ ظَالِماً ما أظُنُّ أحَداً منكُم أشَدَّ علىٰ بِلالٍ منِّي ، قالَ : وكان بِلالُ ضَربَه بالسِّيَاطِ ، لِكَوْنِه تَزوَّجَ امرأةً عَربيَّة[2] .

٨ـ الفَرحُ بمَوْتِ الظَّالمين :

جاءَ في تَرجَمَةِ إبْراهيمَ النَّخَعيِّ ، عن حمَّاد ، قالَ : بشَّرتُ إبراهيمَ بمَوتِ الحجَّاجِ ، فسَجدَ ، ورَأيتُه يَبكي من الفَرَح[3] .

٩ـ الإشْفاقُ على الظَّالمين :

عن إبْراهيمَ بنِ يَزيد قالَ : إنَّ الرجلَ ليَظْلِمُني فأرْحَمُه[4] .

١٠ ـ مَنْ ماتَ إشْفاقاً مِنْ ظُلْم الظَّالمين :

عن خُليدِ بنِ دَعْلج قالَ : كُنَّا عند عَطاء السَّليمي ، فقيلَ له إنَّ ابنَ علَيٍّ[5] قَتلَ أرْبَعَ مئةً من أهْلِ دِمَشْقَ علىٰ دَمٍ واحدٍ ، فقالَ مُتَنفِّساً : هاه ، ثم خرَّ مَيتاً[6] .

---

(١) انظر السير : (القائمُ) ١٨/ ٣٠٧ـ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤١٦ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٥٨ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيم النَّخَعي) ٤/ ٥٢٠ـ ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٤٩ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم بن يزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٨٠ .
(٥) قال صاحب النزهة : هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عبَّاس ، وكان قد أسرَف الأمويين بدمشق .
(٦) انظر السير : (عَطاء السَّليمي) ٦/ ٨٦ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٣٤ .

١١ـ مَنْ كان لا يَرىٰ سَبَّ الظَّالمين :

عن الزِّبرقانِ ، قالَ : كُنتُ عندَ أبي وَائل[١] ، فجَعلتُ أسُبُّ الحَجَّاجَ وأذْكُرُ مَساوِئَه فقالَ : لا تَسُبَّه ، وما يُدريكَ لعلَّه قالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي فغَفرَ له[٢] .

١٢ـ عِظَات تَرْدَعُ عن الظُّلْم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيزِ : وعن ضَمْرَة ، قالَ : كَتبَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إلىٰ بَعضِ عُمَّاله : أمَّا بعدُ ، فإذا دَعَتْكَ قُدْرتُك على النَّاس إلىٰ ظُلمِهم ، فاذْكُر قُدرَةَ اللهِ تَعالَىٰ عَليكَ ، ونَفادَ ما تأتي إليهم ، وبقاءَ ما يأتون إليك[٣] .

وقيلَ : بَعثَ مُوسَى الكاظِم إلى الرَّشيدِ برِسالَة من الحَبْسِ يقولُ : إنَّه لَنْ يَنْقَضي عنِّي يَومٌ من البَلاء إلاَّ انْقَضىٰ عنْكَ مَعَه يَومٌ من الرَّخاءِ حتَّىٰ نُفْضي جَميعاً إلىٰ يَومٍ لَيسَ له انْقِضاءٌ يَخْسَرُ فيه الْمُبْطِلون .

وعن عبدِ السَّلامِ بنِ السندي قالَ : كانَ مُوسَىٰ عندنا مَحْبوساً ، فلمَّا ماتَ بَعثْنا إلىٰ جَماعَة من العُدولِ ، من الكَرْخِ ، فأدْخَلْناهم عليه ، فأشْهَدْناهم علىٰ مَوْتِه ودُفنَ في مَقابِرِ الشُّونيزيَّة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : له مَشْهدٌ عَظيمٌ مَشْهورٌ ببَغْدادَ ، دُفنَ فيه حَفيدُه الجَواد وَلِوَلَدِه عليٌّ بنُ مُوسَىٰ مَشْهدٌ عَظيْم بطُوسَ وكانت وَفاةُ مُوسَى الكاظِم في سَنةِ ثَلاثٍ وثَمانينَ ومِئة ، عاشَ خَمساً وخَمسينَ سَنةً وخَلَّفَ عِدَّةَ أوْلادٍ ، الجَميعُ من إماء[٤] .

وعن الشَّافعيِّ : بئسَ الزَّادُ إلى الْمَعادِ العُدْوَانُ على العِباد[٥] .

---

(١) يَعني : شَقيقَ بنَ سَلمَة .
(٢) انظر السير : (شَقيق بن سَلَمَة) ٤/ ١٦١ـ١٦٦ ، وانظر النزهة : ٦/٤٦٩ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٩ .
(٤) انظر السير : (موسَى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦٥١ .
(٥) انظر السير : (الإمامُ الشَّافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٤٩ .

١٣ـ خُروجُ الصَّالحين على الظَّالمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الأشْعَث : الأميرُ مُتوَلِّي سِجِسْتان ، عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ مُحمَّد بنُ الأشْعَث الكِنْدي .

بعثَه الحَجَّاجُ علىٰ سِجِسْتانَ ، فثارَ هناك ، وأقبلَ في جَمعٍ كَبير ، وقامَ مَعه عُلماءُ وصُلَحاءُ لله تَعالىٰ لِمَا انتُهكَ الحَجَّاجُ من إمَاتَة وَقتِ الصَّلاةِ ، ولِجَورِه وجَبَرُوتِه فقَاتَله الحَجَّاجُ ، وجَرىٰ بَينَهما عِدَّة مَصافَّات ويَنتصِرُ ابنُ الأشْعَث ودامَت الحَربُ أشْهُراً ، وقُتلَ خَلقٌ من الفَريقين ، وفي آخِرِ الأمْرِ انْهَزَمَ جَمعُ ابنِ الأشْعَث وفَرَّ هو إلى الْمَلِكِ « رُتْبيلَ » مُلْتَجِئاً إليه فقالَ له عَلْقَمَةُ بنُ عَمرٍو : أخافُ عَليك ، وكأنِّي بكِتابِ الحَجَّاجِ قد جاءَ إلىٰ رُتْبيلَ يُرَغِّبُه ويُرَهِّبُه ، فإذا هو قد بَعثَ بك أو قَتلَك ولكن ها هنا خَمسُ مئة مُقاتِل قد تَبايَعْنا علىٰ أنْ نَدخُلَ مَدينَةً نَتحَصَّنُ بها ونُقاتِلَ حتىٰ نُعطَىٰ أمَاناً أو نَموتَ كِراماً فأبَىٰ عليه وأقامَ الخَمسُ مئة حتىٰ قَدِمَ عِمارَةُ بنُ تَميم فقَاتَلوه حتَّىٰ أمَّنَهم ووَفَّىٰ لهم ، ثم تَتابَعَت كُتُبُ الحَجَّاجِ إلىٰ رُتْبيلَ بطَلَبِ ابنِ الأشْعَث ، فبَعثَ به إليه علىٰ أنْ ترك له الحمل[1] سَبعَةَ أعْوَام .

وأرْسَلَ إلى ابنِ الأشْعَث وإلىٰ ثَلاثينَ من أهْلِ بَيتِه وقد هَيَّأ لهم القُيودَ والأغْلالَ فقَيَّدَهم وبَعثَ بهم ، فلَمَّا قَرُبَ ابنُ الأشْعَث من العِراقِ ألْقَىٰ نَفسَه من قَصْرٍ خَرابٍ أنْزَلُوهُ فَوْقَه فهَلكَ وذلكَ في سَنةِ أرْبَع وثَمانينَ[2] .

وقالَ مَالكُ بنُ دِينار : لَقيتُ مَعبدَ بنَ عبدِ الله بمَكةَ بعدَ فِتنَة ابنِ الأشْعَث وهو جَريحٌ ، قد قاتَلَ الحَجَّاجَ في الْمَواطِنِ كُلِّها[3] .

وعن الشَّعْبيِّ ، قالَ : لَمَّا قَدمَ الحَجَّاجُ سَألَني عن أشْيأءَ من العِلمِ فوَجدَني بها

---

(١) كذا الأصل ـ وهو محتمل ـ ولعلها (الصلح) فقد جاءت عبارة الطبري (٦/ ٣٩٠) هكذا : « وترك له الصلح الذي كان يأخذه منه سبعة سنين) .

(٢) انظر السير : (ابن الأشْعَث) ٤/ ١٨٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٧٢ .

(٣) انظر السير : (مَعْبد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٧٤ .

عارِفاً ، فجعلَني عَرِّيفاً علىٰ قَومي الشَّعْبيِّين وَمَنْكباً[1] علىٰ جَميع همْدانَ وفَرضَ لي ، فلَمْ أزَلْ عندَه بأحْسَنِ مَنْزِلَة ، حتَّىٰ كانَ شَأنُ عبدِ الرَّحْمـٰنِ بنِ الأشْعَث فأتَاني قُرَّاءُ أهْلِ الكُوفَة ، فقالوا : يا أبا عَمرو ، إنَّكَ زَعيمُ القُرَّاءِ ، فلَمْ يَزالوا حتَّىٰ خَرجْتُ مَعهم ، فقُمتُ بين الصَّفَّينِ أَذْكُرُ الحَجَّاجَ وأعيبُه بأشْياءَ ، فبَلغَني أنَّه قالَ : ألا تَعْجَبون من هـٰذا الخَبيثِ أما لَئن أمْكَنني اللهُ منه ، لأجْعَلنَّ الدُّنيا عليه أضْيَقَ من مَسْكِ جَمَل[2] قالَ فما لَبِثْنا أنْ هُزِمْنا .

وقال الأصْمَعيُّ لَمَّا أُدْخلَ الشَّعْبيُّ على الحَجَّاجِ قالَ : هيه يا شَعْبيُّ : قالَ : أحْزَنَ بنا الْمَنزِلُ[3] ، واسْتَحْلَسْنا[4] الخَوفَ ، فلَمْ نَكُنْ فيها بَرَرَةً أتْقياء ، ولا فَجَرَةً أقْوياء فقالَ : لله دَرُّك[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : خَرجَ القُرَّاءُ ، وهم أهْلُ القُرآنِ والصُّلاَّحُ بالعِراقِ على الحَجَّاجِ لِظُلْمِه وتأخِيرِه الصَّلاةَ والجُمَعَ في الحَضَر ، وكان ذلك مَذْهَباً لبَني أُمَيَّة كما أخْبَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يَكونُ عَلَيْكم أُمَراءُ يُميتُونَ الصَّلاةَ » فخَرجَ على الحَجَّاجِ عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ الأشْعَث بنُ قَيْس الكِنْديُّ ، وكان شَريفاً مُطاعاً ، وجَدَّتُه أخْتُ الصِّدِّيقِ ، فالْتَفَّ علىٰ مائة ألفٍ أو يَزيدون ، وضاقَت على الحَجَّاجِ الدُّنيا ، وكادَ أنْ يَزولَ مُلكُه وهَزَموه مَرَّاتٍ ، وعايَنَ التَّلفَ وهو ثابتٌ مِقْدامٌ ، إلىٰ أنْ انْتُصرَ وتَمزَّقَ جَمعُ ابنِ الأشْعَث ، وقُتلَ خَلقٌ كَثيرٌ من الفَريقَينِ فكانَ مَنْ ظَفَرَ به الحَجَّاجُ منهم قَتلَه إلاَّ مَنْ باءَ منهم بالكُفْرِ علىٰ نَفسِه فيَدَعُه[6] .

وعن عُتْبَة مَوْلَى الحَجَّاجِ ، قالَ : حَضرتُ سَعيدَ بنَ جُبَيْر حين أُتيَ به الحَجَّاج بواسِط فجَعلَ الحَجَّاجُ يَقولُ : ألَمْ أفْعَلْ بك ؟ ألَمْ أفْعَلْ بك ؟ فيَقولُ : بَلَىٰ قالَ : فمَا

---

(١) قال اللَّيثُ : مَنكِبَ القوم رأسُ العُرفاء .
(٢) المسك : الجلد .
(٣) أحْزَنَ بنا المنزل : صار ذا حزونة (خشونة) كأن المنزل أركبهم الحزونة حيث نزلوا فيه .
(٤) استحلس فلان الخوف إذا لم يفارقه الخوف ولم يأمن .
(٥) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٦/٥٠٢ .
(٦) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/٥٠٣ .

حَملَك علىٰ ما صَنعتَ من خُروجِكَ عَلينا ؟ قالَ : بَيعَةٌ كانت عليَّ ـ يَعْني لابنِ الأشْعَث ـ فغَضِبَ الحَجَّاجُ وصَفَّقَ بيَدَيه ، وقالَ : فبَيعَةُ أميرِ المؤمنينَ كانت أسْبَقُ وأوْلَىٰ وأمَرَ به ، فضُربَت عُنقُه وقيلَ : لَوْ لَمْ يُواجِهْه سَعيدُ بنُ جُبَير بهـٰذا ، لاسْتَحْياهُ كمَا عَفَا عن الشَّعْبيِّ لَمَّا لاطَفَه في الاعْتِذارِ .

عن عُمرَ بنِ سَعيدِ بنِ أبي حُسَين ، قالَ : دَعَا سَعيدُ بنُ جُبَيْر حين دُعي للقَتلِ فجَعلَ ابنُه يَبكي ، فقالَ : ما يُبكيك ؟ ما بَقاءُ أبيكَ بعدَ سَبعٍ وخَمسينَ سَنة[1] .

وقيلَ : إنَّ ابنَ عائذ كانَ فيمَنْ خَرجَ مع القُرَّاء على الحَجَّاجِ يَومَ الجَمَاجِم ، فعَفَا عَنه الحَجَّاجُ لجَلالَتِه[2] .

وقيلَ إنَّ الحَجَّاجَ لَمَّا أُتي بعبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ عائذ قالَ له الحَجَّاجُ : كيفَ أصْبَحتَ ؟ قالَ : لا كمَا يُريدُ اللهُ ، ولا كمَا يُريدُ الشَّيطانُ ، ولا كمَا أُريدُ قالَ : وَيْحَك ، ماتَقولُ ؟ قالَ : نَعَم ، يُريدُ اللهُ أنْ أكُونَ عابِداً زاهِداً وما أنا كَذلك ، ويُريدُ الشَّيطانُ أنْ أكُونَ فاسِقاً مارِقاً وما أنا بذَاك ، وأُريدُ أنْ أكُونَ مُخلًّىٰ في بَيتي ، آمِناً في أهْلِي وما أنا بذَاك ، فقالَ الحَجَّاجُ : أدَبٌ عِراقِيٌّ ، ومَوْلِدٌ شَامِيٌّ ، وجِيرانُنا إذْ كُنَّا بالطَّائفِ ، خَلُّوا عنه[3] .

وقالَ أيُّوبُ السِّخْتيانيُّ : قيلَ لابنِ الأشْعَث : إنْ أرَدْتَ أنْ يُقتَلوا حَولَك كما قُتلوا يَومَ الجَملِ حَولَ جَملِ عائشَة فأَخْرِجْ مَعكَ مُسْلمَ بنَ يَسار ، فأخْرَجَه مُكْرَهاً[4] .

وعن أبي قِلابَة : قالَ لي مُسْلمُ بنُ يَسار : إنِّي أحْمَدُ اللهَ إليكَ ، أنِّي لَمْ أرْمِ بسَهْم ولَمْ أضْرِبْ فيها بسَيفٍ ، قُلتُ له : فكَيفَ بمَنْ رآكَ بينَ الصَّفَّينِ فقالَ : هـٰذا مُسْلمُ بنُ يَسار لَنْ يُقاتلَ إلاَّ علىٰ حَقٍّ ، فقَاتلَ حتَّىٰ قُتلَ ؟ فبَكَىٰ واللهِ حتَّىٰ وَدِدْتُ أنَّ الأرضَ انْشقَّت فدَخلتُ فيها[5] .

---

(١) انظر السير : (سَعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٠٦ .
(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عائذ) ٤/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٣٨ .
(٣) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عائذ) ٤/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٣٨ .
(٤) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٤٨ .
(٥) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٤٨ .

وقالَ أيُّوبُ السِّخْتيانيُّ : وفي القُرَّاء الذِّين خَرجُوا مع ابنِ الأشْعَث ، لا أعْلمُ أحداً منهم قُتلَ ، إلاَّ رُغِبَ له عن مَصْرَعِه أو نَجا إلاَّ نَدِمَ علىٰ ما كانَ منه[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَكَمِ بنِ هِشام : وكَثُرت العُلماءُ بالأنْدَلُسِ في دَولتِه ، حتَّىٰ قيلَ : إنَّه كانَ بقُرْطُبَةَ أربعة آلاف مُتَقلِّس مُتَزَيِّين بزيِّ العُلماءِ ، فلمَّا أرادَ الله فناءَهم ، عَزَّ عليهم انْتِهاكُ الحَكَم للحُرُماتِ ، وائتَمَروا ليَخْلَعوه ، ثم جَيَّشوا لقِتالِه ، وجَرَت بالأنْدَلُسِ فِتنَةٌ عَظيمَةٌ على الإسْلامِ وأهْلِه ، فلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، فذَكرَ ابنُ مُزين في تاريخِه طَالوتَ بنَ عبدِ الجبَّارِ الْمُعَافريَّ ، وأنَّه أحَدُ العُلماءُ العَامِلينَ الشُّهَداء الذين هَمُّوا بخَلع الحَكَم ، وقالوا : إنَّه غَيرُ عَدلٍ ونَكثُوه في نُفوسِ العَوَامِّ ، وزَعَموا أنَّه لا يَحِلُّ الْمُكْثُ ولا الصَّبْرُ علىٰ هٰذه السِّيرَة الذَّميمَة ، وعَوَّلوا علىٰ تَقديمِ أحَدِ أهْلِ الشُّورَىٰ بقُرْطُبَةَ ، وهو أبو الشَّمَّاسِ أحمَدُ بنُ الْمُنْذِر بنِ الدَّاخِل الأُمَويِّ ابنِ عَمِّ الحَكَم لِمَا عَرَفوا من صَلاحِه ، وعَقلِه ، ودِينِه ، فقَصَدوه وعَرَّفوه بالأمْرِ ، فأبْدَى الْمَيْلَ إليهم ، والبُشْرَىٰ بهم ، وقالَ لهم : أنتم أضْيَافي اللَّيلَة ، فإنَّ اللَّيلَ ، أسْتَر ، ونامُوا ، وقامَ هو إلى ابنِ عمِّه بجَهلٍ ، فأخْبرَه بشأنِهم ، فاغْتاظَ لذلك ، وقالَ : جئتَ لسَفك دَمي أو دِمائِهم ، وهم أعْلامٌ ، فمن أين نَتوصَّلُ إلىٰ ما ذَكرتَ ؟ فقالَ : أرْسِلْ معي مَنْ تَثقُ به ليَتحَقَّق ، فوَجَّهَ مَنْ أحَبَّ ، فأدْخَلَهم أحمَدُ في بَيتِه تَحتَ سِتْر ، ودَخلَ اللَّيلُ ، وجاءَ القَومُ ، فقالَ : خَبِّرُوني مَنْ مَعَكُم ؟ فقالوا : فُلانٌ الفَقيهُ ، وفُلانٌ الوَزيرُ ، وعدُّوا كباراً والكاتِبُ يَكتُبُ حتَّى امْتلأ الرَّقُّ ، فمَدَّ أحَدُهم يدَه وَراءَ السِّتْرِ ، فرَأى القَومَ ، فقامَ وقامُوا ، وقالُوا : فعَلتَها يا عَدُوَّ اللهِ ، فمَنْ فَرَّ لِحينِه ، نَجا ومَنْ لا ، قُبضَ عليه ، فكانَ مِمَّنْ فَرَّ عيسَىٰ بنُ دينار الفَقيه ، ويَحْيَىٰ بنُ يَحْيَى الفَقيهُ صاحِبُ مَالِك ، وقُرْعُوسُ بنُ العَبَّاسِ الثَّقَفيُّ .

وقُبضَ علىٰ ناسٍ كأبي كَعْب ، وأخيه ، ومَالِكِ بنِ يَزيد القاضي ، وموسَىٰ بنِ سَالِم الخَوْلاني ، ويَحْيَىٰ بنِ مُضَر الفَقيه ، وأمثالهم من أهْلِ العِلمِ والدِّين ، في سَبعَةٍ وسَبعينَ رَجُلاً ، فضُربَت أعْناقُهم ، وصُلِبُوا .

---

(١) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٥٤٨ .

وأضاف إليهم عَمَّيه كُلَيْباً ، وأمية ، فصُلبا ، وأَحْرَقَ القُلوبَ عليهم ، وسارَ بأمرِهم الرِّفاقُ ، وعَلِمَ الحَكَمُ أنَّه مَحْقودٌ من النَّاسِ كُلِّهم ، فأخَذَ في جَمعِ الجُنودِ والحَشَمِ وتَهيَّأ ، وأخَذَت العامَّةُ في الهَيَج ، واسْتأسَدَ النَّاسُ ، وتَنمَّروا ، وتأهَّبوا ، فاتَّفقَ أنَّ مَمْلوكاً خَرجَ من القَصرِ بسَيفٍ دَفعَه إلى الصَّيْقَل ، فمَاطَله ، فسَبَّه ، فجاوَبَه الصَّيْقَلُ فتَضارَبا ونالَ منه الْمَمْلوكُ ، حتىٰ كادَ أنْ يُتْلِفَه ، فلمَّا تركَه ، أخذَ الصَّيْقَلُ السيفَ فقتلَ به الْمَمْلوكَ ، فتألَّبَ إلى الْمَقتُولِ جَماعَةٌ ، وإلى القاتِلِ جَماعَةٌ أُخْرَىٰ ، واسْتَفحَلَ الشَّرُّ ، وذلك في رَمضانَ سَنةَ اثنتَين ومئتَين ، وتَداعَىٰ أهْلُ قُرطُبَة من أرْباضِهم ، وتألَّبوا بالسِّلاحِ ، وقَصَدوا القَصرَ ، فرَكبَ الجَيشُ والإمامُ الحَكَمُ ، فهَزَموا العامَّةَ ، وجاءَهم عَسكَرٌ من خَلفِهم ، فوَضَعوا فيهم السَّيفَ ، وكانَت وَقعَةً هائلَةً شَنيعَةً ، مَضىٰ فيها عَددٌ كَثيرٌ زُهاءَ عن أربَعينَ ألفاً من أهْلِ الرَّبَض ، وعايَنوا البَلاءَ من قُدَّامِهم ومن خَلفِهم فتَداعُوا بالطَّاعَة ، وأذْعَنوا ولا ذُوا بالعَفْوِ ، فعَفا عَنهم علىٰ أنْ يَخرُجوا من قُرطُبَة ، ففَعلوا وهُدِّمَت ديارُهم ومَساجِدُهم .

ماتَ الحَكَمُ سَنةَ سِتٍّ ومئتين ، وله ثَلاثٌ وخَمسونَ سَنةً ، وَوَلِيَ الأنْدَلُسَ بَعْدَه ابنُه أبو الْمُطَرِّف عبدُ الرحمَـٰن[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يَحْيَىٰ بنِ مُحمَّد بنِ يَحْيَى الذُّهْليِّ : قَتَلَه أحمدُ بنُ عبد الله الخُجُسْتَانيُّ ظُلْماً سَنةَ سَبْع وستِّين ومئتَين لكَونِه قامَ عليه وحارَبَه لاعْتِدائه وعَسْفِه .

قالَ الحَاكِمُ : سَمعتُ أبا بَكْر بنَ إسْحاقَ ، سَمعتُ نُوحَ بنَ أحمَدَ ، سَمعْتُ أحمدَ بنَ عبد الله الخُجُسْتانيَّ يقولُ : دَخلتُ علىٰ حَيْكانَ في مَحْبَسه الذي كنتُ حَبَسْتُه فيه علىٰ أن أضْربَه خَشبان ، وأُخلِّيَ سَبيلَه ، وما كُنْتُ عازما علىٰ قَتلِه ، فلمَّا قَرُبتُ منه ، مَدَدتُ يَدي إلىٰ لِحْيَته ، فقَبضتُ عليها فقَبضَ علىٰ خِصْيَتي ، حتَّىٰ لَمْ أشُكَّ أنَّه قاتِلي ، فذَكرتُ سِكِّيناً في خُفِّي ، فجَرَّدتُ السِّكينَ ، وشَقَقتُ بَطنَه[2] .

---

(١) انظر السير : (الحَكَم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٥١ .

(٢) انظر السير : (يَحْيَى بن محمّد بن يَحْيَى الذُّهْلي) ١٢/ ٢٨٥ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٠١ .

وقالَ أبو العَبَّاس السَّرَّاج : كان يَحْيَىٰ بنُ محمَّد أخْرَجَه الغُزاةُ وجماعَةٌ من أصْحَاب الحَديثِ وأصْحابِ الرَّأي ، وأرْكَبوه دابَّةً ، وألْبَسوه سَيفاً قال الْمُزَكِّي : بَلَغَني أنَّه كانَ سَيفَ خَشَب ـ وقاتَلوا سُلطانَ نِيسابُورَ ، يُقالُ له أحمَدُ بنُ عبد الله ، خارِجيٌّ ، غَلبَ على البَلَد ، وكانَ ظالِماً غاشِماً وكانَ النَّاسُ أو أكثَرُهم مُجْتَمعينَ عليه مع يَحْيَىٰ ، فكانت الدَّبرَةُ على العامَّة وهَربَ يَحْيَىٰ إلىٰ رُسْتاقٍ ، يُقالُ له : بُست فدُلَّ عليه أحمَدُ بنُ عبد الله وجيءَ به ، فقالَ : إنَّ عامَّةَ مَنْ كانَ مع يَحْيَىٰ من الرُّؤسَاء ، انْقَلبوا عليه لَمَّا واقَفَه أحمَدُ ، وقالَ : ألَمْ أُحْسِن إليكَ ؟ ألَمْ أفعَلْ ، ألَمْ أفعَلْ ؟ وكانَ يَحْيَىٰ فوقَ جَميعِ أهلِ البَلَد فقالَ : أُكْرِهتُ علىٰ ذلك واجْتَمَعوا عليَّ ، قالَ : فرَدَّ عليه الجَماعَة ، أو مَنْ حَضرَ منهم ، وقالوا : لَيسَ كما قالَ فأخَذَه أحمَدُ فقَتلَه ، يُقالُ : إنه بَنَىٰ عليه قالَ : وقالَ إنَّه أمَرَ بجَرِّ خُصْيَيْه حتىٰ ماتَ .

قالَ الحاكِمُ : سَمعتُ أبا عبد الله بن الأخْرَم يقولُ : ما رَأيتُ مثلَ حَيْكانَ ، لا رَحِمَ اللهُ قاتِلَه[1] .

وقال عبدُ الله أحمَدُ بنُ الدُّحَيْميّ : سَمعتُ المَرَّارَ بنَ حَمَّويْه يَقولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْني الشَّهادَة ، وأمَرَّ يَدَه علىٰ حَلْقِه ، قِيلَ : لمَّا وَقَعَتْ فِتْنةُ المُعْتَزِّ والمُسْتَعينُ كان علىٰ هَمَذانَ الأميرانِ جَبَّاخ وجُغْلان من قِبَل المُعتَزِّ ، فاستَشارَ أهلُ هَمَذان المَرَّارَ والجُرْجانيَّ في مُحارَبَتِهما ، فأمَراهُم بلُزومِ مَنازِلَهم ، فلمَّا أغارَ أصْحابُهُما علىٰ دارِ سَلَمَةَ بنِ سَهْل وغَيرها ، ورَمَوا رَجُلاً بسَهْم ، أفْتَياهُم في الحَرْبِ ، وتَقَلَّدَ المَرَّارُ سَيفاً ، فخَرَجَ مَعَهم فقُتِلَ عَددٌ كثيرٌ من الفَريقَينِ ، ثم طلب مُفلِحُ المرَّارَ ، فاعْتصَم بأهلِ قُم ، وهَرَبَ معَه إبراهيمُ بنُ مَسْعود المُحَدِّثُ ، فأمَّا إبراهيمُ فهازَلَهُم وقارَبَهُم فسَلِم ، وأمَّا المرَّارُ ، فأظْهَرَ مُخالَفَتَهم في التَّشَيُّعِ ، وكاشَفَهم ، فأوْقَعوا به وقَتَلوه ، رَحِمَه الله .

ورَوَى الحُسَينُ بنُ صالِح أنَّ عَمَّه المَرَّارَ قُتِلَ في سَنةِ أرْبعٍ وخَمسينَ ومِئَتَينِ وله أرْبَعٌ

---

(١) انظر السير : (يَحْيَى بن محمّد بن يَحْيَى الذُّهْلي) ١٢/ ٢٨٥ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١/١٠٠٢ .

وخَمسونَ سَنةً قال صالِحُ بنُ أحمَدَ التَّميميُّ قُتِلَ المرَّارُ في السُّنَّة شَهيداً .

قال الذهبيُّ : كان من أئِمَّة الإسْلام[1] .

١٤ـ مَنْ نَدمَ علىٰ خُروجِه :

عن أبي قِلابَة : قالَ لي مُسْلمُ بنُ يَسار : إنِّي أحْمَدُ اللهَ إليكَ ، أنِّي لَمْ أرْمِ بسَهْم ولَمْ أضْرِبْ فيها بسَيفٍ ، قُلتُ له : فكَيفَ بمَنْ رآكَ بينَ الصَّفَّينِ فقالَ : هـٰذا مُسْلمُ بنُ يَسار لَنْ يُقاتلَ إلاَّ علىٰ حَقٍّ ، فقَاتلَ حتَّىٰ قُتلَ ؟ فبَكَىٰ واللهِ حتَّىٰ وَدِدْتُ أنَّ الأرضَ انْشقَّت فدَخلتُ فيها[2] .

وقالَ أيُّوبُ السِّخْتيانيُّ : وفي القُرَّاء الذَّين خَرجُوا مع ابنِ الأشْعَث ، لا أعْلمُ أحداً منهم قُتلَ ، إلاَّ رُغِبَ له عن مَصْرَعِه أو نَجا إلاَّ نَدِمَ علىٰ ما كانَ منه[3] .

١٥ـ مَنْ كان يَرى الخُروجَ لكنَّه لم يُقاتِلْ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَسَنِ بنِ صالح : كانَ يَرى الخُروجَ علىٰ أُمَراء زَمانِه لِظُلمِهم وجُورِهم ، ولكنْ ما قاتَلَ أبداً ، وكانَ لا يَرَى الجُمُعَةَ خَلفَ الفاسِق[4] .

وقال عبد الله بن دواد الخُرَيبي : تَركَ الحَسنُ بنُ صالح الجُمُعَةَ ، فجاءَ فُلانٌ ، فجَعلَ ينُاظِرُه لَيلَةً إلى الصَّباحِ ، فذَهبَ الحَسنُ إلىٰ تَركِ الجُمُعَة مَعَهم ، وإلى الخُروجِ عَليهم ، وهـٰذا مَشْهورٌ عن الحَسَنِ بنِ صالِح ودَفَع اللهُ عنه أنْ يُؤخَذَ ، فيُقتَلَ بدينِه وعبادَتِه .

مات الحَسنُ بنُ صالح سنةَ تسعٍ وستِّينَ ومئة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عاشَ تِسْعاً وستِّينَ سَنةً ، وكان هو وأخوهُ عَليٌّ تَوْأماً[5] .

---

(١) انظر السير : (المَرَّار بن حمويه) ١٢/ ٣٠٨ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٠٣ .
(٢) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٤٨ .
(٣) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٤٨ .
(٤) انظر السير : (الحَسَن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٠٤ .
(٥) انظر السير : (الحَسَن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٠٤ .

١٦ـ مَنْ خَرجَ على الخُلَفاء والأُمَراء (من غَير الخَوَارج) :

قالَ خَليفَةُ بنُ خَيَّاط : حدَّثنا إسْماعيلُ بنُ إبْراهيمَ ، عن أبيه أنَّ يَزيدَ بنَ الوَليدِ ، خَطبَ عند قَتلِ الوَليدِ ، فقالَ : إنِّي والله ما خَرجتُ أشَراً ولا بَطراً ، ولا حِرْصاً على الدُّنيا ، ولا رَغبَةً في الْمُلكِ ، وإنِّي لَظَلومٌ لنَفسي إنْ لمْ يَرْحمْني ربِّي ، ولكنْ خَرجتُ غَضباً لله ولدينه ، داعياً إلىٰ كتابِ الله وسُنَّة نَبيِّه ، حينَ دُرِسَت مَعالم الهُدَىٰ ، وطُفِيءَ نُورُ أهْلِ التَّقوَىٰ ، وظَهرَ الجَبَّارُ الْمُسْتحِلُّ للحُرمَة ، والرَّاكِبُ البدعة ، فأشْفَقتُ إذ غَشيكم ظُلمُه أنْ لا يُقلعَ عنكم من ذنُوبِكم ، وأشْفَقتُ أنْ يَدعُوا أُناساً إلىٰ ما هو عليه ، فاسْتَخرتُ اللهَ ، ودَعوتُ مَنْ أجابَني ، فأراحَ اللهُ منه البِلادَ والعِبادَ .

أيُّها النَّاسُ إنَّ لكُم عندي إنْ وُلِّيتُ أنْ لا أضَعَ لَبنَةً علىٰ لَبنَةً ، ولا أنْقلُ مالاً من بَلدٍ إلىٰ بَلدٍ حتَّىٰ أسُدَّ الثُّغورَ ، فإنْ فَضلَ شَيءٌ رَددتُه إلى البَلدِ الذي يَليه ، حتىٰ تَستقيمَ الْمَعيشَة وتَكونَ فيه سَواء ، فإنْ أرَدتُم بَيْعَتي على الذي بَذلتُ لكم ، فأنا لكم ، وإنْ مِلْتُ ، فلا بَيْعَةَ لي عَليكُم ، وإنْ رأيْتُم أقْوَىٰ منِّي عليها ، فأرَدْتُم بَيْعَتَه ، فأنا أوَّلُ مَنْ يُبايع ، ويَدخُلُ في طاعَتِه ، وأسْتغفِرُ اللهَ لي ولكم[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ زَيدِ بنِ علي : وكانَ ذَا عِلمٍ وجَلالَة وصَلاحٍ ، هَفا ، وخَرجَ فاسْتُشهِد .

وَفِدَ علىٰ مُتولِّي العِراق يُوسُف بنِ عُمرَ ، فأحْسَنَ جائزَتَه ، ثم رُدَّ ، فأتاه قَومٌ من الكُوفَة ، فقالوا : ارْجِعْ نُبايِعْك ، فما يُوسُفُ بشَيء فأصْغَىٰ إليهم وعَسْكرَ ، فبَرزَ لحَربِه عَسكَرُ يُوسُفَ ، فقُتلَ في المعْركَة ، ثم صُلبَ أرْبع سنينَ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : خرجَ مُتأوِّلاً ، وقُتل شَهيداً ، ولَيْتَه لَمْ يَخرجْ[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مُحمَّدِ بنِ عجْلانَ : وقَدْ خَرجَ على الْمَنْصُورِ مع ابنِ

---

(١) انظر السير : (يَزيد بن الوَليد) ٥/ ٣٧٤ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦١٣ .

(٢) انظر السير : (زَيْد بن عليّ) ٥/ ٣٨٩ـ ٣٩١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦١٤ .

(٣) انظر السير : (زَيْد بن عليّ) ٥/ ٣٨٩ـ ٣٩١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦١٤ .

حَسَن ، فلَمَّا قُتلَ ابنُ حَسَن ، هَمَّ وَالي المَدينَة جَعْفَرُ ابنُ سُلَيْمانَ أنْ يَجْلِدَه فقالوا له : أصْلحَك اللهُ : لَوْ رَأيتَ الحَسَنَ البَصْريَّ فَعلَ مثلَ هـٰذا أكُنتَ تَضرِبُه ؟ قالَ : لا قِيلَ : فابنُ عجْلانَ في أهْلِ المَدينَةِ كالحَسَنِ في أهْلِ البَصْرَة[1] .

قالَ مُصْعَبُ الزُّبَيْريُّ : كان لابنِ عجْلان قَدرٌ وفَضلٌ بالمَدينَة وكانَ مِمَّنْ خَرجَ مع مُحمَّدِ بنِ عبدِ الله ، فأرادَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ قَطعَ يَدِه ، فسَمِعَ ضَجَّةً ، وكان عندَه الأكابِرُ فقالَ : ما هـٰذا ؟ قالوا هـٰذه ضَجَّةُ أهْلِ المَدينَة يَدعُونَ لابنِ عجْلانَ فلَوْ عَفَوْتَ عنه ؟ وإنَّما غُرَّ ، وأخْطأ في الرِّوايَة ظَنَّ أنَّه الْمَهْديَّ ، فأطْلقَه وعَفا عنه[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الحَميد بن جَعْفَر : وكان سُفيانُ الثَّوريُّ يَنقِمُ عليه خُروجَه مع محمَّدِ بنِ عبد اللهِ بنِ حَسَن[3] ، وكان من فُقهاءِ الْمَدينَة[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ المنصورِ العَبَّاسيِّ : خرجَ عليه ابنا عبدِ الله بن حَسَن ، وكادَ أنْ تَزولَ دَولتُه ، واسْتعدَّ للهَرَب ثم قُتلا في أرْبَعينَ يَوماً ، وألْقَىٰ عَصاهُ ، واسْتقرَّ[5] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عَليٍّ الرِّضا : قيلَ : إنَّ أخاه زَيداً خَرجَ بالبَصْرَة على الْمَأمونِ ، وفَتكَ ، وعَسَفَ فنفَّذَ إليه الْمَأمونُ عليَّ بنَ مُوسَىٰ أخاه ليَرُدَّه ، فسارَ إليه فيما قيلَ ، وقالَ : وَيلَك يا زَيدُ ، فَعلتَ بالمسلمينَ ما فَعلتَ ، وتَزعُمُ أنَّك ابنُ فاطِمَةَ ؟!! ، واللهِ لأشَدُّ النَّاسِ عَليك رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، يَنبغي لِمَنْ أخذَ

---

(١) انظر السير : (محمد بن عَجْلان) ٦/ ٣١٧ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ٨/٦٥٣ .

(٢) انظر السير : (محمد بن عَجْلان) ٦/ ٣١٧ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٥٤ .

(٣) هو محمد بن عبد الله بن حَسَن بن حَسَن بن علي بن أبي طالب ، وكان خروجه على المنصور مع أخيه إبراهيم ، ذلك أنهما تخلَّفا عن الحضور عند المنصور عندما حجَّ في ذلك العام ، فطلبهما وبالغ في ذلك ، وقبض علىٰ أبيهما مع عدد من أهل البيت ، وسجنهم وماتوا في سجنه ، فثار محمد هـٰذا في المدينة ، وسَجنَ مُتوَلِّيها ، وصار له شأن وعُمَّالٌ في المدن إلىٰ أن أرسلَ إليه المنصور جيشاً بقيادة عيسى بن موسىٰ فقضىٰ عليه سنة خمس وأربعين ومئة .

(٤) انظر السير : (عبد الحميد بن جَعْفَر) ٧/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦٧٢ .

(٥) انظر السير : (المنصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٦/٦٧٨ .

برسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُعطيَ به ، فبَلغَ الْمَأمونُ ، فبَكَىٰ ، وقالَ : هَكذا يَنبغي أنْ يَكونَ أهْلُ بَيتِ النُّبوَّة هَكذا[1] .

قالَ الخَطيبُ : بُويعَ إبراهيمُ بنُ الْمَهْدي بالخِلافَه زَمنَ الْمَأمونِ ، فحارَبَ الحَسَنَ بنَ سَهْل ، فهَزمَه إبْراهيمُ ، ثم أقبلَ لحَرْبه حُمَيدٌ الطُّوسيُّ ، فهُزمَ جَمعُ إبراهيم واخْتَفَىٰ إبراهيمُ زَماناً إلىٰ أن ظَفرَ به الْمَأمونُ فعَفَا عنه[2] .

قالَ ثَمامَةُ بنُ أشْرَس : قالَ ليَ الْمَأمونُ : قد عَزمتُ علىٰ تَقريعِ عَمِّي ، فحَضرتُ ، فجيء بإبْراهيمَ بنِ الْمَهْدي مَغلولاً قد تَهدَّلَ شَعرُه فىٰ عَينِه ، فسَلَّمَ ، فقالَ : الْمَأمونُ : لا سلَّمَ اللهُ عَليكَ ، أكُفْراً بالنِّعمَة وخُروجاً عليَّ ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ القُدرَةَ تُذهِبُ الحَفيظَة ، ومَنْ مُدَّ له في الاغْترارِ هَجمَت به الأناةُ على التَّلفِ ، وقد رَفعَك الله فوقَ كلِّ ذَنب كمَا وَضعَ كلَّ ذي ذَنبٍ دُونَك ، فإنْ تُعاقِب ، فبحقِّك ، وإنْ تَعفُ فبفَضلِك قالَ : إنَّ هَـٰذين ـ يَعني ابْنَيه العَبَّاسَ والْمُعْتَصِمَ ـ يُشيرانِ بقَتلِك قالَ : أشارا عَليكَ بما يُشارُ به علىٰ مِثلِكَ في مِثلي ، والْمُلكُ عَقيمٌ ، ولكنْ تأبَىٰ لك أنْ تَستجلِبَ نَصراً من حَيثُ عوَّدك اللهُ ، وأنا عَمُّك ، والعَمُّ صنوُ الأب ، وبَكىٰ ، فتَغَرْغَرَتْ عينا الْمَأمونِ ، وقالَ : خَلُّوا عن عَمِّي ، ثم أحْضَرَه ، ونادَمَه ، وما زالَ به حتَّىٰ ضَربَ له بالعُودِ[3] .

وقيلَ إنَّ أحْمدَ بنَ خالد الوَزيرَ قالَ : يا أميرَ الْمؤمنينَ ، إنْ قَتَلتَه ، فَلَكَ نُظَراءُ ، وإنْ عَفَوْتَ ، لَمْ يَكنْ لَكَ نَظير .

تُوفِّيَ إبْراهيمُ بنُ الْمَهْدي في سَنَةِ أرْبَع وعِشْرينَ ومِئتين[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُعْتَضدِ بالله العَبَّاسيِّ : ولا رَيْبَ أنَّ أوَّلَ وَهنٍ على الأُمَّةِ قَتْلُ خَليفَتِها عُثْمانُ صَبْرا رضي الله عنه ، فهاجَت الفِتْنَةُ ، وجَرَت وَقْعَةُ الجَمَلِ بِسَبَبها ، ثمَّ وَقْعَةُ صِفِّين ، وجَرَت سِيُولُ الدِّماءِ في ذلك .

---

(١) انظر السير : (عَليٌّ الرِّضَا) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/٨٣٢ .
(٢) انظر السير : (إبْراهيم بن الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ١/٨٩٣ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيم بن الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٤/٨٩٣ .
(٤) انظر السير : (إبْراهيم بن الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ١/٨٩٤ .

ثمَّ خَرَجَت الخَوَارِجُ ، وكَفَّرَت عُثمانَ وعَليّاً ، وحارَبُوا ، ودامَتْ حُروبُ الخَوارِج سِنينَ عِدَّة .

ثمَّ هاجَتْ المُسَوِّدَةُ بخُراسَانَ ، وما زالُوا حتىٰ قَلَعُوا دَولَةَ بَني أُمَيَّة ، وقامَت الدَّولَةُ الهاشِميَّةُ بعدَ قَتْلِ أُمَمٍ لا يُحْصيهِم إلاَّ اللهُ .

ثمَّ اقْتَتَلَ المَنْصُورُ وعَمُّه عبدُ الله ثمَّ خُذِلَ عبدُ الله ، وقُتِلَ أبو مُسْلِم صاحِبُ الدَّعْوَة[1] .

ثم خَرجَ ابنَا حَسَن[2] وكادا أنْ يَتمَلَّكا فقُتلا .

ثم كانَ حَربٌ كَبيرٌ بينَ الأمين الْمَأمونِ ، إلىٰ أن قُتلَ الأمينُ .

وفي أثناءِ ذلكَ قامَ غَيرُ واحدٍ يَطلبُ الإمامَةَ[3] .

١٧ـ مَنْعُ العُلَماء النَّاسَ من الخُروج على الأُمَراء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَل : وجاءَ نفرٌ إلىٰ أبي عبد الله ، وقالوا : هـٰذا الأمرُ[4] قد فَشا وتَفاقَم ، ونحنُ نَخافُه علىٰ أكثَر من هـٰذا ، وذَكَروا ابنَ أبي دُوَاد ، وأنَّه علىٰ أنْ يأمُرَ المُعلِّمينَ بتَعليم الصِّبْيانَ في المَكاتب : القُرآنُ كَذا وكَذا ، فنحنُ لا نَرضَىٰ بإمارَته فمَنَعَهم من ذلك وناظَرَهم وحَكَىٰ أحمدُ قَصْدَه في مُناظَرَتهم ، وأمَرَهم بالصَّبْر قال : فبَينا نحنُ في أيام الواثق ، إذ جاء يَعقوبُ ليلاً برسالَةِ الأمير إسْحاق بن إبراهيم إلىٰ أبي عبد الله : يقولُ لك الأميرُ : إنَّ أميرَ المؤمنين قد

---

(١) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٥ .

(٢) هما محمد بن عبد الله بن حَسَن بن حُسَين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأخوه إبراهيم ، وكان خروجهما على المنصور ، ذلك أنهما تخلَّفا عن الحضور عند المنصور عندما حجَّ في ذلك العام ، فطلبهما وبالغ في ذلك ، وقبض علىٰ أبيهما مع عدد من أهل البيت ، وسجنهم وماتوا في سجنه ، فثار محمد في المدينة ، وسَجنَ مُتوَلِّيها ، وصار له شأن وعُمَّالٌ في المدن إلىٰ أن أرسلَ إليه المنصور جيشاً بقيادة ابن عمِّه عيسى بن موسىٰ فقضىٰ عليه سنة خمس وأربعين ومئة .

(٣) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٥ .

(٤) أي القول بخَلق القُرآن .

ذَكَرَكَ فلا يَجْتَمعَنَّ إليك أحدٌ ، ولا تُساكِنِّي بأرضٍ ولا مَدينَة أنا فيها ، فاذْهَبْ حَيثُ شئتَ من أرضِ الله قال فاخْتَفىٰ أبو عبد الله بَقيّةَ حياة الوَاثِق ، وكانت تلك الفِتْنَة ، وقُتِلَ أحمدُ بنُ نَصْر الخُزاعيّ ، ولمْ يَزَلْ أبو عبد الله مُخْتَفياً في البيتِ لا يَخْرُج إلى الصَّلاة ولا إلىٰ غَيْرِها حتىٰ هَلَكَ الوَاثِقُ[1] .

١٨ـ فَضْلُ الغَوْغاء في مُقارَعَة الأُمَراء الظَّلَمَة :

عن الشَّعْبيِّ : نِعْمَ الشيء الغَوْغاءُ ، يَسدُّونَ السَّيلَ ويُطفِئُونَ الحَريقَ ، ويَشْغَبون علىٰ وُلاةِ السُّوء[2] .

١٩ـ مَنْ ضُرِبَ لأجْلِ نَقْدِه للظَّالمين :

جاءَ في تَرجَمَةِ يَحْيَىٰ بنِ أبي كَثير ، وقالَ أبو حاتم الرَّازي : يَحْيَى ابنُ أبي كَثير إمامٌ لا يَروي إلاَّ عن ثِقَة ، وقد نالَته مِحْنَةٌ وضُربَ لكَلامِه في وُلاة الجُورِ[3] .

٢٠ـ أمْثِلَةٌ على الظَّالمين :

الحَجَّاج :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : أهلكه الله في رَمضانَ سَنةَ خَمسٍ وتِسعينَ كَهلاً ، وكان ظَلوماً ، جبّاراً ، ناصبيّاً ، خَبيثاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، وكان ذا شَجاعَةٍ وإقْدامٍ ومَكرٍ ودَهاءٍ ، وفَصاحَةٍ وبَلاغَةٍ ، وتَعظيمٍ للقُرآن قد سُقتُ من سُوء سيرَتِه في تاريخي الكبير ، وحِصارِه لابنِ الزُّبَيْر بالكَعْبَة ، ورَميه إيَّاها بالمِنْجَنيقِ ، وإذْلالِه لأهْلِ الحَرمَين ، ثم وِلايَتِه على العِراقِ والمشْرِق كلِّه عشرين سَنةً ، وحُروبِ ابنِ الأشْعَت له ، وتأخيره للصَّلوات إلىٰ أنِ استأصَلَه الله ، فنَسُبُّه ولا نُحِبُّه ، بلْ نَبْغَضُه في الله ، فإنَّ ذلك من أوْثَق عُرَى الإيمان .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٤١ .
(٢) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٠٤ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنِ أبي كَثير) ٦/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٢٧ .

وله حَسناتٌ مَغْمورَةٌ في بَحْر ذُنوبِه ، وأمْرُه إلى الله وله تَوحيدٌ في الجُملَة ونُظَراء من ظَلمَة الجَبابرَة والأُمَراء[1] .

أبو مُسْلم الخُرسَاني :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : اسْمُه عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ مُسْلم الخُراساني ، الأميرُ ، صاحبُ الدَّعْوَة ، وهازِمُ جُيوشِ الدَّوْلَة الأُمَويَّة ، والقائمُ بإنْشاءِ الدَّولَة العبَّاسيَّة[2] .

كان من أكْبرِ الملوك في الإسْلام ، وكان ذَا شأن ونَبأ غَريب من رجل يَذهبُ علىٰ حمار بإكافٍ من الشَّام حتىٰ يَدخُلَ خُراسان ، ثم يَملكُ خُراسانَ بعدَ تسعة أعْوام ، ويَعودُ بكَتائب أمْثالِ الجِبالِ ، ويَقلِبُ دَولَةً ، ويُقيمُ دَولَةً أخْرَى!

تأتيه الفُتوحاتُ العِظامُ ، فلا يَظهَرُ عليه أثرُ السُّرور ، وتَنزلُ به الفادِحَةُ الشَّديدَةُ ، فلا يُرَىٰ مُكتئباً وكان إذا غَضبَ لَمْ يَسْتفزَّه الغَضبُ .

قيلَ : مَولدُه في سنة مئة ، وأوَّلُ ظُهورِه كان بمَرْوَ في شهر رَمضانَ يوم الجُمُعَة من سنة تسعٍ وعشْرينَ ومئة ، ومُتوَلِّي خُراسان إذْ ذاكَ الأميرُ نَصْرُ بنُ سيار اللَّيثيُّ ، نائبُ مَرْوانَ بنِ محمَّد ، الحِمارُ ، خاتِمَةِ خُلفاءِ بَني مَرْوانَ ، فكان ظُهورُه يَومئذٍ في خَمسينَ رَجُلاً ، وآلَ أمرُه إلىٰ أنْ هَربَ منه نَصْرُ بنُ سيار قاصداً العِراقَ فنزَلَ به الموتُ بناحيَةِ ساوَة ، وصَفا إقْليمُ خُراسان لأبي مُسْلم ، صاحبِ الدَّعْوَة ، في ثَمانيَة وعشْرينَ شَهْراً[3] .

وقال مُصْعَبُ بنُ بِشْر : سَمعتُ أبي يقولُ : قامَ رجلٌ إلىٰ أبي مُسْلم وهو يَخْطبُ ، فقال : ما هـٰذا السَّوادُ عَليكَ ؟ فقالَ : حدَّثني أبو الزُّبَيْر عن جابرِ بن عبدِ الله ، « أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخلَ مَكةَ يَومَ الفَتْحِ ، وعَليهِ عَمامَةٌ سَوْدَاءُ » وهـٰذه ثيابُ الهَيْبَة ، وثيابُ الدَّوْلة ، يا غُلامُ اضْرِبْ عُنُقَه!

---

(١) انظر السير : (الحجَّاج) ٤/٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٨ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٦/٦٢٧ .

(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦٢٨ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان أبو مُسْلم سَفَّاكاً للدِّماءِ ، يَزيدُ على الحَجَّاجِ في ذلك وهو أوَّلُ مَنْ سَنَّ للدَّوْلة لبَاسَ السَّوادِ ، وكانَ بلاءً عَظيماً علىٰ عَرَبِ خُراسان ، فإنَّه أبادَهم بحَدِّ السَّيْف[1] .

وفي سنة اثنتَين وثَلاثينَ في ثالثِ يَومٍ من رَبيع الأوَّل ، بُويعَ السَّفَّاحُ بالخِلافَة بالكُوفَة في دار مَوْلاه الوَليدِ بنِ سَعْد وسارَ الخَليفَةُ مَرْوانُ في مئةِ ألفِ فارسٍ حتىٰ نَزلَ الزَّابَيْن[2] .دُون المُوصِل ، يَقصِدُ العِراقَ فجَهَّزَ السَّفَّاحُ له عَمَّه عبدَ الله بنَ عَليّ ، فكانَت الوَقْعَةُ علىٰ كُشاف ، في جُمادَى الآخِرَة فانْكَسَرَ مَروانُ وتَقَهْقَرَ ، وعَدى الفُراتَ ، وقَطعَ وراءهَ الجِسْرَ وقَصدَ الشَّامَ ليَتقَوَّىٰ ، ويَلتَقي ثانياً .

فجَدَّ في طَلبِه عبدُ الله بنُ عَليّ حتىٰ طَردَه عن دِمَشْقَ ، ونازَلَها وأخَذَها بعدَ أيَّام ، وبذَل السَّيفَ ، وقَتلَ بها في ثلاثِ ساعَات نَحْواً من خَمسينَ ألْفاً غَالِبُهم من جُنْدِ بَني أُمَيَّة .

وانْقَضَتْ أيامُهم ، وهَربَ مَرْوانُ إلىٰ مِصْرَ في عَسْكرٍ قَليلٍ ، فجَدُّوا في طَلبِه إلىٰ أن بَيَّتوهُ بقَرْيَة بُوصِير ، فقَاتلَ حتىٰ قُتلَ ، وطِيفَ برَأسِه في البُلْدانِ ، وهَربَ ابْناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة[3] .

قالَ محمدُ بنُ جَرير في « تاريخِه » كان بُدوُّ أمرِ بَني العَبَّاس أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قيلَ ، أعْلمَ العبَّاسَ أنَّ الخِلافَةَ تَؤولُ إلىٰ وَلَدِه ، فلَمْ يَزَلْ وَلدُه يتَوَقَّعون ذلك .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لَمْ يَصِحَّ هٰذا الخَبرُ ، ولكنَّ آلَ العبَّاسِ ، كانَ النَّاسُ يُحبُّونَهم ، ويُحبُّونَ آلَ عليٍّ ، يَوَدُّونَ أنَّ الأمْرَ يَؤول إليهم ، حُبّاً لآلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وبُغْضاً في آلِ مَرْوانَ بنِ الحَكَم فبَقُوا يَعمَلون علىٰ ذلك زَماناً حتىٰ

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٢٨ .

(٢) الزابان : الزاب الأعلىٰ ، والزاب الأسفل ، وهما نهران بين بغداد والموصل ، ونزول مروان بن محمد كان على الزاب الصغير .

(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٢٨ .

تَهيَّأت لهم الأسْبابُ ، وأقْبَلت دَولتُهم وظَهرَت من خُراسان[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : فَرِحْنا بمَصيرِ الأمْرِ إليهِم لكنْ والله ساءَنا ما جَرَىٰ من سُيولِ الدِّماءِ ، والسَّبْي ، والنَّهْب ، فإنَّا لله ، وإنَّا إليه راجِعُون ، فالدَّولةَ الظَّالِمَة مع الأمْنِ وحَقْنِ الدِّماءِ ، ولا دَولَة عادِلَة تُنتَهك دُونَها المَحارمُ ، وأنَّىٰ لها العَدلُ ؟ بلْ أتَتْ دَولةٌ أعْجَميَّة ، خُراسانيَّة ، جَبَّارَةٌ ، ما أشْبَهَ اللَّيلَة بالبَارِحَة[2] .

وفي سنةِ ثلاثٍ وثَلاثينَ ومئَة سارَ أبو جَعْفَر المَنْصُور إلىٰ خُراسانَ إلىٰ أبي مُسْلم ، ليَأخُذَ رَأيَة في قَتل أبي سَلمَة ، حَفْصِ بنِ سُلَيْمانَ الخَلاَّل وَزيرَهم وذلكَ أنَّه لَمَّا نزَلَ به السَّفَّاحُ وأقارِبُه ، حدَّثتهُ نفسُه بأنْ يُبايعَ عَلَويّاً ، ويَدعَ هَؤلاء وشَرعَ يُعمِّي أمْرَهم ، علىٰ قُوَّادِ شِيعَتِهم ، فبادَرَ كبارُهم ، وبايَعوا السَّفَّاحَ وأخْرَجُوه ، فخَطبَ النَّاسَ فما وَسِعَهُ ـ أعْني أبا سَلمَة ـ إلاَّ المُبايَعَة ، فاتَّهَمُوه .

فعنْ أبي جَعْفَر قالَ : انْتَدَبَني أخي السَّفَّاحُ للذَّهابِ إلىٰ أبي مُسْلم ، فسِرتُ علىٰ وَجَل ، فقَدمتُ الريَّ ثم شَرُفْتُ عنها فَرْسَخين ، فلمَّا صارَ بَيني وبَينَ مَرْوَ فَرْسَخين تَلقَّاني أبو مُسْلم في الجُنودِ ، فلمَّا دَنا منِّي تَرجَّل ماشياً ، فقبَّلَ يدي ، ثم نَزلتُ ، فمَكثتُ ثَلاثةَ أيَّام لا يَسْألُني عن شيء ثم سَألَني فأخْبَرتُه ، فقالَ : فَعلَها أبو سَلمَة ؟ أنا أكْفيكُمُوه فدَعا مِرارَ بنَ أنَس الضَّبيَّ ، فقالَ : انْطَلِقْ إلى الكُوفَة ، فاقْتُل أبا سَلمَة حَيثُ لَقيتَه ، قالَ : فقَتلهَ بعدَ العِشاء ، وكان يُقالُ له : وَزيرُ آلِ مُحمَّد .

ولَمَّا رَأىٰ أبو جَعْفَر عَظمَةَ أبي مُسْلم ، وسَفْكَه للدِّماءِ رَجعَ من عندِه وقالَ للسَّفَّاحِ : لَسْتَ بخَليفَة إنْ أبقَيْتَ أبا مُسْلم قالَ : وكَيفَ ؟ قال : ما يَصْنَعُ إلاَّ ما يُريدُ قالَ : فاسْكُتْ واكْتُمْهَا .

وكانَ أبو جَعْفَر يَقولُ للسَّفَّاحِ : يا أميرَ المؤمنين ، أطِعْني واقْتُلْ أبا مُسْلم فوالله إنَّ في رأسِهِ لغَدْرَة ، فقالَ : يا أخي قد عَرفْتَ بَلاءَه ، وما كانَ منه ، وأبو جَعْفَر يُراجِعُه .

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦٢٩ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٩ .

ثم حَجَّ أبو جَعْفَر وأبو مُسْلم ، فلمَّا قَفَلا تلقَّاهما مَوْتُ السَّفَّاح بالجُدَريِّ ، فوَلِيَ الخِلافَةَ أبو جَعْفَر .

وخَرجَ عليه عَمُّه عبدُ الله بنُ عَليّ بالشَّام ، ودَعا إلىٰ نَفسِه وأقامَ شُهوداً بأنَّه وَليَّ عَهْدِ السَّفَّاح ، وأنَّه علىٰ ذلك سارَ لحَرْبِ مَرْوانَ وهَزمَه ، واسْتأصَلَه .

فخَلا المَنْصُورُ بأبي مُسْلم وقالَ : إنَّما هو أنا وأنْتَ ، فَسِرْ إلىٰ عبدِ الله عَمِّي ، فسارَ بجُيوشِهِ من الأنْبارِ ، وسَارَ لحَرْبِهِ عبدُ الله فانْهَزَموا وتَركوا الذَّخائرَ والخَزائنَ ، والمُعَسْكَرَ ، فاحْتَوىٰ أبو مُسْلم على الكلِّ وكَتبَ النَّصْر إلى المَنْصور .

واخْتفَىٰ عبدُ الله ، وأرْسلَ المَنْصورُ مَوْلاهُ ليُحْصيَ ما حَواهُ أبو مُسْلم ، فغَضِبَ من ذلك أبو مُسْلم ، وهمَّ بقَتْلِ ذَلك المَوْلَىٰ ، وقالَ : إنَّما للخَليفَةِ من هـٰذا الخُمْسُ .

ولَمَّا عَلمَ المَنْصُورُ أنَّ أبا مُسْلم قد تَغيَّر كَتبَ إليه يُلاطِفُه : وأنِّي قد وَلَّيتُك مِصْرَ والشَّامَ ، فانزِلْ بالشَّام واسْتَنِبْ عنكَ بمِصْرَ ، فلمَّا جاءَه الكتابُ ، أظْهَرَ الغَضبَ وقالَ : يُوَلِّيني هـٰذا وخُراسانُ كلُّها لي ؟! وشَرعَ في المُضِيِّ إلىٰ خُراسَانَ .

فأمَرَ المَنْصورُ مَنْ حَضَرَه من بَني هاشِم يَكتبُونَ إلىٰ أبي مُسْلم يُعظِّمونَ شَأنَه ، وأنْ يُتمَّ على الطَّاعَة ، ويُحَسِّنونَ له القُدومَ على المَنْصُورِ .

ثم إنَّ المَنْصورَ سَيَّرَ أُمَراءَ لتَلقِّي أبي مُسْلم ، ولا يُظهِرُون أنَّه بَعثَهم ليُطَمْئنَه ، ويَذْكرونَ حُسْنَ نيَّة المَنْصُورِ له ، فلمَّا سَمعَ ذلكَ ، انْخَدَعَ المَغْرورُ وفَرِحَ ، فلمَّا دَخلَ عَليه ، سلَّم عَليه قائماً ، فقالَ : انْصَرفْ يا أبا مُسْلم فاسْتَرِحْ ، وادْخُل الحمَّامَ ثم اغْدُ فانْصَرفَ ، وكان من نيَّةِ المَنْصُورِ أنْ يَقتُلَه تلكَ اللَّيلَة ، فمَنعَه وَزيرُه أبو أيُّوبَ المُورياني .

قال أبو أيُّوب : فقالَ ليَ المَنْصُورُ : دَخلَ عليَّ أبو مُسْلم فعَاتَبتُه ثمَّ شَتمتُه ، وضَربَه عُثمانُ بنُ نَهيك فلَمْ يَصْنَعْ شَيئاً ، وخَرجَ شَبيبُ بنُ وَاج ، فضَربُوهُ ، فسَقطَ ، فقالَ وهُم يَضرِبُونَه : العَفْوُ ، قُلتُ : يا بنَ اللَّخْناءِ ، العَفْوُ ؟ والسُّيوفُ تَعْتَورُك ؟ وقُلتُ : اذْبَحُوهُ فذَبَحُوهُ .

ثم همَّ المَنْصُورُ بقَتلِ الأمير أبي إسْحاقَ صاحبِ حَرَس أبي مُسْلم وبقَتلِ نَصْرِ بنِ مَالِك الخُزاعيِّ ، فكلَّمَه فيهما أبو الجَهْم ، وقالَ : يا أميرَ المُومنينَ إنَّما جُندُه جُندُك ، أمَرْتَهم بطاعَتِه فأطاعُوهُ .

ثم إنَّه أعْطاهُما مالاً جَزيلاً ، وفرَّقَ عَساكرَ أبي مُسْلم وكَتبَ بعَهدٍ للأميرِ أبي دَاوُدَ خالدِ بنِ إبْراهيمَ علىٰ خُراسان ، ثم بَعثَ إلىٰ عِيسَى ابن موسَىٰ وَليِّ العَهْد ، فأعْلَمَه ، وأعْطاهُ الرَّأسَ والمالَ فخَرجَ به ، فألْقاهُ إليهم ونثَرَ الذَّهبَ ، فتَشاغَلوا بأخْذِه .

قُتلَ في سنة سَبعٍ وثَلاثينَ ومئَة .

ولَمَّا قُتلَ ، خَرجَ بخُراسانَ سُنباذُ للطَّلبِ بثأرِ أبي مُسْلم ، وكانَ سُنباذُ مَجوسياً ، فغلَبَ علىٰ نيسابُورَ والرَّيِّ ، وظَفرَ بخَزائنَ أبي مُسْلم واسْتَفحَلَ أمرُه ، فجَهَّزَ المَنْصُورُ لحَرْبِه جُمهورَ بنَ مَرَّار العجليَّ في عَشرة آلاف ، وكان المَصافُّ بينَ الريِّ وهَمذانَ ، فانْهَزَمَ سُنْباذُ وقُتلَ من عَسْكرِه نحواً من ستينَ ألفاً ، وعامَّتُهُم كانوا من أهْلِ الجِبالِ ، فسُبِيَتْ ذَراريهمِ ، ثم قُتلَ سُنْباذُ بأرضِ طَبَرِسْتان[1] .

عبدُ الله بن عليّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : ابنُ الحَبْر عبدِ الله بنِ عَبَّاس ، عَمُّ السَّفَّاحِ والمَنْصُورِ ، من رِجالِ العالَمِ ودُهاةِ قُرَيش[2] .

كان بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، جَبَّاراً ، عَسُوفاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ وبه قامت الدَّولَةُ العبَّاسيَّة سارَ في أرْبَعينَ ألفاً أو أكْثرَ فالْتَقَى الخَليفةَ مَرْوانَ بقُرْبِ المُوصِل فهَزمَه ومَزَّقَ جُيوشَه ، ولَجَّ في طَلبِه ، وطَوَى البلادَ حتىٰ نازَلَ دارَ المُلْك دِمَشْقَ ، فحاصَرَها أيّاماً وأخَذَها بالسَّيفِ[3] .

وقَتلَ بها إلى الظُّهْر نَحواً من خَمسينَ ألفَ مُسْلم من الجُنْدِ وغَيرِهم ولَمْ يَرْقُبْ فيهم إلاًّ ولا ذِمَّة ، ولا رَعَىٰ رَحِماً ولا نَسَباً ، ثم جَهَّزَ في الحالِ أخَاهُ داوُدَ بنَ عليّ في طَلبِ

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٢٩ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٣٩ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٣٩ .

مَرْوانَ ، إلىٰ أنْ أدْرَكَه بقَرْيَة بُوصِيرَ من بلادِ مِصْرَ ، فبيَّتَه ، فقاتَلَ المِسْكينُ حتّىٰ قُتلَ وهَربَ ابْناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة ، وانتَهَت الدَّولَةُ الأُمَويَّة[1] .

ولَمَّا ماتَ السَّفَّاحُ ، زَعمَ عبدُ الله أنَّه وَليُّ عَهْدِه ، وبايَعهُ أُمَراءُ الشَّام ، وبُويعَ المَنْصُورُ بالعِراقِ ، ونَدبَ لحَرْبِ عَمِّه صاحِبَ الدَّعْوَة أبا مُسْلم الخُراساني ، فالْتَقَى الجَمْعان بنَصِيبين ، فاشْتدَّ القِتالُ وقُتلَت الأبْطالُ ، وعَظُمَ الخَطْبُ ، ثم انْهَزمَ عبدُ الله في خَواصِّه ، وقَصَدَ البَصْرَةَ فأخْفاهُ أخُوهُ سُلَيْمانُ مُدَّة ، ثمَّ ما زَالَ المَنْصُورُ يُلحُّ حتىٰ أسْلَمَه ، فسَجَنه سَنوات ، فيُقالُ : حَفَرَ أسَاسَ الحَبْسِ وأرْسَلَ عليه الماء فوَقعَ علىٰ عبدِ الله في سَنة سَبعٍ وأرْبَعينَ ومِئَة فالأمْرُ لله[2] .

المَنْصُور :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : أبادَ جَماعَة كباراً حتَّىٰ تَوطَّد له الْمُلكُ ، ودانَت له الأُمَمُ علىٰ ظُلم فيه وقُوَّة نَفس ، ولكنَّه يَرجعُ إلىٰ صِحَّة إسْلام وتَديُّن في الجُملَة ، وتَصَوُّنٍ وصَلاةٍ وخَيرٍ ، مع فَصاحَة وبَلاغَة وجَلالَة وقد وَلي بُلَيدَة من فارس لعامِلِها سُليمانَ بنِ حَبيب بنِ الْمُهَلَّب بن أبي صُفْرَة ، ثم عَزله وضَربه وصادَرَه ، فلمَّا اسْتُخْلِفَ قَتلَه وكان يُلقَّبُ : أبا الدَّوانيقِ لتَدنيقِه ومُحاسَبتِه الصُّنَّاعَ لَمَّا أنْشأ بَغدادَ[3] .

الحَكمُ بنُ هِشام :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : ابنُ الدَّاخِل عبدِ الرحمَـٰن بنِ مُعاويَة ، ويُلقَّبُ بالْمُرْتَضَىٰ .

بُويعَ بالْمُلكِ ، عند مَوتِ أبيه في صَفَر سَنةَ ثَمانينَ ومئة .

وكان من جَبابرَة الْمُلوكِ ، وفُسَّاقِهم ، ومُتمَرِّديهم ، وكان فارِساً شُجاعاً ، فاتِكاً ذا دَهاء وحَزْم وعُتُو ، وظُلمٍ ، تَمَلَّكَ سَبعاً وعشرينَ سنةً .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/٦٣٩ .
(٣) انظر السير : (الْمَنصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٧٨ .

وكانَ في أوَّلِ أمرِه علىٰ سِيرَةٍ حَميدَةٍ ، تَلا فيها أباه ، ثم تَغيَّرَ ، وتَجاهَرَ بالْمَعاصي .

قالَ أبو محمَّد بنُ حَزْم : كان من الْمُجاهِرينَ بالْمَعاصي ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، كان يَأخُذُ أوْلادَ النَّاسِ الْمِلاحِ ، فيُخْصيهم ويُمْسِكُهم لنَفسِه[1] .

قالَ اليَسَعُ بنُ حَزْمٍ : هَمَّت الرُّومُ بما لَمْ يَنالُوا من طَلَبِ الثُّغُورِ ، فنَكَثُوا العَهْدَ ، فتَجَهَّزَ الحَكَمُ بنُ هشَامٍ إليهم حتىٰ جازَ جَبَلَ السَّارة ـ شَمَالِي طُلَيْطِلَةَ ـ ففَرَّت الرُّومُ أمَامَه حتىٰ تَجَمَّعوا بمدينةِ سَمُّورَة ، فلمَّا الْتَقَى الجَمْعانِ ، نَزَلَ النَّصْرُ ، وانْهَزَمَ الكُفْرُ ، وتَحَصَّنُوا منه بمدينةِ سَمُّورةَ ، وهي كبيرةٌ جداً فحَصَرَها المُسلمُون بالمِنْجَنِيقِ حتى افْتَتَحُوها عُنْوَةً ، ومَلَكُوا أكثرَ شَوارِعَها ، واشْتَغَلَ الجُندُ بالغَنَائِمِ ، وانضَمَّت الرُّومُ إلىٰ جِهَةٍ من البَلدِ ، وخَرجُوا علىٰ حَميَّة فقَتَلوا خَلْقاً في خُروجِهم ، فكانت غَزْوتُه من أعْظَمِ المَغازِي لولا ما طَرَأَ فيها من تَضْييعِ الحَزْمِ ، ورامَت الرُّومُ السِّلْمَ ، فأبَىٰ عليهم الحَكَمُ ، ثمَّ خَرَجَ من بلادِهم خَوفاً من الثُّلُوجِ ، فلمَّا كان العَامُ الآتِي اسْتَعَدَّ أعْظَمَ اسْتِعدَادٍ ، وقَصَدَ سَمُّورةَ فقَتَلَ فيها وسَبَىٰ كُلَّ ما مَرَّ به ، ثمَّ نَازَلَها شَهْرَينِ ، ثمَّ دَخلُوها بعد جَهْدٍ ، وبَذَلُوا فيها السَّيفَ إلى المَسَاءِ ، ثمَّ انْحَازَ المُسلمونَ فبَاتُوا علىٰ أسْوارِها ، ثمَّ صَبَّحوها من الغَدِ لا يُبْقُونَ علىٰ مُحْتَلِمٍ .

قال الرَّازِيُّ في « مَغَازِي الأَنْدَلُسِ » : الذي أُحْصِيَ ممَّن قُتِلَ في سَمُّورةَ ثلاثُ مِئَةِ ألفِ نَفْسٍ ، فلمَّا بَلَغَ الخَبَرُ مَلِكَ رُوميَّة كَتَبَ إلى الحَكَمِ يَرْغَبُ في الأمَانِ ، فوَضَعَ الحَكَمُ على الرُّومِ ما كان جَدُّه وَضَعَ عليهم ، وزَادَ عليهم أن يَجْلِبُوا من تُرابِ مدينةِ رُوميَّةَ نفسِها ما يُصْنَعُ به أكْوامٌ بشَرْقِي قُرْطُبَةَ صَغَاراً لهم ، وإعْلاءً لمَنَارَةِ الإسْلامِ ، فهُما كَوْمانِ من التُّرابِ الأحْمَرِ في بَسِيطِ مدرَتِها السَّوْداء[2] .

وكَثُرت العُلماءُ بالأنْدَلُسِ في دَولتِه ، حتَّىٰ قيلَ : إنَّه كانَ بقُرْطُبَةَ أربعة آلاف مُتَقلِّس مُتَزَيِّين بزيِّ العُلماءِ ، فلمَّا أرادَ الله فناءَهم ، عَزَّ عليهم انْتِهاكُ الحَكَم للحُرُماتِ ،

---

(١) انظر السير : (الحَكَم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ٣/٧٥٠ .

(٢) انظر السير : (الحَكَم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ١/٧٥١ .

وائتَمَروا ليَخْلَعوه ، ثم جَيَّشوا لقِتالِه ، وجَرَت بالأنْدَلُسِ فِتنَةٌ عَظيمَةٌ على الإسْلامِ وأهْلِه ، فلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، فذَكرَ ابنُ مُزين في تاريخِه طَالوتَ بنَ عبدِ الجبَّارِ الْمُعَافريِّ ، وأنَّه أحَدُ العُلماءُ العَامِلينَ الشُّهَداء الذين هَمُّوا بخَلع الحَكَم ، وقالوا : إنَّه غَيرُ عَدلٍ ونَكثُوه في نُفوسِ العَوَامِّ ، وزَعَموا أنَّه لا يَحِلُّ الْمُكْثُ ولا الصَّبْرُ علىٰ هٰذه السِّيرَة الذَّميمَة ، وعَوَّلوا علىٰ تَقديمِ أحَدِ أهْلِ الشُّورَىٰ بقُرْطُبَةَ ، وهو أبو الشَّمَّاسِ أحمَدُ بنُ الْمُنْذِر بنِ الدَّاخِل الأُمَويِّ ابنِ عَمِّ الحَكَم لِمَا عَرَفوا من صَلاحِه ، وعَقلِه ، ودِينِه ، فقَصَدوه وعَرَّفوه بالأمْرِ ، فأبْدَى الْمَيْلَ إليهم ، والبُشْرَىٰ بهم ، وقالَ لهم : أنتم أضْيَافي اللَّيلَة ، فإنَّ اللَّيلَ ، أسْتَر ، ونامُوا ، وقامَ هو إلى ابنِ عمِّه بجَهلٍ ، فأخْبرَه بشأنِهم ، فاغْتاظَ لذلك ، وقالَ : جئتَ لسَفك دَمي أو دِمائِهم ، وهم أعْلامٌ ، فمن أين نَتوصَّلُ إلىٰ ما ذَكرتَ ؟ فقالَ : أرْسِلْ معي مَنْ تَثقُ به ليَتحَقَّق ، فوَجَّهَ مَنْ أحَبَّ ، فأدْخَلَهم أحمَدُ في بَيتِه تَحتَ سِتْر ، ودَخلَ اللَّيلُ ، وجاءَ القَومُ ، فقالَ : خَبِّرُوني مَنْ مَعَكُم ؟ فقالوا : فُلانٌ الفَقيهُ ، وفُلانٌ الوَزيرُ ، وعدُّوا كباراً والكاتِبُ يَكتُبُ حتَّى امْتلأ الرَّقُّ ، فمَدَّ أحَدُهم يدَه وَراءَ السِّتْرِ ، فرَأى القَومَ ، فقامَ وقامُوا ، وقالُوا : فعَلتَها يا عَدُوَّ اللهِ ، فمَنْ فَرَّ لِحينِه ، نَجا ومَنْ لا ، قُبضَ عليه ، فكانَ مِمَّنْ فَرَّ عيسَىٰ بنُ دينار الفَقيه ، ويَحْيَىٰ بنُ يَحْيَى الفَقيهُ صاحِبُ مَالِك ، وقُرْعُوسُ بنُ العَبَّاسِ الثَّقَفيُّ .

وقُبضَ علىٰ ناسٍ كأبي كَعْب ، وأخيه ، ومَالِكِ بنِ يَزيد القاضي ، وموسَىٰ بنِ سَالِم الخَوْلاني ، ويَحْيَىٰ بنِ مُضَر الفَقيه ، وأمثالهم من أهْلِ العِلمِ والدِّين ، في سَبعَةٍ وسَبعينَ رَجُلاً ، فضُربَت أعْناقُهم ، وصُلِبُوا .

وأضاف إليهم عَمَّيه كُلَيْباً ، وأمية ، فصُلبا ، وأَحْرَقَ القُلوبَ عليهم ، وسارَ بأمرِهم الرِّفاقُ ، وعَلمَ الحَكَمُ أنَّه مَحْقودٌ من النَّاسِ كُلِّهم ، فأخَذَ في جَمعِ الجُنودِ والحَشَمِ وتَهيَّأ ، وأخَذَت العامَّةُ في الهَيَج ، واسْتأسَدَ النَّاسُ ، وتَنمَّروا ، وتأهَّبوا ، فاتَّفقَ أنَّ مَمْلوكاً خَرجَ من القَصرِ بسَيفٍ دَفعَه إلى الصَّيْقَل ، فمَاطَله ، فسَبَّه ، فجاوَبَه الصَّيْقَلُ فتَضارَبا ونالَ منه الْمَمْلوكُ ، حتىٰ كادَ أنْ يُتْلِفَه ، فلمَّا تركَه ، أخذَ الصَّيْقَلُ السيفَ فقتلَ به الْمَمْلوكَ ، فتألَّبَ إلى الْمَقتُولِ جَماعَةٌ ، وإلى القاتِلِ جَماعَةٌ أُخْرَىٰ ، واسْتَفحَلَ

الشَّرُّ ، وذلك في رَمضانَ سَنةَ اثنتَين ومئتَين ، وتَداعَىٰ أهْلُ قُرطُبَة من أرْباضِهم ، وتألَّبوا بالسِّلاحِ ، وقَصَدوا القَصرَ ، فرَكبَ الجَيشُ والإمامُ الحَكَمُ ، فهَزَموا العامَّةَ ، وجاءَهم عَسكَرٌ من خَلفِهم ، فوَضَعوا فيهم السَّيفَ ، وكانَت وَقعَةً هائلَةً شَنيعَةً ، مَضىٰ فيها عَددٌ كَثيرٌ زُهاءَ عن أربَعينَ ألفاً من أهْلِ الرَّبَض ، وعايَنوا البَلاءَ من قُدَّامِهم ومن خَلفِهم فتَداعُوا بالطَّاعَة ، وأذْعَنوا ولا ذُوا بالعَفْوِ ، فعَفا عَنهم علىٰ أنْ يَخرُجوا من قُرطُبَة ، ففَعلوا وهُدِّمَت ديارُهم ومَساجِدُهم .

ماتَ الحَكَمُ سَنةَ سِتٍّ ومئتين ، وله ثَلاثٌ وخَمسونَ سَنةً ، وَوَليَ الأنْدَلُسَ بَعْدَه ابنُه أبو الْمُطَرِّف عبدُ الرحمَـٰن[1] .

٢١ـ تَعْليلٌ لا يَصِحُّ لكثْرَة ظُلم المَنْصُور :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمَنْصور : وقيل إنَّ عبدَ الصَّمَد عَمَّه قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ! لقد هَجَمتَ بالعُقوبَة حتىٰ كأنَّك لَمْ تَسْمَع بالعَفْو قالَ : لأنَّ بَني أُمَيَّة لَمْ تَبْلَ رِمَمُهم ، وآلَ عَليٍّ لم تُغْمَد سُيوفُهم ، ونَحْن بينَ قَومٍ قد رَأوْنا سُوقَة ولا تَتمَهَّدُ هَيْبَتُنا في صُدورِهم إلاَّ بنِسْيانِ العَفْو .

حَجَّ الْمَنْصورُ مرَّات منها في خِلافَتِه مَرَّتين ، وفي الثالثة ماتَ ببِئْر مَيْمُونَ ، قبلَ أنْ يَدخُلَ مَكة[2] .

٢٢ـ أمثِلَةٌ على الظُّلم :

(وتجدُ غَيرَها مُفرَّقَة في بعض الفَقَرات السَّابقة)

جاءَ في تَرجَمَةِ إبْراهيمَ بنِ يَزيد (التَّيْميّ) ، قالَ ابنُ سَعْد : أخْبَرنا عليُّ بنُ محمَّد قالَ : طَلبَ الحَجَّاجُ إبْراهيمَ النَّخَعي ، فجاءَ الرَّسُولُ فقالَ : أريدُ إبْراهيمَ ، فقالَ إبْراهيمُ التَّيْميّ : أنا إبْراهيمُ ، ولَمْ يَسْتحِلَّ أنْ يدله على النَّخَعيِّ ، فأمَرَ بحَبسِه في الدِّيماسِ ، ولَمْ يَكنْ لهم ظِلٌّ من الشَّمسِ ، ولا كِنٌّ من البَرْدِ ، وكانَ كلُّ اثنَين في

---

(١) انظر السير : (الحَكَم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٥١ .

(٢) انظر السير : (المنصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٧٨ .

سِلْسِلَة فتَغيَّرَ إبْراهيمُ ، فعادَته أمُّه ، فلَمْ تَعرفْهُ ، حتَّىٰ كلَّمَها ، فمَاتَ ، فرَأى الحَجَّاجُ في نَومِه قائلاً يَقولُ : مَاتَ في البَلدِ اللَّيلَة رَجلٌ من أهْلِ الجَنَّة ، فسألَ ، فقالوا : مَاتَ في السِّجْنِ إبْراهيمُ التَّيْميّ ، فقالَ : حُلْمٌ نزغَةٌ من نزَغَات الشَّيطانِ ، وأمَرَ به فأُلقِيَ على الكُنَاسَة[1] .

وقال مُصْعَبُ بنُ بِشْر : سَمعتُ أبي يقولُ : قامَ رجلٌ إلىٰ أبي مُسْلم وهو يَخْطبُ ، فقال : ما هـٰذا السَّوادُ عَليكَ ؟ فقالَ : حدَّثني أبو الزُّبَيْر عن جابرِ بن عبدِ الله ، « أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخلَ مَكةَ يَومَ الفَتْحِ ، وعَليهِ عَمامَةٌ سَوْدَاءُ » وهـٰذه ثيابُ الهَيْبَة ، وثيابُ الدَّوْلة ، يا غُلامُ اضْرِبْ عُنُقَه!

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان أبو مُسْلم سَفَّاكاً للدِّماءِ ، يَزيدُ على الحَجَّاجِ في ذلك وهو أوَّلُ مَنْ سَنَّ للدَّوْلة لبَاسَ السَّوادِ ، وكانَ بلاءً عَظيماً علىٰ عَرَبِ خُراسان ، فإنَّه أبادَهم بحَدِّ السَّيْف[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي عُبَيْدِ الله الوزير : ويُقالُ إنَّه سَمعَ من الزُّهْريِّ ، وعاصِمِ بنِ رَجاء بن حيوة ، وكان مع دينِه فيه تِيهٌ وتَعَزُّزٌ حَجَّ الرَّبيعُ الحاجب ، فجاءَ إليه مُسَلِّماً ، فمَا قامَ له ولا وَفَّاهُ حَقَّه ، فعَملَ عَليه عند الْمَهْدي ، ورَمَى ابنَه بالتَّعَرُّض لِحُرَمِ الهَادي ، فقَتلَ الْمَهْديُّ ابنَه ، وقَبضَ عليه ، فسَجنَه ، فمَا زالَ في السِّجنِ حتَّىٰ تُوفِّي سَنةَ سَبعينَ ومئة[3] .

٢٣ـ أمْثِلَةٌ على الجَبَروتِ والبَغْي :

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مَرْوانَ بنِ محمَّد آخرِ خُلفاءِ بَني أُميَّة : ومن جَبَروت مَرْوَانَ أنَّ يَزيدَ بنَ خالِد بنِ عبدِ الله القَسْري الأمير كانَ قد قاتَلَه ثم ظَفرَ به ، فأُدْخِلَ عليه يَوماً ، فاسْتَدناه ، ولَفَّ علىٰ إصْبعِه مِنْديلاً ، ورَصَّ عَينَه حتىٰ سَالَت ، ثم فَعلَ كذلك

---

(١) انظر السير : (إبْراهيمُ بن يَزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٧/٥٨٠ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٨ .

(٣) انظر السير : (أبو عُبَيْد الله الوَزير) ٧/ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧١٠ .

بعينِه الأُخْرىٰ وما نَطقَ يَزيدُ ، بل صَبرَ ، نَسألُ اللهَ العافيَةَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أحمدَ بنِ طُولونَ : قيل : كانت مُؤنتُه في اليوم ألفَ دينار ، وكان يَرجعُ إلىٰ عَدْل وبَذْل لكنَّه جبَّارٌ ، سَفَّاكٌ للدِّماء[2] .

قال القُضاعيُّ : أُحْصيَ مَنْ قَتَله صَبْراً ، أو ماتَ في سِجْنه ، فبَلغوا ثَمانيةَ عشرَ ألفاً .

وأنْشأ بظَاهر مِصْرَ جَامعاً ، غَرمَ عليه مئةَ ألفِ دينار ، وكان جَيِّد الإسْلام مُعَظِّماً للشَّعائر[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد ، صاحِبِ الأنْدَلُس : ومن جَبَروتِه وعُتوِّه أنَّه أخَذَ مالاً لأعْمَىٰ ، فحَجَّ وجَاوَرَ بمَكَّةَ ، فبَلغَ المُعْتَضدَ أنَّه يَدعُو عليه ، فنَدبَ رَجلاً أعْطاهُ جُملةَ دَنانيرَ مَطْليَّة بسُمٍّ فسَارَ إلىٰ مَكَّة ، وأَوْصَلَه الذَّهَبَ ، فقالَ : يَظْلِمُني بإشْبيليَّة ، ويَصلُني هُنا ؟! ثم وَضَعَ منها دِيناراً في فَمِه ، كعَادَة الأضِرَّاء ، فمَاتَ من الغَدْ[4] .

وقد سَكِرَ لَيلَةً ، وخَرجَ في اللَّيلِ مَعه غُلامٌ ، وسَارَ مَخْموراً ، حتىٰ وَافَىٰ قَرْمُونَةَ[5] ، وصَاحبُها إسْحاقُ البِرْزال ، وبَينَهما حُروبٌ ، وكانَ يَشْرَبُ أيْضاً في جَماعَة ، فاسْتأذَنَ المُعْتَضدُ ، ودَخلَ ، فزادَ تَعجُّبهُم فسلَّمَ وأكَلَ وألَّ[6] من سُكْرِه وسُقطَ في يدِه ، لكنَّه تَجلَّدَ ، ثم قال : أُريدُ أنْ أنامَ ففَرَشوا له ، فتَناوَمَ ، فقَالَ بَعضُهم : هـٰذا كَبشٌ سَمينٌ ، والله لو أنْفَقتُم مُلكَ الأنْدَلُسِ عليه ما قَدِرْتُم فقالَ مُعَاذُ بنُ أبي قُرَّة : كلاَّ ، رَجلٌ قَصدَنا ونَزَلَ بنا مُستأمِناً ، لا تَتَحدَّثُ عنَّا القَبائلُ أنَّا قَتَلنا ضَيْفَنا ثم انْتَبَه وقامَ ، فقَبَّلُوا رَأسَه ، وقال للحَاجِبِ : أيْنَ نَحْنُ ؟ قالَ : بَين أهْلِك وإخْوانِك

---

(١) انظر السير : (مَرْوان بن محمد) ٦/ ٧٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١/٦٣٢ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٦ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٥٦ .
(٤) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٧ .
(٥) غربي قرطبة وشرقي إشبيلية ، قديمة البنيان .
(٦) في اللسان ألَّ في سَيره ومَشيِه ، إذا أسْرَعَ واهتز واضطرب .

قالَ : هَاتوا دوَاةً ، فكَتبَ لكُلّ منهم بخِلْعَة ومال وأفْراسٍ وخَدَم وأخَذَ مَعَه غِلْمَانَهم لقَبْضِ ذلك ، ورَكبَ ، فمَشَوا في خِدْمتِه لكنْ أساءَ كُلَّ الإساءَة ، طَلبَهم بعدَ أشْهُر لِوَليمَة ، فأتاهُ سِتُّون منهم فأكْرَمَهم وأنْزَلَهم حَمَّاماً ، وطيَّنَه عليهم سِوَىٰ مُعَاذ ، وقال لمُعَاذ : لِمَ تُرَعْ ، حَضَرَتْ آجَالُهم ، ولَوْلاكَ ، لقَتلُوني ، فإنْ أرَدْتَ أنْ أُقاسِمَكَ مُلْكي ، فَعَلتُ ، قال : بل أُقيمُ عِندَكَ ، وإلاَّ بأي وَجْه أرْجِعُ ، وقد قَتلتَ سَاداتِ بَني بِرْزال ، فصَيَّرَه من كِبارِ قُوَّادِه ، وكانَ من كِبارِ قُوَّاد المُعْتَمِد .

هَلكَ المُعْتَضِدُ سَنةَ أرْبع وسِتِّينَ وأرْبَع مِئَة .

قال أبو بَكْر مُحمدُ بنُ اللبانَة الشَّاعِرُ : مَلكَ المُعْتَمِدُ من مُسَوَّراتِ البلادِ مِئتَيْ مُسَوَّر ، ووُلِدَ له مئةٌ وثلاثَةٌ وسَبْعُونَ وَلداً ، وكانَ لمَطْبَخه في اليوم ثَمانيَةُ قَناطِير لحْم ، وكُتَّابُه ثَمانيَة عَشَر[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ دِحْيَة : وذَكرَ ابنُ نُقطَة أنَّ سَببَ عَزلِ ابنِ دِحْيَة أنَّه خَصَىٰ مَمْلوكاً له فغَضبَ الْمَلكُ وهَربَ ابنُ دِحْيَة ولَفظُ ابنُ مَسْدِي ، وقالَ : كان له مَمْلوك يُسمَّىٰ رَيْحان فجَبَّه واسْتأصَلَ أُنْثَيَيْه وزُبَّه وأتَىٰ بزامِرٍ فأمَرَ بثَقبِ شدقِه فغَضِبَ عليه الْمَنْصُورُ وجاءَه النَّذيرُ ، فاخْتَفَىٰ ، ثم سارَ مُتنكِّراً .

تُوفِّيَ سَنةَ ثَلاثٍ وثَلاثينَ وستِّ مِئة .

قالَ ابنُ النجَّار : كانَ القَلبُ يأبَىٰ سَماعَ كلامِه سَكنَ مِصْرَ ، وصادَف قَبولاً من السُّلطانِ الكَامِلِ ، وأقْبلَ عَليه إقْبالاً عَظيماً ، وسَمعتُ أنَّه كان يُسَوِّي له الْمَدَاسَ حينَ يَقومُ إلىٰ أنْ قالَ : ونَسَبُه لَيسَ بصَحيح ، وكان حافِظاً ماهِراً تامَّ الْمَعْرفَة بالنَّحْو واللُّغَة ، ظاهِريَّ الْمَذْهَب ، كَثيرَ الوَقيعَة في السَّلَف ، أحْمَقَ ، شَديدَ الكِبْر ، خَبيثَ اللِّسانِ ، مُتَهاوِناً في دِينِه ، وكان يَخْضِبُ بالسَّوادِ[2] .

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٥٧ .

(٢) انظر السير : (ابنُ دِحْيَة) ٢٢/ ٣٨٩ـ ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٠٦ .

٢٤ـ الجَزاءُ من جِنْسِ العَمَل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ طارِقِ بنِ زِياد مَوْلَىٰ مُوسَىٰ بنِ نُصَيْر : وكان أميراً علىٰ طَنْجَة بأقْصَى المغرب ، فبَلغَه اخْتِلافُ الفِرَنْجِ واقْتِتالُهم ، وكاتَبه صاحبُ الجَزيرَة الخَضْراء ليَمُدَّه علىٰ عَدُوِّه ، فبادَرَ طارقُ وعدَّىٰ في جُندِه ، وهَزمَ الفِرَنْجَ ، وافْتَتَحَ قُرطُبَة وقَتلَ صاحِبَها لُذْريقَ ، وكتبَ بالنَّصرِ إلىٰ مَوْلاه ، فحَسدَه على الانْفِرادِ بهٰذا الفَتْحِ العَظيمِ ، وتَوعَّده ، وأمَرَه أنْ لا يتجاوَزَ مَكانَه ، وأسْرَعَ مُوسَىٰ بجُيوشِه ، فتَلَقَّاه طارِقُ وقالَ : إنَّما أنا مَوْلاكَ ، وهٰذا الفَتْحُ لك ، فأقامَ مُوسَىٰ بنُ نُصَير بالأنْدَلُس سَنتَين يَغزو ويَغنم وقَبضَ علىٰ طارِق ، وأساءَ إليه ، ثم اسْتَخلَفَ على الأنْدَلُسِ ولدَه عبدَ العَزيزِ بنِ مُوسَىٰ ، وكان جُندُه عامَّتُهم من البَرْبَر ، فيهم شَجاعَةٌ مُفْرِطَة وإقْدامٌ[1] .

ولمَّا تَمادَىٰ مُوسَىٰ بنُ نُصَيْر في سَيْرِهِ في الأنْدَلُسِ ، أتَىٰ أرْضاً تَميدُ بأهْلِها ، فقال عَسْكَرُهُ : إلىٰ أيْنَ تُريدُ أنْ تذْهَبَ بنا ؟ حَسْبُنَا ما بأيْدِينَا ، فقال : لَوْ أطَعْتُمُوني لوَصَلْتُ إلى القُسْطَنْطِينيَّةَ ، ثمَّ رَجَعَ إلى المَغْرِبِ وهو رَاكِبٌ علىٰ بَغْلَةٍ وهو يَجُرُّ الدُّنْيَا بينَ يَدَيْه ، أمَرَ بالعَجَلِ تَجُرُّ أوْقَارَ الذَّهَبِ والحَرِيرِ ، واسْتَخْلَفَ ابنَه بإفْريقيَّةَ ، وأخَذَ معَه مِئَةً من كُبَرَاءِ البَرْبَرِ ، ومِئَةً وعِشْرينَ من المُلُوكِ وأوْلادِهم ، فقَدِمَ مِصْرَ في هَيْئَةٍ ما سُمِعَ بمثلِها ، فوَصَلَ العُلَماءَ والأشْرافَ ، وسَارَ إلى الشَّام ، فبَلَغَهُ مَرَضُ الوَلِيدُ ، وكَتَبَ إليه سُلَيْمانُ يَأْمُرُه بالتَّوَقُّفِ : فمَا سَمِعَ منه ، فآلَىٰ سُلَيْمانُ إنْ ظَفِرَ به لَيَصْلِبَنَّه ، وقَدِمَ قَبْلَ مَوتِ الوَلِيدُ ، فأخَذَ ما لا يُحَدُّ من النَّفَائِسِ ، ووَضَعَ باقِيهِ في بَيْتِ المالِ ، وقُوِّمَتِ المَائِدَةُ بمِئَةِ ألفِ دينارٍ .

ووَلِيَ سُلَيْمانُ فأهَانَه ، ووُقِّفَ في الحَرِّ ـ وكان سَمِيناً ـ حتىٰ غُشِيَ عليه ، وبقِيَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزِيزِ يَتَألَّمُ له ، فقال سُلَيْمانُ : يا أبا حَفْصٍ ما أظُنُّ أنَّني خَرجْتُ من يَميني .

وضَمَّه يَزِيدُ بنُ المُهَلَّبِ إليه ، ثمَّ فَدَىٰ نَفسَه بِبَذْلِ ألفِ ألفِ دينارٍ ، وقِيلَ له : أنْتَ

---

(١) انظر السير : (طارق) ٤/ ٥٠٠ـ ٥٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٤٢ .

في خَلْقٍ من مَوَالِيكَ وجُنْدِكَ ، أفَلا أَقَمْتَ في مَقَرِّ عِزِّكْ ؟! ، وبَعَثْتَ بالتقادم قال : لَوْ أرَدْتُ لصَارَ ، ولكِنْ آثَرْتُ اللهَ ولَمْ أرَ الخُروجَ ، فقال له يَزِيدُ : وكُلُّنا ذاكَ الرجُلُ ـ أرَادَ بهٰذا قُدُومَهُ على الحَجَّاجِ[1] .

وقد امْتُحِنَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ ، حُبِسَ وضُرِبَ ، فرَوىٰ حِبَّانُ بنُ زُهَيْر العَدَوِيّ ، قال : حدَّثنِي أبو الصَّيْداءَ صالِحُ بنُ طَرِيفٍ ، قال : لمَّا قَدِمَ يُوسُفُ بنُ عُمَرَ العِراقَ بَكَيْتُ وقُلتُ : هٰذا الذي ضَرَبَ وَهْبَ بنَ مُنبِّهٍ حتّىٰ قَتَلَه .

يَعْنِي لمَّا وَلِيَ إمْرَةَ اليَمَنِ ، ثمَّ نَقَلَهُ الخليفَةُ هِشامُ إلىٰ إمْرَةِ العِراقِ ، وكان جَبَّاراً عَنِيداً مَهِيباً ، كان سِماطُهُ بالعِراقِ فيما حَكَى المَدائِنيُّ كلَّ يومِ خميسٍ مِئَةُ مائِدَةٍ ، أبْعَدُ المَوَائِدِ وأقْرَبُها سَواءٌ في الجَوْدَةِ .

ثمَّ إنَّه عُزِلَ عن العِراقِ عند مَقْتَلِ الوَلِيدِ الفاسِقِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ وللهِ الحَمْدُ في سَنةِ سَبعٍ وعشرينَ ومِئَةٍ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الله بن عَليٍّ : كان بَطلاً شُجاعاً ، مَهيباً ، جَبَّاراً ، عَسُوفاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ وبه قامت الدَّولَةُ العبَّاسيَّة سارَ في أرْبَعينَ ألفاً أو أكْثرَ فالْتَقَى الخَليفةَ مَرْوانَ بقُرْبِ المُوصِل فهَزمَه ومَزَّقَ جُيوشَه ، ولَجَّ في طَلبِه ، وطَوَى البلادَ حتىٰ نازَلَ دارَ المُلْك دِمَشْقَ ، فحاصَرَها أيّاماً وأخَذَها بالسَّيفِ[3] .

وقَتلَ بها إلى الظُّهْر نَحواً من خَمسينَ ألفَ مُسْلم من الجُنْدِ وغَيرِهم ولَمْ يَرْقُبْ فيهم إلاًّ ولا ذِمَّة ، ولا رَعَىٰ رَحِماً ، ولا نَسَباً ثم جَهَّزَ في الحالِ أخَاهُ داوُدَ بنَ عليّ في طَلَبِ مَرْوانَ ، إلىٰ أنْ أدْرَكَه بقَرْيَة بُوصِيرَ من بلادِ مِصْرَ ، فبيَّتَه ، فقاتَلَ المِسْكينُ حتّىٰ قُتلَ وهَربَ ابْناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة ، وانْتَهَت الدَّولَةُ الأُمَويَّة[4] .

ولَمَّا ماتَ السَّفَّاحُ ، زَعمَ عبدُ الله أنَّه وَليَّ عَهْدِه ، وبايَعهُ أُمَراءُ الشَّام ، وبُويعَ

---

(١) انظر السير : (مُوسَى بن نُصَير) ٤/ ٤٩٦ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٤٠ .
(٢) انظر السير : (وَهب بن مُنَبّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥٧ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٣٩ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٣٩ .

المَنْصُورُ بالعِراقِ ، ونَدبَ لحَرْبِ عَمِّه صاحِبَ الدَّعْوَة أبا مُسْلم الخُراساني ، فالْتَقَي الجَمْعان بنَصِيبَين ، فاشْتدَّ القِتالُ وقُتلَت الأبْطالُ ، وعَظُمَ الخَطْبُ ، ثم انْهَزمَ عبدُ الله في خَواصِّه ، وقَصَدَ البَصْرَةَ فأخْفاهُ أخُوهُ سُلَيْمانُ مُدَّة ، ثمَّ ما زَالَ المَنْصُورُ يُلحُّ حتىٰ أسْلَمَه ، فسَجَنه سَنوات ، فيُقالُ : حَفَرَ أسَاسَ الحَبْسِ وأرْسَلَ عليه الماء فوَقعَ علىٰ عبدِ الله في سَنة سَبعٍ وأرْبَعينَ ومِئَة فالأمْرُ لله[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ عُثْمانَ بنِ أبي شَيْبَة ، قالَ إبْراهيمُ بنُ أبي طالِب : جئتُه فقالَ لي : إلىٰ مَتَىٰ لا يَموتُ إسْحاقُ بنُ راهَوَيه ؟ فقُلتُ له : شَيخٌ مثلُك يَتمَنَّىٰ هـٰذا ؟! قالَ : دَعْني فلَوْ مَاتَ لصَفَا لي جَريرُ بنُ عبدِ الحَميد .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : فمَا عاشَ بعد إسْحاقَ سِوَىٰ خَمسَةَ أشْهُر[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ سالِمِ بنِ حامِد نائبِ دِمَشْقَ للمُتَوَكل : كانَ ظَلوماً عَسوفاً ، شَدَّ عليه طائفَةٌ من أشْرافِ العَرَبِ فقَتلُوه ببابِ دارِ الإمارَة يَومَ جُمُعَة سَنةَ بضْع وثلاثينَ ومِئتَين فبلغَ الْمُتَوَكل فتَنمَّر ، وقالَ : من للشَّام في صَوْلَة الحَجَّاج ؟ فنَدبَ أفريدونَ التُّركيَّ ، فسارَ في سَبعة آلافِ فارِس ورَخَّصَ له الْمُتَوَكلُ في بَذلِ السَّيفِ ضَحْوَتين ، وفي نَهْبِ البَلد فنَزَلَ ببَيت لِهْيا فلمَّا أصْبَحَ قالَ : يا دِمَشْقُ ، أيش يَحِلُّ بك اليومَ منِّي ، فقُدِّمَتْ له بَغلَة دَهْماء ليَركَبَها ، فضَربَته بالزَّوْج علىٰ فُؤادِه فقَتلَته فقَبرُه كان مَعْروفاً ببَيت لِهْيا ، ورُدَّ عَسكَرُه إلى العِراقِ ثم جاءَ بعد الْمُتَوَكلُ إلىٰ دِمَشْقَ وأنْشأَ قَصراً بداريّا ، وصَلُحَ الحَالُ[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ الأديبِ العلاَّمَة ابنِ الزيَّات : وكانَ يَقولُ بخَلق القُرآن ، ويَقولُ : ما رَحمتُ أحَداً قَطُّ ، الرَّحْمَةُ خَوَرٌ في الطَّبْع فسُجنَ في قَفَص حَرِج ، جِهاتُه بمَسامِيرَ كالْمَسَالِّ ، فكانَ يَصيحُ : ارْحَمُوني ، فيَقُولونَ : الرَّحْمَةُ خَوَرٌ في الطَّبيعَة[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/٦٣٩ .
(٢) انظر السير : (عُثْمان بن أبي شَيبَة) ١١/ ١٥١ـ ١٥٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩١٧ .
(٣) انظر السير : (سالم بن حامد) ١١/ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٩١٨ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الزيَّات) ١١/ ١٧٢ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٧/٩٢١ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُتَوَكلِ على الله : وكان الْمُتَوَكلُ جَواداً مُمَدَّحاً لعَّاباً ، وأرادَ أنْ يَعزِلَ من العَهْد الْمُنْتَصِرَ ، ويقدِّمَ عليه الْمُعْتَزَّ لحُبِّه أُمَّهُ قَبيحَة ، فأبَى الْمُنْتَصِرُ ، فغَضِبَ أبوه وتَهدَّدَه ، وأغْرَىٰ به ، وانْحَرفَت الأتْراكُ على الْمُتَوكل لِمُصادَرَتِه وَصيفاً وبُغا حتى اغْتالُوه .

وبُويعَ الْمُنْتَصِرُ من الغَدِ بالقَصْرِ الجَعْفَريِّ سَنةَ سبَعٍ وأرْبَعينَ ومِئتَين[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُنْتَصِر بالله : وكان الْمُنْتَصِرُ وافِرَ العَقْل ، راغِباً في الخَيرِ ، قَليلَ الظُّلمِ ، باراً بالعَلويِّينَ ، ويَسُبُّ الأتْراكَ ويَقولُ : هَؤلاء قَتلَةُ الخُلَفاء ، فقالَ بُغا الصَّغيرُ للذين قَتلوا الْمُتَوَكِّلَ : ما لكم عند هـٰذا رِزْقٌ فعَملوا عليه وهَمُّوا ، فعَجَزوا عنه ، لأنَّه كانَ شُجاعاً مَهيباً يَقِظاً مُتَحرِّزاً لا كأبيه فتَحيَّلوا إلىٰ أنْ دَسُّوا إلىٰ طَبيبِه ابنِ طَيْفُور ثَلاثينَ ألفَ دينار عند مَرَضِه فأشارَ بفَصْدِهِ ، ثم فَصَدَه بريشَةٍ مَسْمومَةٍ ، فماتَ منها[2] .

ويُقالُ : إنَّ طَيْفُور نَسيَ ومَرِضَ ، وافْتصَدَ بتلك الريشَة ، فهَلكَ[3] .

ووَردَ عنه أنَّه قالَ في مَرَضِه : ذَهبَتْ يا أُمَّاهُ مِنِّي الدُّنيا والآخِرَة عاجَلتُ أبي فعُوجِلتُ وكان يُتَّهَم بأنَّه وَاطَأ علىٰ قَتلِ أبيه ، فما أُمْهِلَ ، ووَزرَ له أحمَدُ بنُ الخصيبِ ، أحَدُ الظَّلمَة[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُسْتَعينِ بالله : فكاتبَ ابنُ طاهِر في السِّرِّ الْمُعْتَزَّ ، وانحَلَّ نظامُ الْمُسْتَعين ، وإنَّما كان قَوامُ أمْرِه بابنِ طاهِر ، وكاشَفَه الناسُ ، فتَحوَّل إلى الرُّصافَة ، ثم سَعى النَّاسُ في الصُّلْحِ ، وخَلْعِ الْمُسْتَعين ، فأقامَ في ذلك إسْماعيلُ القاضي وغَيرُه بشُروطٍ وَثيقَة ، فأذْعَنَ بخَلعِ نَفسِه في أوَّلِ سَنة اثنَتين وخَمسينَ ومئتَين ،

---

(١) انظر السير : (الْمُتَوَكِّل على الله) ١٢/ ٣٠ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٩ .
(٢) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٩ .
(٣) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٤/٩٧٩ .
(٤) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٥/٩٧٩ .

وأشْهَد عليه ، ثم حُوِّل إلىٰ سامَرَّاء فقُتلَ بقادسِيَّة سامَرَّاء في ثالثِ شَوَّال من السَّنَة ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون[1] .

وقال الصُّوليُّ : بَعثَ الْمُعْتَزُّ أحمدَ ابنَ طُولونَ إلىٰ واسِطَ لقَتلِ الْمُسْتَعينِ فقالَ : واللهِ لا أقْتُلُ أولادَ الخُلَفاء فبَعثَ سَعيداً الحاجِبَ ، فما مَتَعَ اللهُ الْمُعْتَزَّ ، بلْ عُوجِلَ بالخَلْعِ والقَتْلِ جَزاءً وِفاقاً[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ خَيْرُونَ : الإمامُ أبو جَعْفَر محمَّدُ ابنُ خَيرُونَ الْمَعَافِري مَوْلاهُم القُرطُبي[3] .

قال بَعضُهم : كُنتُ جالساً عند ابنِ أبي خِنْزيرٍ فدَخلَ شَيخٌ ذو هَيئَة وخُشوع ، فبَكَى ابنُ أبي خِنزير وقال : السُّلطانُ ـ يَعْني عُبَيْدَ الله ـ وَجَّهَ إليَّ يأمُرُني بدَوْسِ هٰذا ـ يَعْني ابنَ خَيْرون ـ حتىٰ يَموتَ ، ثم بَطَحَه ، وقَفَزَ عليه السُّودانُ حتىٰ ماتَ ، لِجهادِه وبُغْضِه لعُبَيدِ الله وجُندِه[4] .

وكانَ سَعىٰ به الْمَروذيُّ اللَّعينُ ، ولَمَّا رَأى ابنُ أبي خِنْزير كثرَةَ أذَاه للعُلماء تَحيَّلَ وسَعَىٰ به ، حتىٰ قَتلَه عُبَيدُ الله سَنةَ ثلاثِ مئَة أوْ بَعدَها ، فيا ما لَقِيَ الإسْلامُ وأهْلُه من عُبَيدِ اللهِ الْمَهْديِّ الزِّنْديق[5] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القَاهِرِ بالله العَبَّاسيِّ : بايَعُوه بعدَ الْمُقْتَدِر ، فصادَرَ حاشِيَةَ أخيه وعذَّبَهم ، وضَربَ أُمَّ الْمُقْتَدِر بيدِه ، وهي عَليلَةٌ ثم ماتَت مُعلَّقةً بحَبْلٍ ، وعذَّبَ أُمَّ مُوسَى القَهْرمانَة ، وبالَغ في الإساءَةِ ، فنَفَرَت منه القُلوبُ[6] .

ولم يكن القَاهِرُ مُتَمَكِّناً من الأمُورِ ، وحَكمَ عليه عليُّ بنُ بُليق الرَّافِضيُّ الذي عَزَمَ علىٰ سَبِّ مُعاوِيَةَ رضي الله عنه على الْمَنابِر فارْتَجَّت العِراقُ ، وقُبضَ علىٰ شَيخِ الحَنابلَة

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ١/٩٨١ .
(٢) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/٩٨١ .
(٣) انظر السير : (ابنُ خَيْرون) ١٤/٢١٧ ، وانظر النزهة : ١/١١٤٧ .
(٤) انظر السير : (ابنُ خَيْرون) ١٤/٢١٧ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٧ .
(٥) انظر السير : (ابنُ خَيْرون) ١٤/٢١٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٧ .
(٦) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١١٨٧ .

البَرْبَهاريّ ، ثم قَوِيَ القَاهِرُ ونَهَبَ دُورَ مُخالفيه ، وطَيَّن علىٰ وَلدِ أخيه الْمُكْتَفي بين حَيْطَين وضَربَ ابنَ بُليق وسَجنَه ، ثم أمَرَ بذَبْحِه ، وبذَبْحِ أبيه ، وذَبَحَ بعدَهما مُؤنِساً الكَبيرَ ويُمناً وابنَ زيرك وبَذلَ للجُند العَطاءَ وعَظُمَ شَأنُه ونادَىَ بتَحْريم الغِناءِ ، والخَمْرِ ، وكَسْرِ المَلاهي ، وهو مع ذلك يَشربُ الْمَطْبوخَ والسُّلافَ ، ويَسكَرُ ويَسْمَعُ القَيْناتِ واسْتَوزَرَ غير واحدٍ وقَتلَ أبا السَّرايا بنَ حمدانَ وإسْحاقَ النُّوبَخْتي ألقَاهُما في بِئْر ، وطُمَّت لكَونِهما زَايَداه في جارِيَة قَبلَ الخِلافَة وبَقيَ ابنُ مُقْلَة في اخْتِفائِه يُراسِلُ الجُندَ ويُشَغِّبُهم على القَاهِرِ ، ويَخرُجُ مُتنكِّراً في زِيٍّ عَجميٍّ ، وفي زِيِّ شَحَّاذٍ ، وأعْطَىٰ مُنَجِّماً ذَهباً ليَقُولَ للقُوَّادِ : عَليكُم قطعٌ من القَاهِرِ ثم خُلعَ وأُكْحِلَ بمِسْمارٍ لسُوءِ سِيرَته وسَفْكِهِ الدِّماءَ وكانت خِلافَتُه سَنةً ونِصْفاً وأُسْبوعاً[1] .

قالَ الصُّولي : كانَ أهْوَجَ ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، كَثيرَ التَّلوُّنِ ، قَبيحَ السِّيرَةِ ، مُدْمِنَ الخَمْرِ ، ولَوْلا جَوْدَةُ حاجِبه سَلامَةَ لأهْلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وكانَ قد صَنَعَ حَرْبَةً يَحملُها فلا يَطْرَحُها حتىٰ يَقْتلَ إنْساناً[2] .

ثم أُخْرِجَ إلىٰ دارِ ابنِ طاهِر ، فكان تارَةً يُحبَسُ ، وتارَةً يُمْهَلُ ، فوقَفَ يوماً بالجَامِعِ بينَ الصُّفوفِ ، وعليه جُبَّةٌ بَيْضاءُ ، وقالَ : تَصَدَّقوا عليَّ ، فأنا مَنْ قد عَرَفْتم .

ثم ماتَ في سَنةِ تِسْعٍ وثَلاثينَ وثَلاثِ مئة ، وله ثَلاثٌ وخَمْسونَ سَنةً[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُتَّقِي لله العَبَّاسيِّ : أقبل تَوْزونُ من وَاسِط فخَلعَ عليه الْمُتَّقِي ، ولقَّبَه أميرَ الأُمَراء ولكنْ ما تَمَّ الوُدُّ فعادَ تَوْزونُ إلىٰ وَاسِط وصادَرَ الْمُتَّقِي وَزيرَه ، وبَعثَ بخِلَعٍ إلىٰ أحمَدَ بنِ بُوَيه واسْتَوْزَرَ غَيرَ واحد ، ويَعزِلُهم ، وصَغُرَ أمرُ الوَزارَة ، ووَهَنَت الخِلافَة العبَّاسيَّة[4] .

وتوجه الْمُتَّقِي لله من الرَّقَّة إلىٰ بَغْدادَ ، فأقامَ بهِيتَ ، وحَلَفَ له تَوْزُونُ ، فلمَّا الْتَقاه

---

(١) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٨٧ .
(٢) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٨٧ .
(٣) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٨٧ .
(٤) انظر السير : (الْمُتَّقِي لله) ١٥/ ١٠٤ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٨٩ .

تَرجَّلَ له وقَبَّلَ الأرضَ ، ومَشَىٰ بين يدَيه إلىٰ مُخيَّمٍ ضَربَه للْمُتَّقِي ، فلمَّا نزَلَ قَبضَ تَوْزُونُ عليه وسَمَلَه ، وأُدخِلَ بغدادَ أعْمَىٰ ، فللَّه الأمْرُ ، وأخَذَ منه البُرْدَ والقَضيبَ والخَاتَمَ ، وأحْضرَ عبدَ الله الْمُسْتَكْفي بالله ابنَ الْمُكْتَفي فبايَعه بالخِلافَة[1] .

خُلعَ الْمُتَّقِي سَنةَ ثلاثٍ وثَلاثين ، لم يُمْهَلْ تَوْزونُ ولا حَالَ عليه الحَوْلُ تُوفِّي الْمُتَّقِي في السِّجنِ بعدَ كحْلِه بدَهْر وذلكَ سَنةَ سَبعٍ وخَمسينَ وثَلاثِ مئة[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الظَّافِرِ بالله العُبَيْديِّ : كان نَصْرُ ابنُ عبَّاس بن أبي الفُتوح الوَزيرُ من المِلاحِ فمَالَ إليه الظَّافِرُ وأحَبَّه فاتَّفقَ هو وأبُوه عبَّاسٌ على الفَتْكِ بالظَّافِرِ[3] ، فدَعاهُ نَصرُ إلىٰ دارِهم ليَأتيَ مُتخَفِّياً ، فجاءَ إلى الدَّارِ التي هي اليَومَ المَدرَسةُ السُّيوفيَّة فشَدَّ نَصرٌ عليه فقَتلَه وطَمرَهُ في الدَّارِ وذلكَ في سَنةِ تسْعٍ وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة وعاشَ الظَّافِرُ اثْنَتَينِ وعِشرينَ سَنةً .

ثم رَكبَ عَباسٌ من الغَدِ وأتَى القَصرَ وقالَ : أينَ مَوْلانا ؟ فطَلبُوهُ ففَقَدُوه وخَرجَ جِبريلُ ويوسُفُ أخَوا الظَّافِر ، فقالَ : أين مَوْلانا ؟ قالا : سَلْ ابْنَك ، فغَضِبَ وقالَ : أنتُما قَتلتُماه ، وضَربَ رِقابَهُما في الحَالِ[4] .

ولَمَّا اغْتالَ عَبَّاسٌ الوَزيرُ الظَّافِرَ ، أظْهَرَ القَلقَ ، ولمْ يَكنْ عَلِمَ أهْلُ القَصْر بمَقْتَلِه فطَلَبُوهُ في دُورِ الحُرَم فمَا وَجدُوه وفتَّشُوا عليه وأيِسُوا منه وقالَ عَباسٌ لأخَوَيْه : أنتُما الذين قَتلتُما خَليفَتَنا فأصَرَّا على الإنْكارِ ، فقَتلَهما نَفْياً للتُّهْمَةِ عَنه واسْتَدعَىٰ في الحالِ عِيسَىٰ هـٰذا ، وهوطِفْلٌ له خَمسُ سِنينَ وقِيلَ : بلْ سَنتَان فحَمَلَه علىٰ كَتفَيْه ووَقَفَ باكياً كَئيباً ، وأمَرَ بأنْ تَدخُلَ الأُمَراءُ ، فدَخَلوا فقالَ : هـٰذا وَلدُ مَوْلاكُم ، وقد قَتلَ عَمَّاهُ مَوْلاكُم ، فقَتلتُهما به كَما تَرَوْنَ والوَاجبُ إخْلاصُ النِّيَّة والطَّاعَة لهـٰذا الوَلَد فقالُوا كُلُّهم : سَمْعاً وطاعَةً ، وضَجُّوا ضَجَّةً قوَيةً بذلكَ ففَزِعَ الطِّفلُ ، وبالَ علىٰ كتفِ المَلِكِ

---

(١) انظر السير : (الْمُتَّقِي لله) ١٥/ ١٠٤ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٩ .

(٢) انظر السير : (الْمُتَّقِي لله) ١٥/ ١٠٤ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٩ .

(٣) يذكر أسامة بن مُنقِذ أن الظافر حمل نصراً علىٰ قتل أبيه ، فاطَّلع والدُه على الأمر فلاطَفه واستماله وقرَّر معه قتل الظافر ، انظر « الاعتبار » ١٩ ـ ٢٠ .

(٤) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٦ .

عَبَّاس ولَقَّبُوهُ الفائزَ ، وبَعثُوهُ إلىٰ أُمِّه ، واخْتُلَّ عَقلُه من حينَئذٍ وصَارَ يَتحرَّكُ ويُصْرَع ، ودَانَت الْمَمالكُ لعَبَّاسٍ .

وأمَّا أهْلُ القَصْر ، فاطَّلَعُوا علىٰ باطِنِ القَضيَّة ، وأقامُوا المآتِمَ على الثَّلاثَة ، وَتحيَّلوا ، وكاتَبوا طَلائعَ بنَ رُزِّيك الأرْمنيَّ الرَّافِضيَّ[1] . وَاليَ المُنْيَة[2] ، وكان ذَا شَهامَةٍ وإقْدامٍ فسَألوهُ الغَوثَ ، وقَطَعوا شُعورَ النِّساءِ والأوْلادِ ، وسَيَّروها في طَيِّ الكتابِ وسَخَّمُوه ، فلمَّا تأمَّلَه اطَّلعَ مَنْ حَوْلَه من الجُنْدِ عَليه ، وبَكَوا ولَبسَ الحِدادَ ، واسْتَمالَ عَربَ الصَّعيدِ ، وجَمعَ وحَشَدَ ، وكاتَبَ أُمَراءَ القاهِرَة ، وهَيَّجَهم علىٰ طَلبِ الثَّأرِ فأجابُوهُ فسَارَ إلى القاهِرَةِ ، فبادَرَ إلىٰ رِكابِه جُمهُورُ الجَيشِ ، وبَقيَ عَبَّاسٌ في عَسْكرٍ قَليلٍ فخَارَت قُواهُ وهَربَ هو وابنُه نَصرٌ ومَماليكُه والأميرُ ابنُ مُنقِذ .

ثم قَصَدَ عَبَّاسٌ الشَّامَ علىٰ ناحيَة أيْلَة في رَبيعِ الأول ، فمَا كانَت أيَّامُه بعدَ قَتلِ الظَّافِرِ إلاَّ يَسيرَةٌ ، واسْتولَى الصَّالحُ طَلائعُ بنُ رُزِّيك علىٰ دِيارِ مِصْرَ بلا ضَربَةٍ ولا طَعنَةٍ ، فنَزلَ إلىٰ دارِ عَبَّاس ، وطَلبَ الخَادِمَ الصَّغيرَ الذي كانَ مع الظَّافِرِ ، وسَألَه عن المَكانِ الذي دُفنَ فيه أُسْتاذُه ، فأعْلَمَه فقَلعَ بَلاطَه ، وأخْرَجَ الظَّافِرَ ومَنْ مَعَه من القَتْلَىٰ وحُملُوا وناحُوا عَليهِم وتَكفَّلَ طَلائعُ بالفائِزِ ، ودَبَّرَ الدَّولَة .

وجَهَّزَت أُختُ الظَّافِرِ رَسُولاً إلى الفِرَنْجِ بعَسْقَلانَ ، وبذَلَت لهم مالاً عَظيماً إنْ أَسَروا لها عَبَّاساً وابنَه ، فخَرجُوا عَليه ، فالْتَقاهُم ، فقُتلَ في الوَقْعَةِ ، وأُخِذَت خَزائِنُه ، وأَسَروا ابنَه نَصْراً ، وبَعثُوهُ إليها في قَفَصٍ حَديدٍ ، فلمَّا وَصَلَ ، قَبضَ رَسُولُهم المَالَ ، وذلكَ في رَبيع الأول سَنةَ خَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، فقُطِعَت يَدُ نَصْر ، وضُربَ بالمَقَارِعِ كَثيراً ، وقُصَّ لَحْمُه ثم صُلِبَ فمَاتَ ، فبَقيَ مُعلَّقاً شُهوراً ، ثم أُحْرِقَ .

---

(١) لُقِّبَ بالملك الصالح ، كان شُجاعاً حازماً مُدبِّراً ، أصله من الشيعة الإمامية في العراق ، مات غِيلة سنة ٥٥٦ هـ.

(٢) مُنْيَة بني خصيب ، من أعمال صعيد مصر .

ماتَ الفَائزُ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، وله نَحْو من عَشْر سِنينَ ، وبايَعوا العَاضِدَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ سُلَيمَانَ الْمُسْتَعينِ بالله : ثم إنَّ عليَّ ابنَ حَمُّودَ الإدْريسيَّ طَمِعَ في الخِلافَةِ وراسَلَ جَماعةً ، فاسْتجابَ له خَلقٌ ، وبايَعوه ، فعَدَّىٰ من سَبْتَةَ إلى الأنْدَلُسِ ، فبايَعَه مُتَولِّي مالِقَة واسْتحْوَذَ على الكِبارِ ، وزَحَفَ إلىٰ قُرْطُبَةَ ، فجَهَّزَ الْمُسْتَعينُ بالله لحَرْبِه وَلدَه مُحمَّدَ بنَ سُليمانَ ، فالْتَقوا ، فانْهَزَمَ مُحمَّدٌ ، وهَجمَ ابنُ حَمُّود ، فدَخَلَ قُرْطُبَةَ في الحالِ ، وظَفِرَ بالْمُسْتَعينِ ، فذَبَحَه بيدِه صَبْراً ، وذَبَحَ أباه الحَكَمَ وهو شَيخٌ في عَشْر الثَّمانينَ ، وذلكَ في الْمُحرَّم ، سَنةَ سَبعٍ وأرْبَع مئة وانْقَضَتْ دَولَةُ الْمَرْوانيَّة في جَميعِ الأنْدَلُس .

وكان الْمُسْتَعينُ أديباً شاعِراً ، عاشَ نَيِّفاً وخَمسينَ سَنةً[2] .

وأما عليُّ بنُ حَمُّود ، فوَثبَ عليه غِلْمانٌ له صَقالِبَة في الحَمَّامِ ، فقَتلُوه في آخِرِ سَنةِ ثَمان وأرْبَع مئة[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ قِرْواش بنِ مُقلَّد : وكان أديباً شاعراً ، جَواداً مُمَدَّحاً ، نهَّاباً وَهَّاباً ، فيه جاهليَّة وطَبعُ الأعْرابِ ، يُقالُ إنَّه جَمعَ بين أُختَين ، فلامُوهُ ، فقالَ : حَدِّثوني ما الذي نَعمَلُ بالشَّرعِ حتَّىٰ تَذكُروا هـٰذا ؟ وقالَ مَرَّة ما في عُنُقي غَيرُ دمِ خَمسَةٍ سِتةٍ من العَرَب ، فأمَّا الحاضِرَةُ ، فمَا يَعبأ الله بهم[4] .

ثم إنَّه وَقعَ بينَه وبينَ ابنِ أخيه بَرَكة ، فظَفرَ به بَرَكةُ وحَبسَه وتَملَّك ، وتَلقَّبَ زَعيمَ الدَّولَة ، في سَنةِ إحْدىٰ وأربعين وأربع مئة ، فلَمْ تَطُلْ دَولَةُ بَرَكة ، وماتَ في آخِرِ سَنةِ ثَلاثٍ وأرْبَع مِئة ، فقامَ بعدَه الْمَلِكُ أبو المَعَالي قُرَيشُ بنُ بَدْرانَ بنُ مُقَلَّد ، فأخْرجَ عَمَّه ، وذَبَحَه صَبْراً في رَجَبَ سَنةَ أرْبَع وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة .

---

(١) انظر السير : (الفائز بالله) ١٥/ ٢٠٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٧ .
(٢) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٠ .
(٣) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٠ .
(٤) انظر السير : (قِراوَش) ١٧/ ٦٣٣ـ ٦٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٧٠ .

وتَمكَّنَ قُرَيشٌ ، ونَهضَ مع البَسَاسيريِّ ، ونَهبَ دَارَ الخِلافَة ، وكانَ هَلاكُه بالطَّاعُونِ في سَنةِ ثَلاثٍ وخَمسينَ وأرْبَع مئة كَهْلاً ، فتَملَّكَ بعدَه ابنُه شَرَفُ الدَّولَة مُسْلِمُ بنُ قُرَيش ، فعَظُمَ سُلطانُه ، واسْتَولَىٰ على الجَزيرَة وحَلبَ ، وحاصَرَ دِمَشْقَ وكادَ أنْ يَأخُذَها ، وأخَذَ الإتاوَةَ من بلادِ الرُّوم ، وخَرَجَ عليه أهْلُ حرَّانَ سَنةَ سِتٍّ وسَبعينَ وأرْبَع مئة ، فظَفرَ بهم ، وقَتلَ قاضيَها ، وكان مُحبَّباً إلى الرَّعيَّة مَهيباً[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ السُّمَيْرَميِّ : وقيلَ إنَّ الذي قَتَله كان عَبْداً للمُؤيَّد الطُّغْرائي وَزيرُ السُّلطانِ مَسْعود ، فإنَّ السُّمَيرَميَّ قَتلَ أسْتاذَه ظُلماً ونَبزَه بأنَّه فاسِدُ الاعْتِقادِ ، وكلُّ قاتلٍ مَقتولٌ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ البَطَائحي : هو وَزيرُ الدِّيارِ المِصْريَّة ، والدَّولَة العُبَيديَّة ، الْمَلكُ أبو عبد الله الْمَأمونُ بنُ البَطائحيُّ ، وكانَ من قِصَّتِه أنَّ أباه كان صاحِبَ خَبَرٍ بالعِراق للمِصْريِّينَ من أجْلادِ الرافِضَة ، فمَاتَ ، ونَشأ الْمَأمُونُ فَقيراً صُعْلوكاً فكانَ حَمَّالاً في السُّوقِ بمِصْرَ ، فدَخلَ مرَّة إلىٰ دَارِ الأفْضَلِ أميرِ الجُيوشِ مع الحَمَّالين فرَآهُ الأفْضَلُ شابّاً مَليحاً ، خَفيفَ الحَرَكاتِ ، فقالَ : مَنْ هـٰذا ؟ قالَ بَعضُهم : هـٰذا ابنُ فُلان ، فاسْتَخدَمَه فرَّاشاً مع الجَماعَة فتَقدَّم وتميَّز ، وتَرَقَّىٰ به الحالُ إلى الْمُلكِ ، وهو الذي أعَانَ الآمِرَ باللهِ على الفَتكِ بأميرِ الجُيوش ، ووَلي مَنصِبَه ، وكان شَهْماً مِقْداماً ، جَواداً بالأمْوالِ ، سَفَّاكاً للدِّماءِ عُضْلَةً مِنَ العُضَلِ ، ثم إنَّه عامَلَ أخا الخَليفَة الآمِرِ علىٰ قَتلِ الآمِرِ ، ودَخلَ مَعهُما أُمَراءٌ ، فعَرفَ بذلكَ الآمِرُ ، فقَبضَ على الْمَأمُونِ ، وصَلبَه ، واسْتأصَلَه ، في سَنةِ تِسْعَ عَشرَةَ وخَمسِ مئة[3] .

جاءَ في تَرجَمَةِ الْمُقْتَفي لأمْرِ الله العَبَّاسيِّ ، قالَ أبو طالِب بنُ عبد السَّميع : كانت أيَّامُه نَضِرَةً بالعَدْلِ زَهِرَةً بالخَيرِ ، وكانَ علىٰ قَدَم من العِبادَة قَبلَ الخِلافَة ومَعها ، ولَمْ

---

(١) انظر السير : (قِراوَش) ١٧/ ٦٣٣ـ ٦٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٧٠ .
(٢) انظر السير : (السُّمَيْرَمي) ١٩/ ٤٣٢ـ ٤٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٦ .
(٣) انظر السير : (البَطائحيّ) ١٩/ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١٥١٣/ البَطائحيّ .

يُرَ مع لِينِهِ بعد الْمُعْتَصِم في شَهامَتِه مع الزُّهْدِ والوَرَعِ ، ولَمْ تَزَلْ جُيوشُه مَنصُورَةً[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكانَ من حَسَناتِه وَزيرُه عَوْنُ الدِّين بنُ هُبَيْرَة ، وكانَ أسْمَرَ آدَمَ ، مَجْدورَ الوَجْه ، مَليحَ الشَّيْبَة ، أقامَ حِشْمَةَ الخِلافَة وقَطَعَ عَنها أطْماعَ السَّلاطين السَّلجوقيّة وغَيرِهم[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ خَوارِزْمشاه وجُيوشِه : كان يُضرَبُ بهم المَثَل في النَّهْب والقَتْل ، وعَملوا كُلَّ قَبيح ، وهم جِياعٌ مُجَمَّعَة ، ضِعافُ العَددِ والخَيلِ التُقىٰ جَلالُ الدِّين التَّتارَ ، فهَزَمَهم وهَلكَ مقدمُهم ابنُ جنْكيزخان ، ثم خَرجَ له كَمينٌ فتَفَلَّلَ جَمعُ جَلالِ الدِّين وفَرَّ إلىٰ ناحيَة غَزْنَة في حالٍ واهية ، ومعه أرْبَعَةُ آلافٍ في غايَة الضَّعْف فتوجَّه نحو كِرْمَانَ فأحْسَنَ إليه مَلكُها ، فلمَّا تَقَوَّىٰ غَدرَ به وقتلَه ، وسار إلىٰ شِيرازَ وعَسْكَرُه علىٰ بَقَر وحَمير ومُشاة ففرَّ منه صاحبُها ، وجَرَت له أمُور يَطولُ شَرْحُها ما بَينَ ارْتقاءٍ وانْخِفاضٍ ، وهابَتْهُ التَّتارُ ، ولَوْلاه لدَاسُوا الدُّنْيا ، وقد ذَهبَ إليه مُحْيي الدِّين ابنُ الجَوْزي رَسُولاً فوَجدَه يَقْرأُ في مُصْحَفٍ ويَبْكي ، ثم اعْتذَرَ عَمَّا يَفْعلُه جُندُه بكَثْرَتِهم ، وعَدمِ طاعَتِهم ، وقد تَقاذَفَت به البلادُ إلى الهِنْدِ ثم إلىٰ كِرْمانَ ثم إلىٰ أعْمالِ العِراقِ[3] .

وساقَ إلىٰ أذْرَبيجانَ فاسْتولَىٰ علىٰ كَثيرٍ منها ، وغَدرَ بأتابِك أُزبك ، وأخْرجَه من بلادِه ، وأخَذَ زَوجَه ابنَة السُّلطانِ طُغرل ، فتَزوَّجَها ثم عَملَ مصافّاً مع الكَرْج فطَحَنَهم ، وقَتَلَ مُلوكَهم ، وقَويَ مُلكُه ، وكَثُرت جُموعُه ، ثم في الآخِر تَلاشَىٰ أمرُه لَمَّا كَسَرَه الْمَلكُ الأشْرَفُ مُوسَىٰ وصاحبُ الرُّوم بناحيَة أرْمينيَة ، ثم كَبَسَتْه التَّتارُ لَيلةً ، فنَجا في نَحوٍ من مئة فارِس ثم تَفرَّقوا عنه إلىٰ أنْ بَقيَ وَحدَه ، فألَحَّ في طلبه خَمسةَ عَشرَ من التَّتارِ فثَبَتَ لهم وقَتلَ اثنَين فأحْجَمُوا عنه ، وصَعدَ في جَبَل بناحيَة آمَد يَنزِلُه أكْرادٌ فأجارَه كَبيرٌ منهم ، وعَرَفَ أنَّه السُّلطانُ ، فوَعدَه بكل خَيرٍ ، ففَرَح الكُرْدِيُّ ، وذَهبَ

---

(١) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٦٨ .

(٢) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٦٨ .

(٣) انظر السير : (خُوارزْمشاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٩٤ .

ليُحْضِرَ خَيلاً له ويُعلِمَ بَني عَمِّه ، وتَركَه عندَ أُمِّه ، فجاءَ كُرْديٌّ فيه جُرأةٌ فقال : ليش[1] تخلُّوا هـٰذا الخُوارِزْميَّ عندَكم ؟ قيل : اسْكُت هـٰذا هو السُّلطانُ ، فقالَ : لأَقْتُلَنَّه فقد قَتلَ أخي بخِلاطَ ، ثم شَدَّ عليه بحَرْبَة ، قَتلَه في الحالِ في سَنةِ ثَمانٍ وعَشْرينَ وسِتِّ مئة[2] .

* * *

(١) لفظة عامية معناها لأي شيء .

(٢) انظر السير : (خُوارزْمشاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٥ .

أَهْلُ الذِّمَّة

١ـ لا يَجُوزُ أَمْرُهم بتأخير الإسْلام إذا أرادوا الدُّخولَ فيه :

قالَ الحاكمُ : سَمعتُ الحُسَينَ بنَ أحمَدَ الْمَاسَرْجِسيَّ ، يَحكي عن جَدِّه وغَيرِه ، قالَ : كانَ الحَسنُ والحُسَينُ ابنا عيسَىٰ يَركَبانِ معاً ، فيَتَحَيَّرُ النَّاسُ من حُسنِهما وبَزَّتِهما ، فاتَّفَقا علىٰ أن يُسْلِمَا ، فقَصَدا حَفْصَ بنَ عبدِ الرَّحْمَـٰن ، فقالَ : أنتُما من أجَلِّ النَّصارَىٰ ، وابنُ الْمُبَارَك قادِمٌ لِيَحُجَّ فإذا أسْلَمْتُما علىٰ يَدِه كان ذلكَ أعْظَمَ عند المسلمين ، وأرْفَع لكما ، فإنَّه شَيخُ الْمَشْرِقِ فانْصَرَفا عنه فمَرِضَ الحُسَينُ ، فماتَ نَصْرانياً ، فلمَّا قَدِمَ ابنُ الْمُبَارَك ، أسلمَ الحَسَنُ علىٰ يَدِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : يَبعُدُ أنْ يَأمُرَهُما حَفْصٌ بتأخيرِ الإسْلامِ ، فإنَّه رَجلٌ عالمٍ فإنْ صَحَّ ذلك فمَوتُ الحُسَين مُريداً للإسْلام ، مُنْتَظِرٌ قُدومَ ابنِ الْمُبَارَك ليُسْلمَ نافعٌ له[١] .

٢ـ هَلْ يَجُوزُ أنْ يُقالَ له : « أكرَمَكَ الله » ؟

قالَ إبْراهيمُ الحَرْبيُّ : سُئلَ أحمدُ عن المُسْلمِ يَقولُ للنَّصْرانيِّ : أكْرَمَكَ اللهُ قال : نَعَم ، يَنْوي بها الإسْلامَ[٢] .

٣ـ مَنْ ظُلِمَ منهم فخلَّصَه عالمٌ من المسْلمين :

قال مَالِكُ بنُ دِينَارٍ : حَدَّثَنِي فُلانٌ أنَّ عامِرَ بنَ قَيْسٍ مَرَّ في الرَّحْبَةِ وإذا رجلٌ يُظْلَمُ ، فأَلْقَىٰ رداءَه وقال : لا أَرَىٰ ذِمَّةَ الله تُخْفَرُ وأنا حَيّ ، فاسْتَنْقَذَه ، ويُرْوَىٰ أنَّ سَبَبَ إبْعادِه إلى الشَّامِ ، كَوْنُه أَنْكَرَ وخَلَّصَ هـٰذا الذِّمِيَّ[٣] .

---

(١) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عيسىٰ بنُ ماسَرْجِس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٧٦ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٩٤٧ .

(٣) انظر السير : (عامر بن قيس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٣٤ .

٤ـ زيارَةُ أهْلِ الذِّمَّة لعُلَماء المسلمين :

قال الْمَرْوذيُّ : رَأيتُ طَبيباً نَصْرانيّاً خَرجَ من عندِ أحمَدَ مَعه رَاهِبٌ ، فقالَ : إنَّه سَألَني أنْ يَجيءَ مَعي ليَرَىٰ أبا عبدِ الله .

وأدْخلتُ نَصرانيّاً علىٰ أبي عبدِ الله ، فقالَ له : إنِّي لأشْتَهي أنْ أرَاكَ مُنذُ سِنينَ ما بَقاؤُك صَلاحٌ للإسْلامِ وَحدَهم ، بلْ للخَلقِ جَميعاً ، ولَيسَ من أصْحَابنا أحَدٌ إلاَّ وقَدْ رَضِيَ بك[1] .

٥ـ كيفَ عَزَلَ الإمامُ الطَّرْطُوشيُّ وَزيراً من أهْلِ الذِّمَّة ؟

قالَ القاضي شَمسُ الدِّين ابنُ خَلِّكانَ : دَخلَ الطُّرْطُوشيُّ على الأفْضَلِ ابنِ أميرِ الجُيوشِ بمِصْرَ ، فبَسَطَ تَحتَه مِئزَرَة ، وكانَ إلىٰ جانِبِ الأفْضَلِ نَصْرانيٌّ فوَعَظَ الأفْضَلَ حتَّىٰ أبْكاهُ[2] ثم أنْشَدَه :

يَـا ذَا الَّـذِي طَـاعَتُـهُ قُـرْبَـةٌ ... وَحَقُّـهُ مُفْتَـرَضٌ وَاجِـبُ
إنَّ الَّـذِي شُـرِّفْـتَ مِـنْ أجْلِـهِ ... يَـزْعُـمُ هَـٰـذَا أنَّـهُ كَـاذِبُ

وأشارَ إلىٰ ذلكَ النَّصْرانيِّ ، فأقامَ الأفْضَلُ النَّصْرانيَّ من مَوْضِعِه .

وقد صَنَّفَ أبو بَكر كتابَ « سِراجُ الْمُلوكِ »[3] للمَأمُونِ بنِ البَطَائحيِّ الذي وَزَرَ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٢٨ .

(٢) فكان مما قال له كما في « نفح الطيب » : إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك ، فاتَّقِ الله فيما خوَّلك من هـٰذه الأمة ، فإنَّ الله عزَّ وجَلَّ سائلُك عن النَّقير والقِطْمير والفَتيل ، واعلم أن الله عزَّ وجلَّ آتىٰ سُليمانَ بنَ داوُدَ مُلكَ الدُّنيا بحذافيرها ، فسخَّر له الإنْسَ والجنَّ والشَّياطين والطير والوحش والبَهائمَ ، وسخَّر له الرِّيحَ تَجْري بأمره رُخاءً حيثُ أصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فما عدَّ ذلك نعمةً كما عَدَدْتموها ، ولا حَسبها كرامةً كما حسبتموها ، بلْ خاف أن يكون استدراجاً من الله عزَّ وجَلَّ ، فقال : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ فافتح الباب ، وسَهِّلْ الحجاب ، وانصر المظلوم .

(٣) وهو من أمتع الكتب وأجودها في بابها ، يُقالُ : إنَّه كُتب على اللَّوحَة الأولىٰ منه هـٰذان البيْتان :

النَّـاسُ يُهـدُونَ علـىٰ قَـدْرِهـم ... لكِنَّنـي أُهْـدِي علـىٰ قَـدْري=

بِمِصْرَ بعدَ الأفْضَلِ ، وله مُؤلَّف في طريقَةِ الخِلافِ ، وكان الْمَأمونُ قد نوَّه باسمِه ، وبالَغَ في إكْرامِه[1] .

٦ـ كيف عُزلَ نائبان ـ من أهل الذِّمَّة ـ للعَزيز صاحبِ مِصْرَ ؟

جاءَ في تَرجَمَةِ العَزيزِ باللهِ العُبَيْديِّ صاحِبِ مِصْرَ ، قالَ أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزيِّ : كان العَزيزُ قد وَلَّىٰ عيسَىٰ بنَ نسْطورس النَّصْرانيَّ أمْرَ مِصْرَ ، واسْتَنابَ مُنشَّا اليَهوديَّ بالشَّامِ فكَتَبَت إليه امْرأةٌ : بالذي أعَزَّ اليَهودَ والنَّصارَىٰ بمُنشَّا وابنَ نسْطورَس ، وأذَلَّ المسلمينَ بك ، إلاَّ ما نَظَرتَ في أمْري .

فقَبضَ على الاثنين وأخذَ من عيسَىٰ ثلاثَ مئَة ألفِ دينار[2] .

٧ـ تَعْظيمُ واحدٍ منهم لدِينِه :

وقيلَ : إنَّ الأخْطَلَ قَيَّدَه الأُسْقُفُ وأهانَه ، فلِيمَ في صَبرِه له ، فقالَ : إنَّه الدِّينُ ، إنَّه الدِّينُ .

وقد حصَّلَ أمْوالاً جَزيلَة من بَني أُمَيَّة ، وماتَ قبلَ الفَرَزْدَق بسَنَوات[3] .

٨ـ مَنْ أسْلَمَ من أهْل الذِّمَّة فصَارَ عالماً :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَسَنِ بنِ عيسَىٰ بنِ مَاسَرْجس : الإمامُ الثِّقةُ الجَليلُ ، أبو عَليّ النِّيسابوري .

كانَ من كُبَراء النَّصارَىٰ فأسْلَم[4] .

قالَ الحاكمُ : سَمعتُ الحُسَينَ بنَ أحمَدَ الْمَاسَرْجسيَّ ، يَحكي عن جَدِّه وغَيرِه ، قالَ : كانَ الحَسنُ والحُسَينُ ابنا عيسَىٰ يَركَبانِ معاً ، فيَتَحَيَّرُ النَّاسُ من حُسنِهما

= يُهْدُون ما يَفْنَىٰ وأُهدي الَّذي يَبْقَىٰ على الأيَّام والدَّهْر

(١) انظر السير : (الطُّرْطُوشيُّ) ١٩/ ٤٩٠ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٠٠ .

(٢) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٦ .

(٣) انظر السير : (الأخْطَل) ٤/ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٦٤ .

(٤) انظر السير : (الحَسَن بن عيسَى بن ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٦ .

وبزَّتِهما ، فاتَّفقا علىٰ أن يُسْلِمَا ، فقَصَدا حَفْصَ بنَ عبدِ الرَّحْمَـٰن ، فقالَ : أنتُما من أجَلِّ النَّصارَىٰ ، وابنُ الْمُبَارَك قادِمٌ لِيَحُجَّ فإذا أسْلَمْتُما علىٰ يَدِه كان ذلكَ أعْظَمَ عند المسلمين ، وأرْفَع لكما ، فإنَّه شَيخُ الْمَشْرِقِ فانْصَرَفا عنه فمَرِضَ الحُسَينُ ، فماتَ نَصْرانياً ، فلمَّا قَدِمَ ابنُ الْمُبَارَك ، أسلمَ الحَسَنُ علىٰ يَدِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : يَبعُدُ أنْ يَأمُرَهُما حَفْصٌ بتأخيرِ الإسْلامِ ، فإنَّه رَجلٌ عالمٍ فإنْ صَحَّ ذلك فمَوتُ الحُسَين مُريداً للإسْلام ، مُنْتَظِرٌ قُدومَ ابنِ الْمُبَارَك ليُسْلمَ نافعٌ له[1] .

وقال الحاكمُ : حَدَّثَنا الحافِظُ أبو علي النِّيسَابُوري عن شُيوخِه أنَّ ابنَ المُبَارك نَزَلَ مرةً برأسِ سِكَّةِ عيسىٰ ، وكان الحَسَنُ بنُ عيسىٰ يَركبُ فيُجتَازُ به وهو في المَجلس وكان من أحسَنِ الشَّباب وجهاً ، فسَألَ ابنُ المُبارك عنه فقِيلَ : هو نَصْرَانيّ فقالَ : اللَّهُمَّ ارزُقهُ الإسلامَ ، فاسْتُجِيبَ له .

قال أبو العَبَّاس السَّرَّاج : حَدَّثنا الحَسَنُ بنُ عيسىٰ مَولَىٰ عبد الله ابن المُبارك ، وكان عاقِلاً ، عُدَّ في مَجلِسِه ببابِ الطَّاقِ[2] اثنا عَشر ألفَ محبَرَة .

ماتَ مُنْصَرفه من مَكة سَنةَ تِسْعٍ وثَلاثينَ ومِئتين[3] .

٩ـ مَنْ أسْلَمَ من أهْلِ الذِّمَّة فصَارَ وَزيراً :

ابنُ كلِّس :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : وَزيرُ الْمُعِزِّ والعَزيزِ ، أبو الفَرَج ، يَعقُوبُ بنُ يُوسُف بنِ إبْراهيمَ البَغْداديّ الذي كانَ يَهوديّاً فأسْلَم .

كان داهيةً ، ماكِراً ، فَطِناً ، سائساً ، من رجالِ العالَم .

سافرَ إلى الرَّمْلَة ، وتوكلَ للتُّجارِ ، فانْكَسرَ عليه جُملةٌ وتَعثَّر ، فهَربَ إلىٰ مِصْرَ ،

---

(١) انظر السير : (الحَسَن بن عيسَى بن ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٧٦ .

(٢) وهي محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلّىٰ ، وتُعرف أيضاً بطاقة أسماء ، نسبةً إلىٰ أسماء بنت المنصور .

(٣) انظر السير : (الحَسَن بن عيسَى بن ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٧٦ .

وجَرَت له أُمورٌ طَويلَة ، فرَأىٰ منه صاحِبُ مِصْرَ كافورٌ الخادِمُ فِطْنَةً وخِبْرَةً بالأُمورِ ، وطَمِعَ هو في التَّرَقِّي ، فأسْلَمَ يومَ جُمُعَة ، ثم فَهِمَ مَقاصِدَه الوزيرُ ابن حِنْزابَة فعَمِلَ عَليه ، ففرَّ منه إلى الْمَغرِب ، وتَوصَّلَ بيَهودٍ كانوا في بابِ الْمُعِزِّ العُبَيْديِّ ، فنَفَق على الْمُعِزِّ ، وكَشفَ له أُمُوراً ، وحَسَّن له تَملُّكَ البِلادِ ، ثم جاءَ في صُحْبَتِه إلىٰ مِصْرَ ، وقد عَظُمَ أمرُه ، ولَمَّا وَلِيَ العَزيزُ سَنةَ خَمسٍ وسِتِّينَ اسْتَوزَرَه ، فاسْتمَرَّ في رِفْعَة وتَمكُّن ، إلىٰ أنْ ماتَ .

وكانَ عاليَ الهِمَّة ، عَظيمَ الهَيْبَة ، حَسنَ الْمُداراة .

مَرضَ فنزَلَ إليه العَزيزُ يَعودُه ، وقالَ : يا يَعقوبُ وَدِدتُ أنَّك تُباعُ فأشْتَريكَ من الْمَوتِ بمُلكي ، فهَلْ من حاجَة ؟ فبَكَىٰ وقبَّلَ يدَه وقالَ : أمَّا لنَفسي فلا ، لكنْ فيما يَتعلَّقُ بك ، سالِم الرُّومَ ما سَالَمُوكَ ، واقْنَع من بَني حِمْدانَ بالدَّعْوَة والسّكَّة ، ولا تُبقِ على الْمُفَرِّج بنِ دغفل متىٰ قَدرتَ ثم ماتَ ، فدَفنَه العَزيزُ في القَصْر في قُبَّة أنْشَأها العَزيزُ لنَفسِه ، وألْحَدَه بيدِه ، وجَزعَ لفَقدِه .

ويُقالُ : إنَّه كانَ حَسُنَ إسْلامُه مع دُخولِه في الرَّفْضِ ، وقَرأ القُرآنَ والنَّحوَ ، كانَ يَحضُرُ عنده العُلماءُ ، وتُقرأُ عليه تَواليفُه ليلَة الجُمُعَة ، له حُبٌّ زائدٌ في العُلومِ ، على اخْتِلافِها .

وقد مَدحَه عدَّة من الشُّعَراء ، وكانَ جَواداً مُمَدَّحاً .

وقالَ العَزيزُ وهو يَبكي : واطُولَ أسَفي عَليكَ يا وَزيرُ .

ماتَ سَنةَ ثَمانينَ وثَلاثِ مئة ، لهُ اثْنَتان وسِتُّونَ سَنةً ، وخَلَّفَ من الذَّهبِ والجَوْهر والْمَتاعِ ما لا يُوصَف كَثرةً ، ولا رَيبَ أنَّ مُلكَ مِصْرَ في ذاكَ العَصْر ، كانَ أعْظَمَ بكَثير من خُلفاءِ بَني العبَّاس ، كما الآن صاحِبُ مِصْرَ أعْلَىٰ مُلوك الطَّوائف رُتبَة ومَمْلكَةً[1] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ كلِّس) ١٦/ ٤٤٢ـ ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ١٣٠٢/ ابنُ كلِّس .

١٠ـ مِنْ أطِبَّاء المسلمين مَنْ كان يَمْتَنعُ عن تَعليم أهْل الذِّمَّة عِزَّةً :

جاءَ في تَرجَمَةِ الرَّحبيّ أنَّه قالَ : جَميعُ مَنْ قَرَأَ عليَّ سُعِدُوا وانْتَفَعَ النَّاسُ بهم وكان لا يُقْرِىءُ أحَداً من أهْلِ الذِمَّةِ بلىٰ ، قَرَأ عليه منهُم عِمْرانٌ اليَهُوديّ ، وإبْراهيمُ السَّامريُّ تَشَفَّعاً إليه ، وكُلٌّ منهُمَا بَرَعَ[١] .

١١ـ مِنْ شُعَراء النَّصَارَى الذِّين أسْلَموا :

أبو تَمَّام :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : شاعرُ العَصْر أبو تَمَّام ، حَبيبُ ابنُ أَوْس بنُ الحارث الطَّائيُّ ، أسْلَمَ وكانَ نَصْرانيّاً مَدحَ الخُلفاءَ والكُبراءَ وشعْرُه في الذِّرْوَة .

وكانَ أسْمَرَ طِوالاً فَصيحاً ، عَذْبَ العِبارَة مع تَمْتَمَة قَليلَة .

وُلدَ في أيّامِ الرَّشيدِ ، وكانَ أوّلاً حَدثاً يَسقي الماءَ بمِصْرَ ، ثم جالَسَ الأُدَباءَ وأخذَ عنهم ، وكان يَتوَقَّدُ ذَكاءً ، وسَحَّت قَريحَتُه بالنَّظْمِ البَديع فسَمعَ به المُعْتَصِمُ ، فطَلَبَه ، وقدَّمه على الشُّعَراء وله فيه قَصائدُ وكان يُوصَفُ بطِيبِ الأَخْلاقِ والظُّرْفِ والسَّماحَة .

وقيلَ : قَدمَ في زِيِّ الأعْرابِ ، فجَلسَ إلىٰ حَلقَة من الشُّعَراء ، وطلبَ منهُم أنْ يَسمَعوا من نَظْمِه ، فشاعَ وذاعَ وخَضَعوا له وصارَ من أمْرِهِ ما صارَ .

وقد كان البُحْتُريُّ يَرفعُ من أبي تَمَّام ، ويُقدِّمُه علىٰ نَفسِه ، ويَقولُ : ما أكَلتُ الخُبزَ إلاَّ به ، وإني تابعٌ له[٢] .

* * *

---

(١) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٤ .

(٢) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٩ .

محتوى الكتاب

العِلْمُ والعُلَماء ٥
أولاً : العلْم ٥
١ ـ فَضْلُ العِلْم ٥
٢ ـ الخَوفُ والإشْفاقُ حالَ تَبْليغ العِلْم ٥
٣ ـ وُجوب العَمَل بالعِلْم ٧
٤ ـ رُؤى فيها حَثٌّ على العَمَل بالعِلْم ٧
٥ ـ العِلْمُ النافِع ٩
(أ) صُورٌ من العِلْمِ النافِع ٩
(ب) شروط العِلْمِ النافِع ١٣
٦ ـ العِلْمُ الضَّار ١٣
٧ ـ النِّيةُ في طَلَب العِلْم ١٣
(أ) وُجوب إحْسان النِّيَّة في طَلَب العِلْم ١٣
(ب) رُؤيا تُفيد الحَثَّ على إحْسان النِّيَّة في طَلَب العِلْم ١٤
٨ ـ لذَّة العِلْم ١٥
٩ ـ العِلْمُ اللدُنِّي ١٥
١٠ ـ أخْذُ المال على العِلْم كان مَكْروهاً أيّام السَّلَف ١٦
١١ ـ أقوالٌ فيها حَثٌّ على طَلَب العِلْم من الصِّغَر ١٨
١٢ ـ طَلَبُ العِلْم مَلْهاةٌ ـ غالباً ـ عن الأهْل والمَال ١٩
١٣ ـ طَلَبُ العِلْم مَلْهاةٌ عن الطَّعام ٢٠

١٤ ـ لا يُسْتطاعُ العِلْم براحة الجَسَد ٢٠
١٥ ـ عَدمُ الاسْتكثار من المَسائل على حِساب الرَّقائق والرَّغائب ٢٠
١٦ ـ كيفية طَلَب العِلْم ونَشره ٢٢
١٧ ـ الرِّحلة في طَلَب العِلْم ٢٢
١٨ ـ من آداب طَلَب العِلْم ونَشره ٢٥
(أ) لا يُطْلَب العِلْم لتَقْوية الرأي ولكن لمَعْرفة الحقّ ٢٥
(ب) تَحْديثُ النَّاسِ بما يَعلمون ٢٥
(ج) عَدمُ الإكثار من تَحْديث النَّاس ٢٥
(د) الحَثُّ على أخذ العِلْم من أهْله ٢٦
(هـ) حَوادثُ تُخالِف أدبَ نَشر العِلْم ٢٦
١٩ ـ ضَوابِط في تَفضيل طَلَب العِلْم على فعل القُربات ٢٨
٢٠ ـ ضَوابِط في كتْمان العِلْم ٢٩
٢١ ـ حَال أربعَة أصْناف من النَّاس مع العِلْم ٣٢
٢٢ ـ من وسائل تثبيت العِلْم ٣٢
(أ) الاختبار والامتحان ٣٢
١ ـ صُورٌ على الاختبار ٣٢
٢ ـ اخْتبار العُلماء بَعضِهم بَعضاً ٣٣
٣ ـ اخْتبارُ الخُلَفاءِ العُلماء ٣٥
٤ ـ اخْتبارَ العَالم فَهْمَ تلاميذه ٣٦
(ب) المُناظَرَة ٣٦
١ ـ المُناظَرة بدون نية حَسنَة مَضرَّة ٣٦
٢ ـ من آداب المُناظرة ٣٦
٣ ـ مَنْ كان حَسَنَ المُناظرة ٣٧

(ج) أجوبَةٌ ورُدود ٣٧
١ ـ مضرَّة تَرك الجَواب ٣٧
٢ ـ حُسْنُ الجَواب يَجب أنْ يَقْترن بالأدَب ٣٧
٣ ـ أجوبَةٌ ذَكيَّة ٣٨
٤ ـ أجوبَةٌ مُفْحِمَة ٤٠
٥ ـ أجوبَةٌ مُخْجِلَة ٤٣
٦ ـ الانقطاع وعَدم القُدرَة على الجَواب ٤٤
ثانياً : العُلَماء ٤٦
١ ـ العُلماءُ قُدوَة لغيرهم ٤٦
٢ ـ مَكانةُ العُلَماء كانت عاليةً عند السَّلف ٤٦
٣ ـ المحافظة على العلماء وعَدم الطَّعْن فيهم ٤٧
٤ ـ سُنَّة الله أنَّ الكلامَ في العَالِم بهَوىً رافِعٌ له ومُعلٍ لقَدْره ٤٨
٥ ـ كلُّ عالم لا يُفلِتُ من الخَطأ ٤٨
٦ ـ الحَثُّ على أخذ العِلْم من أهله ٤٩
٧ ـ أربعَةُ أصْناف لا يُؤخَذ عنهم العلْم ٤٩
٨ ـ عُلَماءُ السوء ٤٩
٩ ـ وجُوب الحِفاظ على العِلْم من الجُهَلاء ٥١
١٠ ـ عُلَماءُ الصَّحابة ٥١
١١ ـ ذِكر لأعظَم عُلماء الإسْلام في عُلوم متعَددة ٥٢
١٢ ـ ذِكر عدَّة طَبقات من العُلماء ٥٢
١٣ ـ صفاتُ مَجالس العُلماء ٥٣
١٤ ـ الحَثُّ على لُزوم العالم مدَّة طَويلة من غير مَلَل ٥٥
١٥ ـ الحَثُّ على مُجالسة أكثر من عالم حتى يُعرَف الخَطأ من الصَّواب ٥٦

١٦ ـ مساعَدةُ العَامَّةِ العُلماءَ في الثَّبات على الحَقِّ ٥٦
١٧ ـ مُكافَأةُ العامَّةِ العُلماءَ على ثَباتِهم على الحَقِّ ٥٨
١٨ ـ عَلاقَة العُلَماء بالمُلوك والأُمَراء والكبَراء ٥٨
(أ) الدُّخُولُ عَليهم ووَعْظُهم ٥٨
إذا اضْطُروا للدُّخولِ عَليهم فإنَّهم يَصْدَعونهم بالحَقّ ٥٩
الدُّخولُ عليهم لقضاء حاجات النَّاس وأمْرِهم بالمَعْروف ونَهيِهم عن المُنْكر ... ٦١
تَعليمُهم والجَوابُ على أسْئلتِهم ٦٢
(ب) عَدمُ الدُّخولِ عَليهم وحَثُّ بَعضِهم بَعضاً على ذلك ٦٣
مَنْ كان يَرفُض العِلاجَ حتى لا يَبرأ فيدخُل عليهم ٦٤
تَعْبيرُ مَنْ دَخلَ عليهم واتِّهامُهم ٦٤
عَدُّهم الدُّخول على السَّلاطين خُذلاناً من الله ٦٤
الانْزِعاجُ إذا عَلموا أنَّ الأميرَ عَرفَهم ٦٥
أقْوالٌ بَليغة تُحذِّرُ من مُخالطة السُّلطان ٦٥
(ج) عَدمُ قَبول أمْوالِهم وعَطاياهم ٦٥
(د) رَفْضُ بَعض العُلماء مُقابلة الأُمَراء والكبراء ٦٧
مَنْ كان السُّلطانُ يَزورُه فلا يُعَظِّمْه ٦٨
مَنْ كان لا يَقومُ للرُّؤساء إذا مَرُّوا ويُحذِّر من النَّظَر إليهم ٧٠
(هـ) الإغْلاظُ عليهم إذا ظَلَموا أو فَسَقوا ٧٠
(و) اعتذارُ السُّلطانِ للعالِم وتَقبيلُه يدَه طلباً للعَفو ٧١
(ز) الدُّعاء لهم وكيْفيَّتُه ٧١
قال الفُضَيلُ بنُ عِياض : لَوْ أنَّ لي دَعوةٌ مُستجابَة ما جَعلتُها إلاَّ في إمام ٧٢
عَدمُ الدُّعاء لهم إذا جارُوا ٧٢
مَنْ هاجَر من بلَده لأنَّه أُلْزِمَ في الخُطبة بوَصف الأُمَراء بصفات لَمْ يَرَها سائغة ... ٧٣

(ح) مُتفرِّقات في عَلاقة العُلماء بالمُلوكِ والأُمَراء ٧٣
١٩ ـ حَالُ العُلَماء مع طَلبَة العِلم ٧٦
(أ) التَّلاميذُ الصَّالحون أفْضَلُ من الأبناءِ الطَّالحين ٧٦
(ب) عَدمُ قَبول الهَدايا من الطَّلَبة ٧٦
(ج) تَخصيصُ العالِم بعضَ طلبَته بأوقات لتَحْصيل العِلم ٧٧
(د) الطَّالبُ المَحْبوب والطَّالبُ البَغيض ٧٧
(هـ) عَدمُ الغَضب من طُلاَّبِهم إن تَتلْمَذوا على المُخالف لهم ٧٧
٢٠ ـ فَضْلُ العُلَماء العاملين ٧٧
(أ) سَببٌ لهدايَة النَّاس ٧٧
(ب) يُسْتَشفَى بحَديثِهم ، ويَنزلُ القَطرُ من السَّماء بذكرهم ٧٨
(ج) سَببٌ لأمان النَّاس ٧٨
(د) سَببٌ لصَلاح النَّاس ٧٨
(هـ) سَببٌ لنُزول نَصْر الله ٧٩
(و) يُنَقُّون الدين ممَّا عَلق به ٧٩
(ز) يُصَحِّحون مَفاهيم العامَّة ٧٩
(ح) يُجَدِّدون الدين ٧٩
٢١ ـ من صفات العلماء ٨١
(أ) الدَّأبُ في طَلب العِلْم حتى الممَات ٨١
(ب) الإنْفاق لتَحصيل العلم ٨١
(ج) الضَّبط والدِّقَّة ٨١
(د) التَّرفُّع عن أمْوال النَّاس والزُّهْد فيها ٨٣
(هـ) التَّقْويم لا التَّعيير ٨٤
(و) الثِّقةُ في أمثالِهم من العُلماء ٨٤

٢٢ ـ من صفات طالب العلم ٨٤
(أ) الحرصُ على طَلب العِلم ٨٤
(ب) تَحمُّل المَشاقّ في طَلب العِلم ٨٥
(ج) الصَّبرُ على شدَّة المَشايخ ٨٦
(د) التَّرَحُّم على شَيخه والدُّعاء له ٨٦
(هـ) عَدمُ مُعارَضة آراء شَيخه بآراء شُيوخ آخَرين أمامَه ٨٦
(و) الأدب مع الشَّيخ ٨٦
(ز) العَقْلُ والدِّين ٨٧
(ح) الأَناة وعَدم العَجَلة ٨٧
(ط) عَدمُ السُّؤال عن أشياء لمْ تُوجَد بعد ٨٧
٢٣ ـ عدَّةُ العَالِم لا أدْري ٨٨
هل يَستطيعُ العالمُ أنْ يَقولَ لا أدْري فيما يَدْري ؟ ٨٩
٢٤ ـ مَنْ علِمَ علماً وقصر في آخَر ٨٩
٢٥ ـ ضَابطٌ في إطْلاق التَّضْعيف لعالم بسَبب ضَعفه في علمٍ أو أكثر ٩١
٢٦ ـ العُلَماء صِغار السن ٩١
٢٧ ـ الحَثُّ على التَّعَلُّم في الصِّغَر ٩٤
٢٨ ـ العُلَماء الذين تَعلَّموا على كبَر ٩٤
٢٩ ـ من أسباب عَدم الاستفادَة من العُلَماء ٩٦
(أ) كثرَة مُخالَفته ٩٦
(ب) كون العالِم في غُربَة وهو لا يُعْرَف ٩٦
(ج) عَدم الأمَان ٩٧
(د) الكبْر والتِّيه على العالِم ٩٧
(هـ) التَّعَصُّب المَذْهَبيّ ٩٨

(و) أزْهَدُ النَّاس في عالمٍ أهْلُه ٩٨
٣٠ ـ من أسْباب عَدم انتشار علم بَعض العُلَماء ٩٨
(أ) كثرَة العبادَة ٩٨
(ب) الشذوذ وكثرَة المُخالَفة ٩٨
(ج) قَسوةُ عبارة العالِم ، وشَتمه وسبّه غيرَه ٩٩
٣١ ـ من أسْباب بُروز بَعض العُلَماء ١٠٢
(أ) مجموعة صفات تجدها في العالِمِ ١٠٢
(ب) الحرْص ١٠٢
(ج) قَناعَة النَّاس بهم ١٠٢
(د) تَمَيّز العالِم ١٠٢
٣٢ ـ مُتَفَرِّقات ١٠٣
(أ) أمثلة على الخُلَفاء والأُمَراء والعُلَماء ١٠٣
عبد الملك بن مَروان ١٠٣
عبد الله بن محمّد بن عبد الرحْمَن المَرْواني ١٠٣
المُسْتَنْصِر بالله المَرْوانيّ ١٠٤
(ب) الأُمَراء مُحِبُّوا العِلم ١٠٥
(ج) أغْنياء العُلَماء ١٠٦
(د) أحْوالُ بَعض العُلماء والمُتَعلِّمين في عَصر الذَّهبيّ ١١٠
(هـ) عُلماء فُقِدوا أو ماتوا فَجأة ١١٢
(و) مَنْ أنْقذَه العِلمُ من الأسر ١١٣
الكتابَةُ والكتُب ١١٤
١ ـ الكتابَةُ قَيدٌ للمَعْلومات ١١٤
٢ ـ نَشأةُ الكتابَة العَربيّة ١١٤

٣ ـ كيف كتب النبيُّ ﷺ اسْمَه يوم الحُدَيْبيَة مع كونه ﷺ أُميّاً ١١٥
٤ ـ المُصَنِّفُ يَعرضُ عَقلَه على النَّاس ١١٨
٥ ـ عَدمُ المُراجَعة بعد الكتابَة والتَّصْنيف خَطأ ١١٨
٦ ـ الأُنْس بكتُب العِلم ١١٨
٧ ـ اعْتناء بعض العامَّة بكتُب العِلم ١١٩
٨ ـ أخْذُ كتب في السَّفر يُسْتعان بها ١١٩
٩ ـ مَكتبَة عَظيمَة ١١٩
١٠ ـ مَكتبَة تَعفَّنَت بسَبب الرُّطوبة والتَّرك ١٢٠
١١ ـ بَعضُ مَنْ اعتَنى بالكتُبِ وتَحْصيلِها ١٢٠
١٢ ـ مَنْ وَصَّى بكتُبه ١٢٠
١٣ ـ التعريف ببعض الكتب ١٢١
(أ) الأسديّة ١٢١
(ب) الفُنون لابن عَقيل ١٢١
(ج) المُدوَّنة ١٢٢
(د) مَعاجم الطَّبَراني ١٢٢
١٤ ـ نَقَدُ بعض الكتُب ١٢٣
(أ) إحياء عُلوم الدين للغَزالي ١٢٣
(ب) الشَّفا للقاضي عِياض ١٢٤
(ج) مِرْآةُ الزَّمان لسِبطِ ابن الجَوْزي ١٢٤
١٥ ـ كتاب نَهْجِ البَلاغَة مَوضُوعٌ ونِسْبَتُه إلى عليٍّ رضي الله عنه غيرُ صحيحة ... ١٢٦
١٦ ـ كتابٌ مَنسُوبٌ إلى الإمام أحمَد ١٢٦
١٧ ـ تَمنِّي الذَّهبيّ أن يُقيِّض الله عَالماً يَخدم المُسنَد ١٢٧
١٨ ـ رُؤى فيها تَزكيَة لكتُب ١٢٧

من عُلوم الإسْلام ١٣٠
١ القُرآنُ والقِراءاتُ والتَّجْويد ١٣٠
أولاً : القُرآن ١٣٠
١ ـ فَضلُ القُرآن ١٣٠
٢ ـ تَدَبُّرُ القُرآن ١٣١
٣ ـ تَدبُّر السَّلَف لكتاب الله ١٣٢
(أ) صُورٌ من تَدبُّر السَّلَف لكتاب الله ١٣٢
(ب) التَّأثُّرُ عندَ قِراءَتِه ١٣٣
(ج) الصَّعْقُ عندَ سَماعِه ١٣٤
(د) المَوْتُ عندَ سَماعِه ١٣٥
(هـ) الشُّعورُ بالحَلاوَة حالَ قراءتِه ١٣٥
٤ ـ الصَّحابَة المُتَميِّزونَ في القُرآنِ ١٣٥
٥ ـ هِمَّةُ السَّلف في تَعلُّمِه ١٣٦
٦ ـ القُرآنُ شغُلُ العُلَماء ١٣٧
٧ ـ التنبيه على عَدم تَرْك القُرآنِ اشتغالاً بعُلوم أخرى ١٣٧
٨ ـ اسْتحْضارُ القُرآن ١٣٧
٩ ـ جَمْعُ القُرآن ١٣٨
١٠ ـ وُجُوبُ التَّفَقُّه لمُتَعَلِّمِ القُرآن ١٣٩
١١ ـ عَدمُ أخْذِ الأجْر على تَعليمِه ١٣٩
١٢ ـ اسْتماعُ القُرآنِ من حَسَنِ الصَّوْت ١٤٠
١٣ ـ مَنْ وُصفَ من السَّلف بطِيبِ صَوْته ١٤٢
١٤ ـ كيفيّة تَعَلُّم القُرآن ١٤٤
١٥ ـ كيفيّة تَعليم القُرآن ١٤٥

١٦ ـ زَمنٌ قياسي لتَعَلُّم القُرآن ١٤٧
١٧ ـ زَمنُ قراءَة خَتْمَة ١٤٧
١٨ ـ كثْرَةُ قراءتِه ١٤٧
١٩ ـ مَسَائلُ متفرِّقة ١٥٠
(أ) مَنْ قرأَ القُرآنَ في رَكعَة ١٥٠
(ب) التَّحْزينُ في قِراءتِه ١٥١
(ج) القِراءةُ بالألْحانِ بدْعَة ١٥١
(د) قِراءةُ اثنينِ على واحدٍ في الوقتِ نفسِه من سُورتينِ مُخْتلِفتين ١٥١
(هـ) مُتَشابِه القُرآن ١٥٢
(د) دُعَاء خَتْم القُرآن في السُّجود ١٥٢
(ز) رُؤى تَحثُّ على الاعْتِناء بالقُرآن ١٥٣
(ح) الدُّعابَةُ والمَزْحُ فيما يَتعلَّقُ بالقُرآن لا يَجوز ١٥٣
ثانياً : القِراءاتُ والتَّجْويد ١٥٤
١ ـ مَنْ قَرأَ القُرآنَ بالقِراءاتِ العَشْرِ وعُمْرُه عَشرُ سَنوات ١٥٤
٢ ـ رُؤيا فيها حَثٌّ على قِراءاتٍ بعَيْنِها ١٥٤
٣ ـ قِراءةُ حَمْزَة بن حَبيب وما دارَ حَوْلها ١٥٥
٤ ـ مَسائلُ مَتفرِّقَة ١٥٧
٢ التَّفْسِير ١٦١
تَفْسيرُ آيات ١٦١
تَفْسيرُ آيةٍ في ثلاثِ مئةٍ وستِّينَ مَجْلِساً ١٦٢
تَفْسيرُ آيةٍ في مُجلَّد ١٦٢
أسْبابُ نُزُول ١٦٢

٣ الحديث ١٦٧
١ ـ تَفْسيرُ أحاديث ١٦٧
٢ ـ تَصْحيحُ عِبارَة رَديئة جاءَت عن واحدٍ من السَّلف في نَقْدِ حَديثٍ من الأحاديث ١٦٨
٣ ـ حَديثيَّات ١٧٠
٤ ـ ضابطٌ لأخذِ الأجْر على التَّحْديث ١٩٢
٥ ـ عَدمُ الإكثار من التَّحْديث ١٩٣
٦ ـ ضابطٌ في الإكثار من التَّحْديث بالأحاديث ١٩٣
٧ ـ شُبْهَة تَكذيب بعض مَنْ لا يَعْلم أبا هُرَيْرَة رضي الله عنه ورَدُّها ١٩٤
٤ الفِقه ١٩٧
١ ـ الفُقَهاءُ العاملون أوْلياءُ الله ١٩٧
٢ ـ الفِقْهُ الحَقيقي ١٩٧
٣ ـ قَواعِدُ في الاجْتهاد والتَّقْليد ١٩٧
٤ ـ الفُقَهاءُ السَّبْعَة ٢٠٣
٥ ـ مَذاهِبُ فقهيَّة غَير المَذاهب الأربعَة ٢٠٤
٦ ـ مَذاهِبُ فقهيَّة فَنِيَت ٢٠٤
٧ ـ العُلَماءُ المُقَلِّدون ٢٠٥
٨ ـ تَتبُّع الرُّخَص فِسقٌ ٢٠٦
٩ ـ ماذا يَعمل مَنْ أرادَ التَّفَقُّه ٢٠٦
١٠ ـ التحْذير من الرأي والقِياس بالهَوى ٢٠٧
١١ ـ فَضْلُ الإجْماع ٢٠٧
١٢ ـ الفِقْهُ الظَّاهِري ٢٠٧
١٣ ـ فِقْهُ الإمَاميَّة ٢١١

١٤ ـ فِقْهُ الجِهَاد ٢١١
١٥ ـ أُرْجُوزَةٌ فِقْهِيَّة في الحَثِّ على اتِّباع مَذْهَب مالك ٢١٢
١٦ ـ مُناظَرةٌ فِقْهِيَّة ٢١٣
١٧ ـ التَّعَصُّب المَذْهَبي ٢١٣
(أ) قصّة مالك في طَلبه من المَنْصور عَدم حَمل النَّاس على مَذْهَب واحد ٢١٣
(ب) حَوادِثُ تدُلُّ على التَّعَصُّب المَذْهَبي ٢١٤
(ج) شِعْرٌ في التَّعَصُّب المَذْهَبي ٢١٦
١٨ ـ مَنْ كان يَرومُ القَضاء على المَذاهِب بالقُوَّة ٢١٨
١٩ ـ شِعْرٌ في التَّقَلُّب بين المَذاهِب ٢١٨
٢٠ ـ مُتفرِّقاتٌ في الفِقْه ٢١٩
(أ) الردُّ على مَنْ يَزْعُمُ أنَّ أحمدَ ليسَ فَقيهاً ٢١٩
(ب) الردُّ على مَنْ حرَّمَ الذَّهَبَ المُحَلَّق ٢١٩
(ج) اسْتعمالُ السِّبْحَة ٢٢٠
(د) تَعْليلٌ لانْتشَار مَذْهَب مالك في الأندَلُس ٢٢٠
(هـ) أحْكامٌ فِقْهِيَّةٌ مُتفرِّقَة ٢٢١
١ ـ في الطَّهارَة ٢٢١
٢ ـ في الصَّلاة ٢٢٢
٣ ـ في الصِّيام ٢٢٤
٤ ـ في الحَجِّ والعُمْرَة ٢٢٥
٥ ـ أحْكامُ الكفار ٢٢٦
٦ ـ في العِتْق ٢٢٦
٧ ـ في الكراء (الإجارة) ٢٢٧
٨ ـ في اللُّقَطَة ٢٢٧

٩ ـ في النَّبيذ ٢٢٧
١٠ ـ في السِّحْر ٢٢٨
١١ ـ في القِصَاص ٢٢٨
١٢ ـ في الهَيْئَة ٢٢٨
١٣ ـ في الزَّوَاج والطَّلاق ٢٢٩
١٤ ـ في الظِّهَار ٢٣١
١٥ ـ في الرَّضَاعَة ٢٣١
١٦ ـ العَقيقَة ٢٣١
١٧ ـ فَرائِض ٢٣٢
١٨ ـ مَوَاريث ٢٣٢
١٩ ـ تَجْهيزُ المَيِّت ٢٣٢
٢٠ ـ الفُتْيا والمُفْتون ٢٣٣
(أ) الصَّحَابَة المُفْتون ٢٣٣
(ب) المُفْتي في نَظرِ الإمام أحمد ٢٣٣
(ج) الجُرْأة على الفُتْيا غَيرُ مَحْمودَة ٢٣٤
(د) مَنْصِبُ المُفْتي مَنْصِبٌ خَطير ٢٣٤
(هـ) كان السَّلفُ لا يُفْتون حتى يأخُذوا الإذْنَ من عُلماء عَصْرِهم ٢٣٤
(و) مَنْ أفْتَى زيادَة على نِصْفِ قَرْن ولمْ يُؤْخَذْ عليه في فَتْوَى ٢٣٤
(ز) من آداب الفُتْيا طَلبُ العَوْن من الله عليها ٢٣٥
(ح) فَتاوَى مُتفَرِّقَة ٢٣٥
١ ـ في الصَّلاة ٢٣٥
٢ ـ في الحَجِّ والعُمْرَة ٢٣٦
٣ ـ أحْكامُ الكفَّار ٢٣٦

٤ ـ في الطَّلاق ٢٣٧
٢١ ـ القَضَاء ٢٣٧
(أ) القَضَاءُ على عَهْد الصَّحَابَة ٢٣٧
(ب) الأُصُولُ الشَّرعيَّة التي يَقْضي بها القاضي ٢٣٧
(ج) كرْه السَّلَف لمَنْصب القاضي ٢٣٨
(د) من السَّلَف مَنْ كان لا يأخذُ أجراً على القَضاء ٢٤٠
(هـ) من السَّلَف مَنْ كان يَنهَى عن أخذ أجرٍ على القَضاء ٢٤٠
(و) قُضاةٌ صالحون ٢٤٠
(ز) خَوفُ قاضٍ من الله ٢٤٤
(ح) تَحْذيرُ القاضي الشُّهودَ من شَهادة الزُّور ٢٤٤
(ط) قاضٍ فَطِنٌ ٢٤٤
(ي) قُضَاةٌ مُرْتَشُون خَرِبوا الذِّمَّة ٢٤٥
(ك) حَرِصَ نورُ الدِّين على مُساواة نفسِه بخَصْم في مَجْلِس القَضاء ٢٤٥
٢٢ ـ مُتفرِّقاتٌ في القَضاء ٢٤٦
(٥) اللُّغَةُ والأدَب ٢٤٨
١ ـ فَضْلُ عُلَماء اللُّغَة ٢٤٨
٢ ـ مَنْ كان من العُلماء لُحَنَة ٢٤٨
٣ ـ مَنْ كان يَقفُ على أواخِر الكلم خَوفاً من اللَّحْن ٢٤٩
٤ ـ مُناظَرَةٌ لُغَويَّة ٢٤٩
٥ ـ مَسَائلُ لُغَويَّة ٢٥٠
٦ ـ نادِرَةٌ لُغَويّة تدلُّ على سِعَة الحِفْظ والدِّرايَة ١٥١
٧ ـ الأدَبُ والأُدَباء ٢٥١

الفَصَاحَةُ والبَلاغَة ٢٥٢
١ ـ ضَوابط الكلام الحَسَن الجَميل ٢٥٢
٢ ـ كلامٌ جَميل حَولَ الفَصاحَة ٢٥٣
٣ ـ أمْثِلةٌ على الفَصاحَة والبَلاغَة ٢٥٣
٤ ـ أهْلُ الفَصاحَة والبَلاغَة ٢٥٦
٥ ـ نادِرَةٌ في الفَصاحَة ٢٦٠
الشِّعْرُ والشُّعَراء ٢٦٠
١ ـ كثيرٌ من الشُّعَراء عابِثُون لا يَقْصِدون ما يقُولونَه : قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ٢٦٠
٢ ـ الشُّعَراءُ المُتَّهَمون في دِينِهم ٢٦١
ابنُ هَانىء ٢٦١
أبو العَلاء المَعَرِّي ٢٦١
٣ ـ أبْياتٌ في الشِّعْر تُعْتَبَرُ كفْراً والعِياذُ بالله ٢٦٦
٤ ـ الشُّعَراءُ الماجِنون ٢٦٩
ابنُ الحَجَّاج ٢٦٩
٥ ـ الشَّاعرُ الزَّاهِدُ أبو العَتاهيَة ٢٧٠
٦ ـ من شُعَراء العَرَب ٢٧١
الأخْطَل ٢٧١
جَرير ٢٧١
أبو تَمَّام ٢٧٢
٧ ـ بَعضُ مَنْ وُصِلَ على الشِّعْر ٢٧٤
٨ ـ شعْرٌ في الهجاء ٢٧٤
٩ ـ أشْعَار في مَواضِيع مُتفرِّقَة ٢٧٦

(٦) التاريخ ٢٨٠
١ ـ ضابطٌ لحَديث «فحَدَّثَنا بمَا هو كائِنٌ إلي قِيامِ السَّاعة» ٢٨٠
٢ ـ ضابطٌ لقَبول الأخْبار ٢٨٠
٣ ـ تَكوُّن دَولَة بَني أُمَيَّة ٢٨٠
٤ ـ تَعْليلٌ لِقيامِ دَوْلَة بَني العَباس ٢٨٦
٥ ـ تَكوُّن دَوْلَة بَني العَباس ٢٨٦
أبو مُسْلم الخُراساني ٢٨٦
عبد الله بن عَليّ ٢٩١
دَوْلَة بَني العَبَّاس في العَصْر الأول (عَصْر القُوّة) ٢٩٢
الخِلافَة العَبَّاسِيَّة بمِصْر (المُسْتَنصِر) ٢٩٢
٦ ـ تَكوُّن دَوْلَة بَني أُمَيَّة في الأنْدَلُس ٢٩٣
٧ ـ الدَّوْلَة الزِّياديَّة في اليَمَن ٢٩٤
من أخْبار أُمراء اليَمَن ٢٩٤
(أ) الصُلَيْحيّ ٢٩٤
(ب) عَليُّ بنُ مَهدي ٢٩٦
(ج) عبدُ النَّبيّ (ابنُ المَهْدي عَليُّ بنُ مَهْدي) ٢٩٧
٨ ـ الدَّوْلَة الصّفاريّة ٢٩٨
الصَّفَّار ٢٩٨
عَمرُو بنُ اللَّيْثِ الصفَّار ٢٩٩
٩ ـ الدَّوْلَة الطُّولُونيَّة ٣٠١
أحمدُ بنُ طُولُون ٣٠١
١٠ ـ دَوْلَة ابن الأغْلب ٣٠٢

ابن الأغلب ٣٠٢
١١ ـ الدَّوْلَة الفَاطِميَّة ٣٠٤
(أ) الدَّوْلَة العُبَيْديَّة الفاطِميَّة الفاسِدة العَقيدَة والنَّسَب والعَمل ٣٠٤
الشِّيعِيّ ٣٠٤
المَهْديُّ وذُرِّيَّتُه ٣٠٤
القائم ٣٠٧
المَنْصور ٣١٠
المُعِزّ ٣١١
العَزيزُ بالله ٣١٤
الحَاكم ٣١٦
الظاهِر ٣١٩
المُسْتَنْصِرُ بالله ٣٢٠
المُسْتَعْلي بالله ٣٢٢
الآمِرُ بأحْكامِ الله ٣٢٢
الحَافِظُ لدين الله ٣٢٣
الظَّافِرُ بالله ٣٢٤
الفَائزُ بالله ٣٢٦
العَاضِدُ ٣٢٧
(ب) الدَّوْلَة الفاطِميَّة تَدَّعي زُوراً النَّسَبَ الشَريف ٣٣٣
(ج) مَوْقِف العُلَماء والصَّالحين منها ٣٣٥
الشهيد ٣٤٠
(د) مَوْقِفُ العُلَماء الضَّالين منها ٣٤١
النُّعْمان ٣٤١

(هـ) انْتِهاؤُها على يَدِ صَلاحِ الدِّين ٣٤٢
١٢ ـ الدَّوْلَة السَّامانيَّة ٣٤٣
صاحبُ خراسان ٣٤٣
١٣ ـ دَوْلَة بَني بُوَيْه ٣٤٤
عِمَادُ الدَّولَة ٣٤٤
مُعِزُّ الدَّوْلَة ٣٤٥
عَضُد الدَّوْلَة ٣٤٦
١٤ ـ الدَّوْلَة الغَزْنَويَّة ٣٤٨
المَلِكُ سُبُكتِكين ٣٤٨
مَحْمودُ بنُ سُبكتِكين ٣٤٨
صَاحبُ غزنة ٣٥٢
١٥ ـ الدَّوْلَة الإخْشِيذيَّة ٣٥٣
الإخْشِيذ ٣٥٣
١٦ ـ دَوْلَةُ الطَّوَائف ٣٥٤
دَوْلَةُ الطَّوَائف وتَأْثِيرُها في غَلَبَة الصَّليبيِّين على بلاد الأنْدَلُس ٣٥٤
(أ) القَاسِمُ بنُ حَمُّود بن مَيْمون ٣٥٤
(ب) المَأْمُون ٣٥٥
(ج) المُعْتَمِد بن عَبَّاد وابنُه المُعْتَضِد ٣٥٥
ـ عماد الدَّولة ابن هود ٣٥٩
ـ أحمد بن عبد الملك بن هود ٣٦٢
(د) اسْتعانَة أُمَرائِها بالصَّليبيِّين على المُسْلمين ٣٦٤
١٧ ـ الدَّوْلَة السَّلْجُوقية ٣٦٦
(أ) طُغْرُلْبَك ٣٦٦

(ب) ألب آرْسَلان ٣٦٨
(ج) مَلِكشَاه ٣٧٠
(د) تُتُش ٣٧٢
(هـ) السُّلْطَان مَحْمود بن مُحَمَّد بن مَلِكشَاه ٣٧٣
(و) سنْجَر ٣٧٣
١٨ دَوْلَة الْمُرابِطِين ٣٧٥
(أ) صاحِبُ الغَرْب ٣٧٥
(ب) ابنُ تاشفين ٣٧٦
(ج) دَوْلَة المُرابِطين في الأنْدَلُس ٣٧٧
عِمادُ الدَّولَة بن هُود ٣٧٨
١٩ ـ الدَّوْلَة الزَّنْكيَّة ٣٧٩
(أ) قَسيمُ الدَّوْلَة ٣٧٩
(ب) الأتابَك ٣٧٩
(ج) نور الدِّين مَحْمُود ٣٨٠
٢٠ دَوْلَةُ الْمُوَحدين ٣٨٥
(أ) ابنُ تُومَرْت ٣٨٥
(ب) عبد المُؤْمن بنُ عَليّ ٣٩٠
(ج) يُوسُف بن عبد المُؤْمن ٣٩٤
(د) يَعْقوبُ بن يُوسُف (صاحِبُ الْمَغْرِب) ٣٩٦
(هـ) مُحمَّد بن يَعْقوب (صاحِبُ الغَرْبِ) ٣٩٩
(و) يُوسُف بن مُحمَّد ٤٠٠
(ز) عبد الواحد بن يُوسُف بن عبد المُؤْمن ٤٠١
(ح) عبد الله بن يَعْقوب ٤٠١

(ط) إدْريس بن يَعْقوب ٤٠٢
(ي) عبد الواحد بن إدْريس ٤٠٢
(ك) قُتِلَ القاضي عِياض من أجْل أنَّه أنكرَ عِصْمَة ابنِ تُومَرت ٤٠٣
٢١ الدَّوْلَة الصَّلاحيَّة الأيُّوبيَّة ٤٠٤
صلاح الدين وبنوه ٤٠٤
(أ) صَلاحُ الدِّين ٤٠٤
(ب) العَزيز ٤٠٩
(ج) العَادِلُ وبَنوه ٤١١
(د) المُعَظم ٤١٢
(هـ) الأشْرَف ٤١٣
(و) الكامِل ٤١٥
(ز) الصَّالح ٤١٦
(ح) صَاحبُ حِمْص ٤١٧
(ط) الجَوَاد ٤١٩
(ي) المُعَظم ٤١٩
(ك) الكامِل ٤٢١
٢٢ دَوْلَةُ خُوارِزْم شَاه ٤٢٣
(أ) أخْبَارُها ٤٢٣
خوارِزْم شَاه ٤٢٣
خوارزْم شَاه ٤٢٥
(٢) جُيوشُ جَلالِ الدِّين خوارِزْم شاه يَكثُر فيها الفِسْقُ والزِّنَى واللِّواط ٤٢٦
(٣) كانَ الغَدْرُ طَبيعَةً له ولجَيْشِه ٤٢٧

٢٣ التَّتار ٤٢٩
١ ـ أخْبارُهـُم ٤٢٩
٢ ـ وَصْفٌ لهم ولأَحْوالِهم ٤٣٠
٣ ـ مُصَانَعةُ بَعض مُلُوك المُسْلمين لهم ٤٣٢
٤ ـ مِنْ أسْباب غَلَبَتِهم على العِراق ٤٣٢
(أ) خِيانَةُ الوَزيرِ ابنِ العَلْقَمي الرَّافِضِيِّ ٤٣٢
(ب) ضَعْفُ الخَليفَة المُسْتَعْصِم ولَهْوُه ولَعِبُه ٤٣٤
(ج) تَسْريحُ أكثرِ جُنْدِ الخِلافَة بإشارَةِ ابنِ العَلْقَمي ٤٣٥
(د) اضْطِرابُ مِصْرَ والشَّامِ وعَدَمُ اجْتِماعِ الكلِمَة ٤٣٥
٥ ـ مُقاوَمَةُ المِصْريِّين لهم ٤٣٦
٦ ـ مُقاوَمَةُ الشَّاميِّينَ لهم ٤٣٦
٢٤ الصَّليبيون ٤٣٨
١ ـ الحُروبُ الصَّليبيَّة ٤٣٨
فخر الملْكِ ٤٣٩
٢ ـ وَقْعَةٌ مَشْهورةٌ مع الصَّلِيبِيِّين الذين أرادُوا احْتلالَ المَدينَةِ المُنوَّرةِ ٤٥١
لؤلؤ العادلي ٤٥١
٣ ـ وَصْفٌ جَميلٌ للصَّليبيِّين وَصَفَهم به القاضي الفَاضِل ٤٥١
٤ ـ مِنْ أسْبابِ ضَعْف المُسلمين عن هَزيمة الصَّليبيِّين ٤٥٢
٥ ـ تَمنِّي الذهبيِّ لَوْ أنَّ القِتالَ على المُلكِ بين المُسلمينَ كان على الصَّليبيِّين ... ٤٥٣
٦ ـ عَلاقَةُ الصَّليبيِّين بالعُبيْديِّين ٤٥٣
٧ ـ نِساءٌ صَليبيَّات يُحارِبْنَ المُسلمين ٤٥٣
أسْبابُ ضَعْفِ بَعضِ الدُّوَل ثم خَرابُها ٤٥٥
١ الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّة في الأنْدَلس ٤٥٥

(أ) اسْتعانةُ المُسلمينَ على بَعضِهم بالفِرَنْج ٤٥٥
(ب) البَرْبَرُ وإفْسَادُهُم ٤٥٦
(ج) انْقِضَاضُ بَعض الأُمَراء على الخِلافَة ٤٥٧
٢ الدَّوْلة العَبَّاسِيَّة ٤٥٨
(أ) تَحَكُّمُ الأَتْراك بالخُلَفاءِ وخَلْعُهم وتَعْذيبُهم كما يَحْلو لهم ٤٥٨
(ب) تَحَكمُ السَّلاطين (بَنُو بُوَيْه والسَّلاجِقَة) بالخُلَفاءِ ٤٦٣
(ج) الإسْرافُ والتَّبْذِير ٤٦٤
(د) الخُروجُ على الدَّوْلَة ٤٦٥
المُعْتَمِدُ على الله ٤٦٦
(هـ) انْهِمَاكُ بَعضِ الخُلَفَاء باللَّهْوِ واللَّعِب ٤٧١
(و) تَسلُّطُ الغَوْغَاء والحَراميَّة على دارِ الخَلافَة ٤٧٢
(ز) سُوءُ سِيرَة بَعض خُلَفائها ٤٧٢
القَاهِرُ بالله ٤٧٢
مُتَفَرِّقَاتٌ في المُلُوك والخُلَفَاء والأُمَراء ٤٧٤
١ ـ الخُلَفَاءُ الصَّالِحُون ٤٧٤
عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيز ٤٧٤
المُهْتَدي بالله ٤٨٢
القَادِرُ بالله ٤٨٥
القَائِم ٤٨٧
الْمُقْتَدي بأمْرِ الله ٤٨٧
الْمُقْتَفي لأمْرِ الله ٤٨٨
المُسْتَضيء ٤٨٩
الظَّاهِرُ بأمْرِ الله ٤٨٩

٢ ـ مُلوكٌ صَالِحُون ٤٩٠
هِشامُ بنُ عبد الرحمَن الأُمَوي ٤٩٠
نُورُ الدِّين ٤٩١
صَلاحُ الدِّين ٤٩٥
٣ ـ خَلِيفَةٌ فاسِق ٤٩٦
الوَليدُ بنُ يَزيد ٤٩٦
٤ ـ مَلِكٌ يَحْتَفلُ بعيد النَّصارَى لبَقايا نَصْرانيَّة فيه ٤٩٨
٥ ـ صُورَةٌ على تَعْظيم النَّاس للخُلَفَاء ٤٩٨
٦ ـ المُلوكُ الذين كانوا سُوقَة ٤٩٨
كافُور ٥٠٠
٧ ـ القِتالُ على المُلْك ٥٠٢
الأَمينُ والمَأْمُون ٥٠٢
صَلاحُ الدِّين مع مَلك الموصِل ٥٠٤
٨ ـ صُوَرٌ من تَنَعُّم الخُلَفَاء ٥٠٤
٩ ـ قَولٌ بَليغٌ في خَليفَةٍ بَخِيل ٥٠٥
١٠ ـ اسْتِماعُ الخَليفَة للمُنَجِّمين ٥٠٦
١١ ـ شُبُهاتٌ حَولَ هارُونَ الرَّشيد ـ رَحمَه الله ـ ورَدُّها ٥٠٦
(أ) عِبادَتُه وفَضْلُه وغَزْوُه ٥٠٦
(ب) ماذا قِيلَ حَولَ شُرْبِه الخَمْر ٥٠٨
(ج) تَعْظِيمُه للعُلَماء ٥٠٨
الوُزَراء ٥٠٩
١ ـ السُّلْطانُ بحاجَةٍ إلى وُزَراءَ مُخْلِصين ٥٠٩

٢ ـ وَزيرٌ عُذِّبَ وقُتلَ بغَير حقٍّ ٥٠٩
الكنْدَري ٥٠٩
٣ ـ مَنْ عُذِّبَ من الوُزَراء حتى المَوت ٥١٠
الحَسَنُ بنُ مَخْلَد ٥١٠
٤ ـ الوُزَراء المُتَحَكمون في الأمُور أكثر من وَلي الأمْر ٥١١
٥ ـ مَنْ ظَلَم من الوُزَراء بعد العَدْل والإحْسان ٥١٢
ابنُ الفُرات ٥١٢
٦ ـ الوُزَراء السُّنيُّون في دَولَة العُبَيْديَّة الرَّافِضَة ٥١٤
٧ ـ الوُزَراء المُحْسِنون ٥١٥
الوَزير ٥١٥
فَخْرُ المُلك ٥١٧
عَضُد الدِّين ٥١٨
٨ ـ وَزيرٌ عَالمٌ ٥١٩
٩ ـ الوُزَراء العُبَّاد ٥١٩
١٠ ـ وَزيرٌ تائِبٌ ٥٢٠
١١ ـ الوُزَراء الضَّابطُون للأمْن ٥٢١
عَميدُ الجُيُوش ٥٢١
١٢ ـ الوُزَراء المُقيمُون للسُّنَن المُحْيُون للدِّين ٥٢٢
عَميدُ الجُيوش ٥٢٢
نِظامُ المُلْك ٥٢٢
ابنُ هُبَيْرَة ٥٢٤
القَاضي الفَاضِل ٥٢٦
مُحاوَلات القَتْل التي جَرت لبعضِ الأُمَراء والكبَراء والفُقَهَاء ٥٢٧

(٧) السِّياسَة الشَّرعيّة ٥٣٤
قَوَاعِدُ في السِّياسَة الشَّرعيّة ٥٣٤
١ ـ دَولَةٌ ظالِمَةٌ مع الأمْن خَيرٌ من دَولَةٍ عادِلَةٍ مع الفَسَاد والفَوْضَى ٥٣٤
٢ ـ السُّلْطانُ بحاجَةٍ إلى مَعُونَةِ وُزَراء مُخْلِصين ٥٣٤
٣ ـ قَاعِدَةٌ ٥٣٥
٤ ـ صُوَرٌ على السِّياسَة الشَّرعيّة ٥٣٥
(١) الأمِيرُ والإمَارَة ٥٣٧
١ ـ عَدَمُ الافْتِتان بالأمِير ٥٣٧
٢ ـ الإمَارةُ تَكليف ولَيسَت تَشْريفاً ٥٣٧
٣ ـ الخَوفُ من تَبِعَة الإمَارَة ٥٣٧
٤ ـ احْتِمالُ هَنَّات الأمير إذا كان له مَحاسِن تُغَطِّي عليها ٥٣٨
٥ ـ تَقْديمُ الفَاضل وتأخيرُ المَفْضُول ٥٣٩
٦ ـ ولايَةُ المَفْضُول مع وُجود الفَاضِل ٥٣٩
٧ ـ عَدَمُ الأنَفَة من مَسْؤولٍ صَغير السِّن ٥٤١
٨ ـ الأميرُ العَادِلُ مع رَعيَّة فاسِدَة ٥٤٢
٩ ـ اسْتحْقاقات خَليفَة المسلمين من بَيتِ المَال ٥٤٣
١٠ ـ مُمْتَلَكات الخَليفَة ٥٤٥
١١ ـ الشورَى ٥٤٥
١٢ ـ طُرُق تَوَلِّي الحُكم ٥٤٩
١٣ ـ مِنْ وَاجِبات الأمير والمسْؤُول ٥٥٤
(أ) الاسْتعانَة بالعُلَماء والصَّالحين ٥٥٤
(ب) عَدَمُ تَقْريب الضَّالِّين ٥٥٦
(ج) إدْناء العُقَلاء والحُكماء وإنْ كانوا صِغاراً ٥٥٧

(د) عَدَمُ تَفْضيل الأقارِب على الرَّعيَّة ٥٥٧
(هـ) خِدْمَة الرَّعيَّة ٥٥٨
(و) اخْتِبارُ البِلاد والتَّأكدُ من عَدَم فُشُوّ المَعاصي بها ٥٥٨
(ز) ضَبْطُ الأسْواق ٥٥٩
١٤ ـ مِنْ حُقوق الأمِير والمَسْؤول الطَّاعَة ٥٥٩
(أ) ضابطُ الطَّاعَة ٥٥٩
(ب) صُورٌ من الطَّاعَة ٥٦٠
١٥ ـ من الصِّفات اللاَّزِمَة للأمِير والمَسْؤول ٥٦٠
(أ) مَجْموعَة صِفات تَجدُها في الأمير ٥٦٠
(ب) الضَّبْط والحَزْم ٥٦١
(ج) التَّضَرُّع إلى الله والالتِجاء إليه حَالَ الأزَمات ٥٦٣
(د) عَدَمُ التَّغيُّر بالإمَارَة ٥٦٣
(هـ) قَبولُ العِظَة والنَّصيحَة ٥٦٤
(و) الرُّجُوعُ إلى الحَقِّ ٥٦٤
(ز) عَدَمُ العُقُوبَة حَالَ الغَضَب ٥٦٤
(ح) الزُّهد ٥٦٥
(ط) مُشَارَكَةُ الرَّعِيَّة في الشَّدائدِ والمَصائب ٥٦٥
١٦ ـ الأمِيرُ العَادِلُ بَرَكة ٥٦٥
١٧ ـ هَيْبَةُ الحَاكم من قَواعِد اسْتِقْرار الدُّوَل ٥٦٦
١٨ ـ قَوْلٌ بَليغٌ في الإمَارَة ٥٦٦
١٩ ـ قد تُكرَه الإمَارَة لأشْخاصٍ بِعَينِهم ٥٦٦
٢٠ ـ إقالَةُ عَثَراتِ أُولِي الهَيئات ٥٦٧
٢١ ـ الإدارَةُ الماليَّة لبَيْتِ المال ٥٦٧

(٢) الشهْرَةُ والتَّصَدُّر ٥٦٩
١ ـ أقْوالٌ بَليغَةٌ في التَّحْذيرِ من:
(أ) حُبِّ الشُّهْرَة ٥٦٩
(ب) حُبِّ الرِّئاسَة ٥٧٠
٢ ـ حُبُّ الرِّئاسَة مُتمكنٌ من القُلوب ٥٧٠
٣ ـ الرِّئاسَة والتَّصَدُّر يجب أنْ يَكونا مَقْرونَين بالخَشْيَة والتَّوَاضُع ٥٧٠
٤ ـ عاقِبَةُ طَلَب التَّصَدُّر وحُبِّ الرِّئاسَة والظُّهُور ٥٧١
٥ ـ مِنْ صِفاتِ مُحِبِّ الرِّئاسَة ٥٧٢
٦ ـ عاقِبَةُ التَّصَدُّر قَبل الأوَان ٥٧٢
٧ ـ ضَوابطُ للشُّهْرَة ٥٧٢
٨ ـ قِصَّةٌ تُبَينُ كراهيَة السَّلَف للشهْرَة ٥٧٣
٩ ـ قِلَّةُ الإخْلاص تُؤدي إلى حُبِّ الشُّهْرَة ٥٧٣
١٠ـ صُوَرٌ من كراهيَتِهم الشهْرَة والتَّصَدُّر ٥٧٣
(٣) الظُّلمُ والظالِمون ٥٧٦
١ ـ كان الظَّلَمَةُ أوّلاً جَيِّدي الإسْلام مُعَظِّمين للشَّعائر ٥٧٦
الحَجَّاج ٥٧٦
أحمَدُ بنُ طُولُون ٥٧٦
٢ ـ عُقُوبَةُ الله للظَّالم ٥٧٧
٣ ـ عَاقِبة صُحْبَة الظَّالِمين ٥٧٨
٤ ـ الدُّعَاء على الظَّالمين ٥٧٨
٥ ـ دُعَاءُ المَظْلوم مُسْتَجاب ٥٧٨
٦ ـ اسْتِغاثَة المَظْلوم بالله تَعالَى ودُعَاؤه له ٥٧٩
٧ ـ الصَّبر على الظَّالمين ٥٨٠

٨ ـ الفَرحُ بمَوْتِ الظَّالمين ٥٨٠
٩ ـ الإشْفاقُ على الظَّالمين ٥٨٠
١٠ ـ مَنْ ماتَ إشْفاقاً مِنْ ظُلْم الظَّالمين ٥٨٠
١١ ـ مَنْ كان لا يَرى سَبَّ الظَّالمين ٥٨١
١٢ ـ عِظَات تَرْدَعُ عن الظُّلْم ٥٨١
١٣ ـ خُروجُ الصَّالحين على الظَّالمين ٥٨٢
١٤ ـ مَنْ نَدمَ على خُروجِه ٥٨٨
١٥ ـ مَنْ كان يَرى الخُروجَ لكنَّه لم يُقاتِلْ ٥٨٨
١٦ ـ مَنْ خَرجَ على الخُلَفاء والأُمَراء (من غَير الخَوَارج) ٥٨٩
١٧ ـ مَنْعُ العُلَماء النَّاسَ من الخُروج على الأُمَراء ٥٩٢
١٨ ـ فَضْلُ الغَوْغاء في مُقارَعَة الأُمَراء الظَّلَمَة ٥٩٣
١٩ ـ مَنْ ضُرِبَ لأجْلِ نَقْدِه للظَّالمين ٥٩٣
٢٠ ـ أمْثِلَةٌ على الظَّالمين ٥٩٣
الحَجَّاج ٥٩٣
أبو مُسْلم الخُراسَاني ٥٩٤
عبدُ الله بن عليّ ٥٩٨
المَنْصُور ٥٩٩
الحَكمُ بنُ هِشام ٥٩٩
٢١ ـ تَعْليلٌ لا يَصِحُّ لكثْرَة ظُلم المَنْصور ٦٠٢
٢٢ ـ أمثِلَةٌ على الظُّلم ٦٠٢
٢٣ ـ أمْثِلَةٌ على الجَبَروتِ والبَغْي ٦٠٣
٢٤ ـ الجَزاءُ من جِنْسِ العَمَل ٦٠٦

أهْلُ الذِّمة ٦١٨
١ ـ لايَجُوزُ أمْرُهم بتأخير الإسْلام إذا أرادوا الدُّخولَ فيه ٦١٨
٢ ـ هَلْ يَجُوزُ أنْ يُقالَ له : أكرَمَكَ الله ؟ ٦١٨
٣ ـ مَنْ ظُلِمَ منهم فخلَّصَه عالمٌ من المسْلمين ٦١٨
٤ ـ زيارَةُ أهْلِ الذِّمَّة لعُلَماء المسلمين ٦١٩
٥ ـ كيفَ عَزَلَ الإمامُ الطَّرْطُوشيُّ وَزيراً من أهْلِ الذِّمَّة ؟ ٦١٩
٦ ـ كيف عُزلَ نائبان ـ من أهل الذِّمَّة ـ للعَزيز صاحبِ مِصْرَ ؟ ٦٢٠
٧ ـ تَعْظيمُ واحدٍ منهم لدِينِه ٦٢٠
٨ ـ مَنْ أسْلَمَ من أهْل الذِّمَّة فصَارَ عالماً ٦٢٠
٩ ـ مَنْ أسْلَمَ من أهْل الذِّمَّة فصَارَ وَزيراً ٦٢١
ابنُ كلِّس ٦٢١
١٠ ـ مِنْ أطِبَّاء المسلمين مَنْ كان يَمْتَنعُ عن تَعليم أهْل الذِّمَّة عِزَّةً ٦٢٣
١١ ـ مِنْ شُعَراء النَّصَارَى الذِّين أسْلَموا ٦٢٣
أبو تَمام ٦٢٣
محتوى الكتاب ٦٢٥

الفوائد الغراء

من تهذيب

سير أعلام النبلاء

قدم له

الدكتور محمد موسى الشريف

جمع وترتيب

الشريف فهد بن أحمد بن عبد الله المهدلي

ساهم في الطبع

الشيخ محمد عائض غرامة الأسمري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزء الثالث

الطبعة الأولىٰ

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

جميع الحقوق محفوظة

الفوائد الغراء

من تهذيب

سير أعلام النبلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الصَّلاحُ والصَّالحُون

(١) سِيماءُ الصَّالحين وسَمْتُهم

(أ) صُورٌ علىٰ حُسْنِ السَّمْت :

رَوَىٰ يُونُسُ بنُ أبي إسْحاقَ : عن أبيه ، كان عَمرو بنُ مَيْمون إذا رُئيَ ، ذُكرَ الله[١] .

رُوريَ عن أبي عُبَيدَة بنِ عبدِ الله بنِ مَسْعود ، قالَ : كانَ الرَّبيعُ بنُ خُثَيم إذا دَخلَ على ابنِ مَسْعود لَمْ يَكُن له إذْنٌ لأحَدٍ حتَّىٰ يَفرَغَ كُلُّ واحدٍ من صاحِبه فقالَ له ابنُ مَسْعود : يا أبا يَزيد ، لَوْ رآكَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لأحَبَّك ، وما رَأيتُك إلاَّ ذَكرتُ الْمُخْبتينَ[٢] ، [٣] .

وقالَ ابنُ الماجِشُون : إنَّ رُؤيَةَ محمَّد بنِ الْمُنْكَدِر لَتَنفَعُني في ديني[٤] .

وقالَ عبدُ الرازَّق : كُنتُ إذا رَأيتُ ابنَ جُرَيج ، عَلمتُ أنَّه يَخْشى الله[٥] .

وعن ابنِ الْمُبَارَك قالَ : ما رَأيتُ رَجلاً أَوْقرَ في مَجلِسِه ، ولا أحْسَنَ سَمْتاً وحِلْماً من أبي حَنيفَة[٦] .

وعن شريكٍ قالَ : كان أبو حَنيفَة طَويلَ الصَّمتِ ، كَثيرَ العَقلِ .

---

(١) انظر السير : (عَمرو بن مَيمون) ٤/١٥٨ـ ١٦١ ، وانظر النزهة : ١/٤٦٨ .
(٢) المخبتون : هم المطمئنون ، وقيل : هم المتواضعون الخاشعون لربهم .
(٣) انظر السير : (الرَّبيعُ بن خُثَيم) ٤/٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/٤٩٢ .
(٤) انظر السير : (محمد بن المُنْكدِر) ٥/٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٣/٦٠٧ .
(٥) انظر السير : (ابنُ جُرَيْج) ٦/٣٢٥ـ ٣٣٦ ، وانظر النزهة : ١/٦٥٥ .
(٦) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٣ .

وقالَ أبو عاصِم النَّبيل : كانَ أبو حَنيفَة يُسمَّى الوَتَد لكَثرَة صَلاتِه[1] .

وقالَ بِشْرُ بنُ الحارِث : إنِّي لأذْكرُ الْمُعَافَى اليومَ ، فأنْتَفِعُ بذكْرِهِ ، وأذْكرُ رُؤيَته فأنْتَفِعُ[2] .

وقالَ أبو زُرْعَة الرَّازي : سَمعتُ أبا جَعْفَر الجَمَّال يَقولُ : أتَيْنا وَكيعاً فخَرج بعد سَاعَة وعليه ثيابٌ مَغْسولَة ، فلمَّا بَصُرْنا به ، فزِعْنا من النُّور الذي رَأيناه يَتلألأُ من وَجْهِه ، فقالَ رَجلٌ بجَنْبي : أهـٰذا مَلكٌ ؟! فتَعجَّبنا من ذلك النُّور[3] .

وقالَ أحمَدُ بنُ مُنير البَلْخيّ ، سَمعتُ حَمْدانَ بنَ سَهْل البَلْخيّ الفَقيهَ يَقولُ : ما رَأيتُ أحداً إذا رُئيَ ذُكرَ اللهُ تَعالَىٰ إلاَّ القَعْنَبيَّ رَحمَه اللهُ ، فإنَّه كانَ إذا مَرَّ بمَجلِس يَقولون : لا إلـٰهَ إلاَّ الله وقيلَ : كانَ يُسَمَّى الرَّاهِبُ لعِبادَتِه وفَضلِه[4] .

وقالَ عَباسُ العَنْبريُّ عن عليِّ بنِ الْمَديني : لَعلَّه كان يُقَدَّمُ على الحَسَن البَصْري ، كانَ النَّاسُ يَكتُبونَ قيامَه وقُعودَه ولِباسَه ، وكُلَّ شَيء يَقولُ أو يَفعَل أو نَحْو هـٰذا[5] .

وكانَ يَجتمعُ في مَجلِسِ أحمَدَ زُهاءَ خَمسَةِ آلافٍ أو يَزيدون نَحو خَمسِ مئة يَكتُبون ، والباقُونَ يَتعلَّمون منه حُسْنَ الأدَبِ والسَّمْتِ[6] .

وقالَ أبو الحَسَن عَليُّ بنُ إبْراهيمَ الرَّازي الخَطيب في تَرجَمةِ عَملَها لابنِ أبي حاتمٍ : كانَ ـ رَحمَه اللهُ ـ قد كَسَاهُ اللهُ نُوراً وبَهاءً ، يَسرُّ مَنْ نَظرَ إليه سَمعتُه يَقولُ : رَحلَ بي أبي سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ ومِئتَين ، وما احْتَلمتُ بَعدُ ، فلمَّا بَلغْنا ذا الحُلَيْفَة احْتَلمتُ ، فسُرَّ أبي ، حَيثُ أدْرَكتُ حَجَّةَ الإسْلام[7] .

وقالَ ابنُ النَّجَّار ، كانَ ابنُ قُدامَة إمامَ الحَنابِلَة بجامِعِ دِمَشْقَ ، علىٰ قانون السَّلف ،

---

(١) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٣/٦٦٣ .
(٢) انظر السير : (المُعَافَىٰ) ٩/ ٨٠ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٠ .
(٣) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٧/٨١١ .
(٤) انظر السير : (القَعْنَبيّ) ١٠/ ٢٥٧ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٤/٨٧٥ .
(٥) انظر السير : (عليّ بن المَديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٥/٩٠٧ .
(٦) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٧ .
(٧) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٧٨ .

عليه النُّورُ والوَقارُ ، يَنتَفعُ الرَّجُلُ برُؤيتِه قبلَ أنْ يَسمعَ كلامَه[1] .

وكانَ فَخرُ الدِّين ابنِ عَساكر لا يَمَلُّ الشَّخْصُ من النَّظرِ إليه لحُسْنِ سَمتِه ، ونُورِ وَجْهِه ، ولُطفِه واقْتِصادِه في مَلْبَسِه ، وكانَ لا يَفْتُرُ من الذِّكرِ ، وكانَ يُسَمِّعُ الحَديثَ تحتَ النَّسْر[2] ، [3] .

(ب) الهَيْبَة :

صُورٌ على الهَيْبَة :

عن الأحْنَفِ قالَ : كَذبتُ مرَّةً واحدَةً ، سَألَني عُمَرُ عن ثَوبٍ ، بكَمْ أخَذتُه ؟ ، فأسْقَطتُ ثُلثَي الثَّمَن[4] .

وعن عُمرَ بن جُعْثُم ، قالَ : كانَ خالدُ بنُ مَعْدانَ إذا قَعدَ لَمْ يَقدِرْ أحَدٌ منهم يَذكُرُ الدُّنيا عندَه هَيبةً له[5] .

وقال أيُّوبُ السِّخْتيانيُّ : كانَ الرَّجلُ يَجْلسُ إلى الحَسَنِ ثَلاثَ حِجَجٍ ما يَسْألُهُ عن المَسْألَة هَيْبَةً له[6] .

وقالَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل : لَزِمْتُ هُشَيماً أربعَ سنين ، أو خَمْساً ، ما سَألتُه عن شَيء ، إلاَّ مَرَّتَين هَيبَةً له ، وكانَ كَثيرَ التَّسْبيحِ بينَ الحَديثِ ، يَقولُ بين ذلك : لا إلَـهَ إلاَّ الله ، يَمدُّ بها صَوتَه[7] .

وقال مُصْعَبُ الزُّبَيريُّ : كان العُمَريُّ أصفَرَ جَسيماً ، لَمْ يَكنْ يَقبَلُ من السُّلطانِ ولا غَيرِه ، ومَنْ وَلِيَ من أقارِبِه ومَعارِفِه لا يُكلِّمُه ووَلِيَ أخُوهُ عُمَرُ الْمَدينَةَ وكرمانَ ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ قُدامَة المَقْدسيّ) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨١ .
(٢) يعني قُبَّة النسر من جامع دمشق الأموي .
(٣) انظر السير : (ابن عَساكر) ٢٢/ ١٨٧ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٨٣ .
(٤) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ١/٤٥٠ .
(٥) انظر السير : (خالد بن مَعْدان) ٤/ ٥٣٦ـ ٥٤١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٥١ .
(٦) انظر السير : (الحَسَن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٦٠ .
(٧) انظر السير : (هُشَيم) ٨/ ٢٨٧ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٥٩ .

فهَجرَه ، ما أدْرَكتُ بالْمَدينَةِ رَجلاً أهْيَبَ منه وكانَ يَقبلُ صِلةَ ابنِ الْمُبارَك وقَدِمَ الكُوفَةَ ليُخوِّفَ الرَّشيدَ باللهِ ، فرَجِفَ لِمَجيئه الدولة ، حتَّىٰ لَوْ كانَ نَزلَ بهم من العَدوِّ مئةُ ألفٍ ، ما زادَ من هَيبَتِه ، فرُدَّ من الكُوفَة ولَمْ يَصلْ إليه[1] .

قالَ الدُّقِيُّ : ما رَأيتُ شَيْخاً أهْيَبَ من ابنِ الجَلاَّء ، مع أنِّي لَقيتُ ثَلاثَ مئة شيخ ، فسَمعْتُه يقولُ : ما جَلا أبي شَيئاً قطُّ ، ولكنَّه كانَ يَعِظُ ، فيَقَعُ كَلامُه في القُلوبِ ، فسُمِّيَ جَلاَّءَ القُلوب .

قالَ مُحمَّدُ بنُ عليِّ بن الجُلندي : سُئلَ ابنُ الجَلاَّء عن الْمَحَبَّة فسَمعْتُه يقولُ : مَالي ولِلْمَحَبَّة ؟ أنا أُريدُ أتَعَلَّم التَّوْبَة[2] .

* * *

(١) انظر السير : (العُمَريُّ) ٨/ ٣٧٣ـ ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ١/٧٦٥ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الجَلاَّء) ١٤/ ٢٥١ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٨ .

(٢) مِنْ صِفَاتِهم

(أ) مَجْموعَة صِفات تَجدُها في الصالحين :

عن الحرمازيِّ : خَطبَ الحَسنُ بنُ عَليٍّ بالكُوفَةِ ، فقالَ : إنَّ الحِلمَ زينَةٌ والوَقارَ مَرُوءَة ، والعَجَلَةَ سَفَهٌ ، والسَّفَهَ ضَعفٌ ، ومُجالَسَةُ أهْلِ الدَّناءَة شَينٌ ، ومُخالَطَةُ الفُسَّاقِ رِيبَةٌ[١] .

وعن ياسينَ الزيَّات قالَ : جاءَ ابنُ الكوَّاء إلى الرَّبيعِ بنِ خُثَيم ، فقالَ : دُلَّني علىٰ مَنْ هو خَيرٌ منكَ ، قالَ : نَعَم ، مَنْ كانَ مَنْطِقُه ذِكْراً ، وصَمتُه تَفَكُّراً ، ومَسيرُه تَدبُّراً فهو خَيرٌ منِّي .

وعن الشَّعْبيِّ ، قالَ : كانَ الرَّبيعُ أوْرَعَ أصْحابِ عبدِ الله .

عن أبي يَعْلى الثَّوري ، قالَ : كانَ في بَني ثَور ثَلاثُون رَجلاً ، ما منهم رَجلٌ دُونَ الرَّبيعِ بنِ خُثَيم[٢] .

وعن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه ، قالَ : العِلمُ خَليلُ الْمُؤمِنِ ، والحِلمُ وَزيرُه ، والعَقلُ دَليلُه ، والعَملُ قَيِّمُه ، والصَّبرُ أميرُ جُنودِه ، والرِّفْقُ أبُوه ، واللِّينُ أخُوه[٣] .

وعن وَهْبٍ : الْمُؤمِنُ يَنظُرُ ليعلَمَ ، ويَتكلَّمُ ليَفهَمَ ويَسكُتُ ليَسْلَمَ ، ويَخلو ليَغنَمَ[٤] .

وعن قَتادَة : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[٥] ، قال : كفىٰ بالرَّهْبَة علماً ، اجْتَنبوا نَقضَ الميثاق ، فإنَّ اللهَ قَدَّم فيه وأوْعَد ، وذَكرَه في آي من القُرآن تَقْدِمَةً ونَصيحَةً

---

(١) انظر السير : (الحسن بن عليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣٨٠ .
(٢) انظر السير : (الرَّبيع بن خُثَيم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٤٩٣ .
(٣) انظر السير : (وَهْب بن منبّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٥٤ .
(٤) انظر السير : (وَهْب بن منبّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٥٤ .
(٥) سورة فاطر ، الآية : ٢٨ .

وحُجَّةً ، إيَّاكم والتَّكلُّف والتَّنطُّع والغُلو والإعْجاب بالأنْفُس تَواضَعوا لله ، لَعلَّ اللهَ يَرفَعُكم[1] .

وقالَ جَعْفَرُ بنُ محمَّد : الصَّلاةُ قُرْبانُ كلِّ تَقيّ ، والحَجُّ جِهادُ كُلِّ ضَعيفٍ ، وزَكاةُ البَدَنِ الصِّيامُ ، والدَّاعي بلا عَمَل كالرَّامي بلا وَتَر واسْتَنزِلوا الرِّزْقَ بالصَّدَقَة ، وحَصِّنُوا أمْوَالَكم بالزَّكاةِ وما عَالَ مَنِ اقْتَصَد ، والتَّقْديرُ نِصْفُ العَيشِ ، وقِلَّةُ العِيالِ أحَدُ اليَسارَين ، ومَنْ أحْزَنَ وَالدَيْه ، فقد عَقَّهما ، ومَنْ ضَربَ بيَدِه علىٰ فَخِذِه عند مُصيبَة فقد حَبطَ أجْرُه والصَّنيعَةُ لا تَكونُ صَنيعَةً إلاَّ عندَ ذي حَسَبٍ أو دَيْنٍ واللهُ يُنزِلُ الصَّبرَ علىٰ قَدرِ الْمُصيبَة ويُنزِلُ الرِّزْقَ علىٰ قَدرِ الْمُؤنةِ ومَنْ قَدَّرَ مَعيشَتَه ، رَزَقَه اللهُ ، ومن بَذَّرَ مَعيشَتَه ، حَرَمَه الله[2] .

وقالَ جَعْفَرُ بنُ محمَّد : لا زادَ أفْضَلُ من التَّقْوَىٰ ولا شَيءَ أحْسَنُ من الصَّمْتِ ، ولا عَدوَّ أضرُّ من الجَهْلِ ، ولا دَاءَ أدْوأ من الكَذِب[3] .

قالَ إبْراهيمُ بن الأشْعَث : سَمعتُ الفُضَيلَ يقولُ : رَهْبَةُ العَبْد من الله علىٰ قَدْر عِلمِه بالله ، وزَهادَتُه في الدُّنيا علىٰ قَدْر رَغْبَته في الآخِرَة ، مَنْ عَملَ بما عَلمَ اسْتَغْنَىٰ عمَّا لا يَعْلَم ، ومَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ وَفَّقه اللهُ لِمَا لا يَعْلَم ، ومَنْ ساء خُلقُه شَانَ دينُه وحَسَبُه ومَروءَتُه[4] .

وسَمعْتُه يقولُ : أكْذَبُ النَّاسِ العائدُ في ذَنْبه ، وأجْهَلُ النَّاسِ المُدِلُّ بحَسَناتِه ، وأعْلَمُ النَّاسِ أخْوَفُهم مِنْه ، لَنْ يَكْمُلَ عبدٌ حتىٰ يُؤثِرَ دينَه علىٰ شَهْوَتِه ، ولَنْ يَهْلِكَ عبدٌ حتىٰ يُؤثِرَ شَهْوَتَه علىٰ دينِه[5] .

وقِيلَ للفُضَيلِ : ما الزُّهْدُ ؟ قالَ : القُنوعُ ، وقِيلَ ما الوَرَعُ ؟ قالَ : اجْتِنابُ

---

(١) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٠٢ .
(٢) انظر السير : (جَعْفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٤٨ .
(٣) انظر السير : (جَعْفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٤٨ .
(٤) انظر السير : (الفُضَيلُ بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٧٤ .
(٥) انظر السير : (الفُضَيلُ بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٧٤ .

الْمَحارِم ، قيلَ : ما العِبادَةُ ؟ قالَ : أداءُ الفَرائضِ ، قيلَ : ما التَّواضُعُ ؟ قالَ : أنْ تَخْضَعَ للحَقِّ ، وقالَ : أشَدُّ الوَرَعِ في اللِّسانِ[1] .

وعن الشَّافعيِّ ، قالَ : أصْلُ العِلمِ التَّثْبيتُ ، وثَمَرتُه السَّلامَةُ ، وأصْلُ الوَرَعِ القَناعَةُ ، وثَمَرتُه الرَّاحَةُ ، وأصْلُ الصَّبْرِ الحَزْمُ ، وثَمَرتُه الظَّفَرُ ، وأصْلُ العَملِ التَّوْفيقُ ، وثَمَرَتُه النَّجْحُ ، وغَايَةُ كُلِّ أمْرٍ الصِّدْقُ[2] .

وعن الْمَرْوذيِّ ، قالَ : لَمْ أرَ الفَقيرَ في مَجلِسٍ أعَزَّ منه في مَجلِسِ أحمَدَ كانَ مائلاً إليهم ، مُقْصِراً عن أهْلِ الدنيا ، وكانَ فيه حِلمٌ ، ولَمْ يَكنْ بالعَجُولِ ، وكان كَثيرَ التَّواضُع تَعلُوهُ السَّكينَةُ والوَقارُ ، وإذا جَلسَ في مَجلِسِه بعدَ العَصرِ للفُتيَا لا يَتكلَّمُ حتَّىٰ يُسألَ ، وإذا خَرجَ إلىٰ مَسجِدِه لَمْ يَتَصدَّر[3] .

وكانَ أبو عبد الله أحمدُ بنُ حَنْبَل شَديدَ الحَياءِ ، كَريمَ الأخْلاقِ ، يُعْجبُه السَّخاءُ[4] .

وكانَ أحْمَدُ بنُ حَنْبَل مِنْ أحْيَى النَّاسِ ، وأكْرَمِهم ، وأحْسَنِهم عِشْرةً وأدَباً ، كَثيرَ الإطْراقِ ، لا يُسمَعُ منه إلاَّ الْمُذاكَرَةُ للحَديث ، وذِكْرُ الصَّالِحينَ في وَقارٍ وسُكونٍ ، ولَفظٍ حَسَنٍ وإذا لَقيَه إنْسانٌ ، بَشَّ به ، وأقْبَلَ عليه وكان يَتواضَعُ للشُّيوخِ شَديداً ، وكانوا يُعَظِّمونَه ، وكانَ يَفعَلُ بيَحْيَىٰ بنِ مَعين ما لَمْ أرَه يَعمَلُ بغَيرِه من التَّواضُع والتَّكْريمِ والتَّبْجيلِ كان يَحْيَىٰ أكْبَرُ منه بسَبعِ سِنينَ[5] .

وعن حاتِمٍ الأصَمِّ : مَنْ أصْبَحَ مُسْتَقيماً في أرْبَع فهو بخَير ؛ التَّفَقُّه ، ثم التَّوَكُّل ، ثم الإخْلاص ، ثم الْمَعْرِفَة[6] .

قالَ شَقيقٌ لحاتِم : مُذْ صَحِبْتَني ، أيُّ شَيءٍ تَعَلَّمْتَ مِنِّي ؟ قالَ : سِتَّ كَلماتٍ ؛

---

(١) انظر السير : (الفُضَيلُ بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٧٧ .
(٢) انظر السير : (الإمامُ الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٤٩ .
(٣) انظر السير : (أحمدُ بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٨/ ٩٢٩ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٠ .
(٥) انظر السير : (أحمدُ بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٤٧ .
(٦) انظر السير : (حاتِم الأصَمّ) ١١/ ٤٨٤ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٦٠ .

رأيتُ النَّاسَ في شَكٍّ من أمْر الرِّزْق ، فتَوَكَّلتُ على الله قالَ اللهُ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[1] .

ورَأيتُ لكُلِّ رجُلٍ صَديقاً يُفْشي إليه سِرَّه ، ويَشْكو إليه ، فصَادَقتُ الخَيرَ ليَكونَ مَعي في الحِسابِ ، ويَجوزَ مَعي الصِّراطَ .

ورَأيتُ كُلَّ أحَدٍ له عَدوٌّ ، فمَنِ اغْتابَني لَيسَ بِعَدُوِّي ، ومَنْ أَخَذَ مِنِّي شَيْئاً لَيْسَ بعَدُوِّي ، بلْ عَدُوِّي مَنْ إذا كُنتُ في طاعَةٍ ، أمَرَني بِمَعْصيَةِ الله وذَلكَ إبْليسُ وجُنودُه ، فاتَّخَذْتُهم عَدوّاً وحَارَبْتُهم .

ورَأيتُ النَّاسَ كُلَّهم لهم طَالبٌ ، وهو مَلَكُ الْمَوْت ، ففرَّغْتُ له نَفْسي .

ونَظَرتُ في الخَلْقِ ، فأحْبَبْتُ ذا وأبْغَضْتُ ذا ، فالذي أحْبَبْتُه لمْ يُعْطِني ، والذي أبْغَضْتُه لَمْ يأخُذ مِنِّي شَيئاً ، فقُلتُ : مِنْ أينَ أُتِيتُ ؟ فإذا هو مِن الحَسَدِ فطَرَحْتُه وأحْبَبْتُ الكُلَّ ، فكلُّ شَيءٍ لَمْ أرْضَه لِنَفْسي لَمْ أرْضَه لَهم .

ورَأيتُ النَّاسَ كُلَّهم لَهم بيتٌ ومَأوَىٰ ، ورَأيتُ مَأوايَ القَبْرَ ، فكُلُّ شَيءٍ قَدرْتُ عليه من الخَيْرِ قَدَّمْتُه لنَفْسي لأُعَمِّرَ قَبْري .

فقالَ شَقيقٌ : عَليكَ بهٰذه الخِصالِ[2] .

ومن كَلامِ القاسِمِ : رَأسُ الأعْمالِ الرِّضَا عن الله ، والوَرَعُ عِمادُ الدِّينِ ، والجُوعُ مُخُّ العِبادَة ، والحِصْنُ الحَصينُ الصَّمْتُ[3] .

ومن كَلامِ سَهل بنِ عبدِ الله : لا مُعين إلاَّ الله ، ولا دَليلَ إلاَّ رَسُولُ الله ، ولا زادَ إلاَّ التَّقوَىٰ ، ولا عَملَ إلاَّ الصَّبرُ عليه[4] .

وعنه قالَ : الجاهِلُ ميِّتٌ ، والنَّاسي نائمٌ ، والعَاصي سَكْرانٌ ، والْمُصِرُّ هالِكٌ[5] .

---

(١) سورة هود ، الآية : ٦ .

(٢) انظر السير : (حاتِم الأصَمّ) ١١/ ٤٨٤ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٦/٩٦٠ .

(٣) انظر السير : (الجُوعيُّ) ١٢/ ٧٧ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩٨٤ .

(٤) انظر السير : (سَهْل بن عبد الله) ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٩٣ .

(٥) انظر السير : (سَهْل بن عبد الله) ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٣ .

وقالَ الحَكيمُ التِّرْمِذيُّ : مَنْ جَهِلَ أوْصَافَ العُبوديَّة ، فهو بنُعُوتِ أوْصَافِ الرَّبَّانيَّةِ أجْهَل[1] .

وقال أبو عبد الرحمَـٰن السُّلَميُّ : سَمعتُ محمَّدَ بنَ الحَسَن الخَشَّاب ، سَمعتُ ابنَ الأعْرابيِّ يَقولُ : الْمَعْرفَةُ كلُّها الاعْتِرافُ بالجَهْلِ والتَّصَوُّفُ كلُّه تَرْكُ الفُضُولِ والزُّهْدُ كلُّه أخذُ ما لا بُدَّ منه ، والمُعامَلةُ كلُّها اسْتعمالُ الأوْلَىٰ فالأوْلَىٰ ، والرِّضَا كلُّه تَرْكُ الاعْتِراضِ ، والعَافيَةُ كلُّها سُقوطُ التَّكَلُّف بلا تَكَلُّف .

وكانَ رَحمَه الله قد صَحِبَ الجُنَيدَ وأبا أحمَدَ القَلانسيَّ .

وعَملَ تاريخاً للبَصْرَةِ لَمْ أرَه ، أمَّا كتابُه في « طَبَقاتِ النُّسَّاك » فنَقَلتُ منه[2] .

(ب) مَعْرِفَتُهم لِمَ عُوقِبوا :

(وانظر المَزيد في فهرس الذُّنوب)

عن مُحمَّد بنِ سِيرينَ قالَ : قُلتُ لِرَجُلٍ : يا مُفْلِسُ ، فعُوقِبتُ .

قالَ أبو سُليمان الدَّاراني ، وبَلَغَه هـٰذا فقالَ : قَلَّتْ ذُنوبُ القَوْمِ فعَرَفوا من أيْنَ أُتُوا ، وكَثُرَتْ ذُنوبُنا فلَمْ نَدْرِ من أيْنَ نُؤتَىٰ[3] .

(ج) مَعْرِفَتُهم ضَخامَة التَّكليف المُطالَبين به :

رُويَ عن الْمَرْوِذيِّ ، قالَ : قُلتُ لأحمدَ : كيف أصبحتَ ؟ قالَ : كيفَ أصبحَ مَنْ رَبُّه يُطالبُه بأدَاءِ الفَرائض ، ونَبيُّه يُطالبُه بأداء السُّنَّة والْمَلَكَان يَطْلُبانه بتَصحيح العَمَل ، ونَفسُه تُطالِبُه بهَواها ، وإبْليسُ يُطالِبُه بالفَحْشاء ، ومَلكُ الْمَوتِ يُراقِبُ قَبضَ رُوحِه ، وعِيالُه يُطالبُونَه بالنَّفَقَة ؟![4] .

---

(١) انظر السير : (الحَكيمُ) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٠ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الأعْرابيِّ) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٤٢ .

(٣) انظر السير : (محمّد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٧/٥٦٩ .

(٤) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٦/٩٣٠ .

(د) اسْتواءُ أحْوالِ الدُّنْيا في أعْيُنِهِم :

عن أبي عُثمانَ الحِيري قالَ : لا يَكمُلُ الرَّجلُ حتَّىٰ يَسْتَوي قلبُه في الْمَنْعِ والعَطَاءِ ، وفي العِزِّ والذُّلِّ[1] .

(هـ) ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ :

عن فَضَالَة بنِ عُبَيْد ، قالَ : لأنْ أعْلَمَ أنَّ اللهَ تَقبَّلَ مِنِّي مِثْقالَ حَبَّةٍ ، أَحَبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها ، لأنَّه تَعالَىٰ يَقولُ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2] ،[3] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو عُثمان الحِيري) ١٤/ ٦٢ـ٦٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣١ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٢٧ .

(٣) انظر السير : (فَضَالَة بن عُبَيد) ٣/ ١١٣ـ١١٧ ، وانظر النزهة : ١/٣٤٧ .

(٣) مِنْ فَوائدِ الصَّلاح

الحِفْظُ في المَالِ والأهْل :

عن ابنِ الْمُنْكَدِر قالَ : إن اللهَ يَحفَظُ العبدَ المؤمن في وَلَدِهِ ، وَوَلَدِ وَلَدِهِ ، ويَحفَظُه في دُوَيْرَتِه ، ودُوَيْرَاتِ حَوْلَه ، فما يَزالُونَ في حِفْظٍ أو في عافِيَة ما كان بين ظَهْرانيهِم[١] .

(٤) صُحْبَةُ الصَّالِحين

صُحْبَتُهم تُورثُ الحِكمَةَ في القَوْل والعَمَل :

رُوِيَ عن أبي الدَّرْداءِ ، قالَ : لَوْلا ثلاثٌ ما أحْبَبْتُ البَقاءَ ساعةً : ظَمَأ الهَواجِر ، والسُّجودُ في اللَّيلِ ، ومُجالَسَةُ أقْوَامٍ يَنْتَقُونَ جَيِّدَ الكَلامِ كما يُنْتَقَىٰ أطايبُ الثَّمَر[٢] .

وعن أبي العبَّاسِ بنِ سُرَيج : أنَّه تَكلَّم يَوماً فعَجِبوا! فقالَ : ببَرَكَة مُجالَسَتي لأبي القاسِم الجُنَيْد[٣] .

(٥) أمْثِلَةٌ عَلىٰ حَياةِ الصَّالِحين

(وستجد غيرها لا سيّما في فِهْرس الوَقْت)

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي النَّضْر الطُّوسيِّ ، قالَ الحاكمُ : وكانَ إماماً عابِداً ، بارِعَ الأدَب ، ما رَأيتُ في مَشايخي أحْسَنَ صَلاةً منه ، وكانَ يَصومُ الدَّهْرَ ويَقومُ ويَتصدَّقُ بما فَضُلَ من قُوتِه وكانَ يَأمُرُ بالْمَعْروفِ ويَنهَىٰ عن الْمُنْكرِ[٤] .

---

(١) انظر السير : (محمَّد بن الْمُنْكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٩/٦٠٧ .

(٢) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٥/٢٧٢ .

(٣) انظر السير : (الجُنَيْد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٢ .

(٤) انظر السير : (أبو النَّضْر الطُّوسيّ) ١٥/ ٤٩٠ـ ٤٩٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥٢ .

وجاءَ في تَرجَمَةِ التَّيْميِّ ، قالَ أبو موسَىٰ : ولا أعلَمُ أحداً عابَ عليه قَوْلاً ولا فِعْلاً ، ولا عانَدَه أحَدٌ إلاَّ ونَصرَه اللهُ ، وكان نَزِهَ النَّفْسِ عن الْمَطامِع ، لا يَدخُلُ على السَّلاطينِ ، ولا علىٰ مَنِ اتَّصلَ بهم ، قد أخْلَىٰ داراً من مُلْكِه لأهْلِ العِلمِ مع خِفَّةِ ذاتِ يَدِه ، ولَوْ أعْطاهُ الرَّجلُ الدُّنيا بأسْرِها لَمْ يَترَفَّع عندَه ، أمْلَىٰ ثلاثةَ آلافٍ وخَمسَ مئة مَجْلِس ، وكانَ يُمْلي على البَديهَة[1] .

وقالَ الحافِظُ يَحْيىٰ بنُ مُنْدَة : كانَ أبو القاسِم حَسَنَ الاعْتِقادِ جَميلَ الطَّريقَة قَليلَ الكَلامِ ، لَيسَ في وَقتِه مثلُه[2] .

قالَ ابنُ النَّجَّار : شَيخُنا ابنُ سُكَينَة شَيخُ العِراقِ في الحَديثِ والزُّهْدِ وحُسْنِ السَّمْتِ ومُوافَقَة السُّنَّة والسَّلَف عُمِّر حتَّىٰ حَدَّثَ بجَميع مَرْوياتِه ، وقَصدَه الطُّلاَّبُ من البِلادِ ، وكانَت أوْقاتُه مَحفوظَة ، لا تَمضي له سَاعةٌ إلاَّ في تِلاوَةٍ أو ذِكرٍ أو تَهَجُّد أو تَسْميعٍ ، وكان إذا قُرِىءَ عليه مَنَعَ من القيامِ له أو لغَيرِه وكانَ كَثيرَ الحَجِّ والْمُجَاوَرَة والطَّهارَة ، لا يَخرُجُ من بَيتِه إلاَّ لحُضُورِ جُمُعَة أو عيدٍ أو جَنازَة ، ولا يَحضُرُ دُورَ أبْناء الدُّنيا في هَناءٍ ولا عَزاءٍ ، يُديمُ الصَّومَ غالباً ، ويَستَعمِلُ السُّنَّةَ في أُمورِه ، ويُحبُّ الصَّالِحينَ ، ويُعَظِّمُ العُلماءَ ، ويَتواضَعُ للنَّاسِ ، وكانَ يُكثِرُ أنْ يَقولَ : أسْألُ اللهَ أنْ يُميتَنا مُسلمينَ ، وكانَ ظاهِرَ الخُشُوعِ ، غَزيرَ الدَّمْعَة ، ويَعتَذِرُ من البُكاءِ ، ويَقولُ : قد كَبرتُ ولا أمْلكُه ، وكانَ اللهُ قد ألبَسَه رداءً جَميلاً من البَهاء وحُسْنِ الخِلْقَة وقَبُولِ الصُّورة ، ونُورِ الطَّاعَة ، وجَلالَة العِبادَة ، وكانت له في القُلوبِ مَنْزِلَةً عَظيمَةً ، ومَنْ رَآهُ انتَفعَ برُؤيَتِه ، فإذا تَكلَّمَ كانَ عليه البَهاءُ والنُّورُ ، لا يُشْبَعُ من مُجالَسَتِه لقد طُفتُ شَرْقاً وغَرباً ورَأيتُ الأئمَّةَ والزُّهَّادَ فمَا رَأيتُ أكْمَلَ منه ولا أكْثَرَ عِبادَةً ولا أحْسَنَ سَمْتاً .

قالَ الإمامُ أبو شامَة : وفي سَنةِ سَبعٍ وسِتٍّ مئة تُوفِّيَ ابنُ سُكَينَة ، وحَضَرَه أرْبابُ الدَّولَة ، وكانَ يَوْماً مَشْهوداً ، ثم قالَ : وكانَ من الأبْدالِ[3] .

---

(١) انظر السير : (التَّيْميّ) ٢٠/ ٨٠ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٢ .

(٢) انظر السير : (التَّيْميّ) ٢٠/ ٨٠ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣٢ .

(٣) انظر السير : (ابنُ سُكَينَة) ٢١/ ٥٠٢ـ ٥٠٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥٦ .

وجاءَ في تَرجَمَةِ العِمادِ الْمَقْدِسيِّ قالَ الضِّياءُ : وكانَ يَجلِسُ في جامِعِ البَلدِ من الفَجْر إلى العِشَاء لا يَخرُجُ إلاَّ لِحاجَة ، يُقرىءُ القُرآنَ والعِلمَ ، فإذا فَرَغوا اشْتغلَ بالصَّلاةِ ، فسَألتُ الشَّيخَ مُوَفَّقَ الدِّين عنه فقالَ : كانَ من خِيارِ أصْحابِنا وأعْظَمهم نَفْعاً ، وأشَدِّهُم وَرَعاً ، وأكْثَرهم صَبْراً على التَّعْليمِ وكانَ داعيَةً إلى السُّنَّة ، أقامَ بدِمَشْقَ مُدَّة يُعَلِّمُ الفُقَراءَ ويُقرئُهم ويُطعِمُهم ، ويَتواضَعُ لهم ، كانَ من أكْثَر النَّاسِ تَواضُعاً ، واحْتِقاراً لنَفسِه ، وخَوْفاً من اللهِ ، ما أعْلَمُ أنِّي رَأيتُ أشَدَّ خَوفاً منه ، وكانَ كَثيرَ الدُّعاءِ والسُّؤالِ لله ، يُطيلُ السُّجود والرُّكوعَ ، ولا يَقبَلُ مِمَّن يَعْذُله ، ونُقِلَت له كَراماتٌ[1] .

* * *

(٦) فَضْلُ الصَّالِحين

عن يَحْيَىٰ بنِ مَعين ، وذَكرَ أحمَدَ بنَ أبي الحَوَاري ، فقالَ : أهلُ الشَّام به يُمْطَرون .

وقالَ ابنُ أبي حاتِم : سَمعتُ أبي يُحْسِنُ الثَّناءَ علىٰ أحمَدَ بنِ أبي الحَوَاريِّ ، ويُطْنِبُ فيه[2] .

* * *

(١) انظر السير : (العِماد) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٦٤ .

(٢) انظر السير : (أحْمد بن أبي الحَوَاريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٨٥ .

(٧) عِنايَةُ الصَّالِحين بالقَلْب

١ـ حَياةُ القَلْبِ بذِكرِ المَوْتِ :

رُوي عن سَعيدِ بنِ جُبَير ، قالَ : لَوْ فارَقَ ذِكرُ الْمَوتِ قَلبي ، لخَشيتُ أنْ يُفسِدَ عليَّ قَلبي[١] .

٢ـ مُعَالجَةُ قَسْوَةِ القَلبِ بزِيارَةِ القَبْر :

عن مُحمَّد صالِح بن التَّمَّار قالَ : كان صَفوانُ بنُ سُليم يأتي البقيعَ في الأيَّامِ فيَمرُّ بي ، فاتَّبعْتُه ذاتَ يوم ، وقُلتُ : لأنْظُرَنَّ ما يَصنَعُ ، فقَنَّعَ رَأسَه ، وجَلسَ إلىٰ قَبرٍ منها ، فلَمْ يَزلْ يَبكي حتَّىٰ رَحمتُه ، وظَنَنتُ أنَّه قَبرُ بَعضِ أهله ، ومَرَّ بي مرَّةً أخرَىٰ ، فاتَّبعْتُه ، فقَعدَ إلىٰ جَنبِ قَبرٍ غَيره ، ففَعلَ مثلَ ذلك .

فذَكرتُ ذلكَ لِمُحمَّدِ بنِ الْمُنْكَدِر ، وقُلتُ : إنَّما ظَنَنتُ أنَّه قَبرُ بَعضِ أهله ، فقالَ مُحمَّدُ : كلُّهم أهلُه وإخْوَتُه هو رَجلٌ يُحرِّكُ قَلبَه بذِكرِ الأمْواتِ كُلَّما عَرضَت له قَسْوَةٌ .

ماتَ صَفْوانُ سَنةَ اثنتَين وثَلاثينَ ومئة ، عاشَ اثْنَتين وسَبعينَ سَنةً[٢] .

٣ـ مُعَالجَةُ قَسْوَةُ القَلبِ بزِيارَةِ الصَّالحين :

رَوَىٰ مُعْتَمِرٌ عن أبيه : ما رَأيتُ أحداً قَطُّ أخْشَعَ من مُحمَّدِ بنِ واسع ، وقالَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ : كُنتُ إذا وَجَدتُ من قَلبي قَسْوَةً ، غَدَوتُ فنَظَرتُ إلىٰ وَجْهِ مُحمَّدِ بنِ واسِع كانَ كأنَّه ثَكْلَىٰ قالَ حَمَّادُ بنُ زَيْد : قالَ رَجلٌ لِمُحمَّدِ بنِ واسِع : أَوْصِني قالَ : أُوصِيكَ أنْ تَكونَ مَلِكاً في الدُّنيا والآخِرَة قالَ : كيفَ ؟ قالَ : ازْهَدْ في الدُّنيا[٣] .

وعن ابنِ الْمُبارَك قالَ : إذا نَظرتُ إلى الفُضَيْل ، جَدَّدَ لي الحُزنَ ، ومَقَتُّ نَفْسي ، ثم بَكَىٰ[٤] .

---

(١) انظر السير : (سَعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٧/٥٠٦ .

(٢) انظر السير : (صَفْوان بن سُليم) ٥/ ٣٦٤ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٦/٦١٠ .

(٣) انظر السير : (محمد بن واسع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣٨ .

(٤) انظر السير : (الفُضَيْلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٦/٧٧٨ .

٤ـ مُعَالجَتُه بتَغْسيلِ المَوْتَىٰ :

كانَ الْمُزَنيُّ يُغَسِّلُ الْمَوْتَىٰ تَعبُّداً واحْتِساباً وهو القائلُ : تَعانَيتُ غَسلَ الْمَوْتَىٰ لِيَرِقَّ قَلبي ، فصارَ لي عادَة ، وهو الذي غَسَّلَ الشَّافِعيَّ رَحمَهُ الله[١] .

٥ـ البُعْدُ عن الخِصَال المُقْسِّيَة للقَلب :

عن الفُضَيْلِ بنِ عِياض : خصلتان تُقسِّيان القلبَ : كثرَةُ الكَلامِ ، وكثرَةُ الأكلِ[٢] .

وقالَ أبو سُلَيْمانَ الدَّارانيُّ : لِكُلِّ شيء عَلَمٌ ، وعَلَمُ الخِذْلانِ تَركُ البُكاءِ ، ولِكُلِّ شيء صَدأٌ ، وصَدأُ القَلبِ الشِّبَع[٣] .

٦ـ حِراسَةُ القَلْب :

عن أبي حَفْص النِّيسَابُوريِّ قالَ : حَرَسْتُ قَلبي عِشْرينَ سَنةً ، ثُمَّ حَرَسَني عِشْرينَ سَنةً ثُمَّ وَرَدَتْ عليَّ وعليه حَالةٌ صِرْنا مَحْروسَينِ جَميعاً[٤] .

مِنْ وَسَائِل العِنَايَة بالقَلبِ

(أ) الاسْتِغْفَار :

١ـ لَوَازِم الاسْتِغْفَار :

قالَ يوسُفُ بنُ الحُسَين : سَمعتُ ذا النُّونِ الْمِصْريَّ يَقولُ : الاسْتغفارُ جامعٌ لِمَعانٍ ؛ أوَّلُها : النَّدمُ علىٰ ما مَضَىٰ ، والثَّاني : العَزْمُ على التَّرْك ، والثالثُ : أداءُ ما ضَيَّعْتَ من فَرْضِ الله ، والرابعُ : ردُّ الْمَظالِمِ في الأمْوالِ والأعْراضِ والْمُصالَحَةُ عليها ، والخامسُ : إذابَةُ كلِّ لَحْمٍ ودَمٍ نَبَتَ على الحَرامِ ، والسَّادِسُ : إذاقَةُ ألَمِ الطَّاعَة كما وَجَدْتَ حَلاوَةَ الْمَعْصِيَة[٥] .

---

(١) انظر السير : (الْمُزَنيّ) ١٢/ ٤٩٢ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٢٤ .

(٢) انظر السير : (الفُضَيْل بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٧٩ .

(٣) انظر السير : (أبو سُليمانَ الدَّاراني) ١٠/ ١٨٢ـ ١٨٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٦٥ .

(٤) انظر السير : (أبو حَفْص النِّيسابوريّ) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٢٥ .

(٥) انظر السير : (ذو النُّون الْمِصْريّ) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٦٨ .

٢ـ الاسْتِغْفَارُ مَقَدَّمٌ على النَّوافِل :

سألَ أحدُهم أبا الفَرَج بنَ الجَوْزِي : أيُّهُما أفضلُ : أُسَبِّحُ أو أسْتَغفِرُ ؟ قالَ : الثَّوْبُ الوَسِخُ أحْوَجُ إلى الصَّابُونِ من البُخُورِ[١] .

٣ـ صُوَرٌ على الاسْتِغْفَار :

عن مَرْوانَ الأصْفَر ، سَمِعَ الأحْنَفَ يَقولُ : اللَّهُمَّ إنْ تَغْفِرْ لي ، فأنتَ أهلُ ذاكَ وإنْ تُعَذِّبْني ، فأنا أهلُ ذاكَ[٢] .

وقالَ أبو بَكر بنُ أبي الدُّنيا : حَدَّثنا عليُّ بنُ أبي مَرْيم قالَ : قالَ رِياحُ القَيْسيُّ : لي نيِّف وأرْبَعون ذَنباً ، وقد اسْتَغفَرتُ لكُلِّ ذَنبٍ مِئةَ ألفِ مرَّة[٣] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ رابِعَةَ الشَّامِيَّة : عابدةٌ مَشْهُورَةٌ ، أصغرُ من رابِعَةَ العَدَوِيَّة ، قد تَدخُلُ حِكَاياتُ هٰذه في حِكَاياتِ هٰذه ، والثانيةُ هي القائلةُ ما رَوَىٰ أحمدُ بنُ أبي الحَوَاري عن عبَّاس بنِ الوَليدِ أنَّها قالَت : أسْتَغفِرُ اللهَ من قلَّةِ صِدْقِي في قَولي : أسْتَغْفِرُ الله[٤] .

٤ـ شِعْرٌ في الاسْتِغْفَار :

أوْصَىٰ أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزِيِّ أنْ يُكْتَبَ علىٰ قَبْرِه[٥] :

يَا كَثِيرَ العَفْوِ عَمَّنْ ... كَثُرَ الذَّنْبُ لَدَيْهِ
جَاءَكَ المُذْنِبُ يَرْجُو ال ... صَّفْحَ عَنْ جُرْمٍ يَدَيْهِ
أنَا ضَيْفٌ وَجَزَاءُ ال ... ضَّيْفِ إحْسَانٌ إلَيْهِ

---

(١) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزِيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٣٤ .
(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٤/٤٥١ .
(٣) انظر السير : (رِياح) ٨/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤١ .
(٤) انظر السير : (رابِعَة الشَّاميَّة) ٨/ ٢٤٣ـ ٢٤٤ ، وانظر النزهة : ١/٧٤٨ .
(٥) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزِيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٣٦.

(ب) تَذْلِيلُ النَّفْسِ ومُجَاهَدَتُها :

١ـ خِلافُ هَوَى النَّفْسِ عَملٌ عَظيم :

عن أبي سُلَيمانَ الدَّاراني قالَ : أفضَلُ الأعْمالِ خِلافُ هَوَى النَّفسِ[١] .

٢ـ صُوَرٌ من مُجَاهَدة النَّفْس :

عن ابنِ الْمُنْكدِرِ قالَ : كابَدتُ نَفسي أرْبَعين سَنةً حتَّى اسْتَقامَت[٢] .

٣ـ مَنْ كان مَشْهُوراً بتَذْليلِ نَفْسِه ومُجَاهَدَتِها :

قالَ السُّلميُّ : كانَ يُوسُفُ بنُ الحُسَين إمَامَ وَقتِه ، لَمْ يَكُنْ في الْمَشَايخِ أحَدٌ علىٰ طَريقَتِه في تَذليلِ النَّفسِ وإسْقاطِ الجَاه[٣] .

٤ـ الإزْراءُ على النَّفْسِ طَريقَةٌ ـ أحْياناً ـ لتَذْليلِها :

قال عُبَيدُ الله بنُ عُمَر بنِ حَفْص : إنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب حَمَلَ قِرْبَةً علىٰ عُنُقِه ، فقِيلَ له في ذلك فقالَ : إنَّ نَفسي أعْجَبَتني فأرَدْتُ أنْ أُذِلَّها[٤] .

قالَ عبدُ الله بنُ بَكر بنِ عبدِ الله : سَمعتُ إنْسَاناً يُحدِّثُ عن أبي أنَّه كانَ وَاقِفاً بعَرَفَة ، فرَقَّ فقالَ : لَوْلا أنِّي فيهم لقُلتُ : قد غُفِرَ لهم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كَذلكَ يَنبغي للعَبدِ أنْ يُزري علىٰ نَفسِه ويَهضِمَها[٥] .

وعن خالِدِ بنِ مَعْدان ، قال : لا يَفقَهُ الرجلُ كلَّ الفِقْه حتىٰ يَرى النَّاسَ في جَنبِ الله أمثالَ الأباعِر ، ثم يَرجعُ إلىٰ نَفسِه فيكونُ لها أحْقَرَ حاقِر[٦] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ عَطاء السَّلِيميِّ ، وقيلَ : كان إذا جاءَ بَرْقٌ وريحٌ ، قالَ : هٰذا منْ

---

(١) انظر السير : (أبو سُليمان الدَّاراني) ١٠/ ١٨٢ـ ١٨٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٦٥ .
(٢) انظر السير : (محمّد بن الْمُنكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦٠٧ .
(٣) انظر السير : (يوسُف بن الحُسين) ١٤/ ٢١٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ١١٤٧ .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/ ٥٠ .
(٥) انظر السير : (بَكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥٠ .
(٦) انظر السير : (خالد بن مَعْدان) ٤/ ٥٣٦ـ ٥٤١ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٥٢ .

أجْلي يُصيبكم لَوْ مِتُّ اسْتَراحَ النَّاسُ ، ولِعَطاءَ حِكاياتٌ في الخَوْفِ وإزْرائه علىٰ نَفسِه[1] .

وقالَ ابنُ واسع : لو كانَ للذُّنوبِ ريحٌ ما جَلسَ إليَّ أحَدٌ[2] .

وقيلَ له : كيف أصْبَحتَ ؟ قالَ : قَريباً أجَلي ، بَعيداً أمَلي ، سَيِّئاً عَملي[3] .

وعن عُتبة الغُلامِ قالَ : إنَّما أبْكي علىٰ تَقْصيري[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أحمدَ بنِ يَحْيَى الشَّيباني الْمَشهورِ بـ « ثَعْلب » : وكانَ يُزْري علىٰ نَفسِه ، ولا يَعُدُّ نَفسَه[5] .

وقيلَ في تَرجَمَةِ اليُونيني : كانَ يقولُ للشَّيخِ الفَقيه تِلْميذِه : فيَّ وفيكَ نَزَلَتْ ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[6] .

تُوفِّيَ سنَةَ سبع عَشْرَة وستِّ مئة ، وهو صائمٌ ، وقد جاوَزَ ثَمانينَ سَنةً ، رَحِمَه الله تَعالَىٰ[7] .

٥ـ شِعْرٌ في الإزْراءِ على النَّفْس :

أنْشَدَ الإمَامُ الوَاعِظُ ابنُ البَلِّ[8] :

يَتوبُ عَلىٰ يَدَيَّ قَومٌ عُصَاةٌ ... أَخافَتْهُم مِنَ البَاري ذُنُوبُ
وقَلْبي مُظْلِمٌ مِنْ طُولِ مَا قَدْ ... جَنَىٰ فَأَنَا علىٰ يَدِ مَنْ أَتُوبُ
كَأَنِّي شَمْعَةٌ مَا بَيْنَ قَوْمٍ ... تُضِيءُ لَهُمْ وَيَحْرِقُهَا اللَّهِيبُ
كَأَنِّي مِخْيَطٌ يَكْسُو أُنَاساً ... وَجِسْمِي مِنْ مَلاَبِسِهِ سَلِيبُ

---

(١) انظر السير : (عَطاء السَّلِيميّ) ٦/ ٨٦ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٣٤ .
(٢) انظر السير : (محمد بن واسع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٣٨ .
(٣) انظر السير : (محمد بن واسع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦٣٨ .
(٤) انظر السير : (عُتْبة الغُلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٦٧٦ .
(٥) انظر السير : (ثَعْلب) ١٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٢١ .
(٦) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ .
(٧) انظر السير : (اليُونيني) ٢٢/ ١٠١ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٦٩ .
(٨) انظر السير : (ابنُ البَلّ) ٢٢/ ٧٥ـ ٧٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٦٦ .

(ج) ذِكرُ الله سُبْحانَه وتَعالَىٰ :

١ـ فَائدَةُ الذِّكر :

عن أبي جَعْفَر البَاقِر قالَ : الصَّواعِقُ تُصيبُ الْمُؤمِنَ وغَيرَ الْمُومِنِ ، ولا تُصيبُ الذَّاكِرَ[١] .

٢ـ كيف يَتعَوَّدُ الإنْسَانُ الذِّكر :

قال محمَّدُ بنُ أبي عَدي : أقْبلَ عَلينا دَاوُدُ بنُ أبي هِنْد فقالَ : يا فِتْيانُ أُخْبرُكم لَعلَّ بَعضَكم أنْ يَنتَفعَ به كُنتُ وأنا غُلامٌ أخْتلِفُ إلى السُّوقِ فإذا انْقلبتُ إلى البَيتِ ، جَعلتُ علىٰ نَفسي أنْ أذْكُرَ اللهَ إلىٰ مَكانِ كَذا وكَذا ، فإذا بَلغتُ إلىٰ ذلكَ الْمَكانِ ، جَعلتُ علىٰ نَفسي أنْ أذْكُرَ اللهَ كَذا وكَذا حتىٰ آتيَ الْمَنْزِل[٢] .

٣ـ مَتىٰ يُعَدُّ الإنْسَانُ ذاكراً لله :

عن سَعيدِ بنِ جُبَير ، قالَ : إنَّ الخَشْيَةَ أنْ تَخشَى اللهَ حتّىٰ تَحُولَ خَشيتُكَ بَينَك وبَينَ مَعصيَتِك ، فتلكَ الخَشيَةُ ، والذِّكْرُ طَاعَةُ اللهِ ، فمَنْ أطاعَ اللهَ ، فقد ذَكرَه ، ومَنْ لَمْ يُطِعْه فلَيسَ بذَاكِر وإنْ أكْثَرَ التَّسْبيحَ وتِلاوَة القُرآن[٣] .

٤ـ أقْوَالٌ جَميلَةٌ تَحُثُّ على الذِّكر :

رَوىٰ مِسْعَر عن ابنِ عَوْن قال : ذِكرُ الناس دَاءٌ ، وذِكرُ اللهِ دَواءٌ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : إي واللهِ ، فالعَجَبُ مِنَّا ومن جَهْلِنا كيفَ نَدَعُ الدَّواءَ ونَقْتَحمُ الدَّاءَ ؟! قالَ تَعالَىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[٤] ، وقالَ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[٥] ، وقالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[٦] ، ولكن

---

(١) انظر السير : (أبو جَعْفَر الباقِر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٦/٥٢٣ .
(٢) انظر السير : (داوُد بن أبي هِنْد) ٦/ ٣٧٦ـ ٣٧٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٥٩ .
(٣) انظر السير : (سَعيدُ بنُ جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٨/٥٠٥ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٥٢ .
(٥) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٥ .
(٦) سورة الرعد ، الآية : ٢٨ .

لا يَتهيَّأ ذلك إلاَّ بتَوفيقِ الله ومَنْ أدْمَنَ الدُّعاءَ ولازَمَ قَرْعَ البابِ فُتِحَ له .

وقد كانَ ابنُ عَوْن قد أُوتِيَ حِلْماً وعِلْماً ونَفْسُه زَكيَّة تُعينُ على التَّقْوَىٰ فطُوبَىٰ له[1] .

وقالَ عبدُ الله بنُ مُحمَّد الكَرْماني : دَخلتُ علىٰ محمّدِ بنِ النَّضْر ، فقُلتُ : كأنَّكَ تَكرَهُ مُجالَسَةَ النَّاسِ قالَ: أجَلْ، كَيفَ أسْتَوْحِشُ ، وهو يَقولُ : أنا جَليسُ مَنْ ذَكَرَني[2] ؟!

وقالَ إبراهيمُ بنُ عَليٍّ الْمُرَيْديُّ : سَمعتُ أبا حَمْزَةَ يَقولُ : مِن الْمُحَالِ أنْ تُحِبَّه ثم لا تَذكُره ، وأنْ تَذْكُرَه ثم لا يُوجِدكَ طَعمَ ذِكرِه ، ويُشْغِلكَ بغَيرِه[3] .

٥ـ تَقْييدُ الذِّكرِ بعَددٍ مُعَيَّن :

عن ابنِ حَلْيَس : قيلَ لأبي الدَّرْداءِ ـ وكانَ لا يَفتُرُ من الذِّكْر ـ كَمْ تُسَبِّح في كُلِّ يَومٍ ؟ قالَ : مِئةَ ألفٍ ، إلاَّ أنْ تُخطىء الأصابعُ[4] .

وعن عِكْرِمَةَ : أنَّ أبا هُرَيْرَة رضي الله عنه كانَ يُسَبِّحُ كُلَّ يَومٍ اثْنَي عَشرَ ألفَ تَسْبيحَة ، يَقولُ : أُسَبِّحُ بقَدرِ دِيَتي .

عن حُمَيدِ بنِ مالِكِ بنِ خُثَيم ، قالَ : كُنتُ جالساً عند أبي هُرَيْرَة في أرْضِه بالعَقيقِ ، فأتاه قَومٌ ، فنزَلوا عندَه قالَ حُمَيد : فقالَ : اذْهَبْ إلىٰ أُمِّي ، فقُلْ : إنَّ ابْنَك يُقرِئُكِ السَّلامَ ، ويَقولُ : أطْعِمينا شَيئاً قالَ : فوَضَعَت ثَلاثَةَ أقْراصٍ في الصَّحْفَة ، وشَيئاً من زَيتٍ ومِلْح ووَضَعَتْها علىٰ رَأسي ، فحَمَلتُها إليهم .

فلمَّا وَضَعتُه بين أيديهم ، كبَّر أبو هُرَيْرَة ، وقالَ : الحَمدُ لله الذي أشْبَعَنا من الخُبزِ ، بعدَ أنْ لَمْ يَكُنْ طَعامُنا إلاَّ الأسْوَدَينِ : التَّمرُ والماءُ .

فلَمْ يُصِبِ القَومُ من الطَّعامِ شَيئاً ، فلَمَّا انْصَرَفوا قالَ : يا ابنَ أخي ، أحْسِنْ إلىٰ غَنَمِك ، وامْسَحْ عنها الرُّعَام ، واطْلُبْ مُراحَها ، وصَلِّ في ناحِيَتِها ، فإنَّها من دَوَابِّ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٥/٦٥٧ .

(٢) انظر السير : (محمّد بن النَّضْر) ٨/ ١٧٥ـ ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٧/٧٤١ .

(٣) انظر السير : (أبو حَمْزَة البَغْداديّ) ١٣/ ١٦٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٧ .

(٤) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٧٢ .

الجَنَّة والذي نَفسي بيَدِه ، يُوشِكُ أنْ يَأتيَ على النَّاسِ زَمانٌ تَكونُ الثُّلَّةُ من الغَنَم أحبُّ إلىٰ صاحبِها من دَارِ مَرْوانَ[1] ،[2] .

٦ـ ذِكرُ المَلائكة لله :

عن هارُونَ بنِ رِئاب ، قالَ : حَمَلَةُ العَرْش ثَمانيَة ، يَتجاوَبُونَ بصَوتٍ رَخيمٍ حَسَنٍ ، يَقولُ أرْبَعةٌ : سُبْحانَكَ وبحَمْدِكَ علىٰ حِلْمِكَ بعدَ عِلْمِك ويَقولُ الآخَرُونَ : سُبْحانَكَ وبحَمْدِكَ علىٰ عَفْوِكَ بعدَ قُدْرَتِك[3] .

٧ـ حَالُ السَّلَفِ مع الذِّكر :

وقيل : كان أبو مُسلم الخولاني يَرفعُ صَوتَه بالتَّكْبير حتىٰ مع الصِّبيان ، ويقولُ : اذْكُرِ اللهَ حتىٰ يَرى الجاهلُ أنَك مَجْنون[4] .

وقالَ قُرَّة : كان هِجِّيرىٰ[5] . الضَّحَّاك إذا سَكتَ : لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[6] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مَعْروف الكَرْخي : وقَصَّ إنسانٌ شاربَ مَعْروف ، فلم يَفْتُر عن الذِّكْرِ ، فقال : كيفَ أقُصُّ ؟ قال : أنتَ تَعْمَلُ وأنا أعْمَلُ[7] .

وقالَ زَكريا بنُ دَلَّوَيْه : كانَ أحمدُ بنُ حَرْب إذا جَلسَ بين يَدَي الحَجَّام لِيُحْفِيَ شَارِبَه ، يُسَبِّحُ ، فيَقولُ له الحَجَّامُ : اسْكُتْ ساعَة ، فيَقولُ : اعْمَلْ أنتَ عَملَك ، ورُبَّما قَطعَ من شَفَتِه ، وهو لا يَعلَم[8] .

وقالَ أبو القاسِم عبدُ الله بنُ عَليّ ، أخُو نِظام الْمُلك : كانَ أبو الحَسَن الدَّاوُودي

---

(١) الرُّعَام : مخاط رقيق يجري من أنوف الغنم ، وأطبْ مراحها : نَظَّفه ، والثُّلَّة : جماعة من الغَنم ، قليلة كانت أو كثيرة ، وقيل ، الثُّلَّة : الكثيرُ منها .

(٢) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣١٢ .

(٣) انظر السير : (هارون بن رئاب) ٥/ ٢٦٣ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٠٠ .

(٤) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٣١ .

(٥) الهجير والهجيرىٰ : الدأبُ والعادة والديْدَن .

(٦) انظر السير : (الضَّحَّاك بن مُزاحِم) ٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٦٦ .

(٧) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخيّ) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٢٦ .

(٨) انظر السير : (أحمَد بن حَرْب) ١١/ ٣٢ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٠٥ .

لا تَسكُنُ شَفتُه من ذِكْر الله ، فحُكيَ أنَّ مُزَيِّناً أرادَ قَصَّ شَارِبِه ، فقالَ : سَكِّنْ شَفتَيكَ ، قالَ : قُلْ للزَّمانِ حتَّىٰ يَسْكُن[1] .

٨ـ رُؤْيا تَحُثُّ على الذِّكر :

قالَ ابنُ السَّمَّاك : رَأيتُ مِسْعَراً في النَّوم ، فقُلتُ : أيُّ العَمَل وَجَدتَ أنْفَع ؟ قالَ : ذِكْرُ الله ، تُوفِّيَ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ ومِئة[2] .

(٨) من أسْباب مَوْت القَلْب

(أ) الذُّنُوب :

١ـ ذُلُّ الذُّنُوب :

رُويَ عن سُلَيْمانَ التَّيميّ قالَ : إنَّ الرجُلَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فيُصبِحُ وعَليه مَذَلَّتُه .

تُوفِّيَ سُلَيمانُ التَّيميُّ بالبَصْرَة سَنةَ ثَلاثٍ وأرْبَعين ومئة ، ابنَ سَبْعٍ وتسعينَ سَنةً[3] .

٢ـ صُعُوبَة تَرْك الذُّنُوب لمَنْ لمْ يَعْتصِم بالله :

عن يَحْيَىٰ بنِ مُعاذ ، قالَ : مِسْكينٌ ابنُ آدَم ، قَلعُ الأحْجَارِ أهْوَنُ عليه من تَركِ الأوْزارِ[4] .

٣ـ مَنْ نَدُرَتْ ذُنوبُه :

عن خارِجَةَ بنِ مُصْعَب قالَ : صَحبتُ ابنَ عَوْن أرْبَعاً وعِشْرينَ سَنةً ، فمَا أعلَمُ أنَّ الْمَلائكةَ كَتبَت عَليه خَطيئةً .

وعن سَلامِ بنِ أبي مُطيع قالَ : كانَ ابنُ عَوْن أمْلَكَهم لِلِسَانِه[5] .

---

(١) انظر السير : (الدَّاوودي) ١٨/ ٢٢٢ـ ٢٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٠٦ .
(٢) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٩٠ .
(٣) انظر السير : (سُلَيمانُ بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٤٢ .
(٤) انظر السير : (يَحْيَى بن مُعاذ) ١٣/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٧ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن عَون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/٦٥٦ .

٤ـ مَعرفَة الصَّالحين أنَّ سَبب البَلاء الذُّنوب :

عن مُحمَّد بنِ سِيرينَ قالَ : قُلتُ لِرَجُلٍ : يا مُفْلِسُ ، فعُوقِبتُ .

قالَ أبو سُليمان الدَّاراني ، وبَلَغَه هـٰذا فقالَ : قَلَّتْ ذُنوبُ القَوْمِ فعَرَفوا من أيْنَ أُتُوا ، وكَثُرَتْ ذُنوبُنا فلَمْ نَدْرِ من أيْنَ نُؤتَىٰ[١] .

وقالَ الفِرْيابيُّ : سَمعتُ الأوْزاعيَّ وسُفيانَ الثَّوريَّ يَقولان : لَمَّا أُلقِيَ دَانيالُ في الجُبِّ مع السِّباعِ ، قالَ : إلَـٰهي! بالعَارِ والخِزْي الذي أصَبْنا سَلَّطتَّ علينا مَنْ لا يَعرِفُك[٢] .

ورُويَ عن وَكيعٍ أنَّ رَجُلاً أغْلظَ له ، فدَخلَ بَيتاً ، فعَفَّرَ وَجْهَه ثم خَرجَ إلى الرجُلِ ، فقالَ : زِدْ وَكيعاً بذَنبِه ، فلَوْلاه ما سُلِّطتَ عليه[٣] .

وقال ابنُ فارس : سَمعتُ القَطَّانَ يَقولُ : أُصِبتُ ببَصري ، وأظنُّ أنِّي عُوقِبتُ بكَثْرَةِ كَلامي أيَّامَ الرِّحْلَة[٤] .

قال الذهبيُّ : صَدقَ والله ، فقد كانوا مع حُسْنِ القَصْد ، وصِحَّة النِّيَّة ـ غالباً ـ يَخافونَ من الكَلام ، وإظْهارِ المَعرِفَة والفَضيلَة ، واليومَ يُكثرون الكَلامَ مع نَقْصِ العِلمِ ، وسُوءِ القَصْدِ ، ثمَّ إنَّ اللهَ يَفضَحُهم ويَلُوحُ جَهلُهم وهَواهُم واضْطرابُهم فيما عَلِمُوه فنَسألُ اللهَ التَّوفيقَ والإخْلاصَ .

تُوفِّيَ هـٰذا الإمامُ في سنةِ خَمس وأربعينَ وثلاثِ مئة[٥] .

(ب) المَعَاصِي :

١ـ أقْسَامُ المَعَاصِي :

من كلامِ مُحمَّدِ بنِ نَصْر قالَ : لَمَّا كانت الْمَعاصي بَعضُها كفْراً وبَعضُها ليس بكفْر ، فرَّق تَعالىٰ بَينها ، فجَعلَها ثَلاثَةَ أنْواع : فنَوعٌ منها كفرٌ ، ونَوعٌ منها فُسُوقٌ ، ونَوعٌ منها

---

(١) انظر السير : (محمّد بن سيرين) ٤/٦٠٦ـ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٧/٥٦٩ .

(٢) انظر السير : (سُفْيان الثَّوريّ) ٧/٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦٩٩ .

(٣) انظر السير : (وَكيع) ٩/١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/٨١١ .

(٤) انظر السير : (القَطَّان) ١٥/٤٦٣ـ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٠ .

(٥) انظر السير : (القَطَّان) ١٥/٤٦٣ـ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥٠ .

عِصْيانٌ لَيسَ بكفرٍ ولا فُسُوقٍ ، وأخْبَرَ أنَّه كَرَّهَها كُلَّها إلى المؤمنينَ ، ولَمَّا كانت الطَّاعاتُ كُلَّها داخِلةً في الإيمانِ ، وليس فيها شَيءٌ خارجٌ عنه ، لَمْ يُفرِّق بينها ، فما قالَ : حَبَّبَ إليكم الإيمانَ والفَرائضَ وسَائرَ الطَّاعات ، بل أجْمَلَ ذلك فقالَ : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾[1] فدَخلَ فيه جَميعُ الطَّاعاتِ ، لأنَّه قد حَبَّبَ إليهم الصَّلاةَ والزَّكاةَ ، وسَائرَ الطَّاعات حُبَّ تَدَيُّن ، ويَكْرَهونَ الْمَعاصي كَراهيَةَ تَدَيُّن ، ومنه قَولُه صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ »[2] .

٢ـ التَّحْذيرُ من المَعَاصِي :

قالَ شُعَيبُ بنُ حَرْب : قالَ عُمَرُ بنُ ذَر : يا أهْلَ مَعاصي الله ، لا تَغْتَرُّوا بطُولِ حِلمِ الله عَنكم ، واحْذَروا أسَفَه ، فإنَّه قالَ : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[3] ، [4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ محمَّد بنِ جَرير : ولأبي جَعْفَر في تآليفه عِبارَةٌ وبَلاغَةٌ ، فمِمَّا قالَه في كتابِ : « الآدَاب النَّفيسَة والأخْلاقِ الحَميدَة » : القَولُ في البَيان عن الحَالِ الذي يَجبُ على العَبدِ مُراعاةُ حَالِه فيما يَصدُرُ من عَملِه لله عن نَفسِه ، قالَ : إنَّه لا حَالَةَ من أحْوالِ المؤمن يَغفُلُ عَدوُّه الْمُوكلُ به عن دُعائه إلىٰ سَبيله ، والقُعودِ له رَصداً بطُرق رَبِّه الْمُستَقيمَة ، صادّاً له عنها ، كمَا قالَ لرَبِّه ـ عَزَّ ذِكْرُه ـ إذْ جَعلَه من الْمُنْظَرين : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[5] .

طَمَعاً منه في تَصْديقِ ظنِّه عليه إذ قالَ لرَبِّه : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[6] .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ٧ .
(٢) انظر السير : (محمَّد بن نَصْر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١١٢٥ .
(٣) سورة الزخرف ، الآية : ٥٥ .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٥/٦٦٠ .
(٥) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٦ ، ١٧ .
(٦) سورة الإسراء ، الآية : ٦٢ .

فحَقَّ علىٰ كُلِّ ذي حِجىً أنْ يُجهِدَ نَفسَه في تَكذيب ظَنِّه ، وتَخييبه منه أمَلَه وسَعيَه فيما أرْغَمَه ، ولا شَيءَ من فِعْلِ العَبدِ في مَكرُوهِه من طاعَتِه ربَّه وعِصْيانِه أمْره ولا شَيءَ أسَرُّ إليه من عِصيانِه رَبَّه ، واتِّباعِه أمْرَه .

فكَلامُ أبي جَعْفَر من هـٰذا النَّمَط ، وهو كَثيرٌ مُفيدٌ[1] .

٣ـ الحَثُّ علىٰ تَرْك المَعَاصِي :

عن الحَسَن البَصْري قال : يا ابنَ آدَم ، والله إنْ قَرأتَ القُرآنَ ثم آمَنتَ به ليَطُولَنَّ في الدُّنيا حُزنُك ، ولَيَشْتَدَنَّ في الدُّنيا خَوفُك ، ولَيَكثُرَنَّ في الدُّنيا بُكاؤُك[2] .

قالَ العِمادُ : حَدَّثني سَعْدٌ الكاتِبُ بمِصْرَ ، قالَ : كانَ الجُوَيْنيُّ صَديقي ، وكان يَشرَبُ الخَمرَ ، فحَدَّثني أنَّه كانَ يَكتبُ مُصْحَفاً ، وبَينَ يَدَيه مِجْمَرَةٌ وقِنِّينَةُ خَمْر ، ولَمْ يَكن بقُربي ما أُنَدِّي به الدَّواةَ فصَبَبْتُ من القِنِّينَةِ في الدَّوَاةِ ، وكَتبتُ وِجْهَةً ونَشَّفْتُها على المِجْمَرَةِ ، فصَعَدَت شَرارَةٌ أحْرَقَت الخَطَّ دُون بَقيَّة الوَرَقَة ، فرعبتُ وقُمتُ ، وغَسَلتُ الدَّواةَ والأقْلامَ ، وتُبتُ إلى الله .

ماتَ سَنةَ سِتٍّ وثَمانينَ وخَمسِ مِئة[3] .

٤ـ عاقبَةُ المَعَاصِي :

عن ابنِ جُبير ، عن أبيه ، قالَ : لَمَّا فُتحت قبرس مُرَّ بالسَّبي علىٰ أبي الدَّرْداء فَبَكىٰ ، فقُلتُ له : تَبكي في مثل هـٰذا اليَوم الذي أعَزَّ اللهُ فيه الإسْلامَ وأهلَه ؟ قالَ : يا جُبيرُ ، بَيْنا هـٰذه الأمَّة قَاهِرَةٌ ظاهِرَةٌ إذْ عَصَوا اللهَ ، فلَقُوا ما تَرَىٰ ما أهْوَنَ العِبادَ على اللهِ إذا هم عَصَوْه[4] .

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٥/١١٥٢ .
(٢) انظر السير : (الحَسن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٦/٥٦٠ .
(٣) انظر السير : (الجُوَيْنيُّ) ٢١/ ٢٣٣ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦١٥ .
(٤) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ١/٢٧٣ .

٥ـ المَعَاصِي بَرِيدُ الكفْر :

قالَ الأسْتاذُ أبو حَفْص النِّيسابُوريُّ : الْمَعاصي بَرِيدُ الكُفْر ، كما أنَّ الحُمَّىٰ بَرِيدُ الْمَوتِ[١] .

٦ـ تَركُ المَعَاصِي شَديد ، وفِعْلُ الطَّاعات هَيِّن :

عن أبي حامد الغَزَّالي قالَ : اعْلَمْ أنَّ الدِّينَ شَطْرانِ : أحَدُهما تَركُ الْمَناهي ، والآخَرُ فِعلُ الطَّاعات ، وتَركُ الْمَناهي هو الأشَدُّ ، والطَّاعاتُ يَقدِرُ عليها كلُّ أحَد ، وتَركُ الشَّهَوَاتِ لا يَقدِرُ عليها إلاَّ الصِّدِّيقونَ ، ولذلك قالَ صلى الله عليه وسلم : « الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ »[٢] .

٧ـ عاقِبةُ التَّحَبُّب إلى العِباد بالمَعَاصِي :

قالَ الإمَامُ سَعيدُ بنُ الحَدَّاد : مَنْ طَالَت صُحْبَتُه للدُّنيا وللنَّاسِ فقد ثَقُلَ ظَهرُه خابَ السَّالُونَ عن الله الْمُتَنَعِّمُونَ بالدُّنيا ، مَنْ تَحَبَّبَ إلى العِبادِ بالْمَعَاصِي بَغَّضَهُ اللهُ إليهم[٣] .

٨ـ المَعَاصِي تَجلبُ بُغْضَ الله والعِباد :

عن ابنِ أبي لَيْلىٰ ، قالَ : كتبَ أبو الدَّرْداء إلىٰ مَسْلَمَةَ بنِ مَخْلَد : سَلامٌ عَليكَ ، أمَّا بعد : فإنَّ العَبدَ إذا عَمِلَ بمَعْصِيَةِ اللهِ أبْغَضَهُ اللهُ ، فإذا أبْغَضَهُ اللهُ بَغَّضَهُ إلىٰ عِبادِه[٤] .

* * *

---

(١) انظر السير : (أبو حَفْص النِّيسابوريّ) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢٥ .

(٢) انظر السير : (الغَزَّاليُّ) ١٩/ ٣٢٢ـ ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٤ .

(٣) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٦ .

(٤) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ١/٢٧١ .

(٩) حَاجاتُ الإنْسان الضَّروريَّة وحَالُ الصَّالحين مَعها

(أ) الطَّعَامُ والشَّراب :

١ـ الجُوعُ غَيرُ المُفْرِط وفائدتُه :

قالَ أبو بَكْر الْمَرْوزيُّ : سَمعتُ بِشْرَ بنَ الحَارِثِ يَقولُ : الجُوعُ يُصَفِّي الفُؤادَ ، وَيُمِيتُ الهَوَىٰ ، وَيُورِثُ العِلمَ الدَّقيقَ[١] .

٢ـ الجُوعُ المُفْرِط وعاقِبتُه :

قال مكِّيُّ بنُ عمر البَيِّع : سمعتُ محمدَ بنَ عيسىٰ يقولُ : صامَ طاهرٌ أربعين يوماً أربعينَ مرّةً ، فآخرُ أربعينَ عَملَها صام علىٰ قِشرِ الدُّخنِ ، فَلِيُبْسِه قَرِعَ رأسُه ، واختلَطَ في عقلِه ، ولم أرَ أكثرَ مجاهدةً منه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : فِعْلُ هـٰذه الأربعينات حرامٌ قطعاً ، فعُقباها مَوتٌ من الخَوَر ، أو جُنونٌ واختلاط ، أو جَفافٌ يُوجبُ للمَرء سَماعَ خِطابٍ لا وُجودَ له أبداً في الخارج فيَظنُّ صاحبُه أنَّه خطابٌ إلَّي[٢] ، كلا والله .

وقال ابنُ زيرك : حضرتُ مَجْلساً ذُكرَ فيه الجَصَّاصُ ، فبعضُهم نَسَبَه إلى الزَّنْدَقة ، وبعضُهم نَسَبَه إلى المَعْرفَة .

وقيل : كان تَركَ اللَحْمَ والخُبْزَ ، فحُوقِقَ في ذلك ، فقال : إذا أكلتُها طالَبتني نفسي بتقبيل أمرد مليح .

وكان عليه قملٌ مفرطٌ ، ولا يقتُله ، ويقول : لا يُؤذيني .

---

(١) انظر السير : (بِشْر بن الحَارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/٨٨٥ .

(٢) أي إلـٰهي ، فقد جاء في اللسان : الإلُّ : اللهُ عزَّ وجلَّ ، والمعنىٰ أنه مما يوسوس له يخيل إليه أنه يسمع كلاماً ويظنُّ أن اللهَ يُخاطبُه به .

تُوفِّيَ سنة ثمان عشرة وأربع مئة ، وقَبْرُه يُزارُ بهَمَذان[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الأبْهَريِّ : وقيلَ إنَّه عَملَ له خَلوةً ، فبَقيَ خَمسينَ يَوماً لا يَأكلُ شَيئاً وقد قُلنا : إنَّ هـٰذا الجُوعَ الْمُفرِط لا يَسوغُ ، فإذا كانَ سَردُ الصِّيامِ والوِصَالِ قد نُهيَ عنهما ، فما الظَّنُّ وقد قالَ نَبيُّنا صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعِ ؟ » ثم قَلَّ مَنْ عَملَ هـٰذه الخَلَواتِ الْمُبتَدَعَة إلاَّ واضْطَربَ ، وفَسدَ عَقلُه ، وجَفَّ دِماغُه ، ورَأىٰ مَرَأىً ، وسَمعَ خِطاباً لا وُجودَ له في الخارج ، فإنْ كانَ مُتَمَكناً من العِلمِ والإيمانِ ، فلَعلَّه يَنجُو بذلك من تَزَلْزُلِ تَوْحيدِه ، وإنْ كانَ جاهِلاً بالسُّنَن وبقَواعِد الإيْمَان تَزَلْزَلَ تَوحيدُه ، وطَمعَ فيه الشَّيْطانُ ، وادَّعَى الوُصُولَ ، وبَقيَ علىٰ مَزَلَّةِ قَدَم ، ورُبَّمَا تَزَنْدَقَ ، وقالَ : أنا هو ، نَعُوذُ باللهِ من النَّفسِ الأمَّارَة ومن الهَوَىٰ ، ونَسألُ اللهَ أنْ يَحفَظَ عَلينا إيْمَانَنَا آمين[2] .

٣ـ الاعْتدالُ في تَناوُل المُباحات :

قالَ مُبارَك عن الحَسَنِ : دَخَلَ عُمَرُ رضي الله عنه على ابنِه عاصِم وهو يَأكُلَ لَحْماً ، فقالَ : ما هـٰذا ؟!! قالَ : قَرِمْنا[3] . إليه ، قالَ : أوَكُلَّما قَرِمْتَ إلىٰ شَيء أكَلتَه ؟!! ، كَفَىٰ بالْمَرْءِ سَرَفاً أنْ يَأكُلَ كُلَّ ما اشْتَهَىٰ[4] .

٤ـ مَساوِىءُ الشِّبَع :

قالَ شُرحْبيلُ بنُ مُسْلم ، عَن عَمرِو بنِ الأسْوَد العَنْسيِّ ، أنَّه كانَ يَدَعُ كَثيراً من الشِّبَع مَخافَةَ الأشَر[5] .

قالَ أبو عَوَانَة الإسْفَراييني : حدَّثنا الرَّبيعُ : سَمعتُ الشَّافِعيَّ يقولُ : ما شَبعتُ منذ

---

(١) انظر السير : (الجَصَّاص) ١٧/ ٣٩٠ـ ٣٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٦ .
(٢) انظر السير : (الأبْهَري) ١٧/ ٥٧٦ـ ٥٧٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٦٥ .
(٣) القَرَم : شدَّة الشَّهْوَة إلى اللَّحْم.
(٤) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٤٦ .
(٥) انظر السير : (عَمرو بن الأسْوَد) ٤/ ٧٩ـ ٨١ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٨ .

سِتَّ عَشرَةَ سَنةً إلاَّ مَرَّةً ، فأدْخَلتُ يَدي فتَقيَّأتُها[1] .

رَوَاها ابنُ أبي حاتمٍ عن الرَّبيعِ ، وزادَ : لأنَّ الشِّبَعَ يُثقِّلُ البَدنَ ، ويُقَسِّي القَلبَ ويُزيلُ الفِطنَة ، ويَجلبُ النَّومَ ، ويُضعِفُ عن العِبادَة[2] .

٥ـ مَنْ ماتَ بسَبب الطَّعَام :

قالَ محمَّدُ بنُ جَرير الطَّبَريُّ : خَرجَ ابنُ مَعين حاجّاً ، وكانَ أَكُولاً فحَدَّثني أبو العَبَّاس أحمَدُ بنُ شاه أنَّه كانَ في رِفْقَتِه ، فلمَّا قَدِموا فَيْدَ أُهْدِيَ إلىٰ يَحْيَىٰ فَالَوْذَج لَمْ يَنضُجْ ، فقُلنا له : يا أبا زَكريا ، لا تَأكُلْه فإنَّا نَخافُ عليك فلَمْ يَعبأ بكَلامِنَا وأكَلَه ، فما اسْتقَرَّ في مَعدَتِه حتَّىٰ شَكا وَجَعَ بَطنِه وانْسَهَلَ ، إلىٰ أنْ وَصَلنا إلى المدينة ولا نُهوضَ له فتَفاوَضْنا في أمْرِه ، ولَمْ يَكنْ لنا سَبيلٌ إلى الْمُقامِ عَليه لأجْلِ الحَجِّ ، ولَمْ نَدْرِ ما نَعمَلُ في أمْرِه فعَزَمَ بَعضُنا على القِيامِ عليه وتَركِ الحَجِّ وبِتْنا فلَمْ يُصْبحْ حتَّىٰ وَصَّىٰ ومَاتَ ، فغَسَّلناه ودَفنَّاه .

قالَ عبَّاسُ الدُّوري : ماتَ قبلَ أنْ يَحُجَّ عامَئذ ، وصلَّىٰ عليه وَالي المدينة ، وكلَّمَ الحِزاميُّ الواليَ ، فأخْرَجُوا له سَريرَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فحُملَ عليه .

قالَ أحمَدُ بنُ أبي خَيْثَمَة : ماتَ يَحْيَىٰ سَنةَ ثَلاثٍ وثَلاثينَ ، وقد اسْتَوفَىٰ خَمْساً وسَبعينَ سَنةً ، ودَخلَ في السِّتِّ ، ودُفنَ بالبَقيعِ[3] .

٦ـ مَنْ ماتَ بسَبب طَعَامٍ حَارّ :

قالَ أبو الحُسَين أحمَدُ بنُ جَعْفَر بن الْمُنادِي : ماتَ أبو محمَّد ابنُ قُتَيْبَة فُجاءَة ، صاحَ صَيحةً سُمعَت من بُعد ، ثم أُغْميَ عليه ، وكان أكلَ هَريسَةً ، فأصابَ حَرارَةً ، فبَقيَ إلى الظُّهرِ ، ثم اضْطَربَ سَاعَةً ، ثم هَدأ ، فما زَالَ يَتشَهَّدُ إلى السَّحَر ، وماتَ ـ سامَحَه الله ـ وذلك سَنةَ سِتٍّ وسَبعينَ ومِئتَين .

---

(١) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٦/٨٤٨ .
(٢) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٧/٨٤٨ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/٩١٢ .

والرجُلُ ليسَ بصاحِبِ حَديثٍ ، وإنَّما هو من كِبارِ العُلماء الْمَشْهورين ، عندَه فُنونٌ جَمَّةٌ وعُلومٌ مُهِمَّةٌ[1] .

٧ـ حِرْمانُ النَّفْس من بَعض الطَّعام يُذَلِّلُها :

قِيلَ إنَّ عُتْبَةَ الغُلام نازَعَته نَفسُه لَحْماً فمَاطَلَها سَبعَ سنين[2] .

٨ـ التَّحَرِّي في المَطْعَم :

(وصُورٌ أُخْرىٰ سَتجدُها في فهرس الوَرَع)

قال أحمدُ بنُ شَبُّويه : حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاق قال : أكلَ مَعْمَرُ بنُ راشِد من عند أهلِه فاكِهَةً ثم سألَ فقيلَ : هَديَّةٌ من فُلانَة النوَّاحَة فقامَ فتَقيَّأ وبَعثَ إليه مَعْن والي اليَمَن بذَهبٍ فرَدَّه وقال لأهْلِه : إنْ علمَ بهٰذا غَيرُنا لمْ يَجتَمعْ رأسي ورأسُك أبداً .

مات مَعْمَرُ بنُ راشِد سَنةَ أربع وخَمسين[3] .

٩ـ تَقَلُّل العُلمَاء من الطَّعام حال الطَّلَب :

قالَ صالِحُ جَزَرَة : سَمعتُ حَجَّاجَ بنَ الشَّاعرِ يَقولُ : جَمعَتْ لي أُمِّي مئةَ رَغيفٍ ، فجَعلَتْها في جِرابٍ ، وانْحَدَرتُ إلىٰ شَبابَة بالْمَدائنِ ، فأقَمتُ ببابِه مئةَ يَومٍ ، أغْمِسُ الرَّغيفَ في دِجْلَة وآكُله ، فلمَّا نَفدَت خَرجتُ[4] .

وقالَ ابنُ عَبد كَوَيْه : أخْبَرَتنا عاتِكَةُ بنتُ ابنِ أبي عاصِم ، سَمعتُ أبي يَقولُ : خَرجتُ إلىٰ مَكَّةَ من الكُوفَة ، فأكَلتُ أكْلَةً بالكُوفَة ، والثانيةَ بمَكَّة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : إسنادُها صَحيحٌ .

وكان ابنُ أبي عاصِم مُجَوِّداً للقِراءَة ، وكان يَقولُ : أنا أُقَدِّمُ نافِعاً في القِراءَة ، وكان يَقولُ : ما بَقيَ أحَدٌ قَرأ علىٰ رَوْح بنِ عبد المؤمن غَيري ـ يَعني صاحِبَ يَعقُوب ـ[5] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ قُتَيْبَة) ١٣/ ٢٩٦ـ ٣٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٨٨ .

(٢) انظر السير : (عُتْبَة الغُلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٧٦ .

(٣) انظر السير : (مَعْمَر بن راشد) ٧/ ٥ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٧١ .

(٤) انظر السير : (حَجَّاج بن يُوسُف) ١٢/ ٣٠١ـ ٣٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٠٢ .

(٥) انظر السير : (ابنُ أبي عاصِم) ١٣/ ٤٣٠ـ ٤٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٩٨ .

١٠ـ صُورٌ من التَّقَلُّل من الطَّعَام :

عن نافعٍ قالَ : إنْ كانَ ابنُ عُمَر ليُفَرِّقُ في الْمَجْلسِ ثَلاثينَ ألفاً ، ثم يأتي عليه شَهرٌ ما يَأكلُ مُزْعَةَ[١] . لَحْم[٢] .

وعن حَمْزَةَ بنِ عبد الله بنِ عُمَرَ قال : لَوْ أن طَعاماً كَثيراً كان عند أبي ما شَبعَ منه بعد أن يَجدَ له آكِلاً ، فعادَه ابنُ مُطيع ، فرآه قد نَحلَ جسمُه فكلَّمه ، فقالَ : إنَّه لَيَأتي عليَّ ثمانُ سنينَ ، ما أشْبَعُ فيها شَبعَةً واحدَةً أو قالَ : إلاَّ شَبعَةً ، فالآنَ تُريدُ أنْ أشْبَعَ حينَ لَمْ يَبْقَ من عُمري إلاَّ ظِمْءُ حِمار[٣] ، [٤] .

وعن ابنِ سيرينَ ، أنَّ رَجُلاً قالَ لابنِ عُمرَ : أعْمَلُ لك جَوَارش ؟ قالَ : وما هو ؟ قالَ : شَيءٌ إذا كظَّكَ الطَّعامُ ، فأصَبتَ منه ، سَهَّل ، فقالَ : ما شَبعتُ منذ أربْعَة أشْهُر ، وما ذاكَ أنْ لا أكونَ له واجداً ، ولكنِّي عَهِدتُ قَوماً يَشْبَعونَ مَرَّةً ، ويَجُوعُونَ مَرَّة[٥] ، [٦] .

وقالَ هشامُ بنُ حسَّان : كانَ قُوتُ العَلاءِ بنِ زياد رَغيفاً كلَّ يوم[٧] .

وقالَ مَالكُ بنُ دينار : إنَّه لتَأتي عليَّ السَّنَةُ لا آكُلُ فيها لَحْماً إلاَّ من أُضْحِيَتي يَومَ الأضْحَىٰ[٨] .

وعن أبي بِشْر قالَ : كان كُرْزُ بنُ وَبَرَةَ الحَارثيُّ من أعْبَدِ النَّاسِ ، وكانَ قد امْتَنعَ من الطَّعامِ ، حتىٰ لَمْ يُوجَد عليه من اللَّحْم ، إلاَّ بقَدرِ ما يُوجَدُ على العُصْفور ، وكان يَطوي أيَّاماً كثيرة ، وكانَ إذا دَخلَ في الصَّلاة لا يَرفَعُ طَرْفَه يَميناً ، ولا شِمالاً وكانَ من

---

(١) الْمُزْعَة ، بضم الميم : القطعة اليسيرة من اللَّحم.

(٢) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٣٠٢ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٦٩/ ٢ .

(٣) أي شيءٌ يسير ، وخصَّ الحِمارَ بذلك ، لأنه أقلُّ الدَّوابِّ صَبراً على الماء .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٣٠٢ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٦٩/ ٥ .

(٥) قوله : « إذا كَظَّكَ الطَّعامُ » ، أي : إذا امتلأتَ منه وأثْقَلك .

(٦) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٣٠٢ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٧٠/ ٤ .

(٧) انظر السير : (العَلاء بن زياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٤٧٧/ ٥ .

(٨) انظر السير : (مالك بن دينار) ٥/ ٣٦٢ـ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٦١٠/ ١ .

الْمُحِبِّينَ الْمُخْبِتين لله ، قد وَلِهَ من ذلك فرُبَّما كُلِّمَ فيُجيبُ بعد مُدَّة من شِدَّة تَعلُّق قَلبِه بالله ، واشْتِياقِه إليه[1] .

وحَكَىٰ حَرْمَلَةُ بنُ يَحْيَىٰ أنَّ ابنَ عُيَيْنَةَ قالَ له ـ وأرَاه خُبزَ شَعير ـ هٰذا طَعامي منذُ سِتِّينَ سَنةً[2] .

وقالَ محمَّدُ بنُ أبي حاتم : وكانَ أبو عبد الله البُخاري رُبَّما يأتي عليه النَّهارُ فلا يَأكُلُ رُقاقَةً ، إنَّما كانَ يَأكُلُ أحْياناً لَوْزَتين أوْ ثَلاثاً[3] .

وكانَ إبْراهيمُ الحَربيُّ يَقولُ : فَرْدُ عَقِبي[4] . صَحيحٌ والآخَرُ مَقطوعٌ ، ولا أُحَدِّثُ نَفسي أنِّي أُصْلِحُها ، ولا شَكَوتُ إلىٰ أهْلِي وأقَارِبي حُمَّىٰ أجدُها ، لا يَغمُّ الرجلُ نَفسَه وعيالَه ، ولي عَشرُ سنينَ أُبْصِرُ بفَرْدِ عَين ، ما أخْبَرتُ به أحَداً ، وأفْنَيتُ من عُمري ثَلاثينَ سَنةً برَغيفَين ، إنْ جاءَتْني بهما أُمِّي أو أُخْتي ، وإلاَّ بَقيتُ جائعاً إلى اللَّيلَة الثانيَة ، وأفْنَيتُ ثَلاثينَ سَنةً برَغيفٍ في اليوم واللَّيلَة ، إنْ جاءَتْني امْرأتي أو بَناتي به وإلاَّ بَقيتُ جائعاً ، والآنَ آكُلُ نِصْفَ رَغيفٍ ، وأرْبَع عَشرَةَ تَمْرةً ، وقامَ إفْطَاري في رَمضانَ هٰذا بدِرْهَم ودَانِقَيْن ونِصْف[5] .

١١ـ تَقلُّل الصَّالحين من الطَّعام ليس ـ دائماً ـ بسَبب الفَقْر :

وعن ابنِ سيرينَ ، أنَّ رَجُلاً قالَ لابنِ عُمرَ : أعْمَلُ لك جَوَارش ؟ قالَ : وماهو ؟ قالَ : شَيءٌ إذا كظَّكَ الطَّعامُ ، فأصَبتَ منه ، سَهَّل ، فقالَ : ما شَبعتُ منذ أربَعَة أشْهُر ، وما ذاكَ أنْ لا أكونَ له واجداً ، ولكنِّي عَهِدتُ قَوماً يَشْبَعونَ مَرَّةً ، ويَجُوعُونَ مَرَّة[6] ، [7] .

---

(١) انظر السير : (كرْز) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦٣٣/ ٥ .
(٢) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٧٨٣/ ٢ .
(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٦/ ٦ .
(٤) العَقِبُ هنا : النَّعْل ، علىٰ سَبيل المجاز .
(٥) انظر السير : (إبْراهيمُ الحَرْبيّ) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ١٠٩٥/ ١ .
(٦) قوله : « إذا كَظَّكَ الطَّعامُ » ، أي : إذا امتلأتَ منه وأثْقَلك .
(٧) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٣٠٢ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٧٠/ ٤ .

١٢ـ الشِّبَع مع الضَّيف جائز :

عن مُعاذِ بنِ خالِد : سَمعتُ أبا حَمْزَة السُّكَّريَّ يَقولُ : ما شَبعتُ منذ ثَلاثينَ سَنةً ، إلاَّ أنْ يَكونَ لي ضَيفٌ[١] .

١٣ـ الفَرَحُ بالطَّعام الطَّيِّب :

قالَ إسْماعيلُ بنُ حمَّادِ بنِ أبي حَنيفَة : والنُّعمانُ بنُ الْمرزِبان والدُ ثابت هو الذي أهْدَىٰ لعَليٍّ الفالَوْذَجَ في يَوم النَّيْروزِ فقالَ عَليٌّ : نَوْرِزُونا كُلَّ يَومٍ ، وقيلَ كانَ ذلكَ في المهْرَجان ، فقالَ : مَهْرِجُونا كُلَّ يَومٍ[٢] .

١٤ـ شُربُ العَسَل والسَّمَر عليه :

عن اللَّيث : كان ابنُ شِهاب الزُهريّ يخْتِم حديثَه بدعاء جَامع ، يقول : (اللَّهُمَّ أسألك من كلِّ خيرٍ أحَاطَ به علمُك في الدنيا والآخرة ، وأعُوذُ بك من كلِّ شرٍّ أحَاطَ به علمُك في الدنيا والآخرة) وكان من أسخىٰ مَنْ رأيتُ ، كان يُعطي ، فإذا فرغ ما معه يَسْتَلفُ من عَبيده ، يقول : يا فلان أسْلِفني كما تعرف ، وأضْعِفُ لك كما تَعلم ، وكان يُطعِمُ النَّاس الثَّريدَ ، ويسقيهم العَسلَ ، وكان يَسْمُرُ على العَسلِ كما يَسْمُرُ أهلُ الشَّرابِ علىٰ شَرابهم ، ويقول : اسقُونا وحدِّثُونا وكان يُكثِر شُربَ العَسل ، وسمعتُه يبكي على العِلْم بلسانه ، ويقول : يذهبُ العِلْمُ وكثيرٌ ممن كان يعملُ به فقلتُ له : لو وضَعتَ من علمك عند مَنْ تَرجو أن يكونَ لك خلفاً قال : واللهِ ما نَشَرَ أحدٌ العلمَ نَشْري ، ولا صَبرَ عليه صَبْري ، ولقد كنَّا نجلسُ إلى ابن المسَيِّب ، فما يستطيعُ أحدٌ منَّا أن يسألَه عن شيء نزل به إلاَّ أنْ يبتدىء الحديثَ ، أو يأتي رجلٌ يسأله عن شيءٍ قد نزلَ به[٣] .

---

(١) انظر السير : (أبو حَمْزَة السُّكَري) ٧/ ٣٨٥ـ ٣٨٧ ، وانظر النزهة : ١/٧٠٧ .

(٢) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٢ .

(٣) انظر السير : (أخبار الزهري) ٥/ ٣٢٦ـ ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٦/٦٠٦ .

١٥ـ الجُوعُ بسَبب الفَقْر :

عن ابنِ شِهابٍ الحَنَّاط قالَ : بَعثَت أخْتُ سُفْيانَ بجِرابٍ مَعي إلىٰ سُفْيانَ وهو بمَكة ، فيه كَعكٌ وخشكنان[١] فقَدمتُ ، فسَألتُ عنه ، فقيلَ لي : رُبَّما قَعدَ عند الكَعبَة ممَّا يَلي الحَنَّاطينَ ، فأتَيتُه ، فوَجدتُه مُسْتَلقياً عليه ، فلَمْ يُسائلْني تلك الْمُساءَلَة ، ولَمْ يُسلِّمْ عليَّ كما كُنتُ أعْرفُه فقُلتُ : إنَّ أُخْتَك بَعثَت معي بجِرابٍ ، فاسْتَوىٰ جالساً ، وقالَ : عَجِّل بها فكلَّمْتُه في ذلك قالَ : يا أبا شِهاب! لا تلُمْني ، فليَ ثَلاثَة أيَّام لَمْ أذُقْ فيها ذوقاً ، فعَذَرتُه[٢] .

وكانَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل يُصلِّي بعبد الرزَّاقِ فسَهَا ، فسَألَ عنه عبدُ الرزَّاق ، فأُخبِرَ أنَّه لَمْ يَأكُلْ منذ ثَلاثَةِ أيّامٍ شَيئاً[٣] .

وقالَ ابنُ أبي حاتم سَمعتُ أبي يَقولُ : بَقيتُ في سَنةِ أرْبَع عَشرَة ثمانية أشْهُر بالبَصْرَة ، وكانَ في نَفسي أنْ أُقيمَ سَنةً ، فانْقَطَعَتْ نَفَقَتي ، فجَعلتُ أبيعُ ثيابي حتىٰ نَفِذَت ، وبَقيتُ بلا نَفقَة ، ومَضيتُ أطُوفُ مع صَديق لي إلى الْمَشْيَخَة ، وأسْمَعُ إلى الْمَساء ، فانْصَرفَ رَفيقي ، ورَجَعتُ إلىٰ بَيتي ، فجَعَلتُ أشْرَبُ الماءَ من الجُوع ، ثم أصْبَحْتُ ، فغَدا عليَّ رَفيقي ، فجَعلتُ أطُوفُ معه في سَماع الحَديثِ علىٰ جُوعٍ شَديدٍ ، وانْصَرفتُ جائعاً ، فلمَّا كان من الغَد ، غدا عليَّ فقالَ : مُرَّ بنا إلى الْمَشايخِ .

قُلتُ : أنا ضَعيفٌ لا يُمكنُني قالَ : ما ضَعفُك ؟ قُلتُ : لا أكْتُمُك أمْري ، قد مَضَىٰ يَومان ما طَعِمتُ فيهما شَيئاً ، فقالَ : قد بَقيَ معي دينارٌ ، فنِصْفُه لك ، ونَجعَلُ النِّصْفَ الآخَر في الكِراء ، فخَرَجنا من البَصْرَة ، وأخَذتُ منه النِّصْفَ دينار[٤] .

وقالَ بَكرُ بنُ محمّد : سَمعتُ ابنَ خِرَاش يقولُ : شَربتُ بَوْلي في هٰذا الشَّأن ـ يَعني الحَديث ـ خَمسَ مرَّات .

---

(١) دقيق القمح إذا عُجنَ بشيرج ، وبُسطَ ومُلِيءَ بالسُّكر واللَّوز والفُستق وماء الورد ، وجُمعَ وخُبز .
(٢) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٩٧ .
(٣) انظر السير : (أحمَد بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٢٥ .
(٤) انظر السير : (أبو حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٧٥ .

قال أبو نُعَيْم بنُ عَدي : ما رَأيتُ أحداً أحفَظَ من ابنِ خِرَاش .

وقال ابنُ عَدي : قد ذُكرَ بشَيءٍ من التشَيُّع ، وأرجو أنَّه لا يَتعمّدُ الكَذب سَمعتُ ابنَ عُقْدَة يقولُ : كان ابنُ خِرَاش عندنا إذا كَتبَ شَيئاً في التشَيُّع يقولُ : هـٰذا لا يَنْفَق إلاَّ عندي وعندك وسَمعتُ ابنَ عَبْدان يقولُ : حملَ ابنُ خِرَاش إلىٰ بُنْدار عندنا جُزْأين صَنَّفَهما في مَثالب الشَّيخَين ، ، فأجازه بألفَي دِرهَم ، بُني له بها حُجرةٌ ببغداد ليُحدِّث فيها ، فمات حين فُرِغَ منها .

وقال أبو زُرْعَة ، محمدُ بنُ يوسُف الحافظُ : خرَّجَ ابنُ خِرَاش مَثالب الشَّيخَين وكان رافِضيّاً .

وقال ابنُ عَدي : سَمعتُ عَبْدانَ يقولُ : قلتُ لابنِ خِرَاش : حديثُ : « ما تَرَكنَاهُ صَدَقَةٌ » فقالَ : باطِلٌ .

قال الذهبيُّ : هـٰذا مُعَثَّر مَخذول ، كان عِلمُه وَبالاً ، وسَعيُه ضَلالاً ، نَعوذُ بالله من الشَّقاء .

ماتَ سنةَ ثلاثٍ وثمانين ومئتين[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ محمَّدِ بنِ جَرير الطَّبَري : كان مَولدُه سَنةَ أرْبَع وعِشرينَ ومِئتَين ، ورَحلَ من آمُلَ لَمَّا تَرَعْرَعَ وحَفظَ القُرآنَ ، وسَمحَ له أبُوه في أسْفارِه ، وكانَ طُولَ حَياتِه يَمدُّه بالشَّيءِ بعدَ الشَّيءِ إلى البُلدان ، فيَقْتاتُ به ، ويَقولُ فيما سَمعتُه : أبْطَأتْ عَنِّي نَفَقَةُ وَالدي ، واضْطَرَرتُ إلىٰ أنْ فَتَّقتُ كُمَّيْ قَميصي فبِعْتُهما[2] .

وقالَ الوَخْشيُّ يوماً : رَحلتُ وقاسَيتُ الذُّلَّ والْمَشَاقَّ ، ورَجَعتُ إلىٰ وَخْشَ وما عَرَفَ أحَدٌ قَدْري ، فقُلتُ : أمُوتُ ولا يَنْتَشِرُ ذِكْري ، ولا يَترَحَّمُ أحدٌ عليَّ ، فسَهَّلَ اللهُ ، ووَفَّقَ نِظامَ الْمُلكِ حتَّىٰ بَنَىٰ هـٰذه المدرَسَةَ وأجْلَسَني فيها أُحَدِّث ، لقد

---

(١) انظر السير : (ابن خِرَاش) ١٣/٥٠٨ـ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٢ .

(٢) انظر السير : (محمد بن جَرير) ١٤/٢٦٧ـ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/١١٥٢ .

كُنتُ بعَسْقَلانَ أسْمَعُ من ابنِ مُصَحِّح ، وبَقيتُ أياماً بلا أكْل ، فقَعدتُ بقُربِ خَبَّاز ، لأشُمَّ رَائحَةَ الخُبزِ وأتقَوَّىٰ بها[1] .

وقالَ السَّمْعانيُّ : قالَ أصْحابُنا ببَغدادَ : كانَ الشَّيخُ أبو إسْحاقَ الشِّيرازي إذا بَقي مُدَّة لا يَأكُلُ شَيئاً صَعدَ إلى النَّصْريَّةَ وله بها صَديقٌ ، فكانَ يَرْدُ له رَغيفاً ويُشربُه بماءِ الباقِلاَّء ، فرُبَّما صَعدَ إليه وقَد فَرغَ ، فيَقولُ أبو إسْحاقَ : ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾[2] .

قالَ القاضي ابنُ هانىء : إمامَان ما اتَّفَقَ لهما الحَجُّ ، أبو إسْحاقَ ، وقاضي القُضاة أبو عبد الله الدَامَغاني أمَّا أبو إسْحاقَ فكانَ فَقيراً ، ولَوْ أرادَه لحَمَلوهُ على الأعْناقِ ، والآخَرُ لَوْ أرادَ لأمْكَنَه على السُّنْدُس والإسْتَبْرَق[3] .

وقال محمَّدُ بنُ طاهِر : أقَمتُ بتَنِّيسَ مُدَّة علىٰ أبي محمّدِ بنِ الحَدَّاد ونُظَرائه ، فضاق بي فلمْ يَبقَ معي غَيرُ دِرهم ، وكنتُ أحتاجُ إلىٰ حِبْرٍ وكاغَد ، فتَردَّدْتُ في صَرفِه في الحِبْرِ أو الكاغَدِ أوالخُبزِ ، ومضىٰ علىٰ هـٰذا ثلاثَةُ أيّام لمْ أطْعَم فيها فلمَّا كان بُكْرةَ اليوم الرابع ، قلتُ في نفسي : لو كان لي اليوم كاغَد لم يُمكنِّي أنْ أكتبَ من الجُوعِ ، فجَعلتُ الدِّرهَمَ في فَمي وخَرجتُ لأشْتري خُبزاً ، فبَلَعْتُه ، ووَقعَ عليَّ الضَّحِكُ ، فلَقيَني صَديقٌ وأنا أضْحَكُ ، فقال : ما أضْحَكَك ؟ قلتُ : خَيرٌ ، فألَحَّ عليَّ ، وأبيتُ أنْ أُخبِرَه ، فحَلفَ بالطَّلاقِ لتَصْدُقَنِّي ، فأخْبرتُه ، فأدْخَلَني مَنزِلَه ، وتَكلَّف أطْعِمَةً ، فلمَّا خَرجْنا لصَلاةِ الظُّهْر ، اجْتمعَ به بَعضُ وُكلاءِ عامِل تَنِّيس ابنِ قادُوس ، فسألَه عنِّي فقال : هو هـٰذا ، قال : إنَّ صاحبي منذُ شَهرٍ أمرَ بي أنْ أُوصِلَ إليه كُلَّ يومٍ عشرةَ دَراهم قيمتُها ربعُ دينار ، وسَهوتُ عنه ، فأخذَ منه ثلاثَ مئة وجاء بها .

مات ابنُ طاهِر عند قُدومِه من الحَجِّ سَنةَ سَبعٍ وخَمسِ مئة[4] .

---

(١) انظر السير : (الوَحْشيُّ) ١٨/ ٣٦٥ـ ٣٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢٣ .
(٢) سورة النَّازعات ، الآية : ١٢ .
(٣) انظر السير : (أبو إسْحاق الشِّيرازيّ) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣٠ .
(٤) انظر السير : (محمد بن طاهر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٨ .

وقالَ ابنُ هُبَيْرَة : جَلستُ مع الزَّبِيْدِيِّ من بُكْرَة إلىٰ قَريب الظُّهْرِ وهو يَلُوكُ شَيئاً فسَألتُه ، فقالَ : نَواةٌ أتعلَّلُ بها ، لَمْ أجِدْ شَيئاً[1] .

وقال ابنُ النجَّار : قرأتُ بخطِّ أبي بَكْر عبد الله بن نَصر بن حَمزَة التَّيْميِّ ، سَمعتُ الشيخَ عبدَ القادر يقولُ : بَلغَتْ بي الضَّائقةُ في الغَلاء إلىٰ أن بَقيتُ أيّاماً لا آكلُ طَعاماً ، بلْ أتَّبعُ المَنْبوذاتِ ، فخَرجْتُ يوماً إلى الشطِّ ، فوَجدتُ قد سَبَقني الفُقَراءُ ، فضَعُفْتُ ، وعَجَزتُ عن التَّماسُك فدخَلتُ مَسْجداً ، وقَعدتُ ، وكدتُ أُصافحُ المَوتَ ، ودخلَ شابٌ أعْجَميٌّ ومَعه خُبزٌ وشِواءٌ ، وجلسَ يأكُلُ ، فكنتُ أكادُ كُلَّما رَفعَ لُقمَةً أفْتَحُ فَمي ، فالتَفَتَ فرآني ، فقال : باسم الله ، فأبيتُ ، فأقسَمَ عليَّ ، فأكلتُ مُقصِّراً ، وأخذَ يَسْألُني ، ما شُغْلك ؟ ، ومن أين أنتَ ؟ فقلتُ : مُتَفَقِّهٌ من جيْلان ، قالَ : وأنا من جيْلان ، فهلْ تَعرفُ لي شاباً جيلانيّاً اسْمُه عبدُ القادر ، يُعْرَفُ بسِبطِ أبي عبد الله الصومعي الزَّاهد ؟ فقلتُ : أنا هو فاضطرَبَ لذلك ، وتغيَّرَ وَجهُه ، وقال : والله يا أخي ، لقد وصَلتُ إلىٰ بَغْدادَ ومَعي بقيَّةُ نَفقَةٍ لي ، فسألتُ عنكَ ، فلمْ يُرْشدني أحدٌ إلىٰ أنْ نَفِدَت نَفَقَتي ، وبَقيتُ بعدَها ثلاثةَ أيّام لا أجدُ ثَمنَ قُوتي إلاَّ من مالِك ، فلمَّا كان هـٰذا اليوم الرابع قلتُ : قد تجاوزَتْني ثلاثة أيّام ، وحلّت المَيْتَة ، فأخذْتُ من وَديعَتك ثمنَ هـٰذا الخُبزَ والشِّواء ، فكُلْ طَيِّباً ، فإنَّما هو لك ، وأنا ضَيْفُك الآن ، فقلتُ : وما ذاك ؟ قال : أمُّك وجَّهَت معي ثمانيةَ دَنانير ، والله ما خُنْتُك فيها إلى اليوم ، فسكَّنْتُه ، وطَيَّبتُ نَفسَه ، ودَفعتُ إليه شَيئاً منها[2] .

وكان اليُونينيُّ لايَقومُ لأحد تَعْظيماً لله ولا يَدَّخِرُ شيئاً ، له ثَوبٌ خام ، ويَلبسُ في الشِّتاء فَروَة ، قد يُؤثِرُ بها في البَرْدِ ، وكان رُبَّما جاعَ ويأكُلُ من وَرَق الشَّجَر[3] .

---

(١) انظر السير : (الزَّبِيْدِيّ) ٢٠/٣١٦ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٥٤ .
(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/٤٣٩ـ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٤ .
(٣) انظر السير : (اليُونيني) ٢٢/١٠١ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٦٩ .

(ب) المَال :

١ـ أهَميَّة المَال :

عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه : الدَّراهِمُ خَواتيمُ الله في الأرْضِ ، فمَنْ ذَهَبَ بخاتِم الله قُضِيَت حاجَتُه[١] .

وقيلَ لأبي الزِّنادِ : لِمَ تُحِبُّ الدَّراهِمَ وهي تُدنيكَ من الدُّنيا ؟ فقالَ : إنَّها وإن أَدْنَتني منها ، فقد صَانَتْني عنها[٢] .

وقالَ روَّاد بنُ الجَرَّاح : سَمعتُ الثَّوريَّ يَقولُ : كانَ الْمَالُ فيما مَضَىٰ يُكرَه ، فأمَّا اليومُ ، فهو تُرْسُ الْمُؤمِن[٣] .

ونَظَرَ إليه رَجلٌ وفي يَده دَنانير ، فقالَ : يا أبا عبد الله! تُمسِكُ هٰذه الدَّنانيرَ! ؟ قالَ : اسْكُت ، فلَوْلاها لتَمَنْدَلَ بنا الْمُلوكُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد كانَ سُفيانُ الثَّوْريُّ رَأساً في الزُّهْدِ ، والتَّأَلُّه ، والخَوفِ ، رَأساً في الحِفْظِ ، رَأساً في مَعرِفَة الآثار ، رَأساً في الفِقْه ، لا يَخافُ في الله لَوْمَة لائم ، من أئمَّة الدِّين واغْتُفِرَ له غَيرُ مَسْأَلَة اجْتَهدَ فيها ، وفيه تَشَيُّع يَسيرٌ ، كان يُثَلِّثُ بعَليٍّ[٤] وهو علىٰ مَذْهَبِ بلَدِه أيْضاً في النَّبيذِ ، ويُقالُ : رَجَعَ عن كُلِّ ذلكَ ، وكانَ يُنكِرُ على الْمُلوكِ ، ولا يَرى الخُروجَ أصْلاً ، وكان يُدَلِّسُ في رِوايَتِه ، ورُبَّما دَلَّسَ عن الضُّعَفاء ، وكان سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة مُدَلِّساً ، لكن ما عُرِفَ له تَدليسٌ عن ضَعيفٍ[٥] .

٢ـ نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالح :

من كَلام سَعيدِ بنِ الْمُسَيِّب : لا خَيرَ فيمَن لا يُريدُ جَمعَ الْمَالِ من حِلِّه ، يُعطِي منه حَقَّه ، ويَكُفُّ به وَجهَه عن النَّاسِ[٦] .

---

(١) انظر السير : (وَهْب بن منبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٦/٥٥٣ .
(٢) انظر السير : (أبو الزِّناد) ٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٥/٦٢٠ .
(٣) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/٦٩٦ .
(٤) أي كان يُقدِّمُ عَليّاً علىٰ عُثمانَ ـ رَضيَ الله عَنهما ـ في التَفضيل .
(٥) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦٩٦ .
(٦) انظر السير : (سَعيد بن الْمُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/٤٨٨ .

وقالَ عُثمانُ بنُ حَيَّانَ : سَمعتُ أُمَّ الدَّرْداء تَقولُ : إنَّ أحَدَهم يَقولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْني ، وقد عَلِمَ أنَّ الله لا يُمطِرُ عليه ذَهباً ولا دَراهِمَ ، وإنَّما يَرزُقُ بَعضَهم من بَعض ، فمَنْ أُعْطيَ شَيئاً ، فلْيَقبَلْ ، فإنْ كانَ غَنياً ، فليَضَعْه في ذي الحاجَة ، وإنْ كان فَقيراً ، فليَسْتَعِنْ به[1] .

وكانَ ابنُ الْمُنْكَدِر يَقولُ : نِعْمَ العَونُ علىٰ تَقْوَى الله الغِنَىٰ[2] .

٣ـ المَالُ يَجبُ أنْ يَكونَ في اليَدِ لا في القَلب :

قالَ هِشامُ بنُ حَسَّان : سَمعتُ الحَسنَ البَصْريَّ يَحلفُ بالله ، ما أعَزَّ أحَدٌ الدِّرْهَمَ إلاَّ أذلَّه الله[3] .

قال كُرْزُ بنُ وَبَرة الحارثيّ : لا يَكونُ العَبدُ قارئاً حتىٰ يَزهَدَ في الدِّرهَم[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعَقِّباً : هَكذا كانَ زُهَّادُ السَّلف وعُبَّادُهم ، أصْحابُ خَوفٍ وخُشُوع وتَعَبُّد وقُنُوع ، ولا يَدخُلونَ في الدُّنيا وشَهَوَاتها ، ولا في عِبَاراتٍ أحْدَثَها المُتَأخِّرون من الفَنَاء ، والْمَحْوِ ، والاصْطِدام ، والاتِّحاد ، وأشْباه ذلك ، ممَّا لا يَسُوغُه كِبَارُ العلمَاء ، فنَسألُ اللهَ التَّوفيقَ والإخْلاصَ ، ولُزُوم الاتِّباع[5] .

٤ـ الخَوفُ من الحِسابِ على الأمْوالِ يُزَهِّدُ بعضَ النَّاسِ فيها :

رَوَىٰ لُقْمانُ بنُ عامِر ، أنَّ أبا الدَّرْداء قالَ : أهْلُ الأمْوالِ يَأكُلونَ ونَأكُلُ ، ويَشْرَبُونَ ونَشْربُ ، ويَلبَسونَ ونَلبَسُ ، ويَركَبُونَ ونَركبُ ، ولهم فُضُولُ أمْوالٍ يَنظُرونَ إليها ونَنظُرُ إليها مَعَهم ، وحِسابُهم عليها ونَحْنُ منها بُرآءُ[6] .

---

(١) انظر السير : (أمُّ الدَّرْداء) ٤/ ٢٧٧ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٩٧ .
(٢) انظر السير : (محمّد بن الْمُنْكَدر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٠٨ .
(٣) انظر السير : (الحَسَن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٦١ .
(٤) انظر السير : (كُرْز) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٣٣ .
(٥) انظر السير : (كُرْز) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٣٣ .
(٦) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٩/ ٢٧٢ .

٥ـ مَنْ ذَمَّ الْمَالَ :

قال حَزْمُ بنُ أبي حَزْم : سَمعتُ الحَسنَ البَصْريَّ يقولُ : بِئْسَ الرَّفيقان ، الدِّينارُ والدِّرْهَم ، لا يَنفَعانِك حتىٰ يُفارِقاكَ[١] .

٦ـ حَالُ السَّلَف مع الأمْوال :

عن الحَسَنِ البَصْريِّ قالَ : رَأى الأحْنَفُ بنُ قَيْس في يد رَجلٍ دِرْهَماً ، فقالَ : لِمَنْ هـٰذا ؟ قالَ لي قالَ : لَيسَ هو لكَ حتَّىٰ تُخرِجَه في أجْرٍ أو اكْتِسابِ شُكْر وتَمثَّلَ[٢] :

أَنْـــتَ لِلْمَـــالِ إِذَا أَمْسَكْتَـــهُ وَإِذَا أَنْفَقْتَـــهُ فَـــالْمَـــالُ لَـــك

وقالَ عَطاءُ بنُ مُسْلم : عاشَ دَاوُدُ الطَّائي عِشرينَ سَنةً بثَلاثِ مئة دِرْهَم[٣] .

ويُقالُ : إنَّ سَعيدَ بنَ عبدِ العَزيز زَارَ سُلَيمانَ الخَوَّاصَ لَيلةً في بَيتِه ببَيْرُوتَ ، فرآهُ في الظُّلمَة ، فقالَ : ظُلمَةُ القَبرِ أشَدُّ ، فأعْطاهُ دَراهِمَ ، فرَدَّها ، وقالَ : أكْرَهُ أنْ أُعَوِّدَ نَفسي مثلَ دَراهِمك ، فمَنْ لي بمِثْلِها إذا احْتَجتُ ، فبَلغَ ذلك الأوْزاعيَّ فقالَ : دَعُوه فلَوْ كانَ في السَّلفِ لكانَ عَلاَّمَة[٤] .

جاءَ في تَرجَمَةِ الإمام أحمَدِ بنِ حَنْبَل ، قالَ حَنْبَل : وجَرَىٰ بينَ أبي عبدِ الله وبينَ أبي كَلامٌ كَثيرٌ قالَ : ياعَمُّ ما بَقيَ من أعْمَارِنا كأنَّك بالأمْرِ قد نزَل فاللهَ اللهَ ، فإنَّ أوْلادَنا يُريدُونَ أنْ يَأكُلوا بنا ، وإنَّما هي أيَّامٌ قَلائل ، وإنَّما هـٰذه فِتنَةٌ قالَ أبي : فقُلتُ : أرْجُو أنْ يُؤَمِّنَكَ اللهُ مِمَّا تَحْذَر فقالَ : كَيفَ وأنتم لا تَترُكونَ طَعامَهم ولا جَوَائزَهم ؟ لَوْ تَرَكتُموها ، لَتَرَكُوكُم ماذا تَنْتَظِرُ ؟ إنَّما هو الْمَوتُ فإمَّا إلىٰ جَنَّةٍ ، وإمَّا إلىٰ نارٍ فطُوبَىٰ لِمَنْ قَدِمَ علىٰ خَير قالَ : فقُلتُ : أَلَيسَ قد أُمِرتَ ما جاءَكَ من هـٰذا الْمَالِ من غَيرِ إشْرافِ نَفْس ولا مَسْألَة أنْ تَأخُذَه ؟ قالَ : قد أخَذتُ مرَّةً بغَيرِ إشْرافِ نَفس ، فالثَّانيَةُ

---

(١) انظر السير : (الحَسَن البَصْري) ٣/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٦١ .
(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٩/ ٤٥٢ .
(٣) انظر السير : (دَاوُد الطَّائي) ٧/ ٤٢٢ـ ٤٢٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧١٢ .
(٤) انظر السير : (سُلَيمان الخوَّاص) ٨/ ١٧٨ـ ١٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٤٢ .

والثَّالِثَةُ ؟ ألَمْ تَسْتَشرِفْ نَفْسَك ؟ قُلتُ : أفَلَمْ يأخذ ابنُ عُمَرَ وابنُ عَبَّاس ؟ فقالَ : ما هـٰذا وذاك! وقالَ : لَوْ أعلَمُ هـٰذا الْمَالَ يُؤخَذُ من وجْهِه ، ولا يَكونُ فيه ظُلمٌ ولا حَيفٌ لَمْ أُبالِ .

قالَ حَنْبَلُ : ولَمَّا طالت عِلَّةُ أبي عبدِ الله ، كانَ الْمُتَوَكلُ يَبعَثُ بابنِ ماسَويْه الْمُتَطَبِّب ، فيَصفُ له الأدْوِيَة ، فلا يَتعالَجُ ويَدخُلُ ابنُ ماسَويْه ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنين ليسَ بأحمَدَ عِلَّة ، إنَّما هو من قِلَّة الطَّعامِ والعِبادَة ، فسَكتَ الْمُتَوَكلُ .

وبلغَ أمَّ الْمُتَوَكلِ خَبرَ أبي عبد الله فقالَت لابنِها : أشْتَهي أنْ أرَىٰ هـٰذا الرجُلَ فوَجَّه الْمُتَوَكلُ إلىٰ أبي عبد الله ، يَسألُه أنْ يَدخُلَ على ابنِه الْمُعْتَزِّ ويَدعُو له ويُسلِّم عليه ، ويَجعلُه في حِجْرِه فامْتَنعَ ثم أجَابَ رَجاءَ أن يُطلَق ، ويَنحَدِر إلىٰ بَغدَادَ فوَجَّه إليه الْمُتَوَكلُ خِلْعَةً وأتَوْه بدابَّة يَركبُها إلى الْمُعْتَزِّ فامتنع ، وكانت عليه مِيثَرَةُ نُمورٍ فقُدِّمَ إليه بَغلٌ لتاجِرٍ ، فرَكبَه ، وجَلسَ الْمُتَوَكلُ مع أُمِّه في مَجلِسٍ من المكان وعلى الْمَجلِسِ سِترٌ رَقيقٌ فدَخلَ أبو عبدِ الله على الْمُعْتَزِّ ، ونَظَرَ إليه الْمُتَوَكلُ وأُمُّه فلَمَّا رَأتْه ، قالَت : يا بُنَيَّ ، اللهَ اللهَ في هـٰذا الرجُلِ فلَيسَ هـٰذا مِمَّن يُريدُ ما عِندَكم ، ولا الْمَصْلَحَةُ أنْ تَحْبِسَه عن مَنزِله ، فائذَنْ له ليَذهَب ، فدَخلَ أبو عبدِ الله على الْمُعْتَزِّ ، فقالَ : السَّلامُ عَليكم ، وجَلسَ ولَمْ يُسَلِّم عليه بالإمْرَة فسَمعتُ أبا عبد الله بعدُ يَقولُ : لَمَّا دَخلتُ عليه ، وجَلستُ ، قالَ مُؤدِّبُه : أصلحَ اللهُ الأميرَ ، هـٰذا هو الذي أمَرَه أميرُ المؤمنينَ يُؤدِّبُك ويُعَلِّمُك ؟ فقالَ الصَّبيُّ : إنْ عَلَّمَني شَيئاً ، تَعلَّمْتُه! قالَ أبو عبدِ الله : فعَجبتُ من ذَكائه وجَوابِه علىٰ صِغَرِه ، وكان صَغيراً .

ودامت علة أبي عبد الله ، وبَلغَ الْمُتَوَكلَ ما هو فيه ، وكلَّمَه يَحْيَى ابنُ خاقان أيضاً ، وأخْبَرَه أنَّه رَجلٌ لا يُريدُ الدُّنيا ، فأذِنَ له في الانْصِرافِ فجاءَ عُبَيْدُ الله بنُ يَحْيَىٰ وَقتَ العَصْرِ ، فقالَ : إنَّ أميرَ المؤمنينَ قد أذِنَ لك ، وأمَرَ أنْ يُفْرَشَ لك حَرَّاقَة[1] . تَنْحَدِرُ فيها فقالَ أبو عبد الله : اطْلُبوا لي زَوْرَقاً أنْحَدِرُ السَّاعَة فطَلبوا له زَوْرَقاً ، فانْحَدَرَ لِوَقْتِه .

---

(١) السفينة الخفيفة.

قالَ حَنْبَلُ : فمَا عَلمنا بقُدومِه حتَّىٰ قيلَ : إنَّه قد وَافَىٰ ، فاسْتَقبلتُه بناحية القَطيعَة وقد خَرجَ من الزَّوْرَق ، فمَشيتُ معه ، فقالَ لي : تَقدَّم لا يَراكَ النأسُ فيَعْرِفُوني ، فتَقدَّمْتُه قالَ : فلمَّا وَصلَ ألقَىٰ نفسَه علىٰ قَفاه من التَّعبِ والعَياء[1] .

قالَ صالحُ بنُ أحمدَ بنِ حَنْبَل : قَدمَ الْمُتَوَكلُ فنزَلَ الشمَّاسيَّة ، يُريدُ الْمَدائنَ فقالَ لي أبي : أحبُّ أنْ لا تَذهَبَ إليهم تُنَبِّهُ عَليَّ فلمَّا كان بعد يوم أنا قاعِدٌ ، وكان يَوماً مَطيراً ، فإذا بيَحْيَىٰ بنِ خاقَانَ قد جاءَ في مَوكِبٍ عَظيمٍ والْمَطَرُ عليه ، فقالَ لي : سُبحانَ الله لَمْ تَصِرْ إلينا حتىٰ تُبلِّغَ أميرَ المؤمنين السَّلامَ عن شَيخِك ، حتىٰ وَجَّهَ بي ، ثم نَزلَ خارجَ الزُّقاق ، فجَهِدتُ به أنْ يَدخُلَ على الدَّابَّة فلَمْ يَفعَلْ ، فجَعلَ يَخوضُ الْمَطرَ ، فلمَّا وَصلَ نزع جُرْمُوقَه ، ودخلَ وأبي في الزَّاوِيَة عليه كِساءٌ ، فسَلَّمَ عليه ، وقبَّلَ جَبهتَه ، وسَألَه عن حالِه ، وقالَ : أميرُ المؤمنينَ يقرُئُك السَّلامَ ، ويقولُ : كيفَ أنتَ في نَفسِك ، وكَيفَ حالُك ؟ وقد أنِسْتُ بقُربِك ، يَسألُك أنْ تَدعُوَ له فقالَ : ما يأتي عليَّ يَومٌ إلاَّ وأنا أدْعُو اللهَ له ثم قالَ : قد وَجَّه معي ألفَ دينار تُفَرِّقُها علىٰ أهْلِ الحاجَة فقال : يا أبا زَكريا ، أنا في بَيتٍ مُنْقَطِع ، وقد أعْفَاني من كلِّ ما أكْرَه ، وهٰذا مِمَّا أكرَه فقالَ : يا أبا عبد الله ، الخُلَفَاءُ لا يَحْتَمِلون هٰذا ، فقالَ : يا أبا زَكريا تَلطَّفْ في ذلك فدَعا له ، ثم قامَ ، فلمَّا وَصَلَ إلى الدَّارِ ، رَجَعَ ، وقالَ : هٰكذا لَوْ وَجَّه إليك بَعضُ إخْوَانِك كُنتَ تَفعَلُ ؟ قالَ : نَعَم فلمَّا صِرْنا إلى الدِّهْليزِ ، قالَ : أمَرَني أميرُ المؤمنينَ أدْفَعُها إليكَ تُفَرِّقُها فقُلتُ : تَكونُ عندَك إلىٰ أنْ تَمضي هٰذه الأيَّام[2] .

وقالَ زَكريا بنُ دَلَّوَيْه : بَعثَ طَاهِرُ بنُ عبد الله إلى ابنِ رافِع بخَمسَةِ آلافِ دِرْهَم مع رَسُولٍ ، فدَخلَ عليه بعدَ العَصْرِ ، وهو يَأكُلُ الخُبزَ مع الفِجْلِ فوَضَعَ الكيسَ فقالَ : بَعثَ الأميرُ إليكَ بهٰذا الْمَال فقالَ : خُذْ خُذْ لا أحتاجُ إليه ، فإنَّ الشَّمسَ قد بَلغَت رَأسَ الحِيطَانِ إنَّما تَغرُبُ بعدَ سَاعَة وقد جاوَزْتُ الثَّمانينَ إلىٰ مَتىٰ أعيشُ ؟ فرُدَّ[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٣ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٤ .
(٣) أي : رجع .

قالَ: فدَخلَ ابنُه ، وقالَ : يا أبتِ ، لَيسَ لنا اللَّيلَةَ خُبزٌ قالَ : فبَعثَ ببعضِ أصْحابِه خَلفَ الرَّسُولِ ليَرُدَّ المالَ إلىٰ طاهِر فزَعاً من ابنِه أنْ يَذهَبَ خَلفَه ، فيَأخُذَ المالَ[1] .

٧ـ كثْرَةُ المَالِ وتَنَوُّعه تُؤدى إلى تَفرُّق القَلب :

عن بِلالِ بنِ سَعْد ، أنَّ أبا الدَّرْداءِ قالَ : أعُوذُ بالله من تَفرِقَةِ القَلبِ قيلَ : وما تَفرِقَةُ القلبِ ؟ قالَ : أنْ يُجعَلَ لي في كُلِّ وَادٍ مالٌ[2] .

(ج) النَّوم :

١ـ الحَثُّ علىٰ قِلَّة النَّوم :

يَقولُ ابن الحَدَّاد : ما لِلعَالِمِ ومُلائَمَةُ الْمَضاجِع[3] .

٢ـ أحْوَالُ السَّلَف مع النَّوم :

عن دَاوُدَ بنِ إبْراهيمَ أنَّ الأسَدَ حَبسَ لَيلة النَّاسَ في طَريقِ الحَجِّ ، فدَقَّ النَّاسُ بَعضُهم بَعضاً ، فلمَّا كان السَّحَرُ ، ذَهبَ عنهم ، فنَزَلوا ونامُوا ، وقامَ طاوُوسُ يُصلِّي ، فقالَ له رَجلٌ : ألا تَنامُ ، فقالَ : وهَلْ يَنامُ أحَدٌ السَّحَرَ[4] .

ويُروَىٰ أنَّ طاوُوساً جاءَ في السَّحَرِ يَطلُبُ رَجلاً ، فقالُوا : هو نائمٌ ، قالَ : ماكُنتُ أرَىٰ أنَّ أحَداً يَنامُ في السَّحَر .

وعن طاوُوسٍ قالَ: أدْرَكتُ خَمسينَ من أصْحَابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم[5].

وعن أبي الأحْوَص ، قالَ : آلَىٰ مُحمَّدُ بنُ النَّضْرِ علىٰ نَفسِه أنْ لا يَنامَ إلاَّ ما غَلبَتهُ عَينُه[6] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن رافع) ١٢/ ٢١٤ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٩٥ .
(٢) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٧٢ .
(٣) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٤٤ .
(٤) انظر السير : (طاوُوس) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٧٨ .
(٥) انظر السير : (طاوُوس) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٧٨ .
(٦) انظر السير : (محمّد بن النَّضْر) ٨/ ١٧٥ـ ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٤٢ .

وقالَ أبو بَكْر الأنْباري : كان أبو عُبَيد الإمامُ الحافِظُ ـ رَحمَهُ اللهُ ـ يُقَسِّمُ اللَّيلَ أثْلاثاً فيُصلِّي ثُلُثَه ، ويَنامُ ثُلُثَه ، ويُصَنِّفُ الكُتُبَ ثُلُثَه[1] .

وقالَ عبدُ الله بنُ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : كان أبي يَقرأُ كُلَّ يَومٍ سُبعاً ، وكانَ يَنامُ نَومَةً خَفيفَةً بعد العِشاءِ ، ثم يَقومُ إلى الصَّباحِ يُصلِّي ويَدعُو[2] .

وقالَ حُسَينُ بنُ خاقان : كانَ ابنُ عَطاء يَنامُ في اليَومِ واللَّيلَة ساعَتين ماتَ سَنةَ تسعٍ وثلاثِ مئة في ذي القعْدَة[3] .

٣ـ صُورٌ رائعَة علىٰ إحْياء اللَّيل جَميعه وصَلاة الفَجْر بوُضُوء العِشَاء :

عن أسَدِ بنِ عَمرو ، أنَّ أبا حَنيفَة ، رَحمَه الله ، صلَّى العِشاءَ والصُّبحَ بوُضوءٍ أرْبَعينَ سَنةً[4] .

وعن محمَّدِ بنِ عبدِ الله الُخزاعيِّ قالَ : صلَّىٰ عبدُ الواحِد بنُ زَيد الصُّبحَ بوُضوءِ العَتْمَة أرْبَعينَ سَنةً[5] .

وقالَ ابنُ أبي الدُّنيا : حدَّثني مَنْ سَمعَ عَمرَو بنَ عَوْن يقولُ : مَكثَ هُشَيم بنُ بَشير يُصلِّي الفَجرَ بوُضوءِ العِشاءِ قَبلَ أنْ يَموتَ عِشرينَ سَنةً[6] .

وعن عاصمِ بنِ عليٍّ قال : كنتُ أنا ويزيدُ بنُ هارون عند قَيس ابنِ الرَّبيع ، فأمَّا يزيدُ فكان إذا صَلَّى العَتَمَةَ ، لا يزالُ قائماً حتىٰ يُصَلي الغَدَاةَ بذلك الوُضوء ، نَيِّفاً وأربعين سنة[7] .

وقالَ مُوسَىٰ بنُ طَريف : كانت الجارِيَةُ تَفرِشُ لعَليِّ بنِ بَكَّار ، فيَلمَسُه بيَدِه ،

---

(١) انظر السير : (أبو عُبَيد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٨٧ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٥/٩٢٩ .
(٣) انظر السير : (ابنُ عَطاء) ١٤/ ٢٥٥ـ ٢٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٩ .
(٤) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٦/٦٦٢ .
(٥) انظر السير : (عبد الواحِد بن زَيد) ٧/ ١٧٨ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٦/٦٩١ .
(٦) انظر السير : (هُشَيم) ٨/ ٢٨٧ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/٧٥٩ .
(٧) انظر السير : (يزيد بن هارون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/٨٢٩ .

ويَقولُ : واللهِ إنَّكَ لبَارِدٌ ، واللهِ لاعَلَوْتُك اللَّيلَةَ ، وكانَ يُصلِّي الفَجرَ بوُضُوءِ العَتمَة .

ماتَ سَنةَ سَبعٍ ومئتين[1] .

ومرَّ أحمَدُ بنُ حَرْب بصِبيانٍ يَلعَبون ، فقالَ أحدُهم : أمْسِكُوا ، فإنَّ هـٰذا أحمَدُ بنُ حَرْب الذي لا يَنامُ اللَّيلَ ، فقَبضَ علىٰ لِحْيَتِه ، وقالَ : الصِّبْيانُ يَهابُونَك وأنتَ تَنامُ ؟ فأحْيَى اللَّيلَ بعد ذلك حتَّىٰ ماتَ[2] .

وقالَ محمَّدُ بن يَحْيَىٰ بنِ مَنْدَة : لَمْ يُحدِّثْ ببَلدِنا مُنذُ أرْبَعينَ سَنةً أَوْثَقُ من أحمدَ بنِ مَهْدي ، صَنَّفَ « الْمُسْنَد » ولَمْ يُعرَفْ له فِراشٌ مُنذُ أرْبَعينَ سَنةً ، صاحِبُ عِبادَةٍ رَحِمَه الله[3] .

وعن عبدِ الله بنِ إسْحاقَ بنِ التَّبَّان ، أنَّ عَبْدوسَ أقامَ أرْبَعَ عَشرَةَ سَنةً يُصلِّي الصُّبحَ بوُضوءِ العِشاءِ ، وكانَ علىٰ غايَة من التَّواضُع .

وقد فرَّقَ مئةَ دِينارٍ من غلَّةِ ضَيْعَتِه في القَحْط[4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (عليُّ بنُ بكَّار) ٩/ ٥٨٤ـ ٥٨٥ ، وانظر النزهة : ٥/٨٤١ .

(٢) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَرْب) ١١/ ٣٢ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٦ .

(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ مَهْدي) ١٢/ ٥٩٧ـ ٥٩٨ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٨ .

(٤) انظر السير : (ابن عَبْدوس) ١٣/ ٦٣ـ ٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٥١ .

(١٠) وَصَايا الصَّالِحين

١ـ وَصِيَّةٌ من وَصَايا سَيِّد الخَلْق مُحمَّد صلى الله عليه وسلم :

عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قالَ : أوْصَاني خَليلي صلى الله عليه وسلم بسَبع « أمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُم ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ دُونِي وَأَنْ لا أَسْأَلَ أَحَداً شَيْئاً ، وَأَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ ، وَأَنْ أَقُولَ الحَقَّ وَإِنْ كانَ مُرّاً ، وَأَلاَّ أَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ ، وَأَنْ أكثِرَ مِنْ قَوْلِ : لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، فَإِنَّهُنَّ مِنْ كنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ »[١] .

٢ـ مِنْ وَصَايا الصَّالحين :

عن أبي قِلابَةَ وغَيرِه أنَّ فُلاناً مر به أصحابُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقالَ : أوْصُوني ، فجَعلوا يُوصُونَه ، وكانَ مُعَاذُ بنُ جَبَل في آخِرِ القَوْمِ ، فقالَ : أوْصِنِي يَرْحَمُك الله قالَ : قد أوْصُوكَ فلَمْ يَألُوا ، وإنِّي سَأجْمَعُ لك أمْرَك : اعْلَم أنَّه لا غِنَىٰ بك عن نَّصيبِك من الدُّنيا ، وأنتَ إلىٰ نَصيبِكَ إلى الآخِرَة أفْقَر ، فابْدأ بنَصيبِكَ من الآخِرَةِ ، فإنَّه سَيمُرُّ بك علىٰ نَصيبِك من الدُّنيا فيَنْتَظِمُه ، ثم يَزولُ مَعكَ أيْنَما زِلْتَ[٢] .

وقالَ حريزُ بنُ عُثمانَ : حدَّثنا راشِدُ بنُ سَعد ، قالَ : جاءَ رَجلٌ إلىٰ أبي الدَّرْداءِ ، فقال : أوْصِني قالَ : اذْكُر اللهَ في السَّرَّاءِ يَذْكرْكَ في الضَّرَّاء ، وإذا ذَكرْتَ الْمَوْتَىٰ ، فاجْعَلْ نَفسَكَ كأحَدِهم ، وإذا أشْرَفَت نَفسُك علىٰ شَيءٍ من الدُّنيا ، فانْظُرْ إلىٰ ما يَصيرُ[٣] .

قالَ إسماعيلُ بنُ عيَّاش : أنبأنا عَقيلُ بن مُدْرك ، يَرفَعُه إلىٰ أبي سَعيد الخُدْريِّ قال : عَليكَ بتَقْوى الله فإنَّه رأسُ كلِّ شيء وعَليكَ بالجِهادِ فإنَّه رَهْبانيَّةُ الإسْلام ،

---

(١) انظر السير : (أبو ذَرّ) ٢/ ٤٦ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٢٠ .

(٢) انظر السير : (مُعاذُ بنُ جَبَل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٩٢ .

(٣) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٢٧٢ .

وعَليكَ بذِكْر الله وتِلاوَة القُرآنِ ، فإنَّه رُوحُك في أهْلِ السَّماء وذِكْرُك في أهْلِ الأرْض ، وعَليكَ بالصَّمْتِ إلاَّ في حَقٍّ ، فإنَّك تَغلِبُ الشَّيْطان[1] . ،[2] .

وقيل لهَرِم بن حَيَّان العَبْدي : أَوْصِ ، قالَ : صَدَّقتني نَفسِي ، ومَالي ما أُوصي به ، ولكنْ أُوصيكُم بخَوَاتيمِ سُورَةِ النَّحْل[3] .

وعن الحَسَنِ ، عن هَرِمٍ ، أنَّه قيلَ له : أوْصِنا فقالَ : أُوصِيكُم بخَواتيمِ سُورَة البَقَرَة[4] .

وعن عَلقَمَةَ أنه أوصىٰ ، قال : إذا أنا حُضِرتُ فأجْلِسُوا عندي مَنْ يُلَقِّنُني : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، وأسْرِعُوا بي إلىٰ حُفْرَتي ، ولا تَنْعَوني إلى النَّاس ، فإنِّي أخَافُ أنْ يَكونَ ذلك نَعْياً كنَعْي الجاهليَّة ماتَ سَنةَ اثنَتينِ وسِتِّينَ[5] .

وقالَ رَجلٌ لدَاوُدَ الطَّائي : أوْصِني قالَ : اتَّقِ اللهَ ، وبِرَّ وَالِدَيْكَ ، وَيْحَك! صُم الدُّنيا ، واجْعَل فِطْرَكَ الْمَوْتَ ، واجْتَنِب النَّاسَ غَيرَ تارِكٍ لِجماعَتِهم[6] .

ماتَ سَيْفُ الدَّوْلَة بالفَالِج ، وقِيلَ : بعُسْرِ البَوْلِ ، سَنةَ سِتٍ وخَمسِين ، وكان قد جَمَعَ من الغُبارِ الذي يَقَعُ عليه وقْتَ المصافات قدرَ الكَفِّ ، وأَوْصَىٰ أن يُوضَعَ علىٰ خَدِّه وكانت دولَتُه نَيِّفاً وعِشْرين سَنةً[7] .

مَرِضَ قاضي الْمَرَسْتان أبو بَكر محمَّدُ بنُ عبد الباقي ، فأوْصَىٰ أنْ يُعمَّقَ قَبرُه زيادَةً على العادَة ، وأنْ يُكتَب علىٰ قَبرِه : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾[8] وبقِيَ ثلاثَةَ

---

(١) فيه انقطاع بين عقيل بن مدرك وأبي سعيد .
(٢) انظر السير : (أبو سعيد الخُدْريّ) ٣/ ١٦٨ـ ١٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٦١ .
(٣) انظر السير : (هَرِم بن حيَّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٤٠ .
(٤) انظر السير : (هَرِم بن حيَّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٤٠ .
(٥) انظر السير : (عَلقَمَة) ٤/ ٥٣ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٤٤ .
(٦) انظر السير : (داوُد الطَّائي) ٧/ ٤٢٢ـ ٤٢٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧١٢ .
(٧) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٨٣ .
(٨) سورة ص ، الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ .

أيَّامٍ لا يَفتُرُ من قِراءَةِ القُرآنِ ، إلىٰ أنْ تُوفِّيَ سَنةَ خَمسٍ وثَلاثينَ وخَمسِ مئة[1] .

وقال أبو سَعد السَّمْعانيُّ : ولَمَّا عَزمتُ على الرِّحْلَة ، دَخلتُ علىٰ شَيخِنا يُوسُفَ بنِ أيُّوبَ مُوَدِّعاً ، فصَوَّبَ عَزْمي ، وقالَ : أُوصيكَ : لا تَدخُلْ على السَّلاطينِ ، وأبْصِرْ ما تَأكُلُ لا يَكُونُ حَراماً[2] .

ومن وَصايا الْمُوَفَّق ، قالَ : يَنبَغي أنْ تَكونَ سِيرَتُك سِيرَةَ الصَّدْرِ الأوَّل ، فاقْرأ السِّيرَةَ النَّبَويَّة ، وتَتبَّعْ أفْعالَه ، واقْتَفِ آثارَه ، وتَشبَّه به ما أمْكَنكَ مَنْ لَمْ يَحْتمِلْ ألَمَ التَّعلُّم لَمْ يَذُقْ لَذَّةَ العِلمِ ، ومَنْ لَمْ يَكْدَحْ لَمْ يُفْلِحْ إذا خَلَوتَ من التَّعلُّم والتَّفكُّر فحَرِّكْ لِسانَكَ بالذِّكْرِ وخاصَّةً عند النَّوم ، وإذا حَدثَ لك فَرحٌ بالدُّنيا فاذْكُر الْمَوتَ وسُرعَةَ الزَّوالِ وكَثرَةَ الْمُنغِّصات إذا حَزبَكَ أمرٌ فاسْتَرجِعْ ، وإذا اعْتَرتْكَ غَفلَة فاسْتَغفِر واعْلمْ أنَّ للدِّين عَبقَة وعرقاً ينادي علىٰ صاحِبه ونُوراً وَضيئاً يُشرِفُ عليه ويَدلُّ عليه ، يا مُحْيي القُلوب الْمَيِّتَة بالإيمان خُذْ بأيْدينا من مهْواة الهَلكَة وطَهِّرْنا من دَرَن الدُّنيا بالإخْلاصِ لك . وله مُصنَّفات كَثيرةٌ .

حَضرَتْه الْمَنيَّةُ ببَغْدادَ في سَنةِ تِسْعٍ وعِشْرينَ وسِتِّ مِئة[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (قاضي الْمَرَسْتان) ٢٠/ ٢٣ـ ٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٢٣ .

(٢) انظر السير : (يُوسُف بن أيُّوب) ٢٠/ ٦٦ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٣١ .

(٣) انظر السير : (الْمُوَفَّق) ٢٢/ ٣٢٠ـ ٣٢٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٩٣ .

صِفَاتٌ قَلبيَّة عَزيزَةٌ يَتَّصِفُ بها الصَّالحون

الإخْلاص

١ـ اخْتِبارُ الإخْلاص :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أُمِّ كلْثومَ بنتِ عُقْبَة بنِ أبي مُعَيْط : أسْلمَت بمَكة ، وبايَعَت ، ولَمْ يَتهيّأ لها هِجْرَة إلىٰ سَنةِ سَبعٍ وكان خُروجُها زَمنَ صُلحِ الحُدَيْبيَة ، فخَرجَ في إثْرِها أخَواها : الوَليدُ وعُمارَة فما زالا حتَّىٰ قَدِما المدينَةَ ، فقالا : يا مُحمَّد ، فِ لَنا بشَرْطِنا ، فقالَت : أتَرُدُّني يا رسُولَ الله إلى الكُفَّارِ يَفْتِنوني عن ديني ولا صَبرَ لي ، وحَالُ النِّساءِ في الضَّعْفِ ما قد عَلِمتَ ؟ فأنْزلَ اللهُ تعالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾[١] .

فكانَ يَقولُ : « آللهُ مَا أَخْرَجَكنَّ إلاَّ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ والإسْلامِ! مَا خَرَجْتُنَّ لِزَوْجٍ وَلا مَالٍ ؟ » فإذا قُلنَ ذلكَ ، لَمْ يَرْجِعهُنَّ إلى الكُفَّار[٢] .

٢ـ مَا لا يُرادُ به وَجْهُ الله يَضْمَحِلّ :

عن الرَّبيعِ بنِ خُثَيم قالَ : كلُّ ما لا يُرادُ به وَجهُ الله يَضْمَحِلُّ[٣] .

٣ـ سُؤالُ الله الإخْلاصَ وتَجنُّب الرِّياء :

وعن عليِّ بنِ الحُسَين قال : فَقْدُ الأحِبَّةِ غُربة وكان يقولُ : اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بك أنْ تُحَسِّنَ في لَوَائحِ[٤] العُيونِ عَلانِيَتي وتُقَبِّحَ في خَفيَّاتِ العُيونِ سَريرَتي اللَّهُمَّ كما أسأتُ وأحْسَنتَ إليَّ ، فإذا عُدتُ فعُدْ عليَّ[٥] .

---

(١) سورة الممتحنة ، الآيتان : ١٠ ، ١١ .

(٢) انظر السير : (أُمُّ كلثوم) ٢/ ٢٧٦ـ ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ٦/٢٥٧ .

(٣) انظر السير : (الرَّبيع بن خُثَيم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٤٩٣ .

(٤) لوائح الشيء : ما يبدو منه وتظهر علامته عليه .

(٥) انظر السير : (علي بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٦/٥١٩ .

٤ـ الحَثُّ على الاهْتِمام بالسَّرائر :

عن الأحْنَفِ بنِ قَيْس قالَ : رَأسُ الأدَبِ آلَةُ الْمَنْطِقِ ، لا خَيرَ في قَولٍ بلا فِعلٍ ، ولا في مَنظَرٍ بلا مَخْبَر ، ولا في مَالٍ بلا جُودٍ ، ولا في صَديقٍ بلا وَفاءٍ ، ولا في فِقْهٍ بلا وَرَعٍ ، ولا في صَدَقةٍ إلا بنيَّة ، ولا في حَياةٍ إلاَّ بصِحَّةٍ وأمْنٍ[١] .

وعن مُنذِر الثَّوريِّ ، قال : كانَ الرَّبيعُ بنُ خُثَيم إذا أتاهُ الرجلُ يَسْألُه قال : اتَّقِ اللهَ فيما عَلمْتَ ، وما استُؤثِرَ به عليكَ ، فكِلْهُ إلىٰ عَالِمِه ، لأنا عليكم في العَمْد أخْوَفُ منِّي عَليكم في الخَطَأ ، وما خَيِّرُكُم اليومَ بخَيِّرٍ ، ولكنَّه خَيرٌ من آخَر شَرٍّ منه ، وما تَتَّبعونَ الخَيرَ حَقَّ اتِّباعِه ، وما تَفرُّونَ من الشَّرِّ حَقَّ فِراره ، ولا كلَّ ما أنزلَ اللهُ علىٰ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أدْرَكتُم ، ولا كلَّ ما تَقْرؤون تَدْرونَ ما هو ، ثم يقولُ : السَّرائرَ السَّرائرَ اللاتي يَخْفَيْنَ من النَّاسِ وهُنَّ للهِ بَوادٍ ، التَمِسوا دَواءَهُنَّ وما دَواؤُهُنَّ إلاَّ أنْ يَتوبَ ثمَّ لا يَعود[٢] .

٥ـ النِّيَّةُ الحَسَنَة :

(أ) رُؤيا في فائدَتِها :

حَكَى القُشَيْريُّ أنَّ عَمرو بنَ اللَّيث رُئي ، فقيلَ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قالَ : أشْرَفْتُ يوماً من جَبلٍ علىٰ جُيوشي ، فأعْجَبَتْني كَثرَتُهم ، فتَمَنَّيتُ أنَّني كُنتُ حَضرْتُ مع رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فنَصَرتُه وأعَنْتُه ، فشَكرَ اللهُ لي ، وغَفَرَ لي[٣] .

(ب) وُجُوبُ إخْلاص النِّيَّة :

عن مُجاهد ، قال : طَلبنا هٰذا العلمَ وما لنا فيه نيَّة ، ثم رَزَقَ اللهُ النيَّةَ بعد[٤] .

وقال عَونُ بنُ عمارَة : سَمعتُ هشاماً الدَّستُوائيَّ يقولُ : والله ما أسْتطيعُ أنْ أقُولَ

---

(١) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/٨٦ـ٩٧ ، وانظر النزهة : ٧/٤٥٢ .

(٢) انظر السير : (الرَّبيع بن خُثَيم) ٤/٢٥٨ـ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/٤٩٢ .

(٣) انظر السير : (عَمرو بن اللَّيْث الصَّفَّار) ١٢/٥١٦ـ٥١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٨ .

(٤) انظر السير : (مُجاهد بن جَبر) ٤/٤٤٩ـ٤٥٧ ، وانظر النزهة : ٥/٥٣٠ .

إنِّي ذهبتُ يوماً قَطُّ أطلبُ الحَديثَ أريدُ به وجْهَ الله عزَّ وجلَّ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : والله ولا أنا ، فقد كان السَّلفُ يَطلبونَ العلمَ لله فنَبَلُوا وصاروا أئمَّة يُقتَدَىٰ بهم ، وطلَبَه قومٌ منهم أولاً لا لله ، وحصَّلوه ، ثم اسْتَفاقوا ، وحاسَبوا أنفسَهم ، فجَرَّهم العلمُ إلى الإخْلاصِ في أثناء الطَّريق ، كما قال مُجاهدٌ وغَيرُه : طَلَبنا هـٰذا العلمَ وما لنا فيه كَبيرُ نيَّة ثم رَزَقَ اللهُ النيَّةَ بعدُ ، وبعضُهم يقولُ : طَلَبنا هـٰذا العلمَ لغَير الله فأبَىٰ أنْ يكونَ إلاَّ لله فهـٰذا أيضاً حَسنٌ ثم نَشَروه بنيَّةٍ صالحَة[2] .

وقالَ رَجلٌ لأبي الفَرَج ابنِ الجَوْزي : ما نِمتُ البارحَةَ من شَوْقي إلى الْمَجْلِس ، قالَ : لأنَّك تُريدُ الفُرجَةَ ، وإنَّما يَنبَغي اللَّيلةَ أنْ لا تَنامَ[3] .

(ج) عَاقِبَةُ سُوء النِّيَّة :

قالَ إسْحاقُ بنُ الطَّبَّاع : سَمعتُ حَمَّادَ بنَ سَلمةَ يقولُ : مَنْ طَلبَ الحَديثَ لغَيرِ الله تَعالَىٰ مُكِرَ به[4] .

وقالَ عبدُ الله بنُ الْمُبَارَك : رُبَّ عَمَلٍ صَغيرٍ تُكَثِّرُه النِّيَّةُ ، ورُبَّ عَمَلٍ كَثيرٍ تُصَغِّرُه النِّيَّةُ[5] .

(د) تَمنِّي صَفاء النِّيَّة :

عن أبي يَزيدَ البَسْطامي قالَ : لَوْ صَفا لي تَهْليلَةٌ ما بالَيتُ بعدَها .

تُوفِّيَ أبو يَزيد بِبَسْطَامَ سَنةَ إحْدَىٰ وسِتِّينَ ومِئتَين[6] .

---

(١) انظر السير : (هِشَام الدَّسْتُوائي) ٧/ ١٤٩ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٨٧ .
(٢) انظر السير : (هِشَام الدَّسْتُوائي) ٧/ ١٤٩ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٨٧ .
(٣) انظر السير : (أبو الفَرَج ابن الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٦٣٣ .
(٤) انظر السير : (حمَّاد بن سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧١٥ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن المبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٦٩ .
(٦) انظر السير : (أبو يَزيد البَسْطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٠٥٥ .

التَّقْوَى

١ـ تَعْريفُها :

عن بَكْرٍ الْمُزَنيِّ ، قالَ : لَمَّا كانت فِتنَةُ ابنِ الأشْعَث قالَ طَلْقُ بنُ حَبيب : اتَّقوها بالتَّقْوَىٰ فقيلَ له : صِفْ لنا التَّقْوَىٰ فقالَ : العملُ بطَاعَة الله ، علىٰ نُور من الله رَجاءَ ثَوابِ الله ، وتَركُ مَعاصي الله علىٰ نور من الله ، مَخافَةَ عَذابِ الله .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أبدَعَ وأوْجَزَ ، فلا تَقْوَىٰ إلاَّ بعَمَل ، ولا عَملَ إلاَّ بتَرَوٍّ من العِلم والاتِّباع ، ولا يَنفَعُ ذلك إلاَّ بالإخْلاصِ لله لا ليُقالَ فُلانٌ تارِكٌ للمَعاصي بنُورِ الفِقْه ، إذ الْمَعَاصي يَفتَقرُ اجتنابُها إلىٰ مَعرِفَتها ، ويكونُ التَّركُ خَوْفاً من الله ، لا ليُمدَحَ بتَركِها ، فمَنْ دَاوَم علىٰ هـٰذه الوَصيَّة فقَد فازَ[1] .

٢ـ مَتَىٰ يُعَدُّ الإنْسَانُ تَقيّاً :

عن مَيْمونِ بنِ مِهْرانَ قالَ : لا يَكونُ الرَّجُلُ تَقيّاً حتَّىٰ يَكونَ لِنَفسِه أشَدَّ مُحاسَبةً من الشَّريكِ لِشَرِيكِه ، وحتّىٰ يَعلمَ مِنْ أينَ مَلْبَسُه ومَطعَمُه ومَشرَبُه[2] .

التَّوَكل

١ـ تَعْريفٌ للتَّوَكل :

قال محمد بن يحيى الذُّهلي : سألت الخُرَيْبيَّ عن التَّوَكل ، فقالَ : أرَى التَّوَكلَ حُسْنَ الظَّنِّ باللهِ[3] .

٢ـ لَيسَ النَّاسُ في التَّوَكل سَواء :

سُئلَ ابنُ راهَوَيه : أيَدْخُلُ الرجلُ المَفازَةَ بغَيرِ زادٍ ؟ قالَ : إنْ كانَ مثلَ عبدِ اللهِ بنِ مُنِيرٍ ، فنعَم .

---

(١) انظر السير : (طَلْق بن حَبيب) ٤/ ٦٠١ـ ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ٩/ ٥٦٦ .

(٢) انظر السير : (مَيْمون بن مِهْران) ٥/ ٧١ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٨١ .

(٣) انظر السير : (الخُرَيبيّ) ٩/ ٣٤٦ـ ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٢٧ .

وقيلَ : كانَ ابنُ مُنِيرٍ يُعَدُّ من الأبْدالِ[1] .

٣ـ فَضْلُ التَّوَكل :

عن سعيدِ بنِ جُبَير قال : التَّوَكُّلُ على الله جِماعُ الإيمان وكان يَدعُو : اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ صِدقَ التَّوَكُّلِ عَليكَ وحُسنَ الظَّنِ بك[2] .

٤ـ الدُّعَاء بصِدْق التَّوَكل :

عن سعيدِ بنِ جُبَير قال : التَّوَكُّلُ على الله جِماعُ الإيمان وكان يَدعُو : اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ صِدقَ التَّوَكُّلِ عَليكَ وحُسنَ الظَّنِ بك[3] .

٥ـ صُورٌ على التَّوَكل :

عن يَعقوبَ بنِ عبدِ الرَّحْمَـٰن القَارِّي ، عن أبيه : سَمعتُ عَونَ بنَ عبدِ الله يقولُ : ما رَأيتُ أحداً أعْلمَ بتَأويلِ القُرآن من القُرَظيِّ ، وقيلَ : كانَ له أمْلاكٌ بالمدينة ، وحَصَّلَ مالاً مَرَّة ، فقيلَ له : ادَّخِرْ لوَلَدِك ، قالَ : لا ، لَكنْ أدَّخِرُه لنَفسِي عندَ رَبِّي ، وأدَّخِرُ رَبِّي لِوَلَدِي ، وقيلَ : إنَّه كانَ مُجابَ الدَّعْوَة ، كَبيرَ القَدرِ[4] .

٦ـ قَوَاعد في التَّوَكل :

قيلَ لحاتِم الأصَمِّ : علىٰ ما بَنيتَ أمْرَكَ في التَّوَكل ؟ قالَ : علىٰ خِصَالٍ أرْبَعة : عَلمتُ أنَّ رِزْقي لا يَأكُلُه غَيري ، فاطْمَأنَّتْ به نَفسي ، وعَلمتُ أنَّ عَمَلي لا يَعمَلُه غَيري ، فأنا مَشْغولٌ به ، وعَلمتُ أنَّ الْمَوتَ يأتي بَغْتةً ، فأنا أُبادِرُه وعَلمتُ أنِّي لا أخْلو من عَين الله ، فأنا مُسْتَحيٍ منه[5] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن مُنير) ١٢/٣١٦ـ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٠٥ .
(٢) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/٣٢١ـ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٦/٥٠٥ .
(٣) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/٣٢١ـ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٦/٥٠٥ .
(٤) انظر السير : (القُرَظيّ) ٥/٦٥ـ٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨١ .
(٥) انظر السير : (حاتِم الأصَمّ) ١١/٤٨٤ـ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٠ .

٧ـ الاسْتِخَارَةُ نَوْعٌ من التَّوَكل :

قال أبو عُثْمان سَعيدُ بنُ إسْماعيلَ الحِيري : حدَّثَنا ابنُ خُزَيْمَة قال : كنتُ إذا أرَدتُ أن أُصَنِّفَ الشَّيءَ أدخلُ في الصَّلاة مُسْتَخيراً حتىٰ يُفتَح لي ، ثم أبْتَدىءُ التَّصْنيف ، ثم قال أبو عُثمان : إنَّ اللهَ ليَدفَعُ البلاءَ عن أهلِ المَدينة لمَكان أبي بكر محمّد بنِ إسْحاق ـ يَعْني ابنَ خُزَيْمَة[1] .

الخَوْفُ والخَشْيَةُ والرَّجَاء

١ـ تَعْريفُ الخَشْية :

عن سَعيدِ بنِ جُبَير ، قالَ : إنَّ الخَشْيَةَ أنْ تَخشَى اللهَ حتّىٰ تَحُولَ خَشيتُكَ بَينَك وبَينَ مَعصيَتِك ، فتلكَ الخَشيَةُ ، والذِّكْرُ طَاعَةُ اللهِ ، فمَنْ أطاعَ اللهَ ، فقد ذَكرَه ، ومَنْ لَمْ يُطِعْه فلَيسَ بذَاكِر وإنْ أكْثَرَ التَّسْبيحَ وتِلاوَة القُرآن[2] .

٢ـ الجَمْعُ بين الخَوْفِ والرَّجَاء :

قالَ مُعاويَةُ بنُ عبدِ الكَريم الثَّقَفي ، سَمعتُ بَكرَ بنَ عبدِ الله يَقولُ يَومَ الجُمُعَة : لَوْ قيلَ لي : خُذْ بيَدِ خَيرِ أهْلِ الْمَسجِدِ ، لقُلتُ : دُلُّوني علىٰ أنْصَحِهم لعامَّتِهم ، فإذا قيلَ : هـٰذا ، أخَذتُ بيَدِه ، ولَوْ قيلَ لي : خُذْ بيَدِ شَرِّهم ، لقُلتُ : دُلُّوني علىٰ أغَشِّهم لعامَّتِهم ، ولَوْ أنَّ مُنادياً نادَىٰ من السَّماءِ : إنَّه لا يَدخُلُ الجنَّة منكُم إلاَّ رَجلٌ واحِدٌ ، لكانَ يَنبَغي لكُلِّ إنْسانٍ أنْ يَلتَمِسَ أنْ يَكونَ هُوَ ، ولَوْ أنَّ مُنادياً نادَىٰ : إنَّه لا يَدخُلُ النَّارَ منكُم إلاَّ رَجلٌ واحِدٌ لكانَ يَنبَغي لكُلِّ إنْسانٍ أنْ يَفْرَقَ أنْ يَكونَ ذلك الوَاحِد[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن خُزَيْمَة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٠ .

(٢) انظر السير : (سَعيدُ بنُ جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٨/٥٠٥ .

(٣) انظر السير : (بَكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٥٥١ .

٣ـ شِعْرٌ في الرَّجَاء :

قال ابنُ الفَرَضي[١] :

أَسِيرُ الخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفٌ ... عَلَىٰ وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفُ
يَخَافُ ذُنُوباً لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا ... وَيَرْجُوكَ فِيهَا فَهُوَ رَاجٍ وَخَائِفُ
وَمَنْ ذَا الَّذي يَرْجُو سِوَاكَ وَيَتَّقِي ... وَمَالَكَ في فَصْلِ القَضَاءِ مُخَالِفُ
فَيَا سَيِّدِي لاَ تُخْزِنِي فِي صَحِيفَتِي ... إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الحِسَابِ الصَّحَائِفُ

ومن شِعْرِ الدَّاوُوديِّ[٢] :

رَبِّ تَقَبَّلْ عَمَلِي ... وَلا تُخَيِّبْ أَمَلِي
أَصْلِحْ أُمُورِي كُلَّهَا ... قَبْلَ حُلُولِ الأَجَلِ

٤ـ الخَوْفُ من الله تَعالَىٰ لا مِنْ غَيرِه :

قالَ سَرِيُّ بنُ الْمُغَلِّس : سَمعتُ الفُضَيلَ يَقولُ : مَنْ خَافَ اللهَ لَمْ يَضرَه أَحَدٌ ، ومَنْ خَافَ غَيرَ اللهِ لَمْ يَنفَعْه أَحَدٌ[٣] .

٥ـ الخَشْيَةُ تُعينُ على الطَّاعَة :

عن عُبَيدِ الله بنِ أبي جَعْفَر قالَ : كانَ يُقالُ : ما اسْتَعانَ عبدٌ عَلىٰ دينِه ، بمِثلِ الخَشْيَة من الله[٤] .

٦ـ لماذا يَقِلُّ الخَوْفُ من الله :

عن ابنِ أبي حاتِم : قالَ لي عَليُّ بنُ عبدِ الرَّحمَـٰن : قالَ لي أحمَدُ ابنُ عاصِم

---

(١) انظر السير : (ابنُ الفَرَضيّ) ١٧/ ١٧٧ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ١/ ١٣٣٤ .
(٢) انظر السير : (الدَّاوُوديّ) ١٨/ ٢٢٢ـ ٢٢٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٠٦
(٣) انظر السير : (الفُضَيلُ بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٧٣ .
(٤) انظر السير : (عُبَيدُ الله بن أبي جَعْفَر) ٦/ ٨ـ ١٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٢٥ .

الأنْطَاكيُّ : قِلَّةُ الخَوفِ من قِلَّةِ الْحُزْنِ في القَلبِ ، كمَا أنَّ البَيتَ إذا لَمْ يُسكَنْ خَرِبَ[1] .

٧ـ البُكاءُ من خَشْيَة الله :

قالَ الْمُطَّلِبُ بنُ زِياد : عن عبدِ الله بنِ عِيسَىٰ : كانَ في وَجْهِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ خَطَّانِ أَسْوَدانِ من البُكاءِ[2] .

عن عبدِ الله بن عُبيد بن عُمَير ، عن أبيه : أنه تلا : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[3] فجعل ابن عمر يبكي حتىٰ لَثِقَت لحْيَتُه وجَيبُه من دموعه ، فأراد رجل أن يقول لأبي : أقْصِرْ ، فقد آذيتَ الشيخ[4] ،[5] .

وعن نافع : كان ابنُ عُمرَ إذا قرأ : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾[6] بكَىٰ حتَّىٰ يَغلبه البكاء[7] .

ورَوَىٰ خالدُ بنُ مَعْدان : عن كَعْب الأحْبَارِ ، قالَ : لأنْ أبْكي من خَشيَةٍ أحَبُّ إليَّ من أنْ أتَصدَّق بوَزْني ذَهَباً .

تُوفِّيَ كَعبٌ بحمْصَ ذاهباً للغَزْوِ في أوَاخِر خِلافَة عُثمانَ رضي الله عنه ، فلقَدْ كانَ من أوْعِيَةِ العِلْم[8] .

---

(١) انظر السير : (الأَنْطاكيّ) ١١/ ٤٠٩ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٥٥ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٩ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٤١ .
(٤) أخرَجه ابنُ سَعد (٤/ ١٦٢) من طريق موسَى بن مَسعود بهٰذا الإسْناد ، وموسَى بن مسعود : هو أبو حُذَيفَة النَّهْدي ـ سَيءُ الحفظ ، وباقي السند رجاله ثِقات ، وقوله : « حتّىٰ لثقت لحيتُه » أي : ابتلَّت ، يُقالُ : لثقَ الطائرُ ، إذا ابتلَّ ريشُه .
(٥) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣٦٧ .
(٦) سورة الحديد ، الآية : ١٦ .
(٧) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٣٦٧ .
(٨) انظر السير : (كعْب الأحْبَار) ٣/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤١٤ .

وكانَ العَلاءُ بنُ زياد رَبَّانياً تَقيّاً قانِتاً لله ، بَكاءً من خَشْيَة اللهِ[1] .

قالَ قَتادَة : كانَ العَلاءُ بنُ زياد قد بَكَىٰ حتَّىٰ غُشيَ بَصَرُه ، وكانَ إذا أرادَ أنْ يَقرأَ أو يَتكلَّمَ ، جَهشَه البُكاءُ ، وكانَ أبُوهُ قد بَكَىٰ حتىٰ عَمِيَ[2] .

وقالَ أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقيُّ : حدَّثنا يَحْيَىٰ بنُ الفَضْل الأنيسي ، سَمعتُ بعضَ مَنْ يَذكُرُ عن محمَّدِ بنِ الْمُنْكَدِر ، أنَّه بينا هو ذاتَ ليلَة قائمٌ يُصلِّي إذ استَبْكَىٰ ، فكثُرَ بُكاؤه حتىٰ فزِعَ له أهْلُه ، وسَألوه ، فاسْتعجَمَ عَليهم ، وتَمَادَىٰ في البُكاءِ ، فأرْسَلوا إلىٰ أبي حازِم فجاءَ إليه ، فقالَ : ما الذي أبْكاكَ ؟ قال مَرَّتْ بي آيةٌ ، قالَ : ما هيَ ؟ قالَ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾[3] ، فبَكَىٰ أبو حازِم معه ، فاشْتدَّ بُكاؤُهما[4] .

وكانَ مُحمَّدُ بنُ الْمُنْكدِر إذا بَكَىٰ ، مَسحَ وَجهَه ولِحْيتَه من دُموعِه ، ويَقولُ : بَلغَني أنَّ النَّارَ لا تَأكُلُ مَوْضِعاً مَسَّتهُ الدُّمُوعُ[5] .

وقالَ عَطاءٌ الخَفَّاف : ما لَقيتُ سُفْيانَ الثَّوْريَّ إلاَّ باكياً ، فقُلتُ : مَا شَأنُك ؟ قالَ : أتَخَوَّفُ أنْ أكُونَ في أُمِّ الكتابِ شَقيّاً[6] .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ أبي بُكَير : قُلتُ للحَسَنِ بنِ صالِح : صِفْ لنا غَسْلَ الْمَيِّتِ فمَا قَدِرَ عليه من البُكَاء[7] .

وقالَ أبو زُرْعَة : حدَّثني أبو النَّضْر إسْحاقُ بنُ إبْراهيمَ ، قالَ : كُنتُ أسْمَعُ وَقْعَ دُمُوعِ سَعيدِ بن عبدِ العَزيزِ عَلى الحَصيرِ في الصَّلاةِ[8] .

---

(١) انظر السير : (العَلاء بن زِياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧٧ .
(٢) انظر السير : (العَلاء بن زِياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/٤٧٧ .
(٣) سورة الزمر ، الآية : ٤٧ .
(٤) انظر السير : (محمد بن الْمُنْكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٧/٦٠٧ .
(٥) انظر السير : (محمد بن الْمُنْكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٦/٦٠٨ .
(٦) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/٦٩٨ .
(٧) انظر السير : (الحَسَن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٢/٧٠٣ .
(٨) انظر السير : (سَعيد بن عبد العَزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٢٣ .

وقالَ أبو عبدِ الرَّحْمَـٰن الأسَدِي : قُلتُ لسَعيدِ بنِ عبدِ العَزيزِ : ما هـٰذا البُكاءُ الذي يَعرِضُ لكَ في الصَّلاةِ ؟ فقالَ : يا ابنَ أخي ، وما سُؤالُك عن ذلك ؟ قُلتُ : لَعلَّ اللهَ أنْ يَنفَعَني به ، فقالَ : ما قُمتُ إلىٰ صَلاةٍ إلاَّ مَثُلَت لي جَهَنَّمُ[1] .

وقالَ نُعَيمُ بنُ حمَّاد : كانَ ابنُ الْمُبارَك إذا قرأ كتابَ الرِّقاق ، يَصيرُ كأنَّه ثَورٌ مَنْحورٌ ، أو بَقَرَةٌ مَنْحُورَةٌ ، من البُكاءِ ، لا يَجْتَرىء أحدٌ مِنْ أنْ يَسألَه عن شَيء إلاَّ دَفعَه[2] .

وقالَ الزَّاهِدُ يُوسُفُ الهَمَذَاني : انْطَرَشَ أبو الحُسَين ، فكانَ يَقرأُ عَلينا ، وكانَ دَائمَ العِبادَة ، قَرأَ عَلينا حَديثَ الْمَلَكين[3] . فبَكَىٰ بُكاءً عَظيماً ، وأبْكَىَ الحَاضِرينَ .

ماتَ سَنةَ خَمسٍ وستِّينَ وأرْبَع مئة[4] .

٨ـ تَرْكُ البُكاء خِذْلان :

وقالَ أبو سُلَيْمانَ الدَّارانيُّ : لِكُلِّ شيء عَلَمٌ ، وعَلَمُ الخِذْلانِ تَركُ البُكاءِ ، ولِكُلِّ شيء صَدأٌ ، وصَدأُ القَلبِ الشِّبَع[5] .

٩ـ البُكاءُ المطْلُوب :

عن مُعاويَةَ بنِ قُرَّة قالَ : بُكاءُ العَمَل أحَبُّ إليَّ من بُكاءِ العَينِ[6] .

---

(١) انظر السير : (سَعيد بن عبد العَزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٢٣ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٦٧ .

(٣) ينظر في هـٰذا حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل المخرَج في « الْمُسنَد » (٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) وأبي داوُد (٣٢١٢) الطيالسي (٧٥٣) ، وصحَّحه الحاكم (١/ ٣٧/ ٤٠) ، وأقرَّه الذَّهَبيُّ ، وصحَّحَه غيرُ واحد من الأئمَّة وهو كما قالوا ، وحديث أنَس في البُخاري (١٣٧٤) ، ومُسلم (٢٨٧٠).

(٤) انظر السير : (ابنُ الْمُهْتَدي بالله) ١٨/ ٢٤١ـ ٢٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٩ .

(٥) انظر السير : (أبو سُليمانَ الدَّاراني) ١٠/ ١٨٢ـ ١٨٦ ، وانظر النزهة : ٣/٨٦٥ .

(٦) انظر السير : (مُعاويَة بن قُرَّة) ٥/ ١٥٣ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٤/٥٩٤ .

١٠ـ العَمَىٰ من كثْرَة البُكاء :

قالَ قَتادَةُ : كان العَلاءُ بنُ زِياد قد بَكَىٰ حتىٰ غُشيَ بَصَرُه ، وكانَ إذا أرادَ أنْ يَقرأ أو يَتكلَّمَ ، جَهشَه البُكاءُ ، وكانَ أبُوهُ قد بَكَىٰ حتىٰ عَمِيَ[١] .

وقالَ يُوسُفُ بنُ مُسْلم : بَكَىٰ عَليّ بنُ بَكَّار ، حَتَّىٰ عَمِيَ ، وكانَ قد أثَّرَت الدُّمُوعُ في خَدَّيْه[٢] .

وقالَ الحاكمُ : سَمعتُ عُمرَ بنَ عَلَّك يَقولُ : ماتَ البُخاريُّ ، فلَمْ يُخلِّفْ بخُراسانَ مثلَ أبي عيسَى التِّرْمِذيّ ، في العِلمِ والحِفظِ ، والوَرَعِ والزُّهْدِ بَكىٰ حتَّىٰ عَمِيَ ، وبَقيَ ضَريراً سِنينَ[٣] .

١١ـ الغَشْيُ (الإغْماءُ) من خَشْيَة الله :

قيلَ : إنَّ حَوْشَباً قالَ لِمَالكِ بنِ دِينار : رَأيتُ ، كأنَّ مُنادياً يُنادي الرَّحيلَ ، الرَّحيلَ ، فمَا ارْتَحَلَ إلاَّ مُحمَّدُ بنُ وَاسِع فبَكَىٰ مَالكٌ ، وخَرَّ مَغْشياً عَليه[٤] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ زَكريّا الغَلابي ، حدَّثنا أبو عُمرَ الجَرْميُّ النَّحْويُّ ، حدَّثنا الفَضْلُ بنُ الرَّبيع ، قالَ : حَجَّ أميرُ المؤمنين ـ يَعْني هارُونَ الرَّشيدَ ـ فقالَ لي : وَيْحَك ، قَد حَكَّ في نَفسي شَيءٌ ، فانْظُر لي رَجُلاً أسْألُه فقُلتُ : ها هُنا سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة ، فقالَ : امْضِ بنا إليه ، فأتَيناهُ ، فقَرَعْنا بابَه ، فقالَ : مَنْ ذا ؟ فقُلتُ : أجِبْ أميرَ المؤمنين .

فخَرجَ مُسْرِعاً ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، لَوْ أرْسَلتَ إليَّ أتَيتُك فقالَ : خُذْ لِما جِئتُك له ، فحَدَّثَه ساعَةً ، ثم قالَ له : عَليكَ دَينٌ قالَ : نَعَم فقالَ لي : اقْضِ دَيْنَه ، فلمَّا خَرجْنا قالَ : ما أغْنَىٰ عنِّي صاحبُك شَيئاً ، قُلتُ : ها هُنا عبدُ الرَّزَّاق قالَ : امْضِ بنا إليه ، فأتَيْناهُ ، فقَرَعْتُ البابَ فخَرَجَ ، وحادَثَه ساعَةً ، ثم قالَ : عَليكَ دَينٌ ؟ قالَ :

---

(١) انظر السير : (العَلاء بن زِياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٧٧ .

(٢) انظر السير : (عَليُّ بن بَكار) ٩/ ٥٨٤ـ ٥٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٤١ .

(٣) انظر السير : (التِّرْمِذيُّ) ١٣/ ٢٧٠ـ ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٨١ .

(٤) انظر السير : (محمَّد بن واسع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٩/ ٦٣٨ .

نَعَم قالَ : يا أبا عبَّاس ، اقْضِ دَيْنَه ، فلمَّا خَرجْنا قالَ : مَا أغْنَىٰ عَنِّي صاحبُكَ شَيئاً ، انظُر لي رَجُلاً أسألُه ، قُلتُ : ها هُنا الفُضَيلُ بنُ عِياض ، قالَ : امْضِ بنا إليه ، فأتَيْناه ، فإذَا هو قائمٌ يُصلِّي ، يَتْلو آيةً يُردِّدُها ، فقالَ : اقْرَع البابَ ، فقَرعْتُ ، فقال : مَنْ هَـٰذا ؟ قلتُ أجبْ أميرَ المؤمنين ، قالَ : ما لي ولأميرِ المؤمنينَ ؟ قُلتُ سُبْحانَ الله ، أما عَليكَ طَاعَةٌ ، فنزَلَ ، ففتحَ البابَ ، ثمَّ ارْتَقىٰ إلى الغُرْفَة ، فأطْفَأ السِّراجَ ثمَّ الْتجأ إلىٰ زاويةٍ ، فدَخَلنا ، فجَعَلْنا نَجولُ عليه بأيْدينا ، فسَبَقَتْ كفُّ هارُونَ قَبْلي إليه ، فقالَ : يا لَها من كَفٍّ ، ما أَلْيَنَها إنْ نَجَتْ غَداً من عَذابِ الله ، فقُلتُ في نَفسي : لَيُكَلِّمَنَّه اللَّيلةَ بكَلامٍ نَقيٍّ من قَلبٍ تَقيٍّ ، فقالَ له : خُذ لِما جِئناكَ له ، رَحمَكَ الله ، فقالَ : إنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ لَمَّا وَليَ الخِلافَةَ دَعا سالِمَ بنَ عبدِ الله ، ومحمَّدَ بنَ كعْبٍ ، ورَجاءَ بنَ حَيْوَة ، فقالَ لهم : إنِّي قد ابْتُليتُ بهَـٰذا البَلاء فأشيروا عليَّ ، فعَدَّ الخِلافَةَ بلاءً وعَدَدْتَها أنتَ وأصْحابُكَ نِعْمَة ، فقالَ له سَالم : إنْ أرَدْتَ النَّجاةَ ، فصُم الدُّنيا ، وليَكُنْ إفْطارَك منها الْمَوْتُ ، وقالَ ابنُ كعْب : إنْ أرَدْتَ النَّجاةَ من عَذابِ الله ، فلْيَكُنْ كَبيرُ المسلمينَ عندَك أباً ، وأوْسَطُهم أخاً ، وأصْغَرُهم وَلَداً ، فوَقِّرْ أباك ، وأكْرِمْ أخاكَ ، وتَحَنَّنْ علىٰ وَلَدِك .

وقال له رَجاءُ : إنْ أرَدْتَ النَّجاةَ من عَذابِ الله ، فأحِبَّ للمسلمينَ ما تُحبُّ لِنَفْسِك ، واكْرَه لهم ما تَكْرَهُ لِنَفْسِك ، ثم مُتْ إذا شِئتَ ، وإنِّي أقولُ لكَ هَـٰذا وإنِّي أخافُ عليكَ أشدَّ الخَوْفِ يوماً تَزِلُّ فيه الأقْدامُ ، فهلْ مَعكَ رَحِمَكَ الله مَنْ يُشيرُ عليكَ بمثلِ هـٰذا ، فبَكَىٰ هارُونُ بُكاءً شَديداً حتّىٰ غُشيَ عليه ، فقُلتُ له : ارْفُقْ بأميرِ المؤمنين ، فقالَ : يا بنَ أُمِّ الرَّبيع ، تَقْتُلُه أنتَ وأصْحابُك ، وأرْفُقُ به أنا ؟!! ، ثمَّ أفَاقَ فقالَ له : زِدْني رَحِمَكَ اللهُ قلتُ : بَلَغَني أنَّ عامِلاً لِعُمَرَ بنِ عبدِ العزيز شُكيَ إليه ، فكتبَ إليه : يا أخي أُذَكِّرُكَ طُولَ سَهر أهْلِ النَّارِ في النَّارِ مع خُلودِ الأبَد ، وإيَّاكَ أنْ يُنْصَرَفَ بك من عند الله ، فيَكونُ آخرَ العَهْدِ وانْقِطاعِ الرَّجاءِ ، فلمَّا قرأ الكتابَ طَوَى البلادَ حتّىٰ قدِمَ عليه ، فقالَ : خَلَعْتَ قَلبي بكتابِك ، لا أعُودُ إلىٰ وِلايَة حتَّىٰ ألقَى اللهَ ، فبَكَىٰ هارُونُ بُكاءً شَديداً ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ : إنَّ العبَّاسَ عمَّ النَّبي

صلى الله عليه وسلم جاءَ إليه فقالَ : أمِّرْني ، فقال له : « إنَّ الإمَارَةَ حَسْرَةٌ ونَدَامَةٌ يَوْمَ القِيامَةِ ، فَإنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا تَكونَ أَميراً فَافْعَلْ » فبَكَىٰ هارُونُ ، وقالَ : زِدْني قالَ : يا حَسَنَ الوَجْه أنتَ الذي يَسألُكَ اللهُ عن هـٰذا الخَلقِ يَومَ القِيامَة ، فإنْ اسْتطَعْتَ أنْ تَقي هَـٰذا الوَجْهَ من النَّارِ فافْعَلْ ، وإيّاك أنْ تُصْبِحَ وتُمْسي وفي قَلبك غِشٌّ لأحَدٍ من رَعيَّتِك ، فإنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشّاً لَمْ يَرُحْ رَائحَةَ الجَنَّةِ » فبَكَىٰ هارُونُ وقالَ له : عَليكَ دَيْنٌ ؟ قالَ نَعَم : دَينٌ لِرَبِّي ، لم يُحاسِبْني عَليه ، فالوَيلُ لي إنْ ساءَلَني ، والوَيلُ لي إنْ ناقَشَني ، والوَيْلُ لي إنْ لَمْ أُلْهَم حُجَّتي ، قالَ : إنَّما أعْنِي من دَينِ العِبادِ ، قالَ : إنَّ رَبِّي لَمْ يأمُرني بهَـٰذا ، أمَرَني أنْ أُصَدِّقَ وَعْدَه ، وأُطيعَ أمْرَه ، فقالَ عزَّ وجَلَّ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] ، فقالَ : هَـٰذه ألْفُ دينار خُذْها ، فأنْفِقْها علىٰ عِيالِك ، وتَقوَّ بها علىٰ عِبادَة رَبِّك ، فقالَ : سُبْحانَ الله أنا أدُلك علىٰ طريقِ النَّجاةِ وأنتَ تُكافِئُني بمِثلِ هَـٰذا!! سَلَّمَك الله ، ووَفَّقَكَ ثم صَمتَ ، فلمْ يُكلِّمْنا ، فخَرَجْنا ، فقالَ هارُونُ : أبا عبَّاس ، إذا دَلَلْتَني ، فدُلَّني علىٰ مثلِ هـٰذا ، هـٰذا سيِّدُ المسلمينَ ، فدَخَلَت عَليه امرأةٌ من نِسائه فقالَت : قد تَرىٰ ما نَحنُ فيه من الضِّيقِ ، فلَوْ قَبِلْتَ هَـٰذا المالَ قالَ : إنَّما مَثَلي ومَثَلُكم كمثلِ قومٍ لهم بَعيرٌ يأكُلونَ من كَسْبه ، فلمَّا كَبِرَ نَحَروهُ ، فأكَلوا لَحْمَه ، فلمَّا سَمعَ هارونُ هـٰذا الكَلامَ قال : نَدخُلُ فعَسَىٰ أنْ يَقبَلَ المالَ ، فلمَّا عَلمَ الفُضَيلُ ، خَرجَ فجَلسَ في السَّطْحِ علىٰ بابِ الغُرْفَة ، فجاء هارونُ ، فجلسَ إلىٰ جَنبه يُكلِّمُه فلا يُجيبُه ، فبينا نحنُ كذلك إذ خَرجَت جاريَةٌ سَوْداء ، فقالَت : يا هَـٰذا قَد آذَيتَ الشَّيخَ منذُ اللَّيلَة ، فانْصَرِفْ ، فانْصَرَفْنا[2] .

قال إبراهيمُ بنُ الحارث العُبّادي : حدَّثنا عبدُ الرحمَـٰن بنُ عفَّان ، حدَّثنا أبو بَكْر بن عيّاش قال : صلَّيتُ خَلفَ فُضَيل بنِ عِياض المغربَ وابنُه عليٌّ إلىٰ جانبي

---

(١) سورة الذَّاريات ، الآية : ٥٦ .

(٢) انظر السير : (الفُضَيلُ بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٨/٧٧٤ .

فقرأ : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[1] فلمَّا قالَ : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾[2] سَقطَ عليٌّ علىٰ وَجهِه مَغْشيّاً عليه[3] .

وقالَ ابنُ الْمُبارَك للفُضَيلِ بنِ عِياض : يا أبا عَليّ ما أحْسَنَ حَالَ مَنْ انقَطعَ إلى الله ، فسَمعَ ذلكَ عَليٌّ ابنُه ، فسَقطَ مَغْشيّاً عليه[4] .

وعن محمدِ بن ناجية قال : صلَّيتُ خَلفَ الفُضَيل بنِ عِياض ، فقرأ : ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾[5] في الصُّبحِ فلمَّا بَلغَ إلىٰ قَولِه : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾[6] غَلبَه البُكاءُ فسَقطَ ابنُه عَليٌّ مَغْشياً عليه[7] .

وعن مُحمَّدِ بن أبي عُثمانَ قالَ : كانَ عَليُّ بنُ الفُضَيل عند سُفْيانَ ابنِ عُيَيْنَة ، فحَدَّثَ بحَديثٍ فيه ذِكْرُ النَّار ، فشَهِقَ عَليٌّ شَهقَةً ، ووَقعَ ، فالْتَفتَ سُفْيانُ فقالَ : لَوْ عَلمتُ أنَّك ها هُنا ما حدَّثتُ به ، فمَا أفَاقَ إلاَّ بعدَ ما شَاءَ الله[8] .

وقالَ خالدُ بنُ خِداش : قُرِىء علىٰ عبدِ اللهِ بنِ وَهْب كتابُ أهْوالِ يَومِ القيامَة ـ وهو من تَأليفِه ـ فخَرَّ مَغْشيّاً عليه قالَ: فلَمْ يَتكلَّم بكَلمَة حتّىٰ مَاتَ بعدَ أيّامٍ رَحمَه الله تَعالَىٰ[9].

وقالَ تَميمُ بنُ عبد الله : سَمعتُ سُويدَ بنَ سَعيد يَقولُ : كُنتُ عندَ سُفيانَ ، فجاءَ الشَّافعيُّ فسَلَّم ، وجَلسَ ، فرَوَى ابنُ عُيَيْنَة حَديثاً رَقيقاً ، فغُشِيَ على الشَّافعِيِّ ، فقيلَ : يا أبا مُحمَّد ، ماتَ مُحمَّدُ بنُ إدْريسَ ، فقالَ ابنُ عُيَيْنَة : إنْ كانَ مَاتَ ، فقَد مَاتَ أفضلُ أهلِ زَمانِه[10] .

---

(١) سورة التكاثر ، الآية : ١ .
(٢) سورة التكاثر ، الآية : ٦ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٠ .
(٤) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٨٠ .
(٥) سورة الحاقّة ، الآية : ١ .
(٦) سورة الحاقّة ، الآية : ٣٠ .
(٧) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٧٨٠ .
(٨) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٨١ .
(٩) انظر السير : (عبد الله بن وَهب) ٩/ ٢٢٣ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/٨١٩ .
(١٠) انظر السير : (الإمامُ الشَّافعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٤٦ .

١٢ـ المَوْتُ من خَشْيَة الله :

عن يَعْلىٰ بنِ حَكيم ، قالَ : قال سَعيدُ بنُ جُبَير : ما رَأيتُ أرْعَىٰ لِحُرْمَة هـٰذا البَيتِ ، ولا أحْرَصَ عليه ، من أهْلِ البَصْرَة ، لقد رَأيتُ جارِيةً ذاتَ لَيلَة تَعلَّقَت بأسْتارِ الكَعْبَة تَدعُو وتَضْرَعُ وتَبكي حتَّىٰ ماتَت[١] .

وقالَ الخَطيبُ : مَاتَ عَليُّ بنُ الفُضَيل قبلَ أبيه بمُدَّة من آيَةٍ سَمِعَها تُقرَأُ ، فغُشيَ عليه ، وتُوفِّيَ في الحَالِ[٢] .

وقال عليُّ بنُ محمّد المِصْري ، سَمعتُ أبا سَعيد الخَرَّاز ، سَمعتُ إبراهيمَ بنَ بشَّار يقولُ : الآيةُ التي ماتَ فيها عليُّ بنُ الفُضَيل ، في الأنْعام : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾[٣] مع هـٰذا المَوْضع ماتَ وكنتُ فيمَن صلَّىٰ عليه ، رحمَه الله[٤] .

وحَكَى القاضي حُسَينُ عن القَفَّالِ أسْتاذِه أنَّه كانَ في كَثيرٍ من الأوْقَاتِ يَقَعُ عليه البُكاءُ حالَةَ الدَّرْسِ ، ثم يَرفَعُ رَأسَه ويَقولُ : مَا أغْفَلَنَا عَمَّا يُرادُ بنا .

ماتَ في سَنةِ سَبع عَشْرَة وأرْبَع مئة ، وله من العُمرِ تِسْعُونَ سَنةً[٥] .

١٣ـ صَغيرٌ عَظيمٌ يَخْشَى الله :

ورَوىٰ ضِمَام بنُ إسْماعيلَ عن أبي قَبيل : أنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العَزيزِ بَكَىٰ وهو غُلامٌ صَغيرٌ فأرْسَلت إليه أُمُّه ، وقالت : ما يُبكيكَ ؟ قالَ : ذَكرتُ الْمَوْت .

قالَ : وكان يومئذٍ قد جَمعَ القُرآنَ ، فبَكَت أُمُّه حين بَلغَها ذلك[٦] .

---

(١) انظر السير : (سَعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٠٦ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٨٠ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٢٧ .
(٤) انظر السير : (عليُّ بن الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٨١ .
(٥) انظر السير : (القَفَّال) ١٧/ ٤٠٥ـ ٤٠٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٣٤٨ .
(٦) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٨٦ .

١٤ـ شِعْرٌ في الخَشْيَة :

قالَ عَمرُو بنُ مَسْرور ، أنْشَدَنا أبو سَهْل الحَنَفيّ لنَفسِه[١] :

أَنَـامُ عَلَـىٰ سَهْـوٍ وَتَبْكِـي الحَمَـائِـمُ ... وَلَيْـسَ لَهَـا جُـرْمٌ وَمِنِّـي الجَـرَائِـمُ
كَـذَبْـتُ وَبَيْـتِ اللهِ لَـوْ كُنْـتُ عَـاقِـلاً ... لَمَـا سَبَقَتْنِـي بِـالْبُكَـاءِ الْحَمَـائِـمُ

وقالَ ابنُ الفَرَضي[٢] :

أَسِيـرُ الخَطَـايَـا عِنْـدَ بَـابِـكَ وَاقِـفٌ ... عَلَـىٰ وَجَـلٍ مِمَّـا بِـهِ أَنْـتَ عَـارِفُ
يَخَافُ ذُنُوباً لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا ... وَيَـرْجُـو فيهَـا فَهُـوِ راجٍ وَخَـائِـفُ
وَمَنْ ذَا الَّذي يَرْجُو سِوَاكَ وَيَتَّقِي ... وَمَالَكَ فِي فَصْلِ القَضَاءِ مُخَالِفُ
فَيَا سَيِّدِي لاَ تُخْزِنِي في صَحِيفَتي ... إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الحِسَابِ الصَّحَائِفُ

١٥ـ صُوَرٌ على الخَوْفِ من الله وخَشْيَتِه :

عن ابنِ عُمَرَ قالَ : شَهِدْتُ جَلُولاءَ ، فابْتَعتُ من الْمَغْنَم بأرْبَعينَ ألفاً ، فلمَّا قَدمْتُ علىٰ عُمَرَ قالَ : أرَأيتَ لَوْ عُرِضْتُ على النَّارِ فقيلَ لكَ : افتَدْه ، أكنتَ مُفْتَديَّ به ؟ قُلتُ : واللهِ ما من شَيءٍ يؤذيكَ إلاَّ كُنتُ مُفْتَديكَ منه ، قالَ : كأنِّي شَاهدُ النَّاس حينَ تَبايَعوا فقَالُوا : عَبدُ الله بنُ عُمَرَ صاحِبُ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وابنُ أَميرِ المؤمنينَ وأحَبُّ النَّاسِ إليه ، وأنتَ كَذلكَ ، فكانَ أنْ يُرْخِصُوا عَليكَ أحَبَّ إليهم مِنْ أنْ يُغْلوا عَليك ، وإنِّي قاسِمٌ مَسْؤولٌ وأنا مُعْطِيكَ أكْثرَ ما رَبحَ تاجرٌ من قُرَيش : لكَ رِبحُ الدِّرْهَمَ دِرْهَم ، قالَ : ثم دَعَا التُّجَّارَ فابْتَاعُوا منهُ بأرْبَعمائة ألفِ دِرْهَم ، فدَفَع إليَّ ثمانينَ ألفاً وبَعثَ بالبَاقي إلىٰ سَعْد بنِ أبي وَقَّاص ليَقْسِمَه[٣] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أمير المؤمنينَ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ : وأثْنَىٰ عليه ابنُ

---

(١) انظر السير : (الصُّعْلوكيُّ) ١٦/ ٢٣٥ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٩١ .
(٢) انظر السير : (ابنُ الفَرَضيّ) ١٧/ ١٧٧ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ١/ ١٣٣٤ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٠ .

عبَّاس ، فقالَ : لَوْ أنَّ لي طَلاعَ الأرضِ ذَهَباً[1] فافْتَدَيتُ به من هَولِ الْمَطْلَع ، وقد جَعلتُها شُورَىٰ في عُثمانَ و عليٍّ وطَلحَةَ ، والزُّبَيرِ ، وعبدِ الرَّحْمَـٰن ، وسَعْد ، وأمَرَ صُهَيباً أنْ يُصلِّي بالنَّاسِ ، وأجَّل السِّتَّةَ ثَلاثاً .

وعن عَمرو بن مَيْمون أن عُمرَ قالَ : « الحَمْدُ لله الذي لَمْ يَجْعَلْ مَنيَّتي بيَد رَجلٍ يَدَّعي الإسْلامَ » ثم قالَ لابنِ عبَّاس أنتَ وأبُوكَ تُحِبَّانِ أنْ يَكثُرَ العُلوجُ بالمدينَة ، وكانَ العَبَّاسُ أكثَرَهم رَقيقاً .

ثم قالَ : يا عبدَ الله! انظُرْ ما عَليَّ من الدَّيْن ، فحَسَبوه فوَجَدُوه سِتَّة وثمانين ألفاً أوْ نَحْوَها ، فقالَ : إنْ وَفَّىٰ مَالُ آلِ عُمَرَ فأدِّه من أمْوَالِهم ، وإلاَّ فاسْأَلْ في بَني عَديّ ، فإنْ لَمْ تَفِ أمْوالُهم فسَلْ في قُرَيش ، اذْهَب إلىٰ أُمِّ المؤمنينَ عائشَةَ فقلْ : يَستَأذِنُ عُمَرُ أن يُدفَنَ مع صَاحبَيْه ، فذهَبَ إليها فقالَت : كُنتُ أريدُه ـ تَعني المكانَ ـ لنَفسِي ، ولأوثرَنَّه اليومَ علىٰ نَفسِي ، قالَ : فأتَىٰ عبدُ الله فقالَ : أذِنَتْ لك ، فحَمدَ الله .

ثم جاءَت أمُّ المؤمنينَ حَفْصَة ، والنِّساءُ يَسْتُرْنَها ، فلمَّا رَأيْناها قُمْنا ، فمَكثَتْ عندَه ساعَةً ، ثم اسْتأذَنَ الرِّجالُ فوَلَجَتْ داخِلَةً ، ثم سَمِعْنا بُكاءَها وقيلَ له : أوْصِ يا أميرَ المؤمنينَ واسْتَخلِفْ ، قالَ : ما أرَىٰ أحَداً أحَقَّ بهَـٰذا الأمْرِ من هَؤلاءِ النَّفَر الذين تُوفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو عَنهم راضٍ ، فسَمَّى السِّتَّةَ وقالَ : يَشهَدُ عبدُ الله بنُ عُمرَ مَعَهم ، ولَيسَ له من الأمْرِ شَيءٌ ـ كَهَيئَة التَّعْزيَة له ـ فإنْ أصابَت الإمْرَةُ سَعداً فهُو ذاكَ وإلاَّ فليَسْتَعينَ به أيُّكم ما أمَرَه ، فإنِّي لم أعْزِلْه من عَجزٍ ولا خيانَة[2] .

وعن عبدِ الله بنِ عبَّاس قالَ : لَمَّا طُعنَ عُمرُ جاءَ كَعبٌ فقالَ : والله لَئنْ دَعَا أميرُ المؤمنين لَيُبْقِيَنَّه الله وليَرْفَعَنَّه لهـٰذه الأُمَّة حتَّىٰ يَفعَلَ كَذا وكَذا ، حتَّىٰ ذَكرَ الْمُنافقينَ فيمَنْ ذَكر ، قالَ : قُلتُ : أُبْلغُه ما تَقولُ ؟ قالَ : ما قُلتُ إلاَّ وأنا أُريدُ أنْ تُبلِغَه ، فقُمتُ وتَخطَّيتُ النَّاسَ حتَّىٰ جَلَستُ عندَ رَأسِه فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ، فرَفعَ رَأسَه فقُلتُ : إنَّ كَعْباً يَحْلفُ بالله لَئنْ دَعَا أميرُ المؤمنينَ لَيُبْقِيَنَّه الله وليَرْفَعَنَّه لهـٰذه الأُمَّة قالَ :

---

(١) أي ما يملأ الأرضَ ذهباً حتىٰ يطلع عنها ويسيل .

(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٤ .

ادْعُوا كَعْباً ، فدَعَوه ، فقالَ : ما تَقولُ ؟ قالَ : أقُولُ كَذا وكَذا ، فقالَ : لا والله لا أدْعُو اللهَ ولَكنْ شَقِيَ عُمَرُ إنْ لَمْ يَغْفِر اللهُ له .

وعن ابنِ عبَّاس قالَ : كانَ أبو لُؤْلُؤَةَ مَجُوسيّاً[1] .

وقالَ ابنُ عُمَرَ : كانَ رَأسُ عُمَرَ في حِجْري ، فقالَ : ضَعْ خَدِّي على الأرضِ ، فوَضَعْتُه ، فقالَ : وَيْلٌ لي وويلُ أمي إنْ لَمْ يَرْحَمْني رَبِّي[2] .

وعن قَتادَةَ قالَ أبو عُبَيْدَة بنُ الجَرَّاح ، وَدِدْتُ أنِّي كنتُ كَبشاً ، فيذبَحُني أهْلي ، فيَأكُلُونَ لَحْمي ، ويَحْسُونَ مَرَقي[3] .

وعن علقَمَةَ ، قالَ : أُتيَ عبدُ الله بشَرابٍ فقالَ : أعْطِ عَلْقَمَة ، أعْطِ مَسْروقاً فكلُّهم قالَ : إنِّي صائمٌ ، فقالَ : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[4] ، وقالَ إبْراهيمُ : كانَ علقَمَةُ يَقرأُ القُرآنَ في خَمسٍ ، وقالَ علقَمَةُ : أطيلُوا كَرَّ الحَديثِ لا يُدرَسُ[5] .

وعن ابنةٍ للرَّبيع بنِ خُثَيْم ، قالَت : كُنتُ أقُولُ : يا أبَتَاهُ ، ألا تَنَامُ ؟ فيَقولُ : كَيفَ يَنامُ مَنْ يَخافُ البَيَاتَ[6] .

وقالَ القاسِمُ بنُ أبي أيُّوبَ : سَمعتُ سَعيدَ بنَ جُبَير يُردِّدُ هـٰذه الآيَةَ في الصَّلاةِ بِضْعاً وعِشرينَ مرَّة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[7] ،[8] .

قالَ مُعاويَةُ بنُ عبدِ الكَريم الثَّقَفي ، سَمعتُ بَكرَ بنَ عبدِ الله يَقولُ يومَ الجُمُعَة : لَوْ قيلَ لي : خُذْ بيَدِ خَيرِ أهْلِ الْمَسجِدِ ، لقُلتُ : دُلُّوني علىٰ أنْصَحِهم لعامَّتِهم ، فإذا

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٥٦ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٧ .
(٣) انظر السير : (أبو عُبَيْدَة بنُ الجَرَّاح) ١/٥ـ٢٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٣ .
(٤) سورة النور ، الآية : ٣٧ .
(٥) انظر السير : (عَلْقَمَة) ٤/٥٣ـ٦١ ، وانظر النزهة : ٣/٤٤٣ .
(٦) انظر السير : (الرَّبيع بن خُثَيم) ٤/٢٥٨ـ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/٤٩٣ .
(٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٨١ .
(٨) انظر السير : (سَعيد بن جُبَير) ٤/٣٢١ـ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/٥٠٥ .

قيلَ : هـٰذا ، أخَذتُ بيَدِه ، ولَوْ قيلَ لي : خُذْ بيَدِ شَرِّهم ، لقُلتُ : دُلُّوني علىٰ أغَشِّهم لعامَّتِهم ، ولَوْ أنَّ مُنادياً نادَىٰ من السَّماءِ : إنَّه لا يَدخُلُ الجنَّة منكُم إلاَّ رَجلٌ واحِدٌ ، لكانَ يَنبَغي لكُلِّ إنْسانٍ أنْ يَلتَمِسَ أنْ يَكونَ هُوَ ، ولَوْ أنَّ مُنادياً نادَىٰ : إنَّه لا يَدخُلُ النَّارَ منكُم إلاَّ رَجلٌ واحِدٌ لكانَ يَنبَغي لكُلِّ إنْسانٍ أنْ يَفْرَقَ أنْ يَكونَ ذلك الوَاحِد[1] .

وعن الحَسَنِ قالَ : الْمُؤمِنُ مَنْ عَلِمَ أنْ ما قَالَ اللهُ كما قالَ ، والْمُؤمِنُ أحْسَنُ النَّاسِ عَملاً ، وأشدُّ النَّاسِ وَجلاً ، فلَوْ أنْفَقَ جَبلاً من مالِه ما أمِنَ دُونَ أنْ يُعاينَ ، لا يَزدادُ صَلاحاً وبِراً إلاَّ ازْدَادَ فَرَقاً ، والْمُنافِقُ يَقولُ : سَوادُ النَّاسِ كَثيرٌ ، وسَيُغْفَرُ لي ولا بَأسَ عَلَيَّ فيُسيءُ العَمَلَ ، ويَتمَنَّىٰ على الله[2] .

وعن قَيسِ بنِ مُسْلم ، قالَ : كانَ الضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِم إذا أمْسَىٰ بَكَىٰ ، فيُقالُ له ، فيَقولُ : لا أدْري ما صَعَدَ اليومَ من عَمَلي[3] .

وعن الحُرِّ بنِ أبي الحُصَين العَنْبَريِّ قالَ : مَرَّ طاوُوسُ برَوَّاسٍ قد أخْرَجَ رَأساً فغُشِيَ عليه[4] .

ورَوَىٰ عبدُ الله بنُ بِشْر الرَّقِّي قالَ : كانَ طاوُوسُ إذا رَأىٰ تلكَ الرُّؤوسَ الْمَشْويَّة لَمْ يَتعَشَّ تلكَ اللَّيلَة[5] .

وعن أبي كَبير البَصْري ، قالَت أمُّ محمَّد بنِ كَعْب القُرَظِيِّ له : يا بُنَيَّ! لَوْلا أنِّي أعْرِفُك طَيِّباً صَغيراً وكَبيراً لقُلتُ : إنَّكَ أذْنَبتَ ذَنباً مُوبِقاً لِمَا أرَاكَ تَصنعُ بنَفسِك ، قالَ : يا أُمَّاه! وما يُؤمِّنُني أنْ يَكُونَ اللهُ قد اطَّلعَ عليَّ ، وأنا في بَعضِ ذُنوبي فمَقَتَني ، وقالَ : اذْهَبْ لا أغْفِرُ لك ، مع أنَّ عَجائبَ القُرآنِ تردُ بي علىٰ أمُورٍ حتَّىٰ إنَّه لَيَنْقَضي اللَّيلُ ولَمْ أفْرُغْ من حاجَتي[6] .

---

(١) انظر السير : (بَكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥١ .
(٢) انظر السير : (الحَسَن البَصْريّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٦٣ .
(٣) انظر السير : (الضَّحَّاك بن مُزاحِم) ٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٦٦ .
(٤) انظر السير : (طاوُوس) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٧٨ .
(٥) انظر السير : (طاوُوس) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٧٨ .
(٦) انظر السير : (القُرَظِي) ٥/ ٦٥ـ ٦٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٨١ .

عن مُغيرةَ بن حَكيم : قالت فاطمةُ بنتُ عبد الملك بنِ مَرْوان امرأةُ عُمرَ بنِ عبد العزيز : حَدَّثنا مُغيرةُ أنَّه يكونُ في النَّاسِ مَن هو أكثرُ صلاةً وصياماً من عُمرَ بنِ عبد العزيز ، وما رأيتُ أحداً أشَدَّ فَرَقاً من ربِّه منه ، كان إذا صَلَّى العِشَاءَ قَعَدَ في مَسْجِدِه ، ثمَّ يَرفعُ يَدَيْه فلَم يَزَلْ يَبكي حتىٰ تَغلِبُه عَينُه ، ثم يَنتَبهُ ، فلا يزالُ يَدعُو رافعاً يديْه يَبكي حتىٰ تَغلِبُه عينُه ، يفعلُ ذلك ليلَهُ أَجْمَع[1] .

وقالَ ابنُ شَوْذَب : كُنتُ إذا رَأيتُ هارُونَ بنَ رِئابٍ كأنَّما أقْلعَ عن البُكاءِ[2] .

وقالَ ابنُ حِبَّان : كانَ يَحْيَىٰ بنُ أبي كَثير من العُبَّاد ، إذا حَضَرَ جَنازَةً ، لَمْ يَتعَشَّ تلكَ اللَّيلَة ، ولا يُكلِّمُه أحَدٌ .

وقالَ أبو حاتم : قد رَأىٰ أنَساً يُصلِّي في الحَرَمِ[3] .

وقالَ نُعَيم بنُ مُوزِّع : أتَينا عَطاءَ السَّلِيمي ، فجَعلَ يَقولُ : لَيتَ عَطاء لَمْ تَلِدهُ أمُّه ، وكَرَّرَ ذلكَ حتَّى اصْفَرَّت الشَّمسُ[4] .

وقالَ صالحُ الْمُريُّ : قُلتُ له : يا شَيخُ قد خَدعَكَ إبْليسُ ، فلَوْ شَرِبْتَ ما تَقْوَىٰ به علىٰ صَلاتِكَ ووُضُوئك ؟ فأعْطَاني ثَلاثَةَ دَراهِمَ ، وقالَ : تَعاهَدْني كُلَّ يَومٍ بشَرْبةِ سَويق ، فشَربَ يَومَين وتَركَ ، وقالَ : يا صالحُ إذا ذُكرَتْ جَهنَّمُ ، ما يَسَعُني طَعامٌ ولا شَرابٌ[5] .

عن عُبيد الله العَيْشي قال : كان هِشامُ الدَّسْتُوائي إذا فُقِدَ السِّراجُ من بَيتِه ، يَتمَلمَلُ علىٰ فِراشِه ، فكانَت امْرأتُه تَأتيهِ بالسِّراجِ ، فقالَت له في ذلك ، فقالَ : إنِّي إذا فَقدتُ السِّراجَ ، ذَكرتُ ظُلمَةَ القَبرِ[6] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٩١ .
(٢) انظر السير : (هارون بن رئاب) ٥/ ٢٦٣ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٠٠ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن أبي كَثير) ٦/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٢٧ .
(٤) انظر السير : (عَطاء السَّلِيمي) ٦/ ٨٦ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٣٤ .
(٥) انظر السير : (عَطاء السَّلِيمي) ٦/ ٨٦ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٣٤ .
(٦) انظر السير : (هِشام الدَّسْتُوائي) ٧/ ١٤٩ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٨٧ .

وعن عبدِ الله بنِ خُبَيق ، قالَ يُوسُفُ بنُ أسْباطٍ : كانَ سُفيانُ إذا أخَذَ في ذِكْرِ الآخِرَةِ يَبُولُ الدَّمَ[1] .

وقالَ ابنُ مَهْدي : كُنتُ أرْمُقُ سُفْيانَ في اللَّيلَةِ بعدَ اللَّيلَةِ ، يَنْهَضُ مَرْعوباً يُنادِي : النَّار النَّار ، شَغَلني ذِكرُ النَّارِ عن النَّومِ والشَّهَوَاتِ[2] .

وقالَ ابنُ أبي الدُّنيا : حدَّثني عبدُ الصَّمَد بنُ يَزيد ، عن فُضَيلِ ابنِ عِياض قالَ : بَكَىٰ عَليٌّ ابني ، فقُلتُ : يا بُنَيَّ ما يُبكِيكَ ؟ قالَ : أخافُ ألاَّ تَجْمَعَنا القيامَةُ[3] .

وعن عبدِ الصَّمَد بنِ يَزيد ، سَمعتُ الفُضَيلَ يَقولُ : أشْرَفتُ لَيلَةً علىٰ عَليٍّ ، وهو في صَحْن الدَّار ، وهو يَقولُ : النَّار ، ومَتَى الخَلاصُ من النَّارِ ؟ وقالَ لي : يا أبَتِ سَلِ الذي وَهَبَني لكَ في الدُّنيا أنْ يَهَبَني لكَ في الآخِرَة ، ثم قالَ : لَمْ يَزَلْ مُنْكَسِرَ القَلبِ حَزيناً ، ثُمَّ بَكَى الفُضَيلُ ، ثُمَّ قالَ : كانَ يُسَاعِدُني على الحُزْنِ والبُكَاءِ ، يا ثَمَرَةَ قَلبي ، شَكرَ اللهُ لكَ ما قَدْ عَلِمَه فيكَ[4] .

وقالَ أبو سُلَيمان الدَّاراني : كانَ عَليُّ بنُ الفُضَيل لا يَستطيعُ أنْ يَقْرأَ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾[5] ولا تُقْرأُ عليه[6] .

ويقولُ صالِح عن الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَلَ : وكنتُ أسْمَعُه كَثيراً يقولُ : اللَّهُمَّ سلِّم سلِّم[7] .

وقالَ المروذي : كان أبو عبد الله ، أحمدُ بنُ حَنْبَلَ ، إذا ذُكِرَ الْمَوْتُ خَنقَتهُ العَبرَةُ ، وكانَ يَقولُ : الخَوفُ يَمْنَعُني أكْلَ الطَّعامِ والشَّرابِ ، وإذا ذَكرتُ الْمَوْتَ هانَ

---

(١) انظر السير : (سُفْيانَ الثَّوري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٦/ ٤ .
(٢) انظر السير : (سُفْيانَ الثَّوري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧٠٠/ ٢ .
(٣) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل بن عِياض) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٠/ ٤ .
(٤) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل بن عِياض) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨١/ ١ .
(٥) سورة القارعة (١) .
(٦) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل بن عِياض) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨١/ ٣ .
(٧) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٢٧/ ٥ .

عليَّ كلُّ أمْرِ الدُّنيا ، إنَّما هو طَعامٌ دُونَ طَعامٍ ، ولِبَاسٌ دُونَ لِبَاسٍ ، وإنَّها أيَّامٌ قَلائلُ ، ما أعْدِلُ بالفَقْرِ شَيئاً ، ولَوْ وَجَدتُ السَّبيلَ لَخَرَجتُ حتَّىٰ لا يَكون لي ذِكرٌ[1] .

وقالَ الحاكِمُ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ حَمْدونَ يَقولُ : رَأيتُ أبا بَكْر الصِّبْغيَّ غَيرَ مرَّة عَقيبَ الآذانِ يَدعُو ويَبْكي ، ورُبَّما كانَ يَضربُ برأسِه الحائِطَ حتَّىٰ خَشيتُ يَوماً أنْ يُدْمِيَ رَأسَه ، وما رَأيتُ في جَماعَةِ مَشايِخِنا أحْسَنَ صَلاةً منه ، وكانَ لا يَدَعُ أحَداً يَغْتابُ في مَجلِسِه[2] .

الصِّدْق

١ـ تَعْريفُ الصِّدْق :

عن النَّهْرَجُوريِّ قالَ : الصِّدقُ مُوافَقَةُ الحَقِّ في السِّرِّ والعَلانيَة ، وحَقيقَةُ الصِّدقِ القَولُ بالحَقِّ في مَواطِنِ الهَلكَةِ[3] .

٢ـ الصِّدقُ مَنْجَاة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ كعْبِ بنِ مالِك : ابنُ أبي كعْب ، الأنْصاريُّ ، الخَزْرَجيُّ ، العَقَبيُّ الأُحُديُّ .

شاعِرُ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وصاحِبُه ، وأحَدُ الثَّلاثَة الذين خُلِّفوا ، فتَابَ اللهُ عليهم .

قالَ ابنُ أبي حاتِم : كانَ كعْبٌ من أهْلِ الصُّفَّة ، وذَهَبَ بَصَرُهُ في خِلافَةِ مُعاوِيَة[4] .

قالَ عبدُ الرحْمَـٰن بنُ كعْب ، عن أبيه : أنَّه قالَ : يا رَسولَ الله ، قد أنْزَلَ اللهُ في

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٩٢٩ .
(٢) انظر السير : (الصِّبْغي) ١٥/ ٤٨٣ـ ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٥١ .
(٣) انظر السير : (النَّهْرَجُوريِّ) ١٥/ ٢٣٢ـ ٢٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٢٤ .
(٤) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٩٩ .

الشُّعَراءِ ما أنْزَلَ قالَ : « إنَّ الْمُجَاهِدَ ، مُجَاهِدٌ بِسَيْفِهِ ولِسَانِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكأنَّمَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحَ النَّبْلِ »[1] .

قالَ ابنُ سِيرينَ ، أمَّا كعْبٌ ، فكانَ يَذْكُرُ الحَربَ ، يَقولُ : فَعلنا ونفعلُ ويتهدَّدُهم ، وأمَّا حَسَّانُ ، فكانَ يَذكرُ عُيوبَهم ، وأيَّامَهم وأمَّا ابنُ رَوَاحَة ، فكانَ يُعَيِّرُهم بالكُفْر[2] .

وقد أسْلَمت دَوْسٌ فَرَقاً من بيتٍ قالَه كعْبٌ[3] :

نخيرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوساً أو ثقيفا

ماتَ كعْبٌ سَنةَ أرْبَعين[4] .

عن عبدِ الرحمَٰنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ كَعْبٍ ، عن أبيه : سَمعتُ كعْباً يقولُ : لَمْ أتَخَلَّفْ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في غَزْوةٍ ، حتىٰ كانت تَبُوك إلاَّ بَدْراً ، وما أُحِبُّ أنِّي شَهِدتُها ، وفاتَتْنِي بَيْعَتي ليلةَ العَقَبَة[5] وقَلَّما أرَادَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم غَزْوةً إلاَّ وَرَّىٰ عنها بغيرِها ، فأرَادَ في غَزْوَةِ تَبُوك أنْ يَتَأهَبَ النَّاسُ أُهبةً وكنتُ أَيْسَرَ ما كنتُ ، وأنا في ذلك أَصْغُو[6] إلى الظِّلالِ وطَيِّبِ الثِّمَارِ ، فلَمْ أَزَلْ كذلك حتىٰ خَرَجَ فقُلتُ : أَنْطَلِقُ غداً ، فأَشْتَري جَهَازِي ، ثم أَلْحَقُ بهم فانْطَلَقْتُ إلى السُّوقِ ، فعَسُرَ

---

(١) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢٩٩ .

(٢) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٠٠ .

(٣) قوله : « نُخَيِّرُها » ، الضَميرُ يعودُ إلى السُّيوفِ في البيتِ الذي قَبلَه ، وهو :

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

أي نعطيها الخيرة ، ولو نطقت ، لاختارت أن نحارب دَوْساً أو ثَقيفاً ، وهما من قصيدة أوردها ابنُ هشام في « السِّيرَة » (٢/ ٤٧٩ ، ٤٨٠) قالها كعْبُ حينَ فَرغَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأجْمَعَ الْمَسيرَ إلى الطَّائف .

(٤) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٠٠ .

(٥) في البخاري ومسلم : ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها .

(٦) أصغو : أميل .

عليَّ ، فرَجَعتُ ، فقُلتُ : أرْجِعُ غَداً فلَمْ أَزَلْ حتى الْتَبَسَ بي الذنْبُ ، وتَخَلَّيْتُ ، فجعَلتُ أمشِي في أَسْواقِ المدِينَةِ ، فيُحْزِنُنِي أنِّي لا أَرَىٰ إلاَّ مَغْمُوصاً[1] عليه في النِّفاقِ ، أو ضَعِيفاً وكان جَميعُ مَنْ تَخَلَّفَ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِضْعَةً وثَمانِينَ رَجُلاً[2] .

ولمَّا بَلَغَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَبُوك ذَكَرَنِي ، وقال : « ما فَعَلَ كعْبٌ ؟ » فقال رجُلٌ من قَوْمِي : خَلَّفَهُ يا نَبيَّ اللهِ بُرداهُ ، والنَّظَرُ في عِطْفَيْه ، فقال مُعاذٌ : بِئْسَ ما قُلتَ : واللهِ ما نَعْلمُ إلاَّ خَيْراً .

إلىٰ أنْ قال : فلَمَّا رَآنِي صلى الله عليه وسلم تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَب وقال صلى الله عليه وسلم : « ألَمْ تَكن ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » قُلتُ : بلَىٰ قال : « فمَا خَلَّفَكَ ؟ » قُلتُ : واللهِ لَوْ بَينَ يَدَي أَحَدٍ غَيرِك جَلَسْتُ لخَرَجْتُ من سُخْطِهِ عليَّ بعدُ ، لقد أُوتِيتُ جَدَلاً ، ولكنْ قد عَلِمتُ يا نَبيَّ الله أنِّي أُخْبِرُكَ اليومَ بقَولٍ تَجِدُ عليَّ فيه وهُوَ حَقٌّ فإنِّي أَرْجُو فيه عُقْبَى الله .

إلىٰ أنْ قالَ : والله ما كُنتُ قَطُّ أَيْسَرَ ولا أَخَفَّ حاذاً[3] منِّي حين تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فقَالَ صلى الله عليه وسلم : « أمَّا هـٰذا فَقَدْ صَدَقَكم ، قُمْ حتىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » فقُمتُ .

إلىٰ أن قال : ونَهىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ[4] .

فجعلتُ أخرجُ إلى السوق ، فلا يُكلِّمني أحدٌ ، وتَنكَّرَ لنا الناسُ ، حتىٰ ما هُم بالذين نعرفُ ، وتَنكَّرَت لنا الحيطانُ والأرضُ ، وكنتُ أطوفُ وآتي المسْجدَ ، فأدخلُ

---

(١) أي مطعوناً عليه في دينه ، متهماً بالنفاق ، وقيل : معناه مستحقراً ، فتقول غمصتُ فلاناً إذا استحقرته .

(٢) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/٣٠٠ .

(٣) الحاذ : الحال .

(٤) أيُّها الثلاثةُ : مبني على الضم في محل نصب على الاختصاص ، أي : مختصين بذلك دون بقية الناس .

وآتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأسَلِّمُ عليه ، فأقولُ هل حَرَّكَ شَفَتَيه بالسلامِ!! ؟[1] .

واسْتَكانَ صاحِبَايَ[2] ، فجَعَلا يَبكيانِ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يُطْلِعانِ رُؤوسَهما! فبَيْنا أنا أطُوفُ بالسُّوقِ إذا بنَصْرانيٌّ جاءَ بطَعامٍ ، يَقولُ : مَنْ يَدلُّ علىٰ كعْب ؟ فدَلُّوهُ عَليَّ! ، فأتَاني بصَحيفَةٍ من مَلِكِ غَسَّانَ ، فإذا فيها : أمَّا بَعدُ فإنَّه بَلَغني أنَّ صاحِبَك قد جَفَاكَ ، وأقْصَاكَ ، ولَسْتَ بدَارِ مَضْيَعَة ولا هَوَانٍ ، فالْحَقْ بنا نُواسِكْ فسَجَّرتُ لها التَّنُّورَ وأحْرَقتُها .

إلىٰ أنْ قالَ : إذ سَمعتُ نداءً من ذِرْوَة سَلْعٍ[3] : أبْشِرْ يا كعْبُ بنُ مالِك فخَرَرْتُ ساجِداً ، ثم جاءَ رَجلٌ علىٰ فَرَس يُبَشِّرُني ، فكانَ الصَّوتُ أسْرَعَ من فَرسِه ، فأعْطَيتُه ثَوْبَيَّ بِشارَةً ، ولَبِستُ غيرَهُما .

ونزَلَتْ تَوبَتُنا على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ثُلثَ اللَّيلِ ، فقالَت أمُّ سَلمَة : يا نَبيَّ الله ، ألا نُبَشِّرُ كعْباً ؟ قالَ : « إذاً يَحْطِمُكمُ النَّاسُ وَيَمْنَعُونَكمُ النَّوْمَ » قالَ : فانْطَلقتُ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو جالِسٌ في المسجِدِ ، وحولَه المسلمونَ ، وهو يَسْتَنيرُ كاسْتِنارَةِ القَمَرِ ، فقالَ : « أَبْشِرْ يَا كعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ أَتَىٰ عَلَيْكَ » ، ثُمَّ تَلا عَلَيْهِمْ : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية[4] .

وفينا نزَلت أيْضاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[5] .

فقُلتُ : يانَبيَّ الله إنَّ مِنْ تَوْبَتي ألاَّ أُحَدِّثَ إلاَّ صِدْقاً ، وأنْ أنْخَلِعَ من مَالي كُلِّه صَدقَةً ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » الحديث[6] .

---

(١) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣٠٠/ ٤ .
(٢) وهما : مِرارَةُ بنُ الرَّبيع العمريّ ، وهِلالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفيّ .
(٣) سلع : جبل بالمدينة.
(٤) سورة التوبة ، الآية : ١١٧ .
(٥) سورة التوبة ، الآية : ١١٩ .
(٦) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣٠١/ ١ .

وفي لَفظٍ ، فقَامَ إليَّ طَلحَةُ يُهَرْوِلُ ، حتَّىٰ صافَحَني وهَنَّأني ، فكانَ لا يَنْسَاها لِطَلْحَة[1] .

وقالَ الأصْمَعيُّ : أتَىٰ رَجلٌ الحَجَّاجَ فقالَ : إنَّ رِبْعِيَّ بنَ حِرَاش زَعَمُوا لا يَكذِبُ ، وقدْ قدمَ وَلَدَاهُ عاصِيَيْن قالَ : فبَعثَ إليه الحَجَّاجُ فقالَ : ما فَعلَ ابْناكَ ؟ قالَ : هُما في البَيتِ والله الْمُسْتَعانُ فقالَ له الحَجَّاجُ بنُ يُوسُف : هُما لكَ وأعْجَبَهُ صِدْقُه[2] .

٣ـ مِنْ صِفَاتِ الصَّادِق :

عن يُوسُفَ بنِ أسْباط قالَ : للصَّادِقِ ثلاثُ خِصالٍ : الحَلاوَةُ ، والْمَلاحَةُ ، والْمَهَابَة .

وعنه : خُلقَت القُلوبُ مَساكِنَ للذِّكْرِ ، فصارَت مَساكِنَ للشَّهَواتِ لا يَمحُو الشَّهَوَاتِ إلاَّ خَوفٌ مُزْعِجْ ، أو شَوقٌ مُقْلِقْ ، الزُّهدُ في الرِّئاسَة أشَدُّ منه في الدُّنيا[3] .

٤ـ الصِّدْقُ زِينَة :

قالَ عبدُ الصَّمَد بنُ يَزيد مَرْدَوَيْه : سَمعتُ الفُضَيلَ يَقولُ : لَمْ يَتزيَّن النَّاسُ بشَيءٍ أفْضَلَ من الصِّدْقِ ، وطَلَبِ الحَلالِ فقالَ ابنُه عَليٌّ : يا أبَتِ إنَّ الحَلالَ عَزيزٌ قالَ : يا بُنَيَّ ، وإنَّ قَليلَه عندَ الله كَثيرٌ[4] .

٥ـ التَّخَلُّصُ الحَسَنُ صِدْقٌ :

قالَ أبو القاسِم بنُ عَسَاكر : قَرأتُ في كتابِ أبي الحُسَين الرَّازي ـ يَعْني والِدَ تَمَّام ـ قالَ : سَمعتُ جَماعَةً قالوا : لَمَّا اتَّصلَ الخَبرُ بأبي أحمَد الوَاثِق ، أنَّ أحمَدَ بنَ طُولُونَ قد خَلعَه بدِمَشْقَ ، أمَرَ بلَعنِ أحمَدَ بنِ طُولُونَ على الْمَنابِرِ ، فلَمَّا بلغَ أحمَدَ ، أمَرَ بلَعْنِ

---

(١) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٠٢ .
(٢) انظر السير : (رِبْعِيُّ بن حِرَاش) ٤/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥١٠ .
(٣) انظر السير : (يُوسُف بن أسْباط) ٩/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨١٤ .
(٤) انظر السير : (الفُضَيل بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٧٣ .

الْمُوَفَّق على الْمَنابِرِ بمِصْرَ والشَّامِ ، كانَ أبو زُرْعَة محمَّدُ بنُ عُثْمانَ القَاضي مِمَّنْ خَلَعَ الْمُوَفَّقَ ـ يَعني من وِلايَةِ العَهْد ـ ولَعنَه ، ووَقَفَ عند الْمِنْبَرِ بدِمَشْقَ ، ولَعنَه ، وقالَ : نَحنُ أهلُ الشَّامِ ، نَحنُ أهْلُ صِفِّينَ ، وقد كانَ فينا مَنْ حَضَرَ الجَملَ ، ونَحنُ القائمُونَ بمَنْ عانَدَ أهْلَ الشَّامِ ، وأنا أُشْهِدُكُم أنِّي قد خَلعتُ أبا أحمَقَ ـ يَعني أبا أحمَدَ ـ كمَا يُخلَعُ الخَاتم من الإصْبَع ، فالْعَنوه لَعنَه الله»[1] .

قالَ الرَّازيُّ : وحدَّثني إبراهيمُ بنُ مُحمَّد بنِ صالِح ، قالَ : لَمَّا رَجَعَ أحمَدُ بنُ الْمُوَفَّق من مَوقِعَةِ الطَّوَاحينَ إلىٰ دِمَشْقَ ، من مُحارَبَة خُمَارَوَيه ابنِ أحمَدَ بنِ طُولُونَ ـ يَعني بَعدَ مَوتِ أبيه أحمَدَ ، وذلكَ في سَنةِ إحْدَىٰ وسَبعينَ ـ قالَ لأبي عبدِ الله الوَاسِطيّ : انْظُر ما انْتَهىٰ إليكَ مِمَّنْ كانَ يَبغَضُنا فليُحْمَل فحُملَ يَزيدُ بنُ عبدِ الصَّمَد ، وأبو زُرْعَة الدِّمَشقيّ ، والقاضي أبو زُرْعَة بنُ عُثْمانَ ، حتَّىٰ صارُوا بهم مُقَيَّدينَ إلىٰ أنْطَاكيَة ، فبَينا أحمَدُ بنُ أبي الْمُوَفَّق ـ وهو الْمُعْتَضِدُ ـ يَسيرُ يَوماً ، إذ بَصُرَ بمَحامِلِ هَؤلاء ، فقالَ لِلوَاسِطيِّ : مَنْ هَؤلاءِ ؟ قالَ : أهْلُ دِمَشْقَ قالَ : وفي الأحْياءِ هُم ؟! إذا نَزَلتُ فاذْكُرني بهم .

قالَ ابنُ صالِح : فحدَّثنا أبو زُرْعَة الدِّمَشْقيّ ، قالَ : فلمَّا نَزلَ ، أُحْضِرْنا بعدَ أنْ فُكَّت القُيودُ ، وأُوقِفْنا مَذْعُورينَ ، فقالَ : أيُّكُم القائلُ : قد نَزَعتُ أبا أحْمَقَ ؟ قالَ : فرَبَت ألسنتُنا حتىٰ خُيِّلَ إلَيْنا أنَّنا مَقْتولُونَ ، فأمَّا أنا : فأُبْلِستُ[2] وأمَّا ابنُ عبدِ الصَّمَد : فخَرِسَ ، وكانَ تَمْتاماً ، وكانَ أبو زُرْعَة القاضي أحْدَثنا سِنّاً ، فقالَ : أصْلَحَ اللهُ الأميرَ فالْتَفتَ إليه الوَاسِطيُّ ، فقالَ : أمْسِكْ حتَّىٰ يَتكلَّمَ أكْبَرُ مِنْكَ ثم عَطَفَ عَلينا ، وقالَ : مَاذا عِنْدَكم ؟ فقُلنا : أصْلَحَكَ اللهُ! هَـٰذا رَجلٌ مُتكَلِّمٌ يتكلَّمُ عَنَّا ، قالَ : تَكلَّم فقالَ : واللهِ ما فينا هَاشِميٌّ ، ولا قُرَشيٌّ صَحيحٌ ، ولا عَربيٌّ فَصيحٌ ، ولَكنَّا قَومٌ مُلِكْنا حتَّىٰ قُهِرْنا ورَوَىٰ أحَاديثَ كَثيرَة عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في السَّمْعِ والطَّاعَة ، في

---

(١) انظر السير : (أبو زُرْعَة الدِّمَشْقيّ) ١٣/ ٣١١ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٩ .

(٢) الإبْلاس : الانكسار والحُزن ، والمبلس : اليائس المنقطع رجاؤه ، ولذلك قيل الذي يسكت عن انقطاع حُجَّتِه ولا يكون عنده جَواب : قد أُبْلس .

الْمَنْشَطِ والْمَكْرَهِ ، وأحَاديثَ في العَفْوِ والإحْسَانِ ، وكانَ هُو الذي تَكلَّمَ بالكَلِمَة التي نُطالَبُ بخِزْيِها ، ثُمَّ قالَ : أصْلَحَ اللهُ الأميرَ ، وأُشْهِدُكَ أنَّ نِسْوَاني طَوَالِق ، وعَبيدي أحْرارٌ ، ومالي حَرامٌ إنْ كانَ في هَؤلاءِ القَومِ أحَدٌ قالَ هـٰذه الكَلمَة ، ووَراءَنا عِيالٌ وحُرَمٌ ، وقد تَسامَعَ النَّاسُ بهَلاكِنا ، وقد قَدَرْتَ ، وإنَّما العَفوُ بعدَ الْمَقْدِرَةِ فقالَ للوَاسِطيِّ : يا أبا عبدِ الله! أطْلِقْهُم ، لا كَثَّر اللهُ في النَّاسِ مثلَهم فأطْلَقَنا ، فاشْتَغلتُ أنا ويَزيدُ بنُ عبد الصَّمَد عندَ عُثمانَ بنِ خُرَّزَاذ في نُزَهِ أنْطاكيَة وطِيبِها وحَمَّاماتِها ، وسَبقَ أبو زُرْعَة القاضي إلىٰ حِمْصَ .

ماتَ أبو زرعة النَّصْرِيُّ سَنةَ إحْدَىٰ وثَمانينَ ومِئتَين[1] .

وقالَ الحافِظُ عبدُ الغَني : لَمَّا تَلقَّىٰ أبو الطَّاهِر الذُّهْليُّ الْمُعِزَّ أبا تَميم بالإسْكَندَريَّة سألَه الْمُعِزُّ ، فقالَ : يا قاضي ، كَمْ رَأيتَ من خَليفَة ؟ قالَ : واحدٌ : قالَ : مَنْ هُوَ ؟ قالَ : أنْتَ ، والبَاقُونَ مُلوك ، فأعْجَبَه ذلك ، ثم قالَ له : أحَجَجْتَ ؟ قالَ : نَعَم ، قالَ : وسَلَّمْتَ على الشَّيْخَينِ ؟ قالَ : شَغَلني عَنهما النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كمَا شَغلَني أميرُ المؤمنينَ عَنْ وَليِّ عَهدِه ، فازْدَادَ به الْمُعِزُّ إعْجاباً ، وتَخلَّصَ من وَليِّ العَهْدِ إذْ لَمْ يُسلِّمْ عليه بحضْرَةِ الْمُعِزِّ فأجازَه يَومَئذ بعَشْرَة آلافِ دِرْهَم .

ولَمْ يَزلْ أمْرُه مُستقيماً إلىٰ أنْ لَحِقَتْهُ علَّة عَطَّلت شِقَّه في سَنةِ سِتٍّ وسِتِّينَ وثَلاثِ مئة ، فقلَّدَ العَزيزُ صاحِبُ مِصْرَ القَضاءَ حينئذ عَليَّ بنَ النُّعْمان .

ماتَ سَنةَ سَبعٍ وسِتِّينَ وثَلاثِ مِئة[2] .

وقامَ إلى ابنِ الجَوْزيِّ رَجلٌ بَغيضٌ ، فقالَ : ياسَيِّدي : نُريدُ كَلمَةً نَنْقُلها عَنكَ ، أيُّهما أفْضَلُ أبو بَكر أو عَليّ ؟ فقالَ : اجْلِسْ ، فجَلسَ ، ثم قامَ ، فأعادَ مَقالَه ، فأقْعَدَه ، ثم قامَ ، فقالَ : اقْعُد ، فأنْتَ أفْضَلُ[3] . مِنْ كُلِّ أحَدٍ[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو زُرْعَة الدِّمَشْقيّ) ١٣/ ٣١١ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٨٩ .

(٢) انظر السير : (الذُّهْليُّ) ١٦/ ٢٠٤ـ ٢١٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٨ .

(٣) يعني من الفُضول . .

(٤) انظر السير : (أبو الفَرَج بن الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٤ . =

وقالَ القاضي ابنُ وَاصِل : سُئلَ ابنُ الجَوْزيّ والخَليفَةُ يَسمَعُ : « مَنْ أفْضَلُ النَّاسِ بعدَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم » ؟ قالَ : « أفْضَلُهم بعدَه مَنْ كانَت بِنتُه تَحتَه » وهـٰذا جَوابٌ جيِّدٌ يَصْدُقُ علىٰ أبي بَكر وعلىٰ عَليٍّ[1] .

٦ـ المَعَارِيضُ صِدْقٌ :

قالَ مُغيرَةُ : كانَ إبْراهيمُ النَّخَعيُّ إذا طَلبَه إنْسانٌ لا يُحِبُّ لِقاءَه خَرجَت الجَارِيَة ، فقَالَت : اطْلُبُوهُ في الْمَسْجِد[2] .

وعن إبْراهيمَ ، قالَ : أتىٰ رَجلٌ ، فقالَ : إنِّي ذَكرتُ رَجُلاً بشَيء فبَلغَه عَنِّي ، فكَيفَ أعْتَذرُ إليه ؟ قالَ : تَقولُ : والله إنَّ اللهَ لَيعلَمُ ما قُلتُ مِنْ ذلكَ مِنْ شَيء[3] .

وعنْ إسْحاقَ بنِ هانىء قالَ : كُنَّا عندَ أحمَدَ بنِ حَنْبَل في مَنزِله ، ومَعه الْمَروذيُّ ، ومُهنّىٰ ، فدَقَّ داقٌّ البابَ ، وقالَ : آلْمَروذيُّ هَا هُنا ؟ فكأنَّ الْمَرُّوذيَّ كرِهَ أنْ يُعلَمَ مَوْضِعُه ، فوَضَعَ مُهنَّىٰ أصْبُعَه في راحَتِه ، وقالَ : لَيسَ الْمَرُّوذيُّ هَا هُنا ، وما يَصنَعُ الْمَرُّوذيُّ هَا هُنا ؟ فضَحِكَ أحْمَدُ ، ولَمْ يُنْكِرْ[4] .

المُحَاسَبَة

١ـ صُوَرٌ علىٰ مُحاسَبة النَّفْس :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الأحْنَفِ بنِ قَيْس : عاشَت بنو تَميم بحِلْمِ الأحْنَفِ بنِ قَيس أرْبَعينَ سَنةً ، وقيلَ للأحْنَفِ : إنَّك كَبيرٌ والصَّومُ يُضْعِفُك قالَ : إنِّي أُعِدُّه لسَفرٍ طَويلٍ وقيلَ : كانَت عَامَّةُ صَلاةِ الأحْنَفِ باللَّيلِ ، وكانَ يَضعُ أصْبُعَه على الْمِصْباحِ ، ثم يقولُ : حَسٍّ[5] ويَقولُ : ما حَملَكَ يا أحْنَفُ علىٰ أنْ صَنعتَ كَذا يومَ كَذا[6] .

---

(١) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٨٥ .
(٢) انظر السير : (إبْراهيمُ النَّخَعيُّ) ٤/ ٥٢٠ـ ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٦/٥٤٩ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيمُ النَّخَعيُّ) ٤/ ٥٢٠ـ ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٦/٥٤٩ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٥/٩٤٧ .
(٥) كلمة تُقالُ عند الألم .
(٦) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٥١ .

٢ـ مُحاسَبَة الله دَقيقَة :

عن يَحْيَىٰ بنِ مُعَاذ ، قالَ : الدُّنيا لا تَعدِلُ عندَ الله جَناحَ بَعُوضَة ، وهو يَسألُكَ عن جَناحِ بَعُوضَة[١] .

المُراقَبَة

عن حاتِمِ الأصَمِّ قالَ : تَعاهَدْ نفسَك في ثَلاثٍ : إذا عَملتَ ، فاذْكُرْ نَظَرَ اللهِ إليكَ ، وإذا تَكلَّمتَ فاذْكُرْ سَمعَ الله مِنكَ ، وإذا سَكتَّ فاذْكُرْ عِلمَ اللهِ فيكَ[٢] .

حُسْنُ الخُلُق

١ـ حُسْنُ الخُلُق مَطْلوب :

قالَ عبدُ الغَني : وسَمعتُ الوَزيرَ أبا الفَرج يَعقُوبَ بنَ يُوسُف يَقولُ : قالَ لي الأسْتاذُ كافُور : اجْتَمِعْ بالقاضي أبي الطَّاهر الذُّهْليِّ فسلِّمْ عليه وقُلْ له : إنَّه بَلغَني أنَّكَ تَنبَسِطُ مع جُلَسَائك وهٰذا الانْبِسَاطُ يُقلُّ هَيْبَةَ الحُكْم ، فأعْلَمتُه بذلك ، فقالَ : قُلْ للأسْتاذِ : لَسْتُ ذا مَالٍ أفيضُ به علىٰ جُلَسائي ، فلا أقَلَّ من خُلُقي ، فأخْبَرتُ الأسْتَاذَ ، فقالَ : لا تُعاوِدْهُ[٣] .

٢ـ صُوَرٌ علىٰ حُسْنِ الخُلُق :

قالَ يَحْيَىٰ بنُ مَنْدَه : كانَ عَمِّي عبدُ الرَّحْمَٰن بنُ مَنْدَه سَيفاً علىٰ أهْلِ البدَع ، وهو أكبَرُ من أن يُثنيَ عليه مثلي ، كانَ ـ واللهِ ـ آمراً بالْمَعْرُوفِ ، ناهياً عن الْمُنْكر ، كَثيرَ الذِّكْر ، قاهِراً لنَفسِه ، عَظيمَ الحِلْمِ ، كَثيرَ العِلمِ ، قَرأتُ عليه قَولَ شُعْبَة : مَنْ كَتبتُ عنه حَديثاً فأنا له عَبدٌ فقالَ عَمِّي : مَنْ كَتبَ عَنِّي حَديثاً فأنا له عَبدٌ[٤] .

---

(١) انظر السير : (يَحْيَى بن مُعاذ) ١٣/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٤٧ .
(٢) انظر السير : (حاتِمْ الأصَمّ) ١١/ ٤٨٤ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٦٠ .
(٣) انظر السير : (الذُّهْلِيُّ) ١٦/ ٢٠٤ـ ٢١٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٨٨ .
(٤) انظر السير : (ابنُ مَنْدَه) ١٨/ ٣٤٩ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤١٩ .

وقال خَطيبُ الْمَوْصِلِ أبو الْمُفَضَّل : حدَّثني أبي قالَ : تَوجَّهتُ من الْمَوْصِلِ سَنةَ تِسْعٍ وخَمْسينَ وأرْبع مئة إلىٰ أبي إسْحاقَ الشِّيرازي فلمَّا حَضرتُ عندَه رَحَّبَ بي ، وقالَ : مِنْ أين أنْتَ ؟ فقُلتُ : من الْمَوْصِلِ قالَ : مَرْحباً أنتَ بَلدِيِّ ، قُلتُ : يا سَيدنا! أنتَ مِنْ فَيْرُوزَاباد قالَ : أمَا جَمعَتنا سَفينَةُ نُوحٍ ؟ فشاهَدتُ من حُسْنِ أخْلاقِه ولَطافَتِه وزُهدِه ما حَبَّبَ إليَّ لُزومَه فصَحبتُه إلىٰ أنْ ماتَ .

تُوفِّيَ سنة ستٍّ وسَبعين وأربع مئة ببغداد ، وأُحضِرَ إلىٰ دارِ أمير المؤمنينَ الْمُقْتَدي بالله فصلَّىٰ عليه[1] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الشِّيرازي) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣١ .

مِنْ أخْلاقِ المُؤمِنين

الاحْتِمَال

١ـ فَضْلُ الاحْتِمَال :

قالَ هِشامُ بنُ عُرْوَة بنِ الزُّبَيْر : قالَ أبي : رُبَّ كَلمَةٍ ذُلٍّ احْتَمَلتُها أوْرَثَتني عِزّاً طَويلاً[١] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الشَّجريِّ : وكان فَصيحاً حُلوَ الكَلام ، وَقُوراً ذا سَمتٍ ، لا يَكادُ يَتكلَّم في مَجلسِه بكلمةٍ إلاَّ وتَتَضمَّنُ أدَبَ نَفسٍ أو أدَبَ دَرسٍ ، ولقد اخْتَصمَ إليه عَلويّان فقال أحدُهما : قال لي : كَذا وكَذا قال : يا بُنَيَّ احْتمِلْ ، فإنَّ الاحْتمالَ قَبرُ المَعايب .

تُوفِّي سَنةَ اثنتين وأربَعين وخَمس مئة ، ودُفِنَ بدارِه[٢] .

٢ـ صُوَرٌ على الاحْتِمَال :

جاءَ في تَرجَمَةِ الْمُوَفَّقِ ابنِ قُدامَة الْمَقْدِسيِّ ، قالَ الضِّياءُ : وبقي الْمُوَفَّقُ يَجلِسُ زَماناً بعدَ الجُمُعَة للمُناظَرَة ، ويَجتَمعُ إليه الفُقَهاءُ ، وكانَ يُشغَلُ[٣] إلى ارْتِفاعِ النَّهارِ ، ومن بعدِ الظُّهْرِ إلى الْمَغْرِبِ ، ولا يَضجَرُ ، ويُسَمِّعُونَ عليه ، وكان يُقرىءُ في النَّحْوِ ، وكانَ لا يَكادُ يَراهُ أحَدٌ إلاَّ أحَبَّه إلىٰ أنْ قالَ الضِّياءُ : وما عَلمتُ أنَّه أوْجَعَ قَلبَ طَالِبٍ ، وكانت له جارِيَةٌ تُؤذيه بخُلُقِها فما يَقولُ لها شَيئاً ، وأوْلادُه يَتضارَبون وهو لا يتَكلَّمُ ، وسَمعتُ[٤] البَهاءَ يَقولُ : ما رَأيتُ أكثرَ احْتِمالاً منه[٥] .

---

(١) انظر السير : (عُرْوَة بنُ الزُّبَيْر) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٥/٥٢٨ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الشَّجريّ) ٢٠/ ١٩٤ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٠ .

(٣) الإشغال : التدريس وهو غير (الاشتغال) بمعنى الطلب وهٰذه اصطلاحات معروفة عند المتأخرين .

(٤) السماع للضياء ، هو الذي بعده من الحكايات .

(٥) انظر السير : (ابنُ قُدامَة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٨١ .

الإحْسَان

صُوَرٌ من الإحْسَان :

عن عُمَرَ بنِ محمَّد بنِ زَيْد ، عن أبيه : أنَّ ابنَ عُمَرَ كاتَبَ غُلاماً له بأرْبَعينَ ألفاً ، فخَرجَ إلى الكُوفَة ، فكانَ يَعمَلُ علىٰ حُمُرٍ له ، حتَّىٰ أدَّىٰ خَمسَةَ عَشرَ ألفاً ، فجاءَه إنْسانٌ ، فقالَ : أمَجنونٌ أنتَ ؟ أنتَ هَا هُنا تُعذِّبُ نَفسَكَ وابنُ عُمَرَ يَشتَري الرَّقيقَ يَميناً وشِمالاً ، ثم يُعْتِقُهم ، ارْجِعْ إليه ، فقُلْ : عَجَزتُ فجاءَ إليه بصَحيفَة ، فقالَ : يا أبا عبدِ الرَّحمَـٰن! قد عَجزْتُ وهـٰذه صَحيفَتِي ، فامْحُها فقالَ : لا ، ولكنْ امْحُها أنتَ إنْ شِئْتَ فمَحاها ، ففاضَتْ عَينا عبدِ الله ، وقالَ : اذْهَبْ فأنتَ حُرٌّ قالَ : أصْلَحَكَ اللهُ ، أحْسِنْ إلى ابنَيَّ قالَ : هُما حُرَّان قالَ : أصْلَحكَ اللهُ ، أحْسِنْ إلىٰ أُمَّيْ وَلَدَيَّ قالَ : قالَ : هُما حُرَّتان[1] .

وعن نافعٍ ، قالَ : مَرِضَ ابنُ عُمرَ ، فاشتَهَىٰ عِنباً أولَ ما جاءَ ، فأرْسَلت امرأتُه بدِرْهَم ، فاشْتَرَتْ به عُنقوداً ، فاتَّبَعَ الرَّسولَ سائلٌ ، فلمَّا دَخلَ قالَ : السَّائل السَّائل ، فقالَ ابنُ عُمَرَ : أعْطُوه إيَّاه فأعطَوْه ثم بَعثَت بدِرْهم آخرَ قالَ : فاتَّبَعَه السَّائلُ فلمَّا دَخلَ ، قالَ : السَّائل السَّائل فقالَ ابنُ عُمَرَ : أعْطُوه إيَّاه فأعطَوْه ، وأرْسَلت صَفيَّةُ إلى السَّائلِ تَقولُ : والله لَئنْ عُدتَ لا تُصيبُ منِّي خَيراً ، ثم أرْسَلتْ بدِرْهَم آخرَ ، فاشْتَرَت به[2] .

وعن مُنْذِر الثَّوْريّ ، أنَّ الرَّبيعَ بنَ خُثَيم أخَذَ يُطعِمُ مُصاباً خَبيصاً ، فقيلَ له : ما يُدريه ما أكلَ ، قالَ : لكنَّ اللهَ يَدري[3] .

وعن نافع ـ مَوْلَى ابنِ عُمَرَ ـ قالَ : دَخلتُ مع مَوْلايَ عَلَىٰ عبدِ اللهِ ابنِ جَعْفَر ، فأعْطاهُ فيَّ اثنَيْ عَشَرَ ألفاً ، فأبَىٰ وأعتَقَني ، أعْتَقَه الله[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٣٦٨ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٣٦٩ .
(٣) انظر السير : (الرَّبيعُ بنُ خُثَيم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٩٣ .
(٤) انظر السير : (نافع) ٥/ ٩٥ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٨٤ .

وقيلَ لابنِ الْمُنْكَدِر : أيُّ الدُّنيا أحَبُّ إليكَ ؟ قالَ : الإفْضَالُ على الإخْوَان[1] .

ونقلَ أبو بَكْر الخَطيبُ حكايةً مُقتَضاها أنَّ رجُلاً صلَّى الجُمعَةَ فرأىٰ رجُلاً مُتَنسِّكاً لمْ يُصلِّ ، فكلَّمَه ، فقال : اسْتُرْ عليَّ ، لدَعْلَج عليَّ خَمسَةُ آلافٍ ، فلمَّا رأيتُه أحْدَثتُ ، فبلغَ ذلك دَعْلَجاً ، فطَلبَه إلىٰ مَنزِله ، وحلَّله من المال ، ووَصلَه بمثلِها لكَوْنه رَوَّعَه[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ سَيْفِ الدَّوْلَة : وقِيلَ : إنَّه في عيد نفَّذَ إلى النَّاسِ ضَحايا لا تُعدُّ كَثرةً ، فبَعَثَ إلى اثنَي عَشرَ ألفَ إنْسانٍ ، فكانَ أكثرُ ما يَبعَثُ إلى الكَثيرِ منهم مِئَةَ رَأسٍ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ عبدِ الغَني الْمَقْدِسيِّ ، قالَ الضِّياءُ : ولَمَّا وَصلَ إلىٰ مِصْرَ كُنَّا بها ، فكانَ إذا خَرجَ للجُمُعَة لا نَقدِرُ نَمشي مَعَه من كَثرَة الخَلق ، يَتبَرَّكون به ويَجتَمعُونَ حَولَه ، وكُنَّا أحْداثاً نَكتُبُ الحَديثَ حَولَه ، فضَحِكْنا من شَيء وطالَ الضَّحِكُ ، فتَبسَّمَ ولَمْ يَحْرَد[4] عَلينا وكانَ سَخيّاً جَواداً لا يدَّخِرُ ديناراً ولا دِرْهماً مَهْما حَصَّلَ أخْرجَه لقد سَمعتُ عنه أنَّه كانَ يَخرُجُ في اللَّيلِ بقِفَافِ الدَّقيقِ إلىٰ بُيُوتٍ مُتَنكِّراً في الظُّلمَة فيُعطيهم ولا يُعرَف ، وكان يُفتَحُ عليه بالثِّيابِ فيُعطِي النَّاسَ وثَوبُه مُرَقَّع[5] .

قال الضِّياءُ : سَمعتُ أبا مُحمَّد عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ مُحمَّد بنِ عبدِ الجَبَّار ، سَمعتُ الحافظَ عبد الغَني المَقدِسيّ يقولُ : سَألتُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنِي مِثلَ حالِ الإمامِ أحْمَد فقد رَزَقَنِي صَلاتَه ، قال : ثمَّ ابْتُلِيَ بعدَ ذلكَ وأُوذِي .

سَمعتُ الإمامَ عبدَ اللهِ بنَ أبي الحَسَنِ الجُبَّائيَّ بأصْبَهانَ يقُولُ : أبو نُعَيم قد أخَذَ على ابنِ مَنْدَة أشْياءَ في كتابِ « الصَّحابَة » فكان الحافظُ أبو مُوسَىٰ يَشْتَهِي أنْ يأخُذَ علىٰ

---

(١) انظر السير : (محمَّد بن الْمُنْكَدِر) ٥/٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٢/٦٠٨ .
(٢) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٦٦ .
(٣) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٧/١٢٨٢ .
(٤) الحرد : الغضب .
(٥) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٤٧ .

أبي نُعَيمٍ في كتابِه الذي في الصَّحابَة فما كان يَجْسِر ، فلمَّا قَدِمَ الحافِظُ عبدُ الغَنيّ أشَارَ إليه بذلك ، قال : فأخَذَ علىٰ أبي نُعَيمٍ نَحْواً من مِئَتَيْنِ وتِسْعينَ مَوْضِعاً ، فلمَّا سَمِعَ بذلكَ الصَّدرُ الخُجَنْديُّ طَلَبَ عبدَ الغَنيّ وأرادَ هَلاكَه ، فاخْتَفَىٰ .

وسَمعتُ مَحمُودَ بنَ سَلامَة يقولُ : ما أخرجْنا الحافظَ من أصْبَهانَ إلاَّ في إزارٍ وذلكَ أنَّ بَيْتَ الخُجَنْديِّ أشاعِرَةٌ ، كانوا يَتَعَصَّبونَ لأبي نُعَيم ، وكانوا رُؤسَاءَ البَلَد .

وسَمعتُ الحافظَ يقولُ : كُنَّا بالمَوْصِل نَسْمَعُ « الضُعَفَاء » للعُقَيْليِّ ، فأخَذَنِي أهلُ المَوْصِل وحَبَسُونِي ، وأرادُوا قَتْلِي من أجْلِ ذِكْرِ شيءٍ فيه[1] ، فجاءَنِي رجلٌ طويلٌ ومعه سَيْفٌ ، فقُلتُ : يَقْتُلُنِي وأسْتَرِيحُ ، قال : فلَمْ يَصْنَعْ شيئاً ، ثمَّ أطْلَقُونِي ، وكان يَسْمَعُ معه ابنُ البَرْنيِّ الواعِظُ فقَلَعَ الكُرَّاسَ الذي فيه ذلكَ الشيء فأرْسلوا ، وفتَّشُوا الكتابَ ، فلَمْ يَجِدُوا شَيئاً ، فهـٰذا سَبَبُ خَلاصِه .

وقال : كان الحافظُ يَقْرأُ الحَديثَ بدِمَشْقَ ، ويَجتَمِعُ عليه الخَلْقُ ، فوَقَعَ الحَسَدُ ، فشَرعوا عَمِلُوا لهم وَقْتاً لِقراءَةِ الحَديثِ ، وجَمَعوا النَّاسَ ، فكان هـٰذا يَنامُ وهـٰذا بِلا قَلْبٍ[2] ، فمَا اشْتَفُوا ، فأمَرُوا النَّاصِحَ ابنَ الحَنْبَليِّ بأنْ يَعِظَ تحتَ النسرِ يومَ الجُمُعَةِ وقتَ جُلوسِ الحافظِ ، فأوَّلُ ذلكَ أنَّ النَّاصِحَ والحافظَ أرادَا أنْ يَخْتلِفا في الوَقتِ ، فاتَّفَقَا أنَّ النَّاصِحَ يَجْلسُ بعدَ الصَّلاةِ ، وأنْ يَجْلسَ الحافظُ العَصْرَ ، فدَسُّوا إلى النَّاصِحِ رَجُلاً ناقِصَ العَقلِ من بَنِي عَساكِر فقال للنَّاصِحِ في المَجْلسِ ما مَعْناه : إنَّكَ تقولُ الكذِبَ على المِنْبَرِ ، فضُرِبَ وهَرَبَ ، فتَمَّتْ مَكيدَتُهم ، ومَشَوْا إلى الوالِي وقالوا : هَؤلاءِ الحَنابِلَةُ قَصْدُهُم الفِتْنَة ، واعْتِقادُهُم يُخالِفُ اعْتِقادَنا ، ونَحْوَ هـٰذا ، فبَعَثَ الأسْرَىٰ[3] فرَفَعوا ما في جامِعَ دِمَشْق من مِنْبَرٍ وخِزانَةٍ ، ودَرابزينَ ، وقالُوا : نُريدُ أنْ لا تُجْعلَ في الجَامِعِ إلاَّ صَلاةُ الشَّافِعيَّة وكَسَروا مِنْبَرَ الحافظِ ، ثمَّ إنَّ الحافظَ ضاقَ

---

(١) يعني من أجل ذكر الإمام أبي حنيفة .

(٢) يعني أنهم كانوا يجمعون الناس من غير اختيارهم ، فكان بعضهم ينام ، وكان البعض يحضر وقلبه غير حاضر .

(٣) هـٰكذا في السّيَر وفي الذَّيْلِ لابنِ رَجَبَ ، والظَّاهرُ أنه اسم لجمَاعة من أعوَان الوَالي من الشُّرطة أو الجَيش .

صَدْرُه ومَضَىٰ إلىٰ بَعْلَبَك ، فأقامَ بها مُدَّة ، فقال له أهلُها : إنْ اشْتَهَيْتَ جِئْنا معَكَ إلىٰ دِمَشْقَ نُؤذِي مَنْ آذاكَ ، فقال : لا ، وتَوجَّه إلىٰ مِصْرَ فبَقِيَ بِنابُلِسَ مُدَّة يَقْرأُ الحَديثَ ، وكُنتُ أنا بِمصْرَ ، فجاءَ شابٌّ من دِمَشْقَ بِفَتاوٍ إلىٰ صاحِبِ مِصْرَ الملكِ العَزيزِ ومعَه كُتُبٌ أنَّ الحَنابِلَةَ يَقُولُونَ كَذا وكَذا مِمَّا يُشَنِّعون به عليهم ، فقالَ ـ وكان يَتَصَيَّدُ ـ : إذا رَجَعْنا أخْرَجْنا من بِلادِنا مَنْ يَقولُ بهـٰذه المَقالَة ، فاتَّفَقَ أنَّه عَدا به الفَرَسُ ، فشَبَّ به فسَقَطَ فخُسِفَ صَدْرُه ، وبَقِيَ الحافظُ بمِصْرَ ، وهم يَنالُونَ منه ، حتىٰ عَزَمَ المَلِكُ الكاملُ علىٰ إخْراجه ، واعْتُقِلَ في دارٍ أُسْبُوعاً ، فسَمعتُ أبا مُوسَىٰ يَقولُ : سَمعتُ أبي يَقولُ : ما وَجدتُ راحةً في مِصْرَ مثلَ تلك اللَّيالي قالَ : وكانت امْرأةٌ في دارٍ إلىٰ جانبِ تِلكَ الدَّارِ ، فسَمِعْتُها تَبكي وتَقولُ : « بالسِّرِّ الذي أوْدَعْتَه قَلبَ مُوسَىٰ حتَّىٰ قَوِيَ علىٰ حَمْلِ كلامِك » قالَ : فدَعَوْتُ به فخَلُصْتُ تلكَ اللَّيلَة[1] .

الأدَب

١ـ عَلاقَة الأدَب بالعِلم :

(أ) العِلمُ بغير أدَبٍ ضَارٌّ :

قالَ أبُو النَّضْر الفَقيهُ : سَمعتُ البُوشَنْجِيَّ يَقولُ : مَنْ أرادَ العِلمَ والفِقْهَ بغَير أدَبٍ ، فقَد اقْتَحمَ أنْ يَكذِبَ على اللهِ ورَسُولِه .

تُوفِّيَ سَنةَ إحْدَىٰ وتِسْعينَ ومِئتَين ، وصَلَّىٰ عليه ابنُ خُزَيْمَة[2] .

(ب) الأدَبُ طَريقٌ للعِلم :

عن يُوسُفَ بنِ الحُسَين قالَ : بالأدَبِ تَتَفهَّم العِلمَ ، وبالعِلمِ يَصِحُّ لكَ العَمَلُ ، وبالعَمَلِ تَنالُ الحِكْمَة ، وبالحِكْمَة تَفهَمُ الزُّهْدَ ، وبالزُّهْدِ تَترُكُ الدُّنيا ، وتَرغَبُ في الآخِرَة ، وبذلك تَنالُ رِضَا اللهِ تَعالَىٰ .

---

(١) انظر السير : (الحافظ عبد الغنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٤٧ .

(٢) انظر السير : (البوشَنْجي) ١٣/ ٥٨١ـ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١١٨ .

ماتَ سَنةَ أرْبع وثَلاثين وثَلاثِ مئة[1] .

(ج) العِلمُ لا يَكفي لتَرْبيَة النَّفْس إنْ لمْ يكنْ مَقْروناً بالأدَب :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ الغَزَّالي : ذَكرَ هـٰذا وأضْعافَه عبدُ الغافِرِ في « السِّياقِ » ، إلىٰ أنْ قالَ : ولقد زُرْتُه مِراراً ، وما كُنتُ أحْدُسُ في نَفسي مع ما عَهدتُ عليه من الزَّعارَّة[2] والنَّظَر إلى النَّاسِ بعَين الاسْتِخفَافِ كِبْراً وخُيَلاء ، واعْتزازاً بما رُزِقَ من البَسْطَة والنُّطْقِ والذِّهْن ، أنَّه صارَ على الضِّدِّ ، وتَصفَّىٰ عن تلكَ الكُدُورَاتِ ، وكنتُ أظنُّه مُتَلفِّعاً بجِلبَابِ التَّكلُّف مُتَنَمِّساً بما صارَ إليه فتَحقَّقتُ بعد السَّبرِ والتَّنْقيرِ أنَّ الأمرَ علىٰ خِلافِ الْمَظْنونِ ، وأنَّ الرَّجُلَ أفاقَ بعدَ الجُنونِ .

قالَ أبو بَكر بنُ العَرَبي : شَيخُنا أبو حامِدْ بَلعَ الفَلاسِفَة ، وأرادَ أنْ يَتقيَّأهُم فمَا اسْتَطاعَ .

ومن «مُعْجَم أبىٰ عَليٍّ الصَّدَفيّ» ، تَأليف القاضي عِياض له ، قالَ : والشَّيخُ أبو حامد ذُو الأنْبَاءِ الشَّنيعَة ، والتَّصانيف العَظيمَة ، غَلا في طَريقَة التَّصوُّفِ وتَجرَّدَ لنَصْرِ مَذهَبهم ، وصارَ دَاعيَةً في ذلك ، وألَّفَ فيه تَواليفَه الْمَشْهورَة ، وأخَذَ عَليه فيها مَواضِعَ ، وساءَتْ به ظُنونُ أُمَّة ، واللهُ أعْلَمُ بسِرِّه ، ونفَذَ أمْرُ السُّلطان عندَنا بالْمَغْرِبِ وفَتوَى الفُقَهاء بإحْراقِها والبُعد عنها ، فامْتُثِلَ ذلك .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ما زَالَ العُلمَاءُ يَختَلفونَ ، ويَتكلَّمُ العالمُ في العالِمِ باجْتِهادِه وكلٌّ منهم مَعْذُورٌ مَأجُورٌ ، ومَنْ عانَدَ أو خَرَقَ الإجْمَاعَ ، فهو مأزُورٌ ، وإلى الله تُرجَعُ الأمُورُ[3] .

(د) تَعْليمُ الفِتْيان الأدَبَ مع المُعَلِّم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ العلاَّمَة أبي زَكَريّا ، يَحْيَى بن زِيادِ ابنِ عبدِ اللهِ الفَرَّاء : وكانَ الْمَأمونُ قد وَكَّلَ بالفَرَّاء ولَدَيه يُلَقِّنُهما النَّحْوَ ، فأرادَ القِيامَ ، فابْتَدرا إلىٰ

---

(١) انظر السير : (يوسُف بن الحُسَين) ١٤/٢٤٨ـ٢٥١ ، وانظر النزهة : ١/١١٤٨ .

(٢) شراسة وسوء خُلق .

(٣) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٢ .

نَعْلِه فقدَّمَ كلُّ واحد فردَة فبَلغَ ذلكَ الْمَأمونَ ، فقالَ : لَنْ يَكبُرَ الرجلُ عن تَواضُعِه لسُلطانِه وأبيه ومُعلِّمِه[1] .

٢ـ سُوءُ الأدَبِ مع الأئمَّة مَرْفوض :

قال العُقيليُّ : سَمعتُ عليَّ بنَ عبدِ الله بنِ الْمُبَارَك الصَّنْعانيَّ يقولُ : كان زَيْدُ بنُ الْمُبَارَك ، قد لَزِمَ عبدَ الرَّزَّاق ، فأكثرَ عنه ، ثم خَرَق كُتبَه ، ولَزِمَ محمَّدَ بنَ ثَوْر ، فقيلَ له في ذلك ، فقالَ : كُنَّا عند عبدِ الرَّزَّاق ، فحدَّثَنا بحَديثِ مَعْمَر ، عن الزُّهري ، عن مالكِ بنِ أَوْس بنِ الحدثان الحَديثَ الطَّويلَ ، فلمَّا قَرأَ قَولَ عُمَرَ لعَليٍّ والعَبَّاس : فجِئتَ أنتَ تَطلبُ ميراثَك من ابنِ أخيكَ ، وجاءَ هـٰذا يَطلبُ ميراثَ امْرأتِه ، قالَ عبدُ الرَّزَّاق : انْظُر إلى الأنْوَك ، يَقولُ : تَطلبُ أنتَ ميراثَكَ من ابنِ أخِيكَ ، ويَطلبُ هـٰذا ميراثَ زَوجَتِه من أبيها ، لا يَقولُ : (رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم) قالَ زَيْدُ بنُ الْمُبَارَك : فلَمْ أعُدْ إليه ولا أرْوي عنه[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه عَظيمَةٌ ، وما فَهِمَ قَولَ أميرِ المؤمنين عُمَرَ رضي الله عنه ، فإنَّك يا هـٰذا لَوْ سَكَتَّ لكانَ أوْلَىٰ بك ، فإنَّ عُمَرَ رضي الله عنه إنَّما كانَ في مَقام تَبْيين العُمُومَة والبُنُوَّة ، وإلاَّ فعُمَرُ رضي الله عنه أعْلَمُ بحَقِّ المصطَفَىٰ صلى الله عليه وسلم وبتَوْقِيرِه وتَعْظِيمِه من كُلِّ مُتحَذلِق مَتنَطِّع ، بَلْ الصَّوابُ أنْ نقولَ عَنْكَ : انْظُروا إلىٰ هـٰذا الأنْوَك الفاعِل ـ عَفَا الله عنه ـ كَيفَ يَقولُ عن عُمَرَ هـٰذا ، ولا يَقُولُ : أميرُ المؤمنين الفَارُوق ؟! وبكُلِّ حالٍ فنَستَغفِرُ اللهَ لنَا ولعَبدِ الرَّزَّاق ، فإنَّه مَأمُونٌ علىٰ حَديثِ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم ، صادِقٌ[3] .

وقالَ الحافظُ ابنُ عَساكر : كانَ العَبْدَرِيُّ أحْفَظَ شَيخٍ لَقيتُه ، وكانَ فَقيهاً داوُوديّاً ، ذُكرَ أنَّه دَخلَ دِمَشْقَ في حياة أبي القاسم بنِ أبي العَلاءِ وسَمعتُه وقد ذُكرَ مَالِكٌ ، فقالَ : جِلْفٌ جَافٌ ، ضَربَ هشامَ بنَ عَمَّار بالدِّرَّة ، وقَرأتُ عليه « الأمْوالَ » لأبي عُبَيْد ،

---

(١) انظر السير : (الفَرَّاء) ١٠/ ١١٨ـ ١٢١ ، وانظر النزهة : ٨٥٧/ ٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الرَّزَّاق بن هَمَّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٨٤٠/ ١ .

(٣) انظر السير : (عبد الرَّزَّاق بن هَمَّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٨٤٠/ ٢ .

فقالَ ، وقد مرَّ قولٌ لأبي عُبَيد : ما كانَ إلاَّ حِماراً مُغَفَّلاً ، لا يَعرفُ الفِقْهَ ، وقيلَ لي عنه : إنَّه قالَ في إبْراهيمَ النَّخَعي : أعْورُ سُوء ، فاجْتَمَعْنا يَوماً عندَ ابنِ السَّمَرْقَنْديِّ في قِراءَةِ كتابِ « الكامِلِ » ، فجاءَ فيه : وقالَ السَّعْديُّ كذا ، فقالَ : يَكذبُ ابنُ عَديّ ، فقالَ إبْراهيمُ الجَوْزَجانيُّ ، فقُلتُ له : فهُو السَّعْديُّ ، فإلىٰ كَمْ نَحتَملُ منكَ سُوءَ الأدَبِ ، تَقولُ في إبْراهيمَ كَذا وكَذا ، وتَقولُ في مَالِكٍ جافّ ، وتَقولُ في أبي عُبَيْد ؟! فغَضبَ وأخذَتهُ الرِّعْدَةُ ، وقالَ : كانَ ابنُ الخاضِبَةِ والبردانيُّ وغيرُهما يَخافُوني ، فآلَ الأمرُ إلىٰ أنْ تَقولَ فيَّ هـٰذا ؟! فقالَ له ابنُ السَّمَرْقَنْديِّ : هـٰذا بذاك ، فقلتُ : إنَّما نَحترمُك ما احْتَرمْتَ الأئمَّة ، فقالَ : والله لقد عَلمتُ من عِلمِ الحَديثِ ما لَمْ يعلَمْهُ غَيري مِمَّن تقدَّم ، وإنِّي لأعْلمُ من صَحيحِ البُخاري ومُسْلم ما لَمْ يَعْلَماه ، فقُلتُ مُسْتهْزئاً : فعِلمُكَ إلْهَامٌ إذاً ، وهاجَرْتُه .

سألتُه يَوماً عن أحاديثِ الصِّفاتِ ، فقالَ : اخْتَلفَ النَّاسُ فيها فمِنهُم مَنْ تأوَّلها ومنهم مَنْ أمْسَكَ ، ومنهم مَنْ اعتَقدَ ظاهِرَها ، ومَذْهَبي أحَدُ هـٰذه الْمَذاهِب الثلاثة ، وكان يُفتي علىٰ مَذهَبِ دَاوُدَ ، فبَلغَني أنَّه سُئلَ عن وُجوبِ الغُسلِ علىٰ مَنْ جامَعَ ولَمْ يُنزِلْ فقالَ : لا غُسْلَ عليه ، الآنَ فَعلتُ ذا بأُمِّ أبي بكر إلىٰ أنْ قالَ : وكانَ بَشِعَ الصُّورَة زَرِيَّ اللِّباسِ .

ماتَ سَنةَ أرْبَع وعشْرينَ وخَمْسمائة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ما ثَبتَ عنه ما قِيلَ من التَّشْبيه ، وإنْ صَحَّ ، فبُعداً له وسُحْقاً[1] .

٣ـ قِلَّةُ الأدَبِ مع الصَّالحين تَسْتَوْجِبُ العُقوبَة :

عن أبي وَائل أنَّ ابنَ مَسْعود رَأىٰ رَجلاً قد أسْبَلَ ، فقالَ : ارْفَع إزارَك ، فقالَ : وأنتَ يا ابنَ مَسْعُود فارْفَعْ إزارَكَ ، قالَ : إنَّ بِسَاقي حُمُوشَةً وأنا أَؤُمُّ النَّاسَ فبَلغَ ذلك عُمَرَ ، فجَعلَ يَضرِبُ الرَّجُلَ ، ويَقولُ : أتَرُدُّ على ابنِ مَسْعُود ؟!![2] .

---

(١) انظر السير : (العَبْدَريّ) ١٩/ ٥٧٩ـ ٥٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٥١٩ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن مَسْعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٩٦ .

٤ـ عاقِبَةُ التَّأَدُّب مع العُلماء حَسَنةٌ :

ويُروَىٰ أن أبا إسْحَاقَ الحَرْبي لَمَّا دَخلَ علىٰ إسْماعيلَ القاضي ، بادَرَ أبو عُمَر محمدُ بنُ يُوسُف القاضي إلىٰ نَعْلِه ، فأخَذَها ، فمَسَحَها من الغُبَارِ ، فدَعا له ، وقالَ : أعَزَّكَ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَة ، فلمَّا تُوفِّي أبو عُمَر ، رُؤِيَ في النَّومِ ، فقيلَ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : أعَزَّني في الدُّنيا والآخِرَة بدَعْوَةِ الرَّجُل الصَّالِح[1] .

٥ـ مِنْ الأدَب إعْطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه :

قالَ أحمدُ بنُ أبي الحَوَاري : جاءَ رَجلٌ من بَني هاشِم إلىٰ عبدِ اللهِ ابنِ الْمُبَارَك ليَسمَعَ منه ، فأبَىٰ أنْ يُحدِّثَه ، فقالَ الشَّريفُ لغُلامِه : قُمْ فإنَّ أبا عبدِ الرَّحْمَـٰن لا يَرَىٰ أنْ يُحَدِّثَنا ، فلمَّا قامَ ليَرْكبَ ، جاءَ ابنُ الْمُبَارَك ليُمسِكَ بركابِه ، فقالَ : يا أبا عبدِ الرَّحْمَـٰن تَفعَلُ هـٰذا ولا تَرَىٰ أنْ تُحدِّثَني! فقالَ : « أُذِلُّ لَكَ بَدَنِي ، ولا أُذِلُّ لَكَ الحَديثَ »[2] .

٦ـ تَعْظيمُ شَعائر الله من الأدَب :

عن مُغيرَة ، عن أبيه أنَّ الحَجَّاجَ أرادَ أنْ يَضَعَ رِجلَه على الْمَقَامِ ، فزَجَرَه ابنُ الحَنَفيَّةِ ونَهَاه[3] .

٧ـ المُبالَغَة في أمر ظَنَّه صاحبُه من واجبات الأدَب :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَبُوشانيِّ : وأتاهُ القاضي الفاضِلُ لزيارَة الشَّافعيِّ ، فرآه يُلقي الدَّرْسَ ، فجَلسَ وجَنبُه إلى القَبرِ ، فصَاحَ : قُمْ قُمْ ، ظَهرُكَ إلى الإمامِ ؟! فقال : إنْ كنتُ مُستَدبرهُ بقَالَبي ، فأنا مُستَقبِلُهُ بقَلْبي فصَاحَ فيه ، وقالَ : ما تُعَبِّدْنا بهَـٰذا ، فخَرجَ وهو لا يَعْقِلُ .

---

(١) انظر السير : (إبْراهيمُ الحَرْبيّ) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٩٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٦٩ .

(٣) انظر السير : (ابنُ الحَنَفيَّة) ٤/ ١١٠ـ ١٢٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٦١ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ماتَ الخَبُوشانيُّ سَنةَ سَبعٍ وثَمانينَ وخَمسِ مِئة[1] .

٨ـ قَوْلٌ بَليغٌ في الحَثِّ على الأدَب :

قالَ أبو طالِبِ بنُ عبدِ السَّميعِ : كانَ من ألْفاظِ أميرِ الْمؤمنينَ ، الْمُسْتَظْهِرِ بالله : أدَبُ السَّائلِ أنْفَعُ من الوَسَائِل[2] .

٩ـ أدَبُ الخُلَفَاء والأُمَراء مع العُلَماء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الدَّاعي : بَرعَ في الرَّأي على الإمام أبي الحَسنِ الكَرْخي ، وأخَذَ علمَ الكَلامِ عن حُسَينِ بنِ عليٍّ البَصْري ، وأفْتَىٰ ودَرَّسَ ، ووَلِيَ نقابة الطالبيِّين في دَولَة بني بُوَيه ، فعَدلَ وحُمدَ ، وكان مُعِزُّ الدَّولَة يُبالغ في تَعظيمِه ، وتَقبيلِ يدِه ، لعِبادَته وهَيبَتِه ، وكان فيه تَشَيُّعٌ بلا غُلُو[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أميرِ الْمؤمنينَ ، الْمُسْتَنْصِرِ باللهِ ، صاحبِ الأنْدَلُسِ : وكانَ يَتأدَّبُ مع العُلَماء والعُبَّاد ، التَمَسَ من زَاهِدِ الأنْدَلُس أبي بَكْر يَحْيَىٰ بنِ مُجاهِد الفَزاري أنْ يَأتيَ إليه ، فامْتَنعَ ، فمَرَّ في مَوْكبه بيَحْيَىٰ وسَلَّمَ عليه ، فرَدَّ عليه ودَعَا له ، وأقْبَلَ علىٰ تِلاوَتِه ، ومَرَّ بحَلقَةِ شَيخ القُرَّاء أبي الحَسَن الأنْطَاكي ، فجَلسَ ومَنعَهم من القِيامِ ، فمَا تَحرَّكَ أحَدٌ .

ماتَ بقَصْر قُرْطُبَةَ سَنةَ سِتٍّ وستِّينَ وثَلاثِ مئة .

وبُويعَ ابنُه هِشامُ وله تِسْعُ سنينَ أو أكثر ، ولُقِّبَ بالْمُؤيَّد بالله ، فكانَ ذلك سَبباً لتَلاشي دَولَة الْمَرْوانيَّة ، ولكنْ سَدَّدَ أمرَ الْمَمْلَكَة الحاجِبُ الْمُلقَّب بالْمَنْصور أبي عامِر مُحمّد بن عبد الله بن أبي عامِر القَحْطاني ، وإليه كان العقدُ والحلُّ ، فساسَ أتمَّ سياسَة[4] .

---

(١) انظر السير : (الخَبُوشانيّ) ٢١/ ٢٠٤ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٦١٣ .
(٢) انظر السير : (الْمُسْتَظْهِرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٨٩ .
(٣) انظر السير : (ابن الدَّاعي) ١٦/ ١١٤ـ ١١٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧١ .
(٤) انظر السير : (الْمُسْتَنْصِر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٧/١٢٩٠ .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الْمَنيعيِّ ، وقيلَ : مَرَّ السُّلطانُ ببابِ مَسْجدِه ، فنزَلَ مُراعاةً ، وسَلَّم عليه ومَناقِبُه جَمَّة .

مات سَنةَ ثَلاثٍ وستِّينَ وأرْبَع مئة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمَلِكِ الأشْرَفِ أبي الفَتْحِ مُوسَىٰ شاه أرْمَن ، ابنِ العادِلِ : كان يُبالِغُ في تَعظيمِ الشَّيخِ الفَقيهِ[2] ، تَوضَّأ الفَقيهُ يَوماً فوَثَبَ الأشْرَفُ ، وحَلَّ من تَخْفيفَتِه ورَماها علىٰ يَدَي الشَّيخِ ليُنَشِّفَ بها ، رَأىٰ ذلك شَيخَنا أبو الحُسَين ، وحَكاه لي .

ماتَ سَنةَ خَمسٍ وثَلاثينَ وسِتٍّ مئة ، وكانَ آخِر كَلامِه « لا إلَـهَ إلاَّ اللهُ » فيما قِيلَ[3] .

١٠ـ الأدَبُ عند العُلَماء :

قالَ جَعْفَرُ بنُ أحمَدْ بنِ نَصْر الحافِظُ : ما رَأيتُ من الْمُحَدِّثينَ أهْيَبَ من مُحمَّدِ بنِ رافِع ، كانَ يَسْتَنِدُ إلى الشَّجرَة الصَّنوبَر في دارِه ، فيَجلسُ العُلماءُ بين يَدَيه علىٰ مَراتِبهم ، وأوْلادُ الطَّاهِريَّة ومَعَهم الخَدَمُ ، كأنَّ علىٰ رُؤسِهم الطَّيْرَ فيَأخُذُ الكِتابَ ويَقرأُ بنَفسِه ولا يَنطِقُ أحَدٌ ، ولا يَتَبَسَّم إجْلالاً له ، وإذا تَبسَّمَ وَاحدٌ أوْ رَاطَنَ صاحبَه ، قالَ : وصَلَّى اللهُ علىٰ مُحمَّد ويَأخُذُ الكِتابَ ، فَلا يَقدِرُ أحَدٌ يُراجِعَه أو يُشيرَ بيَده ، ولقد تَبسَّمَ خادِمٌ من خَدَم الطَّاهِريَّة يَوماً ، فقَطعَ ابنُ رافِع مَجلِسَه ، فانتُهى الخَبرُ بذَلك إلىٰ طَاهِر بنِ عبدِ الله ، فأمَرَ بقَتلِ الخَادِمِ ، حتَّى احْتَلْنا لخَلاصِه[4] .

١١ـ أمثِلَةٌ علىٰ أدَبِ الصَّالحين :

عن جابِر ، قالَ عُمَرُ : أبو بَكر سَيِّدُنا أعْتَقَ بِلالاً سَيِّدَنا[5] .

---

(١) انظر السير : (الْمَنيعيّ) ١٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١١ .
(٢) يعني : اليونيني .
(٣) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٤ .
(٤) انظر السير : (محمّد بن رافع) ١٢/ ٢١٤ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٣/٩٩٥ .
(٥) انظر السير : (بِلال بن رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٥ .

وعن يَحْيَىٰ بنِ سَعْد قالَ : ذَكرَ عُمَرُ فَضلَ أبي بَكر رضي الله عنه ، فجَعلَ يَصِفُ مَناقِبَه ، ثم قالَ : وهـٰذا سَيِّدنا بِلالٌ حَسَنةٌ من حَسَناتِه[1] .

وعن مُعاذٍ قال : ما بَزَقْتُ علىٰ يَميني منذ أسلمت[2] .

وعن أبي رَزين ، قال : قيل للعبَّاس : أنت أكبر أو النبيُّ صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو أكبرُ وأنا وُلدتُ قبلَه[3] .

وورد أن عمر عمد إلىٰ ميزاب للعباس علىٰ ممر الناس ، فقلعه ، فقال له : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي وضعه في مكانه ، فأقسم عمر : لتصعدن علىٰ ظهري ولتضعنه موضعه .

وقد عاشَ ابنُ عبَّاس ثمانياً وثَمانينَ سَنةً ، وماتَ سَنةَ اثْنَتينِ وثَلاثينَ ، فصلَّىٰ عليه عُثْمانُ رضي الله عنه ودُفِنَ بالبَقيعِ[4] .

وعن أبي رُهم : أنَّ أبا أيُّوبَ الأنْصَاريّ حَدَّثَه : أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَزَلَ في بَيتِنا الأسْفَل وكُنتُ في الغُرفَةِ ، فأُهْرِيقَ ماءٌ في الغُرفَةِ ، فقُمتُ أنا وأُمُّ أيُّوبَ بقَطِيفَةٍ لنا نَتَتَبَّعُ الماءَ ، ونزَلتُ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ لا يَنْبَغِي أن نَكونَ فَوْقَكَ ، انتَقِلْ إلى الغُرفَة فأَمَرَ بمَتَاعِهِ فنُقِلَ ـ ومَتَاعُهُ قليل ـ قلتُ : يا رسولَ الله ، كنتُ تُرسِلُ بالطَّعامِ ، فأنظُرُ فإذا رأيتُ أثَرَ أصابِعِكَ ، وضَعتُ فيه يَدِي[5] .

وعن أبي سلمة ، أن ابن عباس قام إلىٰ زيد بن ثابت ، فأخذ له بركابه ، فقال : تَنَحَّ يا ابنَ عَمِّ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هـٰكذا نَفعَلُ بعلمائنا وكبَرائنا[6] .

---

(١) انظر السير : (بلال بن رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٧٦ .
(٢) انظر السير : (مُعاذ بن جَبَل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٩٢ .
(٣) انظر السير : (العَبَّاس) ٢/ ٧٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٢٢١ .
(٤) انظر السير : (العَبَّاس) ٢/ ٧٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٢٣ .
(٥) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاري) ٢/ ٤٠٢ـ ٤١٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٨٣ .
(٦) انظر السير : (زَيْد بن ثابت) ٢/ ٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٨٧ .

ومن غير وَجه ، عن عُمَرَ رضي الله عنه : أنه لم يلق أسامةَ بن زيد قط إلا قال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله! توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت عليَّ أمير[١] .

وعن عمران بن حصين قال : ما مَسَسْتُ ذَكَري بيمني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

وعن مغيرة قال : خرج عدي بن حاتم ، وجَريرُ البَجَلي وحَنْظَلة الكاتب من الكوفة ، فنزلوا قَرْقِيسياءَ ، وقالوا : لا نُقيمُ ببَلدٍ يُشْتَمُ فيه عُثمانُ .

ماتَ عَديٌّ سَنةَ سَبعٍ وستِّين[٣] .

عن عبدِ الرحْمَـٰنِ بنِ رَزين قال : أتَينَا سَلَمَةَ بنَ الأكوَع بالرَّبَذَة ، فأخْرَجَ إلينا يَداً ضَخمَةً كأنَّها خُفُّ البَعِير ، فقال : بايَعتُ بِيَدِي هـٰذه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال : فأخَذْنا يَدَه فَقَبَّلْناها[٤] .

وعن ابن أبي الهذيل : قال : دعا عُمَرُ زَيْدَ بنَ صُوحان ، فضَفَّنَه على الرَّحْلِ[٥] كما تُضَفِّنونَ أُمَراءكم ، ثم التَفتَ إلى الناس ، فقال : اصْنَعوا هـٰذا بزَيدٍ وأصْحابِ زَيْد[٦] .

وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم : كان أبو وائل عثمانياً وكان زِرُّ ابنُ حُبَيش عَلوياً ، وما رَأيتُ واحداً منهما قَطُّ تكلَّم في صاحِبه حتَّىٰ ماتَا وكان زِرٌّ أكبَر من أبي وائل ، فكانا إذا جَلسَا جَميعاً ، لَمْ يُحدِّثْ أبو وائل مع زِرٍّ - يعني يتأدَّبُ معه لسِنِّه[٧] .

---

(١) انظر السير : (أُسامَة بن زَيْد) ٢/ ٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩٧ .
(٢) انظر السير : (عِمْرانَ بنَ حُصَين) ٢/ ٥٠٨ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٩٨ .
(٣) انظر السير : (عَديُّ بن حاتِم) ٣/ ١٦٢ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٥٨ .
(٤) انظر السير : (سلمة بن الأكوع) ٣/ ٣٢٦ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٨٨ .
(٥) أي : حَمَله عليه .
(٦) انظر السير : (زَيْد بن صُوحان) ٣/ ٥٢٥ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤١٩ .
(٧) انظر السير : (زِرُّ بنُ حُبَيْش) ٤/ ١٦٦ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٧٠ .

وعن أبي العالية ، رُفَيعِ بنِ مِهْرانَ الْمُقْرىءِ ، قالَ : ما مَسَسْتُ ذكري بيميني منذ ستين أو سبعين سنة[1] .

ومن كَلامِ سَعيدِ بنِ الْمُسَيِّب : لا تَقولوا مُصَيْحِف ، ولا مُسَيْجِد ، ما كان لله فهو عَظيمٌ حَسنٌ جَميل[2] .

وقيل : كان عليُّ بنُ الحُسَين إذا سارَ في الْمَدينَةِ علىٰ بَغْلتِه ، لَمْ يَقُلْ لأحَدٍ : الطَّريق ويقولُ : هو مُشْتَرَكٌ لَيسَ لي أنْ أُنَحِّيَ عنه أحَداً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكانَ له جَلالَةٌ عَجيبَةٌ ، وحُقَّ له والله ذلك ، فقد كانَ أهْلاً للإمَامَة العُظْمَىٰ لشَرفِه وسُؤْدُدِه وعِلمِه وتَألُّهِهِ وكمَالِ عَقلِه[3] .

وقال الوَاقديُّ : حدَّثنا مُوسَىٰ بنُ نَجيح بن يَحْيَىٰ ـ هو ابنُ زَيْد بن ثابت ـ أنَّ عُمرَ بنَ عبد العَزيزِ كتبَ أنْ يُعطَىٰ خارجَةُ بنُ زَيد ما قُطعَ عنه من الدِّيوَانِ ، فمَشَىٰ خارِجَةُ إلىٰ أبي بَكر بنِ حَزْم ، فقالَ : إنِّي أكْرَه أنْ يَلزَمَ أميرَ المؤمنينَ من هـٰذا مَقالَة ، ولي نُظَراءُ ، فإنْ عَمَّهم أميرُ المؤمنينَ بهَـٰذا ، فَعلت ، وإنْ هو خَصَّني به ، فإنِّي أكْرَهُ ذلكَ لَه ، فكَتبَ عُمَرُ : لا يَسَعُ الْمَالُ لذلك ، ولَوْ وَسِعَه لَفعَلتُ[4] .

وعن مُجَاهِدِ بنِ جَبْر قَالَ : رُبَّما أخَذَ ابنُ عُمر لي بالرِّكَابِ[5] .

وقالَ سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة : إنَّ الحَسَنَ البَصْريَّ لَمَّا ماتَ مُسلمُ بنُ يَسار قالَ : وَامُعَلِّماه[6] .

وقالَ ابنُ جُرَيْج عن عَطَاءَ : إنَّ الرَّجلَ لَيُحدِّثُني بالحَديثِ ، فأُنْصِتُ له كأنِّي لَمْ أسْمَعْهُ وقد سَمعتُه قَبلَ أنْ يُولَد[7] .

---

(١) انظر السير : (أبو العالية) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٧٩ .
(٢) انظر السير : (سَعيد بن الْمُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٨٧ .
(٣) انظر السير : (عَليُّ بنُ الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٢٠ .
(٤) انظر السير : (خارجَة بن زَيْد) ٤/ ٤٣٧ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٢٩ .
(٥) انظر السير : (مُجاهِد بن جَبْر) ٤/ ٤٤٩ـ ٤٥٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٣٠ .
(٦) انظر السير : (مُسْلِم بن يَسار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٤٨ .
(٧) انظر السير : (عَطاء بن أبي رَباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٨٣ .

وعن أيُّوبَ قالَ : قيلَ لعُمرَ بنِ عبدِ العَزيز : يا أميرَ المؤمنين! لَوْ أتَيتَ المَدينَةَ ، فإنْ قَضَى اللهُ مَوْتاً في مَوْضِعِ القَبْرِ الرَّابِعِ مع رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، قالَ : واللهِ لأنْ يُعذِّبَني اللهُ بغَيرِ النَّارِ أحَبُّ إليَّ منْ أنْ يَعلمَ مِنْ قَلبي أنِّي أراني لذلك أهْلاً[1] .

وعن عاصِمِ بنِ أبي النَّجُودِ ، قالَ : ما قَدمْتُ علىٰ أبي وَائل من سَفرٍ إلاَّ قبَّل كَفِّي .

قالَ عبدُ الله بنُ أحمَد بن حَنْبَل : سَألتُ أبي عن عاصِمِ بنِ بَهْدَلَة ، فقالَ : رَجلٌ صالِحٌ خَيِّرٌ ثِقةٌ ، قلتُ : أيُّ القِراءَاتِ أحَبُّ إليكَ ؟ قالَ : قِراءَةُ أهْلِ الْمَدينَة ، فإنْ لَمْ يَكُنْ ، فقِراءَةُ عاصِم[2] .

وعنْ قَتادَةَ ، قالَ : لقد كان يُستَحَبُّ أنْ لا تُقرأ الأحاديثُ التي عن رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إلاَّ علىٰ طَهارَة[3] .

وقالَ العبَّاسُ بنُ الوَليد : فمَا رَأيتُ أبي يَتعجَّبُ من شَيءٍ في الدُّنيا تَعجُّبَه من الأوْزَاعي فكانَ يَقولُ : سُبحانَك تَفعَلُ ما تَشاءُ!! كانَ الأوْزَاعِيُّ يَتيماً فَقيراً في حِجْرِ أُمِّه ، تَنقُلُه من بَلدٍ إلىٰ بَلدٍ ، وقد جَرَىٰ حُكْمُك فيه أنْ بَلَّغْتَه حَيثُ رأيتُه ، يا بُنَيَّ! عَجَزَت الْمُلوكُ أنْ تُؤدِّبَ أنْفُسَها وأوْلادَها أدَبَ الأوْزاعِيّ في نَفسِه ، ما سَمعتُ منه كَلمةً قَطُّ فاضِلَةً إلاَّ احْتاجَ مُسْتَمِعُها إلىٰ إثْباتِها عنه ، ولا رَأيتُه ضاحِكاً قَطُّ حتَّىٰ يُقَهْقِه ، ولقد كانَ إذا أخَذَ في ذِكْرِ الْمَعادِ أقُولُ في نَفسِي : أتُرَىٰ في الْمَجلِسِ قَلبٌ لَمْ يَبْكِ؟[4] .

وقالَ أبو زُرْعَة : كنتُ عند أحمدَ بنِ حَنْبَل ، فذُكِرَ إبْراهيمُ بنُ طَهْمانَ ، وكان مُتَكِّئاً من عِلَّة ، فجَلسَ ، وقالَ : لا يَنبَغي أن يُذكَرَ الصَّالِحونَ فيُتَّكأ وقالَ أحمدُ : كان مُرجئاً شَديداً على الجَهْميَّة[5] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٩٢ .
(٢) انظر السير : (عاصِم بن أبي النَّجود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩٩ .
(٣) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٠٢ .
(٤) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦٨١ .
(٥) انظر السير : (إبْراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٠٦ .

وعن يَحْيَىٰ بنِ يَمان ، قالَ : كان سُفْيانُ إذا قَعدَ مع إبْراهيمَ بنِ أدْهَم ، تَحرَّزَ من الكَلام[1] .

وقال أبو مُصْعَب : كان الإمامُ مَالكُ لا يُحدِّثُ إلاَّ وهو علىٰ طَهارَة إجْلالاً للحَديثِ[2] .

وقالَ أبو مُصْعَب : كانوا يَزْدَحِمُونَ علىٰ باب مَالِك حتَّىٰ يَقْتَتِلوا من الزِّحام وكُنَّا إذا كُنَّا عِندَه لا يَلتَفِتُ ذَا إلىٰ ذَا ، قائلونُ برُؤوسِهم هكَذا وكانت السَّلاطِينُ تَهابُه وكانَ يَقولُ : لا ، ونَعَم ولا يُقالُ له : من أين قُلتَ ذَا ؟[3] .

وقالَ ابنُ وَهْب : ما نَقَلْنا من أدَبِ مَالِك أكْثَرُ مِمَّا تَعلَّمنا من عِلمِه[4] .

عن يَحْيَىٰ بنِ يَحْيَى اللَّيثيِّ قالَ : كنَّا عندَ مَالِك ، فاسْتُؤذِنَ لعَبدِ الله ابنِ الْمُبارَك بالدُّخولِ ، فأُذنَ له ، فرَأينا مَالكاً تَزَحْزَحَ له في مَجلِسه ، ثم أقْعَدَه بلِصْقِه ، وما رَأيت مالِكاً تَزَحْزَحَ لأحَد في مَجلِسه غَيره ، فكانَ القارِىءُ يَقرأُ علىٰ مَالِك ، فرُبَّما مرَّ بشَيءٍ فيَسألُه مَالِك : ما مَذهَبُكم في هٰذا ؟ أوْ ما عِندَكُم في هٰذا ؟ فرَأيتُ ابنَ الْمُبارَك يُجاوِبُه ، ثم قامَ ، فخَرَجَ ، فأُعْجِبَ مَالِكُ بأدَبِه ، ثم قالَ لنا مَالِكُ : هَٰذا ابنُ الْمُبارَك فَقيهُ خُراسان[5] .

وسُئلَ ابنُ الْمُبارَك بحُضُورِ سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة عن مَسألَةٍ ، فقالَ : إنَّا نُهينا أنْ نَتكلَّمَ عند أكابِرِنا[6] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ الأشْعَث : رَأيتُ سُفْيانَ بنَ عُيَيْنَة يُقَبِّلُ يَدَ الفُضَيْلِ ابنِ عِياض مرَّتَين[7] .

---

(١) انظر السير : (إبْراهيم بن أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٧٠٨/ ٤ .
(٢) انظر السير : (مَالكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٣/ ٤ .
(٣) انظر السير : (مَالكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٦/ ٥ .
(٤) انظر السير : (مَالكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٧/ ١ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧٧٢/ ٢ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧٧٢/ ٣ .
(٧) انظر السير : (الفُضَيل بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٧٧٨/ ٥ .

وقالَ عَطاءُ الخَفَّاف : كُنتُ عند الأوْزاعِيِّ ، فأرادَ أنْ يَكتُبَ إلىٰ أبي إسْحاقَ الفَزاري ، فقالَ لكاتِبِه ، ابْدأ به ، فإنَّه والله خَيرٌ منِّي[1] .

وقالَ سَلْمُ بنُ جُنادَة : جَالَستُ وَكيعاً سَبعَ سِنين ، فمَا رَأيتُه بَزَقَ ، ولا مَسَّ حَصاةً ، ولا جَلسَ مَجْلِساً ، وما رَأيتُه إلاَّ مُستَقبِلَ القِبلَةَ ، وما رَأيتُه يَحلِفُ بالله[2] .

وقالَ مُوسَىٰ بنُ داود : كُنتُ عند ابنِ عُيَيْنَة ، فجاءَ حُسَينُ الجُعْفيُّ فقامَ سُفْيانُ ، فقَبَّلَ يَدَه[3] .

وعن يَحْيَى بن يَحْيى بن كثير ، قال : أخذتُ بِركابِ اللَّيثِ ، فأرادَ غُلامُه أنْ يَمنَعَني ، فقالَ اللَّيْثُ : دَعْهُ ثم قالَ لي : خَدمَكَ العِلمُ قالَ : فلَمْ تَزَلْ بي الأيَّامُ حتَّىٰ رَأيتُ ذلك[4] .

وقال الْمَرُّوذي : رأيتُ أبا عبدِ الله ، أحمَدَ بنَ حَنْبَل ، إذا كانَ في البَيتِ عامَّةُ جُلوسِه مُتَرَبِّعاً خاشِعاً ، فإذا كانَ بَرّاً ، لَمْ يَتبيَّن منه شِدَّةُ خُشوع ، وكُنتُ أدْخُلُ ، والجُزءُ في يَدِه يَقرأ[5] .

وقالَ محمَّدُ بنُ حَمْدونَ بنِ رُسْتُم : سَمعتُ مُسْلِمَ بنَ الحَجَّاج ، وجاءَ إلى البُخاريِّ فقالَ : دَعْني أُقَبِّلُ رِجْلَيْكَ يا أُسْتاذَ الأُسْتاذِين ، وسَيِّدَ الْمُحَدِّثين ، وطَبيبَ الحَديثِ في عِلله .

وقالَ أبو عَليّ صالِحُ بنُ محمَّد جَزَرَة : كانَ مُحمَّدُ بنُ إسْماعيلَ البُخاريُّ يَجلِسُ ببَغْدادَ ، وكُنتُ أسْتَمْلِي له ، ويَجتَمِعُ في مَجلِسِه أكْثَرُ من عِشْرينَ ألْفاً[6] .

ويُروَىٰ أن أبا إسْحَاقَ الحَرْبي لَمَّا دَخلَ علىٰ إسْماعيلَ القاضي ، بادَرَ أبو عُمَر

---

(١) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الفَزاري) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/٧٩٠ .
(٢) انظر السير : (وَكيع بن الجراح) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/٨١١ .
(٣) انظر السير : (الحُسَين بن عليّ الجُعفي) ٩/ ٣٩٧ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٨٣٣ .
(٤) انظر السير : (يَحْيَى بن يَحْيى بن كثير) ١٠/ ٥١٩ـ ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٤/٨٩٠ .
(٥) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٢٤ .
(٦) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠١٥ .

محمدُ بنُ يُوسُف القاضي إلىٰ نَعْلِه ، فأخَذَها ، فمَسَحَها من الغُبَارِ ، فدَعا له ، وقالَ : أعَزَّكَ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَة ، فلمَّا تُوفِّي أبو عُمَر ، رُؤِيَ في النَّومِ ، فقيلَ ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : أعَزَّني في الدُّنيا والآخِرَة بدَعْوَةِ الرَّجُل الصَّالِح[1] .

وقالَ أبو زَكريّا العَنْبَري : شَهِدتُ جنازَةَ الحُسَينِ القَبَّاني ، فصلَّىٰ بنا عليه أبو عبدِ الله البُوشَنْجِي ، فلمَّا أرادُوا الانْصرافَ ، قُدِّمَت دابَّةُ أبي عبد الله ، وأخَذَ أبو عَمرٍو الخَفَّاف بلِجَامِه ، وأخَذَ إمامُ الأئمَّةِ برِكابِه ، وأبو بَكْر الجَارُوديُّ ، وإبْراهيمُ بنُ أبي طالِب يُسَوِّيانِ عليه ثيابَه ، فلَمْ يَمْنَعْ واحداً منهم ، ومَضَىٰ[2] .

وعن جَعْفَرٍ الطَّسْتي : أنَّه سَمعَ أبا مُسْلم الكَجِّي يَقولُ ، وذُكِرَ عندَه صَالِحُ بنُ محمَّد جَزَرَة فقالَ : ما أهْوَنَه عَليكم ، ألا تَقولُون : سَيِّدُ الْمُسلمينَ ! ![3] .

وقالَ عبدُ القادِرِ الحافِظُ : وكان أبو طاهر السِّلَفيُّ لا تَبدو منه جَفْوَةٌ لأحَد ، ويَجلِسُ للحَديثِ فلا يَشْرَبُ ماءً ، ولا يَبْزُق ، ولا يَتورَّك ، ولا تَبدُو له قَدَمٌ وقد جازَ المئة[4] .

وحَكَى الشَّيخ عبدُ الصَّمَد قالَ : والله مُذْ خَدَمْتُ الشَّيخَ عبدَ الله اليُونيني مَا رَأيتُه اسْتَندَ ولا سَعَلَ ولا بَصَقَ[5] .

الإنْفَاقُ في سَبيلِ الله

١ـ الحَثُّ على الإنْفاقِ في سَبيلِ الله :

عن أبي عبدِ الرَّحْمَـٰن الحُبُلي ، سَمعتُ عبدَ الله بنَ عَمْرو يَقولُ : لأنْ أكُونَ عاشِرَ عَشْرةِ مَسَاكينَ يومَ القِيامَة ، أحَبُّ إليَّ منْ أنْ أكُونَ عَاشِرَ عَشْرةٍ أغْنِياء ، فإنَّ الأكْثَرينَ هم الأقَلُّونَ يومَ القِيامَة ، إلاَّ مَنْ قالَ هَكذَا وهَكذَا ، يَقولُ : يَتصَدَّقُ يَميناً وشِمالاً[6] .

---

(١) انظر السير : (إبْراهيمُ الحَرْبيّ) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٤ .
(٢) انظر السير : (البُوشَنْجي) ١٣/ ٥٨١ـ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١١٧ .
(٣) انظر السير : (صالح بن محمّد) ١٤/ ٢٣ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١١٢٤ .
(٤) انظر السير : (السِّلَفيُّ) ٢١/ ٥ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٩٢ .
(٥) انظر السير : (اليُونيني) ٢٢/ ١٠١ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٦٦٩ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن عَمْرو بن العَاص) ٣/ ٧٩ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ١/٣٤٠ .

ومن محاسن الإمام ابن نُجَيْد أنَّ شَيخَه الزَّاهد أبا عثمان الحِيريَّ طلبَ في مجلسه مالاً لبعض الثُّغور ، فتأخَّرَ ، فتألَّمَ وبَكَىٰ علىٰ رُؤوس النَّاس فجاءَهُ ابنُ نُجَيْد بألْفَي درهم ، فدَعا له ، ثمَّ إنَّه نوَّهَ به ، وقال : قد رَجَوتُ لأبي عمرو بما فعل ، فإنَّه نابَ عن الجماعة ، وحمل كذا وكذا ، فقام ابنُ نُجَيْد ، وقال : لكن إنَّما حملتُ من مال أمي وهي كارهة ، فينبغي أن تردَّه لترضىٰ ، فأمر أبو عثمان بالكيس فَرُدَّ إليه ، فلمَّا جَنَّ الليلُ جاءَ بالكيسِ ، والتَمَسَ من الشيخ سترَ ذلك ، فبَكَىٰ ، وكان بعد ذلك يَقولُ : أنا أخشىٰ من هِمَّة أبي عَمرو[1] .

٢ـ الإنْفَاقُ من مَالٍ حَرامٍ لا يُقْبَل :

عن القاسِمِ بنِ مُخَيْمِرَة ، قالَ : مَنْ أصَابَ مَالاً مِنْ مَأثَم ، فوَصَلَ به ، أو تَصدَّقَ به ، أو أنْفَقَه في سَبيلِ الله جَمَعَ ذلك كلَّه في نارِ جَهنَّم[2] .

٣ـ صُوَرٌ من الإنْفَاق :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ خَليفَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، أبي بَكر الصِّدِّيق رضي الله عنه : وجاءَ أنَّه اتَّجَرَ إلىٰ بُصْرَىٰ غيرَ مرَّة ، وأنَّه أنْفَقَ أمْوالَه على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وفي سَبيلِ اللهِ[3] .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « مَا نَفَعَنِي مَالٌ مَا نَفَعَنِي مَالُ أبي بَكر » .

وقالَ عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْر : أسْلَمَ أبو بَكر يَومَ أسْلَمَ وله أرْبَعونَ ألْفَ دينارٍ .

وقالَ عَمْرو بنُ العَاصِ : يا رَسُولَ اللهِ أيُّ الرِّجالِ أحبُّ إليكَ ؟ قالَ صلى الله عليه وسلم : « أبو بَكر »[4] .

وعن عبدِ الرحمٰن بن سمرة قال : جاء عُثمانُ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بألفِ

---

(١) انظر السير : (ابنُ نُجَيد) ١٦/١٤٦ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٥ .
(٢) انظر السير : (القاسِم بن مُخَيْمِرَة) ٥/٢٠١ـ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٧/٥٩٥ .
(٣) انظر السير : (أبو بَكر الصِّدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢/٢٣ .
(٤) انظر السير : (أبو بَكر الصِّدِّيق) ، وانظر النزهة : ٣/٢٣ .

دينارٍ في ثَوْبِه حينَ جهَّزَ جَيشَ العُسْرَة فصَبَّها في حِجرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فجَعَلَ يُقلِّبُها بيدِه ويقولُ : « مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَومَ » ، رَواهُ أحمدُ في مُسْنَده ، وفي مُسْنَدِ أبي يَعْلىٰ من حَديثِ عبد الرحمَـٰنِ بنِ عَوْفٍ ، أنَّه جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَة بسَبْعِمائة أوقية من ذَهَب[1] .

وعن بِشْرِ بنِ بَشير الأسْلَميِّ ، عن أبيه قالَ : لَمَّا قَدمَ الْمُهاجِرونَ الْمَدينَةَ اسْتَنْكَروا الماءَ ، وكانت لِرَجُلٍ من بَني غِفَار عَينٌ يُقالُ لها « رومَة » ، وكان يَبيعُ منها القِرْبَةَ بمُدٍّ ، فقالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « تَبيعُهَا بِعَيْنٍ في الْجَنَّةِ ؟ » فقالَ : لَيسَ لي يا رَسولَ الله عَينٌ غَيرُها ، لا أسْتَطيعُ ذلك ، فبلَغَ عُثمانُ ، فاشْتَراها بخَمسَة وثَلاثينَ ألْفَ دِرْهَم ، ثم أتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالَ : أتَجْعَلُ لي مثلَ الذي جَعَلْتَ له عَيناً في الْجَنَّةِ إنْ اشْتَرَيْتُها ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نَعَمَ » ، قالَ : قد اشْتَرَيْتُها وجَعَلْتُها للمُسلِمينَ[2] .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : اشْتَرَىٰ عُثْمانُ من رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْجَنَّةَ مَرَّتَينِ : يَومَ رومَة ، ويَومَ جَيشِ العُسْرَة[3] .

وقالَ أنَسُ : كانَ أبو طَلْحَة أكثَرَ أنْصَاريٍّ بالْمَدينَة مالاً من نَخْلٍ ، فقالَ : يا رَسُولَ الله ، إنَّ أحَبَّ أمْوَالي إليَّ بَيْرُحَاءَ ، وإنَّها صَدقَةٌ لله ، أرجُو بِرَّها وذُخْرَها ، فضَعْها يا رَسُولَ الله حَيثُ أرَاكَ الله ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « بَخٍ! ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَإنِّي أرَىٰ أنْ تَجْعَلَهَا في الأقْرَبينَ »[4] .

عن عُرْوَةَ ، عن عَائشَةَ ، أنَّها تَصدَّقَت بسَبعينَ ألْفاً ، وأنَّها لَتَرْقَعُ جانبَ دِرْعِها ، رَضيَ اللهُ عنها .

عن أم ذَرَّةٍ ، قالَت : بَعثَ ابنُ الزُّبَيرِ إلىٰ عائشَةَ بمَالٍ في غِرارَتَينِ ، يَكونُ مئة

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عَفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٧٨ .
(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عَفَّان) ، وانظر النزهة : ٣/٧٨ .
(٣) انظر السير : (عُثْمان بن عَفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٧٩ .
(٤) انظر السير : (أبو طَلحَة الأنْصاريّ) ٢/ ٢٧ـ ٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/٢١٤ .

ألْفٍ ، فدَعَت بطَبَقٍ ، فجَعلَت تَقسِمُ في النَّاسِ ، فلَمَّا أمْسَتْ ، قالَت : هاتِ يا جارِيَةُ فُطُوري فقالَت أمُّ ذَرَّةٍ : يا أُمَّ المؤمنينَ ، أمَا اسْتَطَعْتِ أنْ تَشْتَري لنا لَحْماً بدِرْهَم ؟ قالَت : لا تُعَنِّفيني ، لَوْ أذْكَرتيني لفَعلتُ[1] .

عن نافعٍ قالَ : إنْ كانَ ابنُ عُمَر ليُفَرِّقُ في الْمَجْلسِ ثَلاثينَ ألفاً ، ثم يأتي عليه شَهرٌ ما يَأكلُ مُزْعَةَ[2] لَحْم[3] .

وعن نافعٍ قالَ : ما مَاتَ ابنُ عُمَرَ حتَّىٰ أعْتَقَ ألفَ إنْسانٍ ، أو زاد[4] .

وعن نافعٍ قالَ : بَعثَ مُعاويةُ إلى ابنِ عُمَرَ بمئة ألفٍ ، فما حالَ عليه الحَولُ وعندَه منها شَيءٌ[5] .

وعن منذر الثَّوْريِّ ، أنَّ الرَّبيعَ بنَ خُثَيم كانَ إذا أخَذَ عَطاءَه فرَّقَه وتَركَ قَدرَ ما يَكفيه[6] .

حدَّثنا سُفيانُ أنَّ عامِرَ بنَ عبدِ الله اشْتَرَىٰ نفسَه من الله سِتَّ مَرَّات ، يَعني يَتصَدَّقُ كُلَّ مَرَّة بدِيَتِه[7] .

وبَلَغَنا أنَّ حَمَّادَ بنَ أبي سُليمان كان ذا دُنيا مُتَّسِعَة ، وأنَّه كان يُفَطِّرُ في رَمَضانَ خَمسَ مئة إنْسَانٍ ، وأنَّه كان يُعْطيهم بعدَ العِيدِ لكلِّ واحدٍ مئةَ دِرْهَم[8] .

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي جَعْفَر القَارىء ، وقيلَ : كان يَتصَدَّقُ حتَّىٰ بإزارِه ، وكانَ من العُبَّاد[9] .

---

(١) انظر السير : (عائشَةُ أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٢٤٤ .
(٢) الْمُزعَة ، بضَم الميم : القطعة اليَسيرة من اللَّحم .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/٣٦٩ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٦٩ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/٣٦٩ .
(٦) انظر السير : (الرَّبيع بن خُثَيم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٩/٤٩٣ .
(٧) انظر السير : (عامِر بن عبد الله) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ١/٥٩٦ .
(٨) انظر السير : (حَمَّاد بن أبي سُليمان) ٥/ ٢٣١ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩٨ .
(٩) انظر السير : (أبو جَعْفَر القارىء) ٥/ ٢٨٧ـ ٢٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/٦٠٤ .

وعن هَيَّاج بن بَسْطام قالَ : كان جَعْفَرُ بنُ مُحمّد يُطعِمُ حتىٰ لا يَبقَىٰ لِعيالِه شيء[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي حَفْص النِّسابُوريِّ : بَلغَني أنه أنْفَذَ في يَومٍ واحدٍ بضعَةَ عَشرَ ألْفَ دينارٍ يَفْتَكُّ بها أسْرَىٰ ، فلمَّا أمْسَىٰ لَمْ يَكُنْ له عَشاءٌ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحافِظِ عبدِ الغَنيِّ : رأيتُ يوماً قد أُهْدِيَ إلىَ بيتِ الحافِظِ مِشْمِشٌ فكانوا يُفَرِّقونَ ، فقالَ من حينِه : فَرِّقُوا ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[3] .

وقد فُتِحَ له بكَثير من الذَّهَبِ وغَيرِه فمَا يَترُك شَيئاً حتَّىٰ قالَ لي ابنُه أبو الفَتْح : وَالِدي يُعطِي النَّاسَ الكَثيرَ ونَحنُ لا يَبعَثُ إلَيْنا شَيئاً ، وكُنَّا ببَغدَادَ[4] .

الإيثَار

صُوَرٌ من الإيثَار :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الرحمَـٰن بنِ عَوْف رضي الله عنه : ولَمَّا هاجرَ إلى المدينة فَقيراً لا شيء له ، آخَىٰ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بينَه وبينَ سَعدِ بنِ الرَّبيعِ أحدِ النُّقَباء ، فعَرضَ عليه أنْ يُشاطِرَه نِعْمَتَه ، وأنْ يُطلِّقَ له أحْسَنَ زَوْجَتَيه ، فقالَ له : بَارَكَ اللهُ لكَ في أهْلِك ومَالِك ، ولَكنْ دُلَّني على السُّوق فذَهبَ فبَاعَ واشْتَرَىٰ ، وربَحَ ، ثم لمْ يَنْشَبْ أنْ صارَ مَعه دَراهِمَ ، فتَزوَّجَ امرأةً علىٰ زِنَةِ نَوَاةٍ من ذَهَب ، فقالَ له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ » ثم آلَ أمرُه في التِّجارَةِ إلىٰ ما آلَ[5] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ سَعْدِ بنِ الرَّبيعِ : ابن عَمرٍو الأنْصَاريُّ الخَزْرَجيُّ

---

(١) انظر السير : (جَعْفَر بن محمَّد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٤٧ .
(٢) انظر السير : (أبو حَفْص النِّسابوريّ) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٠٢٥ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٩٢ .
(٤) انظر السير : (عبد الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٤٧ .
(٥) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن عَوْف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٢ .

الحارثي البدري النَّقيبُ الشَّهيدُ الذي آخى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ عَوْف ، فعزم علىٰ أن يعطي عبدَ الرحمـٰن شَطْرَ مالِه ، ويُطَلِّقَ إحْدَىٰ زَوْجَتيه ، لِيَتَزوَّجَ بها ، فامْتَنعَ عبدُ الرحمَـٰن من ذلك ودَعَا له وكانَ أحدَ النُّقَباءِ لَيلَةَ العَقبَة[1] .

وعن علقَمةَ بنِ مَرْثَد في ذِكْر الثَّمانيَة من التَّابعين ، قالَ : وأمَّا الحَسَنُ فمَا رَأينا أحَداً أطْوَلَ حُزْناً منه ، ما كُنَّا نَراهُ إلاَّ حَديثَ عَهْد بمُصيبَة ، ثم قالَ : نَضحَكُ ولا نَدري لَعلَّ اللهَ قد اطَّلعَ علىٰ بَعضِ أعْمالِنَا وقالَ : لا أقْبلُ منكُم شَيئاً ، وَيْحَكَ يا ابنَ آدَمَ ، هَلْ بمُحارَبَةِ الله ـ يَعْني قُوَّة ـ واللهِ لقَد رَأيتُ أقْوَاماً كانَت الدُّنيا أهْوَن علىٰ أحَدِهم من التُّرابِ تَحتَ قَدمَيه ، ولقد رَأيتُ أقْواماً يُمْسِي أحدُهم ولا يَجِدُ عندَه إلاَّ قُوتاً فيَقولُ : لا أجْعَلُ هـٰذا كلَّه في بَطْني فيَتصدَّقُ ببَعضِه ولعَلَّه أجْوَعُ إليه مِمَّنْ يَتصَدَّقُ به عليه[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ إبْراهيمَ بنِ يَزيد التَّيْميّ ، قالَ ابنُ سَعْد : أخْبَرنا عليُّ بنُ محمَّد قالَ : طَلبَ الحَجَّاجُ إبْراهيمَ النَّخَعي ، فجاءَ الرَّسُولُ فقالَ : أريدُ إبْراهيمَ ، فقالَ إبْراهيمُ التَّيْميّ : أنا إبْراهيمُ ، ولَمْ يَسْتحِلَّ أنْ يدله على النَّخَعيِّ ، فأمَرَ بحَبسِه في الدِّيماسِ ، ولَمْ يَكنْ لهم ظِلٌّ من الشَّمسِ ، ولا كِنٌّ من البَرْدِ ، وكانَ كلُّ اثنَين في سِلْسِلَة فتَغيَّرَ إبْراهيمُ ، فعادَته أمُّه ، فلَمْ تَعرفْهُ ، حتَّىٰ كلَّمَها ، فمَاتَ ، فرَأى الحَجَّاجُ في نَومِه قائلاً يَقولُ : مَاتَ في البَلدِ اللَّيلَة رَجلٌ من أهْلِ الجَنَّة ، فسألَ ، فقالوا : مَاتَ في السِّجْنِ إبْراهيمُ التَّيْميّ ، فقالَ : حُلْمٌ نَزغَةٌ من نَزَغَات الشَّيطانِ ، وأمَرَ به فأُلقِيَ على الكُنَاسَة[3] .

قالَ يُوسُفُ بنُ البُهْلول الأزرق : حدَّثنا يَعقُوبُ بنُ شَيبَة ، قالَ : أظلَّ العيدُ رَجلاً ، وعنده مئةُ دينار لا يَملكُ سِوَاها ، فكَتبَ إليه صَديقٌ يَستَرْعي منه نَفقَة فأنْفَذَ إليه

---

(١) انظر السير : (سَعْد بن الرَّبيع) ١/ ٣١٨ـ ٣٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٩ .

(٢) انظر السير : (الحَسَن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٦٢ .

(٣) انظر السير : (إبْراهيمُ بن يَزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٨٠ .

بالمئة دينار ، فلَمْ يَنْشَبْ أنْ وَرَدَ عليه رُقْعَةٌ من بَعضِ إخْوَانِه يَذكُرُ أنَّه أيْضاً في هٰذا العيدِ في إضاقَة ، فوَجَّهَ إليه بالصُّرَّةِ بعَيْنِها قالَ : فبَقِيَ الأول لا شَيء عندَه ، فاتَّفَقَ أنَّه كتبَ إلى الثالث وهو صَديقُه يَذكُرُ حالَه ، فبَعثَ إليه الصُّرَّةَ بِخَتْمِها قال فعَرَفَها ، ورَكِبَ إليه ، وقالَ : خَبِّرْني ما شَأنُ هٰذه الصُّرَّة ؟ فأخْبَرَه الخَبرَ ، فرَكبا معاً إلى الذي أرْسَلَها ، وشَرحُوا القِصَّةَ ، ثم فَتَحوها واقْتَسَمُوها .

قالَ ابنُ البُهْلول : الثَّلاثَة ، يَعْقوبُ بنُ شَيْبَة ، وأبو حَسَّان الزِّيادي ، وآخَرُ نَسيتُه إسْنادُها صَحيح .

وقيلَ : عاشَ الزِّياديُّ تِسْعاً وثَمانينَ سَنةً ، ماتَ في سَنةِ اثْنَتينِ وأرْبَعينَ ومئتين[1] .

وقالَ ابنُ الباديَة الحافظُ كان بَقِيُّ بنُ مَخْلَد من عُقَلاء النَّاسِ وأفاضِلِهم ، وكانَ أسْلمُ بنُ عبدِ العَزيز يُقدِّمُه علىٰ جَميع مَنْ لَقيَه بالْمَشرِق ، ويَصفُ زُهْدَه ، ويقولُ : رُبَّما كُنتُ أمْشي مَعَه في أزِقَّة قُرْطُبَة ، فإذا نَظَرَ في مَوْضِع خالٍ إلىٰ ضَعيفٍ مُحْتاجٍ أعْطاهُ أحَدَ ثَوبَيه[2] .

وقال أبو البَرَكَات إسْماعيلُ بنُ أبي سَعْد الصُّوفيُّ : كانَ الشَّيخُ أبو بَكْر ابنُ زَهْراء الصُّوفيُّ بِرباطِنا ، قد أعدَّ لنَفسه قَبراً إلىٰ جانبِ قَبرِ بِشْر الحافي ، وكان يَمضي إليه كلَّ أُسبوع مرةً ، ويَنامُ فيه ، ويَتلُو فيه القُرآنَ كُلَّه ، فلمَّا ماتَ أبو بَكْر الخَطيبُ ، كانَ قد أوْصَىٰ أنْ يُدفَن إلىٰ جَنبِ قَبرِ بِشْر ، فجاءَ أصْحابُ الحَديثِ إلى ابنِ زَهْراءَ ، وسَألوهُ أنْ يَدفِنُوا الخَطيبَ في قَبرِه ، وأن يُؤثِرَه به ، فامْتَنعَ ، وقالَ : مَوْضعٌ قد أعْدَدتُه لِنَفْسي يُؤخَذُ منِّي! فجَاؤُوا إلىٰ وَالِدي ، وذَكروا له ذلك فأحْضرَ ابنَ زَهْراء وهو أبو بَكر أحمَدُ بنُ عَليّ الطُّرَيْثِيثِيُّ فقالَ : أنا لا أقولُ لكَ أعْطِهِم القَبرَ ، ولكن أقُولُ لكَ : لَوْ أنَّ بِشْراً الحَافِي في الأحْياءِ وأنتَ إلىٰ جانبِه ، فجاءَ أبو بَكر الخَطيبُ ليَقْعُدَ دُونَك ، أكانَ

---

(١) انظر السير : (أبو حَسَّان الزِّياديّ) ١١/ ٤٩٦ـ٤٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٦٢ .

(٢) انظر السير : (بَقيُّ بنُ مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٨٦ .

يَحسُنُ بكَ أنْ تَقعُدَ أعْلَىٰ منه ؟ قالَ : لا ، بل كُنتُ أُجْلِسُه مَكاني قالَ : فهَكَذا يَنبَغي أنْ تَكُونَ السَّاعَة قالَ : فطَابَ قَلبُه ، وأَذِنَ[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الحافِظِ عبدِ الغَنيِّ ، قالَ الضِّياءُ : وسمعتُ أحمَدَ ابنَ عبدِ اللهِ العراقي ، حدَّثني مَنصُورُ الغَضاريُّ قالَ : شَاهَدتُ الحَافِظَ في الغَلاءِ بمِصْرَ وهو ثَلاثُ لَيالٍ يُؤثِرُ بعَشَائه ويَطْوِي[2] .

التَّعَفُّف

صُوَرٌ على التَّعَفُّف :

قالَ ابنُ يُونُس : شَهدَ ثَوْبانُ النَّبَويُّ ، مَوْلَىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فَتحَ مِصْرَ ، واخْتَطَّ بها .

وقالَ عاصِم الأحْوَلُ : عن أبي العالية ، أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ : « مَنْ تَكفَّلَ لِي أَنْ لا يَسْأَلَ أَحَداً شَيْئاً وَأَتَكفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ ؟ » فقالَ ثَوبانُ : أنا فكانَ لا يَسألُ أحَداً شَيئاً[3] .

وعن الزُّهْريِّ ، عن سَعيد وعُرْوَة ، أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أعْطَىٰ حَكيماً يَومَ حُنين فاسْتَقلَّه ، فزَادَه ، فقالَ : يا رَسُولَ الله! أيُّ عَطيَّتُكَ خَيرٌ ؟ قالَ صلى الله عليه وسلم : « الأُوْلَىٰ » وقالَ : « يَا حَكيمُ إنَّ هَـٰذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ وَحُسْنِ أُكلَةٍ ، بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِاسْتِشْرَافِ نَفْسٍ وَسُوءِ أُكلَةٍ ، لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ، وَكانَ كالَّذِي يَأْكلُ وَلا يَشْبَعُ » قَالَ : ومِنْكَ يا رَسُولَ الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « وَمِنِّي » قالَ : فوالذي بعَثكَ بالحَقِّ لا أرْزَأُ أحَداً بَعدَكَ شَيئاً قالَ : فلَمْ يَقْبَلْ دِيواناً ولا عَطاءً حتَّىٰ مَاتَ فكانَ عُمَرُ يَقولُ : اللَّهُمَّ إنِّي أُشْهِدُكَ علىٰ حَكيم أنِّي أدْعُوهُ لِحَقِّه وهو يَأبَىٰ فمَاتَ حينَ ماتَ ، وإنَّه لَمِنْ أكثَر قُرَيشٍ مالاً[4] .

---

(١) انظر السير : (الخَطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٤١٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٤٧ .
(٣) انظر السير : (ثَوْبان النَّبَويّ) ٣/ ١٥ـ١٨ ، وانظر النزهة : ٤/٣٢١ .
(٤) انظر السير : (حَكيم بن حِزام) ٣/ ٤٤ـ٥١ ، وانظر النزهة : ٢/٣٣٠ .

وقال ابنُ عُيَيْنَة : دَخلَ هِشامُ بنُ عبدِ الْمَلِك الكَعْبَةَ فإذا هو بسَالِمِ ابنِ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، فقالَ : سَلْني حاجَةً ، قالَ : إنِّي أسْتَحي من الله أنْ أسألَ في بيته غَيرَه ، فلمَّا خَرجا قالَ : الآن فَسَلْني حَاجةً فقالَ له سَالمُ : من حَوَائجِ الدُّنيا أمْ مِنْ حَوَائجِ الآخِرَة ؟ فقالَ : مِنْ حَوَائجِ الدُّنيا قالَ : والله ما سَألتُ الدُّنيا مَنْ يَملِكُها ، فكَيفَ أسْألُها مَنْ لا يَملِكُها ؟!![1] .

التَّوَاضُع

١ـ فَضْلُه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يُوسُفَ بنِ أسْباط : وعن يوسُفَ قال : يُجْزىءُ قَليلُ الوَرَعِ والتَّوَاضُع من كَثير الاجْتِهادِ في العَمَل وَثَّقَهُ ابنُ مَعين[2] .

وعن الإمَامِ الشَّافِعيِّ قالَ : التَّوَاضُع من أخْلاقِ الكِرامِ ، والتَّكَبُّر من شِيَمِ اللِّئامِ ، والتَّوَاضُعُ يُورِثُ الْمَحَبَّةَ ، والقَناعَة تُورِثُ الرَّاحَةَ ، وقالَ : أرْفَعُ النَّاسِ قَدْراً مَنْ لا يَرَىٰ قَدْرَه ، وأكثَرُهم فَضْلاً مَنْ لا يَرَىٰ فَضلَه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعَقِّباً : لا نُلامُ واللهِ علىٰ حُبِّ هـٰذا الإمَامِ ، لأنَّه من رجال الكَمَال في زَمانِه رَحمَه اللهُ ، وإنْ كُنَّا نُحبُّ غَيرَه أكْثَر[3] .

٢ـ غَايَتُه :

سُئلَ يُوسُفُ بنُ أسْباط ما غايةُ التَّوَاضُع ؟ قالَ : أنْ لا تَلْقَىٰ أحَداً إلاَّ رَأيتَ له الفَضلَ عَليكَ[4] .

---

(١) انظر السير : (سالِم بن عبد الله) ٤/ ٤٥٧ـ٤٧٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٣٣ .
(٢) انظر السير : (يُوسُف بن أسْباط) ٩/ ١٦٩ـ١٧١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨١٤ .
(٣) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٥٥ .
(٤) انظر السير : (يُوسُف بن أسْباط) ٩/ ١٦٩ـ١٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨١٤ .

٣ـ صُوَرٌ على التَّواضُع :

قالَ عبدُ الله بنُ أبي الهُذَيل : رَأيتُ عَمَّاراً اشْتَرَىٰ قَتّاً[١] بدِرْهَم ، وحَملَه علىٰ ظَهرِه وهو أميرُ الكُوفَة[٢] .

عن ابنِ سيرينَ : أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ كَتبَ في عَهْدِ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ على الْمَدائنِ : اسْمَعوا له وأطيعوا ، وأعْطُوه ما سَألَكم فخَرَجَ من عندِ عُمَرَ علىٰ حِمارٍ مُوكَف[٣] ، تحتَه زادُه فلمَّا قَدِمَ اسْتَقبَلَه الدَّهَاقينَ[٤] وبيَدِه رَغيفٌ ، وعَرْقٌ من لَحْم .

وَليَ حُذَيْفَةُ إمْرَةَ الْمَدائنِ لِعُمَرَ ، فبَقيَ عليها إلىٰ بَعْدِ مَقْتَلِ عُثْمانَ ، وتُوفِّيَ بعد عُثْمانَ بأرْبَعينَ لَيلَة[٥] .

عن أبي رَافِع ، قالَ : كان مَرْوَانُ رُبَّما اسْتَخلَفَ أبا هُرَيْرَةَ على الْمَدينَةِ ، فيَركَبُ حِماراً ببَرْذَعَةٍ ، وفي رَأسِه خُلْبَةٌ من لِيفٍ ، فيَسيرُ ، فيَلقَى الرَّجلَ ، فيَقولُ : الطَّريقَ! قَدْ جاءَ الأميرُ[٦] .

وقالَ أبو كَعب صاحِبُ الحَرير ، حدَّثنا أبو الأصْفَر ، أنَّ الأحْنَفَ بنَ قَيْس اسْتُعمِلَ علىٰ خُراسانَ ، فأجْنَبَ في ليلة باردَة ، فلَمْ يُوقِظْ غِلْمانَه وكسَرَ ثلجاً واغْتَسلَ[٧] .

وقالَ ابنُ جابِر : أقبلَ يَزيدُ بنُ عبد الْمَلِك إلىٰ مَجلِسِ مَكْحُول ، فهَمَمْنا أنْ نُوَسِّعَ له ، فقالَ : دَعُوهُ يَتعلَّمُ التَّوَاضُع[٨] .

---

(١) القَتُّ : الفِصفِصَة ، وهي الرطبة من عَلف الدَّوابِّ .
(٢) انظر السير : (عَمَّار بن ياسِر) ١/ ٤٠٦ـ ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ١٨٥/ ٤ .
(٣) مُوكَف : أي قد وُضع عليه الإكاف ، وهو بمنزلة السَّرج للحصان .
(٤) الدَّهَاقين : رُؤساء القُرىٰ أو التجار .
(٥) انظر السير : (حُذَيْفَة بنُ اليَمان) ٢/ ٣٦١ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٢٧٥/ ٢ .
(٦) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٣١٣/ ٢ .
(٧) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٤٥١/ ٣ .
(٨) انظر السير : (يَزيدُ بنُ عبد الْمَلِك) ٥/ ١٥٠ـ ١٥٢ ، وانظر النزهة : ٥٩٣/ ١ .

وقال عبدُ الله بن زَيْد : كنا نَجلِسُ إلىٰ مَكْحُول ومَعَنا سَعيدُ بنُ عبدِ العَزيز ، فكانَ يَسْقي الْمَاءَ في مَجْلِسِ مَكْحُول[1] .

وكانَ الإمامُ أحمَدُ بنُ حَنْبَل رُبَّما خَرَجَ إلى البَقَّالِ ، فيَشتَري الجُرْزَةَ الحَطَب والشَّيءَ ، فيَحمِلُه بيَدِه .

وكان يَتَنوَّرُ في البَيتِ فقالَ لي في يَومٍ شِتويٍّ : أريدُ أدْخُلَ الحَمَّامَ بعدَ الْمَغرِب ، فقُلْ لصَاحِبِ الحَمَّامِ ثم بَعثَ إليَّ : إنِّي قد أضْرَبتُ عن الدُّخُولِ وتَنوَّرَ في البَيتِ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الرِّفاعيِّ : وقيلَ : أُحْضِرَ بينَ يَدَيه طَبَقُ تَمْر ، فبَقيَ يُنَقِّي لنَفسِه الحَشَفَ يأكلُه ، ويقولُ : أنا أحَقُّ بالدُّونِ ، فإنِّي مثلُه دُونٌ[3] .

التَّوْقِيرُ والاحْتِرام

١ـ رُؤْيا فيها حَثٌّ علىٰ تَوقِير العُلَمَاء :

قالَ الوَزيرُ أبو الفَضْل محمَّدُ بنُ عُبَيدِ الله البَلعَمِيّ : سَمعتُ الأميرَ إسْماعيلَ بنَ أحمَدَ يَقولُ : كُنتُ بسَمَرْقَندَ ، فجَلستُ يوماً للمَظالِم ، وجَلسَ أخي إسْحاقُ إلىٰ جَنبي ، إذْ دَخلَ أبو عبدِ الله محمَّدُ بنُ نَصْر ، فقُمتُ له إجْلالاً للعِلم ، فلمَّا خَرجَ عَاتَبَني أخي وقالَ : أنتَ وَالِي خُراسانَ تَقومُ لرَجلٍ من الرَّعيَّة ؟ هـٰذا ذَهَابُ السِّياسَة ، قالَ : فبِتُّ تلكَ الليلةَ وأنا مُتَقسِّمُ القَلبِ ، فرَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنام ، كأنِّي وَاقفٌ مع أخي إسْحاقَ ، إذْ أقبلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فأخَذَ بعَضُدي فقالَ لي : ثَبَتَ مُلْكُكَ ومُلكُ بَنيكَ بإجْلالِكَ محمَّدَ بنَ نَصْر ، ثم التَفتَ إلىٰ إسْحاقَ ، فقالَ : ذَهبَ مُلكُ إسْحاقَ ومُلكُ بَنيه باسْتِخْفافِه بمحمَّدِ بنِ نَصْر .

---

(١) انظر السير : (سَعيد بن عبد العَزيز) ٨/ ٣٢ـ٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٢٣ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٢٧ .

(٣) انظر السير : (الرِّفاعيُّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٦٠١ .

وماتَ بعدَ أيَّام قَلائل من مَوْتِ صالح بنِ محمَّد جَزَرَة ، وذلك سَنةَ أرْبَعٍ وتِسْعينَ ومِئتين[1] .

٢ـ صُوَرٌ من التَّوقِير :

عن ثابتٍ البُنَانيِّ أنَّ أبا بَرْزَةَ الأَسْلَميَّ كان يَلبَسُ الصُّوفَ ، فقيلَ له : إنَّ أخَاكَ عائذَ بنَ عَمرو يَلبَسُ الخَزَّ ، قالَ : وَيْحَكَ ومَنْ مثل عائذ ؟ فانْصَرفَ الرَّجُلُ ، فأخْبَرَ عائذاً ، فقالَ : ومَنْ مثلُ أبي بَرْزَة! ؟

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰكذا كان العُلماءُ يُوَقِّرونَ أقْرانَهم[2] .

وقالَ أبو الْمِنْهالِ : سَألتُ البَراءَ عن الصَّرْفِ ، فقالَ : سَلْ زَيْدَ بنَ أَرْقَم ، فإنَّه خَيرٌ منِّي وأعْلَم[3] .

قالَ محمَّدُ بنُ سِيرينَ : جَلستُ إلىٰ عبدِ الرحمَـٰن بن أبي لَيلىٰ ، وأصْحابُه يُعَظِّمونَه كأنَّه أمير[4] .

عن مُجَاهِدٍ قالَ : قالَ ابنُ عبَّاس لسَعيدِ بنِ جُبَيْر : حَدِّثْ قالَ : أُحَدِّثُ وأنتَ هَا هُنا ؟ قالَ : أوَلَيسَ من نِعْمَة الله عَليكَ أنْ تُحَدِّثَ وأنا شَاهِدٌ ، فإنْ أصَبْتَ فذَاكَ ، وإنْ أخْطأتَ ، علَّمْتُك[5] .

ورَوَى اللَّيثُ عن عُبيدِ الله بن عُمَر ، قال : هو[6] صاحبُ مُعْضِلاتِنا ، وعالِمُنا ، وأفْضَلُنا[7] .

وعن عبدِ الرحْمَـٰن بنِ زَيْدِ بنِ أسْلَم ، قالَ : كانَ يَحْيَىٰ بنُ سَعيد يُجالِسُ رَبيعَةَ بنَ

---

(١) انظر السير : (محمَّد بن نَصْر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٢٦ .
(٢) انظر السير : (أبو بَرْزَة الأسْلَميّ) ٣/ ٤٠ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٢٨ .
(٣) انظر السير : (زَيْد بن أرْقَم) ٣/ ١٦٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٥٩ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي لَيلىٰ) ٤/ ٢٦٢ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٩٤ .
(٥) انظر السير : (سَعيد بن جُبَيْر) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٩/ ٥٠٦ .
(٦) الكلامُ عائدٌ علىٰ رَبيعَة بن أبي عبد الرحمَـٰن بن فَرُّوخ ، مُفْتي الْمَدينَة ، من مَوالي آل الْمُنْكَدِر .
(٧) انظر السير : (ربيعَة) ٦/ ٨٩ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٣٥ .

فَرُّوخ ، فإذا غابَ رَبيعَة ، حدَّثهم يَحْيَىٰ أحْسَنَ الحَديثِ ، وكانَ كَثيرَ الحَديث ، فإذا حَضَرَ رَبيعَة كَفَّ يَحْيَىٰ إجْلالاً لرَبيعَة ، ولَيسَ رَبيعَةُ أسَنَّ منه ، وهو فيما هو فيه ، وكان كلُّ واحدٍ منهما مُبَجِّلاً لصاحِبه[1] .

وقالَ أبو إسْحاقَ الجَوْزَجانيُّ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين يَقولُ : الذي يُحدِّثُ ببَلَدٍ به مَنْ هو أَوْلَىٰ بالتَّحْديث منه أحْمَقٌ ، وإذا رَأيتُني أُحَدِّثُ ببَلَدٍ فيها مثلُ أبي مُسْهر فيَنبَغي لِلحْيَتي أنْ تُحْلَق[2] .

قال أبو حاتم الرَّازيُّ : ما رَأيتُ أحداً أعْظَمَ قَدْراً من أبي مُسْهر ، كنتُ أراهُ إذا خَرَجَ من الْمَسْجِدِ ، اصْطَفَّ النَّاسُ يُسلِّمونَ عليه ، ويُقبِّلونَ يَدَه[3] .

وقالَ القاسِمُ بنُ محمَّد الصَّائغ : سَمعتُ الْمَرُّوذيَّ ، يَقولُ : دَخلتُ علىٰ ذي النُّونِ السِّجنَ ، ونحنُ بالعَسْكر ، فقالَ : أيُّ شَيءٍ حالُ سَيِّدِنا ؟ يَعني : أحمَدَ بنَ حَنْبَل[4] .

وعن ابنِ الْمَديني ، قالَ : أمَرني سَيِّدي أحمَدُ بنُ حَنْبَل أن لا أُحدِّثَ إلاَّ من كتَاب[5] .

قال القاضي الخليلُ بنُ أحمد السِّجْزيُّ : سَمعتُ أحمدَ بنَ محمَّدِ ابنِ الليَّث قاضي بلدنا يقولُ : جاء سَهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَريُّ إلىٰ أبي داوُد السِّجِسْتاني ، فقيلَ : يا أبا داوُد : هـٰذا سَهلُ بنُ عبد الله جاءَك زائراً فرَحَّبَ به ، وأجلسَه ، فقال سَهلٌ : يا أبا داوُد! لي إليك حاجَة قال : وما هي ؟ قال : حتَّىٰ تَقولَ : قد قَضيتُها مع الإمْكان قال : نَعَم قال : أخْرِجْ إلي لسَانَك الذي تُحدِّثُ به أحاديثَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أُقَبِّلَه فأخْرَجَ إليه لِسانَه فقبَّلَه .

قال ابنُ دَاسَة : سَمعتُ أبا داود يقول : ذكرت في « السُّنن » الصحيحَ وما يُقارِبُه ، فإن كان فيه وهن شديد بيَّنتُه .

---

(١) انظر السير : (ربيعَة) ٦/٨٩ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/٦٣٥ .
(٢) انظر السير : (أبو مُسْهِر) ١٠/٢٢٨ـ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨٧١ .
(٣) انظر السير : (أبو مُسْهِر) ١٠/٢٢٨ـ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/٨٧٢ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩/٩٢٥ .
(٥) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١٠/٩٢٥ .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : فقد وَفَّىٰ ـ رَحمَه الله ـ بذلك بحَسْبِ اجتهادِه ، وبيَّن ما ضَعفُه شَديدٌ ، ووَهْنُه غيرُ مُحْتَمل وكاسرَ[1] عما ضَعفُه خَفيفٌ مُحْتَمل ، فلا يَلزَمُ من سُكوتِه ـ والحالةُ هـٰذه ـ عن الحَديث أنْ يَكونَ حَسناً عندَه ، ولا سيَّما إذا حَكمنا علىٰ حدِّ الحُسْن باصْطِلاحِنا المولدِ الحادِث ، الذي هو في عُرفِ السَّلَف يَعودُ إلىٰ قِسمٍ من أقْسامِ الصَّحيح ، والذي يَجبُ العَملُ به عند جُمهور العُلمَاء ، أو الذي يَرغَبُ عنه أبو عبد الله البُخاري ، ويُمشِّيه مُسْلمٌ ، وبالعَكس ، فهو داخلٌ في أداني مَراتب الصِّحَّة ، فإنَّه لو انْحَطَّ عن ذلك لخَرجَ عن الاحْتجاجِ ، ولبَقيَ مُتَجاذَباً بين الضَّعْف والحُسْن ، فكتابُ أبي داوُد أعلىٰ ما فيه من الثابت ما أخْرَجَه الشَّيْخان ، وذلك نَحْواً من شَطر الكتاب ، ثم يَليهِ ما أخرَجَه أحدُ الشَّيْخَين ، ورَغِبَ عنه الآخَر ، ثم يَليه ما رَغِبا عنه ، وكان إسْنادُه جيداً ، سالماً من عِلَّة وشُذوذ ، ثم يَليه ما كان إسنادُه صالحاً ، وقَبِلَه العُلماء لِمَجيئِه من وَجهين لَيِّنَيْن فصاعداً ، يَعضُدُ كلُّ إسْنادٍ منهُما الآخَر ، ثم يَليه ما ضَعُفَ إسنادُه لنَقْص حِفْظِ رَاويه ، فمثلُ هـٰذا يُمشِّيه أبو داوُد ، ويَسكُتُ عنه غالباً ، ثم يَليه ما كان بَيِّنَ الضَّعفِ من جِهَة رَاويه ، فهـٰذا لا يَسْكُتُ عنه ، بل يُوهِّنُه غالباً ، وقد يَسكُتُ عنه بحَسْبِ شُهْرته ونَكارَتِه ، واللهُ أعْلم .

قال الحافظُ زَكريّا السَّاجي : كتابُ الله أصْلُ الإسْلام ، وكتابُ أبي داوُدَ عَهْدُ الإسْلام .

قال الذهبي : كان أبو داوُد مع إمامَتِه في الحديث وفُنونِه من كبار الفُقَهاء فكتابُه يَدلُّ علىٰ ذلك ، وهو من نُجَباء أصحابِ الإمامِ أحمَدَ ، لازَمَ مَجلِسَه مُدَّة ، وسألَه عن دِقاق المَسائل في الفُروع والأصُول .

وكان علىٰ مَذهَبِ السَّلف في اتِّباعِ السُّنَّة والتَّسْليم لها ، وتَرْكِ الخَوْض في مَضائق الكَلام[2] .

---

(١) كسر من طرفه : غضَّ .

(٢) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/٢٠٣ـ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٧٠ .

الحَسَاسيَة والشَّفافِيَة

صُوَرٌ على الحَسَاسيَة والشَّفَافيَة :

قالَ زُبَيْدُ بنُ الحارِث : سَمعتُ كلمَةً فنَفعَني اللهُ بها ثَلاثينَ سَنةً[1] .

وقِيلَ : إنَّ المَازِريَّ مَرِضَ مَرْضةً ، فلَمْ يَجدْ مَنْ يُعالِجُه إلاَّ يَهُوديّ ، فلمَّا عُوفِي علىٰ يَدِه ، قال : لَوْلا التِزَامِي بحِفْظ صِناعَتِي لأعْدَمْتُك المسلمينَ فأثَّرَ هـٰذا عند المَازِريِّ ، فأقْبَلَ علىٰ تَعَلُّمِ الطِّبِّ حتّىٰ فَاقَ فيه ، وكان مِمَّنْ يُفْتِي فيه كمَا يُفْتِي في الفِقْهِ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الحُطَيئة : وقد كانَ حَصلَ قَحْطٌ بمِصْرَ ، فبَذَلَ له غَيرُ وَاحِدٍ عَطاءً ، فأبَىٰ وقَنعَ فخَطبَ الفَضلُ بنُ يَحْيَى الطَّويلُ إليه بِنتَه ، فزوَّجَه ، ثم طَلبَ منه أُمَّها لِتُؤْنِسَهَا ، ففَعلَ ، فمَا أجْمَلَ تَلطُّف هـٰذا الْمَرءِ في بِرِّ أبي العباسِ ابنِ الحُطَيئة[3] .

الحِلْمُ

١ـ صُوَرٌ على الحِلْم :

عن الشَّعْبيِّ ، قالَ : أغلظَ رَجلٌ لِمُعاوِيَةَ بنِ أبي سُفْيانَ فقالَ : أنْهاكَ عن السلطان ، فإنَّ غَضَبَه غَضَبُ الصَّبيِّ ، وأخْذَهُ أخْذُ الأسَدِ[4] .

وقالَ الأصْمَعيُّ : حدَّثنا ابنُ عَوْن قالَ : كانَ الرَّجُلُ يَقولُ لِمُعاويَةَ : واللهِ لَتَسْتَقيمَنَّ بنا يا مُعاوِيَةُ ، أوْ لَنُقوِّمَنَّك ، فيَقولُ : بمَاذَا ؟ فيَقُولونَ : بالخُشُبِ فيَقُولُ : إذاً أسْتَقيمُ[5] .

---

(١) انظر السير : (زُبَيْد بن الحارث) ٥/ ٢٩٦ـ٢٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٠٥ .
(٢) انظر السير : (المَازِريّ) ٢٠/ ١٠٤ـ١٠٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٣٥١ .
(٣) انظر السير : (ابن الحُطَيئة) ٢٠/ ٣٤٤ـ٣٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٥٩ .
(٤) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفْيان) ٣/ ١١٩ـ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٥٥ .
(٥) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفْيان) ٣/ ١١٩ـ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٥٥ .

وقيلَ : إنَّ رَجُلاً خَاصَمَ الأحْنَفَ قالَ : لَئِنْ قُلتَ وَاحِدَةً ، لَتَسْمَعَنَّ عَشْراً ، فقالَ : لَكنَّكَ إنْ قُلتَ عَشْراً لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدةً[1] .

وقالَ أبو بَكْر بنُ عَيَّاش : كانَ عاصِمُ بنُ أبي النَّجُودِ نَحْوياً فَصيحاً إذا تَكلَّمَ ، مَشْهورُ الكَلام ، وكانَ هو والأعْمَشُ وأبو حُصَين والأسديُّ لا يُبْصِرون جاءَ رَجلٌ يوماً يَقُودُ عاصِماً فوَقَعَ وَقعَةً شَديدةً فما نَهَرَه ولا قالَ له شَيئاً[2] .

وعن يَحْيَىٰ بنِ أكثَم : كانَ الْمَأمُونُ يَحلُمُ حتَّىٰ يُغيظَنا ، قيلَ : مَرَّ مَلاَّحٌ ، فقالَ : أتَظنُّونَ أنَّ هٰذا يَنبُلُ عندي وقد قَتلَ أخاهُ الأمينَ ؟! فسَمِعَها الْمَأمُونُ ، فتَبسَّم ، وقالَ : ما الحيلَةُ حتىٰ أنْبُلَ في عَينِ هٰذا السَّيِّدِ الجَليل[3] .

٢ـ مَنْ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَكونَ حَليماً فَلْيَتَحالَم :

عن الأحْنَفِ بنِ قَيْس أنَّه قالَ : لَستُ بِحَليمٍ ، ولَكِنِّي أتَحالَم[4] .

الرَّحْمَة

١ـ رَحْمَةُ الله وَسِعَتْ كلَّ شَيء :

قالَ ابنُ عُيَيْنَة : تَبعَ ابنُ الْمُنْكَدِر جِنازَةَ سَفيه ، فعُوتِبَ ، فقالَ : والله إنِّي لأسْتَحي من الله أنْ أرَىٰ رَحمَتَه عَجَزَت عن أحَدٍ[5] .

٢ـ اللهُ أرْحَمُ من الوَالِدَيْن :

عن محمَّدِ بنِ إسْماعيلَ البُخاريِّ ، قالَ : سَمعتُ بَعضَ أصْحابِنا يَقولُ : عادَ حَمَّادُ بنُ سَلمَةَ سُفْيانَ الثَّوريَّ ، فقالَ سُفْيانُ : يا أبَا سَلمَة! أتَرَى اللهَ يَغفِرُ لِمِثلِي ؟ فقالَ

---

(١) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٥٢ .
(٢) انظر السير : (عاصِم بن أبي النَّجود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٩٩ .
(٣) انظر السير : (الْمَأمُونُ) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٧٦ .
(٤) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٤٥١ .
(٥) انظر السير : (محمّد بن الْمُنْكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٠٩ .

حَمَّادُ : والله لَوْ خُيِّرتُ بين مُحاسَبةِ الله إيّايَ ، وبينَ مُحاسَبَةِ أبَوَيَّ ، لاخْتَرتُ مُحاسَبَةَ اللهِ ، وذلكَ لأنَّ اللهَ أرحَمَ بي من أبَوَيَّ[1] .

٣ـ أعْمَالٌ يَرْتَجي بها أصْحابُها رَحْمَةَ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمَنبِعِيّ : قيلَ : إنَّ امرأةً أتَتْهُ بثَوبٍ ليُنفِقَ ثمنَه في بِناءِ الجَامِع ، يُساوي نِصفَ دينار ، فاشْتَراه منها بألفِ دينار ، وسَلَّمَت الْمَالَ إلى الخازِنِ لإنْفاقِه وخَبَّأَ الثَّوبَ كَفَناً له[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمَلِكِ الْمُعَظَّمِ ابنِ العَادِلِ ، صَاحِبِ مِصْرَ : ولَمَّا مَرِضَ قالَ : لي في قَضيَّةِ دِمْياطَ ما أرْجُو به الرَّحْمَةَ[3] .

تُوفِّيَ سَنةَ أرْبَع وعِشْرينَ وسِتِّ مئة وكانَ له دِمَشْقُ والكَرْكُ وغَيرُ ذلكَ وحَلفوا بعدَه لابنِه النَّاصِرِ داوُدَ[4] .

٤ـ رُؤْيا يَعْظُمُ بها الرَّجَاء في رَحْمَة الله :

عن إسْحاقَ الحَربيِّ ، قالَ : حدَّثني أبو حَسَّانَ الزِّياديُّ ، أنَّه رَأىٰ رَبَّ العِزَّة في الْمَنام : فقالَ : رَأيتُ نُوراً عَظيماً لا أُحْسِنُ أَصِفُه ، ورَأيتُ فيه رَجلاً خُيِّلَ إليَّ أنَّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وكأنَّه يَشْفَعُ إلىٰ رَبِّه في رَجُلٍ من أُمَّتِه ، وسَمعتُ قائلاً يَقولُ : ألَمْ يَكفِكَ أنِّي أُنْزِلُ عَليكَ في سُورَةِ الرَّعْدِ : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[5] ثم انتَبَهتُ .

قالَ الخَطيبُ : كانَ أبو حَسَّان أحدَ العُلَماء الأفاضِل الثِّقاتِ ، وَلِيَ قَضاءَ الشَّرقيَّة ، وكان كَريماً مِفْضالاً[6] .

---

(١) انظر السير : (حمَّاد بن سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٩/٧١٥ .
(٢) انظر السير : (الْمَنبِعيّ) ١٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١٤١١ .
(٣) أبلى المُعظَّم بلاءً حسناً وجاهد الصليبيين جهاداً عظيماً في نوبة دمياط التي كانت من أشد الحملات خطراً على الأمة ، فنسأل الله سبحانه أن يتجاوز عنه بعض ما أخطأ ، وهو مُحقٌّ في مقالته هـٰذه .
(٤) انظر السير : (المُعظَّم) ٢٢/ ١٢٠ـ ١٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٢ .
(٥) سورة الرعد ، الآية : ٦
(٦) انظر السير : (أبو حَسَّان الزِّياديّ) ١١/ ٤٩٦ـ ٤٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٦٢ .

٥ـ الرَّحْمَةُ بالأطْفَال :

قال أبو مَعْمَر الْمُقْعَد : نَظَرَتْ رَابِعَةُ إلىٰ رِياح القَيْسي يَضُمُّ صَبيّاً من أهْلِه ويُقبِّلُه فقالَت : أتُحِبُّه ؟ قالَ : نَعَم قالَت : ما كُنتُ أحْسَبُ أنَّ في قَلبِكَ مَوْضِعاً فارِغاً لِمَحَبَّة غَيرِه ، تَبارَكَ اسْمُه فغُشِيَ عليه ، ثم أفَاقَ ، وقالَ : رَحمَةٌ منه تَعالَىٰ أَلْقَاهَا في قُلوبِ العِبادِ للأطْفَالِ[١] .

٦ـ الرِّفْقُ بالحَيَوان :

قالَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ زَيْد بنُ أسْلم عن أبيه ، عن جَدِّه ، قالَ عُمَرُ : لقد خَطَرَ علىٰ قَلبي شَهْوَةُ السَّمَك الطَّريِّ ، قالَ : ورَحَّل « يَرْفَأُ »[٢] راحلَتَه وسارَ أرْبَعاً مُقْبلاً ومُدْبِراً ، واشْتَرَىٰ مِكْتَلاً فجاءَه به ، وعَمَدَ إلى الرَّاحِلَة فغَسلَها ، فأتَىٰ عُمرَ فقالَ : انْطَلِقْ حتّىٰ أنظُرَ إلى الرَّاحِلَة ، فنَظرَ وقالَ : نَسيتَ أنْ تَغْسِلَ هـٰذا العَرقَ الذي تحتَ أُذُنِها ، عذَّبتَ بَهيمة في شَهْوَة عُمَرَ ، لا والله لا يَذوقُ عُمرُ مِكْتَلَكَ[٣] .

٧ـ مَنْ كانَ صَائماً فأفْطَرَ رَجاءَ الرَّحْمَة :

قال عُبَيدُ بنُ محمد الوَرَّاق : مَرَّ معروفٌ الكَرخِي وهو صائمٌ بسقَّاءٍ يقولُ : رَحِمَ الله مَن شَرِب ، فشَرِبَ رَجاءَ الرَّحمَة[٤] .

الرِّقَّة

صُوَرٌ على الرِّقَّة :

قالَ يَحْيَى بن سَعيد الأنْصاريُّ : قالَ أبو حُمَيْد السَّاعديّ ـ وكانَ بَدْريّاً ـ لَمَّا قُتلَ عُثمانُ : اللَّهُمَّ إنَّ لك عليَّ أنْ لا أضْحَكَ حتّىٰ ألْقاكَ .

---

(١) انظر السير : (رِياح القَيْسي) ٨/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٤١ .
(٢) هو غُلامٌ لِعُمَر .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٨ .
(٤) انظر السير : (معروف الكرخي) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٢٧ .

قالَ قَتادَة : وَلِيَ عُثمانُ ثِنْتَي عشرة سَنةً ، غيرَ اثْنَي عشرَ يَوْماً .

وقالَ أبو معشر السّندي : قُتلَ لثَماني عَشرَة خَلَت من ذي الحِجَّة يَومَ الجُمُعَة ، زادَ غيرُه ، فقالَ : بعدَ العَصْر ، ودُفنَ بالبَقيعِ بين العِشاءَين ، وهو ابنُ اثنَتينِ وثَمانينَ سَنةً ، وهو الصَّحيح .

وعن عبد الله بن فروخ قال : شهدتُه ودُفِنَ في ثِيابِه بدِمائه ، ولَمْ يُغَسَّل رواهُ عبدُ الله بنُ أحمَد في « زيادات الْمُسْنَد » ، وقيلَ : صلَّىٰ عليه مَرْوانُ ولَمْ يُغَسَّل[1] .

وقالَ إسْحاقُ بنُ محمَّد ، سَمعتُ مَالِكاً يَقولُ : كُنَّا نَدخُلُ علىٰ أيُّوبَ السِّخْتياني ، فإذا ذَكرنا له حَديثَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بَكَىٰ حتَّىٰ نَرحَمُه[2] .

وقالَ يَحْيَى القَطَّان : كانَ شُعْبَة من أرَقِّ النَّاسِ ، يُعطي السَّائلَ ما أمْكنَه[3] .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ أبي بُكَير : قُلتُ للحَسَنِ بنِ صالح : صِفْ لنا غَسْلَ الْمَيِّتِ فمَا قَدِرَ عليه من البُكَاء[4] .

وقالَ نُعَيمُ بنُ حمَّاد : كانَ ابنُ الْمُبارَك إذا قرأ كتابَ الرِّقاق ، يَصيرُ كأنَّه ثَورٌ مَنْحورٌ ، أو بَقَرَةٌ مَنْحُورَةٌ ، من البُكاءِ ، لا يَجْتَرِىءَ أحدٌ مِنْ أنْ يَسألَه عن شَيء إلاَّ دَفعَه[5] .

وقال إبراهيمُ بنُ الأشْعَث : ما رَأيتُ أحَداً كان اللهُ في صَدرِه أعظَمَ من الفُضَيل ، كان إذا ذَكَرَ اللهَ ، أو ذُكرَ عندَه ، أو سَمعَ القُرآنَ ، ظَهرَ به من الخَوفِ والحُزْن ، وفاضَت عَيناهُ ، وبَكىٰ حتىٰ يَرحمُه من يَحضُرُه ، وكان دائمَ الحُزْن ، شَديدَ الفِكْرَة ، ما رَأيتُ رجلاً يريدُ اللهَ بعِلمِهِ وعَملِه ، وأخْذِهِ وعَطائِه ، ومَنْعِه وبَذْلِه ، وبُغْضِه وحُبِّه ، وخِصَالِه كلِّها ، غَيرَه كنَّا إذا خَرجْنا معه في جِنازَة لا يَزالُ يَعظُ ، ويُذَكِّرُ ويَبكي كأنَّه

---

(١) انظر السير : (عُثمان بن عَفَّان) ، وانظر النزهة : ٥/٧٩ .
(٢) انظر السير : (أيُّوب السِّخْتياني) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ١/٦٢٦ .
(٣) انظر السير : (شُعْبَة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/٦٩٣ .
(٤) انظر السير : (الحَسَن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٢/٧٠٣ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٤/٧٦٧ .

مُودِّعٌ أصْحابَه ، ذاهبٌ إلى الآخِرَة ، حتىٰ يَبلُغَ المَقابِرَ ، فيَجلِسُ مَكانَه بينَ المَوْتَىٰ من الحُزنِ والبُكاء حتىٰ يقومَ وكأنَّه رَجعَ من الآخِرَة يُخبِرُ عنها[1] .

الزُّهْد

١ـ مِنْ تَعْريفَات الزُّهْد :

من كَلامِ ابنِ عُيَيْنَة قالَ : الزُّهْدُ : الصَّبرُ ، وارْتِقابُ الْمَوْت[2] .

قالَ الْمُسَيِّبُ : سَألتُ يُوسُفَ بنَ أسْباط عن الزُّهْدِ ، فقال : أنْ تَزْهَدَ في الحَلالِ ، فأمَّا الحَرامُ ، فإنِ ارْتَكبتَه ، عَذَّبَك[3] .

٢ـ أقْسَامُ الزُّهْد :

عن إبْراهيمَ بنِ أدْهَم قالَ : الزُّهْدُ فَرْضٌ ، وهو الزُّهْدُ في الحَرام ، وزُهْدُ سَلامَة ، وهو الزُّهْدُ في الشُّبُهات ، وزُهْدُ فَضْل ، وهو : الزُّهْدُ في الحَلال[4] .

٣ـ الزُّهْدُ يُجَمِّلُ الزُّهَّاد :

قالَ أبو بَكر ، محمَّدُ بنُ القاسِمِ بنِ مَطَر ، سَمعتُ الرَّبيعَ : قالَ لي الشَّافِعيُّ : عَليكَ بالزُّهْدِ فإنَّ الزُّهْدَ على الزَّاهِدِ أحْسَنُ من الْحُليِّ على الْمَرأةِ النَّاهِد[5] .

٤ـ فَضْلُ الزُّهْد :

رَوَىٰ مُعْتَمِرٌ عن أبيه : ما رَأيتُ أحداً قَطُّ أخْشَعَ من مُحمَّدِ بنِ واسِع ، وقالَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ : كُنتُ إذا وَجَدتُ من قَلبي قَسْوَةً ، غَدَوتُ فنَظَرتُ إلىٰ وَجْهِ مُحمَّدِ بنِ واسِع كانَ كأنَّه ثَكْلَىٰ قالَ حَمَّادُ بنُ زَيْد : قالَ رَجلٌ لِمُحمَّدِ بنِ واسِع :

---

(١) انظر السير : (الفُضَيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٧٣ .
(٢) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٨٣ .
(٣) انظر السير : (يُوسُف بنَ أسْباط) ٩/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨١٤ .
(٤) انظر السير : (إبْراهيم بن أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٠٨ .
(٥) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨/ ٨٤٨ .

أَوْصِني قالَ : أُوصِيكَ أنْ تَكونَ مَلِكاً في الدُّنيا والآخِرَة قالَ : كيفَ ؟ قالَ : ازْهَدْ في الدُّنيا[1] .

وعن الفُضَيْلِ : حَرامٌ عَلىٰ قُلوبِكُم أنْ تُصِيبَ حَلاوَةَ الإيمَانِ حتَّىٰ تَزْهَدُوا في الدُّنيا[2] .

٥ـ الزُّهْدُ لا يُنَافي المَلابسَ الحَسَنَة والطَّعَامَ الحَسَن :

قالَ أبو بَكر البَرْقانيُّ : قُلتُ يَوماً لابنِ سَمْعونَ : تَدعُوا النَّاسَ إلى الزُّهْدِ وتَلبَسُ أحْسَنَ الثِّيابِ ، وتَأكُلُ أطْيَبَ الطَّعامِ ، كَيفَ هـٰذا ؟ فقَالَ : كُلُّ مَا يُصْلِحُكَ لله فافْعَلهُ إذا صَلُحَ حَالُك مع الله تَعالَىٰ[3] .

ورُوِيَ عن أقْضَى القُضاة الماوَرْديِّ قال : صَلَّيتُ خلفَ أبي الحَسَن القَزْويني ، فرَأيتُ عليه قَميصاً نَقيّاً مُطَرَّزاً ، فقلتُ في نَفسِي : أين الطرزُ من الزُّهد ؟ فلمَّا سلَّمَ قال : سُبحانَ الله! الطرزُ لا ينقُصُ حُكمَ الزُّهد[4] .

وذكر محمدُ بنُ حُسَين القَزَّاز قال : كان ببغْدادَ زاهدٌ خَشِنُ العَيش ، وكان يَبلُغُه أنَّ ابنَ القَزْوينيِّ يأكلُ الطَّيِّبَ ، ويَلبَسُ الرَّقيقَ ، فقال : سُبحانَ الله! رجلٌ مُجْمَعٌ علىٰ زُهْدِه ، وهـٰذا حالُه! أشْتَهي أن أراهُ فجاء إلى الحربيَّة ، فرآه ، فقال الشيخُ : سبحانَ الله! رجلٌ يُومَأُ إليه في الزُّهدِ يُعارِضُ اللهَ في أفْعالِه ، وما هُنا مُحَرَّمٌ ولا مُنْكَر فشَهِقَ ذلك الرجلُ ، وبَكَىٰ[5] .

وعن جَعْفَر الهَمداني ، أخْبَرنا السِّلَفيُّ : سَمعتُ جَعْفَراً السَّرَّاجَ يقول : رأيتُ علىٰ أبي الحسَن القَزْوينيِّ ثَوباً رَقيقاً ، فخطر لي : كيفَ مثْلُه في الزُّهدِ يَلْبَسُ هـٰذا ؟! فنظرَ

---

(١) انظر السير : (محمد بن واسع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣٨ .
(٢) انظر السير : (الفُضَيل بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٦/٧٧٧ .
(٣) انظر السير : (ابن سَمْعُون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ١/١٣١٠ .
(٤) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٨ .
(٥) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٨ .

في الحال إليَّ ، وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾[1] ، [2] .

٦ـ الزُّهْدُ فَضيلَةٌ ولَيسَ وَسيلَةً للتَّنْفِير :

كان أيُّوبُ السِّخْتِيانيُّ يَقولُ : لِيَتَّقِ اللهَ رجلٌ فإنْ زَهَدَ ، فلا يَجْعَلَنَّ زُهْدَه عَذاباً على النَّاس ، فلأنْ يُخْفيَ الرجُلُ زُهْدَه خيرٌ مِنْ أنْ يُعْلِنَه[3] .

٧ـ إخْفَاءُ الزُّهْد :

كان أيُّوبُ السِّخْتِيانيُّ يَقولُ : لِيَتَّقِ اللهَ رجلٌ فإنْ زَهَدَ ، فلا يَجْعَلَنَّ زُهْدَه عَذاباً على النَّاس ، فلأنْ يُخْفيَ الرجُلُ زُهْدَه خيرٌ مِنْ أنْ يُعْلِنَه[4] .

وكان أيُّوبُ مِمَّن يُخفي زُهْدَه دَخلْنا عليه ، فإذا هو علىٰ فِراشٍ مُخَمَّسٍ أحمر ، فرَفَعتُه ، أو رَفَعَه بَعضُ أصْحابِنا ، فإذا خَصَفةٌ مَحْشوَةٌ بليفٍ[5] .

٨ـ مِنَ النَّاسِ مَنْ بَلَغَ به الزُّهْدُ مَبْلَغاً عَجيباً :

عَديُّ بنُ مُسافِر :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الشَّيخُ الإمَامُ الصَّالحُ القُدوَةُ ، زَاهِدُ وَقتِه ، أبو محمَّد عَديُّ بنُ صَخْر الشَّاميُّ ، وقيلَ : عَديُّ بنُ مُسَافِر ـ وهٰذا أشْهَرُ ـ ابنِ إسْماعيلَ الشَّاميُّ ، ثم الهَكَّاريُّ .

قالَ الحَافِظُ عبدُ القادِر : ساحَ سِنينَ كَثيرَة ، وصَحِبَ الْمَشايخَ وجاهَدَ أنْواعاً من الْمُجاهَدات ، ثم إنَّه سَكنَ بَعضَ جِبالِ الْمُوصِلِ في مَوْضِعٍ لَيسَ به أَنيسٌ ، ثم آنَسَ اللهُ تِلكَ الْمَواضِعَ به ، وعَمَرَها ببَركاتِه ، حتَّىٰ صارَ لا يَخافُ أحدٌ بها بعدَ قَطعِ السُّبُل ، وارْتَدَّ جَماعَةٌ من مُفْسِدي الأكْرادِ ببَركاتِه ، وعُمِّرَ حتَّى انتَفعَ به خَلقٌ ، وانْتَشرَ ذِكرُه ،

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .
(٢) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ٦١٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٦٨ .
(٣) انظر السير : (أيُّوب السِّخْتِيانيّ) ٦/ ١٥ـ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦/٦٢٦ .
(٤) انظر السير : (أيُّوب السِّخْتِيانيّ) ٦/ ١٥ـ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦/٦٢٦ .
(٥) انظر السير : (أيُّوب السِّخْتِيانيّ) ٦/ ١٥ـ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦/٦٢٦ .

وكانَ مُعَلِّماً للخَير ، ناصِحاً مُتَشرِّعاً ، شَديداً في الله ، لا تَأخُذُه في اللهِ لَومَةُ لائم ، عاشَ قَريباً من ثَمانينَ سَنةً ما بَلغَنا أنَّه باعَ شَيئاً ولا اشْتَرىٰ ، ولا تَلبَّسَ بشَيءٍ من أمْرِ الدُّنيا كانت له غُلَيْلَةٌ يَزرَعُها بالقَدُومِ في الجَبلِ ، ويَحصُدُها ، ويتَقوَّتُ ، وكانَ يَزرَعُ القُطْنَ ، ويَكْتَسي منه ، ولا يَأكُلُ من مَالِ أحَدٍ شَيئاً ، وكانَ له أوْقَاتٌ لا يُرَىٰ فيها مُحافَظَةً علىٰ أوْرادِه ، وقد طُفتُ مَعه أيّاماً سَوادَ الْمُوصِلِ ، فكانَ يُصلِّي مَعنا العِشَاءَ ، ثم لا نَراهُ إلى الصُّبحِ ورَأيتُه إذا أقبلَ إلىٰ قَريَةٍ يَتلقَّاهُ أهلُها من قبل أنْ يَسْمَعوا كَلامَه تائبين رِجالُهم ونِساؤُهم إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ منهم ، ولقد أتَينا مَعه علىٰ دَيرِ رُهْبان ، فتَلقَّانا منهم رَاهِبَان ، فكَشَفا رَأسَيْهِمَا ، وقَبَّلا رِجْلَيْه ، وقَالا : ادْعُ لنا فمَا نَحنُ إلاَّ في بَركاتِك ، وأخْرَجا طَبَقاً فيه خُبزٌ وعَسَلٌ ، فأكلَ الجَماعَةُ ، وسَمعتُ شَخصاً يَقولُ له : يا شَيخُ ، لا بَأسَ بمُداراةِ الفاسِق فقالَ : لا يأخي ، دِينٌ مَكْتُومٌ دِينٌ مَيْشُومٌ ، وكانَ يُواصِلُ الأيَّامَ الكَثيرَة علىٰ ما اشْتُهرَ عنه ، حتَّىٰ إنَّ بَعضَ النَّاسِ كانَ يَعتَقدُ أنَّه لا يَأكُلُ شَيئاً قَطُّ ، فلمَّا بَلغَه ذلكَ أخَذَ شَيئاً ، وأكَلَه بحُضْرَة النَّاسِ ، واشْتُهرَ عنه من الرِّياضَاتِ والسِّيَرِ والكَرَامَاتِ والانْتِفاعِ به ما لَوْ كانَ في الزَّمَانِ القَديمِ لَكانَ أُحْدُوثَة ، ورَأيتُه قد جاءَ إلى الْمُوصِلِ في السَّنَةِ التي ماتَ فيها ، فنزَلَ في مَشْهَد خارِجَ الْمُوصِلِ ، فخَرجَ إليه السُّلطَانُ وأصْحَابُ الولاياتِ والْمَشايِخُ والعَوامُّ حتَّىٰ آذَوْه مِمَّا يُقَبِّلونَ يَدَه ، فأُجلِسَ في مَوْضِع بَينَه وبَينَ النَّاسِ شُبَّاكٌ بحَيثُ لا يَصلُ إليه أحَدٌ إلاَّ رُؤيَةً ، فكَانُوا يُسَلِّمونَ عليه ، ويَنصَرِفُونَ ، ثم رَجَعَ إلىٰ زَاوِيَتِه .

وقالَ ابنُ خَلِّكانَ : أصْلُهُ من بلادِ بَعْلَبَك ، وتَوجَّه إلىٰ جَبلِ الهَكَّاريَّة ، وانْقَطعَ ، وبَنىٰ له زَاويَةً ، ومَالَ إليه أهلُ البلادِ مَيْلاً لَمْ يُسمَع بمثلِه ، وسَارَ ذِكرُه في الآفَاقِ ، وتَبعَه خَلقٌ جاوَزَ اعْتقادُهم فيه الحَدَّ ، حتَّىٰ جَعلوه قِبْلَتَهم التي يُصَلُّون إليها وذَخيرَتهم في الآخِرَة ، عاشَ تِسعينَ سَنةً .

تُوفِّيَ سَنةَ سَبعٍ وخَمْسينَ وخَمسِ مئة[1] .

---

(١) انظر السير : (عَديّ) ٢٠/ ٣٤٢ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ١٥٥٧/ عَديّ .

٩ـ مِنْ زُهَّاد التَّابعين :

عن عَلقمَةَ بنِ مَرْثَد ، قالَ : انتَهى الزُّهْدُ إلىٰ ثَمانيَة : عَامر بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ قَيس ، وأُوَيْسٍ القَرْنيِّ ، وهَرِمِ بنِ حَيَّان ، والرَّبيعِ بنِ خُثَيم ، ومَسْرُوقِ بنِ الأجْدَع ، والأسْوَدِ بنِ يَزيد ، وأبي مُسْلِم الخَوْلاني ، والحَسَنِ ابنِ أبي الحَسَن[١] .

١٠ـ مِنْ زُهَّاد القَرْن الثَّالِث :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الجُوعِيِّ : كان زاهدَ الوَقْت هـٰذا الجُوعِيُّ بدِمَشْقَ ، والسَّرِيُّ السَّقَطِيُّ ببَغْدادَ ، وأحمَدُ بنُ حَرْب بنيسَابُورَ ، وذُو النُّونِ بمِصْرَ ، ومُحمَّدُ بنُ أسْلَم بطُوسَ وأين مثل هـٰؤلاء السَّادَة ؟ ما يَملأُ عَيني إلاَّ التُّرابُ ، أوْ مَنْ تَحتَ التُّرابِ[٢] .

١١ـ الزُّهْدُ في الخِلافَة :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه : قالَ القاسِمُ ابنُ مُحمَّد : قال عُمرُ : « ليَعْلمَ مَنْ وَليَ هـٰذا الأمْرَ مِنْ بَعْدي أنْ سَيريدُه عنه القَريبُ والبَعيدُ ، إنِّي لأُقاتِلُ النَّاسَ عَنْ نَفسِي قِتالاً ، ولَوْ عَلِمتُ أنْ أحَداً أقْوَىٰ عليه مِنِّي لَكنْتُ أنْ أُقدَّمَ فَتُضْرَبُ عُنُقي أحبُّ إليَّ من أنْ أَلِيَه »[٣] .

وقالَ حُميدُ بنُ عبدِ الرَّحْمَـٰنِ بنِ عَوْف : أخْبَرَني المِسْوَرُ أنَّ النَّفَرَ الذين ولاَّهُم عُمَرُ اجْتَمَعوا فتَشَاوَروا ، فقالَ عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ عَوْف : لَسْتُ بالذي أُنافِسُكم هـٰذا الأمْرَ ، ولكنْ إنْ شِئتُم اخْتَرتُ لكم منكم ، فجعلوا ذلك إلىٰ عبد الرحمـٰن ، قال : لا يَخْلو به رجلٌ ذو رأي فيعدل بعثمانَ أحَداً ، وذكرَ الحَديثَ إلىٰ أن قالَ : فتشهَّدَ وقالَ : أمَّا بعدُ يا عَليُّ فإنِّي قد نَظَرْتُ في النَّاسِ فلَمْ أرَهُم يَعْدِلونَ بعُثْمانَ فلا تَجْعَلنَّ علىٰ نَفسِكَ

---

(١) انظر السير : (أُوَيْس القَرْنيّ) ٤/ ١٩ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٣٥ .

(٢) انظر السير : (الجُوعِيُّ) ١٢/ ٧٧ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٩٨٤ .

(٣) انظر السير : (عُمرَ بنِ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٦ .

سَبيلاً ، ثم أخَذَ بيدِ عُثْمانَ فقالَ : نُبايِعُكَ علىٰ سُنَّةِ الله وسُنَّةِ رَسُولِه وسُنَّةِ الخَليفَتَين بعدَه ، فبايَعَه عبدُ الرَّحمٰن بنُ عَوْف وبايَعَه المُهاجِرونَ والأنْصارُ[1] .

١٢ـ صُوَرٌ على الزُّهْد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أمير المؤمنينَ عُمرَ بن الخَطَّاب رضي الله عنه : وقال عِكْرِمَةُ بنُ خالد وغيرُه : إنَّ حَفْصَةَ ، وعبدَ الله ، وغَيرَهما كلَّموا عُمَرَ فقالوا : لَوْ أكلتَ طَعاماً طَيِّباً كانَ أقْوَىٰ لك على الحَقِّ ، قالَ : أكلُّكم علىٰ هٰذا الرَّأي ؟ قالوا : نَعَم ، قالَ : قد عَلمتُ نُصحَكم ، ولكنِّي تَركتُ صاحِبيَّ علىٰ جَادَّةٍ فإنْ تَركتُ جادَّتَهما لَمْ أُدْرِكْهُما في الْمَنْزِلِ[2] .

وقالَ ابنُ أبي مُلَيْكَة : كلَّمَ عُتْبَةُ بنُ فَرْقَد عُمَرَ في طَعامِه ، فقال : وَيْحَكْ آكُلُ طَيِّباتي في حَياتي الدُّنيا وأسْتَمْتِعُ بها[3] .

قالَ مُبارَك عن الحَسَنِ : دَخَلَ عُمَرُ رضي الله عنه على ابنِه عاصِم وهو يَأكُلَ لَحماً ، فقالَ : ما هٰذا ؟!! قالَ : قَرِمْنا[4] إليه ، قالَ : أوَكُلَّما قَرِمْتَ إلىٰ شَيء أكَلتَه ؟!! ، كَفَىٰ بالْمَرْءِ سَرَفاً أنْ يَأكُلَ كُلَّ ما اشْتَهَىٰ[5] .

قالَ عبدُ الرحمٰن بنُ زَيْد بنُ أسْلم عن أبيه ، عن جَدِّه ، قالَ عُمَرُ : لقد خَطَرَ علىٰ قَلبي شَهْوَةُ السَّمَك الطَّريِّ ، قالَ : ورَحَّل « يَرْفَأُ »[6] راحلَتَه وسارَ أرْبَعاً مُقْبِلاً ومُدْبِراً ، واشْتَرَىٰ مِكْتَلاً فجاءَه به ، وعَمَدَ إلى الرَّاحِلَة فغَسلَها ، فأتَىٰ عُمرَ فقالَ : انْطَلِقْ حتّىٰ أنظُرَ إلى الرَّاحِلَة ، فنَظرَ وقالَ : نَسيتَ أنْ تَغْسِلَ هٰذا العَرقَ الذي تحتَ أُذُنِها ، عذَّبتَ بَهيمة في شَهْوَة عُمَرَ ، لا والله لا يَذوقُ عُمرُ مِكْتَلَكَ[7] .

---

(١) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٨١ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥/٤٧ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٤٨ .
(٤) القَرَم : شدَّة الشَّهْوَة إلى اللَّحْم .
(٥) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٤٨ .
(٦) هو غُلامٌ لِعُمَر .
(٧) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٤٨ .

وقالَ قَتادَةُ : كانَ عُمَرُ يَلْبَسُ ، وهو خَليفَة ، جُبَّة من صُوف مَرْقُوعاً بَعضُها بأدَم ، ويَطوفُ في الأسْواقِ علىٰ عاتِقِه الدِّرَّة يُؤدِّبُ النَّاسَ بها ، ويَمُرُّ بالنَّكْثِ[1] والنَّوَىٰ فيَلقطُه ويُلقيه في مَنازِلِ النَّاسِ لِيَنْتَفِعُوا به[2] .

قالَ أنَسُ : رَأيتُ بين كَتِفَي عُمَرَ أرْبَع رقاعٍ في قَميصِه[3] .

وقال أبو عُثْمانَ النَّهْدي : رَأيتُ علىٰ عُمَرَ إزاراً مَرْقُوعاً بأدَمٍ[4] .

وقالَ عبدُ الله بنُ عامِر بنِ رَبيعَة : حَجَجْتُ مع عُمَرَ ، فما ضَرَبَ فُسْطاطاً[5] ولا خباءً ، كان يُلْقِي الكِسَاء والنَّطعَ على الشَّجَرَة ويَسْتَظِلُّ تحتَه[6] .

عن أبي الغادِيَة الشَّاميِّ ، قالَ : قَدِمَ عُمَرُ الجابيَةَ[7] علىٰ جَمَلٍ أوْرَق تَلوحُ صَلعَتُه للشَّمسِ ، ليسَ عليه قَلَنْسُوَة ولا عَمامَة ، قد طبق رجليه بين شُعْبَتي الرَّحْل بلا رِكاب ، ووطاؤه كساء أنبجاني من صوف ، وهو فِراشُه إذا نَزَلَ ، وحَقيبَة مَحْشُوَّة ليفاً ، وهي إذا نَزَلَ وسادُه ، وعليه قَميصٌ من كَرابيسَ[8] قد دسمَ وتَخرَّق جيبُه ، فقالَ : ادْعُوا لي رأسَ القَريَة ، فدعَوْه له ، فقالَ : اغْسِلوا قَميصي وخَيِّطوه ، وأعيروني قَميصاً ، فأُتيَ بقَميصِ كِتَّان ، فقالَ : ما هـٰذا ؟ قيلَ كِتَّانٌ ، قالَ : وما الكِتَّانُ ؟ فأخْبَروه فنَزَعَ قَميصَه فغَسَلوه ورَقَعوه ولَبسَه ، فقالَ له رأسُ القَريَة : أنتَ مَلِكُ العَرَب ، وهـٰذه بلادٌ لا تَصْلُحُ فيها الإبلُ ، فأُتيَ ببرذون[9] فطَرَح عليه قَطيفَة بلا سرج ولا رَحْل ، فلمَّا سار هُنَيْهَةً قال : احْبِسوا ، ما كُنتُ أظُنُّ النَّاسَ يَرْكَبونَ الشَّيْطانَ ، هاتوا جَمَلي[10] .

---

(١) النكث : الغزل المنقوض .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤٨/٥ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤٨/٦ .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤٨/٧ .
(٥) الفُسْطاط : الخَيْمَة .
(٦) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤٨/٨ .
(٧) الجابية : قرية حوران .
(٨) أي قطن .
(٩) البرذون : بين البَغلة والحِمار .
(١٠) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤٩/١ .

وعن خباب قال : هاجَرْنا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ونَحنُ نَبتَغي وَجهَ الله ، فوَقعَ أجْرُنا على الله ، فمِنَّا مَنْ مَضَىٰ لسَبيلِه لَمْ يَأكلْ من أجْرِه شَيئاً ، منهم : مُصْعَبُ بنُ عُمَيْر قُتلَ يَومَ أُحُد ولَمْ يَترُكْ إلاَّ نَمِرَةً[1] ، كُنَّا إذا غَطَّيْنا رَأسَه بَدَتْ رِجْلاهُ ، وإذا غَطَّيْنا رِجْلَيه بَدا رَأسُه ، فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « غَطُّوا رَأسَهُ ، وَاجْعَلُوا عَلَىٰ رِجْلَيْه مِنَ الإذْخر »[2] ، ومِنَّا مَنْ أيْنَعَت له ثَمرَتُه فهو يَهْدِبُها[3] . ،[4] .

عن سَعدِ بنِ إبْراهيمَ ، سَمعَ أباه يَقولُ : أُتيَ عبدُ الرحمَـٰنِ بنُ عَوْف بطَعَام ، فجَعلَ يَبكي ، فقالَ : قُتِلَ حَمْزَةُ ، فلَمْ يوجد ما يُكفَّنُ فيه إلاَّ ثَوباً وَاحداً ، وقُتلَ مُصْعَبُ بنُ عُمَير ، فلَمْ يُوجَد ما يُكفَّنُ فيه إلاَّ ثَوباً وَاحداً ، ولقد خَشيتُ أنْ يَكونَ عُجِّلَت لنا طَيباتُنا في حَياتِنا الدُّنيا ، وجَعلَ يَبكي[5] .

وعن أَنَس قالَ : دَخلَ سَعدٌ وابنُ مَسْعُود عَلىٰ سَلْمانَ عندَ الْمَوتِ ، فبَكَىٰ فقيلَ له : ما يُبكيكَ ؟ قالَ : عَهدٌ عَهِدَه إلينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، لَمْ نَحْفَظْه قالَ : « لِيَكنْ بَلاغُ أَحَدِكمْ مِنْ الدُّنْيَا كزَادِ الرَّاكبِ » وأمَّا أنتَ يا سَعدُ فاتَّقِ اللهَ في حُكمِكَ إذا حَكمتَ ، وفي قَسَمِكَ إذا قَسَمْتَ ، وعندَ هَمِّكَ إذا هَمَمتَ .

قالَ ثابتُ : فبَلغَني أنَّه ما تَركَ إلاَّ بضعَةً وعِشرينَ دِرْهَماً نُفَيْقَة كانت عندَه[6] .

وعن عِمْرانَ بنِ مُسْلِم ، قالَ : كانَ سُوَيْدُ بنُ غَفلَة إذا قيلَ له : أُعْطِيَ فُلانٌ ووُلِّيَ فُلانٌ قالَ : حَسْبي كِسْرَتي ومِلْحِي .

وعن عَليِّ بنِ الْمَديني قالَ : دَخلتُ مَنزِلَ أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، فما شَبَّهتُه إلاَّ بما وُصِفَ من بَيت سُوَيْدِ بنِ غَفلَة ، من زُهْدِه وتَواضُعِه ، رَحمَهُ الله[7] .

---

(١) النمرة : بُردة من صوف تلبسها الأعراب .
(٢) الإذخر : نبتٌ معروف ، طيّب الرائحة يَبيَضُّ إذا يَبس .
(٣) يَهْدبُها : يجْتَنيها .
(٤) انظر السير : (مُصْعَب بن عُمَيْر) ١/ ١٤٥ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٤٠ .
(٥) انظر السير : (مُصْعَب بن عُمَيْر) ١/ ١٤٥ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤١ .
(٦) انظر السير : (سَلْمان الفَارسيّ) ١/ ٥٠٥ـ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٠٥ .
(٧) انظر السير : (سُوَيْد بن غَفلَة) ٤/ ٦٩ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٤٦ .

وعن الحَسَن البَصْريّ قالَ : رَأيتُ عُثمانَ نائماً في الْمَسجِدِ ، حتَّىٰ جاءَه الْمُؤذِّنُ فقامَ فرَأيتُ أثرَ الحَصَىٰ علىٰ جَنبِه[1] .

قالَ مَيمونُ بنُ مِهْران : أقَمتُ عندَ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز ستَّةَ أشْهُر ، ما رَأيتُه غيَّر رِداءَه ، كانَ يَغسِلُ من الجُمُعَةِ إلى الجُمُعَةِ ، ويُبيِّنُ بشَيء من زَعْفَران[2] .

وعن مَسْلَمَةَ بنِ عبدِ المَلِك قالَ : دَخلتُ علىٰ عُمرَ وقَميصُه وَسخٌ ، فقُلتُ لامْرأتِه ـ وهي أخْتُ مَسْلَمَة : اغْسِلوهُ قالت : نَفعَلُ ، ثم عُدتُ فإذا القَميصُ علىٰ حالِه ، فقُلتُ لها ، فقالت : واللهِ ما لَه قَميصٌ غيرُه[3] .

وعن القاسمِ بنِ مُخَيْمِرَة ، قالَ : لَمْ يَجتمعْ علىٰ مَائدتي لَونانِ من طَعامٍ قَطُّ ، ومَا أغْلَقتُ بابي قَطُّ وليَ خَلفَه هَمٌّ[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَليلِ بنِ أحمَد الفَرَاهِيدي : وثَّقَه ابنُ حِبَّان وقيلَ : كانَ مُتَقشِّفاً مُتَعبِّداً قالَ النضر : أقامَ الخَليلُ في خُصٍّ[5] له بالبَصْرَةِ ، لا يَقدِرُ علىٰ فَلْسَين ، وتَلامذتُه يَكسِبُونَ بعِلمِه الأمْوالَ ، وكانَ كثيراً ما يُنشِدُ :

إذَا افْتَقَرْتَ إلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْراً يَكُونُ كَصَالِحِ الأعْمَالِ

وكان ـ رَحمَهُ اللهُ ـ مُفرِطَ الذَّكاء ، وُلدَ سَنةَ مئة ، وماتَ سَنةَ بِضعٍ وسِتِّينَ ومئة .

وكانَ هو ويُونُسُ إمَامَي أهْل البَصْرَة في العَربيَّة ، وماتَ ولمْ يُتِمَّ كتابَ « العَيْن » ولا هَذَّبه ، ولكن العُلماءَ يَغرِفونَ من بَحرِه .

قيلَ : كان يَعرفُ عِلمَ الإيقاع والنَّغَم ، ففَتحَ له ذلكَ عِلمَ العَروض وقيلَ : مَرَّ

---

(١) انظر السير : (الحَسَن البَصْريّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٦٠ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٩٠ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٩٠ .
(٤) انظر السير : (القاسمُ بنُ مُخَيْمِرَة) ٥/ ٢٠١ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٩٥ .
(٥) الخُصُّ : بيتٌ من شَجَر أو قَصَب .

بالصَّفَّارين[1] فأخَذَه من وَقْعِ مِطْرَقَةٍ علىٰ طَسْتٍ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي داوُدَ الحَفَريِّ : حُكيَ أنه أبْطَأ يوماً في الخُروجِ إلى الجَماعَة ، ثم خَرجَ ، فقالَ : أعْتَذرُ إليكُم ، فإنَّه لمْ يَكُنْ لي ثَوبٌ غيرُ هـٰذا ، صَلَّيتُ فيه ، ثم أعْطَيتُه بَناتي حتَّىٰ صَلَّينَ فيه ثم أخَذتُه ، وخَرجتُ إليكُم[3] .

وتَزوَّجَ بامْرأة ، فأصْدَقَها ثَلاثَةَ دَنانير ، وكانَ قُوتُه كلَّ لَيلةٍ قُرصَين ، وبفلسٍ فجْل أو هندَبا .

قال أبو حَمْدون الطيبُ الْمُقْرئُ : دَفنَّا أبا دَاوُدَ الحَفريَّ ، رَحمَه اللهُ وتَركْنَا بابَه مَفْتوحاً ، ما كانَ في البَيتِ شَيءٌ .

ماتَ سَنةَ ثَلاثٍ ومئتين .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ماتَ وقد شَاخَ ، أحْسَبُه من أبْناء السَّبْعين[4] .

وقالَ ابنُ أبي حاتم : حدَّثنا صالِحُ بنُ أحمَدَ بنِ حَنْبَل قالَ : رُبَّما رَأيتُ أبي يَأخُذُ الكِسَرَ ، يَنفُضُ الغُبارَ عَنها ، ويُصيِّرُها في قَصْعَة ، ويَصُبُّ عَليها ماءً ثم يَأكُلُها بالْمِلْح وما رَأيتُه اشْتَرىٰ رُمَّاناً ولا سَفَرْجَلاً ولا شَيئاً من الفاكِهَة ، إلاَّ أنْ تَكونَ بَطِّيخَةً فيأكُلها بخُبزٍ ، وعِنَباً وتَمْراً[5] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ محمَّدِ بنِ أسْلَم ، قالَ محمَّدُ بنُ القاسِم : ودَخلتُ علىٰ محمَّدِ بنِ أسْلَم قَبلَ مَوْته بأرْبَعةِ أيَّام بنيسابُورَ ، فقالَ : يا أبا عبد الله ، تَعالَ أُبشِّرُك بما صَنعَ الله بأخيكَ من الخَيرِ ، قد نَزلَ بي الْمَوتُ ، وقد مَنَّ اللهُ عليَّ أنَّه ما لي دِرهَم يُحاسِبُني اللهُ عليه ، ثم قالَ : أغْلِقِ البابَ ولا تَأذَنْ لأحَدٍ حتَّىٰ أمُوتَ وتَدفنون كُتبي واعْلمْ أنِّي أخرُجُ من الدُّنيا ولَيسَ أدَعُ ميراثاً غَيرَ كِسائي ولِبدي وإنائي الذي أتَوضَّأ فيه وكُتبي هـٰذه ، فلا

---

(١) الصَّفَّارون : جَمع صفَّار : وهو صانع الصُّفر والصُّفر النُّحاسُ الجيد أو ضرب منه .

(٢) انظر السير : (الخَليل بن أحمَد الفَراهيدي) ٧/ ٤٢٩ـ ٤٣١ ، وانظر النزهة : ٧١٢/ ١٠ .

(٣) انظر السير : (الحَفَريّ) ٩/ ٤١٥ـ ٤١٧ ، وانظر النزهة : ٨٣٤/ ١ .

(٤) انظر السير : (الحَفَريّ) ٩/ ٤١٥ـ ٤١٧ ، وانظر النزهة : ٨٣٤/ ٤ .

(٥) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٢٦/ ٥ .

تُكلِّفوا النَّاسَ مُؤنَة ، وكان معَه صُرَّة فيها نحو ثَلاثينَ دِرْهَماً ، فقالَ : هـٰذا لابني أهْدَاهُ قَريبٌ له ، ولا أعْلمُ شَيئاً أَحَلَّ لي منه ، لأنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قالَ : « أَنْتَ وَمَالُكَ لأبيكَ » وقالَ صلى الله عليه وسلم : « أَطْيَبُ مَا أَكلَ الرَّجُلُ مِنْ كسْبِهِ ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كسْبِهِ » فكَفِّنُوني منها فإنْ أصَبتُم لي بعَشْرَة ما يَسْترُ عَوْرَتي فلا تَشْتَروا بخَمسَة عَشَر وابْسُطُوا علىٰ جِنازَتي لِبَدي ، وغَطُّوا عليها كِسَائي وأعْطُوا إنائي مِسْكيناً[1] .

ولا أعلَمُ مُنذُ صَحبتُه وَصَل أحَداً بأقَلَّ من مِئة دِرْهَم إلاَّ أن لا يمُكِنَه ذلك وكانَ يَقولُ لي : اشْتَرِ لي شَعيراً أسْوَدَ ، فإنَّه يَصيرُ إلى الكَنيفِ ، ولا تَشْتَرِ لي إلاَّ ما يَكفيني يَوماً بيَوم ، واشْتَريتُ له مرَّة شَعيراً أبيضَ ، ونقَّيتُه ، وطَحَنتُه فرآهُ ، فتَغيَّرَ لَونُه ، وقالَ : إنْ كُنتَ تَنوَّقْتَ فيه ، فأطْعِمهُ نَفسَك ، لَعلَّ لكَ عندَ الله أعْمالاً تَحْتَملُ أنْ تُطعِمَ نَفسَك النَّقيَّ ، وأمَّا أنا ، فقَد سِرْتُ في الأرضِ ، ودُرْتُ فيها ، فبالله ما رَأيتُ نَفساً تُصلِّي أشَرَّ عندي من نَفسِي فبِمَ أحْتجُّ عندَ الله إنْ أطْعَمتُها النَّقيَّ ؟ خُذْ هـٰذا الطَّعامَ ، واشْتَرِ لي كُلَّ يَومٍ بقِطعَة شَعير رَديئاً ، واشْتَرِ لي رَحىٰ فجِئْني به حتَّىٰ أطْحَنَ بيَدي وآكُلَه ، لَعلِّي أبْلغُ ما كان فيه عليٌّ وفاطِمَة رَضيَ اللهُ عَنهُما[2] .

وقالَ السُّلميُّ : سَمعتُ أبا سَهْل الصُّعْلوكِيَّ يقول : ما عَقدتُ علىٰ شَيءٍ قَطُّ ، وما كانَ لي قَفلٌ ولا مِفْتاحٌ ولا صَرَرتُ علىٰ فِضَّة ولا ذَهَب قَطُّ[3] .

وقالَ ابنُ باكَوَيه : سَمعتُ ابنَ خَفيف يَقولُ : ما وَجَبَتْ عَليَّ زَكاةُ الفِطْرِ أرْبَعينَ سَنةً[4] .

وقالَ الحافِظُ أبو القاسِمِ بنُ عَساكر : قَدِمَ الفَقيهُ نَصْر دِمَشْقَ سَنةَ ثَمانينَ وأرْبَع مئة ، فأقامَ بها يُدَرِّسُ الْمَذهَبَ إلىٰ أنْ ماتَ ، ويَروي الحَديثَ ، وكانَ فَقيهاً ، إمَاماً ، زَاهِداً ، عَامِلاً ، لَمْ يَقبلْ صِلةً من أحَدٍ بدِمَشْقَ ، بلْ كانَ يَقتاتُ من غَلَّةٍ تُحمَلُ إليه من

---

(١) انظر السير : (محمد بن أسْلَم) ١٢/ ١٩٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٩٢ .
(٢) انظر السير : (محمد بن أسْلَم) ١٢/ ١٩٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٩٣ .
(٣) انظر السير : (الصُّعْلوكِيّ) ١٦/ ٢٣٥ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٩١ .
(٤) انظر السير : (ابنُ خَفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٢٩٨ .

أرْضِ نابُلسَ ، فَيَخْبزُ له كلَّ يَوم قُرصَة في جانبِ الكَانُون حَكَىٰ لنا نَاصِرٌ النَّجَّار ـ وكانَ يَخدُمُه ـ من زُهْدِه وتَقلُّلِه وتَركِه الشَّهَوَاتِ أشْياءَ عَجيبَة[1] .

وكانَ الرِّفاعِيُّ لا يَجمَعُ بينَ لبسِ قَميصَينِ ، ولا يَأكُلُ إلاَّ بعدَ يَومَين أو ثَلاثةٍ أكْلةً ، وإذا غَسلَ ثَوبَه ، يَنزِلُ في الشَّطِّ كمَا هو قائمٌ يَفرُكُه ، ثم يَقفُ في الشَّمسِ حتَّىٰ يَنشَف ، وإذا وَرَدَ ضَيفٌ ، يَدُورُ علىٰ بُيُوتِ أصْحابِه يَجمَعُ الطَّعامَ في مِئْزَر[2] .

١٣ـ ضَابطٌ للزُّهْد :

قالَ أبو هِشام : حدَّثنا وَكيعٌ : سَمعتُ سُفيانَ الثَّوريَّ يَقولُ : لَيسَ الزُّهْدُ بأكلِ الغَليظِ ، ولبس الخَشن ، ولكنَّه قِصَرُ الأمَل ، وارْتِقابُ الْمَوتِ[3] .

وعن شَقيقٍ قالَ : كُنتُ شاعراً ، فرَزَقني اللهُ التَّوْبَة ، وخَرجتُ من ثَلاثِ مئة ألفِ دِرْهَم ، ولَبستُ الصُّوفَ عشرينَ سَنةً ، ولا أدْري أنِّي مُراءٍ حتَّىٰ لَقيتُ عبدَ العَزيز بنِ أبي رَوَّاد ، فقالَ : لَيسَ الشَّأنُ في أكلِ الشَّعيرِ ولُبسِ الصُّوفِ ، الشَّأنُ أنْ تَعرفَ اللهَ بقَلبِك ، ولا تُشْركْ به شَيئاً ، وأنْ تَرضَىٰ عن الله ، وأنْ تَكونَ بما في يَدِ اللهِ أوْثَقَ مِنكَ بما في أيْدي النَّاسِ[4] .

١٤ـ كراهَةُ بَعضِ السَّلف لغَير الأثَر جَعلتْهم يُغلون في ذَمِّ بَعض كتبِ الزُّهْد :

قالَ سَعيدُ بنُ عَمرو البَرْذَعي : شَهدتُ أبا زُرْعَةَ الرَّازي ، وسُئلَ عن الْمُحاسِبيِّ وكُتُبه ، فقالَ : إيَّاكَ وهَـٰذه الكُتُب ، هَـٰذه كُتُب بِدَع وضَلالاتٍ ، عَليكَ بالأثَرِ تَجدْ غُنْيَةً ، هَلْ بَلغَكم أنَّ مَالكاً والثَّوريَّ والأوْزاعيَّ صَنَّفوا في الخَطَراتِ والوَسَاوِسِ ؟ وما أسْرعَ النَّاسَ إلى البِدَعِ .

ماتَ الْمُحاسِبيُّ سَنةَ ثَلاثٍ وأرْبَعين ومئتين[5] .

---

(١) انظر السير : (الفَقيهُ نَصْر) ١٩/ ١٣٦ـ ١٤٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٧١ .
(٢) انظر السير : (الرِّفاعِيّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٧/ ١٦٠١ .
(٣) انظر السير : (سُفْيان الثَّوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٩٦ .
(٤) انظر السير : (شَقيق) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٢٣ .
(٥) انظر السير : (الْمُحاسِبيُّ) ١٢/ ١١٠ـ ١١٢ ، وانظر النزهة : ٦/ ٩٨٨ .

سَلامَة الصَّدْر للمُسْلِمين

قالَ زَيدُ بنُ أسْلَم : دُخِلَ علىٰ أبي دُجانَةَ الأنصاري وهو مَريضٌ ، وكانَ وَجهُه يَتهَلَّلُ فقيلَ له : ما لِوَجهِكَ يَتهلَّلُ ؟ فقالَ : ما من عَملٍ شَيء أوْثَق عندي من اثْنَتين : كُنتُ لا أتَكلَّمُ فيما لا يَعنيني ، والأخرَىٰ فكان قَلبي للمُسلمينَ سَليماً[1] .

وقيلَ : إنَّ أبا إسْحاقَ الشِّيرازيَّ نَزَعَ عِمامَتَه ـ وكانَت بعِشرينَ دِيناراً ـ وتَوضَّأ في دِجْلَة ، فجاءَ لِصٌّ فأخَذَها ، وتَركَ عِمامَةً رَديئةً بدَلَها ، فطَلعَ الشَّيخُ فلَبِسَها ، وما شَعرَ حتَّىٰ سَألُوه وهو يُدَرِّسُ ، فقالَ : لَعلَّ الذي أخَذَها مُحتاجٌ[2] .

شُكرُ النِّعَم

١ـ تَعْريفُ الشُّكر :

قالَ أبو سَهْل الصُّعْلوكيُّ : سَمعتُ أبا محمَّد الْمُرْتَعِشَ يَقولُ : قالَ الجُنَيْدُ : كُنتُ بينَ يَدَي السَّريِّ أَلْعَبُ وأنا ابنُ سَبعِ سِنينَ ، فتكلَّموا في الشُّكرِ ، فقالَ : يا غُلامُ ما الشُّكرُ ؟ قُلتُ : أنْ لا يُعْصَى اللهَ بنِعَمِه ، فقالَ : أخْشَىٰ أنْ يَكونَ حظَّكَ من اللهِ لسانُك قالَ الجُنَيْدُ : فلا أزالُ أبْكي علىٰ قَولِه[3] .

٢ـ التَّحَدُّثُ بنِعَم الله من شُكرِ النِّعَم :

عن أبي هُرَيْرَةَ : أنَّه صلَّىٰ بالنَّاسِ يَوماً ، فلمَّا سَلَّمَ ، رَفعَ صَوتَه ، فقالَ : الحَمدُ لله الذي جَعلَ الدين قِوَاماً ، وجَعلَ أبا هُرَيْرَةَ إماماً ، بعدَ أنْ كانَ أجيراً لابنَةِ غَزْوَانَ علىٰ شِبَعِ بَطْنِهِ ، وحَمُولَةِ رِجْلِه[4] .

وعن مُضَاربِ بنِ حَزْن ، قالَ : بَينا أنا أسيرُ تَحتَ اللَّيلِ ، إذا رَجلٌ يُكبِّرُ ، فألْحَقَه

---

(١) انظر السير : (أبو دُجانَة الأنصاري) ١/ ٢٤٣ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٤ .

(٢) انظر السير : (أبو إسْحاق الشِّيرازيُّ) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٤٣٠ .

(٣) انظر السير : (الجُنَيْدُ) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٣٣ .

(٤) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣١٢ .

بَعيري فقُلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالَ أبو هُرَيْرَة قُلتُ : وما التَّكبيرُ ؟ قالَ : شُكرٌ قُلتُ : علىٰ مَه ؟ قالَ : كُنتُ أجيراً لبَسْرَة بنتِ غَزْوَان بعُقْبَةِ رِجْلي[1] ، وطَعامِ بَطنِي ، وكانوا إذا رَكِبُوا ، سُقتُ بهم ، وإذا نزَلوا خَدمتُهم ، فزَوَّجَنيها اللهُ! فهي امْرأتي[2] .

٣ـ اخْشَوْشِنوا فإنَّ النِّعَمَ لا تَدوم :

قالَ يَحْيَىٰ بنُ بُكيْر : قَدِمَ جَماعَةٌ من الْمِصْريِّينَ الْمَدينَةَ ، فأتوا بابَ سالِمِ بنِ عبدِ الله ، فسَمِعوا رُغاءَ بَعير فبَينا هم كذلك خَرجَ عَليهم رَجلٌ شَديد الأدَمَة ، مُتَّزِرٌ بكِساءِ صُوفٍ إلىٰ ثندُوتِه ، فقالوا له : مَوْلاكَ داخل ؟ قالَ : مَنْ تُريدُونَ ؟ قالوا : سَالِمٌ قالَ : فلمَّا كلَّمَهم ، جاءَ شيءٌ غيَّرَ المنظَر ، قالَ : مَنْ أرَدتُم ؟ قالوا : سَالِمٌ قالَ : ها أنا ذَا فما جاءَ بكُم ؟

قالوا : أرَدْنا أنْ نُسَائلَكَ قالَ : سَلوا عمَّا شِئتُم وجَلسَ ويَدُه مُلَطَّخَةً بالدَّمِ والقَيْح الذي أصَابَه من البَعيرِ ، فسَألوه[3] .

وعن مَيْمُونَ بنِ مِهْران قالَ : دَخلتُ على ابنِ عُمَرَ ، فقَوَّمتُ كلَّ شَيء في بيتِه ، فمَا وَجدتُه يَسْوىٰ مئة دِرْهَم ، ثم دَخلتُ مَرَّة أخرَىٰ ، فما وَجدتُ ما يَسْوىٰ ثَمنَ طَيْلُسان ، ودَخلتُ علىٰ سالِم من بَعدِه ، فوَجدتُه علىٰ مثل حالِ أبيه[4] .

وعن أبي سَعْد قالَ : كانَ سالِمُ غَليظاً كأنَّه حَمَّال ، وقيلَ : كانَ علىٰ سَمتِ أبيه في عَدَمِ الرَّفاهيَة[5] .

٤ـ صُوَرٌ من شُكر النِّعَم :

قالَ مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله : لأنْ أُعافَىٰ فأشْكُر أحَبُّ إليَّ من أنْ أُبْتَلَىٰ فأصْبِر[6] .

---

(١) أي : نوبة ركوبه .
(٢) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣١٢ .
(٣) انظر السير : (سَالمُ بنُ عبد الله) ٤/ ٤٥٧ـ ٤٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٣١ .
(٤) انظر السير : (سَالمُ بنُ عبد الله) ٤/ ٤٥٧ـ ٤٦٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٣١ .
(٥) انظر السير : (سَالمُ بنُ عبد الله) ٤/ ٤٥٧ـ ٤٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٣٣ .
(٦) انظر السير : (مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٨/ ٤٧٦ .

وعن محمَّدِ بنِ مَنْصُور ، أنَّه سُئلَ : إذا أكَلتُ وشَبعتُ فمَا شُكرُ تلك النِّعمَة ؟ قالَ : أنْ تُصلِّي حتَّىٰ لا يَبقَىٰ في جَوْفِك منه شَيءٌ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : بَلغَنا أنَّ الْمُزَنيَّ كانَ إذا فَرغَ من تَبييضِ مَسألَة ، وأوْدَعَها مُختصَرَه ، صلَّىٰ لله رَكعَتَين[2] .

الصَّبْر

١ـ الصَّبْرُ مُفيدٌ :

من أقوال أمير المؤمنين الْمُسْتَظْهِر باللهِ العَبَّاسيِّ : « الصَّبْرُ عَلَى الشَّدَائدِ يُنْتِجُ الفَوَائدَ »[3] .

٢ـ الصَّبْرُ على الأذَىٰ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ البُخاريِّ : قال له عبدُ الْمَجيدِ ابنُ إبْراهيمَ : كَيْفَ لا تَدْعو اللهَ علىٰ هؤلاءِ الذين يَظْلِمونَكَ ويَتَناوَلُونَك ويَبْهَتُونَكَ!! ؟ ، فقال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اصْبِرُوا حتّىٰ تَلْقَوْنِي على الحَوْضِ »[4] .

٣ـ الصَّبْرُ على المُتَعلِّمين :

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي عبدِ الله القَعْنَبيِّ ، قالَ أبو حاتم : ثِقَةٌ حُجَّةٌ لمْ أرَ أخْشَعَ منه ، سَألنَاه أنْ يَقرأ عَلينا « الْمُوَطَّأ » فقالَ : تَعالوا بالغَدَاة ، فقُلنا : لنا مَجلِسٌ عندَ حَجَّاجِ بنِ مِنْهَال ، قالَ : فإذا فَرَغتم منه قُلنا : نَأتي حينئذ مُسْلمَ بنَ إبْراهيمَ قالَ : فإذا فَرَغتم قُلنا : نَأتي أبا حُذَيْفَةَ النَّهْديَّ قالَ : فبَعدَ العَصْرِ قُلنا : نَأتي عَارِماً أبا النُّعْمَان ، قالَ : فبَعدَ الْمَغربِ فكانَ يَأتينا باللَّيلِ ، فيَخرُجُ عَلينا ، وعَليه كبْلٌ[5] ما تَحتَه شَيءٌ في

---

(١) انظر السير : (محمّد بن مَنصور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٩٤ .
(٢) انظر السير : (الْمُزَنيُّ) ١٢/ ٤٩٢ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٢٤ .
(٣) انظر السير : (الْمُسْتَظْهِرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٨٩ .
(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠١٩ .
(٥) الكَبْلُ : الفَرو الكبير .

الصَّيفِ ، فكانَ يَقرأ عَلينا في الحَرِّ الشَّديدِ حينئذ .

قالَ عَمرُو بنُ عَليّ بن الفَلاَّس : كانَ القَعْنَبيُّ مُجابَ الدَّعْوَة[1] .

٤ـ الصَّبْرُ علىٰ قَسْوَة الإخْوان :

قال محَمَّد بنُ الفَيْضِ : قَدِمَ ابنُ أَكْثَمَ دِمَشْقَ مع المأمون ، فبَعَثَ إلىٰ أحمدَ بنِ أبي الحَوَاريّ ، فجاءَ إليه وجالَسَه ، فخَلَعَ يَحْيىٰ عليه طويلةً وملبوساً ، وأعْطاهُ خَمْسَةَ آلافِ درهم ، وقال : فَرِّقْها يا أبا الحَسَن حيثُ تَرَىٰ ، فدَخَلَ بها المَسْجِدَ وصلَّىٰ صَلَواتٍ بالخِلعَة ، فقالَ قاسمُ الجُوعيُّ : أَخَذَ دَراهمَ اللُّصُوص ، ولَبِسَ ثيابَهم ، ثمَّ أتى الجَامِعَ ومَرَّ به وهو في التَّحِيَّاتِ ، فلمَّا حَذاه لَطَمَ القَلَنْسُوة ، فَسَلَّمَ أحمَدُ ، وأعْطَى القَلَنْسُوةَ ابنَه إبراهيمَ ، فذَهَبَ بها ، فقال له مَنْ رَآهُ : ما رَأيتَ ما فَعَل بك هـٰذا ؟ فقالَ : رَحمَه الله[2] .

٥ـ صُوَرٌ على الصَّبْر :

قالَ ثابتٌ : جاءَ رَجلٌ إلىٰ صِلَةَ بنِ أَشْيَم بنَعْي أخيه ، فقالَ له : إدْنُ فكُلْ فقَد نُعيَ إليَّ أخي مُنذُ حين ، قالَ تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[3] ،[4] .

عن هِشَام بنِ عُرْوَةَ ، أنَّ أبَاهُ خَرَجَ إلى الوَليدِ بنِ عبد المَلِك ، حتىٰ إذا كان بوادِي القُرىٰ ، وَجَدَ في رِجْلِهِ شيئاً فظَهَرتْ به قُرحَةٌ ، ثمَّ تَرَقَّىٰ به الوَجَعُ ، وقَدِمَ على الوَليدِ وهو في مَحمِلٍ ، فقال : يا أبا عبدَ الله اقْطَعْها ، قال : دُونَك فدَعا له الطَّبيبَ ، وقال : اشْرَبْ المُرقِد فلَمْ يَفْعَلْ ، فقَطَعَها من نِصْفِ السَّاقِ ، فما زَادَ أن يقولَ : حَسِّ ، حَسِّ ، فقال الوَليدُ : ما رأيتُ شَيْخاً قَطُّ أصْبَرَ من هـٰذا ، وأُصِيبَ عُرْوَةُ بابنِه مُحمَّد في ذلكَ السَّفَرِ ، رَكَضَتْهُ بَغْلَةٌ في إصْطَبْلٍ لَمْ يُسْمَعْ منه في ذلكَ كَلِمَةٌ فلمَّا كان

---

(١) انظر السير : (القَعْنَبيُّ) ١٠/ ٢٥٧ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٧٥ .

(٢) انظر السير : (الجُوعيّ) ١٢/ ٧٧ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٨٤ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٣٠

(٤) انظر السير : (صِلَةُ بن أَشْيَم) ٣/ ٤٩٧ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٤١٦ .

بِوَادِي القُرَىٰ قال : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾[1] اللَّهُمَّ كان لِي بَنُونَ سَبْعَةٌ ، فأخَذْتَ واحِداً وأبْقَيْتَ لِي سِتَّةً ، وكان لِي أطْرَافٌ أرْبَعَةٌ ، فأخَذْتَ طَرفاً ، وأبْقَيْتَ ثلاثةً ، ولَئِنْ ابْتَلَيْتَ ، لقَد عافَيْتَ ، ولَئِنْ أخَذْتَ لقَد أبْقَيْتَ[2] .

٦ـ ضَابطٌ في الصَّبْر :

عن السَّفَّاح قال : إذا عَظُمَت القُدْرَة ، قَلَّت الشَّهْوَة قَلَّ تبرُّعٌ إلاَّ ومَعَه حَقٌّ مُضَاعٌ ، الصَّبرُ حَسنٌ إلاَّ علىٰ ما أوْتَغَ[3] الدِّين وأوْهَنَ السُّلطانَ[4] .

الصَّمْت

١ـ الصَّمْتُ يُتَعَلَّم :

قالَ مُوَرِّقُ : تَعلَّمتُ الصَّمتَ في عَشرِ سِنين ، وما قُلتُ شَيئاً قَطُّ إذا غَضبتُ أنْدَمُ عليه إذا زَالَ غَضبي[5] .

٢ـ فَضْلُ الصَّمْت :

عن أبي بَكْر بن عيَّاش قالَ : أدْنَىٰ نَفعُ السُّكوتِ السَّلامَةُ ، وكَفَىٰ به عافيَةً ، وأدْنَىٰ ضَرَرُ الْمَنْطِقِ الشُّهْرَة ، وكَفَىٰ بها بَليَّة[6] .

٣ـ الصَّمْتُ حَسَنٌ إلاَّ في الخَيْر :

عن يَعْلَىٰ بنِ عُبَيد قالَ : دَخلنا على ابنِ سُوقَة ، فقالَ : يا ابنَ أخي! أُحدِّثُكم بحَديث لَعلَّه يَنفَعُكم ، فقد نَفَعَني قالَ لنا عَطاءُ بنُ أبي رَبَاح : إنَّ مَنْ قَبلَكم كانوا يَعُدُّونَ فُضولَ الكَلامِ ما عَدا كتاب الله ، أو أمْرٍ بمَعْروفٍ ، أو نَهْي عن مُنكَر ، أو أنْ

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٦٢

(٢) انظر السير : (عُروَة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٢٧ .

(٣) أوْتَغ : أفسَد وأهْلَك .

(٤) انظر السير : (السَّفَّاح) ٦/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٣٢ .

(٥) انظر السير : (مُوَرِّق) ٤/ ٣٥٣ـ ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٠٩ .

(٦) انظر السير : (أبو بَكر بن عيَّاش) ٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٨٧ .

تَنطِقَ في مَعيشَتِك التي لا بُدَّ لك منها ، أتُنْكِرُون أنَّ عَليكم حافِظينَ كِراماً كاتِبينَ ، عَن اليَمينِ وعن الشِّمَالِ قَعيد ، ما يَلفِظُ من قَولٍ إلاَّ لَدَيه رَقيبٌ عَتيدٌ ، أما يَسْتَحي أحَدُكُم لَوْ نُشِرَت صَحيفَتُه التي أمْلَىٰ صَدرَ نَهارِهِ ، ولَيسَ فيها شَيءٌ من أمْرِ آخِرَتِه[1] .

وقالَ يَزيدُ بنُ عبد الصَّمَد ، سَمعتُ أبا مُسْهِر ، سَمعتُ سَعيدَ بنَ عبد العَزيز يَقولُ : لا خَيرَ في الحَياةِ إلاَّ لأحَدِ رَجُلَين : صَموتٍ وَاعٍ ، وناطِق عارِف[2] .

٤ـ الصَّمْتُ يُقَلِّلُ من الأخْطَاء :

قالَ السَّمْعانِيُّ : سَمعتُ أبا بَكْر محمَّدَ بنَ القاسِمِ الشَّهْرُزُوريَّ بالْمَوْصِلِ يَقُولُ : كان شَيخُنا أبو إسْحاقَ الشِّيرازِيُّ إذا أخْطأ أحَدٌ بينَ يَديه قالَ : أيُّ سَكْتَة فَاتَتك[3] .

٥ـ ضَابطٌ لكراهِيَة السَّلَف لفُضُول الكلام :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ شَيخِ الإسْلام الْمُعَافَىٰ بنِ عِمْران : قالَ مرَّةً رَجُلٌ : ما أشَدَّ البَردَ اليَومَ ، فالْتَفتَ إليه الْمُعَافَىٰ ، وقالَ : اسْتَدْفَأتَ الآنَ ؟!! ، لَوْ سَكتَّ ، لَكانَ خَيراً لك[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعَقِّباً : قَولُ مثل هٰذا جائزٌ ، لكنَّهم كانوا يَكرَهُونَ فُضولَ الكَلام ، واخْتلفَ العُلمَاءُ في الكَلامِ الْمُباحِ ، هَلْ يَكتُبُه الْمَلَكان ، أم لا يَكتُبان إلاَّ الْمُسْتَحبَّ الذي فيه أجْرٌ ، والْمَذْمُومَ الذي فيه تَبعَة ، ؟ والصَّحيحُ كِتابَةُ الجَميع لِعُمُومِ النَّصِّ في قَولِه تَعالَىٰ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[5] ، ثم لَيسَ إلى الْمَلَكَينِ اطِّلاعٌ على النِّيَّاتِ والإخْلاصِ ، بل يَكتُبانِ النُّطْقَ ، وأمَّا السَّرائرُ البَاعِثَةُ للنُّطقِ ، فالله يَتولاَّها[6] .

---

(١) انظر السير : (عَطاء بن أبي رَباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٨٣ .
(٢) انظر السير : (سعيد بن عبد العزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٢٤ .
(٣) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الشِّيرازيُّ) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٣٠ .
(٤) انظر السير : (الْمُعَافَىٰ) ٩/ ٨٠ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٠٠ .
(٥) سورة ق ، الآية : ١٨ .
(٦) انظر السير : (الْمُعَافَىٰ) ٩/ ٨٠ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨٠٠ .

العِفَّة

١ـ الحَثُّ عَلىٰ عِفَّة اللِّسَان :

قالَ أبو جَعْفَر الباقِر : سِلاحُ اللِّئام قُبْحُ الكَلام[١] .

قالَ يَعقوبُ الفَسَويُّ حينَما بَلغَه قَولُ يَحْيَىٰ : مَنْ فَضَّلَ عبدَ الرحمَـٰن عَلىٰ وَكيعٍ فعَليه اللَّعْنَة ، فقالَ يَعْقوبُ : كان غيرُ هـٰذا أشْبَه بكَلامِ أهلِ العِلمِ ، ومَنْ حاسَبَ نَفسَه ، لَمْ يَقُلْ مثلَ هَـٰذا ، وَكيعٌ خَيِّرٌ فاضِلٌ حافِظٌ[٢] .

٢ـ مَنْ كانَ مُبْتعِداً عن الفَواحِش في الجاهليَّة :

عن عُرْوَةَ ، عن عائشَةَ أنَّها كانت تَدْعو علىٰ مَنْ زَعَمَ أنَّ أبا بَكر قالَ هـٰذه الأبْياتَ ، وقالَتْ : والله ما قالَ أبو بَكر شِعْراً في جاهليَّةٍ ولا في إسْلام ، وقد تَرَكَ هو وعُثْمانُ شُرْبَ الخَمْرِ في الجَاهليَّة[٣] .

٣ـ صُوَرٌ مِنْ عِفَّة اللِّسَان :

جاءَ في تَرجَمَةِ شَقيقِ بنِ سَلمَة ، قالَ عاصِمُ بنُ أبي النَّجُودِ : ما سَمعتُ أبا وَائل سَبَّ إنْسَاناً قَطُّ ولا بَهيمَةً[٤] .

وعن إبْراهيمَ ، قالَ : قالَ فُلانٌ : ما أرَى الرَّبيعَ بنَ خُثَيْم تَكلَّم بكَلام منذُ عِشرينَ سَنةً إلاَّ بكَلمَةٍ تَصعَدُ ، وعن بَعضِهم قالَ : صَحِبتُ الرَّبيعَ عِشرينَ عَاماً ما سَمعتُ منه كَلمَةً تُعابُ[٥] .

وعن عَمرو بنِ مالِك ، سَمعَ أبا الجَوْزاء يَقولُ : ما لَعنتُ شَيئاً قَطُّ ، ولا أكَلتُ شَيئاً مَلعُوناً قَطُّ ، ولا آذَيتُ أحَداً قَطُّ .

---

(١) انظر السير : (أبو جَعْفَر الباقِر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٢٣ .
(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨١٠ .
(٣) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/ ٢٦ .
(٤) انظر السير : (شَقيقُ بنُ سَلَمَة) ٤/ ١٦١ـ ١٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٦٩ .
(٥) انظر السير : (الرَّبيع بن خُثَيْم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٩٣ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : انْظُرْ إلىٰ هَـٰذا السَّيِّدِ ، واقْتَدِ به[1] .

وعن الْمُثَنَّىٰ بنِ الصبَّاح قالَ : لَبِثَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّه أرْبَعينَ سَنةً لَمْ يَسُبَّ شَيئاً فيه الرُّوحُ ، ولَبِثَ عِشرينَ سَنةً لَمْ يَجْعَلْ بَينَ العِشَاءِ والصُّبحِ وُضُوءاً ، قالَ : وقالَ وَهْبٌ : لقد قَرأتُ ثَلاثين كِتاباً نَزَلت علىٰ ثَلاثينَ نَبيّاً[2] .

قالَ أبو بَكر بنُ عيَّاش : ما سَمعتُ أبا إسْحاقَ السَّبيعي يَعيبُ أحَداً قَطُّ ، وإذا ذَكَرَ رَجُلاً من الصَّحابَة ، فكأنَّه أفضَلُهم عندَه .

تُوفِّيَ أبو إسْحاقَ في سَنةِ سَبع وعِشْرينَ ومئة يومَ دُخولِ الضَّحَّاك ابنِ قَيْس غَالباً عَلى الكُوفَة عاشَ ثلاثاً وتِسْعينَ سَنةً[3] .

قالَ الفَلاَّسُ : ما سَمعتُ وَكيعاً ذَاكِراً أحَداً بسُوءٍ قَطُّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : مع إمامَتِه ، كَلامُه نزْرٌ جداً في الرِّجالِ[4] .

٤ـ صُوَرٌ مِنْ عِفَّة الفَرْج :

عن إسْماعيلَ القاضي ، قالَ : دَخلتُ على الْمُعْتَضِدِ بالله وعلىٰ رَأسِه أحْدَاثُ رُومٍ مِلاحٌ ، فنَظَرتُ إليهم ، فَرآني الْمُعْتَضِدُ أتَأمَّلُهم ، فلمَّا أرَدتُ الانْصِرافَ أشارَ إليَّ ، ثم قالَ : أيُّها القاضِي! والله ما حَللتُ سَراويلي علىٰ حَرامٍ قَطُّ[5] .

وقالَ الْمُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيف : كانَ العَزيزُ شاباً ، حَسَنَ الصُّورَة ، ظَريفَ الشَّمائلِ ، قَوياً ، ذا بَطْش ، وأَيْد ، وخِفَّة حَرَكة ، حَيياً ، كَريماً ، عَفيفاً عن الأمْوالِ والفُروجِ ، بلَغَ من كَرمه أنَّه لمْ يَبْقَ له خِزانة ، ولا خَاص ، ولا فرس وبُيوتُ أُمَرائِه تَفيضُ بالخَيْراتِ ، وكانَ شُجاعاً مِقْداماً ، بلغَ من عِفَّتِه أنَّه كانَ له غُلامٌ تُرْكيٌّ بألفِ دينارٍ يُقالُ له : أبو شامَة ، فوَقَفَ ، فرَاعَه حُسْنُه ، فأمَرَه أنْ يَنْزِعَ ثيابَه ، وجَلسَ منه مَجْلِسَ

---

(١) انظر السير : (أبو الجَوْزاء) ٤/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥١٢ .
(٢) انظر السير : (وَهْب بن مُنَبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٥٣ .
(٣) انظر السير : (أبو إسْحاقَ السَّبيعي) ٥/ ٣٩٢ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦١٦ .
(٤) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨١١ .
(٥) انظر السير : (الْمُعْتَضِدُ بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٠٣ .

الخَنَا ، فأدْرَكَه تَوْفيقٌ ، فأسْرَعَ إلىٰ سَرِيَّة له ، فقَضَىٰ وَطَرَه[1] .

قالَ سِبطُ الجَوْزيّ : كانَ الأشْرَفُ يَحضُرُ مَجالِسي بحرَّانَ ، وبخِلاطَ ، ودِمَشْقَ وكان مَلكاً عَفيفاً ، قالَ لي : ما مَدَدتُ عَينيَّ إلىٰ حَريمِ أحَد ولا ذَكَر ولا أنْثىٰ جاءَتني عَجوزٌ من عندِ بنتِ صاحِبِ خِلاط شَاه أرْمَن بأنَّ الحاجِبَ عَليّاً أخَذَ لها ضَيْعَةً فكَتَبتُ بإطْلاقِها ، فقالَت العَجوزُ : تُريدُ أنْ تَحضُرَ بينَ يَدك ، فقُلتُ : باسْمِ الله ، فجاءَت بها فلَمْ أرَ أحْسَنَ من قَوامِها ولا أحْسَنَ من شَكْلِها ، فقُمتُ لها ، وقُلتُ : أنْتِ في هـٰذا البَلدِ وأنا لا أدْري ؟ فسَفرَت عن وَجْهٍ أضاءَت منه الغُرفَة ، وقُلتُ : لا ، اسْتَتِري فقالَت : ماتَ أبي واسْتَولَىٰ على المَدينَة بكتمر ، ثم أخَذَ الحاجِبُ قَرْيَتي وبَقيتُ أعيشُ من عَمَلِ النَّقْش وفي دارٍ بالكِراء فبَكيتُ لها ، وأمَرْتُ لها بدارٍ وقِماشٍ ، فقالَت العَجوزُ : يا خَوَنْد ألا تَحْظَى الليلةَ بك ؟ فوَقَعَ في قَلْبي تَغيُّرُ الزَّمانِ وأنَّ خِلاطَ يَملِكُها غَيري ، وتَحْتاجُ بنتي أنْ تَقْعُدَ هـٰذه القَعْدَة ، فقُلتُ : مَعاذَ الله ، ما هـٰذا من شِيمَتي فقامَت الشَّابَّةُ باكيَةً تَقولُ : صَانَ اللهُ عَواقِبَك[2] .

القَنَاعَة

١ـ أقْوَالٌ تَحُثُّ على القَناعَة :

قال عبدُ الله بنُ الْمُعْتَزِّ بالله : مَنْ تَجاوَزَ الكَفَافَ لَمْ يُغْنِه الإكْثَارُ[3] .

وقالَ أيضاً : مَنْ ارْتَحَلَه الحِرْصُ ، أضْنَاهُ الطَّلبُ[4] .

نقل أبو عبد الرحمـٰن السُّلميّ في « مِحَن الصُّوفيّة » أن بُناناً الحَمَّال قام إلىٰ وزير خُمارويه ـ صاحب مصر ـ وكان نَصْرانيّاً فأنزله عن مَركوبه وقال : لا تركب الخيلَ وعيِّر ، كما هو مَأخوذ عليكم في الذِّمَّة ، فأمر خُمارويه بأن يُؤخَذ ويُوضع بين يدي

---

(١) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٥ .

(٢) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٣ .

(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُعْتَزِّ بالله) ١٤/ ٤٢ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٨ .

(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُعْتَزِّ بالله) ١٤/ ٤٢ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٥/١١٢٨ .

سَبُع ، فطُرِحَ ، فبقي ليلةً ، ثم جاؤوا والسَّبُعُ يلحَسُه وهو مُستَقبِل القِبْلَة ، فأطلَقَه خُمارويه واعْتذَرَ إليه[1] .

وقالَ أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي : مَنْ قَنَعَ ، طَابَ عَيْشُه ومَنْ طَمعَ طال طيشُه[2] .

٢ـ صُوَرٌ على القَناعَة :

عن أبي وَائلٍ قالَ : ذَهبتُ أنا وصاحبٍ لي إلىٰ سَلْمانَ ، فقالَ : لَوْلا أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم نَهانا عن التَّكلُّفِ ، لتَكلَّفْتُ لكم ، فجاءَنا بخُبزٍ ومِلْحٍ فقُلتُ لصاحِبي : لَوْ كانَ في مِلْحِنا صَعْتَرٌ فبَعَثَ سَلْمانُ بمِطْهَرَتِه ، فرَهَنَها ، فجاء بصَعْتَر ، فلمَّا أكَلْنا قالَ صاحبي : الحَمْدُ لله الذي قَنَّعَنا بما رَزَقَنا ، فقالَ سَلْمانُ : لَوْ قَنَعْتَ لَمْ تَكُنْ مِطْهَرَتي مَرْهونَة[3] .

وقال الحَسَن بنُ صالِح : رُبَّما أصْبحتُ وما مَعي دِرْهَم وكأنَّ الدُّنيا قد حِيزَتْ لي[4] .

وذكرَ إبْراهيمُ بنُ السَّري الزَّجَّاجَ : أنَّه كان يُجرَىٰ علىٰ أبي جَعْفرٍ التِّرْمِذيِّ في الشَّهرِ أرْبَعةُ دَراهم ، يَتقوَّتُ بها قالَ : وكانَ لا يَسألُ أحَداً شَيئاً[5] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ الطَّلاَّية ، قالَ السَّمْعَانيُّ : شَيخٌ كَبيرٌ أفْنَىٰ عُمرَه في العِبادَة والقِيام والصِّيام لَعلَّه ما صَرفَ سَاعةً من عُمرِه إلاَّ في عِبادَة وانْحَنَىٰ حتَّىٰ لا يَتبيَّنُ قِيامُه من رُكُوعِه إلاَّ بيَسير ، وكانَ حافِظاً للقُرآنِ ، لا يَقبَلُ من أحَدٍ شَيئاً وله كِفايَةٌ يَتقنَّعُ بها[6] .

---

(١) انظر السير : (بُنَانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٦٩ .
(٢) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٣٤ .
(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٠٤ .
(٤) انظر السير : (الحَسَن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٠٣ .
(٥) انظر السير : (أبو جَعْفَر التِّرْمِذيّ) ١٣/ ٥٤٥ـ ٥٤٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١١٥ .
(٦) انظر السير : (ابنُ الطَّلاَّيَة) ٢٠/ ٢٦٠ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٤٩ .

الكرَم

١ـ أكرَمُ النَّاس :

رَوى العُتبيُّ عن رَجلٍ قالَ : خَطبَ خَالدُ بنُ عبد الله القَسريُّ بواسِطَ فقالَ : إنَّ أكْرَمَ النَّاسِ مَنْ أعْطَىٰ مَنْ لا يَرجُوه ، وأعْظمَ النَّاسِ عَفْواً مَنْ عَفَا عن قُدرَة ، وأوْصَلَ النَّاسِ مَنْ وَصَلَ عن قَطيعَة[١] .

٢ـ الكريمُ حَبيبٌ إلى الله :

وعن بِشْرِ بنِ الحارِثِ ، قالَ : شَاطِرٌ سَخِيٌّ أحبُّ إلى اللهِ من صُوفِيٍّ بَخيل[٢] .

٣ـ صُوَرٌ على الكرَم :

حَكَى الْمَدائنيُّ أنَّ يَزيدَ بنَ الْمُهَلَّب كانَ يَصلُ نَديماً له كُلَّ يَومٍ بمئة دينار فلمَّا عَزمَ على السَّفرِ أعْطاهُ ثَلاثَةَ آلافِ دِينار[٣] .

وقيلَ : إنَّه حَجَّ فلمَّا حَلقَ رَأسَه الحَلاَّقُ أعْطاهُ ألفَ دِرْهَم فدُهِشَ بها وقالَ : أَمْضِىٰ أُبَشِّرُ أُمِّي قالَ : أعْطُوهُ ألفاً أُخرَىٰ فقالَ : امْرأتي طالِقٌ إنْ حَلقتُ لأحَدٍ بَعدَك قالَ : أعْطُوهُ ألْفَينِ آخَرَين[٤] .

عن ابن نوحٍ قالَ : سَمعتُ خالدَ بنَ عبدِ اللهِ القَسْريَّ يَقولُ على الْمِنْبَر : إنِّي لأطْعِمُ كلَّ يَومٍ سِتَّةً وثَلاثينَ ألفاً من الأعْرابِ تَمْراً وسَوِيقاً[٥] .

وقال محمَّدُ بنُ عليِّ بنِ الحَسن بنِ شَقيق ، سَمعتُ أبي قال : كان ابنُ الْمُبارَك إذا كان وَقتُ الحَجِّ ، اجتمعَ إليه إخْوانُه من أهْلِ مَرْو ، فيقولون : نَصحبُك ، فيقولُ : هاتوا نَفقاتِكم ، فيأخُذُ نَفقاتِهم ، فيَجعلُها في صُندوقٍ ، ويُقفِلُ عليها ، ثم يَكتري له ،

---

(١) انظر السير : (القَسْريّ) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ٥/٦١٨ .
(٢) انظر السير : (بِشْر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٩/٨٨٥ .
(٣) انظر السير : (يَزيدُ بنُ الْمُهَلَّب) ٤/ ٥٠٣ـ ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/٥٤٤ .
(٤) انظر السير : (يَزيدُ بنُ الْمُهَلَّب) ٤/ ٥٠٣ـ ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤٥ .
(٥) انظر السير : (القَسْريّ) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦١٩ .

ويُخرجُهم من مَرْوَ إلىٰ بَغدادَ ، فلا يَزالُ يُنفِقُ عليهم ويُطعِمُهم أطْيَبَ الطَّعامِ ، وأطْيَبَ الحَلوَىٰ ، ثم يُخرجُهم من بَغدادَ بأحْسنِ زِيٍّ وأكْملِ مُروءَة ، حتىٰ يَصلوا إلىٰ مَدينةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم ، فيقولُ لكُلِّ واحدٍ : ما أمَرَكَ عيالُك أنْ تَشتري لهم من المَدينَةِ من طُرَفِها ؟ فيقولُ : كذا وكذا فيَشتري لهم ، ثم يُخرجُهم إلىٰ مكة ، فإذا قَضوا حَجَّهم ، قال لكلِّ واحدٍ منهم : ما أمَرَكَ عيالُك أنْ تَشتري لهم من مَتاع مكة ؟ فيقولُ : كذا وكذا ، فيَشتري لهم ، ثم يُخْرجُهم من مكةَ ، فلا يَزالُ يُنفقُ عليهم إلىٰ أنْ يَصيرُوا إلىٰ مَرْوَ ، فيُجَصِّصُ بُيوتَهم وأبْوابَهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيَّام ، عَملَ لهم وَليمَةً وكَساهم ، فإذا أكَلوا وسُرُّوا ، دَعا بالصُّندوقِ ، ففَتحَه ودَفعَ إلىٰ كُلِّ رجلٍ منهم صُرَّتَه ، عليها اسْمُه .

وقال محمَّدُ بنُ المُثَنَّىٰ : سَمعتُ عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ مَهْدي يقولُ : ما رأتْ عَيناي مثلَ أرْبَعة : ما رأيتُ أحْفَظَ للحَديثِ من الثَّوْريِّ ، ولا أشدَّ تَقشُّفاً من شُعبَة ، ولا أعْقَلَ من مالِك ، ولا أنْصَحَ للأمَّة من ابنِ المُبارَك[1] .

٤ـ شِعْرٌ في الكرَم :

جاءَ في تَرجَمَةِ خالدِ بنِ الخَليفَة يَزيد بنِ مُعاوِيَة ، قال أبو زُرْعَة الدِّمَشْقيُّ : هو وأخَواه من صالحي القَوْم .

وقالَ الإمامُ الذَّهَبيُّ : أجازَ شاعِراً بمئة ألف لقَوْله فيه[2] :

سَألْتُ النَّدَىٰ وَالجُودَ حُرَّانِ أنتُمَا ... فقَـالا جميعـاً إنَّنَـا لَعَبيـد
فقُلـتُ فمَـنْ مَـوْلاكُمَـا فتَطَـاوَلاَ ... عَلَـيَّ وقَـالا خَـالِـدُ بـنُ يَـزيـد

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القَسْريِّ ، وقيلَ أنْشَدَه أعْرابيٌّ :

أَخَالِدُ بَيْنَ الحَمْدِ وَالأَجْرِ حَاجَتي ... فَـأيُّهُمـا يَـأتـي فَـأنْـتَ عِمَـادُ
أَخَـالِـدُ إنِّـي لَـمْ أَزُرْكَ لِحَـاجَـةٍ ... سِـوَىٰ أنَّنـي عَـافٍ وَأَنْـتَ جَـوَادُ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٦٦ .
(٢) انظر السير : (خالد ابنُ الخَليفَة يَزيد) ٤/ ٣٨٢ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥١٥

فقالَ : سَلْ ، قالَ : مئة ألفٍ ، قالَ : أسْرَفْتَ يا أعْرابيُّ ، قالَ : فأحُطُّ للأمير ؟ قالَ : نَعَم قالَ : قد حَطَطْتُك تِسْعينَ ألْفاً ، فتعَجَّبَ منه ، فقالَ : سَألْتُكَ علىٰ قَدرِكَ ، وحَطَطْتُكَ علىٰ قَدْري ، وما أسْتأهِلُه في نفسي ، قالَ : لا والله لا تَغْلبُني ، يا غُلام أعْطِه مئةَ ألفٍ[1] .

٥ـ مَنْ هُو الكريم ؟

عن أبي حَفْص النِّيسَابوريِّ ، قالَ : ما اسْتحَقَّ اسْمَ السَّخاءِ من ذَكَرَ العَطَاءَ ولا لَمَحَهُ بِقَلبِه[2] .

٦ـ الكرَمُ الحَقيقيُّ :

عن أبي حَفْص النِّيسَابوريِّ ، قالَ : الكرَمُ طَرْحُ الدُّنيا لِمَنْ يَحْتاجُ إليها والإقْبَالُ عَلى اللهِ بحَاجَتِك إليه[3] .

٧ـ صُوَرٌ من الكرمِ والجُود :

عن ابنِ سِيرينَ : كانَ سَعْدُ بنُ عُبادَة يَرجعُ كل لَيلَةٍ الىٰ أهلِه بثَمانينَ من أهْلِ الصُّفَّة يُعَشِّيهم[4] .

وكان سَعْدُ بنُ عُبادَة وعدَّة آباءٍ له قبلَه يُنادَىٰ علىٰ أُطُمِهِم : مَنْ أحَبَّ الشَّحْمَ واللَّحْمَ فليَأتِ أُطُمَ دُلَيْم بنِ حارِثَة[5] .

عن عَطاءٍ : أنَّ مُعاويَةَ بَعثَ الىٰ عائشَةَ بقلادَة بمِئةِ ألفٍ فقسَّمَتْها بين أُمَّهاتِ المؤمنين[6] .

---

(١) انظر السير : (القَسْريّ) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦١٩ .
(٢) انظر السير : (أبو حَفْص النِّيسَابوريُّ) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ١٠/ ١٠٢٥ .
(٣) انظر السير : (أبو حَفْص النِّيسَابوريُّ) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ١١/ ١٠٢٥ .
(٤) انظر السير : (سَعْد بنُ عُبادَة) ١/ ٢٧٠ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٢ .
(٥) انظر السير : (سَعْد بنُ عُبادَة) ١/ ٢٧٠ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٢ .
(٦) انظر السير : (عائشَة أُمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٤٤ .

عن القاسِمِ بنِ محمَّد : سَمعتُ ابنَ الزُّبَيرِ يَقولُ : ما رَأيتُ امْرأةً أجْوَدَ من عائشَةَ وأسْماءَ ، وَجُودُهُما مُخْتلِفٌ : أمَّا عائشَةُ فكانَت تَجمَعُ الشَّيءَ إلى الشَّيءِ حتَّىٰ إذا اجْتمَعَ عندَها وَضعَتهُ مَواضِعَه وأمَّا أسْماءُ فكانَت لا تدَّخرُ شَيئاً لغَدٍ[1] .

وقالَ الوَاقِديُّ : حدَّثنا دَاوُدُ بنُ قَيس ، ومَالكٌ ، وطائفَةٌ قالوا : بَعثَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أبا عُبَيدَة في سَريَّة فيها الْمُهاجِرونَ والأنْصارِ وهم ثَلاثُ مئة إلىٰ ساحِلِ البَحْرِ إلىٰ حَيٍّ من جُهَيْنَة فأصَابَهم جُوعٌ شَديدٌ فأمَرَ أبوعُبَيدَة بالزَّادِ فجُمعَ حتَّىٰ كانوا يَقتَسمُونَ التَّمرَةَ فقالَ قَيسُ بنُ سَعد : مَنْ يَشتري منِّي تَمْراً بجُزُرٍ يُوَفِّيني الجُزُرَ ها هُنا وأُوَفِّيه التَّمْرَ بالْمَدينَة فجَعلَ عُمَرُ يَقولُ : يا عَجباً لهـٰذا الغُلام يَدينُ في مال غَيرِه فوَجدَ رَجلاً من جُهَيْنَة فساوَمَه فقالَ : ما أعْرفُكَ! قال : أنا قَيْسُ بنُ سَعْد بنِ عُبَادَة بنِ دُلَيم فقالَ : ما أعْرَفَني بنَسَبك أمَا إنَّ بَيْني وبَينَ سَعْدٍ خِلَّةَ سَيِّدُ أهْلِ يَثْرِب فابْتاعَ منه خَمسَ جَزائرَ كُلَّ جَزُورٍ بوَسَقٍ من تَمْر وأشْهَدَ له نَفَراً فقالَ عُمَرُ : لا أشْهَدُ هـٰذا يَدينُ ولا مَالَ له إنَّما الْمَالُ لأبيه فقالَ الجُهَنيُّ : والله ما سَعدٌ ليَخُنِّي[2] بابنِه في شقَّةٍ من تَمْر وأرَىٰ وَجْهاً حَسناً فنَحَرها لهم في ثَلاثةِ مَواطِن فلمَّا كانَ في اليَومِ الرَّابعِ نَهاهُ أميرُه ، وقالَ : تُريدُ أنْ تَخرِبَ ذِمَّتَكَ ولا مَالَ لك .

قالَ[3] : فحدَّثني محمّدُ بنُ يَحْيَى بن سَهْل ، عن أبيه عن رافِعِ بنِ خَدِيج قال : بلغَ سَعْداً ما أصابَ القَوْمَ من الْمَجاعَة ، فقالَ : إنْ يَكُ قَيْسٌ كما أعْرِفْ فسَوفَ يَنْحَرُ للقوم ، فلمَّا قَدِمَ ، قَصَّ علىٰ أبيه ، وكيف مَنَعوه آخِرَ شَيءٍ من النَّحْر ، فكَتبَ له أرْبَعَ حَوائطَ[4] أدْنَىٰ حائط منها يَجدُّ[5] خَمسينَ وَسَقاً ، فقيلَ : إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا بلغَه ، قالَ : « أَمَا إنَّه في بَيْتِ جُودٍ » .

---

(١) انظر السير : (أسْماء بنتُ أبي بكر) ٢/ ٢٨٧ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٦٢ .

(٢) قوله (ليَخُنِّي) أي : يُسلمه ويخفر ذمته ، من أخْنىٰ عليه الدهر ، وقوله (في شقة من تَمْر) أي : قطعة تُشقُّ منه .

(٣) أي الوَاقِديُّ .

(٤) الحَوائط : جمع حائط ، وهو البستان من النخيل إذا كان عليه حائط ، وهو الجدار .

(٥) يجدُّ : من الجداد ، وهو قطع الثمر ، والمعنىٰ : أقل بستان منها يعطي من الثمار خمسين وَسقاً .

وقالَ أبو عاصِم : حدَّثنا جُوَيْرِيَة ، قالَ : كانَ قَيْسٌ يَسْتَدينُ ويُطْعِمُ ، فقالَ أبو بَكر وعُمَرُ : إنْ تَركْنا هـٰذا الفَتىٰ ، أهْلَكَ مالَ أبيه ، فمَشَيا في النَّاسِ ، فقامَ سَعْدٌ عندَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وقالَ : مَنْ يَعْذُرُني من ابنِ أبي قُحافَة وابنِ الخَطَّاب ، يُبَخِّلانِ عليَّ ابني[1] .

وقيلَ : وَقفَتْ علىٰ قَيْسِ بنِ سَعْد عَجوزٌ فقالَت : أشْكُو إليكَ قِلَّةَ الجُرذانِ فقالَ : ما أحْسَنَ هـٰذه الكِنايَة ، امْلَؤوا بَيتَها خُبزاً ولَحْماً وسَمناً وتَمْراً[2] .

وعن هِشامِ بنِ عُروَة عن أبيه قالَ : باعَ قَيْسُ بنُ سَعْد مالاً من مُعاويَةَ بتِسعينَ ألفاً فأمَرَ مَنْ نادَىٰ في الْمَدينَة مَنْ أرادَ القَرْضَ فليَأتِ فأقْرَضَ أرْبَعينَ ألفاً وأجازَ بالبَاقِي ، وكَتبَ علىٰ مَنْ أقْرضَه فمَرضَ مَرضاً قَلَّ عُوَّادُه ، فقالَ لزَوجَتِه قُرَيْبَة أُخْتِ الصِّدِّيقِ : لِمَ قَلَّ عُوَّادي ؟ قالَت : للدَّيْنِ ، فأرْسلَ إلىٰ كُلِّ رجُلٍ بصَكِّهِ وقالَ اللَّهُمَّ ارْزُقني مالاً وفِعالاً فإنَّه لا تَصلحُ الفِعَالُ إلاَّ بالْمَالِ[3] .

قالَ ابنُ سِيرينَ : تَزوَّجَ الحَسَنُ امْرأةً فأرسَلَ إليها مئةَ جارِيَة مع كُلِّ جارِيَة ألفُ دِرْهَم[4] .

وكانَ الحَسَنُ يُعْطي الرَّجُلَ الواحدَ مئة ألفٍ[5] .

قيلَ : إنَّ أعْرابياً قَصدَ مَرْوانَ فقالَ : ما عِندَنا شَيءٌ ، فعَليكَ بعبدِ اللهِ بنِ جَعْفَر ، فأتَى الأعْرابيُّ عبدَ الله فأنْشَأ يَقولُ :

أبُو جَعْفَر مِنْ أهْلِ بَيتِ نُبُوَّةٍ ... صِلاتُهُم لِلْمُسْلِمينَ طَهُورُ
أبا جَعْفَر ضَنَّ الأميرُ بمَالِه ... وأنْتَ عَلى مَا في يَدَيْكَ أَميرُ
أبا جَعْفَر يا ابنَ الشَّهيدِ الذي لَه ... جَنَاحَانِ في أَعْلَى الجِنَانِ يَطِيرُ
أبا جَعْفَر مَا مِثْلُكَ اليَومَ أَرْتَجِي ... فَلا تَتْرُكَنِّي بالفَلاةِ أَدُورُ

---

(١) انظر السير : (قَيْسُ بنُ سَعْد) ٣/ ١٠٢ـ ١١٢ ، وانظر النزهة : ٣٤٣/ ٤ .
(٢) انظر السير : (قَيْسُ بنُ سَعْد) ٣/ ١٠٢ـ ١١٢ ، وانظر النزهة : ٣٤٤/ ١ .
(٣) انظر السير : (قَيْسُ بنُ سَعْد) ٣/ ١٠٢ـ ١١٢ ، وانظر النزهة : ٣٤٤/ ٢ .
(٤) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣٧٩/ ٤ .
(٥) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣٧٩/ ٥ .

فقالَ : يا أعْرابيُّ سارَ الثِّقَلُ فعَليكَ بالرَّاحِلَة بما عَليها وإيَّاك أنْ تُخْدَعَ عن السَّيفِ فإنِّي أخَذتُه بألفِ دينار[1] .

ويُروَىٰ أنَّ شاعِراً جاءَ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ جَعْفَر فأنْشدَه :

رَأيتُ أبا جَعْفَرٍ في الْمَنَامْ ... كَسَاني من الخَزِّ دُرَّاعَةْ
شَكَوْتُ إلَى صَاحِبي أَمْرَهَا ... فَقَالَ سَتُوتَى بِهَا السَّاعَة
سَيَكْسُوكَهَا الْمَاجِدُ الْجَعْفَرِيْ ... وَمَنْ كَفُّهُ الدَّهْر نَفَّاعَةْ
وَمَنْ قَالَ لِلْجُودِ لا تَعْدُنِي ... فَقَالَ لَهُ السَّمْعُ والطَّاعَة

فقالَ عبدُ الله لغُلامِه : أعْطِه جُبَّتي الخَزَّ ثم قالَ له : وَيْحَكَ كَيفَ لَمْ تَرَ جُبَّتي الوَشْيَ ؟ اشْتَريتُها بثَلاثِ مئَة دِينَار مَنْسُوجَةً بالذَّهَبِ فقالَ : أنامُ فلَعلِّي أرَاهَا فضَحِكَ عبدُ الله وقالَ ادْفَعُوها لَه[2] .

عن الأصْمَعيِّ أنَّ امْرأةً أتَت بدَجاجَة مَسْموطَة فقالت لابنِ جَعْفَر : بأبي أنتَ هٰذه الدَّجاجَة كانت مثل بِنْتي فآلَيتُ أنْ لا أدْفِنَها إلاَّ في أكْرَم مَوْضِع أقْدِرُ عليه ولا والله ما في الأرضِ أكْرَم من بَطنِك قالَ : خُذها منها واحْمِلُوا إليها ، فذَكَر أنْواعاً من العَطاء ، حتَّىٰ قالَت : بأبي أنتَ ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفينَ[3] .

ذَكرَ الزُّبَيرُ بنُ بكَّار أنَّ عُبَيدَ الله بنَ أبي مُلَيْكَة عن أبيه عن جَدِّه قالَ : دَخلَ ابنُ أبي عَمَّار وهو يَومئذ فَقيهُ أهلِ الحِجازِ علىٰ نَخَّاس فعَرضَ عليه جاريَةً فعَلقَ بها وأخَذَه أمْرٌ عَظيمٌ ولَمْ يَكنْ مَعه مِقْدارُ ثَمنِها فمَشَىٰ إليه عَطاءُ وطَاوُوسُ ومُجاهِدُ يَعْذُلونَه وبَلغَ خَبرُه عبدَ الله فاشْتَراها بأرْبَعينَ ألْفاً وزَيَّنَها وحَلاَّها ثم طَلبَ ابنَ أبي عَمَّار فقَالَ : ما فَعلَ حُبُّكَ فُلانَة ؟ قالَ : هي التي هامَ قَلبي بذِكْرِها والنَّفْسُ مَشْغُولَةٌ بها فقالَ : يا جارِيَة أخْرِجيها فأخْرَجَتْها تَرفُلُ في الحُلِيِّ والحُلَل ، فقالَ : شَأنُك بها بارَكَ اللهُ لكَ فيها فقالَ : تَفَضَّلتَ بشَيءٍ ما يَتفضَّلُ به إلاَّ الله فلمَّا وَلَّىٰ بها قالَ : يا غُلامُ احْملْ مَعه

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بن جَعْفَر) ٣/ ٤٥٦ـ ٤٦٢ ، وانظر النزهة : ٤٠٨/ ٤ .
(٢) انظر السير : (عبدُ الله بن جَعْفَر) ٣/ ٤٥٦ـ ٤٦٢ ، وانظر النزهة : ٤٠٨/ ٥ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بن جَعْفَر) ٣/ ٤٥٦ـ ٤٦٢ ، وانظر النزهة : ٤٠٩/ ٢ .

مئةَ ألفِ دِرهَم فقالَ : لَئنْ واللهِ وُعِدْنا نَعيمَ الآخِرَة فقد عَجَّلتَ نَعيمَ الدُّنيا[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القَسْريِّ ، وقيلَ أنْشَدَه أعْرابيٌّ :

أَخَالِدُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالأَجْرِ حَاجَتي ... فَأَيُّهُمَا يَأتي فَأَنْتَ عِمَادُ
أَخَالِدُ إنِّي لَمْ أَزُرْكَ لِحَاجَةٍ ... سِوَى أَنَّني عَافٍ وَأَنْتَ جَوَادُ

فقالَ : سَلْ ، قالَ : مئة ألفٍ ، قالَ : أسْرَفْتَ يا أعْرابيُّ ، قالَ : فأحُطُّ للأمير ؟ قالَ : نَعَم قالَ : قد حَطَطْتُك تِسْعينَ ألْفاً ، فتعَجَّبَ منه ، فقالَ : سَألتُكَ علىٰ قَدرِكَ ، وحَطَطْتُكَ علىٰ قَدْري ، وما أسْتأهِلُه في نفسي ، قالَ : لا واللهِ لا تَغْلبُني ، يا غُلام أعْطِه مئةَ ألفٍ[2] .

عن يَحْيَى الوحاظي : ما رأيتُ رجلاً كان أكبرَ نَفساً من إسْماعيلَ ابنِ عيَّاش ، كنَّا إذا أتَيناه إلىٰ مَزرَعةٍ لا يَرضَىٰ لنا إلاَّ بالخَروفِ والخَبيصِ ، سَمعتُه يقولُ : وَرِثْتُ من أبي أربعةَ آلافِ دينار ، فأنفَقتُها في طلبِ العلم[3] .

المُدَاراة

١ـ رِضا النَّاسِ غايَةٌ لا تُدْرَكُ :

قالَ يُونُسُ بنُ عبدِ الأعْلَىٰ : قَالَ الشَّافِعيُّ ليَ : رِضَا النَّاسِ غايَةٌ لا تُدرَكُ ولَيسَ إلى ؤالسَّلامَة منهم سَبيلٌ فعَليكَ بمَا يَنفَعُك فالْزَمهُ[4] .

٢ـ التَّغافُل نَوعٌ من المُداراةِ أحْياناً :

عنِ الشَّافعيِّ قالَ : اللَّبيبُ العَاقِلُ هو الفَطِنُ الْمُتَغافِل[5] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بن جَعْفَر) ٣/ ٤٥٦ـ ٤٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٠٩ .
(٢) انظر السير : (القَسْريّ) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦١٩ .
(٣) انظر السير : (إسْماعيل بن عيَّاش) ٨/ ٣١٢ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٦٠ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشافعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٥٣ .
(٥) انظر السير : (الإمام الشافعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٥٣ .

٣ـ صُوَرٌ من المُدَاراة :

عن بِلالِ بنِ يَحْيَىٰ قالَ : بَلغَني أنَّ حُذَيْفَةَ بنَ اليَمان كانَ يَقولُ : ما أدْرَكَ هـٰذا الأمْرَ أحَدٌ من الصَّحابَة إلاَّ قد اشْتَرىٰ بَعضَ دينِه ببَعضٍ قالُوا : وأنتَ ؟ قالَ : وأنا والله إنِّي لأدخُلُ علىٰ أحَدِهم ـ ولَيسَ أحَدٌ إلاَّ فيه مَحاسِنٌ ومَساوىءٌ ـ فأذكُرُ مَحاسِنَه وأُعرِضُ عمَّا سِوَىٰ ذلك ، ورُبَّما دَعاني أحَدُهم إلى الغَدَاء ، فأقُولُ : إنِّي صائمٌ ولَستُ بصَائمٍ[١] .

وعنِ الأحْنَفِ بنِ قَيْس ، قالَ : ما نازَعَني أحدٌ إلاَّ أخَذتُ أمْري بأمُورٍ ، إن كانَ فَوْقي عَرفتُ له ، وإنْ كانَ دُوني رَفعتُ قَدْري عنه ، وإنْ كانَ مِثلي تَفضَّلتُ عَليه[٢] .

عن ابنِ الحَنفيَّة قالَ : لَيسَ بحَكيمٍ مَنْ لَمْ يُعاشِرْ بمَعرُوفٍ مَنْ لا يَجدُ من مُعاشَرتِه بُدّاً حتَّىٰ يَجعلَ اللهُ من أمرِه فَرَجاً أو قال مَخْرَجاً[٣] .

قالَ هِشامُ بنُ عُرْوَة بنِ الزُّبَيْر : قالَ أبي : رُبَّ كَلمَةِ ذُلٍّ احْتَمَلتُها أوْرَثَتني عِزّاً طَويلاً[٤] .

عن مَالِك قالَ : كانَ في نافِع حِدَّةٌ ثم حَكَىٰ مَالِكٌ أنَّه كانَ يُلاطِفُه ويُداريه[٥] .

وعن إسْماعيلَ بنِ أبي أُوَيْس ، عن أبيه : كُنَّا نَختَلفُ إلىٰ نافِع وكانَ سَيِّىءَ الخُلُق ، فقُلتُ : ما أصْنعُ بهـٰذا العَبدِ! فتَركتُه ولَزِمَه غَيْري فانتَفعَ به[٦] .

قالَ أبو الوَليدِ البَاجي : عبدُ الغَني بنُ سَعيد حافِظٌ مُتقِنٌ ، قُلتُ لأبي ذَر الهَرَوي : أخَذتَ عن عبدِ الغني ؟ فقالَ : لا إنْ شاءَ الله علىٰ مَعنَى التَّأكيدِ ، وذلكَ أنَّه كانَ لعَبدِ الغَني اتِّصالٌ ببَني عُبَيْد ، يَعني أصْحَابَ مِصْرَ .

---

(١) انظر السير : (حُذَيْفَة بنُ اليَمان) ٢/ ٣٦١ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٢٧٦ .
(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٩/٤٥١ .
(٣) انظر السير : (ابنُ الحَنَفيّة) ٤/ ١١٠ـ ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٥/٤٥٨ .
(٤) انظر السير : (عُرْوَة بنُ الزُّبَيْر) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٥/٥٢٨ .
(٥) انظر السير : (نافع) ٥/ ٩٥ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٥ .
(٦) انظر السير : (نافع) ٥/ ٩٥ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٥ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : اتِّصالُه بالدَّولَةِ العُبَيْديَّةِ كانَ مُدارَاةً لهم وإلاَّ فلَوْ جَمَحَ عليهم لاسْتأصَلَه الحاكِمُ خَليفَةُ مِصْرَ ، الذي قيلَ إنَّه ادَّعَى الإلَهيَّة .

وأظنُّه وَليَ وَظيفةً لهم ، وقد كانَ من أئمَّة الأثَر نَشأ في سُنَّةٍ واتِّبَاعٍ قَبلَ وُجودِ الرَّفْضِ واسْتمرَّ هو على التَّمَسُّك بالحَديثِ ولكنَّه دَارَى القَومَ ودَاهَنَهم فلذلك لَمْ يُحِبَّ الحافِظُ أبو ذَر الأخْذَ عَنه[1] .

المَرُوءَة

صُوَرٌ على المَرُوءَة :

قالَ ابنُ الْمُبارَك : قيلَ للأحْنَفِ بنِ قَيْس : بِمَ سَوَّدُوكَ ؟ قالَ : لَوْ عَابَ النَّاسُ الْمَاءَ لَمْ أَشْرَبْهُ[2] .

وقالَ الأحْنَفُ : مَنْ أسْرعَ إلى النَّاسِ بما يَكرَهون قالوا فيه ما لا يَعلَمون ، وعنه سُئلَ : ما الْمَروءَة ؟ قالَ : كِتْمانُ السِّرِّ والبُعْدُ من الشَّرِّ وعَنه : الكامِلُ مَنْ عُدَّتْ سَقَطاتُه[3] .

وقيلَ : كانَ الأحْنَفُ إذا أتَاهُ رَجلٌ وَسَّعَ له فإنْ لَمْ يَكنْ له سِعَة أرَاه كأنَّه يُوَسِّعُ له[4] .

وعن الأحْنَفِ بنِ قَيْس قالَ : جَنِّبُوا مَجَالِسَنا ذِكرَ النِّساءِ والطَّعامِ إنِّي أبْغَضُ الرَّجلَ يَكونُ وَصَّافاً لفَرْجِه وبَطْنِه[5] .

عن جَميلِ بنِ مُرَّة قالَ : كان مُوَرِقٌ رَحمَه اللهُ يَجيئُنا فيَقولُ : أمْسِكُوا لنَا هَذه الصُّرَّة فإنْ احْتَجتُم فأنْفِقُوها فيَكونُ آخِرَ عَهدِه بها[6] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الغَني بنُ سَعيد) ١٧/ ٢٦٨ـ ٢٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٤٠ .
(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٥١ .
(٣) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٥٢ .
(٤) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٤٥٢ .
(٥) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٥٣ .
(٦) انظر السير : (مُوَرِّق) ٤/ ٣٥٣ـ ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٥١٠ .

وعن عبدِ العَزيز بنِ عُمرَ : قالَ لي رَجاءُ بنُ حَيْوَة : ما أكْمَلَ مَروءَةَ أبيكَ! سَمرتُ عندَه ، فَعَشِيَ السِّراجُ ، وإلىٰ جانبِه وَصيفٌ نامَ ، قُلتُ : ألا أُنبِّهُه ؟ قالَ : لا ، دَعْهُ ، قُلتُ : أنا أقُومُ ، قالَ : لا لَيسَ من مَروءَةِ الرَّجُل اسْتخدامُه ضَيفَه ، فقامَ إلىٰ بَطَّة[1] الزَّيْتِ وأصْلَحَ السِّراجَ ، ثم رَجعَ ، وقالَ : قُمتُ وأنا عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز ، ورَجَعتُ وأنا عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز[2] .

وقالُ أيوبُ بنُ الْمُتَوَكل : كانَ الخَليلُ بنُ أحمَدَ الفَراهيدي إذا أفادَ إنْساناً شَيئاً لم يُرِهِ بأنَّه أفادَه ، وإنْ اسْتَفادَ من أحَدٍ شَيْئاً أراهُ بأنَّه اسْتَفادَ منه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : صارَ طَوائفُ في زَمانِنا بالعَكْسِ[3] .

وقال محمَّدُ بنُ عليِّ بنِ الحَسن بنِ شَقيق ، سَمعتُ أبي قال : كان ابنُ الْمُبارَك إذا كان وَقتُ الحَجِّ ، اجتمعَ إليه إخْوانُه من أهْلِ مَرْو ، فيقولون : نَصحبُك ، فيقولُ : هاتوا نَفقاتِكم ، فيأخُذُ نَفقاتِهم ، فيَجعلُها في صُندوقٍ ، ويُقفِلُ عليها ، ثم يَكتري له ، ويُخرجُهم من مَرْوَ إلىٰ بَغدادَ ، فلا يَزالُ يُنفِقُ عليهم ويُطعِمُهم أطْيَبَ الطَّعام ، وأطْيَبَ الحَلوَىٰ ، ثم يُخرجُهم من بَغدادَ بأحْسنِ زِيٍّ وأكْملِ مُروءَة ، حتىٰ يَصلوا إلىٰ مَدينةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم ، فيقولُ لكُلِّ واحدٍ : ما أمَرَكَ عيالُك أنْ تَشتري لهم من المَدينَةِ من طُرَفِها ؟ فيقولُ : كذا وكذا فيَشتري لهم ، ثم يُخرجُهم إلىٰ مكة ، فإذا قَضوا حَجَّهم ، قال لكلِّ واحدٍ منهم : ما أمَرَكَ عيالُك أنْ تَشتري لهم من مَتاع مكة ؟ فيقولُ : كذا وكذا ، فيَشتري لهم ، ثم يُخْرجُهم من مكةَ ، فلا يَزالُ يُنفقُ عليهم إلىٰ أنْ يَصيرُوا إلىٰ مَرْوَ ، فيُجَصِّصُ بُيوتَهم وأبْوابَهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيَّام ، عَملَ لهم وَليمَةً وكَساهم ، فإذا أكَلوا وسُرُّوا ، دَعا بالصُّندوقِ ، ففَتحَه ودَفعَ إلىٰ كُلِّ رجلٍ منهم صُرَّتَه ، عليها اسْمُه .

وقال محمَّدُ بنُ المُثَنَّىٰ : سَمعتُ عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ مَهْدي يقولُ : ما رأتْ عَيناي

---

(١) البطة : الدبة بلغة أهل مكَّة ، لأنها تُعمل علىٰ شكل البطة من الحيوان ، وهي إناء كالقارورة .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٨/٥٩٠ .

(٣) انظر السير : (الخَليلُ) ٧/ ٤٢٩ـ ٤٣١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧١٣ .

مثلَ أرْبَعة : ما رأيتُ أحْفَظَ للحَديثِ من الثَّوْريِّ ، ولا أشدَّ تَقشُّفاً من شُعبَة ، ولا أعْقَلَ من مالِك ، ولا أنْصَحَ للأمَّة من ابنِ المُبارَك[1] .

وقال الربيع : كان الشافعي مارّاً بالحَذَّائينَ فسَقطَ سَوطُه فوَثبَ غُلامٌ ومَسَحَه بكُمِّه وناوَلَه فأعْطَاهُ سَبعَةَ دَنانير[2] .

وعن الشَّافِعيِّ ، قالَ : لَوْ أعْلمُ أنَّ الْمَاءَ البَارِدَ يُنْقِصُ مَرُوءَتي ما شَربْتُه[3] .

قال أحْمَدُ بنُ مَهْدي : جاءَتني امرأةٌ ببَغْدادَ ليلةً ، فذَكرَت أنَّها من بَناتِ النَّاس وأنَّها امتُحنَت بمِحْنَة ، وأسْألُكَ بالله أنْ تَسْتُرَني فقَد أكْرِهْتُ علىٰ نَفسِي وأنا حُبْلَىٰ ، وقُلتُ : إنَّكَ زَوْجي فلا تَفْضَحْني فنكَّبتُ عنها ومَضَيت فلَمْ أشْعُر حتَّىٰ جاءَ إمَامُ الْمَحِلَّة والجيران يُهَنِّئوني بالوَلَدِ الْمَيْمُونِ فأظْهَرتُ التَّهْليلَ ووَزَنتُ في اليَومِ الثاني للإمامِ دينارَين ، وقُلتُ : أعْطِها نَفقَة فقَد فارَقْتُها وكنتُ أُعْطيها في كُلِّ شَهرٍ دينارَين حتَّىٰ أتَىٰ علىٰ ذَلكَ سَنتانِ فمَاتَ الطِّفْلُ وجاءَني النَّاسُ يُعَزُّونَني فكُنتُ أُظهِرُ لهم التَّسْليمَ والرِّضَا فجاءَتني بعدَ أيَّام بالدَّنانيرِ فرَدَّتها ودَعَتْ لي ، فقُلتُ : هـٰذا الذَّهَبُ كان صِلَةً للوَلَدِ وقد ورِثْتيه وهو لك[4] .

وكان محمَّدُ بنُ جَرير رُبَّما أهْدَىٰ إليه بَعضُ أصْدِقائِه الشَّيءَ فيَقبَلُه ويُكافِئُه أضْعافاً لِعِظَمِ مَرُوءَتِه[5] .

قالَ يَحْيَىٰ بنُ مَنْدَة : سَمعتُ أبي يَقولُ : أفْطَرنا في رَمَضانَ ليلةً شَديدةَ الحَرِّ فكُنَّا نَأكلُ ونَشربُ وكانَ أخي عبدُ الرحمَـٰن يَأكُلُ ولا يَشرَبُ فخَرَجتُ وقُلتُ : إنَّ من عادَةِ أخي أنَّه يَأكُلُ لَيلَةً ولا يَشرَبُ ، ويَشرَبُ لَيلَةً أُخرَىٰ ولا يَأكُلُ قالَ : فمَا شَربَ تِلكَ اللَّيلَةَ واللَّيلَةَ الآتيَة كانَ يَشرَبُ ولا يَأكُلُ ألبَتَّة فلمَّا كانَ في اللَّيلَة الثالثَة قالَ :

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٦٦ .
(٢) انظر السير : (الإمامُ الشَّافعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٩/ ٨٤٨ .
(٣) انظر السير : (الإمامُ الشَّافعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨٥٣ .
(٤) انظر السير : (أحْمَدُ بنُ مَهْدي) ١٢/ ٥٩٧ـ ٥٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٣٨ .
(٥) انظر السير : (محمَّدُ بنُ جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٥٠ .

يا أخي لا تَلعَبْ بعدَ هـٰذا فإنِّي ما اشْتَهيتُ أنْ أُكذِّبَكَ[1] .

وكان الإمامُ الطُّرْطُوشِيُّ يأتي إلى الفُقَهاء وهم نِيامٌ ، فيَضَعُ في أفْواهِهم الدَّنانيرَ فيَهُبُّونَ فيَرَوْنَها في أفْواهِهِم[2] .

المُوَاسَاة

عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ : كُنَّا نُسَمِّي جَعْفَراً أبا الْمَساكين كانَ يَذهَبُ بنا إلىٰ بَيتِه فإذا لَمْ يَجدْ لنا شَيئا أخْرَجَ إلَينا عُكَّة[3] أثَرُها عَسَل ، فنَشُقُّها ونَلعَقُها[4] .

وقيلَ : كانت لأبي بَرْزَةَ جَفْنَةٌ من ثَريد غُدْوَةً وجَفْنَةٌ عَشيَّة للأرَامِلِ واليَتامَىٰ والْمَساكينِ[5] .

عن عِراكِ بنِ مالِك أنَّ حَكيمَ بنَ حِزام قال : كان مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم أَحَبَّ النَّاسِ إليَّ في الجاهِليَّةِ فلمَّا نُبِّىءَ وهاجَرَ شَهِدَ حَكيمُ المَوْسِمَ كافِراً ، فوَجَدَ حُلَّةً لذِي يَزَن تُباعُ ، فاشْتَراها بخَمسينَ ديناراً لِيُهْدِيَها إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقَدِمَ بها عليه المَدينَةَ ، فأرادَه علىٰ قَبْضِها هَديَّةً ، فأبَىٰ ، قال عبدُ الله حَسِبْتُه قال : « إنَّا لا نَقْبَلُ من المُشْرِكينَ شَيئاً، ولَكِنْ إنْ شِئْتَ بالثَّمَنِ » ، قال : فأعطَيْتُه حينَ أبَىٰ عليَّ الهَديَّة[6] .

وفي رِوايَةِ ابنِ صالِح زِيادَةٌ : « فلَبِسَها ، فرَأيْتُها عليه على المِنْبَرِ ، فلَمْ أَرَ شَيئاً أحْسَنَ منه يَؤمئذٍ فيها ، ثمَّ أعْطاها أُسامَةَ فرآها حَكيمُ علىٰ أُسامَة ، فقال : يا أُسامَة!! أتَلْبَسُ حُلَّةَ ذي يَزَن ؟ قال : نَعَم والله لأنا خَيْرٌ منه ، ولأَبِي خَيْرٌ من أبيه فانْطَلَقْتُ إلىٰ مَكَّةَ فأعْجَبْتُهُم بقَولِه[7] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ مَنْدَه) ١٨/ ٣٤٩ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١٤١٩/ ٤ .
(٢) انظر السير : (الطُّرْطُوشيُّ) ١٩/ ٤٩٠ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ١٥٠٠/ ٣ .
(٣) العُكَّة : ظرف السَّمن .
(٤) انظر السير : (جَعْفَر بن أبي طالب) ١/ ٢٠٦ـ ٢١٧ ، وانظر النزهة : ١٥١/ ٤ .
(٥) انظر السير : (أبو بَرْزَة الأسْلَميّ) ٣/ ٤٠ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٣٢٨/ ٤ .
(٦) انظر السير : (حَكيم بن حِزام) ٣/ ٤٤ـ ٥١ ، وانظر النزهة : ٣٢٩/ ٦ .
(٧) انظر السير : (حَكيم بن حِزام) ٣/ ٤٤ـ ٥١ ، وانظر النزهة : ٣٣٠/ ١ .

وقالَ ابنُ عُيَيْنَة : كانَ سَعيدُ بنُ العَاصِ إذا قَصَدَه سَائلٌ ولَيسَ عندَه شَيءٌ قالَ : اكْتُب عليَّ سجلاً بمَسْألَتِك إلى الْمَيْسَرَة[1] .

وذَكرَ عبدُ الأعْلَىٰ بنُ حَمَّاد : أنَّ سَعيدَ بنَ العَاصِ اسْتَسْقَىٰ من بَيتٍ فسَقَوهُ واتَّفقَ أنَّ صَاحِبَ الْمَنزِلِ أرادَ بَيعَه لدَينٍ عليه فأدَّىٰ عَنه أرْبَعةَ آلافِ دِينارٍ[2] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ جَعْفَرٍ : أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أتاهم بَعدَما أخْبَرَهم بقَتلِ جَعْفَرٍ بعدَ ثالثة ، فقالَ : « لا تَبْكوا أَخِي بَعْدَ الْيَوْمَ » ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ائْتُونِي بِبَنِي أَخِي » ، فجِيءَ بنا كأنَّنا أفْرَاخٌ ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « ادْعُوا لِيَ الْحَلاَّقَ » ، فأمَرَه فحَلقَ رُؤوسَنا ، ثم قالَ صلى الله عليه وسلم : « أَمَّا مُحَمَّدٌ ، فَشبْهُ عَمِّنَا أَبِي طَالِب ، وَأمَّا عَبدُ اللهِ فَشبْهُ خَلْقِي وَخُلُقِي » ، ثم أخَذَ بيَدي ، فأشَالَها ، ثم قالَ صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرَاً فِي أَهْلِهِ ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللهِ فِي صَفْقَتِهِ » قالَ : فجاءَت أُمُّنا ، فذَكرَت يُتْمَنا ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « الْعَيْلَةَ تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا وَلِيُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ »[3] .

عن أبي حَمْزَةَ الثُّماليِّ أنَّ عليَّ بنَ الحُسَين كانَ يَحملُ الخُبزَ باللَّيلِ علىٰ ظَهرِه يتَّبعُ به الْمَساكينَ في الظُّلمَة ويَقولُ : إنَّ الصَّدَقَة في سَوادِ اللَّيلِ تُطفِىءُ غَضبَ الرَّبِّ[4] .

وعن محمَّدِ بنِ إسْحاقَ : كانَ ناسٌ من أهْلِ الْمَدينَة يَعيشُونَ لا يَدرُونَ من أيْنَ كانَ مَعاشُهُم فلمَّا مَاتَ عَليُّ بنُ الحُسَينِ فقَدوا ذلكَ الذي كانوا يُؤتَوْنَ باللَّيلِ[5] .

وعن عَمرو بنِ ثابِت : لَمَّا مَاتَ عَليُّ بنُ الحُسَين وَجَدوا بظَهرِه أثَراً مِمَّا كانَ يَنقُلُ الجُرْبَ باللَّيلِ إلىٰ مَنازِلِ الأرَامِلِ[6] .

---

(١) انظر السير : (سَعيدُ بنُ العَاص) ٣/ ٤٤٤ـ ٤٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٠٦ .
(٢) انظر السير : (سَعيدُ بنُ العَاص) ٣/ ٤٤٤ـ ٤٤٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٠٦ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بن جَعْفَر) ٣/ ٤٥٦ـ ٤٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٠٧ .
(٤) انظر السير : (عَليُّ بنُ الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥١٨ .
(٥) انظر السير : (عَليُّ بنُ الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥١٨ .
(٦) انظر السير : (عَليُّ بنُ الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥١٨ .

وقالَ شَيْبَةُ بنُ نعامَة : لَمَّا مَاتَ عَليُّ بنُ الحُسَين وَجَدوه يَعولُ مئةَ أهْلِ بَيتٍ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لِهَـٰذا كان يُبَخَّلُ فإنَّه يُنفِقُ سِرَّاً ويَظُنُّ أهْلهُ أنَّه يَجمَعُ الدَّراهِمَ[1] .

عن عَمرو بنِ دِينار قالَ : دَخلَ عَليُّ بنُ الحُسَين عَلىٰ مُحمَّدِ بنِ أُسامَة بنِ زَيْد في مَرَضِه فجَعلَ مُحمَّدٌ يَبكي فقالَ : ما شَأنُك ؟ قالَ : عَليَّ دَينٌ قالَ : وكَمْ هو ؟ قالَ : بِضْعَةَ عَشرَ ألفِ دِينارٍ قالَ : فهِيَ عليَّ[2] .

عن بَكرِ بنِ عبدِ الله قالَ : إنِّي لأرْجُو أنْ أعيشَ عَيشَ الأغْنياءِ وأمُوتَ مَوْتَ الفُقَراء فكانَ رَحمَهُ اللهُ كذَلك يَلبَسُ كِسْوَتَه ، ثم يَجيءُ إلى الْمَساكين فيَجلِسُ مَعهم يُحدِّثُهم ويَقولُ : لَعلَّهم يَفرَحون بذلك[3] .

وكان لزَيْدِ بنِ أسْلَم حَلقَةٌ لِلعِلمِ في مَسجِدِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قالَ أبو الأعْرَج : لقد رَأيتُنا في مَجلِسِ زَيدِ بنِ أسْلَم أرْبَعينَ فَقيهاً أدْنَىٰ خَصلةٍ فينا التَّوَاسي بما في أيْدينا وما رَأيتُ في مَجلِسِه مُمَارِيَيْنِ ولا مُتَنَازِعَيْن في حَديثٍ لا يَنفَعُنا[4] .

وقالَ عبَّاسُ الدُّوري : كانَ أبو حَمْزَة السُّكري من الثِّقاتِ ، وكانَ إذا مَرِضَ عندَه مَنْ قد رَحَلَ إليه ، يَنظُرُ إلىٰ ما يَحتاجُ إليه من الكِفايَة فيَأمُرُ بالقِيامِ به ، ولَمْ يَكنْ يَبيعُ السُّكرَ ، وإنَّما سُمِّيَ السُّكريَّ لِحَلاوَةِ كَلامِه[5] .

وعن محمَّدِ بنِ عَليِّ بنِ الحَسَنِ بنِ شَقيق قالَ : أرادَ جارٌ لأبي حَمْزَة السُّكريّ أنْ يَبيعَ دَارَه فقيلَ له : بكَمْ ؟ قالَ : بألْفَينِ ثَمن الدَّار وبألْفَين جِوار أبي حَمْزَة ، فبَلغَ ذلك أبا حَمْزَة فوَجَّه إليه بأرْبَعة آلافٍ وقالَ : لا تَبِعْ دارَك[6] .

---

(١) انظر السيَر : (عَليُّ بنُ الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ١/ ٥١٩ .
(٢) انظر السير : (عَليُّ بنُ الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥١٩ .
(٣) انظر السير : (بَكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٥٠ .
(٤) انظر السير : (زَيْد بن أسْلَم) ٥/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٠٥ .
(٥) انظر السير : (أبو حَمْزَة السُّريّ) ٧/ ٣٨٥ـ ٣٨٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٠٦ .
(٦) انظر السير : (أبو حَمْزَة السُّريّ) ٧/ ٣٨٥ـ ٣٨٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٠٦ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القاضي أبي يُوسُف : وكانَ أبُوه فَقيراً له حانُوتٌ ضَعيفٌ ، فكانَ أبو حَنيفَة يَتعَاهَدُ أبا يُوسُفَ بالدَّراهِمَ مئةً بعدَ مئة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ بَقيِّ بنِ مَخْلَد : قد مَشَىٰ مع ضَعيف في مَظْلمَة إلىٰ إشْبِيلِيَة ، ومَشَىٰ مع آخَر إلىٰ إلْبيْرةَ ، ومع امْرأةٍ ضَعيفة إلىٰ جَيَّان[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القَاضي الخَيَّاط : عُرف بالخيَّاط لأنَّه كانَ يَخيطُ على الأيْتَامِ والْمَساكينِ حِسْبَةً[3] .

وقالَ الحاكِمُ : سَمعتُ أبي يَقولُ : كانَ القاضي محَمُد بنُ عَليّ الْمَروزي طُولَ أيَّامِه يَسكُنُ دارَ ابنَ حَمْدونَ بحِذاءِ دَارِنا ، وكُنتُ أعْرِفُه يَخيطُ باللَّيلِ وإذا تَفرَّغَ بالنَّهارِ للأيْتَامِ والضُّعَفاءِ ، ويَعُدُّها صَدَقَة[4] .

وقال أحمدُ بنُ الحُسَين الوَاعِظُ : أَوْدَعَ أبو عبد الله بنُ أبي مُوسَى الهاشِميُّ عَشرةَ آلافِ دينارٍ ليتيم ، فضاقَت يَدُه فأنْفَقَها وكَبُرَ الصَّبيُّ ، وأُذنَ له في قَبضِ مالِه ، قال ابنُ أبي موسىٰ : فضاقَت عليَّ الأرضُ ، وتَحيَّرتُ ، فبَكرتُ علىٰ بَغْلَتي ، وقَصدتُ الكَرْخَ فانتَهتْ بي البَغْلةُ إلىٰ دَرْبِ السلولي ووَقفَتْ بي علىٰ بابِ مَسجِدِ دَعْلَج ، فدَخلتُ فصَلَّيتُ خلفَه الفَجرَ ، فلمَّا انْفتَلَ رَحَّبَ بي ، وقُمنا فدَخلنا دَارَه ، فقُدِّمَت لنا هَريسَةٌ ، فأكَلتُ وقَصَّرتُ ، فقالَ : أراكَ مُنقَبضاً ، فأخْبَرتُه ، فقالَ : كُلْ فإنَّ حاجَتَك تُقْضَىٰ ، فلمَّا فَرَغْنا ، اسْتَدعَىٰ بالذَّهَبِ والمِيزانِ ، فوَزَنَ لي عَشرةَ آلافِ دينارٍ وقُمتُ أطيرُ فَرحاً ، ثم سَلَّمتُ المالَ إلى الصَّبيِّ بحَضرةِ قاضي القُضاة ، وعَظُمَ الثَّناءُ عليَّ ، فلمَّا عُدتُ إلىٰ مَنزِلي اسْتدعاني أميرٌ من أولادِ الخَليفَة فقال : قد رَغبتُ في مُعامَلَتِك وتَضْمينِك أمْلاكي ، فضَمنْتُها فرَبحتُ في سَنَتي رِبحاً عَظيماً وكَسبتُ في ثلاث سنين ثلاثينَ ألفَ دينار ، وحَملتُ لدَعْلَج المالَ ، فقالَ : سُبحانَ الله ، والله ما نَوَيتُ

---

(١) انظر السير : (القاضي أبو يُوسُف) ٨/ ٥٣٥ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٨٨ .
(٢) انظر السير : (بَقيُّ بنُ مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٨٧ .
(٣) انظر السير : (القاضي الخَيَّاط) ١٤/ ٥٦٤ـ ٥٦٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٧٣ .
(٤) انظر السير : (القاضي الخَيَّاط) ١٤/ ٥٦٤ـ ٥٦٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٧٤ .

أخْذَها ، حَلِّ بها الصِّبْيانَ ، فقلتُ : أيُّها الشَّيخُ ، أيشْ أصْلُ هـٰذا المال حتىٰ تَهبَ لي عشرةَ آلافِ دينار ؟ فقال : نَشأتُ ، وحَفظتُ القُرآنَ ، وطَلبتُ الحَديثَ ، وكُنتُ أتَبزَّزُ ، فوافاني تاجرٌ من البَحْرِ فقال : أنْتَ دَعْلَج ؟ قلتُ : نَعَم قال : قد رَغبتُ في تَسليمِ مالي إليك مُضارَبةً ، فسلَّمَ إليَّ برنامجات بألفِ درهم ، وقال لي : ابْسُطْ يَدكَ فيه ولا تَعلمْ مَكاناً يُنفَقُ فيه المَتاعُ إلاَّ حَملْتَه ، ولمْ يَزلْ يَتردَّدُ إليَّ سَنةً بعدَ سَنةٍ يَحملُ إليَّ مثلَ هـٰذا والبضاعَةُ تَنمَىٰ ثم قال : أنا كثيرُ الأسْفارِ في البَحرِ ، فإنْ هَلكتُ فهـٰذا المالُ لكَ علىٰ أنْ تَصدَّقَ منه ، وتَبني المَساجدَ ، فأنا أفعلُ مثل هـٰذا ، وقد ثمَّرَ اللهُ تعالى المالَ في يَدي ، فاكْتُم عليَّ ما عِشتُ .

قال الحاكمُ : كان السُّلطانُ لا يَتعرَّضُ لتَركَةٍ ، ثم لمْ يَصْبرْ عن أموالِ دَعْلَج ، وقيلَ : لمْ يكنْ في الدُّنيا أيْسَرُ منه من التُّجَّار ، وتَركوا أوْقافَه ، رَحمَه الله .

ماتَ سنةَ إحْدَىٰ وخَمسينَ وثلاثِ ومئة[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ أبي ذُهل ، قالَ الحاكمُ : صَحبتهُ حَضَراً وسَفَراً فما رأيتُ أحسنَ وُضوءاً ولا صَلاةً منه ولا رَأيتُ في مَشايخنا أحْسَنَ تَضرُّعاً وابْتِهالاً منه قيلَ لي : إنَّ عُشرَ غَلَّته تَبلغُ ألفَ حِمْل وحدَّثني أبو أحمَدَ الكاتبُ أنَّ النُّسخَةَ بأسَامي مَنْ يَمونُهم تَزيدُ علىٰ خَمسَةِ آلافِ بَيتٍ وقد عُرضَت عليه وِلاياتٌ جَليلَةٌ فأبَىٰ .

قالَ الخَطيبُ : كانَ ثقةً نَبيلاً من ذَوي الأقْدارِ العاليَة ، سَمعتُ البرقانيَّ يَقولُ : كانَ مَلكُ هَرَاةَ من تَحتِ أمْرِه لقَدْرِه وأبُوَّته .

اسْتُشهِدَ ابنُ أبي ذُهل سَنةَ ثَمانٍ وسَبعينَ وثَلاثِ مئة[2] .

وقيلَ : كانَ الرِّفاعيُّ شَافِعياً يَعرفُ الفِقْهَ ، وقيلَ : كانَ يَجمَعُ الحَطبَ ويَجيءُ به إلىٰ بُيُوتِ الأرَامِلِ ويَمْلأ لهم بالجَرَّة[3] .

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ١٢٦٦/ ٤ .

(٢) انظر السير : (ابنُ أبي ذُهل) ١٦/ ٣٨٠ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٩/ ٤ .

(٣) انظر السير : (الرِّفاعِيُّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ١٦٠١/ ٤ .

الوَفَاء

١ـ كلمَةٌ في الوَفَاء :

عن الأحْنَفِ بنِ قَيْس قالَ : رَأسُ الأدَبِ آلَةُ الْمَنْطِقِ ، لا خَيرَ في قَولٍ بلا فِعلٍ ، ولا في مَنظَرٍ بلا مَخْبَر ، ولا في مَالٍ بلا جُودٍ ، ولا في صَديقٍ بلا وَفاءٍ ، ولا في فِقْهٍ بلا وَرَعٍ ، ولا في صَدَقةٍ إلا بنيَّة ، ولا في حَياةٍ إلاَّ بصِحَّةٍ وأمْنٍ[١] .

٢ـ صُوَرَةٌ على الوَفَاء :

قالَ السَّمْعانيُّ : كانَ عَطاءُ بنُ أبي سَعْد مِمَّنْ يُضرَبُ به الْمَثَلُ في إرادَةِ شَيخِ الإسْلامِ[٢] والجدِّ في خِدمَتِه ، وله حِكاياتٌ ومَقاماتٌ في خرُوجِ شَيخِه إلىٰ بَلْخ في الْمِحْنَة وجَرَىٰ بينَه وبينَ الوَزيرِ نِظامِ الْمُلكِ مُحاوَرَةٌ ومُرادَدَةٌ واحْتمَلَ له النِّظامُ[٣] .

قالَ : وسَمعتُ أنَّ عَطاءً قُدِّمَ للخَشَبَة ليُصلَب فنَجَّاهُ اللهُ لحُسنِ نِيَّته فلمَّا أُطلِقَ عادَ إلى التَّظلُّمِ ، وما فَترَ ، وخَرجَ مع النِّظامِ مَاشياً إلى الرُّومِ ، فمَا رَكبَ ، وكانَ يَخوضُ الأنْهارَ مع الخَيْلِ ويَقولُ : شَيْخي في الْمِحْنَة ، فلا أسْتَريحُ ، قالَ لي ابنُه مُحمَّدٌ عَنه قالَ : كنتُ أعْدو في مَوْكبِ النِّظامِ ، فوَقَعَ نَعْلي فمَا الْتَفتُّ ورَمَيتُ الأُخْرَىٰ فأمْسَكَ النِّظامُ الدَّابَّةَ وقالَ : أينَ نَعْلاكَ ؟ فقُلتُ وَقعَ أحَدُهما فخَشيتُ أنْ تَسبِقَني إنْ وَقَفتُ قالَ : فلِمَ رَمَيتَ الأُخْرَى ؟ فقُلتُ : لأنَّ شَيخي أخْبَرَنا أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم نَهَىٰ أنْ يَمْشيَ الرجُلُ في نَعْلٍ واحدٍ ، فمَا أرَدتُ أنْ أُخالِفَ السُّنَّة فأعْجَبَه وقالَ : أكْتبُ إنْ شَاءَ اللهُ حتَّىٰ يَرجِعَ شَيخُك إلىٰ هَرَاةَ ، وقالَ لي ارْكبْ بَعضَ الجَنائبِ ، فأبَيتُ ، وعَرضَ عليَّ مالاً ، فأبَيتُ[٤] .

---

(١) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/٨٦ـ٩٧ ، وانظر النزهة : ٧/٤٥٢ .

(٢) يعني : أبا إسماعيل الأنصاري .

(٣) انظر السير : (عَطاءُ بنُ أبي سَعْد) ٢٠/٥٤ـ٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٠ .

(٤) انظر السير : (عَطاءُ بنُ أبي سَعْد) ٢٠/٥٤ـ٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٠ .

٣ـ وَفَاءُ واحِدٍ من الكفَّار :

قال اليسعُ بنُ حَزْم : حدَّثني عنه أبو القاسم هِلالٌ أحَدُ وُجُوه العَرب قالَ : كان بَيني وبَينَ الْمُرابِطينَ أمر أَلْجَأني إلى الوُفودِ على ابنِ رُذْمير[1] ، فرحَّب بي ، وأمَرَ لي براتبٍ كَبير فحَضرتُ معه حَرْباً طُعِنَ عنه حِصانُه ، فوقَفتُ عليه ذابّاً عن حَوْزَتِه فلمَّا انْصَرفنا إلىٰ رشْقَة أمرَ الصَّوَّاغينَ بعَملِ كأسٍ من ذَهَبٍ رَصَّعَه بالدُّرِّ ، وكتبَ عليه : « لا يَشْربُ منْه إلاَّ مَنْ وَقَفَ علىٰ سُلْطانِه » فحضَرتُ يوماً فأخْرَجَ الكأسَ ، وملأه شَراباً ، وناوَلَني بحضْرَة ألفِ فارِس ، ورَأيتُ أعْناقَهم قد اسْوَدَّت من صَدأ الدُّروعِ قال : فنادَيتُ ، وقُلتُ : غَيري أَحَقُّ به ، فقالَ : لا يَشْرَبُ هـٰذا إلاَّ مَنْ عَملَ عَمَلَكَ وكان هِلالٌ هـٰذا من قَريَة هِلالِ بنِ عامِر ، تابَ بعدُ وغَزا مَعَنا ، فكانَ إذا حَضرَ في الصَّفِّ جَبَلاً راسياً يَمْنَعُ تَهائمَ الجُيوشِ أنْ تَميدَ ، وقَلْباً في البَسَالَة قَاسياً ، يَقولُ في مُقارَعَةِ الأبْطَالِ : هَلْ مِنْ مَزيد ؟ أبْصَرتُه ـ رَحمَهُ اللهُ ـ أُمَّةً وَحْدَه ، يَتحامَاهُ الفَوارِسُ[2] .

فحدَّثني هِلالٌ عن ابنِ رُذْمير وإنْصَافِه قالَ : كنتُ معه بظاهر رُوْطَة وقد وجَّه إليه عِمادُ الدولة وَزيرَه أبا محمَّد عبدِ الله بن هَمُشْك الأميرَ رَسولاً ، فطَلبَ فارسٌ من ابنِ رُذْمير أنْ يُمكَّنَ من مُبارَزَة ابنِ هَمُشْك ، فقالَ : لا ، هو عِنْدنا ضَيفٌ ، فسَمعَ بذلك ابنُ هَمُشْك ، وأمْضَى ابنُ رُذْمير حاجَتَه ، وصَرفَه فقالَ : لا بد لي من مُبارَزَة هـٰذا فأمَرَ الملكُ ذاكَ الفارِسَ بالمُبارَزَة وقالَ : هـٰذا أشْجَعُ الرُّوم في زَمانِه ، فانْصَرفَ عبدُ الله يُريدُ رُوْطَة وخَرجَ وَراءَه الرُّوميُّ شاكّاً في سِلاحِه ، وما مع ابنِ هَمُشْك دِرْعٌ ولا بَيْضَةٌ فأخَذَ رُمْحَه وطارِقَتَه من غُلامِه ، وقَصَدَ الرُّوميَّ ، فحَملَ كلٌّ منهما على الآخَرِ حَمَلاتٍ ، ثم ضَربَه ابنُ هَمُشْك في الطَّارِقَة فأعانَه اللهُ فانْقَطَعَ حِزامُ الفارِسِ ، فوَقعَ بسَرْجِه إلى الأرض ، فطَعنَه ابنُ هَمُشْك فقَتلَه والمَلِكُ يُشاهِدُه علىٰ بُعْد ، فهَمَّت الرُّومُ بالحَمْلَة على ابنِ هَمُشْك فمَنعَهم المَلكُ ، ونزَلَ غُلامُ ابنِ هَمُشْك ، فجرَّدَ الفارِسَ ،

---

(١) هو ابنُ رُذمير اللعين ، صاحب مملكة أرَغونة من شرق الأندلس ، كان قسّيساً مُجرّباً داهية مُترَهِّباً ، قوي علىٰ بلاد ابن هود وطواها .

(٢) انظر السير : (عماد الدولة بن هود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٢٤ .

وسَلبَه ، وأخَذَ فَرسَه ، وذَهبَ لم يَلتفِتْ إلىٰ ناحِيَتِنا فما أدْري مِمَّ أعْجَبُ ، من إنْصافِ المَلِك ، أو من ابنِ هَمُشْك كيفَ مَضَىٰ ولمْ يُعَرِّجْ إلينا ؟! .

وأقام ابنُ رُذْمير محاصراً سَرَقُسْطَة زماناً ، وأخذ كثيراً من حُصُونِها فلمَّا رَأىٰ أبو عبدُ الله محمدُ بنُ غَلْبُون القائدُ ما حَلَّ بتلك البلادِ من الرُّوم ، ثارَ بدورقة وقَلعَة أيُّوب ومدينَة ، وجَمعَ وحَشدَ ، وكافَحَ ابنَ رُذْميرَ واسْتولَىٰ أبو بكر بنُ تيفلوت علىٰ سَرَقُسْطَة ، وأقامَ بقَصرها في لذَّاتِه ، وأمَّا ابنُ غَلْبُون ، فأحْسَنَ السِّيرَة ، وعَدلَ ، وجاهَدَ ورُزِقَ الجُنْدَ ، رأيتُه رَجلاً طُوالاً جداً ، واجتمعتُ به ، أقامَ مُثاغراً لابن رُذْمير شجىً في حَلْقه ، الْتَقَىٰ مرَّة في ألفِ فارسٍ لابنِ رُذْمير ، والآخَرُ في ألفٍ ، فاشْتدَّ بينهما القِتالُ ، وطالَ ، ثم حَملَ ابنُ غَلْبُون على ابنِ رُذْمير ، فصَرعَه عن حِصانِه ، فدَفَعَ عنه أصْحابُه فسَلِمَ ، ثم انْهَزَموا ، ونَجا اللَّعينُ في نَحْو المئتَين فقط ، وأمَّا ابنُ تيفلوت فإنَّه راسَلَ ابنَ غَلْبُونَ ، وخَدعَه ، حتىٰ حَسَّنَ له زيارة أمير المسلمين عليٍّ ابنِ يوسُف ، فاسْتَخلَفَ علىٰ بلادِه وَلدَه أبا الْمُطرف ، وكان من الأبْطالِ المَوْصُوفين أيضاً ، فقَدمَ محمدُ مَرَّاكش ، فأُمْسِكَ ، وأُلْزِمَ بأنْ يُخاطِبَ بَنيهِ في إخْلاء بلادِه للمُرابطين ، فأخْلَوها طاعَةً لأبيهم ، وتَرحَّلوا إلىٰ غَربِ الأنْدَلُس ، ففَرِحَ بذلك ابنُ رُذْمير وحَصَرَ سَرَقُسْطَة ، وصَنعَ عليها بُرْجَين عَظيمَين من خَشَب ، وإنَّ أهلَها لَمَّا يَئِسُوا من الغِياثِ ، خَرجوا وأحْرَقوا البُرْجَين ، واقْتَتلوا أشَدَّ قِتالٍ ، وكَتبوا إلى ابنِ تاشِفين يَسْتَصْرِخُون به ، وماتَ ابنُ تيفلوت ، وذلكَ في سنة إحْدَىٰ عَشرَة وخَمس مئة ، فأنْجَدَهم بأخِيه تَميمِ ابنِ يوسُف ، فقَدمَ في جَيشٍ كَبير ، وعَنَّى ابنُ رُذْمير جُيوشَه ، ففَرِحَ أهْلُ سَرَقُسْطَة بتَميم ، فكانَ عليهم لا لَهُم .

جاء مُواجِهَ المدينة ، ثم نَكَّبَ عنها ، وكان طائفَةٌ من خَيلِها ورَجلِها قد تلَقَّوه ، فحَملَ عليهم حَمْلَةً قَتلَ منهم جَماعَةً كَثيرة ، ثم نَكبَ عن لقاءِ العَدوِّ ، وانْصَرفَ إلىٰ جهاتِ المورالة ، واشْتدَّ البَلاءُ على البَلدِ ثم سَلَّموهُ بالأمَان ، علىٰ أنَّ مَنْ شَاءَ أقَامَ به[1] .

---

(١) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٥ .

وكان ابنُ رُذمير مَعروفاً بالوفاء ، حدَّثَني مَنْ أثقُ به أنَّ رجلاً كانت له بنتٌ من أجْمل النساء ففقَدَها ، فأُخْبِرَ أنَّ كَبيراً من رؤوس الرُّوم خَرجَ بها إلىٰ سَرَقُسْطَة ، فتَبعَه أبَواها وأقاربُها ، فشَكَوه إلى ابنِ رُذْمير ، فأحضرَه ، وقال : عليَّ بالنار ، كيف تَفعَلُ هـٰذا بمَنْ هو في جِواري ؟ فقالَ الرُّوميُّ : لا تَعْجَل عليَّ ، فإنَّها فَرَّت إلىٰ ديننا ، فجيء بها ، فأنكَرَت أبَوَيْها ، وارتَدَّت ولمّا دخلَ سَرَقُسْطَة ، أقرَّهم على الصلاة في جامِعِها سبعةَ أعوام ، وبعد ذلك يعمل ما يَرىٰ ، وحاصَر قُتُنْدَة[1] بعد سَرَقُسْطَة سَنتَين ، فلمّا كان في آخر سنة أربع عشرة ، قصَدَه عبد الله ابنُ حيونة في جَيشٍ فيهم قاضي المَريّة ، أبو عبد الله بنُ الفراء ، وأبو علي ابنُ سُكَّرة ، فبرزَ لهمُ اللَّعينُ ، فقَتلَ خَلْقاً ، وأُسرَ آخرون ، واستُشْهدَ المَذْكوران ، فبنىٰ عليهم ابنُ رُذْمير قُبوراً ، ثم سُلِّمَ البلدُ إليه ، وأخذَ في تلك المدة دورقة ، وقلعة أيُّوب ، وطَرَسُونة ، وأكثر من مئتي مسَوَّر ، ولم يَبْقَ أكثرُ من ثلاثة مدائن لم يأخذها ، وبقي من أعمال بَني هود لاردَة وإفراغة ، وطُرْطُوشَة ، وغير ذلك معاملة عشرة أيام لم يَظْفَر اللَّعينُ بها ، فقام بلاردة الهُمامُ البَطَلُ أبو محمد ، وقام بإفراغة الزاهدُ المُجاهدُ محمد مَردنيش الجُذامي جَدُّ الأمير محمد بن سَعْد[2] .

٤ـ صُوَرٌ مِنْ الوَفَاء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي جَنْدَل بنِ سُهَيل بنِ عَمْرو العَامِريِّ القُرَشِيِّ : كانَ من خِيارِ الصَّحابَة ، وقد أسْلمَ وحَبَسَه أبوهُ وقَيَّدَه ، فلمَّا كانَ يَومَ صُلحِ الحُدَيْبِيَة ، هَربَ يَحْجِلُ في قُيودِه ، وأبُوهُ حاضِرٌ بينَ يَدَي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، لِكِتابِ الصُّلحِ فقالَ : هـٰذا أوَّلُ مَنْ أُقاضيكَ عليه يا مُحمَّدُ فقالَ : هَبهُ لي فأبَىٰ فرَدَّه وهو يَصيحُ ويَقولُ : يا مُسلِمُونَ! أُرَدُّ إلى الكُفْر ؟ ثم إنَّه هَربَ وله قِصَّةٌ مَشْهورَةٌ مَذكُورَةٌ في الصَّحيحِ ، ثم خَلُصَ وهاجَرَ ، وجاهَدَ ، ثم انْتقَلَ إلىٰ جِهَادِ الشَّامِ ، فتُوفِّيَ

---

(١) وهي ثَغر سَرَقُسْطَة من قُرىٰ مرسية .

(٢) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٦ .

شَهيداً في طاعُونِ عَمَواس بالأُردُن سَنةَ ثَماني عَشرَة[1] .

وقال الْمِسْوَرُ بنُ مَخْرَمَة : أثنى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ أبي العَاصِ بنِ الرَّبيع في مُصَاهَرتِه خَيراً ، وقالَ : « حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي ، وَوَعَدَنِي ، فَوَفَّىَ لِي » وكانَ قد وَعدَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، أنْ يَرْجِعَ إلىٰ مَكة ، بعدَ وَقعَة بَدْر ، فيَبعَث إليه بزَيْنَبَ ابنَتِه ، فوَفَّىٰ بوَعدِه ، وفارَقَها مع شِدَّة حُبِّه لها ، وكانَ من تُجَّارِ قُرَيش وأُمَنَائِهم ، وما عَلمتُ له رِوَايَة .

وَلَمَّا هاجَرَ ، رَدَّ عليه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، زَوجتَه زَيْنَبَ بعدَ سِتَّةِ أعْوَام على النِّكَاحِ الأوَّل ، وقد كانَت زَوجتُه لَمَّا أُسِرَ نَوبَة بَدْر ، بَعثَتْ قلادَتَها لِتفُكَّه بها ، فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لِهَـٰذِهِ أَسِيرَهَا » فبادَرَ الصَّحابَةُ إلىٰ ذلك[2] .

وعن عائشَةَ : دَخَلت امرأةٌ سَوْداءُ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأقْبلَ عَليها قالَت : فقُلتُ : يا رَسُولَ الله ، أقْبَلتَ علىٰ هَـٰذه السَّوْداء هَـٰذا الإقْبَالَ فقالَ : « إنَّهَا كانَتْ تَدْخُلُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنْ الإيمَانِ »[3] .

وقالَ حُذَيْفَةُ بنُ اليَمَان : ما مَنَعَني أنْ أشْهَدَ بَدْراً إلاَّ أنِّي خَرجتُ أنا وأبي ، فأخَذَنا كُفَّارُ قُرَيش ، فقالوا : إنَّكم تُريدُونَ مُحمَّداً! فقُلنا : ما نُريدُ إلاَّ الْمَدينَة ، فأخَذوا العَهدَ عَلينا : لنَصْرِفَنَّ إلى المدينة ولا نُقاتِلُ معه فأخْبَرْنا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالَ صلى الله عليه وسلم : « نَفِي بِعَهْدِهِم ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِم »[4] .

وعن حَبيبِ بنِ أبي ثابِت : أنَّ أبا أيُّوبَ الأنْصَاريَّ قَدِمَ على ابنِ عبَّاس البَصْرَةَ ، ففَرَّغَ له بيتَه ، وقالَ : لأصْنَعَنَّ بكَ كمَا صَنعْتَ برَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، كَمْ عَليكَ ؟ قالَ : عِشْرُونَ ألْفاً فأعْطَاهُ أرْبَعينَ ألْفاً ، وعِشْرينَ مَمْلوكاً ، ومَتاعَ البَيتِ .

---

(١) انظر السير : (أبو جَنْدَل) ١/ ١٩٢ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٦ .
(٢) انظر السير : (أبو العَاص بن الرَّبيع) ١/ ٣٣٠ـ ٣٣٤ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٧٢ .
(٣) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٣٩ .
(٤) انظر السير : (حُذَيْفَةُ بنُ اليَمَان) ٢/ ٢٦١ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٧٥ .

ماتَ أبو أيُّوب سَنةَ اثنَتينِ وخَمْسينَ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمَهْريِّ : وقد جالَ ابنُ عَمَّار في الأنْدَلُسِ أولاً ، ومَدَحَ الْمُلوكَ الكِبارَ والسُّوقَةَ بحيث إنَّه مَدَحَ فَلاَّحاً أعْطَاهُ مِخْلاةَ شَعيرٍ لِحِمَارِه ، ثم آلَ بابنِ عَمَّار الحَالُ إلى الإمْرَة ، فمَلأ للفَلاَّحِ مِخْلاتَه دَرَاهِم ، وقالَ : لَوْ مَلأها بُراً لَمَلأناها تِبْراً .

وقد سَجنَه الْمُعْتَمدُ مدَّة ، وتَوسَّلَ إليه بقَصَائدَ[2] تُلَيِّنُ الصَّخْرَ ، فقَتلَه في سَنةِ تِسْعٍ وسَبعينَ وأرْبَع مئة[3] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو أيُّوب الأنْصاري) ٢/ ٤٠٢ـ ٤١٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٨٣ .

(٢) انظر هٰذه القَصائدَ في (الذَّخيرَة) ، ٢/ ١/ ٤١٩ ، وما بعدها .

(٣) انظر السير : (الْمَهْري) ١٨/ ٥٨٢ـ ٥٨٤ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٤٤ .

من صِفَاتِ المُؤمنين
الإنْصَاف

١ـ البَشَرُ مَجْبولونَ علىٰ عَدَم الإنْصَافِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ الله :

قالَ داودُ بنُ يَزيد ، سَمعتُ الشَّعْبيَّ يَقولُ : والله لَوْ أصَبتُ تِسعاً وتِسعينَ مَرَّة ، وأخْطأتُ مَرَّة لأعدُّوا عليَّ تلكَ الوَاحِدَة[1] .

٢ـ قال الذهبيُّ : صِرْنا في وَقْتٍ لا يَقدِرُ الشَّخصُ على النُّطْقِ بالإنْصافِ نَسألُ اللهَ السَّلامَة

قالَ ابنُ عبد الحَكَم : سَمعتُ الشَّافِعيَّ يَقولُ : قالَ لي مُحمَّدٌ : أيُّهما أعْلمُ صاحِبُنا أمْ صاحِبُكم ؟ يَعْني أبا حَنيفَة ومالِكاً ، قُلتُ : على الإنْصاف ؟ قالَ نَعَم قُلتُ : أنشُدُكَ اللهَ ، مَنْ أعْلَمُ بالقُرآنِ ؟ قالَ : صاحِبُكم قُلتُ : مَنْ أعْلمُ بالسُّنَّة ؟ قالَ : صاحِبُكم قُلتُ : فمَنْ أعْلمُ بأقاويلِ الصَّحابَة والْمُتقدِّمينَ ؟ قالَ : صاحِبُكم قُلتُ : فلَمْ يَبقَ إلاَّ القِياسُ ، والقياسُ لا يَكونُ إلاَّ علىٰ هٰذه الأشْياءَ ، فمَنْ لَمْ يَعرفْ الأُصُولَ ، علىٰ أيِّ شَيءٍ يَقيسُ ؟[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : وعلى الإنْصافِ ، لو قالَ قائلٌ : بل هما سواءٌ في عِلمِ الكتاب ، والأوَّلُ ، أعْلمُ بالقِيَاسِ ، والثاني : أعْلمُ بالسُّنَّة ، وعندَه عِلمٌ جَمٌّ من أقْوَال كَثيرٍ من الصَّحابَة ، كما أنَّ الأوَّلَ أعْلمُ بأقَاويلِ عَليٍّ ، وابنِ مَسْعود وطائفةٍ مِمَّن كان بالكُوفَة من أصْحابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فرَضِيَ الله عن الإمَامَين ، فقد صِرْنا في وَقتٍ لا يَقدِرُ الشَّخصُ على النُّطقِ بالإنْصَافِ نَسألُ اللهَ السَّلامَة .

كان خاتَمُ مالِك ، الذي ماتَ وهو في يَدِه ، فصُّه أسْودُ حجَريّ ، ونَقْشُه :

---

(١) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٠٤ .

(٢) انظر السير : (مالِكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٣٦ .

حَسْبيَ اللهُ ونِعْمَ الْوَكيلُ وكانَ يَلبَسُه في يَسارِه ، ورُبَّما لَبسَه في يَمينِه[1] .

٣ـ تَصْريحُ الذهبيِّ أنَّ بعضَ المُحدِّثين يَتنَطَّع في الحُكم على الأشْخَاص :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عليِّ بنِ الجَعْد : قد كانَ طَائفَةٌ من الْمُحدِّثينَ يَتنطَّعونَ فيمَنْ له هَفوَةٌ صَغيرَةٌ تُخالِفُ السُّنَّة ، وإلاَّ فعليٌّ إمامٌ كبيرٌ حُجَّةٌ ، يُقالُ : مَكثَ سِتِّينَ سَنةً يَصومُ يَوماً ، ويُفطِرُ يَوماً ، وبحَسْبِكَ أنَّ ابنَ عَدي يَقولُ في « كامِلِه » لَمْ أرَ في رِواياتِه حَديثاً مُنْكَراً إذا حدَّث عنه ثِقَة .

تُوفِّيَ عَليُّ بنُ الجَعْد سَنةَ ثَلاث ومئتين ، وقد اسْتَكمَلَ سِتّاً وتِسْعينَ سَنةً[2] .

٤ـ وُجُوب التَّخلُّص ممَّا في كتب التَّاريخ وغَيرِها من القَدْح في العُلَماء بالهَوَىٰ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ الشَّافِعيّ : كلامُ الأقْرانِ إذا تَبرهَنَ لنا أنَّه بهَوَىٰ وعَصبيَّة ، لا يُلتفَتُ إليه ، بل يُطوَىٰ ولا يُروَىٰ ، كما تَقرَّر الكَفُّ عن الكثير مِمَّا شَجرَ بين الصَّحابَة وقِتالِهم رَضيَ اللهُ عنهم أجْمَعين ، وما زالَ يَمرُّ بنا ذلك في الدَّواوين والكُتبِ والأجْزاء ، ولكنَّ أكثرَ ذلكَ مُنقَطعٌ وضَعيفٌ ، وبَعضُه كَذبٌ ، وهٰذا فيما بأيْدينا وبينَ عُلمائِنا فيَنبَغي طيُّه وإخفاؤُه ، بلْ إعْدامُه لتَصْفُو القُلوبُ وتَتوفَّر علىٰ حُبِّ الصَّحابَة ، والتَّرضِّي عنهم ، وكِتْمانُ ذلك مُتعيِّنٌ عن العامَّة وآحادِ العُلماءِ ، وقد يُرَخَّصُ في مُطالَعَة ذلك خلوَةً للعَالِمِ الْمُنصِفِ العَريِّ من الهَوَىٰ ، بشَرطِ أنْ يَستَغفِرَ لَهُم ، كمَا علَّمَنا اللهُ تَعالَىٰ حَيثُ يَقولُ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[3] ، [4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : وأما أئمتنا اليوم وحكامُنا ، فإذا أعدَموا ما وُجِدَ مِنْ

---

(١) انظر السير : (مالِكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٨/ ٧٣٦ .
(٢) انظر السير : (عَليّ بن الجَعْد) ١٠/ ٤٥٩ـ ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٨٤ .
(٣) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .
(٤) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٩/ ٨٥٣ .

قَدْحٍ بهَوَىٰ ، فقد يُقالُ : أحْسَنوا ووُفِّقُوا وطاعتُهم في ذلك مُفترضَة لما قد رأوه من حَسمِ مادَّة الباطِلِ والشَّرِّ .

وبكل حال فالجُهَّالُ والضُلاَّلُ قد تكلَّموا في خِيارِ الصَّحابَة ، وفي الحَديثِ الثابتِ : « لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذىً يَسْمَعُهُ مِنْ اللهِ ، إنَّهُمْ لَيَدَّعُونَ لَهُ وَلَداً ، وَإنَّهُ لَيَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِم »[1] .

٥ـ حَالُ الأقْران :

قالَ إبراهيمُ بنُ الْمُنْذِر الحزاميُّ : كان ابنُ الزِّناد سَبَبَ جَلدِ رَبيعَة الرأي ، ثم وَلِيَ بعدَ ذلكَ الْمَدينةَ فلان التيمي ، فأرسلَ إلىٰ أبي الزِّناد ، فطَيَّنَ عليه بَيتاً ، فشَفَّعَ فيه رَبيعَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : تَؤُولُ الشَّحْناءُ بَينَ القُرَناءِ إلىٰ أعْظَمَ من هـٰذا[2] .

ولمَّا رَأىَ رَبيعةُ أنَّ أبا الزِّنادِ يَهْلِكُ بسَبَبه ما وَسِعَهُ السُّكُوتُ ، فأخْرَجُوا أبا الزِّناد ، وقد عايَنَ المَوْتَ وذَبُلَ ، ومالَتْ عُنُقُه ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ[3] .

وعن الإمامِ البُوَيْطيِّ أنَّه قالَ : بَرىء النَّاسُ من دَمِي إلاَّ ثَلاثَة : حَرْمَلة ، والْمُزَنيّ ، وآخَر[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : اسْتَفِقْ ، وَيْحَك ، وسَلْ رَبَّكَ العافيَةَ ، فكَلامُ الأقْرانِ بَعضُهم في بعضٍ أمرٌ عَجيبٌ ، وقعَ فيه سادَةٌ ، فرَحِمَ اللهُ الجَميعَ .

وقد ماتَ الإمامُ البُوَيْطيُّ في قَيدِه مَسْجوناً بالعِراقِ سَنةَ إحْدَىٰ وثَلاثينَ ومِئتَين[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي عَمْرو الدَّاني : قد كانَ بينَ أبي عَمرو ، وبينَ أبي مُحمَّدِ بنِ حَزْم وَحْشَة ومُنافَرَة شَديدَة ، أفْضَت بهما إلى التَّهاجي ، وهـٰذا مَذمومٌ

---

(١) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٥٥ .
(٢) انظر السير : (أبو الزِّناد) ٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٢٠ .
(٣) انظر السير : (أبو الزِّناد) ٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٢١ .
(٤) انظر السير : (البُوَيْطيُّ) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٨٢ .
(٥) انظر السير : (البُوَيْطيُّ) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٨٢ .

من الأقْرانِ ، مَوْفورُ الوُجود نَسألُ اللهَ الصَّفحَ ، وأبو عَمرو أقْوَمُ قِيلاً ، وأتْبَعُ للسُّنَّة ولكنَّ أبا مُحمَّد أوْسَع دائرةً في العُلوم بَلغَت تَواليفُ أبي عَمْرو مئة وعشرين كتاباً[1] .

٦ـ كلامُ الأقْرانِ في بَعضِهم لا يُسْمَع :

رَوَى اللَّيثُ بنُ سَعد ، عن رَبيعَةَ بنِ أبي عبدِ الرحمَـٰن قالَ : أمَّا أبو الزِّنادِ ، فلَيسَ بثِقةٍ ولا رَضِيّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : انْعقَد الإجْماعُ علىٰ أنَّ أبا الزِّناد ثَقَةٌ رَضِيٌّ[2] .

وقالَ مَالكٌ حينمَا ذَكرَ ابنَ إسْحاق بن يَسار الإخْباريَّ : دَجَّالٌ من الدَّجاجِلَة[3] .

قالَ الخَطيبُ : ذَكرَ بَعضُهم : أنَّ مَالِكاً عابَه جَماعَةٌ من أهْلِ العِلمِ في زَمانِه بإطْلاقِ لِسانِهِ في قَومٍ مَعْروفينَ بالصَّلاحِ والدِّيانَة والثِّقَة والأمَانَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كلاَّ ما عابَهم إلاَّ وهُم عندَه بخِلافِ ذلك وهو مُثابٌ علىٰ ذلك وإنْ أخْطَأ اجتهادُه رَحمَةُ اللهِ عليه[4] .

وعن عبدِ الله بنِ نافِع قالَ : كانَ ابنُ أبي ذِئب وابنُ الماجِشُون وابنُ حازِم وابنُ إسْحاقَ يَتكلَّمون في مَالِك . وكانَ أشَدَّهم فيه كلاماً محمَّدُ بنُ إسْحاقَ كانَ يَقولُ : ائْتُوني ببَعضِ كُتبِه حتَّىٰ أُبيِّنَ عُيوبَه ، أنا بَيْطَارُ كُتُبِه[5] .

وذكر البُخاريُّ هنا فَصلاً حَسَناً عن رجالِه ، وإبْراهيمِ بنِ سَعد ، وصالحِ بنِ كيسَان فقد أكْثَرَ عن ابنِ إسْحاق قال البخاريُّ : ولَوْ صحَّ عن مالك تَناوُلُه من ابنِ إسْحاق فلَرُبَّما تكلَّمَ الإنْسانُ فيَرمِي صاحبَه بشيءٍ واحد ولا يَتَّهِمُه في الأمُورِ كلِّها قال : وقال إبراهيمُ بنُ الْمُنْذِر عن محمدِ بنِ فُلَيْح : نَهاني مالكٌ عن شَيخَينِ من قُريش وقد أكثرَ عنهما في « المُوَطَّأ » وهما ممَّن يُحْتَجُّ بهما ، ولمْ ينجُ كثيرٌ من النَّاسِ من كلامِ بَعضِ

---

(١) انظر السير : (أبو عَمْرو الدَّاني) ١٨/ ٧٧ـ ٨٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٨٦ .
(٢) انظر السير : (أبو الزِّناد) ٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢١ .
(٣) انظر السير : (ابنُ إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ١/٦٧٤ .
(٤) انظر السير : (ابنُ إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/٦٧٤ .
(٥) انظر السير : (ابنُ إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/٦٧٤ .

النَّاسِ فيهم نَحْو ما يُذكَر عن إبراهيمَ من كلامِه في الشَّعْبيِّ وكلامِ الشَّعْبيِّ في عِكْرِمَة وفيمَن كان قبلَهم وتناوُل بعضِهم في العِرْض والنَّفْس ولمْ يَلتَفِتْ أهلُ العلم في هـٰذا النَّحْو إلاَّ ببَيان وحُجَّة ولمْ تَسْقُط عَدالَتُهم إلاَّ ببُرْهانٍ ثابتٍ وحُجَّة ، والكَلامُ في هـٰذا كَثير[1] .

قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَل : بَلغَ ابنُ أبي ذِئب أنَّ مالكاً لَمْ يَأخُذْ بحَديث « الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ » فقالَ : يُستَتابُ ، فإنْ تابَ ، وإلاَّ ضُربَت عُنقُه ثم قالَ أحمَدُ : هو أوْرَعُ وأقْوَلُ بالحَقِّ من مَالِك[2] .

ثم قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لَوْ كانَ وَرِعاً كمَا يَنبَغي ، لَمَا قالَ هَـٰذا الكَلامَ القَبيحَ في حَقِّ إمَامٍ عَظيمٍ فمَالِكٌ إنَّما لَمْ يَعمَلْ بظَاهِرِ الحَديثِ ، لأنَّه رَآهُ مَنْسُوخاً[3] .

وقيلَ : عَملَ به وحَملَ قَولهَ : « حَتَّىٰ يَتَفَرَّقَا » على التَّلفُّظِ بالإيجابِ والقَبولِ ، فمَالِكٌ في هـٰذا الحَديثِ ، وفي كُلِّ حَديثٍ له أجْرٌ ولا بُدَّ ، فإنْ أصابَ ، ازْدادَ أجْراً آخرَ ، وإنَّما يَرَى السَّيفَ علىٰ مَنْ أخْطأ في اجْتِهادِه الحَرُوريَّةُ[4] وبكل حالٍ فكَلامُ الأقْرانِ بَعضُهم في بَعضٍ لا يُعَوَّلُ علىٰ كثيرٍ منه ، فلا نَقُصَت جَلالَةُ مالِك بقَولِ ابنِ أبي ذئب فيه ، ولا ضَعَّفَ العُلمَاءُ ابنَ أبي ذئب بمَقالَتِه هـٰذه ، بلْ هما عالِما الْمَدينَة في زَمانِهما ـ رَضِيَ الله عنهما ـ ولَمْ يُسْنِدْها الإمَامُ أحمَدُ فلَعلَّها لَمْ تَصح[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ زَكَريّا بنِ عَديّ : وقد نالَ منه أبو نُعَيم الكُوفيُّ بِلا حُجَّة ، وقالَ : مالَه وللحَديثِ ؟ هو بالتَّوْراةِ أعْلمُ .

قالَ ابنُ سَعْد : هو من مَوَالي تَيم الله ، وكانَ رَجلاً صالِحاً ثِقةً ، قالَ : وتُوفِّيَ في سَنةِ إحْدَىٰ عَشرَةَ ومِئتَين[6] .

---

(١) انظر السير : (ابن إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٦٧٤/ ٥ .
(٢) انظر السير : (ابنُ أبي ذِئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٦٨٦/ ٣ .
(٣) انظر السير : (ابنُ أبي ذِئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٦٨٦/ ٤ .
(٤) الحَرُوريَّة : هم الخَوَارج ، ونسبَتُهم إلىٰ : حَروراء ، وهو مَوضع بظاهر الكُوفَة ، وبه كان أوَّلُ اجتماعهم وتحكيمهم حين خالفوا عَليّاً رضي الله عنه وخَرجوا عليه .
(٥) انظر السير : (ابنُ أبي ذِئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٦٨٦/ ٥ .
(٦) انظر السير : (زَكَريّا بن عَدي) ١٠/ ٤٤٢ـ ٤٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٨٢/ ٤ .

وعن الإمامِ البُوَيْطيِّ أنَّه قالَ : بَرىء النَّاسُ من دَمِي إلاَّ ثَلاثَة : حَرْمَلة ، والْمُزَنيّ ، وآخَر[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : اسْتَفِقْ ، وَيْحَك ، وسَلْ رَبَّكَ العافيَةَ ، فكَلامُ الأقْرانِ بَعضُهم في بعضٍ أمرٌ عَجيبٌ ، وقعَ فيه سادَةٌ ، فرَحِمَ اللهُ الجَميعَ .

وقد ماتَ الإمامُ البُوَيْطيُّ في قَيدِه مَسْجوناً بالعِراقِ سَنةَ إحْدَىٰ وثَلاثينَ ومِئتَين[2] .

٧ـ ضَابطٌ في كلام الأقْران :

قالَ مَكْحولٌ : ما زِلتُ مُضطلِعاً علىٰ مَنْ ناوَأني حتَّىٰ عاوَنَهم عليَّ رَجاءُ بنُ حَيْوَة ، وذلكَ أنَّه كانَ سَيِّدَ أهْلِ الشَّامِ في أنْفُسِهم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كانَ ما بَينَهما فاسِداً ، وما زَالَ الأقْرانُ يَنالُ بَعضُهم من بَعضٍ ، ومَكْحُولٌ ورَجَاءٌ إمَامَانِ ، فَلا يُلتَفتُ إلىٰ قَولِ أحدٍ منهما في الآخَر[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ إسْحاقَ : وقد أمْسَكَ عن الاحْتجاجِ برِوَاياتِ ابنِ إسْحاق غيرُ واحدٍ من العُلماء لأشياءَ ، منها : تَشيُّعُه ، ونُسِبَ إلى القَدَر ، ويُدَلِّسُ في حَديثِه ، فأمَّا الصِّدْقُ فليس بمَدفُوع عنه[4] .

وذكر البُخاريُّ هنا فَصلاً حَسَناً عن رجالِه ، وإبْراهيمِ بنِ سَعد ، وصالحِ بنِ كيسَان فقد أكْثَرَ عن ابنِ إسْحاق قال البخاريُّ : ولَوْ صحَّ عن مالك تَناوُلُه من ابنِ إسْحاق فلَرُبَّما تكلَّمَ الإنْسانُ فيَرمِي صاحبَه بشيءٍ واحد ولا يَتَّهِمُه في الأمُورِ كلِّها قال : وقال إبراهيمُ بنُ الْمُنْذِر عن محمدِ بنِ فُلَيْح : نَهاني مالكُ عن شَيخَينِ من قُريش وقد أكثرَ عنهما في « المُوَطَّأ » وهما ممَّن يُحْتَجُّ بهما ، ولمْ ينجُ كثيرٌ من النَّاسِ من كلامِ بَعضِ النَّاسِ فيهم نَحْو ما يُذكَر عن إبراهيمَ من كلامِه في الشَّعْبيِّ وكلامِ الشَّعْبيِّ في عِكْرِمَة

---

(١) انظر السير : (البُوَيْطيُّ) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٨٢ .
(٢) انظر السير : (البُوَيْطيُّ) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٨٢ .
(٣) انظر السير : (رَجاءُ بنُ حَيْوَة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٥٨ .
(٤) انظر السير : (ابن إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٧٤ .

وفيمَن كان قبلَهم وتناوُل بعضِهم في العِرْض والنَّفْس ولمْ يَلتَفِتْ أهلُ العلم في هـٰذا النَّحْو إلاَّ ببَيان وحُجَّة ولمْ تَسْقُط عَدالَتُهم إلاَّ ببُرْهانٍ ثابتٍ وحُجَّة ، والكَلامُ في هـٰذا كَثير[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لَسنا نَدَّعي في أئمَّةِ الجَرْحِ والتَّعْديلِ العِصْمَةَ من الغَلَطِ النادر ، ولا من الكَلامِ بنَفَس حادٍّ فيمَنْ بينَهم وبينَه شَحْناءَ وإحنَة[2] وقد عُلمَ أنَّ كثيراً من كَلامِ الأقْرانِ بَعضُهم في بعض مُهْدَرٌ لا عِبرَةَ به ، ولا سيَّما إذا وَثَّقَ الرجُلَ جَماعَةٌ يَلوحُ علىٰ قَولِهم الإنْصافُ ، وهـٰذان الرَّجُلان كُلٌّ منهما قد نَالَ من صاحِبه لكن أثَّرَ كَلامُ مالِكٍ في مُحمَّد بَعضَ اللِّين ، ولَمْ يُؤثِّرْ كَلامُ مُحمَّد فيه ولا ذَرَّة ، وارْتَفعَ مَالِكٌ ، وصارَ كالنَّجمِ ، والآخَرُ فلَه ارْتفاعٌ بحَسبه ، ولا سيَّما في السِّيَر ، وأمَّا في أحاديثِ الأحْكامِ فيَنْحَطُّ حَديثُه فيها عن رُتبَة الصِّحَّة إلىٰ رُتبَة الحَسَنِ إلاَّ فيما شَذَّ فيه فإنَّه يُعَدُّ مُنكَراً ، هـٰذا الذي عندي في حالِه ، واللهُ أعلَم[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ الشَّافِعيّ : كلامُ الأقْرانِ إذا تَبرهَنَ لنا أنَّه بهَوىٰ وعَصبيَّة ، لا يُلتفَتُ إليه ، بل يُطوَىٰ ولا يُروَىٰ ، كما تَقرَّر الكَفُّ عن الكثير مِمَّا شَجرَ بين الصَّحابَة وقِتالِهم رَضيَ اللهُ عنهم أجْمَعين ، وما زالَ يَمرُّ بنا ذلك في الدَّواوين والكُتبِ والأجْزاء ، ولكنَّ أكثرُ ذلكَ مُنقَطعٌ وضَعيفٌ ، وبَعضُه كَذبٌ ، وهـٰذا فيما بأيْدينا وبينَ عُلمائِنا فيَنبَغي طيُّه وإخفاؤُه ، بلْ إعْدامُه لتَصْفُو القُلوبُ وتَتوفَّر علىٰ حُبِّ الصَّحابَة ، والتَّرضِّي عنهم ، وكِتْمانُ ذلك مُتعيِّنٌ عن العامَّة وآحادِ العُلماءِ ، وقد يُرَخَّصُ في مُطالَعَة ذلك خلوَةً للعَالِمِ الْمُنصِفِ العَريِّ من الهَوَىٰ ، بشَرطِ أنْ يَستَغفِرَ لَهُم ، كمَا علَّمَنا اللهُ تَعالَىٰ حَيثُ يَقولُ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[4] ،[5] .

---

(١) انظر السير : (ابن إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٧٤ .

(٢) الإحنة : الحقد في الصدر .

(٣) انظر السير : (ابن إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٧٥ .

(٤) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .

(٥) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٩/ ٨٥٣ .

قالَ أبُو بَكْرِ المَرْوِذيّ : ذَكَرَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل هِشَامَ بنَ عَمّارٍ ، فقال : طَيّاشٌ خَفيف[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أمَّا قَولُ الإمامِ أحمَد عن هِشَام بنِ عَمّارٍ إنَّه طيّاش ، فلأنَّهُ بَلَغَهُ عَنهُ أنَّه قالَ في خُطْبَتِه : « الحَمْدُ للهِ الذي تَجلّىٰ لِخَلْقِه بِخَلْقِه » ، فهَـٰذهِ الكَلِمَة لا يَنْبَغي إطْلاقُها ، وإنْ كانَ لها مَعْنَىٰ صَحيح ، لكنْ يَحْتَجُّ بها الحُلُوليُّ والاتِّحاديُّ وما بَلَغَنَا أنَّه سُبْحانَه وتَعالَىٰ تَجَلَّىٰ لشَيءٍ إلاَّ بجَبَلِ الطُّورِ ، فصَيَّرَهُ دَكّاً ، وفي تَجَلِّيهِ لنَبيِّنا صلى الله عليه وسلم اخْتلافٌ أنْكَرَتهُ عائِشَةُ وأثْبَتَهُ ابنُ عَبَّاس[2] .

وبكل حالٍ كلامُ الأقْرانِ بَعضِهم في بَعْض يُحْتمَلُ ، وطَيُّه أوْلَىٰ من بَثِّه إلاَّ أنْ يَتَّفِقُ الْمُعاصِرونَ علىٰ جَرْح شَيخٍ ، فيُعْتمَدُ قَوْلُهم ، والله أعْلم[3] .

وقال أبو نُعيم في « تاريخ أصبهان » : ابنُ مَنْدَة حافِظٌ منْ أولادِ الْمُحدِّثين ، اخْتلطَ في آخِرِ عُمرِه ، وتَخبَّطَ في أمَاليهِ ، ونَسبَ إلىٰ جَماعَةٍ أقْوَالاً في الْمُعتَقَدات لَمْ يُعرَفوا بها ، نَسألُ اللهَ السِّتْرَ والصِّيانَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لا نَعبأ بقَولِك في خَصْمِك للعَدَاوَة السَّائرَة ، كمَا لا نَسمَعُ أيضاً قَولَه فيك ، فلقَد رَأيتُ لابنِ مَنْدَة حَطّاً مُقذّعاً علىٰ أبي نُعَيم وتَبْديعاً ، وما لا أحبُّ ذِكْرَه ، وكلٌّ منهما فَصَدوقٌ في نَفسِه ، غَيرُ مُتَّهم في نَقلِه بحَمدِ الله[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي نُعَيم : قد كانَ أبو عبدِ اللهِ بنُ مَنْدَه يُقذعُ في الْمَقالِ في أبي نُعَيم لِمَكانِ الاعْتِقادِ الْمُتَنازَع فيه بين الحَنابِلَة وأصْحَابِ أبي الحَسَن ، ونالَ أبو نُعَيم أيضاً من أبي عبدِ الله في « تاريخِه » وقد عُرِفَ وَهَنُ كَلامِ الأقْرانِ الْمُتَنافِسينَ بَعضهم في بَعضٍ نَسألُ اللهَ السَّماحَ .

---

(١) انظر السير : (هشام بن عمار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٩٥٧ .
(٢) انظر السير : (هشام بن عمار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٩٥٧ .
(٣) انظر السير : (هشام بن عمار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٩٥٨ .
(٤) انظر السير : (ابنُ مَندَه) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٢١ .

ماتَ أبو نُعَيم الحافِظُ ، سَنةَ ثَلاثينَ وأرْبَع مئة وله أربعٌ وتِسْعونَ سَنةً[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ سُلَيمانِ بنِ إبْراهيم : قالَ يَحْيَىٰ بنُ مَنْده : في سَماعِهِ كَلامٌ ، سَمعتُ مِنْ ثِقاتٍ أنَّ له أخاً يُسمَّىٰ إسْمَاعيلَ أكْبرُ منه ، فحَكَّ اسمَه ، وأثبتَ اسمَ نفسِه ، وهو شَيخ شَرِهٌ لا يَتورَّعُ ، لَحَّانٌ وَقَّاح[2] .

تُوفِّيَ سَنةَ سِتٍّ وثَمانينَ ، وله تِسْعُونَ عَاماً غَيرَ أشْهُر[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : وينبغي التوقف في كلام يَحْيَىٰ ، فبَينَ آلِ مَنْدَه وأصْحَابِ أبي نُعَيم عَداواتٌ وإحَنٌ[4] .

٨ـ تَعْليلٌ لذَمِّ الأقْرانِ بَعضهم بَعضاً :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ الشَّافِعيِّ : وصَنَّفَ الكِبارُ في مَناقِبِ هـٰذا الإمَامِ قَديماً وحَديثاً ، ونالَ بَعضُ النَّاسِ منه غَضّاً ، فما زادَه ذلكَ إلاَّ رِفْعَةً وجَلالَةً ، ولاحَ للمُنْصِفينَ أنَّ كَلامَ أقْرانِه فيه بهَوىً ، وقَلَّ مَنْ بَرَّزَ في الإمَامَة ، ورَدَّ علىٰ من خالَفَه إلاَّ وَعُودي ، نَعوذُ بالله من الهَوَىٰ ، وهـٰذه الأوْرَاقُ تَضيقُ عن مَناقِبِ هـٰذا السَّيِّد .

قالَ الْمُزَنيُّ : ما رَأيتُ أحْسَنَ وَجْهاً من الشَّافِعيِّ رَحمَهُ اللهُ وكانَ رُبَّما قَبضَ علىٰ لِحْيَتِه فلا يَفْضُلُ عن قَبضَتِه[5] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وقد كُنتُ وَقفتُ علىٰ بَعضِ كَلامِ الْمَغاربَة في الإمَامِ الشَّافِعيِّ رَحِمَه الله ، فكانَت فائدَتي من ذلك تَضْعيفُ حالِ مَنْ تَعرَّضَ إلى الإمامِ ، ولله الحَمدُ .

ولا رَيبَ أنَّ الإمامَ لَمَّا سَكنَ مِصْرَ ، وخَالَفَ أقْرانَه من الْمالِكيَّة ، ووَهَّىٰ بَعضَ فُروعِهم بدَلائلِ السُّنَّة وخالَفَ شَيخَه في مَسائل ، تألَّموا منه ، ونالوا منه ، وجَرَت بينَهم وحْشَة ، غَفرَ الله للكُلِّ ، قد اعْترَفَ الإمامُ سُحْنُونُ ، وقالَ : لَمْ يَكنْ في الشَّافِعيِّ

---

(١) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٧/ ٤٥٣ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٤٩ .
(٢) في اللسان : وَقُحَ الرجُلُ : إذا صار قليلَ الحَياء ، فهو وَقِحٌ ووَقَّاح .
(٣) انظر السير : (سُلَيمانُ بنُ إبْراهيم) ١٩/ ٢١ـ ٢٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٥٣ .
(٤) انظر السير : (سُلَيمانُ بنُ إبْراهيم) ١٩/ ٢١ـ ٢٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤٥٣ .
(٥) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٤٥ .

بدعَةٌ ، فصَدقَ والله ، فرَحِمَ اللهُ الشَّافِعيَّ ، وأينَ مثلُ الشَّافِعيِّ والله! في صِدقِه ، وشَرَفِه ، ونُبلِه ، وسِعَةِ عِلمِه ، وفَرطِ ذَكائه ، ونَصرِه للحَقِّ ، وكَثرَةِ مَناقِبه ، رَحمَه اللهُ تعالىٰ[1] .

٩ـ قَواعِدٌ في الإنْصَاف :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ السَّفَّاح : وكان إذا عَلمَ بينَ اثْنينِ تَعادِياً لَمْ يَقبَلْ شَهادَةَ ذَا علىٰ ذَا ، ويَقولُ : العَدَاوَةُ تُزيلُ العَدَالَةَ[2] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ الْمُبارَك قالَ : إذا غَلبَتْ مَحاسِنُ الرجُلِ علىٰ مَساوئه لَمْ تُذْكَر الْمَساوىء ، وإذا غَلبَت الْمَساوىء على الْمَحاسِن لَمْ تُذْكَر الْمَحاسِن[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي بَكر السِّجسْتانيّ : لَيسَ من شَرط الثِّقَةِ أنْ لا يُخْطِىءَ ولا يَغْلَطَ ولا يَسْهوَ ، والرجلُ فمِنْ كِبَارِ عُلماء الإسْلام ، ومن أَوْثَق الحُفَّاظ ، رحمَه الله تَعالىٰ[4] .

وقالَ أبو الحَسَن الصَّفَّار : سَمعتُ أبا سَهْل الصُّعْلُوكيَّ ، وسُئلَ عن تَفسيرِ أبي بَكر القَفَّال فقالَ : قدَّسَه من وَجْه ، ودَنَّسَه من وجه أي : دَنَّسَه نَصرُه للاعْتِزالِ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الكَمالُ عَزيزٌ ، وإنَّما يُمدَحُ العالِمُ بكَثرَةِ ما لَه من الفَضائل ، فلا تُدفَن الْمَحاسِنُ لوَرْطَة ، ولَعلَّه رَجعَ عنها وقد يُغفَر له باسْتفْراغِه الوُسْعَ في طَلَبِ الحَقِّ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[5] .

١٠ـ ضَوابطٌ جَميلَةٌ في إعْذارِ مَنْ تَلبَّسَ ببِدْعَةٍ أو خَطأ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة قَتَادَةَ بن دِعامَة قُدوة المُفَسِّرين : هُوَ حُجَّةٌ بالإجْماعِ إذا بَيَّنَ السَّماعَ ، فإنَّه مُدَلِّسٌ مَعْروفٌ بذَلكَ ، وكان يَرَى القَدَرَ ، نَسْألُ اللهَ العَفْوَ ، ومع

---

(١) ان-ر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٥٥ .
(٢) انظر السير : (السَّفَّاح) ٦/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣٢ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن الْمُبارَك) ٣٧٨ ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٥/٧٦٨ .
(٤) انظر السير : (أبو بَكر السِّجسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٥ .
(٥) انظر السير : (القَفَّال الشَّاشِي) ١٦/ ٢٨٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٩٥ .

هـٰذا فما تَوَقَّفَ أحَدٌ في صِدْقِهِ ، وعَدالَتِهِ ، وحِفْظِهِ ، ولَعَلَّ اللهَ يَعْذُرُ أمْثالَه مِمَّن تَلَبَّسَ ببِدْعَة يُريدُ بها تَعْظيمَ البَاري وتَنْزيهَه ، وبَذَلَ وُسْعَه ، والله حَكَمٌ عَدْلٌ لَطيفٌ بعِبادِه ، ولا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، ثُمَّ إنَّ الكَبيرَ من أئِمَّةِ العِلْم إذا كَثُرَ صَوابُه ، وعُلِمَ تَحَرِّيهِ للحَقِّ ، واتَّسَعَ عِلمُه ، وظَهَرَ ذَكاؤُهُ ، وعُرِفَ صَلاحُه ووَرَعُه واتِّباعُه ، يُغْفَرُ لَه زَلَلُه ، ولا نُضَلِّلُهُ ونَطْرَحُه ، ونَنْسَىٰ مَحاسِنَه ، نَعَم ولا نَقْتَدي به في بِدْعَتِه وخَطَئِه ونَرْجُو له التَّوبَةَ من ذلك[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عَليِّ بن الفُضَيلِ بن عِياض : إذا كانَ كُبَراءُ السَّابقين الأوَّلينَ قد تَكلَّم فيهم الرَّوافِضُ والخَوارجُ ، ومثل الفُضَيل يُتكلَّم فيه ، فمَنِ الذي يَسلَمُ من ألْسِنَة النَّاسِ ، لكن إذا ثَبَتَت إمَامَةُ الرجُلِ وفَضلُه ، لَمْ يَضرُّه ما قيلَ فيه ، وإنَّما الكَلامُ في العُلماءِ مُفتقِرٌ إلىٰ وَزنٍ بالعَدلِ والوَرَع[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ وَكيع : وكلُّ أحَدٍ يُؤخَذُ من قَولِه ويُترَك ، فلا قُدوَةَ في خَطأ العَالِم ، نَعَم ، ولا يُوبَّخ بما فَعلَه باجْتهاد ، نَسألُ اللهَ له الْمُسامَحَة .

قال يَحْيَىٰ بنُ مَعين : وَكيعٌ في زَمانِه كالأوْزاعيِّ في زَمانِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كان أحمَدُ يُعظِّمُ وَكيعاً ويُفَخِّمُه[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي بَكر السِّجِسْتانيّ : لَيسَ من شَرط الثِّقَةِ أنْ لا يُخْطِىءَ ولا يَغْلَطَ ولا يَسْهوَ ، والرجلُ فمِنْ كِبَارِ عُلماء الإسْلام ، ومن أَوْثَق الحُفَّاظ ، رحمَه الله تَعالىٰ[4] .

قال الحافظُ أبو عبد الله بنُ مَندَه في مسألة الإيمان : صَرَّحَ محمدُ ابنُ نَصْر في كتاب « الإيمان » بأنَّ الإيمانَ مَخْلوق ، وأنَّ الإقْرارَ ، والشَّهادَةَ ، وقِراءةَ القُرآن بلَفْظه مَخْلوق ثم قال : وهَجَرَه علىٰ ذلك عُلماءُ وَقْته وخالَفَه أئمَّةُ خُراسانَ والعِراق[5] .

---

(١) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٠١ .

(٢) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٨٢ .

(٣) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٠٩ .

(٤) انظر السير : (أبو بَكر السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٧٥ .

(٥) انظر السير : (محمد بن نَصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٢٧ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الخَوْضُ في ذلك لا يجوزُ ، وكذلك لا يجوزُ أنْ يُقالَ : الإيمانُ ، والإقْرارُ ، والقِراءةُ ، والتَّلفُّظُ بالقُرآن غَيرُ مَخْلوق ، فإنَّ اللهَ خَلقَ العِبادَ وأعْمالَهم ، والإيمانُ : فقَولٌ وعَمل ، والقِراءَةُ والتَّلفُّظُ : من كَسْب القارىء ، والمَقْروءُ المَلْفوظُ : هو كَلامُ الله ووَحْيُه وتَنزيلُه ، وهو غَيرُ مَخْلوق ، وكذلك كَلمَةُ الإيمان ، وهو قَوْلُ « لا إلٰهَ إلاَّ الله ، محمَّدٌ رَسُولُ الله » داخلةٌ في القُرآن ، وما كان من القُرآن فليس بمَخْلوق ، والتكلُّمُ بها من فِعْلِنا ، وأفْعالُنا مَخْلوقَة ، ولو أنَّا كُلما أخطأ إمامٌ في اجْتهادِه في آحادِ المَسائل خطأً مَغْفوراً له ، قُمْنا عليه ، وبَدَّعْناه ، وهَجَرْناه ، لما سَلِمَ مَعنا لا ابنُ نَصْر ، ولا ابنُ مَنْدَة ، ولا مَنْ هو أكْبرُ منهما ، واللهُ هو هادي الخَلق إلى الحَقِّ ، وهو أرْحَمُ الراحمين ، فنَعوذُ بالله من الهَوىٰ والفَظاظَة[1] .

وقالَ أبو الحَسَن الصَّفَّار : سَمعتُ أبا سَهْل الصُّعْلُوكيَّ ، وسُئلَ عن تَفسيرِ أبي بَكر القَفَّال فقالَ : قدَّسَه من وَجْه ، ودَنَّسَه من وجه أي : دَنَّسَه نَصرُه للاعْتِزالِ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الكَمالُ عَزيزٌ ، وإنَّما يُمدَحُ العالِمُ بكَثرَةِ مالَه من الفَضائل ، فلا تُدفَن الْمَحاسِنُ لوَرْطَة ، ولَعلَّه رَجعَ عنها وقد يُغفَر له باسْتفْراغِه الوُسْعَ في طَلبِ الحَقِّ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ عبدِ البَرِّ : كان إماماً دَيِّناً ثِقةً ، مُتْقِناً ، علاَّمة ، مُتبَحِّراً ، صاحِبَ سُنَّة واتِّباع ، وكانَ أوّلاً ظاهِرياً فيما قيلَ ، ثم تَحوَّلَ مَالِكيّاً مع مَيلٍ بَيِّنٍ إلىٰ فِقهِ الشَّافِعيِّ في مَسائل ، ولا يُنكَرُ له ذلك ، فإنَّه مِمَّن بَلغَ رُتبَة الأئمَّة الْمُجتَهدين ، ومَنْ نَظرَ في مُصنَّفاتِه ، بانَ له مَنزلتُه من سعة العِلم ، وقُوَّة الفَهم ، وسَيلان الذِّهْن ، وكلُّ أحَد يُؤخَذ من قَوله ويُترَك إلاَّ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنْ إذا أخْطأ إمامٌ في اجْتِهادِه ، لا يَنبَغي لنا أنْ نَنْسىٰ مَحاسِنَه ، ونُغَطِّي مَعارِفَه بل نستغفِرُ له ، ونَعتَذِرُ عنه .

وقالَ أبو عليٍّ الغَسَّانيُّ : ألفَ أبو عُمَر في « الْمُوَطَّأ » كُتباً مفيدَة ، منها : كتاب

---

(١) انظر السير : (محمد بن نَصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٢٧ .

(٢) انظر السير : (القَفَّال الشَّاشِي) ١٦/ ٢٨٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٩٥ .

« التَّمْهيد لِما في الْمُوَطَّأ من الْمَعاني والأسَانيد » ، فرتَّبَه علىٰ أسماء شُيوخِ مالِك علىٰ حُروفِ المُعجَم ، وهو كتابٌ لم يَتقدَّمه أحدٌ إلىٰ مثله ، وهو سَبعون جُزءاً .

قالَ الإمامُ الذَّهَبيُّ : هي أجْزاءٌ ضَخمَة جداً .

قالَ ابنُ حَزْم لا أعْلمُ في الكلام علىٰ فِقه الحَديث مثلَه ، فكَيفَ أحْسنَ منه ؟!!

ثم صنعَ كتاب « الاستذكار لِمَذهب عُلماء الأمْصَار فيما تَضمنَّه الْمُوَطَّأ من مَعاني الرأي والآثار » شَرح فيه « الْمُوَطَّأ » علىٰ وجهه ، وجَمعَ كتاباً جَليلاً مُفيداً ، وهو « الاسْتيعاب في أسْماء الصَّحابَة » ، وله كتابُ « جامع بيَان العِلم وفَضلِه ، وما يَنْبَغي في روايتِه وحملِه » ، وغير ذلك من تَواليفِه .

وكان مُوفَّقاً في التأليف ، مُعاناً عليه ، ونفع الله بتَواليفِه ، وكان مع تقدُّمه في عِلم الأثَر وبصره بالفِقْه ومَعاني الحَديثِ له بَسْطَة كبيرة في عِلْم النَّسَب والخَبَر .

ماتَ أبو عُمَر سَنةَ ثَلاثٍ وسِتِّينَ وأرْبَع مئة ، واسْتكمَلَ خَمْساً وتِسْعينَ سَنةً وخَمْسَة أيّام ، رحمَه اللهُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكان في أصُول الدِّيانَة علىٰ مَذهَب السَّلف ، لمْ يَدخُلْ في عِلمِ الكَلامِ ، بلْ قَفا آثارَ مَشايخِه رحمَهم الله[1] .

١١ـ ضَابطٌ في الجَرْحِ والتَّعْديل :

قالَ عبدُ الخالِقِ بنُ مَنصور : سَمعتُ ابنَ الرُّوميِّ ، يَقولُ : ما رَأيتُ أحَداً قَطُّ يَقولُ الحَقَّ في الْمَشايخ غير يَحْيَىٰ بنِ مَعين وغَيرُه كان يَتحامَلُ بالقَولِ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا القَولُ من عبدِ الله بنِ الرُّوميِّ غَيرُ مَقبول ، وإنَّما قالَه باجْتهاده ، ونَحنُ لا نَدَّعي العِصمَة في أئمَّة الجَرْح والتَّعْديلِ ، لكن هم أكثر النَّاسِ صَواباً ، وأنْدَرُهم خَطأ ، وأشَدُّهم إنْصافاً ، وأبْعَدُهم عن التَّحامُل ، وإذا اتَّفقوا علىٰ تَعديلٍ أو جَرْح ، فتَمسَّك به ، واعْضُضْ عليه بناجِذَيك ، ولا تَتجاوَزْه ، فتَندَم ومَنْ

---

(١) انظر السير : (ابنُ عبدِ البَرِّ) ١٨/١٥٣ـ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٩٢ .

شَذَّ منهم ، فلا عِبرَةَ به فخَلِّ عَنكَ العَناءَ ، وأعْطِ القَوْسَ باريها ، فوالله لَوْلا الحُفَّاظُ الأكابِرُ ، لخَطبَت الزَّنادِقَةُ على الْمَنابِر ، ولَئِنْ خَطَبَ من أهْلِ البِدَع فإنَّما هو بسَيفِ الإسْلام وبلِسَانِ الشَّريعَة وبجَاه السُّنَّة وبإظْهارِ مُتابَعَة ما جاءَ به الرسُولُ صلى الله عليه وسلم فنَعوذُ بالله من الخُذْلانِ[1] .

١٢ـ مَعْرفَة مَراتِب الرِّجال :

(أ) مَعَالِمُ في تَقْويم الرِّجَال :

عن الزُّهْريِّ ، حدَّثني عُرْوَةُ أنَّ الْمِسْوَرَ بنَ مَخْرَمَة أخْبرَه أنَّه وَفِدَ علىٰ مُعاويَةَ بنِ أبي سُفْيانَ فقَضَىٰ حاجَتَه ، ثم خَلا به ، فقالَ : يا مِسْوَرُ! ما فَعلَ طَعنُك على الأئمَّة ؟ قالَ : دَعْنا من هـٰذا وأحْسِنْ قالَ : لا والله لتُكلِّمَنِّي بذاتِ نَفسك بالذي تَعيبُ عليَّ قالَ مِسْوَرٌ : فلَمْ أترُك شَيئاً أعيبُه عليه إلاَّ بيَّنتُ له فقالَ : لا أبْرأُ من الذَّنبِ ، فهل تَعُدُّ لنا يا مِسْوَرُ ما نَلي من الإصْلاح في أمْر العامَّة ، فإنَّ الحَسَنةَ بعَشر أمثالها ، أمْ تَعُدُّ الذُّنوبَ ، وتَترُكُ الإحْسانَ ؟ قالَ : ما تُذكَرُ إلاَّ الذُّنوب قالَ مُعاويَةُ : فإنَّا نَعترفُ لله بكلِّ ذَنبٍ أذْنبناه ، فهَلْ لك يا مِسْوَرُ ذُنوبٌ في خاصَّتِك تَخْشَىٰ أنْ تَهلكَكَ إنْ لَمْ تُغفَر ؟ قالَ : نَعَم قالَ : فما يَجعلُك الله برَجاء الْمَغفِرَة أحَقَّ منِّي ، فو الله ما ألي من الإصْلاحِ أكثرُ مِمَّا تَلي ، ولكنْ والله لا أُخَيَّرُ بينَ أمْرَين بينَ الله وبينَ غَيرِه ، إلاَّ اختَرتُ اللهَ علىٰ ما سِواه ، وإنِّي لَعَلىٰ دينٍ يُقبَلُ فيه العَملُ ويُجزَىٰ فيه بالحَسَناتِ ، ويُجزَىٰ فيه بالذُّنوبِ إلاَّ أنْ يَعْفو اللهُ عنها ، قالَ : فخَصَمَني قالَ عُرْوَةُ : فلَمْ أسْمَعْ الْمِسْوَرَ ذَكرَ مُعاويَةَ إلاَّ صلَّىٰ عليه[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ومُعاويَةُ من خِيارِ الْمُلوكِ الذين غَلبَ عَدلُهم علىٰ ظُلمِهم ، وما هو ببَريء من الهَنَّات ، واللهُ يَعْفو عنه[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَلاَّجِ : فإذا جازَ علىٰ سيِّد البَشَر أنْ لا يَعْلَمَ ببعضِ

---

(١) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩١٠ .

(٢) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٥٤ .

(٣) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٦/ ٣٥٦ .

المُنافقين ، وهم معه في المدينة سَنوات ، فالأوْلَىٰ أنْ يَخْفَىٰ حالُ جَماعة من الْمُنافِقينَ الفارغين علىٰ دين الإسْلام بعدَه عليه السلام على العُلماء من أمَّتِه ، فما يَنْبَغي لك يا فَقيهُ أنْ تُبادرَ إلىٰ تَكْفيرِ المُسْلمِ إلاَّ ببُرْهانٍ قَطعي ، كما لا يَسُوغُ لك أنْ تَعْتقدَ العِرْفانَ والوِلايَة فيمن قد تَبَرهَنَ زَغَلُه ، وانْهَتَكَ باطِنُه وزَنْدَقَتُه ، فلا هـٰذا ولا هـٰذا ، بل العَدْلُ أنَّ مَنْ رآه المسلمون صالحاً مُحْسِناً ، فهو كذلك ، لأنَّهم شُهَداءُ الله في أرضِه ، إذْ الأُمَّة لا تَجْتَمعُ علىٰ ضَلالَة ، وأنَّ مَنْ رآه المسلمون فاجراً أو مُنافِقاً أو مُبْطِلاً ، فهو كذلك ، وأنَّ مَنْ كان طائفَةٌ من الأُمَّة تُضَلِّلُه ، وطائفَةٌ من الأُمَّة تُثْني عليه وتُبَجِّلُه ، وطائفَةٌ ثالثةٌ تَقِفُ فيه وتَتَورَّع من الحَطِّ عليه ، فهو ممَّن يَنْبَغي أن يُعْرَضَ عنه ، وأنْ يُفَوَّضَ أمرُه إلى الله ، وأن يُستغفَر له في الجُملَة ، لأنَّ إسْلامَه أصْليٌّ بيَقين ، وضَلالَه مَشْكوكٌ فيه ، فبهـٰذا تستَريحُ ويَصْفو قلبُك من الغِلِّ للمؤمنين .

ثم اعْلم أنَّ أهْلَ القبلَة كلُّهم ، مؤمنُهم وفاسِقُهم وسُنيُّهم ومُبتدِعُهم ـ سِوى الصحابَة ـ لم يُجْمعوا علىٰ مسلم بأنَّه سعيدٌ ناجح ، ولم يُجْمِعوا علىٰ مسلم بأنَّه شَقيٌّ هالك ، فهـٰذا الصدِّيقُ فردُ الأمَّة ، قد عَلمتَ تفرُّقَهم فيه ، وكذلك عُمَر ، وكذلك عُثْمان ، وكذلك عليّ ، وكذلك ابنُ الزُّبَير ، وكذلك الحَجَّاج ، وكذلك المَأمون ، وكـذلـك بِشْـر المـريسـي ، وكـذلـك أحمـدُ بـنُ حَنبَـل ، والشَّـافعـي ، والبُخـاري ، والنَّسَائي ، وهَلمَّ جرّاً من الأعْيان في الخَير والشَّر إلىٰ يومك هـٰذا ، فما من إمام كامل في الخَير إلاَّ وثَمَّ أُناسٌ من جَهَلة المسلمين ومُبْتدعيهم يَذمُّونَه ويَحُطُّون عليه ، وما من رأسٍ في البدعَة والتجَهُّم والرَّفْض إلاَّ وله أُناسٌ يَنْتَصرون له ، ويَذبُّون عنه ، ويَدينون بقَوله بهَوىً وجَهل ، وإنَّما العِبرَةُ بقَول جُمهور الأُمَة الخالين من الهَوىٰ والجَهْل المُتصِفين بالوَرَع والعلم ، فتدبَّر ـ يا عبد الله ـ نِحْلَة الحَلاَّج الذي هو رأسٌ من رؤوس القَرامطَة ودُعاة الزَّندَقَة ، وأنْصِفْ وتَورَّع واتَّقِ ذلك ، وحاسب نفسَك ، فإنْ تَبرهَن لك أنَّ شَمائلَ هـٰذا المَرْء شَمائلَ عَدوٍّ للإسلام ، مُحبٌّ للرئاسَة حَريصٍ على الظُّهور بباطل وبحقٍّ ، فتَبرأ من نِحْلَته ، وإنْ تَبرهَن لك ، والعياذُ بالله ، أنَّه كان ـ والحالةُ هـٰذه ـ مُحِقّاً هادياً مَهديّاً ، فجَدِّدْ إسْلامَك واستَغِث بربِّك أن يُوفِّقك للحقِّ وأن يُثبِّتَ قلبَك علىٰ دينِه ، فإنَّما الهُدَىٰ نورٌ يَقذفُه اللهُ في قلبِ عبده المسلم ، ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله ، وإنْ

شَكَكْتَ ولم تعرف حقيقَته ، وتَبرّأتَ ممَّا رُمِيَ به ، أرَحْتَ نفسَك ، ولمْ يَسْألكَ اللهُ عنه أصْلاً .

وقال أبو عُمرَ بن حَيوَة : لمَّا خَرجَ الحَلاَّجُ ليُقْتَل ، مَضَيتُ وزَاحَمتُ حتىٰ رأيتُه ، فقال لأصْحابه : لا يَهُولنَّكم ، فإنِّي عائدٌ إليكم بعدَ ثَلاثين يَوماً .

فهٰذه حكايةٌ صَحيحة تُوضِّحُ لك أنَّ الحَلاَّجَ مُمَخْرَقٌ كذَّاب ، حتىٰ عند قَتلِه .

وقال الصُّوليُّ : قيلَ إنَّه كان في أوَّل أمرِه يَدعُو إلى الرِّضىٰ من آلِ محمّد ، وكان يُري الجاهلَ أشْياء من شَعبَذَته ، فإذا وَثِقَ منه دَعاهُ إلىٰ أنَّه إلٰه[1] .

(ب) إنْزالُ الرِّجالِ مَنازِلَهم :

جاءَ في تَرجَمَةِ الأحْنَفِ بنِ قَيْس ، قيل : كان زياد مُعظِّماً للأحْنَفِ ابنِ قَيْس فلمَّا وَليَ بعدَه ابنُه عُبَيدُ الله تَغيَّر أمرُ الأحْنَفِ ، وقدَّم عليه مَنْ هو دُونَه ، ثم وَفِدَ علىٰ مُعاويَة في الأشْرافِ فقالَ لِعُبَيدِ الله : أدْخِلهم عليَّ علىٰ قَدرِ مَراتِبهم فأخَّرَ الأحْنَفَ ، فلمَّا رَآهُ مُعاويَةُ أكْرَمَه لِمَكانِ سِيادَتِه وقالَ : إليَّ يا أبا بَحْر ، وأجلَسَه مَعه وأعْرَضَ عنهم ، فأخذوا في شُكر عُبَيدِ الله بنِ زِياد ، وسَكتَ الأحْنَفُ فقالَ له : لم لا تَتكلَّم ؟ قالَ : إنْ تَكلَّمتُ خالَفتُهم قالَ : اشْهَدُوا أنِّي قَد عَزلتُ عُبَيدَ الله فلمَّا خَرجوا كانَ فيهم مَنْ يَرومُ الإمارَة ثم أتَوا مُعاويَةَ بعدَ ثلاثة ، وذَكرَ كلُّ واحد شَخصاً وتَنازَعوا ، فقالَ مُعاويَةُ : ما تَقولُ يا أبا بَحْر ؟ قالَ : إنْ وَلَّيتَ أحداً من أهْلِ بَيتك لَمْ تَجدْ مثلَ عُبَيدِ الله فقالَ : قد أعَدتُه ، قالَ : فخَلا مُعاويَةُ بعُبَيدِ الله وقالَ : كيفَ ضَيَّعتَ مثلَ هٰذا الرجُلِ الذي عَزلَك وأعادَك وهو ساكتٌ! ؟ فلمَّا رَجعَ عُبَيدُ الله جَعلَ الأحْنَفَ صاحِبَ سِرِّه[2] .

عن يَحْيَىٰ بنِ مَعين : سَمعتُ قَبيصَةَ بنَ عُقبة يَقولُ : شَهدتُ عند شَريك ، فامْتَحنَني في شَهادَتي ، فذَكرتُ ذلكَ لسُفْيانَ ، فأنْكَرَ علىٰ شَريك ، وقالَ : لَمْ يَكنْ له أنْ يَمْتَحنَه .

---

(١) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٨ .

(٢) انظر السير : (الأحْنَفُ بنُ قَيْس) ٤/٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٧/٤٥٣ .

قالَ أحمَدُ بنُ سَلمَةَ النِّيسابوريُّ : سَمعتُ هَنَّاداً يَقولُ غَيرَ مَرَّة إذا ذَكرَ قَبيصَةَ : الرَّجلُ الصَّالِحُ وتَدْمَعُ عَيناه ، وكان هَنَّادٌ كَثيرَ البُكاء[1] .

(ج) المَوازينُ التي يُوزَنُ بها الرِّجَال :

عن سَعدٍ قال : كُنا مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم سِتَّة نفر ، فقال المشركون : اطْرُدْ هَؤلاء عَنكَ فَلا يَجْتَرِؤُونَ عَلينا ، وكُنتُ أنا وابنُ مَسْعود وبِلالٌ ورَجلٌ من هُذَيْل وآخَران ، فأنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ . . . الآيَتَين[2] ،[3] .

عن عُرْوَةَ بن رُويم ، عن القاسِم أبي عبدِ الرحمَـٰن حدَّثه قالَ : زارَنا سَلمانُ الفارسيُّ فصلَّى الإمامُ الظُهرَ ، ثم خَرجَ وخَرجَ النَّاسُ ، يَتلقَّوْنَه كما يُتلَقَّى الخَليفَةُ ، فلَقيناهُ وقد صلَّىٰ بأصْحابِه العَصرَ ، وهو يَمشي فوَقَفْنا نُسلِّمُ عليه ، فلَمْ يَبقَ فينا شَريفٌ إلاَّ عَرضَ عَليه أنْ يَنزِلَ به ، فقالَ : جَعلتُ علىٰ نَفسِي مرَّتي هـٰذه أنْ أنزلَ علىٰ بَشيرِ بنِ سَعْد فلمَّا قَدمَ ، سَألَ عن أبي الدَّرْداء ، فقالوا : هو مُرابطٌ ، فقالَ : أينَ مُرابَطُكم ؟ قالوا : بَيرُوت ، فتَوجَّه قِبَلَه ، قالَ : فقالَ سَلمانُ : يا أهلَ بَيرُوتَ : ألا أُحدِّثُكم حَديثاً يُذهِبُ الله به عَنكم عَرضَ الرِّباط سَمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولُ : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ كصِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطاً أُجِيرَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ ، وَجَرَىٰ لَهُ صَالِحُ عَمَلِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[4] .

عن عائذِ بنِ عَمرو أنَّ أبا سُفْيانَ مَرَّ علىٰ سَلمانَ وبِلال وصُهَيب في نَفَر فقالوا : ما أخَذَت سُيوفُ الله من عُنُق عَدو الله مأخَذَها فقالَ أبو بَكر : تَقولون هـٰذا لشَيخ قُرَيش وسَيِّدِها! ثم أتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فأخْبرَه ، فقالَ : « يَا أَبَا بَكرٍ! لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ ، لَئِنْ كنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ » فأتاهُم أبو بَكر فقالَ : يا إخْوَتاهُ

---

(١) انظر السير : (قَبيصَة بن عُقبَة) ١٠/ ١٣٠ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٥٨ .
(٢) سورة الأنعام ، الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .
(٣) انظر السير : (بلال بن رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٧٥ .
(٤) انظر السير : (سَلمانُ الفارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٩٨ .

أغْضَبتُكم ؟ قالُوا : لا يا أبا بَكر ، يَغفِرُ اللهُ لك[1] .

وعن هِشام بنِ عُرْوَةَ ، عن أبيه : أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أخَّرَ الإفاضَةَ من عَرَفَة من أجل أُسامَةَ بنِ زَيْد يَنتَظِرُه ، فجاءَ غُلامٌ أسْوَدُ أفْطَسُ فقالَ أهلُ اليَمَن : إنَّما جَلَسْنا لهَـٰذا! فلذَلك ارْتَدُّوا يَعني أيَّامَ الرِّدَّة[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الرَّحمَـٰن بنِ أبزى الخُزاعي : هو مَوْلىٰ نافِعِ بنِ عبدِ الحارِث ، كان نافعُ مَوْلاه اسْتنابَه علىٰ مكة حين تلقَّىٰ عُمرَ بنَ الخَطَّابِ إلىٰ عُسفان ، فقال له : مَنْ اسْتخلَفْتَ علىٰ أهْلِ الوَادي ؟ يَعني مَكة ، قال : ابنُ أبْزَىٰ ، قال : ومَن ابنُ أبْزَى ؟ قال : إنَّه عالمٌ بالفَرائِض قارِىءٌ لكتاب الله قال أما إنَّ نَبيَّكم صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ هـٰذا القُرآنَ يَرْفَعُ اللهُ به أقْوَامَاً ، ويَضَعُ به آخَرين »

ويُروَىٰ عن عُمرَ بنِ الخَطَّاب أنَّه قالَ : ابنُ أبزَىٰ ممَّن رَفعَه اللهُ بالقُرآن .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عاش إلىٰ سنة نيف وسبعين فيما يظهر لي[3] .

عن عبدِ الملك بنِ عُمَيْر ، قال : قَدِمَ عَلينا الأحْنفُ بنُ قَيس الكُوفَة مع مُصْعَب ، فمَا رَأيتُ صِفةً تُذَمُّ إلاَّ رَأيتُها فيه كان ضَئيلاً ، صَعْل الرأسِ ، مُتراكِبَ الأسْنان ، مائلَ الذَّقْن ، ناتىءَ الوَجْنَة ، باخِق العَين ، خَفيفَ العَارِضَين ، أحْنَفَ الرِّجْلَين فكان إذا تكلَّمَ جَلا عن نفسِه[4] .

وعن أبي العَاليَة ، قالَ : كانَ ابنُ عبَّاس يَرفَعُني على السَّريرِ وقُرَيشُ أسْفَلَ من السَّريرِ ، فتَغامَزَت بي قُرَيشُ ، فقالَ ابنُ عبَّاس : هكَذا العِلمُ يزيدُ الشَّريفَ شَرفاً ، ويُجلِسُ الْمَمْلوكَ على الأسِرَّة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا كان سَريرُ دَارِ الإمْرَة لَمَّا كانَ ابنُ عبَّاس مُتَوَلِّيها لعَليٍّ رَضيَ الله عنهما .

---

(١) انظر السير : (سَلمانُ الفارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٠٢ .
(٢) انظر السير : (أسامة بن زَيْد) ٢/ ٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٩٦ .
(٣) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن أبزى الخُزاعي) ٣/ ٢٠١ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٦٥ .
(٤) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٥٣ .

قالَ أبو بَكر بنُ أبي داود : ولَيسَ أحدٌ بعدَ الصَّحابَة أعْلمَ بالقُرآن من أبي العالِيَة وبعدَه سَعيدُ بنُ جُبَير[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ قُتَيْبَة بن مُسْلم : لَمْ يَنلْ قُتَيْبَةُ أعلَى الرُّتَب بالنَّسَب ، بلْ بكَمالِ الحَزْم والعَزْم والإقْدَام ، والسَّعْد وكَثْرَةِ الفُتُوحات ، ووُفُور الهَيْبَة ، ومن أحْفَادِه الأميرُ سَعيدُ بنُ مُسْلم بنِ قُتَيْبَة الذي وَليَ أرْمِينِيَةَ ، والْمَوْصِل ، والسِّنْدَ ، وسِجِسْتانَ ، وكانَ فارساً جَواداً ، وله أخْبارٌ ومَناقِبُ ، ماتَ زَمنَ الْمَأمون سَنةَ سَبعَ عَشْرة ومئتَين[2] .

وعن عُثمانَ بنِ عَطاء قالَ : كانَ عَطاءُ بنُ أبي رَباح أسْودَ شَديدَ السَّواد ، لَيسَ في رَأسِه شَعرٌ إلاَّ شَعرات ، فَصيحٌ إذا تكلَّم ، فمَا قالَ بالحِجازِ قُبلَ منه[3] .

(د) أمْثلَةٌ علىٰ تَفاوُت مَراتِب الرِّجَال :

عن ابنِ عَبّاسٍ قالَ : جلسنا مع عُمرَ ، فقالَ : هل سَمعتَ عن رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم شَيئاً أمر به الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ إذا سَها في صَلاتِه ، كَيفَ يَصنَعُ ؟ فقُلتُ : لا والله ، أوَسَمعتَ أنتَ يا أميرَ المؤمنينَ من رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم في ذلكَ شَيئاً ؟ فقالَ : لا والله فبَيْنا نَحنُ في ذلكَ أتَىٰ عبدُ الرَّحمَـٰنِ بنُ عَوْف فقالَ : فيمَ أنتُما ؟ فقالَ عُمرُ : سألتُه ، فأخبَرَه فقالَ له عبدُ الرَّحمَـٰن : لكنِّي سَمعتُ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم يَأمرُ في ذلك فقالَ له عُمَرُ : فأنتَ عندَنا عَدْلٌ ، فما سَمعتَ ؟ قالَ : سَمعتُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقولُ : « إذَا سَهَىٰ أحَدُكمْ في صَلاتِهِ حَتَّىٰ لا يَدْري أزَادَ أمْ نَقَصَ ، فَإنْ كانَ شَك في الْوَاحِدَةَ وَالثِّنْتَيْنِ ، فَلْيَجْعَلْهَا وَاحِدَةً ، وَإذَا شَكَّ في الثَّلاثِ والأرْبَع ، فَلْيَجْعَلْهَا ثَلاثاً حَتَّىٰ يَكونَ الْوَهْمُ في الزِّيَادَةِ ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَينِ وَهُوَ جَالِسٌ قَبْلَ أنْ يُسَلِّمَ ، ثُمَّ يُسَلِّم »[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو العاليَة) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٨/ ٤٧٨ .
(٢) انظر السير : (قُتَيْبَة بن مُسْلم) ٤/ ٤١٠ـ ٤١١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٢٤ .
(٣) انظر السير : (عَطاءُ بنُ أبي رَباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٨٢ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الرحْمَـٰنِ بنُ عَوْف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٩ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : فأصحابُ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم وإنْ كانوا عُدولاً فبَعضُهم أعْدَلُ من بَعض وأثْبَتُ ، فهُنا عُمَرُ قَنعَ بخَبرِ عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ عَوْف ، وفي قصة الاسْتئذان يقول[1] : ائتِ بمَنْ يَشهَدُ مَعك ، وعليُّ بنُ أبي طالب يَقولُ : كانَ إذا حَدَّثني رَجلٌ عن رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، اسْتَحْلفْتُه ، وحدَّثني أبو بَكر ، وصَدقَ أبو بَكر فلَمْ يَحْتَجْ عَليٌّ أنْ يَستَحْلفَ الصِّدِّيقَ ، والله أعلَم[2] .

وعن أبي هُرَيْرَةَ قالَ : كانَ بَينَ خَالِد وعبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ عَوْف شيءٌ ، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « دَعُوا لِي أَصْحَابِي أَوْ أصيحَابِي ، فَإنَّ أَحَدَكمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً لَمْ يُدْرِكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ »[3] .

وعن ابنِ الْمُنْكَدِر أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : « يَا بَنِي سَلَمَةَ! مَنْ سَيِّدُكم ؟ » قَالُوا : الْجدُّ بنُ قَيْس ، وَإنَّا لَنُبَخِّلُه قال : « وَأيُّ دَاءٍ أَدْوَىٰ مِنْ الْبُخْلِ ؟ بَلْ سَيِّدُكم الْجَدُّ الأَبْيَضُ عَمْرُو بنُ الْجَمُوحِ »[4] .

وكان البَراءُ بنُ مَعْرور لَيلَةَ العَقبَة هو أجَلُّ السَّبْعينَ ، وهو أوَّلُهم مُبايَعةً لرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم[5] .

وكان سَعْدُ بنُ عُبادَة رضي الله عنه يَكتُبُ في الجاهليَّة ، ويُحسِنُ العَوْمَ والرَّمْيَ ، وكانَ من أحْسنِ ذلك ، سُمِّيَ الكامل[6] .

عن أبي وَائل قالَ : كُنتُ مع حُذَيْفَة ، فجاءَ ابنُ مَسْعود ، فقالَ حُذَيْفَةُ : إنَّ أشْبَهَ النَّاسِ هَدياً ودَلاًّ وقَضاءً وخُطبَةً برَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، من حين يَخرجُ من بَيتِه ، إلىٰ أنْ يَرجِعَ ، لا أدري ما يَصنَعُ في أهْلِه . . لَعَبدُ اللهِ بنُ مَسْعود ، ولقد عَلمَ

---

(١) أي يقول عُمرُ لأبي مُوسَى الأشْعَريّ رضي الله عنهما .
(٢) انظر السير : (عبدُ الرحْمَـٰنِ بنُ عَوْف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٠ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الرحْمَـٰنِ بنُ عَوْف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٣١ .
(٤) انظر السير : (عَمْرو بنُ الجَموح) ١/ ٢٥٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨ .
(٥) انظر السير : (البَراءُ بنُ مَعْرور) ١/ ٢٦٧ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦١ .
(٦) انظر السير : (سَعْدُ بنُ عُبادَة) ١/ ٢٧٠ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢ .

الْمُتَهجِّدونَ من أصْحابِ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم ، أنَّ عبدَ الله من أقْرَبِهم عندَ الله وَسيلَةً يَومَ القِيامَة[1] .

وقالَ أبو جَنَاب : سَمعتُ عُمَيرَ بنَ سَعيد يَقولُ : صلَّىٰ عَليٌّ علىٰ سَهْلِ بنِ حُنَيْف ، فكبَّرَ خَمْساً فقالوا : ما هَـٰذا ؟ فقالَ : لأهْلِ بَدْرٍ فَضْلٌ علىٰ غَيرِهِم ، فأرَدتُ أنْ أُعْلِمَكم فَضلَه[2] .

وعن أبي البخْتَري ، قالَ : أتَينا عليّاً ، فسَألنَاه عن أصْحابِ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم قالَ عن أيِّهم تَسألُوني ؟ قُلنا : عن ابنِ مَسْعود قالَ : عَلِمَ القُرآنَ والسنة ، ثم انْتَهَىٰ ، وكَفَىٰ به عِلماً قُلنا أبو مُوسَى ؟ قالَ صُبغَ في العِلمِ صِبْغَةً ، ثم خَرجَ منه قُلنا : حُذَيْفَة ؟ قالَ : أعْلمُ أصْحابِ مُحمَّد بالْمُنافِقينَ قالوا : سَلْمانُ ؟ قالَ : أدْرَكَ العلمَ الأوَّلَ ، والعِلمَ الآخِر ، بَحْرٌ لا يُدرَكُ قَعْرُه ، وهو منَّا أهلَ البيتِ قالوا : أبو ذَرْ ؟ قالَ : وَعَىٰ عِلماً عَجزَ عنه فسُئلَ عن نَفسِه قالَ : كُنتُ إذا سَألتُ أُعطيتُ ، وإذا سَكتُّ ابتُديتُ[3] .

وقالَ قَتادَة ، عن أنَسٍ ، قالَ : افتَخرَ الحيَّان من الأنْصارِ ، فقالَت الأوْسُ : مِنَّا غَسيلُ الْمَلائِكَة : حَنْظَلةُ بنُ الرَّاهِب ، ومِنَّا مَنْ اهْتَزَّ له العَرشُ : سَعدٌ ، ومِنَّا مَنْ حَمَته الدَّبَر[4] : عاصِمُ بنُ أبي الأقْلَح ، ومِنَّا مَنْ أُجيزَتْ شَهادَتُه بشَهادَتَين : خُزَيْمَةُ بنُ ثابِت[5] .

ورَوَىٰ قَيسُ بنُ أبي حازِم ، أنَّ عَديَّ بنَ حاتِم جاءَ إلىٰ عُمَرَ ، فقالَ : أمَا تَعرفُني ؟ قالَ : أعرِفُك ، أقَمتَ[6] إذْ كَفَروا ، ووَفَّيتَ إذْ غَدَروا ، وأقْبَلتَ إذْ أدْبَروا[7] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ مَسْعود) ١/ ٤٧١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٧/١٩٣ .
(٢) انظر السير : (سَهْلُ بنُ حُنَيْف) ٢/ ٣٢٥ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/٢٦٨ .
(٣) انظر السير : (أبو مُوسَى الأشْعَريّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/٢٨٠ .
(٤) الدَّبَر : النَّحل والزنابير .
(٥) انظر السير : (خُزَيْمَة بنُ ثَابِتْ) ٢/ ٤٨٥ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/٢٩٤ .
(٦) أقمتَ : أي ثَبتَّ على الإسلام ولم ترتد ، فقد قدم علىٰ أبي بكر الصديق في وقت الردَّة بصَدَقة قومه .
(٧) انظر السير : (عَدِيُّ بنُ حَاتِم) ٣/ ١٦٢ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ١/٣٥٨ .

وعن ابنِ سِيرينَ ، قالَ : أدْرَكتُ القَومَ وهم يُقدِّمونَ خَمسَة مَنْ بدأ بالحارِثِ الأعْوَرِ ثَنَّىٰ بعَبيدَة ، ومَنْ بدأ بعَبيدَة ثَنَّىٰ بالحارِثِ ثم عَلْقَمَة الثالث ، لا شَكَّ فيه ، ثم مَسْروقُ ، ثم شُرَيح ، وإنَّ قوماً أخَسُّهم شُرَيح لقَومٌ لهم شَأنٌ .

وعنْ محمَّد قالَ : كانَ أصْحابُ عبدِ الله بنِ مَسْعود خَمسَةً كلُّهم فيه عَيبٌ : عَبيدَةُ أعْوَر ، ومَسْروقُ أحْدَب ، وعَلْقَمَةُ أعْرَج ، وشُرَيحٌ كَوْسَجْ[1] ، والحَارِثُ أعْوَر[2] .

وقالَ رَوحُ بنُ عُبادَة : حدَّثنا حَجَّاجُ الأسْوَدُ ، قالَ : تَمنَّىٰ رَجلٌ فقالَ : لَيتني بزُهْدِ الحَسَنِ البَصْريِّ ، ووَرَعِ ابنِ سِيرينَ ، وعِبادَةِ عامِرِ بنِ عبدِ قَيْس ، وفِقْهِ سَعيدِ بنِ الْمُسيِّبِ ، وذَكَرَ مُطَرِّف بنَ الشِّخِّير بشيء ، قال : فنَظروا في ذلك فوَجَدوه كلَّه كاملاً في الحَسَن[3] .

وعن أبي إسْحاقَ الفَزاري : سَمعتُ الأوْزاعيَّ يَقولُ : إذا ماتَ ابنُ عَوْن والثَّوريُّ اسْتَوى النَّاسُ[4] .

وقالَ أحمدُ بنُ حَنْبَل : الثِّقَةُ كشُعْبَة ومِسْعَر[5] .

وقالَ أبو وَهْب محمَّدُ بنُ مُزاحِم : سَمعتُ ابنَ الْمُبارَك يَقولُ : رَأيتُ أعْبَدَ النَّاسِ عبدَ العَزيزِ بنِ أبي رَوَّاد ، وأوْرَعَ النَّاسِ الفُضَيلَ بنَ عِيَاض ، وأعْلمَ النَّاسِ سُفْيانَ الثَّوْريَّ ، وأفْقَهَ النَّاسِ أبا حَنيفَة ، ما رَأيتُ في الفِقْهِ مثلَه[6] .

وسُئلَ أبو داود : أيُّما أحْفَظُ وَكيعٌ أو عبدُ الرحْمَـٰن بنُ مَهْدي ؟ قالَ : وَكيعٌ أحْفَظُ وعبدُ الرحْمَـٰن أتْقَنُ ، وقد الْتَقَيا بعدَ العِشاءِ في الْمَسجِد الحَرامِ ، فتَواقَفا حتَّىٰ سَمعا أذانَ الصُّبحِ[7] .

---

(١) الكَوْسَج : الذي لا شَعرَ علىٰ عارضَيه ، ويُقال : النَّقي الخدين من الشعر .
(٢) انظر السير : (علْقَمَة) ٤/ ٥٣ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٤٣ .
(٣) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريُّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٦١ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عَوْن) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٥٧ .
(٥) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٨٩ .
(٦) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٧٣ .
(٧) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨١٠ .

وعن الْمَأمُونِ قالَ : النَّاسُ ثَلاثَةٌ : رَجلٌ منهم مثلُ الغِذَاءِ لا بُدَّ منه ، ومنهم كالدَّواء يُحتاجُ إليه في حالِ الْمَرَض ، ومنهم كالدَّاءِ مَكرُوهٌ علىٰ كلِّ حال .

وعنه قالَ : لا نُزْهةَ ألذُّ من النَّظرِ في عُقُولِ الرِّجالِ[1] .

قالَ عبدُ الله بنُ أبي زياد القَطَوَاني : سَمعتُ أبا عُبَيد يَقولُ : انتُهى العِلمُ إلىٰ أرْبَعة : أبو بَكر بنُ أبي شَيبَة أسْرَدُهم له ، وأحمَدُ بنُ حَنْبَل أفْقَهُهُم فيه ، وعليُّ بنُ الْمَديني أعْلَمُهُم به ، ويَحْيَىٰ بنُ مَعين أكْتَبُهُم له[2] .

وقالَ أبو زُرْعَة : أمْلَىٰ عليَّ أحمَدُ بنُ عاصِم الحَكيمُ الأنْطاكيُّ : النَّاسُ ثلاثُ طَبَقاتٍ : مَطْبوعٌ غالبٌ وهم المؤمنون ، فإذا غَفلوا ذَكروا ، ومَطْبوعٌ مَغلوبٌ فإذا بُصِّروا أبْصَروا ورَجَعوا بقُوَّة العَقل ، ومَطْبوعٌ مَغلوبٌ غيرُ ذي طِباع ولا سَبيلَ إلىٰ رَدِّ هـٰذا بالْمَواعِظِ[3] .

(هـ) رُؤْيا تَدُلُّ علىٰ تَفاوُت مَراتِب الصَّالِحين في الجَنَّة :

قالَ أبو صالِح كاتِبُ اللَّيثُ : حدَّثني يَحْيَىٰ بنُ أيُّوبَ أنَّ رَجُلَين تَآخَيا فتَعاهَدا : إنْ ماتَ أحَدُهما قبلَ الآخَر أنْ يُخبرَه ما وَجدَ ، فماتَ أحَدُهما ، فرآه الآخَرُ في النَّومِ ، فسَأَلَه عن الحَسَنِ البَصْريِّ ؟ قالَ : ذاكَ مَلِكٌ في الجَنَّة لا يُعْصَىٰ ، قالَ : فابنُ سِيرينَ ؟ قالَ : ذاكَ فيما شاءَ اشْتَهَىٰ ، شَتَّان ما بَينهما ، قالَ : فبأيِّ شَيءٍ أدْرَكَ الحَسَنُ ؟ قالَ : بشِدَّة الخَوفِ والحُزْن[4] .

وكانَ الحَكمُ بنُ حَجْل صَديقاً لابنِ سِيرينَ ، فحَزن على ابنِ سِيرينَ حتَّىٰ كان يُعادُ ، ثم قالَ : رَأيتُه في الْمَنام في حالِ كَذا وكَذا ، فسَألتُه لَمَّا سَرَّني : ما فَعلَ الحَسَنُ ؟ قال : رُفِعَ فَوْقي سَبعينَ دَرَجَةً ، قُلتُ : بمَ ؟ فقد كُنَّا نَرَىٰ أنَّك فَوقَه ! قالَ : بطُولِ الحُزْن .

---

(١) انظر السير : (الْمَأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/٨٧٧ .
(٢) انظر السير : (عَليُّ بنُ الْمَدينيّ) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٨ .
(٣) انظر السير : (الأنْطَاكيُّ) ١١/ ٤٠٩ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ٤/٩٥٥ .
(٤) انظر السير : (محمّدُ بنُ سِيرينَ) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥٧١ .

وقد كانَ الأوْزاعيُّ أشارَ عليه يَحْيَىٰ بنُ أبي كَثير ، أنْ يَرتَحلَ إلى البَصْرَة لِلُقِيِّ محمَّدِ بنِ سِيرينَ ، فأتىٰ فوَجدَه في مَرضِ الْمَوتِ ، فعادَه ولَمْ يَسمَعْ منه ، رَحمَهُ اللهُ تَعالَىٰ ، وبَلغَني أنَّ اسمَ أُمِّه صَفيَّةُ ، مَوْلاةٌ لأبي بَكر الصِّدِّيق[1] .

١٣ـ دِفَاعُ السَّلَف بعضِهم عن بعض :

قالَ كعْبُ بنُ مَالِك : ولمَّا بَلَغَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَبُوك ذَكَرَني ، وقال : « ما فَعَلَ كعْبٌ ؟ » فقال رجُلٌ من قَوْمِي : خَلَّفَهُ يا نَبيَّ اللهِ بُرداه ، والنَّظَرُ في عِطْفَيْه ، فقال مُعاذٌ : بِئْسَ ما قُلتَ : واللهِ ما نَعْلمُ إلاَّ خَيْراً .

إلىٰ أنْ قال : فلَمَّا رَآني صلى الله عليه وسلم تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَب وقال صلى الله عليه وسلم : « ألَمْ تَكن ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » قُلتُ : بلَىٰ قال : « فمَا خَلَّفَكَ ؟ » قُلتُ : واللهِ لَوْ بَينَ يَدَي أَحَدٍ غَيرَك جَلَسْتُ لخَرَجْتُ من سُخْطِهِ عليَّ بعدُ ، لقد أُوتِيتُ جَدَلاً ، ولكنْ قد عَلِمتُ يا نَبيَّ الله أنِّي أُخْبِرُكَ اليومَ بقَولٍ تَجِدُ عليَّ فيه وهُوَ حَقٌّ فإنِّي أَرْجُو فيه عُقْبَى الله .

إلىٰ أنْ قالَ : والله ما كُنتُ قَطُّ أَيْسَرَ ولا أَخَفَّ حاذاً[2] منِّي حين تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فقَالَ صلى الله عليه وسلم : « أمَّا هـٰذا فَقَدْ صَدَقَكم ، قُمْ حتىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » فقُمتُ .

إلىٰ أن قال : ونَهىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ[3] .

فجعلتُ أخرجُ إلى السوق ، فلا يُكلِّمني أحدٌ ، وتَنكَّرَ لنا الناسُ ، حتىٰ ما هُم بالذين نعرفُ ، وتَنكَّرَت لنا الحيطانُ والأرضُ ، وكنتُ أطوفُ وآتي المسْجدَ ، فأدخلُ وآتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأسَلِّمُ عليه ، فأقولُ هل حَرَّكَ شَفَتَيه بالسلامِ!! ؟[4] .

---

(١) انظر السير : (محمّدُ بنُ سِيرينَ) ٤/٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/٥٧١ .

(٢) الحاذ : الحال .

(٣) أيُّها الثلاثةُ : مبني على الضم في محل نصب على الاختصاص ، أي : مختصين بذلك دون بقية الناس .

(٤) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٤/٣٠٠ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ خالدِ بنِ مِهْران ، الْمَعروفِ بالحَذَّاء : وَثقَّه أحمَدُ بنُ حَنْبَل ، ويَحْيىٰ بنُ مَعين وجَماعةٌ وحَديثُه في الصِّحاح .

وقالَ عبَّادُ بنُ عبَّاد : أرادَ شُعبةُ أنْ يَضعَ من خالد الحذَّاء فأتَيتُه أنا وحمَّادُ بنُ زَيْد ، فقُلتُ له : ما لَكَ : أجُنِنْتَ ؟ أنتَ أعلمُ! قال : وتَهدَّدناه فأمْسَك[1] .

ورَوىَ حيَّانُ بنُ مُوسَى الْمَروَزيُّ ، قالَ : سُئلَ ابنُ الْمُبارَك : مَالِكٌ أفْقَهُ ، أو أبو حَنيفَة ؟ قالَ : أبو حَنيفَة وقالَ الخُرَيْبيُّ : ما يَقعُ في أبي حَنيفَة إلاَّ حاسِدٌ أو جاهِلٌ .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ سَعيد القَطَّان : لا نَكذبُ اللهَ ، ما سَمعنا أحْسَنَ من رَأيِ أبي حَنيفَة ، وقد أخَذْنا بأكثَر أقْوالِه .

وقالَ الشَّافِعيُّ : النَّاسُ في الفِقْهِ عِيالٌ علىٰ أبي حَنيفَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الإمَامَةُ في الفِقْهِ ودَقائقِه مُسلَّمةٌ إلىٰ هٰذا الإمَامِ ، وهَٰذا أمْرٌ لا شَكَّ فيه .

وليسَ يصحُّ في الأذهانِ شيء إذا احتاجَ النهارُ إلىٰ دليلِ

وسِيرَتُه تَحْتَملُ أنْ تُفْرَدَ في مُجلَّدَين ، رَضيَ اللهُ عنه ورَحمَه[2] .

قالَ أبو زُرعَة الدِّمَشقيُّ : ابنُ إسْحاقَ بنُ يَسار رجلٌ قد اجتمعَ الكُبَراء من أهلِ العِلمِ على الأخْذِ عنه ، منهم سُفْيانُ ، وشُعبَة ، وابنُ عُيَيْنَة ، والحَمَّادان ، وابنُ الْمُبارَك ، وإبْراهيمُ بنُ سَعد ، ورَوىَ عنه من القُدَماء يَزيدُ بنُ أبي حَبيب وقد اخْتبَرَه أهلُ الحَديث فرَأوا صِدْقاً وخَيراً مع مَدحِ ابنِ شِهابٍ له وقد ذَاكرتُ دُحَيماً قولَ مَالك فرَأىٰ أنَّ ذلك لَيسَ للحَديثِ إنَّما هو لأنَّه اتُّهِمَ بالقَدَر[3] .

وقالَ ابنُ عَدي : ولوْ لمْ يكن لابنِ اسْحاقَ من الفَضلِ إلاَّ أنَّه صَرفَ الْمُلوكَ عن

---

(١) انظر السير : (خَالدُ بنُ مِهْران) ٦/ ١٩٥ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٤٠ .

(٢) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٨/٦٦٣ .

(٣) انظر السير : (ابنُ إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/٦٧٥ .

الاشتغالِ بكُتبٍ لا يَحصُلُ منها شَيءٌ إلى الاشتغالِ بمَغَازي رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ومَبعَثِه ومُبتَدأ الخَلقِ ، لكانَت هـٰذه فَضيلَةٌ سَبقَ بها ، ثم مِن بَعده صَنَّفَها قَومٌ آخَرون فلَمْ يَبلُغوا مَبلَغَ ابنِ إسْحاقَ منها ، وقد فتَّشتُ أحاديثَه كَثيراً فلَمْ أجد من أحاديثِه ما يَتهيَّأ أنْ يُقطَعَ عليه بالضَّعفِ ورُبَّما أخْطأ ، أو يَهِمُ في الشَيء بعد الشَيء كما يُخطيءُ غَيرُه ولمْ يَتخلَّف في الرِّوايَة عنه الثِّقاتُ والأئمَّةُ وهو لا بَأسَ به .

ماتَ ابنُ إسْحاقَ سَنةَ خَمسينَ ومئة[1] .

وقالَ حَنْبَلُ بنُ إسْحاقَ : سَمعتُ ابنَ مَعين يَقولُ : رَأيتُ عندَ مَرْوانَ بنِ مُعاويَة لَوْحاً فيه أسْماءُ شُيوخٍ : فُلانٌ رَافِضِيٌّ ، وفُلانٌ كَذَا ، ووَكيعٌ رَافِضِيٌّ ، فقُلتُ لِمَرْوانَ : وَكيعٌ خَيرٌ مِنْكَ ، قالَ : منِّي ؟ قُلتُ : نَعَم فسَكتَ ، ولَوْ قالَ لي شَيئاً ، لَوَثَبَ أصْحابُ الحَديثِ عَليه قالَ : فبَلغَ ذلكَ وَكيعاً ، فقالَ : يَحْيىٰ صاحِبُنا ، وكانَ بعدَ ذلكَ يَعرفُ لي ، ويُرَحِّبُ[2] .

وقال الذهبيُّ في مِحْنةِ وَكِيعٍ : مِحْنَةُ وَكِيعٍ ـ وهي غَريبَةٌ ـ تَوَرَّطَ فيها ولَمْ يُرِدْ إلاَّ خَيْراً ، ولكنْ فاتَتْه سَكْتَةٌ ، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كفَىٰ بالمَرْءِ إثْماً أنْ يُحَدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ ، فلْيَتَّقِ عبدٌ رَبَّه ، ولا يَخافَنَّ إلاَّ ذَنْبَه » .

قال عليُّ بنُ خَشْرَم : حَدَّثنا وَكيعٌ عن إسْماعيلَ عن أبي خالد ، عن عبدِ الله البَهِيّ ، أنَّ أبا بَكْرٍ الصِّديق جاءَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد وَفاتِه ، فأكَبَّ عليه ، فقبَّلَه ، وقال : بأبي وأُمِّي ، ما أطْيَبَ حَياتَكَ ومَيْتَتَكَ ! ثمَّ قال البَهِيُّ : وكان تُرِكَ يَوماً وليلةً حتىٰ رَبَا بَطْنُهُ ، وانْثَنَتْ خِنْصَراهُ ـ قال ابنُ خَشْرم : فلمَّا حدَّثَ وَكيعٌ بهـٰذا بمَكةَ ، اجْتَمَعتْ قُرَيْشٌ ، وأرادُوا صَلْبَ وَكيعٍ ، ونَصَبوا خَشَبَةً لِصَلْبِه ، فجاء سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة ، فقال لهم : اللهَ اللهَ ! ! ، هـٰذا فَقيهُ أهْلِ العِراقِ ، وابنُ فقيهِه ، وهـٰذا حَديثٌ مَعروفٌ قال سُفيانُ : ولَمْ أكُنْ سَمعْتُه إلاَّ أنِّي أرَدْتُ تَخْليصَ وَكيعٍ .

قال عليُّ بنُ خَشْرم : سَمعْتُ الحديثَ من وَكيعٍ ، بعدما أرادُوا صَلْبَهُ فتَعَجَّبتُ من

---

(١) انظر السير : (ابنُ إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٧٥ .

(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨١٠ .

جَسَارَتِهِ ، وأُخْبِرتُ أنَّ وَكيعاً احْتَجَّ ، فقال : إنَّ عِدَّةً من أصْحابِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم منهم عُمَرُ رضي الله عنه قالوا : لَمْ يَمُتْ رسُولُ الله فأرادَ اللهُ أنْ يُرِيَهُم آيةَ المَوْتِ .

فهٰذه زَلَّةُ عَالِمٍ ، فما لوَكيعٍ ولِروايَةِ هٰذا الخَبَرِ المُنْكَرِ المُنْقَطِعِ الإسْناد!! ، كادَتْ نفْسُه أنْ تَذهَبَ غَلطاً ، والقائمُونَ عليه مَعْذورُونَ ، بَلْ مَأجُورُونَ ، فإنَّهم تَخَيَّلُوا مِنْ إشاعَةِ هٰذا الخَبَرِ المَرْدودِ ، غَضّاً ما لمَنْصِبِ النُّبُوَّة ، وهو في بادِىءِ الرَّأيِ يُوهِمُ ذلك ، ولكِنْ إذا تَأمَّلْتَهُ ، فلا بَأسَ إنْ شاءَ اللهُ بذلك ، فإنَّ الحَيَّ قد يَرْبُو جَوْفُهُ ، وتَسْتَرْخِي مَفاصِلُه ، وذلك تَفَرُّعٌ من الأمْراضِ ، و« أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأنْبياء » ، وإنَّما المَحْذورُ أنْ تُجَوِّزَ عليه تَغَيُّرَ سائِرِ مَوْتَى الآدَمِيِّينَ ورائِحَتَهم ، وأَكْلَ الأرضِ لأجْسامِهِم ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم فمُفارِقٌ لسائِرِ أُمَّتِه في ذلك ، فلا يَبْلَىٰ ، ولا تَأكُلُ الأرضُ جَسَدَه ، ولا يَتَغَيَّرُ رِيحُه ، بَلْ هو الآن ، وما زالَ أطْيَبَ رِيْحاً من المِسْكِ ، وهو حيٌّ في لَحْدِه حَياةَ مِثْلِهِ في البَرْزَخِ ، التي هي أكْمَلُ من حَياةِ سائِرِ النَّبِيِّينَ ، وحَياتُهم بلا رَيْبٍ أتَمُّ وأشْرَفُ من حَياةِ الشُّهَداءِ الذين هم بِنَصِّ الكِتَابِ ﴿ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1] ، وهَؤلاءِ حَياتُهُم الآنَ التي في عالَمِ البَرْزَخِ حَقٌّ ، ولكِنْ لَيْسَت هي حَياةَ الدُّنْيا من كُلِّ وَجْهٍ ، ولا حَياةَ أهْلِ الجَنَّةِ من كُلِّ وَجْهٍ ، ولهُم شِبْهٌ بحَياةِ أهْلِ الكَهْفِ ، ومن ذلك : اجْتِماعُ آدَمَ ومُوسَىٰ ، لمَّا احْتَجَّ عليه مُوسَىٰ ، وحاجَّهُ آدَمُ بالعِلْمِ السَّابِق كان اجْتِماعُهُما حَقّاً ، وهُما في عالَمِ البَرْزَخِ ، وكذلك نَبيُّنا صلى الله عليه وسلم أَخْبَرَ أنَّه رَأىٰ في السَّماواتِ آدَمَ ومُوسَىٰ وإبْراهيمَ وإدْريسَ وعِيسَىٰ ، وسَلَّمَ عليهِم ، وطَالَتْ مُحاوَراتُه مع مُوسَىٰ ، هٰذا كُلُّه حَقٌّ والذي منهم لَمْ يَذُقِ المَوتَ بَعْدُ هو عيسَىٰ عليه السلام ، فقد تَبَرْهَنَ لك أنَّ نَبيَّنا صلى الله عليه وسلم ما زالَ طَيِّباً مُطَيَّباً ، وأنَّ الأرضَ مُحَرَّمٌ عليها أكْلُ أجْسادِ الأنْبياءِ ، وهٰذا شيء سَبيلُهُ التَّوقيفُ ، وما عَنَّفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّحابَةَ رضي اللهُ عنهُم لمَّا قالوا له بِلا علْمٍ : وكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاتُنا عليك وقد أَرَمْتَ ؟ ـ يَعْنِي بَلِيتَ ـ فقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٩ .

« إنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأرْضِ أنْ تَأكلَ أجْسادَ الأنْبياءِ » .

وهـٰذا بَحثٌ مُعتَرِضٌ في الاعْتِذارِ عن إمامٍ من أئِمَّةِ المسلمين ، وقد قَامَ في الدَّفْعِ عنْهُ مثْلُ إمامِ الحِجازِ سُفْيانَ بن عُيَيْنَة ، ولولا أنَّ هـٰذه الواقِعَةُ في عِدَّةِ كُتُبٍ ، وفي مثْلِ « تاريخِ الحافِظِ بنِ عَساكِر » ، وفي « كاملِ الحافِظِ ابنِ عَدِيّ » لأعْرَضْتُ عنها جُملَةً ، ففيها عِبْرةٌ .

قال عليُّ بنُ عثَّام : مَرِضَ وَكيعٌ ، فدَخَلْنا عليه ، فقال : إنَّ سُفْيانَ أتَانِي ، فبَشَّرَنِي بجِوارِهِ ، فأنا مُبادِرٌ إليه .

ماتَ وَكيعٌ سَنةَ سَبعٍ وتِسْعينَ ومِئَة يومَ عاشُوراءَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عاشَ وَكيعٌ ثمَانياً وسِتِّينَ سَنةً سِوىٰ شَهرٍ أو شَهْرَينِ[1] .

وقالَ عَليُّ بنُ أحمَد بنِ النَّضْر الأزدي ، سَمعتُ أحمَدَ بنَ حَنْبَل ، وسُئلَ عن الشَّافِعيِّ ، فقالَ : لقد مَنَّ اللهُ عَلينا به ، لقد كُنَّا تَعلَّمنا كَلامَ القَومِ ، وكَتبْنَا كُتُبَهم ، حتَّىٰ قدِمَ عَلينا ، فلمَّا سَمعنا كَلامَه ، عَلِمنا أنَّه أعْلم من غَيرِه ، وقد جالَسْناه الأيَّامَ واللَّيالي ، فمَا رَأينا منه إلاَّ كُلَّ خَيرٍ ، فقيلَ له : يا أبا عبدِ الله ، كانَ يَحْيَىٰ وأبو عُبَيد لا يَرْضَيانه ـ يُشيرُ إلى التَّشَيُّع وأنَّهما نَسَباه إلىٰ ذلك ـ فقالَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل : ما نَدري ما يَقولان ، والله مَا رَأينا منه إلاَّ خَيراً[2] .

وقالَ سَلمَةُ بنُ شَبيب : قُلتُ لأحمَدَ بنِ حَنْبَل : طَلبتُ عَفَّانَ بنَ مُسلم في مَنزِله ، قالوا : خَرجَ ، فخَرجتُ أسألُ عنه ، فقيلَ : تَوجَّهَ هـٰكذا ، فجَعلتُ أمضي أسْألُ عنه ، حتَّى انتَهيتُ إلىٰ مَقبَرَةٍ ، وإذا هو جالِسٌ يَقرأُ علىٰ قَبرِ بنتِ أخي ذِي الرِّياسَتين ، فبَرَقتُ عليه ، وقُلتُ : سَوْءَةً لكَ قالَ : يا هَـٰذا ، الخُبزَ الخُبزَ! قلتُ : لا أشْبَعَ اللهُ بَطنَكَ قالَ : فقالَ لي أحمَدُ : لا تَذكُرَنَّ هَـٰذا فإنَّه قد قامَ في الْمِحْنَة مَقاماً مَحْموداً عليه ، ونَحوَ هـٰذا من الكَلامِ .

ماتَ عَفَّانُ في سَنةِ عِشرينَ ومئتَين أو قَبلَها .

---

(١) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢١٨ .

(٢) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٥٠ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عاشَ خمساً وثَمانينَ سَنةً رَحمَهُ الله[1] .

وقالَ الحُسَينُ بنُ إسْماعيلَ الفَارِسيُّ ، سَألتُ عَبدُوسَ بنَ هانىء عن حالِ عليِّ بنِ الجَعْد ، فقالَ : ما أعلَمُ أنِّي لَقيتُ أحفَظَ منه ، فقالَ : كانَ يُتهَم بالجَهْمِ .

قالَ : قد قيلَ هـٰذا ، ولَمْ يَكنْ كما قالوا ، إلاَّ أنَّ ابنَه الحَسَنَ بنَ عَليٍّ كانَ علىٰ قَضاء بَغدادَ ، وكانَ يَقولُ بقَولِ جَهْم ، قالَ : كانَ عندَ عَليِّ بنِ الجَعْد عن شُعبَة نَحو من ألفٍ ومئتَي حَديثٍ ، وكانَ قد لَقِيَ الْمَشايخَ فزَهَدتُ فيه بسَببِ هـٰذا القَولِ ، ثم نَدِمتُ بعد[2] .

وقالَ محمَّدُ بنُ حمَّادَ الْمُقرىءُ : سَألتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين عن عَليِّ بنِ الجَعْد ، فقالَ : ثِقَةٌ صَدُوقٌ ، ثِقَةٌ صَدُوقٌ قُلتُ : فهـٰذا الذي كانَ منه ؟ فقالَ : أيْش كانَ منه ؟ ثِقَةٌ صَدُوقٌ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ سَعيدِ بنِ كَثيرِ بنِ عُفَيْر ، قالَ ابنُ عَدي : هو عند النَّاسِ ثِقَةٌ ، ثم سَاقَ قَولَ أبي إسْحاقَ السَّعْدي الجَوْزَجانيِّ في سَعيدِ بنِ عُفَيْر : فيه غَيرُ لَونٍ من البِدَع ، وكانَ مُخَلِّطاً غَيرَ ثِقَةٍ ، فهَـٰذا من مُجازَفات السَّعْدي[4] .

قالَ ابنُ عَدي : هـٰذا الذي قالَه السَّعْديُّ لا مَعنَىٰ له ، ولَمْ أسْمَعْ أحداً ، ولا بَلَغَني عن أحَدٍ كلامٌ في سَعيدِ بنِ عُفَيْر ، وقد حدَّثَ عَنهُ الأئمَّةُ ، إلاَّ أنْ يَكونَ السَّعْديُّ أرادَ به سَعيدَ بنَ عُفَيْر آخَر وقالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعين : رَأيتُ بمِصْرَ ثَلاثَ عَجائبَ : النيلُ ، والأهرامُ ، وسَعيدُ بنُ عُفَيْر .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : حَسْبُكَ أنَّ يَحْيَىٰ إمامَ الْمُحَدِّثينَ انْبَهَرَ لابنِ عُفَير وقالَ أبو سَعيد بنُ يُونُس : كانَ سَعيدُ من أعْلَمِ النَّاسِ بالأنْسَابِ ، والأخْبَارِ الماضيَة ، وأيَّامِ العَرَبِ والتَّواريخ ، كانَ في ذلك كُلِّه شَيئاً عَجيباً ، وكانَ مع ذلك أديباً فَصيحاً ، حَسَنَ

---

(١) انظر السير : (عَفَّان) ١٠/ ٢٤٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٧٤ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بنُ الجَعْد) ١٠/ ٤٥٩ـ ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٨٣ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بنُ الجَعْد) ١٠/ ٤٥٩ـ ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٨٤ .
(٤) انظر السير : (سَعيدِ بنِ كَثيرِ بنِ عُفَيْر) ١٠/ ٥٨٣ـ ٥٨٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٩٧ .

البَيانِ ، حاضِرَ الحُجَّة ، لا تُمَلُّ مُجالَسَتُه ، ولا يُنزَفُ علمُه[1] .

وذكرَ النَّسائيُّ أحمَدَ بنَ صالِح يَوماً ، فرَمَاهُ ، وأسَاءَ الثَّناءَ عَليه[2] .

قالَ ابنُ يُونُس : لَمْ يَكنْ عندَنا ـ بحَمِد الله ـ كما قالَ النَّسائيُّ ولَمْ يكن له آفَةٌ غيرُ الكِبْر[3] .

وقالَ عبدُ الكَريم بنُ النَّسائيِّ عن أبيه : أحمَدُ بنُ صالِح لَيسَ بثِقَةٍ ولا مَأمُونٍ ، تَرَكَه محمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ ، ورَمَاهُ يَحْيَىٰ بنُ مَعين بالكَذِب[4] .

قال ابنُ عَدي : أحمَدُ بنُ صالِح من حُفَّاظِ الحَديثِ ، وخاصّةً لحَديثِ الحِجازِ ، ومن الْمَشْهُورينَ بمَعرفَتِه ، وحَدَّثَ عنه البُخاريُّ مع شِدَّة اسْتِقصَائه ، ومحمَّدُ بنُ يَحْيىٰ ، واعْتِمادُهُما عليه في كَثير من حَديثِ الحِجازِ وحدَّثَ عنه مَنْ حدَّث من الثِّقات ، واعتَمَدوه حِفْظاً وإتْقاناً وكلامُ ابنُ مَعين فيه تَحامُل وأمَّا سُوءُ ثَناء النَّسَائيِّ عليه ، فسَمعتُ محمَّدَ بنَ هَارُونَ بنِ حَسَّان البَرْقي يَقولُ : هـٰذا الخُراسَانيُّ يَتكلَّمُ في أحمَدَ بنِ صالِح وحَضَرتُ مَجلِسَ أحمَدَ بنِ صالِح ، وطردَه من مَجلِسه ، فحَمَلَه ذلكَ علىٰ أنْ تَكلَّمَ فيه قالَ : وهـٰذا أحمَدُ بنُ حَنْبَل قد أثْنَىٰ عليه ، فالقَولُ ما قالَه أحمَدُ لا ما قالَه غَيرُه ، ولَوْلا أنِّي شَرطتُ في كتابي هـٰذا أنْ أذكُرَ فيه كُلَّ من تَكلَّمَ فيه مُتكلِّم لكُنتُ أُجِلُّ أحمدَ بنَ صالِح أن أذكُرَه[5] .

وعن حمَّادَ الحَرَّانيِّ أنَّه سَمعَ السِّلَفيَّ يُنكِرُ على الحاكم في قولِه : لا تَجوزُ الرِّوايَة عن ابنِ قُتَيبَة ويَقولُ : ابنُ قُتَيبَة من الثِّقاتِ ، وأهلِ السُّنَّة ثم قالَ : لكنَّ الحاكمَ قصدَه لأجلِ الْمَذْهَب .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : عَهْدي بالحاكم يَميلُ إلى الكَرَّاميَّة ، ثم ما رَأيتُ لأبي

---

(١) انظر السير : (سَعيدِ بنِ كَثيرِ بنِ عُفَيْر) ١٠/ ٥٨٣ـ٥٨٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٩٧ .
(٢) انظر السير : (أحمَدُ بنُ صالِح) ١٢/ ١٦٠ـ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٧/ ٩٨٩ .
(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ صالِح) ١٢/ ١٦٠ـ١٧٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٩٠ .
(٤) انظر السير : (أحمَدُ بنُ صالِح) ١٢/ ١٦٠ـ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٩٠ .
(٥) انظر السير : (أحمَدُ بنُ صالِح) ١٢/ ١٦٠ـ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٩٠ .

محمَّد بنِ قُتَيبَة في كتاب « مُشْكَل الحَديث » ما يُخالِفُ طَريقَة الْمُثْبِتَةِ والحَنَابِلَة ، ومنْ أنَّ أخْبَارَ الصِّفات تُمَرُّ ولا تُتَأوَّل ، فالله أعلَم[1] .

قالَ السُّلَميُّ : سَألتُ الدَّارَقُطنيَّ عن أبي حامِد ابنِ الشَّرْقي فقالَ : ثِقةٌ مَأمونٌ إمَامٌ قُلتُ : لِمَ تكلَّمَ فيه ابنُ عُقدَة ؟ فقالَ : سُبحانَ الله تَرَىٰ يُؤثِّرُ فيه مثلُ كلامِه ، ولَوْ كانَ بَدَلَ ابنِ عُقْدَة يَحْيَىٰ بنُ مَعين فقُلتُ : وأبو عَليّ ؟ قالَ : ومَنْ أبو عليّ حتَّىٰ يُسمَع كلامُه فيه .

وقالَ الخَليليُّ : هو إمَامُ وَقتِه بِلا مُدافَعَة .

ماتَ سَنةَ خَمسٍ وعِشرينَ وثَلاثِ مِئة[2] .

قال أبو شامَة : كان الرِّفْقُ بابن شَنَبُوذ أوْلَىٰ ، وكان اعتقالُه وإغْلاظُ القَولِ له كافياً وليسَ كان بمُصيب فيما ذَهبَ إليه ، لكن أخْطاؤُه في واقِعَةٍ لا تُسقِطُ حَقَّه من حُرمَة أهلِ القُرآنِ والعِلْم .

مات ابنُ شَنَبوذ سَنةَ ثمان وعشرين وثلاث مئة ، وهو في عَشْر الثمانين أو جاوَزَه[3] .

قالَ الحاكمُ : قُلتُ لأبي عَليٍّ الحافِظ : إنَّ بَعضَ النَّاسِ يَقولُ في أبي العبَّاسِ بنِ عُقْدَة ، قالَ : في ماذا ؟ قُلتُ : في تَفَرُّدِه بهَـٰذه الْمُقْحَمَات عن هَؤلاء الْمَجْهُولين فقالَ : لا تَشتَغلْ بمثل هَـٰذا ، أبو العَبَّاس إمَامٌ حافِظٌ مَحلُّه مَحلُّ مَنْ يُسألُ عن التَّابعينَ وأتْباعِهم .

قالَ أبو أحمَد بنُ عَدي : هو صاحِبُ مَعرِفَة وحِفظ وتقدُّم في الصَّنعَة ، رَأيتُ مَشايخَ بَغدادَ يُسيئون الثَّناءَ عليه ، ثم إنَّ ابنَ عَدي قَوَّىٰ أمْرَه ، ومَشَّاه .

ماتَ ابنُ عُقْدَة ، سَنةَ اثنَتَين وثَلاثينَ وثَلاثِ مئة[4] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ قُتَيْبَة) ١٣/ ٢٩٦ـ ٣٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٨٨ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الشَّرْقيّ) ١٥/ ٣٧ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٧٩ .

(٣) انظر السير : (ابنُ شَنَبوذ) ١٥/ ٢٦٤ـ ٢٦٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٢٥ .

(٤) انظر السير : (ابنُ عُقْدَة) ١٥/ ٣٤٠ـ ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٣٦ .

١٤ـ أمْثلَةٌ على الإنْصَاف :

عن عاصِمِ بنِ كُلَيْبٍ ، عن أبيهِ : قال : انتَهَيْنا إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه ، فذَكَرَ عائِشَةَ ، فقال : خَليلَةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا حَديثٌ حَسَن ومُصْعب فصالحٌ لا بَأسَ به وهـٰذا يقُولُه أميرُ المُؤمِنينَ في حَقِّ عائِشَةَ مع ما وَقَعَ بَينَهُما ، فرَضِيَ الله عنهُما ولا رَيْبَ أنَّ عائِشَةَ نَدِمَتْ نَدامَةً كُليَّة علىٰ مَسيرِها إلى البَصْرَةِ وحُضُورِها يومَ الجَمَلِ ، وما ظَنَّتْ أنَّ الأمرَ يَبلُغُ ما بَلَغَ[1] .

وقالَ زَكريّا بنُ أبي زائدَة : سَمعتُ عامِراً يَقولُ : تَزوَّجَ عَليٌّ أسماءَ بنتَ عُمَيْس ، فتَفاخَر ابْناهَا : محمَّدُ بنُ أبي بَكر ، ومحمَّدُ بنُ جَعْفَر ، فقالَ كُلٌّ منهما : أنا أكْرَمُ مِنكَ ، وأبي خَيرٌ من أبيكَ .

قالَ : فقالَ لها عَليٌّ : اقْضِ بَينَهما قالَت : ما رَأيتُ شاباً من العَرَب خَيراً من جَعْفَر ، ولا رَأيتُ كَهْلاً خَيراً من أبي بَكر .

فقالَ عَليٌّ : ما تَركتِ لنَا شَيئاً ، ولَوْ قُلتِ غَيرَ الذي قُلتِ لَمَقَتُّك .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إنَّ ثَلاثَةً أنتَ أخَسُّهم خِيارٌ[2] .

وعن عبدِ الرحمَـٰن بنِ شَمَاسَة قالَ : دَخلتُ علىٰ عائشَةَ ، فقالَت : مِمَّن أنتَ ؟ قُلتُ : من أهْلِ مِصْرَ قالت : كيفَ وَجدتُم ابنَ حُدَيْج في غَزاتِكم هـٰذه ؟ قُلتُ : خَيرُ أمير ، ما يَقفُ لرَجُلٍ منَّا فَرَسٌ ولا بَعيرٌ إلاَّ أبْدلَ مَكَانَه بَعيراً ، ولا غُلامٌ إلاَّ أبْدلَ مَكانَه غُلاماً ، قالَت : إنَّه لا يَمنَعُني قَتلَه أخي أحَدِّثَكم ما سَمعتُ من رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، إنِّي سَمعتُه يَقولُ : « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ ، وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْه »[3] .

---

(١) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤٢ .

(٢) انظر السير : (أسْماءُ بنتُ عُمَيْس) ٢/ ٢٨٢ـ ٢٨٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٦٠ .

(٣) انظر السير : (مُعاويَةُ بنُ حُدَيج) ٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٢٧ .

وقالَ حُصَينُ بنُ الْمُنذِر : صَلَّى الوَليدُ بنُ عُقْبَة بالنَّاسِ الفَجْرَ أرْبَعاً وهو سَكْرانٌ ثم الْتفتَ ، وقالَ : أزيدُكم ؟ فبَلغَ عُثْمانَ ، فطَلبَه ، وحَدَّه .

وهـٰذا مِمَّا نَقَموا علىٰ عُثمانَ أنْ عَزلَ سَعدَ بنَ أبي وَقَّاص عن الكُوفَة ووَلَّىٰ هـٰذا[1] .

وكان الوَليدُ بنُ عُقبَة مع فِسْقِه ـ واللهُ يُسامِحه ـ شُجاعاً قائماً بأمْرِ الجِهاد وله أخْبَارٌ طَويلَةٌ في « تاريخ دِمَشْقَ » ، ولَمْ يَذكُر وَفاتَه[2] .

وعن الحَكَم ، أنَّ الأسْودَ بنَ يَزيد بنِ قَيْس كانَ يَصومُ الدَّهْرَ ـ هـٰذا صَحيحٌ عنه ـ وكأنَّه لَمْ يَبلُغْه النَّهيُّ عن ذلك ، أو تأوَّل .

كانت وَفاةُ الأسْوَد سَنةَ خَمسٍ وسَبعينَ ، واللهُ يَرحمُه[3] .

ورَوَىٰ يَحْيَىٰ بنُ أبي بُكَير الكِرْمانيُّ ، عن أبيه ، قالَ : كان شَهْرُ بنُ حَوْشَب علىٰ بَيتِ الْمَالِ ، فأخَذَ خَريطَة فيها دَرَاهم فقيلَ فيه :

لقـدَ بـاعَ شَهْـرٌ دِينَـهُ بخَـريطـةٍ ... فَمَـنْ يـأْمـنُ القُـرَّاءَ بعـدكَ يـا شَهْـرُ
أخَـذْتَ بِهـا شيئـاً طفيفـاً فَبِعْتَـهُ ... مِنْ ابنِ جَرِيرٍ إنَّ هَـٰذَا هُوَ ٱلغَدْرُ

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إسْنَادُها مُنقَطِع ، ولَعلَّها وَقعَت ، وتابَ منها ، أو أخَذَها مُتأوِّلاً أنَّ له في بَيتِ مَالِ الْمُسلمينَ حَقاً ، نَسألُ اللهَ الصَّفْح[4] .

وقالَ يَعقوبُ بنُ شَيْبَة : شَهْرُ بنُ حَوْشَب ثِقةٌ ، طَعنَ فيه بعضُهم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الرَّجُلُ غَيرُ مَدفُوعٍ عن صِدقٍ وعِلمٍ ، والاحْتجاجُ به مُترَجِّح[5] .

---

(١) انظر السير : (الوَليدُ بنُ عُقبَة) ٣/ ٤١٢ـ٤١٦ ، وانظر النزهة : ١/٤٠٤ .
(٢) انظر السير : (الوَليدُ بنُ عُقبَة) ٣/ ٤١٢ـ٤١٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٠٤ .
(٣) انظر السير : (الأسْوَدُ بنُ يَزيد) ٤/ ٥٠ـ٥٣ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٢ .
(٤) انظر السير : (شَهْر بن حَوْشَب) ٤/ ٣٧٢ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥١٣ .
(٥) انظر السير : (شَهْر بن حَوْشَب) ٤/ ٣٧٢ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٥/٥١٣ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وشُهِرَ أبو جَعْفَر بالباقر ، من : بَقَرَ العِلمَ ، أي شَقَّه فعَرفَ أصْلَه وخَفِيَّه ولقد كانَ أبو جَعْفَر إماماً ، مُجتهداً تالياً لكتابِ الله ، كَبيرَ الشَّأنِ ولكن لا يَبلُغُ في القُرآنِ دَرجَةَ ابنِ كَثير ونَحْوِه ، ولا في الفِقْهِ دَرجَة أبي الزِّنادِ ، ورَبيعَة ، ولا في الحِفْظِ ومَعْرفَة السُّنَن دَرجَة قَتادَة وابنِ شِهاب ، فلا نُحابيه ، ولا نَحيفُ عليه ، ونُحبُّه في الله لِمَا تَجمَّع فيه من صِفاتِ الكَمَال[1] .

وقالَ عليُّ بنُ أبي حَمَلَة : قَدمَ عَلينا مُسلمُ بنُ يَسار دِمَشْقَ ، فقُلنا له : يا أبا عبدِ الله ، لَوْ عَلمَ اللهُ أنَّ بالعِراقِ مَنْ هو أفْضلُ منكَ ، لجاءَنا به ، فقالَ : كَيفَ لَوْ رَأيتُم عبدَ الله بنَ زَيْد أبا قِلابَةَ الجَرْميَّ قالَ : فما ذَهبَت الأيَّامُ واللَّيالي حتىٰ قَدِمَ علينا أبو قِلابَة[2] .

قالَ ابنُ عَوْن : لَمَّا وَقعت الفتنةُ زمنَ ابن الأشعَث ، خَفَّ مسلمُ بنُ يَسار فيها ، وأبْطَأ الحَسَنُ ، فارْتَفعَ الحَسَنُ ، واتَّضَعَ مُسْلم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إنَّما يُعْتَبَرُ ذلك في الآخِرَة ، فقد يَرتَفِعانِ معاً[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة قَتادَةَ بن دِعامَة قُدوة المُفَسِّرين : هُوَ حُجَّةٌ بالإجْماعِ إذا بيَّنَ السَّماعَ ، فإنَّه مُدَلِّسٌ مَعْروفٌ بذَلكَ ، وكان يَرَى القَدَرَ ، نَسْألُ اللهَ العَفْوَ ، ومع هـٰذا فما تَوَقَّفَ أحَدٌ في صِدْقِهِ ، وعَدالَتِهِ ، وحِفْظِهِ ، ولَعَلَّ اللهَ يَعْذُرُ أمْثالَه مِمَّن تَلَبَّسَ ببِدْعَة يُريدُ بها تَعْظيمَ البَاري وتَنْزيهَه ، وبَذَلَ وُسْعَه ، والله حَكَمٌ عَدْلٌ لَطيفٌ بعِبادِه ، ولا يُسْألُ عَمَّا يَفْعَلُ ، ثُمَّ إنَّ الكَبيرَ من أئِمَّةِ العِلْم إذا كَثُرَ صَوابُه ، وعُلِمَ تَحَرِّيهِ للحَقِّ ، واتَّسَعَ عِلمُه ، وظَهَرَ ذَكاؤُهُ ، وعُرِفَ صَلاحُه ووَرَعُه واتِّباعُه ، يُغْفَرُ لَه زَلَلُه ، ولا نُضَلِّلُهُ ونَطْرَحُه ، ونَنْسَىٰ مَحاسِنَه ، نَعَم ولا نَقْتَدي به في بِدْعَتِه وخَطَئِه ونَرْجُو له التَّوبَةَ من ذلك[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو جَعْفَر الباقِر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٢١ .
(٢) انظر السير : (أبو قِلابَة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٣٣ .
(٣) انظر السير : (مُسْلمُ بنُ يَسار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٤٧ .
(٤) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٠١ .

وقالَ أبو شِهاب ، عبدُ الله بنُ نافِع القُرَشي : قالَ لي شُعبَة : عَليكَ بحَجَّاجِ بنِ أرْطَاة ، ومحمَّدِ بنِ إسْحاقَ فإنَّهما حافِظان ، واكْتُم عليَّ عند البَصْريِّين في خالِد الحَذَّاء ، وهِشام ـ يَعني ابنَ حَسَّان[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا الاجْتهادُ من شُعبَة مَردودٌ ، لا يُلتَفَتُ إليه بلْ خالدٌ وهِشامٌ مُحتَجٌّ بهما في « الصَّحيحَين » ، وهما أوْثَقُ بكَثير من حَجَّاج ، وابنِ إسْحاقَ ، بلْ ضَعفُ هـٰذين ظاهرٌ ولَمْ يُتْرَكا[2] .

قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَل : بَلغَ ابنُ أبي ذِئب أنَّ مالكاً لَمْ يَأخُذْ بحَديث « الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ » فقالَ : يُستَتابُ ، فإنْ تابَ ، وإلاَّ ضُربَت عُنقُه ثم قالَ أحمَدُ : هو أوْرَعُ وأقْوَلُ بالحَقِّ من مَالِك[3] .

ثم قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لَوْ كانَ وَرِعاً كمَا يَنبَغي ، لَمَا قالَ هـٰذا الكَلامَ القَبيحَ في حَقِّ إمَامٍ عَظيمٍ فمَالِكُ إنَّما لَمْ يَعمَلْ بظَاهِرِ الحَديثِ ، لأنَّه رَآهُ مَنْسُوخاً[4] .

وقيلَ : عَملَ به وحَملَ قَولهَ : « حَتَّىٰ يَتَفَرَّقَا » على التَّلفُّظِ بالإيجابِ والقَبولِ ، فمَالِكُ في هـٰذا الحَديثِ ، وفي كُلِّ حَديثٍ له أجْرٌ ولا بُدَّ ، فإنْ أصابَ ، ازْدادَ أجْراً آخرَ ، وإنَّما يَرَى السَّيفَ علىٰ مَنْ أخْطأ في اجْتِهادِه الحَرُوريَّةُ[5] وبكل حالٍ فكَلامُ الأقْرانِ بَعضُهم في بَعضٍ لا يُعَوَّلُ علىٰ كثيرٍ منه ، فلا نَقُصَت جَلالَةُ مالِك بقَولِ ابنِ أبي ذئب فيه ، ولا ضَعَّفَ العُلمَاءُ ابنَ أبي ذئب بمَقالَتِه هـٰذه ، بلْ هما عالِما الْمَدينَة في زَمانِهما ـ رَضِيَ الله عنهما ـ ولَمْ يُسْنِدْها الإمَامُ أحمَدُ فلَعلَّها لَمْ تَصح[6] .

قالَ ضَمرَة : سَمعتُ مَالكاً يَقولُ : إنَّما كانَت العِراقُ تَجيشُ عَلينا بالدَّراهِم

---

(١) انظر السير : (خالد بنُ مِهْران) ٦/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٤٠ .
(٢) انظر السير : (خالد بنُ مِهْران) ٦/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/٦٤٠ .
(٣) انظر السير : (ابنُ أبي ذِئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦٨٦ .
(٤) انظر السير : (ابنُ أبي ذِئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/٦٨٦ .
(٥) الحَرُوريَّة : هم الخَوَارج ، ونسبَتُهم إلىٰ : حَروراء ، وهو مَوضع بظاهر الكُوفَة ، وبه كان أوَّلُ اجتماعهم وتحكيمهم حين خالفوا عَليّاً رضي الله عنه وخَرجوا عليه .
(٦) انظر السير : (ابنُ أبي ذِئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٥/٦٨٦ .

والثِّياب ، ثم صارَت تَجيشُ عَلينا بسُفْيانَ الثَّوْريِّ ، وكانَ سُفْيانُ يَقولُ : مَالِكُ لَيسَ له حِفظٌ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هٰذا يَقولُه سُفْيانُ لقُوَّةِ حافِظَتِه بكَثْرَة حَديثِه ورِحْلتِه إلى الآفاقِ ، وأمَّا مالكٌ ، فلَه إتْقانٌ وفِقهٌ ، لا يُدرَك شَأوُه فيه ، وله حِفظٌ تامٌّ ، فرَضِيَ اللهُ عَنهما[2] .

قالَ ابنُ سَعد : ماتَ زَفرُ بنُ الهُذَيل سَنةَ ثَمانٍ وخَمسينَ ومئة ، ولَمْ يَكنْ في الحَديثِ بشَيء .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : قد حَكمَ له إمَامُ الصَّنْعَة[3] بأنَّه ثِقَةٌ مَأمُونٌ[4] .

قالَ ابنُ عبد الحَكَم : سَمعتُ الشَّافِعيَّ يَقولُ : قالَ لي مُحمَّدٌ : أيُّهما أعْلمُ صاحِبُنا أمْ صاحِبُكم ؟ يَعْني أبا حَنيفَة ومالِكاً ، قُلتُ : على الإنْصاف ؟ قالَ نَعَم قُلتُ : أنشُدُكَ اللهَ ، مَنْ أعْلَمُ بالقُرآنِ ؟ قالَ : صاحِبُكم قُلتُ : مَنْ أعْلمُ بالسُّنَّة ؟ قالَ : صاحِبُكم قُلتُ : فمَنْ أعْلمُ بأقاويلِ الصَّحابَة والْمُتقدِّمينَ ؟ قالَ : صاحِبُكم قُلتُ : فلَمْ يَبقَ إلاَّ القِياسُ ، والقياسُ لا يَكونُ إلاَّ علىٰ هٰذه الأشْياءَ ، فمَنْ لَمْ يَعرفْ الأُصُولَ ، علىٰ أيِّ شَيءٍ يَقيسُ ؟[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : وعلى الإنْصافِ ، لو قالَ قائلٌ : بل هما سواءٌ في عِلمِ الكتاب ، والأوَّلُ ، أعْلمُ بالقِيَاسِ ، والثاني : أعْلمُ بالسُّنَّة ، وعندَه عِلمٌ جَمٌّ من أقْوَال كَثيرٍ من الصَّحابَة ، كما أنَّ الأوَّلَ أعْلمُ بأقَاويلِ عَليٍّ ، وابنِ مَسْعود وطائفةٍ مِمَّن كان بالكُوفَة من أصْحابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فرَضِيَ الله عن الإمَامَين ، فقد صِرْنا في وَقتٍ لا يَقدِرُ الشَّخصُ على النُّطقِ بالإنْصَافِ نَسألُ اللهَ السَّلامَة .

---

(١) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٩/ ٤ .
(٢) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٩/ ٥ .
(٣) هو يَحْيَىٰ بنُ مَعين .
(٤) انظر السير : (زُفَرُ بنُ الهُذَيْل) ٨/ ٣٨ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٧٢٥/ ٢ .
(٥) انظر السير : (مالِكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٦/ ٧ .

كان خاتَمُ مالِك ، الذي ماتَ وهو في يَدِه ، فصُّه أسْودُ حجَريّ ، ونَقْشُه : حَسْبيَ اللهُ ونِعْمَ الْوَكيلُ وكانَ يَلبَسُه في يَسارِه ، ورُبَّما لَبسَه في يَمينِه[1] .

رَوَىٰ أبو عُمَر الضَّرير ، عن أبي عَوانة قال : دخلتُ علىٰ هَمَّام بنِ يَحيىٰ وهو مريضٌ ، أعُودُه ، فقال لي : يا أبا عوانة أُدْعُ الله أنْ لا يُميتَني حتىٰ يَبلغَ ولدي الصغار فقلتُ : إنَّ الأجَلَ قد فُرِغَ منه ، فقال لي : أنتَ بعدُ في ضلالك[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : بئسَ المقالُ هـٰذا ، بل كُلُّ شيء بقدرٍ سابق ، ولكنْ وإنْ كان الأجَلُ قد فُرِغَ منه ، فإنَّ الدعاءَ بطولِ البقاءِ قد صَحَّ ، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لخادِمِه أَنَس بطولِ العُمر ، والله يَمحُو ما يشاءُ ويُثبِتُ فقد يكونُ طولُ العُمرِ في عِلمِ الله مَشْروطاً بدعاء مُجاب ، كما أنَّ طَيَرانَ العُمر قد يكونُ بأسبابٍ جعلها من جَوْرٍ وعَسف ، و« لا يَرُدُّ القَدَرَ إلاَّ الدُّعاء » والكتاب الأول فلا يَتَغَيَّر[3] .

وقالَ أبو سَعيد بنُ الأعْرابي : أمَّا رابِعَةُ العَدَويَّة فقد حَملَ النَّاسُ عنها حِكمَةً كَثيرةً ، وحَكَىٰ عَنها سُفْيانُ وشُعْبَة وغَيرُهما ما يَدلُّ علىٰ بُطلان ما قيلَ عنها ، وقد تَمثَّلته بهـٰذا :

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ في الفؤادِ محدِّثي ... وأبحْتُ جسمي مَنْ أرادَ جُلوسي

فنَسَبَها بَعضُهم إلى الحُلولِ بنِصِّ البَيتِ ، وإلى الإباحَة بتَمامِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : فهـٰذا غُلوٌّ وجَهلٌ ، ولَعلَّ مَنْ نَسَبَها إلىٰ ذلك مُباحيٌّ حُلوليٌّ ليَحتَجَّ بها علىٰ كُفرِه كاحْتِجاجِهم بخَبرِ : « كنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِه »[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عَليِّ بنِ الفُضَيْلِ بنِ عِياضٍ : ماتَ الفُضَيْلُ سَنةَ سِتٍّ وثَمانينَ ومئة ، وله نيِّفٌ وثمانونَ سَنةً ، وهو حُجَّةٌ كَبيرُ القَدْرِ ، ولا عِبْرَةَ بما نقَلَه

---

(١) انظر السير : (مالِكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٨/ ٧٣٦ .
(٢) انظر السير : (أبو عوانة) ٨/ ٢١٧ـ ٢٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٤٥ .
(٣) انظر السير : (أبو عوانة) ٨/ ٢١٧ـ ٢٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٤٥ .
(٤) انظر السير : (رابِعَة العَدَويَّة) ٨/ ٢٤١ـ ٢٤٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٤٧ .

أحمَدُ بنُ أبي خَيْثَمَة ، سَمعتُ قُطبَةَ بنَ العَلاء يَقولُ : تَركتُ حَديثَ فُضَيْلِ بنِ عِياض لأنه رَوَىٰ أحاديث أزْرَىٰ علىٰ عُثمانَ بنِ عَفَّان[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : فلا نَسمَعُ قَولَ قُطبَة ، لَيتَه اشتَغلَ بحالِه ، فقد قالَ البُخاريُّ : فيه نَظَر ، وقالَ النَّسَائيُّ وغَيرُه : ضَعيفٌ وأيضاً فالرجلُ صاحِبُ سُنَّة واتِّباع .

قالَ أحمَدُ بنُ أبي خَيْثَمَة : حدَّثنا عبدُ الصَّمَد بنُ يَزيد الصَّائغ ، قالَ : ذُكرَ عند الفُضَيل ـ وأنا أسْمعُ ـ الصَّحابَةَ ، فقالَ : اتَّبعوا فقد كُفيتم : أبو بَكر وعُمَر وعُثْمان وعَليٌّ ، رَضيَ اللهُ عَنهم[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إذا كانَ كُبَراءُ السَّابقين الأوَّلينَ قد تَكلَّم فيهم الرَّوافِضُ والخَوارجُ ، ومثل الفُضَيل يُتكلَّم فيه ، فمَنْ الذي يَسلَمُ من ألْسِنَة النَّاسِ ، لكن إذا ثَبَتَت إمَامَةُ الرجُلِ وفَضلُه ، لَمْ يَضرُّه ما قيلَ فيه ، وإنَّما الكَلامُ في العُلماءِ مُفتقِرٌ إلىٰ وَزنٍ بالعَدلِ والوَرَع[3] .

وأمَّا قَولُ ابنُ مَهْدي : لَمْ يَكنْ بالحافِظ ، فمَعناه : لَمْ يَكنْ في عِلمِ الحَديث كَهـؤلاء الحُفَّاظ البُحُور ، كشُعبَة ، ومَالِك وسُفْيان ، وحمَّاد ، وابن الْمُبارَك ، ونُظرائِهم ، لكنَّه ثَبتٌ قيِّمٌ بما نَقلَ ، ما أُخذَ عَليه في حَديث فيما عَلمتُ وهل يُرادُ من العِلمِ إلاَّ ما انتَهىٰ إليه الفُضَيلُ رَحمَةُ الله عَليه[4] .

وعن جَريرِ بنِ عبدِ الحَميد : وُلدتُ سَنةَ ماتَ الحَسَن سَنةَ عَشر ، وكانَ من مَشايخ الإسْلام ، وقالَ زُنَيْج : سَمعتُ جَريراً يَقولُ : رأيتُ ابنَ أبي نَجيح ولَمْ أكتُبْ عنه شَيئاً ، ورَأيتُ جابراً الجُعْفيَّ ، فلَمْ أكتُبْ عنه شَيئاً ، ورَأيتُ ابنَ جُرَيْج ، ولَمْ أكتُبْ عنه فقالَ له رَجلٌ : ضَيَّعتَ يا أبا عبدِ الله ، قالَ : لا ، أمَّا جابِر ، فكانَ يُؤمِنُ بالرَّجْعَة ،

---

(١) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيْل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٨/٧٨١ .
(٢) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيْل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٧٨٢ .
(٣) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيْل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٧٨٢ .
(٤) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيْل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٢ .

وأمَّا ابنُ أبي نَجيح ، فكانَ يَرى القَدَر ، وأمَّا ابنُ جُرَيج ، فإنَّه أوْصَىٰ بَنيه بسِتِّينَ امْرأة ، وقالَ : لا تزَوَّجوا بهِنَّ ، فإنَّهنَّ أُمَّهاتُكم ـ كانَ يَرَى الْمُتعَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أمَّا امْتِناعُه من الجُعْفيِّ ، فمَعذورٌ ، لأنَّه كانَ مُبتَدعاً ، ولَمْ يَكنْ بالثِّقَةِ وأمَّا الآخَران ففرَّطَ فيهما ، وهما من أئمَّةِ العِلمِ ، وإنْ غَلطا في اجْتِهادِهما[1] .

قالَ حمَّادُ بنُ سَلَمَة : ما كُنَّا نُشَبِّهُ شَمائلَ إسْماعيلَ بنِ عُلَيَّة إلاَّ بشَمائلِ يُونُسَ حتَّىٰ دَخلَ فيما دَخلَ فيه[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يُريدُ وِلايَتَه الصَّدقَة ، وكانَ مَوْصوفاً بالدِّينِ والوَرَع والتَّأَلُّه ، مَنْظوراً إليه في الفَضلِ والعِلمِ ، وبَدَت منه هَفَواتٌ خَفيفَةٌ ، لَمْ تُغيِّر رُتبَتَه إنْ شاءَ الله[3] .

ودخل ابنُ عُلَيَّة على الأمين محمَّدِ بنِ هارُونَ ، فشَتَمَه محمَّدٌ ، فقالَ : أخطأتُ ، وكانَ حدَّثَ بهَـٰذا الحَديثِ : « تَجيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ كأنَّهُمَا غَمَامَتَانِ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا » فقيلَ لابنِ عُلَيَّة : أَلَهُمَا لِسَانٌ ؟ قالَ : نَعَم : فقالوا : إنَّه يَقولُ : القُرآنُ مَخْلوقٌ ، وإنَّما غَلطَ[4] .

وقالَ الإمامُ أحمَدُ : بَلغَني أنَّه أُدخِلَ على الأمينِ ، فلمَّا رَآهُ ، زَحفَ وجَعلَ يَقولُ : يا ابنَ الفاعِلَة تَتكلَّم في القُرآن ؟ وجَعلَ إسْماعيلُ يَقولُ : جَعلَني اللهُ فِداكَ ، زَلَّةٌ من عَالِم ، ثم قالَ أحمَدُ : إنْ يَغفِرِ اللهُ له ـ يَعني الأمينَ ـ فبها ثم قالَ أحمدُ : وإسْماعيلُ ثَبتٌ[5] .

قالَ الفَضلُ بنُ زياد : قُلتُ : يا أبا عبدِ الله ، إنَّ عبَد الوَهَّاب قال : لا يُحبُّ قَلبي

---

(١) انظر السير : (جَرير بن عبد الحَميد) ٩/ ٩ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٩٥ .
(٢) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٠٣ .
(٣) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨٠٣ .
(٤) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٠٤ .
(٥) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٠٤ .

إسْماعيلَ أبداً ، لقد رَأيتهُ في الْمَنام كأنَّه وَجهُه أسْوَد فقالَ أحمَدُ : عافَى اللهُ عبدَ الوَهَّاب ، ثم قالَ : لَزِمْتُ إسْماعيلَ عَشرَ سِنينَ إلىٰ أنْ أُعيبَ ، ثم جَعلَ يُحرِّكُ رأسَه كأنَّه يَتلهَّفُ ثم قالَ : وكانَ لا يُنصِفُ في التَّحدُّث[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : تُوفِّيَ إسماعيلُ سَنةَ ثَلاثٍ وتِسعينَ ومئة عن ثَلاثَةٍ وثَمانينَ سَنةً .

وعن شُعبَةَ قالَ : ابنُ عُلَيَّة رَيْحانَةُ الفُقَهاء[2] .

وقالَ سَهلُ بنُ شاذويه ، سَمعتُ عليَّ بنَ خَشْرم يَقولُ : قُلتُ لوَكيع : رَأيتُ إسْماعيلَ بنَ عُلَيَّة يَشرَبُ النَّبيذَ حتىٰ يُحمَل على الحِمار ، يَحتاجُ مَنْ يَردُّه إلىٰ مَنزِله! فقالَ وَكيعُ : إذا رَأيتَ البَصْريَّ يَشرَب ، فاتَّهِمهُ . قُلتُ : وكَيفَ ؟ قالَ : إنَّ الكُوفيَّ يَشربُه تَدَيُّناً ، والبَصْريَّ يَترُكُه تَدَيُّناً[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : وهـٰذه حكايَة غَريبَة ، ما عَلمنا أحداً غَمز إسْماعيلَ بشُربِ الْمُسكِر قَطُّ ، وقد انْحَرفَ بَعضُ الحُفَّاظ عَنه بِلا حُجَّة ، حتَّىٰ إنْ مَنْصُورَ بنَ سَلمَة الخُزاعيَّ تَحدَّثَ مرَّةً ، فسَبَقَه لِسانُه ، فقالَ : حَدَّثنا إسْماعيلُ ابنُ عُلَيَّة ، ثم قالَ : لا ، ولا كَرامَة ، بلْ أرَدتُ زُهَيراً وقالَ : لَيسَ مَنْ قارَفَ الذَّنبَ كمَنْ لَمْ يُقارِفْه ، أنا والله اسْتَتَبْتُه[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يُشيرُ إلىٰ تلكَ الهَفْوَة الصَّغيرَة ، وهـٰذا من الجَرْح الْمَرْدود ، وقد اتَّفقَ عُلماءُ الأمَّة على الاحْتجاجِ بإسْماعيلَ بنِ إبْراهيمَ العَدلِ الْمَأمونِ ، وقد قالَ عبدُ الصَّمَد ابنُ يَزيد مَرْدَوَيه : سَمعتُ إسْماعيلَ ابنَ عُلَيَّة يَقولُ : القُرآنُ كَلامُ اللهِ غَيرُ مَخْلوقٍ[5] .

---

(١) ذكره الإمامُ الذهَبيُّ في « الْمِيزَانِ » وتَعقَّبه بقوله : إمامة إسماعيلَ وَثيقة لا نزاع فيها ، وقد بدت منه هفوة وتاب ، فكان ماذا ؟ إني أخافُ الله لا يكون ذكرنا له من الغيبة ، وأما القرآن ، فقد قال عبد الصمد بن يزيد بن مردويه : سمعتُ ابنَ عُلَيَّة يقول : القُرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخلوق .

(٢) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٨٠٤/ ٣ .

(٣) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٨٠٤/ ٤ .

(٤) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٨٠٤/ ٥ .

(٥) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٨٠٥/ ١ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ محمَّدِ بنِ فُضَيل بنِ غَزْوانَ : حدَّث عنه عَددٌ كَثيرٌ ، وجَمٌّ غَفيرٌ علىٰ تَشَيُّع كانَ فيه ، إلاَّ أنَّه كانَ من عُلماءِ الحَديث ، والكَمَالُ عَزيزٌ .

وقال أحمدُ بنُ حَنْبَل : هو حَسَنُ الحَديثِ شِيعيٌّ[1] .

وقالَ أبو داوُد السِّجِسْتانيُّ : كان شِيعِيّاً مُتَحرِّقاً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : تَحرُّقُه علىٰ مَنْ حارَبَ أوْ نازَعَ الأمْرَ عَليّاً رضي الله عنه ، وهو مُعَظِّمٌ للشَّيْخَيْنِ رَضيَ الله عَنهُما .

ماتَ في سَنةَ خَمسٍ وتِسْعينَ ومئة[2] .

وقالَ عَليُّ بنُ الْمَديني : قالَ لي هِشامُ بنُ يُوسُف : كانَ عبدُ الرَّزَّاق بنُ هَمَّام أعْلَمَنا وأحْفَظَنا[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰكذا كان النُّظَراءُ يَعترفون لأقْرانِهم بالحِفظِ .

وفي الْمُسنَد قالَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل : ما كانَ في قَريَة عبدِ الرَّزَّاق بِئرٌ فكُنَّا نَذهبُ نُبَكِّر علىٰ ميلَين نَتوَضأ ، ونَحملُ مَعنا الماءَ[4] .

وللعُقيلي في كتاب « الضُّعَفاء » ، في تَرجمَة عبدِ الرَّزَّاقِ بنِ هَمَّام : حدَّثنا محمَّدُ بنُ أحمَدَ بنِ حمَّاد ، سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ عُثْمانَ الثَّقَفيَّ ، قالَ : لَمَّا قَدمَ العَبَّاسُ بنُ عبد العَظيم من عند عبدِ الرَّزَّاق من صَنعاءَ ، قالَ لنا ـ ونَحنُ جَماعَة ـ ألَستُ قد تَجَشَّمتُ الخُروجَ إلىٰ عبد الرَّزَّاق ، فدَخلتُ إليه ، وأقَمتُ عندَه حتَّىٰ سَمعتُ منه ما أرَدْتُ ؟ والله الذي لا إلَـٰهَ إلاَّ هو ، إنَّ عبدَ الرَّزَّاق كذَّابٌ ، والوَاقِديُّ أصْدَقُ منه[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : بلْ والله ما بَرَّ عَبَّاسٌ في يَمينِه ، ولَبئس ما قالَ ، يَعمدُ

---

(١) انظر السير : (محمّد بن فُضَيل) ٩/ ١٧٣ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ٨١٤/ ٩ .
(٢) انظر السير : (محمّد بن فُضَيل) ٩/ ١٧٣ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ٨١٥/ ١ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الرزَّاق بنُ همَّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٨٣٨/ ٤ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الرزَّاق بنُ همَّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٨٣٨/ ٥ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الرزَّاق بنُ همَّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٨٣٩/ ٤ .

إلىٰ شَيخ الإسْلام ، ومُحدِّث الوَقت ، ومَنْ احْتَجَّ به كلُّ أرْباب الصِّحاحِ ـ وإنْ كانَ له أوْهامٌ مَغمورَةٌ ، وغَيرُه أبرَعُ في الحَديث منه ـ فيَرميه بالكَذبِ ، ويُقدِّمُ عليه الوَاقِديَّ الذي أجْمَعت الحُفَّاظُ علىٰ تَركه ، فهو في مَقالَتِه هـٰذه خارِقٌ للإجْمَاعِ بيَقين[1] .

وقالَ عَليُّ بنُ أحمَد بنِ النَّضْر الأزدي ، سَمعتُ أحمَدَ بنَ حَنْبَل ، وسُئلَ عن الشَّافِعيِّ ، فقالَ : لقد مَنَّ اللهُ عَلينا به ، لقد كُنَّا تَعلَّمنا كَلامَ القَومِ ، وكَتبْنَا كُتُبَهم ، حتَّىٰ قدِمَ عَلينا ، فلمَّا سَمعنا كَلامَه ، عَلِمنا أنَّه أعْلم من غَيرِه ، وقد جالَسْناه الأيَّامَ واللَّيالي ، فمَا رَأينا منه إلاَّ كُلَّ خَيرٍ ، فقيلَ له : يا أبا عبدِ الله ، كانَ يَحْيَىٰ وأبو عُبَيد لا يَرْضَيانه ـ يُشيرُ إلى التَّشَيُّع وأنَّهما نَسَباه إلىٰ ذلك ـ فقالَ : أحمَدُ بنُ حَنْبَل : ما نَدري ما يَقولان ، والله مَا رَأينا منه إلاَّ خَيراً[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : مَنْ زَعمَ أنَّ الشَّافِعيَّ يَتشيَّعُ فهو مُفتَرٍ ، لا يَدري ما يَقولُ[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : لو كانَ الشافعي شِيعيّاً ـ وحاشاه من ذلك ـ لَمَا قالَ : الخُلَفاءُ الرَّاشِدونَ خَمسَةٌ ، بدأ بالصِّدِّيقِ ، وخَتَمَ بِعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ[4] . ،[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ زَكَريّا بنِ عَديّ : وقد نالَ منه أبو نُعَيم الكُوفيُّ بِلا حُجَّة ، وقالَ : ما لَه وللحَديثِ ؟ هو بالتَّوْراةِ أعْلمُ .

قالَ ابنُ سَعْد : هو من مَوَالي تَيم الله ، وكانَ رَجلاً صالِحاً ثِقةً ، قالَ : وتُوفِّيَ في سَنةِ إحْدَىٰ عَشرَةَ ومِئتَين[6] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الرزَّاق بنُ همَّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٣٩ .
(٢) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٥٠ .
(٣) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨٥٠ .
(٤) وللخبر تتمة في غاية النفاسة عند البَيْهَقيِّ ، وهي : ثم قالَ أحمد بنُ حَنْبَل لِمَنْ حَوْلَه : اعْلموا رَحمكم اللهُ تعالىٰ أنَّ الرجُلَ من أهل العِلم إذا مَنَحه اللهُ شَيئاً من العلم ، وحُرِمَهُ قُرَناؤه وأشْكالُه ، حسدُوه فرَمَوْه بما ليسَ فيه ، وبئسَت الخِصالُ في أهْلِ العِلم .
(٥) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٥١ .
(٦) انظر السير : (زَكَريّا بنُ عَدي) ١٠/ ٤٤٢ـ ٤٤٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٨٢ .

وقالَ مُسلمُ في عليِّ بنِ الجَعْد : هو ثِقةٌ لكنَّه جَهْميٌّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : ولهـٰذا مَنعَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل وَلدَيه من السَّماعِ منه[1] .

وقد كانَ طَائفَةٌ من الْمُحدِّثينَ يَتنطَّعونَ فيمَنْ له هَفوَةٌ صَغيرَةٌ تُخالِفُ السُّنَّة ، وإلاَّ فعليٌّ إمامٌ كبيرٌ حُجَّةٌ ، يُقالُ : مَكثَ سِتِّينَ سَنةً يَصومُ يَوماً ، ويُفطِرُ يَوماً ، وبحَسْبِكَ أنَّ ابنَ عَدي يَقولُ في « كامِلِه » لَمْ أرَ في رِواياتِه حَديثاً مُنْكَراً إذا حدَّث عنه ثِقَة .

تُوفِّيَ عَليُّ بنُ الجَعْد سَنةَ ثَلاث ومئتين ، وقد اسْتَكمَلَ سِتَّاً وتِسْعينَ سَنةً[2] .

وقالَ أحمَدُ بنُ سَلمَة : سَمعتُ إسْحاقَ بنَ رَاهَوَيه يَقولُ : الحَقُّ يُحبُّه اللهُ عَزَّ وجَلَّ ، أبو عُبَيد القاسِمُ بنُ سَلام أفْقَهُ منِّي وأعْلمُ منِّي[3] .

وانصَرفَ القاسِمُ بنُ سَلام يوماً من الصَّلاة ، فمَرَّ بدارِ إسْحاقَ الْمَوْصليِّ ، فقالوا له : يا أبا عُبَيد ، صاحبُ هـٰذه الدَّار يَقولُ : إنَّ في كتابِك « غَريب الْمُصنَّف » ألفَ حَرفٍ خَطأ .

فقالَ : كتابٌ فيه أكثرُ من مِئة ألفٍ يَقعُ فيه ألفٌ لَيسَ بكَثير ؟ ولَعلَّ إسْحاقَ عندَه رِوايَة ، وعندَنا رِوايَة ، فلَمْ يَعلَمْ ، فخَطَّأنا ، والرِّوَايَتَانِ صَوَابٌ ، ولَعلَّه أخْطَأ في حُروفٍ ، وأخْطَأنا في حُروفٍ ، فيَبقَى الخَطأُ يَسيراً[4] .

قالَ أبو زُرْعَة الرَّازي : كانَ أحمَدُ بنُ حَنبَل لا يَرَى الكِتابَةَ عن أبي نَصْر التَّمَّار ، ولا ابنِ مَعين ، ولا مِمَّنْ امْتُحِنَ فأجابَ[5] .

وقالَ أبو الحَسَن الْمَيْمونيُّ : صَحَّ عندي أنَّه ـ يَعني أحمَدَ بنَ حَنْبَل ـ لم يَحضُر أبا نَصْر التَّمَّار حينَ ماتَ ، فحَسِبتُ أنَّ ذلكَ لَمَّا كانَ أجابَ في الْمِحْنَة[6] .

---

(١) انظر السير : (عَليُّ بنُ الجَعْد) ١٠/ ٤٥٩ـ ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٨٨٤/ ٢ .
(٢) انظر السير : (عَليُّ بنُ الجَعْد) ١٠/ ٤٥٩ـ ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٨٨٤/ ٣ .
(٣) انظر السير : (أبو عُبَيْد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٨٨٧/ ٥ .
(٤) انظر السير : (أبو عُبَيْد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٨٨٨/ ١ .
(٥) انظر السير : (أبو نَصْر التَّمَّار) ١٠/ ٥٧١ـ ٥٧٤ ، وانظر النزهة : ٨٩٤/ ٣ .
(٦) انظر السير : (أبو نَصْر التَّمَّار) ١٠/ ٥٧١ـ ٥٧٤ ، وانظر النزهة : ٨٩٤/ ٤ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أجابَ تُقيَةً وخَوفاً من النَّكال ، وهو ثِقَةٌ بحاله ولله الحَمدُ[1] .

وقد شَدَّدَ الإمامُ الذَّهَبيُّ ـ رحمه اللهُ ـ النَّكير على العقيلي لإيراده عليَّ بنَ الْمَديني في كتابه « الضُّعَفاء » ، فقالَ في « ميزانه » (٣/ ١٤٠ـ ١٤١) : وقد بدت منه هفوة ثم تاب منها ، وهـٰذا أبو عبد الله البُخاريّ ـ وناهيك به ـ قد شَحنَ صَحيحه بحديث عليِّ بن الْمَديني ، ولو تركتَ حَديثَ عليٍّ ، وصاحبَه محمَّد ، وشَيخِه عبد الرَّزَّاق ، وعُثمانَ بنِ أبي شَيْبَة لغَلَقنا الباب ، وانقَطعَ الخطابُ ، ولَماتَت الآثار ، واسْتولَت الزَّنادقَةُ ، ولخَرجَ الدجَّال أفما لك عَقلٌ يا عقيلي ؟!! أتَدري فيمَنْ تتكلَّمُ ؟!! وإنَّما تَبعناك في ذكر هـٰذا النَّمَط لنَذُبَّ عنهم ، ولنُزيِّفَ ما قيلَ فيهم كأنَّك لا تَدري أنَّ كُلَّ واحد من هـٰؤلاء أوثقُ منك بطَبَقات ، بلْ أوثَقُ من ثقاتٍ كثيرين لمْ تُوردهم في كتابك ، فهـٰذا مما لا يرتاب فيه مُحدِّثٌ وأنا أشتَهي أن تُعرِّفَني مَنْ هو الثِّقَةُ الثَّبْتُ الذي ما غَلطَ ولا انْفرَدَ بما لا يُتابَعُ عليه بل الثِّقَةُ الحافِظُ إذا انْفرَدَ بأحاديث ، كان أرفَع له ، وأكمَل لرُتبَته وأدَلُّ على اعْتنائه بعلمِ الأثَر ، وضَبطِه دون أقْرانِه لأشياءَ ما عَرفوها ، اللَّهُمَّ إلاَّ أن يتَبيَّنَ غَلطُه ووَهْمُه في الشيء ، فيُعرَف ذلك ، فانظُر أوَّل شيء إلىٰ أصْحابِ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم الكبار والصِّغار ، ما فيهم أحدٌ إلاَّ وقد انْفَردَ بسُنَّة ، فيُقالُ له : هـٰذا الحديثُ لا يُتابَعُ عليه!! وكذلك التَّابِعونَ ، كلُّ واحد عندَه ما لَيسَ عندَ الآخَر من العِلمِ ، وما الغَرَض هـٰذا ، فإن هـٰذا مُقرَّر علىٰ ما يَنْبَغي في عِلمِ الحَديث[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يَحْيَى ابنِ مَعين : ومن نادِر ما شَذَّ به ابنُ مَعين ، رَحمَه الله ، كلامُه في أحمَدَ بنِ صالِح حافِظِ مِصْرَ ، فإنَّه تَكلَّم فيه باجْتهادِه ، وشَاهَدَ منه ما يُلَيِّنُه باعْتبارِ عَدالَتِه لا باعْتبارِ إتْقانِه ، فإنَّه مُتقنٌ ثَبتٌ ، ولكنْ عليه مأخَذٌ في تيه وبَأوٍ كان يَتعاطاه ، والله لا يُحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخور ، ولعلَّه اطَّلعَ منه علىٰ حال في أيَّام

---

(١) انظر السير : (أبو نَصْر التَّمَّار) ١٠/ ٥٧١ـ ٥٧٤ ، وانظر النزهة : ٥/٨٩٤ .

(٢) انظر السير : (عَليُّ بنُ الْمَديني) ١١/ ٤١١ـ ٤٦٠ ، وانظر النزهة : ٩٠٦/هامش (٢) .

شَبيبةِ ابنِ صالِح ، فتابَ منه أو من بَعضِه ، ثم شَاخَ ، ولَزِمَ الخَيرَ ، فلَقيَه البُخاريُّ والكِبارُ ، واحْتَجُّوا به وأمَّا كَلامُ النَّسائيِّ فيه ، فكَلامٌ مَوْتورٌ لأنَّه آذَى النَّسائيَّ ، وطرَدَه من مَجلِسِه ، فقالَ فيه : لَيسَ بثِقَةٍ[1] .

قالَ سَعيدُ بنُ عَمْرو البَرْذَعيُّ : سَمعتُ الحَافِظَ أبا زُرْعَة الرَّازي يقولُ : كان أحمَدُ بنُ حَنْبَل لا يَرَى الكِتابَةَ عن أبي نَصْر التَّمَّار ، ولا عَنْ يَحْيَى ابنِ مَعين ، ولا عن أيِّ أحدٍ مِمَّنْ امْتُحِنَ فأجابَ[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا أمرٌ ضَيقٌ ، ولاحَرجَ علىٰ مَنْ أجابَ في الْمِحْنَة ، بل وعلىٰ مَنْ أُكرِهَ علىٰ صَريحِ الكُفْرِ عَملاً بالآيَةِ وهـٰذا هو الَحَقُّ وكان يَحْيَىٰ رَحمَهُ اللهُ من أئمَّة السُّنَّة ، فخافَ من سَطوَةِ الدَّولَة ، وأجابَ تُقيَة[3] .

وقالَ الحَسَنُ بنُ سُفْيان : سَمعتُ هُدبَةَ بنَ خالد ، يقولُ : صلَّيتُ علىٰ شُعْبَة فقيلَ له : رَأيتَه ؟ فغَضبَ ، وقالَ : رَأيتُ مَنْ هوَ خَيرٌ منه حَمَّادَ ابنَ سَلَمَة ، وكانَ سُنِّياً ، وكانَ شُعبَةُ رأيُه رأيُ الإرْجاء[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كلاَّ لَمْ يَكُنْ شُعبَةُ مُرْجِئاً ولَعلَّه شَيءٌ يَسيرٌ لا يَضرُّه[5] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ كلاَّب : وقال بعضُ مَنْ لا يَعلم : إنَّه ابتَدَعَ ما ابتَدَعَه ليَدُسَّ دينَ النَّصارَىٰ في مِلَّتنا ، وإنَّه أرْضَىٰ أُختَه بذلك ، وهـٰذا باطِلٌ ، والرجلُ أقرَبُ المُتكلِّمين إلى السُّنَّة ، بل هو في مُناظِريهم[6] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ محمّد الوَرَّاق : كنتُ في مجلسِ أحمدَ بنِ حَنْبَل ، فقال : من أين أقْبَلتُم ؟ قُلنا : من مَجلسِ أبي كريب ، فقال : اكْتُبوا عنه ، فإنَّه شَيخٌ صالحٌ ، فقُلنا :

---

(١) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١/٩١١ .
(٢) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/٩١١ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١/٩١٢ .
(٤) انظر السير : (هُدبَةُ بنُ خالد) ١١/ ٩٧ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٤ .
(٥) انظر السير : (هُدبَةُ بنُ خالد) ١١/ ٩٧ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/٩١٤ .
(٦) انظر السير : (ابنُ كلاَّب) ١١/ ١٧٤ـ ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩٢٢ .

إنَّه يَطعنُ عليك قال : فأيُّ شيء حيلتي ، شَيخٌ صالحٌ قد بُلِيَ بي[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الرَّوَاجنيِّ : الشَّيخُ العالِم الصَدوقُ ، مُحدِّثُ الشِّيعَة ، أبو سَعيد عَبَّادُ بنُ يَعقُوب الأسدي الرَّوَاجنيُّ الكُوفيُّ المُبتَدِع .

وقال الحاكمُ : كان ابن خُزَيْمَة يقولُ : حَدَّثنا الثِّقَةُ في رِوايَتِه المُتَّهَمُ في دِينه ، عبَّادُ بنُ يَعقُوب .

وقال ابنُ عدي : فيه غُلوٌّ في التَّشَيُّع[2] .

وقالَ أحمَدُ السُّلميُّ في « مِحَن الصُّوفيَّة » : أحمَدُ بنُ أبي الحَواريّ شَهدَ عَليه قَومٌ أنَّه يُفَضِّلُ الأوْلياءَ على الأنْبياءِ وبَذلوا الخُطوطَ عليه ، فهَربَ من دِمَشْقَ إلىٰ مَكةَ وجاوَرَ حتَّىٰ كَتبَ إليه السُّلطانُ ، يَسألُه أنْ يَرجِعَ فرَجَعَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إنْ صَحَّت الحِكايَةُ فهٰذا من كَذبِهم علىٰ أحمَدَ ، وهو كانَ أعلَم بالله من أنْ يَقولَ ذلكَ تُوفِّيَ أحمدُ سَنةَ سِتٍّ وأرْبَعينَ ومِئتَين[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الزُّبَيْرِ بنِ بَكار ، وقالَ أحمَدُ بنُ عَليٍّ السُّلَيْمانيُّ الحافِظُ : مُنْكَرُ الحَديثِ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كذَا قالَ ولا يَدري ما يَنطِقُ به .

تُوفِّيَ الزُّبَيْرُ سَنَةَ سِتٍّ وخَمسينَ ومئتين بمَكةَ ، وقد بَلغَ أرْبَعاً وثَمانينَ سَنةً[4] .

وقال عبدُ الرَّحمَٰن بنُ أبي حاتِمٍ في « الجَرْحِ والتَّعْدِيلِ » قَدِمَ مُحمَّدُ ابنُ إسْماعيل الرَّيَّ سَنةَ خَمْسينَ ومِئَتَيْنِ ، وسَمِعَ منه أَبِي وأبو زُرْعَةَ وتَرَكا حَديثَهُ عندَما كَتَبَ إليهِما مُحمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ أنَّه أظْهَرَ عندَهُم بنِيسابُورَ أنَّ لَفْظَهُ بالقُرآنِ مَخْلُوقٌ[5] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٤٧ .
(٢) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٦٩ .
(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ أبي الحَواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٨٨ .
(٤) انظر السير : (الزُّبَيْر بن بَكار) ١٢/ ٣١١ـ ٣١٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٠٤ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠١٩ .

قال الإمام الذهبيُّ : إنْ تَرَكا حَديثَه ، أوْ لَمْ يَتْرُكاهُ ، البُخاريُّ ثِقَةٌ مَأمُونٌ مُحْتَجٌّ به في العَالَمِ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ داوُدَ بنِ عَليّ : للعُلماءِ قَولانِ في الاعْتِدادِ بخِلافِ داوُد وأتبْاعِه : فمَنْ اعْتدَّ بخِلافِهم ، قالَ : ما اعْتدادُنا بخِلافِهم لأنَّ مُفْرَداتِهم حُجَّة ، بل لتُحْكَىٰ في الجُملَة ، وبَعضُها سائغٌ ، وبَعضُها قَويٌّ وبَعضُها ساقطٌ ، ثم ما تَفرَّدوا به هو شَيءٌ من قَبيلِ مُخالَفَة الإجْماعِ الظنِّي ، وتَندُرُ مُخالَفتُهم لإجْماعٍ قَطْعيٍّ ومَنْ أهْدَرَهم ، ولَمْ يَعْتَد بهم ، لمْ يَعدَّهم في مَسائلِهم المُفْردَة خارجين بها من الدِّين ، ولا كَفَّرهم بها ، بلْ يقولُ : هـٰؤلاء في حَيِّزِ العَوامِّ ، أو هم كالشِّيعَة في الفُروع ، ولا نَلتَفتُ إلىٰ أقْوالِهم ، ولا نَنْصبُ معهم الخِلافَ ، ولا يُعتَنىٰ بتَحْصيلِ كُتبِهم ، ولانَدلُّ مُسْتفْتياً من العامَّة عليهم وإذا تَظاهَروا بمَسْألَة مَعْلومَة البُطْلان ، كمَسْحِ الرِّجْلَين ، أدَّبْناهم ، وعَزَّرْناهم ، وألْزَمْناهم بالغُسْلِ جَزْماً .

قال الأستاذُ أبو إسْحاقَ الإسْفَرَاييني : قال الجُمهورُ : إنَّهم ـ يَعني نُفاةَ القِياسِ ـ لا يَبْلغونَ رُتْبَةَ الاجْتهادِ ، ولا يَجوزُ تَقليدُهم القَضاءَ .

وقال إمامُ الحَرمَين أبو المَعالي : الذي ذَهبَ إليه التَّحْقيقُ : أنَّ مُنْكري القياسِ لا يُعدُّون مِنْ عُلماءِ الأُمَّة ، ولا مِنْ حَملَة الشَّريعَة ، لأنَّهم مُعانِدون ، مُباهِتُون فيما ثَبتَ اسْتفاضَةً وتَواتُراً ، لأنَّ مُعْظمَ الشَّريعةِ صادِرٌ عن الاجْتهادِ ، ولا تَفي النُّصوصُ بعُشْرِ مِعْشارِها ، وهـٰؤلاء مُلتَحِقونَ بالعَوامِّ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا القَولُ من أبي المَعالي أدَّاهُ إليه اجْتهادُه ، وهم فأدَّاهم اجْتهادُهم إلىٰ نَفي القَولِ بالقياسِ ، فكَيف يُرَدُّ الاجْتهادُ بمِثلِه ، ونَدْري بالضَّرورَة أنَّ داوُد كانَ يُقْرىءُ مَذهَبَه ، ويُناظِرُ عليه ، ويُفْتي به في مثل بَغْدادَ ، وكثرةُ الأئمَّة بها وبغَيرِها ، فلَمْ نَرَهُم قامُوا عليه ، ولا أنْكَرُوا فَتاويه ولا تَدريسَه ، ولا سَعَوا في مَنعِه من بَثِّه ، وبالحَضْرةِ مثلُ إسْماعيلَ القاضي ، شَيخِ المالكيَّة ، وعُثمانِ بنِ بَشَّار

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٦/١٠١٩ .

الأنْماطيِّ ، شَيخِ الشَّافعيَّة ، والمَرْوذيِّ شَيخِ الحَنْبَليَّة ، وابنَيْ الإمامِ أحمَدَ ، وأبي العبَّاس أحمَدَ بنِ محمّد البِرْتي ، شَيخِ الحَنفيَّة ، وأحمَدَ ابنِ أبي عِمْرانَ القاضي ، ومثلُ عالِمِ بَغْدادَ إبْراهيمَ الحَرْبيِّ بلْ سَكتُوا له ، حتىٰ لقد قالَ قاسمُ بنُ أصْبَغ : ذاكَرتُ الطَّبريَّ ـ يَعني ابنَ جَرير ـ وابنَ سُرَيْج ، فقُلتُ لهما : كتابُ ابنِ قُتَيْبَة في الفِقْه أينَ هو عندَكُما ؟ قالا : ليسَ بشيءٍ ولا كتابِ أبي عُبَيد ، فإذا أرَدتَ الفِقْهَ فكُتبِ الشَّافعيِّ ، وداوُدَ ونُظَرائِهما .

ثم كانَ بعدَه ابنُه أبو بَكْر ، وابنُ المُغَلّس ، وعدَّة من تلامِذَة داوُد وعلىٰ أكْتافِهم مثلُ : ابنِ سُرَيْج ، شَيخِ الشَّافعيَّة ، وأبي بَكْر الخَلاَّل ، شَيخِ الحَنْبَليَّة ، وأبي الحَسَن الكَرْخي شَيخِ الحَنفيَّة ، وكان أبو جَعْفَر الطَّحاويُّ بمِصْرَ بل كانوا يتَجالَسُون ويَتناظَرون ، ويَبرُزُ كلٌّ منهم بحُجَجِه ، ولا يَسْعَون بالداوُديَّة إلى السُّلطانِ بلْ أبلغُ من ذلك ، يَنصِبُون معهم الخِلافَ ، في تَصانيفِهم قَديماً وحَديثاً ، وبكلِّ الحالِ ، فلَهم أشْياءُ أحْسَنوا فيها ، ولهم مَسائلُ مُسْتَهْجنَة ، يُشْغَبُ عليهم بها ، وإلىٰ ذلك يُشيرُ الإمامُ أبو عَمرو ابنُ الصَّلاح ، حيثُ يقولُ : الذي اخْتارَه الأستاذُ أبو مَنْصور ، وذَكرَ أنَّه الصَّحيحُ من المَذْهَب ، أنَّه يُعْتَبَرُ خِلافُ داوُد ثمَّ قالَ ابنُ الصَّلاح : وهٰذا الذي اسْتقرَّ عليه الأمرُ آخراً ، كما هو الأغْلَبُ الأعْرَفُ من صَفْوِ الأئمَّة المتأخرين ، الذين أوْرَدوا مَذهَبَ داوُد في مُصنَّفاتِهم المَشْهورَة ، كالشَّيخِ أبي حامد الإسْفَراييني ، والماوَرْديِّ ، والقاضي أبي الطَّيِّب فلَوْلا اعْتدادُهم به لما ذَكروا مَذهَبَه في مُصنَّفاتِهم المَشْهورَة .

قالَ : وأرَىٰ يُعْتَبَر قولُه إلاَّ فيما خالَفَ فيه القياسَ الجَليَّ ، وما أجْمَعَ عليه القياسيُّون من أنواعِه ، أو بَناهُ علىٰ أصُولِه التي قامَ الدَّليلُ القاطعُ علىٰ بُطْلانِها ، فاتِّفاقُ مَنْ سِواهُ إجْماعٌ مُنْعَقدٌ ، كقَولِه في التَّغَوُّطِ في الماءِ الرَّاكِد[1] وتلكَ المَسائل الشَّنيعَة ،

---

(١) وهو قول ابن حَزْم ، ونَصُّ كلامه في « المُحلَّىٰ » (١/ ١٣٥) : (إلاَّ أن البائل في الماء الراكد الذي لا يجري حرامٌ عليه الوضوء بذلك الماء والاغتسالُ به لغرض أو لغيره ، وحكمه التيمم إن لم يجد غيره فلو أحدَثَ في الماء أو بال خارجاً منه ثم جرى البولُ فيه فهو طاهرٌ يَجوزُ الوضوء منه والغسل له ولغيره إلاَّ أن يغير ذلك البول أو الحدث شيئاً من أوصاف الماء ، فلا يُجزىء حينئذ استعماله أصلاً لا له ولا لغيره) .

وقولِه : لا رِبَا إلاَّ في السِّتَّة المَنْصُوصِ عليها ، فخِلافُه في هـٰذا أو نَحوِه غيرُ مُعْتدٍّ به ، لأنَّه مبنيٌّ علىٰ ما يُقطَعُ ببُطْلانِه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لا رَيبَ أنَّ كُلَّ مَسألَةٍ انفرَدَ بها ، وقُطعَ ببُطْلانِ قَولِه فيها ، فإنَّها هَدرٌ ، وإنَّما نَحكيها للتَّعجُّبِ ، وكُلَّ مَسألَةٍ له عَضَدَها نَصٌّ ، وسَبقَه إليها صاحبٌ أو تابعٌ ، فهي من مَسائلِ الخِلافِ ، فلا تُهْدَر .

وفي الجُملَةِ ، فداوُد بنُ عليّ بَصيرٌ بالفِقْه ، عالمٌ بالقُرآنِ ، حافِظٌ للأثَرِ ، رأسٌ في مَعرِفَةِ الخِلافِ ، من أوْعيَةِ العِلمِ ، له ذَكاءٌ خارِقٌ ، وفيه دينٌ مَتينٌ وكذلكَ في فُقَهاءِ الظَّاهِريَّة جَماعَةٌ لهم عِلمٌ باهِرٌ ، وذَكاءٌ قَويٌّ ، فالكَمالُ عَزيزٌ ، واللهُ المُوَفِّق .

ونحن : فنحكي قولَ ابنِ عبَّاس في المتعة ، وفي الصَّرْف[1] ، وفي إنْكارِ العَوْل ، وقَولِ طائِفَةٍ من الصَّحابَة في تَرك الغُسْلِ من الإيْلاجِ[2] ، وأشْباهَ ذلك ، ولا نُجَوِّزُ لأحَد تَقليدَهم في ذلك .

مات داوُدُ في شَهرِ رَمضانَ سَنةَ سَبعينَ ومِئَتين[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي بَكر ، عبدِ اللهِ بنِ أبي داوُدَ السِّجِسْتانيّ ، قالَ عَليُّ بنُ الحُسَينِ بنِ الجُنَيد : سَمعتُ أبا دَاوُدَ يَقولُ : ابني عبدُ الله كذَّاب قالَ ابنُ صاعِد : كفانا ما قالَ فيه أبوه .

قال الحافظُ ابنُ عَدي : كانَ في الابْتداءِ يُنسَبُ إلىٰ شَيءٍ من النَّصْبِ[4] ، فنَفاهُ ابنُ الفُرات من بَغدادَ إلىٰ وَاسِط ، فرَدَّه ابنُ عيسىٰ ، فحدَّث ، وأظْهَرَ فَضائلَ عَليٍّ ثم تَحَنْبَلَ ، فصَارَ شَيخاً فيهم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كان شَهْماً ، قَويَّ النَّفسِ ، وقَعَ بينَه وبينَ ابنِ جَرير ، وبينَ ابنِ صاعِد[5] .

---

(١) انظر شَرح صحيح مسلم رقم (٥٩٦) (١٠٢) ، وشَرح السُّنَّة : ٨/ ٦٠ـ ٦١

(٢) انظر شَرح السُّنَّة : (٢/ ٥ـ ٧)

(٣) انظر السير : (داوُد بن عَليّ) ١٣/ ٩٧ـ ١٠٨ ، وانظر النزهة : ١٠٥٨/ ١ـ ١٠٦٠ .

(٤) النَّصْب : أي بغضة عليٍّ رضي الله عنه، من نَصَبَ فُلانٌ لفُلانٍ نَصْباً، إذا قَصدَ له ، وعاداه ، وتجرَّد له.

(٥) انظر السير : (أبو بَكر بنُ أبي داوُد السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ١٠٧٣/ ٢ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ أيضاً : ولعلَّ قَولَ أبيه فيه ـ إنْ صَحَّ ـ أرادَ الكَذبَ في لَهجَتِه ، لا في الحَديثِ ، فإنَّه حُجَّة فيما يَنقُله ، أو كان يَكذِبُ ويُوَرِّي في كلامِه ، ومَنْ زَعَمَ أنَّه لا يَكذِبُ أبداً ، فهو أرْعَن ، نَسألُ اللهَ السَّلامَةَ من عَثرَةِ الشَّبابِ ، ثم إنَّه شاخَ وارْعَوَىٰ ، ولَزِمَ الصِّدقَ والتُّقَىٰ[1] .

وقال أبو أحمَد بنُ عَدي : سَمعتُ عَليَّ بنَ عبدِ الله الدَّاهريَّ يقولُ : سَألتُ ابنَ أبي داود عن حَديثِ الطَّيْر[2] ، فقال : إن صح حديث الطير فنبوَّةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم باطلٌ ، لأنَّه حَكَىٰ عن حاجبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم خِيانةً ـ يَعْنىٰ أنَساً ـ وحَاجِبُ النبيِّ لا يَكونُ خائناً .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذه عبارةٌ رديئةٌ ، وكلامٌ نحْسٌ ، بل نُبوَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم حَقٌّ قَطْعيٌّ ، إنْ صَحَّ خَبرُ الطَّيْرِ ، وإنْ لَمْ يَصِحَّ ، وما وَجْهُ الارْتِباطِ ؟! هـٰذا أنَسٌ قد خَدمَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَبلَ أنْ يَحْتلِمَ ، وقَبلَ جَرَيان القَلَم ، فيَجُوزُ أنْ تَكونَ قِصَّةُ الطَّائر في تِلكَ المُدَّة فَرْضنا أنَّه كان مُحْتَلِماً ، ما هو بمَعْصُوم من الخِيانَة ، بلْ فَعَلَ هـٰذه الجِنايَةَ الخَفيفَة مُتأوِّلاً ، ثمَّ إنَّه حَبَسَ عَليّاً من الدُّخولِ كما قِيلَ ، فكان ماذَا ؟ والدَّعْوَةُ النَّبويَّة قد نَفَذَت واسْتُجيبَت ، فلَوْ حَبَسَه ، أو رَدَّه مَرَّات ، ما بَقِيَ يُتَصوَّرُ أنْ يَدخُلَ ويَأكلَ مع المُصطفَىٰ سِواهُ ، اللَّهُمَّ إلاَّ أنْ يَكونَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قَصدَ بقَولِه : « إيتِنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إلَيْكَ ، يَأْكلُ مَعِي » عَدداً من الخِيَارِ ،

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر بنُ أبي داوُد السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٧٣ .

(٢) وأخرجه الحاكم من طريق سليمان بن بلال ، عن يحْيى بن سعيد ، عن أنس قال : كنتُ أخدمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم له فرخ مشوي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ ائتني بأحبِّ خلقكَ إليك يأكلُ معي هـٰذا الطير ، فقلتُ اجْعَلْه رجلاً من أهلي الأنصار ، فجاء عليٌّ ، فقلتُ إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حاجة ، ثم جاء فقلتُ ذلك ، فقال : اللَّهُمَّ ائتني كذلك ، فقلتُ ذلك ، فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « افتح ، فدخل فقال صلى الله عليه وسلم : ما حبسكَ يا عليُّ ؟ فقال : إنَّه هـٰذه آخر ثلاث كرَّات يردُّني أنس ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما حَملَكَ علىٰ ما صَنعتَ ؟ قلتُ : أحْبَبْتُ أن يكونَ رجلاً من قومي ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الرجلَ محبٌّ قومَه » ، وانظر أجوبة الحافظ ابن حجر علىٰ أحاديث وقعت في المصباح ٣/ ٣١٣ ، ٣١٤ و(الفوائد المجموعة) ص ٣٨٢ ، وسيذكر الإمام الذهَبيُّ رأيَه بعد إيراده الخبر .

يَصدُقُ علىٰ مَجمُوعِهِم أنَّهُم أحَبُّ النَّاسِ إلى الله ، كمَا يَصحُّ قَوْلُنا : أحَبُّ الخَلْقِ إلى الله الصَّالحُونَ ، فيُقالُ : فمَنْ أحَبُّهُم إلى الله ؟ فنَقُولُ : الصِّدِّيقُونَ والأنْبياءُ فيُقالُ : فمَنْ أحَبُّهُم إلى الله ؟ فنَقُولُ : مُحمَّدٌ وإبْراهِيمُ ومُوسَىٰ ، والخَطْبُ في ذلك يَسيرٌ وأبو لُبابَة ـ مع جَلالتهِ ـ بدَتْ منه خِيانَةٌ ، حَيثُ أشارَ لبَني قُرَيْظَة إلىٰ حَلْقِه ، وتابَ اللهُ عَليه وحاطِبٌ بدَت منه خِيانَةٌ ، فكاتَبَ قُرَيشاً بأمْرٍ تَخَفَّىٰ به نَبيُّ الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوِهِم ، وغَفرَ اللهُ لحاطِب مع عِظَمِ فِعْلِهِ رضي الله عنه وحَديثُ الطَّيرِ ـ علىٰ ضَعْفِه ـ فلَه طُرقٌ جَمَّة ، وقد أفْرَدتُها في جُزء ، ولَمْ يَثْبُتْ ، ولا أنا بالمُعْتَقِدِ بُطْلانَه ، وقد أخطأ ابنُ أبي داوُد في عِبارَته وقولِه ، وله علىٰ خَطئِهِ أجْرٌ واحدٌ[1] .

ولَيسَ من شَرط الثِّقَةِ أنْ لا يُخْطِىءَ ولا يَغْلَطَ ولا يَسْهوَ ، والرجلُ فمِنْ كِبَارِ عُلماء الإسْلام ، ومن أَوْثَق الحُفَّاظ ، رحمَه الله تَعالىٰ[2] .

وقالَ مَسْعودٌ السِّجْزِيُّ : سَمعتُ أبا عبدِ اللهِ الحاكِمَ يَقولُ : أجْمَعَت الأمَّةُ علىٰ أن القُتَبِيَّ كذَّاب .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه مُجازَفَةٌ وقلَّةُ وَرَع ، فما عَلمتُ أحداً اتَّهمَه بالكَذِب قبلَ هـٰذه القَولَة ، بل قالَ الخَطيبُ : إنَّه ثِقَةٌ[3] .

وعن حمَّادٍ الحَرَّانيِّ أنَّه سَمعَ السِّلَفيَّ يُنكِرُ على الحاكم في قولِه : لا تَجوزُ الرِّوايَة عن ابنِ قُتَيبَة ويَقولُ : ابنُ قُتَيبَة من الثِّقاتِ ، وأهلِ السُّنَّة ثم قالَ : لكنَّ الحاكمَ قصدَه لأجلِ الْمَذْهَب .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : عَهْدي بالحاكم يَميلُ إلى الكَرَّاميَّة ، ثم ما رَأيتُ لأبي محمَّد ابنِ قُتَيبَة في كتاب « مُشْكِل الحَديث » ما يُخالِفُ طَريقَة الْمُثْبِتَةِ والحَنَابِلَة ، ومنْ أنَّ أخْبَارَ الصِّفات تُمَرُّ ولا تُتَأوَّل ، فالله أعلَم[4] .

قال الحافظُ أبو عبد الله بنُ مَندَة في مسألة الإيمان : صَرَّحَ محمدُ ابنُ نَصْر في كتاب

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر بنُ أبي داوُد السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٧٣ .
(٢) انظر السير : (أبو بَكر بنُ أبي داوُد السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٥ .
(٣) انظر السير : (ابنُ قُتَيْبَة) ١٣/ ٢٩٦ـ ٣٠٢ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٨ .
(٤) انظر السير : (ابنُ قُتَيْبَة) ١٣/ ٢٩٦ـ ٣٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٨ .

« الإيمان » بأنَّ الإيمانَ مَخْلوق ، وأنَّ الإقْرارَ ، والشَّهادَةَ ، وقِراءةَ القُرآن بلَفْظه مَخْلوق ثم قال : وهَجَرَه علىٰ ذلك عُلماءُ وَقْته وخالَفَه أئمَّةُ خُراسانَ والعِراق[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الخَوْضُ في ذلك لا يجوزُ ، وكذلك لا يجوزُ أنْ يُقالَ : الإيمانُ ، والإقْرارُ ، والقِراءةُ ، والتَّلفُّظُ بالقُرآن غَيرُ مَخْلوق ، فإنَّ اللهَ خَلقَ العِبادَ وأعْمالَهم ، والإيمانُ : فقَولٌ وعَمل ، والقِراءَةُ والتَّلفُّظُ : من كَسْب القارىء ، والمَقْروءُ المَلْفوظُ : هو كَلامُ الله ووَحْيُه وتَنزيلُه ، وهو غَيرُ مَخْلوق ، وكذلك كَلمَةُ الإيمان ، وهو قَوْلُ : « لا إلـهَ إلاَّ الله ، محمَّدٌ رَسُولُ الله » داخلةٌ في القُرآن ، وما كان من القُرآن فليس بمَخْلوق ، والتكلُّمُ بها من فِعْلِنا ، وأفْعالُنا مَخْلوقَة ، ولو أنَّا كُلما أخطأ إمامٌ في اجْتهادِه في آحادِ المَسائل خطأً مَغْفوراً له ، قُمْنا عليه ، وبَدَّعْناه ، وهَجَرْناه ، لما سَلِمَ مَعنا لا ابنُ نَصْر ، ولا ابنُ مَنْدَة ، ولا مَنْ هو أكْبرُ منهما ، واللهُ هو هادي الخَلقِ إلى الحَقِّ ، وهو أرْحَمُ الراحمين ، فنَعوذُ بالله من الهَوىٰ والفَظاظَة[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مُحمَّدِ بنِ جَرير : وكان ابنُ جَرير من رجال الكمال ، وشُنِّعَ عليه بيَسير تشيُّع ، وما رَأينا إلاَّ الخَيرَ ، وبعَضُهم يَنقُلُ عنه أنَّه كانَ يُجيزُ مَسحَ الرِّجْلَينِ في الوُضوء ولَمْ نَرَ ذلك في كُتبه[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ خُزَيْمَةَ : وكِتابُ ابنِ خُزَيْمَة في « التَّوحيدِ » مُجَلَّدٌ كَبيرٌ ، وقد تأوَّلَ في ذَلكَ حَديثَ الصُّورَةِ[4] ،[5] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن نَصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٧ .

(٢) انظر السير : (محمد بن نَصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١١٢٧ .

(٣) انظر السير : (محمَّدُ بنُ جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٤/١١٥٢ .

(٤) حديثُ الصورة ، أخرجه البخاري في « صحيحه » (١١/ ٢) أول الاستئذان ، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة : باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير وأحمد : (٢/ ٣١٥) ، وابن خُزيمة في « التوحيد » (٣٩ ـ ٤٠) من طريق معمر عن همّام بن مُنبه ، عن أبي هُريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خَلَقَ اللهُ آدَمَ علىٰ صُورَتِه ، طُولُهُ ستُّونَ ذِراعاً ، فلَمَّا خَلَقَه ، قالَ : اذْهَبْ ، فَسَلِّمْ علىٰ أُولَئِكَ ـ نَفَرٌ مِنَ المَلائِكَةِ جُلُوسٌ ـ فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ ، فإنَّهَا تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ ، فقَالَ : السَّلامُ عَليكُم فقَالُوا : السَّلامُ عَلَيْكَ ورَحْمَةُ اللهِ فزَادَهُ : « ورَحْمَةُ اللهِ » فكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ علىٰ صُورَةِ آدَمَ ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حتّى الآن » وراجِعْ ما كَتَبَه الحافظُ ابنُ حَجَر عن عَوْدِ الضَميرِ في (صورته) في « الفَتح » : (٥/ ١٣٣) ، (٦/ ٢٦٠) ، (١١/ ٢ـ ٣) .

(٥) انظر السير : (ابن خُزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ١/٢٦١١ .

فلْيُعذَرْ من تَأوُّلِ بَعضِ الصِّفاتِ ، وأمَّا السَّلَفُ فما خَاضُوا في التَّأويلِ ، بَلْ آمَنُوا وكَفُّوا ، وفَوَّضُوا عِلْمَ ذَلكَ إلى اللهِ ورسُولِه ، ولَوْ أنَّ كُلَّ مَنْ أخْطَأَ في اجْتِهَادِه ـ مع صِحَّةِ إيْمانِه وتَوَخِّيه لاتِّباع الحَقِّ ـ أهْدَرْناهُ وبَدَّعْناهُ ، لَقَلَّ مَنْ يَسْلَمُ من الأئِمَّة مَعَنا رَحِمَ اللهُ الجَميعَ بِمَنِّهِ وكَرَمِه[1] .

قالَ عبدُ الصَّمَد بنُ محمَّد بنِ محمَّد بنِ حِبَّان ، سَمعتُ أبي يقولُ : أنْكَروا علىٰ أبي حاتم بنِ حِبَّان قولَه : النُّبوَّةُ : « العِلمُ والعَمَلُ » ، فحَكَموا عليه بالزَّنْدَقَة ، وهُجرَ ، وكُتبَ فيه إلى الخَليفَة ، فكَتبَ بقَتلِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه حكايَةٌ غَريبةٌ ، وابنُ حِبَّان فمن كبار الأئمَّة ، ولَسنا نَدَّعي فيه العِصمَة من الخطأ ، لكن هـٰذه الكَلمَة التي أطلَقَها ، قد يُطلِقُها المسلمُ ، ويُطلقُها الزِّنْديقُ الفَيلَسوفُ ، فإطْلاقُ المسلم لها لا يَنبَغي ، لكن يُعتَذرُ عنه ، فنَقولُ : لَمْ يَرِدْ حَصرُ الْمُبتَدأ في الخَبَر ونَظيرُ ذلك قولُه صلى الله عليه وسلم : « الحَجُّ عَرَفَة » ومَعلومٌ أنَّ الحاجَّ لا يَصيرُ بمُجرَّد الوُقوفِ بعَرفَة حاجّاً ، بل بَقيَ عليه فُروضٌ ووَاجِباتٌ وإنَّما ذَكَرَ مُهِمَّ الحَجِّ وكذا هـٰذا ذَكَرَ مُهِمَّ النُّبوَّة ، إذ من أكمَلِ صِفاتِ النَّبيِّ كمَالُ العِلمِ والعَمَل فلا يَكونُ أحدٌ نَبياً إلاَّ بوُجودِهما ، ولَيسَ كلُّ مَنْ بَرزَ فيهما نَبياً ، لأنَّ النُّبوَّةَ مَوْهِبَةٌ من الحَقِّ تَعالَىٰ ، لا حيلَةَ للعَبدِ في اكْتِسابِها ، بل بها يَتوَلَّدُ العِلمُ اللَّدُنِّيُّ والعَمَلُ الصَّالح .

وأمَّا الفَيلَسوفُ فيقولُ : النُّبوَّة مُكتسَبَة يُنتِجُها العِلمُ والعَملُ فهـٰذا كُفرٌ ، ولا يُريدُهُ أبو حاتم أصْلاً ، وحاشاه ، وإنْ كانَ في «تَقاسيمِه» من الأقْوالِ ، والتأويلاتِ البَعيدَة ، والأحاديثِ الْمُنكَرَة عَجائبَ وقد اعْترفَ أنَّ « صَحيحَه » لا يَقدِرُ على الكَشْفِ منهُ إلاَّ مَنْ حَفِظَه ، كمَنْ عندَه مُصحَفٌ لا يَقدرُ علىٰ مَوضِعِ آيةٍ يُريدُها منه إلاَّ مَنْ يَحفَظُه[2] .

قال أبو إسْماعيل الأنْصَاريّ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ عمَّار الواعِظَ وقد سَألتُه عن ابنِ حبَّان ، فقال : نحنُ أخْرَجناه من سِجسْتان ، كان له عِلمٌ كثير ، ولَمْ يَكُنْ له كَبيرُ دين ، قَدِمَ علينا ، فأنْكَرَ الحدَّ لله ، فأخْرَجْناه .

---

(١) انظر السير : (ابن خُزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/٢٦١١ .

(٢) انظر السير : (ابنُ حِبَّان) ١٦/ ٩٢ـ ١٠٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٦٩ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إنْكارُكُم عليه بِدْعَةٌ أيْضاً ، والخَوضُ في ذلكَ ممَّا لَمْ يَأذَنْ به اللهُ ، ولا أتَىٰ نَصٌّ بإثْباتِ ذلكَ ولا بنَفْيه ، و« مِنْ حُسْنِ إسْلام المَرْءِ تَرْكهُ مَا لاَ يَعْنِيه » وتَعالَى اللهُ أنْ يُحَدَّ أو يُوصَفْ إلاَّ بما وَصَفَ به نَفسَه ، أوْ عَلَّمَه رُسُلَه بالمَعْنى الذي أرادَ بِلا مِثْلٍ ولا كَيْف ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] .

تُوفِّيَ ابنُ حِبَّان بسِجِسْتانَ بمَدينَة « بُست » في سَنةِ أرْبَع وخَمسينَ وثَلاثِ مئة وهو في عَشرِ الثَّمانين[2] .

وقالَ أبو الحَسَن الصَّفَّار : سَمعتُ أبا سَهْل الصُّعْلُوكيَّ ، وسُئلَ عن تَفسيرِ أبي بَكر القَفَّال فقالَ : قدَّسَه من وَجْه ، ودَنَّسَه من وجه أي : دَنَّسَه نَصرُه للاعْتِزالِ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الكَمالُ عَزيزٌ ، وإنَّما يُمدَحُ العالِمُ بكَثْرَةِ ما لَه من الفَضائل ، فلا تُدفَن الْمَحاسِنُ لوَرْطَة ، ولَعلَّه رَجعَ عنها وقد يُغفَر له باسْتفْراغِه الوُسْعَ في طَلبِ الحَقِّ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ[3] .

رَوَى ابنُ بَطَّة عن البَغَويِّ ، عن مُصْعَبِ بنِ عبدِ اللهِ عن مَالِك ، عن الزُّهْريِّ عن أنَسٍ ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كلِّ مُسْلِمٍ » .

قالَ الخَطيبُ : هٰذا باطِلٌ ، والحَملُ فيه على ابنِ بَطَّة[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أفْحَشَ العِبارَة وحاشَى الرجل من التَّعمُّد ، لكنَه غَلطَ ودَخلَ عليه إسْنادٌ في إسْناد .

كان مَوْتُه في سَنةِ سَبعٍ وثَمانينَ وثَلاثِ مئة[5] .

قالَ أبو الوَليدِ البَاجي : عبدُ الغَني بنُ سَعيد حافِظٌ مُتقِنٌ ، قُلتُ لأبي ذَر الهَرَوي :

---

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٢) انظر السير : (ابن حِبّان) ١٦/ ٩٢ـ ١٠٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٠ .

(٣) انظر السير : (القَفَّالُ الشَّاشِي) ١٦/ ٢٨٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٩٥ .

(٤) حديثٌ حَسنٌ انظر « فيض القدير » ٤/ ٢٦٧ .

(٥) انظر السير : (ابنُ بَطَّة) ١٦/ ٥٢٩ـ ٥٣٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣١٤ .

أخَذتَ عن عبدِ الغني ؟ فقالَ : لا إنْ شاءَ الله علىٰ مَعنَى التَّأكيدِ ، وذلكَ أنَّه كانَ لعَبدِ الغَني اتِّصالٌ ببَني عُبَيْد ، يَعني أصْحَابَ مِصْرَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : اتِّصالُه بالدَّولَةِ العُبَيْديَّةِ كانَ مُدارَاةً لهم وإلاَّ فلَوْ جَمَحَ عليهم لاسْتأصَلَه الحاكِمُ خَليفَةُ مِصْرَ ، الذي قيلَ إنَّه ادَّعَى الإلَهيَّة .

وأظنُّه وَليَ وَظيفةً لهم ، وقد كانَ من أئمَّة الأثَر نَشأ في سُنَّةٍ واتِّبَاعٍ قَبلَ وُجودِ الرَّفْضِ واسْتمرَّ هو على التَّمَسُّك بالحَديثِ ولكنَّه دَارَى القَومَ ودَاهَنَهم فلذلك لَمْ يُحِبَّ الحافِظُ أبو ذَر الأخْذَ عَنه[1] .

جاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ السِّمْسارِ ، وقالَ أبو الوَليدِ البَاجي : فيه تَشَيُّع يُفضي به إلى الرَّفْضِ ، وهو قَليلُ الْمَعرِفَة[2] .

مات ابنُ السِّمْسار سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وقد كَمَّلَ التسعين ، ولعلَّ تَشَيُّعَه كان تَقيَّةً لا سَجيَّة ، فإنَّه من بَيتِ الحَديثِ ، ولكن غَلت الشَّامُ في زَمانِه بالرَّفضِ ، بل ومِصْرُ والمَغْربُ بالدولَة العُبَيْديَّة ، بل والعِراق ، وبعض العجم بالدولة البُوَيْهيَّة ، واشْتدَّ البلاءُ دَهراً ، وشَمخَت الغُلاةُ بأنفِها ، وتَواخَى الرَّفضُ والاعْتِزالُ حينئذٍ ، والنَّاسُ علىٰ دين المَلك ، نَسألُ اللهَ السَّلامةَ في الدِّين[3] .

وقالَ ابنُ عَساكِر في « تَبيين كَذبِ الْمُفتَري » : لا يَستبعدَنَّ جاهلٌ كَذبَ الأهْوَازيّ فيما أوْرَده من تلك الحِكاياتِ ، فقد كاَن من أكْذَبِ النَّاسِ فيما يَدَّعي من الرِّواياتِ في القِراءاتِ .

وقالَ عبدُ الله بنُ أحمَد بن السَّمَرْقَنديِّ : قالَ لنا أبو بَكر الخَطيبُ : أبو عَليٍّ الأهْوَازيُّ كذَّابٌ في القِراءاتِ والحَديثِ جَميعاً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يُريدُ تَركيبَ الإسْنادِ ، وادِّعاءَ اللِّقاءِ ، أمَّا وَضعُ حُروفٍ أوْ مُتُونٍ فحَاشا وكلاَّ ، ما أُجَوِّزُ ذلك عَليه ، وهو بَحْرٌ في القِراءاتِ ، تَلقَّى الْمُقرئون

---

(١) انظر السير : (عبدُ الغَني بنُ سَعيد) ١٧/ ٢٦٨ـ ٢٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٤٠ .

(٢) انظر السير : (ابنُ السِّمسار) ١٧/ ٥٠٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٣٥٦ .

(٣) انظر السير : (ابنُ السِّمسار) ١٧/ ٥٠٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٥٦ .

تَواليفَه ونَقلَه للفَنِّ بالقَبولِ ، ولَمْ يَنتَقِدوا عليه انْتِقادَ أصْحابِ الحَديثِ كما أحْسَنوا الظَّنَّ بالنَّقَّاش ، وبالسَّامريِّ ، وطائفَة راجوا عليهم .

تُوفِّيَ أبو عَليٍّ ـ سَامَحَه الله ـ سَنةَ سِتٍّ وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة[1] .

وقالَ أبو الحَسَن بنُ الطُّيوريِّ : أكثر كُتب الخَطيبِ ـ سِوَىٰ « تاريخ بغداد » ـ مُستَفادَةٌ من كُتب الصُّوريِّ ، كانَ الصُّوريُّ ابتدأ بها وكانت له أُختٌ بصُور ، وخلَّفَ عندَها اثنَي عَشرَ عِدْلاً من الكُتبِ ، فحَصَّلَ الخَطيبُ من كُتبِه أشياء .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : ما الخَطيبُ بمُفتَقِرٍ إلى الصُّوريِّ ، هو أحْفَظُ وأوْسَعُ رحْلةً وحَديثاً ومَعرِفَة[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي مُسْلمِ اللَّيْثِيِّ ، قالَ أبو زَكريّا بنُ مَنْدَه : هو أحَدُ مَنْ يَدَّعي الحِفظَ ، إلاَّ أنَّه يُدلِّسُ ، ويَتعصَّبُ لأهْلِ البِدَع ، أحولُ ، شَرِه ، كلما هاجَت ريحٌ ، قامَ مَعها ، صنَّف « مُسنَد الصَّحيحَين »[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : آلُ مَنْدَه لا يُعبَأ بقَدحِهم في خُصومِهم ، كما لا نَلتَفتُ إلىٰ ذَمِّ خُصومِهم لهم ، وأبو مُسْلم ثِقَةٌ في نَفسِه .

ماتَ بخوزستانَ سَنةَ سِتٍّ وسِتِّينَ وأرْبَع مئة[4] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ شَيخِ الإسْلامِ أبي إسْماعيلَ الهَرَويِّ ، قالَ الْمُؤتَمَنُ : كانَ يَدخلُ على الأُمَراء والجَبابرَة فما يُبالي ، ويَرَى الغَريبَ من الْمُحدِّثينَ ، فيُبالغُ في إكْرامِه وسَمعتُه يَقولُ : تَركتُ الحِيرِيَّ لله قال : وإنَّما تَركَه ، لأنَّه سَمعَ منه شَيئاً يُخالِفُ السُّنَّة[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كان يَدري الكَلامَ علىٰ رَأي الأشْعَريِّ ، وكانَ شَيخُ

---

(١) انظر السير : (الأهْوَازِيُّ) ١٨/ ١٣ـ١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٧٨ .
(٢) انظر السير : (الخَطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٤١٣ .
(٣) انظر السير : (أبو مُسْلم اللَّيْثِيُّ) ١٨/ ٤٠٧ـ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢٦ .
(٤) انظر السير : (أبو مُسْلم اللَّيْثِيُّ) ١٨/ ٤٠٧ـ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٢٦ .
(٥) انظر السير : (شَيخُ الإسْلام الهَرَويُّ) ١٨/ ٥٠٣ـ٥١٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٣٦ .

الإسْلامِ أثَرياً قُحّاً ، يَنالُ من الْمُتكلِّمَة ، فلهَـٰذا أعْرَضَ عن الحِيَرِيِّ ، والحِيَرِيُّ : فثِقةٌ عالمٌ ، أكثرَ عَنه البَيْهَقيُّ والنَّاسُ[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ سُلَيمانَ بنِ إبْراهيم : قالَ يَحْيَىٰ بنُ مَنْده : في سَماعِهِ كَلامٌ ، سَمعتُ مِنْ ثِقاتٍ أنَّ له أخاً يُسمَّىٰ إسْمَاعيل أكْبرَ منه ، فحَكَّ اسمَه ، وأثبتَ اسمَ نفسِه ، وهو شَيخ شَرِهٌ لا يَتورَّعُ ، لَحَّانٌ وَقَّاح[2] .

تُوفِّيَ سَنةَ سِتٍّ وثَمانينَ ، وله تِسْعُونَ عَاماً غيرَ أشْهُر[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : وينبغي التوقف في كلام يَحْيَىٰ ، فبَينَ آلِ مَنْدَه وأصْحَابِ أبي نُعَيم عَداواتٌ وإحَنٌ[4] .

وقالَ أبو عامِر العَبدَريُّ : سَمعتُ أبا نَصْر أحمَدَ بنَ مُحمَّد بنِ عبدِ القادِر الطُّوسيَّ يَحلفُ بالله إنَّه أبْصَرَ في نَومِه كأنَّه يَنظُرُ في كُتبِ الغَزَّاليِّ رَحمَه اللهُ، فإذا هي كلُّها تَصاوير .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الغَزَّاليُّ إمامٌ كَبيرٌ ، وما من شَرطِ العالِمِ أنَّه لا يُخطىءُ[5] .

ولأبي الحَسَن ابنِ سُكَّرٍ رَدٌّ على الغَزَّاليِّ في مُجلَّد سَمَّاه : « إحْياءُ مَيِّتِ الأحْياء في الردِّ علىٰ كتابِ الإحْياء » .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : ما زَالَ الأئمَّةُ يُخالِفُ بَعضُهم بَعضاً ، ويَردُّ هَـٰذا علىٰ هَـٰذا ولَسْنا مِمَّنْ يَذُمُّ العَالِمَ بالهَوَىٰ والجَهْل[6] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ محمَّدِ بنِ طاهِر ، وقد ذَكرَه الدَّقَّاقُ في رسالَتِه ، فحَطَّ عليه ، فقالَ : كانَ صُوفيّاً مَلاَمتيّاً ، سَكنَ الرَّيّ ، ثم هَمَذَانَ ، له كتابُ « صَفوَة التَّصوُّف » وله أدْنَىٰ مَعرِفَة بالحَديثِ في بابِ شُيوخِ البُخاريِّ ومُسلِم وغَيرِهما .

---

(١) انظر السير : (شَيخُ الإسْلام الهَرَويُّ) ١٨/ ٥٠٣ـ ٥١٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٣٦ .
(٢) في اللسان : وَقُحَ الرجُلُ : إذا صار قليلَ الحَياء ، فهو وَقِحٌ ووَقَّاح .
(٣) انظر السير : (سُلَيْمانُ بنُ إبْراهيم) ١٩/ ٢١ـ ٢٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٥٣ .
(٤) انظر السير : (سُلَيْمانُ بنُ إبْراهيم) ١٩/ ٢١ـ ٢٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤٥٣ .
(٥) انظر السير : (الغَزَّاليُّ) ١٩/ ٣٢٢ـ ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٨٤ .
(٦) انظر السير : (الغَزَّاليُّ) ١٩/ ٣٢٢ـ ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٨٥ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يا ذَا الرَّجلُ ، أقْصِرْ ، فابنُ طاهِر أحفَظُ منكَ بكَثير[1] .

ثم قالَ : وذَكرَ لي عَنه الإبَاحَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ما تَعني بالإبَاحَة ؟ إنْ أرَدْتَ بها الإبَاحَة الْمُطلَقَة ، فحاشا ابنَ طاهِر ، هو ـ والله ـ مُسلمٌ أثَريٌّ ، مُعَظِّمٌ لحُرُماتِ الدِّين ، وإنْ أخْطأ أو شَذَّ ، وإنْ عَنَيتَ إبَاحَةً خاصَّةً ، كإباحَةِ السَّماعِ ، وإباحَةِ النَّظَرِ إلى الْمُرْدِ فهَـٰذه مَعْصيَةٌ ، وقَولٌ للظَّاهِريَّة بإباحَتِها مَرْجوحٌ .

قالَ أبو سَعْد السَّمعانيُّ : سَألتُ إسْماعيلَ بنَ محمَّد الحافِظَ عن ابنِ طاهِر ، فتوَقَّفَ ، ثم أساءَ الثَّناءَ عليه ، وسَمعتُ أبا القاسِمِ بنَ عَساكِرَ يَقولُ : جَمعَ ابنُ طاهِر أطْرافَ « الصَّحيحَين » وأبي داوُدَ ، وأبي عيسَىٰ والنَّسائيِّ وابنِ ماجَه ، فأخْطأ في مَواضِعَ خطأً فاحشاً[2] .

وقالَ ابنُ ناصِر وجَماعَةٌ : كانَ أصْحابُ القَيْروانيِّ يَشهَدونَ عَليه أنَّه لا يُصلِّي ولا يَغتَسِلُ من جَنابَة في أكثرِ أحْوالِه ، ويُرْمَىٰ بالفِسْقِ مع الْمُرْدِ واشْتُهر بذلك ، وادَّعَىٰ قراءَةَ القُرآن على ابنِ نَفيس .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هَـٰذا كَلامٌ بِهَوىً[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ العَرَبيّ : قَرأتُ بخَطِّ ابنِ مَسْدي في « مُعجَمِه » أخبَرَنا أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ مُفرج النَّبَاتيُّ ، سَمعتُ ابنَ الجَدِّ الحافِظَ وغَيرَه يَقولون : حَضَر فُقهاءُ إشْبيلِيَة : أبو بَكر بنُ الْمُرَجَّىٰ وفُلانٌ وفُلانٌ ، وحَضَرَ مَعهم ابنُ العَرَبي فتَذاكَروا حَديثَ الْمِغْفَرِ .

فقالَ ابنُ الْمُرَجَّىٰ : لا يُعرَف إلاَّ من حَديث مَالكٍ عن الزُّهْريِّ ، فقالَ ابنُ العَربيِّ : قد رَويتُه من ثَلاثَةَ عَشرَ طَريقاً غَيرِ طَريق مَالِك فقالوا : أفِدْنا ، فوَعَدَهم ،

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ طاهِر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٧ .

(٢) انظر السير : (محمَّدُ بنُ طاهِر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٨٧ .

(٣) انظر السير : (القَيْرَوانيُّ) ١٩/ ٤١٧ـ ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٥ .

ولم يُخرِجْ لهم شَيئاً وفي ذلك يَقولُ خَلفُ بنُ خَيرِ الأديبُ[1] :

يا أهلَ حمصَ[2] ومَنْ بها أوصيكمُ ... بـالبـرِّ والتقـوىٰ وصيـةَ مُشفـقِ
فخذوا عن العربيِّ أسمارَ الدُّجى ... وخـذوا الـروايـة عـن إمـامٍ مُتَّـقِ
إنَّ الفتـىٰ حُلـوُ الكـلامِ مَهُـذَّبٌ ... إنْ لـمْ يجـدْ خبـراً صحيحـاً يَخْلُـقِ

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه حِكايَةٌ ساذِجَةٌ لا تَدلُّ علىٰ تَعمُّد ، ولَعلَّ القاضي رَحمَهُ الله وَهَم ، وسَرَىٰ ذِهنُه إلىٰ حَديثٍ آخَر ، والشَّاعرُ يَخلقُ الإفْكَ ، ولم أنْقُمْ على القاضي رَحمَه الله إلاَّ إقْذاعَه في ذمِّ ابنِ حَزْم واسْتِجهالِه لَه ، وابنُ حَزْم أوْسَع دائرةً من أبي بَكر في العُلومِ ، وأحْفَظُ بكَثير ، وقد أصابَ في أشياءَ وأجادَ ، وزَلَقَ في مَضايقَ كَغيرِه من الأئمَّة ، والإنْصافُ عَزيزٌ .

تُوفِّيَ ابنُ العَربيّ بفاسَ سَنةَ ثَلاثٍ وسَبعينَ وخَمسِ مئة[3] .

وقال ابنُ النَّجَّار : سَمعتُ المُبارك النَّحْويَّ يقولُ : كان ابنُ الخَشَّاب إذا نُوديَ علىٰ كتابٍ أخَذَه وطالَعَه ، وغَلَّ ورَقَه ، ثم يقولُ : هو مَقطوعٌ ، فيَشْتَريه برخْصٍ[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لَعلَّه تابَ ، فقَد قالَ عبدُ الله بنُ أبي الفَرَج الجُبَّائي : رأيتُ ابنَ الخشَّاب وعليه ثيابٌ بيضٌ ، وعلىٰ وَجْهه نورٌ ، فقلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قال : غَفَرَ لي ، ودَخلتُ الجَنَّة ، إلاَّ أنَّ اللهَ أعْرضَ عنِّي وعن كَثيرٍ من العُلماء ممَّن لا يَعملُ .

ماتَ سَنةَ سَبعٍ وستِّينَ وخَمسِ مِئَة[5] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي الفرج ابنِ الجَوْزي : قالَ الحافِظُ سَيفُ الدِّين ابنُ الْمجدِ : هو كثيرُ الوَهْم جداً ، سَمعتُ ابنَ نُقطَة يَقولُ : قيلَ لابنِ الأخْضَرِ : ألا تُجيبُ عن

---

(١) انظر السير : (ابنُ العَرَبيّ) ٢٠/ ١٩٧ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤١
(٢) ويقصد بحمص هنا إشْبيليَّة ، إذ كانت تُدعَىٰ حِمْصَ أيضاً .
(٣) انظر السير : (ابنُ العَرَبيّ) ٢٠/ ١٩٧ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٤١ .
(٤) انظر السير : (ابن الخَشَّاب) ٢٠/ ٥٢٣ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٩ .
(٥) انظر السير : (ابن الخَشَّاب) ٢٠/ ٥٢٣ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٩ .

بَعضِ أوْهامِ ابنِ الجَوْزيِّ؟ قالَ : إنَّما يُتَتَبَّعُ علىٰ مَنْ قَلَّ غَلطُه ، فأمَّا هَـٰذا فأوْهامُه كَثيرةٌ[1] .

ثم قالَ السَّيفُ : ما رَأيتُ أحَداً يُعتَمَدُ عليه في دينِه وعِلمِه وعَقلِه راضياً عنه[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إذا رَضيَ اللهُ عنه ، فلا اعْتبارَ بهم[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابن الأثير ، قال ابنُ الشَّعَّار : كانَ من أشَدِّ النَّاسِ بُخْلاً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : مَنْ وَقفَ عَقارَه للهِ فلَيسَ ببَخيلٍ ، فما هو ببَخيلٍ ، ولا بجَوادٍ ، بل صاحِبُ حَزْمٍ واقْتِصادٍ ، رَحمَهُ الله .

عاشَ ثَلاثاً وسِتِّينَ سَنةً تُوفِّيَ في سَنةِ سِتٍّ وسِتٍّ مئة بالْمَوْصِلِ[4] .

وقالَ ابنُ النَّجَّار : كانَ ابنُ طَبَرْزَذ يؤدِّبُ الصِّبْيانَ ، ويَكتبُ خَطّاً حَسَناً ، ولمْ يَكنْ يَفهَمُ شَيئاً من العِلمِ ، وكانَ مُتهاوِناً بأمُورِ الدِّينِ ، رَأيتُه غَيرَ مرَّة يَبولُ من قيامٍ ، فإذا فَرَغَ من الإراقَة أرْسَلَ ثَوبَه وقَعدَ من غَيرِ اسْتِنجاءٍ بمَاءٍ ولاحَجَر .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : لَعلَّه يُرخِّصُ بمَذْهَب مَنْ لا يُوجِبُ الاسْتنْجاءَ .

قالَ : وكُنَّا نَسمَعُ منه يَوماً أجْمَعَ ، فنُصلِّي ولا يُصلِّي مَعَنا ، ولا يَقومُ لصَلاةٍ ، وكانَ يَطلبُ الأجْرَ علىٰ رِوايَةِ الحَديثِ ، إلىٰ غَيرِ ذلكَ من سُوءِ طَريقَتِه ، وخلَّفَ ما جمَعَه من الحُطَام ، لَمْ يُخرجْ منه حقاً لله عَزَّ وجَلَّ[5] .

وقالَ القِفْطِيُّ : كان الكِنْديُّ لَيِّناً في الرِّوايَة ، مُعجَباً بنَفسِه فيما يَذكرُه ويَرويه ، وإذا نُوظِرَ جَبَهَ بالقَبيحِ ، ولَمْ يَكنْ مُوفَّقَ القَلَم ، رَأيتُ له أشْياءَ بارِدَة ، واشْتُهرَ عنه أنَّه لَمْ يَكنْ صَحيحَ العَقيدَة[6] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : ما عَلِمنا إلاَّ خَيراً ، وكانَ يُحبُّ اللهَ ورَسُولَه وأهْلَ

---

(١) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٧ .
(٢) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٧ .
(٣) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٣٧ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الأثير) ٢٢/ ٣٥٣ـ ٣٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٥٤ .
(٥) انظر السير : (ابنُ طَبَرْزَذ) ٢١/ ٥٠٧ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥٧ .
(٦) انظر السير : (الكِنْديّ) ٢٢/ ٣٤ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٦٣ .

الخَيرِ ، وشَاهَدتُ له فُتيَا في القُرآنِ تَدلُّ علىٰ خَيرٍ وتَقريرٍ جَيِّد ، لكنَّها تُخالِفُ طَريقَةَ أبي الحَسَن[1] ، فلَعلَّ القِفْطِيَّ قَصدَ أنَّه حَنْبَليُّ العَقْدِ ، وهـٰذا شَيءٌ قد سَمُجَ القَولُ فيه فكُلُّ مَنْ قَصدَ الحَقَّ من هـٰذه الأُمَّة فاللهُ يَغفِرُ له ، أعَاذَنا اللهُ من الهَوَىٰ والنَّفْسِ .

وقالَ الْمُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيف : اجْتَمعتُ بالكِندِيِّ ، وجَرَىٰ بينَنا مُباحَثاتٍ وكانَ شَيخاً بَهيّاً ذَكياً مُثرياً ، له جانبٌ من السُّلطانِ ، لكنَّه كانَ مُعجَباً بنَفسِه مُؤذياً لِجَليسِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أذاهُ لهَـٰذا القَائل أنَّه لقَّبَه بالْمَطْحَن .

تُوفِّيَ سَنةَ ثلاثَ عَشرَةَ وسِتِّ مئة[2] .

التَّرَقِّي

قالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة : قالَ مَعْنٌ : ما رَأيتُ مِسْعَراً في يَومٍ إلاَّ وهو أفْضلُ من اليوم الذي كانَ بالأمْسِ وقالَ محمَّدُ بنُ سَعْد : كانَ لِمِسْعَر أمٌّ عابِدَةٌ ، فكانَ يَخدُمُها وكانَ مُرْجئاً[3] ، فماتَ فلَمْ يَشْهَدْه سُفْيانُ الثَّوْريُّ والحَسَنُ بنُ صالِح .

قالَ شُعْبَةُ بنُ الحَجَّاج : كُنَّا نُسمِّي مِسْعَراً : الْمُصحَفَ ـ يَعني من إتْقانِه .

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ داوُد الخُرَيْبي قالَ : ما من أحَدٍ إلاَّ وقد أُخِذَ عَليه إلاَّ مِسْعَر[4] .

---

(١) الأشْعَريّ

(٢) انظر السير : (الكنْديّ) ٢٢/ ٣٤ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٦٤ .

(٣) قد يُطلق الإرجاء علىٰ أهل السُّنَّة والجماعة من مخالفيهم المعتزلة الذين يزعمون تخليد صاحب الكبيرة في النار ، لأنهم لا يقطعون بعقاب الفسَّاق الذين يرتكبون الكبائر ويفوِّضون أمرهم إلى الله ، إن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم ، ويطلق الإرجاء علىٰ من يقول بعدم دخول الأعمال في الإيمان ، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ـ وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ـ من جانب المحدِّثين القائلين بدخول الأعمال في مسمى الإيمان ، وأنه يزيد وينقص ، ويطلق علىٰ من يقول الإيمان هو معرفة الله ، ويجعل ما سوى الإيمان من الطاعات ، وما سوى الكفر من المعاصي غير مضرة ولا نافعة ، وهـٰذا القسم الأخير من الإرجاء هو المذموم صاحبه ، المتهم في دينه وقد قال الإمام الذهَبيُّ في « ميزان الاعتدال » (٤/ ٩٩) : « مسعر بن كدام حُجَّة إمام ، ولا عبرة بقول السليماني : كان من المرجئة ، مسعر ، وحماد بن أبي سليمان ، والنعمان ، وعَمرو بن مرّة ، وعبد العزيز ابن أبي روّاد ، وأبي معاوية ، وعَمرو بن ذَر ، وسرد جماعة قلتُ : الإرجاء مذهب لعدة من جلة العلماء ولا ينبغي التحامل علىٰ قائله » .

(٤) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٨٩ .

التَّضْحِيَة

صُوَرٌ من التَّضْحيَة :

قالَ ابنُ أبي خالد عن قَيْسٍ قالَ : رَأيتُ يَدَ طَلحَة التي وَقَىٰ بها النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يَومَ أُحُد شَلاَّء .

عن جابر قالَ : لَمَّا كان يَوم أُحُد ، ووَلَّى الناسُ ، كانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في ناحيَة في اثْنَي عَشرَ رَجلاً ، منهم طَلْحَة ، فأدْرَكَهم الْمُشرِكُونَ ، فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لِلقَومِ ؟ » قالَ طَلحَةُ : أنا قالَ صلى الله عليه وسلم : « كمَا أَنْتَ » ، فقالَ رَجلٌ : أنا ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ » فقَاتلَ حتَّىٰ قُتلَ ، ثم الْتَفتَ فإذا الْمُشرِكُونَ ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَهُم ؟ » قالَ طَلحَةُ : أنا قالَ صلى الله عليه وسلم : « كمَا أَنْتَ » ، فقالَ رَجلٌ من الأنْصَارِ : أنا ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ » فقَاتلَ حتَّىٰ قُتلَ ، فلَمْ يزل كذلك حتىٰ بَقيَ مع نَبيِّ اللهِ طَلْحَةُ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لِلْقَوْمِ ؟ » قال طَلْحَةُ : أنا ، فقاتَلَ طَلْحَةُ ، قتالَ الأحَدَ عَشَر ، حتَّىٰ قُطِعَتْ أصَابِعُه فقالَ : حَسِّ[1] ، فقالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ قُلْتَ : بِسْمِ اللهِ لَرَفَعَتْكَ الْمَلائِكَةُ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ » ثم ردَّ اللهُ الْمُشرِكين[2] .

وعن أبي عُثْمانَ : أنَّ صُهَيْباً الرُّوميَّ حينَ أرادَ الهِجرَةَ ، قالَ له أهْلُ مَكةَ : أتَيْتنا صُعلوكاً حَقيراً فتَغيَّر حالُك! قالَ : أرَأيتُم إنْ تَركتُ مَالي ، أمُخَلُّونَ أنتُم سَبيلي ؟ قالوا : نَعَم فخَلعَ لهم مَالَه فبَلغَ ذلكَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالَ : « رَبِحَ صُهَيْبٌ! رَبِحَ صُهَيْبٌ »[3] .

قِصَّةُ أُمِّ عُمَارَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِها : هي نَسِيبَةُ بنتُ كعْبِ بن عَمرو الفاضِلَةُ الْمُجاهِدَةُ

---

(١) كلمة تقال عند الألم .

(٢) انظر السير : (طَلْحَةُ بنُ عُبَيد الله) ١/ ٢٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١٢٤/ ٤ .

(٣) انظر السير : (صُهَيْبُ بنُ سِنان) ٢/ ١٧ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٢١٢/ ٥ .

الأنْصاريَّةُ الخَزْرَجيَّةُ النجَّاريَّة الْمَازِنيَّة الْمَدنيَّة[1] .

كانَ أخُوها عبدُ الله بنُ كعْب الْمَازِنيُّ من البَدْريِّينَ وكانَ أخُوها عبدُ الرحمَـٰن ، من البَكَّائينَ[2] .

شَهِدَتْ أُمُّ عُمَارَة ليْلَةَ العَقَبَةَ ، وشَهِدَتْ أُحُداً ، والحُدَيْبِيَة ، ويومَ حُنَيْنٍ ، ويومَ اليَمَامَة وجاهَدتْ ، وفَعَلَتِ الأفَاعِيلَ ، وقُطعَت يدُها في الجِهَادِ .

وكان ضَمْرَةُ بنُ سَعِيدٍ المَازِنيّ يُحَدِّثُ عن جَدَّتِه ، وكانت قد شَهِدَتْ أُحُداً ، قالت : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « لَمُقَامُ نَسِيبَةَ بنت كَعْبٍ اليومَ خَيرٌ مِنْ مُقَامِ فُلان وفُلان » .

وكانت تَرَاهَا تُقَاتِلُ أَشَدَّ ما يكونُ القِتَالُ ، وأنَّها لحَاجِزَةٌ ثَوْبَها علىٰ وَسَطِهَا حتىٰ جُرِحَتْ ثَلاثَةَ عَشَرَ جُرْحاً ، وكانت تقولُ : إنِّي لأنْظُرُ إلى ابنِ قَمِئَة وهو يَضْرِبُها علىٰ عَاتِقِها ، وكان أعْظَمَ جِرَاحِهَا ، فدَاوَتْهُ سَنةً ثم نادَىٰ مُنَادِي رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم : إلىٰ حَمْراءِ الأَسَد فشَدَّتْ عليها ثِيَابَها ، فما اسْتَطَاعَتْ من نَزْفِ الدَّمِ رَضِيَ الله عنها وأَرْضاها ورَحِمَها .

وعن عُمَارَةِ بنِ غزيّة قال : قالَتْ أُمُّ عُمَارَة : رَأيتُنِي وانْكَشَفَ النَّاسُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فما بَقِيَ إلاَّ نُفَيْرٌ ما يُتِمُّونَ عَشرة ، وأنا وابْنَايَ وزَوْجِي بينَ يَدَيْهِ نَذُبُّ عنه ، والنَّاسُ يَمُرُّونَ به مُنْهَزِمِينَ ، ورَآنِي ولا تُرْسَ مَعِي ، فرَأىٰ رَجُلاً مُوَلِّياً ومعه تُرْسٌ ، فقال : أَلْقِ تُرْسَكَ إلىٰ مَنْ يُقَاتِلُ فألْقَاهُ فأَخَذْتُه فجَعَلتُ أَتَرَّسُ به عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وإنَّما فَعَلَ بنا الأفَاعِيلَ أصْحابُ الخَيْلِ ، لَوْ كانُوا رَجَّالةً مِثلَنا أَصَبْناهم إنْ شَاءَ اللهُ ، فيُقْبِلُ رَجلٌ علىٰ فَرَسِه يَضْرِبُنِي ، وتَرَّسْتُ له ، فلَمْ يَصْنَعْ شَيئاً ، فأَضْرِبُ عُرقوبَ فَرَسِه ، فوَقَعَ علىٰ ظهْرِه فجَعَلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَصِيحُ : « يا ابْنَ أُمِّ عُمَارَةَ ، أُمَّكَ! أُمَّكَ! » ، قالت : فعَاوَنَنِي عليه ، حتىٰ أَوْرَدْتُه شعوب[3] .

---

(١) انظر السير : (أم عُمارة) ٢/ ٢٧٨ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٥٢ .

(٢) انظر السير : (أم عُمارة) ٢/ ٢٧٨ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٥٢ .

(٣) شعوب : من أسماء المنيّة .

وعن مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ بنِ حَبَّانٍ قال : جُرِحَتْ أُمُّ عُمَارَة بأُحُدٍ اثْنَي عَشرَ جُرْحاً ، وقُطِعَتْ يَدُها يومَ اليَمَامَةِ ، وجُرِحَتْ يومَ اليَمَامَةِ سِوَىٰ يدِها أَحَدَ عَشَرَ جُرْحاً ، فقَدِمَتِ المدينةَ وبها الجِرَاحَةُ، فلقد رُئِيَ أبو بكرٍ رضي الله عنه وهوَ خَلِيفةٌ ، يأتِيهَا يَسْأَلُ عنها[1] .

وابنُها حَبيبُ بنُ زَيْد بنِ عاصِم هو الذي قَطَّعَه مُسَيْلمَةُ .

وابنُها الآخَر عبدُ الله بنُ زَيْد الْمَازِنيُّ ، الذي حَكَىٰ وُضوءَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قُتلَ يَومَ الحَرَّة ، وهو الذي قَتلَ مُسَيْلمَةَ الكذَّاب بسَيفِه شَهِدَ أُحُداً[2] .

التَّنَافُس

عن أبي نَوْفَل بنِ أبي عَقْرب ، قالَ : خَرجَ الحَارثُ بنُ هِشام فجَزِعَ أهلُ مَكة وخَرجوا يُشَيِّعُونَه ، فوَقفَ ووَقَفوا حَولَه يَبكون ، فقالَ : والله ما خَرجتُ رَغبةً بنَفسي عَنكم ، ولا اخْتيارَ بَلدٍ علىٰ بَلدِكُم ، ولكنَّ هـٰذا الأمْرُ كانَ ، فخَرجَتْ فيه رجالٌ من قُرَيش ما كانوا من ذَوي أسْنانِها ، ولا في بُيوتِها وأصْبَحْنا ـ والله ـ لَوْ أنَّ جِبالَ مَكةَ ذَهَباً فأنْفَقْناها في سَبيلِ الله ، ما أدْرَكْنا يَوماً من أيَّامِهِم فنَلتَمسُ أنْ نُشَارِكَهم في الآخِرَة ، فاتَّقَى اللهَ امْرؤٌ فتَوجَّه غَازياً إلى الشَّامِ ، واتَّبَعَه ثَقلُه ، فأُصيبَ شَهيداً ، رضي الله عنه[3] .

وقالَ مُعاذُ بنُ مُعاذٍ ، حَدَّثني غَيرُ واحدٍ من أصْحابِ يُونُسَ بنِ عُبَيد أنَّه قالَ : إنِّي لأعْرفُ رَجلاً منذُ عِشْرينَ سَنةً يَتمَنَّىٰ أنْ يَسلَمَ له يَومٌ من أيَّامِ ابنِ عَوْن ، فمَا يَقدِرُ عَليه قالَ ابنُ الْمُبَارَك : ما رَأيتُ مُصلِّياً مثلَ ابنِ عَوْن[4] .

وقالَ سُفْيانُ : إنِّي لأشْتَهي من عُمري كُلِّه أنْ أكُونَ سَنةً مثلَ ابنِ الْمُبَارَك ، فمَا أقْدِرُ أنْ أكُونَ ولا ثَلاثَة أيَّام[5] .

---

(١) انظر السير : (أم عُمارة) ٢/ ٢٧٨ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٥٢ .
(٢) انظر السير : (أم عُمارة) ٢/ ٢٧٨ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٥٩ .
(٣) انظر السير : (الحارثُ بنُ هِشام) ٤/ ٤١٩ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٢٥ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عَوْن) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٥٦ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبَارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٦٧ .

حُبُّ الجَمَاعَة وكراهيَةُ الفُرْقَة

قالَ مُوسَىٰ بنُ عُقبَة في « مَغازيه » : غَزوَةُ عَمرو بنِ العَاص هي غَزوَةُ ذاتِ السَّلاسِلِ من مَشَارِفِ الشَّامِ فخَافَ عَمرو من جانِبه ذلكَ فاسْتَمدَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فانْتَدبَ أبا بَكر وعُمَرَ في سَراةٍ من الْمُهاجِرينَ فأمَّر نبيُّ الله عليهم أبا عُبَيْدَة فلمَّا قَدِموا علىٰ عَمْرو بنِ العَاص قالَ : أنا أميرُكم فقالَ الْمُهاجِرون : بلْ أنتَ أميرُ أصْحابِك وأميرُنا أبو عُبَيْدَة فقالَ عَمرٌو : إنَّما أنتُم مَدَدٌ أُمْدِدتُ بكم فلمَّا رَأىٰ ذلك أبو عُبَيْدَة بنُ الجَرَّاح وكان رَجلاً حَسَنَ الخُلُق ، لَيِّنَ الشِّيمَة ، مُتَّبِعاً لأمْرِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وعَهْدِه ، فسَلَّمَ الإمارَةَ لِعَمْرو[1] .

ولَمَّا تَفرَّغَ الصِّديقُ من حَربِ أهْلِ الرِّدَّة ، وحَربِ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّاب جَهَّزَ أُمَراءَ الأجْنادِ لِفَتح الشَّام فبَعثَ أبا عُبَيْدَة ، ويَزيدَ بنَ أبي سُفْيانَ ، وعَمْرو بنَ العَاصِ ، وشُرَحْبيلَ بن حَسْنَة ، فتمَّت وَقْعَة أجْنَادينَ بقُربِ الرَّمْلَة ، ونَصرَ اللهُ المؤمنين ، فجاءَتِ البُشْرَىٰ والصِّدِّيقُ في مَرَضِ الْمَوتِ ، ثم كانَت وَقْعَةُ فِحْل ، ووَقْعَةُ مَرْجِ الصُّفَر ، وكان قد سَيَّر أبو بَكر خالِداً لغَزوِ العِراقِ ، ثم بَعثَ إليه لِينجدَ مَنْ بالشَّام فقَطَعَ الْمَفاوزَ علىٰ بَرِيَّة السَّماوَة ، فأمَّرَه الصِّدِّيقُ على الأُمَراء كُلِّهمم ، وحاصَروا دِمَشْقَ ، وتُوفِّيَ أبو بَكر فبادَرَ عُمَرُ بعَزلِ خَالِد ، واسْتعمَلَ على الكُلِّ أبا عُبَيْدَة ، فجاءَه التَّقْليدُ ، فكَتمَه مُدَّة ، وكلُّ هَـٰذا من دِينِه ولِينِه وحِلْمِه ، فكانَ فَتحُ دِمَشْقَ علىٰ يدِه ، فعندَ ذلكَ أظْهَرَ التَّقْليدَ ، ليَعقِدَ الصُّلحَ للرُّوم ، ففَتَحوا له بابَ الجَابيَة صُلحاً ، وإذا بخَالِد قد افْتَتَحَ البَلدَ عَنْوَةً من البابِ الشَّرقيِّ ، فأمْضَىٰ لهم أبو عُبَيْدَة الصُّلحَ .

فعن الْمُغيرَةَ أنَّ أبا عُبَيْدَة صالَحَهم علىٰ أنْصاف كَنائسِهم ومَنازِلِهم ، ثم كان أبو عُبَيْدَة رأسَ الإسْلام يومَ وَقْعَة اليَرْموك ، التي اسْتأصلَ اللهُ فيها جُيوشَ الرُّومِ ، وقُتلَ منهم خَلقٌ عَظيمٌ[2] .

---

(١) انظر السير : (أبو عُبَيْدَة بنُ الجَرَّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٢ .

(٢) انظر السير : (أبو عُبَيْدَة بنُ الجَرَّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٢٣ .

ومن أفْضَلِ أعْمَالِ عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ عَوْف عزلُه نَفسَه من الأمْرِ وَقتَ الشُّورَىٰ ، واخْتيارِهِ للأمَّة مَنْ أشارَ به أهْلُ الحلِّ والعَقْد ، فنَهضَ في ذلكَ أتَمَّ نُهوضٍ علىٰ جَمعِ الأمَّة علىٰ عُثمَانَ ، ولَوْ كانَ مُحابياً فيها ، لأخَذَها لنَفسِه ، أو لَوَلاَّها ابنَ عَمِّه وأقرَبَ الجَماعَةِ إليه سَعدَ بنَ أبي وَقَّاص[1] .

الحِفَاظُ على الوَقْت

١ـ الاسْتِفادَة من الأوْقات وتَرْتيبُها :

عن الرَّبيعِ بنِ سُلَيْمانَ ، قالَ : كانَ الشَّافِعيُّ قد جَزَّأ اللَّيلَ ، فثُلُثُه الأوَّل يَكتُبُ ، والثاني يُصَلِّي ، والثالثُ يَنام .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أفْعَالُه الثلاثة عِبادَة بالنيَّة[2] .

٢ـ جَدْوَلُ الأعْمَال اليَوْميّ لبَقيّ بنِ مَخْلَد :

نقلَ بعضُ العلماء من كتابٍ لحفيد بَقِيِّ بن مَخْلَد ، عبدِ الرحْمَـٰنِ بنِ أحمد : كان جَدِّي قد قَسَّمَ أيامَه علىٰ أعمال البرِّ : فكان إذا صَلَّى الصُّبَح قرأَ حِزْبَه من القرآن في المُصْحَف ، سُدسَ القرآن ، وكان أيضاً يَختمُ القرآنَ في الصَّلاة في كل يوم وليلة ، ويخرجُ كلَّ ليلة في الثُّلثِ الأخيرِ إلى المسجد ، فيختمُ قُربَ انصِدَاعِ الفَجر ، وكان يُصلي بعد حِزْبِه من المُصحف صلاةً طويلةً جداً ثم يَنقَلِبُ إلىٰ دَارِه ـ وقد اجتمعَ في مَسْجِده الطلبةُ ـ فيُجَدِّدُ الوُضُوءَ ، ويخرجُ إليهم ، فإذا انقضت الدُّوَل ، صارَ إلىٰ صَوْمَعَة المسجد ، فيُصلي إلى الظُّهر ، ثم يكونُ المُبتَدِىءَ بالأذان ، ثم يَهبطُ ثم يُسمِع إلى العَصر ، ويُصَلِّي ويُسمِع ، ورُبَّما خرجَ في بقية النهار ، فيَقعُدُ بين القُبُور يبكي ويَعتَبِر ، فإذا غَربت الشَّمسُ أتىٰ مَسْجِدَه ، ثم يُصَلي ويَرجِعُ إلىٰ بيتِه فيُفطِر ، وكان يَسْرُد الصَّومَ إلاَّ يومَ الجُمُعة ، ويخرجُ إلى المَسْجد ، فيخرجُ إليه جِيرانُه ، فيتكَلَّمُ

---

(١) انظر السير : (عبدُ الرحْمَـٰن بن عَوْف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١٣١/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٤٨/ ٤ .

معهم في دِينِهم ودُنيَاهم ، ثم يُصَلي العِشاء ويدخلُ بيتَه ، فيُحَدِّثُ أهلَه ، ثم ينامُ نَومَةً قد أخَذَتْها نَفسُه ، ثم يقومُ هـٰذا دأبه إلىٰ أن تُوفِّي وكان جَلْداً ، قوياً على المشي[1] .

٣ـ شِعْرٌ في المُحَافَظَة على الوَقْت :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي الوَليدِ الباجيِّ ، ومن نَظْمِ أبي الوَليدِ :

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقيناً ... بأنَّ جميعَ حياتي كساعةْ
فَلِمْ لا أكونُ ضنيناً بها ... وأجعلُها في صلاحٍ وطاعةْ

ماتَ أبو الوَليد بالْمَرِيَّة سَنةَ أرْبَع وسَبعين وأرْبَع مئة ، فعُمُره إحْدَىٰ وسَبعونَ سَنةً ، فإنَّ مَوْلدَه سَنةَ ثَلاثٍ وأرْبع مئة[2] .

٤ـ صُوَرٌ في المُحَافَظَة على الأوْقات :

قالَ مُوسَىٰ بنُ إسْماعيلَ التَّبُوذَكي : لَوْ قُلتُ لَكُم : إنِّي ما رَأيتُ حَمَّادَ بنَ سَلَمَة ضاحِكاً لَصَدَقتُ ، كانَ مَشْغولاً ، إمَّا أنْ يُحدِّثَ ، أو يَقرأ أو يُسبِّحُ ، أو يُصلِّي ، قد قَسَّمَ النَّهارَ علىٰ ذلك .

قالَ أحمَدُ بنُ عبدِ الله العِجْلي : حدَّثني أبي قالَ : كانَ حَمَّادُ بنُ سَلَمَة لا يُحدِّثُ حتَّىٰ يَقرأ مِئةَ آيَةٍ نَظَراً في الْمُصحَف[3] .

وقالَ الحاكمُ : رَحلتُ إليه إلىٰ طُوسَ مرَّتَين ، وسَألتُ أبا النَّضْر الطُّوسيَّ مَتَىٰ تتفرَّغُ للتَّصْنيف مع هـٰذه الفَتاوَى الكَثيرَة ؟ فقالَ : جَزَّأتُ اللَّيلَ أثْلاثاً : فثُلثٌ أُصَنِّفُ ، وثُلثٌ أنامُ ، وثُلثٌ أقْرأ القُرآنَ[4] .

وقالَ أبو القاسِمِ ابنُ عَساكِر : قَرأتُ بخَطِّ غَيْثٍ الأرْمَنازيِّ : غَرقَ سُلَيمُ الفَقيهُ في بَحْرِ القُلْزُم ، عندَ ساحِلِ جُدَّة ، بعدَ أنْ حَجَّ في صَفَر سَنةَ سَبعٍ وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة ،

---

(١) انظر السير : (بَقِيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٧ .
(٢) انظر السير : (أبو الوَليدِ الباجيّ) ١٨/ ٥٣٥ـ ٥٤٥ ، وانظر النزهة : ١/١٤٤٠ .
(٣) انظر السير : (حَمَّادُ بنُ سَلَمَة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/٧١٥ .
(٤) انظر السير : (أبو النَّضْر الطُّوسيّ) ١٥/ ٤٩٠ـ ٤٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٢ .

وقد نيّفَ على الثَّمانينَ وهو أوَّلُ مَنْ نَشرَ هـٰذا العِلمَ بصُورَ ، وانتُفعَ به جَماعَةٌ ، وحُدِّثتُ عنه أنَّه كانَ يُحاسِبُ نَفسَه في الأنْفاسِ ، لا يَدَعُ وَقتاً يَمضي بغَيرِ فائدَةٍ ، إمَّا يَنسَخُ ، أو يدَرِّسُ ، أو يَقرَأُ ، وحُدِّثتُ عنه أنَّه كانَ يُحرِّكُ شَفتَيه إلىٰ أنْ يَقُطَّ القَلمَ[1] .

وقالَ ابنُ عَقيل : عَصَمني اللهُ في شَبابي بأنْواعٍ من العِصْمَة وقَصَرَ مَحبَّتي على العِلمِ ، وما خالَطتُ لَعَّاباً قَطُّ ، ولا عَاشَرتُ إلاَّ أمْثالي من طَلَبَةِ العِلمِ ، وأنا في عَشرِ الثَّمانينَ أجِدُ من الحِرصِ على العِلمِ أشَدَّ مِمَّا كُنتُ أجِدُه وأنا ابنُ عِشرينَ ، وبَلغتُ لاثْنَتَي عَشرَةَ سَنةً ، وأنا اليَومَ لا أرَىٰ نَقْصاً في الخاطِرِ والفِكْرِ والحِفظِ ، وحِدَّةِ النَّظَر بالعَينِ لِرؤيَةِ الأهِلَّة الخَفيَّة إلاَّ أنَّ القُوَّةَ ضَعيفَة .

قالَ ابنُ الجَوْزيِّ : كانَ ابنُ عَقيل دَيِّناً ، حافِظاً للحُدود ، تُوفِّيَ له ابنَانِ ، فظَهرَ منه من الصَّبرِ ما يُتَعجَّبُ منه ، وكانَ كَريماً يُنفِقُ ما يَجدُ وما خَلَّفَ سِوَىٰ كتبَه ، وثيابَ بدَنِه ، وكانَت بمِقْدار ، تُوفِّيَ سَنةَ ثَلاثَ عَشرَةَ وخَمسِ مئة ، وكانَ الجَمعُ يَفوتُ الإحْصَاء ، قالَ ابنُ ناصِر شَيخُنا : حَزَرْتُهم بثَلاثِ مِئةِ ألفٍ[2] .

وقالَ أبو مُوسَى الْمَدينيُّ : كانَ أبو بَكر قاضي الْمَرَسْتان إمَاماً في فُنون ، وكانَ يَقولُ : حَفظتُ القُرآنَ وأنا ابنُ سَبع ، وما من عِلمٍ إلاَّ وقد نَظرتُ فيه ، وحَصَّلتُ منه الكُلَّ أو البَعض ، إلاَّ هـٰذا النَّحوَ ، فإنِّي قَليلُ البِضَاعَة فيه وما أعْلَمُ أنِّي ضَيَّعتُ ساعَةً من عُمري في لَهْوٍ أو لَعِبٍ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ الطَّلاَّيَة ، قالَ السَّمْعَانيُّ : شَيخٌ كَبيرٌ أفْنَىٰ عُمرَه في العِبادَة والقِيام والصِّيام لَعلَّه ما صَرفَ سَاعةً من عُمرِه إلاَّ في عِبادَة وانْحَنَىٰ حتَّىٰ لا يَتبيَّنُ قِيامُه من رُكُوعِه إلاَّ بيَسير ، وكانَ حافِظاً للقُرآنِ ، لا يَقبَلُ من أحَدٍ شَيئاً وله كِفايَةٌ يَتقنَّعُ بها[4] .

---

(١) انظر السير : (سُلَيمُ بنُ أيُّوب) ١٧/ ٦٤٥ـ ٦٤٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٧١ .
(٢) انظر السير : (ابنُ عَقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٨ .
(٣) انظر السير : (قاضي الْمَرَسْتان) ٢٠/ ٢٣ـ ٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٢٣ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الطَّلاَيَة) ٢٠/ ٢٦٠ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٩ .

وقالَ القاسمُ بنُ الحافِظِ ابنِ عَساكِر : كانَ أبي مُواظِباً علىٰ صَلاةِ الجَماعَة وتِلاوَةِ القُرآنِ ، يَختِمُ كُلَّ جُمُعَة ، ويَختِمُ في رَمَضانَ كُلَّ يَومٍ ، ويَعتَكِفُ في الْمَنارَةِ الشَّرقيَّة وكانَ كَثيرَ النَّوافِلِ والأذْكارِ ، يُحْيي لَيلَةَ النِّصْفِ والعِيدَيْن بالصَّلاةِ والتَّسْبيحِ ، ويُحاسِبُ نَفسَه علىٰ لَحظَةٍ تَذهَبُ في غَيرِ طاعَةٍ ، قالَ لي : لَمَّا حَمَلَتْ بي أُمِّي ، رَأَتْ في مَنامِها قائلاً يَقولُ : تَلدينَ غُلاماً يَكونُ له شَأنٌ ، وحدَّثني أنَّ أباهُ رَأىٰ رُؤيا مَعْناه يُولَدُ لكَ وَلدٌ يُحْيي اللهُ به السُّنَّة[1] .

وقالَ لي أبو العَلاء يَوماً : أيُّ شَيء فُتحَ له ، وكَيفَ تَرَى النَّاسَ له ، قُلتُ : هو بَعيدٌ من هـٰذا كُلِّه ، لَمْ يَشتَغلْ منذُ أرْبَعينَ سَنةً إلاَّ بالجَمع والتَّصْنيفِ والتَّسْميع حتَّىٰ في نُزَهِه وخَلَواتِه ، فقالَ : الحَمدُ لله ، هـٰذا ثَمرَةُ العِلمِ ، ألاَّ إنَّا قد حَصَلَ لنا هـٰذه الدَّارُ والكُتبُ والْمَسجِدُ ، هـٰذا يَدلُّ علىٰ قِلَّةِ حُظوظِ أهْلِ العِلمِ في بِلادِكُم ، ثم قالَ لي : ما كانَ يُسمَّىٰ أبو القاسِم ببَغْدادَ إلاَّ شُعلَةَ نار من تَوقُّدِه وذَكائه وحُسنِ إدْراكِه[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمام الحافظ عبدِ الغَني الْمَقْدِسيِّ الجَمَّاعيليِّ : كان لا يُضَيِّعُ شيئاً من زمانه بلا فائدة ، فإنَّه كان يُصَلِّي الفجرَ ، ويُلَقِّنُ القرآنَ ، وربما أَقْرَأَ شيئاً من الحَديث تلقيناً ، ثم يقومُ فيتوضأُ ويُصَلِّي ثلاثَ مئة ركعة بالفاتحة والمُعوِّذَتين إلىٰ قبل الظهر ، وينامُ نَوْمةً ثم يُصَلِّي الظُهر ويشتغلُ إمَّا بالتَّسْميع أو النَّسْخ إلى المغرب ، فإذا كان صائماً أفطرَ ، وإلاَّ صَلَّىٰ من المغرب إلى العشاء ويُصَلِّي العشاءَ ، وينامُ إلىٰ نصفِ الليل أو بعدَه ، ثم قامَ كأنَّ إنسَاناً يُوقِظهُ ، فيُصَلِّي لحظةً ثم يتوضأ ويصلي إلىٰ قُرب الفجر ، رُبما توضأ سبعَ مرات أو ثمانياً في الليل ، وقال : ما تطيبُ لي الصلاةُ إلاَّ ما دامت أعضائي رطبة ، ثم ينامُ نَومةً يسيرةً إلى الفجر ، وهـٰذا دأبُه .

وعن مُوفق الدين قال : كان الحافظُ عبد الغنيِّ جامعاً للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصِّبا ، وفي طلب العلم ، وما كُنَّا نَسْتَبِقُ إلىٰ خيرٍ إلاَّ سَبَقَني إليه إلاَّ قليلاً ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ عَساكِر) ٢٠/ ٥٥٤ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٤ .

(٢) انظر السير : (ابنُ عَساكِر) ٢٠/ ٥٥٤ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٤ .

وكَمَّل الله فضيلته بابتلائه بأذىٰ أهل البدعة وعَدَاوتهم ، ورُزِقَ العلمَ وتحصيلَ الكُتُب الكثيرة إلاَّ أنَّه لم يُعمَّر .

قالَ الضِّياءُ : وكان يستعملُ السِّوَاكَ كثيراً حتىٰ كأنَّ أسْنانَه البَرَد .

سمعتُ محمودَ بنَ سَلامة التَّاجر الحَرَّانيَّ يقول : كان الحافظُ عبدُ الغنيِّ نازلاً عندي بأصْبَهَان ، وما كان ينامُ من الليل إلاَّ قليلاً ، بل يُصَلي ويَقرأُ ويبكي .

وسمعتُ نصرَ بنَ رَضوانَ الْمُقرىءَ يَقولُ : ما رَأيتُ أحداً علىٰ سيرة الحافظ ، كان مشتغلاً طول زمانه[1] .

الحِكمَة

١ـ صُوَرٌ من الحِكمَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاس البَحْر : وقد كان عليٌّ لَمَّا بُويعَ ، قال لابنِ عبَّاس : اذْهَب علىٰ إمْرَةِ الشَّام ، فقالَ : كلاَّ ، أقَلُّ ما يَصْنعُ بي مُعاويَةُ إنْ لَمْ يَقتُلني الحَبسُ ، ولكنْ اسْتَعمِلْه ، وبَينَ يَديكَ عَزلُه بعدُ ، فلَمْ يَقبلْ منه ، وكذلكَ أشارَ عَلىٰ عليٍّ أنْ لا يُوَلِّي أبا مُوسَىٰ يومَ الحَكمَين وقالَ : وَلِّني ، أوْ فَوَلِّ الأحْنَفَ ، فأرادَ عَليٌّ ذلك ، فغَلبُوهُ علىٰ رَأيه[2] .

وعن هِشامِ بنِ عُقبَة أخي ذي الرُّمَّة ، قالَ : شَهدتُ الأحْنَفَ بنَ قَيْس وقد جاءَ إلىٰ قَومٍ في دَمٍ ، فتكلَّمَ فيه ، وقالَ : احْتَكِمُوا قالوا : نَحتَكِمُ دِيَتَينِ قالَ : ذَاكَ لَكم فلمَّا سَكتُوا قالَ : أنا أُعطيكم ما سَألتُم ، فاسْمَعوا : إنَّ اللهَ قَضَىٰ بدِيَةٍ واحِدَة ، وإنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَضَىٰ بدِيَة واحِدَة ، وإنَّ العَرَبَ تُعاطَىٰ بينها دِيَة واحِدَة ، وأنتُم اليَومَ تُطالِبُونَ ، وأخْشَىٰ أنْ تَكونوا غَداً مَطلُوبينَ ، فلا تَرضَى النَّاسُ منكم إلاَّ بمِثلِ ما سَنَنْتُم ، قالوا : رُدَّها إلىٰ دِيَة[3] .

---

(١) انظر السير : (عبد الغنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٦٤٥/ أوقاته .

(٢) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عبَّاس البَحْر) ٣/ ٣٣١ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٣٩٢/ ١ .

(٣) انظر السير : (الأحْنَفُ بنُ قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٤٥٢/ ٣ .

قالَ عبدُ الله بنُ عبدِ الحَكَم ، سَمعتُ مالِكاً يَقولُ : شَاوَرني هَارُونُ الرَّشيدُ في ثَلاثَة : في أنْ يُعلِّقَ « الْمُوَطَّأ » في الكعْبَة ، ويَحمِلَ النَّاسَ علىٰ ما فيه ، وفي أنْ ينقُضَ مِنْبَرَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ويَجعَلَه من ذَهَبٍ وفِضَّةٍ وجَوْهَر ، وفي أنْ يُقدِّمَ نافِعاً إماماً في مَسجِدِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقُلتُ : أمَّا تَعليقُ « الْمُوَطَّأ » فإنَّ الصَّحابَةَ اخْتلفوا في الفُروع ، وتَفرَّقوا ، وكُلٌّ عندَ نَفسِه مُصيبٌ وأمَّا نَقضُ الْمِنْبَرِ ، فلا أرَىٰ أنْ يُحرَمَ النَّاسُ أثَرَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وأمَّا تَقدِمَتُك نافِعاً فإنَّه إمَامٌ في القِراءَة ، لا يُؤمَنُ أنْ تَبدو منه بادِرَةٌ في الْمِحْرابِ ، فتُحفَظُ عَليه فقالَ : وَفَّقكَ اللهُ يا أبا عبدِ الله .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا إسْنادٌ حَسَنٌ ، لكنْ لَعلَّ الرَّاوي وَهَمَ في قَولِه : هَارُون ، لأنَّ نافِعاً قَبلَ خِلافَةِ هارُونَ ماتَ[1] .

٢ـ مِنْ حُكمَاء الإسْلام :

الحَسَنُ البَصْريّ :

عن الأعْمَشِ ، قالَ : ما زَالَ الحَسَنُ البَصْريّ يَعي الحِكْمَةَ حتَّىٰ نَطقَ بها ، وكانَ إذا ذُكِرَ الحَسَنُ عند أبي جَعْفَرٍ الباقِر قالَ : ذَاكَ الذي يُشبِهُ كَلامُه كَلامَ الأنْبياءِ[2] .

٣ـ الحُكمَاءُ صِغَارُ السِّن :

قالَ أبو سَهْل الصُّعْلوكيُّ : سَمعتُ أبا محمَّد الْمُرْتَعِشَ يَقولُ : قالَ الجُنَيْدُ : كُنتُ بينَ يَدَي السَّريِّ أَلْعَبُ وأنا ابنُ سَبعِ سِنينَ ، فتكلَّموا في الشُّكرِ ، فقالَ : يا غُلامُ ما الشُّكرُ ؟ قُلتُ : أنْ لا يُعْصَى اللهُ بنِعَمِه ، فقالَ : أخْشَىٰ أنْ يَكونَ حظَّكَ من اللهِ لسانُك قالَ الجُنَيْدُ : فلا أزالُ أبْكي علىٰ قَولِه[3] .

---

(١) انظر السير : (مَالِكُ الإمامُ) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٣٤ .
(٢) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٦٣ .
(٣) انظر السير : (الجُنَيْد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٣٣ .

٤ـ صُحْبَةُ الصَّالِحين يَنْتُجُ عنها الحِكمَة :

قالَ شَقيقٌ لحاتِم : مُذْ صَحِبْتَني ، أيُّ شَيءٍ تَعَلَّمْتَ مِنِّي ؟ قالَ : سِتَّ كَلماتٍ ؛ رأيتُ النَّاسَ في شَكٍّ من أمْر الرِّزْق ، فتَوَكَّلتُ على الله قالَ اللهُ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[1] .

ورَأيتُ لكُلِّ رجُلٍ صَديقاً يُفْشي إليه سِرَّه ، ويَشْكو إليه ، فصَادَقتُ الخَيرَ ليَكونَ مَعي في الحِسابِ ، ويَجوزَ مَعي الصِّراطَ .

ورَأيتُ كُلَّ أحَدٍ له عَدوٌّ ، فمَنْ اغْتابَني لَيسَ بِعَدُوِّي ، ومَنْ أَخَذَ مِنِّي شَيْئاً لَيْسَ بعَدُوِّي ، بلْ عَدُوِّي مَنْ إذا كُنتُ في طاعَةٍ ، أمَرَني بِمَعْصيَةِ الله وذَلكَ إبْليسُ وجُنودُه ، فاتَّخَذْتُهم عَدوّاً وحَارَبْتُهم .

ورَأيتُ النَّاسَ كُلَّهم لهم طَالبٌ ، وهو مَلَكُ الْمَوْت ، ففرَّغْتُ له نَفْسي .

ونَظَرتُ في الخَلْقِ ، فأحْبَبْتُ ذا وأبْغَضْتُ ذا ، فالذي أحْبَبْتُه لَمْ يُعْطِني ، والذي أبْغَضْتُه لَمْ يأخُذ مِنِّي شَيئاً ، فقُلتُ : مَنْ أينَ أُتِيتُ ؟ فإذا هو مِن الحَسَدِ فطَرَحْتُه وأحْبَبْتُ الكُلَّ ، فكلُّ شَيءٍ لَمْ أرْضَه لِنَفْسي لَمْ أرْضَه لَهم .

ورَأيتُ النَّاسَ كُلَّهم لَهم بيتٌ ومَأوَىٰ ، ورَأيتُ مَأوايَ القَبْرَ ، فكُلُّ شَيءٍ قَدرْتُ عليه من الخَيْرِ قَدَّمْتُه لنَفْسي لأُعَمِّرَ قَبْري .

فقالَ شَقيقٌ : عَليكَ بهٰذه الخِصالِ[2] .

٥ـ أقْوَالٌ حَكيمَةٌ من التَّوْراة :

قالَ قاسِمُ الجُوعيُّ : سَمعتُ مُسلِمَ بنَ زِياد يَقولُ : مَكتوبٌ في التَّورَاةِ : مَنْ سَالَمَ سَلِمْ ، ومَنْ شَاتَمَ شُتِمْ ، ومَنْ طَلَبَ الفَضْلَ من غَيرِ أهْلِهِ نَدِمْ .

---

(١) سورة هود ، الآية : ٦ .

(٢) انظر السير : (حاتِم الأصَمّ) ١١/ ٤٨٤ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٦/٩٦٠ .

وقالَ : الشَّهَواتُ نَفَسُ الدُّنيا ، فمَنْ تَركَ الشَّهَواتِ فقد تَرَكَ الدُّنيا[1] .

٦ـ من أقْوَال حُكماء الهِنْد :

قالَ إبْراهيمُ الحَرْبيُّ : وسَمعتُ دَاوُدَ بنَ رَشيد يقولُ : قالَت حُكمَاءُ الهِنْدِ : لا ظَفَرَ مع بَغْي، ولا صِحَّةَ مع نَهَم ، ولا ثَناءَ مع كِبْر ، ولا صَداقَةَ مع خِبٍّ[2] ، ولا شَرَفَ مع سُوءِ أدَب ، ولا بِرَّ مع شُحٍّ ، ولا مَحَبَّةَ مع هُزْء ، ولا قَضاءَ مع عَدَمِ فِقْه ، ولا عُذْرَ مع إصْرار ، ولا سِلْمَ قَلْبٍ مع غَيْبَة ، ولا رَاحَةَ مع حَسَد ، ولا سُؤْدُدَ مع انْتِقام ، ولا رئاسَةَ مع عِزَّةِ نَفْسٍ وعُجْب ، ولا صَوابَ مع تَركِ مُشَاوَرَة ، ولا ثَباتَ مُلك مع تَهاوُن .

تُوفِّيَ داوُدُ بنُ رَشيد في سَنةِ تِسعٍ وثَلاثينَ ومئتين ، وهو من أبناءِ الثَّمانينَ ، ولَعلَّ بَعضَ أُمَراء الزَّمان يَحْوي هـٰذه الخِلالَ الرَّدِيَّة[3] .

٧ـ أقْوَالٌ حَكيمَةٌ مُتَفَرِّقَة :

عن الأحْنَفِ بنِ قَيْس : ثَلاثَةٌ لا يَنْتَصِفُونَ من ثَلاثَةٍ : شَريفٌ من دَنيء ، وبَرٌّ من فَاجِر ، وحَليمٌ من أحْمَق[4] .

وقالَ الأحْنَفُ : مَنْ أسْرعَ إلى النَّاسِ بما يَكرَهون قالوا فيه ما لا يَعلَمون ، وعنه سُئلَ : ما الْمَروءَة ؟ قالَ : كِتْمانُ السِّرِّ والبُعْدُ من الشَّرِّ . وعَنه : الكامِلُ مَنْ عُدَّتْ سَقَطاتُه[5] .

قالَ الأصْمَعيُّ : قيلَ لخَالِدِ بنِ يَزيد : ما أقْرَبُ شَيءٍ ؟ قالَ : الأجَلُ ، قيلَ : فمَا أبْعَدُ شَيءٍ ؟ قالَ : الأمَلُ قيلَ : فمَا أرْجَىٰ شَيءٍ ؟ قالَ : العَمَلُ[6] .

---

(١) انظر السير : (الجُوعيُّ) ١٢/ ٧٧ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٨٤ .
(٢) الخِبُّ ، بالفَتح والكَسر : الخِداع والخبث والغش .
(٣) انظر السير : (داوُد بنُ رَشيد) ١١/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩١٦ .
(٤) انظر السير : (الأحْنَفُ بنُ قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٥٢ .
(٥) انظر السير : (الأحْنَفُ بنُ قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٥٢ .
(٦) انظر السير : (خالدُ بنُ يَزيد) ٤/ ٣٨٢ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥١٥ .

وعن حُسَينِ بنِ شُفَي ، قالَ : كُنَّا عندَ عبدِ اللهِ بنِ عَمرو فأقْبلَ تُبيعُ بنُ عامِر فقالَ : أتاكم أعْرَفُ مَنْ عَليها ثم قالَ له : يا تُبَيعُ أخْبِرْنا عن الخَيراتِ الثَّلاث ؟ قالَ : اللِّسَانُ الصَّدُوقُ ، وقَلبٌ تَقيٌّ ، وامْرَأةٌ صَالِحَة[1] .

وعن بَحيرِ بنِ سَعد ، سَمعتُ خالدَ بنَ مَعْدان يَقولُ : مَنْ الْتَمَسَ الْمَحامِدَ في مُخالَفَة الحَقِّ ، رَدَّ اللهُ تِلكَ الْمَحامِدَ عَليه ذمّاً ، ومَنْ اجْتَرأ على الْمَلاوِم في مُوافَقَةِ الحَقِّ ، رَدَّ اللهُ تِلكَ الْمَلاوِمَ عَليه حَمْداً .

قالَ يَزيدُ بنُ هارُون : ماتَ خالدُ بنُ مَعْدان وهو صَائمٌ .

ماتَ سَنةَ ثَلاثٍ ومئة[2] .

وعن وَهْب بن مُنبِّه قالَ : احْفَظُوا عنِّي ثَلاثاً : إيَّاكم وهَوَىً مُتَّبعاً ، وقَرينَ سُوء ، وإعْجابَ الْمَرْءِ بنَفسِه[3] .

وقالَ جامِعُ بنُ أبي رَاشِد : سَمعتُ مَيْمُونَ بنَ مِهْران يَقولُ : ثَلاثَةٌ تُؤدَّىٰ إلى الْبَرِّ والفَاجِرِ : الأمَانَةُ ، والعَهْدُ ، وصِلَةُ الرَّحِم[4] .

عن مُعاويَة بنِ قُرَّة قالَ : لا تُجَالِسْ بِعِلْمِكَ السُّفَهاءَ ، ولا تُجَالِسْ بسَفَهِكَ العُلَمَاءَ .

ماتَ مُعاويَةُ بنُ قُرَّة سَنةَ ثَلاثَ عَشْرَة ومئة ، وهو ابنُ سِتٍّ وسَبعينَ سَنةً[5] .

وعن ابنِ شِهابٍ قالَ : العَمَائمُ تِيجَانُ العَرَبِ ، والحَبْوَةُ حِيطَانُ العَرَبِ ، والاضْطِجَاعُ في الْمَسْجِدِ رِبَاطُ الْمُؤمنينَ[6] .

---

(١) انظر السير : (تُبَيْعُ بنُ عامِر) ٤/ ٤١٣ـ ٤١٤ ، وانظر النزهة : ١/٥٢٥ .
(٢) انظر السير : (خالدُ بنُ مَعْدان) ٤/ ٥٣٦ـ ٥٤١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٥٢ .
(٣) انظر السير : (وَهْب بن مُنبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٥٤ .
(٤) انظر السير : (مَيْمونُ بنُ مِهْران) ٥/ ٧١ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٨١ .
(٥) انظر السير : (مُعاويَة بن قُرَّة) ٥/ ١٥٣ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٩٤ .
(٦) انظر السير : (أخْبارُ الزُّهْريِّ) ٥/ ٣٢٦ـ ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٠٧ .

عن السَّفَّاح قال : إذا عَظُمَت القُدْرَة قَلَّت الشَّهْوَة ، قَلَّ تَبرُّعٌ إلاَّ ومَعَه حَقٌّ مُضَاعٌ ، الصَّبرُ حَسنٌ إلاَّ علىٰ ما أوْتَغَ[1] الدِّين وأوْهَنَ السُّلطانَ[2] .

ورَوَى ابنُ عُيَيْنَةَ عن أبي حازِمٍ قالَ : لَيسَ للمُلوكِ صَديقٌ ، ولا للحَسُودِ رَاحَةٌ ، والنَّظَرُ في العَوَاقِبِ تَلقِيحُ العُقُولِ[3] .

قالَ خَالِدُ بنُ صَفْوَان : ثَلاثَةٌ يُعرَفُونَ عندَ ثَلاثَةٍ : الحَليمُ عندَ الغَضَبِ ، والشُّجَاعُ عندَ اللِّقَاءِ ، والصَّديقُ عندَ النَّائبَة[4] .

وقالَ ابنُ شَوْذَب : سَمعتُ يُونُسَ بنَ عُبَيْد يَقولُ : خَصْلَتانِ إذا صَلُحَتا من العَبْدِ صَلُحَ ما سواهُما : صَلاتُه ولِسانُه .

ماتَ يُونُسُ سَنةَ أرْبَعينَ ومائة[5] .

وعن ابنِ شُبْرُمَةَ قال : مَنْ بالَغَ في الخُصُومَة أثِمَ ، ومَنْ قَصَّرَ فيها خَصِم ولا يُطيقُ الحَقَّ مَنْ بالَىٰ علىٰ مَنْ دارَ الأمْرُ .

ورَوَى ابنُ الْمُبارَك عن ابنِ شُبْرُمَةَ قالَ : عَجِبتُ للنَّاسِ يَحْتَمونَ من الطَّعامِ مَخافَةَ الدَّاء ولايَحْتَمونَ من الذُّنوبِ مَخافَةَ النَّار[6] .

وقالَ الأصْمَعيُّ : قالَ لي أبو عَمْرِو بنُ العَلاء : كُنْ علىٰ حَذَرٍ من الكَريمِ إذا أهَنْتَه ، ومن اللَّئيمِ إذا أكْرَمتَه ، ومن العاقِلِ إذا أحْرَجْتَه ، ومن الأحْمَقِ إذا مَازَحْتَه ، ومن الفَاجِرِ إذا عَاشَرْتَه، ولَيسَ من الأدَبِ أنْ تُجيبَ مَنْ لا يَسألُك ، أو تَسألَ مَنْ لا يُجيبُك ، أو تُحدِّثَ مَنْ لا يُنْصِتُ لك .

قالَ أبو عُبَيد : حدَّثني عِدَّة : أنَّ أبا عَمرٍو قَرأ علىٰ مُجاهِد وزَادَ بَعضُهم : وعَلىٰ

---

(١) أوتَغَ : أفسَدَ وأهْلك .
(٢) انظر السير : (السَّفَّاح) ٦/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٣٢ .
(٣) انظر السير : (أبو حَازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٣٦ .
(٤) انظر السير : (خالد بن صَفْوَان) ٦/ ٢٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٤٣ .
(٥) انظر السير : (يُونُسُ بنُ عُبَيْد) ٦/ ٢٨٨ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٥٢ .
(٦) انظر السير : (عبدُ الله بنُ شُبْرُمَة) ٦/ ٣٤٧ـ ٣٤٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٥٦ .

سَعيدِ بنِ جُبَير ، ورَوَيْنا أنَّ أبا عَمرٍو وأباهُ هَرَبا من الحَجَّاجِ ومن عَسْفِه ، وحَديثُه قَليلٌ .

ذَكرَ غَيرُ واحد أنَّ وَفاتَه كانَت في سَنةِ أرْبَع وخَمسينَ ومئة .

قالَ الأصْمَعيُّ : عاشَ أبو عَمرٍو سِتّاً وثَمانينَ سَنةً[1] .

وعن إبراهيمَ بنِ أدْهَم ، قالَ : كُلُّ مَلكٍ لا يَكونُ عادلاً ، فهُوَ واللِّصُّ سَواءٌ ، وكُلُّ عالِمٍ لا يكون تَقيّاً ، فهو والذِّئبُ سَواءٌ ، وكُلُّ مَنْ ذَلَّ لغَيرِ الله ، فهو والكَلبُ سَواءٌ[2] .

وعن دَاوُدَ الطَّائيِّ قالَ : كَفَىٰ باليَقينِ زُهْداً ، وكَفَىٰ بالعِلمِ عِبادَةً ، وكَفَىٰ بالعِبَادَةِ شُغْلاً[3] .

وجاءَ أنَّ ابنَ الْمُبارَك سُئلَ : مَنْ النَّاسُ ؟ فقالَ : العُلماءُ قيلَ : فمَنْ الْمُلوكُ : قالَ : الزُّهَّادُ ، قيلَ : فمَنِ الغَوْغاءُ ؟ قالَ : خُزَيْمَةُ وأصْحابُه ، يَعني من أُمَراءِ الظَّلمَة ، قيلَ : فمَنْ السَّفَلَةُ ؟ ، قالَ : الذين يَعيشونَ بدينِهم[4] .

وقالَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ بِشْر ، سَمعتُ ابنَ عُيَيْنَة يَقولُ : غَضبُ الله الدَّاءُ الذي لا دَواءَ له ، ومَنْ اسْتَغْنَىٰ بالله ، أحْوَجَ اللهُ إليه النَّاسَ .

قالَ الإمامُ الذَّهَبيُّ : عاشَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة إحْدَىٰ وتسْعينَ سَنةً[5] .

وقالَ بِشْرُ بنُ الوَليدِ : سَمعتُ أبا يُوسُفَ القاضي : مَنْ طَلبَ الْمَالَ بالكيمياءِ أفْلَسَ ومَنْ طَلبَ الدِّينَ بالكَلامِ تَزَنْدَقَ ، ومَنْ تَتبَّعَ غَريبَ الحَديثِ ، كُذِّبَ .

---

(١) انظر السير : (أبو عَمْرو بنُ العَلاء) ٦/ ٤٠٧ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٦٦ .
(٢) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٨/ ٧٠٨ .
(٣) انظر السير : (داوُد الطَّائي) ٧/ ٤٢٢ـ ٤٢٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧١٢ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٣٧٨ ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٨/ ٧٦٨ .
(٥) انظر السير : (سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٨٤ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : بَلغَ أبو يُوسُف من رئاسَة العِلمِ ما لا مَزيدَ عَليه ، وكانَ الرَّشيدُ يُبالِغُ في إجْلالِه[1] .

وما أنبلَ قولَه : العِلمُ بالخُصُومَةِ والكَلامِ جَهلٌ ، والجَهلُ بالخُصُومَةِ والكَلامِ عِلمٌ[2] .

وقالَ شَقيقٌ البَلْخيُّ : لَوْ أنَّ رَجُلاً عاشَ مِئتَي سَنة لا يَعرفُ هـٰذه الأرْبَعَة ، لَمْ يَنْجُ : مَعرفَةُ الله ، ومَعرفَةُ النَّفْسِ ، ومَعرفَةُ أمْرِ اللهِ ونَهيِه ، ومَعرفَةُ عَدُوِّ اللهِ وعَدُوِّ النَّفْس[3] .

وعن الأنْطاكِيِّ قالَ : الخَيرُ كُلُّه أنْ تُزوَىٰ عَنكَ الدُّنيا ، ويُمَنُّ عَليك بالقُنوعِ ، وتُصْرَفُ عَنكَ وُجُوهُ النَّاس .

وله من هـٰذا النَّحْو مَواعِظُ نافِعَةٌ ، ووَقْعٌ في النُّفوسِ ، رَحمَهُ الله[4] .

وعن الحَارِثِ بنِ أسَدٍ الْمُحَاسَبيِّ قالَ : جَوْهَرُ الإنْسانِ الفَضْلُ ، وجَوْهَرُ العَقْلِ التَّوْفيقُ[5] .

وعن يَحْيَىٰ بنِ مُعاذ قالَ : لَسْتُ أبْكي علىٰ نَفسِي إنْ ماتَتْ ، إنَّما أبْكي علىٰ حَاجَتي إنْ فاتَتْ[6] .

وقالَ الحَكيمُ التِّرْمِذيُّ : كَفَىٰ بالْمَرْءِ عَيباً أنْ يَسرَّه ما يَضُرُّه[7] .

---

(١) انظر السير : (القاضي أبو يُوسُف) ٨/ ٥٣٥ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٧٨٩/ ١ .
(٢) انظر السير : (القاضي أبو يُوسُف) ٨/ ٥٣٥ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٧٨٩/ ٣ .
(٣) انظر السير : (شَقيقُ البَلْخيّ) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٨٢٣/ ٥ .
(٤) انظر السير : (الأنْطاكِيُّ) ١١/ ٤٠٩ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ٩٥٥/ ٦ .
(٥) انظر السير : (الْمُحَاسَبيُّ) ١٢/ ١١٠ـ ١١٢ ، وانظر النزهة : ٩٨٨/ ٥ .
(٦) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مُعاذ) ١٣/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ١٠٤٦/ ٥ .
(٧) انظر السير : (الحَكيمُ التِّرْمِذيُّ) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ١١٠٠/ ٢ .

٨ـ شِعْرٌ في الحِكمَة :

كتب عُبَيْدُ الله بنُ عَبدِ الله بنِ عُتْبَة إلىٰ عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز[١] :

باسمِ الذي أُنزِلت من عنده السورُ ... والحمـدُ لله أمَّـا بعـدُ يـا عمـر
إنْ كنـت تعلـمُ مـا تـأتـي ومـا تَـذَرُ ... فكـنْ علىٰ حَـذَرٍ قَـدْ ينفـعُ الحـذَرُ
واصبرْ على القَدَرِ المحتومِ وارضَ بهِ ... وإنْ أتـاكَ بِمـا لا تشتهـي القَـدَرُ
فمـا صفـا لامـرءٍ عيـشٌ يسـرُّ بـهِ ... إلا سيتبَـعُ يـومـاً صَفْـوَهُ الكـدَرُ

مَدحَ أبو العَتاهيَة المَهْديَّ ، والخُلفاءَ بعده ، والوُزَراء ، وما أصْدَق قوله :

إن الشبـابَ والفـراغَ والجِـدَةْ ... مفسـدةٌ للمـرءِ أيُّ مفسـدةْ
حسبُـك ممـا تبتغيـهِ القـوتُ ... مـا أكثـرَ القـوتَ لمـن يمـوتُ
هـي المقـاديـر فَلُمْنِـي أو فَـذَرْ ... إنْ كنتُ أخطأتُ فما أخطا القدرْ

تُوفِّي أبو العَتاهيَة في سنة إحْدَىٰ ومئتَين ، وله ثلاثٌ وثَمانونَ سَنةً ، أو نَحْوُها ، ببَغْداد .

وتَحْتَملُ سيرةُ أبي العَتاهيَة أنْ تُعمَلَ في كَراريسَ[٢] .

* * *

---

(١) انظر السير : (عُبَيْدُ الله بنُ عَبدِ الله بنِ عُتْبَة) ٤/ ٤٧٥ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٥٣٥/ ٤ .
(٢) انظر السير : (أبو العَتاهيَة) ١٠/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٨٦٦/ ٥ .

الذَّكاءُ والفِطْنَة

عن عبدِ الله بنِ سَلام ، قالَ : لَمَّا قدمَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الْمَدينَةَ ، انْجَفلَ النَّاسُ عليه ، وكنتُ فيمَنِ انْجَفلَ ، فلمَّا رأيتُه ، عَرفتُ أنَّ وَجهَه لَيسَ بوَجْهِ كذَّاب فكانَ أوَّلُ شَيءٍ سَمعتُه يَقولُ : « يَا أيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلامَ ، وَأطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الأرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ »[1] .

عن خارِجَةَ ، عن أبيه ، زَيْدِ بنِ ثابِت ، قالَ : أُتِيَ بيَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مَقدمَه الْمَدينَةَ ، فقالوا : يا رَسُولَ الله ، هـٰذا غُلامٌ من بَني النَّجَّار ، وقد قَرأَ مِمَّا أُنْزِلَ عَليكَ سَبعَ عَشرَةَ سُورَة فقَرأتُ علىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأعْجَبَه ذلك ، وقالَ : « يا زَيْدُ ، تَعَلَّمْ لِي كتَابَ يَهُودَ ، فَإنِّي وَاللهِ مَا آمَنُهُمْ عَلَىٰ كتَابِي » .

قالَ : فتَعلمتُه ، فما مَضَىٰ لي نِصفُ شَهرٍ حتَّىٰ حَذقْتُه ، وكُنتُ أكتُبُ لرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا كَتبَ إليهم .

عن ثابتِ بنِ عُبَيد ، قالَ زَيدُ بنُ ثابِت : قالَ لي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أَتُحْسِنُ السُّرْيَانِيَّةَ ؟ » قُلتُ : لا ، قالَ : « فَتَعَلَّمْهَا » فتَعلَّمتُها في سَبعَةَ عَشرَ يَوماً[2] .

قالَ إبراهيمُ بنُ هِشام الغَسَّانيُّ : حدَّثني أبي ، عن جَدِّي ، قال : وَقَعَتْ من رجلٍ مئةُ دينارٍ فنادَىٰ : مَنْ وَجَدَها ، فله عِشْرونَ ديناراً ، فأقبَلَ الذي وَجدَها فقال : هـٰذا مالُك ، فأعْطِني الذي جَعلتَ لي فقال : كان مالي عشرينَ ومئةَ دينار ، فاخْتَصَما إلىٰ فَضَالَةَ بنِ عُبَيد ، فقال لصاحبِ المال : أَلَيْسَ كان مالُك مئة وعشرين ديناراً كما تذكر ؟ قال : بَلىٰ وقال للآخر : أنْتَ وَجدْتَ مئة ؟ قال : نَعَم ، قال : فاحْبِسْها ولا تُعْطِه ، فليس هو بمالِه حتىٰ يَجيءَ صاحبُه[3] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ سَلام) ٢/ ٤١٣ـ ٤٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٨٤ .

(٢) انظر السير : (زَيْدُ بنُ ثابت) ٢/ ٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٨٦ .

(٣) انظر السير : (فَضالَة بن عُبَيد) ٣/ ١١٣ـ ١١٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٤٦ .

وقالَ ابنُ عائِشَة : وَجَّهَ عبدُ الْمَلكِ بنُ مَرْوانَ الشَّعبيَّ إلىٰ مَلكِ الرُّوم ـ يَعني رَسُولاً ـ فلمَّا انْصرفَ من عندِه قالَ : يا شَعْبيُّ ، أتَدري ما كَتبَ به إليَّ مَلكُ الرُّوم ؟ قالَ : وما كَتبَ به يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : كُنتُ أتعجَّبُ لأهْلِ ديانَتِك ، كيفَ لَمْ يَستَخلِفوا عَليهم رَسُولَك قُلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ لأنَّه رَآني ولَمْ يَرَك . أوْرَدَها الأصْمَعيُّ ، وفيها قالَ : يا شَعْبيُّ ، إنَّما أرادَ أنْ يُغْريني بقَتلِكَ فبَلغَ ذلكَ مَلكَ الرُّومِ فقالَ : لله أبوه ، والله ما أرَدتُ إلاَّ ذاكَ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ أبي حَنيفَة النُّعْمان : وابنُه الفَقيهُ حمَّادُ بنُ أبي حَنيفَة كانَ ذَا عِلمٍ ودينٍ وصَلاحٍ ووَرَعٍ تَامٍّ ، لَمَّا تُوفِّيَ والدُه ، كانَ عندَه وَدائعُ كَثيرَة ، وأهْلُها غائبون فنَقَلها حمَّادٌ إلى الحاكِم ليَتسلَّمها ، فقالَ : بلْ دَعْها عندَك ، فإنَّك أهلٌ فقالَ : زِنْها واقْبضْها حتَّىٰ تَبرأ منها ذِمَّةُ الوَالِدِ ، ثم افعل ما تَرَىٰ ففَعلَ القاضي ذلك وبَقيَ في وَزنِها وحِسابِها أيّاماً واسْتترَ حَمَّادٌ فمَا ظَهرَ حتَّىٰ أوْدَعَها القاضي عندَ أمين .

تُوفِّيَ حمَّادٌ سَنةَ سِتٍّ وسَبعينَ ومئة كَهْلاً[2] .

وقالَ الحَسنُ بنُ يُوسُف بنِ مُلَيح : سَمعتُ أبا الحَسَن الخادِمَ ، قالَ : كُنتُ غُلاماً لزُبَيْدَة ، وأُتيَ باللَّيثِ بنِ سَعْد تَسْتَفتيه فكُنتُ واقفاً علىٰ رَأسِ سِتِّي زُبَيْدَة ، خَلفَ السِّتارَة ، فسَألَه الرَّشيدُ ، فقالَ لَه : حَلفتُ إنَّ لي جَنَّتَين ، فاسْتحلَفَه اللَّيثُ ثلاثاً : إنَّكَ تَخافُ اللهَ ؟ فحَلفَ له ، فقالَ : قالَ الله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[3] قالَ : فأقْطَعَه قَطائعَ كَثيرَة بمِصْرَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : إنْ صَحَّ هـٰذا ، فهَـٰذا كانَ قَبلَ خِلافَة هارُون .

وقالَ ابنُ بُكَير : كانَ اللَّيثُ فَقيهُ البَدَن ، عَربيَّ اللِّسَان ، يُحسِنُ القُرآنَ والنَّحْوَ ،

---

(١) انظر السير : (الشَّعْبيُّ) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٠٢ .
(٢) انظر السير : (أبو حَنيفَة النُّعْمانُ) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٦٤ .
(٣) سورة الرحمـٰن ، الآية : ٤٦ .

ويَحفَظُ الحَديثَ ، حَسَنَ الْمُذاكَرَة ، فمَا زَالَ يَذكُرُ خِصالاً جَميلَةً ، ويَعْقِدُ بيَدِه ، حتَّىٰ عَقَدَ عَشرَةً : لَمْ أرَ مِثلَه .

وقالَ هارُونُ بنُ سَعيد : سَمعتُ ابنَ وَهْب يَقولُ : كُلُّ ما كانَ في كُتُب مَالِك : وأخْبَرَني مَنْ أرْضَىٰ من أهْلِ العِلمِ ، فهو اللَّيثُ بنُ سَعد[1] .

وقالَ أبو سُليمانَ الجُوزَجانيُّ ، سَمعتُ القاضي أبا يُوسُف يَقولُ : دَخلتُ على الرَّشيدِ وفي يَدِه دُرَّتان يُقلِّبُهما ، فقالَ : هَلْ رَأيتَ أحْسَنَ منهما ؟ قُلتُ : نَعَم يا أميرَ المؤمنين قالَ : وما هو ؟ قُلتُ : الوِعَاءُ الذي هما فيه ، فرَمَىٰ بهما إليَّ ، وقالَ : شَأنُكَ بهما[2] .

وقيلَ إنَّ عبدَ الرحمَـٰن بنَ الحَكَم الْمَرْوانيَّ صاحِبِ الأنْدَلُس نَظَرَ إلىٰ جاريَة له في رَمَضانَ نَهاراً ، فلَمْ يَملِكْ نَفسَه أنْ وَاقَعَها ، ثم نَدِمَ ، وطَلبَ الفُقَهاءَ ، وسَألَهُم عن تَوبَتِه ، فقالَ يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ : صُمْ شَهْرَين مُتَتابِعَين ، فسَكتَ العُلَماءُ ، فلمَّا خَرَجوا قالوا ليَحْيَىٰ : مَا لَكَ لَمْ تُفْتِهِ بمَذْهَبنا عن مَالِك أنَّه مُخَيَّرٌ بينَ العِتْقِ والصَّوْم والإطْعَام ؟ قالَ : لَوْ فَتَحْنا له هَـٰذا البَابَ ، لَسَهُلَ عليه أنْ يَطأ كُلَّ يَومٍ ، ويُعْتِقَ رَقَبَة ، فحَمَلتُه علىٰ أصْعَبِ الأُمُورِ لِئلاَّ يَعُودَ[3] .

وعن مُكْرم بنِ بَكْر ، قالَ : كُنتُ في مَجلسِ أبي خازِمٍ القاضي ، فتَقدَّمَ شَيخٌ مَعه غُلامٌ ، فادَّعَىٰ عَليه بألفِ دِينارٍ ، فأقَرَّ الحَدَثُ ، فقالَ القاضي للشَّيخ : ما تَشاءُ ؟ قالَ : حَبسُه فقالَ للحَدَثِ : قد سَمعتَ فهلْ تُوفِّيه البَعضَ ؟ قالَ : لا ففكَّر ساعَةً ، ثم قالَ : تَلازَما حتَّىٰ أنْظُرَ فقُلتُ : لِمَ أخَّرَ القاضي الحَبسَ ؟ قالَ : وَيْحَك! إنِّي أعْرفُ في أكثرِ الأحْوالِ وَجْهَ الْمُحِقِّ من الْمُبْطِلِ ، وقد وَقعَ لي أنَّ سَماحَتَه بالإقْرارِ شَيءٌ بَعيدٌ من الحَقِّ ، أمَا رَأيتَ قِلَّة تَغاضُبِهما في الْمُحاوَرَة مع عِظَمِ الْمَالِ ؟ فبَينا نَحنُ كذلك ، إذْ اسْتَبانَ الأمرُ ، فاسْتأذَنَ تاجِرٌ مُوسِرٌ ، فأذنَ له القاضي ، فدَخلَ ، وقالَ : قد بُليتُ بابنٍ

---

(١) انظر السير : (اللَّيثُ بنُ سَعْد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٣٩ .

(٢) انظر السير : (القاضي أبو يُوسُف) ٨/ ٥٣٥ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٨٩ .

(٣) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ بنُ كَثير) ١٠/ ٥١٩ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٩١ .

لي حَدَثٍ ، يُتلِفُ مالي عنَد فُلانٍ الْمُقَبِّن ، فإذا مَنعتُه مالي احْتَالَ بحِيَل يُلجِئُني إلى الْتِزام غُرْم ، وأقْرَبُه أنَّه نَصَبَ الْمُقَبِّنَ اليومَ لِمُطالَبَتِه بألفِ دينارٍ وأقَعُ مع أمِّه ـ إنْ حُبِسَ ـ في نَكَدٍ فتَبسَّمَ القاضي ، وطَلبَ الغُلامَ والشَّيخَ ، فأُدخِلا ، فوَعَظَ الغُلامَ ، فأقَرَّ الشَّيخُ ، وأخَذَ التَّاجِرُ بيدِ ابنِه ، وانْصَرَفَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد كانَ الْمُعتَضِدُ يَحترِمُ أبا خازِم ويُجلُّه ، قيلَ : إنَّ أبا خازم لَمَّا احْتُضرَ بَكَىٰ ، وجَعلَ يَقولُ : يا رَبِّ! من القَضاءِ إلى القَبرِ . وله شِعرٌ رَقيقٌ .

ماتَ ببَغْدادَ سَنةَ اثنَتينِ وتِسْعينَ ومئتين[1] .

قالَ القِفْطيُّ : عَزمَ المُعِزُّ علىٰ بَعْث جَيشِه إلىٰ مِصْرَ ، فسألَتْهُ أُمُّهُ أنْ يُؤخِّرَ ذلكَ لتَحُجَّ خُفْيَةً فأجابَها ، وحَجَّتْ ، فأحَسَّ بقُدومِها الأسْتاذُ كافُورُ ـ يَعْني صاحِبَ مِصْرَ ـ فحَضَرَ إليها وخَدمَها ، وحَملَ إليها تُحَفاً ، وبَعثَ في خِدْمتِها أجْناداً ، فلمَّا رَجَعَت ، مَنعَت ابنَها من قَصْدِ مِصْرَ ، فلمَّا ماتَ كافُورُ بَعثَ المُعِزُّ جَيشَه ، فأخَذوا مِصْرَ .

وكانت مِصْرُ في القَحْط ، فأخَذَها جَوْهَرُ ، وأخَذَ الشَّامَ والحِجازَ ونفَّذَ يُعرِّفُ مَولاهُ بانْتظامِ الأمْرِ .

وضُربَت السِّكةُ على الدِّينارِ بمِصْرَ (وهي : لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ محمَّدٌ رَسُولُ الله ، عَليٌّ خَيْرُ الوَصِيِّيْن) والوَجهُ الآخَر اسْم المُعِزِّ والتاريخ ، وأُعْلِنَ الأذانُ بـ « حَيِّ علىٰ خَيرِ العَملَ » ، ونُوديَ : مَنْ مَاتَ عن بنْت وأخٍ أو أُخْت فالمالُ كلُّه للبنْت فهَـٰذا رَأيُ هـٰؤلاء[2] .

وقد سارَ القاضي ابنُ الباقِلاَّنيِّ رَسُولاً عن أميرِ المُؤمِنينَ إلىٰ طاغِيَةِ الرُّوم ، وجَرَتْ له أُمُورٌ ، منها أنَّ المَلِك أدْخَلَه عليه من بابِ خوخةٍ[3] ليَدخُلَ راكِعَاً للمَلِكِ ففَطِنَ لها القاضي ، ودَخَلَ بظَهْرِه[4] .

---

(١) انظر السير : (القاضي أبو خازِم) ١٣/ ٥٣٩ـ ٥٤١ ، وانظر النزهة : ٤/١١١٤ .
(٢) انظر السير : (المُعِزُّ) ١٥/ ١٥٩ـ ١٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٣ .
(٣) باب خوجة : هو باب صغير ضمن باب كبير لا يتمكن الإنسان من دخوله إلاَّ أن يحني رأسه .
(٤) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٣٤ .

ومنها أنَّه قالَ لراهِبِهم : كَيفَ الأهْلُ والأوْلادُ ؟!! ، فقالَ المَلِكُ : مَهْ!! ، أمَا عَلمْتَ أنَّ الرَّاهِبَ يَتنزَّهُ عن هـٰذا ؟ فقالَ : تُنزِّهُونَه عن هـٰذا ، ولا تُنزِّهُونَ رَبَّ العَالَمينَ عن الصَّاحِبَةِ والوَلَدِ!![1] .

وقِيلَ : إنَّ الطَّاغِيَةَ سَألَهُ : كَيفَ جَرَىٰ لزَوْجَةِ نَبيِّكُم ؟ ـ يَقْصِدُ تَوْبيخاً ـ فقالَ : كَما جَرَىٰ لمَرْيَمَ بنتِ عِمْرانَ ، وبَرَّأهُمَا اللهُ ، لَكنَّ عائِشَةَ لَمْ تَأتِ بوَلَدٍ فأفْحَمَهُ .

قالَ الخَطيبُ : سَمعتُ أبا بَكْر الخَوارِزْميَّ يَقولُ : كُلُّ مُصَنِّف ببَغْدادَ إنَّما يَنْقُلُ من كُتُبِ النَّاسِ سِوَى القاضي أبي بَكْر ، فإنَّما صَدْرُه يَحْوي عِلمَه وعِلمَ النَّاسِ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَطيبِ البَغْداديِّ : قد كان رَئيسُ الرُّؤساء تَقدَّم إلى الخُطَباءِ والوُعَّاظِ أنْ لا يَروُوا حَديثاً حتَّىٰ يَعرضُوه عليه ، فمَا صَحَّحه أوْرَدوه ، وما رَدَّه لَمْ يَذكُروهُ وأظْهَرَ بَعضُ اليَهُودِ كتاباً ادَّعَىٰ أنَّه كتابُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بإسْقَاطِ الجِزْيَة عن أهْلِ خَيْبَر ، وفيه شَهادَةُ الصَّحابَة ، وذَكروا أنَّ خَطَّ عليٍّ رضي الله عنه فيه وحُملَ الكتابُ إلىٰ رَئيس الرُّؤساء فعَرضَه على الخَطيبِ ، فتَأمَّله ، وقالَ : هـٰذا مُزَوَّر ، قيلَ : من أينَ قُلتَ ؟ قالَ : فيه شَهادَةُ مُعاويَة وهو أسْلمَ عامَ الفَتْح ، وفُتحَتْ خَيْبَرُ سَنةَ سَبعٍ ، وفيه شَهادَةُ سَعْدِ بنِ مُعاذ وماتَ يَومَ بَني قُرَيْظَة ، قبلَ خَيْبَرَ بسَنَتَينِ ، فاستُحسِنَ ذلك منه[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ خُوارزمْشاه : أبادَ مُلوكاً ، واسْتولَىٰ علىٰ عِدَّة أقاليم ، وخَضعَت له الرِّقابُ وقد حارَبَ الخَطَا غَيرَ مرَّة ، فانْهَزَم جَيشُه في نَوْبَة وثبَتَ هو ، فأُسِرَ هو وأميرٌ ، أسَرَهما خَطائيٌّ ، فصيَّر نَفسَه مَمْلوكاً لذلك الأميرِ ، وبَقيَ يَقِفُ في خِدمَتِه ، فقالَ الأميرُ للخَطَائيِّ : ابْعَثْ رَسُولَك مع غُلامي هـٰذا إلىٰ أهْلي ليُرْسِلوا مَالاً في فِكاكي ، ففَعلَ وتَمَّت الحِيلَةُ ، وعادَ خُوارِزْمشَاه إلىٰ مُلكِه .

قالَ عِزُّ الدِّينِ عَليُّ ابنُ الأَثير : كانَ صَبوراً على التَّعبِ وإدْمانِ السَّيْرِ غَيرَ مُتَنعِّمٍ

---

(١) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٣٥ .

(٢) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٥ .

(٣) انظر السير : (الخَطيبُ البَغْداديُّ) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٤١٢ .

ولا مُتلَذِّذٍ إنما نِهْمتُه الْمُلكُ وكانَ فاضِلاً ، عَالِماً بالفِقْه والأُصُولِ ، مُكْرِماً للُعلمَاء يُحبُّ مُناظَرَتهم ، ويَتبرَّكُ بأهْلِ الدِّين ، قالَ لي خادِمُ الحُجْرَة النَّبويَّة : أَتيتُه فاعْتَنَقَني ، ومَشَىٰ لي وقالَ : أنْتَ تَخدِمُ حُجرَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؟ قُلتُ : نَعم ، فأخَذَ يَديَّ وأمَرَّها علىٰ وَجْهِه ، وأعْطاني جُملةً .

كانت بلادُ ما وَراءَ النَّهْر في طاعَةِ الخَطَا ، ومُلوك بُخارَىٰ وسَمَرْقَنْدَ يُؤدُّونَ الأتَاوَةَ إلى الخَطَا ، وكانت هـٰذه الأُمَمُ سَداً بينَ تُرْكِ الصِّينِ وبَينَنا ففتَحَ هـٰذا السدَّ الوَثيقَ وظَنَّ أنَّه لَمْ يَبْقَ مَنْ يُقاوِمُه ، فانتُقلَ إلىٰ كِرْمانَ ثم العِراقِ ، ثم أذْرَبيجانَ ، وطَمعَ في الشَّامِ ومِصْرَ ، وكان عَليه سَهْلاً لَوْ قَدِرَ باتَ صاحبُ حلبَ لَيلَه مَهْمُوماً لِما اتَّصلَ به من أخْبار هـٰذا وطَمَعِه في الشَّامِ ، وقِيلَ عنه : إنَّه يَبْقىٰ أرْبَعةَ أيّام علىٰ ظَهْرِ فَرَسِه لا يَنزِلُ إنَّما يَنتقِلُ من فَرسٍ إلىٰ فَرسٍ ويَطْوي البلادَ ويَهجِمُ المدينَةَ في نَفرٍ يَسيرٍ ثم يُصَبِّحه من عَسْكره عَشرةُ آلاف ويُمَسِّيه عِشْرونَ ألفاً قَتلَ عِدَّةَ مُلوكٍ وإنَّما أخْذُه البلادَ بالرُّعْبِ والهَيْبَة وبعدَ مَوتِ الظَّاهِر غازي جاءَ رَسُولُه إلىٰ حَلبَ ، فقالَ : سُلطانُ السَّلاطينِ يُسلِّمُ عَليكم ويَعْتِبُ إذْ لَمْ تُهَنِّئوهُ بفَتْح العِراقِ وأذْرَبيجانَ ، وإنَّ عَددَ جَيشِه سَبعُ مئة ألفٍ ، ثم تَوجَّه رَسُولُه إلى العادِلِ بدِمَشْقَ يَقولُ : تَعالَ إلى الخِدْمَة فقد ارْتَضَيْناكَ أنْ تَكونَ مُقَدَّمَ الركاب! فبَقيَ النَّاسُ يَهْزَؤون منه وسَمِعنا أنَّه جَعلَ صاحِبَ الرُّومِ أميرَ عَلَم له والخَليفَةَ خَطيباً! وأمَّا الْمُلوكُ الذين كانوا في خِدمَته فكان يُذِلُّهم ويُهينُهم ، وجَعلَهم يَضْربُونَ له طُبولَ الذَّهَب ولَمَّا أباد أُمَّتَي الخَطَا والتَّتَر وهُم أصْحابُ تُرْكِسْتانَ وجَنْدُ وتَنْكُت ظَهرَت أُمَّةٌ يُسَمَّونَ التَّتَر أيضاً ، وهم صِنْفانِ وطَمِعوا في البلادِ فجَمعَ وعَزمَ علىٰ لِقائِهم فوَقَعَ جِنْكيزخان رأسُ الطمغاجية علىٰ كَمينِه فطَحَنُوه ، وانْهَزمَ جَلالُ الدِّينِ ابنه إليه ، وخُيِّلَ إليه تَعِسُ الجَدِّ[1] أن في أُمَرائه مُخامِرين فمَسَّكهم وضَربَ مع التَّتارِ مَصَافاً بعدَ آخَر فتَطَحْطَحَ ، ورُدَّ إلىٰ بُخارَىٰ مُنْهَزِماً ثم جاءَ من بُخارَىٰ ليَجْمعَ العَساكِرَ بنيسابُورَ فأخَذَت التَّتارُ بُخارَىٰ وهَجَموا خُراسان ففرَّ ، فما وَصَلَ إلى الرِّيِّ إلاَّ وطلائعُهم علىٰ رأسِه ، فانْهزَمَ إلىٰ قَلعَة بَرَجِيْن ، ومعه ثلاثُ مئة فارِسٍ عُراةً مَضَّهم الجُوعُ فاسْتَطْعَموا من أكْرادٍ

---

(١) أي : سيىء الحظ .

فلَمْ يَحتَفلوا بهم ، ثم أعْطَوهُم شَاتَين وقَصْعَتي لَبن ، ثم رَجعَ إلىٰ نَهَاوَنْدَ ، ثم إلىٰ مازندران وقَعْقَعَةُ سِلاحِهم قد مَلأت سَمعَه وبَصرَه ، فنَزلَ ببُحَيرَة هناك فانْسَهَلَ وطلَبَ دَواءً فأعْوَزَه الخُبزُ وماتَ .

وقيلَ : كانَ عِدَّةُ جَيشِه في الدِّيوان ثَلاثَ مئة ألفِ فارِسٍ ، وقيلَ : إنَّه اسْتولىٰ علىٰ نَحْو أرْبَع مئة مَدينَة ، وكانت أمُّه تُركان في عَظمَةٍ ما سُمعَ قَطُّ بمِثْلِها ، وفي جَبَروت ، فأسَرَها جنكيزخان ، وذَاقَت ذُلاً وجُوعاً .

ماتَ في الجَزيرَة سَنة سَبعَ عَشرَةَ وسِتٍّ مئة وكُفِّنَ في عَمامَةٍ لفرَّاشِه[1] .

وقالَ القاضي ابنُ وَاصِل : وبَلغَني أنَّ رَجُلاً كانَ يَرىٰ صِحَّةَ خِلافَةِ يَزيد ، فأحْضَرَه لِيُعاقِبَه فسَأَلَه : ما تَقولُ في خِلافَةِ يَزيد ؟ قالَ : أنا أقولُ لا يَنْعَزِلُ بارْتِكابِ الفِسْقِ ، فأعْرَضَ عَنه ، وأمَرَ بإطْلاقِه ، وخافَ من الْمُحاقَقَة[2] .

الشَّجَاعَة

١ـ صُوَرٌ من الشَّجَاعَة :

قِيلَ : كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إلىٰ أُمَرَاءِ الجَيشِ : لا تَسْتَعمِلُوا البَراءَ علىٰ جيشٍ فإنَّه مُهْلِكَةٌ من المَهَالِكِ يَقْدُمُ بهم .

وبلَغَنا أنَّ البَراءَ يومَ حربِ مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب أمَرَ أصْحابَه أنْ يَحْتَمِلُوه علىٰ تُرسٍ ، علىٰ أَسِنَّةِ رِماحِهم ، ويُلْقُوا به في الحَديقةِ فاقْتَحَمَ إليهم ، وشَدَّ عليهم ، وقاتلَ حتى افْتَتَحَ بابَ الحديقةِ ، فجُرِحَ يومئذٍ بضْعةً وثمانين جُرحاً ، ولذلك أقامَ خالدُ بنُ الوَليدِ عليه شَهراً يُداوِي جِراحَه ، وقد اشْتَهَرَ أنَّ البَراءَ قَتلَ في حُروبِه مِئَةَ نفسٍ من الشُّجعانِ مُبارَزَةً[3] .

---

(١) انظر السير : (خُوارزْمشاه) ٢٢/ ١٣٩ـ ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٧٧ .
(٢) انظر السير : (النَّاصِرُ لِدينِ الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٨٥ .
(٣) انظر السير : (البَراء بن مالك) ١/ ١٩٥ـ ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٤١ .

وعن صالِحِ بنِ إبْراهيمَ بنِ عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ عَوْف ، عن أبيه ، عن جَدِّه قالَ : إنِّي لَوَاقِفٌ يَومَ بَدْر في الصَّفِّ فنَظَرتُ ، فإذا أنا بَينَ غُلامَين من الأنْصارِ حَديثَةٌ أسْنانُهما ، فتَمنَّيتُ أنْ أكُونَ بينَ أضْلَعَ منهما فغَمَزَني أحَدُهما ، فقالَ : يا عَمُّ! أتَعرِفُ أبا جَهْل ؟ قُلتُ : نَعَم وما حاجَتُك ؟ قالَ : أُخبرتُ أنَّه يَسُبُّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نَفسِي بيَدِه إنْ رَأيتُه لا يُفارِقُ سَوَادي سَوادَه حتَّىٰ يَمُوتَ الأعْجَلُ منَّا فتَعَجَّبتُ لذلك ، فغَمَزَني الآخَرُ ، فقالَ مثلَها ، فلَمْ أنْشَبْ أنْ نَظَرتُ إلىٰ أبي جَهْل وهو يَجُولُ في النَّاسِ ، فقُلتُ : ألا تَرَيان ؟ هـٰذا صاحبُكما قالَ : فابْتَدراهُ بسَيْفَيْهِما حتَّىٰ قَتلاهُ ، ثم انْصَرَفا إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأخْبَراهُ فقالَ صلى الله عليه وسلم : « أيُّكمَا قَتَلَهُ ؟ » فقالَ كُلٌّ منهما : أنا قَتلتُه فقالَ صلى الله عليه وسلم : « هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكمَا ؟ » قالا : لا فنَظَر في السَّيْفَينِ ، فقالَ : « كلاكمَا قَتَلَه » وقَضَىٰ بسَلَبِه لِمُعَاذِ بنِ عَمرو والآخَرُ هو مُعَاذُ بنُ عَفْراء .

وعن مُعَاذِ بنِ عَمْرو قالَ : جَعلتُ أبا جَهْل يَومَ بَدْرٍ من شَأني فلمَّا أمْكَنَني ، حَملتُ عليه ، فضَربتُه ، فقَطعتُ قَدمَه بنِصْفِ ساقِه ، وضَربَني ابنُه عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْل علىٰ عاتِقِي ، فطَرحَ يَدي وبَقيَتْ مُعلَّقَة بجِلدَةٍ بجَنبي ، وأجْهَضَني عنها القِتالُ ، فقَاتَلتُ عامَّةَ يَوْمي وإنِّي لأسْحَبُها خَلفي ، فلمَّا آذَتْني ، وضَعْتُ قَدَمي عَليها ثم تَمَطَّأتُ عليها حتَّىٰ طَرَحْتها .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه واللهِ الشَّجاعَةُ ، لا كآخَر من خَدشٍ بسَهم يَنْقَطعُ قلبُه ، وتَخورُ قُواهُ ثم عاشَ بعدَ ذلكَ إلىٰ زَمَن عُثْمانَ[1] .

وعن ابنِ أبي لَيْلَىٰ ، أنَّ ابنَ أُمِّ مَكْتوم قالَ : أي رَبِّي! أنْزِلْ عُذْري فأُنْزِلَت ﴿ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾[2] فكان بعدُ يَغزو ويَقولُ : ادْفَعوا إليَّ اللِّواءَ فإنِّي أعْمَىٰ لا أسْتَطيعُ أنْ أفِرَّ ، وأقيمُوني بينَ الصَّفَّين[3] .

---

(١) انظر السير : (مُعَاذ بنُ عَمْرو بنِ الجَموح) ١/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٩٥ .
(٣) انظر السير : (ابنُ أُمِّ مَكتوم) ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٥ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٧ .

قالَ قَيْسُ بنُ أبي حَازِم : سَمعتُ خَالدَ بنَ الوَلِيدِ يقولُ : مَنَعَنِي الجِهَادُ كثيراً من القِراءَةِ ورَأَيتُه أَتَىٰ بسُمٍّ ، فقالوا : ما هـٰذا ؟ قالوا : سُمٌّ ، قال : بِاسْمِ الله وشَرِبَه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه والله الكَرَامَةُ ، وهـٰذه الشَّجَاعَةُ[1] .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم تَلا هـٰذه الآيَة ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾[2] قالوا : يا رَسولَ الله! مَنْ هَؤلاء ؟ قالَ رضي الله عنه : فضَرَبَ عَلىٰ فَخِذِ سَلْمانَ الفَارسِيِّ ، ثم قالَ صلى الله عليه وسلم : « هَـٰذا وَقَوْمُهُ ، وَلَوْ كانَ الدِّينُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ الفُرْسِ »[3] .

عن عُثْمانَ بنِ طَلْحَة ، قالَ : كانَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر لا يُنَازَعُ في ثَلاثَة : شَجاعَةٍ ، ولا عِبادَةٍ ، ولا بَلاغَةٍ[4] .

قال ابنُ الزُّبَيْر : هَجمَ عَلينا جُرْجيرُ في عِشرينَ ومئةِ ألْفٍ ، فأحاطُوا بنا ونَحنُ في عِشرينَ ألفاً ـ يَعني : نَوبَةَ إفْريقية .

قالَ : واخْتَلفَ النَّاسُ على ابنِ أبي سَرْح ، فدَخَلَ فُسْطاطَه ، فرَأيتُ غِرَّةً من جُرْجيرَ ، بَصُرْتُ به خَلفَ عَساكِرِه علىٰ بِرْذَوْنٍ أَشْهَب ، مَعه جاريتان تُظَلِّلانِ عليه بِرِيشِ الطَّواويسِ ، بينَه وبينَ جَيشِه أرْضٌ بَيْضاء ، فأتَيتُ أميرَنا ابنَ أبي سَرْح ، فنَدَبَ لِيَ النَّاسَ ، فاخْتَرتُ ثَلاثينَ فارِساً ، وقُلتُ لسَائرِهم : الْبَثوا علىٰ مَصافِّكُم ، وحَمَلتُ : وقُلتُ لهم : احْمُوا ظَهْري ، فخَرَقْتُ الصَّفَّ إلىٰ جُرْجيرَ وخَرجتُ صامِداً ، وما يَحْسِبُ هو ولا أصْحابُه إلاَّ أنِّي رَسُولٌ إليه ، حتَّىٰ دَنَوْتُ منه فعَرَفَ الشَّرَّ فثابَرَ بِرْذَوْنَه مُوَلِّياً ، فأدْرَكتُه ، فطَعَنتُه ، فسَقطَ ، ثم احْتَزَزتُ رَأسَه فنَصَبتُه علىٰ رُمْحي ، وكَبَّرتُ وحَملَ الْمُسلمونَ ، فارْفَضَّ العدوُّ ومَنحَ اللهُ أكْتافَهُم[5] .

---

(١) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٩ .
(٢) سورة محمد ، الآية : ٣٨ .
(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٢٠٣ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر) ٣/ ٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٤/٣٩٥ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر) ٣/ ٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٦/٣٩٥ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْر بنِ عبدِ الْمُطَّلِبِ : الهَاشِميُّ ، ابنُ عَمِّ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأمُّه عاتِكَةُ بنتُ أبي وَهْب الْمَخْزوميَّة ، من مُسْلِمَةِ الفَتْح[1] .

لا نَعلَمُ له رِوايَة كانَ مَوْصُوفاً بالشَّجاعَة والفُروسيَّة .

ولَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم كانَ لهَـٰذا نَحو من ثَلاثينَ سَنةً .

عن أبي الحُوَيْرِث قالَ : أوَّلُ مَنْ قُتلَ يَومَ أجْنادينَ بِطْريقٌ ، بَرزَ يَدعُو إلى البِرازِ ، فبَرَزَ إليه عبدُ الله بنُ الزُّبَير بنُ عبدِ الْمُطَّلِب ، فاخْتَلفَا ضَرَباتٍ ، ثم قَتَلَه عبدُ الله ، ثم بَرَزَ آخَرُ ، فضَربَه عبدُ الله علىٰ عاتِقِه وقالَ : خُذْها وأنا ابنُ عبدِ الْمُطَّلِب ، فأثْبَتَه ، وقَطعَ سَيفُه الدِّرعَ ، وأشْرعَ في مِنْكَبِه ، ثم وَلَّى الرُّومي مُنْهَزِماً .

وعَزمَ عليه عَمرُو بنُ العاصِ أنْ لا يُبارِزَ ، فقالَ : لا أصْبِرُ ، فلمَّا اخْتلطَت السُّيوفُ ، وُجدَ في رِبضَة من الرُّوم عَشرةٍ مَقْتُولاً ، وهم حَولَه ، وقائمُ السَّيفِ في يَدِه قد غَرِيَ[2] ، وإنَّ في وَجهِه لثَلاثينَ ضَربَةً .

وأجْنادينُ كانت سَنةَ ثَلاثَ عَشرة[3] .

وقالَ أبو عِمْرانَ الجَوْني : قيلَ لعامِرِ بنِ عبدِ قَيْس : إنَّك تَبيتُ خارجاً ، أمَا تَخافُ الأسَدَ ؟ قالَ : إنِّي لأسْتَحي من رَبِّي أنْ أخافَ شَيئاً دُونَه وهَبطَ وَادياً به عابدٌ حَبَشيٌّ ، فانْفَردَ يُصلِّي في ناحية ، والحَبَشيُّ في ناحيَة أرْبَعينَ يَوماً لا يَجتمعان إلاَّ في فَريضَة[4] .

وقالَ جَعْفَرُ بنُ سُليمانَ : كانَ الحَسَنُ البَصْريُّ من أشَدِّ النَّاسِ ، وكانَ الْمُهَلَّب إذا قاتَلَ الْمُشركينَ يُقدِّمُه[5] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر بنُ عبد الْمُطَّلِب) ٣/ ٣٨١ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٣٩٨/ ١ .
(٢) غَرِيَ : أي لَزِقَ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر بنُ عبد الْمُطَّلِب) ٣/ ٣٨١ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٣٩٨/ ٢ .
(٤) انظر السير : (عامِر بن عبد قَيْس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٤٣٤/ ١ .
(٥) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريُّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٥٦١/ ٧ .

جاءَ في تَرْجَمَةِ أحمَدَ بنِ إسْحاقَ السُّرْماريِّ قال الإمامُ الذهَبيُّ : الإمامُ الزَّاهِدُ ، العَابِدُ المُجَاهِدُ ، فارِسُ الإسْلام أبو إسْحاقَ ، من أهْلِ سُرْماري ، من قُرىٰ بُخَارَىٰ وكان أَحَدَ الثِّقاتِ ، وبشَجَاعَتِه يُضْرَبُ المَثَلُ[1] .

وقال إبراهيمُ بنُ عَفَّانَ البَزَّار : كُنتُ عندَ أبي عبدِ الله البُخَاريّ فجَرَىٰ ذِكرُ أبي إسْحَاقَ السُّرْماريّ ، فقال : ما نَعْلَمُ في الإسْلام مِثْلَه فخَرَجْتُ فإذا أُحَيْدُ رَئيسُ المُطَّوِّعَة ، فأخْبَرتُه ، فغَضِبَ ودَخَلَ على البُخَاريّ ، وسَأَلَه فقال ما كذا قُلتُ ، بل : ما بَلَغَنَا أنَّه كان في الإسْلامِ ولا في الجَاهِلِيَّةِ مِثلُه .

وقال ابنُه أبو صَفْوَانُ : دَخَلتُ علىٰ أبي يوماً ، وهو يَأكُلُ وحْدَه فرَأَيْتُ في مائِدَتِه عُصْفُوراً يأكُلُ معَه ، فلمَّا رَآنِي طَارَ[2] .

وعن أحمَدَ بنِ إسْحاقَ قال : يَنْبَغِي لقائِدِ الغُزَاةِ أنْ يكونَ فِيه عَشْرُ خِصالٍ : أنْ يكونَ في قَلبِ الأَسَدِ لا يَجْبُن ، وفي كِبْرِ النَمِر لا يَتَوَاضَع ، وفي شَجَاعَةِ الذِّئبِ يَقْتُلُ بجَوَارِحِهِ كُلِّها ، وفي حَمْلَةِ الخِنْزِيرِ لا يُوَلِّي دُبُرَه ، وفي غارَةِ الذِّئْبِ إذا أَيِسَ من وَجْهٍ أَغَارَ من وَجْه ، وفي حَمْلِ السِّلاح كالنَّملَةِ تَحْمِلُ أكْثَرَ من وَزْنِها ، وفي الثَّبَاتِ كالصَّخْرِ ، وفي الصَّبرِ كالحِمارِ ، وفي الوَقَاحَةِ كالكَلْبِ لو دَخَلَ صَيْدُه النَّارَ لدَخَلَ خَلفَه ، وفي التِماسِ الفُرصَةِ كالدِّيك .

وكانَ إبراهيمُ بنُ شِمَاسٍ يقولُ : كُنتُ أُكاتِبُ أحمَدَ بنَ إسْحاقَ السُّرْمَاريّ ، فكَتَبَ إليَّ : إذا أرَدْتَ الخُرُوجَ إلىٰ بلادِ الغُزَيّة في شِراءِ الأَسْرَىٰ ، فاكْتُبْ إليَّ فكَتَبتُ إليه ، فقَدِمَ سَمَرْقَنْدَ ، فخَرَجْنَا ، فلمَّا عَلِمَ جَعْبَوَيْه ، استَقْبَلَنا في عِدَّةٍ من جُيُوشِه ، فأَقَمْنا عِندَه ، فعَرَضَ يوماً جَيْشَه ، فمرَّ رجلٌ فعَظَّمَه وخَلَعَ عليه ، فسَأَلَنِي عنه السُّرْمارِيّ فقُلتُ : هٰذا رجلٌ مُبارِزٌ ، يُعَدُّ بألفِ فارسٍ قال : أنا أُبارِزُه فسَكَتُّ فقال جَعْبَوَيْه : ما يقولُ هٰذا ؟ قُلتُ يقولُ : كَذَا وكَذَا قال : لَعَلَّه سَكْرانٌ لا يَشْعُر ، ولكن غَداً نَركَبُ فلمَّا كان الغَدُ رَكِبُوا ، فرَكِبَ السُّرْمارِيُّ معَه عَمُودٌ في كُمِّه فقامَ بإزاء المُبارِز فقَصَدَه ،

---

(١) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٨ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٩ .

فهَرَبَ أحمَدُ حتّىٰ باعَدَهُ من الجَيْشِ ، ثمَّ كَرَّ وضَرَبَه بالعَمُودِ فقتَلَه ، وتَبِعَ إبراهيمَ بنَ شِمَاسٍ ، لأنَّه كان قد سَبَقَه فلَحِقَه ، وعَلِمَ جَعْبَوَيْه ، فجَهَّزَ في طلبه خمسِينَ فارساً نَقَاوةً ، فأدْرَكُوه ، فثَبُتَ تحتَ تَلٍّ مُخْتَفِياً حتّىٰ مَرُّوا كُلُّهم واحِداً بعدَ واحِد ، وجَعَلَ يَضْرِبُ بعَمُودِه من ورَاءِهم إلىٰ أنْ قَتَلَ تسْعَةً وأربعِينَ ، وأَمْسَكَ واحِداً ، قَطَعَ أنْفَه وأُذُنَيْه ، وأَطْلَقَه ليُخْبِر ، ثمَّ بعدَ عامَيْن تُوُفِّي أحمدُ ، وذَهَبَ ابنُ شِمَاسٍ في الفِداءِ ، فقال له جَعْبَوَيْه : مَنْ ذَاكَ الذي قَتَلَ فُرسانَنا ؟ قال : ذاكَ أحمدُ السُّرْماريّ قال : فلِمَ لَمْ تَحْمِلْه مَعَكَ ؟ قُلتُ : تُوُفِّيَ ، فَصَكَّ في وَجْهِي ، وقال : لَوْ أَعْلَمْتَنِي أنَّه هو لكُنتُ أُعْطِيهِ خَمْسُ مئةِ بِرْذَوْن[1] وعَشْرَةَ آلافِ شاة .

وعن عِمْرانِ بنِ مُحمَّد المطَّوعيّ : سَمعتُ أبي يقولُ : كان عَمُودُ المطَّوِّعيِّ السُّرْماريّ وزْنُه ثمانِيَةَ عَشْرَةَ مَنّاً[2] ، فلمَّا شَاخَ جَعَلَه اثنَيْ عَشْرَ مَنّاً ، وكان به يُقاتِلُ[3] .

وعن عُبيد الله بنِ واصل ، سَمعتُ أحمدَ السُّرْماريَّ يقولُ ، وأخرجَ سَيْفَه ، فقال : أعلَمُ يَقيناً أنِّي قَتلتُ به ألفَ تُركيّ ، وإنْ عِشْتُ قَتلتُ به ألفاً أخْرىٰ ، ولولا خَوْفي أن يكونَ بدعةً لأمَرتُ أن يُدفَن معي .

وعن محمودِ ابنِ سَهْل الكاتب ، قال : كانوا في بعض الحروب يحاصِرون مكاناً ، ورئيسُ العدوِّ قاعدٌ علىٰ صُفَّة[4] ، فرمى السُّرماريُّ سَهْماً ، فغرزَه في الصُّفَّة ، فأوْمأ الرئيسُ لينزعه ، فرماه بسَهمٍ آخر خاطَ يدَه ، فتطاوَلَ الكافرُ لينزعَه من يده ، فرماه بسَهمٍ ثالثٍ في نَحرِه ، فانهزَمَ العَدوُّ ، وكان الفتح .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أخبارُ هـٰذا الغازي تسُرُّ قلبَ المسلم .

---

(١) البِرْذَوْن : ضرب من الدواب ، يخالف الخيل العراب ، عظيم الخِلقَة ، غليظ الأعضاء .
(٢) المَنّ : زِنَة رطلين .
(٣) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٩ .
(٤) الصُفَّة : الظُّلة ، والبَهو الواسع العالي السقف .

تُوفِّي في سنة اثنتين وأربعين ومئتين ، رحمَه الله تعالىٰ ، فإنه كان مع فَرْط شجاعته من العلماء العاملين العُبَّاد[1] .

وقال ابنُه أبو صَفْوَان : وَهَبَ المَأمونُ لأبي ثلاثينَ ألفاً ، وعَشرةَ أفْراسٍ وجارِيَةً ، فلمْ يَقبَلْها[2] .

وعن خَفيفٍ السَّمَرْقَنديِّ : قالَ : خَرجتُ مع الْمُعْتَضِدِ بالله للصَّيدِ ، وانقَطعَ عنه العَسكَرُ فخَرجَ علينا الأسَدُ ، فقالَ : يا خَفيفُ! أمْسِكْ فَرَسي ونَزلَ ، فتَحزَّمَ ، وسَلَّ سَيفَه ، وقَصدَ الأسَدَ ، فقَصَدَه الأسَدُ ، فتَلقَّاهُ الْمُعْتَضِدُ ، فقَطعَ يَدَه ، فتَشاغَلَ بها الأسَدُ ، فضَربَه فَلقَ هامَتَه ، ومَسحَ سَيفَه في صُوفِه ، ورَكِبَ ، وصَحبتُه إلىٰ أنْ ماتَ ، فمَا سَمعتُه يَذكُرُ الأسَدَ ، لِقلَّة احْتِفالِه بِه .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ في الْمُعْتَضِدِ حِرْصٌ ، وجَمْعٌ للمَالِ ، حارَبَ الزُّنجَ ، وله مَواقفُ مَشهودَةٌ ، وفي دَولَتِه سَكنَت الفِتَنُ ، وكانَ فَتاهُ بَدْر علىٰ شَرطَتِه ، وعُبَيدُ الله بنُ سُليمانَ علىٰ وَزارَتِه ، ومحمَّدُ بنُ شَاه علىٰ حَرَسِه ، وأسْقطَ الْمَكْسَ ، ونَشرَ العَدلَ ، وقَلَّلَ من الظُّلمِ ، وكانَ يُسمَّى السَّفَّاحَ الثاني ، أحْيَا رَميمَ الخِلافَة التي ضَعُفَت من مَقْتَل الْمُتَوَكل ، وأنْشَأ قَصْراً غَرمَ عليه أرْبَع مئة ألفِ دِينارٍ ، وكانَ مِزاجُه قد تَغيَّرَ من فَرْط الجِمَاع وعَدَم الحِمْيَة .

وكانَ أبو العَبَّاس الْمُعْتَضِدُ شَهْماً ، جَلداً ، رَجُلاً بازلاً ، مَوْصُوفاً بالرُّجْلَة والجَزالَة ، قد لَقيَ الحُروبَ ، وعُرفَ فَضلُه ، فقامَ بالأمْرِ أحْسَنَ قيام ، وهابَه النَّاسُ ورَهبُوه ، ثم عَقدَ له الْمُعْتَمِدُ مَكانَ الْمُوَفَّق ، وجَعلَ أوْلادَه تَحتَ يدِه ، ثم إنَّ الْمُعْتَمِدَ جَلسَ مَجلساً عامّاً ، أشْهَدَ فيه علىٰ نَفسِه بخَلع وَلَدِه الْمُفَوِّض إلى الله جَعْفَرَ من وِلايَة عَهدِه ، وإفْرادِ أبي العَبَّاس بالعَهْد في الْمُحَرَّم[3] .

وقالَ الحاكِمُ : سَمعتُ محمَّدَ بنَ صالِح بنِ هانىء يَقولُ : لَمَّا قُتلَ يَحْيَىٰ بنُ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٠ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن إسحاق) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٥٠ .

(٣) انظر السير : (الْمُعْتَضِدُ بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٤ .

الذُّهْليِّ ، مُنعَ النَّاسُ من حُضور مَجالِسِ الحَديثِ من جهَة أحمدَ الخُجُستاني فلَمْ يَجْسِر أحَدٌ يَحملُ مِحْبَرَةً إلىٰ أنْ وَردَ السَّريُّ بنُ خُزَيمَة ، فقامَ الزَّاهِدُ أبو عُثْمانَ الحِيري ، وجَمعَ الْمُحدِّثينَ في مَسجِدِه ، وعَلَّقَ بيَدِه مِحْبَرَةً وتَقدَّمَهم إلىٰ أنْ جاءَ خان محمش ، فأخْرَجَ السَّريَّ وأجْلسَ الْمُسْتَملي ، فحَزَرْنا مَجلِسَه زيادَة علىٰ ألفِ مِحْبَرَةً ، فلمَّا فَرغَ قاموا وقَبَّلوا رَأسَ أبي عُثْمانَ ونَثَرَ النَّاسُ عليهم الدَّراهمَ والسُّكَّرَ سَنةَ ثَلاثٍ وسَبعينَ ومئتَين[1] .

وكانَ أميرُ الْمؤمنينَ العَبَّاسيُّ الرَّاشِدُ بالله أبيضَ مَليحاً ، تامَّ الشَّكلِ ، شَديدَ الأيْدِ ، يُقالُ : إنَّه كانَ بدَارِ الخِلافَة أيْلٌ عَظيمٌ اعْترَضَه في البُسْتانِ ، فأحْجَمَ الخَدمُ ، فهَجَمَ على الأيْلِ ، وأمْسَكَ بقَرْنَيهِ ورَمَاهُ ، وطَلبَ مِنْشاراً ، فقَطعَ قَرْنَيه[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ محمدِ بن سَعْد : ابنُ محمَّدُ بنُ مَرْدَنيش الجُذاميُّ الأنْدَلُسيُّ ، الْمَلكُ أبو عبدِ الله صاحِب مُرْسِيَةَ وبَلَنْسِيَةَ[3] .

كان صِهْراً للمَلِكِ المُجاهِدِ الوَرِعِ أبي مُحمّد عبد الله بنِ عياض فلمَّا تُوفِيَ ابنُ عِياض ، اتَّفَقَ رأيُ أجْنادِه علىٰ تَقْديمِ ابن مَرْدنيش هٰذا عليهم ، وكان صَغيرَ السِّنِّ شاباً ، لَكنَّه كان مِمَّن يُضْرَبُ بشَجاعَتِه المَثلُ وابْتُلي بجَيشِ عبدِ المُؤمن يُحارِبُونَه ، فاضْطَرَّ إلى الاسْتِعَانَة بالفِرَنْجِ فلمَّا تُوُفِّي الخَليفَةُ عبدُ المُؤمن تَمَكَّنَ ابنُ مَرْدنيش ، وقَوِيَ سُلطانُه وجَرَتْ له حُروبٌ وخُطُوبٌ .

ذَكَرَهُ اليَسَعُ في « تاريخِه » وقال : نازَلَتِ الرُّومُ المَرِيَّةَ عندَ عِلمِهم بِمَوتِ ابنِ عِياض ، ولِكَونِ ابنِ مَرْدنيش شَاباً ، لَكنَّه عِندَهُ من الإقْدام ما لا يُوجَدُ في أحَدٍ حتىٰ أضَرَّ به في مَواضِعَ شاهَدْناها معه ، والرَّأيُ قبلَ الشَّجاعَةِ ، وإلاَّ فهُو في القُوَّةِ والشَّجاعَة في مَحلٍّ لا يَتمكَّنُ منه أحَدٌ في عَصْرِه ، ما اسْتَتَمَّ خَمسَةَ عَشَرَ عَاماً حتىٰ ظَهَرتْ شَجاعَتُه ، فإنَّ العَدُوَّ نازَلَ إفراغة ، فقَرُبَ فارِسٌ منهُم إلى السُّورِ ، فخَرَجَ

---

(١) انظر السير : (أبو عُثْمان الحِيري) ١٤/ ٦٢ـ ٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٣١ .

(٢) انظر السير : (الرَّاشِدُ بالله) ١٩/ ٥٦٨ـ ٥٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٥١٦ .

(٣) انظر السير : (محمد بن سعد) ٢٩/ ٢٤٠ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٤٨ .

مُحمّدٌ ، وأبُوهُ سَعدٌ لا يَعرِفُ ، فالْتَقَيَا علىٰ حافَّةِ النَّهْرِ ، فضَرَبَهُ مُحمّدٌ ألقَاهُ مع حِصانِهِ في المَاءِ ، فلمَّا كان الغَدُ طَلَبَ فارِسٌ من الرُّومِ مُبارَزَتَه ، وقال : أيْنَ قاتلُ فارِسِنا بالأمْسِ ؟ فامْتَنَعَ والِدُه من إخْراجِه له ، فلمَّا كان وَقتُ القَائِلَة وقد نَامَ أبُوهُ رَكِبَ حِصانَه ، وخَرَجَ حتّىٰ وَصَلَ إلىٰ خِيامِ العَدُوِّ ، فقِيلَ للمَلِك : هـٰذا ابنُ سَعد فأحْضَرَهُ مَجْلِسَه ، وأكْرَمَه وقال : ما تُريدُ ؟ قال : مَنَعَنِي أبي من المُبارَزَةِ ، فأيْنَ الذي يُبارِزُ ؟ فقال : لا تَعْصِ أبَاكَ فقالَ : لا بُدَّ فحَضَرَ المُبارِزُ فالْتَقَيَا ، فضَرَبَ العِلْجُ مُحمَّداً في طارِقَتِه ، وضَرَبَ هو العِلْجَ ألْقاهُ ثمَّ أوْمَأَ إليه بالرُّمْحِ ليَقْتُلَه ، فحالَتِ الرُّومُ بينَهُما ، وأعْطاهُ المَلِكُ جائِزَةً .

ومن شَجاعَتِه يَومَ نِوَلَةَ[1] : كانَ في مئة فارِس ، والرُّومُ في ألفٍ فحَملَ بنَفسِه ، فاجْتَمعَت فيه أكثرُ من عِشْرينَ رُمحاً ، فمَا قَلبوهُ ، ولَوْلا حَصَانَةُ عُدَّتِه لَهَلكَ ، فكَشفَ عنه أصْحابُه ، وانْهزَمَ الرُّومُ ، فاتَّبَعَهم من الظُّهرِ إلى اللَّيلِ ، ثم هادَنَ الرُّومَ عَشرَ سِنين .

قالَ : ولَمْ تزَلِ الأيَّامُ تَخدمُه ، وقد اهتمَّ بجَمع الصُّنَّاعِ لآلاتِ الحُروب وللبِناءِ والتَّرْخيم ، واشْتَغلَ ببِناءِ القُصُورِ العَجيبَة والنُّزَه والبَساتين العَظيمَة ، وصَاهَرَ الرَّئيسَ القائدَ أبا إسْحاقَ بنَ هَمُشْك[2] .

وقالَ سِبطُ الجَوْزيِّ : كانَ الشَّيخُ اليُونينيُّ شُجاعاً ما يُبالي بالرِّجالِ قَلُّوا أو كَثُروا وكانَ قَوْسُه ثَمانينَ رَطلاً ، وما فاتَته غَزاةٌ[3] .

٢ـ أبْطَالُ الإسْلام :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ سَيفِ الله خالِدِ بنِ الوَليد : هاجرَ مُسلِماً في صَفَرَ سَنةَ ثَمانٍ ، ثم سَارَ غَازياً ، فشَهِدَ غَزوَةَ مُؤْتَة ، واسْتُشهِدَ أُمَراءُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، الثَّلاثةُ : مَوْلاهُ زَيدٌ ، وابنُ عَمِّه جَعْفَر ذو الجَناحَيْن ، وابنُ رَوَاحَة ، وبَقِيَ

---

(١) بكسر أوله وفتح ثانيه : حِصنٌ من أعمال مَرْسيَة بالأنْدلُس

(٢) انظر السير : (محمد بن سعد) ٢٩/ ٢٤٠ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٨ .

(٣) انظر السير : (اليُونيني) ٢٢/ ١٠١ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٦٩ .

الجَيشُ بلا أميرٍ ، فتَأمَّرَ عَليهم في الحالِ خَالدٌ ، وأخَذَ الرَّايَةَ ، وحَملَ على العَدوِّ ، فكانَ النَّصْرُ ، وسَمَّاهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، سَيفَ الله ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ خَالِداً سَيْفٌ سَلَّهُ اللهُ عَلَى الْمُشْرِكينَ » وشَهدَ الفَتحَ وحُنَيناً ، وتَأمَّرَ في أيَّامِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، واحْتَبسَ أدْراعَه ولأمَتَه في سَبيلِ الله ، وحارَبَ أهْلَ الرِّدَّة ، ومُسَيْلِمَةَ ، وغَزَا العِراقَ ، واسْتَظهَرَ ، ثم اخْتَرقَ البَرِيَّةَ السَّماويَّة بحَيثُ إنَّه قَطعَ الْمَفازَةَ من حَدِّ العِراقِ إلىٰ أوَّلِ الشَّام في خَمسِ لَيالٍ في عَسْكَرٍ معه ، وشَهدَ حُروبَ الشَّامِ ، ولَمْ يَبْقَ في جَسَدِه قَيدَ شِبرٍ إلاَّ وعليه طابَعُ الشُّهَداء[1] .

عن أنَسٍ قالَ : لَمَّا كانَ يَومُ أُحُد ، انْهَزمَ نَاسٌ عن رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو طَلْحَةَ بينَ يَدَيه ، مُجَوِّباً عَليه بحَجَفَة[2] ، وكانَ رَامياً شَديدَ النَّزْعِ ، كَسرَ يَومَئذ قَوْسَين أو ثَلاثَة وكانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعه الجُعْبَة من النَّبْلِ ، فيَقُولُ صلى الله عليه وسلم : « انْثُرْهَا لأبي طَلْحَة » ثم يُشْرِفُ إلى القَومِ ، فيَقُولُ أبو طَلْحَة : يا نَبيَّ الله ، بأبي أنْتَ ، لا تُشْرِفْ ، لا يُصيبُكَ سَهمٌ ، نَحْري دُونَ نَحْرِك .

قالَ : فلَقد رَأيتُ عائشَةَ وأمَّ سُلَيم وإنَّهما لَمُشَمِّراتٍ ، أرَىٰ خَدَمَ سُوقِهما[3] ، تَنْقُزان القِرَبُ علىٰ مُتونِهما[4] ، وتُفْرِغانِها في أفْوَاهِ القَوْمِ ، وتَرْجِعَان ، فتَمْلآنِها فلقد وَقَعَ السَّيفُ من يَدِ أبي طَلْحَةَ مرَّتَين أو ثَلاثاً من النُّعَاسِ[5] .

وقالَ أنَسٌ : كانَ أبو طَلْحَة أكثَرَ أنْصَاريٍّ بالْمَدينَة مالاً من نَخْلٍ ، فقالَ : يا رَسُولَ الله ، إنَّ أحَبَّ أمْوَالي إليَّ بَيْرُحَاءَ ، وإنَّها صَدقَةٌ لله ، أرجُو بِرَّها وذُخْرَها ، فضَعْها يا رَسُولَ الله حَيثُ أرَاكَ الله ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « بَخٍ! ذَلِكَ مَالٌ

---

(١) انظر السير : (خالِدُ بنُ الوَليد) ١/٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٧٨ .
(٢) الحَجَفَة : التُّرْس ومُجَوِّباً عليه : أي مُتَرِّساً عليه .
(٣) خَدَم سُوقِهما : أي الخلاخيل ، جمع خَدمَة .
(٤) تَنقُزان : أي تَثبان ، والنَّقْزُ : الوَثبُ كناية عن سُرعة السير ، وجملة « القِرَبُ علىٰ مُتونِها » في موضع نصب على الحال .
(٥) انظر السير : (أبو طَلْحَة الأنْصاريّ) ٢/٢٧ـ ٣٤ ، وانظر النزهة : ٧/٢١٣ .

رَابِحٌ ، وَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا في الأَقْرَبِينَ »[1] .

عن أَنَسٍ : أَنَّ أبا طَلْحَةَ قَرَأَ : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[2] فقال : اسْتَنْفَرَنا اللهُ وأَمَرَنَا ، شُيُوخَنا وشَبابَنا ، جَهِّزُونِي فقال بَنُوهُ : يَرحَمُكَ الله! إنَّكَ قد غَزَوْتَ علىٰ عَهْدِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بَكرٍ رضي الله عنه ، وعُمَرَ رضي الله عنه ، ونَحنُ نَغزُو عَنكَ الآن قال : فغَزَا البَحرَ ، فمَاتَ ، فلَمْ يَجِدُوا له جَزِيرَةً يَدفِنُونَهُ فيها ، إلاَّ بعدَ سَبعَةِ أيَّامٍ ، فلَمْ يَتَغَيَّر[3] .

عن أبي قَتَادَةَ الأنْصاريِّ ، قال : خَرَجْنا مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم عامَ حُنَين ، فلمَّا الْتَقَيْنا ، رَأيتُ رَجُلاً قد عَلا المُسلمينَ ، فاسْتَدَرْتُ له من وَرَائِه ، فضَرَبْتُه بالسَّيفِ علىٰ حَبْلِ عاتِقِه[4] ضَربةً قَطَعَتْ منها الدِّرْعَ ، فأقبَلَ عليَّ وضَمَّنِي ضَمَّةً وجَدْتُ منها رِيحَ المَوتِ ، ثم أرْسَلَنِي ، وماتَ إلىٰ أنْ قالَ : فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً لَهُ بَيِّنَةٌ فلَهُ سَلَبُهُ » ، فقُمتُ ، فقلتُ : مَنْ يَشْهدُ لِي ؟ وقَصَصْتُ عليه ، فقالَ رجُلٌ : صَدَقَ يا رسُولَ الله ، وسَلَبُ ذلك القَتِيل عِنْدِي فأَرْضِهِ منه فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه : لا ها الله[5] ، إذاً لا يَعْمِدُ إلىٰ أَسَدٍ من أُسْدِ الله يُقَاتِلُ عن اللهِ ورسُولِه صلى الله عليه وسلم فيُعْطِيكَ سَلَبَه! فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « صَدَق » فأعْطانِيه ، فبِعْتُ الدِّرعَ ، وابْتَعتُ به مَخْرَفاً[6] في بَنِي سَلَمَة ، فإنَّه لأَوَّلُ مالٍ تَأَثَّلْتُه[7] في الإسْلام[8] .

وقالَ عكرمةُ بنُ عمَّار : حدَّثني عبدُ الله بنُ عُبَيد بنِ عُمَير : أنَّ عُمَرَ بَعثَ أبا قَتادَة

---

(١) انظر السير : (أبو طَلْحَة الأنْصاريّ) ٢/ ٢٧ـ ٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢١٤ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ٤١ .
(٣) انظر السير : (أبو طَلْحَة الأنْصاريّ) ٢/ ٢٧ـ ٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤١٢ .
(٤) « علىٰ حَبل عاتِقه » : حبلُ العاتِق : عصبه ، والعاتق : موضع الرداء من المنكب .
(٥) لا ها الله : أي لا والله ، فالهاء هنا بمنزلة الواو .
(٦) المخرف : البستان ، وسُمِّي بذلك لأنه يُخترف منه الثمر ، أي : يُجْتَنَىٰ .
(٧) تأثَّلتُه : أي اقتنيته .
(٨) انظر السير : (أبو قَتادَة الأنْصاريّ السلمي) ٢/ ٤٤٩ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٨٢ .

الأنْصاريّ ، فقَتلَ مَلكَ فارِس بيَدِه ، وعَليه مِنْطَقَة قيمَتُها خَمسةَ عَشرَ ألفاً ، فنَفَلها إيَّاهُ عُمَرُ .

ماتَ أبو قَتادَة سَنةَ أرْبَع وخَمسين[1] .

قال ابنُ الزُّبَيْر : هَجمَ عَلينا جُرْجيرُ في عِشرينَ ومئةِ ألْفٍ ، فأحاطُوا بنا ونَحنُ في عِشرينَ ألفاً ـ يَعني : نَوبَةَ إفْريقية .

قالَ : واخْتَلفَ النَّاسُ على ابنِ أبي سَرْح ، فدَخَلَ فُسْطاطَه ، فرَأيتُ غِرَّةً من جُرْجيرَ ، بَصُرْتُ به خَلفَ عَساكِره علىٰ بِرْذَوْنٍ أشْهَب ، مَعه جاريتان تُظَلِّلانِ عليه بِريشِ الطَّواويسِ ، بينَه وبينَ جَيشِه أرْضٌ بَيْضاء ، فأتَيتُ أميرَنا ابنَ أبي سَرْح ، فنَدَبَ ليَ النَّاسَ ، فاخْتَرتُ ثَلاثينَ فارِساً ، وقُلتُ لسَائرِهم : الْبَثوا علىٰ مَصافِّكُم ، وحَمَلتُ : وقُلتُ لهم : احْمُوا ظَهْري ، فخَرَقْتُ الصَّفَّ إلىٰ جُرْجيرَ وخَرجتُ صامِداً ، وما يَحْسِبُ هو ولا أصْحابُه إلاَّ أنِّي رَسُولٌ إليه ، حتَّىٰ دَنَوْتُ منه فعَرَفَ الشَّرَّ فثابَرَ بِرْذَوْنَه مُوَلِّياً ، فأدْرَكتُه ، فطَعَنتُه ، فسَقطَ ، ثم احْتَزَزتُ رَأسَه فنَصَبتُه علىٰ رُمْحي ، وكَبَّرتُ وحَملَ الْمُسلمونَ ، فارْفَضَّ العدوُّ ومَنحَ اللهُ أكْتافَهُم[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْر بنِ عبدِ الْمُطَّلِبِ : الهَاشِميُّ ، ابنُ عَمِّ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأمُّه عاتِكَةُ بنتُ أبي وَهْب الْمَخْزوميَّة ، من مُسْلِمَةِ الفَتْح[3] .

لا نَعلَمُ له رِوايَة كانَ مَوْصُوفاً بالشَّجاعَة والفُروسيَّة .

ولَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم كانَ لهَـٰذا نَحو من ثَلاثينَ سَنةً .

عن أبي الحُوَيْرث قالَ : أوَّلُ مَنْ قُتلَ يَومَ أجْنادينَ بِطْريقٌ ، بَرزَ يَدعُو إلى البِرازِ ، فبَرَزَ إليه عبدُ الله بنُ الزُّبَير بنُ عبدِ الْمُطَّلِب ، فاخْتَلفَا ضَرَباتٍ ، ثم قَتَلَه عبدُ الله ، ثم بَرَزَ آخَرُ ، فضَربَه عبدُ الله علىٰ عاتِقِه وقالَ : خُذْها وأنا ابنُ عبدِ الْمُطَّلِب ، فأثْبَتَه ،

---

(١) انظر السير : (أبو قَتادَة الأنْصاريّ السلمي) ٢/ ٤٤٩ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ١/٢٩٠ .

(٢) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر) ٣/ ٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٦/٣٩٥ .

(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر بنُ عبد الْمُطَّلِب) ٣/ ٣٨١ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ١/٣٩٨ .

وقَطعَ سَيفُه الدِّرعَ ، وأشْرعَ في مِنْكَبِه ، ثم وَلَّى الرُّومي مُنْهَزِماً .

وعَزمَ عليه عَمرُو بنُ العاصِ أنْ لا يُبارِزَ ، فقالَ : لا أصْبِرُ ، فلمَّا اخْتلطَت السُّيوفُ ، وُجدَ في رِبضَة من الرُّوم عَشرةٍ مَقْتُولاً ، وهم حَولَه ، وقائمُ السَّيفِ في يَدِه قد غَرِيَ[1] ، وإنَّ في وَجهِه لثَلاثينَ ضَربَةً .

وأجْنادينُ كانت سَنةَ ثَلاثَ عَشرة[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ البطال : رَأسُ الشُّجْعانِ والأبْطالِ أبو محمَّد عبدُ الله البطال ، وقيلَ : أبو يَحْيَىٰ ، من أعيانِ أُمَراءِ الشَّاميِّين[3] .

وكانَ شَاليشَ الأميرِ مَسْلَمَةَ بنِ عبدِ الْمَلِك ، وكانَ مَقرُّه بأنْطَاكيَة ، أوْطَأ الرُّومَ خَوْفاً وذُلاًّ ولكن كُذِبَ عليه أشْياءُ مُستَحيلَة في سِيرَتِه الْمَوضوعَة[4] .

وعن عبدِ الْمَلِك بنِ مَرْوانَ أنَّه أوْصَىٰ مَسْلَمَةَ أنْ صَيِّرْ علىٰ طَلائعِكَ البطال ومُرهُ فليَعُسَّ باللَّيلِ ، فإنَّه أميرٌ شُجاعٌ مِقْدامٌ .

وقالَ رَجلٌ : عَقَدَ مَسْلَمَةُ للبطالِ علىٰ عَشرةِ آلاف ، وجعلهم يَزْكاً[5] . ،[6] .

عن البطال ، قالَ : اتَّفقَ لي أنَّا أتَينا قَريةً لنُغِيرَ ، فإذا بيتٌ فيه سِراجٌ وصَغيرٌ يَبكي ، فقالت أمُّه : اسْكُتْ ، أو لأدْفَعَنَّك إلى البطالِ فبَكَىٰ فأخَذَتْه من سَريرِه ، وقالت : خُذْهُ يا بطالُ فقلتُ : هاتِه[7] .

وجَرَت له أعَاجيبُ وفي الآخِر أصْبحَ في مَعرَكةٍ مَثْخُوناً وبه رَمَقٌ فجاءَ الْمَلكُ لِيُونْ ، فقالَ أبا يَحْيَىٰ : كيفَ رَأيتَ ؟ قالَ : وما رَأيتُ ؟ كذلكَ الأبْطالُ تَقتُلُ وتُقتَلُ ، فقالَ : عليَّ بالأطبَّاء ، فأتَوا فوَجَدُوه قد أنفذَت مَقاتِلُه ، فقالَ : هلْ لكَ حاجَةٌ ؟

---

(١) غَرِيَ : أي لَزِقَ .
(٢) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر بنُ عبد الْمُطَّلِب) ٣/ ٣٨١ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٣٩٨/ ٢ .
(٣) انظر السير : (البطال) ٥/ ٢٦٨ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٦٠٠/ ٦ .
(٤) انظر السير : (البطال) ٥/ ٢٦٨ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٦٠٠/ ٧ .
(٥) اليَزْك : طلائع الجَيش ، والكلمة فارسية .
(٦) انظر السير : (البطال) ٥/ ٢٦٨ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٦٠٠/ ٨ .
(٧) انظر السير : (البطال) ٥/ ٢٦٨ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٦٠١/ ١ .

قالَ : تَأمُرُ مَنْ يَثبتُ معي بوِلايَتي وكَفَني والصَّلاةِ عليّ ثم تُطلِقُهم ، ففَعلَ .

قُتلَ سَنةَ اثنتَيْ عَشرَةَ ، وقيلَ : سَنةَ ثَلاثَ عَشرَةَ ومئَة[1] .

مَعْن بنُ زائدَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : أميرُ العَرَب ، أبو الوَليد الشَّيْبانيُّ ، أحدُ أبْطال الإسْلام ، وعَينُ الأجْواد[2] .

كان من أُمَراء مُتَوَلِّي العِراقَيْن[3] يَزيدُ بنُ عُمَر بنِ هُبَيرة ، فلمَّا تَملَّك آلُ العبَّاسِ اخْتَفىٰ مَعْنُ مُدَّة ، والطَّلبُ عليه حَثيثٌ ، فلمَّا كانَ يَومُ خُروجِ الرِّيوَنْديَّة[4] والخُراسانيَّة على الْمَنْصورِ ، وحَمِيَ القِتالُ ، وحارَ الْمَنْصورُ في أمْرِه ، ظَهَرَ مَعْنُ وقاتَلَ الرِّيوَنْديَّة ، فكانَ النَّصْرُ علىٰ يَدِه ، وهو مُقَنَّعٌ في الحَديدِ ، فقالَ الْمَنْصورُ : وَيْحَكَ مَنْ تَكونُ ؟ فكَشفَ لثَامَه وقالَ : أنا طِلْبَتُك مَعْنٌ فسُرَّ به ، وقَدَّمه وعَظَّمه ثم وَلاَّه اليَمنَ وغَيرَها[5] .

قالَ بَعضُهم : دَخلَ مَعنُ على الْمَنْصورِ فقالَ : كَبُرت سنُّك يا مَعْنُ قالَ : في طاعَتِك قالَ : إنَّك لتَتجلَّدُ قالَ : لأعْدائِكَ قالَ : وإنَّ فيكَ لبَقيَّة قال : هي لكَ يا أميرَ المؤمنين .

ولِمَعْن أخْبارٌ في السَّخاءِ ، وفي البَأسِ والشَّجاعَة ، ولَه نَظمٌ جَيِّدٌ .

ثم وَلِيَ سِجِسْتانَ ، فوَثَبت عليه خَوارِجُ وهو يَحْتَجِمُ ، فقَتلُوه ، فقَتلَهم ابنُ أخيه يَزيدُ بنُ مَزْيَد الأميرُ في سَنةِ اثنتَين وخَمسينَ ومئَة[6] .

---

(١) انظر السير : (البطال) ٥/ ٢٦٨ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٠١ .

(٢) انظر السير : (مَعْنُ بنُ زائدَة) ٧/ ٩٧ـ ٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٨٠ .

(٣) العِراقان : الكوفة والبصرة .

(٤) في الطبري : (٧/ ٥٠٥) الروانديه ، وهم قوم من أهل خراسان ، كانوا علىٰ رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم ، يقولون بتناسخ الأرواح ، ويزعمون أن روح آدم في عثمان بن نهيك ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية جبريل ، وكان خروجهم سنة ١٤١هـ .

(٥) انظر السير : (مَعْنُ بنُ زائدَة) ٧/ ٩٧ـ ٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٨٠ .

(٦) انظر السير : (مَعْنُ بنُ زائدَة) ٧/ ٩٧ـ ٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٨٠ .

أحْمَدُ بنُ إسْحاقَ السُّرْماريُّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الإمامُ الزَّاهِدُ ، العَابِدُ المُجَاهِدُ ، فارِسُ الإسْلامِ أبو إسْحاقَ ، من أهْلِ سُرْماري ، من قُرىٰ بُخَارَىٰ وكان أَحَدَ الثِّقاتِ ، وبشَجَاعَتِه يُضْرَبُ المَثَلُ[1] .

وقال إبراهيمُ بنُ عَفَّانَ البَزَّار : كُنتُ عندَ أبي عبدِ الله البُخَاريّ فجَرَىٰ ذِكرُ أبي إسْحَاقَ السُّرْماريّ ، فقال : ما نَعْلَمُ في الإسْلام مِثْلَه فخَرَجْتُ فإذا أُحَيْدُ رَئيسُ المُطَّوِّعَة ، فأخْبَرتُه ، فغَضِبَ ودَخَلَ على البُخَاريّ ، وسَأَلَه فقال : ما كذا قُلتُ ، بل : ما بَلَغَنَا أنَّه كان في الإسْلامِ ولا في الجَاهِلِيَّةِ مِثلُه .

وقال ابنُه أبو صَفْوَانُ : دَخَلتُ علىٰ أبي يوماً ، وهو يَأكُلُ وحْدَه فرَأَيْتُ في مائِدَتِه عُصْفُوراً يأكُلُ معَه ، فلمَّا رَآنِي طَارَ[2] .

وعن أحمَدَ بنِ إسْحاقَ قال : يَنْبَغِي لقائِدِ الغُزَاةِ أنْ يكونَ فِيه عَشْرُ خِصالٍ : أنْ يكونَ في قَلبِ الأَسَدِ لا يَجْبُن ، وفي كِبْرِ النَمِر لا يَتَوَاضَع ، وفي شَجَاعَةِ الذِّئْبِ يَقْتُلُ بجَوَارِحِهِ كُلِّها ، وفي حَمْلَةِ الخِنْزِيرِ لا يُوَلِّي دُبُرَه ، وفي غارَةِ الذِّئْبِ إذا أَيِسَ من وَجْهٍ أَغَارَ من وَجْه ، وفي حَمْلِ السِّلاح كالنَّملَةِ تَحْمِلُ أكْثَرَ من وَزْنِها ، وفي الثَّبَاتِ كالصَّخْرِ ، وفي الصَّبرِ كالحِمارِ ، وفي الوَقَاحَةِ كالكَلْبِ لو دَخَلَ صَيْدُه النَّارَ لدَخَلَ خَلفَه ، وفي التِماسِ الفُرصَةِ كالدِّيك .

وكانَ إبراهيمُ بنُ شِمَاسٍ يقولُ : كُنتُ أُكاتِبُ أحمَدَ بنَ إسْحاقَ السُّرْمَاريّ ، فكَتَبَ إليَّ : إذا أرَدْتَ الخُرُوجَ إلىٰ بلادِ الغُزَيّة في شِراءِ الأَسْرَىٰ ، فاكْتُبْ إليَّ فكَتَبتُ إليه ، فقَدِمَ سَمَرْقَنْدَ ، فخَرَجْنَا ، فلمَّا عَلِمَ جَعْبَوَيْه ، استَقْبَلَنا في عِدَّةٍ من جُيُوشِه ، فأَقَمْنا عِندَه ، فعَرَضَ يوماً جَيْشَه ، فمرَّ رجلٌ فعَظَّمَه وخَلَعَ عليه ، فسَأَلَنِي عنه السُّرْماريّ فقُلتُ : هـٰذا رجلٌ مُبارِزٌ ، يُعَدُّ بألفِ فارسٍ قال : أنا أُبارِزُه فسَكَتُّ فقال جَعْبَوَيْه :

---

(١) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٨ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٩ .

ما يقولُ هـٰذا ؟ قُلتُ يقولُ : كَذَا وكَذَا قال : لَعَلَّه سَكْرانٌ لا يَشْعُر ، ولكن غَداً نَركَبُ فلمَّا كان الغَدُ رَكِبُوا ، فرَكِبَ السُّرْماريُّ معَه عَمُودٌ في كُمِّه فقامَ بإزاء المُبارز فقَصَدَه ، فهَرَبَ أحمَدُ حتّىٰ باعَدَهُ من الجَيْشِ ، ثمَّ كَرَّ وضَرَبَه بالعَمُودِ فقَتَلَه ، وتَبِعَ إبراهيمَ بنَ شِمَاسٍ ، لأنَّه كان قد سَبَقَه فلَحِقَه ، وعَلِمَ جَعْبَوَيْه ، فجَهَّزَ في طلبه خمسِينَ فارساً نَقَاوةً ، فأدْرَكُوه ، فثَبُتَ تحتَ تَلٍ مُخْتَفِياً حتّىٰ مَرُّوا كُلُّهم واحِداً بعدَ واحِد ، وجَعَلَ يَضْرِبُ بعَمُودِه من ورَاءِهم إلىٰ أنْ قَتَلَ تسْعَةً وأربعِينَ ، وأَمْسَكَ واحِداً ، قَطَعَ أنْفَه وأُذُنَيْه ، وأَطْلَقَه ليُخْبِر ، ثمَّ بعدَ عامَيْن تُوُفِّي أحمدُ ، وذَهَبَ ابنُ شِمَاسٍ في الفِداءِ ، فقال له جَعْبَوَيْه : مَنْ ذَاكَ الذي قَتَلَ فُرسانَنا ؟ قال : ذاكَ أحمدُ السُّرْماريّ قال : فلِمَ لَمْ تَحْمِلْه مَعَكَ ؟ قُلتُ : تُوُفِّيَ ، فَصَكَّ في وَجْهِي ، وقال : لَوْ أَعْلَمْتَنِي أنَّه هو لكُنتُ أُعْطِيهِ خَمْسَ مئةِ بِرْذَوْن[1] وعَشْرَةَ آلافِ شاة .

وعن عِمْرانَ بنِ مُحمَّد المطَّوعيّ : سَمعتُ أبي يقولُ : كان عَمُودُ المطَّوِّعيِّ السُّرْماريّ وزْنُه ثمانِيَةَ عَشْرَةَ مَنّاً[2] ، فلمَّا شَاخَ جَعَلَه اثنَيْ عَشْرَ مَنّاً ، وكان به يُقاتِلُ[3] .

وعن عُبيد الله بنِ واصل ، سَمعتُ أحمدَ السُّرْماريَّ يقولُ ، وأخرجَ سَيْفَه ، فقال : أعلَمُ يَقيناً أنِّي قَتلتُ به ألفَ تُركيّ ، وإنْ عِشْتُ قَتلتُ به ألفاً أخْرىٰ ، ولولا خَوْفي أن يكونَ بدعةً لأمَرتُ أن يُدفَن معي .

وعن محمودِ ابنِ سَهْل الكاتب ، قال : كانوا في بعض الحروب يحاصِرون مكاناً ، ورئيسُ العدوِّ قاعدٌ علىٰ صُفَّة[4] ، فرمى السُّرماريُّ سَهْماً ، فغرزَه في الصُّفَّة ، فأوْمأ الرئيسُ لينزعه ، فرماه بسَهمٍ آخر خاطَ يدَه ، فتطاوَلَ الكافرُ لينزعَه من يده ، فرماه بسَهمٍ ثالثٍ في نَحرِه ، فانهزَمَ العَدوُّ ، وكان الفتح .

---

(١) البِرْذَوْن : ضرب من الدواب ، يخالف الخيل العراب ، عظيم الخِلقَة ، غليظ الأعضاء .
(٢) المَنّ : زِنَة رطلين .
(٣) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٩ .
(٤) الصُفَّة : الظُلة ، والبَهو الواسع العالي السقف .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أخبارُ هـٰذا الغازي تسُرُّ قلبَ المسلم .

تُوفِّي في سنة اثنتين وأربعين ومئتين ، رحمَه الله تعالىٰ ، فإنه كان مع فَرْط شجاعته من العلماء العاملين العُبَّاد[1] .

وقال ابنُه أبو صَفْوَانُ : وَهَبَ المَأمونُ لأبي ثلاثينَ ألفاً ، وعَشرةَ أفْراسٍ وجارِيَةً ، فلمْ يَقبَلْها[2] .

أبو عبدِ الله مَرْدَنيش :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الزَّاهِدُ الْمُجاهِدُ ، أبو عبدِ الله ، محمَّدٌ الجُذاميُّ الْمَغرِبيُّ .

كانَ مَعه عدَّة رجال أبْطال يُغيرُ يَمنَةً ويَسْرةً ، وكانوا يَحرُثونَ علىٰ خَيلِهم كما يَحرُثُ أهلُ الثَّغرِ ، وكانَ أميرُ الْمُسلمينَ ابنُ تاشفينَ يَمدُّهم بالْمَالِ والآلاتِ ، ويَبرُّهم .

ولِمَرْدَنيشَ مَغازي ومَواقِفُ مَشْهودَةٌ وفَضائلُ[3] .

فمن عَجيبِ ما صَحَّ عندي[4] من مَغازيهِ أنَّه أغَارَ يوماً ، فغَنمَ غَنيمَةً كثيرَة ، واجْتمَعَ عَليه من الرُّوم أكثَرُ من ألفِ فارسٍ ، فقَالَ لأصْحابه وكانوا ثَلاثَ مئة فارس : ما تَرَونَ ؟ فقالوا : نَشغَلُهم بتَركِ الغَنيمَة قالَ : ألَمْ يَقُلْ القَائلُ : ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾[5] فقالَ له ابنُ مُورين : يا رَئيسُ ، اللهُ قالَ هـٰذا! فقالَ : اللهَ يَقولُ هـٰذا وتَقعُدُونَ عن لِقائهِم ؟! قالَ : فثَبتُوا ، فهَزَمُوا الرُّومَ .

وفي سَنةِ سَبعٍ وعِشرينَ وخَمسَةِ مئة سارَ ابنُ رُذْمير ، فنازَلَ مَدينَةَ إفراغة[6] وبها ابنُ مَرْدَنيش ، وطالَ الحِصَارُ ، فكَتَبُوا إلىٰ أميرِ الْمُسلمين ابنِ تاشفينَ ليُغيثَهم ، فكَتبَ إلى

---

(١) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٠ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٥٠ .
(٣) انظر السير : (أبو عبد الله مَرْدَنيش) ٢٠/ ٢٣٢ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٤٤ .
(٤) الكلام هنا لليَسع بن حَزْم .
(٥) سورة الأنفال ، الآية : ٦٥ .
(٦) مدينة بالأندلُس من أعمال ماردة ، كثيرة الزيتون .

ابنِه تَاشَفينَ بنِ عَليٍّ وإلى الأميرِ يَحْيَى ابنِ غانيَة بإغاثَتِهم ، وإدْخالِ الْميرَةِ إليهم ، فتَهيَّأ لنَجدَتِهم أرْبَعةُ ألافٍ ، فما وَصَلوا إلىٰ إفراغة إلاَّ وقد فَنِيَ ما بها ، ولَمْ يَبْقَ لابنِ مَرْدَنيشَ سِوَىٰ حِصانٌ فذبَحَه لَهم ، فحَصلَ لكُلِّ واحدٍ أوقيَة أوقيَة .

قالَ اليَسَعُ : فحدَّثني الْمَلكُ الْمُجاهِدُ ابنُ عِياض حَديثَ هٰذه الغَزَاة قالَ : لَمَّا وَصلَ أبو زَكريّا يَحْيَىٰ بنُ غانيَة مَدينَةَ زَيْتونَة ، خَرجْتُ إليه من لاردَةَ مع فُرسَاني ، فقالَ : أشِيروا عليَّ ، فقُلتُ : الصَّوابُ جَمعُ جُندِ الأنْدَلُسِ تَحتَ رَايَةٍ وَاحِدَة ، وهِلالُ وسُليمُ تَحتَ رَايَةٍ أُخْرَىٰ ، ويَتقدَّمُ الزُّبَيرُ بنُ عُمَرَ بأهْلِ الْمَغرِبِ وبالدَّوابِّ التي تَحمِلُ الأقْوَاتَ ، مَعَهم الطُّبُولُ والرَّاياتُ ، ونَبقَىٰ نَحنُ والعَرَبُ كَميناً عن يَمينِ الجَيشِ ويَسارِه فإذا أبْصَرَ اللَّعينُ الرَّاياتِ والطُّبُولَ والزَّمْرَ حَملَ عليه ، فنَكرُّ عليه من الجِهَتَينِ قالَ : فصَلَّينا الصُّبحَ في لَيلَةِ سَبعٍ وعِشْرينَ من رَمَضانَ سَنةَ سَبعٍ وعِشرينَ وخَمسِ مئة ، وأبْصرَ اللَّعينُ الجَيشَ وقد اسْتراحَ من جِراحَاتِه وكانَ عَسْكرُه إذ ذاكَ أرْبَعةً وعِشرينَ ألْفَ فارِس سِوَىٰ أتْباعِهم ، فقَصَدوا الطُّبُولَ ، فانْكَسَروا وتَفرَّقوا ـ يَعني الْمُسلمينَ ـ فأتَينا الرُّومَ عن أيْمانِهم ، ونزَلَ النَّصْرُ وعَملَ السَّيفُ في الرُّوم حتَّىٰ بَقِيَ ابنُ رُذْمير في نَحْو أرْبَع مئة فارِس ، فلَجَؤوا إلىٰ حِصْنٍ لهم ، وباتَ الْمُسلمُونَ عليه ، ثم هَلكَ غَمَّاً ، وأصَابَه مَرضٌ ؛ ماتَ بعدَ خَمسةَ عَشرَ يَوماً من هَزيمَتِه فلا رَحمَهُ الله[1] .

محمد بن سعد بن مردنيش :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ محمدِ بن سَعْد : ابنُ محمَّدِ بنِ مَرْدَنيش الجُذاميُّ الأنْدَلُسيُّ ، الْمَلكُ أبو عبدِ الله صاحِب مُرْسِيَةَ وَبَلَنْسِيَةَ[2] .

كان صِهْراً للمَلِكِ المُجاهِدِ الوَرِعِ أبي مُحمّد عبد الله بنِ عياض فلمَّا تُوفِيَ ابنُ عِياض ، اتَّفَقَ رأيُ أجْنادِه علىٰ تَقْديمِ ابن مَرْدنيش هٰذا عليهم ، وكان صَغيرَ السِّنِّ شاباً ، لَكنَّه كان مِمَّن يُضْرَبُ بشَجاعَتِه المَثلُ وابْتُلي بجَيشِ عبدِ المُؤمن يُحارِبُونَه ،

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله مَرْدَنيش) ٢٠/ ٢٣٢ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٤٥ .

(٢) انظر السير : (محمد بن سعد) ٢٩/ ٢٤٠ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٤٨ .

فاضْطَرَّ إلى الاسْتِعَانَة بالفِرَنْجِ فلمَّا تُوُفِّي الخَليفَةُ عبدُ المُؤمن تَمَكَّنَ ابنُ مَرْدنيش ، وقَوِيَ سُلطانُه وجَرَتْ له حُروبٌ وخُطُوبٌ .

ذَكَرَهُ اليَسَعُ في « تاريخِه » وقال : نازَلَتِ الرُّومُ المَرِيَّةَ عندَ عِلمِهم بِمَوتِ ابنِ عِياض ، ولِكَونِ ابنِ مَرْدنيش شَاباً ، لَكنَّه عِندَهُ من الإقْدام ما لا يُوجَدُ في أحَدٍ حتىٰ أضَرَّ به في مَواضِعَ شاهَدْناها معه ، والرَّأيُ قبلَ الشَّجاعَةِ ، وإلاَّ فهُو في القُوَّةِ والشَّجاعَة في مَحلٍّ لا يَتمكَّنُ منه أحَدٌ في عَصْرِه ، ما اسْتَتَمَّ خَمسَةَ عَشَرَ عَاماً حتىٰ ظَهَرتْ شَجاعَتُه ، فإنَّ العَدُوَّ نازَلَ إفراغة ، فقَرُبَ فارِسٌ منهُم إلى السُّورِ ، فخَرَجَ مُحمّدٌ ، وأبُوهُ سَعدٌ لا يَعرِفُ ، فالْتَقَيَا علىٰ حافَّةِ النَّهْرِ ، فضَرَبَهُ مُحمّدٌ ألقَاهُ مع حِصانِهِ في المَاءِ ، فلمَّا كان الغَدُ طَلَبَ فارِسٌ من الرُّوم مُبارَزَتَه ، وقال : أيْنَ قاتلُ فارِسِنا بالأمْسِ ؟ فامْتَنَعَ والِدُه من إخْراجِه له ، فلمَّا كان وَقتُ القَائِلَة وقد نَامَ أبُوهُ رَكِبَ حِصانَه ، وخَرَجَ حتّىٰ وَصَلَ إلىٰ خِيامِ العَدُوِّ ، فقِيلَ للمَلِك : هـٰذا ابنُ سَعد فأحْضَرَهُ مَجْلِسَه ، وأكْرَمَه وقال : ما تُريدُ ؟ قال : مَنَعَنِي أبي من المُبارَزَةِ ، فأيْنَ الذي يُبارِزُ ؟ فقال : لا تَعْصِ أبَاكَ فقالَ : لا بُدَّ فحَضَرَ المُبارِزُ فالْتَقَيَا ، فضَرَبَ العِلْجُ مُحمَّداً في طارِقَتِه ، وضَرَبَ هو العِلْجَ ألْقاهُ ثمَّ أوْمَأَ إليه بالرُّمْحِ ليَقْتُلَه ، فحالَتِ الرُّومُ بينَهُما ، وأعْطاهُ المَلِكُ جائِزَةً .

ومن شَجاعَتِه يَومَ نِوَلَةَ[1] : كانَ في مئة فارِس ، والرُّومُ في ألفٍ فحَملَ بنَفسِه ، فاجْتَمعَت فيه أكثرُ من عِشْرينَ رُمحاً ، فمَا قَلبوهُ ، ولَوْلا حَصَانَةُ عُدَّتِه لَهَلكَ ، فكَشفَ عنه أصْحابُه ، وانْهزَمَ الرُّومُ ، فاتَّبَعَهم من الظُّهرِ إلى اللَّيلِ ، ثم هادَنَ الرُّومَ عَشرَ سِنين .

قالَ : ولَمْ تَزَلِ الأيَّامُ تَخدمُه ، وقد اهتمَّ بجَمع الصُّنَّاعِ لآلاتِ الحُروب وللبناءِ والتَّرْخيم ، واشْتَغلَ ببناءِ القُصُورِ العَجيبَة والنُّزَه والبَساتين العَظيمَة ، وصَاهَرَ الرَّئيسَ القائدَ أبا إسْحاقَ بنَ هَمُشْك[2] .

---

(١) بكسر أوله وفتح ثانيه : حِصنٌ من أعمال مَرْسيَة بالأنْدلُس .

(٢) انظر السير : (محمد بن سعد) ٢٩/ ٢٤٠ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٨ .

من الأبطال الذين كانوا ضالّين فتابوا :

أبو القاسم هِلال :

قال اليسعُ بنُ حَزْم : حدَّثني عنه[1] أبو القاسم هِلالُ أحَدُ وُجُوه العَرب قالَ : كان بَيني وبَينَ الْمُرابِطينَ أمر أَلْجَأني إلى الوُفودِ على ابنِ رُذْمير ، فرحَّب بي ، وأمَرَ لي براتبٍ كَبير فحَضرتُ معه حَرْباً طُعِنَ عنه حِصانُه ، فوقَفتُ عليه ذابّاً عن حَوْزَته فلمَّا انْصَرفنا إلىٰ رشْقَة أمرَ الصَّوَّاغينَ بعَملِ كأسٍ من ذَهَبٍ رَصَّعَه بالدُّرِّ ، وكتبَ عليه : « لا يَشْربُ منْه إلاَّ مَنْ وَقَفَ علىٰ سُلْطانِه » فحضَرتُ يوماً فأخْرَجَ الكأسَ ، وملأه شَراباً ، وناوَلَني بحَضْرَة ألفِ فارِس ، ورَأيتُ أعْناقَهم قد اسْوَدَّت من صَدأ الدُّروعِ قال : فنادَيتُ ، وقُلتُ : غَيري أحَقُّ به ، فقالَ : لا يَشْرَبُ هـٰذا إلاَّ مَنْ عَملَ عَمَلَك .

وكان هِلالٌ هـٰذا من قَريَة هِلالِ بنِ عامِر ، تابَ بعدُ وغَزا مَعَنا ، فكانَ إذا حَضرَ في الصَّفِّ جَبَلاً راسياً يَمْنَعُ تَهائمَ الجُيوشِ أنْ تَميدَ ، وقَلْباً في البَسَالَة قَاسياً ، يَقولُ في مُقارَعَةِ الأبْطَالِ : هَلْ مِنْ مَزيد ؟ أبْصَرتُه ـ رَحمَهُ اللهُ ـ أُمَّةً وَحْدَه ، يَتحامَاهُ الفَوارِسُ[2] .

٣ـ من الشَّجَاعَة القُوَّة في الحَقِّ :

قالَ مُحمَّدُ بنُ سَعْد بنِ أبي وَقَّاص ، عن أبيه ، أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : « إيهاً يا ابنَ الخَطَّابِ ، فَوَالذِّي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجّاً[3] إلاَّ سَلَكَ غَيْرَ فَجِّكَ »[4] .

وعن أمِّ الْمؤمنينَ عائشةَ ، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : « إنَّ الشَّيْطَانَ يَفْرَقُ مِنْ عُمَرَ »[5] .

---

(١) الضمير عائد على ابنِ رُذمير اللعين ، صاحب مملكة أرَغونة من شرق الأندلس ، كان قسِّيساً مُجرّباً داهية مُترَهِّباً ، قوي علىٰ بلاد ابن هود وطواها .

(٢) انظر السير : (عماد الدولة بن هود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٢٤ .

(٣) الفَجُّ : الطريق .

(٤) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٤٥ .

(٥) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥/٤٥ .

وقالَ زِرٌّ : كانَ ابنُ مَسْعودٍ يَخْطبُ ويَقولُ : إنِّي لأحْسَبُ الشَّيْطانَ يَفْرَقُ من عُمَرَ أنْ يُحْدثَ حَدثاً فيَرُدّه ، وإنِّي أحْسَبُ عُمَرَ بَينَ عَيْنَيْهِ مَلَكٌ يُسدِّدُه ويُقوِّمُه[1] .

وقالَ أَنَسُ بنُ مالِك : قالَ لي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أَرْحَمُ أُمَّتِي أَبُو بَكر ، وَأَشَدُّهَا فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ »[2] .

العَدْل

١ـ العَدْل شَأنُه عَظيم :

عن الشَّعْبيِّ ، قالَ مَسْروقٌ : لأنْ أُفْتيَ يَوماً بعَدلٍ وحَقٍّ ، أحَبُّ إليَّ من أنْ أغْزُوَ سَنةً[3] .

٢ـ صُورَةٌ علىٰ إقَامَة العَدْل :

ذَكرَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ السُّلطانِ العَزيز ، عُثمان بن السُّلطان صَلاح الدِّين بن أيُّوب ، قال ابنُ واصِل : وحُكيَ عنه أنَّ عبدَ الكَريمِ ابنَ البيسانيِّ أخا القاضي الفاضِل كان يَتولَّى البحيرَةَ مُدّةً ، ووَقعَ بينَه وبينَ أخيه ، فعُزِلَ ، وكان مُزوَّجاً ببنْتِ ابن ميَسَّر ، فأساءَ عِشْرَتَها لسُوءِ خُلقِه ، فتَوجَّه أبوها ، وأثْبَتَ عند قاضي الإسْكَنْدَريَّة ضَررَها ، وأنَّه قد حَصَرَها في بَيتٍ ، فمَضَى القاضي بنفسِه ، ورامَ أنْ يَفْتَحَ عَنها ، فلَمْ يَقْدرْ ، فأحْضَرَ نَقَّاباً ، فنَقبَ البَيتَ ، وأخْرَجَها ، ثم سَدَّ النَّقْبَ ، فهَاجَ عبدُ الكَريمِ ، وقَصدَ الأميرَ جهاركسَ بمِصْرَ ، وقالَ : هـٰذه خَمسَةُ آلاف دينار لك ، وأرْبَعُونَ ألْفَ دينارٍ للسُّلطانِ ، وأُوَلِّيْ قَضاءَ الإسْكَنْدَريَّة فأتَى العَزيزَ لَيلاً ، وأحْضَرَ الذَّهَبَ ، فسَكتَ ، ثم قالَ : رُدَّ عليه مالَه ، وقُلْ له : إيَّاكَ والعَودَ إلىٰ مثلِها ، فمَا كلُّ مَلكٍ يَكونُ عادِلاً ، أنا ما أبيعُ أهلَ الإسْكَنْدَريَّة بهـٰذا الْمَالِ قال جهاركسُ : فوَجَمتُ ، وظَهرَ عليَّ ، فقالَ :

---

(١) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦/٤٥ .

(٢) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٤٦ .

(٣) انظر السير : (مَسْروق) ٤/٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٤٥ .

أراكَ أخَذْتَ شَيئاً ، قُلتُ : نعَم خَمسةَ آلافِ دينارٍ ، قال : أعْطَاكَ مالاً يَنفَعُ مرَّةً ، وأنا أُعْطيكَ ما تَنْتَفِعُ به مَرَّاتٍ ، ثم وَقَّعَ لي بإطْلاقِ طُنبذة[1] كنتُ أستغلُّها سَبعةَ آلافِ دينار[2] .

٣ـ العَدْل المَشُوب بالمُبالَغَة والجَهْل والشِّدَّة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ باديسِ بنِ حَبُوس ، مَلكِ غِرْناطَة : وقَفَت له امْرأةٌ عندَ بابِ إلْبيرة فقالَت : يا مَوْلانا! ابْني يَعُقُّني ، فطَلبَه ، ودَعَا بالسَّيفِ ، فقالَت الْمَرأةُ : إنَّما أرَدتُ تَهْديدَه فقالَ : مَا أنا بمُعلِّم كُتَّاب وأمَرَ به فضُربَتْ عُنقُه[3] .

واستعملَ بعضَ أقاربَه علىٰ بَلدٍ ، فخَرجَ يتَصيَّدُ ، فمَرَّ بشَيخ قَريَة فرَغِبَ في تَشريفِه بالضِّيافَة ، فأنْزَلَه في أرضٍ فيها دُولاب وفَواكه ، فبادَرَ له بثَريد في لَبَنٍ وسُكَّر ، وقالَ : نأتي بعدُ بما تُحبُّ فرمَاهُ برِجْلِه وضَربَ الشَّيخَ ، ففرَّ الشَّيخُ ، وأتىٰ إلْبيرَةَ ، فعَرفَ الْمَلكُ بما جَرىٰ عليه فقالَ : ارْجِعْ واصْبِرْ ووَاعَدَه ، ثم جاءَه بعدَ أيَّامٍ في كَبْكَبَةٍ منهم خَصْمُه فقدَّم الشيخُ للمَلكِ مثلَ ذلك الثَّريد ، فتَناوَله وأكلَه واسْتَطابَه ، ثم قالَ : خُذْ بثَأرِكَ من هـٰذا فاضْرِبْه فاسْتَعظَمَ الشَّيخُ ذلك ، فقالَ الْمَلكُ : لا بُدَّ فضَربَه حتَّى اقْتَصَّ منه ، فقالَ الْمَلكُ هـٰذا حَقُّ هـٰذا ، بَقيَ حَقُّ الله في إهانَة نِعْمَتِه ، وحَقِّي في اجْتِراء العُمَّال فضَربَ عُنقَه ، وطِيفَ برأسِه حكاها اليَسَعُ بنُ حَزْم[4] .

وحَكَى اليَسَعُ بنُ حَزْم أيضاً أنَّ بَعضَ أهْلِ البادِيَة كانت له بِنتُ عَمٍّ بَديعَةُ الحُسْن فافْتَقَرَ ، ونَزَحَ بها فصادَفَه في الطَّريقِ أميرٌ صَنْهَاجِيٌّ ، فأرْكَبَها شَفقَةً عليها ، ثم أسْرَعَ بها ، فلمَّا وَصَلَ البَدَويُّ ، أتَىٰ دَارَ الأميرِ ، فطَرَدُوه ، فقَصَدَ الْمَلكَ باديسَ بنَ حَبُوس ، فقالَ لذاك الأمير : ادْفَع إليه زَوجَته فأنْكَرَ فقالَ : يا بَدويُّ! هلْ لكَ مِنْ شَهيد ولو كَلباً يَعرِفُها ؟ قالَ : نَعَم فدَخلَ بكَلْبٍ له إلى الدَّارِ ، وأُخرِجَت الحُرَمُ ، فلمَّا رآها

---

(١) اسم مكان .

(٢) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٥ .

(٣) انظر السير : (باديس بنُ حَبُوس) ١٨/ ٥٩٠ـ ٥٩٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٤٤ .

(٤) انظر السير : (باديس بنُ حَبُوس) ١٨/ ٥٩٠ـ ٥٩٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٤٤ .

الكَلْبُ ، عَرفَها وبَصْبَصَ فأمَرَ الْمَلكُ بدَفْعِها إلى البَدَويِّ ، وضَربَ عُنُقَ الأميرِ ، فقالَ البَدَويُّ : هي طالِقٌ لكَوْنِها سَكَتَت ورَضِيَت ، فقالَ الْمَلكُ : صَدَقْتَ ، ولَوْ لَمْ تُطلِّقْها لأَلْحَقتُكَ به ثم أمَرَ بالْمَرأةِ فقُتِلَت .

وامتدَّت أيامُه ثم تَملَّكَ غَرْناطَةَ ابنُ أخيه عبدُ الله بنُ بُلُكين بنُ حَبُوس وبَقيَ حتَّىٰ أخَذَها منه يُوسُفُ بنُ تاشَفين ، سَنةَ بضعٍ وثَمانينَ وأرْبَع مئة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الكاملِ بنِ العَادِلِ ، صاحِبِ مِصْرَ : وكانَ عَدْلُه مَشُوباً بعَسْفٍ ، شَنقَ جَماعَةً من الجُنْدِ في بَطيحَةِ شَعير[2] .

العَقْل

١ـ مُجَالَسَةُ العُقَلاء تُورِثُ العَقْلَ الصَّحيح :

ذَكَرَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحافِظِ محمَّد بنِ نَصْر ، قيلَ : إنَّه كانَ أعْلَمَ الأئمَّة باخْتلاف العُلماء على الإطْلاق وقالَ أبو بَكر بنُ إسْحاقَ الصِّبْغي ، وقيلَ له : ألا تَنظُر إلىٰ تَمكُّنِ أبي عَليٍّ الثَّقَفيِّ في عَقلِه ؟ فقالَ : ذاكَ عَقلُ الصَّحابَة والتَّابعينَ من أهْلِ الْمَدينَة قيلَ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : إنَّ مالِكاً كانَ من أعْقَلِ أهْلِ زَمانِه وكانَ يُقالُ : صارَ إليه عَقلُ الذين جالَسَهم من التَّابعينَ ، فجَالَسه يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَى النِّيسابُوري ، فأخذَ من عَقلِه وسَمتِه ، ثم جالَس يَحْيَىٰ بنَ يَحْيَىٰ محمَّدُ بنَ نَصْر سِنينَ ، حتَّىٰ أخَذَ من سَمتِه وعَقلِه ، فلَمْ يُرَ بَعدَ يَحْيَىٰ من فُقَهاء خُراسَانَ أعْقَلُ من ابنِ نَصْر ، ثم إنَّ أبا عليٍّ الثَّقَفيَّ جالَسَه أرْبَع سِنينَ فلَمْ يَكنْ بَعدَه أعْقَلُ من أبي عليّ[3] .

٢ـ مثالٌ على العُقَلاء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : بَلغَنا أنَّ يَحْيَىٰ بنَ يَحْيَى اللَّيثيَّ كانَ عندَ مَالِكِ بنِ أنَس رَحمَه الله ، فمَرَّ علىٰ بابِ مَالِك الفِيلُ ، فخَرجَ كُلُّ مَنْ كانَ في مَجلِسِه لِرُؤيَةِ الفِيلِ ،

---

(١) انظر السير : (باديس بنُ حَبُوس) ١٨/ ٥٩٠ـ ٥٩٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٤٥ .

(٢) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٦ .

(٣) انظر السير : (محمَّدُ بنُ نَصْر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٥ .

سِوَىٰ يَحْيَىٰ بنِ يَحْيَىٰ ، فلَمْ يَقُمْ ، فأُعْجِبَ به مَالِكٌ وسَأَلَ : مَنْ أنْتَ ؟ وأيْنَ بَلدُك ؟ ثم لَمْ يَزَلْ بَعدُ مُكرِماً له[1] .

٣ـ قِلَّةُ العَقْل ضَياع :

عن الإمام الشافعيّ : ضَيَاعُ العالِمِ أن يكونَ بلا إخْوان ، وضَيَاعُ الجاهِلِ قلةُ عَقْلِه ، وأضْيَعُ منهما مَنْ واخَىٰ مَنْ لا عَقْلَ له[2] .

العَفْو

١ـ ضَابطٌ في العَفْوِ :

رَوَىٰ رَوْحُ بنُ قَبيصَة ، عن أبيه ، قالَ الْمُهَلَّبُ : ما شَيءٌ أبْقَىٰ للمُلكِ من العَفْو ، خَيرُ مَناقِبِ الْمَلِكِ العَفْوُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يَنبَغي أنْ يَكونَ العَفْوُ من الْمَلِكِ عن القَتلِ ، إلاَّ في الحُدودِ ، وأنْ لا يَعفُوَ عن وَالٍ ظالِم ، ولا عن قَاضٍ مُرْتَشٍ بل يُعَجِّلُ بالعَزْلِ ، ويُعاقِبُ الْمُتَّهمَ بالسَّجْنِ ، فحِلمُ الْمُلوكِ مَحْمودٌ إذا ما اتَّقُوا اللهَ ، وعَمِلوا بطَاعَتِه .

قيلَ : تُوفِّيَ الْمُهَلَّبُ غازياً بمَرْوَ الرُّوذ في سنة اثنتَين وثَمانينَ .

ووَلِيَ خُراسانَ بعدَه ابنُه يَزيدُ بنُ الْمُهَلَّب[3] .

٢ـ الحَثُّ على العَفْوِ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَل ، قالَ أبو زُرْعَة : وسَمعتُه يقول : كلُّ مَنْ ذَكرَني ففي حِلٍّ إلاَّ مُبتَدعاً ، وقد جَعَلتُ أبا إسْحاقَ ـ يَعْني الْمُعْتَصمَ ـ في حلٍّ ، ورأيتُ اللهَ يقول : ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[4] ،

---

(١) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ بنِ كَثير) ١٠/ ٥١٩ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٩٠ .

(٢) انظر السير : (الإمامُ الشافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٤٩ .

(٣) انظر السير : (الْمُهَلَّب) ٤/ ٣٨٣ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥١٦ .

(٤) سورة النور ، الآية : ٢٢ .

وأمرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر بالعَفوِ في قِصّة مِسْطَح قال أبو عبدِ الله : وما يَنْفَعُك أنْ يُعذِّبَ اللهُ أخاكَ المسلم في سَببِك ؟!![1] .

٣ـ قَولٌ جَميلٌ في العَفْوِ :

من كَلام الْمُنتَصِر بالله العَبَّاسيِّ بعدَ أنْ عَفَا عن أبي العَمَرَّد الشَارِي : لَذَّةُ العَفْوِ أعْذَبُ من لَذَّةِ التَّشَفِّي ، وأقْبَحُ فِعالِ الْمُقْتَدِر الانْتِقامُ .

قالَ الْمَسْعوديُّ : كانَ الْمُنتَصِرُ أظْهَرَ الإنْصافَ في الرَّعيَّة ، فمَالُوا إليه مع شِدَّة هَيبَتِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : قلَّ ما وَقعَ في دَولَتِه من الحَوادِثِ لِقِصَرِ الْمُدَّة ، وعاشَ سِتّاً وعشْرينَ سَنةً ، سامَحَه اللهُ وماتَ سَنةَ ثَمانٍ وأرْبَعينَ ومئتَين فكانَت خِلافَتُه ستَّة أشْهُر وأيَّاماً[2] .

٤ـ صُوَرٌ على العَفْوِ :

قالَ أبو عُمَر بنُ عبدِ البَرِّ : رَوَيْنا أنَّ جاريَةً لأمِّ الْمؤمنين صَفيَّة أتَتْ عُمرَ بنَ الخَطَّاب ، فقالَت : إنَّ صَفيَّة تُحبُّ السَّبتَ ، وتَصِلُ اليَهودَ فبَعثَ عُمَرُ يَسْألُها فقالَت : أمَّا السَّبتُ ، فلَمْ أُحِبَّه منذُ أبْدَلَني اللهُ به الجُمُعَة ، وأمَّا اليَهُودُ ، فإنَّ لي فيهم رَحِماً ، فأنا أصِلُها ، ثم قالَت للجَارِيَة : ما حَمَلَك علىٰ ما صَنَعتِ ؟ قالَت : الشَّيْطانُ قالَت : فاذْهَبي فأنْتِ حُرَّة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : تُوفِّيَت سَنةَ خَمسينَ .

وكانت أمُّ الْمؤمنينَ صَفيَّة ذَاتَ حِلْمٍ ، ووَقارٍ ، وقَبْرُها بالبَقيعِ[3] .

قالَ مُصْعَبُ الزُّبَيْريُّ : كان لابنِ عجْلان قَدرٌ وفَضلٌ بالمَدينَة وكانَ مِمَّنْ خَرجَ مع مُحمَّدِ بنِ عبدِ الله ، فأرادَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ قَطعَ يَدِه ، فسَمِعَ ضَجَّةً ، وكان عندَه

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٤٠ .

(٢) انظر السير : (الْمُنتَصِرُ بالله) ١٢/ ٤٢ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٦/٩٧٩ .

(٣) انظر السير : (صَفيَّة أمُّ المؤمنين) ٢/ ٢٣١ـ ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٥٢ .

الأكابرُ فقالَ : ما هـٰذا ؟ قالوا هـٰذه ضَجَّةُ أهْلِ المَدينَة يَدعُونَ لابنِ عجْلانَ فلَوْ عَفَوْتَ عنه ؟ وإنَّما غُرَّ ، وأخطأ في الرِّوايَة ظَنَّ أنَّه الْمَهْديَّ ، فأطْلقَه وعَفا عنه[1] .

قالَ ثَمامَةُ بنُ أشْرَس : قالَ ليَ الْمَأمونُ : قد عَزمتُ علىٰ تَقريعِ عَمِّي ، فحَضرتُ ، فجيءَ بإبْراهيمَ بنِ الْمَهْدي مَغلولاً قد تَهدَّلَ شَعرُه فىٰ عَينِه ، فسَلَّمَ ، فقالَ : الْمَأمونُ : لا سلَّمَ اللهُ عَليكَ ، أكُفْراً بالنِّعمَة وخُروجاً عليَّ ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ القُدرَةَ تُذهِبُ الحَفيظَة ، ومَنْ مُدَّ له في الاغْترارِ هَجمَت به الأناةُ على التَّلفِ ، وقد رَفعَك الله فوقَ كلِّ ذَنب كمَا وَضعَ كلَّ ذي ذَنبٍ دُونَك ، فإنْ تُعاقِب ، فبحقِّك ، وإنْ تَعفُ فبفَضلِك قالَ : إنَّ هـٰذين ـ يَعني ابْنَيه العَبَّاسَ والْمُعْتَصِمَ ـ يُشيرانِ بقَتلِك قالَ : أشارا عَليكَ بما يُشارُ به علىٰ مِثلِكَ في مِثلي ، والْمُلكُ عَقيمٌ ، ولكنْ تأبَىٰ لك أنْ تَستجلِبَ نَصراً من حَيثُ عوَّدك اللهُ ، وأنا عَمُّك ، والعَمُّ صنوُ الأب ، وبَكىٰ ، فتَغَرْغَرَتْ عَينا الْمَأمونِ ، وقالَ : خَلُّوا عن عَمِّي ، ثم أحْضَرَه ، ونادَمَه ، وما زالَ به حتَّىٰ ضَربَ له بالعُودِ[2] .

وقيلَ إنَّ أحْمدَ بنَ خالد الوَزيرَ قالَ : يا أميرَ الْمؤمنينَ ، إنْ قَتَلتَه ، فَلَكَ نُظَراءٌ ، وإنْ عَفَوْتَ ، لَمْ يَكنْ لَكَ نَظير .

تُوفِّيَ إبْراهيمُ بنُ الْمَهْدي في سَنَةِ أرْبَع وعِشْرينَ ومِئتين[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَل ، قالَ أبو زُرْعَة : وسَمعتُه يقول : كلُّ مَنْ ذَكرَني ففي حِلٍّ إلاَّ مُبتَدعاً ، وقد جَعَلتُ أبا إسْحاقَ ـ يَعْني المُعْتَصمَ ـ في حلٍّ ، ورأيتُ اللهَ يقول : ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[4] ، وأمرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر بالعَفوِ في قِصّة مِسْطَح قال أبو عبد الله : وما يَنْفَعُك أنْ يُعذِّبَ اللهُ أخاكَ المسلم في سَببِك ؟!![5] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن عَجْلان) ٦/ ٣١٧ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٥٤ .
(٢) انظر السير : (إبْراهيم بن الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٩٣ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيم بن الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٩٤ .
(٤) سورة النور ، الآية : ٢٢ .
(٥) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٤٠ .

٥ـ سُؤالُ اللهِ العَفْوَ والصَّفْحَ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ مُوسَى الكاظِم : دَخَلَ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فسَجَدَ سجدةً في أولِ الليلِ وهو يقولُ في سُجُودِه : عَظُمَ الذَّنبُ عندي فليَحْسُن العَفوُ من عندكَ يا أهلَ التَّقوىٰ ويا أهلَ المَغفِرَة فجَعَلَ يُردِّدُها حتىٰ أصبَحَ[١] .

وفي طبقات السُبكيّ[٢] ، نقلاً عن شَهدَة بنتِ أحمد ابن الفَرَج الإبري قالت : سمعتُ القاضي الإمامَ عزيزي بن عبد الملك من لفظه سَنَةَ تسعين وأربع مئة يقولُ : اللَّهُمَّ يا واسِعَ المَغفِرة ، ويا باسِطَ اليَدَيْنِ بالرَّحْمَةِ افعَلْ بي ما أنتَ أهلُه ، إلَـهِي أذْنَبتُ في بعضِ الأوقاتِ ، وآمَنْتُ بكَ في كُلِّ الأوقاتِ ، فكَيْفَ يَغلِبُ بعضُ عُمرِي مُذنِباً جَمِيعَ عُمرِي مُؤمِناً إلَـهِي لو سَألتَنِي حَسَنَاتِي لجَعَلتُها لكَ مع شِدَّةِ حاجَتِي إليها وأنا عَبدٌ ، فكَيْفَ لا أرْجُو أنْ تَهَبَ لي سَيئاتِي مع غِنَاكَ عنها وأنتَ رَبٌّ ، فيا مَنْ أعْطَانِي خَيْرَ ما في خَزَائِنِه ، وهو الإيمانُ به قبلَ السُّؤالِ لا تَمنَعْنا أَوسَعَ ما في خَزَائِنِك وهو العَفْوُ مع السُّؤالِ ، إلَـهِي حُجَّتي حاجَتِي ، وعُدَّتِي فاقَتِي فارْحَمْنِي، إلـهي كيف أمتَنِعُ بالذَّنبِ من الدُّعاءِ ولا أراكَ تَمنَعُ مع الذَّنبِ من العَطَاء ، فإنْ غَفَرتَ فخيرُ راحمٍ أنتَ وإنْ عَذَّبتَ فغيرُ ظالمٍ أنتَ إلـهي أسألُكَ تَذَلُّلاً فأعْطِنِي تَفَضُّلاً[٣] .

٦ـ أعْظَمُ النَّاسِ عَفْواً :

رَوى العُتبيُّ عن رَجلٍ قالَ : خَطبَ خَالدُ بنُ عبد الله القَسريُّ بواسِطَ فقالَ : إنَّ أكْرَمَ النَّاسِ مَنْ أعْطَىٰ مَنْ لا يَرجُوه ، وأعْظمَ النَّاسِ عَفْواً مَنْ عَفَا عن قُدرَة ، وأوْصَلَ النَّاسِ مَنْ وَصَلَ عن قَطيعَة[٤] .

---

(١) انظر السير : (موسى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦٥٠ .

(٢) طبقات السُّبكي : ٥/ ٢٣٧ .

(٣) انظر النزهة : ١٤٧٢/ هامش (٣) .

(٤) انظر السير : (القَسْري) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦١٨ .

الفِراسَة

صُوَرٌ على الفِراسَة :

قالَ عبدُ الله بنُ سَلمَة الْمُراديُّ : نَظرَ عُمَرُ إلى الأشْتَر ، فصَعَّدَ فيه النَّظَرَ وصَوَّبَه ثم قالَ : إنَّ لِلْمُسلِمينَ من هـٰذا يَوْماً عَصيباً[1] .

وقيلَ : إنَّ أبا هُرَيْرَةَ نَظرَ إلىٰ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوَانَ وهو غُلامٌ فقالَ : هـٰذا يَملكُ العَربَ[2] .

وعن ابنِ سِيرينَ ، قالَ : حَجَّ بنا الوَليدُ فمَرَّ بنا على الْمَدينَة ، فأدخَلَنا علىٰ زَيدِ بنِ ثابت ، ونَحنُ سَبعَةٌ وَلَدُ سِيرينَ ، فقالَ له : هَؤلاء بَنو سِيرينَ ، فقال زَيْدٌ : هَـٰذان لأُمٍّ ، وهَـٰذان لأُمٍّ ، وهَـٰذان لأُمٍّ ، وهَـٰذا من أُمٍّ قالَ : فمَا أخْطأَ .

وقالَ عُمَرُ بنُ شَبَّة : حدَّثنا يُوسُفُ بنُ عَطيَّة : رَأيتُ ابنَ سِيرينَ قَصيراً ، عَظيمَ البَطْنِ ، له وَفْرَةٌ ، يَفْرقُ شَعْرَه ، كَثيرَ الْمِزاحِ والضَّحِكِ ، يَخْضِبُ بالحِنَّاءِ .

وعن ابنِ عَوْنٍ قالَ : ثَلاثَةٌ لَمْ تَرَ عَيْنايَ مثلَهم : ابنُ سِيرينَ بالعِراقِ ، والقاسِمُ بنُ مُحمَّد بالحِجازِ ، ورَجاءُ بنُ حَيْوَة بالشَّامِ كأنَّهم الْتَقَوا فتَواصَوا[3] .

جاءَ في تَرجَمَتِه الْمُعْتَضِدِ بالله العَبَّاسيِّ ، قال أبو علي الْمُحْسن التَّنُوخيُّ : بَلغَني عن الْمُعْتَضِدِ أنه كان جالساً في بَيتٍ يُبنَىٰ له فرأىٰ فيهم أسْوَدَ مُنْكَرَ الخِلقَة يَصْعَدُ السَّلالِمَ دَرجَتينِ دَرَجَتينِ ، ويَحمِلُ ضِعْفَ ما يَحْملُه غَيرُه ، فأنْكرَ ذلك ، وطلَبَه ، وسَأَلَه عن سَببِ ذلك ، فتَلَجْلَجَ فكلَّمَه ابنُ حَمْدونَ فيه ، وقالَ : مَنْ هـٰذا حتىٰ صَرَفْتَ فِكْرَكَ إليه ؟ قالَ : قد وَقَعَ في خَلَدي أمْرٌ ما أحْسَبُه باطِلاً ، ثم أمَرَ به ، فضُربَ مئةً ، وتَهدَّدَه بالقَتلِ ودَعَا بالنَّطَعِ[4] والسَّيْفِ ، فقالَ : الأمانَ ، أنا أعْمَلُ في أتونِ الآجُرِّ ، فدَخلَ من

---

(١) انظر السير : (الأشْتَر)/ ٣٤ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٤٣٦ .

(٢) انظر السير : (عبدُ الْمَلِك بنُ مَرْوان) ٤/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ٦/٤٨٩ .

(٣) انظر السير : (محمَّد بن سِيرينَ) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٥٦٨ .

(٤) النَّطَع : بفَتح النُّونِ وكَسْرِها ، وفَتْح الطَّاءِ وكَسْرِها وسُكونِها : بساطٌ من جلد ، كثيراً ما كان يُقتَلُ فوقه المحكوم عليه بالقَتل . =

شُهورٍ رَجلٌ في وَسَطِه هِمْيَانٌ[1] ، فأخْرَجَ دَنانيرَ فوَثبتُ عليه ، وسَدَدتُ فاه ، وكَتَّفتُه وألْقَيتُه في الأتُونِ ، والذَّهَبُ مَعي يَقْوَىٰ به قَلبي ، فاسْتَحْضَرَها ، فإذا عَلى الهِمْيانِ اسْمُ صاحِبِه ، فنُودِيَ في البَلَدِ ، فجاءَت امْرأةٌ ، فقالَت : هو زَوْجي ولِيَ منه طِفلٌ ، فسَلَّمَ الذَّهبَ إليها ، وقَتلَه[2] .

قضاءُ الحَوائج وصَنائعُ الْمَعْروف

١ـ عَدُّ واحدٍ من السَّلَف عَدم الْتجاء النَّاس إليه لقَضاء حَوائجهم من المَصَائب :

قالَ الأصْمَعيُّ : حدَّثنا هِشامُ بنُ سَعْد صاحِبُ الْمَحامل ، عن أبيه قالَ : قالَ حَكيمُ بنُ حِزَام : ما أصْبَحتُ ولَيسَ ببابي صاحِبُ حاجَةٍ ، إلاَّ عَلمتُ أنَّها من الْمَصائبِ التي أسْألُ اللهَ الأجْرَ عليها[3] .

٢ـ قاضي حاجات النَّاس حَبيبٌ إليهم :

قالَ عَونُ بنُ محمَّد الكنْديُّ : لَعَهْدِي بالكَرْخ ، ولَوْ أنَّ رَجُلاً قالَ : ابنُ أبي دُواد مُسلمٌ لقُتلَ ، ثم وَقعَ الحَريقُ في الكَرْخ ، فلَمْ يَكنْ مِثلُه قَطُّ فكلَّم ابنُ أبي دُواد الْمُعْتَصِمَ في النَّاسِ ، ورَقَّقه إلىٰ أنْ أطلَقَ له خَمسةَ آلافِ ألفِ دِرْهَم ، فقسَّمَها على النَّاسِ ، وغَرِمَ من مَالِه جُملةً فلَعَهْدي بالكَرْخ ولو أنَّ إنْسَاناً ، قالَ : زِرُّ أحمَدَ بنِ أبي دُواد وَسِخٌ لقُتِل[4] .

٣ـ كلامٌ جَميلٌ في قَضاء الحَوائج :

قالَ عَبَّاسُ بنُ عُمَر ، سَمعتُ أبا عُمَرَ الزَّاهِدَ ، يَقولُ : تَركُ قَضاءِ حُقوقِ الإخْوَان مَذلَّة ، وفي قَضاء حُقوقِهم رِفْعَة[5] .

---

(١) الهِمْيان : كيسٌ للنَّفَقَة يُشدُّ في الوَسَط .
(٢) انظر السير : (الْمُعْتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٠٣ .
(٣) انظر السير : (حَكيمُ بنُ حِزام) ٣/ ٤٤ـ ٥١ ، وانظر النزهة : ٢/٣٣١ .
(٤) انظر السير : (أحمَدُ بنُ أبي دُواد) ١١/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ٤/٩٢٠ .
(٥) انظر السير : (أبو عُمَر الزَّاهِد) ١٥/ ٥٠٨ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥٥ .

٤ـ صُوَرٌ علىٰ قَضاء الحَوائج :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ زُبَيدِ بنِ الحارِث : بَلغَنا عن زُبَيد أنَّه كانَ إذا كانت لَيلَةٌ مَطيرَةٌ طافَ علىٰ عَجائزِ الحَيِّ ، ويَقولُ : ألَكُم في السُّوقِ حاجَةٌ ؟[١]

قالَ عَبَّاسُ بنُ عُمَر ، سَمعتُ أبا عُمَرَ الزَّاهِدَ ، يَقولُ : تَركُ قَضاءِ حُقوقِ الإخْوَان مَذلَّة ، وفي قَضاء حُقوقِهم رِفْعَة[٢] .

دَعْلَج :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : هو دَعْلَجُ بنُ أحمد بنِ دَعْلَج المُحَدِّثُ ، الحُجَّةُ الفَقيهُ الإمامُ ، أبو محمَّد السِّجِسْتانيُّ ، ثم البَغداديُّ التَّاجِرُ ، ذُو الأمْوالِ العَظيمة .

وُلدَ سنةَ تسعٍ وخَمسينَ أو قَبلَها بقليل وسَمعَ بعد الثَّمانين ما لا يُوصَفُ كَثرةً بالحَرمَينِ ، والعِراقِ ، وخُراسانَ ، والنَّواحي حالَ جَولانِه في التِّجارَة[٣] .

قال الخَطيبُ : كان دَعْلَجُ من ذَوي اليَسار ، له وُقوفٌ علىٰ أهْلِ الحَديث .

وقال الخَطيبُ : حَكَىٰ لي أبو العَلاء الواسِطيُّ ، أنَّ دَعْلَجاً سُئل عن مُفارَقتِه مَكة ، فقال : خَرجتُ لَيلةً من المَسجدِ ، فتَقدَّم ثلاثةٌ من الأعْرابِ ، فقالوا : أخٌ لك من خُراسان قَتلَ أخَانا ، فنَحنُ نَقتُلك به ، فقُلتُ : اتَّقوا اللهَ ، فإنَّ خُراسانَ لَيست بمَدينَةٍ واحِدَة ، ولمْ أزَلْ بهم إلىٰ أنْ اجْتَمعَ النَّاسُ وخَلُّوا عَنِّي فهـٰذا كان سَببُ انْتِقالي إلىٰ بَغْداد وكان يقولُ : ليسَ في الدُّنيا مثلُ داري ، وذلكَ لأنَّه ليسَ في الدُّنيا مثلُ بَغْدادَ ، ولا ببَغْدادَ مثلُ مَحِلَّة القَطيعة ، ولا في القَطيعة مثلُ دَرْب أبي خَلَف ، وليسَ في الدَّرْب مثلُ داري[٤] .

ونقلَ أبو بَكْر الخَطيبُ حكايةً مُقتَضاها أنَّ رجُلاً صلَّى الجُمعَةَ فرأىٰ رجُلاً مُتَنسِّكاً

---

(١) انظر السير : (زُبَيدُ بنُ الحارث) ٥/٢٩٦ـ٢٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/٦٠٥ .
(٢) انظر السير : (أبو عُمَر الزَّاهِد) ١٥/٥٠٨ـ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥٥ .
(٣) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/٣٠ـ٣٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٦٦ .
(٤) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/٣٠ـ٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٦٦ .

لمْ يُصلِّ ، فكلَّمَه ، فقال : اسْتُرْ عليَّ ، لدَعْلَج عليَّ خَمسَةُ آلافٍ ، فلمَّا رأيتُه أحْدَثتُ ، فبلغَ ذلك دَعْلَجاً ، فطَلبَه إلىٰ مَنزِله ، وحلَّله من المال ، ووَصلَه بمثلِها لكَوْنه رَوَّعَه[1] .

وقال أحمدُ بنُ الحُسَين الوَاعِظُ : أَوْدَعَ أبو عبد الله بنُ أبي مُوسَى الهاشِميُّ عَشرةَ آلافِ دينارٍ ليتيم ، فضاقَت يَدُه فأنْفَقَها وكَبُرَ الصَّبيُّ ، وأُذنَ له في قَبضِ مالِه ، قال ابنُ أبي موسىٰ : فضاقَت عليَّ الأرضُ ، وتَحيَّرتُ ، فبَكرتُ علىٰ بَغْلَتي ، وقَصدتُ الكَرْخَ فانتُهتْ بي البَغْلةُ إلىٰ دَرْبِ السلولي ووَقفَتْ بي علىٰ بابِ مَسجِدِ دَعْلَج ، فدَخلتُ فصَلَّيتُ خلفَه الفَجرَ ، فلمَّا انْفتَلَ رَحَّبَ بي ، وقُمنا فدَخلنا دَارَه ، فقُدِّمَت لنا هَريسَةٌ ، فأكَلتُ وقَصَّرتُ ، فقالَ : أراكَ مُنقَبضاً ، فأخْبَرتُه ، فقالَ : كُلْ فإنَّ حاجَتَك تُقْضَىٰ ، فلمَّا فَرَغْنا ، اسْتَدعَىٰ بالذَّهَبِ والمِيزانِ ، فوَزَنَ لي عَشرةَ آلافِ دينارٍ وقُمتُ أطيرُ فَرحاً ، ثم سَلَّمتُ المالَ إلى الصَّبيِّ بحَضرةِ قاضي القُضاة ، وعَظُمَ الثَّناءُ عليَّ ، فلمَّا عُدتُ إلىٰ مَنزِلي اسْتدعاني أميرٌ من أولادِ الخَليفَة فقال : قد رَغبتُ في مُعامَلَتِك وتَضْمينِك أمْلاكي ، فضَمنْتُها فرَبحتُ في سَنَتي رِبحاً عَظيماً وكَسبتُ في ثلاث سنين ثلاثينَ ألفَ دينار ، وحَملتُ لدَعْلَج المالَ ، فقالَ : سُبحانَ الله ، والله ما نَوَيتُ أخْذَها ، حَلِّ بها الصِّبْيانَ ، فقلتُ : أيُّها الشَّيخُ ، أيشْ أصْلُ هـٰذا المال حتىٰ تَهبَ لي عشرةَ آلافِ دينار ؟ فقال : نَشأتُ ، وحَفظتُ القُرآنَ ، وطَلبتُ الحَديثَ ، وكُنتُ أتَبزَّزُ ، فوافاني تاجرٌ من البَحْرِ فقال : أنْتَ دَعْلَج ؟ قلتُ : نَعَم قال : قد رَغبتُ في تَسليمِ مالي إليك مُضارَبةً ، فسلَّمَ إليَّ برنامجات بألفِ درهم ، وقال لي : ابْسُطْ يَدكَ فيه ولا تَعلمْ مَكاناً يُنفَقُ فيه المَتاعُ إلاَّ حَملْتَه ، ولمْ يَزلْ يَتردَّدُ إليَّ سَنةً بعدَ سَنةٍ يَحملُ إليَّ مثلَ هـٰذا والبضاعَةُ تَنمَىٰ ثم قال : أنا كثيرُ الأسْفارِ في البَحرِ ، فإنْ هَلكتُ فهـٰذا المالُ لكَ علىٰ أنْ تَصدَّقَ منه ، وتَبني المَساجدَ ، فأنا أفعلُ مثل هـٰذا ، وقد ثمَّرَ اللهُ تعالى المالَ في يَدي ، فاكْتُم عليَّ ما عِشتُ .

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٦٦ .

قال الحاكمُ : كان السُّلطانُ لا يَتعرَّضُ لتَركَةٍ ، ثم لمْ يَصْبرْ عن أموالِ دَعْلَج ، وقيلَ : لمْ يكنْ في الدُّنيا أيْسَرُ منه من التُّجَّار ، وتَركوا أوْقافَه ، رَحمَه الله .

ماتَ سنةَ إحْدَىٰ وخَمسينَ وثلاثِ ومئة[1] .

الْمَنيعي :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الشَّيخُ الجَليلُ ، الحَاجُّ الرَّئيسُ أبو عليٍّ حَسَّانُ بنُ سَعيد بنِ حَسَّانَ بنِ محمَّد بنِ أحمَد بنِ عبدِ الله بنِ محمَّد ابنِ مَنيع بنِ خالِد بنِ عبد الرحمَـٰن بنِ سَيفِ الله خالِدِ بنِ الوَليد الْمَخْزوميُّ ، الخالِديُّ ، الْمَنيعيُّ الْمَرْوَرُّوذيّ .

قالَ عبد الغافِرِ : هو شَيخُ الإسْلامِ الْمَحمودُ بالخِصَالِ السَّنيَّة ، عَمَّ الآفاقَ بخَيرِه وبِرِّه ، وكانَ في شَبابِه تاجِراً ، ثم عَظُمَ حتَّىٰ كانَ من الْمُخاطَبين من مَجالِسِ السَّلاطِين ، لَمْ يَسْتَغنوا عن رَأيِه فرَغِبَ إلى الخَيْراتِ ، وأنَابَ إلى التَّقْوَىٰ ، وبَنَى الْمَساجِدَ والرِّبَاطَاتِ وجامِعَ مَروِ الرُّوذِ ، يَكْسُو في الشِّتاءِ نَحْواً من ألفِ نَفسٍ ، وسَعَىٰ في إبْطالِ الأعْشَار عن بَلدِه ، ورَفْعِ الوَظائفِ عن القُرَىٰ ، واسْتَدعَىٰ صَدَقَةً عامَّة علىٰ أهْلِ البَلدِ غَنيِّهم وفَقيرِهم ، فتُدفَع إلىٰ كُلِّ واحِدٍ خَمسة دَراهم ، وكان ذا تَهجُّد وصيام واجْتِهاد[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمَنيعِيّ : قيلَ : إنَّ امرأةً أتَتْهُ بثَوبٍ ليُنفِقَ ثمنَه في بِناءِ الجَامِع ، يُساوي نِصفَ دينار ، فاشْتَراه منها بألفِ دينار ، وسَلَّمَت الْمَالَ إلى الخازِنِ لإنْفاقِه وخَبَّأ الثَّوبَ كَفَناً له[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الْمَنيعيِّ ، وقيلَ : مَرَّ السُّلطانُ ببابِ مَسْجدِه ، فنزَلَ مُراعاةً ، وسَلَّم عليه ومَناقِبُه جَمَّة .

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ١٢٦٦/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الْمَنيعيّ) ١٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ١٤١٠/ الْمَنيعيّ .

(٣) انظر السير : (الْمَنيعيّ) ١٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ١٤١١/ ١ .

مات سَنةَ ثَلاثٍ وستِّينَ وأرْبَع مئة[1] .

٥ـ وَاسِطَةُ الخَير :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الأحْنَفِ بنِ قَيْس : وقيلَ : إنه كلَّمَ مُصْعَباً في مَحبوسينَ وقالَ : أصْلحَ اللهُ الأميرَ ، إنْ كانوا حُبِسوا في باطِلٍ ، فالعَدلُ يَسَعُهم ، وإنْ كانوا حُبِسوا في حَقٍّ ، فالعَفْوُ يَسَعُهم[2] .

وقيلَ : دَخلَ ابنُ السَّمَّاك علىٰ رَئيسٍ في شَفاعَةٍ لفَقيرٍ فقالَ : إنِّي أتيتُك في حاجَةٍ ، والطَّالِبُ والْمُعْطِي عَزيزان إنْ قُضيَت الحَاجَةُ ، وذَليلانِ إنْ لَمْ تُقضَ ، فاخْتَرْ لنَفسِكَ عزَّ البَذْلِ عن ذُلِّ الْمَنْع ، وعزَّ النَّجَحِ عن ذُلِّ الرَّدِّ[3] .

وقالَ السَّيفُ أحمَدُ بنُ المجدِ الحافِظُ : سَمعتُ أحمَدَ بنَ سَلامَة النَّجَّار يَقولُ : أرادَ عبدُ الغَني وعبدُ القادِر الحافِظانِ سَماعَ كتابِ اللاَّلكائي ، يَعني شَرحَ السُّنَّة ، على السِّلَفيِّ ، فأخَذَ يَتعلَّلُ عَليهما مرَّة ، ويُدافِعُهم عنه أُخرَىٰ بأصْلِ السَّماع ، حتىٰ كلَّمَته امرأتُه في ذلك .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : ما أظُنُّه حدَّثَ بالكتابِ بلىٰ حدَّث منه بكَراماتِ الأوْلياء .

وتُوفِّيَ الحافِظُ السِّلَفيُّ في يَومِ الجُمُعَة سَنةَ سِتٍّ وسَبعينَ وخَمسِ مئة ولَمْ يَزَلْ يُقرأ عليه الحَديثُ يَومَ الخَميسِ إلىٰ أنْ غَرَبَت الشَّمسُ من لَيلَةِ وَفاتِه ، وهو يَرُدُّ على القارىء اللَّحْنَ الخَفيَّ ، وصلَّىٰ يَومَ الجُمُعَة الصُّبحَ عند انْفِجارِ الفَجْرِ ، وتُوفِّيَ بَعدَها فُجاءَةً وقَبرُه مَعْروفٌ بظاهِرِ الإسْكَنْدَريَّة وكانَ يَطأ أهْلَه ويَتمتَّعُ وإلىٰ قَريبِ وَفاتِه ، وإنَّما تَزوَّجَ وقد أسَنَّ بعد سَنةِ خَمسينَ وخَمسِ مئة[4] .

---

(١) انظر السير : (الْمَنيعيّ) ١٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١١ .
(٢) انظر السير : (الأحْنَفُ بنُ قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٥٣ .
(٣) انظر السير : (ابنُ السَّمَّاك) ٨/ ٣٢٨ـ ٣٣٠ ، وانظر النزهة : ٦/٧٦١ .
(٤) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٩٣ .

٦ـ صَنائعُ المَعْروف تُزَيِّنُ مَنْ قُبِّح :

قالَ عَونُ بنُ محمَّد الكنْديُّ : لَعَهْدِي بالكَرْخ ، ولَوْ أنَّ رَجُلاً قالَ : ابنُ أبي دُواد مُسلمٌ لقُتلَ ، ثم وَقعَ الحَريقُ في الكَرْخ ، فلَمْ يَكنْ مِثلُه قَطُّ فكلَّم ابنُ أبي دُواد الْمُعْتَصِمَ في النَّاسِ ، ورَقَّقه إلىٰ أنْ أطلَقَ له خَمسةَ آلافِ ألفِ دِرْهَم ، فقسَّمَها على النَّاسِ ، وغَرِمَ من مَالِه جُملةً فلَعَهْدي بالكَرْخ ولو أنَّ إنْسَاناً قالَ : زِرُّ أحمَدَ بنِ أبي دُواد وَسِخٌ لقُتِل[1] .

٧ـ صَنائعُ المَعْروف تُثْمرُ حتىٰ مع البَهَائم :

قالَ عليُّ بنُ عبدِ العَزيزِ ، حدَّثنا عارِمٌ ، قالَ : أتَيتُ أبا مَنْصُورٍ أعُودُه ، فقالَ لي : باتَ سُفْيانُ في هـٰذا البَيتِ ، وكانَ هنا بُلْبُلٌ لابني ، فقالَ : ما بالُ هـٰذا مَحْبُوساً ؟ لَوْ خُلِّيَ عنه قُلتُ : هو لابني ، وهو يَهبُه لك قالَ : لا ، ولكنْ أُعْطيه ديناراً قالَ : فأخَذَه ، فخَلَّىٰ عنه ، فكانَ يَذهَبُ ويَرْعَىٰ ، فيَجيءُ بالعَشيِّ ، فيَكونُ في ناحيَةِ البَيتِ ، فلمَّا ماتَ سُفْيانُ ، تَبعَ جنازَتَه ، فكانَ يَضْطَرِبُ علىٰ قَبرِه ، ثم اخْتَلفَ بعد ذلك لَياليَ إلىٰ قَبرِه ، فكانَ رُبَّما باتَ عليه ، ورُبَّما رَجَعَ إلى البَيتِ ، ثم وَجَدوه مَيِّتاً عند قَبرِه ، فدُفِنَ عندَه[2] .

٨ـ المَعْروفُ التَّام :

عن يَحْيَىٰ بنِ الفُراتِ أنَّ جَعْفَرَ بنَ محمَّد الصَّادِق قالَ : لا يَتِمُّ الْمَعروفُ إلاَّ بثَلاثَةٍ : بتَعجيلِه ، وتَصْغِيرِه ، وسَتْرِه[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ أبي دُواد) ١١/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٢٠ .
(٢) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوْريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٩٨ .
(٣) انظر السير : (جَعْفَرُ بنُ محمَّد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٤٨ .

كتْمانُ الأعْمَال الصَّالحَة

١ـ الحَثُّ علىٰ كتْمانِ الأعْمَال الصَّالحة :

كان أيُّوبُ السَّخْتِيانيُّ يَقولُ : لِيَتَّقِ اللهَ رجلٌ فإنْ زَهَدَ ، فلا يَجْعَلَنَّ زُهْدَه عَذاباً على النَّاس ، فلأنْ يُخْفيَ الرجُلُ زُهْدَه خَيرٌ مِنْ أنْ يُعْلِنَه[١] .

وعن أبي حازمٍ قالَ : اكتُمْ حَسَناتِكَ ، كَما تَكتُمُ سَيِّئاتِك .

وقالَ ابنُ سَعْد : كانَ أبو حازِم يَقُصُّ بعدَ الفَجْرِ وبعدَ العَصْرِ في مَسجِدِ الْمَدينَة ، وماتَ في خِلافَة أبي جَعْفَر ، بعدَ سَنةِ أرْبَعينَ ومئة ، قالَ : وكانَ ثِقةً كَثيرَ الحَديثِ[٢] .

وعن بَشْرِ بنِ الحَارِثِ قالَ : لا تَعمَلْ لتُذكَر ، اكتُم الحَسَنةَ كما تَكتُمُ السَّيِّئَةَ[٣] .

٢ـ صُوَرٌ علىٰ كتْمان الأعْمَال الصَّالحة :

قالَ مُغيرَةُ : كانَ لشُرَيْح القاضي بَيتٌ يَخلُو فيه يَومَ الجُمُعَة ، لا يَدري النَّاس ما يَصنَعُ فيه .

وقيلَ : كانَ شُرَيْح قائفاً عائفاً ، أي : يَزجُرُ الطَّيرَ ، ويُصيبُ الحَدْس[٤] .

وعن سلام قال : كان أيوبُ السَّختِيَاني يقومُ الليلَ كُلَّه فيُخْفِي ذلك ، فإذا كان عند الصُّبحِ رَفَعَ صَوتَه كأنَّه قامَ تلك السَّاعة[٥] .

وكان أيُّوبُ مِمَّن يُخفي زُهْدَه دَخلْنا عليه ، فإذا هو علىٰ فِراشٍ مُخَمَّسٍ أحمر ، فرَفَعتُه ، أو رَفَعَه بَعضُ أصْحابِنا ، فإذا خَصَفةٌ مَحْشوَّةٌ بليفٍ[٦] .

---

(١) انظر السير : (أيوبُ السَّخْتيانيّ) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦/٦٢٦ .
(٢) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٩/٦٣٧ .
(٣) انظر السير : (بِشْرُ بنُ الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١١/ ٨٨٦ .
(٤) انظر السير : (شُرَيْح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٥٧ .
(٥) انظر السير : (أيوبُ السَّخْتيانيّ) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٦ .
(٦) انظر السير : (أيوبُ السَّخْتيانيّ) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٧/٦٢٦ .

قالَ الفَلاَّسُ : سَمعتُ ابنَ أبي عَديّ يقول : صامَ داوُدُ بنُ أبي هندٍ أربعينَ سَنَةً لا يَعلمُ به أهلُه كان خَزَّاراً يَحمِلُ معه غَدَاءَه فيَتَصَدَّقُ به في الطَّرِيق[1] .

قالَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ مَهْدي : قُلتُ لابنِ الْمُبارَك : إبْراهيمُ بنُ أدْهَم مِمَّنْ سَمِعَ ؟ قالَ : قد سَمِعَ من النَّاسِ ، وله فَضلٌ في نَفسه ، صاحِبُ سَرائر وما رَأيتُه يُظهِرُ تَسْبيحاً ، ولا شَيئاً من الخَيرِ ، ولا أكَلَ مع قَومٍ قَطُّ إلاَّ كانَ آخِرَ مَنْ يَرفَعُ يَدَه[2] .

وقالَ نُعيمُ بنُ حمَّاد ، سَمعتُ ابنَ الْمُبارَك يقولُ : ما رَأيتُ أحَداً ارْتَفَعَ مثل مالِك لَيسَ له كثيرُ صَلاةٍ ولا صِيامٍ ، إلاَّ أنْ تكونَ له سَريرةٌ[3] .

وعن الخُرَيْبيِّ ، قالَ : كانوا يَسْتَحبُّونَ أنْ يَكُونَ للرَّجُلِ خَبيئَةٌ من عَملٍ صالِحٍ لا تَعلَمُ به زَوجَتُه ولا غَيرُها[4] .

النُّصْح

١ـ النُّصْح لعَامَّة النَّاس :

قالَ مُعاويَةُ بنُ عبدِ الكَريم الثَّقَفي ، سَمعتُ بَكرَ بنَ عبدِ الله يَقولُ يَومَ الجُمُعَة : لَوْ قيلَ لي : خُذْ بيَدِ خَيرِ أهْلِ الْمَسجِدِ ، لقُلتُ : دُلُّوني علىٰ أنْصَحِهم لعامَّتِهم ، فإذا قيلَ : هـٰذا ، أخَذتُ بيَدِه ، ولَوْ قيلَ لي : خُذْ بيَدِ شَرِّهم ، لقُلتُ : دُلُّوني علىٰ أغَشِّهم لعامَّتِهم ، ولَوْ أنَّ مُنادياً نادَىٰ من السَّماءِ : إنَّه لا يَدخُلُ الجنَّة منكُم إلاَّ رَجلٌ واحِدٌ ، لكانَ يَنبَغي لكُلِّ إنْسانٍ أنْ يَلتَمِسَ أنْ يَكونَ هُوَ ، ولَوْ أنَّ مُنادياً نادَىٰ : إنَّه لا يَدخُلُ النَّارَ منكُم إلاَّ رَجلٌ واحِدٌ لكانَ يَنبَغي لكُلِّ إنْسانٍ أنْ يَفْرَقَ أنْ يَكونَ ذلك الوَاحِد[5] .

---

(١) انظر السير : (داوُد بن أبي هند) ٦/ ٣٧٦ـ ٣٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٥٦ .
(٢) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٠٧ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٣٣ .
(٤) انظر السير : (الخُرَيْبيُّ) ٩/ ٣٤٦ـ ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٢٧ .
(٥) انظر السير : (بَكرُ بنُ عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥١ .

٢ـ طَلَبُ النَّصيحَة :

عن جَعْفَر بنِ بُرْقانَ : قالَ لي مَيْمونُ بنُ مِهْران : يا جَعْفَرُ قُلْ لي في وَجْهي ما أكْرهُ ، فإنَّ الرجلَ لا يَنصَحُ أخاهُ حتَّىٰ يَقولَ له في وَجْهه ما يَكرَه[١] .

قيلَ : إنَّ الإمَامَ الرِّفَاعيَّ أقْسَمَ علىٰ أصحابِه إنْ كانَ فيه عَيبٌ يُنبِّهونَه عَليه ، فقالَ الشَّيخُ عُمَرُ الفاروثيُّ : يا سَيِّدي أنا أعْلمُ فيكَ عَيباً قالَ : ما هو ؟ قالَ : يا سَيِّدي عَيبُك أنَّنا من أصْحابِك فبَكَى الشَّيخُ والفُقَراءُ ، وقالَ ـ أيْ عُمَرُ ـ : إنْ سَلِمَ الْمَرْكَبُ ، حَملَ مَنْ فيه[٢] .

٣ـ الاسْتجابَةُ للنَصيحَة :

عن عَلقَمَةَ قالَ : كُنَّا عندَ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ فجاءَ خبَّابُ بنُ الأَرَتِّ حتَّىٰ قامَ عَلينا ، في يَدِه خاتَمٌ من ذَهَب ، فقالَ : أكُلُّ هـٰؤلاء يَقْرؤون كما تَقرأ ؟ فقالَ عبدُ الله : إنْ شِئتَ أمَرتُ بَعضَهم يَقرأ ، قالَ : أجلْ ، فقالَ : اقْرأ يا علقَمَة! فقالَ فلانٌ : أتَأمُرهُ أنْ يَقرأ ولَيسَ بأقْرَئنا ؟ قالَ عبدُ الله : إنْ شِئتَ حدَّثتُك بما قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في قَومِه وقَومِك ، قالَ علقَمَة : فقَرأتُ خَمسينَ آيَةً من سُورَةِ مَرْيَم ، فقالَ عبدُ الله : ما قَرأ إلاَّ كمَا أقْرأ ثم قالَ عبدُ الله : ألَمْ يَأنِ لهـٰذا الخَاتَم أنْ يُطرَح ؟ فنزَعَه ، ورَمَىٰ به ، وقالَ : والله لا تَراهُ عليَّ أبداً[٣] .

وعن أبي الفَيْض ، سَمعَ أبا حَفْص الحمْصيَّ يَقولُ : أعْطَىٰ مُعاويَةُ الْمِقْدادَ حِمَاراً من الْمَغْنَمِ ، فقالَ : العِرْباضُ بنُ سارِيَة : ما كانَ لكَ أنْ تَأخُذَه ، ولا له أنْ يُعطِيَكَ ، كأنِّي بكَ في النَّارِ تَحمِلُه فرَدَّه .

تُوفِّيَ العِرْباضُ سَنةَ خَمسٍ وسَبعينَ[٤] .

---

(١) انظر السير : (مَيْمونُ بنُ مِهْران) ٥/ ٧١ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٢/ ٤ .
(٢) انظر السير : (الرِّفاعيّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ١٦٠١/ ١ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ مَسْعُود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١٩٤/ ١ .
(٤) انظر السير : (العِرْباضُ بنُ سارِيَة) ٣/ ٤١٩ـ ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ٤٠٥/ ٣ .

الهِمَّة

١ـ من نوع الهِمَم :

من كَلامِ أحمَدَ بنِ خِضْرَوَيْه : القُلوبُ جوَّالَة ، فإمَّا أنْ تَجُولَ حَوْلَ العَرْشِ ، وإمَّا أنْ تَجُولَ حَوْلَ الحُشِّ .

قيلَ إنَّه تُوفِّيَ سَنةَ أرْبَعين ومئتَين[١] .

٢ـ الهِمَّةُ العَاليَةُ في طَلَبِ العِلْم :

قالَ سَعيدُ بنُ الْمُسَيِّب : إنْ كُنتُ لأسيرُ الأيَّامَ واللَّياليَ في طَلَبِ الحَديثِ الوَاحِد[٢] .

قالَ مَعْمَرُ : أقَامَ قَتادَةُ عندَ سَعيدِ بنِ الْمُسَيِّبِ ثَمانيَةَ أيّامٍ ، فقالَ لَه في اليوم الثالث : ارْتَحِلْ يا أعْمَىٰ فقد أنزَفْتَني[٣] ، [٤] .

وعن مَطرٍ الوَرَّاق ، قالَ : ما زَالَ قَتادَةُ مُتعلِّماً حتَّىٰ ماتَ .

قالَ أبو هِلال : قالوا لقَتادَة : نَكتُبُ ما نَسمَعُ منكَ ؟ قالَ : ومَا يَمنَعُكَ أنْ تَكتُبَ ، وقد أخْبَرَكَ اللَّطيفُ الخَبيرُ أنَّه يَكتُبُ ، فقالَ : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ﴾[٥] ، [٦] .

وقالَ الإمامُ أحمَدُ : كانَ قَتادَةُ أحْفَظَ أهلِ البَصْرَة ، لا يَسْمَعُ شَيئاً إلاَّ حَفظَه ، قُرِىءَ عليه صَحيفَةُ جابرٍ مرَّة واحدَة فحَفِظَها[٧] .

وعن ابنِ جُرَيْج قالَ : أقَمتُ علىٰ عَطاء إحْدَىٰ وعِشرينَ حجَّة ، يَخرُجُ أبَوايَ إلى

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ خِضْرَوَيْه) ١١/ ٤٨٧ـ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ١/٩٦٢ .
(٢) انظر السير : (سَعيدُ بنُ الْمُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٨/٤٨٢ .
(٣) أي : أخذتَ منِّي علمي كلَّه ولم يبقَ منه شيءٌ ، يُقالُ : نزفت ماء البئر نزفاً : إذا نزحته كلَّه .
(٤) انظر السير : (قتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٥/٦٠١ .
(٥) سورة طه ، الآية : ٥٢ .
(٦) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٥/٦٠٢ .
(٧) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٠٣ .

الطَّائفِ وأُقيمُ أنا تَخوُّفاً أنْ يَفْجَعَني عَطاءٌ بنَفسِه قالَ بَعضُ الحُفَّاظ : لابنِ جُرَيج نَحوٌ من ألفِ حَديثٍ ـ يَعني الْمَرفُوعَ ـ وأمَّا الآثارُ والْمَقاطيعُ والتَّفسيرُ ، فشيء كثير[1] .

وقالَ فُضَيلُ بنُ غَزْوَان : كُنَّا نَجلسُ أنا وابنُ شُبْرُمَة ، والحارثُ بنُ يَزيد العكليُّ ، والْمُغيرَةُ ، والقَعْقَاعُ بنُ يَزيد باللَّيلِ نَتَذاكَرُ الفِقْهَ ، فرُبَّما لَمْ نَقُمْ حتَّىٰ نَسمَعَ النِّداءَ[2] .

وقالَ عليُّ بنُ الحُسَن بنُ شَقيق : قُمتُ لأخْرُجَ مع ابنِ الْمُبارَك في لَيلةٍ باردَةٍ من الْمَسجِدِ ، فذَاكَرَني عندَ البابِ بحَديثٍ ، أو ذاكَرتُه ، فما زِلْنا نَتَذاكَرُ ، حتَّىٰ جاءَ الْمُؤذِّنُ للصُّبحِ[3] .

وعن أبي بَكْر قال : اخْتلَفَتُ إلىٰ عاصِم نَحْواً من ثلاث سنين ، في الحَرِّ والشِّتاءِ والمَطَر ، حتىٰ رُبَّما اسْتَحْيَيتُ من أهْلِ مَسْجدِ بَني كاهِل .

وعن أبي بَكْر بنِ عَيَّاش قال : الدُّخُولُ في العلمِ سَهلٌ ، لكنَّ الخُروجَ منه إلى الله شَديد[4] .

وسُئلَ أبو داود : أيُّما أحْفَظُ وَكيعٌ أو عبدُ الرحْمَـٰن بنُ مَهْدي ؟ قالَ : وَكيعٌ أحْفَظُ وعبدُ الرحْمَـٰن أتْقَنُ ، وقد الْتَقَيا بعدَ العِشاءِ في الْمَسجِد الحَرامِ ، فتَواقَفا حتَّىٰ سَمعا أذانَ الصُّبحِ[5] .

وقالَ محمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ بنِ سَعيد : قالَ أبي : كُنتُ أخْرجُ من البَيتِ أطلُبُ الحَديثَ ، فلا أرْجِعُ إلاَّ بعدَ العَتمَة[6] .

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي عبدِ الله القَعْنَبيِّ ، قالَ أبو حاتم : ثِقَةٌ حُجَّةٌ لمْ أرَ أخْشَعَ منه ، سَألنَاه أنْ يَقرأ عَلينا « الْمُوَطَّأ » فقالَ : تَعالوا بالغَدَاة ، فقُلنا لنا مَجلِسٌ عندَ حَجَّاجِ بنِ

---

(١) انظر السير : (ابنُ جُرَيْج) ٦/ ٣٢٥ـ٣٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٥٥ .
(٢) انظر السير : (عبدُ الله بنُ شُبْرُمَة) ٦/ ٣٤٧ـ٣٤٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٥٥ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٦٩ .
(٤) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٨٩ـ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٨٧ .
(٥) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨١٠ .
(٦) انظر السير : (يَحْيَى القَطَّان) ٩/ ١٧٥ـ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨١٦ .

مِنْهَال ، قالَ : فإذا فَرَغتم منه قُلنا : نَأتي حينئذ مُسْلمَ بنَ إبْراهيمَ قالَ : فإذا فَرَغتم قُلنا : نَأتي أبا حُذَيْفَةَ النَّهْديَّ قالَ : فبَعدَ العَصْرِ قُلنا : نَأتي عَارِماً أبا النُّعْمَان ، قالَ : فبَعدَ الْمَغربِ فكانَ يَأتينا باللَّيلِ ، فيَخرُجُ عَلينا ، وعَليه كبْلٌ[1] ما تَحتَه شَيءٌ في الصَّيفِ ، فكانَ يَقرأ عَلينا في الحَرِّ الشَّديدِ حينئذ .

قالَ عَمرُو بنُ عَليّ بنِ الفَلاَّس : كانَ القَعْنَبيُّ مُجابَ الدَّعْوَة[2] .

وقالَ أبو أُمَيَّة الطَّرَسُوسيُّ : سَمعتُ عليَّ بنَ الْمَديني ، يَقولُ : رُبَّما أذْكرُ الحَديثَ في اللَّيلِ ، فآمُرُ الجاريَةَ تُسْرجُ السِّراجَ فأنْظُرُ فيه[3] .

وكانَ أبو بَكْر السِّجِسْتانيُّ يَقولُ : دَخلتُ الكُوفَةَ ومَعي دِرهَمٌ واحِدٌ ، فأخَذتُ به ثَلاثينَ مُدَّ باقلاً[4] ، فكُنتُ آكُلُ منه ، وأكتُبُ عن أبي سَعيد الأشَجِّ ، فما فَرغَ الباقلاَّ حتىٰ كَتبتُ عنه ثَلاثينَ ألفَ حَديثٍ ، ما بَينَ مَقطُوعٍ ومُرْسَل[5] .

وقالَ ابنُ أبي حاتم الرَّازي في أوَّل كتاب « الجَرْح والتَّعْديل » له : سَمعتُ أبي يَقولُ : أوَّلُ سَنةٍ خَرجتُ في طَلبِ الحَديثِ ، أقَمتُ سَبعَ سِنينَ ، أحْصَيتُ ما مَشَيتُ علىٰ قَدَمي زيادَةً علىٰ ألفِ فَرْسَخ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : مَسافَةُ ذلكَ نَحوُ أرْبَعة أشْهُر ، سَيرَ الجادَّة .

قالَ : ثم تَركتُ العَددَ بعدَ ذلك ، وخَرجتُ من البَحْرَينِ إلىٰ مِصْرَ ماشياً ، ثم إلى الرَّمْلَةِ ماشياً ، ثم إلىٰ دِمَشْقَ ، ثم أنْطاكيَة وطَرَسُوسَ ، ثم رَجَعتُ إلىٰ حِمْصَ ، ثم إلى الرَّقَّة ، ثم رَكبتُ إلى العِراقِ ، كلُّ هـٰذا في سَفري الأوَّل وأنا ابنُ عِشرينَ سَنةً[6] .

وقالَ ابنُ أبي حاتم سَمعتُ أبي يَقولُ : بَقيتُ في سَنةِ أرْبَع عَشرَة ثمانية أشْهُر

---

(١) الكَبْلُ : الفَرو الكبير .

(٢) انظر السير : (القَعْنَبيُّ) ١٠/ ٢٥٧ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/٨٧٥ .

(٣) انظر السير : (عَليُّ بنُ الْمَدينيِّ) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/٩٠٨ .

(٤) الباقلاء باللهجة العراقية : الفول .

(٥) انظر السير : (أبو بَكر السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٧٢ .

(٦) انظر السير : (أبو حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٧٥ .

بالبَصْرَة ، وكانَ في نَفسي أنْ أُقيمَ سَنةً ، فانْقَطَعَتْ نَفَقَتي ، فجَعلتُ أبيعُ ثيابي حتىٰ نَفِذَت ، وبَقيتُ بلا نَفقَة ، ومَضيتُ أطُوفُ مع صَديق لي إلى الْمَشْيَخَة ، وأسْمَعُ إلى الْمَساء ، فانْصَرفَ رَفيقي ، ورَجَعتُ إلىٰ بَيتي ، فجَعَلتُ أشْرَبُ الماءَ من الجُوعِ ، ثم أصْبَحْتُ ، فغَدا عليَّ رَفيقي ، فجَعلتُ أطُوفُ معه في سَماعِ الحَديثِ علىٰ جُوعٍ شَديدٍ ، وانْصَرفتُ جائعاً ، فلمَّا كان من الغَد ، غدا عليَّ فقالَ : مُرَّ بنا إلى الْمَشايخِ .

قُلتُ : أنا ضَعيفٌ لا يُمكنُني قالَ : ما ضَعفُك ؟ قُلتُ : لا أكْتُمُك أمْري ، قد مَضىٰ يَومان ما طَعِمتُ فيهما شَيئاً ، فقالَ : قد بَقيَ معي دينارٌ ، فنِصْفُه لك ، ونَجعَلُ النِّصْفَ الآخَر في الكِراء ، فخَرَجنا من البَصْرَة ، وأخَذتُ منه النِّصْفَ دينار[1] .

وقالَ أبو العَبَّاسِ ثَعلبُ : ما فَقدتُ إبْراهيمَ الحَربيَّ[2] من مَجلس لُغَة ولا نَحْو ، من خَمسينَ سَنةً[3] .

وقالَ أبو القاسِمِ بنُ عَقيل الوَرَّاق : إنَّ أبَا جَعْفَرَ الطَّبَريَّ قالَ لأصْحابِه : هلْ تَنْشَطُونَ لتَاريخِ العَالَم من آدَمَ إلىٰ وَقتِنا ؟ قالوا : كَمْ قَدرُه ؟ فذَكرَ نَحْوَ ثَلاثينَ ألفَ وَرَقَةٍ ، فقالوا : هٰذا مِمَّا تَفنَى الأعْمارُ قبلَ تَمامِه! فقالَ : إنَّا لله! ماتَت الهِمَمُ فاخْتَصرَ ذلكَ في نَحْوِ ثلاثةِ آلافِ وَرَقَة ، ولَمَّا أنْ أرادَ أنْ يُمليَ التَّفسيرَ قالَ لهم نَحْواً من ذلك ، ثم أمْلاهُ علىٰ نَحْوٍ من قَدرِ التَّاريخ[4] .

وقال محمّدُ بنُ عليّ السُّلَميُّ : قُمتُ ليلةً سَحراً لآخُذَ النَّوْبَة على ابنِ الأخْرَم ، فوَجدتُ قد سَبقَني ثلاثونَ قارئاً ، وقال : لمْ تُدْركْني النَّوبَةُ إلى العَصْر .

تُوفِّي ابنُ الأخْرَم في سنة إحدىٰ وأربعين وثلاث مئة وعاشَ إحدَىٰ وثمانين سنة[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٧٥ .
(٢) الحربيُّ : نسبةً إلىٰ محلة غربي بغداد بها جامع وسوق « اللباب » .
(٣) انظر السير : (إبْراهيمُ الحَرْبيُّ) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٩٤ .
(٤) انظر السير : (محمَّدُ بنُ جَرير الطَّبَري) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/١١٥١ .
(٥) انظر السير : (ابنُ الأخْرَم) ١٥/ ٥٦٤ـ ٥٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٩ .

وقالَ ابنُ حِبَّان في أثناء كتابِ « الأنْواع » : لَعلَّنا قد كَتبنا عن أكثر من ألْفَي شَيخ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كَذا فلتَكُن الهِمَمُ ، هـٰذا مع ما كانَ عَليه من الفِقْهِ والعَربيَّة ، والفَضائلِ البَاهِرَة ، وكثرَة التَّصانيفِ[1] .

وقالَ أبو مَسْعود عبدُ الرَّحيم الحَاجي : سَمعتُ محمدَ بنَ طاهِر يَقولُ : بُلتُ الدَّمَ في طَلبِ الحَديثِ مرَّتين ، مرَّةً ببَغدادَ ، وأخرَىٰ بمَكَّة ، كُنتُ أمشي حافياً في الحَرِّ ، فلَحِقَني ذلك ، وما رَكبتُ دَابَّةً قَطُّ في طَلبِ الحَديثِ وكنتُ أحملُ كُتبي علىٰ ظَهْري ، وما سَألتُ في حالِ الطَّلبِ أحَداً ، كُنتُ أعيشُ علىٰ ما يأتي[2] .

وقالَ يوسُفُ بنُ أحمدَ الشِّيرازيُّ في « أرْبَعين البُلْدان » له : لَمَّا رَحلتُ إلىٰ شَيخِنا رُحْلَةِ الدُّنيا ومُسْنِدِ العصر أبي الوَقت ، قدَّر الله لي الوُصولَ إليه في آخِرِ بلادِ كرمانَ ، فسَلمتُ عليه ، وقَبَّلتُه ، وجَلستُ بينَ يَديه فقالَ لي : ما أقْدَمَك إلىٰ هـٰذه البِلادِ ؟ قُلتُ كانَ قَصدي إليكَ ، ومُعَوَّلي بعد الله عَليكَ ، وقد كَتبتُ ما وقعَ إليَّ من حَديثك بقَلَمي ، وسَعيتُ إليك بقَدَمي ، لأدْرِكَ بَركَةَ أنْفاسِك ، وأحْظَىٰ بعُلُوِّ إسْنادِك ، فقالَ : وفَّقكَ اللهُ وإيَّانا لِمَرْضاتِه ، وجَعلَ سَعيَنا له وقَصْدَنا إليه ، لَوْ كُنتَ عَرفْتَني حَقَّ مَعْرفَتي لَمَا سلَّمْتَ عليَّ ، ولا جَلَسْتَ بين يديَّ ، ثم بَكَىٰ بكاءً طويلاً ، وأبْكَىٰ مَنْ حَضَرَه ، ثم قالَ : اللَّهُمَّ اسْتُرْنا بسِتْرِك الجَميلِ ، واجْعَل تَحتَ السِّتْرِ ما تَرضَىٰ به عنَّا ، يا وَلدي تَعلمُ أنِّي رَحلتُ أيضاً لسَماعِ « الصَّحيح » ماشياً مع وَالِدي من هَرَاةَ إلى الدَّاوودِيِّ بـ« بُوشَنْج » وليَ دون عَشر سنين ، فكانَ وَالِدي يَضعُ علىٰ يَديَّ حَجَرين ويقولُ : احْمِلْهما ، فكُنتُ من خَوْفه أحفَظُهما بيَديَّ ، وأمْشي وهو يَتأمَّلُني ، فإذا رآني قد عَييتُ أمرَني أن أُلْقيَ حَجَراً واحداً ، فأُلْقي ويَخِفُّ عنِّي ، فأمشي إلىٰ أنْ يَتبينَ له تَعَبي ، فيَقولُ لي : هَلْ عَييتَ ؟ فأخافُه ، وأقُولُ : لا فيَقولُ : لِمَ تُقَصِّرْ في المَشْيِ ؟ فأُسْرِعُ بين يَديْه ساعةً ، ثم أعْجَزُ ، فيَأخُذُ الآخَرَ فيُلقيه ، فأمشي حتَّىٰ أعْطَب ، فحينئذ كانَ يَأخُذني ويَحمِلُني ، وكُنَّا نَلتَقي جَماعَةً من الفَلاَّحينَ وغَيرَهم ، فيَقولون : يا شَيخُ

---

(١) انظر السير : (ابنُ حِبَّان) ١٦/ ٩٢ـ ١٠٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٦٩ .

(٢) انظر السير : (محمَّدُ بنُ طاهِر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٨٦ .

عيسَىٰ ، ادْفَع إلينا هـٰذا الطِّفْلَ نُرَكِبُه وإيَّاكَ إلىٰ بُوشَنْج ، فيَقولُ : مَعاذَ الله أنْ نَركَبَ في طَلَبِ أحاديثِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، بلْ نَمشِي ، وإذا عَجزَ أرْكَبْتُه علىٰ رَأسي إجْلالاً لحَديثِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ورَجاءَ ثَوابِه فكانَ ثَمرَةُ ذلكَ من حُسْنِ نِيَّتِه أنِّي انْتَفَعتُ بسَماعِ هـٰذا الكِتاب وغَيرِه ، ولَمْ يَبْقَ من أقْراني أحَدٌ سِوايَ ، حتَّىٰ صارَت الوُفُودُ تَرحَلُ إلَيَّ من الأمْصارِ ثم أشارَ إلىٰ صاحِبنا عبدِ الباقي بنِ عبدِ الجَبَّار الهَرَويِّ أنْ يُقدِّمَ ليَ حَلوَاءَ ، فقُلتُ : يا سَيِّدي ، قِراءَتي لجُزءِ أبي الجَهْم أحَبُّ إليَّ من أكْلِ الحَلْواء ، فتَبسَّمَ ، وقالَ : إذا دَخلَ الطَّعامُ خَرجَ الكَلامُ ، وقَدَّمَ لنا صَحْناً فيه حَلْواءُ الفانيذ ، فأكَلنا ، وأخْرَجتُ الجُزءَ ، وسَألتُه إحْضَارَ الأصْلِ ، فأحْضَرَه ، وقالَ : لا تَخَفْ ولا تَحْرِصْ ، فإنِّي قد قَبرتُ مِمَّنْ سَمعَ عليَّ خَلقاً كثيراً ، فسَلْ اللهَ السَّلامَةَ ، فقَرأتُ الجُزءَ ، وسُرِرْتُ به ، ويَسَّر اللهُ سَماعَ « الصَّحيحِ » وغَيرِه مِراراً[1] .

السَّمْعانيُّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الإمامُ الحافِظُ الكَبيرُ الأوْحَدُ الثِّقةُ ، مُحدِّثُ خُراسَانَ ، أبو سَعْد عبدُ الكَريم بنِ الإمامِ الحافِظِ النَّاقِد أبي بَكْر محمَّدِ بنِ العَلاَّمَة مُفْتي خُراسَانَ أبي الْمُظفَّر مَنْصُور ، التَّميميُّ السَّمْعانيُّ الخُرَاسَانيُّ الْمَرْوَزيُّ ، صاحبُ الْمُصنَّفاتِ الكَثيرَة .

وُلد بمَرْوَ ، سَنةَ سِتٍّ وخَمسِ مئة[2] .

ولا يُوصَف كَثرةُ البلادِ والمَشايخ الذين أخذَ عنهم .

فسَمعَ بآمُل طَبَرِسْتان ، وبأبِيْوَرد ، وبإسفرايين ، وبالأنْبار ، وببُخارَىٰ ، وببُروجِرْد ، وببَسْطام ، وبالبَصْرة ، وببَغْشور ، وببَلْخ ، وبتِرْمِذ ، وبجُرْجان ، وبحَلَب ، وبحَماة ، وبحَمْص ، وبخَرْتَنْك عند قَبرِ البُخاريِّ ، وبخُسْرَوجِرد ، وبالريِّ ، وبسَرْخَس ، وبسَمَرْقَند ، وبهَمَذان وهَراة والحَرمَين ، والكُوفَة ، وطُوس ،

---

(١) انظر السير : (أبو الوقت) ٢٠/٣٠٣ـ٣١١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٥٣ .

(٢) انظر السير : (السَّمْعَانيُّ) ٢٠/٤٥٦ـ٤٦٥ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٧ .

والكَرخ ، ونَسَا ، وواسِط ، والمَوْصِل ، ونَهاوَنْد ، والطَّالقان ، وبوشنج ، والمَدائن ، وبِقاعٍ يَطولُ ذِكْرُها بحيث إنَّه زارَ القُدسَ والخَليلَ وهما بأيْدي الفِرَنْج ، تَحيَّلَ ، وخاطَرَ في ذلك ، وما تَهيَّأَ ذلكَ للسِّلَفيِّ ولا لابنِ عَساكر .

وكان ظَريفَ الشَّمائل ، حُلوَ المُذاكَرَة ، سَريعَ الفَهْم ، قَويَ الكتابَة سَريعَها ، دَرسَ وأفْتَىٰ ووَعَظَ ، وسادَ أهلَ بَيتِه ، وكانوا يُلقِّبونَه بلقَب والدِه تاج الإسلام ، وكان أبُوه يُلقَّب أيضاً مُعين الدِّين[1] .

قالَ ابنُ النَّجَّار : سَمعتُ مَنْ يَذكرُ أنَّ عَددَ شُيوخِ أبي سَعْد سَبعَةُ آلافِ شَيخ قالَ : وهٰذا شَيءٌ لَمْ يَبلُغْه أحَدٌ ، وكانَ مَليحَ التَّصانيفِ كَثيرَ النشوارِ والأناشِيدِ ، لَطيفَ الْمِزاجِ ، ظَريفاً ، حافِظاً ، واسِعَ الرِّحْلَة ، ثِقةً صَدوقاً دَيِّناً ، سَمعَ منه مَشايخُه وأقرانُه .

ماتَ الحافِظُ أبو سَعْد سَنةَ اثنَتَينِ وسِتِّينَ وخَمسِ مئة بمَرْو وله سِتٌّ وخَمسُونَ سَنةً[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ السِّلَّفيِّ : بَقيَ ثَمانيَةَ عَشرَ عَاماً ، يَكتُبُ الحَديثَ والفِقْهَ والأدَبَ والشِّعْرَ وقَدِمَ دِمَشْقَ سَنةَ تِسعٍ وخَمسِ مئة ، فأقامَ بها سَنَتَينِ ، يَكتُبُ العِلْمَ مُقيماً بالخانقاه ثم اسْتَوطَنَ ثَغْرَ الإسْكَندَرِيَّة بضْعاً وسِتِّينَ سَنةً وإلىٰ أنْ ماتَ يَنشُرُ العِلمَ ويُحصِّلُ الكُتبَ التي قَلَّ ما اجْتمَعَ لعَالِمٍ مثلَها في الدُّنيا .

ارْتَحلَ إليه خَلقٌ كَثيرٌ جداً ، ولا سيَّما لَمَّا زالَت دَولَةُ الرَّفْضِ عن إقْليمِ مِصْرَ وتَملَّكَها عَسكَرُ الشَّامِ ، فارْتَحلَ إليه السُّلطَانُ صَلاحُ الدِّينِ ، وإخْوَتُه وأُمَراؤُه ، فسَمِعُوا منه .

وحدَّث عنه الأئمَّةُ وكانَ مُكبّاً على الكِتابَة والاشْتِغالِ والرِّوايَة ، لا رَاحَةَ له غالباً إلاَّ في ذلك ولَه تَصانيفُ كَثيرة ، وكانَ يَستَحسِنُ الشِّعرَ ، ويَنظُمُه ، ويُثيبُ مَنْ يَمدَحُه[3] .

---

(١) انظر السير : (السَّمْعَانيُّ) ٢٠/٤٥٦ـ٤٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٧ .

(٢) انظر السير : (السَّمْعَانيُّ) ٢٠/٤٥٦ـ٤٦٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٧ .

(٣) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/٥ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٩١ .

٣ـ الهِمَّةُ العَاليَةُ في التَّصْنيفِ والقِراءَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الجَاحِظِ : كان من بُحُورِ العِلمِ ، وتَصانيفُه كثيرة جداً قيلَ : لَمْ يَقَع بيَدِه كتابٌ قَطُّ إلاَّ اسْتَوفَىٰ قِراءَتَه ، حتَّىٰ إنَّه كانَ يَكتَري دكاكينَ الكُتْبيِّينَ ، ويَبيتُ فيها للمُطالَعَة ، وكانَ باقِعَةً[1] في قُوَّةِ الحِفظِ .

وله كتابُ « الحيَوان » سَبعَ مُجلَّدات ، وأضَافَ إليه كتابَ « النِّساء » وهو فَرقُ ما بَينَ الذَّكَرِ والأُنْثَىٰ ، وكتابُ « البِغَال » وقد أُضيفَ إليه كتابٌ سَمَّوهُ كتابَ « الجِمَال » لَيسَ من كَلامِ الجاحِظِ ، ولا يُقارِبُه .

قالَ رَجلٌ للجاحِظِ : ألَكَ بالبَصْرَة ضَيْعَةٌ ؟ قالَ : فتَبسَّمَ ، وقالَ : إنَّما إناءٌ وجارِيَةٌ ومَنْ يَخدِمُها ، وحِمارٌ ، وخادِمٌ أَهْدَيتُ كتابَ « الحَيَوان » إلى ابنِ الزيَّات ، فأعْطَاني ألْفَيْ دينار ، وأَهْدَيتُ إلىٰ فُلان فذَكَر نَحْواً من ذلك ، يَعني : أنَّه في خَيرٍ وثَروَةٍ[2] .

وقالَ الحاكمُ : سَمعتُ أبا عَليٍّ محمَّدَ بنَ أحمَدَ بنِ زَيْد الْمُعدَّل يَقولُ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ الذُّهْليِّ يَقولُ : دَخلتُ علىٰ أبي في الصَّيفِ الصائف وَقتَ القائلَة وهو في بَيتِ كُتبِه ، وبينَ يَدَيه السِّراجُ ، وهو يُصنِّفُ ، فقُلتُ : يا أبتِ هـٰذا وَقتُ الصَّلاةِ ، ودُخانُ هـٰذا السِّراج بالنَّهارِ ، فلو نفَّسْتَ عن نَفسِك قالَ : يا بُنَي ، تَقولُ لي هـٰذا ، وأنا مع رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وأصْحابِه والتَّابِعينَ ! ![3] .

وقالَ محمَّدُ بنُ يُوسُف البخاريُّ : كُنتُ مع مُحمَّدِ بنِ إسْماعيلَ البُخاري بمَنزِله ذاتَ لَيلَة ، فأحْصَيتُ عليه أنَّه قامَ وأسْرَجَ يَسْتَذكِرُ أشْياءَ يُعلِّقُها في لَيلةٍ ثَمان عَشرَةَ مرَّة[4] .

---

(١) أي داهيةً ، يُقالُ : ما فُلانٌ إلاَّ باقِعَة من البَواقع ، سُمِّيَ باقعة لحلوله بقاع الأرض ، وكثرة تنقيبه في البلاد ، ومعرفته ما بها ، فشبه الرجل البصير بالأمور ، الكثير البحث عنها ، المجرب لها به ، والهاء دخلت في نعت الرجل للمبالغة في صفته ، كما قالوا : رجلٌ علاَّمَة ونسَّابَة .

(٢) انظر السير : (الجَاحظُ) ١١/ ٥٢٦ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٦٦ .

(٣) انظر السير : (الذُّهْليُّ وابنُه) ١٢/ ٢٧٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٠٠ .

(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠١٢ .

وقالَ الخَطيبُ : سَمعتُ عليَّ بنَ عُبَيدِ الله اللُّغَويَّ يَحكي : أنَّ محمَّدَ بنَ جَرير مَكثَ أرْبَعينَ سَنةً يَكتُبُ في كُلِّ يَومٍ منها أرْبَعينَ وَرَقةً .

قالَ الخَطيبُ : وبَلغَني عن أبي حامِد أحمدِ بنِ أبي طاهِر الإسْفَراييني الفَقيه أنَّه قالَ : لَوْ سافَرَ رَجلٌ إلى الصِّينِ حتَّىٰ يُحَصِّلَ تَفسيرَ محمَّد بنِ جَرير لَمْ يَكُنْ كثيراً .

قالَ الحاكمُ : سَمعتُ حُسَيْنَك بنَ عليّ يَقولُ : أوَّلُ ما سَألَني ابنُ خُزَيْمَة فقالَ لي : كَتبتَ عن محمَّدِ بنِ جَرير الطَّبَري ؟ قُلتُ : لا ، قالَ : ولِمَ ؟ قُلتُ : لأنَّه كان لا يَظهرُ ، وكانت الحَنابلَةُ تَمنَعُ من الدُّخولِ عليه ، قالَ : بئسَ مَا فَعلتَ ، لَيتَكَ لَمْ تَكتُبْ عن كُلِّ مَنْ كَتبتَ عَنهم ، وسَمعتَ من أبي جَعْفَر .

قالَ الحاكمُ : وسَمعتُ أبا بَكْر بنَ بالُويه يَقولُ : قالَ لي أبو بَكْر بنُ خُزَيْمَة : بَلغَني أنَّك كَتبتَ التَّفسيرَ عن محمَّدِ بنِ جَرير ؟ قُلتُ : بَلَىٰ كَتبتُه عنه إمْلاءً ، قالَ : كُلَّه ؟ قُلتُ : نَعَم ، قالَ في أيِّ سَنةٍ ؟ قُلتُ : من سَنةِ ثَلاثٍ وثَمانينَ إلىٰ سَنةِ تِسعينَ ومِئتَين قالَ : فاسْتَعارَه منِّي أبو بَكْر ابنُ خُزَيْمَة ، ثم رَدَّه بعدَ سِنينَ ، ثم قالَ : لقد نَظرتُ فيه من أوَّلِه إلىٰ آخِرِه وما أعْلَمُ علىٰ أديمِ الأرْضِ أعْلَمَ من محمَّدِ بنِ جَرير ولقد ظَلمَتْه الحَنابِلَة[1] .

وقالَ ابنُ الآبَنُوسي : كانَ الحافِظُ الخَطيبُ البَغْداديُّ يَمشي وفي يَدِه جُزءٌ يُطالِعُه[2] .

قالَ يَحْيَىٰ بنُ البَنَّاء : كانَ الحُمَيْديُّ من اجْتهادِه يَنسَخُ باللَّيلِ في الحَرِّ ، فكانَ يَجلسُ في إجَّانَةٍ في ماءٍ يَتبرَّدُ به .

قالَ الحُسَينُ بنُ محمَّد بنِ خُسْرو : جاءَ أبو بَكْر بنُ مَيْمونَ ، فدَقَّ البابَ على الحُمَيْديِّ ، وظنَّ أنَّه أذِنَ له ، فدَخلَ ، فوَجدَه مَكشُوفَ الفَخْذِ فبَكى الحُمَيْديُّ ، وقالَ : والله لقد نَظَرتَ إلىٰ مَوْضِعٍ لَمْ يَنظُرهُ أحَدٌ منذُ عَقَلتُ .

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ١/١١٥١ .
(٢) انظر السير : (الخَطيبُ) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤١٣ .

قالَ القاضي عِياض : محمَّدُ بنُ أبي نَصْر الأزْديُّ الأنْدَلُسيُّ ، سَمعَ بميُورقَةَ من ابنِ حَزْم قَديماً ، وكانَ يَتعصَّبُ له ، ويَميلُ إلىٰ قَولِه وأصَابَته فيه فَتنَةٌ ، ولَمَّا شُدِّدَ على ابنِ حَزْم ، خَرجَ الحُمَيْديُّ إلى الْمَشْرِقِ .

تُوفِّيَ الحُمَيْديُّ سَنةَ ثَمانٍ وثَمانينَ وأرْبَع مئة عن بضعٍ وستِّينَ سَنةً أو أكثر ، وصلَّىٰ عليه أبو بَكر الشَّاشي ، ودُفنَ بمَقْبَرَة باب أبْرَز ، ثم إنَّهم نَقلوهُ بعدَ سَنتَين إلىٰ مَقْبَرَة بابِ حَرْب ، فدُفِنَ عندَ بِشْرٍ الحافي[1] .

قالَ الحافِظُ عبدُ القادِر الرَّهاويُّ : وسَمعتُ أبا الفَضْل بنَ بُنَيْمانَ الأديبَ يَقولُ : رَأيتُ أبا العَلاء العَطَّار الهَمَذانيَّ في مَسجدٍ من مَساجِد بَغدادَ يَكتُبُ وهو قائمٌ ، لأنَّ السِّراجَ كان عالياً ، إلىٰ أنْ قالَ : فعَظُمَ شَأنُه في القُلوب ، حتَّىٰ إنْ كانَ ليَمُرُّ في هَمَذانَ فلا يَبقَىٰ أحَدٌ رَآهُ إلاَّ قامَ ودَعا له ، حتَّى الصِّبْيانُ واليَهودُ ، ورُبَّما كانَ يَمضي إلىٰ بَلدَةِ مُشْكَانَ يُصلِّي بها الجُمُعَة ، فيَتلقَّاهُ أهلُها خارجَ البَلدِ ، الْمُسلِمُونَ علىٰ حِدَة ، واليَهُودُ علىٰ حِدَة ، يَدعُونَ له ، إلىٰ أنْ يَدخُلَ البَلَد .

وكان يُفْتَحُ عليه من الدُّنيا جُمَلٌ ، فلَمْ يدَّخِرْها ، بل يُنْفِقُها علىٰ تَلامِذَتِه ، وكانَ عليه رُسومٌ لأقْوَام ، وما كانَ يَبرَح عليه ألفُ دينار هَمَذانيَّة أو أكثر من الدَّيْن ، مع كثرَةِ ما كانَ يُفْتَحُ عليه .

وكانَ يَطلبُ لأصْحابِه من النَّاس ، ويُعِزُّ أصْحابَه ومَنْ يَلُوذُ به ، ولا يَحضُرُ دَعوَةً حتَّىٰ يَحضُرَ جَماعَةُ أصْحابِه ، وكانَ لا يَأكُلُ من أمْوالِ الظَّلمَة ، ولا قَبِلَ منهم مَدرَسةً قَطُّ ولا رِباطاً ، وإنَّما كانَ يُقرىءُ في دارِه ، ونَحنُ في مَسجِدِه سُكَّانٌ .

وكانَ يُقرىءُ نصفَ نَهارِه الحَديثَ ، ونصفَه القُرآنَ والعِلمَ ولا يَغْشَى السَّلاطينَ ، ولا تَأخُذُه في الله لَوْمَةُ لائم ، ولا يُمَكِّنُ أحداً في مَحِلَّتِه أنْ يَفعَلَ مُنْكَراً ، ولا سَماعاً ، وكان يُنَزِّلُ كلَّ إنْسانٍ مَنزلَته ، حتَّىٰ تألَّفَت القُلوبُ علىٰ مَحبَّتِه وحُسْنِ الذِّكر له في الآفاقِ البَعيدَة ، حتَّىٰ أهْلُ خُوارِزْمَ الذين هم مُعْتَزِلَة مع شِدَّته في الحَنْبَلَة .

---

(١) انظر السير : (الحُمَيْديُّ) ١٩/ ١٢٠ـ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٦٩ .

وكانَ حَسنَ الصَّلاة لَمْ أرَ أحَداً من مَشايخنا أحْسَنَ صَلاةً منه ، وكانَ مُتَشدِّداً في أمْرِ الطَّهارَة ، لا يَدعُ أحَداً يَمَسُّ مَداسَه ، وكانَت ثيابُه قِصاراً ، وأكْمَامُه قِصاراً ، وعَمامَتُه نَحْوَ سَبعَةِ أذْرُع .

وكانَ السُّنَّة شِعارَه ودِثارَه اعْتقاداً وفِعْلاً ، بحَيثُ إنَّه كانَ إذا دَخلَ مَجلِسَه رَجلٌ ، فقَدَّمَ رِجلَه اليُسْرَىٰ كلَّفَه أنْ يَرجِعَ ، فيُقدِّمَ اليُمْنَىٰ ، ولا يَمسُّ الأجْزاءَ إلاَّ علىٰ وُضوءٍ ، ولا يَدْعُ شَيئاً قَطُّ إلاَّ مُستَقبِلَ القِبلَة تَعظيماً لها .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا لَمْ يَردْ فيه ثَوابٌ .

وسَمعتُ الحافِظَ أبا القاسِم عليَّ بنَ الحَسَن يَقولُ وذَكرَ رَجلاً من أصْحابِه رَحَلَ : إنْ رَجَعَ ولَمْ يَلقَ الحافِظَ أبا العَلاء ضاعَت رِحلَتُه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كانَ أبو العَلاء الحافِظُ في القِراءاتِ أكبرَ منه في الحَديثِ ، مع كَونِه من أعْيانِ أئمَّة الحَديثِ ، له عدَّة رَحلات إلىٰ بَغدادَ وأصْبَهانَ ونيسَابُورَ .

تُوفِّيَ أبو العَلاءِ الهَمَذانيُّ بها سَنةَ تِسْعٍ وستِّينَ وخَمسِ مئة ، وله نَيِّفٌ وثَمانونَ سَنةً[1] .

وقالَ ابنُ النَّجَّار : سَمعتُ أبا القاسِمِ الْمُقرىءَ جارَنا يَقولُ ، وكانَ صالِحاً : كان الحازِميُّ رَحمَه اللهُ في رِباطِ البَديع ، فكانَ يَدخُلُ بَيتَه في كُلِّ لَيلَةٍ ، ويُطالعُ ، ويَكتُبُ إلىٰ طُلوعِ الفَجْر ، فقالَ البَديعُ للخادِم : لا تَدفَع إليه اللَّيلَةَ بزراً للسِّراجِ لعلَّه يَستريحُ اللَّيلةَ قالَ : فلمَّا جَنَّ اللَّيلُ ، اعتَذرَ إليه الخادِمُ لأجلِ انْقِطاع البزر ، فدَخلَ بَيتَه ، وصَفَّ قدَمَيه يُصلِّي ، ويَتلو ، إلىٰ أنْ طَلَعَ الفَجرُ ، وكانَ الشَّيخُ قد خَرجَ ليَعرِفَ خَبرَه ، فوَجدَه في الصَّلاةِ .

ماتَ أبو بَكر الحازِميُّ سَنةَ أرْبَع وثَمانينَ وخَمسِ مئة ، وله سِتٌّ وثَلاثونَ سَنةً[2] .

---

(١) انظر السير : (أبو العَلاءِ الهَمَذانيُّ) ٢١/ ٤٠ـ ٤٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٩٥ .

(٢) انظر السير : (الحازِميُّ) ٢١/ ١٦٧ـ ١٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٦ .

٤ـ صُوَرٌ مُتنوِّعَة على الهِمَّة العاليَة :

قصَّةُ سَلْمان الفارسيّ رضي الله عنه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : قالَ الحافِظُ أبو القاسِمِ بنُ عَسَاكِر : وهو سَلْمانُ ابنُ الإسْلام ، أبو عبدِ الله الفَارِسيُّ سابِقُ الفُرسِ إلى الإسْلام ، صَحِبَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وخَدمَه وحدَّثَ عنه .

وكانَ لَبيباً حازِماً من عُقَلاءِ الرِّجالِ وعُبَّادِهم ونُبَلائهم[1] .

عن عُرْوَةَ بن رُويم ، عن القاسِم أبي عبدِ الرحمَـٰن حدَّثه قالَ : زارَنا سَلمانُ الفارسيُّ فصلَّى الإمامُ الظُهرَ ، ثم خَرجَ وخَرجَ النَّاسُ ، يَتلقَّوْنَه كما يُتلَقَّى الخَليفَةُ ، فلَقيناهُ وقد صلَّىٰ بأصْحابِه العَصرَ ، وهو يَمشي فوَقَفْنا نُسلِّمُ عليه ، فلَمْ يَبقَ فينا شَريفٌ إلاَّ عَرضَ عَليه أنْ يَنزِلَ به ، فقالَ : جَعلتُ علىٰ نَفسِي مرَّتي هـٰذه أنْ أنزلَ علىٰ بَشيرِ بنِ سَعْد فلمَّا قَدمَ ، سَألَ عن أبي الدَّرْداء ، فقالوا : هو مُرابطٌ ، فقالَ : أينَ مُرابَطُكم ؟ قالوا : بَيرُوت ، فتَوجَّه قِبَلَه ، قالَ : فقالَ سَلمانُ : يا أهلَ بَيرُوتَ : ألا أُحدِّثُكم حَديثاً يُذهِبُ الله به عَنكم عَرضَ الرِّباط سَمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولُ : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ كصِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطاً أُجِيرَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ ، وَجَرَىٰ لَهُ صَالِحُ عَمَلِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[2] .

عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ : حدَّثني سَلْمانُ الفَارِسيُّ قالَ : كُنتُ رَجلاً فارسياً من أهلِ أصْبَهانَ ، من أهلِ قَريَةٍ منها يُقالُ لها : جيّ ، وكانَ أبي دِهْقانَها وكنتُ أحبَّ خَلقِ الله إليه ، فلَمْ يَزلْ بي حبُّه إيَّاي حتَّىٰ حَبسَني في بَيتِه كما تُحبَسُ الجاريَةُ ، فاجْتَهدتُ في الْمَجوسيَّة حتَّىٰ كنتُ قاطِنَ النَّارِ الذي يُوقِدُها لا يَترُكُها تَخبُو سَاعةً وكانت لأبي ضَيْعَةٌ عَظيمَةٌ ، فشُغلَ في بُنيَانٍ له يَوماً ، فقالَ لي : يا بُنَيَّ إنِّي قد شُغلتُ في بُنيَاني هـٰذا اليومَ عن ضَيْعَتي ، فاذْهَب فاطَّلعْها ، وأمَرَني ببَعض ما يُريدُ فخَرجتُ ، ثم قالَ : لا تَحْتَبسْ

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٩٨ .

(٢) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٩٨ .

عليَّ ، فإنَّك إنْ احْتَبستَ عليَّ كُنتَ أهَمَّ إليَّ من ضَيْعَتي ، وشَغلَتْني عن كُلِّ شَيءٍ من أمْري فخَرجتُ أريدُ ضَيعَتَه ، فمَرَرتُ بكَنيسَةٍ من كَنَائسِ النَّصارَىٰ ، فسَمعتُ أصْواتَهم فيها وهم يُصلُّونَ ، وكُنتُ لا أدْري ما أمْرُ النَّاسِ بحَبْسِ أبي إيَّايَ في بَيتِه ، فلمَّا مَرَرْتُ بهم ، وسَمعتُ أصْواتَهم ، دَخَلتُ إليهم أنْظُرُ ما يَصْنَعونَ ، فلمَّا رَأيتُهم أعْجَبَني صَلوَاتُهم ، ورَغِبتُ في أمْرِهِم ، وقُلتُ : هـٰذا والله خَيرٌ من الدِّينِ الذي نَحنُ عليه ، فوالله ما تَركتُهم حتَّىٰ غَرَبَت الشَّمسُ ، وتَركتُ ضَيْعَةَ أبي ولَمْ آتِهَا ، فقُلتُ لهم : أينَ أصْلُ هـٰذا الدِّينِ ؟ قالوا : بالشَّامِ .

قالَ : ثم رَجعتُ إلىٰ أبي وقد بَعثَ في طَلَبي وشَغَلتُه عن عَملِه كُلِّه ، فلمَّا جِئتُه قالَ : أي بُنَيَّ أينَ كُنتَ ؟ ألَمْ أكُنْ عَهدتُ إليكَ ما عَهدتُ ؟ قُلتُ : يا أبَتِ مَرَرتُ بناسٍ يُصَلُّونَ في كَنيسَةٍ لَهم ، فأعْجَبَني ما رَأيتُ من دِينِهم ، فوالله ما زِلتُ عندَهم حتَّىٰ غَربَت الشَّمسُ قالَ أي بُنَيَّ لَيسَ في ذلكَ الدِّينِ خَيرٌ ، دينُكَ ودينُ آبائكَ خَيرٌ منه قُلتُ : كلاَّ والله! إنَّه لَخَيرٌ من دِينِنا قالَ : فخَافَني ، فجَعلَ في رِجْلي قَيداً ، ثم حَبَسَني في بَيتِه ، قالَ : وبَعَثتُ إلى النَّصارَىٰ فقُلتُ : إذا قَدِمَ عَليكُم رَكبٌ من الشَّامِ تُجَّارٌ من النَّصَارَىٰ ، فأخْبِرُوني بهم فقَدِمَ عَليهم رَكبٌ من الشَّامِ قالَ : ففَعَلوا فألْقَيتُ الحَديدَ من رِجْلي ، ثم خَرجْتُ مَعهم حتَّىٰ قَدِمْتُ الشَّامَ فلمَّا قَدمْتُها ، قُلتُ : مَنْ أفْضَلُ أهْلِ هـٰذا الدِّينِ ، قالوا : الأُسْقُفُ في الكَنيسَة فجئتُه ، فقُلتُ : إنِّي قد رَغِبتُ في هـٰذا الدِّينِ ، وأحْبَبتُ أنْ أكُونَ مَعكَ أخْدُمُكَ في كَنيسَتِك ، وأتَعلَّمُ منكَ ، وأُصَلِّي مَعكَ قالَ : فادْخُلْ ، فدَخَلتُ مَعه ، فكانَ رَجُلَ سُوءٍ يَأمُرُهم بالصَّدَقَةِ ويُرَغِّبُهم فيها ، فإذا جَمَعوا منها شَيئاً ، اكْتَنزَه لنَفسِه ، ولَمْ يُعطِه الْمَساكينَ حتَّىٰ جَمعَ سَبعَ قِلالٍ من ذَهَبٍ ووَرِق ، فأبْغَضتُه بُغضاً شَديداً لِمَا رَأيتُه يَصنَعُ ثم ماتَ ، فاجْتَمَعَت إليه النَّصارَىٰ لِيَدفِنُوه ، فقُلتُ لهم : إنَّ هَـٰذا رَجُلُ سُوءٍ ، يَأمُرُكُم بالصَّدَقَةِ ، ويُرَغِّبُكم فيها ، فإذا جئتُم بها ، كَنزَها لنَفسِه ، ولَمْ يُعْطِ الْمَساكينَ ، وأَرَيتُهم مَوْضِعَ كَنزِهِ سَبعَ قِلالٍ مَمْلوءَة ، فلمَّا رَأوْها قالوا : والله لا نَدفِنُه أبَداً .

فصَلَبُوهُ ثم رَمَوْه بالحِجَارَة ثم جاؤوا برَجُلٍ جَعلُوه مَكانَه ، فما رَأيتُ رَجُلاً ـ يَعني

لا يُصَلِّي الخَمسَ ـ أرَىٰ أنَّه أفْضَلَ منه ، أزْهَدَ في الدُّنيا ، ولا أرْغَبَ في الآخِرَة ، ولا أدْأبَ لَيلاً ونَهاراً ، ما أعْلَمُني أحْبَبتُ شَيئاً قَطُّ قَبلَه حُبَّه ، فلَمْ أزَلْ مَعَه حتَّىٰ حَضَرَتهُ الوَفاةُ ، فقُلتُ : يا فُلانُ! قد حَضَرَكَ ما تَرَىٰ من أمْرِ الله ، وإنِّي والله ما أحْبَبتُ شَيئاً قَطُّ حُبَّك ، فمَاذا تَأمُرُني وإلىٰ مَنْ تُوصِيني ؟

قالَ لي : يا بُنَيَّ والله ما أعْلمُه إلاَّ رَجُلاً بالْمَوْصِلِ ، فائتِه ، فإنَّكَ سَتجدُه علىٰ مثلِ حالي .

فلمَّا ماتَ وغُيِّبَ ، لَحِقتُ بالْمَوْصِلِ ، فأتَيتُ صاحِبَها ، فوَجدتُه علىٰ مثلِ حالِه من الاجْتِهادِ والزُّهْدِ فقُلتُ له : إنَّ فُلاناً أوْصَاني إليكَ أنْ آتيكَ وأكُونَ مَعَك قالَ : فأقِمْ أي بُنَيَّ ، فأقَمتُ عندَه علىٰ مثلِ أمْرِ صاحِبِه حتَّىٰ حَضَرَتهُ الوَفاةُ فقُلتُ له : إنَّ فُلاناً أوْصَىٰ بي إليكَ وقد حَضَرَكَ من أمْرِ اللهِ ما تَرَىٰ ، فإلىٰ مَنْ تُوصِي بي ؟ وما تَأمُرُني به ؟ قالَ : واللهِ ما أعْلَمُ ، أي بُنَيَّ ، إلاَّ رَجُلاً بنَصِيبينَ .

فلمَّا دَفنَّاه ، لَحِقتُ بالآخَرِ ، فأقَمتُ عندَه علىٰ مثلِ حالِهم حتَّىٰ حَضَرَه الْمَوتُ ، فأوْصَىٰ بي إلىٰ رَجُلٍ من أهْلِ عَمُّوريَة بالرُّومِ ، فأتَيتُه فوَجَدتُه مثلَ حالِهم ، واكْتَسَبتُ حتَّىٰ كانَ لي غُنيمَةٌ وبُقَيْرات .

ثم احْتُضِرَ فكلَّمتُه إلىٰ مَنْ يُوصي بي ؟ قالَ : أي بُنَيَّ! والله ما أعْلمُه بَقِيَ أحَدٌ علىٰ مثلِ ما كُنَّا عليه آمُرُكَ أنْ تَأتيَه ، ولكنْ قد أظَلَّكَ زَمَانُ نَبيٍّ يُبعَثُ من الحَرَم ، مُهَاجَرُه بَينَ حَرَّتَينِ إلىٰ أرْضٍ سَبخَة ذاتِ نَخْلٍ ، وإنَّ فيه عَلامَاتٌ لا تَخْفَىٰ ، بَينَ كَتفَيْه خَاتَمُ النُّبوَّة ، يَأكُلُ الهَديَّة ولا يَأكُلُ الصَّدَقَة ، فإنِ اسْتَطعْتَ أنْ تَخلُصَ إلىٰ تِلكَ البِلادِ فافْعَلْ ، فإنَّه قد أظَلَّكَ زَمانُه .

فلمَّا وَارَيْناهُ ، أقَمتُ حتَّىٰ مَرَّ بي رِجالٌ من تُجَّارِ العَرَبِ من كَلبٍ ، فقُلتُ لهم : تَحمِلُوني إلىٰ أرْضِ العَرَبِ ، وأُعْطيكُم غُنَيْمَتي وبَقَراتي هـٰذه ؟ قالوا : نَعَم فأعْطَيتُهم إيَّاها وحَمَلُوني ، حتَّىٰ إذا جاؤوا بي وَادي القُرَىٰ ، ظَلَمُوني ، فبَاعُوني عَبْداً من رَجُلٍ يَهُوديٍّ بوَادي القُرَىٰ فوالله لَقَدْ رَأيتُ النَّخلَ ، وطَمِعتُ أنْ يَكُونَ البَلَدَ الذي نَعتَ لي صاحِبي .

وما حقَّت عندي حتَّىٰ قَدِمَ رَجلٌ من بَني قُرَيْظَة وادي القُرَىٰ ، فابْتَاعَني من صاحِبي ، فخَرَجَ بي حتَّىٰ قَدِمْنا الْمَدينَةَ فوالله ما هُو إلاَّ أنْ رَأيتُها ، فعَرفْتُ نَعْتَها .

فأقَمتُ في رِقِّي ، وبَعثَ اللهُ نَبيَّه صلى الله عليه وسلم بمَكةَ لا يُذكَرُ لي شَيءٌ من أمْرِه مع ما أنا فيه من الرِقِّ ، حتَّىٰ قَدِمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قُبَاءَ ، وأنا أعمَلُ لِصَاحِبي في نَخلَةٍ له ، فوالله إنِّي لفيها إذ جاءَه ابنُ عَمٍّ له ، فقالَ : يا فُلانُ قاتَلَ الله بَني قَيلة ، والله إنَّهم الآنَ لَفِي قُباءَ مُجتَمِعُونَ علىٰ رَجُلٍ جاءَ من مَكةَ يَزعُمُونَ أنَّه نَبيٌّ .

فوالله ما هو إلاَّ أنْ سَمعتُها فأخَذَتني العُرَواءُ ـ يَقولُ الرِّعْدَة ـ حتَّىٰ ظَنَنتُ لأسْقُطَنَّ علىٰ صَاحِبي ونَزَلتُ أقُولُ : ما هـٰذا الخَبرُ ؟

فرَفعَ مَوْلايَ يَدَه فلَكمَني لَكمَةً شَديدَةً ، وقالَ : ما لَكَ ولهَـٰذا ؟! أقْبِلْ علىٰ عَمَلِك فقُلتُ : لا شَيءَ ، إنَّما سَمعتُ خَبراً ، فأحْبَبتُ أنْ أعْلمَه .

فلمَّا أمْسَيتُ ، وكانَ عندي شَيءٌ من طَعَامٍ ، فحَمَلتُه وذَهَبتُ إلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بقُبَاءَ ، فقُلتُ له : بَلَغَني أنَّك رَجلٌ صالِحٌ ، وأنَّ مَعكَ أصْحاباً لَكَ غُرَباءَ ، وقد كانَ عندي شَيءٌ من الصَّدَقَة فرَأيتُكم أحَقَّ مَنْ بهـٰذه البِلادِ ، فهَاكَ هَـٰذا ، فكُلْ مِنهُ .

قالَ : فأمْسَكَ ، وقالَ لأصْحابِه : « كلُوا » فقُلتُ في نَفسِي : هـٰذه خَلَّةٌ مِمَّا وَصَفَ لي صَاحِبي .

ثم رَجَعتُ ، وتَحوَّلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الْمَدينَة ، فجَمَعتُ شَيئاً كانَ عندي ثم جِئتُه به فقُلتُ : إنِّي قد رَأيتُكَ لا تَأكُلُ الصَّدَقَة ، وهـٰذه هَديَّةٌ فأكَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأكَلَ أصْحَابُه ، فقُلتُ هـٰذه خَلَّتان .

ثم جِئتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يَتبَعُ جنازَةً وعليَّ شمْلتان لي وهو في أصْحابِه ، فاسْتَدَرتُ أنْظُرُ إلىٰ ظَهرِه هَلْ أرَى الخَاتَم الذي وُصِفَ فلمَّا رآني اسْتَدبَرْتُه عَرفَ أنِّي أتَثَبَّتُ في شَيءٍ وُصِفَ لي ، فألْقَىٰ رِداءَه عن ظَهرِه فنَظَرتُ إلى الخَاتَم فعَرفتُه ، فانْكَبَبْتُ عليه أُقبِّلُه وأبْكي .

فقالَ لي : تَحوَّلْ : فتَحَوَّلتُ ، فقَصَصْتُ عَليه حَديثي كَما حدَّثتُكَ يا ابنَ عَبَّاس ، فأَعْجَبَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يَسمَعَ ذلكَ أَصْحابُه[1] .

ثم شَغلَ سَلمَانَ الرِّقُّ حتَّىٰ فاتَه مع رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بَدْر وأُحُد ثم قالَ رَسُولُ الله : « كَاتِبْ يَا سَلْمانُ » فكاتَبتُ صاحِبي علىٰ ثَلاثِ مئة نَخْلة أُحْييها له بالفَقير وبأرْبَعينَ أُوقِيَة فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصْحابِه : « أَعِينُوا أَخَاكمْ » فأعانُوني بالنَّخْل ، الرَّجُلُ بثَلاثينَ وَدِيَّة[2] ، والرَّجُلُ بعِشرينَ ، والرَّجُلُ بخَمسَ عَشرَة ، حتَّى اجتَمعَت ثَلاثُ مئة وَدِيَّة فقال صلى الله عليه وسلم : « اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَائْتِنِي أَكونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ » ففَقَّرتُ لها وأعَانَني أصْحابي ، حتَّىٰ إذا فَرَغتُ منها ، جئتُه وأخْبَرتُه ، فخَرَجَ مَعي إليها نُقَرِّبُ له الوَدِيَّ ، ويَضَعُه بيَدِه ، فوالذي نَفسُ سَلمانَ بيَدِه ما ماتَت منها وَدِيَّةٌ واحدةٌ فأدَّيتُ النَّخْلَ ، وبَقِيَ عليَّ المالُ ، فأُتِيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بمثلِ بَيْضَة دَجاجَة من ذَهَب من بَعضِ الْمَغَازِي فقالَ صلى الله عليه وسلم : « مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكاتَبُ ؟ » فدُعيتُ له ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « خُذْهَا فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ » قُلتُ : وأينَ تَقعُ هٰذه يا رَسُولَ الله ممَّا عليَّ ؟ قالَ : خُذْها فإنَّ اللهَ سَيؤدِّي بها عَنكَ فأخَذتُها فوَزَنتُ لهم منها أرْبَعينَ أُوقِيَة ، وأَوْفَيتُهم حَقَّهم وعَتقتُ ، فشَهدتُ مع رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم الخَنْدَقَ حُرّاً ، ثم لَمْ يَفُتْني معه مَشهَدٌ[3] .

عن عائذِ بنِ عَمرُو أنَّ أبا سُفْيانَ مَرَّ علىٰ سَلمانَ وبِلال وصُهَيب في نَفَر فقالوا : ما أخَذَت سُيوفُ الله من عُنُق عَدو الله مأخَذَها فقالَ أبو بَكر : تَقولون هٰذا لشَيخ قُرَيش وسَيِّدِها! ثم أتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فأخْبرَه ، فقالَ : « يَا أَبَا بَكرٍ! لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ ، لَئِنْ كنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ » فأتاهُم أبو بَكر فقالَ : يا إخْوَتاهُ أغْضَبتُكم ؟ قالُوا : لا يا أبا بَكر ، يَغفِرُ اللهُ لك[4] .

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٩٨ .
(٢) الودية : جمع ودي : صِغار الفسيل .
(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٠٢ .
(٤) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٠٢ .

عن أبي البَخْتَريِّ قالَ : قيلَ لعَليٍّ : أخْبرنا عن أصْحَابِ محمَّد صلى الله عليه وسلم قالَ : عن أيِّهم تَسألُون ؟ قيلَ : عن عبدِ الله بنِ مَسْعود ، قالَ : عَلِمَ القُرآنَ والسُّنَّةَ ، ثم انتَهىٰ وكَفَىٰ به عِلماً قَالُوا : عَمَّار ؟ قالَ : مُؤمنٌ نَسيٌّ فإنْ ذَكَّرتَه ذَكَرَ ، قالوا : أبو ذَر ؟ قالَ : وَعَىٰ عِلماً عَجَزَ عنه قَالُوا : أبو مُوسَى ؟ قالَ : صُبغَ في العِلمِ صِبْغَةً ، ثم خَرجَ منه قالوا : حُذَيْفَة ؟ قالَ : أعْلمُ أصْحابِ مُحمَّد بالْمُنافِقينَ قَالُوا : سَلْمانُ ؟ قالَ : أدْرَكَ العلمَ الأوَّلَ ، والعِلمَ الآخِر ، بَحْرٌ لا يُدرَكُ قَعْرُه ، وهو منَّا أهلَ البيتِ قَالُوا : فأنتَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : كُنتُ إذا سَألتُ أُعطِيتُ ، وإذا سَكتُّ ابتُديتُ[1] .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم تَلا هـٰذه الآيَة ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾[2] قالوا : يا رَسولَ الله! مَنْ هَؤلاء ؟ قالَ رضي الله عنه : فضَرَبَ عَلىٰ فَخِذِ سَلْمانَ الفَارسِيِّ ، ثم قالَ صلى الله عليه وسلم : « هَـٰذا وَقَوْمُهُ ، وَلَوْ كانَ الدِّينُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ الفُرْسِ »[3] .

عن أبي البَخْتَريِّ قالَ : جاءَ الأشْعَثُ بنُ قَيسٍ وجَريرُ بنُ عبدِ الله ، فدَخَلا علىٰ سَلمَانَ في خُصٍّ فسَلَّما وحَيَّاه ، ثم قَالا : أنتَ صاحِبُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : لا أدْري فارْتابا قالَ : إنَّما صاحِبُه مَنْ دَخَلَ مَعه الجَنَّةَ قالا : جِئنا من عندِ أبي الدَّرْداء ، قالَ : فأينَ هَديَّتُه ؟ قالا : ما مَعنا هَديَّة قالَ : اتَّقيا اللهَ ، وأدِّيا الأمانَةَ ، ما أتاني أحَدٌ من عندِه إلاَّ بهَديَّة ، قالا : لا تَرفَع عَلينا هَـٰذا ، إنَّ لنا أمْوالاً فاحْتَكِم ، قالَ : ما أُريدُ إلاَّ الهَديَّة ، قالا : والله ما بَعثَ مَعنا بشَيءٍ إلاَّ أنَّه قالَ : إنَّ فيكُم رَجُلاً كانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا خَلا به لَمْ يَبغِ غَيرَه ، فإذا أتَيْتُمَاهُ ، فأقْرِئاهُ منِّي السَّلامَ قالَ : فأيُّ هَديَّة كُنتُ أُريدُ مِنْكُما غَيرَ هـٰذه ؟ وأيُّ هَديَّة أفْضَلُ منها ؟[4] .

عن طارِقِ بنِ شِهابٍ عن سَلْمانَ قالَ : إذا كانَ اللَّيلُ ، كانَ النَّاسُ منه علىٰ ثَلاثِ

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٠٣ .
(٢) سورة محمد ، الآية : ٣٨ .
(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٢٠٣ .
(٤) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٢٠٣ .

مَنازِلَ : فمنهم مَنْ لَه ولا عَليه ، ومنهم مَنْ عَليه ولا لَه ، ومنهم مَنْ لا عَليه ولا لَه! فقُلتُ : وكَيفَ ذَاكَ ؟ قالَ : أمَّا مَنْ لَه ولا عَليه ، فرَجلٌ اغْتَنَمَ غَفلَةَ النَّاسِ وظُلمَةَ اللَّيلِ ، فَتوضَّأ وصَلَّىٰ ، فذاكَ لَه ولا عَليه ، ورَجُلٌ اغْتَنَمَ غَفلَةَ النَّاسِ وظُلمَةَ اللَّيلِ فمَشَىٰ في مَعاصي الله ، فذَاكَ عَليه ولا لَه ، ورَجُلٌ نامَ حتَّىٰ أصْبَحَ ، فذَاكَ لا لَه ولا عَليه[1] .

قالَ طارِقٌ : فقُلتُ : لأصْحَبنَّ هـٰذا فضُربَ على النَّاسِ بَعثٌ ، فخَرجَ فيهم ، فصَحبتُه وكُنتُ لا أفْضُلهُ في عَمَلٍ ، إنْ أنا عَجنتُ خَبزَ وإنْ خَبَزتُ طَبخَ ، فنزَلنَا مَنْزِلاً فبِتْنا فيه ، وكانت لِطَارِق سَاعَةٌ من اللَّيلِ يَقُومُها ، فكُنتُ أتَيَقَّظُ لها فأجِدُه نائماً ، فأقُولُ : صاحِبُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، خَيرٌ منِّي نائمٌ ، فأنامُ ثم أقُومُ فأجِدُهُ نائماً فأنامُ ، إلاَّ أنَّه كانَ إذا تَعارَّ من اللَّيلِ قالَ وهو مُضطَجعٌ : سُبْحَانَ اللهِ ، والْحَمْدُ للهِ ، ولا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ ، واللهُ أكبَرُ ، لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلكُ ولَهُ الْحَمْدُ ، وهو علىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ حتَّىٰ إذا كانَ قُبَيلَ الصُّبحِ قامَ فتَوضَّأ ثم رَكَعَ أرْبَعَ رَكَعاتٍ فلمَّا صَلَّيْنا الفَجْرَ قُلتُ : يا أبا عبدِ الله! كانَت ليَ سَاعَةٌ من اللَّيلِ أقُومُها وكُنتُ أتَيَقَّظُ لها فأجدُكَ نائماً ، قالَ : يا ابنَ أخي! فإيش كُنتَ تَسْمَعُني أقُولُ ؟ فأخْبَرتُه ، فقالَ : يا ابنَ أخي تِلكَ الصَّلاةُ ، إنَّ الصَّلوَاتِ الخَمسَ كَفَّاراتٌ لِمَا بَينَهُنَّ ما اجْتُنِبَت الْمَقتَلَة ، يا ابنَ أخي عَليكَ بالقَصْدِ فإنَّه أبْلَغُ[2] .

عن أبي وَائلٍ قالَ : ذَهبتُ أنا وصاحبٍ لي إلىٰ سَلْمانَ ، فقالَ : لَوْلا أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم نَهانا عن التَّكلُّفِ ، لتَكلَّفْتُ لكم ، فجاءَنا بخُبزٍ ومِلْحٍ فقُلتُ لصاحِبي : لَوْ كانَ في مِلْحِنا صَعْتَرٌ فبَعَثَ سَلْمانُ بمِطْهَرَتِه ، فرَهَنَها ، فجاء بصَعْتَر ، فلمَّا أكَلْنا قالَ صاحبي : الحَمْدُ لله الذي قَنَّعَنا بما رَزَقَنا ، فقالَ سَلْمانُ : لَوْ قَنَعْتَ لَمْ تَكُنْ مِطْهَرَتي مَرْهونَةَ[3] .

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٠٤ .
(٢) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٢٠٤ .
(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٢٠٤ .

وعن أَنَس قالَ : دَخلَ سَعدٌ وابنُ مَسْعُود عَلىٰ سَلْمانَ عندَ الْمَوتِ ، فبَكَىٰ فقيلَ له : ما يُبكيكَ ؟ قالَ : عَهدٌ عَهِدَه إلينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، لَمْ نَحْفَظْه قالَ : « لِيَكنْ بَلاغُ أَحَدِكمْ مِنْ الدُّنْيَا كزَادِ الرَّاكبِ » وأمَّا أنتَ يا سَعدُ فاتَّقِ اللهَ في حُكمِكَ إذا حَكمتَ ، وفي قَسْمِكَ إذا قَسَمْتَ ، وعندَ هَمِّكَ إذا هَمَمتَ .

قالَ ثابتٌ : فبَلغَني أنَّه ما تَركَ إلاَّ بضعَةً وعِشرينَ دِرْهَماً نُفَيْقَة كانت عندَه[1] .

عن سَلمانَ ، قالَ : فَترَةُ ما بَينَ عِيسَىٰ ومُحمَّد صلى الله عليه وسلم سِتُّ مئة سَنةً[2] .

ماتَ سَلمانُ في خِلافَة عُثْمانَ بالْمَدائنِ .

قالَ العَبَّاسُ بنُ يَزيد البَحْراني : يَقولُ أَهْلُ العِلمِ : عَاشَ سَلمانُ ثَلاثَ مئةٍ وخَمسينَ سَنةً ، فأمَّا مِئتانِ وخَمسُونَ ، فلا يَشُكُّونَ فيه .

ومَجْموعُ أَمْرِه وأَحْوَالِه ، وغَزْوه ، وهِمَّته ، وتَصَرُّفه ، وسَفَّه للجَريد ، وأشياء مِمَّا تَقدَّمَ يُنبِئُ بأنَّه لَيسَ بمُعَمَّر ولا هَرِم فقد فارَقَ وَطنَه وهو حَدَثٌ ، ولَعلَّه قَدِمَ الحِجَازَ وله أَرْبَعُونَ سَنةً أو أقلُّ ، فلَمْ يَنْشَبْ أنْ سَمعَ بمَبْعَثِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ثم هاجَرَ ، فلَعلَّه عاشَ بِضْعاً وسَبعينَ سَنةً وما أَرَاهُ بَلغَ الْمِئَةَ فمَنْ كانَ عندَه عِلمٌ ، فليُفِدْنا .

وقد نَقلَ طُولَ عُمرِه أبو الفَرَج بنُ الجَوْزي وغَيرُه وما عَلمتُ في ذلكَ شَيئاً يُركَنُ إليه[3] .

عن ثابتٍ البُنانيِّ قالَ : لَمَّا مَرِضَ سَلمانُ ، خَرجَ سَعدٌ من الكُوفَةِ يَعُودُه ، فقَدِمَ ، فوَافَقَه وهو في الْمَوتِ يَبْكي ، فسَلَّمَ وجَلسَ ، وقالَ : ما يُبكيكَ يا أخي ؟ ألا تَذكُرُ صُحْبَةَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا تَذكُرُ الْمَشَاهِدَ الصَّالِحَة ؟

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٠٥ .
(٢) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٢٠٥ .
(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٢٠٥ .

قالَ : والله ما يُبْكيني وَاحِدَةٌ من اثنَتين : ما أبْكي حُبّاً بالدُّنيا ولا كَراهيَةً لِلقاءِ الله قالَ سَعدٌ : فما يُبْكيكَ بعدَ ثَمانينَ ؟ قالَ : يُبْكيني أنَّ خَليلي صلى الله عليه وسلم عَهِدَ إليَّ عَهْداً قالَ : « لِيَكنْ بَلاغُ أَحَدِكمْ مِنْ الدُّنْيَا كزَادِ الرَّاكبِ » وإنَّا قد خَشينا أنَّا قد تَعدَّينا .

رَواهُ بَعضُهم عن ثابِت ، فقالَ : عن أبي عُثْمانَ ، وإرْسَالُه أشْبَه قالَه أبو حاتم ، وهـٰذا يُوضِّحُ لكَ أنَّه من أبْناء الثَّمانينَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وقد ذَكرتُ في تاريخي الكَبير أنَّه عاشَ مِئتَين وخَمسينَ سَنةً ، وأنا السَّاعَةَ لا أرْتَضي ذلكَ ولا أُصَحِّحُه[1] .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : « أَلا تَسْأَلُني مِنْ هَـٰذِهِ الْغَنَائِمِ الَّتِي يَسْأَلُنِي أَصْحَابُكَ ؟ » قُلتُ : أسْأَلُك أنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ فنزعَ نَمِرَةً كانت علىٰ ظَهْري ، فبَسَطَها بَيني وبَينَه ، حتَّىٰ كأنِّي أنْظُرُ إلى النَّمْلِ يَدُبُّ عَليها ، فحدَّثَني ، حتَّىٰ إذا اسْتَوْعَبتُ حَديثَه ، قالَ : « اجْمَعْهَا فَصُرْهَا إِلَيْكَ » فأصْبَحتُ لا أُسْقِطُ حَرْفاً مِمَّا حدَّثني .

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قالَ : تَزعُمُونَ أنِّي أُكثِرُ الرِّوايَةَ عن رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم واللهُ الْمَوْعِدُ إنِّي كُنتُ امْرأً مِسْكيناً ، أصْحَبُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ مِلْءِ بَطنِي ، وإنَّه حدَّثنا يَوماً ، وقالَ : « مَنْ يَبْسُطْ ثَوْبَهُ حَتَّىٰ أَقْضِيَ مَقَالَتِي ، ثُمَّ قَبَضَهُ إِلَيْهِ ، لَمْ يَنْسَ شَيْئاً سَمِعَ مِنِّي أَبَداً » ففَعلتُ فوَالذي بَعثَه بالحَقِّ ، ما نَسيتُ شَيئاً سَمعتُه منه[2] .

عن سَعيدِ بنِ جُبَير ، قالَ : كانَ ناسٌ من الْمُهاجرينَ قد وَجَدوا علىٰ عُمَرَ في إدْنائه ابنَ عَبَّاس دُونَهم قالَ : وكانَ يَسْأَلُه فقالَ عُمَرُ : أما سأُريكُم اليَومَ منه ما تَعْرِفونَ فَضلَه ، فسَألَهم عن هـٰذه السُّورَةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[3] ، فقالَ بَعضُهم : أمَرَ اللهُ

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٠٥ .

(٢) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٠٩ .

(٣) سورة النصر ، الآية : ١ .

نَبيَّه إذا رَأى النَّاسَ يَدخُلونَ في دِينِ الله أفْواجاً أنْ يَحْمَدَه ويَسْتَغْفِرَه فقالَ عُمَرُ : يا ابنَ عَبَّاس تَكلَّم فقالَ : أعْلَمَه متىٰ يَموتُ ، أي : فهي آيَتُكَ من الْمَوْتِ ، فسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْه[1] .

وعن الحَسَن ، أنَّ عامرَ بنَ عبدِ قَيس كانَ يَقولُ : مَنْ أُقْرِىءُ ؟ فيَأتيه نَاسٌ ، فيُقْرِئُهم القُرآنَ ، ثم يَقومُ فيُصلِّي إلى الظُّهْر ، ثم يُصلِّي العَصرَ ، ثم يُقرِىءُ النَّاسَ إلى الْمَغرِبِ ، ثم يُصلِّي ما بَينَ العِشَاءَينِ ثم يَنصَرِفُ إلىٰ مَنزِله ، فيَأكُلُ رَغيفاً ، ويَنامُ نَومَةً خَفيفَةً ، ثم يَقومُ لصَلاتِه ثم يَتسَحَّرُ رَغيفاً ويَخرجُ[2] .

عن هشامِ بنِ عُرْوَة ، عن أبيه ، أنَّه كان يَقولُ لنا ونَحنُ شَبابٌ : ما لكم لا تَعَلَّمون ، إنْ تَكونوا صِغارَ قَوْمٍ يُوشِكُ أنْ تَكونوا كِبارَ قَوْمٍ ، وما خيرُ الشَّيخِ أنْ يَكونَ شَيخاً وهو جاهلٌ ، لقد رَأيتُني قبلَ مَوتِ عائشَةَ بأرْبَعِ حِجَجٍ وأنا أقولُ لو ماتَت اليومَ ما نَدمْتُ علىٰ حَديثٍ عندَها إلاَّ وقد وَعَيتُه ، ولقد كان يَبلُغُني عن الصَّحابيِّ الحَديثُ فآتيه فأجدُه قد قالَ ، فأجلسُ علىٰ بابِه ، ثم أسْألُ عنه[3] .

وقالَ أبو مُسْهِر : حدَّثني سَعيدُ بنُ عبدِ العَزيز التَّنوخيُّ قالَ : كُنتُ أجلسُ بالغَدَواتِ إلى ابنِ أبي مالِك ، وأُجالِسُ بعدَ الظُّهْر إسْماعيلَ ابنَ عُبَيدِ الله وبعدَ العَصْرِ مَكْحُولاً .

قالَ أبو حاتم الرَّازي : كانَ أبو مُسْهِر يُقدِّمُ سَعيداً على الأوْزَاعِيِّ .

وقالَ أبو عبدِ الله الحاكِمُ : سَعيدُ بنُ عبدِ العَزيز لأهْلِ الشَّامِ كمَالِكٍ لأهْلِ الْمَدينَة في التَّقدُّمِ والفِقه والأمانَة[4] .

ورُوي عن سُليم الرَّازي قال : كان أبو حامد الإسْفَراييني في أوَّلِ أمرِه يَحرُسُ في دَربٍ ، وكان يُطالِعُ علىٰ زَيتِ الحَرَس ، وإنَّه أفْتَىٰ وهو ابنُ سَبع عشرةَ سنة .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عبَّاس البَحْر) ٣/ ٣٣١ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٩٠ .
(٢) انظر السير : (عامِرُ بنُ عَبدِ قَيْس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٣٣ .
(٣) انظر السير : (عُرْوَة بن الزُّبَيْر) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٦ .
(٤) انظر السير : (سَعيدُ بنُ عبد العَزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٢٣ .

قال الخَطيبُ : ماتَ أبو حامد في سَنةِ سِتٍّ وأربعِ مئة ، كان يَوماً مَشْهوداً ، ودُفنَ في دارِه ، ثم نُقِلَ بعد أرْبعِ سِنينَ ، ودُفنَ ببابِ حَربٍ ، رَحمَه الله[1] .

وعن أبي إسحاقَ الشِّيرازي : أنه اشْتَهىٰ ثَريداً بماءٍ باقلاَّء ، قالَ : فما صَحَّ لي أكلُه لاشْتِغالي بالدَّرْسِ وأخذي النَّوْبَة[2] .

السَّمْعانيُّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الإمامُ الحافِظُ الكَبيرُ الأوْحَدُ الثِّقةُ ، مُحدِّثُ خُراسَانَ ، أبو سَعْد عبدُ الكَريم بنِ الإمامِ الحافِظِ النَّاقِد أبي بَكْر محمَّدِ بنِ العَلاَّمَة مُفْتي خُراسَانَ أبي الْمُظفَّر مَنْصُور ، التَّميميُّ السَّمْعانيُّ الخُرَاسَانيُّ الْمَرْوَزيُّ ، صاحبُ الْمُصنَّفاتِ الكَثيرَة .

وُلد بمَرْوَ ، سَنةَ سِتٍّ وخَمسِ مئة[3] .

ولا يُوصَف كَثرةُ البلادِ والمَشايخ الذين أخذَ عنهم .

فسَمعَ بآمُل طَبَرِسْتان ، وبأبِيْوَرد ، وبإسفرايين ، وبالأنْبار ، وببُخارَىٰ ، وببُروجِرْد ، وببَسْطام ، وبالبَصْرة ، وببَغْشور ، وببَلْخ ، وبتِرْمِذ ، وبجُرْجان ، وبحَلَب ، وبحَماة ، وبحَمْص ، وبخَرْتَنْك عند قَبرِ البُخاريِّ ، وبخُسْرَوجِرد ، وبالريِّ ، وبسَرْخَس ، وبسَمَرْقَند ، وبهَمَذان وهَراة والحَرمَين ، والكُوفَة ، وطُوس ، والكَرخ ، ونَسَا ، وواسِط ، والمَوْصِل ، ونَهاوَنْد ، والطَّالقان ، وبوشنج ، والمَدائن ، وبِقاعٍ يَطولُ ذِكْرُها بحيث إنَّه زارَ القُدسَ والخَليلَ وهما بأيْدي الفِرَنْج ، تَحيَّلَ ، وخاطَرَ في ذلك ، وما تَهيَّأَ ذلكَ للسِّلَفيِّ ولا لابنِ عَساكر .

وكان ظَريفَ الشَّمائل ، حُلوَ المُذاكَرَة ، سَريعَ الفَهْم ، قَويَ الكتابَة سَريعَها ،

---

(١) انظر السير : (أبو حامد الإسْفراييني) ١٧/ ١٩٣ـ ١٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٦ .
(٢) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الشِّيرازي) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٢٩ .
(٣) انظر السير : (السَّمْعَانيُّ) ٢٠/ ٤٥٦ـ ٤٦٥ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٧ .

دَرسَ وأفْتَىٰ ووَعَظَ ، وسادَ أهلَ بَيتِه ، وكانوا يُلقِّبونَه بلقَب والدِه تاج الإسلام ، وكان أبُوه يُلقَّب أيضاً مُعين الدِّين[1] .

قالَ ابنُ النَّجَّار : سَمعتُ مَنْ يَذكرُ أنَّ عَددَ شُيوخِ أبي سَعْد سَبعَةُ آلافِ شَيخ قالَ : وهٰذا شَيءٌ لَمْ يَبلُغْه أحَدٌ ، وكانَ مَليحَ التَّصانيفِ كَثيرَ النشوارِ والأناشِيدِ ، لَطيفَ الْمِزاجِ، ظَريفاً ، حافِظاً ، واسِعَ الرِّحْلَة ، ثِقةً صَدوقاً دَيِّناً ، سَمعَ منه مَشايخُه وأقرانُه.

ماتَ الحافِظُ أبو سَعْد سَنةَ اثنتَينِ وسِتِّينَ وخَمسِ مئة بمَرْو وله سِتٌّ وخَمسُونَ سَنةً[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ السِّلَفيِّ : بَقيَ ثَمانيَةَ عَشرَ عَاماً ، يَكتُبُ الحَديثَ والفِقْهَ والأدَبَ والشِّعْرَ وقَدِمَ دِمَشْقَ سَنةَ تِسعٍ وخَمسِ مئة ، فأقامَ بها سَنَتَينِ ، يَكتُبُ العِلْمَ مُقيماً بالخانقاه ثم اسْتَوطَنَ ثَغْرَ الإسْكَندَريَّة بضْعاً وسِتِّينَ سَنةً وإلىٰ أنْ ماتَ يَنشُرُ العِلمَ ويُحصِّلُ الكُتبَ التي قَلَّ ما اجْتمَعَ لعَالِمٍ مثلَها في الدُّنيا .

ارْتَحلَ إليه خَلقٌ كَثيرٌ جداً ، ولا سيَّما لَمَّا زالَت دَولَةُ الرَّفْضِ عن إقْليمِ مِصْرَ وتَملَّكَها عَسكَرُ الشَّامِ ، فارْتَحلَ إليه السُّلطَانُ صَلاحُ الدِّينِ ، وإخْوَتُه وأُمَراؤُه ، فسَمِعُوا منه .

وحدَّث عنه الأئمَّةُ وكانَ مُكبّاً على الكِتابَة والاشْتِغالِ والرِّوايَة ، لا رَاحَةَ له غالباً إلاَّ في ذلك ولَه تَصانيفُ كَثيرة ، وكانَ يَستَحسِنُ الشِّعرَ ، ويَنظُمُه ، ويُثيبُ مَنْ يَمدَحُه[3] .

٥ـ أبْيَاتٌ في الهِمَّة :

قال ابن فارس[4] :

إذا كنتَ تُؤذىٰ بحرِّ المصيفْ ... ويُبْس الخريفِ وبردِّ الشِّتا
ويُلهيكَ حسنُ زمانِ الربيعْ ... فأخذكَ للعلمِ قلْ لي متى؟!

* * *

---

(١) انظر السير : (السَّمْعَانيُّ) ٢٠/٤٥٦ـ٤٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٧ .
(٢) انظر السير : (السَّمْعَانيُّ) ٢٠/٤٥٦ـ٤٦٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٧ .
(٣) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٩١ .
(٤) انظر السير : (ابنُ فارِس) ١٧/١٠٣ـ١٠٦ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٥ .

الوَرَعُ

١ـ الوَرَعُ لا يَكونُ على النَّاسِ وإنَّما على النَّفْس خاصَّة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُزَنيِّ : وكانَ من أشَدِّ النَّاسِ تَضييقاً علىٰ نَفسِه في الوَرَعِ ، وأوْسَعِه في ذلكَ على النَّاسِ ، وكانَ يَقولُ : أنا خُلُقٌ من أخْلاقِ الشَّافِعيِّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وبَلغَنا أنَّ الْمُزَنيَّ رَحمَه اللهُ كانَ مُجابَ الدَّعْوَة ، ذا زُهْدٍ وتَألُّه ، أخَذَ عَنه خَلقٌ من العُلَماء وبه انتُشرَ مَذهَبُ الإمامِ الشَّافِعيِّ في الآفَاقِ[١] .

٢ـ أقْوالٌ تَحُثُّ على الوَرَع :

عن مُطَرِّفِ بنِ عبدِ الله ، قالَ : فَضلُ العِلمِ أحَبُّ إليَّ من فَضْلِ العِبادَةِ ، وخَيرُ دينِكم الوَرَعُ[٢] .

وعن الضَّحَّاكِ بنِ مُزاحِم ، قالَ : أدْرَكتُهُم ومَا يَتعلَّمُونَ إلاَّ الوَرَعَ[٣] .

٣ـ صُوَرٌ من الوَرَع :

قالَ الوَليُد بنُ مُسلم ، حدَّثنا عُثمانُ بنُ أبي العَاتِكَة : أنَّ عُبادَةَ بنَ الصَّامِت مَرَّ بقَريَة دُمَّرَ[٤] ، فأمَرَ غُلامَه أنْ يَقطَعَ له سِواكاً من صِفْصَافٍ علىٰ نهر بَرَدَىٰ ، فمَضَىٰ ليَفعَلَ ، ثم قالَ له : ارْجِعْ ، فإنَّه إنْ لا يكُنْ بثَمَن ، فإنَّه يَيْبَسُ ، فيَعُودُ حَطباً بثَمَن[٥] .

وعن أنَسٍ : أنَّ أبا مُوسَىٰ كانَ له سَراويلُ يَلبَسُه مَخافَةَ أنْ يَتكَشَّفَ[٦] .

وعن الحَكَمِ بنِ الأعْرَج ، قالَ : جَلبَ رَجلٌ خَشباً ، فطَلبَه زيادٌ ، فأبَىٰ أنْ يَبيعَه ،

---

(١) انظر السير : (الْمُزَنيُّ) ١٢/ ٤٩٢ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٤ .
(٢) انظر السير : (مُطَرِّفُ بنُ عَبدِ الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧٥ .
(٣) انظر السير : (الضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِم) ٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/٥٦٦ .
(٤) قرية من غوطة دمشق الغربية تبعد عنها ستَّة أميال .
(٥) انظر السير : (عُبادَةُ بنُ الصَّامِتْ) ٢/ ٥ـ ١١ ، وانظر النزهة : ١/٢١٠ .
(٦) انظر السير : (أبو مُوسَى الأشْعَريّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/٢٨١ .

فغَصَبَه إيَّاه ، وبَنَىٰ صُفَّة مَسجِدِ البَصْرَة ، قالَ : فلَمْ يُصَلِّ أبو بَكرَةَ فيها حتىٰ قُلِعَت[1] .

وعن قَزَعَة ، قالَ : رَأيتُ على ابنِ عُمَرَ ثياباً خَشنَة أو جَشبَة[2] فقُلتُ له : إنِّي قد أتَيتُكَ بثَوبٍ لَيِّنٍ مِمَّا يُصنَعُ بخُراسَانَ ، وتَقَرُّ عَيْنايَ أنْ أراهُ عَليكَ قالَ : أرنيه ، فلَمَسَه ، وقالَ : أحَريرٌ هـٰذا ؟ قُلتُ : لا ، إنَّه من قُطنٍ قالَ : إنِّي أخَافُ أنْ ألْبَسَه ، أخافُ أكونُ مُخْتالاً فَخُوراً ، واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُور .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كُلُّ لِباسٍ أوْجَدَ في الْمَرءِ خُيَلاءَ وفَخْراً فتَركُه مُتَعيَّنٌ ولو كانَ من غَيرِ ذَهَبٍ ولا حَرير فإنَّا نَرَى الشَّابَ يَلبَسُ الفَرَجيَّةَ[3] الصُّوفَ بفَرْو من أثْمَان أرْبَع مئة دِرْهَم ونَحْوَها ، والكِبرُ والخُيَلاءُ علىٰ مِشيَتِه ظاهرٌ ، فإنْ نَصحتَه ولُمتَه برفقٍ كابَرَ ، وقالَ : ما فيَّ خُيَلاءٌ ولا فَخْرٌ وهـٰذا السَّيِّدُ ابنُ عُمَر يَخافُ ذلك علىٰ نَفسِه وكذلكَ تَرى الفَقيهَ الْمُترَفَ إذا لِيمَ في تَفصيلِ فَرَجيَّة تَحتَ كَعْبَيه ، وقيلَ له : قد قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ » ، يَقولُ : إنَّما قالَ هـٰذا فيمَنْ جرَّ إزارَه خُيَلاء ، وأنا لا أفعَلُ خُيَلاء ، فتَراهُ يُكابِرُ ، ويُبرِّىءُ نَفسَه الحَمْقاءَ ، ويَعمَدُ إلىٰ نَصٍّ مُستَقلٍّ عامٍّ فيَخُصُّه بحَديثٍ آخَرَ مُسْتَقلٍّ بمَعنَى الخُيَلاء ، ويَترَخَّصُ بقَولِ الصِّدِّيق : إنَّه يا رَسُولَ الله يَسْتَرخي إزَاري ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « لَسْتَ يَا أَبَا بَكر مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلاء » فقُلنَا : أبو بَكر رضي الله عنه لَمْ يَكنْ يَشُدُّ إزارَه مَسْدولاً علىٰ كَعْبَيه أولاً ، بلْ كانَ يَشدُّه فَوقَ الكَعْبِ ، ثم فيما بَعد يَسْتَرخي وقد قالَ صلى الله عليه وسلم : « إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَىٰ أَنْصَافِ سَاقَيْهِ ، لا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْكعْبَيْنِ » ومثلُ هـٰذا في النَّهْي لِمَنْ فَصَّلَ سَراويلَ مُغَطِّياً لِكعابه ومنه طُولُ الأكْمَام زائداً ، وتَطويلُ العَذَبَة وكلُّ هـٰذا من خُيَلاء كامِنٍ في النُّفوس وقد يُعذَرُ الواحِدُ منهم بالجَهْلِ ، والعالِمُ لا عُذرَ له في تَركِه الإنْكارَ على الجَهَلَة فإنْ خُلِعَ علىٰ رَئيسٍ خِلْعَة سِيَراء[4] من ذَهَب وحَرير ، وقُنْدُس ، يُحَرِّمُه ما وَردَ في النَّهي عن جُلُودِ

---

(١) انظر السير : (أبو بَكرَةَ الثَّقَفيُّ الطَّائفيُّ) ٣/ ٥ـ ١٠ ، وانظر النزهة : ١/٣٢٠ .

(٢) الجَشبُ من الثياب : الخَشن الغَليظ .

(٣) الفرجية : ثوب واسع طويل الأكمام ، يُتخَذ من قطن أو حرير أو صوف .

(٤) السِّيَراء : نوع من البرود تُتخَذ من الحرير .

السِّباعِ ، ولَبِسَها الشَّخصُ يَسحَبُها ويَختَالُ فيها ، ويَخطُرُ بيَدِه ويَغضَبُ مِمَّنْ لا يُهَنِّيهِ بهٰذه الْمُحرَّماتِ ، ولا سِيَّما إنْ كانَت خِلعَةَ وَزارَة وظُلمٍ ونَظَرِ مَكْسٍ[1] ، أو وِلايَة شُرْطَة فلْيَتهيّأ للمَقْتِ وللعَزْلِ والإهانَةِ والضَّربِ ، وفي الآخِرَة أشَدُّ عَذاباً وتَنْكيلاً فرَضِيَ اللهُ عن ابنِ عُمَرَ وأبيه وأينَ مثلُ ابنِ عُمَرَ في دينِه ، ووَرَعِه وعِلمِه ، وتَألُّهِهِ وخَوفِه ، من رَجُلٍ تُعرَضُ عليه الخِلافَةُ ، فيَأباها ، والقَضَاءُ من مثلِ عُثْمانَ ، فيَردُّه ، ونِيابَةِ الشَّامِ لِعَليٍّ فيَهرَبُ منه فالله يَجتَبي إليه مَنْ يَشاءُ ، ويَهْدي إليه مَنْ يُنيب[2] .

قال جَعفَرُ بنُ بَرْقان : حدَّثنا مَيْمونُ بنُ مَهْران ، أنَّ عامرَ بنَ عبد قَيس ، بعثَ إليه أميرُ البَصْرَة : ما لَكَ لا تَأكلُ الجُبنَ ؟ قال : إنَّا بأرضٍ فيها مَجُوسٌ ، فما شَهدَ مُسْلِمان أنْ ليس فيه مَيْتَة أكلتُه ، قال : وما يَمنعُك أنْ تأتي الأُمَراء ؟ قال : إنَّ لدَىٰ أبوابِكم طُلاَّبُ الحاجات ، فادْعوهم واقضُوا حاجاتِهم ، ودَعوا مَنْ لا حاجَةَ له إليكم[3] .

وعن عَبيدَةَ بنِ عَمرو قالَ : اخْتلفَ النَّاسُ في الأشْرِبَة فمَا لِيَ شَرابٌ منذ ثَلاثينَ سَنةً إلاَّ العَسَلُ واللَّبَنُ والْمَاءُ[4] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ شَقيقِ بنِ سَلَمَةَ ، قالَ عاصمُ بنُ بَهْدَلة : كانَ أبو وائل يَقولُ لِجاريَتِه : إذا جاءَ يَحيَىٰ ـ يَعني ابنَه ـ بشَيءٍ فلا تَقبَليه ، وإذا جاءَ أصْحابي بشَيءٍ ، فخُذيه ، وكانَ ابنُه قاضياً على الكُناسَة[5] ، قالَ : وكانَ لأبي وائل رَحمَه الله خُصٌّ من قَصَب ، يَكونُ فيه هو وفَرَسُه ، فإذا غَزَا ، نَقضَه وتَصدَّقَ به ، فإذا رَجَعَ ، أنْشَأ بِناءَه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : قد كانَ هٰذا السَّيِّدُ رَأساً في العِلمِ والعَمَل ماتَ سَنةَ اثنَتينِ وثَمانينَ[6] .

وقالَ عيسَىٰ بنُ يُونُس ، سَمعتُ الأعْمَشَ يَقولُ : لَمَّا جيءَ بسَعيدِ بنِ جُبَير ،

---

(١) الْمَكْس : الضريبة التي يأخذها الماكس ، وهو العُشار .
(٢) انظر السير : (عبد الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٧٢ .
(٣) انظر السير : (عامِرُ بنُ عَبدِ قَيْس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٣٤ .
(٤) انظر السير : (عَبيدَةُ بنُ عَمْرو) ٤/ ٤٠ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٣٩ .
(٥) الكُناسَة : محل بالكوفة .
(٦) انظر السير : (شَقيقُ بنُ سَلَمَة) ٤/ ١٦١ـ ١٦٦ ، وانظر النزهة : ٩/ ٤٦٩ .

وطَلقِ بنِ حَبيب ، وأصْحابِهما دَخَلتُ عليهم السِّجْنَ فقُلتُ : جاءَ بكم شُرْطيٌّ أو جُلَيويز من مَكة إلى القَتلِ أفلا كَتَّفْتُموهُ وألْقَيْتُموهُ في البَرِّيَة ؟ فقالَ سَعيدُ : فمَنْ كانَ يَسقيهِ الْمَاءَ إذا عَطِشَ[1] .

وقد وَقفَ على ابنِ سِيرينَ دَينٌ كثيرٌ من أجْلِ زَيتٍ كَثير أرَاقَه ، لكَونه وَجَدَ في بَعضِ الظُّروفِ فَأرَة[2] .

وقالَ النَّضْرُ بنُ شميل : غَلا الخَزُّ في مَوْضِع كانَ إذا غَلا هُناكَ غَلا بالبَصْرَة ، وكانَ يُونُسُ بنُ عُبَيد خَزَّازاً فعَلمَ بذلك فاشْتَرَىٰ من رَجُلٍ مَتاعاً بثَلاثينَ ألفاً فلمَّا كانَ بَعد ذلك قالَ لصاحبه : هلْ كُنتَ عَلمتَ أنَّ الْمَتاعَ غَلا بأرْضِ كَذا وكَذا ؟ قالَ : لا ولَوْ عَلمتُ لَمْ أبِعْ قالَ : هَلُمَّ إليَّ مالي ، وخُذْ مَالَكَ فرَدَّ عليه الثَّلاثينَ الألفَ[3] .

وقيلَ : إنَّ كَهْمَساً سَقطَ منه دِينارٌ ففتَّشَ ، فلَقيَه ، فلَمْ يَأخُذْه ، وقالَ : لَعلَّه غَيرُه[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ أبي حَنيفَة النُّعْمان : وابنُه الفَقيهُ حمَّادُ بنُ أبي حَنيفَة كانَ ذَا عِلمٍ ودينٍ وصَلاحٍ ووَرَعٍ تَامٍّ ، لَمَّا تُوفِّيَ والدُه ، كانَ عندَه وَدائعُ كَثيرَة ، وأهْلُها غائبون فنَقَلها حمَّاد إلى الحاكِم ليَتسلَّمها ، فقالَ : بلْ دَعْها عندَك ، فإنَّك أهلٌ فقالَ : زِنْها واقْبضْها حتَّىٰ تَبرأ منها ذِمَّةُ الوَالِدِ ، ثم افعل ما تَرَىٰ ففَعلَ القاضي ذلك وبَقيَ في وَزنِها وحِسابِها أيّاماً واسْتترَ حَمَّادٌ فمَا ظَهرَ حتَّىٰ أوْدَعَها القاضي عندَ أمين .

تُوفِّيَ حمَّادٌ سَنةَ سِتٍّ وسَبعينَ ومئة كَهْلاً[5] .

وقالَ حُسَينٌ الجُعْفيُّ : رُبَّما عَطِشَ حَمْزَةُ بنُ حَبيب ، فلا يَسْتَقي كَراهيةَ أن يُصادِفَ مَنْ قَرأَ عَليه[6] .

---

(١) انظر السير : (سَعيدُ بنُ جُبَيْر) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٠٧ .
(٢) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرينَ) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٦٨ .
(٣) انظر السير : (يُونُسُ بنُ عُبَيْد) ٦/ ٢٨٨ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٥٢ .
(٤) انظر السير : (كهْمَس) ٦/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٥٣ .
(٥) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٦٤ .
(٦) انظر السير : (حَمْزَةُ بنُ حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٧٩ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يَزيدِ بنِ زُرَيْع : ماتَ أبوهُ ، وكانَ والِياً على الأُبُلَّة ، فخلَّفَ خَمسَ مئةِ ألفٍ ، فمَا أخَذَ منها حَبَّةً ، رَحمَهُ الله[1] .

وقالَ أبو حسَّان عيسَىٰ بنُ عبدِ الله البَصْري : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ عَرَفَةَ يَقولُ : قالَ لي ابنُ الْمُبارَك : اسْتَعرتُ قَلماً بأرْضِ الشَّامِ ، فذَهَبتُ علىٰ أنْ أرُدَّه ، فلمَّا قَدِمتُ مَرْوَ ، نَظرتُ فإذا هو مَعي ، فرَجَعتُ إلى الشَّامِ حتَّىٰ رَدَدتُه علىٰ صاحِبِه[2] .

وقالَ الحَسَنُ بنُ الرَّبيع : لَمَّا احْتُضِرَ ابنُ الْمُبارَك في السَّفَرِ قال : أشْتَهي سَويقاً ، فلَمْ نَجدْهُ إلاَّ عندَ رَجلٍ كانَ يَعمَلُ للسُّلطانِ ، وكانَ مَعنا في السَّفينَة فذَكَرْنا ذلك لعبدِ الله ، فقالَ : دَعُوهُ ، فمَاتَ ولَمْ يَشْرَبْه[3] .

وبالإسْنادِ عن فُضَيل : كانَت لنَا شَاةٌ بالكُوفَة ، أكَلَتْ شَيئاً يَسيراً من عَلَفِ أميرٍ ، فمَا شَرِبَ لَها عَليٌّ ابني لَبناً بعدُ[4] .

وعن الفُضَيلِ قَالَ : أهْدَىٰ لَنَا ابنُ الْمُبارَك شاةً فكانَ ابْني لا يَشرَبُ منها ، فقُلتُ له في ذلك فقالَ : إنَّها قد رَعَت بالعِراقِ[5] .

وقالَ ابنُ أبي شَيخ : حدَّثنا يَحْيَىٰ بنُ سَعيد ، قالَ : زَامَلتُ أبا بَكر ابنَ عَيَّاش إلىٰ مَكة ، فمَا رَأيتُ أوْرَعَ منه ، لقد أهْدَىٰ له رَجلٌ رُطَباً ، فبَلغَه أنَّه من بُسْتانٍ أُخِذَ من خالدِ بنِ سَلمَة الْمَخْزُومي ، فأتَىٰ آل خالِد ، فاسْتَحلَّهم ، وتَصدَّقَ بثَمَنِه[6] .

وكان الحَفَريُّ إذا أراد أن يَنتَثِرَ ، خَرجَ من المسجِدِ ، وكانَ مَسجِدُهم مُحَصَّباً ، فقيلَ : أَلَيسَ كَفَّارَتُها دَفنُها ؟ فيقولُ : لَعلِّي أؤخَذُ قبلَ أنْ أُكَفِّر[7] .

وقالَ أبو يَحْيَىٰ صاعِقَة : قَدِمَ زَكريّا بنُ عَديّ ، فكلَّموا له مَنْ يَستعملُه علىٰ قَريَة في

---

(١) انظر السير : (يَزيدُ بنُ زُرَيْع) ٨/ ٢٩٦ـ ٢٩٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٦٠ .
(٢) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٦٨ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٧٠ .
(٤) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٨١ .
(٥) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٨١ .
(٦) انظر السير : (أبو بَكر بنُ عَيَّاش) ٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٨٦ .
(٧) انظر السير : (الحَفَريُّ) ٩/ ٤١٥ـ ٤١٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٣٤ .

الشَّهْرِ بثَلاثينَ دِرْهماً ، فرَجَعَ بعدَ شَهرٍ ، وقالَ : لَيسَ أجدُني أعْمَلُ بقَدرِ الأُجْرَة[1] .

واشْتَكت عَينُه ، فأتاه رَجُلٌ بكُحْل ، فقالَ : أنتَ مِمَّن يَسمَعُ الحَديثَ منِّي ؟ قالَ : نَعَم ، فأبَىٰ أنْ يَأخُذَه[2] .

وقالَ أبو بَكر بنُ عُثْمانَ : سَمعتُ بِشْرَ بنَ الحارِث يَقولُ : إنِّي لأشْتَهي شِواءً منذُ أرْبَعينَ سَنةً ، ما صَفَا لي دِرْهَمُه[3] .

وعن عليِّ بنِ عثَّام ، قالَ : أقامَ بِشْرُ بنُ الحارِث بعبَّادان يَشربُ ماءَ البَحْر ، ولا يَشرَبُ من حياضِ السُّلطانِ ، حتَّىٰ أضَرَّ بجَوْفِه ، ورَجَعَ إلىٰ أُخْتهِ وَجِعاً ، وكانَ يَعمَلُ الْمَغازِلَ ويَبيعُها ، فذاكَ كَسْبُه[4] .

وقالَ خَلفُ بنُ هِشَام : أعَدتُ الصَّلاةَ أرْبَعينَ سَنةً كُنتُ أتَناوَلُ فيها الشَّرابَ علىٰ مَذهَبِ الكُوفيِّينَ[5] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ شَيخِ الحَنابِلَة ، الحَسَنِ البَرْبَهاريِّ : وقيلَ : إنَّه تَركَ ميراثَ أبيه تَوَرُّعاً ، وكانَ سَبعينَ ألفاً[6] .

وقالَ محمَّدُ بنُ جَعْفَر بنِ النَّجَّار : حَكَىٰ لنا أبو عليٍّ النَّقَّار قالَ : سَقطَت من ابنِ عُقْدَة دَنانيرُ ، فجاءَ بنخَّالٍ ليَطلُبَها ، قالَ ابنُ عُقْدَة : فوَجَدتُها ثم فَكَّرتُ فقُلتُ : لَيسَ في الدُّنيا غَيرُ دَنانيرِك ؟ فقُلتُ للنخَّال : هي في ذِمَّتِك ، وذَهبتُ وتَركتُه[7] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الدَّاوُوديِّ : وسَمعتُ أسْعدَ بنَ زِياد يَقولُ : كانَ شَيخُنا الدَّاوُوديّ بَقِيَ أرْبَعينَ سَنةً لا يَأكُلُ لَحماً ، وَقتَ تَشْويش التُّرْكُمان ، واخْتِلاطِ النَّهْب فأضَرَّ به فكانَ يأكُلُ السَّمَكَ ، ويُصْطادُ له من نَهْر كَبير ، فحُكيَ له أنَّ بَعضَ

---

(١) انظر السير : (زَكريّا بنُ عَديّ) ١٠/ ٤٤٢ـ ٤٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٨٢ .
(٢) انظر السير : (زَكريّا بنُ عَديّ) ١٠/ ٤٤٢ـ ٤٤٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٨٢ .
(٣) انظر السير : (بِشْرُ بنُ الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٨٥ .
(٤) انظر السير : (بِشْرُ بنُ الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٨٥ .
(٥) انظر السير : (خَلفُ بنُ هِشَام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٩٦ .
(٦) انظر السير : (البَرْبَهاريُّ) ١٥/ ٩٠ـ ٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٨٦ .
(٧) انظر السير : (ابنُ عُقْدَة) ١٥/ ٣٤٠ـ ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٣٤ .

الأُمَراء أَكلَ علىٰ حافَّةِ ذلك النَّهْر ونُفِضَتْ سُفرَتُه وما فَضُلَ في النَّهْر ، فما أكَلَ السَّمكَ بَعدُ .

تَفقَّهَ بسَهْلٍ الصُّعْلوكيّ ، وبأبي حامِد الإسْفَراييني[1] .

وقالَ السَّمْعانيُّ : دَخلَ أبو إسْحاقَ الشِّيرازيُّ يَوماً مَسْجداً ليَتغَدَّىٰ ، فنَسي ديناراً ، ثم ذَكرَ ، فرَجعَ فوَجدَه ، ففكَّرَ وقالَ : لَعلَّه وَقعَ من غَيري ، فتركَه[2] .

قال السَّمْعانيُّ : سَمعتُ عبدَ الخالِقِ بنَ زِياد يَقولُ : أمَرَ بَعضُ الأُمَراء أنْ يُضْربَ عَطاءٌ الفُقَّاعيُّ[3] ، في مِحْنَة الشَّهيدِ عبدِ الهادي بنِ شَيخِ الإسْلام ، مئةً ، فبُطحَ علىٰ وَجهِه ، فكانَ يَضرِبُ إلىٰ أنْ ضُربَ سِتِّينَ ، فشَكُّوا كم ضُربَ خَمسينَ أو سِتِّين ؟ فقالَ عَطاءٌ : خُذوا بالأقَلِّ احْتِياطاً ، وحُبسَ مع نِساءٍ ، وكانَ في الْمَوْضِعِ أتْرُسَة ، فقامَ بجَهْد من الضَّربِ ، وأقامَ الأتْرُسَة بينَه وبينَهُنَّ ، وقالَ : نَهَىٰ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عن الخُلوَة بالأجْنَبيَّة .

تُوفِّيَ تَقْديراً سَنةَ خَمسٍ وثَلاثينَ وخَمسِ مئة[4] .

وقالَ ابنُ الأثير : طَالَعتُ السِّيرَ ، فلَمْ أرَ فيها بعد الخُلفاء الرَّاشِدين وعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أحْسَنَ من سِيرَته ، ولا أكْثرَ تَحرِّياً منه للعَدْلِ ، وكانَ لا يَأكلُ ولا يلبَسُ ولا يَتصرَّفُ إلاَّ من مُلكٍ له قد اشْتراه من سَهْمِه من الغَنيمَة ، لقَدْ طَلبَتْ زَوجَتُه منه ، فأعْطاهَا ثَلاثةَ دَكاكين فاسْتَقلَّتها ، فقالَ : ليسَ لي إلاَّ هـٰذا ، وجَميعُ ما بيَدي أنا فيه خازنٌ للمُسلمينَ ، وكان يتهجَّدُ كثيراً ، وكان عارفاً بمَذْهَب أبي حَنيفَة[5] .

قالَ سبطُ الجَوْزي : كان له عَجائزُ ، فكان يَخيطُ الكَوافي ، ويَعمَلُ السَّكاكِرَ فيَبعْنَها له سِراً ، ويُفْطِرُ علىٰ ثَمَنِها[6] .

---

(١) انظر السير : (الدَّاوُوديُّ) ١٨/ ٢٢٢ـ ٢٢٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٦ .
(٢) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الشِّيرازيُّ) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٣٠ .
(٣) نسبة إلى الفقَّاع وعمله ، وهو شراب يُتخَذ من الشَّعير ، سُمّيَ به لما يعلوه من الزَّبَد .
(٤) انظر السير : (عَطاءُ بنُ سَعْد) ٢٠/ ٥٤ـ ٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣٠ .
(٥) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨١ .
(٦) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨٢ .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ عَساكر ، قال أبو شَامَة : وكان يتورَّعُ من الْمُرورِ في زُقاق الحَنابلَة لِئلاَّ يَأثَموا بالوَقيعَة فيه ، وذلك لأنَّ عَوامَّهم يَبغَضُونَ بَني عَساكر للتَّمَشعُر[1] ، ولَمْ يُولِّه الْمُعَظَّم تَدريسَ العَادِليَّة لأنَّه أنْكَرَ عليه تَضمينَ الخَمْر والْمكس .

تُوفِّيَ ابنُ عَساكر في سَنةِ عشرينَ ومئة ، وقلَّ مَنْ تَخلَّفَ عن جنازَتِه[2] .

اليَقِين

١ـ فَائدَةُ اليَقِين :

عن الأنْطَاكِيِّ قال : يَسيرُ اليَقينِ يُخرِجُ كُلَّ الشَّكِّ من القَلبِ[3] .

٢ـ رُؤْيا تَحُثُّ على اليَقِين :

قالَ الحُسَينُ بنُ مُصْعَب : حدَّثنا محمَّدُ بنُ مَنْصُور الطُّوسيُّ ، قالَ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ ، فقُلتُ : مُرني بشَيء حتَّىٰ أَلْزَمَه قالَ : عَليكَ باليَقينِ[4] .

٣ـ صُوَرٌ على اليَقِين :

وقال ابنُ وَهْب : كان حَيْوَة يأخُذُ عَطاءَه في السَّنة ستين ديناراً ، فلمْ يَطلُع إلىٰ مَنزِله حتىٰ يَتصدَّقَ بها ، ثم يَجيءُ إلىٰ مَنزِله ، فيَجدُها تَحْت فِراشِه ، وبلغَ ذلك ابنُ عمٍّ له ، فأخذَ عَطاءَه ، فتصدَّق به كُلَّه ، وجاء إلىٰ تَحْت فِراشِه فلمْ يَجدْ شَيئاً ، فشَكا إلىٰ حَيْوَة ، فقال : أنا أعْطيتُ ربِّي بيَقين ، وأنتَ أعْطَيْتَه تَجْربةً وكنَّا نَجلسُ إلىٰ حَيوَةَ في الفِقْه فيقولُ : أبْدَلَني اللهُ بكم عَموداً أقومُ وراءَه أُصلِّي ثم فعل ذلك[5] .

---

(١) أي بسبب كونهم أشاعرة ، وهٰذا من اصطلاح الإمام الذَّهَبي ، وإلاَّ فإنَّ أبا شامَة قال : لأنَّهم كانوا أعْيانَ الشَّافعيَّة الأشْعَريَّة .

(٢) انظر السير : (ابنُ عَساكر) ٢٢/ ١٨٧ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٨٤ .

(٣) انظر السير : (الأنْطَاكِيُّ) ١١/ ٤٠٩ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٥٥ .

(٤) انظر السير : (محمَّدُ بنُ مَنْصُور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٩٤ .

(٥) انظر السير : (حَيْوَة بن شُرَيح) ٦/ ٤٠٤ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٦٤ .

وذَكَرَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي عبدِ اللهِ بنِ مَرْدَنيش ، قالَ اليَسَعُ بنُ حَزْم : فمن عَجيبِ ما صَحَّ عندي من مَغازيهِ أنَّه أغَارَ يوماً ، فغَنمَ غَنيمَةً كثيرَة ، واجْتمَعَ عَليه من الرُّومِ أكثَرُ من ألفِ فارِسٍ ، فقَالَ لأصْحابه وكانوا ثَلاثَ مئةِ فارِس : ما تَرَونَ ؟ فقالوا : نَشغَلُهم بتَركِ الغَنيمَة قالَ : ألَمْ يَقُلْ القَائلُ : ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾[1] فقالَ له ابنُ مُورين : يا رَئيسُ ، اللهُ قالَ هٰذا! فقالَ : اللهَ يَقولُ هٰذا وتَقعُدُونَ عن لِقائهِم ؟! قالَ : فثَبتُوا ، فهَزَمُوا الرُّومَ .

وفي سَنةِ سَبعٍ وعِشرينَ وخَمسَةِ مئة سارَ ابنُ رُذْمير ، فنازَلَ مَدينَةَ إفراغة[2] وبها ابنُ مَرْدَنيش ، وطالَ الحِصَارُ ، فكَتَبُوا إلىٰ أميرِ الْمُسلمين ابنِ تاشفينَ ليُغيثَهم ، فكَتبَ إلى ابنِه تَاشَفينَ بنِ عَليٍّ وإلى الأميرِ يَحْيَى ابنِ غانيَة بإغاثَتِهم ، وإدْخالِ الْميرَةِ إليهم ، فتَهيَّأ لنَجدَتِهم أرْبَعةُ ألافٍ ، فما وَصَلوا إلىٰ إفراغة إلاَّ وقد فَنِيَ ما بها ، ولَمْ يَبْقَ لابنِ مَرْدَنيشَ سِوَىٰ حِصانٌ فذبَحَه لَهم ، فحَصلَ لكُلِّ واحدٍ أوقيَة أوقيَة .

قالَ اليَسَعُ : فحدَّثني الْمَلكُ الْمُجاهِدُ ابنُ عِياض حَديثَ هٰذه الغَزَاة قالَ : لَمَّا وَصلَ أبو زَكريّا يَحْيَىٰ بنُ غانيَة مَدينَةَ زَيْتونَة ، خَرجْتُ إليه من لاردَةَ مع فُرسَاني ، فقالَ : أشِيروا عليَّ ، فقُلتُ : الصَّوابُ جَمعُ جُندِ الأنْدَلُسِ تَحتَ رَايَةٍ وَاحِدَة ، وهِلالُ وسُليمُ تَحتَ رَايَةٍ أُخرَىٰ ، ويَتقدَّمُ الزُّبَيرُ بنُ عُمَرَ بأهْلِ الْمَغرِبِ وبالدَّوابِّ التي تَحمِلُ الأقْوَاتَ ، مَعَهم الطُّبُولُ والرَّاياتُ ، ونَبقَىٰ نَحنُ والعَرَبُ كَميناً عن يَمينِ الجَيشِ ويَسارِه فإذا أبْصَرَ اللَّعينُ الرَّاياتِ والطُّبُولَ والزَّمْرَ حَملَ عليه ، فنَكرُّ عليه من الجِهَتَينِ قالَ : فصَلَّينا الصُّبحَ في لَيلَةِ سَبعٍ وعِشْرينَ من رَمَضانَ سَنةَ سَبعٍ وعِشرينَ وخَمسِ مئة ، وأبْصرَ اللَّعينُ الجَيشَ وقد اسْتراحَ من جِراحَاتِه وكانَ عَسْكرُه إذ ذاكَ أرْبَعةً وعِشرينَ ألْفَ فارِس سِوَىٰ أتْباعِهم ، فقَصَدوا الطُّبُولَ ، فانْكَسَروا وتَفرَّقوا ـ يَعني الْمُسلمينَ ـ فأتَينا الرُّومَ عن أيْمانِهم ، ونَزَلَ النَّصْرُ وعَملَ السَّيفُ في الرُّومِ حتَّىٰ بَقِيَ ابنُ رُذْمير في نَحْو أرْبَع مئة فارِس ، فلَجَؤوا إلىٰ حِصْنٍ لهم ، وباتَ الْمُسلمُونَ عليه ، ثم هَلكَ غَمَّاً ، وأصَابَه

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٥ .

(٢) مدينة بالأنْدَلُس من أعمال ماردة ، كثيرة الزيتون .

مَرضٌ ؛ ماتَ بعدَ خَمسةَ عَشرَ يَوماً من هَزيمَتِه فلا رَحمَهُ الله[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الشَّيخِ عبدِ القادِر الجيلانيّ ، قالَ الجُبَّائيُّ ، قالَ ليَ الشَيخُ عبدُ القادِرْ الجيلانيُّ : وتَردُ عليَّ الأثْقالُ التي لوْ وُضِعَت على الجِبالِ تَفسَّحَت فأضَعُ جَنبي على الأرضِ ، وأقولُ : إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ، إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ، ثم أرفَعُ رأسي وقد انفَرَجَتْ عنِّي[2] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو عبد الله بنُ مَرْدَنيش) ٢٠/ ٢٣٢ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٤٥ .

(٢) انظر السير : (الشَيخُ عبدُ القادِر الجيلانيُّ) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٥ .

صِفَاتٌ تُطْلَبُ بقَدر

الحَذَر

الحَذَرُ لا يَمْنَعُ القَدَر :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمام الناصر لدين اللهِ العَبَّاسيِّ : نَقَلَ العَدلُ شَمسُ الدين الجَزَريُّ في « تاريخه » ، عن أبيه قالَ : سَمعتُ الْمُؤيَّدَ ابنَ الْعَلْقَميَّ الوَزيرَ يقولُ : إنَّ الْمَاءَ الذي يَشرَبُه الإمامُ الناصرُ كانَ تَجيءُ به الدَّوابُّ من فَوقِ بَغدادَ بسَبعَةِ فَراسِخَ ويُغْلَىٰ سَبعَ غَلواتٍ ثم يُحبَسُ في الأوْعيَة أُسْبُوعاً ثم يَشرَبُ منه ، وما ماتَ حتَّىٰ سُقِيَ الْمُرَقَّدَ ثلاثَ مِرار وشُقَّ ذَكَرُه ، وأُخرِجَ منه الحَصَىٰ .

وقالَ ابنُ الأثير : بَقِيَ الناصِرُ ثلاثَ سِنينَ عاطِلاً عن الحَرَكَة بالكُليَّة وقد ذَهَبت إحْدَىٰ عَينَيه ، وفي الآخِر أصابَه دُوسُنطاريا عِشرينَ يَوماً وماتَ[1] .

الحُزْن

١ـ حُزْنُ العُلَمَاء العامِلين :

قالَ إبْراهيمُ بنُ عيسَى اليَشْكُريُّ : ما رَأيتُ أحَداً أطْوَلَ حُزْناً من الحَسَنِ البَصْريِّ ، ما رَأيتُه إلاَّ حَسِبتُه حَديثَ عَهدٍ بمُصيبَة[2] .

وقالَ مُسْلمُ بنُ إبْراهيمَ : حدَّثَنا إياسُ بنُ أبي تَميمَة : شَهدتُ الحَسَنَ في جنازَةِ أبي رَجاء علىٰ بَغْلَة ، والفَرَزْدَقُ إلىٰ جَنبه علىٰ بَعير ، فقالَ له الفَرَزدَقُ : قد اسْتشْرَفَنا النَّاسُ ، يَقولونَ : خَيرُ النَّاسِ وشَرُّ النَّاسِ ، قالَ : يا أبا فِراس ، كَمْ من أشْعَثَ أغْبَر ، ذي طِمْرَينِ ، خَيرٌ منِّي ، وكَمْ من شَيخٍ مُشْرِكٍ أنتَ خَيرٌ منه ، ما أعْدَدْتَ للمَوْتِ ؟

---

(١) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله العَبَّاسيِّ) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٦ .

(٢) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريُّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٧/٥٦٠ .

قالَ : شَهادَةُ أنْ لا إلَـٰه إلاَّ الله قالَ : إنَّ مَعَها شُروطاً ، فإيَّاكَ وقَذفُ الْمُحْصَنَة ، قالَ : هَلْ من تَوْبَةٍ قالَ : نَعَم[1] .

وعن علقَمةَ بنِ مَرْثَد في ذِكْر الثَّمانيَة من التَّابعين ، قالَ : وأمَّا الحَسَنُ فمَا رَأينا أحَداً أطْوَلَ حُزْناً منه ، ما كُنَّا نَراهُ إلاَّ حَديثَ عَهْد بمُصيبَة ، ثم قالَ : نَضحَكُ ولا نَدري لَعلَّ اللهَ قد اطَّلعَ علىٰ بَعضِ أعْمالِنَا وقالَ : لا أقْبلُ منكُم شَيئاً ، وَيْحَكَ يا ابنَ آدَمَ ، هَلْ بمُحارَبَةِ الله ـ يَعْني قُوَّة ـ واللهِ لقَد رَأيتُ أقْوَاماً كانَت الدُّنيا أهْوَن علىٰ أحَدِهم من التُّرابِ تَحتَ قَدمَيه ، ولقد رَأيتُ أقْواماً يُمْسِي أحدُهم ولا يَجِدُ عندَه إلاَّ قُوتاً فيَقولُ : لا أجْعَلُ هـٰذا كلَّه في بَطْني فيَتصدَّقُ ببَعضِه ولعَلَّه أجْوَعُ إليه مِمَّنْ يَتصَدَّقُ به عليه[2] .

قالَ أبو صالِح كاتِبُ اللَّيثِ : حدَّثني يَحْيَىٰ بنُ أيُّوبَ أنَّ رَجُلَين تَآخَيا فتَعاهَدا : إنْ ماتَ أحَدُهما قبلَ الآخَر أنْ يُخبرَه ما وَجدَ ، فماتَ أحَدُهما ، فرآه الآخَرُ في النَّومِ ، فسَألَه عن الحَسَنِ البَصْريِّ ؟ قالَ : ذاكَ مَلكٌ في الجَنَّة لا يُعْصَىٰ ، قالَ : فابنُ سِيرينَ ؟ قالَ : ذاكَ فيما شاءَ اشْتَهَىٰ ، شَتَّان ما بَينهما ، قالَ : فبأيِّ شَيءٍ أدْرَكَ الحَسَنُ ؟ قالَ : بشِدَّة الخَوفِ والحُزْن[3] .

وكانَ الحَكمُ بنُ حَجْل ، صَديقاً لابنِ سِيرينَ ، فحَزن على ابنِ سِيرينَ حتَّىٰ كان يُعادُ ، ثم قالَ : رَأيتُه في الْمَنامِ في حالِ كَذا وكَذا ، فسَألتُه لَمَّا سَرَّني : ما فَعلَ الحَسَنُ ؟ قال : رُفِعَ فَوْقي سَبعينَ دَرَجَةً ، قُلتُ : بمَ ؟ فقد كُنَّا نَرَىٰ أنَّك فَوقَه قالَ ؟ بطُولِ الحُزْن .

وقد كانَ الأوْزاعيُّ أشارَ عليه يَحْيَىٰ بنُ أبي كَثير ، أنْ يَرتَحلَ إلى البَصْرَة لِلُقِيِّ محمَّدِ بنِ سِيرينَ ، فأتىٰ فوَجدَه في مَرضِ الْمَوتِ ، فعادَه ولَمْ يَسمَعْ منه ، رَحمَهُ اللهُ

---

(١) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريُّ) ٤/٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٦٢ .
(٢) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريُّ) ٤/٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٦٢ .
(٣) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرين) ٤/٦٠٦ـ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥٧١ .

تَعالَىٰ ، وبَلَغَني أنَّ اسمَ أُمِّه صَفيَّةُ ، مَوْلاةٌ لأبي بَكر الصِّدِّيق[1] .

وعن حُصَينِ الوَزَّانِ قالَ : لَوْ قُسِّمَ بثُّ[2] عبدِ الوَاحدِ بنِ زَيْد علىٰ أهْلِ البَصْرَة لوَسِعَهم وكانَ يَقومُ إلىٰ مِحْرابِه كأنَّه رجلٌ مُخاطَب[3] .

٢ـ الحُزْنُ الزَّائد المُبَالَغ فيه مَنْهيٌّ عنه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ إمامِ الحَرَمَينِ : تُوفِّيَ سَنةَ ثَمانٍ وسَبعينَ وأرْبَع مئة ، ودُفنَ في دارِه ، ثم نُقلَ بعد سِنينَ إلىٰ مَقبرَةِ الحُسَينِ فدُفنَ بجَنبِ والدِه ، وكَسَروا منبرَه ، وغُلِّقَت الأسْواقُ ، ورُثيَ بقَصائدَ وكانَ له نَحوٌ من أرْبَع مئة تِلميذٍ ، كَسَروا مَحابِرَهم وأقْلامَهم ، وأقامُوا حَوْلاً ، ووُضعَت الْمَناديلُ عن الرُّؤوسِ عاماً ، بحيثُ ما اجْتَرأ أحَدٌ علىٰ سَترِ رأسِه ، وكانت الطلبَةُ يَطوفُونَ في البَلدِ نائحينَ عَليه ، مُبالِغينَ في الصِّياحِ والجَزَع .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا كان من زِيِّ الأعاجِمِ لا من فِعلِ العُلمَاء الْمُتَّبِعين[4] .

٣ـ تَصْحيحُ الذهَبيِّ لمُبالَغَة أحَد السَّلَف :

قالَ محمَّدُ بنُ يَحْيَى النِّيسَابُوريُّ ، حينَ بَلغَه وَفاةُ أحمَد ، يَقولُ : يَنبَغي لكُلِّ أهْلِ دارٍ ببَغدادَ أنْ يُقيمُوا عَليه النِّياحَةَ في دُورِهم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : تَكلَّمَ الذُّهْليُّ بمُقتَضَى الحُزْن لا بمُقْتَضَى الشَّرْع .

لَمَّا ماتَ سَعيدُ بنُ أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، جاءَ إبْراهيمُ الحَربيُّ إلىٰ عبدِ اللهِ ابنِ أحمَد ، فقامَ إليه عبدُ الله ، فقالَ : تَقومُ إليَّ ؟ قالَ : والله لَوْ رآكَ أبي ، لَقامَ إليكَ ، فقالَ

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرين) ٤/٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/٥٧١ .

(٢) البَثُّ : الحُزْنُ والغَمُّ الذي تُفضي به إلىٰ صاحبِك ، قالَ ابنُ الأثير : البَثُّ في الأصل شدَّة الحُزن ، والمرضُ الشديد ، كأنَّه من شدَّته يبثُّه صاحبه .

(٣) انظر السير : (عبدُ الواحِد بنُ زَيْد) ٧/١٧٨ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٥/٦٩١ .

(٤) انظر السير : (إمامُ الحَرَمَين) ١٨/٤٦٨ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣٤ .

إبْراهيمُ : والله لَوْ رَأى ابنُ عُيَيْنَةَ أباكَ ، لَقامَ إليه .

وقد أثنَىٰ علىٰ أبي عبدِ الله جَماعَةٌ من أولياء الله ، وتَبرَّكوا به رَوَىٰ ذلك ابنُ الجَوْزيِّ ، وشَيخُ الإسْلام ولَمْ يَصحَّ سَندُ بَعضِ ذلك[1] .

٤ـ حُزْنُ البَهَائم على الصَّالحين :

قالَ الْمُؤيَّدُ في « تاريخه » أُهدِيَ للشَّيخِ أبي القاسِم عبدِ الكَريم القُشَيْري فَرسٌ ، فرَكبَه نَحواً من عِشرينَ سَنةً ، فلمَّا ماتَ الشَّيخُ لم يأكُلْ الفَرسُ شَيئاً ، وماتَ بعدَ أسْبوع[2] .

الدَّهَاءُ والمَكر

١ـ دُهَاةُ العَرَب :

عن الشعبي قال : دهاة العرب أربعة : مُعاوِيَةُ ، وعَمْرٌو ، والْمُغِيرَةُ ، وزِيَادٌ ، فأمَّا مُعاوِيَةُ فللأنَاةِ والحِلمِ ، وأمَّا عَمْرٌو فلِلمُعْضِلاتِ ، والْمُغِيرَةُ للمُبادَهَة ، وأمَّا زِيَادٌ فللصَّغيرِ والكَبير[3] .

٢ـ صُوَرٌ على الدَّهَاء والمَكر :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنين عُمرَ بنِ الخَطَّابِ ، بعدَ فَتْحِ تُسْتَر ، فقال عُمرُ : الحَمدُ لله الذي أذَلَّ هـٰذا وشيعَتَه بالإسْلام ، ثمَّ قالَ للوَفْد تَكلَّموا ، فقال أنَسُ بنُ مالك : الحَمدُ لله الذي أنْجَزَ وَعْدَه وأعزَّ دينَه وخَذلَ مَنْ حادَّه ، وأوْرثَنا أرْضَهم وديارَهم ، وأفاءَ علينا أبناءَهم وأمْوالَهم ، فبَكىٰ عُمرُ ثم قال للهُرمُزان : كيفَ رأيتَ صَنيعَ الله بكم ؟ فلَمْ يُجِبْه ، قالَ : ما لَك لا تَتكلَّم ؟ قال : أكلامُ حَيٍّ أمْ كلامُ ميِّت ؟ قال : أوَلَسْتَ حَياً ؟ فاسْتَسْقى الهُرمُزان ، فقال عُمرُ : لا يُجْمَعُ عليكَ القَتلُ

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٢٧ .

(٢) انظر السير : (القُشَيْريُّ) ١٨/ ٢٢٧ـ ٢٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٠٨ .

(٣) انظر السير : (عَمْرو بنُ العَاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣٣٣ .

والعَطشُ ، فأتَوْهُ بماءٍ فأمْسَكه ، فقال عُمرُ : اشْربْ لا بأْسَ عليك ، فرَمىٰ بالإناءِ وقال : يا مَعْشرَ العَرب كُنتم وأنتم علىٰ غَير دينٍ نَسْتعبِدُكم ونَقْتلُكم وكُنتم أسْوأَ الأُمَمِ عندنا حالاً ، فلمَّا كانَ الله مَعكم لمْ يَكنْ لأحَد بالله طاقَة ، فأمَرَ عُمرُ بقَتلِه ، فقال : أوَلمْ تُؤَمِّنِّي ؟! قال : وكيف ؟ قال : قُلتَ لي : تَكلَّم لا بأسَ عليكَ ، وقُلتَ : اشْرَب لا أقتُلك حتىٰ تَشرَبه ، فقال الزُّبَيرُ وأنسُ : صَدقَ ، فقال عُمرُ : قاتَله الله أخَذَ أماناً وأنا لا أشْعرُ ، فنَزَعَ ما كان عليه ، فقال عُمرُ لسُراقَةَ بنِ مالك بنِ جَعْشَم ـ وكان أسْودَ نَحيفاً ـ : إلْبَسْ سوارَي الهُرمُزان ، فلَبسَهما ولبسَ كِسْوتَه[1] .

فلمَّا انتهَيْنا إليه ـ يَعني إلىٰ عُمَر بالهُرْمُزان ـ قال : تَكلَّم ، قال : كَلامُ حَيٍّ أو كَلامُ مَيّت ؟ قال : تَكلَّم فلا بأسَ ، قال : إنَّا وإيّاكم مَعشَر العَرب ما خَلى الله بيننا وبينكم ، كُنَّا نَغصِبُكم ونَقْتلُكم ونفعَلُ ، فلمَّا كان الله معكم لَمْ يكُنْ لنا بكُم يَدان ، قال : يا أنَس ما تقولُ ؟ قُلتُ : يا أميرَ المؤمنين تَركتُ بَعدي عَدداً كثيراً وشَوْكَةً شَديدة فإنْ تَقتُلْه يَيْأس القَومُ من الحَياة ويكُون أشَدَّ لشَوْكَتهم ، قال : فأنا أَسْتَحْيي قاتلَ البَراء ومجْزَأة بنَ ثَور!! فلمَّا أحْسَسْتُ بقَتلِه قُلتُ : لَيسَ إلىٰ قَتلِه سَبيل ، قد قُلتَ له : تَكلَّم بلا بأس ، قال : لتأتيَنِّي بمَنْ يَشْهدُ به غَيرُك ، فلَقيتُ الزُّبَيْرَ فشَهِدَ معي ، فأمْسَكَ عنه عُمرُ ، وأسْلَمَ الهُرمُزانُ ، وفَرضَ له عُمرُ ، وأقامَ بالمَدينة[2] .

وقال ابنُ جَرير في وَقْعَة نَهاوَنْد : لمَّا انتُهى النُّعْمانُ إلىٰ نَهاوَنْد في جيشه طرَحوا له حَسَكَ[3] الحَديد ، فبَعثَ عُيوناً فساروا لا يَعلمون بالحَسَك فزَجَر بعضُهم فَرسَه وقد دَخلَ في حافِرِه حَسَكةٌ ، فلَمْ يَبْرَحْ ، فنزلَ فإذا الحَسَك ، فأقْبلَ بها ، وأخْبرَ النُّعْمانَ ، فقال النُّعْمانُ : ما تَرَونَ ؟ فقالوا : تَقَهْقَر حتىٰ يَرَوا أنَّك هاربٌ فيَخرُجُوا في طلَبك ، فتَأخَّرَ النُّعْمانُ ، وكَنسَت الأعاجمُ الحَسَكَ وخَرجُوا في طلَبه فعَطفَ عليهم النُّعْمانُ وعبَّأ كَتائبَه وخَطبَ النَّاسَ وقال : إنْ أُصِبتُ فعلَيكم حُذَيْفَة ، فإنْ أُصِيبَ فعليكم جَرير

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٨ .

(٢) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٢ .

(٣) قال صاحب النزهة : الحَسَك ، هو الشَّرَك.

البجليّ ، وإنْ أُصِيبَ فعليكم قَيْسُ بنُ مَكْشوح ، فوَجدَ المُغيرَةُ في نفْسِه إذْ لَمْ يَسْتَخْلِفْهُ ، قال : وخَرجَت الأعاجِمُ وقد شَدُّوا أنفُسَهم في السَّلاسِل لئَلاَّ يَفرُّوا ، وحَملَ عليهم المسلمون ، فرُمِيَ النُّعْمانُ بسَهمٍ فقُتِلَ ، ولفَّهُ أخُوهُ سُويدُ بنُ مُقَرِّن في ثَوبِه وكَتَمَ قَتلَه حتىٰ فَتحَ اللهُ تعالىٰ عليهم ، ودَفعَ الرَّايةَ إلىٰ حُذَيْفَة .

وَقَتل اللهُ ذا الحَاجِب[1] يَعني مقدمَهم ، وافْتُتِحَت نَهاوَنْدُ ، ولم يكُنْ للأعاجِم بعد ذلك جَماعة[2] .

عن زَيدِ بنِ أسْلم ، عن أبيه ، أنَّ عُمَرَ اسْتعمَلَ الْمُغيرَةَ بنَ شُعْبَة على البَحْرَينِ ، فكَرِهُوهُ ، فعَزلَه عُمَرُ ، فخَافُوا أنْ يَرُدَّه فقالَ دِهْقَانُهم : إنْ فَعلتُم ما آمُركُم لَمْ يَرُدَّه عَلينا قالوا : مُرْنا قالَ : تَجْمَعونَ مئةَ ألْفٍ حتَّىٰ أذْهبَ بها إلىٰ عُمَرَ ، فأقُولُ : إنَّ الْمُغيرةَ اخْتانَ هـٰذا ، فدَفَعه إليَّ قالَ : فجَمَعوا له مئةَ ألفٍ ، وأتَىٰ عُمَرَ ، فقالَ ذلك فدَعَا الْمُغيرَةَ فسَألَه ، قالَ : كَذبَ أصْلحَكَ اللهُ ، إنَّما كانَت مِئتَي ألفٍ ، قالَ : فمَا حَملَكَ علىٰ هـٰذا ؟ قالَ : العِيالُ والحاجَة قالَ عُمَرُ للعِلْجِ : ما تَقولُ ؟ قالَ : لا والله لأصْدُقَنَّك ما دَفعَ إليَّ قَليلاً ولا كَثيراً فقالَ عُمَرُ للمُغيرَة : ما أرَدتَ إلىٰ هـٰذا ؟ قالَ : الخَبيثُ كَذبَ عليَّ فأحْبَبتُ أن أُخْزِيَه[3] .

وعن الشَّعْبيِّ : سَمعتُ قَبيصَةَ بنَ جابِر يَقولُ : صَحبتُ الْمُغيرَةَ بنَ شُعْبَة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب ، لا يُخْرَجُ من باب منها إلا بمَكْرٍ لخَرجَ من أبوابِها كُلِّها[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ قَيْسِ بنِ سَعْد : وجود قَيسٍ يُضرَبُ به المثل ، وكذلك دهاؤه .

عن قَيْسِ بنِ سَعْد قالَ : لَوْلا أنِّي سَمعتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقولُ : « الْمَكرُ وَالْخَديعَةُ فِي النَّارِ » لكُنتُ من أمْكَر هـٰذه الأمَّة .

---

(١) ذا الحاجب : هو مردانشاه المُلقب ببهمن ، وسُمي ذا الحاجب لأنه كان يعضب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً ، ويُقال إن اسمه رُسْتم.

(٢) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٧٤ .

(٣) انظر السير : (الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/٣٢٤ .

(٤) انظر السير : (الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/٣٢٥ .

وقالَ ابنُ عُيَيْنَة : حدَّثني عَمرٌو قالَ : قال قَيْسٌ : لَوْلا الإسْلامُ لَمَكَرتُ مَكْراً لا تُطيقُه العَرَب .

وقالَ عَوْفُ عن محمَّد : كانَ محمَّدُ بنُ أبي بَكر ، ومحمَّدُ بنُ أبي حُذَيفَة بنِ عُتبَة من أشَدِّهم علىٰ عُثمانَ ، فأمَّرَ عَليٌّ قَيْسَ بنَ سَعْد علىٰ مِصْرَ ، وكان حازِماً فنُبِّئتُ أنَّه كانَ يَقولُ : لَوْلا أنَّ الْمَكرَ فُجورٌ ، لَمَكَرتُ مَكْراً تَضطربُ منه أهلُ الشَّام بينهم فكَتبَ معاويَةُ وعَمرٌو إليه يَدعُوانِه إلىٰ مُبايَعتِهما ، فكَتبَ إليهما كتاباً فيه غلظ ، فكتَبا إليه بكتابٍ فيه عُنفٌ ، فكَتبَ إليهما بكتابٍ فيه لينٌ ، فلمَّا قرآه ، عَلِمَا أنَّهما لا يَدانِ لهما بمَكرِه ، فأذاعا بالشَّام أنَّه قد تابَعَنا ، فبَلغَ ذلك عَليّاً ، فقالَ له أصحابُه : أدْرِكْ مِصْرَ فإنَّ قَيْساً قد بايَعَ مُعاويَة ، فبَعثَ محمَّدَ بنَ أبي بَكر ، ومحمَّدَ بنَ أبي حُذَيْفَة إلىٰ مِصْرَ ، وأمَّرَ ابنَ أبي بَكر ، فلمَّا قَدِما علىٰ قَيْسٍ بنَزْعِه ، عَلِمَ أنَّ عَليّاً قد خُدِعَ فقالَ لِمُحمَّد : يا ابنَ أخي احْذَرْ ، يَعني أهلَ مِصْرَ ، فإنَّه سَيُسْلِمُونَكُما ، فتُقْتَلان ، فكانَ كَمَا قالَ.

تُوفِّيَ قَيْسٌ في آخِرِ خِلافَةِ مُعاويَة[1] .

العِتَاب

تَرْك العِتَاب أوْلَىٰ :

عن الأحْنَفِ بنِ قَيْس ، قالَ : العِتابُ مفتاح التُّقالَىٰ ، والعِتابُ خَيرٌ من الحِقْدِ[2] .

وعن أبي يَعقُوبَ الْمَدنيِّ ، قالَ : كانَ بين حَسَنِ بنِ حَسَن وبينَ ابنِ عَمِّه عَليِّ بنِ الحُسَين شَيءٌ ، فمَا تَركَ حَسَنٌ شَيئاً إلاَّ قالَه ، وعَليٌّ سَاكِتٌ ، فذَهبَ حَسَنٌ ، فلمَّا كانَ في اللَّيلِ ، أتاهُ عَليٌّ ، فخَرجَ ، فقالَ عَليٌّ : يا ابنَ عَمِّي إنْ كُنتَ صَادِقاً فغَفرَ اللهُ لي وإنْ كُنتَ كاذِباً ، فغَفرَ اللهُ لكَ ، السَّلامُ عَليكَ قالَ : فالْتَزمَه حَسَنٌ ، وبَكَىٰ حتَّىٰ رَثَىٰ له[3] .

---

(١) انظر السير : (قَيْسُ بنُ سَعْد) ٣/ ١٠٢ـ ١١٢ النزهة : ٣/٣٤٥ .

(٢) انظر السير : (الأحْنَفُ بنُ قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٨/٤٥٢ .

(٣) انظر السير : (عَليُّ بنُ الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٨/٥١٩ .

الغَضَب

١ـ صُورَةٌ علىٰ تَرْك الغَضَب لله :

عن سِماكِ بنِ الفَضْل ، قالَ : كنا عند عُرْوَةَ بنِ محمَّد الأمير ، وإلىٰ جنبه وَهْبُ بنُ مُنَبِّه ، فجاءَ قَومٌ فشكَوا عامِلَهم وذَكروا منه شَيئاً قَبيحاً ، فتَناوَلَ وَهْبٌ عَصاً كانت في يَدِ عُرْوَة فضَربَ بها رَأسَ العامِلِ حتَّىٰ سالَ الدَّمُ ، فضَحِكَ عُرْوَةُ واسْتَلقَىٰ وقالَ : يَعيبُ عَلينا وَهْبٌ الغَضبَ وهو يَغْضَبُ قالَ : وما لي لا أغْضَبُ وقد غَضِبَ الذي خَلقَ الأحْلامَ ، يَقولُ تَعالَىٰ : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[1] ، [2] .

٢ـ مَنْ كان لا يَغْضَب :

رُوِيَ عن القَعْنَبيِّ ، قالَ : كانَ ابنُ عَوْن لا يَغضَبُ فإذا أغْضَبَهُ رَجلٌ قالَ : بارَكَ اللهُ فيك[3] .

وكانَ ـ فيما حدَّثني بَعضُ أصْحابنا ـ لابنِ عَوْن ناقَةٌ يَغزُو عَليها ويَحُجُّ ، وكان بها مُعْجَباً قالَ : فأمَرَ غُلاماً له يَسْتَقي عَليها ، فجاءَ بها وقد ضَربَها علىٰ وَجْهها ، فسالَت عَينُها علىٰ خَدِّها ، فقُلنا : إنْ كانَ من ابنِ عَوْن شَيءٌ فاليَومَ! قالَ : فلَمْ يَلبَثْ أنْ نزَلَ ، فلمَّا نَظرَ إلى النَّاقَةِ قالَ : سُبحانَ الله ، أفَلا غَيرَ الوَجْه ، بارَكَ اللهُ فيكَ اخْرُجْ عَنِّي ، اشْهَدُوا أنَّه حُرٌّ[4] .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٥٥

(٢) انظر السير : (وَهْبُ بنُ مُنَبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٥٣ .

(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عَوْن) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٥٦ .

(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عَوْن) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٥٨ .

الفَخْر

١ـ الفَخْرُ في غَير مَوْضِعه :

قال أبو العباس بنُ عُقْدَة : دق ابن وَارَة على ابنِ كُرَيْب ، فقالَ : مَنْ ؟ قالَ : ابنُ وَارَة ، أبو الحَديثِ وأمُّه[١] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الأبِيوَرْدِيِّ[٢] : هو ريَّانٌ من العُلوم ، موصُوفٌ بالدِّين والوَرَع ، إلاَّ أنه تيَّاهٌ مُعجَبٌ بنَفسِه ، قد قَتلَه حُبُّ السُّؤدُدِ وكان جَميلاً لَبَّاساً له هَيئَةٌ ورُوَاءٌ ، وكان يَفتَخرُ ، ويَكتبُ اسمَه : العَبْشَميُّ الْمُعاوي ، يُقالُ : إنَّه كَتبَ رُقعَةً إلى الخَليفَة الْمُسْتَظهِرِ بالله ، وكَتبَ : الْمَمْلُوكُ الْمُعاوي ، فحَكَّ الْمُسْتَظهِرُ الميمَ ، فصارَ : العَاوِي ، ورَدَّ الرُّقعَةَ إليه .

قالَ حمَّادٌ الحَرَّانيُّ : سَمعتُ السِّلفِيَّ يَقُولُ : كان الأبِيوَرْدِيُّ ـ والله ـ من أهْلِ الدِّين والخَير والصَّلاح والثِّقَة ، قالَ لي : والله ما نمتُ في بَيتٍ فيه كتابُ الله ، ولا حَديثُ رَسُولِ الله احْتراماً لَهما أنْ يبدُوَ منِّي شَيءٌ لا يَجوزُ .

قالَ عبدُ الغافِر في « السياق » : ظَهرَ أمْرُه ، وعَلا قَدرُه ، وحَصلَ له من السُّلطانِ مَكانَة ونِعمَة ، ثم كانَ يَرْشُحُ من كَلامِه نَوعُ تَشَبُّثٍ بالخِلافَة ودَعوَة إلى اتِّباع فَضلِه ، وادِّعاء اسْتحقاقِ الإمَامَة ، تَبيضُ وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ في رأسه وتُفَرِّخُ ، فاضْطرَّه الحالُ إلىٰ مُفارَقَة بَغدادَ ، ورَجعَ إلىٰ هَمَذانَ ، فأقَام بها يُدَرِّسُ ويُفيدُ ويُصَنِّفُ مُدَّة .

تُوفِّيَ الأبْيوَرْدِيُّ بأصْبَهَانَ مَسْموماً سَنةَ سَبعٍ وخَمسِ مئة ، كَهْلاً[٣] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ وَارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٤٨ .

(٢) نسبة إلىٰ أبْيوَرْدِ ، ويقال لها : أباورد ، وباورد ، وهي من بلاد خراسان بين سرخس ونسا ، وقد فتحها المسلمون سنة إحدىٰ وثلاثين بقيادة عبد الله بن عامر بن كرير ، ويُقال : الأحْنَف بن قَيس .

(٣) انظر السير : (الأبْيوَرْدِيُّ) ١٩/ ٢٨٣ـ ٢٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٧٧ .

٢ـ شِعْرٌ في الفَخْر :

قالَ الصُّوليُّ : حدَّثنا أحمَدُ بنُ يَحْيَىٰ أنَّ الشَّعْبيَّ قالَ : أفْخَرُ بيتٍ قِيلَ قَولُ الأنْصَارِ يَومَ بَدْرٍ[١] :

وببئـرِ بـدرٍ إذْ يَـرُدُّ وجـوهَهـمْ ... جبـريـلُ تحـتَ لِـوائِنـا ومحمـدُ

ثم قالَ الصُّوليُّ : أفْخَرُ منه قَولُ الحَسَنِ بنِ هانِيء في عَليِّ بنِ مُوسَى الرِّضَىٰ[٢] :

قيلَ لي أنتَ واحدُ الناسِ في كُـ ... ـلِّ كـلامٍ مـنَ المقـالِ بـديـهِ
لـكَ فـي جـوهـرِ الكـلامِ بـديـعٌ ... يُثْمِـرُ الـدرُّ فـي يَـدَيْ مجتنيـهِ
فعـلامَ تـركـتَ مـدحَ ابـنِ مـوسـى ... بِـالخصـالِ التـي تجمَّعـنَ فيـهِ
قلـتُ لِا أهتـدي لمـدحِ إمـامٍ ... كـانَ جبـريـلُ خـادمـاً لأبيـهِ

٣ـ عَدَمُ الفَخْر بالأعْمال الصَّالحَة :

قالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعين : ما رَأيتُ مثلَ أحمَد بنِ حَنْبَل ، صَحِبْناه خَمسينَ سَنةً ما افْتَخرَ عَلينا بشَيء مِمَّا كانَ فيه من الخَير[٣] .

٤ـ الفَخْرُ بالعُلَمَاء والعُبَّاد :

وقالَ قَتادَة ، عن أنَسٍ ، قالَ : افتَخرَ الحيَّان من الأنْصارِ ، فقالَت الأوْسُ : مِنَّا غَسيلُ الْمَلائِكَة : حَنْظَلةُ بنُ الرَّاهِب ، ومِنَّا مَنْ اهْتَزَّ له العَرشُ : سَعدٌ ، ومِنَّا مَنْ حَمَته الدَّبَر[٤] : عاصِمُ بنُ أبي الأقْلَح ، ومِنَّا مَنْ أُجيزَتْ شَهادَتُه بشَهادَتَين : خُزَيْمَةُ بنُ ثابِت[٥] .

---

(١) انظر السير : (عَليُّ الرِّضَىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٣١
(٢) انظر السير : (عَليُّ الرِّضَىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٣١
(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٢٩ .
(٤) الدَّبر : النَّحل والزنابير.
(٥) انظر السير : (خُزَيْمَةُ بنُ ثابِت) ٢/ ٤٨٥ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩٤ .

وقالَ رَجاءُ بنُ حَيوَة : إنْ يَفخَرْ عَليْنا أهلُ الْمَدينَة بعَابِدِهم ابنِ عُمَر ، فإنَّا نَفخَرُ عَليهم بعَابِدِنا ابنِ مُحَيْريز[1] .

قالَ ضَمرَة : سَمعتُ مَالكاً يَقولُ : إنَّما كانَت العِراقُ تَجيشُ عَلينا بالدَّراهِم والثِّياب ، ثم صارَت تَجيشُ عَلينا بسُفْيانَ الثَّوْريِّ ، وكانَ سُفْيانُ يَقولُ : مَالِكٌ لَيسَ له حِفظٌ[2] .

وكانَ اللَّيْثُ بنُ سَعْد رَحمَه الله فَقيهَ مِصْرَ ، ومُحدِّثَها ، ومُحْتَشِمَها ، ورَئيسَها ، ومَنْ يَفتَخِرُ بوُجودِه الإقْليمُ ، بحَيثُ إنَّ مُتَوَلي مِصْرَ وقاضِيَها وناظرَها ، منْ تَحتِ أوامِرِه ، ويَرجِعُونَ إلىٰ رَأيه ومَشُورَتِه ، ولقد أرادَه الْمَنْصُورُ علىٰ أنْ يَنوبَ له على الإقْليمِ ، فاسْتَعفَىٰ من ذلك[3] .

المِزاحُ والضَّحِك

١ـ المِزاحُ بقَصْد الاسْتهْزاء لا خَيرَ فيه :

عن عبدِ الجَليلِ بنِ الحَسَن ، قالَ : كانَ أحمدُ بنُ الْمُعَذَّل في مَجلِسِ أبي عاصِم فمَزَحَ أبو عاصِم يُخجلُ أحمَدَ ، فقالَ : يا أبا عاصِم ، إنَّ الله خَلقكَ جداً فَلا تَهزلَنَّ ، فإنَّ الْمُستهزِىءَ جاهِلٌ قالَ تَعالَىٰ : ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[4] .

فخَجلَ أبو عاصِم ثم كانَ يُقعِدُ أحمدَ بنَ الْمُعَذَّل إلىٰ جَنبِه[5] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٣٩ .
(٢) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوْريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٩٩ .
(٣) انظر السير : (اللَّيْثُ بنُ سَعْد) ٨/ ١٣٦ـ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٣٨ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٦٧ .
(٥) انظر السير : (أحمدُ بنُ الْمُعَذَّل) ١١/ ٥١٩ـ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٦٤ .

٢ـ المِزاحُ والضَّحِكُ الجِبِلِّيان لا يُنقَدان :

عن عيسَىٰ بنِ محمَّد : أنَّ سُفيانَ الثَّوريَّ كانَ يَضحَكُ حتَّىٰ يَسْتَلقِيَ ويَمُدُّ رجْلَيْه[١] .

وذَكرَ أبو الوَليد الباجي في كتابِ « فرق الفُقهاء » له : حدَّثنا أبو عبد الله محمَّدُ بنُ عَليّ الوَرَّاق ـ وكانَ ثِقةً مُتْقِناً ـ أنَّه شاهَدَ أبا عبدِ الله الصُّوريَّ ، وكانَ فيه حُسنُ خُلُق ومِزاحٌ وضَحكٌ ، لَمْ يَكُنْ وَراء ذلك إلاَّ الخَيرُ والدِّينُ ، ولكنَّه كانَ شَيئاً جُبلَ عليه ، ولَمْ يَكُنْ في ذلكَ بالخَارِقِ للعَادَة ، فقَرأ يَوماً جُزءاً علىٰ أبي العَبَّاسِ الرَّازي ، وعَنَّ له أمرٌ ضَحَّكَه ، وكانَ بالحَضرَةِ جَماعَةٌ من أهلِ بَلدِه ، فأنْكَروا عليه ، وقالُوا : هـٰذا لا يَصلُحُ ، ولا يَليقُ بعِلمِكَ وتَقدُّمِكَ أنْ تَقرأ حَديثَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأنتَ تَضحَكُ وكثَّروا عليه ، وقالُوا : شُيوخُ بَلدِنا لا يَرْضَونَ بهـٰذا فقالَ : ما في بَلدِكُم شَيخٌ إلاَّ يَجبُ أنْ يَقعُدَ بينَ يَدَيَّ ويَقتَدي بي ، ودَليلُ ذلك أنِّي قد صِرتُ مَعَكم علىٰ غَير مَوْعِد ، فانْظُروا إلىٰ أيِّ حَديثٍ شِئتُم من حَديثِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، اقْرَؤوا إسْنادَه لأقْرأَ مَتنَه أو اقْرؤوا مَتنَه حتَّىٰ أُخْبِرَكم بإسْنادِه ، ثم قالَ الباجيُّ : لَزِمتُ الصُّوريَّ ثلاثَة أعْوامٍ ، فمَا رَأيته تَعرَّضَ لِفَتوَىٰ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ من أئمَّةِ السُّنَّة وله شِعرٌ رائقٌ .

ماتَ الصُّوريُّ سنةَ إحْدَىٰ وأربَعينَ وأرْبَع مئة[٢] .

٣ـ من العُلَماء مَنْ كان يَكرَهُ المِزاحَ :

رَوَى الْمَرُّوذيُّ عن جَعْفَرِ بنِ مَيْمُونَ حكايَةً تَدلُّ علىٰ أنَّ يَزيدَ بنَ هارُونَ كانَ صَاحِبَ مِزاحٍ ، وكانَ يَتأدَّبُ بحُضُورِ الإمَامِ[٣] ، ولا يُمازِحُه[٤] .

---

(١) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوْريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧٠٠/ ١ .

(٢) انظر السير : (الصُّوريُّ) ١٧/ ٦٢٧ـ ٦٣١ ، وانظر النزهة : ١٣٦٩/ ٣ .

(٣) يقصد أحمدَ بنَ حَنبَل .

(٤) انظر السير : (يَزيدُ بنُ هارون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٨٣٠/ ٢ .

وقالَ الطَّبَرانيُّ : حدَّثنا الْمَعْمَريُّ ، سَمعتُ خَلفَ بنَ سَالِم يَقُولُ : كُنَّا في مَجلِسِ يَزيدِ بنِ هَارُونَ ، فمَزَحَ مع مُسْتَمليه ، فتَنَحْنَحَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل ، فقالَ يَزيدُ : مَنْ الْمُتَنَحْنِحُ ؟ فقيلَ له : أحمَدُ بنُ حَنْبَل ، فضَربَ يَزيدُ علىٰ جَبينِه وقالَ : ألا أعْلَمْتُمُوني أنَّ أحمَدَ هَا هُنا حتَّىٰ لا أمْزَح[1] .

وقالَ الْمَرُّوذيُّ : سَمعتُ جَعْفَرَ بنَ مَيْمُونَ بنَ الأصْبغ ، سَمعتُ أبي يَقُولُ : كُنَّا عندَ يَزيدَ بنِ هارُون ، وكانَ عندَه الْمُعَيْطيُّ ، وأبو خَيْثَمَة ، وأحمَدُ ابنُ حَنْبَل ، وكانت في يَزيدَ رَحمَهُ اللهُ ، مُداعَبَة ، فذَاكَرَه الْمُعَيْطيُّ بشَيء فقالَ له يَزيدُ : فقَدتُك ، فتَنَحْنَحَ أحمَدُ فالْتَفتَ إليه ، فقالَ : مَنْ ذَا ؟ قالوا : أحمَدُ بنُ حَنْبَل ، فقالَ : ألا أعْلَمتُموني أنَّه ها هُنا ؟[2] .

وقالَ أحمدُ بنُ سِنان القَطَّان : ما رَأيتُ يَزيدَ لأحَدٍ أشَدَّ تَعْظيماً منه لأحمَدَ بنِ حَنْبَل ، ولا أكرَمَ أحَداً مثلَه ، كانَ يُقعِدُه إلىٰ جَنبِه ويُوَقِّرُه ، ولا يُمازِحُه[3] .

٤ـ مَنْ كُرِهَ من العُلَماء لأجْلِ المِزاح :

قالَ الخَطيبُ : وكانَ في أبي سَهْل القَطَّان مِزَاحٌ ودُعابَة ، سَمعتُ البَرْقانيَّ يَقُولُ : كَرِهُوهُ لِمِزَاحٍ فيه ، وهو صَدوقٌ .

وقالَ محمدُ بنُ الصُّوريِّ : سَمعتُ عليَّ بنَ نَصْر بمِصْرَ يَقولُ : كُنَّا يوماً بين يَدي أبي سهل بن زياد ، فأخذ شخصٌ سِكِّيناً كانت بينَ يَديه ، فجعَلَ يَنظُرُ فيها ، فقالَ : ما لَكَ ولَها ؟ أتُريدُ أن تَسْرِقَها كما سَرَقْتُها أنا ؟ هـٰذه سِكِّينُ البَغَويِّ سَرَقْتُها منه .

تُوفِّيَ أبو سَهْل سنةَ خمسينَ وثلاثِ مئة ، وكان مَوْلدُه في سنةِ تِسْعٍ وخَمسينَ ومئتين[4] .

---

(١) انظر السير : (يَزيدُ بنُ هارون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/٨٣٠ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٢٥ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٢٥ .
(٤) انظر السير : (أبو سَهْل القَطَّان) ١٥/ ٥٢١ـ ٥٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥٧ .

٥ـ شِعْرٌ في البُعْدِ عن المِزاح الزَّائد :

قالَ جَعْفَرُ بنُ عَوْن : سَمعتُ مِسْعَراً يُوصِي وَلدَه كِداماً[١] :

إنـي منحتُـكَ يـا كِـدامُ نصيحتـي ... فـاسمـعْ مقـالَ أبٍ عليـكَ شَفيـقِ
أمَّـا المُـزاحـةُ والمِـراءُ فَـدَعْهُمَـا ... خُلُقـانِ لا أرضـاهُمـا لصـديـقِ
إنـي بلَـوْتُهُمـا فلـمْ أحمـدْهُمـا ... لمجـاورٍ جـاراً ولا لـرفيـقِ
والجهـلُ يُـزْري بـالفتىٰ في قـومـهِ ... وعُـرُوقـهُ فـي النـاس أيُّ عُـروقِ

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وهـٰذانِ البَيْتانِ أظُنُّهما لابنِ الْمُبارَك :

مـنْ كـانَ مُلتمِسـاً جليسـاً صـالحـاً ... فلْيـاتِ حَلْقـةَ مِسعـرِ بـنِ كِـدامِ
فيهـا السكينـةُ والـوقـارُ وأهلُهـا ... أهـلُ العفـافِ وعِليـةُ الأقـوامِ

٦ـ صُورَتان للمِزاح :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عن أبي رافعٍ قالَ : ورُبَّما أتَىٰ أبُو هُرَيْرَة الصِّبْيانَ ، وهم يَلعَبُونَ باللَّيلِ لُعبَةَ الأعْرابِ فلا يَشعُرُونَ ، حتَّىٰ يُلقِي نَفسَه بينَهم ، ويَضرِبُ برِجلَيْه ، فيَفزَعُ الصِّبْيانُ ، فيَفِرُّونَ ورُبَّما دَعاني إلىٰ عَشَائِه ، فيَقُولُ : دَعِ العُراقَ[٢] للأميرِ فأنْظُرُ فإذا هو ثَريدَةٌ بزَيْت[٣] .

وقالَ قَبيصَةُ : كانَ سُفْيانُ الثَّوريُّ مَزَّاحاً ، كُنتُ أتَأَخَّرُ خَلفَه ، مَخافَةَ أنْ يُحَيِّرَني بمِزاحِه[٤] .

٧ـ ضَابطٌ في الضَّحِك والتَّبَسُّم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يَحْيَىٰ بنِ حمَّاد : الضَّحِكُ اليَسيرُ والتَّبَسُّمُ أفْضَلُ وعدم ذلكَ من مَشايخ العِلمِ علىٰ قسْمَين :

---

(١) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٩٠/ ٤ .
(٢) العُراق : العَظمُ الذي أُخذَ عنه معظم اللَّحم ، أو الغِدْرةُ من اللَّحْم .
(٣) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣١٣ .
(٤) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوْريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٩/ ١١ .

أحَدهما : يَكونُ فاضِلاً لِمَنْ تَركَه أدَباً وخَوفاً من الله ، وحُزْناً علىٰ نَفسِه الْمِسْكينَة .

والثاني : مَذْمومٌ لِمَنْ فَعلَه حُمْقاً وكِبْراً وتَصنُّعاً ، كمَا أنَّ مَنْ أكثَرَ الضَّحِكَ اسْتُخِفَّ به ، ولا رَيبَ أنَّ الضَّحِكَ في الشَّبابِ أخَفُّ منه وأعْذَر في الشُّيوخ[1] .

أمّا التبسُّمُ وطَلاقَةُ الوَجْه فأرْفَعُ من ذلك كُلِّه ، قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « تَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ » ، وقالَ جَريرٌ : مَا رآني رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلاَّ تَبَسَّمَ فهَـٰذا هو خُلُقُ الإسْلام ، فأعْلَى الْمَقامَات مَنْ كانَ بَكَّاءً باللَّيلِ ، بَسَّاماً بالنَّهارِ[2] .

بَقيَ هنا شَيءٌ : يَنبَغي لِمَنْ كانَ ضَحُوكاً بسَّاماً أنْ يُقصرَ من ذلك ، ويَلومُ نَفسَه حتَّىٰ لا تَمَجَّه الأنْفُسُ ، ويَنبَغي لِمَنْ كانَ عَبُوساً مُنقَبِضاً أنْ يَتبسَّمَ ، ويُحسِّنَ خُلقَه ، ويَمقُتُ نَفسَه علىٰ رَداءَة خُلقِه ، وكُلُّ انْحِرافٍ عن الاعْتِدالِ فمَذمُومٌ ، ولا بُدَّ للنَّفسِ من مُجاهَدَة وتَأديبٍ[3] .

النَّدَم

قالَ ابنُ الْمَديني : سَمعتُ سُفْيانَ يَقُولُ : جاءَ ابنُ جُرمُوزٍ إلىٰ مُصْعَبِ بنِ الزُّبَيْر ـ يَعني لَمَّا وَلِيَ إمْرَةَ العِراقِ لأخيه الخَليفَة عبدِ الله بنِ الزُّبَيْر ـ فقالَ : أقِدْني بالزُّبَيْر ، فكتَبَ في ذلك يُشاوِرُ ابنَ الزُّبَيْر ، فجاءَه الخَبرُ : أنا أقْتُلُ ابنَ جُرْمُوز بالزُّبَيْرِ ؟ ولا بِشِسْعِ نَعلِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أكَلَ الْمُغَرَّرُ يَدَيه نَدماً علىٰ قَتلِه ، واستَغفَرَ ، لا كقَاتِلِ طَلْحَة ، وقَاتِلِ عُثْمان ، وقَاتِلِ عَليٍّ[4] .

---

(١) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ حمَّاد) ١٠/ ١٣٩ـ ١٤١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨٥٨ .
(٢) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ حمَّاد) ١٠/ ١٣٩ـ ١٤١ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٥٩ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ حمَّاد) ١٠/ ١٣٩ـ ١٤١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٥٩ .
(٤) انظر السير : (الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام) ١/ ٤١ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٩ .

وعن عَلقمَةَ بنِ وائل بنِ حُجْرِ بنِ سَعْد الحَضْرَميِّ ، عن أبيه : أنَّه وَفدَ علىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فأقْطَعَه أرْضاً ، وأرْسَلَ مَعه مُعاويَةَ بنَ أبي سُفْيانَ لِيُعرِّفَه بها .

قالَ : فقالَ لي مُعاويَةُ : أرْدفْني خَلْفَك قُلتُ : إنَّكَ لا تَكونُ من أرْدافِ الْمُلوكِ قالَ : أعْطِني نَعْلَك فقُلتُ : انتَعِلْ ظِلَّ النَّاقَة .

قالَ : فلمَّا اسْتُخلِفَ ، أتَيتُه ، فأقْعَدَني مَعَه على السَّريرِ ، فذَكَّرَني الحَديثَ فقُلتُ في نَفسِي : لَيْتَني كُنتُ حَملتُه بَينَ يَديَّ[1] .

عن أبي قِلابَة : قالَ لي مُسْلمُ بنُ يَسار : إنِّي أحْمَدُ اللهَ إليكَ ، أنِّي لَمْ أرْمِ بسَهْم ولَمْ أضْرِبْ فيها بسَيفٍ ، قُلتُ له : فكَيفَ بمَنْ رآكَ بينَ الصَّفَّينِ فقالَ : هٰذا مُسْلمُ بنُ يَسار لَنْ يُقاتلَ إلاَّ علىٰ حَقٍّ ، فقَاتلَ حتَّىٰ قُتلَ ؟ فبَكَىٰ واللهِ حتَّىٰ وَدِدْتُ أنَّ الأرضَ انْشقَّت فدَخلتُ فيها[2] .

وقالَ أيُّوبُ السَّخْتيانيُّ : وفي القُرَّاء الذَّين خَرجُوا مع ابنِ الأشْعَث ، لا أعْلمُ أحداً منهم قُتلَ ، إلاَّ رُغِبَ له عن مَصْرَعِه أو نَجا إلاَّ نَدِمَ علىٰ ما كانَ منه[3] .

التَّزْكيَة والمَدْح

١ـ ضَوابط للتَزْكيَة والمَدْح :

عن أنَسِ بنِ مالِك ، قالَ : بَعَثني أبو موسَى الأشْعَريُّ إلىٰ عُمَرَ ، فقالَ لي : كَيفَ تَركتَ الأشْعَريَّ ؟ قُلتُ : تَركتُه يُعلِّمُ النَّاسَ القُرآنَ فقالَ : أما إنَّه كَيِّسٌ! ولا تُسْمِعْها إيَّاه[4] .

وعن سَعيدِ بنِ العَاصِ قالَ : القُلوبُ تَتغَيَّرُ ، فلا يَنبَغي للمَرءِ أنْ يَكونَ مادِحاً اليَومَ ذامَّاً غَداً .

---

(١) انظر السير : (وَائلُ بنُ حُجْر بنُ سَعْد) ٢/ ٥٧٢ـ ٥٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/٣٠٦ .
(٢) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤٨ .
(٣) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٥٤٨ .
(٤) انظر السير : (أبو موسَى الأشْعَريُّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٥/٢٨٠ .

قالَ الزُّبَيرُ بنُ بَكَّار : تُوفِّيَ سَعيدُ بنُ العَاصِ بقَصرِه بالعَرصَة علىٰ ثلاثَةِ أمْيالٍ من الْمَدينَة ، وحُملَ إلى البَقيعِ في سَنةِ تِسعٍ وخَمسين[1] .

قالَ محمَّدُ بنُ يُوسُفُ الفِرْيابي : كُنتُ في مَجلِسٍ فيه الأوْزاعيُّ وسَعيدُ بنُ عبد العَزيز ، وسُليْمانُ الخَوَّاصُ ، فذَكرَ الأوْزاعيُّ الزُّهَّادَ ، فقالَ : ما نزيدُ أنْ نُريدَ مثل هَؤلاء ، فقالَ سَعيدٌ : ما رَأيتُ أزْهَدَ من سُليْمانَ الخَوَّاص ، وما شَعَرَ أنَّه في الْمَجلِسِ ، فقَنَّعَ سُليمانُ رَأسَه ، وقَامَ ، فأقْبلَ الأوْزَاعيُّ علىٰ سَعيدٍ ، وقالَ : وَيْحَكَ لا تَعقِلُ ما يَخرُجُ من رَأسِك! تُؤذِي جَليسَنا تُزكِّيه في وَجهِه[2] .

٢ـ كراهيَة الصَّالحين للمَدْح :

عن نافِع أو غَيرِه ، أنَّ رَجُلاً قالَ لابنِ عُمَرَ : يا خَيرَ النَّاسِ وابنَ خَيرِ النَّاسِ فقالَ : ما أنا بخَيرِ النَّاسِ ، ولا ابن خيَرِ النَّاسِ ، ولَكنِّي عبدٌ من عبادِ الله ، أرْجُو الله ، وأخافُه ، واللهِ لَنْ تَزالوا بالرَّجُلِ حتَّىٰ تُهْلِكوه[3] .

٣ـ الاعْتِدالُ في المَدْح والذَّمِّ واجبٌ :

قالَ مالكُ بنُ دينار : مُذْ عَرفتُ النَّاسَ لَمْ أفْرَحْ بمَدْحِهم ، ولَمْ أكْرَه ذَمَّهم لأنَّ حامدَهم مُفرِّطٌ ، وذامَّهم مُفرِّطٌ ، إذا تَعلَّمَ العالمُ العِلْمَ للعَمَلِ كَسَرَه ، وإذا تَعلَّمَه لغَير العِلْمِ ، زادَه فَخْراً[4] .

٤ـ التَّحْذيرُ من مَدْح النَّفْس :

عن الإمامِ مَالِك قالَ : إنَّ الرَّجُلَ إذا ذَهبَ يَمدَحُ نَفسَه ، ذَهبَ بَهاؤُه[5] .

---

(١) انظر السير : (سَعيد بن العَاص) ٣/ ٤٤٤ـ ٤٤٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٠٦ .
(٢) انظر السير : (سُلَيمان الخَوَّاص) ٨/ ١٧٨ـ ١٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٤٢ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٧٣ .
(٤) انظر السير : (مالك بن دينار) ٥/ ٣٦٢ـ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٠٩ .
(٥) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٣٦ .

٥ـ خَوفُ السَّلَف من كونِ المَدْح والثَّناء اسْتدْراجاً :

قالَ الْمَرُّوذيُّ : قُلتُ لأبي عبدِ اللهِ أحمَد بنِ حَنْبَل : ما أكثَرَ الدَّاعي لَكَ! قالَ : أخافُ أنْ يَكُونَ هـٰذا اسْتدراجاً بأيِّ شَيءٍ هَـٰذا ؟ وقُلتُ له : قَدِمَ رَجلٌ من طَرْسُوسَ ، فقالَ : كُنَّا في بِلادِ الرُّوم في الغَزوِ إذا هَدَأ اللَّيلُ ، رَفَعوا أصْوَاتَهم بالدُّعاءِ ، ادْعُوا لأبي عبدِ الله ، وكُنَّا نَمُدُّ الْمِنْجَنيقَ ونَرْمي عن أبي عبدِ الله ولَقَد رُميَ عنه بحَجرٍ ، والعِلْجُ على الحِصنِ مُتَترِّسٌ بدَرَقَة فذَهبَ برَأسِه وبالدَّرَقَة ، قالَ : فتَغيَّرَ وَجهُ أبي عبدِ الله وقالَ : لَيتَه لا يَكونُ اسْتِدراجاً قُلتُ : كلاَّ[١] .

وقالَ خُرسانيٌّ للإمام أحمدَ بنِ حَنْبَل الحَمدُ لله الذي رَأيتُك ، قالَ : اقْعُد ، أيُّ شَيءٍ ذا ؟ مَنْ أنا ؟[٢] .

وعن رَجلٍ قالَ : رَأيتُ أثَرَ الغَمِّ في وَجْه أبي عبدِ الله أحمد بنِ حَنْبَل ، وقد أثنَىٰ عليه شَخصٌ ، وقيلَ له : جَزاكَ اللهُ عن الإسْلامِ خَيراً ، قالَ : بَلْ جَزَى اللهُ الإسْلامَ عنِّي خَيراً مَنْ أنا ومَا أنا!! ؟ .

قالَ إبْراهيمُ الحَرْبيُّ : كانَ أحمدُ بنُ حَنْبَل يُجيبُ في العُرْسِ والخِتانِ ، ويأكُلُ وذَكرَ غَيرُه أنَّ أحمدَ رُبَّما اسْتَعْفَىٰ من الإجابَة ، وكانَ إنْ رَأىٰ إناءَ فضَّة أو مُنْكَراً خرج ، وكان يُحبُّ الخُمولَ والانْزِواءَ عن النَّاسِ ، ويَعودُ المَريضَ وكان يَكرَهُ الْمَشيَ في الأسْواقِ ، ويُؤثِرُ الوَحْدَةَ[٣] .

٦ـ لو سَألكَ إنْسانٌ هلْ رأيتَ مثلَ نَفْسِكَ ؟ فبماذا تُجيبُ ؟

قالَ رَجاءُ بنُ محمَّد الْمُعَدَّل : قُلتُ للدَّارَقُطْنيِّ : رَأيتَ مثلَ نَفسِك ؟ فقالَ : قالَ اللهُ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾[٤] فألْحَحْتُ عليه فقالَ : لَمْ أرَ أحداً جَمعَ ما جَمعتُ ،

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر ٦/٩٢٧ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر ٤/٩٣٠ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر ٥/٩٣٠ .
(٤) سورة النجم ، الآية : ٣٢ .

وقالَ أبو ذَرْ : قُلتُ لأبي عبدِ الله الحَاكِم : هلْ رَأيتَ مثلَ الدَّارَقُطْنيّ ؟ فقالَ : هو ما رَأىٰ مثلَ نَفسِه ، فكيفَ أنا ؟[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الحافِظِ بنِ عَساكِر ، قالَ عنه أبو الْمَواهِب : وأنا كُنتُ أُذاكِرُه في خَلوَاتِه عن الحُفَّاظِ الذين لَقيَهم فقالَ : أمَّا ببَغْدادَ ، فأبو عامِر العَبْدَريُّ ، وأمَّا بأصْبَهانَ ، فأبُو نَصْر اليُونارتي ، لكنَّ إسْماعيلَ الحافظَ كانَ أشْهَرَ منه ، فقُلتُ له : فعَلىٰ هـٰذا ما رَأىٰ سَيِّدُنا مثلَ نَفسِه فقالَ : لا تَقُلْ هـٰذا ، قالَ اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾[2] قُلتُ : فقد قالَ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾[3] فقالَ : نَعَم لَوْ قالَ قائلٌ : إنَّ عَينَيَّ لَمْ تَرَ مثلِي لَصَدَق[4] .

٧ـ ثَنَاءُ العُلَماء على البُخَاري :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي عبدِ الله البُخاريِّ : قالَ أبو جَعْفَر : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ جَعْفَر يَقُولُ : لَوْ قَدرتُ أنْ أزيدَ في عُمرِ مُحمَّدِ بنِ إسْماعيلَ من عُمْري لَفعَلتُ ، فإنَّ مَوْتِي يَكُونُ مَوتَ رَجُلٍ واحِدٍ ومَوتُه ذَهَابُ العِلمِ .

وقالَ محمَّدٌ : حدَّثني محمَّدُ بنُ إسْماعيلَ ، قالَ : كُنتُ إذا دَخَلتُ علىٰ سُلَيْمانَ بنَ حَرْب يَقُولُ : بَيِّنْ لنا غَلطَ شُعْبَة .

قالَ وسَمعتُه يَقُولُ : اجْتَمعَ أصْحابُ الحَديثِ ، فسَألُوني أنْ أكلِّمَ إسْماعيلَ بنَ أبي أُوَيْس لِيَزيدَهُم في القِراءَة ، ففَعلتُ ، فدَعَا إسْماعيلُ الجارِيَة ، وأمَرَها أنْ تُخرِجَ صُرَّةَ دَنانير ، وقالَ : يا أبا عبد الله ، فرِّقْها عَليهم قُلتُ : إنَّما أرَادُوا الحَديثَ قالَ : قد أجَبتُك إلىٰ ما طَلبتَ من الزِّيادَة ، غَيرَ أنِّي أُحِبُّ أنْ يُضَمَّ هَـٰذا إلىٰ ذَاكَ لِيَظهَرَ أثَرُك فيهم .

وقالَ محمَّدُ بنُ أبي حاتم : سَمعتُ حاشِدَ بنَ عبد الله يَقُولُ : قالَ لي أبو مُصْعَب

---

(١) انظر السير : (الدَّارَقُطْنيُّ) ١٦/ ٤٤٩ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٠٤ .
(٢) سورة النجم ، الآية : ٣٢ .
(٣) سورة الضحى ، الآية : ١١ .
(٤) انظر السير : (ابنُ عَساكِر) ٢٠/ ٥٥٤ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨٤ .

الزُّهْرِيُّ : محمَّدُ بنُ إسْماعيلَ أفْقَهُ عندَنا وأَبْصَرُ بالحَديثِ من أحمَد بنِ حَنْبَل فقيلَ له : جاوَزْتَ الحَدَّ فقالَ للرجُلِ : لَوْ أدْرَكتَ مَالِكاً ونَظَرتَ إلىٰ وَجْهِه ووَجْهِ محمَّدِ بنِ إسْماعيلَ ، لقُلتَ : كِلاهُما واحدٌ في الفِقْه والحَديثِ .

قالَ : وسَمعتُ حاشِدَ بنَ إسْماعيلَ يَقُولُ : سَمعتُ إسْحاقَ بنَ رَاهَوَيْه يَقُولُ : اكْتُبوا عن هـٰذا الشَّابِّ ـ يَعني البُخاريَّ ـ فلَوْ كانَ في زَمَنِ الحَسَن لاحْتَاجَ إليه النَّاسُ لِمَعرِفَتِه بالحَديثِ وفِقهِه .

وعن عبدِ الله بنِ أحمَد بنِ حَنْبَل ، سَمعتُ أبي يَقُولُ : انتَهَى الحِفظُ إلىٰ أرْبَعة من أهْلِ خُراسَان : أبو زُرْعَة الرَّازي ، ومحمَّدُ بنُ إسْماعيلَ البُخاري ، وعبدُ الله بنُ عبدِ الرحمـٰن السَّمَرقَنْدي ، والحَسَنُ بنُ شُجاع البَلْخي .

قالَ ابنُ الأشْعَث : فحَكيتُ هـٰذا لِمُحمَّدِ بنِ عَقيل البَلْخي ، فأطْرَىٰ ذِكرَ ابنِ شُجاع ، فقُلتُ له : لِمَ لَمْ يَشْتهِرْ ؟ قال : لأنَّه لَمْ يُمَتَّعْ بالعُمرِ .

وقالَ محمَّدٌ : حدَّثني جَعفَرُ بنُ محمَّد الفِرَبْري قالَ : خَرجَ رَجلٌ من أصْحابِ عبدِ الله بنِ مُنير ، رَحمَهُ اللهُ إلىٰ بُخَارَىٰ في حاجَةٍ له فلمَّا رَجَعَ قالَ له ابنُ مُنير : لَقيتَ أبا عبد الله ؟ قالَ : لا ، فَطَردَه وقالَ : ما فيكَ بعدَ هـٰذا خَيرٌ ، إذ قَدِمتَ بُخارَىٰ ولَمْ تَصِرْ إلىٰ أبي عبدِ الله محمَّدِ بنِ إسْماعيل .

عن قُتَيبَة بنِ سَعيد أنَّه قالَ : رُحِلَ إليَّ من شَرقِ الأرضِ وغَربِها ، فمَا رَحلَ إليَّ مثلُ محمَّدِ بنِ إسْماعيل ، فقالَ مهيارُ : صَدقَ أنا رَأيتُه مع يَحْيَىٰ بنِ مَعين ، وهما يَخْتَلِفان جَميعاً إلىٰ محمَّدِ بنِ إسْماعيلَ ، فرَأيتُ يَحْيَىٰ يَنْقادُ له في الْمَعرِفَة .

وعن قُتَيبَة قالَ : لَوْ كانَ محمَّدٌ في الصَّحابَة لَكَانَ آيَةً .

وقالَ محمَّدُ بنُ يُوسُف الهَمَذاني : كُنَّا عندَ قُتَيبَة بن سَعيد ، فجاءَ رَجلٌ شَعرانيٌّ يُقالُ له : أبو يَعْقوب ، فسَألَه عن محمَّدِ بنِ إسْماعيل ، فنَكَّسَ رَأسَه ، ثم رَفَعَه إلى السَّماءِ ، فقالَ : يا هَؤلاء ، نَظَرتُ في الحَديثِ ونَظَرتُ في الرَّأي ، وجالَستُ الفُقَهَاءَ والزُّهَّادَ والعُبَّادَ ، ما رَأيتُ منذُ عَقلتُ مثلَ محمَّدِ بنِ إسْماعيل .

قالَ الحاكِمُ : سَمعتُ محمَّدَ بنَ يَعْقوبَ الحافِظَ يَقُولُ : سَمعتُ أبي يَقُولُ : رَأيت

مُسْلِمَ بنَ الحَجَّاج بين يدي البُخاريِّ يَسألُهُ سُؤالَ الصَّبيِّ[1] .

ثم قالَ : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ أحمَد الشَّيْباني الْمُعَدَّل ، سَمعتُ أحمَدَ ابنَ حَمْدونَ يَقُولُ : رَأيتُ محمَّدَ بنَ إسْماعيل في جِنازَة سَعيدِ بنِ مَرْوانَ ومحمَّدُ بنُ يَحْيَى الذُّهْليُّ يَسألُه عن الأسَامي والكُنَىٰ والعِلَلِ ، ومحمَّدُ بنُ إسْماعيلَ يَمرُّ فيه مثلَ السَّهْمِ ، كأنَّه يَقرأُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2] .

وقالَ محمَّدُ بنُ حَمْدونَ بنِ رُسْتُم : سَمعتُ مُسْلِمَ بنَ الحَجَّاج ، وجاءَ إلى البُخاريِّ فقالَ : دَعْني أُقَبِّلُ رِجْلَيْكَ يا أُسْتاذَ الأُسْتاذِين ، وسَيِّدَ الْمُحَدِّثين ، وطَبيبَ الحَديثِ في عِلله .

وقالَ أبو عَليّ صالِحُ بنُ محمَّد جَزَرَة : كانَ مُحمَّدُ بنُ إسْماعيلَ البُخاريُّ يَجلِسُ ببَغْدادَ ، وكُنتُ أسْتَمْلِي له ، ويَجتَمِعُ في مَجلِسِه أكْثَرُ من عِشْرينَ ألْفاً[3] .

قال خالدُ بنُ عبدِ الله المَرْوَزِيُّ ، سَمعتُ أبا سَهْل محمَّدَ بنَ أحمَدَ المَرْوزِيَّ ، سَمعتُ أبا زَيْد المَرْوزِيَّ الفَقيهَ يَقُولُ : كُنتُ نائماً بين الرُّكنِ والمَقَام فرَأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : يا أبا زَيْد ، إلىٰ مَتىٰ تَدْرُسُ كتابَ الشَّافعي ، ولا تَدرُسُ كتابي ؟ فقُلتُ : يا رسُولَ الله ، وما كتابُك ؟ قالَ : « جامِعُ مُحمَّد بن إسْماعيل »[4] .

٨ـ ثَناءُ عالمٍ علىٰ آخرَ مع تَدابُرِهما :

قيلَ : إنَّ أبا نُعَيم الحافِظَ ذُكِرَ له ابنُ مَنْدَة ، فقالَ : كانَ جَبلاً من الجِبالِ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : فهَـٰذا يَقولُه أبو نُعَيم مع الوَحْشَة الشَّديدَةِ التي بَينَه وبَينَه[5] ،[6] .

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٣/ ثَناء العُلماء عليه .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٥/ ١ .
(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٥/ ٢ .
(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٥/ ٣ .
(٥) وهي بسبب الخلاف المتأجج بين العُلماء وقتئذ حول قضية اللفظ بالقُرآن، أهو مَخْلوقٌ أو غيرُ مَخْلوقٍ.
(٦) انظر السير : (ابنُ مَنْدَة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ١٣٢١/ ٢ .

٩ـ تَوْجيهُ الثَّناءِ وِجْهَةً صَحيحَة :

قال أبو المَليح : قال رجلٌ لمَيْمونَ بنِ مِهْران : يا أبا أيوب! ما يَزالُ النَّاسُ بخَيرٍ ما أبقاك الله لهم ، قال : أقْبِلْ علىٰ شأنِكْ ، ما يَزالُ النَّاسُ بخَير ما اتَّقَوا ربَّهُم[١] .

قالَ ابنُ عُيَيْنَة : قالَ رَجلٌ لعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز : جَزاكَ اللهُ عن الإسْلامِ خَيراً ، قالَ : بَلْ جَزَى اللهُ الإسْلامَ عنِّي خَيراً .

ماتَ سَنةَ إحْدَىٰ ومئة[٢] .

وعن فُضَيلِ بنِ عِياض قالَ : قيلَ لسُليْمانَ التَّيميِّ : أنْتَ أنْتَ ومَنْ مثلُك ؟! قالَ : لا تَقُولوا هٰكذا لا أدْري ما يَبدو لي من رَبِّي عزَّ وجلَّ سَمعتُ اللهَ يَقُولُ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾[٣] ، [٤] .

١٠ـ نَمَاذج من تَزْكيَة السَّلَف بَعْضهم بَعْضاً :

قالَ الشَّعْبيُّ : أهلُ بَيتٍ خُلقوا للجَنَّة عَلقَمَةُ والأسْوَدُ وعبدُ الرحمَٰن[٥] .

رَوَىٰ عطاءُ بنُ أبي رَباح عن ابنِ عَبَّاس قالَ : إنِّي لأظُنُّ طاوُوساً من أهْلِ الجَنَّة[٦] .

وعن سُفْيانَ الثَّوري ، قالَ : وهلْ كانَ في الدُّنيا مثل قَتادَة[٧] .

وقالَ سُليْمانُ التَّيميُّ : ما أحَدٌ أُحِبُّ أنْ ألْقَى اللهَ بمثلِ صَحيفَتِه مثل محمَّدِ بنِ واسع[٨] .

وقالَ وَكيعٌ : شَكٌّ مِسْعَر كَيَقينِ غَيرِه .

---

(١) انظر السير : (مَيْمونُ بن مِهْران) ٥/ ٧١ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٨٢ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٩٢ .
(٣) سورة الزمر ، الآية : ٤٧ .
(٤) انظر السير : (سُليْمانُ بنُ طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٦٤١ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الرحمَٰن بن الأسْوَد) ٥/ ١١ـ ١٢ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٧٥ .
(٦) انظر السير : (طاوُوس) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٧٧ .
(٧) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٠٣ .
(٨) انظر السير : (محمد بن واسع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٣٨ .

ورُوِيَ عن الحَسَنِ بنِ عُمارَة قال : إنْ لَمْ يَدْخُل الجَنَّةَ إلاَّ مِثلُ مِسْعَر ، إنَّ أهْلَ الجَنَّة لَقَليل[1] .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعين : شُعْبَةُ إمَامُ الْمُتَّقينَ ، وقالَ أبو زَيْد الأنْصاريُّ : هلْ العُلَماءُ إلاَّ شُعْبةٌ من شُعْبَة[2] .

وقالَ البَراءُ بنُ رتيم : سَمعتُ يُونُسَ بنَ عُبَيد يَقُولُ : ما رَأيتُ أفْضَلَ من سُفْيانَ فقيلَ له : فقد رَأيتَ سَعيدَ بنَ جُبَير ، وإبْراهيمَ ، وعَطاءَ ، ومُجاهِداً ، وتَقُولُ هـٰذا ؟! قالَ : هو ما أقُولُ ، ما رَأيتُ أفْضَلَ من سُفْيانَ .

وقالَ عَبَّاسُ الدُّوريُّ : رَأيتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، لا يُقدِّمُ علىٰ سُفْيانَ أحَداً في زَمانِه ، في الفِقْه والحَديثِ والزُّهْدِ وكُلِّ شَيء[3] .

وعن ابنِ الْمُبارَك قالَ : ما نُعِتَ لي أحَدٌ ، فرَأيتُه إلاَّ وَجدتُه دُونَ نَعتِه ، إلاَّ سُفْيانَ الثَّوري .

وقالَ ابنُ عَرْعَرَة : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ سَعيد يقولُ : سُفْيانُ أثْبَتُ من شُعْبَة ، وأعْلَمُ بالرِّجالِ[4] .

وقالَ بِشْرٌ الحَافي : كانَ الثَّوريُّ عندَنا إمَامَ النَّاسِ وعنه قالَ : سُفْيانُ في زَمانِه كأبي بَكر وعُمَرَ في زَمانِهما[5] .

وعن شُعَيبِ بنِ حَرْب قالَ : إنِّي لأحْسَبُ أنَّه يُجاءُ غَداً بسُفْيانَ حُجَّةً من الله علىٰ خَلقِه يَقُولُ لهم : لَمْ تدرِكُوا نَبيَّكم ، قد رَأيتُم سُفْيانَ .

قالَ شُعْبَةُ : إنَّ سُفْيانَ سَادَ النَّاسَ بالوَرَع والعِلمِ[6] .

---

(١) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٨٩ .
(٢) انظر السير : (شُعْبَة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٩٣ .
(٣) انظر السير : (سُفْيان الثَّوري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٩٥ .
(٤) انظر السير : (سُفْيان الثَّوري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٩٥ .
(٥) انظر السير : (سُفْيان الثَّوري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٩٥ .
(٦) انظر السير : (سُفْيان الثَّوري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦٩٥ .

وقالَ أبو نُعَيم : سَمعتُ سُفْيانَ يَقُولُ : كانَ إبْراهيمُ بنُ أدْهَم يُشبِهُ إبْراهيمَ الخَليلَ ولَوْ كانَ في الصَّحابَة ، لَكانَ رَجُلاً فاضِلاً[1] .

وقالَ ابنُ عُيَيْنَة : نَظَرتُ في أمْرِ الصَّحابَة ، وأمْرِ عبدِ الله بنِ الْمُبارَك فما رَأيتُ لهم عَليه فَضْلاً إلاَّ بصُحْبَتِهم النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وغَزوِهِم مَعه[2] .

ورَوَىٰ أحمَدُ بنُ أبي الحَواريِّ عن الهَيثم بنِ جَميل ، سَمعتُ شَريكاً يَقُولُ : لَمْ يَزَلْ لِكُلِّ قَومٍ حُجَّة في أهْلِ زَمانِهم ، وإنَّ فُضَيْلَ بنَ عِياض حُجَّةٌ لأهلِ زَمانِه ، فقامَ فَتىً من مَجلِسِ الهَيْثم ، فلمَّا تَوارَىٰ ، قالَ الهَيْثمُ : إنْ عاشَ هٰذا الفَتَىٰ يَكونُ حُجَّة لأهلِ زَمانِه قيلَ : مَنْ كانَ الفَتَى ؟ قالَ : أحمَدُ بنُ حَنْبَل[3] .

قالَ الإمَامُ الشَّافعيُّ : لَوْلا مَالِكٌ وسُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة ، لَذَهَبَ عِلمُ الحِجَازِ .

وارْتَحلَ سُفيانُ ولَقيَ خَلقاً كَثيراً ما لَقِيَهم مَالِكٌ ، وهما نَظيرانِ في الإتْقَانِ ، ولكنَّ مالكاً أجَلُّ وأعْلَىٰ ، فعندَه نافِعٌ ، وسَعيدٌ المقْبُريّ .

قالَ حَرمَلةُ : سَمعتُ الشَّافعيَّ يَقُولُ : ما رَأيتُ أحَداً فيه من آلَةِ العِلمِ ما في سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة ، وما رَأيتُ أكفَّ عن الفُتيا منه قالَ : وما رَأيتُ أحداً أحْسَنَ تَفسيراً للحَديثِ منه .

قالَ عبدُ الله بنُ وَهْب : لا أعْلمُ أحَداً أعْلمَ بتَفسيرِ القُرآنِ من ابنِ عُيَيْنَة .

وقالَ : أحمَدُ بنُ حَنْبَل أعْلَمُ بالسُّننِ من سُفْيانَ .

وعن البُوَيطيِّ ، سَمعتُ الشَّافعيَّ يَقُولُ : أصُولُ الأحْكامِ نَيِّفٌ وخَمس مئة حَديث ، كلُها عندَ مَالِك إلاَّ ثَلاثينَ حَديثاً ، وكلُّها عندَ ابنِ عُيَيْنَة إلاَّ سِتَّة أحَاديث .

وقالَ ابنُ الْمَديني : قالَ لي يَحْيى القَطَّان ما بَقيَ من مُعلِّمِيَّ أحَدٌ غَيرُ سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة ، وهو إمامٌ منذُ أرْبَعينَ سَنةً[4] .

---

(١) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٠٨ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٦٧ .
(٣) انظر السير : (الفُضيل بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٧٣ .
(٤) انظر السير : (سُفيانُ بن عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٨٣ .

وقالَ نُعَيمُ بنُ حَمَّاد : ما رَأيتُ أحَداً أجْمَعَ لِمُتَفرِّقٍ من سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة[1] .

وقالَ أبو داوُدَ الطَّيالسيُّ : تُوفِّيَ أبو إسْحاقَ الفَزاري ولَيسَ علىٰ وَجه الأرضِ أحَدٌ أفْضَلَ منه[2] .

وعن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة ، قالَ : والله ما رَأيتُ أحداً أقَدِّمُه علىٰ أبي إسْحاقَ الفَزَاري[3] .

وعن مَالك : أنَّه ذُكرَ عندَه عبدُ الرحمَـٰن بنُ القاسِم ، فقالَ : عافَاه الله ، مَثلُه كمَثلِ جِرابٍ مَمْلوء مِسْكاً[4] .

وقالَ بِشْرُ بنُ مُوسَىٰ : سَمعتُ أحمَدَ بنَ حَنْبَل يَقُولُ : ما رَأيتُ قَطُّ مثلَ وَكيعٍ في العِلمِ والحِفظِ والإسْنادِ والأبْوابِ مع خُشوعٍ ووَرَع .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يَقُولُ هـٰذا أحمَدُ مع تَحرِّيه ووَرَعِه وقد شَاهَد الكِبارَ مثلَ هُشَيم ، وابنِ عُيَيْنَة ، ويَحْيَى القَطَّان ، وأبي يُوسُف القاضي وأمثالِهم[5] .

وقالَ مَروانُ بنُ محمَّد الطَّاطَرِيّ : ما رَأيتُ فيمَن رَأيتُ أخْشَعَ من وَكيع ، وما وُصِفَ لي أحَدٌ قَطُّ إلاَّ رَأيتُه دُونَ الصِّفَة إلاَّ وَكيعاً ، رَأيتُه فَوقَ ما وُصِفَ لي[6] .

وقالَ إسْماعيلُ بنُ شَدَّاد : قالَ لنا سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة : ما فَعلَ ذلك الحَبرُ الذي فيكُم ببَغْدادَ ؟ قُلنا : مَنْ هو ؟ قالَ : أبو مَحْفوظ مَعْروفٌ قُلنا : بخَير ، قالَ : لا يَزالُ أهلُ تلكَ الْمَدينَة بخَير ما بَقيَ فيهم[7] .

قالَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل : ما رَأيتُ أفضَلَ من حُسَينٍ الجُعْفي .

---

(١) انظر السير : (سُفيانُ بن عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٨٤ .
(٢) انظر السير : (أبو إسْحاق الفَزاري) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٩٠ .
(٣) انظر السير : (أبو إسْحاق الفَزاري) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٩٠ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٠٥ .
(٥) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٠٩ .
(٦) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨١١ .
(٧) انظر السير : (مَعْروف الكرْخي) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٢٦ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يُريدُ بالفَضلِ التَّقْوَىٰ والتألُّه ، هَـٰذا عُرْفُ الْمُتَقدِّمين[1] .

وقالَ قُتَيبَةُ : قيلَ لِسُفيانَ بنِ عُيَيْنَة : قَدِمَ حُسَينٌ الجُعْفيُّ ، فوَثَبَ قائماً ، وقالَ : قَدِمَ أفْضَلُ رَجُلٍ يَكُونُ قَطُّ[2] .

وقالَ وَكيعُ بنُ الجَرَّاح : إنْ كانَ يُدفَعُ بأحَد في زَمانِنا ، فبأبي داوُد الحَفَريِّ .

وقالَ عليُّ بنُ الْمَديني : لا أعْلمُني رَأيتُ بالكُوفَة أعْبَدَ منه[3] .

وعن الحُنَيْنيِّ قالَ : كُنَّا عندَ مَالِك ، فقَدِمَ ابنُ قَعْنَب من سَفَر ، فقالَ مَالِكٌ : قُوموا بنا إلىٰ خَيرِ أهْلِ الأرْض[4] .

قالَ إبْراهيمُ الحَربيُّ : ما أخْرَجَتْ بغدادُ أتَمَّ عَقْلاً من بِشْرِ بنِ الحَارِث ، ولا أحفَظَ لِلسَانِه ، كانَ في كُلِّ شَعرَةٍ منه عَقلٌ ، وَطِىءَ النَّاسُ عَقِبَه خَمسينَ سَنةً ، ما عُرِفَ له غِيبةٌ لِمُسلِم ، ما رَأيتُ أفْضَلَ منه[5] .

وقيل لأحمَد : ماتَ بِشرُ بنُ الحَارِث : قالَ : مَاتَ والله وما لَه نَظيرٌ إلاَّ عامِرُ بنُ عبد قَيْس ، فإنَّ عامِراً ماتَ ولَمْ يَترُكْ شَيئاً ثم قالَ أحمَدُ : لَوْ تَزوَّج[6] .

وقالَ إبْراهيمُ الحَربيُّ : لَوْ قُسِّمَ عَقلُ بِشْر علىٰ أهْلِ بَغدَادَ ، صاروا عُقَلاء[7] .

وقالَ أبو العَبَّاس ثَعْلبٌ : لَوْ كانَ أبو عُبَيد في بَني إسْرائيلَ ، لكانَ عَجَباً[8] .

وقالَ إبْراهيمُ بنُ محمَّد النسَّاج : سَمعتُ إبْراهيمَ الحَربيَّ يَقُولُ : أدْرَكتُ ثَلاثةً تَعجزُ النِّساءُ أنْ يَلدْنَ مِثلَهم : رَأيتُ أبا عُبَيد ، ما مَثَّلتُه إلاَّ بجَبلٍ نُفخَ فيه رُوحٌ ، ورَأيتُ بِشْرَ بنَ الحَارِث ، ما شَبَّهتُه إلاَّ برجُل عُجنَ من قَرْنِه إلىٰ قَدَمِه عَقْلاً ، ورَأيتُ أحمَدَ بنَ

---

(١) انظر السير : (الحُسَينُ بنُ عَليّ الجُعفي) ٩/ ٣٩٧ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٨٣٣/ ١ .
(٢) انظر السير : (الحُسَينُ بنُ عَليّ الجُعفي) ٩/ ٣٩٧ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٨٣٣/ ٢ .
(٣) انظر السير : (الحَفَريّ) ٩/ ٤١٥ـ ٤١٧ ، وانظر النزهة : ٨٣٤/ ٢ .
(٤) انظر السير : (القَعْنَبيُّ) ١٠/ ٢٥٧ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٨٧٥/ ٥ .
(٥) انظر السير : (بِشْر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٨٨٥/ ٨ .
(٦) انظر السير : (بِشْر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٨٨٦/ ٧ .
(٧) انظر السير : (بِشْر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٨٨٦/ ٨ .
(٨) انظر السير : (أبو عُبَيْد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٨٨٧/ ٦ .

حَنْبَل ، فرَأيتُ كأنَّ اللهَ قد جَمعَ له عِلمَ الأوَّلينَ ، فمِنْ كُلِّ صنف يَقولُ ما يَشاءُ ، ويُمْسِكُ ما يَشاءُ[1] .

وعن يَحْيَىٰ بنِ يَحْيَى التَّميمِيِّ ، قالَ : إنْ لَمْ يَكُنْ أحمَدُ بنُ حَرْب من الأبْدَالِ ، فلا أدْري مَنْ هم ؟!![2] .

قالَ عبدُ الرَّزَّاق : ما رَأيتُ أحَداً أفْقَه ولا أوْرَع من أحمَد بنِ حَنْبَل .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : قالَ هَـٰذا وقد رَأىٰ مثلَ الثَّوري وَمالِك وابنِ جُرَيج[3] .

وقالَ قُتَيبَة : خَيرُ أهْلِ زَمانِنا ابنُ الْمُبَارَك ، ثم هـٰذا الشَّابُّ ، يَعني : أحمَدَ بنَ حَنْبَل ، وإذا رَأيتَ رَجُلاً يُحبُّ أحمدَ ، فاعْلَم أنَّه صاحِبُ سُنَّة ولَوْ أدْرَكَ عَصرَ الثَّوري ، والأوْزاعي ، واللَّيث ، لكانَ هو الْمُقدَّم عَليهم فقيلَ لقُتَيبَة : يُضَمُّ أحمَدُ إلى التَّابعين ؟ قالَ : إلىٰ كِبارِ التَّابعين[4] .

وقالَ حَرْمَلَةُ : سَمعتُ الشَّافعيَّ يَقُولُ : خَرجتُ من بَغْدادَ فمَا خَلَّفتُ بها رَجُلاً أفضَلَ ، ولا أعْلَمَ ، ولا أفْقَهَ ، ولا أتْقَىٰ من أحمَد بنِ حَنْبَل[5] .

ورُويَ عن إسْحاقَ بنِ راهَوَيْه ، قالَ : أحمَدُ حُجَّةٌ بينَ الله وبينَ خَلقِه[6] .

عن محمَّدِ بنِ يَحْيَى الصَّفَّار ، قالَ : لَوْ كانَ الحَسَنُ البَصْريُّ في الأحْياءِ لاحْتاجَ إلىٰ إسْحاقَ بن رَاهَوَيْه في أشْيَاءَ كَثيرَة[7] .

وقالَ حَنْبَلُ : سَمعتُ أبا عبدِ الله ، وسُئلَ عن إسْحاقَ بن رَاهَوَيْه ، قالَ : مثل إسْحاقَ يُسألُ عَنه ؟! إسْحَاقُ عندَنا إمَامٌ[8] .

---

(١) انظر السير : (أبو عُبَيْد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٧/٨٨٧ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَرْب) ١١/ ٣٢ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٩٠٦ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/٩٢٥ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٥/٩٢٥ .
(٥) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٦/٩٢٥ .
(٦) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٧/٩٢٥ .
(٧) انظر السير : (إسْحاق بن راهَوَيْه) ١١/ ٣٥٨ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/٩٥٢ .
(٨) انظر السير : (إسْحاق بن راهَوَيْه) ١١/ ٣٥٨ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ١/٩٥٣ .

وقالَ إمامُ الأئمَّة ابنُ خُزَيْمَة : والله لَوْ كانَ إسْحاقُ في التَّابعينَ لأقَرُّوا له بحِفظِه وعِلمِه وفِقهِه[1] .

قالَ أبو عبد الله الحاكِم : كانَ محمدُ بنُ أسْلَم من الأبْدَالِ الْمُتَتبِّعينَ للآثارِ[2] .

وقالَ فيه محمَّدُ بنُ رَافع : دَخلتُ علىٰ محمَّدِ بنِ أسْلَم ، فمَا شَبَّهتُه إلاَّ بأصْحابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم[3] .

وقالَ الحاكِمُ : قامَ محمَّدُ بنُ أسْلَم مَقامَ وَكيع ، وأفْضلَ من مَقامِه لِزُهْدِه ووَرَعِه وتَتبُّعه للأثَر[4] .

قالَ محمَّدُ بنُ القاسِم : وسَمعتُ أبا يَعْقوب الْمَرُّوزيَّ ببَغدادَ ، وقُلتُ له : قد صَحبتَ محمَّدَ بنَ أسْلَم ، وأحمَدَ بنَ حَنْبَل ، أيُّهما كانَ أرْجَحَ وأكبَرَ وأبْصَرَ بالدِّين ؟ فقالَ يا أبا عبدِ الله : لِمَ تَقُولُ هـٰذا ؟ إذا ذَكرتَ مُحمَّداً في أرْبَعةِ أشْياءَ ، فلا تَقْرِنْ معه أحَداً : البَصَر بالدِّين ، واتِّبَاع الأثَر ، والزُّهْد في الدُّنيا ، وفَصاحَته بالقُرآنِ والنَّحْو ، ثم قالَ لي : نَظرَ أحمدُ في كتابِ « الرَّدِّ على الجَهْميَّة » لابنِ أسْلَم ، فتَعجَّبَ منه[5] .

عن أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، قالَ : ما كانَ بالشَّامِ مُنذُ أرْبَعينَ سَنةً مثلُ محمَّدِ بنِ عَوْف .

ماتَ ابنُ عَوْف في سنةِ اثنَتينِ وسَبعينَ ومئتينِ ، رَحمَه الله[6] .

قال إبراهيمُ بنُ عَفَّانَ البَزَّار : كُنتُ عندَ أبي عبدِ الله البُخَاريّ فجَرَىٰ ذِكرُ أبي إسْحَاقَ السُّرْماريّ ، فقال : ما نَعْلَمُ في الإسْلام مِثْلَه فخَرَجْتُ فإذا أُحَيْدُ رَئيسُ المُطَّوِّعَة ، فأخْبَرتُه ، فغَضِبَ ودَخَلَ على البُخَاريّ ، وسَأَلَه فقال ما كذا قُلتُ ، بل : ما بَلَغَنَا أنَّه كان في الإسْلامِ ولا في الجَاهِلِيَّةِ مِثلُه .

---

(١) انظر السير : (إسْحاق بن راهَوَيْه) ١١/ ٣٥٨ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٥٣ .
(٢) انظر السير : (محمدُ بنُ أسْلَم) ١٢/ ١٩٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٩٢ .
(٣) انظر السير : (محمدُ بنُ أسْلَم) ١٢/ ١٩٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٩٢ .
(٤) انظر السير : (محمدُ بنُ أسْلَم) ١٢/ ١٩٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٩٢ .
(٥) انظر السير : (محمدُ بنُ أسْلَم) ١٢/ ١٩٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٩٢ .
(٦) انظر السير : (محمد بن عَوْف) ١٢/ ٦١٣ـ ٦١٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٤٠ .

وقالَ ابنُه أبو صَفْوَان : دَخَلتُ علىٰ أبي يوماً وهو يَأكُلُ وحْدَه ، فرَأَيْتُ في مائِدَتِه عُصْفُوراً يأكُلُ معَه ، فلمَّا رَآنِي طَارَ[1] .

عن محمَّدِ بنِ إبْراهيمَ الْمُقرِىء ، سَمعتُ فَضْلَكَ الصَّائغَ يَقولُ : دَخلتُ على الرَّبيع بمِصْرَ ، فقالَ : من أينَ ؟ قُلتُ : من الرّيِّ قالَ : تَركتَ أبا زُرْعَةَ الرَّازي وجئتَ ؟ إنَّ أبا زُرْعَة آيةٌ ، وإنَّ اللهَ إذا جَعلَ إنْساناً آيَةً ، أبَانَه من شَكلِه ، حتَّىٰ لا يَكونَ له ثانٍ[2] .

وقالَ الحافظُ موسَىٰ بنُ هارُون : خُلِقَ أبو داوُد في الدُّنيا للحَديث ، وفي الآخِرَة للجَنَّة[3] .

وعن عَلقَمَة ، قالَ : كانَ عبدُ الله بنُ مَسْعُود يُشَبَّهُ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في هَدْيه ودَلِّه وكانَ عَلقَمَةُ يُشَبَّهُ بعَبدِ الله في ذلك .

قالَ جَريرُ بنُ عبد الحَميد : وكانَ إبْراهيمُ النَّخَعي يُشَبَّهُ بعَلقَمَة في ذلك ، وكانَ مَنْصُورُ يُشَبَّهُ بإبْراهيمَ .

وقيلَ : كانَ سُفْيانُ الثَّوري يُشَبَّهُ بمَنْصُور ، وكان وَكيعُ يُشَبَّهُ بسُفْيانَ ، وكانَ أحمَدُ يُشَبَّهُ بوَكيع ، وكانَ أبو دَاوُد يُشَبَّهُ بأحمَد[4] .

قالَ أبو الحَسَن عَليُّ بنُ إبْراهيمَ الرَّازي الخَطيبُ في تَرجَمَة عَملَها لابنِ أبي حاتم : وكانَ بَحْراً لا تُكدِّرُه الدِّلاء .

وقالَ عنه أبو يَعْلى الخَليلي : أخَذَ أبو محمَّد علمَ أبيه ، وأبي زُرْعَة ، وكانَ بَحْراً في العُلومِ ومَعرِفَة الرِّجال صَنَّفَ في الفِقهِ ، وفي اخْتِلافِ الصَّحابَة والتَّابِعينَ وعُلمَاءِ الأمْصَارِ قالَ : وكانَ زاهِداً ، يُعَدُّ من الأبْدَال .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : له كتابٌ نَفيسٌ في « الجَرْحِ والتَّعْديل » ، أرْبَع مُجلَّدات ، وكتابُ « الرَّدِّ على الجَهْميَّة » ، مُجلَّدٌ ضَخمٌ ، انْتخبت منه ، وله « تَفسيرٌ »

---

(١) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٩ .
(٢) انظر السير : (أبو زُرْعَة الرَّازي) ١٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٥٢ .
(٣) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٠ .
(٤) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧١ .

كَبيرٌ في عِدَّة مُجلَّدات ، عامَّتُه آثارٌ بأسانيدِه ، من أحْسَنِ التَّفاسِير ، وله كتابُ « العِلَل » ، مُجلَّد كَبير[1] .

قالَ أبو الفَضْل الجَارُودي : كانَ عُثْمَانُ بنُ سَعيد الدَّارِميُّ إماماً يُقْتَدَىٰ به في حَياتِه وبعدَ مَمَاتِه[2] .

قالَ محمَّدُ بنُ سَهْل الطُّوسي : سَمعتُ الرَّبيعَ بنَ سُليْمانَ وقالَ لنا : هلْ تَعرِفُونَ ابنَ خُزَيْمَة ؟ قُلنَا : نَعَم قالَ : اسْتَفَدنا منه أكثرَ مِمَّا اسْتَفادَ مِنَّا[3] .

وقالَ الحافِظُ أبو عَليٍّ النِّيسابُوريُّ : لَمْ أرَ أحَداً مثلَ ابنِ خُزَيْمَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يَقُولُ مثلَ هَـٰذا وقد رَأى النَّسَائي[4] .

وسُئلَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ أبي حاتمٍ عن أبي بَكر بنِ خُزَيْمَة ، فقالَ : وَيْحَكم! هو يُسألُ عَنَّا ولا نُسألُ عنه! هو إمامٌ يُقتَدَىٰ به[5] .

وقالَ الصِّبْغيُّ : شَمائلُ الصَّحابَة والتَّابِعينَ ، أخَذَها مَالكٌ الإمَامُ عنهم ، وأخَذَها عن مَالِك يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَى التَّميميُّ ، وأخَذَها عن يَحْيَىٰ محمَّدُ بنُ نَصْر الْمَروَزِيُّ ، وأخَذَها عن ابنِ نَصْر أبو عليٍّ الثَّقَفيُّ .

قالَ الحاكِمُ : وسَمعتُ أبا العَبَّاس الزَّاهِدَ يَقُولُ : كانَ أبو عَليٍّ في عَصْرِه حُجَّةُ الله علىٰ خَلقِه[6] .

سُئلَ عبدُ الله بنُ مَنازل الزَّاهِدُ عن القِرْمِيسنِيِّ فقالَ : هو حُجَّةُ الله على الفُقَراءِ وأهْلِ الْمُعامَلاتِ والآدَابِ[7] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٧٨ .
(٢) انظر السير : (الدَّارِميّ) ١٣/ ٣١٩ـ ٣٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٩٢ .
(٣) انظر السير : (ابنُ خُزَيْمَة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٤/١١٦٠ .
(٤) انظر السير : (ابنُ خُزَيْمَة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ١/١١٦١ .
(٥) انظر السير : (ابنُ خُزَيْمَة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٢ .
(٦) انظر السير : (أبو عَليّ الثَّقَفِيّ) ١٥/ ٢٨٠ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٢٧ .
(٧) انظر السير : (القِرْمِيسنِيُّ) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٣٩ .

وقالَ أبو بَكر بنُ إسْحاقَ : صَحبتُ عَليَّ بنَ حَمْشَاذ في الحَضَر والسَّفَر ، فما أعْلمُ أنَّ الْمَلائكَةَ كَتبَتْ عليه خَطيئَة[1] .

وقالَ عبدُ الْمُحْسِن الشِّيحيُّ التَّاجِرُ : ما رَأيتُ مثلَ الصُّوريِّ! كانَ كأنَّه شُعلَةُ نارٍ ، بِلِسانٍ كالحُسَامِ القَاطِع[2] .

وقالَ أبو سَعد السَّمْعانيُّ : كانَ الدَّاوُديُّ وَجْهَ مَشَايخ خُراسان فَضْلاً عن ناحيته والْمَعرُوفَ في أصْلِه وفَضلِه وطَريقَتِه ، له قَدمٌ في التَّقوَىٰ رَاسِخٌ ، يَستَحقُّ أنْ يُطوَىٰ للتَّبرُّكِ به فَراسِخُ فَضلُه في الفُنُونِ مَشْهُور ، وذِكرُه في الكُتبِ مَسْطُور ، وأيَّامُه غُرَر ، وكَلامُه دُرَر[3] .

وقالَ أبو الحَسَن البَاخَرْزيُّ في « الدمية » في حَقِّ إمَامِ الحَرَمَين أبي الْمَعَالي الجُوَينيِّ : الفِقهُ فِقْهُ الشَّافعيِّ ، والأدَبُ أدَبُ الأصْمَعيِّ ، وفي الوَعْظِ الحَسَنِ الحَسَنُ البَصْريُّ ، وكَيفَ ما هو فهُو إمامُ كُلِّ إمامٍ ، والْمُسْتَعلِي بهِمَّتِه علىٰ كُلِّ هَامّ ، والفائِزُ بالظَّفَر علىٰ إرْغَامِ كُلِّ ضِرْغَام ، وإنْ تَصَدَّرَ للفِقهِ ، فالْمُزَنيُّ من مُزْنَتِه ، وإذا تَكلَّمَ فالأشْعَريُّ شَعْرةٌ من وَفْرَتِه[4] .

١١ـ شِعْرٌ في المَدْح :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عليِّ بنِ الحُسَينِ بنِ عَليِّ بن أبي طالب : قد اشْتَهرَت قَصيدَةُ الفَرَزْدَق ـ وهي سَمَاعنا ـ أنَّ هِشامَ بنَ عبدِ الْمَلكِ حَجَّ قُبَيلَ وِلايَتِه الخِلافَة ، فكانَ إذا أرَادَ اسْتلام الحَجَر زُوحِمَ عليه ، وإذا دَنا عليُّ بنُ الحُسَين من الحَجَر تَفرَّقُوا عنه إجْلالاً له ، فوَجَمَ لها هِشَامٌ وقالَ : مَنْ هَـٰذا ؟ فمَا أعْرِفُه ، فأنْشَأ الفَرَزْدَقُ يَقُولُ :

هـٰذا الَّذي تَعْرِفُ البَطْحاءُ وَطْأتَهُ ... والبيتُ يعرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
هَـٰذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كُلِّهِمِ ... هـٰذا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطاهِرُ العَلَمُ

---

(١) انظر السير : (عَليُّ بنُ حَمْشاذ) ١٥/ ٣٩٨ـ ٤٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٤١ .
(٢) انظر السير : (الصُّوريُّ) ١٧/ ٦٢٧ـ ٦٣١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٦٩ .
(٣) انظر السير : (الدَّاوُديُّ) ١٨/ ٢٢٢ـ ٢٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٠٥ .
(٤) انظر السير : (إمامُ الحَرَمَيْن) ١٨/ ٤٦٨ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٣٤ .

إذا رأتْـهُ قـريـشٌ قـالَ قـائِلُهـا ... إلـىٰ مكـارمِ هـٰـذا ينتهـي الكـرمُ
يكـادُ يمسِكُـهُ عِـرفـانُ راحتِـهِ ... رُكْـنُ الحطيـمِ إذا مـا جـاءَ يستلِـمُ
هـٰذا ابنُ فاطمةٍ إنْ كنتَ جاهِلَهُ ... بجـدِّهِ أنبيـاءُ اللهِ قَـدْ خُتِمـوا

وهي قَصيدَةٌ طَويلَةٌ قالَ : فأمَرَ هِشامٌ بحَبسِ الفَرَزْدَق ، فحُبسَ بعُسفَانَ ، وبَعثَ إليه عليُّ بنُ الحُسَين باثنَي عَشرَ ألفَ دِرْهَم وقالَ : أعْذِرْ أبا فِراس فرَدَّها وقَالَ : ما قُلتُ إلاَّ غَضَباً لله ولِرَسُولِه ، فردَّها إليه ، وقالَ : بِحَقِّي عَليكَ لَمَا قَبلتَهَا ، فقد عَلمَ اللهُ نيَّتَك ورَأىٰ مَكانَك فقبلَها .

ماتَ عَليُّ بنُ الحُسَيْنِ سَنةَ أرْبع وتسعين .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قَبرُه بالبَقيعِ ، ولا بَقيَّةَ للحُسَينِ إلاَّ من قِبَل ابنِه زَينِ العَابدين[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يَعْقُوب الحَضْرَميِّ ، أحَدِ القُرَّاء العَشْرَة : قالَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل : هو صَدوقٌ .

وقالَ محمَّدُ بنُ أحمَد العِجليُّ يَمدَحُ يَعقُوبَ[2] :

أبُـوهُ مـن القُـرَّاءِ كَـانَ وَجَـدُّهُ ... وَيَعْقُوبُ فِي القرَّاءِ كَالْكَوْكَبِ الدُّرِّي
تَفَـرُّدُهُ مَحْـضُ الصَّـوابِ وَوَجْهُـهُ ... فَمَـنْ مِثْلُـهُ فـي وَقْتِـهِ وإِلَـى الْحَشْـرِ

وقال أبو تَمَّام في المُعْتَصِم أو ابنِه :

إِقْـدَامُ عمـرٍو فـي سَمـاحَـةِ حَـاتِـمٍ ... في حِلْمِ أَحْنَف في ذَكَاءِ إِياسِ[3]

ورَوىٰ محمَّدُ بنُ عبدِ الْمَلِك التَّاريخيُّ ، قالَ : أنْشَدَني ابنُ أبي طاهِر لنَفسِه في الزُّبَيْرِ بنِ بَكار[4] :

---

(١) انظر السير : (عَليُّ بنُ الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٢٠ .
(٢) انظر السير : (يَعْقوبُ الحَضْرَميّ) ١٠/ ١٦٩ـ ١٧٤ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٦٣ .
(٣) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٠٩ .
(٤) انظر السير : (الزُّبَيْر بن بَكار) ١٢/ ٣٠٨ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٠٤ .

مـا قَـالَ « لا » إلاَّ فـي تَشَهُّـدِهِ ... ولا جَـرَىٰ لَفْظُـهُ إلاَّ عَلَىٰ « نَعَـمِ »
بَيْـنَ الْحَـوَارِيِّ والصِّـدِّيـقِ نِسْبَتُـهُ ... وَقَـدْ جَـرَىٰ وَرَسُـولُ اللهِ فـي رَحِـمِ

ولابن الرُّوميِّ النَّظْمُ العَجيب ، والتَّوْليدُ الغَريب ، رتَّبَ شِعْرَه الصُّوليُّ ، وكانَ رَأساً في الهِجاءِ وفي الْمَديحِ ، وهو القائلُ[1] :

آراؤُكـم وَوُجُـوهُكُـم وَسُيُـوفُكـم ... فـي الحَـادِثَـاتِ إذَا دَجَـوْنَ نُجُـومُ
مِنْهـا مَعَـالِـمُ لِلْهُـدَىٰ وَمَصَـابِـحٌ ... تَجْلُو الدُّجَىٰ وَالأُخْرَياتُ رُجُومُ

ولليَشْكُريِّ في أبي عُمَرَ الزَّاهِد قَصيدَةٌ منها :

فَلَوْ أَنَّنِي أقْسَمْتُ مَا كُنْتُ كَاذِباً ... بِـأَنْ لَـمْ يَـرَ الـرَّاؤُونَ حَبْـراً يُعَـادِلُـهْ
إِذَا قُلْـتَ شَـارَفْنَـا أَوَاخِـرَ عِلْمِـهِ ... تَفَجَّـرَ حَتَّـىٰ قُلْـتَ هـٰذي أَوَائِلُـهْ

ماتَ أبو عُمَر سَنةَ خَمسٍ وأرْبَعينَ وثَلاثِ مئة[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ « كافُور » صاحِبِ مِصْرَ ، يَقُولُ الْمُتَنَبِّي :

قَـوَاصِـدُ كَـافُـورٍ تَـوَارِكُ غَيْـرِهِ ... وَمَنْ قَصَدَ البَحْرَ استَقَلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَـاءَتْ بِنَـا إِنْسَـانَ عَيْـنِ زَمَـانِـهِ ... وخَلَّـتْ بَيَـاضـاً خَلْفَهَـا وَمَـآقِيَـا

فأقامَ عندَه أرْبَع سِنينَ ، ونالَه مالٌ جَزيلٌ ، ثم هَجَاه لآمَةً وكُفْراً لِنعمَتِه وهَربَ على البَرِّيَّة[3] .

وقالَ العِمَادُ في مَدحِ صَلاحِ الدِّين[4] :

وللنَّـاسِ بـالمِلْـكِ النَّـاصِـرِ الصَّـلا ... حِ صَـلاحٌ ونَصْـرٌ كَبِيـرْ
هـوَ الشَّمـسُ أَفْـلاكُـهُ فِـي البِـلا ... د ومَطْلِعُـهُ سَـرْجُـهُ والسَّـريـرْ
إذ مَـا سَطَـا أوْ حَبَـا واحْتَبَـىٰ ... فمَـا اللَّيْـثُ مَـنْ حَـاتِـمٌ مَـا ثيبـرْ

---

(١) انظر السير : (ابنُ الرُّوميّ) ١٣/ ٤٩٥ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١١١ .
(٢) انظر السير : (أبو عُمَر الزَّاهِد) ١٥/ ٥٠٨ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥٦ .
(٣) انظر السير : (كافُور) ١٦/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨٤ .
(٤) انظر السير : (صَلاحُ الدِّينِ وبَنُوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٢ .

١٢ـ نموذجَان من تَزْكية السَّلَف بَعْضهم بَعْضاً في وُجوهِهِم :

عن عُمَرَ بنِ عبد الله ، قالَ سَعيدُ بنُ الْمُسَيِّبِ لِقَتَادَة : ما كُنتُ أظُنُّ أنَّ اللهَ خَلقَ مِثلَك[١] .

قالَ محمَّدُ بنُ يُوسُفُ الفِرْيابي : كُنتُ في مَجلِسٍ فيه الأوْزاعيُّ وسَعيدُ بنُ عبد العَزيز ، وسُلَيْمانُ الخَوَّاصُ ، فذَكرَ الأوْزاعيُّ الزُّهَّادَ ، فقالَ : ما نزيدُ أنْ نُريدَ مثل هَؤلاء ، فقالَ سَعيدُ : ما رَأيتُ أزْهَدَ من سُلَيْمانَ الخَوَّاص ، وما شَعَرَ أنَّه في الْمَجلِسِ ، فقَنَّعَ سُليمانُ رَأسَه ، وقَامَ ، فأقْبلَ الأوْزَاعيُّ علىٰ سَعيدٍ ، وقالَ : وَيْحَكَ لا تَعقِلُ ما يَخرُجُ من رَأسِك! تُؤذِي جَليسَنا تُزكِّيه في وَجهِه[٢] .

١٣ـ رُؤِيَ فيها تَزْكيَة لعَدد من الفُضَلاء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مَنْصورِ بنِ الْمُعْتَمِر : وحكايَةُ أبي بَكر الباغندي الحافظ مَشهُورَة ، سَمعناها في مُعجَم الغَسَّاني ، أنَّه كانَ ينتخبُ علىٰ شَيخٍ ، فكانَ يَقُولُ له : كَمْ تُضْجِرُني ؟ أنتَ أكثرُ حَديثاً منِّي وأحفَظُ ، فقالَ : إنِّي قد جِئتُ إلى الحَديثِ ، بحَسْبِكَ أنِّي رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّوم ، فلَمْ أسْألْه الدُّعاءَ ، وإنَّما قُلتُ : يا رَسُولَ الله أيُّما أثْبَتُ في الحَديثِ مَنْصُورٌ أو الأعْمَش فقالَ : مَنْصُورٌ مَنْصُورٌ[٣] .

وعن محمَّدِ بنِ فَضَاء ، قالَ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ فقالَ : زُورُوا ابنَ عون فإنَّه يُحبُّ اللهَ ورَسُولَه أو إنَّ اللهَ يُحبُّه ورَسُولَه[٤] .

وقالَ الحَكمُ بنُ مُوسَىٰ : حدَّثنا الوَليدُ بنُ مُسلِم قالَ : ما كُنتُ أحْرِصُ على السَّماعِ من الأوْزاعيِّ حتَّىٰ رَأيتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ والأوْزاعيُّ إلىٰ جَنبِه

---

(١) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٩/٦٠٢ .

(٢) انظر السير : (سُلَيْمانُ الخَوَّاص) ٨/ ١٧٨ـ ١٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٢ .

(٣) انظر السير : (منصور بن المُعْتَمِر) ٥/ ٤٠٢ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/٦١٨ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/٦٥٨ .

فقُلتُ : يا رَسُولَ الله! عَمَّنْ أحْمِلُ العِلمَ ؟ قالَ : عن هَـٰذا وأشارَ إلى الأوْزاعيِّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كان الأوْزاعيُّ كَبيرَ الشَّأنِ[1] .

وقالَ محمَّدُ بنُ رُمْح : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقُلتُ : يا رسُولَ اللهِ ، إنَّ مَالكاً واللَّيثَ يَختَلِفانِ ، فبأيِّهما آخُذُ ؟ قالَ : مَالِكٌ ، مَالِكٌ[2] .

وقالَ أبو العَبَّاسِ السَّرَّاجُ : سَمعتُ الحُسَينَ بنَ عبدش وكانَ ثِقَةً ، سَمعتُ محمَّدَ بنَ أسْلم يَقُولُ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ ، فقُلتُ : عَمَّنْ أكتُبُ ؟ فقالَ : عن يَحْيَىٰ بنِ يَحْيَىٰ .

قالَ خُشْنَامُ بنُ سَعيد : سَمعتُ أحمدَ بنَ حَنْبَل يَقُولُ : كانَ يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ عندي إماماً ، ولَوْ كانَت عندي نَفَقةٌ ، لَرَحلتُ إليه[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ أحْمَدَ بنِ حَنْبَل : وذَكرَ شَيخُ الإسْلامِ بإسنادٍ طَويلٍ عن محمَّد بنِ يَحْيَى الرَّملي قاضي دِمَشْقَ قالَ : دَخلتُ العِراقَ والحِجازَ ، وكَتَبتُ ، فمن كَثرَة الاخْتلافِ لَمْ أدْرِ بأيِّها آخُذ ، فقُلتُ : اللَّهُمَّ اهْدِني ، فنِمتُ ، فرَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وقد أسْنَدَ ظَهرَه إلى الكَعبَةِ ، وعن يَمينِه الشَّافِعيُّ ، وأحمَدُ بنُ حَنْبَل ، وهو يَتَبسَّمُ إليهِما فقُلتُ : يا رَسُولَ الله ، بم آخُذ ؟ فأوْمَأ إلى الشَّافِعيِّ وأحمَد وقالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾[4] ،[5] .

وعن محمَّدِ بنِ عَليِّ بنِ الهَيْثَم الفَسَويِّ ، قالَ : لَمَّا قَدمَ حَمْدونُ البَرْذَعيُّ علىٰ أبي زُرْعَة ، لكتابَة الحَديثِ ، دَخلَ ، فرَأىٰ في دَارِه أوَانِيَ وفُرُشاً كَثيرَة ، وكانَ ذلكَ لأخيه ، قالَ : فهَمَّ أنْ يَرجِعَ ولا يَكتُب ، فلمَّا كانَ من اللَّيلِ ، رَأىٰ كأنَّه علىٰ شَطِّ بِرْكَة ، ورَأىٰ ظِلَّ شَخصٍ في الْمَاءِ ، فقالَ : أنتَ الذي زَهدتَ في أبي زُرْعَة ؟ أما

---

(١) انظر السير : (الأوْزَاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٨٣ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٢٩ .

(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن يَحْيَىٰ) ١٠/ ٥١٢ـ ٥١٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٨٩ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : ٨٩ .

(٥) انظر السير : (أحْمَد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٥١ .

عَلمتَ أنَّ أحمَدَ بنَ حَنْبَل كانَ من الأبْدَالِ ، فلمَّا ماتَ أبْدَلَ اللهُ مَكانَه أبا زُرْعَة[1] .

ورُوِيَ عن محمَّدِ بنِ نَصْر الْمَرْوزيِّ أنَّه قالَ : لَمْ يَكُنْ لي حُسْنُ رَأيٍ في الشَّافعيِّ ، فبَينا أنا قاعِدٌ في مَسجِدِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، أغْفَيتُ ، فرَأيتُ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم ، في الْمَنام فقُلتُ : يا رَسُولَ الله! أكتبُ رأيَ الشَّافعيِّ ؟ فَطَأطَأ رَأسَه شِبهَ الغَضْبانِ وقالَ : تَقُولُ رَأي ؟ لَيسَ هو بالرَّأي ، هو رَدٌّ علىٰ مَنْ خالَف سُنَّتي فخَرجتُ في أثرِ هـٰذه الرُّؤيا إلىٰ مِصْرَ ، فكتَبتُ كُتبَ الشَّافعيِّ[2] .

وقيلَ للصَّاحِبِ إسْماعيلَ بنِ عَبَّاد : أنتَ رَجلٌ مُعتَزليٌّ وابنُ الْمُقرِىء مُحدِّثٌ ، وأنتَ تُحبُّه! قالَ : لأنَّه كانَ صَديقَ وَالِدي ، وقد قيلَ : مَوَدَّة الآباءِ قَرابَةُ الأبْناءِ ، ولأنِّي كُنتُ نائماً فرَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يَقُولُ لي : أنتَ نائمٌ ووَليٌّ من أوْلياءِ اللهِ علىٰ بابِك ؟! فانتَبهتُ ودَعَوتُ وقُلتُ : مَنْ بالبَابِ ؟ فقالَ : أبو بَكر بنُ الْمُقرِىء[3] .

وقالَ أبو نَصْر عَليُّ بنُ هِبَة الله بنِ مَاكُولا ، قالَ : رَأيتُ كأنِّي أسْألُ عن حالِ الدَّارَقُطْني في الآخِرَة ، فقيلَ لي : ذاكَ يُدعَىٰ في الجَنَّة : الإمَام[4] .

وقالَ أبو محمَّد الجَوْهَريّ : سَمعتُ أخي الحُسَينَ يَقُولُ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ ، فقُلتُ : يا رَسُولَ الله قد اختلفَتْ عليَّ المَذاهِبُ ، فقالَ : عَليكَ بابنِ بَطَّة فأصْبَحتُ ولَبستُ ثيابي ، ثم أصْعَدتُ إلىٰ عُكبرا ، فدخلتُ وابنُ بطَّة في الْمَسجِدِ فلمّا رآني قالَ لي : صَدقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، صَدقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مُسْتجابَ الدَّعْوَة .

---

(١) انظر السير : (أبو زُرْعَة الرَّازي) ١٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥٣ .
(٢) انظر السير : (محمد بن نصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٤/١١٢٦ .
(٣) انظر السير : (ابنُ الْمُقرىء) ١٦/ ٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٠١ .
(٤) انظر السير : (الدَّارَقُطْني) ١٦/ ٤٤٩ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ١/١٣٠٥ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لابنِ بَطَّة مع فَضلِه أوْهامٌ وغَلطٌ[1] .

وقال السَّمْعانيُّ : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ محمد بنِ الرِّضا العَلويّ يقول : سَمعتُ خالي أبا طالب بنَ طَباطبا يقولُ : كنتُ أشْتُمُ أبداً عبدَ الرحمَـٰن بنَ مَنْدَه ، فسافرتُ إلىٰ جَرْباذَقان[2] ، فرأيتُ أميرَ المؤمنين عُمرَ في النَّومِ ويدُه في يد رجلٍ عليه جُبَّةٌ زَرْقاء ، وفي عَيْنَيه نكتةٌ ، فسَلمتُ عليه فلم يرُدَّ عليَّ ، وقال: تَشتُمُ هـٰذا ؟! فقيلَ لي في المَنام : هـٰذا عُمرُ وهـٰذا عبدُ الرحمَـٰن بنُ مَندَه فانتبَهتُ ، ثم رجعتُ إلىٰ أصْبَهان ، وقَصَدتُ عبدَ الرحمَـٰن ، فلمَّا دخَلتُ عليه ، صادَفتُه كما رأيتُه في النَّوم ، فلمَّا سَلَّمتُ عليه قالَ : وعليكَ السَّلامُ يا أبا طَالِب وقَبلَها ما رآني ، ولا رَأيتُه ، فقالَ لي قبلَ أن أُكلِّمَه : شيءٌ حَرَّمَه الله ورسُوله يَجوزُ لنا أن نُحِلَّه ؟ فقلتُ : اجْعَلني في حِلٍّ ، وناشَدْتُه اللهَ وقَبَّلتُ عَيْنَيْه ، فقال : جعلتُكَ في حِلٍّ فيما يَرجعُ إليَّ .

وعن صاعد بنِ سيّار ، سَمعتُ الإمام أبا إسماعيلَ الأنصاريَّ يقولُ في عبدِ الرحمَـٰن بنِ مَنده : كانت مَضَرَّته أكثرَ من مَنْفَعَته في الإسْلام .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أطْلقَ عِباراتٍ بَدَّعَه بَعضُهم بها ، اللهُ يُسامحُه ، وكان زَاعِراً علىٰ مَنْ خالَفَه ، فيه خارجيّةٌ ، وله مَحاسِنُ ، وهو في تَواليفِه حاطِبُ ليلٍ ، يَرْوي الغَثَّ والسَّمين ، ويَنظِمُ رَديء الخَرَزِ مع الدُّرِّ الثَمين .

ماتَ سَنة سَبعين وأربع مئة ، وشَيَّعَه عالَمٌ لا يُحْصَوْن[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ ناصِر : أنبَؤونا عن ابنِ النَّجَّار قالَ : قَرأتُ بخَطِّ ابنِ ناصِر السَّلاميِّ وأخْبَرنيه عنه سَماعاً يَحْيَىٰ بنُ الحُسَين قالَ : بَقيتُ سِنينَ لا أدخُلُ مَسجِدَ أبي مَنْصُور الخَيَّاط ، واشْتَغلتُ بالأدَبِ على التَّبْريزيِّ ، فجِئتُ يَوماً لأقْرأ الحَديثَ على الخَيَّاطِ ، فقالَ : يا بُنيَّ ، تَركتَ قراءَةَ القُرآن ، واشْتَغلتَ بغَيرِه ؟! عُدْ ،

---

(١) انظر السير : (ابن بَطَّة) ١٦/ ٥٢٩ـ ٥٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣١٤ .

(٢) بلدة قريبة من هَمَذان .

(٣) انظر السير : (ابنُ مَندَه) ١٨/ ٣٤٩ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢٠ .

واقْرأ عليَّ لِيَكُونَ لكَ إسْنادٌ ، فصَعدتُ إليه في سَنة اثنَتين وتِسْعينَ ، وكُنتُ أقُولُ كَثيراً : اللَّهُمَّ بيِّن لي أيُّ الْمَذاهِبِ خَيرٌ ، وكُنتُ مِراراً قد مَضَيتُ إلى القَيْروانيِّ الْمُتكلِّم في كتابِ « التَّمْهيد » للباقِلاَّني وكأنَّ مَنْ يَردُّني عن ذلك قالَ : فرَأيتُ في الْمَنام كأنِّي قد دَخلتُ الْمَسجدَ إلى الشَّيخِ أبي مَنْصُور ، وبجَنبه رَجلٌ عليه ثيابٌ بيضٌ ورِدَاءٌ علىٰ عَمامَتِه يُشبهُ الثِّيابَ الرِّيفيَّة ، دُريُّ اللَّونِ ، عليه نُورٌ وبَهاءٌ ، فسَلَّمتُ وجَلَستُ بين أيْديهما ، ووَقَع في نَفسي للرَّجُلِ هَيبَة وأنَّه رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلمَّا جَلستُ الْتَفتَ إليَّ ، فقالَ لي : عَليكَ بمَذهَبِ هـٰذا الشَّيخ ، عَليكَ بمَذهَبِ هـٰذا الشَّيخ ثَلاثَ مرَّاتٍ ، فانتَبَهتُ مَرْعُوباً ، وجِسْمي يَرجُفُ ، فقَصَصْتُ ذلكَ علىٰ وَالِدَتي ، وبكَّرتُ إلى الشَّيخِ لأقْرأ عَليه ، فقَصَصْتُ عليه الرُّؤيا ، فقالَ : يا وَلَدي ، ما مَذْهَبُ الشَّافعي إلاَّ حَسَنٌ ، ولا أقُولُ لك : اتْرُكْه ، ولكنْ لا تَعتَقد اعتِقَادَ الأشْعَريِّ فقُلتُ : ما أُريدُ أنْ أكُونَ نِصْفَين ، وأنا أُشْهِدُكَ ، وأُشهدُ الجَماعَةَ أنَّني منذُ اليَومَ علىٰ مَذهَبِ أحمَد بنِ حَنْبَل في الأصُولِ والفُروع فقالَ لي : وفقَّك الله ثم أخَذتُ في سَماع كُتب أحمَدَ ومَسائله والتَّفقُّه علىٰ مَذْهَبه .

قالَ ابنُ الجَوْزيِّ وغَيرُه : تُوفِّيَ ابنُ ناصِر سَنةَ خَمسين وخَمسِ مئة[1] .

ثمَّ قالَ ابنُ الجَوْزيِّ : حدَّثني الفَقيهُ أبو بَكر بنُ الحُصَري ، قالَ : رَأيتُ ابنَ ناصِر في النَّومِ ، فقُلتُ له : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قالَ : غَفرَ لي ، وقالَ لي : قد غَفَرتُ لِعَشرَة من أصْحَابِ الحَديثِ في زَمانِك لأنَّكَ رَئيسُهم وسَيِّدُهم[2] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ ناصِر) ٢٠/ ٢٦٥ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٥١ .

(٢) انظر السير : (ابنُ ناصِر) ٢٠/ ٢٦٥ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٥١ .

الأخْلاقُ السَّيِّئَة

١ـ وَصْفُ الإنْسَان ذي الأخْلاق السَّيِّئة :

عن أبي حازِم الْمَخْزوميِّ الزَّاهِدِ ، قالَ : السَّيءُ الخُلق أشْقَى النَّاسِ به نَفسُه التي بين جَنبَيْه ، هي منه في بَلاءٍ ، ثم زَوْجَتُه ، ثم وَلَدُه ، حتَّىٰ إنَّه لَيَدخُلُ بَيتَه ، وإنَّهم لَفِي سُرُورٍ ، فيَسْمَعُونَ صَوتَه فيَنفِرُونَ عنه ، فَرَقاً منه ، وحتَّىٰ إنَّ دَابَّتَه تَحيدُ مِمَّا يَرميها بالحِجارَة ، وإنَّ كلبَه لَيَراه فيَنزو على الجِدارِ ، حتَّىٰ إنَّ قِطَّه لَيَفِرُّ منه[١] .

٢ـ جُملةٌ من الأخْلاق السَّيِّئة :

عن فَضَالَة بنِ عُبَيد قالَ : ثَلاثٌ من الفَواقِر ، إمامٌ إنْ أحْسَنتَ لَمْ يَشكُر ، وإنْ أسَأتَ لَمْ يَغْفِر ، وجارٌ إنْ رَأىٰ حَسَنةً دَفنَها ، وإنْ رَأىٰ سَيِّئةً أفْشَاها ، وزَوْجةٌ إنْ حَضَرْتَ آذَتْكَ ، وإنْ غِبْتَ خَانَتكَ في نَفسِها وفي مَالِك[٢] .

٣ـ الاسْتخفاف وعاقِبته :

عن عبدِ الله بنِ الْمُبارَك قالَ : مَنْ اسْتَخفَّ بالعُلمَاء ، ذَهَبَت آخِرَتُه ، ومَنْ اسْتَخفَّ بالأُمَراء ، ذَهَبَت دُنْياه ، ومن اسْتَخفَّ بالإخْوَانِ ذَهَبَت مروءته[٣] .

٤ـ البُخْل :

قالَ أبو طَالِب بنِ عبدِ السَّميع كانَ من أَلْفاظِ الْمُسْتَظْهِرِ باللهِ العَبَّاسيِّ : شُحُّ الْمَرْءِ بِفِلْسِهِ مِنْ دَنَاءَةِ نَفْسِه[٤] .

---

(١) انظر السير : (أبو حازم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٣٧ .
(٢) انظر السير : (فَضَالَة بن عُبَيْد) ٣/ ١١٣ـ ١١٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٤٧ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن المُبَارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٩/ ٧٦٩ .
(٤) انظر السير : (الْمُسْتَظْهِر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٤٨٩ .

٥ـ الثَّلَب والعَيْب :

قالَ السَّمْعانيُّ : سَمعتُ عليَّ بنَ طِراد يَقُولُ : ضَاعَ حِمَارٌ لِسَوَادِيٍّ بباب الأزَجِ ، فتَطلَّبَه ، فقالَ له عَزيزيٌّ : خُذِ الْمِقْوَد ، وشُدَّه في رَقَبَةِ مَنْ أرَدْتَ من أهْلِ الْمَحِلَّة ، فإنَّهم مثل ما تَطلُبُه .

قالَ ابنُ سُكَّرة : كان شَيْذَلَةُ شَيخُ الوُعَّاظ وكان مُتزَهِّداً مُتَقلِّلاً لَمْ يكن يدري ما الحديث ، وكان شافِعيّاً .

قال الإمامُ الذهَبيُّ : ماتَ سَنةَ أرْبَع وتسعينَ وأرْبَع مئة[1] .

وفي « الْمُنْتَظِم » (٩/ ١٢٦) : وقال يوماً بحضرة نَقيب النُّقَباء طرَّاد : لَوْ حَلفَ إنْسانٌ أنَّه لا يَرىٰ إنْساناً ، فرأىٰ أهْلَ باب الأزَجِ لَمْ يَحْنَثْ ، فقالَ النَّقيبُ : أيُّها الثَّالِبُ ، مَنْ عاشَرَ قَوْماً أرْبَعينَ يَوْماً كانَ منهم[2] .

وفي طبقات السُبكيّ (٥/ ٧٣٢) نقلاً عن شَهدَة بنتِ أحمد بن الفَرَج الإبري قالت : سمعتُ القاضي الإمامَ عزيزي بن عبد الملك من لفظه سَنَةَ تسعين وأربع مئة يقولُ : اللَّهُمَّ يا واسِعَ المَغفِرة ، ويا باسِطَ اليَدَيْنِ بالرَّحْمَةِ افعَلْ بي ما أنتَ أهلُه ، إلَـٰهي أذْنَبتُ في بعضِ الأوقاتِ ، وآمَنْتُ بكَ في كُلِّ الأوقاتِ ، فكَيْفَ يَغلِبُ بعضُ عُمرِي مُذنِباً جَمِيعَ عُمرِي مُؤمِناً إلَـٰهي لو سَألتَنِي حَسَنَاتِي لجَعَلتُها لكَ مع شِدَّةِ حاجَتِي إليها وأنا عَبدٌ ، فكَيْفَ لا أرْجُو أنْ تَهَبَ لي سَيئاتِي مع غِنَاكَ عنها وأنتَ رَبٌّ ، فيا مَنْ أعْطَانِي خَيْرَ ما في خَزَائِنِه ، وهو الإيمانُ به قبلَ السُّؤالِ لا تَمنَعْنا أوسَعَ ما في خَزَائِنِك وهو العَفْوُ مع السُّؤالِ ، إلَـٰهي حُجَّتي حاجَتِي ، وعُدَّتِي فاقَتِي فارْحَمْنِي إلـٰهي كيف أمتَنِعُ بالذَّنبِ من الدُّعاءِ ولا أراكَ تَمنَعُ مع الذَّنبِ من العَطَاء ، فإنْ غَفَرتَ فخيرُ راحمٍ أنتَ وإنْ عَذَّبتَ فغيرُ ظالمٍ أنتَ إلـٰهي أسألُكَ تَذَلُّلاً فأعْطِنِي تَفَضُّلاً[3] .

---

(١) انظر السير : (شَيْذَلَه) ١٩/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧٢ .

(٢) انظر السير : (شَيْذَلَه) ١٩/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ١٤٧٢/ هامش (٢) .

(٣) انظر السير : (شَيْذَلَه) ١٩/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ١٤٧٢/ هامش (٣) .

٦ـ الحُمْق :

عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه ، قالَ : الأحْمَقُ إذا تَكلَّمَ فَضَحَه حُمقُه ، وإذا سَكتَ فَضَحَه عِيُّه ، وإذا عَملَ أفْسَدَ ، وإذا تَرَكَ أضَاعَ ، ولا عِلمُه يُعينُه ، ولا عِلمُ غَيرِه يَنفَعُه ، تَوَدُّ أمُّه أنَّها ثَكلَته ، وامْرأتُه لَوْ عَدِمَته ، ويَتَمنَّىٰ جارُه منه الوَحْدَة ، ويَجِدُ جَليسُه منه الوَحْشَة[1] .

٧ـ السُّخْرِيَة :

قال عبدُ الله بنُ مَسْعُود : لَوْ سَخِرْتُ من كَلبٍ ، لَخَشيتُ أنْ أكُونَ كلباً ، وإنِّي لأكْرَهُ أنْ أرَى الرَّجُلَ فارِغاً لَيسَ في عَملِ آخِرَةٍ ولا دُنْيا[2] .

٨ـ السِّعَايَة والوِشَايَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ فَخْرِ الْمُلْك : رُفعَت إليه سِعايَةٌ برَجُل ، فوَقَّع فيها : السِّعايَةُ قَبيحَةٌ ، ولو كانت صَحيحَةً ومَعاذَ لله أنْ نَقبَلَ من مَهْتوكٍ في مَسْتُورٍ ، ولَوْلا أنَّك في خُفَارَةِ شَيْبِكَ ، لعَامَلناكَ بما يُشبهُ مَقالَك ، ويَرْدَعُ أمْثالَك ، فاكْتُم هـٰذا العَيبَ ، واتَّقِ مَنْ يَعْلَمُ الغَيبَ فأخَذَها فُقَهاءُ الْمَكاتِبِ ، وعَلَّموها الصِّغارَ[3] .

٩ـ الشَّتْمُ والسَّبُّ :

قالَ عليُّ بنُ الْمَديني ، سَمعتُ سُفْيانَ بنَ عُيَيْنَة يَقُولُ : كانَ ابنُ عباس الْمَنْتُوف يقع في عُمَرَ بنِ ذَرٍّ ويَشتُمه ، فلَقيَهُ عُمَرُ ، فقالَ : يا هـٰذا لا تُفرِطْ في شَتْمِنا ، وأبْقِ للصُّلحِ مَوْضِعاً ، فإنَّا لا نُكافىء مَنْ عَصَى اللهَ فينا بأكثرَ من أنْ نُطيعَ اللهَ فيه[4] .

---

(١) انظر السير : (وَهْب بن مُنَبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥٥ .
(٢) انظر السير : (عبدُ الله بن مَسْعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٩٧ .
(٣) انظر السير : (فَخْر الْمُلْك) ١٧/ ٢٨٢ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٤٢ .
(٤) انظر السير : (عُمَرُ بنُ ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٦١ .

١٠ـ الطَّمَع :

قالَ عبدُ اللهِ بنُ الْمُعْتَزِّ باللهِ العَبَّاسيّ : رُبَّما أَوْرَدَ الطَّمَعُ ولَمْ يُصْدِرْ[١] .

وقالَ الزُّبَيْرُ بنُ عبدِ الوَاحِد : سَمعتُ بُناناً الحَمَّالَ يَقولُ :

الحُـــرُّ عَبْـــدٌ مَـــا طَمِـــع والعَبْـــدُ حُـــرٌّ مَـــا قَنِـــع[٢]

١١ـ الطَّيْش :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الله بنِ الْمُقَفَّع : وكان ابنُ المُقَفَّع مع سِعَة فَضْلِه ، وفَرْطِ ذَكائه فيه طَيشٌ فكان يقولُ عن سُفْيانَ المُهَلَّبيِّ : ابنُ المُغْتَلمَة فأمَرَ له بتَنُّورٍ فسُجِر ثم قَطَع أرْبَعتَه ورَماهَا في التَّنُّور وهو يَنظُر وعاشَ ستاً وثلاثين سنةً وأهْلكَ في سنة خمس وأربعين ومائة وقيلَ بعدَ الأرْبَعين واسمُ أبيه ذادوَيْه ، قد وَلِيَ خَراجَ فارِس للحَجَّاج ، فخانَ ، فعَذَّبه الحَجَّاجُ : فتَقفَّعَت يدُه وقيلَ : بل كانَ يَعملُ قِفَاعَ الخُوص وهي كالقُفَّة[٣] .

وقيلَ : إنَّ والي البَصْرة سُفْيانَ بنَ مُعاويَة بنِ يَزيد بنِ المُهَلَّب قال يوماً : ما نَدمتُ علىٰ سُكوتٍ قَطُّ فقالَ ابنُ المُقَفَّع : فالخَرْسُ زَينٌ لك وقالَ له مرَّة : ما تَقولُ في رَجلٍ ماتَ عن زَوْجٍ وزَوْجتِه ؟ فأحْنَقَه .

قال الأصْمَعيُّ : صنَّفَ ابنُ المُقَفَّع « الدُّرَّةَ اليَتيمَة » التي ما صُنِّفَ مثلُها[٤] .

١٢ـ ظَنُّ المُسيءِ نفسَه مُحْسِناً :

عن الفُضَيْلِ بنِ عِياض قالَ : يا مِسْكينُ أنتَ مُسيءٌ وتَرَىٰ أنَّك مُحسِنٌ ، وأنتَ جَاهِلٌ وتَرَىٰ أنَّكَ عَالِمٌ ، وتَبخَلُ وتَرَىٰ أنَّكَ كَريمٌ ، وأحْمَقُ وتَرَىٰ أنَّكَ عاقِلٌ ، أجَلُكَ قَصيرٌ ، وأمَلُكَ طَويلٌ .

---

(١) انظر السير : (عبدُ اللهِ بنُ الْمُعْتَزِّ بالله) ١٤/ ٤٢ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/١١٢٨ .

(٢) انظر السير : (بُنَانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٩ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/ ٢٠٨ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/٦٤٢ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/ ٢٠٨ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٤٣ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إي والله ، صَدقَ ، وأنتَ ظَالِمٌ وتَرَىٰ أنَّكَ مَظْلومٌ ، وآكِلٌ للحَرَامِ وتَرَىٰ أنَّكَ مُتورِّعٌ ، وفاسِقٌ وتَعتَقِدُ أنَّكَ عَدلٌ ، وطَالِبُ العِلمِ للدُّنيا وتَرَىٰ أنَّكَ تَطلُبُه لله[1] .

١٣ـ المَلَل :

رَوىٰ موسىٰ بنُ عليٍّ ، عن أبيه ، سَمعَ عَمْرَو بنَ العَاصِ يَقُولُ : لا أمَلُّ ثَوْبِي مَا وَسِعَني ، ولا أمَلُّ زَوْجَتي مَا أحْسَنَتْ عِشْرَتي ، ولا أمَلُّ دَابَّتي مَا حَمَلَتْني ، إنَّ الْمِلالَ من سَيِّء الأخْلاقِ[2] .

١٤ـ تَعْليلُ الذهبيِّ لما يمكن أن يُوصَفَ بسُوء الخُلُق :

قالَ عَمرُو بنُ زرارة النَّيْسابوريُّ : صَحِبتُ ابنَ عُلَيَّة أرْبَعَ عَشرَة سَنة ، فما رَأيتُه تَبسَّم فيها[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : ما في هـٰذا مَدحٌ ، ولكنَّه مُؤذِنٌ بخَشْيَةٍ وحُزنٍ[4] .

١٥ـ رَدُّ الذهبيِّ علىٰ بَعْض السَّلَفِ أخْلاقاً سَيِّئة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ عُلَيَّة : وكانَ فَقِيهاً ، إمَاماً ، مُفْتياً ، من أئمَّة الحَديثِ ، وكانَ يَقولُ : مَنْ قالَ ابنَ عُلَيَّة ، فقَد اغْتابَني[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا سُوءُ خُلقٍ ـ رَحمَهُ اللهُ ـ شَيءٌ قد غَلبَ عَليه ، فمَا الحيلَةُ ؟ قد دَعا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم غيرَ واحدٍ من الصَّحابَة بأسْمائهم مُضَافاً إلى الأُمِّ ، الزُّبَيْرُ بنُ صَفيَّة ، وعمَّارُ بنُ سُمَيَّة[6] .

---

(١) انظر السير : (الفُضَيْلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٧٩ .
(٢) انظر السير : (عَمرو بنُ العَاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٣٣ .
(٣) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٠٣ .
(٤) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٠٣ .
(٥) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٠٣ .
(٦) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٠٣ .

وقالَ دَاودُ بنُ الحُسَين البَيْهَقيُّ : كُنَّا نَختَلِفُ إلىٰ عَمرِو بنِ زُرارَة فخَرجَ عَلينا يَوماً فضَحِكَ رَجُلٌ ، فقَالَ عَمرٌو : هَبِ التَّحَرُّجَ ، أَلَيسَ التُّقَى ؟ هَبِ التُّقَىٰ ، أليسَ الحَياء ؟ ثم قامَ ودَخلَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : قد يُقالُ للزَّعِرِ الأخْلاقِ : هَبِ حُسْنَ الخُلُق ذَهَبَ ، أَلَيسَ الحِلْمُ ؟ وهَبِ الحِلْمَ ذَهَبَ ، أَلَيْسَ العَفْوُ ؟[1] .

* * *

(١) انظر السير : (عَمْرو بنُ زُرارَة) ١١/٤٠٦ـ٤٠٧ ، وانظر النزهة : ٣/٩٥٤ .

آفاتٌ مُتنوِّعَةٌ في القَلب واللِّسَان

(١) الأذِيَّة

(أ) مَنْ قَتلَه الله قبلَ أنْ يُؤْذي النَّاسَ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ العَزيزِ ، عُثْمانِ بنِ السُّلطان صَلاح الدّين يُوسُف بن أيُّوب : نَقلتُ من خَطِّ الضِّياءِ الحافِظِ ، قالَ : خَرجَ إلى الصَّيدِ ، فجاءَته كُتبٌ من دِمَشْقَ في أذيَّة أصْحابِنا الحَنابِلَة ـ يَعني في فِتْنَة الحافِظِ عبدِ الغَنيّ ـ فقالَ : إذا رَجَعنا من هـٰذه السَّفْرَة ، كلُّ مَنْ كانَ يَقولُ بمَقالَتِهم أخْرَجْناهُ من بَلدِنا ، قالَ : فرَماهُ فَرَسٌ ، ووَقَعَ عليه ، فخَسَفَ صَدرَه ، كذا حدَّثني يُوسُفُ بنُ الطُّفَيْل ، وهو الذي غَسَّلَه .

وقالَ الْمُنْذِريُّ : عاشَ ثَمانياً وعِشْرينَ سَنةً ماتَ سَنةَ خَمسٍ وتِسْعينَ وخَمسِ مئه[١] .

(ب) قَوْلٌ يَحُثُّ على البُعْد عن الأذِيَّة :

قالَ فَيْضُ بنُ إسْحاقَ : قالَ الفُضَيْلُ بنُ عِياض : والله ما يَحِلُّ لَكَ أنْ تُؤذِي كَلباً ولا خِنْزيراً بغَيرِ حَقٍّ ، فكَيفَ تُؤذِي مُسْلِماً[٢] .

* * *

---

(١) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٤ .

(٢) انظر السير : (الفُضَيْلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٧٤ .

(٢) الجِدَالُ والمِراء

(أ) شِعْرٌ في الحَثِّ على البُعْد عن المِراءِ :

قالَ جَعْفَرُ بنُ عَوْن : سَمعتُ مِسْعَراً يُوصِي وَلدَه كِداماً[١] :

إنِّـي مَنَحْتُـكَ يَـا كِـدَامُ نَصِيحَتِـي ... فَـاسْمَـعْ مَقَـالَ أَبٍ عَلَيْـكَ شَفِيـقِ
أَمَّـا الْمُـزَاحَـةُ والمِـرَاءُ فَـدَعْهُمـا ... خُلُقَـانِ لا أَرْضَـاهُمَـا لِصَـدِيـقِ
إنِّـي بَلَـوْتُهُمَـا فَلَـمْ أَحْمَـدْهُمَـا ... لِمُجَـاوِرٍ جَـاراً ولا لِـرَفِيـقِ
والجَهْـل يُـزرْي بـالفتَـىٰ فـي قَـوْمِـهِ ... وعُـرُوقُـهُ فـي النَّـاسِ أيُّ عُـرُوقِ

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وهـٰذانِ البَيْتانِ أَظُنُّهما لابنِ الْمُبارَك :

مَـنْ كَـانَ مُلْتَمِسـاً جَلِيسـاً صَـالِحـاً ... فَلْيَـأْتِ حَلْقَـةَ مِسْعَـرِ بْـنِ كِـدَامِ
فيهـا السَّكِينَـةُ والـوَقَـارُ وأهْلُهَـا ... أهْـلُ العفَـاف وعِلْيَـةُ الأَقْـوامِ

(ب) أقْوالٌ بَليغَة تَحُثُّ على البُعْدِ عن المِرَاءِ والجِدَالِ :

عن خالدِ بنِ يَزيدِ بنِ مُعاويَة قالَ : إذا كانَ الرَّجُلُ لَجُوجاً ، مُمَارياً ، مُعجَباً برأيه ، فقد تمَّت خَسارَتُه .

قيلَ : تُوفِّيَ سَنةَ أرْبَعٍ أو خَمسٍ وثَمانينَ[٢] .

وعن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه قالَ : دَعِ الْمِراءَ والْجَدَلَ ، فإنَّه لَنْ يُعْجِزَ أحدَ رَجُلَين : رَجلٌ هو أعْلَمُ منكَ ، فكَيفَ تُعادي وتُجادِلُ مَنْ هو أعلَمُ منكَ ؟ ورجلٌ أنتَ أعلَمُ منه ، فكَيفَ تُعادي وتُجادِلُ مَنْ أنت أعلَمُ منه ولا يُطيعُك ؟[٣] .

---

(١) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٩٠ .
(٢) انظر السير : (خالد ابن الخَليفَة يَزيد) ٤/ ٣٨٢ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥١٥ .
(٣) انظر السير : (وَهْب بن مُنبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٥٤ .

ورَوَى الأوْزاعِيُّ عن عَبْدَةَ بنِ أبي لُبابَةَ قالَ : إذا رَأيتَ الرَّجُلَ لَجُوجاً مُمارياً مُعْجَباً برَأيه ، فقد تَمَّتْ خَسارَتُه[1] .

وعن يَحْيَىٰ بنِ أبي كَثير قالَ : قالَ سُلَيْمانُ عليه السلام : يا بُنَيَّ إيَّاكَ والْمِراءَ ، فإنَّه لَيسَ فيه مَنْفعَةٌ ، وهو يُورِثُ العَداوَةَ بين الإخْوانِ[2] .

وعن مَنْصورِ بنِ أبي مُزاحِم ، حدَّثنا عَنْبَسَةُ الخَثْعَميُّ ، وكان من الأخيار ، سَمعتُ جَعْفَرَ بنَ مُحمَّد يَقولُ : إيَّاكُم والخُصومَةُ في الدِّينِ ، فإنَّها تشغلُ القَلبَ ، وتُورِثُ النِّفاقَ[3] .

وقال الوَليدُ بنُ مَزْيَد : سَمعتُ الأوْزاعيَّ يَقولُ : إذا أرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ شَرّاً فَتحَ عَليهِم الجَدَلَ ومَنَعَهُم العَمَلَ[4] .

وعن الإمامِ مَالكٍ قالَ : الجِدالُ في الدِّينِ يُنشىءُ الْمِراءَ ، ويَذهَبُ بنُورِ العِلْمِ من القَلبِ ويُقَسِّي ، ويُورِثُ الضِّغنَ[5] .

وعن مَعْروفٍ الكرْخيِّ قالَ : إذا أرادَ اللهُ بعَبدٍ شَرّاً ، أغْلقَ عنه بابَ العَمَل ، وفَتحَ عَليه بابَ الجَدَل[6] .

وقال الرَّبيعُ : سَمعتُ الشَّافعيَّ يَقولُ : الْمِرَاءُ في الدِّينِ يُقَسِّي القَلبَ ، ويُورِثُ الضَّغائِنَ[7] .

(ج) الصَّالِحونَ بَعيدُون عن المِرَاءِ :

عن أبي الجَوْزاء أنَّه قالَ : ما مارَيتُ أحداً قَطُّ[8] .

---

(١) انظر السير : (عَبْدَة بن أبي لُبابَة) ٥/ ٢٢٩ـ ٢٣٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٩٧ .
(٢) انظر السير : (يَحْيَى بن أبي كثير) ٦/ ٣٢٧ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٢٧ .
(٣) انظر السير : (جَعْفَر بن محمَّد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٤٨ .
(٤) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦٨٣ .
(٥) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٣٥ .
(٦) انظر السير : (مَعْروفُ الكرْخيُّ) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٢٦ .
(٧) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٤٦ .
(٨) انظر السير : (أبو الجَوْزاء) ٤/ ٣٧٢ـ ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥١٢ .

٣ـ الجَهْل

(أ) مِنْ صِفَاتِ الجَاهِل :

عن مُحمَّدِ بنِ مَنْصُور قالَ : يُعرَفُ الجاهِلُ بالغَضَبِ في غَيرِ شَيءٍ ، وإفْشَاءِ السِّرِّ ، والثِّقَةَ بكُلِّ أحَد ، والعِظَةِ في غَيرِ مَوْضِعها .

ماتَ رَحمَهُ اللهُ سَنةَ أرْبَع وخَمسينَ ومئتَين ، وعاشَ ثَمانياً وثَمانينَ سَنةً[١] .

(ب) جَهْلُ أهْلِ الجَاهِليَّة :

قالَ حَجَّاجُ بنُ أبي زَيْنَب ، سَمعتُ أبا عُثْمَانَ النَّهْديَّ يَقُولُ : كُنَّا في الجَاهِليَّة نَعبُدُ حَجَراً ، فسَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي : يا أهْلَ الرِّحَالِ ، إنَّ رَبَّكم قد هَلكَ ، فالْتَمِسُوا رَبّاً ، فخَرَجنا علىٰ كُلِّ صَعبٍ وذَلُولٍ ، فبَينا نَحنُ كَذلكَ إذْ سَمعْنا مُنادِياً ينُادِي : إنَّا قد وَجَدنا رَبَّكم أو شِبْهَه ، فجِئنا فإذا حَجَرٌ فنَحَرْنا عليه الجُزُرَ[٢] .

وعن أبي عُثْمَانَ النَّهْديّ قالَ : رَأيتُ يَغُوثَ صَنماً من رصَاصٍ يُحمَلُ علىٰ جَمَلٍ أجْرَد ، فإذا بَلغَ وَادِياً ، بَرَكَ فيه ، وقالُوا : قد رَضِيَ لكم رَبُّكم هـٰذا الوَادِي .

وقالَ أبو حبيب الْمَرْوَزيُّ : سَمعتُ أبا عُثْمَانَ النَّهْديَّ يَقُولُ : حَجَجْتُ في الجَاهِليَّة حَجَّتين[٣] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي رَجَاء العُطَارديّ ، قالَ أبو الحارث الكَرْمانيُّ ، وكانَ ثِقَةً ، قالَ : سَمعتُ أبا رجاء يقولُ : أدْرَكتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وأنا شَابٌّ أمْرَد ، ولَمْ أرَ ناساً كانوا أضَلَّ من العَرَب ، كانوا يَجيئون بالشَّاةِ البَيْضاء فيَعبُدونَها ، فيَختلِسُها الذِّئبُ ، فيَأخُذونَ أُخْرَىٰ مَكانَها يَعبُدُونَها ، وإذا رَأوا صَخرَةً حَسَنةً ، جَاؤُوا بها ،

---

(١) انظر السير : (محمّد بن مَنْصور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٦/٩٩٤ .

(٢) انظر السير : (أبو عُثْمان النَّهْديّ) ٤/ ١٧٥ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/٤٧١ .

(٣) انظر السير : (أبو عُثْمان النَّهْديّ) ٤/ ١٧٥ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧١ .

وصَلُّوا إليها ، فإذا رَأَوْا أحْسَنَ منها رَمَوْها ، فبُعثَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا أرْعَى الإبلَ علىٰ أهْلي ، فلمَّا سَمعنا بخُروجِه لَحِقْنا بمُسَيْلِمَةَ[1] .

وعن وَهْبِ بنِ جَرير ، عن أبيه ، سَمعتُ أبا رَجَاء يَقُولُ : بَلغَنا أمْرُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ونَحنُ علىٰ مَاءٍ لنا يُقالُ لَه سَند فانْطَلقْنا نَحوَ الشَّجرَةِ هارِبينَ بعِيالِنا ، فبَيْنا أنا أسُوقُ القَوْمَ ، إذْ وَجَدتُ كُراعَ ظَبي ، فأخَذتُه فأتَيتُ الْمَرأةَ فقُلتُ : هَلْ عِندَك شَعيرٌ ؟ فقالَت : قد كانَ في وِعاءٍ لنا عامَ أوَّلٍ شَيءٌ من شَعيرٍ ، فما أدْري بَقِيَ منه شَيءٌ أمْ لا فأخَذتُه فنَفضتُه فاسْتَخرَجتُ منه مِلءَ كَفٍّ من شَعيرٍ ، ورَضَختُه بين حَجَرَين ، وألْقَيتُه والكُراعَ في بُرمَةٍ لنا ، ثم قُمتُ إلىٰ بَعيرٍ ، ففَصَدتُه إناءً من دَمٍ ، وأوْقَدتُ تَحتَه ، ثم أخَذتُ عُوداً فلَبَكْتُه به لَبْكاً شَديداً حتَّىٰ أنْضَجتُه ، ثم أكَلنا .

فقالَ له رَجلٌ : وكيفَ طَعمُ الدَّمِ ؟ قالَ : حُلْوٌ[2] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو رَجاء العُطَارديّ) ٤/ ٢٥٣ـ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٩١ .

(٢) انظر السير : (أبو رَجاء العُطَارديّ) ٤/ ٢٥٣ـ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ٤/٤٩١ .

٤ـ الحَسَد

(أ) صُوَرٌ من الحَسَد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمام أحمَد بنِ حَرْب : رَغبَ النَّاسُ في سَماعِ كتُبِه ، ثم إنَّ أمَّه ماتَت سنةَ عشرين ومئتين فحَجَّ ، وعاوَدَ الغَزْوَ ، وخرَجَ إلىٰ بلادِ التُّرْك ، وافْتَتَحَ فَتْحاً عظيماً غُبطَ به ، فسَعىٰ به الأعداءُ إلى ابنِ طاهِر ، فأحْضَرَه ، ولمْ يأذَنْ له في الجُلوسِ وقالَ : أتَخْرُجُ وتَجمَعُ إلىٰ نفسِك هـٰذا الجَمْع ، وتُخالِفُ أعْوانَ السُّلطانِ ؟ ثمَّ إنَّ ابنَ طاهِر عَرَفَ صِدقَه ، فتَركَه ، فسَارَ ، وجاوَرَ بمَكة وكان تَنْتَحِلُه الكرَّاميَّةُ ، وتُعظِّمُه لأنَّه أسْتاذُ محمَّدِ بن كرَّام ، ولكنَّه سَليمُ الاعْتِقادِ بحَمدِ الله[1] .

قالَ الخَلاَّل : بُلينا بقَوم جُهَّال ، يَظنُّونَ أنَّهم عُلمَاء فإذَا ذَكَرْنا فَضَائلَ أبي عبدِ الله أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، يُخرِجُهُم الحَسَدُ ، إلىٰ أنْ قالَ بَعضُهم فيما أخْبَرَني ثقةٌ عنه : أحمَدُ بنُ حَنْبَل نَبيُّهم .

وقالَ عبدُ الله بنُ أحمَد : سَمعتُ أبي يَقولُ : رُبَّما أردتُ البُكورَ في الحَديثِ ، فتأخذُ أمِّي بثَوْبي وتَقولُ : حتَّىٰ يُؤذِّنَ الْمُؤَذِّنُ[2] .

(ب) صُوَرٌ من الحَسَد بين العُلَماء :

عن الرَّبيع بنِ سُليْمانَ قالَ : كانَ البُوَيْطيُّ حينَ مَرِضَ الشَّافِعيُّ بمِصْرَ هو وابنُ عبد الحَكَم والْمُزَنِيُّ ، فتَنازَعوا الحَلقَةَ ، فبَلغَ ذلكَ الشَّافِعيَّ ، فقالَ : الحَلقَةُ للبُوَيْطيِّ فلِهَـٰذا اعتزلَ ابنُ عبد الحَكَم الشَّافعيَّ وأصْحابَه ، وكانَت أعْظَمَ حَلقَةٍ في الْمَسْجِد ، فكانَ البُوَيْطيُّ يَصُومُ ، ويَتلُو غَالباً في اليَومِ واللَّيلَة خَتمَةً مع صَنائع الْمَعرُوفِ إلى النَّاسِ[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَرْب) ١١/ ٣٢ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٩٠٦ .

(٢) انظر السير : (أحمَد بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٤٥ .

(٣) انظر السير : (البُوَيْطيُّ) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٤/٩٨١ .

فسُعيَ بالبُوَيْطيِّ حتىٰ كتبَ فيه ابنُ أبي دُواد إلىٰ وَالي مِصْرَ ، فامْتَحَنَه ، فلم يُجِبْ ، وكان الوَالي حَسَنَ الرَّأي فيه ، فقالَ له : قُلْ فيما بَيْني وبَيْنَك ، قال : إنَّه يَقْتَدي بي مئةُ ألفٍ ، ولا يَدْرُونَ المَعْنىٰ ، قال : وقد كان أُمِرَ أنْ يُحْمَلَ إلىٰ بَغْداد في أرْبَعينَ رَطل حَديد[1] .

قالَ الرَّبيعُ : وكانَ الْمُزَنِيُّ مِمَّنْ سَعَىٰ بالبُوَيْطيِّ وحَرْمَلَة[2] .

قال الحاكِمُ أبو عبدِ الله : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ حامِدٍ البَزَّازَ قال : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ مُحمَّد بنِ جابِرٍ يقُولُ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَحْيىٰ قال لنا لمَّا وَرَدَ مُحمَّدُ بنُ إسْماعيل البُخاريُّ نيسابُورَ : اذْهَبُوا إلىٰ هـٰذا الرجُلِ الصَّالِحِ فاسْمَعوا منْه ، فذَهَبَ النَّاسُ إليه ، وأقْبَلُوا على السَّماعِ منه ، حتّىٰ ظَهَرَ الخَلَلُ في مَجْلِسِ مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ ، فحَسَدَه بعدَ ذلكَ وتَكَلَّمَ فيه[3] .

وقال الحاكِمُ : حَدَّثنا طاهِرُ بنُ مُحمَّد الوَرَّاق ، سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ شاذِل يقولُ : لمَّا وَقَعَ بينَ مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ والبُخاريِّ ، دَخَلْتُ على البُخاريِّ فقُلتُ : يا أبا عبدَ اللهِ أيشٍ الحيلَةُ لنا فيما بَيْنَكَ وبينَ مُحمَّد بنِ يَحْيَىٰ كُلُّ مَنْ يَخْتلِفُ إلَيْكَ يُطْرَدُ ؟ ، فقال : كَمْ يَعْتَرِي مُحمَّدَ بنَ يَحْيَى الحَسَدُ في العِلْمِ والعِلْمُ رِزْقُ الله يُعْطِيهِ مَنْ يَشاءُ فقُلتُ : هـٰذه المَسْألَةُ التي تُحْكَىٰ عَنْكَ ؟ قال : يا بُنَيَّ ، هـٰذه مَسْألةٌ مَشْؤومَةٌ ، رَأيْتُ أحْمَدَ بنَ حَنْبلَ وما نالَهُ في هـٰذه المَسْألَة ، وجَعلتُ علىٰ نَفْسِي أن لا أتَكَلَّمَ فيها[4] .

وقال مُحمَّدُ بنُ نَصْر المَرْوزيُّ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ صالِح بنِ هانِىء : سَمعتُ أحمَدَ بنَ سَلَمَةَ يقُولُ : دَخَلتُ على البُخاريِّ ، فقُلتُ : يا أبا عبدَ الله ، هـٰذا رَجلٌ مَقْبولٌ بخُراسانَ خُصُوصاً في هـٰذه المَدينَةِ ، وقد لَجَّ في هـٰذا الحَديثِ حتىٰ لا يَقْدِرُ أحَدٌ منَّا أنْ يُكَلِّمَهُ فيه ، فمَا تَرَى ؟ فقَبَضَ علىٰ لِحْيَتِه ، ثمَّ قال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) انظر السير : (البُوَيْطي) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٨٢ .
(٢) انظر السير : (البُوَيْطيُّ) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٨٢ .
(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠١٧ .
(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠١٧ .

إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1] اللَّهمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أنِّي لَمْ أُرِدِ المُقامَ بنيسَابُورَ أَشَراً ولا بَطَراً ، ولا طَلَباً للرِّئاسَةِ ، وإنَّما أَبَتْ عليَّ نَفسِي في الرُّجوعِ إلىٰ وَطَنِي لغَلَبَةِ المُخالِفينَ وقد قَصَدَنِي هـٰذا الرجُلُ حَسَداً لما آتاني اللهُ لا غَيْر ، ثمَّ قال لي : يا أحمدُ إنِّي خارِجٌ غَداً لِتَتَخَلَّصُوا من حَدِيثِه لأجْلِي .

قال : فأخْبَرتُ جَماعَةَ أصْحابِنا ، فوالله ما شَيَّعه غَيري كُنتُ معهُ حين خَرَجَ من البَلَدِ ، وأقامَ علىٰ بَابِ البَلَدِ ثَلاثَةَ أيَّامٍ لإصْلاحِ أمْرِه[2] .

(ج) سَبَبُ الحَسَد بين العُلَماء :

رَوَى البَيْهَقيُّ ، قال الإمامُ أحمَدُ لِمَنْ حَولَه : اعْلَموا رَحِمَكُم اللهُ تَعالَىٰ أنَّ الرَّجُلَ مِنْ أهْلِ العِلمِ إذا مَنَحَهُ اللهُ شَيئاً من العِلمِ ، وحَرَمَه قُرَناءه وأشْكَالَه ، حَسَدُوه فرَمَوْه بما لَيسَ فيه ، وبئسَت الخَصْلةُ في أهْلِ العِلم[3] .

(د) مَنْ نُصِحَ فلَمْ يَنْتَصِحْ ظانّاً أنَّ ناصِحَه حاسِدٌ :

قالَ أحمَدُ بنُ عُبَيد : شاوَرَني يَعقوبُ بنُ السِّكِّيت[4] في مُنادَمَة الْمُتَوَكل ، فنَهيتُه فحَملَ قَولي على الحَسَد ، ولَمْ يَنْتَهِ[5] .

ويُرْوَىٰ أنَّ الْمُتَوَكل نَظَرَ إلى ابْنَيْه الْمُعْتَزِّ والْمُؤيَّد ، فقالَ لابنِ السِّكِّيتِ : مَنْ أحَبَّ إليكَ : هُما أو الحَسَنُ والحُسَين ؟[6] فقالَ : بَلْ قَنْبَر ، فأمَرَ الأتْراكَ فدَاسوا بَطنَه فماتَ

---

(١) سورة غافر ، الآية : ٤٤ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠١٨ .

(٣) انظر السير : (الإمامُ الشَّافعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٥١/ هامش (١) .

(٤) قالَ ابنُ خلِّكان : عُرِفَ بذلك لأنه كان كثير السُّكوت ، طويل الصَّمت ، وكل ما كان علىٰ وزن « فِعِّيل » أو « فِعْليل » فإنه مكسور الأول .

(٥) انظر السير : (ابنُ السِّكِّيت) ١٢/ ١٦ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٢/٩٧٥ .

(٦) الخبر بألفاظ مختلفة في « وَفَيات الأعيان » ٦/ ٣٩٧ـ ٣٩٨ ، وفي « النجوم الزاهرة » ٢/ ٣١٨ ، واللفظ فيه : مَنْ أحبُّ إليك ، أنا وولداي الْمُؤيَّد والْمُعْتَزُّ أم عَليٌّ والحَسَنُ والحُسَينُ ؟ ؟ فقال : والله إنَّ شَعْرَةً من قَنْبَرٍ خادِمِ عَليٍّ خَيرٌ منك ومن وَلَدَيْك .

بعدَ يَومٍ وقيلَ : حُملَ ميتاً في بسَاطٍ ، وكانَ في الْمُتَوَكل نَصْبٌ[1] ، نَسألُ اللهَ العَفوَ ، ماتَ سَنةَ أرْبَع وأرْبَعينَ ومِئتَين[2] .

(هـ) الحَسَدُ المُفْضي إلى القَتْل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الأبَّار ، أبي عبدِ الله محمَّد بنِ عبدِ الله الأنْدَلُسيِّ : انتُقلَ من الأنْدَلُسِ عندَ اسْتيلاءِ النَّصارَىٰ ، فنزَلَ تُونُسَ مُدَّة ، فبَلَغَني أنَّ بَعضَ أعْدائه شَغبَ عَليه عندَ مَلكِ تُونُسَ ، بأنَّه عَملَ تاريخاً وتَكلَّمَ في جَماعَةٍ ، وقالُوا : هو فُضُوليٌّ يَتَكلَّمُ في الكِبَارِ ، فأُخذَ ، فلمَّا أحسَّ بالتَّلَفِ قالَ لغُلامِه : خُذِ البَغْلَةَ لكَ ، وامْضِ حَيثُ شِئتَ ، فلمَّا أُدخِلَ ، أمَرَ الْمَلكُ بقَتلِه ، فنَعوذُ بالله من شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ[3] .

* * *

(١) أهل النصب هم المتديِّنون ببغضة عليٍّ رضي الله عنه ، لأنهم نَصَبوا له : أي عادوه .
(٢) انظر السير : (ابنُ السِّكِّيت) ١٢/١٦ـ١٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٥ .
(٣) انظر السير : (ابنُ الأبَّار) ٢٣/٣٣٦ـ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٩ .

٥ـ الخِيَانَة

(أ) صُوَرٌ على الخِيَانَة :

قالَ ابنُ خَلِّكانَ : كانَ عُمارَةُ بنُ عَليّ بن زَيْدانَ الحَكَميُّ شَديدَ التَّعَصُّب للسُّنَّة أديباً ماهِراً ، رائجاً في الدَّولَة ، ثم تَملَّكَ صَلاحُ الدِّين ، فامْتَدحَه ، ثم إنَّه شَرعَ في اتِّفاقٍ مع رُؤسَاء في إعَادَة دَولَة العُبَيْديِّين ، فنُقِلَ أمْرُهم إلىٰ صَلاحِ الدِّين ، فشَنَقَ عُمَارَةَ في سَنةِ تِسعٍ وسِتِّينَ وخَمسِ مئة[1] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ محمّدِ بنِ يُوسُف بنِ هُود حِينَما خَلُصَت الأنْدلُسُ كُلُّها له وقاتَلَ بها المُوَحِدِّينَ ثم جَهَّزَ الخَلقَ للقاءِ الإفْرَنْجِ فلمَّا تَراءَى الجَمْعانِ وَقَعتِ الهَزيمَةُ للمُسلِمين أقْبَحَ هَزيمَة ورَجَعَ ابنُ هُود في أسْوَأِ حَالٍ ، ثم قالَ الذهبيُّ : قامَ عليه شُعَيْبُ بنُ هلالة بِلَبْلَة ، فصَالَحَ ابنُ هُود الأدْفُونَش علىٰ مُحاصَرَةِ لَبْلَة ومُعاوَنَتِه علىٰ أنْ يُعْطيه قُرْطُبَة ، واتَّفَقَا علىٰ ذلكَ ، وقالَ لَهُ : لا يَسُوغُ أنْ يدخُلَها الفِرَنْجُ على البَديهَة ، وإنَّما تُهمِلُ أمْرَها ، وتُخْلِيها من حَرَسٍ ، ووَجِّهْ أنْتَ الفِرَنْجَ يَتَعَلَّقُونَ بأسْوارِها باللَّيلِ ويَغْدُونَ بها ، ففَعَلُوا كذلكَ ووَجَّهَ ابنُ هُود إلىٰ والِيهِ بقُرْطُبَة فأعْلَمَه بذلكَ ، وأَمَرَهُ بضِياعِها من حَيّز الشَّرقيَّة فجَاءَ الفِرَنْجُ ، فوَجَدُوهُ خالياً ، فجَعَلُوا السَّلالِمَ واسْتَوَوا على السُّورِ فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ[2] .

وكانت قُرْطُبَةُ مَدينَتَيْن : إحْداهُما الشَّرقيَّة والأخْرَى المَدينَةُ العُظْمَىٰ ، فقامَتِ الصَّيْحَةُ والنَّاسُ في صَلاةِ الفَجْرِ ، فرَكِبَ الجُنْدُ وقالوا للوَالِي : اخْرُجْ بِنَا للمُلْتَقَىٰ ، فقالَ : اصْبِرُوا حتّىٰ يَضْحَى النَّهارُ ، فلمَّا أضْحَىٰ رَكِبَ وخَرَجَ مَعَهُم ، فلمَّا أشْرَفَ على الفِرَنْجِ قالَ : ارْجِعُوا حتّىٰ أَلْبَسَ سِلاحِي!! ، فرَجَعَ بهم وهُم يُصَدِّقونَه ، وذا أمرٌ قد دُبِّرَ بِلَيلٍ ، فدَخَلَ الفِرَنْجُ علىٰ إثْرِهِم ، وانْتَشَرُوا ، وهَرَبَ النَّاسُ إلى البَلَدِ ، وقُتِلَ خَلْقٌ

---

(١) انظر السير : (عُمارَة) ٢٠/ ٥٩٢ـ ٥٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٨٧ .

(٢) انظر السير : (محمد بن يوسف بن هود) ٢٣/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٧١١ .

من الشُّيُوخِ والوِلْدانِ والنِّسْوانِ ، ونُهِبَ للنَّاسِ ما لا يُحْصَىٰ ، وانْحَصَرَتِ المَدينَةُ العُظْمَىٰ بالخَلْقِ فحاصَرَهُم الفِرَنْجُ شُهوراً ، وقاتَلُوهم أشَدَّ القِتَال ، وعُدِمَ أهلُها الأقْواتَ ، ومَاتَ خَلقٌ كثيرٌ جُوعاً ، ثُمَّ اتَّفَقَ رأيُهُم مع أدْفُونْشَ ـ لَعَنَه الله ـ علىٰ أنْ يسَلِّمُوها ويَخْرُجُوا بأمْتِعَتِهِم كُلِّها ، ففَعَلَ ، ووَفَّىٰ لهُم ووَصَلَهم إلىٰ مَأمَنِهِم في سَنَةِ أربَعٍ وثلاثينَ وستِّ مِئَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ولَمْ يُمَتَّعْ بَعدَها ابنُ هُود ، بَلْ أخَذَهُ اللهُ في سَنةِ خَمسٍ فكانَتْ دَولَتُه تِسعَةَ أعْوامٍ وتِسعَةَ أشْهرٍ وتِسعَةَ أيّامٍ ، وهَلَكَ بالمريّة جَهَزَ عليه مَنْ غَمَّهُ وهو نائمٌ ، وحُمِلَ إلىٰ مُرسيةَ فدُفِنَ هُناكَ ، ولَمْ يَمُتْ حتىٰ قَوِيَ أمْرُ المُوَحِّدينَ وقَامَ بَعدَهُ مُحمّدُ بنُ يُوسُف بنِ نَصْر بنِ الأحْمَر ، ودَامَ المُلكُ في ذُرِيَّتِه[1] .

(ب) عَدّ ابنُ سِيرين الخُروجَ اليَوْميَّ من السِّجْن ثمَّ العَوْدة إليه بدون إذْن السُّلْطان خِيانَة :

قالَ قُرَيشُ بنُ أنَس : حدَّثنا عبدُ الحَميدُ بنِ عبدِ الله بنِ مُسلِم بنِ يَسار ، أنَّ السَّجَّانَ قالَ لابنِ سِيرينَ : إذا كانَ اللَّيلُ فاذْهَبْ إلىٰ أهْلِكَ ، فإذَا أصْبَحتَ فتَعالَ قالَ : لا والله ، لا أكُونُ لكَ عَوْناً علىٰ خِيانَةِ السُّلطانِ[2] .

* * *

(١) انظر السير : (محمد بن يوسف بن هود) ٢٣/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ١/١٧١٢ .

(٢) انظر السير : (محمّدُ بنُ سِيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٨/٥٦٩ .

٦ـ الرِّياء

(أ) أقْوالٌ بَليغَةٌ في الرِّياء :

رَوَى الأوزاعيُّ : عن عَبْدَة بن أبي لُبابة قال : أقْرَبُ النَّاسِ إلى الرِّياءِ آمَنُهم منه وقالَ رَجاءُ بنُ أبي سَلمَة : سَمعتُ عَبْدَةَ يَقولُ : لَوَدِدْتُ أنَّ حظِّي من أهلِ الزَّمانِ أنَّهم لا يَسألُوني عن شَيءٍ ، ولا أسْألُهم ، إنَّهم يتكاثَرون بالْمَسائلِ كمَا يَتكَاثَرُ أهلُ الدَّراهِم بالدَّراهِم .

ماتَ عَبْدَةُ في حُدود سَنةِ سَبعٍ وعِشرينَ ومِئَة[١] .

وقالَ الفَيْضُ : قالَ ليَ الفُضَيلُ : لَوْ قيلَ لك : يا مُرائي ، غَضبتَ وشقَّ عَليكَ ، وعَسَىٰ ما قيلَ لك حَقٌّ ، تَزيَّنتَ للدُّنيا وتَصنَّعتَ ، وقَصَّرتَ ثِيابَك ، وحسَّنتَ سَمتَك ، وكَفَفْتَ أذاكَ حتَّىٰ يُقالَ : أبو فُلان عابدٌ ، ما أحْسَنَ سَمْتَه ، فيُكرِمونَك ويَنظرونَك ، ويَقصِدونَك ، ويُهْدونَ إليكَ ، مثل الدرهم السُّتُّوق[٢] لا يعرفُه كلُّ أحَد ، فإذا قُشرَ ، قُشرَ عن نُحاس[٣] .

وقالَ أبو بَكْر الرَّازي : سَمعتُ أبا عَليٍّ الثَّقَفيَّ يَقولُ : تَركُ الرِّياءِ للرِّياءِ أقْبَحُ من الرِّياءِ وكانَ كَثيراً ما يَتكلَّمُ في رُؤيَة عَيبِ الأفْعالِ[٤] .

(ب) مِنْ دَقائق الرِّياء :

عن بِشرِ بنِ الحارِث قالَ : قد يَكونُ الرجُلُ مُرائياً بعدَ مَوتِه ، يُحبُّ أنْ يَكْثُرَ الخَلقُ في جنازَتِه[٥] .

---

(١) انظر السير : (عَبْدَة بن أبي لُبابَة) ٥/ ٢٢٩ـ ٢٣٠ ، وانظر النزهة : ٨/٥٩٧ .
(٢) هو الرديء الزيِّف الذي لا خير فيه .
(٣) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٩/٧٧٨ .
(٤) انظر السير : (أبو عَليّ الثَّقَفيُّ) ١٥/ ٢٨٠ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢٨ .
(٥) انظر السير : (بِشْرُ بنُ الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٤/٨٨٦ .

(ج) دَواءُ الرِّياء :

وعن عُبيدِ الله بن أبي جَعْفَر ، قالَ : إذا كانَ الْمَرءُ يُحدِّثُ في مَجلسٍ فأعْجَبَه الحَديثُ ، فليُمْسِكْ وإذا كانَ ساكتاً ، فأعْجَبَه السُّكوتُ فليَتَحدَّثْ[1] .

(د) الخَوْفُ والتَّحْذيرُ من الرِّياء :

قالَ محمدُ بنُ زياد : رَأيتُ أبا أُمامَة أتَىٰ علىٰ رَجلٍ في الْمَسجِدِ ، وهو ساجِدٌ يَبكي ، ويَدعُو ، فقالَ : أنتَ أنتَ! لَوْ كانَ هـٰذا في بَيتِك[2] .

وعن العِرْباضِ بنِ ساريَة ، قالَ : لَوْلا أنْ يُقالَ : فَعلَ أبو نَجيح لألْحَقتُ مالي سُبْلَةً ، ثم لَحقتُ وَادياً من أوْديَةِ لُبنانَ عَبدتُ اللهَ حتَّىٰ أموتَ[3] .

وعن عبدِ الرحمَـٰن بنِ يَزيد ، قُلنا لعَلْقَمَةَ : لَوْ صَلَّيتَ في الْمَسجِدِ وجَلسنا مَعكَ فتُسألُ ، قالَ : أكرَهُ أنْ يُقالَ : هـٰذا عَلْقَمَةُ[4] .

وعن أبي بَكْر بنِ عيَّاش ، عن عاصِم قالَ : كانَ أبو وَائل إذا صَلَّىٰ في بَيتِه يَنشِجُ نَشيجاً ، ولَوْ جُعلَت له الدُّنيا علىٰ أنْ يَفعَله وأحدٌ يَراهُ ، ما فَعلَه[5] .

وعن الأعْمَشِ ، قالَ : كانَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ أبي لَيْلَىٰ يُصلِّي ، فإذا دَخلَ الدَّاخِلُ ، نامَ علىٰ فِراشِه .

وقال ثابتٌ : كانَ ابنُ أبي لَيْلَىٰ إذا صَلَّى الصُّبحَ نَشرَ الْمُصحَفَ ، وقَرأَ حتَّىٰ تَطلُعَ الشَّمسُ .

قُتلَ بوَقْعَة الجَماجِم سَنةَ اثنَتين وثَمانينَ[6] .

---

(١) انظر السير : (عُبَيد الله بن أبي جَعْفَر) ٦/ ٨ـ ١٠ ، وانظر النزهة : ٦٢٥/ ٤ .
(٢) انظر السير : (أبو أُمامَة البَاهِليُّ) ٣/ ٣٥٩ـ ٣٦٣ ، وانظر النزهة : ٣٩٣/ ٣ .
(٣) انظر السير : (العِرْباضُ بنُ ساريَة) ٣/ ٤١٩ـ ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ٤٠٥/ ٢ .
(٤) انظر السير : (عَلْقَمَة) ٤/ ٥٣ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٤٤٣/ ٥ .
(٥) انظر السير : (شَقيقُ بنُ سَلمَة) ٤/ ١٦١ـ ١٦٦ ، وانظر النزهة : ٤٦٩/ ٧ .
(٦) انظر السير : (عبدُ الرحمَـٰن بنُ أبي لَيلَىٰ) ٤/ ٢٦٢ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٤٩٤/ ٦ .

وقالَ رَجاءُ بنُ أبي سَلمَة ، نَظرَ رَجاءُ بنُ حَيْوَة إلىٰ رَجلٍ يَنْعَسُ بعدَ الصُّبحِ فقالَ : انتُبه لا يَظنُّونَ أنَّ ذا عن سَهَر[1] .

وعن حمَّادِ بنِ زَيْد ، قالَ : كانَ أيُّوبُ السَّخْتيانِيُّ في مَجلِسٍ فجاءَتهُ عَبرَةٌ فجَعلَ يَمْتَخِطُ ويَقولُ : ما أشَدَّ الزُّكامَ .

وقالَ أبو حاتم وسُئلَ عن أيُّوبَ فقالَ : ثِقةٌ ، لا يُسألُ عن مثلِه[2] .

وعن ابنِ عُيَيْنَة قالَ : بَكَىٰ رَبيعَةُ بنُ فَرُّوخ يَوماً ، فقيلَ : ما يُبكِيكَ ؟ قالَ : رياءٌ حاضِرٌ ، وشَهْوَةٌ خَفيَّةٌ ، والنَّاسُ عندَ عُلمَائهم كصِبْيَانٍ في حُجُورِ أُمَّهاتِهم ، إنْ أَمَرُوهم ائتَمَروا ، وإنْ نَهَوْهُم ، انتَهوا ؟![3] .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحَوَاري : حدَّثنا أبو عبدِ الله الأنْطاكيُّ قالَ : اجْتَمعَ الفُضَيلُ والثَّوريُّ ، فتَذاكَرا ، فرَقَّ سُفْيانُ وبَكَىٰ ، ثم قالَ : أرْجُو أنْ يَكُونَ هـٰذا الْمَجلِسُ عَلينا رَحمَةً وبَرَكةً ، فقالَ له الفُضَيلُ : لَكنِّي يا أبا عبدِ الله أخافُ أنْ لا يَكونَ أضَرَّ عَلينا منه ألَسْتَ تَخلَّصْتَ إلىٰ أحْسَنِ حَديثِك ، وتَخلَّصْتُ أنا إلىٰ أحْسَنِ حَديثي ، فتَزَيَّنتَ لي وتَزيَّنتُ لكَ ؟ فبَكَىٰ سُفيانُ ، وقالَ : أحْيَيْتَني أحْياكَ الله[4] .

وقيلَ : إنَّ مُحمَّدَ بنَ الحَسَنِ بنَ فَرْقَد الشَّيْبانيُّ ، صاحبِ أبي حَنيفَة ، لَمَّا احْتُضرَ ، قيلَ له : أتَبْكي مع العِلمِ ؟ قالَ : أرَأيتَ إنْ أوْقَفَني اللهُ وقالَ : يا محمَّدُ ، ما أقْدَمَكَ الرَّيَّ ؟ الجِهادُ في سَبيلي ، أمْ ابْتِغاءَ مَرْضاتي ؟ ماذا أقُولُ .

قالَ الإمامُ الذَّهَبيُّ : تُوفِّيَ إلىٰ رَحمَة الله سَنةَ تِسعٍ وثَمانينَ ومئة بالرَّيِّ[5] .

وعن عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ مَهْدي قالَ : كُنتُ أجلِسُ يَومَ الجُمُعَة ، فإذا كَثُرَ النَّاسُ ،

---

(١) انظر السير : (رَجاءُ بنُ حَيْوَة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٥٨ .
(٢) انظر السير : (أيُّوبُ السَّخْتيانيّ) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٩/ ٦٢٦ .
(٣) انظر السير : (رَبيعَة) ٦/ ٨٩ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٣٥ .
(٤) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٨/ ٧٧٨ .
(٥) انظر السير : (محمَّد بن الحَسَن) ٩/ ١٣٤ـ ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٠٨ .

فرِحْتُ ، وإذا قَلُّوا ، حَزِنْتُ ، فسَألتُ بِشْرَ بنَ مَنْصُور ، فقالَ : هـٰذا مَجلِسُ سُوءٍ ، فلا تَعُدْ إليه ، فمَا عُدتُ إليه[1] .

وقالَ الرَّبيعُ : سَمعتُ الشَّافِعيَّ يَقولُ : وَدِدْتُ أنَّ النَّاسَ تَعلَّموا هـٰذا العِلمَ ـ يَعني كُتُبَه ـ عَلىٰ أنْ لا يُنسَبَ إليَّ منه شَيءٌ[2] .

وعن حَمزَةَ بنِ دهقان قال : قلتُ لبشرِ بنِ الحَارِث : أُحِبُّ أنْ أخْلُوَ معَكَ قال : إذا شِئتَ فيكُونُ يوماً فرَأيتُه قد دَخَلَ قُبَّةً ، فَصَلىٰ فيها أربَعَ ركعاتٍ لا أُحسِنُ أصلي مثلها ، فسمعتُه يقولُ في سُجودِه : اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلمُ فوقَ عَرشِك أنَّ الذُّلَّ أَحَبُّ إليك من الشَّرفِ ، اللَّهمَّ إنَّكَ تَعلمُ فوقَ عَرشِك أنَّ الفقْرَ أَحَبُّ إليك من الغِنَىٰ ، اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعلمُ فوقَ عَرشِك أنِّي لا أُوثِرُ علىٰ حُبِّكَ شيئاً ، فلمَّا سَمعتُه ، أخَذَنِي الشَّهِيقُ والبُكاءُ ، فقال : اللَّهُمَّ أنت تَعلمُ أنِّي لَو أعلمُ أنَّ هـٰذا ها هُنا لَم أتَكَلَّم[3] .

عن سُحْنونَ قالَ : كانَ بَعضُ مَنْ مَضَىٰ يُريدُ أنْ يَتكلَّمَ بالكَلِمَة ولَوْ تَكلَّمَ بها لانتَفعَ بها خَلقٌ كثيرٌ ، فيَحْبِسُها ، ولا يَتكلَّمُ بها مَخافَةَ الْمُبَاهَاةِ[4] .

وقالَ أبو يَعقُوبُ الْمَرْوزيُّ صَحبتُ محمَّدَ بنَ أسْلمَ أكثر من عِشرينَ سَنةً لَمْ أرَهُ يُصلِّي حَيثُ أرَاهُ رَكعَتَينِ من التَّطوُّع إلاَّ يَومَ الجُمُعَة وسَمعتُه كَذا وكَذا مرَّةً يَحلفُ : لَوْ قَدِرتُ أنْ أتَطوَّعَ حَيثُ لا يَراني مَلَكايَ لَفَعلتُ خَوْفاً من الرِّياءِ وكانَ يَدخُلُ بَيتاً له ، ويُغلِقُ بابَه ، ولَمْ أدْرِ ما يَصْنَعُ حتَّىٰ سَمعتُ ابْناً له صَغيراً يَحْكي بُكاءَه ، فنَهَتهُ أمُّه ، فقُلتُ لها : ما هَـٰذا ؟ قالَت : إنَّ أبا الحَسَن يَدخُلُ هَـٰذا البَيتَ ، فيَقرأُ ويَبكي ، فيَسمَعُه الصَّبيُّ ، فيَحكيه ، وكانَ إذا أرَادَ أنْ يَخرُجَ ، غَسلَ وَجهَه ، واكْتَحلَ ، فلا يُرَىٰ عليه أثَرُ البُكاء ، وكانَ يَصِلُ قَوماً ويَكْسُوهُم ، ويَقولُ للرَّسُولِ : انْظُر أنْ لا يَعلَموا مَنْ بَعثَه[5] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن مَهْدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨١٧ .
(٢) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٤٧ .
(٣) انظر السير : (بشر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٨٦ .
(٤) انظر السير : (سُحْنُون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٨٣ .
(٥) انظر السير : (محمَّد بن أسْلَم) ١٢/ ١٩٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ٩٩٢ .

(هـ) ضَوابطٌ للرِّياء :

وعن ابنِ بُرَيْدَة ، عن أبيه ، قالَ : شَهدتُ خَيْبَرَ ، وكُنتُ فيمَنْ صَعَدَ الثُّلمَة ، فقَاتَلتُ حتَّىٰ رُئيَ مَكاني ، وعليَّ ثَوبٌ أحْمَر ، فمَا أعْلَمُ أنِّي رَكبتُ في الإسْلامِ ذَنْباً أعْظَمَ عليَّ منه ـ أي الشُّهْرَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : بلَىٰ ، جُهَّالُ زَماننا يَعدُّونَ اليَومَ مثلَ هـٰذا الفِعلَ من أعْظَمِ الجِهادِ ، وبُكلِّ حالٍ فالأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ ، ولَعلَّ بُرَيْدَة رضي الله عنه بإزرائه علىٰ نَفسِه ، يَصيرُ له عَملُه طاعَةً وجِهاداً! وكَذلكَ يَقعُ في العَمَلِ الصَّالِح ، رُبَّما افْتَخرَ به الغِرُّ ونَوَّهَ به ، فيَتحَوَّلُ إلىٰ ديوانِ الرِّياء قالَ اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1] . تُوفِّيَ بُرَيْدَةُ سَنةَ اثنَتينِ وسِتِّينَ[2] .

قال محمَّدُ بنُ عَبْدَوَيه : سَمعتُ الفُضَيلَ يَقولُ : تَرْكُ العَمَلِ من أجْلِ النَّاسِ رِياءٌ والعَمَلُ من أجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ ، والإخْلاصُ أنْ يُعافِيَكَ اللهُ عنهما[3] .

وقالَ فَيضُ بنُ وثيق : سَمعتُ الفُضَيلَ يَقولُ : إنِ اسْتَطعتَ أنْ لا تَكونَ مُحدِّثاً ولا قارِئاً ، ولا مُتَكلِّماً ، إنْ كُنتَ بَليغاً ، قالوا : ما أبْلَغَه ، وأحْسَنَ حَديثَه ، وأحْسَنَ صَوْتَه ! فيُعجِبُكَ ذلك ، فتَنْتَفِخُ ، وإنْ لَمْ تَكُنْ بَليغاً ، ولا حَسَنَ الصَّوتِ ، قالوا : لَيسَ يُحسِنُ يُحدِّث ، ولَيسَ صَوتُه بحَسَنٍ ، أحْزَنكَ ذلك ، وشَقَّ عَليكَ ، فتكونُ مُرائياً ، وإذا جَلستَ ، فتَكلَّمتَ ، فلَمْ تُبالِ مَنْ ذَمَّكَ ومَنْ مَدَحَك ، فتكلَّم[4] .

(و) قاعِدَةٌ في الرِّياء :

قالَ إبْراهيمُ بنُ الأشْعَث : سَمعتُ الفُضَيلَ يَقولُ : مَنْ أحَبَّ أنْ يُذكَر لَمْ يُذكَر ، ومَنْ كَرِهَ أنْ يُذكَر ذُكِرَ[5] .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣ .
(٢) انظر السير : (بُرَيْدَة بنُ الحُصَيب) ٢/ ٤٦٩ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٩١ .
(٣) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٧٤ .
(٤) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٧٧ .
(٥) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٧٧ .

٧ـ العُجْب

(أ) تَعْريفُ العُجْب :

قالَ أبو وَهْب الْمَرْوَزيُّ : سَألتُ ابنَ الْمُبارَك : ما الكِبْرُ ؟ قالَ : أنْ تَزْدَري النَّاسَ فسَألتُه عن العُجْبِ ؟ قالَ : أنْ تَرَىٰ أنَّ عِندَكَ شَيئاً لَيسَ عندَ غَيرِك ، لا أعْلَمُ في الْمُصَلِّينَ شَيئاً شَراً من العُجْبِ[1] .

(ب) مَنْ كان مُعْجَباً بنفسِه من العُلَماء :

ابنُ وَارَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : محمَّدُ بنُ مُسلِم بنِ عُثْمانَ ، الحافِظُ ، الإمَامُ الْمُجوِّدُ ، أبو عبدِ الله بنُ وَارَة الرَّازي ، أحَدُ الأعْلام .

ارتَحلَ إلى الآفَاق ، وكانَ يُضرَبُ به المثَلُ في الحِفظِ ، علىٰ حُمقٍ فيه وتِيهٍ وكانَ مَولدُه في حُدودِ عامِ تِسعينَ ومئة .

قالَ النَّسائيُّ : هو ثِقةٌ ، صاحِبُ حَديث .

وقالَ عبدُ الْمُؤمِن بنُ أحمَد : كانَ أبو زُرْعَة لا يَقومُ لأحَدٍ ، ولا يُجلِسُ أحَداً في مَكانِه ، إلاَّ ابَن وَارَة .

قالَ أبو جَعْفَرٍ الطَّحاويُّ : ثَلاثَةٌ من عُلمَاءِ الزَّمانِ بالحَديثِ ، اتَّفَقوا بالرَّيِّ ، لَمْ يكن في الأرضِ مثلُهم في وَقتِهم ، فذَكرَ ابنَ وَارَة ، وأبا حاتم ، وأبا زُرعَة[2] .

وعن عبدِ الرحمَٰن بنِ خِراش ، قالَ : كانَ ابنُ وَارَة من أهلِ هٰذا الشَّأنِ الْمُتقِنينَ الأُمَناء ، كُنتُ لَيلَةً عندَه ، فذَكرَ أبا إسْحاقَ السَّبيعيَّ ، فذَكرَ شُيوخَه ، فذَكرَ في طَلْقٍ واحدٍ سَبعينَ ومئتَين من شُيوخِه ، ثم قالَ : كانَ غايَةً ، شَيئاً عَجَباً[3] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ المبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٩/٧٦٩ .

(٢) انظر السير : (ابنُ وَارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٤٧ .

(٣) انظر السير : (ابنُ وَارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٧/١٠٤٧ .

قال عُثمانُ بنُ خُرَّزاذ : سَمعتُ الشَّاذَكُونيَّ يقولُ : جاءَني محمَّدُ ابنُ مُسْلم فقَعدَ يَتَقعَّرُ[1] في كَلامِه ، فقلتُ له : مِنْ أيِّ بلدٍ أنتَ ؟ قال : مِنْ أهْلِ الرَّيِّ ، ألَمْ يأتِكَ خَبري ؟ ألَمْ تَسمَعْ بنبَئي ؟ أنا ذُو الرِّحْلَتين قُلتُ : مَنْ رَوَىٰ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكمَةً » فقالَ : حدَّثَني بعضُ أصْحابِنا قلتُ : مَنْ ؟ قال : أبو نُعَيم وقَبيْصَة قلتُ : يا غُلامُ! ائْتِني بالدِّرَّة ، فأتاني بها ، فأمَرتُه ، فضَربَه بها خَمسينَ ، قلتُ : أنتَ تَخرُجُ من عِندي ، ما آمَنُ أن تقولَ : حَدَّثَني بَعضُ غِلْمانِنا[2] .

قال زَكريّا السَّاجي : جاءَ ابنُ وَارَة إلىٰ كُرَيْب ، وكان في ابنِ وَارَة بأوٌ[3] فقال لأبي كُرَيْب : ألَمْ يَبْلُغْك خَبري ؟ ألَمْ يأتِكَ نَبَئي ، أنا ذو الرِّحْلَتين ، أنا محمَّدُ بنُ مُسْلم بنِ وَارَة فقال : وَارَة ؟!! وما أدْراكَ ما وَارَة ؟ قُمْ ، فواللهِ لا حَدَّثْتُك ، ولا حَدَّثْتُ قَوماً أنت فيهم[4] .

قالَ أبو العَبَّاسِ بنُ عُقدَة : دقَّ ابنُ وَارَة على ابنِ كُرَيْب ، فقالَ : مَنْ ؟ قالَ : ابنُ وَارَة ، أبو الحَديثِ وأُمُّه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : الصَّوابُ في وَفاتِه أنَّها في سَنةِ سَبعينَ ومئتَين[5] .

وقالَ الدَّارَقُطْنِيُّ : كان ابنُ كامل مُتساهِلاً ، رُبَّما حدَّثَ من حِفظِه بما لَيسَ في كِتابِه ، وأهْلكَه العُجبُ ، كانَ يَختارُ لنَفسِه ، ولا يُقلِّدُ أحَداً .

تُوفِّيَ سَنةَ خَمسينَ وثلاثِ مئة ، وله تِسْعونَ سَنةً[6] .

وقالَ الدَّارَقُطْنِيُّ أيضاً : كانَ ابنُ كامِل لا يَعُدُّ لأحَدٍ من الفُقَهاءِ وَزْناً ، أمْلَىٰ كتاباً في السُّننِ ، وتَكلَّمَ على الأخْبَار[7] .

---

(١) التقعير : أن يتكلم بأقصىٰ قعر فمه .
(٢) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٨ .
(٣) البأوُ : الكِبرُ والتِّيه .
(٤) انظر السير : (ابنُ وَارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٨ .
(٥) انظر السير : (ابنُ وَارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٤٨ .
(٦) انظر السير : (ابنُ كامِل) ١٥/ ٥٤٤ـ ٥٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥٨ .
(٧) انظر السير : (ابنُ كامِل) ١٥/ ٥٤٤ـ ٥٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٨ .

قال ابنُ الذَّهَبيِّ : كانَ ابنُ كامِلٍ من بُحورِ العِلمِ فأخْمَلَه العُجبُ[1] .

(ج) العُجْبُ بَلاءٌ :

قالَ أبو القاسِم القُشَيْرِيُّ : كانَ يُوسُفُ بنُ الحُسَين نَسيجَ وَحدِه في إسْقاطِ التَّصنُّع يُقالُ : كَتبَ إلى الجُنَيدِ : لا أذاقَك اللهُ طَعمَ نَفسِك ، فإنْ ذُقتَها لا تُفلِح[2] .

وخَطبَ مُنْذِرُ بنُ سَعيد يَوماً فأعْجَبته نَفسُه ، فقالَ : حتَّىٰ مَتَىٰ أعِظُ ولا أتَّعِظُ وأزْجُرُ ولا أزْدَجِرُ ، أدُلُّ على الطَّريقِ الْمُستَدلِّينَ وأبْقَىٰ مُقيماً مع الحَائرينَ ، كلاَّ إنَّ هَـٰذا لَهُوَ البَلاءُ الْمُبينُ ، اللَّهُمَّ فرَغِّبْني لِمَا خَلقْتَني لَه ، ولا تَشْغَلني بما تَكفَّلتَ لي به[3] .

* * *

(١) انظر السير : (ابنُ كامِل) ١٥/ ٥٤٤ـ٥٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥٨ .

(٢) انظر السير : (يُوسُفُ بنُ الحُسَين) ١٤/ ٢٤٨ـ٢٥١ ، وانظر النزهة : ٦/١١٤٧ .

(٣) انظر السير : (مُنْذِرُ بنُ سَعيد البَلُّوطيُّ) ١٦/ ١٧٣ـ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٧٩ .

٨ـ الغِيبَة

(أ) الخَوْفُ من الغِيبَة :

قالَ جَريرُ بنُ حازِم : كُنتُ عند محمَّدِ بنِ سِيرينَ فذَكرَ رجُلاً ، فقالَ : ذاكَ الأسْوَدُ ، ثم قالَ : إنَّا لله ، إنِّي اغْتَبتُه[١] .

وقالَ محمَّدُ بنُ أبي حاتم : سَمعتُ أبا عبدِ الله البُخاري يَقولُ لأبي معشَر الضَّرير : اجْعَلنِي في حِلٍّ يا أبا معشر ، فقالَ : من أيِّ شَيءٍ ؟ قالَ : رَوَيتُ يَوماً حَديثاً فنَظرتُ إليك ، وقد أُعجِبتَ به ، وأنَت تُحرِّكُ رَأسَكَ ويَدَكَ ، فتَبسَّمتُ من ذلكَ قالَ : أنتَ في حِلٍّ ، رَحمَكَ الله يا أبا عبدِ الله[٢] .

(ب) عِلاجُ الغِيبَة :

قالَ ابنُ أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا حَرْمَلةُ : سَمعتُ ابنَ وَهْب يَقولُ : نَذَرتُ أنِّي كُلَّما اغْتَبتُ إنْساناً أنْ أصُومَ يَوماً ، فأجْهَدَني ، فكُنتُ أغْتابُ وأصُومُ ، فنَوَيتُ أنِّي كُلَّما اغْتَبتُ إنْساناً أنْ أتَصدَّقَ بدِرْهم ، فمِنْ حُبِّ الدَّراهم تَركتُ الغِيْبَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هَكذا والله كانَ العُلماءُ وهـٰذا ثَمَرةُ العِلمِ النَّافع ، وعبدُ الله حُجَّةٌ مُطلقاً ، وحَديثُه كَثيرٌ في الصِّحاح ، وفي دَواوين الإسْلام ، وحَسبُك بالنَّسائيِّ وتَعنُّتِه في النَّقْد حَيثُ يَقولُ : وابنُ وَهْب ثِقةٌ ، ما أعلَمُه رَوَىٰ عن الثِّقاتِ حَديثاً مُنْكَراً[٣] .

(ج) تَحْذيرُ العُلَماءِ النَّاسَ ومَنْعُهم من الغِيبَة :

عن مُسلمِ البَطين ، عن سَعيدِ بنِ جُبَير أنَّه كانَ لا يَدَعُ أحَداً يَغتَابُ عندَه[٤] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٦٩ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠١٦ .

(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ وَهْب) ٩/ ٢٢٣ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨١٩ .

(٤) انظر السير : (سَعيدُ بنُ جُبَيْر) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٠٧ .

عن ابنِ عَوْن ، قالَ : كانوا إذا ذَكَروا عندَ محمَّدِ بنِ سِيرينَ رَجُلاً بسَيِّئة ذَكرَه هو بأحْسَن ما يَعلم وجاءَه ناسٌ فقالوا : إنَّا نِلْنا منكَ فاجْعَلنا في حِلٍّ ، قالَ : لا أُحِلُّ لَكُم شَيئاً حَرَّمَه اللهُ .

ماتَ محمَّدُ بنُ سِيرينَ بعدَ الحَسَنِ البَصْريِّ بمئة يَومٍ ، سَنةَ عشْر ومئة[1] .

وقيلَ : اغْتابَ رَجلٌ عندَ مَعْروفٍ الكَرْخيّ فقالَ : اذْكُر القُطنَ إذا وُضعَ علىٰ عَينَيْك[2] .

(د) الغِيبَة مُضَيِّعَةٌ للحَسَناتِ :

عن جَعْفَرِ بنِ محمَّد : إذا بَلغَكَ عن أخيكَ ما يَسوؤُك ، فلا تَغْتَمَّ فإنَّه إنْ كانَ كمَا يَقولُ كانَت عُقوبَةً عُجِّلَت ، وإنْ كانَ علىٰ غَيرِ ما يَقولُ كانَت حَسَنَةً لَمْ تَعمَلْها[3] .

ورُويَ عن ابنِ مَهْديٍّ قالَ : لَوْلا أنِّي أكْرَهُ أنْ يُعْصَى اللهُ ، لَتَمنَّيتُ أنْ لا يَبقَىٰ أحَدٌ في الْمِصْرِ إلاَّ اغْتابَني! أيُّ شَيءٍ أهْنأ من حَسَنةٍ يَجدُها الرجُلُ في صَحيفَتِه لَمْ يَعمَلْ بها!! ؟[4] .

(هـ) مَنْ لَمْ يَغْتَبْ أحَداً قَطّ :

قالَ البُخاريُّ : سَمعتُ أبا عاصِم الضَّحَّاكَ بنَ مَخْلَد يَقولُ : منذ عَقلتُ أنَّ الغِيبَةَ حَرامٌ ما اغْتَبتُ أحَداً قَطُّ[5] .

وقالَ بَكرُ بنُ مُنير : سَمعتُ أبا عبدِ الله البُخاريَّ يَقولُ : أرْجُو أنْ ألْقَى اللهَ ولا يُحاسِبُني أنِّي اغْتَبتُ أحداً[6] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٧١ .
(٢) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخيّ) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٢٦ .
(٣) انظر السير : (جَعْفَر بنُ محمَّد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٤٨ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الرحمَـٰن بنُ مَهْديّ) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٨١٧ .
(٥) انظر السير : (أبو عاصم) ٩/ ٤٨٠ـ ٤٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٣٦ .
(٦) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠١٥ .

وقالَ محمَّدُ بنُ أبي حاتم الوَرَّاق : سَمعتُ أبا عبدِ الله البُخاريَّ يَقولُ : ما اغْتَبتُ أحداً قَطُّ منذُ عَلمتُ أنَّ الغِيبَةَ تَضُرُّ أهلَها قالَ : وكانَ أبو عبدِ الله يُصلِّي في وَقتِ السَّحَر ثَلاثَ عَشرَةَ رَكعَةً ، وكانَ لا يُوقِظُني في كُلِّ ما يَقومُ فقُلتُ : أرَاكَ تَحمِلُ علىٰ نَفسِك ، ولَمْ تُوقِظْني قالَ أنتَ شَابٌّ ، ولا أحِبُّ أنْ أُفْسِدَ عَليكَ نَومَك[1] .

(و) قد يَخْتَلِطُ الجَرْحُ بالغِيبَة :

جاءَ في تَرجَمَةِ إسْماعيلِ بنِ إبْراهيمَ ، الْمَعروفِ بابنِ عُلَيَّة : ذكره الإمامُ الذهَبيُّ في « الْمِيزَانِ » وتَعقَّبه بقولِه : إمامَةُ إسماعيلَ وَثيقة لا نزاعَ فيها ، وقد بَدَتْ منه هَفوَةٌ وتابَ ، فكانَ ماذا ؟ إنِّي أخافُ الله لا يَكونُ ذِكرُنا له من الغِيبَة ، وأمَّا القُرآنُ ، فقد قالَ عبدُ الصَّمَد بنُ يَزيد بنِ مَرْدَوَيْه : سَمعتُ ابنَ عُلَيَّة يَقولُ : القُرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوق[2] .

وقالَ السَّمْعانيُّ : كانَ ابن ناصِر يُحبُّ أنْ يَقعَ في النَّاسِ ، فرَدَّ ابنُ الجَوْزيِّ هـٰذا ، وقَبَّحَه ، وقالَ : صاحِبُ الحَديثِ يَجْرَحُ ويُعَدِّلُ ، أفَلا تُفرِّقُ يا هـٰذا بينَ الجَرحِ والغِيبَة ؟! ثم قالَ : وهو قد احْتجَّ بكَلامِ ابنِ ناصِر في كَثيرٍ من التَّراجِمِ في « الذَّيل » له ، ثم بالَغ ابنُ الجَوْزيّ في الحَطِّ علىٰ أبي سَعْد كذلك ، ولا رَيبَ أنَّ ابنَ ناصِر يَتعسَّفُ في الحَطِّ علىٰ جَماعَة من الشُّيوخ ، وأبو سَعْد أعْلَمُ بالتَّاريخ ، وأحْفَظُ من ابنِ الجَوْزيِّ ومن ابنِ ناصِر ، وهـٰذا قَولُه في ابنِ ناصِر في « الذَّيل » قالَ : هو ثِقةٌ حافِظٌ دَيِّنٌ مُتْقِنٌ ثَبتٌ لُغَويٌّ ، عارفٌ بالْمُتونِ والأسانيدِ ، كَثيرَ الصَّلاةِ والتِّلاوَة غيرَ أنَّه يُحبُّ أنْ يَقعَ في النَّاسِ ، وهو صَحيحُ القِراءَة والنَّقلِ[3] .

(ز) رُؤْيَا فيها تَحْذيرٌ من الغِيبَة :

وقال السَّمْعانيُّ : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ محمد بنِ الرِّضا العَلويّ يقول : سَمعتُ خالي أبا طالب بنَ طَباطبا يقولُ : كنتُ أشْتُمُ أبداً عبدَ الرحمَـٰن ابنَ مَنْدَه ، فسافرتُ إلىٰ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٠١٦ .
(٢) انظر السير : (ابنُ عُلَيَّة) ٩/ ١٠٧ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٨٠٤/ هامش (١) .
(٣) انظر السير : (ابنُ ناصِر) ٢٠/ ٢٦٥ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٥٠ .

جَرْباذَقان[1] ، فرأيتُ أميرَ المؤمنين عُمرَ في النَّومِ ويدُه في يد رجلٍ عليه جُبَّةٌ زَرْقاء ، وفي عَيْنَيه نكتةٌ ، فسَلمتُ عليه فلم يرُدَّ عليَّ ، وقال تَشتُمُ هـٰذا فقيلَ لي في المَنامِ : هـٰذا عُمرُ وهـٰذا عبدُ الرحمَـٰن بنُ مَندَه فانتبَهتُ ، ثم رجعتُ إلىٰ أصْبَهان ، وقَصَدتُ عبدَ الرحمَـٰن ، فلمَّا دخَلتُ عليه ، صادَفتُه كما رأيتُه في النَّوم ، فلمَّا سَلَّمتُ عليه قالَ : وعليكَ السَّلامُ يا أبا طَالِب وقَبْلَها ما رآني ولا رَأيتُه ، فقالَ لي قبلَ أن أُكلِّمَه : شيءٌ حَرَّمَه الله ورسُوله يَجوزُ لنا أن نُحِلَّه ؟ فقلتُ : اجْعَلني في حِلٍّ ، وناشَدْتُه اللهَ وقَبَّلتُ عَيْنَيْه ، فقال : جعلتُكَ في حِلٍّ فيما يَرجعُ إليَّ .

وعن صاعد بنِ سيّار ، سَمعتُ الإمام أبا إسماعيلَ الأنصاريَّ يقولُ في عبدِ الرحمَـٰن بنِ مَنده : كانت مَضَرَّته أكثرَ من مَنْفَعَته في الإسْلام .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أطْلقَ عِباراتٍ بَدَّعَه بَعضُهم بها ، اللهُ يُسامحُه ، وكان زَاعِراً علىٰ مَنْ خالَفَه ، فيه خارجيّةٌ ، وله مَحاسِنُ ، وهو في تَواليفِه حاطِبُ ليلٍ ، يَرْوي الغَثَّ والسَّمين ، ويَنظِمُ رَديء الخَرَزِ مع الدُّرِّ الثَمين .

ماتَ سَنة سَبعين وأربع مئة ، وشَيَّعَه عالَمٌ لا يُحْصَوْن[2] .

* * *

---

(١) بلدة قريبة من هَمَذان .

(٢) انظر السير : (ابنُ مَندَه) ١٨/ ٣٤٩ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢٠ .

٩ـ الفُضُول

(أ) البُعْدُ عن الفُضُول من أخْلاق الصَّالحين :

قالَ زَيدُ بنُ أسْلَم : دُخِلَ علىٰ أبي دُجانَةَ الأنصاري وهو مَريضٌ ، وكانَ وَجهُه يَتهَلَّلُ فقيلَ له : ما لِوَجهِكَ يَتهلَّلُ ؟ فقالَ : ما من عَملٍ شَيء أوْثَق عندي من اثْنَتين : كُنتُ لا أتَكلَّمُ فيما لا يَعنيني ، والأخرَىٰ فكان قَلبي للمُسلمينَ سَليماً[1] .

وقيلَ : إنَّ رَجلاً قالَ للأحْنَفِ بنِ قَيْس : بِمَ سُدتَ ؟ وأرادَ أنْ يَعيبَه : قالَ الأحْنَفُ : بتَركي مِنْ ما لا يَعنيني ، كمَا عَناكَ مِنْ أمْري ما لا يَعنيكَ[2] .

(ب) عَاقِبَةُ الفُضُول :

عن سَهلِ بنِ عبدِ الله : مَنْ تَكلَّمَ فيما لا يَعنيه حُرمَ الصِّدقَ ، ومَنْ اشْتَغلَ بالفُضُولِ حُرمَ الوَرَعَ ، ومَنْ ظَنَّ السُّوءَ حُرمَ اليَقينَ ، ومَنْ حُرمَ هـٰذه الثَّلاثَة هَلَكَ[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (أبو دُجانَة الأنصاري) ١/ ٢٤٣ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٤ .

(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وأنظر النزهة : ٢/٤٥٢ .

(٣) انظر السير : (سَهْلُ بنُ عبد الله) ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٩٣ .

١٠ـ الكبْر

(أ) تَعْريفُ الكبْر :

قالَ أبو وَهْب الْمَرْوَزيُّ : سَألتُ ابنَ الْمُبارَك : ما الكبْرُ ؟ قالَ : أنْ تَزْدَري النَّاسَ فسَألتُه عن العُجْبِ ؟ قالَ : أنْ تَرَىٰ أنَّ عِندَكَ شَيئاً لَيسَ عندَ غَيرِك ، لا أعْلَمُ في الْمُصَلِّينَ شَيئاً شَراً من العُجْبِ[١] .

(ب) عَاقِبَةُ الكبْر :

عن محمَّدِ بنِ عَليِّ بنِ الحُسَينِ قالَ : ما دَخلَ قَلبَ امْرىءٍ من الكِبْرِ شَيءٌ إلاَّ نَقُصَ من عَقلِه مِقدارُ ذلك[٢] .

(ج) دَواءُ الكبْر :

قالَ الأحْنَفُ بنُ قَيْس : عَجبتُ لِمَنْ يَجري في مَجرَى البَوْلِ مرَّتَين كَيفَ يَتكَبَّر ! ![٣] .

وكانَ يَزيدُ بنُ الْمُهَلَّب ذا تِيهٍ وكِبْرٍ ، رآه مُطَرِّفُ بنُ الشِّخِّير يَسحَبُ حُلَّتَه ، فقالَ له : إنَّ هـٰذه مِشيَةٌ يَبغَضُها اللهُ ، قالَ : أوما تَعرِفُني ؟ قال : بَلَىٰ ، أوَّلك نُطفَةٌ مَذِرَة ، وآخِرُكَ جيفَةٌ قَذِرَة ، وأنتَ بينَ ذلكَ تَحمِلُ العَذِرَة[٤] .

وعن الأصْمَعيِّ عن أبيه ، قالَ : مَرَّ الْمُهَلَّبُ علىٰ مالِكِ بنِ دِينار مُتبَختِراً ، فقالَ : أما عَلمتَ أنَّها مِشيَةٌ يَكرَهُها اللهُ إلاَّ بينَ الصَّفَّينِ ؟ فقالَ الْمُهَلَّبُ : أمَا تَعرِفُني ؟ قالَ : بَلَىٰ ، أوَّلك نُطفَةٌ مَذِرَة ، وآخِرُكَ جيفَةٌ قَذِرَة ، وأنتَ بينَ ذلكَ تَحمِلُ العَذِرَة فانْكَسَرَ ، وقالَ : الآنَ عَرَفتَني حَقَّ الْمَعرِفَة[٥] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٩/٧٦٩ .
(٢) انظر السير : (أبو جَعْفَر الباقِر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/٥٢٣ .
(٣) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٧/٤٥١ .
(٤) انظر السير : (يَزيدُ بنُ الْمُهَلَّب) ٤/ ٥٠٣ـ ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/٥٤٥ .
(٥) انظر السير : (مالِك بن دينار) ٥/ ٣٦٢ـ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٦/٦٠٩ .

(د) الخَوْفُ من الكبْرِ والخُيَلاءِ :

عن خالدِ بنِ مَعْدانَ ، عن عَمرِو بنِ الأسْوَد العَنْسيِّ ، أنَّه كانَ إذا خَرجَ من الْمَسجِدِ قَبضَ بيَمينِه علىٰ شِمالِه ، فسُئلَ عن ذلك ، فقالَ : مَخافَةَ أنْ تُنافِقَ يَدَيَّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يُمسِكُها خَوفاً من أنْ يَخطِرَ بيَدِه في مِشْيَتِه ، فإنَّ ذلكَ من الخُيَلاء[1] .

وعن عبدِ الله بنِ أبي سُليْمانَ ، قالَ : كانَ عَليُّ بنُ الحُسَين إذا مَشَىٰ لا تُجاوِزُ يَدُه فَخِذَيه ولا يَخْطِرُ بها ، وإذا قَامَ إلى الصَّلاةِ ، أخَذَتهُ رِعْدَةٌ ، فقيلَ له ، فقالَ : تَدرُونَ بينَ يَدَي مَنْ أقُومُ ومَنْ أُناجي .

وعنه ، أنَّه كانَ إذا تَوضَّأ اصْفَرَّ[2] .

وقالَ يَحْيَى السَّيبانيُّ : قالَ لنا ابنُ مُحَيْريز : إنِّي أُحدِّثُكم ، فلا تَقولُوا : حدَّثنا ابنُ مُحَيْريز ، إنِّي أخْشَىٰ أنْ يَصْرَعَني ذلكَ القَولُ مَصْرَعاً يَسُوؤُني[3] .

وقالَ أيُّوبُ العَطَّار : سَمعتُ بِشْرَ بنَ الحارِث ـ رَحمَهُ اللهُ ـ يَقولُ حدَّثنا حَمَّادُ بنُ زَيْد ، ثم قالَ : أسْتَغفرُ اللهَ ، إنَّ لِذِكرِ الإسْنادِ في القَلبِ خُيَلاء .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لا أعْلمُ بينَ العُلَماءِ نِزاعاً في أنَّ حَمَّادَ بنَ زَيْد من أئمَّة السَّلفِ ، ومِنْ أتْقَنِ الحُفَّاظِ وأعْدَلِهم ، وأعْدَمِهم غَلطاً ، علىٰ سِعَةِ ما رَوَىٰ ، رَحمَهُ اللهُ[4] .

وعن ابنِ عُيَيْنَةَ قالَ : مَنْ كانت مَعصيتُه في الشَّهْوَة فارْجُ له ، ومَنْ كانت مَعصيتُه في الكِبْرِ ، فاخْشَ عليه ، فإنَّ آدَمَ عَصَىٰ مُشْتَهياً ، فغُفِرَ له ، وإبْليسُ عَصَىٰ مُتكَبِّراً فلُعِنَ[5] .

---

(١) انظر السير : (عَمْرُو بن الأسْوَد) ٤/ ٧٩ـ ٨١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٤٨ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بنُ الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥١٨ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٣٩ .
(٤) انظر السير : (حَمَّادُ بنُ زَيْد) ٧/ ٤٥٦ـ ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٧١٧ .
(٥) انظر السير : (سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٨٣ .

(هـ) دُخُولُ العُجْبِ والكبْرِ في أهْلِ العِلْم :

قالَ قُطبَةُ بنُ العَلاء : سَمعتُ الفُضَيلَ يَقولُ : آفَةُ القُرَّاءِ العُجْبُ وللفُضَيلِ رَحمَهُ اللهُ مَواعِظُ ، وقَدمٌ في التَّقْوَىٰ رَاسِخٌ .

وكانَ يَعيشُ من صِلَة ابنِ الْمُبارَك ونَحوِه من أهْلِ الخَيرِ ، ويَمتَنعُ من جَوائزِ الْمُلوكِ[1] .

(و) مِنْ دَقائق الكبْرِ التي يَذْكرُها الصَّالحون علىٰ سَبيلِ تَعْليم النُّفُوسِ التَّوَاضُعَ :

قالَ أبو يَزيد البَسْطامي : ما دَامَ العَبدُ يَظُنُّ أنَّ في النَّاسِ مَنْ هو شَرٌّ منه ، فهو مُتكَبِّرٌ[2] .

(ز) كبْرُ بَعْضِ العُلَماء :

جاءَ في تَرجَمَةِ أحمدِ بنِ صالِح : ذكرَه النَّسائيُّ يَوماً ، فرَمَاهُ ، وأسَاءَ الثَّناءَ عَليه[3] .

قالَ ابنُ يُونُس : لَمْ يَكنْ عندَنا ـ بحَمِد الله ـ كما قالَ النَّسائيُّ ولَمْ يكن له آفَةٌ غيرُ الكِبْر[4] .

وقالَ ابنُ عَدي : سَمعتُ عبدَ الله بنَ محمَّد بنِ سَلْم الْمَقدِسيَّ يَقولُ : قَدمتُ مِصْرَ فبَدأتُ بحَرمَلةَ ، فكَتبتُ عنه كتابَ عَمرِو بنِ الحارث ، ويُونُسَ بنِ يَزيد والفَوائدَ ، ثم ذَهبتُ إلىٰ أحمدَ بنِ صالِح فلَمْ يُحدِّثْني ، فحَملتُ كتابَ يَونُسَ ، فخَرَّقتُه بينَ يَدَيه ـ أُرْضيه بذلك ولَيتنَي لَمْ أخَرِّقْه ـ فلَمْ يَرْضَ ، ولَمْ يُحدِّثْني .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : نَعوذُ بالله من هَـٰذه الأخْلاقِ صَدَقَ أبو سَعيد بنُ يُونُس

---

(١) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٦/٧٧٩ .
(٢) انظر السير : (أبو يَزيد البَسْطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٥ .
(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ صالح) ١٢/ ١٦٠ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٧/٩٨٩ .
(٤) انظر السير : (أحمَدُ بنُ صالح) ١٢/ ١٦٠ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ١/٩٩٠ .

حيثُ يقولُ : لَمْ يَكُنْ له آفَةٌ غيرُ الكِبْر ، فلَوْ قُدحَ في عَدالَتِه بذلك ، فإنَّه إثْمٌ كَبيرٌ[1] .

ابنُ وَارَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : محمَّدُ بنُ مُسلِم بنِ عُثْمانَ ، الحافِظُ ، الإمَامُ الْمُجوِّدُ ، أبو عبدِ الله بنُ وَارَة الرَّازي ، أحَدُ الأعْلام .

ارتَحلَ إلى الآفَاق ، وكانَ يُضرَبُ به المثَلُ في الحِفظِ ، علىٰ حُمقٍ فيه وتِيهٍ وكانَ مَولدُه في حُدودِ عامِ تِسعينَ ومئة .

قالَ النَّسائيُّ : هو ثِقةٌ ، صاحِبُ حَديث .

وقالَ عبدُ الْمُؤمِن بنُ أحمَد : كانَ أبو زُرْعَة لا يَقومُ لأحَدٍ ، ولا يُجلِسُ أحَداً في مَكانِه ، إلاَّ ابَن وَارَة .

قالَ أبو جَعْفَرَ الطَّحاويُّ : ثَلاثَةٌ من عُلمَاءِ الزَّمانِ بالحَديثِ ، اتَّفَقوا بالرَّيِّ ، لَمْ يكن في الأرضِ مثلَهم في وَقتِهم ، فذَكرَ ابنَ وَارَة ، وأبا حاتم ، وأبا زُرعَة[2] .

وعن عبدِ الرحمَـٰن بنِ خِراش ، قالَ : كانَ ابنُ وَارَة من أهلِ هـٰذا الشَّأنِ الْمُتقِنينَ الأُمَناء ، كُنتُ لَيلَةً عندَه ، فذَكرَ أبا إسْحاقَ السَّبيعيَّ ، فذَكرَ شُيوخَه ، فذَكرَ في طَلْقٍ واحدٍ سَبعينَ ومئتَين من شُيوخِه ، ثم قالَ : كانَ غايَةً ، شَيئاً عَجَباً[3] .

قال عُثمانُ بنُ خُرَّزاذ : سَمعتُ الشَّاذَكُونيَّ يقولُ : جاءَني محمَّدُ بنُ مُسْلم فقَعدَ يَتَقعَّرُ[4] في كَلامِه ، فقلتُ له : مِنْ أيِّ بلدٍ أنتَ ؟ قال : مِنْ أهْلِ الرَّيِّ ، ألَمْ يأتِكَ خَبري ؟ ألَمْ تَسمَعْ بنبَئي ؟ أنا ذُو الرِّحْلَتين قُلتُ : مَنْ رَوَىٰ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكمَةً » فقالَ : حدَّثَني بعضُ أصْحابِنا قلتُ : مَنْ ؟ قال : أبو نُعَيم وقَبيْصَة قلتُ : يا غُلامُ! ائْتِني بالدِّرَّة ، فأتاني بها ، فأمَرتُه ، فضَربَه بها

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ صالح) ١٢/ ١٦٠ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٥/٩٩٠ .

(٢) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٤٧ .

(٣) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٧/١٠٤٧ .

(٤) التقعير : أن يتكلم بأقصىٰ قعر فمه .

خَمسينَ ، قلتُ : أنتَ تَخرُجُ من عِندي ، ما آمَنُ أن تقولَ : حَدَّثني بَعضُ غِلْمانِنا[1] .

قال زَكريّا السَّاجي : جاءَ ابنُ وَارَة إلىٰ كُرَيْب ، وكان في ابنِ وَارَة بأوٌ[2] فقال لأبي كُرَيْب : ألَمْ يَبْلُغْك خَبري ؟ ألَمْ يأتِكَ نَبَئي ، أنا ذو الرِّحْلَتين ، أنا محمَّدُ بنُ مُسْلم بنِ وَارَة فقال : وَارَة ؟!! وما أدْراكَ ما وَارَة ؟ قُمْ ، فواللهِ لا حَدَّثْتُك ، ولا حَدَّثْتُ قَوماً أنت فيهم[3] .

قالَ أبو العَبَّاسِ بنُ عُقدَة : دقَّ ابنُ وَارَة على ابنِ كُرَيْب ، فقالَ : مَنْ ؟ قالَ : ابنُ وَارَة ، أبو الحَديثِ وأُمُّه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : الصَّوابُ في وَفاتِه أنَّها في سَنةِ سَبعينَ ومئتَين[4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١٠٤٨/ ١ .
(٢) البأوُ : الكِبرُ والتِّيه .
(٣) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١٠٤٨/ ٢ .
(٤) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١٠٤٨/ ٣ .

١١ـ الكذِب

(أ) الدَّعَاوَى الكاذِبَة :

قالَ ابنُ نُقطَة : كانَ ابنُ دِحْيَةَ مَوْصُوفاً بالْمَعرِفَة والفَضْلِ ولَمْ أرَهُ ، إلاَّ أنَّه كانَ يَدَّعي أشْياءَ لا حَقيقَةَ لها ، ذَكرَ لي أبو القاسِم بنُ عبدِ السَّلام ، ثِقَةٌ ، فقالَ : نَزلَ عندَنا ابنُ دِحْيَة فكانَ يَقولُ : أحْفَظُ « صَحيحَ مُسْلِم » و« التِّرْمِذيَّ » قالَ : فأخَذتُ خَمسَةَ أحَاديث من « التِّرْمِذيِّ » وخَمسَةً من « الْمُسْنَد » وخَمْسَةً من الْمَوْضُوعاتِ فجَعلتُها في جُزءٍ ، ثم عَرضتُ عليه حَديثاً من التِّرْمِذيِّ ، فقالَ : لَيسَ بصَحيح ، وآخَرَ فقالَ : لا أعْرِفُه ، ولَمْ يَعرِفْ منها شَيئاً!![1] .

(ب) كفىٰ فَساداً وكذِباً الكلامُ بكلِّ ما يُسْمَع :

قالَ ابنُ وَهْب : سَمعتُ مَالِكاً يَقولُ : أعْلمْ أنَّه فَسادٌ عَظيمٌ أنْ يَتكلَّمَ الإنْسانُ بكُلِّ ما يَسمَعُ[2] .

(ج) « زَعَمُوا » كنيَةُ الكذِب :

عن شُرَيح قالَ : « زَعَمُوا » ، كُنْيَةُ الكَذِبْ[3] .

(د) كراهِيَةُ الكذِب :

قالَ ابنُ عُيَيْنَة : قالَ مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله : ما يَسُرُّني أنِّي كَذَبتُ كِذْبَةً وأنَّ لِيَ الدُّنيا وما فيها[4] .

(هـ) جَرَيانُ الكذِبِ على الألْسِنَة :

عن عاصِمٍ : عن أبي العَاليَة ، قالَ : أنتُم أكثَرُ صَلاةً وصِياماً مِمَّنْ كانَ قَبلَكُم ، ولكنَّ الكَذِبَ قد جَرَىٰ علىٰ ألْسِنَتِكم[5] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ دِحْيَة) ٢٢/ ٣٨٩ـ ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧٠٦ .
(٢) انظر السير : (مالِكُ الإمَام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٢٨ .
(٣) انظر السير : (شُرَيحُ القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٥٦ .
(٤) انظر السير : (مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٧٦ .
(٥) انظر السير : (أبو العَاليَة) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٧٩ .

١٢ـ النِّفَاق

(أ) مِنْ صِفَاتِ المُنَافِق :

قالَ الوَليدُ بنُ مَزْيَد : سَمعتُ الأوْزَاعِيَّ يَقولُ : إنَّ الْمُؤمِنَ يَقولُ قَليلاً ، ويَعمَلُ كَثيراً ، وإنَّ الْمُنافِقَ يَتكلَّمُ كَثيراً ، ويَعمَلُ قَليلاً[١] .

وعن شَقيقٍ قالَ : مَثلُ الْمُؤمِنِ مَثلُ مَنْ غَرسَ نَخلَةً يَخافُ أنْ تَحمِلَ شَوْكاً ، ومَثلُ الْمُنافِقِ مَثلُ مَنْ زَرَعَ شَوْكاً يَطمَعُ أنْ يَحمِلَ تَمْراً ، هَيْهات[٢] .

(ب) الخَوْفُ من النِّفَاق العَمَلي :

رَوَىٰ أبو حَيَّانَ عن إبْراهيمَ بنِ يَزيد قالَ : ما عَرَضتُ قَوْلي عَلىٰ عَمَلي إلاَّ خِفتُ أنْ أكُونَ مُكَذَّباً[٣] .

(ج) مِنْ صُوَر النِّفَاق العَمَلي :

عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه ، قالَ : إذا سَمعتَ مَنْ يَمدَحُك بما لَيسَ فيكَ ، فلا تَأمَنْهُ أنْ يَذُمَّكَ بمَا لَيسَ فيكَ[٤] .

ومِنْ كَلامِ الخَرَّازِ : كُلُّ باطِنٍ يُخَالِفُهُ ظَاهِرٌ فهُوَ بَاطِلٌ[٥] .

* * *

---

(١) انظر السير : (الأوْزاعِيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٨٤ .

(٢) انظر السير : (شَقيق) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨٢٣ .

(٣) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ يَزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٨٠ .

(٤) انظر السير : (وَهْبُ بنُ مُنبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٥٤ .

(٥) انظر السير : (الخَرَّاز) ١٣/ ٤١٩ـ ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٩٧ .

الحُبُّ والعِشْق

١ـ قصَصُ الحُبِّ :

عن ابنِ عبَّاس : أنَّ زَوْجَ بَريرة كان عَبداً أسْوَدَ ، يُسمَّىٰ : مُغيثاً ، فقَضى النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيها أرْبَع قَضيات : أنَّ مَواليها اشْتَرطُوا الوَلاءَ ، فقَضىٰ أنَّ الوَلاءَ لمَنْ أعْتَقَ ، وخُيِّرَتْ فاخْتارَت نَفسَها ، فأمَرَ النبيُّ أنْ تَعْتدَّ فكُنتُ أراهُ يَتَّبعُها في سِكَكِ المَدينَة ، يَعْصِرُ عَينَيه عليها .

قالَ : وتُصُدِّقَ عليها بصَدقَة ، فأهْدَت منها إلىٰ عائشَةَ ، فذُكرَ ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ » .

وعن ابنِ سِيرينَ : أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم خَيَّرَ بَريرَةَ فكلَّمَها فيه فقَالَت : يا رَسُولَ الله ، أشَيءٌ واجِبٌ ؟ قالَ : « لا ، إنَّمَا أَشْفَعُ لَهُ »[1] .

عن عِكْرِمَةَ ، قالَ : ذُكرَ زَوجُ بَريرَةَ عندَ ابنِ عبَّاس ، فقالَ : ذاكَ مُغيثٌ ، عَبدُ بَني فُلان ، قد رَأيتُه يَبكي خَلفَها يَتْبَعُها في الطَّريقِ .

فأمَّا الجاريَةُ التي في حَديثِ الإفْكِ ، التي سُئلَت عمَّا تَعلَمُ عن عائشة ، فأُخْرَىٰ غَيرُ بَريرَة[2] .

وقد هَوِيَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ أبي بَكر الصِّدِّيق ابنَةَ الجُوديِّ ، وتَغَزَّلَ فيها بقَولِه :

---

(١) ابن سعد (٨/ ٢٥٩) ، ورجاله ثقات ، لكنه مرسل ، وأخرج البخاري في « صحيحه » (٩/ ٣٥٩) في الطلاق : « باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بَريرَة » عن طريق محمد بن سلام ، عن عبد الوهاب الثقفي ، عن خالد الحذّاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن زوج بَريرَة كان عبداً يُقال له « مغيث » كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ، ودموعه تسيل علىٰ لحيته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس : « يَا عَبَّاسُ أَلا تَعْجَبُ منْ حُبِّ مُغِيثٍ بَريرَةَ ، وَمِنْ بُغْضِ بَريرَةَ مُغِيثاً » ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لَوْ رَاجَعَتْهُ » قالت : يا رَسولَ الله تأمُرُني ؟ قالَ صلى الله عليه وسلم : « « إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ » قالت : فلا حاجَة لي فيه .

(٢) انظر السير : (بَريرَة مَوْلاةُ أمِّ المؤمنين عائشَة) ٢/ ٢٩٧ـ ٣٠٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٦٣ .

تَـذَكَّـرْتُ لَيْلَـىٰ وَالسَّمـاوَةُ دُونَهـا فمَـا لابْنَـةِ الجُـودِيِّ لَيْلَـىٰ وَمَـا لِيَـا
وأَنَّـىٰ تُعَـاطِـي قَلْبَـه حـارِثِيَّـةٌ تَدَمَّنُ بصرىٰ[1] أَوْ تَحُلُّ الجَوَابِيَا
وأَنَّـىٰ تُـلاَقِيهَـا بَلَـىٰ وَلَعَلَّهَـا إِنِ النَّـاسُ حَجُّـوا قـابـلاً أَنْ تُـوَافِيَـا

فقالَ عُمَرُ لأميرِ عَسْكرِه : إنْ ظَفرتَ بهـٰذه عنوَة ، فادْفَعها إلى ابنِ أبي بَكر ، فظَفرَ بها ، فدَفعَها إليه فأُعْجِبَ بها ، وآثَرها علىٰ نِسائه ، حتَّىٰ شَكوْنَه إلىٰ عائشَة ، فقالَت له : لَقد أفْرَطتَ فقالَ : والله إنِّي لأرشُفُ من ثنَاياها حَبَّ الرُّمَّان فأصابَها وَجَعٌ فسَقَطَت أسْنانَها ، فجَفَاها ، حتَّىٰ شَكَتهُ إلىٰ عائشَة فكلَّمَته قالَ : فجَهَّزَها إلىٰ أهْلِها وكانَت من بَناتِ الْمُلوكِ[2] .

ذَكرَ الزُّبَيرُ بنُ بكَّار أنَّ عُبَيدَ الله بنَ أبي مُلَيْكَة عن أبيه عن جَدِّه قالَ : دَخلَ ابنُ أبي عَمَّار وهو يَومئذ فَقيهُ أهلِ الحِجازِ علىٰ نَخَّاس فعَرضَ عليه جاريَةً فعَلقَ بها وأخَذَه أمْرٌ عَظيمٌ ولَمْ يَكنْ مَعه مِقْدارُ ثَمنِها فمَشَىٰ إليه عَطاءٌ وطَاوُوسٌ ومُجاهِدٌ يَعْذُلونَه وبَلغَ خَبرُه عبدَ الله فاشْتَراها بأرْبَعينَ ألْفاً وزَيَّنَها وحَلاَّها ثم طَلبَ ابنَ أبي عَمَّار فقَالَ : ما فَعلَ حُبُّكَ فُلانَة ؟ قالَ : هي التي هامَ قَلبي بذِكْرِها والنَّفْسُ مَشْغُولَةٌ بها فقالَ : يا جارِيَة أخْرِجيها فأخْرَجَتْها تَرفُلُ في الحُلِيِّ والحُلَلِ ، فقالَ شَأنُك بها بارَكَ اللهُ لكَ فيها فقالَ : تَفَضَّلتَ بشَيءٍ ما يَتفضَّلُ به إلاَّ الله فلمَّا وَلَّىٰ بها قالَ يا غُلامُ احْملْ مَعه مئةَ ألفِ دِرهَم فقالَ : لَئنْ والله وُعِدْنا نَعيمَ الآخِرَة فقد عَجَّلتَ نَعيمَ الدُّنيا[3] .

الْمَجْنون :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : قَيسُ بنُ الْمُلَوَّح ، من بَني عامِرِ بنِ صَعْصَعَة ، الذي قَتَله الحُبُّ في لَيْلَىٰ بنتِ مَهْدي العَامِريَّة[4] .

---

(١) قوله (تَدمَّنُ بُصْرَىٰ) أي : تَغشاها وتلزمها .
(٢) انظر السير : (عبدُ الرحمَـٰن بن أبي بَكر الصِّدِّيق) ٢/ ٤٧١ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٩٢ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بن جَعْفَر) ٣/ ٤٥٦ـ ٤٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٤٠٩ .
(٤) انظر السير : (الْمَجْنون) ٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ١/٤٢٩ .

قد أنْكَرَ بَعضُهُم لَيْلَىٰ والمَجْنونَ ، وهـٰذا دَفعٌ بالصَّدر ، فما مَنْ لمْ يَعْلَمْ حُجَّة علىٰ مَنْ عِندَه عِلمٌ ، ولا المُثْبِتِ كالنَّافي ، لكنْ إذا كان المُثْبِتُ لشَيءٍ شِبْهَ خُرافَة ، والنَّافي لَيسَ غَرضُه دَفعَ الحَقِّ ، فهُنا النَّافي مُقدَّمٌ ، وهُنا تَقَعُ المُكابَرَة وتُسْكَبُ العَبْرةُ ، فقيلَ : إنَّ المَجْنونَ عَلِقَ لَيْلَىٰ عَلاقَةَ الصِّبا وكانا يَرْعَيان البَهْمَ[1] . ،[2] .

ألا تَسْمَعْ قَولَه وما أفْحَلَ شِعْرَه :

تَعَلَّقْتُ لَيْلَىٰ وَهْيَ ذَاتُ ذُؤَابَةٍ ... وَلَمْ يَبْدُ لْلأتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ
صَغِيرَيْنِ نَرْعَى البَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إلَى اليَومِ لَمْ نَكْبُرْ وَلَمْ تَكْبُرِ البَهْمُ

فاشتَدَّ شَغَفُه بها حتَّىٰ وُسْوسَ وتَخبَّلَ في عَقلِه[3] .

قالَ أبو عُبَيدَة : تَزايَدَ به الأمْرُ حتَّىٰ فَقَدَ عَقلَه ، فكانَ لا يُؤْويه رَحْلٌ ولا يَعلُوهُ ثَوبٌ إلاَّ مَزَّقَه ، ويُقالُ : إنَّ قَومَ لَيْلَىٰ شَكَوا الْمَجْنُونَ إلى السُّلطَانِ ، فأهْدَرَ دَمَه ، وتَرحَّلَ قَومُها بهَا .

فجاءَ وبَقِيَ يَتمَرَّغُ في الْمَحِلَّة ، ويَقولُ[4] :

أَيَا حَرَجات[5] الحيِّ حيث تحمَّلوا ... بـذي سلـم[6] لا جـادكُـنَّ ربيـعُ
وخيماتُكَ اللاتي بمُنْعَرجِ اللِّوى ... بَلِيـنَ بِلَـىً لـم تَبْلَهُـنَّ رُبُـوعُ

وقيلَ : إنَّ قَومَه حَجُّوا به لِيَزورَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، ويَدعُو حتَّىٰ إذا كانَ بمِنَىٰ سَمعَ نداءً : يا لَيْلَىٰ ، فغُشيَ عليه وجَزعَتْ هي لِفِراقِه وضَنِيتْ ، وشِعرُه كَثيرٌ من أرَقِّ شَيءٍ وأعْذَبِه ، وكانَ في دَولَةِ يَزيدَ وابنِ الزُّبَيْر[7] .

---

(١) البُهْم : جمع بَهْمة ، وهو الصغير من الضأن ، الذكر والأنثىٰ في ذلك سواء .
(٢) انظر السير : (الْمَجْنون) ٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٢٩ .
(٣) انظر السير : (الْمَجْنون) ٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٢٩ .
(٤) انظر السير : (الْمَجْنون) ٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٢٩ .
(٥) حرجات : جمع حرجة ، وهي الغيضة الملتفة الشجر ، أو الشجرة بين الأشجار لا تصل إليها الأيدي .
(٦) ذو سلم : موضع بالحجاز .
(٧) انظر السير : (الْمَجْنون) ٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٣٠ .

جَميلُ بنُ عَبدِ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : ابنُ مَعْمَر أبو عَمْرٍو العُذْريُّ الشَّاعِرُ البَليغُ ، صاحِبُ بُثَيْنَة .

وما أحْلَى اسْتِهْلالَه حيثُ يَقولُ :

ألا أيهـا النُّـوَّام ويحكُـمْ هبُّـوا أسائلكمُ هل يقتُلُ الرَّجُلَ الحبُّ

ويُحكَىٰ عنه تَصَوُّنٌ ودينٌ وعِفَّةٌ .

يُقالُ : ماتَ سَنَةَ اثنَتَينِ وثَمانينَ وقيلَ : بَلْ عاشَ حتَّىٰ وَفَدَ علىٰ عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ .

ونَظْمُه في الذُّروَة ، يُذكَرُ مع كُثَيِّرِ عَزَّة والفَرَزْدَق[1] .

٢ـ شِعْرٌ في الحُبِّ والغَزَل :

وقد هَوِيَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ أبي بَكر الصِّدِّيق ابنَةَ الجُوديِّ ، وتَغَزَّلَ فيها بقَولِه :

تـذكـرتُ ليلـىٰ والسمـاوةُ دونَهـا فمـا لابنِـة الجـوديِّ ليلـىٰ ومـا ليـا

وأنـى تُعـاطـي قلبَـهُ حـارثيـةٌ تدمَّن بصرىٰ[2] أو تحلُّ الجَوابيا

وأنَّـىٰ تُـلاقيهـا بلـىٰ ولعلهـا إنِ النـاسُ حجُّـوا قـابـلاً أنْ تُـوافيـا

فقالَ عُمَرُ لأميرِ عَسْكرِه : إنْ ظَفرتَ بهـٰذه عنوَة ، فادْفَعها إلى ابنِ أبي بَكر ، فظَفرَ بها ، فدَفعَها إليه فأُعْجِبَ بها ، وآثَرها علىٰ نِسائه ، حتَّىٰ شَكوْنَه إلىٰ عائشَة ، فقالَت له : لَقد أفْرَطتَ فقالَ : والله إنِّي لأرشُفُ من ثنَاياها حَبَّ الرُّمَّان فأصابَها وَجَعٌ فسَقَطَت أسْنانَها ، فجَفَاها ، حتَّىٰ شَكَتهُ إلىٰ عائشَة فكلَّمَته قالَ : فجَهَّزَها إلىٰ أهْلِها وكانَت من بَناتِ الْمُلوكِ[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ قَيْسِ بنِ الْمُلَوَّح : ألا تَسْمَعْ قَولَه وما أفْحَلَ شِعْرَه :

---

(١) انظر السير : (جَميلُ بنُ عبد الله) ٤/ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٧٢ .

(٢) قوله : (تدمَّنُ بُصْرَىٰ) أي : تَغشاها وتلزمها .

(٣) انظر السير : (عبدُ الرحمَـٰن بن أبي بَكر الصِّدِّيق) ٢/ ٤٧١ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٩٢ .

تعلَّقــتُ ليلــىٰ وهــي ذاتُ ذؤابــةٍ ولم يبدُ للأترابِ من ثديها حجمُ
صغيرَيْنِ نرعى البَهْم يا ليتَ أننا إلى اليوم لم نكبُرْ ولم تكبُرِ البَهْمُ

فاشتَدَّ شَغَفُه بها حتَّىٰ وُسْوسَ وتَخبَّلَ في عَقلِه[1] .

قالَ أبو عُبَيدَة : تَزايَدَ به الأمْرُ حتَّىٰ فَقَدَ عَقلَه ، فكانَ لا يُؤْويه رَحْلٌ ولا يَعلُوهُ ثَوبٌ إلاَّ مَزَّقَه ، ويُقالُ : إنَّ قَومَ لَيْلَىٰ شَكَوا الْمَجْنُونَ إلى السُّلطَانِ ، فأهْدَرَ دَمَه ، وتَرحَّلَ قَومُها بهَا .

فجاءَ وبَقِيَ يَتمَرَّغُ في الْمَحِلَّة ، ويَقولُ[2] :

أيا حرجات[3] الحيِّ حيث تحمَّلوا بــذي سلــم[4] لا جــادكُــنَّ ربيــعُ
وخيماتك اللاتي بمنْعَرَج اللِّوى بَلِيــنَ بِلــىً لــم تَبْلَهُــنَّ رُبــوعُ

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : ابنُ مَعْمَر أبو عَمْرٍو العُذْريُّ الشَّاعِرُ البَليغُ ، صاحِبُ بُثَيْنَة .

وما أحْلَى اسْتِهْلالَه حيثُ يَقولُ :

ألا أيُّهــا النُّــوَامُ وَيحكــمْ هُبُّــوا أُسائِلكُمْ : هَلْ يقتلُ الرجلَ الحبُّ

ويُحكَىٰ عنه تَصَوُّنٌ ودينٌ وعِفَّةٌ .

يُقالُ : ماتَ سَنةَ اثنَتَينِ وثَمانينَ وقيلَ : بَلْ عاشَ حتَّىٰ وَفَدَ علىٰ عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ . ونَظمُه في الذُّروَة ، يُذكَرُ مع كُثَيِّرِ عَزَّة والفَرَزْدَق[5] .

وقالَ الْمُرْسي :

أَبُثُّكَ ما في القلبِ من لَوْعةِ الحبِّ وما قدْ جَنَتْ تِلكَ اللِّحاظ علىٰ لُبِّي

---

(١) انظر السير : (الْمَجْنون) ٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٢٩ .
(٢) حرجات : جمع حرجة ، وهي الغيضة الملتفة الشجر ، أو الشجرة بين الأشجار لا تصل إليها الأيدي .
(٣) ذو سلم : موضع بالحجاز .
(٤) انظر السير : (الْمَجْنون) ٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٢٩ .
(٥) انظر السير : (جَميلُ بنُ عبد الله) ٤/ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٧٢ .

أعـارتْنـيَ السُّقْـمَ التـي بجُفـونِهـا ولكنْ غدا سُقْمي على سُقْمِها يُربي

قـالَ الإمـامُ الـذهَبـيُّ مُعقِّبـاً : ولَـه أبْيـاتٌ رَقيقَـةٌ هَكَـذا ، وكـانَ بَحْـرَ مَعـارِف ، رَحمَهُ الله[1] .

٣ـ شِعْرٌ في فَقْد الأَحِبَّة :

قالَ أبو الفَضْل بنُ الْمَأمُون : أنْشَدَنا أبو عَليٍّ بنُ مُقْلَة لنَفسِه[2] :

إذا أتـــى المـــوتُ لميقـــاتِـــهِ فَخَـــلِّ عَـــنْ قـــولِ الأطبـــاءِ
وإنْ مضـــىٰ مَـــنْ أنـــتَ صـــبٌّ بـــهِ فـــالصبـــرُ مِـــنْ فِعْـــل الألِبَّـــاءِ
مـــا مَـــرَّ شـــيءٌ ببنـــي آدمٍ أمـــرُّ مِـــنْ فَقْـــدِ الأحبـــاءِ

٤ـ صُوَرٌ من العِشْقِ المُحَرَّم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الطَّائع لله العَبَّاسيِّ : وجَرَت وَقْعَةٌ بينَ عِزِّ الدَّولَة ، وعَضُدِ الدَّولَة ، أُسِرَ فيها مَمْلوكٌ أمْرَدُ لِعِزِّ الدَّولَةِ فجُنَّ عليه ، وأخَذَ في البُكاءِ ، وتَركَ الأكْلَ وتَذلَّلَ في طَلبِه ، فصَارَ ضُحْكَةً وبَذَلَ جَاريَتَينِ عَوَّادَتَينِ في فِدَائِه[3] .

* * *

(١) انظر السير : (الْمُرْسي) ٢٣/ ٣١٢ـ٣١٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٨ .
(٢) انظر السير : (ابنُ مُقْلة) ١٥/ ٢٢٤ـ ٢٣٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢٣
(٣) انظر السير : (الطَّائع لله) ١٥/ ١١٨ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩١ .

أخْبارُ النِّساء

١ـ مِثالٌ علىٰ مُكثِ النِّساء في بُيوتِهنَّ وعَدمِ الخُروج إلاَّ لحَاجَة :

قالَ مَهْدي بنُ مَيْمُون : مَكثَت حَفْصَةُ بنتُ سِيرينَ ثَلاثينَ سَنةً لا تَخرُجُ من مُصَلاَّها إلاَّ لِقائلَةٍ أو قَضاءِ حاجَة[١] .

٢ـ الحاكمُ بأمْر الله فرضَ على النِّساء الإقَامة الجَبريَّة في البُيوت :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحاكِمِ العُبَيْديِّ ، صاحِبِ مِصْرَ : ومَنعَ النِّساءَ من الخُروجِ من البُيوتِ ، فأحْسَنَ ، وأبْطَلَ عَملَ الخِفافِ لهُنَّ جُملَة ، وما زِلْنَ مَمْنوعاتٍ من الخُروجِ سَبعَ سِنينَ وسَبعَةَ أشْهُر[٢] .

٣ـ الحُرَّةُ لا تَزْني :

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ العَزيزِ بالله العُبَيْديِّ ، صاحِبِ مِصْر : وفي سَنة سِتٍّ وسِتِّينَ وثَلاثِ مئة حَجَّت جَميلةُ بنتُ ناصِرِ الدَّولَة ، صاحِبِ المَوْصِل فممَّا كانَ مَعَها أرْبَعُ مئَة مَحْمَل فكانت لا يُدْرَىٰ في أي مَحْمَل هي وأعْتَقَت خَمسَ مئَة نَفْس ونثَرَت على الكَعْبَة عَشرَةَ آلاف مِثْقال وسَقَت جَميعَ الوَفْدِ سَويقَ السُّكَّر والثَّلْج ، كذا قالَ الثَّعالبيُّ ، وخَلعَت وكَسَت خَمسينَ ألفاً ولقد خَطبَها السُّلْطانُ عَضُد الدَّولَة فأبَتْ فحَنقَ لذلك ، ثم تمَكَّنَ منها فأفْقَرَها وعَذَّبَها ، ثم ألْزَمَها أنْ تَعقدَ في الحانَة لتحصلَ من الفاحشَة ما تُؤدِّي ، فمَرَّتْ معَ الأعْوانِ ، فقَذَفَتْ نَفْسَها في دِجْلَةَ ، فغرقَت ، عَفَا اللهُ عَنها .

وفي سنة سِتٍّ وثَمانينَ في رَمضَانَ ماتَ العَزيزُ ببُلْبيسَ في حمَّام من القُولَنج ، وعُمرُه اثنَتان وأرْبَعون سَنةً وأشْهُر وقامَ ابنُه الحاكِمُ الزِّنْديقُ[٣] .

---

(١) انظر السير : (حَفْصَة بنتُ سِيرين) ٤/ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٤٦ .

(٢) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٢٠٨ .

(٣) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٠٧ .

٤ـ مِنْ أخْبار الجَواري :

(أ) جَوارٍ يَحْفَظْنَ القُرآنَ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ زُبَيْدَة بنتِ جَعْفَر الْمَنْصور ، زَوجَة هَارونَ الرَّشيد : كانَ في قَصْرِها من الجَواري نَحوٌ من مئة جاريَة كُلُّهنَّ يَحْفَظنَ القُرآنَ[١] .

(ب) أخْبارُهُنَّ مع مَواليهِنَّ العُلَماء :

قالَ أبو العَبَّاسِ الأزْهَريُّ : سَمعتُ خادِمَةَ محمَّد بنِ يَحْيَى الذُّهْليِّ ، وهو على السَّريرِ يُغَسَّل ، تَقولُ : خَدَمتُه ثَلاثينَ سَنةً ، وكُنتُ أضَعُ له الْمَاءَ ، فمَا رَأيتُ سَاقَه قَطُّ ، وأنا مِلكٌ له[٢] .

وقالَ خَيثَمةُ بنُ سُليمانَ : مَازَحَ العَبَّاسُ بنُ الوَليد يَوماً جَاريَةً له فدَفعَتهُ فوَقَعَ ، فانْكسَرَت رِجلُه ، فلَمْ يُحدِّثْنا عِشرينَ يَوماً فكُنَّا نَلْقَى الجاريَةَ ، ونَقولُ : حَسْبُكِ اللهُ كمَا كَسَرتِ رِجْلَ الشَّيخِ ، وحَبَستِنَا عن الحَديثِ[٣] .

٥ـ مَواقِفُ عَظيمَةٌ لنِساءٍ عَظيماتٍ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي بَكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، في وَقْعَة مَرْجِ الصفر : وقالَ سَعيدُ بنُ عَبدِ العَزيزِ : الْتَقَوا على النَّهْرِ عندَ الطَّاحُونَة ، فقُتلَت الرُّومُ يومَئذٍ حتَّىٰ جَرَى النَّهْرُ وطَحنَت طاحُونَتها بدِمائهم ، فأنْزلَ النَّصْرُ .

وقَتلَت يَومئذٍ أمُّ حَكيم سَبعَةً من الرُّومِ بِعَمودِ فُسْطاطِها[٤] .

ورُويَ أنَّ نائلَةَ بنتَ الفَرافِصَة ، زَوْجَةَ عُثْمانَ بنِ عَفَّان رضي الله عنه كانَت مَليحَةَ الثَّغْرِ ، فكَسَرَت ثَنايَاها بحَجَرٍ ، وقالَت : والله لا يَجْتَلِيكُنَّ أحَدٌ بعدَ عُثْمانَ ، فلمَّا

---

(١) انظر السير : (زُبَيْدَة) ١٠/ ٢٤١ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٧٣ .
(٢) انظر السير : (الذُّهْليُّ وابنُه) ١٢/ ٢٧٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٠٠ .
(٣) انظر السير : (البَيْروتيُّ) ١٢/ ٤٧١ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٢٢ .
(٤) انظر السير : (أبو بَكر الصِّدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/ ٤٣ .

قَدِمَت عَلىٰ مُعاويَةَ الشَّامَ خَطَبَها ، فأبَتْ[1] .

وعن ثابتٍ ، عن أنَسٍ ، قالَ : خَطَبَ أبو طَلْحَة أمَّ سُلَيم ، فقالَت : أمَا إنِّي فيكَ لرَاغِبَة ، وما مِثلُكَ يُرَدُّ ، ولَكنَّكَ كَافِرٌ ، فإنْ تُسْلِمْ فذَلكَ مَهْري ، لا أسْألُكَ غيرَه فأسْلَمَ ، وتَزوَّجَها .

قالَ ثابِتٌ : فما سَمِعنا بمَهْرٍ كانَ قَطُّ أكْرَمَ من مَهْرِ أُمِّ سُلَيم : الإسْلامُ[2] .

قالتَ عائشَةُ : أوَّلُ ما بُدِىء به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من الوَحْي الرُّؤيا الصَّالِحَة إلىٰ أنْ قالَت : فقالَ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[3] قالَت : فرَجَعَ بها تَرجُفُ بَوادِرُه[4] حتَّىٰ دَخلَ علىٰ خَديجَة ، فقالَ : « زَمِّلُونِي » فزَمَّلوه حتَّىٰ ذَهبَ عنه الرَّوْعُ ، فقالَ : « مَا لِي يَا خَديجَة ؟ » وأخْبَرَها الخَبرَ وقالَ : « قَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي » فقالَت لَه : كَلاَّ ، أبْشِرْ ، فوالله لا يُخْزيكَ اللهُ أبداً ، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَصْدُقُ الحَديثَ ، وتَحْمِلُ الكَلَّ ، وتُعينُ عَلىٰ نَوائبِ الحَقِّ وانْطَلَقَتْ به إلى ابنِ عَمِّها وَرَقَةَ بنِ نَوْفَلِ بنِ أَسَد ، وكانَ امْرأً تَنصَّرَ في الجَاهليَّة ، وكانَ يَكتُبُ الخَطَّ العَربيَّ ، وكتَبَ بالعَربيَّة من الإنْجيل ما شاءَ اللهُ أنْ يَكتُبَ ، وكانَ شَيخاً قد عَمِيَ فقالَت : اسْمَعْ من ابنِ أخيكَ ما يَقولُ : فقالَ : يا ابنَ أخي ، ما تَرَى ؟ فأخْبَرَه فقالَ : هَـٰذا النَّامُوسُ الذي أُنْزِلَ علىٰ مُوسَى الحديث[5] ،[6] .

شَهِدَتْ أُمُّ عُمَارَة ليْلَةَ العَقَبَةِ ، وشَهِدَتْ أُحُداً ، والحُدَيْبِيَة ، ويومَ حُنَيْنٍ ، ويومَ اليَمَامَة وجاهَدتْ ، وفَعَلَتْ الأفَاعِيلَ ، وقُطعَت يدُها في الجِهَادِ .

---

(١) انظر السير : (عُثْمانُ بنُ عَفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٨٠ .
(٢) انظر السير : (أبو طَلْحَة الأنْصَاريّ) ٢/٢٧ـ ٣٤ ، وانظر النزهة : ٥/٢١٣ .
(٣) سورة العلق ، الآية : ١ .
(٤) جمع بادرة ، وهي لحمة بين المنكب والعنق .
(٥) وتمامُه : ليتَني فيها جذعاً ، ليتَني أكونُ حيّاً إذ يُخرُجك قَومُك ، قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أَوَمُخْرِجِيَّ هُم!! ؟ » قال ورقَةُ : نعم ، لم يأتِ رجلٌ بما جئت به إلاَّ أوذيَ ، وإن يُدركني يومُك أنْصُرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشَب ورقَةُ أن تُوفِّيَ ، وفَتر الوَحيُ .
(٦) انظر السير : (خَديجَة أمُّ المؤمنين) ٢/١٠٩ـ ١١٧ ، وانظر النزهة : ٤/٢٢٧ .

وكان ضَمْرَةُ بنُ سَعِيدٍ المَازِنِيّ يُحَدِّثُ عن جَدَّتِه ، وكانت قد شَهِدَتْ أُحُداً ، قالت : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « لَمُقَامُ نَسِيبَةَ بنت كعْبٍ اليومَ خَيرٌ مِنْ مُقَامِ فُلان وفُلان » .

وكانت تَرَاهَا تُقَاتِلُ أَشَدَّ ما يكونُ القِتَالُ ، وإنَّها لحَاجِزَةٌ ثَوْبَها علىٰ وَسَطِهَا حتىٰ جُرِحَتْ ثَلاثةَ عَشَرَ جُرْحاً ، وكانت تقولُ : إنِّي لأَنْظُرُ إلى ابنِ قَمِئَة وهو يَضْرِبُها علىٰ عَاتِقِها ، وكان أَعْظَمَ جِرَاحِهَا ، فدَاوَتْهُ سَنةً ثم نادَىٰ مُنَادِي رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ حَمْراءِ الأَسَد فشَدَّتْ عليها ثِيَابَها ، فما اسْتَطَاعَتْ من نَزْفِ الدَّمِ رَضِيَ الله عنها وأَرْضاها ورَحِمَها .

وعن عُمَارَةَ بنِ غزيّة قال : قالَتْ أُمُّ عُمَارَة : رَأَيتُنِي ، وانْكَشَفَ النَّاسُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فما بَقِيَ إلاَّ نُفَيْرٌ ما يُتِمُّونَ عَشرة ، وأنا وابْنَايَ وزَوْجِي بينَ يَدَيْهِ نَذُبُّ عنه ، والنَّاسُ يَمُرُّونَ به مُنْهَزِمِينَ ، ورَآنِي ولا تُرْسَ مَعِي ، فرَأىٰ رَجُلاً مُوَلِّياً ومعه تُرْسٌ ، فقال : « أَلْقِ تُرْسَكَ إلىٰ مَنْ يُقَاتِلُ » فأَلْقَاهُ فأَخَذْتُه فجَعَلتُ أَتَرَّسُ به عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وإنَّما فَعَلَ بنا الأَفَاعِيلَ أَصْحابُ الخَيْلِ ، لَوْ كانُوا رَجَّالةً مِثلَنا أَصَبْناهم إنْ شَاءَ اللهُ ، فيُقْبِلُ رَجلٌ علىٰ فَرَسِه يَضْرِبُنِي ، وتَرَّسْتُ له ، فلَمْ يَصْنَعْ شَيئاً ، فأَضْرِبُ عُرقوبَ فَرَسِه ، فوَقَعَ علىٰ ظهْرِه فجَعَلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَصِيحُ : « يا ابْنَ أُمِّ عُمَارَةَ ، أَمَّكَ! أُمَّكَ! » ، قالت : فعَاوَنَنِي عليه ، حتىٰ أَوْرَدْتُه شعوب[1] .

وعن مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ بنِ حَبَّان قال : جُرِحَتْ أُمُّ عُمَارَة بأُحُدٍ اثْنَي عَشرَ جُرْحاً ، وقُطِعَتْ يَدُها يومَ اليَمَامَةِ ، وجُرِحَتْ يومَ اليَمَامَةِ سِوَىٰ يدِها أَحَدَ عَشَرَ جُرْحاً ، فقَدِمَتِ المدينةَ وبها الجِرَاحَةُ ، فلقد رُئِيَ أبو بكرٍ رضي الله عنه وهوَ خَلِيفةٌ ، يأتِيهَا يَسْأَلُ عنها[2] .

---

(١) شعوب : من أسماء المنيّة .

(٢) انظر السير : (أم عُمارة) ٢/ ٢٧٨ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٥٨ .

وعن أسماءَ بنتِ الصِّدِّيقِ ، قالَت : لَمَّا تَوجَّه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من مَكةَ حَمَلَ أبُو بَكر مَعَه جَميعَ مالِه ـ خَمسَةَ آلافٍ ، أو سِتَّة آلافٍ ـ فأتاني جَدِّي أبو قُحَافَة وقد عَمِيَ ، فقالَ : إنَّ هـٰذا قد فَجَعَكم بمَالِه ونَفسِه فقُلتُ : كلاَّ ، قد تَركَ لنا خَيراً كَثيراً .

فعَمدْتُ إلىٰ أحْجَارٍ ، فجَعَلْتُهنَّ في كوَّةِ البَيتِ ، وغَطَّيتُ عليها بثَوبٍ ، ثم أخَذتُ بيَدِه ، ووَضَعتُها على الثَّوْبِ ، فقُلتُ : هـٰذا تَركَه لنا فقالَ : أمَّا إذ تَركَ لكم هـٰذا ، فنَعَم[1] .

جَاءَ في تَرجَمَةِ أُمِّ سُلَيم (الغُمَيْصَاء) : قال الذَّهَبيُّ : شَهِدَتْ حُنَيْناً ، وأُحُداً من أَفَاضِلِ النِّساء .

وعن أَنَسٍ : أنَّ أُمَّ سُلَيم اتَّخَذتْ خِنْجَراً يومَ حُنَين ، فقال أبو طَلْحَة : يا رسُولَ الله هـٰذه أُمُّ سُلَيم معها خِنْجَرٌ! فقالت : يا رسُولَ الله ، إنْ دَنَا مِنِّي مُشْرِكٌ بَقَرْتُ بَطْنَهُ .

وعن إسْحاقَ بنِ عبدِ الله ، عن جَدَّتِهِ أُمِّ سُلَيم : أنَّها آمَنَتْ برسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فجاء أبو يُونُس ، وكان غائِبَاً ، فقال : أَصَبَوْتِ ؟ فقالَت : ما صَبَوْتُ ، ولكنِّي آمَنْتُ! وجَعَلَتْ تُلَقِّنُ أَنَسَاً : قُلْ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، قُلْ : أشْهَدُ أنَّ مُحمَّداً رسُولُ الله ، ففَعَلَ فيقُولُ لهَا أبُوهُ : لا تُفْسِدِي عليَّ ابنِي ، فتقُولُ : إنِّي لا أُفْسِدُه!

فخَرَجَ مَالِكٌ ، فلَقِيَهُ عَدُوٌّ له فقَتَلَهُ فقالت : لا جَرَمَ ، لا أَفْطِمُ أَنَسَاً حتىٰ يَدَعَ الثَّدْيَ ، ولا أتَزَوَّجُ حتىٰ يأمُرَنِي أَنَسٌ فخَطَبَها أبو طَلْحَةَ ، وهو يَومَئِذٍ مُشْرِكٌ ، فأَبَتْ[2] .

وعن أَنَسٍ ، قالَ : خَطبَ أبو طَلْحَة أُمَّ سُلَيم ، فقالَت : إنَّه لا يَنْبَغي أنْ أتَزوَّج مُشركاً ، أمَا تَعلمُ يا أبا طَلْحَة أنَّ آلِهَتَكم يَنْحَتُها عبدُ آلِ فُلان ، وأنَّكم لَوْ أشْعَلتُم فيها

---

(١) انظر السير : (أسْماءُ بنتُ أبي بَكر) ٢/ ٢٨٧ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٦١ .

(٢) انظر السير : (أم سُليم الغُميصاء) ٢/ ٣٠٤ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٦٢ .

ناراً لاحْتَرقَت ؟ قالَ : فانْصَرفَ وفي قَلبه ذَلكَ ثم أتَاها وقالَ : الذي عَرَضْتِ عليَّ قد قَبلتُ قالَ : فمَا كانَ لهَا مَهْرٌ إلاَّ الإسْلام[1] .

وعن أنَسٍ ، قالَ : حدَّثَتني أُمُّ حِرام بِنتُ مِلْحان : أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ في بَيتِها يَوماً ، فاسْتَيقَظَ وهو يَضحَكُ فقُلتُ : يا رَسُولَ الله ما أضْحَكَك ؟ قالَ صلى الله عليه وسلم : « عُرِضَ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكبُونَ ظَهْرَ هَـٰذَا الْبَحْرِ ، كالْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ » قُلتُ : يا رَسُولَ الله ، ادْعُ اللهَ أنْ يَجعَلَني منهم قالَ صلى الله عليه وسلم : « أنْتِ مِنْ الأَوَّلِينَ » .

فتَزوَّجَها عُبادَةُ بنُ الصَّامِتْ ، فغَزَا بها في البَحْرِ ، فحَمَلَها مَعَه فلمَّا رَجَعُوا قُرِّبَتْ لها بَغْلَةٌ لِتَركَبَها فصَرَعَتْها ، فدَقَّتْ عُنُقَها ، فمَاتَتْ رَضِيَ اللهُ عنها .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : يُقالُ هـٰذه غَزوَةُ قُبرُس[2] في خِلافَة عُثْمانَ رضي الله عنه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : إنَّ قَبرَها تَزورُه الفِرَنْجُ[3] .

وقال حَمَّادُ بنُ سَلَمَة : أخْبَرَنا ثابتٌ : أنَّ صِلَةَ بنَ أشْيَم كان في الغَزْوِ ، ومعَه ابنُه ، فقال : أيّ بُنَي! تَقَدَّم ، فقَاتِل حتىٰ أَحْتَسِبَك ، فحَمَلَ ، فقَاتَلَ حتىٰ قُتِلَ ، ثم تَقَدَّمَ صِلَةُ ، فقُتِلَ ، فاجْتَمَعَ النِّساءُ عند امْرَأتِه مُعَاذَة ، فقالت : مَرْحَباً إنْ كنْتُنَّ جِئْتُنَّ لتُهَنِّئْنَنِي ، وإنْ كنْتُنَّ جِئْتُنَّ لغيرِ ذلك فارْجِعْنَ[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مُعاذَة ، زَوجَة صِلَة بنِ أشْيَم : ولَمَّا اسْتُشهِدَ زَوجُها صِلَةُ وابنُها في بعضِ الحُروبِ ، اجْتَمعَ النِّساءُ عندَها فقالَتْ : مَرحباً بِكُنَّ إنْ كُنْتُنَّ جِئتُنَّ للهَناءِ ، وإنْ كُنْتُنَّ جِئتُنَّ لغَيرِ ذلك فارْجِعْنَ[5] .

---

(١) انظر السير : (أم سُليم الغُميصاء) ٢/ ٣٠٤ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٦٢ .

(٢) هي الجزيرة المعروفة إلى اليوم باسم « قبرص » ، وكان أمير ذلك الجَيش معاوية بن أبي سفيان ، ومعه أبو ذر وأبو الدَّرْداء ، وغيرهما من الصحابة ، وذلك سنة سبع وعشرين .

(٣) انظر السير : (أمُّ حِرام) ٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٦٧ .

(٤) انظر السير : (صِلة بن أشيم) ٣/ ٤٩٧ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦١٤ .

(٥) انظر السير : (مُعَاذَة) ٤/ ٥٠٨ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٤٦ .

٦ـ النِّسَاءُ فِتْنَة :

عن سَعيدِ بنِ الْمُسَيِّب ، قالَ : ما أيِسَ الشَّيطَانُ من شَيءٍ إلاَّ أتَاهُ من قِبَل النِّسَاء[١] .

وعن عَطاءِ بنِ أبي رَباح قالَ : لَوْ ائتُمِنتُ علىٰ بَيتِ مَالٍ لَكُنتُ أميناً ، ولا آمَنُ نَفسِي علىٰ أمَةٍ شَوْهَاء .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : صَدَقَ رَحمَهُ اللهُ ففي الحَديثِ « أَلا لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأةٍ ، فَإنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ » .

ماتَ عَطاءٌ سَنةَ خَمسَ عَشرَة ومئة[٢] .

وقالَ ابنُ الْمَاجِشُونَ وآخَرُ : إنَّ يَزيدَ بنَ عبدِ الْمَلكِ قالَ : والله ما عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيزِ بأحْوَجَ إلى الله منِّي ، فأقامَ أرْبَعين يَوماً يَسيرُ بسِيرَتِه ، فتَلطَّفَت حَبَابَةُ وغَنَّتْهُ أبْياتاً ، فقالَ للخادِمِ : وَيْحَكَ! قُلْ لِصَاحِبِ الشُّرَطِ يُصلِّي بالنَّاسِ[٣] .

وهيَ التي أحَبَّ يَوماً الخُلوَةَ مَعها ، فحَذفَها بعِنبَةٍ ، وهي تَضحَكُ ، فوَقَعَت في فيها فشَرِقَت ، فماتَت ، وبَقيَت عندَه حتَّىٰ أرْوَحَت واغْتَمَّ لها ، ثم زارَ قَبرَها وقالَ :

فإنْ تَسْلُ عنك النفسُ أو تدعِ الصِّبا ... فباليأسِ تسلو عنكِ لا بالتَجَلُّدِ
وكلُّ خليلٍ زارني فهو قائلٌ ... من أجلكِ هٰذا هامَةُ اليومِ أوْ غَدِ

ثم رَجعَ ، فما خَرجَ إلا على النَّعْشِ ، وقيلَ : عاشَ بعدَها خَمسةَ عَشرَ يَوماً .

وكانَت بَديعَةَ الحُسْنِ مُجيدَةً للغِناءِ ، لامَهُ أخُوهُ مَسْلَمَةُ من شَغَفِهِ بها ، وتَرْكِه مَصَالِحَ الْمُسْلمينَ ، فما أفَاد .

وكانَ لا يَصلُح للإمَامَة ، مَصرُوفَ الهِمَّة إلى اللَّهْوِ والغَواني .

---

(١) انظر السير : (سَعيدُ بنُ الْمُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٨٧ .
(٢) انظر السير : (عَطاءُ بنُ أبي رَباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٨٣ .
(٣) انظر السير : (يَزيدُ بنُ عبد الْمَلك) ٥/ ١٥٠ـ ١٥٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٩٣ .

ماتَ لخَمسٍ بَقينَ من شَعْبانَ سَنةَ خَمسٍ ومئة ، فكانَتْ دَوْلَتُه أرْبَعَة أعْوامٍ وشَهْراً ، وعَهدَ بالخِلافَة إلىٰ أخيه هِشامٍ ، ثم من بَعدِهِ لِوَلَدِه الوَليدِ بنِ يَزيد ، ذَاكَ الفُوَيْسِق ، وخلَّفَ أحدَ عَشرَ ابْناً[1] .

٧ـ التَّعلُّقُ بهنَّ مَشْغَلةٌ عن التَّرَقِّي :

قالَ خَلفُ بنُ تَميم : سَمعتُ سُفْيَانَ الثَّوْريَّ يقَولُ : مَنْ أحَبَّ أفْخاذَ النِّساءِ لَمْ يُفلِحْ[2] .

* * *

(١) انظر السير : (يَزيدُ بنُ عبد الْمَلك) ٥/ ١٥٠ـ ١٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩٣ .
(٢) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوْريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/٦٩٧ .

الزَّواج

١ـ حِرْصُ السَّلَف على الزَّواج :

وعن طاوُوسَ قالَ : لا يَتمُّ نُسُك الشَّابِّ حتَّىٰ يَتزَوَّجَ[١] .

وعن إبْراهيمَ بنِ مَيْسَرَةَ قالَ : قالَ لي طَاوُوسُ : تَزَوَّجْ أو لأقُولَنَّ لك ما قالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ لأبي الزَّوائدِ : ما يَمْنَعُكَ من النِّكَاحِ إلاَّ عَجْزٌ أو فُجُورٌ[٢] .

قالَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل : لَوْ كانَ بِشْرُ بنُ الحارِث تَزوَّجَ لتَمَّ أمْرُه[٣] .

وقيلَ لأحمَد بنِ حَنْبَل : ماتَ بِشرٌ قالَ : ماتَ والله وما له نَظيرٌ ، إلاَّ عامِرُ بنُ عَبدِ قَيْس فإنَّ عامِراً ماتَ ولَمْ يَترُكْ شَيئاً ثم قالَ أحمَدُ : لَوْ تَزوَّج[٤] .

٢ـ من أسْباب عَدَم زَواج بعض العُلَماء :

قالَ محمدُ بنُ طاهِر : سَألتُ الحافِظَ أبا إسْحاقَ الحَبَّال عن أبي نَصْر السِّجْزيِّ ، وأبي عبدِ الله الصُّوري ، أيُّهما أحْفَظُ ؟ فقالَ : كان السِّجْزيُّ أحْفَظُ من خَمسينَ مثل الصُّوريِّ ثم قالَ إسْحاقُ : كُنتُ يَوماً عند أبي نَصْر السِّجْزيِّ ، فدُقَّ البابُ ، فقُمتُ ففَتَحتُ ، فدَخلَت امْرأةٌ ، وأخْرَجَت كيساً فيه ألفُ دينار ، فوَضَعَته بينَ يَدي الشَّيخِ ، وقالَت : أنْفِقْها كمَا تَرَى! قالَ : ما الْمَقصُودُ ؟ قالَت : تَتزوَّجُني ولا حاجَةَ لي في الزَّوجِ ، لكنْ لأخْدُمَك فأمَرَهَا بأخْذِ الكيسِ ، وأنْ تَنصَرِفَ ، فلمَّا انْصَرَفَت ، قالَ : خَرجتُ من سِجِسْتانَ بنيَّةِ طَلبِ العِلمِ ، ومتىٰ تَزوَّجتُ ، سَقطَ عنِّي هٰذا الاسمُ ، وما أوثِرُ علىٰ ثَوابِ طَلبِ العِلمِ شَيئاً[٥] .

---

(١) انظر السير : (طاوُوس) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٧٩ .

(٢) انظر السير : (طاوُوس) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٧٩ .

(٣) انظر السير : (بِشْرُ بنُ الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨٨٥ .

(٤) انظر السير : (بِشْرُ بنُ الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨٨٦ .

(٥) انظر السير : (أبو نَصْر السِّجْزيّ) ١٧/ ٦٥٤ـ ٦٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٧٢ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كأنَّه يُريدُ متَىٰ تَزوَّجَ للذَّهَب ، نَقُصَ أجْرُه ، وإلاَّ فلَوْ تَزوَّجَ في الجُملَة ، لكَانَ أفْضَل ، ولَمَا قَدحَ ذلك في طَلَبه العِلم ، بلْ يَكونُ قد عَمِلَ بمُقتَضَى العِلمِ ، لكنَّه كانَ غَريباً ، فخَافَ العَيْلَةَ ، وأنْ يَتفرَّقَ عَليه حَالُه عن الطَّلب .

تُوفِّيَ أبو نَصْر بمَكةَ سَنةَ أرْبَع وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة[1] .

٣ـ الزَّوْجُ الصَّالح :

عن ثابِتِ بنِ عُبَيد ، قالَ : كانَ زَيْدُ بنُ ثابِت من أفْكَهِ النَّاسِ في أهْلِه وأزْمَتِه عندَ القَومِ[2] .

وقالَ شُرَيْحٌ القاضي[3] :

رأيتُ رجالاً يضربون نساءَهم ... فشَلَّتْ يميني حينَ أضربُ زينبا
وزينبُ شمسٌ والنساءُ كواكبٌ ... إذا طلعتْ لَمْ تُبْقِ منهنَّ كوكبا

قالَ عَبدُ الله بنُ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : كانَ أبي إذا أتَى البَيتَ من الْمَسجِدِ ، ضَربَ برِجلِه حتَّىٰ يَسْمَعوا صَوتَ نَعلِه ، ورُبَّما تَنَحْنَحَ لِيَعْلَموا به[4] .

قالَ الخَلاَّلُ : سَمعتُ الْمَرْوذيَّ ، سَمعتُ أبا عبدِ الله ، ذَكرَ أهْلَه فترَحَّمَ عَليها ، وقالَ : مَكَثْنا عِشرينَ سَنةً ، ما اخْتَلفْنا في كَلمَة وما عَلمْنا أحمَدَ تَزوَّجَ ثالثَةً[5] .

٤ـ الزَّوْجَةُ الصَّالحَة :

عن الشَّعبيِّ قال : لَمَّا مَرِضَتْ فاطمةُ الزَّهْراءُ ، أتَىٰ أبو بكر رضي الله عنه فاسْتَأذَنَ ، فقالَ عليٌّ : يا فاطمةُ ، هـٰذا أبو بكر يَسْتَأذِنُ عليكِ ، فقالت : أتُحِبُّ أنْ آذَنَ له قال : نَعَمْ .

---

(١) انظر السير : (أبو نَصْر السِّجْزيّ) ١٧/ ٦٥٤ـ ٦٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٧٢ .
(٢) انظر السير : (زَيْد بنُ ثابت) ٢/ ٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٦/٢٨٧ .
(٣) انظر السير : (شُرَيْحُ القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٥/٤٥٧
(٤) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/٩٤٧ .
(٥) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/٩٤٨ .

قال الذهبيُّ : عَمِلَتْ السُّنَةَ رَضي الله عنها ، فَلَمْ تَأذَنْ في بيتِ زَوْجِهَا إلاَّ بِأَمْرِه .

قال : فأذِنَتْ له ، فدَخَلَ عليها يَتَرَضَّاها ، وقال : والله ما تَرَكْتُ الدَّارَ والمالَ والأهلَ والعَشِيرَةَ إلاَّ ابتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ ورَسُولِه ومَرْضاتِكُم أَهْلَ البَيْتِ .

قال : ثُمَّ تَرَضَّاها حتّىٰ رَضِيَتْ[1] .

تُوفِّيَتْ رضيَ اللهُ عنها بعدَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بخَمْسَةِ شُهور أو نحوها ، وعاشَتْ أربَعاً أو خَمْساً وعشرينَ سنةً[2] .

قالَ حُمَيدٌ : قالَ أنَس : ثَقلَ ابنٌ لأمِّ سُلَيم الغُمَيْصاء ، فخَرجَ أبو طَلْحَة إلى الْمَسجِدِ ، فتُوفِّيَ الغُلامُ فهَيَّأَتْ أُمُّ سُلَيم أمْرَه ، وقالَت : لا تُخْبِروهُ .

فرَجَعَ ، وقد سَيَّرَت له عَشاءَه ، فتَعَشَّىٰ ، ثم أصابَ من أهْلِه فلمَّا كانَ آخِرَ اللَّيلِ ، قالَتْ : يا أبا طَلْحَة ، أَلَمْ تَرَ إلىٰ آلِ أبي فُلان اسْتَعارُوا عَارِيَةً ، فمَنَعُوها ، وطُلِبَتْ منهم ، فَشَقَّ عليهم فقالَ : ما أنْصَفُوا قالَت : فإنَّ ابْنَكَ كانَ عارِيَةً من الله ، فقَبَضَه فاسْتَرجَعَ ، وحَمِدَ اللهَ فلمَّا أصْبَحَ غَدا إلىٰ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فلمَّا رآهُ ، قالَ : « بَارَكَ اللهُ لَكمَا في لَيْلَتِكمَا » .

فحَمَلت بعَبدِ اللهِ بنِ أبي طَلْحَة ، فوَلدَت لَيلاً ، فأرْسَلَت به معي ، وأخَذتُ تَمْرات عَجوَة ، فانتُهيتُ به إلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يَهْنأ أباعِرَ له ، ويَسِمُها فقُلتُ : يا رَسُولَ الله ، وَلَدَت أمُّ سُلَيم اللَّيلَة .

فمَضَغَ بَعضَ التَّمرات بريقِه ، فأوجَرَه إياه ، فتَلَمَّظَ الصَّبيُّ ، فقالَ : « حِبُّ الأنْصَارِ التَّمْرُ » فقُلتُ : سَمِّه يا رَسُولَ الله قالَ : « هو عَبدُ الله » .

عن عَبايَة بنِ رِفاعَة ، قالَ : كانَت أمُّ أنَس تَحْتَ أبي طَلْحَة فذَكرَ نَحْوَه وفيه : فقالَ

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٧) وإسناده صحيح ، لكنه مرسل ، وذكره الحافظ في الفتح (٦/ ١٣٩) ونسبه إلى البيهقي ، وقال : وهو وإن كان مرسلاً فإسناده إلى الشعبي صحيح .

(٢) انظر السير : (فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٢٩ .

رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا فِي لَيْلَتِهِمَا » .

قالَ عَبايَةُ : فلَقَد رَأيتُ لذلك الغُلام سَبعَ بَنين ، كلُّهم قد خَتَمَ القُرآنَ[1] .

وعن أبي بَكر بنِ عبدِ الله بنِ أبي جَهْم ، قالَ : دَخلتُ علىٰ فاطِمَة بنتِ قَيْس ، وقد طلَّقَها زَوْجُها الحَديث فلمَّا حلَّتْ ، قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « هَلْ ذَكرَكِ أَحَدٌ ؟ » قالَت : نَعَم ، مُعاويَةُ وأبو الجَهْم فقالَ صلى الله عليه وسلم : « أَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَشَدِيدُ الْخُلُقِ ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ ، لا مَالَ لَهُ وَلَكِنْ أُنْكِحُكِ أُسَامَةَ » فقُلتُ : أسامة!! ـ تَهاوُناً بأُسَامَة ـ ثم قُلتُ : سَمْعاً وطَاعَةً لله ولِرَسُولِه فزَوَّجَنيه ، فكَرَّمَني اللهُ بأبي زَيْد[2] ، وشَرَّفَني اللهُ ، ورَفَعَني به[3] .

وكانَت مُعَاذَةُ بنتُ عبدِ الله زَوْجَةُ صِلَةَ بنِ أَشْيَم تَقولُ : والله ما أُحِبُّ البَقاءَ إلاَّ لأتَقرَّبَ إلىٰ رَبِّي بالوَسائلِ ، لَعلَّه يَجمَعُ بَيني وبَينَ أبي الشَّعْثاء وابنِه في الجَنَّة .

كانَت وَفاتُها سَنةَ ثَلاثٍ وثَمانينَ[4] .

قالَ الخَلاَّلُ : سَمعتُ الْمَرْوذيَّ ، سَمعتُ أبا عبدِ الله ، ذَكرَ أَهْلَه فترَحَّمَ عَليها ، وقالَ : مَكَثْنا عِشرينَ سَنةً ، ما اخْتَلفْنا في كَلمَة وما عَلمْنا أحمَدَ تزوَّجَ ثالثَةً[5] .

٥ـ مَنْ أرادَت أنْ تكونَ لِزَوْجِها في الآخِرَة :

عن جُبَيرِ بنِ نُفَير ، عن أُمِّ الدَّرْداءِ ، أنَّها قالَت لأبي الدَّرْداء عندَ الْمَوْتِ : إنَّك خَطَبْتَني إلىٰ أبَوَيَّ في الدُّنيا فأنْكَحُوكَ ، وأنا أَخْطُبُكَ إلىٰ نَفسِكَ في الآخِرَة ، قالَ : فلا تَنْكِحِينَ بَعْدي فخَطَبَها مُعاويَةُ فأخْبَرَتْه بالذي كانَ فقالَ : عَليكِ بالصِّيامِ[6] .

---

(١) انظر السير : (أمُّ سُلَيم الغُمَيْصاء) ٢/ ٣٠٤ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٢٦٥ .
(٢) أبو زَيْد : كنية أسامة .
(٣) انظر السير : (أسامَة بنُ زَيْد) ٢/ ٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٩٧ .
(٤) انظر السير : (مُعَاذَة) ٤/ ٥٠٨ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٤٦ .
(٥) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٤٨ .
(٦) انظر السير : (أُمُّ الدَّرْداء) ٤/ ٢٧٧ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٩٧ .

٦ـ حالُ الرَّجُل مع الزَّوْجَة الواحِدَة والزَّوْجَتَين :

عن ابنِ وَهْبٍ حدَّثنا مَالِكٌ قالَ : كانَ الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة نَكَّاحاً للنِّساءِ ويَقولُ : صاحِبُ الواحِدَة إنْ مَرِضَتْ مَرِض ، وإنْ حاضَتْ حَاض ، وصاحِبُ الْمَرْأتَينِ بينَ نَارَيْنِ تُشْعَلانِ ، وكانَ يَنْكِحُ أرْبَعاً جَميعاً ويُطَلِّقُهُنَّ جَميعاً[١] .

٧ـ صُوَرٌ من غَيْرَة النِّساء :

وعن عبدِ الله البَهيِّ ، قالَ : قالَت عائشَةُ : كانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا ذَكرَ خَديجَةَ لَمْ يَكدْ يَسأمُ من ثَناءٍ عليها واسْتِغفارٍ لها ، فذَكرَها يَوماً ، فحَمَلَتْني الغَيْرَةُ ، فقُلتُ : لقَد عوَّضَكَ اللهُ من كَبيرَةِ السِّنِّ قالَت : فرَأيتُه غَضِبَ غَضباً أُسْقِطْتُ في خَلَدي[٢] ، وقُلتُ في نَفسِي : اللَّهُمَّ إنْ أذْهَبتَ غَضَبَ رَسُولِك عنِّي لَمْ أعُدْ أذْكُرُها بسُوءٍ فلمَّا رَأى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ما لَقيتُ ، قالَ : « كيْفَ قُلْتِ ؟ وَاللهِ لَقَدْ آمَنَتْ بِي إذْ كذَّبَنِي النَّاسُ ، وآوَتْنِي إذْ رَفَضَنِي النَّاسُ ، وَرُزِقْتُ مِنْهَا الْوَلَدَ وَحُرِمْتُمُوهُ مِنِّي » قالَت : فغَدا ورَاحَ عليَّ بها شَهْراً[٣] .

عن عائشَةَ : أنَّ نِسَاءَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم كُنَّ حِزْبَينِ ، فحِزْبٌ منه عائشَةُ وحَفْصَةُ وصَفيَّةُ وسَوْدَةُ ، والحِزْبُ الآخَرُ أمُّ سَلَمَةَ وسَائرُ أزْواجِه وكانوا الْمُسلمونَ قد عَلموا حُبَّ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم عائشَةَ ، فإذا كانت عندَ أحَدِهم هَديَّة يُريدُ أنْ يُهْديَها إلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أخَّرَها ، حتَّىٰ إذا كانَ في بَيتِ عائشَة بَعثَ بها إلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في بَيتِ عائشَة فتكلَّم حِزْبُ أمِّ سَلمَة فقُلنَ لها : كلِّمي رَسُولَ الله يُكلِّمُ النَّاسَ ، فيَقولُ : مَنْ أرادَ أنْ يُهْديَ إلىٰ رَسُولِ الله هَديَّة فليُهْدِ إليه حَيثُ كانَ من نِسائِه فكلَّمَتهُ أمُّ سَلمَة بما قُلنَ فلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيئاً فسَألْنَهَا فقالَتْ : ما قالَ لي شَيئاً فقُلنَ : كلِّميه قالَت : فكلَّمْتُه حينَ دارَ إليها فلَمْ يَقُلْ لهَا شَيئا فسَألْنَها

---

(١) انظر السير : (الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣٢٥ .

(٢) الخَلَدُ : البال والقلب والنفس .

(٣) انظر السير : (خَديجَةُ أمُّ الْمؤمنين) ٢/ ١٠٩ـ ١١٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢٢٦ .

فقالَت : ما قالَ لي شَيئاً فقُلنَ لها : كلِّميه فدارَ إليها فكلَّمَتْه فقالَ لهَا : « لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إلاَّ عَائِشَةَ » فقالَت : أتُوبُ إلى الله من أذَاكَ يا رَسُولَ الله .

ثم إنَّهُنَّ دَعَوْنَ فاطِمَةَ بنتَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فأرْسَلتْ إلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، تَقولُ : إنَّ نِساءَكَ يَنْشُدنَكَ العَدلَ في بنتِ أبي بَكر فكلَّمَتْه ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « يَا بُنَيَّةُ ، أَلا تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ ؟ » قالَت : بَلَىٰ فرَجَعَتْ إليهِنَّ وأخْبَرَتهُنَّ فقُلنَ : ارْجِعِي إليه ، فأبَتْ أنْ تَرجِعَ فأرْسَلنَ زَيْنَبَ بنتَ جَحْشٍ فأتَتْه فأغْلَظَتْ ، وقالَت : إنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللهَ العَدْلَ في ابنَةِ أبي قُحَافَة فرَفَعَتْ صَوْتَها حتَّىٰ تَناوَلَت عائشَةَ ، وهي قاعِدَةٌ ، فسَبَّتْها ، حتَّىٰ إنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم لَيَنظُرُ إلىٰ عائشَةَ هَلْ تَتكلَّمُ قالَ : فتكلَّمَتْ عائشَةُ تَرُدُّ علىٰ زَيْنَبَ حتَّىٰ أسْكتَتْها فنَظرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ عائشَةَ ، وقالَ : إنَّها ابنَةُ أبي بَكر .

عن أبي مُوسَىٰ ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قالَ : « كَمُلَ مِنْ الرِّجَالِ كثِيرٌ وَلَمْ يَكمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إلاَّ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ »[1] .

وقالَت عائشَةُ : ما غِرْتُ على امْرأةٍ ما غِرْتُ علىٰ خَديجَةَ من كَثرَةِ ما كانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَذكُرُها .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : وهَـٰذا من أعْجَبِ شَيء أنْ تَغارَ رَضِيَ اللهُ عَنها من امْرأة عَجوزٍ تُوفِّيَت قَبلَ تَزوُّجِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعائشَةَ بمُدَيدَة ، ثم يَحميها اللهُ من الغَيْرَة من عدَّة نِسْوَةٍ يُشارِكْنَها في النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فهَـٰذا من ألْطَافِ الله بها وبالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، لِئلاَّ يَتكدَّرَ عَيشُهما ، ولَعلَّه إنَّما خَفَّفَ أمْرَ الغَيْرَة عَليها حُبُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لهَا ومَيلُه إليها فرَضِيَ اللهُ عَنها وأرْضَاهَا[2] .

وعن عائشَةَ ، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كانَ إذا خَرجَ ، أقْرَعَ بينَ نِسائِه ،

---

(١) انظر السير : (عائشة أمُّ الْمؤمنينَ) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٢٣٢ .

(٢) انظر السير : (عائشة أمُّ الْمؤمنينَ) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ١/٢٣٩ .

فطارَت القُرْعَةُ لعائشَةَ وحَفْصَةَ ، وكانَ إذا كانَ باللَّيلِ ، سارَ مع عائشَةَ يَتحدَّثُ فقالَت حَفْصَةُ : ألا تَرْكَبينَ اللَّيلَةَ بَعيري ، وأرْكَبُ بَعيرَكِ تَنْظُرينَ وأنْظُرُ فقالَتْ : بَلَىٰ فرَكِبتُ فجاءَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ جَمَلِ عائشَةَ ، وعَليه حَفْصَةُ ، فسَلَّمَ عَليها ، ثم سارَ حتَّىٰ نزَلوا ، وافْتَقَدَتْه عائشَةُ فلمَّا نزَلوا ، جَعَلتْ رِجْلَيْها بينَ الإذْخَرِ وتَقولُ : يا رَبِّ ، سَلِّطْ عَليَّ عَقْرَباً أو حَيَّةً تَلدَغُني ، رَسُولُك ولا أسْتَطيعُ أنْ أقُولَ له شَيئاً أخرَجَه مُسلِمٌ[1] .

وعن عَطاء ، سَمعَ عُبَيدَ بنَ عُمَير يَقولُ : سَمعتُ عائشَةَ تَزعُمُ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كانَ يَمكُثُ عندَ زَيْنَبَ بنتِ جَحْش ، ويَشْرَبُ عندَها عَسَلاً فتَواصَيْتُ أنا وحَفْصَةُ أنَّ أيَّتُنا ما دَخلَ عَليها ، فلتَقُلْ : إنِّي أجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغافِير[2] أكَلْتَ مَغافِيرَ! فدَخلَ علىٰ إحْدَاهُما ، فقالَت له ذَلكَ قالَ : بلْ شَربتُ عَسَلاً عندَ زَيْنَبَ ، ولَنْ أعُودَ له فنَزلَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾[3] إلىٰ قوله ﴿ إِن تَتُوبَآ ﴾ ـ يَعْني حَفْصَةَ وعَائشَةَ ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ ﴾ قَولُه : « بلْ شَربْتُ عَسَلاً »[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُعِزِّ : السُّلطَانُ الْمَلكُ الْمُعِزُّ عِزُّ الدُّنيا والدِّين أَيْبَكُ التُّرْكُمانيُّ الصَّالِحِيُّ الجَاشنْكير صاحبُ مِصْرَ لَمَّا قَتَلوا الْمُعَظَّمَ خَطَبُوا لأُمِّ خَليل أيَّاماً بالسَّلْطَنَة ، وكانَ الْمُعِزُّ أكبرَ الصَّالِحِيَّة ، وكانَ دَيِّناً عاقِلاً ، تَارِكاً للشُّربِ ، مَلَّكُوهُ وتَزوَّجَ بأُمِّ خَليل[5] .

وكان في الْمُعِزِّ تُؤدَة ومُداراةٌ ، بنَىٰ مَدرسَةً كَبيرَةً ، ثم إنَّه خَطبَ ابنَةَ بَدر الدِّين صاحِبِ الْمَوْصِل ، فغارَت أمُّ خَليل فقَتلَتْه في حمَّامٍ ، وَثبَ عَليه سنجرُ الجُوجري وخادمٌ ، فأمْسَكوا علىٰ بَيْضِهِ فتَلفَ ، وقُطِعَت هي نِصْفَين ، وقيلَ : بَلْ خُنِقَت ولَمْ

---

(١) انظر السير : (عائشة أمُّ الْمؤمنينَ) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٢٤١ .

(٢) المغافير : صمغ شبيه بالناطف ينضحه الغرفط ، فيوضع في ثوب ، ثم ينضح بالماء فيُشرب ، وله ريحٌ منكرة .

(٣) سورة التحريم ، الآية : ١ .

(٤) انظر السير : (زَيْنَبُ أمُّ الْمؤمنين) ٢/ ٢١١ـ ٢١٨ ، وانظر النزهة : ٣/٢٤٨ .

(٥) انظر السير : (الْمُعِزُّ) ٢٣/ ١٩٨ـ ٢٠٠ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٨ .

تُوسط ، ورُميَت مَهْتُوكَة ، وصُلبَ الجُوجري والخدَّامُ[1] .

وكانَت شَجرُ الدُّرِّ أُمُّ خَليل أُمَّ وَلدٍ للصَّالِحِ ذَاتَ حُسْنٍ وظُرْفٍ ودَهَاءٍ وعَقْلٍ ، ونالَت من العِزِّ والجَاه ما لَمْ تَنلْهُ امْرأةٌ في عَصْرِها ، وكانَ مَمَاليكُ الصَّالح يَخضَعُونَ لَها فمَلَّكوها بعدَ قَتلِ الْمُعظَّم أزْيَدَ من شَهْرَين ، وكانَ الْمُعزُّ لا يَقطَعُ أمراً دُونَها ولَهَا عَليه صَوْلَة ، وكانت جَرئيةً وَقِحَةً قَتلَت وَزيرَها الأسْعَدَ ، ودافَعَ مَمَالِيكُ الصَّالح عن شَجر الدُّرِّ ، فلَمْ تُقتَل إلاَّ بعدَ اثنينِ وعِشرينَ يَوماً ، فقُتلَت ورُميَت مَهْتوكَة وكانت حَسَنَةَ السِّيرَة ، لكن هَلكَت بالغَيرةَ وكانَ الخُطَبَاءُ يَقُولونَ : (واحْفَظ اللَّهُمَّ الحُرمَةَ الصَّالِحَة مَلِكَةَ الْمُسلمينَ عِصْمَةَ الدُّنيا والدِّين أمَّ خَليل الْمُسْتَعصِمَة صاحِبَة السُّلطان الْمَلك الصَّالح)[2] .

٨ـ اخْتيارُ الزَّوْجِ الصَّالح للبَنَاتِ ضَرورَة :

قالَ أبو الْمَليحِ : جاءَ رَجلٌ إلىٰ مَيْمُونَ بنِ مِهْرانَ يَخطُبُ بِنتَه ، فقالَ : لا أرْضَاهَا لَكَ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لأنَّها تُحبُّ الحُلِيَّ والحُلَلَ ، قالَ : فعندي من هٰذا ما تُريد ، قالَ : الآنَ لا أرْضَاكَ لَهَا[3] .

٩ـ مَنْ قُيِّدَ من العُلَماء بالزَّواج :

قالَ أحمَدُ العِجليُّ : لَمَّا دَخلَ مَعْمَرُ بنُ راشد صَنْعاءَ كَرِهوا أنْ يَخرُجَ من بَينِ أظْهُرِهم فقالَ لهم رَجلٌ : قَيِّدُوه قالَ : فزَوَّجُوهُ[4] .

١٠ـ كثْرَةُ الزَّواج :

عن الْمُغيرَةَ بنِ شُعْبَة قالَ : لقد تَزوَّجتُ سَبعينَ امْرأةً أو أكْثَر .

وعن ابنِ الْمُبارَك قالَ : كانَ تَحتَ الْمُغيرَة بنِ شُعْبَة أرْبَع نِسْوَة قالَ : فَصَفَّهُنَّ بينَ

---

(١) انظر السير : (الْمُعِزُّ) ٢٣/ ١٩٨ـ ٢٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧٢٨ .
(٢) انظر السير : (الْمُعِزُّ) ٢٣/ ١٩٨ـ ٢٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧٢٩ .
(٣) انظر السير : (مَيْمونُ بنُ مِهْران) ٥/ ٧١ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٨٢ .
(٤) انظر السير : (مَعْمَرُ بنُ راشِد) ٧/ ٥ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٧١ .

يَدَيه وقالَ : أنْتُنَّ حَسَناتِ الأخْلاقِ ، طَويلاتِ الأعْناقِ ، ولَكنِّي رَجُلٌ مِطْلاقٌ ، فأنْتُنَّ الطُّلاَّق[1] .

عن ابنِ وَهْبٍ حدَّثنا مَالِكٌ قالَ : كانَ الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة نَكَّاحاً للنِّساءِ ويَقولُ : صاحِبُ الواحِدَة إنْ مَرِضَتْ مَرِض ، وإنْ حاضَتْ حَاض ، وصاحِبُ الْمَرْأتَينِ بينَ نَارَيْنِ تُشْعَلانِ ، وكانَ يَنْكِحُ أرْبَعاً جَميعاً ويُطَلِّقُهُنَّ جَميعاً[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَسَنِ بنِ عَليِّ بنِ أبي طالِب : وقد كان هـٰذا الإمَامُ سَيِّداً وَسيماً جَميلاً ، عاقِلاً ، رَزيناً ، جَواداً مُمَدَّحاً ، خَيِّراً ، دَيِّناً ، وَرِعاً ، مُحْتَشِماً ، كَبيرَ الشَّأنِ وكانَ مِنْكَاحاً مِطْلاقاً ، تَزَوَّجَ نَحواً من سَبعينَ امْرأةً ، وقَلَّما كانَ يُفارِقُه أرْبَعُ ضَرائر[3] .

وعن جَعْفَر الصَّادِق ، أنَّ عَليّاً قالَ : يا أهْلَ الكُوفَة لا تُزَوِّجُوا الحَسَنَ ، فإنَّه مِطْلاقٌ ، فقالَ رَجلٌ : والله لَنُزَوِّجَنَّه ، فمَا رَضِيَ أمْسَك ، ومَا كَرِهَ طَلَّق[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ النَّسائيِّ : وكانَ نَضِرَ الوَجْه مع كِبَر السِّنِّ ، يُؤثِرُ لِبَاسَ البُرُودِ النُّوبيَّة والخُضر ، ويُكثِرُ الاسْتِمْتاعَ ، لَه أرْبَعُ زَوْجاتٍ ، فكانَ يَقْسِمُ لَهُنَّ ، ولا يَخْلو مع ذلك من سَرِيَّة ، وكانَ يُكثِرُ أكلَ الدُّيوكِ ، تُشْتَرَىٰ لَه وتُسَمَّنُ وتُخْصَىٰ[5] .

١١ـ كثْرَةُ الجِمَاع :

عن مُجَاهِد : قالَ ابنُ عُمَرَ : لقد أُعْطيتُ من الجِمَاعِ شَيئاً ما أعْلَمُ أحَداً أُعْطِيَه إلاَّ أنْ يَكُونَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم[6] .

---

(١) انظر السير : (الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٣٢٥/ ٤ .
(٢) انظر السير : (الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٣٢٥/ ٥ .
(٣) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بنُ أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣٧٩/ ٢ .
(٤) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بنُ أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣٧٩/ ٣ .
(٥) انظر السير : (النَّسَائيُّ) ١٤/ ١٢٥ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١١٣٧/ ٢ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٧٠/ ٥ .

وعن ابنِ عُمَرَ ، قالَ : إنِّي لأظُنُّ قُسِمَ لي منه مَا لَمْ يُقْسَمْ لأحَدٍ إلاَّ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقيلَ : كانَ ابنُ عُمَرَ يُفْطِرُ أوَّلَ شَيءٍ على الوَطْءِ[1] .

١٢ـ أخْبارُ بَعْضِ الزِّيجَات :

قالَ محمَّدُ بنُ عَمرو : عن أبي سَلمَة : أنَّ جُبَيْرَ بنَ مُطْعِم تَزوَّجَ امْرأةً ، فسَمَّىٰ لها صَداقَها ، ثم طَلَّقها قبلَ الدُّخولِ ، فتَلا هـٰذه الآيَةَ : ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾[2] فقالَ : أنا أحَقُّ بالعَفْوِ منها فسَلَّمَ إليها الصَّداقَ كامِلاً .

تُوفِّيَ جُبَيْرُ بنُ مُطعِم سَنةَ تِسعٍ وخَمسينَ[3] .

قالَ ابنُ سِيرينَ : تَزوَّجَ الحَسَنُ امْرأةً فأرسَلَ إليها مئةَ جارِيَة مع كُلِّ جارِيَة ألفُ دِرْهَم[4] .

عن عبدِ الله بنِ أبي بَكر بنِ حَزْم ، قالَ : خَطبَ سَعيدُ بنُ العاص أُمَّ كُلثُوم بنتَ عليٍّ بعدَ عُمَرَ ، وبَعثَ إليها بمئة ألفٍ ، فدَخلَ عَليها أخُوها الحُسَينُ ، وقالَ : لا تَزوَّجيه فقالَ الحَسَنُ : أنا أُزَوِّجُه واتَّعَدوا لذلكَ فحَضَروا ، فقالَ سَعيدٌ : وأينَ أبو عبدِ الله ؟ فقالَ الحَسَنُ : سَأكْفيكَ قالَ : فلَعلَّ أبا عبدِ الله كَرِهَ هـٰذا ، قالَ : نَعَم قالَ : لا أدْخُلُ في شَيءٍ يَكرَهُهُ ، ورَجَعَ ، ولَمْ يَأخُذْ من الْمَالِ شَيئاً[5] .

وقالَ عاصِمُ بنُ كُلَيب : تَزوَّجَ سُوَيدُ بنُ غَفَلَة بِكْراً وهو ابنُ مئةٍ وسِتَّ عَشرَةَ سَنةً[6] .

وقال أبو بكرِ بنُ أبي داوُدَ : كانت بنْتُ سَعيد بنِ المُسَيِّب قد خَطَبَها عبدُ المَلِكِ لابْنِهِ الوَلِيدِ ، فأبَىٰ عليه فلَمْ يَزَلْ يَحْتالُ عبدُ المَلِكِ عليه حتىٰ ضَرَبَهُ مِئَةَ سَوْطٍ في يومٍ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٦/٣٧٠ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٧ .
(٣) انظر السير : (جُبَيْرُ بنُ مُطعِم) ٣/ ٩٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ١/٣٤٢ .
(٤) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/٣٧٩ .
(٥) انظر السير : (سَعيدُ بنُ العَاص) ٣/ ٤٤٤ـ ٤٤٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٠٦ .
(٦) انظر السير : (سُوَيْدُ بنُ غَفَلَة) ٤/ ٦٩ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٥/٤٤٦ .

بارِدٍ ، وصَبَّ عليه جَرَّةَ ماءٍ ، وألْبَسَهُ جُبَّةَ صُوفٍ .

وعن ابنِ أبي وَدَاعَةَ ـ يَعنِي كَثِيراً ـ قال : كُنتُ أُجالِسُ سَعيدَ بنَ المُسَيِّبِ ، ففَقَدَنِي أيَّاماً ، فلمَّا جِئْتُهُ قال : أيْنَ كُنتَ ؟ قُلتُ : تُوفِّيَتْ أهْلِي فاشْتَغَلْتُ بها ، فقال : ألا أخْبَرْتَنا فشَهِدْناها ، ثمَّ قال : هَلْ اسْتَحْدَثْتَ امرأةً ؟ فقُلتُ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، ومَنْ يُزَوِّجُنِي وما أمْلِكُ إلاَّ دِرْهَمَيْنِ أو ثلاثة ؟!! ، قال : أنا، فقُلتُ : وتَفْعَلُ ؟!! قال : نَعَمْ ، ثمَّ تَحَمَّدَ ، وصَلَّىٰ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وزَوَّجَنِي علىٰ دِرْهَمَيْنِ ـ أوْ قال : ثلاثة ـ فقُمتُ وما أدْرِي ما أصْنَعُ من الفَرَحِ فصِرتُ إلىٰ مَنْزِلِي وجَعَلْتُ أتفَكَّرُ فيمَنْ أسْتَدِينُ .

فصَلَّيْتُ المَغْرِبَ ، ورَجَعْتُ إلىٰ مَنْزِلِي ، وكُنتُ وَحْدِي صائِماً ، فقَدَّمْتُ عَشَائِي أُفْطِرُ ، وكان خُبْزاً وزَيْتاً ، فإذا بابي يُقْرَعُ ، فقُلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ فقال : سَعيدٌ ، فأفْكَرْتُ في كُلِّ مَنْ اسْمُه سَعيدٌ إلاَّ ابنَ المُسَيِّبِ ، فإنَّه لَمْ يُرَ أرْبَعِينَ سَنةً إلاَّ بينَ بَيْتِهِ والمَسْجِدَ ، فخَرَجْتُ ، فإذا سَعيدٌ ، فظَنَنْتُ أنَّه قد بَدَا لَهُ ، فقُلتُ : يا أبا مُحمَّدٍ ألا أرْسَلتَ إليَّ فآتِيكَ ؟ قال : لا ، أنْتَ أحَقُّ أنْ تُؤتَىٰ ، إنَّكَ كُنتَ رجُلاً عَزَباً فتَزَوَّجْتَ ، فكَرِهْتُ أنْ تَبيتَ اللَّيلَةَ وَحْدَكَ ، وهـٰذه امرأتُكَ ، فإذا هي قائِمةٌ من خَلْفِهِ في طُولِهِ ، ثمَّ أخَذَ بيَدِها فدَفَعَها في البَابِ ، ورَدَّ البَابَ ، فسَقَطَتِ المَرأةُ من الحَيَاءِ ، فاسْتَوْثَقْتُ من البابِ ثمَّ وَضَعْتُ القَصْعَةَ في ظِلِّ السِّراجِ لكي لا تَرَاهُ ، ثمَّ صَعَدْتُ إلى السَّطحِ فرَمَيْتُ الجِيرانَ ، فجَاؤُونِي فقالوا : ما شَأنُكَ ؟!! فأخْبَرْتُهُم ونَزَلُوا إليها ، وبَلَغَ أُمِّي ، فجاءَتْ وقالت : وَجْهي من وَجْهِكَ حَرامٌ إنْ مَسَسْتَهَا قبلَ أنْ أُصْلِحَها إلىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ ، فأقَمْتُ ثلاثاً ثمَّ دَخَلْتُ بها ، فإذا هي من أجْمَلِ النَّاسِ ، وأحْفَظِ النَّاسِ لكتابِ اللهِ ، وأعْلَمِهم بسُنَّةِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وأعْرَفِهم بحَقِّ زَوْجٍ فمَكَثْتُ شَهراً لا آتِي سَعيدَ بنَ المُسَيِّبِ ثم أتَيْتُهُ وهو في حَلْقَتِه ، فسَلَّمتُ ، فرَدَّ عليَّ السَّلامَ ولَمْ يُكَلِّمْنِي حتىٰ تَقَوَّضَ المَجْلِسُ ، فلمَّا لَمْ يَبْقَ غَيري قال : ماحالُ الإنْسانِ ؟ قُلتُ : خَيراً يا أبا مُحمَّد ، علىٰ ما يُحِبُّ الصَدِيقُ ، ويَكْرَهُ العدُوُّ قال : إنْ رابَكَ شَيء فالعَصَا فانْصَرَفْتُ إلىٰ مَنْزِلِي ، فوَجَّهَ إليَّ بعِشرينَ ألفِ دِرْهم .

قال أبو بَكر بنُ أبي داوُد : ابنُ أبي وَداعَة هو كثير بن المطلب بن أبي وَداعَة .

قال الذهبيُّ : هو سَهميٌّ مَكِّيٌّ ، رَوَىٰ عن أبيه الْمُطَّلِب أحد مُسْلمَة الفَتح[1] .

ولما تَمهَّدت البلادُ لطُغْرُلْبَك خَطبَ بنتَ الخَليفَة القَائِم ، فتَألَّمَ القائمُ ، واسْتَعْفَىٰ فلَمْ يُعْفَ ، فزَوجَّه بها ، ثم قدِمَ طُغْرُلْبَك بغدادَ للعُرْس .

وكانت له يَدٌ عَظيمَةٌ على القَائِم في إعادَة الخِلافَة إليه ، وقَطْع خُطبَة المِصْريِّين التي أقامَها البَسَاسيريُّ[2] .

ثم نفَّذ طُغْرُلْبَك مئة ألف دينار برَسْم نَقْل الجَهَاز ، فعُملَ العُرسُ في صَفَر سَنةَ خَمسَة وخَمسينَ وأرْبَع مئة ، وأُجلسَت علىٰ سَرير مُذَهَّب ، ودَخلَ السُّلطانُ إلىٰ بَينَ يَدَيْها ، فقَبَّلَ الأرْضَ ، ولمْ يَكْشِفْ المنْديلَ عن وَجْهها ، وقدَّم تُحَفاً سَنيَّة ، وخَدَمَ وانصرف ، ثُم بَعثَ إليها عِقْدَينِ مُجَوْهَرَين ، وقِطَعةَ ياقُوتٍ عَظيمَة ، ثم دَخلَ من الغَدِ ، فقَبَّل الأرْضَ ، وجلسَ علىٰ سَريرٍ إلىٰ جانِبها ساعَةً ، وخَرَجَ وبَعثَ لها فَرَجيَّةَ نَسيجٍ مُكَلَّلَةً بالجَوْهَر ومِخْنَقَةً ـ أي قِلادَة ـ مُثَمَّنَةً ، وسُرَّ بها هـٰذا والخَليفَةُ في ألمٍ وحُزْنٍ وكَظْمٍ ، فأمَّا غيرُه من الخُلفاء الضُّعَفاء فَودُّه لو زَوَّجَ بنتَه بأمير عُتَقاءِ السُّلطان ، ثم إنَّ طُغْرُلْبَك خَلا بها ، ولم يُمَتَّع بنَعيم الدنيا ، بلْ ماتَ في رَمضانَ من السَّنة بالريِّ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وأرْبَع مئة ، وحُملَ إلىٰ مَرْوَ ، فدُفِنَ عند أخيه وقِيلَ : بلْ دُفِنَ بالريِّ ، وعاشَت الزَّوْجَة الخَليفَتيَّة إلىٰ سَنةِ سِتٍّ وتسْعينَ وأرْبَع مئة ، وصارَ مُلكُه من بعده إلى ابنِ أخيه السُّلطانُ ألْب آرْسلان[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨٥ .

(٢) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/١٠٧ـ١١١ ، وانظر النزهة : ١/١٣٨٩ .

(٣) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/١٠٧ـ١١١ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٠ .

عِنايَةُ الوَالدين بالأبْنَاء

١ـ السَّعْيُ على العِيال :

قالَ عبدُ العَزيزِ بنِ أبي رَوَّاد : قُلتُ لِعِكْرِمَة : تَركْتَ الحَرَمَينِ ، وجِئتَ إلىٰ خُراسَانَ ؟!!

قالَ : أسْعَىٰ علىٰ بَنَاتي[١] .

٢ـ فَضْلُ الصَّبْرِ على البَنَات :

قالَ محمَّدُ بنُ محمَّدِ بنِ أبي الوَرْد : قالَ لي مُؤذِّنُ بِشْرِ بنِ الحارِث : رَأيتُ بِشْراً رَحمَهُ اللهُ في الْمَنامِ ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قالَ : غَفَرَ لي .

قُلتُ : ما فُعِلَ بأحمَدَ بنِ حَنْبَل ؟ قالَ : غُفِرَ له فقُلتُ : ما فُعِلَ بأبي نَصْر التَّمَّار ؟ قالَ : هَيْهاتَ ، ذاكَ في عِلِّيينَ ، فقُلتُ : بمَاذا نالَ ما لَمْ تَنالاهُ ؟ فقالَ : بِفَقْرِهِ وصَبرِهِ علىٰ بُنَيَّاتِه[٢] .

٣ـ مُعامَلَةُ الآباء للأبْنَاء :

وعن عائشَةَ أُمِّ الْمُؤمنينَ قالَت : ما رَأيتُ أحَداً كانَ أشْبَهَ كَلاماً وحَديثاً برَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم من فاطِمَةَ ، وكانَت إذا دَخَلَت عَليه قامَ إليها ، فقبَّلَها ، ورَحَّبَ بها ، وكذلك كانَت هي تَصنَعُ به[٣] .

وعن مَسْروقٍ : حدَّثَتني عائشَةُ قالَت : كُنَّا أزْوَاجَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم اجْتَمَعْنا عندَه ، لَمْ يُغادِرْ مِنْهُنَّ وَاحدَة فجاءَت فاطِمَةُ تَمشي ما تُخْطِىءُ مِشْيَتُها مِشْيَةَ

---

(١) انظر السير : (عِكْرِمَة) ٥/ ١٢ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٩/٥٧٦ .

(٢) انظر السير : (أبو نَصْر التَّمَّار) ١٠/ ٥٧١ـ ٥٧٤ ، وانظر النزهة : ٦/٨٩٤ .

(٣) انظر السير : (فاطِمَةُ بنتُ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم) ٢/ ١١٨ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٢٣٠ .

رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فلمَّا رآها ، رَحَّبَ بها ، قالَ : « مَرْحَباً بِابْنَتِي » ثم أقْعَدَها عن يَمينِه أو عن يَسارِه ثم سارَّها فبَكَتْ ، ثم سارَّها الثانيَةَ ، فضَحِكَت ، فلمَّا قامَ ، قُلتُ لهَا : خَصَّك رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بالسِّرِّ وأنْتِ تَبْكينَ ، عَزَمْتُ عَليك بما لي عَليك من حَقٍّ لَمَا أخْبَرتِني مِمَّ ضَحِكْتِ ؟ ومِمَّ بَكَيْتِ ؟ قالَتْ : ما كُنتُ لأُفْشِي سِرَّ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم .

فلمَّا تُوفِّيَ ، قُلتُ لها : عَزمتُ عَليك بما لي عَليكِ من حَقٍّ لَمَا أخْبَرتِني قالَت : أمَّا الآنَ فنعَم ، في المرَّة الأولىٰ حدَّثني « أنَّ جبْريلَ كانَ يُعَارِضُهُ بِالقُرآنِ كلَّ سَنَةٍ مَرَّةً ، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي العَامَ فِي هَـٰذِه السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ ، وَأَنِّي لا أَحْسَبُ ذَلِكَ إلاَّ عِنْدَ اقْتِرَابِ أَجَلِي ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي ، فَنِعْمَ السَّلَفُ لَكِ أَنَا » فبَكَيتُ فلمَّا رَأىٰ جَزَعي ، قالَ صلى الله عليه وسلم : « أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ العَالَمِينَ ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ ؟ » قالَت : فضَحِكتُ أخْرَجَه البُخاريُّ[1] .

قالَ أبو عُمَرَ الدِّمَشْقيُّ : سَمعتُ ابنَ الجَلاَّء يَقولُ : قُلتُ لأبَوَيَّ : أُحِبُّ أنْ تَهَباني لله قالا : قد فَعَلنا فغِبتُ عَنهم مُدَّة ، ثم جِئتُ فدَقَقتُ البابَ فقالَ أبي : مَنْ ذَا ؟ قُلتُ : وَلَدُك ، قالَ : قد كانَ لي وَلَدٌ وَهَبْناهُ لله ، وما فَتَحَ لي[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الصُّعْلُوكيِّ ، قالَ الحاكمُ : كانَ أبُوهُ يُجِلُّه ويَقولُ : سَهْلٌ وَالِدٌ[3] .

٤ـ تَعْليمُ الأبْنَاء وتَرْبيتِهم :

عن أبي الحَوْراء ، قُلتُ للحَسَنِ بنِ عَليٍّ ما تَذكُرُ من رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالَ : أذكُرُ أنِّي أخَذتُ تَمرَةً من تَمْرِ الصَّدَقَة ، فجَعلتُها في فِيَّ ، فنَزَعَها رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بلُعابِها ، فجَعَلَها في التَّمرِ ، فقيلَ : يا رَسُولَ الله!

---

(١) انظر السير : (فاطِمَةُ بنتُ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم) ٢/١١٨ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٥/٢٣٠ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الجَلاَّء) ١٤/ ٢٥١ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٤/١١٤٨ .

(٣) انظر السير : (الصُّعْلُوكيُّ) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٧ .

وما كانَ عَليكَ من هـٰذه التَّمْرَة لهَـٰذا الصَّبيِّ ؟ قالَ : « إنَّا آلَ مُحَمَّدٍ لا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ » قالَ : وكانَ صلى الله عليه وسلم يَقولُ : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إلَىٰ مَا لا يَرِيبُك فَإنَّ الصِّدْقَ طُمَأنِينَةٌ ، وَالكذِبَ رِيبَةٌ » وكانَ يعُلِّمُنا هـٰذا الدُّعاءَ « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ » الحديث[1] .

وقالَ سَعيدُ بنُ عفير : حَدَّثنا يَعقوبُ ، عن ابيه أنَّ عبدَ العَزيزِ بنَ مَرْوانَ بَعثَ ابنَه عُمَرَ إلى الْمَدينَة يَتأدَّبُ بها ، وكَتبَ إلىٰ صالحِ بنِ كَيْسانَ يَتعاهَدُه ، وكان يُلزِمُه الصَّلَوات ، فأبْطأ يَوماً عن الصَّلاةِ ، فقالَ : ما حَبسَك ؟ قالَ : كانت مُرَجِّلَتي تُسَكِّنُ شَعْري ، فقالَ : بَلغَ من تَسْكينِ شَعْرِكَ أنْ تُؤثِرَه على الصَّلاةِ ، وكَتبَ بذلك إلىٰ والِدِه ، فبَعثَ عبدُ العَزيزِ رَسُولاً إليه فما كلَّمَه حتىٰ حَلقَ شَعْرَه .

وقال أبو مُسْهر : وَلِيَ عُمَرُ الْمَدينَةَ في إمْرَةِ الوَليدِ من سَنةِ سِتٍّ وثَمانينَ إلىٰ سَنةِ ثَلاثٍ وتِسْعين[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ سُفْيانَ الثَّوريّ : وُلدَ سَنةَ سَبعٍ وتِسعينَ اتِّفاقاً ، وطَلبَ العِلمَ وهو حَدَثٌ باعْتِناء وَالِدِه الْمُحدِّثِ الصَّادِقِ : سَعيدِ بنِ مَسْرُوق الثَّوْريّ[3] .

وعن سُفْيانَ الثَّوريّ : يَنْبَغي للرَّجُلِ أنْ يُكرِهَ وَلدَه على العِلمِ ، فإنَّه مَسْؤُولٌ عنه[4] .

عَليُّ بنُ الفُضَيْل مع أبيه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : من كِبَارِ الأوْلِياءِ ، وماتَ قبلَ وَالِدِه .

خَرجَ هو وأبُوهُ من الضَّعْفِ الغَالِبِ على الزُّهَّادِ والصُّوفيَّة ، وعُدَّا في الثِّقَاتِ إجْماعاً .

---

(١) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بنُ أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٧٧ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٨٦ .
(٣) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٩٥ .
(٤) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٩٩ .

وكانَ عَليٌّ قانِتاً لله ، خاشِعاً ، وَجِلاً ، رَبَّانيّاً ، كَبيرَ الشَّأنِ[1] .

وقالَ الخَطيبُ : مَاتَ عَليُّ بنُ الفُضَيل قبلَ أبيه بمُدَّة من آيَةٍ سَمِعَها تُقرَأُ ، فغُشيَ عليه ، وتُوفِّيَ في الحَالِ[2] .

قال إبراهيمُ بنُ الحارث العُبّادي : حدَّثنا عبدُ الرحمَـٰن بنُ عفَّان ، حدَّثنا أبو بَكْر بن عيّاش قال : صلَّيتُ خَلفَ فُضَيل بنِ عِياض المغربَ وابنُه عليٌّ إلىٰ جانبي فقرأ : ﴿ أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[3] فلمَّا قالَ : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾[4] سَقطَ عليٌّ علىٰ وَجهِه مَغْشيّاً عليه[5] .

وقالَ ابنُ أبي الدُّنيا : حدَّثني عبدُ الصَّمَد بنُ يَزيد ، عن فُضَيلِ بنِ عِياض قالَ : بَكَىٰ عَليٌّ ابني ، فقُلتُ : يا بُنَيَّ ما يُبكِيكَ ؟ قالَ : أخافُ ألاَّ تَجْمَعَنا القيامَةُ[6] .

وقالَ ابنُ الْمُبارَك للفُضَيلِ بنِ عِياض : يا أبا عَليّ ما أحْسَنَ حَالَ مَنْ انقَطعَ إلى الله ، فسَمعَ ذلكَ عَليٌّ ابني ، فسَقطَ مَغْشيّاً عليه[7] .

وعن محمدِ بنِ ناجية قال : صلَّيتُ خَلفَ الفُضَيل بنِ عِياض ، فقرأ : ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾[8] في الصُّبحِ فلمَّا بَلغَ إلىٰ قَولِه : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾[9] غَلبَه البُكاءُ فسَقطَ ابنُه عَليٌّ مَغْشياً عليه[10] .

وعن عبدِ الصَّمَد بنِ يَزيد ، سَمعتُ الفُضَيلَ يَقولُ : أشْرَفتُ لَيلَةً علىٰ عَليٍّ ، وهو

---

(١) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٠/ ١ .
(٢) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٠/ ٢ .
(٣) سورة التكاثر ، الآية : ١ .
(٤) سورة التكاثر ، الآية : ٦ .
(٥) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٠/ ٣ .
(٦) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٠/ ٤ .
(٧) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٠/ ٥ .
(٨) سورة الحاقّة ، الآية : ١ .
(٩) سورة الحاقّة ، الآية : ٣٠ .
(١٠) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٠/ ٦ .

في صَحْن الدَّار ، وهو يَقولُ : النَّار ، ومَتَى الخَلاصُ من النَّارِ ؟ وقالَ لي : يا أبَتِ سَلِ الذي وَهَبَني لكَ في الدُّنيا أنْ يَهَبَني لكَ في الآخِرَة ، ثم قالَ : لَمْ يَزَلْ مُنْكَسِرَ القَلبِ حَزيناً ، ثُمَّ بَكَى الفُضَيلُ ، ثُمَّ قالَ : كانَ يُسَاعِدُني على الحُزْنِ والبُكَاءِ ، يا ثَمَرَةَ قَلبي ، شَكرَ اللهُ لكَ ما قَدْ عَلِمَه فيكَ[1] .

وعن الفُضَيلِ قالَ : اللَّهُمَّ إنِّي اجْتَهَدتُ أنْ أُؤدِّبَ عَلياً ، فلَمْ أقْدِر علَىٰ تَأديبِه فأدِّبْهُ أنتَ لي[2] .

وقالَ أبو سُلَيمان الدَّاراني : كانَ عَليُّ بنُ الفُضَيل لا يَستطيعُ أنْ يَقْرأَ ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾[3] ولا تُقْرأَ عليه[4] .

وعن مُحمَّدِ بن أبي عُثمانَ قالَ : كانَ عَليُّ بنُ الفُضَيل عند سُفْيانَ ابنِ عُيَيْنَة ، فحَدَّثَ بحَديثٍ فيه ذِكْرُ النَّار ، فشَهِقَ عَليٌّ شَهقَةً ، ووَقعَ ، فالْتَفتَ سُفْيانُ فقالَ : لَوْ عَلمتُ أنَّك ها هُنا ما حدَّثتُ به ، فمَا أفَاقَ إلاَّ بعدَ ما شَاءَ الله[5] .

وبالإسْنادِ عن فُضَيل : كانَت لنَا شَاةٌ بالكُوفَة ، أكَلَتْ شَيئاً يَسيراً من عَلَفِ أميرٍ ، فمَا شَرِبَ لَها عَليٌّ ابني لَبناً بعدُ[6] .

وعن الفُضَيلِ قَالَ : أهْدَىٰ لَنَا ابنُ الْمُبارَك شاةً فكانَ ابْني لا يَشرَبُ منها ، فقُلتُ له في ذلك فقالَ : إنَّها قد رَعَت بالعِراقِ[7] .

وقال عليُّ بنُ محمّد المِصْري ، سَمعتُ أبا سَعيد الخَرَّاز ، سَمعتُ إبراهيمَ بنَ بشَّار يقولُ : الآيةُ التي ماتَ فيها عليُّ بنُ الفُضَيل ، في الأنْعام : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ

---

(١) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٧٨١ .
(٢) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٧٨١ .
(٣) سورة القارعة ، الآية : ١ .
(٤) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨١ .
(٥) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٨١ .
(٦) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٨١ .
(٧) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٧٨١ .

يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾[1] مع هـٰذا المَوْضع ماتَ وكنتُ فيمَن صلَّىٰ عليه ، رحمَه الله[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ماتَ الفُضَيْلُ سَنةَ سِتٍّ وثَمانينَ ومئة ، وله نيِّفٌ وثمانونَ سَنةً ، وهو حُجَّةٌ كَبيرُ القَدْرِ ، ولا عِبْرَةَ بما نقَلَه أحمَدُ بنُ أبي خَيْثَمَة ، سَمعتُ قُطبَةَ بنَ العَلاء يَقولُ : تَركتُ حَديثَ فُضَيْلِ بنِ عِياض لأنه رَوَىٰ أحاديث أزْرَىٰ علىٰ عُثمانَ بنِ عَفَّان[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : فلا نَسمَعُ قَولَ قُطبَة ، لَيتَه اشتَغلَ بحالِه ، فقد قالَ البُخاريُّ : فيه نَظَر ، وقالَ النَّسائيُّ وغَيرُه : ضَعيفٌ وأيضاً فالرجلُ صاحِبُ سُنَّة واتِّباع .

قالَ أحمَدُ بنُ أبي خَيْثَمَة : حدَّثنا عبدُ الصَّمَد بنُ يَزيد الصَّائغ ، قالَ : ذُكرَ عند الفُضَيل ـ وأنا أسْمعُ ـ الصَّحابَةَ ، فقالَ : اتَّبعوا فقد كُفيتم : أبو بَكر وعُمَر وعُثْمان وعَليٌّ ، رَضيَ اللهُ عَنهم[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إذا كانَ كُبَراءُ السَّابقين الأوَّلينَ قد تَكلَّم فيهم الرَّوافِضُ والخَوارجُ ، ومثل الفُضَيل يُتكلَّم فيه ، فمَنِ الذي يَسلَمُ من أَلْسِنَة النَّاسِ ، لكن إذا ثَبتَت إمَامَةُ الرجُلِ وفَضلُه ، لَمْ يَضرُّه ما قيلَ فيه ، وإنَّما الكَلامُ في العُلماءِ مُفتقِرٌ إلىٰ وَزنٍ بالعَدلِ والوَرَع[5] .

وأمَّا قَولُ ابنِ مَهْدي : لَمْ يَكنْ بالحافِظ ، فمَعناه : لَمْ يَكنْ في عِلمِ الحَديث كَهـٰؤلاء الحُفَّاظ البُحُور ، كشُعبَة ، ومَالِك ، وسُفْيان ، وحمَّاد ، وابن الْمُبارَك ، ونُظرائِهم ، لكنَّه ثَبتٌ قيِّمٌ بما نَقلَ ، ما أُخذَ عَليه في حَديث فيما عَلمتُ ، وهل يُرادُ من العِلمِ إلاَّ ما انتَهىٰ إليه الفُضَيلُ رَحمَةُ الله عَليه[6] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٢٧ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بن الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧/٧٨١ .
(٣) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيْل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٨/٧٨١ .
(٤) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيْل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٧٨٢ .
(٥) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيْل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٧٨٢ .
(٦) انظر السير : (عَليُّ بنُ الفُضَيْل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٢ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الرحمَـٰن بنِ بشْر : واعْتَنَى به أبوهُ ، وارْتَحلَ به ، ولَقِيَ الكِبَارَ ، وطَالَ عُمرُه ، وتفرَّد[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الأصَمِّ : محمَّدُ بنُ يَعقُوب بنِ يُوسُف ، الإمامُ الْمُحدِّثُ مُسْندُ العَصر ، رحْلةُ الوَقت ، أبو العَبَّاس الأُمَويُّ مَوْلاهم ، السِّنانيُّ ، الْمَعْقِليُّ النِّيسَابُوريُّ الأصَمُّ ، وَلَدُ الْمُحدِّث الحافِظِ أبي الفَضْل الوَرَّاق ، وقد ارْتَحلَ بابنِه أبي العَبَّاس إلى الآفاقِ ، وسَمَّعَه الكُتبَ الكِبارَ .

وحدَّثَ بكِتابِ « الأمِّ » للشَّافِعيِّ عن الرَّبيعِ ، وطالَ عُمرُه وبَعُدَ صِيتُه ، وتَزاحَمَ عليه الطَّلبَةُ وجَميعُ ما حدَّثَ به إنَّما رَواهُ من لَفظِه فإنَّ الصَّمَمَ لَحِقَهُ وهو شَابٌّ له بِضعٌ وعِشرُونَ سَنةً ، بعدَ رُجُوعِه من الرِّحْلة ثم تَزايَدَ به ، واسْتَحكَمَ بحَيثُ إنَّه لا يَسمَعُ نَهيقَ الحِمَارِ وقد حدَّثَ في الإسْلامِ سِتاً وسَبعينَ سَنةً .

قالَ الحاكِمُ: كانَ يَكرَهُ أنْ يُقالَ له: الأصَمُّ ، فكانَ إمامُنا أبو بَكر ابنُ إسْحاقَ الصِّبْغيُّ، يَقولُ : الْمَعْقِليُّ ، قالَ : وكانَ مُحدِّثَ عَصرِه ، ولَمْ يَختَلِفْ أحَدٌ في صِدقِه وصِحَّةِ سَماعَاتِه ، وضَبطِ أبيه يَعقُوبَ الوَرَّاق لها ، وكانَ يَرجعُ إلىٰ حُسْنِ مَذْهَب وتَدَيُّنٍ وبَلَغني أنَّه أذَّنَ سَبعينَ سَنةً في مَسجِدِه قالَ : وكانَ حَسَنَ الخُلق ، سَخيَّ النَّفسِ ، ورُبَّما كانَ يَحتاجُ إلى الشَّيءِ لِمَعاشِه فيُوَرِّقُ ، ويَأكُلُ من كَسبِ يَدِه ، وهـٰذا الذي يُعابُ به من أنَّه كانَ يَأخُذُ على الحَديثِ ، إنَّما كانَ يَعيبُه به مَنْ لا يَعرِفُه ، فإنَّه كانَ يَكرَهُ ذلك أشَدَّ الكَراهَة ولا يُناقِشُ أحَداً فيه ، إنَّما كانَ وَرَّاقُهُ وابنُه يَطلُبان النَّاسَ بذلك ، فيَكرَهُ هو ذلك ، ولا يَقدِرُ علىٰ مُخالَفَتِهما سَمعَ منه : الآباءُ والأبْناءُ والأحْفادُ ، وكَفَاهُ شَرَفاً أنْ يُحدِّثَ طُولَ تِلكَ السِّنينَ ، ولا يَجدَ أحَدٌ فيه مَغْمَزاً بحُجَّة ، وما رَأينا الرِّحْلةَ في بِلادٍ من بِلادِ الإسْلامِ أكثَرَ منها إليه ، فقد رَأيتُ جَماعَةً من أهْلِ الأنْدَلُسِ وجَماعَةً من أهْلِ طرازَ[2] وإسْبيجابَ علىٰ بابِه ، وكذا جَماعَة من أهْلِ فارِس سَمعتُه غيرَ مرَّة يقولُ وُلِدتُ سَنةَ سَبعٍ وأرْبَعينَ ومئتَين[3] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن بِشْر) ١٢/ ٣٤٠ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٠٦ .

(٢) بلد قريب من إسْبيجاب ، من ثغور الترك ، في أقصىٰ بلاد الشاش مما يلي تركستان .

(٣) انظر السير : (الأصَمُّ) ١٥/ ٤٥٢ـ ٤٦٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٨ .

وقالَ يوسُفُ بنُ أحمدَ الشِّيرازيُّ في « أرْبَعين البُلْدان » له : لَمَّا رَحلتُ إلىٰ شَيخِنا رُحْلَةِ الدُّنيا ومُسْنِدِ العصر أبي الوَقت ، قدَّر الله لي الوُصولَ إليه في آخِرِ بلادِ كرمانَ ، فسَلمتُ عليه ، وقَبَّلتُه ، وجَلستُ بينَ يَديه فقالَ لي : ما أقْدَمَك إلىٰ هـٰذه البِلادِ ؟ قُلتُ كانَ قَصدي إليكَ ، ومُعَوِّلي بعد الله عَليكَ ، وقد كَتبتُ ما وقعَ إليَّ من حَديثك بقَلَمي ، وسَعيتُ إليك بقَدَمي ، لأدْرِكَ بَركَةَ أنْفاسِك ، وأحْظَىٰ بعُلُوِّ إسْنادِك ، فقالَ : وفقَّكَ اللهُ وإيَّانا لِمَرْضاتِه ، وجَعلَ سَعيَنا له وقَصْدَنا إليه ، لَوْ كُنتَ عَرفْتَني حَقَّ مَعْرفَتي لَمَا سلَّمْتَ عليَّ ، ولا جَلَسْتَ بين يديَّ ، ثم بَكَىٰ بكاءً طويلاً ، وأبْكَىٰ مَنْ حَضَرَه ، ثم قالَ : اللَّهُمَّ اسْتُرْنا بسِتْرِك الجَميلِ ، واجْعَل تَحتَ السِّتْرِ ما تَرضَىٰ به عنَّا ، يا وَلدي تَعلمُ أنِّي رَحلتُ أيضاً لسَماعِ « الصَّحيح » ماشياً مع وَالِدي من هَرَاةَ إلى الدَّاوودِيِّ بـ « بُوشَنْج » وليَ دون عَشر سنين ، فكانَ وَالِدي يَضعُ علىٰ يَديَّ حَجَرين ويقولُ احْمِلْهما ، فكُنتُ من خَوْفه أحفَظُهما بيَديَّ ، وأمْشي وهو يَتأمَّلُني ، فإذا رآني قد عَييتُ أمرَني أن أُلْقيَ حَجَراً واحداً ، فأُلْقي ويَخِفُّ عنِّي ، فأمشي إلىٰ أنْ يَتبينَ له تَعَبي ، فيَقولُ لي : هَلْ عَييتَ ؟ فأخافُه ، وأقُولُ : لا فيَقولُ : لِمَ تُقَصِّرْ في المَشْيِ ؟ فأُسْرِعُ بين يَديْه ساعةً ، ثم أعْجَزُ ، فيَأخُذُ الآخَرَ فيُلقيه ، فأمشي حتَّىٰ أعْطَب ، فحينئذ كانَ يَأخُذني ويَحمِلُني ، وكُنَّا نَلتَقي جَماعَةً من الفَلاَّحينَ وغَيرَهم ، فيَقولون : يا شَيخُ عيسَىٰ ، ادْفَع إلينا هـٰذا الطِّفْلَ نُركِبُه وإيَّاكَ إلىٰ بُوشَنْج ، فيَقولُ : مَعاذَ الله أنْ نَركَبَ في طَلَبِ أحاديثِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، بلْ نَمشِي ، وإذا عَجزَ أرْكَبْتُه علىٰ رَأسي إجْلالاً لحَديثِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ورَجاءَ ثَوابِه فكانَ ثَمرَةُ ذلكَ من حُسْنِ نِيَّتِه أنِّي انْتَفَعتُ بسَماعِ هـٰذا الكِتاب وغَيرِه ، ولَمْ يَبْقَ من أقْراني أحَدٌ سِوايَ ، حتَّىٰ صارَت الوُفُودُ تَرحَلُ إليَّ من الأمْصارِ ثم أشارَ إلىٰ صاحِبنا عبدِ الباقي بنِ عبدِ الجَبَّار الهَرَويِّ أنْ يُقدِّمَ ليَ حَلوَاءَ ، فقُلتُ : يا سَيِّدي ، قِراءَتي لجُزءِ أبي الجَهْم أحَبُّ إليَّ من أكْلِ الحَلْواء ، فتَبسَّمَ ، وقالَ : إذا دَخلَ الطَّعامُ خَرجَ الكَلامُ ، وقَدَّمَ لنا صَحْناً فيه حَلْواءُ الفانيذ ، فأكَلنا ، وأخْرَجتُ الجُزءَ ، وسَألتُه إحْضَارَ الأصْلِ ، فأحْضَرَه ، وقالَ : لا تَخَفْ ولا تَحْرِصْ ، فإنِّي قد قَبرتُ مِمَّنْ سَمعَ عليَّ خَلقاً كثيراً ، فسَلِ اللهَ

السَّلامَةَ ، فقَرأتُ الجُزءَ ، وسُرِرْتُ به ، ويَسَّر اللهُ سَماعَ « الصَّحيحِ » وغَيرِه مِراراً[1] .

وقالَ ابنُ نُقطَة : حدَّثنا أبو الطَّاهِر بنُ الأنْمَاطِيُّ بدِمَشْقَ ، قالَ : حدَّثني حَنْبَلُ بنُ عبدِ الله قالَ : لَمَّا وُلدتُ ، مَضَىٰ أبي إلى الشَّيخِ عبدِ القادِرِ الجِيلِيِّ ، وقالَ له : قد وُلِدَ لي ابنٌ ما أُسَمِّيهِ ؟ قالَ : سَمِّه حَنْبَل ، وإذا كَبرَ سَمِّعْهُ « مُسْنَدَ » أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، قالَ : فسَمَّاني كما أمَرَه ، فلمَّا كَبرتُ سَمَّعَني « الْمُسْنَدَ » ، وكانَ هـٰذا من بَرَكة مَشورَةِ الشَّيخ .

وقالَ ابنُ الدُّبَيْثيِّ : كانَ حَنْبَلُ دَلاَّلاً في بَيع الأمْلاك ، سُئلَ عن مَوْلِدِه فذَكرَ ما يَدلُّ علىٰ أنَّه في سَنةِ عَشرٍ وخَمسِ مئة أوْ إحْدَىٰ عَشرَة ، إلىٰ أنْ قالَ : وتُوفِّيَ سَنةَ أرْبَع وسِتِّ مئة .

وقالَ ابنُ الأنْمَاطِيِّ : سَمعتُ منه جَميعَ « الْمُسْنَد » ببَغْدادَ أكثرُه بِقراءَتي عليه ، في نَيِّفٍ وعشرينَ مَجْلساً ، ولَمَّا فَرَغتُ أخَذتُ أُرَغِّبُه في السَّفرِ إلى الشَّامِ فقُلتُ : يَحصُلُ لك مالٌ ويُقبِلُ عَليكَ وُجُوهُ النَّاسِ ورُؤساؤُهم ، فقالَ : دَعْني ، فوالله ما أُسافِرُ لأجْلِهِم ، ولا لِمَا يَحصُلُ منهم ، وإنَّما أُسَافِرُ خِدمَةً لرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أرْوِي أحَاديثَه في بَلدٍ لا تُروَىٰ فيه .

قالَ ابنُ الأنْمَاطيّ : اجْتَمعَ له جَماعَةٌ لا نَعلَمُها اجْتمَعَت في مَجلِسِ سَماعٍ قبلَ هـٰذا بدِمَشْقَ ، بَلْ لَمْ تَجتَمعْ مثلُها لأحَدٍ مِمَّنْ رَوَىٰ « الْمُسْنَد »[2] .

٥ـ حَالُ أبٍ وابنٍ عَالِمَين :

وقالَ الحاكمُ : سَمعتُ أبا عَليٍّ محمَّدَ بنِ أحمَدَ بنِ زَيْد الْمُعدَّل يَقولُ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ الذُّهْليِّ يَقولُ : دَخلتُ علىٰ أبي في الصَّيفِ الصائف وَقتَ القائلَة وهو في بَيتِ كُتبه ، وبينَ يَدَيه السِّراجُ ، وهو يُصنِّفُ ، فقُلتُ : يا أبتِ هـٰذا وَقتُ الصَّلاةِ ، ودُخانُ هـٰذا السِّراج بالنَّهارِ ، فلو نفَّسْتَ عن نَفسِك قالَ : يا بُنَي ، تَقولُ لي هـٰذا ، وأنا مع

---

(١) انظر السير : (أبو الوقت) ٢٠/ ٣٠٣ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٥٣ .

(٢) انظر السير : (حَنْبَل) ٢١/ ٤٣١ـ ٤٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٤١ .

رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وأصْحابِه والتَّابِعينَ!![1] .

وقالَ أبو إسْحاقَ الْمُزَكِّي : حدَّثني أبو عَليّ الحَسَنُ بنُ محمَّد وغَيرُه أنَّ محمَّدَ بنَ يَحْيَى الذُّهْليَّ وابنَه يَحْيَى اخْتَلفَا في مَسْألَةٍ فقالَ أحَدُهما للآخَر : اجْعَلْ بَيننا حَكَماً ، فرَضِيَا بابنِ خُزَيْمَة ، فقَضَىٰ لِيَحْيَىٰ علىٰ أبيه[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الأصَمِّ : محمَّدُ بنُ يَعقُوب بنُ يُوسُف ، الإمامُ الْمُحدِّثُ مُسْندُ العَصر ، رحْلةُ الوَقت ، أبو العَبَّاس الأُمَويُّ مَوْلاهم ، السِّنانيُّ ، الْمَعْقِليُّ النِّيسَابُوريُّ الأصَمُّ ، وَلَدُ الْمُحدِّث الحافِظِ أبي الفَضْل الوَرَّاق ، وقد ارْتَحلَ بابنِه أبي العَبَّاس إلى الآفاقِ ، وسَمَّعَه الكُتبَ الكِبارَ .

وحدَّثَ بكِتابِ « الأمِّ » للشَّافِعيِّ عن الرَّبيع ، وطالَ عُمرُه وبَعُدَ صِيتُه ، وتَزاحَمَ عليه الطَّلبَةُ وجَميعُ ما حدَّثَ به إنَّما رَواهُ من لَفظِه فإنَّ الصَّمَمَ لَحِقَهُ وهو شَابٌّ له بِضعٌ وعِشرُونَ سَنةً ، بعدَ رُجُوعِه من الرِّحْلة ثم تَزايَدَ به ، واسْتَحكَمَ بحَيثُ إنَّه لا يَسمَعُ نَهيقَ الحِمَارِ وقد حدَّثَ في الإسْلامِ سِتاً وسَبعينَ سَنةً .

قالَ الحاكِمُ : كانَ يَكرَهُ أنْ يُقالَ له : الأصَمُّ ، فكانَ إمامُنا أبو بَكر ابنُ إسْحاقَ الصِّبْغيُّ ، يَقولُ : الْمَعْقِليُّ ، قالَ : وكانَ مُحدِّثَ عَصرِه ، ولَمْ يَختَلِفْ أحَدٌ في صِدقِه وصِحَّةِ سَماعَاتِه ، وضَبطِ أبيه يَعقُوبَ الوَرَّاق لها ، وكانَ يَرجعُ إلىٰ حُسْنِ مَذْهَب وتَديُّنٍ وبَلَغَني أنَّه أذَّنَ سَبعينَ سَنةً في مَسجِدِه قالَ : وكانَ حَسَنَ الخُلق ، سَخيَّ النَّفسِ ، ورُبَّما كانَ يَحتاجُ إلى الشَّيءِ لِمَعاشِه فيُوَرِّقُ ، ويَأكُلُ من كَسبِ يَدِه ، وهٰذا الذي يُعابُ به من أنَّه كانَ يَأخُذُ على الحَديثِ ، إنَّما كانَ يَعيبُه به مَنْ لا يَعرِفُه ، فإنَّه كانَ يَكرَهُ ذلك أشَدَّ الكَراهَة ولا يُناقِشُ أحَداً فيه ، إنَّما كانَ وَرَّاقُهُ وابنُه يَطلُبان النَّاسَ بذلك ، فيَكرَهُ هو ذلك ، ولا يَقدِرُ علىٰ مُخالَفَتِهما سَمعَ منه : الآباءُ والأبْناءُ والأحْفادُ ، وكَفَاهُ شَرَفاً أنْ يُحدِّثَ طُولَ تِلكَ السِّنينَ ، ولا يَجدَ أحَدٌ فيه مَغْمَزاً بحُجَّة ، وما رَأينا الرِّحْلةَ في بِلادٍ من بِلادِ الإسْلامِ أكثَرَ منها إليه ، فقد رَأيتُ جَماعَةً من أهْلِ الأنْدَلُسِ وجَماعَةً من أهْلِ

---

(١) انظر السير : (الذُّهْليُّ وابنُه) ١٢/ ٢٧٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٠٠ .

(٢) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ محمَّد بنِ يَحْيَى الذُّهْليُّ) ١٢/ ٢٨٥ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٠١ .

طرازَ[1] وإسْبيجابَ علىٰ بابِه ، وكذا جَماعَة من أهْلِ فارِس سَمعتُه غيرَ مرَّة يقولُ وُلِدتُ سَنةَ سَبعٍ وأرْبَعينَ ومئتَين[2] .

٦ـ مَنْ مَنَعَ ابنَه من التَّعْليم ثم ظَهَر له خَطَؤه :

قالَ إبْراهيمُ الحَربيُّ : كانَ وَالِدُ هُشَيم صاحِبُ صِحْنَاءَ وكَامَخ[3] ، فكانَ يَمنَعُ هُشَيْماً من الطَّلبِ ، فكَتبَ العِلمَ حتَّىٰ ناظَرَ أبا شَيْبَةَ القاضي ، وجَالَسَه في الفِقْه قالَ : فمَرِضَ هُشَيْمُ ، فجاءَ أبو شَيْبَةَ يَعُودُه ، فمَضَىٰ رَجُلٌ إلىٰ بَشير ، فقالَ : الْحَقْ ابْنَكَ ، فقد جاءَ القاضي يَعودُه ، فجاءَ فوَجدَ القاضي في دارِه ، فقالَ : متَىٰ أمَّلتُ أنا هـٰذا ، قد كُنتُ يا بُنَيَّ أمْنَعُكَ ، أمَّا اليَومَ فَلا بَقيتُ أمْنَعُك[4] .

٧ـ حُبُّ الآباء للأبْنَاء :

قالَ أُسَامَةُ : كانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَأخُذُني والحَسَنَ ويَقولُ : « اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا »[5] .

وعن عَدِيِّ بنِ ثابِت ، عن البَرَاء ، قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم للحَسَنِ : « اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ » .

وفي ذلك عدَّةُ أحاديثَ ، فهو مُتَواتِر[6] .

وعن يَعْلىٰ بنِ مُرَّة ، قالَ : جاءَ الحَسَنُ والحُسَين يَسْعَيانِ إلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فجاءَ أحَدُهما قبلَ الآخَر ، فجَعلَ يدَه في رَقَبَتِه ، ثم ضَمَّه إلىٰ إبِطِه ، ثم قبَّلَ هـٰذا ، ثم قبَّلَ هـٰذا ، وقالَ صلى الله عليه وسلم : « إنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا » ، ثم قالَ

---

(١) بلد قريب من إسْبيجاب ، من ثغور الترك ، في أقصىٰ بلاد الشاش مما يلي تركستان .

(٢) انظر السير : (الأصَمُّ) ١٥/ ٤٥٢ـ ٤٦٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٨ .

(٣) الصِّحْناء : بكسر الصَّاد : إدامٌ يُتَّخَذُ من السمك يمد ويقصَر ، والكامَخ : ما يؤتدمُ به ، أو المخلَّلات المشهية والكلمتان معرَّبَتان .

(٤) انظر السير : (هُشَيْمُ) ٨/ ٢٨٧ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٦/٧٥٨ .

(٥) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بنُ أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣٧٨ .

(٦) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بنُ أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/٣٧٨ .

صلى الله عليه وسلم : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إنَّ الوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ »[1] .

وعن حُسَينِ بنِ وَاقِد : حدَّثني عبدُ الله بنُ بُرَيْدَة ، عن أبيه قالَ : كانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخطُبُ ، فأقْبَلَ الحَسَنُ والحُسَينُ ، عَليهِما قَميصَانِ أحْمَرانِ يَعْثُرَانِ ويَقُومَانِ ، فنزَلَ صلى الله عليه وسلم فأخَذَهُما ، فوَضَعَهُما بينَ يَدَيه ثم قالَ صلى الله عليه وسلم : « صَدَقَ اللهُ ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[2] رَأيْتُ هَـٰذَينِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ » ثم أخَذَ في خُطبَتِه[3] .

٨ـ ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[4] :

قالَ سِبطُ الجَوْزيِّ : كانَ الأشْرَفُ يَحضُرُ مَجالِسي بحرَّانَ ، وبخِلاطَ ، ودِمَشْقَ وكان مَلكاً عَفيفاً ، قالَ لي : ما مَدَدتُ عَينيَّ إلىٰ حَريمِ أحَد ولا ذَكَر ولا أنْثىٰ جاءَتني عَجوزٌ من عندِ بنتِ صاحِبِ خِلاط شَاه أرْمَن بأنَّ الحاجِبَ عَليّاً أخَذَ لها ضَيْعَةً فكَتَبتُ بإطْلاقِها ، فقالَت العَجوزُ : تُريدُ أنْ تَحضُرَ بينَ يَدك ، فقُلتُ : باسْمِ الله ، فجاءَت بها فلَمْ أرَ أحْسَنَ من قَوامِها ولا أحْسَنَ من شَكْلِها ، فقُمتُ لها ، وقُلتُ : أنْتِ في هـٰذا البَلَدِ وأنا لا أدْري ؟ فسَفرَت عن وَجْهٍ أضاءَت منه الغُرفَة ، وقُلتُ : لا ، اسْتَتِري فقالَت : ماتَ أبي واسْتَولَىٰ على المَدينَة بكتمر ، ثم أخَذَ الحاجِبُ قَرْيَتي وبَقيتُ أعيشُ من عَمَلِ النَّقْش وفي دارٍ بالكِراء فبَكيتُ لها ، وأمَرْتُ لها بدارٍ وقِماشٍ ، فقالَت العَجوزُ : يا خَوَنْد ألا تَحْظَى الليلةَ بك ؟ فوَقَعَ في قَلْبي تَغيُّرُ الزَّمانِ وأنَّ خِلاطَ يَملِكُها غَيري ، وتَحْتاجُ بنتي أنْ تَقْعُدَ هـٰذه القَعْدَة ، فقُلتُ : مَعاذَ الله ، ما هـٰذا من شِيمَتي فقامَت الشَّابَّةُ باكيَةً تَقولُ : صَانَ اللهُ عَواقِبَك[5] .

---

(١) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بنُ أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/٣٧٩ .
(٢) سورة التغابُن ، الآية : ١٥ .
(٣) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عَليّ بنُ أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١/٣٨٠ .
(٤) سورة النساء ، الآية : ٩ .
(٥) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٣ .

٩ـ مَنْ سَمَّى ابنَه اسْماً صالحاً رَجاءَ السَّعْد :

رُويَ عن شُعْبَةَ ، قالَ : سَمَّيتُ ابْني سَعْداً ، فمَا سَعِدَ ولا أفْلَحَ[١] .

١٠ـ تَوْطينُ النَّفْسِ على الصَّبْر عند فَقْد الأبْنَاء :

وقال الشيخُ عبدُ القادِر الجيلاني : إذا وُلدَ لي ولدٌ أخذْتُه علىٰ يَديَّ ، وأقولُ : هٰذا مَيّتٌ ، فأُخْرِجُه من قَلْبي ، فإذا ماتَ لم يُؤثِّر عندي مَوْتُه شيئاً[٢] .

١١ـ حَالُ الآباء عند فَقْد الأبْنَاء :

قالَ سُفْيانُ الثَّوْريُّ : اشْتَكَىٰ بَعضُ أوْلادِ أبي جَعْفَرٍ البَاقِر ، فجَزِعَ عَليه ، ثم أُخْبِرَ بمَوْتِه ، فسُرِّيَ عَنه فقيلَ له في ذلك فقالَ : نَدْعُو اللهَ فيما نُحِبُّ ، فإذا وَقَعَ ما نَكرَهُ ، لَمْ نُخالِف اللهَ فيما أحَبَّ[٣] .

وعن ابنِ عُيَيْنَة قالَ : لَمَّا ماتَ ذَرُّ بنُ عُمَرَ قَعَدَ عُمَرُ علىٰ شَفيرِ قَبرِه ، وهو يَقولُ : يا بُنَيَّ ، شَغَلَني الحُزْنُ لَكَ ، عن الحُزْنِ عَليكَ ، فلَيتَ شِعْري ، ما قُلتَ ، ومَا قِيلَ لَكَ ؟ اللَّهُمَّ إنَّكَ أمَرْتَه بطَاعَتِكَ وببرِّي فقد وَهَبتُ له ما قَصَّرَ فيه من حَقِّي ، فهَبْ له ما قَصَّرَ فيه من حَقِّكَ وقيلَ : إنَّه قالَ : انْطَلَقْنا وتَركْناكَ ، ولَوْ أقَمْنَا ما نَفَعْنَاكَ ، فنَسْتَودِعُكَ أرْحَمَ الرَّاحِمينَ .

تُوفِّيَ عُمَرُ بنُ ذَر في سَنةِ ثَلاثٍ وخَمسينَ ومئة ، وكانَ ثِقَةً ، إنْ شاءَ اللهُ ، كَثيرَ الحَديثِ[٤] .

١٢ـ تَطْمينُ الرَّجُلِ أوْلادَه حالَ المَوْت إلىٰ وُجُودِ ما يَكفيهم بعدَه :

وقيلَ : إنَّ الْمُعْتَضِدَ لَمَّا نَفَّذَ إلى الحَرْبيِّ بالعَشرَةِ آلافٍ فرَدَّها ، فقِيلَ له : ففرِّقْهَا ، فأبَىٰ ، ثم لَمَّا مَرِضَ سَيَّرَ إليه الْمُعْتَضِدُ ألفَ دينارٍ ، فلَمْ يَقبلْها ، فخاصَمَته بِنتُه ،

---

(١) انظر السير : (شُعْبَة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٩٤ .

(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٥٧٥ .

(٣) انظر السير : (أبو جَعْفَر البَاقِر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٢٣ .

(٤) انظر السير : (عُمَرُ بنُ ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٦١ .

فقالَ : أتَخْشَينَ إذا مِتُّ الفَقرَ ؟ قالَت : نَعَم قالَ : في تِلكَ الزَّاوِيَة اثنَا عَشرَ ألفَ جُزءٍ حَديثيَّة ولُغَويَّة وغَيرُ ذلك كَتَبتُها بخَطِّي ، فبِيعي منها كُلَّ يَومٍ جُزءاً بدِرْهَم وأنْفِقِيه .

تُوفِّيَ سَنةَ خَمسٍ وثَمانينَ ومئتين ، وكانَت جنازَته مَشْهودَةً ، وقَبرُه يُزارُ ببَغْدادَ[1] .

١٣ـ واحدٌ من العُلَماء لمْ يَرَ ابْنَتَه أبداً ، ورَدُّ الذهبيِّ عليه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الحُطَيْئة : وحَكَىٰ لنا شُجاعٌ أنَّ أبا العَبَّاسِ ابنَ الحُطَيِّئة وُلِدَت له بِنتٌ ، فلمَّا كَبِرَت أقْرَأها بالسَّبْع ، وقَرَأتْ عَليه « الصَّحيحَين » وغَيرَ ذلك ، وكَتبَت الكَثيرَ وتَعلَّمَت عَليه كَثيراً من العِلمِ ، ولَمْ يَنظُرْ إليها قَطُّ ، فسَألتُ شُجاعاً : أكانَ ذلكَ عن قَصْدٍ ؟ فقالَ : كانَ في أوَّلِ العُمرِ اتِّفاقاً ، لأنَّه كانَ يَشتَغلُ بالإقْراءِ إلى الْمَغرِبِ ، ثم يَدخُلُ بَيتَه وهي في مَهْدِها ، وتَمادَى الحَالُ إلىٰ أن كَبِرَت ، فصارَت عادَةً ، وزَوَّجَها ودَخَلت بَيتَها والأمْرُ علىٰ ذلك ، ولَمْ يَنظُرْ إليها قَطُّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لا مَدْحَ في مثل هَـٰذا ، بَلِ السُّنَّةُ بخِلافِه ، فقد كانَ سَيِّدُ البَشَرِ صلى الله عليه وسلم يَحملُ أُمَامَةَ بنتَ ابْنَتِه وهو في الصَّلاةِ .

تُوفِّيَ ابنُ الحُطَيْئة رَحمَه الله سَنةَ ستّينَ وخَمسِ مئة ، وقَبرُه بالقَرافَة ظاهرٌ يُزارُ[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (إبْراهيمُ الحَرْبيُّ) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٥ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الحُطَيْئة) ٢٠/ ٣٤٤ـ٣٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٦٠ .

بِرُّ الوَالِدَيْن

١ـ كيفَ يُصيبُ الإنْسانُ البِرَّ :

يَقولُ وَهْبُ بنُ مُنَبِّه : ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه أصَابَ البِرَّ : السَّخاءُ والصَّبرُ على الأذَىٰ ، وطِيبُ الكَلامِ[١] .

٢ـ مَنْ بَرَّكَ فقد أَوْثَقَكَ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَكيمِ التِّرْمِذيِّ : ومن كلامِه : لَيسَ في الدُّنيا حِملٌ أثْقَلَ من البِرِّ ، فمَنْ بَرَّكَ فقَد أوْثَقَك ، ومَنْ جَفَاكَ فقَد أطْلَقَكَ[٢] .

٣ـ قَواعِدٌ في بِرِّ الوَالدَين :

عن عُرْوَةَ قالَ : ما بَرَّ وَالِدَه مَنْ شَدَّ الطَّرْفَ إليه[٣] .

وقالَ هِشامُ بنُ حسَّان : حدَّثَتني حَفْصَةُ بنتُ سِيرينَ قالَت : كانَت وَالِدَةُ محمَّدِ بنِ سِيرينَ حِجازيَّةً ، وكانَ يُعجِبُها الصِّبْغُ ، وكانَ محمَّدُ إذا اشْتَرَىٰ لها ثَوْباً اشْتَرَىٰ أَلْيَنَ ما يَجِدُ ، فإذا كانَ عِيدٌ ، صَبغَ لها ثياباً ، وما رَأيتُه رافِعاً صَوتَه عَليها ، كانَ إذا كَلَّمها كالْمُصْغي إليها[٤] .

وعن ابنِ عَوْن ، أنَّ محمَّدَ بنَ سِيرينَ كانَ إذا كانَ عندَ أُمِّه لَوْ رآه رَجلٌ لا يَعرِفُه ، ظَنَّ أنَّه به مَرَضاً من خَفضِ كَلامِه عندَها[٥] .

---

(١) انظر السير : (وَهْبُ بنُ مُنَبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٦/٥٥٤ .
(٢) انظر السير : (الحَكيم) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١١٠٠ .
(٣) انظر السير : (عُرْوَة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٥٢٨ .
(٤) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٧/٥٧٠ .
(٥) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٥٧١ .

٤ـ عاقِبَةُ البِرِّ بالوَالدَين الجَنَّةُ ـ إنْ شَاءَ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ حارِثَةَ بنِ النُّعْمان : وهو الذي يَقولُ فيه رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « دَخَلتُ الْجَنَّةَ ، فَسَمِعْتُ قِرَاءَةً ، فَقُلْتُ : مَنْ هَـٰذَا ؟ قِيلَ : حَارِثَةُ »! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كذَاكمُ الْبِرُّ » وكان بَرّاً بأُمِّه ، رضي الله عنه[١] .

عن يُونُسَ بنِ عُبَيْد قالَ : يُرْجَىٰ للرَّهِقِ بالبِرِّ الجَنَّةَ ، ويُخافُ على الْمُتَأَلِّه بالعُقُوقِ النَّار[٢] .

٥ـ دُعَاءُ الوَالدَين مُسْتَجابٌ ـ إنْ شَاءَ الله :

قالَ سَهلُ بنُ بِشْر : حدَّثنا سُلَيمُ بنُ أيُّوبَ أنَّه كانَ في صِغَرِه بالرِّيِّ ، وله نَحوٌ من عَشر سِنينَ ، فحَضَرَ بَعضُ الشُّيوخ وهو يُلَقِّنُ قالَ : فقالَ لي : تَقدَّمْ فاقْرأ فجَهِدتُ أنْ أقْرأَ الفاتِحَةَ ، فلَمْ أقْدِرْ علىٰ ذلك لانْغِلاقِ لِساني فقالَ : لكَ وَالِدَةٌ ؟ قُلتُ : نَعَم قالَ : قُلْ لَها تَدعُو لَكَ أنْ يَرزُقَكَ اللهُ قِراءَةَ القُرآنِ والعِلمَ قُلتُ : نَعَم فرَجَعتُ ، فسَألتُها الدُّعاءَ فدَعَتْ لي ، ثم إنِّي كَبِرْتُ ، ودَخَلتُ بَغدادَ ، قَرأتُ بها العَربيَّةَ والفِقْهَ ، ثم عُدتُ إلى الرِّيِّ ، فبَيْنا أنا في الجَامِعِ أُقابِلُ « مُخْتَصَرَ » الْمُزَنيِّ ، وإذا الشَّيخُ قد حَضَرَ وسلَّمَ علينا وهو لا يَعرفُني ، فسَمِعَ مُقابَلَتَنا ، وهو لا يَعلَمُ ماذا نَقولُ ، ثم قالَ : مَتىٰ يُتعلَّمُ مثلُ هـٰذا ؟ فأرَدتُ أنْ أقولَ : إنْ كانَت لكَ وَالِدَةٌ ، فقُلْ لَها تَدعُو لكَ فاسْتَحْيَيْتُ[٣] .

٦ـ صُوَرٌ لبِرِّ الوَالدَين :

عن محمَّدِ بنِ الْمُنْكَدِر ، أنَّه كانَ يَضَعُ خَدَّه على الأرْضِ ، ثم يَقولُ لأُمِّه : قُومي ضَعي قَدَمَك علىٰ خَدِّي[٤] .

---

(١) انظر السير : (حارِثَةُ بنُ النُّعْمان) ٢/ ٣٧٨ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٧٧ .
(٢) انظر السير : (يُونُسُ بنُ عُبَيْد) ٦/ ٢٨٨ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٥٢ .
(٣) انظر السير : (سُلَيمُ بن أيُّوب) ١٧/ ٦٤٥ـ ٦٤٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٧١ .
(٤) انظر السير : (محمَّد بنُ الْمُنْكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٠٨ .

وقالَ سَعيدُ بنُ عامِر : قالَ ابنُ الْمُنْكَدِر : باتَ أخي عُمَرُ يُصلِّي ، وبِتُّ أغْمِزُ قَدَمَ أُمِّي ، وما أُحِبُّ أنَّ لَيْلَتِي بلَيْلَتِه[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مَنْصورِ بنِ الْمُعْتَمِر : حدَّثَنا الأخْنَسيُّ ، سَمعتُ أبا بَكر يَقولُ : كُنتُ مع مَنْصورٍ جالِساً في مَنزِله ، فتَصيحُ به أُمُّه ، وكانَت فَظَّةً عليه ، فتَقولُ : يا مَنْصورُ يُريدُكَ ابنُ هُبَيْرَةَ على القَضَاءِ فتَأبَىٰ ، وهو واضِعٌ لِحْيَتَه علىٰ صَدرِه ، ما يَرفَعُ طَرفَه إليها[2] .

وقيلَ : إنَّ كَهْمَسَ أرادَ قتلَ عَقرَبٍ ، فدَخلَتْ في جُحْرٍ فأدْخَلَ أصَابِعَه خَلفَها فضَربَته فقيلَ له : قالَ : خِفْتُ أنْ تَخرُجَ ، فتَجيءُ إلىٰ أُمِّي تَلْدَغُها[3] .

وعن ابنِ عَوْنٍ : أنَّ أُمَّه نادَتْه فأجَابَها ، فعَلا صَوتُه صَوْتَها فأعْتَقَ رَقبَتَين .

قالَ قرةُ بنُ خالد : كُنَّا نَعجَبُ من وَرَع محمَّدِ بنِ سِيرينَ فأنْسَاناهُ ابنُ عَوْن[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ بُنْدار : وجَمعَ حَديثَ البَصْرَةِ ، ولَمْ يَرْحَلْ ، بِرّاً بأُمِّه ، ثم رَحَلَ بَعدَها[5] .

وقالَ عبدُ الله بنُ جَعْفَر بنِ خَاقَانَ الْمَرْوزيُّ : سَمعتُ بُنْداراً يَقولُ : أرَدتُ الخُروجَ ـ يَعني : الرِّحْلةَ ـ فمَنَعَتني أُمِّي ، فأطَعْتُها فبُورِكَ لي فيه[6] .

وقالَ جَعْفَرٌ الخلديُّ : كانَ الأبَّارُ من أزْهَدِ النَّاسِ ، اسْتأذَنَ أُمَّه في الرِّحْلَة إلىٰ قُتَيْبَةَ ، فلَمْ تَأذَنْ له ، ثم ماتَتْ ، فخَرجَ إلىٰ خُراسَانَ ، ثم وَصَلَ إلىٰ بَلْخَ وقد ماتَ قُتَيْبَةُ ، فكانوا يُعَزُّونَه علىٰ هـٰذا ، فقالَ : هـٰذا ثَمرَةُ العِلمِ ، إنِّي اخْتَرتُ رِضَا الوَالِدَة[7] .

---

(١) انظر السير : (محمَّد بنُ الْمُنْكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ١/٦٠٩ .
(٢) انظر السير : (مَنْصورُ بنُ الْمُعْتَمِر) ٥/ ٤٠٢ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٥/٦١٧ .
(٣) انظر السير : (كَهْمَس) ٦/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٦/٦٥٣ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عَوْن) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٦/٦٥٦ .
(٥) انظر السير : (بُنْدار) ١٢/ ١٤٤ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٢/٩٨٩ .
(٦) انظر السير : (بُنْدار) ١٢/ ١٤٤ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩٨٩ .
(٧) انظر السير : (الأبَّار) ١٣/ ٤٤٣ـ ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠١ .

وقالَ ابنُ النَّجَّار : قَرأتُ بخَطِّ مَعْمَرَ بنِ الفاخر في « مُعْجَمِه » أخْبَرَني أبو القاسِم الحافِظُ إمْلاءً بِمِنَىٰ وكان من أحْفَظِ مَنْ رَأيتُ وكان شَيخُنا إسْماعيلُ بنُ محمَّد الإمَامُ يُفَضِّلُه علىٰ جَميعِ مَنْ لَقيناهم ، قَدِمَ أصْبَهانَ ونزَلَ في دَاري ، وما رَأيتُ شَابّاً أحْفَظَ ولا أوْرَعَ ولا أتْقَنَ منه وكانَ فَقيهاً أديباً سُنِّياً ، سألتُه عن تأخُّرِه عن الرِّحْلَة إلىٰ أصْبَهَانَ قالَ : اسْتأذَنتُ أُمِّي في الرِّحْلَة إليها ، فمَا أذِنَتْ[1] .

* * *

(١) انظر السير : (ابنُ عَسَاكر) ٢٠/ ٥٥٤ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٥ .

الدُّنْيا

١ـ أقْوالٌ تُحَذِّرُ من الاغْتِرارِ بالدُّنْيا وتَحُثُّ على العَملِ للآخِرَة :

عن ابنِ الحَنَفيَّةَ : إنَّ اللهَ جَعَلَ الجَنَّةَ ثَمَناً لأنْفُسِكُم فلا تَبيعُوها بغَيرِها[١] .

قالَ إبراهيمُ بنُ أدْهَم : مَنْ طَلَبَ العِلمَ لله ، كانَ الخُمولُ أحَبَّ إليه من التَّطاوُل ، والله ما الحَياةُ بثِقَةٍ ، فيُرجَىٰ نَومُها ، ولا الْمَنِيَّةُ بعُذْر ، فيُؤمَنُ عُذرُها ، ففيمَ التَّفْريطُ والتَّقْصيرُ والاتِّكَالُ والإبْطَاءُ ؟ قد رَضينا من أعْمالِنا بالْمَعَاني ، ومِنْ طَلَبِ التَّوْبَة بالتَّوَاني ، ومِنْ العَيشِ البَاقي بالعَيشِ الفَاني[٢] .

وقالَ سَلْمُ بنُ عبدِ الله الخُراسَانيُّ : سَمعتُ الفُضَيلَ يَقولُ : إنَّما أمْسُ مَثَلٌ ، واليَومُ عَمَلٌ ، وغَداً أمَلٌ[٣] .

ومن كلامِ أبي مُعاويَةَ الأسْوَد : مَنْ كانَت الدُّنيا هَمَّه ، طالَ غَداً غَمُّه ، ومن خَافَ ما بَينَ يَدَيه ، ضَاقَ به ذَرْعُه . وله مَوَاعِظُ وحِكَم[٤] .

ومِمَّا رَواهُ الْمُعافَىٰ بنُ عِمْرانَ : عن سُفْيانَ ، عن حَجَّاجِ بنِ فُرافِصَة عن بُدَيل ، قالَ : مَنْ عَرَفَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ ، أحَبَّه ، ومَنْ أبْصَرَ الدُّنيا زَهِدَ فيها ، والْمُؤمِنُ لا يَلْهُو حتَّىٰ يَغْفُل ، فإذا تَذكَّرَ حَزِنَ[٥] .

وعن بِشْرِ بنِ الحارِث أنَّه قالَ : أمْسُ قد مَاتَ ، واليَومُ في السِّياقِ ، وغَداً لَمْ يُولَدْ[٦] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَنَفيَّة) ٤/ ١١٠ـ ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٥٨ .
(٢) انظر السير : (إبْراهيم بن أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٧٠٨ .
(٣) انظر السير : (الفُضَيْلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٧٤ .
(٤) انظر السير : (أبو مُعاويَة الأسْوَد) ٩/ ٧٨ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٠٠ .
(٥) انظر السير : (الْمُعَافَىٰ) ٩/ ٨٠ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٠١ .
(٦) انظر السير : (بِشْرُ بنُ الحارِث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٨٦ .

ومن كَلامِ ابنِ الجَوْزِيِّ : ما اجْتَمَعَ لامْرىءٍ أمَلُه ، إلاَّ وَسَعَىٰ في تَفْريطِه أجَلُه[1] .

٢ـ حَالُ الدُّنْيا :

وبَلَغَنا أنَّ الثَّوْريَّ كان كَثيراً ما يَتَمثَّلُ بأبْياتِ عِمْرانَ هٰذه :

أرىٰ أشقياءَ الناسِ لا يسأمونها ... علىٰ أنَّهم فيها عُراةٌ وجُوَّعُ
أراها وإنْ كانت تُحَبُّ فإنها ... سَحابةُ صَيْفٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ
كركبٍ قَضَوا حاجاتِهم وتَرَحَّلوا ... طريقُهُم بادي العلامةِ مَهْيَعُ

تُوفِّيَ عِمْرانُ ابنُ حِطَّان سَنةَ أرْبعٍ وثَمانين[2] .

وقال ابنُ الأعْرابيّ : كان أبو رَجَاء العَطاردي عابداً ، كثيرَ الصلاةِ وتلاوةِ القرآن ، كان يقولُ : ما آسَىٰ علىٰ شيء من الدنيا إلاَّ أنْ أُعَفِّرَ في التُّراب وجهي كلَّ يومٍ خَمسَ مرات[3] .

وعن سَعيدِ بنِ جُبَيْر قالَ : إنَّما الدُّنيا جمع من جُمَع الآخِرَة[4] .

وعن أبي جَعْفَر الباقِر ، قالَ : مَنْ دَخلَ قَلبَه ما في خالِصِ دينِ الله ، شَغلَه عمَّا سِوَاه ، ما الدُّنيا ، وما عَسَىٰ أنْ تَكون ، هَلْ هو إلاَّ مَرْكَبٌ رَكِبتَه أو ثَوْبٌ لَبِسْتَه ، أو امْرَأةٌ أصَبْتَها[5] .

ورَوَى ابنُ عُيَيْنَة عن أبي حازِم قالَ : اشْتدَّتْ مُؤنَةُ الدِّينِ والدُّنيا ، قيلَ : وكَيفَ ؟ قالَ : أمَّا الدِّينُ ، فلا تَجِدُ عَليه أعْواناً ، وأمَّا الدُّنيا فلا تَمُدُّ يَدَكَ إلىٰ شَيءٍ منها إلاَّ وَجَدتَ فاجِراً قد سَبَقَكَ إليه[6] .

---

(١) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٨/١٦٣٤ .
(٢) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٦/٤٨١ .
(٣) انظر السير : (أبو رجاء العطاردي) ٤/ ٢٥٣ـ ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٩٤ .
(٤) انظر السير : (سَعيد بنُ جُبَيْر) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٨/٥٠٦ .
(٥) انظر السير : (أبو جَعْفَر الباقِر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/٥٢٢ .
(٦) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣٦ .

وعن أبي حازِم ، قالَ : ما أحْبَبْتَ أنْ يَكُونَ مَعكَ في الآخِرَة ، فاتْرُكهُ اليومَ وقالَ : انْظُر كُلَّ عَملٍ كَرِهْتَ الْمَوتَ من أجْلِه ، فاتْرُكْهُ ثم لا يَضُرُّكَ متَىٰ مِتَّ[1] .

وعنه أيضاً ، قالَ : ما الدُّنيا ؟ ما مَضىٰ منها فحُلمٌ ، وما بَقِيَ منها فأمَانيُّ[2] .

وعنه أيضاً ، قالَ : وَجَدتُ الدُّنيا شَيئَين : فشَيئاً هو لي ، وشَيئاً لغَيري فأمَّا ما كانَ لغَيري ، فلَوْ طلَبْتُه بحيلَة السَّماوات والأرْض لَمْ أصِلْ إليه فيُمْنَعُ رِزْقُ غَيري منِّي كَما يُمْنَعُ رِزْقي من غَيري[3] .

وعن ابنِ السَّمَّاك : الدُّنيا كلُّها قَليلٌ ، والذي بَقِيَ منها قَليلٌ ، والذي لك من البَاقي قَليلٌ ، ولَمْ يَبْقَ من قَليلِكَ إلاَّ قَليلٌ ، وقد أصْبَحتَ في دَارِ العَزَاءِ ، وغَداً تَصيرُ إلىٰ دَارِ الجَزَاءِ ، فاشْتَرِ نَفسَكَ لَعلَّكَ تَنْجُو .

تُوفِّيَ ابنُ السَّمَّاك سَنةَ ثَلاثٍ وثَمانينَ ومئة ، وقد أسَنَّ[4] .

وعن عَليِّ بنِ مُوسَى الرِّضَىٰ ، عن أبيه ، قالَ : إذا أقْبَلَت الدُّنيا علىٰ إنْسانٍ ، أعْطَتْهُ مَحَاسِنَ غَيرِه ، وإذا أدْبَرَتْ عَنهُ ، سَلبَتهُ مَحَاسِنَ نَفسِه[5] .

وقالَ أبو عَليٍّ الثَّقَفيُّ : أُفٍّ مِنْ أشْغَالِ الدُّنيا إذا أقْبَلَت ، وأُفٍّ مِنْ حَسَراتِها إذا أدْبَرَت العاقِلُ لا يَرْكَنُ إلىٰ شَيءٍ ، إنْ أقْبَلَ كانَ شُغْلاً وإنْ أدْبَرَ كان حَسْرةً[6] .

٣ـ قَوْلٌ جَميلٌ في أمْر الدُّنْيا :

عن ابنِ الحَنَفيَّةِ ، قالَ : مَنْ كَرُمَتْ عليه نَفسُه لَمْ يَكُنْ للدُّنيا عندَه قَدْرٌ[7] .

عن خالِدِ بنِ مَعْدانَ ، قالَ : ما مِنْ آدَميٍّ إلاَّ ولَه أرْبَعُ أعْيُن : عَيْنانِ في رَأسِه يُبصِرُ

---

(١) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٣٦ .
(٢) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٣٧ .
(٣) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٣٧ .
(٤) انظر السير : (ابنُ السَّمَّاك) ٨/ ٣٢٨ـ ٣٣٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٦٢ .
(٥) انظر السير : (عَليٌّ الرِّضَىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٣١ .
(٦) انظر السير : (أبو عَليٍّ الثَّقَفيُّ) ١٥/ ٢٨٠ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٢٢٧ .
(٧) انظر السير : (ابنُ الحَنَفيَّة) ٤/ ١١٠ـ ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٥٨ .

بهما أمْرَ الدُّنيا ، وعَيْنانِ في قَلبه يُبصِرُ بهما أمْرَ الآخِرَة ، فإذا أرادَ اللهُ بعَبدٍ خَيْراً ، فَتَح عَيْنَيه اللَّتَينِ في قَلبِه ، فأبْصَرَ بهما ما وُعِدَ بالغَيبِ ، فأمِنَ الغَيبَ بالغَيبِ[1] .

٤ـ حَالُ السَّلَف مع الدُّنْيا :

رَوَى الثَّوريُّ : قالَ إبْراهيمُ التَّيْميُّ : كَمْ بَينَكم وبَينَ القَومِ! أقْبَلَتْ عَليهم الدُّنيا فهَرَبُوا ، وأدْبَرَتْ عَنكُم ، فاتَّبَعْتُمُوها[2] .

وقالَ خالدُ بنُ خِدَاش : سَمعَتْ رَابِعَةُ العَدَويَّة صالِحاً الْمُرِّيَّ يَذكُرُ الدُّنيا في قِصَصِه ، فنادَتْه : يا صالِحُ ، مَنْ أحَبَّ شَيئاً أكْثَرَ مِنْ ذِكْرِه[3] .

وعن بِشْرِ بنِ صالِح العَتكي ، قالَ : اسْتأذَنَ نَاسٌ علىٰ رابِعَةَ ومَعَهم سُفْيانُ الثَّوريُّ فتَذاكَروا عِندَها سَاعَة ، وذَكَروا شَيئاً من الدُّنيا ، فلمَّا قامُوا قالَت لِخادِمَتِها : إذا جاءَ هـٰذا الشَّيخُ وأصْحابُه ، فلا تَأذَنِي لَهُم ، فإنِّي رَأيتُهم يُحِبُّونَ الدُّنيا[4] .

عن ابنِ حَفْصُونَ ، قالَ : قُلتُ لأبي وَهْب : تَعلَمُ أنِّي كَبيرُ الدَّارِ فاسْكُنْ مَعي ، وأخْدمُكَ وأُشَارِكُكَ في الحُلوِ والْمُرِّ ، قالَ : لا أفْعَلُ ، إنِّي طَلَّقتُ الدُّنيا بالأمْسِ ، أفَأُراجِعُها اليَومَ ؟ فالْمُطَلِّقُ إنَّما يُطَلِّقُ الْمَرأَةَ بَعدَ سُوءِ خُلُقِها ، وقِلَّةِ خَيْرِها ، ولَيسَ في العَقْلِ الرُّجُوعُ إلىٰ مَكْرُوهٍ ، وفي الحَديثِ « لا يُلْدَغُ مُؤْمِنٌ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ »[5] .

٥ـ التَّحَرُّرُ من عَلائقِ الدُّنْيا :

قالَ ثابتٌ : جاءَ رَجلٌ إلىٰ صِلَةَ بنِ أَشْيَم بنَعْي أخيه ، فقالَ له : ادْنُ فكُلْ فقَد نُعيَ إليَّ أخي مُنذُ حين ، قالَ تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[6] ،[7] .

---

(١) انظر السير : (خالِدُ بنُ مَعْدان) ٤/ ٥٣٦ـ ٥٤١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥٢ .
(٢) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ يَزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٨٠ .
(٣) انظر السير : (رابِعَةُ العَدَويَّة) ٨/ ٢٤١ـ ٢٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٤٧ .
(٤) انظر السير : (رابِعَةُ العَدَويَّة) ٨/ ٢٤١ـ ٢٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٤٧ .
(٥) انظر السير : (أبو وَهْب) ١٥/ ٥٠٦ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٥٤ .
(٦) سورة الزمر ، الآية : ٣٠ .
(٧) انظر السير : (صِلَةُ بن أَشْيَم) ٣/ ٤٩٧ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٤١٦

وقالَ بِلالُ بنُ سَعْد : وُشِيَ بعامِرِ بنِ عبدِ قَيْس إلىٰ زِيادٍ ، فقالوا : ها هُنا رَجلٌ قيلَ له : ما إبْراهِيمُ عليه السلام خَيراً مِنْكَ فسَكَتَ ، وقد تَرَكَ النِّساءَ .

فكَتبَ فيه إلىٰ عُثْمانَ ، فكَتبَ إليه : انْفِه إلى الشَّامِ علىٰ قَتَبٍ[1] فلمَّا جاءَه الكِتابُ ، أرْسَلَ إلىٰ عامِر ، فقالَ : أنتَ قيلَ لكَ : ما إبْراهِيمُ عليه السلام خَيراً مِنْكَ فسَكَتَّ ؟ قالَ : أمَا واللهِ ما سُكُوتي إلاَّ تَعَجُّبٌ ، ولَوَدِدْتُ أنِّي غُبارُ قَدَمَيْه قالَ : وتَرَكْتَ النِّساءَ ؟ قالَ : واللهِ ما تَرَكْتُهنَّ إلاَّ أنِّي قد عَلمتُ أنَّه يَجيءُ الوَلدُ وتشَعَّبُ في الدُّنيا ، فأحْبَبْتُ التَّخَلِّي .

فأجْلاهُ علىٰ قَتَبٍ إلى الشَّامِ ، فأنْزَلَه مُعاويَةُ مَعه في الخَضْراء[2] وبَعثَ إليه بجَاريَةٍ ، وأمَرَها أنْ تُعْلِمَه ما حَالُه فكانَ يَخرُجُ من السَّحَر ، فلا تَراهُ إلاَّ بَعدَ العَتْمَة فيَبعَثُ مُعاويَةُ إليه بطَعَامٍ ، فلا يَعْرِضُ له ، ويَجيءُ بِكِسَرٍ ، فيَبلُّها ويَأكُلُ ، ثم يَقومُ إلىٰ أنْ يَسمَعَ النِّداءَ فيَخرُجُ ، فكتَبَ مُعاويَةُ إلىٰ عُثْمانَ يَذكُرُ حالَه ، فكَتبَ : اجْعَلْهُ أوَّلَ داخِلٍ وآخِرَ خارِجٍ ، ومُرْ له بعَشرَةٍ من الرَّقيقِ ، وعَشرَةٍ من الظَّهْرِ ، فأحْضَرَه وأخْبَرَه قالَ : إنَّ عَليَّ شَيْطاناً قد غَلبَني ، فكَيفَ أجْمَعُ عَليَّ عَشرَةً وكانَت له بَغلَةٌ[3] .

٦ـ حُبُّ الدُّنْيا والسُّرورُ بها :

عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه ، أنَّ عِيسَىٰ عليه السلام قالَ لِلحَواريِّينَ : أشَدُّكم جَزَعاً على الْمُصيبَة ، أشَدُّكم حُبّاً للدُّنيا[4] .

وعن سُفْيانَ الثَّوْريّ : مَنْ سُرَّ بالدُّنيا ، نُزِعَ خَوفُ الآخِرَةِ من قَلبِه[5] .

وعن سُحْنُونَ قالَ : مُحِبُّ الدُّنيا أعْمَىٰ ، لَمْ يُنَوِّرْهُ العِلمُ[6] .

---

(١) القَتَب : الرحل الصغير علىٰ قدر سَنام البَعير .
(٢) الخَضْراء : هي دار الإمارَة بدِمَشْقَ ، بناها مُعاويَة .
(٣) انظر السير : (عامِرُ بنُ عَبد قَيْس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٣٣ .
(٤) انظر السير : (وَهْبُ بنُ مُنَبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٥٥٤ .
(٥) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٩٩ .
(٦) انظر السير : (سُحْنُون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٩/ ٩٨٢ .

قالَ أحمَدُ بنُ أبي الحَواريِّ : مَنْ نَظرَ إلى الدُّنيا نَظَرَ إرادَةٍ وحُبٍّ ، أخْرَجَ اللهُ نُورَ اليَقينِ والزُّهْدِ من قَلبه[1] .

ومن كَلامِ أبي عُثْمانَ الحِيري : سُرُورُكَ بالدُّنيا أذْهَبَ سُرُورُكَ بالله عن قَلبِك[2] .

٧ـ تَقْديمُ أمْرِ الآخِرَة علىٰ أمُورِ الدُّنْيا :

قالَ ابنُ بَشْكُوالَ : كانَ الطُّرْطُوشيُّ إماماً عالِماً ، زَاهِداً وَرِعاً ، دَيِّناً مُتَواضِعاً مُتَقَشِّفاً مُتَقَلِّلاً من الدُّنيا ، راضياً باليَسيرِ أخْبَرَنا عنه القاضي أبو بَكر ابنُ العَرَبي ، ووَصَفَه بالعِلمِ ، والفَضْلِ ، والزُّهْدِ ، والإقْبَالِ علىٰ ما يَعنيهِ قالَ لي : إذا عَرَضَ لك أمْرُ دُنيا وأمْرُ آخِرَة ، فبَادِرْ بأمْرِ الآخِرَةِ يَحْصُلْ لَكَ أمْرُ الدُّنيا والأُخْرَىٰ .

وقالَ إبْراهيمُ بنُ مَهْدي : كانَ شَيخُنا أبو بَكر زُهْدُه وعِبادَتُه أكثرُ من عِلمِه ، وحَكَىٰ بَعضُ العُلماء أنَّ أبا بَكر الطُّرْطُوشيُّ أنْجبَ عليه نحوٌ من مِئَتَي فَقيهٍ مُفتي[3] .

٨ـ قَولٌ بَليغٌ في تَرْكِ الدُّنْيا :

عن الْمُحاسَبيِّ قالَ : تَركُ الدُّنيا مع ذِكْرِها صِفَةُ الزَّاهِدينَ ، وتَرْكُها مع نِسْيانِها صِفَةُ العَارِفينَ[4] .

٩ـ اسْتِواءُ الدُّنْيا في أعْيُنِ الصَّالحين :

عن الرِّفاعيِّ أنَّه قالَ : لَوْ أنَّ عن يَميني جَماعَةً يُرَوِّحُوني بمَراوِحِ النَّدِّ والطِّيبِ وهم أقْرَبُ النَّاسِ إليَّ ، وعن يَسَاري مِثلَهم يَقْرِضُونَ لَحْمِي بمَقَارِيضَ وهم أبْغَضُ النَّاسِ إليَّ ، ما زَادَ هَؤُلاءِ عِندِي ، ولا نَقُصَ هَؤُلاءِ عِندِي بِمَا فَعَلوهُ ، ثم تَلا : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[5] ،[6] .

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ أبي الحَواريِّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٥/٩٨٥ .
(٢) انظر السير : (أبو عُثمان الحِيري) ١٤/ ٦٢ـ ٦٦ ، وانظر النزهة : ١/١١٣١ .
(٣) انظر السير : (الطُّرْطُوشيُّ) ١٩/ ٤٩٠ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٠٠ .
(٤) انظر السير : (الْمُحاسَبيُّ) ١٢/ ١١٠ـ ١١٢ ، وانظر النزهة : ٤/٩٨٨ .
(٥) سورة الحديد ، الآية : ٢٣ .
(٦) انظر السير : (الرِّفاعِيُّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٠١

١٠ـ أخْبارٌ تُحَذِّرُ من الاغْتِرار بالدُّنْيا :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ البَرْمَكيِّ : كانَ خالدٌ من رِجالِ العِلمِ ، تَوصَّلَ إلىٰ أعْلَى الْمَراتِبِ في دَولَةِ أبي جَعْفَر ، ثم كانَ ابنُه يَحْيَىٰ كامِلَ السُّؤدُدِ ، جَليلَ الْمِقْدارِ ، بحَيثُ إنَّ الْمَهْديَّ ضَمَّ إليه وَلَدَهُ الرَّشيدَ ، فأحْسَنَ تَربيتَه وأدَّبَه ، فلمَّا أفْضَتِ الخِلافَةُ إلى الرَّشيدِ ، رَدَّ إلىٰ يَحْيَىٰ مَقاليدَ الأمُورِ ، ورَفَعَ مَحلَّه ، وكانَ يُخاطِبُه يا أبي ، فكان من أعْظَم الوُزَراءِ ، ونَشأ له أوْلادٌ صَارُوا مُلُوكاً ، ولا سِيَّما جَعْفَر ، وما أدْراكَ ما جَعْفَر ؟ له نَبأٌ عَجيبٌ ، وشَأنٌ غَريبٌ ، بَقِيَ في الارْتِقاءِ في رُتبَةٍ ، شَرَكَ الخَليفَةَ في أمْوالِه ولَذَّاتِه وتَصرُّفِه في الْمَمَالِك ، ثم انْقَلبَ الدَّسْتُ في يَومٍ فقُتلَ ، وسُجنَ أبُوهُ وإخْوَتُه إلى الْمَمَاتِ ، فما أجْهَلَ مَنْ يَغْتَرُّ بالدُّنيا ! ![1] .

وقالَ الأصْمَعيُّ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ خالد يَقولُ : الدُّنيا دُوَلٌ ، والْمَالُ عَاريَةٌ ، ولَنَا بمَنْ قَبلَنا أُسْوَةٌ ، وفينا لِمَنْ بَعدَنا عِبْرَةٌ[2] .

قيلَ : إنَّ ولداً لِيَحْيَىٰ قالَ له وهُم في القُيودِ : يا أبَتِ بَعدَ الأمْرِ والنَّهْي والأمْوَالِ صِرْنا إلىٰ هَـٰذا ؟ قالَ : يا بُنَيَّ دَعْوَةُ مَظْلُومٍ غَفَلْنا عنها لَمْ يَغْفُلِ اللهُ عنها .

ماتَ يَحْيَىٰ مَسْجوناً بالرَّقَّة سَنةَ تِسْعينَ ومئة عن سَبعينَ سَنةً[3] .

فأمَّا جَعْفَرٌ ، فكانَ من مِلاحِ زَمانِه ، كانَ وَسيماً أبيَضَ جَميلاً فَصيحاً مُفوَّهاً ، أديباً ، عَذْبَ العِبارَة ، حاتِميَّ السَّخاءِ ، وكانَ لَعَّاباً غارِقاً في لَذَّاتِ دُنياه ، وَلِيَ نيابَةَ دِمَشْقَ ، فقَدِمَها في سَنةِ ثَمانينَ ومئة ، فكانَ يَسْتَخلِفُ عليها ، ويُلازِمُ هارُونَ ، وكانَ يَقولُ : إذا أقْبَلت الدُّنيا عَليكَ ، فأعْطِ ، فإنَّها لا تَفْنَىٰ ، وإذا أدْبَرَت ، فأعْطِ فإنَّها لا تَبْقَىٰ .

وقد اخْتُلِفَ في سَبَبِ مَصْرَع جَعْفَرٍ علىٰ أقْوالٍ[4] .

---

(١) انظر السير : (البَرْمَكِيُّ) ٩/ ٥٩ـ ٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٩٧ .
(٢) انظر السير : (البَرْمَكِيُّ) ٩/ ٥٩ـ ٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٩٧ .
(٣) انظر السير : (البَرْمَكِيُّ) ٩/ ٥٩ـ ٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٩٧ .
(٤) انظر السير : (البَرْمَكِيُّ) ٩/ ٥٩ـ ٧١ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٩٨ .

وسُئلَ سَعيدُ بنُ سَالِم عن ذَنْبِ البَرَامِكَة ، فقالَ : ما كانَ منهم بَعضُ ما يُوجِبُ ما فَعلَ الرَّشيدُ ، لكنْ طَالَتْ أيَّامُهُم ، وكُلُّ طَويلٍ يُمَلُّ[1] .

وفي تاريخ ابنِ خَلِّكانَ : أنَّ الرَّشيدَ دَعا ياسِراً غُلامَه ، فقالَ : قد انتُخَبتُكَ لأمْرٍ لَمْ أرَ لَه الأمينَ ولا الْمَأمُونَ ، فحَقِّقْ ظَنِّي قالَ : لَوْ أمَرتَني بقَتلِ نَفسي ، لَفَعلتُ قالَ : ائتِني برأسِ جَعْفَر ، فوَجَمَ لها ، قالَ : وَيْلَك مَا لَك ؟ قالَ : الأمْرُ عَظيمٌ ، لَيْتَني مِتُّ قَبلَ هَـٰذا .

قالَ : امْضِ ، وَيْلَك ، فمَضَىٰ ، فأتَىٰ جَعْفَراً ، فقالَ : يا ياسِرُ سَرَرْتَنِي بإقْبَالِكَ لكن سُؤْتَني بدُخُولِكَ بلا إذْنٍ قالَ : الأمْرُ وَراءَ ذَلكَ يا جَعْفَرُ ، قد أُمِرتُ بكَذَا ، قالَ الْمِسْكِينُ ـ وأقْبَلَ يُقبِّلُ قَدَمَه ، وقالَ : دَعْني أدْخُلُ وأُوصِي قالَ : لا سَبيلَ إلىٰ ذَلك ، فأوْصِ فقالَ : لي عَليكَ حَقٌّ ، فارْجِعْ إلىٰ أميرِ الْمُؤمنينَ وقُلْ : قَتَلتُه ، فإنْ نَدِمَ ، كانَتْ حَيَاتي عَلَىٰ يَدِك قالَ : لا أقْدِرُ ، قالَ : فآتي مَعَكَ إلىٰ مُخَيَّمِه وأسْمَعُ كَلامَه ، وقَولَك له قالَ : أمَّا هـٰذا ، فنَعَم وذَهَبَ به ، فلمَّا دَخَلَ ياسِرٌ ، قالَ : ما وَراءَك ؟ فذَكَرَ له قَولَ جَعْفَر ، فشَتَمَه ، وقالَ : لَئنْ راجَعْتَني ، لأقَدِّمَنَّكَ قَبلَه فخَرجَ ، وضَرَبَ عُنُقَه ، وأتاهُ برَأسِه ، فقالَ : يا ياسِرُ جِئني ، بفُلانٍ وفُلان ، فلمَّا أتاهُ بهما ، قالَ : اضْرِبَا عُنُقَه ، فإنِّي لا أقْدِرُ أرَىٰ قاتِلَ جَعْفَر[2] .

١١ـ رُؤىٰ في حَال الدُّنْيا :

عن العَلاءِ بنِ زِياد قالَ : رَأيتُ النَّاسَ في النَّوْمِ ، يَتْبَعونَ شَيئاً فتَبِعْتُه ، فإذا عَجُوزٌ كَبيرَةٌ هَتْماءُ عَوْراءُ ، عَليها من كُلِّ حِلْيَة وِزينَة فقُلتُ : ما أنْتِ ؟ قالَت : أنا الدُّنيا قُلتُ : أسْألُ اللهَ أنْ يُبَغِّضَكِ إليَّ ، قالَت : نَعَم ، إنْ أبْغَضْتَ الدَّراهِمَ[3] .

قالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة : قالَ لي أبو بَكر بنُ عَيَّاش : رَأيتُ الدُّنيا في النَّوْمِ عَجُوزاً مُشَوَّهَة[4] .

---

(١) انظر السير : (البَرْمَكِيُّ) ٩/ ٥٩ـ ٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٩٨ .
(٢) انظر السير : (البَرْمَكِيُّ) ٩/ ٥٩ـ ٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٩٨ .
(٣) انظر السير : (العَلاءُ بنُ زِياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٧٨ .
(٤) انظر السير : (أبو بَكر بنُ عَيَّاش) ٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٨٧ .

١٢ـ شِعْرٌ في التَّحْذير من الغَفْلَة :

ومما روي لعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز[١] :

أَيَقْظَانُ أَنْتَ اليَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمُ ... وكَيْفَ يُطِيقُ النَّوْمَ حَيْرانُ هَائِمُ
فلَوْ كُنْتَ يَقْظَانَ الغَدَاةَ لَخَرَّقَتْ ... مَدَامِعَ عَيْنَيْك الدُّمُوعُ السَّوَاجِمُ
تُسَرُّ بمَا يَبْلَىٰ وتَفْرَحُ بالْمُنى ... كَما اغْتَرَّ باللذَّاتِ في اليَوْمِ حَالِمُ
نَهَارُكَ يا مَغْرُورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ ... ولَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَىٰ لَكَ لازِمُ
وسَعْيُكَ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذلِكَ في الدُّنْيا تَعيشُ البَهَائِمُ

ومِمَّا كانَ مِسْعَر يُنشِدُه له أو لِغَيرِه[٢] :

نهاركَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُك نومٌ والردىٰ لكَ لازِمُ
وتَتعبُ فيما سوفَ تكرهُ غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ العاضِد العُبَيْديّ : وكان وَزيرَ طَلائع بنِ رُزِّيك مَليحَ النَّظْمِ ، قَويَّ الرَّفْضِ ، جَواداً شُجاعاً ، يُناظِرُ على الإمامَة والقَدَر ، وعَمِلَ قَبلَ مَوْتِه بثَلاثِ لَيالٍ :[٣] .

نحنُ في غفلةٍ ونومٍ وللمو ... تِ عيونٌ يقظانةٌ لا تنامُ
قدْ رَحَلنا إلى الحِمَام سنينا ... ليتَ شِعري متىٰ يكونُ الحِمامُ

وقالَ الحافِظُ ابنُ عَسَاكِر :

أيا نفسُ وَيْحَكِ جاءَ المشيبْ ... فما ذا التصابي وما ذا الغزلْ
تولىٰ شبابي كأنْ لَمْ يكنْ ... وجاءَ مشيبي كأنْ لم يَزَلْ
كأني بنفسي علىٰ غِرَّةٍ ... وخطبُ المُنونِ بها قدْ نَزَلْ
فيا ليتَ شِعريَ ممَّن أكونْ ... وما قدَّرَ اللهُ لي في الأزَلْ

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٩١ .
(٢) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٨٩ .
(٣) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢١٩ .

تُوفِّيَ الحافِظُ ابنُ عَسَاكِر سَنةَ إحْدَىٰ وسَبعينَ وخَمسِ مئة ، وحَضَره السُّلطانُ صَلاحُ الدِّين[1] .

وقالَ أبو عبدِ الله ابنُ الدُّبَيْثي في « تاريخِه » : أنْشَدَني ابنُ الجَوْزيّ بوَاسِطَ لِنَفْسِه[2] :

يا ساكنَ الدنيا تأهبْ ... وانتظرْ يومَ الفراقْ
وأعِدَّ زاداً للرحيل ... فسوفَ يُحْدىٰ بالرفاقْ
وابكِ الذنوبَ بأدمعٍ ... تَنْهَلُّ من سُحْبِ المآقْ
يا مَنْ أضاعَ زَمانَهُ ... أرضيتَ ما يفنىٰ بِباقْ

ومن إنْشاءِ ابنِ الدَّهَّان[3] :

أيها المغرورُ بالدنيا انتبهْ ... إنها حالٌ ستفنىٰ وتَحُولْ
واجتهدْ في نَيْلِ مُلْكٍ دائمٍ ... أيُّ خيرٍ في نعيمٍ سيزولْ
لو عَقَلنا ما ضحكنا لحظةً ... غيرَ أنَّا فُقِدَتْ مِنَّا العُقولْ

١٣ـ شِعْرٌ في التَّحْذيرِ من الاغْتِرار بالدُّنْيا :

قالَ أبو العَتاهِيَة[4] :

قولا لمن يرتجي الحياةَ أمَا ... في جعفرٍ عِبرةٌ ويحياهُ
كانا وزيرَيْ خليفةِ الله ها ... رونَ هما ما هما وزيراهُ
فذلكمْ جَعْفَرٌ بِرُمَّتِهِ ... في حالقٍ رأسَه ونصفاهُ
والشيخُ يحيى الوزيرُ أصبحَ قَدْ ... نحّاهُ عنْ نفسِهِ وأقصاهُ
شتَّتَ بَعْدَ الجميعِ شملَهُمُ ... فأصبحوا في البلادِ قد تاهوا

---

(١) انظر السير : (ابنُ عَساكر) ٢٠/ ٥٥٤ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨٥ .
(٢) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/١٦٣٤ .
(٣) انظر السير : (ابنُ الدَّهَان) ٢٢/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٦٧ .
(٤) انظر السير : (البَرْمَكِيُّ) ٩/ ٥٩ـ ٧١ ، وانظر النزهة : ١/٧٩٩ .

كـذلـكَ مـن يُسْخِـط الإلـهَ بمـا ... يُـرضـي بـهِ العبـدَ يَجْـزِهِ اللهُ
سبحـانَ مـن دانـتِ الملـوكُ لـهُ ... نشهـدُ أن لا إلـٰـه إلا هـوْ
طـوبـىٰ لمـنْ تـابَ قبـلَ عثـرتِـه ... فتـابَ قبـلَ المتـابِ طـوبـاهُ

وقالَ الشَّاعِرُ[1] :

ما الناسُ إلاَّ معَ الدنيا وصاحِبها ... وكيفمـا انقلبـتْ يـومـاً بـهِ انقلبـوا
يعظِّمـون أخـا الـدنيـا فـإنْ وثبـتْ ... يـومـاً عليـهِ بمـا لا يشتهـي وثبـوا

١٤ـ عِبْرَةٌ وعِظَةٌ في حَال الدُّنْيا :

قالَ الحاكِمُ : سَمعتُ الأصَمَّ ، وقد خَرَجَ ونَحنُ في مَسجِدِه ، وقد امْتَلأت السِّكَّةُ من النَّاسِ سَنةَ أرْبَع وأرْبَعينَ وثَلاثِ مئة وكانَ يُمْلِي عَشيَّة كُلِّ إثْنَينِ من أصُولِه فلمَّا نَظَرَ إلىٰ كَثرَةِ النَّاسِ والغُرَباءِ وقد قامُوا يَحمِلُونَه علىٰ عَواتِقِهم من بابِ دَارِه إلىٰ مَسْجِدِه ، بَكَىٰ طَويلاً ، ثم قالَ : كأنِّي بهَـٰذِه السِّكَّة لا يَدخُلُها أحَدٌ مِنْكُم ، فإنِّي لا أسْمَعُ وقد ضَعُفَ البَصَرُ ، وحانَ الرَّحيلُ ، فما كانَ إلاَّ بعدَ شَهر أو أقَلَّ منه حتَّىٰ كُفَّ بَصَرُه ، وانْقَطَعَت الرِّحْلَةُ ، وانْصَرفَ الغُرَباءُ ، فرَجَع أمْرُه إلىٰ أنَّه كانَ يُنَاوَلُ قَلماً فيَعلَمُ أنَّهم يَطلبُونَ الرِّوَايَةَ ، فيَقُولُ حدَّثنا الرَّبيعُ ، وكانَ يَحفَظُ أرْبَعةَ عَشرَ حَديثاً ، وسَبعَ حِكاياتٍ ، فيَرويها وصارَ بأسْوَأ حالٍ حتَّىٰ تُوفِّيَ[2] .

* * *

(١) انظر السير : (الذُّهْليُّ وابنُه) ١٢/ ٢٧٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٠٠ .
(٢) انظر السير : (الأصَمُّ) ١٥/ ٤٥٢ـ ٤٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٤٩ .

العُمْر

(أ) فائدَةُ طُول العُمْر :

قالَ عُمَرُ بنُ ذَر : كَتبَ سَعيدُ بنُ جُبَيْر إلىٰ أبي كتاباً أوْصَاهُ بتَقوَى الله وقالَ : إنَّ بَقاءَ المسلم كُلَّ يَومٍ غَنيمَةٌ ، فذَكَرَ الفَرائضَ والصَّلوَاتِ وما يَرزُقُه اللهُ من ذِكْرِه[1] .

(ب) أكمَلُ ما يَكون الإنْسَانُ عند الأرْبَعين :

قالَ الخَليلُ بنُ أحمَدَ الفَراهيدي : أكمَلُ ما يَكونُ الإنْسَانُ عَقْلاً وذِهْناً عند الأرْبَعين[2] .

* * *

(١) انظر السير : (سَعيدُ بنُ جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/٥٠٦ .

(٢) انظر السير : (الخَليل) ٧/ ٤٢٩ـ ٤٣١ ، وانظر النزهة : ٢/٧١٣ .

الوَعْظُ والوُعَّاظ

١ـ مِنْ آدابِ الوَعْظ :

عن عَطاءٍ قالَ : دَخلتُ أنا وعُبَيدُ بنُ عُمَير علىٰ عائشَةَ فقالَت له : خَفِّفْ فإنَّ الذِّكْرَ ثَقيلٌ ، تَعني إذا وَعَظْتَ[١] .

٢ـ مَراتِبُ النَّاس في التَّأثُّر بالوَعْظ :

وقالَ أبو زُرْعَة : أمْلَىٰ عليَّ أحمَدُ بنُ عاصِم الحَكيمُ الأنْطاكيُّ : النَّاسُ ثلاثُ طَبَقاتٍ : مَطْبوعٌ غالبٌ وهم المؤمنون ، فإذا غَفلوا ذَكروا ، ومَطْبوعٌ مَغلوبٌ فإذا بُصِّروا أبْصَروا ورَجَعوا بقُوَّة العَقل ، ومَطْبوعٌ مَغلوبٌ غيرُ ذي طِباع ولا سَبيلَ إلىٰ رَدِّ هٰذا بالْمَواعِظِ[٢] .

٣ـ تَفاوُت تأثير الوعَّاظ :

قالَ حمَّادُ بنُ زَيد : سَمعتُ أيُّوبَ يَقولُ : كانَ الحَسَنُ يَتكلَّمُ بكَلامٍ كأنَّه الدُّرُّ ، فتكلَّمَ قَومٌ من بَعدِه بكَلامٍ يَخرُجُ من أفْوَاهِهِم كأنَّه القَيْءُ .

وقالَ أبو عَمرُو بنُ العَلاء : مَا رَأيتُ أفْصَحَ من الحَسَنِ والحَجَّاجِ[٣] .

قالَ الدُّقِيُّ : ما رَأيتُ شَيْخاً أهْيَبَ من ابنِ الجَلاَّء ، مع أنِّي لَقيتُ ثَلاثَ مئة شيخ ، فسَمعْتُه يقولُ : ما جَلا أبي شَيئاً قطُّ ، ولكنَّه كانَ يَعِظُ ، فيَقَعُ كَلامُه في القُلوبِ ، فسُمِّيَ جَلاَّءَ القُلوب .

قالَ مُحمَّدُ بنُ عليِّ بن الجُلندي : سُئلَ ابنُ الجَلاَّء عن الْمَحَبَّة فسَمعْتُه يقولُ : مَا لي ولِلْمَحَبَّة ؟ أنا أُريدُ أتَعَلَّم التَّوْبَة[٤] .

---

(١) انظر السير : (عُبَيْدُ بنُ عُمَير) ٤/ ١٥٦ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٦٧ .

(٢) انظر السير : (الأنْطَاكيُّ) ١١/ ٤٠٩ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٥٥ .

(٣) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريُّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٦١ .

(٤) انظر السير : (ابنُ الجَلاَّء) ١٤/ ٢٥١ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٤٨ .

٤ـ مَنْ مَاتَ من الوَعْظ :

وعن رَجُلٍ قالَ : وَعَظَ عبدُ الوَاحِدِ بنُ زَيد ، فنَادَىٰ رَجلٌ : كُفَّ ، فقد كَشَفتَ قِناعَ قَلبي فمَا الْتَفَتَ ، ومَرَّ في الْمَوعِظَة ، فحَشْرَجَ الرَّجُلُ ، وماتَ فشَهِدتُ جنازَتَه[١] .

وقالَ مِسْمَعُ بنُ عاصِم : شَهدتُ عبدَ الوَاحِدِ يَعِظُ ، فمَاتَ في الْمَجلِسِ أرْبَعةٌ[٢] .

قالَ العَبَّاسُ السَّرَّاجُ : حدَّثنا أحمَدُ بنُ مُوسَى الأنْصاريُّ قالَ : قالَ مَنْصورُ بنُ عَمَّار : حَجَجتُ ، فبِتُّ بالكُوفَة ، فخَرَجتُ في الظَّلماء ، فإذا بصارخٍ يَقولُ : إلَـٰهي وعزَّتِك ما أرَدتُ بمَعْصيَتي مُخالَفَتَك ، وعَصَيتُ وما أنا بنَكالِكَ جَاهِلٌ ، ولكنْ خَطيئَةٌ أعانَني عليها شَقائي ، وغَرَّني سَترُك ، فالآنَ مَنْ يُنقِذُني ، فتَلوْتُ هـٰذه الآيَةَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[٣] قالَ : فسَمعتُ دَكْدَكَةً ، فلمَّا كانَ من الغَدِ ، مرَرتُ هُناك ، فإذا بجَنازَةٍ ، وعَجوزٌ تَقولُ : مَرَّ البارِحَةَ رَجلٌ تَلا آيَة فتَفَطَّرت مَرارَتُه ، فوَقَعَ مَيِّتاً[٤] .

وذَكرَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ محمَّدِ بنِ الفَضْلِ البَلْخِيِّ ، المَعْروفِ بوَاعِظِ بَلْخ ، وقيلَ : إنَّه وَعَظَ يَوماً ، فماتَ في الْمَجلِسِ أرْبَعةُ أنْفُس[٥] .

٥ـ مَنْ مات من الوعَّاظ من شدَّة وَعْظِه :

قالَ عبدُ الغافِر في « تاريخِه » : حَكَى الثِّقاتُ أنَّ أبا عُثْمانَ الصَّابُونيَّ كانَ يَعِظُ ، فدُفِعَ إليه كتابٌ وَرَدَ من بُخارَىٰ ، مُشتَملٌ علىٰ ذِكرِ وَباءٍ عَظيمٍ بها لِيَدعُوَ لهم ، ووُصِفَ في الكِتابِ أنَّ رَجُلاً أعْطَىٰ خَبَّازاً دِرْهَماً ، فكانَ يَزِنُ ، والصانعُ يَخبِزُ ، والْمُشْتَري واقِفٌ ، فماتَ ثَلاثَتُهم في ساعَة .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الوَاحد بنُ زَيد) ٧/ ١٧٨ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٦٩١ .
(٢) انظر السير : (عبدُ الوَاحد بنُ زَيد) ٧/ ١٧٨ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٤/٦٩١ .
(٣) سورة التحريم ، الآية : ٦ .
(٤) انظر السير : (مَنْصورُ بنُ عَمَّار) ٩/ ٩٣ـ ٩٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨٠١ .
(٥) انظر السير : (واعِظُ بَلْخ) ١٤/ ٥٢٣ـ ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٧١ .

فلمَّا قَرأ الكتابَ هَالَه ذلكَ ، واسْتَقرأ من القارىء ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1] الآيات ونَظائرَها وبَالَغَ في التَّخْويفِ والتَّحْذيرِ ، وأثَّرَ ذلكَ فيه وتَغيَّرَ ، وغَلبَه وَجَعُ البَطنِ وأُنزِلَ من الْمِنْبَرِ يَصيحُ من الوَجَعِ ، فحُملَ إلىٰ حَمَّامٍ ، فبَقيَ إلىٰ قَريبِ الْمَغرِبِ يَتقلَّبُ ظَهْراً لِبَطْنٍ ، وبَقيَ أسْبُوعاً لا يَنفَعُه عِلاجٌ ، فأوْصَىٰ ، ووَدَّعَ أوْلادَه ، ومات[2] .

٦ـ الواعِظُ المُحْتاج إلىٰ وَعْظ :

وقالَ أبو زُرْعَة : أمْلَىٰ عليَّ أحمَدُ بنُ عاصِم الحَكيمُ الأنْطاكيُّ : النَّاسُ ثلاثُ طَبَقاتٍ : مَطْبوعٌ غالبٌ وهم المؤمنون ، فإذا غَفلوا ذَكروا ، ومَطْبوعٌ مَغلوبٌ فإذا بُصِّروا أبْصَروا ورَجَعوا بقُوَّة العَقل ، ومَطْبوعٌ مَغلوبٌ غيرُ ذي طِباع ولا سَبيلَ إلىٰ رَدِّ هـٰذا بالْمَواعِظِ[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : فمَا الظَّنُّ إذا كانَ وَاعِظُ النَّاسِ من هـٰذا الضرب عَبْدَ بَطنِه وشَهْوَتِه ، وله قَلبٌ عَريٌّ من الحُزْنِ والخَوْفِ ، فإنِ انْضافَ إلىٰ ذلك فِسْقٌ مَكينٌ ، أو انْحِلالٌ من الدِّينِ ، فقد خابَ وخَسِرَ ، ولا بُدَّ أن يَفْضَحَه اللهُ تَعالَىٰ[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي مَنْصُور العَبَّادي : وَاعِظٌ باهِرٌ حُلوُ الإشارَة ، رَشيقُ العِبارَة ، إلاَّ أنَّه قَليلُ الدِّين .

وكانَ يُضرَبُ بحُسْنِ وَعْظِه الْمَثلُ[5] .

قالَ أبو سَعْد السَّمْعانيُّ : لَمْ يَكُنِ العبَّاديُّ بثِقَة ، رَأيتُ رسالَةً بخَطِّه جَمَعَها في إباحَةِ شُرْبِ الخَمْرِ .

قالَ ابنُ الجَوْزي : له كَلماتٌ جيِّدَةٌ ، وكتَبوا عنه من وَعْظِه مُجلَّداتٍ ذَهبَ لِيُصْلحَ

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٤٥ .
(٢) انظر السير : (الصَّابُونيُّ) ١٨/ ٤٠ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٣٨٥ .
(٣) انظر السير : (الأنْطَاكيُّ) ١١/ ٤٠٩ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ٤/٩٥٥ .
(٤) انظر السير : (الأنْطَاكيُّ) ١١/ ٤٠٩ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ٥/٩٥٥ .
(٥) انظر السير : (العبَّادي) ٢٠/ ٢٣١ـ ٢٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٤ .

بينَ مَلكٍ وكَبيرٍ ، فحَصُلَ له منهما مَالٌ كَثيرٌ ، وماتَ بعَسْكر مُكرم سَنةَ سَبعٍ وأرْبَعينَ وخَمسِ مئة[1] .

وقيلَ : كانَ يُخِلُّ بالصَّلاةِ لَيلَةَ حُضُوره السَّماعَ ، وذَكرَ لَيلَةً مَناقِبَ عَليٍّ رضي الله عنه ، وأنَّ الشَّمسَ رُدَّتْ لَه ، فاتَّفَقَ أنَّ الشَّمسَ غَابَتْ بالغَيمِ ، فعَملَ أبْياتاً وهي :

لا تغربي يا شمسُ حتىٰ ينتهي ... مَدْحي لآلِ المصطفىٰ ولِنجْلِه
واثني عنانَكِ إنْ أردتِ ثناءَهم ... أنسيتِ إذ كان الوقوفُ لأجلهِ
إن كانَ للمولىٰ وقوفُكِ فليكنْ ... هٰذا الوقوفُ لخيلِه ولِرَجْلِهِ

قالَ : فطَلعَت الشَّمسُ من تَحتِ الغَيمِ ، فلا يُدرَىٰ ما رُمِيَ عَليه من الثِّيابِ والأمْوَالِ .

عاشَ سِتّاً وخَمسينَ سَنةً ، والله يُسامِحُه[2] .

٧ـ وَعْظُ العُلمَاء المُلوكَ والأُمَراءَ والوُزَراءَ :

(وستجدُ غَيرَها في عَلاقة العُلمَاء بالأُمَراء)

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ السَّمَّاك : وقيلَ : وَعَظَ مرَّةً ، فقالَ : يا أميرَ الْمُؤمنينَ ، إنَّ لك بينَ يَدَي الله مَقاماً ، وإنَّه لك من مَقامِكَ مُنْصَرَفاً ، فانْظُرْ إلىٰ أينَ تَكونُ ، فبَكَى الرَّشيدُ كَثيراً[3] .

وعن عَليِّ بنِ حَرْب ، عن أبيه قالَ : مَضَى الرَّشيدُ علىٰ حِمَارٍ ، ومَعَه غُلامٌ إلى العُمَريِّ ، فوَعَظَه ، فبَكَىٰ ، وغُشِيَ عليه[4] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ زَكريّا الغَلابي ، حدَّثنا أبو عُمرَ الجَرْميُّ النَّحْويُّ ، حدَّثنا الفَضْلُ بنُ الرَّبيع ، قالَ : حَجَّ أميرُ المؤمنين ـ يَعْني هارُونَ الرَّشيدَ ـ فقالَ لي : وَيْحَك ، قَد حَكَّ

---

(١) انظر السير : (العبَّادي) ٢٠/ ٢٣١ـ ٢٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٤٤ .
(٢) انظر السير : (العبَّادي) ٢٠/ ٢٣١ـ ٢٣٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٤٤ .
(٣) انظر السير : (ابنُ السَّمَّاك) ٨/ ٣٢٨ـ ٣٣٠ ، وانظر النزهة : ٥/٧٦١ .
(٤) انظر السير : (العُمَريُّ) ٨/ ٣٧٣ـ ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٨/٧٦٤ .

في نَفسي شَيءٌ ، فانظُر لي رَجُلاً أسْأَلُه فقُلتُ : ها هُنا سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة ، فقالَ : امْضِ بنا إليه ، فأتَيناهُ ، فقرَعْنا بابَه ، فقالَ : مَنْ ذا ؟ فقُلتُ : أجِبْ أميرَ المؤمنين .

فخَرجَ مُسْرِعاً ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، لَوْ أرْسَلتَ إليَّ أتَيتُك فقالَ : خُذْ لِما جِئتُك له ، فحَدَّثَه ساعَةً ، ثم قالَ له : عَليكَ دَينٌ قالَ : نَعَم فقالَ لي : اقْضِ دَيْنَه ، فلمَّا خَرجْنا قالَ : ما أغْنَىٰ عنِّي صاحبُك شَيئاً ، قُلتُ : ها هُنا عبدُ الرَّزَّاق قالَ : امْضِ بنا إليه ، فأتَيْناهُ ، فقرَعْتُ البابَ فخَرَجَ وحادَثَه ساعَةً ، ثم قالَ : عَليكَ دَينٌ ؟ قالَ : نَعَم قالَ : يا أبا عبَّاس ، اقْضِ دَيْنَه ، فلمَّا خَرجْنا قالَ : مَا أغْنَىٰ عَنِّي صاحبُكَ شَيئاً ، انظُر لي رَجُلاً أسألُه ، قُلتُ : ها هُنا الفُضَيلُ بنُ عِياض ، قالَ : امْضِ بنا إليه ، فأتَيْناه ، فإذَا هو قائمٌ يُصلِّي ، يَتْلو آيةً يُردِّدُها ، فقالَ : اقْرَعِ البابَ ، فقَرعْتُ ، فقال : مَنْ هَـٰذا ؟ قلتُ أجبْ أميرَ المؤمنين ، قالَ : ما لي ولأميرِ المؤمنينَ ؟ قُلتُ سُبْحانَ الله ، أما عَليكَ طَاعَةٌ ، فنزَلَ ، ففتَحَ البابَ ، ثمَّ ارْتَقىٰ إلى الغُرْفَة ، فأطْفَأ السِّراجَ ثمَّ الْتَجأ إلىٰ زاويةٍ ، فدَخَلنا ، فجَعَلْنا نَجولُ عليه بأيْدينا ، فسَبَقَتْ كفُّ هارُونَ قَبْلي إليه ، فقالَ : يا لَها من كَفٍّ ، ما ألْيَنَها إنْ نَجَتْ غَداً من عَذابِ الله ، فقُلتُ في نَفسي : لَيُكَلِّمَنَّه اللَّيلةَ بكَلامٍ نَقيٍّ من قَلبٍ تَقيٍّ ، فقالَ له : خُذ لِما جِئناكَ له ، رَحمَك الله ، فقالَ : إنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ لَمَّا وَليَ الخِلافَةَ دَعا سالِمَ بنَ عبدِ الله ، ومحمَّدَ بنَ كعْبٍ ، ورَجاءَ بنَ حَيْوَة ، فقالَ لهم : إنِّي قد ابْتُليتُ بهَـٰذا البَلاء فأشيروا عليَّ ، فعَدَّ الخِلافَةَ بلاءً وعَدَدْتَها أنتَ وأصْحابُكَ نِعْمَة ، فقالَ له سَالمٌ : إنْ أرَدْتَ النَّجاةَ ، فصُم الدُّنيا ، وليَكُنْ إفْطارَك منها الْمَوْتُ ، وقالَ ابنُ كعْب : إنْ أرَدْتَ النَّجاةَ من عَذابِ الله ، فلْيَكُنْ كَبيرُ المسلمينَ عندَك أباً ، وأوْسَطُهم أخاً ، وأصْغَرُهم وَلَداً ، فوَقِّرْ أباك ، وأكْرِمْ أخاكَ ، وتَحَنَّنْ علىٰ وَلَدِك .

وقال له رَجاءٌ : إنْ أرَدْتَ النَّجاةَ من عَذابِ الله ، فأحِبَّ للمسلمينَ ما تُحبُّ لِنَفْسِك ، واكْرَه لهم ما تَكْرَهُ لِنَفْسِك ، ثم مُتْ إذا شِئتَ ، وإنِّي أقولُ لكَ هَـٰذا وإنِّي أخافُ عليكَ أشدَّ الخَوْفِ يوماً تَزِلُّ فيه الأقْدامُ ، فهلْ مَعكَ رَحِمَكَ الله مَنْ يُشيرُ عليكَ بمثلِ هـٰذا ، فبَكَىٰ هارُونُ بُكاءً شَديداً حتّىٰ غُشيَ عليه ، فقُلتُ له : ارْفُقْ بأميرِ

المؤمنين ، فقالَ : يا بنَ أُمِّ الرَّبيع ، تَقْتُلُه أنتَ وأصْحابُك ، وأرْفُقُ به أنا ؟!! ، ثمَّ أفَاقَ فقالَ له : زِدْني رَحِمَكَ اللهُ قلتُ : بَلَغَني أنَّ عاملاً لِعُمَرَ بنِ عبدِ العزيز شُكيَ إليه ، فكتبَ إليه : يا أخي أُذَكِّرُكَ طُولَ سَهر أهْلِ النَّارِ في النَّارِ مع خُلودِ الأبَد ، وإيَّاكَ أنْ يُنْصَرَفَ بك من عند الله ، فيَكونُ آخرَ العَهْدِ وانْقِطاعِ الرَّجَاءِ ، فلمَّا قرأ الكتابَ طَوَى البلادَ حتّىٰ قدِمَ عليه ، فقالَ : خَلَعْتَ قَلبي بكتابِك ، لا أعُودُ إلىٰ وِلايَة حتَّىٰ ألقَى الله ، فبَكَىٰ هارُونُ بُكاءً شَديداً ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ : إنَّ العبَّاسَ عمَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم جاءَ إليه فقالَ : أمِّرْني ، فقال له : « إنَّ الإمَارَةَ حَسْرَةٌ ونَدَامَةٌ يَوْمَ القِيامَةِ ، فَإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ لا تَكونَ أَمِيراً فَافْعَلْ » فبَكَىٰ هارُونُ ، وقالَ : زِدْني قالَ : يا حَسَنَ الوَجْه أنتَ الذي يَسألُكَ اللهُ عن هـٰذا الخَلقِ يَومَ القِيامَة ، فإنِ اسْتطَعْتَ أنْ تَقي هَـٰذا الوَجْهَ من النَّارِ فافْعَلْ ، وإيّاك أنْ تُصْبِحَ وتُمْسي وفي قَلبك غِشٌّ لأحَدٍ من رَعيَّتِك ، فإنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشّاً لَمْ يَرُحْ رَائحَةَ الجَنَّةِ » فبَكَىٰ هارُونُ وقالَ له : عَليكَ دَيْنٌ ؟ قالَ نَعَم : دَينٌ لِرَبِّي ، لم يُحاسِبْني عَليه ، فالوَيلُ لي إنْ ساءَلَني ، والوَيلُ لي إنْ ناقَشَني ، والوَيْلُ لي إنْ لَمْ أُلْهَم حُجَّتي ، قالَ : إنَّما أعْنِي من دَينِ العِبادِ ، قالَ : إنَّ رَبِّي لَمْ يأمُرني بهَـٰذا ، أمَرَني أنْ أُصَدِّقَ وَعْدَه ، وأُطيعَ أمْرَه ، فقالَ عزَّ وجَلَّ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] ، فقالَ : هَـٰذه ألْفُ دينار خُذْها ، فأنْفِقْها علىٰ عِيالِك ، وتَقوَّ بها علىٰ عِبادَة رَبِّك ، فقالَ : سُبْحانَ الله أنا أدُلك علىٰ طريقِ النَّجاةِ وأنتَ تُكافِئُني بمِثلِ هَـٰذا!! سَلَّمَك الله ووَفَّقَكَ ، ثم صَمتَ ، فلمْ يُكلِّمْنا ، فخَرَجْنا ، فقالَ هارُونُ : أبا عبَّاس ، إذا دَلَلْتَني ، فدُلَّني علىٰ مثلِ هـٰذا ، هـٰذا سيِّدُ المسلمينَ ، فدَخَلَت عَليه امرأةٌ من نِسائه فقالَت : قد تَرىٰ ما نَحنُ فيه من الضِّيقِ ، فلَوْ قَبِلْتَ هَـٰذا المالَ قالَ : إنَّما مَثَلي ومَثَلُكم كمثلِ قومٍ لهم بَعيرٌ يأكُلونَ من كَسْبه ، فلمَّا كَبِرَ نَحَروهُ ، فأكَلوا لَحْمَه ، فلمَّا سَمعَ هارونُ هـٰذا الكَلامَ قال : نَدخُلُ فعَسَىٰ أنْ يَقبَلَ المالَ ، فلمَّا عَلمَ الفُضَيلُ ، خَرجَ فجَلسَ في السَّطْحِ علىٰ بابِ الغُرْفَة ، فجاء هارونُ ، فجلسَ إلىٰ جَنبِه يُكلِّمُه فلا يُجيبُه ، فبينا نحنُ كذلك إذ

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦ .

خَرجَت جاريَةٌ سَوْداء ، فقالَت : يا هـٰذا قَد آذيتَ الشَّيخَ منذُ اللَّيلَة ، فانْصَرِفْ ، فانْصَرَفْنا[1] .

وقالَ محمَّدُ بنُ عبدِ الله الأنْباري : سَمعتُ فُضَيْلاً يَقولُ : لَمَّا قَدِمَ هَارُونُ الرَّشيدُ إلىٰ مَكةَ قَعدَ في الحِجْرِ هو ووَلدُه ، وقَومٌ من الهَاشِميِّينَ ، وأحْضَرُوا الْمَشايخَ ، فبَعَثوا إليَّ فأرَدتُ أنْ لا أذْهَب ، فاسْتَشَرتُ جاري ، فقالَ : اذْهَبْ لَعلَّه يُريدُ أنْ تَعِظَه ، فدَخلتُ الْمَسجدَ ، فلمَّا صِرْتُ إلى الحِجْرِ ، قُلتُ لأدْنَاهُم : أيُّكُمْ أميرُ الْمُؤمنيَن ؟ فأشَارَ إليه ، فقُلتُ : السَّلامُ عَليكم يا أميرَ الْمُؤمنينَ ورَحمَةُ الله وبَركاتُه ، فرَدَّ عليَّ ، وقالَ : اقْعُدْ ، ثم قالَ : إنَّما دَعَوْناكَ لِتُحدِّثَنا بشَيءٍ ، وتَعِظَنا ، فأقْبَلتُ عليه ، فقُلتُ : يا حَسَنَ الوَجْهِ ، حِسَابُ الخَلقِ كُلُّهُم عَليكَ فجَعلَ يَبْكي ويَشْهَقُ ، فرَدَدتُ عَليه وهو يَبْكي ، حتَّىٰ جاءَ الخادِمُ فحَمَلُوني وأخْرَجُوني ، وقالَ : اذْهَبْ بِسَلامٍ[2] .

وقال أبو الثَّناء شُكْر العَضُدي : لَمَّا دَخلَ عَضُد الدَّولة بغدادَ وقد هَلكَ أهلُها قَتلاً وخَوفاً وجُوعاً للفِتن التي اتَّصلَت بينَ السُّنَّة والشِّيعَة ، فقال : آفة هـٰؤلاء القُصَّاصُ ، فمَنعَهم ، قال : مَنْ خالَفَ أباحَ دَمَه ، فعَرفَ ابنُ سَمعونَ ، فجَلسَ علىٰ كُرسيِّه فأمَرَني مَولايَ ، فأحْضَرتُه ، فدَخلَ رجلٌ عليه نورٌ ، قال شُكْرٌ : فجلسَ إلىٰ جَنبي غير مُكْترِث ، فقلتُ : إنَّ هـٰذا المَلك جَبَّارٌ عَظيمٌ ، ما أُوثِرُ لكَ مُخالَفتَه ، وإنِّي مُوصلُكَ إليه ، فقَبَّل الأرضَ وتلَطَّف له واسْتعِن بالله عليه ، فقال : الخَلقُ والأمرُ لله فمَضيتُ به إلىٰ حُجرةٍ قد جَلسَ فيها المَلكُ وَحدَه ، فأوْقَفتُه ثم دَخلتُ أسْتأذِنُ ، فإذا هو إلىٰ جانبي ، وحوَّلَ وَجهَه إلىٰ دارِ عِزِّ الدَّولَة ثم تَلا : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾[3] ثم حوَّلَ وَجهَه وقَرأَ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[4] ثم أخذَ في وَعْظِه فأتىٰ بالعَجَب ، فدَمِعَت عَينُ المَلك ، وما رَأيتُ ذلك منه قَطُّ وشرِكَ كُمَّه علىٰ وَجهِه ، فلمَّا خرجَ أبو الحُسَين رَحمَه الله ، قالَ المَلكُ :

---

(١) انظر السير : (الفُضَيلُ بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٨/٧٧٤ .

(٢) انظر السير : (الفُضَيلُ بن عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٨/٧٧٩ .

(٣) سورة هود ، الآية : ١٠٢ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ١٠ ٢ .

اذْهَبْ بثَلاثَة آلاف دِرْهَم وعَشرَة أثْوابٍ من الخزانَة فإنِ امْتَنعَ فقُلْ له : فَرِّقْها في أصْحابِك ، وإنْ قَبِلَها فجِئْني برأسِه ، ففَعَلتُ فقال : إنَّ ثيابي هٰذه فُصِّلَت من نحو أربَعين سَنة ألْبَسُها يومَ خُروجي وأطْويها عند رُجُوعي ، وفيها مُتعَةٌ وبَقيَّةٌ ، ونَفَقَتي من أُجْرَةِ دارٍ خَلَّفَها أبي ، فما أصْنَعُ بهٰذا ؟ قُلتُ : فَرِّقْها علىٰ أصْحابِك قال : ما في أصْحابي فَقيرٌ فعُدتُ فأخْبَرتُه ، فقال : الحَمدُ لله الذي سَلَّمَه منَّا وسَلَّمَنا منه[1] .

وقالَ أبو القاسِم عبدُ الله بنِ عَليّ ، أخُو نِظَامِ الْمُلكِ : دَخَلَ أخي نِظَامُ الْمُلكِ علىٰ أبي الحَسَنِ الدَّاوُوديِّ فقَعدَ بينَ يَدَيه ، وتَواضَعَ له ، فقالَ لأخي : أيُّها الرَّجُل! إنَّكَ سَلَّطَكَ اللهُ علىٰ عِبادِه ، فانْظُرْ كَيفَ تُجيبُه إذا سَألَكَ عَنهُم[2] .

٨ـ المَشْهُورون بالوَعْظ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القُشَيْريِّ : ذَكرَهُ أبو الحَسَن البَاخَرْزيُّ في كتاب « دُمْيَة القَصْر » وقالَ : لَوْ قَرَعَ الصَّخْرَ بسَوطِ تَحذيرِه لذَابَ ، ولَوْ رُبِطَ إبْليسُ في مَجْلسِه لَتَابَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : مَاتَ أبُوه وهو طِفلٌ ، فدُفِعَ إلى الأديبِ أبي القاسِم اليَمَنيّ فقَرأ عليه الآدَابَ ثم دَخلَ نيسَابُورَ من قَريَتِه ، فاتَّفَقَ حُضورُه مَجلِسَ أبي عَليٍّ الدَّقَّاق ، فوَقَعَ في شَبكَتِه ، وقَصُرَ أمَلُه ، فأقْبلَ عليه أبو عَليٍّ وأشارَ عليه بطَلَبِ العِلمِ ، فمَضَىٰ إلىٰ حَلقَةِ الطُّوسيِّ .

وانتُقلَ إلى ابنِ فُورَك ، فتَقدَّمَ في الكَلامِ ، ونَظرَ في تَصانيفِ ابنِ البَاقِلاَّني ولَمَّا تُوفِّيَ حَمُوهُ أبو عَليٍّ تَردَّدَ إلى السُّلَميِّ ، وعاشَرَه ، وصارَ شَيخَ خُراسَانَ في التَّصَوُّفِ ، ولَزِمَ الْمُجاهَداتِ وتَخرَّجَ به الْمُريدُونَ[3] .

وكانَ عَديمَ النَّظيرِ في السُّلوكِ والتَّذْكيرِ ، لَطيفَ العِبَارَة ، طَيِّبَ الأخْلاقِ ، غَوَّاصاً

---

(١) انظر السير : (ابن سَمْعون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ٥/١٣١٠ .

(٢) انظر السير : (الدَّاوُوديُّ) ١٨/ ٢٢٢ـ ٢٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٠٦ .

(٣) انظر السير : (القُشَيْريُّ) ١٨/ ٢٢٧ـ ٢٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٧ .

على الْمَعَاني ، صَنَّفَ كتابَ « نَحو القُلوب » وكتابَ « لَطَائفِ الإشَارَاتِ » .

وقالَ أبو بكر الخَطيبُ : كَتَبنا عَنه ، وكانَ ثِقةً ، وكانَ حَسَنَ الوَعْظِ ، مَليحَ الإشَارَة ، يَعرِفُ الأصُولَ علىٰ مَذْهَبِ الأشْعَريِّ ، والفُرُوعَ علىٰ مَذْهَبِ الشَّافِعيِّ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي الفَرَج ابنِ الجَوْزيِّ : كانَ رَأساً في التَّذكيرِ بِلا مُدافَعَة ، يَقولُ النَّظْمَ الرَّائقَ ، والنَّثرَ الفائقَ بَديهاً ، ويُسهِبُ ، ويُعْجِبُ ، ويُطْرِبُ ، ويُطْنِبُ ، لَمْ يَأتِ قبلَه ولا بَعدَه مثلُه ، فهو حامِلُ لَواءِ الوَعْظِ ، والقَيِّمُ بفُنُونِه ، مع الشَّكلِ الحَسَن ، والصَّوْتِ الطيِّبِ ، والوَقْعِ في النُّفُوسِ ، وحُسْنِ السِّيرَة ، وكانَ بَحْراً في التَّفْسيرِ ، عَلاَّمةً في السِّيَرِ والتَّاريخِ ، مَوْصُوفاً بحُسنِ الحَديثِ ، ومَعرِفَةِ فُنُونِه ، فَقيهاً ، عَليماً بالإجْمَاعِ والاخْتِلافِ ، جَيِّدَ الْمُشَارَكَة في الطِّبِّ ، ذا تَفنُّنٍ وفَهْمٍ وذَكاءٍ وحِفْظٍ واسْتِحضارٍ ، وإكْبابٍ على الجَمْعِ والتَّصْنيفِ ، مع التَّصَوُّن ، والتَّجَمُّل ، وحُسْنِ الشَّارَة ، ورَشَاقَةِ العِبارَة ، ولُطْفِ الشَّمائلِ ، والأوْصَافِ الحَميدَة ، والحُرمَة الوَافِرَة عندَ الخَاصِّ والعَامِّ ، وما عَرَفتُ أحَداً صَنَّفَ ما صَنَّف .

وأقاربُه كانوا تُجَّاراً في النُّحَاسِ ، فرُبَّما كَتبَ اسْمَه في السَّمَاعِ عبد الرحمَـٰن بنُ عَليٍّ الصَّفَّار[2] .

وأحَبَّ الوَعْظَ ، ولَهجَ به وهو مُراهِقٌ ، فوَعَظَ النَّاسَ وهو صَبيٌّ ، ثم مَا زَالَ نافِقَ السُّوقِ مُعَظَّماً مُتَغَالَياً فيه ، مُزْدَحماً عليه ، مَضْرُوباً برَوْنَقِ وَعْظِهِ الْمَثَل ، كمَالُه في ازْديادٍ واشْتِهارٍ ، إلىٰ أنْ ماتَ رَحمَهُ اللهُ وسامَحَه ، فلَيْتَه لَمْ يَخُضْ في التَّأويلِ ، ولا خَالَفَ إمَامَه[3] .

وكانَ ابنُ الجَوْزي ذا حَظٍّ عَظيمٍ وصِيتٍ بَعيدٍ في الوَعْظِ ، يَحضُرُ مَجالِسَه الْمُلوكُ والوُزَراءُ وبَعضُ الخُلَفاء والأئمَّةُ والكُبَراءُ ، لا يَكادُ الْمَجلِسُ يَنْقُصُ عن ألُوفٍ كَثيرَةٍ ،

---

(١) انظر السير : (القُشَيْريُّ) ١٨/ ٢٢٧ـ ٢٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٤٠٧ .

(٢) انظر السير : (أبو الفرَج ابنُ الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٣٢ .

(٣) انظر السير : (أبو الفرَج ابنُ الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٣٣ .

حتَّىٰ قِيلَ في بَعضِ مَجالِسِه : حُزِرَ الجَمعُ بِمِئةِ ألْفٍ ولا رَيبَ أنَّ هـٰذا مَا وَقَع ، ولَوْ وَقَع ، لَمَا قَدِرَ أنْ يُسمِعَهم ، ولا الْمَكانُ يَسَعُهم[1] .

٩ـ القُصَّاصُ الوُعَّاظ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ صالِح الْمُريِّ : الزَّاهِدُ الخَاشِعُ ، وَاعِظُ البَصْرَة ، أبو بِشْر بنُ بَشير القاصّ[2] .

وقالَ عَفَّانُ : كانَ شَديدَ الخَوفِ من الله ، كأنَّه ثَكْلَىٰ إذا قَصَّ .

وقالَ ابنُ عَدِي : قاصٌّ ، حَسَنُ الصَّوْتِ ، عامَّةُ أحَاديثِه مُنكَرَةٌ ، أُتِيَ من قلَّة مَعْرفَتِه بالأسَانيدِ ، وعِندِي أنَّه لا يَتعمَّدُ .

وقيلَ : لَمَّا سَمعَهُ سُفيانُ الثَّوريُّ قالَ : ما هـٰذا قَاصٌّ ، هـٰذا نَذيرٌ[3] .

١٠ـ مَواعِظُ مُتفرِّقَة :

عن عبدِ الله بنِ مُرَّة ، أنَّ أبا الدَّرْداء قالَ : اعْبُد اللهَ كأنَّك تَراهُ ، وعُدَّ نَفسَكَ في الْمَوْتَىٰ ، وإيَّاكَ ودَعْوَةَ الْمَظلُوم ، واعْلمْ أنَّ قَليلاً يُغنيكَ خَيرٌ من كَثيرٍ يُلهيكَ ، وأنَّ البِرَّ لا يَبْلَىٰ ، وأنَّ الإثْمَ لا يُنسَىٰ[4] .

وقالَ سَلاَّمُ بنُ مِسْكين : حدَّثنا قَتادَة : أنَّ شَدَّادَ بنَ أَوس خَطبَ ، فقالَ : أيُّها النَّاسُ ، إنَّ الدُّنيا أجَلٌ حاضِرٌ ، يَأكُلُ منها البَرُّ والفَاجِرُ ، وإنَّ الآخِرَةَ أجَلٌ مُسْتأخَرٌ ، يَحكُمُ فيها مَلكٌ قادِرٌ ، ألا وإنَّ الخَيرَ كُلَّه بحَذافيرِه في الجَنَّة ، وإنَّ الشَّرَّ كُلَّه بحَذافيرِه في النَّار[5] .

وعن مَيْمُونَ بنِ مَيْسَرَة ، قالَ : كانت لأبي هُرَيْرَةَ صَيْحَتانِ في كُلِّ يَومٍ : أوَّلَ النَّهارِ

---

(١) انظر السير : (أبو الفرَج ابنُ الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٣ .
(٢) انظر السير : (صالِح الْمُرِّيُّ) ٨/ ٤٦ـ ٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٢٥ .
(٣) انظر السير : (صالِح الْمُرِّيُّ) ٨/ ٤٦ـ ٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٢٥ .
(٤) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٧/٢٧٢ .
(٥) انظر السير : (شَدَّادُ بنُ أَوْس) ٢/ ٤٦٠ـ ٤٦٧ ، وانظر النزهة : ٦/٢٩٠ .

وآخِرَه يَقولُ : ذَهَبَ اللَّيلُ ، وجاءَ النَّهارُ ، وعُرِضَ آلُ فِرْعَوْنَ على النَّارِ فلا يَسمَعُهُ أحَدٌ إلاَّ اسْتَعاذَ بالله من النَّار[1] .

وقالَ حَزْمٌ القُطَعيُّ : سَمعتُ الحَسَنَ يَقولُ : كانَ أبو هُرَيْرَةَ إذا مَرَّتْ به جَنازَةٌ ، قالَ : اغْدُوا فإنَّا رَائِحُونَ ، وَرُوحُوا فإنَّا غَادُونَ[2] .

عن الْمُعَلَّىٰ بنِ زِياد ، قالَ : كانَ هَرِمُ بنُ حَيَّان يَخرُجُ في بَعضِ اللَّيلِ ويُنادِي بأعْلَىٰ صَوْتِه : عَجبتُ من الجَنَّةِ كَيفَ نامَ طالِبُها ؟ وعَجبتُ من النَّارِ كَيفَ نامَ هَارِبُها ؟ ثم يَقولُ : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾[3] ،[4] .

عن الأحْنَفِ بنِ قَيْس قالَ : رَأسُ الأدَبِ آلَةُ الْمَنْطِقِ ، لا خَيرَ في قَولٍ بلا فِعلٍ ، ولا في مَنظَرٍ بلا مَخْبَر ، ولا في مَالٍ بلا جُودٍ ، ولا في صَديقٍ بلا وَفاءٍ ، ولا في فِقْهٍ بلا وَرَعٍ ، ولا في صَدَقةٍ إلا بنيَّة ، ولا في حَياةٍ إلاَّ بصِحَّةٍ وأمْنٍ[5] .

وعن أبي جَعْفَر الباقِر ، مُحمَّدِ بنِ عَليِّ بنِ الحُسَينِ ، قالَ : اذْكُروا من عَظَمَة الله ما شِئتُم ، ولا تَذكُرونَ منه شَيئاً إلاَّ وهيَ أعْظَمُ منه ، واذْكُروا من النَّارِ ما شِئتُم ، ولا تَذكُرونَ منها شَيئاً إلاَّ وهيَ أشَدُّ منه ، واذْكُروا من الجَنَّة ما شِئتُم ، ولا تَذكُرونَ منها شَيئاً إلاَّ وهيَ أفْضَل[6] .

قالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّه : طُوبَىٰ لِمَنْ شَغلَهُ عَيبُه عن عَيبِ أخيه ، طُوبَىٰ لِمَنْ تَواضَعَ لله من غَيرِ مَسْكَنَة ، طُوبَىٰ لِمَنْ تَصدَّقَ من مَالٍ جَمَعَه من غَيرِ مَعْصِيَة ، طُوبَىٰ لأهْلِ الضُّرِّ وأهْلِ الْمَسْكَنَة ، طُوبَىٰ لِمَنْ جالَسَ أهْلَ العِلمِ والحِلم ، طُوبَىٰ لِمَن اقْتَدَىٰ بأهْلِ العِلمِ والحِلمِ والخَشْيَة ، طُوبَىٰ لِمَنْ وَسِعَتهُ السُّنَّةُ فلَمْ يَعْدُها[7] .

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣١٢ .
(٢) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣١٣ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٩٧ .
(٤) انظر السير : (هَرِمُ بنُ حَيَّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٤٠ .
(٥) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٥٢ .
(٦) انظر السير : (أبو جَعْفَر الباقِر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٢٢ .
(٧) انظر السير : (وَهْبُ بنُ مُنَبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٥٥ .

وقالَ مَطرٌ الوَرَّاق : لَمَّا ظَهَرَ الحَسَنُ البَصْريُّ جاءَ كأنَّما كانَ في الآخِرَة ، فهو يُخبِرُ عَمَّا عَايَنَ[1] .

وعن الحَسَنِ قالَ : ابنَ آدَم ، إنَّما أنتَ أيَّامٌ كلَّما ذَهَبَ يَومٌ ، ذَهَبَ بَعضُك[2] .

وقالَ عبدُ الرحمَـٰنِ بنُ يَزيد بنِ تَميم : سَمعتُ بِلالَ بنَ سَعْد يَقولُ : يا أهْلَ التُّقَى! إنَّكم لَمْ تُخْلَقُوا للفَناءِ ، وإنَّما تُنْقَلونَ من دارٍ إلىٰ دارٍ ، كمَا نُقِلتُم من الأصْلابِ إلى الأرْحَام ، ومن الأرْحَامِ إلَى الدُّنيا ، ومن الدُّنيا إلى القُبُورِ ، ومن القُبُورِ إلى الْمَوْقِفِ ، ومن الْمَوْقِفِ إلى الخُلُودِ في جَنَّةٍ أو نَارٍ[3] .

وكـانَ بِـلالُ بـنُ سَعْـد يَقـولُ : لا تَنظُـرْ إلـىٰ صِغَـرِ الخَطيئـة ، ولكـنِ انْظُـرْ مَـنْ عَصَيْتَ[4] .

عن عبدِ العَزيزِ بنِ يَزيد الأيْلي قالَ : حَجَّ سُليمانُ بنُ عبد الْمَلِك ، ومعه عُمرُ بنُ عبد العَزيز ، فأصابَهم بَرْقٌ ورَعْدٌ حتىٰ كادَت تَنْخَلع قُلوبُهم ، فقالَ سُليمانُ : يا أبا حَفْص! هلْ رَأيتَ مثلَ هـٰذه اللَّيلَة قَطُّ ، أو سَمعتَ بها ؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنين! هـٰذا صَوْتُ رَحْمَةِ الله ، فكيف لَوْ سَمعتَ صَوتَ عَذابِ الله![5] .

عن حَفصِ بنِ عُمرَ بنِ أبي الزُّبَيْر ، قالَ : كَتبَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إلىٰ أبي بَكْر بنِ حَزْم : أنْ أَدِقَّ قَلَمَكَ ، وقارِبْ بين أسْطُرِكَ ، فإنِّي أكْرَه أنْ أُخْرِجَ من أمْوالِ المسلمينَ ما لا يَنْتَفعونَ به[6] .

عن عَوْنِ بنِ الْمُعْتَمِر أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ قالَ لامرأتِه : عندَكِ دِرْهَمٌ أشْتَري به عِنباً ؟ قالَت : لا ، قالَ : فعِندَكِ فُلوسٌ ؟ قالَت كلاَّ ، أنتَ أميرُ المؤمنينَ ولا تَقدِرُ

---

(١) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريّ) ٤/ ٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٦٠ .
(٢) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريّ) ٤/ ٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٦٣ .
(٣) انظر السير : (بِلالُ بنُ سَعْد) ٥/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٤ .
(٤) انظر السير : (بِلالُ بنُ سَعْد) ٥/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٤/٥٨٤ .
(٥) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٧ .
(٦) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٩٠ .

علىٰ دِرْهَم ، قالَ : هـٰذا أهْوَنُ من مُعالَجَة الأغْلالِ في جَهَنَّم[1] .

قالَ يَحْيَىٰ بنُ حَمْزَة : حدَّثنا عَمرُو بنُ مُهاجِر أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيز كان تُسْرَجُ عليه الشَّمعَةُ ما كانَ في حَوائجِ المسلمينَ ، فإذا فَرغَ ، أطْفأها وأسْرَجَ سِراجَه[2] .

وقالَ مَالِكٌ : أُتيَ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز بعَنبرَة ، فأمْسَك علىٰ أنفِه مَخافَةَ أنْ يَجدَ ريحَها ، وعَنه : أنَّه سَدَّ أنفَه وقد أُحْضِرَ مِسْكٌ من الخَزائن[3] .

وعن عَمرِو بنِ مُهاجِر قالَ : اشْتَهَىٰ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز تُفَّاحاً ، فأهْدَىٰ له رَجلٌ من أهْلِ بَيتِه تُفَّاحاً ، فقالَ : ما أطْيَبَ ريحَه وأحْسَنَه! وقالَ : ارْفَعهُ ياغُلامُ للذي أتَىٰ به ، وأقرِ مَوْلاكَ السَّلامَ ، وقُلْ له : إنَّ هَديَّتكَ وَقَعت عندنا بحيثُ تُحبُّ ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! ابنُ عَمِّك ، ورَجلٌ من أهْلِ بَيتِك ، وقد بَلغَكَ أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يَأكُلُ الهَديَّةَ ، قالَ : وَيْحَكَ! إنَّ الهَديَّةَ كانت له هَديَّةً ، وهي اليومَ لنا رِشْوَةٌ[4] .

وعن ابنِ شُبْرُمَةَ قال : مَنْ بالَغَ في الخُصُومَة أثِمَ ، ومَنْ قَصَّرَ فيها خَصِم ولا يُطيقُ الحَقَّ مَنْ بالَىٰ علىٰ مَنْ دارَ الأمْرُ .

ورَوَى ابنُ الْمُبارَك عن ابنِ شُبْرُمَةَ قالَ : عَجِبتُ للنَّاسِ يَحْتَمونَ من الطَّعامِ مَخافَةَ الدَّاء ولايَحْتَمونَ من الذُّنوبِ مَخافَةَ النَّار[5] .

وعن الهقل بن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته : أيها الناس ؛ تقووا بهـٰذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، فإنكم في دارِ الثواء فيها قليل ، وأنتم مرتحلون وخلائف بعد القرون الذين استقالوا من الدنيا زهرتها ، كانوا أطولَ منكم أعماراً ، وأجدَّ أجساماً ، وأعظم آثاراً ، فجددوا

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٥٩٠ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٥٩٠ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٧/٥٩٠ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٥٩١ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الله بنُ شُبْرُمَة) ٦/ ٣٤٧ـ٣٤٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٥٦ .

الجبال وجابوا[1] الصُّخُورَ ، ونَقَّبوا في البِلادِ مُؤيَّدينَ ببَطشٍ شَديدٍ ، وأجْسَامٍ كالعِمَادِ ، فمَا لَبِثَتِ الأيَّامُ واللَّيالي أنْ طَوَت مُدَّتَهم ، وعَفَتْ آثارَهم ، وأخْوَتْ مَنازِلَهم ، وأنْسَتْ ذِكرَهم ، فما تُحِسُّ منهم مِنْ أحَدٍ ولا تَسْمَعُ لهم رِكْزاً[2] . »[3] .

وقالَ الأصْمَعيُّ : رَكِبَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ في زِيٍّ عَجيبٍ من التَّجَمُّلِ ، وكانَ بالبَصْرَةِ فَقيهٌ صالحٌ غُلِبَ علىٰ عَقلِه ، فخَرجَ إلىٰ طَريقِ جَعْفَرٍ ، فقالَ له : يا جَعْفَرُ انْظُر أيَّ رَجُلٍ تَكونُ إذا خَرَجتَ من قَبرِكَ ، وحُمِلتَ على الصِّراطِ ، وهٰذا الجَمعُ والزِّيُّ لا يُساوي غَداً حَبَّة ، ولا يُغْنونَ عَنكَ من الله شَيئاً ، إنَّك تَموتُ وَحْدَكَ ، وتَدخُلُ قَبرَكَ وَحْدَكَ ، وتَقِفُ بَينَ يَدي الله وَحْدَكَ ، وتُحاسَبُ وَحْدَكَ ، فانْظُرْ لِنَفْسِكَ ، فقد نَصَحتُك[4] .

وعن ابنِ السَّمَّاكِ : قالَ : هِمَّةُ العاقِلِ في النَّجاةِ والهَرَبِ ، وهِمَّةُ الأحْمَق في اللَّهْو والطَّربِ عَجَباً لعَينٍ تَلذُّ بالرُّقادِ ، وَملكُ الْمَوتِ معها على الوِسَاد ، حتَّىٰ مَتىٰ يُبلِّغُنا الوُعَاظُ أعْلامَ الآخِرَة ، حتَّىٰ كأنَّ النُّفُوسَ عَليها وَاقِفَة ، والعُيُونُ ناظِرَة ، أفَلا مُنْتَبهٌ من نَوْمَتِه ، أو مُسْتَيقِظٌ من غَفْلتِه ، ومُفيقٌ من سَكْرَتِه ، وخائفٌ من صَرْعَتِه ، كَدْحاً للدُّنيا كَدْحاً ، أمَا تَجْعَلُ للآخِرَةِ مِنكَ حَظّاً ، أُقسِمُ بالله ، لَوْ رَأيتَ القِيامَةَ تَخفِقُ بأهْوالِها ، والنَّارَ مُشْرِفَةً علىٰ آلِهَا ، وقد وُضِعَ الكِتابُ ، وجِيءَ بالنَّبيِّينَ والشُّهَداءِ ، لَسَرَّكَ أنْ يَكُونَ لكَ في ذلكَ الجَمْع مَنْزِلَةٌ ، أبَعْدَ الدُّنيا دارُ مُعْتَمَلٍ ، أم إلىٰ غَيرِ الآخِرَة مُنتَقَل ؟ هَيهَاتَ ولكن صُمَّت الآذَانُ عن الْمَواعِظِ ، وذَهلَت القُلوبُ عن الْمَنافِع ، فلا الوَاعِظُ يَنتَفِعُ ولا السَّامِعُ يَنتَفِعُ[5] .

وقالَ محمَّدُ بنُ حَرْب الْمَكيُّ : قَدِمَ العُمَريُّ ، فاجْتَمَعنا إليه ، فلمَّا نَظَرَ إلى القُصُورِ الْمُحْدِقَة بالكَعْبَة صاحَ : يا أصْحَابَ القُصورِ الْمُشَيَّدَة ، اذْكُروا ظُلمَةَ القُبورِ

---

(١) جابوا الصُّخورَ : نقَبوها ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر : ٩] .

(٢) الرِّكْز : الصَّوت الخَفي ، قال الله تعالىٰ : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم : ٩٨] .

(٣) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٨٢ .

(٤) انظر السير : (جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمان) ٨/ ٢٣٩ـ ٢٤١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٤٦ .

(٥) انظر السير : (ابنُ السَّمَّاك) ٨/ ٣٢٨ـ ٣٣٠ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٦١ .

الْمُوحِشَة ، يا أَهْلَ التَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ اذْكُروا الدُّودَ والصَّديدَ ، وبَلاءَ الأجْسَامِ في التُّرابِ ، ثم غَلبَتهُ عَينُه ، فقام[1] .

وعن الفُضَيلِ بنِ عِياض قالَ : كَفَىٰ بالله مُحِباً وبالقُرآنِ مُؤنِساً ، وبالْمَوْتِ وَاعِظاً ، وبِخَشْيَةِ الله عِلْماً ، وبالاغْتِرارِ جَهْلاً[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مَنْصورِ بنِ عَمَّار : وَعَظَ بالعِراقِ والشَّامِ ومِصْرَ ، وبَعُدَ صِيتُه ، وتَزاحَمَ عَليه الخَلقُ ، وكانَ يَنْطَوي علىٰ زُهْدٍ وتَأَلُّه وخَشْيَة ، ولِوَعْظِهِ وَقْعٌ في النُّفُوس[3] .

وقالَ أحمَدُ بنُ أبي الحَواري : سَمعتُ أحمَدَ بنَ عاصِم ، يَقولُ : أَصْلِحْ فيما بَقِيَ ، يُغْفَر لكَ ما مَضَىٰ ، ما أَغْبِطُ إلاَّ مَنْ عَرَفَ مَوْلاه[4] .

وقالَ الحُسَينُ بنُ محمَّد الفَقيهُ : سَمعتُ محمَّدَ بنَ يَحْيَىٰ يَقولُ : تَقدَّمَ رَجلٌ إلىٰ عَالِمٍ ، فقالَ : عَلِّمْني وأَوْجِزْ ، قالَ : لأوجِزَنَّ لَك ، أمَّا لآخِرَتِك : فإنَّ الله أَوْحَىٰ إلىٰ نَبيٍّ من أنْبيائِه : قُلْ لِقَوْمِكَ : لَوْ كانَتِ الْمَعْصيَةُ في بَيتٍ من بُيُوتِ الجَنَّة لأوْصَلَتْ إليه الخَرابَ[5] .

وقالَ إبراهيمُ بن فاتِك : سَمعتُ أبا يَعْقوبَ ، يَقولُ : الدُّنيا بَحرٌ ، والآخِرَةُ ساحِلٌ والْمَركبُ التَّقْوَىٰ ، والنَّاسُ سَفْرٌ[6] .

قال الجُبَّائيُّ : كان الشيخُ عبدُ القادر يقولُ : الخَلْقُ حِجابُك عن نَفْسِك ، ونَفْسُكَ حِجابُك عن ربِّك .

عاش الشيخُ عبدُ القادر تسعين سنة ، وانتَقلَ إلى الله سنةَ إحْدىٰ وستّين وخَمس

---

(١) انظر السير : (العُمَريُّ) ٨/ ٣٧٣ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٥٦ .
(٢) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٧٩ .
(٣) انظر السير : (مَنْصورُ بنُ عَمَّار) ٩/ ٩٣ـ٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٠١ .
(٤) انظر السير : (الأنْطاكِيُّ) ١١/ ٤٠٩ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٥٥ .
(٥) انظر السير : (الذُّهْليُّ وابنُه) ١٢/ ٢٧٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠٠٠ .
(٦) انظر السير : (النَّهْرَجوريُّ) ١٥/ ٢٣٢ـ ٢٣٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٢٢٤ .

مئة ، وشَيَّعَه خلقٌ لا يُحْصَون ، ودُفنَ بمدرَسَته رحمه اللهُ تعالىٰ .

وفي الجُملة الشيخُ عبدُ القادر كَبير الشأن ، وعليه مآخذُ في بعض أقوالِه ودَعاويه ، والله المَوْعِدُ ، وبعضُ ذلك مَكْذوبٌ عليه[1] .

ومن غُرَرِ ألفَاظِ أبي الفَرَج ابنِ الجَوْزيِّ : عَقارِبُ الْمَنايَا تَلسَعُ ، وخَدَرانُ جِسمِ الآمَالِ يَمْنَعُ ، ومَاءُ الحَياةِ في إناءِ العُمْرِ يَرْشَحُ[2] .

١١ـ شِعْرُ الوَعْظ :

ومن شِعرِ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيزِ[3] :

مَنْ كانَ حينَ تصيبُ الشمسُ جبهتَهُ ... أوِ الغبارُ يخافُ الشَّينَ والشَّعثَا
ويألفُ الظِّلَّ كَيْ تبقىٰ بشاشَتُه ... فسوفَ يسكنُ يوماً راغماً جَدَثا
في قعرِ مظلمةٍ غَبْراءَ موحشةٍ ... يطيلُ في قعرها تحت الثرى اللَّبثَا
تجهزي بجَهاز تبلغين به ... يا نفسُ قبلَ الردىٰ لمْ تخلقي عَبَثا

قالَ أبو العَبَّاس السَّرَّاج : أنْشَدَني يَعقُوبُ بنُ محمَّد لابنِ الْمُبارَك[4] :

أبإذنٍ نزلتَ بي يا مشيبُ ... أيُّ عيشٍ وقدْ نزلتَ يطيبُ
وكفى الشيبُ واعظاً غيرَ أني ... آملُ العيشَ والمماتُ قريبُ
كم أنادي الشبابَ إذْ بانَ مني ... ونداءي مولِّياً ما يجيبُ

قالَ بَعضُهم كُنَّا جُلوساً عندَ الفُضَيْلِ بنِ عِياض ، فقُلنا له : كَمْ سِنُّك ؟ فقالَ[5] :

بلغتُ الثمانين أوْ جُزْتُها ... فماذا أؤملُ أو أنتظرْ
علتني السِّنونُ فأبلينني ... فدقّ العظام وكلَّ البصرْ

---

(١) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٧٦ .
(٢) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٣٣ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٩١ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بنُ الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٧٠ .
(٥) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٧٩ .

قالَ الرَّبيعُ بنُ سُليْمانَ[1] :

صبراً جميلاً ما أسرعَ الفَرجا ... من صدقَ اللهَ في الأمورِ نجا
من خشيَ اللهَ لمن ينلْه أذى ... ومن رجا الله كانَ حيثُ رجا

وقالَ الدَّاوُودِيُّ[2] :

يا شاربَ الخمرِ اغتنمْ توبةً ... قبلَ التفافِ الساقِ بالساقِ
الموتُ سلطانٌ لهُ سطوةٌ ... يأتي على المسقيِّ والساقي

* * *

(١) انظر السير : (الرَّبيعُ بنُ سُليْمانَ) ١٢/ ٥٨٧ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٧ .
(٢) انظر السير : (الدَّاوُودِيُّ) ١٨/ ٢٢٢ـ ٢٢٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٠٦ .

العَلاقَةُ مع الله

١ـ عَدَمُ أمْن مَكرِه سُبْحانَه :

أتَىٰ رجلٌ العَلاءَ بنَ زِياد ، فقالَ : أتاني آتٍ في مَنامي فقالَ : ائتِ العَلاءَ بنَ زِياد ، فقُلْ له : لِمَ تَبْكي!! ؟ قد غُفِرَ لك .

قالَ : فبَكىٰ ، وقالَ : الآنَ حين لا أهْدَأ[١] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : رُؤيَ العَلاءُ بنُ زِياد أنَّه من أهْلِ الجَنَّة ، فمَكثَ ثَلاثاً لا تَرق له دَمْعَة ، ولا يَكتَحِلُ بنَوم ، ولا يَذوقُ طَعاماً فأتاه الحَسَنُ فقالَ : أيْ أخي ، أتَقتُلُ نَفسَك أنْ بُشِّرْتَ بالجَنَّة! فازدادَ بُكاءً ، فلَمْ يُفارِقْه حتَّىٰ أمْسَىٰ وكانَ صائماً ، فطَعِمَ شَيئاً[٢] .

وقالَ عَطاءٌ الخَفَّاف : ما لَقيتُ سُفْيانَ الثَّوْريَّ إلاَّ باكياً ، فقُلتُ مَا شَأنُك ؟ قالَ : أتَخَوَّفُ أنْ أكُونَ في أُمِّ الكتابِ شَقيّاً[٣] .

قيلَ : كانَ نَقشُ خاتَم الجُنَيدِ : إنْ كُنتَ تَأمَلُهُ فَلا تَأْمَنْهُ .

وعنه : أُعْطيَ أهْلُ بَغدادَ الشَّطحَ والعِبارَة وأهْلُ خُراسَانَ القَلبَ والسَّخاءَ ، وأهْلُ البَصْرَة الزُّهْدَ والقَناعَة ، وأهْلُ الشَّامِ الحِلمَ والسَّلامَة ، وأهْلُ الحِجَازِ الصَّبرَ والإنَابَة[٤] .

٢ـ تَعْظِيمُه سُبْحانَه :

وقال إبراهيمُ بنُ الأشْعَث : ما رَأيتُ أحَداً كان اللهُ في صَدرِه أعظَمَ من الفُضَيل ، كان إذا ذُكِرَ اللهُ ، أو ذُكرَ عندَه ، أو سَمعَ القُرآنَ ، ظَهرَ به من الخَوفِ والحُزْن ،

---

(١) انظر السير : (العَلاءُ بنُ زِياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٧٧ .

(٢) انظر السير : (العَلاءُ بنُ زِياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٧٧ .

(٣) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٩٨ .

(٤) انظر السير : (الجُنَيْد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٣٣ .

وفاضَت عَيناهُ ، وبَكىٰ حتىٰ يَرحمُه من يَحضُرُه ، وكان دائمَ الحُزْن ، شَديدَ الفِكْرَة ، ما رَأيتُ رجلاً يريدُ اللهَ بعِلمِهِ وعَملِه ، وأخْذِهِ وعَطائِه ، ومَنْعِه وبَذْلِه ، وبُغْضِه وحُبِّه ، وخِصَالِه كلِّها غَيرَه ، كنَّا إذا خَرجْنا معه في جِنازَة لا يَزالُ يَعظُ ويُذَكِّرُ ويَبكي كأنَّه مُودِّعٌ أصْحابَه ، ذاهبٌ إلى الآخِرَة ، حتىٰ يَبلُغَ المَقابِرَ ، فيَجلِسُ مَكانَه بينَ المَوْتَىٰ من الحُزنِ والبكاء حتىٰ يقومَ وكأنَّه رَجعَ من الآخِرَة يُخبِرُ عنها[1] .

٣ـ الانْكسارُ بين يَدَيْه سُبْحانَه والتَّذَلُّلُ له :

عن غِيلانَ بنِ جَرير قالَ : حَبسَ السُّلطانُ ابنَ أخي مُطَرِّف فَلبسَ مُطَرِّفٌ خُلْقانَ ثيابِه ، وأخَذَ عُكَّازاً وقالَ : أسْتَكينُ لِرَبِّي لَعلَّه أنْ يُشَفِّعَني في ابنِ أخي[2] .

أتَىٰ رجلٌ العَلاءَ بنَ زِياد ، فقالَ : أتاني آتٍ في مَنامي فقالَ : ائْتِ العَلاءَ بنَ زِياد ، فقُلْ له : لِمَ تَبْكي!! ؟ قد غُفِرَ لك .

قالَ : فبَكىٰ ، وقالَ : الآنَ حين لا أهْدَأ[3] .

وكانَ الأعْمَشُ يَقولُ : حدَّثني يَحْيَىٰ بنُ وَثَّاب وَكُنتُ إذا رَأيتُه قد جَثا ، قُلتُ : هٰذا وُقفَ للحِسَابِ فيَقُولُ : أيْ رَبِّ ، أذْنَبتُ كَذا ، فعَفَوْتَ عنِّي ، فَلا أعُودُ ، وأذْنَبتُ كَذا ، فعَفَوْتَ عنِّي ، فَلا أعُودُ[4] .

وقال الْمُنْكَدِرُ بنُ مُحمَّد : كانَ أبي يَحُجُّ بوَلدِه ، فقيلَ له : لِمَ تَحُجَّ بِهَؤلاء ؟ قالَ : أعْرِضُهم لله[5] .

٤ـ الرِّضَا بقَضَائه :

(وسَتجدُ غَيرَها في فهْرس الصَّبْر والابْتِلاء)

عن الرَّبيعِ بنِ أبي صالِح ، قالَ : دَخلتُ علىٰ سَعيدِ بنِ جُبَيْر حين جيءَ به إلى

---

(١) انظر السير : (الفُضَيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٧٣ .
(٢) انظر السير : (مُطَرِّفُ بنُ عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٤٧٦/ ١٠ .
(٣) انظر السير : (العَلاءُ بنُ زياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٧٧ .
(٤) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ وَثَّاب) ٤/ ٣٧٩ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥١٤ .
(٥) انظر السير : (محمَّدُ بنُ الْمُنْكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٠٨ .

الحَجَّاج ، فبَكَى رَجلٌ ، فقالَ سَعيدُ : ما يُبكيكَ ؟ قالَ : لِمَا أصابَك ، قالَ : فَلا تَبْكِ ، كانَ في عِلمِ الله أنْ يَكُونَ هـٰذا ، ثم تَلا : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[1] ، [2] .

٥ـ الأُنْسُ به سُبْحانَه :

وقالَ أبو عِمْرانَ الجَوْني : قيلَ لعامِرِ بنِ عبدِ قَيْس : إنَّك تَبيتُ خارجاً ، أمَا تَخافُ الأسَدَ ؟ قالَ : إنِّي لأسْتَحي من رَبِّي أنْ أخافَ شَيئاً دُونَه وهَبطَ وَادياً به عابدٌ حَبَشيٌّ ، فانْفَردَ يُصلِّي في ناحية ، والحَبَشيُّ في ناحيَة أرْبَعينَ يَوماً لا يَجتمعان إلاَّ في فَريضَة[3] .

٦ـ الثِّقَةُ به سُبْحانَه :

وكان كثيرٌ من أصْحابِهِ يقُولونَ له : إنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقَعُ فيك ، فيقُولُ : ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[4] ويَتْلُو أيْضاً : ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[5] ، [6] .

وكان هِجِّيراه من اللَّيلِ[7] إذا أتَيْتُه في آخِرِ مَقْدَمِه من العِراقِ : ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ الآية[8] ، [9]

وقال الذهبيُّ في تَرجمَة أبي عُثمان الحِيَري : ذكرَ الحاكمُ أخبارَ أبي عُثمان في خمسٍ وعشرين ورَقَة في غُضون ذلك من كلامِه في التَّوكلِ واليَقين والرِّضَا ، قال

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢٢ .
(٢) انظر السير : (سَعيدُ بنُ جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/٥٠٧ .
(٣) انظر السير : (عامِر بن عبد قَيْس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٣٤ .
(٤) سورة النساء ، الآية : ٧٦ .
(٥) سورة فاطر ، الآية : ٤٣ .
(٦) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٩/ .
(٧) أي كلامه ودأبه وشأنه ، وفي حديث عُمَر رضي الله عنه : ما له هجّيرىٰ غيرها ، أي : الدأب والعادة والدَّيْدَن .
(٨) سورة آل عمران ، الآية ١٦٠ .
(٩) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٩/ ٤ .

الحاكمُ : وسَمعتُ أبي يقولُ : لمَّا قَتلَ أحمدُ بنُ عبد الله الخُجُستاني ـ الذي اسْتولَىٰ على البلادِ ـ الإمامَ حيكانَ بنَ الذهليّ ، أخذَ في الظُّلمِ والعَسفِ ، وأمرَ بحَرْبَةٍ رُكزَت علىٰ رأس المربّعة[1] ، وجمعَ الأعْيانَ ، وحلفَ : إنْ لمْ يَصُبُّوا الدَّراهمَ حتىٰ يغيبَ رأسُ الحَرْبَة ، فقد أحلُّوا دماءَهم ، فكانوا يَقتَسِمون الغرامَة بينهم ، فخُصَّ تاجرٌ بثلاثين ألفَ درهم ، فلم يكنْ يَقدرُ إلاَّ علىٰ ثلاثة آلاف دراهم ، فحملها إلىٰ أبي عُثمان وقال : قد حلف هـٰذا كما بلَغَكَ ، ووالله لا أهْتَدي إلاَّ إلىٰ هـٰذه قال : تأذَنُ لي أن أفعَل فيها ما يَنفَعُك ؟ قال : ففرَّقَها أبو عُثمان ، وقال للتاجر : امكُثْ عِندي ، وما زالَ أبو عُثمان يَتردَّدُ بين السِّكَّةِ والمَسْجدِ ليلَتَه حتىٰ أصْبَحَ ، وأذَّنَ المؤَذِّنُ ، ثم قال لخادِمِه : اذْهبْ إلى السُّوق ، وانظُرْ ماذا تَسْمَع ، فذَهبَ ، ورجَعَ فقال : لم أرَ شَيئاً ، قال : اذْهَبْ مرّةً أُخْرَىٰ ، وهو في مُناجاتِه يقول : وحَقِّكَ لا أقَمتُ ما لم تُفرِّجْ عن المَكْروبين ، قال : فأتىٰ خادمُه الفَرغانيُّ يقول : وكَفَى اللهُ المؤمنينَ القِتالَ ، شُقَّ بَطنُ أحمدَ بنَ عبد الله ، فأخذَ أبو عُثمانَ في الإقامَة .

قال الذهبيُّ : بمثلِ هـٰذا يَعْظُمُ مَشايخُ الوَقت .

قال أبو الحُسَين أحمدُ بن أبي عُثمان : تُوفيَ أبي سَنةَ ثمان وتسعين ومئتين ، وصلَّىٰ عليه الأميرُ أبو صالح[2] .

وجاء في تَرجمة عليِّ بنِ أبي طاهِر قال الذَّهبيُّ : وثَّقَه الخَليليُّ ، قال : سَمعتُ الحَسنَ بنَ أحمد بنَ صالح يَحْكي عن سُليمانَ بنِ يَزيد : أنَّ عليَّ بنَ أبي طاهر لمَّا رَحلَ إلى الشَّام ، وكَتبَ الحَديثَ جَعلَ كُتبَه في صُندوقٍ ، وقَيَّرَه ورَكبَ البَحرَ ، فاضْطَربَت السَّفينَةُ وماجت ، فألْقَى الصُندوقَ في البَحرِ ، ثم سَكنَتِ السَّفينَةُ ، فلمَّا خَرجَ منها أقامَ على السَّاحلِ ثلاثاً يَدعُو الله ، ثم سَجدَ في اللَّيلَة الثَّالِثَة ، وقال : إنْ كان طَلَبي ذلك لوَجْهك وحبِّ رسُولِك ، فأغِثْني بردِّ ذلك ، فرفَعَ رأسَه ، فإذا بالصُّندوقِ مُلقَىٰ عندَه ،

---

(١) في « اللِّسان » والمربعة : خشيبة قصيرة يرفع بها العِدلُ ، وقال الأزهريُّ : هي عَصاةٌ تُحمَلُ بها الأثقال حتىٰ تُوضَع علىٰ ظهر الدواب

(٢) انظر السير : (أبو عُثمان الحِيري) ١٤/ ٦٢ـ٦٦ ، وانظر النزهة : ٥/١١٣١ .

فقَدمَ ، وأقامَ بُرْهَة ، ثم قَصَدوه لسَماع الحَديثِ فامْتَنَع منه وقال فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، في مَنامي ، ومَعه عليٌّ رضي الله عنه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يا عَليُّ مَنْ عامَلَ اللهُ بما عامَلَكَ به علىٰ شَطِّ البَحْر ؟!! ، لا تَمتَنِعْ من رِوايَة أحاديثي » قال : فقُلتُ : قد تُبتُ إلى الله ، فدَعا لي وحَثَّني على الرِّوايَة .

ماتَ عليُّ بنُ أبي طاهِر سنة نيّف وتسعين ومئتين ، رَحمَه الله[1] .

٧ـ دَرَجَاتُ العَلاقَة مع الله :

عن يَحْيَىٰ بنِ مُعاذ : الدَّرَجَاتُ سَبعٌ : التَّوْبَة ، ثم الزُّهْد ، ثم الرِّضَا ، ثم الخَوْف ، ثم الشَّوْقُ ، ثم الْمَحبَّة ، ثم الْمَعرِفَة[2] .

٨ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[3] :

قال مُحمَّدُ بنُ أبي حاتِمٍ : وسَمعتُهُ يقولُ : لَمْ يَكُنْ يَتعرَّضُ لنا قَطُّ أحَدٌ من أفْناءِ النَّاسِ إلاَّ رُمِيَ بقارِعَةٍ ، ولَمْ يَسْلَمْ ، وكُلَّما حَدَّثَ الجُهَّالُ أنفُسَهم أنْ يَمْكُروا بنا رَأيتُ من لَيْلَتِي في المَنام ناراً تُوقَدُ ثمَّ تُطْفَأُ من غَيرِ أنْ يُنْتَفَعُ بها ، فأتَأوَّلُ قولَه تعالَىٰ : ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ ﴾[4] ،[5] .

قال الحاكِمُ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ العبَّاسِ الضَّبِّيَّ يقولُ : سَمعتُ أبا بَكرٍ بنَ أبي عَمْرو الحافِظَ البُخاريّ يقُولُ : كان سَببُ مُنافَرَةِ أبي عبدِ الله أنَّ خالدَ بنَ أحمدَ الذُّهليَّ الأمير خليفة الطاهرية ببُخارَىٰ سَألَ أنْ يَحْضُرَ مَنزلَه ، فيَقرأَ « الجامِعَ » و« التَّاريخَ » علىٰ أوْلادِهِ ، فامْتَنَعَ عن الحُضورِ عنده ، فراسَلَه بأن يَعْقدَ مَجْلِساً لأوْلادِه ، لا يَحْضُرُه غَيرُهم ، فامْتَنَعَ ، وقال : لا أخُصُّ أحَداً ، فاسْتَعانَ الأميرُ

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن أبي طاهر) ١٤/ ٨٧ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٣٥ .
(٢) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مُعاذ) ١٣/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٤٧ .
(٣) سورة الحج ، الآية : ٣٨ .
(٤) سورة المائدة ، الآية : ٦٤ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠١٩ .

بحُريثِ بنِ أبي الوَرْقاء وغَيرِه حتّىٰ تَكَلَّموا في مَذْهَبِه ونَفَاهُ عن البَلَدِ ، فدَعا عَليهِم ، فلَمْ يَأْتِ إلاَّ شَهرٌ حتّىٰ وَرَدَ أمْرُ الطاهريَّة ، بأنْ يُنادَىٰ علىٰ خالدٍ في البَلَدِ ، فنُودِيَ عليهِ علىٰ أَتَانٍ ، وأمَّا حُريثٌ ، فإنَّه ابْتُلِيَ بأهْلِهِ ، فرَأىٰ فيها ما يَجِلُّ عن الوَصْفِ ، وأمَّا فُلانٌ ، فابْتُلِيَ بأولادِهِ ، وأَرَاهُ اللهُ فيهِم البَلايَا .

وقال الحاكِمُ : حَدَّثنا خَلَفُ بنُ مُحمَّد ، حَدَّثنا سَهْلُ بنُ شاذَوَيْه قال : كان مُحمَّدُ بنُ إسْماعيلَ يَسْكُنُ سِكَّةَ الدَّهْقانِ ، وكان جَماعَةٌ يَخْتلِفُونَ إليه يُظْهِرونَ شِعارَ أهْلِ الحَديثِ من إفْرادِ الإقامَةِ ورَفْعِ الأَيْدِي في الصَّلاةِ ، وغَيرِ ذلكَ فقال حُريثُ بنُ أبي الوَرْقاء وغَيرُه : هـٰذا رَجلٌ مُشْغِبٌ ، وهو يُفْسِدُ علينا هـٰذه المَدينَةِ ، وقد أخْرَجَهُ مُحمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ من نِيسابُورَ ، وهو إمامُ أهْلِ الحَديثِ ، فاحْتَجُّوا عليه بابنِ يَحْيَىٰ ، واسْتَعانُوا عليه بالسُّلطانِ في نَفْيِهِ من البَلَدِ ، فأُخْرِجَ ، وكان مُحمَّدُ بنُ إسْماعيلَ وَرِعاً ، يَتَجَنَّبُ السُّلطانَ ولا يَدْخُلُ عليهِم[1] .

قال الذهبيُّ : خالد بن أحمد الأمير ، قال الحاكمُ : له ببُخارَىٰ آثارٌ مَحْمودةٌ كلُّها ، إلاَّ مَوْجدَته على البُخاريِّ ، فإنَّها زَلَّةٌ ، وسببٌ لزَوالِ مُلْكِه[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ عَبْدوس ، وقيلَ : أتاه رجلٌ ، فقال : ما تقولُ في الإيمانِ ؟ قال : أنا مؤمنٌ فقال : عندَ الله ؟ قال : أمَّا عند اللهِ فلا أقْطَعُ لنَفسِي بذلك ، لأني لا أدْري بمَ يُخْتَمُ لي ، فبَصَقَ الرجلُ في وجْهه ، فعَميَ من وَقْتِهِ الرَّجُلُ[3] .

٩ـ الإقْبَالُ على الله وفائدَتُه :

قالَ قَتادَة : كانَ هَرِمُ بنُ حَيَّانَ يَقولُ : ما أقْبَلَ عَبدٌ بقَلبِهِ إلى الله ، إلاَّ أقْبَلَ اللهُ بقُلوبِ الْمُؤمنينَ إليه ، حتَّىٰ يَرزُقَه وُدَّهم[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٧/١٠١٩ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٠ .
(٣) انظر السير : (ابن عَبْدوس) ١٣/ ٦٣ـ ٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥١ .
(٤) انظر السير : (هَرِمُ بنُ حَيَّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ١/٤٤١ .

١٠ـ الثَّنَاءُ على الله :

رَوَىٰ عبدُ الرزَّاقِ بنُ هَمَّامَ ، عن أبيه ، قالَ : رَأيتُ وَهْباً إذا قامَ في الوترِ قالَ : لكَ الحَمدُ السَّرْمَدُ ، حَمْداً لا يُحْصيه العَدَدُ ، ولا يَقطَعُه الأبَدُ ، كما يَنبَغي لكَ أنْ تُحْمَدَ ، وكما أنتَ له أهلٌ ، وكما هو لك عَلينا حَقٌّ[١] .

١١ـ التَّعَلُّق به سُبْحانَه :

وعن أبي بِشْر قالَ : كان كُرْزُ بنُ وَبَرةَ الحَارثيُّ من أعْبَدِ النَّاسِ ، وكانَ قد امْتَنعَ من الطَّعامِ ، حتىٰ لَمْ يُوجَد عليه من اللَّحْم ، إلاَّ بقَدرِ ما يُوجَدُ على العُصْفور ، وكان يَطوي أيَّاماً كثيرة ، وكانَ إذا دَخلَ في الصَّلاة لا يَرفَعُ طَرْفَه يَميناً ولا شِمالاً ، وكانَ من الْمُحِبِّينَ الْمُخْبِتين لله ، قد وَلِهَ من ذلك فرُبَّما كُلِّمَ فيُجيبُ بعد مُدَّة من شِدَّة تَعلُّق قَلبِه بالله ، واشْتِياقِه إليه[٢] .

قالَ الجُنَيْدُ : شَيءٌ يُروَىٰ عن أبي سُليْمانَ ، أنا أسْتَحسِنُه كَثيراً : مَنِ اشْتَغلَ بنَفسِه شُغِلَ عن النَّاسِ ، ومَنِ اشْتَغلَ برَبِّه شُغِلَ عن نَفسِه وعن النَّاسِ[٣] .

١٢ـ الشَّكوَىٰ له سُبْحانَه :

قالَ الأصْمَعيُّ : نَظرَ الفُضَيْلُ إلىٰ رَجُلٍ يَشكُو إلىٰ رَجُلٍ ، فقالَ : يا هَـٰذا تَشْكُو مَنْ يَرْحَمُكَ إلىٰ مَنْ لا يَرْحَمُك[٤] .

وعن شَقيقٍ ، قالَ : مَنْ شَكَىٰ مُصيبَةً إلىٰ غَيرِ اللهِ ، لَمْ يَجِدْ حَلاوَةَ الطَّاعَة[٥] .

وقيلَ : إنَّ أبا حَفْص النِّيسَابُوريّ دَخلَ علىٰ مَريضٍ ، فقالَ المريض : آه ، فقالَ

---

(١) انظر السير : (وَهْبُ بنُ مُنَبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٥٣ .
(٢) انظر السير : (كُرز) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٣٣ .
(٣) انظر السير : (أبو سُليْمانَ الدَّاراني) ١٠/ ١٨٢ـ ١٨٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٦٥ .
(٤) انظر السير : (الفُضَيْلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٧٨ .
(٥) انظر السير : (شَقيق) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٢٤ .

أبـو حَفْـص : : مِمَّـن ؟ قـالَ : فكَيـفَ أقُـولُ ؟ قـالَ : لا يَكُـنْ أنِينُـكَ شَكْـوَىٰ ، ولا سُكُوتُكَ تَجَلُّداً ، ولكن بينَ ذلك[1] .

وكانَ إبْراهيمُ الحَربيُّ يَقولُ : فَرْدُ عَقِبي[2] صَحيحٌ والآخَرُ مَقطوعٌ ، ولا أُحَدِّثُ نَفسي أنِّي أُصْلِحُها ، ولا شَكَوتُ إلىٰ أهْلِي وأقَارِبي حُمَّىٰ أجدُها ، لا يَغمُّ الرجلُ نَفسَه وعيالَه ، ولي عَشرُ سنينَ أُبْصِرُ بفَرْدِ عَين ، ما أخْبَرتُ به أحَداً ، وأفْنَيتُ من عُمري ثَلاثينَ سَنةً برَغيفَين ، إنْ جاءَتْني بهما أُمِّي أو أُخْتي ، وإلاَّ بَقيتُ جائعاً إلى اللَّيلَة الثانيَة ، وأفْنَيتُ ثَلاثينَ سَنةً برَغيفٍ في اليوم واللَّيلَة ، إنْ جاءَتْني امْرأتي أو بَناتي به وإلاَّ بَقيتُ جائعاً ، والآنَ آكُلُ نِصْفَ رَغيفٍ ، وأرْبَع عَشرَةَ تَمْرةً ، وقامَ إفْطَاري في رَمضانَ هـٰذا بدِرْهَم ودَانِقَيْن ونِصْف[3] .

١٣ـ تَقْديمُ رِضَاه :

عن أبي حازم ، قالَ : شَيئانِ إذا عَمِلتَ بهما أصَبتَ خَيرَ الدُّنيا والآخِرَة لا أطوِّل عليكَ ، قيلَ : ما هُما ؟ قالَ : تَحْمِلُ ما تَكرَهُ إذا أحَبَّهُ اللهُ ، وتَتْرُكُ ما تُحِبُّ إذا كَرِهَهُ الله[4] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ مُطَرِّف ، حدَّثنا أبو حازم قالَ : لا يُحسِنُ عَبدٌ فيما بَينَه وبينَ الله ، إلاَّ أحْسَنَ ما بَينَه وبينَ العِباد ، ولا يُعوِّرُ ما بَينَه وبينَ الله إلاَّ عوَّر فيما بينَه وبينَ العِباد[5] .

وقالَ أيضاً : لَمُصانَعَةُ وَجْه واحدٍ أيْسَرُ من مُصَانَعَةِ الوُجُوهِ كلِّها إنَّكَ إذا صانَعْتَه مَالَت الوُجُوهُ كلُّها إليكَ ، وإذا اسْتَفْسَدتَ ما بينَه ، شَنِئَتْكَ الوُجُوهُ كلُّها[6] .

---

(١) انظر السير : (أبو حَفْص النِّسابوريُّ) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٢٥ .
(٢) العَقِبُ هنا : النَّعْل ، علىٰ سَبيل المجاز
(٣) انظر السير : (إبْراهيمُ الحَرْبيّ) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ١/١٠٩٥ .
(٤) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٨/٦٣٦ .
(٥) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٧/٦٣٧ .
(٦) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٨/٦٣٧ .

١٤ـ الافْتِقَارُ إليه سُبْحانَه :

قالَ أبو حَفْص النِّيسابُوري : أحْسَنُ ما يَتَوَسَّلُ به العَبدُ إلىٰ مَوْلاه الافْتِقارُ إليه ومُلازَمَةُ السُّنَّة ، وطَلَبُ القُوتِ من حِلِّه .

تُوفِّيَ الأسْتاذُ أبو حَفْص النِّيسابوري سَنةَ أرْبَع وستِّينَ ومئتَين ، رحمَةُ الله عليه[١] .

١٥ـ رِضَا الله غَايَة :

عن مُحمَّدِ بنِ وَاسِع قالَ : طُوبَىٰ لِمَنْ وَجدَ عَشاءً ، ولَمْ يَجِدْ غَداءً ، ووَجَدَ غَداءً ولَمْ يَجِدْ عَشاءً ، واللهُ عَنه رَاضٍ[٢] .

وعن سُفْيانَ الثَّوْريِّ ، قال : احْذَرْ سَخَطَ الله في ثَلاثٍ : احْذَرْ أنْ تُقَصِّرَ فيما أمَرَك ، واحْذَرْ أنْ يَراكَ وأنتَ لا تَرْضَىٰ بما قَسَمَ لك ، وأنْ تَطلُبَ شَيئاً من الدُّنيا فلا تَجدُه ، أنْ تَسْخَطَ علىٰ رَبِّك[٣] .

١٦ـ عَوْنُه سُبْحانَه للعَبد وتَوْفيقِه :

قالَ مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله : إنَّما وَجدتُ العَبدَ مُلقَىٰ بينَ رَبِّه وبينَ الشَّيطانِ ، فإنْ اسْتَشْلاهُ رَبُّه واسْتَنقَذَهُ نَجا ، وإنْ تَرَكَه والشَّيطَانَ ذَهبَ به[٤] .

وقالَ مُطَرِّفُ : لَوْ أُخرِجَ قَلبي فجُعلَ في يَساري وجيءَ بالخَيرِ ، فجُعلَ في يَميني ما اسْتَطعتُ أنْ أُولِجَ قَلبي منه شَيئاً حتَّىٰ يَكونَ اللهُ يَضعُه[٥] .

وقالَ الوَخْشيُّ يوماً : رَحلتُ ، وقاسَيتُ الذُّلَّ والْمَشَاقَّ ، ورَجَعتُ إلىٰ وَخْشَ وما عَرَفَ أحَدٌ قَدْري ، فقُلتُ : أمُوتُ ولا يَنْتَشِرُ ذِكْري ، ولا يَتَرحَّمُ أحدٌ عليَّ ، فسَهَّلَ اللهُ ، ووَفَّقَ نِظامَ الْمُلكِ حتَّىٰ بَنَىٰ هٰذه المدرَسَةَ وأجْلَسَني فيها أُحَدِّث ، لقد

---

(١) انظر السير : (أبو حَفْص النِّسابوريُّ) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٦ .

(٢) انظر السير : (محمَّدُ بنُ واسِع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٤/٦٣٨ .

(٣) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوْريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٩٧ .

(٤) انظر السير : (مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٥/٤٧٥ .

(٥) انظر السير : (مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٦/٤٧٥ .

كُنتُ بعَسْقَلانَ أسْمَعُ من ابنِ مُصَحِّح ، وبَقيتُ أياماً بلا أكْل ، فقَعدتُ بقُربِ خَبَّاز لأشَمَّ رَائحَةَ الخُبزِ وأتَقَوَّىٰ بها[1] .

١٧ـ حُبُّه سُبْحانَه :

قالَ إبْراهيمُ بنُ الأشْعَث : سَمعتُ الفُضَيْلَ يَقولُ في مَرضِه : ارْحَمني بحُبِّي إيَّاكَ فلَيسَ شَيءٌ أحَبَّ إليَّ منْكَ[2] .

١٨ـ رُؤْيَةُ المُسَبِّب ومُراعَاةُ الأسْباب :

قالَ الكَتَّانيُّ : سَمعتُ أبا سَعيد الخَرَّازَ يَقولُ : مَنْ ظَنَّ أنَّه يَصِلُ بغَير بَذْلِ الْمَجْهُودِ فهو مُتَمَنِّي ، ومَنْ ظَنَّ أنَّه يَصِلُ ببَذْلِ الْمَجْهُودِ فهو مُتَعَنِّي[3] .

وقالَ بُنانٌ الحَمَّالُ : رُؤيَةُ الأسْبابِ على الدَّوامِ قاطِعَةٌ عن مُشاهَدَة الْمُسَبِّب ، والإعْراضُ عن الأسْبابِ جُملَةً يُؤدِّي بصاحبِه إلىٰ رُكُوبِ الباطِل[4] .

١٩ـ مُتَفَرِّقَات في العَلاقَة مع الله :

عن مَعْروفٍ الكَرْخيِّ ، قالَ : مَنْ كَابَرَ اللهَ ، صَرَعَه ، ومَنْ نازَعَه ، قَمَعَه ، ومَنْ مَاكَرَه خَدَعَه ، ومَنْ تَوكَّلَ عليه مَنَعَه ، ومَنْ تَواضَعَ له ، رَفَعَه ، كَلامُ العَبدِ فيما لا يَعنيه خُذْلانٌ من الله[5] .

وعن أحْمدَ بنِ أبي الحَواريِّ ، قالَ : كُنتُ أسْمَعُ وَكيعاً يَبتَدِىءُ قبلَ أنْ يُحدِّثَ فيَقُولُ : ما هُنالكَ إلاَّ عَفوُه ، ولا نَعيشُ إلاَّ في سِتْرِه ، ولَوْ كَشَفَ الغِطاءَ لكَشَفَ عن أمْرٍ عَظيمٍ[6] .

---

(١) انظر السير : (الوَخْشيُّ) ١٨/ ٣٦٥ـ ٣٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢٣ .
(٢) انظر السير : (الفُضَيْلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ١/٧٧٨ .
(٣) انظر السير : (الخَرَّاز) ١٣/ ٤١٩ـ ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٩٧ .
(٤) انظر السير : (بُنانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٩ .
(٥) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخيّ) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨/٨٢٦ .
(٦) انظر السير : (أحمَدُ بنُ أبي الحَواريِّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩٨٧ .

وعن ابنِ سَمْعُونَ ، أنَّه سَمعَ البَرْبَهاريَّ يَقولُ : رَأيتُ بالشَّامِ رَاهِباً في صَوْمَعَة حَولَه رُهْبانٌ يَتَمَسَّحونَ بالصَّوْمَعَة ، فقُلتُ لِحَدَثٍ منهم : بأيِّ شَيءٍ أُعْطِيَ هـٰذا ؟ قالَ : سُبْحَانَ الله مَتَىٰ رَأيتَ اللهَ يُعطِي شَيئاً علىٰ شَيءٍ ؟ قُلتُ : هـٰذا يَحتاجُ إلىٰ إيضاح ، فقد يُعْطي اللهُ عَبدَه بِلا شَيءٍ ، وقد يُعطيه علىٰ شَيءٍ ، لكنَّ الشَّيءَ الذي يُعطيه اللهُ عَبدَه ، ثم يُثيبُه عَليه هو منه أيضاً قالَ تَعالَىٰ : ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1] .

عاشَ البَرْبَهاريُّ سَبْعاً وسَبعينَ سَنةً ، وكانَ في آخِرِ عُمرِه قد تَزوَّجَ بجاريَة[2] .

* * *

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٤٣ .

(٢) انظر السير : (البَرْبَهاريُّ) ١٥/ ٩٠ـ٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٦ .

من مَظَاهِر حُسْن العَلاقَة مع الله

١ـ الاسْتِسْقَاء

صُوَرٌ من اسْتِسْقاء الصَّالحين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ العَبَّاسِ بنِ عبدِ الْمُطَّلِبِ عَمِّ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم : وثَبتَ من حَديثِ أنَس : أنَّ عُمَرَ اسْتَسْقَىٰ فقالَ : اللَّهُمَّ إنَّا كُنَّا إذا قَحطْنا علىٰ عَهدِ نَبيِّك تَوَسَّلنا به ، وإنا نَسْتَسْقي إليكَ بعَمِّ نَبيِّكَ العَبَّاسِ .

وفي ذلك يَقولُ عَبَّاسُ بنُ عُقْبَة بنِ أبي لَهَبٍ[١] :

بعمـي سقـى اللهُ الحجـازَ وأهلَـهُ ... عشيـةَ يستسقـي بشيبتـهِ عمـر
توجَّهَ بالعباسِ في الجَدْب راغباً ... إليـه فمـا إنْ رامَ حتىٰ أتـى المطـر
ومِنّـا رسـولُ اللهِ فينـا تـراثُـهُ ... فهـلْ فـوقَ هـٰذا للمُفـاخِـرِ مفتَخَـر

وعن ثابِتٍ البُنَانيِّ قالَ : جاءَ قَيِّمُ أرضِ أنَسِ بنِ مَالِك فقالَ : عَطِشَتْ أرْضُوكَ ، فتَردَّىٰ أنَسٌ ، ثم خَرجَ إلى البَرِيَّة ، ثم صَلَّىٰ ، ودَعَا ، فثارَت سَحابَةٌ ، وغَشِيَتْ أرضَه ومَطَرَت ، حتَّىٰ مَلأت صِهْريجَه وذلك في الصَّيفِ ، فأرْسَلَ بَعضَ أهلِه ، فقالَ : انْظُرْ أينَ بَلغَت ؟ فإذا هي لَمْ تَعدُ أرْضَه إلاَّ يَسيراً[٢] .

عن سُلَيمِ بنِ عامِر قالَ : خَرجَ مُعاويَةُ يَسْتَسْقِي ، فلمَّا قَعدَ على الْمِنْبَرِ ، قالَ : أينَ يَزيدُ بنُ الأسْوَد ؟ فنادَاهُ النَّاسُ ، فأقْبَلَ يَتخَطَّاهم فأمَرَهُ مُعاويَةُ ، فصَعدَ الْمِنبَرَ ، فقالَ مُعاويَةُ : اللَّهُمَّ إنَّا نَستَشفعُ إليكَ بِخَيرِنا وأفْضَلِنا يَزيدِ بنِ الأسْوَدِ ، يا يَزيدُ ارْفَعْ يَدَيكَ إلى الله ، فرَفَعَ يَدَيه ورَفَعَ النَّاسُ فمَا كانَ بأوْشَك منْ أنْ ثارَت سَحابَةٌ كالتُّرسِ ، وهَبَّت رِيحٌ فسُقِينَا حتَّىٰ كادَ النَّاسُ أنْ لا يَبلُغوا مَنازِلَهم[٣] .

---

(١) انظر السير : (العَبَّاس) ٢/ ٧٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٢٣ .
(٢) انظر السير : (أنَسُ بنُ مَالِك) ٣/ ٣٩٥ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٠١ .
(٣) انظر السير : (الجُرَشيُّ) ٤/ ١٣٦ـ ١٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٦٢ .

وقالَ الأوْزاعِيُّ : خَرَجوا يَسْتَسْقُونَ بدِمَشْقَ ، وفيهم بِلالُ بنُ سَعْد ، فقامَ فقالَ : يا مَعْشَرَ مَنْ حَضَرَ! أَلَسْتُم مُقرِّينَ بالإساءَة ؟ قُلنا : نَعَم ، قالَ : اللَّهُمَّ إنَّكَ قُلتَ : ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[1] وقد أقْرَرْنا بالإساءَة ، فاعْفُ عَنَّا واسْقِنَا قالَ : فسُقِينَا يَومَئذ[2] .

وقالَ ابنُ الْمُنْكَدِر : إنِّي لَلَيلَةٌ مُواجِهٌ هـٰذا الْمِنْبَرَ في جَوفِ اللَّيلِ أدْعُو ، إذا إنْسَانٌ عندَ أسْطُوانَة مُقَنِّعٌ رَأسَه ، فأسْمَعُه يَقولُ : أي رَبِّ إنَّ القَحْطَ قد اشْتدَّ علىٰ عِبادِك ، وإنِّي مُقسِمٌ عَليكَ يا رَبِّ إلاَّ سَقَيْتَهم ، قالَ : فما كانَ إلاَّ ساعَةً إذا سَحابَةٌ قد أقْبَلت ، ثم أرْسَلَها اللهُ ، وكانَ عَزيزاً على ابنِ الْمُنْكَدِرِ أنْ يَخْفَىٰ عليه أحَدٌ من أهْلِ الخَيرِ ، فقالَ : هـٰذا بالْمَدينَةِ ولا أعْرِفُه!! فلمَّا سَلَّمَ الإمامُ ، تَقنَّعَ وانْصَرَف ، وأتْبَعَه ، ولَمْ يَجلِسْ للقَاص حتَّىٰ أتَىٰ دارَ أنَسٍ ، فدَخلَ مَوْضِعاً ، ففَتَحَ ودَخلَ قالَ : ورَجَعتُ ، فلمَّا سَبَّحتُ أتَيتُه فقُلتُ : أدْخُلُ ؟ قالَ : ادْخُل فإذا هو يَنجِرُ أقْداحاً ، فقُلتُ : كَيفَ أصْبَحتَ ؟ أصْلَحَكَ اللهُ ، قالَ : فاسْتَشْهَرَهَا وأعْظَمَهَا مِنِّي ، فلمَّا رَأيتُ ذلكَ ، قُلتُ : إنِّي سَمعتُ إقْسَامَكَ البَارِحَة على الله ، يا أخي هَلْ لكَ في نَفَقَةٍ تُغنيكَ عن هـٰذا ، وتُفَرِّغُكَ لِمَا تُريدُ من الآخِرَة ، قالَ : لا ، ولَكِنْ غيرُ ذلكَ ، لا تَذْكُرْني لأحَدٍ ، ولا تَذْكُرْ هـٰذا لأحَدٍ حتَّىٰ أمُوتَ ، ولا تَأتِني يا ابنَ الْمُنْكَدِر ، فإنَّك إنْ تَأتِني شَهَرْتَنِي للنَّاسِ ، فقُلتُ : إنِّي أُحِبُّ أنْ ألْقَاكَ ، قالَ : الْقَنِي في الْمَسجِدِ ، قالَ : وكانَ فارِسياً ، فمَا ذَكرَ ذلكَ ابنُ الْمُنْكَدِر لأحَدٍ حتَّىٰ ماتَ الرَّجُلُ قالَ ابنُ وَهْبٍ : بَلغَني أنَّه انْتَقلَ من تِلكَ الدَّارِ ، فلَمْ يُرَ ، ولَمْ يُدْرَ أينَ ذَهَبَ فقالَ أهْلُ تِلكَ الدَّار : اللهُ بَينَنا وبينَ ابنِ الْمُنْكَدِر ، أخْرَجَ عَنَّا الرجُلَ الصَّالِح[3] .

وكان أيُّوب السَّخْتياني في طَريقِ مكّة ، فأصابَ الناسَ عَطَشٌ شَديدٌ حتّىٰ خافُوا فقال أيُّوبُ : أتكتُمونَ عليَّ ؟ قالوا : نَعَم فدوَّرَ رِداءَه ودَعا ، فنَبعَ الماءُ ، وسَقوا

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٩١ .

(٢) انظر السير : (بِلالُ بنُ سَعْد) ٥/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٨٤ .

(٣) انظر السير : (محمَّدُ بنُ الْمُنْكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٤/٦٠٨ .

الجِمالَ ، ورَوَوا ، ثم أمرَّ يَدَه على المَوْضِع فصار كما كان .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : اتَّفَقوا علىٰ أنَّه تُوفِّيَ سَنةَ إحْدَىٰ وثَلاثينَ ومئة بالبَصْرَة زَمَنَ الطَّاعُونِ وله ثَلاثٌ وسِتُّونَ سَنةً[1] .

قالَ ابنُ مَسْروق : حدَّثنا يَعقوبُ ابنُ أخي مَعْروفٍ الكَرْخيِّ ، أنَّ مَعْروفاً اسْتَسقَىٰ لهم في يَومٍ حارٍّ ، فما اسْتَتَمُّوا رَفعَ ثِيابِهم حتَّىٰ مُطِرُوا .

وقد استُجيبَ دُعاءُ مَعْروفٍ في غَيرِ قَضيَّة ، وأفْرَدَ الإمامُ أبو الفَرَجِ ابنُ الجَوْزيّ مَناقِبَ مَعْروفٍ في أرْبَعَةِ كَراريسَ[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أحمدَ بنِ حَرْب : وقيلَ إنَّه استَسْقَىٰ لهم بِبُخارَىٰ ، فما انْصَرَفوا إلاَّ يَخوضونَ في الْمَطَر رَحمَةُ الله عليه ماتَ سَنةَ أرْبَع وثَلاثينَ ومئتين ، وقد قارَبَ السِّتِّينَ[3] .

وقالَ أبو عَليٍّ الغَسَّانيُّ : أخْبَرَنا أبو الفَتْحِ نَصْرُ بنُ الحَسَن السكتيُّ السَّمَرْقَنديُّ ، قالَ : قَحطَ الْمَطَرُ عندَنا بسَمَرْقَنْدَ في بَعضِ الأعْوَامِ ، فاسْتَسْقَى النَّاسُ مِراراً ، فلَمْ يُسْقَوا ، فأتَىٰ رَجلٌ صالِحٌ مَعرُوفٌ بالصَّلاحِ إلىٰ قاضي سَمَرْقَنْدَ ، فقالَ له : إنِّي رَأيتُ رأياً أعْرِضُه عَليكَ قالَ : وما هو ؟ قالَ : أرَىٰ أنْ تَخرُجَ ويَخرُجَ النَّاسُ مَعَكَ إلىٰ قَبرِ الإمامِ مُحمَّدِ بنِ إسْمَاعيلَ البُخاريّ ، وقَبرُه بخَرْتَنْكَ ونَسْتَسْقِي عندَه ، فعَسَى اللهُ أنْ يَسْقِيَنا ، قالَ : فقالَ القاضي : نِعْمَ ما رَأيتَ ! فَخَرَجَ القاضي والنَّاسُ معه ، واسْتَسْقَى القاضي بالنَّاسِ ، وبَكَى النَّاسُ عندَ القَبرِ ، وتَشَفَّعُوا بصاحِبِه ، فأرْسَلَ اللهُ تَعالَى السَّماءَ بمَاءٍ عَظيمٍ غَزيرٍ ، أقامَ النَّاسُ من أجلِه بخَرْتَنْكَ سَبعَةَ أيَّامٍ أو نَحْوَها ، لا يَستَطيعُ أحَدٌ الوُصُولَ إلىٰ سَمَرْقَنْدَ من كَثْرَةِ الْمَطَر وغَزارَتِه ، وبينَ خَرْتَنْكَ وسَمَرْقَنْدَ نَحوَ ثَلاثَةِ أمْيَال[4] .

---

(١) انظر السير : (أيُّوبُ السَّخْتِيانيُّ) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦٢٦/ ١٣ .

(٢) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخيّ) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٧/ ١ .

(٣) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَرْب) ١١/ ٣٢ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٩٠٦/ ٥ .

(٤) انظر السير : (أبو عبدِ الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠٢١/ ٣ .

وقالَ الحَسَنُ بنُ مُحمَّد : قَحَطَ النَّاسُ في بَعضِ السِّنينَ آخِرَ مُدَّة النَّاصِر ، فأمَرَ القاضي مُنْذِرَ بنَ سَعيد بالبُرُوزِ إلى الاسْتِسْقاءِ بالنَّاسِ ، فصَامَ أيّاماً وتأهَّبَ ، واجْتَمعَ الخَلقُ في مُصَلَّى الرَّبَضِ وصَعَدَ النَّاصِرُ في أعْلَىٰ قَصْرِه لِيُشَاهِدَ الجَمْعَ ، فأبْطَأ مُنْذِرٌ ثم خَرجَ راحِلاً مُتَخَشِّعاً ، وقامَ لِيَخْطُبَ فلمَّا رَأى الحَالَ بَكَىٰ ونَشَجَ وافْتَتحَ خُطبَتَه بأنْ قالَ : سَلامٌ عَليكم ، ثم سَكتَ شِبهَ الحَسيرِ ، ولَمْ يَكُنْ من عادَتِه ، فنَظَرَ النَّاسُ بَعضُهُم إلىٰ بَعضٍ لا يَدْرُونَ ما عَرَاهُ ، ثم انْدَفَعَ فقالَ : سَلامٌ عَليكم ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[1] اسْتَغفِرُوا رَبَّكُم وتُوبُوا إليه ، وتَقرَّبوا بالأعْمَالِ الصَّالِحَة لَدَيه ، فضَجَّ النَّاسُ بالبُكَاءِ ، وجَأرُوا بالدُّعاءِ والتَّضَرُّع وخَطَبَ فأبْلَغَ ، فلَمْ يَنفَضَّ القَومُ حتَّىٰ نَزلَ غَيثٌ عَظيمٌ[2] .

واسْتَسْقَىٰ مُنْذِرُ بنُ سَعيد مرَّةً ، فقالَ يَهتِفُ بالخَلقِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[3] فهيَّجَ الخَلقَ على البُكاءِ[4] .

وقالَ الحَسَنُ بنُ مُحمَّد : وسَمعتُ مَنْ يَذكُرُ أنَّ رَسُولَ النَّاسِ جاءَه للاسْتِسْقاءِ ، فقالَ لِلرَّسُولِ : ها أنا سائرٌ ، فلَيْتَ شِعْري ما الذي يَصْنَعُه الخَليفَةُ في يَوْمِنا هٰذا ؟ فقالَ : ما رَأيتُه قَطُّ أخْشَعَ منه في يَومِه هٰذا ، إنَّه مُنْفَردٌ بنَفسِه ، لابِسٌ أخْشَنَ الثِّيابِ ، مُفْتَرِشٌ التُّرابَ ، قد عَلا نَحيبُه واعْتِرافُه بذُنُوبِه ، يَقُولُ : رَبِّ هٰذه ناصِيَتي بيَدِك ، أتُرَاكَ تُعَذِّبُ الرَّعيَّةَ ، وأنْتَ أحْكَمُ الحاكِمينَ وأعْدَلُهم ، أنْ يَفُوتَك منِّي شَيءٌ ، فتَهَلَّلَ مُنْذِرُ بنُ سَعيد ، وقالَ : يا غُلامُ احْمِلْ الْمِمْطَرَةَ مَعَك ، إذا خَشَعَ جَبَّارُ الأرْضِ رَحِمَ جَبَّارُ السَّماءِ[5] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٤ .
(٢) انظر السير : (مُنْذِرُ بنُ سَعيد) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٧٨ .
(٣) سورة فاطر ، الآيتان : ١٥ ، ١٦ .
(٤) انظر السير : (مُنْذِرُ بنُ سَعيد) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٩ .
(٥) انظر السير : (مُنْذِرُ بنُ سَعيد) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٩ .

وعن الرَّبيعِ بنِ سَالِم يَقولُ : صَادَفَ وَقتُ وَفاةِ الْحُجْرِيِّ قَحْطٌ ، فلمَّا وُضِعَت جنازَتُه ، تَوَسَّلُوا به إلى الله ، فسُقُوا ، وما اخْتَلفَ النَّاسُ إلىٰ قَبرِه مُدَّةَ الأُسْبُوعِ إلاَّ في الوَحْلِ وكانَ ابنُ حُبَيْش شَيخُنا كَثيراً ما يَقُولُ : لَمْ تُخْرِجِ الْمَرِّيَّةُ أفْضَلَ منه ، وكانَ زَماناً يُخبِرُ أنَّه يَمُوتُ في الْمُحَرَّمِ لِرُؤْيا رآها ، فكانَ كُلَّ سَنةٍ يَتهَيَّأ[1] .

وقد اسْتَسْقَى الشَّيخُ أبو عُمَرَ مُحمَّدُ بنُ قُدامَة مَرَّةً بالْمَغَارَةِ فحِينَئذٍ نَزَلَ غَيثٌ أجْرَى الأوْدِيَة[2] .

* * *

(١) انظر السير : (الحَجْريُّ) ٢١/ ٢٥١ـ ٢٥٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦١٦ .

(٢) انظر السير : (الشَّيخُ أبو عُمَر) ٢٢/ ٥ـ ٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٦٢ .

٢ـ الالتِجَاء حَالَ التَّهْديد إلى الله

(وسَتجدُ غَيرَ ذلك في فهْرس الدُّعاء في : أدْعيَة مُجرَّبَة في كشْف الضُّرّ)

ماذا يَفْعَلُ مَنْ هُدِّد ؟

عن الحَسَنِ بنِ محمَّدِ بنِ الحَنَفيَّة قالَ : لَمْ يبايع أبي الحَجَّاجَ ، لَما قَتلَ ابنَ الزُّبَيْر بَعثَ الحَجَّاجُ إليه أنْ قد قُتلَ عَدوُّ الله ، فقالَ : إذا بايَعَ النَّاسُ بايَعتُ قالَ : والله لأقْتُلنَّك قالَ : إنَّ لله في كُلِّ يَوم ثَلاث مئة وستِّينَ نَظرَة[1] ، في كُلِّ لَحظَة ثَلاث مئة وسِتُّونَ قَضيَّة ، فلَعلَّه أنْ يَكْفينَاكَ في قَضيَّةٍ من قَضاياه ، وكَتبَ الحَجَّاجُ فيه إلىٰ عبدِ الْمَلكِ بذلك ، فأعْجَبَ عبدَ الْمَلكِ قَولُه ، وكَتبَ بمِثلِها إلىٰ طاغِيَةِ الرُّوم وذلك أنَّ صاحِبَ الرُّوم كَتبَ إلىٰ عبدِ الْمَلكِ يَتهَدَّدُه بأنَّه قد جَمَعَ له جُموعاً كَثيرةً وكَتبَ إلى الحَجَّاجِ : قد عَرَفنا أنَّ محمَّداً لَيسَ عندَه خِلافٌ ، فارْفُقْ به فسَيُبايعُكَ فلمَّا اجْتَمعَ النَّاسُ علىٰ عبدِ الْمَلكِ ، وبايَعَ له ابنُ عُمَرَ قالَ ابنُ عُمَرَ لِمُحمَّدٍ : ما بَقِيَ شَيءٌ فبَايعْ فكَتبَ بالبَيْعَةِ إلىٰ عبدِ الْمَلكِ وهي : « أمَّا بَعدُ ، فإنِّي لَمَّا رَأيتُ الأُمَّةَ قد اخْتَلفَتْ اعْتَزَلتُهم ، فلَمَّا أفْضَى الأمْرُ إليكَ وبايَعَكَ النَّاسُ ، كُنتُ كرَجُلٍ منهم ، فقد بايَعتُك وبايَعتُ الحَجَّاجَ لكَ ، ونَحنُ نُحِبُّ أنْ تُؤمِّنَنا ، وتُعْطِيَنا مِيثَاقاً على الوَفاءِ فإنَّ الغَدْرَ لا خَيرَ فيه » .

فكَتبَ إليه عبدُ الْمَلكِ : إنَّك عِندَنا مَحمودٌ ، أنْتَ أحَبُّ إلينا وأقْرَبُ بنا رَحِماً من ابنِ الزُّبَيْر ، فلَكَ ذِمَّةُ اللهِ ورَسُولِه أنْ لا تُهَاجَ ولا أحَدٌ من أصْحابِكَ بشَيءٍ[2] .

وقيلَ : تَهدَّدَ عبدُ الْمَلكِ بنُ مَرْوانَ خَالداً ابنَ الخَليفَة يَزيد وسَطَا عَليه ، فقالَ : أتُهَدِّدُني ويَدُ اللهِ فَوْقَكَ مَانِعَةٌ ، وعَطَاؤُهُ دُونَكَ مَبْذُولٌ[3] .

---

(١) عند ابن سعد : (لحظة) .

(٢) انظر السير : (ابنُ الحَنَفيَّة) ٤/ ١١٠ـ ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٦١ .

(٣) انظر السير : (خالدُ بنُ الخَليفَة يَزيد) ٤/ ٣٨٢ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥١٥ .

٣ ـ التَّوْبَة

١ـ الحَثُّ على التَّوْبَة :

عن طَلْقِ بنِ حَبيبٍ ، قالَ : إنَّ حُقُوقَ الله أعْظَمُ مِنْ أنْ يَقُومَ بها العِبَادُ ، وإنَّ نِعَمَ الله أكثرُ مِنْ أنْ تُحْصَىٰ ، ولَكنْ أصْبِحُوا تائبينَ ، وأمْسُوا تائبينَ .

قالَ أبو حاتم : طَلقٌ صَدوقٌ ، يَرَى الإرْجاءَ[١] .

٢ـ مِنْ عَلامات التَّوْبَة :

عن عُمَرَ بنِ ذَر قالَ : كُلُّ حُزْنٍ يَبْلَىٰ إلاَّ حُزْنُ التَّائبِ عن ذُنوبِه[٢] .

وعن شَقيقٍ ، قالَ : عَلامَةُ التَّوْبَة البُكَاءُ علىٰ مَا سَلَفَ ، والخَوْفُ من الوُقُوعِ في الذَّنبِ ، وهُجْرانُ إخْوَانِ السُّوءِ ، ومُلازَمَةُ الأخْيَارِ[٣] .

٣ـ كلمَةٌ جَميلَةٌ في التَّوْبَة :

رَوَىٰ أبو الْمَليحِ ، عن مَيْمُونَ ، قالَ : مَنْ أسَاءَ سِرّاً فليَتُبْ سِرّاً ، ومَنْ أسَاءَ عَلانيَةً ، فليَتُبْ عَلانيَةً ، فإنَّ النَّاسَ يُعَيِّرُونَ ولا يَغْفِرُونَ ، والله يَغْفِرُ ولا يُعَيِّرُ[٤] .

٤ـ صُوَرٌ من التَّوْبَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ زاذانَ : وقالَ ابنُ عَدي : تابَ علىٰ يَدِ ابنِ مَسْعود وعن أبي هاشم الرُّمَّانيِّ قالَ : قالَ زاذانُ : كُنتُ غُلاماً حَسنَ الصَّوْتِ ، وعندَنا نَبيذٌ وأنا أُغَنِّيهم ، فمَرَّ ابنُ مَسْعود فدَخلَ فضَربَ الباطيَةَ[٥] ، بَدَّدَها وكَسَرَ الطُّنبورَ ، ثم قالَ : لَوْ كانَ ما يُسمَعُ من حُسْنِ صَوتِك يا غُلامُ بالقُرآنِ كُنتَ أنتَ ، ثم مَضَىٰ فقُلتُ

---

(١) انظر السير : (طَلْقُ بنُ حَبيب العَنزيُّ) ٤/ ٦٠١ـ ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٦٧ .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بنُ ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٦٠ .

(٣) انظر السير : (شَقيق) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٩/ ٨٢٣ .

(٤) انظر السير : (مَيْمُونُ بنُ مِهْران) ٥/ ٧١ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٨٢ .

(٥) الباطيَةُ : هو كلُّ إناء يُجعَلُ فيه الخَمر.

لأصْحَابي : مَنْ هـٰذا ؟ قالوا : هـٰذا ابنُ مَسْعود ، فألْقَىٰ في نَفسِي التَّوبَة ، فسَعيتُ أبْكِي ، وأخَذتُ بثَوبِه ، فأقْبَلَ عليَّ فاعْتَنَقَني وبَكَىٰ وقالَ : مَرْحَباً بمَنْ أحَبَّه اللهُ ، اجْلِسْ ، ثم دَخَلَ وأخْرَجَ لي تَمْراً[1] .

وعن يُونُسَ البَلْخيِّ ، قالَ : كانَ إبْراهيمُ بنُ أدْهَمَ من الأشْرافِ ، وكانَ أبُوهُ كَثيرَ الْمَالِ والخَدَم ، والْمَراكِب والجَنائب والبُزَّاة[2] فبَيْنا إبْراهيمُ في الصَّيدِ علىٰ فَرَسِه يُركِضُه ، إذا هو بصَوتٍ من فَوقِه : يا إبْراهيمُ ما هـٰذا العَبثُ ؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[3] اتَّقِ اللهَ ، عَليكَ بالزَّادِ لِيَومِ الفَاقَة ، فنزَلَ عن دَابَّتِه ، ورَفَضَ الدُّنيا .

قالَ خَلفُ بنُ تَميم : سَمعتُ إبْراهيمَ يَقولُ : رآني ابنُ عَجْلانَ ، فاسْتَقبَلَ القِبلَةَ سَاجِداً ، وقالَ سَجدتُ لله شُكْراً حينَ رَأيتُك[4] .

قالَ السَّرَّاجُ : سَمعتُ إبْراهيمَ بنَ بَشَار يَقُولُ : قُلتُ لإبْراهيمَ بنِ أدْهَمَ : كَيفَ كانَ بَدءُ أمْرِك ؟ قالَ : غَيرُ ذا أوْلَىٰ بك قالَ : قُلتُ : أخْبرْني لَعلَّ اللهَ أنَ يَنْفَعَنا به يَوماً قالَ : كانَ أبي من الْمُلوكِ الْمَياسير ، وحُبِّبَ إلينا الصَّيدُ فرَكبتُ ، فثارَ أرْنَبٌ أو ثَعلَبٌ فحَرَّكتُ فَرَسي ، فسَمعتُ نِداءً من وَرَائي : لَيسَ لِذَا خُلِقْتَ ولا بِذَا أُمِرْتَ ، فوَقَفتُ أنْظُرُ يَمْنَةً ويَسْرَةً ، فلَمْ أرَ أحَداً ، فقُلتُ : لَعَنَ اللهُ إبْليسَ ، ثم حَرَّكتُ فَرَسي ، فأسْمَعُ نِداءً أجْهَر من ذلك : يا إبْراهيمُ! لَيسَ لِذَا خُلِقْتَ ولا بِذَا أُمِرْتَ ، فوَقَفتُ أنْظُرُ فلا أرَىٰ أحَداً فقُلتُ : لَعَنَ اللهُ إبْليسَ ، فأسْمَعُ نِداءً من قَرْبُوس[5] سَرْجي بذَاكَ ، فقُلتُ : أُنْبِهْتُ ، أُنْبِهْتُ ، جاءَني نَذيرٌ ، واللهِ لا عَصَيتُ اللهَ بعدَ يَومي ما عَصَمَني اللهُ ، فرَجَعتُ إلىٰ أهْلي ، فخَلَّيتُ فَرَسي ، ثم جِئتُ إلىٰ رُعاةٍ لأبي ، فأخَذتُ جُبَّة وكِسَاءً ، وألْقَيتُ ثيابي إليه ثم أقْبَلتُ إلى العِراقِ ، فعَمِلتُ بها أيّاماً ، فلَمْ يَصْفُ لي منها الحَلالُ فقيلَ

---

(١) انظر السير : (زاذان) ٤/ ٢٨٠ـ ٢٨١ ، وانظر النزهة : ٢/٤٩٨ .

(٢) البُزاة : جمع البازي ، وهو ضَربٌ من الصُّقور.

(٣) سورة المؤمنون ، الآية : ١١٥ .

(٤) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/٧٠٧ .

(٥) القَرْبُوس : هو حنْو السرج ، قال الأزهري : وللسرج قربوسان ، فأما القربوس المقدَّم ، ففيه العَضُدان، وهما رجلا السرج، ويُقالُ لهما حنواه ، والقربوس الآخر فيه رجلا المؤخِّرَة ، وهما حنواه.

لي : عَليكَ بالشَّامِ فذَكرَ حِكايَةَ نِظارَتِه الرُّمَّانَ ، وقالَ الخادِمُ له : أنْتَ تَأكُلُ فاكِهَتَنا ، ولا تَعرفُ الحُلوَ من الحَامِضِ ؟ قُلتُ : والله ما ذُقتُها فقالَ : أتُراكَ لَوْ أنَّك إبْراهيمُ بنُ أدْهَم ، فانْصَرفَ ، فلمَّا كانَ من الغَدِ ذَكَر صِفَتي في الْمَسجِدِ ، فعَرَفَني بَعضُ النَّاسِ ، فجاءَ الخَادِمُ ومَعه عُنقٌ[1] من النَّاسِ فاخْتَفَيتُ خَلفَ الشَّجَرِ والنَّاسُ دَاخِلُونَ ، فاخْتَلَطتُ مَعَهم وأنا هَاربٌ .

تُوفِّيَ سَنةَ اثنَتَينِ وسِتِّينَ ومئة ، وقَبرُه يُزار[2] .

وعن الفَضْلِ بنِ مُوسَىٰ ، قالَ : كانَ الفُضَيْلُ بنُ عِياض شاطِراً يَقطَعُ الطَّريقَ بينَ أبيوَرْدَ وسَرْخَس ، وكانَ سَببُ تَوبَتِه أنَّه عَشِقَ جاريَةً ، فبَينا هو يَرْتَقي الجُدْرانَ إليها ، إذْ سَمعَ تَالياً يَتلُو ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾[3] فلمَّا سَمعَها ، قالَ : بَلَىٰ ، يا رَبِّ ، قد آنَ ، فرَجَعَ ، فآواهُ اللَّيلُ إلىٰ خَرِبَة ، فإذا فيها سَابِلَةٌ ، فقالَ بَعضُهم : نَرْحَلُ ، وقالَ بَعضُهم : حتَّىٰ نُصْبحَ فإنَّ فُضَيْلاً عَلى الطَّريقِ يَقْطَعُ عَلينا .

قالَ : ففكَّرتُ ، وقُلتُ : أنا أسْعَىٰ باللَّيلِ في الْمَعاصي ، وقَومٌ من الْمُسْلِمينَ ها هُنا ، يَخافُوني ، وما أرَى اللهَ ساقَني إليهم إلاَّ لأرْتَدِعَ ، اللَّهُمَّ إنِّي قد تُبتُ إليكَ ، وجَعلتُ تَوْبَتي مُجاوَرَةَ البَيتِ الحَرام[4] .

قال يوسُفُ بنُ الحُسين الرَّازيّ : حَضرْتُ ذا النُّونِ فقيل له : يا أبا الفيض ، ما كان سَببُ تَوبَتِكَ ؟ قال : نِمتُ في الصحراء ، ففتحت عَينَيَّ فإذا قُنْبُرَةٌ[5] عَمياءُ سقطتْ من وكْر ، فانشقت الأرضُ ، فخرجَ سُكُرُّجَتان فأكَلَت وشَربَت فقلتُ : حَسبي ، فثَبتُ ولَزِمتُ البابَ إلىٰ أن قَبِلَني[6] .

---

(١) العُنقُ : الجَماعَة من الناس الرؤساء .

(٢) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٠٩ .

(٣) سورة الحديد ، الآية : ١٦ .

(٤) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٧٢ .

(٥) القُنْبُرة والقُنْبَرة والقُبَّرة والقُنْبُراء والقُنْبَراء : عصفورة من فصيلة القُبَّريات ، ورتبة الجوائم المخروطية المناقير ، سُمر في أعلاها ضاربة إلىٰ بياض في أسفلها ، وعلىٰ صدرها بقعة سوداء ، دائمة التغريد .

(٦) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٦٧ .

المَرَض

١ـ المُمْرِضُ الحَقيقيُّ :

قالَ أبو إسْحاقَ السَّبيعي : خَرَجَتْ قُرْحَةٌ بإبْهَامِ شُرَيْح ، فقيلَ : ألا أرَيْتَها طَبيباً ؟ قالَ : هو الذي أخْرَجَها[١] .

٢ـ بَعضُ السَّلَف كانوا لا يَتَداوَوْنَ مع عِلْمِهم بجَواز التَّداوي :

قالَ سُفيانُ الثَّوريُّ : وقيلَ للرَّبيعِ بنِ خُثَيم لَوْ تَداوَيتَ ، قالَ : ذَكرتُ عَاداً وثَموداً وأصْحَابَ الرَّسِّ ، وقُروناً بينَ ذَلكَ كَثيراً ، كانت فيهم أوْجاعٌ ، وكانَت لهم أطِبَّاءُ ، فما بَقِيَ الْمُداوِي ولا الْمُداوَىٰ إلاَّ وقد فَنِيَ[٢] .

٣ـ العَدْوَىٰ وضَابِطُهَا :

قال الذهبيُّ في تَرْجَمة مُعَيْقِيب بنِ أبي فاطمَة الدَّوْسيّ : له هجرةٌ إلى الحَبشَة ، وقيل : إنَّه قَدم مع جَعفرٍ ليالي خَيْبَر ، وكان مُبْتَلىٰ بالجُذام .

عن محمود بن لُبَيد ، قال : أمَّرَني يَحْيَىٰ بنُ الحَكَم علىٰ جُرَش ، فقَدمتُها فحَدَّثوني أنَّ عبدَ الله بنَ جَعْفَر حَدَّثهم : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لصاحب هـٰذا الوَجَع ـ الجُذام ـ « اتَّقُوهُ كمَا يُتَّقَى السَّبُعُ ، إذا هَبَطَ وَادِياً فاهْبِطُوا غَيْرَه » .

فقَدمتُ المدينةَ ، فسَألتُ عبدَ الله بنَ جَعفر فقال : كَذبُوا والله!! ما حَدَّثتُهم هـٰذا ، ولقد رأيتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب يُؤتَىٰ بالإناء فيه الماءُ فيُعطيه مُعَيْقيباً ـ وكان رجُلاً قد أسْرعَ فيه ذاكَ الدَّاءُ ـ فيَشربُ منه ، ويُناولُه عُمَرَ ، فيَضعُ فَمَه مَوْضعَ فَمِه ، حتىٰ يَشرَبَ منه ، فعَرفتُ أنَّه يَفعلُه فِراراً من العَدْوَىٰ .

وكان يَطلب الطِّبَّ من كلِّ من سُمع له بطِبٍّ ، حتىٰ قَدم علينا رجلان من أهل

---

(١) انظر السير : (شُرَيحُ القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٥٧ .

(٢) انظر السير : (الرَّبيعُ بنُ خُثَيم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٩٣ .

اليَمن ، فقال هل عندكما من طبٍّ لهـٰذا الرجل الصالح ؟ فقالا : أمَّا شيءٌ يُذهبُه ، فلا نَقدرُ عليه ، ولكنَّا سنُداويه دواءً يُوقِفُه ، فلا يَزيد فقال عُمرُ : عافيَةٌ عَظيمة فقالا : هل تُنْبِتُ أرضُك الحَنْظَل ؟ قال : نعم قالا : فاجْمَعْ لنا منه ، فأمرَ ، فجُمعَ له ملءُ مِكتَلَيْنِ عظيمَين فشَقَّا كل واحدة نصفين ، ثم أضْجَعا مُعَيقِيباً ، وأخذَ كلُّ واحدٍ منهما برِجلٍ ، ثم جَعلا يُدلِّكان بُطونَ قدميه بالحَنْظلة ، حتىٰ إذا مُحقت ، أخذا أخرىٰ ، حتىٰ إذا رأيا مُعَيقيباً يَتنخَمُه أخضراً مُرَّاً أرْسلاه ثم قالا لعُمرَ : لا يَزيدُ وَجَعُه بعد هـٰذا أبداً قال : فوالله ما زالَ مُعَيقيباً مُتماسكاً ، لا يزيدُ وَجَعُه حتىٰ مات .

عاشَ مُعَيقيبٌ إلىٰ خلافة عثمان رضي الله عنه .

والفِرارُ من المَجذوم ، وتَرك مُؤاكلته جائزٌ ، لكن لِيَكُن ذلك بحيث لا يكادُ يَشْعرُ المَجذوم ، فإنَّ ذلك يُحْزِنُه ، ومَن واكَله ـ ثِقَةً بالله ، وتَوكُّلاً عليه ـ فهو مؤمن[1] .

٤ـ ماذا يَقُولُ المَريضُ :

قالَ إبْراهيمُ بنُ الأشْعَث : سَمعتُ الفُضَيلَ بنَ عِياض يَقولُ وهو يَشْتَكي : مَسَّنيَ الضُّرُّ وأنتَ أرْحَمُ الرَّاحِمين[2] .

* * *

(١) انظر السير : (مُعَيْقيب بن أبي فاطمة الدوسيّ) ٢/ ٤٩١ـ٤٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/٢٩٤ .
(٢) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/٧٧٨ .

المَوْت

١ـ فَائدَةُ الإكثَار من ذِكرِ المَوْت :

عن أبي الدَّرْداء ، قالَ : مَنْ أكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ قلَّ فَرَحُه ، وقلَّ حَسَدُه[١] .

٢ـ حَالُ السَّلَف مع ذِكرِ المَوْت :

عن زُهَير الأقْطَع : كانَ مُحمَّدُ بنُ سِيرينَ إذا ذَكرَ الْمَوْتَ ، ماتَ كُلُّ عُضْوٍ فيه علىٰ حِدَة .

قالَ مُحمَّدُ بنُ جَرير الطَّبَريُّ : كانَ ابنُ سِيرينَ فَقيهاً ، عالِماً ، وَرِعاً ، أديباً ، كَثيرَ الحَديثِ ، صَدوقاً ، شَهدَ له أهْلُ العِلمِ والفَضلِ بذَلك ، وهو حُجَّةٌ[٢] .

وقالَ الأوْزاعِيُّ : مَنْ أكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ ، كَفاهُ اليَسيرُ ، ومَنْ عَرَفَ أنَّ مَنطِقَه من عَمَلِه ، قَلَّ كَلامُه[٣] .

وقالَ قَبيصَةُ : ما جَلَستُ مع سُفْيانَ مَجلِساً إلاَّ ذَكَرْتُ الْمَوْتَ ، ما رأيتُ أحَداً كانَ أكثَرَ ذِكْراً لِلْمَوْتِ منه[٤] .

وقالَ أبو نُعَيم : كانَ سُفْيانُ إذا ذَكَر الْمَوْتَ لَمْ يُنتَفَعْ به أيّاماً[٥] .

قالَ عَبدُ الله بنُ الْمُبارَك : كانَ محمَّدُ بنُ النَّضْر إذا ذَكرَ الْمَوْتَ اضطَرَبَت مَفاصِلُه[٦] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧٣/ ٦ .
(٢) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٥٦٨/ ٤ .
(٣) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٦٨٢/ ٤ .
(٤) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوْريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٥/ ٩ .
(٥) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوْريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧٠٠/ ٣ .
(٦) انظر السير : (محمَّدُ بنُ النَّضْر) ٨/ ١٧٥ـ ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٧٤٢/ ١ .

٣ـ اسْتِعْدادُ السَّلَف للمَوْت :

قالَ مُوسَى التَّيْميُّ : ما رأيتُ أحَداً أجْمَعَ للدِّينِ والْمَمْلَكةِ والشَّرَفِ من عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ أبانَ بنِ عُثْمانَ بنِ عَفَّان ، وقيلَ كان يَشْتَري أهلَ البَيتِ فيَكْسُوهم ويُعْتِقُهم ، ويَقُولُ : أسْتَعينُ بهم علىٰ غَمَراتِ الْمَوْتِ ، فماتَ وهو نائمٌ في مَسْجِدِه وقيلَ : كانَ كَثيرَ العِبادَة والتَّألُّه رآهُ عَليُّ بنُ عبدِ الله بنِ عبَّاس فأعْجَبَه نُسُكُه وهَدْيُه ، فاقْتَدَىٰ به في الخَيْر[١] .

وعن أبي حازِم ، قالَ : ما أحْبَبْتَ أنْ يَكُونَ مَعكَ في الآخِرَة ، فاتْرُكهُ اليومَ وقالَ : انْظُر كُلَّ عَملٍ كَرِهْتَ الْمَوتَ من أجْلِه ، فاتْرُكْهُ ثم لا يَضُرُّكَ متَىٰ مِتَّ[٢] .

٤ـ تَنْغِيصُ المَوْتِ علىٰ أهْلِ الدُّنْيا :

عن مُطَرِّفِ بنِ عبدِ الله ، قالَ : إنَّ هَـٰذا الْمَوْتَ قد أفْسَدَ علىٰ أهْلِ النَّعيمِ نَعيمَهم ، فاطْلبوا نَعيماً لا مَوْتَ فيه[٣] .

قالَ مُبارَكُ بنُ فَضالَة : سَمعتُ الحَسَنَ يَقولُ : فَضَحَ الْمَوْتُ الدُّنيا ، فلَمْ يَتْرُك فيها لِذي لُبٍّ فَرَحاً .

ورَوَىٰ ثابتٌ عنه ، قال : ضَحِكُ الْمؤمنِ غَفلَةٌ من قَلبِه[٤] .

٥ـ مُحِبُّ الدُّنْيا كارِهٌ للمَوْت :

وعن بِشْرِ بنِ الحارِث : لَيسَ أحَدٌ يُحبُّ الدُّنيا إلاَّ لَمْ يُحبَّ الْمَوتَ ، ومَنْ زَهدَ فيها ، أحَبَّ لِقاءَ مَوْلاه .

وعنه : ما اتَّقَى اللهَ مَنْ أحَبَّ الشُّهْرَة[٥] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن أبَان) ٥/ ١٠ـ ١١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٧٥ .
(٢) انظر السير : (أبو حازم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٣٦ .
(٣) انظر السير : (مُطَرِّفُ بنُ عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٧٥ .
(٤) انظر السير : (الحَسَنُ البَصريُّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٦٣ .
(٥) انظر السير : (بِشْر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠/ ٨٨٦ .

٦ـ تَمَنِّي المَوْت عندَ الضُّرِّ :

قالَ مُبارَكُ بنُ فَضَالَة : دَخلتُ علىٰ ثابتِ بنِ أسْلَم ، فقالَ : يا إخْوَتاه ، لَمْ أقدِرْ أنْ أُصلِّي البَارِحَةَ كمَا كُنتُ أُصلِّي ، ولَمْ أقدِرْ أنْ أصُومَ ، ولا أنْزِلَ إلىٰ أصْحابي فأذْكُر مَعهم اللَّهُمَّ إذ حَبسْتَني عن ذلك لا تَدعْني في الدُّنيا ساعَةً[١] .

وقالَ ابنُ عَدي : سَمعتُ عبدَ القُدُّوسِ بنَ عبدِ الجَبَّار السَّمَرْقَنديَّ يَقُولُ : جاءَ مُحمَّدُ بنُ إسْماعيلَ إلىٰ خَرْتَنْك[٢] ، وكانَ له بها أقْرِباءُ فنَزلَ عندهم ، فسَمعتُه لَيلَةً يَدعُو ، وقد فَرغَ من صَلاةِ اللَّيلِ : اللَّهُمَّ إنَّه قد ضاقَت عليَّ الأرْضُ بما رَحُبَت ، فاقْبِضْني إليكَ فمَا تَمَّ الشَّهرُ حتَّىٰ ماتَ وقَبرُه بخَرْتَنْك[٣] .

٧ـ رَجَاء رَحْمَة الله حَالَة نُزُول المَوْت هو الأوْلَىٰ :

قالَ إبْراهيمُ بنُ الأشْعَث : سَمعتُ الفُضَيْلَ بنَ عِياض يَقُولُ : الخَوفُ أفْضَلُ من الرَّجاءِ ما دامَ الرَّجُلُ صَحيحاً ، فإذا نَزَلَ به الْمَوْتُ فالرَّجَاءُ أفْضَل[٤] .

٨ـ الخَوْفُ من المَوْتِ قَتْلاً لَيسَ عَيْباً :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الفَخَّار : أُريدَ على الرُّسليَّة إلىٰ أُمَراء البَرْبَر ، فأبَىٰ ، وقالَ : بي جَفاءٌ وأخَافُ أنْ أُوذَىٰ فقالَ الوَزيرُ : ورَجُلٌ صالحٌ يَخافُ الْمَوْتَ! فقالَ : إنْ أخَفْهُ ، فقد خافَه أنْبياءُ الله ، هـٰذا مُوسَىٰ قد حَكَى اللهُ عنه : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾[٥] ، [٦] .

---

(١) انظر السير : (ثابتُ بنُ أسْلَم) ٥/ ٢٢٠ـ ٢٢٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٩٧ .
(٢) قرية علىٰ فَرسَخين من سَمَرْقَند .
(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٢٠ .
(٤) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٧٧ .
(٥) سورة الشعراء ، الآية : ٢١ .
(٦) انظر السير : (ابنُ الفَخَّار) ١٧/ ٣٧٢ـ ٣٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٤٥ .

٩ـ شِعْرٌ في المَوْتِ :

قالَ مُحمَّدُ بنُ العَبَّاس السلطي : سَمعتُ محمَّدَ بنَ أسْلَم يُنشِدُ :

إن الطبيـــبَ بطبِّـــهِ ودوائِـــه ... لا يستطيـعُ دِفـاعَ مقـدورٍ أتـى
مـا للطبيـبِ يمـوتُ بـالـداءِ الـذي ... قـد كـانَ يُبـري مثلَـهُ فيمـا مضـى
هلـك المـداوي والمـداوىٰ والـذي ... جلبَ الدواءَ وباعهُ ومنِ اشترى

ماتَ محمَّدُ بنُ أسْلَم سَنةَ اثنتَينِ وأرْبَعينَ ومئتينِ بنيسَابُورَ[١] .

١٠ـ حُسْنُ الخَاتِمَة :

عن يَزيدَ بنِ أبي حَبيب ، قالَ : لَمَّا احْتُضِرَ ابنُ سَرْح وهو بالرَّمْلَة ، وكانَ خَرَجَ إليها فاراً من الفِتْنَة فجَعَلَ يَقُولُ من اللَّيلِ : آصْبَحتُم ؟ فيَقُولُونَ : لا فلَمَّا كانَ عندَ الصُّبحِ ، قالَ : يا هِشامُ! إنِّي لأجدُ بَرْدَ الصُّبحِ فانْظُرْ ، ثم قالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَاتِمَةَ عَمَلي الصُّبحَ ، فتَوَضَّأ ، ثم صَلَّىٰ ، فقَرأَ في الأولَىٰ بأُمِّ القُرآنِ والعَادياتِ ، وفي الأُخْرَىٰ بأُمِّ القُرآنِ وسُورَةً وسَلَّمَ عن يَمينِه ، وذَهَبَ يُسَلِّمُ عن يَسارِه فقُبِضَ رضي الله عنه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الأصَحُّ وَفاته في خِلافَةِ عَليٍّ رضي الله عنه[٢] .

وقالَ يُونُسُ بنُ مُحمَّد الْمُؤدِّبُ : ماتَ حمَّادُ بنُ سَلَمَة في الصَّلاةِ في الْمَسْجِدِ[٣] .

وتُوفِّيَ ابنُ الإسْمَاعيليّ سَنةَ سِتٍّ وتِسْعينَ وثَلاثِ مئة فتُوفِّيَ إكْراماً من الله له في صَلاةِ الْمَغرِبِ وهو يَقرَأُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٤] ففَاضَتْ نَفسُه رَحمَهُ الله[٥] .

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ أسْلَم) ١٢/ ١٩٥ـ ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٩٣ .
(٢) انظر السير : (عبدُ الله بنُ سَعْد بنُ أبي السَّرْح) ٣/ ٣٣ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٢٦ .
(٣) انظر السير : (حمَّادُ بنُ سَلَمَة) ٦/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧١٥ .
(٤) سورة الفاتحة ، الآية : ٥ .
(٥) انظر السير : (ابنُ الإسْماعيلي) ١٧/ ٨٧ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٢٤ .

وحَكَى الفَقيهُ نَصْرُ المصيصيُّ عن شَيخِه الفَقيهِ نَصْرِ بنِ إبْراهيمَ بنِ نَصْر النَّابُلسِيِّ ، أنَّه قَبلَ مَوْتِه بلَحْظَة سَمعَهُ وهو يَقُولُ : يا سَيِّدي أمْهِلُوني ، أنا مَأمُورٌ وَأنْتُم مَأمُورُونَ ، ثم سَمعتُ الْمُؤذِّنَ بِالْعَصْرِ ، فقُلتُ : يا سَيِّدي الْمُؤذِّنُ يُؤَذِّنُ ، فقالَ : أجْلِسْني ، فأجْلَسْتُه فأحْرَمَ بالصَّلاةِ ، ووَضَعَ يدَه على الأُخْرَىٰ وصَلَّىٰ ، ثم تُوفِّيَ من ساعَتِه ، رَحمَهُ الله(١) .

جاءَ في تَرجَمَةِ الزَّبيديِّ ، قالَ ابنُ عَساكر : قالَ وَلدُه إسْماعيلُ : كانَ أبي في كُلِّ يَومٍ ولَيلَة من أيَّامِ مَرَضِه يَقُولُ : الله الله ، نَحواً من خَمسَةَ عَشرَ ألفَ مَرَّة ، فمَا زَالَ يَقُولُها حتَّىٰ طَفِيءَ .

وقالَ ابنُ شَافِع ، كانَ له في عِلمِ العَربيَّة والأُصُولِ حَظٌّ وَافِرٌ ، وصَنَّفَ في فُنُونِ العِلمِ نَحْواً من مئة مُصَنَّف ولَمْ يُضَيِّع شَيئاً من عُمرِه .

تُوفِّيَ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وخَمسِ مئة ، رَحمَهُ الله(٢) .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحافِظِ عبدِ الغَني الْمَقْدِسيّ : قالَ الحافِظُ الضِّياءُ : سَمعتُ أبا مُوسَىٰ يَقُولُ : مَرِضَ أبي في رَبيع الأوَّل مَرَضاً شَديداً مَنعَه من الكَلامِ والقِيامِ ، واشْتدَّ سِتَّةَ عَشرَ يَوماً ، وكُنتُ أسْأَلُه كَثيراً : ما يَشْتَهي ؟ فيَقُولُ : أشْتَهِي الجَنَّةَ ، أشْتَهِي رَحْمَةَ الله ، لا يَزيدُ علىٰ ذلك ، فجئتُه بماءٍ حارٍّ فمَدَّ يَدَه فوَضأتُه وَقتَ الفَجْرِ ، فقالَ : يا عبدَ الله قُمْ صَلِّ بِنا وخَفِّفْ ، فصَلَّيتُ بالجَماعَة وصلَّىٰ جالِساً ، ثم جَلستُ عندَ رَأسِه ، فقالَ : اقْرأ (يس) ، فقَرأتُها ، وجَعلَ يَدعُو وأنا أُؤمِّنُ ، فقُلتُ : هنا دَواءٌ تَشرَبُه ، قالَ : يا بُنيَّ ما بَقِيَ إلاَّ الْمَوْتُ ، فقُلتُ : ما تَشْتَهِي شَيئاً ؟ قالَ : أشْتَهِي النَّظَرَ إلىٰ وَجهِ الله سُبحانَه ، فقُلتُ : ما أنتَ عَنِّي براضٍ ؟ قالَ : بَلَىٰ والله ، فقُلتُ : ما تُوصِي بشَيءٍ ؟ قالَ : ما لي علىٰ أحَدٍ شَيءٌ ، ولا لأحَدٍ عَليَّ شَيءٌ ، قُلتُ : تُوصيني ؟ قالَ : أُوصيكَ بتَقوَى الله والْمُحافَظَة علىٰ طاعَتِه ، فجاءَ جَماعَةٌ يَعُودُونَه ، فسَلَّموا ، فرَدَّ عَليهم ، وجَعلوا يَتحدَّثونَ ، فقالَ : ما هَـٰذا ؟ اذْكُروا الله ،

---

(١) انظر السير : (الفَقيهُ نَصْر) ١٩/١٣٦ـ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٧١ .

(٢) انظر السير : (الزَّبيديُّ) ٢٠/٣١٦ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٥٥ .

قُولوا : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، فلمَّا قامُوا جَعَلَ يَذكُرُ اللهَ بشَفَتيه ، ويُشيرُ بعَينَيه ، فقُمتُ لأناولَ رَجُلاً كتاباً من جانِب الْمَسْجِد فرَجَعتُ وقد خَرجَت رُوحُه ، رَحمَهُ اللهُ ، وذلكَ يَومَ الإثنينِ الثالِث والعِشرين من رَبيع الأوَّل سَنةَ سِتٍّ مئة ، وبَقِيَ لَيلَةَ الثُّلاثاءِ في الْمَسْجِد واجْتَمعَ الخَلقُ من الغَدِ فدَفنَّاه بالقَرافَة .

قالَ الضِّياءُ : تَزوَّجَ الحافِظُ بخَالَتي رَابِعَة ابنَة خالَة الشَّيخِ أحمَد بنِ مُحمَّد بنِ قُدامَة ، فهي أُمُّ أوْلادِه مُحمَّد وعبد الله وعبد الرحمَـٰن وفاطِمَة ، ثم تَسرَّىٰ بمِصْرَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أوْلادُهُ عُلمَاءُ[1] .

١١ـ رُؤْيَا تَدُلُّ علىٰ سُوءِ الخَاتِمَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يَعْقوبِ بنِ إسْحاق الأشْعَثيِّ الكِنْديِّ ، الفَيلَسوف : وقال عبدُ الرَّحمـٰن بنُ يَحْيَىٰ بنُ خاقان : رَأيتُه في النوم ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بك ؟ قال : ما هو إلاَّ أنْ رآني فقال : ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[2] ،[3]

١٢ـ مِنْ مَشَاهِد الاحْتِضَار :

وقالَ سَعيدُ بنُ عبدِ العَزيز : لَمَّا احتُضِرَ بِلالٌ قالَ : غَداً نَلقَى الأحِبَّة مُحمَّداً وحِزبَه ، قالَ : تَقولُ امْرأتُه ، وا وَيْلاه!! ، فقال : وافَرَحاه!![4] .

وعن أبي الزِّنادِ : أنَّ خالِدَ بنَ الوَليد لَمَّا احتُضِرَ بَكَىٰ وقالَ : لَقيتُ كَذا وكَذا زَحْفاً ، وما في جَسَدي شِبرٌ إلاَّ وفيه ضَربَةٌ بسَيفٍ ، أو رَميَةٌ بسَهْمٍ ، وها أنا أمُوتُ علىٰ فِراشي حَتفَ أنْفِي كمَا يَموتُ العِيرُ[5] فلا نامَتْ أعْينُ الجُبَناء[6] .

وعن أبي ظَبيَة قالَ : مَرِضَ عبدُ الله بنُ مَسْعود فعَادَه عُثْمانُ ، وقالَ : ما تَشْتَكي ؟

---

(١) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٦٥٢ .
(٢) سورة المرسلات ، الآية : ٢٩ .
(٣) انظر السير : (يعقوب بن إسحاق) ١٢/ ٣٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٠٦
(٤) انظر السير : (بِلالُ بنُ أبي رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٧٦ .
(٥) العِيرُ : الحِمار.
(٦) انظر السير : (خالِدُ بنُ الوَليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٩/ ١٧٩ .

قالَ : ذُنُوبي ، قالَ : فمَا تَشْتَهي ؟ قالَ : رَحمَةَ رَبِّي قالَ : ألا آمُرُ لكَ بطَبيب ؟ قالَ : الطَّبيبُ أمْرَضَنِي ، قالَ : ألا آمُرُ لكَ بعَطاءٍ ؟ قالَ : لا حَاجَةَ لي فيه[1] .

وعن أَنَس قالَ : دَخلَ سَعدٌ وابنُ مَسْعُود عَلىٰ سَلْمانَ عندَ الْمَوتِ ، فبَكَىٰ فقيلَ له : ما يُبكيكَ ؟ قالَ : عَهدٌ عَهِدَه إلينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، لَمْ نَحْفَظْه قالَ : « لِيَكنْ بَلاغُ أَحَدِكمْ مِنْ الدُّنْيَا كزَادِ الرَّاكبِ » وأمَّا أنتَ يا سَعدُ فاتَّقِ اللهَ في حُكمِكَ إذا حَكمتَ ، وفي قَسْمِكَ إذا قَسَمْتَ ، وعندَ هَمِّكَ إذا هَمَمتَ .

قالَ ثابتٌ : فبَلغَني أنَّه ما تَركَ إلاَّ بضعَةً وعِشرينَ دِرْهَماً نُفَيْقَة كانت عندَه[2] .

عن ثابتٍ البُنانيِّ قالَ : لَمَّا مَرِضَ سَلمانُ ، خَرجَ سَعدٌ من الكُوفَةِ يَعُودُه ، فقَدِمَ ، فوَافَقَه وهو في الْمَوتِ يَبْكي ، فسَلَّمَ وجَلسَ ، وقالَ : ما يُبكيكَ يا أخي ؟ ألا تَذكُرُ صُحْبَةَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا تَذكُرُ الْمَشَاهِدَ الصَّالِحَة ؟

قالَ : والله ما يُبْكيني وَاحِدَةٌ من اثنَتين : ما أبْكي حُبّاً بالدُّنيا ولا كَراهيَةً لِلقاءِ الله قالَ سَعدٌ : فما يُبْكيكَ بعدَ ثَمانينَ ؟ قالَ : يُبْكيني أنَّ خَليلي صلى الله عليه وسلم عَهِدَ إليَّ عَهْداً قالَ : « لِيَكنْ بَلاغُ أَحَدِكمْ مِنْ الدُّنْيَا كزَادِ الرَّاكبِ » وإنَّا قد خَشينا أنَّا قد تَعدَّينا .

رَواهُ بَعضُهم عن ثابِت ، فقالَ : عن أبي عُثْمانَ ، وإرْسَالُه أشْبَه قالَه أبو حاتم ، وهٰذا يُوضِّحُ لكَ أنَّه من أبْناء الثَّمانينَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وقد ذَكرتُ في تاريخي الكَبير أنَّه عاشَ مِئتَين وخَمسينَ سَنةً ، وأنا السَّاعَةَ لا أرْتَضي ذلكَ ولا أُصَحِّحُه[3] .

وعن ابنِ أبي مُلَيكَة : أنَّ ذَكْوانَ أبا عَمرو حدَّثه قالَ : جاءَ ابنُ عبَّاس رَضي الله عَنهما يَستأذنُ علىٰ عائشَة ، وهي في الْمَوْتِ قالَ : فجِئتُ وعندَ رَأسِها عبدُ الله ابنُ أخيها عبدِ الرحمَٰن ، فقُلتُ : هٰذا ابنُ عَبَّاس يَستأذِنُ قالَت : دَعْني من ابنِ عَبَّاس ،

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ مَسْعود) ١/ ٤٧١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٩/١٩٧ .
(٢) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٠٥ .
(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/٢٠٥ .

لا حاجَةَ لي به ، ولا بتَزْكيَتِه فقالَ عبدُ الله : يا أُمَّه ، إنَّ ابنَ عَبَّاس من صَالِحي بَنيكِ ، يُوَدِّعُك ويُسَلِّمُ عَليكِ قالَت : فائذَنْ له إنْ شِئتَ قالَ : فجاءَ ابنُ عَبَّاس ، فلمَّا قَعدَ ، قالَ : أبْشِري ، فوَالله ما بَينَكِ وبينَ أنْ تُفارِقي كُلَّ نَصَبٍ ، وتَلْقَيْ مُحمَّداً صلى الله عليه وسلم والأحِبَّة ، إلاَّ أنْ تُفارِقَ رُوحُكِ جَسَدَكِ .

قالَت : إيهاً ، يا ابنَ عَبَّاس! قالَ : كُنتِ أحَبَّ نِسَاءِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ـ يَعني إليه ـ ولَمْ يَكُنْ يُحبُّ إلاَّ طَيِّباً ، سَقَطَت قِلادَتُك لَيلَةَ الأبْواء ، وأصْبَحَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ليَلتَقِطَها ، فأصْبَحَ النَّاسُ لَيسَ مَعَهم مَاءٌ ، فأنْزَلَ اللهُ ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[1] فكانَ ذلكَ من سَبَبِك ، وما أنْزَلَ اللهُ بهـٰذه الأُمَّة من الرُّخْصَة ، ثم أنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ بَراءَتك من فَوقِ سَبعِ سَماوَات ، فأصْبَحَ لَيسَ مَسجِدٌ من مَساجِدَ يُذكَرُ فيها اللهُ إلاَّ بَراءَتُك تُتلَىٰ في آناءِ اللَّيلِ والنَّهارِ قالَت : دَعْني عَنكَ يا ابنَ عَبَّاس ، فوَالله لَوَدِدْتُ أنِّي كُنتُ نَسْياً مَنْسياً[2] .

وعن ابنِ أبي مُلَيكَة ، قالَ : قالَت عائشَةُ : تُوفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في بَيتي ، وفي يَومي ولَيلَتي ، وبينَ سَحْري ونَحْري ودَخلَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ أبي بَكر ، ومَعه سِواكٌ رَطبٌ ، فنَظَرَ إليه ، حتَّىٰ ظَنَنتُ أنَّه يُريدُه ، فأخَذتُه ، فمَضَغتُه ونَفَضتُه وطَيَّبتُه ، ثم دَفَعتُه إليه ، فاسْتَنَّ به كأحْسَنِ ما رَأيتُه مُسْتَنّاً قَطُّ ، ثم ذَهَبَ يَرفَعهُ إليَّ ، فسَقَطَتْ يَدُه ، فأخَذتُ أدْعُو له بِدُعاءٍ كانَ يَدعُو به له جِبْرِيلُ ، وكانَ هو يَدعُو به إذا مَرِضَ ، فلَمْ يَدعُ به في مَرَضِه ذاكَ فرَفَعَ بَصرَه إلى السَّماءِ ، وقالَ : « الرَّفيقُ الأعْلَىٰ » وفاضَتْ نَفسُه ، فالحَمدُ لله الذي جَمعَ بينَ ريقي وريقِه في آخِرِ يَومٍ من الدُّنيا . هـٰذا حَديثٌ صَحيحٌ .

تُوفِّيَتْ سَنةَ سَبعٍ وخَمسين[3] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٦ .

(٢) انظر السير : (عائشَةُ أمُّ الْمؤمنينَ) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٤٢ .

(٣) انظر السير : (عائشَةُ أمُّ الْمؤمنينَ) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٦/٢٤٤ .

وقالَت أُمُّ الدَّرْداء : لَمَّا احْتُضِرَ أبُو الدَّرْداءِ ، جَعلَ يَقولُ : مَنْ يَعمَلُ لِمِثلِ يَومي هـٰذا ؟ مَنْ يَعمَلُ لِمِثلِ مَضْجَعِي هـٰذا ؟

ماتَ أبو الدَّرْداء سَنةَ اثنتَين وثَلاثينَ[1] .

عن الحَسَنِ قالَ : لَمَّا حَضرَ حُذَيْفَةَ الْمَوتُ ، قالَ : حَبيبٌ جاءَ عَلَىٰ فَاقه ، لا أفْلَحَ مَنْ نَدِمَ! أَلَيسَ بَعدي ما أعلم! الحَمدُ لله الذي سَبقَ بي الفِتْنَةَ! قادَتها وعلوجَها[2] .

عن النَّزَّالِ بنِ سَبْرَةَ ، قالَ : قُلتُ لأبي مَسْعودٍ الأنْصَاريِّ : ماذا قالَ حُذَيْفَةُ عندَ مَوْته ؟ قالَ : لَمَّا كانَ عندَ السَّحَر : قالَ : أعُوذُ بالله من صَباحٍ إلى النَّارِ ، ثَلاثاً ثم قالَ : اشْتَرُوا لي ثَوْبَينِ أبْيَضَينِ ، فإنَّهُما لَنْ يُترَكَا عَليَّ إلاَّ قَليلاً حتَّىٰ أُبَدَّلَ بهما خَيْراً منهما ، أو أُسْلبَهما سَلباً قَبيحاً[3] .

وعن سَلمِ بنِ بَشير أنَّ أبا هُرَيْرَةَ بَكَىٰ في مَرَضِه : فقِيلَ : ما يُبكيكَ ؟ قالَ : ما أبْكِي عَلَىٰ دُنْياكُم هـٰذه ، ولَكنْ عَلَىٰ بُعدِ سَفَري ، وقِلَّةِ زَادِي ، وأنِّي أمْسَيتُ في صُعُودٍ ومَهْبَطُه علىٰ جَنَّةٍ أو نَارٍ ، فلا أدْري أيُّهما يُؤخَذُ بي .

وعن هِشامِ بنِ عُرْوَة : أنَّ عائشَةَ ، وأبا هُرَيْرَةَ ، ماتا في سَنةِ سَبعٍ وخَمْسينَ ، قبلَ مُعاويَةَ بسَنَتَينِ .

وذَكرتُه في « تَذْكِرَة الحُفَّاظ » ، فهو رَأسٌ في القُرآنِ ، وفي السُّنَّة ، وفي الفِقْهِ .

وفي « سُنَنِ النَّسائي » : أنَّ أبا هُرَيْرَةَ دَعا لِنفسِه : اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ عِلْماً لا يُنْسَىٰ فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « آمِين »[4] .

وعن عُيَيْنَة بنِ عبدِ الرحمَـٰن ، عن أبيه قالَ : لَمَّا اشْتَكَىٰ أبو بَكْرَةَ ، عَرضَ عَليه بَنُوهُ أنْ يَأتُوهُ بطَبيبٍ ، فأبَىٰ ، فلمَّا نَزَلَ به الْمَوْتُ ، قالَ : أينَ طَبيبُكُم ؟ لِيَرُدَّها إنْ كانَ صَادِقاً[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/٢٧٣ .

(٢) انظر السير : (حُذَيْفَةُ بنُ اليَمَان) ٢/ ٣٦١ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٧٦ .

(٣) انظر السير : (حُذَيْفَةُ بنُ اليَمَان) ٢/ ٣٦١ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢٧٦ .

(٤) انظر السير : (أبو هُرَيْرَةَ) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣١٥ .

(٥) انظر السير : (أبو بَكرة الثَّقَفيُّ الطَّائفيُّ) ٣/ ٥ـ ١٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٣٢٠ .

عن يَزيدَ بنِ أبي حَبيب ، قالَ : لَمَّا احْتُضِرَ ابنُ سَرْح وهو بالرَّمْلَة ، وكانَ خَرَجَ إليها فاراً من الفِتْنَة فجَعَلَ يَقُولُ من اللَّيلِ : آصْبَحتُم ؟ فيَقُولُونَ : لا فلَمَّا كانَ عندَ الصُّبحِ ، قالَ : يا هِشامُ! إنِّي لأجِدُ بَرْدَ الصُّبحِ فانْظُرْ ، ثم قالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَاتِمَةَ عَمَلي الصُّبحَ ، فتَوَضَّأ ، ثم صَلَّىٰ ، فقَرأَ في الأولَىٰ بأُمِّ القُرآنِ والعَادياتِ ، وفي الأُخْرَىٰ بأُمِّ القُرآنِ وسُورَةً وسَلَّمَ عن يَمينِه ، وذَهَبَ يُسَلِّمُ عن يَسارِه فقُبِضَ رضي الله عنه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الأصَحُّ وَفاتُه في خِلافَةِ عَليٍّ رضي الله عنه[1] .

وقيلَ : إنَّه دُخِلَ علىٰ حَكيمِ بنِ حِزام عندَ الْمَوْتِ وهو يَقُولُ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله قد كُنتُ أخْشَاكَ ، وأنا اليَومَ أرْجُوكَ[2] .

وعن عَوانَةَ بنِ الحَكَم ، قالَ : قالَ عَمْرُو بنُ العَاصِ ، عَجَباً لِمَنْ نَزَلَ به الْمَوْتُ ، وعَقلُه معه كَيفَ لا يَصِفُه ؟ فلمَّا نَزَلَ به الْمَوْتُ ، ذَكَّرَه ابنُه بقَولِه ، وقالَ : صِفْهُ قالَ : يا بُنَيَّ! الْمَوْتُ أجَلُّ مِنْ أنْ يُوصَفَ ، ولكن سَأصِفُ لكَ ، أجِدُني كأنَّ جِبَالَ رَضْوَىٰ علىٰ عُنُقِي ، وكأنَّ في جَوْفِي الشَّوْكُ ، وأجِدُنِي كأنَّ نَفَسِي يَخرُجُ من إبْرَة[3] .

وقالَ أبو نَوْفَل بنُ أبي عَقْرَب : جَزِعَ عَمْرُو بنُ العَاصِ عندَ الْمَوْتِ جَزَعاً شَديداً ، فقالَ ابنُه عبدُ الله : ما هَـٰذا الجَزَعُ ، وقد كانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يُدْنيكَ ويَسْتَعمِلُكَ! قالَ : أي بُنَيَّ! قد كانَ ذلكَ ، وسَأُخْبِرُكَ ، إي والله ما أدْري أحُبّاً كانَ أمْ تألُّفاً ، ولكنْ أشْهَدُ علىٰ رَجُلَينِ أنَّه فارَقَ الدُّنيا وهو يُحِبُّهما ابنُ سُمَيَّة ، وابنُ أُمِّ عَبد فلمَّا جَدَّ به ، وَضَعَ يَدَه مَوْضِعَ الأغْلالِ من ذَقنِه ، وقالَ اللَّهُمَّ أمَرْتَنا فتَركْنا ، ونَهَيْتَنا فرَكِبْنا ، ولا يَسَعُنا إلاَّ مَغفِرَتُك ، فكانَت تِلكَ هَجِّيراهُ حتَّىٰ ماتَ[4] .

وقالَ أبو عَمْرِو بنُ العَلاءِ : لَمَّا احْتُضِرَ مُعاويَةُ ، قِيلَ له : ألا تُوصِي ؟ فقالَ :

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ سَعْد) ٣/ ٣٣ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٣٢٦/ ٤ .
(٢) انظر السير : (حَكيمُ بنُ حِزام) ٣/ ٤٤ـ ٥١ ، وانظر النزهة : ٣٣١/ ٣ .
(٣) انظر السير : (عَمْرُو بنُ العَاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣٣٧/ ١ .
(٤) انظر السير : (عَمْرُو بنُ العَاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣٣٧/ ٢ .

اللَّهُمَّ أَقِلْ العَثْرَةَ واعْفُ عن الزَّلَّة ، وتَجاوَزْ بحِلمِكَ عن جَهْلِ مَنْ لَمْ يَرجُ غَيرَك ، فما وَرَاءَكَ مَذْهَب ، وقالَ :

هو الموتُ لا منجىٰ منَ الموتِ والذي نحاذرُ بعدَ الموتِ أدهىٰ وأفظعُ

ماتَ مُعاويَةُ سَنةَ سِتَّينَ ، وعاشَ سَبعاً وسَبعينَ سَنةً[1] .

وقالَ قَتادَة : لَمَّا احْتُضِرَ عامِرُ بنُ عَبدِ قَيْس بَكَىٰ ، فقيلَ : ما يُبكِيكَ ؟ قالَ : ما أبْكِي جَزَعاً من الْمَوْتِ ، ولا حِرْصاً على الدُّنيا ، ولَكنْ أبْكِي علىٰ ظَمَأ الهَوَاجِر ، وقِيَامِ اللَّيلِ .

وقيلَ تُوفِّيَ زَمنَ مُعاويَةَ[2] .

وعن علقَمَةَ بنِ مَرْثَد قالَ : كانَ الأسْوَدُ يَجْتَهدُ في العِبَادَة ، ويَصُومُ حتَّىٰ يَخضَرَّ ويَصْفَرَّ ، فلمَّا احْتُضِرَ بَكَىٰ ، فقيلَ له : ما هَـٰذا الجَزَع ؟ فقالَ : ما لي لا أجْزَعُ ، والله لَوْ أُتِيتُ بالْمَغْفِرَةِ من الله لأهَمَّني الحَياءُ منه مِمَّا قد صَنعتُ ، إنَّ الرجُلَ لَيَكُونُ بَينَه وبَينَ آخَرَ الذَّنبُ الصَّغيرُ فيَعْفُو عَنه ، فلا يَزَالُ مُسْتَحياً منه[3] .

وقالَ ابنُ أبي مُلَيْكَة : شَهِدتُ عبدَ العَزيزِ بنَ مَرْوانَ عندَ الْمَوْتِ يَقُولُ : يا لَيْتَني لَمْ أكُنْ شَيئاً ، يا لَيْتَني كَهَـٰذا الْمَاءِ الجَاري[4] .

وقيلَ : قالَ : هاتوا كَفَني ، أُفٍّ لَكَ ما أقْصَرَ طَويلَك وأقَلَّ كَثيرَك[5] .

وعن حَمَّادِ بنِ مُوسَىٰ قالَ : لَمَّا احْتُضِرَ عبدُ العَزيزِ ، أتَاهُ البَشيرُ يُبَشِّرُهُ بمَالِهِ الوَاصِل في العام فقالَ : ما لك ؟ قالَ : هَـٰذه ثَلاثة مئة مُدِيٍّ من ذَهَب قالَ : ما لي ولَه ، لَوَدِدْتُ أنَّه كانَ بَعْراً حائلاً بنَجْد .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا قَولُ كُلِّ مَلكٍ كَثيرِ الأمْوالِ ، فهَلاَّ يُبادِرُ ببَذْلِه .

---

(١) انظر السير : (مُعاويَةُ بنُ أبي سُفْيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٥٧ .
(٢) انظر السير : (عامِرُ بنُ عَبدِ قَيْس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٣٤ .
(٣) انظر السير : (الأسْوَدُ بنُ يَزيد) ٤/ ٥٠ـ ٥٣ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٤١ .
(٤) انظر السير : (عبدُ العَزيز بنُ مَرْوان) ٤/ ٢٤٩ـ ٢٥١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٩٠ .
(٥) انظر السير : (عبدُ العَزيز بنُ مَرْوان) ٤/ ٢٤٩ـ ٢٥١ ، وانظر النزهة : ٨/ ٤٩٠ .

ماتَ عبدُ العَزيزِ بنُ مَرْوانَ سَنةَ خَمسٍ وثَمانينَ .

وقد كان ماتَ قَبلَه ابنُه أصبَغ بسِتَّةَ عَشرَ يَوماً فحَزِنَ عَليه ومَرِضَ وماتَ بحُلْوانَ[1] ، وعاشَ أخُوهُ عبدُ الْمَلِكِ بَعدَه ، فلمَّا جاءَه نَعيُه عَقدَ بوِلايَةِ العَهْدِ لابْنَيْه : الوَليد ثم سُليْمان[2] .

وقيلَ : إنَّ إبْراهيمَ النَّخَعيَّ لَمَّا احْتُضِرَ ، جَزِعَ جَزَعاً شَديداً ، فقيلَ له في ذلك ، فقالَ : وأيُّ خَطَرٍ أعْظَم مِمَّا أنا فيه ، أتَوَقَّعُ رَسُولاً يَرِدُ عَليَّ من رَبِّي إمَّا بالجَنَّةِ وإمَّا بالنَّارِ ، والله لَوَدِدتُ أنَّها تَلَجْلَجُ في حَلقِي إلىٰ يومِ القِيامَة[3] .

ويُروَىٰ أنَّ الحَسَنَ البَصْريَّ أُغْمِيَ عليه ثم أفَاقَ إفَاقَةً فقالَ : لَقَد نَبَّهْتُمُوني مِنْ جَنَّاتٍ وعُيونٍ ، ومَقَامٍ كَريم[4] .

وعن الحَكَمِ أنَّ عبدَ الرحمَـٰن بنَ الأسْوَدِ لَمَّا احْتُضِرَ ، بَكَىٰ ، فقيلَ له ؟ فقَالَ : أسَفاً على الصَّلاةِ والصَّوْمِ ، ولَمْ يَزَلْ يَتلُو حتَّىٰ ماتَ[5] .

وعن عبدِ الْمَجيدِ بنِ عبدِ العَزيزِ بنِ أبي رَوَّاد ، عن أبيه ، عن نافِعٍ ، أنَّه لَمَّا احْتُضِرَ بَكَىٰ ، فقيلَ : ما يُبكِيكَ ؟ قالَ : ذَكرتُ سَعْداً وضَغْطَةَ القَبرِ .

تُوفِّيَ سَنةَ سَبعَ عَشرَةَ ومائة[6] .

وقالَ الْمُغيرَةُ بنُ حَكيم : قُلتُ لفاطِمَةَ بنتِ عبدِ الملك : كُنتُ أسْمَعُ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيز في مَرَضِه يَقولُ : اللَّهُمَّ أخْفِ عليهم أمْري ولَوْ ساعَة ، قَالت : قُلتُ له : ألا أخْرُجُ عَنْكَ ، فإنَّكَ لَمْ تَنَمْ ، فخَرجتُ ، فجَعلتُ أسْمَعُه يَقولُ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[7] مِراراً ثم أطْرَقَ فلَبِثْتُ

---

(١) مدينةٌ صغيرةٌ أنشأها علىٰ بَريدٍ فَوقَ مِصْر .

(٢) انظر السير : (عبدُ العَزيز بنُ مَرْوان) ٤/ ٢٤٩ـ ٢٥١ ، وانظر النزهة : ٩/ ٤٩٠ .

(٣) انظر السير : (إبْراهيمُ النَّخَعيُّ) ٤/ ٥٢٠ـ ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٤٩ .

(٤) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريُّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٦٤ .

(٥) انظر السير : (عبدُ الرحمَـٰن بنُ الأسْوَد) ٥/ ١١ـ ١٢ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٧٥ .

(٦) انظر السير : (نافع) ٥/ ٩٥ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٨٥ .

(٧) سورة القصص ، الآية : ٨٣ .

طَويلاً لا يُسمَعُ له حِسٌّ ، فقُلتُ لوَصيفٍ : وَيْحَكَ انْظُرْ ، فلمَّا دَخلَ ، صَاحَ ، فدَخَلتُ فوَجَدتُه مَيِّتاً ، وقد أقْبَلَ بوَجهِه على القِبلَة ، ووَضَعَ إحْدَىٰ يَديه علىٰ فيه ، والأُخْرَىٰ علىٰ عَينَيه[1] .

وقال مُصْعَبٌ : سَمعَ عامرُ بنُ عبد الله المُؤَذِّنَ ، وهو يَجُودُ بنفسِه ، فقال : خُذوا بِيَدي فقيل : إنَّكَ عَليل قال : أسمعُ داعي الله فلا أُجيبُهُ ، فأَخَذُوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب فرَكَعَ ركعةً ثم مات[2] .

وقالَ أبو بَكر بنُ عيَّاش : دَخلتُ علىٰ عاصِمِ بنِ أبي النَّجُودِ وهو في الْمَوْتِ فقرأ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ ﴾[3] بكَسرِ الرَّاء وهي لُغَةٌ لِهُذَيل[4] .

وقالَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ : عُدتُ هَارُونَ بنَ رِئاب ، وهو يَجُودُ بنَفسِه ، فما فَقَدتُ وَجهَ رَجُلٍ فَاضِلٍ إلاَّ رَأيتُه عندَه فقالَ مُحمَّدُ بنُ وَاسِع : كَيفَ تَجِدُك ؟ فقَالَ : هُوَ ذَا أخُوكُم ، يُذهَبُ به إلى النَّارِ ، أو يَعفُو اللهُ قيلَ عاشَ ثَلاثاً وثَمانينَ سَنةً[5] .

وقالَ حَزمُ القُطَعِيُّ : دَخَلنا علىٰ مَالِكِ بنِ دِينار وهو يَكيدُ بنَفسِه ، فرَفعَ طَرْفَه ثم قالَ : اللَّهُمَّ إنَّك تَعلمُ أنِّي لَمْ أكُنْ أحِبُّ البَقاءَ لِبَطْنٍ ولا فَرْجٍ[6] .

وعن مُحمَّدِ بنِ مُطَرِّف ، قالَ : دَخَلنا علىٰ أبي حازِم الأعْرَج ، لَمَّا حَضرَهُ الْمَوْتُ ، فقُلنا : كَيفَ تَجِدُك ؟ قالَ : أجِدُني بخَيرٍ ، راجِياً لله حَسَنَ الظَّنِّ به ، إنَّه والله ما يَسْتَوي مَنْ غَدا أو رَاحَ يَعْمُرُ عقدَ الآخِرَة لنَفسِه فيُقدِّمُها أمامَه قبلَ أنْ يَنزِلَ به الْمَوْتُ حتَّىٰ يقدَمَ عَليها ، فيَقومُ لها وتَقومُ له ، ومَنْ غَدا أو راحَ في عقد الدُّنيا يَعْمُرها لِغَيرِه ، ويَرجِعُ إلى الآخِرَة لا حَظَّ له فيها ولا نَصيب[7] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٩٢ .
(٢) انظر السير : (عامر) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٩٦ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٦٢ .
(٤) انظر السير : (عاصِم بن أبي النَّجُود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٩٩ .
(٥) انظر السير : (هَارونُ بنُ رِئاب) ٥/ ٢٦٣ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٠٠ .
(٦) انظر السير : (مالِكُ بنُ دينار) ٥/ ٣٦٢ـ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٠٩ .
(٧) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٣٧ .

وقالَ حَزمُ القُطَعِيُّ : قالَ ابنُ واسِع وهو في الْمَوْتِ : يا إخْوَتاه ، تَدرُونَ أينَ يُذهَبُ بي ؟ والله إلى النَّارِ ، أو يَعْفُوَ اللهُ عَنِّي[1] .

وقالَ مُعْتَمرُ بنُ سُلَيْمانَ بنِ طَرْخان : قالَ لي أبي عنَد مَوْتِه ، : يا مُعْتَمِرُ حدِّثني بالرُّخَصِ لَعلِّي أَلْقَى اللهَ تَعالَىٰ وأنا حَسَنُ الظَّنِّ به[2] .

وقالَ بَكَّارُ بنُ مُحمَّد : سَقطَ ابنُ عون وأُصيبَت رِجلُه فتَعلَّلَ وماتَ فحَضَرتُ وَفاتَه ، فكانَ حينَ قُبِضَ مُوَجِّهاً يَذكُرُ اللهَ تَعالَىٰ حتَّىٰ غَرْغَر فقالَت عَمَّتي : اقْرَأ عندَه سُورَةَ ﴿يس﴾ فقَرأتُها وماتَ في السَّحَر وما قَدِرْنا أنْ نُصلِّيَ عَليه حتَّىٰ وَضَعناه في مِحْرابِ الْمُصَلَّىٰ غَلبَنا النَّاسُ عَليه .

ماتَ في سَنةِ إحْدَىٰ وخَمسينَ ومئة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عاشَ خَمْساً وثَمانينَ سَنةً[3] .

وعن الْمَدائِنيِّ : أنَّ الْمَنْصُورَ لَمَّا احْتُضِرَ قالَ : اللَّهُمَّ إنِّي قد ارْتَكبتُ عَظائمَ جُرأةً منِّي عَليكَ ، وقد أطَعتُكَ في أحَبِّ الأشْياءِ إليكَ ، شَهَادَةِ أنْ لا إلَـهَ إلاَّ الله ، مَنّاً مِنْكَ لا مَنّاً عَليكَ ، ثم ماتَ .

عاشَ أرْبَعاً وسِتِّينَ سَنةً .

قالَ الصُّوليُّ : دُفِنَ بينَ الحُجونِ وبئر مَيْمونَ في ذي الحِجَّة سَنةَ ثَمانٍ وخَمسينَ ومئة[4] .

وعن ابنِ مَهْدي ، قالَ : مَرِضَ سُفْيانُ الثَّوريُّ بالبَطَن ، فتَوَضَّأ تِلكَ اللَّيلَة سِتِّينَ مَرَّةً ، حتَّىٰ إذا عايَنَ الأمْرَ ، نَزَلَ عن فِراشِه ، فوَضَعَ خَدَّه بالأرْضِ ، وقالَ : يا عبدَ الرحمَـٰن : ما أشَدَّ الْمَوْتَ ، ولَمَّا ماتَ غَمَّضْتُه ، وجاءَ النَّاسُ في جَوفِ اللَّيلِ ، وعَلِمُوا[5] .

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ واسِع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٣٨ .
(٢) انظر السير : (سُلَيْمانُ بنُ طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٨/ ٦٤١ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٥٨ .
(٤) انظر السير : (الْمَنْصُور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٧٨ .
(٥) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٠٠ .

وقالَ عبدُ الرحمَـٰن : كانَ سُفْيانُ يَتمَنَّى الْمَوْتَ لِيَسلَمَ من هَؤلاء ، فلمَّا مَرِضَ كَرِهَه ، وقالَ لي : اقْرأ عليَّ ﴿يس﴾ فإنَّه يُقالُ : يُخَفَّفُ عن الْمَريضِ فقَرأتُ ، فمَا فَرغتُ حتَّىٰ طُفِىءَ .

وقيل أُخرجَ بجنازَته علىٰ أهْلِ البَصْرَة بَغتةً ، فشَهدَه الخَلقُ ، وصلَّىٰ عليه عبدُ الرحمَـٰن بنُ عبد الْمَلِك بنُ أبجر الكوفيُّ ، بوَصيَّةٍ من سُفْيانَ لِصَلاحِه .

ماتَ سَنةَ إحْدَىٰ وسِتِّينَ ومئة[1] .

قالَ الحَسَنُ بنُ صالح : قالَ لي أخي ـ وكُنتُ أُصلّي ـ يا أخي اسْقِنِي قالَ : فلمَّا قَضَيتُ صَلاتي ، أتَيتُه بمَاءٍ ، فقالَ : قد شَربْتُ السَّاعَةَ ، قُلتُ : مَنْ سَقاكَ ولَيسَ في الغُرفَةِ غَيري وغَيرُك ؟ قالَ : أتَاني السَّاعَةَ جِبْريلُ بمَاءٍ ، فسَقاني وقالَ : أنْتَ وأخُوكَ وأُمُّك مع الذين أنْعَمَ اللهُ عَليهم ، وخَرَجَتْ نَفسُه[2] .

وقال عبدُ الله بنُ مُوسَىٰ : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ صالح يَقُولُ : لَمَّا احْتُضِرَ أخي ، رَفَعَ بَصرَه ، ثم قالَ : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[3] ثم خَرَجَت نَفسُه ، فنَظَرْنا ، فإذا ثُقبٌ في جَنبِه قد وَصَلَ إلىٰ جَوْفِه ، وما عَلِمَ به أحَدٌ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : وكانا مُقرِءينِ مُجوِّدَينِ للأداءِ ، تَلا عليٌّ علىٰ عاصِم ، ثم علىٰ حَمْزَة ، وتَصدَّر للإقْراء .

ولِعَليٍّ حَديثٌ واحدٌ في « صَحيح مُسْلم » في حُسْنِ الخُلُق .

ماتَ سَنةَ أرْبَع وخَمسين ومئة ، ولم يَدْخُلْ عليٌّ في رأيِ أخيه من تَرْكِ الجُمُعَة ولا غَيرِه[4] .

---

(١) انظر السير : (سُفْيانُ الثَّوريُّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/٧٠٠ .
(٢) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٢/٧٠٤ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٦٩
(٤) انظر السير : (عَليُّ بنُ صالح بنِ حَي) ٧/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٦/٧٠٤ .

وقالَ أبو دَاوُدَ الطَّيَالِسيُّ : حَضَرتُ دَاوُدَ الطَّائيَّ ، فمَا رَأيتُ أشَدَّ نَزْعاً منه[1] .

وقالَ إسْماعيلُ بنُ أبي أُوَيس : مَرِضَ مَالِكٌ ، فسَألتُ بَعضَ أهْلِنا عَمَّا قالَ عندَ الْمَوْتِ ، قالوا : تَشهَّدَ ، ثم قالَ : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾[2] ، وتُوفِّيَ[3] .

وقالَ أحمَدُ بنُ عبدِ الله العِجْليُّ : حدَّثني أبي قالَ : لَمَّا احْتُضِرَ ابنُ الْمُبارَك ، جَعلَ رَجلٌ يُلَقِّنُه ، قُلْ : لا إلَـهَ إلاَّ الله ، فأكْثَرَ عَليه ، فقالَ له : لَسْتَ تُحْسِنُ ، وأخَافُ أنْ تُؤذي مُسْلِماً بَعْدي ، إذا لَقَّنتَني ، فقُلتُ : لا إلَـهَ إلاَّ الله ، ثم لَمْ أُحْدِثْ كَلاماً بَعدَها ، فدَعْني ، فإذا أحْدَثتُ كَلاماً ، فلَقِّني حتَّىٰ تَكُونَ آخِرَ كَلامي[4] .

وعن ابنِ خُزَيْمَةَ وغَيرِه ، حدَّثنا الْمُزَنيُّ قالَ : دَخلتُ على الشَّافِعيِّ في مَرَضِه الذي ماتَ فيه ، فقُلتُ : يا أبا عبدِ الله ، كيفَ أصْبَحتَ ؟ فرَفَعَ رَأسَه ، وقالَ : أصْبَحتُ من الدُّنيا راحلاً ، ولإخْوَاني مُفَارِقاً ، ولِسُوءِ عَمَلي مُلاقياً ، وعلى الله وَارِداً ، ما أدْري رُوحي تَصيرُ إلىٰ جَنَّةٍ فأُهَنِّيها أوْ إلىٰ نارٍ فأُعَزِّيها ، ثم بَكَىٰ ، وأنْشَأ يَقُولُ[5] :

ولما قسا قلبي وضاقتْ مَذاهبي ... جعلتُ رجائي دونَ عفوِك سُلما
تعاظمني ذنبي فلمَّا قرنتُهُ ... بعفوكَ ربي كان عفوكَ أعظما
فما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنبِ لمْ تزلْ ... تجودُ وتعفو منةً وتكرُّما
ولولاكَ لمْ يغوىٰ بإبليسَ عابدٌ ... فكيفَ وقدْ أغوىٰ صفيَّك آدما
وإني لآتي الذنبَ أعرفُ قدرَهُ ... وأعلمُ أنَّ الله يعفُو ترحُّما

وقالَ زرقانُ بنُ أبي دَاوُدَ : لَمَّا احْتُضِرَ الوَاثِقُ ، رَدَّدَ هَـٰذَينِ البَيْتَينِ :

الموتُ فيه جميعُ الخلقِ مشتركٌ ... لا سوقةٌ منهم يبقىٰ ولا مَلِكُ
ما ضرَّ أهلَ قليلٍ في تفرُّقهم ... وليسَ يُغني عنِ الأملاكِ ما مَلكوا

---

(١) انظر السير : (داوُدُ الطَّائيُّ) ٧/ ٤٢٢ـ ٤٢٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧١٢ .
(٢) سورة الروم ، الآية : ٤ .
(٣) انظر السير : (مَالِكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٣٧ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٧١ .
(٥) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٥٢ .

ثم أمَرَ بالبُسُط ، فطُويَت ، وألْصَقَ خَدَّه بالتُّرابِ ، وجَعَلَ يَقُولُ : يا مَنْ لا يَزُولُ مُلكه ، ارْحَمْ مَنْ قد زَالَ مُلكه[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ زَكريّا بنِ عَديّ : وقيلَ : إنَّه لَمَّا احْتُضِرَ قالَ : اللَّهـمَّ إنِّي إلَيكَ مُشْتاقٌ[2] .

وقد كانَ أحمَدُ بنُ خضْرَوَيْه مُعَمَّراً ، فإنَّ السُّلَميَّ رَوَىٰ عن مَنْصُورِ بنِ عبدِ الله ، سَمعَ مُحمَّد بن حامِد ، قالَ : كُنتُ عندَ ابنِ خضْرَوَيه وهو يَنْزِعُ ، فسُئلَ عن شَيءٍ فقالَ : باباً كُنتُ أقْرَعُه منذُ خَمسٍ وتِسْعينَ سَنة ، السَّاعَةُ يُفتَحُ لا أدري يُفتَحُ بالسَّعادَة أم بالشَّقاء[3] .

وقالَ أبو جَعْفَرٍ محمَّدُ بنُ عَليّ ، وَرَّاقُ أبي زُرْعَة : حَضَرْنا أبا زُرْعَة بماشهرانَ وهو في السَّوْقِ ، وعندَه أبو حاتم ، وابنُ وَارَة ، والْمُنذِرُ ابنُ شاذانَ ، وغَيرُهم ، فذَكَرُوا حَديثَ التَّلْقينَ : « لَقِّنُوا مَوْتَاكمْ : لا إلَـهَ إلاَّ الله » ، واسْتَحيوا من أبي زُرْعَة أنْ يُلَقِّنوهُ ، فقالوا : تَعالوا نَذْكُر الحَديثَ فقالَ ابنُ وَارَة : حدَّثنا أبو عاصِم ، حدَّثنا عبدُ الحَميد ابنُ جَعْفَر ، عن صالِح ، وجَعَلَ يَقُولُ : ابنُ أبي ، ولم يُجاوِزهُ وقالَ أبو حاتِم : حدَّثنا بندارُ ، حدثنا أبو عاصم ، عن عبد الحَميد بنِ جَعْفَر عن صالِح ، ولَمْ يُجاوِزْ ، والباقُونَ سَكتوا ، فقالَ أبو زُرْعَة وهو في السَّوْقِ : حدَّثنا بندارُ ، حدَّثنا أبو عاصِم ، حدَّثنا عبدُ الحَميد ، عن صالِح بنِ أبي عُرَيب ، عن كَثيرِ بنِ مُرَّة ، عن مُعاذِ بنِ جَبَل ، قالَ : قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كانَ آخِرُ كلامِهِ : لا إلَـهَ إلاَّ اللهُ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ » وتُوفِّيَ ، رَحمَهُ الله[4] .

وقالَ أبو بَكر العطويُّ : كُنتُ عندَ الجُنَيْد لَمَّا احْتُضِرَ ، فخَتَمَ القُرآنَ ثم ابْتَدأ سُورَةَ البَقَرَة ، فتَلا سَبعينَ آيَةً ومَاتَ[5] .

---

(١) انظر السير : (الوَاثِقُ بالله) ١٠/ ٣٠٦ـ ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٨١ .
(٢) انظر السير : (زَكريّا بنُ عَديّ) ١٠/ ٤٤٢ـ ٤٤٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٨٢ .
(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ خِضْرَوَيْه) ١١/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٦١ .
(٤) انظر السير : (أبو زُرْعَةَ الرَّازي) ١٣٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٥٢ .
(٥) انظر السير : (النُّوريُّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٣٥ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ محمَّدِ بنِ جَرير الطَّبَريِّ : وحَضَرَ وَقتَ مَوْتِه جَماعَةٌ منهم : أبو بَكر بنُ كامِل ، فقيلَ له قَبلَ خُروجِ رُوحِه : يا أبا جَعْفَر! أنْتَ الحُجَّة فيما بَيْنَنا وبينَ الله فيما نَدينُ به ، فهلْ من شَيءٍ تُوصينا به من أمْرِ دِينِنا ، وبَيِّنةٍ لنا نَرجُو بها السَّلامَة في معادِنا ؟ فقالَ : الذي أدينُ اللهَ به وأُوصيكُم هو ما ثَبَتَّ في كُتُبي فاعْمَلوا به وعَليه ، وكَلاماً هٰذا مَعناه ، وأكثرَ من التَّشَهُّد وذِكرِ الله عَزَّ وجَلَّ ، ومَسحَ يدَه علىٰ وَجْهِه ، وغَمَّضَ بَصَرَه بيَدِه وبَسَطَها وقد فارَقَتْ رُوحُه الدُّنيا[1] .

وقالَ الخَطيبُ : سَمعتُ ابنَ الفَضْلِ القَطَّانَ يَقُولُ : حَضَرتُ النَّقَّاشَ وهو يَجُودُ بنَفسِه في ثالِثِ شَوَّال سَنةَ إحْدَىٰ وخَمسينَ وثَلاثِ مئة ، فنادَىٰ بأعْلَىٰ صَوْتِه ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[2] يُرَدِّدُها ثَلاثاً ثم خَرَجَت نَفسُه رَحمَهُ الله[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ المغفَّليِّ : قالَ الحَاكِمُ : سمعتُ ابنَه بِشْراً يَقُولُ : آخِرُ كَلمَةٍ تَكلَّمَ بها أنْ قَبضَ علىٰ لِحْيَتِه ورَفعَ يَدَه اليُمْنَىٰ إلى السَّماءِ ، وقالَ : ارْحَمْ شَيْبَةَ شَيخٍ جاءَكَ بتَوفيقِكَ على الفِطْرَة .

تُوفِّيَ سَنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وثَلاثِ مئة[4] .

نُقلَ أنَّه لَمَّا احْتُضِرَ ما انْطَلقَ لسَانُه إلاَّ بقَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾[5] وماتَ بعِلَّة الصَّرَع ، وكان شِيعيّاً جَلَداً أظْهَرَ بالنَّجَفِ قَبْراً زَعَمَ أنَّه قَبرُ الإمامِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وبَنَىٰ عليه المَشْهَدَ ، وأقامَ شِعارَ الرَّفْضِ ، ومأتَمَ عَاشُوراءَ ، والاعْتِزالَ .

تَملَّكَ العِراقَ خَمسَةَ أعْوامٍ ونِصْفاً ، وما تلقىٰ خليفة ملكاً من قُدومِه قَبلَه .

ماتَ سَنةَ اثْنَتَين وسَبعينَ وثَلاثِ مئَة ببَغْدادَ وعُملَ في تابُوت ، ونُقِلَ فدُفنَ بمَشْهَدِ

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٥٢ .
(٢) سورة الصافات ، الآية : ٦١ .
(٣) انظر السير : (النَّقَّاش) ١٥/ ٥٧٣ـ ٥٧٦ ، وانظر النزهة : ١٢٦١ .
(٤) انظر السير : (المغفَّليُّ) ١٦/ ١٨١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨٢ .
(٥) سورة الحاقة ، الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .

النَّجَفِ ، وعاشَ ثَمانياً وأرْبَعينَ سَنةً وقامَ بعدَه ابنُه صَمْصَامُ الدَّولَة وحَلفُوا له ، وقلَّدَه الطَّائعُ[1] .

وقالَ الباطِرْقانيُّ : وكُنتُ مع أبي عبدِ الله محمَّدِ بنِ مَنْدَه في اللَّيلَةِ التي تُوفِّيَ فيها ، ففي آخِرِ نَفَسِه قالَ واحِدٌ مِنَّا : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ـ يُريدُ تَلقيَنه ـ فأشارَ بيَدِه إليه دَفْعَتَينِ ثلاثة أيْ اسْكُتْ يُقالُ لي مِثلُ هـٰذا!! ؟

ماتَ ابنُ مَنْدَة سَنةَ خَمْسٍ وتِسْعينَ وثَلاثِ مئة .

وما عَلِمتُ بَيْتاً في الرُّواةِ مثلَ بَيتِ بَني مَنْدَة ، بَقيَت الرِّوايَةُ فيهم من خِلافَةِ الْمُعْتَصِمِ وإلىٰ بَعد الثَّلاثينَ وسِتِّ مئة[2] .

عن عليِّ بنِ أحمَدَ الحافِظ ، أخْبَرَني أبو الوَليدُ بنُ الفَرْضيّ قال : تَعَلقْتُ بأسْتارِ الكَعْبَة ، وسَألتُ اللهَ تَعَالَى الشَهَادَةَ ، ثُمَّ فَكَّرْتُ في هَوْلِ القَتْلِ فنَدِمْتُ ، وهَمَمْتُ أنْ أرْجِعَ ، فأسْتَقِيل الله ذلك ، فاسْتَحْيَيْتُ قال الحَافِظُ عليٌّ : فأخْبَرَني مَنْ رَآهُ بيْنَ القَتْلىٰ ، ودَنَا منه ، فسَمِعَه يقولُ بصَوتٍ ضَعِيفٍ : « لا يُكلَمُ أحَدٌ في سَبيلِ اللهِ ـ واللهُ أعْلَمُ بمَنْ يُكْلَمُ في سَبيلِه ـ إلاَّ جاءَ يَوْمَ القِيامَةِ وجُرْحُه يَثْعَبُ دَمَاً ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ ، والرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ » كأنَّه يُعِيدُ علىٰ نَفسِه الحَديثَ ، ثُمَّ قَضَىٰ علىٰ إثْرِ ذلك رَحِمَه الله[3] .

وقالَ يُوسُفُ بنُ أحمَدَ الشِّيرازيُّ لَمْ أزَلْ في صُحبَة شَيخِنا أبي الوَقْت وخِدمته إلىٰ أنْ تُوفِّيَ ببَغدادَ ، قالَ لي : تَدفِنُني تَحتَ أقْدامِ مَشَايخِنا بالشُّونيزيَّة ، ولَمَّا احْتُضِرَ سَنَدتُه إلىٰ صَدْري ، وكانَ مُسْتَهْتِراً بالذِّكْرِ فدَخلَ عَليه مُحمَّدُ بنُ القاسِم الصُّوفيُّ ، وأكَبَّ عليه ، وقالَ : يا سَيِّدي ، قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كانَ آخِرُ كلامِهِ لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ دَخلَ الْجَنَّةَ » فرَفَعَ طَرْفَه إليه ، وتَلا ﴿ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي

---

(١) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٣ .

(٢) انظر السير : (ابنُ مَنْدَة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٢٢ .

(٣) انظرَ السير : (ابن الفَرضيّ) ١٧/ ١٧٧ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٣ .

وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[1] فدهَشَ إليه هو ومَنْ حَضَرَ من الأصْحاب ، ولَمْ يَزَلْ يَقرَأ حتَّىٰ خَتَمَ السُّورَةَ وقالَ : الله الله الله ، وتُوفِّيَ وهو جالسٌ على السجَّادَة ، سَنةَ ثَلاثٍ وخَمسينَ وخَمسِ مئة[2] .

وذَكرَ أبو جَعفَر القُرطبيُّ إمامُ الكلاَّسةِ[3] : إنَّني انتَهَيتُ في القراءةِ إلىٰ قولِه تعَالَىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[4] ، فسَمعتُ صَلاحَ الدِّين وهو يقول : صَحِيح وكان ذِهْنُه قبلَ ذلك غَائِباً[5] ، ثمَّ ماتَ ، وارْتَفَعَتِ الأصْواتُ بالبُكَاءِ ، وعَظُمَ الضَّجيجُ ، حتىٰ إنَّ العاقِلَ ليُخَيَّلُ له أنَّ الدُّنْيا كُلَّها تَصيحُ صَوْتاً واحداً ، وغَشِيَ النَّاسَ ما شَغَلَهم عن الصَّلاةِ عليه ، وتَأَسَّفَ النَّاسُ عليه حتى الفِرِنْجُ لما كان من صِدْقِ وَفائِه[6] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ العِمَاد : وحُكيَ عنه أنَّه لَمَّا جاءَه الْمَوْتُ جَعلَ يَقُولُ : يا حَيُّ يا قَيُّومُ لا إلَـٰهَ إلاَّ أنْتَ برَحْمَتِكَ أسْتَغيثُ ، واسْتَقبَلَ القِبلَةَ وتَشَهَّد[7] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ عَساكِر : وقالَ أبو شامَة : أخْبَرَني مَنْ حَضَرَه قالَ : صلَّى الظُّهرَ ، وجَعلَ يَسألُ عن العَصْرِ ، وتَوضَّأ ثم تَشَهَّدَ وهو جالِسٌ ، وقالَ : رَضِيتُ بالله رَبّاً وبالإسْلام دِيناً ، وبمحمَّدٍ نَبياً ، لَقَّنَنِي اللهُ حُجَّتي وأقَالَني عَثْرَتي ورَحِمَ غُرْبَتي ثم قالَ : وعَليكُم السَّلامُ ، فعَلِمْنا أنَّه حَضَرت الْمَلائِكَة ثم انْقَلبَ مَيِّتاً[8] .

---

(١) سورة يس ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

(٢) انظر السير : (أبو الوَقْت) ٢٠/٣٠٣ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٥٤ .

(٣) كان الشيخ أبو جعفر قد استُدعي ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة عند حضور الوفاة ، وتوفي أبو جعفر هـٰذا سنة ٥٩٦ .

(٤) سورة الحشر ، الآية : ٢٢ .

(٥) وتمام الخبر أن القاضي الفاضل جاءه عند أذان الصبح ، وكان في آخر رمق ، فلما قرأ القارىء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة : الآية : ١٢٩] تبسَّم ، وتهلَّل وجهُه وأسلمَ روحَه لربِّه سبحانه .

(٦) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٣ .

(٧) انظر السير : (العِمَادُ) ٢٢/٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٦٦ .

(٨) انظر السير : (ابنُ عَساكِر) ٢٢/١٨٧ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٨٤ .

١٣ـ الحُزْنُ علىٰ مَوْت الصَّالحين :

قالَ هِشامُ بنُ حَسَّان : كُنَّا عندَ مُحمَّدِ بنِ سِيرينَ عَشيَّةَ يَومِ الخَميس ، فدَخَلَ عليه رَجُلٌ بعدَ العَصرِ فقالَ : ماتَ الحَسَنُ البَصْريُّ ، فتَرَحَّمَ عليه مُحمَّدٌ وتَغيَّرَ لَوْنُه وأمْسَكَ عن الكَلامِ ، فمَا تَكلَّم حتَّىٰ غَرُبَت الشَّمسُ ، وأمْسَكَ القَومُ عنه مِمَّا رَأوا من وَجْدِه عليه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وما عَاشَ مُحمَّدُ بنُ سِيرينَ بعدَ الحَسَنِ إلاَّ مئةَ يَومٍ .

ماتَ الحَسَنُ في سَنةِ عَشرٍ ومئة .

عاشَ نَحْواً من ثَمانٍ وثَمانينَ سَنةً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ماتَ في أوَّلِ رَجَب ، وكانت جنازَتُه مَشْهُودَةً ، صَلُّوا عليه عَقيبَ الجُمُعَة بالبَصْرَة ، فشَيَّعَه الخَلقُ ، وازْدَحَمُوا عليه ، حتَّىٰ إنَّ صَلاةَ العَصْرِ لَمْ تُقَمْ في الجامِع[1] .

وقالَ إسْحاقُ بنُ أحمَدَ بنِ خَلَف : كُنَّا عندَ محمَّدِ بنِ إسْماعيلَ البُخاريِّ فوَرَدَ عليه كتابٌ فيه نَعيُ عبدِ الله بنِ عبد الرحمَٰن الدَّارميِّ ، فنَكَّسَ رَأسَه ، ثم رَفَعَ واسْتَرجَعَ وجَعلَ تَسيلُ دُموعُه علىٰ خَدَّيه ، ثم أنْشَأ يَقُولُ[2] :

إنْ تبــقَ تفجــعُ بــالأحبــةِ كلهــم ... وفنــاءُ نفسِــك لا أبــا لــكَ أفجــعُ

وقيلَ كانَ ابنُ داوُدَ خَصْماً لابنِ سُرَيْج في الْمُنَاظَرَة ، كانَا يَترادَّانِ في الكُتُب فلمَّا بَلغَ ابنَ سُرَيْج مَوْتُ مُحمَّدِ بنِ داوُدَ ، حَزِنَ له ، ونَحَّىٰ مَخادَّه ، وجَلسَ للتَّعْزِيَة ، وقالَ : ما آسَىٰ إلاَّ علىٰ تُرابٍ يَأكُلُ لِسَانَ مُحمَّدِ بنِ داوُد .

قالَ أبو إسْحاقَ ـ رَحمَهُ اللهُ ـ : وأما داوُد : فقامَ بنَقلِ فِقهِه جَماعَةٌ من أصْحابِه ، منهم : ابنُه أبو بَكر محمَّدٌ ، وكان فَقيهاً أديباً شاعِراً ظَريفاً ، وكانَ يُناظِرُ إمامَ

---

(١) انظر السير : (الحَسَنُ البَصْريُّ) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٦/٥٦٣ .

(٢) انظر السير : (الدَّارِميُّ) ١٢/ ٢٢٤ـ ٢٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٩٩٧ .

أصْحابِنَا ، أبا العَبَّاسِ بنِ سُرَيْج ، وخَلفَ أبَاهُ في حَلقَتِه وسَمعتُ شَيخَنا القاضي أبا الطيب الطَّبَريَّ يَقُولُ : سَمعتُ أبا العَبَّاس الخُضَريَّ قالَ : كنت جالساً عند أبي بكر محمدِ بن داود ، فجاءته امرأةٌ ، فقالتْ : ما تَقُولُ في رجلٍ له زَوجةٌ ، لا هو يُمسكها ، ولا هو يُطَلِّقُها ؟ فقال أبو بكر : اخْتَلَفَ في ذلك أهلُ العلمِ ، فقالَ قائلون : تُؤمر بالصَّبْرِ والاحتساب ، وتبْعَثُ على الطَّلَبِ والاكتسابِ . وقال قائلون : يُؤمر بالإنْفاق ، وإلاّ حُمِل على الطَّلاَق . فَلَم تفهم المرأة قوله ، فأعادتْ سُؤالها عَلَيه ، فقال : يا هـٰذه قد أَجَبْتُكِ . . . ولستُ بسُلطان [فأمضي ، ولا قاضٍ] فأقضي ، ولا زَوْجٍ فأرضي ، فانْصَرِفي[1] .

١٤ـ صُوَرٌ من جَنائزِ الصَّالحين :

قالَ العَبَّاسُ بنُ الوَليد : وحدَّثني سالِمُ بنُ الْمُنذِر قالَ : لَمَّا سَمعتُ الضَّجَّة بوَفَاةِ الأوْزاعيِّ خَرجتُ ، فأوَّل مَنْ رَأيتُ نَصْرانيّاً ، قد ذَرَّ علىٰ رَأسِه الرَّمادَ فلَمْ يَزَلِ الْمُسلِمُونَ من أهْلِ بَيْرُوتَ يَعْرِفُونَ لَه ذَلكَ ، وخَرَجْنا في جِنازَتِه أرْبَعةَ أمَمٍ : فحَمَلَه الْمُسلِمُونَ ، وخَرَجَت اليَهُودُ في ناحِيَة ، والنَّصَارَىٰ في ناحِيَة ، والقِبْطُ في ناحِيَة .

ماتَ سَنةَ سَبعٍ وخَمسينَ ومئة[2] .

وقالَ حَسَنُ بنُ بِشْر حَضَرتُ جِنازَةَ داوُدَ الطَّائي فحُمِلَ علىٰ سَريرَيْن أو ثَلاثَة تَكَسَّرُ من الزِّحَامِ[3] .

ومَناقِبُ دَاوُدَ كَثيرةٌ ، كانَ رَأساً في العِلمِ والعَمَلِ ، ولَمْ يُسمَع بمِثلِ جِنازَتِه ، حتَّىٰ قيلَ : باتَ النَّاسُ ثَلاثَ لَيالٍ مَخَافَةَ أنْ يَفُوتَهم شُهوده .

ماتَ سَنةَ اثنَتَين وسِتِّينَ ومئة ولَمْ يُخلِّفْ بالكُوفَة أحَداً مثلَه[4] .

وقالَ خَالدُ بنُ عبدِ السَّلامِ الصَّرفيُّ : شَهدتُ جِنازَةَ اللَّيثِ بنِ سَعْد مع وَالِدي ، فمَا

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ داوُد) ١٣/ ١٠٩ـ ١١٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠٦١ .
(٢) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٨٤ .
(٣) انظر السير : (دَاوُد الطَّائي) ٧/ ٤٢٢ـ ٤٢٥ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧١٢ .
(٤) انظر السير : (دَاوُد الطَّائي) ٧/ ٤٢٢ـ ٤٢٥ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧١٢ .

رَأيتُ جِنازَةً قَطُّ أعْظَمَ منها ، رَأيتُ النَّاسَ كُلَّهم عَليهم الحُزْنُ ، وهم يُعزِّي بَعضُهم بَعضاً ، ويَبكُونَ ، فقُلتُ : يا أبَتِ ، كأنَّ كُلَّ واحِدٍ من النَّاسِ صاحِبُ هٰذه الجِنَازَة ، فقالَ : يا بُنَيَّ ، لا تَرَىٰ مثلَه أبَداً[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الإمام أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، قالَ الخَلاَّلُ : سَمعتُ عبدَ الوَهَّاب الوَرَّاقَ ، يَقُولُ : ما بَلغَنا أنَّ جَمْعاً في الجاهِلِيَّة ولا الإسْلام مثلَه ـ يَعنِي : مَنْ شَهِدَ جِنازَةَ الإمامِ أحمَدَ بنِ حَنْبَل ـ حتَّىٰ بَلغَنا أنَّ الْمَوضِعَ مُسِحَ وحُزِرَ على الصَّحيحِ ، فإذا هو نَحوٌ من ألفِ ألفٍ وحَزَرْنا على القُبورِ نَحواً من سِتِّينَ ألفَ امْرأة ، وفَتَحَ النَّاسُ أبْوابَ الْمَنازِلِ في الشَّوارِعِ والدُّروبِ ، يُنادُونَ مَنْ أرادَ الوُضُوءَ[2] .

وقالَ الخَلاَّلُ : سَمعتُ عبدَ الوَهَّاب الوَرَّاقَ ، يَقُولُ : أظْهَرَ النَّاسُ في جِنازَة أحمَدَ بنِ حَنْبَل السُّنَّةَ والطَّعْنَ علىٰ أهْلِ البِدَعِ ، فسَرَّ اللهُ الْمُسلِمينَ بذلكَ علىٰ ما عندَهم من الْمُصيبَة لَما رَأوا من العِزِّ وعُلوِّ الإسْلام ، وكَبْتِ أهْلِ الزَّيغِ ، ولَزِمَ بَعضُ النَّاسِ القَبرَ ، وبَاتُوا عندَه ، وجَعلَ النِّساءُ يَأتينَ حتَّىٰ مُنِعْنَ ، وسَمعتُ الْمَرُّوذيَّ يَقُولُ عن عَليِّ بنِ مهْرَويه ، عن خالَتِه ، قالَت : ما صَلَّوا ببَغدَاد في مَسجِدٍ العَصْرَ يَومَ وَفاةِ أحمَد ، وقِيلَ : إنَّ الزَّحْمَة دامَت على القَبرِ أيّاماً[3] .

وتُوفِّيَ بَكارُ بنُ قُتيبَة سَنةَ سَبعين ومئتين وقيلَ : شَيَّعَه خَلقٌ عَظيمٌ أكثرُ مِمَّنْ يَشهَدُ صَلاةَ العِيدِ رَحمَهُ اللهُ تَعالَىٰ قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عاشَ تِسْعاً وثمانين سَنةً[4] .

وقالَ محمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ الشِّخِّير : كانَ ابنُ أبي داوُدَ السِّجِسْتانيُّ زَاهِداً ناسِكاً ، صلَّىٰ عَليه يَومَ ماتَ نَحوٌ من ثَلاثِ مئةِ ألفِ إنْسان ، وأكثرُ

قالَ : وماتَ سَنةَ ستَّ عَشرَة وثلاثِ مئة ، وخلَّفَ ثَلاثَة بَنينَ ، وخَمسَ بَناتٍ ،

---

(١) انظر السير : (اللَّيثُ بنُ سَعْد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٤٠ .
(٢) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٥٠ .
(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٥٠ .
(٤) انظر السير : (بَكارُ بنُ قُتيبَة) ١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٠٣٩ .

وعاشَ سَبْعاً وثَمانينَ سَنةً ، وصُلِّيَ عليه ثَمانينَ مرَّة[1] .

وقالَ ابنُ كامِل : ماتَ غُلامُ خَليل سَنةَ خَمسٍ وسَبعينَ ومِئتَين ، وغُلِّقَت الأسْواقُ ، وخَرجَ الرِّجالُ والنِّساءُ للصَّلاةِ عَليه ، ثم حُملَ في تابُوتٍ إلى البَصْرَة وبُنيَت عليه قُبَّة قالَ : وكانَ فَصيحاً مُعْرِباً يَحفَظُ عِلماً كَثيراً ، ويَخضِبُ بالحِنَّاءِ ، ويَقتَاتُ بالبَاقلاَّ صرفاً[2] .

وذُكِرَ عن أبي الشَّيخِ ، قالَ : حَضَرتُ جِنازَةَ أبي بَكر بنِ أبي عاصِم وشَهِدَها مِئتا ألفٍ من بَينِ راكِبٍ وراجِلٍ ، ما عَدا رَجُلاً كانَ يَتولَّى القَضاءَ ، فحُرِمَ شُهودَ جِنازَته ، وكانَ يَرَىٰ رَأيَ جَهْم[3] .

وقالَ أحمَدُ بنُ كامِل : تُوفِّيَ ابنُ جَرير سَنةَ عَشرَ وثَلاثِ مئة ودُفنَ في داره برَحْبَة يَعْقوبَ ، يَعني ببَغدادَ ، وشَيَّعَه مَنْ لا يُحْصيهِم إلاَّ اللهُ تَعالَىٰ ، وصُلِّيَ علىٰ قَبرِه عدَّة شُهورٍ لَيلاً ونَهاراً ، إلىٰ أنْ قالَ : ورَثاهُ خَلقٌ من الأدَباء وأهْلِ الدِّين[4] .

تُوفِّيَ بُنانُ سَنةَ سِتَّ عَشرَةَ وثَلاثِ مئة وخَرجَ في جِنازَتِه أكثرُ أهْلِ مِصْرَ ، وكانَ شَيئاً عجباً من ازْدِحامِ الخَلائق[5] .

وعاشَ ابنُ خَفيف خَمساً وتِسْعينَ سَنةً ، وازْدَحَمَ الخَلقُ علىٰ سَريرِه ، وكانَ أمْراً عَجيباً ، وقيلَ : إنَّهم صَلَّوا عَليه نَحْواً من مئةِ مَرَّة[6] .

وقد كانَ لعَبدِ الغَنيِّ بنِ سَعيد جِنازَةٌ عَظيمَةٌ تَحدَّثَ بها النَّاسُ ، ونُودِيَ أمَامَها : هٰذا نافي الكَذبِ عن رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم .

تُوفِّيَ سَنةَ تسعٍ وأرْبَع مئة[7] .

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٧٣ .
(٢) انظر السير : (غُلامُ خَليل) ١٣/ ٢٨٢ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٤ .
(٣) انظر السير : (ابنُ أبي عاصِم) ١٣/ ٤٣٠ـ ٤٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٩ .
(٤) انظر السير : (محمَّدُ بنُ جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٥٤ .
(٥) انظر السير : (بُنَانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ٥/١١٦٩ .
(٦) انظر السير : (ابنُ خَفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٩ .
(٧) انظر السير : (عَبدُ الغَني بنُ سَعيد) ١٧/ ٢٦٨ـ ٢٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٤١ .

وأوْصَى الخَطيبُ بأنْ يُتَصَدَّقَ بجَميعِ ثِيابِه ، وشَيَّعَه الفُقَهاءُ والخَلقُ وحَملُوهُ إلىٰ جامعِ الْمَنْصُورِ ، وكانَ بينَ يَدَي الجِنازَة جَماعَةٌ ينادُونَ : هَـٰذا الذي كانَ يَذُبُّ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الكَذبَ ، هـٰذا الذي كانَ يَحفَظُ حَديثَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وخُتِمَ علىٰ قَبرِه عِدَّة خَتماتٍ[1] .

وعن عَليِّ بنِ الأيْسَرِ العُكْبَريِّ ، قالَ : لَمْ أرَ أكثرَ خَلقاً من جِنازَةِ أبي مَنْصُور الخَيَّاط رآها يَهوديٌّ ، فاهْتَالَ لَها وأسْلَمَ[2] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ محمَّدِ الخُجَنْديِّ قالَ : لَمَّا ماتَ مُوسَى الْمَدينيُّ لَمْ يَكادُوا أنْ يَفْرَغُوا منه ، حتَّىٰ جاءَ مَطرٌ عَظيمٌ في الحَرِّ الشَّديدِ ، وكانَ الماءُ قَليلاً بأصْبَهانَ فما انْفَصلَ أحَدٌ عن الْمَكانِ مع كَثرَةِ الخَلقِ إلاَّ قَليلاً ، وكانَ قد ذَكرَ في آخِرِ إمْلاءِ أمْلاهُ : أنَّه مَتَىٰ مَاتَ مَنْ له مَنزِلَةٌ عندَ الله ، فإنَّ اللهَ يَبعَثُ سَحاباً يَومَ مَوتِه عَلامَةً للمَغْفِرَة له ، ولِمَنْ صَلَّىٰ عَليه .

سَمعتُ شَيْخَنا العَلاَّمَة أبا العَبَّاس بنَ عبدِ الحَليم[3] يُثْني علىٰ حِفظِ أبي مُوسَىٰ ويُقدِّمُه على الحافِظِ ابنِ عَساكِر باعْتِبارِ تَصانيفِه ونَفْعِها .

تُوفِّيَ أبو مُوسَىٰ في سَنةِ إحْدَىٰ وثَمانينَ وخَمسِ مئة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كان حافِظَ الْمَشْرِق في زَمانِه[4] .

جاء في ترجمة ابن الجَوْزيِّ ، قال الذهبيُّ : قال سِبْطُه أبو المُظفَّر : تُوفِّيَ أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي ليلة الثالث عَشرَ من رَمضانَ سنة سَبعٍ وتسعين وخَمسِ مئة ، وغُلِّقَت الأسْواقُ ، وجاءَ الخَلقُ ، وصَلَّىٰ عليه ابنُه أبو القاسم عليٌّ اتِّفاقاً ، لأنَّ الأعْيانَ لمْ يَقدِروا من الوُصولِ إليه ، ثم ذَهبوا به إلىٰ جامع المَنْصُور ، فصلَّوا عليه ، وضاقَ بالنَّاس ، وكان يوماً مَشْهوداً ، فلمْ يَصلْ إلىٰ حُفْرَته بمَقْبَرَةِ أحمَدَ إلىٰ وَقتِ صَلاةِ

---

(١) انظر السير : (الخَطيبُ) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٤ .

(٢) انظر السير : (الخَيَّاط) ١٩/ ٢٢٢ـ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٧٣ .

(٣) هو شَيخُ الإسلام ابنُ تَيْمية .

(٤) انظر السير : (أبو مُوسَى الْمَدينيُّ) ٢١/ ١٥٢ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٥ .

الجُمُعَة ، وكان في تمُّوز ، وأفْطَرَ الخَلقُ ، ورَمَوا نُفوسَهم في الماء إلىٰ أن قال : وما وَصلَ إلىٰ حُفْرتِه من الكَفَنِ إلاَّ قَليلٌ ، كذا قال ، والعُهْدةُ عليه[1] ، وأُنزِلَ في الحُفرَةِ ، والمُؤذِّنُ يقولُ : اللهُ أكبَر ، وحَزنَ عليه الخَلقُ ، وباتوا عند قَبرِه طُولَ شَهرِ رَمضانَ يَختِمونَ الخَتَمَات ، بالشَّمْعِ والقَناديلِ ، ورآهُ في تلك اللَّيلَةِ المُحَدِّثُ أحمدُ بنُ سَلمان السُّكّر في النَّومِ ، وهو علىٰ مِنْبَرٍ من ياقُوت ، وهو جالسٌ في مِقْعَد صِدْقٍ والمَلائكَةُ بين يَديْه[2] وأصْبَحنا يومَ السَّبت عملنا العزاء ، وتكلَّمْتُ فيه ، وحَضرَ خَلقٌ عَظيمٌ ، وعُمِلَتْ فيه المَراثي[3] .

وقالَ الضِّياءُ : تُوفِّيَ العِمَادُ رَحمَةُ اللهِ عَليه سَنةَ أرْبَع عَشرَةَ وستِّ مئة ، وكانَ صَلَّى الْمَغرِبَ بالجَامِعِ وكانَ صَائماً ، فذَهبَ إلى البَيتِ وأفْطَرَ علىٰ شَيءٍ يَسيرٍ ، ولَمَّا أُخرجَت جِنازَتُه اجْتَمعَ خَلقٌ فما رَأيتُ الجامِعَ إلاَّ كأنَّه يَومَ الجُمُعَة من كَثرَةِ الخَلقِ ، وكانَ الوَالي يَطرُدُ الخَلقَ عنه وازْدَحَموا حتَّىٰ كادَ بَعضُ النَّاسِ أنْ يَهلَك ، وما رَأيتُ جِنازَةً قَطُّ أكثَرَ خَلقاً منها[4] .

١٥ـ مِنْ أسْباب مَوْت بَعْض العُلَماء والكبَراء :

قالَ العَبَّاسُ بنُ الوَليد بنِ مَزيد : سَمعتُ عُقبَةَ بنَ عَلقَمَة قالَ : سَببُ مَوْتِ الأوْزاعيِّ أنَّه اخْتَضبَ ، ودَخلَ الحَمَّامَ الذي في مَنزِله ، وأدْخَلت مَعه امْرأتُه كانُوناً فيه فَحمٌ لِئلا يُصيبَه البَردُ ، وأغْلَقت عَليه من بَرًّا ، فلمَّا هاجَ الفَحمُ ، ضَعُفَت نَفسُه وعَالَج البَابَ لِيَفتَحَه ، فامْتَنع عليه ، فألْقَىٰ نَفسَه ، فوَجَدْناه مُوَسِّداً ذِراعَه إلى القِبلَة[5] .

وقالَ ابنُ حَزْم : كانَ سَببُ مَوتِ الخَليفَةِ الهَادي العَبَّاسيِّ ، أنَّه دَفعَ نَديماً له من

---

(١) وقال في « تاريخ الإسلام » : (وهٰذا من مجازفة أبي المظفر) ، وقد وصف الذهبيُّ السبط بالمجازفة في غير موضع من كتبه .

(٢) تمام الخبر : والحقُّ سبحانه وتعالىٰ حاضرٌ يسمع .

(٣) انظر السير : (أبو الفَرج ابن الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٦ .

(٤) انظر السير : (العِمَاد) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٨/١٦٦٥ .

(٥) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٦٨٤ .

جُرْفٍ ، علىٰ أُصُولِ قَصَبٍ قد قُطِعَ ، فتَعلَّقَ به النَّديمُ ، فوَقَعَ مَعه ، فدَخَلت قَصَبةٌ في دُبُرِه فكانَ ذلكَ سَببُ مَوْتِه ، فهَلكَا جَميعاً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ماتَ سَنةَ سَبعينَ ومئة ، وعُمرُه ثَلاثٌ وعشْرونَ سَنةً ، وكانَت خِلافَتُه سَنةً وشَهْراً ، وقامَ بعدَه أخُوه الرَّشيدُ .

وكانَ كَوالِدِه في اسْتئصالِ الزَّنادِقَة وتَتبُّعِهم ، فقَتلَ عدَّة منهم : يَعقوبُ بنُ الفَضلِ بنِ عبد الرحمَـٰن بنِ العَبَّاس بنِ رَبيعَة بنِ الحارِث بنِ عبد الْمُطَّلِب بنِ هاشِم ، وظَهرَت بنتُه حُبْلَىٰ منه ، أكْرَهَها[1] .

ويُقالُ سَمَّتهُ أمُّه الخَيْزُران ، لَمَّا أجمَعَ علىٰ قَتلِ أخيه الرَّشيدِ ، وكانَت مُتصرِّفَةً في الأمورِ إلى الغايَة ، وكانَت من مولَّداتِ الْمَدينَة ، فقالَ لها : لَئنْ وَقفَ ببابِكِ أميرٌ ، لأقْتُلنَّك ، أما لكِ مِغْزَلٌ يَشغَلُكِ ، أو مُصْحَفٌ يُذكِّركِ ، أو سُبحَةٌ ، فقامَت لا تَعْقِلُ غَضَباً[2] .

وسَببُ مَوْتِ عُلَيَّة بنتِ الْمَهْدِي أنَّ الْمَأمُونَ ضَمَّها إليه فقَبَّلها ، وهي عَمَّتُه ، وكانَ وَجْهُها مُغَطًّىٰ فشَرِقَت وسَعَلَت ، ثم حُمَّتْ أيّاماً ، وماتت[3] .

وكانَ سَببُ وَفاةِ الزُّبَيْرِ بنِ بَكار أنَّه وَقَعَ من فَوقِ سَطحِه ، فمَكثَ يَومَين لا يَتكلَّمُ وماتَ انْكَسرَتْ تَرْقُوَتَه وَوِرْكُه[4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (الهَادي) ٧/ ٤٤١ـ ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ٦/٧١٣ .

(٢) انظر السير : (الهَادي) ٧/ ٤٤١ـ ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ١/٧١٤ .

(٣) انظر السير : (عُلَيَّة بنتُ الْمَهْدِي) ١٠/ ١٨٧ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ١/٨٦٦ .

(٤) انظر السير : (الزُّبَيْرُ بنُ بَكَّار) ١٢/ ٣١١ـ ٣١٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٠٤ .

التَّعْزِيَةُ والتَّأبين

١ـ صُوَرٌ من التَّعْزِيَة :

عن مَنصُورِ بنِ صَفيَّة ، عن أُمِّه ، قالَت : قيلَ لابنِ عُمَرَ : إنَّ أسْماءَ في ناحِيَة الْمَسْجِدِ ـ وذلكَ حينَ صُلبَ ابنُ الزُّبَيْر ـ فمالَ إليها ، فقالَ : إنَّ هٰذه الجُثَث لَيسَتْ بشَيءٍ ، وإنَّما الأرْوَاحُ عندَ الله ، فاتَّقِي الله واصْبِري .

فقالَت : وما يَمنَعُني ، وقد أُهْدِيَ رَأسُ يَحْيَىٰ بنُ زَكريّا إلىٰ بَغِيٍّ من بَغايَا بَني إسْرائيل .

قالَ ابنُ سَعْد : ماتَت بعدَ ابنِها بلَيالٍ وكانَ قَتلُه لِسَبع عَشرَة خَلَت من جُمَادَى الأولَىٰ سَنةَ ثَلاثٍ وسَبعينَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَت خاتِمَة الْمُهاجِرين والْمُهاجِراتِ[١] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْر ـ وذلك بعدَ ما قُطعَتْ سَاقُه ، وماتَ أحَدُ أبْنائه ـ قالَ ابن خلكان : كانَ أحْسَن مَنْ عَزَّاهُ إبْراهيمُ بنُ محمَّد بنِ طَلحَة ، فقالَ : واللهِ ما بكَ حاجَةٌ إلى الْمَشي ولا أرَبٌ في السَّعْي ، وقد تَقدَّمَكَ عُضوٌ من أعْضاءِكَ ، وابْنٌ من أبْنائِكَ إلى الجَنَّة ، والكُلُّ تَبَعٌ للبَعضِ إنْ شاءَ الله وقد أبْقَى اللهُ لنا مِنكَ ما كُنَّا إليه فُقَراء ، من عِلْمِك ورَأيِكَ ، واللهُ وَليُّ ثَوابِكَ والضَّمينُ بحِسَابِك[٢] .

وقالَ الأصْمَعيُّ : شَهدتُ صالِحاً الْمُريَّ ، عَزَّىٰ رَجُلاً ، فقالَ : لَئنْ كانَت مُصيبَتُك بابنِك لَمْ تُحْدِثْ لكَ مَوْعِظَةً في نَفسِك ، فهي هَيِّنةٌ في جَنبِ مُصيبَتِك بنَفسِك فإيَّاها فابْكِ[٣] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي عُثمانَ الصَّابونيِّ : وأطْنَبَ عبدُ الغافِر في وَصْفِه

---

(١) انظر السير : (أسْماءُ بنتُ أبي بَكر) ٢/ ٢٨٧ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٦٢ .

(٢) انظر السير : (عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْر) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٢٨ .

(٣) انظر السير : (صالِحُ الْمُرِّي) ٨/ ٤٦ـ ٤٨ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٢٥ .

وأسْهَب ، إلىٰ أنْ قالَ : وقَرأتُ في كتابٍ كتَبه زَينُ الإسْلامِ من طُوسَ في التَّعْزيَة لشَيخِ الإسْلامِ : أَلَيسَ لَمْ يَجْسِرْ مُفتَرٍ أنْ يَكذِبَ علىٰ رَسُولِ الله في وَقتِه ؟ أَلَيسَتْ السُّنَّة كانَت بمَكانِه مَنْصُورَة ، والبدعَةُ لفَرطِ حِشْمَتِه مَقْهورَة ؟ أَلَيسَ كانَ داعياً إلى الله هادياً عبادَ الله ، شابّاً لا صَبْوَةَ له ، كهْلاً لا كَبْوَةَ له ، شَيْخاً لا هَفْوَةَ له ؟ يا أصْحابَ الْمَحابِر ، وَطِّؤوا رِحالَكم ، قد غُيِّبَ مَنْ كانَ عَليه إلْمَامُكم ويا أرْبابَ الْمَنابِر ، أعْظَمَ اللهُ أُجُورَكم ، فقَد مَضَىٰ سَيِّدُكم وإمَامُكم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ولقد كانَ من أئمَّةِ الأثَر ، له مُصنَّفٌ في السُّنَّة واعتِقادِ السَّلَف ، ما رآه مُنْصِفٌ إلاَّ واعْترَفَ له[1] .

وكتَبَ القاضِي الفاضِلُ تَعْزِيَةً إلىٰ صاحِبِ حَلَب : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2] ، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾[3] ، كتَبْتُ إلىٰ مَولانا المَلِكِ الظَّاهِرِ أحْسَنَ اللهُ عَزَاءَه ، وجَبَرَ مُصَابَه وجَعَلَ فيه الخَلَفَ من السَّلَفِ في السَّاعةِ المَذْكُورة ، ولقَدْ زُلْزِلَ المُسْلِمُونَ زِلْزالاً شَدِيداً ، وقد حَضَرَت الدُّموعُ المَحَاجِرَ وبَلَغَت القُلوبُ الحَنَاجِرَ ، وقد ودَّعتُ أبَاكَ ومَخْدُومي وَدَاعاً لا تَلاقِيَ بعدَه ، وقَبَّلتُ وجهَه عنِّي وعَنْكَ ، وأسْلَمْتُه إلى اللهِ وَحْدَه مَغْلُوبَ الحِيلَةِ ضَعِيفَ القُوَّةِ راضِياً عن اللهِ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ وبالبابِ من الجُنُودِ المُجَنَّدَةِ والأسْلِحَةِ المُعَمَّدَةِ ما لَمْ يَدْفَعِ البَلاءَ ولا ما يَرُدُّ القَضَاءَ ، تَدْمَعُ العَينُ ويَخْشَعُ القَلبَ ، ولا نقولُ إلاَّ ما يُرضِي الرَّبَ ، وإنَّا بك يا يُوسُفُ لَمَحْزُونُون .

ولِلْعَلَمِ الشَّاتانيِّ فيه قَصِيدةٌ مَطلَعُها[4] :

أَرَى النَّصْـرَ مَقْـرُونـاً بـرَايَتِـكَ الصَّفْـرَا ... فسِرْ وامْلُكِ الدُّنْيا فأنْتَ بها أحْرَى

---

(١) انظر السير : (الصَّابونيُّ) ١٨/ ٤٠ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٨٥ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .
(٣) سورة الحج ، الآية : ١ .
(٤) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٣ .

٢ـ التَّأبين :

قالَ أبو عَمْرُو بنُ العَلاء : تُوفِّيَ الأحْنَفُ بنُ قَيس في دار عُبَيدِ الله بنِ أبي غَضَنْفَر ، فلمَّا دُلِّيَ في حُفرَتِه ، أقبَلَتْ بنتٌ لأوْسٍ السَّعْديِّ وهي علىٰ رَاحِلَتِها عَجوزٌ ، فوَقفَت عليه ، وقالَت : مَن الْمُوافَىٰ به حُفرَتَه لِوَقتِ حِمَامِه ؟ قيلَ لها : الأحْنَفُ بنُ قَيْس قالَت : والله لَئنْ كُنتُم سَبَقتُمونا إلى الاسْتِمْتاع به في حَياتِه لا تَسْبقُونا إلى الثَّناءِ عَليه بَعدَ وَفاتِه ثم قالَت : لله دَرُّك من مَجَنٍّ في جَنن ، ومُدْرَجٍ في كَفَن ، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُونَ نَسألُ مَنْ ابْتَلانا بِمَوْتِك ، وفَجَعَنا بِفَقْدِك أنْ يُوَسِّعَ لكَ في قَبرِك ، وأنْ يَغفِرَ لكَ يَومَ حَشْرِك أيُّها النَّاسُ ، إنَّ أوْلياءَ اللهِ في بلادِه هم شُهودُه علىٰ عِبادِه ، وإنَّا لَقائلون حَقّاً ، ومُثْنُونَ صِدْقاً ، وهو أهْلٌ لِحُسنِ الثَّناءِ ، أمَا والذي كُنتَ من أجْلِه في عِدَّة ، ومن الحَياة في مُدَّة ، ومن الْمِضْمارِ إلىٰ غَايَة ، ومن الآثارِ إلىٰ نِهايَة ، الذي رَفعَ عَمَلَك عند انْقِضاءِ أجَلِك ، لقد عِشْتَ مَوْدُوداً حَميداً ، ومُتَّ سَعيداً فَقيداً ، ولَقد كُنتَ عَظيمَ الحِلْمِ ، فَاضِلَ السِّلمِ ، رَفيعَ العِمادِ ، وَارِيَ الزِّنادِ ، مَنيعَ الحَريمِ ، سَليمَ الأديمِ ، عَظيمَ الرَّماد ، قَريبَ البَيتِ منَ النَّادِ[1] .

ماتَ الأحْنَفُ سَنةَ سَبْعٍ وسِتِّينَ[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي عُثمانَ الصَّابونيِّ : وأطْنَبَ عبدُ الغافِر في وَصْفِه وأسْهَب ، إلىٰ أنْ قالَ : وقَرأتُ في كتابٍ كتَبه زَينُ الإسْلامِ من طُوسَ في التَّعْزيَة لشَيخِ الإسْلامِ : أَلَيسَ لَمْ يَجْسِرْ مُفتَرٍ أنْ يَكذِبَ علىٰ رَسُولِ الله في وَقتِه ؟ أَلَيسَتْ السُّنَّة كانَت بمَكانِه مَنْصُورَة ، والبِدعَةُ لفَرطِ حِشْمَتِه مَقْهورَة ؟ أَلَيسَ كانَ داعياً إلى الله هادياً عبادَ الله ، شابّاً لا صَبْوَةَ له ، كهْلاً لا كَبْوَةَ له ، شَيْخاً لا هَفْوَةَ له ؟ يا أصْحابَ الْمَحابِر ، وَطِّؤوا رِحالَكم ، قد غُيِّبَ مَنْ كانَ عَليه إلْمَامُكم ويا أرْبابَ الْمَنابِر ،

---

(١) الخبر في « تاريخ ابن عساكر » (٨/ ١٢٢٥) ، وزاد فيه : ولقد كنت في الْمَحافل شَريفاً ، وعلى الأرامِلِ عَطوفاً ، ومن النَّاس قَريباً وفيهم غريباً ، وإنْ كُنتَ فيهم مُسوَّداً ، وإلى الخُلَفاء لَمُوفَداً ، وإنْ كانوا لقَولِك لَمُستَمعين ، ولرَأيك لَمُتَّبعين ، رَحمَنا اللهُ وإيَّاك .

(٢) انظر السير : (الأحْنَفُ بنُ قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٥٤ .

أعْظَمَ اللهُ أُجُورَكم ، فقَد مَضَىٰ سَيِّدُكم وإمَامُكم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ولقد كانَ من أئمَّةِ الأثَر ، له مُصنَّفٌ في السُّنَّة واعتِقادِ السَّلَف ، ما رآه مُنْصِفٌ إلاَّ واعْترَفَ له[1] .

٣ـ شِعْرٌ في الرِّثَاء :

ولِكُثَيِّر عزَّة يَرثي عُمرَ بنَ عبد العَزيز :

عَمَّتْ صَنَائِعُهُ فَعَمَّ هَلاَكُهُ ... فالنَّاسُ فيه كُلُّهم مَأجُورُ
والنَّاسُ مَأْتَمُهُم عَليهِ وَاحِدٌ ... في كُلِّ دَارٍ رَنَّةٌ وَزَفِيرُ
يُثْنِي عَلَيْكَ لِسَانُ مَنْ لَمْ تُولِهِ ... خَيْراً لأنَّكَ بالثَّنَاءِ جَدِيرُ
رَدَّتْ صَنَائِعُه عَلَيْهِ حَيَاتَهُ ... فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنْشُورُ

وكان أسْمرَ دَقيقَ الوَجْهِ ، حَسَنه ، نَحيفَ الجِسْم ، حَسَنَ اللِّحْيَة ، بجَبْهَته شَجَّةٌ .

وكانت خِلافَتُه سَنتَين وخَمسَةَ أشْهُر وأيّاماً[2] .

ودِيوانُ أبي تَمَّام كبيرٌ سائرٌ ، ولَمَّا ماتَ ، رَثاهُ مُحمَّدُ بنُ عبدِ المَلِك الوَزير ، فقال :

نَبَأٌ أَلَمَّ مُقَلْقِلَ الأَحْشَاءِ ... لَمَّا أَتَىٰ مِن أَعْظَمِ الأَنْبَاءِ
قالُوا : حَبِيبٌ قَدْ ثَوَىٰ فأجبْتُهُم ... نَاشَدْتُكُم لا تَجْعَلُوهُ الطَّائي

مات سنة اثنتين وثلاثين ومئتين[3] .

ولأبي مُحمَّدِ الإياديِّ الشَّاعرِ مَرْثيَّة طَويلَةٌ في أبي حاتمِ الرَّازي ، رَواها عنه ابنُ أبي حاتم ، أوَّلها :[4] .

أَنَفْسِي مَا لَكِ لاَ تَجْزِعينا ... وَعَيْنَيَّ مَا لَكِ لاَ تَدْمَعِينَا

---

(١) انظر السير : (الصَّابونيُّ) ١٨/ ٤٠ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٨٥ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩٢ .
(٣) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩٠٩ .
(٤) انظر السير : (أبو حاتِم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٨ .

أَلَــمْ تَسْمَعــي بِكُسُــوفِ العُلُــو م مِـنْ شَهْـرِ شَعْبَـانَ مَحْقـاً مَـدِينـا
أَلَــمْ تَسْمَعِــي خَبَــرَ المُــرْتَضَــى أَبِــي حَــاتــم أعْلَــم الْعَــالَمِينــا

ويَقُولُ أبو سَعيدِ الأعْرابيُّ في رِثاء ابنِ جَرير[1] :

حَــدَثٌ مُفَظِّــعٌ وَخَطْــبٌ جَلِيــلُ دَقَّ عَــنْ مِثْلِــهِ اصْطِبَــارُ الصَّبُــورِ
قَــامَ نَــاعِــي العُلُــومِ أَجْمَــعَ لَمَّــا قَــامَ نَــاعِــي مُحَمَّــدِ بْــنِ جَــرِيــرِ

وعَمِلَ بعضُهُم في مَوْتِ القاضي ابنِ الباقِلاَّني :

انْظُرْ إِلَىٰ جَبَلٍ تَمْشي الرِّجَالُ بِهِ وانْظُرْ إِلَى القَبْرِ ما يَحْوِي مِنَ الصَّلَفِ
وانْظُرْ إِلَىٰ صَارِمِ الإِسْلاَمِ مُنْغمِداً وانْظُرْ إِلَىٰ دُرَّةِ الإِسْلاَمِ في الصَّدَفِ

ماتَ سَنةَ ثلاثٍ وأربعِ مِئَة ، وصلَّىٰ عليه ابنهُ حَسَنٌ وكانت جِنازَتُه مَشْهودَة ، وكان سَيفاً على المُعْتَزِلَة والرَّافِضَة والمُشَبِّهَة ، وغالبُ قَواعِدِه على السُّنَّة ، وقد أمَرَ شَيخُ الحَنابِلَة أبُو الفَضْل التَّميميُّ مُنادياً يَقولُ بينَ يَديّ جِنازَتِه : هـٰذا ناصِرُ السُّنَّة والدين ، والذَّابُّ عن الشَّريعَةِ ، هـٰذا الذي صَنَّفَ ألفَ وَرَقَة ثم كان يَزورُ قَبرَه كُلَّ جُمُعَة[2] .

* * *

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/١١٥٤ .
(٢) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٥ .

الرُّؤى

١ـ مِنْ فَوائد الرُّؤى الصَّالحة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمامِ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : ولقد جَمعَ ابنُ الجَوْزيِّ فأوْعَىٰ من الْمَنامَاتِ في نَحوٍ من ثَلاثينَ وَرَقةً ولَيسَ أبو عبدِ الله مِمَّنْ يَحتَاجُ تَقريرُ وِلايَتِه إلىٰ مَنامَاتٍ ، ولَكنَّها جُندٌ من جُندِ الله ، تَسُرُّ الْمُؤمنَ ولا سِيَّما إذا تَواتَرَت[١] .

٢ـ مُتفرِّقَات :

(أ) مَنْ كان يَتمَنَّىٰ رُؤيَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ رآه :

عن بكَّار بنِ محمدٍ قال : كان ابنُ عَون قد أوصىٰ إلىٰ أبي وصحبته دهراً ، فما سَمعتُه حالِفاً علىٰ يَمينٍ بَرَّةٍ ولا فاجِرَةٍ ، كان طَيِّبَ الرِّيح ، لَيِّنَ الكُسوة ، وكان يَتمنَّىٰ أنْ يَرَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ فلَمْ يَرَهُ إلاَّ قَبْلَ مَوتِه بيَسِير ، فسُرَّ بذلك سُروراً شديداً قال : فنَزَلَ من درجتِه إلى المسجِدِ فسَقَطَ فأُصِيبَتْ رِجلُه ، فلَمْ يَزَلْ يُعالجُها حتّىٰ ماتَ رحمَه الله[٢] .

(ب) رؤيا تدُلُّ علىٰ قُوَّة الاتِّباع للمُصْطَفىٰ صلى الله عليه وسلم :

قال محمدُ البُخَاريُّ : سَمعتُ النَّجْمَ بنَ الفُضَيل يقولُ : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كأنَّه يَمشِي ، ومحمدُ بنُ إسْماعِيلَ يَمشِي خَلْفَه فكُلَّما رَفَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَدَمَه وَضَعَ محمدُ بنُ إسْماعِيلَ قَدَمَه في المكانِ الذي رَفَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَدَمَه[٣] .

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٥١ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٥٧ .

(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٠١٢ .

(ج) رُؤيا تُفيد في قُوَّة الرَّجَاء في رَحْمَة الله :

عن إسْحاقَ الحَربيِّ ، قالَ : حدَّثني أبو حَسَّانَ الزِّياديُّ ، أنَّه رَأىٰ رَبَّ العِزَّة في الْمَنامِ : فقالَ : رَأيتُ نُوراً عَظيماً لا أُحْسِنُ أَصِفُه ، ورَأيتُ فيه رَجلاً خُيِّلَ إليَّ أنَّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وكأنَّه يَشْفَعُ إلىٰ رَبِّه في رَجُلٍ من أُمَّتِه ، وسَمعتُ قائلاً يَقولُ : أَلَمْ يَكفِكَ أنِّي أُنْزِلُ عَليكَ في سُورَةِ الرَّعْدِ : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[1] ثم انتَبَهتُ .

قالَ الخَطيبُ : كانَ أبو حَسَّان أحدَ العُلَماء الأفاضِل الثِّقاتِ ، وَلِيَ قَضاءَ الشَّرقيَّة ، وكان كَريماً مِفْضالاً[2] .

(د) رُؤىٰ فيها إخْبَارٌ عن أُمُورٍ سَتَحْصُل :

قالَ ابنُ أبي كامِل : سَمعتُ خَيْثَمَةَ بنَ سُليْمانَ يَقُولُ : رَكبتُ البَحرَ وقَصَدتُ جَبَلَة لأسْمَعَ من يُوسُفَ بنِ بَحْر ، ثم خَرَجتُ إلىٰ أنْطاكيَة ، فلَقِيَنا مَركبٌ ـ يَعني للعَدُوِّ ـ قالَ : فقاتَلنَاه ، ثم سَلَّمَ مَركَبَنا قَومٌ من مقدَّمه ، قالَ : فأخَذُوني ، ثم ضَرَبُوني ، وكَتَبوا أسْمَاءَنا ، فقالَ : ما اسْمُك ؟ قُلتُ : خَيْثَمَة ، فقالوا : اكْتُبْ حِمَارُ بنُ حِمَار ولَمَّا ضُربتُ نِمتُ ، فرَأيتُ كأنِّي أنْظُرُ إلى الجَنَّة ، وعلىٰ بابِها جَماعَةٌ من الحُورِ العين ، فقالَت إحْداهُنَّ : يا شَقيُّ ، أيشٍ فاتَك ؟ فقالَت أُخْرَىٰ : أيشٍ فاتَه ؟ قالَتْ : لَوْ قُتلَ لَكانَ في الجَنَّة مع الحُورِ ، قالَت لها : لأنْ يَرْزُقَه اللهُ الشَّهادَةَ في عِزٍّ من الإسْلامِ وذُلٍّ من الشِّرْكِ خَيرٌ له ثم انتَبهتُ قالَ : ورَأيتُ كأنَّ مَنْ يَقُولُ لي : اقْرَأ لي : اقْرَأ بَراءَة فقَرأتُ إلىٰ ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[3] قالَ فعَدَدتُ من لَيلَةِ الرُّؤيَا أرْبَعَةَ أشْهُر ففَكَّ اللهُ أسْري .

تُوفِّيَ سَنةَ ثَلاثٍ وأرْبَعينَ وثَلاثِ مئة[4] .

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٦

(٢) انظر السير : (أبو حَسَّان الزِّياديّ) ١١/ ٤٩٦ـ٤٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٦٢ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٢ .

(٤) انظر السير : (خَيْثَمَة) ١٥/ ٤١٢ـ٤١٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٤٤ .

وجاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ الْمؤمنينَ الْمُسْتَرْشِدِ بالله ، قالَ ابنُ النَّجَّار : أخْبَرَنا زَينُ الأمَناء عن محمَّدِ بنِ محمَّدِ الإسْكافي إمامِ الوَزير قالَ : لَمَّا كنا مع الْمُسْتَرْشِدِ بباب هَمَذان ، كانَ مَعنا إنْسانٌ يُعرَفُ بفارِسِ الإسْلام ، وكانَ يَقْرُبُ من خِدمَةِ الخَليفَة ، فدَخلَ على الوَزيرِ ابنِ طراد ، فقالَ رَأيتُ السَّاعَةَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقُلتُ : يا رَسُولَ الله ما تَقُولُ في هٰذا الجَيشِ ؟ قالَ : مَكْسُورٌ مَقْهورٌ ، فأُريدُ أنْ تُطالِعَ الخَليفَةَ بهٰذا ، فقالَ : يا فَارِسَ الإسْلام ، أنا أشَرتُ على الخَليفَةِ أنْ لا يَخرُجَ من بَغدادَ فقالَ : يا عَليُّ ، أنتَ عاجِزٌ رُدَّ إلىٰ بَيتِك ، فلا أُبلِغُه هَٰذا ، لكن قُلْ لابنِ طَلْحَة صاحِبِ الْمَخْزن ، فذَهبَ إلى ابنِ طَلحَة ، فأخْبَرَه ، فقالَ : لا أُنْهي إليه ما يَتَطيَّرُ به ، فاكتُبْ هٰذا إليه واعْرِضْها ، وأخلِ مَوْضِعَ مَقْهُورٌ فكَتَبتُها ، وجِئتُ إلى السُّرادِقِ ، فوَجدتُ نجا في الدِّهْليزِ ، وقد صَلَّى الخَليفَةُ الفَجرَ ، وبينَ يَدَيه مُصْحفٌ ، ومُقابِلُه ابنُ سُكَينة إمامُه فدَخلَ نجا الخادِمُ ، فسَلَّمَ الرُّقعَةَ إليه ، وأنا أنْظُرُه ، فقَرأَها غَيرَ مَرَّة وقالَ مَنْ كَتبَ هٰذه ؟ فقالَ : فارِسُ الإسْلام ، قالَ : أحْضِرْه ، فجاءَ فقَبضَ علىٰ يَدَيَّ فأُرْعِدتُ ، وقَبَّلتُ الأرضَ ، فقالَ : وعَليكُم السَّلامُ ثم قَرأ الرُّقعَةَ مَرَّاتٍ ، ثم قالَ مَنْ كَتَبَ هٰذه ؟ قُلتُ أنا ، قال : وَيْلَك ، لِمَ أخْلَيتَ مَوْضِعَ الكَلمةِ الأُخْرَى ؟ قُلتُ : هو ما رَأيتَ يا أميرَ الْمُؤمنينَ ، قالَ : وَيْلَك ، هٰذا الْمَنام أُريتُه أنا في هٰذه السَّاعة ، فقُلتُ : يا مَوْلانا ، لا يَكُونُ أصْدَق من رُؤيَاكَ ، تَرجِعُ من حَيثُ جِئتَ ، قالَ : وَيْلكَ ويُكَذَّبُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟! لا واللهِ ما بَقِيَ لَنَا رَجعَةٌ ويَقْضِي اللهُ ما يَشاءُ ، فلمَّا كانَ اليَومُ الثاني ، أو الثالِث ، وَقَعَ الْمَصافُّ وتَمَّ ما تَمَّ وكُسِرَ وأُسِرَ ، وقُتِلَ رَحِمَهُ الله[1] .

(هـ) مَنْ بايَعَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الرُّؤْيا علىٰ أداء بَعض شَعائر الإسْلام :

قالَ أبو سَهْل بنُ زِياد : سَمعتُ أحمَدَ الأبَّار يَقولُ : بايَعتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ علىٰ إقَامِ الصَّلاةِ ، وإيْتاءِ الزَّكاة ، والأمْرِ بالْمَعرُوفِ ، والنَّهي عن الْمُنكَر[2] .

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَرْشِدُ بالله) ١٩/ ٥٦١ـ٥٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥١٤ .

(٢) انظر السير : (الأبَّار) ١٣/ ٤٤٣ـ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠١ .

(و) رُؤِىَ فيها دِفَاعٌ عن مُؤمِنٍ صَالح :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحافِظِ عبدِ الغَنيِّ : وقالَ الضِّياءُ : سَمعتُ الشَّيخَ الصَّالحَ غشيم بن ناصر الْمِصري قالَ : لَمَّا ماتَ الحافِظُ كُنتُ بمَكة ، فلمَّا قَدمتُ قُلتُ : أينَ دُفنَ ؟ قيلَ : شَرقِي قَبرِ الشَّافِعيِّ ، فخَرجتُ ، فلَقيتُ رَجُلاً ، فقُلتُ : أينَ قَبرُ عبدِ الغَني ؟ قالَ : لا تَسألْني عَنه ، ما أنا علىٰ مَذهَبِه ولا أُحبُّه ، فتَركتُه ، ومَشيتُ ، وأَتَيتُ قبرَ الحافِظِ ، وتَردَّدتُ إليه ، فأنا بَعضُ الأيَّام في الطَّريقِ فإذا الرَّجُلُ فسَلَّمَ عَليَّ وقالَ : أما تَعرِفُني ؟ أنا الذي لَقيتُكَ من مُدَّة وقُلتُ لكَ كَذا وكَذا ، مَضَيتُ تلكَ اللَّيلَةَ فرَأيتُ قائلاً يَقُولُ لي : يَقُولُ لكَ فُلانٌ ، وسَمَّاني : أينَ قَبرُ عبدِ الغَني ؟ فتَقُول ما قُلتَ ؟! وكرَّرَ القَولَ عَليَّ ، وقالَ : إنْ أرادَ اللهُ بكَ خَيْراً فأنتَ تَكونُ علىٰ ما هُو عَليه ، ثم قالَ : لَوْ كُنتُ أعْرِفُ مَنْزِلَكَ لأتَيتُك[1] .

٣ـ تَعْبيرُ الرُّؤْيَا :

قالَ ابنُ عُمَر : سَمعتُ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « بَيْنَا أنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحٍ مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّىٰ إنِّي لأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي ، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ » قالوا : فمَا أوَّلتَ ذلك ؟ قالَ : « الْعِلْم »[2] .

وقالَ أبو سَعيد : قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَليَّ وعَلَيْهِم قُمُصٌ ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ ، ومِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلك ، ومَرَّ عَليَّ عُمَرُ عَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ » قالوا : مَا أوَّلتَ ذَلك يا رَسولَ الله ؟ قالَ : « الدِّين »[3] .

قالَ حَميدٌ : قالَ صِلَةُ : رَأيتُ كأنِّي أرَىٰ أبا رِفاعَة العَدَويَّ علىٰ ناقَةٍ سَريعَةٍ ، وأنا عَلىٰ جَمَلٍ قَطُوفٍ ، فأنَا علىٰ أثَرِه ، فأوَّلتُ أنِّي عَلىٰ طَريقِه وأنا أكُدُّ العَملَ بعدَه كَدّاً[4] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٥٣ .
(٢) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٨/٤٥ .
(٣) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٤٦ .
(٤) انظر السير : (أبو رِفاعَة العَدَوِيّ) ٣/ ١٤ـ ١٥ ، وانظر النزهة : ٢/٣٢١ .

ورَوَىٰ سالِمُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، عن أبيه ، قالَ : كانَ الرجُلُ في حَياةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا رَأىٰ رُؤيا ، قَصَّها علىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وكُنتُ غُلاماً عَزَباً شَابّاً فكُنتُ أنامُ في الْمَسجِدِ ، فرَأيتُ كأنَّ مَلَكينِ أتَيَاني ، فذَهبَا بي إلى النَّارِ فإذا هي مَطويَّة كَطَيِّ البئرِ ، ولَهَا قُرونٌ كَقُرونِ البِئْرِ ، فرَأيتُ فيها نَاساً قد عَرَفتُهم ، فجَعلتُ أقُولُ : أعُوذُ بالله من النَّارِ ، فلَقِيَنا مَلكٌ فقالَ : لَنْ تُراعَ فذَكرْتُها لِحَفْصَةَ ، فقَصَّتها حَفْصَةُ علىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : « نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيلِ » قالَ : فكانَ لا يَنامُ من اللَّيلِ إلاَّ القَليل[1] .

وقالَ الوَاقِديُّ : كانَ سَعيدُ بنُ الْمُسَيِّب من أعْبَرِ النَّاسِ للرُّؤيا ، أخَذَ ذلكَ عن أسْماءَ بنتِ أبي بَكر الصِّدِّيق ، وأخَذَتهُ أسْماءُ عن أبيها ، ثم سَاقَ الوَاقِديُّ عدَّةَ مَنامَاتٍ ومنها :

حدَّثنا مُوسَىٰ بنُ يَعْقوبَ ، عن الوَليدِ بنِ عَمْرُو بنِ مُسافع ، عن عُمَرَ بنِ حَبيب بنِ قُلَيع قالَ : كُنتُ جالِساً عندَ سَعيدِ بنِ الْمُسَيِّب يَوماً ، وقد ضاقَت بيَ الأشْياءُ ، ورَهَقَني دَينٌ ، فجاءَه رَجلٌ ، فقالَ : رَأيتُ كأنِّي أخَذتُ عبدَ الْمَلكِ بنَ مَرْوانَ ، فأضْجَعتُه إلى الأرضِ ، وبَطَحتُه فأوْتَدتُ في ظَهرِه أرْبَعةَ أوْتادٍ قالَ : ما أنْتَ رَأيتَها قالَ : بَلَىٰ قالَ : لا أُخبِرُكَ أوْ تُخْبِرُني قالَ : ابنُ الزُّبَيْرِ رآها ، وهوَ بَعثَني إليكَ قالَ : لَئنْ صَدَقَتْ رُؤياهُ قَتَلَهُ عبدُ الْمَلكِ ، وخَرجَ من صُلبِ عبدِ الْمَلكِ أرْبَعةٌ كُلُّهم يَكونُ خَليفةً قالَ : فرَحَلتُ إلىٰ عبدِ الْمَلكِ بالشَّامِ فأخْبَرتُه ، فسُرَّ ، وسَألَني عن سَعيدٍ وعن حَالِه فأخْبَرتُه وأمَرَ بقَضاءِ دَيْني وأصَبتُ منه خَيراً .

وحدَّثنا ابنُ أبي ذِئْب ، عن مُسلِمِ الحَنَّاطِ ، قالَ رَجلٌ لابنِ الْمُسَيِّبِ : رَأيتُ أنِّي أبُولُ في يَدِي ، فقالَ : اتَّقِ الله ، فإنَّ تَحْتَكَ ذَاتَ مَحْرَمٍ ، فنَظَرَ ، فإذا امْرأةٌ بَينَهما رَضَاعٌ .

وقالَ له رَجلٌ : إنِّي رَأيتُ كأنَّ حَمامَةً وَقَعَت على الْمَنارَة ، فقالَ : يَتزوَّجُ الحَجَّاجُ ابنَةَ عبدِ اللهِ بنِ جَعْفَر .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عُمَر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٦/٣٦٦ .

وبه عن ابنِ الْمُسَيِّبِ قالَ : الكَبْلُ في النَّومِ ثَبَاتٌ في الدِّين .

وقيلَ له : يا أبَا مُحمَّد ، رَأيتُ كأنِّي في الظِّلِّ ، فقُمتُ إلى الشَّمسِ فقالَ : إنْ صَدقَتْ رُؤيَاكَ ، لَتَخْرُجَنَّ من الإسْلام قالَ : يا أبَا مُحمَّد ، إنِّي أرَانِي أُخْرِجتُ حتَّىٰ أُدخِلتُ في الشَّمسِ ، فجَلَستُ قالَ : تُكرَهُ على الكُفْرِ قالَ : فأُسِرَ وأُكرِهَ على الكُفْرِ ، ثم رَجَعَ ، فكانَ يُخبِرُ بهـٰذا بالْمَدينَة .

وحدَّثنا عبدُ الله بنُ جَعْفَر عن عُبَيدِ الله بنِ عبدِ الرحمَـٰن بنِ السَّائبِ ، قالَ رَجلٌ لابنِ الْمُسَيِّبِ : إنَّه رَأىٰ كأنَّه يَخُوضُ النَّارَ قالَ : لا تَمُوتُ حتَّىٰ تَركَبَ البَحْرَ ، وتَمُوتَ قَتيلاً فرَكِبَ البَحْرَ ، وأشْفَىٰ على الهَلَكَة ، وقُتلَ يَوم قُدَيد[1] .

رَوَىٰ هـٰذا الفَصْلَ ابنُ سَعْد في « الطَّبَقاتِ » عن الوَاقِديِّ .

وعن عِمْرانَ بنِ عبدِ الله ، قالَ : رَأى الحَسَنُ بنُ عَليٍّ كأنَّ بَينَ عَيْنَيْه مَكْتُوبٌ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2] فاسْتَبشَرَ به ، وأهلُ بَيتِه ، فقَصُّوها علىٰ سَعيدِ بنِ الْمُسَيِّبِ ، فقالَ : إنْ صَدَقَتْ رُؤيَاهُ فقَلَّما بَقِيَ من أجَلِه ، فمَاتَ بعدَ أيَّامٍ[3] .

وعن خارِجَةَ بنِ زَيْدِ بنِ ثابِت ، قالَ : رَأيتُ في الْمَنام كأنِّي بَنَيتُ سَبعينَ دَرَجةً ، فلمَّا فَرَغتُ منها ، تهوَّرَت : هـٰذه السَّنَةُ لي سَبعُونَ سَنةً قدْ أكْمَلتُها فماتَ عَنها[4] .

وقالَ مَعْمَرُ : جاءَ رَجلٌ إلى ابنِ سِيرينَ فقالَ : رَأيتُ كأنَّ حَمامَة الْتَقمَتْ لُؤلُؤةً ، فخَرَجَت منها أعْظَمَ ما كانَت ، ورَأيتُ حَمامَة أُخْرَى الْتَقمَتْ لُؤلُؤةً ، فخَرَجَت أصْغَر مِمَّا دَخَلَت ، ورأيت أخرى الْتَقمَتْ لُؤلُؤةً ، فخَرَجَت كمَا دَخَلَت . فقالَ ابنُ سِيرينَ : أمَّا الأولَىٰ فذَاكَ الحَسَنُ ، يَسْمَعُ الحَديثَ فيُجَوِّدُه بمَنْطِقِه ويَصِلُ فيه من مَواعِظِه وأمَّا التي

---

(١) قُدَيْد : موضع بين مكة والمدينة ، فيه كانت الوقعة سنة ثلاثين ومئة بين أهل المدينة وبين أبي حمزة الخارجي فقتل منهم مقتلة عظيمة .

(٢) سورة الإخلاص ، الآية : ١

(٣) انظر السير : (سَعيدُ بنُ الْمُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٤٨٦ ـ ٤٨٧ .

(٤) انظر السير : (خارِجَةُ بنُ زَيْد) ٤/ ٤٣٧ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٢٩ .

صَغُرَت فأنا ، أسْمَعُ الحَديثَ فأُسْقِطُ منه ، وأمَّا التي خَرَجَت كمَا دَخَلَت فقَتادَة ، فهُوَ أحْفَظُ النَّاسِ[1] .

وعن عبدِ الله بنِ مُسْلم الْمَرُّوزيِّ ، قالَ : كُنتُ أُجالِسُ ابنَ سِيرينَ ، فتَركتُه وجالَستُ الإبَاضِيَّة ، فرَأيتُ كأنِّي مع قَوم يَحمِلُونَ جِنازَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأتَيتُ ابنَ سِيرينَ فذَكَرتُ له ، فقالَ : مَا لَكَ جالَستَ أقْواماً يُريدُونَ أنْ يَدفِنُوا ما جاءَ به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم[2] .

وعن هِشامِ بنِ حَسَّانَ ، قالَ : قَصَّ رَجلٌ على ابنِ سِرينَ فقالَ : رَأيتُ كأنَّ بيَدي قَدَحاً من زُجاجٍ فيه مَاءٌ ، فانْكَسَرَ وبَقِيَ الْمَاءُ فقالَ له : اتَّقِ اللهَ فإنَّكَ لَمْ تَرَ شَيئاً ، فقالَ : سُبحانَ الله قالَ ابنُ سِيرينَ : فمَنْ كَذَبَ فمَا عَليَّ ، سَتلِدُ امْرأتُكَ وتَمُوتُ ، ويَبْقَىٰ وَلَدُها فلمَّا خَرجَ الرَّجُلُ قالَ : والله ما رَأيتُ شَيئاً فمَا لَبِثَ أنْ وُلِدَ لَه ومَاتَت امْرأتُه[3] .

قالَ : ودَخَلَ آخَرُ فقالَ : رَأيتُ كأنِّي وجارِيَةٌ سَوْداءُ نَأكُلُ في قَصْعَة سَمَكَةً ، قالَ : أتُهَيِّىءُ لي طَعَاماً وتَدعُوني ؟ قالَ : نَعَم ، ففَعلَ ، فلمَّا وُضِعَت الْمائدَةُ ، إذا جارِيَةٌ سَوْداءُ فقالَ له ابنُ سِيرينَ : هَلْ أصَبْتَ هَـٰذِهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فادْخُلْ بها الْمَخْدَع ، فدَخلَ ، وصَاحَ : يا أبا بَكْر ، رَجُلٌ والله ، فقالَ : هـٰذا الذي شَارَكَكَ في أهْلِك[4] .

عن مُغيرَةَ بنِ حَفْصٍ ، قالَ : سُئلَ ابنُ سِيرينَ ، فقالَ : رَأيتُ كأنَّ الجَوْزاءَ تَقدَّمَت الثُّرَيّا قالَ : هَـٰذا الحَسَنُ يَمُوتُ قَبْلي ثم أتْبَعُه ، وهو أرْفَعُ منِّي[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد جاءَ عن ابنِ سِيرينَ في التَّعْبيرِ عَجَائبُ يَطُولُ الكِتابُ بذِكرِها ، وكانَ له في ذَلكَ تَأييدٌ إلَـٰهِيٌّ[6] .

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرينَ) ٤/٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٩/٥٦٩ .
(٢) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرينَ) ٤/٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ١٠/٥٦٩ .
(٣) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرينَ) ٤/٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٥٧٠ .
(٤) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرينَ) ٤/٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/٥٧٠ .
(٥) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرينَ) ٤/٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥٧٠ .
(٦) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرينَ) ٤/٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/٥٧٠ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ القاسِمِ : وعن سُحْنُونَ قالَ : لَمَّا حَجَجْنا كنُت أُزَامِلُ ابنَ وَهْب ، وكانَ أشْهَبُ يُزامِلُه يَتيمُه ، وكانَ ابنُ القاسِمِ يُزامِلُه ابنُه مُوسَىٰ ، ونزَلنَا بمَسْجِدٍ ببَعضِ مَدائنِ الحِجَازِ ، فنِمْنَا ، فانتُبَهَ ابنُ القاسِمِ مَذْعوراً ، فقالَ لي : يا أبَا سَعيد ، رَأيتُ السَّاعَةَ كأنَّ رَجُلاً دَخلَ عَلينا من بابِ هـٰذا الْمَسجِدِ ، ومَعَه طَبقٌ مُغَطًّىٰ وفيه رَأسُ خِنْزيرٍ أسْألُ اللهَ خَيرَها فمَا لَبِثْنا حتَّىٰ أقْبَلَ رجُلٌ مَعَه طَبقٌ مُغَطًّىٰ بِمِنْديلٍ ، وفيه رُطَبٌ من تَمْرِ تِلكَ القَريَة ، فجَعلَه بينَ يَدَي ابنِ القاسِم ، وقالَ : كُلْ ، قالَ : ما إلىٰ ذَلكَ من سَبيلٍ فقالَ لي ابنُ القاسِم : هَـٰذا تَأويلُ الرُّؤيا وكانَ يُقالُ : إنَّ تِلكَ القَريَةَ أكْثَرُها وَقْفٌ غُصِبَت .

قالَ الحارِثُ بنُ مِسْكين : كانَ ابنُ القاسِم في الوَرَعِ والزُّهْدِ شَيْئاً عَجيباً .

وُلِدَ ابنُ القاسِم سَنةَ اثنَتَينِ وثَلاثينَ ومئة ، وتُوفِّيَ في سَنةِ إحْدَىٰ وتِسْعينَ ومئة ، رَحمَهُ اللهُ ، عاشَ تِسْعاً وخَمسينَ سَنةً[1] .

وقالَ أبو قُدَامَة السَّرْخَسيُّ : سَمعتُ عَلياً ابنَ الْمَديني يَقُولُ : رَأيتُ كأنَّ الثُّرَيَّا تَدَلَّتْ حتَّىٰ تَناوَلتُها .

قالَ أبو قُدَامَة : صَدَقَ الله رُؤياه ، بَلغَ في الحَديثِ مَبْلغاً لَمْ يَبلُغْه أحَدٌ .

قالَ إبْراهيمُ بنُ مَعْقِل : سَمعتُ البُخاريَّ ، يَقُولُ : ما اسْتَصْغَرتُ نَفسِي عندَ أحَدٍ إلاَّ عندَ عَليِّ بنِ الْمَديني[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَبيثِ : رُئيَ أبوه أنَّه بالَ في مَسجِد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بَوْلَةً أحرَقت نصفَ الدنيا .

وكانت أمُّ الخَبيث تقولُ : لمْ يدَعْ ابني أحَداً عندَه علمٌ بالرأيِّ حتىٰ خالَطَهم ، ثم خرجَ إلىٰ خُراسان ، فغابَ عنِّي سَنتين ، وجاءَ ثم غابَ عنِّي غَيبتَه التي خَرجَ فيها ، فوَردَ عليَّ كتابُه من البَصْرَة ، وبَعثَ إليَّ بمالٍ ، فلمْ أقْبلْه ، لِمَا صَحَّ عندي من سَفْكِه للدِّماء ، وخَرابِه للمُدُن .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الرحمَـٰن بنُ القاسِم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ١/٨٠٦ .

(٢) انظر السير : (عَليُّ بنُ الْمَدينيِّ) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٤/٩٠٧ .

قال الذهبيُّ : وكان أبوهُ داهيةً شَيطاناً كوَلدِه فقال عليٌّ : مَرِضتُ وأنا غُلام ، فجلسَ أبي يَعودُني ، وقال لأُمِّي : ما خَبرُه ؟ قالت : يَموتُ قال : فإذا ماتَ ، مَنْ يُخْربُ البَصْرَة ؟ قال : فبقيَ ذاكَ في قَلبي[1] .

وقالَ أبو عَليٍّ بنُ خَيْرانَ : سَمعتُ أبا العَبَّاسِ بنَ سُرَيج يَقُولُ : رَأيتُ كأنَّما مُطِرْنا كِبْريتاً أحْمَر ، فمَلأتُ أكْمَامي وحِجْري ، فعُبِّرَ لي : أنْ أُرْزَقَ عِلماً عَزيزاً كَعِزَّةِ الكِبريتِ الأحْمَر[2] .

وحَكَىٰ أبو بِشْر القَطَّان قالَ : رَأىٰ جارٌ لابنِ خُزَيْمَة ـ من أهْلِ العِلمِ كأنَّ لَوْحاً عليه صُورَةُ نَبيِّنَا صلى الله عليه وسلم وابنُ خُزَيْمَة يصْقلُه فقالَ الْمُعَبِّرُ : هـٰذا رَجلٌ يُحْيي سُنَّةَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم[3] .

وقالَ أبو العَبَّاس بنُ حمْدانَ شَيخُ خوارِزْم : سَمعتُ السَّرَّاجَ يَقُولُ : رَأيتُ في الْمَنام كأنِّي أرْقَىٰ في سُلمٍ طَويلٍ ، فصَعدتُ تِسْعاً وتِسْعينَ دَرَجَةً فكُلُّ مَنْ أقُصُّها عَليه يَقولُ : تَعيشُ تِسْعاً وتِسْعينَ سَنةً قالَ ابنُ حمْدانَ فكانَ كَذَلك .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : بَلْ بَلغَ سَبْعاً أو خَمْساً وتِسْعينَ سَنةً ، فقد قالَ أبو إسْحاقَ الْمُزَكِّي عنه : وُلدتُ سَنةَ ثَمانيَ عَشرَة ومِئتَينِ ، وخَتمتُ عن رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم اثنَي عَشرَ ألفَ خَتمَةً ، وضَحَّيتُ عنه اثنَي عَشرَ ألفَ أُضْحِيَةً .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : دَليلُه حَديثُ شَريك ، عن أبي الحَسْناءِ ، عن الحَكَمِ ، عن حَنَش قالَ : رَأيتُ عَليّاً رضي الله عنه يُضَحِّي بكَبْشَينِ ، فقُلتُ له : ما هَـٰذا ؟ قالَ : « أوْصَانِي رِسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ أُضَحِّيَ عَنه »[4] ، زَادَ التِّرْمِذيُّ : واحِدٌ

---

(١) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٦٤ .

(٢) انظر السير : (ابنُ سُرَيْج) ١٤/ ٢٠١ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ١/ ١١٤٣ .

(٣) انظر السير : (ابنُ خُزَيْمَة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٦١ .

(٤) أخْرَجَهُ أبو دَاوُد (٢٧٩٠) والتِّرْمذيُّ (١٤٩٥) كلاهُما في الأضَاحي : باب الأُضْحِيَة عن الْمَيِّت ، وأحمدُ (١/ ١٠٧) ، (١٤٩) ، (١٥٠) ، وشَريك : هو ابنُ عبد الله النَّخَعي ، سَيءُ الحفظ وأبو الحَسْناء : مَجهولٌ ، وحَنَش : هو ابنُ الْمُعتَمِر ، مُختلَفٌ فيه .

عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ووَاحِدٌ عن نَفسِه[1] .

قالَ ابنُ خَلِّكان : أخبرَني عالِمٌ أنَّ العاضِدَ رَأىٰ في نَومِه كأنَّ عَقْرَباً خَرجَت إليه من مَسْجدٍ عُرِفَ بها فلَدَغَتْه ، فلمَّا اسْتَيقَظَ طَلبَ مُعبِّراً ، فقالَ : يَنالُك مَكرُوهٌ من رَجلٍ مُقيمٍ بالمَسْجدِ ، فسَألَ عن المَسْجدِ ، وقالَ للوَالي عنه ، فأُتي بفَقيرٍ ، فسَألَه من أينَ هُو ؟ وفيمَ قَدِمَ ، فرَأىٰ منه صِدْقاً ودِيناً فقالَ : ادْعُ لنا يا شَيخُ ، وخَلَّىٰ سَبيلَه ، ورَجعَ إلى المَسْجدِ ، فلمَّا غَلبَ صَلاحُ الدِّين علىٰ مِصْرَ ، عَزمَ علىٰ خَلعِ العاضِدِ ، فقالَ ابنُ خَلِّكان : اسْتَفْتِي الفُقَهاءَ ، فأفْتُوا بجَوازِ خَلعِه لما هو من انْحِلالِ العَقيدَة والاسْتهتارِ ، فكانَ أكثَرُهم مُبالَغةً في الفُتيا ذاكَ ، وهو الشَّيخُ نَجْمُ الدِّينِ الخُبُوشانيُّ ، فإنَّه عَدَّد مَساوِىء هَؤلاءِ ، وسَلبَ عَنهم الإيمَانَ[2] .

وقالَ الحُسَينُ بنُ يَوْحن البَاورّي : كُنتُ في مَدينَةِ الخان[3] فسَألَني سَائلٌ عن رُؤيا ، فقالَ : رَأيتُ كأنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم تُوفِّيَ ، فقالَ : إنْ صَدَقَتْ رُؤياكَ ، يَمُوتُ إمامٌ لا نَظيرَ له في زَمانِه ، فإنَّ مثلَ هـٰذا الْمَنامِ رُئيَ حالَ وَفاةِ الشَّافِعيِّ والثَّوْريِّ وأحمَدَ بنِ حَنْبَل ، قالَ : فمَا أمْسَيْنا حتَّىٰ جاءَنا الخَبرُ بوَفاةِ الحافِظِ أبي مُوسَى الْمَدينيِّ[4] .

٤ـ رُؤَىٰ فيها تَوْجِيه :

عن حُسَيْنِ بنِ خارِجَة الأشْجَعيّ قال : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ رضي الله عنه ، أُشْكِلَتْ عَليَّ الفِتْنَةُ ، فقُلتُ : اللَّهُمَّ أرِني من الحَقِّ أمراً أتَمَسَّكُ به ، فرَأيتُ في النَّومِ الدُّنيا والآخِرةَ بينَهُما حائِطٌ ، فهَبَطتُ الحائِطَ ، فإذا بنَفَرٍ ، فقالوا : نَحنُ المَلائِكَةُ ، قُلتُ : فأيْنَ الشُّهَداءُ ؟ قالوا : اصْعَد الدَّرَجاتِ ، فصَعَدتُ دَرَجَةً ثمَّ أُخْرَىٰ ، فإذا مُحمَّدٌ وإبْراهيمُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِمَا ، وإذا مُحمَّدٌ يقُولُ لإبْراهيمَ : اسْتَغْفِرْ لأُمَّتي ، قال : إنَّكَ لا تَدْري

---

(١) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/٣٨٨ـ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٣ .
(٢) انظر السير : (العاضِد) ١٥/٢٠٧ـ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٢٠ .
(٣) الخَان : موضع بأصبهان .
(٤) انظر السير : (أبو مُوسَى الْمَدينيّ) ٢١/١٥٢ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٠٤ .

ما أحْدَثوا بَعْدَك ، إنَّهم أَهْرَقُوا دَماءَهم ، وقَتَلُوا إمَامَهُم ، ألا فَعَلُوا كمَا فَعَلَ خَليلي سَعدٌ ؟ (يَعني ابنَ أبي وَقَّاص) .

قال : قُلتُ : لقَد رَأيتُ رُؤْيا ، فأتَيْتُ سَعداً فقَصَصْتُها عليه ، فمَا أكْثرَ فَرَحاً ، وقال رضي الله عنه : قد خَابَ مَنْ لَمْ يَكنْ إبْراهيمُ عليه السلام خَليلَه ، قُلتُ : مع أيِّ الطَّائِفَتَينِ أنْتَ ؟ قال رضي الله عنه : ما أنا مع واحدٍ منْهُما ، قُلتُ : فما تَأمُرُني ؟ قال : هَلْ لكَ من غَنَمٍ ؟ قُلتُ : لا ، قال : فاشْتَرِ غَنَماً ، فكُنْ فيها حتىٰ تَنْجَلي[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ثابتِ بنِ قَيْس : ولَمَّا اسْتُشهِدَ رآهُ رَجلٌ : فقالَ : إنِّي لَمَّا قُتلتُ ، انْتُزِعَ دِرْعي رَجلٌ من الْمُسلِمينَ ، وخبَّأه ، فأكَبَّ عليه بُرمةً ، وجَعلَ عَليها رَحْلاً ، فأتِ الأميرَ ، فأخبِرْهُ ، وإيَّاك أنْ تَقُولَ : هـٰذا حُلمٌ ، فتُضَيِّعَه ، وإذا أتَيتَ الْمَدينَةَ ، فقُلْ لِخَليفَةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ عَليَّ من الدَّينِ كَذا وكَذا ، وغُلامي فُلانٌ عَتيقٌ ، وإيَّاكَ أنْ تَقُولَ : هـٰذا حُلمٌ ، فتُضَيِّعَه ، فأتَاهُ ، فأخْبَرَه الخَبَرَ ، فنَفَّذَ وَصِيَّتَه ، فلا نَعلَمُ أحَداً بعدَ ما ماتَ أُنْفِذَتْ وَصيَّتُه غَيرَ ثابِتِ بنِ قَيْس رضي الله عنه[2] .

عن العَلاءِ بنِ زِياد قالَ : رَأيتُ النَّاسَ في النَّوْم ، يَتْبَعونَ شَيئاً فتَبِعْتُه ، فإذا عَجُوزٌ كَبيرَةٌ هَتْماءُ عَوْراءُ ، عَليها من كُلِّ حِلْيَة وِزينَة فقُلتُ : ما أنْتِ ؟ قالَت : أنا الدُّنيا قُلتُ : أسْألُ اللهَ أنْ يُبَغِّضَكِ إليَّ ، قالَت : نَعَم ، إنْ أبْغَضْتَ الدَّراهِمَ[3] .

وقالَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ الضُّبعي : حدَّثنا هِشامُ بنُ زِياد أخُو العَلاءِ ، أنَّ العَلاءَ كانَ يُحْيِي لَيلَةَ الجُمُعَة ، فنَامَ لَيلَةَ جُمُعَةٍ ، فأتَاهُ مَنْ أخَذَ بنَاصِيَتِه ، فقالَ : قُمْ يا ابنَ زِيادٍ ، فاذْكُر اللهَ يَذْكُرْكَ فقامَ ، فمَا زَالَتْ تِلكَ الشَّعراتُ التي أخَذَها منه قائمَة حتَّىٰ ماتَ .

تُوفِّيَ في أخَرَةِ وِلايَة الحَجَّاج سَنةَ أرْبَع وتِسْعينَ[4] .

---

(١) انظر السير : (سعد بن أبي وقّاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٣٦ .
(٢) انظر السير : (ثابتُ بنُ قَيْس) ١/ ٣٠٨ـ ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٨ .
(٣) انظر السير : (العَلاءُ بنُ زِياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٧٨ .
(٤) انظر السير : (العَلاءُ بنُ زِياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٧٨ .

قالَ أبو صالِح كاتِبُ اللَّيث : حدَّثني يَحْيَىٰ بنُ أيُّوبَ أنَّ رَجُلَين تآخَيا فتَعاهَدا : إنْ ماتَ أحَدُهما قبلَ الآخَر أنْ يُخبِرَه ما وَجدَ ، فماتَ أحَدُهما ، فرآه الآخَرُ في النَّومِ ، فسَأَلَه عن الحَسَنِ البَصْريِّ ؟ قالَ : ذاكَ مَلكٌ في الجَنَّة لا يُعْصَىٰ ، قالَ : فابنُ سِيرينَ ؟ قالَ : ذاكَ فيما شاءَ اشْتَهَىٰ ، شَتَّان ما بَينهما ، قالَ : فبأيِّ شَيءٍ أدْرَكَ الحَسَنُ ؟ قالَ : بشِدَّة الخَوفِ والحُزْن[1] .

وكانَ الحَكمُ بنُ حَجْل ، صَديقاً لابنِ سِيرينَ ، فحَزن على ابنِ سِيرينَ حتَّىٰ كان يُعادُ ، ثم قالَ : رَأيتُه في الْمَنامِ في حالِ كَذا وكَذا ، فسَألتُه لَمَّا سَرَّني : ما فَعلَ الحَسَنُ ؟ قال : رُفِعَ فَوْقي سَبعينَ دَرَجَةً ، قُلتُ : بمَ ؟ فقد كُنَّا نَرَىٰ أنَّك فَوقَه قالَ : بطُولِ الحُزْن .

وقد كانَ الأوْزاعيُّ أشارَ عليه يَحْيَىٰ بنُ أبي كَثير ، أنْ يَرتَحلَ إلى البَصْرَة لِلُقِيِّ محمَّدِ بنِ سِيرينَ ، فأتىٰ فوَجدَه في مَرضِ الْمَوتِ ، فعادَه ولَمْ يَسمَعْ منه ، رَحمَهُ اللهُ تَعالَىٰ ، وبَلَغَني أنَّ اسمَ أُمِّه صَفيَّةُ ، مَوْلاةٌ لأبي بَكر الصِّدِّيق[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مَنْصورِ بنِ الْمُعْتَمِر : وحكايَةُ أبي بَكر الباغندي الحافظ مَشهُورَة ، سَمعناها في مُعجَم الغَسَّاني ، أنَّه كانَ ينتخبُ علىٰ شَيخٍ ، فكانَ يَقُولُ له : كَمْ تُضْجِرُني ؟ أنتَ أكثرُ حَديثاً منِّي وأحفَظُ ، فقالَ : إنِّي قد جِئتُ إلى الحَديثِ ، بحَسْبِكَ أنِّي رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ ، فلَمْ أسْأَلْه الدُّعاءَ ، وإنَّما قُلتُ : يا رَسُولَ الله أيُّما أثْبَتُ في الحَديثِ مَنْصُورٌ أو الأعْمَش فقالَ : مَنْصُورٌ مَنْصُورٌ[3] .

وعن محمَّدِ بنِ فَضَاء ، قالَ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ فقالَ : زُورُوا ابنَ عون فإنَّه يُحبُّ اللهَ ورَسُولَه أو إنَّ اللهَ يُحبُّه ورَسُولَه[4] .

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٧١ .
(٢) انظر السير : (محمَّدُ بنُ سِيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٧١ .
(٣) انظر السير : (مَنْصورُ بنُ الْمُعتَمِر) ٥/ ٤٠٢ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٦١٨ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٥٨ .

وقالَ الحَكمُ بنُ مُوسَىٰ : حدَّثنا الوَليدُ بنُ مُسلِم قالَ : ما كُنتُ أحْرِصُ على السَّماعِ من الأوْزاعيِّ حتَّىٰ رَأيتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ والأوْزاعيُّ إلىٰ جَنبِه فقُلتُ : يا رَسُولَ الله! عَمَّنْ أحْمِلُ العِلمَ ؟ قالَ : عن هَـٰذا وأشارَ إلى الأوْزاعيِّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كان الأوْزاعيُّ كَبيرَ الشَّأنِ[1] .

قالَ ابنُ السَّمَّاك : رَأيتُ مِسْعَراً في النَّوم ، فقُلتُ : أيُّ العَمَل وَجَدتَ أنْفَع ؟ قالَ : ذِكْرُ الله ، تُوفِّيَ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ ومِئة[2] .

ورُويَ عن عبدِ القُدُّوسِ بنِ مُحمَّد الحبحابي : سَمعتُ أبي يَقُولُ : لَمَّا ماتَ شُعْبَة أُريتُه بعدَ سَبعَةِ أيَّام ، وهو آخِذٌ بيَدِ مِسْعَر ، وعَليهما قَميصا نُور ، فقُلتُ : يا أبا بِسْطَام! ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قالَ : غَفرَ لي قُلتُ : بماذا ؟ قالَ : بِصِدْقي في رِوَايَةِ الحَديثِ ، ونَشْري له ، وأدَائي الأمَانَةَ فيه ، ثم أنْشَأ يَقُولُ[3] :

حَبَـانِـي إِلَـٰهِـي فِـي الجِنَـانِ بِقُبَّـةٍ ... لَهَا أَلْفُ بَابٍ من لُجَيْنٍ وَجَوْهَر
شَرَابِي رَحِيقٌ فِي الجِنَانِ وَحِلْيَتِي ... مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيزِ وَالتَّاجُ أَزْهَر
وَنَقْلِي[4] لِثَامُ الحُورِ وَاللهُ خَصَّنِي ... بِقَصْـرٍ عَقِيـقٍ تُـرْبَـةُ القَصْـرِ عَنْبَـرُ
وَقَالَ لِيَ الرَّحْمـٰنُ يَا شُعْبَةُ الَّذِي ... تَبَحَّـرَ فِـي جَمْـعِ العُلُـومِ فَـأَكْثَـر
تَنَعَّـمْ بِقُـرْبِـي إِنَّـنِـي عَنْـكَ رَاضِـي ... وَعَنْ عِبْدِي القَوَّامِ بِاللَّيلِ مِسْعَر
كَفَـىٰ مِسْعَـراً عِـزّاً بِـأَنْ سَيَـزُورُنِـي ... فَأَكْشِفُ حُجْبِي ثُمَّ أُدْنيهِ يَنْظُر[5]

وقالَ حَمَّادُ بنُ سَلمَة : ما كانَ من نِيَّتي أنْ أُحَدِّثَ ، حتَّىٰ قالَ لي أيُّوبُ السَّخْتيانيُّ في النَّوْمِ : حَدِّثْ[6] .

---

(١) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٨٣ .
(٢) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٩٠ .
(٣) انظر السير : (شُعْبَة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٩٤ .
(٤) النقل : ما يُتنقَّلُ به مثل الفستق وما إليهما على الشراب .
(٥) في القصيدة إقواءٌ ظاهِرٌ ، وضرورة في قوله : « راضي » .
(٦) انظر السير : (حَمَّادُ بنُ سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٨/ ٧١٥ .

وقالَ محمَّدُ بنُ رُمْح : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقُلتُ : يا رسُولَ اللهِ ، إنَّ مَالكاً واللَّيثَ يَختَلِفانِ ، فبأيِّهما آخُذُ ؟ قالَ : مَالِكٌ ، مَالِكٌ[1] .

قال نَصرُ بنُ عليّ الجَهضمي : رأيتُ يَزِيدَ بنَ زُرَيْع في المَنَام ، فقلتُ : ما فَعَلَ الله بك ؟ قال أُدخِلتُ الجَنَّةَ قلتُ : بماذا ؟ قال : بكثْرَةِ الصَّلاة .

مَوْلدُه في سَنةِ إحْدَىٰ ومئة ، وماتَ في سَنةِ اثنَتَينِ وثَمانينَ ومئة .

وكان من أوْرَعِ أهلِ زَمانِه[2] .

قال مُحمَّدُ بنُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاض : رَأيتُ ابنَ الْمُبارَك في النَّوم ، فقُلتُ : أيُّ العَمَلِ أَفْضَل ؟ قال : الأَمْرُ الذي كُنْتُ فيه قُلتُ : الرِّبَاطُ والجِهَادُ ؟ قال : نَعَم قُلتُ : فمَا صَنَعَ بك رَبُّك ؟ قال : غَفَرَ لِي مَغْفِرَةً ما بَعْدَها مَغْفِرَة رَوَاها رَجُلانِ عن مُحمَّد[3] .

وعن نَوْفَل قال : رَأيتُ ابنَ المُبارَك في النَّوم ، فقلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قال : غَفرَ لي برِحْلَتي في الحَديث عَليكَ بالقُرآنِ عَليكَ بالقُرآن .

ماتَ سنةَ إحْدىٰ وثمانينَ ومئة[4] .

عن عليِّ بنِ مَعْبَدٍ قال : رَأيْتُ ابنَ القَاسِم في النَّومِ فقُلتُ : كيفَ وجَدتَ المَسَائلَ ؟ فقال : أُفٍّ أُفٍّ قلتُ : فما أَحْسَنُ ما وجَدْتَ ؟ قال : الرِّباطُ بالثَّغْرِ قال : ورَأَيتُ ابنَ وَهْبٍ أَحْسَنَ حالاً منْه[5] .

وعن سُحْنُونَ قالَ : لَمَّا حَجَجْنا كنُت أُزَامِلُ ابنَ وَهْب ، وكانَ أَشْهَبُ يُزامِلُه يَتيمُه ، وكانَ ابنُ القاسِمِ يُزامِلُه ابنُه مُوسَىٰ ، ونَزَلنَا بمَسْجِدٍ ببَعضِ مَدائنِ الحِجَازِ ، فنِمْنَا ، فانْتَبَهَ ابنُ القاسِمِ مَذْعوراً ، فقالَ لي : يا أبَا سَعيد ، رَأيتُ السَّاعَةَ كأنَّ رَجُلاً دَخلَ عَلينا من بابِ هٰذا الْمَسجِدِ ، ومَعَه طَبقٌ مُغَطًّىٰ وفيه رَأسُ خِنْزيرٍ أسْألُ اللهَ خَيرَها فمَا لَبِثْنا

---

(١) انظر السير : (مالِكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٦/٧٢٩ .

(٢) انظر السير : (يزيد بن زُريع) ٨/ ٢٩٦ـ ٢٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/٧٥٩ .

(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٣٧٨ ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٤/٧٧١ .

(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٣٧٨ ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ١/٧٧٢ .

(٥) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٧/٨٠٥ .

حتَّىٰ أقْبَلَ رجُلٌ مَعَه طَبقٌ مُغَطًّىٰ بِمِنْديلٍ ، وفيه رُطَبٌ من تَمْر تِلكَ القَريَة ، فجَعلَه بينَ يَدَي ابنِ القاسِم ، وقالَ : كُلْ ، قالَ : ما إلىٰ ذَلكَ من سَبيلٍ فقالَ لي ابنُ القاسِم : هَـٰذا تَأويلُ الرُّؤيا وكانَ يُقالُ : إنَّ تِلكَ القَريَةَ أكْثَرُها وَقْفٌ غُصِبَت .

قالَ الحارِثُ بنُ مِسْكين : كانَ ابنُ القاسِم في الوَرَعِ والزُّهْدِ شَيْئاً عَجيباً .

وُلِدَ ابنُ القاسِم سَنةَ اثنَتَينِ وثَلاثينَ ومئة ، وتُوفِّيَ في سَنةِ إحْدَىٰ وتِسْعينَ ومئة ، رَحمَهُ اللهُ ، عاشَ تِسْعاً وخَمسينَ سَنةً[1] .

قال حُميدُ بنُ الرَّبيع : رَأىٰ حُسينٌ الجُعفيُّ كأنَّ القيامَة قد قامَت وكأنَّ مُنادياً يُنادي : ليَقُم العُلماءُ ، فيَدخلوا الجَنَّة ، قال : فقاموا وقُمتُ معَهم قِيلَ لي : اجْلِسْ ، لَستَ منهم ، أنتَ لا تُحدِّث ، قال : فلَمْ يزَلْ بعدُ يُحدِّث بعد أنْ كان لا يُحدِّث حتىٰ كَتبنا عنه أكثرَ من عَشرَة آلافِ حَديث .

قال أحمدُ بنُ عبد الله العِجْليّ : حُسَينٌ الجُعفيُّ ثِقَةٌ ، كان يُقرِىءُ القُرآنَ ، رأسٌ فيه ، وكان رجلاً صالحاً ، لمْ أرَ رجلاً قَطُّ أفضَلَ منه .

قال : كان جَميلاً لبَّاساً يَخضبُ وخضابُه إلى الصُّفْرة .

قيلَ : إنَّ مَولَده في سَنة تسع عَشرة ومئة وتُوفي في سنة ثلاثٍ ومئتين ، وله بِضْعٌ وثمانوَن سَنة[2] .

عن أبي عُثمانَ المازِنيِّ قالَ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّوم ، فقَرأتُ عليه سُورةَ طَهَ فقُلتُ : ﴿مَكَاناً سِوَىٰ﴾[3] ، فقالَ : اقرأ ﴿سُوى﴾ قِراءَةَ يَعْقوبَ ، (يَعني الحَضْرَميَّ)[4] .

ويُروَىٰ عن أبي سَبرة المَديني قال : قلتُ للقَعْنَبيِّ : حَدَّثتَ ولمْ تَكن تُحدِّث! قال : إنِّي رأيت كأنَّ القيامَة قد قامت ، فصِيحَ بأهْلِ العِلمِ ، فقاموا ، وقُمتُ معهم

---

(١) انظر السير : (عبدُ الرحمَـٰن بن القاسِم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٠٦ .
(٢) انظر السير : (الحُسَينُ بن عليّ الجُعفيّ) ٩/ ٣٩٧ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٣٣ .
(٣) سورة طه ، الآية : ٥٨
(٤) انظر السير : (يَعْقوب) ١٠/ ١٦٩ـ ١٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٦٣ .

فنودي بي : فقلتُ : إلـٰهي ألَمْ أكُنْ أطْلبُ ؟ قال : بلَىٰ ، ولكنَّهم نَشَروا وأخْفَيتَه قال : فحدَّثتُ .

وقال إسماعيلُ القاضي : كان القَعْنَبيُّ من المُجتَهدين في العِبادَة[1] .

وقالَ أبو العَبَّاسِ السَّرَّاجُ : سَمعتُ الحُسَينَ بنَ عبدش وكانَ ثقَةً ، سَمعتُ محمَّدَ بنَ أسْلم يَقُولُ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ ، فقُلتُ : عَمَّنْ أكتُبُ ؟ فقالَ : عن يَحْيَىٰ بنِ يَحْيَىٰ .

قالَ خُشْنَامُ بنُ سَعيد : سَمعتُ أحمدَ بنَ حَنْبَل يَقُولُ : كانَ يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ عندي إماماً ، ولَوْ كانَت عندي نَفَقةٌ ، لَرَحلتُ إليه[2] .

قالَ محمَّدُ بنُ محمَّدِ بنِ أبي الوَرْد : قالَ لي مُؤذِّنُ بِشْرِ بنِ الحارِث : رَأيتُ بِشْراً رَحمَهُ اللهُ في الْمَنامِ ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قالَ : غَفَرَ لي .

قُلتُ : ما فُعِلَ بأحمَدَ بنِ حَنْبَل ؟ قالَ : غُفِرَ له فقُلتُ : ما فُعِلَ بأبي نَصْر التَّمَّار ؟ قالَ : هَيْهاتَ ، ذاكَ في عِلِّيينَ ، فقُلتُ : بمَاذا نالَ ما لَمْ تَنالاهُ ؟ فقالَ : بِفَقْرِهِ وصَبرِهِ علىٰ بُنَيَّاتِه[3] .

قال عبدُ الله بنُ أحمد بنِ حَنْبَل : حَدَّثَني ثابِتُ بنُ أحمد بنِ شَبُّوَيَة قال : كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ لأبي فَضِيلَةً علىٰ أحمَدَ بنِ حَنْبَل لجِهَادِهِ ، وفِكَاكِ الأسْرَىٰ ، فسَألْتُ أخي عبدَ اللهِ ، فقال : أحمَدُ بنُ حَنْبَل أرْجَحُ ، فلَمْ أقْنَعْ ، فأُرِيتُ شَيْخاً حَوْلَهُ النَّاسُ ، يَسْألُونَه ، ويَسْمَعُونَ منْه ، فسَألتُهُ عنهُما ، فقال : سُبْحانَ الله!! ، إنَّ أحمَدَ بنَ حَنْبَلٍ ابتُلِيَ فصَبَر ، وإنَّ ابن شبُّوية عُوفِي ، المُبتَلَى الصَّابرُ كالمُعَافَى ؟!! هَيْهَات[4] .

قال إبراهيمُ الحَربي : حَدَّثنا داودُ بنُ رشيد قال : قمتُ ليلةً أُصَلّي ، فأخَذَني البَردُ لِمَا أنا فيه من العُريّ ، فأخَذَني النَّومُ ، فرأيتُ كأنَّ قائلاً يقولُ : يا داود ، أنَمْناهم

---

(١) انظر السير : (القَعْنبيُّ) ١٠/ ٢٥٧ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٧٥ .

(٢) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ) ١٠/ ٥١٢ـ ٥١٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٨٩ .

(٣) انظر السير : (أبو نَصْر التَّمَّار) ١٠/ ٥٧١ـ ٥٧٤ ، وانظر النزهة : ٦/ ٨٩٤ .

(٤) انظر السير : (ابن شَبُّوية) ١١/ ٧ـ ٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٠٥ .

وأقَمْناكَ فتبكي علينا ؟ قال الحَربيُّ : فأظُنُّ داودَ ما نامَ بعدها ، يَعنِي : ما تركَ تَهَجُّد الليل[1] .

وعن عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ حَنْبَل ، سَمعتُ أبي ، يقولُ : رَأيتُ رَبَّ العِزَّة في المَنام ، فقُلتُ : يا رَبِّ ، ما أفْضَل ما تَقرَّبَ به إليكَ المُتقرِّبون ؟ قال : بكَلامي يا أحمَد قلتُ يا رَبِّ ، بفَهْمٍ ، أوْ بِغَير فَهْم ؟ قال : بفَهْم وبغَير فَهْم[2] .

وذَكرَ شَيخُ الإسْلامِ بإسنادٍ طَويلٍ عن محمَّد بنِ يَحْيَى الرَّملي قاضي دِمَشْقَ قالَ : دَخَلتُ العِراقَ والحِجازَ ، وكَتَبتُ ، فمن كَثْرَة الاخْتلافِ لَمْ أدْرِ بأيِّها آخُذ ، فقُلتُ : اللَّهُمَّ اهْدِني ، فنِمتُ ، فرَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وقد أسْنَدَ ظَهرَه إلى الكَعبَةِ ، وعن يَمينِه الشَّافِعيُّ ، وأحمَدُ بنُ حَنْبَل ، وهو يَتَبسَّمُ إليهما فقُلتُ : يا رَسُولَ الله ، بم آخُذ ؟ فأوْمَأ إلى الشَّافِعيِّ وأحمَد وقالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ ﴾[3] ، [4] .

قال البغويُّ : سَمعتُ عُبَيدَ الله القواريري يقول : لم تكنْ تَفُوتُني صلاةُ العَتَمَة في جماعة فنزل بي ضيفٌ ، فشُغلتُ به فخرجتُ أطلبُ الصَّلاةَ في قبائلِ البَصْرَة ، فإذا النَّاسُ قد صَلَّوا فقلتُ في نفسي يُروَىٰ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاةُ الجَميع تَفْضُلُ صَلاةَ الفَذِّ إحْدَىٰ وعشرين دَرَجَةً » ، ورُوِيَ « خَمْساً وعشرين دَرَجَةً » ، ورُوِيَ « سَبْعاً وعشرين » فانقلبتُ إلىٰ مَنزلي ، فصَلَّيْتُ العَتَمَةَ سَبْعاً وعشرين مرةً ، ثم رقدتُ فرأيتُني مع قومٍ راكبي أفراسٍ ، وأنا راكبٌ ونحن نَتَجارىٰ وأفراسُهم تَسْبقُ فَرَسي ، فجعلتُ أضربُه لألحَقَهُم ، فالتَفَتَ إليَّ آخرُهم فقال : لا تُجْهِد فَرَسَك فلسْتَ بلاحِقِنا قال : فقلتُ : ولِمَ ؟ قال : لأنَّا صَلَّينَا العَتَمَةَ في جماعة[5] .

قالَ الحُسَينُ بنُ مُصْعَب : حدَّثنا محمَّدُ بنُ مَنْصُور الطُّوسيُّ ، قالَ : رَأيتُ النَّبيَّ

---

(١) انظر السير : (داود بن رشيد) ١/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩١٦ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٥١ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٨٩ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٥١ .
(٥) انظر السير : (القواريري) ١١/ ٤٤٢ـ ٤٤٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٥٩ .

صلى الله عليه وسلم في النَّومِ ، فقُلتُ : مُرني بشَيء حتَّىٰ ألْزَمَه قالَ : عَليكَ باليَقينِ[1] .

قال خالدُ بنُ عبدِ الله المَرْوَزِيُّ ، سَمعتُ أبا سَهْل محمَّدَ بنَ أحمَدَ المَرْوزِيَّ ، سَمعتُ أبا زَيْد المَرْوزِيَّ الفَقيهَ يقولُ : كُنتُ نائماً بين الرُّكنِ والمَقَام فرَأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : يا أبا زَيْد ، إلىٰ مَتىٰ تَدْرُسُ كتابَ الشَّافعي ، ولا تَدرُسُ كتابي ؟ فقُلتُ : يا رسُولَ الله ، وما كتابُك ؟ قال : « جامِعُ » مُحمَّد بن إسْماعيل[2] .

تُوفِّيَ أبو زُرْعَةَ الرَّازي ، في أخِرِ يَومٍ من سَنةِ أرْبَعٍ وسِتِّينَ ومئَتين ، ومَوْلِدُه كان في سَنةِ مئتَين وذَكرَ إبْراهيمُ بنُ حَرْب العَسْكري أنَّه رَأىٰ أبا زُرْعَةَ الرَّازي ، وهو يَؤمُّ الْمَلائكَةَ في السَّماءِ الرَّابِعَة ، فقُلتُ : بِمَ نِلتَ هـٰذه الْمَنزِلَة ؟ قالَ : برَفْعِ اليَدَينِ في الصَّلاة عندَ الرُّكوعِ ، وعندَ الرَّفْعِ منه[3] .

وقالَ محمَّدُ بنُ عَليِّ بنِ الهَيْثم الفَسَويُّ : لَمَّا قَدِمَ حَمدُونُ البَرْذَعيُّ علىٰ أبي زُرْعَة ، لِكتابَة الحَديثِ ، دَخلَ ، فرَأىٰ في دَارِه أوَانيَ وفُرُشاً كَثيرَة ، وكان ذلك لأخيه ، قالَ : فهَمَّ أنْ يَرجِعَ ولا يَكتُب ، فلمَّا كانَ من اللَّيلِ ، رَأىَ كأنَّه علىٰ شَطِّ بِرْكَة ، ورَأىٰ ظِلَّ شَخصٍ في الْمَاءِ ، فقالَ : أنتَ الذي زَهدتَ في أبي زُرْعَة ؟ أمَا عَلمْتَ أنَّ أحمَدَ بنَ حَنْبَل كانَ من الأبْدالِ ، فلمَّا مَاتَ أبْدلَ اللهُ مَكانَه أبا زُرْعَة[4] .

عن مُحمَّد بنِ عليٍّ المادَرائي قالَ : كُنتُ أجْتازُ بقَبْرِ ابنِ طُولونَ فأرَىٰ شَيخاً مُلازماً له ، ثمَّ لمْ أرَه مُدَّة ، ثم رَأيتُه فسَألتُه ، فقالَ : كان له عليَّ أيادٍ ، فأحْبَبتُ أنْ أصِلَه بالتِّلاوَة قالَ : فرَأيتُه في النَّومِ يقولُ : أحبُّ أنْ لا تَقرأَ عندي ، فما تَمرُّ بي آية إلاَّ قُرِّعْتُ بها ، ويُقالُ لي : أما سَمعتَ هـٰذه ؟

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ مَنْصُور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٩٤ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠١٥ .
(٣) انظر السير : (أبو زُرْعَة الرَّازي) ١٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٥٣ .
(٤) انظر السير : (أبو زُرْعَة الرَّازي) ١٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٥٣ .

تُوفِّي أحمدُ بمِصْرَ سَنةَ سَبعينَ ومِئتَين .

وقامَ بعدَه ابنُه خُمارَوَيْه ، ثمَّ جَيْشُ بنُ خُمارَوَيْه ، ثم أخُوهُ هارُون[1] .

ورُويَ عن محمَّدِ بنِ نَصْر الْمَرْوزيِّ أنَّه قالَ : لَمْ يَكُنْ لي حُسْنُ رَأيٍ في الشَّافعيِّ ، فبَينا أنا قاعِدٌ في مَسجِدِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، أغْفَيتُ ، فرَأيتُ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم ، في الْمَنام فقُلتُ : يا رَسُولَ الله! أكتبُ رأيَ الشَّافعيِّ ؟ فَطَأطَأ رَأسَه شِبهَ الغَضْبانِ وقالَ : تَقُولُ رَأي ؟ لَيسَ هو بالرَّأي ، هو رَدٌّ علىٰ مَنْ خالَف سُنَّتي فخَرجتُ في أثرِ هٰذه الرُّؤيا إلىٰ مِصْرَ ، فكتَبتُ كُتبَ الشَّافعيِّ[2] .

قالَ الوَزيرُ أبو الفَضْل محمَّدُ بنُ عُبَيدِ الله البَلعَمِيّ : سَمعتُ الأميرَ إسْماعيلَ بنَ أحمَدَ يَقولُ : كُنتُ بسَمَرْقَندَ ، فجَلستُ يوماً للمَظالِم ، وجَلسَ أخي إسْحاقُ إلىٰ جَنبي ، إذْ دَخلَ أبو عبدِ الله محمَّدُ بنُ نَصْر ، فقُمتُ له إجْلالاً للعِلمِ ، فلمَّا خَرجَ عَاتَبَني أخي وقالَ : أنتَ وَالِي خُراسانَ تَقومُ لرَجلٍ من الرَّعيَّة ؟ هٰذا ذَهَابُ السِّياسَة ، قالَ : فبِتُّ تلكَ الليلةَ وأنا مُتَقسِّمُ القَلبِ ، فرَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنام ، كأنِّي وَاقفٌ مع أخي إسْحاقَ ، إذْ أقبلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فأخَذَ بعَضُدي فقالَ لي : ثَبتَ مُلْكُكَ ومُلكُ بَنيكَ بإجْلالِكَ محمَّدَ بنَ نَصْر ، ثم التَفتَ إلىٰ إسْحاقَ ، فقالَ : ذَهبَ مُلكُ إسْحاقَ ، ومُلكُ بَنيه باسْتِخْفافِه بمحمَّد بنِ نَصْر .

وماتَ بعدَ أيَّام قَلائل من مَوْتِ صالِح بنِ محمَّد جَزَرَة ، وذلك سَنةَ أرْبَعٍ وتِسْعينَ ومِئتين[3] .

وقال الخلديّ : رأيتُ أحمدَ بنَ محمد البغَويّ الزَّاهد في النَّوم ، فقلتُ : ما فعلَ الله بك ؟ فقال : طاحَت تلكَ الإشارات وغابَت تلكَ العِبَارات ، وفَنِيَت تلكَ العُلوم ، ونَفِدَت تلكَ الرُّسُوم ، وما نَفَعَنا إلاَّ رَكَعاتٌ كُنَّا نَركَعُها في الأَسحار[4] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٥٦ .

(٢) انظر السير : (محمَّد بن نَصْر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٢٦ .

(٣) انظر السير : (محمَّد بن نَصْر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٢٦ .

(٤) انظر السير : (البغوي) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٣٥ .

وجاء في تَرجمة عليٍّ بنِ أبي طاهِر قال الذَّهبيُّ : وثَّقَه الخَليليُّ ، قال : سَمعتُ الحَسنَ بنَ أحمد بنِ صالح يَحْكي عن سُليمانَ بنِ يَزيد : أنَّ عليَّ بنَ أبي طاهر لمَّا رَحلَ إلى الشَّام ، وكَتبَ الحَديثَ جَعلَ كُتبَه في صُندوقٍ ، وقَيَّرَه ورَكبَ البَحرَ ، فاضْطَربَت السَّفينَةُ وماجت ، فألْقَى الصُّندوقَ في البَحرِ ، ثم سَكنَتِ السَّفينَةُ ، فلمَّا خَرجَ منها أقامَ على السَّاحلِ ثلاثاً يَدعُو اللهَ ، ثم سَجدَ في اللَّيلَة الثَّالِثَة ، وقال : إنْ كان طَلَبي ذلك لوَجْهك وحبِّ رسُولِك ، فأغِثْني بردِّ ذلك ، فرفَعَ رأسَه ، فإذا بالصُّندوقِ مُلقىً عندَه ، فقَدمَ ، وأقامَ بُرْهَة ، ثم قَصَدوه لسَماع الحَديثِ فامْتَنَع منه وقال فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، في مَنامي ، ومَعه عليٌّ رضي الله عنه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يا عَليُّ مَنْ عامَلَ الله بما عامَلَكَ به علىٰ شَطِّ البَحْر ؟!! ، لا تَمتَنِعْ من رِوايَة أحاديثي » قال : فقُلتُ : قد تُبتُ إلى الله ، فدَعا لي وحَثَّني على الرِّوايَة .

ماتَ عليُّ بنُ أبي طاهِر سنة نيِّف وتسعين ومئتين ، رَحمَه الله[1] .

قال ابنُ قانِع : سَمعتُ عيسىٰ بنَ محمّد الطَّهمانيَّ ، سَمعتُ الأميرَ إسْماعيلَ يقولُ : جاءَنا أبُونا بمؤدِّبٍ ، فعلَّمنا الرَّفْضَ ، فنِمتُ ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومَعه أبو بَكر وعُمر ، رَضي الله عَنهما ، فقال لي : « لِمَ تَسُبُّ صَاحِبَيَّ ؟ » فوقَفتُ ، فقال لي بيَدِه فنَفَضَها في وَجْهي فانتُبَهتُ فَزِعاً أرْتَعدُ من الحُمَّىٰ ، فكُنتُ على الفِراشِ سَبعَة أشْهُر ، وسَقطَ شَعْري ، فدخَلَ أخي ، فقال : أيش قِصَّتُك ؟ فأخْبَرتُه ، فقال : اعْتَذِرْ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذَرتُ وتُبتُ ، فما مَرَّ لي إلاَّ جُمُعَة حتىٰ نَبَتَ شَعْري .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كان هو وآباؤُه مُلوكَ بُخارَىٰ وسَمَرْقَند ، وله غَزَواتٌ في التُّرْك ، وهو الذي ظَفِرَ بعَمرو بنِ اللَّيثِ وأسَره ، فجاءَه من المُعْتضِد التَّقليدُ بولاية خُراسان وما يَليها ، وكانت سَلطَنتُه مدّة سَبع سِنين .

تُوفِّيَ ببُخارَىٰ سنة خمس وتسعين ومئتين ، فتملَّكَ بعدَه ابنُه أحمد .

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن أبي طاهر) ١٤/ ٨٧ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ١١٣٥ .

وماتَ ابنُه السُّلطانُ أبو نَصْر أحمدُ سنةَ إحْدىٰ وثلاثِ مئَة ، قَتَلَه مَماليكُه ، ثم مَلَّكُوا وَلَدَه نصراً ، فدامَ ثلاثينَ عاماً ، فأحْسَنَ السِّيرَة ، وعَظُمَتْ هَيبَتُه[1] .

قال الحاكمُ : سَمعتُ الشيخَ أبا بكر الصّبغيّ يقولُ : رأيتُ في مَنَامي كأنِّي في دارٍ فيها عُمَرُ بنُ الخَطَّاب ، وقد اجتَمَعَ النَّاسُ عليه يَسألونَه المَسَائلَ ، فأشَارَ إليَّ : أنْ أُجيبَهم ، فما زِلتُ أُسأَلُ وأُجيبُ وهو يقولُ لي : أصَبتَ امضِ ، أصَبتَ امضِ ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، ما النَّجَاةُ من الدُّنيا أو المَخرَجُ منها ؟ فقال لي بإصْبعه : الدعاء ، فأعدتُ عليه السَّؤالَ فجَمَعَ نفسَه كأنَّه ساجِدٌ لخُضُوعِه ثم قال : الدعاء[2] .

قال عبدُ الله بنُ محمّد بنِ أسد ، سَمعتُ حَمزةَ الكِناني يقولُ : خَرَّجتُ حَديثاً واحداً عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم من نحو مِئتَي طَريق ، فداخَلَني لذلك من الفَرَح غيرُ قليل ، وأُعْجِبتُ بذلك ، فرَأيتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين في المَنام ، فقُلتُ : يا أبا زَكريّا ، خرَّجتُ حَديثاً من مِئتَي طَريق ، فسَكتَ عنِّي ساعَةً ، ثم قالَ : أخْشَىٰ أنْ تَدخُلَ هٰذه تحتَ ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[3] ، [4] .

قالَ أبو عبدِ الله بنُ مَنْدَة : سَمعتُ حَمزَةَ بنَ مُحمَّد الحافِظَ يَقُولُ : كُنتُ أكْتُبُ الحَديثَ ، فلا أكْتُبُ (وسَلَّمَ) بعدَ (صَلَّى اللهُ عليه) فرَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ ، فقالَ لي : أمَا تَختِمُ عليَّ في كتابِك!! ؟[5] .

قالَ الحاكِمُ : وسَمعتُ أبا الفَضْلِ السُّليْمانيَّ ـ وكان صالحاً ـ يَقُولُ : رَأيتُ أبا مُحمَّدٍ الْمُزَنِيَّ في الْمَنام بعدَ وَفاتِه بلَيْلَتَينِ ، وهو يَتَبخْتَرُ في مِشيَتِه ويَقُولُ بصَوتٍ عالٍ : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[6] ، [7] .

---

(١) انظر السير : (صاحب خُراسان) ١٤/ ١٥٤ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٩ .
(٢) انظر السير : (الصبغيّ) ١٥/ ٤٨٣ـ ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٥٠ .
(٣) سورة التكاثر ، الآية : ١ .
(٤) انظر السير : (حَمزَة بن محمّد الكِنانيّ) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٠ .
(٥) انظر السير : (حَمزَة بن محمّد الكِنانيّ) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٨٠ .
(٦) سورة القصص ، الآية : ٦٠ .
(٧) انظر السير : (الْمغَفَّليُّ) ١٦/ ١٨١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٨٢ .

وقيلَ للصَّاحِبِ إسْماعيلَ بنِ عَبَّاد : أنتَ رَجلٌ مُعتَزليٌّ وابنُ الْمُقرِىء مُحدِّثٌ ، وأنتَ تُحبُّه! قالَ : لأنَّه كانَ صَديقَ وَالِدي ، وقد قيلَ : مَوَدَّة الآباءِ قَرابَةُ الأبْناءِ ، ولأنِّي كُنتُ نائماً فرَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يَقُولُ لي : أنتَ نائمٌ ووَليٌّ من أوْلياءِ اللهِ علىٰ بابِك ؟! فانتُبهتُ ودَعَوتُ وقُلتُ : مَنْ بالبَابِ ؟ فقالَ : أبو بَكر بنُ الْمُقرِىء[1] .

وكانَ ابنُ سَمْعُونَ في أوَّلِ أمْرِه يَنْسَخُ بالأُجرَة ، ويُنفِقُ علىٰ نَفسِه وأُمِّه ، فقال لها يَوماً : أُحِبُّ أنْ أحُجَّ ، قالَت : وكَيفَ يُمكنُك ؟ فغَلبَ عليها النَّومُ ، فنامَت وانتُبَهت بعد ساعَة ، وقالَت : يا وَلَدي حُجَّ ، رَأيتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يَقُولُ : دَعيه يَحُجُّ فإنَّ الخَيرَ له في حَجِّه ، ففَرِحَ وباعَ دَفاتِرَه ، ودَفَع إليها من ثَمنِها ، وخَرجَ مع الوَفدِ ، فأخَذَت العَرَب الوَفدَ ، قالَ : فبَقيتُ عُرياناً ، فجَعلتُ إذا غَلبَ عليَّ الجُوعُ ووَجَدتُ قَوماً من الحُجَّاجِ يَأكُلونَ وَقفتُ ، فيَدفَعُونَ إليَّ كِسْرَةً فأقْتَنعُ بها ، ووَجَدتُ مع رَجُلٍ عَباءَةً فقُلتُ : هَبْهَا لي اسْتَتِرُ بها ، فأعْطَانيها وأحْرَمتُ فيه ، ورَجعتُ وكانَ الخَليفَةُ قد حَرَّمَ جاريَةً وأرادَ إخْراجَها من الدَّارِ قالَ السُّنيُّ : فقالَ الخَليفَةُ : اطْلُبوا رَجُلاً مَسْتُوراً يَصلُحُ أنْ تُزَوَّجَ هـٰذه الجاريَةُ به فقيلَ : قد جاءَ ابنُ سَمعونَ ، فاسْتَصْوَبَ الخَليفَةُ ذلك ، وزَوَّجَه بها ، فكانَ يَعِظُ ويَقُولُ : خَرَجتُ حَاجّاً ، ويَشرَحُ حالَه ويَقُولُ : ها أنا اليَومَ عليَّ من الثِّيابِ ما تَرَوْن!!

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ فاخِرَ الْمَلبُوس[2] .

وقال أبو محمد الجَوْهَريّ : سَمعتُ أخي الحُسَين يقول : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المَنام ، فقلتُ : يا رسولَ الله قد اختلفَتْ عليَّ المَذاهِب ، فقال : عليكَ بابن بطَّة فأصْبَحتُ ولبستُ ثيابي ، ثم أصعدتُ إلىٰ عُكيراً ، فدخلتُ وابنُ بطَّة في المسجدِ فلمّا رآني قال لي : صَدقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، صَدقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الْمُقْرىء) ١٦/ ٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٠١ .

(٢) انظر السير : (ابنُ سَمْعُون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٠٩ .

وكان مُسْتجابَ الدَّعْوَة .

قال الذهبيُّ : لابنِ بَطَّة مع فَضلِه أوْهامٌ وغلط[1] .

وقالَ الحَسَنُ بنُ أشْعَث القُرَشيُّ : رَأيتُ الحاكِمُ في الْمَنامِ علىٰ فَرَسٍ في هَيئَةٍ حَسَنة وهو يَقُولُ : النَّجَاة ، فقُلتُ له : أيُّها الحاكِمُ! في ماذا ؟ قالَ : في كِتْبَةِ الحَديثِ[2] .

وقالَ غَيرُ واحد : سَمعْنا أبا الطَّيِّبِ الطَّبَريَّ يَقُولُ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ ، فقُلتُ : يا رَسُولَ الله : أرَأيتَ مَنْ رَوَىٰ أنَّكَ قُلتَ : « نَضَّرَ اللهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِي ، فَوَعَاهَا » أحَقٌّ هو ؟ قالَ : نَعَم[3] .

وقال شَيخُ القُضاةِ أبو عليٍّ إسْماعيلُ بنُ البَيْهَقيّ : حدَّثنا أبي قال : حين ابْتدأتُ بتَصنيفِ هٰذا الكتاب ـ يَعني كتابَ « المَعْرِفَة في السُّنَن والآثار » ـ وفَرغْتُ من تَهْذيبِ أجْزاءً منه ، سَمعتُ الفَقيهَ محمّدَ بنَ أحمد ـ وهو من صالِحي أصْحابي وأكثرِهم تِلاوَةً وأصْدَقِهم لَهْجَةً ـ يقولُ : رأيتُ الشَّافعيَّ ـ رَحمَه اللهُ ـ في النَّومِ ، وبيَدِهِ أجْزاءٌ من هٰذا الكتابِ وهو يقولُ : قد كَتبتُ اليومَ من كتابِ الفَقيه أحمدَ سَبعةَ أجْزاء ـ أو قال : قَرأتُها ـ ورآه يَعْتدُّ بذلك قال : وفي صَباح ذلك اليوم رأىٰ فَقيهٌ آخَر من إخْواني الشَّافعيَّ قاعداً في الجامع علىٰ سَرير وهو يَقولُ : قد اسْتَفدتُ اليومَ من كتابِ الفَقيه حَديثَ كذا وكذا[4] .

وأخْبَرنا أبي قال : سَمعتُ الفَقيهَ أبا محمّد الحَسَنَ بنَ أحمد السَّمَرْقَنديَّ الحافِظَ يقولُ : سَمعتُ الفَقيهَ محمّدَ بنَ عبد العَزيز المَرْوَزِيَّ يقولُ : رَأيتُ في المَنام كأنَّ تابُوتاً عَلا في السَّماء يَعْلُوه نورٌ ، فقُلتُ : ما هٰذا ؟ قال : هَٰذه تَصانيفُ أحمَدَ البَيْهَقيّ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هٰذه رُؤيا حَقٌّ ، فتَصانيفُ البَيْهَقيِّ عَظيمةُ القَدْرِ ، غَزيرةُ

---

(١) انظر السير : (ابن بَطَّة) ١٦/ ٥٢٩ـ ٥٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣١٤ .

(٢) انظر السير : (الحاكم) ١٧/ ١٦٢ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٣٢ .

(٣) انظر السير : (أبو الطيِّب الطَّبَري) ١٧/ ٦٦٨ـ ٦٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٧٣ .

(٤) انظر السير : (البَيْهَقيّ) ١٨/ ١٦٣ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٤ .

الفَوائد ، قَلَّ من جَوَّدَ تَواليفَهُ مثلُ الإمام أبي بَكر ، فيَنْبَغي للعالِمِ أنْ يَعْتَني بهَؤلاء سيَّما « سُنَنَه الكبير » .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : وبَلَغَنا عن إمامِ الحَرَمَينِ أبي المَعالي الجُوينيّ قال : ما من فَقيهٍ شَافعيٍّ إلاَّ وللشَّافعيِّ عليه مِنَّةٌ إلاَّ أبا بَكر البَيْهَقيِّ ، فإنَّ المِنَّةَ له على الشَّافعيِّ لتَصانيفِه في نُصْرَة مَذْهَبِه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : أصابَ أبو المَعالي هٰكذا هو ، ولوْ شاءَ البَيْهَقيُّ أنْ يَعمَلَ لنفسِه مَذهَباً يَجتهدُ فيه ، لكان قادراً علىٰ ذلك ، لسِعَة عُلومِه ، ومَعرفَتِه بالاخْتلافِ ، ولهٰذا تَراهُ يُلَوِّحُ بنَصر مَسائلَ ممَّا صَحَّ فيها الحَديثُ ولمَّا سَمعوا منه ما أحَبُّوا في قَدْمَتِه الأخيرة ، مَرِضَ ، وحَضرت المَنيَّةُ ، فتُوفِّي سَنة ثمانٍ وخَمسينَ وأرْبع مئة ، فغُسِّلَ وكُفِّنَ وعُملَ له تابُوتٌ ، فنُقِلَ ودُفِنَ ببَيْهَق عاشَ أربعاً وسَبعينَ سنة[1] .

وقال السَّمْعانيُّ : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ محمد بنِ الرِّضى العَلويّ يقول : سَمعتُ خالي أبا طالب بنَ طَباطبا يقولُ : كنتُ أشْتُمُ أبداً عبدَ الرحمٰن بنَ مَنْدَه ، فسافرتُ إلىٰ جَرْباذَقان[2] ، فرأيتُ أميرَ المؤمنين عُمرَ في النَّومِ ويدُه في يد رجلٍ عليه جُبَّةٌ زَرْقاء ، وفي عَيْنَيه نكتةٌ ، فسلمتُ عليه فلم يرُدَّ عليَّ ، وقال تَشتُمُ هٰذا فقيلَ لي في المَنام : هٰذا عُمرُ وهٰذا عبدُ الرحمٰن بنُ مَنده فانتبَهتُ ، ثم رجعتُ إلىٰ أصْبَهان ، وقَصَدتُ عبدَ الرحمٰن ، فلمَّا دخَلتُ عليه ، صادَفتُه كما رأيتُه في النَّوم ، فلمَّا سَلَّمتُ عليه قال : وعليكَ السَّلامُ يا أبا طالب وقَبلَها ما رآني ، ولا رأيتُه ، فقال لي قبلَ أن أُكلِّمَه : شيءٌ حَرَّمَه الله ورسُوله يَجوزُ لنا أن نُحِلَّه ؟ فقلتُ : اجْعَلني في حِلٍّ ، وناشَدْتُه اللهَ وقَبَّلتُ عَيْنَيْه ، فقال : جعلتُكَ في حِلٍّ فيما يَرجعُ إليَّ .

وعن صاعد بنِ سيّار ، سَمعتُ الإمام أبا إسماعيلَ الأنصاريَّ يقولُ في عبدِ الرحمٰن بنِ مَنده : كانت مَضَرَّته أكثرَ من مَنْفَعَته في الإسْلام .

وقال الذهبيُّ : أطْلقَ عِباراتٍ بَدَّعَه بَعضُهم بها ، اللهُ يُسامحُه ، وكان زَاعِراً علىٰ

---

(١) انظر السير : (البَيْهَقيّ) ١٨/ ١٦٣ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٩٤ .

(٢) بلدة قريبة من هَمَذان.

مَنْ خالَفَه ، فيه خارجيّةٌ ، وله مَحاسِنُ ، وهو في تَواليفِه حاطِبُ ليلٍ ، يَرْوي الغَثَّ والسَّمين ، ويَنظِمُ رَديء الخَرَزِ مع الدُّرِّ الثَمين .

ماتَ سَنة سبعين وأربع مئة ، وشَيَّعَه عالَمٌ لا يُحْصَوْن[1] .

وعن ثابتِ بنِ أحمَد قال : رَأيتُ أبا القاسِم الزَّنْجانيّ في النَّوم يقولُ لي مرَّةً بعد أُخْرىٰ : إنَّ اللهَ يَبني لأهْلِ الحَديث بكلِّ مَجلِسٍ يَجْلِسونَه بَيْتاً في الجَنَّة[2] .

وحُكِيَ عن أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ أنَّه قالَ : كُنتُ نائماً ببَغْدادَ ، فرَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، ومَعَه أبو بَكر وعُمَر ، فقُلتُ : يا رَسُولَ الله! بَلغَني عَنكَ أحَاديثُ كَثيرَة عن ناقِلي الأخْبَارِ ، فأُريدُ أنْ أسْمَعَ مِنكَ حَديثاً أتَشَرَّفُ به في الدُّنيا ، وأجْعَلَه ذُخْراً للآخِرَة ، فقالَ لي : يا شَيخُ! ـ وسَمَّاني شَيْخاً ، وخاطَبَني به ، وكانَ يَفرَحُ بهـٰذا ـ قُلْ عَنِّي : « مَنْ أرَادَ السَّلامَةَ ، فَلْيَطْلُبْهَا في سَلامَةِ غَيرِه »[3] .

وقالَ الحافِظُ ابنُ عَساكِر : كانَ الحُمَيديُّ أوْصَىٰ إلى الأجَلِّ مُظَفَّرِ ابنِ رَئيسِ الرُّؤساء أنْ يَدفِنَه عندَ بِشْرٍ ، فخالَفَ ، فرآهُ بعدَ مُدَّة في النَّومِ يُعاتِبُه ، فنَقَلَه في صَفَرَ سَنةَ إحْدَىٰ وتِسْعينَ ، وكانَ كَفنُه جَديداً ، وبَدَنُه طَرِيّاً يَفوُح منه رَائحَةُ الطِّيبِ ، رَحمَهُ اللهُ ووَقَفَ كُتُبَه[4] .

قال السَّمْعانيُّ : رُؤيَ أبو مَنْصور الخيَّاط بعدَ مَوْتِه ، فقال : غَفَرَ اللهُ لي بتَعْليمي الصِّبْيانَ الفاتِحَة .

ماتَ سنةَ تسع وتسعين وأربع مئة[5] .

وقالَ القاضي عِياض في « الْمَدارِك » : الْمَازِريُّ يُعرَفُ بالإمام ، نَزيلُ الْمَهديَّة قيلَ : إنَّه رَأىٰ رُؤيا ، فقالَ : يا رَسُولَ الله ، أحَقٌّ ما يَدعُونَني به ؟ إنَّهم يَدعُونَني

---

(١) انظر السير : (ابنُ مَنده) ١٨/ ٣٤٩ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢٠ .
(٢) انظر السير : (الزَّنْجانيّ) ١٨/ ٣٨٥ـ ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٢٣ .
(٣) انظر السير : (أبو إسْحاق الشِّيرازيُّ) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢٩ .
(٤) انظر السير : (الحُمَيْديُّ) ١٩/ ١٢٠ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٩ .
(٥) انظر السير : (الخيَّاط) ١٩/ ٢٢٢ـ ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٧٣ .

بالإمامِ ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : وَسِّعْ صَدرَكَ لِلْفُتيا .

ثم قالَ : هو آخِرُ الْمُتكَلِّمينَ من شُيوخِ إفْريقيَة بتَحْقيق الفِقْه ورُتْبَة الاجْتِهادِ ودِقَّة النَّظَر ، وإليه كان يُفزَعُ في الفُتيا في الفِقْه ، وكانَ حَسَنَ الخُلُق ، مَليحَ الْمُجالَسَة ، كَثيرَ الحِكايَة والإنْشادِ ، وكانَ قَلمُه أبْلَغَ من لِسَانِه .

ولِصاحِبِ الترجَمَة تَأليفٌ في الرَّدِّ علىٰ « الإحْياء » وتَبيينِ ما فيه من الوَاهي والتَّفَلسُف ، أنْصَفَ فيه ، رَحمَهُ الله[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ ناصِر : أنبَؤونا عن ابنِ النَّجَّار قالَ : قَرأتُ بخَطِّ ابنِ ناصِر السَّلاميِّ وأخْبَرنيه عنه سَماعاً يَحْيَىٰ بنُ الحُسَين قالَ : بَقيتُ سِنينَ لا أدخُلُ مَسجِدَ أبي مَنْصُور الخَيَّاط ، واشْتَغلتُ بالأدَبِ على التَّبْريزيِّ ، فجئتُ يَوماً لأقْرأ الحَديثَ على الخَيَّاطِ ، فقالَ : يا بُنيَّ ، تَركتَ قراءَةَ القُرآن ، واشْتَغلتَ بغَيرِه ؟! عُدْ ، واقْرأ عليَّ لِيَكُونَ لكَ إسْنادٌ ، فصَعدتُ إليه في سَنة اثنَتَين وتِسْعينَ ، وكُنتُ أقُولُ كَثيراً : اللَّهُمَّ بيِّن لي أيُّ الْمَذاهِبِ خَيرٌ ، وكُنتُ مِراراً قد مَضَيتُ إلى القَيْروانيِّ الْمُتكلِّم في كتابِ « التَّمْهيد » للباقِلاَّني وكأنَّ مَنْ يَردُّني عن ذلك قالَ : فرَأيتُ في الْمَنامِ كأنِّي قد دَخلتُ الْمَسجدَ إلى الشَّيخِ أبي مَنْصُور ، وبجَنبه رَجلٌ عليه ثيابٌ بيضٌ ورِداءٌ علىٰ عَمامَتِه يُشبهُ الثِّيابَ الرِّيفيَّة ، دُريُّ اللَّونِ ، عليه نُورٌ وبَهاءٌ ، فسَلَّمتُ وجَلَستُ بين أيْديهِما ، ووَقَع في نَفسي للرَّجُلِ هَيبَة وأنَّه رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلمَّا جَلستُ الْتَفتَ إليَّ ، فقالَ لي : عَليكَ بمَذهَبِ هٰذا الشَّيخ ، عَليكَ بمَذهَبِ هٰذا الشَّيخ ثَلاثَ مرَّاتٍ ، فانتَبَهتُ مَرْعُوباً ، وجِسْمي يَرجُفُ ، فقَصَصْتُ ذلكَ علىٰ وَالِدَتي ، وبكَّرتُ إلى الشَّيخِ لأقْرأ عَليه ، فقَصَصْتُ عليه الرُّؤيا ، فقالَ : يا وَلَدي ، ما مَذْهَبُ الشَّافعي إلاَّ حَسَنٌ ، ولا أقُولُ لك : اتْرُكْه ، ولكنْ لا تَعتَقِد اعتِقَادَ الأشْعَريِّ فقُلتُ : ما أُريدُ أنْ أكُونَ نِصْفَين ، وأنا أُشْهِدُكَ ، وأُشهدُ الجَماعَةَ أنَّني منذُ اليَومَ علىٰ مَذهَبِ أحمَد بنِ حَنْبَل في الأصُولِ والفُروع فقالَ لي : وفقَّك الله ثم أخَذتُ في سَماع كُتب أحمَدَ ومَسائله والتَّفقُّه علىٰ مَذْهَبِه .

---

(١) انظر السير : (المازِريُّ) ٢٠/ ١٠٤ـ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٤ .

قالَ ابنُ الجَوْزيِّ وغَيرُه : تُوفِّيَ ابنُ ناصِر سَنةَ خَمسين وخَمسِ مئة[1] .

وعن ابنِ الجَوْزيِّ قالَ : قَرأتُ بخَطِّ أبي الفَرَج الحَدَّاد قالَ : حدَّثني مَنْ أثِقُ به أنَّ الْمُقْتَفِي رَأىٰ في مَنامِه قَبلَ أنْ يُسْتَخلَف بسِتَّة أيَّام رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقولُ له : سَيصِلُ هـٰذا الأمْرُ إليكَ فاقْتَفِ بي فلِذا لُقِّبَ الْمُقْتَفي لأمرالله[2] .

ويقولُ الإمامُ الذهَبيُّ : نَبَّأني جَماعَةٌ عن ابنِ الجَوْزيِّ ، حدَّثني الوَزيرُ ابنُ هُبَيْرَة ، حدَّثني الْمُسْتَنْجِدُ قالَ : رَأيتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم في النَّوْمِ منذُ خَمسَ عَشرَة سَنة ، فقالَ لي : يَبْقَىٰ أبُوكَ في الخِلافَة خَمْساً وعِشرينَ سَنةً فكانَ كما قالَ فرَأيتُه قبلَ مَوْتِ أبي بأرْبَعةِ أشْهُر ، فدَخلَ بي من بابٍ كَبيرٍ ، ثم ارْتَفَعْنا إلىٰ رَأسِ جَبلٍ ، وصَلَّىٰ بي رَكعَتَين ، وألْبَسَني قَميصاً ثم قالَ لي : قُلْ : « اللَّهُمَّ اهْدِني فِيمَنْ هَدَيْتَ » .

ونقلَ صاحِبُ « الرَّوْضَتَينِ » أنَّه كانَ مَوْصُوفاً بالعَدلِ والرِّفْقِ ، وأطْلَقَ الْمُكُوسَ بحَيثُ إنَّه لَمْ يَترُك بالعِراقِ مَكْساً ، وكانَ شَديداً على الْمُفسِدينَ سَجَنَ عَوانياً كانَ يَسْعَىٰ بالنَّاسِ مُدَّة ، فبَذَلَ رَجلٌ فيه عَشرَةَ آلافِ دينارٍ قالَ الْمُسْتَنْجِدُ : فأنا أبْذُلُ عَشرَةَ آلافِ دينارٍ لتَأتِيَني بآخَرَ مثلِه أحْبِسُه[3] .

وقال ابنُ النَّجَّار : سَمعتُ المُبارك النَّحْويَّ يقولُ : كان ابنُ الخَشَّاب إذا نُوديَ علىٰ كتابٍ أخَذَه وطالَعَه ، وغَلَّ ورَقَه ، ثم يقولُ : هو مَقطوعٌ ، فيَشْتَريه برخْصٍ[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لَعلَّه تابَ ، فقَد قالَ عبدُ الله بنُ أبي الفَرَج الجُبَّائي : رأيتُ ابنَ الخشَّاب وعليه ثيابٌ بيضٌ ، وعلىٰ وَجْهه نورٌ ، فقلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قال : غَفَرَ لي ، ودَخلتُ الجَنَّة ، إلاَّ أنَّ اللهَ أعْرضَ عنِّي وعن كَثيرٍ من العُلماء ممَّن لا يَعملُ .

---

(١) انظر السير : (ابنُ ناصِر) ٢٠/ ٢٦٥ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٥١ .
(٢) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٦٨ .
(٣) انظر السير : (الْمُسْتَنْجِدُ بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٦٩ .
(٤) انظر السير : (ابن الخَشَّاب) ٢٠/ ٥٢٣ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٩ .

ماتَ سَنةَ سَبعٍ وستِّينَ وخَمسِ مِئَة[1] .

قال سِبطُ الجُوزِيّ : حَكَىٰ لي نَجْمُ الدِّين بنُ سلام عن وَالِدِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا نزَلَت علىٰ دِمْياطَ ، ما زالَ نورُ الدِّين عِشْرِين يوماً يَصُومُ ، ولا يُفطِرُ إلاَّ على المَاءِ ، فضَعُفَ وكادَ يَتْلَفُ ، وكان مَهيباً ، ما يَجْسُرُ أحدٌ يُخاطِبُه في ذلك ، فقال إمامُه يَحْيَىٰ : إنَّه رَأَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يقولُ : يا يَحْيَىٰ ، بَشِّرْ نورَ الدِّينِ برَحِيلِ الفِرنْجِ عن دِمْياطَ ، فقلتُ : يا رسُولَ الله ، رُبَّما لا يُصَدِّقُنِي قال : قُلْ لَهُ : بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ وانتَبَهَ يَحْيَىٰ ، فلمَّا صَلَّىٰ نورُ الدِّين الصُّبحَ ، وشَرَعَ يَدْعُو ، هَابَه يَحْيَىٰ فقال له : يا يَحْيَىٰ تُحَدِّثُنِي أوْ أُحَدِّثُكَ ؟ فارْتَعَدَ يَحْيَىٰ ، وخَرُسَ ، فقال نورُ الدين : أنا أُحَدِّثُكَ ، رَأَيْتَ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم هٰذهِ الليلَةَ ، وقال لكَ كَذَا وكَذَا ، قال : نَعَم فبالله يا مَوْلانا ما مَعْنَىٰ قولِه بعَلامَةِ يومِ حارِمٍ ؟ فقال : لمَّا الْتَقَيْنَا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسْلامِ ، فانْفَرَدْتُ ونزَلْتُ ، ومَرَّغْتُ وَجْهِيَ على التُّرابِ ، وقُلتُ : يا سَيِّدِي مَنْ مَحمُودٌ في البَيْن ، الدِّينُ دِينُك ، والجُنْدُ جُنْدُك ، وهٰذا اليَوْم افْعَلْ ما يَلِيقُ بكَرَمِكْ ، قال : فنَصَرَنا اللهُ عَليهِم .

وتَمَلَّكَ بعدَهُ ابنُه المَلِكُ الصَّالِحُ أشْهُراً ، وسَلَّمَ دِمَشْقَ إلى السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين وتَحَوَّلَ إلىٰ حَلَبَ فدَامَ صَاحِبُها تِسْعَ سِنينٍ وماتَ بالقُولَنْج ، وله عِشْرُونَ سنةً ، وكان شاباً دَيِّناً رَحِمَهُ الله[2] .

ورَوَىٰ زَينُ الأُمَناء ، حدَّثنا ابنُ القَزْوينيِّ عن وَالِدِه مُدَرِّس النِّظاميَّة قالَ : حَكَىٰ لنَا الفَراويُّ قالَ : قدِمَ عَلينا ابنُ عَساكِر ، فقَرأ عليَّ في ثَلاثَة أيّام فأكثر ، فأضْجَرَني ، وآلَيتُ أنْ أُغلِقَ بابي ، وأمْتَنِع ، جَرَىٰ هٰذا الخَاطِرُ لي باللَّيلِ ، فقَدِمَ من الغَدِ شَخْصٌ ، فقالَ : أنا رَسُولُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إلَيكَ ، رَأيتُه في النَّوم ، فقالَ : امْضِ إلى الفَراويِّ ، وقُلْ له : إنْ قَدِمَ بَلدَكُم رَجُلٌ من أهْلِ الشَّام أسْمَرُ يَطلُبُ حَديثي ، فلا يَأخُذْكَ منه ضَجَرٌ ولا مَلَلٌ ، قالَ : فما كانَ الفَراويُّ يَقُومُ حتَّىٰ يَقُومَ الحافِظُ أوَّلاً[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن الخَشَّاب) ٢٠/ ٥٢٣ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٥٧٩ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٥٨٢ .

(٣) انظر السير : (ابنُ عَساكِر) ٢٠/ ٥٥٤ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٨٤ .

٥ـ رُؤَىٰ مُنَوَّعَة :

قالَ أبو هُرَيْرَة ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَا أنَا نَائمٌ رَأيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ ، فَإذَا امْرَأةٌ تَتَوَضَّأ إلَىٰ جَانِبِ قَصْرٍ ، فَقُلْتُ لِمَنْ هَـٰذَا الْقَصْرُ ؟ قَالُوا : لِعُمَرَ ، فَذَكَرْتُ غَيْرَةَ عُمَرَ ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِراً » .

قالَ : فبَكَىٰ عُمَرُ وقالَ : بأبي أنتَ وأُمِّي يا رَسُولَ الله أعَليكَ أغَار ؟!![1] .

وقالَ مَعْدانُ بنُ أبي طَلْحَة اليَعْمُريّ : خَطَبَ عُمَرُ يومَ الجُمُعَة وذَكَرَ نَبيَّ اللهِ وأبا بَكر ثم قالَ : رأيتُ كأنَّ دِيكاً نَقَرَني نَقْرَةً أوْ نَقْرَتَينِ ، وإنِّي والله لا أراه إلاَّ حُضورُ أجَلي ، وإنَّ قَوْماً يأمُروني أنْ أسْتَخْلِفَ ، وإنَّ الله لَمْ يَكنْ لِيُضيعَ دينَه ولا خِلافَتَه فإنْ عَجَّل بي أمرٌ فالخِلافَة شُورَىٰ بين هَؤلاء السِّتَّة الذين تُوفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ .

وقالَ الزُّهْرِيُّ : كانَ عُمَرُ لا يأذَنُ لسَبيٍ قد احْتَلمَ في دُخولِ المَدينَة حتَّىٰ كتبَ المُغيرَةُ بنُ شُعْبَة ، وهو على الكُوفَة ، يَذْكُرُ غُلاماً عندَه صَنِعاً[2] ، ويَستأذنُه أن يَدخُلَ المدينَة ويقولُ : إنَّ عنده أعْمالاً كثيرة فيها منافعُ للنَّاسِ : إنَّه حدَّادٌ ، نقَّاشٌ ، نَجَّارٌ ، فأذِنَ له أن يُرسلَ به ، وضرَبَ عليه المُغيرَةُ مائة دِرْهَم في الشَّهرِ ، فجاء إلىٰ عُمَرَ يَشْتكي شِدَّةَ الخَراجِ ، قالَ : ما خَراجُك بكَثير ، فانْصَرَفَ ساخِطاً يَتذَمَّرُ ، فلَبِثَ عُمَرُ لَياليَ ثم دَعاه فقالَ : ألَمْ أُخْبَر أنَّك تقولُ : لَوْ شاءَ لَصَنَعتُ رَحىً تَطحَنُ بالرِّيح ؟ فالْتَفَتَ إلىٰ عُمَرَ عابِساً وقالَ : لأصْنَعَنَّ لك رَحىً يَتحدَّثُ النَّاسُ بها ، فلمَّا وَلَّىٰ قالَ عُمَرُ لأصْحابِه : أوْعَدَني العَبْدُ آنِفاً ، ثم اشْتَمَلَ أبو لُؤلُؤة علىٰ خِنْجَر ذي رأسَين نِصابُه في وَسَطه ، فكَمنَ في زاويَة من زَوايا المَسْجد في الغَلَسِ .

وقالَ عَمْرو بنُ مَيْمون الأودي : إنَّ أبا لُؤلُؤةَ عبدَ المُغيرَة طَعَنَ عُمَرَ بخِنْجَر له رأسان ، وطَعَنَ معه اثنَي عَشرَ رَجُلاً ، ماتَ منهم سِتَّةٌ فألْقَىٰ عليه رَجلٌ من أهْلِ العِراقِ ثَوْباً ، فلمَّا اغْتمَّ فيه قَتلَ نَفسَه .

---

(١) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٤٦ .

(٢) صَنِعاً : حاذق .

وقالَ عامِرُ بنُ عبد الله بنِ الزُّبَيْر ، عن أبيه قالَ : جِئتُ من السُّوقِ وعُمَرُ يَتَوَكَّأُ عليَّ ، فمرَّ بنا أبو لُؤلُؤة ، فنَظَرَ إلىٰ عُمَرَ نَظْرَةً ظَنَنْتُ أنَّه لَوْلا مَكاني لبَطَشَ به ، فجئتُ بعد ذلك إلى المَسْجدِ الفَجْرَ فإنِّي لَبينَ النَّائمِ واليَقْظانِ ، إذ سَمعتُ عُمرَ يَقولُ : قَتلَني الكَلبُ ، فماجَ النَّاسُ ساعَةً ، ثم إذا قِراءَةُ عبد الرَّحْمَـٰنِ بنِ عَوْفٍ .

وعن أبي رافِع : كانَ أبو لُؤلُؤةَ عَبداً للمُغيرَة يَصْنَعُ الأرْحاءَ ، وكان الْمُغيرَةُ يَسْتغِلُّه كلَّ يَومٍ أرْبَعَةَ دَراهِم ، فلَقيَ عُمَرَ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ الْمُغيرَةَ قد أثْقَلَ عليَّ فكَلِّمْه ، فقالَ : أحْسِنْ إلىٰ مَوْلاكَ ، ومن نيَّةِ عُمَرَ أنْ يكلِّمَ الْمُغيرَةَ فيه ، فغَضبَ وقالَ : يَسَعُ النَّاسَ كُلَّهم عَدْلُه غَيري ، وأضْمَرَ قَتلَه ، واتَّخَذَ خِنْجَراً وشحذه وسمه ، وكان عُمَرُ يَقُولُ : « أَقِيمُوا صُفُوفَكُم » قَبْلَ أنْ يُكَبِّرْ ، فجَاءَ فقامَ حِذاءَه في الصَّفِّ وضَربَه في كَتِفه وفي خاصِرَتِه ، فسَقَطَ عُمَرُ ، وطَعَنَ ثَلاثَ عَشَرَ رَجُلاً معه ، فماتَ منهم سِتَّةٌ ، وحُملَ عُمَرُ إلىٰ أهْلِه وكادَت الشَّمسُ أنْ تَطلُعَ ، فصَلَّى ابنُ عَوْفٍ بالنَّاسِ بأقْصَرِ سُورَتَين ، وأُتيَ عُمَرُ بنَبيذٍ فشَربَه فخَرَجَ من جُرْحِه فلَمْ يُتَبيَّن ، فسَقَوْه لَبَناً فخَرجَ من جُرْحِه فقالُوا : لا بَأسَ عَليكَ ، فقالَ : إنْ يَكُنْ بالقَتلِ بأسٌ فقد قُتلتُ ، فجَعلَ النَّاسُ يُثنونَ عليه ويَقولُون : كُنتَ وكُنتَ ، فقالَ : أمَا واللهِ ودِدْتُ أنِّي خَرجْتُ منها كِفافاً لا عَليَّ ولا لِي ، وأنَّ صُحبَةَ رَسُولِ الله سَلِمَت لي[1] .

وعن إبْراهيمَ بنِ عبدِ الرحمَـٰن بنِ عَوْفٍ ، قالَ : غُشِيَ علىٰ عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ عَوْف في وَجَعِه حتَّىٰ ظَنُّوا أنَّه قد فاضَتْ نَفسُه ، حتَّىٰ قامُوا من عندِه ، وجَلَّلوه ، فأفاقَ يُكَبِّر ، فكَبَّرَ أهْلُ البَيتِ ، ثم قالَ لَهُم : غُشِيَ عليَّ آنِفاً ؟ قالوا : نَعَم قالَ : صَدَقتُم! انْطَلقَ بي في غَشيَتي رَجُلانِ أجِدُ فيهما شِدَّة وفَظاظَة ، فقالَ : انْطَلِقْ نُحاكِمُك إلى العَزيزِ الأمينِ ، فانْطَلَقَا بي حتَّىٰ لَقِيَا رَجُلاً ، قالَ : أينَ تَذهَبان بهَـٰذا ؟ قالا : نُحاكِمُه إلى العَزيزِ الأمينِ فقالَ : ارْجِعَا فإنَّه من الذين كُتِبَ لَهُم السَّعادَةُ والْمَغْفِرَة وهم في بُطُونِ أُمَّهاتِهِم ، وإنَّه سَيُمَتَّعُ به بَنُوهُ إلىٰ ما شاءَ الله ، فعاشَ بعدَ ذَلكَ شَهْراً .

---

(١) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٣ .

قالَ إبْراهيمُ بنُ سَعْد : عن أبيه ، عن جَدِّه ، سَمِعَ عَلِيّاً يَقُولُ يَومَ ماتَ عبدُ الرحمَـٰنِ بنُ عَوْف : اذْهَبْ يا بنَ عَوْفٍ! فقد أدْرَكتَ صَفْوَها وسَبَقْتَ رَنْقَهَا[1] ،[2] .

وعن ابنِ عَبَّاسٍ ، قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « رَأيْتُ جَعْفَرَ بنَ أبي طَالِب مَلِكاً في الْجَنَّةِ ، مُضَرَّجَةً قَوَادِمُهُ بِالدِّمَاءِ ، يَطِيرُ في الْجَنَّةِ »[3] .

قالَ الْمُثَنَّىٰ بنُ سَعيد : سَمعتُ أنَسَ بنَ مَالِك رضي الله عنه يَقُولُ : ما مِنْ لَيلَةٍ إلاَّ وأنا أرَىٰ فيها حَبيبِي ثمَّ يَبْكِي[4] .

قالَ أبو التيَّاح : كانَ مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله يَبدُو ، فإذا كانَ لَيلَة الجُمُعَة ، أدْلَجَ علىٰ فَرسِه ، فرُبَّما نَوَّرَ له سَوْطُه ، فأدْلَجَ لَيلَةً حتَّىٰ إذا كانَ عندَ القُبُورِ ، هوَّمَ[5] علىٰ فَرَسِه ، قالَ : فرَأيتُ أهْلَ القُبورِ ، صاحِبَ كُلِّ قَبرٍ جَالِساً علىٰ قَبرِه ، فلمَّا رَأوْني ، قالوا : هـٰذا مُطَرِّفٌ يَأتي الجُمُعَة : قُلتُ أتَعْلَمُونَ عندَكم يَومَ الجُمُعَة!! ؟ قالُوا : نَعَم ، نَعلَمُ ما تَقُولُ الطَّيرُ فيه .

قُلتُ : ومَا تَقُولُ الطَّيرُ ؟ قالوا تَقُولُ : سَلامٌ سَلامٌ من يَوْمٍ صَالِح[6] .

أتَىٰ رجلٌ العَلاءَ بنَ زِياد ، فقالَ : أتاني آتٍ في مَنامي فقالَ : ائْتِ العَلاءَ بنَ زِياد ، فقُلْ له : لِمَ تَبْكي!! ؟ قد غُفِرَ لك .

قالَ : فبَكىٰ ، وقالَ : الآنَ حين لا أهْدَأ[7] .

وعن ابنِ أبي نُجَيح قالَ : قالَ مُجاهِدٌ لِطَاوُوسَ : رَأيتُكَ يا أبا عبدِ الرحمَـٰن تُصلِّي في الكَعْبَة ، والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ بابِها يَقُولُ لكَ : اكْشِفْ قِناعَكَ ، وبيِّن

---

(١) الرَّنَقُ : الكَدَر.
(٢) انظر السير : (عبدُ الرحمَـٰن بنُ عَوْف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١٣١/ ٥ .
(٣) انظر السير : (جَعْفَرُ بنُ أبي طالب) ١/ ٢٠٦ـ ٢١٧ ، وانظر النزهة : ١٥٠/ ٢ .
(٤) انظر السير : (أنَسُ بنُ مَالِك) ٣/ ٣٩٥ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٤٠١/ ٦ .
(٥) هَوَّمَ : أي هزَّ رَأسَه من النُّعاس أو نامَ نَوْماً خَفيفاً .
(٦) انظر السير : (مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٤٧٦/ ٤ .
(٧) انظر السير : (العَلاءُ بنُ زِياد) ٤/ ١٩٧ـ ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٤٧٧/ ٧ .

قِراءَتَك قالَ طاوُوسُ : اسْكُتْ لا يَسمَعُ هـٰذا منك أحَدٌ ، قالَ : ثم خُيِّلَ إليَّ أنَّه انْبَسَطَ في الكَلامِ ، يَعني فَرحاً بالْمَنامِ[1] .

وعن سُلَيْمانَ بنِ مُسْلِم ، قالَ : رَأيتُ أبا جَعْفَرٍ القارىء على الكَعْبَة ، فقالَ : أقْرىء إخْواني السَّلامَ وخَبِّرهم أنَّ اللهَ جَعلَني من الشُّهَداءِ الأحْياءِ الْمَرْزوقينَ[2] .

عن جَريرِ بنِ حازِم قالَ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كأنَّه مُتَسانِدٌ إلىٰ خَشَبَةِ زَيْدِ بنِ عَليٍّ بنِ الحُسَينِ وهو يَقُولُ : هَكَذا تَفْعَلونَ بِوَلَدي ؟[3] .

وعن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة ، قالَ : رَأيتُ مَنْصُورَ بنَ الْمُعْتَمِر ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قالَ : كِدتُ أنْ أَلْقَى اللهَ تَعالَىٰ بعَمَلِ نَبيٍّ[4] .

قيلَ : إنَّ حَوْشَباً قالَ لِمَالكِ بنِ دِينار : رَأيتُ ، كأنَّ مُنادياً يُنادي الرَّحيلَ ، الرَّحيلَ ، فمَا ارْتَحَلَ إلاَّ مُحمَّدُ بنُ وَاسِع فبَكَىٰ مَالكٌ ، وخَرَّ مَغْشياً عَليه[5] .

وعن رَقَبَةَ بنِ مَصْقَلَة قالَ : رَأيتُ رَبَّ العِزَّةِ في الْمَنامِ فقالَ : لأُكْرِمَنَّ مَثوَىٰ سُلَيْمانَ التَّيْميَّ صَلَّىٰ ليَ الفَجرَ بوُضُوءِ العِشاءِ أرْبَعينَ سَنةً[6] .

وقالَ ابنُ عُيَيْنَة ، سَمعتُ داوُدَ بنَ أبي هِنْد يَقُولُ : أصَابَني الطَّاعُونُ فأُغْميَ عليَّ ، فكأنَّ آتيَيْنِ أتَيَانِي فغَمَزَ أحدُهما علوةَ لِسَاني ، وغَمَزَ الآخَرُ أخْمَصَ قَدَمي ، فقالَ : أيُّ شَيءٍ تَجِدُ ؟ قالَ : أجِدُ تَسْبيحاً وتَكْبيراً وشَيئاً من خَطْوٍ إلى الْمَسجِدِ وشَيئاً من قِراءَةِ القُرآنِ قالَ : ولَمْ أكُنْ أخَذتُ القُرآنَ حينئذ ، قالَ : فكُنتُ أذهَبُ في الحَاجَةِ فأقُولُ : لَوْ ذَكَرتُ اللهَ حتَّىٰ آتيَ حاجَتِي ، قالَ : فعُوفيتُ ، فأقْبَلتُ على القُرآنِ فتَعلَّمتُه[7] .

وقالَ عَمْرُو بنُ أبي سَلمَةَ التَّنِّيسيُّ : حدَّثنا الأوْزاعيُّ قالَ : رَأيتُ كأنَّ مَلكَينِ عَرَجا

---

(١) انظر السير : (طاوُوسُ) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٧٧ .
(٢) انظر السير : (أبو جَعْفَر القَارىء) ٥/ ٢٨٧ـ ٢٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٠٤ .
(٣) انظر السير : (زَيْدُ بنُ عَليّ) ٥/ ٣٨٩ـ ٣٩١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦١٥ .
(٤) انظر السير : (مَنْصُورُ بنُ الْمُعْتَمِر) ٥/ ٤٠٢ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦١٨ .
(٥) انظر السير : (محمَّد بن واسع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٩/ ٦٣٨ .
(٦) انظر السير : (سُلَيْمانُ بنُ طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٤١ .
(٧) انظر السير : (داوُدُ بنُ أبي هِنْد) ٦/ ٣٧٦ـ ٣٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٥٩ .

بي ، وأوْقَفَاني بَينَ يَدَي رَبِّ العِزَّة ، فقالَ لي : أنتَ عَبدي عبدُ الرحمَـٰن الذي تَأمُرُ بالْمَعرُوفِ ؟ فقُلتُ : بعِزَّتِك أنْتَ أعْلَمُ قالَ : فهَبَطا بي حتَّىٰ رَدَّاني إلىٰ مَكَاني[1] .

وقالَ سُعيرُ بنُ الخِمسِ : رَأيتُ سُفْيانَ الثَّوريَّ في الْمَنامِ يَطيرُ من نَخلَةٍ إلىٰ نَخلَةٍ وهو يَقرَأُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾[2] ،[3] .

وعن إبْراهيمَ بنِ أعين ، قالَ : رَأيتُ سُفْيانَ بنَ سَعيد ، فقُلتُ : ما صَنَعتَ ؟ قالَ : أنا مع السَّفَرَة الكِرامِ البَرَرَة[4] .

وقالَ خَلَف : ودَخَلتُ على الإمامِ مَالِك بنِ أنَس ، فقالَ : ما تَرَى ؟[5] فإذا رُؤيا بَعثَها بَعضُ إخْوانِه ، يَقُولُ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ ، في مَسجِدٍ قد اجْتمَعَ النَّاسُ عَليه ، فقالَ لهم : إنِّي قد خَبَّأتُ تَحْتَ مِنْبَري طِيباً أو عِلْماً ، وأمَرتُ مَالِكاً أنْ يُفَرِّقَه على النَّاسِ ، فانْصَرفَ النَّاسُ وهم يَقُولونَ : إذاً يُنَفِّذُ مَالِكٌ ما أمَرَهُ به رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بَكَىٰ ، فقُمتُ عَنهُ[6] .

ونَقلَ القاضي عِياضٌ أنَّ أسَدَ بنَ مُوسَىٰ قالَ : رَأيتُ مَالِكاً بعدَ مَوْتِه ، وعَليه طَويلَة ، وثِيابٌ خُضْرٌ وهو علىٰ ناقَةٍ ، يَطيرُ بينَ السَّماءِ والأرْضِ فقُلتُ : يا أبا عَبدِ الله ، أَلَيسَ قد مِتَّ ؟ قالَ : بلَىٰ فقُلتُ : فإلامَ صِرْتَ ؟ فقالَ : قَدِمتُ علىٰ رَبِّي وكَلَّمَني كِفَاحاً[7] وقالَ : سَلْني أُعْطِكَ ، وتَمَنَّ عَليَّ أُرْضِكْ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ودُفِنَ بالبَقيعِ اتِّفاقاً وقَبرُه مَشْهورٌ يُزارُ ، رَحمَهُ الله[8] .

---

(١) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٨٣ .
(٢) سورة الزُّمَر ، الآية : ٧٤ .
(٣) انظر السير : (سُفْيانُ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٨/ ٧٠٠ .
(٤) انظر السير : (سُفْيانُ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٩/ ٧٠٠ .
(٥) نَصُّ الحِليَة : فقال لي : انظر ما ترىٰ تحت مُصلاَّيَ أو حَصيري ، فنَظرتُ ، فإذا أنا بكتاب ، فقال : اقرأه .
(٦) انظر السير : (مالِكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٢٧ .
(٧) أي مُواجَهة دون واسطة
(٨) انظر السير : (مالِكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٣٧ .

ويُقالُ : إنَّه في اللَّيلَةِ التي ماتَ فيها ، رَأىٰ رَجلٌ من الأنْصَارِ قَائِلاً يُنشِدُ :

لَقَـدْ أَصْبَـحَ الإِسْـلاَمُ زُعْـزِعَ رُكْنُـهُ غَدَاةَ ثَوَى الهَادِي لَدَىٰ مَلْحَدِ القَبْرِ
إمامُ الهُدَىٰ مَا زَالَ لِلْعِلْمِ صَائِناً عَلَيْـهِ سَـلاَمُ اللهِ فـي آخِـرِ الـدَّهْـرِ

قالَ : فانتَبهتُ ، فإذا الصَّارِخَةُ علىٰ مالِك[1] .

وقالَ إسْماعيلُ بنُ مَسْلَمَة القَعْنَبيُّ : رَأيتُ كأنَّ القِيامَةَ قد قامَتْ ، وكأنَّ مُنادياً يُنادِي : ألا لِيَقُمِ السَّابِقُونَ ، فقامَ سُفْيانُ الثَّوريُّ ، ثم نادَىٰ : ألا لِيَقُمِ السَّابِقُونَ فقامَ سَلْمٌ الخَوَّاصُ ، ثم قامَ إبْراهيمُ بنُ أدْهَم[2] .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ أيوُّبَ العابِدُ : سَمعتُ نَصْرَ بنَ بَسَّام وغَيرَه من أصْحابِنا ، قالوا : أتَيْنا مَعْروفاً الكَرْخيَّ ، فقالَ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ وهو يَقُولُ لِهُشَيمِ بنِ بَشير : جَزاكَ اللهُ عن أُمَّتي خَيراً ، فقُلتُ لِمَعْروفٍ : أنتَ رَأيتَ ؟ قالَ : نَعَم ، هُشَيمٌ خَيرٌ مِمَّا نَظُنُّ[3] .

وقالَ بِشْرُ بنُ المفضل : رَأيتُ بِشْرَ بنَ مَنْصُور في الْمَنامِ ، فقُلتُ : ما صَنعَ اللهُ بِك ؟ قالَ : وَجَدتُ الأمْرَ أهْوَنَ مِمَّا كُنتُ أحْمِلُ علىٰ نَفسِي .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : تُوفِّيَ هـٰذا الإمامُ رحمَةُ الله عليه في سَنةِ ثَمانينَ ومئة ، وله نيِّف وسَبعونَ سَنةً[4] .

وقالَ العَبَّاسُ بنُ مُحمَّد النَّسَفيُّ : سَمعتُ أبا حاتم الفِرَبريَّ يَقُولُ : رَأيتُ ابنَ الْمُبارَك واقِفاً عل بابِ الجَنَّة بيَدِه مِفْتاحٌ ، فقُلتُ : ما يُوقِفُكَ ها هنا ؟ قالَ : هـٰذا مِفْتَاحُ الجَنَّة ، دَفَعَه إليَّ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وقالَ : حتَّىٰ أزُورَ الرَّبَّ ، فكُنْ أمِيني في السَّماءِ ، كمَا كُنتَ أمِيني في الأرْضِ[5] .

---

(١) انظر السير : (مالكُ الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٣٨ .
(٢) انظر السير : (سلْمُ بنُ مَيْمون) ٨/ ١٧٩ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٧/ ٧٤٢ .
(٣) انظر السير : (هُشَيم) ٨/ ٢٨٧ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٥٩ .
(٤) انظر السير : (بِشْرُ بنُ مَنْصور) ٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٦٤ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٧١ .

وقالَ إسْماعيلُ بنُ إبْراهيمَ الْمصِّيصيُّ : رَأيتُ الحارثَ بنَ عَطيَّة في النَّومِ ، فسَألتُه ، فقالَ : غُفِرَ لي قُلتُ : فابنُ الْمُبارَك ، قالَ : بَخٍ بَخٍ ذَاكَ في عِلِّيينَ مِمَّنْ يَلِجُ على الله كُلَّ يَومٍ مَرَّتَينِ[1] .

وقالَ أبو أُسَامَة : سَمعتُ الفُضَيْلَ بنَ عِياض يَقُولُ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ ، وإلىٰ جَنْبِه فُرْجَة ، فذَهَبتُ لأجْلِسَ ، فقالَ : هَـٰذا مَجلِسُ أبي إسْحاقَ الفَزاري[2] .

وقالَ أحمَدُ بنُ أبي الحَوَاري : سَمعتُ عبدَ الرحمَـٰن بنَ مُطَرِّف يَقُولُ : رُؤيَ مَنْصُورُ بنُ عَمَّار بعدَ مَوْتِه ، فقيلَ : ما فَعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غَفَرَ لي ، وقالَ لي : يا مَنْصُورُ ، غَفَرتُ لَكَ علىٰ تَخْليطٍ فيكَ كَثير ، إلاَّ أنَّكَ كُنتَ تَحُوشُ[3] النَّاسَ إلىٰ ذِكْرِي[4] .

وعن زُهَيرٍ البابيِّ ، قالَ : رَأيتُ يَحْيَى القَطَّانَ في النَّومِ عَليه قَميصٌ بينَ كَتِفَيه مَكتُوبٌ : بِسْمِ اللهِ الرحمَـٰنِ الرَّحيم ، كتابٌ من اللهِ العَزيزِ العَليم بَراءَةٌ لِيَحْيَىٰ بنِ سَعيدِ القَطَّانِ مِنْ النَّار[5] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ عَمْرُو بنِ عُبَيدَة العُصْفُري : سَمعتُ عليَّ بنَ الْمَدينيَّ قالَ : رَأيتُ خالِدَ بنَ الحارث في النَّومِ ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : غَفَرَ لي عَلىٰ أنَّ الأمْرَ شَديدٌ قُلتُ : فمَا فَعلَ يَحْيَى القَطَّان ؟ قالَ : نَراهُ كمَا يُرَى الكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ في أُفُقِ السَّماءِ .

تُوفِّيَ يَحْيَىٰ بنُ سَعيد سَنةَ ثَمانٍ وتِسْعينَ ومئة[6] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٦/٧٧١ .
(٢) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الفَزاري) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٧/٧٩٠ .
(٣) أي تَسوقُهم وتَجمَعُهم.
(٤) انظر السير : (مَنْصُورُ بنُ عَمَّار) ٩/ ٩٣ـ ٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/٨٠١ .
(٥) انظر السير : (يَحْيَى القَطَّان) ٩/ ١٧٥ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/٨١٦ .
(٦) انظر السير : (يَحْيَى القَطَّان) ٩/ ١٧٥ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨١٦ .

وقالَ أبو نافِع سِبطُ يَزيدَ بن هَارُون : كُنتُ عندَ أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، وعندَهُ رَجُلانِ فقالَ أحَدُهما : رَأيتُ يَزيدَ بنَ هارُونَ في الْمَنام ، فقُلتُ له : ما فَعلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : غَفرَ لي ، وشَفَّعَني ، وعَاتَبَني ، وقالَ : أَتُحَدِّثُ عن حَريزِ بنِ عُثْمانَ ؟ فقُلتُ : يا رَبِّ ما عَلمْتُ إلاَّ خَيراً ، قالَ : إنَّه يَبغَضُ عَليّاً رضي الله عنه وقال الرجُلُ الآخَرُ : رَأيتُهُ في الْمَنام فقُلتُ له : هَلْ أتَاكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ ؟ قال : إي والله ، وسَألاني : مَنْ رَبُّك ؟ ومَا دِينُك ؟ فقُلتُ : أَلِمِثْلي يُقالُ هـٰذا ؟!! ، وأنا كُنتُ أعْلَمَ النَّاسِ بهـٰذا في الدُّنيا ؟ فقالا لي صَدَقتَ .

تُوفِّيَ يَزيدُ بوَاسِط سَنةَ سِتٍّ ومئتَين[1] .

وقالَ النَّقَّاشُ : قالَ يَحْيَى الفَحَّامُ : رَأيتُ خَلفَ بنَ هشام في النَّومِ ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ غَفرَ لي[2] .

وقالَ حُبَيْشُ بنُ مُبَشِّر الفَقيهُ ـ وهو ثِقَةٌ ـ : رَأيتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين في النَّومِ ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : أعْطَانِي وحَبَانِي وزَوَّجَنِي ثَلاثَ مئةِ حَوْراء ، ومَهَّدَ لي بينَ البَابَيْنِ ، أو قالَ : بينَ النَّاسِ . سَمِعَها جَعْفَرُ بنُ أبي عُثْمانَ من حُبَيْش[3] .

ورَواهَا الحُسَينُ بنُ الخَصيب ، عن حُبَيْش ، قالَ : رَأيتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين في النَّومِ ، فقُلتُ : ما فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : أدْخَلَني عَليه في دَارِه وزَوَّجَني ثَلاثَ مئة حَوْراءَ ثم قالَ لِلمَلائِكَة : انْظُرُوا إلىٰ عَبْدي كَيفَ تَطَرَّىٰ وحَسُنَ[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الشَّهيدِ أحمَدَ بنِ نَصْر الخُزاعِيِّ : وقيلَ رُئيَ في النَّومِ ، فقيل : ما فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : ما كانَت إلاَّ غَفوَةً حتَّىٰ لَقيتُ اللهَ ، فضَحِكَ إليَّ وقيل : إنَّه قالَ : غَضِبتُ له فأباحَني النَّظرَ إلىٰ وَجْهِه .

---

(١) انظر السير : (يَزيدُ بنُ هارُون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٦/٨٢٩ .
(٢) انظر السير : (خَلفُ بنُ هِشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٩٦ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٩١٣ .
(٤) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩١٣ .

بَقِيَ رَأسُهُ مَنْصُوباً ببَغْدادَ ، والبَدَنُ مَصْلوباً بسَامرَّاءَ سِتَّ سِنينَ إلىٰ أنْ أُنْزِلَ ، وجُمِعَ في سَنةِ سَبعٍ وثَلاثينَ ، فدُفِنَ رَحمَةُ اللهِ عليه[1] .

وعن أخي أبي عَقيل ، قالَ : رَأيتُ شاباً ، تُوفِّيَ بقَزْوينَ ، فقُلتُ : ما فَعلَ بِكَ رَبُّك ؟ قالَ : غَفرَ لي، ورَأيتُه مُسْتَعجلاً ، فسَألتُه ، فقالَ : لأنَّ أهْلَ السَّماواتِ قد اشْتَغَلوا بعَقْدِ الألْويَةِ لاسْتِقبالِ أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، وأنا أُريدُ اسْتِقبالَه وكانَ أحمَدُ تُوفِّيَ تلكَ الأيَّام[2] .

وعن الهَيثَمِ بنِ خَالويه ، قالَ : رَأيتُ السِّنْديَّ في النَّومِ ، فقُلتُ : ما حَالُك ؟ قالَ : أنا بخَيرٍ لكنْ اشْتَغلوا عَنِّي بِمَجيءِ أحمَدَ بنِ حَنْبَل[3] .

وعن زَكريَّا بنِ يَحْيَى السِّمْسَار ، يَقُولُ : رَأيتُ أحمَدَ بنَ حَنْبَل في الْمَنامِ عَلىٰ رَأسِه تَاجٌ مُرَصَّعٌ بالجَوْهَر ، في رِجلَيه نَعلانِ ، وهو يَخْطِرُ بهما قُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : غَفرَ لي وأدْناني ، وتَوَّجَني بيَدِه بهٰذا التَّاج وقالَ لي : هٰذا بقَوْلِكَ : القُرآنُ كَلامُ اللهِ غَيرُ مَخْلوقٍ قُلتُ : ما هٰذه الخَطرَة التي لَمْ أعْرِفْها لكَ في دَارِ الدُّنيا ؟ قالَ : هٰذه مِشْيَةُ الخُدَّام في دَارِ السَّلام[4] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ الْمُؤمَّلِ بنِ الحَسَن : سَمعتُ أبا يَحْيَى البزَّاز يَقُولُ لأبي رَجاءَ القاضي : كُنتُ فيمَنْ حَجَّ مع الحَسَنِ بنِ عِيسَىٰ وَقتَ مَوْتِه ، فاشْتَغلتُ بحِفظِ جَمَلي عن شُهودِه ، فأُريتُه في النَّومِ ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : غَفرَ لي ولِكُلِّ مَنْ صَلَّىٰ عَليَّ قُلتُ : فإنِّي فاتَتْني الصَّلاةُ عَليكَ لِغَيبَةِ عَديلي ، فقالَ : لا تَجْزَعْ ، وغَفرَ لِكُلِّ مَنْ يَترَحَّمُ عَليَّ رَحِمَهُ اللهُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وفي ذُرِّيَّتِه وأقَارِبِه مُحَدِّثُونَ وفُضَلاء[5] .

---

(١) انظر السير : (الخُزاعِيُّ) ١١/ ١٦٦ـ ١٦٩ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٢٠ .
(٢) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٥٠ .
(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٥١ .
(٤) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٥١ .
(٥) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عِيسَىٰ بنِ ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٧٧ .

وعن مُحمَّدِ بنِ نُعَيم يَقُولُ : رَأيتُ محمَّدَ بنَ رَافِع في الْمَنام بعدَ مَوتِه بثلاث في حِجْرِه مُصحَفٌ يَقرأ ، فقُلتُ له : أَلَيسَ قد مُتَّ ؟ فنَظَرَ إليَّ نَظرَةً مُنكَرَة فقُلتُ : سَألتُكَ بالله إلاَّ ما حادَثْتَني ، ما فَعلَ بكَ رَبُّك ؟ قالَ : بشَّرَني بالرَّوْحِ والرَّاحَة[1] .

وقالَ أبو عَمْرٍو أحمَدُ بنُ نَصْر الخَفَّافُ : رَأيتُ محمَّدَ بنَ يَحْيَى الذُّهليَّ بعدَ وَفاتِه ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : غَفَرَ لي ، قُلتُ فما فَعلَ بحَديثِك ؟ قالَ : كُتبَ بماءِ الذَّهَب ، ورُفِعَ في عِلِّيِّينَ[2] .

وقالَ الحاكِمُ : سَمعتُ أبا الفَضْل الحَسَنَ بنَ يَعْقوب العَدل ، سَمعتُ أبا عُمَرَ الْمُسْتَملي يَقُولُ : رَأيتُ يَحْيَىٰ بنَ مُحمَّدٍ رضي الله عنه في الْمَنامِ ، فقُلتُ : ما فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : غَفَرَ لي قُلتُ : فما فَعلَ الخُجُسْتانيُّ ؟ قالَ : هو في تَابُوتٍ من نَارٍ ، والْمفْتاحُ بيَدِي[3] .

وعنِ الفِرْبَريِّ ، قالَ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّوم ، فقالَ لي : أينَ تُريدُ ؟ فقُلتُ أُريدُ مُحمَّدَ بنَ إسْماعيلَ البُخَارِيَّ ، فقالَ : أقْرِئهُ مِنِّي السَّلام[4] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ مُحمَّد بنِ مَكِّيٍّ الجُرْجَانيُّ : سَمعتُ عبدَ الوَاحِدِ بنَ آدَمَ الطَّواويسيَّ يَقُولُ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّوم ، ومَعه جَماعَةٌ من أصْحابِه ، وهو وَاقِفٌ في مَوْضِعٍ ، فسَلَّمتُ عَليه ، فرَدَّ عَليَّ السَّلامَ فقُلتُ : ما وُقُوفُكَ يا رَسُولَ الله ؟ قالَ أنْتَظِرُ مُحمَّدَ بنَ إسْماعيلَ البُخاريَّ فلمَّا كانَ بعدَ أيّام بَلغَني مَوتُه ، فنَظَرتُ فإذا قد ماتَ في السَّاعَةِ التي رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فيها[5] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ أبي حاتم : سَمعتُ أبا ذَرٍّ يَقُولُ : رَأيتُ مُحمَّدِ بنِ حاتم الخَلْقَانيَّ في الْمَنامِ ، وكانَ من أصْحابِ مُحمَّدِ بنِ حَفْصٍ ، فسَألتُه ـ وأنا أعْرِفُ أنَّه ميِّتٌ ـ عن

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ رافع) ١٢/ ٢١٤ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٩٦ .
(٢) انظر السير : (الذُّهْليُّ وابنُه) ١٢/ ٢٧٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٠٠ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ محمَّد بن يَحْيَى الذُّهْليُّ) ١٢/ ٢٨٥ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٠١ .
(٤) انظر السير : (أبو عبدِ الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠١٦ .
(٥) انظر السير : (أبو عبدِ الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٢١ .

شَيخي رَحمَهُ اللهُ ، هلْ رَأيتَه ؟ قالَ : نَعَم رأَيتُه وهو ذَاكَ ، يُشيرُ إلىٰ ناحيَة سَطْحٍ من سُطوحِ الْمَنزِلِ ثم سَألتُه عن أبي عبدِ الله مُحمَّدِ بنِ إسْماعيلَ ، فقالَ : رَأيتُه ، وأشارَ إلى السَّماءِ إشارَةً كادَ أنْ يَسقُطَ منها لِعُلوِّ ما يُشيرُ[1] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ إسْحاقَ السَّرَّاج ، سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ مُسلِم بنِ وَارَة يَقُولُ : رَأيتُ أبا زُرْعَةَ في الْمَنامِ ، فقُلتُ له : ما حَالُك يا أبا زُرْعَة ؟ قالَ : أحمَدُ اللهَ علىٰ أحْوالِه كُلِّها ، إنِّي حَضَرتُ ، فوَقفتُ بينَ يَدَي اللهِ تَعالَىٰ ، فقالَ : يا عُبَيدَ الله! لِمَ تَذَرَّعتَ القَولَ في عِبادي ؟ قُلتُ : يا رَبِّ إنَّهم حاوَلوا دينك قالَ : صَدقتَ ثم أُتِيَ بطَاهِرِ الخُلقاني ، فاسْتَعدَيتُ عليه إلىٰ رَبِّي تَعالَىٰ ، فضُربَ الحَدَّ مئةً ، ثم أُمِرَ به إلى الحَبْسِ ، ثم قالَ : ألْحِقُوا عُبَيْدَ الله بأصْحابِه : أبي عبدِ الله ، وأبي عبدِ الله ، وأبي عبدِ الله : سُفْيانَ الثَّوري ، ومَالِكِ بنِ أنَس ، وأحمَدَ بنِ حَنْبَل .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : إسْنَادُها كالشَّمسِ[2] .

وقالَ الْمُحدِّثُ يَحْيَىٰ بنُ أحمَدَ بنِ زِيادٍ الهَرَويُّ ، صاحِبُ ابنِ مَعين : رَأيتُ في النَّومِ كأنَّ قائلاً يَقُولُ : إنَّ عُثْمانَ ـ يَعني الدَّارِميَّ ـ لَذُو حَظٍّ عَظيم[3] .

وقالَ أبو الشَّيخِ : سَمعتُ ابني عبدَ الرَّزَّاق يَحكي عن أبي عبدِ الله الكِسَائيِّ ، قالَ : رَأيتُ ابنَ أبي عاصِم فيما يَرَى النَّائمُ كأنَّه كانَ جالِساً في مَسجِدِ الجَامِع ، وهو يُصلِّي من قُعودٍ ، فسَلَّمتُ عَليه ، فرَدَّ عَليَّ ، وقُلتُ له : أنتَ أحمَدُ بنُ أبي عاصِم ؟ قالَ : نَعَم قُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بِكَ ؟ قالَ : يُؤنِسُني رَبِّي قُلتُ : يُؤنِسُكَ رَبُّك ؟ قالَ : نَعَم فشَهِقْتُ شَهقَةً ، وانْتَبهْتُ[4] .

وقالَ ابنُ مُجاهِد : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ فقالَ لي : أقْرِىء أبا العَبَّاسِ[5] السَّلامَ ، وقُلْ له : إنَّك صاحِبُ العِلْمِ الْمُسْتَطيلِ .

---

(١) انظر السير : (أبو عبدِ الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢١ .
(٢) انظر السير : (أبو زُرْعَة الرَّازي) ١٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٤ .
(٣) انظر السير : (الدَّارميُّ) ١٣/ ٣١٩ـ ٣٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٢ .
(٤) انظر السير : (ابنُ أبي عاصِم) ١٣/ ٤٣٠ـ ٤٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٩٩ .
(٥) يَعني ثَعْلبَ الْمُحدِّث.

وله كتابُ : « اخْتِلافِ النَّحْويِّينَ » ، وكتابُ « القِراءات » ، وكتابُ « مَعَاني القُرآن » وأشْياء .

وعُمِّرَ ، وأَصَمَّ ، صدَمَته دابَّةٌ ، فوَقَع في حُفرَة ، وماتَ منها في جُمادَى الأولىٰ سَنةَ إحْدَىٰ وتِسْعينَ ومئتَين[1] .

وعن أبي إسْحاقَ إبْراهيمَ بنِ محمَّدِ بنِ الْمُضارب قالَ : رَأيتُ ابنَ خُزَيْمَة في النَّومِ ، فقُلتُ : جَزاكَ اللهُ عن الإسْلامِ خَيراً ، فقالَ : كَذَا قالَ لي جِبريلُ في السَّمَاءِ .

وَفاتُه في سَنةِ إحْدَىٰ عَشرَةَ وثَلاث مئة ، عاشَ تِسْعاً وثَمانينَ سَنةً[2] .

وحَكى ابنُ السَّعْساع المِصْريّ ، أنَّه رأَىَ في النَّومِ أبا بَكْر بن النَّابُلسي بعدما صُلِبَ وهو في أحْسَنِ هَيْئَة ، فقال : ما فَعَلَ اللهُ بك ؟ فقال :

حَبَانِي مَالِكِي بِدَوامِ عِزٍّ ... وَوَاعَدَنِي بِقُرْبِ الإنْتِصَارِ
وَقَرَّبَنِي وَأَدْنَانِي إلَيْهِ ... وَقَالَ انعَمْ بِعَيْشٍ فِي جِوَارِي[3]

وقالَ أبو بَكر بنُ الخاضِبَة : رَأيتُ كأنَّ القِيامَةَ قد قامَت ، وكأنَّ مَنْ يَقُولُ : أينَ ابنُ الخاضِبَة ؟ فقيلَ لي : ادْخُلِ الجَنَّةَ ، فلمَّا دَخلتُ اسْتَلقَيتُ علىٰ قَفايَ ، ووَضَعتُ إحْدَىٰ رِجلَيَّ على الأُخْرَىٰ ، وقُلتُ : آهٍ! اسْتَرحْتُ والله من النَّسْخ فرَفَعتُ رَأسي ، فإذا ببَغلَةٍ مُسْرَجَةٍ مُلجَمَةٍ في يَدِ غُلامٍ فقُلتُ : لِمَنْ هٰذه ؟ فقالَ : للشَّريفِ أبي الحُسَينِ بنِ الغَريقِ فلمَّا كانَ في صَبيحَةِ تِلكَ اللَّيلَة ، نُعِيَ إلَينَا أبو الحُسَين رَحمَهُ الله[4] .

وقالَ أبو الفَضْلِ بنُ خَيْرُونَ : جاءَني بَعضُ الصَّالِحينَ وأخْبَرَني لَمَّا ماتَ الخَطيبُ أنَّه رآه في النَّومِ ، فقالَ له : كَيفَ حَالُك ؟ قالَ : أنا في رَوْحٍ ورَيْحانٍ وجَنَّةِ نَعيم[5] .

---

(١) انظر السير : (ثَعْلَب) ١٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١٢١ .
(٢) انظر السير : (ابنُ خُزَيْمَة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٤/١١٦٢ .
(٣) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/ ١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٧٦ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الْمُهْتَدي بالله) ١٨/ ٢٤١ـ ٢٤٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٠٨ .
(٥) انظر السير : (الخَطيبُ) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤١٥ .

وقالَ أبو الحَسَن عَليُّ بنُ الحُسَين بنِ جَدّا : رَأيتُ بعدَ مَوتِ الخَطيبِ كأنَّ شَخْصاً قَائماً بحِذائي ، فأرَدتُ أنْ أسْألَه عن أبي بَكر الخَطيبِ ، فقالَ لي ابْتداءً : أُنْزِلَ وَسَطَ الجَنَّة حَيثُ يَتعارَفُ الأبْرار[1] .

وقالَ الفَقيهُ الصَّالِحُ حَسَنُ بنُ أحمَدَ البَصْريُّ : رَأيتُ الخَطيبَ في الْمَنام وعليه ثِيابٌ بِيضٌ حِسَانٌ وعَمَامَةٌ بَيْضاءُ ، وهو فَرْحَانُ يَتبَسَّمُ ، فلا أدْري قُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بِكَ ؟ أو هو بَدأني ، فقالَ : غَفَرَ اللهُ لي ، أو رَحِمَني ، وكُلُّ مَنْ يَجيءُ ـ فوَقعَ لي أنَّه يَعني بالتَّوْحيدِ ـ إليه يَرحَمُه ، أو يَغفِرُ له فأبْشِرُوا ، وذلكَ بعدَ وَفاتِه بأيَّام .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : تَناكَدَ ابنُ الجَوْزي رَحمَه الله وغَضَّ من الخَطيبِ ، ونَسبَه إلىٰ أنَّه يَتعصَّبُ علىٰ أصْحابِنا الحَنابِلَة .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : لَيتَ الخَطيبَ تَركَ بَعضَ الحَطِّ على الكِبارِ فلَمْ يَروِه .

قالَ أبو السَّمْعانيِّ : للخَطيبِ سِتَّةٌ وخَمسونَ مُصنَّفاً[2] .

ثمَّ قالَ ابنُ الجَوْزيِّ : حدَّثني الفَقيهُ أبو بَكر بنُ الحُصَري ، قالَ : رَأيتُ ابنَ ناصِر في النَّومِ ، فقُلتُ له : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قالَ : غَفرَ لي ، وقالَ لي : قد غَفَرتُ لِعَشرَة من أصْحَابِ الحَديثِ في زَمانِك لأنَّكَ رَئيسُهم وسَيِّدُهم[3] .

وأوْرَدَ الحافِظُ الضِّياءُ لِلحافِظِ عبدِ الغَنيِّ الْمَقْدِسيِّ عِدَّةَ مَنامَاتٍ ، منها قَولُه :

سَمعتُ الرَّضِيَّ عبدَ الرحمَـٰن بنِ محمَّد يَقُولُ : رَأيتُ كأنَّ قائلاً يَقُولُ : جاءَ الحافِظُ من مِصْرَ ، فمَضَيتُ أنا والشَّيخُ أبو عَمْرٍو العِزُّ بنُ الحافِظِ إليه ، فجِئْنا إلىٰ دَارٍ ففُتِحَ البابُ : فإذا الحافِظُ وعلىٰ وَجهِه عَمودٌ من نُورٍ إلى السَّماءِ ، وإذا وَالِدَتُه في تِلكَ الدَّار[4] .

---

(١) انظر السير : (الخَطيبُ) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٥ .
(٢) انظر السير : (الخَطيبُ) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٥ .
(٣) انظر السير : (ابنُ ناصِر) ٢٠/ ٢٦٥ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٥١ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥٢ .

وسَمعتُ أبا مُوسَىٰ بنَ الحافِظِ ، حدَّثني صَنيعَةُ الْمُلكِ هِبَةُ اللهِ بنُ حَيْدَرَة قالَ : لَمَّا خَرَجتُ للصَّلاةِ على الحافِظِ لَقيَني هـٰذا الْمَغرِبيُّ[1] ، فقالَ : أنا غَريبٌ ، رَأيتُ البَارِحَةَ كأنِّي في أرْضٍ بها قَومٌ عَليهِم ثِيابٌ بِيضٌ ، فقُلتُ : ما هَؤلاء ؟ قيلَ : مَلائكَةُ السَّماءِ نَزَلُوا لِمَوْتِ الحافِظِ عبدِ الغَنيِّ ، فقُلتُ : وأينَ هُو ؟ فقيلَ لي : اقْعُدْ عندَ الجامِع حتَّىٰ يَخرُجَ صَنيعَةُ الْمُلكِ فامْضِ مَعَه ، قالَ : فلَقيتُه وَاقِفاً عندَ الجَامِع[2] .

وسَمعتُ الفَقيهَ أحمَدَ بنَ محمَّد بنِ عبدِ الغَنيِّ سَنةَ اثنَتَي عَشرَةَ يَقُولُ : رَأيتُ البارِحَةَ أخَاكَ الكَمالَ عبدَ الرَّحيم ـ وكانَ تُوفِّيَ تِلكَ السَّنَة ـ في النَّوم ، فقُلتُ : يا فُلانُ أينَ أنتَ ؟ قالَ : في جَنَّةِ عَدن ، فقُلتُ : أيُّما أفْضَل الحافِظُ أو الشَّيخُ أبو عُمَر ؟ فقالَ : ما أدري ، وأمَّا الحافِظُ فكُلُّ لَيلَةِ جُمُعَة يُنصَبُ له كُرسيٌّ تَحتَ العَرشِ ، ويقرأُ عليه الحَديث ، ويُنثَرُ عليه الدُّرُّ والجَوْهَرُ ، وهـٰذا نَصيبي منهُ ، وكانَ في كُمِّه شَيءٌ[3] .

وسَمعتُ القاضيَ الإمامَ عُمَرَ بنَ عَليٍّ الهَكَّاريَّ بنَابُلْسَ يَقُولُ : رَأيتُ الحافِظَ عبدَ الغَنيِّ كأنَّه قد جاءَ إلىٰ بَيتِ الْمَقدِس ، فقُلتُ : جِئتَ غَيرَ رَاكِبٍ ، فَعلَ اللهُ بمَنْ جِئتَ من عندِهم! قالَ : أنا حَمَلَني النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم[4] .

وحدَّثني[5] الشَّيخُ الْمُقرىءُ عبدُ الله بنُ حَسَن الهَكَّاريُّ بِحَرَّانَ قالَ : رَأيتُ في النَّومِ قائلاً يَقُولُ لي : العِمَادُ من الأبْدالِ ، فرَأيتُ خَمسَ لَيالٍ كَذلك[6] .

وسَمعتُ التَّقيَّ أحمَدَ بنَ محمَّد بنِ الحافِظِ يَقُولُ : رَأيتُ الشَّيخَ العِمَادَ في النَّومِ علىٰ حِصَانٍ ، فقُلتُ : يا سَيِّدي الشَّيخ ، إلىٰ أينَ ؟ قالَ : أزُورُ الجَبَّارَ عَزَّ وجَلَّ[7] .

---

(١) كانَ رَجُلاً مَغربياً مَعه فهو يُشيرُ إليه.
(٢) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥٣ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٥٣ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٥٤ .
(٥) القَولُ للحافِظ الضِّياء .
(٦) انظر السير : (العِمَاد) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٦/١٦٦٥ .
(٧) انظر السير : (العِمَاد) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٧/١٦٦٥ .

وقالَ الحافِظُ الضِّياءُ ، رَأيتُ أحمَدَ بنَ حَنْبَل في النَّومِ فألْقَىٰ عليَّ مَسألَةً فقُلتُ : هـٰذه في الخِرَقي ، فقالَ : ما قَصَّرَ صاحِبُكم الْمُوَفَّقُ في شَرْح الخِرَقي .

قالَ الضِّياءُ : كانَ رَحمَهُ اللهُ إماماً في التَّفْسيرِ وفي الحَديثِ ومُشْكِلاتِه ، إمَاماً في الفِقْه ، بلْ أوْحَدَ زَمانِه فيه ، إمَاماً في عِلمِ الخِلافِ ، أوْحَدَ في الفَرائضِ ، إمَاماً في أُصُولِ الفِقهِ ، إمَاماً في النَّحْوِ والحِسَابِ والأنْجُمِ السَّيَّارَة ، والْمَنازِل[1] .

* * *

(١) انظر السير : (ابنُ قُدامَة) ٢٢/ ١٦٥ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨١ .

مُتَفَرِّقَات

(١) الإنْشَادُ والغِنَاء

١ـ الإنْشَاد :

عن محمَّدِ بنِ سِيرينَ ، عن أنَسٍ أنَّه دَخلَ علىٰ أخيه البَرَاء وهو يَتَغنَّىٰ فقالَ : تَتَغَنَّى ؟ قالَ : أتَخْشَىٰ عليَّ أنْ أمُوتَ علىٰ فِراشي وقد قَتلتُ تِسْعَةً وتِسْعينَ نَفْساً من الْمُشرِكينَ مُبارَزَةً ، سِوَىٰ ما شَارَكتُ فيه الْمُسلِمينَ ؟ .

وفي رِوايَة : يا أخِي! تَتَغَنَّىٰ بالشِّعرِ وقد أبْدَلكَ اللهُ به القُرآن ؟[١] .

قالَ ابنُ النَّجَّار : سَمعتُ مَنْ يَذكرُ أنَّ عَددَ شُيوخِ أبي سَعْد سَبعَةُ آلافِ شَيخ قالَ : وهٰذا شَيءٌ لَمْ يَبلُغْه أحَدٌ ، وكانَ مَليحَ التَّصانيفِ كَثيرَ النشوارِ والأناشِيدِ ، لَطيفَ الْمِزاجِ ، ظَريفاً ، حافِظاً ، واسِعَ الرِّحْلَة ، ثِقةً صَدوقاً دَيِّناً ، سَمعَ منه مَشايخُه وأقرانُه .

ماتَ الحافِظُ أبو سَعْد سَنةَ اثنتَينِ وسِتِّينَ وخَمسِ مئة بمَرْو وله سِتٌّ وخَمسُونَ سَنةً[٢] .

٢ـ الغِنَاء :

(أ) التَّحْذيرُ من الغِنَاء :

عن أبي عُثْمانَ اللَّيْثي ، أنَّ يَزيدَ بنَ الوَليدِ بنِ عبدِ الْمَلِك النَّاقصَ ، قالَ : يا بَني أُمَيَّة إيَّاكم والغِناء فإنَّه يُنقِصُ الحَياءَ ، ويزيدُ في الشَّهْوَة ، ويَهْدمُ الْمَروءَةَ ، ويَنُوبُ عن الخَمرِ ، فإنْ كُنتُم لا بُدَّ فاعِلينَ ، فجَنِّبوهُ النِّساءَ فإنَّ الغِناءَ دَاعِيَةُ الزِّنَا[٣] .

---

(١) انظر السير : (البَرَاءُ بنُ مَالِك) ١/ ١٩٥ـ ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٧ .

(٢) انظر السير : (السَّمْعَانيُّ) ٢٠/ ٤٥٦ـ ٤٦٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٥٧٧ .

(٣) انظر السير : (يَزيدُ بنُ الوَليد) ٥/ ٣٧٤ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٦١٤ .

(ب) مَنْ اشْتغَلَ بالعِلْمِ من المُغَنِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ إسْحاقَ النَّديم : الإمامُ العَلاَّمَةُ الحافِظُ ذُو الفُنون ، أبو محمَّد إسْحاقُ بنُ إبْراهيمَ بنِ مَيْمُونَ التَّميمِيُّ الْمَوْصِليُّ الأخْبَاريُّ ، صاحِبُ الْمُوسيقَىٰ ، والشِّعرِ الرَّائق ، والتَّصَانيفِ الأدَبيَّة مع الفِقْه واللُّغَة ، وأيَّامِ النَّاسِ ، والبَصَرِ بالحَديثِ ، وعُلُوِّ الْمَرتَبَة .

وُلدَ سَنةَ بضْعٍ وخَمسينَ ومئة[1] .

وسَمعَ من : مَالِكِ بنِ أَنَس ، وهُشَيْمِ بنِ بَشير ، وسُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة وبَقيَّةَ بنِ الوَليدِ ، وأبي مُعاويَةَ الضَّرير ، والأصْمَعيِّ ، وعَددٍ كَثير[2] .

حدَّثَ عَنه وَلَدُه حَمَّادُ الرَّاوِيَة ، وشَيخُهُ الأصْمَعيُّ ، والزُّبَيْرُ بنُ بَكَّار أبو العَيْناء ، ويَزيدُ بنُ مُحمَّد الْمُهَلَّبيُّ ، وآخَرون .

ولَمْ يُكثِرْ عنه الحُفَّاظُ لاشْتِغالِه عَنهُم بالدَّولَة ، وقيلَ : وُلدَ سَنةَ خَمسينَ ومئة صَنَّفَ كتابَ « الأغَاني » الذي يَرويهِ عَنه ابنُه[3] .

وعن إسْحاقَ الْمَوْصِليِّ قالَ : بَقيتُ دَهْراً من عُمْري أغَلِّسُ كُلَّ يَومٍ إلىٰ هُشَيْمٍ أو غَيرِه من الْمُحدِّثينَ ، ثم أصيرُ إلى الكِسائيِّ ، أو الفَرَّاءِ ، أو ابنِ غَزال ، فأقْرأُ جُزءاً من القُرآنِ ، ثم إلىٰ أبي مَنْصُور زلزَل[4] فيُضَارِبُني طَرْقَين أو ثَلاثَة ، ثم آتِي عاتِكَةَ بنتَ شَهْدَة ، فآخُذُ منها صَوْتاً أوْ صَوْتَينِ ثم آتِي الأصْمَعيَّ ، وأبا عُبَيْدَة فأسْتَفيدُ منهما ، وآتِي مَجلِسَ الرَّشيدِ بالعَشيِّ[5] .

(ج) مَنْ كرهَ من المُغَنِّين أن يُنْسَبَ إلى الغِنَاء :

عن إسْحاقَ النَّديم أنَّه كانَ يَكرَه أنْ يُنسَبَ إلى الغِناءِ ، ويَقُولُ : لأنْ أُضرَبَ علىٰ

---

(١) انظر السير : (إسْحاقُ النَّديم) ١١/١٨ـ ١٢١ ، وانظر النزهة : ١/٩١٥ .
(٢) انظر السير : (إسْحاقُ النَّديم) ١١/١٨ـ ١٢١ ، وانظر النزهة : ٢/٩١٥ .
(٣) انظر السير : (إسْحاقُ النَّديم) ١١/١٨ـ ١٢١ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٥ .
(٤) وهو الذي علَّم إسْحاقَ الْمَوْصِليّ ضَربَ العُود .
(٥) انظر السير : (إسْحاقُ النَّديم) ١١/١٨ـ ١٢١ ، وانظر النزهة : ٤/٩١٥ .

رَأسي بالْمَقارعِ أحَبُّ إليَّ من أنْ يُقَالَ عَنِّي : مُغَنِّي .

وقالَ الْمَأمُونُ : لَوْلا شُهرَةُ إسْحاقَ بالغِناءِ ، لَوَليتُه القَضاءَ[1] .

(ج) مُغَنُّون ومُغَنِّيات :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عُلَيَّة بنتِ الْمَهْديِّ أُختِ الرَّشيدِ : الهَاشِميَّةُ العَبَّاسيَّةُ ، أديبَةٌ ، شَاعِرَةٌ ، عارِفَةٌ بالغِناءِ والْمُوسيقَىٰ ، رَخيمَةُ الصَّوتِ ، ذَاتُ عِفَّةٍ وتَقْوَىٰ ومَناقِب .

وكانت عُلَيَّةُ من مِلاحِ زَمانِها ، وأظْرَفِ بَناتِ الخُلَفاء[2] .

ورَوَىٰ إبْراهيمُ بنُ إسْماعيل الكاتِب أنَّها لا تُغَنِّي إلاَّ زَمَنَ حَيْضِها ، فإذا طَهُرَت أقْبَلَت على التِّلاوَة والعِلمِ ، إلاَّ أنْ يَدعُوها الخَليفَةُ ، ولا تَقدِرُ تُخالِفُه[3] .

وعن مَنْصُورِ بنِ الْمَهْديِّ قالَ : كانَ أخي إبْراهيمُ إذا تَنَحْنَحَ ، طَرِبَ مَنْ يَسمَعُه ، فإذا غَنَّىٰ ، أصْغَت الوُحُوشُ حتَّىٰ تَضَعَ رُؤوسَها في حِجْرِه ، فإذا سَكتَ ، هَرَبَت وكانَ إذا غَنَّىٰ لَمْ يَبْقَ أحَدٌ إلاَّ ذهِلَ[4] .

وقالَ ابنُ الفَضْل بنِ الرَّبيع : ما اجْتَمعَ أخٌ وأخْتٌ أحْسَن غِناءً من إبْراهيمَ بنِ الْمَهْديِّ وأُختِه عُلَيَّة[5] .

* * *

---

(١) انظر السير : (إسْحاقُ النَّديم) ١١/ ١٨ـ ١٢١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩١٥ .

(٢) انظر السير : (عُلَيَّة بنتُ المَهْدي) ١٠/ ١٨٧ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٧/ ٨٦٥ .

(٣) انظر السير : (عُلَيَّة بنتُ المَهْدي) ١٠/ ١٨٧ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٨/ ٨٦٥ .

(٤) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٩٣ .

(٥) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٩٣ .

(٢) الأوائِل

١ـ أَوَّلُ مَنْ أحْدَثَ المُصافَحَة :

عن أنَسٍ ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « يَقْدُمُ عَلَيْكمْ غَداً قَوْمٌ هُمْ أَرَقُّ قُلُوباً لِلإِسْلامِ مِنْكم » فقَدِمَ الأشْعَرِيُّونَ ، فلمَّا دَنَوا جَعَلوا يَرتَجِزُونَ :

غـــــداً نلقـــــى الأحبـــــة محمـــــداً وحـــــزبـــــه

فلمَّا أنْ قَدِمُوا تَصافَحُوا ، فكَانُوا أوَّلَ مَنْ أحْدَثَ الْمُصافَحَة[١] .

٢ـ أَوَّلُ مَنْ سُلِّمَ عليه بالإمْرَة عندَ خُروجِ الإمَامِ إلى الصَّلاة :

عن سمَّاكِ بنِ سَلمَة قالَ : أوَّلُ مَنْ سُلِّمَ عليه بالإمْرَة الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة .

يَعني : قَولَ الْمُؤذِّن عندَ خُروجِ الإمَامِ إلى الصَّلاةِ : السَّلامُ عَليكَ أيُّها الأمِيرُ ورَحمَةُ الله وبَرَكاتُه[٢] .

٣ـ أشْياءُ مُتعَدِّدَة أحْدَثَها مُعاوِيَة :

عن الشَّعْبيِّ ، قالَ : أوَّلُ مَنْ خَطَبَ جَالِساً مُعاويَةُ حينَ سَمن[٣] .

وقال الزُّبَيرُ بنُ بَكار : كانَ مُعاويَةُ أوَّلَ مَنْ اتَّخَذَ الدِّيوانَ للخَتمِ وأمَرَ بالنَّيْروزِ والْمهْرَجان ، واتَّخَذَ الْمَقاصِيرَ في الجَامِع ، وأوَّلَ مَنْ قَتلَ مُسْلِماً صَبْراً[٤] ، وأوَّلَ مَنْ قامَ علىٰ رَأسِه حَرَسٌ ، وأوَّلَ مَنْ قُيِّدَتْ بينَ يَدَيه الجَنائبَ ، وأوَّلَ مَنْ اتَّخذَ الخُدَّامَ الخِصْيانَ في الإسْلامِ ، وأوَّلَ مَنْ بَلغَ دَرَجاتِ الْمِنْبَرِ خَمسَ عَشرةَ مرْقاةً ، وكانَ يَقُولُ : أنا أوَّلُ الْمُلوكِ[٥] .

---

(١) انظر السير : (أبو مُوسَى الأشْعَرِيُّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٢٧٨ .

(٢) انظر السير : (الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٢٤ .

(٣) انظر السير : (مُعاويَةُ بنُ أبي سُفْيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٥٦ .

(٤) يريد حجرَ بنَ عَدي وأصْحابَه.

(٥) انظر السير : (مُعاويَةُ بنُ أبي سُفْيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٥٦ .

٤ـ أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ النَّحْو :

قالَ أحمَدُ العِجليُّ : أبو الأسْوَدِ الدُّؤلِي ثِقَةٌ ، كانَ أوَّلَ مَنْ تَكلَّمَ في النَّحْوِ[١] .

وقالَ الوَاقِديُّ : أسْلمَ في حَياةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقالَ غَيرُه : قَاتَلَ أبو الأسْوَد يومَ الجَمَل مع عَليِّ بنِ أبي طالب ، وكانَ من وُجوه الشِّيعَة ومن أكْمَلِهم عَقْلاً ورَأياً وقد أمَرَه عَليٌّ رضي الله عنه بوَضْعِ شَيءٍ في النَّحْوِ لَمَّا سَمعَ اللَّحنَ ، قالَ : فأرَاهُ أبو الأسْوَد ما وَضَعَ ، فقالَ عَليٌّ : ما أَحْسَنَ هٰذا النَّحْوَ الذي نَحَوْتَ ، فمِنْ ثَمَّ سُمِّيَ النَّحْوُ نَحْواً[٢] .

قالَ محمَّدُ بنُ سَلاَّم الجُمَحيُّ : أبو الأسْوَد هو أوَّلُ مَنْ وَضَعَ بابَ الفَاعِلِ والْمَفعُولِ والْمُضاف ، وحَرْفَ الرَّفْعِ والنَّصْبِ والجَرِّ والجَزْمِ ، فأخَذَ ذلكَ عَنه يَحْيَىٰ بنُ يَعْمُر[٣] .

وقالَ الْمُبَرِّدُ : حدَّثنا الْمَازِنيُّ قالَ : السَّببُ الذي وُضِعَت له أبْوابُ النَّحْوِ أنَّ بِنْتَ أبي الأسْوَد قالَت له : ما أشَدُّ الحَرِّ فقالَ : الحَصْباءُ بالرَّمْضاءِ ، قالَت : إنَّما تَعجَّبتُ من شِدَّتِه فقالَ : أوَقد لَحنَ النَّاسُ ؟ فأخْبَرَ بذلك عَليّاً رضي الله عنه فأعْطَاهُ أُصُولاً بَنَىٰ منها ، وعَملَ بَعدَه عَليها وهو أوَّلُ مَنْ نَقَطَ الْمَصَاحِفَ[٤] .

٥ـ أَوَّلُ مَنْ قَصَّ القَصَصَ :

عن ثابِت قالَ : أوَّلُ مَنْ قَصَّ عُبَيْدُ بنُ عُمَير علىٰ عَهْدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه[٥] .

---

(١) انظر السير : (أبو الأسْوَد) ٤/ ٨١ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٤٨ .
(٢) انظر السير : (أبو الأسْوَد) ٤/ ٨١ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٤٨ .
(٣) انظر السير : (أبو الأسْوَد) ٤/ ٨١ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦/ ٤٤٨ .
(٤) انظر السير : (أبو الأسْوَد) ٤/ ٨١ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٤٤٨ .
(٥) انظر السير : (عُبَيْدُ بنُ عُمَير) ٤/ ١٥٦ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٦٧ .

٦ـ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّنانِيرَ وكتبَ عليها بالقُرآنِ :

قالَ مَالكٌ : أوَّلُ مَنْ ضَربَ الدَّنانيرَ عبدُ الْمَلكِ بنُ مَرْوانَ ، وكَتبَ عليها بالقُرآن[١] .

٧ـ أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ الكتُب :

قالَ عبدُ الله بنُ أحمَد : قُلتُ لأبي : مَنْ أوَّلُ مَنْ صَنَّفَ الكُتُبَ ؟ قالَ : ابنُ جُرَيْج ، وابنُ أبي عَروبَة[٢] .

٨ـ أَوَّلُ مَنْ شَغَلَ المُلُوكَ بكتُبِ العِلْم :

وقالَ ابنُ عَدي : ولوْ لمْ يكن لابنِ إسْحاقَ من الفَضلِ إلاَّ أنَّه صَرفَ الْمُلوكَ عن الاشتغالِ بكُتبٍ لا يَحصُلُ منها شَيءٌ إلى الاشتغالِ بمَغَازي رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ومَبعَثِه ومُبتَدأ الخَلقِ ، لكانَت هـٰذه فَضيلَةٌ سَبقَ بها ، ثم مِن بَعده صَنَّفَها قَومٌ آخَرون فلَمْ يَبلُغوا مَبلَغَ ابنِ إسْحاقَ منها ، وقد فتَّشتُ أحاديثَه كَثيراً فلَمْ أجد من أحاديثِه ما يَتهيَّأ أنْ يُقطَعَ عليه بالضَّعفِ ورُبَّما أخْطأ ، أو يَهِمُ في الشَيء بعد الشَيء كما يُخطىءُ غَيرُه ولمْ يَتخلَّف في الرِّوايَة عنه الثِّقاتُ والأئمَّةُ وهو لا بَأسَ به .

ماتَ ابنُ إسْحاقَ سَنةَ خَمسينَ ومئة[٣] .

٩ـ أَوَّلُ مَنْ جَرَّحَ الرِّجَالَ وعَدَّلَهُم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي بِسْطام ، شُعْبَةَ بنِ الحَجَّاج : وكانَ أبو بِسْطام إماماً ثَبْتاً حُجَّةً ، ناقِداً ، جِهْبَذاً ، صالِحاً ، زَاهِداً قانِعاً بالقُوتِ ، رَأساً في العِلمِ والعَمَلِ ، مُنْقَطِعَ القَرينِ ، وهو أوَّلُ مَنْ جَرَحَ وعَدَّل ، أخَذَ عنه هـٰذا الشَّأنَ يَحْيَىٰ بنُ

---

(١) انظر السير : (عبد الملك بن مَرْوان) ٤/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٩٠ .

(٢) انظر السير : (ابنُ جُرَيْج) ٦/ ٣٢٥ـ ٣٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٥٤ .

(٣) انظر السير : (ابنُ إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٧٥ .

سَعيد القَطَّان ، وابنُ مَهْدي وطَائفَةٌ ، وكانَ سُفْيانُ الثَّوريُّ يَخضَعُ له ويُجِلُّه ، ويَقُولُ : شُعْبَةُ أميرُ الْمُؤمنينَ في الحَديث .

وقالَ الشَّافِعيُّ : لَوْلا شُعْبَة لَمَا عُرِفَ الحَديثُ بالعِراقِ[1] .

١٠ـ أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ مُسْنَداً :

عن أحمَدَ قالَ : أوَّلُ مَنْ عَرَفْنَاهُ يَكتُبُ الْمُسْنَدَ نُعَيمُ بنُ حَمَّاد[2] .

* * *

(١) انظر السير : (شُعْبَةُ) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٩٣ .

(٢) انظر السير : (نُعَيمُ بنُ حَمَّاد) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٩٧ .

(٣) البَرَكة

١ـ صُوَرٌ من البَرَكة :

عن عائشَةَ ، قالَت : لَمَّا قَسَّمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم سَبايَا بَني الْمُصْطَلِق ، وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ في سَهْمِ رَجُلٍ ، فكاتَبَتْهُ ، وكانَت حُلوَةً مُلاَّحَةً ، لا يَراهَا أحَدٌ إلاَّ أخَذَتْ بنَفسِه .

فأتَتْ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم تَستَعينُه ، فكَرِهْتُها ـ يَعني لِحُسْنِها ـ فقالَت : يا رَسُولَ الله ، أنا جُوَيْرِيَةُ بنتُ الحارِث ، سَيِّد قَومِه ، وقد أصَابَني من البَلاءِ ما لَمْ يَخفَ عَليكَ ، وقد كاتَبتُ ، فأعِنِّي فقالَ صلى الله عليه وسلم : « أوَخَيْرٌ مِنْ ذَلكَ ، أُؤدِّي عَنْكِ ، وَأتَزَوَّجُك » ؟ فقالَت : نَعَم ففَعلَ فبَلغَ النَّاسُ ، فقالوا : أصْهَارُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم! فأرْسَلوا ما كَانَ في أيْدِيهِم من بَني الْمُصْطَلِق فلَقَد أُعْتِقَ بها مئةُ أهْلِ بَيتٍ فمَا أعْلَمُ امْرأةً كانَتْ أعْظَمَ بَركةً علىٰ قَومِها منها[١] .

وعن أبي هُرَيْرَةَ ، قالَ : أتَيتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم بتَمراتٍ ، فقُلتُ : ادْعُ لي فِيهِنَّ يا رَسُولَ الله بالبَرَكَة فقَبَضَهُنَّ ، ثم دَعَا فيهِنَّ بالبَرَكَة ، ثم قالَ صلى الله عليه وسلم : « خُذْهُنَّ فَاجْعَلْهُنَّ فِي مِزْوَدٍ ، فَإذَا أَرَدْتَ أَنْ تَأخُذَ مِنْهُنَّ ، فَأَدْخِلْ يَدَكَ ، فَخُذْ ، وَلا تَنْثُرْهُنَّ نَثْراً » .

فقالَ : فحَملتُ من ذلكَ التَّمر كَذا وكَذا وَسَقاً[٢] في سَبيلِ الله ، وكُنَّا نَأكُلُ ونُطعِمُ ، وكانَ الْمِزْوَد مُعلَّقاً بحَقْوي[٣] ، لا يُفارِقُ حَقْوي ، فلمَّا قُتلَ عُثْمانُ ، انْقَطَع .

---

(١) انظر السير : (جُوَيْرِيَةُ أمُّ الْمُؤمنينَ) ٢/ ٢٦١ـ ٢٦٥ ، وانظر النزهة : ١/٢٥٦ .

(٢) الوَسَق : مكيلة معلومة عندهم ، يُقال : هو حِملُ بَعير ، وهو ستُّونَ صَاعاً بصَاعِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

(٣) الحِقْوُ : معقد الإزار.

قالَ التِّرْمِذيُّ حَسَنٌ غَريبٌ .

مُسنَدُه : خَمسَةُ آلافٍ وثَلاثُ مئةٍ وأرْبَعَةٌ وسَبْعونَ حَديثاً[1] .

وعن ابنِ عَبَّاس ، قالَ : مَسحَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم رَأسِي ، ودَعا لي بالحِكْمَة[2] .

وعن سَعيدِ بنِ جُبَير ، عن عبدِ الله ، قالَ : بِتُّ في بَيتِ خَالَتي مَيْمُونَة فوَضَعتُ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم غسْلاً ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَضَعَ هٰذا ؟ » قالوا : عبدُ الله فقالَ صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ التَّأوِيلَ وَفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »[3] .

وعن إسْحاقَ بنِ عبد الله بنِ أبي طَلْحَة ، حدَّثنا أنَسٌ قالَ : جاءَت بي أمُّ سُلَيم إلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قد أزَّرَتْني بنِصْفِ خِمارِها ، ورَدَتْني ببَعضِه فقالَت : يا رَسُولَ الله! هٰذا أُنَيْسٌ ابْني أتَيْتُكَ به يَخْدِمُك ، فادْعُ اللهَ له فقالَ صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ أَكثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ » فوالله إنَّ مالي لكَثيرٌ ، وإنَّ وَلَدي ووَلَدَ وَلَدي يتَعادُّونَ علىٰ نَحوٍ من مئة اليَومَ[4] .

وعن أنَسٍ ، قالَ : دَعَا لي رُسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : « اللَّهُمَّ أكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، وأَطِلْ حَيَاتَه » فاللهُ أكثرَ مالي حتَّىٰ إنَّ كَرْماً لي لَتَحملُ في السَّنَةِ مَرَّتَينِ ، ووُلِدَ لِصُلبِي مِئةٌ وسِتَّة[5] .

٢ـ مَاءُ زَمْزَمْ مُبَارَكٌ :

قالَ القاسِمُ بنُ محمَّد بنِ عبَّاد : سَمعتُ سُوَيدَ بنَ سَعيد يَقُولُ : رَأيتُ ابنَ الْمُبارَك بمَكة أتَىٰ زَمْزَمَ ، فاسْتَقَىٰ شَرْبةً ، ثم اسْتَقبَلَ القِبلَةَ ، فقالَ « اللَّهُمَّ إنَّ ابنَ أبي الْمَوال ،

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيْرَةَ) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣١٦ .
(٢) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عَبَّاس البَحْر) ٣/ ٣٣١ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٨٩ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بنُ عَبَّاس البَحْر) ٣/ ٣٣١ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣٨٩ .
(٤) انظر السير : (أنَسُ بنُ مَالِك) ٣/ ٣٩٥ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٠٠ .
(٥) انظر السير : (أنَسُ بنُ مَالِك) ٣/ ٣٩٥ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٠٠ .

حدَّثنا عن محمَّدِ بنِ الْمُنْكَدِر عن جابرٍ ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قالَ : « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَه » وهـٰذا أشْرَبُه لِعَطَشِ القِيامَة ، ثم شَرِبَه[1] .

وقالَ عبدُ الله بنُ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : رَأيتُ أبي أخَذَ قَصْعَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فغَسَلها في حُبِّ الْمَاءِ ثم شَربَ فيها ، ورَأيتُه يَشْرَبُ من مَاءِ زَمْزَمَ يَسْتشفي به ، وَيمسَحُ به يَدَيه ووَجْهَه[2] .

وقالَ الحاكِمُ : أخْبَرنا أبو بَكر مُحمَّدُ بنُ جَعْفَر ، سَمعتُ ابنَ خُزَيْمَةَ وسُئلَ : مِنْ أينَ أُوتِيتَ العِلمَ ؟ فقالَ : قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَه » وإنِّي لَمَّا شَربتُ سَألتُ اللهَ عِلماً نَافِعاً[3] .

وقالَ أبو حازِم عُمَرُ بنُ أحمَد العَبْدوبيُّ الحافِظُ : سَمعتُ الحاكِمَ أبا عبدِ الله إمامَ أهْلِ الحَديثِ في عَصرِه يَقُولُ : شَربتُ مَاءَ زَمْزَمَ ، وسَألتُ اللهَ أنْ يَرزُقَني حُسْنَ التّصْنيفِ[4] .

وقالَ الحافِظُ ابنُ عَساكِر : سَمعتُ الحُسَينَ بنَ مُحمَّد يَحْكي ، عن ابنِ خَيْرُونَ أو غَيرِه ، أنَّ الخَطيبَ ذَكَرَ أنَّه لَمَّا حَجَّ شَربَ من مَاءِ زَمْزَمَ ثَلاثَ شَرباتٍ ، وسَألَ اللهَ ثَلاثَ حَاجَاتٍ : أنْ يُحَدِّثَ بـ « تَاريخِ بَغْدَادَ » بها ، وأنْ يُمْلِيَ الحَديثَ بجَامعِ الْمَنْصُورِ ، وأنْ يُدفَنَ عندَ بِشْرٍ الحَافي فقُضيَتْ له الثَّلاثُ[5] .

* * *

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٣/٧٦٧ .
(٢) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٢٩ .
(٣) انظر السير : (ابنُ خُزَيْمَة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٠ .
(٤) انظر السير : (الحاكمُ) ١٧/ ١٦٢ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ١/١٣٣٢ .
(٥) انظر السير : (الخَطيبُ) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٢ .

(٤) التَّبَرُّك بآثارِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم والصَّالحين

١ـ صُوَرٌ من التَّبَرُّك بآثارِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم :

عن عبدِ الحَميدِ بنِ جَعْفَر ، عن أبيه ، أنَّ خالدَ بنَ الوَليد فقدَ قَلنْسُوةً لَه يَومَ اليَرْمُوك ، فقالَ : اطْلُبوها ، فلَمْ يَجدُوها ، ثم وُجدَت فإذا هي قَلنسُوة خَلِقَة فقالَ خالدٌ : اعْتَمرَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فحَلقَ رَأسَه ، فابْتَدرَ النَّاسُ شَعرَه ، فسَبَقتُهم إلىٰ ناصِيَتِه ، فجَعلتُها في هـٰذه القَلنْسوَة ، فلَمْ أشْهَدْ قِتالاً وهي مَعي إلاَّ رُزِقتُ النَّصْرَ[١] .

وقالَ لنا الحافِظُ أبو محمَّد : حَلقَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم شِقَّ رَأسِه فوَزَّعَه على النَّاسِ ، ثم حَلقَ شِقَّه الآخَر ، فأعْطاهُ أبا طَلْحَة[٢] .

عن أمِّ عَطيَّة ، قالت : لمَّا ماتَت زَيْنَبُ بنتُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اغْسِلْنَهَا وِتْرَاً ، ثَلاثاً ، أوْ خَمْسَاً ، واجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كافُوراً أوْ شَيْئاً مِنْ كافُورٍ ، فإذَا غَسَلْتُنَّهَا فَأعْلِمْنَنِي » فلمَّا غَسَّلْناها ، أعْطانا حَقْوَهُ[٣] ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَشْعِرْنَهَا إيَّاه »[٤] .

وعن أمِّ سُلَيم ، قالَت : كانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَقيلُ في بَيتِي ، وكُنتُ أبْسُطُ له نَطْعاً فيَقيلُ عَليه ، فيَعْرَقُ ، فكُنتُ آخُذُ سُكّاً فأعْجِنُهُ بعَرقِه .

قالَ ابنُ سِيرينَ : فاسْتُوهبتُ من أمِّ سُلَيم من ذلكَ السُّكِّ ، فوَهَبَتْ لي منه .

---

(١) انظر السير : (خالدُ بنُ الوَليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٧٩ .

(٢) انظر السير : (أبو طَلْحَة الأنْصاري) ٢/ ٢٧ـ ٣٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٢١٤ .

(٣) والحقو : الإزار ، وجمعها : حِقيٌّ وأَحْقٍ وأحْقاء ، والأصل في الحقو : معقد الإزار ، وسُمي الإزار حقواً لأنه يُشَدُّ على الحقو ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أشْعِرْنها إيّاه » يريد اجعلنه شعاراً لها ، وهو الثوب الذي يلي جسدها ، فالشعار الثوب الذي يلي الجسد ، والدثارُ فوق الشعار .

(٤) انظر السير : (زَينَب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٢/ ٢٤٦ـ ٢٥٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ٢٥٣ .

قالَ أيُّوبُ : فاسْتَوهَبتُ من محمَّد من ذلكَ السُّكِّ فوَهبَ لي منه ، فإنَّه عندي الآنَ .

قالَ : ولَمَّا ماتَ محمَّدٌ حُنِّطَ بذَلكَ السُّكِّ[1] .

وعن أنَسٍ : أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، دَخلَ علىٰ أمِّ سُلَيمٍ ، وقِربَةٌ مُعلَّقَةٌ ، فشَربَ منها قائماً ، فقامَت إلىٰ فِيِّ السِّقاءِ ، فقَطعَته[2] .

رَواهُ عُبَيدُ الله بنُ عَمرُو ، فزادَ : وأمْسَكَتْه عندَها[3] .

وعن أنَسٍ : أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، لَمَّا أرادَ أنْ يَحْلِقَ رَأسَه بمِنَىٰ ، أخذَ أبو طَلْحَة شِقَّ شَعْرِه ، فجاءَ به إلىٰ أُمِّ سُلَيم ، فكانَتْ تَجعَلُه في سُكِّها[4] .

وقالَت : وكانَ يَقيلُ عِندي علىٰ نَطْعٍ ، وكانَ صلى الله عليه وسلم مِعْراقاً[5] ، فجَعَلتُ أسْلِتُ العَرقَ في قارُورَة ، فاسْتَيقَظَ صلى الله عليه وسلم ، فقالَ : « مَا تَجْعَلينَ ؟ » قُلتُ : أُريد أنْ أدُوفَ[6] بعَرَقِكَ طِيبِي[7] .

وعن أبي مُوسَىٰ ، قالَ : كُنتُ عندَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بالجِعِرَّانَة ، فأتَىٰ أعْرابيٌّ فقالَ : ألا تُنْجز لي ما وَعَدتَني ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « أبْشِرْ » قالَ : قد أكثَرتَ من البُشْرَىٰ فأقبلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عليَّ وعلىٰ بِلال ، فقالَ : « إنَّ هَـٰذا قَد رَدَّ البُشْرَىٰ فَاقْبَلا أنْتُمَا » : فقَالا : قَبلنَا يا رَسُولَ الله فدَعَا بقَدَح ، فغَسَلَ يَدَيه ووَجْهَه فيه ، ومَجَّ فيه ، ثم قالَ : « اشْرَبَا مِنْهُ ، وَأَفْرِغَا عَلَىٰ رُؤوسِكمَا

---

(١) انظر السير : (أمُّ سُلَيم الغُمَيْصَاء) ٢/ ٣٠٤ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ١/٢٦٥ .

(٢) قال النووي في « رياضه » (ص٣٣٩) : (وإنما قَطعَتها لتَحفَظَ مَوضِعَ فَمِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وتَتبَرَّكَ به وتَصُونَه عن الابْتِذال) .

(٣) انظر السير : (أمُّ سُلَيم الغُمَيْصَاء) ٢/ ٣٠٤ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ٢/٢٦٥ .

(٤) انظر السير : (أمُّ سُلَيم الغُمَيْصَاء) ٢/ ٣٠٤ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٦٥ .

(٥) المعراق : كثير العرق .

(٦) وأدوفُ : أخلطُ .

(٧) انظر السير : (أمُّ سُلَيم الغُمَيْصَاء) ٢/ ٣٠٤ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ٤/٢٦٥ .

وَنُحُورِكمَا » ففعَلا! فنَادَت أمُّ سَلمَة مِنْ وَراءِ السِّترِ أنْ فَضِّلا لأمِّكُمَا ، فأفْضَلا لَهَا منه[1] .

وعن أبي رُهم : أنَّ أبا أيُّوبَ الأنْصَاريّ حَدَّثَه : أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَزَلَ في بَيتِنا الأسْفَل وكُنتُ في الغُرفَةِ ، فأُهْرِيقَ ماءٌ في الغُرفَةِ ، فقُمتُ أنا وأُمُّ أيُّوبَ بقَطِيفَةٍ لنا نَتَتَبَّعُ الماءَ ، ونَزَلتُ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ لا يَنْبَغِي أن نَكونَ فَوْقَكَ ، انتَقِلْ إلى الغُرفَة فأَمَرَ بمَتَاعِهِ فنُقِلَ ـ ومَتَاعُهُ قليل ـ قلتُ : يا رسولَ الله ، كنتُ تُرسِلُ بالطَّعامِ ، فأنظُرُ فإذا رأيتُ أثَرَ أصابِعِكَ ، وضَعتُ فيه يَدِي[2] .

وعن الْمُغيرَة بنِ شُعْبَة ، قالَ : أنا آخِرُ النَّاسِ عَهْداً برَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، لَمَّا دُفِنَ خَرجَ عَليُّ بنُ أبي طَالِب من القَبرِ ، فألْقَيتُ خَاتَمِي ، فقُلتُ : يا أبَا الحَسَن خَاتَمي! قالَ : انْزِلْ فَخُذْه ، قالَ : فمَسَحتُ يَدي على الكَفَنِ ، ثمَّ خَرَجتُ[3] .

وعن عبدِ الأعْلَىٰ بنِ مَيْمونَ بنِ مِهْرانَ : عن أبيه ، أنَّ مُعاويَةَ أوْصَىٰ فقالَ : كُنتُ أُوَضِّىءُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فنَزعَ قَميصَه وكَسَانيه ، فرَفَعتُه وخَبَّأتُ قُلامَةَ أظْفَارِه ، فإذَا مِتُّ فألْبِسُوني القَميصَ علىٰ جِلْدي ، واجْعَلوا القُلامَةَ مَسْحُوقَةً في عَيْنَيَّ ، فعَسَى الله أنْ يَرحَمَني ببَرَكتِها[4] .

قال محمدُ بنُ سِيرين : قلتُ لعَبيدَة بن عَمرو : إنَّ عِندَنا من شَعرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من قِبَلِ أنسِ بنِ مالك ، فقال : لأَنْ يَكونَ عِندي مِنْهُ شَعرَةٌ أَحَبُّ إليَّ من كُلِّ صَفْراءَ وبيْضَاءَ علىٰ ظَهرِ الأرض .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : هٰذا القَولُ من عُبَيْدَة هو مِعْيارُ كَمَالِ الحُبّ ، وهو يُؤثِرُ شَعرَةً نَبَوِيَّةً علىٰ كُلِّ ذهبٍ وفِضَّةٍ بأَيْدِي النَّاس .

---

(١) انظر السير : (أبو مُوسَى الأشْعَرِيّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٧٩ .
(٢) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاري) ٢/ ٤٠٢ـ ٤١٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٨٢ .
(٣) انظر السير : (الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٢٤ .
(٤) انظر السير : (مُعاويَةُ بنُ أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٧/ ٣٥٦ .

ومِثلُ هـٰذا يقُولُه الإمامُ بعدَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بخَمسينَ سنةً ، فما الذي نَقُولُه نحنُ في وقتِنا لو وَجَدْنا بعضَ شَعرِه بإسْنادٍ ثابت ، أو شِسْعَ نعلٍ كان له ، أو قُلامَةَ ظُفرٍ أو شَقْفَةً من إناءٍ شَرِبَ فيه صلى الله عليه وسلم فلَو بَذَلَ الغَنيُّ مُعظَمَ مالِه في تحْصيلِ شيء من ذلك عِندَه أكُنتَ تَعُدُّه مُبَذِّراً أو سَفِيهاً ؟ كلاَّ فابذُل مالَكَ في زَورَةِ مسجِدِه الذي بنى فيه بيَدِه والسَّلامِ عليه عندَ حُجرَتِه في بَلَدِه ، والتَذَّ بالنَظَرِ إلىٰ أُحُدِه وأحِبَّه ، فقد كان نبيُّكَ صلى الله عليه وسلم يُحِبُّه وتَمَلأَ بالحُلُولِ في رَوضَتِه ومقعَدِه ، فلَنْ تكونَ مُؤمِناً حتّىٰ يكونَ هـٰذا السيِّدُ أحَبَّ إليكَ من نفسِك وولَدِك وأموالِك والنَّاسِ كلِّهم وقَبِّلْ حَجَراً مُكَرَّماً نزَلَ من الجَنَّة ، وضَعْ فَمَكَ لاثِماً مكاناً قَبَّلَه سَيِّدُ البَشَر بيَقِين ، فهنَّأكَ الله بما أعطاك ، فما فوقَ ذلك مَفْخَر ولو ظَفِرنا بالمِحجَن الذي أشَارَ به الرسولُ صلى الله عليه وسلم إلى الحَجَرِ ثمَّ قَبَّلَ مِحْجَنَه ، لحُقَّ لنا أنْ نَزدَحِمَ علىٰ ذلك المِحْجَن بالتَّقْبيل والتَّبْجيل ، ونحن نَدْرِي بالضَّرُورة أنَّ تَقبيلَ الحَجَرِ أرْفَعُ وأفْضَلُ من تَقْبيل مِحْجَنِه ونَعْلِه صلى الله عليه وسلم .

وقد كان ثابتٌ البُنَانيُّ إذا رَأىٰ أنَسَ بنَ مالك أخَذَ يَدَه فَقَبَّلَها ويقولُ يدٌ مَسَّتْ يَدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فنقولُ نَحنُ إذْ فاتَنا ذلك : حَجَرٌ مُعَظَّمٌ بمَنزِلَةِ يَمِينِ اللهِ في الأرضِ مَسَّته شَفَتَا نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم لاثِماً له ، فإذا فاتَكَ الحَجُّ وتَلَقَّيتَ الوَفْدَ فالْتَزِم الحَاجَّ وقَبِّل فَمَه ، وقُلْ : فمٌ مَسَّ بالتَّقبيل حَجَراً قَبَّلَه خَلِيلِي صلى الله عليه وسلم[1] .

وقالَ عبدُ الله بنُ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : رَأيتُ أبي يأخُذُ شَعْرةً من شَعْرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فيَضَعُها علىٰ فِيه يُقبِّلُها وأحْسَبُ أنِّي رأيتُه يَضَعُها علىٰ عَيْنَيْه ، ويَغْمِسُها في الْماءِ ويَشْرَبُه يَسْتَشفي به[2] .

ورَأيتُه أخَذَ قَصْعَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فغَسَلها في حُبِّ الْمَاءِ ثم شَربَ فيها ،

---

(١) انظر السير : (عَبيدة بن عَمرو) ٤/ ٤٠ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/٤٣٩ .

(٢) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٥/٩٢٨ .

ورأيتُه يَشْرَبُ من مَاءِ زَمْزَمَ يَسْتشفي به ، وَيمسَحُ به يَدَيه ووَجْهَه[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أينَ الْمُتَنطِّعُ الْمُنكِرُ علىٰ أحمَدَ ، وقد ثَبتَ أنَّ عبدَ اللهِ سَألَ أباه عَمَّن يَلمَسُ رُمَّانَةَ مِنْبَرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ويَمَسُّ الحُجْرَةَ النَّبويَّةَ ، فقالَ : لا أرَىٰ لِذَلكَ بَأساً أعَاذَنا اللهُ وإيَّاكم من رَأي الخَوَارجِ ومن البِدَع[2] .

قال : وقد صار إليَّ شَعْرٌ من شَعْرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في كُمِّ قَميصي ، فوَجَّه إليَّ إسْحاقُ بنُ إبراهيم ، يقول : ما هـٰذا المَصْرورُ ؟ قلتُ : شَعْرٌ من شَعرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وسَعَىٰ بعضُهم ليَخْرقَ القَميصَ عنِّي ، فقال المُعْتَصمُ : لا تَخْرقوه ، فنُزِعَ ، فظَنَنْتُ أنه إنَّما دُرِىءَ عن القَميص الخَرق بالشَّعْر قال : وجَلَسَ المُعْتَصمُ علىٰ كُرسيٍّ ثم قال : العُقابَيْن والسِّياط ، فجِيءَ بالعُقابَين ، فمُدَّت يَدايَ ، فقال : بعضُ مَنْ حَضرَ خَلفي : خُذْ ناتِىءَ الخَشَبتَين بيَدَيك ، وشُدَّ عليهما ، فلمْ أفْهَم ما قال ، فتخَلَّعَتْ يَداي[3] .

وقال الخَلاَّلُ : أخْبَرني عِصْمَةُ بنُ عِصَام ، حدَّثنا حَنْبَل ، قالَ : أعْطَىٰ بَعضُ وَلَدِ الفَضْلِ بنِ الرَّبيع أبا عبدِ الله أحمدَ بنَ حَنْبَل ، وهو في الحَبسِ ثَلاثَ شَعْراتٍ ، فقالَ : هـٰذه من شَعْرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأوْصَىٰ أبو عبد الله عند مَوتِه أنْ يُجعَلَ علىٰ كُلِّ عَينٍ شَعرَةً ، وشَعرَةً علىٰ لِسَانِه ففُعلَ ذلكَ به عند مَوتِه .

وقالَ عبدُ الله بنُ أحمَد ومُطيِّنٌ وغَيرُهما : ماتَ لاثنتَي عَشرَةَ خَلتْ من رَبيع الأوَّل ، يَومَ الجُمُعَة .

قالَ صالحُ بنُ أحمَد : واشْتَرينَا له حَنُوطاً ، وفُرِغَ من غُسْلِه ، وكفَّنَّاه وحضَر نَحوُ مئة من بَني هاشِم ، ونَحنُ نُكفِّنُه وجَعلوا يُقبِّلُونَ جَبهَتَه حتَّىٰ رَفعْناهُ على السَّريرِ .

قالَ عبدُ الله : صَلَّىٰ علىٰ أبي مُحمَّدُ بنُ عبد الله بنِ طاهِر ، غَلبَنا على الصَّلاةِ عَليه ، وقد كُنَّا صَلَّينا عليه نَحنُ والهاشِميُّونَ في الدَّار ، ولَمْ يَعلَم النَّاسُ بذلكَ ،

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٢٩ .
(٢) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٢٩ .
(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٨ .

فلمَّا كانَ في الغَدِ عَلِموا ، فجَعلوا يَجيؤُونَ ، ويُصَلُّونَ على القَبرِ ومَكثَ النَّاسُ ما شَاءَ الله ، يَأتُونَ ، فيُصلُّونَ على القَبرِ[1] .

قالَ محمَّدٌ الورَّاقُ : دَخلَ أبو عبد الله محمَّدُ بنُ إسْماعيلَ البُخاريُّ بِفِرَبْر الحمَّامَ ، وكنتُ أنا في مَشْلَح الحمَّامِ ، أتَعاهَدُ عليه ثيابَه ، فلمَّا خَرجَ ناوَلتُه ثيابَه ، فلَبسَها ثم ناوَلتُه الخُفَّ ، فقالَ : مَسَسْتَ شَيئاً فيه شَعرُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقُلتُ : في أيِّ مَوْضِعٍ هو من الخُفِّ ؟ فلَمْ يُخبِرْني ، فتَوَهَّمتُ أنَّه في سَاقِه بينَ الظِّهارَة والبِطَانَة[2] .

وقالَ الْمُسبِّحيُّ : لَمَّا غُسِّلَ الوَزيرُ ابنُ حِنْزابَة جُعلَ فيه ثَلاثُ شَعراتٍ من شَعرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كانَ أخَذَها بمَالٍ عَظيم .

وحِنْزابَة : جاريَةٌ هي وَالِدَةُ الفَضْلِ الوَزير ، وفي اللُّغَة : الحِنْزابَة هي القَصيرَة السَّمينَة[3] .

٢ـ صُوَرٌ من التَّبرُّك بالصَّالحين وآثارِهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يَحْيَى بن يَحْيَىٰ : وبَلغَنا أنَّ يَحْيَىٰ أوْصَىٰ بثيابِ بَدَنِه لأحمَدَ بنِ حَنْبَل ، فلمَّا قَدِمَتْ علىٰ أحمَد ، أخَذَ منها ثَوباً واحداً للبَرَكَة ، ورَدَّ الباقي ، وقالَ : إنَّه لَيسَ تَفصيلُ ثيابِه من زِيِّ بَلدِنا[4] .

وقالت فاطمةُ بنتُ أحمدَ بن حَنْبَل : وقع الحَريقُ في بيتِ أخي صالح ، وكان قد تزَوَّجَ بفَتِيَّة ، فحَملوا إليه جهَازاً شَبيهاً بأربعة آلاف دينار فأكلَتْهُ النَّارُ ، فجَعلَ صالحٌ يقولُ : ما غَمَّني ما ذهب إلاَّ ثوبٌ لأبي كان يُصَلِّي فيه أتَبَرَّكُ به وأصَلِّي فيه قالت : فطُفِيءَ الحَريقُ ، ودَخَلوا فوَجَدوا الثَّوبَ علىٰ سَريره قد أكلَت النَّارُ ما حَوْلَه وسَلِمَ[5] .

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٤٩ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريُّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠١٧ .
(٣) انظر السير : (ابنُ حِنْزابَة) ١٦/ ٤٨٤ـ ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٣٠٧ .
(٤) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ) ١٠/ ٥١٢ـ ٥١٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٨٩ .
(٥) انظر السير : (أحمدُ بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣١ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يَحْيَىٰ بنِ مُجاهِد: ذكرَه ابنُ بَشكوال في غير « الصِّلَة » ، فقال : زاهِدُ عَصرِه ، وناسِكُ مِصْرِه ، الذي به يَتبَرَّكونَ ، وإلىٰ دُعائِه يَفزَعُون .

كانَ مُنقَطِعَ القَرين ، مُجابَ الدَّعوَة ، جُرِّبَت دَعوَتُه في أشْياءَ ظَهَرَت ، حَجَّ وعُنِيَ بالقِراءاتِ والتَّفسيرِ ، وله حَظٌّ من الفِقْه ، لكنْ غَلبَتْ عليه العِبادَة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ : قالَ محمَّدُ بنُ عبدِ الْمَلكِ الهَمَذانيُّ : نَدبَ الْمُقْتَدي بالله أبا إسْحاقَ للرسْليَّة إلى الْمُعَسكَرِ ، فتَوجَّه في آخِرِ سَنةِ خَمسٍ وسَبعينَ ، فكانَ يَخرُجُ إليه أهْلُ البَلدِ بنِسائهم وأوْلادِهم يَمْسَحونَ أرْدانَه[2] ، ويأخُذُونَ تُرابَ نَعلَيْه يَسْتَشفُونَ به ، وخَرجَ الخَبَّازُونَ ، ونَثَروا الخُبز ، وهو يَنْهاهُم ولا يَنتَهُونَ ، وخَرجَ أصْحابُ الفَاكِهَة والحَلْواءِ ، ونَثَروا علىٰ (أبي إسْحاقَ وصَحْبه ، ومَرُّوا علىٰ)[3] الأسَاكِفَة وعَملوا مَدَاسَاتٍ صِغَاراً ، ونَثَرُوها ، وهي تَقَعُ علىٰ رُؤوسِ النَّاسِ ، والشَّيْخُ يُعجَبُ ، وقالَ لنَا : رَأيتُم النُّثَّارَ ، ما وَصلَ إلَيكُم منه ؟ فقَالُوا : يا سَيِّدي! وأنتَ أيُّ شَيءٍ كانَ حَظُّكَ منه ؟ قالَ : أنا غَطَّيتُ نَفسِي بالْمِحَفَّة .

وكان أهل سبتة يتغالون فيه ، ويتبركون برؤيته رحمه الله[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَجْريِّ : وكانَ أهلُ سَبْتَة يَتَغالونَ فيه ، ويتَبَرَّكونَ برُؤيَتِه ، رَحمَهُ الله[5] .

---

(١) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مُجاهِد) ١٦/ ٢٤٤ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٩١ .

(٢) الأرْدان : جَمع ردن ، وهو أصْلُ الكُمِّ .

(٣) قالَ صاحبُ « النُّزهَة » : ما بينَ القَوسين زيادة متعينة ليُفهَم السياق ، وانظر الخبرَ بسياقٍ أحسن في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » للسُّبكي (٤/ ٢٢٠) .

(٤) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الشِّيرازي) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٤٣٠ .

(٥) انظر السير : (الحَجْريُّ) ٢١/ ٢٥١ـ ٢٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦١٧ .

٣ـ الاسْتشْفاء بآثارِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم :

وقالَ عبدُ الله بنُ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : رَأيتُ أبي يأخُذُ شَعْرةً من شَعْرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فيَضَعُها علىٰ فِيه يُقبِّلُها وأحْسَبُ أنِّي رأيتُه يَضَعُها علىٰ عَيْنَيْه ، ويَغْمِسُها في الْماءِ ويَشْرَبُه يَسْتَشفي به[١] .

٤ـ التَّبَرُّك بمُصافَحَةِ الصَّالحين :

وقال أبو عَمرو بنُ نُجَيد : سَمعتُ أبا عُثمانَ سَعيدَ بنَ إسْماعيلَ يقولُ : تَقدَّمتُ لأُصافحَ أبا عبدِ الله البُوشَنْجي تَبرُّكاً ، فقَبَضَ عَنِّي يَدَه ، ثم قال : يا أبا عُثمان! لَستُ هُناك[٢] .

٥ـ التَّبَرُّك بالدَّفْنِ بِجِوار الصَّالحين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الله بنِ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : ماتَ ودُفِنَ في مَقابِر التِّبْن[٣] ، وكان الجَمعُ فَوقَ الْمِقْدار .

وقيلَ : إنَّه أمَرَهم أنْ يَدفِنُوهُ هُناكَ ، وقالَ : بَلغَني أنَّ هُناكَ قَبرَ نَبيٍّ ، ولأنْ أكُونَ في جِوارِ نَبيٍّ أحَبُّ إليَّ أنْ أكُونَ في جِوارِ أبي[٤] .

وقالَ الحافِظُ ابنُ عَساكِر : سَمعتُ الحُسَينَ بنَ مُحمَّد يَحْكي ، عن ابنِ خَيْرُونَ أو غَيرِه ، أنَّ الخَطيبَ ذَكَرَ أنَّه لَمَّا حَجَّ شَربَ من مَاءِ زَمْزَمَ ثَلاثَ شَرباتٍ ، وسَألَ اللهَ ثَلاثَ حَاجَاتٍ : أنْ يُحَدِّثَ بـ « تَاريخِ بَغْدَادَ » بها ، وأنْ يُمْلِيَ الحَديثَ بجَامعِ الْمَنْصُورِ ، وأنْ يُدفَنَ عندَ بِشْرِ الحَافي فقُضيَتْ له الثَّلاثُ[٥] .

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٥/٩٢٨ .
(٢) انظر السير : (البُوشَنْجي) ١٣/ ٥٨١ـ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١١١٨ .
(٣) باب التِّبْن : محلَة كبيرة كانت ببغداد على الخندق بإزاءه قطيعة أم جعفر .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ أحمَد) ١٣/ ٥١٦ـ ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ١/١١١٤ .
(٥) انظر السير : (الخَطيبُ) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٢ .

وقال أبو البَرَكَات إسْماعيلُ بنُ أبي سَعْد الصُّوفيُّ : كانَ الشَّيخُ أبو بَكْر بنُ زَهْراء الصُّوفيُّ بِرباطِنا ، قد أعدَّ لنَفسه قَبراً إلىٰ جانبِ قَبرِ بِشْر الحافي ، وكان يَمضي إليه كلَّ أُسبوع مرةً ، ويَنامُ فيه ، ويَتلُو فيه القُرآنَ كُلَّه ، فلمَّا ماتَ أبو بَكْر الخَطيبُ ، كانَ قد أوْصَىٰ أنْ يُدفَن إلىٰ جَنبِ قَبرِ بِشْر ، فجاءَ أصْحابُ الحَديثِ إلى ابنِ زَهْراءَ ، وسَألوهُ أنْ يَدفِنُوا الخَطيبَ في قَبرِه ، وأن يُؤثِرَه به ، فامْتَنعَ ، وقالَ : مَوْضعٌ قد أعْدَدتُه لِنَفْسي يُؤخَذُ منِّي! فجَاؤُوا إلىٰ وَالِدي ، وذَكروا له ذلك فأحْضرَ ابنَ زَهْراء وهو أبو بَكر أحمَدُ بنُ عَليّ الطُّرَيْثِيثِيُّ فقالَ : أنا لا أقولُ لكَ أعْطِهِم القَبرَ ، ولكن أقُولُ لكَ : لَوْ أنَّ بِشْراً الحَافِي في الأحْياءِ وأنتَ إلىٰ جانبه ، فجاءَ أبو بَكر الخَطيبُ ليَقْعُدَ دُونَك ، أكانَ يَحسُنُ بكَ أنْ تَقعُدَ أعْلَىٰ منه ؟ قالَ لا ، بل كُنتُ أُجْلِسُه مَكاني قالَ : فهَكَذا يَنبَغي أنْ تَكُونَ السَّاعَة قالَ : فطَابَ قَلبُه ، وأَذِنَ[1] .

* * *

(١) انظر السير : (الخَطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٤١٤ .

(٥) الجِنّ

١ـ قِراءتُهم القُرآنَ على الإنْسِ :

عن أبي الفَضْل الجَوْهَريِّ الوَاعِظِ ، قالَ : كُنتُ أتَردَّدُ إلى الخِلَعِيِّ فقُمتُ في لَيلَةٍ مُقمِرَةٍ ظَنَنتُ الصُّبحَ ، فإذا عَلىٰ بابِ مَسْجِدِه فَرَسٌ حسَنةٌ فصَعَدتُ ، فوَجَدتُ بينَ يَدَيه شَاباً لَمْ أرَ أحْسَنَ منه يَقرأُ القُرآنَ ، فجَلستُ أسْمَعُ إلىٰ أنْ قَرأ جُزءاً ، ثم قالَ لِلشَّيْخِ : آجَرَكَ اللهُ قالَ : نَفَعَكَ اللهُ ، ثم نَزلَ ، فنَزلتُ خَلفَه ، فلمَّا اسْتَوَىٰ على الفَرَسِ ، طارَتْ به فغُشيَ عليَّ ، والقاضي يَصيحُ بي : اصْعَدْ يا أبا الفَضْل ، فصَعدتُ ، فقالَ : هـٰذا من مُؤمِنِي الجِنِّ ، يَأتي في الأسبُوعِ مرَّة يَقرأ جُزءاً ويَمضي[1] .

وحكَى ابنُ عَقيل عن نَفسِه قالَ : كانَ عِندَنا بالظَّفَريَّة دَارٌ ، كلَّما سَكنَها نَاسٌ أصْبَحُوا مَوْتَىٰ فجَاءَ مرَّة رَجلٌ مُقرىءٌ ، فاكْتَراها ، وارْتَضىٰ بها ، فبَاتَ بها وأصْبحَ سالِماً ، فعَجِبَ الجِيرانُ ، وأقامَ مُدَّة ، ثم انْتَقلَ ، فسُئلَ فقالَ : لَمَّا بِتُّ بها ، صَلَّيتُ العِشاءَ ، وقَرأتُ شَيئاً ، وإذا شَابٌّ قد صَعدَ من البئْر ، فسَلَّمَ عليَّ ، فبُهِتُّ ، فقالَ : لا بَأسَ عَليكَ ، عَلِّمْني شَيئاً من القُرآنِ ، فشَرَعتُ أُعلِّمُه ، ثم قُلتُ : هـٰذه الدَّارُ كيفَ حَديثُها ؟ قالَ : نحنُ جِنٌّ مُسْلمونَ ، نَقرأُ ونُصَلِّي ، وهـٰذه الدَّارُ ما يكتَريها إلاَّ الفُسَّاقُ فيَجتَمِعونَ على الخَمرِ ، فنَخنُقُهم ، قُلتُ : ففي اللَّيلِ أخَافُك ، فَجِىءْ نَهاراً ، قالَ : نَعَم ، فكانَ يَصْعَدُ من البئرِ في النَّهارِ ، وألِفْتُه فبَينَما هو يَقرَأ ، إذا بِمُعَزِّمٍ في الدَّربِ يَقُولُ : الْمُرْقِي من الدَّبيبِ ، ومنَ العَينِ ومن الجِنِّ ، فقالَ : أيشٍ هـٰذا ؟ قُلتُ : مُعَزِّمٌ ، قالَ : اطْلُبهُ ، فقُمتُ وأدْخَلتُه ، فإذا بالجِنِّيِّ قد صارَ ثُعباناً في السَّقفِ ، فعَزَّمَ الرَّجُلُ ، فمَا زَالَ الثُّعْبانُ يَتدَلَّىٰ حتَّىٰ سَقطَ في وَسَطِ الْمِندَل ، فقامَ ليَأخُذَه ويَضَعَه في الزِّنْبيلِ ، فمَنَعتُه ، فقالَ : أتَمنَعُني من صَيْدي ؟! فأعْطَيتُه ديناراً ورَاحَ ، فانْتَفضَ الثُّعْبانُ ، وخَرجَ الجِنِّيُّ ، وقد ضَعُفَ واصْفَرَّ وذَابَ ، فقُلتُ : مَالَك ؟ قالَ : قَتَلَني

---

(١) انظر السير : (الخِلَعِيُّ) ١٩/ ٧٤ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٦١ .

هٰذا بهٰذه الأسَامي ، وما أظُنُّني أُفلِح ، فاجْعَلْ بالَكَ اللَّيلَةَ مَتىٰ سَمعتَ في البئرِ صُراخاً ، فانْهَزِمْ ، قالَ : فسَمعتُ تِلكَ اللَّيلَة النَّعْيَ فانْهَزَمتُ قالَ ابنُ عَقيل : وامْتَنعَ أحَدٌ أنْ يَسكُنَ تِلكَ الدَّارَ بَعدَها[1] .

٢ـ رُقْيَةٌ تَرْقِي من الجِنِّ :

عن أبي العالِيَة : أنَّ خالِد بنَ الوَليد قالَ يا رَسُولَ الله إنَّ كائداً من الجِنِّ يَكيدُني قال صلى الله عليه وسلم : « قُلْ : أعُوذُ بِكلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا ذَرَأ فِي الأرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْها ، ومِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِي السَّمَاءِ وَمَا يَنْزِلُ مِنْهَا ، وَمِنْ شَرِّ كلِّ طَارِقٍ إلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَـٰنُ » ففَعلتُ فأذْهَبَه اللهُ عنِّي[2] .

٣ـ مَنْ سَاءَه منهم قِراءةُ آية الكرْسيِّ :

قالَ عَبَّاسٌ الدُّوريُّ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، يَقُولُ : كُنتُ إذا دَخلتُ مَنْزِلي باللَّيلِ ، قَرأتُ آيَةَ الكُرسيِّ علىٰ دَارِي وعِيالِي خَمسَ مَرَّاتٍ ، فبَيْنا أنا أقْرَأ ، إذا شَيءٌ يُكلِّمُني : كَمْ تَقرَأ هَـٰذا ؟ كَأنْ لَيسَ إنْسانٌ يُحْسِنُ يَقرَأُ غَيرُك ؟ فقُلتُ : أرَىٰ هَـٰذا يَسُوءُك ؟ والله لأزيدَنَّك فصِرتُ أقْرَؤُها في اللَّيلَة خَمسينَ سِتِّينَ مَرَّة[3] .

٤ـ عَالِمٌ أحَدُ أبَوَيْه جِنِّيٌّ :

قالَ أبو بَكر الخَلاَّل : سَمعتُ أبا بَكر الْمَرُّوذيَّ يَقُولُ : قالَ الأثْرَمُ : كُنتُ أحفَظُ ـ يَعني الفِقْهَ والاختِلاف ـ فلمَّا صَحبتُ أحمدَ بنَ حَنْبَل تَركتُ ذلكَ كلَّه . وكانَ مَعه تَيقُّظٌ عَجيبٌ ، حتَّىٰ نَسبَه يَحْيَىٰ بنُ مَعين ، ويَحْيَىٰ بنُ أيُّوبَ الْمُقابريُّ ، فقالَ : كانَ أحَدُ أبَوَي الأثْرَم جِنِّياً[4] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ عَقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/ ١٤٩٩ .
(٢) انظر السير : (خالِدُ بنُ الوَليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٧٨ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩١٢ .
(٤) انظر السير : (الأثْرَم) ١٢/ ٦٢٣ـ ٦٢٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٤١ .

٥ـ مِنْ أخْبَارِ الجِنّ :

عن عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها : أنَّها قَتَلت جَاناً ، فأُتِيَتْ في مَنامِها : واللهِ لَقدْ قَتَلتِ مُسْلِماً .

قالَت : لَوْ كانَ مُسْلِماً لَمْ يَدخُلْ علىٰ أزْوَاجِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

فقيلَ : أوَكانَ يَدخُلُ عَليكِ إلاَّ وعَليك ثِيابُك .

فأصْبَحَت فَزِعَةً ، فأمَرَتْ باثنَيْ عَشرَ ألفَ دِرْهَم فجَعَلتهَا في سَبيلِ الله .

وعن عائشَةَ بنتِ طَلْحَة ، قالَت : كانَ جانٌّ يَطلُعُ علىٰ عائشَةَ ، فحَرَّجَتْ عليه مَرَّةً ، بعدَ مَرَّة ، بَعدَ مَرَّة ، فأبَىٰ إلاَّ أنْ يَظهَر ، فعَدَت عليه بحَديدَة ، فقَتلَته فأُتِيَت في مَنامِها ، فقيلَ لهَا ، أقَتَلتِ فُلاناً ، وقد شَهِدَ بَدْراً ، وكانَ لا يَطلُعُ عَليكِ ، لا حاسِراً ولا مُتَجَرِّدَة ، إلاَّ أنَّه كانَ يَسمَعُ حَديثَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فأخَذَها ما تَقدَّم وما تَأخَّر فذَكرَت ذلكَ لأبيها فقالَ : تَصدَّقي باثنَي عَشرَ ألفاً دِيَتِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : الإسنادُ الأوَّلُ أصَحُّ وما أعْلمُ أحَداً اليومَ يَقُولُ بوُجُوبِ دِيَة في مثل هـٰذا[1] .

وقالَ عاصِمُ بنُ كُلَيب الجَرميُّ : حدَّثني أبي : أنَّه أبْطَأ علىٰ عُمَرَ خَبرُ نَهاوَنْد وابنِ مُقَرِّن ، وأنَّه كانَ يَستَنصِرُ ، وأنَّ النَّاسَ كانُوا ، مِمَّا يَرَونَ من اسْتِنْصارِه ، لَيسَ هَمُّهم إلاَّ نَهاوَنْد وابنِ مُقَرِّن ، فجاءَ إليهم أعْرابيٌّ مُهاجِرٌ ، فلمَّا بَلغَ البَقيعَ ، قالَ : ما أتَاكُم عن نَهاوَنْد ؟ قالوا : وما ذَاكَ ؟ قالَ : لا شَيء فأرْسَلَ إليه عُمَرُ ، فأتاه ، فقالَ : أقْبَلتُ بأهْلِي مُهاجِراً حتَّىٰ وَرَدْنا مكانَ كَذا وكَذا ، فلمَّا صَدَرْنا إذا نَحنُ براكِبٍ علىٰ جَمَلٍ أحْمَر ، ما رَأيتُ مثلَه ، فقُلتُ : يا عبدَ الله ، من أينَ أقْلبتَ ؟ قالَ من العِراقِ ، قُلتُ : ما خَبرُ النَّاسِ ؟ قالَ : اقْتَتلَ النَّاسُ بنَهاوَنْد ، ففتَحَها اللهُ ، وقُتلَ ابنُ مُقَرِّن ، واللهِ ما أدْري أيُّ النَّاسِ هُوَ ؟ ولا ما نَهاوَنْد ؟

فقالَ : أتَدري أيُّ يَومٍ ذاكَ من الجُمُعَة ؟ قالَ : لا قالَ عُمَرُ : لكنِّي أدْري ! عُدَّ مَنَازِلَك .

---

(١) انظر السير : (عائشَةُ أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٤٥ .

قالَ : نَزلنا مَكانَ كَذا ، ثم ارْتَحَلْنا ، فنزَلنا مَنزِلَ كَذا ، حتَّىٰ عَدَّ فقالَ عُمَرُ : ذاكَ يَومُ كَذا وكَذا من الجُمُعَة ، لَعلَّكَ تَكونُ لَقيتَ بَريداً من بُرُدِ الجِنِّ ، فإنَّ لَهُم بُرُداً فلَبثَ ما لَبثَ ، ثم جاءَ البَشيرُ : بأنَّهم الْتَقوا ذَلكَ اليَومَ[1] .

وعن حَميدِ بنِ هِلال عن رَجُلٍ كأنَّه أبو رِفَاعَة ، قالَ : كانَ لي رِئيٌّ[2] من الجِنِّ ، فأسْلَمتُ ففَقَدتُه ، فوَقَفتُ بعَرَفَة فسَمعتُ حِسَّه ، فقالَ : أشَعرتَ أنِّي أسْلَمتُ ؟ قالَ : فلمَّا سَمِعَ أصْوَاتَ النَّاسِ يَرْفَعُونَها ، قالَ عَليكَ الخُلُقَ الأسَدَّ ، فإنَّ الخَيرَ لَيسَ بالصَّوْتِ الأشَدِّ[3] .

وعن عَمَّارَ بنِ أبي عَمَّار ، سَمعتُ أمَّ سَلمَة تَقولُ : سَمعتُ الجِنَّ يَبكينَ علىٰ حُسَين ، وتَنُوحُ عَليه[4] .

وعن مُجَاهِد بنِ جَبْر : بَيْنا أنا أُصَلِّي إذ قامَ مثلُ الغُلامِ ذاتَ لَيلَة ، فشَدَدتُ عليه لآخُذَه ، فوَثَبَ فوَقَعَ خَلفَ الحائطِ حتَّىٰ سَمعتُ وَجْبَتَه ، ثم قالَ : إنَّهم يَهَابُونَكُم كَمَا تَهَابُونَهم من أجلِ مُلكِ سُلَيْمان .

وقالَ حميدٌ الأعْرَج : كانَ مُجاهِدُ بنُ جَبْر رَحمَهُ اللهُ يُكبِّرُ من سُورةِ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾[5]،[6] .

لمَّا هَمَّ المُسلِمون بالهَزيمَةِ كَشَفَ مُوسَىٰ بنُ نُصَيْر سُرادِقَه عن بَنَاتِه وحَرَمِه ، وبَرَزَ ورَفَعَ يَدَيْه بالدُّعاءِ والتَّضَرُّع والبُكاءِ ، فكُسِرَتْ بينَ يَدَيْه جُفُونِ السُّيوفِ وصَدَقُوا اللِّقاءَ ونَزَلَ النَّصرُ ، وغَنِمُوا ما لا يُعَبَّرُ عَنه ، من ذلك مائِدَةُ سُلَيْمانَ عليه السلام من ذَهَبٍ وجَوَاهِر ، وقِيلَ : ظَفَرَ بسِتَّةَ عَشَرَ قُمْقُماً عليها خَتمُ سُلَيْمانُ عليه السلام ففَتَحَ أربَعَةً ونَقَبَ منْها واحِداً فإذا شَيْطانٌ يقولُ : يا نَبِيَ الله لا أَعُودُ أُفْسِدُ في الأَرضِ ثمَّ نَظَرَ فقال :

---

(١) انظر السير : (النُّعمانُ بنُ مُقَرِّن) ٢/ ٣٥٦ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٧٤ .

(٢) يُقالُ للتابع من الجن : رِئي ، سُمي به لأنه يتراءىٰ لمتبوعه ، أو هو من الرأي ، من قولهم : فلان رئيُّ قومه إن كان صاحب رأيهم .

(٣) انظر السير : (أبو رِفاعَة العَدَوِيّ) ٣/ ١٤ـ ١٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣٢٠ .

(٤) انظر السير : (الحُسَينُ الشَّهيد) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٨٥ .

(٥) أي عند خَتم القُرآن .

(٦) انظر السير : (مُجَاهِدُ بنُ جَبْر) ٤/ ٤٤٩ـ ٤٥٧ ، وانظر النزهة : ٦/ ٥٣٠ .

والله ما أَرَىٰ سُلَيْمانَ ولا مُلْكَه ، وذَهَبَ ، فطُمِرَت البَوَاقِي[1] .

وقالَ مَالِكٌ : اسْتُعمِلَ زَيدُ بنُ أَسْلَم علىٰ مَعدن بَني سُلَيم ، وكان معذراً لا يَزالُ يُصابُ فيه النَّاسُ من قِبَل الجِنِّ فلمَّا وَلِيَهُم شَكَوا ذلك إليه ، فأمَرَهم بالأذَانِ أنْ يؤُذِّنوا ويَرفَعُوا أَصْواتَهم ، ففَعلوا ، فارْتَفَعَ عَنهم ذلك حتَّى اليومَ .

قالَ مَالكٌ : أَعْجَبَني ذلكَ من مَشُورَة زَيْدِ بنِ أَسْلَم[2] .

وقالَ عُمَرُ بنُ بَحْر : سَمعتُ أحمَدَ بنَ أبي الحَوَاريِّ يَقُولُ : بَيْنا أنا في قُبَّة بالْمَقابِر بلا بابٍ إلاَّ كسَاءً أَسْبَلْتُه ، فإذا أنا بامْرأةٍ تَدُقُّ على الحائط فقُلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالَت : ضَالَّةٌ ، فدُلَّني على الطَّريقِ فقُلتُ : رَحِمَكِ اللهُ ، أيُّ الطَّريقِ تَسْلُكينَ ، فبَكَت ، ثم قالَت : علىٰ طَريقِ النَّجاةِ يا أحمَدُ ، قُلتُ : هَيْهاتَ! إنَّ بَيْنَنا وبَينَها عقاباً ، وتلكَ العقابُ لا تُقطَعُ إلاَّ بالسَّيرِ الحَثيثِ ، وتَصْحيحِ الْمُعامَلَة ، وحَذفِ العَلائق الشَّاغِلَة ، فبَكَتْ ، ثم قالَت : سُبحانَ مَنْ أَمْسَكَ عَليكَ جَوارِحَك فلَمْ تَتقَطَّعْ ، وفُؤادَكَ فلَمْ يَتصَدَّعْ ثم خَرَّتْ مَغشِياً عَليها فقُلتُ لِبَعضِ النِّساءِ : أيُّ شَيءٍ حالُهَا ؟ فقُمنَ ، ففَتَّشْنَها ، فإذا وَصيَّتُها في جَيْبِها : كَفِّنُوني في أَثْوابي هـٰذه ، فإنْ كانَ لي عندَ اللهِ خَيرٌ فهو أَسْعَدُ لي ، وإنْ كانَ غَيرَ ذلكَ فبُعداً لِنَفسِي ، قُلتُ : ما هيَ ؟ فحَرَّكوها ، فإذا هي مَيِّتَة فقُلتُ : لِمَنْ هـٰذه الجارِيَة ؟ قالوا : جاريَةٌ قُرَشيَّة مُصابَةٌ ، وكانَ قَرينُها يَمنَعُها من الطَّعامِ ، وكانَتْ تَشْكُو إلَيْنا وَجَعاً بجَوْفِها ، فكُنَّا نَصِفُها للأطِبَّاء ، فتَقُولُ : خَلُّوا بَيني وبَينَ الطَّبيبِ الرَّاهِب ، تَعنِي أحمَدَ بنَ أبي الحَوَاريّ ، أَشْكُو إليه بَعضَ ما أجِدُ من بَلائي ، لَعلَّه أنْ يَكونَ عندَه شِفَائي[3] .

وكانَ القَاضِي الخِلَعِيُّ يَحكُمُ بينَ الجِنِّ ، وإنَّهم أبْطَؤوا عليه قَدرَ جُمُعَة ثم أَتَوه ، وقَالوا : كانَ في بَيتِكَ أُتْرُجٌّ ، ونَحنُ لا نَدخُلُ مَكاناً يَكونُ فيه[4] .

---

(١) انظر السير : (موسى بن نُصير) ٤/٤٩٦ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/٤٥٠ .
(٢) انظر السير : (زَيْدُ بنُ أَسْلَم) ٥/٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ١/٦٠٦ .
(٣) انظر السير : (أحمَدُ بنُ أبي الحَوَاريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ١/٩٨٧ .
(٤) انظر السير : (الخِلَعِيُّ) ١٩/ ٧٤ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦١ .

(٦) الحَظُّ والنَّصِيب

عن أبي حَنيفَة قالَ : قَدِمتُ الْمَدينَةَ فأتَيتُ أبا الزِّنادِ ، ورَأيتُ رَبيعَة فإذا النَّاسُ علىٰ رَبيعَة ، وأبو الزِّنادِ أفْقَهُ الرَّجُلَين ، فقُلتُ له : أنتَ أفْقَهُ أهْلِ بَلدِك والعَملُ علىٰ رَبيعَة ؟ فقالَ : وَيْحَك كَفٌّ من حَظٍّ خَيرٌ من جِرابٍ من عِلم[١] .

قالَ عبدُ الله بنُ الْمُعْتَزِّ بالله : الحَظُّ يَأتِي مَنْ لا يَأتِيه[٢] .

ولَمَّا تَملَّكَ شِيرازَ ، طالَبَه قُوَّادُه بالأمْوالِ ، وثارُوا عَليه ، فاغْتَمَّ لذلك ، واسْتَلقَىٰ ، فرَأىٰ حَيَّةً في السَّقْفِ ، ففَزِعَ ودَعا الفرَّاشينَ فنَصَبُوا سُلَّماً ، فوَجَدوا غُرفَةً يُدخَلُ إليها ، فأمَرَهُم بفَتْحِها ففُتِحَت ، فوَجَدوا فيها صَناديقَ فيها قَدرُ خَمسِ مِئَة ألفِ دِينارٍ ، فأُنْزِلَت ، ففَرِحَ ، وأنْفَقَ في الجَيشِ[٣] .

ثم إنَّه طَلبَ خَيَّاطاً ليُفَصِّلَ له ، وكان أُطْرُوشاً ، ففَزِعَ وجاوَبَه عمَّا لم يُسألَ عنه ، وحَلفَ أنَّه لَيسَ عندَه سِوَى اثنَيْ عشرَ صُندوقاً وَديعَة فتَعجَّبَ عِمَادُ الدَّولَة ، وأُحْضِرَت إليه ، فإذا فيها أمْوالٌ وثيابٌ وديباجٌ فكانَ ذلكَ من سَعادَتِه المقْبِلَة ، ولا عَقِبَ له[٤] .

* * *

---

(١) انظر السير : (أبو الزِّناد) ٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٢٠ .

(٢) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُعْتَزِّ بالله) ١٤/ ٤٢ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٦/ ١١٢٨ .

(٣) انظر السير : (عِمادُ الدَّولة) ١٥/ ٤٠٢ـ ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٤٢ .

(٤) انظر السير : (عِمادُ الدَّولة) ١٥/ ٤٠٢ـ ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٢٤٢ .

(٧) الحَنينُ إلى الأوْطَان

١ـ الحَنينُ إلى الوَطَن :

كانَ بِلالٌ إذا أقْلَعَ عنه وَجَعُ الحُمَّىٰ يَرفَعُ عَقيرَتَه ويَقُولُ :

ألا ليتَ شِعري هلْ أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهلْ أرِدَنْ يوماً مياهَ مِجنَّةٍ ... وهلْ يبدوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ[١]

اللَّهُمَّ الْعَنْ عُتبَةَ وشَيبَةَ وأُمَيَّةَ بنَ خَلَف كمَا أخرَجُونا من أرْضِنَا إلىٰ أرضِ الوَباء[٢] ، [٣] .

٢ـ الحَنينُ إلى الغُرْبَة :

قالَ أبو الوَليد حَسَّانُ بنُ مُحمَّد : سَمعتُ أبا العَبَّاسِ السَّرَّاج يَقُولُ : وا أسَفي علىٰ بَغْدادَ! فقيلَ له : ما حَمَلَكَ علىٰ فِراقِها ؟ قالَ : أقامَ بها أخي إسْماعيلُ خَمسينَ سَنةً ، فلمَّا تُوفِّيَ ورُفعَت جَنازَتُه سَمعتُ رَجُلاً علىٰ بابِ الدَّرْبِ يَقُولُ لآخَرَ : مَنْ هٰذا الْمَيِّت ؟ قالَ : غَريبٌ كانَ ها هُنا فقُلتُ : إنَّا لله ، بَعدَ طُولِ مُقامِ أخي بها واشْتِهارِه بالعِلمِ والتِّجارَة يُقالُ له : غَريبٌ كانَ هُنا ، فحَمَلتني هٰذه الكَلمَةُ على الانْصِرافِ إلى الوَطَن[٤] .

---

(١) يَرفَعُ عَقيرَتَه : أي يرفع صَوتَه بغِناء أو بُكاء . ومَجنَّة : مَوضِعٌ علىٰ أميالٍ من مَكَّة وكانَ به سُوقٌ . شامَة وطَفيلُ : جَبَلانِ بقُربِ مَكَّة وقالَ الخطَّابيُّ كُنتُ أحسَبُهما جَبَلَين حتَّىٰ ثَبتَ عندي أنَّهما عَيْنانِ .

(٢) وتمامه : ثم قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلَيْنَا الْمَدينَةَ كَحُبِّنَا مَكةَ أَوْ أَشَدَّ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في صَاعِنَا ، وفي مُدِّنَا ، وَصَحِّحْهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا إلَى الجُحْفَةَ » قالَت عائشَةُ : وقَدمتُ الْمَدينَة وهي أوْبأ أرضِ الله .

(٣) انظر السير : (بِلالُ بنُ رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٥ .

(٤) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٤ .

٣ـ مَنْ حَملتْهُ كلمَةٌ علىٰ مُفارَقَة الغُربَة والعَوْدَة إلى الوَطَن :

قالَ أبو الوَليد حَسَّانُ بنُ مُحمَّد : سَمعتُ أبا العَبَّاسِ السَّرَّاج يَقُولُ : وا أسَفي علىٰ بَغْدادَ! فقيلَ له : ما حَمَلَكَ علىٰ فِراقِها ؟ قالَ : أقامَ بها أخي إسْماعيلُ خَمسينَ سَنةً ، فلمَّا تُوفِّيَ ورُفعَت جَنازَتُه سَمعتُ رَجُلاً علىٰ بابِ الدَّرْبِ يَقُولُ لآخَرَ : مَنْ هٰذا الْمَيِّت ؟ قالَ : غَريبٌ كانَ ها هُنا فقُلتُ : إنَّا لله ، بَعدَ طُولِ مُقامِ أخي بها واشْتِهارِه بالعِلمِ والتِّجارَة يُقالُ له : غَريبٌ كانَ هُنا ، فحَمَلتني هٰذه الكَلمَةُ على الانْصِرافِ إلى الوَطَن[1] .

٤ـ شِعْرٌ في الحَنين إلى الأوْطان :

كانَ بِلالُ إذا أقْلَعَ عنه وَجَعُ الحُمَّىٰ يَرفَعُ عَقيرَتَه ويَقُولُ :

ألا ليتَ شِعري هلْ أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهلْ أرِدَنْ يوماً مياهَ مِجنَّةٍ ... وهلْ يبدوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ[2]

اللَّهُمَّ الْعَنْ عُتبَةَ وشَيبَةَ وأُمَيَّةَ بنَ خَلَف كمَا أخرَجُونا من أرْضِنَا إلىٰ أرضِ الوَباء[3] ، [4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١١٦٤ .

(٢) يَرفَعُ عَقيرَتَه : أي يرفع صَوتَه بغِناء أو بُكاء . ومَجنَّة : مَوضِعٌ علىٰ أميالٍ من مَكَّة وكانَ به سُوقٌ . شامَة وطَفيلُ : جَبَلانِ بقُربِ مَكَّة وقالَ الخطَّابيُّ كُنتُ أحسَبُهما جَبَلَين حتَّىٰ ثَبتَ عندي أنَّهما عَيْنان .

(٣) وتمامه : ثم قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلَيْنَا الْمَدينَةَ كَحُبِّنَا مَكةَ أَوْ أَشَدَّ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في صَاعِنَا ، وفي مُدِّنَا ، وَصَحِّحْهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا إلَى الجُحْفَةَ » قالَت عائشَةُ : وقَدمتُ الْمَدينَة وهي أوْبأ أرضِ الله .

(٤) انظر السير : (بِلالُ بنُ رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٦/ ١٧٥ .

(٨) الرِّزْق

١ـ رِزْقُ الله آتٍ :

كانَ ابْن الْمنْكَدِرِ يَقُولُ : كَمْ من عَينٍ ساهِرَة في رِزقِي في ظُلمَاتِ البَرِّ والبَحْر[١] .

٢ـ الثِّقَةُ بالله في الرِّزْق :

قالَ أبو تُرابٍ سَمعتُ حاتماً الأصَمّ يَقُولُ : لي أرْبَعَةُ نِسْوَة ، وتِسْعَةُ أوْلادٍ ، ما طَمِعَ شَيطانٌ أنْ يُوَسْوِسَ إليَّ في أرْزَاقِهِم[٢] .

٣ـ فَضْلُ الثِّقَةُ بالله في الرِّزْق :

قالَ ابنُ بَحر الأسَديُّ : سَمعتُ أحمَدَ بَن أبي الحَوَاريِّ ، سَمعتُ أبا سُلَيْمانَ الدَّارانيَّ يَقُولُ : مَنْ وَثِقَ باللهِ في رِزْقِه زَادَ في حُسنِ خُلُقِه ، وأعْقَبَه الحِلمَ ، وسَخَتْ نَفسُه ، وقَلَّتْ وَسَاوِسُه في صَلاتِه[٣] .

٤ـ الكفافُ في الرِّزْق :

سُئلَ سَعيدُ بنُ عبدِ العَزيزِ عن الكَفَافِ من الرِّزْقِ ما هُوَ ؟ قالَ : شِبَعُ يَومٍ وجُوعُ يَومٍ[٤] .

٥ـ الرِّزْقُ مَحْضُ فَضْلِ الله :

قال يوسُفُ بنُ الحُسين الرَّازيّ : حَضرْتُ ذا النُّونِ فقيل له : يا أبا الفيض ، ما كان سَبَبُ تَوبَتِكَ ؟ قال : نِمتُ في الصحراء ، ففتحت عَينَيَّ فإذا قُنْبُرَةٌ[٥] عَمياءُ سقطتْ من

---

(١) انظر السير : (محمَّدُ بنُ الْمنْكَدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٠٨ .

(٢) انظر السير : (حاتِمُ الأصَمُّ) ١١/ ٤٨٤ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٦٠ .

(٣) انظر السير : (أبو سُلَيْمان الدَّاراني) ١٠/ ١٨٢ـ ١٨٦ ، وانظر النزهة : ٥/ ٨٦٥ .

(٤) انظر السير : (سَعيدُ بنُ عبد العَزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٧٢٤ .

(٥) القُنْبُرة والقُنْبَرة والقُبَّرَة والقُنْبُراء والقُنْبَراء : عصفورة من فصيلة القُبَّريات ، ورتبة الجواثم المخروطية=

وكْر ، فانشقت الأرضُ ، فخرجَ سُكُرُّجَتان فأكَلَت وشَربَت فقلتُ : حَسبي ، فثُبتُ ولَزِمتُ البابَ إلىٰ أن قَبِلَني[1] .

٦ـ سُؤالُ الله الرِّزْقَ الحَسَن :

قال أبو الأشهب : سمعتُ بكرَ المزنيّ يقول : اللَّهُمَّ ارزُقنا رزقاً يَزيدُنا لك شُكراً ، وإليكَ فاقَةً وفَقْراً ، وبكَ عمَّن سِواكَ غِنَىً .

قال حُمَيدٌ الطَّويل : كان بكرُ بنُ عبد الله مُجَابَ الدَّعوة[2] .

٧ـ شِعْرٌ في الرِّزْق :

قالَ أبو تَمَّام[3] :

ولو كانتِ الأرزاقُ تجري على الحِجا ... هلكْـنَ إذاً مـن جهلِهـنَّ البهـائـمُ
ولم يجتمع شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ ... ولا المجدُ في كفِّ امرىءٍ والدراهمُ

* * *

= المناقير ، سُمر في أعلاها ضاربة إلىٰ بياض في أسفلها ، وعلىٰ صدرها بقعة سوداء ، دائمة التغريد .

(١) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩٦٧ .

(٢) انظر السير : (بكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ١/٥٥١ .

(٣) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/٩٠٩ .

(٩) الشَّرَفُ والمَكارِم

١ـ مِيزانُ الشَّرفُ الحَقيقيّ :

قالَ محمَّدُ بنُ عبد الله الأنْصاريُّ : رَأيتُ سُليْمانَ وعبدَ الله ابنَي عليِّ بنِ عبدِ الله بنِ عَبَّاس ، وابنَي سُليْمانَ يَحمِلُونَ سَريرَ يُونُسَ بنِ عبيد علىٰ أعْناقِهم فقالَ عبدُ الله بنُ عَليّ : هـٰذا والله الشَّرفُ[١] .

وعن أشْعَثَ بنِ شُعْبَة الْمَصِّيصي ، قالَ : قَدِمَ الرَّشيدُ الرَّقَّةَ ، فانْجَفَلَ النَّاسُ خَلفَ ابنِ الْمُبارَك ، وتَقطَّعَت النِّعالُ ، وارْتَفَعَت الغَبرَةُ ، فأشْرَفَتْ أُمُّ وَلَدٍ لأمِيرِ الْمُؤمنينَ من بُرجٍ من قَصْرِ الخشب ، فقالَت : ما هَـٰذا ؟ قالوا : عَالِمٌ من أهْلِ خُراسَانَ ، قَدِمَ قَالَت : هَـٰذا والله الْمُلكُ ، لا مُلكُ هَارُونَ الذي لا يَجمَعُ النَّاسَ إلاَّ بشُرَطٍ وأعْوانٍ[٢] .

وقالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة : (قالَ أبو إسْحاقَ الفَزاريُّ[٣] دَخلتُ علىٰ هَارُونَ ، فقالَ : يا أبا إسْحَاقَ ، إنَّكَ في مَوْضِعٍ ، وفي شَرَفٍ قُلتُ : يا أميرَ الْمُؤمنينَ ، ذاكَ لا يُغني عَنِّي في الآخِرَةِ شَيئاً[٤] .

٢ـ مِيزانُ المَكارِم :

قيلَ : إنَّ حَكيمَ بنَ حِزامَ بَاعَ دَارَ النَّدْوَة من مُعاويَةَ بِمئةِ ألفٍ فقالَ له ابنُ الزُّبَير : بِعتَ مَكْرُمَةَ قُرَيشٍ ، فقالَ : ذَهَبَت الْمَكَارِمُ يا ابنَ أخِي إلاَّ التَّقْوَىٰ ، إنِّي اشْتَريتُ بها داراً في الجَنَّة ، أُشْهِدُكُم أنِّي قد جَعلتُها لله[٥] .

* * *

---

(١) انظر السير : (يُونُسُ بنُ عبيد) ٦/ ٢٨٨ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٥٢ .

(٢) انظر السير : (عبدُ الله بنُ الْمُبارَك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٦٦ .

(٣) قال صاحبُ النُّزهَة : ما بينَ القَوْسين زيادةٌ لازمة من كتاب « تاريخ الإسلام » للإمام الذهَبي.

(٤) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الفَزاري) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٦/ ٧٩٠ .

(٥) انظر السير : (حَكيمُ بنُ حِزام) ٣/ ٤٤ـ ٥١ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣٣٠ .

(١٠) الضَّيْف

١ـ حَقُّ الضَّيْف :

عن مُعاذِ بنِ خالِد : سَمعتُ أبا حَمْزَة السُّكَّريَّ يَقولُ : ما شَبعتُ منذ ثَلاثينَ سَنةً ، إلاَّ أنْ يَكونَ لي ضَيفٌ[١] .

٢ـ رِزْقُ الضَّيْف على الله :

عن شَقيقِ بنِ إبْراهيمَ : لَيسَ شَيءٌ أحَبَّ إليَّ من الضَّيفِ لأنَّ رِزْقَهُ على الله ، وأجْرُه لي[٢] .

٣ـ الشِّبَعُ مع الضَّيْفِ جَائزٌ :

عن مُعاذِ بنِ خالِد : سَمعتُ أبا حَمْزَة السُّكَّريَّ يَقولُ : ما شَبعتُ منذ ثَلاثينَ سَنةً ، إلاَّ أنْ يَكونَ لي ضَيفٌ[٣] .

٤ـ شِعْرٌ في إكرامِ الضَّيْف :

قالَ أبو بَكر البَيْهَقيُّ في « شُعَبِ الإيمَان » أنْشَدَنا أبو نَصْر بنُ قَتادَة ، أنْشَدَنا أبو بَكر القَفَّال :

أوسِّعُ رحلي علىٰ من نزلْ ... وزادي مباحٌ علىٰ مَنْ أكلْ
نقدِّمُ حاضرَ ما عندنا ... وإنْ لم يكن غيرُ خبز وخلْ
فأما الكريمُ فيرضىٰ به ... وأما اللئيمُ فمن لم أبلْ[٤]

* * *

---

(١) انظر السير : (أبو حَمْزَة السُّكَري) ٧/ ٣٨٥ـ ٣٨٧ ، وانظر النزهة : ١/٧٠٧ .
(٢) انظر السير : (شَقيق) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٨/٨٢٣ .
(٣) انظر السير : (أبو حَمْزَة السُّكَري) ٧/ ٣٨٥ـ ٣٨٧ ، وانظر النزهة : ١/٧٠٧ .
(٤) انظر السير : (القَفَّالُ الشَّاسِي) ١٦/ ٢٨٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٦ .

(١١) عَجائبُ وغَرائبُ من عُصُورٍ مُتَفَرِّقَة

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أميرِ الْمؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه : وكانَ وَلِكِسْرَىٰ وقَيْصَرَ ومَنْ قَبْلَهما من الْمُلوك في دَولَتِهم دَهرٌ طَويلٌ ، فأمَّا الأكاسِرَةُ والفُرس ، وهم الْمَجُوسُ فمَلَكوا العِراقَ والعَجَمَ نَحْواً من خَمسمائة سَنة ، فأوَّلُ مُلوكِهم « دارا » ، وطَالَ عُمرُه فيُقالُ : إنَّه بَقيَ في الْمُلكِ مائتي سَنة ، وعدَّةُ مُلوكِهم خَمسَةٌ وعشرون نَفساً ، منهم امْرأتانِ ، وكان آخرُ القَوْمِ « يَزْدَجِرد » الذي هَلكَ في زَمَنِ عُثْمانَ رضي الله عنه ، ومِمَّنْ مَلَكَ منهم ذُو الأكْتافِ « سابور » ، عُقدَ له بالأمْرِ وهو في بَطْنِ أُمِّه ، لأنَّه ماتَ أبُوه وهو حَملٌ في بَطْنِ أُمِّه ، فقالَ الكُهَّانُ : هٰذا يملِكُ الأرْضَ فوُضِعَ التَّاجُ علىٰ بَطْنِ أُمِّه ، وكَتَب منه إلى الآفاقِ وهو بعدُ جَنينٌ ، وهٰذا شَيءٌ لَمْ يُسمَع بمثلِه قَطُّ ، وإنَّما لُقِّبَ بِذي الأكْتافِ لأنَّه كانَ يَنْزِعُ أكْتافَ مَنْ غَضِبَ عليه ، وهو الذي بَنَى الإيوانَ الأعْظَم ، وبَنَىٰ نِيسَابُورَ ، وبَنَىٰ سِجِسْتانَ[1] .

ومن مُتَأخِّري مُلوكِهم « أنوشروان » ، وكان حازماً عاقِلاً ، كان له اثنا عَشَرَ ألفَ امْرأةٍ وسَرِيَّة ، وخَمسونَ ألفَ دابَّة ، وألفُ فيلٍ إلاَّ واحداً ، ووُلِدَ نَبينا صلى الله عليه وسلم في زَمانِه ، ثم مات « أنوشروان » وقْتَ مَوْتِ عبدِ الْمُطَّلِب ، ولَمَّا اسْتَوْلَى الصَّحابَةُ على الإيوانِ أحْرَقوا سُتُرَه ، فطلَعَ منه ألفُ ألفِ مثْقالٍ ذَهَباً[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أميرِ الْمؤمنينَ عُثْمانَ بنِ عَفَّان : قال سُليمانُ بنُ بلال ، عن يَحْيىٰ بنِ سَعيد ، عن سَعيدِ بنِ المسَيِّب ، أنَّ زَيدَ بنَ خارجَة تُوفِّي زَمنَ عُثمان رضي الله عنه ، فسُجِّيَ بثوبٍ ، ثم إنَّهم سَمعوا جَلْجَلَةً في صَدرِه ، ثم تكلَّم فقالَ : أحمدُ أحمدُ في الكتاب الأوّل ، صَدَقَ صَدَقَ أبو بَكر الضَّعيفُ في نَفسِه القَويُّ في أمرِ الله في الكتاب الأوّل ، صَدَقَ صَدَقَ عُمرُ القَويُّ الأمينُ في الكتاب الأوّل ،

---

(١) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٦٧ .

(٢) انظر السير : (عُمَرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٨ .

صَدَقَ صَدَقَ عُثمانُ علىٰ مِنْهاجِهم ، مَضتْ أربعُ سنين وبَقيَتْ سَنتان ، أتَتِ الفِتنُ وأكلَ الشَّديدُ الضَعيفَ ، وقامت السَّاعةُ ، وسيأتيكم خَبرُ بِئْرِ أريس ، وما بِئْرُ أريس .

قال ابنُ المُسَيِّب : ثم هَلكَ رجلٌ من بَني خطمة ، فسُجِّيَ بثوب فسَمعوا جَلْجَلَةً في صَدرِه ، ثم تكلَّم فقال : إنَّ أخا بَني الحارث بنِ الخَزْرَج صَدَقَ صَدَقَ .

قال ابنُ عبد البَر : هـٰذا هو الذي تكلَّم بعدَ المَوتِ ، لا يَختلفون في ذلك ، وذلكَ أنَّه غُشيَ عليه وأُسريَ بروحه ، ثم راجَعته نفسُه فتكلَّم بكلامٍ في أبي بَكر ، وعُمرَ ، وعُثمانَ ، ثم مات لوَقْته[1] .

عن ابنِ سِيرينَ أنَّ سَعْدَ بنَ عُبادَة بالَ قائماً ، فمَاتَ ، فسُمعَ قائلٌ يَقُولُ :

قد قتلنا سيد الـ ... خزرج سعد بن عبادة
ورميناه بسهـ ... ـم فلم نخطىء فؤاده[2]

وقالَ ابنُ سَعْد : أنْبَأنا عبدُ الله بنُ مُحمَّد بنِ مُرَّة الشَّعْبانيُّ ، حدَّثني أشْياخٌ من شَعْبانَ ، منهم محمَّدُ بنُ أبي أُمَيَّة وكانَ عَالِماً ، أنَّ مَطَراً أصابَ اليَمنَ ، فجَحفَ السَّيلُ مَوْضِعاً فأبْدَىٰ عن أزَجٍ[3] عَليه بابٌ من حِجَارَة ، فكُسِرَ الغَلَقُ ودُخِلَ فإذا بَهْوٌ عَظيمٌ فيه سَريرٌ من ذَهَب ، فإذا عليه رَجلٌ شَبَرنَاهُ فإذا طُولُه اثْنا عَشرَ شِبْراً ، وإذا عَليه جِبابٌ من وَشْي مَنْسوجَة بالذَّهَب ، وإلىٰ جَنبه مِحْجَنٌ من ذَهَبٍ علىٰ رَأسِه ياقُوتَةٌ حَمْراءُ ، وإذا رَجُلٌ أبْيَضَ الرَّأسِ واللِّحْيَة ، لَه ضفْران وإلىٰ جَنبه لَوحٌ مَكتوبٌ فيه بالحِمْيَرِيَّة : باسْمِكَ اللَّهُمَّ رَبِّ حِمْيَر أنا حَسَّانُ بنُ عَمْرو القيْل[4] إذ لا قيْلَ إلاَّ الله ، عِشْتُ بأمَلٍ ومِتُّ بأجَلٍ ، أيامَ وَخزِهَيد[5] ، وما وَخزِهَيد ؟ هَلكَ فيه اثْنا عَشرَ ألفَ قَيْل ، فكُنتُ أخرَهُم

---

(١) انظر السير : (عثمان بن عفان) ، وانظر النزهة : ٨٢ .
(٢) انظر السير : (سَعْدُ بنُ عُبادَة) ١/ ٢٧٠ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢ .
(٣) الأزج : بناء مستطيل مقوس السقف.
(٤) القَيْل : الملك من ملوك حِميَر يتقيّل مَنْ قَبلَه من مُلوكِهم (يُشبهه).
(٥) الوخز : الطَّعنُ النافذ ، أو هو الطاعون ، و« هيد » قال ياقوتُ الحَموي في « مُعجَم البُلدان » : وأيام هيد أيام موتان كانت في الجاهلية في الدهر الأول ، قيل مات فيها اثنا عشر ألفاً ، هـٰكذا ذكره العمرانيُّ في « أسماء الأماكن » ، ولا أدري ما معناه . اهـ =

قَيْلاً ، فأتَيتُ جَبلَ ذي شعبَين ليُجيرَني من الْمَوْتِ فأخْفَرَني وإلىٰ جَنبِه سَيفٌ مَكتُوبٌ فيه : أنا قَيْلٌ بي يُدرَكُ الثَّأرُ .

عن الشَّعْبيِّ ، قالَ : أدْرَكتُ خَمسَ مئة من أصْحابِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

عن مَكْحُولٍ ، قالَ : مَا رَأيتُ أحَداً أعْلَمَ من الشَّعْبيِّ .

عن أبي مِجْلَز ، قالَ : مَا رَأيتُ أحَداً أفْقَهَ من الشَّعْبيِّ ، لا سَعيدَ بنَ الْمُسَيِّبِ ، ولا طَاوُوسَ ، ولا عَطَاءَ ، ولا الحَسَنَ ، ولا ابنَ سِيرينَ ، فقد رَأيتُ كُلَّهم[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي الجَوْزاء : وكان أبو الجَوْزاء قَويّاً بالْمَرَّة .

عن سُلَيْمانَ الرَّبعيّ ، قالَ : كانَ أبو الجَوْزاء يُواصِلُ أُسْبوعاً ، ويَقبِضُ علىٰ ذِراعِ الشَّابِّ فيَكادُ يُحَطِّمُها[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ هَارُونَ بنِ رِئاب : قالَ أبو مُحمَّد بنُ حَزْمٍ الفَقيهُ : يَمَانٌ ، وهَارُون ، وعَليٌّ بَنُو رِئاب ، فهَارُونُ من أئمَّةِ السُّنَّة ، ويَمَانٌ من أئمَّةِ الخَوَارِج ، وعَليٌّ من أئمَّةِ الرَّوافِض ، وكانوا مُتَعادينَ[3] .

عن البطال ، قالَ : اتَّفقَ لي أنَّا أتَينا قَريةً لنُغِيرَ ، فإذا بيتٌ فيه سِراجٌ وصَغيرٌ يَبكي ، فقالت أمُّه : اسْكُتْ ، أو لأدْفَعَنَّك إلى البطالِ فبَكَىٰ فأخَذَتْه من سَريرِه ، وقالت : خُذْهُ يا بطالُ فقلتُ : هاتِه[4] .

وقالَ نِفْطَوَيه : يُقالُ للمُعْتَصِم : الْمُثَمَّن ، فإنَّه ثامِنُ بَني العَبَّاس ، وتَملَّكَ ثَمانيَ سِنينَ ، وثَمانيَةَ أشْهُر ، ولَه فُتُوحَاتٌ ثَمانيَة .

وقَتلَ ثَمانيَة : بَابَك ، والأفشينَ ، ومازَيار ، وباطِيسَ ، ورَئيسَ الزَّنادِقَة ، وعُجَيفاً ، وقارُونَ ، وأميرَ الرَّافِضَة[5] .

---

(١) انظر السير : (الشَّعْبيُّ) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٧/٥٠٠ .

(٢) انظر السير : (أبو الجَوْزاء) ٤/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٦/٥١٢ .

(٣) انظر السير : (هارُونُ بنُ رِئاب) ٥/ ٢٦٣ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٤/٦٠٠ .

(٤) انظر السير : (البطال) ٥/ ٢٦٨ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٠١ .

(٥) انظر السير : (الْمُعْتَصِم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٥/٨٧٩ .

وقالَ غَيرُ نِفْطَوَيه : خَلَّفَ من الذهَبِ ثَمانيَةَ آلافِ دينار ، وثَمانيَةَ عَشرَ ألفَ ألفِ دِرْهَم ، وثَمانينَ ألفَ فَرَسٍ ، وثَمانيَةَ آلافِ مَمْلوكٍ ، وثَمانيَةَ آلافِ جاريَة ، وبَنَىٰ ثَمانيَةَ قُصُور وقيلَ بَلغَ مَمَاليكُه ثَمانيَةَ عَشرَ ألفاً ، وكانَ ذَا سَطوَةٍ إذا غَضِبَ لا يُبالي مَنْ قَتَل .

قالَ الخَطيبُ : كَثُرَ عَسْكَرُ الْمُعْتَصِم ، وضاقَت عَليهم بَغْدادُ ، فبَنَىٰ مَدينَةَ « سُرَّ مَنْ رَأىٰ » وتَحوَّلَ إليهَا وتُسمَّىٰ أيضاً العَسْكَر .

ماتَ الْمُعْتَصِمُ سَنةَ سَبع وعِشْرين ومئتين ، وله سَبعٌ وأرْبَعونَ سَنةً وسَبعَةَ أشْهُر ، ودُفِنَ بـ « سُرَّ مَنْ رَأىٰ » وصلَّىٰ عليه ابنُه الوَاثِق[1] .

وقالَ عُثْمانُ بنُ جَعْفَرٍ اللَّبَّان : حدَّثنا عَليُّ بنُ إسْحاقَ بنِ رَاهَوَيْه قالَ : وُلِدَ أبي من بَطنِ أُمِّه مَثْقُوبَ الأذُنَين ، فمَضَىٰ جَدِّي رَاهَوَيْه إلى الفَضْلِ بنِ مُوسَىٰ فسَأَلَه ، فقالَ : يَكونُ ابنُكَ رَأساً إمَّا في الخَيرِ ، وإمَّا في الشَّرِّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هٰذه الحِكايَةُ رَواهَا الخَطيبُ في « تاريخِه » عن الجَوْهَريِّ ، أخْبَرَنا محمَّدُ بنُ العَبَّاس الخَزَّاز ، حدَّثنا عُثْمانُ فذَكَرَها وهٰذا إسْنَادٌ جَيِّدٌ وحِكايَةٌ عَجيبَة[2] .

وقالَ الحاكمُ : سَمعتُ أبا النَّضْرِ الفَقيهَ ، سَمعتُ إبْراهيمَ بنَ إسْماعيلَ العَنْبَريَّ يَقُولُ : كُنتُ بمِصْرَ ، وأنا أكْتبُ باللَّيلِ كُتُبَ ابنِ وَهْب ، وذَلكَ لخَمسٍ بَقينَ من الْمُحرَّم سَنةَ اثنَتَين وأرْبَعينَ ، فهَتَفَ بي هاتفٌ ، يا إبْراهِيمُ ماتَ العَبدُ الصَّالحُ محمَّدُ بنُ أسْلَم ، فتَعجَّبتُ من ذَلك ، وكَتَبتُه علىٰ ظَهْرِ كِتابي ، فإذا به قد مَاتَ في تِلكَ السَّاعَة[3] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ رَافِع ، سَمعتُ عبدَ الرَّزَّاق ، سَمعتُ مَعْمَراً يَقُولُ : رَأيتُ باليَمَنِ عُنْقودَ عِنَب وِقْرَ[4] بَغْلٍ تَامٍّ .

---

(١) انظر السير : (الْمُعْتَصِم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٨٠ .
(٢) انظر السير : (إسْحاقُ بنُ رَاهَوَيْه) ١١/ ٣٥٨ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٥٤ .
(٣) انظر السير : (محمَّدُ بنُ أسْلَم) ١٢/ ١٩٥ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٩٣ .
(٤) الوِقْر : بكسر الواو ، وسكون القاف : الحملُ الثقيل.

ماتَ مُحمَّدُ بنُ رافِع سَنةَ خَمسٍ وأرْبَعينَ ومئتَين[1] .

وقال أبو داود في « سُنَنِه » : شَبَرْتُ قِثَّاءَةً بمصر ثلاثةَ عشرَ شِبراً ، ورَأيتُ أُتْرُجَّةً علىٰ بَعير ، وقد قُطِعَتْ قطعَتَين ، وعُملَتْ مثلَ عِدْلَين .

تُوفِّي أبو داودَ سَنةَ خَمسٍ وسَبعين ومئتَين[2] .

وعن محمَّدِ بنِ خَفيف ، يَقُولُ : سَمعتُ الحَكيميَّ يَقُولُ : ذَكَروا عند لَيلَى الدَّيلَمي أنَّ أبا بَكر بنَ أبي عاصِم ناصِبيٌّ[3] ، فبَعثَ غُلاماً له ومخلاةً وسَيفاً ، وأمَرَه أنْ يَأتيَه برَأسِه ، فجاءَ الغُلامُ ، وأبو بَكر يَقرأ الحَديثَ ، والكتابُ في يدِه ، فقالَ : أمَرَني أنْ أحمِلَ إليه رَأسَك فنَامَ علىٰ قَفَاهُ ، ووَضعَ الكتابَ الذي كان في يَدِه علىٰ وَجْهِه ، وقالَ : افْعَلْ ما شِئتَ فلَحِقَه إنْسانٌ ، وقالَ : لا تَفْعل ، فإنَّ الأميرَ قد نَهاكَ فقامَ أبُو بَكر وأخَذَ الجُزءَ ، ورَجَعَ إلى الحَديثِ الذي قَطَعَه ، فتَعجَّبَ النَّاسُ .

ماتَ أحمَدُ بنُ عَمْرو سَنةَ سَبعٍ وثَمانينَ[4] .

وعن ابنِ الجَصَّاصِ قالَ : كُنتُ يَوماً في الدِّهْليزِ ، فخَرَجَتْ قَهْرَمانَةَ مَعها مئة حبَّة جَوْهَر ، تُساوي الحَبَّة ألف دينار ، فقالَت : نُريدُ أنْ تَخرُطَ هـٰذا الحَبَّ حتَّىٰ يَصغُر ، فأخَذتُه منها مُسرِعاً ، وجَمَعتُ سائرَ نَهاري من الحَبِّ بمئة ألفِ دِرْهَم ، الواحدَة بألف ، وأتَيتُ به القَهْرمانَة ، وقُلتُ : قد خَرَطْنا هـٰذا[5] .

يَعني : فرَبحَ فيه ـ في يوم ـ بِضعَةً وتِسعينَ ألفَ دينار .

ولَمَّا تَزوَّجَ الْمُعْتَضدُ بالله بقَطرِ النَّدَىٰ بنتِ خُمَارَوَيه صاحِبِ مِصْرَ ، نَفَّذَها أبُوها مع ابنِ الجَصَّاص في جَهَازٍ عَظيمٍ وتُحَفٍ وجَوَاهرَ تَتَجَاوَزُ الوَصْفَ ، فنَصَحها ابنُ الجَصَّاص وقالَ : هَـٰذا شَيءٌ كَثيرٌ ، والأوْقَاتُ تَتغيَّر ، فلَوْ أوْدَعتِ من هـٰذا ؟ فقالَت :

---

(١) انظر السير : (مُحمَّدُ بنُ رافِع) ١٢/ ٢١٤ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/٩٩٦ .

(٢) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٢ .

(٣) ناصبي : أي مُبغِضٌ لعَليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) انظر السير : (ابنُ أبي عاصِم) ١٣/ ٤٣٠ـ ٤٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٩٩ .

(٥) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٥ .

نَعَم يا عَمُّ وأوْدَعَته نَفَائسَ ثَمينَة ، فاتَّفقَ أنَّها أُدخِلَت على الْمُعْتَضد ، وكَرُمَت عليه ، وحَمَلت منه ، ثم ماتَت في النِّفَاسِ بَغتَةً ، وزَادَت أمْوالُ ابنِ الجَصَّاص إلى الغَايَة ، ونَظَرَت إليه الأعْينُ ، فلمَّا كانَ في سَنةِ اثنتَينِ وثَلاثِ مئة قَبضَ عليه الْمُقْتَدِرُ ، وكُبِسَت دارُه ، وأخَذوا له من الذَّهَب والجَوْهَر ما قُوِّمَ بأرْبَعةِ آلافِ ألفِ دينار[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَاكِم بأمْرِ اللهِ العُبَيْديِّ : وكان شَيْطاناً مَريداً جَبَّاراً عَنيداً ، كَثيرَ التَّلَوُّن ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، خَبيثَ النِّحْلَةِ ، عَظيمَ المَكْرِ ، جَوَاداً مُمَدَّحاً ، له شَأنٌ عَجيبٌ ونَبأٌ غَريبٌ ، كانَ فِرْعَونَ زَمانِه ، يَخْترعُ كُلَّ وَقْت أحْكَاماً يُلْزِمُ الرَّعيَّةَ بها أمَرَ بسَبِّ الصَّحابَة رَضِيَ اللهُ عَنهم ، وبكتَابَة ذلكَ علىٰ أبْوابِ المَسَاجِدِ والشَّوارِع وأمَرَ عُمَّالَه بالسَّبِّ ، وبقَتلِ الكِلابِ في سَنةِ خَمسٍ وتسْعينَ وثلاث مئَة وأبْطَلَ الفُقَّاع[2] والمُلوخيا ، وحرَّمَ السَّمكَ الذي لا فُلُوسَ عليه[3] ، ووَقعَ ببائعٍ لشيءٍ من ذلكَ فقتَلَهم[4] .

وفي سَنة اثنتَين وأربَع مئَة ، حرَّمَ بَيعَ الرُّطَبِ ، وجَمعَ منه شَيئاً عَظيماً ، فأحْرَقَه ، ومَنعَ من بَيْع العنب ، وأبادَ الكُرومَ ، وأمَرَ النَّصارَىٰ بتَعْليقِ صَليبٍ في رِقابِهم زِنَتُه رَطلٌ ورُبْع بالدِّمَشْقيِّ وألْزَمَ اليَهودَ أنْ يُعَلِّقوا في أعْناقِهم قُرميَّة في زِنَة الصَّليبِ إشارَةً إلى رَأسِ العِجْلِ الذي عَبدُوه ، وأنْ تَكونَ عَمائمُهم سُوداً ، وأنْ يَدخُلُوا الحَمَّامَ بالصَّليبِ وبالقُرْميَّة ثم أفْرَدَ لهم حَمَّاماتٍ وأمَرَ في العَام بهَدْمِ كَنيسةِ قُمامة[5] ، وبهَدمِ كَنائسِ مِصْرَ ، فأسلمَ عدَّةٌ ، ثم إنَّه نَهَىٰ عن تَقبيلِ الأرْضِ ، وعن الدُّعاءِ له في الخُطَب وفي الكُتُب وجَعلَ بدَله السَّلامَ عَليه[6] .

وقيلَ : إنَّ ابنَ باديسَ أميرَ المَغْرب بَعثَ يَنْقمُ عليه أمُوراً ، فأرادَ أنْ يَستميلَه ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٥ .

(٢) شراب يُتخذ من الشعير.

(٣) الفلس : القشرة علىٰ ظهر السمكة.

(٤) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٨ .

(٥) في بيت المقدس.

(٦) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٨ .

فأظْهَرَ التَّفَقُّه ، وحَملَ في كُمِّه الدَّفاتِرَ ، وطَلبَ إلىٰ عندِه فَقيهَين ، وأمَرَهما بتَدْريسِ فِقْهِ مالِك في الجامِعِ ، ثم تَغيرَّ فقَتلَهما صَبْراً[1] .

وأَذِنَ للنَّصارَى الذين أَكْرَهَهُم في العَوْدِ إلى الكُفْر[2] .

ومَنعَ النِّساءَ من الخُروجِ من البُيوتِ ، فأحْسَنَ ، وأبْطَلَ عَملَ الخِفافِ لهُنَّ جُملَة ، وما زِلْنَ مَمْنوعاتٍ من الخُروجِ سَبعَ سِنينَ وسَبعَةَ أشْهُر[3] .

قد حُبِّبَ في الآخرِ إلىٰ صاحبِ مِصْرَ الحاكمِ بأمْرِ الله العُزْلَةُ ، وبَقِيَ يَرْكَبُ وَحْدَه في الأسْواقِ علىٰ حِمارٍ ، ويُقِيمُ الحِسْبَةَ بنفسِه ، وبَيْنَ يدَيْه عبدٌ ضَخْمٌ فاجِرٌ ، فمَنْ وَجَبَ عليه تأدِيبٌ ، أَمَرَ العَبدَ أنْ يُولِجَ فيه ، والمَفعُولُ به يَصِيحُ .

وقِيلَ : إنَّه أَرَادَ ادِّعاءَ الإلَهِيَةِ ، وشَرَعَ في ذلك ، فَكَلَّمَهُ الكُبَرَاءُ وخَوَّفُوهُ من وُثُوبِ النَّاسِ ، فتَوَقَّفَ .

وفي الأربع مئة وبعدَها كانت الأنْدَلُس تَغْلي بالحُروبِ والقِتالِ على المُلْك[4] .

وأنْشأ داراً كبيرةً ملأها قُيوداً وأغْلالاً ، وجَعَلَ لها سَبْعَةَ أبْوابٍ ، وسمَّاها جَهَنَّمَ ، فكان مَنْ سَخِطَ عليه أسْكنَه فيها .

ولمَّا أمرَ بحَريقِ مِصْرَ ، واسْتَباحَها ، بَعَثَ خادمَه ليُشاهِدَ الحالَ ، فلمَّا رَجعَ قال : كَيفَ رأيتَ ؟ قال : لوْ اسْتَباحَها طاغيةُ الرُّوم ما زاد علىٰ ما رأيتُ ، فضَرَب عُنُقَه .

وفي سَنة ثَلاث وأربع مئة ، أُخِذَ الوفْدُ العراقيُّ ، وغُوِّرَت المياهُ وهَلكَ بضعة عَشرَ ألفَ مُسْلم ، ثم أُخِذَ من العَرَب ببَعْض الثَّأرِ ، وقُتلَ عِدَّةٌ .

وبَعثَ الملكُ مَحمُودُ بنُ سُبُكْتكينَ كتاباً إلى الخَليفَة بأنَّه ورَدَ إليه من الحاكمِ كتابٌ يَدعُوهُ فيه إلىٰ بَيْعَتِه ، وقد خَرَّقَ الكتاب ، وبَصَقَ عَليه[5] .

---

(١) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٨ .
(٢) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٠٨ .
(٣) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٠٨ .
(٤) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/١٢٠٨ .
(٥) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٩ .

وقال محمّدُ بنُ عليّ السُّلَميُّ : قُمتُ ليلةً سَحراً لآخُذَ النَّوْبَة على ابنِ الأخْرَم ، فوَجدتُ قد سَبقَني ثلاثونَ قارئاً ، وقال : لمْ تُدْركْني النَّوبَةُ إلى العَصْر .

تُوفِّي ابنُ الأخْرَم في سنة إحدىٰ وأربعين وثلاث مئة وعاشَ إحدَىٰ وثمانين سنة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الصَّابىء : الأديبُ ، البَليغُ ، صاحِبُ التَّرسُّلِ البَديع ، أبو إسْحاقَ ، إبْراهيمُ بنُ هِلال ، الصَّابىءُ الحَرَّانيُّ ، الْمُشْرك[2] .

حَرِصُوا عليه أنْ يُسلِمَ فأبَىٰ ، وكانَ يَصُومُ رَمَضانَ ، ويَحفَظُ القُرآنَ ، ويَحْتاجُ إليه في الإنْشَاء وله نَظمٌ رَائقٌ .

ولَمَّا تَملَّكَ عَضُد الدَّولَة هَمَّ بقَتلِه وسَجَنَه ، ثم أطْلقَه في سَنةِ إحْدَىٰ وسَبعينَ وثَلاثِ مئة ، فألَّفَ له كتابَ : « التَّاجي في أخْبارِ بَني بُوَيه » .

ماتَ في سَنةِ أرْبَع وثَمانينَ وثَلاثِ مئة ، وله إحْدَىٰ وسَبعونَ سَنةً ، ويُقالُ : قَتلَه لأنَّه أمَرَه بعَمَلِ التَّاريخ التَّاجي ، فدَخلَ عليه رَجلٌ فسَألَه ما تُؤلِّفُ ؟ فقالَ : أبَاطيلَ أُلَفِّقُها ، وأكَاذيبَ أُنَمِّقُها فتَحرَّكَ عليه عَضُدُ الدَّولَة وطَردَه ، وماتَ ، فرَثاهُ الشَّريفُ الرَّضِي ، فلِيمَ في ذلكَ ، فقالَ : إنَّما رَثَيتُ فَضلَه ، وهـٰذا عُذرٌ بارِدٌ .

وكانَ مُكثِراً من الآدَابِ .

وكذلكَ ماتَ علىٰ كُفرِه ابنُه الْمُحسنُ ، وكانَ مُحتَشِماً أديباً ، ثم خَلَفَه ابنُه الصَّدرُ الأوْحَدُ هِلالُ بنُ الْمُحسِنُ ، الصَّابىء ، الذي أسْلَمَ وعاشَ كَثيراً ، وبَقِيَ إلىٰ سَنةِ ثَمانٍ وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة[3] .

أُحضر إلىٰ محمود بغزنَةَ شَخصان من النَّسْناس من بادية بلاصيغون وهي مَملكة قدرخان ، وعَدْوُ النَّسْناسِ في شِدَّةِ عَدْوِ الفَرَس ، وهو في صُورة آدَميّ ، لكنَّه بدنه

---

(١) انظر السير : (ابنُ الأخْرَم) ١٥/ ٥٦٤ـ٥٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٩ .
(٢) انظر السير : (الصَّابىءُ) ١٦/ ٥٢٣ـ ٥٢٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٣١٢ .
(٣) انظر السير : (الصَّابىءُ) ١٦/ ٥٢٣ـ ٥٢٤ ، وانظر النزهة : ١/١٣١٣ .

مُلبَّس بالشَّعْر ، وكلامُه صَفيرٌ ، ويأكُلُ حَشيشاً ، وأهلُ تلكَ البلادِ يَصطادُونَهم ، ويَأكُلونَهم فسَألَ مَحْمود الفُقَهاءَ عن أكل لحْمِهم ، فنَهَوا عنه[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ سينا : وقال الرئيسُ : قد صَحَّ عندي بالتَّواتُر ما كان بجَوْزجان في زَمانِنا من أمر حديد ـ لعلَّه زِنَة مئة وخمسين مَنّاً ـ نزلَ من الهَواءِ ، فنشَبَ في الأرض ، ثم نَبا نَبْوَة الكُرة ، ثم عادَ ، فنَشبَ في الأرض ، وسُمع له صوتٌ عظيمٌ هائلٌ ، فلمَّا تَفقَّدوا أمرَه ، ظفِروا به ، وحُملَ إلىٰ والي جوزجان فحاوَلوا كَسْرَ قِطعَة منه ، فما عَملت فيه الآلاتُ إلاَّ بجَهدٍ ، فراموا عَمل سَيفٍ منه ، فتَعذَّر . نقَله في « الشِّفاء »[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الحُطَيْئة : وحَكَىٰ لنا شُجاعٌ أنَّ أبا العَبَّاسِ ابنَ الحُطَيِّئة وُلِدَت له بِنتٌ ، فلمَّا كَبِرَت أقْرَأها بالسَّبْعِ ، وقَرَأتْ عَليه « الصَّحيحَين » وغَيرَ ذلك ، وكَتبَت الكَثيرَ وتَعلَّمَت عَليه كَثيراً من العِلمِ ، ولَمْ يَنظُرْ إليها قَطُّ ، فسَألتُ شُجاعاً : أكانَ ذلكَ عن قَصْدٍ ؟ فقالَ : كانَ في أوَّلِ العُمرِ اتِّفاقاً ، لأنَّه كانَ يَشتَغلُ بالإقْراءِ إلى الْمَغرِبِ ، ثم يَدخُلُ بَيتَه وهي في مَهْدِها ، وتَمادَى الحَالُ إلىٰ أن كَبِرَت ، فصارَت عادَةً ، وزَوَّجَها ودَخَلت بَيتَها والأمْرُ علىٰ ذلك ، ولَمْ يَنظُرْ إليها قَطُّ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لا مَدْحَ في مثل هَـٰذا ، بَلْ السُّنَّةُ بخِلافِه ، فقد كانَ سَيِّدُ البَشَرِ صلى الله عليه وسلم يَحملُ أُمَامَةَ بنتَ ابْنَتِه وهو في الصَّلاةِ .

تُوفِّيَ ابنُ الحُطَيْئة رَحمَه الله سَنةَ ستِّينَ وخَمسِ مئة ، وقَبرُه بالقَرافَة ظاهرٌ يُزارُ[3] .

وقالَ ابنُ النَّجَّار : وكانَ لابنِ الدَّهَّانِ النَّظمُ والنَّثرُ ويُنشِىءُ الخُطَبَ والرَّسائلَ بلا كُلفَة ولا رَويَّة ، ويَتكلَّمُ بالتُّركيَّة والفارسيَّة والرُّوميَّة والحَبَشيَّة والهِنْديَّة والزِّنْجيَّة بكَلامٍ فَصيحٍ عندَ أهْلِ ذَلكَ اللِّسان وكانَ حَليماً بَطيءَ الغَضَب ، مُتَواضِعاً دَيِّناً صالِحاً ، كَثيرَ الصَّدَقَة ، مُتفَقِّداً للفُقَراء والطَّلبَة ، تَفقَّه أولاً لأبي حَنيفَة ، ثم تَحوَّلَ شَافِعيّاً بعدَ عُلُوٍّ

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٥ .

(٢) انظر السير : (ابنُ سينا) ١٧/ ٥٣١ـ ٥٣٧ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٩ .

(٣) انظر السير : (ابنُ الحُطَيئة) ٢٠/ ٣٤٤ـ ٣٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٦٠ .

سِنِّه ، ووَلِيَ تَدريسَ النَّحْوِ بالنِّظامِيَّة إلىٰ أنْ ماتَ ، قَرأتُ عليه كَثيراً ، وهو أوَّلُ مَنْ فَتحَ فَمِي بالعِلمِ ، لأنّ أُمِّي أسْلمَتني إليه ولِيَ عَشرُ سِنينَ ، فكُنتُ أقْرأُ عليه القُرآنَ والفِقْهَ والنَّحْوَ وأُطالِعُ له لَيلاً ونَهاراً ، وإذا مَشَىٰ ، كُنتُ آخِذاً بيَدِه[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الأبَّار : ومن تَواليفِه « الأرْبَعونَ » عن أرْبَعينَ شَيْخاً من أرْبَعينَ تَصْنيفاً لأرْبَعينَ عَالِماً من أرْبَعينَ طَريقاً إلىٰ أرْبَعينَ تَابِعيّاً عن أرْبَعينَ صَحابِيّاً لهم أرْبَعُونَ اسْماً من أرْبَعينَ قَبيلَة في أرْبَعينَ بَاباً .

وقد رَأيتُ لأبي عبدِ الله الأبَّار جُزءاً سَمَّاه « دُرَرَ السِّمطِ في خَبَرِ السِّبطِ عليه السلام » يَعني الحُسَين بإنْشاءٍ بَديعٍ يَدلُّ علىٰ تَشَيُّع فيه ظاهِر ، لأنَّه يَصِفُ عَليّاً رضي الله عنه بالوَصِيِّ ، ويَنالُ من مُعاويَة رضي الله عنه .

وكانَ مَصْرَعُه عامَ ثَمانيَةٍ وخَمسينَ وسِتِّ مئة بتُونُسَ[2] .

* * *

(١) انظر السير : (ابنُ الدَّهَّان) ٢٢/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٦٧ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الأبَّار) ٢٣/ ٣٣٦ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٧٣٩ .

(١٢) مِنْ العُقُوبات

١ـ الإقَامَةُ الجَبْرِيَّة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ ظَهيرِ الدِّينِ أبي شُجاع : وَزرَ سَبعَ سِنينَ وسَبعَةَ أشْهُر ، ثم عُزلَ ثم خَرجَ إلى الجُمُعَة ، فضَجَّت العَامَّةُ يَدعُونَ له ، ويُصافِحُونَه ، فأُلزِمَ لذلك بأنْ لا يَخرُجَ من دَارِه ، فاتَّخَذَ في دِهْليزِهِ مَسْجِداً ، ثم حَجَّ لِعامِهِ ، ورَجَعَ ، فمُنعَ من دُخُولِ بَغدَادَ ، وبُعثَ إلىٰ رُوذْرارَ ، فبَقِيَ فيها سَنَتَينِ ، ثم حَجَّ بعد مَوْتِ الخَليفَة ، ونَزَلَ الْمَدينَة وتَزَهَّد ، فمَاتَ خادِمٌ ، فأعْطَى الخُدَّامَ ذَهَباً حتَّىٰ جُعِلَ مَوْضِعَ الخَادِم ، فكانَ يَكنِسُ ويُوقِدُ ، وحَفظَ القُرآنَ هناك .

دُفِنَ بالبَقيعِ سَنَةَ ثَمانٍ وثَمانينَ وأرْبَع مئة عن إحْدَىٰ وخَمسينَ سَنَةً ، رَحمَهُ اللهُ تَعالَىٰ[1] .

٢ـ حَلْقُ اللِّحْيَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُتَوَكل عَلى الله ابنِ الْمعْتَصِم : بَعثَ إلىٰ نائبه بمِصْرَ ، فحَلقَ لِحْيَةَ قَاضي القُضَاة محمَّدِ بنِ أبي اللَّيثِ ، وضَربَه ، وطَوَّفَ به علىٰ حِمَارٍ في رَمَضَانَ ، وسُجنَ ، وكان ظَلُوماً جَهْمياً ، ثم وَليَ القَضاءَ الحارِثُ بنُ مَسكين ، فكانَ يَضرِبُه كُلَّ حين عِشرينَ سَوْطاً لِيُؤدِّي ما وَجَبَ عَليه ، فإنَّا لله[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (ظَهيرُ الدِّين) ١٩/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٤٥٤ .

(٢) انظر السير : (الْمُتَوَكلُ على الله) ١٢/ ٣٠ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٩٧٨ .

(١٣) العَمَلُ والكسْبُ عندَ السَّلَف

١ـ حَثُّ السَّلَف على العَمَلِ :

عن عُتْبَةَ الغُلام قالَ : لا يُعْجِبُني رَجلٌ ألاَّ يَحْتَرِف[١] .

٢ـ غَالِبُ عُلَماء السَّلَف يُنْفِقُونَ مِنْ كسْبِهِم :

كانَ أبو نُعَيم شَريكاً لعبدِ السَّلام بنِ حَرْب الْمُلائي ، كانَا في حَانُوتٍ بالكُوفَة يَبيعَانِ الْمُلاءَ وغيرَ ذَلكَ ، وكانَ كَذلكَ غَالِبُ عُلمَاءِ السَّلَف إنَّما يُنفِقُونَ من كَسْبِهِم[٢] .

٣ـ صُوَرٌ على العَمَلِ والكسْب :

قالَ أبو عُمَر البَصْريُّ : كانَ رَأسُ مَالِ عُتبَة الغُلام فِلْساً يَشْتَري به خُوصاً يَعمَلُ ويَبيعُه بثَلاثَةِ فُلوس ، فيَتَصَدَّقُ بفِلْسٍ ، ويَتَعَشَّىٰ بفِلْسٍ ، وفِلسٌ رَأسُ مَالِه[٣] .

وكانَ حَمْزَةُ بنُ حَبيب يَجلِبُ الزَّيتَ من الكُوفَة إلىٰ حُلوَانَ ، ثم يَجلِبُ منها الجُبنَ والجَوْزَ ، وكانَ إماماً قَيِّماً لِكتَابِ الله ، قَانِتاً لله ، ثَخينَ الوَرَع ، رَفيعَ الذِّكْر ، عَالِماً بالحَديثِ والفَرائض أصْلُه فَارِسيٌّ[٤] .

وكانَ هِشامُ الدَّسْتُوائيُّ يَتَّجِرُ في القماش الذي يُجلَبُ من دَسْتُوا ولذا قيلَ له : صاحِبُ الدَّسْتُوائيُّ ، ودَسْتُوا بُلَيْدَة من أعْمَالِ الأهْوَاز[٥] .

وقالَ سَوَّارُ بنُ عبد الله : حدَّثنا أبي : كُنتُ آتي حَمَّادَ بنَ سَلَمَة في سُوقِه ، فإذا رَبحَ

---

(١) انظر السير : (عُتْبَةُ الغُلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٦٧٦/ ٧ .
(٢) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٨٥٩/ ٤ .
(٣) انظر السير : (عُتْبَةُ الغُلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٦٧٦/ ٥ .
(٤) انظر السير : (حَمْزَةُ بنُ حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٦٧٩/ ٤ .
(٥) انظر السير : (هِشامُ الدَّسْتُوائيُّ) ٧/ ١٤٩ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٦٨٧/ ٢ .

في ثَوبٍ حَبَّة أو حَبَّتَين ، شَدَّ جَوْنَته[1] ولَمْ يَبِعْ شَيئاً ، فكُنتُ أظُنُّ ذَلكَ يَقُوتُه[2] .

كانَ أبو نُعَيم شَريكاً لعبدِ السَّلام بنِ حَرْب الْمُلائي ، كانَا في حَانُوتٍ بالكُوفَة يَبيعَانِ الْمُلاءَ وغَيرَ ذَلكَ ، وكانَ كَذلكَ غَالِبُ عُلمَاءِ السَّلَف إنَّما يُنفِقُونَ من كَسْبِهِم[3] .

وقالَ صالِحُ بنُ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : قالَ لي وَالِدِي : كانَت وَالِدَتُك في الظَّلام تَغْزِلُ غَزْلاً دَقيقاً ، فتَبيعُ الأسْتَارَ بدِرْهَمَين أقَلَّ أو أكْثَر ، فكَانَ ذَلكَ قُوتَنا ، وكُنَّا إذا اشْتَرَيْنا الشَّيءَ نَسْتُرُه عَنه كَيْلا يَراهُ ، فيُوَبِّخُنا ، وكانَ رُبَّما خُبزَ له ، فيَجعَلُ في فَخَّارَة عَدَساً وشَحْماً وتَمَراتٍ ، وكانَ يَأتَدِمُ بالخَلِّ كَثيراً[4] .

وكانَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل رُبَّما أخَذَ القَدُّومَ ، وخَرجَ إلىٰ دَارِ السكان ، يَعمَلُ الشَّيءَ بيَدِه واعْتَلَّ فتَعالَج[5] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ : كانَ الفَقيهُ رَافِعٌ الحَمَّالُ رَفيقَه في الاشْتِغال ، فيَحمِلُ شَطرَ نَهارِه بالأُجرَة ، ويُنفِقُ علىٰ نَفسِه وعلىٰ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ ، ثم إنَّ رَافِعاً حَجَّ وجَاوَرَ ، وصَارَ فَقيهَ الحَرَم .

وماتَ أبو إسْحاقَ ولَمْ يُخَلِّف دِرْهَماً ، ولا عَليه دِرْهَم ، وكَذَا فلْيَكُنِ الزُّهْدُ ، وما تَزَوَّجَ فيما أعْلم ، وبحُسنِ نيَّتِه في العِلمِ اشْتَهرَت تَصانيفُه في الدُّنيا كـ« الْمُهذَّب » و« التَّنْبيه » و« اللُّمَع في أصُولِ الفِقْه »[6] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ سبطِ الخَيَّاط ، أبي عبدِ الله ، الحُسَينِ بنِ عليِّ بنِ أحمَدَ البَغْداديِّ ، قالَ السَّمْعانيُّ : صَالِحٌ ، حَسَنُ الإقْراء ، دَيِّنٌ ، يَأكُلُ من كَدِّ يَدِه .

وقالَ أبو الفَرَج بنُ الجَوْزي : قَرأتُ عليه القُرآنَ .

---

(١) الجَوْنَة : سُلَيلَة مُستَديرَة مُغشَّاةٌ بالجلدِ ، يَحفَظُ العَطَّارُ فيها الطِّيبَ .
(٢) انظر السير : (حَمَّادُ بنُ سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٥/٧١٥ .
(٣) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٥٩ .
(٤) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٢٧ .
(٥) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٢٧ .
(٦) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الشِّيرازيُّ) ١٨/ ٤٥٢ـ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٣١ .

ماتَ سَنةَ سَبعٍ وثَلاثينَ وخَمسِ مئة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الحُطَيْئة : وقد دَخلَ الشَّامَ وزَارَ ، وسَكنَ مِصْرَ ، وتَزوَّجَ ، وكانَ يَعيشُ من الوَرَّاقَة ، وعلَّمَ زَوجَتَه وبِنتَه الكِتابَة ، فكَتَبَتا مثلَه ، فكانَ يَأخُذُ الكِتابَ ويُقَسِّمُه بَينَه وبَينَهُما ، فيَنسَخُ كُلٌّ منهُما طائفَةً من الكِتابِ فلا يُفرَّقُ بين الخُطُوطِ إلاَّ في شَيء نادر ، وكانَ مُقيماً بجَامِع رَاشِدَة خارجَ الفُسْطاط ، ولأهْلِ مِصْرَ حتَّىٰ أمَرائها العُبَيديَّة فيه اعتِقادٌ كَبير ، كانَ لا يَقبَلُ من أحَد شَيئاً ، مع العِلمِ والعَمَلِ والخَوفِ والإخْلاص .

وأحْكمَ العَربيَّةَ والفِقهَ ، وخَطُّه مَرغُوبٌ فيه لإتْقانِه وبَرَكَتِه[2] .

* * *

(١) انظر السير : (سبطُ الخَيَّاط) ٢٠/ ١٢٩ـ ١٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٦ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الحُطَيْئة) ٢٠/ ٣٤٤ـ٣٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٥٩ .

(١٤) العَيْن

العَيْنُ حَقٌّ :

عن أبي أُمامَةَ بنِ سَهْل ، قالَ : رَأىٰ عَامِرُ بنُ رَبيعَة سَهْلَ بنَ حَنيف ، فقالَ : والله ما رَأيتُ كاليَومَ ولا جِلدَ مُخبَّأة[١]! فلُبِطَ[٢] بسَهْل ، فأُتِيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقيلَ : يا رَسُولَ الله ، هلْ لكَ في سَهْل ؟ والله ما يَرفَعُ رَأسَه! قالَ صلى الله عليه وسلم : « هَلْ تَتَّهِمُونَ بِهِ أَحَداً ؟ » قالوا : نَتَّهِمُ عامِرَ بنَ رَبيعَة فدَعَاه فتَغيَّظَ عليه ، وقالَ صلى الله عليه وسلم : « عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكمْ أَخَاهُ! أَلا بَرَّكتَ! اغْتَسِلْ لَه » .

فغَسلَ وَجهَه ، ويَدَيه ، ومِرْفَقَيه ، ورُكْبَتَيه ، وأطْرافَ رِجْلَيه ، ودَاخِلَةَ إزَارِه[٣] ، في قَدَحٍ ، ثم صُبَّ عليه فرَاحَ سَهلٌ مع النَّاسِ ما به بَأسٌ[٤] .

* * *

---

(١) الْمُخَبَّأة : الجارية التي في خِدرها لم تَتزوج بعد ، لأنَّ صيانَتها أبلَغ مِمَّن قد تَزوَّجت .

(٢) لُبِطَ : صُرِع .

(٣) دَاخِلَة الإزار : طَرفُه الداخل الذي يلي الجسد ، ويلي الجانب الأيمن من الرجل إذا ائتزر ، لأن المؤتزر إنما يبدأ بجانبه الأيمَن ، فذلك الطرف يُباشر جسده ، وهو الذي يغسل ، وقيل : هو الورك ، وقيل : أراد به مذاكيره ، فكني بالداخلة ، كما كني عن الفرج بالسراويل .

(٤) انظر السير : (سَهْلُ بنُ حَنيف) ٢/ ٣٢٥ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/٢٦٨ .

(١٥) الفُرْصَة

الفُرْصَةُ إنْ لَمْ تُنْتَهَزْ فَهي غُصَّةٌ :

عن خالدِ بنِ مَعْدانَ ، قالَ : إذا فَتحَ أحَدُكم بابَ خَيرٍ فَليُسرِعْ إليه ، فإنَّه لا يَدري مَتَىٰ يُغلَقُ عنه[١] .

وقالَ عَفَّانُ بنُ مُسلم : حدَّثنا حَمَّادُ بنُ سَلمَة قالَ : قَدمتُ مَكةَ وعَطاءُ بنُ أبي رَباح حَيٌّ ـ في شَهرِ رَمَضَانَ ، فقُلتُ : إذا أفْطَرتُ دَخلتُ عَليه ، فمَاتَ في رَمَضَانَ .

ماتَ حَمَّادُ بنُ سَلمَة سَنةَ سَبعٍ وسِتِّينَ ومئة[٢] .

* * *

---

(١) انظر السير : (خالدُ بنُ مَعْدان) ٤/ ٥٣٦ـ ٥٤١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٥٢ .

(٢) انظر السير : (حَمَّادُ بنُ سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧١٦ .

(١٦) فُكاهَاتٌ ونَوَادِر

قالَ عبدُ العَزيز ابنُ أخي الْمَاجِشُونَ : بلَغَنا أنَّه كانت لعَبدِ اللهِ بنِ رَوَاحَة جاريَةٌ يَسْتَسِرُّها عن أهْلِه ، فبَصُرَت به امْرأتُه يَوماً قد خَلا بها ، فقالَت : لقد اخْتَرتَ أمَتَك علىٰ حُرَّتِك ؟ فجاحَدَها ذلكَ ، قالَت : فإنْ كُنتَ صَادِقاً ، فاقْرأ آيَةً من القُرآنِ قال :

شهـــدتُ بـــأن وعـــدَ اللهِ حـــقٌّ ... وأن النـــارَ مثـــوى الكـــافـــرينـــا

قالَت : فزِدْني آيةً ، فقالَ :

وأن العـــرشَ فـــوقَ المـــاءِ طـــافٍ ... وفـــوقَ العـــرشِ ربُّ العـــالمينـــا

وتحملـــه مـــلائكـــة كـــرام ... مـــلائكـــة الإلـــه مقـــرَّبينـــا

فقالَت : أمَنتُ بالله ، وكذَّبتُ البَصَرَ ، فأتَىٰ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فحدَّثه ، فضَحِكَ صلى الله عليه وسلم ولَمْ يُغَيِّر عليه[١] .

وعن إبْراهيمَ ، قالَتْ أمُّ الْمُؤمنين سَوْدَةُ : يا رَسُولَ الله ، صَلَّيتُ خَلفَكَ البَارِحَة ، فرَكَعتَ بي ، حتَّىٰ أمْسَكتُ بأنفِي مَخافَةَ أنْ يَقطُرَ الدَّمُ فضَحِكَ صلى الله عليه وسلم وكانَت رَضيَ اللهُ عَنها تُضحِكُه الأحْيانَ بالشَّيء[٢] .

وقالَ عَليٌّ رضي الله عنه : كَذَبَتكم[٣] من النِّسَاءِ الحارِقَة[٤] ، فما ثَبَتَتْ منهُنَّ امْرأةٌ إلاَّ أسْماءُ بنتُ عُمَيْس[٥] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ رَوَاحَة) ١/ ٢٣٠ـ ٢٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٥٤ .

(٢) انظر السير : (سَوْدَةُ أمُّ الْمُؤمنين) ٢/ ٢٦٥ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٥/٢٥٦ .

(٣) كذب ها هنا إغراءٌ ، أي : عَليكُم بالحارِقَة ، وهي كلمة نادرة جاءت علىٰ غير القِياس .

(٤) الحارِقَة : المرأة التي تَغلبُها شَهوَتُها ، وقيلَ : الضيِّقَة الفَرْج ، وقيل : النِّكَاحُ على الجَنبِ من حارِقَة الوِرْكَ : وهي عصبة فيها ، والمعنىٰ : عَليكم من مُباشَرة النساء بهَـٰذا النَّوع ، انظر « الفائق » ، و« النهاية » ، و« اللسان » (حرق) .

(٥) انظر السير : (أسْماءُ بنتُ عُمَيْس) ٢/ ٢٨٢ـ ٢٨٧ ، وانظر النزهة : ٤/٢٦٠ .

ويُروَىٰ أنَّ شاعِراً جاءَ الىٰ عبدِ اللهِ بنِ جَعْفَر فأنْشدَه :

رأيــتُ أبــا جعفــرٍ فــي المنــامْ ... كســانــي مــن الخــزِّ دراعــةْ
شكــوتُ إلــىٰ صــاحبــي أمــرَهــا ... فقــال ستــؤتــىٰ بهــا الســاعــةْ
سيكســوكهــا المــاجــدُ الجعفــرُ ... ومــن كفُّــه الــدهــرَ نفــاعــةْ
فمــن قــال للجــود لا تعْــدُنــي ... فقــال لــه السمــعُ والطــاعــةْ

فقالَ عبدُ الله لغُلامِه : أعْطِه جُبَّتي الخَزَّ ثم قالَ له وَيْحَكَ كَيفَ لَمْ تَرَ جُبَّتي الوَشْيَ ؟ اشْتَريتُها بثَلاثِ مئَة دِينَار مَنْسُوجَةً بالذَّهَبِ فقالَ أنامُ فلَعلِّي أرَاهَا فضَحِكَ عبدُ الله وقالَ ادْفَعُوها لَه[1] .

وقالَ الأعْمَشُ ، عن إبْراهيمَ ، قالَ : كانَ زَيْدُ بنُ صُوحانَ يُحدّثُ ، فقالَ أعْرابيٌّ : إنَّ حَديثَكَ يُعجِبُني ، وإنَّ يَدَكَ لَتُريبُني قالَ : أومَا تَراها الشِّمالَ ؟ قالَ : والله مَا أدْري اليَمينَ يَقْطَعونَ أم الشِّمَال ؟ فقالَ زَيدٌ : صَدقَ اللهُ ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2] فذكرَ الأعْمَشُ أنَّ يَدَه قُطِعَت يومَ نَهَاوَنْد[3] .

وعن إبْراهيمَ ، قالَ : أقرَّ رجلٌ عند شُرَيح ، ثم ذَهب يُنْكِر ، فقال : قد شَهدَ عَليكَ ابنُ أخْتِ خالَتِك[4] .

عن ابنِ سيرينَ ، قال : تَزوَّجَ عِمْرانُ خارِجيَّةً وقالَ : سأرُدُّها ، قالَ فصَرَفَتْه إلىٰ مَذْهَبِها[5] .

فذَكَرَ المَدائِنيُّ أنَّها كانت ذاتَ جَمالٍ ، وكان دَميماً فأعْجَبَتْه يَوماً فقالَت : أنا وأنْتَ

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بن جَعْفَر) ٣/ ٤٥٦ـ ٤٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٤٠٨ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ٩٧ .
(٣) انظر السير : (زَيدُ بنُ صُوحان) ٣/ ٥٢٥ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤١٩ .
(٤) انظر السير : (شُرَيح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٥٧ .
(٥) انظر السير : (عِمْران بن حِطّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٤٨١ .

في الجَنَّةِ ، لأنَّكَ أُعْطيتَ فشَكَرْتَ ، وابْتُلِيتُ فصَبَرْتُ[1] .

وقالَ عَمرُو بنُ دينار ، قالَ أبو سَلمَة : أنا أفْقَهُ مَنْ بالَ ، فقالَ ابن عَبَّاس : في الْمُبارَك[2] .

وعن أبي الأسْوَد ، قالَ : كانَ أبو سَلمَة بنُ عبد الرحمَـٰن مع قَومٍ ، فرَأوا قَطيعاً من غَنَم ، فقالَ أبو سَلمَة : اللَّهُمَّ إنْ كانَ في سَابِقِ عِلمِكَ أنْ أكُونَ خَليفَةً فاسْقِنا من لَبَنِها ، فانْتَهىٰ إليها فإذا هي تَيُوسٌ كُلُّها[3] .

ورَوَىٰ مُجالدٌ وغَيرُه ، أنَّ رَجُلاً مُغفَّلاً لَقِيَ الشَّعْبيَّ ومَعه امْرأةٌ تَمشي ، فقالَ : أيُّكُما الشَّعْبيُّ ؟ قالَ : هـٰذه[4] .

وعن عامِرِ بنِ يَسَاف ، قالَ لي الشَّعْبيُّ : امْضِ بنا نَفِرُّ من أصْحابِ الحَديث ، فخَرَجْنا ، قالَ : فمَرَّ بنا شَيخٌ ، فقالَ له الشَّعْبيُّ : ما صنْعَتُك ؟ قالَ : رَفَّاء قالَ : عندَنا دِنٌّ مَكسُورٌ تَرْفُوهُ لنا ؟ قالَ : إنْ هيَّأتَ لي سُلوكاً من رَمْل ، رَفَوْتُه فضَحِكَ الشَّعْبيُّ حتَّى اسْتَلقَىٰ[5] .

وعن الأعْمَش : قالَ : أتَىٰ رَجلٌ الشَّعْبيَّ ، فقالَ : ما اسْمُ امْرأةِ إبْليس ؟ فقالَ ذلك عُرسٌ ما شَهدتُه[6] .

وكانَ يُقالُ أشْأمُ من طُوَيْس ، قيلَ : لأنَّه وُلدَ يومَ وَفَاةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وفُطِمَ يومَ مَوْتِ أبي بَكر ، وبَلَغَ يومَ مَقْتَل عُمَرَ ، وتَزوَّجَ يومَ مَقْتَل عُثْمانَ ، ووُلِدَ له يومَ مَقْتَل عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهم .

ماتَ سَنةَ اثنَتينِ وتِسْعينَ[7] .

---

(١) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٨١ .
(٢) انظر السير : (أبو سَلَمَة بنُ عبد الرحمـٰن) ٤/ ٢٨٧ـ ٢٩٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٩٩ .
(٣) انظر السير : (أبو سَلَمَة بنُ عبد الرحمـٰن) ٤/ ٢٨٧ـ ٢٩٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٠٠ .
(٤) انظر السير : (الشَّعْبيُّ) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٠٤ .
(٥) انظر السير : (الشَّعْبيُّ) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٠٤ .
(٦) انظر السير : (الشَّعْبيُّ) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٠٤ .
(٧) انظر السير : (طُوَيْس) ٤/ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥١١ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ قُتَيبَةَ بنِ مُسْلِم : وباهِلَةُ قَبيلَةٌ مُنْحطَّةٌ بينَ العَرب ، قالَ الشَّاعرُ :

ولــو قيــل للكلــبِ يــا بــاهلــي عوى الكلبُ من لُؤمِ هـٰذا النسبْ[1]

وقالَ آخَرُ :

ومــا ينفــعُ الأصــلُ مــن هــاشــمٍ إذا كــانــت النفــسُ مــن بــاهلــةْ

وقيلَ : إنَّ قُتَيبَةَ بنَ مُسلِم قالَ لِهُبَيرَةَ : أيُّ رَجُلٍ أنتَ لَوْلا أنَّ أخْوالَك من سَلُول ، فلَوْ بادَلتَ بهم ، قالَ : أيُّها الأميرُ ، بادِلْ بهم مَنْ شِئتَ ، وجَنِّبْني باهِلَة وقيلَ لأعْرابيٍّ : أيَسُرُّكَ أنَّك باهِليٌّ وتَدخُلُ الجَنَّة ؟ قالَ : إي والله ، بشَرطِ أنْ لا يَعلمَ أهلُ الجَنَّة أنِّي باهِليٌّ[2] .

ولَقيَ أعْرابيٌّ آخَرَ فقالَ : مِمَّنْ أنتَ ؟ قالَ : من بَاهِلَة ، فرَثَىٰ له فقالَ : أزيدُك : إنِّي لَستُ من أنْفَسِهم ، بلْ من مَواليهِم ، فأخَذَ الأعْرابيُّ يُقبِّلُ يَدَيه ويَقُولُ : ما ابْتَلاكَ اللهُ بهـٰذه الرَّزيَّة إلاَّ وأنتَ من أهْلِ الجَنَّة[3] .

وعن مُجاهِدٍ ، قالَ : كُنتُ في جِنازَة رَجُلٍ ، فسَمعتُ رَجُلاً يَقُولُ لامْرأةِ الْمَيِّتِ : لا تَسْبِقيني بنَفسِك قالَت : قَد سُبقتَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ولِمُجاهِد أقْوالٌ وغَرائبُ في العِلمِ والتَّفسيرِ تُسْتَنكَر .

ماتَ مُجاهِدٌ ساجِداً سَنةَ اثنتَين ومئة[4] .

وعن أشْعَبَ ، قالَ : دَخَلتُ علىٰ سَالِمِ بنِ عبدِ الله فقالَ : حُملَ إلَيْنا هَريسَةٌ وأنا صَائمٌ ، فاقْعُد كُلْ ، قالَ : فأمْعَنتُ ، فقالَ : ارْفُقْ فما بَقيَ يُحمَلُ مَعك ، قالَ : فرَجَعتُ ، فقَالَت الْمَرأةُ : يا مَشْؤومُ بَعثَ عبدُ الله بنُ عَمرو بنِ عُثْمانَ يَطلبُك ،

---

(١) انظر السير : (قُتَيبَةُ بنُ مُسْلِم) ٤/ ٤١٠ـ ٤١١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٤

(٢) انظر السير : (قُتَيبَةُ بنُ مُسْلِم) ٤/ ٤١٠ـ ٤١١ ، وانظر النزهة : ٣/٥٢٤ .

(٣) انظر السير : (قُتَيبَةُ بنُ مُسْلِم) ٤/ ٤١٠ـ ٤١١ ، وانظر النزهة : ٤/٥٢٤ .

(٤) انظر السير : (مُجاهِدُ بنُ جَبْر) ٤/ ٤٤٩ـ ٤٥٧ ، وانظر النزهة : ٧/٥٣٠ .

وقُلتُ : إنَّكَ مَريضٌ قالَ : أحْسَنتِ ، فدَخَلَ حَمَّاماً وتَمرَّجَ بدُهْنٍ وصُفْرَة ، قالَ : وعَصبتُ رَأسي ، وأخَذتُ قَصَبةً أتوكأُ عَليها وأتيتُه ، فقالَ : أشْعَبُ ؟ قُلتُ : نَعَم جُعلتُ فِداكَ ما قُمتُ مُنذُ شَهْرَين ، قالَ : وعندَه سَالِمٌ ولَمْ أشْعُر ، فقالَ : وَيْحَك يا أشْعَبُ ، وغَضبَ وخَرجَ فقال : عبدُ الله ، ما غَضبَ خَالي سَالِمٌ إلاَّ من شَيءٍ فاعْتَرفْتُ له ، فضَحكَ هو وجُلسَاؤُه ، ووَهَبَ لي ، فخَرجْتُ فإذا أشْعَبُ قد لَقِيَ سَالِماً فقالَ : وَيْحَك ، ألَمْ تَأكُلْ عِندِي الهَريسَةَ ؟ قُلتُ : بَلَىٰ ، فقالَ : والله لقد شَكَّكْتَني[1] .

وحَكَى الأصْمَعيُّ ، أنَّ أشْعَبَ مَرَّ في طَريقٍ ، فعَبَثَ به الصِّبْيانُ فقالَ : وَيْحَكُم ، سَالِمٌ يَقْسمُ جَوْزاً أو تَمْراً ، فمَرُّوا يَعدُونَ فعَدَا أشْعَبُ مَعَهم ، وقالَ : ما يُدرِينِي لَعلَّه حَقٌّ[2] .

وقالَ حَمَّادٌ ، عن أيُّوبَ : سَمعتُ رَجُلاً قالَ لِعِكْرِمَة : فُلانٌ قَذَفَني في النَّومِ ، قالَ : اضْرِبْ ظِلَّه ثَمانين[3] .

وقالَ عليُّ بنُ الْمَديني : كانَ عِكْرِمَةُ يَرَىٰ رَأيَ نَجدَةَ الحَروريِّ .

قالَ ابنُ عُليَّة : ذَكرَ أيُّوبُ عِكْرِمَةَ فقالَ : كانَ قَليلَ العَقلِ ، أتَيْنا ، يَوماً فقالَ : واللهِ لأُحَدِّثنَّكم ، فمَكثَ ، فجَعلَ يُحدِّثنا ، ثم قالَ : أيُحْسِنُ حَسَنُكم مثلَ هـٰذا ؟ وبَينا أنا عِندَه إذ رَأىٰ أعْرابيّاً فقالَ : هَاه[4] ، ألَمْ أرَكَ بأرْضِ الجَزيرَة أو غَيرِها ، فأقْبلَ عَليه وتَركَنا[5] .

وعن ابنِ إدْريسَ ، قالَ ليَ الأعْمَشُ : أمَا تَعجَبُ من عبدِ الْمَلِكِ بنِ أبْجَر قالَ : جاءَني رَجُلٌ فقالَ : إنِّي لَمْ أمْرَضْ وأنا أشْتَهِي أنْ أمْرَضَ ، قالَ : فقُلتُ : احْمَد اللهَ

---

(١) انظر السير : (سالِمُ بنُ عبد الله) ٤/ ٤٥٧ـ ٤٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٣٢ .
(٢) انظر السير : (سالِمُ بنُ عبد الله) ٤/ ٤٥٧ـ ٤٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٣٢ .
(٣) انظر السير : (عِكرِمَة) ٥/ ١٢ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٥٧٦ .
(٤) كلمَةٌ تُقالُ للتَّذكُّر ، وتُقالُ أيضاً عند التَّوجُّع والتَّلهُّف .
(٥) انظر السير : (عِكرِمَة) ٥/ ١٢ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٨/ ٥٧٦ .

على العافيَة ، قالَ : أنا أشْتَهي أنْ أمْرَضَ قالَ كل سَمَكاً مَالِحاً ، واشْرَبْ نَبيذاً مَريساً ، واقْعُدْ في الشَّمسِ ، واسْتَمرِضْ اللهَ فجَعلَ الأعْمَشُ يَضحَكُ ويَقُولُ : كأنَّما قالَ له : واسْتَشْفِ اللهَ عَزَّ وجَلَّ[1] .

وقالَ وَكيعٌ : جَاؤوا إلى الأعْمَشِ يَوماً ، فخَرجَ ، وقالَ لَوْلا أنَّ في مَنزِلي مَنْ هُوَ أبْغَضُ إليَّ مِنكُم ما خَرَجتُ إلَيكُم .

قيلَ : إنَّ أبا دَاوُد الحائكَ سَألَ الأعْمَشَ : ما تَقُولُ يا أبا مُحمَّد في الصَّلاةِ خَلفَ الحَائكِ ؟ فقالَ : لا بأسَ بها علىٰ غَيرِ وُضوءٍ قالَ : وما تَقُولُ في شَهادَتِه ؟ قالَ : يُقبَلُ مع عَدلَينِ[2] .

وقالَ عِيسَىٰ بنُ يُونُسَ : أتَى الأعْمَشَ أضْيافٌ ، فأخْرجَ إليهم رَغيفَينِ فأكَلُوهُما .

فدَخَلَ فأخْرجَ لهم نِصفَ حَبلِ قَتٍّ ، فوَضَعَه على الخِوَانِ ، وقالَ : أكَلتُم قُوتَ عيالي فهَٰذا قُوتُ شَاتِي فكُلُوه[3] .

وقالَ عبدُ الله بنُ إدْريسَ ، قُلتُ للأعْمَشِ : يا أبا مُحمَّد ، ما يَمنَعُك من أخْذِ شَعْرِك ؟ قالَ : كَثرَةُ فُضُولِ الحَجَّامينَ قُلتُ : فأنا أجيئُكَ بحَجَّامٍ لا يُكلِّمُكَ حتَّىٰ تَفرَغَ فأتَيتُ جُنَيْداً الحَجَّامَ ، وكانَ مُحدِّثاً ، فأوْصَيتُه فقالَ : نَعَم فلمَّا أخَذَ نِصْفَ شَعرِه قالَ : يا أبا مُحمَّد ، كَيفَ حَديثُ حَبيبِ بنِ أبي ثابِت في الْمُسْتَحاضَة ؟ فصَاحَ صَيْحَةً ، وقَامَ يَعدُو ، وبَقِيَ نِصفُ شَعرِه بَعدَ شَهرٍ غَير مَجْزُوز[4] .

وقالَ عيسَىٰ بنُ يُونُس : خَرجَ الأعْمَشُ فإذا بجُندي ، فسَخَّرَه لِيَخُوضَ به نَهْراً فلمَّا رَكبَ الأعْمَشُ قالَ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾[5] فلمَّا تَوسَّطَ به الأعْمَشُ قال :

---

(١) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٦٤٤ .
(٢) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٦٤٤ .
(٣) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٦٤٥ .
(٤) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٦٤٥ .
(٥) سورة الزخرف ، الآية : ١٣ .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾[1] ثم رَمَىٰ به[2] .

وعن حُسَينِ بنِ وَاقِد قالَ : قَرأتُ على الأعْمَشِ ، فقُلتُ له : كَيفَ رَأيتَ قِراءَتي ؟ قالَ : ما قَرأَ عَليَّ عِلْجٌ أقْرأ مِنكَ[3] .

وجاءَ رَجلٌ نَبيلٌ كَبيرُ اللِّحْيَة إلى الأعْمَشِ ، فسَأَلَه عن مَسألَةٍ خَفيفَةٍ في الصَّلاةِ فالْتَفتَ إلينا الأعْمَشُ فقالَ : انْظُروا إليه! لِحيَتُه تَحتَمِلُ حِفظَ أرْبَعةِ آلافِ حَديثٍ ، ومَسألَتُه مَسألَةُ صِبْيانِ الكُتَّاب[4] .

وعن أبي بَكر بنِ عَيَّاش قالَ : رَأيتُ الأعْمَشَ يَلبَسُ قَميصاً مَقْلُوباً ويَقُولُ : النَّاسُ مَجانينَ يَجْعَلونَ الخَشِنَ مُقابِلَ جُلودِهم[5] .

وقيلَ : إنَّ الأعْمَشَ كانَ لَهُ وَلدٌ مُغفَّلٌ فقالَ له : اذْهَبْ فاشْتَرِ لنا حَبْلاً للغَسيل فقالَ : يا أبَتِ طُولُ كَمْ ؟ قالَ : عَشرَة أذْرُع قالَ : في عَرضِ كَمْ ؟ قالَ : في عَرضِ مُصيبَتي فيكَ[6] .

ويُقالُ : إنَّه لَبسَ مرَّةً فَروَاً مَقلُوباً ، فقالَ له قائلٌ : يا أبا مُحمَّد لَوْ لَبستَها وصُوفُها إلىٰ داخِل كانَ أدْفَأ لك قالَ : كُنتَ أشَرتَ علىَ الكَبشِ بهـٰذه الْمَشُورَة[7] .

وقالَ الأصْمَعيُّ : عَبثَ بأشْعَبَ صِبْيانٌ فقالَ : وَيْحَكُم ، اذْهَبُوا ، سَالِمٌ يُفَرِّقُ تَمْراً فعَدُوا فعَدَا مَعَهم وقالَ : لَعلَّه حَقٌّ[8] .

وقالَ الزُّبَيرُ : قيلَ لأشْعَب : نُزَوِّجُك ؟ قالَ : ابْغُوني امْرأةً أتَجَشَّىٰ في وَجْهِهَا

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٩ .
(٢) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٤٥ .
(٣) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/ ٦٤٥ .
(٤) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٤٦ .
(٥) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٤٦ .
(٦) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٤٦ .
(٧) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٤٦ .
(٨) انظر السير : (أشْعَبُ الطَّمَع) ٧/ ٦٦ـ٦٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٧٧ .

تَشبَع ، وتَأكُلُ فَخِذَ جَرادَة تَنتَخِم[1] .

ويُقالُ : دَعاهُ رَجلٌ فقالَ : أنا خَبيرٌ بكَثرَة جُمُوعِك قالَ : لا أدْعُو أحَداً ، فجاء ، إذْ طَلعَ صَبيٌّ ، فقالَ أشْعَبُ : أينَ الشَّرطُ ؟ قالَ : يا أبا العَلاء!! هو ابْني وفيه عَشرُ خِصَالٍ : أحَدُها : أنَّه لَمْ يَأكُلْ مع ضَيفٍ ، قالَ : كَفَىٰ ، التِّسْعُ لَك أدْخِلْه[2] .

وقالَ أبو عاصِم : أوْقَفَني ابنُ جُرَيج علىٰ أشْعَب فقالَ : ما بَلغَ من طَمَعِك ؟ قالَ : ما زُفَّتِ امْرأةٌ إلاَّ كَنَستُ بَيتي رَجاءَ أنْ تُهْدَىٰ إليَّ[3] .

وعن أبي عاصِم أنَّ أشْعَبَ مَرَّ بمَنْ يَعمَلُ طَبقاً فقالَ : وَسِّعْه لَعلَّهم يُهْدونَ لَنَا فيه ومَرَرْتُ يَوماً فإذا هو وَرائي ، قُلتُ : ما بِكَ ؟ قالَ : رَأيتُ قَلَنْسُوتَك مائلَةً فقُلتُ : لَعلَّها تَقَعُ فآخُذَها قالَ : فأعْطَيتُه إيَّاها[4] .

قالَ أبو عبدِ الرحمَـٰن الْمُقرىء : قالَ أشْعَبُ : ما خَرَجتُ في جِنازَةٍ ، فرَأيتُ اثنَينِ يَتَسارَّانِ ، إلاَّ ظَنَنتُ أنَّ الْمَيِّتَ أوْصَىٰ لي بشَيءٍ[5] .

وقالَ سليْمانُ بنُ أبي شَيخ : حَكَىٰ لي عبدُ الله بنُ صالِح بنِ مُسلِم ، قالَ : كانَ شَريكٌ علىٰ قَضاءِ الكُوفَة ، فخَرجَ يَتلقَّى الخَيزُرانَ ، فبَلغَ شاهي[6] ، وأبْطَأت الخَيْزُران ، فأقامَ يَنتَظرُها ثَلاثاً ، ويَبِسَ خُبزُه ، فجَعلَ يَبلُّه بالْمَاءِ ويَأكُله ، فقالَ العَلاءُ بنُ الْمِنْهَال الغَنَويُّ[7] :

فإنْ كانَ الَّذي قُلتَ حقّاً ... بأنْ قَدْ أكْرَهُوكَ علىٰ القَضاءِ
فما لكَ مَوْضِعاً في كُلِّ يَومٍ ... تلَقَّىٰ مَنْ يَحُجُّ مِن النِّساءِ
مُقيماً في قُرَىٰ شَاهِي ثَلاثاً ... بِلا زادٍ سِوَىٰ كِسَرٍ وَمَاءِ

---

(١) انظر السير : (أشْعَبُ الطَّمَع) ٧/ ٦٦ـ٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/٦٧٧ .
(٢) انظر السير : (أشْعَبُ الطَّمَع) ٧/ ٦٦ـ٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/٦٧٧ .
(٣) انظر السير : (أشْعَبُ الطَّمَع) ٧/ ٦٦ـ٦٨ ، وانظر النزهة : ٤/٦٧٧ .
(٤) انظر السير : (أشْعَبُ الطَّمَع) ٧/ ٦٦ـ٦٨ ، وانظر النزهة : ٥/٦٧٧ .
(٥) انظر السير : (أشْعَبُ الطَّمَع) ٧/ ٦٦ـ٦٨ ، وانظر النزهة : ٦/٦٧٧ .
(٦) مَوضع قُرب القادسيّة .
(٧) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٦/٧٤٣

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي عَوَانَة : قالَ الحافِظُ ابنُ عَدي : كانَ مَوْلاهُ يَزيدُ قد خَيَّرَه بينَ الحُريَّة ، وكتَابَةِ الحَديثِ ، فاختار كتَابَةَ الحَديثِ وفَوَّضَ إليه مَوْلاهُ التِّجارَة ، فجاءَه سَائلٌ ، فقالَ : أعْطِني دِرْهَمَينِ ، فإنِّي أنْفَعُك ، فأعْطَاهُ ، فدارَ السَّائلُ علىٰ رُؤسَاءِ البَصْرَة ، وقالَ : بَكِّروا علىٰ يَزيدِ بنِ عَطَاء ، فإنَّه قد أعْتَقَ أبا عَوَانَة قالَ : فاجْتَمَعُوا إلىٰ يَزيدَ ، وهَنَّؤوهُ ، فأنِفَ من أنْ يُنكِرَ ذلك ، فأعْتَقَه حَقيقَةً[1] .

وعن يَحْيَىٰ بنِ مَعين : كان غُنْدَر يجلس علىٰ رأس المنارة يُفرِّقُ زكاتَه ، فقيلَ له : لِمَ تَفعلُ هـٰذا ؟ قالَ : أُرَغِّبُ النَّاسَ في إخْراج الزَّكاة[2] .

واشْتَرَىٰ غُنْدَرُ سَمَكاً ، وقالَ لأهلِه : أصْلِحُوه ، ونامَ ، فأكَلَ عيالُه السَّمكَ ، ولَطَّخُوا يدَه فلمَّا انتَبَه ، قالَ : هاتُوا السَّمكَ ، قالوا : قد أكَلتَ ، فقالَ : لا قالُوا : فشُمَّ يَدَك ففَعلَ ، ثم قالَ : صَدَقتُم ولكنْ ما شَبعتُ[3] .

ونقلَ ابنُ مَرْوانَ في الْمُجالَسَة قالَ : حدَّثنا جَعْفَرُ بنُ أبي عُثْمانَ ، سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين يَقُولُ : دَخَلنا عَلىٰ غُنْدَر ، فقالَ : لا أُحدِّثكم بشَيءٍ حتَّىٰ تَجيئوا مَعي إلى السُّوقِ وتَمْشُونَ ، فيَراكُم النَّاسُ ، فيُكْرِمُوني ، قالَ : فمَشَيْنا خَلفَه إلى السُّوقِ .

فجَعلَ النَّاسُ يَقُولونَ له : مَنْ هَؤلاء يا أبا عَبدِ الله ؟ فيَقُولُ : هَؤلاء أصْحابُ الحَديثِ ، جاؤُوني من بَغْدادَ يَكتُبُونَ عَنِّي .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : اتَّفَقَ أرْبابُ الصِّحاحِ على الاحْتِجاجِ بغُنْدَر .

وكانَت وَفاتُه في سَنةِ ثَلاثٍ وتِسْعينَ ومئة ، وهو في عَشْر الثَّمانين ، رَحمَهُ الله[4] .

ورَوَىٰ أبو عُبَيد الآجُرِّيُّ عن أبي داوُدَ قالَ : كانَ أبو عاصِم الضَّحَّاك يَحفَظُ قَدرَ ألفِ حَديث من جَيِّد حَديثِه ، وكانَ فيه مِزاحٌ ، ويُقالُ : إنَّما قيلَ له النَّبيل ، لأنَّ فيلاً قَدِمَ البَصْرَة ، فذَهبَ النَّاسُ يَنظُرُونَ إليه ، فقالَ له ابنُ جُرَيج : مَا لَك لا تَنظُر ؟ قالَ :

---

(١) انظر السير : (أبو عَوَانَة) ٨/ ٢١٧ـ ٢٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/٧٤٥ .
(٢) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/٨٠٢ .
(٣) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٧/٨٠٢ .
(٤) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٨/٨٠٢ .

لا أجِدُ منكَ عِوَضاً ، قالَ : أنتَ نَبيلٌ وبَعضُهم نَقلَ أنَّ أبا عاصِم كانَ ضَخمَ الأنْفِ ، فتَزوَّجَ امْرأةً ، فلمَّا خَلا بها دَنا منها لِيُقبِّلَها ، فقالَت : نَحِّ رُكبَتَكَ عن وَجْهي قالَ : لَيسَ ذَا رُكبَة ، إنَّما هو أنْفٌ .

وقيلَ : لأنَّه كانَ يَلبَسُ الخَزَّ وجَيِّدَ الثِّيابِ ، وكانَ إذا أقْبلَ ، قالَ ابنُ جُرَيج : جاءَ النَّبيلُ .

وقيلَ لأنَّ شُعبَة حَلفَ ألاَّ يُحدِّثَ أصْحابَ الحَديثِ شَهْراً ، فقَصَدَه أبو عاصِم فدَخلَ مَجلِسَه ، وقالَ : حَدِّث وغُلامي العَطَّارُ حُرٌّ لِوَجْه الله كفَّارةً عن يَمينِك فأعْجَبَه ذلك[1] .

وقالَ الحَسَنُ بنُ سُفْيانَ : سَمعتُ فَيَّاضَ بنَ زُهَير النَّسائيَّ ، يَقُولُ : تَشَفَّعنا بامْرأةِ عبدِ الرَّزَّاق عَليه ، فدَخَلنا ، فقالَ : هاتوا ، تَشَفَّعْتُم إليَّ بمَنْ يَنقَلِبُ مَعي علىٰ فِراشِي ؟ ثم قالَ :

ليْسَ الشفيعُ الّذي يَأْتيكَ متَّزِراً ... مِثلُ الشَّفِيعِ الَّذي يَأتيكَ عُرْيَانا[2]

وقالَ الأصَمُّ : سَمعتُ الرَّبيعَ يَقُولُ : سَألَ رَجلٌ الشَّافِعيَّ عن قاتِلِ الوَزَغ هلْ عَليه غُسلٌ ؟ فقالَ : هـٰذا فُتيا العَجَائز[3] .

وقد كانَ أبو نُعَيم ذا دُعابَة ، فرَوَىٰ عَليُّ بنُ العَبَّاس الْمَقَانِعِي ، سَمعتُ الحُسَين بنَ عَمْرُو العَنْقَزيَّ يَقُولُ : دَقَّ رَجلٌ علىٰ أبي نُعَيم البابَ ، فقالَ : مَنْ ذَا ؟ قالَ : أنا ، قالَ : مَنْ أنا ؟ قالَ : رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، فخَرجَ إليه أبو نُعَيم ، وقَبَّله ، وقالَ : مَرْحَباً وأهْلاً ، ما ظَنَنتُ أنَّه بَقِيَ من هـٰذا النَّسلِ أحَدٌ[4] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ سَلاَّم : كُنَّا مع أبي عُبَيدَة بقُربِ دارِ الأصْمَعيِّ ، فسَمِعنا منها ضَجَّة

---

(١) انظر السير : (أبو عاصِم) ٩/ ٤٨٠ـ ٤٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٣٦ .
(٢) انظر السير : (عبدُ الرَّزَّاق بنُ هَمَّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٣٩
(٣) انظر السير : (الإمامُ الشَّافِعيُّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٥٠ .
(٤) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٦١ .

فبَادَرَ النَّاسُ لِيَعرِفُوا ذلكَ ، فقالَ أبو عُبَيدَة : إنَّما يَفعَلُونَ هَـٰذا عندَ الخُبزِ ، كذا يَفعَلون إذَا فَقَدوا رَغيفاً[1] .

وقال الجاحظُ : حدَّثني ثُمامَةُ ، قال : شَهدتُ رجُلاً قدَّم خَصْمَه إلىٰ والٍ ، فقال : أصْلَحكَ الله ، هـٰذا ناصِبيٌّ ، رافِضيٌّ ، جَهْمِيٌّ ، مُشَبِّهٌ ، يَشْتمُ الحجَّاجَ بنَ الزُّبَيرِ الذي هدمَ الكَعْبَةَ علىٰ عليٍّ ، ويَلْعَنُ مُعاويَةَ بنَ أبي طالب[2] .

قال جَعفرُ بنُ أبي عُثْمان : كنَّا عندَ يَحْيَى بن مَعين ، فجاءه رجلٌ مُسْتَعجلٌ ، فقال : يا أبا زَكَريّا ، حَدِّثْني بشيء أَذْكُرك به ، فقال يَحْيَىٰ : اذكُرني أنَّك سألتَني أنْ أُحدِّثك فلمْ أفعلْ[3] .

وقالَ الحُسَينُ بنُ فَهْم : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، يَقُولُ : كُنتُ بمِصْرَ ، فرَأيتُ جاريَةً بِيعَتْ بألفِ دِينارٍ ، ما رَأيتُ أحْسَنَ منها ، صَلَّى اللهُ عَليها فقُلتُ : يا أبا زَكريّا ، مثلُكَ يَقُولُ هَـٰذا ؟ قالَ : نَعَم ، صَلَّى اللهُ عَليها وعَلَىٰ كُلِّ مَليح .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه الحِكايَةُ مَحمُولَة على الدُّعابَة من أبي زَكريّا وتُروَىٰ عَنه بإسْناد آخَر[4] .

وقالَ خَيْثَمَة : سَمعتُ محمَّدَ بنَ عَوْف ، يَقُولُ : أتَينا هِشَامَ بنَ عَمَّار في مَزْرَعَة له ، وهو قاعِدٌ علىٰ مُروجٍ له ، وقد انْكَشفَتْ سَوْءَتُه ، فقُلنا : يا شَيخُ غَطِّ عَليكَ فقالَ : رَأيتُمُوه ؟! لَنْ تَرْمَدَ عَينُكُم أبَداً ، يَعني يَمْزَح[5] .

وقالَ محمَّدُ بنُ الفَيْضِ جاءَ رَجلٌ من قَريَة الحُرْجُلَّة[6] يَطلُبُ لِعُرسِ أخيه لَعَّابينَ ، فوَجدَ الوَالي قد مَنَعَهم ، فجاءَ يَطلُبُ مُغَبِّرينَ ، يَعني : مُزَمْزِمينَ يُغَبِّرونَ بالقَضيبِ ، قالَ : فلَقِيَه صُوفيٌّ مَاجِنٌ ، فأرْشَدَه إلى ابنِ ذَكْوانَ ، وهو خَلفَ الْمِنْبَر ، فجاءَه ،

---

(١) انظر السير : (الأصْمَعيُّ) ١٠/ ١٧٥ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٨٦٤/ ٤ .
(٢) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٥ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٩١١/ ٣ .
(٤) انظر السير : (يَحْيَى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٩١١/ ٤ .
(٥) انظر السير : (هِشامُ بنُ عَمَّار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٩٥٧/ ٢ .
(٦) قرية من قرىٰ دمشق .

وقالَ : إنَّ السُّلطانَ قد مَنعَ الْمُغَنِّينَ فقالَ : أحْسَنَ والله ، فقالَ : فنَعمَلُ العُرسَ بالْمُغَبِّرينَ ، وقد دُلِلتُ عَليكَ فقالَ : لنا رَفيقٌ ، فإنْ جاءَ ، جِئتُ ، وهو ذاكَ ، وأشارَ إلىٰ هِشامِ بنِ عمَّار فقامَ الرجُلُ إليه ، وهو عندَ الْمِحرابِ مُتكِّىءٌ ، فقالَ الرجلُ لِهِشامٍ : أبو مَنْ أنتَ ، فردَّ عَليه رَداً ضَعيفاً ، فقالَ : أبو الوَليد ، فقالَ : يا أبا الوَليد : أنا من الحُرْجُلَّة ، قالَ : ما أُبالي من أينَ كُنتَ قالَ إنَّ أخي يَعملُ عُرسَه ، فقالَ : فمَاذا أصْنَعُ ؟ قالَ : قد أرْسَلني أطلُبُ له الْمُخَنَّثينَ قالَ : لا بارَكَ اللهُ فيهم ولا فيكَ قالَ : وقد طَلبَ الْمُغَبِّرينَ فأُرشِدتُ إليكَ قالَ : ومَنْ بَعثَك ؟ قالَ : هـٰذا الرجلُ ، فرَفَعَ هِشامٌ رِجلَه ورَفسَه ، وقالَ : قُمْ، وصَاحَ بابنِ ذَكْوانَ : أقَد تَفرَّغتَ لهـٰذا ؟ قالَ : إي والله أنتَ رَئيسُنا ، لَوْ مَضَيتَ مَضَينا[1] .

ورَوَىٰ يَمُوتُ بنُ الْمُزَرَّع ، عن الْمُبَرِّد ، عن أحمَدَ بنِ الْمُعَذَّل ، قالَ : كُنتُ عندَ ابنِ الماجِشُونَ ، فجاءَه بَعضُ جُلسَائه ، فقالَ : يا أبا مَرْوانَ أُعْجُوبَة ، خَرجتُ إلىٰ حائطي بالغابَة ، فعَرضَ لي رَجلٌ ، فقالَ : اخْلَع ثِيابَك قُلتُ : لِمَ ؟ قالَ : لأنِّي أخُوكَ ، وأنا عُرْيانٌ قُلتُ فالْمُواسَاةُ ؟ قالَ : قد لَبستها بُرهَة قُلتُ فتُعَريني ؟ قالَ : قد رَوَيْنا عن مَالِك أنَّه قالَ : لا بَأسَ للرجُلِ أنْ يَغتَسِلَ عُرياناً قُلتُ : تَرَىٰ عَوْرَتي قالَ : لَوْ كانَ أحَدٌ يَلقَاكَ هُنا ، ما تَعرَّضتُ لك قُلتُ : دَعْني أدْخُلُ حائِطِي ، وأبْعَثُ بها إليكَ ، قالَ : كَلاَّ ، أرَدتَ أنْ تُوجِّهَ عَبيدَكَ ، فأُمْسَكُ قُلتُ : أحْلِفُ لك قالَ : لا تَلزَمُ يَمينُك لِلصِّ فحَلَفتُ له : لأبْعَثَنَّ بها طَيِّبَةً بها نَفسِي فأطْرَقَ ثم قالَ : تَصَفَّحتُ أمْرَ اللُّصُوصِ من عَهدِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ وَقتِنا ، فلَمْ أجِدْ لِصّاً أخَذَ بنَسيئَة ، فأكْرَهُ أنْ أبْتَدِعَ ، فخَلَعتُ ثِيابي لَه[2] .

وقال محمدُ بنُ مُظفَّر الحافظُ ، حدَّثنا القاسِمُ المُطرِّز ، قال : دَخلتُ علىٰ عبَّاد بالكُوفَة ، وكان يَمتحِنُ الطَّلبَة ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟ قلتُ : اللهُ قال : هو كَذاك ، ولكن مَنْ حَفرَه ؟ قلتُ يَذكُر الشَّيخُ ، قال حَفرَه عليٌّ ، فمَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : اللهُ قال :

---

(١) انظر السير : (هِشامُ بنُ عَمَّار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٩٥٨ .
(٢) انظر السير : (أحمَدُ بنُ الْمُعَذَّل) ١١/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٤/٩٦٤ .

هو كَذلك ، ولكن مَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : يُفيدني الشَّيخُ قال : أجراهُ الحُسَينُ ، وكان ضَريراً ، فرأيتُ سَيفاً وحَجَفَةً[1] فقلتُ : لمنْ هـٰذا ؟ قال : أعْدَدتُه لأقاتل به مع المَهدي ، فلمَّا فَرغتُ من سَماع ما أردْتُ ، دَخلتُ عليه ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟ قلتُ حفَرَهُ مُعاويةُ رَضيَ اللهُ عنه ، وأجْراهُ عَمرو بنُ العاص ، ثم وَثَبتُ وعَدَوْتُ فجعلَ يَصيحُ : أدْركوا الفاسِقَ عَدوَّ الله ، فاقْتُلوه . إسْنادُه صَحيح ، وما أدْري كيف تَسَمَّحوا في الأخْذِ عمَّن هـٰذا حالُه ؟ وإنَّما وَثِقوا بصِدْقِه .

قال البُخاريُّ : ماتَ عبَّادُ بنُ يَعقُوب في سنة خمسين ومئتين .

ورأيتُ له جُزءاً من كتاب « المَناقِب » ، جَمعَ فيها أشياءَ ساقِطَة قد أغْنَى اللهُ أهلَ البَيتِ عنها ، وما أعتَقده يَتعمَّدُ الكَذبَ أبداً[2] .

وقالَ إسْحاقُ بنُ إبْراهيمَ القَزَّاز : كُنَّا عندَ بُنْدار ، فقالَ في حَديثٍ عن عائشَةَ : قالَ : قالَت رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ له رَجلٌ يَسْخَرُ منه : أُعيذُكَ بالله ، ما أفْصَحَك!! فقالَ : كُنَّا إذا خَرَجنا من عندِ رَوْح دَخَلنا إلىٰ أبي عُبَيدَة ، فقالَ : قد بانَ ذلكَ عَليكَ[3] .

وقالَ عبدُ الله الدَّرامِيُّ ، حدَّثنا يَحْيَىٰ بنُ حَسَّان ، حدَّثنا سُليْمانُ بنُ بِلال ، عن هِشام بنِ عُرْوَة ، عن أبيه ، عن عائشَةَ ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ : « نِعْمَ الإدَامُ الْخَلُّ » .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا حَديثٌ صَحيحٌ غَريبٌ فرَدٌ علىٰ شَرطِ الشَّيْخين ، وانْفَردَ مُسلمٌ به ، ورَواهُ أيضاً أبو عيسَىٰ في « جامِعِه » كِلاهُما عن أبي محمَّد الدَّارِميِّ .

وقد كانَ الدَّرامِيُّ يَقصِدُ في رِوايَة هـٰذا الحَديثِ لتَفرُّده به ، قالَ : فكانَ يَدقُّ علي

---

(١) الحجفة : هي الترس .

(٢) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٧٠ .

(٣) انظر السير : (بُنْدار) ١٢/ ١٤٤ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٨٩ .

البابِ وأنَا ببَغْدادَ ، فأقُولُ : مَنْ ذا ؟ فيُقالُ : يَحْيَىٰ بنُ حَسَّان : « نِعْمَ الإدَامُ الْخَلُّ »[1] .

وقال الْمُبَرِّدُ : لَمْ يَكنْ أحَدٌ بعدَ سِيبَوَيه أعْلمَ بالنَّحْوِ من الْمَازِنيِّ ، قالَ : وذَكرَ لنا الْمَازِنيُّ أنَّ رَجُلاً قَرأ عليه « كتابَ » سِيبَوَيه في مُدَّة طَويلَة فلمَّا بَلغَ آخِرَه قالَ : أما إنِّي ما فَهِمتُ منه حَرْفاً ، وأمَّا أنتَ فجَزاكَ اللهُ خَيراً .

وقالَ الْمَازِنيُّ : قَرأتُ القُرآنَ علىٰ يَعقُوبَ ، فلمَّا خَتمتُ رَمَىٰ إليَّ بخَاتَمِه ، وقالَ : خُذهُ ، لَيسَ لكَ مِثلٌ[2] .

وعن الزُّبَير بنِ بَكار ، قالَ : قالت بنتُ أخْتي لأهلنا : خالي خَيرُ رجلٍ لأهْلِه ، لا يَتَّخذُ ضرَّةً وسريَّة ، قال : تَقولُ المَرأةُ : والله هـٰذه الكُتبُ أشَدُّ عليَّ من ثلاثِ ضَرائِر[3] .

وقالَ محمَّدُ بنُ إسْحاقَ الصَّيْرَفيُّ : سَألتُ الزُّبَيْر : مُنذُ كَمْ زَوجَتُك مَعَك ؟ قالَ : لا تَسْألني ، لَيسَ تَرِدُ القيامَة أكثر كِباشاً منها ، ضحَّيتُ عنها سَبعينَ كَبْشاً[4] .

وقالَ الحاكمُ : حدَّثنا محمَّدُ بنُ صالح بنِ هانىء ، سَمعتُ أحمَدَ بنَ سَلمَة يَقُولُ : بَكَّرتُ يَوماً علىٰ عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ بِشْر في تَزويجِ أُخْتِ امْرأةِ مُسْلمِ بنِ الحَجَّاج ، فرَأيتُه في الْمَسجِدِ ، فقالَ : ما بَكَّرَ بك اليَومَ ؟ قُلتُ : عبدُ الواحدِ الصَّفَّار سَألَني أنْ أجيئَكَ لِتُزَوِّجَ ابنتَه فقالَ : ما حَضرتُ تَزويجاً قَطُّ إذا كانَ في وَقتِ قَولِهم للخَاطِب : قَبلتَ هـٰذا النِّكاحَ ولَهَا من الْمَهْرِ عَليكَ كَذا وكَذا فإذا قالَ : نَعَم ، قُلتُ في نَفسِي : شَقيتَ شَقاءً لا تَسعَدُ بعدَه أبداً[5] .

قال عُثمانُ بنُ خُرَّزاذ : سَمعتُ الشَّاذَكُونيَّ يقولُ : جاءَني محمَّدُ بنُ مُسْلم فقَعدَ

---

(١) انظر السير : (الدَّارميُّ) ١٢/ ٢٢٤ـ ٢٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٧ .
(٢) انظر السير : (الْمَازِنيُّ) ١٢/ ٢٧٠ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ٤/٩٩٧ .
(٣) انظر السير : (الزُّبَير بن بكَّار) ١٢/ ٣١١ـ ٣١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٠٤ .
(٤) انظر السير : (الزُّبَيْر بن بَكار) ١٢/ ٣١١ـ ٣١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٠٤ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الرحمَـٰن بنُ بِشْر) ١٢/ ٣٤٠ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٠٦ .

يَتَقعَّرُ[1] في كَلامِه ، فقلتُ له : مِنْ أيِّ بلدٍ أنتَ ؟ قال : مِنْ أهْلِ الرَّيِّ ، ألَمْ يأتِكَ خَبري ؟ ألَمْ تَسمَعْ بنبَئي ؟ أنا ذُو الرِّحْلَتين قُلتُ : مَنْ رَوَىٰ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكمَةً » فقالَ : حدَّثَني بعضُ أصْحابِنا قلتُ : مَنْ ؟ قال : أبو نُعَيم وقَبيْصَة قلتُ : يا غُلامُ! ائْتِني بالدِّرَّة ، فأتاني بها ، فأمَرتُه ، فضَربَه بها خَمسينَ ، قلتُ : أنتَ تَخرُجُ من عِندي ، ما آمَنُ أن تقولَ : حَدَّثني بَعضُ غِلْمانِنا[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ محمَّدِ بنِ داوُدَ : قالَ أبو الطَّيِّبِ الطَّبَريُّ : سَمعتُ أبا العَبَّاسِ الخُضَريَّ قالَ : كُنتُ جالِساً عندَ أبي بَكر محمَّدِ بنِ داوُد ، فجاءَته امْرأةٌ ، فقالَت : ما تَقُولُ في رَجُلٍ له زَوجَةٌ ، لا هو يُمسِكُها ، ولا هو يُطَلِّقُها ؟ فقالَ أبو بَكر : اخْتَلفَ في ذَلكَ أهْلُ العِلمِ ، فقالَ قائلون : تُؤمَرُ بالصَّبرِ والاحْتِسابِ ، وتَبعَثُ على الطَّلبِ والاكْتِساب وقالَ قائلونَ : يُؤمَرُ بالإنْفَاقِ ، وإلاَّ حُملَ على الطَّلاقِ فلَمْ تَفهَم الْمَرأةُ قَولَه ، فأعادَت سُؤالَها عَليه ، فقالَ : يا هٰذه أجَبتُك ولَستُ بسُلطَانٍ فأُمْضِي ، ولا قَاضٍ فأَقْضِي ، ولا زَوْجٍ فأُرضي فانْصَرِفي[3] .

وقالَ ابنُ أبي حاتم الرَّازي : وسَمعتُ أبي يَقُولُ : خَرَجنا من الْمَدينَة ، من عندِ دَاوُدَ الجَعْفَريِّ ، وصِرْنا إلى الجَارِ ورَكِبنا البَحرَ ، فكانَت الرِّيحُ في وُجُوهِنا ، فبَقينا في البَحرِ ثَلاثَةَ أشْهُر ، وضاقَت صُدُورُنا ، وفَنِيَ ما كانَ مَعَنا ، وخَرَجنا إلى البَرِّ نَمْشي أيّاماً ، حتَّىٰ فَنِيَ ما تَبَقَّىٰ مَعَنا من الزَّادِ والْمَاءِ ، فمَشينا يَوماً لَمْ نأكُلْ ولَمْ نَشرَبْ ، ويَومُ الثاني ، ويومُ الثالث ، فلمَّا كانَ يَكونُ الْمَساءُ صَلَّينا ، وكُنَّا نُلقِي بأنْفُسِنا حَيثُ كُنَّا ، فلمَّا أصْبَحنا في اليَومِ الثَّالثِ ، جعَلنَا نَمشي علىٰ قَدرِ طَاقَتِنا ، وكُنَّا ثَلاثَةَ أنْفُس : شَيخٌ نِيسَابُوريٌّ ، وأبو زُهَير الْمَرْوَزُّوذيُّ ، فسَقطَ الشَّيْخُ مَغشِياً عَليه ، فجِئنَا نُحرِّكُه وهو لا يَعقِلُ ، فتَركنَاه ، ومَشَينا قَدرَ فَرْسَخ ، فضَعُفتُ ، وسَقَطتُ مَغْشيّاً عَليَّ ، ومَضَىٰ صَاحِبي يَمشِي فبَصُرَ من بُعدٍ قَوْماً ، قَرَّبوا سَفينَتَهم من البَرِّ ، ونَزَلُوا عَلىٰ بِئرِ مُوسَىٰ ،

---

(١) التقعير : أن يتكلم بأقصىٰ قعر فمه .

(٢) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٨ .

(٣) انظر السير : (محمَّدُ بنُ داوُد) ١٣/ ١٠٩ـ ١١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦١ .

فلمَّا عايَنَهم ، لَوَّحَ بثَوبِه إلَيهِم ، فجَاؤُوهُ مَعَهُم مَاءٌ وإدَاوَةٌ[1] ، فسَقَوهُ وأخَذُوا بيَدِه ، فقالَ لهم : الْحَقُوا رَفيقَيْنِ لي ، فمَا شَعُرتُ إلاَّ برَجُلٍ يَصُبُّ الْمَاءَ علىٰ وَجْهي ، ففَتَحتُ عَينَيَّ ، فقُلتُ : اسْقِني ، فصَبَّ من الْمَاءِ في مَشرَبة قَليلاً ، فشَرِبتُ ، ورَجَعَتْ إليَّ نَفْسِي ، ثم سَقاني قَليلاً ، وأخَذَ بيَدي ، فقُلتُ : وَرائي شَيخٌ مُلْقَىٰ ، فذَهبَ جَماعَةٌ إليه ، وأخَذَ بيَدي ، وأنا أمْشي وأجُرُّ رِجلِي ، حتَّىٰ إذا بَلغْتُ إلىٰ عندِ سَفينَتِهم ، وأتَوا بالشَّيْخِ ، وأحْسَنُوا إلَيْنا ، فبَقِينَا أيّاماً حتَّىٰ رَجَعَتْ إلَينا أنْفُسُنا ، ثم كَتَبوا لَنَا كِتاباً إلىٰ مَدينَةٍ يُقالُ لها : رَايَة[2] إلىٰ وَاليهِم ، وزَوَّدونا من الكَعْكِ والسَّويقِ والْمَاءِ فلَمْ نزَلْ نَمْشي حتَّىٰ نَفذَ ما كانَ مَعنا من الْمَاءِ والقُوتِ ، فجَعلنا نَمشي جِياعاً علىٰ شَطِّ البَحْرِ ، حتَّىٰ دَفَعَنا إلىٰ سُلَحْفاةٍ مثلُ التُّرْسِ ، فعَمَدنا إلىٰ حَجَرٍ كَبيرٍ ، فضَرَبْنا علىٰ ظَهْرِها ، فانْفَلقَ ، فإذا فيها مثلُ صُفْرَةِ البَيْضِ ، فتَحسَّيْناهُ حتَّىٰ سَكنَ عَنَّا الجُوعُ ، ثم وَصَلْنا إلىٰ مَدينَةِ الرَّايَة ، وأوْصَلْنا الكتابَ إلىٰ عامِلِها ، فأنْزَلَنا في داره ، فكانَ يُقدِّمُ لَنَا كُلَّ يَومٍ القَرْعَ ، ويَقُولُ لِخَادِمِه : هاتِ لَهم اليَقْطينَ الْمُبارَك ، فيُقَدِّمُه مع الخُبزِ أيّاماً ، فقالَ واحدٌ منَّا : ألا تَدعُو باللَّحمِ الْمَشؤُومِ ؟! فسَمعَ صاحِبُ الدَّارِ ، وأتَانا بعدَ ذَلكَ باللَّحمِ ثم زَوَّدَنا إلىٰ مِصْرَ[3] .

وقالَ ابنُ عَبدُوسَ الطَّرائفيُّ : لَمَّا أرَدتُ الخُروجَ إلىٰ عُثْمانَ بنِ سَعيد ـ يَعني إلىٰ هَرَاةَ ـ أتَيتُ ابنَ خُزَيْمَة ، فسَألتُه أنْ يَكتُبَ لي إلَيه ، فكَتبَ إلَيه ، فدَخلتُ هَرَاةَ في رَبيعٍ الأوَّل ، سَنةَ ثَمانينَ ومئتَين ، فأوْصَلتُه الكتَابَ ، فقَرأَه ، ورَحَّبَ بي ، وسَألَ عن ابنِ خُزَيْمَة ، ثم قالَ : يا فَتَى! متَىٰ قَدِمتَ ؟ قُلتُ : غَداً قالَ : يا بنَيَّ! فارْجِعْ اليَومَ ، فإنَّك لَمْ تَقدُمْ بَعدُ ، حتَّىٰ تَقدَمَ غَداً[4] .

وقيلَ : جاءَه رجلٌ ، فقالَ : قد عَشِقتُ جاريَةً ، وثَمنُها خَمسونَ ديناراً ، وما مَعي إلاَّ ثلاثون فوَهَبَه مئةَ دينار ، فسَمعَ به آخَرُ ، فجاءَه وقال : إنِّي عاشقٌ قال : فما تَجدُ ؟

---

(١) الإداوَة : الْمِطْهَرَة ، وهي إناءٌ صَغيرٌ يُحمَلُ فيه الْمَاءُ .

(٢) رايَة : مَحِلَّة عَظيمَةٌ بفُسْطاطِ مِصْرَ وهي المحلة التي في وَسَطِها جامعُ عَمْرو بنِ العَاص .

(٣) انظر السير : (أبو حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٦ .

(٤) انظر السير : (الدَّارِميُّ) ١٣/ ٣١٩ـ ٣٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩١ .

قال : لَهيباً قال : اغْمِسُوهُ في الماء ، فغَمَسوهُ مَرَّات ، وهو يَصيحُ : ذَهبَ العِشْقُ فضَحكَ ، وأمَرَ له بثَلاثينَ ديناراً .

ثم إنَّه تَسَوْدَنَ ، وقَتلَ إخْوَتَه ، ثم عُوفِيَ ، وتابَ ، وتَصدَّق .

ثم ظَهرَ عليه الشِّيعيُّ داعي عُبَيدِ الله المَهْدي ، وحارَبه ، وجَرَتْ أمُورٌ طويلة ، بَعضُها في « تاريخ الإسلام »[1] .

وقيلَ : إنَّ القاسِمَ بنَ عُبَيد الله الوَزيرَ كانَ يَخافُ من هُجُومِ ابنِ الرُّوميِّ ، فدَسَّ عَليه مَنْ أطْعَمَه خُشْكُنانَةً[2] مَسمُومَة ، فأحَسَّ بالسُّمِّ ، فوَثَبَ ، فقالَ الوَزيرُ : إلىٰ أين ؟ قالَ : إلىٰ مَوضِعٍ بَعثتَني إليه قالَ : سَلِّم علىٰ أبي ، قال : ما طَريقي إلى النَّار فبَقيَ أيّاماً وماتَ[3] .

قال الصُّوليُّ : كنتُ أقرأُ علىٰ أبي خَليفة كتابَ : « طَبَقات الشُّعَراء » وغيرَ ذلك ، قال : فوَاعَدَنا يوماً وقال : لا تُخْلِفوني فإنِّي أتَّخِذُ لكم خَبيصةً فتأخَّرْتُ لشُغلٍ عَرضَ لي ، ثم جئتُ والهاشِميُّون عندَه ، فلمْ يَعرفْني الغُلامُ ، وحَجَبَني ، فكَتبتُ إليه :

أبـا خليفـةَ تجفـو مَـنْ لـهُ أدبٌ ... وتـؤثِـرُ الغُـرَّ مِـن أولادِ عبـاسِ
وأنتَ رأسُ الورىٰ في كلِّ مَكرُمةٍ ... وفي العلومِ وما الأذنابُ كالراسِ
ما كانَ قدرُ خبيص لو أذِنتَ لنا ... فيـه فيختلـطُ الأشـرافُ بـالنـاسِ

فلمَّا قَرأها صاحَ على الغُلام ، ثم دَخلتُ ، فقالَ : أسَأتَ إلينا بتَغَيُّبِكَ ، فظلَمْتَنا في تَعَتُّبك ، وإنَّما عُقدَ المجلسُ بك ، ونَحنُ فيما فاتَنا بتأخيرك كما أنْشَدني التوزيُّ لِمَنْ طلَّقَ امرأتَه ثم نَدِمَ فتَزَوَّجَت رجلاً ، فماتَ حين دَخلَ بها ، فتَزَوَّجَها الأولُ فقال :

فعادتْ لنا كالشمسِ بعد ظلامها ... علىٰ خيـر أحـوال كـأنْ لـم تُطلَّـقِ

---

(١) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١١١١ .
(٢) في الوَفيات : « خُشْكُنانجَة » ، والخُشْكُنان : خُبزَةٌ تُصنَع من خالص دَقيق الحِنطَة وتُملأ بالسُّكر واللَّوز أو الفُستُق وتُغلَىٰ (فارسي) .
(٣) انظر السير : (ابنُ الرُّوميّ) ١٣/ ٤٩٥ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/١١١١ .

ثم صَاحَ : يا غُلام! أعدَّ لنا مثلَ طَعامِنا ، فأقَمْنا عندَه يومَنا[1] .

وقالَ خَلفُ بنُ محمَّد الخَيَّام : حدَّثنا سَهلُ بنُ شَاذوَيه : أنَّه سَمعَ الأميرَ خالدَ بنَ أحمدَ يَسألُ أبا عَليٍّ صالحَ بنَ محمَّد الأسَديَّ : لِمَ لُقِّبتَ جَزَرَة ؟ قالَ : قَدمَ عَلينا عُمَرُ بنُ زُرارَة ، فحدَّثهم بحَديثٍ عن عبدِ اللهِ بنِ بُسر : أنَّه كانَ له خَرَزَة للمَريضِ ، فجئتُ وقد تَقدَّمَ هـٰذا الحَديثُ ، فرَأيتُ في كتابِ بَعضِهم وصِحْتُ بالشَّيْخِ : يا أبا حَفْص! يا أبا حَفْص! كَيفَ حَديثُ عبدِ اللهِ بنِ بُسر : أنَّه كانَت له جَزَرَةٌ يُداوي بها الْمَرْضَىٰ ، فصاحَ الْمُحدِّثونَ الْمُجَّان ، فبَقيَ عليَّ حتَّى السَّاعَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : قد كانَ صالحٌ صاحِبَ دُعابَة ، ولا يَغضَبُ إذا وَاجَهَهُ أَحَدٌ بهـٰذا اللَّقَب[2] .

وقالَ بَكرُ بنُ محمَّد الصَّيْرَفيُّ : سَمعتُ صالحَ بنَ محمَّد قالَ : كُنتُ أُسايرُ الجَملَ الشَّاعِرَ بمِصْرَ ، فاسْتَقبَلَنا جَمَلٌ عَليه جَزرٌ ، فقالَ : ما هـٰذا يا أبا عَليّ ؟ قُلتُ : أنا عَليكَ[3] .

وقالَ ابنُ أبي حاتم : سَمعتُ أبي يَقُولُ لأبي زُرْعَة : حَفظَ اللهُ أخانا صالحَ بنَ مُحمَّد ، لا يَزالُ يُضْحِكنا شاهِداً وغائباً ، كَتبَ إليَّ يَذكُرُ أنَّه مَاتَ محمَّدُ بنُ يَحْيَى الذُّهْليُّ ، وجَلسَ للتَّحديثِ شَيخٌ يُعرَفُ بمحمَّد بنِ يَزيد محمش فحدَّث أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ « يَا أبَا عُمَيْر ، مَا فعَلَ الْبَعيرُ ؟ »[4] .

وأن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : « لا تَصْحَبُ الْمَلائِكةُ رِفْقَةً فيها خُرْس »[5] فأحْسَنَ اللهُ عَزاءَكم في الْمَاضي ، وأعْظَمَ أجْرَكُم في البَاقي[6] .

---

(١) انظر السير : (أبو خَليفَة) ١٤/٧ـ١١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٢ .
(٢) انظر السير : (صالحُ بنُ محمَّد) ١٤/٢٣ـ٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٣ .
(٣) انظر السير : (صالحُ بنُ محمَّد) ١٤/٢٣ـ٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/١١٢٣ .
(٤) انظر السير : (صالحُ بنُ محمَّد) ١٤/٢٣ـ٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٤ .
(٥) هـٰذه اللفظة محرَّفة عن « جَرَس » وهو ما يُعلَّقُ في رَقَبةِ الدَّوابِّ .
(٦) انظر السير : (صالحُ بنُ محمَّد) ١٤/٢٣ـ٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/١١٢٤ .

ورُويَ عن صالِحِ بنِ محمَّد قالَ : الأحْوَلُ في البَيتِ مُبارَكٌ ، يَرَى الشَّيءَ شَيئَين[1] .

وقالَ بَكرُ بنُ محمَّد الصَّيرَفي : سَمعتُ صالح بنَ محمَّد يَقُولُ : كانَ عبدُ الله بنُ عُمَرَ بنَ أبَان يَمتحِنُ أصْحابَ الحَديثِ ، وكانَ غالياً في التَّشيُّع ، فقالَ لي : مَنْ حَفرَ بئرَ زَمْزَم ؟ قُلتُ : مُعاويَةُ ، قالَ : فمَنْ نَقَلَ تُرابَها ؟ قُلتُ : عَمرُو بنُ العَاص ، فصَاح فيَّ وقامَ[2] .

وقالَ أبو النَّضْرِ الفَقيهُ : كُنَّا نَسمَعُ من صالِحِ بنِ مُحمَّد وهو عَليلٌ فبَدَتْ عَورَتُه ، فأشَارَ إليه بَعضُنا بأنْ يَتغَطَّىٰ ، فقالَ : رَأيتَه ؟ لا تَرمَدُ أبَداً[3] .

وقالَ بَكرُ بنُ محمَّد الصَّيرَفي : سَمعتُ أبا عَليٍّ صالِحَ بنَ مُحمَّد قالَ : دَخلتُ مِصْرَ فإذا حَلقَةٌ ضَخمَةٌ ، فقُلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالُوا : صاحِبُ نَحْو فقَربتُ منه ، فسَمعتُه يَقُولُ : ما كانَ بصادٍ ، جازَ بالسِّينِ فدَخَلتُ بينَ النَّاسِ وقُلتُ : صَلامٌ عَليكُم يا أبَا سَالِح ، سَلَّيْتم بَعدُ ؟ فقالَ لي : يا رَقيعُ! أيُّ كَلام هـٰذا ؟ قُلتُ : هـٰذا من قَولِكَ الآنَ ، قالَ : أظُنُّكَ من عَيَّاري بَغْدادَ قُلتُ : هو ما تَرَىٰ[4] .

ويُحكَىٰ عن ابنِ الجَصَّاصِ بَلَهٌ وتَغفيلٌ ، مَرَّ به صَديقٌ فقالَ له : كَيفَ أنتَ ؟ فقالَ ابنُ الجَصَّاص : الدُّنيا كُلُّها مَحْمُومَة ، وكانَ قد حُمَّ[5] .

ونَظَر مَرَّةً في الْمِرآةِ فقالَ لِصَاحِبِه : تَرَىٰ لِحْيَتي طَالَت ؟ فقالَ : الْمِرآةُ في يَدِك قالَ الشَّاهدُ يَرَىٰ ما لا يَرَى الغَائبُ[6] .

ودَخلَ يَوماً عَلى الوَزيرِ ابنِ الفُرات فقالَ : عندَنا كِلابٌ يَحرِمونَنا نَنام فقالَ الوَزيرُ :

---

(١) انظر السير : (صالحُ بنُ محمَّد) ١٤/ ٢٣ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٤/١١٢٤ .
(٢) انظر السير : (صالحُ بنُ محمَّد) ١٤/ ٢٣ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٥/١١٢٤ .
(٣) انظر السير : (صالحُ بنُ محمَّد) ١٤/ ٢٣ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٦/١١٢٤ .
(٤) انظر السير : (صالحُ بنُ محمَّد) ١٤/ ٢٣ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٨/١١٢٤ .
(٥) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٤/١١٦٥ .
(٦) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٥/١١٦٥ .

لَعلَّهم جِراء ؟ قالَ : بَلْ كُلُّ واحِدٍ في قَدِّي وقَدِّك[1] .

ودَعَا ابنُ الجَصَّاصِ فقالَ : حَسْبيَ اللهُ وأنْبياؤُه ومَلائكَتُه ، اللَّهُمَّ ، أعد من بَركَة دعائنا علىٰ أهْلِ القُصُورِ في قُصُورِهم ، وعلىٰ أهْلِ الكَنائسِ في كَنائسِهم[2] .

وفَرغَ من الأكلِ فقالَ : الحَمدُ لله الذي لا يُحلَفُ بأعظَمَ منه[3] .

وكانَ مع الخاقاني في مَركب وبيَدِه كرة كافُور ، فبَصقَ في وَجْهِ الوَزير وألْقَى الكافُورَة في دِجلَة ، ثم أفاقَ واعْتَذرَ ، وقالَ : إنَّما أرَدتُ أنْ أبصُق في وَجهِك وأُلْقِيَها في الْمَاء فغَلطتُ فقالَ : كانَ كَذلكَ يا جاهِلُ[4] .

وقالَ التَّنُوخيُّ : اجْتَمعتُ بأبي عَليٍّ ـ وَلدِ ابنِ الجَصَّاص ـ فسَألتُه عمَّا يُحْكَىٰ عن أبيه من أنَّ الإمامَ قَرأ : ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فقالَ : « إي لَعمري » بَدلاً من « آمين »[5] .

وأنَّه أرادَ أنْ يُقبِّلَ رَأسَ الوَزيرِ ، فقالَ : إنَّ فيه دُهْناً فقالَ : أُقَبِّلُه ولَوْ كانَ فيه خرا ، فقالَ : ما كانَت فيه سَلامَةٌ[6] تُخرِجُه إلىٰ هـٰذا ، وكانَ من أدْهَى النَّاسِ ، ولكنْ كانَ يَفعَلُ بحضْرَة الوَزيرِ ، وكانَ يُحبُّ أنْ يُصَوِّرَ نَفسَه ببَلَهٍ لِيَأمَنَه الوُزَراءُ لكَثرَةِ خَلوَتِه بالخُلَفاء[7] .

وقالَ أبو الفَتْح يُوسُفُ القَوَّاس : سَمعتُ أبا بَكر النِّيسابُوريَّ يَقُولُ : تَعرِفُ مَنْ أقَامَ أرْبَعينَ سَنةً لَمْ يَنَمِ اللَّيلَ ، ويَتَقوَّتُ كُلَّ يَومٍ بخَمسِ حبَّاتٍ ، ويُصلِّي صَلاةَ الغَداةِ علىٰ طَهَارَةِ عِشَاءِ الآخِرَة ؟ ثم قالَ : أنا هُوَ ، وهـٰذا كلُّه قبلَ أنْ أعْرِفَ أُمَّ عبدِ الرحمَـٰن ، أيشٍ أقُولُ لِمَنْ زَوَّجَني ؟ ثم قالَ : ما أرادَ إلاَّ الخَيرَ .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٦/١١٦٥ .
(٢) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١١٦٦ .
(٣) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٦ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٦ .
(٥) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٥/١١٦٦ .
(٦) أي : غَفلَة .
(٧) انظر السير : (ابنُ الجَصَّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٦/١١٦٦ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد كانَ أبو بَكر من الحُفَّاظ الْمُجوِّدين[1] .

وكان محمَّدُ بنُ زَيْد الوَاسِطيُّ المُتَكلِّمُ يُؤذِي نِفْطَوَيْه ، وهَجاهُ ، فقالَ :

مـن سـرَّهُ ألا يـرىٰ فـاسقـاً فليجتنـبْ مِـنْ أن يـرىٰ نِفْطَـوَيْـهْ
أحـرقَـه اللهُ بنصـفِ اسمـهِ وصيـر البـاقـي صـراخـاً عليـه

وقال أيضاً : مَنْ أرادَ أنْ يَتَناهَىٰ في الجَهْل ، فليَعْرِفِ الكَلامَ علىٰ مَذْهَبِ النَّاشِىء[2] ، والفِقْهَ علىٰ مَذْهَبِ داوُدَ ، والنَّحْوَ علىٰ مَذْهَب سِيبَوَيْه ثم يقولُ : وقد جَمَعَ هـٰذه المَذاهِبَ نِفْطَوَيْه ، فإليه المُنْتَهَىٰ[3] .

وقالَ ابنُ زُوْلاق : وحدَّثني عليُّ بنُ حَسَن ، قالَ : سَمعتُ ابنَ الحَدَّاد يَقُولُ : كُنتُ في مَجلِسِ ابنِ الإخْشيذِ ، يَعني : مَلكَ مِصْرَ ، فلمَّا قُمنا أمْسَكَني وَحْدي ، فقالَ : أيُّما أفْضَلُ أبو بَكر ، وعُمَر ، أو عَليٌّ ؟ فقُلتُ : اثنَينِ حِذاءَ واحِد ، قالَ : فأيُّما أفْضَلُ أبو بَكر ، أو عَليٌّ ؟ قُلتُ : إنْ كانَ عندَك فعَليٌّ ، وإنْ كانَ بَرّا[4] فأبو بَكر ، فضَحكَ[5] .

وقالَ أبو عبدِ الله الحاكِم : حَضَرتُ أبا العَبَّاس الأصَمَّ يَوماً في مَسجِدِه ، فخَرجَ لِيُؤذِّنَ لِصَلاةِ العَصْر ، فوَقَفَ مَوضِعَ الْمِئذَنَة ، ثم قالَ بصَوتٍ عالٍ : أخْبَرَنا الرَّبيعُ بنُ سُلَيْمانَ ، أخْبَرنا الشَّافِعيُّ ، ثم ضَحِكَ ، وضَحِكَ النَّاسُ ، ثم أذَّن[6] .

وقالَ ابنُ مَندَه : وبَلغَني أنَّ الطَّبَرانيَّ كانَ حَسَنَ الْمُشاهَدَة طَيِّبَ الْمُحاضَرَة ، قَرأَ

---

(١) انظر السير : (ابنُ زِياد النَّسابوريُّ) ١٥/ ٦٥ـ ٦٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨١ .

(٢) هو عبد الله بن محمد ، أبو العبَّاس ، المعروف بابن شرشير الناشىء ، شاعرٌ متكلِّمٌ يُعَدُّ في طبقة ابن الرُّومي والبُحْتري ، أصله من الأنبار ، وأقام ببغداد مدة طويلة ، وخرج إلىٰ مصر فسكنها ، وتُوفِّيَ بها سنة ٢٩٣ هـ .

(٣) انظر السير : (نِفْطَوَيْه) ١٥/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٢ .

(٤) بَرّا : كلمة مولدة بمعنىٰ عَلانية ، ومنه : « مَنْ أصْلحَ جوانيه أصْلحَ الله برّانيه » أي : مَنْ أصْلحَ سَريرته أصلح الله علانيته .

(٥) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٤٧ .

(٦) انظر السير : (الأصَمُّ) ١٥/ ٤٥٢ـ ٤٦٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٩ .

عَليه يَوماً أبو طاهِر بنُ لُوقا حَديثَ : كانَ يَغسِلُ جِمارَه[1] فصَحَّفَه ، وقالَ : خِصيَّ حِمَاره ، فقالَ : ما أرادَ بذلكَ يا أبا طاهِر قالَ : التَّواضُع ، وكانَ هـٰذا كالْمُغفَّل ، قالَ له الطَّبَرانيُّ يَوماً : أنتَ وَلَدي ، قالَ : وإيَّاكَ يا أبا القاسِم ، يَعني وأنتَ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ صاحِبِ الأغَاني ، أبي الفَرَج الأصْبَهانيِّ : ولَه حِكايَةٌ مع الجُهَنيِّ الْمُحتَسِب : كانَ يُجازِفُ ، فقالَ مرَّة : بالبَلدِ الفُلاني نَعْنَعٌ يَطُولُ حتَّىٰ يُعمَل منه سَلالم فبَدرَ أبو الفَرَج وقالَ : عَجائبُ الدُّنيا ألْوان ، والقُدرَةُ صالِحةٌ ، فعِندَنا ما هو أعْجَبُ من هـٰذا ، زَوجُ حَمامٍ ، يَبيضُ بَيضَتَين ، فنَأخُذهُما ، ونَضَعُ بَدَلَهُما سِنْجَتينِ[3] نُحاساً ، فتَفقِسُ عن طَسْتٍ ومسينَه ، فتَضاحَكُوا وخَجِلَ الجُهَنيُّ[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ قِرْواش بنِ مُقلَّد : وكان أديباً شاعراً ، جَواداً مُمَدَّحاً ، نهَّاباً وَهَّاباً ، فيه جاهليَّة وطَبعُ الأعْرابِ ، يُقالُ إنَّه جَمعَ بين أُختَين ، فلامُوهُ ، فقالَ : حَدِّثوني ما الذي نَعمَلُ بالشَّرعِ حتَّىٰ تَذكُروا هـٰذا ؟ وقالَ مَرَّة ما في عُنُقي غَيرُ دمِ خَمسَةٍ سِتةٍ من العَرَب ، فأمَّا الحاضِرَةُ ، فمَا يَعبأ الله بهم[5] .

وقيلَ : إنَّ أبا الطَّيِّبِ الطَّبَريّ دَفعَ خُفّاً له إلىٰ مَنْ يُصلِحُه ، فمَطَلَه وبَقِيَ كُلَّما جاءَ ، نَقَعَه في الْمَاءِ ، وقالَ : الآنَ أُصْلِحُه ، فلمَّا طَالَ ذلك عَليه قالَ : إنَّما دَفعتُه إليكَ لِتُصلِّحَه لا لِتُعلِّمَه السِّباحَة[6] .

وقال خَطيبُ الْمَوْصِلِ أبو الْمُفَضَّل : حدَّثني أبي قالَ : تَوجَّهتُ من الْمَوْصِلِ سَنةَ

---

(١) في « مُصنَّف ابنِ أبي شَيْبَة » (٤/ ٢٧) : حدَّثنا وَكيعٌ عن زَمعَة عن ابنِ طاوُوسَ ، عن أبيه أنه كان يَغسِلُ حصى الجِمار .
(٢) انظر السير : (الطَّبَرانيُّ) ١٦/ ١١٩ـ ١٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٢٧٢ .
(٣) ما يُوزَنُ به .
(٤) انظر السير : (صاحِبُ الأغاني) ١٦/ ٢٠١ـ ٢٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٨٧ .
(٥) انظر السير : (قِروَاش) ١٧/ ٦٣٣ـ ٦٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٧٠ .
(٦) انظر السير : (أبو الطَّيِّب الطَّبَريّ) ١٧/ ٦٦٨ـ ٦٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٣٧٣ .

تِسْعٍ وخَمْسينَ وأرْبع مئة إلىٰ أبي إسْحاقَ الشِّيرازي فلمَّا حَضرتُ عندَه رَحَّبَ بي ، وقالَ : مِنْ أين أنْتَ ؟ فقُلتُ : من الْمَوْصِلِ قالَ : مَرْحباً أنتَ بَلدِيِّ ، قُلتُ : يا سَيدنا! أنتَ مِنْ فَيْرُوزَاباد قالَ : أمَا جَمعَتنا سَفينَةُ نُوحٍ ؟ فشاهَدتُ من حُسْنِ أخْلاقِه ولَطافَتِه وزُهدِه ما حَبَّبَ إليَّ لُزومَه فصَحبتُه إلىٰ أنْ ماتَ .

تُوفِّيَ سنة ستٍّ وسَبعين وأربع مئة ببغداد ، وأُحضِرَ إلىٰ دارِ أمير المؤمنينَ الْمُقْتَدي بالله فصلَّىٰ عليه[1] .

وقالَ الحافِظُ محمَّدُ بنُ طاهِر : سَمعتُ أبا إسْحاقَ الحَبَّالَ يَقُولُ : كُنَّا يَوماً نَقرأ علىٰ شَيخٍ ، فقَرأنا قَولَه عليه السلام : « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ » وكانَ في الجَماعَة رَجُلٌ يَبيعُ القَتَّ ـ وهو عَلفُ الدَّوابِّ ـ فقامَ وبَكَىٰ ، وقالَ : أتُوبُ إلى الله فقيلَ له : لَيسَ هو ذَاكَ ، لكنَّه النَّمَّامُ الذي يَنقُلُ الحَديثَ من قَومٍ إلىٰ قَومٍ يُؤذيهم قالَ : فسَكنَ وطابَت نَفسُه[2] .

وقيلَ : دخلَ الغَزاليُّ إليه ، وجلسَ بينَ يَديه ، فقال : من أين أنتَ ؟ قال : من المدرسة ببغداد قال الغَزاليُّ : لو قُلتُ : إنِّي من طوس لذكَر تَغْفيلَ أهلِ طوس ، ومن أنَّهم سألوا المأمونَ ، وتَوسَّلوا إليه بقبرِ أبيه عندهم ، وطلَبوا أن يُحوِّلَ الكعبَةَ إلىٰ بلدِهم ، وأنَّه جاء عن بعضِهم أنَّه سُئلَ عن نَجْمِهِ ، فقال : بالتَّيْسِ ، فقِيلَ له ، فقال : كان من سنتينِ بالجَدي ، والساعةَ قد كَبرَ .

وقال ابنُ ناصر : مات سنةَ ثمانٍ وثمانين وأربعِ مئة[3] .

وقالَ أحمَدُ بنُ ثابت الطَّرْقيُّ : سَمعتُ جَماعَةً أنَّ عبدَ الوَهَّابِ الفَامِيَّ أمْلَىٰ عَليهم ببَغْدادَ : « صَلاةٌ في أَثَرِ صَلاةٍ كتَابٌ في عِلِّيِّين » فصَحَّفَها « كنَارٍ فِي غَلَس » فكلَّمُوهُ ، فقالَ : النَّارُ في الغَلَس تَكونُ أضْوَأ .

---

(١) انظر السير : (أبو إسْحاقَ الشِّيرازي) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣١ .
(٢) انظر السير : (الحَبَّال) ١٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣٦ .
(٣) انظر السير : (أبو يوسُف القَزْوينيّ) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٩ .

قالَ الطَّرْقيُّ : وسَأَله صَديقٌ لي : هَلْ سَمعتَ « جَامِعَ أبي عِيسىٰ » ؟ فقالَ : ما الجَامِعُ ؟ ومَنْ أبو عيسَى ؟ ثم سَمعتُه بَعدُ يَعُدُّه في مَسْمُوعاتِه[1] .

ولَمَّا أرَادَ أنْ يمُليَ بجامعِ القَصرِ ، قُلتُ له : لَوْ اسْتَعنْتَ بحَافِظٍ ؟ فقالَ : إنَّما يَفعَلُ ذا مَنْ قَلَّتْ مَعرفَتُه ، وأنا فحِفظي يُغْنيني ، فامْتُحنتُ بالاسْتِملاءِ عَليه ، فرَأيتُه يُسقِطُ من الإسْنادِ رَجُلاً ، ويزيدُ رَجُلاً ، ويَجعَلُ الرجُلَ اثنَين ، فرَأيتُ فَضيحَةً ، فمِنْ ذلكَ : الحَسَنُ بنُ سُفْيانَ ، حدَّثنا يَزيدُ بنُ زريع ، فأمْسَكَ الجَماعَةُ ، ونَظَرَ إليَّ وتكلَّمُوا ، فقُلتُ : قد سَقطَ إمَّا محمَّدُ بنُ مِنْهَال ، أو أُمَيَّةُ بنُ بسْطَام ، فقالَ : اكْتُبوا كَمَا في أصْلِي وجاءَ : أخبَرنا سَهلُ بنُ بَحر ، أنا سَألتُه ، فصَحَّفَها ، فقالَ : أنا سالِبُه ، وقالَ : سَعيدُ بنُ عَمْرٍو الأشْعَثيُّ ، فقالَ : والأشْعَثيُّ ، جَعلَ وَاو « عَمرو » للعَطْف ، فرَدَدتُه ، فأبَىٰ ، فقُلتُ : فمَنْ الأشْعَثيُّ ؟ قال : فُضُولٌ منكَ ، وجاءَ وَرْقاءُ بنُ قَيس بنِ الرَّبيع ، فقُلتُ : هو « عَنْ » بدَلَ « ابنْ » وقالَ في حَديثِ حُمَيْلِ بنِ بَصْرَةَ : لَقيتُ أبا هُرَيْرَة وهُوَ يَجيءُ من الطُّورِ ، فقَالَ : « الطَّوْدِ » وفَسَّرَ مرَّة « الخِشفَ »[2] ، فقالَ : طَائرٌ ، وقالَ في : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[3] انتَصَبَ على الحَالِ[4] .

وقالَ أبو سَعْد بنُ أبي عمامة : كُنتُ لَيلةً جالِساً في بَيتي ، وقد نامَ النَّاسُ ، فدُقَّ البابُ ، فإذا بفَرَّاشٍ وخادِمٍ مَعَه شَمعَةٌ ، فقالَ : بِسْمِ الله فأُدخِلتُ على الْمُسْتَظهِرِ ، وعَليه أثَرُ غَمٍّ ، فأخَذتُ في الحِكَاياتِ والْمَواعِظ وتَصغيرِ الدُّنيا وهو لا يَتغيَّرُ ، وأخَذتُ في حِكايات الكِرامِ وغَيرِ ذلكَ ، فقُلتُ : هٰذا لا يَنامُ ، ولا يَدَعُني أنَامُ ، فُقلتُ : يا أميرَ الْمُؤمنينَ ، لي مَسألَةٌ قالَ : قُلْ قُلتُ : ولا تَكْتُمني ؟ قالَ : لا ، قُلتُ : بالله حَلَّ عَليكَ نقدةٌ للبائع ، أو انْكَسَر زَوْرَقُك ، أو وَقَعوا علىٰ قَافلَةٍ لَكَ ، وضَاقَ وَقتُك ؟ عندي طَبَقُ خِلافٍ أنا أُقرِضُه لَك ، وتَبقَىٰ بارِزياً في الدُّروبِ وما يُخلي اللهُ من رِزْقٍ ،

---

(١) انظر السير : (الفَامِيُّ) ١٩/ ٢٤٨ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٧٤ .

(٢) الخشف : هو الظبي أوَّلَ ما يُولَد .

(٣) سورة الكهف ، الآية : ١١٠ .

(٤) انظر السير : (الفَامِيُّ) ١٩/ ٢٤٨ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧٤ .

فهٰذا هَمٌّ عَظيمٌ ، وقد مَرَسْتَني اللَّيلَةَ ، فضَحِكَ حتَّى اسْتَلقَىٰ ، وقالَ : قُمْ ، فَعلَ اللهُ بِكَ وصَنعَ فقُمتُ ، وتَبِعَني الخادِمُ بدَنانيرَ وتَختِ ثياب[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي الحُسَينِ الزَّاهِد : قالَ الضِّياءُ : وبَلَغَني عنه أنَّه كانَ يُلبِسُ سَراويلَه حِمَارَه ، ويَقُولُ : نُواري عَوْرَتَه ، فيَضحَكُ النَّاسُ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الخَشَّابِ : قيلَ : عَرضَ اثنَانِ عليه شِعراً لَهُما ، فسَمعَ للأوَّلِ ، ثم قالَ : أنتَ أرْدأُ شِعْراً منه ، قالَ : كَيفَ تَقُولُ هٰذا ولَمْ تَسمَعْ قَولَ الآخَر ؟ قالَ : لأنَّ هٰذا لا يَكُونُ أرْدَأَ منه[3] .

وقالَ لرَجُلٍ : ما بِكَ ؟ قالَ : فُؤادِي قالَ : لَوْ لَمْ تَهْمِزْهُ لَمْ يُوجِعْكَ .

قالَ حَمزَةُ بنُ القُبَيْطي : كانَ ابنُ الخَشَّابِ يَتعَمَّمُ بالعمَامَة ، وتَبقَىٰ مُدَّة حتَّىٰ تَسْودَّ وتَتقَطَّعَ من الوَسَخِ وعَليها ذَرَقُ العَصافير .

وقالَ ابنُ الأخْضَر : ما تَزوَّجَ ابنُ الخَشَّاب ولا تَسَرَّىٰ ، وكانَ قَذِراً يَستَقِي بجَرَّةٍ مَكْسُورَة ، عُدناهُ في مَرَضِه ، فوَجَدناهُ بأسْوَء حَالٍ ، فنَقَلَه القاضي أبو القاسِم بنُ الفَرَّاء إلىٰ دَارِه ، وألْبَسَه ثَوباً نَظيفاً ، وأحْضَرَ الأشْرِبَةَ والْمَاوَردَ ، فأشْهَدَنا بوَقفِ كُتُبِه ، فتَفرَّقَتْ ، وباعَ أكثَرَها أوْلادُ العَطَّارِ حتَّىٰ بَقِيَ عُشْرُها ، فتُرِكَ برِباطِ الْمَأمُونيَّة .

قالَ ابنُ النَّجَّارِ : كانَ بَخيلاً مُتَبذِّلاً ، يَلعَبُ بالشَّطرَنجِ على الطَّريقِ ، ويَقفُ على الْمُشَعوِذِ ، ويَمزَحُ ، ألَّفَ في الرَّدِّ عَلى الحَريريِّ في « مَقامَاتِه » ، وشَرحَ « اللُّمَعَ » وصَنَّفَ في الرَّدِّ علىٰ أبي زَكريَّا التَّبْريزي .

وقالَ القِفْطيُّ : عِبارَتُه أجْوَدُ من قَلمِه ، وكانَ ضَيِّقَ العَطَن ما كَمَّلَ تَصْنيفاً[4] .

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَظهِرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٩ .
(٢) انظر السير : (أبو الحُسَينِ الزَّاهِد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٥٦٧ .
(٣) انظر السير : (ابنُ الخَشَّاب) ٢٠/ ٥٢٣ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٨ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الخَشَّاب) ٢٠/ ٥٢٣ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٨ .

الأكلَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ سُليْمانَ بنِ عبدِ الْمَلِك : كانَ من الأكَلَة ، حتَّىٰ قيلَ : إنَّه أكلَ مرَّةً أرْبَعينَ دَجاجَةً ، وقيلَ : أكَلَ مَرَّة خَرُوفاً وستَّ دَجاجَاتٍ وسَبعينَ رُمَّانَةً ، ثم أُتِيَ بمَكُّوكِ[1] زَبيبٍ طائفِيٍّ فأكَله[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مَيْسَرَة التراس : قالَ الأصْمَعيُّ : قالَ ليَ الرَّشيدُ : كَمْ أكثَر ما أكَلَ مَيْسَرَةُ ؟ قُلتُ : مئة رَغيفٍ ونِصْف مكُّوك مِلْح ، فأمَرَ الرَّشيدُ فطُرِحَ للفِيلِ مئةُ رَغيفٍ ، ففَضَّلَ منها رَغيفاً[3] .

وقيلَ : إنَّ بَعضَ الْمُجَّانِ قالوا له : هَلْ لكَ في كَبشٍ مَشويٍّ ؟ قالَ : ما أكْرَهُ ذلكَ ، ونَزلَ عن حِمارِه فأخَذُوا الحِمَارَ ، وأتَوهُ ـ وقد جَاعَ ـ بالشِّواءِ ، فأقبَلَ يَأكُلُ ، ويَقُولُ : أهَـٰذا لَحمُ فيلٍ ؟! بلْ لَحمُ شَيطان ، حتَّىٰ فرغَه ، ثم طَلبَ حِمارَه ، فتَضاحَكُوا ، وقالُوا : هو والله في جَوْفِك وجَمَعوا له ثَمَنَه[4] .

وقيلَ : نَذَرَت امْرأةٌ أنْ تُشبِعَه ، فرَفَقَ بها ، وأكلَ ما يَكفِي سَبعينَ رَجُلاً[5] .

* * *

---

(١) الْمَكُّوكُ : مِكيالٌ يَختلف مقداره باختلاف اصْطلاحِ النَّاس عليه في البلاد يُقالُ إنه يَسعُ صاعاً ونصفاً .

(٢) انظر السير : (سُليْمانُ بنُ عبد الْمَلك) ٥/ ١١١ـ١١٣ ، وانظر النزهة : ٧/٥٨٥ .

(٣) انظر السير : (مَيْسَرَةُ التراس) ٨/ ١٦٤ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٠ .

(٤) انظر السير : (مَيْسَرَةُ التراس) ٨/ ١٦٤ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٤١ .

(٥) انظر السير : (مَيْسَرَةُ التراس) ٨/ ١٦٤ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٤١ .

(١٧) قَصَص

١ـ قِصَّةُ النَّجَاشيّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : اسْمُه أصْحَمَة مَلكُ الحَبَشَة مَعدُودٌ في الصَّحابَة رَضيَ الله عنهم ، وكانَ ممَّن حَسُنَ إسْلامُه ولم يُهاجِر ، ولا لَه رُؤيَة ، فهو تابعيٌّ من وَجْه ، صاحِبٌ من وَجْه ، وقد تُوفِّيَ في حياة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فصلَّىٰ عليه بالنَّاسِ صَلاةَ الغائب ، ولم يَثبُت أنَّه صلى الله عليه وسلم صلَّىٰ علىٰ غائبٍ سِواه ، وسَبَبُ ذلك أنَّه مَاتَ بَينَ قَومٍ نَصارَىٰ ، ولَمْ يَكنْ عندَه مَنْ يُصلِّي عليه ، لأنَّ الصَّحابَةَ الذين كانوا مُهاجِرينَ عندَه خَرجُوا من عندِه مُهاجِرينَ إلى الْمَدينَة عامَ خَيْبَر[1] .

عن أُمِّ سَلمَة زَوجِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قالَت : لَمَّا نَزلتُ أرْضَ الحَبَشَة جاوَرْنا بها خَيرَ جَارٍ النَّجاشِيَّ ، أَمِنَّا علىٰ دِينِنا ، وعَبَدْنا اللهَ تَعالَىٰ لا نُؤذَىٰ ولا نَسمَعُ شَيئاً نَكرَهُه ، فلمَّا بَلغَ ذلكَ قُرَيْشاً ، ائْتَمَروا أنْ يَبْعَثوا إلى النَّجاشيِّ فينا رَجُلين جَلدين ، وأنْ يُهْدُوا للنَّجاشيِّ هَدايَا مِمَّا يُستَطرَف من مَتَاع مَكة ، وكانَ من أعْجَب ما يَأتيه منها إليه الأدمُ ، فجَمَعوا له أدماً كَثيراً ، ولَمْ يَترُكوا من بَطارِقَتِه بِطْريقاً إلاَّ أهْدوا إليه هَديَّة ، ثم بَعثوا بذلكَ عبدَ الله بنَ أبي رَبيعَة بنَ الْمُغيرَة الْمَخْزوميّ ، وعَمرَو بنَ العاصِ السَّهميّ ، وأمَرُوهُما أمْرَهم ، وقالوا لهما : ادْفَعوا إلىٰ كُلِّ بِطْريقٍ هَديتَه قَبلَ أنْ تُكلِّمُوا النَّجاشي فيهم ، ثم قدِّموا له هداياه ، ثم سَلُوهُ أنْ يُسلِّمَهم إليكم قبلَ أنْ يُكلِّمَهم قالَت : فخَرَجا ، فقَدِما على النَّجاشيِّ ، ونَحنُ عندَه بخَيرِ دارٍ عندَ خَيرِ جارٍ فلَمْ يَبقَ من بَطارِقَتِه بِطْريقٌ إلاَّ دَفَعا إليه هَديتَه ، وقالا له : إنَّه قد ضَوَىٰ[2] إلىٰ بَلدِ الْمَلِك منَّا غِلْمانٌ سُفَهاءُ ، فارَقوا دينَ قَومِهم ، ولَمْ يَدخُلوا في دِينِكم ، وجَاؤُوا بدينٍ مُبتَدَع لا نَعرِفُه نَحنُ ولا أنتم ، وقد بَعَثَنا إلى الْمَلِك فيهم أشْرافُ قَومِهم لِيَرُدَّهم إليهم ، فإذا كلَّمنا

---

(١) انظر السير : (أخْبارُ النَّجاشي) ١/٤٢٨ـ٤٤٣ ، وانظر النزهة : ١/١٨٦ .

(٢) وقال السُّهَيليُّ في « الرَّوْضِ الأُنُف » : ضَوَىٰ إليك فِتيَةٌ : أي أووا إليك ولاذوا بك .

الْمَلِكَ فيهم ، فأشِيروا عَليه بأنْ يُسلِّمَهم إلينا ولا يُكلِّمَهم ، فإنَّ قَومَهُم أعلَىٰ بهم عَيناً[1] وأعلَمُ بما عَابُوا عَليهم ، فقالُوا لهم : نَعَم ثم إنَّهما قَرَّبا هَدايا النَّجاشيِّ ، فقبلَها منهم ، ثم كلَّماه ، فقالا له : أيُّها الْمَلِكُ إنَّه ضَوَىٰ إلىٰ بَلدِك منَّا غِلْمانٌ سُفَهاءُ ، فارَقوا دينَ قَومِهم ، ولَمْ يَدخُلوا في دينِك ، وجَاؤُوا بدينٍ مُبتَدَع لا نَعرِفُه نَحنُ ولا أنتَ ، وقد بَعثَنا إليكَ أشْرافُ قَومِهم من آبائهم وأعْمَامِهم وعَشائرِهم لِتَرُدَّهم إليهم ، فهم أعلَىٰ بهم عَيناً ، وأعلَمُ بما عَابُوا عَليهم فيه ، قالَت[2] : ولَمْ يَكنْ شَيءٌ أبغَضَ إلىٰ عبدِ الله ، وعَمرو منْ أنْ يَسمَعَ النَّجاشيُّ كلامَهم فقالَ بَطارِقَتُه حَولَه : صَدَقوا أيُّها الْمَلِكُ فأسْلِمْهم إلَيْهما فغَضبَ النَّجاشيُّ ، ثم قالَ : لا ها الله[3] إذاً لا أُسْلمُهم إلَيهما ، ولا أُكادُ[4] ، قَومٌ جاوَرُوني ، ونزَلوا بلادي واخْتَارُوني علىٰ مَنْ سِوايَ حتَّىٰ أدْعُوَهم فأسْألَهم ثم أرْسَلَ إلىٰ أصْحابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فدَعاهم ، فلمَّا جاءَهم رَسُولُه اجْتَمَعوا ، ثم قالَ بَعضُهم لبَعضٍ : ما تَقُولُونَ للرَّجُلِ إذا جِئْتُمُوه ؟ قالوا : نَقُولُ والله ما عَلِمْنا ، وما أمَرَنا به نَبيُّنا صلى الله عليه وسلم ، كائناً في ذلكَ ما كانَ فلمَّا جاؤُوهُ ، وقد دَعَا النَّجاشيُّ أساقِفَتَه ، فنَشَروا مَصَاحِفَهم حَولَه ، سَألَهم فقالَ : ما هَـٰذا الدينُ الذي فارَقْتُم فيه قَومَكم ولَمْ تَدخُلوا في دِينِي ولا في دِينِ أحَدٍ من هَـٰذه الأُمَم ؟ قالَت : وكانَ الذي يُكلِّمُه جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِب ، فقالَ له : أيُّها الْمَلِكُ ، إنَّا كُنَّا قَوماً أهلَ جَاهِليَّة : نَعبُدُ الأصْنَامَ ، ونَأكُلُ الْمَيْتَةَ ، ونَأتي الفَوَاحِشَ ، ونَقطَعُ الأرْحَامَ ، ونُسيءُ الجِوَارَ ، ويَأكُلُ القَويُّ مِنَّا الضَّعيفَ ، فكُنَّا علىٰ ذلكَ حتَّىٰ بَعثَ اللهُ إلَينا رَسُولاً مِنَّا ، نَعرفُ نَسَبَه وصِدقَه وأمانَتَه وعَفافَه ، فدَعَانا إلى الله لِنُوَحِّدَه ونَعبُدَه ، ونَخلَعَ ما كُنَّا نَعبُدُ وآباؤنا من دُونِه من الحِجَارَة والأوْثانِ ، وأمَرَنا بصِدقِ الحَديثِ ، وأداءِ

---

(١) قال السُّهَيليُّ : أي أبصَرُ بهم ، أي عينهم وإبصارهم فوق عيون غيرهم في أمرهم .

(٢) أي أُمُّ سَلمَة رَضيَ اللهُ عنها .

(٣) لاها الله : قَسَم ، وأهل العربية يقولون : لاها الله ذا والهاء بدل من واو القسم ، أي : والله لا يكون ذا .

(٤) ولا أُكادُ : بضَم الهمزَة ، فعل مبني للمجهول ، أي ولا يَكيدُني أحد قال في « اللِّسان » : يقولون ـ إذا حُملَ أحدُهم علىٰ ما يَكرَه : لا والله لا كيداً ولا هَمَّاً : يُريدُ : لا أُكادُ ولا أُهَمُّ .

الأمانَة ، وصِلَةِ الرَّحِم ، وحُسنِ الجِوَارِ ، والكَفِّ عن الْمَحارِمِ والدِّماءِ ، ونَهانا عن الفَوَاحِشِ ، وقَولِ الزُّورِ ، وأكْلِ مَالِ اليَتيمِ ، وقَذفِ الْمُحْصَنَة ، وأمَرَنا أنْ نَعبُدَ اللهَ لا نُشْرِكَ به شَيئاً ، وأمَرَنا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ ـ قالَت : فعَدَّدَ له أمُورَ الإسْلامِ ـ فصَدَّقناهُ وآمَنَّا به واتَّبَعْناه ، فعَدا عَلينا قَومُنا فعَذَّبونا وفَتَنونا عن دِينِنا لِيَرُدُّونا إلىٰ عِبادَةِ الأوْثانِ ، وأنْ نَسْتَحِلَّ ما كُنَّا نَستَحِلُّ من الخَبَائثِ ، فلمَّا قَهَرونا وظَلَمُونا وشَقُّوا عَلينا ، وحَالُوا بَيْنَنا وبينَ دِينِنا ، خَرَجْنا إلىٰ بَلدِك ، واخْتَرْناكَ علىٰ مَنْ سِواكَ ، ورَغِبْنا في جِوارِك ، ورَجَوْنا أنْ لا نُظلَمَ عِندَك أيُّها الْمَلِك .

قالَت : فقالَ : هَلْ مَعكَ مِمَّا جاءَ به عن الله من شَيء ؟ قالَ : نَعَم ؟ قالَ : فاقْرَأه عليَّ ، فقَرَأ عَليه صَدْراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[1] فبَكَىٰ واللهِ النَّجاشيُّ حتىٰ أخضَلَ لِحْيتَه ، وبَكَتْ أساقِفَتُه حتَّىٰ أخْضَلوا مَصَاحِفَهم حينَ سَمعوا ما تُلِيَ عَليهم ، ثم قالَ النَّجاشيُّ : إنَّ هَـٰذا والذي جاءَ به مُوسَىٰ لَيَخرُجُ من مِشْكاةٍ واحِدَةٍ انْطَلِقَا ، فوالله لا أُسْلِمُهم إلَيكُم أبَداً ولا أكادُ[2] .

فلمَّا خَرجَا قالَ عَمرٌو : والله لأنَبِّئَنَّه غَداً عَيبَهم ثم أسْتأصِلُ خَضراءَهم ، فقالَ عبدُ الله بنُ أبي رَبيعَة ، وكانَ أتْقَى الرَّجُلَينِ فينا : لا تَفعَلْ ، فإنَّ لهم أرْحاماً وإنْ كانوا قد خالَفُونا قالَ : والله لأُخْبِرنَّه أنَّهم يَزعُمون أنَّ عِيسَىٰ عَبدٌ ثم غَدا عَليه ، فقالَ : أيُّها الْمَلِكُ ! إنَّهم يَقُولُونَ في عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ قَولاً عَظيماً ، فأرْسِلْ إلَيهم فسَلْهم عمَّا يَقولُونَ فيه فأرْسَلَ يَسألُهم .

قالَت : ولَمْ يَنْزِلْ بنا مثلُها ، فاجْتَمعَ القَومُ ، ثم قالوا : نَقُولُ والله فيه ما قالَ اللهُ تَعالَىٰ كائناً ما كانَ فلمَّا دَخلوا عَليه قالَ لهم : ما تَقولُونَ في عِيسَى ؟ فقالَ له جَعْفَرٌ : نَقُولُ فيه الذي جاءَ به نَبيُّنا هو عَبدُ اللهِ ورَسُولُه ورُوحُه وكَلمَتُه ألْقَاهَا إلىٰ مَرْيَمَ العَذْراءَ البَتُول فضَربَ النَّجاشيُّ يدَه إلى الأرضِ ، فأخَذَ عُوداً ، ثم قالَ : ما عَدا عِيسَىٰ ما قُلتَ هـٰذا العُودَ فتَناخَرَت بَطارِقَتُه حَولَه ، فقالَ : وإنْ نَخَرْتُم واللهِ ، اذْهَبُوا فأنتُم

---

(١) أول سورة مريم .

(٢) انظر السير : (أخْبارُ النَّجاشي) ١/٤٢٨ـ٤٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٨٦ .

سُيومٌ[1] بأرضي مَنْ سَبَّكم غُرِّمَ ، ثم مَنْ سَبَّكم غُرِّمَ ، ما أُحِبُّ أنَّ لي دَبرىٰ[2] ذَهباً وأنِّي آذَيتُ رَجُلاً منكم ـ والدَبر بلِسَانهم الجَبَل ـ رُدُّوا عليهما هَداياهُما ، فواللهِ ما أخَذَ اللهُ منِّي الرِّشْوَةَ حينَ رَدَّ عليَّ مُلكِي ، فآخُذُ الرِّشْوَةَ فيه ، وما أطَاعَ النَّاسَ فيَّ ، فأُطِيعُهم فيه فخَرجَا مَقبُوحَين ، مَردُوداً عَليهِما ما جاءا به ، وأقَمْنا عندَه بخَيرِ دَارٍ مع خَيرِ جَار فوالله إنَّا علىٰ ذلك ، إذ نَزَل به ، يَعني مَنْ يُنازِعُه في مُلكِه ، فوالله ما عَلِمْنا حَرْباً قَطُّ كانَ أشَدَّ من حَربِ حَربْناه[3] ، تَخوُّفاً أنْ يَظهَرَ ذلكَ على النَّجاشيِّ ، فيأتيَ رَجلٌ لا يَعرفُ مِنْ حَقِّنا ما كَانَ النَّجاشيُّ يَعرفُ منه ، وسَارَ النَّجاشيُّ وبَينَهما عَرضُ النِّيلِ ، فقالَ أصْحابُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، مَنْ رَجلٌ يَخرُجُ حتَّىٰ يَحضُرَ وَقعَةَ القَومِ ثم يَأتيَنا بالخَبَر ؟ فقالَ الزُّبَيْرُ : أنا ، وكانَ من أحْدَثِ القَومِ سِنّاً ، فنَفَخُوا له قِربَةً ، فجَعَلَها في صَدره ، ثم سَبحَ عَليها حتَّىٰ خَرجَ إلىٰ مَكانِ الْمُلتَقَىٰ ، وحَضَرَ ، فدَعَوْنا اللهَ للنَّجاشيِّ بالظُّهورِ علىٰ عَدُوِّه والتَّمْكينِ له في بِلادِه واسْتَوسَقَ[4] له أمْرُ الحَبَشَة ، فكُنَّا عندَه في خَيرِ مَنزِل حتَّىٰ قَدِمنا علىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بمَكة .

وقولها : (حتىٰ قدمنا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمَكة) عنت نفسها وزوجَها[5] .

ومن مَحاسِن النَّجاشيِّ أنَّ أُمَّ حَبيبَة رَمْلَةَ بنتَ أبي سُفْيانَ بن حَرْب الأُمَويَّة أُمَّ الْمُؤمنينَ أسْلَمَت مع زَوجِها عُبَيد الله بنِ جَحْش الأسَدي قَديماً ، فهاجَرَ بها زَوجُها ، فانْمَلَسَ بها إلىٰ أرضِ الحَبَشَة ، فوَلَدَتْ له حَبيبَة رَبيبَة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ثم إنَّه أدْرَكَه الشَّقاءُ فأعْجَبَه دينُ النَّصْرانيَّة فتَنَصَّرَ ، فلَمْ يَنْشَبْ أنْ ماتَ بالحَبَشَة ، فلمَّا وَفَتِ العِدَّة ، بَعثَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، يَخطِبُها ، فأجابَت ، فنَهضَ في

---

(١) السيوم : الآمنون .
(٢) قالَ ابنُ الأثير : هو بالقَصر : اسمُ جَبل .
(٣) الحَربُ : الغضَبُ والنِّزاع ، والخُصومة .
(٤) استوسق له أمرُ الحَبَشَة : أي اجتمَعوا علىٰ طاعَته ، فاستقرَّ له الْمُلك فيهم .
(٥) انظر السير : (أخْبارُ النَّجاشي) ١/٤٢٨ـ٤٤٣ ، وانظر النزهة : ١/١٨٨ .

ذلكَ النَّجاشيُّ ، وشَهدَ زَواجَها بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وأعْطَاهَا الصَّدَاقَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، من عندِه أرْبَع مئة دينار ، فحَصلَ لها شَيءٌ لَمْ يَحصُلْ لِغَيْرِها من أُمَّهاتِ الْمُؤمنينَ ، ثم جَهَّزَها النَّجاشيُّ[1] .

وأصْحَمَة بالعَربي : عَطيَّة ولَمَّا تُوفِّيَ ، قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، للنَّاسِ : « إنَّ أخاً لَكمْ قَدْ مَاتَ بِأرْضِ الْحَبَشَةِ » فخَرجَ بهم إلى الصَّحراءِ وصَفَّهم صُفوفاً ، ثم صلَّىٰ عَليه فنَقلَ بَعضُ العُلماءِ أنَّ ذلكَ كانَ في شَهرِ رَجَبَ سَنةَ تِسعٍ من الهِجرَة[2] .

٢ـ قِصَّةُ سَلْمَان :

قصَّةُ سَلْمان الفارسيّ رضي الله عنه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : قالَ الحافِظُ أبو القاسِمِ بنُ عَسَاكِر : وهو سَلْمانُ ابنُ الإسْلام ، أبو عبدِ الله الفَارِسيُّ سابِقُ الفُرسِ إلى الإسْلام ، صَحِبَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وخَدمَه وحدَّثَ عنه .

وكانَ لَبيباً حازِماً من عُقَلاءِ الرِّجالِ وعُبَّادِهم ونُبَلائهم[3] .

عن عُرْوَةَ بن رُويم ، عن القاسِم أبي عبدِ الرحمَـٰن حدَّثه قالَ : زارَنا سَلمانُ الفارسيُّ فصلَّى الإمامُ الظُهرَ ، ثم خَرجَ وخَرجَ النَّاسُ ، يَتلقَّوْنَه كما يُتلَقَّى الخَليفَةُ ، فلَقيناهُ وقد صلَّىٰ بأصْحابِه العَصرَ ، وهو يَمشي فوَقَفْنا نُسلِّمُ عليه ، فلَمْ يَبقَ فينا شَريفٌ إلاَّ عَرضَ عَليه أنْ يَنزِلَ به ، فقالَ : جَعلتُ علىٰ نَفسِي مرَّتي هـٰذه أنْ أنزلَ علىٰ بَشيرِ بنِ سَعْد فلمَّا قَدمَ ، سَألَ عن أبي الدَّرْداء ، فقالوا : هو مُرابطٌ ، فقالَ : أينَ مُرابَطُكم ؟ قالوا : بَيرُوت ، فتَوجَّه قِبَلَه ، قالَ : فقالَ سَلمانُ : يا أهلَ بَيرُوتَ : ألا أُحدِّثُكم حَديثاً يُذهِبُ الله به عَنكم عَرضَ الرِّباط سَمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولُ : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ كصِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطاً أُجِيرَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ ،

---

(١) انظر السير : (أخْبارُ النَّجاشي) ١/ ٤٢٨ـ ٤٤٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٨٩ .

(٢) انظر السير : (أخْبارُ النَّجاشي) ١/ ٤٢٨ـ ٤٤٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٩٠ .

(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٩٨ .

وَجَرَىٰ لَهُ صَالِحُ عَمَلِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[1] .

عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ : حدَّثني سَلْمانُ الفَارِسيُّ قالَ : كُنتُ رَجلاً فارسياً من أهلِ أصْبَهانَ ، من أهلِ قَريَةٍ منها يُقالُ لها : جيّ ، وكانَ أبي دِهْقانَها وكنتُ أحبَّ خَلقِ الله إليه ، فلَمْ يَزلْ بي حبُّه إيَّاي حتَّىٰ حَبسَني في بَيتِه كما تُحبَسُ الجاريَةُ ، فاجْتَهدتُ في الْمَجوسيَّة حتَّىٰ كنتُ قاطِنَ النَّارِ الذي يُوقِدُها لا يَترُكُها تَخبُو سَاعةً وكانت لأبي ضَيْعَةٌ عَظيمَةٌ ، فشُغلَ في بُنيَانٍ له يَوماً ، فقالَ لي : يا بُنَيَّ إنِّي قد شُغلتُ في بُنيَاني هـٰذا اليومَ عن ضَيْعَتي ، فاذْهَب فاطَّلعْها ، وأمَرَني ببَعض ما يُريدُ فخَرجتُ ، ثم قالَ : لا تَحْتَبسْ عليَّ ، فإنَّك إنْ احْتَبستَ عليَّ كُنتَ أهَمَّ إليَّ من ضَيْعَتي ، وشَغلْتَني عن كُلِّ شَيءٍ من أمْري فخَرجتُ أريدُ ضَيعَتَه ، فمَرَرتُ بكَنيسَةٍ من كَنَائسِ النَّصارَىٰ ، فسَمعتُ أصْواتَهم فيها وهم يُصلُّونَ ، وكُنتُ لا أدْري ما أمْرُ النَّاسِ بحَبْسِ أبي إيَّايَ في بَيتِه ، فلمَّا مَرَرْتُ بهم ، وسَمعتُ أصْواتَهم ، دَخلتُ إليهم أنْظُرُ ما يَصْنَعونَ ، فلمَّا رَأيتُهم أعْجَبَني صَلوَاتُهم ، ورَغِبتُ في أمْرِهم ، وقُلتُ : هـٰذا والله خَيرٌ من الدِّينِ الذي نَحنُ عليه ، فوالله ما تَركتُهم حتَّىٰ غَربَت الشَّمسُ ، وتَركتُ ضَيْعَةَ أبي ولَمْ آتِهَا ، فقُلتُ لهم : أينَ أصْلُ هـٰذا الدِّينِ ؟ قالوا بالشَّامِ .

قالَ : ثم رَجعتُ إلىٰ أبي وقد بَعثَ في طَلَبي وشَغَلتُه عن عَملِه كُلِّه ، فلمَّا جِئتُه قالَ : أي بُنَيَّ أينَ كُنتَ ؟ ألَمْ أكُنْ عَهدتُ إليكَ ما عَهدتُ ؟ قُلتُ : يا أبَتِ مَرَرتُ بناسٍ يُصَلُّونَ في كَنيسَةٍ لَهم ، فأعْجَبَني ما رَأيتُ من دِينِهم ، فوالله ما زِلتُ عندَهم حتَّىٰ غَربَت الشَّمسُ قالَ أي بُنَيَّ لَيسَ في ذلكَ الدِّينِ خَيرٌ ، دينُكَ ودينُ آبائكَ خَيرٌ منه قُلتُ : كلاَّ والله! إنَّه لَخَيرٌ من دِينِنا قالَ : فخَافَني ، فجَعلَ في رِجْلي قَيداً ، ثم حَبَسَني في بَيتِه ، قالَ : وبَعَثتُ إلى النَّصارَىٰ فقُلتُ : إذا قَدِمَ عَليكُم رَكبٌ من الشَّام تُجَّارٌ من النَّصَارَىٰ ، فأخْبِرُوني بهم فقَدِمَ عَليهم رَكبٌ من الشَّام قالَ : ففَعَلوا فألْقَيتُ الحَديدَ من رِجْلي ، ثم خَرجْتُ مَعهم حتَّىٰ قَدِمْتُ الشَّامَ فلمَّا قَدمْتُها ، قُلتُ : مَنْ أفْضَلُ أهْلِ هـٰذا الدِّينِ ، قالوا الأُسْقُفُ في الكَنيسَة فجئتُه ، فقُلتُ : إنِّي قد رَغِبتُ في هـٰذا الدِّينِ ،

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٩٨ .

وأحْبَبتُ أنْ أكُونَ مَعكَ أخْدُمُكَ في كَنيسَتِك ، وأتعلَّمُ منكَ ، وأُصَلِّي مَعكَ قالَ : فادْخُلْ ، فدَخَلتُ مَعه ، فكانَ رَجُلُ سُوءٍ يَأمُرُهم بالصَّدَقَةِ ويُرَغِّبُهم فيها ، فإذا جَمَعوا منها شَيئاً ، اكْتَنزَه لنَفسِه ، ولَمْ يُعطِه الْمَساكينَ حتَّىٰ جَمعَ سَبعَ قِلالٍ من ذَهَبٍ ووَرِق ، فأبْغَضتُه بُغضاً شَديداً لِمَا رَأيتُه يَصنَعُ ثم ماتَ ، فاجْتَمَعَت إليه النَّصارَىٰ لِيَدفِنُوه ، فقُلتُ لهم : إنَّ هَـٰذا رَجُلَ سُوءٍ ، يَأمُرُكُم بالصَّدَقَةِ ، ويُرَغِّبُكم فيها ، فإذا جئتُم بها ، كَنزَها لنَفسِه ، ولَمْ يُعْطِ الْمَساكينَ ، وأَرَيتُهم مَوْضِعَ كَنزِهِ سَبعَ قِلالٍ مَمْلوءَة ، فلمَّا رَأوْها قالوا : والله لا نَدفِنُه أبَداً .

فصَلَبُوهُ ثم رَمَوْه بالحِجَارَة ثم جاؤوا برَجُلٍ جَعلُوه مَكانَه ، فما رَأيتُ رَجُلاً ـ يَعني لا يُصَلِّي الخَمسَ ـ أرَىٰ أنَّه أفْضَلَ منه ، أزْهَدَ في الدُّنيا ، ولا أرْغَبَ في الآخِرَة ، ولا أدْأبَ لَيلاً ونَهاراً ، ما أعْلَمُني أحْبَبتُ شَيئاً قَطُّ قَبلَه حُبَّه ، فلَمْ أزَلْ مَعَه حتَّىٰ حَضَرَتهُ الوَفاةُ ، فقُلتُ : يا فُلانُ! قد حَضَرَكَ ما تَرَىٰ من أمْرِ الله ، وإنِّي والله ما أحْبَبتُ شَيئاً قَطُّ حُبَّك ، فمَاذا تَأمُرُني وإلىٰ مَنْ تُوصِيني ؟

قالَ لي : يا بُنَيَّ والله ما أعْلمُه إلاَّ رَجُلاً بالْمَوْصِلِ ، فائتِه ، فإنَّكَ سَتجدُه علىٰ مثلِ حالي .

فلمَّا ماتَ وغُيِّبَ ، لَحِقتُ بالْمَوْصِلِ ، فأتَيتُ صاحِبَها ، فوَجدتُه علىٰ مثلِ حالِه من الاجْتِهادِ والزُّهْدِ فقُلتُ له : إنَّ فُلاناً أوْصَاني إليكَ أنْ آتيكَ وأكُونَ مَعَك قالَ فأقِمْ أي بُنَيَّ ، فأقَمتُ عندَه علىٰ مثلِ أمْرِ صاحِبِه حتَّىٰ حَضَرَتهُ الوَفاةُ فقُلتُ له : إنَّ فُلاناً أوْصَىٰ بي إليكَ وقد حَضَرَكَ من أمْرِ اللهِ ما تَرَىٰ ، فإلىٰ مَنْ تُوصِي بي ؟ وما تَأمُرُني به ؟ قالَ : واللهِ ما أعْلَمُ ، أي بُنَيَّ ، إلاَّ رَجُلاً بنَصِيبينَ .

فلمَّا دَفنَّاه ، لَحِقتُ بالآخَرِ ، فأقَمتُ عندَه علىٰ مثلِ حالِهم حتَّىٰ حَضَرَه الْمَوتُ ، فأوْصَىٰ بي إلىٰ رَجُلٍ من أهْلِ عَمُّوريَة بالرُّومِ ، فأتَيتُه فوَجَدتُه مثلَ حالِهم ، واكْتَسَبتُ حتَّىٰ كانَ لي غُنيمَةٌ وبُقَيْرات .

ثم احْتُضِرَ فكلَّمتُه إلىٰ مَنْ يُوصي بي ؟ قالَ : أي بُنَيَّ! والله ما أعْلمُه بَقِيَ أحَدٌ علىٰ مثلِ ما كُنَّا عليه آمُرُكَ أنْ تَأتيَه ، ولكِنْ قد أظَلَّكَ زَمَانُ نَبيٍّ يُبعَثُ من الحَرَمِ ، مُهَاجَرُه

بَينَ حَرَّتَينِ إلىٰ أرْضٍ سَبخَة ذاتِ نَخْلٍ ، وإنَّ فيه عَلامَاتٌ لا تَخْفَىٰ ، بَينَ كَتفَيْه خَاتَمُ النُّبوَّة ، يَأكُلُ الهَديَّة ولا يَأكُلُ الصَّدَقَة ، فإنِ اسْتَطعْتَ أنْ تَخلُصَ إلىٰ تِلكَ البِلادِ فافْعَلْ ، فإنَّه قد أظلَّكَ زَمانُه .

فلمَّا وَارَيْناهُ ، أقَمتُ حتَّىٰ مَرَّ بي رِجالٌ من تُجَّارِ العَرَبِ من كَلبٍ ، فقُلتُ لهم : تَحْملُوني إلىٰ أرْضِ العَرَبِ ، وأُعْطيكُم غُنَيْمَتي وبَقَراتي هـٰذه ؟ قالوا : نَعَم فأعْطَيتُهم إيَّاها وحَمَلُوني ، حتَّىٰ إذا جاؤُوا بي وَادي القُرَىٰ ، ظَلَمُوني ، فبَاعُوني عَبْداً من رَجُلٍ يَهُوديٍّ بوَادي القُرَىٰ فوالله لَقَدْ رَأيتُ النَّخلَ ، وطَمِعتُ أنْ يَكُونَ البَلدَ الذي نَعتَ لي صاحِبي .

وما حقَّت عندي حتَّىٰ قَدِمَ رَجلٌ من بَني قُرَيْظَة وادي القُرَىٰ ، فابْتَاعَني من صاحِبي ، فخَرَجَ بي حتَّىٰ قَدِمْنا الْمَدينَةَ فوالله ما هُو إلاَّ أنْ رَأيتُها ، فعَرفْتُ نَعْتَها .

فأقَمتُ في رِقِّي ، وبَعثَ اللهُ نَبيَّه صلى الله عليه وسلم بمَكةَ لا يُذكَرُ لي شَيءٌ من أمْرِه مع ما أنا فيه من الرِقِّ ، حتَّىٰ قَدِمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قُبَاءَ ، وأنا أعمَلُ لِصَاحِبي في نَخلَةٍ له ، فوالله إنِّي لفيها إذ جاءَه ابنُ عَمٍّ له ، فقالَ : يا فُلانُ قاتَلَ الله بَني قَيلة ، والله إنَّهم الآنَ لَفِي قُباءَ مُجتَمِعُونَ علىٰ رَجُلٍ جاءَ من مَكةَ يَزعُمُونَ أنَّه نَبيٌّ .

فوالله ما هو إلاَّ أنْ سَمعتُها فأخَذَتني العُرَواءُ ـ يَقولُ الرِّعْدَة ـ حتَّىٰ ظَنَنْتُ لأسْقُطَنَّ علىٰ صَاحِبي ونَزَلتُ أقُولُ : ما هـٰذا الخَبرُ ؟

فرَفعَ مَوْلايَ يَدَه فلَكمَني لَكمَةً شَديدَةً ، وقالَ : ما لَكَ ولهَـٰذا ؟! أقْبِلْ علىٰ عَمَلِك فقُلتُ : لا شَيءَ ، إنَّما سَمعتُ خَبراً ، فأحْبَبتُ أنْ أعْلمَه .

فلمَّا أمْسَيتُ ، وكانَ عندي شَيءٌ من طَعَامٍ ، فحَمَلتُه وذَهَبتُ إلىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بقُبَاءَ ، فقُلتُ له : بَلَغَني أنَّك رَجلٌ صالِحٌ ، وأنَّ مَعكَ أصْحاباً لَكَ غُرَباءَ ، وقد كانَ عندي شَيءٌ من الصَّدَقَة فرَأيتُكم أحَقَّ مَنْ بهـٰذه البِلادِ ، فهَاكَ هَـٰذا ، فكُلْ مِنهُ .

قالَ : فأمْسَكَ ، وقالَ لأصْحابِه : « كلُوا » فقُلتُ في نَفسِي : هـٰذه خَلَّةٌ مِمَّا وَصَفَ لي صَاحِبي .

ثم رَجَعتُ ، وتَحوَّلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الْمَدينَة ، فجَمَعتُ شَيئاً كانَ عندي ثم جِئتُه به فقُلتُ : إنِّي قد رَأيتُكَ لا تَأكُلُ الصَّدَقَة ، وهـٰذه هَديَّةٌ فأكَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأكَلَ أصْحَابُه ، فقُلتُ هـٰذه خَلَّتان .

ثم جِئتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يَتبَعُ جنازَةً وعليَّ شمْلتان لي وهو في أصْحابِه ، فاسْتَدَرتُ أنْظُرُ إلىٰ ظَهرِه هَلْ أرَى الخَاتَم الذي وُصِفَ فلمَّا رآني اسْتَدبَرْتُه عَرفَ أنِّي أتَثَبَّتُ في شَيءٍ وُصِفَ لي ، فألْقَىٰ رِداءَه عن ظَهرِه فنَظَرتُ إلى الخَاتَم فعَرفتُه ، فانْكَبَبْتُ عليه أُقبِّلُه وأبْكي .

فقالَ لي : تَحوَّلْ : فتَحَوَّلتُ ، فقَصَصْتُ عَليه حَديثي كَما حدَّثتُكَ يا ابنَ عَبَّاس ، فأَعْجَبَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يَسمَعَ ذلكَ أصْحابُه[1] .

ثم شَغلَ سَلمَانُ الرِّقَّ حتَّىٰ فاتَه مع رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بَدْر وأُحُد ثم قالَ رَسُولُ الله : « كاتِبْ يَا سَلْمانُ » فكاتَبتُ صاحِبي علىٰ ثَلاثِ مئة نَخْلة أُحْييها له بالفَقير وبأرْبَعينَ أُوقِيَة فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصْحابِه : « أَعِينُوا أَخَاكمْ » فأعانُوني بالنَّخْل ، الرَّجُلُ بثَلاثينَ وَدِيَّة[2] ، والرَّجُلُ بعِشرينَ ، والرَّجُلُ بخَمسَ عَشرَة ، حتَّى اجتَمعَت ثَلاثُ مئة وَدِيَّة فقال صلى الله عليه وسلم : « اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا ، فَإذَا فَرَغْتَ فَائْتِنِي أَكونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ » ففقَّرتُ لها وأعَانَني أصْحابي ، حتَّىٰ إذا فَرَغتُ منها ، جئتُه وأخْبَرتُه ، فخَرَجَ مَعي إليها نُقَرِّبُ له الوَدِيَّ ، ويَضَعُه بيَدِه ، فوالذي نَفسُ سَلمانَ بيَدِه ما ماتَت منها وَدِيَّةٌ واحدةٌ فأدَّيتُ النَّخْلَ ، وبَقِيَ عليَّ المالُ ، فأُتِيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بمثلِ بَيْضَة دَجاجَة من ذَهَب من بَعضِ الْمَغَازِي فقالَ صلى الله عليه وسلم : « مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكاتَبُ ؟ » فدُعيتُ له ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « خُذْهَا فَأدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ » قُلتُ : وأينَ تَقعُ هـٰذه يا رَسُولَ الله ممَّا عليَّ ؟ قالَ : خُذْها فإنَّ اللهَ سَيؤدِّي بها عَنكَ فأخَذتُها فوَزَنتُ لهم منها أرْبَعينَ

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٩٨ .

(٢) الودية : جمع ودي : صِغار الفسيل .

أُوقِيَة ، وأَوْفَيتُهم حَقَّهم وعَتقتُ ، فشَهدتُ مع رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم الخَنْدَقَ حُرّاً ، ثم لَمْ يَفُتْني معه مَشهَدٌ[1] .

عن عائذِ بنِ عَمرو أنَّ أبا سُفْيانَ مَرَّ علىٰ سَلمانَ وبِلال وصُهَيب في نَفَر فقالوا : ما أخَذَت سُيوفُ الله من عُنُق عَدو الله مأخَذَها فقالَ أبو بَكر : تَقولون هـٰذا لشَيخ قُرَيش وسَيِّدِها! ثم أتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فأخْبرَه ، فقالَ : « يَا أَبَا بَكرٍ! لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ ، لَئِنْ كنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ » فأتاهُم أبو بَكر فقالَ : يا إخْوَتاهُ أغْضَبتُكم ؟ قالُوا : لا يا أبا بَكر ، يَغفِرُ اللهُ لك[2] .

عن أبي البَخْتَريِّ قالَ : قيلَ لعَليٍّ : أخْبرنا عن أصْحَابِ محمَّد صلى الله عليه وسلم قالَ : عن أيِّهم تَسألُون ؟ قيلَ : عن عبدِ الله بنِ مَسْعود ، قالَ : عَلِمَ القُرآنَ والسُّنَّةَ ، ثم انْتَهىٰ وكَفَىٰ به عِلماً قَالُوا : عَمَّار ؟ قالَ : مُؤمنٌ نَسيٌّ فإنْ ذَكَّرتَه ذَكَرَ ، قالوا : أبو ذَر ؟ قالَ : وَعَىٰ عِلماً عَجَزَ عنه ، قَالُوا : أبو مُوسَى ؟ قالَ صُبغَ في العِلمِ صِبْغَةً ، ثم خَرجَ منه قالوا : حُذَيْفَة ؟ قالَ : أعْلمُ أصْحابِ مُحمَّد بالْمُنافِقينَ قَالُوا : سَلْمانُ ؟ قالَ : أدْرَكَ العلمَ الأوَّلَ ، والعِلمَ الآخِر ، بَحْرٌ لا يُدرَكُ قَعْرُه ، وهو منَّا أهلَ البيتِ قَالُوا : فأنتَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : كُنتُ إذا سَألتُ أُعطِيتُ ، وإذا سَكتُّ ابتُديتُ[3] .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم تَلا هـٰذه الآيَة ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾[4] قالوا : يا رَسولَ الله! مَنْ هَؤلاء ؟ قالَ رضي الله عنه : فضَرَبَ عَلىٰ فَخِذِ سَلْمانَ الفَارسِيِّ ، ثم قالَ صلى الله عليه وسلم : « هَـٰذا وَقَوْمُهُ ، وَلَوْ كانَ الدِّينُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ الفُرْسِ »[5] .

عن أبي البَخْتَريِّ قالَ : جاءَ الأشْعَثُ بنُ قَيسٍ وجَريرُ بنُ عبدِ الله ، فدَخَلا علىٰ

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٠٢ .
(٢) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٠٢ .
(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٠٣ .
(٤) سورة محمد ، الآية : ٣٨ .
(٥) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٠٣ .

سَلمَانَ في خُصٍّ فسَلَّما وحَيَّاه ، ثم قَالا : أنتَ صاحِبُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : لا أدْري فارْتابا قالَ : إنَّما صاحِبُه مَنْ دَخَلَ مَعه الجَنَّةَ قالا : جِئنا من عندِ أبي الدَّرْداء ، قالَ : فأينَ هَديَّتُه ؟ قالا : ما مَعنا هَديَّة قالَ : اتَّقيا الله ، وأدِّيا الأمانَة ، ما أتاني أحَدٌ من عندِه إلاَّ بهَديَّة ، قالا : لا تَرفَع عَلينا هَـٰذا ، إنَّ لنا أمْوالاً فاحْتَكِم ، قالَ : ما أُريدُ إلاَّ الهَديَّة ، قالا : والله ما بَعثَ مَعنا بشَيءٍ إلاَّ أنَّه قالَ : إنَّ فيكُم رَجُلاً كانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا خَلا به لَمْ يَبغِ غَيرَه ، فإذا أتَيْتُمَاهُ ، فأقْرِئاهُ منِّي السَّلامَ قالَ : فأيُّ هَديَّة كُنتُ أُريدُ مِنْكُما غَيرَ هـٰذه ؟ وأيُّ هَديَّة أفْضَلُ منها ؟[1] .

عن طارِقِ بنِ شِهابٍ عن سَلْمانَ قالَ : إذا كانَ اللَّيلُ ، كانَ النَّاسُ منه علىٰ ثَلاثِ مَنازِلَ : فمنهم مَنْ لَه ولا عَليه ، ومنهم مَنْ عَليه ولا لَه ، ومنهم مَنْ لا عَليه ولا لَه! فقُلتُ : وكَيفَ ذَاكَ ؟ قالَ : أمَّا مَنْ لَه ولا عَليه ، فرَجلٌ اغْتَنَمَ غَفلَةَ النَّاسِ وظُلمَةَ اللَّيلِ ، فَتَوضَّأ وصَلَّىٰ ، فذاكَ لَه ولا عَليه ، ورَجُلٌ اغْتَنَمَ غَفلَةَ النَّاسِ وظُلمَةَ اللَّيلِ فمَشَىٰ في مَعاصي الله ، فذَاكَ عَليه ولا لَه ، ورَجُلٌ نامَ حتَّىٰ أصْبَحَ ، فذَاكَ لا لَه ولا عَليه[2] .

قالَ طارِقٌ : فقُلتُ : لأصْحَبنَّ هـٰذا فضُربَ على النَّاسِ بَعثٌ ، فخَرجَ فيهم ، فصَحبتُه وكُنتُ لا أفْضُلهُ في عَمَلٍ ، إنْ أنا عَجنتُ خَبزَ وإنْ خَبَزتُ طَبخَ ، فنَزَلنَا مَنْزِلاً فبِتْنا فيه ، وكانت لِطَارِق سَاعَةٌ من اللَّيلِ يَقُومُها ، فكُنتُ أتَيَقَّظُ لها فأجِدُه نائماً ، فأقُولُ : صاحِبُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، خَيرٌ منِّي نائمٌ ، فأنامُ ثم أقُومُ فأجِدُهُ نائماً فأنامُ ، إلاَّ أنَّه كانَ إذا تَعارَّ من اللَّيلِ قالَ وهو مُضطَجعٌ : سُبْحَانَ اللهِ ، والْحَمْدُ للهِ ، ولا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ ، واللهُ أكبَرُ ، لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلكُ ولَهُ الْحَمْدُ ، وهو علىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ حتَّىٰ إذا كانَ قُبَيلَ الصُّبحِ قامَ فتَوضَّأ ثم رَكَعَ أرْبَعَ رَكَعاتٍ فلمَّا صَلَّيْنا الفَجْرَ قُلتُ : يا أبا عبدِ الله! كانَت ليَ سَاعَةٌ من اللَّيلِ أقُومُها وكُنتُ أتَيَقَّظُ لها فأجدُكَ نائماً ، قالَ : يا ابنَ أخي! فإيش كُنتَ تَسْمَعُني أقُولُ ؟ فأخْبَرتُه ،

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٢٠٣ .

(٢) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٠٤ .

فقالَ : يا ابنَ أخي تِلكَ الصَّلاةُ ، إنَّ الصَّلوَاتِ الخَمسَ كَفَّاراتٌ لِمَا بَينَهُنَّ ما اجْتُنبَت الْمَقتَلَة ، يا ابنَ أخي عَليكَ بالقَصْدِ فإنَّه أبْلَغُ[1] .

عن أبي وَائلٍ قالَ : ذَهبتُ أنا وصاحبٍ لي إلىٰ سَلْمانَ ، فقالَ : لَوْلا أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم نَهانا عن التَّكلُّفِ ، لتَكلَّفْتُ لكم ، فجاءَنا بخُبزٍ ومِلْحٍ فقُلتُ لصاحِبي : لَوْ كانَ في مِلْحِنا صَعْتَرٌ فبَعَثَ سَلْمانُ بمِطْهَرَتِه ، فرَهَنَها ، فجاء بصَعْتَر ، فلمَّا أكَلْنا قالَ صاحبي : الحَمْدُ لله الذي قَنَّعَنا بما رَزَقَنا ، فقالَ سَلْمانُ : لَوْ قَنَعْتَ لَمْ تَكُنْ مِطْهَرَتي مَرْهونَةَ[2] .

وعن أَنَس قالَ : دَخلَ سَعدٌ وابنُ مَسْعُود عَلىٰ سَلْمانَ عندَ الْمَوتِ ، فبَكَىٰ فقيلَ له : ما يُبكيكَ ؟ قالَ : عَهدٌ عَهِدَه إلينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، لَمْ نَحْفَظْه قالَ : « لِيَكنْ بَلاغُ أَحَدِكمْ مِنْ الدُّنْيَا كزَادِ الرَّاكبِ » وأمَّا أنتَ يا سَعدُ فاتَّقِ اللهَ في حُكمِكَ إذا حَكمتَ ، وفي قَسْمِكَ إذا قَسَمْتَ ، وعندَ هَمِّكَ إذا هَمَمتَ .

قالَ ثابتٌ : فبَلغَني أنَّه ما تَركَ إلاَّ بضعَةً وعِشرينَ دِرْهَماً نُفَيْقَة كانت عندَه[3] .

عن سَلمانَ ، قالَ : فَترَةُ ما بَينَ عِيسَىٰ ومُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم سِتُّ مئة سَنةً[4] .

ماتَ سَلمانُ في خِلافَة عُثْمانَ بالْمَدائنِ .

قالَ العَبَّاسُ بنُ يَزيد البَحْراني : يَقولُ أهْلُ العِلمِ : عَاشَ سَلمانُ ثَلاثَ مئةٍ وخَمسينَ سَنةً ، فأمَّا مِئتانِ وخَمسُونَ ، فلا يَشُكُّونَ فيه .

ومَجْموعُ أمْرِه وأحْوَالِه ، وغَزْوه ، وهِمَّته ، وتَصَرُّفه ، وسَفّه للجَريد ، وأشياء مِمَّا تَقدَّمَ يُنبِىءُ بأنَّه لَيسَ بمُعَمَّر ولا هَرِم فقد فارَقَ وَطنَه وهو حَدَثٌ ، ولَعلَّه قَدِمَ الحِجَازَ وله أرْبَعُونَ سَنةً أو أقلُّ ، فلَمْ يَنْشَبْ أنْ سَمعَ بمَبْعَثِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ثم

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٠٤ .
(٢) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٠٤ .
(٣) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٢٠٥ .
(٤) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٢٠٥ .

هاجَرَ ، فلَعلَّه عاشَ بِضْعاً وسَبعينَ سَنةً وما أرَاهُ بَلغَ الْمِئَةَ فمَنْ كانَ عندَه عِلمٌ ، فليُفِدْنا .

وقد نَقلَ طُولَ عُمرِه أبو الفَرَج بنُ الجَوْزي وغَيرُه وما عَلمتُ في ذلكَ شَيئاً يُركَنُ إليه[1] .

عن ثابتٍ البُنانيِّ قالَ : لَمَّا مَرِضَ سَلمانُ ، خَرجَ سَعدٌ من الكُوفَةِ يَعُودُه ، فقَدِمَ ، فوَافَقَه وهو في الْمَوتِ يَبْكي ، فسَلَّمَ وجَلسَ ، وقالَ : ما يُبكيكَ يا أخي ؟ ألا تَذكُرُ صُحْبَةَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا تَذكُرُ الْمَشَاهِدَ الصَّالِحَة ؟

قالَ : والله ما يُبْكيني وَاحِدَةٌ من اثنَتين : ما أبْكي حُبّاً بالدُّنيا ولا كَراهيَةً لِلقاءِ الله قالَ سَعدٌ : فما يُبْكيكَ بعدَ ثَمانينَ ؟ قالَ : يُبْكيني أنَّ خَليلي صلى الله عليه وسلم عَهِدَ إليَّ عَهْداً قالَ : « لِيَكنْ بَلاغُ أَحَدِكمْ مِنْ الدُّنْيَا كزَادِ الرَّاكبِ » وإنَّا قد خَشينا أنَّا قد تَعدَّينا .

رَواهُ بَعضُهم عن ثابِت ، فقالَ : عن أبي عُثْمانَ ، وإرْسَالُه أشْبَه قالَه أبو حاتم ، وهـٰذا يُوضِّحُ لكَ أنَّه من أبْناء الثَّمانينَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وقد ذَكرتُ في تاريخي الكَبير أنَّه عاشَ مِئتَين وخَمسينَ سَنةً ، وأنا السَّاعَةَ لا أرْتَضي ذلكَ ولا أُصَحِّحُه[2] .

٣ـ قِصَّةُ عبدُ الله بن حُذافَة مع مَلكِ الرُّوم :

عن أبي رافِع ، قالَ : وَجَّه عُمَرُ جَيشاً إلى الرُّوم ، فأسَروا عبدَ الله بنَ حُذافَة ، فذَهبوا به إلىٰ مَلكِهم ، فقالوا : إنَّ هـٰذا من أصْحابِ محمَّد فقالَ : هَلْ لكَ أنْ تَتنَصَّرَ وأُعطيكَ نِصفَ مُلكي ؟ قالَ : لَوْ أَعْطَيتَني جَميعَ ما تَملِك ، وجَميعَ مُلكِ العَرب ، ما رَجَعتُ عن دينِ محمَّد طَرفَةَ عَين ، قالَ : إذاً أقتُلك قالَ : أنتَ وذَاكَ فأمَرَ به فصُلبَ وقالَ للرُّماة : ارْمُوه قَريباً من بَدنِه ، وهو يَعرضُ عليه ، ويَأبَىٰ ، فأنزَلَه ودَعا بقِدرٍ ،

---

(١) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٢٠٥ .
(٢) انظر السير : (سَلْمانُ الفَارِسيُّ) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/٢٠٥ .

فصَبَّ فيها ماءً حتى احترَقَت ، ودَعا بأسيرَينِ من الْمُسلِمينَ ، فأمَرَ بأحَدِهما ، فأُلقِيَ فيها ، وهو يَعرضُ عليه النَّصْرانيَّة ، وهو يَأبَىٰ ثم بَكَىٰ فقيلَ للمَلِك : إنَّه بَكَىٰ ، فظَنَّ أنَّه قد جَزِعَ ، فقالَ : رُدُّوه ما أبْكاكَ ؟ قالَ : قُلتُ : هي نَفسٌ واحدةٌ تُلقَى السَّاعَة فتَذهَبُ ، فكُنتُ أشْتَهي أنْ يَكونَ بعَددِ شَعري أنْفسٌ تُلقَىٰ في النَّارِ في الله .

فقالَ له الطَّاغيَةُ : هل لك أنْ تُقبِّلَ رَأسي وأُخلِّي عَنكَ ؟

فقالَ له عبدُ الله : وعنْ جَميعِ الأُسارَى ؟ قالَ : نَعَم فقَبَّلَ رَأسَه .

وقَدمَ بالأُسَارَىٰ علىٰ عُمَرَ ، فأخْبَرَه خَبرَه فقالَ عُمَرُ : حَقٌّ علىٰ كُلِّ مُسلمٍ أنْ يُقبِّلَ رَأسَ ابنِ حُذافَة ، وأنا أبدأُ ، فقبَّلَ رَأسَه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : ولعلَّ هـٰذا الْمَلك قد أسْلَمَ سِراً ، ويَدلُّ علىٰ ذَلك مُبالَغتُه في إكْرامِ ابنِ حُذافَة وكذا القَولُ في هِرَقْل إذ عَرضَ علىٰ قَومِه الدُّخُولَ في الدِّين ، فلمَّا خافَهم قالَ : إنَّما كُنتُ أخْتَبرُ شِدَّتكُم في دينِكم .

فمَنْ أسْلمَ في باطِنِه هَكذا ، فيُرجَىٰ له الخَلاصُ من خُلودِ النَّار ، إذ قد حَصَّل في باطِنِه إيماناً ما ، وإنَّما يُخافُ أنْ يَكُونَ قد خَضَعَ للإسْلامِ وللرَّسُولِ ، واعْتَقدَ أنَّهما حَقٌّ ، مع كَونِ أنَّه علىٰ دينٍ صَحيحٍ ، فتَراه يُعَظِّمُ للدِّينَينِ ، كما قد فَعلَه كَثيرٌ من الْمُسلِمانيَّة الدَّواوين ، فهـٰذا لا يَنفَعُه الإسْلامُ حتَّىٰ يَتبرَّأ من الشِّرْك .

ماتَ ابنُ حُذافَة في خِلافَة عُثمانَ رَضيَ اللهُ عَنهم[1] .

٤ـ قِصَّةُ إسْلام أبي ذَرّ :

عن عبدِ الله بنِ الصَّامِت ، قالَ : قالَ أبو ذَرْ : خَرَجنا مع قَومِنا غِفَار ، وكانوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الحَرامَ ، فخَرَجتُ أنا وأخي أُنَيْس وأُمُّنا ، فنزَلنا علىٰ خَالٍ لَنَا ، فأكْرَمَنا وأَحْسَنَ فحَسَدَنا قَومُه ، فقَالُوا : إنَّك إذا خَرَجتَ عن أهْلِك يُخالِفُكَ إليهم أُنَيْسٌ ، فجاءَ خَالُنا ، فذَكرَ لَنا ما قيلَ له : فقُلتُ : أمَّا ما مَضَىٰ من مَعْروفِك ، فقد كَدَّرْتَه ،

---

(١) انظر السير : (عبدُ الله بنُ حُذافَة) ٢/ ١١ـ١٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٢١١ .

ولا جِمَاعَ لك فيما بَعدُ فقدَّمْنا صِرْمَتَنا[1] فاحْتَمَلنا عَليها ، وجَعلَ خَالُنا يَبْكِي ، فانْطَلقْنا حتَّىٰ نزَلنا بحضرَةِ مَكة ، فنَافَر[2] أُنَيْسٌ عن صِرْمَتِنا وعن مِثلِها ، فأتَيا الكاهِنَ فخَيَّرَ أُنَيْساً ، فأتَانا أُنَيْسٌ بصِرْمَتِنا ومثلِها مَعَها .

قالَ : وقد صَلَّيتُ يا ابنَ أخي قبلَ أنْ أَلْقَىٰ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم بثَلاثِ سِنينَ قُلتُ : لِمَنْ ؟ قالَ لله قُلتُ : أينَ تَوجَّهُ ؟ قالَ : حَيثُ وجَّهَني اللهُ ، أُصَلِّي عِشاءً حتَّىٰ إذا كانَ من آخِرِ اللَّيلِ أُلْقِيتُ كأنِّي خِفَاءٌ[3] حتَّىٰ تَعلُوني الشَّمسُ .

فقالَ أُنَيْس : إنَّ لي حاجَة بمَكة ، فاكْفِني فانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حتَّىٰ أتَىٰ مَكةَ فرَاثَ عليَّ[4] ، ثم جاءَ فقُلتُ : ما صَنعتَ ؟ قالَ لَقيتُ رَجُلاً بمَكة علىٰ دِينِكَ يَزعُمُ أنَّه مُرْسَل قُلتُ : فمَا يَقُولُ النَّاسُ ؟ قالَ : يَقُولُونَ : شَاعِرٌ ، كَاهِنٌ ، سَاحِرٌ قالَ : وكانَ أُنَيْسٌ أحَدَ الشُّعَراء : فقالَ : لقَد سَمعتُ قَولَ الكَهَنَة ، وما هو بقَولِهم ، ولقد وَضَعتُ قَولَه علىٰ أقْوَالِ الشُّعَراءِ ، فمَا يَلتَئمُ علىٰ لِسَانِ أحَدٍ أنَّه شِعْرٌ ، والله إنَّه لَصَادقٌ ، وإنَّهم لَكَاذِبُونَ! قُلتُ : فاكْفِنِي حتَّىٰ أذْهَبَ فأنْظُر .

فأتَيتُ مَكةَ ، فتَضَعَّفتُ[5] رَجُلاً منهم ، فقُلتُ : مَنْ هـٰذا الذي تَدعُونَه الصَّابىءَ ؟ فأشَارَ إليَّ فقالَ : الصَّابىءُ قالَ : فمَالَ عَليَّ أهلُ الوَادي بكُلِّ مَدَرة ، وعَظْمٍ ، حتَّىٰ خَرَرتُ مَغْشياً عليَّ فارْتَفَعتُ حينَ ارْتَفَعتُ كأنِّي نُصُبٌ أحْمَر[6] ، فأتَيتُ زَمْزَمَ ، فغَسَلتُ عنِّي الدِّمَاءَ ، وشَربتُ من مائها .

ولقد لَبثتُ ـ يا ابنَ أخي ـ ثَلاثينَ ، بينَ لَيلٍ ويَومٍ ، ما لي طَعامٌ إلاَّ ماءُ زَمْزَم ،

---

(١) في « صحيح مسلم » : فقربنا صِرْمَتنا ، والصِّرْمَة : القطعة من الإبل .

(٢) نافَرَ : حاكَم ، يُقالُ : نافَرتُ الرجلَ منافرَة إذا قاضيته ، والمنافَرة : المحاكمة تكون في تفضيل أحد الشيئين على الآخر .

(٣) الخِفاء : كساءٌ يُطرَح على السِّقاء .

(٤) يُقالُ : راثَ فُلانٌ علينا إذا أبطأ .

(٥) أي نَظرتُ إلىٰ أضعَفهم .

(٦) النُّصُب : الحجر أو الصنم الذي كانوا ينصبونه في الجاهلية ويذبحون عليه ، فيحمَرُّ من كثرة دم القُربان والذبائح ، أراد أنهم ضربوه حتىٰ أدموه .

فسَمِنتُ حتَّىٰ تكسَّرَت عُكَنِي ، وما وَجَدتُ علىٰ كَبِدي سَخْفَةَ[1] جُوعٍ .

فبَينا أهلُ مَكة في لَيلَةٍ قَمْراء إضْحِيان[2] ، جاءَت امْرأتانِ تَطُوفانِ ، وتَدعُوانِ إسافاً ونائلة[3] ، فأتَتَا عليَّ في طَوافِهما فقُلتُ : أنكحا أحدَهما الآخَر فما تَناهَتا عن قولِهما ، فأتَتَا عليَّ فقُلتُ : هَنٌ[4] مثلُ الخَشَبَة ، غيرَ أنِّي لا أَكْني فانْطَلقَتا تُوَلوِلانِ ، تَقُولانِ : لَوْ كانَ هَا هُنا أحَدٌ من أنْفَارِنَا! ، فاسْتَقبَلَهُما رَسُولُ الله ، وأبو بَكر ، وهُما هابِطَتان ، فقالَ : ما لَكُما ؟ قَالَتا : الصَّابىءُ بينَ الكَعبَة وأسْتارِهَا قالَ : فما قالَ لَكُما ؟ قَالَتَا : إنَّه قالَ كَلمَةً تَملأُ الفَم .

قالَ : وجاءَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حتَّى اسْتَلمَ الحَجَرَ ، ثم طَافَ بالبَيتِ ، هو وصَاحِبُه ، ثم صَلَّىٰ وكُنتُ أوَّلَ مَنْ حيَّاه بتَحيَّة الإسْلام قالَ : عَليكَ ورَحمَة الله! من أين أنتَ ؟ قُلتُ : من غِفَار فأهْوَىٰ بيَدِه ، ووَضَعَ أصَابِعَه علىٰ جَبهَتِه .

فقُلتُ في نَفسِي : كَرِهَ أنِّي انتَمَيتُ إلىٰ غِفَارَ فذَهَبتُ آخُذُ بيَدِه فدَفَعَني صَاحِبُه ، وكانَ أعْلمَ به منِّي قالَ : ثم رَفَعَ رَأسَه ، فقالَ : مَتىٰ كُنتَ هَا هُنا ؟ قُلتُ : مُنذُ ثَلاثينَ من بَينِ لَيلَةٍ ويَومٍ قالَ : فمَنْ كانَ يُطْعِمُك ؟ قُلتُ : ما كانَ لي طَعامٌ إلاَّ ماءُ زَمْزَم فسَمِنتُ ، وما أجِدُ علىٰ بَطْني سَخفَةَ جُوعٍ قالَ صلى الله عليه وسلم : « إنَّهَا مُبَارَكةٌ إنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ » .

فقالَ أبو بَكر : يا رَسُولَ الله ، ائذَنْ لي في طَعامِه اللَّيلَةَ ، فانْطَلَقنا ، ففَتحَ أبو بَكر باباً ، فجَعلَ يَقبِضُ لنَا من زَبيبِ الطَّائفِ فكانَ أوَّلَ طَعامٍ أكَلتُه بها .

وأتَيتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : « إنَّه قَدْ وُجِّهَتْ لي أرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ ، لا أرَاهَا إلاَّ يَثرِبَ ، فَهَلْ أنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ ، لَعَلَّ اللهَ أنْ يَنْفَعَهُم بِكَ وَيَأْجُرَكَ فِيهِم ؟ » قالَ : فانْطَلقتُ ، فلَقيتُ أُنَيْساً ، فقالَ : ما صَنعتَ ؟ قُلتُ : صَنَعتُ أنِّي

---

(١) سخفة الجوع : رقته وهزاله .

(٢) يُقالُ : ليلة إضحيان وإضحيانة ، أي : مضيئة ، لا غيم فيها ، فقمرها ظاهر يضيئها .

(٣) إساف ونائلة : صَنمان تزعم العربُ أنهما كانا لرجل وامرأة زَنيا في الكعبة فمُسخا .

(٤) عنىٰ به الذَّكرَ ، وقوله : لا أكْني : أراد أنه أفصح باسمه ولم يُكنِّ عنه .

أَسْلَمتُ وصَدَّقتُ قالَ : ما بي رَغبَةٌ عن دِينِك ، فإنِّي قد أَسْلَمتُ وصَدَّقتُ فأَسْلَمَتْ أُمُّنا ، فاحتَمَلنا حتَّىٰ أَتينَا قَوْمَنا غِفَار ، فأَسْلمَ نِصْفُهم ، وكانَ يَؤُمُّهم إيْمَاءُ بنُ رَحَضَة ، وكانَ سَيِّدَهم وقالَ نِصْفُهم : إذا قَدِمَ رَسُولُ الله الْمَدينَةَ أَسْلَمْنا فقَدِمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم الْمَدينَةَ ، فأَسْلمَ نِصْفُهم الباقي .

وجاءَتْ أَسْلَمُ فقَالُوا : يا رَسُولَ الله ، إخْوَانُنا ، نُسْلِمُ عَلى الذي أَسْلَمُوا عَليه فأَسْلَمُوا فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا! وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ »[1] .

٥ـ قِصَّةُ كعْب بن مَالك :

عن عبدِ الرحمَٰنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ كَعْبٍ ، عن أبيه : سَمعتُ كعْباً يقولُ : لَمْ أَتَخَلَّفْ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في غَزْوةٍ ، حتىٰ كانت تَبُوك إلاَّ بَدْراً ، وما أُحِبُّ أنِّي شَهِدتُها ، وفاتَتْنِي بَيْعَتي ليلةَ العَقَبَة[2] وقَلَّما أَرَادَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم غَزْوةً إلاَّ وَرَّىٰ عنها بغيرِها ، فأَرَادَ في غَزْوَةِ تَبُوك أنْ يَتَأَهَبَ النَّاسُ أُهبةً وكنتُ أَيْسَرَ ما كنتُ ، وأنا في ذلك أَصْغُو[3] إلى الظِّلالِ وطَيِّبِ الثِّمَارِ ، فلَمْ أَزَلْ كذلك حتىٰ خَرَجَ فقُلتُ : أَنْطَلِقُ غَداً ، فأَشْتَري جَهَازِي ، ثم أَلْحَقُ بهِم فانْطَلَقْتُ إلى السُّوقِ ، فعَسُرَ عليَّ ، فرَجَعتُ ، فقُلتُ : أَرْجِعُ غَداً فلَمْ أَزَلْ حتى الْتَبَسَ بي الذنْبُ ، وتَخَلَّيْتُ ، فجعَلتُ أمشِي في أَسْواقِ المدِينَةِ ، فيُحْزِنُنِي أنِّي لا أَرَىٰ إلاَّ مَغْمُوصاً[4] عليه في النِّفاقِ ، أو ضَعِيفاً وكان جَميعُ مَنْ تَخَلَّفَ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِضْعَةً وثَمانِينَ رَجُلاً[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو ذَر الغِفاريُّ) ٢/ ٤٦ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٢١٧/ ٥ـ ٢١٩ .

(٢) في البخاري ومسلم : ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها .

(٣) أصغو : أميل .

(٤) أي مطعوناً عليه في دينه ، متهماً بالنفاق ، وقيل : معناه مستحقراً ، فتقول غمصتُ فلاناً إذا استحقرته .

(٥) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣٠٠/ ٣ .

ولمَّا بَلَغَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَبُوك ذَكَرَنِي ، وقال : « ما فَعَلَ كعْبٌ ؟ » فقال رجُلٌ من قَوْمِي : خَلَّفَهُ يا نَبيَّ اللهِ بُرداه ، والنَّظَرُ في عِطْفَيْه ، فقال مُعاذٌ : بِئْسَ ما قُلتَ : واللهِ ما نَعْلمُ إلاَّ خَيْراً .

إلىٰ أنْ قال : فلَمَّا رَآنِي صلى الله عليه وسلم تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَب وقال صلى الله عليه وسلم : « أَلَمْ تَكن ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » قُلتُ : بلَىٰ قال : « فمَا خَلَّفَكَ ؟ » قُلتُ : واللهِ لَوْ بَينَ يَدَي أَحَدٍ غَيرِك جَلَسْتُ لخَرَجْتُ من سُخْطِهِ عليَّ بعدُ ، لقد أُوتِيتُ جَدَلاً ، ولكنْ قد عَلِمتُ يا نَبيَّ الله أنِّي أُخْبِرُكَ اليومَ بقَولٍ تَجِدُ عليَّ فيه وهُوَ حَقٌّ فإنِّي أَرْجُو فيه عُقْبَى الله .

إلىٰ أنْ قالَ : والله ما كُنتُ قَطُّ أَيْسَرَ ولا أَخَفَّ حاذاً[1] منِّي حين تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فقَالَ صلى الله عليه وسلم : « أمَّا هـٰذا فَقَدْ صَدَقَكم ، قُمْ حتىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » فقُمتُ .

إلىٰ أن قال : ونَهىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ[2] .

فجعلتُ أخرجُ إلى السوق ، فلا يُكلِّمني أحدٌ ، وتَنكَّرَ لنا الناسُ ، حتىٰ ما هُم بالذين نعرفُ ، وتَنكَّرَت لنا الحيطانُ والأرضُ ، وكنتُ أطوفُ وآتي المسْجدَ ، فأدخلُ وآتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأسَلِّمُ عليه ، فأقولُ هل حَرَّكَ شَفَتَيه بالسلامِ!! ؟[3] .

واسْتَكانَ صاحِبَايَ[4] ، فجَعَلا يَبكيانِ اللَّيلَ والنَّهَارَ لا يُطْلِعانِ رُؤوسَهما! فبَيْنا أنا أطُوفُ بالسُّوقِ إذا بنَصْرانيٍّ جاءَ بطَعامٍ ، يَقولُ : مَنْ يَدلُّ علىٰ كعْب ؟ فدَلُّوهُ عَليَّ! ، فأتَاني بصَحيفَةٍ من مَلِكِ غَسَّانَ ، فإذا فيها : أمَّا بَعدُ فإنَّه بَلَغَني أنَّ صاحِبَك قد جَفَاكَ ، وأقْصَاكَ ، ولَسْتَ بدَارِ مَضْيَعَة ولا هَوَانٍ ، فالْحَقْ بنا نُواسِكْ فسَجَّرتُ لها التَّنُّورَ وأحْرَقتُها .

---

(١) الحاذ : الحال .

(٢) أيُّها الثلاثةُ : مبني على الضم في محل نصب على الاختصاص ، أي : مختصين بذلك دون بقية الناس .

(٣) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣٠٠/ ٤ .

(٤) وهما : مِرارَةُ بنُ الرَّبيع العمريّ ، وهِلالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفيّ .

إلىٰ أنْ قالَ : إذ سَمعتُ نداءً من ذِرْوَة سَلْعٍ[1] : أبْشِرْ يا كعْبُ بنُ مالِك فخَرَرْتُ ساجِداً ، ثم جاءَ رَجلٌ علىٰ فَرَس يُبَشِّرُني ، فكانَ الصَّوتُ أسْرَعَ من فَرسِه ، فأعْطَيْتُه ثَوْبَيَّ بِشارَةً ، ولَبِستُ غيرَهُما .

ونزَلَتْ تَوبَتُنا على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ثُلثَ اللَّيلِ ، فقالَت أمُّ سَلمَة : يا نَبيَّ الله ، ألا نُبَشِّرُ كعْباً ؟ قالَ : « إذاً يَحْطِمُكمُ النَّاسُ وَيَمْنَعُونَكمُ النَّوْمَ » قالَ : فانْطَلقتُ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو جالِسٌ في المسجِدِ ، وحولَه المسلمونَ ، وهو يَسْتَنيرُ كاسْتِنارَةِ القَمَرِ ، فقالَ : « أَبْشِرْ يَا كعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ أَتَىٰ عَلَيْكَ » ، ثُمَّ تَلا عَلَيْهِمْ : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية[2] .

وفينا نَزَلت أيْضاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[3] .

فقُلتُ : يا نَبيَّ الله إنَّ مِنْ تَوْبَتي ألاَّ أُحَدِّثَ إلاَّ صِدْقاً ، وأنْ أنْخَلِعَ من مَالي كُلِّه صَدقَةً ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » الحديث[4] .

وفي لَفظٍ ، فقَامَ إليَّ طَلحَةُ يُهَرْوِلُ ، حتَّىٰ صافَحَني وهَنَّأني . فكانَ لا يَنْسَاها لِطَلْحَة[5] .

٦ـ قِصَّةُ إسْلام عَمرو بن العَاص :

عن رَاشِد مَوْلَىٰ حَبيب ، عن حَبيبِ بنِ أَوْس ، قالَ : حدَّثني عَمرُو بنُ العاص قالَ : لَمَّا انْصَرَفْنا من الخَندَقِ ، جَمَعتُ رِجالاً من قُرَيش ، فقُلتُ : والله إنَّ أمْرَ مُحمَّدٍ يَعلُو عُلواً مُنْكَراً ، والله ما يَقومُ له شَيءٌ ، وقد رَأيتُ رَأياً ، قَالُوا : وما هو ؟ قُلتُ : أنْ نَلحَقَ بالنَّجَاشِيِّ علىٰ حامِيَتِنا ، فإنْ ظَفرَ قَومُنا ، فنَحنُ مَنْ قد عَرَفوا ، نَرجِعُ إلَيهِم ،

---

(١) سلع : جبل بالمدينة .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٧ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ١١٩ .
(٤) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٠١ .
(٥) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٣٠٢ .

وإنْ يَظهَرْ مُحمَّدٌ ، فنكُونُ تحتَ يَدَي النَّجَاشِيِّ أحَبَّ إلَينا من أنْ نَكُونَ تحتَ يَدَي مُحمَّدٍ قالوا : أصَبتَ قُلتُ : فابْتَاعُوا له هَدايا ، وكانَ من أعْجَب ما يُهدَىٰ إليه من أرضِنا الأدَمُ ، فجَمَعَنا له أدَماً كَثيراً ، وقدِمنا عَليه ، فوافَقْنا عندَه عَمرَو بنَ أُمَيَّة الضَّمْريّ قد بَعثَه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في أمْرِ جَعْفَرٍ وأصْحابِه ، فلمَّا رَأيتُه قُلتُ لَعلِّي أقْتُله وأدخَلتُ الهَدايا ، فقالَ : مَرْحباً وأهْلاً بصَديقي وعَجِبَ بالهَديَّة ، فقُلتُ : أيُّها الْمَلكُ! إنِّي رَأيتُ رَسُولَ مُحمَّد عندَك وهو رَجلٌ قد وَتِرَنا ، وقَتلَ أشْرافَنَا ، فأعْطِنيهِ أضْربُ عُنُقَه ، فغَضِبَ وضَربَ أنفَه ضَربةً ظَنَنتُ أنَّه قد كَسَرَه ، فلَوْ أنْشَقَّت لي الأرضُ دَخَلتُ فيها وقُلتُ : لَوْ ظَنَنتُ أنَّك تَكرَهُ هٰذا لَمْ أسْألْكَه فقالَ : سَألتَني أنْ أُعْطِيَكَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأتيهِ النَّامُوسُ[1] الذي كان يَأتي مُوسَى الأكبر تَقتُلُه ؟! فقُلتُ : وإنَّ ذَاكَ لكَذلك ؟ قالَ نَعَم والله إنِّي لكَ ناصحٌ فاتَّبِعْه ، فوالله لَيَظْهَرنَّ كَمَا ظَهرَ مُوسَىٰ وجُنودُه ، قُلتُ : أيُّها الْمَلكُ ، فبايِعْنِي أنتَ لَه على الإسْلامِ ، فقالَ : نَعَم فبَسَطَ يدَه ، فبايَعتُه لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، على الإسْلامِ ، وخَرَجتُ علىٰ أصْحابي وقد حالَ رأيي ، فقالوا : ما وَراءَكَ ؟ فقُلتُ : خَيراً ، فلَمَّا أمْسَيتُ ، جَلَستُ علىٰ رَاحِلَتي ، وانْطَلقتُ ، وتَرَكتُهم ، فوالله إنِّي لأهْوي إذ لَقيتُ خالدَ بنَ الوَليد ، فقُلتُ : إلىٰ أينَ يا أبا سُليْمان ؟ قالَ : أذْهَبُ والله أُسْلِمُ ، إنَّه والله قد اسْتَقامَ الْمَيْسَمُ ، إنَّ الرَّجُلَ لَنَبيٌّ ما أشُكُّ فيه فقُلتُ : وأنا والله ، فقَدِمْنا الْمَدينَةَ ، فقُلتُ : يا رَسُولَ الله ، أُبايعُكَ علىٰ أنْ يُغفَرَ لي ما تَقدَّم من ذَنبي ، ولَمْ أذْكُرْ ما تَأخَّرَ فقالَ لي : « يَا عَمْرُو بَايِعْ فَإنَّ الإسْلامَ يَجُبُّ مَا كانَ قَبْلَه »[2] ، [3] .

---

(١) الناموسُ : جبريلُ عليه السلام ، وكذا يُسمِّيه أهلُ الكتاب ، وفي حديث ورَقَة بن نَوْفَل لخَديجَة رَضيَ اللهُ عنها ، إنْ كان ما تَقولين حَقاً ، فإنَّه لَيَأتيه الناموسُ الذي كان يَأتي مُوسَىٰ عليه السلام .

(٢) رجاله ثقاتٌ خَلا راشِد مَولَىٰ حَبيب ، فلَم يوثقه غيرُ ابن حبَّان وأخرَجَه من طَريق ابن إسحاق بنَحوه ابنُ هشام في السيرة (٢/ ٢٧٦ ، ٢٧٧) ، وأحمد في « الْمُسنَد » (٤/ ١٩٨ ، ١٩٩) ، وهو في تاريخ ابن عَساكر ، ومَغازي الواقدي .

(٣) انظر السير : (عَمْرُو بنُ العاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٧/ ٣٣٣ .

٧ـ قِصَّةُ إسْلام أحَد الرُّوم :

عن ابنِ جابِر ، حدَّثنا القاسِمُ أبو عبد الرحمَـٰن ، قالَ : غَزَونا مع فَضَالَةَ بنِ عُبَيْد ، ولَمْ يَغزُ فَضَالَةُ في البَرِّ غيرَها ـ فبَينَما نَحنُ نُسرِعُ في السَّيرِ ، وهو أميرُ الجَيشِ ، وكانَت الوُلاةُ إذ ذَاكَ يَسمَعُونَ مِمَّن اسْتَرعاهُم اللهُ عَليه ، فقالَ قائلٌ : أيُّها الأميرُ! إنَّ النَّاسَ قد تَقطَّعوا ، قِفْ حتَّىٰ يَلحَقُوا بك فوَقَفَ في مَرجٍ عَليهِ قَلعَةٌ ، فإذا نَحنُ برَجُلٍ أحْمَر ذي شَوارب فأتَينا به فَضَالَة ، فقُلنا : إنَّه هَبطَ من الحِصْنِ بِلا عَهدٍ ، فسَألَه ، فقالَ : إنِّي البَارِحَةَ أكَلتُ الخِنْزيرَ ، وشَرِبتُ الخَمرَ ، فأتَاني في النَّومِ رَجُلانِ ، فغَسَلا بَطْني وجَاءَتني امْرأتَانِ ، فقَالَتَا : أسْلِمْ ، فأنا مُسلِمٌ ، فمَا كانَت كلمَتُه أسْرَعَ من أنْ رُمِينا بالزِّبَارِ[1] فأصَابَه ، فدَقَّ عُنقَه ، فقالَ فَضَالَةُ : اللهُ أكبَر عَمِلَ قَليلاً ، وأُجِرَ كَثيراً فصَلَّينا عَليه ، ثم دَفنَّاه[2] .

٨ـ قِصَّةُ إسْلام عَديِّ بنِ حَاتِم :

عن ابنِ سِيرينَ ، عن أبي عُبَيْدَة بنِ حُذَيْفَة ، قالَ : كُنتُ أسْألُ النَّاسَ عن حَديثِ عَديِّ بنِ حاتم وهو إلىٰ جَنبي لا آتيه ، ثم أتَيتُه فسَألتهُ فقالَ : بُعثَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فكَرِهْتُه ، ثم كُنتُ بأرْضِ الرُّوم ، فقُلتُ : لَوْ أتَيتُ هـٰذا الرَّجُلَ ، فإنْ كانَ صَادِقاً تَبعْتُه ، فلمَّا قَدمْتُ الْمَدينَةَ ، اسْتَشْرَفَني النَّاسُ فقالَ لي صلى الله عليه وسلم : « يا عَديُّ! أسْلِمْ تَسْلَمْ » ، قُلتُ : إنَّ لي دِيناً ، قالَ صلى الله عليه وسلم : « أنَا أعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ ، أَلَسْتَ تَرْأَسُ قَوْمَكَ ؟ » قُلتُ : بَلَىٰ قال : « أَلَسْتَ رَكوسِيّاً[3] تَأكلُ الْمِرْبَاعَ[4] » قُلتُ : بلىٰ قالَ : « فَإنَّ ذَلِكَ لا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ » ، فتَضَعْضَعْتُ لذلك ثم قالَ : « يا عَدِيُّ! أسْلِمْ تَسْلَم فَأظُنُّ مِمَّا يَمْنَعُكَ أنْ تُسْلِمْ خَصَاصَةً تَرَاهَا بِمَنْ حَوْلِي ،

---

(١) الزِّبار : كأنها الحجارة ، من قولهم : زبر الرجل إذا رَماه بالحجارة ، والزبر : الحجارة .

(٢) انظر السير : (فَضَالَةُ بنُ عُبَيْد) ٣/ ١١٣ـ ١١٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٤٦ .

(٣) قال في النهاية : الرَّكوسية : هو دينٌ بين النصارىٰ والصابئين .

(٤) كانوا في الجاهلية إذا غزا بعضهم بعضاً ، وغنموا ، أخذ الرئيسُ رُبع الغنيمة خالصاً دون أصحابه ، ويسمَّىٰ ذلك المرباع .

وَأَنَّكَ تَرَى النَّاسَ عَلَيْنَا إِلْباً وَاحِداً هَلْ أَتَيْتَ الْحِيرَةَ ؟ » قُلتُ : لمْ آتِها ، وقد عَلمتُ مَكانَها قال : « تُوشِكُ الظَّعِينَةُ أَنْ تَرْتَحِلَ مِنْ الْحِيرَة بِغَيْرِ جِوَارٍ حَتَّىٰ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ ، وَلَتُفْتَحَنَّ عَلَيْنَا كنُوزُ كسْرَىٰ » قُلتُ : كسْرَىٰ بنُ هُرْمُز! قالَ : « كسْرَىٰ بنُ هُرْمُز ، وَلَيَفِيضَنَّ الْمَالُ حَتَّىٰ يُهِمَّ الرَّجُلُ مَنْ يَقْبَلُ مِنْهُ مَالَهُ صَدَقَةً » .

قالَ عَديٌّ : فلقد رَأيتُ اثنَتَين ، وأحلِفُ بالله لَتَجيئنَّ الثالثةُ ، يَعني : فَيضَ الْمَال[1] .

٩ـ قِصَّةُ جُنْدُب رضي الله عنه مع السَّاحِر :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : قَدِمَ دِمَشْقَ ، ويُقالُ له : جُندُب الخَير ، وهو الذي قَتلَ الْمُشَعْوِذَ .

عن أبي عُثْمانَ النَّهْدي : أنَّ ساحِراً كانَ يَلعَبُ عندَ الوَليدِ بنِ عُقْبَة الأميرِ ، فكانَ يَأخُذُ سَيفَه ، فيَذبَحُ نَفسَه ولا يَضُرُّه ، فقامَ جُنْدُبُ إلى السَّيفِ فأخَذَه ، فضَرَبَ عُنقَه ، ثم قَرأ : ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[2] ، [3] .

وعن أبي الأسْوَد أنَّ الوَليدَ كانَ بالعِراقِ ، فلَعِبَ بَينَ يَدَيه سَاحِرٌ ، فكَانَ يَضرِبُ رَأسَ الرجُل ، ثم يَصيحُ به ، فيَقُومُ خارِجاً ، فيَرتَدُّ إليه رَأسُه ، فقالَ النَّاسُ : سُبْحانَ الله سُبْحانَ الله ، ورآهُ رَجلٌ من صالِحي الْمُهاجِرينَ ، فلمَّا كانَ من الغَد اشْتَملَ علىٰ سَيفِه ، فذَهبَ لِيَلعَبَ ، فاخْتَرطَ الرجُلُ سَيفَه ، فضَربَ عُنقَه ، وقالَ : إنْ كانَ صَادِقاً ، فليُحْيِ نَفسَه ، فسَجَنَه الوَليدُ ، فهَرَّبَه السَّجَّانُ لِصَلاحِه[4] .

١٠ـ قِصَّةُ إسْلام أبي رَجَاء العطارديّ :

عن يُوسُفَ بنِ عَطيَّة ، ن أبيه : دَخلتُ علىٰ أبي رَجَاء فقالَ : بُعثَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وكانَ لنَا صَنمٌ مُدَوَّر ، فحَملنَاهُ علىٰ قَتَب ، وتَحوَّلنا ففَقَدنا الحَجَر انْسلَّ

---

(١) انظر السير : (عَديُّ بنُ حاتِم) ٣/ ١٦٢ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ٥/٣٥٧ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٣ .
(٣) انظر السير : (جُنْدُب الأزدي) ٣/ ١٧٥ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٥/٣٦١ .
(٤) انظر السير : (جُنْدُب الأزدي) ٣/ ١٧٥ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/٣٦٢ .

فوَقعَ في رَملٍ ، فرَجَعْنا في طَلبه فإذا هو في رَملٍ قد غَابَ فيه ، فاسْتَخرَجتُه فكانَ ذلك أوَّلَ إسْلامي ، فقُلتُ : إنَّ إلَـٰهاً لَمْ يَمْتَنعْ من تُرابٍ يَغيبُ فيه لإلَهُ سُوء وإنَّ العَنْزَ لَتَمنَعُ حَيَاها بذَنَبها .

فكانَ أوَّلَ إسْلامي ، فرَجَعتُ إلى الْمَدينَةِ وقد تُوفِّيَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم[1] .

١١ـ قِصَّةُ محمَّد بن المُنْكدِر مع أحد الصَّالحين :

وقالَ ابنُ الْمُنْكَدِر : إنِّي لَلَيلَةٌ مُواجِهٌ هـٰذا الْمِنبَرَ في جَوفِ اللَّيلِ أدْعُو ، إذا إنْسَانٌ عندَ أسْطُوانَة مُقَنِّعٌ رَأسَه ، فأسْمَعُه يَقولُ : أي رَبِّ إنَّ القَحْطَ قد اشْتدَّ علىٰ عِبادِك ، وإنِّي مُقسِمٌ عَليكَ يارَبِّ إلاَّ سَقَيْتَهم ، قالَ : فما كانَ إلاَّ ساعَةً إذا سَحابَةٌ قد أقْبَلت ، ثم أرْسَلَها اللهُ ، وكانَ عَزيزاً على ابنِ الْمُنْكَدِرِ أنْ يَخْفَىٰ عليه أحَدٌ من أهْلِ الخَيرِ ، فقالَ : هـٰذا بالْمَدينَةِ ولا أعْرِفُه!! فلمَّا سَلَّمَ الإمامُ ، تَقنَّعَ وانْصَرَف ، وأتْبَعَه ، ولَمْ يَجلِسْ للقَاص حتَّىٰ أتَىٰ دَارَ أنَسٍ ، فدَخلَ مَوْضِعاً ، ففَتَحَ ودَخلَ قالَ : ورَجَعتُ ، فلمَّا سَبَّحتُ أتَيتُه فقُلتُ : أدْخُلُ ؟ قالَ : ادْخُل فإذا هو يَنجِرُ أقْداحاً ، فقُلتُ : كَيفَ أصْبَحتَ ؟ أصْلَحَكَ اللهُ ، قالَ : فاسْتَشْهَرَهَا وأعْظَمَهَا مِنِّي ، فلمَّا رَأيتُ ذلكَ ، قُلتُ : إنِّي سَمعتُ إقْسَامَكَ البَارِحَة على الله ، يا أخي هَلْ لكَ في نَفَقَةٍ تُغنيكَ عن هـٰذا ، وتُفَرِّغُكَ لِمَا تُريدُ من الآخِرَة ، قالَ : لا ، ولَكِنْ غيرُ ذلكَ ، لا تَذْكُرْني لأحَدٍ ، ولا تَذْكُرْ هـٰذا لأحَدٍ حتَّىٰ أمُوتَ ، ولا تَأتِني يا ابنَ الْمُنْكَدِر ، فإنَّك إنْ تَأتِني شَهَرْتَنِي للنَّاسِ ، فقُلتُ : إنِّي أُحِبُّ أنْ ألْقَاكَ ، قالَ : الْقَنِي في الْمَسجِدِ ، قالَ : وكانَ فارِسياً ، فمَا ذَكرَ ذلكَ ابنُ الْمُنْكَدِر لأحَدٍ حتَّىٰ ماتَ الرَّجُلُ قالَ ابنُ وَهْبٍ : بَلغَني أنَّه انْتَقلَ من تِلكَ الدَّارِ ، فلَمْ يُرَ ، ولَمْ يُدْرَ أينَ ذَهَبَ فقالَ أهْلُ تِلكَ الدَّار : اللهُ بَينَنا وبينَ ابنِ الْمُنْكَدِر ، أخْرَجَ عَنَّا الرجُلَ الصَّالِح[2] .

---

(١) انظر السير : (أبو رَجاء العَطارديّ) ٤/ ٢٥٣ـ ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ١/ ٤٩٢ .

(٢) انظر السير : (محمَّدُ بنُ الْمُنْكدِر) ٥/ ٣٥٣ـ ٣٦١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٠٨ .

١٢ـ قِصَّةُ تَوْبَةِ إبْراهيم بن أدْهَم :

قالَ السَّرَّاجُ : سَمعتُ إبْراهيمَ بنَ بَشَار يَقُولُ : قُلتُ لإبْراهيمَ بنِ أدْهَمَ : كَيفَ كانَ بَدءُ أمْرِك ؟ قالَ : غَيرُ ذا أوْلَىٰ بك قالَ : قُلتُ : أخْبِرْني لَعلَّ اللهَ أنَ يَنْفَعَنا به يَوماً قالَ : كانَ أبي من الْمُلوكِ الْمَياسير ، وحُبِّبَ إلينا الصَّيدُ فرَكبتُ ، فثارَ أرْنَبٌ أو ثَعلَبٌ فحَرَّكتُ فَرَسي ، فسَمعتُ نِداءً من وَرَائي : لَيسَ لِذَا خُلِقْتَ ، ولا بِذَا أُمِرْتَ فوَقَفتُ أنْظُرُ يَمْنَةً ويَسْرَةً ، فلَمْ أرَ أحَداً ، فقُلتُ : لَعَنَ اللهُ إبْليسَ ، ثم حَرَّكتُ فَرَسي ، فأسْمَعُ نِداءً أجْهَر من ذلك : يا إبْراهيمُ! لَيسَ لِذَا خُلِقْتَ ولا بِذَا أُمِرْتَ ، فوَقَفتُ أنْظُرُ فلا أرَىٰ أحَداً فقُلتُ : لَعَنَ اللهُ إبْليسَ ، فأسْمَعُ نِداءً من قَرْبُوس[1] سِرْجي بذَاكَ ، فقُلتُ : أُنْبِهْتُ ، أُنْبِهْتُ ، جاءَني نَذيرٌ ، واللهِ لا عَصَيتُ اللهَ بعدَ يَومي ما عَصَمَني اللهُ ، فرَجَعتُ إلىٰ أهْلي ، فخَلَّيتُ فَرَسي ، ثم جِئتُ إلىٰ رُعاةٍ لأبي ، فأخَذتُ جُبَّة وكِسَاءً ، وألْقَيتُ ثيابي إليه ثم أقْبَلتُ إلى العِراقِ ، فعَمِلتُ بها أيّاماً ، فلَمْ يَصْفُ لي منها الحَلالُ فقيلَ لي : عَليكَ بالشَّامِ فذَكرَ حِكايَةَ نِظارَتِه الرُّمَّانَ ، وقالَ الخادِمُ له : أنْتَ تَأكُلُ فاكِهَتَنا ، ولا تَعرفُ الحُلوَ من الحَامِضِ ؟ قُلتُ : والله ما ذُقتُها فقالَ : أتُراكَ لَوْ أنَّك إبْراهيمُ بنُ أدْهَم ، فانْصَرفَ ، فلمَّا كانَ من الغَدِ ذَكَر صِفَتي في الْمَسجِدِ ، فعَرَفَني بَعضُ النَّاسِ ، فجاءَ الخَادِمُ ومَعه عُنقٌ[2] من النَّاسِ فاخْتَفَيتُ خَلفَ الشَّجَرِ والنَّاسُ دَاخِلُونَ ، فاخْتَلَطتُ مَعَهم وأنا هَاربٌ .

تُوفِّيَ سَنةَ اثنَتَينِ وسِتِّينَ ومئة ، وقَبرُه يُزار[3] .

١٣ـ قِصَّةُ تَوْبَةِ الفُضَيْلِ بن عِياض :

وعن الفَضْلِ بنِ مُوسَىٰ ، قالَ : كانَ الفُضَيْلُ بنُ عِياض شاطِراً يَقطَعُ الطَّريقَ بينَ أبِيوَرْدَ وسَرْخَس ، وكانَ سَببُ تَوبَتِه أنَّه عَشِقَ جاريَةً ، فبَينا هو يَرْتَقي الجُدْرانَ إليها ،

---

(١) القربوس : هو حنو السرج ، قال الأزهَريُّ : وللسرج قربوسان ، فأما القربوس المقدَّم ، ففيه العضدان ، وهما رجلا السرج ، ويُقالُ لهما حنواه والقربوس الآخر فيه رجلا المؤخرة ، وهما حنواه .

(٢) العنقُ من الناس : الجماعة من الناس والرؤساء .

(٣) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/٧٠٩ .

إذْ سَمعَ تَالياً يَتلُو ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾[1] فلمَّا سَمعَها ، قالَ : بَلَىٰ ، يا رَبِّ ، قد آنَ ، فرَجَعَ ، فآواهُ اللَّيلُ إلىٰ خَرِبَة ، فإذا فيها سَابِلَةٌ ، فقالَ بَعضُهم : نَرْحَلُ ، وقالَ بَعضُهم : حتَّىٰ نُصْبحَ فإنَّ فُضَيْلاً على الطَّريقِ يَقْطَعُ عَلينا .

قالَ : ففكَّرتُ ، وقُلتُ : أنا أسْعَىٰ باللَّيلِ في الْمَعاصي ، وقَومٌ من الْمُسْلِمينَ ها هُنا ، يَخافُوني ، وما أرَى اللهَ ساقَني إليهم إلاَّ لأرْتَدِعَ ، اللَّهُمَّ إنِّي قد تُبتُ إليكَ ، وجَعلتُ تَوْبَتي مُجاوَرَةَ البَيتِ الحَرام[2] .

١٤ـ قِصَّةُ إبْراهيم بن المَهْدي مع يَهوديٍّ قاطِع طَريق :

قالَ عَليُّ بنُ الْمُغيرَة الأثْرَمُ : حدَّثنا إبْراهيمُ : أنَّه وَلِيَ إمْرةَ دِمَشْقَ أعْواماً لَمْ يُقْطَع فيها علىٰ أحَدٍ طَريقٌ ، وحُدِّثتُ أنَّ الآفَةَ في قَطعِ الطَّريقِ من دُعامَة ونُعْمان ويَحْيَى بن أُرميا اليَهوديّ البلقاوي ، وأنَّهم لَمْ يَضَعوا يَدَهُم في يَدِ عاملٍ ، فكاتَبتُهم فتَابَ دُعامَة وحَلفَ النُّعْمانُ بالأيْمانِ أنَّه لا يُؤذي مَهْما وَليتُ ، وطَلبَ ابنُ أُرميا أمَاناً ليَأتي ، ويُناظِرَ ، فأجَبتُه ، فقَدِمَ شابٌّ أشْعرُ أمْعَرُ في أقْبيَة ديباجٍ ، ومِنطَقَةٍ وسَيفٍ مُحلًّىٰ ، فدَخلَ على الخَضْراءِ ، فسَلَّمَ دُونَ البسَاط ، فقُلتُ : اصْعَدْ قال : إنَّ للبساطِ ذماماً ، أخافُ أنْ يلزمني جُلوسِي عَليه ، وما أدْري ما تَسُومني ، قُلتُ : أسْلِمْ ، وأَطِعْ قالَ : أمَّا الطَّاعَةُ فأرْجُو ، ولا سَبيلَ إلى الإسْلامِ ، فما عِندَكَ إنْ لَمْ أُسْلِمْ ؟ قُلتُ : لا بُدَّ من جِزْيَة قالَ : اعْفِنِي قُلتُ : كلاَّ قالَ : فأنا مُنْصَرفٌ علىٰ أمَاني فأذِنتُ له ، وأمَرتُهم أنْ يَسْقُوا فَرَسَه ، فلمَّا رَأىٰ ذلكَ ، دَعا بدَابَّةِ غُلامِه ، وتَرَكَ فَرَسَه ، وقالَ : لَنْ آخُذَ شَيئاً ارْتَفَقَ منكُم ، فأُحارِبُكُم عليه ، فاسْتَحيَيْتُ وطَلبْتُه ، فلمَّا دَخلَ ، قُلتُ : الحَمدُ لله ، ظَفرتُ بكَ بِلا عَهْد قالَ : وكَيفَ ؟ قُلتُ : لأنَّك انْصَرَفْتَ من عِندِي ، وقد عُدتَ ، قالَ : شَرطُك أنْ تَصرِفَني إلىٰ مَأمَني ، فإنْ كانَ دَارُك مَأمَني ، فلَستُ بخائف ، وإنْ كانَ مَأمَني أرْضِي ، فرُدَّني ، فجَهِدتُ به أنْ يُؤدِّي جِزْيَة عَلَىٰ أنْ أهَبَه في السَّنَة ألْفَي دينار ، فأبَىٰ ، وذَهَبَ فأسْعَرَ الدُّنيا شَرّاً ، وحُملَ مَالٌ من مِصْرَ ، فتَعرَّضَ له ، فكَتبَ

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ١٦ .

(٢) انظر السير : (الفُضَيلُ بنُ عِياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٥/ ٧٧٢ .

النُّعْمَانُ إليَّ ، فأمَرتُه بمُحارَبتِه ، فسَارَ النُّعْمَانُ ، ووَافَاهُ اليَهودِيُّ في جَماعَتِه ، فسَألَه النُّعْمَانُ الانْصِرافَ ، فأبَىٰ ، وقالَ : بارِزْني ، وإنْ شِئتَ ، بَرَزتُ وَحْدي إليكَ وإلىٰ جُندِك فقالَ نُعمانُ : يا يَحْيىٰ ، وَيْحَك أنتَ حَدَثٌ قد بُليتَ بالعُجبِ ، ولَوْ كُنتَ من أنْفَسِ قُرَيش لَمَا أمْكَنكَ معارَّة السُّلطان ، وهـٰذا الأميرُ هو أخُو الخَليفَة ، وأنا ـ وإنْ افْتَرَقنا في الدين ـ أُحِبُّ أنْ لا يُقتَل علىٰ يَدَيَّ فارسٌ ، فإنْ كُنتَ تُحبُّ السَّلامَةَ ، فابْرُزْ إليَّ ولا يُبتَلَىٰ بنا غَيرُنا ، فبَرَزَ له العَصْر ، فما زَالا في مُبارَزَةٍ إلى اللَّيلِ ، فوَقَفَ كُلٌّ منهما علىٰ فَرَسِه مُتَّكِئاً علىٰ رُمْحِه ، فنَعسَ النُّعْمَانُ ، فطَعَنَه اليَهُوديُّ ، فيَقعُ سِنانُ رُمحِه في الْمِنْطَقَة ، فدَارَت ، وصَارَت السِّنانُ يَدورُ مَعها ، فاعْتَنقَهُ النُّعْمَانُ ، وقالَ : أغَدْراً يا بنَ اليَهُوديَّة ؟ فقالَ : أوَمُحاربٌ يَنامُ يا بنَ الأمَة ؟! فاتَّكَأ عليه النُّعْمَانُ ، فسَقَطَ فَوقَه ، وكانَ النُّعْمَانُ ضَخْماً ، فصارَ فَوقَه ، فذَبَحَ اليَهوديَّ ، وبَعثَ إليَّ برَأسِه ، فاطْمأنَّت البِلادُ ، ثم وَلِيَ بَعْدي عَمِّي سُليْمانُ ، فانتُهِبَهُ أهلُ دِمَشْقَ ، وسَبَوا حُرَمَه[1] .

١٥ـ قِصَّةُ هِشام بن عمَّار مع الإمامِ مالك :

قالَ أبو بَكر محمَّدُ بنُ سُليْمانَ الرَّبَعي : حدَّثنا محمَّدُ بنُ الفَيْض الغَسَّانيُّ ، سَمعتُ هِشامَ بنَ عَمَّار ، يَقُولُ : بَاعَ أبي بَيْتاً له بعِشرينَ دِيناراً وجَهَّزَني للحَجِّ فلمَّا صِرتُ إلى الْمَدينَةِ ، أتَيتُ مَجلِسَ مَالِك ، ومَعي مَسائلُ أريدُ أنْ أسألَه عنها فأتَيتُه ، وهو جَالسٌ في هَيئَةِ الْمُلوكِ ، وغِلْمانٌ قِيامٌ ، والنَّاسُ يَسألُونَه ، وهو يُجيبُهم ، فلمَّا انْقَضَى الْمَجلِسُ ، قالَ لي بَعضُ أصْحابِ الحَديثِ : سَلْ عن ما مَعكَ ؟ فقُلتُ له : يا أبا عبدِ الله ما تَقُولُ في كَذا وكَذا ؟ فقالَ : حَصلنا على الصِّبْيانِ ، يا غُلامُ ، احْمِلهُ فحَمَلَني كمَا يُحْمَلُ الصَّبيُّ ، وأنا يَومَئذ غُلامٌ مُدْرِكٌ ، فضَرَبَني بدِرَّةٍ مثل دِرَّةِ الْمُعلِّمينَ سَبعَ عَشرَةَ دِرَّةً ، فوَقَفتُ أبْكِي ، فقالَ لي : ما يُبكِيكَ ؟ أوَجَعَتْكَ هـٰذه الدِّرَّة ؟ قُلتُ : إنَّ أبي بَاعَ مَنزِلَه ، ووَجَّهَ بي أتَشرَّفُ بكَ وبالسَّمَاعِ مِنكَ ، فضَرَبتَني ؟ فقالَ : اكْتُبْ ،

---

(١) انظر السير : (إبْراهيمُ بنُ الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٩٢ .

قالَ : فحدَّثني سَبعَةَ عَشرَ حَديثاً ، وسَألتُه عمَّا كانَ مَعي من الْمَسائلِ فأجَابَني[1] .

١٦ـ قِصَّةٌ في الإيثَار :

قالَ يُوسُفُ بنُ البُهْلول الأزرق : حدَّثنا يَعقُوبُ بنُ شَيبَة ، قالَ : أظلَّ العيدُ رَجلاً ، وعنده مئةُ دينار لا يَملكُ سِوَاها ، فكَتبَ إليه صَديقٌ يَستَرْعي منه نَفقَة فأنْفَذَ إليه بالمئة دينار ، فلَمْ يَنْشَبْ أنْ وَرَدَ عليه رُقْعَةٌ من بَعضِ إخْوَانِه يَذكُرُ أنَّه أيْضاً في هـٰذا العيدِ في إضاقَة ، فوَجَّهَ إليه بالصُّرَّةِ بعَيْنِها قالَ : فبَقِيَ الأول لا شَيءَ عندَه ، فاتَّفَقَ أنَّه كتبَ إلى الثالث وهو صَديقُه يَذكُرُ حالَه ، فبَعثَ إليه الصُّرَّةَ بِخَتْمِها قال فعَرَفَها ، ورَكِبَ إليه ، وقالَ : خَبِّرْني ما شَأنُ هـٰذه الصُّرَّة ؟ فأخْبَرَه الخَبرَ ، فرَكبا معاً إلى الذي أرْسَلَها ، وشَرحُوا القِصَّةَ ، ثم فَتَحوها واقْتَسَمُوها .

قالَ ابنُ البُهْلول : الثَّلاثَة ، يَعْقوبُ بنُ شَيْبَة ، وأبو حَسَّان الزِّيادي ، وآخَرُ نَسيتُه إسْنادُها صَحيح .

وقيلَ عاشَ الزِّياديُّ تِسْعاً وثَمانينَ سَنةً ، ماتَ في سَنةِ اثْنَتينِ وأرْبَعينَ ومئتين[2] .

١٧ـ قِصَّةُ اللِّصِّ الفَقِيه :

ورَوَىٰ يَمُوتُ بنُ الْمُزَرَّع ، عن الْمُبَرِّد ، عن أحمَدَ بنِ الْمُعَذَّل ، قالَ : كُنتُ عندَ ابنِ الماجِشُونَ ، فجاءَه بَعضُ جُلسَائه ، فقالَ : يا أبا مَرْوانَ أُعْجُوبَة ، خَرجتُ إلىٰ حائطي بالغابَة ، فعَرضَ لي رَجلٌ ، فقالَ : اخْلَعْ ثِيابَك قُلتُ : لِمَ ؟ قالَ : لأنِّي أخُوكَ ، وأنا عُرْيانٌ قُلتُ فالْمُواسَاةُ ؟ قالَ : قد لَبستَها بُرهَة قُلتُ فتُعَريني ؟ قالَ : قد رَوَيْنا عن مَالِك أنَّه قالَ : لا بَأسَ للرجُلِ أنْ يَغتَسِلَ عُرياناً قُلتُ : تَرَىٰ عَوْرَتي قالَ : لَوْ كانَ أحَدٌ يَلقَاكَ هُنا ، ما تَعرَّضتُ لك قُلتُ : دَعْني أدْخُلُ حائِطِي ، وأبْعَثُ بها إليكَ ، قالَ : كَلاَّ ، أرَدتَ أنْ تُوجِّهَ عَبيدَكَ فأُمْسَكُ ، قُلتُ : أحْلِفُ لك قالَ : لا تَلزَمُ يَمينُك لِلصِّ فحَلَفتُ له : لأبْعَثَنَّ بها طَيِّبَةً بها نَفسِي فأطْرَقَ ثم قالَ : تَصَفَّحتُ أمْرَ اللُّصُوصِ

---

(١) انظر السير : (هِشامُ بنُ عَمَّار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٩٥٧ .

(٢) انظر السير : (أبو حَسَّان الزِّياديّ) ١١/ ٤٩٦ـ ٤٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/٩٦٢ .

من عَهدِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ وَقتِنا ، فلَمْ أجِدْ لِصّاً أخَذَ بنَسيئَة ، فأكْرَهُ أنْ أبْتَدِعَ ، فخَلَعتُ ثِيابي لَه[1] .

١٨ـ قِصَّةُ تُقَوِّي الإيْمَان :

قال يوسُفُ بنُ الحُسين الرَّازيّ : حَضرْتُ ذا النُّونِ فقيل له : يا أبا الفيض ، ما كان سَبَبُ تَوبَتِكَ ؟ قال : نِمتُ في الصحراء ، ففتحت عَينَيَّ فإذا قُنْبُرَةٌ[2] عَمياءُ سقطتْ من وكْر ، فانشقت الأرضُ ، فخرجَ سُكُرُّجَتان فأكَلَت وشَربَت فقلتُ : حَسبي ، فثَبتُ ولَزِمتُ البابَ إلىٰ أن قَبِلَني[3] .

١٩ـ قِصَّةُ المَرْأة المُصَابَة بالجِنِّ :

وقالَ عُمَرُ بنُ بَحْر : سَمعتُ أحمَدَ بنَ أبي الحَوَاريِّ يَقُولُ : بَيْنا أنا في قُبَّة بالْمَقابِر بلا بابٍ إلاَّ كسَاءً أسْبَلتُه ، فإذا أنا بامْرأةٍ تَدُقُّ على الحائط فقُلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالَت : ضَالَّةٌ ، فدُلَّني على الطَّريقِ فقُلتُ : رَحِمَكِ الله ، أيُّ الطَّريقِ تَسْلُكينَ ، فبَكَت ، ثم قالَت : علىٰ طَريقِ النَّجاةِ ، يا أحمَدُ قُلتُ : هَيْهاتَ! إنَّ بَيْنَنا وبَينَها عقاباً ، وتلكَ العقابُ لا تُقطَعُ إلاَّ بالسَّيرِ الحَثيثِ ، وتَصْحيحِ الْمُعامَلَة ، وحَذفِ العَلائق الشَّاغِلَة ، فبَكَتْ ، ثم قالَت : سُبحانَ مَنْ أمْسَكَ عَليكَ جَوارِحَك فلَمْ تَتقَطَّعْ ، وفُؤادَكَ فلَمْ يَتصَدَّعْ ثم خَرَّتْ مَغشِياً عَليها فقُلتُ لِبَعضِ النِّساءِ : أيُّ شَيءٍ حالُهَا ؟ فقُمنَ ، ففَتَّشْنَها ، فإذا وَصيَّتُها في جَيْبِها : كَفِّنُوني في أثْوابي هـٰذه ، فإنْ كانَ لي عندَ اللهِ خَيرٌ فهو أسْعَدُ لي ، وإنْ كانَ غَيرَ ذلكَ فبُعداً لِنَفسِي ، قُلتُ : ما هيَ ؟ فحَرَّكوها ، فإذا هي مَيِّتَة فقُلتُ : لِمَنْ هـٰذه الجارِيَة ؟ قالوا : جاريَةٌ قُرَشيَّة مُصابَةٌ ، وكانَ قَرينُها يَمنَعُها من الطَّعامِ ، وكانَتْ تَشْكُو إلَيْنا وَجَعاً بجَوْفِها ، فكُنَّا نَصِفُها للأطِبَّاء ، فتَقُولُ : خَلُّوا بَيني

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ الْمُعَذَّل) ١١/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٦٤ .

(٢) القُنْبُرة والقُنْبَرة والقُبَّرَة والقُنْبُراء والقُنْبَراء : عصفورة من فصيلة القُبَّريات ، ورتبة الجواثم المخروطية المناقير ، سُمر في أعلاها ضاربة إلىٰ بياض في أسفلها ، وعلىٰ صدرها بقعة سوداء ، دائمة التغريد .

(٣) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/ ٩٦٧ .

وبَينَ الطَّبيبِ الرَّاهِب ـ تَعنِي أحمَدَ بنَ أبي الحَوَاريّ ـ أشْكُو إليه بَعضَ ما أجِدُ من بَلائي ، لَعلَّه أنْ يَكونَ عندَه شِفَائي[1] .

٢٠ـ قِصَّةٌ تَدُلُّ على المَرُوءَة :

قال أحْمَدُ بنُ مَهْدي : جاءَتني امرأةٌ ببَغْدادَ ليلةً ، فذَكرَت أنَّها من بَناتِ النَّاس وأنَّها امتُحنَت بمِحْنَة ، وأسْألُكَ بالله أنْ تَسْتُرَني فقَد أكْرِهْتُ علىٰ نَفسِي وأنا حُبْلَىٰ ، وقُلتُ إنَّكَ زَوْجي فلا تَفْضَحْني فنكَّبتُ عنها ومَضَيْت فلَمْ أشْعُر حتَّىٰ جاءَ إمَامُ الْمَحِلَّة والجيران يُهَنِّئوني بالوَلَدِ الْمَيْمُونِ فأظْهَرتُ التَّهْليلَ ووَزَنتُ في اليَومِ الثاني للإمامِ دينارَين ، وقُلتُ : أعْطِها نَفقَة فقَد فارَقْتُها وكنتُ أُعْطيها في كُلِّ شَهرٍ دينارَين حتَّىٰ أتَىٰ علىٰ ذَلكَ سَنتانِ فمَاتَ الطِّفْلُ وجاءَني النَّاسُ يُعَزُّونَني فكُنتُ أُظهِرُ لهم التَّسْليمَ والرِّضَا فجاءَتني بعدَ أيَّام بالدَّنانيرِ فرَدَّتها ودَعَتْ لي ، فقُلتُ : هٰذا الذَّهَبُ كان صِلَةً للوَلَدِ وقد ورِثْتيه وهو لك[2] .

٢١ـ قِصَّةُ أبي حاتِم الرَّازي وانْقِطاعِه في رِحْلَتِه :

وقالَ ابنُ أبي حاتم الرَّازي : وسَمعتُ أبي يَقُولُ : خَرَجنا من الْمَدينَة ، من عندِ دَاوُدَ الجَعْفَريِّ ، وصِرْنا إلى الجَارِ ورَكِبنا البَحرَ ، فكانَت الرِّيحُ في وُجُوهِنا ، فبَقينا في البَحرِ ثَلاثَةَ أشْهُر ، وضاقَت صُدُورُنا ، وفَنِيَ ما كانَ مَعَنا ، وخَرَجنا إلى البَرِّ نَمْشي أيّاماً ، حتَّىٰ فَنِيَ ما تَبَقَّىٰ مَعَنا من الزَّادِ والْمَاءِ ، فمَشينا يَوماً لَمْ نأكُلْ ولَمْ نَشرَبْ ، ويَومَ الثاني ، ويومَ الثالث ، فلمَّا كانَ يَكونُ الْمَساءُ صَلَّينا ، وكُنَّا نُلقِي بأنْفُسِنا حَيثُ كُنَّا ، فلمَّا أصْبَحنا في اليَومِ الثَّالثِ ، جعَلنَا نَمشي علىٰ قَدرِ طَاقَتِنا ، وكُنَّا ثَلاثَةَ أنْفُس : شَيخٌ نِيسَابُوريٌّ ، وأبو زُهَير الْمَرْوَرُّوذيُّ ، فسَقطَ الشَّيْخُ مَغشِياً عَليه ، فجئنَا نُحرِّكُه وهو لا يَعقِلُ ، فتَركنَاه ، ومَشَينا قَدرَ فَرْسَخ ، فضَعُفتُ ، وسَقَطتُ مَغْشيّاً عَليَّ ، ومَضَىٰ صَاحِبي يَمشِي فبَصُرَ من بُعدٍ قَوْماً ، قَرَّبوا سَفينَتَهم من البَرِّ ، ونزَلُوا عَلىٰ بِئرِ مُوسَىٰ ،

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ أبي الحَوَاريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ١/٩٨٧ .

(٢) انظر السير : (أحْمَدُ بنُ مَهْدي) ١٢/ ٥٩٧ـ ٥٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٨ .

فلمَّا عايَنَهم ، لَوَّحَ بثَوبِه إلَيهِم ، فجَاؤُوهُ مَعَهُم مَاءٌ وإدَاوَةٌ[1] ، فسَقَوهُ وأخَذُوا بيَدِه ، فقالَ لهم : الْحَقُوا رَفيقَيْنِ لي ، فمَا شَعُرتُ إلاَّ برَجُلٍ يَصُبُّ الْمَاءَ علىٰ وَجْهي ، ففَتَحتُ عَينَيَّ ، فقُلتُ : اسْقِني ، فصَبَّ من الْمَاءِ في مَشرَبة قَليلاً ، فشَربتُ ، ورَجَعَتْ إليَّ نَفْسِي ، ثم سَقاني قَليلاً ، وأخَذَ بيَدي ، فقُلتُ : وَرائي شَيخٌ مُلْقَىٰ ، فذَهبَ جَماعَةٌ إليه ، وأخَذَ بيَدي ، وأنا أمْشي وأجُرُّ رِجلِي ، حتَّىٰ إذا بَلغْتُ إلىٰ عندِ سَفينَتِهم ، وأتَوا بالشَّيْخِ ، وأحْسَنُوا إلَيْنا ، فبَقِينَا أيّاماً حتَّىٰ رَجَعَتْ إلَينا أنْفُسُنا ، ثم كَتَبوا لَنَا كِتاباً إلىٰ مَدينَةٍ يُقالُ لها : رَايَة[2] إلىٰ وَاليهِم ، وزَوَّدونا من الكَعْكِ والسَّويقِ والْمَاءِ فلَمْ نزَلْ نَمْشي حتَّىٰ نَفذَ ما كانَ مَعنا من الْمَاءِ والقُوتِ ، فجَعلنا نَمشي جِياعاً علىٰ شَطِّ البَحْرِ ، حتَّىٰ دَفَعَنا إلىٰ سُلَحْفاةٍ مثلِ التُّرْسِ ، فعَمَدنا إلىٰ حَجَرٍ كَبيرٍ ، فضَرَبْنا علىٰ ظَهْرِها ، فانْفَلقَ ، فإذا فيها مثلُ صُفْرَةِ البَيْضِ ، فتَحسَّيْناهُ حتَّىٰ سَكنَ عَنَّا الجُوعُ ، ثم وَصَلْنا إلىٰ مَدينَةِ الرَّايَة ، وأوْصَلْنا الكتابَ إلىٰ عامِلِها ، فأنْزَلَنا في داره ، فكانَ يُقدِّمُ لَنَا كُلَّ يَومٍ القَرْعَ ، ويَقُولُ لِخَادِمِه : هاتِ لَهم اليَقْطينَ الْمُبارَك ، فيُقَدِّمُه مع الخُبزِ أيّاماً ، فقالَ واحدٌ منَّا : ألا تَدعُو باللَّحْمِ الْمَشؤُومِ ؟! فسَمعَ صاحِبُ الدَّارِ ، وأتَانا بعدَ ذَلكَ باللَّحمِ ثم زَوَّدَنا إلىٰ مِصْرَ[3] .

٢٢ـ قِصَّةٌ عَجيبَة لابنِ أبي حَاتِم :

وقال الحُسَينُ بنُ أحمد الصفَّار : سَمعتُ عبد الرحمَـٰن بنَ أبي حاتم يقولُ : وقعَ عندنا الغَلاءُ ، فأنفَذَ بعضُ أصْدقائي حُبوباً من أصْبَهان ، فبعْتُه بعشْرينَ ألفاً ، وسألَني أنْ أشْتَريَ له دَاراً عندَنا ، فإذا جاءَ ينزلُ فيها ، فأنفَقْتُها في الفُقَراء ، وكَتبتُ إليه : اشْتَريتُ لك بها قَصْراً في الجَنَّة ، فبَعثَ يقولُ : رَضيتُ ، فاكتُبْ علىٰ نفسِكَ صَكّاً ، ففَعَلتُ ، فأُريتُ في المَنامِ : قد وفَّيْنا بما ضَمِنْتَ ، ولا تَعُدْ لمثلِ هـٰذا[4] .

---

(١) الإداوَة : الْمِطْهَرَة ، وهي إناءٌ صَغيرٌ يُحمَلُ فيه الْمَاءُ .

(٢) رايَة : مَحِلَّة عَظيمَةٌ بفُسْطاطِ مِصْرَ وهي المحلة التي في وَسَطِها جامعُ عَمْرو بن العَاص .

(٣) انظر السير : (أبو حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٦ .

(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم الرازي) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٠ .

٢٣ـ قَصَصٌ من سِيرَةِ الخَليفَة المُعْتَضِد :

جاءَ في تَرجَمَتِه الْمُعْتَضِدِ بالله العَبَّاسيِّ ، قال أبو علي الْمُحْسن التَّنُوخيُّ : بَلَغَني عن الْمُعْتَضِدِ أنه كان جالساً في بَيتٍ يُبنَىٰ له فرأىٰ فيهم أسْوَدَ مُنْكَرَ الخِلقَة يَصْعَدُ السَّلالِمَ دَرجَتينِ دَرَجَتينِ ، ويَحمِلُ ضِعْفَ ما يَحْملُه غَيرُه ، فأنْكرَ ذلك ، وطلَبَه ، وسَأَلَه عن سَبَبِ ذلك ، فتَلَجْلَجَ فكلَّمَه ابنُ حَمْدونَ فيه ، وقالَ : مَنْ هـٰذا حتىٰ صَرَفْتَ فِكْرَكَ إليه ؟ قالَ : قد وَقَعَ في خَلَدي أمْرٌ ما أحْسَبُه باطِلاً ، ثم أمَرَ به ، فضُربَ مئةً ، وتَهدَّدَه بالقَتلِ ودَعَا بالنَّطَعِ[1] والسَّيْفِ ، فقالَ : الأمانَ ، أنا أعْمَلُ في أتونِ الآجُرِّ ، فدَخلَ من شُهورٍ رَجلٌ في وَسَطِه هِمْيَانٌ[2] ، فأخْرَجَ دَنانيرَ فوَثبتُ عليه ، وسَدَدتُ فاه ، وكَتَّفتُه وألْقَيتُه في الأتُونِ ، والذَّهَبُ مَعي يَقْوَىٰ به قَلبي ، فاسْتَحْضَرَها ، فإذا عَلى الهِمْيانِ اسْمُ صاحِبِه ، فنُودِيَ في البَلَدِ ، فجاءَت امْرأةٌ ، فقالَت : هو زَوْجي ولِيَ منه طِفلٌ ، فسَلَّمَ الذَّهبَ إليها ، وقَتلَه[3] .

وقالَ أبو عَليّ الْمُحْسن التَّنُوخيُّ : وبَلَغَني عنه أيضاً أنَّ خادِماً أتاه فأخْبَرَه أنَّ صيَّاداً أخْرَجَ شَبكتَه ، فثَقُلت ، فجَذَبها ، فإذا فيها جِرابٌ ، فظَنَّه مالاً ، فإذا فيه آجُرٌّ بينَه كَفٌّ مَخضُوبَة ، فهَالَ ذاكَ الْمُعْتَضِدَ وأمَرَ الصَّيَّادَ ، فعاوَدَ الشَّبَكَة ، فخَرجَ جِرابٌ آخَرُ فيه رِجْلٌ ، فقالَ : مَعي في بَلَدِي مَنْ يَفعَلُ هـٰذا ؟ ما هـٰذا بمُلكٍ! فلَمْ يُفطِرْ يومَه ، ثم أحْضَرَ ثقةً له ، وأعْطاهُ الجِرابَ ، وقالَ : طُفْ به علىٰ مَنْ يَعمَلُ الجُرُبَ : لِمَنْ باعَه ؟ فغَابَ الرجلُ ، وجاءَ وقد عَرفَ بائِعَه ، وأنَّه اشْتَرَىٰ منه عَطَّارٌ جِراباً ، فذَهبَ إليه ، فقالَ : نَعَم ، اشْتَرىٰ مني فُلانٌ الهاشِميُّ عَشرَةَ جُرُبٍ ، وهو ظالِمٌ إلىٰ أنْ قالَ : يَكفيكَ أنَّه كان يَعْشَقُ مُغَنِّيَةً ، فاكْتَراها من مَوْلاها ، وادَّعَىٰ أنَّها هَرَبَت! فلَمَّا سَمِعَ الْمُعْتَضِدُ ذلك سَجدَ ، وأحْضَرَ الهاشِميَّ ، فأخْرَجَ له اليَدَ والرِّجْلَ ، فاصْفَرَّ واعْتَرفَ ، فدَفَعَ إلىٰ

---

(١) النَّطَع : بفَتح النُّونِ وكَسْرِها ، وفَتْح الطَّاءِ وكَسْرِها وسُكونِها : بساطٌ من جلد ، كثيراً ما كان يُقتَلُ فوقه المحكوم عليه بالقَتل .

(٢) الهِمْيان : كيسٌ للنَّفَقَة يُشدُّ في الوَسَط .

(٣) انظر السير : (الْمُعْتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٠٣ .

صاحِبِ الجاريَةِ ثمَنها ، وسَجنَ الهاشِميَّ ، فيُقالُ : قَتلَه[1] .

قِيلَ : كان لتاجِرٍ علىٰ أميرٍ مالٌ ، فماطَلَه ، ثمَّ جَحَدَه ، فقال له صاحبٌ له : قُمْ معي ، فأتىٰ بي خَيَّاطاً في مَسْجِدٍ ، فقامَ مَعَنَا إلى الأميرِ ، فلمَّا رآه ، هابَه ، ووَفَّاني المالَ ، فقُلتُ للخَيَّاطِ : خُذْ مِنِّي ما تُريدُ ، فغَضِبَ ، فقُلتُ له : فحَدِّثني عن سَبَبِ خَوفِه مِنْكَ ، قال : خَرَجتُ ليلةً ، فإذا بتُرْكيٍّ قد صادَ امرأةً مَلِيحَةً وهي تَتَمَنَّعُ منه وتَسْتَغِيثُ ، فأَنْكَرْتُ عليه فَضَرَبَني ، فلمَّا صَلَّيْتُ العِشاءَ جَمَعْتُ أصْحَابِي وجِئْتُ بابَه ، فخَرَجَ في غِلْمَانِه وعَرَفَني ، فضَرَبَني وشَجَّني ، وحُمِلتُ إلىٰ بَيْتِي ، فلمَّا تَنَصَّفَ الليلُ ، قُمتُ فأذَّنتُ في المَنَارَةِ ، لكي يَظُنَّ أنَّ الفَجْرَ طَلَعَ فيُخَلِّيَ المرأةَ ، لأنَّها قالت زَوْجِي حالِفٌ عليَّ بالطَّلاقِ أنِّي لا أَبيتُ عن بَيْتِي ، فما نَزَلتُ حتىٰ أحاطَ بي بدرٌ وأعْوانُه ، فأُدْخِلتُ على المُعْتَضِد ، فقال : ما هـٰذا الأذانُ ؟!! ، فحَدَّثتُه بالقِصَّةِ ، فطَلَبَ التُّركِيَّ ، وجَهَّزَ المرأةَ إلىٰ بَيْتِها ، وضَرَبَ التُّركِيَّ في جوالق حتىٰ ماتَ ، ثم قال لي : أَنْكِر الْمُنْكَرَ ، وما جَرَىٰ علَيْكَ فأذِّن كما أذَّنتَ ، فدَعَوْتُ له ، وشَاعَ الخَبَرُ ، فما خاطَبْتُ أحداً في خَصْمِه إلاَّ أطاعَني وخَاف[2] .

٢٤ـ قِصَّةٌ جَميلَةٌ للقاضِي أبي خَازم :

عن مُكْرم بنِ بَكْر ، قالَ : كُنتُ في مَجلسِ أبي خازِمٍ القاضي ، فتَقدَّمَ شَيخٌ مَعه غُلامٌ ، فادَّعَىٰ عَليه بألفِ دِينارٍ ، فأقَرَّ الحَدَثُ ، فقالَ القاضي للشَّيخ : ما تَشاءُ ؟ قالَ : حَبسُه فقالَ للحَدَثِ : قد سَمعتَ فهلْ تُوفِّيه البَعضَ ؟ قالَ : لا ففَكَّر ساعَةً ، ثم قالَ : تَلازَما حتَّىٰ أنْظُرَ فقُلتُ : لِمَ أخَرَّ القاضي الحَبسَ ؟ قالَ : وَيْحَك! إنِّي أعْرفُ في أكثرِ الأحْوالِ وَجْهَ الْمُحِقِّ من الْمُبْطِلِ ، وقد وَقعَ لي أنَّ سَماحَتَه بالإقْرارِ شَيءٌ بَعيدٌ من الحَقِّ ، أمَا رَأيتَ قِلَّة تَغاضُبِهما في الْمُحاوَرَة مع عِظَمِ الْمَالِ ؟ فبَينا نَحنُ كذلك ، إذْ اسْتَبانَ الأمرُ ، فأسْتأذَنَ تاجِرٌ مُوسِرٌ ، فأذنَ له القاضي ، فدَخلَ ، وقالَ : قد بُليتُ بابنٍ

---

(١) انظر السير : (الْمُعْتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١/١١٠٤ .

(٢) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٠٦ .

لي حَدَثٍ ، يُتلِفُ مالي عنَد فُلانٍ الْمُقَبِّن ، فإذا مَنعتُه مالي احْتَالَ بحِيَل يُلجِئُني إلى الْتِزام غُرْم ، وأقْرَبُه أنَّه نَصَبَ الْمُقَبِّنَ اليومَ لِمُطالَبَتِه بألفِ دينارٍ وأقَعُ مع أمِّه ـ إنْ حُبِسَ ـ في نَكَدٍ فتَبسَّمَ القاضي ، وطَلبَ الغُلامَ والشَّيخَ ، فأُدخِلا ، فوَعَظَ الغُلامَ ، فأقَرَّ الشَّيخُ ، وأخَذَ التَّاجِرُ بيدِ ابنِه ، وانْصَرَفَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد كانَ الْمُعتَضِدُ يَحترِمُ أبا خازِم ويُجلُّه ، قيلَ : إنَّ أبا خازم لَمَّا احْتُضرَ بَكَىٰ ، وجَعلَ يَقولُ : يا رَبِّ! من القَضاءِ إلى القَبرِ . وله شِعرٌ رَقيقٌ .

ماتَ ببَغْدادَ سَنةَ اثنَتينِ وتِسْعينَ ومئتين[1] .

٢٥ـ قِصَّةُ ابنِ جَرير وابنِ خُزَيْمَة في مِصْرَ :

قالَ محمَّدُ بنُ أحمَدَ الصَّحَّافُ السِّجِسْتانيُّ ، سَمعتُ أبا العَبَّاس البَكْريَّ يَقُولُ : جَمعَت الرِّحلَةُ بينَ ابنِ جَرير ، وابنِ خُزَيْمَة ، ومحمَّدِ بنِ نَصْر الْمَرُّوزيِّ ، ومحمَّدِ بنِ هَارُونَ الرُّويانيِّ بمِصْرَ ، فأرْمَلوا ولَمْ يَبْقَ عندَهم ما يَقُوتُهم ، وأضَرَّ بهم الجُوعُ فاجْتَمَعوا لَيلَةً في مَنزِلٍ كانُوا يَأوُونَ إليه ، فاتَّفقَ رَأيُهم علىٰ أنْ يَسْتَهِمُوا ويَضْرِبُوا القُرعَةَ ، فمَنْ خَرجَتْ عليه القُرعَةُ سَألَ لأصْحابِه الطَّعامَ فخَرَجَتِ القُرعَةُ على ابنِ خُزَيْمَة ، فقالَ لأصْحابِه أمْهِلُوني حتَّىٰ أُصَلِّي صَلاةَ الخِيَرَة ، قالَ : فانْدَفَعَ في الصَّلاةِ ، فإذا هم بالشُّمُوعِ وخَصِيٌّ من قِبَلِ وَالي مِصْرَ يَدُقُّ البَابَ ، ففَتَحُوا ، فقَالَ : أيُّكُم مُحمَّدُ بنُ نَصْر ؟ فقيلَ : هُو ذَا ، فأخْرَجَ صُرَّةً فيها خَمسُونَ ديناراً ، فدَفَعَها إليه ، ثم قالَ : وأيُّكُم مُحمَّدُ بنُ جَرير ؟ فأعْطَاهُ خَمسينَ ديناراً ، وكَذلكَ للرُّويانيِّ ، وابنِ خُزَيْمَة ، ثم قالَ : إنَّ الأميرَ كانَ قائلاً[2] بالأمسِ ، فرَأىٰ في الْمَنامِ أنَّ الْمَحامِدَ جِيَاعٌ قد طَوَوْا كَشْحَهُم ، فأنْفَذَ إلَيكُم هـٰذه الصُّرَرَ ، وأقْسَمَ عَليكُم : إذا نَفِذَت فابْعَثُوا إليَّ أحَدَكُم[3] .

---

(١) انظر السير : (القاضي أبو خازِم) ١٣/ ٥٣٩ـ ٥٤١ ، وانظر النزهة : ٤/١١١٤ .

(٢) قائلاً : أي نائماً في القائلة ، وهي نصف النهار ، وفعلُه : قالَ ، يَقيلُ .

(٣) انظر السير : (محمَّدُ بنُ جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٥٠ .

٢٦ـ قِصَّةُ قاضٍ مع امرأةٍ فاسِقَة :

وفي سَنةِ خَمسٍ وأربع مئة ظَفرَ الحاكمُ بنساءٍ علىٰ فَسادٍ ، فغرَّقَهُنَّ ، وكانت الغاسِلَةُ لا تَخرُجُ إلى المَرأةِ إلاَّ مع عَدْلين ، ومَرَّ القاضي مَالكُ بنُ سَعيد الفارقيُّ ، فنادَتْه صَبيَّة من رَوْزَنَةٍ : أقسَمتُ عليكَ بالحاكمِ أنْ تَقفَ ، فوَقَفَ ، فبكَتْ ، وقالَت : لي أخٌ يَموتُ ، فبالله إلاَّ ما حَمَلتَني إليه لأراهُ ، فرَقَّ لها وبَعثَ معها عَدْلَين ، فأتَتْ بَيْتاً ، فدَخلَت ، والبيتُ لعاشِقِها ، فجاءَ الزَّوْجُ ، فسألَ الجيرانَ ، فحدَّثوه ، فجاءَ إلى القاضي وصاحَ ، وقالَ : لا أخَ لها ، وما أفارقُكَ حتىٰ تَرُدَّها إليَّ ، فحارَ القاضي وطلع بالرجُل إلى الحاكم ، ونادَى العَفْوَ ، فأمرَه أنْ يَركَبَ مع الشَّاهِدين ، فوجدوا المرأةَ والشَّابَّ في إزارٍ واحد علىٰ خُمار ، فحُمِلا علىٰ هَيْئتِهِما فسألها الحاكمُ فأحالَت على الشَّابِّ ، وقالَ : بلْ هَجَمَتْ عليَّ ، وزَعَمت أنَّها بلا زَوْجٍ ، فلُفَّت في باريَّةٍ ، وأُحْرِقَت ، وضُربَ الشَّابُّ ألفَ سَوْطٍ .

ووَليَ دِمَشْقَ للحاكم عدَّةُ أُمَراء ما كان يَدَعُ النَّائبَ يَسْتقرُّ حتىٰ يَعزلَه[1] .

٢٧ـ قِصَّةُ دَعْلَج المُحَدِّثِ الغَنيِّ :

وقال أحمدُ بنُ الحُسَين الوَاعِظُ : أَوْدَعَ أبو عبد الله بنُ أبي مُوسَى الهاشِميُّ عَشرةَ آلافِ دينارٍ ليتيم ، فضاقَت يَدُه فأنْفَقَها وكَبِرَ الصَّبيُّ ، وأُذنَ له في قَبضِ مالِه ، قال ابنُ أبي موسىٰ : فضاقَت عليَّ الأرضُ ، وتَحيَّرتُ ، فبَكرتُ علىٰ بَغْلَتي ، وقَصدتُ الكَرْخَ فانتُهتْ بي البَغْلةُ إلىٰ دَرْبِ السلولي ووَقفَتْ بي علىٰ بابِ مَسجِدِ دَعْلَج ، فدَخلتُ فصَلَّيتُ خلفَه الفَجرَ ، فلمَّا انْفتَلَ رَحَّبَ بي ، وقُمنا فدَخلنا دَارَه ، فقُدِّمَت لنا هَريسَةٌ ، فأكَلتُ وقَصَّرتُ ، فقالَ : أراكَ مُنقبِضاً ، فأخْبَرتُه ، فقالَ : كُلْ فإنَّ حاجَتَك تُقْضَىٰ ، فلمَّا فَرَغْنا ، اسْتَدعَىٰ بالذَّهَبِ والمِيزانِ ، فوَزَنَ لي عَشرةَ آلافِ دينارٍ وقُمتُ أطيرُ فَرحاً ، ثم سَلَّمتُ المالَ إلى الصَّبيِّ بحَضرةِ قاضي القُضاة ، وعَظُمَ الثَّناءُ عليَّ ، فلمَّا عُدتُ إلىٰ مَنزِلي اسْتدعاني أميرٌ من أولادِ الخَليفَة فقال : قد رَغبتُ في مُعامَلَتِك

---

(١) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٩ .

وتَضْمينِك أمْلاكي ، فضَمنْتُها فرَبحتُ في سَنَتي رِبحاً عَظيماً وكَسبتُ في ثلاث سنين ثلاثينَ ألفَ دينار ، وحَملتُ لدَعْلَج المالَ ، فقالَ : سُبحانَ الله ، والله ما نَوَيتُ أخْذَها ، حَلِّ بها الصِّبْيانَ ، فقلتُ : أيُّها الشَّيخُ ، أيشْ أصْلُ هـٰذا المال حتىٰ تَهبَ لي عشرةَ آلافِ دينار ؟ فقال : نَشأتُ ، وحَفظتُ القُرآنَ ، وطَلبتُ الحَديثَ ، وكُنتُ أتبزَّزُ ، فوافاني تاجرٌ من البَحْرِ فقال : أنْتَ دَعْلَج ؟ قلتُ : نَعَم قال : قد رَغبتُ في تَسليمِ مالي إليك مُضارَبةً ، فسلَّمَ إليَّ برنامجات بألفِ درهم ، وقال لي : ابْسُطْ يَدكَ فيه ولا تَعلمْ مَكاناً يُنفَقُ فيه المَتاعُ إلاَّ حَملْتَه ، ولمْ يَزلْ يَتردَّدُ إليَّ سَنةً بعدَ سَنةٍ يَحملُ إليَّ مثلَ هـٰذا والبضاعَةُ تَنمَىٰ ثم قال : أنا كثيرُ الأسْفارِ في البَحرِ ، فإنْ هَلكتُ فهـٰذا المالُ لكَ علىٰ أنْ تَصدَّقَ منه ، وتَبني المَساجدَ ، فأنا أفعلُ مثل هـٰذا ، وقد ثمَّرَ اللهُ تعالى المالَ في يَدي ، فاكْتُم عليَّ ما عِشتُ .

قال الحاكمُ : كان السُّلطانُ لا يَتعرَّضُ لتَركَةٍ ، ثم لمْ يَصْبرْ عن أموالِ دَعْلَج ، وقيلَ : لمْ يكنْ في الدُّنيا أيْسَرُ منه من التُّجَّار ، وتَركوا أوْقافَه ، رَحمَه الله .

ماتَ سنةَ إحْدَىٰ وخَمسينَ وثلاثِ ومئة[1] .

٢٨ـ قِصَّةُ محمود بن سُبُكتكين مع صَنَم سُومَنات :

وبَلَغَ السُّلطانَ أنَّ الهُنودَ قالوا : أَخْرَبَ أكثرَ بلادِ الهِنْدِ غَضَبُ الصَّنَمِ الكبيرِ سُومَنات علىٰ سائِرِ الأصْنامِ ومَنْ حَوْلَها ، فعَزَمَ علىٰ غَزْوِ هـٰذا الوَثَنِ ، وسَارَ يَطوِي القِفَارَ في جَيشِه إليه ، وكانوا يقُولونَ : إنَّه يَرْزُقُ ويُحْيِي ويُميتُ ويَسْمَعُ ويَعِي ، يَحُجُّون إليه ويُتْحِفُونَه بالنَّفائِس ، ويَتَغَازَلُون فيه كثيراً ، فتَجَمَّعَ عند هـٰذا مالٌ يَتَجاوَزُ الوَصْفَ ، وكانوا يَغْسِلُونَه كلَّ يوم بماءٍ وعَسَلٍ ولَبَن ، ويَنْقُلُونَ إليه الماءَ من نَهْرِ حيل مَسيرَةَ شَهرٍ ، وثلاثُ مِئَةٍ يَحْلِقُونَ رُؤُوسَ حُجَّاجِه ولِحَاهُم ، وثلاثُ مِئَةٍ يُغَنُّونَ فسَارَ الجَيشُ من غَزْنة ، وقَطَعُوا مَفَازَةً صَعبَةً وكانوا ثلاثينَ ألفَ فارسٍ وخَلْقاً من الرَّجَّالَةِ والمُطَوِّعَة ، وقَوَّى المُطَوِّعَةَ بخَمْسِينَ ألفَ دينارٍ ، وأَنْفَقَ في الجَيْشِ فَوقَ الكِفَايةِ ،

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٦٦ .

وارْتَحَلَ من المُليا ثانِيَ يوم الفِطْرِ سنةَ أرْبَعمائة وستَّةَ عَشَر ، وقاسُوا مَشَاقَّ وبَقُوا لا يَجِدُونَ الماءَ إلاَّ بعدَ ثلاثٍ ، غَطَّاهُم في يومٍ ضَبَابٌ عظيمٌ ، فقالت الكَفَرَةُ : هـٰذا من فِعْلِ الإلَهِ سُومَنات .

ثمَّ نازَلَ مدينةَ أَنْهَلْوَارَة ، وهَرَبَ مِلكُها إلىٰ جَزيرَةٍ ، فأخْرَبَ المُسلمُونَ بلَدَه ، ودكُّوها ، وبينَها وبَيْنَ الصَّنَمِ مَسِيرَةُ شَهرٍ في مَفَاوِزَ ، فسَارُوا حتىٰ نَازَلُوا مدينةَ دَبُولوارة ، وهي قَبْلَ الصَّنَمِ بيَوْمَيْن ، فأُخِذَت عُنْوَةً ، وكُسِرَتْ أصْنَامُهَا ، وهي كثيرةُ الفَوَاكِه ، ثمَّ نَازَلُوا سُومَنات في رابعِ عَشَرَ ذي القِعدَة ، ولها قَلْعَةٌ مَنِيعَةٌ على البحرِ ، فوَقَعَ الحِصَارُ فنُصِبَت السَّلالِمُ عليها ، فهَرَبَ المُقاتِلَةُ إلى الصَّنَمِ وتَضَرَّعُوا له ، واشْتَدَّ الحالُ وهم يَظُنُّون أنَّ الصَّنَمَ قد غَضِبَ عليهم ، وكان في بيتٍ عظِيمٍ مَنِيعٍ علىٰ أبْوَابِه السُّتُورُ الدِّيبَاجُ وعلى الصَّنَمِ من الحُليِّ والجَوَاهِر ما لا يُوصَف والقَنَادِيلُ تُضِيءُ ليلاً ونهاراً ، علىٰ رَأسِه تاجٌ لا يُقَوَّمُ ، يَنْدَهِشُ منه النَّاظِرُ ويَجْتَمِعُ عندَه في عِيدِهم نَحْوُ مِئَةِ ألفِ كافِرٍ ، وهو علىٰ عَرْشٍ بَدِيعِ الزَّخْرَفَةِ عُلُوَّ خَمسةِ أَذْرُعٍ ، وطُولُ الصَّنَمِ عَشرَةُ أذْرُعٍ ، وله بَيْتُ مالٍ فيه من النَّفَائِسِ والذَّهَبِ ما لا يُحْصَىٰ ، فَفَرَّقَ مَحمُودٌ في الجُنْدِ مُعْظَمَ ذلك ، وزَعْزَعَ الصَّنَمَ بالمَعَاوِلِ ، فخَرَّ صَرِيعاً ، وكانت فِرقَةٌ تَعْتَقِدُ أنَّه مَنَات ، وأنَّه تَحَوَّلَ بنفسِه في أيَّامِ النُّبُوَةِ من سَاحِلِ جُدَّة ، وحَصَلَ بهـٰذا المَكَان ليُقْصَدَ ويُحَجَّ إليه مُعَارَضَةً للكَعْبَةِ ، فلمَّا رَآهُ الكُفَّارُ صَرِيعاً مَهِيناً ، تَحَسَّرُوا وسُقِطَ في أيدِيهِم ، ثمَّ أُحْرِقَ حتىٰ صَارَ كلساً ، وأُلقِيَت النِّيرَانُ في قُصُورِ القَلْعَة ، وقُتِلَ بها خَمسُونَ ألفاً ، ثمَّ سارَ مَحمُودٌ لأَسْرِ المَلِكِ بهيم ، ودَخَلُوا بالمَرَاكِبِ ، فهَرَبَ ، وافْتَتَحَ مَحمُودٌ عِدَّةَ حُصُونٍ ومَدَائِنَ ، وعادَ إلىٰ غَزْنَة فدَخَلَها في ثامِنِ صَفر سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ ، ودَانَتْ له المُلُوكُ ، فكانت مُدَّةُ الغَيْبَةِ مِئَةً وثلاثَةً وستِّينَ يوماً .

وقد خُطِبَ له بالغُورِ وبخُراسَان والسِّنْدِ والهِنْدِ وناحِيَةِ خَوَارِزْم وبَلْخ ، وهي من خُرَاسَان ، وبجُرجان وطَبَرِستان والرَّيِّ والجِبَال ، وأصْبَهَان وأذْرَبِيجان وهَمَذَان وأرْمِينيَة .

وكان مُكْرِماً لأُمَرَائِه وأصْحابِه ، وإذا نَقَمَ عَاجَل ، وكان لا يَفْتُرُ ولا يَكَادُ يَقِرُّ وكان

يَعْتَقِدُ في الخَلِيفَةِ ، ويَخْضَعُ لجَلالِه ، ويَحْمِلُ إليه قَنَاطِيرَ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وكان إلْباً على القَرَامِطَة والإسْمَاعيليَّة وعلى المُتَكَلِّمين ، علىٰ بِدْعَةٍ فيه فيما قَبْل ، ويَغْضَبُ للكرّاميّة ، وتَصَرُّفه على الأخْلاقِ الزَّكيَّة ، وكان فيه شِدَّةُ وَطْأةٍ على الرَّعِيَّة ، ولكن كانوا في أَمْنٍ وإقامَة سِياسَة .

وقال مَحمُودٌ يوماً للأميرِ أبي طاهِر السَّامانيّ : كَمْ جَمَعَ آباؤُك من الجَوْهَرِ ؟ قال : سَمعتُ أنَّه كان عند الأميرِ الرَّضي سَبْعَةُ أرْطالٍ فسَجَدَ شُكراً وقال : أنا في خِزَانَتِي سَبْعُون رَطْلاً[1] .

٢٩ـ قِصَّةُ ابن عَقيل وعُقْدِ اللُّؤْلُؤ :

قالَ أبو الْمُظَفَّر سِبطُ ابنِ الجَوْزيِّ : حَكَى ابنُ عَقيل عن نَفسِه قالَ : حَجَجْتُ فالْتَقَطتُ عُقدَ لُؤلُؤ في خَيطٍ أحْمَر ، فإذا شَيخٌ أعْمَىٰ يَنشُدُه ، ويَبذُلُ لِمُلتَقِطِه مئةَ دينار ، فرَدَدتُه عَليه ، فقالَ : خُذْ الدَّنانيرَ ، فامْتَنعتُ وخَرجْتُ إلى الشَّام ، وزُرتُ القُدسَ ، وقَصَدتُ بَغْدادَ ، فأوَيتُ بحَلَبَ إلىٰ مَسجِدٍ وأنا بَرْدانُ جائعٌ ، فقَدَّموني ، فصَلَّيتُ بهم ، فأطْعَمُوني ، وكانَ أوَّلُ رَمَضانَ فقالوا : إمامُنا تُوفِّيَ فَصَلِّ بنا هٰذا الشَّهْرَ ، ففَعلتُ : فقالُوا : لإمَامِنَا بِنتٌ ، فزُوِّجْتُ بها ، فأقَمتُ مَعَها سَنةً ، وأوْلَدتُها وَلَداً ذَكَراً فمَرِضَتْ في نِفَاسِهَا ، فتَأمَّلتُها يَوماً فإذا في عُنُقِها العُقْدُ بعَيْنِه بخَيْطِه الأحْمَر فقُلتُ لها : لِهَٰذا قِصَّةٌ وحَكَيتُ لها ، فبَكَتْ ، وقالَت : أنتَ هُوَ ، والله لَقَدْ كانَ أبي يَبْكِي ، ويَقُولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْ بِنْتي مثلَ الذي رَدَّ العُقدَ عَليَّ وقد اسْتَجابَ اللهُ منه ، ثم ماتَتْ ، فأخَذتُ العُقدَ والْمِيراثَ ، وعُدتُ إلىٰ بَغْدادَ[2] .

٣٠ـ قِصَّةُ الرَّجُل الصَّالح والجِنِّيِّ :

وحكَى ابنُ عَقيل عن نَفسِه قالَ : كانَ عِندَنا بالظَّفَريَّة دَارٌ ، كلَّما سَكنَها نَاسٌ أصْبَحُوا مَوْتَىٰ فجَاءَ مرَّة رَجلٌ مُقرىءٌ ، فاكْتَراها ، وارْتَضىٰ بها ، فبَاتَ بها وأصْبحَ

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٣ .

(٢) انظر السير : (ابنُ عَقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٨ .

سالِماً ، فعَجِبَ الجيرانُ ، وأقامَ مُدَّة ، ثم انتُقلَ ، فسُئلَ فقالَ : لَمَّا بِتُّ بها ، صَلَّيتُ العِشاءَ ، وقَرأتُ شَيئاً ، وإذا شَابٌّ قد صَعدَ من البئْر ، فسَلَّمَ عليَّ ، فبُهِتُّ ، فقالَ : لا بَأسَ عَليكَ ، عَلِّمْني شَيئاً من القُرآنِ ، فشَرَعتُ أُعلِّمُه ، ثم قُلتُ : هـٰذه الدَّارُ كيفَ حَديثُها ؟ قالَ : نحنُ جِنٌّ مُسْلمونَ ، نَقرأُ ونُصَلِّي ، وهـٰذه الدَّارُ ما يكتَريها إلاَّ الفُسَّاقُ فيَجتَمِعونَ على الخَمرِ ، فنَخنُقُهم ، قُلتُ : ففي اللَّيلِ أخَافُك ، فَجِيءْ نَهاراً ، قالَ : نَعَم ، فكانَ يَصْعَدُ من البِئرِ في النَّهارِ ، وألِفْتُه فبَينَما هو يَقرَأ ، إذا بِمُعَزِّمٍ في الدَّربِ يَقُولُ : الْمُرْقِي من الدَّبيبِ ، ومنَ العَينِ ومن الجِنِّ ، فقالَ : أيشٍ هـٰذا ؟ قُلتُ : مُعَزِّمٌ ، قالَ : اطْلُبهُ ، فقُمتُ وأدْخَلتُه ، فإذا بالجِنِّيِّ قد صارَ ثُعباناً في السَّقفِ ، فعَزَّمَ الرَّجُلُ ، فمَا زَالَ الثُّعْبانُ يَتدَلَّىٰ حتَّىٰ سَقطَ في وَسَطِ الْمِندَل ، فقامَ ليَأخُذَه ويَضَعَه في الزِّنْبيلِ ، فمَنَعتُه ، فقالَ : أتَمنَعُني من صَيْدي ؟! فأعْطَيتُه ديناراً ورَاحَ ، فانتُفضَ الثُّعْبانُ ، وخَرَجَ الجِنِّيُّ ، وقد ضَعُفَ واصْفَرَّ وذَابَ ، فقُلتُ : مَا لَك ؟ قالَ : قَتَلَني هـٰذا بهـٰذه الأسَامي ، وما أظُنُّني أُفلِح ، فاجْعَلْ بالَكَ اللَّيلَةَ مَتَىٰ سَمعتَ في البِئرِ صُراخاً ، فانْهَزِمْ ، قالَ : فسَمعتُ تِلكَ اللَّيلَة النَّعْيَ فانْهَزَمتُ قالَ ابنُ عَقيل : وامْتَنعَ أحَدٌ أنْ يَسكُنَ تِلكَ الدَّارَ بَعدَها[1] .

* * *

(١) انظر السير : (ابنُ عَقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٩ .

(١٨) كوارثُ حَدَثَتْ في بَعضِ الأقْطَار

١ـ كوارثُ كوْنيّة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُتَوَكل على الله : وفي سَنة أرْبَعينَ ومئتَين فيها سَمعَ أهْلُ خِلاط[١] صَيْحَةً من السَّماءِ ماتَ منها جَماعَةٌ كَثيرَةٌ[٢] .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وأرْبَعينَ ومئتَين ماجَت النُّجُومُ ، وتَناثَرَت شِبْهَ الجَرادِ أكثرَ اللَّيلِ فكَانَ ذَلكَ آيَةً مُزعِجَةً[٣] .

ودَخلَ الإمامُ أبو بَكر الطُّرْطُوشِيُّ بَغدادَ في حَياةِ أبي نَصْر الزَّيْنبيِّ ، وأظنُّه سَمعَ منه ، وقالَ : رَأيتُ بها آيَةً في سَنةِ ثَمانٍ وسَبعينَ بعدَ العَصرِ ، فسَمِعنا دَوِياً عَظيماً وأقْبلَ ظَلامٌ ، فإذا رِيحٌ لَمْ أرَ مِثلَها ، سَوْداءُ ثَخينَةٌ ، فاسْوَدَّ النَّهارُ ، وذَهَبَت آثارُه ، وذَهَبَ أثرُ الشَّمسِ ، وبَقينا كأنَّنا في أشَدِّ ظُلمَة ، لا يُبصِرُ أحَدٌ يَدَهُ ، ومَاجَ النَّاسُ ، ولَمْ نَشُكَّ أنَّها القِيَامَةُ أوْ خَسْفٌ ، أوْ عَذابٌ قَد نَزَلَ ، وبَقيَ الأمْرُ كَذلكَ قَدْرَ ما يَنضُجُ الخُبزُ ، ورَجَعَ السَّوادُ حُمْرةً كلَهَبِ النَّارِ ، أوْ جَمْراً يَتوقَّدُ ، فلَمْ نَشُكَّ حينَئذ أنَّها نَارٌ أرْسَلَها اللهُ عَلَى العِبَادِ ، وَأيِسْنَا مِنْ النَّجَاةِ ، ثمَّ مَكَثتْ أقَلَّ مِنْ مُكْثِ الظَّلام ، وتَجَلَّتْ بِحَمدِ اللهِ عَنْ سَلامَةٍ ، ونَهَبَ النَّاسُ بَعضُهُم بَعْضاً في الأسْوَاقِ ، وخَطَفُوا العَمَائمَ والْمَتَاعَ ، ثمَّ طَلعَتِ الشَّمسُ ، وبَقيَتْ سَاعَة إلى الغُرُوبِ .

وللطُّرْطُوشِيِّ مُؤلَّفٌ في تَحْريمِ الغِناءِ ، وكتابٌ في الزُّهْدِ ، وتَعليقة في الخِلافِ ، ومؤلَّفٌ في البِدَع ، والحَوادِث ، وبرِّ الوَالِدَينِ ، والرَّدِّ على اليَهُودِ ، والعمد في الأُصُولِ ، وأشياءَ .

---

(١) هي قصبة أرمينية الوسطىٰ .

(٢) انظر السير : (الْمُتَوَكلُ على الله) ١٢/ ٣٠ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٩٧٨/ ٤ .

(٣) انظر السير : (الْمُتَوَكلُ على الله) ١٢/ ٣٠ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٩٧٨/ ٥ .

تُوفِّيَ بالإسْكَندَرِيَّة سَنةَ عِشْرينَ وخَمسِ مئة ، رَحمَهُ الله[1] .

وفي سَنةِ ثَلاثٍ وعشْرينَ وستِّ مئة زُلْزِلَت الْمَوْصِلُ وشَهْرزور ، وتَرَدَّدَت الزَّلْزَلَةُ عَليهم نَيِّفاً وثَلاثينَ يَوماً ، وخَربَ أكثَرُ قُرَىٰ تلكَ النَّاحيَة ، وانْخَسَفَ القَمَرُ في السَّنَةِ مرَّتَينِ ، وجاءَ بالْمَوْصِلِ بَرَدٌ عَظيمٌ زِنَةُ الوَاحِدَة مِئتَا دِرْهَم وأقَل فأهْلكَ الدَّوابَّ .

وفي رَجَبَ منها تُوفِّيَ أميرُ الْمُؤمنينَ الظَّاهِرُ ، فكانَت خِلافَتُه تِسْعَة أشْهُر ونِصْفاً ، رَحمَهُ الله ، وعاشَ اثنَتَينِ وخَمسينَ سَنةً ، وبايَعوا وَلَدَه الْمُسْتَنْصِرَ بالله أبا جَعْفَر[2] .

٢ـ زَلازِل :

وفي سَنةِ اثنَتَينِ وأرْبَعينَ ومئتَين كانَت الزَّلْزَلَةُ بقُومِس ، والدَّامَغَانِ ، والرِّيِّ ، وطَبَرِسْتانَ ، ونيسَابُورَ ، وأصْبَهَانَ ، وهَلكَ منها بِضعَةٌ وأرْبَعونَ ألفاً ، وانْهَدَّ نِصفُ مَدينَة الدَّامَغَان[3] .

وفي سَنةِ خَمْسٍ وأرْبَعينَ ومئتَين عَمَّت الزَّلْزَلَةُ الدُّنيا ، وماتَ منها خَلائقُ وبَنَى الْمُتَوَكلُ الْمَاحوزَةَ ، وسَمَّاها الجَعْفَريَّ ، وأنْفَقَ عَليها بَعدَ مُعَاوَنَة الجَيشِ له ألْفَي ألفَ دينارٍ ، وتَحوَّلَ إليها ، وفيها[4] وقعَ بناحِيَة بَلْخ مَطَرٌ كالدَّمِ العبيط[5] .

وفي سَنةِ ثَلاثٍ وعشْرينَ وستِّ مئة زُلْزِلَت الْمَوْصِلُ وشَهْرزور ، وتَرَدَّدَت الزَّلْزَلَةُ عَليهم نَيِّفاً وثَلاثينَ يَوماً ، وخَربَ أكثَرُ قُرَىٰ تلكَ النَّاحيَة ، وانْخَسَفَ القَمَرُ في السَّنَةِ مرَّتَينِ ، وجاءَ بالْمَوْصِلِ بَرَدٌ عَظيمٌ زِنَةُ الوَاحِدَة مِئتَا دِرْهَم وأقَل فأهْلكَ الدَّوابَّ .

وفي رَجَبَ منها تُوفِّيَ أميرُ الْمُؤمنينَ الظَّاهِرُ ، فكانَت خِلافَتُه تِسْعَة أشْهُر ونِصْفاً ، رَحمَهُ الله ، وعاشَ اثنَتَينِ وخَمسينَ سَنةً ، وبايَعوا وَلَدَه الْمُسْتَنْصِرَ بالله أبا جَعْفَر[6] .

---

(١) انظر السير : (الطُّرْطُوشِيُّ) ١٩/ ٤٩٠ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٥٠١ .
(٢) انظر السير : (الظَّاهِرُ بأمْرِ الله) ٢٢/ ٢٦٤ـ٢٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩١ .
(٣) انظر السير : (الْمُتَوَكلُ على الله) ١٢/ ٣٠ـ٤١ ، وانظر النزهة : ٦/٩٧٨ .
(٤) أي في سَنَةِ خَمْسٍ وأرْبَعينَ ومئتَين .
(٥) انظر السير : (الْمُتَوَكلُ على الله) ١٢/ ٣٠ـ٤١ ، وانظر النزهة : ٧/٩٧٨ .
(٦) انظر السير : (الظَّاهِرُ بأمْرِ الله) ٢٢/ ٢٦٤ـ٢٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩١ .

٣ـ حَرائق :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أميرِ الْمؤمنينَ الْمأمون : وفي سَنةِ سَبعَ عَشْرَةَ ومئتَينِ وَقَعَ حَريقٌ عَظيمٌ بالبَصْرَة أذْهَبَ أكثَرَها[١] .

٤ـ غَرَق :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أميرِ الْمؤمنينَ القائمِ العَبَّاسيّ : وفي سَنةِ أرْبع وخَمسينَ وأرْبَع مئة زَوَّجَ أميرُ الْمُؤمنينَ القائمُ بِنتَه بطُغْرُلْبَك بعدَ اسْتِعْفاءٍ وكُرْهٍ ، وغَرِقَتْ بَغدَادُ ، وبَلغَ الْمَاءُ أحَداً وعِشْرينَ ذِراعاً[٢] .

وفي سَنةِ سِتٍّ وسِتِّينَ وأرْبَع مئة غَرِقَتْ بَغدَادُ ، وأُقيمَت الجُمُعَة في السُّفُن مرَّتَينِ ، وهَلكَ خَلقٌ لا يُحْصَوْنَ ، حتَّىٰ لقِيلَ : إنَّ الْمَاءَ بَلغَ ثَلاثينَ ذراعاً ، حتَّىٰ لَقالَ سِبْطُ ابنُ الجَوْزيّ : وانْهَدَمت مئةُ ألف دارٍ[٣] .

٥ـ مَجَاعَاتٌ وأَوْبِئَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُعْتَصِم : وفي سَنةِ ثَمانِ عَشْرَة ومئتَين كانَ الوَباءُ الْمُفرِطُ والقَحْطُ بمِصْر ، وماتَ أكثَرُهم[٤] .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وثَمانينَ ومئتَين : غارَت مياهُ طَبَرِسْتانَ ، حتَّىٰ لأبُيعَ الْمَاءُ ثَلاثَةُ أرْطَال بدِرهَم ، وجاعُوا ، وأكَلوا الْمَيتَة[٥] .

وفي سَنة ثَمانٍ وأرْبَعينَ وأرْبَع مئَة كانَ بالأنْدَلُسِ القَحْطُ ما سُمعَ بمثلِه ، ويُسمُّونَه الجُوعَ الكَبير ، وكان بمِصْرَ القَحْطُ والفَناءُ[٦] .

---

(١) انظر السير : (الْمَأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/٨٧٨ .
(٢) انظر السير : (القَائم) ١٨/ ٣٠٧ـ ٣١٨ ، وانظر النزهة : ١/١٤١٨ .
(٣) انظر السير : (القَائم) ١٨/ ٣٠٧ـ ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٨ .
(٤) انظر السير : (الْمُعْتَصِم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٧/٨٧٨ .
(٥) انظر السير : (الْمُعْتَضِدُ بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٧ .
(٦) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٢ .

وكان غَلاءٌ مُفْرطٌ ببَغْدادَ وفَناءٌ ، وأمَّا بما وَراءَ النَّهْرِ فتَجاوَزَ الوَصْفَ .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وستِّينَ وأرْبَع مئَة كان حَريقُ جامِع دِمَشْقَ ، ودُثِرَت مَحاسِنُه واحْتَرقَتِ الخَضْراءُ مَعَه ـ وكانَت دَارَ المُلْك ـ من حَربٍ وَقعَ بينَ عَسْكَرِ العِراقِ ، وعَسْكَرِ مِصْرَ .

وفي سَنة اثنَتَين وستِّينَ وأرْبَع مئَة ، قُطِعَت من مَكَّة الدَّعْوَة المُسْتَنصِريَّة وخُطِبَ للقَائمِ بأمْرِ الله ، وتُركَ الأذَانُ بـ « حَيِّ عَلي خَيْرِ العَمَل » وذلكَ لذِلَّة المِصْريِّينَ بالقَحْطِ الأكْبَر وفَنائِهم وأكَلَ بَعضُهم بَعضاً وتَمزَّقُوا في البلادِ من الجُوعِ ، وتَمَحَّقَتْ خَزائنُ المُسْتَنصِر ، وافْتَقَرَ ، وتَعثَّر[1] .

وفي هٰذه النَّوْبَة نَقلَ صاحبُ « المِرْآة » أنَّ امْرأةً خَرجَتْ وبيَدِها مُدُّ لؤلؤ لتَشْتَري به مُدَّ قَمْح ، فلَمْ يَلتَفِتْ إليها أحد ، فرَمَتهُ فما كانَ له مَنْ يَلتَقطُه ، فكادَ الخَرابُ أنْ يَسْتَولي علىٰ سائِر الأقَاليمِ ، حتىٰ لأُبيعَ الكلبُ بسِتَّة دَنانيرَ والقِطُّ بثَلاثة دَنانيرَ ، حتىٰ أُبيعَ الإرْدَبُّ بمئَة دينار[2] .

قال ابنُ الأثير : اشْتدَّ الغَلاءُ حتىٰ حُكيَ أنَّ امْرأةً أكَلَت رَغيفاً بألفِ دِينار ، باعَت عروضاً تُساوي ألفَ دِينار بثَلاثِ مئَة دِينَار ، فاشْتَرَت به جُوالِقَ[3] قَمْح ، فانتُهَبَهُ النَّاسُ ، فنَهَبَت هيَ منه فحَصَلَ لهَا ما خُبزَ رَغيفاً[4] .

وفي دَولة المُسْتَنصِر وَقعَ القَحْطُ المَذْكورُ لاحْتراقِ النِّيلِ الذي ما عُهدَ مثله بمِصْرَ من زَمَنِ يُوسُفَ عليه السلام ، ودامَ سَنواتٍ بحَيثُ إنَّ والدَةَ المُسْتَنصِر وبنَاتِه سَافَرْنَ من مِصْرَ خَوفاً من الجُوعِ ، وآلَ أمْرُهُ إلىٰ عَدمِ كُلِّ الدَّوابِّ ببلادِ مِصْرَ ، بحَيثُ بَقيَ له فَرسٌ يَركَبُها ، واحْتاجَ إلىٰ دابَّة يَركَبُها حَاملُ الجِتْر[5] يَومَ العِيدِ وَراءَهم ، فمَا وَجَدوا سِوَىٰ

---

(١) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٢ .

(٢) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٢ .

(٣) وعاء من صوف أو غيره ، جمعُه : جَوالق ـ بفتح الجيم ، وهو عند العامَّة (شِوال)

(٤) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢١٢ .

(٥) الجِتْر : بكسر الجيم ، المظلَّة .

بَغْلَة ابنِ هِبَة كاتبِ السِّرِّ فوَقَفَتْ علىٰ بابِ القَصْر ، فازْدَحَمَ عَليهَا الحَراشِفَةُ[1] وذَبَحُوها وأكَلُوها في الحَالِ ، فأخَذَهُم الأعْوَانُ وشُنِقُوا ، فأصْبَحَتْ عِظامُهم على الجُذُوعِ قَد أُكِلُوا تَحْتَ اللَّيلِ .

ماتَ المُسْتَنصِرُ سَنةَ سَبع وثَمانين وأرْبَع مئَة ، وقد قَارَبَ السَّبْعينَ ، وكانَ سَبُّ الصَّحابَة فاشِياً في أيَّامِه ، والسُّنَّةُ غَريبَةٌ مَكتومَةٌ ، حتىٰ إنَّهم مَنَعوا الحَافظَ أبا إسْحاقَ الحبَّالَ من رِوايَة الحَديث ، وهَدَّدُوه فامْتَنَعَ ، ثم قامَ بعدَ المُسْتَنصِرِ ابنُه أحمَدُ[2] .

وفي سَنةِ ثَمانٍ وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة ، كانَ القَحْطُ عَظيماً بمِصْرَ وبالأنْدَلُسِ ، وما عُهِدَ قَحطٌ ولا وَباءٌ مثلُه بقُرْطُبَةَ ، حتَّىٰ بَقيَتِ الْمَساجِدُ مُغلَقَةً بِلا مُصَلٍّ وسُمِّيَ عَامَ الجُوعِ الكَبيرِ[3] .

وفي سَنةِ تِسْعٍ وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة أخَذَ طُغْرُلْبَك الْمَوْصِلَ ، وسَلَّمَها إلىٰ أخيه يَنَالَ وكَتبَ في ألْقَابِه : مَلِكُ الْمَشْرِقِ والْمَغرِبِ ، وفيها كانَ الجُوعُ الْمُفرِطُ ببَغْدادَ والفَنَاءُ ، وكَذلكَ ببُخَارَىٰ وسَمَرْقَنْدَ حتَّىٰ يُقَالُ : هَلكَ بما وَراءَ النَّهرِ ألفُ ألفٍ وسِتُّ مئةِ ألْفٍ[4] .

واشْتَدَّ بإفْريقيَّةَ القَحْطُ ، لا بَلْ كانَ القَحْطُ عامّاً ، فقالَ الْمُؤيَّدُ عِمادُ الدِّين : فيها كانَ الغَلاءُ العامُّ من خُراسَانَ إلى العِراقِ إلى الشَّامِ إلىٰ بلادِ الْمَغرِب[5] .

* * *

---

(١) كالشُّطار والعيارين في بغداد .

(٢) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٢١٢ .

(٣) انظر السير : (القَائم) ١٨/ ٣٠٧ـ ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٥/١٤١٧ .

(٤) انظر السير : (القَائم) ١٨/ ٣٠٧ـ ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٦/١٤١٧ .

(٥) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْرِ الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٦٨ .

(١٩) عُيُونُ السُّلْطَان

١ـ شِدَّةُ تَحَرُّزِ الإنْسَان في الكلامِ أمامَهم :

عن حاتِمٍ الأصَمِّ قالَ : لَوْ أنَّ صاحِبَ خَبَرٍ جَلسَ إلَيكَ ، لَكُنتَ تَتَحَرَّزُ منه ، وكَلامُكَ يُعرَضُ على الله فلا تَحْتَرِزْ!!(١) .

٢ـ الحَذَرُ منهُم :

قالَ ابنُ الأثيرِ في أوَّل « جامِعِ الأصُولِ » وكانَ الإمامُ النَّسائيُّ شافِعياً ، له مَناسِك علىٰ مَذهَب الشَّافِعيِّ ، وكانَ وَرِعاً مُتَحرِّياً ، قيلَ : إنَّه أتَى الحَارِثَ بنَ مِسْكينَ في زِيٍّ أنْكَرَه ، عليه قَلنْسُوة وقَباء ، وكان الحارِثُ خائفاً من أُمُورٍ تَتَعلَّقُ بالسُّلطانِ فخَافَ أنْ يَكُونَ عَيْناً عَليه ، فمَنَعَه ، فكانَ يَجيءُ فيَقعُدُ خَلفَ البَابِ ويَسمَع ، ولِذلكَ ما قالَ : حدَّثنا الحارِثُ ، وإنَّما يَقُولُ : قالَ الحارِثُ بنُ مَسْكين قِراءَةً عَليه وأنا أسْمَعُ .

قالَ ابنُ الأثيرِ : وسَألَ أميرٌ أبا عبدِ الرحمَـٰن عن سُنَنِه : أصَحيحٌ كلُّه ؟ قالَ : لا قالَ : فاكْتُبْ لنا منه الصَّحيحَ ، فجَرَّدَ الْمُجْتَنَىٰ(٢) .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هَـٰذا لَمْ يَصِحَّ ، بَلِ « الْمُجْتَنَىٰ » اخْتيارُ ابنُ السنِّي .

قالَ الحافِظُ ابنُ طاهِر : سَألتُ سَعدَ بنَ عَليٍّ الزَّنْجَانيَّ عن رَجلٍ ، فوَثَّقَه فقُلتُ : قد ضَعَّفَه النَّسَائيُّ ، فقالَ : يا بُنيَّ! إنَّ لأبي عبدِ الرحمَـٰن شَرطاً في الرِّجالِ أشَدُّ من شَرطِ البُخَاريِّ ومُسْلِم .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : صَدقَ ، فإنَّه لَيَّنَ جَماعَةً من رِجالِ صَحيحَي البُخاريِّ ومُسْلِم .

قالَ محمَّدُ بنُ الْمُظَفَّر الحافِظُ : سَمعتُ مَشايخَنا بمِصْرَ يَصِفُونَ اجْتهَادَ النَّسائيِّ في

---

(١) انظر السير : (حاتمُ الأصَمُّ) ١١/ ٤٨٤ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ١/٩٦١ .

(٢) كذا الأصْلُ « الْمُجتَنَىٰ » بالنون ، وهو في « جامع الأصول » الْمُجتَبىٰ بالباء ، وكلاهما صحيح .

العِبَادَة باللَّيلِ والنَّهارِ ، وأنَّه خَرَجَ إلى الفِداءِ مع أميرِ مِصْرَ فوُصِفَ من شَهامَتِه وإقَامَتِه السُّننَ الْمَأثورَةَ في فِدَاءِ الْمُسلِمينَ ، واحْترازِه عن مَجَالِسِ السُّلطَانِ الذي خَرجَ مَعه ، والانْبِساطِ في الْمَأكَلِ ، وأنَّه لَمْ يَزَلْ ذَلكَ دَأبُه إلىٰ أنْ اسْتُشهِدَ بدِمَشْقَ من جِهَة الخَوارِج[1] .

٣ـ صُوَرٌ على انْبِثاثِهم بين النَّاس :

حدَّثنا عبدُ الرحمَـٰن بنُ يَزيد بنِ جابِر ، قالَ : كُنَّا مع رَجاءَ بنِ حَيْوَة فتَذاكَرْنا شُكرَ النِّعَم فقالَ : ما أحَدٌ يَقُومُ بشُكرِ نِعْمَة ، وخَلفَنا رَجلٌ علىٰ رَأسِه كِسَاءٌ ، فقالَ : ولا أميرُ الْمُؤمنينَ ؟ فقُلنَا : وما ذِكْرُ أميرِ الْمُؤمنينَ هنا وإنَّما هو رَجُلٌ من النَّاسِ قالَ فغَفَلنا عنه ، فالْتَفتَ رَجاءُ فلَمْ يَرَه فقالَ : أُتيتُم من صَاحِبِ الكِسَاءِ فإنْ دُعيتُم فاستُحلِفتُم فاحْلِفُوا ، قالَ : فما عَلمْنا إلاَّ بحَرَسيٍّ قد أقبَلَ عَليه ، قالَ : هيه يا رَجَاءُ ، يُذكَرُ أميرُ الْمُؤمنينَ ، فلا تَحتَجُّ له ؟ قالَ : فقُلتُ : وما ذَاكَ يا أميرَ الْمُؤمنينَ ؟ قالَ : ذَكرُتم شُكرَ النِّعَم ، فقُلتُم : ما أحَدٌ يَقُومُ بشُكرِ نِعْمَةٍ ، قيلَ لَكُم : ولا أميرُ الْمُؤمنينَ ، فقُلتَ : أميرُ الْمُؤمنينَ رَجُلٌ من النَّاسِ فقُلتُ : لَمْ يَكُنْ ذَلكَ ، قالَ : آللهِ ؟ قُلتُ آللهِ قالَ : فأمَرَ بذَلكَ الرَّجُل السَّاعي ، فضُربَ سَبعينَ سَوْطاً فخَرَجتُ وهو مُتلَوِّثٌ بدَمِه فقالَ : هَـٰذا وأنْتَ رَجَاءُ بنُ حَيْوَة!! ؟ قُلتُ : سَبعينَ سَوْطاً في ظَهرِكَ خَيرٌ من دَم مُؤمنٍ قالَ ابنُ جابِر : فكانَ رَجاءُ بنُ حَيوَةَ بَعدَ ذَلكَ إذا جَلسَ في مَجلِسٍ يَقُولُ ويَتَلَفَّتُ : احْذَرُوا صَاحِبَ الكِسَاء[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَكمِ بنِ هِشامِ بنِ عبدِ الرحمَـٰن الدَّاخِل الأمَويّ الأنْدَلُسيّ : وكَثُرت العُلماءُ بالأنْدَلُسِ في دَولتِه ، حتَّىٰ قيلَ : إنَّه كانَ بقُرْطُبَةَ أربعة آلاف مُتَقلِّس مُتَزَيِّين بزيِّ العُلماءِ ، فلمَّا أرادَ الله فناءَهم ، عَزَّ عليهم انْتِهاكُ الحَكَم للحُرُماتِ ، وائتَمَروا ليَخْلَعوه ، ثم جَيَّشوا لقِتالِه ، وجَرَت بالأنْدَلُسِ فِتنَةٌ عَظيمَةٌ على الإسْلامِ وأهْلِه ، فلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، فذَكرَ ابنُ مُزين في تاريخِه طَالوتَ بنَ عبدِ الجَبَّارِ

---

(١) انظر السير : (النَّسَائيُّ) ١٤/ ١٢٥ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/١١٣٨ .

(٢) انظر السير : (رَجاءُ بنُ حَيْوَة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ١/٥٥٩ .

الْمُعَافريَّ ، وأنَّه أحَدُ العُلماءِ العَامِلينَ الشُّهَداء الذين هَمُّوا بخَلع الحَكَم ، وقالوا : إنَّه غَيرُ عَدلٍ ونَكثُوه في نُفوسِ العَوَامِّ ، وزَعَموا أنَّه لا يَحِلُّ الْمُكْثُ ولا الصَّبْرُ علىٰ هٰذه السِّيرَة الذَّميمَة ، وعَوَّلوا علىٰ تَقديمِ أحَدِ أهْلِ الشُّورَىٰ بقُرْطُبَةَ ، وهو أبو الشَّمَّاسِ أحمَدُ بنُ الْمُنْذِر بنِ الدَّاخِل الأُمَويُّ ابنُ عَمِّ الحَكَم لِمَا عَرَفوا من صَلاحِه ، وعَقلِه ، ودِينِه ، فقَصَدوه وعَرَّفوه بالأمْرِ ، فأبْدَى الْمَيْلَ إليهم ، والبُشْرَىٰ بهم ، وقالَ لهم : أنتم أضْيَافي اللَّيلَة ، فإنَّ اللَّيلَ ، أسْتَر ، ونامُوا ، وقامَ هو إلى ابنِ عمِّه بجَهلٍ ، فأخْبرَه بشأنِهم ، فاغْتاظَ لذلك ، وقالَ : جئتَ لسَفك دَمي أو دِمائِهم ، وهم أعْلامٌ ، فمن أين نَتوصَّلُ إلىٰ ما ذَكرتَ ؟ فقالَ : أرْسِلْ معي مَنْ تَثقُ به ليَتحَقَّق ، فوَجَّهَ مَنْ أحَبَّ ، فأدْخَلَهم أحمَدُ في بَيتِه تَحتَ سِتْر ، ودَخلَ اللَّيلُ ، وجاءَ القَومُ ، فقالَ : خَبِّرُوني مَنْ مَعَكُم ؟ فقالوا : فُلانٌ الفَقيهُ ، وفُلانٌ الوَزيرُ ، وعدُّوا كباراً والكاتِبُ يَكتُبُ حتَّى امْتلأ الرَّقُّ ، فمَدَّ أحَدُهم يدَه وَراءَ السِّتْرِ ، فرَأى القَومَ ، فقامَ وقامُوا ، وقالُوا : فعَلتَها يا عَدُوَّ اللهِ ، فمَنْ فَرَّ لِحينِه ، نَجا ومَنْ لا ، قُبضَ عليه ، فكانَ مِمَّنْ فَرَّ عيسَىٰ بنُ دينار الفَقيه ، ويَحْيَىٰ بنُ يَحْيَى الفَقيهُ صاحِبُ مَالِك ، وقُرْعُوسُ بنُ العَبَّاسِ الثَّقَفيُّ .

وقُبضَ علىٰ ناسٍ كأبي كَعْب ، وأخيه ، ومَالِكِ بنِ يَزيد القاضي ، وموسَىٰ بنِ سَالِم الخَوْلاني ، ويَحْيَىٰ بنِ مُضَر الفَقيه ، وأمثالهم من أهْلِ العِلمِ والدِّين ، في سَبعَةٍ وسَبعينَ رَجُلاً ، فضُربَت أعْناقُهم ، وصُلِبُوا .

وأضاف إليهم عَمَّيه كُلَيْباً ، وأمية ، فصُلبا ، وأَحْرَقَ القُلوبَ عليهم ، وسارَ بأمرِهم الرِّفاقُ ، وعَلمَ الحَكَمُ أنَّه مَحْقودٌ من النَّاسِ كُلِّهم ، فأخَذَ في جَمعِ الجُنودِ والحَشَمِ وتَهيَّأ ، وأخَذَت العامَّةُ في الهَيَج ، واسْتأسَدَ النَّاسُ ، وتَنمَّروا ، وتأهَّبوا ، فاتَّفقَ أنَّ مَمْلوكاً خَرجَ من القَصرِ بسَيفٍ دَفعَه إلى الصَّيْقَل ، فمَاطَله ، فسَبَّه ، فجاوَبَه الصَّيْقَلُ فتَضارَبا ونالَ منه الْمَمْلوكُ ، حتىٰ كادَ أنْ يُتْلِفَه ، فلمَّا تركَه ، أخذَ الصَّيْقَلُ السيفَ فقتلَ به الْمَمْلوكَ ، فتألَّبَ إلى الْمَقتُولِ جَماعَةٌ ، وإلى القاتِلِ جَماعَةٌ أُخْرَىٰ ، واسْتَفحَلَ الشَّرُّ ، وذلك في رَمضانَ سَنةَ اثنتَين ومئتَين ، وتَداعَىٰ أهْلُ قُرطُبَة من أرْباضِهم ، وتألَّبوا بالسِّلاحِ ، وقَصَدوا القَصرَ ، فرَكبَ الجَيشُ والإمامُ الحَكَمُ ، فهَزَموا العامَّةَ ،

وجاءَهم عَسكَرٌ من خَلفِهم ، فوَضَعوا فيهم السَّيفَ ، وكانَت وَقعَةً هائلَةً شَنيعَةً ، مَضىٰ فيها عَددٌ كَثيرٌ زُهاءَ عن أربَعينَ ألفاً من أهْلِ الرَّبَض ، وعايَنوا البَلاءَ من قُدَّامِهم ومن خَلفِهم فتَداعُوا بالطَّاعَة ، وأذْعَنوا ولا ذُوا بالعَفْوِ ، فعَفا عَنهم علىٰ أنْ يَخرُجوا من قُرطُبَة ، ففَعلوا وهُدِّمَت ديارُهم ومَساجِدُهم .

ماتَ الحَكَمُ سَنةَ سِتٍّ ومئتين ، وله ثَلاثٌ وخَمسونَ سَنةً ، وَوَليَ الأنْدَلُسَ بَعْدَه ابنُه أبو الْمُطَرِّف عبدُ الرحمَـٰن[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة أبي مُسْهِر : قالَ عليُّ بنُ عُثْمانَ النُّفَيليُّ : كُنَّا علىٰ بابِ أبي مُسْهر جَماعَةً من أصْحابِ الحَديثِ ، فمَرِضَ ، فعُدْناه ، وقُلنا : كيفَ أصْبَحتَ ؟ قالَ : في عافيَةٍ ، راضِياً عن اللهِ ، ساخِطاً علىٰ ذي القَرْنَينِ ، كيف لَمْ يَجعلْ سَداً بيننا وبين أهلِ العِراقِ ، كما جَعلَه بين أهْلِ خُراسانَ وبينَ يأجُوجَ ومَأجُوجَ ، فما كانَ بعد هـٰذا إلاَّ يَسيراً حتىٰ وَافَى الْمَأمُونُ دِمَشْقَ ، ونَزلَ بدَيرِ مُرَّان وبَنى القُبَّةَ فَوقَ الجَبَل ، فكانَ باللَّيلِ يَأمُرُ بجَمْرٍ عَظيمٍ ، فيُوقَد ويُجعَلُ في طُسوتٍ كبار ، تُدَلَّىٰ من عند القُبَيْبَة بسَلاسِلَ وحِبال ، فتُضيءُ لها الغُوطَةُ ، فيُبصِرُها باللَّيلِ .

وكان لأبي مُسْهِر حَلقةٌ في الجامِع بين العِشاءَين عند حائطِ الشَّرقيِّ ، فبَينما هو لَيلةً ، إذ قد دَخَل الجامعَ ضَوءٌ عَظيمٌ ، فقالَ أبو مُسْهِر : ما هـٰذا ؟ قالوا : النَّارُ التي تُدَلَّىٰ من الجَبلِ لأميرِ المؤمنينَ حتىٰ تُضيءَ له الغُوطَةَ فقالَ ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[2] ، وكان في الحلقة صاحِبُ خَبرٍ للمَأمُونِ ، فرَفعَ ذلك إلى الْمَأمُونِ ، فحَقَدَها عليه .

فلمَّا رَحلَ الْمَأمُونُ ، أمَرَ بحَمْلِ أبي مُسْهِر إليه ، فامْتَحنَه بالرِّقَّة في القُرآنِ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد كانَ الْمَأمُونُ بأساً وبلاءً على الإسْلام[3] .

---

(١) انظر السير : (الحَكَم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٥١ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيتين : ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٣) انظر السير : (أبو مُسْهِر) ١٠/ ٢٢٨ـ ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٧٢ .

قالَ القاضي ابنُ وَاصِل : كانَ النَّاصِرُ لدين الله شَهْماً شُجاعاً ذا فِكرَةٍ صائبة وعَقلٍ رَصينٍ ومَكْرٍ ودَهاءٍ ، وكانَت هَيبَتُه عَظيمَةٌ جداً ، وله أصْحابُ أخْبار بالعِراقِ وسائر الأطْراف يُطالِعُونَه بجُزئياتِ الأمُور .

قالَ : وكانَ رَديء السِّيرَة في الرَّعيَّة ، مَائِلاً إلى الظُّلمِ والعَسْفِ فخَربَت في أيَّامه العِراقُ وتَفرَّقَ أهلُها وأخَذَ أمْلاكَهم ، وكانَ يَفعَلُ أفْعَالاً مُتضادَّةً ، ويَتشَيَّعُ بخِلافِ آبائه[1] .

* * *

(١) انظر السير : (النَّاصِرُ لِدينِ الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٨٥ .

(٢٠) المُبَالَغَة

١ـ مُبالَغَاتٌ قِيلَت للتَّحْذيرِ من الوَاقِع والتَّحَسُّر على الماضي :

قالَ فُراتٌ : سَمعتُ مَيْمُونَ بنَ مِهْرانَ يَقُولُ : لَوْ نُشِرَ فيكُم رَجُلٌ من السَّلفِ ما عَرَفَ إلاَّ قِبلَتَكم[١] .

وعن مُعاويَةَ بنِ قُرَّة قالَ : أدْرَكتُ سَبعينَ من الصَّحابَة ، لَوْ خَرَجُوا فيكُم اليَومَ ، ما عَرفُوا شَيئاً مِمَّا أنتم فيه إلاَّ الأذَان[٢] .

٢ـ مُبالَغَةٌ قِيلَت وخُطِّيءَ قائلُها :

عن مُغيرَةَ قالَ : حَجَّ حَمَّادُ بنُ أبي سُليْمانَ ، فلمَّا قَدِمَ أتَيناهُ نُسلِّمُ عَليه فقالَ : أبْشِرُوا يا أهْلَ الكُوفَة ، فإنِّي قَدِمتُ علىٰ أهْلِ الحِجَازِ ، فَرَأيتُ عَطَاءً وطَاوُوساً ومُجاهِداً ، فصِبْيانُكُم ، بَلْ صِبْيانُ صِبْيانِكُم أفْقَهُ منهم .

قالَ مُغيرَة : فرَأيْنا أنَّ ذَاكَ بَغيٌ منه[٣] .

٣ـ رَدُّ الذهبيِّ مُبالَغَاتِ سِبْطِ ابنِ الجَوْزِيِّ في كتابِه « مِرْآةُ الزَّمَان » :

جاء في ترجمة ابن الجَوْزيِّ ، قال الذهبيُّ : قال سِبْطُه أبو المُظفَّر : تُوفِّيَ أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي ليلة الثالث عَشرَ من رَمضانَ سنة سَبعٍ وتسعين وخَمسِ مئة ، وغُلِّقَت الأسْواقُ ، وجاءَ الخَلقُ ، وصَلَّىٰ عليه ابنُه أبو القاسم عليٌّ اتِّفاقاً ، لأنَّ الأعْيانَ لمْ يَقدِروا من الوُصولِ إليه ، ثم ذَهبوا به إلىٰ جامع المَنْصُور ، فصلَّوا عليه ، وضاقَ بالنَّاس ، وكان يوماً مَشْهوداً ، فلمْ يَصلْ إلىٰ حُفْرَته بمَقْبَرَةِ أحمَدَ إلىٰ وَقتِ صَلاةِ الجُمُعَة ، وكان في تمُّوز ، وأفْطَرَ الخَلقُ ، ورَمَوا نُفوسَهم في الماء إلىٰ أن قال :

---

(١) انظر السير : (مَيْمُونُ بنُ مِهْران) ٥/ ٧١ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (مُعاويَةُ بنُ أبي قُرَّة) ٥/ ١٥٣ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٩٤ .

(٣) انظر السير : (حَمَّادُ بنُ أبي سُليْمانَ) ٥/ ٢٣١ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٩٨ .

وما وَصلَ إلىٰ حُفْرتِه من الكَفَنِ إلاَّ قَليلٌ ، كذا قال ، والعُهْدةُ عليه ، وأُنزِلَ في الحُفرَةِ ، والمُؤذِّنُ يقولُ : اللهُ أكبَر ، وحَزنَ عليه الخَلقُ ، وباتوا عند قَبرِه طُولَ شَهرِ رَمضانَ يَختِمونَ الخَتَمَات ، بالشَّمْعِ والقَناديلِ ، ورآهُ في تلك اللَّيلَةِ المُحَدِّثُ أحمدُ بنُ سَلمان السُّكّر في النَّومِ ، وهو علىٰ مِنْبَرٍ من ياقُوت ، وهو جالسٌ في مَقْعَد صِدْقٍ والمَلائكَةُ بين يَديْه[1] وأصْبَحنا يومَ السَّبت عملنا العزاء ، وتكلَّمْتُ فيه ، وحَضرَ خَلقٌ عَظيمٌ ، وعُمِلَتْ فيه المَراثي[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في « تاريخ الإسلام » مُعقِّباً علىٰ قولِ سِبطِ ابنِ الجَوْزيِّ : وهـٰذا من مجازفة أبي المظفر .

وذَكَرَ أبُو المُظَفَّر الواعِظُ في « مِرْآةِ الزَّمانِ » : وفي ذِي القِعْدَة سَنةَ سِتٍ وتِسْعينَ وخَمسِ مِئَة كان ما اشْتُهِرَ من أمْرِ الحافظِ عبد الغَنيّ وإصْرارِه علىٰ ما ظَهَرَ من اعْتِقادِه وإجْمَاعِ الفُقَهاءِ على الفُتْيَا بتَكْفِيرِه ، وأنَّه مُبْتَدِعٌ لا يَجُوزُ أنْ يُتْرَكَ بينَ المُسلمينَ ، فسَألَ أنْ يُمْهَلَ ثلاثَةَ أيّامٍ لِيَنْفَصِلَ عن البَلَدِ فأُجِيب[3] .

قال الذهبيُّ : قد بَلَوْتُ علىٰ أبي المُظَفَّر المُجازَفَةَ وقِلَّةَ الوَرَعِ فيما يُؤرِّخُه واللهُ المَوعِدُ ، وكان يَترَفَّضُ ، رأيتُ له مُصَنَّفاً في ذلكَ فيه دَواهٍ ، ولَوْ أجْمَعَتِ الفُقَهاءُ علىٰ تَكْفيرِه كما زَعَمَ لمَا وَسِعَهُم إبْقَاؤهُ حيّاً ، فقَد كان علىٰ مَقَالَتِه بدِمَشْقَ أخُوهُ الشَّيخُ العِمَادُ والشَّيخُ مُوَفَّقُ الدّين ، وأخُوهُ القُدوَةُ الشَّيخُ أبُو عُمَرَ ، والعَلاَّمَة شَمسُ الدّين البُخاريّ ، وسائِرُ الحَنابلَة ، وعِدّةٌ من أهْلِ الأثَر ، وكان بالبَلَدِ أيْضاً خَلْقٌ من العُلَمَاء لا يُكَفِّرُونَه ، نَعَمْ ولا يُصَرِّحُون بمَا أطْلَقَهُ من العِبارَةِ لمَّا ضايَقُوهُ ، ولَوْ كَفَّ عن تِلكَ العِبَاراتِ ، وقال بمَا وَرَدَتْ به النُّصُوصُ لأجَادَ ولَسَلِمَ ، فهُو الأوْلَىٰ ، فما في تَوْسِيعِ العِباراتِ المُوهِمَةِ خَيرٌ ، وأسْوأُ شَيءٍ قالَه أنْ ضَلَّلَ العُلَماءَ الحاضِرين ، وأنَّه على الحَقِّ ، فقَالَ كَلمَةً فيها شَرٌّ وفَسادٌ وإثارَةٌ للبَلاءِ ، رَحِمَ اللهُ الجَميعَ وغَفَرَ لهُم ، فمَا

---

(١) تمام الخبر : والحقُّ سبحانه وتعالىٰ حاضرٌ يسمع .

(٢) انظر السير : (أبو الفَرج ابن الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٦ .

(٣) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٥٠ .

قَصْدُهُم إلاَّ تَعْظيمُ البَارِي عَزَّ وجَلَّ من الطَّرَفَيْن ، ولكنَّ الأكْمَلَ في التَّعْظيمِ والتَّنْزيه الوُقُوفُ معَ ألْفاظِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وهَـٰذا هو مَذْهَبُ السَّلَفِ رَضي اللهُ عنهم .

وبكُلِّ حالٍ فالحَافِظُ عبدُ الغَنيّ من أهْلِ الدّينِ والعِلْمِ والتَّألُّهِ والصَّدْعِ بالحَقِّ ، ومَحَاسِنُهُ كَثيرةٌ ، فنَعُوذُ باللهِ من الهَوَىٰ والمِراءِ والعَصَبيّةِ والافْتِراءِ ، ونَبْرأُ من كُلِّ مُجَسِّمٍ ومُعَطِّلٍ[1] .

٤ـ ضَبْطُ الذهبيِّ ما جاءَ عن السَّلَف مُبالَغاً فيه :

قال مَسْروقٌ : مَنْ سَرَّهُ أنْ يَعْلَمَ عِلْمَ الأوَّلينَ والآخِرينَ وعِلْمَ الدُّنيا والآخِرَة فلْيَقْرأ سُورَةَ الواقِعَةِ[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا قالَه مَسْروقٌ على المُبالَغَةِ ، لِعِظَمِ ما في السُّورَةِ من جُمَلِ أمُورِ الدَّارَيْنِ ومَعنىٰ قَولِهُ : (فلْيَقْرأ الواقِعَةَ) أي بِتدَبُّرٍ وتَفَكُّرٍ وحُضورٍ ولا يَكُنْ كمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أسْفاراً .

عن الشّعبيِّ ، قال : كان مَسْروقٌ إذا قِيلَ له : أبْطَأتَ عن عَليٍّ وعن مَشَاهِدِه ، فيَقُولُ : أرَأيْتُم لَوْ أنَّه حين صَفَّ بَعضُكُم لبَعضٍ فنزَلَ بَيْنَكُم مَلَكٌ فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[3] أكانَ ذلكَ حَاجِزاً لكُم ؟

قالوا : نَعَم قال : فوَاللهِ لقَدْ نزَلَ بها مَلَكٌ كَريمٌ علىٰ لِسانِ نَبيِّكُم ، وإنَّها لمُحْكَمَةٌ ما نَسَخَها شيء[4] .

قالَ الصُّوليُّ : حدَّثنا أحمَدُ بنُ يَحْيَىٰ أنَّ الشَّعْبيَّ قالَ : أفْخَرُ بَيتٍ قِيلَ قَولُ الأنْصَارِ يَومَ بَدْرٍ :

وبِبئْـرِ بـدرٍ إذْ يـردُّ وجـوهَهـم ... جبـريـلُ تحـتَ لـوائنـا ومحمـدُ[5]

---

(١) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٦٥٠ .
(٢) انظر السير : (مَسْروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٤٤٦ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٢٩ .
(٤) انظر السير : (مَسروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٤٤ .
(٥) انظر السير : (عَليُّ الرِّضىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٣١

ثم قالَ الصُّوليُّ : أفْخَرُ منه قَولُ الحَسَنِ بنِ هانِىء في عَليِّ بنِ مُوسَى الرِّضَىٰ :

قيل لي أنتَ واحدُ الناسِ في كـ ... ـلِّ كـلامٍ مِـنَ المقـالِ بـديـهِ
لـك فـي جـوهـرِ الكـلامِ بـديـعٌ ... يثمـرُ الـدرُّ فـي يَـدَيْ مجتنيـهِ
فعـلامَ تـركـتَ مـدحَ ابـنِ مـوسـى ... بـالخصـالِ التـي تجمَّعـنَ فيـه
قلـتُ لا أهتـدي لمـدحِ إمـامٍ ... كـانَ جبـريـلُ خـادمـاً لأبيـهِ[1]

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لا يَسوغُ إطْلاقُ هٰذا الأخير إلاَّ بتَوقيف ، بلْ كانَ جِبْريلُ مُعَلِّمَ نَبِيِّنا صلى الله عليه وسلم وعَليه[2] .

وقالَ أبو عُبَيد : ما رَأيتُ أحَداً أعقَلَ من الشَّافِعيِّ ، وكَذا قالَ يُونُسُ بنُ عبدِ الأعْلَىٰ ، حتَّىٰ إنَّه قالَ : لَوْ جُمعَت أُمَّةٌ لَوَسِعَهم عَقلُه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هٰذا علىٰ سَبيلِ الْمُبالَغَة ، فإنَّ الكَامِلَ لَوْ نَقُصَ من عَقلِه نَحوُ الرُّبع ، لَبَانَ عَليه نَقصٌ ما ، ولَبَقِيَ له نُظَراءُ ، فلَو ذَهبَ نِصفُ ذَلكَ العَقلِ منه ، لَظَهرَ عَليه النَّقصُ ، فكَيفَ به لَوْ ذَهبَ ثُلثَا عَقلِه! فلَوْ أنَّكَ أخَذتَ عُقولَ ثَلاثَةِ أنْفُس مَثلاً ، وصَيَّرتَها عَقلَ وَاحِد ، لَجاءَ منه كَامِلُ العَقلِ وزِيادَة[3] .

وعن محمَّدِ بنِ مُصْعَبٍ العَابِد ، قالَ : لَسَوطٌ ضُرِبَه أحمَدُ بنُ حَنْبَل في الله أكبَرُ من أيَّامِ بِشْرِ بنِ الحَارِث .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : بِشْرٌ عَظيمُ القَدرِ كأحْمَدَ ، ولا نَدري وَزنَ الأعْمَال ، إنَّما اللهُ يَعلمُ ذلك .

وقالَ الحُنَيْنيُّ : سَمعتُ إسْماعيلَ بنَ الخَليلِ ، يَقُولُ : لَوْ كانَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل في بَني إسْرائيلَ لَكَانَ آيَةً[4] .

---

(١) انظر السير : (عَليُّ الرِّضىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/٨٣١
(٢) انظر السير : (عَليُّ الرِّضىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/٨٣١ .
(٣) انظر السير : (الإمامُ الشَّافعيُّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ١/٨٤٦ .
(٤) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٢٦ .

وعن رَجُلٍ قالَ : عِندَنا بخُراسَانَ يَظنُّونَ أنَّ أحمَدَ لا يُشبِهُ البَشَرَ يَظُنُّونَ أنَّه من الْمَلائكَة[1] .

وقالَ آخَرُ : نَظرَةٌ عندَنا من أحمَدَ تَعدِلُ عِبادَةَ سَنة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هَـٰذا غُلوٌّ لا يَنْبَغي ، لكن البَاعِثَ لَه حُبُّ وَلِيِّ اللهِ في اللهِ[2] .

ورُوِيَ عن الحافِظِ أبي عبدِ الرحمَـٰن النَّهاوَنْديِّ ، أنَّه سَمعَ الفَسَوِيَّ يَقُولُ : كَتبتُ عن ألفِ شَيخٍ وكَسرٍ كُلُّهم ثِقاتٌ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لَيسَ في مَشيَخَتِه إلاَّ نَحوٌ من ثَلاثِ مئة شَيخٍ ، فأينَ البَاقِي ؟ ثم في الْمَذكُورينَ جَماعَةٌ قد ضُعِّفُوا[3] .

وقال أبو بكر بن دَاسَة : سَمعتُ أبا داود يقول : « كتبتُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم خَمسَ مئةِ ألفِ حَديثٍ ، انتَخَبتُ منها ما ضَمنتُه هـٰذا الكتاب ـ يَعني كتاب « السُّنَن » ـ جَمعتُ فيه أربعةَ آلافِ حَديث وثمانيَ مئةِ حَديث ، ذكرتُ الصَّحيحَ ، وما يُشبِهُه ويُقارِبُه ، ويَكْفي الإنسانَ لدينِه من ذلك أربعةُ أحاديث ، أحدُها : قولُه صلى الله عليه وسلم : « الأعْمَالُ بالنِّيَّات » ، والثاني : « مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكهُ مَا لا يَعْنِيهِ » ، والثالثُ : قولُه : « لا يَكونُ المُؤْمِنُ مُؤْمِناً حَتّىَ يَرْضَى لأَخِيهِ مَا يَرْضَىٰ لِنَفْسِهِ » ، والرابعُ : « الحَلالُ بَيِّنٌ » الحديث .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : وقوَلُه : يَكْفي الإنسانَ لدينِه ، مَمْنوعٌ ، بل يَحتاجُ المُسلمُ إلىٰ عَددٍ كثير من السُّنَن الصَّحيحَة مع القُرآن .

قال أبو بكر الخَلاَّل : أبو داود الإمام المقدَّم في زمانه ، رجل لم يسبقه إلىٰ معرفته بتخريج العلوم ، وبصرِه بمَواضِعه أحدٌ في زَمانِه ، رجلٌ وَرِعٌ مُقدَّم ، سَمعَ منه أحمدُ بن حَنبل حَديثاً واحداً .

---

(١) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٧/ ٩٢٧ .
(٢) انظر السير : (أحمَدُ بنُ حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٨/ ٩٢٧ .
(٣) انظر السير : (الفَسَوِيُّ) ١٣/ ١٨٠ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٦٨ .

وقال أبو بكر محمدُ بن إسْحاق الصَّاغاني ، وإبراهيمُ الحَربي لمَّا صنَّف أبو داود كتاب « السُّنَن » أُلِينَ لأبي داودَ الحَديثَ ، كما أُلِينَ لدَاودَ عليه السلام الحديدُ[1] .

وقال عليُّ بنُ الحُسَين بنِ الجُنَيد ، سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، يقولُ : إنَّا لنَطْعنُ علىٰ أقْوامٍ ، لعلَّهم قد حَطُّوا رِحالَهم في الجنَّة من أكثر من مئتي سنة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لَعلَّها من مِئَة سَنة ، فإنَّ ذلك لا يَبلغُ في أيّام يَحْيَىٰ هـٰذا القَدْر[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَيَّاط : قيلَ : كانَ إمامَ مَسْجِدِ ابنِ جَرْدَة بالحَريم[3] ، لَقَّنَ العُمْيانَ دَهْراً لله ، وكانَ يَسألُ لَهم ، ويُنفِقُ عَليهم ، بحَيثُ إنَّ ابنَ النَّجَّارِ نَقلَ في « تاريخه » أنَّ أبا مَنْصُورِ الخَيَّاط بَلغَ عَددَ مَنْ أقْرَأهم من العُمْيانِ سَبعينَ ألفاً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا مُستَحيلٌ ، والظَّاهِرُ أنَّه أرَادَ أنْ يَكتُبَ نَفْساً ، فسَبَقَه القَلمُ فخَطَّ ألْفاً ، ومَنْ لَقَّنَ القُرآنَ لِسَبْعينَ ضَريراً ، فقد عَملَ خَيراً كَثيراً[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة أميرِ الجُيوش ، المَلكِ الأفْضَل أبو القاسم شاهِنشاه : قالَ ابنُ خلِّكانَ في « تاريخِه » : قال صاحبُ الدُّولِ الْمُنْقَطِعة : خلَّفَ الأفْضلُ سِتَّ مئةَ ألفِ ألفِ دينار ، ومئتَين وخَمسين إرْدَبّاً من الدَّراهِم ، وخَمسينَ ألفَ ثَوبٍ من ديباجٍ ، وعِشرينَ ألفَ ثَوبِ حَرير ، وثَلاثينَ راحِلَة كذا وكذا ودَواةً مُجَوْهَرةً باثنَي عَشرَ ألفِ دينار ، وعَشرَةَ مَجالِسٍ ، في الْمَجلِسِ مَضرُوب عَشرَة مَساميرٍ من الذَّهَب ، على الْمِسْمارِ مِنْديلٌ مَشْدودٌ فيه بدلَة ثيابٍ وخَمسُ مئة صُندوقٍ ، فيها كِسْوَةٌ ومَتاعٌ ، سِوَى الدَّوابِّ والْمَماليكِ والبَقَرِ والغَنَمِ ، ولَبنُ مَواشيه يُباعُ في السَّنةِ بثَلاثينَ ألفِ دينار[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الرَّحمٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٠ .
(٣) أي بحَريم دار الخِلافَة ببغداد .
(٤) انظر السير : (الخَيَّاط) ١٩/ ٢٢٢ـ ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٧٣ .
(٥) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/ ٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٣ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : هـٰذه الأشياءُ مُمْكنَةٌ ، سِوَى الدَّنانيرُ والدَّراهمُ ، فلا أُجَوِّزُ ذلك ، بَلْ أَسْتبعِدُ عُشْرَه ، ولا رَيبَ أنَّ جَمْعَه لهـٰذه الأمْوالِ مُوجِبٌ لضَعفِ جَيشِ مِصْرَ ، ففي أيّامِه اسْتولَت الفِرَنْجُ على القُدْسِ ، وعَكا ، وصُور ، وطَرابُلسَ ، والسَّواحِلِ فلَوْ أنْفَقَ رُبْعَ مالِه ، لَجَمَعَ جَيشاً يَملأُ الفَضاءَ ، ولأبَادَ الفِرَنْجَ ، ولكن ليَقضِيَ اللهُ أمْراً كان مَفْعولاً[1] .

وكانَ ابنُ الجَوْزي ذا حَظٍّ عَظيمٍ وصِيتٍ بَعيدٍ في الوَعْظِ ، يَحضُرُ مَجالِسَه الْمُلوكُ والوُزَراءُ وبَعضُ الخُلَفاء والأئمَّةُ والكُبَراءُ ، لا يَكادُ الْمَجلِسُ يَنْقُصُ عن ألُوفٍ كَثيرَةٍ ، حتَّىٰ قِيلَ في بَعضِ مَجالِسِه : حُزِرَ الجَمعُ بمِئةِ ألْفٍ ولا رَيبَ أنَّ هـٰذا مَا وَقَع ، ولَوْ وَقَع ، لَمَا قَدِرَ أنْ يُسمِعَهم ، ولا الْمَكانُ يَسَعُهم[2] .

* * *

(١) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/ ٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ١/١٥٠٤ .

(٢) انظر السير : (أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٣ .

(٢١) مَفَاهيمُ وأعْمَالٌ خاطِئَة

١ـ صُوَرٌ على المَفَاهيم الخاطِئَة :

عن عُثمانَ التَّيْميِّ ، قالَ : رَأيتُ جَريراً وما تُضَمُّ شَفتاهُ من التَّسْبيح ، قُلتُ : هـٰذا حالُك وتَقذفُ المُحْصَنات فقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1] وَعدٌ من الله حَقٌّ[2] .

٢ـ تَصْحيحُ مَفْهُومٍ يَبدُو صَحيحَاً :

جاءَ في تَرجَمَةِ نورِ الدِّين محمُود : قال له القُطبُ النيسابوريُّ : بالله لا تُخاطِرْ بنفسِكَ ، فإنْ أُصِبْتَ في مَعْركَة لا يَبْقَىٰ للمُسلمينَ أحدٌ إلاَّ أخَذَه السَّيفُ ، فقالَ : ومَنْ مَحْمودٌ حتىٰ يُقالَ هـٰذا ؟!! حَفِظَ اللهُ البِلادَ قَبْلي ، لا إلـٰهَ إلاَّ هُو[3] .

* * *

---

(١) سورة هود ، الآية : ١١٤ .

(٢) انظر السير : (جَرير) ٤/ ٥٩٠ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ٢/ ٥٦٥ .

(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٨١ .

محتوى الكتاب

الصَّلاحُ والصَّالحُون ٥
(١) سِيماءُ الصَّالحين وسَمْتُهم ٥
(أ) صُورٌ على حُسْنِ السَّمْت ٥
(ب) الهَيْبَة ٧
صُورٌ على الهَيْبَة ٧
(٢) مِنْ صِفاتِهم ٩
(أ) مَجْموعَة صِفات تَجدُها في الصالحين ٩
(ب) مَعْرِفَتُهم لِمَ عُوقِبوا ١٣
(ج) مَعْرِفَتُهم ضَخامَة التَّكليف المُطالَبين به ١٣
(د) اسْتواءُ أحْوالِ الدُّنْيا في أعْيُنِهم ١٤
(هـ) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ ١٤
(٣) مِنْ فَوائِدِ الصَّلاح ١٥
الحِفْظُ في المَالِ والأهْل ١٥
(٤) صُحْبَةُ الصَّالِحين ١٥
صُحْبَتُهم تُورثُ الحِكمَةَ في القَوْل والعَمَل ١٥
(٥) أمْثِلَةٌ عَلى حَياةِ الصَّالِحين ١٥
(٦) فَضْلُ الصَّالِحين ١٧
(٧) عِنايَةُ الصَّالِحين بالقَلب ١٨
١ ـ حَياةُ القَلبِ بذِكرِ المَوْتِ ١٨

٢ ـ مُعَالجَةُ قَسْوَةِ القَلبِ بزِيارَةِ القَبْر ١٨
٣ ـ مُعَالجَةُ قَسْوَةِ القَلبِ بزِيارَةِ الصَّالحين ١٨
٤ ـ مُعَالجَتُه بتَغْسيلِ المَوْتَى ١٩
٥ ـ البُعْدُ عن الخِصَال المُقَسِّيَة للقَلب ١٩
٦ ـ حِراسَةُ القَلْب ١٩
مِنْ وَسَائِلِ العِنَايَة بالقَلبِ ١٩
(أ) الاسْتِغْفَار ١٩
١ ـ لَوَازِم الاسْتِغْفَار ١٩
٢ ـ الاسْتِغْفَارُ مَقَدَّمٌ على النَّوافِل ٢٠
٣ ـ صُوَرٌ على الاسْتِغْفَار ٢٠
٤ ـ شِعْرٌ في الاسْتِغْفَار ٢٠
(ب) تَذْلِيلُ النَّفْسِ ومُجَاهَدَتُها ٢١
١ ـ خِلافُ هَوَى النَّفْسِ عَملٌ عَظيم ٢١
٢ ـ صُوَرٌ من مُجَاهَدة النَّفْس ٢١
٣ ـ مَنْ كان مَشْهوراً بتَذْليلِ نَفْسِه ومُجَاهَدَتِها ٢١
٤ ـ الإزْراءُ على النَّفْسِ طَريقَةٌ ـ أحْياناً ـ لتَذْليلِها ٢١
٥ ـ شِعْرٌ في الإزْراءِ على النَّفْس ٢٢
(ج) ذِكرُ الله سُبْحانَه وتَعالَى ٢٣
١ ـ فَائدَةُ الذِّكر ٢٣
٢ ـ كيف يَتعَوَّدُ الإنْسَانُ الذِّكر ٢٣
٣ ـ مَتى يُعَدُّ الإنْسَانُ ذاكراً لله ٢٣
٤ ـ أقْوَالٌ جَميلَةٌ تَحُثُّ على الذِّكر ٢٣
٥ ـ تَقْييدُ الذِّكرِ بعَددٍ مُعَيَّن ٢٤

٦ ـ ذِكرُ المَلائكة لله ٢٥
٧ ـ حَالُ السَّلَفِ مع الذِّكر ٢٥
٨ ـ رُؤْيا تَحُثُّ على الذِّكر ٢٦
(٨) من أسْباب مَوْت القَلْب ٢٦
(أ) الذُّنوب ٢٦
١ ـ ذُلُّ الذُّنوب ٢٦
٢ ـ صُعوبَة تَرْك الذُّنُوب لمَنْ لمْ يَعْتصِم بالله ٢٦
٣ ـ مَنْ نَدُرَتْ ذُنوبُه ٢٦
٤ ـ مَعرفَة الصَّالحين أنَّ سَبب البَلاء الذُّنوب ٢٧
(ب) المَعَاصِي ٢٧
١ ـ أقْسَامُ المَعَاصِي ٢٧
٢ ـ التَّحْذيرُ من المَعَاصِي ٢٨
٣ ـ الحَثُّ على تَرْك المَعَاصِي ٢٩
٤ ـ عاقبَةُ المَعَاصِي ٢٩
٥ ـ المَعَاصِي بَريدُ الكفْر ٣٠
٦ ـ تَركُ المَعَاصِي شَديد ، وفِعْلُ الطَّاعات هَيِّن ٣٠
٧ ـ عاقِبةُ التَّحَبُّب إلى العِباد بالمَعَاصِي ٣٠
٨ ـ المَعَاصِي تَجلبُ بُغْضَ الله والعِباد ٣٠
(٩) حَاجاتُ الإنْسان الضَّروريَّة وحالُ الصَّالحين مَعها ٣١
(أ) الطَّعامُ والشَّراب ٣١
١ ـ الجُوعُ غَيرُ المُفْرِط وفائدتُه ٣١
٢ ـ الجُوعُ المُفْرِط وعاقِبتُه ٣١
٣ ـ الاعْتدالُ في تَناوُل المُباحات ٣٢

٤ ـ مَساوىءُ الشِّبَع ٣٢
٥ ـ مَنْ ماتَ بسَبب الطَّعَام ٣٣
٦ ـ مَنْ ماتَ بسَبب طَعَامٍ حَارّ ٣٣
٧ ـ حِرْمانُ النَّفْس من بَعض الطَّعام يُذَلِّلُها ٣٤
٨ ـ التَّحَرِّي في المَطْعَم ٣٤
٩ ـ تَقَلُّل العُلمَاء من الطَّعام حال الطَّلَب ٣٤
١٠ ـ صُورٌ من التَّقَلُّل من الطَّعَام ٣٥
١١ ـ تَقلُّل الصَّالحين من الطَّعام ليس ـ دائماً ـ بسَبب الفَقْر ٣٦
١٢ ـ الشِّبَع مع الضَّيف جائز ٣٧
١٣ ـ الفَرَحُ بالطَّعام الطَّيِّب ٣٧
١٤ ـ شُربُ العَسَل والسَّمَر عليه ٣٧
١٥ ـ الجُوعُ بسَبب الفَقْر ٣٨
(ب) المَال ٤٢
١ ـ أهَميَّة المَال ٤٢
٢ ـ نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالح ٤٢
٣ ـ المَالُ يَجبُ أنْ يَكونَ في اليَدِ لا في القَلب ٤٣
٤ ـ الخَوفُ من الحِسابِ على الأموالِ يُزَهِّدُ بعضَ النَّاسِ فيها ٤٣
٥ ـ مَنْ ذَمَّ الْمَالَ ٤٤
٦ ـ حَالُ السَّلَف مع الأمْوال ٤٤
٧ ـ كثْرَةُ المَالِ وتَنَوُّعه تُؤدي إلى تَفَرُّق القَلب ٤٧
(ج) النَّوم ٤٧
١ ـ الحَثُّ على قِلَّة النَّوم ٤٧
٢ ـ أحْوَالُ السَّلَف مع النَّوم ٤٧

٣ ـ صُورٌ رائعَة على إحْياء اللَّيل جَميعه وصَلاة الفَجْر بوُضُوء العِشَاء ٤٨
(١٠) وَصَايا الصَّالِحين ٥٠
١ ـ وَصِيَّةٌ من وَصَايا سَيِّد الخَلْق مُحمَّد ﷺ ٥٠
٢ ـ مِنْ وَصَايا الصَّالحين ٥٠
صِفَاتٌ قَلبيَّة عَزيزَةٌ يَتَّصِفُ بها الصَّالحون ٥٣
الإخلاص ٥٣
١ ـ اخْتِبارُ الإخلاص ٥٣
٢ ـ مَا لا يُرادُ به وَجْهُ الله يَضْمَحِلّ ٥٣
٣ ـ سُؤالُ الله الإخلاصَ وتَجنُّب الرِّياء ٥٣
٤ ـ الحَثُّ على الاهْتِمام بالسَّرائر ٥٤
٥ ـ النِّيَّةُ الحَسنَة ٥٤
(أ) رُؤيا في فائدَتِها ٥٤
(ب) وُجُوبُ إخلاص النِّيَّة ٥٤
(ج) عَاقِبَةُ سُوء النِّيَّة ٥٥
(د) تَمنِّي صَفاء النِّيَّة ٥٥
التَّقْوَى ٥٦
١ ـ تَعْريفُها ٥٦
٢ ـ مَتَى يُعَدُّ الإنْسَانُ تَقيًّا ٥٦
التَّوَكل ٥٦
١ ـ تَعْريفٌ للتَّوَكل ٥٦
٢ ـ لَيسَ النَّاسُ في التَّوَكل سَواء ٥٦
٣ ـ فَضْلُ التَّوَكل ٥٧
٤ ـ الدُّعاء بصِدْق التَّوَكل ٥٧

٥ ـ صُورٌ على التَّوَكل ٥٧
٦ ـ قَوَاعدُ في التَّوَكل ٥٧
٧ ـ الاسْتِخَارَةُ نَوْعٌ من التَّوَكل ٥٨
الخَوْفُ والخَشيَةُ والرَّجاء ٥٨
١ ـ تَعْريفُ الخَشية ٥٨
٢ ـ الجَمْعُ بين الخَوْفِ والرَّجاء ٥٨
٣ ـ شِعْرٌ في الرَّجاء ٥٩
٤ ـ الخَوْفُ من الله تَعالَى لا مِنْ غَيرِه ٥٩
٥ ـ الخَشْيَةُ تُعينُ على الطَّاعَة ٥٩
٦ ـ لماذا يَقِلُّ الخَوْفُ من الله ٥٩
٧ ـ البُكاءُ من خَشْيَة الله ٦٠
٨ ـ تَرْكُ البُكاء خِذْلان ٦٢
٩ ـ البُكاءُ المطْلوب ٦٢
١٠ ـ العَمَى من كثْرَة البُكاء ٦٣
١١ ـ الغَشْيُ (الإغْماءُ) من خَشْيَة الله ٦٣
١٢ ـ المَوْتُ من خَشْيَة الله ٦٧
١٣ ـ صَغيرٌ عَظيمٌ يَخْشَى الله ٦٧
١٤ ـ شَعْرٌ في الخَشْيَة ٦٨
١٥ ـ صُوَرٌ على الخَوْفِ من الله وخَشْيَتِه ٦٨
الصِّدْق ٧٤
١ ـ تَعْريفُ الصِّدْق ٧٤
٢ ـ الصِّدقُ مَنْجَاة ٧٤
٣ ـ مِنْ صِفَاتِ الصَّادِق ٧٨

٤ ـ الصِّدْقُ زِينَة ٧٨
٥ ـ التَّخَلصُ الحَسَنُ صِدْقٌ ٧٨
٦ ـ المَعَارِيضُ صِدْقٌ ٨١
المُحَاسَبَة ٨١
١ ـ صُوَرٌ على مُحاسَبة النَّفْس ٨١
٢ ـ مُحاسَبَة الله دَقيقَة ٨٢
المُراقَبَة ٨٢
حُسْنُ الخُلق ٨٢
١ ـ حُسْنُ الخُلق مَطْلوب ٨٢
٢ ـ صُوَرٌ على حُسْنِ الخُلق ٨٢
مِنْ أخْلاقِ المُؤمِنين ٨٤
الاحْتِمَال ٨٤
١ ـ فَضْلُ الاحْتِمَال ٨٤
٢ ـ صُوَرٌ على الاحْتِمَال ٨٤
الإحْسان ٨٥
صُوَرٌ من الإحْسان ٨٥
الأدَب ٨٨
١ ـ عَلاقَة الأدَب بالعِلم ٨٨
(أ) العِلمُ بغير أدَبٍ ضَارٌّ ٨٨
(ب) الأدَبُ طَريقٌ للعِلم ٨٨
(ج) العِلمُ لا يَكفي لتَرْبيَة النَّفْس إنْ لمْ يكنْ مَقْروناً بالأدَب ٨٩
(د) تَعْليمُ الفِتْيان الأدَبَ مع المُعَلِّم ٨٩
٢ ـ سُوءُ الأدَبِ مع الأئمَّة مَرْفوض ٩٠

٣ ـ قِلَّةُ الأدَبِ مع الصَّالحين تَسْتَوْجِبُ العُقوبَة ٩١
٤ ـ عاقِبَةُ التَّأدُّب مع العُلماء حَسَنةٌ ٩٢
٥ ـ مِنْ الأدَب إعْطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه ٩٢
٦ ـ تَعْظيمُ شَعائرِ الله من الأدَب ٩٢
٧ ـ المُبالَغَة في أمر ظَنَّه صاحبُه من واجبات الأدَب ٩٢
٨ ـ قَوْلٌ بَليغٌ في الحَثِّ عى الأدَب ٩٣
٩ ـ أدَبُ الخُلَفاء والأُمَراء مع العُلَماء ٩٣
١٠ ـ الأدَبُ عند العُلَماء ٩٤
١١ ـ أمثِلَةٌ على أدَبِ الصَّالحين ٩٤
الإنْفَاقُ في سَبيلِ الله ١٠١
١ ـ الحَثُّ على الإنْفاقِ في سَبيلِ الله ١٠١
٢ ـ الإنْفَاقُ من مَالٍ حَرامٍ لا يُقْبَل ١٠٢
٣ ـ صُوَرٌ من الإنْفَاق ١٠٢
الإيثار ١٠٥
صُوَرٌ من الإيثَار ١٠٥
التَّعَفف ١٠٥
صُوَرٌ على التَّعَفُّف ١٠٨
التوَاضع ١٠٩
١ ـ فَضْلُه ١٠٩
٢ ـ غَايَتُه ١٠٩
٣ ـ صُوَرٌ على التَّواضُع ١١٠
التَّوْقِيرُ والاحْتِرام ١١١
١ ـ رُؤْيا فيها حَثٌّ على تَوقِير العُلَماء ١١١

٢ ـ صُوَرٌ من التَّوقِير ١١٢
الحَسَاسيَة والشفافِيَة ١١٥
صُوَرٌ على الحَسَاسيَة والشَّفَافيَة ١١٥
الحِلْمُ ١١٥
١ ـ صُوَرٌ على الحِلم ١١٥
٢ ـ مَنْ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَكونَ حَليماً فَلْيَتَحالَم ١١٦
الرَّحْمة ١١٦
١ ـ رَحْمَةُ الله وَسِعَتْ كلَّ شَيء ١١٦
٢ ـ اللهُ أَرْحَمُ من الوَالِدَيْن ١١٦
٣ ـ أعْمَالٌ يَرْتَجي بها أصْحابُها رَحْمَةَ الله ١١٧
٤ ـ رُؤْيا يَعْظُمُ بها الرَّجَاء في رَحْمَة الله ١١٧
٥ ـ الرَّحْمَةُ بالأطْفَال ١١٨
٦ ـ الرِّفْقُ بالحَيَوان ١١٨
٧ ـ مَنْ كانَ صَائماً فأفْطَرَ رَجاءَ الرَّحْمَة ١١٨
الرِّقة ١١٨
صُوَرٌ على الرِّقة ١١٨
الزُّهد ١٢٠
١ ـ مِنْ تَعْريفَات الزُّهد ١٢٠
٢ ـ أقْسامُ الزُّهد ١٢٠
٣ ـ الزُّهدُ يُجَمِّلُ الزُّهاد ١٢٠
٤ ـ فَضْلُ الزُّهد ١٢٠
٥ ـ الزُّهدُ لا يُنَافي المَلابسَ الحَسَنَة والطَّعامَ الحَسَن ١٢١
٦ ـ الزُّهدُ فَضيلَةٌ ولَيسَ وَسيلَةً للتَّنْفِير ١٢٢

٧ ـ إخْفاءُ الزُّهد ١٢٢
٨ ـ مِنَ النَّاسِ مَنْ بَلغَ به الزُّهدُ مَبْلَغاً عَجيباً ١٢٢
عَديُّ بنُ مُسافِر ١٢٢
٩ ـ مِنْ زُهاد التَّابِعين ١٢٤
١٠ ـ مِنْ زُهاد القَرْن الثَّالِث ١٢٤
١١ ـ الزُّهدُ في الخِلافَة ١٢٤
١٢ ـ صُوَرٌ على الزُّهد ١٢٥
١٣ ـ ضَابطٌ للزُّهد ١٣١
١٤ ـ كراهَةُ بَعضِ السَّلف لغَير الأثَر جَعلتْهم يُغلون في ذَمِّ بَعض كتبِ الزُّهد ... ١٣١
سَلامَة الصَّدْر للمُسْلِمين ١٣٢
شُكرُ النِّعم ١٣٢
١ ـ تَعْريفُ الشُّكر ١٣٢
٢ ـ التَّحَدُّثُ بِنِعَم الله من شُكرِ النِّعَم ١٣٢
٣ ـ اخْشَوْشِنوا فإنَّ النِّعَمَ لا تَدوم ١٣٣
٤ ـ صُوَرٌ من شُكر النِّعم ١٣٣
الصَّبْر ١٣٤
١ ـ الصَّبْرُ مُفيدٌ ١٣٤
٢ ـ الصَّبْرُ على الأذَى ١٣٤
٣ ـ الصَّبْرُ على المُتَعلِّمين ١٣٤
٤ ـ الصَّبْرُ على قَسوَة الإخْوان ١٣٥
٥ ـ صوَرٌ على الصَّبْر ١٣٥
٦ ـ ضَابطٌ في الصَّبْر ١٣٦

الصَّمْت ١٣٦
١ ـ الصَّمْتُ يُتَعَلم ١٣٦
٢ ـ فَضْلُ الصَّمْت ١٣٦
٣ ـ الصَّمْتُ حَسَنٌ إلاَّ في الخَيْر ١٣٦
٤ ـ الصَّمْتُ يُقَلِّلُ من الأخْطَاء ١٣٧
٥ ـ ضَابطٌ لكراهِيَة السَّلَف لفُضُول الكلام ١٣٧
العِفَّة ١٣٨
١ ـ الحَثُّ عَلى عِفَّة اللِّسَان ١٣٨
٢ ـ مَنْ كانَ مُبْتعِداً عن الفَواحِش في الجاهليَّة ١٣٨
٣ ـ صُوَرٌ مِنْ عِفَّة اللِّسَان ١٣٨
٤ ـ صُوَرٌ مِنْ عِفَّة الفَرْج ١٣٩
القَنَاعَة ١٤٠
١ ـ أقْوَالٌ تَحُثُّ على القَناعَة ١٤٠
٢ ـ صُوَرٌ على القَناعَة ١٤١
الكرَم ١٤٢
١ ـ أكرَمُ النَّاس ١٤٢
٢ ـ الكريمُ حَبيبٌ إلى الله ١٤٢
٣ ـ صُوَرٌ على الكرَم ١٤٢
٤ ـ شِعْرٌ في الكرَم ١٤٣
٥ ـ مَنْ هُو الكريم ؟ ١٤٤
٦ ـ الكرَمُ الحَقيقيُّ ١٤٤
٧ ـ صُوَرٌ من الكرمِ والجُود ١٤٤

المُدَاراة ١٤٨
١ ـ رِضا النَّاسِ غايَةٌ لا تُدْرَكُ ١٤٨
٢ ـ التَّغافُل نَوعٌ من المُداراةِ أحْياناً ١٤٨
٣ ـ صُوَرٌ من المُدَاراة ١٤٩
المَرُوءَة ١٥٠
صُوَرٌ على المَرُوءَة ١٥٠
المُوَاساة ١٥٣
الوَفاء ١٥٨
١ ـ كلمَةٌ في الوَفاء ١٥٨
٢ ـ صُورَةٌ على الوَفاء ١٥٨
٣ ـ وَفاءُ واحِدٍ من الكفَّار ١٥٩
٤ ـ صُوَرٌ مِنْ الوَفاء ١٦١
مِنْ صِفاتِ المُؤمنين ١٦٤
الإنْصاف ١٦٤
١ ـ البَشَرُ مَجْبولونَ على عَدَم الإنْصَافِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ الله ١٦٤
٢ ـ قول الذهبيُّ : صِرْنا في وَقْتٍ لا يَقدِرُ الشَّخصُ على النُّطْقِ بالإنْصافِ ١٦٤
٣ ـ تَصْريحُ الذهبيِّ أنَّ بعضَ المُحدِّثين يَتنَطَّعُ في الحُكم على الأشْخَاص ١٦٥
٤ ـ وُجُوب التَّخلُّص ممَّا في كتب التَّاريخ وغَيرِها من القَدْح في العُلَماء بالهَوَى ١٦٥
٥ ـ حَالُ الأقْران ١٦٦
٦ ـ كلامُ الأقْرانِ في بَعضِهم لا يُسْمَع ١٦٧
٧ ـ ضَابطٌ في كلام الأقْران ١٦٩
٨ ـ تَعْليلٌ لذَمِّ الأقْرانِ بَعضِهم بَعضاً ١٧٢
٩ ـ قواعِدُ في الإنْصَاف ١٧٣

١٠ ـ ضَوابطُ جَميلَةٌ في إعْذارِ مَنْ تَلبَّسَ ببِدْعَةٍ أو خَطأً ١٧٣
١١ ـ ضَابطٌ في الجَرْحِ والتَّعْديل ١٧٦
١٢ ـ مَعْرفَة مَراتِب الرِّجال ١٧٧
(أ) مَعَالِمُ في تَقْويم الرِّجَال ١٧٧
(ب) إنْزالُ الرِّجالِ مَنازِلَهم ١٧٩
(ج) المَوازينُ التي يُوزَنُ بها الرِّجَال ١٨٠
(د) أمْثلَةٌ على تَفاوُت مَراتِب الرِّجَال ١٨٢
(هـ) رُؤْيا تَدُلُّ على تَفاوُت مَراتِب الصَّالِحين في الجَنَّة ١٨٦
١٣ ـ دِفَاعُ السَّلَف بعضِهم عن بعض ١٨٧
١٤ ـ أمْثلَةٌ على الإنْصَاف ١٩٥
التَّرَقِّي ٢٢٤
التَّضْحِيَة ٢٢٥
صُوَرٌ من التَّضْحيَة ٢٢٥
قِصَّةُ أُمِّ عُمارَة ٢٢٥
التَّنَافُس ٢٢٧
حُبُّ الجَمَاعَة وكراهيَةُ الفُرْقَة ٢٢٨
الحِفَاظُ على الوَقْت ٢٢٩
١ ـ الاسْتِفادَة من الأوْقات وتَرْتيبُها ٢٢٩
٢ ـ جَدْوَلُ الأعْمَال اليَوْميّ لبَقيّ بنِ مَخْلَد ٢٢٩
٣ ـ شِعْرٌ في المُحَافَظَة على الوَقْت ٢٣٠
٤ ـ صُوَرٌ في المُحَافَظَة على الأوْقات ٢٣٠
الحِكمَة ٢٣٣
١ ـ صُوَرٌ من الحِكمَة ٢٣٣

٢ ـ مِنْ حُكمَاء الإسْلام ٢٣٤
الحَسَنُ البَصْريّ ٢٣٤
٣ ـ الحُكمَاءُ صِغَارُ السِّن ٢٣٤
٤ ـ صُحْبَةُ الصَّالِحين يَنْتُجُ عنها الحِكمَة ٢٣٥
٥ ـ أقْوَالٌ حَكيمَةٌ من التَّوْراة ٢٣٥
٦ ـ من أقْوَال حُكماء الهِنْد ٢٣٦
٧ ـ أقْوَالٌ حَكيمَةٌ مُتَفَرِّقَة ٢٣٦
٨ ـ شِعْرٌ في الحِكمَة ٢٤١
الذَّكاءُ والفِطْنَة ٢٤٢
الشَّجَاعَة ٢٤٨
١ ـ صُوَرٌ من الشَّجَاعَة ٢٤٨
٢ ـ أبْطالُ الإسلام ٢٥٦
معن بن زائدة ٢٦١
أحمد بن إسحاقَ السُّرماريُّ ٢٦٢
أبو عبد الله مرْدنيش ٢٦٤
محمد بن سعد بن مرْدنيش ٢٦٥
من الأبطال الذين كانوا ضالين فتابوا ٢٦٧
أبو القاسم هلال ٢٦٧
٣ ـ من الشَّجَاعَة القُوَّة في الحَقِّ ٢٦٧
العَدْل ٢٦٨
١ ـ العَدْل شَأنُه عَظيم ٢٦٨
٢ ـ صُورَةٌ على إقَامَة العَدْل ٢٦٨
٣ ـ العَدْل المَشُوب بالمُبالَغَة والجَهْل والشِّدَّة ٢٦٩

العَقْل ٢٧٠
١ ـ مُجَالَسَةُ العُقَلاء تُورِثُ العَقْلَ الصَّحيح ٢٧٠
٢ ـ مثالٌ على العُقَلاء ٢٧٠
٣ ـ قِلَّةُ العَقْل ضَياع ٢٧١
العَفْو ٢٧١
١ ـ ضَابطٌ في العَفْوِ ٢٧١
٢ ـ الحَثُّ على العَفْوِ ٢٧١
٣ ـ قَولٌ جَميلٌ في العَفْوِ ٢٧٢
٤ ـ صُوَرٌ على العَفْوِ ٢٧٢
٥ ـ سُؤالُ اللهِ العَفْوَ والصَّفْحَ ٢٧٤
٦ ـ أعْظمُ النَّاسِ عَفْواً ٢٧٤
الفِراسَة ٢٧٥
صُوَرٌ على الفِراسَة ٢٧٥
قَضاءُ الحَوائج وصَنائعُ الْمَعْروف ٢٧٦
١ ـ عَدُّ واحدٍ من السَّلَف عَدم الْتجاء النَّاس إليه لقَضاء حَوائجهم من المَصَائب . ٢٧٦
٢ ـ قاضي حاجات النَّاس حَبيبٌ إليهم ٢٧٦
٣ ـ كلامٌ جَميلٌ في قَضاء الحَوائج ٢٧٦
٤ ـ صُوَرٌ على قَضاء الحَوائج ٢٧٧
دعلج ٢٧٧
المنيعي ٢٧٩
٥ ـ وَاسِطَةُ الخَير ٢٨٠
٦ ـ صَنائعُ المَعْروف تُزَيِّنُ مَنْ قُبِّح ٢٨١
٧ ـ صَنائعُ المَعْروف تُثْمرُ حتى مع البَهَائم ٢٨١

٨ ـ المَعْروفُ التَّام ٢٨١
كِتْمانُ الأعْمَال الصَّالحَة ٢٨٢
١ ـ الحَثُّ على كتْمانِ الأعْمَال الصَّالحة ٢٨٢
٢ ـ صُوَرٌ على كتْمان الأعْمَال الصَّالحة ٢٨٢
النُّصْح ٢٨٣
١ ـ النُّصْح لعَامَّة النَّاس ٢٨٣
٢ ـ طَلَبُ النَّصيحَة ٢٨٤
٣ ـ الاسْتجابَةُ للنَّصيحَة ٢٨٤
الهِمَّة ٢٨٥
١ ـ من نوع الهِمَم ٢٨٥
٢ ـ الهِمَّةُ العَاليَةُ في طَلبِ العِلم ٢٨٥
السَّمعانيُّ ٢٩٠
٣ ـ الهِمَّةُ العَاليَةُ في التَّصْنيفِ والقِراءَة ٢٩٢
٤ ـ صُوَرٌ مُتنوِّعَة على الهِمَّة العاليَة ٢٩٦
قصّةُ سلمان الفارسي رضي الله عنه: ٢٩٦
السّمعانيُّ ٣٠٦
٥ ـ أبْيَاتٌ في الهِمَّة ٣٠٧
الوَرَعُ ٣٠٨
١ ـ الوَرَعُ لا يَكونُ على النَّاسِ وإنَّما على النَّفْس خاصَّة ٣٠٨
٢ ـ أقْوالٌ تَحُثُّ على الوَرَع ٣٠٨
٣ ـ صُوَرٌ من الوَرَع ٣٠٨
اليَقِين ٣١٥
١ ـ فَائدَةُ اليَقِين ٣١٥

٢ ـ رُؤْيا تَحُثُّ على اليَقِين ٣١٥
٣ ـ صُوَرٌ على اليَقِين ٣١٥
صِفَاتٌ تُطْلَبُ بقَدر ٣١٨
الحَذَر ٣١٨
الحَذَرُ لا يَمْنَعُ القَدَر ٣١٨
الحُزْن ٣١٨
١ ـ حُزْنُ العُلَمَاء العامِلِين ٣١٨
٢ ـ الحُزْنُ الزَّائد المُبَالَغ فيه مَنْهيٌّ عنه ٣٢٠
٣ ـ تَصْحيحُ الذهَبيِّ لمُبالَغَة أحَد السَّلَف ٣٢٠
٤ ـ حُزْنُ البَهَائم على الصَّالحين ٣٢١
الدَّهَاءُ والمَكر ٣٢١
١ ـ دُهاةُ العَرَب ٣٢١
٢ ـ صُوَرٌ على الدَّهاء والمَكر ٣٢١
العِتَاب ٣٢٤
تَرْك العِتَاب أوْلَى ٣٢٤
الغَضَب ٣٢٥
١ ـ صُورَةٌ على تَرْك الغَضَبِ لله ٣٢٥
٢ ـ مَنْ كان لا يَغْضَب ٣٢٥
الفَخْر ٣٢٦
١ ـ الفَخْرُ في غَير مَوْضِعه ٣٢٦
٢ ـ شِعْرٌ في الفَخْر ٣٢٧
٣ ـ عَدَمُ الفَخْر بالأعْمال الصَّالحَة ٣٢٧
٤ ـ الفَخْرُ بالعُلَمَاء والعُبَّاد ٣٢٧

المِزاحُ والضَّحِك ٣٢٨
١ ـ المِزاحُ بقَصْد الاسْتهْزاء لا خَيرَ فيه ٣٢٨
٢ ـ المِزاحُ والضَّحِكُ الجِبلِّيان لا يُنقَدان ٣٢٩
٣ ـ من العُلَماء مَنْ كان يَكرَهُ المِزاحَ ٣٢٩
٤ ـ مَنْ كُرهَ من العُلَماء لأجْلِ المِزاح ٣٣٠
٥ ـ شِعْرٌ في البُعْدِ عن المِزاح الزَّائد ٣٣١
٦ ـ صُورَتان للمِزاح ٣٣١
٧ ـ ضَابطٌ في الضَّحِك والتَّبسُّم ٣٣١
النَّدَم ٣٣٢
التَّزْكيَة والمَدْح ٣٣٣
١ ـ ضَوابطُ للتَّزْكيَة والمَدْح ٣٣٣
٢ ـ كراهيَة الصَّالحين للمَدْح ٣٣٤
٣ ـ الاعْتِدالُ في المَدْح والذَّمِّ واجبٌ ٣٣٤
٤ ـ التَّحْذيرُ من مَدْح النَّفْس ٣٣٤
٥ ـ خَوفُ السَّلَف من كونِ المَدْح والثَّناء اسْتدْراجاً ٣٣٥
٦ ـ لو سَألكَ إنْسانٌ هلْ رأيتَ مثلَ نَفْسِكَ؟ فبماذا تُجيبُ ؟ ٣٣٥
٧ ـ ثَنَاءُ العُلَماء على البُخَاري ٣٣٦
٨ ـ ثَناءُ عالمٍ على آخرَ مع تَدابُرِهِما ٣٣٨
٩ ـ تَوْجيهُ الثَّناءِ وِجْهَةً صَحيحَة ٣٣٩
١٠ ـ نَماذجُ من تَزْكيَة السَّلَف بَعْضهم بَعْضاً ٣٣٩
١١ ـ شِعْرٌ في المَدْح ٣٤٨
١٢ ـ نموذجَان من تَزْكية السَّلَف بَعْضِهم بَعْضاً في وُجوهِهِم ٣٥١
١٣ ـ رُؤى فيها تَزْكيَة لعَدد من الفُضَلاء ٣٥١

الأخْلاقُ السَّيِّئَة ٣٥٦
١ ـ وَصْفُ الإنْسَان ذي الأخْلاق السَّيِّئة ٣٥٦
٢ ـ جُملةٌ من الأخْلاق السَّيِّئة ٣٥٦
٣ ـ الاسْتخفاف وعاقِبتُه ٣٥٦
٤ ـ البُخل ٣٥٦
٥ ـ الثَّلَب والعَيْب ٣٥٧
٦ ـ الحُمْق ٣٥٨
٧ ـ السُّخْريَة ٣٥٨
٨ ـ السِّعَايَة والوِشَايَة ٣٥٨
٩ ـ الشَّتْمُ والسَّبُّ ٣٥٨
١٠ ـ الطَّمَع ٣٥٩
١١ ـ الطَّيْش ٣٥٩
١٢ ـ ظَنُّ المُسيءِ نفسَه مُحْسِناً ٣٥٩
١٣ ـ المَلَل ٣٦٠
١٤ ـ تَعْليلُ الذَّهبيِّ لما يمكن أن يُوصَفَ بسُوء الخُلُق ٣٦٠
١٥ ـ رَدُّ الذهبيِّ على بَعْض السَّلَفِ أخْلاقاً سَيِّئة ٣٦٠
آفاتٌ مُتنوِّعَةٌ في القَلب واللِّسَان ٣٦٢
١ الأذِيَّة ٣٦٢
(أ) مَنْ قَتلَه الله قبلَ أنْ يُؤْذي النَّاسَ ٣٦٢
(ب) قَوْلٌ يَحُثُّ على البُعْد عن الأذِيَّة ٣٦٢
٢ الجِدَالُ والمِراء ٣٦٣
(أ) شِعْرٌ في الحَثِّ على البُعْد عن المِراءِ ٣٦٣
(ب) أقْوالٌ بَليغَة تَحُثُّ على البُعْدِ عن المِرَاءِ والجِدَالِ ٣٦٣

(ج) الصَّالِحونَ بَعيدُون عن المِرَاءِ ٣٦٤
٣ الجَهْل ٣٦٥
(أ) مِنْ صِفَاتِ الجَاهِل ٣٦٥
(ب) جَهْلُ أهْلِ الجَاهِليَّة ٣٦٥
٤ الحَسَد ٣٦٧
(أ) صُوَرٌ من الحَسَد ٣٦٧
(ب) صُوَرٌ من الحَسَد بين العُلَماء ٣٦٧
(ج) سَبَبُ الحَسَد بين العُلَماء ٣٦٩
(د) مَنْ نُصِحَ فلَمْ يَنْتَصِحْ ظانّاً أنَّ ناصِحَه حاسِدٌ ٣٦٩
(هـ) الحَسَدُ المُفْضي إلى القَتْل ٣٧٠
٥ الخِيَانَة ٣٧١
(أ) صُوَرٌ على الخِيَانَة ٣٧١
(ب) عَدُّ ابنِ سِيرين الخُروجَ اليَوْميَّ من السِّجْن ثمَّ العَوْدة إليه بدون إذْن السُّلْطان خِيانَة ٣٧٢
٦ الرِّياء ٣٧٣
(أ) أقْوالٌ بَليغَةٌ في الرِّياء ٣٧٣
(ب) مِنْ دَقائق الرِّياء ٣٧٣
(ج) دَواءُ الرِّياء ٣٧٤
(د) الخَوْفُ والتَّحْذيرُ من الرِّياء ٣٧٤
(هـ) ضَوابط للرِّياء ٣٧٧
(و) قاعِدَةٌ في الرِّياء ٣٧٧
٧ العُجْب ٣٧٨
(أ) تَعْريفُ العُجْب ٣٧٨

(ب) مَنْ كان مُعْجَباً بنفسِه من العُلَماء ٣٧٨
(ج) العُجْبُ بَلاءٌ ٣٨٠
٨ الغِيبَة ٣٨١
(أ) الخَوْفُ من الغِيبَة ٣٨١
(ب) عِلاجُ الغِيبَة ٣٨١
(ج) تَحْذيرُ العُلَماءِ النَّاسَ ومَنْعُهُم من الغِيبَة ٣٨١
(د) الغِيبَة مُضَيِّعَةٌ للحَسَناتِ ٣٨٢
(هـ) مَنْ لَمْ يَغْتَبْ أحَداً قَطّ ٣٨٢
(و) قد يَخْتَلطُ الجَرْحُ بالغِيبَة ٣٨٣
(ز) رُؤْيَا فيها تَحْذيرٌ من الغِيبَة ٣٨٣
٩ الفُضُول ٣٨٥
(أ) البُعْدُ عن الفُضُول من أخْلاق الصَّالحين ٣٨٥
(ب) عَاقِبَةُ الفُضُول ٣٨٥
١٠ الكبْر ٣٨٦
(أ) تَعْريفُ الكبْر ٣٨٦
(ب) عَاقِبَةُ الكبْر ٣٨٦
(ج) دَواءُ الكبْر ٣٨٦
(د) الخَوْفُ من الكبْرِ والخُيَلاءِ ٣٨٧
(هـ) دُخُولُ العُجْبِ والكبْرِ في أهْل العِلْم ٣٨٨
(و) مِنْ دَقائق الكبْرِ التي يَذْكرُها الصَّالحون على سَبيلِ تَعْليم النُّفوسِ التَّوَاضُعَ .. ٣٨٨
(ز) كبْرُ بَعْضِ العُلَماء ٣٨٨
ابن وَارَة ٣٨٩

١١ الكذِبْ ٣٩١
(أ) الدَّعَاوَى الكاذِبَة ٣٩١
(ب) كفى فَساداً وكذِباً الكلامُ بكلِّ ما يُسْمَع ٣٩١
(ج) «زَعَمُوا» كنيَةُ الكذِب ٣٩١
(د) كراهِيَةُ الكذِب ٣٩١
(هـ) جَرَيانُ الكذِبِ على الألْسِنَة ٣٩١
١٢ النِّفَاق ٣٩٢
(أ) مِنْ صِفَاتِ المُنَافِق ٣٩٢
(ب) الخَوْفُ من النِّفَاق العَمَلي ٣٩٢
(ج) مِنْ صُوَر النِّفَاق العَمَلي ٣٩٢
الحُبُّ والعِشْق ٣٩٣
١ ـ قصَصُ الحُبِّ ٣٩٣
المجنون ٣٩٤
جميل بن عبد الله ٣٩٦
٢ ـ شِعْرٌ في الحُبِّ والغَزَل ٣٩٦
٣ ـ شِعْرٌ في فَقْد الأَحِبَّة ٣٩٨
٤ ـ صُوَرٌ من العِشْقِ المُحَرَّم ٣٩٨
أخْبارُ النِّساء ٣٩٩
١ ـ مِثالٌ على مُكثِ النِّساء في بُيوتِهنَّ وعَدمِ الخُروج إلاَّ لحَاجَة ٣٩٩
٢ ـ الحاكمُ بأمْر الله فرضَ على النِّساء الإقَامة الجَبريَّة في البُيوت ٣٩٩
٣ ـ الحُرَّةُ لا تَزْني ٣٩٩
٤ ـ مِنْ أخْبار الجَواري ٤٠٠
(أ) جَوارٍ يَحْفَظْنَ القُرآنَ ٤٠٠

(ب) أخْبارُهُنَّ مع مَواليهِنَّ العُلَماء ٤٠٠
٥ ـ مَواقِفُ عَظيمَةٌ لِنساءٍ عَظيماتٍ ٤٠٠
٦ ـ النِّسَاءُ فِتْنَة ٤٠٥
٧ ـ التَّعلُّقُ بهنَّ مَشْغَلةٌ عن التَّرَقِّي ٤٠٦
الزَّواج ٤٠٧
١ ـ حِرْصُ السَّلَف على الزَّواج ٤٠٧
٢ ـ من أسْباب عَدَم زَواج بعض العُلَماء ٤٠٧
٣ ـ الزَّوْجُ الصالح ٤٠٨
٤ ـ الزَّوْجَةُ الصالحَة ٤٠٨
٥ ـ مَنْ أرادَت أنْ تَكونَ لِزَوْجِها في الآخِرَة ٤١٠
٦ ـ حالُ الرَّجُل مع الزَّوْجَة الواحِدَة والزَّوْجَتَين ٤١١
٧ ـ صُوَرٌ من غَيْرَة النِّساء ٤١١
٨ ـ اخْتيارُ الزَّوْجِ الصَّالح للبَنَاتِ ضَرورَة ٤١٤
٩ ـ مَنْ قُيِّدَ من العُلَماء بالزَّواج ٤١٤
١٠ ـ كثْرَةُ الزَّواج ٤١٤
١١ ـ كثْرَةُ الجِمَاع ٤١٥
١٢ ـ أخْبارُ بَعْضِ الزِّيجَات ٤١٦
عِنايَةُ الوَالدين بالأبْنَاء ٤١٩
١ ـ السَّعْيُ على العِيال ٤١٩
٢ ـ فَضْلُ الصَّبْرِ على البَنات ٤١٩
٣ ـ مُعامَلَةُ الآباء للأبْناء ٤١٩
٤ ـ تَعْليمُ الأبْناء وتَرْبيتُهم ٤٢٠
عَليُّ بنُ الفُضَيْل مع أبيه ٤٢١

٥ ـ حَالُ أبٍ وابنٍ عَالِمَين ٤٢٧
٦ ـ مَنْ مَنَعَ ابنَه من التَّعْليم ثم ظَهَر له خَطَؤه ٤٢٩
٧ ـ حُبُّ الآباء للأبْناء ٤٢٩
٨ ـ ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ٤٣٠
٩ ـ مَنْ سَمَّى ابنَه اسْماً صالحاً رَجاءَ السَّعْد ٤٣١
١٠ ـ تَوْطينُ النَّفْسِ على الصَّبْر عند فَقْد الأبْناء ٤٣١
١١ ـ حَالُ الآباء عند فَقْد الأبْناء ٤٣١
١٢ ـ تَطْمينُ الرَّجُلِ أوْلادَه حالَ المَوْت إلى وُجُودِ ما يَكفيهم بعدَه ٤٣١
١٣ ـ واحدٌ من العُلَماء لمْ يَرَ ابْنَتَه أبداً ، ورَدُّ الذهبيِّ عليه ٤٣٢
بِرُّ الوَالِدَيْن ٤٣٣
١ ـ كيفَ يُصيبُ الإنْسانُ البِرَّ ٤٣٣
٢ ـ مَنْ بَرَّكَ فقد أَوْثَقَكَ ٤٣٣
٣ ـ قَواعِدُ في بِرِّ الوَالدَين ٤٣٣
٤ ـ عاقِبَةُ البِرِّ بالوَالدَين الجَنَّةُ ـ إنْ شَاءَ الله ٤٣٤
٥ ـ دُعاءُ الوَالدَين مُسْتَجابٌ ـ إنْ شَاءَ الله ٤٣٤
٦ ـ صُوَرٌ لبِرِّ الوَالدَين ٤٣٤
الدُّنْيا ٤٣٧
١ ـ أقْوالٌ تُحَذِّرُ من الاغْتِرارِ بالدُّنْيا وتَحُثُّ على العَملِ للآخِرَة ٤٣٧
٢ ـ حَالُ الدُّنْيا ٤٣٨
٣ ـ قَوْلٌ جَميلٌ في أمْر الدُّنْيا ٤٣٩
٤ ـ حَالُ السَّلَف مع الدُّنْيا ٤٤٠
٥ ـ التَّحَرُّرُ من عَلائقِ الدُّنْيا ٤٤٠

٦ ـ حُبُّ الدُّنْيا والسُّرورُ بها ٤٤١
٧ ـ تَقْديمُ أمْر الآخِرَة على أمُور الدُّنْيا ٤٤٢
٨ ـ قَولٌ بَليغٌ في تَرْكِ الدُّنْيا ٤٤٢
٩ ـ اسْتِواءُ الدُّنْيا في أعْيُن الصَّالحين ٤٤٢
١٠ ـ أخْبارٌ تُحَذِّرُ من الاغْتِرار بالدُّنْيا ٤٤٣
١١ ـ رُؤى في حَال الدُّنْيا ٤٤٤
١٢ ـ شِعْرٌ في التَّحْذير من الغَفْلَة ٤٤٥
١٣ ـ شِعْرٌ في التَّحْذيرِ من الاغْتِرار بالدُّنْيا ٤٤٦
١٤ ـ عِبْرَةٌ وعِظَةٌ في حَال الدُّنْيا ٤٤٧
العُمْر ٤٤٨
(أ) فائدَةُ طُول العُمر ٤٤٨
(ب) أكمَلُ ما يَكون الإنْسَانُ عند الأرْبَعين ٤٤٨
الوَعْظُ والوُعَّاظ ٤٤٩
١ ـ مِنْ آدابِ الوَعظ ٤٤٩
٢ ـ مَراتِبُ النَّاس في التَّأثُّر بالوَعْظ ٤٤٩
٣ ـ تَفَاوُت تأثير الوعَّاظ ٤٤٩
٤ ـ مَنْ مَاتَ من الوَعْظ ٤٥٠
٥ ـ مَنْ مات من الوعَّاظ من شدَّة وَعْظِه ٤٥٠
٦ ـ الواعِظُ المُحْتاج إلى وَعْظ ٤٥١
٧ ـ وَعْظُ العُلمَاء المُلوكَ والأُمَراءَ والوُزَراءَ ٤٥٢
٨ ـ المَشهُورون بالوَعْظ ٤٥٦
٩ ـ القُصَّاصُ الوُعاظ ٤٥٨
١٠ ـ مَواعِظُ مُتفرِّقَة ٤٥٨

١١ ـ شِعْرُ الوَعْظ ٤٦٤
العَلاقَةُ مع الله ٤٦٦
١ ـ عَدَمُ أمْن مَكرِه سُبْحانَه ٤٦٦
٢ ـ تَعْظِيمُه سُبْحانَه ٤٦٦
٣ ـ الانكسارُ بين يَدَيْه سُبْحانَه والتَّذَلُّلُ له ٤٦٧
٤ ـ الرِّضَا بقَضَائه ٤٦٧
٥ ـ الأُنْسُ به سُبْحانَه ٤٦٨
٦ ـ الثِّقَةُ به سُبْحانَه ٤٦٨
٧ ـ دَرَجَاتُ العَلاقَة مع الله ٤٧٠
٨ ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ٤٧٠
٩ ـ الإقْبالُ على الله وفائدَتُه ٤٧١
١٠ ـ الثَّناءُ على الله ٤٧٢
١١ ـ التَّعَلُّق به سُبْحانَه ٤٧٢
١٢ ـ الشَّكوَى له سُبْحانَه ٤٧٢
١٣ ـ تَقْديمُ رِضَاه ٤٧٣
١٤ ـ الافْتِقَارُ إليه سُبْحانَه ٤٧٤
١٥ ـ رِضَا الله غَايَة ٤٧٤
١٦ ـ عَوْنُه سُبْحانَه للعَبد وتَوْفيقُه ٤٧٤
١٧ ـ حُبُّه سُبْحانَه ٤٧٥
١٨ ـ رُؤْيةُ المُسَبِّب ومُراعَاةُ الأسْباب ٤٧٥
١٩ ـ مُتَفَرِّقَات في العَلاقَة مع الله ٤٧٥
من مَظَاهِر حُسْن العَلاقَة مع الله ٤٧٧
١ الاسْتِسْقَاء ٤٧٧

صُوَرٌ من اسْتِسْقاء الصَّالحين ٤٧٧
٢ الالتِجَاء حَالَ التَّهْديد إلى الله ٤٨٢
ماذا يَفْعَلُ مَنْ هُدِّد؟ ٤٨٢
٣ التَّوْبة ٤٨٣
١ ـ الحَثُّ على التَّوْبة ٤٨٣
٢ ـ مِنْ عَلامات التَّوْبة ٤٨٣
٣ ـ كلمَةٌ جَميلَةٌ في التَّوْبة ٤٨٣
٤ ـ صُوَرٌ من التوْبة ٤٨٣
المَرَض ٤٨٦
١ ـ المُمْرِضُ الحَقيقيُّ ٤٨٦
٢ ـ بَعضُ السَّلَف كانوا لا يَتَداوَوْنَ مع عِلْمِهم بجَواز التَّدَاوي ٤٨٦
٣ ـ العَدْوَى وضَابِطُهَا ٤٨٦
٤ ـ ماذا يَقُولُ المَريضُ ٤٨٧
المَوْت ٤٨٨
١ ـ فَائدَةُ الإكثَار من ذِكرِ المَوْت ٤٨٨
٢ ـ حَالُ السَّلَف مع ذِكرِ المَوْت ٤٨٨
٣ ـ اسْتعْدادُ السَّلَف للمَوْت ٤٨٩
٤ ـ تَنْغِيصُ المَوْتِ على أهْلِ الدُّنْيا ٤٨٩
٥ ـ مُحِبُّ الدُّنْيا كارِهٌ للمَوْت ٤٨٩
٦ ـ تَمَنِّي المَوْت عندَ الضُّرِّ ٤٩٠
٧ ـ رَجَاء رَحْمَة الله حَالَة نُزُول المَوْت هو الأوْلَى ٤٩٠
٨ ـ الخَوْفُ من المَوْتِ قَتْلاً لَيسَ عَيْباً ٤٩٠
٩ ـ شِعْرٌ في المَوْتِ ٤٩١

١٠ ـ حُسنُ الخَاتِمَة ٤٩١
١١ ـ رُؤْيا تَدُلُّ على سُوءِ الخَاتِمَة ٤٩٣
١٢ ـ مِنْ مَشَاهِد الاحْتِضَار ٤٩٣
١٣ ـ الحُزْنُ على مَوْت الصَّالحين ٥٠٨
١٤ ـ صُوَرٌ من جَنائزِ الصَّالحين ٥٠٩
١٥ ـ مِنْ أسْباب مَوْت بَعْض العُلَماء والكُبَراء ٥١٣
التَّعزِيَةُ والتَّأبين ٥١٥
١ ـ صُوَرٌ من التَّعْزِيَة ٥١٥
٢ ـ التَّأبين ٥١٧
٣ ـ شِعْرٌ في الرِّثاء ٥١٨
الرُّؤى ٥٢٠
١ ـ مِنْ فَوائد الرُّؤى الصَّالحة ٥٢٠
٢ ـ مُتفرِّقَات ٥٢٠
(أ) مَنْ كان يَتمَنَّى رُؤيَةَ النَّبيِّ ﷺ ثُمَّ رآه ٥٢٠
(ب) رؤيا تدُلُّ على قُوَّة الاتِّباع للمُصْطَفى ﷺ ٥٢٠
(ج) رُؤيا تُفيد في قُوَّة الرَّجَاء في رَحْمَة الله ٥٢١
(د) رُؤى فيها إخْبَارٌ عن أُمُورٍ سَتَحْصُل ٥٢١
(هـ) مَنْ بايَعَ النَّبيَّ ﷺ في الرُّؤْيا على أداء بَعض شَعائر الإسْلام ٥٢٢
(و) رُؤى فيها دِفَاعٌ عن مُؤمِنٍ صَالح ٥٢٣
٣ ـ تَعْبيرُ الرُّؤْيا ٥٢٣
٤ ـ رُؤَى فيها تَوْجِيه ٥٢٩
٥ ـ رُؤَى مُنَوَّعَة ٥٤٨

مُتفرِّقات ٥٦٣
١ الإنْشَادُ والغِنَاء ٥٦٣
١ ـ الإنْشَاد ٥٦٣
٢ ـ الغِنَاء ٥٦٣
(أ) التَّحْذيرُ من الغِنَاء ٥٦٣
(ب) مَنْ اشْتغَلَ بالعِلْمِ من المُغَنِّين ٥٦٤
(ج) مَنْ كرهَ من المُغَنِّين أن يُنْسَبَ إلى الغِنَاء ٥٦٤
(د) مُغَنُّون ومُغَنِّيات ٥٦٥
٢ الأوائل ٥٦٦
١ ـ أَوَّلُ مَنْ أحْدَثَ المُصافَحَة ٥٦٦
٢ ـ أَوَّلُ مَنْ سُلِّمَ عليه بالإمْرَة عندَ خُروجِ الإمَامِ إلى الصَّلاة ٥٦٦
٣ ـ أشْياءُ مُتعَدِّدَة أحْدَثَها مُعاوِيَة ٥٦٦
٤ ـ أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ النَّحْو ٥٦٧
٥ ـ أَوَّلُ مَنْ قَصَّ القَصَصَ ٥٦٧
٦ ـ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّنانِيرَ وكتبَ عليها بالقُرآنِ ٥٦٨
٧ ـ أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ الكتُب ٥٦٨
٨ ـ أَوَّلُ مَنْ شَغَلَ المُلوكَ بكتُبِ العِلْم ٥٦٨
٩ ـ أَوَّلُ مَنْ جَرَّحَ الرِّجَالَ وعَدَّلَهُم ٥٦٨
١٠ ـ أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ مُسْنَداً ٥٦٩
٣ البَرَكة ٥٧٠
١ ـ صُوَرٌ من البَرَكة ٥٧٠
٢ ـ مَاءُ زَمْزَمَ مُبارَكٌ ٥٧١

٤ التَّبرُّك بآثارِ رَسُولِ الله ﷺ والصَّالحين ٥٧٣
١ ـ صُوَرٌ من التَّبرُّك بآثارِ الرَّسُولِ ﷺ ٥٧٣
٢ ـ صُوَرٌ من التَّبرُّك بالصَّالحين وآثارِهم ٥٧٨
٣ ـ الاسْتشْفاء بآثارِ رَسُولِ الله ﷺ ٥٨٠
٤ ـ التَّبرُّك بمُصافَحَةِ الصَّالحين ٥٨٠
٥ ـ التَّبرُّك بالدَّفْنِ بِجِوار الصَّالحين ٥٨٠
٥ الجِنّ ٥٨٢
١ ـ قِراءتُهم القُرآنَ على الإنْسِ ٥٨٢
٢ ـ رُقْيَةٌ تَرْقِي من الجِنِّ ٥٨٣
٣ ـ مَنْ سَاءَه منهم قِراءةُ آية الكرْسيِّ ٥٨٣
٤ ـ عَالمٌ أحَدُ أبَوَيْه جِنِّيٌّ ٥٨٣
٥ ـ مِنْ أخْبَارِ الجِنّ ٥٨٤
٦ الحَظُّ والنَّصِيب ٥٨٧
٧ الحَنينُ إلى الأوْطَان ٥٨٨
١ ـ الحَنينُ إلى الوَطَن ٥٨٨
٢ ـ الحَنينُ إلى الغُرْبة ٥٨٨
٣ ـ مَنْ حَملتْهُ كلمَةٌ على مُفارَقَة الغُربَة والعَوْدَة إلى الوَطَن ٥٨٩
٤ ـ شِعرٌ في الحَنين إلى الأوْطان ٥٨٩
٨ الرِّزْق ٥٩٠
١ ـ رِزْقُ الله آتٍ ٥٩٠
٢ ـ الثِّقَةُ بالله في الرِّزْق ٥٩٠
٣ ـ فَضْلُ الثِّقَةِ بالله في الرِّزْق ٥٩٠
٤ ـ الكفافُ في الرِّزْق ٥٩٠

٥ ـ الرِّزْقُ مَحْضُ فَضْلِ الله ٥٩٠
٦ ـ سُؤالُ الله الرِّزْقَ الحَسَن ٥٩١
٧ ـ شِعْرٌ في الرِّزْق ٥٩١
٩ الشَّرَفُ والمَكارِم ٥٩٢
١ ـ مِيزانُ الشَّرفِ الحَقيقيّ ٥٩٢
٢ ـ مِيزانُ المَكارِم ٥٩٢
١٠ الضَّيْف ٥٩٣
١ ـ حَقُّ الضَّيْف ٥٩٣
٢ ـ رِزْقُ الضَّيْف على الله ٥٩٣
٣ ـ الشِّبَعُ مع الضَّيْفِ جَائزٌ ٥٩٣
٤ ـ شِعْرٌ في إكرامِ الضَّيْف ٥٩٣
١١ عَجائبُ وغَرائبُ من عُصُورٍ مُتَفَرِّقَة ٥٩٤
١٢ مِنْ العُقُوبات ٦٠٤
١ ـ الإقَامَةُ الجَبْرِيَّة ٦٠٤
٢ ـ حَلقُ اللِّحْيَة ٦٠٤
١٣ العَمَلُ والكسْبُ عندَ السَّلَف ٦٠٥
١ ـ حَثُّ السَّلَف على العَمَلِ ٦٠٥
٢ ـ غَالِبُ عُلَماء السَّلَف يُنْفِقونَ مِنْ كسْبِهِم ٦٠٥
٣ ـ صُوَرٌ على العَمَلِ والكسْب ٦٠٥
١٤ العَيْن ٦٠٨
العَيْنُ حَقٌّ ٦٠٨
١٥ الفُرْصَة ٦٠٩
الفُرْصَةُ إنْ لَمْ تُنْتَهَزْ فَهي غُصَّةٌ ٦٠٩

١٦ فُكاهَاتٌ ونَوَادِرُ ٦١٠
الأكلَة ٦٣٥
١٧ قَصَص ٦٣٦
١ ـ قِصَّةُ النَّجَاشيّ ٦٣٦
٢ ـ قِصَّةُ سَلْمَان الفارسيّ رضي الله عنه ٦٤٠
٣ ـ قِصَّةُ عبدِ الله بن حُذافَة مع مَلكِ الرُّوم ٦٤٨
٤ ـ قِصَّةُ إسْلام أبي ذَرّ ٦٤٩
٥ ـ قِصَّةُ كعْب بن مَالك ٦٥٢
٦ ـ قِصَّةُ إسْلام عَمرِو بن العَاص ..... ٦٥٤،
٧ ـ قِصَّةُ إسْلام أحَد الرُّوم ٦٥٦
٨ ـ قِصَّةُ إسْلام عَديِّ بنِ حَاتِم ٦٥٦
٩ ـ قِصَّةُ جُنْدُب رضي الله عنه مع السَّاحِر ٦٥٧
١٠ ـ قِصَّةُ إسْلام أبي رَجَاء العطارديّ ٦٥٧
١١ ـ قِصَّةُ محمَّد بن المُنْكدِر مع أحد الصَّالحين ٦٥٨
١٢ ـ قِصَّةُ تَوْبَةِ إبْراهيم بن أدهَم ٦٥٩
١٣ ـ قِصَّةُ تَوْبَةِ الفُضَيْلِ بن عِياض ٦٥٩
١٤ ـ قِصَّةُ إبْراهيم بن المَهْدي مع يَهوديٍّ قاطِع طَريق ٦٦٠
١٥ ـ قِصَّةُ هِشام بن عمَّار مع الإمامِ مالك ٦٦١
١٦ ـ قِصَّةٌ في الإيثَار ٦٦٢
١٧ ـ قِصَّةُ اللِّصِّ الفَقِيه ٦٦٢
١٨ ـ قِصَّةٌ تُقَوِّي الإيْمَان ٦٦٣
١٩ ـ قِصَّةُ المَرْأة المُصَابَة بالجِنِّ ٦٦٣
٢٠ ـ قِصَّةٌ تَدُلُّ على المُرُوءَة ٦٦٤

٢١ ـ قِصَّةُ أبي حاتِم الرَّازي وانْقِطاعِه في رِحْلَتِه ٦٦٤
٢٢ ـ قِصَّةُ عَجيبَة لابنِ أبي حَاتِم ٦٦٥
٢٣ ـ قَصَصٌ من سِيرَةِ الخَليفَة المُعْتَضِد ٦٦٦
٢٤ ـ قِصَّةٌ جَميلَةٌ للقاضِي أبي خَازم ٦٦٧
٢٥ ـ قِصَّةُ ابنِ جَرير وابنِ خُزَيْمَة في مِصْرَ ٦٦٨
٢٦ ـ قِصَّةُ قاضٍ مع امرأةٍ فاسِقَة ٦٦٩
٢٧ ـ قِصَّةُ دَعْلج المُحَدِّثِ الغَنيِّ ٦٦٩
٢٨ ـ قِصَّةُ محمود بن سُبُكتكين مع صَنَم سُومَنات ٦٧٠
٢٩ ـ قِصَّةُ ابن عَقيل وعِقْدِ اللُّؤْلؤ ٦٧٢
٣٠ ـ قِصَّةُ الرَّجُل الصَّالح والجِنِّيِّ ٦٧٢
١٨ كوارثُ حَدَثَتْ في بَعضِ الأقْطَار ٦٧٤
١ ـ كوارثُ كوْنية ٦٧٤
٢ ـ زَلازِل ٦٧٥
٣ ـ حَرائق ٦٧٦
٤ ـ غَرَق ٦٧٦
٥ ـ مَجَاعَاتٌ وأَوْبِئة ٦٧٦
١٩ عُيُونُ السُّلْطَان ٦٧٩
١ ـ شِدَّةُ تَحَرُّزِ الإنْسَان في الكلامِ أمامَهم ٦٧٩
٢ ـ الحَذَرُ منهُم ٦٧٩
٣ ـ صُوَرٌ على انْبِثاثِهم بين النَّاس ٦٨٠
٢٠ المُبالَغَة ٦٨٤
١ ـ مُبالَغَاتٌ قِيلَت للتَّحْذيرِ من الوَاقِع والتَّحَسُّر على الماضي ٦٨٤
٢ ـ مُبالَغَةٌ قِيلَت وخُطِّىءَ قائلُها ٦٨٤

٣ ـ رَدُّ الذهبيِّ مُبالَغَاتِ سِبْطِ ابنِ الجَوْزِيِّ في كتابِه «مِرْآةُ الزَّمَان» ٦٨٤
٤ ـ ضَبْطُ الذهبيِّ ما جاءَ عن السَّلَف مُبالَغاً فيه ٦٨٦
٢١ مَفَاهيمُ وأعْمَالٌ خاطِئَة ٦٩١
١ ـ صُوَرٌ على المَفَاهيم الخاطِئة ٦٩١
٢ ـ تَصْحيحُ مَفْهُومٍ يَبدُو صَحيحاً ٦٩١
محتوى الكتاب ٦٩٣